

A black and white photograph of the Babri Masjid in Ayodhya, India. The image shows the large central archway (iwan) with intricate Islamic architectural details, including domes and minarets. The structure is surrounded by trees and a paved area in the foreground.

محمد حمزة إسماعيل الحداد
العمارة والآثار والحضارة الإسلامية
كلية الآثار - جامعة القاهرة

۱۰۶/۱ شارع محمد فرید
ت. ۴۹۲۹۱۹۲۰ موبایل ۰۱۲۳۱۷۷۵۱۰۰

المجمل

فى الآثار والحضارة الإسلامية

تأليف

د. محمد حمزة إسماعيل الحداد
أستاذ الآثار والحضارة الإسلامية
كلية الآثار - جامعة القاهرة

الناشر

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ شارع محمد فريد القاهرة
تليفون: ٣٩٢٩١٩٢

حقوق الطبع محفوظة للناسر
لا يحق لأي شخص نقل جزء من الكتاب
بدون إذن المؤلف والناسر

اسم الكتاب : المجل في الآثار والحضارة الإسلامية

اسم المؤلف : أ. د. محمد حمزة إسماعيل الحداد

رقم الطبعة : الأولى

السنة : ٢٠٠٦

رقم الإيداع : ١٩٧٧٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N

977 - 314 - 262 - 0

اسم الناسر : زهراء الشرق

العنوان : ١١٦ شارع محمد فريد

البلد : جمهورية مصر العربية

المحافظة : القاهرة

التليفون : ٠٠٢٠٢٣٩٢٩١٩٢ / ٠٠٢٠٢٣٩٣٠٩٢٢

فاكس : ٠٠٢٠٢٣٩٢٩١٩٢

المحمول : ٠٠٢٠١٢٣١٧٧٥١٠

إخراج فني : أ. محمود حجاج

اسكائر : المنار ديزاينر

الإهداء

إلى روح الأخ الحبيب

الدكتور/ رفعت عبد العظيم محمود

مدير متحف الفن الإسلامى

تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته

وعلى كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به أن يدعو له

ولجميع موتانا وموتى المسلمين بالرحمة والمغفرة .

اللهم آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ المائدة آية ٥٤ ﴾

﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

﴿ الحديد آية ٢١ ﴾

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

﴿ النساء ، آية ١١٣ ﴾

صدق الله العظيم

الفهرس

الموضوع	الصفحة
خطبة الكتاب	٩
مقدمة	١٥
تمهيد	٣٩
الباب الأول : الحضارة الإسلامية	١٥٥
الفصل الأول : النظم الإسلامية	١٥٧
الفصل الثانى : الحياة الاجتماعية	٢٥١
الفصل الثالث : الحياة الاقتصادية	٢٩١
الفصل الرابع : الحياة العلمية والفكرية	٣١٧
الفصل الخامس : أثر الحضارة الإسلامية فى أوروبا	٤٢٣
الباب الثانى : الآثار الإسلامية	٤٥٣
تمهيد :	٤٥٥
الفصل الأول : العمارة	٤٨٣
الفصل الثانى : الفنون الزخرفية	٥٩٩
الفصل الثالث : التصوير الإسلامى وفنون الكتاب	٦٢٥
الفصل الرابع : السكة الإسلامية	٦٦٥
الفصل الخامس : أثر الآثار الإسلامية فى أوروبا	٦٧٧
الأشكال واللوحات	٦٩٧

خطبة الكتاب

بسم الله الذى ما كان فى شيء إلا زانه ولا نزع منه إلا شانه والحمد لله الذى لا يحمد على كل شيء إلا هو ، فاسم الله فاتحة كل خير وحمده سبحانه خاتمة كل نعمة .

ثم الصلاة والسلام على الهادى البشير سيدنا محمد بن عبد الله الذى جعله الله خاتم أنبيائه وأشرف رسله الذى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الناس كافة وجاهد فى سبيل الله حتى أتاه اليقين ، فنسأل الله العلى القدير أن يجزيه خير ما جازى نبيا عن أمته ورسولاً على حسن أداء رسالته ، وأن يؤتیه الوسيلة والفضيلة وأن يبعثه المقام المحمود الذى وعده ؛ إن ربي لا يخلف الميعاد ... حقاً وصدقاً . وبعد ...

فإنه منذ بداية التسعينات من القرن العشرين المنصرم بصفة عامة ، وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م بصفة خاصة كثرت كتابات الغربيين عن علاقة الغرب بالإسلام ؛ وجاءت تلك الكتابات تحت عدد من العناوين المتشابهة أو المتضاربة من أمثال « الإسلام والغرب » « صدام الحضارات » و « صراع الحضارات » و « المسلمون خلف الحصار الغربى » و « الأصولية الإسلامية » ، و « نهاية التاريخ » و « الإسلاموفوبيا » وغير ذلك^(١).

ولا تفوتنا الإشارة أيضاً إلى تلك الأفكار الخاطئة المفرضة التى باتت تنفث سمومها عبر مختلف وسائل الإعلام الغربية من أحاديث وبرامج ومقالات وأفلام سينمائية ومسرحيات ؛ فضلا عن صفحات عديدة على شبكة الإنترنت وغير ذلك .

والهدف الرئيسى المباشر وراء ذلك كله واضح جلى ولا يختلف عليه إثنان وهو

(١) انظر ، على سبيل المثال :

فوكوياما ، فرانسيس ، نهاية التاريخ ، ترجمة حسين الشيخ ، بيروت ١٩٩٣م ؛ هانتنجتون ، صموئيل ، صراع الحضارات أو تصادم الحضارات ، الأهرام ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١٦ ، إبريل (١٩٩٤م) ؛ توفلر ، الفن ، نحو بناء حضارة جديدة ، القاهرة (١٩٩٦م) ؛ قولر ، جراهام ، وليسر ، ايان ، الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة أو المسلمون خلف الحصار الغربى ، ترجمة جلال شوقى ، القاهرة (١٩٩٧م) .

تشويه صورة الإسلام ووصمه بالإرهاب والتطرف وبالتالي إثارة زوابع الحقد والكراهية ضد المسلمين والفرع والرعب منهم فى روع المجتمع الغربى بكافة شرائحه وطبقاته .

وعلى ذلك صار التخويف الاستراتيجى من الإسلام وأهله بصورة أكثر شمولاً وإتساعاً وتركيزاً غير مسبوق حتى لقد صار الخوف من الإسلام والحساسية المفرطة إزاءه أحد أبرز التقاليع والتقاليد الثقافية فى المجتمع الغربى المعاصر .

ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أن الكثيرين من الغرب قد تصوروا أو توهموا أن الإسلام قد أصبح يشكل المنافس السياسى والفكرى (الايديولوجى) الرئيسى للغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتى والماركسية الشيوعية عام ١٩٩٠م ؛ وبالتالى فهو - أى الإسلام - بات يمثل العقبة الكبرى أمام السلام العالمى والخطر الأكبر الذى يهدد ما يسمى بالعالم الحر أو بمعنى آخر أنه هو العدو البديل أو الخطر الأخضر الذى حل محل الشيوعية الحمراء ؛ ومن ثم يعد الإسلام المرشح الأرجح للقيام بذلك الدور المتحدى للنظام العالمى الجديد - وهو ما يعرف أيضاً بعصر العولمة أو الكوننة أو الشملة - ومن هنا يجب القضاء على الإرهاب الإسلامى والتطرف بكافة الطرق ومختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة .

وقد أخذ بعض العلماء والمفكرين على عاتقهم مهمة مقاومة هذه الحملات الشرسة على الإسلام وأهله عن طريق تحليل إدعاءات هؤلاء المدعين وتفنيدها والرد عليها بالأدلة والبراهين الموضوعية والمنطقية فى مختلف وسائل الإعلام المتاحة أمامهم ؛ فضلاً عن المقالات والكتب والدراسات المختلفة^(١).

ولم تقتصر هذه المهمة على عاتق المسلمين وحدهم بل نجد من العلماء الغربيين من يتصدى لدحض هذه الإدعاءات وتفنيدها وحسبنا أن نشير إلى العالم الألمانى شتيبات الذى كان من أوائل الذين انتبهوا إلى خطورة تلك الحملة الشرسة على الإسلام فانتقد ما

(١) انظر ، على سبيل المثال ، :

الوشى ، عطية فتحى ، حوار الحضارات ، تقديم محمد عمارة ، القاهرة (٢٠٠١م) ؛ النجار ، زغلول ، الإسلام والغرب فى كتابات الغربيين ، القاهرة (٢٠٠٣م) ؛ زقزوق ، محمود حمدي ، الإسلام والغرب ، القاهرة ، ط ٢ ، ٢٠٠٣م ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، إنسانية الحضارة الإسلامية ، سلسلة قضايا إسلامية ، العدد ١٢٣ ، القاهرة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .

كتبه هانتنجتون فى صدام أو تصادم الحضارات ودحض أفكاره وانتهى إلى القول بأن الإسلام لا يمثل أى تهديد للعالم بل إن العكس من ذلك هو الصحيح .

بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فهو ينفى نفياً قاطعاً أن يرجع الصراعات الكبرى فى عصرنا إلى الخلافات الدينية ، ويدعو إلى الحوار السّمح بين الأديان السماوية وتأكيد أوجه التشابه والتقارب والعناصر المشتركة بينها وضرورة إسّهام الباحثين العلميين فى هذا الحوار الذى لا بد أن يعود بالخير على البشرية كافة ، ومن هنا جاء عنوان كتابه وهو « الإسلام شريكاً » ليدل على هذه المعانى والدلالات العلمية والإنسانية (١) .

وهكذا فإن المرحلة الدقيقة الحرجة التى تجتازها الأمة الإسلامية اليوم تحتاج إلى أن نعبئ لها كل طاقاتنا من وعى الذات والتعبير عن وجودنا الحر والطموح إلى حياة أعز وأفضل .

ولقد كان ذلك من أهم الدوافع التى حدث بى لتأليف هذا الكتاب ؛ أما الدافع الآخر الذى حدانى إلى وضع هذا الكتاب فيتمثل فى أننى قد رأيت أن كلا المعلم والمتعلم فى حاجة إلى كتاب أساسى يكون بين يديه مغطياً تاريخ الحضارة والآثار الإسلامية فى اجمال رشيد يمر بالمعالم الرئيسية والمراحل المتباينة ولا يترك شيئاً مما تهتم دراسته فى مجالى الحضارة والآثار الإسلامية دون دراسة متأنية .

فأما بالنسبة للأستاذ فهذا الكتاب بداية وأما بالنسبة للمتعلم أو القارئ العادى فهو الغاية والنهاية .

ومن ثم إتخذت لهذا الكتاب عنوان « المجلد فى الآثار والحضارة الإسلامية » .

ويتناول هذا الكتاب جوانب الحضارة الإسلامية فى شتى مجالاتها بصورة عامة مجتمعة وحيوية ووفق صياغة سهلة وميسرة لتمكين المعلم والمتعلم من إستيعاب الموضوع وتمثله . وبذلك يكون بين أيدينا مرجعاً أساسياً موحداً يغطى مفردات مقرر تاريخ الحضارة الإسلامية فى الجامعات المصرية والعربية (وقد كان لى شرف تدريس هذا المقرر

(١) شتبيات ، فريتس ، الإسلام شريكاً ، دراسات عن الإسلام والمسلمين ، ترجمة عبد الغفار مكاوى ، عالم المعرفة ، العدد ٣٠٢ ، الكويت ، إبريل (٢٠٠٤م) .

وتطوير منهجه خلال العقدین الأخیرین فی کل من جامعة القاهرة وجامعة الملك سعود بالرياض وجامعة الكويت وينطبق علیه نفس المعنى الذى قصد إلیه ابن رشد عندما سمي مختصره فی الفقه المالکى « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » .

ومهما یکن من أمر فإن هذا الكتاب یهدف إلی تحقیق الغایات التالية :

١ - یضع هذا الكتاب أمام الطالب الجامعى الصورة التى رسمها الإسلام للحياة بكل جوانبها وأبعادها والتى إستطاع أن ینشئ على أساسها أمة فريدة یمكن أن تكون مثلاً یحتذى لقیام التجمع الإنسانى على أساس المساواة التامة والعدالة الشاملة ، واستطاع كذلك أن ینشئ حضارة أسهم فیها على قدم المساواة كل الأجناس والأقوام الذین استظلوا برایة هذه الأمة الإسلامیة ، وقد دفعت هذه الحضارة بالإنسانیة إلی مدى بعيد فی التقدم والرقى وقادت العالم قروناً عديدة وكانت من أقوى الركائز التى قامت علیها الحضارة الحدیثة .

٢ - یشكل هذا الكتاب الأساس أو الأرضیة الضروریة اللازمة للبناء المعرفى والحصیلة العلمیة والمهارات الفکریة للطالب الجامعى ، وبالتالى فإنه سوف یساهم بدرجة كبیره فی تكوين شخصیته وتدعییم هویته الثقافیة وانتمائه الحضارى .

٣ - یحصن هذا الكتاب الطالب الجامعى ضد المحاولات الخبیثة التى تهدف إلی تشویه صورة الإسلام وطمس دوره الرائد عقیده وفکراً وحضارة . ولكن هیئات فالحقیقة التاریخیة أوسع من أن تتأثر بمثل هذه النهشات أو بما یشار من غمز ولمز من قبل المشكکین أو المتشكکین و غیرهم .

٤ - یهییئ هذا الكتاب للطالب الجامعى قاعدة معلوماتیة عریضة وواسعة حول تطور الفکر العلمى وأصول وجذور الكثير من العلوم والمعارف الحدیثة .

٥ - یدعو هذا الكتاب إلی تحقیق التواصل والاستمراریة مع الماضى وهو ما یمكن أن نطلق علیه الأصالة المتجددة والإحیاء الحضارى أو فلنقل هی دعوة للتغییر والخروج من الحالة الراهنة التى تمر بها الأمة .

وهذا لا یعنى بحال الانکفاء على الذات فی عملیة النهوض والتحدیث والتنمية والتجاهل لعملیات التحدیث والتنمية عند الغرب (الأخر) وعدم الإفادة من رؤیتها ومنهجیتها ولكن وفق المعاییر والقیم الحقیقیة التى تتحكم فی عملیتى الأخذ والرد .

أى أننا يجب أن نكون فى مستوى إسلامنا بالنسبة للذات وفى مستوى عصرنا بالنسبة للآخر ، ولو وفقنا فى تحقيق هذه المعادلة لتحققت لنا النهضة الحضارية المنشودة^(١).

وعلى الرغم من أن عملية النهوض وردم فجوة التخلف هى عملية جماعية أو مجتمعية إلا أنها تبدأ من عند الفرد فى إطار الدائرة التى يشغلها ويتوسع فيها لتتراكم مجهودات الأفراد وتشكل مجرى كبيراً تنخرط فيه الأمة جميعاً^(٢).

ولما كان هذا الكتاب يضم مادة معرفية ضخمة تجمع بين الثقافة العامة الضرورية والتكوين العلمى المتخصص ولذلك كان لا بد أن يغطى هذا الكتاب كافة جوانب الموضوع رغم تشعبه ؛ فضلاً عن صعوبة رصد ظاهراته وتعليلها عبر الزمان والمكان على حد سواء ، ولذلك حرصنا فى هذا الكتاب على الاجمال دون الإغراق فى التفاصيل والتحليل كما سبق القول ، وصدق من قال « ما لم يعلم كله لا يترك كله فإن العلم ببعض خير من الجهل بالكل » (أبو الفدا - ت ٧٣٢هـ) أما الدراسة التحليلية المفصلة والمتعمقة لكافة جوانب ومفردات الحضارة الإسلامية فسوف نتطرق إليها فى دراستنا التالية الموسومة بـ « المفصل فى تاريخ الحضارة الإسلامية » والتى سوف تصدر - بمشيئة الله تعالى - فى بضعة مجلدات .

وقد اعتمدت سواء فى هذا الكتاب المجلد أو موسوعتنا الموسومة بـ « المفصل » على عدد ضخم من المصادر والمراجع العربية والشرقية والأجنبية .

ولا شك أن هذه المصادر وتلك المراجع كانت النبراس الهادى للدارسين عامة فى مجال دراسة التاريخ والحضارة والآثار الإسلامية ؛ كما كان لها فضلها الذى لا ينكر

(١) هناك دراسات كثيرة حول قضية التراجع الحضارى وأزمة التطور الحضارى فى العالم الإسلامى وغير ذلك من القضايا المتصلة بالتراث والأصالة والمعاصرة ، وحسبنا أن نشير ، على سبيل المثال وليس الحصر ، إلى بعضها ومنها :

مصطفى ، شاكى ، (إعداد) ، ندوة أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى ، الكويت (١٩٧٥م)؛ بنت الشاطى ، عائشة عبد الرحمن ، تراثنا بين ماضٍ وحاضر ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٩١م)؛ محمود ، على عبد الحليم ، التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى وطريق التغلب عليه ، (١٩٩٤م) ؛ القرضاوى ، يوسف ، من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدين ، بيروت (٢٠٠١م) ؛ حبيب ، رفيق ، فى فقه الحضارة العربية الإسلامية ، إحياء التقاليد العربية ، القاهرة ، ط ٢ ، (٢٠٠٣م) ؛ الهنداوى ، حسن إبراهيم ، التعليم وإشكالية التنمية ، تقديم عمر عبيد حسن ، قطر (٢٠٠٤م) .

(٢) الهنداوى ، التعليم ، ص ١٠ - ١٢ .

على صاحب هذا الكتاب الذى بين أيدينا فى كل ما أنجزه من بحوث ودراسات وكتب خلال العقدين الآخرين .

ويضاف إلى ذلك الزيارات الميدانية المتتالية للعديد من المعالم الأثرية فى المدن العربية والإسلامية ؛ فضلا عن المتاحف ودور الكتب والمكتبات التى تغص بالوثائق والتحف الفنية وكنوز التراث الإسلامى المتنوعة .

وحرصا منا على خروج هذا الكتاب المجلّم وفق المنهج العلمى السليم قمنا بتقسيمه إلى مقدمة وتمهيد وبابان وخاتمة . ونستهل المقدمة بدراسة موجزة عن تعريف الحضارة والمفردات الدالة عليها ثم الإمام بأسس الحضارة الإسلامية وخصائصها .

ويتناول التمهيد دراسة موجزة عن الجغرافيا التاريخية لدار الإسلام وأهم الدول والأسرات الحاكمة .

ويختص الباب الأول بالحضارة الإسلامية وهو يشتمل على خمسة فصول ؛ الأول : نظم الحكم والإدارة ، والثانى : الحياة الاجتماعية ، والثالث : الحياة الاقتصادية ، والرابع : الحياة العلمية والفكرية ، والخامس : أثر الحضارة الإسلامية فى أوروبا .

أما الباب الثانى فقد أفردناه للآثار الإسلامية وهو يشتمل على خمسة فصول أيضاً ؛ الأول : العمارة ، والثانى : الفنون الزخرفية ، والثالث : التصوير الإسلامى وفنون الكتاب ، والرابع : السكة الإسلامية ، والخامس : أثر العمارة والفنون الإسلامية فى أوروبا .

ويلى ذلك الخاتمة فالأشكال واللوحات ثم ثبت المصادر والمراجع .

وبعد ...

فإذا كنت قد وفقت فله الحمد وهو من وراء القصد خير معين ، وإن كنت قد قصرت فحسبى أن تكون هذه الدراسة لبنة صغيرة فى خدمة تراث الحضارة الإسلامية بما يحقق الخير لهذه الأمة التى أراد لها الله - عز وجل - أن تكون خير أمة أخرجت للناس .

والله الموفق

د. محمد حمزة إسماعيل الحداد

القاهرة - مدينة نصر فى

٢٠٠٤/٩/١٨ م

مقدمة

مقدمة

أولاً - تعريف الحضارة :

يمكن القول ، باديء ذي بدء ، أن الحضارة ظاهرة إنسانية عامة ، فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يرتقى ويعمل على تحسين أحوال نفسه بفضل ما أنعم عليه الخالق المبدع سبحانه وتعالى من نعمة العقل التي تمكنه من التفكير واختزان المعلومات والربط بينها والإفادة منها ، فكل أجناس البشر متحضرة وما من جماعة أو أمة إلا ولها حضارتها والفرق في المستويات فالجماعات البدائية والقبائل الرحل وحتى سكان المناطق المنعزلة لها مستواها الحضارى .

فالحضارة إذن صفة للإنسان بوجه عام وهى التى تميزه عن مجتمع الحيوان^(١).

وإذا كان الأمر كذلك فما هى إذن الحضارة ؟ وما هى المصطلحات الدالة عليها ؟

وقبل أن نحدد مفهوم كلمة الحضارة علينا أولاً أن نتطرق إلى تلك المصطلحات الدالة على معنى هذه الكلمة سواء فى اللغات الغربية أو فى اللغة العربية .

ففى اللغات الغربية تستعمل للدلالة على معنى الحضارة لفظتان رئيسيتان هما : Culture, Civilization ولكل منها تاريخ طويل متشعب ووجوه مختلفة من التعبير والدلالة يضيق المقام عن استعراضها هنا^(٢)، ومن ثم سوف نكتفى بالإشارة إلى ما يهمننا منها فى سبيل تحديد المفهوم الذى تدور عليه دراستنا .

(١) زكريا ، فؤاد ، الإنسان والحضارة فى العصر الصناعى ، ط ٢ ، د . ت ، ص ١٠ - ١١ : مؤنس ، حسين ، الحضارة ، دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتطورها ، عالم المعرفة ، العدد ٢٣٧ ، ط ٢ ، الكويت (جمادى الأولى ١٤١٩هـ / سبتمبر ١٩٩٨م) ، ص ٥٢ .

(٢) عن الدراسة الدقيقة المفصلة لكل من هذين المصطلحين وتطورهما انظر ، على سبيل المثال ، Kroeber., A. L., and Kluckhohn, C., Culture, A critical Review of Concepts and definitions, Papers of the peabody, Museum of Amercian Archaeology and Ethnology, Harvard University, vol, XLVII, No. I, Camb ridg (1952) .

إن كلمة Civilization الإنجليزية أو كلمة Civilisation الفرنسية أو كلمة Zivilisation الألمانية مشتقة من كلمة Civis أو Civilis اللاتينية بمعنى مدنى أو ساكن المدينة ثم أخذت تستعمل مجازاً وعنت فى بادئ الأمر اكتساب الصفات المحمودة وبخاصة الألفاف الفردية والجماعية ، وكانت ترد فى الأغلب بصيغة الفعل Civilize أو Civiliser لا بصيغة المصدر دلالة على العملية ذاتها لا على النتيجة الحاصلة منها ثم تطورت لتعبر عن هذه النتيجة - أى عن حالة الرقى والتقدم فى الأفراد وفى المجتمعات - كما تطورت هذه اللفظة لدى البعض وبصفة خاصة علماء الانثروبولوجى فصارت تدل على حياة المجتمع بكاملها سواء أكان هذا المجتمع راقياً أم غير راقٍ^(١).

أما كلمة Culture فمشتقة كذلك من كلمة Cultura اللاتينية من فعل Colere بمعنى حرث أو نمى ، وقد كانت دلالة الأصل اللاتينى فى العصور القديمة والوسيلة مقصورة على تنمية الأرض وزراعتها تلك الدلالة التى نجدها فى agri - culture و Horti - Culture وأمثالها ومع أن شيشرون استعملها بالمعنى المجازى داعياً الفلسفة Cultura mentis أى فلاحه العقل وتنميته فإن هذا المعنى ظل نادراً فى اللغة اللاتينية.

وفى أوائل العصر الحديث بدأت تستعمل الكلمة فى الإنجليزية والفرنسية بمدلوليها المادى والعقلى مع إضافة الشيء المقصود تنميته ، ثم تطورت هذه الكلمة فى فرنسا أولاً ثم ألمانيا وإنجلترا ثانياً إلى معنى إجمالى مطلق دون إضافة إلى شيء معين فغدت تدل على تنمية العقل والذوق وحصيلة هذا الإنماء فحسب .

ثم لم تلبث أن اكتسبت هذه الكلمة دلالة اصطلاحية جديدة على يد علماء الاجتماع والانثروبولوجيا وعلى رأسهم الألمانى جوستاف كلیم والإنجليزى ادوارد تايلور وصار يقصد بها جماع حياة أى مجتمع من المجتمعات ويشمل مختلف أشكال هذه الحياة وفاعلياتها ومظاهرها .

(١) زريق ، قسطنطين ، فى معركة الحضارة ، بيروت ، ط ٤ ، (١٩٨١م) ، ص ٣٤ - ٣٥ ؛ صبحى ، أحمد ، فى فلسفة الحضارة ، الإسكندرية ، (١٩٧٥م) ص ٣ .

ورغم أن هذه الدلالة الاصطلاحية قد راجت في ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية إلا أن ذلك لم ينف عن الكلمة معانيها الأصلية السابقة ولا سيما في الفرنسية والإنجليزية ولغات أخرى فلا تزال الكلمة تستعمل بمعنى الثقافة الفردية والثقافة بوجه عام .

نخلص من هذا الاستعراض إلى القول أننا لا نجد لهاتين اللفظتين في اللغات الغربية الحديثة تحديدات مستقرة ولا نلقى تمييزاً واضحاً بينهما مقبولا بوجه عام ومن ذلك على سبيل المثال معجم ويبستر المطول (Webster) يعرف كلا من هاتين اللفظتين بالأخرى^(١).

والأكثر من ذلك فإن اتجاهات التمييز بين اللفظتين قد زاد من اضطراب الدلالات ، فالمدرسة الإنجليزية تطلق كلمة Civilization على الحضارات العليا وحدها أما الحضارات البدائية فيطلقون عليها كلمة Culture وهناك من أتباع هذه المدرسة من يطلق هذه الكلمة الأخيرة على الحضارات في كل مستوياتها بينما يطلق الكلمة الأولى على الحضارات العليا دون تخصيص .

أما المدرسة الألمانية والأمريكية فتطلق كلمة Kultur (Culture بالإنجليزية) على المظاهر المادية والتقنية (التكنولوجيا) للحضارة وكلمة Zivilisation (Civilization بالإنجليزية) على المظاهر العقلية والأدبية ، ومنهم من ذهب إلى عكس هذا تماماً .

بل إن هناك من يستعمل هاتين الكلمتين للدلالة على دورين مختلفين من الأدوار التي تمر بها كل حضارة ؛ فهي شبنجلر يطلق Kultur على دور الفتوة والأزدهار والإنتاج الروحي ويطلق Zivilisation على دور الهرم والركود والإنتاج المادي وهذا الدور الأخير هو الذي يسبق انحلال الحضارة وزوالها .

والمدرسة الفرنسية تطلق كلمة Civilisation على الحضارة في كل مستوياتها أما

(١) زريق ، في معركة الحضارة ، ص ٣٢ - ٣٥ .

كلمة Culture فتطلق على الثقافة بالمعنى الشائع عندنا فى العربية^(١).

وإذا انتقلنا إلى العربية وجدنا ثمة لفظتين رئيسيتين تستعملان للدلالة على معنى الحضارة وهما : الحضارة والمدنية .

والحضارة (بفتح الحاء أو كسرهما) تعنى الإقامة فى الحضر أى الاستقرار فى المدن والقرى وذلك بخلاف البداوة (بفتح الباء أو كسرهما) وهى الإقامة المتنقلة فى البوادي ، وعلى ذلك فإن المعنى الأصلى للفظة الحضارة إنما هو سكنى الحواضر وما ينشأ عن هذه السكنى أو يصحبها من فنون الحياة ومظاهرها^(٢).

وكان العرب يميزون بين البداوة والحضارة بألفاظ أخرى منها أهل الوبر^(٣) وأهل المدر^(٤) أو أهل الحدر^(٥) وأهل الحجر^(٦).

والمدنية كلمة مولدة لم ترد فى المعاجم العربية القديمة ، وإن كانت هناك فى مصادر

(١) زريق ، فى معركة الحضارة ، ص ٣٥ - ٣٧ ؛ محمود ، أحمد حمدي ، الحضارة ، القاهرة (١٩٧٧م) ، ص ١٦ - ١٨ ؛ الشريف ، أحمد إبراهيم ، دراسات فى الحضارة الإسلامية ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨١م) ، ص ١٣ .

Dennes , W. R., Conceptions of Civilization in Civilization, University of California Press, (1959), P. 149., Spengler, O., the Decline of the west, vol, I, New York (1946), P. 104 .

(٢) انظر المعاجم اللغوية المعروفة ومن أهمها كل من : لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروز آبادى وتاج العروس للزبيدي وتكملة المعاجم العربية لدوزى والمعجم الوسيط الذى أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى جزئين (١٩٦٠ - ١٩٦١م) ، والعديد من المراجع العربية الحديثة التى تناولت الحضارة الإسلامية وهى المذكورة فى هوامش هذا الكتاب وفى ثبت المصادر والمراجع بنهايته .

(٣) يقصد بالوبر الصوف الذى يصنع منه البدوى خيامه وملابسه ومن هنا فأهل الوبر هم أهل البادية أو البوادي .

(٤) يقصد بالمدر قطع الطين المتماسك وهو ما يبنى به فى القرى أو المدن ومن هنا فأهل المدر هم أهل القرى والمدن ولذلك وصف العرب مصر بالمدرّة السوداء كناية عن أنها تتكون من قرى ومدن .

(٥) يقصد بالحدر الأرض المنحدرة التى لا يبنى عليها ومن هنا فأهل الحدر هم أهل البادية أو البوادي .

(٦) يقصد بهم أهل المدن ، وكانت توجد فى الجزيرة العربية عدة مدن باسم الحجر .

ماجد ، عبد المنعم ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ط ٥ ، (١٩٨٧) ، ص ١٠ .

التراث الإسلامى لفظة مدنى بمعنى إجتماعى ولفظة التمدن أو التمدين بمعنى الحضارة أو التحضر^(١).

وهناك من يرى أن استعمال لفظة المدنية مرادفة للفظ الحضارة لا يعدو أن يكون ضربا من التساهل فى دلالات الألفاظ ذلك لأن الحضارة - بمعناها الدقيق ومفهومها العلمى - أعم وأشمل من المدنية لأن الحضارة تشتمل على النشاط الاجتماعى من كافة جوانبه الروحية والمادية ، أما المدنية فهى مجرد النشاط المادى للمجتمع وبذلك تكون المدنية جانبا من جوانب الحضارة وفرعا من فروعها^(٢).

وهنا لا بد لنا من أن نقف وقفة ، ولو قصيرة ، عند المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى ابن خلدون (المتوفى ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) لأنه أبرز من تصدى لهذا الموضوع فى اللغة العربية، بل أول من عالج شؤون الحضارة بصورة منظمة فى العالم فاستحق أن يعتبر مؤسس علم الانثروبولوجيا الحضارى أو كما أسماه هو « علم العمران البشرى والاجتماع الإنسانى ».

فالحضارة عند ابن خلدون هى طور طبيعى أو جيل من أجيال طبيعية فى حياة المجتمعات المختلفة ، وهكذا البداوة ولكن البداوة أقدم والبدو أصل للحضر ، والحضارة غاية للبداوة ، وغاية العمران هى الحضارة والترف وإنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ فى الهرم وعلى ذلك يكون ابن خلدون قد سبق علماء الغرب فيما يتعلق بنظرية انحلال الحضارة وزوالها^(٣).

أما لفظة الثقافة فهى مشتقة من ثقف فلان أى صار حاذقا فطنا ، وعلى ذلك فهى تعنى العلوم والمعارف والفنون التى يطلب الحذق فيها أى أنها تدل على زيادة الصقل والارتقاء ، أو بمعنى آخر فهى تعنى الجوانب العقلية والوجدانية بالدرجة الأولى أو

(١) زريق ، فى معركة الحضارة ، ص ٣١ - ٣٢ ؛ ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ١٠ .

(٢) الشريف ، دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ص ١٣ - ١٤ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٨ ، ٤١ ، ١٢٠ - ١٢٨ ، ١٥١ ، ١٧٢ ، ٣٧١ - ٣٧٤ ؛ زريق ، فى معركة الحضارة ، ص ٢٨ - ٣٠ ، ٣٦ - ٣٧ ؛ ولزبد من التفاصيل والآراء والمناقشات انظر ، مؤنس ، الحضارة ، ص ١٥٤ - ١٥٧ ؛ الشامى ، عبد العال ، جغرافية العمران عند ابن خلدون ، الكويت (١٩٨٨م) ؛ النشار ، مصطفى ، فلسفة التاريخ ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، ص ٦٦ - ٧٠ .

مجموع المعلومات والمعارف والممارسات والقيم الخاصة بشعب ما والتي يعيش بمقتضاها وهي التي تميزه عن غيره من الشعوب لأنها تعبير صادق عن شخصيته وملامح هذه الشخصية وطريقته الخاصة في الحياة^(١).

وعلاوة على ذلك فلفظة الثقافة ليست مرادفة للفظ الحضارة في العربية لأنها تمثل جانباً من جوانب الحضارة وفرعاً من فروعها . ولعلنا لا نبالغ الحقيقة حين نقول إن هذا الجانب - أى الثقافة - هو أهم جوانب الحضارة لأنه هو الجانب المعبر عن خصوصيتها والبال على هويتها ؛ وبالتالي يمكن من خلاله تمييز الحضارات بعضها عن بعض من جهة بل والتمييز بين الأقطار التي تتشكل منها الحضارة الواحدة من جهة ثانية .

نخلص من كل ما تقدم إلى أن الحضارة هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود ، وسواء كانت الثمرة مادية أو معنوية . ويرتبط هذا المفهوم للحضارة أشد الارتباط بالتاريخ لأن التاريخ هو الزمن ، والثمرات الحضارية أيا كان مستواها تحتاج إلى زمن لكي تطلع وتظهر ، أى أنها جزء من التاريخ أو نتاج جانبى للتاريخ ، وكما أن ثمار الزروع والأشجار لا يطلع إلا بفعل الزمن ، إذ لا يمكن أن تزرع وتحصد ثمرة ما فى نفس الوقت فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان^(٢).

أما الألفاظ الأخرى - وهى المدنية والثقافة - فلا يمكن بأى حال من الأحوال أن تكون مرادفة لمصطلح الحضارة ، لأن كل لفظة منهما إنما تمثل جانباً واحداً من جوانب الحضارة أو فرعاً من فروعها كما سبق القول .

ونضيف على ذلك فنقول أن الجانب الأول - وهو المدنية - قد تشترك أو تشارك فيه كل الحضارات ، أما الجانب الثانى - وهو الثقافة - فسيظل هو معيار الخصوصية وإثبات الذات بين الحضارات المختلفة بل وبين أقطار الحضارة الواحدة كما سبق القول .

(١) محمود ، الحضارة ، ص ٦ - ٧ ؛ مؤنس ، الحضارة ، ص ٣٩٤ - ٣٩٩ .

(٢) مؤنس ، الحضارة ، ص ١٥ .

ثانياً : أسس الحضارة الإسلامية :

نبعت الحضارة الإسلامية من أصول وأسس كان لكل منها دوره فى نشأتها وخصائصها ومثلها أو خلال مراحل نموها أو حين ازدهارها ، ونستطيع أن نجملها فى النقاط التالية :

١- القرآن الكريم : هو المصدر الرئيسى الأول للإسلام وشريعته وحضارته . ولقد نزل القرآن الكريم على سيدنا محمد بن عبد الله منجماً أى مفرقا على مدار الثلاث والعشرين سنة التى ظل يدعو فيها الرسول الكريم إلى دين الله الخاتم ، ومن هذه السنوات ثلاث عشرة سنة قضاها الرسول الكريم فى مكة المكرمة ولذلك عرفت الآيات القرآنية الشريفة التى نزلت خلال تلك المدة بالآيات المكية وهى تمثل الطور الأول للدعوة الإسلامية ، وهو الطور المكى ، وفيه تمت إقامة العقيدة الجديدة وما يتصل بها من تصورات ، كما تم إعداد النواة الأولى للجماعة الإسلامية التى أقامت هذه العقيدة فى حياتها فى صورة عقيدة وعبادة وسلوك ، ولذلك فإن جميع الآيات المكية ظلت تنزل طيلة هذه المدة لتعالج قضية واحدة لا تتغير ، وهى قضية العقيدة الجديدة ، وإن كان أسلوب عرضها لا يتكرر ، فهو يعرضها بأسلوب يدعها فى كل عرض جديدة حتى وكأنه يطرقها لأول مرة .

أما الآيات القرآنية الشريفة التى نزلت خلال العشر سنوات الأخرى فقد عرفت بالآيات المدنية ، وهى تمثل الطور الثانى للدعوة الإسلامية ، وهو الطور المدنى « وفيه تم إقامة المجتمع الإسلامى وإقامة النظام الإسلامى بإعلان قيام الأمة الإسلامية الجديدة وفيه تم إكمال الشعائر والتشريعات التى تحكم المجتمع الإسلامى وتنظم حياته فى كل شئونها^(١) .

وقد بلغت سور القرآن الكريم مائة وأربعة عشر سورة ؛ وهى تنقسم إلى أربعة أقسام هى : الطوال والمئون والمثنائى والمفصل ، وهذا الأخير هو ما يلى المثنائى من قصار السور إلى آخر القرآن الكريم وسمى بذلك لكثرة الفصل بين سورته بالبسملة ، وقد

(١) الشريف ، دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ص ٩١ - ٩٢ .

اختلف العلماء فى أوله ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام هى : طوالة وأوساطه وقصاره^(١).

وفى القرآن الكريم يكمن سر أصالة الحضارة الإسلامية^(٢) وعظمتها فهو كتاب الله سبحانه وتعالى ، يهدى للتي هى أقوم ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فيه خير للبشر سواء روحيا أو عقليا أو اجتماعيا ، فهو يدعو إلى عقيدة حقة واضحة خالية من التعقيد والغموض والأوهام ، كما أنه ينظم المجتمع على أسس سليمة تضمن له الأمن والرخاء والسعادة فى الدنيا والآخرة ، وهو يضمن حرية الرأى والعقيدة ويدعو إلى التعارف والتحاب وينص على المساواة^(٣). ومجمل القول أن القرآن الكريم لم يكن كتاب دعوة ودين فحسب بل هو دستور نظام ومنهج حياة فقد رسم للأمم الإسلامية تصوراتها للحياة فى جوانبها المختلفة ، ومن ذلك التصورات الروحية لظواهر الطبيعة ومشاهد الكون وأسراره ونشأة الحياة واتجاه التاريخ ومضمون المجتمع وما إلى ذلك من سائر المفاهيم التى يحتاج إليها الإنسان بفطرته لتصوير الحياة وتفهم مغزاها ومصيرها ، ليكمل بناء الأمة من كل وجه ماديا وروحيا وفلسفيا وتقوم القاعدة اليقينية التى تبنى عليها الأمة حياتها وتؤدى على أساسها دورها فى مجال الحياة الإنسانية .

ويتمثل ذلك الدور الذى أعدت له الأمة الإسلامية فى تحرير الناس والقوامة على الناس والشهادة على الناس^(٤) ؛ ويتجلى ذلك فى قوله عز وجل ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾^(٥). صدق الله العظيم.

والحق أنه لمن المتعذر إستقصاء فضائل القرآن الكريم التى قامت على أساسها

(١) العسقلانى ، الحافظ أحمد بن حجر ، ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م ، فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ج ٨ ،

تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الرياض ، د. ت ، ص ٦٥٩ ؛ السيوطى ، جلال الدين ،

ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، الاتقان فى علوم القرآن ، ج ١ ، بيروت ، دار الفكر ، د. ت ، ص ٦٣ .

(٢) ضيف ، شوقى ، الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة ، القاهرة (١٩٩٧م) .

(٣) الباشا ، حسن ، دراسات فى الحضارة الإسلامية ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٩٢م) ، ص ٤ ؛ عبد الرازق ،

أحمد ، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ج ١ ، القاهرة (١٩٩٠م) ، ص ٢١ .

(٤) الشريف ، دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، ١٣٨ - ١٨٩ .

(٥) سورة البقرة (وهى سورة مدنية) آية رقم ١٤٣ .

الحضارة الإسلامية^(١)، وحسبنا أن نستشهد بقوله سبحانه وتعالى ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ صدق الله العظيم .

٢- السنة النبوية الشريفة :

هى المصدر الثانى من مصادر التشريع فى دين الله الخاتم ، وهى تشمل أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته أو وصف خلقه أو خلقه وذلك يشمل ما يعرف بالحديث القدسى وهو ما يرويه النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل .

والإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم هو ثانى شطرى العقيدة الإسلامية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ولقد فرض الله فى كتابه العزيز على المؤمنين اتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وطاعته فى آيات كثيرة كما فى قوله تعالى ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾^(٢) و ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾^(٣) و ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ﴾^(٤) و ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾^(٥) و ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله أن الله شديد العقاب ﴾^(٦) و ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾^(٧) و ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾^(٨) .

(١) الباشا ، دراسات ، ص ٥ ، عبد الرازق ، الحضارة ، ص ٢٢ ؛ ولزبد من التفاصيل انظر ، شلى ، أبو

زيد ، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٧٥م) ص ٣٧ - ٦٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٥٩ .

(٣) سورة النساء ، آية رقم ٨٠ .

(٤) سورة آل عمران ، آية رقم ٣١ .

(٥) سورة الأحزاب ، آية رقم ٢١ .

(٦) سورة الحشر ، آية رقم ٧ .

(٧) سورة الأحزاب ، آية رقم ٣٦ .

(٨) سورة النور ، آية رقم ٦٣ .

والسنة هي بيان وشرح للقرآن ، فإن أصول الدين وأحكامه وردت في القرآن الكريم مجملة في الأعم الأغلب ، والحديث النبوي هو الذي تولى بيانها وتفصيلها عملاً بقوله تعالى ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ (١) . صدق الله العظيم وعلى ذلك فالسنة بالنسبة للقرآن كالمذكرة التفسيرية للدستور في لغة هذا العصر وكالقوانين التي تعبر عن المبادئ العامة التي يتضمنها الدستور في الأنظمة المعاصرة (٢) .

فقد أمر الله سبحانه وتعالى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في مواطن من كتابه ولكنه سبحانه وتعالى لم يبين عدد الصلوات ولا كيفيتها ولا أوقاتها وجاءت السنة ببيان ذلك كله ، وكذلك لم يبين متى تجب الزكاة وفي أي الأموال تجب ، ولا أنصبتها ، ولا تنوع هذه الأنصبة بتنوع الأحوال ، وجاءت السنة ببيان ذلك كله .

وبذلك كانت السنة النبوية الشريفة جزءاً لا يتجزأ من شريعة الإسلام ، له قدسيته ، وصارت معرفته والتزامه ضرورة دينية ؛ إذ هو بيان للقرآن ومتمم للشريعة ونصيحة للأمة ولا يستغنى عنه مفسر ولا فقيه ولا واعظ ولا مسلم ولا باحث في أصول هذه الشريعة أيا كان معتقده . لذلك فقد أوصى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بأن يأخذوا عنه الحديث كما يأخذون عنه القرآن الكريم ، وأن يعملوا به وأن يبلغوه عنه وحشهم على حسن الأداء ، وحذر من الكذب عليه ، وإستفاضت بذلك نصائحه ووصاياه (صلى الله عليه وسلم) . فمن ذلك قوله في الحديث المشهور بل المتواتر : « نصر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها قرب مبلغ أوعى من سامع » وكذلك قوله في خطبته في حجة الوداع « ليبلغ الشاهد الغائب قرب مبلغ أوعى من سامع » (٣) .

وهذا هو السبب الذي جعل الصحابة ومن بعدهم يعتنون بالسنة النبوية عناية كبيرة حفظاً وكتابة وفتوى وقضاءً وعلماً وعملاً وفهماً ومذاكرة ، حتى ظهر علم الحديث وإزدهرت فنونه وبلغت الكتب التي تدور في فلك السنة والحديث النبوي آلاف المصنفات (٤) .

(١) سورة النحل ، آية رقم ٤٤ .

(٢) المطيرى ، حاكم عبيسات ، تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين ، الكويت (٢٠٠٢م) ، ص ٧ .

(٣) مجمع اللغة العربية ، معجم مصطلح الحديث النبوي ، القاهرة (١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م) ، تصدير د . شوقي ضيف رئيس المجمع .

(٤) المطيرى ، تاريخ تدوين السنة ، ص ٧ - ٨ .

وتمتاز السنة النبوية الشريفة بأنها محيطة بجوانب الحياة وأطوارها وأنها مطبقة وليست مجرد نظريات وأراء كما أنها حقيقية وصحيحة وتاريخية وليست أساطير وخرافات ، وبفضلها وتأسى المسلمين بسيرة صاحبها (عليه الصلاة والسلام) طبعت الحضارة الإسلامية بهذا الطابع الإنساني الذى يتمثل فى حب الخير والعمل الصالح والصدق فى المعاملة والإخلاص فى العمل والتسامح والرفق والحرص على العلم والتعمير والاتزان وغير ذلك من السمائل العديدة التى جعلت المسلمين خير أمة أخرجت للناس^(١).

٣- العرب :

من الأسس التى قامت عليها الحضارة الإسلامية الجنس العربى أو العرق العربى فالنبي صلى الله عليه وسلم عربى والصحابة عرب ، وبذلك كان العرب مادة الإسلام فهم أول من تلقى الدعوة الإسلامية وأمن بها وجاهد فى سبيلها ، وعلى يد العرب دخل الإسلام كثيراً من الأقطار وانتشر بين الناس فى المشرق والمغرب على السواء ، ومن ثم طبعت الحضارة الإسلامية بالطابع العربى حتى أنه يحلو للبعض تسميتها بحضارة العرب أو الحضارة العربية .

ولما كان المقام لا يتسع لدراسة تاريخ العرب وحضارتهم قبل الإسلام ولذلك حسبنا أن نشير إلى أن النظرية التى راجت وانتشرت بين المستشرقين والعلماء الغربيين ومن نحا نحوهم ، والمعروفة بنظرية الفراغ العربى قبل الإسلام ؛ قد صارت غير مقبولة وبالتالي فإنه لا يعول عليها كثيراً فى الدراسات الحديثة ؛ ومن أهمها بطبيعة الحال تلك الدراسات التى إعتمدت على الحفائر والاكتشافات الأثرية فى الجزيرة العربية بأقسامها المعروفة .

وقد أثبتت تلك الدراسات أنه كان للعرب قبل الإسلام حضارة لم تكن تقل عن حضارة غيرهم من الأمم المجاورة ، وقد تمثلت هذه الحضارة فى عدد من الممالك العربية قبل الإسلام سواء فى جنوب الجزيرة أو وسطها أو شمالها أو شرقيها ، وتجلى ذلك فى العديد من المظاهر الحضارية ومنها تخطيط المدن والعمارة والفنون الزخرفية والتشكيلية

(١) الباشا ، دراسات ، ص ٥ - ٨ ، عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، ج١ ، ص ٢٢ - ٢٤ .

والسكة واللغة والكتابة والشعر ؛ فضلا عن العادات والتقاليد وغير ذلك .

وكان لموقع بلاد العرب التى تحتل منطقة القلب فى بلاد الشرق الأدنى القديم أثره الكبير فى تجارة القوافل وما لعبته من دور بارز فى التفاعل الحضارى بين مراكز الحضارات القديمة ، وإن الاكتشافات الأثرية الحديثة فى المراكز التجارية العربية القديمة فى الجزيرة العربية لتوضح لنا عمق هذا التفاعل وأبعاده^(١).

وهكذا صقل العرب بفضل تاريخهم وخبراتهم وتجاربهم وهيثوا لأن يحملوا رسالة الإسلام وينشروها ، ولو كان العرب همجا كما زعم بعض المغرضين لما استطاعوا القيام بأعباء رسالة الإسلام ولما نجحوا فى نشرها هذا النجاح المذهل ، ولقد كان لهذا كله أثره فى نشأة الحضارة الإسلامية وتكوينها وتطورها . وكان من الطبيعى أن يكون للعرب شأن كبير فى إبداع هذه الحضارة التى نشأت فى حجرهم^(٢).

(١) حسبنا أن نشير إلى بعض الدراسات التى تناولت تاريخ العرب وحضارتهم قبل الإسلام وذلك على سبيل المثال وليس الحصر ،

الأسد ، ناصر الدين ، مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، القاهرة (١٩٧٠م) ؛ الأفغانى ، سعيد ، أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، دمشق (١٩٧٣م) ؛ الأنصارى ، عبد الرحمن الطيب ، قرية الفار ، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام ، الرياض (١٩٨٢م) ؛ أثر الفنون العربية قبل الإسلام فى الفن الإسلامى ، اليمن (١٩٧٩م) ؛ بوتس ، د. ت ، مسكوكات ما قبل الإسلام فى شرق الجزيرة العربية ، ترجمة صباح عبود الجاسم ، الشارقة (١٩٩٨م) ؛ الشمس ، ماجد عبد الله ، الحضر ، العاصمة العربية ، بغداد (١٩٨٨م) ؛ على ، جواد ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١٠ مجلدات ، بيروت (١٩٦٩م) ؛ كوزفان بيك ، تاريخ العربية الجنوبية وآثارها ، ترجمة رضا جواد الهاشمى ، التراث ، مج ٢ ، عدن (١٩٧٨م) ، ص ٧٧ - ١٠٧ ؛ مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، إدارة الآثار والمتاحف ، وزارة المعارف السعودية ، الرياض (١٩٧٥م) ؛ ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، الجزء الأول ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، جامعة الرياض (الملك سعود الآن) (١٩٧٩م) ؛ الهاشمى ، رضا جواد ، المدخل إلى آثار الخليج العربى ، البصرة (١٩٨٠م) ؛ يحيى ، لطفى عبد الوهاب ، العرب فى العصور القديمة ، بيروت (١٩٧٨م) ، صالح ، عبد العزيز ، محاضرات فى تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، القاهرة ، ط ٢ ، د ت ، ديسو ، رنيه ، العرب فى سوريا قبل الإسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلى ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة د ت ؛ نيلسن ، ديتلف ، وآخرون ، التاريخ العربى القديم ، ترجمه واستكملة فؤاد حسنين على ، راجعه زكي محمد حسن ، القاهرة (١٩٥٨م) ؛ نامى ، خليل يحيى ، العرب قبل الإسلام ، القاهرة (١٩٨٦) ؛ البدر ، سليمان سعدون ، مكان الخليج العربى فى حضارة الشرق الأدنى القديم ، جامعة الكويت (١٩٨٠م) ؛ شاهين ، علاء الدين عبد المحسن ، تاريخ الخليج والجزيرة العربية القديم ، الكويت (١٩٩٧م).

(٢) الباشا ، دراسات ، ص ٨ - ٩ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٢٦ - ٢٧

٤ - اللغة العربية :

تعد اللغة العربية من أهم أسس الحضارة الإسلامية وكانت قد بلغت نضجها عند ظهور الإسلام ، وقد إختارها الله (سبحانه وتعالى) لتكون لغة آياته الكريمة التى نزل بها الروح الأمين على سيد المرسلين (عليه الصلاة والسلام) ومن ثم جاء القرآن الكريم بلسان عربى مبين وشرفت بأن ينطق بها كلام الله جل وعلا إلى يوم الدين^(١).

واللغة العربية من أرقى لغات العالم إن لم تكن أرقاها ذلك إنها تتصف بكثرة المترادفات ؛ فضلا عن المرونة والقدرة على صياغة المشتقات من ألفاظها ، مع سهولة التعبير الدقيق داخل إطار من سمو البلاغة وسحر البيان .

ونظراً لسلاسة الألفاظ والجمل العربية ظهر فى اللغة العربية فن العروض كفن كامل أثر فى كثير من اللغات الأخرى .

وبفضل قوة اللغة العربية وغناها وقدرتها على النحت وإشتقاق اللفظ المعبر استطاعت أن تكون أداة صالحة للتعبير عن أعظم حضارة عرفها العالم أجمع فى العصور الوسطى ، ذلك أنها لم تقف عاجزة أمام علوم اليونان والفرس والهنود وغيرهم من أصحاب الحضارات السابقة ؛ وإنما عبرت عن علومهم ومعارفهم بما فيها من معانٍ ومصطلحات تعبيراً علمياً دقيقاً^(٢).

وعنها نقلت الحضارة الإسلامية إلى الشعوب الأخرى فترجم ما حوته من علم ومعرفة وثقافة وآداب إلى الشعوب الأخرى^(٣).

ويتصل باللغة العربية الخط العربى الذى أخذ شأنه فى الإزدياد منذ ظهور الإسلام؛ إذ صار إنتشار الخط العربى مصاحباً لانتشار اللغة العربية بل زاد عليها حين صار يكتب به لغات غير عربية مثل الفارسية والتركية والاردية^(٤).

(١) الباشا ، دراسات ، ص ١٠ .

(٢) عاشور ، سعيد ، وآخرين ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، الكويت ، ط ٢ (١٩٨٥م) ، ص ٥٤ - ٥٥ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٣) الباشا ، دراسات ، ص ١١ .

(٤) عبادة ، عبد الفتاح ، انتشار الخط العربى فى العالم الشرقى والعالم الغربى ، القاهرة ، ط ٢ ، د . د . ت .

واحتل الخط العربى مكان الصدارة فى العمارة والفنون الإسلامية ، وكان من أهم النقوش الزخرفية الرئيسية فى العمائر والتحف المختلفة ؛ فضلا عن نقوش السكة الإسلامية .

وهكذا كان الخط العربى ، مثله مثل اللغة العربية ، وسيلة التعبير عن الحضارة الإسلامية ، وعاملاً مهماً من عوامل الوحدة فيها^(١).

٥- شعوب الأقطار المفتوحة :

أسهمت شعوب الأقطار المفتوحة التى إنضوت تحت لواء الإسلام من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب بدور كبير وفعال فى بناء وتشكيل وإزدهار الحضارة الإسلامية . فبفضل هذه الشعوب ذات التراث الحضارى التليد ورثت الحضارة الإسلامية ما توصلت إليه البشرية حتى ذلك الوقت من معارف فى مختلف المجالات ، كما شاركت تلك الشعوب أيضاً فى خلق وابتكار عناصر ومظاهر حضارية جديدة أسهمت فى إنماء وإثراء وإزدهار الحضارة الإسلامية^(٢) .

والحق أنهم لم يتركوا علما ولا فنا ولا أدبا ولا ضرباً من ضروب النشاط البشرى المفيد إلا أسهموا فيه بسهم كبير وافر كما سنرى فى ثنايا هذا الكتاب .

٦- الإطار الجغرافى :

يعد الإطار الجغرافى أحد الأسس الهامة فى نشأة وتشكيل وإزدهار الحضارة الإسلامية فلو نظرنا نظرة جغرافية شاملة لأقاليم العالم الإسلامى لوجدناها تمتد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب على شكل شريط يكاد يحزم الأرض من وسطها ، ويقع هذا الحزام الجغرافى الإسلامى بصفة عامة بين خطى عرض ٢٠ و ٤٠ شمال خط الاستواء ، ولذلك ليس غريباً إذا لاحظنا أن هذه الأقاليم تكاد تتفق أيضاً فيما بينها من حيث الظروف المناخية ، درجة الحرارة ، كمية ومواسم هطول الأمطار ، مصادر المياه ،

(١) الباشا ، دراسات ، ص ١٢ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٢٩ .

(٢) الباشا ، دراسات ، ص ١٢ - ١٣ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٦ - ٧ ، عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٢٩ - ٣١ .

المصادر الطبيعية ، بل وتشابه تضاريسها الطبيعية التى تتراوح ما بين المرتفعات والصحارى والوديان^(١).

وعلى ذلك نرى أن أقاليم العالم الإسلامى يترابط بعضها ببعض برباط آخر غير الرباط الدينى وهو الرباط الجغرافى الذى أدى إلى تحقيق ما يمكن تسميته بالوفاق البيئى ، ومن الطبيعى أن يؤدى هذا الوفاق البيئى إلى زيادة الوفاق الحضارى الذى دعمته وحدة الفكر الدينى الإسلامى المستقى من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة^(٢).

ومهما يكن من أمر فإن هذا الإطار الجغرافى قد هيا للحضارة الإسلامية التى نشأت فى هذه الأقاليم أن تنمو فى بيئة غنية خصبة مكتفية بذاتها مما زادها بطابع الثقة والأصالة ، كما أنه من جهة أخرى جعلها حضارة غير جامدة أو منعزلة أو منغلقة بل دائمة الاحتكاك بالحضارات المعاصرة لها فى الشرق والغرب على السواء ، مما زودها بالحياة وإمكانيات الرقى والتطور^(٣).

٧. التأثيرات الأجنبية :

تنفرد الحضارة الإسلامية بعدة مميزات لا تطاولها فيها أية حضارة أخرى ، ومن أهمها فى النقطة التى نتحدث عنها أنها لم تكن مجرد حضارة لشعب واحد وإنها إمتدت على مدى زمنى طويل ومساحة جغرافية شاسعة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ؛ ومن ثم ذابت فى بوتقتها حضارات شعوب كثيرة ، وبذلك إستوعبت هذه الحضارة تراث الهند والصين وفارس والعراق والشام واليمن وبلاد العرب فى آسيا ومصر وشمال وغرب أفريقيا والتراث اليونانى اللاتينى فى أوروبا ، وإنعكس هذا على الميراث الحضارى للمسلمين فى مظاهره المادية واللامادية التى ما تزال ماثلة بين ظهرانينا حتى اليوم .

(١) البجيرى ، صلاح الدين ، عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها فى الفنون ، حوليات كلية الآداب ،

الحولية ٣ ، الرسالة ١٢ ، الكويت (١٩٨٢م) ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) البجيرى ، عالمية ، ص ٢٦ .

(٣) الباشا ، دراسات ، ص ١٣ - ١٤ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٣١ - ٣٢ .

كذلك لم يحدث فى تاريخ العالم كله أن قامت حضارة على أساس من الدين ثم سمحت لأتباع الديانات الأخرى ، سماوية كانت أم وضعية ، بالإسهام فى بنائها الحضارى ، مثلما حدث فى تاريخ الحضارة الإسلامية : إذ أسهم المسيحيون واليهود والمجوس والصابئة والبوذيون وغيرهم فى شتى جوانب هذه الحضارة العالمية بالمعنى الإنسانى والمعنى الجغرافى على حد سواء^(١). والحق فإن نجاح الحضارة الإسلامية كان كبيراً ليس فى الاستفادة والتوفيق بين تلك الحضارات المتنوعة الأصول والمظاهر فحسب؛ بل أيضاً فى حسن إختيار النافع من عناصرها ونبذ ما هو غير نافع .

هذا إلى أن بناء الحضارة الإسلامية نجحوا أياً نجاح فى إبتكار وخلق عناصر ومظاهر حضارية جديدة أسهمت فى الإرتفاع ببناء الحضارة الإنسانية بحيث تركوا هذا البناء أكثر شموخاً مما وجدوه عليه^(٢).

وهو ما سوف نتطرق إليه فى ثنايا هذا الكتاب .

ثالثاً : خصائص الحضارة الإسلامية :

نستطيع أن نجمل أهم خصائص الحضارة الإسلامية فى النقاط التالية :

١- إنها حضارة إيمان : إذ تؤمن بالله الواحد الأحد واليوم الآخر والملائكة والكتاب ورسالاته وأنبيائه عليهم السلام ، وتهتدى بهدى خاتم النبيين وسيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

والحضارة الإسلامية عندما اتخذت من الإيمان ركيزة لها ، إنما إستهدفت أن تحمى كيانها بسياج منيع من القيم الروحية والمثل الكريمة فلا خير فى علم دون خلق ، ومكارم الأخلاق هى جوهر الديانات السماوية كلها . والإيمان فى الإسلام لا يتعارض مع العقل لأن الإسلام يقوم على أساس مبدأ تعقل الإيمان ، حتى يكون الإيمان راسخاً ثابتاً لا يتأرجح بتأرجح العاطفة .

(١) قاسم ، قاسم عبدة ، مقدمة كتاب التأثير العربى فى أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة وتقديم قاسم عبده قاسم ، القاهرة (١٩٩٩م) ، ص ٣ .

(٢) عاشور ، دراسات ، ص ٧ .

هذا إلى أن الحضارة الإسلامية عندما تتصف بالإيمان فإنها لا تهمل المادة ؛ وإنما تعطيها حقها من التقدير لما لها من أهمية فى بناء العمران وسعادة البشر .

ومن ناحية أخرى فإن الإيمان ليس معناه - مثلما يدعى المغرضون - أن ينصرف المجتمع عن العمل والإنتاج إلى التواكل والغيبيات فالحضارة الإسلامية تحث على العمل لأن العمل مرتبط بالإيمان كما فى قوله تعالى ﴿ وَقُلْ اَعْمَلُوا فَيَسِيرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ صدق الله العظيم .

وهكذا فإن الحضارة الإسلامية حضارة إيمان وعمل وإنتاج بكل ما يشتمل عليه الإيمان من اخلاص وجدية وحرص على أداء الواجب وتحلى بمكارم الأخلاق .

٢ - إنها حضارة تقدمية بكل معانى الكلمة لا جمود فيها ولا رجعية ذلك إن الإسلام الذى ولدت هذه الحضارة وشبت وترعرعت بين أحضانه جاء ثورة ضد الظلم والاستغلال والجمود والنكوص ، والإسلام لا يمنع المسلم من الأخذ بكل جديد طالما أن هذا الجديد لا يتعارض مع روح الدين ومثله وآدابه .

وليس حقيقيا ما يدعيه الهدامون من أن الإيمان يتعارض مع الاشتراكية ، فإذا كان الهدف الأساسى من الاشتراكية هو تحقيق العدالة الاجتماعية - كما يزعمون - فإن الصورة المثلى للعدالة الاجتماعية لا تتوفر إلا تحت مظلة الإيمان فى الحضارة الإسلامية ؛ فالزكاة فرضا على كل مسلم قادر كما فى قوله تعالى ﴿ خذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ . صدق الله العظيم .

٣ - إنها تتصف بالمرونة وسعة الأفق بمعنى أن الحضارة الإسلامية لم تكن أبداً منذ مولدها منغلقة على نفسها وإنما كانت دائماً مرنة قابلة للأخذ والعطاء ، وحسب هذه الحضارة أنها احترمت تراث الوثنية فى شتى العلوم والفنون ولم تقف من هذا التراث موقفا معاديا ، مثلما فعلت الكنيسة ورجالها فى الشطر الأول من العصور الوسطى الأوروبية ، ولم تجد الحضارة الإسلامية ما يحول دون الاستفادة من تراث الحضارات السابقة والمعاصرة ، كل ما هنالك أنها أحسنت الانتقاء فلم تتقبل كل ما صادفته من عناصر ومظاهر الحضارات الأخرى ؛ وإنما تخيرت ما من شأنه أن يساعدها على الاحتفاظ بقيمها ومثلها وطابعها ، ورفضت كل ما لا يقبل التكيف ، وكل ما لا يتفق وروحها ومبادئها .

٤ - إنها حضارة محبة وسلام ، ففي ظل السلام يكون الإنشاء والتعمير ، وفي ظل السلام يأمن كل فرد على نفسه وعرضه وماله وأهله فينصرف إلى العمل والإنتاج في هدوء وطمأنينة .

وحسب الإسلام أن تحيته تحية سلام . على أن حرص الإسلام على التمسك بروح السلام لا يتعارض مع الحفاظ على مصالح المسلمين : ذلك أن الإسلام فرق بين السلام والاستسلام ، وفي الوقت الذي نهى الإسلام عن العدوان ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ إذا به يطالب المسلمين بالوقوف موقفاً حازماً من أى عدوان يوجه إليهم أو إلى مصالحهم ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ صدق الله العظيم .

٥ - إنها حضارة تسامح لا حقد فيها ولا كراهية ، وقد أمر الله عز وجل رسوله (عليه الصلاة والسلام) بالصفح والتسامح فى أكثر من موضع ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ ﴿ وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ ﴿ وإن الساعة لأتية فاصفح الصفح الجميل ﴾ .

كذلك طالب الله عز وجل المسلم بالآلا يجعل فى قلبه غلا لغيره فقال ﴿ ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ وقال ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ .

وبهذه الروح الطيبة نظر الإسلام إلى أهل الذمة (المسلمين واليهود) نظرة كلها تسامح فأعطاهم حقوقهم كاملة غير منقوصة الأمر الذى جعلهم تحت مظلة الإسلام وفى كنف الدولة الإسلامية يسهمون إسهاماً جاداً فى بناء الحضارة الإسلامية ، ومنهم من تولى أرفع المناصب وعاشوا فى قصور الخلافة يحظون باحترام الخاصة والعامة ، ولا عبرة هنا ببعض الفترات القصيرة فى التاريخ الإسلامى التى شهدت إختلالاً فى الأوضاع نتيجة لظروف طارئة أو لانحراف حاكم غير ملم بروح الإسلام وتعاليمه^(١) .

ومن الأمور الشائعة فى كتب التراجم الإسلامية أن نجد المؤرخ المسلم يكيل المدح

(١) عاشور ، دراسات ، ص ١٦ - ١٩ .

لأحد أطباء اليهود أو النصارى ويشنى على علمه وخلقه ويصفه بأنه من أهل الفضل مما لا نظير له في العصور الوسطى^(١).

٦ - إن الحضارة الإسلامية تتصف بالحيوية والاستمرار والوحدة ، فهذه الحضارة منذ مولدها وحتى اليوم ظلت حية قائمة لم تمت مطلقا ، لئن تعرضت للذبول حيناً نتيجة لعوامل طارئة منها الهجمات الاستعمارية الشرسة في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، كالحروب الصليبية والمغول ، فإن مثل هذه العوامل كانت تؤثر فيها تأثيراً مؤقتاً لا يلبث أن يزول بزوال المؤثر ، ويكمن السر في هذه الحيوية في أن الحضارة الإسلامية قامت على أسس متينة من الدعائم الروحية والخلقية والفكرية ، مما يكفل لها الثبات في وجه الأحداث والقدرة على مواجهة التحديات عبر الأيام والعصور ولئن كانت الخلافة الإسلامية قد تفككت في بعض مراحل التاريخ ؛ فإن تمزق الوحدة السياسية للعالم الإسلامي لم يؤثر مطلقاً في إستمرارية وحدته الحضارية ، وحسب هذه الوحدة الحضارية أنها قامت على أساس دعامتين راسختين هما الإسلام والعروبة .

وعلى ذلك نرى أن الحضارة الإسلامية تعد استثناءً للحضارات الإنسانية قاطبة لأن أساسها ليس عنصراً بشرياً يناله الضعف والبلى ولكن أساسها العقيدة وهي لا تزال تتجدد وتتعاقب على حمل رايتها الأجيال وآداتها هي اللغة العربية لغة القرآن وبفضله عاشت وقدر لها أن تنجو من الضياع .

وبفضل الإسلام والعربية ظلت حضارة الإسلام حية لأن العقيدة لا تبلى ما دام هناك من يؤمنون بها وما دامت العقيدة حية في عالم الإسلام فاللغة العربية حية أي أن عنصري الحضارة الإسلامية الأساسيين باقيان لا ينال منهما كره الغداة ومر العشى وتعاقب الأجناس وتغير الظروف^(٢).

وعلى ذلك فالحضارة الإسلامية ذبلت ولكنها لم تمت فهي كالشجرة الضخمة الممتدة

(١) ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم ، ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٨م ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضا ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د. ت ، ص ١٨٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٤٦ .

(٢) مؤنس ، الحضارة ، ص ٢٨٠ .

الجذور فى الأعماق لئن جفت أوراقها لافتقارها إلى الغذاء المناسب أو لعدم العناية بها فإنها من الممكن بزوال هذه الأسباب أن تستعيد نضرتها وتعود أعظم مما كانت عليه لتستظل البشرية قاطبة بظلها فى الحاضر والمستقبل مثلما إستظلت به فى الماضى^(١).

٧ - انها حضارة إنسانية بكل معانى الكلمة ، فهى تستهدف أولاً وأخيراً خير الإنسان فى الدنيا والآخرة والرحمة به والحفاظ على كرامته والنهوض بمستواه الروحى والفكرى والاجتماعى والاقتصادى ، ومنع إستغلال الإنسان لأخيه الإنسان وتجنبيه كل ما من شأنه أن ينزل به الضرر ، ومن أجل ذلك نظم الإسلام حياة الإنسان الخاصة والعامة تنظيماً دقيقاً يستهدف سعادة الفرد والأسرة والمجتمع ، وحسب الإنسان أن الله عز وجل خلقه فى أحسن تقويم ، وعلمه ما لم يعلم ثم إنه كرم الإنسان تكريماً جعله فوق سائر المخلوقات وطالب الملائكة بالسجود لأدم أبى البشر .

ومما لا شك فيه أن جميع خصائص الحضارة الإسلامية فى النقاط السبع المشار إليها إنما تستهدف سعادة الإنسان وخيره فالإنسان هو محور هذه الحضارة وسعادته غايتها وهدفها^(٢).

٨ - تتصف الحضارة الإسلامية بالأمانة المطلقة وهى صفة ميزتها عن كثير من الحضارات السابقة لها واللاحقة عليها فإن العلماء الذين عكفوا على ترجمة تراث الحضارات السابقة لم ينسبوا ما ترجموه إلى أنفسهم وإنما إلى أصحابه الذين ترجموا عنهم مثل جالينوس وديسقوريدس وبطليموس وأرسطو وغيرهم .

(١) عاشور ، دراسات ، ص ١٤ .

(٢) عاشور ، دراسات ، ص ١٩ - ٢٠ ؛ ولزيد من التفاصيل عن هذه الخصائص وغيرها انظر ، الشريف ، دراسات ، ص ١٢٥ - ١٨٩ ؛ السباعى ، مصطفى ، من روائع حضارتنا ، القاهرة (١٩٩٨م) ، ص ٣٥ - ٨٥ ؛ العدوى ، إبراهيم ، السهيل ، نايف عيد ، الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت (١٩٩٤م) ، ص ٧٤ - ٨١ ؛ عرفة ، محمود ، وآخرين ، دراسات فى الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت (١٩٩٧م) ، ص ٣٠ - ٤١ ؛ الكروى ، إبراهيم سلمان ، شرف الدين ، عبد التواب ، المرجع فى الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت (١٩٨٤م) ، ص ٢٠ - ٢٧ ؛ ضيف ، الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة ، ص ٢٠ - ٣٢٧ ، عالمية الإسلام ، القاهرة (١٩٩٦م) ، ص ١٣ - ١١٨ ؛ العقاد ، عباس ، الديمقراطية فى الإسلام ، القاهرة (٢٠٠٤م) ؛ حسن ، حسن على ، أهل الذمة فى المجتمع الإسلامى ، القاهرة (٢٠٠٥م) ؛ الشكعة ، مصطفى ، إسلام بلا مذاهب ، القاهرة (٢٠٠٥م) ، ص ٤١ - ١١٣ .

وهنا يبدو الفارق واضحاً وكبيراً بين رواد الحضارة الإسلامية من ناحية وغيرهم من أصحاب الحضارات الأخرى من ناحية ثانية ، فعلماء اليونان مثلاً نقلوا كثيراً عن غيرهم ونسبوه إلى أنفسهم مع أنهم قد إستقوا كثيراً من علومهم عن المصريين القدماء دون أن يشيروا إلى مصدرهم مما جعلها تبدو وكأنها من إبداعهم .

أما علماء المسلمين فقد ضربوا مثلاً رائعاً في الأمانة العلمية ونسبة الكتب والحقائق والأفكار إلى أصحابها مما مكن الغرب الأوروبى من الوقوف على بعض الكتابات التى ضاعت أصولها اليونانية والتى تم التعرف عليها من خلال التراجم العربية المنسوبة إلى أصحابها كما هو الحال فى بعض كتابات أرسطو على سبيل المثال^(١).

(١) عاشور ، دراسات ، ص ٢٠ - ٢١ .

تفہیم

تقديم

لما كان المقام لا يتسع لدراسة موسعة مطولة تحيط إحاطة شاملة بالجغرافيا التاريخية وكافة الدول والدويلات والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى لبعء ذلك عن إطار الخطة المرسومة أو منهج هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، ولذلك حسبنا فى هذه العجالة أن نحيط علما بالنقاط التالية :

أولاً - مراحل تأسيس الدولة الإسلامية فى عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم).

ثانياً : إمتداد الدولة الإسلامية وإتساع رقعة الإسلام^(١).

ثالثاً - التسلسل التاريخى لعصور الخلافة ومعجم لأهم الدول والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى .

ومن خلال تغطية هذه النقاط - ولو بذلك القدر المجل - يستطيع الدارس والقارئ على السواء أن يلم بالخطوط العريضة والملامح العامة والمعالم الرئيسة للتاريخ الإسلامى ، وبذلك يقف على خط سير هذه الحضارة ، ويتعرف على القدر الذى أسهمت به كل مرحلة تاريخية فى إضافة لبنة جديدة فى ركب هذه الحضارة وإقامة صرحها حتى بلغت الغاية وأضحت أعظم حضارة عرفها العالم أجمع طوال العصور الوسطى ؛ ومن ثم كانت من أقوى الدعائم والركائز التى تقوم عليها الحضارة الحديثة .

(١) بما له دلالة فى هذا الصدد أن الإسلام فى العصر الحديث قد نشر ظلاله على المعمورة كافة فما من دولة أو جزيرة كبر حجمها أو صغر إلا وبها مسلم يقيم عقيدة التوحيد الغراء ، ومن هنا بزغ مصطلح جديد وهو الأقليات المسلمة سواء فى آسيا أو أفريقيا أو أوروبا أو استراليا والأمريكتين والبحر الكاريبى وهو الأمر الذى يؤكد على بساطة تعاليم الإسلام وسهولة فهمه ويسر الدعوة إليه ولا غرو فى ذلك فهو دين الله الخاتم الذى نزل للناس أجمعين ، ومن جهة أخرى يضيف قرينة جديدة على بطلان النظرية الخاطئة القائلة بأن الإسلام قد انتشر بحد السيف فهل هناك سيف الآن ؟؟
ولزيد من التفاصيل عن الأقليات المسلمة انظر ،

بكر ، سيد عبد المجيد ، الأقليات المسلمة فى آسيا واستراليا ، مكة المكرمة (١٩٨٢م) ، الأقليات المسلمة فى أفريقيا ، مكة المكرمة (١٩٨٥م) ؛ الأقليات المسلمة فى أوروبا ، مكة المكرمة (١٩٨٥م) ؛ الأقليات المسلمة فى الأمريكتين والبحر الكاريبى ، مكة المكرمة (١٩٨٥م) ؛ وعن أحدث الدراسات المتعلقة بقضية انتشار الإسلام بحد السيف وبطلان هذه القضية انظر ، بباوى ، نبيل لوقا ، (وهو مسيحى أرثوذكسى) ، انتشار الإسلام بحد السيف ، بين الحقيقة والافتراء ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٢م) ، وانظر أيضاً ، الشكعة ، إسلام بلا مذاهب ، ص ١٠٣ - ١١٣ .

وفيما يلي نسلط الضوء على هذه النقاط كل على حدة :

أولاً - مراحل تأسيس الدولة الإسلامية في عصر الرسول^(٢) (صلى الله عليه وسلم) :

بدأت الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة ، وقد قضى بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) منذ أن بدأ نزول الوحي عليه وهو في الأربعين من عمره ثلاث عشرة سنة ظل يدعو الناس إلى الدين الإسلامي الجديد بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد عرفت هذه المرحلة من عمر الدعوة بالطور المكي^(٣) كما سبق القول .

(٢) مما تجب الإشارة إليه أننا قد أجمعنا أحداث عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الطورين المكي والمدني حتى تأسست الدولة الإسلامية وشملت كل جزيرة العرب .

ولمن أراد أن يتوسع فليرجع إلى المصادر التاريخية المختلفة ومنها كتب السيرة والطبقات والمغازي والوقائع والفتوح مثل سيرة ابن هشام (ت ٢١٤هـ / ٨٢٩م) وطبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م) ، ومغازي الرسول للواقدي (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م) وكتاب الدرر في المغازي والسير لابن عبد البر وكتاب ابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م) ، وفتوح البلدان للبلازري (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) ، وكتب السنن النبوية المعروفة ، وكتب الحوليات ومن أهمها تاريخ الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) والكامل لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) .

وهناك أيضاً المراجع الحديثة التي عولت على مثل تلك المصادر ومنها : الأحمدي ، علي بن حسين ، مكاتيب الرسول ، قم (١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م) إدريس ، عبد الله عبد العزيز ، مجتمع المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، الرياض ، ط ٢ ، (١٩٩٢م) ؛ ارنولد ، توماس ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٧٠م) ؛ الخربوطلي ، علي حسن ، الدولة العربية الإسلامية ، القاهرة (١٩٦٠م) ؛ العربي ، محمد محمود ، دولة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، القاهرة (١٩٨٨م) ؛ العلي ، صالح أحمد ، دولة الرسول في المدينة ، دراسة في تكوينها وتنظيمها ، بغداد (١٩٨٥م) ، الشريف ، أحمد إبراهيم ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، القاهرة (١٩٦٥م) المسري ، حسين ، تاريخ البحرين وعمان ، من عصر النبوة إلى نهاية العصر الأموي ، الكويت (٢٠٠٠م) ، ص ١١ - ٦٨ ؛ بيضون ، جميل ، وآخرين ، الخلافة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري ، الأردن ، (١٩٩٠م) ، ص ٥١ - ٩٧ ؛ حميد الله ، محمد ، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، بيروت ، ط ٣ (١٩٦٩م) ؛ سالم ، السيد عبد العزيز ، التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية ، الاسكندرية (١٩٨٨م) ؛ ص ٥٥ - ١٦١ . سرور ، محمد جمال الدين ، قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) القاهرة ، (١٩٦٦م) ؛ موننجمرى وات ، محمد في مكة ، ترجمة عبد الرحمن الشيخ ، حسين عيسى ، مراجعة أحمد شلبي ، سلسلة الألف كتاب الثاني ، القاهرة (٢٠٠٢م) ؛ حبشى ، حسن ، سرايا الرسول ، القاهرة (٢٠٠٢م) . الجميل ، محمد بن فارس ، النبي ويهود المدينة ، الرياض (٢٠٠٠م) .

(٣) كانت مكة عند ظهور الإسلام تقع في أواسط الطريق بين اليمن والشام ، وهي في واد ضيق تحيط به الجبال والمرتفعات ، أجرد غير ذي زرع ، والزراعة فيه قليلة جداً ما عدا بعض النباتات الطبيعية التي =

ويمكن أن نجمل أحداث هذه المرحلة في النقاط التالية :

- ١ - الدعوة السرية لمدة ثلاث سنوات من مبعثه (ﷺ) .
- ٢ - الدعوة الجهرية الصريحة والإعلان العام المباشر بأمر الله سبحانه وتعالى وما ترتب على ذلك من المقاومة والاضطهاد سواء للرسول (ﷺ) أو لمن اتبعه من المسلمين .
- ٣ - الهجرة إلى الحبشة في العام الخامس للبعثة / ٦١٥ م على مرحلتين تعرفان بهجرة الحبشة الأولى وهجرة الحبشة الثانية ومحاولات قريش رد المهاجرين المسلمين .
- ٤ - مقاطعة قريش لبنى هاشم (الصحيفة) لمدة ثلاث سنوات ٦١٦ - ٦١٩ م .
- ٥ - عام الحزن (وفاة السيدة خديجة زوجة الرسول ، وأبى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم .
- ٦ - الخروج إلى الطائف وعرض الدعوة على القبائل .
- ٧ - عرض الدعوة على القادمين من الحجاج إلى مكة وانتشار الدعوة بين الأوس والخزرج في العام الحادي عشر للبعثة والتي كان من نتيجتها بيعة العقبة الأولى في العام الثاني عشر من البعثة / ٦٢١ م وبيعة العقبة الثانية في العام الثالث عشر من البعثة / ٦٢٢ م .
- ٨ - الهجرة إلى يثرب^(٤) (المدينة المنورة) .

= تنمو في الجبال ، كما أن المياه فيها قليلا جداً وهي تتكون من الآبار ، ويفضل موقعها صارت مكة قبل الإسلام مركز تجارياً نشطاً .

وعلى ذلك فمكة تدخل في نطاق إقليم الحجاز أحد أقسام جزيرة العرب الخمسة ، والحجاز كلمة عربية صرفة تعنى الحد الفاصل ومن ثم عرفت بهذا الاسم لأنها تفصل بين تهامة وهي السهول الممتدة على ساحل البحر الأحمر وبين نجد وهي الهضبة التي تنحدر تدريجياً من الغرب إلى الشرق .

العلی ، دراسات في الإدارة في العهود الإسلامية الأولى ، بغداد (١٩٨٩م) ، ص ٦٠ - ٦٣ ؛ الحجاز في صدر الإسلام ، بيروت (١٩٩٠م) ، ص ٦١ - ٧٣ ؛ الوهبي ، عبد الله ، الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب ، مجلة كلية الآداب - جامعة الرياض ، العدد الأول ، السنة الأولى (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) ص ٥٣ - ٧٠ ؛ الغنيم ، عبد الله يوسف ، أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة ، الكويت (١٩٨١م) ، ص ٣٤ - ٣٧ .

(٤) تقع يثرب (المدينة) في نطاق إقليم الحجاز السابق الإشارة إليه ، وهي إلى الشمال من مكة ، وهي عبارة عن واحة خصيبة التربة غزيرة المياه محصورة بين حرتين بركانيتين وهما من الشرق حرة واقم أو الحرة الشرقية ومن الغرب حرة الوبرة أو الحرة الغربية فهي ذات الحرار أو ذات الأحرين ، وهناك أيضاً حرة قباء في الجنوب ، ومن أشهر جبالها جبل أحد وجبل سلع وجبل عير .

إدريس ، مجتمع المدينة ، ص ١٧ - ٢١ ؛ آل الشيخ ، نورة عبد الملك إبراهيم ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام ، جدة (١٩٨٣م) ، ص ١٩ - ٢١ .

وبعد الهجرة إلى المدينة تكونت دولة الإسلام الأولى ، وقد توسعت هذه الدولة حتى أصبحت عند وفاته (عليه الصلاة والسلام) تضم كل جزيرة العرب .
وقد عرفت هذه المرحلة الثانية من عمر الدعوة الإسلامية بالطور المدني كما سبق القول .

ويمكن أن نجمل أحداث هذه المرحلة في النقاط التالية :

- ١ - بناء المسجد النبوي الشريف .
- ٢ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار (بين مهاجر ومهاجر - بين أنصاري وأنصاري - بين أنصاري ومهاجر) .
- ٣ - المعاهدة بين المسلمين واليهود وهي المعروفة باسم الصحيفة وكانت بمثابة أول دستور إسلامي في المدينة يقرر بوضوح تام مبادئ المسئولية السياسية والاجتماعية .
- ٤ - تحويل القبلة في منتصف شعبان في السنة الثانية للهجرة إلى المسجد الحرام وصارت بذلك رمزا أبديا للوحدة الدينية والسياسية للمسلمين .
- ٥ - مشروعية الجهاد بأمر الله .
- ٦ - تأمين الجبهة الداخلية من اليهود والمنافقين في المدينة .
- ٧ - السرايا الاستطلاعية وتبلغ ٤٧ سرية وقيل ٤٣ سرية وقيل أنها تقرب من ٦٠ سرية .
- ٨ - الغزوات (وقد إشتراك الرسول (صلى الله عليه وسلم) في ٢٧ غزوة وقاتل في تسع منها - ومن هذه الغزوات بدر وأحد والأحزاب (الخنزق) ...) .
- ٩ - صلح الحديبية في عام ٦٢٧ هـ / م .
- ١٠ - غزوة خيبر في عام ٦٢٨ هـ / م .
- ١١ - رُسل النبي (صلى الله عليه وسلم) ورسائله إلى الأمراء والملوك في الجزيرة وخارجها بدءاً من عام ٦٢٨ هـ / م .
- ١٢ - بقية الغزوات (مؤتة في جمادى الأولى ٨ هـ / ٦٢٩ م ، غزوة الفتح (فتح مكة) رمضان ٨ هـ / ٦٢٩ م ، غزوة حنين والطائف ، غزوة تبوك ٩ هـ / ٦٣٠ م) ...) .
- ١٣ - عام الوفود (٩ هـ / ٦٣٠ م) حيث تواترت وفود العرب لتعلن إسلامها .
- ١٤ - حجة الوداع عام ١٠ هـ / ٦٣١ م .

١٥ - اعداد بعث أو غزوة أسامة بن زيد بن حارثة فى محرم ١١هـ / ٦٣٢م .

١٦ - إنتقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) للرفيق الأعلى فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة من ربيع الأول عام ١١هـ / ٦٣٢م . بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد فى سبيل الله حتى أتاه اليقين وليس أدل على ذلك من قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (٥).

وهكذا تأسست الدولة الإسلامية الأولى على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكانت المدينة المنورة قاعدة هذه الدولة ومنها بدأت الدولة تتوسع حتى شملت كل جزيرة العرب عند وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد وإنما قام الرسول (عليه الصلاة والسلام) بوضع التنظيمات الإدارية لهذه الدولة مما إعتبر أساساً للتنظيمات اللاحقة وما أصابها من تطور بعد توسع رقعة الدولة الإسلامية (٦) .

ثانياً : امتداد الدولة الإسلامية واتساع رقعة الإسلام :

إنتهى بنا القول إلى أنه عند وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى ١٢ ربيع الأول ١١هـ / ٦٣٢م كانت الدولة الإسلامية الناشئة قد شملت كل الجزيرة العربية ، ومن هنا كان حرصه (صلى الله عليه وسلم) عظيماً على لفت انتباه المسلمين لتأمين حدود الجزيرة العربية من أى عدوان خارجى ، وهو ما تدلنا عليه غزوة مؤتة فى جمادى الأولى ٨هـ / ٦٢٩م والتي إعتبرها الرسول (عليه الصلاة والسلام) جولة تعقبها كرة وقال « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » ثم غزوة تبوك التى سار هو بنفسه إليها عام ٩هـ / ٦٣٠م ثم إعداد غزوة أو بعث أسامة بن زيد بن حارثة على مشارف الشام .

وقد أمره (صلى الله عليه وسلم) أن « يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين » وفى رواية أخرى أن « يوطئ من آبل الزيت من مشارف الشام الأرض بالأردن » (٧) إلا أن وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أجلت إنفاذ هذا البعث أو

(٥) سورة المائدة ، آية رقم ٣ .

(٦) العلى ، دراسات فى الإدارة ، ص ٧٢ - ١٠٩ .

(٧) سالم ، التاريخ السياسى ، ص ١٤٣ - ١٤٦ ، ١٥٢ - ١٦٠ ؛ فيصل ، شكرى ، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، ط ٦ ، بيروت (١٩٨٢م) ، ص ٢٦ - ٣٢ ؛ دسوقي ، محمد عزب ، القبائل العربية فى بلاد الشام ، القاهرة (١٩٩٨م) ، ص ٩٩ - ١٠٤ .

هذه الغزوة إلى بداية عهد خليفته أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) الذى لم يتمهل فى انفاذ هذا البعث كما أمر به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبيل وفاته وقد إنتصر جيش أسامة ورجع من حملته ظافراً .

ومن هنا أصبح الصدام والمواجهة مع القوى الكبرى صاحبة السيادة والنفوذ والمهيمنة على حدود الجزيرة العربية والمتمثلة فى الروم والفرس ، والتي ناصبت المسلمين العداء وأعلنت الحرب عليهم حقيقة واقعة وأمر لا مفر منه ، وعلى ذلك يمكن القول أن حركة الفتوح الإسلامية الأولى خارج الجزيرة العربية قد خرجت إلى حيز الوجود تحت ضغط الظروف فهم . أى المسلمين . قد اضطروا إليها إضطراراً دون تدبير مسبق أو وفقاً لخطة موضوعة أو بمعنى آخر لم يكن هناك برنامج للفتح أو للصدام المسلح والمواجهة وإنما جاءت نتيجة لظروف خاصة تحكمت فى خط سير الأحداث أو جاءت إستطراداً على حد قول بعض المؤرخين المحدثين^(٨) .

هذا وقد اختلف الباحثون فى تعليل حركة الفتوح الإسلامية الأولى وتفسير دوافعها ، وذهبوا فى هذا التفسير مذاهب شتى فبعضهم يرجعها إلى دوافع اقتصادية وفريق آخر يرى أنها تمت بدافع الجهاد ونشر الإسلام وفريق آخر يرجع العامل القومى ويضيف فريق آخر العامل النفسى مع ضعف كل من دولتى الفرس والروم (الساسانية والبيزنطية) واضطراب الأحوال فيهما^(٩) ، وهناك من يرى أن حركة تاريخية ضخمة مثل حركة الفتوح الإسلامية لا يمكن أن تتردد دائماً إلى عامل وحيد بل إنها نتيجة مجموعة من العوامل المتداخلة والمتمازجة وأن الإسلام كدين شامل يتسع ليشمل هذه الدوافع كلها وينسج بينها فى منظومته^(١٠) .

ومهما يكن من أمر هذه التفسيرات ، إلا أن واقع الحال يشهد أن هذه الحركة لم تكن وفق خطة موضوعة أو لم يكن لها تدبير مسبق أو برنامج للفتح ، وإنما جاءت نتيجة لظروف خاصة تحكمت فى خط سير الأحداث كما سبق القول ، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن ننكر أو نتجاهل القول بأن الإسلام كان بمثابة القوة الدافعة الملهممة لتلك الحركة .

(٨) عبد اللطيف ، عبد الشافى محمد ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ط ٤ ، القاهرة (٢٠٠٢م) ، ص ٢٢٣ .

(٩) سالم ، التاريخ السياسى ، ص ١٩٧ - ٢١٤ .

(١٠) شاهين ، حمدى ، الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين ، القاهرة (٢٠٠٣م) ، ص ٨٧ .

ولسنا هنا بصدد دراسة موسعة مطولة لحركة الفتوح الإسلامية وبالتالي تفصيل أمر المعارك التى دارت رحاها بين جيوش المسلمين وبين أعدائهم ، ولذلك حسبنا أن نقدم صورة واضحة مجملة لحركة الفتوح وتعاقبها وما ترتب عليها من إمتداد الدولة الإسلامية واتساع رقعة الإسلام .

وعلى ضوء ذلك يمكن أن نقسم حركة الفتوح الإسلامية إلى أربع مراحل رئيسية على مدار التاريخ الإسلامى كله ؛ ومن ثم كان لكل مرحلة منها دورها فى امتداد الدولة الإسلامية وإتساع رقعة الإسلام وهذه المراحل الأربع هى :

- ١ - المرحلة الأولى : الفتوحات خلال العصر الراشدى ١١ - ٤٠ هـ / ٦٣٢ - ٦٦٠ م .
- ٢ - المرحلة الثانية : الفتوحات خلال العصر الأموى ٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م .
- ٣ - المرحلة الثالثة : الفتوحات خلال العصر العباسى ١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ م .

- ٤ - المرحلة الرابعة : الفتوحات خلال العصر العثمانى ٦٩٩ - ١٣٤١ هـ / ١٢٩٩ - ١٩٢٢ م .

وفيما يلى نتناول اسهامات كل مرحلة من هذه المراحل وذلك على النحو التالى :

١ - المرحلة الأولى : الفتوحات خلال العصر الراشدى ١١ - ٤٠ هـ / ٦٣٢ - ٦٦٠ م .

تمثل هذه المرحلة قاعدة الإنطلاقة الأولى للفتوحات الإسلامية ، وقد حدد وجهة هذه الإنطلاقة موضع الجزيرة العربية من العالم القديم ومركز الدعوة والدولة الإسلامية من الجزيرة وصلة الجزيرة بالأطراف جغرافياً وبشرىً ، فإن موضع الجزيرة فى قلب العالم القديم وصلتها بالقارات الثلاث كان يمكن أن يعطى هذه الإنطلاقة وجهات مختلفة ؛ غير أن نشأة الدعوة فى القسم الشمالى من الجزيرة وانبعاثها فى مكة وازدهارها وتأسيس الدولة الإسلامية الأولى فى المدينة ، جعل وجهة هذه الإنطلاقة أقرب إلى الشمال الذى حال بينها وبين مسالك البحر وحجب عنها أمواجه وتلقاها بهذه الطرق التجارية التى كانت تمتد إلى الشمال فوصل بينها وبين العراق وبينها وبين الشام ودفعها منهما إلى المشرق من جهة وإلى مصر والمغرب من جهة ثانية^(١١) .

(١١) فيصل ، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، ص ١٧ ، ولزيد من التفاصيل انظر ، حسونة ، محمد أحمد ، أثر العوامل الجغرافية فى الفتوح الإسلامية ، القاهرة ، د ت .

فالشام تشبه العراق من حيث اتصالهما بالجزيرة العربية جغرافيا وبشريا حيث أن أطراف كل منهما مفتوح للصحراء ولا يوجد حاجز أو حد طبيعي يعيق الاتصال بينهما وبين الجزيرة العربية وكانت هذه الجبهة الواسعة المفتوحة مع الجزيرة العربية عاملاً في أن يكون لسكان هذين الإقليمين نفس الأسس العرقية واللغوية والثقافية التي لسكان الجزيرة ؛ غير أن ازدهار الزراعة والصناعة والتجارة في الجهات البعيدة عن أطراف الصحراء أدى إلى نمو المدن وتطور الحياة الحضرية فيها . أما المناطق التي في أطراف الصحراء فقد كانت منذ أقدم العصور تقيم فيها قبائل عربية لها نظم بدوية لا تختلف عن نظم وحياة أهل شبه الجزيرة العربية ، وقد أسرع الكثير من أهل تلك القبائل القاطنة في أطراف هذين الإقليمين إلى الانضمام إلى الجيوش العربية الإسلامية والقتال معهم منذ المراحل الأولى التي لم تتم فيها انتصارات باهرة أو حاسمة بعد ، وكان معظم هؤلاء من النصارى كبنى تغلب وعجل وغيرهم ، وهو الأمر الذي إستند إليه أصحاب نظرية الدافع القومي في تفسير حركة الفتوح الإسلامية المبكرة^(١٢) .

وعلى ذلك نستطيع أن نقسم الفتوح خلال هذه المرحلة إلى أربعة أقسام :

أ - فتوح الشام ومصر والمغرب .

ب - فتوح العراق وفارس .

ج - فتوح الجزيرة واربينية .

د - فتح قبرص .

وفيما يلي نتناول كل منهما على حدة .

أ - فتوح الشام ومصر والمغرب^(١٣) :

كانت انطلاقاً هذه الفتوح من المدينة المنورة في مستهل صفر عام ١٣هـ / ٦٣٤م

(١٢) العلى ، صالح أحمد ، امتداد العرب في صدر الإسلام ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨٣م) ، ص ١٦ - ١٨ ،

٥٧ - ٥٨ ؛ ولزيد من التفاصيل عن اشتراك القبائل في الفتوح ، انظر ، دسوقي ، القبائل العربية في بلاد الشام ، ص ١٢٥ - ١٨١ .

(١٣) بما تجب الإشارة إليه أننا قد أجمالنا أحداث حركة الفتوح الإسلامية ، ولمن أراد أن يتوسع في ذكر التفاصيل فليرجع إلى المصادر التاريخية المختلفة ومنها كتب الفتوح (الازدى (ت ١٧٨هـ / ٧٩٤م) =

حيث عقد الخليفة أبى بكر (رضى الله عنه) أربعة ألوية لأربعة من كبار القادة المسلمين، لكل واحد لواء على جيش ، ووجههم إلى الشام ؛ وهم : أبى عبيدة بن الجراح إلى حمص . ويزيد بن أبى سفيان إلى دمشق وعمرو بن العاص إلى فلسطين وشرحبيل بن حسنه إلى الأردن ، وألحق أبو بكر الوليد بن عقبة بشرحبيل وألحق علقمة بن مجزر بعمر بن العاص والحق معاوية بأخيه يزيد بن أبى سفيان ، ثم أمر أبو بكر خالد بن الوليد بأن يترك العراق ويسير إلى الشام .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن ترتيب وقائع فتوح الشام قد اختلف فيه بين مؤرخي الفتوح مما أثار دهشة واستنكار الطبرى فى تاريخه ، وتنحصر أبرز الاختلافات حول تسلسل الأحداث وتاريخ المعارك مثل أجنادين واليرموك وفحل ومرج الصفر فضلا عن فتح دمشق فإيهما يسبق الآخر ؟ وقد إمتد هذا الاختلاف إلى المؤرخين المحدثين الذين عولوا بطبيعة الحال على المصادر التاريخية كالواقدي والبلاذرى والطبرى وغيرهم .

ومهما يكن من أمر ذلك الاختلاف فإن ما يعنينا فى هذا المقام هو أن نشير إلى أن فتوح الشام قد إستغرقت الفترة ما بين عامى ١٣ - ١٧هـ / ٦٣٤ - ٦٣٨م ، وقد بدأت الاشتباكات الفعلية مع الروم فى وادى عربه (وهو منخفض عظيم جنوبى البحر الميت) وانتصر يزيد بن أبى سفيان فى عام ١٣هـ / ٦٣٤م ثم تم فتح بصرى عندما وصل خالد إليها من العراق ، وبعدها حدثت معركة أجنادين (وهى بلدة بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين) بقيادة أمراء البعوث مجتمعين فى جمادى الآخر ١٣هـ / ٦٣٤م ، وبعد ذلك يحاصر الجيش مدينة فحل ثم يطلب أهلها الأمان ، وبعدها يتقدم المسلمون إلى

= فتوح الشام ، الواقدي (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٣م) فتوح الشام ، وابن أعثم ، (ت نحو ٣١٤هـ / ٩٢٦م) كتاب الفتوح ، وابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ / ٨٧١م) فتوح مصر والمغرب والأندلس ، والبلاذرى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) فتوح البلدان ، وكتب الحوليات : خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م) تاريخ خليفة، وتاريخ الرسل والملوك للطبرى (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) والكامل فى التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) وكتب النقولات المتأخرة ، فضلا عن المراجع الحديثة والدراسات المعاصرة التى عولت كثيراً على المصادر التاريخية ومن بينها ، سالم ، التاريخ السياسى ، ص ٢١٤ - ٢٤٢ ؛ تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، الاسكندرية (١٩٨٢م) ، ص ٥٥ - ٨٨ ؛ فيصل ، حركة الفتح الإسلامى ، ص ٣٢ - ٥٥ ، ١٠٩ - ١٦٠ ؛ شاهين ، الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص ١٠٣ - ١١١ ، ١٩٤ - ٢٣١ ، مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ط ٢ ، القاهرة د.ت. ص ٥٠ - ١٢٧ ؛ معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، ص ٣٤ - ٣٧ ؛ كحيل ، عبادة ، المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب ، ط ٢ ، القاهرة (٢٠٠٠م) ، ص ٢١ - ٢٣ .

مدينة دمشق ويهزمون الروم فى طريقهم إليها فى معركة مرج الصفر (وهو سهل على بعد ٢٠ ميلا جنوبى دمشق) وبعدها تم فتح دمشق بعد حصار دام ستة أشهر أو سبعة وكان ذلك عام ١٤هـ / ٦٣٥م ، وبعد ذلك نشبت معركة اليرموك الفاصلة عام ١٥هـ / ٦٣٦م وبعد تحقيق النصر تتوالى الفتوحات فى الشمال والجنوب على السواء ففى الشمال تم فتح حمص ثم حلب ثم أنطاكية وغيرها من المدن ، وفى الجنوب تم فتح إيليا (بيت المقدس) والرملة فى نفس العام أو العام الذى يليه وهو عام ١٦هـ / ٦٣٧م كما إفتتحت مدن فلسطينية أخرى ؛ فضلا عن فتح سواحل الشام الجنوبية مثل صيدا وجبيل وبيروت وعرقه وكان ذلك عام ١٧هـ / ٦٣٨م أما طرابلس فقد إستعصت فى ذلك الوقت، ولم يتم فتحها إلا فى خلافة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) على يد القائد الصحابى سفيان بن مجيب الأزدي الذى وجهه والى الشام معاوية بن أبى سفيان لفتحها ففتحها عام ٢٥هـ / ٦٤٦م^(١٤). وقبل ذلك - أى فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) - فتح معاوية مدينة قيسارية عام ١٩هـ / ٦٤٠م أو عام ٢٠هـ / ٦٤١م.

أما عن فتح مصر فقد أثرت هذه الفكرة لأول مرة عندما قدم الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) إلى الجابية فى سنة ١٧هـ / ٦٤٨م للإشراف على آخر ما وصلت إليه الفتوح فى الشام ، وسواء كانت هذه الفكرة من وحي الخليفة نفسه ، أو من وحي قائده عمرو بن العاص فإن الواقع الذى لا مرأى فيه يدل على أن هذا الفتح كان ضرورة استراتيجية فى المقام الأول وذلك لحماية خط ظهر المسلمين فى الشام والإفلات من تطويق الروم لهم من جهة الجنوب والغرب ، لا سيما وقد لازت فلولهم إليها ، وعلى ذلك كان فتح مصر تنمة وتكملة لفتوح الشام . أما الدوافع الأخرى لذلك الفتح فتأتى فى المقام الثانى .

وقبل أن نتحدث عن خط سير هذا الفتح وأهم معاركه ينبغى أن نشير ، بادئ ذى بدء ، إلى أن فتح مصر كان من أسهل الفتوح التى حققها العرب فى بلد من البلاد بسبب ترحيب المصريين بهم ومساعدتهم لهم حتى تم تخليص مصر وتحريرها من الحكم البيزنطى البغيض الذى كانوا يكرهونه أشد الكره وهو ما تؤكده المصادر والمراجع قديمها

(١٤) سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، الإسكندرية ، (١٩٦٦م) ، ص ٣١ - ٣٦ ؛ تدمرى ، عمر عبد السلام ، تاريخ طرابلس ، الجزء الأول ، ط ٢ ، بيروت (١٩٨٤م) ، ص ٨٨ - ٩٤ .

وحديثها ، وكان القائد عمرو بن العاص يعرف ذلك حق المعرفة ولذلك جاء إلى مصر على رأس قوة صغيرة نسبيا - أربعة آلاف جندي في البداية ثم تزايد العدد إلى أن وصل إلى اثني عشر ألفا - وقد شارك عمرو شرف هذا الفتح أربعة من كبار الصحابة هم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ومسلمة بن مخلد ، وقد كان العرب المسلمين عند حسن ظن المصريين بهم فأحسنوا معاملتهم واحترموا عقيدتهم المسيحية ووفروا لهم حرية الدين التي افتقدوها في أيام البيزنطيين وأعادوا لهم رأس كنيستهم البطريك بنيامين الذي كان مطارداً ومحكوما عليه بالأعدام من السلطات البيزنطية ، لكن عمرو بن العاص لم يعده إلى كنيستهم معزراً مكرماً فقط ، وإنما جعله أقرب المقربين إليه بل ومستشاره في شئون مصر الإدارية والمالية . أما عن خط سير هذا الفتح وأهم معاركه فيمكن القول أن القائد عمرو بن العاص قد سار بجيشه من قيسارية بفلسطين في عام ١٨هـ / ٦٣٩م مخترقاً صحراء سيناء حتى وصل إلى العريش أواخر ذلك العام فاستولى عليها دون مقاومة لضعف حصونها وعدم وجود حامية رومانية هناك ، ثم وصل إلى مدينة الفرما المنيعة - وهي مفتاح مصر - ففتحها ثم واصل تقدمه حتى مدينة بلبيس ففتحها بعد شهر ، ثم واصل تقدمه حتى وصل إلى قرية أم دنين (ميدان رمسيس وما حوله الآن من حي الأزبكية) وكانت موقعا حصينا وقد تم الاستيلاء عليه بعد أن قتلت حاميته مقتلة عظيمة وأسر من بقى فيه حيا ، وبعد ذلك عسكر الجيش في هليوبوليس (عين شمس) وانتصروا على القوات البيزنطية قرب العباسية الحالية . ولم يبق أمام عمرو إلا أن يخوض معركة فاصلة عند حصن بابليون وهو أهم مركز دفاعي في البلاد نظراً لموقعه على رأس الدلتا وكونه الطريق الموصل إلى العاصمة البيزنطية آنذاك - وهي الاسكندرية - وكان هذا الحصن من المناعة والحصانة بحيث لا يمكن اقتحامه بيسر وسهولة؛ ولذلك ضرب حوله الحصار من الشمال والشرق ، وتم فتح الحصن بعد ما يقرب من سبعة أشهر ، وعقدت معاهدة الصلح والتسليم المعروفة بمعاهدة حصن بابليون في عام ٢٠هـ / ٦٤١م .

وأصبح المسلمون نتيجة هذا الفتح سادة مصر العليا والسفلى ، ولذا تابع عمرو زحفه على الاسكندرية وخاض عدة معارك في الدلتا ، إلى أن تم له فتح الاسكندرية عام ٢١هـ / ٦٤٢م بعد حصار طويل ، وبعد إستكمال بقية الفتوح صارت مصر كلها جزءاً من الدولة الإسلامية الفتية ومركزاً من مراكز الدفاع عن تلك الدولة وسلامتها وتجلت أهمية مصر في أنها أصبحت قاعدة للفتوح في بلاد المغرب وهي الفتوح التي أتمها الخلفاء الأمويين كما سنرى .

وكان من الطبيعي والمنطقي في ذات الوقت أن يفكر عمرو بن العاص في تأمين فتح مصر سواء من الجنوب (النوبة) أو من الغرب ففتح برقة عام ٢٢هـ / ٦٤٣م وطرابلس الغرب عام ٢٣هـ / ٦٤٤م ، وأراد عمراً أن يستكمل فتوحه في الغرب ويسير إلى افريقية (تونس) فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فلم يأذن له .
وعاد عمرو إلى مصر عام ٢٥هـ / ٦٤٥م وكانت هذه هي آخر فتوح ذلك القائد العظيم الذي يعتبر أول أبطال التاريخ الإسلامي لمصر والمغرب^(١٥) .

وكانت الخطوة التالية من فتوح المغرب بعد ذلك بأربع سنوات وتمت في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وعلى يدي واليه على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان ذلك عام ٢٨هـ / ٦٤٩م حيث سار الجيش الإسلامي إلى افريقية واشتبك مع الروم في موقعة سبیطلة الشهيرة وقتل فيها جريجور يوس (جرجير في المصادر العربية) وأسر وقتل الكثير من رجاله وفر الباقون إلى السواحل ، وبدلاً من أن يعقد بن أبي سرح إتفاقاً أو يضم هذه الناحية إلى الدولة الإسلامية فيقيم فيها والياً ويترك حامية كما كانت عادة العرب ، نجده يتفق مع أهل البلاد على جزية ، وعاد إلى مصر في أوائل عام ٢٩هـ / ٦٤٩م^(١٦) .

ولم تستكمل فتوح افريقية والمغرب فالأندلس إلا خلال العصر الأموي كما سنرى .

ب- فتوح العراق والمشرق^(١٧) :

كانت إنطلاقة هذه الفتوح في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق (رضي الله

(١٥) سالم ، التاريخ السياسي ، ص ٢٢٧ - ٢٣٤ ؛ شاهين ، الدولة الإسلامية ، ص ٢١٠ - ٢٣١ ؛ فيصل ، حركة الفتح ، ص ١١٨ - ١٣٣ ؛ مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٥٢ - ٧١ ؛ العدوي ، إبراهيم ، نهر التاريخ الإسلامي ، القاهرة (١٩٨٩م) ، ص ١٦٤ - ١٦٥ . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مصر والإسلام ، القسم الثاني ، القاهرة (٢٠٠٣م) ، ص ٦ - ٧ (مقدمة بحث الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف حول دور المصريين في إنشاء البحرية الإسلامية ، ص ٥ - ٤٦) .

(١٦) سالم ، التاريخ السياسي ، ص ٢٣٨ - ٢٤٢ ؛ شاهين ، الدولة الإسلامية ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ فيصل ، حركة الفتح ، ص ١٥٧ - ١٦٠ ؛ مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٧٧ - ١٠٧ .

(١٧) عن خط سير هذه الفتوح ومراحلها وتفاصيل أحداثها انظر ، سالم ، التاريخ السياسي ، ص ٢٤٣ - ٢٥٨ ؛ شاهين ، الدولة الإسلامية ، ص ٨٨ - ١٠١ ، ١٦٤ - ١٩٣ ، فيصل ، حركة الفتح ، ص ٦٢ - ٨٣ ، ١٩٣ - ٢٠٧ .

عنه) ثم لم تلبث أن استكملت فى عهد الخليفتين الراشدين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان (رضى الله عنهما).

ونستطيع أن نجمل أحداث حركة الفتوح فى العراق والمشرق فى مراحل ثلاث رئيسية وذلك على النحو التالى :

المرحلة الأولى :- كانت إنطلاقتها فى خلافة أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) عقب الفراغ من حروب الردة وفيها تم فتح العراق العربى - أى جنوب العراق - وعن خط سير هذه المرحلة نقول أنها كانت ذات شقين : الأول : وهو أن يسير القائد خالد بن الوليد الذى لم يكد يفرغ من حروب الردة من اليمامة أو من المدينة على اختلاف الروايات لىأتى العراق من أسفله ، على أن يسير القائد عياض بن غنم من المصيص لىأتى العراق من أعلاه - أى من شماله - والشق الثانى : هو أنه كان على خالد قبل أن يمضى فى فتح فارس أن ينظر أين إنتهى بعياض بن غنم سيره .

وعن خط سير الشق الأول يمكن القول أن خالد قد خاض عدة معارك وهى على التوالى : ذات السلاسل (كاظمة) ثم المذار أو الثنى والولجة ثم اليس الصغرى على صلب الفرات ثم أمفيشيا ثم يوم المقر وفم فرات بادقلى ثم الحيرة والأنبار . أما عن الشق الثانى من هذه المرحلة فإن عياض بن غنم قد شجى وأشجى بدومة فكان لا بد لخالد من إغاثته وأن ينتقذه ويعالج أمره بعد أن إستقام له ما بين الفلاليج إلى أسفل السواد وبعد أن وزع العمال والمسالح وخاض خالد عدة معارك فى عين التمر ودومة الجندل والحصيذ والخنافس والمصيص والبشر والرضاب والفراض .

وهكذا تم خلال هذه المرحلة الأولى فى عهد أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) وقيادة خالد بن الوليد فتح العراق العربى وكان ذلك عام ١٢هـ / ٦٣٣م .

وفى الحيرة جاء كتاب الخليفة أبى بكر إلى خالد يأمره بأن يستخلف قائداً آخر ، وأن يسير هو - أى خالد - إلى الشام على النحو المشار إليه سابقا ، واستخلف خالد على العراق المثنى بن حارثة الشيبانى الذى يدين له إستكمال فتح العراق بكثير من الجرأة والقوة والاندفاع .

المرحلة الثانية :

نستطيع القول أن فتح العراق العربى (جنوب العراق) فى المرحلة الأولى كان بمثابة

الجسر الذى عبره المسلمون إلى ما وراءه فى هذه المرحلة الثانية (فتح العراق العجمي) والتي بدأت انطلاقتها مع بداية عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وكانت القيادة خلالها لثلاثة من القواد على التوالي : وهم أبى عبيد الثقفى والمثنى بن حارثة الشيبانى ، ولما استشهد أبى عبيد فى وقعة الجسر اضطلع المثنى بالأمر حتى كانت وفاته بعد وقعة البويب فاضطلع بالأمر سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه) وهو الذى توج هذه المرحلة بانتصاره الخالد فى معركة القادسية الشهيرة .

وعن خط سير حركة الفتح فى هذه المرحلة نقول أنها بدأت بالانتصار فى معركة النمارق ثم توالى الوقائع والمعارك فى كل من : السَّقَاطِيَّة بِكَسْرٍ ووقعة باقسيان ثم وقعة الجسر عام ١٣هـ / ٦٣٤م ، (وتعرف أيضاً بوقعة القرقرس أو قس الناطف أو المروحة) وفيها كان النصر للفرس واستشهد أبى عبيد الثقفى وجرح المثنى وفر من بقى من المسلمين ، فكان لا بد إذن من أن يثار المسلمين ليوم الجسر وتحقيق لهم النصر العظيم فى البُويْب بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى .

واستثمر المسلمون ذلك النصر بانتصارات أخرى فى كل من الخنافس والكبات وغيرها ؛ وبذلك إستقام لهم أمر السواد بين دجلة والفرات ، وانطلقت أيديهم فيه ينالون منه حيث شاءوا .

وتوجت هذه المرحلة بمعركة القادسية عام ١٤هـ / ٦٣٥م ، وهى إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ ، وكان الخليفة عمر (رضى الله عنه) قد ولى قيادة الجيش لسعد بن أبى وقاص ، وقبل وصوله إلى مشارف العراق كان المثنى بن حارثة الشيبانى قد لقي ربه ، ونزل سعد القادسية وأقام بها شهراً لم يأت به أحد من الفرس ، ثم جرت مفاوضات بين الطرفين لم تسفر عن شيء ، ولم يبق إذن سوى المواجهة والتي أسفرت عن هذا الانتصار الرائع الذى بفضل كسرت كل السدود والحواجز من أمامهم ، ومضوا لا يقفون عند حد ، وانساقوا فى قوة وجراءة يحققون النصر تلو النصر حتى تم فتح العديد من مدن المشرق كما سنرى .

المرحلة الثالثة : كانت هذه المرحلة إستثماراً لذلك الانتصار العظيم الذى تحقق فى القادسية عام ١٤هـ / ٦٣٥م التى تمثل بداية النهاية لدولة الأكاسرة الفرس وبمقتضاها تقرر مصير العراق نهائياً وأصبح الطريق ممهداً ومفتوحاً أمام المسلمين إلى المشرق .

وعن خط سير هذه المرحلة يمكن القول أنه قد جرت بعد القادسية أيام ووقائع حتى عام ٢٢هـ / ٦٤٢م فى كل من : بابل وبُهر سِير ثم فتح سعد المدائن أوائل عام ١٦هـ / ٦٣٧م وفرّ منها كسرى يزديجرد الثالث إلى حلوان ثم وقعة جلولا وتحيق النصر أواخر عام ١٦هـ / ٦٣٧م .

وكان الخليفة عمر (رضى الله عنه) قد رفض أن يأذن لسعد فى متابعة الفرس والانسياح فى بلادهم بعد فتح المدائن ، واكتفى بأن يؤمن المسلمون مواقعهم حول المدائن ، ولكن تطور الموقف جعل الخليفة يعدل عن رأيه بعدم الانسياح فى بلاد الفرس ؛ ومن هنا بدأت المواجهات والمعارك تنشب من جديد فكانت معركة نهاوند بقيادة النعمان بن مقرن فى عام ٢١هـ / ٦٤٢م على الأرجح ، وكانت معركة فاصلة أيضاً فقد قررت مصير دولة الأكاسرة نهائياً حيث لم تقم لهم بعدها قائمة ، ولم تجتمع لهم كلمة فهى بالنسبة لهم كانت الضربة القاضية ، أما بالنسبة للمسلمين فقد كانت فتح الفتوح على حد قول المؤرخين .

وبعد هذا الانتصار الباهر أمر الخليفة بالانسياح والتوغل فى أعماق بلاد الفرس فعقد الألوية لعدد من القادة المسلمين ، وقد فتح الله على أيديهم العديد من مدن المشرق صلحا ومنها همدان وخراسان وازريجان واصبهان وباب الأبواب على بحر الخزر (بحر قزوين) واصطخر (برسيبوليس) وفسا ودار ابجرد وسجستان وكرمان ومكران وغير ذلك .

أما كسرى يزديجرد الثالث فقد منيت محاولاته الأخيرة للمقاومة فى خراسان بالفشل وبالتالي إنتهى أمره وقضى عليه فى مرو عام ٣١هـ / ٦٥١م - أى فى خلافة عثمان رضى الله عنه - وعلى ذلك بسط المسلمون سلطانهم على غالبية المقاطعات الفارسية ومدنها دون مقاومة تذكر بل بمعاهدات صلح قامت على الرحمة والتسامح من جانب المسلمين . على أن الشيء اللافت للنظر أن هذا المد الإسلامى الكبير فى المشرق كان يناله جزر وإنحسار نتيجة للكثير من الفتن الداخلية ونقض العهود ، وبالتالي حركات الارتداد والانتقاض مرة أو مرات وهو الأمر الذى كان لا بد من وجود حركة مضادة له لاسترداد ما كان من قبل أو فلنقل إعادة فتح وتثبيت أقدام المسلمين فى مدن المشرق ؛ وعلى ضوء هذه الحقيقة يجب ألا نستغرب عندما تقابلنا فى روايات المؤرخين أن بعض المدن أو الأقاليم فى المشرق التى فتحت فى خلافة عمر (رضى الله عنه) قد

فتحت فى خلافة عثمان (رضى الله عنه) أو بعد ذلك ، فإن المقصود من ذلك هو إعادة فتح هذه المدن أو تلك الأقاليم ، حتى تم تثبيت الفتوحات وانتشر الإسلام بين أهالى المشرق . بقى أن نشير إلى أنه كان لتمصير البصرة عام ١٤هـ / ٦٣٥م والكوفة ١٧هـ / ٦٣٨م أثره الكبير فى حركة الفتوح الإسلامية فى المشرق ؛ فقد كانا بمثابة المنبعان الأصيلان أو المصدران اللذان إنطلقت منهما وتدفقت فتوح المشرق ، ولا ننسى أيضاً أن نضيف منبع أو مصدر ثالث خارج العراق ، وهو البحرين ، كان له دوره فى فتح جنوبى فارس وتطويق العناصر المقاومة فى منطقة الجبال (١٨) .

جـ- فتوح الجزيرة وأرمينية ؛

كانت المنطقة الواقعة شمال العراق وشمال شرقى بلاد الشام تسمى الجزيرة وهنا كان لا بد من تأمين فتوح الشام والعراق ؛ إذ أن الجزيرة هى المنفذ الذى يمكن أن تهدد منه جيوش الروم بلاد الشام والعراق كما أنها متصلة بأرمينية وأذربيجان ؛ ولذلك كان فتح الجزيرة ضرورة استراتيجية وتتممة وتكملة لفتوح الشام والعراق .

وقد إستغرقت فتوح الجزيرة الفترة فيما بين عامى ١٦ - ٢٠هـ / ٦٣٧ - ٦٤٠م ، وكانت الجزيرة « أسهل البلدان أمرا وأيسره فتحا » حيث فتحت غالبية مدنها صلحا وهى نينوى والموصل واربيل والرقعة والرها وحران ونصيبين وسميساط وقرقيسيا وسنجار وميافارقين وجسر منبج وآمد وماردين وأرزن وبدليس وخلاط وعين الوردة ورأس العين.

ويفتح الجزيرة تم الاتصال بين فتوح الشام والعراق ولذلك كان لا بد من تأمين السيطرة عليها ووضع قوات من المقاتلة العرب فى مختلف أرجائها (١٩).

أما أرمينية فقد كان فتحها فى خلافة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) إذ كتب إلى معاوية ابن أبى سفيان عامله على الشام والجزيرة يأمره أن يوجه حبيب بن مسلمة الفهرى إلى أرمينية ، وقد إستطاع حبيب بما وصل إليه من امدادات من الشام والعراق

(١٨) فيصل ، حركة الفتوح ، ص ١٩٣ - ١٠٢ .

(١٩) سالم ، التاريخ السياسى ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ؛ شاهين ، الدولة الإسلامية ، ص ١٨٥ - ١٨٦ ؛ العلى ، امتداد العرب فى صدر الإسلام ، ص ٩٦ .

والجزيرة أن يفتح عدة مدن في أرمنية صالحه أهلها ومنها قاليقالا ودبيل وتفليس والنشوى وجرزان ، وساعده سلمان بن ربيعة الباهلى فى فتح بقية مدن أرمنية .

ويمكن القول أن فتوح الجزيرة وأرمنية قد منحت الدولة الإسلامية الناشئة حدوداً طبيعية مناسبة ؛ فقد أصبحت جبال طوروس وطوروس الداخلية تحدها من الجانب الشمالى الغربى ، فضلاً عن أرمنية ذات الطبيعة الجبلية وموقعها الحاجز من جهة أخرى .

وكان لهذا الوضع الاستراتيجى المتميز أثره الكبير فيما بعد ؛ إذ أصبحت هذه المنطقة نقطة إرتكاز للتوغل داخل أسيا الصغرى (الأناضول) عبر دروب جبال طوروس وطوروس الداخلية^(٢٠).

د. فتح قبرص :

من المعروف أن الخليفة عمر (رضى الله عنه) لم يأذن لمعاوية بن أبى سفيان بركوب البحر لأنه - أى الخليفة - كان قد أخذ على نفسه عهداً ألا يحمل فى البحر أحداً أبداً بعد تلك المحاولات غير الناجحة فى مجال الفتوحات البحرية ، ولذلك قرر معاوية إحياء فكرته ومشروعه بعد أن ولى الخلافة عثمان (رضى الله عنه) وقد عزز موقفه هجوم الروم على الاسكندرية ، فطلب من عثمان (رضى الله عنه) أن يأذن له بفتح قبرص لقربها من شواطئ المسلمين فى الشام وتهديدها الدائم لها ، ورفض الخليفة فى أول الأمر ثم لم يلبث أن وافق بعد الإلحاح المستمر لمعاوية قائلاً له « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فأركبه مأذونا لك وإلا فلا » ففرح معاوية بإذن عثمان له وبدأ فى إنشاء الأسطول ونزل قبرص عام ٢٨هـ / ٦٤٨م أو ٢٩هـ / ٦٤٩م وصالحه أهلها وفرض شروطه عليهم . والى كان من أهمها ألا يكونوا عوناً للبيزنطيين على غزو المسلمين . ولكن القبارصة نقضوا هذا الشرط وأمدوا البيزنطيين وأعانوهم على المسلمين بمراكب أعطوهم إياها فما كان من معاوية إلا أن قرر أن يلقنهم درساً قاسياً وتم له بالفعل فتح الجزيرة عنوة عام ٣٣هـ / ٦٥٣م ، ولم يكتف بذلك بل حشد المقاتلة المسلمين فيها فبنوا بها

(٢٠) سالم التاريخ السياسى ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ ؛ العبد الغنى ، عبد الرحمن ، الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية ٤٠ - ٣٣٩هـ / ٦٦٠ - ٩٥٠م ، حويلات كلية الآداب ، الحولية ١١ ، الرسالة ٧١ ، جامعة الكويت ، مجلس النشر العلمى ، (١٤١٠ - ١٤١١هـ / ١٩٨٩م - ١٩٩٠م) ، ص ١٢ ؛ عثمان ، فتحى ، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، ج ١ ، القاهرة (١٩٦٦م) ، ص ٢٥٨ ؛ وعن مناقشة الروايات المختلفة فى المصادر العربية والأرمنية حول محاولات فتح أرمنية انظر ، العبد الغنى ، عبد الرحمن محمد ، أرمنية وعلاقاتها السياسية بكل من البيزنطيين والمسلمين ، الكويت (١٩٨٩م) ، ص ٤٧ - ٥٥ .

المساجد ، كما نقل إليها جماعة من بعلبك وبنى فيها مدينة^(٢١) .

وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول أن الدولة الإسلامية الناشئة قد إمتدت بفضل حركة الفتوح الأولى خلال عصر الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) فأصبحت تضم - بالإضافة إلى الجزيرة العربية - العراق وأراضى دولة الأكاسرة الفرس فى المشرق والشام والجزيرة ومصر وبعض المغرب (برقة وطرابلس الغرب) فهل وقف المد الإسلامى وانتهى عند ذلك الحد ؟ هذا هو ما سوف نبينه فى المراحل التالية .

٢- المرحلة الثانية : الفتوحات خلال العصر الأموى ٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م :

لا شك فى أن معظم إنجازات الأمويين الباقية على مر الزمان هى تلك الفتوحات الإسلامية التى تمت فى عهدهم ، والتى شملت مناطق عديدة فى قارات العالم القديم - آسيا وأفريقيا وأوروبا - وفى آسيا فتح الأمويون أقاليم ما وراء النهر - وهى المناطق الواقعة بين نهري سيحون وجيحون (أموداريا وسرداريا) - وإقليم السند ؛ بالإضافة إلى تثبيت الفتوح فى المناطق التى كانت قد فتحت فى عهد الخلفاء الراشدين ، وبصفة خاصة فى فارس ؛ فقد كانت خراسان وجرجان وطبرستان وأرمينية وأذربيجان وغيرها كثيرة الارتداد والانتقاض كما سبق القول ، فأبلى الأمويون بلاء حسنا فى تثبيت دعائم الإسلام فى هذه البلاد حتى أصبحت من أهم ركائز العالم الإسلامى .

وفى افريقية فتح الأمويون شمال القارة بأكمله من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى ، وفى أوروبا فتحوا الأندلس وأجزاء من جنوب فرنسا كما استولوا على العديد من الجزر فى شرق وجنوب وغرب البحر المتوسط ، ثم واصلوا ضغوطهم على (القسطنطينية) عاصمة الدولة البيزنطية وحاصروها أكثر من مرة ، وحاولوا الاستيلاء عليها ، وإن كانت محاولاتهم لم تنجح فى اسقاطها إلا أنهم نجحوا فى جعل الدولة البيزنطية تعيش فى حالة دفاع عن النفس وهذا مكسب سياسى وعسكرى ونفسى كبير بالنسبة للمسلمين^(٢٢) .

غير أن ما يعنينا من كل هذا هو تلك الفتوحات التى بفضلها أضيفت مساحات كبيرة إلى رقعة الدولة الإسلامية التى ورثها الأمويون عن الخلفاء الراشدين .

(٢١) عبد اللطيف ، العالم الإسلامى ، ص ٢٤١ - ٢٤٣ ؛ شاهين ، الدولة الإسلامية ، ص ٢٥٣ - ٢٥٦ ؛

تدمرى ، تاريخ طرابلس ، ص ٩٧ - ٩٩ .

(٢٢) عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ٢٤٥ .

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقسم الفتوحات الإسلامية خلال العصر الأموي إلى قسمين وهما :

القسم الأول : فتوح الجناح الغربى .

القسم الثانى : فتوح الجناح الشرقى .

وفيما يلى نتناول كل قسم منهما على حدة :

- القسم الأول : فتوح الجناح الغربى :

يشتمل الجناح الغربى للدولة الإسلامية على البلاد التى دخلها الإسلام (وبقى فيها أو لم يبق) وينقسم هذا الجناح الغربى إلى الدول الآتية :

١- **دول المغرب العربى** : ويقصد بها دول الشمال الافريقى المختلفة الممتدة من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلنطى .

٢- **الأندلس** : ويراد بها الأراضى التى فتحها المسلمون من شبه جزيرة أيبيريا (اسبانيا والبرتغال) وتتبعها الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار .

٣- **الحوضان الأوسط والغربى للبحر المتوسط** : ويدخل فى ذلك كله جزائر البحر المتوسط فى هذين الحوضين مثل صقلية وقوصرة وقرسقه والأراضى الأوروبية القريبة منها مثل جنوب إيطاليا وما قرب منها من الجزر مثل مالطة وسرد ينيا .

٤ - دول غرب أفريقيا : ويقصد بها البلاد الواقعة فى افريقيا المدارية والاستوائية وتعرف أيضاً ببلاد السودان الغربى وهى تشغل جغرافيا المنطقة الممتدة من المحيط الأطلنطى غربا إلى بحيرة تشاد شرقا ، والتى اصطلح الأوروبيون فى العصور الوسطى على نعتها باسم بلاد نيجرتيا Nigritia نسبة إلى نهر النيجر^(٢٣) .

غير أن ما يعنينا من ذلك هو تلك المناطق التى فتحت خلال العصر الأموى مثل المغرب والأندلس وهو ما سنبينه فيما يلى :

١- فتوح المغرب :

من المعروف أن حركة الفتوح الإسلامية قد توقفت بسبب فتنة الخليفة عثمان (رضى الله عنه) ٣٥هـ / ٦٥٥م ثم الحرب بين الخليفة الراشدى الرابع على بن أبى طالب (رضى

(٢٣) مؤنس ، معالم ، ص ٢٣ ؛ طرخان ، إبراهيم ، امبراطورية البرنو الإسلامية ، القاهرة (١٩٧٥م) ، ص ١٧ .

الله عنه) ٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٥ - ٦٦٠ م وبين معاوية بن أبي سفيان والى الشام وقتئذ ؛ ولم يتجدد نشاط الفتوح مرة أخرى إلا بعد أن إستقر الأمر لمعاوية عام ٤١ هـ / ٦٦١ م ، وهو عام الجماعة الأول ، الذى تأسست فيه الخلافة الأموية كما هو معروف .

وعن إستئناف حركة الفتوح فى المغرب يمكن القول أن فتوح المغرب ومن بعدها الأندلس قد إرتبطت بالولاة الأمويين بدءاً بمعاوية بن حديج السكونى وانتهاءً بموسى بن نصير أى أن هذا الفتح قد استغرق ما يقرب من نصف قرن من عمر الدولة الأموية . ويمكن أن نجمل أحداث هذه الفتوح فيما يلى (٢٤) :

١- **غزوة معاوية بن حديج السكونى عام ٤٥ هـ / ٦٦٥ م** وقد أسفرت عن فتح سوسه وجلولاء كما أنه غزا بنزرت وغنم منها مغانم كثيرة ورجع قافلاً إلى قمونيه أو قونيه وبنى بناحية القرن مساكن وسماها قيروانا .

وتعتبر هذه الغزوة من الغزوات التمهيدية التى قام بها العرب فى المغرب - أى أنها كانت إستمراراً لما قام به كل من عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبى سرح - قبل أن يتخذوا قراراً نهائياً بفتح هذه البلاد فتحاً دائماً ثابتاً وهذا هو ما حدث فى عهود الولاة اللاحقين كما سنرى .

٢- **غزوة عقبة بن نافع الأولى وتأسيس مدينة القيروان ٥٠ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٤ م.**

كان عقبة بن نافع يعتبر أكثر العرب معرفة بأفريقية (تونس) وشثونها فى ذلك الوقت لخبرته الواسعة وطول اقامته فى برقة وزويله وما حولها منذ فتحها أيام عمرو بن العاص ، ولذلك جاء إسناد أمر القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة على طريق فتح المغرب كله ، وقد أدرك بشاقب فكره وبعد نظره أنه لكى يستقر الأمر للمسلمين فى أفريقية ويكف أهلها عن الارتداد ، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة ينطلقون منها فى غزواتهم وفتوحاتهم ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم .

(٢٤) عن خط سير هذه الفتوح ومراحلها وتفاصيل أحداثها انظر ، سالم ، التاريخ السياسى ، ص ٣٧٣ - ٣٨٢ ؛ تاريخ المغرب ، ص ٨٨ - ١٧٢ ؛ فيصل ، حركة الفتح الإسلامى ، ص ١٦٠ - ١٧٩ ؛ مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١١٥ - ٢٢٦ ؛ معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٧ - ٦٤ ؛ عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ٢٧٢ - ٣٠٣ .

ومن هنا فإن تأسيس مدينة القيروان ٥٠ - ٥٥هـ / ٦٧٠ - ٦٧٤م كان أعظم انجازات هذه المرحلة ؛ وما ترتب على ذلك من آثار إيجابية ومن أهمها توجيه حركة الفتوح وتثبيتها في افريقية ، ثم مواصلة الفتح حتى تم فتح المغرب كله فالأندلس فضلا عن دورها العظيم في نشر الإسلام في الغرب الإسلامي ، ولا غرو في ذلك فقد أصبحت القيروان مركزاً من أهم مراكز الحضارة الإسلامية .

وفي أثناء بناء المدينة التي إستغرق خمس سنوات كان عقبة يغزو ويرسل السرايا ويدعو الناس إلى الإسلام وبذلك دخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها على حد قول ابن الأثير .

٣- ولاية أبي المهاجر دينار ٥٥-٦٢هـ / ٦٧٤ - ٦٨٢م ؛

بينما كان عقبة يواصل فتوحاته وينظم مدينته الجديدة إذا بوالى مصر مسلمة بن مخلد يعزله ويولى مكانه مولاة ابا المهاجر دينار عام ٥٥هـ / ٦٧٤م . ومهما يكن من أمر فإنه من الانصاف القول بأن أبي المهاجر دينار قد قام بدور كبير في فتح المغرب وتمهيده لقبول الإسلام دينا ونظام حياة ، وقامت سياسته الحكيمة على كسب قلوب البربر من جهة وأن يعزلهم عن الروم من جهة ثانية .

أما عن فتوحاته فقد سار إلى قرطاجنة ونازلهم وشدد الحصار عليها فطلب الروم الصلح فصالحهم في مقابل إخلاء جزيرة شريك (شرق قرطاجنة العاصمة) لتتزل فيها جنوده وتكون للمسلمين وبذلك يستطيع أن يراقب الروم وتحركاتهم .

ثم اتجه بعد ذلك مسائرا الساحل ناحية الغرب ففتح مدينة ميله (وهي على بعد ٥٠ ميلا من بجاية في جنوبها الشرقي) وجعلها مقره وأقام بها نحو من سنتين نجح خلالها في اجتذاب البربر ودخول الكثير منهم الإسلام ، وبذلك سكنت تلك النواحي سكون البحر بعد العاصفة ، ثم سار أبو المهاجر بعد ذلك لفتح المغرب الأوسط فانتصر على جيش كسيله من البربر والروم في معركة تلمسان ، وأسر كسيلا فأحسن إليه أبو المهاجر وقربه وعامله معاملة الملوك وطمع في إسلامه وأدرك أنه لو أسلم كسيلا فسيكون ذلك سببا في إسلام قومه وقد تحقق له ما أراد فأسلم كسيله وأقبل البربر على الإسلام .

٤. ولاية عقبة الثانية ٦٢-٦٣هـ / ٦٨٢-٦٨٣م :

عاد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية ثانية عام ٦٢هـ / ٦٨٢م ، بأمر الخليفة يزيد بن معاوية (يزيد الأول) (٦٠ - ٦٤هـ / ٦٨٠ - ٦٨٤م) وقد إستأنف عقبة نشاطه فى الفتوح والجهاد فأخذ يتنقل من موضع إلى موضع بسرعة لم تمكنه من تثبيت أقدامه فى الموضع الذى سيتركه خلفه حتى وصل إلى المحيط الأطلسى ، وعن خط سير هذه الفتوح الطويلة والسريعة ، يمكن القول أنها شملت مدينتى باغايه وقرطاجنه وما والاها ومدينة المنستير والزاب ووادى المسيلة وتاهرت وطنجة حتى بلغ السوس الأقصى ، واستطاع أن يهزم كل من يتجمع له من الروم والبربر ، وعندما وصل إلى المحيط الأطلسى أوطأ فرسه مياحه وقال قولته المشهورة « اللهم اشهد أنى بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك » .

وانتهت هذه المرحلة باستشهاد عقبة عند تهوده فى أواخر عام ٦٣هـ / ٦٨٣م ، وبذلك تحقق لكسيلة، بعد أن تمكن من اغتيال عقبة ، من أن يكون أميراً على كل إفريقية حيث أمن كسيلة من بقى بالقيروان من المسلمين ، وأقام بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب وعلى من فيه من المسلمين ، إلى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م) فهل هذا يعنى ضياع كل الجهود التى بذلها المسلمون فى فتح هذه البلاد منذ فتوحات عمرو بن العاص الأولى وحتى فتوحات عقبة بن نافع الثانية ؟ هذا هو ما سنبينه فى المراحل التالية .

٥. ولاية زهير بن قيس البلوى :

ولى عبد الملك بن مروان الخلافة عام ٦٥هـ / ٦٨٤م ، فلما إشتد سلطانه واجتمع أكابر المسلمين عليه سألوه تخليص إفريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيلة ويعد تشاور فى الأمر إجتمع رأى على زهير بن قيس البلوى صاحب عقبة وأعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه ، فوجه عبد الملك إلى زهير وهو ببرقه يأمره بالخروج لأفريقية واسترداد القيروان وأمدّه بالخيال والرجال والأموال وكان ذلك عام ٦٩هـ / ٦٨٨م ، وتم لزهير بالفعل تحقيق النصر على كسيلة ومن معه وقتله فى معركة محس ومن ثم استطاع زهير أن يخلص القيروان وأن يسترد للمسلمين هيبتهم فى إفريقية .

وانتهت هذه مرحلة باستشهاد زهير بن قيس فى برقة ، وكان ذلك فيما بين ٧٠ - ٧١هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠م على الأرجح .

٦- ولاية حسان بن النعمان الغساني ٧٤-٨٥هـ / ٦٩٣-٧٠٤م :

سار حسان بن النعمان بجيش كبير لم يدخل افريقية قط جيش مثله فى عام ٧٤هـ / ٦٩٣م على الأرجح - وذلك عقب القضاء على ثورة ابن الزبير عام ٧٣هـ / ٦٩٢م - وعندما وصل إلى طرابلس الغرب اجتمع إليه بها من كان خرج من افريقية فقاد جيشه وفتح كثيراً من البلاد ، وأصاب غنائم كثيرة ، ثم توجه بعد ذلك إلى قرطاجنة ففتحها عنوة ثم استولى على صطفورة وبنزرت وقابس ونقزاوة وقسطيلية وقفصه ويونه وباجه وترك عماله فى تلك النواحي وعاد إلى القيروان ليستريح جنوده .

وبعد أن استراح حسان وجنده كانت المواجهة مع الكاهنة (وهى امرأة بربرية من قبيلة جراوة البثرية) وللأسف لقي حسان هزيمة فادحة فى معركة وادى مسكيانه بالقرب من قصر نينى ، وليس أدل على جسامته الهزيمة من أن حسان قد انسحب هو وجيشه من افريقية كلها وعاد إلى برقة ، فلما علم الخليفة عبد الملك أمره بالمقام فيها إلى أن يأتيه أمره فأقام بعمل برقه خمس سنين . فلما حانت الفرصة المناسبة أرسل عبد الملك الجنود والأموال إلى حسان ليثأر لهزيمته من الكاهنة ، واستطاع حسان أن يسترد قابس وقفصه وقسطيلية ونقزاوة فى سهولة ؛ ثم لم يلبث أن دارت المعركة الفاصلة بينهما عند مكان يسمى بئر الكاهنة فدارت الدائرة عليها ، وهزم جيشها هزيمة منكرة ولقيت هى حتفها فى المعركة .

وهكذا كان النصر على الكاهنة حاسماً فى تاريخ المغرب كله ؛ حيث توالى الانتصارات ، وتحققت لأول مرة فى تاريخ المغرب أولى فترات الاستقرار المتصلة فلم يغادر المسلمون هذه الأرض بعد تلك المعركة ؛ وإنما انطلقوا منها لاختضاع ما تبقى من المغرب كما سنرى ، كذلك فشا الإسلام وانتشر بين البربر ، وعاد حسان إلى القيروان ، وأقام بها لا ينازعه أحد ، ومن ثم شرع فى تنظيم البلاد وتدوين الدواوين وإنشاء المدن فأسس مدينة تونس وأنشأ داراً لصناعة السفن بها ، ورغم ذلك فقد عزله والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤-٧٠٥م) وولى مكانه موسى بن نصير الذى أخذ على عاتقه مهمة إستكمال فتوح المغرب وما ترتب عليها من فتوح الأندلس .

٧- ولاية موسى بن نصير ٨٥-٩٦هـ / ٧٠٤-٧١٤م :

قدم موسى بن نصير واليا على المغرب فى أواخر عام ٨٥هـ / ٧٠٤م ، وقد إستهل

فتوحه وغزواته بالاستيلاء على قلعة زغوان وصنهاجة وسجومه فى المغرب الأوسط ثم السوس الأقصى وواصل بعد ذلك غزواته وفتوحاته ، وتوج ذلك بالاستيلاء على طنجة وولى عليها مولاه طارق بن زياد ، وهكذا فقد أخضع موسى بن نصير ورجاله المغرب كله عام ٩٠ هـ / ٧٠٨ م ولم تستعص عليه إلا مدينة سبتة الساحلية لمناعتها ولأن الإمدادات كانت تأتيها من البحر .

كذلك قام موسى بعدة غزوات بحرية على الجزر الواقعة فى البحر المتوسط قبالة الشواطئ الإفريقية ومنها صقلية وسرقوسة وسردانية ، ومن الواضح أن الهدف من هذه الغزوات البحرية كان يتمثل فى منع اغارات الروم واغارات حلفائهم القوط على السواحل الإسلامية ، كما أنه من المحتمل جداً أن تكون هذه الغزوات البحرية التى قام بها موسى لتمهيد الطريق لفتح الأندلس .

٢- فتح الأندلس^(٢٥) والتوسع فيما وراء البرتات^(٢٦) :

إنتهى بنا القول إلى فتح المسلمين للمغرب كله ، وبذلك أصبحت لهم السيادة على الشاطئ الجنوبى للبحر المتوسط قبالة الأندلس ، عدا مدينة سبتة الساحلية التى ربما كان عدم الاستيلاء عليها مقصوداً ، وباتفاق مع حاكمها القوطى يوليان ، الذى كان له دور

(٢٥) عن دوافع هذا الفتح وخط سيره ومراحله وتفاصيل أحداثه انظر ، عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ٣٠٨ - ٣٢٣ ؛ سسالم ، التاريخ السياسى ، ص ٣٨٣ - ٣٨٥ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، الاسكندرية (١٩٦١م) ، ص ٦٦ - ١١٥ ؛ مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٦٨ - ٢٧٥ ؛ كحيل ، المغرب فى تاريخ الأندلس والمغرب ، ص ١٥٩ - ١٦٥ ؛ الحجى ، عبد الرحمن على ، التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، دمشق - بيروت ، دار القلم (١٩٧٦م) ، ص ٤٣ - ٩٤ ؛ فروخ ، عمر ، العرب والإسلام فى الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨١م) ، ص ٨١ - ١٠١ .

(٢٦) البرتات ومفرداتها برت كلمة لاتينية تعنى ممر أو ميناء وهى ذات صلة بالكلمة اللاتينية Porte وتعنى باب أو مدخل واستعمل الكتاب الأندلسيون تسمية الجبل الفرنجية كما سمعوها فقال جبال البرت أو جبال البرتات وأحياناً بتعريب التسمية (الأبواب) وتوجد فى هذه الجبال أربعة ممرات أو خمسة ، وهناك من يرى أن هذه الجبال كانت الحاجز الطبيعى بين فرنسا واسبانيا وتوجد الممرات فى أطرافها الغربية والشرقية . انظر ، الحجى ، التاريخ الأندلسى ، ص ٩٦ - ٩٨ ؛ المزروع ، وفاء ، جهاد المسلمين خلف جبال البرتات ، القاهرة (٢٠٠٣م) ، ص ٣٩ - ٤١ .

لا ينكر فى فتح الأندلس ومساعدة المسلمين على نجاح مشروعهم لفتحهم .

ومهما يكن من أمر الدوافع التى حدثت بالمسلمين لفتح الأندلس ، فإن ما يعيننا فى هذا المقام هو أن نتتبع مراحل هذا الفتح وخط سيره حتى أصبح ذلك الفتح حقيقة واقعة تم بفضلها إمتداد دولة الإسلام وإتساع رقعتها فى الجنوب الغربى من القارة الأوروبية .

ويمكن القول أن الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٥م) عندما عرضت عليه فكرة هذا الفتح قد تردد فى بادئ الأمر ، خوفاً على المسلمين من المخاطرة فى مفاوز أو إيقاعهم فى مهالك ، ولكنه بعد أن إقتنع بالأمر كتب إلى واليه موسى بن نصير بأن يخوضها بالسرايا (الحمالات الاستطلاعية) حتى يختبرها كما أمره بالآ يغمر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال .

وبالفعل أرسل موسى بن نصير فى عام ٩١هـ / ٧١٠م سرية استكشافية بقيادة طريف بن مالك الملقب بأبى زرعة وجاز طريف ومن معه الزقاق (المضيق) من سبته ونزل قرب أو فى جزيرة بالوما (وعرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد أى جزيرة طريف) ومن هذا الموضع شن طريف ورجاله سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبى للأندلس المقابل لساحل سبته فيما بين طريف والجزيرة الخضراء ، وقد عادت هذه السرية بالغنائم الكثيرة والأخبار المطمئنة والمشجعة على مواصلة الفتح .

وعلى الفور اتخذ موسى بن نصير قراره فى تنفيذ مشروع فتح الأندلس ، ونستطيع أن نجمل أحداث هذا الفتح فى أربع مراحل رئيسية وهى :

المرحلة الأولى : وتمتد فيما بين ٥ رجب ٩٢هـ / ٧١١م وذى القعدة ٩٤هـ / ٧١٣م وكانت القيادة فيها لطارق بن زياد .

المرحلة الثانية : وتمتد فيما بين رمضان ٩٣هـ / ٧١٢م وذى القعدة ٩٤هـ / ٧١٣م وكانت القيادة فيها لموسى بن نصير .

المرحلة الثالثة : وتشغل عام ٩٥هـ / ٧١٤م وكانت القيادة فيها لموسى وطارق مجتمعين أو منفردين .

المرحلة الرابعة : عصر الولاة واستكمال فتح الأندلس والجهاد والتوسع فيما وراء البرتات : ٩٥ - ١٣٨هـ / ٧١٥ - ٧٥٥م .

وعن خط سير المرحلة الأولى يمكن القول أن موسى بن نصير قد عقد لواء القيادة لمولاه طارق بن زياد (وهو من مسلمى البربر من قبيلة نفزه وهى من البتر) وعبر طارق ورجاله المضيق فى ٥ رجب ٩٢هـ / ٧١١م وتجمعوا فى الطرف الأندلسى على جبل كالبى (جبل طارق فيما بعد) وقد تم إحكام السيطرة على الجبل والمنطقة المحيطة به ومن ثم صارت قاعدة لانطلاقهم ، وهكذا سار الجيش منحدرًا إلى جنوب اسبانيا فى الجزيرة الخضراء ، وتم لهم النصر وفتحت الجزيرة واستولوا عليها وعلى البحيرة ، وعندما علم طارق أن لذريق قد زحف إليه كتب إلى موسى يستنجد به فأرسل إليه جيشا قرابة خمسة آلاف بقيادة طريف بن مالك وبذلك كملت عدة الجيش الإسلامى اثنى عشر ألفًا جلهم من المسلمين البربر .

وتم اللقاء بين المسلمين والقوط فى معركة وادى برباط أو وادى بكه أو لكه فى رمضان ٩٢هـ / ٧١١م وانتصر المسلمون ، ولازت فلول الجيش القوطى بالفرار ، حتى تجمع عند مدينة استجه فزحف طارق إليه فاتحًا فى طريقه بعض المدن ، ومنها شذونه ومورور وقرمونه ثم تقدم إلى اشبيلية وفتحها صلحًا ثم اتجه بعدها إلى استجه وفتحها بعد معركة حامية ؛ ومن استجه سارت الجيوش إلى عدة جهات لفتحها ففتحت قرطبة ومالقة وغرناطة قاعدة كورة البيرة واوريوله قاعدة كورة تدمير ، أما طارق نفسه فقد سار إلى مدينة طليطلة عاصمة القوط مارًا بمدينة جيان وفتح طليطلة وبعدها سار شمالًا إلى منطقة وادى الحجارة حتى وصل مدينة المائدة أو بعدها ثم عاد إلى طليطلة قبل حلول الشتاء وكان ذلك فى أوائل عام ٩٣هـ / أواخر ٧١١م أو خلالها .

أما عن المرحلة الثانية فقد جهز موسى بن نصير جيشًا قوامه ثمانية عشر ألفًا وعبر المضيق إلى الأندلس فى رمضان ٩٣هـ / ٧١٢م ويقال أنه جاز الزقاق من سبته إلى جبل طارق فى قول أو من طنجه إلى الجزيرة الخضراء فى قول آخر ، والرأى الأول هو الأرجح لأن المسافة بين ضفتى المضيق من هذه المنطقة أقصر مما هى عليه بين طنجة والجزيرة الخضراء .

وعن خط سير هذه المرحلة يمكن القول أن جيش موسى بعد أن تجمع بالجزيرة الخضراء سار نحو شذونه فكانت أول فتوحاته ثم فتح قرمونة ثم فتح اشبيلية ثم فتح لفنت ثم فتح ماردة ، ومن ماردة أرسل ابنه عبد العزيز ففتح عدة نواحى ومنها لبله وباجه والبيره ومالقه وقرطاجنه واوريوله قاعدة كورة تدمير ، وقد فتحت صلحًا ، كما أعاد فتح اشبيلية .

وفى بداية ذى القعدة عام ٩٤هـ / ٧١٣م سار موسى صوب طليطلة والتقى بطارق خارج طليطلة التى تبعد ١٥٠ كم غرب طليطلة على الأرجح ، وقد سار الاثنان ودخلا طليطلة ، وأقاما بالجيش الإسلامى فى المدينة فصل الشتاء - أوجله - وخلال تلك المدة تم ترتيب أحوال المدينة وتنظيم شؤونها وضربت العملة ، وأرسل موسى إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يبشره بالفتح العظيم .

أما عن المرحلة الثالثة فتبدأ بعد انتهاء الشتاء وحلول الربيع - أى أوائل عام ٩٥هـ / ٧١٤م - وفيها غادر الجيش الإسلامى طليطلة لفتح شمال شبه الجزيرة الايبيرية ويمكن أن نحدد خط سير هذه المرحلة على النحو التالى :

أ- موسى (سوية مع طارق) :

طليطلة ، سرقسطة (فتحت معاقل وحصون حولها) . انفراد موسى بجيشه متجها صوب شرقى وشمالى الأندلس : وشقة ، لاردة ، طركونة ، برشلونة ، ربما جيسرونه وغيرها [جرى جهاد وراء البرتات - قاده بنفسه أو بالسرايا - عبر ممر بارينيان ، فى منطقة سبتمانیه ووادی رودنه (نهر الرون) ، قرقشونه ، أربونه ، أبنيون ، لودون (ليون)] . اتجه نحو الشمال الغربى فى منطقة البشكنس (يسار ابره) بموازاة خط سير حملة طارق : بنبلونه ، البه والقلاع (قشتاله) ، منطقة جليقية : أشرقه (التقى مع طارق ثم إفترقا) دخل مفازتها : حصن بارو ، لك (حصن ومدينة) ، أشتوريس : الصخرة [خيخون ، بنفسه أو بالسرايا ، ربما قام طارق بكلها أو بعضها] كان التحرك نحو الشام من : مدينة لك ، فج موسى (التحق به طارق قادما من الشجر الأعلى) ، طليطلة ، قرطبة ، اشبيلية ، الجزيرة الخضراء (جازوا الزقاق) ، سبتة (نحو الشمال الأفريقي ، مارين بالقيروان ثم فسطاط مصر ومنها إلى دمشق مركز الخلافة) (٢٧) .

ب- طارق (سوية مع موسى) :

طليطلة ، سرقسطة (ينفراد بجيشه متجها نحو الغرب والشمال الغربى بمحاذاة يمين ابره) ، منطقة البشكنس (مجاورين جبال قنتبرية) ، منطقة جليقية : أماية ، أشرقه

(٢٧) الحجى ، التاريخ الأندلسى ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(التقى به موسى ، ربما ليس لأول مرة بعد سرقسطة) ليون (وربما غيرها ، مباشرة أو بالسرايا فى منطقة الشجر الأعلى) ، يتجه نحو موسى ملتحقا به - بناءً على أوامره - للتوجه نحو الشام ، من مكان ما فى الشجر الأعلى ، فج موسى ، طليطلة ، قرطبة ، اشبيلية ، الجزيرة الخضراء (جازوا الزقاق) ، سبته ، بصحبة موسى إلى دمشق (وكان ذلك فى ذى القعدة ٩٥هـ / ٧١٤م) (٢٨).

وعلى ضوء ما تقدم يكون فتح الأندلس قد إستغرق حتى الآن (أى حتى عودة موسى وطارق إلى دمشق) ثلاث سنوات ونصف (غير سرية طريف) بالنسبة لطارق بن زياد أما مدة جهاد وفتوحات موسى فى الأندلس فتقدر بسنتين وأربعة أشهر .

أما عن المرحلة الرابعة والأخيرة فهى تشمل عصر الولاة ٩٥ - ١٣٨هـ / ٧١٤ - ٧٥٥م وما شهدته ذلك العصر من استكمال فتح الأندلس ثم الجهاد والتوسع فيما وراء البرتات . ويبدأ هذا العصر بولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير لذى إستخلفه أباه على إمارة الأندلس وأقره بمدينة أشبيلية فى ذى القعدة ٩٥هـ / ٧١٤م وحتى وفاته فى رجب ٩٧هـ / ٧١٦م .

وقد أخذ عبد العزيز على عاتقه عبء استكمال فتح الأندلس فى شرقها وغربها فضلا عن تثبيت دعائم السيادة الإسلامية فى شبه الجزيرة الإيبيرية ، وتنظيم البلاد وإدارة شئونها وقد وصفه المؤرخون بأنه ضبط الأمور وسد الثغور وافتتح مدائن كثيرة وكان من خيرة الولاة - أى أنه كان خير خلف لخير سلف - وعلى ذلك فهو يعتبر ثالث فاتحى الأندلس . وهكذا تم فتح الأندلس وغدت رباط جهاد وموئل حضارة ومنبت إنسانية كريمة سقت أرضها وأفاضت على من حولها برغبة ودية وحرص حنون .

وعلى سبيل الإجمال فإن ذلك الفتح كان بداية لحدث حضارى فريد لاسبانيا وأوروبا على السواء كما سنرى .

هذا ولم يتوقف المد الإسلامى عند ذلك الحد ؛ بل إندفعت قوته حتى بلغت فيما وراء البرتات - خلال عهد الولاة الذين جاءوا بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير - مبلغا عظيما ، ومن هؤلاء السامح بن مالك الخولانى (١٠٠ - ١٠٢هـ / ٧١٨ - ٧٢٠م) الذى

(٢٨) الحجى ، التاريخ الأندلسى ، ص ١٢٠ .

بذل نشاطا واسعا فى جنوبى فرنسا ، وأنفق جهوداً كبيرة فى غاله حتى طرسكونه وطلوشه عاصمة أقيطانية (Aquitania) وقامت ولاية إسلامية فى مقاطعة سبتمانيه (Septimania) جنوب شرق فرنسا (وهى تعنى المقاطعة ذات المدن السبع ومنها أربونه وقرقشونه) وقد إتخذ السصح من مدينة أربونه عاصمة لها وهو الأمر الذى يشير إلى أن المسلمين قد افتتحوا كل ما بين أربونه إلى الجنوب متصلاً بالبرتات والأندلس على طول الشاطئ الشرقى ، وغدت منطقة إسلامية وصارت عاصمتها أربونه قاعدة الإنطلاق والجهاد فيما وراء البرتات .

ولما ولى عنبسه بن سحيم الكلبي (١٠٣ - ١٠٧ هـ / ٧٢١ - ٧٢٥ م) قام بنشاط كبير فيما وراء البرتات ، واستمر فى تقدمه نحو الشمال والشمال الشرقى فى فرنسا وكان أبعد ما وصل إليه عند مدينة سانس (Sens) .

وفى ولاية الهيثم بن عبيد الكنانى (أو بن عدى الكلابى) ١١١ هـ / ٧٢٩ م فتحت منوسه فى قوله ، ومقوشة فى قول آخر ، والراجح أنه يقصد بها مدينة ماسون (Maçon) الفرنسية الواقعة شمال مدينة لودون (ليون) على وادى رودنه (نهر الرون) .

أما أضخم حملة إسلامية فيما وراء البرتات خلال عصر الولاة الأندلسيين فقد كانت فى أيام الوالى المجاهد عبد الرحمن الغافقى (١١٢ - ١١٤ هـ / ٧٣٠ - ٧٣٢ م) وجرت أحداثها فى رمضان ١١٤ هـ / ٧٣٢ م وإنتهت بانكسار الجيش الإسلامى وانسحابه من ميدانها ، واستشهاد الغافقى نفسه ، وتعرف هذه المعركة باسم « وقعة البلاط » أو « غزوة البلاط » ، كما عرف موضعها باسم « بلاط الشهداء » فى المصادر العربية ، أما فى المصادر الأوروبية فتعرف باسم بواتيه أو تور أو تور بواتيه ، وقد عثر فى السبعينات من القرن العشرين المنصرم على بعض السيوف الإسلامية فى إحدى القرى الواقعة بين مدينتى تورو بواتيه وهى قرية (Fossé - le - Roi) فلعل موضع هذه القرية يقع ضمن ميدان المعركة .

هذا وقد بقيت للمسلمين مواقع فى جنوبى فرنسا ، كما أمكنهم العودة إلى عدد من هذه المناطق فى العام التالى أى ١١٥ هـ / ٧٣٣ م ومنها منطقة البروفانس فاستعادوا مدينة آرل وأبنيون ، مما يعنى أن النشاط الجهادى لم يتوقف عقب معركة بلاط الشهداء .

ولما ولى عقبة بن الحجاج السلولى ١١٦ هـ / ٧٣٤ م جدد نشاط الفتح والجهاد فجال فى مناطق متعددة ولا سيما المقاطعات الفرنسية فى الجنوب والشمال الشرقى وهى :

مقاطعة سبتمانية وعاصمتها أربونه وقرقشونه واحدة من مدنها ، وتقع هذه المقاطعة جنوبى فرنسا وشرقيها على شاطئ البحر المتوسط بمصاوبة جبال البرتات ، ومقاطعة البروفانس شمال سبتمانية إلى الشرق وعاصمتها إبنيون على وادى رودنه (نهر الرون) ومقاطعة برغنديا شمال مقاطعة البروفانس ، ولم يلبث أن إستشهد عقبة فى معركة عند مدينة قرقشونه إحدى مدن مقاطعة سبتمانية فى صفر ١٢٣هـ / ٧٤٠م .

وعلى ذلك يكون عقبة بن الحجاج هو خاتمة الولاة الأندلسيين الذين أخذوا على عاتقهم عبء الفتح والجهاد فيما وراء البرتات ، فإن الظروف الداخلية بالأندلس بعد ذلك ، والظروف الخارجية التى كانت تمر بها الخلافة الأموية فى الشرق كانت وراء توقف حركة الفتوح والجهاد فيما وراء البرتات (٢٩) .

القسم الثانى : فتوح الجناح الشرقى :

يشتمل الجناح الشرقى للدولة الإسلامية على البلاد التى دخلها الإسلام (وبقى فيها أو لم يبق) وينقسم هذا الجناح إلى الدول الآتية :

- ١ - إيران .
- ٢ - دول أسيا الوسطى .
- ٣ - دول أسيا الصغرى .
- ٤ - دول شبه القارة الهندية .

غير أن ما يعنينا من ذلك هى تلك الأقاليم والمناطق التى فتحت خلال العصر الأموى وهى بلاد ما وراء النهر وبلاد السند وهو ما سنبينه فيما يلى :

١ - فتوح بلاد ما وراء النهر فى أسيا الوسطى (٣٠) :

قدر لايران بعد فتحها أن تكون الجسر الذى عبره العرب إلى بلاد ما وراء النهر والطريق الذى سلكه الإسلام فى سبيله إلى الإنتشار فى أسيا الوسطى .

(٢٩) الحجبى ، التاريخ الأندلسى ، ص ١٧٢ - ٢٠٦ : المزروع ، جهاد المسلمين ، ص ٤١ - ١٦٣ : سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ١٣٤ - ١٥٢ ، فروخ ، العرب ، ص ١١٠ - ١٣٧ .

(٣٠) عن خط هذه الفتوح ومراحلها وتفاصيل أحداثها انظر ، سالم ، التاريخ السياسى ، ص ٣٦١ - ٣٦٦ : فيصل ، حركة الفتح ، ص ٢٠٨ - ٢١٩ ؛ عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ٣٣٢ =

وقد بدأ الاحتكاك الأول بين المسلمين وبين الأتراك فى بلاد ما وراء النهر بعد أن فرغ العرب من فتح إيران ٣١هـ / ٦٥١م ، وفى هذه السنة توطد النفوذ العربى فى خراسان وورثت الدولة الإسلامية الناشئة من دولة الأكاسرة الفرس هذا الخطر التركى ، حيث بدأ مع عبور النهر مرحلة جديدة من مراحل الفتح ؛ ومن هنا كان لا بد من المواجهة الحتمية والاحتكاك المباشر مع الترك حتى تحقق الفتح الإسلامى لبلاد ما وراء النهر .

ونستطيع أن نجمل أحداث هذا الفتح فى مرحلتين رئيسيتين :

المرحلة الأولى : مرحلة الغارات الثغرية .

المرحلة الثانية : مرحلة الفتح المنظم .

وفيما يلى نتناول كل مرحلة منهما على حدة :

المرحلة الأولى : مرحلة الغارات الثغرية : ٤٥ - ٨٦هـ / ٦٦٥ - ٧٠٥م ؛

يمكن القول أن هذه المرحلة تسبق فى وجودها العصر الأموى الذى بدأ عام ٤١هـ / ٦٦١م كما هو معروف ، ونستطيع أن نحدد بدايتها عام ٣١هـ / ٦٥١م - أى فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه) - عندما فرغ العرب من فتح إيران وأصبحت خراسان ثغراً من ثغور المسلمين وقاعدة الإنطلاق إلى بلاد ما وراء النهر ، وبصفة خاصة خلال عهد والى البصرة ، عبد الله بن عامر بن كريب ، من قبل الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) والذى دانت له جميع البلاد الواقعة على الضفة الجنوبية من نهر جيحون بل بدأ العرب فى عبور النهر نفسه كما صالحه دهاقين الأتراك الغربيين .

ولكن أمور خراسان اضطربت ، وكفت القاعدة عن الحركة أثناء فتنة الخليفة عثمان (رضى الله عنه) وخلافة على ولم تزل كذلك حتى مقتل الخليفة علي (رضى الله عنه) عام ٤٠هـ / ٦٦٠م .

= ٣٥٦ : محمود ، حسن أحمد ، الإسلام والحضارة العربية فى أسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى ، القاهرة (١٩٦٨م) ، ص ١٠٨ ، ١١٥ - ١٢٧ ؛ محمد ، محمد أحمد ، بخارى فى صدر الإسلام ، القاهرة (١٩٩٢م) ، ص ٣٤ - ٦٤ ؛ شاكر ، محمود ، تركستان الغربية ، بيروت - دمشق ، ط ٢ (١٩٨٧م) ، ص ١١ - ١٧ ؛ بارتولد ، فاسيلى فلاديمير وفتش ، تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت (١٩٨١م) ، ص ٢٣٨ - ٣١٠ ؛ عماش ، صالح مهدى ، قتيبة بن مسلم الباهلى وحركات جيش المشرق الشمالى فيما وراء النهر ، بغداد (١٩٧٨م) ؛ السلطانى ، غانم هاشم ، قتيبة بن مسلم الباهلى ، بغداد (١٩٩٠م) .

فلما آلت الخلافة إلى معاوية عام ٤١هـ / ٦٦١م كان عليه أن يواجه أوضاع خراسان المضطربة وأن يعيد إلى القاعدة فعاليتها ؛ ومن هنا بدأ التنظيم الثغرى فى خراسان يلعب دوراً كبيراً فى التمهيد لمرحلة الفتح المنظم لبلاد ما وراء النهر .

وقد استغرقت هذه المرحلة التمهيدية خلال العصر الأموى الفترة ما بين ٤٥ - ٨٦هـ / ٦٦٥ - ٧٠٥م حيث كانت تخرج من خراسان غزوات أو غارات خاطفة فى موسم معين هو موسم الصيف ، ثم تعود إليها إذا كان الشتاء ، وقد اقترنت هذه المرحلة بالأسماء التالية : زياد بن أبى سفيان ، وعبد الله بن زياد ، وسعيد بن عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن زياد ، وسلم بن زياد (وكان أول من قضى الشتاء عبر النهر) وعبد الله بن حازم والمهلب بن أبى صفرة وابنه يزيد بن المهلب .

وعلى ذلك يمكن القول بأن هذه المرحلة الثغرى ، رغم أنها لم تضيف مساحات جديدة للدولة الإسلامية ، إلا أنها قد مهدت الطريق لنجاح الفتوح الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر باشاعة الفرقة بين الإمارات التركية ، وضربها بعضها ببعض ، وإبقاء الجبهة التركية منقسمة مفترقة الكلمة من جهة كما أتاحت للمسلمين الفاتحين أن يكونوا لأنفسهم استراتيجية معينة للقتال من جهة ثانية حيث قد قمرنوا على الطبيعة الجبلية وألفوا القتال فى الجو القارص البرودة .

المرحلة الثانية : مرحلة الفتح المنظم : ٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م :

كان عام ٨٦هـ / ٧٠٥م نقطة تحول فى فتوح بلاد ما وراء النهر ؛ إذ بدأ الفتح الحقيقى لهذه البلاد ، وبدأ الاقتحام الفعلى لقلب المقاومة التركية . وقد إقترنت هذه المرحلة باسم القائد المجاهد الأمير قتيبة بن مسلم الباهلى الذى آلت إليه ولاية خراسان عام ٨٥هـ / ٧٠٤م من قبل الحجاج بن يوسف الثقفى بعد عزل المفضل بن المهلب بن أبى صفرة .

وقد إستغرقت فتوح قتيبة لبلاد ما وراء النهر نحواً من عشر سنوات ، ونستطيع أن نجمل أحداث تلك الفتوح فى أربعة مراحل وذلك على النحو التالى :

- المرحلة الأولى : ٨٦-٨٧هـ / ٧٠٥م :

وهى المرحلة التى أخضع فيها إقليم طخارستان ذلك الإقليم الكبير الذى يقع على ضفتى نهر جيحون ؛ لأن فتح بلاد ما وراء النهر لم يكن ممكناً بدون بسط سيطرة

المسلمين على طخارستان .

المرحلة الثانية : ٨٧ - ٩٠ هـ / ٧٠٦ - ٧٠٩ م :

وفيهما فتح قتيبة إقليم بخارى كله .

المرحلة الثالثة : ٩١ - ٩٣ هـ / ٧١٠ - ٧١٣ م :

وفيهما فرض قتيبة السيادة الإسلامية على حوض جيحون وبلاد الصفد ، وتوجت هذه المرحلة بفتح سمرقند أعظم المدائن في بلاد الصفد ، كما فتح قتيبة خوارزم صلحا .

المرحلة الرابعة ٩٤ - ٩٦ هـ / ٧١٣ - ٧١٥ م :

وفيهما تم فتح أقاليم الشاش وفرغانه وأشروسنه ، بل أوغل قتيبة حتى كاشغر على الحدود الصينية .

وهكذا فتحت بلاد ما وراء النهر وإمتدت دولة الإسلام واتسعت رقعتها ، وقد تمكن الأمويون بعد ذلك وإلى أن سقطت دولتهم عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م من تثبيت هذا الفتح والمحافظة عليه ، فضلا عن جهودهم في نشر الإسلام ، وتوطين القبائل العربية في المدن الكبرى كبخارى وسمرقند وغير ذلك .

٢- فتوح السند (٣١) :

يقع إقليم السند في شمال غرب شبه القارة الهندية وشرق بلاد فارس الجنوبية مكونا دلتا نهر السند ، وكانت هذه المنطقة تشمل زمن الفتوحات الإسلامية الأولى ثلاث مقاطعات هي : السند والبنجاب (أراضى الأنهار الخمسة) والحدود الشمالية

(٣١) عن خط سير هذه الفتوح ومراحلها وتفاصيل أحداثها انظر ، محمود ، الإسلام ، ص ١٧٧ - ١٨٨ ؛ عبد اللطيف ، العالم الإسلامي ، ص ٣٥٧ - ٣٦٧ ، فيصل ، حركة الفتح ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ ؛ الغامدي ، سعد حذيفة ، الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند ، الرياض ، (١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م) ، ص ٤٩ - ١٠٧ ؛ الساداتى ، أحمد محمود ، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ، الجزء الأول ، القاهرة (١٩٥٧ م) ، ص ٥١ - ٦١ .

الغربية فى باكستان حاليا ، وهناك من يجعل مدينة الملتان ، وهى فى الأراضى الوسطى للسند داخل الإطار العام لوادى السند (٣٢) .

ونستطيع أن نجمل أحداث هذا الفتح فى مرحلتين رئيسيتين :

المرحلة الأولى : مرحلة الغارات الثغرية .

المرحلة الثانية : مرحلة الفتح المنظم .

وفيما يلى نتناول كل مرحلة منهما على حدة .

المرحلة الأولى : مرحلة الغارات الثغرية :

يمكن القول أن هذه المرحلة تسبق فى وجودها العصر الأموى الذى بدأ عام ٤١هـ / ٦٦١م كما سبق القول ، ونستطيع أن نحدد بدايتها فى عام ١٥هـ / ٦٣٧م . أى فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) . ثم توالى فى عهد كل من الخليفين عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب (رضى الله عنهما) .

واستمرت هذه الغارات الثغرية تتلاحق خلال العصر الأموى حتى أواخر عهد عبد الملك بن مروان ٨٦هـ / ٧٠٥م .

وكانت هذه الغارات تخرج من جنوب إيران ومن شمالها فى سجستان ، وقد اقترنت بعدد من القادة : ومنهم عبد الله بن سوار وسان بن سلمة والمنذر بن الجارود والحكم بن المنذر وعبيد بن زياد الباهلى وسعيد بن أسلم بن زرعة ومجاعة بن سعر التميمى وغيرهم .

وعلى ذلك يمكن القول بأن هذه المرحلة الثغرية رغم أنها لم تضيف مساحات جديدة للدولة الإسلامية ، إلا أنها قد مهدت الطريق لنجاح الفتوح الإسلامية فى إقليم السند ، فقد تعرف المسلمون خلال هذه المرحلة على طبيعة البلاد وسكانها وظروف حياتهم وما هم عليه ومدى استعدادهم لتقبل الإسلام . وبالتالى زادت هذه المرحلة خبرة ومعرفة ودراية بأحوال السند ، وفى هذه الفترة ، وبخاصة خلال عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ /

(٣٢) الغامدى ، الفتوحات ، ص ٣٢ .

٦٨٤ - ٧٠٥م) ، تعرف العرب على قطاعات من الرأى العام سيكون لها أثرها فى مرحلة الفتح المنظم فقد وضحت جذور التحالف بين العرب وبين الهنود المعروفين بالجات (الزط) والذين اشتركوا فى الفتح فى فرق المرتزقة .

٢ - مرحلة الفتح المنظم ٨٩-٩٦هـ / ٧٠٨-٧١٥م :

إقترنت هذه المرحلة باسم القائد المجاهد محمد بن القاسم الثقفى الذى لم يكن قد تجاوز العشرين عاما ؛ إلا أنه أظهر من الشجاعة والبطولة والعبقرية ما يضعه فى مصاف كبار الفاتحين والقادة العسكريين .

هذا وقد زود الحجاج بن يوسف الثقفى جيش الفتح بكل ما يحتاجه من مؤن وذخائر وعدة وعتاد ، وقد سارت الحملة من شيراز إلى إقليم فارس إلى إقليم كرمان ومنها إلى ثغر مكران الذى كان قاعدة الإنطلاقة الكبرى لفتح إقليم السند ، وعلى ذلك تكون هذه القوات البرية قد سارت محاذية لمياه البحر العربى ، حتى لا تكون بعيدة عن السفن الإسلامية التى سلكت هى الأخرى البحر (بقيادة محمد بن هارون) بالقرب من اليايسة على مرأى من القوات البرية .

ثم وصل الجيش إلى مدينة الديبل (أو دبل) وتم فتحها بعد حصارها براً وبحراً لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم سار باتجاه الشمال الشرقى إلى مدينة نيرون ، ومنها اتجه إلى الشمال الغربى نحو سهوان (سيوستان) التى تبعد عن نيرون بحوالى ١٣٠ كم إلى الشمال منها وقد أعلنت إستسلامها ، وكانت بمثابة مفتاح لبقية مدن وادى السند السفلى التى إستسلمت هى الأخرى ؛ وبالتالي لم يقف دون خضوع ما تبقى من المدن سوى وجود داهر متحصنا فى قلعة برهمان آباد وتقع إلى الشرق من نهر السند ، وعلى ذلك كان على محمد بن القاسم بعد أن تقدم شمالاً أن يرجع إلى الجنوب - بناءً على أوامر الحجاج بن يوسف الثقفى - ليقابل داهر ملك السند وهنا حدثت المعركة الحاسمة والفاصلة فى فتوح السند وهى المعركة المعروفة بمعركة الراور (Rawor) فى رمضان ٩٣هـ / ٧١٢م وتم النصر للمسلمين وقتل داهر ، وتم بعد ذلك فتح كافة أراضى السند السفلى وعلى رأسها العاصمة برهمان آباد ، وبعد ذلك كان لا بد من السير شمالاً لفتح عاصمة الهندوس الكبرى فى وسط أراضى السند وهى الور (Alor) وقد إستسلمت المدينة

للفاتحين ، ودخل المسلمون عاصمة مملكة السند . ولم يبق بعد ذلك سوى فتح أعالي وادى السند وعاصمته الملتان وهى المنطقة المتاخمة لمنطقة ولاية كشمير وهى ولاية إقليم البنجاب فى باكستان الحالية ، وتم دخول المدينة وفتحها بعد حصارها مدة ، وهروب حاكمها إلى ملك كشمير دون علم المحاصرين له . وهكذا فإنه فى أواخر النصف الأول من عام ٩٦هـ / أوائل عام ٧١٥م تم فتح إقليم السند ، وأضحى محمد بن القاسم على مشارف حدود مملكة كشمير وبطل على حدود راجيبوثنان من ناحيته الغربية ومن هناك أخذ يخطط على ما يبدو لحملة يقوم بها ضد أحد الأقليمين ولعل الأخير كان هدفه .

وبينما هو كذلك توفى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٩٦ / ٧١٥م وتولى أخوه سليمان الذى بدأ يغير ولاية الحجاج فعين على العراق صالح بن عبد الرحمن الذى قرر عزل محمد بن القاسم عن ولاية السند ، وأمر بالقبض عليه وحبسه فى واسط وأخذ يعذبه حتى مات ، وهكذا انتهت حياة بطل مجاهد وفاتح كبير هذه النهاية الأليمة . ورغم توقف الفتوحات عند الحدود التى وصل إليها محمد بن القاسم ؛ إلا أن الولاة الأمويين قد تمكنوا من تثبيت هذا الفتح والمحافظة عليه ، فضلا عن جهودهم فى نشر الإسلام وتأسيس المدن ومنها المحفوظة (وتقع إلى الشمال الشرقى من مدينة حيدر آباد الحالية وعلى بعد ٦٤ كم منها) التى أنشأها الحكم الكلبى ، والمنصورة (وتقع على بعد ١٣ كم من مدينة برهمان آباد) التى بناها عمرو بن محمد بن القاسم الثقفى .

مما تقدم يمكن القول أن الفتوحات خلال العصر الأموى ؛ وبخاصة فى عهد الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ / ٧١٥م) قد أضافت إلى رقعة الدولة الإسلامية مساحات شاسعة تمتد من كاشغر على حدود الصين فى الشرق الى الأندلس وجنوب فرنسا فى الغرب ، ومن بحر قزوين فى الشمال إلى المحيط الهندى فى الجنوب .

وتضم هذه الأقاليم شعوبا وأجناسا كثيرة ، وفيها العديد من الديانات والمذاهب واللغات والثقافات والعادات والتقاليد والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المختلفة ويشهد الواقع التاريخى على أن الفتح الإسلامى لهذه الأقاليم ، لم يكن عسكريا وسياسيا فحسب ؛ بل كان فتحا دينيا ولغويا وثقافيا ، أو فلنقل كان بداية لحدث حضارى فريد ليس فقط بالنسبة لهذه الأقاليم بل للعالم أجمع كما سنرى .

٣- المرحلة الثالثة :الفتوحات خلال العصر العباسى ١٣٢-٦٥٦هـ / ٧٥٠-١٢٥٨م

ورث العباسيون عن الأمويين دولة إسلامية واسعة الأرجاء ، ومن ثم فقد بذلوا جهوداً جبارة من أجل تثبيت أركان هذه الدولة والمحافظة عليها .

غير أن ما يعنينا فى هذا المقام هو أن نتناول موضوع إمتداد دولة الإسلام واتساع رقعتها خلال هذا العصر ، سواء من قبل الخلفاء العظام أنفسهم ، أو من قبل أمراء وسلاطين الدول المستقلة فى المشرق والمغرب على السواء .

١- الفتوحات فى عهد الخلفاء العظام (العصر العباسى الأول) ١٣٢-٢٣٢هـ / ٧٥٠-٨٤٧م ؛

أ - تم فى عهد الخليفة أبى جعفر ثانى الخلفاء العباسيين فتح الأجزاء السهلية من بلاد طبرستان (مازندران) وذلك عام ١٤٣هـ / ٧٦٠م ، أما المنطقة الجبلية وبخاصة جبال شروين الواقعة فى أطراف طبرستان فقد فتحت فى خلافة عبد الله المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ / ٨١٣- ٨٣٣م) وذلك عام ٢١٠هـ / ٨٢٥م^(٣٣) .

ب - تم فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر أيضاً فتح كشمير^(٣٤) .

ج - تم فى عهد الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ / ٨٣٣- ٨٤١م) فتح عمورية ٢٢٣هـ / ٨٣٨م وكانت تعتبر من أحصن مدن أسيا الصغرى البيزنطية ، فضلا عن أهميتها الدينية حتى إعتبرت عين النصرانية وأشرف من القسطنطينية^(٣٥) .

٢- الفتوح فى عهد الدول المستقلة :

أ- دولة الأغالبة فى المغرب الأدنى ١٨٤-٢٩٧هـ / ٨٠٠-٩٠٩م .

- تم فى عهد هذه الدولة فتح صقلية وجنوب إيطاليا ، وكانت البداية فى عهد زيادة الله الأول بن إبراهيم (٢٠١- ٢٢٣هـ / ٨١٦- ٨٣٧م) وتحت قيادة أسد بن الفرات عام

(٣٣) ماجد ، عبد المنعم ، العصر العباسى الأول أو القرن الذهبى فى تاريخ الخلفاء العباسيين ، الجزء الأول ،

القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٨٤م) ، ص ١٣٧- ١٤٠ ، ٤٠٧- ٤٠٨ .

(٣٤) ماجد ، العصر العباسى ، ص ١٤١- ١٤٢ .

(٣٥) ماجد ، العصر ، ص ٤٢٠- ٤٢٤ .

٢١٢هـ / ٨٢٧م (أى فى خلافة المأمون العباسي) وتم فتح الجزيرة عام ٢٨٩هـ / ٩٠٢م (أى فى عهد إبراهيم بن أحمد ٢٦١ - ٢٨٩هـ / ٨٧٤ - ٩٠١م) ، عقب سقوط مدينة طبرمين بعد حصار طويل ومن ثم ضمت الجزيرة إلى رقعة الدولة الإسلامية^(٣٦) .

- تم فى عهد الأمير محمد بن الأغلب الملقب بأبى الغرانيق (٢٥٠ - ٢٦١هـ / ٨٦٤ - ٨٧٤م) فتح جزيرة مالطة عام ٢٥٥هـ / ٨٦٨م^(٣٧) .

ب- الدول الإسلامية فى المشرق :

١- استكمال الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند :

منذ القرن ٤هـ / ١٠م أصبحت غزنة قاعدة انطلاق الفتح الإسلامى لبلاد الهند والهند بدءاً بالبتكين التركى (٣٥٢هـ / ٩٦٣م) ومروراً بسبكتكين (٣٦٦ - ٣٨٧هـ / ٩٧٧ - ٩٩٧م) ومحمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١هـ / ٩٩٨ - ١٠٣٠م) ، وقد قاد هذا الأخير سبعة عشر غزوة فيما بين ٣٩١ - ٤١٨هـ / ١٠٠٠ - ١٠٢٧م ورغم ذلك فقد عادت هذه البلاد إلى ما كانت عليه قبل الغزنويين . ولذلك كانت فتوحات الغوريين منذ أواخر القرن ٦هـ / ١٢م (تحت قيادة شهاب الدين الغورى وقطب الدين أيبك ومحمد بن بختيار الخلجي) هى بداية الفتح الحقيقى والمنظم لهذه البلاد وما ترتب عليه من إستقرار وإدارة ونشر للإسلام ، وقد تم خلال هذه الفترة فتح جميع أراضى إمارة كنوج وبنارس وفتح أجمير ومملكتى بيانا وكواليور وإقليم الكجرات وإقليم بيهار والبنغال^(٣٨) .

ويبدأ بعد ذلك عصر الدول الإسلامية المستقلة بالهند بدولة سلاطين المماليك ، ثم الدولة الخلجية فدولة بنى تغلق ثم الغزو التيمورى وما أعقبه من عهد ملوك الطوائف بالهند ، وأخيراً عصر الدولة المغولية الهندية التى سطرت فى شبه القارة الهندية حضارة

(٣٦) سالم ، تاريخ المغرب ، ص ٢٩٩ - ٣٠٦ : ماجد ، العصر العباسى ، ص ٤٢٥ : غانم ، حامد زيان ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى صقلية وأثرها على أوروبا ، القاهرة (١٩٧٧م) ، ص ١٨ - ٢٧ : رسلان ، عبد المنعم ، الحضارة الإسلامية فى صقلية وجنوب إيطاليا ، جدة (١٩٨٠م) ، ص ١٨ - ١٩ .

(٣٧) مؤنس ، معالم ، ص ١٠٥ ، ماجد ، العصر ، ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٣٨) عن مراحل هذه الفتوح وتفاصيل أحداثها انظر ، الغامدى ، الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والهند ، ص ١٢٥ - ١٤٥ ، ١٥٣ - ١٦٤ ، ١٨٣ - ٢٦٦ ، ٣٩٦ - ٤٤٢ : الفقى ، عصام عبد الرؤوف ، الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق ، القاهرة (١٩٨٧م) ، ص ١١٧ - ١٣١ ، ٣٤١ - ٣٤٨ ، ٣٦١ - ٣٦٢ : وانظر أيضاً لنفس المؤلف كتابه الموسوم بـ « بلاد الهند فى العصر الإسلامى » ، القاهرة (١٩٨٠م) ، (البابان الأول والثانى) : الساداتى ، تاريخ المسلمين ، ج ١ ، ص ٧٥ - ٨٩ ، ١٠٠ - ١٠٨ .

رائعة قوية ومدنية مزدهرة بزت باجماع الثقات من المؤرخين نظائرها عند أرقى الدول
لذياك الوقت .

٢- دولة سلاجقة الروم :

كان قيام الدولة السلجوقية فى المشرق عام ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م حدثا جديداً فى
التاريخ الإسلامى بعامة وفى المشرق بخاصة ؛ إذ سرعان ما لعبت هذه الدولة الفتية دوراً
رئيسياً فى توجيه سير الأحداث فى العالم الإسلامى وفى بلاد جيرانها من غير المسلمين
، ولا سيما الدولة البيزنطية ، ولم تلبث أن سيطرت على جانب كبير من العالم
الإسلامى فى عصرها ومن ذلك أسيا الوسطى وإيران والعراق والشام ، وإذا كانت هذه
الأقاليم قد خضعت لسلطان السلاجقة فإنها أقاليم إسلامية أى أنها لا تمثل امتداداً
لدولة الإسلام وإتساع رقعتها ، ورغم ذلك فإنه يحسب للسلاجقة أنهم نجحوا فيما نجاح
فى تحقيق الوحدة الإسلامية لهذه الأقاليم (٣٩) .

وهنا يثور سؤال مهم وهو هل نجح السلاجقة (إلى جانب ذلك) فى إضافة رقعة
جديدة إلى الدولة الإسلامية أم لا ؟

وللإجابة على ذلك السؤال يكفى القول بأنهم قد نجحوا فى دق أول مسمار فى
نعش الدولة البيزنطية ، وذلك بتحقيق الانتصار العظيم فى معركة ملاذكرد (الرهوه)

(٣٩) عن تاريخ السلاجقة انظر المصادر التالية : تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهاني (وقد اختصره
الفتح بن على البندارى) وراحة الصدور وآية السرور للراوندى ، وتاريخ سلاجقة كرمان لمحمد بن
إبراهيم وتاريخ سلاجقة الروم لابن البيبى (ترجمة محمد السعيد جمال الدين - الدوحة ١٩٩٤م ،
وترجمة محمد علاء الدين منصور - القاهرة ١٩٩٤م) وحسبنا أن نشير كذلك إلى بعض المراجع العربية
ومنها : الفقى ، الدول الإسلامية ، ص ١٥٢ - ١٧٦ ؛ محمود ، حسن ، الشريف ، أحمد إبراهيم ،
العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، القاهرة (١٩٨٠م) ، ص ٥٤٢ - ٦١٧ ؛ حمدى ، حافظ أحمد ،
الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، القاهرة (٢٠٠٠م) ، ص ٢٩ - ٦٠ ؛ عبد الهادى ، محمد
عبدالباسط ، الشرق الإسلامى من ظهور السلاجقة حتى زوال الخلافة العباسية ببغداد ، مكة المكرمة
(١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ، ص ٧ - ٨٩ ؛ الغامدى ، الفتوحات الإسلامية ، ص ٣٢٩ - ٣٨٦ . حسنين ،
عبد النعيم ، سلاجقة إيران والعراق ، القاهرة ١٩٥٩م ، السلاجقة ، القاهرة ، ط ٢ ، د ت ؛ إدريس ،
محمد محمود ، رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية ، القاهرة ١٩٨٣م ؛ تاريخ العراق والمشرق
الإسلامى خلال العصر السلجوقى الأول ، القاهرة ١٩٨٥م .

عام ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م على الامبراطور البيزنطى رومانوس ديو جينوس الذى أسر وافتدى نفسه ، وأطلق سراحه ، وما ترتب على ذلك من تأسيس دولة سلاجقة الروم باسيا الصغرى (الأناضول) فيما بين عامى (٤٧٠ - ٧٠٧هـ / ١٠٧٧ - ١٣٠٧م) مما يعنى أن الأناضول قد أصبحت داخل نطاق الدولة الإسلامية^(٤٠) ، وقد ورث السلاجقة فى حكم الأناضول ملوك الطوائف أو البكوات ومنهم الدولة العثمانية التى استطاعت بعد ذلك توحيد الأناضول ، مثلما كان عليه الحال أيام السلاجقة ، ثم القضاء على الدولة البيزنطية نهائيا وفتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ولم يقف العثمانيون عند ذلك الحد ؛ بل كان لهم دوراً بارزاً فى حركة الجهاد والفتوحات الإسلامية فى أوروبا (البلقان) وهو ما سنشير إليه فى المرحلة التالية .

٤- المرحلة الرابعة : الفتوحات الإسلامية خلال العصر العثمانى ٦٩٩- ١٣٤١هـ / ١٢٩٩-١٩٢٢م :

من المعروف أن الدولة العثمانية قد نشأت مجرد إمارة حدودية صغيرة فى غرب الأناضول (أسيا الصغرى) فى عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م ، ولم تلبث هذه الإمارة أن نمت واتسعت بدرجة كبيرة وأصبحت دولة إسلامية عظمى ، استحوذت لقب الإمبراطورية^(٤١)؛ إذ خضعت لها ووقعت تحت هيمنتها ولايات عديدة فى قارات ثلاث هى : آسيا ، وأوروبا ، وأفريقيا ، وهكذا قدر لهذه الدولة أو تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف أن توجه وجهة التاريخ العالمى لمدة تربو على خمسة قرون . غير أن ما يعنينا ، فى هذا المقام ، هو ما يتعلق بدور هذه الدولة فى حركة الجهاد والفتح الإسلامى فى جنوب أوروبا والنجاح الكبير الذى حققته فى نشر الإسلام وانتشار الحضارة الإسلامية فوق الكثير من

(٤٠) الغامدى ، الفتوحات ، ص ٣٤٦ - ٣٥٦ ؛ الفقى ، الدول الإسلامية ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٤١) مما له دلالة فى هذا الصدد أن إطلاق مصطلح الإمبراطورية على الدولة العثمانية له معنى يخالف لدى العثمانيين التعبير الأوروبى المتأخر ، فلا تعنى الإمبراطورية معنى الامبريالية أو الاستعمار ، ولكنه يشير فقط إلى أن الدولة العثمانية كانت دولة مترامية الأطراف فوق قارات ثلاث ، وقد أطلق المؤرخون العثمانيون على دولتهم اسم « الدولة العلية العثمانية » .

أوغلى ، أكمل الدين (إشراف وتقديم) ، الدولة العثمانية ، تاريخ وحضارة ، المجلد الأول ، ترجمة صالح سعداوى ، استانبول ، (١٩٩٩م) ، مج ١ ، ص ٢٣ ، مج ٢ ، ص XXXI .

أراضى هذا الإقليم ، بل والأرضى المتأخمة له ، وهو ما يحسب للعثمانيين (٤٢) .

هذا ويمكن أن نقسم تاريخ الفتوحات العثمانية فى أوروبا إلى مرحلتين رئيسيتين تشتمل كل مرحلة منهما على مراحل فرعية بحسب قوة الدولة وضعفها من جهة وظروف وأوضاع الدول الأوروبية نفسها من جهة ثانية .

وهاتان المرحلتان هما :

المرحلة الأولى : مرحلة التوسع والانتشار .

المرحلة الثانية : مرحلة التقلص والانحسار .

وفيما يلى نتناول كل مرحلة منهما على حدة :

(٤٢) بما له دلالتة فى هذا الصدد أنه ثبت أن الإسلام قد وصل إلى البلقان قبل الفتوحات العثمانية بوقت طويل ، حيث انتقل الإسلام مع قبائل البلغار إلى بلغاريا ومع قبائل البوشناق إلى البوسنة ، ودليل ذلك ورد ذكره فى المصادر التاريخية ، وبخاصة كتب الجغرافيا والرحلات ، ومنها رحلة ابن فضلان زمن الخليفة المقتدر بالله العباسى (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) الموسومة بـ « رسالة ابن فضلان فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، وقد حققها سامى الدهان ، بيروت ، ط ٢ ، (١٩٨٧م) ؛ ومنها معجم البلدان لياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) مادة باشغرد ، كذلك وصل إلى هذه المنطقة مسلمون من الغرب والأندلس عملوا على نشر الإسلام كما ذكر أبو حامد الغرناطى (ت ٥٦٥هـ / ١١٦٩م) فى كتابه (تحفة الألباب ونخبة الآداب) عند زيارته لبشغرديا عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م. شاکر ، كوسوفو ، ص ص ٢٨ - ٣٦ ، ٥٨ - ٥٩ ، الصقار ، سامى ، المسلمون فى يوغسلافيا ، الرياض ، دار الشواف (١٩٩٢م) ، ص ص ١٥ - ١٨ ؛ قاروط ، المسلمون فى يوغسلافيا ، ص ص ٤٩ - ٥١ ؛ الدغيم ، البوسنة ، ص ص ٢٥٦ ، ٢٥٩ - ٢٧٢ . ويرى آخرون أن الإسلام قد وصل إلى هذه المناطق عن طريق التجارة تارة ، وعن طريق الدعاة المسلمين تارة أخرى ، أو على أيدي مغول القبيلة الذهبية أو خلال عهدهم ولا سيما فى منطقة دو بريجة بين البحر الأسود ونهر الدانوب (وهى تقع فى رومانيا حالياً) ، ومن حل بهذه المنطقة أيضاً الشيخ صارى سلتق دده فى عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م أو عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م ، ولهذا الشيخ تكايا تنسب إليه فى البلقان ، قاروط ، المسلمون ، ص ص ٤٨ ، ٥٣ ؛ الصقار ، المسلمون ، ص ص ١٧ - ١٨ ؛ يونس ، السيد محمد ، الإسلام والمسلمون فى ألبانيا ، سلسلة دعوة الحق ، مكة المكرمة ، رابطة العالم الإسلامى ، السنة ١٢ ، العدد ١٤٣ ، (ذو القعدة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ، ص ص ٢٦ - ٢٧ ؛ حسون ، على ، محنة المسلمين فى البلقان ، بيروت ، دمشق ، عمان ، المكتب الإسلامى (١٩٩٧م) ، ص ٢٩ .

ومهما يكن من أمر فإن تأثير هذه المرحلة لم يكن بالدرجة الكبيرة التى وصل إليها الإسلام والثقافة الإسلامية عقب الفتوحات العثمانية فى البلقان والأراضى المتأخمة لها .

المرحلة الأولى : مرحلة التوسع والانتشار :

تشمل هذه المرحلة الفترة الممتدة من منتصف القرن ٨هـ / ١٤م إلى أواخر الربع الثالث من القرن ١٠هـ / ١٦م ، وعلى ذلك فإن هذه المرحلة تشمل عهود كل من أورخان غازى ٧٢٥ - ٧٦٤هـ / ١٣٢٤ - ١٣٦٢م ، ومراد الأول ٧٦٤ - ٧٩٢هـ / ١٣٦٢ - ١٣٨٩م ، وبايزيد الأول الملقب بالصاعقة (يلد ريم) ٧٩٢ - ٨٠٥هـ / ١٣٨٩ - ١٤٠٢م ، ومحمد الأول ٨١٦ - ٨٢٤هـ / ١٤١٣ - ١٤٢١م ، ومراد الثانى ٨٢٤ - ٨٤٨هـ / ١٤٢١ - ١٤٤٤م ، ٨٥٠ - ٨٥٥هـ / ١٤٤٦ - ١٤٥١م ، ومحمد الثانى الملقب بالفتاح ٨٤٨ - ٨٥٠هـ / ١٤٤٤ - ١٤٤٦م ، ٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١م ، وبايزيد الثانى ٨٨٦ - ٩١٨هـ / ١٤٨١ - ١٥١٢م ، وسليم الأول الملقب بـ ياووز ٩١٨ - ٩٢٦هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م ، وسليمان الأول الملقب بالقانونى (لدى الأتراك) ، والمعظم (لدى الأوربيين) ٩٢٦ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المرحلة التى استغرقت ما يقرب من قرنين ونصف هى نفسها مرحلة القوة والازدهار للدولة العثمانية بصفة عامة التى نمت وتوسعت ، وانتشرت فتوحاتها فى آسيا وأوروبا وأفريقيا كما سبق القول .

على أننا يجب أن نأخذ فى الاعتبار ونحن نتناول حركة الجهاد والفتوحات العثمانية فى أوروبا أنه يصعب فى كثير من الأحيان أن نفصل بين جنوب أوروبا وبين الأراضى المتأخمة لها فى شرق أوروبا ، أو أوروبا الوسطى الشرقية والغربية وبصفة خاصة دول الدانوب^(٤٣) ، (الأفلاق والبغدان (رومانيا) وهنغاريا (المجر) والنمسا) ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أن بعض دول جنوب أوروبا فى شبه جزيرة البلقان ، وبصفة خاصة البرتغال ويوغوسلافيا السابقة ، كانت بمثابة قاعدة الإنطلاق ، أو نقطة الارتكاز ، ومفتاح الدخول إلى تلك الأراضى المتأخمة لها ، كما سنشير فيما بعد ، وينطبق نفس الكلام مع الجمهوريات الإيطالية وبصفة خاصة البندقية ذات المصالح التجارية فى حوض البحر المتوسط .

(٤٣) عرفت بذلك لأنها تقع ضمن نطاق حوض نهر الدانوب الذى يعتبر الحد الشمالى لشبه جزيرة البلقان . وعن جغرافية هذه الدول بالتفصيل انظر : الجمل ، أوروبا فى مجرى التاريخ ، ص ص ٣٥٩ - ٣٩٥ .

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى مرحلتين فرعيتين : الأولى نطلق عليها مرحلة ما قبل فتح القسطنطينية ، والثانية مرحلة ما بعد فتح القسطنطينية .
وفيما يلي نتناول حركة الجهاد والفتوحات العثمانية فى كل من هاتين المرحلتين .

- مرحلة ما قبل فتح القسطنطينية ٧٥٣-٨٥٧هـ / ١٣٥٢-١٤٥٣م ،

كانت نقطة البداية والإنطلاق لهذه المرحلة فى عهد أورخان غازى وبالتحديد فى عام ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م حين منح الإمبراطور البيزنطى كنتا كوزينوس سليمان باشا ابن أورخان قلعة چيمپى Çimpi بالقرب من بولايير Bolayir ، ليستخدمها قاعدة له ضد صهره حنا باليولوجس ، ولم تلبث هذه القاعدة أن صارت نقطة ارتكاز مهمة فتحت الطريق أمام العثمانيين للسيطرة على غاليبولى عقب حدوث زلزال دهمها عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م^(٤٤) ، وتم بعد ذلك فتح بعض مدن تراقيا فى الشمال حتى لولى بورغاز وفى الغرب حتى حدود نهر مريج (الماريتزا) ، وذلك عام ٧٥٨هـ / ١٣٥٧م^(٤٥) .

وأعقب ذلك عملية هجرة واستيطان لأتراك الأناضول إلى تلك المدن الجديدة بغية أسلمتها وتثريتها ، والحيلولة دون تمكن البيزنطيين من طرد العثمانيين ، وهى العملية التى تكررت كثيراً عقب فتوحات البلقان كما سنشير فيما بعد .

وعندما تولى مراد الأول الحكم واصل سياسة أبيه فى الجهاد والفتوحات ، وتم خلال عهده ٧٦٤ - ٧٩٢هـ / ١٣٦٢ - ١٣٨٩م فتح الكثير من المدن والقلاع والمراكز العمرانية المهمة ، ومن أهمها مدينة ادرنه (Adrianople) التى نجح فى فتحها عقب جلوسه على العرش عام ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م ، ولم يقف الأمر عند ذلك ، بل نقل العاصمة إليها من بروصة (أو بورصة) العاصمة العثمانية الأولى التى فتحها والده أورخان غازى عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م ، وأصبحت تلك العاصمة الجديدة قاعدة الإنطلاق والفتوحات حتى صارت تعرف باسم مدينة الغزاة ، وعلى ذلك يمكن القول بأن فتح هذه المدينة المهمة

(٤٤) أوغلى ، الدولة العثمانية ، المجلد الأول ، ص ١٣ .

(٤٥) أوزتونا ، بلماز ، تاريخ الدولة العثمانية ، المجلد الأول ، ترجمة عدنان محمود سلمان ، مراجعة

وتنقيح محمود الأنصارى ، إستانبول ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل (١٩٨٨م) ، ص ٩٦ ؛

Yügel, Y, Sevim, A, Türkiye Tarihi, II, Osmanlı Dönemi (1300 - 156b), Ankara (1990), S. 22 - 23 .

قد ضاعف من قوة العثمانيين ، وبدأت بذلك مرحلة جديدة فى تاريخ البلقان ، وبالتالى فى تاريخ أوروبا^(٤٦) ، وتوالى بعد ذلك الفتوحات فى العديد من المدن البلقانية فى بلغاريا واليونان وألبانيا ، ومنها كده ده آغاج ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م ، وفيلبه (بلوفديف) واسكى زغرا وكمولجينه ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م ، وساماكوف ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م ، وقوله ٧٧٣هـ / ١٣٧١م ، ودراما ٧٧٣هـ / ١٣٧١م ، وفى هذا العام الأخير وقعت معركة جيرمن ، ومن أهم نتائجها أنها كفلت للعثمانيين تبعية أمراء الصرب فى مقدونيا والإمبراطور البيزنطى وملك البلغار^(٤٧).

وتم بعد ذلك فتح كل من كارافيرا ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م ، وكوستنديل ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م ، ونيش (صربيا الجنوبية) ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م ، وصوفيا ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م ، ومناستر (بيتولا) وكورتزه ، وأخرى ودبره ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م ، وترنوف ولفچه وبلونه وزشتوى وروسجق وتتراكان وسيلستره ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م^(٤٨).

وفى هذا العام الأخير - أى ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م - هاجمت القوات العثمانية البوسنة ، ولكنها منيت بالهزيمة فى معركة بلوتشنيك ، وكان من نتيجة ذلك قيام حلف البلقان الذى ضم كلاً من الصرب والبوسنة وبلغاريا وألبانيا وولاشيا والمجر وبولنده بهدف طرد العثمانيين منها نهائياً .

(٤٦) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٣ ؛ حسون ، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية . المكتب الإسلامى (١٩٨٠م) ، ص ١٥ ؛ العثمانيون والبلقان ، المكتب الإسلامى ، ط ٢ ، (١٩٨٦م) ، ص ٤٩ ؛ مصطفى ، أحمد عبد الرحيم ، فى أصول التاريخ العثمانى ، القاهرة ، دار الشروق ، ط ٢ (١٩٩٣م) ، ص ٤٨ ؛ الصلابى ، على محمد ، الدولة العثمانية ، بيروت ، عمان ، دار البيارق ، (١٩٩٩م) ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٤٧) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٩٨ - ٩٩ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٦ ؛ مصطفى ، فى أصول ، ص ٤٨ ؛ رضوان ، نبيل عبد الحى ، القوة العثمانية بين البر والبحر ، مكة المكرمة ، دار الثقافة (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) ، ص ٣٢ ؛ مانتيران ، روبر (أشراف) ، تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ترجمة بشير السباعى ، القاهرة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع (١٩٩٣م) ، ص ٥٠ - ٥٨ .

(٤٨) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٩٨ - ٩٩ ؛ كولز ، بول ، العثمانيون فى أوروبا ، ترجمة عبد الرحمن الشيخ ، سلسلة الألف كتاب الثانى ، العدد ١٢٦ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٣م) ، ص ٣٣ .

فما كان من مراد الأول إلا أن أخذ أهبة الاستعداد وتجهيز الجيوش لضرب هذا التحالف ، وتم له النصر الحاسم فى تلك المعركة الشهيرة المعروفة بمعركة قوصوه (كوسوفا) الأولى عام ٧٩١هـ / ١٣٨٩م^(٤٩). وعلى الرغم من استشهاد مراد الأول عقب تلك المعركة فإن نتائجها كانت عظيمة للغاية ؛ إذ حققت للعثمانيين على المدى القصير مكاسب سياسية وعسكرية جمة ؛ فلم تعد فى المناطق الباقية فى جنوب نهر الدانوب قوة يمكنها التصدى للعثمانيين عدا الهنغاريين (المجريين) ، وانفتح أمام العثمانيين طريق صربيا الشمالية ، وتحولت الإمارة الصربية إلى إقطاع عسكرى ، أما على المدى الطويل فقد شكلت الفتوح التى قدر لها أن تمتد إلى البوسنة نقطة البداية فى التحولات المهمة التى طرأت على التركيب العرقى والاجتماعى والسياسى والثقافى فى تلك المنطقة ، حتى إن البوسنة اصطبغت بصبغة الإسلام بشكل لم تشهد المناطق الأخرى فى البلقان^(٥٠) . وعلى ذلك يمكن القول بأنه قد تم فى عهد مراد الأول فتح الأراضى حتى تساليا ، ووصلوا شمالاً إلى نهر الدانوب وجنوباً إلى أتيكا وغرباً إلى ألبانيا ، وفى الشمال الغربى إلى البوسنة^(٥١) .

وعندما تولى بايزيد الأول الملقب بالصاعقة (يلد ريم) واصل سياسة الجهاد والفتوحات ، وتم خلال عهده ٧٩٢-٨٠٥هـ / ١٣٨٩ - ١٤٠٢م محاصرة مدينة القسطنطينية أكثر من مرة ، إلا أنه لم يتمكن من فتحها^(٥٢) واستطاع بايزيد الصاعقة أن يقضى على مملكة البلغار ، وعلى إمارة دوبريجا ، ونجح فى أن يحطم النفوذ المجرى

(٤٩) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ حسون ، العثمانيون والبلقان ، ص ص ٥٠ - ٥٢ ؛ مصطفى ، فى أصول ، ص ص ٤٩ - ٥٠ ؛ رضوان ، القوة العثمانية ، ص ٣٣ ؛ الصلابى ، الدولة العثمانية ، ص ص ١٠٢ - ١٠٤ ؛ العمرى ، عبد العزيز إبراهيم ، الفتوح الإسلامية عبر العصور ، الرياض ، دار اشبيليا (١٩٩٧م) ، ص ص ٣٨٩ - ٣٩١ ؛ Yügel, Türkiye, S. 38 - 40 .

(٥٠) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٦ .

(٥١) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٩٩ .

(٥٢) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ؛ الصلابى ، الدولة العثمانية ، ص ص ١١٥ - ١١٦ ؛ هريدى ، محمد عبد اللطيف ، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها فى انحسار المد الإسلامى عن أوروبا ، القاهرة ، دار الصحوة (١٩٨٧م) ، ص ص ٢٥ - ٢٦ ؛ Yügel, Türkiye, S. 46 - 47 , 45 - 55 .

فى الأفلاق (جنوب رومانيا) وفتح بعض المدن الألبانية واليونانية مما أثار رعباً عاماً فى أوروبا وبذلك انتعشت الروح الصليبية من جديد بتأييد من البابا لطرده العثمانيين من البلقان وتخليص القسطنطينية من الحصار المفروض عليها (الحصار الثانى عام ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م)، غير أن القوات الصليبية التى احتشدت فى بودا (بودابست) قد إمكن إبادتها خلال فترة قصيرة عند مشارف نيكوبولى على الضفة الغربية لنهر الدانوب عام ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م^(٥٣)، وكانت القوات الصليبية خلال زحفها نحو هذه الأماكن تحرق، وتهدم ما يصادفها فى الطريق وتمارس الكثير من المظالم مع السكان المحليين فلما منيت بالهزيمة الساحقة تأكد رأى القائل باستحالة طرد العثمانيين من البلقان، وعملت هذه المعركة أيضاً على ذىوع شهرة بايزيد الصاعقة فى العالم الإسلامى على أنه مجاهد كبير، وأصبح فتح القسطنطينية قريب المنال^(٥٤)، وعلى الرغم من حدوث كارثة أنقرة الشهيرة عام ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م، وهزيمة الجيش العثمانى، وأسر بايزيد الصاعقة على يد تيمور لnk^(٥٥)، وما ترتب على ذلك من حالة التردى والتفكك والخلافات الداخلية خلال العهد المعروف بدور الفترة (Fetret Devri) ٨٠٥ - ٨١٦هـ / ١٤٠٢ - ١٤١٣م^(٥٦) فإنه سرعان ما أثبتت الأحداث أنها ليست سوى مجرد أزمة طارئة تجاوزها، وتغلب عليها بنو عثمان عندما انفرد محمد الأول الملقب بـ چلبى سلطان بالحكم فى هذا العام الأخير - أى ٨١٦هـ / ١٤١٣م - ذلك السلطان الذى وفق فى لم شتات

(٥٣) أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مج ١، ص ص ١٠٦ - ١٠٨؛ حسون، العثمانيون والبلقان، ص ص ٥٥ - ٥٧؛ مصطفى، فى أصول، ص ص ٥٣ - ٥٤؛ رضوان، القوة العثمانية، ص ص ٣٤ - ٣٥؛ الصلابى، الدولة العثمانية، ص ص ١١٢ - ١١٤؛ العمرى، الفتوح الإسلامية، ص ص ٣٩٢ - ٣٩٣؛ مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، ص ص ٦٥ - ٧٠.

Yügel, Türkiye, S. 50 - 54.

(٥٤) أوغلى، الدولة العثمانية، مج ١، ص ١٩.

(٥٥) أوزتونا، تاريخ، مج ١، ص ص ١٠٩ - ١١١؛ مصطفى، فى أصول، ص ص ٥٥ - ٥٩؛ هريدى، الحروب العثمانية الفارسية، ص ص ٢٦ - ٢٧، الصلابى، الدولة العثمانية، ص ص ١١٨ - ١١٩؛ مانتران، تاريخ، ج ١، ص ص ٧٥ - ٧٦.

Yügel, Türkiye, 2, S. 63 - 66.

(٥٦) أوزتونا، تاريخ، مج ١، ص ص ١١٢ - ١١٥؛

Yügel, Türkiye, 2, S. 69 - 76.

الدولة وإقالتها من عثرتها الطارئة على الرغم من قصر فترة حكمه ٨١٦ - ٨٢٤هـ / ١٤١٣ - ١٤٢١م ولذلك فقد اعتبره المؤرخون بمثابة « نوح الذى حافظ على سفينة الدولة حين هدها طوفان الغزوات التتيرية » (٥٧).

ومن الفتوحات التى تمت فى عهده فتح سلوفانيا وسراييفو (بوسنة سراي) عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م على يد الغازى إسحاق بك ، كما أن سلطان چلبى محمد اجتاز نهر الدانوب نحو الشمال فى العام التالى - أى ٨١٩هـ / ١٤١٦م - ودخل رومانيا وشيد قلعتى تورنو و يركوى ، وتم فتح أولونيا عام ٨٢٠هـ / ١٤١٧م، وأرسلت ثلاث حملات إلى أردل (ترانسلفانيا) كان آخرها عام ٨٢٤هـ / ١٤٢١م (٥٨). ومما ينسب إلى عهده أيضاً أنه قام بنقل العاصمة من أدرنة (مدينة الغزاة) إلى بروسه (أو بورصة) العاصمة الأولى للعثمانيين ، والتى اشتهرت باسم مدينة الفقهاء (٥٩) ، إلا أن ذلك لم يمنع الفتوحات والحملات العسكرية خلال عهده . وعندما تولى مراد الثانى الحكم استؤنفت حركة الجهاد والفتوحات العثمانية بعد أن قام بنقل العاصمة إلى أدرنة مرة ثانية ، وتم خلال عهده ٨٢٤ - ٨٥٥هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١م فتح كل من سلاتيك ٨٣٤هـ / ١٤٣٠م ويانيا ٨٣٥هـ / ١٤٣١م وسمندره جنوب بلغراد ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م، وفى العام التالى - أى ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م - حوصرت بلغراد مفتاح وسط أوروبا ، ولكن مُني الجيش العثمانى بالهزيمة ، وبالتالى تزعزع موقف العثمانيين فى البلقان حتى وجدوا أنفسهم فى حرب دفاعية ضد الغارات المباغطة التى كان يقوم بها المجرىون . وخلال هذه الفترة الحرجة اضطر مراد الثانى للعودة إلى اتباع سياسة الوفاق فى الأناضول والبلقان على السواء وأبرمت اتفاقية للصلح بينه وبين المجر عرفت بمعاهدة سكدين (Segedin) عام ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م بل إنه تخلى عن العرش مؤقتاً لابنه محمد الذى عرف فيما بعد بالقاتح ، وذلك فيما بين عامى ٨٤٨ - ٨٥٠هـ / ١٤٤٤ - ١٤٤٦م ، مما أنعش الأمل فى نفوس الأوروبيين - حيث كان ابنه محمد لا يزال صغيراً لم يتجاوز بعد ١٣ عاماً ؛ فرجع مراد الثانى عن عزلته ، وقاد الجيش العثمانى ، وحقق انتصاراً باهراً على البوسنة والصرب والتحالف الأوروبى فى معركة وارنا Varna على ساحل البحر الأسود فى نفس العام - أى ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م - وكانت هذه المعركة نقطة تحول مهمة فى تقرير مصير

(٥٧) مصطفى ، فى أصول ، ص ٦٢ .

(٥٨) أوزتونا ، تاريخ ، مج ١ ، ص ١١٧ ، مانتران ، تاريخ ، ج ١ ، ص ص ٨٢ - ٨٦ .

(٥٩) مصطفى ، فى أصول ، ص ٦٣ .

العثمانيين فى البلقان لا سيما أنه أعقب هذا الانتصار بنحو أربع سنوات انتصار حاسم آخر فى معركة قوصوه (كوسوفو) الثانية عام ٨٥٢هـ / ١٨٤٨م وهو ما ساعد على تقوية نفوذ العثمانيين داخل البلقان ، ومهد السبيل لإحباط عام فى أوروبا ، وقرب من موعد فتح القسطنطينية^(٦٠) ، وهو ما تحقق فى المرحلة التالية على يدى ابنه محمد الثانى الملقب بالفاتح .

ـ مرحلة ما بعد فتح القسطنطينية ٨٥٧ - ٩٧٤هـ / ١٤٥٣ - ١٥٦٦م ، جلس السلطان محمد الثانى الملقب بالفاتح على العرش للمرة الثالثة والأخيرة ـ إذ سبق أن تنازل له والده مراد الثانى عن العرش مرتين قبل معركة وارنا وبعدها فيما بين عامى ٨٤٨ - ٨٥٠هـ / ١٤٤٤ - ١٤٤٦م ، كما سبق القول ـ وهو يعد بحق المؤسس الحقيقى للإمبراطورية العثمانية التى بلغت أوج عظمتها فى عهد السلطان سليمان القانونى أو المعظم (ت ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) .

واستطاع محمد الفاتح خلال فترة حكمه ٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١م أن يحقق الكثير من الإنجازات والإصلاحات والفتوحات ، ويكفيه من هذه الأخيرة نجاحه لأول مرة فى فتح مدينة القسطنطينية عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ، وبذلك كتب بيده شهادة وفاة الإمبراطورية البيزنطية إلى الأبد^(٦١) . وكان لهذا الفتح صدى عظيم ووقع مُدوِّ فى

(٦٠) أوزتونا ، تاريخ ، مج ١ ، ص ص ١٢٢ - ١٢٩ ؛ حسون ، العثمانيون والبلقان ، ص ص ٥٨ - ٦١ ، مصطفى ، فى أصول ، ص ص ٦٤ - ٦٥ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٢٢ ؛ شاكر ، كوسوفا ، ص ص ٤٧ - ٥٠ ، الصلابى ، الدولة العثمانية ، ص ص ١٣٣ - ١٣٧ ؛ مانتران ، تاريخ ، ج ١ ، ص ص ٩٢ - ١٠٨ .

Yügel, Türkiye, 2, S. 104 - 113, 116 - 121 .

(٦١) أوزتونا ، تاريخ ، مج ١ ، ص ص ١٣١ - ١٤١ ؛ حسون ، العثمانيون والبلقان ، ص ص ٨١ - ١٠٣ ؛ الصلابى ، الدولة العثمانية ، ص ص ١٤٣ - ١٨٠ ؛ العمرى ، الفتوح الإسلامية ، ص ص ٣٥٥ - ٣٨٥ ، فهمى ، عبد السلام عبد العزيز ، السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم ، دمشق ، بيروت ، دار القلم ، (١٩٧٥) ، ص ص ٧٧ - ١٤٣ ، على ، سيد رضوان ، السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامى فى أوروبا الشرقية ، جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع (١٩٨٢م) ، ص ص ١٩ - ٣٩ ؛ الرشيدى ، سالم ، محمد الفاتح ، طنطا ، دار البشير (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م) ، ص ص ٦٧ - ١٢٣ ، كولز ، العثمانيون ، ص ص ٣٤ - ٣٦ ؛

Yügel, Türkiye, S. S. 131 - 140 .

جميع أنحاء العالم آنذاك (٦٢)، كما ترتبت عليه آثار إيجابية كثيرة من أبرزها توطد السيادة العثمانية في البلقان فيما بين عامي ٨٥٧ - ٨٨٤ هـ / ١٤٥٣ - ١٤٧٩ م ؛ إذ تم فتح انز Enez . ، وهو مرفأ جنوبى على مصب نهر مريج - وبعض جزر بحرايجه والجزر اليونانية (مثل لمنوس ولسيوس ومسنبوس) ٨٦٠ - ٨٦٧ هـ / ١٤٥٥ - ١٤٦٢ م ، وأثينا ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ م ، والمورة ٨٦٤ هـ / ١٤٥٨ م ، وصربيا ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م ، والبوسنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م ، والهرسك ٨٧٠ - ٨٨٧ هـ / ١٤٦٥ - ١٤٨٢ م ، والبانيا ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م ، والأفلاق والبغدان (رومانيا) ، وغير ذلك (٦٣) .

وعلى الرغم من ذلك فشل الفاتح فى حصار رودس الأول ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ م ، وحصار بلغراد ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ م ، كذلك نشبت الحرب العثمانية البندقية التى استمرت لمدة ستة عشر عامًا ٨٦٨ - ٨٨٤ هـ / ١٤٦٣ - ١٤٧٩ م ، وانتهت بعقد الصلح ، وارغام البنادقة على دفع مبلغ كبير من المال نظير السماح لهم بالتجارة والمرور فى الأراضى العثمانية (٦٤) .

وفشل أيضًا حصار رودس الثانى عام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م ، وعلى الرغم من ذلك نزلت القوات العثمانية على الساحل الإيטالى ، واستولت على قلعة أوترانتو بالقرب من برنديزى ، وكانت بمثابة رأس جسر مهم نحو فتح إيطاليا نفسها غير أن وفاة الفاتح

(٦٢) أوزتونا ، تاريخ ، مج ١ ، ص ص ١٤٢ - ١٤٥ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٢٣ - ٢٤ ، الصلابى ، الدولة العثمانية ، ص ص ١٨٩ - ١٩٨ ؛ الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ص ١٣٧ - ١٥٦ ؛ مانتران ، ج ١ ، ص ص ١٢٥ - ١٢٧ ؛ على ، السلطان محمد الفاتح ، ص ص ٣٨ - ٣٩ .
Yügel, Türkiye, S, S. 140 - 141 .

(٦٣) أوزتونا ، تاريخ ، مج ١ ، ص ص ١٤٩ - ١٥٤ ، ١٦٧ - ١٦٩ ؛ حسون ، العثمانيون والبلقان ، ص ص ١١٤ - ١٢٢ ؛ الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ص ١٥٩ - ٢١٢ ؛ قاروط ، المسلمون فى يوغسلافيا ، ص ٢٢٠ ؛ يونس ، الإسلام والمسلمون فى ألبانيا ، ص ص ٣٨ - ٥٣ ؛ على ، السلطان محمد الفاتح ، ص ص ٣٩ - ٤٩ ؛ مانتران ، تاريخ ، ج ١ ، ص ص ١٣٠ - ١٣٣ .
Yügel, Türkiye, S, S. 141 - 170 .

(٦٤) أوزتونا ، تاريخ ، مج ١ ، ص ص ١٧٣ ، أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٢٥ ؛ الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ص ٢٤٠ - ٢٤٦ ، ٢٥٣ - ٢٦٠ ، ٢٧٣ - ٢٩٧ ؛ مصطفى ، فى أصول ، ص ص ٧١ - ٧٢ ، على ، السلطان محمد ، ص ص ٥٥ - ٥٩ ؛ مانتران ، تاريخ ، ج ١ ، ص ص ١٣٥ - ١٣٩ .

فجأة عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م حالت دون تحقيق ذلك ويقال : إن الفاتح كان يعد حملة كبيرة لا يعرف أحد وجهتها قبل وفاته مباشرة ، ومن الصعب بطبيعة الحال التنبؤ بما كان يمكن أن تسفر عنه الأحداث لو امتد به العمر عاماً آخر ، فهل كان من الممكن الاستيلاء على تفاحة روما الحمراء ؟ وعلى ذلك يمكن القول بأن وفاة محمد الفاتح المفاجئة قد أنقذت أوروبا (٦٥).

وعندما جلس بايزيد الثانى على العرش واصل سياسة الجهاد والفتوحات ، وتم خلال عهده ٨٨٦ - ٩١٨هـ / ١٤٨١ - ١٥١٢م القيام بحملة فى المورة وضم الهرسك عام ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م ، ثم حملة البغدان (مولدافيا) عام ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م واستطاع أن يضم إلى الأراضى العثمانية منطقة كيلى Kilye واق كرمان Akkerman التى كانت ذات مكانة مهمة جداً فى التجارة مع السهوب الشمالية ، وبذلك نجح العثمانيون فى إغلاق الطرق النازلة من الشمال إلى البحر الأسود الذى صار بحيرة عثمانية ، وفيما بين عامى ٨٩٩ - ٩٠٢هـ / ١٤٩٣ - ١٤٩٦م أصبح العثمانيون وجهاً لوجه مع لهستان (بولونيا) ، وكان النصر لصالح العثمانيين (٦٦) .

ومهما يكن من أمر فإن بايزيد الثانى قد اضطر فى سياسته الخارجية إلى اتباع سياسة اللين والمهادنة فى كثير من الأحيان بسبب أخيه جم سلطان الذى كان فى أيدي الأوروبيين ، وكان بمثابة رقعة الشطرنج فى لعبة السياسة الدولية آنذاك (٦٧) ، حيث كان فرسان رودس والبابا والفرنسيون والمجريون يحاولون الاستفادة من وجوده تحقيقاً لغايات

(٦٥) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٢٦ ؛ مصطفى ، فى أصول ، ص ٧٢ ؛ على ، السلطان محمد ، ص ص ٥٩ - ٦٠ ؛ الرشيدى ، محمد الفاتح ، ص ص ٣٠٩ - ٣٢٨ .

(٦٦) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٨٧ ، أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٢٨ - ٢٩ ، مانتران ، تاريخ ، ج ١ ، ص ص ١٥٥ - ١٥٧ .

(٦٧) دراج ، أحمد السيد ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٨ ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (١٩٥٩م) ، ص ص ٢٠١ - ٢٤٢ . وعن لجوء جم إلى السلطان المملوكى الأشرف قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١هـ) انظر : عبد التواب ، عبد الرحمن ، قايتباى المحمودى ، سلسلة الإعلام ، العدد ٢٠ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٨م) ، ص ص ١٦٧ - ١٦٨ ؛ عبد الدايم ، عبد العزيز محمود ، مصر فى عصرى المماليك والعثمانيين ، القاهرة ، مكتبة زهراء الشرق (١٩٩٦م) ، ص ١٥٥ .

مختلفة ومصالح متنوعة مادية كانت أم سياسية ، إلا أنه عندما توفى - أى جم سلطان - فى عام ٩٠١هـ / ١٤٩٥م اندفعت بشدة السياسة الخارجية لبازيد الثانى ، واستطاعت قواته الاستيلاء على أهم قواعد البندقية فى شبه جزيرة المورة عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ، وهى مودون وكورون ولبانت ، وكان ذلك بمساعدة القوات البحرية ، وتم بناء قلعتين بهدف السيطرة على خليج بتراس .

ومما أسفرت عنه المعارك العثمانية البندقية فى ذلك الوقت أنها وضعت البداية للتفوق البحرى العثمانى كما أقرت لهم مكانة جديدة فى عملية توازن القوى ، وعقدت معاهدة للصالح بين الطرفين فى عام ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م (٦٨) .

أما عهد سليم الأول الملقب بـ « ياووز » وتعنى الشديد أو القاسى ٩١٨ - ٩٢٦هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م فعلى الرغم من أنه أجل حركة الجهاد والفتوحات العثمانية فى أوروبا إلا أنه تميز بمواجهة خطر الدولة الصفوية فى إيران ودعم السيادة العثمانية فى شرق الأناضول وجنوبه الشرقى (٦٩) من جهة والمواجهة مع سلطنة المماليك وفتح الشام ومصر ، وبالتالي بدأت السيادة العثمانية على بلدان العالم العربى من جهة ثانية (٧٠) .

وخلال فترة حكم السلطان سليمان القانونى أو المعظم فيما بين عامى ٩٢٦ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م بلغت الإمبراطورية العثمانية أوج اتساعها وذرورة عظمتها ،

(٦٨) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٢٩ ، أوزتونا ، تاريخ ، مج ١ ، ص ص ١٩٨ - ٢٠٠ ؛ مصطفى ، فى أصول ، ص ص ٧٣ - ٧٤ ؛ مانتران ، تاريخ ، ج ١ ، ص ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٦٩) هريدى ، الحروب العثمانية الفارسية ، ص ص ٥١ - ٥٨ ؛ أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٢١٥ - ٢١٨ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٣٠ - ٣٢ ؛ الصلابى ، الدولة العثمانية ، ص ص ٢٩٣ - ٣٠٤ ؛ حسون ، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ص ص ٤٧ - ٤٨ ، مانتران ، تاريخ ، ج ١ ، ص ص ٢٠٨ - ٢١٢ .

(٧٠) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ص ٢٢٠ - ٢٣٦ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٣٢ - ٣٥ ؛ الراقد ، محمد عبد المنعم السيد ، الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة (١٩٦٨م) ، ص ص ٨٧ - ١٠٩ ؛ إيفانوف ، نيقولاى ، الفتح العثمانى للأقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤م ، ترجمة يوسف عطا الله ، راجعه وقدم له مسعود ضاهر ، بيروت ، دار الفارابى (١٩٨٨م) ؛ حسون ، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ص ص ٤٨ - ٥٩ ؛ مانتران ، تاريخ ، ج ١ ، ص ص ٢١٢ - ٢١٥ .

وتتميز عهده الطويل بكثرة النشاط السياسى والعسكرى المكثف مما جعل الدولة العثمانية إحدى ثلاث دول عالمية فى أوروبا (إمبراطورية الهابسبورج وقيصرية موسكو والإمبراطورية العثمانية) ، ومن ثم أصبحت الدولة آنذاك عنصر توازن جديد فى السياسة العالمية (٧١) .

وعن حركة الجهاد والفتوحات العثمانية خلال عهد القانونى يمكن القول بأن الحملات العثمانية قد توجهت براً وبحراً إلى أوروبا ، وقد نجحت فى فتح بلغراد عام ٩٢٧هـ / ١٥٢١م (٧٢) وفتح جزيرة رودس ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م (٧٣) ، وفى عام ٩٣٢هـ / ١٥٢٦م وقعت الحرب العثمانية المجرية ، وانتصر العثمانيون فى معركة مُهاج (موهاكس) الشهيرة ، وبذلك وضعت نهاية المملكة البلغارية ، وتم كسر أهم خط دفاع للمسيحية ضد العثمانيين فى أوروبا الوسطى ، وخطوا فى الوقت ذاته الخطوة الأولى فى معارك سوف تسفر عن تمزيق الأراضى المجرية ، ثم ضمها تدريجياً إلى الأراضى العثمانية (٧٤) . وفى عام ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م تم استكمال فتح البوسنة ، وفى عام ٩٣٥هـ / ١٥٢٩م خرجت حملة أخرى إلى المجر لم يكن يقصد منها الاستيلاء على فيينا غير أن الجيش العثمانى لم يجد جيشاً يحاربه ، ولذلك تقدم حتى مشارف فيينا وراح يحاصرها ، وقد ترتب على ذلك الحصار قيام الاتحاد المسيحى فى أوروبا مما اضطر العثمانيون إلى رفع الحصار بسبب قلة الاستعداد ونقص الإمدادات وصعوبة المناخ ،

(٧١) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٣٥ .

(٧٢) الأرنأؤوط ، محمد موفق ، تاريخ بلغراد الإسلامية ، الكويت ، مكتبة دار العروبة (١٩٨٧م) ، ص ١٩ ؛ الإسلام فى يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو ، عمان ، دار البشير (١٩٩٣م) ، ص ٢٥ ؛ مانتران ، تاريخ ، ج ١ ، ص ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٧٣) العباسى ، عبد الرحيم بن عبد الرحيم ، ت ٩٦٣هـ / ١٥٥٦م ، منح رب البرية فى فتح رودس الأبية ، دراسة وتحقيق فيصل عبد الله الكندرى ، حوليات كلية الآداب - الحولية ١٨ ، الرسالة ١٢٢ ، جامعة الكويت (١٤١٧ - ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ - ١٩٩٨م) ، ص ص ٥٧ - ٨١ (مقدمة التحقيق) ، ص ص ٩٣ - ١٣٢ (متن الكتاب نفسه) .

(٧٤) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٢٦١ - ١٧٢ ؛ الصلابى ، الدولة العثمانية ، ص ص ٣٢٩ - ٣٣٠ ؛ مصطفى ، فى أصول ، ص ص ٨٩ - ٩٠ ؛ حسون ، الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، ص ص ٣٦ - ٣٧ ؛ كلو ، أندري ، سليمان القانونى ، ترجمة البشير بن سلامة ، بيروت ، دار الجيل (١٩٩١م) ، ص ص ٧٧ - ٨٩ ؛ ١٠٣ - ١١٦ ، كولز ، العثمانيون ، ص ص ٨٥ - ٨٦ .

وعلى ذلك تكون أراضى المجر القديمة قد انقسمت إلى ثلاثة أقسام ، أحدها مع فرديناند الذى يحمل تاج بوهيميا والمجر ، والثانى مع زابوليانى ومركزه يودين ، والثالث مع العثمانيين ، ويشكل سنجقاً فى سيرم يقع بين نهري الدانوب وساوا (السافا) .

وفى عام ٩٤٩هـ / ١٥٤١م تم الضم النهائى لبودين وحولت إلى بگلريكية عثمانية ربطت بعاصمة الدولة مباشرة ، ثم قامت حملة جديدة فى عام ٩٥١هـ / ١٥٤٣م لتأمين بودين ، وتم الاستيلاء على بعض المواقع الاستراتيجية المهمة مثل سيكلوش واسترغون وايستولنى - بلغراد ، وفى عام ٩٥٢هـ / ١٥٤٤م قام بگلريكى بودين بمواصلة تلك الفتوح ، واستطاع توسيع الحدود عن ذى قبل . وفى عام ٩٥٥هـ / ١٥٤٧م عقدت معاهدة صلح بين العثمانيين وآل هايسبورج ، وتم بمقتضاها اعتراف فرديناند بالتفوق العثمانى فى أوروبا الوسطى واستمراره فى تأدية الجزية عن الأراضى المجرية الواقعة تحت يده (٧٥) .

وهكذا انضوت البلقان تحت لواء الدولة العثمانية ، ورفرف الهلال فوق ربوعها وترتب على هذا الوضع الجديد أن أصبحت شبه الجزيرة البلقانية جزءاً من إمبراطورية كبيرة مترامية الأطراف فوق قارات ثلاث هى آسيا وأوروبا وأفريقيا . فهل سيستمر الوضع على ذلك الحال عقب وفاة السلطان سليمان القانونى أو المعظم عام ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م أم لا ، وهذا هو ما سوف نسلط الضوء عليه فى المرحلة التالية .

- المرحلة الثانية : مرحلة التقلص والانحسار :

تشمل هذه المرحلة الفترة الممتدة من الربع الأخير من القرن ١٠هـ / ١٦م إلى الربع الأول من القرن ١٤هـ / ٢٩م .

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية قد وصلت إلى أوج اتساعها وذروة عظمتها فى عصر السلطان سليمان القانونى أو المعظم (٩٢٦ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م) كما سبق القول ، إلا أن مظاهر الانحطاط كانت قد بدأت تتسرب خلال ذلك العصر ذاته

(٧٥) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٣٦ - ٣٩ ؛ كلو ، سليمان القانونى ، ص ١١٦ - ١٢٢

، ١٩٧ - ٢٠٢ ؛ مانتران ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢١٨ - ٢٢٩ .

لا سيما فى أواخره ، ثم لم تلبث أن تكشفت خلال عصر السلطان مراد الثالث ٩٨٢ - ١٠٠٣هـ / ١٥٧٤ - ١٥٩٤م .

والحق أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى أثرت بقوة فى كافة عناصر النظام الذى يحكم الدولة العثمانية ، وكذلك فترة التحول التى هبأت لها تلك العوامل إنما كانت تنبئ عن مرحلة سوف تفقد فيها فلسفة الجهاد والفتوحات فى أوروبا تأثيرها^(٧٦) ، كما لا يمكن أن نغفل هنا أثر الحروب العثمانية الإيرانية بخصوص هذا الموضوع^(٧٧) ، وهو الأمر الذى جعل الدولة تفكر فى حماية وجودها نفسه سواء فى داخل أوروبا أو فى آسيا وأفريقيا .

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول أن ما حققته الدولة العثمانية من نجاحات عسكرية فى القرن ١١هـ / ١٧م ، وبخاصة على يد عائلة كويرلى من جهة وحركات الإصلاح والتجديد والتنظيمات من جهة ثانية لم يؤت ثماره المرجوة ، وبدأت الدولة تخوض مرحلة من التراجع المستمر والتفكك والانحطاط ، أو فلنقل التقلص والانحسار حتى وصفت بأنها الرجل المريض ، وأخذت الولايات البلقانية وقبرص تنسلخ عنها شيئاً فشيئاً حتى تحقق لها الاستقلال أو وقعت تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية .

وعلى ضوء هذا وذاك نستطيع أن نقسم هذه المرحلة إلى مرحلتين فرعيتين وهما :

- المرحلة الأولى ٩٧٤ - ١٢١٩هـ / ١٥٦٦ - ١٨٠٤م .

- المرحلة الثانية ١٢١٩ - ١٣٤٠هـ / ١٨٠٤ - ١٩٢٢م .

وفيما يلى نحاول أن نرسم صورة صادقة للملامح كل مرحلة منهما على حدة :

المرحلة الأولى : ٩٧٤ - ١٢١٩هـ / ١٥٦٦ - ١٨٠٤م :

بدأت هذه المرحلة عقب وفاة السلطان سليمان القانونى أو المعظم (ت ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) واعتلاء ابنه وخليفته سليم الثانى العرش (٩٧٤ - ٩٨٢هـ / ١٥٦٦ - ١٥٧٤م) ، وانتهت عام ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م عندما اندلعت ثورات الصرب ، واشتعلت

(٧٦) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٤٨ - ٥٠ .

(٧٧) هريدى ، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها فى انحسار المد الإسلامى عن أوروبا ، ص ص ٦٩ - ٨٨ .

فى البلقان فى أواخر عصر السلطان سليم الثالث (١٢٠٤ - ١٢٢٢هـ / ١٧٨٩ - ١٨٠٧م) الذى شهد حركة الإصلاح والتجديد المعروفة بالنظام الجديد . وعلى الرغم مما شهدته هذه المرحلة من تحقيق بعض النجاحات فى حركة الفتوحات العسكرية فى أوروبا ومنها فتح قبرص^(٧٨) ٩٧٩هـ / ١٥٨١م ، وفتح كريت^(٧٩) ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م ، وما ترتب على ذلك من ضمان الأمن لطريق التجارة البحرية فى أحيان كثيرة . ومنها فتح قلعة يانق على يد الصدر الأعظم سنان باشا ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م ، ولذلك اشتهر بلقب فاتح يانق^(٨٠) وفتح قلعة أكرى ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م ، وهى الحملة التى اعتبرها المؤرخون الحملة الهمايونية الوحيدة فيما بين عامى ٩٧٤ - ١٠٣١هـ / ١٥٦٦ - ١٦٢١م .

أى : خلال ما يزيد عن نصف قرن عقب وفاة السلطان سليمان القانونى وحتى عهد السلطان عثمان الثانى - ولذلك اشتهر السلطان محمد الثالث (١٠٠٤ - ١٠١٢هـ / ١٥٩٥ - ١٦٠٣م) الذى قاد هذه الحملة بنفسه بلقب فاتح اكرى^(٨١) ، ومنها فتح أويوار Uyvar ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م ومن الحملات الناجحة فى هذه المرحلة أيضاً حملة قانيجة عام ١٠١٠هـ / ١٦٠١م وحملة استرغون ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م وحملة خوتين ١٠٣١هـ / ١٦٢١م ، وفى عام ١١٢٧هـ / ١٧١٥م دخل العثمانيون المورة واستولوا على القسم الأعظم منها ، ولم يكن اليونانيون فى المورة راضين عن حكم البنادقة الكاثوليك ، بل إن قسماً منهم هاجر مع الأهالى المسلمين عقب غزوها إلى جزر بحر إيجه وسواحل الأناضول الغربية ، وسوف تستمر هذه الهجرات نتيجة لبعض العوامل الاقتصادية فى القرنين ١٢ - ١٣هـ / ١٨ - ١٩م لتكون سبباً فى زيادة عدد السكان اليونانيين فى غرب الأناضول ، وأخيراً تم القضاء على البنادقة بمقتضى معاهدة كامبوفورميا التى عقدت فى عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م ، والتى تقاسمت فرنسا بموجبها مع النمسا أراضى جمهورية البندقية ، ثم استولت على أراضى البندقية القديمة الواقعة على سواحل دالماشيا فى

(٧٨) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٣٦٨ - ٣٧١ ؛ عاشور ، سعيد ، قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، (١٩٥٧م) ، ص ص ١٦٩ - ١٧٨ ؛ يحيى ، جلال ، التطور التاريخى لجزيرة قبرص ، ضمن كتاب مشكلة قبرص ، القاهرة ، دار المعارف (١٩٨١م) ، ص ص ٧٢ - ٧٤ ؛ شاكر ، محمود ، المسلمون فى قبرص ، بيروت ، دمشق ، المكتب الإسلامى ، (١٩٨٨م) ، ص ص ٢٦ - ٢٧ ؛ وعن تاريخ قبرص منذ أن افتتحها المسلمون عام ٢٨هـ / ٦٤٨م إلى الفتح العثمانى لها ، انظر : عاشور ، قبرص ، ص ص ٤ - ١٨٦ ؛ يحيى ، التطور التاريخى ، ص ص ٣٩ - ٦٣ ، شاكر ، المسلمون فى قبرص ، ص ص ١٤ - ٢٤ .

الشريط الساحلى لألبانيا وعلى مجموعة من الجزر مثل كورفووزنتا وآيامورا وكفالونيا ، ومن ثم أصبحت فرنسا جارة للدولة العثمانية التى كانت تشعر بعدم الارتياح إزاء فرنسا من جراء الأفكار الثورية ، فلما وقع ذلك الاعتداء لم تشأ الدولة العثمانية تصديقه ، ثم لم يلبث أن تحول إلى عداء سافر وصدام مسلح^(٨٢) . إلا أن هذه المرحلة شهدت فى المقابل كثيراً من الانتكاسات والهزائم ، وهو الأمر الذى يفسره كثرة المعاهدات والاتفاقيات فى تلك الفترة ، وبالتالى ضياع الكثير من الولايات العثمانية فى أوروبا .

أما الهزائم التى منيت بها الجيوش العثمانية فى تلك المرحلة فحسبنا أن نشير إلى كل من هزيمة ليانتو (اينابختي) Inebahti ٩٧٩هـ / ١٥٧١م ، وهزيمة فيينا عقب الحصار الثانى الفاشل لها فى عام ١٠٩٥هـ / ١٦٨٣م ، وهزيمة أوبوار Uyvar ، وضياعها فى عام ١٠٩٧هـ / ١٦٨٥م ، وسقوط بودين عام ١٠٩٨هـ / ١٦٨٦م ، واگرى عام ١٠٩٩هـ / ١٦٨٧م ، وبلغراد عام ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م ، وقانيجه ١١٠٢هـ / ١٦٩٠م ، وهزيمة سلانكامن Salankamen عام ١١٠٣هـ / ١٦٩١م ، وهزيمة زنتا^(٨٣) Zenta عام

(٧٩) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٥٠٨ - ٥١٥ ، أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٥٧ ؛ مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى ، ص ١٥٤ .

(٨٠) الحداد ، محمد حمزة ، عمائر الوزير قوجه سنان باشا (المتوفى ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م) الباقية فى القاهرة ودمشق ، مجلة العصور ، المجلد التاسع - الجزء الأول ، الرياض ، دار المريح ، (يناير ١٩٩٤م) ، ص ١٣٦ حاشية ١ (وما بها من مصادر ومراجع عربية وتركية وأجنبية) (وقد أعيد نشر هذا البحث ضمن كتاب للمؤلف ، حوى بعض بحوثه بعنوان بحوث ودراسات فى العمارة الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة نهضة الشرق ، ط ١ (١٩٩٦م) ، ط ٢ ، (٢٠٠٤م) ص ٩٥ حاشية ٤ (وما بها من مصادر ومراجع عربية وتركية وأجنبية) .

(٨١) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٤٧ - ٤٨ ؛ أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٤٣٨ - ٤٤٠ ، ٤٤٣ .

(٨٢) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٥٧ ، ٦٢ - ٦٣ ، ٨٣ - ٨٤ ؛ أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٤٤١ - ٤٤٥ ، ٤٥٦ - ٤٥٧ ، ٥٩٨ - ٦٠٠ .

(٨٣) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٤٤ - ٤٥ ، ٥٨ - ٥٩ ؛ أوزتونا ، تاريخ ، مج ١ ، ص ص ٣٧١ - ٣٧٦ ، ٥٢٩ - ٥٣٦ ، ٥٤٣ - ٥٤٩ ، ٥٥٧ - ٥٦٠ ، ٥٦٢ - ٥٦٧ ، ٥٧٥ - ٥٧٨ .

١١٠٩هـ / ١٦٩٧م ، وكانت هزيمة زنتا النهاية لكل شيء وبدأ يتضح للعثمانيين أنه لا حيلة أمامهم سوى طلب الصلح ، فانعقدت معاهدة قارلوفجه عام ١١١١هـ / ١٦٩٩م ، واعترف العثمانيون من خلالها بسيادة آل هابسبورج على المجر وأصبحت بلغراد بعد ذلك منطقة فاصلة بين الحدود وبقيت طمشوار بيد العثمانيين ، بينما تركت المورة ودالماشيا للبنادقة ، أما قمانيجه وبودوليا فقد أخذتهما لهستان ، وعلى ذلك النحو تكون الأراضي التي دار حولها الصراع منذ عام ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م قد تخلت عنها العثمانيون وانمحي تماماً شريط الأمن الذي أقيم حول الأفلاق والبغدان (رومانيا) ، ومن ثم لم يجد العثمانيون أمامهم إلا زيادة اهتمامهم بهاتين الإمارتين عن ذي قبل (٨٤) .

ولما كانت بلغراد هي صمام الأمان لمنطقة البلقان ومفتاح أوروبا الوسطى في الوقت ذاته ؛ ولذلك فإن سقوطها وضياعها إنما يعرض وجودهم للخطر ، ومن هنا كان لا بد من استعدادات عثمانية كبيرة ومواجهات متصلة حتى يمكن الاحتفاظ بها ، ولكن ظروف الدولة العثمانية في ذلك الوقت لم تمكنها من ذلك الاحتفاظ لفترات طويلة متصلة ، ولعل في استعراض تاريخ بلغراد ما يكفي لتأكيد ذلك ، ففيما بين عامي ١٦٨٨ - ١٦٩٠م خضعت للحكم النمساوي ، ثم عادت للعثمانيين فيما بين ١٦٩٠ - ١٧١٧م ، ثم خضعت للحكم النمساوي مرة ثانية ١٧١٨ - ١٧٣٩م ، ثم العثماني ١٧٣٩ - ١٧٨٨م ، ثم النمساوي ١٧٨٩ - ١٧٩١م ، فالعثماني ١٧٩١ - ١٨٠٦م ، ثم الحكم الصربي ١٨٠٦ - ١٨١٣م ، فالعثماني ١٨١٣ - ١٨٦٢م ، وهكذا حتى أصبحت عاصمة صربيا فيما بين عامي ١٨٧٦ - ١٩١٨م (٨٥) . وتعرضت كذلك البوسنة والأفلاق للهجوم النمساوي ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م ، إلا أن بگلربگی البوسنة حكيم أوغلي على باشا رد هذا الهجوم ، ثم لم تلبث أن عقدت معاهدة ساروفجه عام ١١٥٢هـ / ١٧٣٩م ، وبمقتضاها تخلت النمسا عن الأراضي التي اكتسبتها - ومنها بلغراد كما سبق القول - وجرى الاعتراف بالحدود التي تقررت في البوسنة عقب معاهدة قارلوفجه التي سبقت الإشارة إليها ، وهكذا تكون الأفلاق والبغدان قد تخلصتا من الخطر الذي حاق بهما ، كما ترك الروس أيضاً ما استولوا عليه من أراضٍ ، وأعقب هذه المعاهدة - أي ساروفجه - فترة من

(٨٤) أوغلي ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٥٩ - ٦٠ : أوزتونا ، تاريخ ، مج ١ ، ص ٥٧٥ - ٥٨٧ .

(٨٥) الأرنأؤوط ، تاريخ بلغراد الإسلامية ، ص ٦١ - ٩٧ : الإسلام في يوغسلافيا ، ص ٦٧ - ١٠٣ .

اللاحرب لمدة ثلاثين سنة عرفت باسم الاسترخاء السلطاني ، وبرزت في ذلك الوقت أهمية الدبلوماسية في مسألة توازن القوى في أوروبا ، وظهر بوضوح أن الحروب ليست وحدها هي الحاسمة في كل وقت (٨٦) .

وقرب نهاية مرحلة السلام أو الاسترخاء السلطاني اندلعت الحرب العثمانية الروسية عام ١١٨٢هـ / ١٧٦٨م ، وفيها توغلت الجيوش الروسية في الأراضي العثمانية في نهر الدانوب ، واستولت على مناطق الحدود ، ثم دخلت الأفلاق والبغدان (رومانيا) ، كما مدت الحرب إلى البحر المتوسط ، واستطاعت بمساعدة الإنجليز أن تحرق الأسطول العثماني عند جشمه عام ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م فضلاً عن احتلال القرم عام ١١٨٥هـ / ١٧٧١م ، وعقب فشل الهدنة الموقعة بين الطرفين عام ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م عبر الروس مرة ثانية الدانوب ، ودخلوا قصبة حاجي أوغلي يازاري ، وألحقوا الهزيمة بالعثمانيين في موقعة قوزلوچه بالقرب من وارنا Varna آخر المواقع العثمانية ، ومن ثم لم تجد الدولة مفرّاً من قبول شروط الصلح الجائرة التي عرضتها روسيا ، وانهقدت معاهدة الصلح في قينارجة الصغرى عام ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م ، والتي تعد أقسى المعاهدات التي أجبرت الدولة العثمانية - بسبب حالة التردى التي وصلت إليها - على توقيعها بعد معاهدة كارلوفچه التي سبقت الإشارة إليها ، فكان نهر أقصو (بوغ) هو الحد الفاصل الجديد بين أراضي الدولتين ، كما كفلت المعاهدة لسفن التجارة الروسية حق المرور من المضائق التركية ، فضلاً عن بعض المواد التي تمنح للروس حق حماية الأقليات الارثوذكسية ، وهو الأمر الذي أدى إلى تدخل روسيا في شئون الدولة العثمانية ، إلى جانب خروج القرم عن الحماية العثمانية ، وجعلها منطقة مستقلة ، وهو الأمر الذي أدى فيما بعد إلى قيام روسيا بضم القرم إلى أراضيها وغير ذلك (٨٧) ، وعقب هذا الصلح الفادح قامت النمسا عام ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م باقتطاع قطعة أرض من إمارة البغدان وهي بوكوفينا ، ولم تفعل الدولة العثمانية شيئاً وإنما وقفت كالمترجعة ، وهو الأمر الذي يدل على مدى الضعف الذي سيطر عليها وقتذاك (٨٨) ، ولم تمض سنوات قليلة حتى اندلعت

(٨٦) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٦٠٩ - ٦١٢ : أوغلي ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٦٥ - ٦٨ .

(٨٧) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٦٢٣ - ٦٣١ ، أوغلي ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٧١ - ٧٢ .

(٨٨) أوغلي ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٧٢ .

الحرب العثمانية ضد روسيا والنمسا ١٢٠٢ - ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٧ - ١٧٨٨ م، واحتلت روسيا الأفلاق والبغدان (رومانيا) ، واستطاعت القوات النمساوية بحركاتها المتقدمة الجديدة أن تحقق نجاحاً عظيماً في صربيا والبوسنة ، ثم تستولى على بلغراد عام ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م، غير أن بعض الأحداث السياسية المهمة التي برزت على الساحة آنذاك مهدت السبيل لعقد الصلح بين الأطراف الثلاثة ، فعقدت معاهدة عثمانية نمساوية في زشتوي Zistovi عام ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م، وبمقتضاها عادت الدولة العثمانية إلى حدودها التي كانت عليها قبل الحرب ، واستعادت جميع المناطق التي فقدتها بما في ذلك بلغراد مع استثناء بعض التعديلات البسيطة على الحدود وبعض الأراضي ، ثم لم تلبث أن عقدت معاهدة عثمانية روسية في ياش Yas ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م ، وبمقتضاها أعادت روسيا من جديد مناطق الأفلاق والبغدان وكيلى واق كرمان وغيرها من الأماكن التي استولت عليها في أثناء الحرب مع الدولة العثمانية ، فضلاً عن زحزحة حدود الدولة العثمانية إلى الوراء من نهر أقصو (بوغ) حتى نهر طورله (دينيستر) في مقابل أن تتخلى الدولة العثمانية عن أملها نهائياً في استعادة القرم ، وفي التخلي عن أوزى لروسيا وغير ذلك مما يتعلق بالوضع في القوقاز ، وهو ما لا يعنينا في هذا المقام (٨٩) .

ولا شك أن حالة التردى التي وصلت إليها الدولة العثمانية في ذلك الوقت والهزائم التي منيت بها وإجبارها على قبول الصلح بشروط جائرة قاسية قد كشفت بجلاء أن الدولة العثمانية لن تتمكن من حماية وجودها ذاته في مواجهة الدول الأوروبية، وهو الأمر الذى ولّد الشعور بضرورة التجديد والإصلاح حتى تستطيع الدولة أن تقف على قدميها من جديد ، ومن هنا ظهرت حركة الإصلاحات في عهد السلطان سليم الثالث (١٢٠٤ - ١٢٢٢ هـ / ١٧٨٩ - ١٨٠٧ م) التي عرفت بحركة «النظام الجديد» ، والتي كان هدفها الشامل هو إعادة النظر في جميع المؤسسات داخل كيان الدولة وتنظيمها وتجديدها تبعاً لحاجة العصر وظروفه بما يتفق مع الأساليب الأوروبية الأكثر تقدماً وصلاحيّة ويواكبها في الوقت ذاته .

(٨٩) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٦٣٩ - ٦٤٢ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٧٣ - ٧٨ .

غير أن الانتفاضات والحروب الداخلية فى أنحاء الدولة العثمانية عامة والبلقان خاصة ولا سيما من قبل أهالى الصرب والجبل الأسود ممن شاءوا الاستقلال عن الدولة ، ولجأوا إلى استخدام السلاح لتحقيق هدفهم ، فضلاً عن تكاثر الأعيان (اعيانك) الأقوياء المتسلطين ، كانت عاملاً مهماً فى فشل الإصلاحات المطلوبة مع عدم كفاية الكوادر القادرة على تنفيذ تلك الإصلاحات^(٩٠) ، وهو الأمر الذى ترتب عليه اندلاع ثورات الصرب فى البلقان عام ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م ، وهو ما سوف نتطرق إليه فى المرحلة التالية.

- المرحلة الثانية ١٢١٩ - ١٣٤٠هـ / ١٨٠٤ - ١٩٢٢م -

بدأت هذه المرحلة باندلاع ثورات الصرب فى البلقان عام ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م مروراً بالثورات التى اشتعلت فى اليونان ومقدونيا وكريت والبوسنة والهرسك وثورات البلغار والألبان ، وما ترتب على ذلك من عقد المؤتمرات لمناقشة أزمة البلقان ، وتصفية الوجود العثمانى ، واقتسام إرثه فى أوروبا ، واندلاع الحرب البلقانية ، فالحرب العالمية الأولى ، وانتهاءً بإلغاء السلطنة العثمانية فى عام ١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م .

وعن تفاصيل هذه الأحداث التى أجمالناها يمكن القول بأن بداية الثورات داخل البلقان قد ظهرت أولاً فى صربيا ، وقد بدأت انتفاضة الصرب حركةً للمقاومة ضد الانكشارية المحلية والأعيان المتسلطين الذين سبقت الإشارة إليهم ، ومع انهم لقوا تأييداً من الباب العالى نفسه ، إلا أن انتفاضتهم سرعان ما تحولت إلى حركة ثورية وطنية منظمة تزعمها قره يورغى بتروفيتش عام ١٨٠٤م ، وقد أخذت هذه الانتفاضات الصربية أشكال حرب العصابات ، وكان للمساعدات العسكرية الروسية للصرب فى أثناء الحرب العثمانية الروسية (١٢٢١ - ١٢٢٧هـ / ١٨٠٦ - ١٨١٢م) أثره الكبير فى اشتداد تلك الانتفاضات ، وقد مهدت عوامل كثيرة فى ذلك الوقت لقبول الدولة العثمانية منح الصرب الحكم الذاتى فى عام ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م ، وتم التصديق على ذلك فى الاتفاقات التى عقدت مع روسيا فى آق كرمان ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م وأدرنة

(٩٠) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٦٤٣ - ٦٤٨ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ٧٨ - ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٦ ؛ مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى ، ص ص ١٧٣ - ١٨٧ .

١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م، وبموجب وثيقة مؤرخة عام ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م تؤكد رسمياً أن صربيا منطقة ذات حكم ذاتي ينتقل بالوراثة في أولاد وأحفاد ميلوش أوبرونوفيتش الذي كان قد انتخب أميراً لأمرأ صربيا في عام ١٢٣١هـ / ١٨١٥م^(٩١)، كذلك انفجرت أولى حركات الثورة اليونانية عام ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م في إمارتي الأفلاق والبغدان (رومانيا) ذات الحكم الذاتي، ثم اشتعلت ثورة أخرى في المورة لم تلبث أن انتشرت خلال فترة وجيزة في وسط اليونان وجنوبه، واضطرت الدولة العثمانية لطلب العون من محمد علي باشا وإلى مصر لإخماد الثورة في أقرب وقت ممكن، ونجحت القوات المصرية في تحقيق ذلك عام ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م^(٩٢)، غير أن روسيا وإنجلترا اتفقتا حول رأي واحد في ذلك الموضوع وهو ما عرف ببروتوكول بطرسبرج عام ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م؛ إذ كانتا تهدفان إلى تحقيق استقلال اليونان حتى ولو كان من خلال حكم ذاتي في البداية، ثم لم تلبث فرنسا هي الأخرى أن شاركت في ذلك البروتوكول، وهو ما عرف ببروتوكول لندن عام ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م، ومن ثم سارت اليونان نحو الاستقلال وراح يتأكد استقلالها من خلال مساعدة الدول الكبرى الأوروبية وضغوطها على الدولة العثمانية، ولما نظرت الدولة العثمانية إلى قرارات التحالف الثلاثي على أنه تدخل في شئونها الداخلية ورفضتها قامت معركة نوارين، واندلعت الحرب العثمانية الروسية في عام ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م، واستطاعت الجيوش الروسية أن تتقدم حتى أدرنة، وتحتل شرقى الأناضول، كذلك أدى التدخل الإنجليزي الفرنسي إلى نجاح اليونانيين في دعواهم، ومن هنا انعقدت معاهدة أدرنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م، وبمقتضاها أجبرت الدولة العثمانية على الاعتراف باليونان دولة مستقلة^(٩٣). ومع حل المسألة المصرية في عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م تم حل مشكلة المضايق التي كانت المسألة

(٩١) أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مج ١، ص ص ٦٥٥ - ٦٥٦، ٦٦٧ - ٦٦٨؛ أوغلي، الدولة العثمانية، مج ١، ص ص ٩٠ - ٩١.

(٩٢) أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مج ١، ص ص ٦٧١ - ٦٧٥؛ أوغلي، الدولة العثمانية، مج ١، ص ص ٩١ - ٩٤. ولمزيد من التفاصيل عن حروب محمد علي في اليونان، انظر عبيد، جميل، قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧م) سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٣٩، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٠م).

(٩٣) أوغلي، الدولة العثمانية، مج ١، ص ص ٩٣ - ٩٥؛ أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، مج ٢، إستانبول، (١٩٩٠م)، ص ص ٩ - ١٤.

المصرية وراء ظهورها ، وذلك بموجب معاهدة المضائق فى لندن عام ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م ، وفيها أجمعت الأطراف كلها على قاعدة عامة تحظر على السفن الحربية لجميع الدول العبور من المضائق فى وقت السلم ، غير أن عملية التدويل التى تقرر للوضع القانونى على المضائق قد جاءت معها أيضاً بتحجيم للحقوق العثمانية^(٩٤) .

هذا وقد أدت ثورات عام ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م إلى اضطرابات عامة فى أوروبا لم تلبث أن تحولت إلى أحداث دامية نتيجة لثورات الشعوب التى تعرضت للتشتت والاضطهاد ، غير أن الذى يعيننا منها هو انتشار تلك الثورات فى الأفلاق والبغدان (رومانيا) ضد روسيا وليس الدولة العثمانية نظراً لتحكم الروس الذى ساد بوجه خاص عقب معاهدة أدرنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م ، التى سبقت الإشارة إليها ، وهب الأهالى لمقاومة لائحة النظام الأساسى التى وضعها الروس وفرضوا تنفيذها بالقوة بل ومقاومة حكم الإمارة التى تقوم على تنفيذها ، وهو الأمر الذى أوجد مشكلة للدولة العثمانية نفسها بصفتها الدولة صاحبة السيادة ، ومن هنا اندلعت الحرب العثمانية الروسية من جديد عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م ، وقد وقفت الحكومات الأوروبية المتحررة والرأى العام إلى جانب العثمانيين ، وقد أمكن التوصل إلى حل لمشكلة اللاجئين من خلال وفاق جرى التوصل إليه فحواه منح الإذن لمن شاء الاستقرار فى الأراضى العثمانية ، والسماح لمن يريدون الهجرة إلى الدولة التى يختارونها ، أما التطورات فى الإماراتين (الأفلاق والبغدان) فقد أمكن وضع حل لها فى نهاية المفاوضات العثمانية الروسية غير أن النفوذ الروسى وتدخلهم فى شئون هاتين الإماراتين قد أخذ فى الزيادة بينما بدأ النفوذ العثمانى فى التلاشى . ولم تلبث روسيا أن احتلت الإماراتين فى عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م ، ومن ثم اندلعت الحرب العثمانية الروسية من جديد ووقفت إنجلترا وفرنسا عقب رفض روسيا الجلاء عن الإماراتين بجانب العثمانيين ، بل واشتركتا فى حرب القرم عام ١٢٧١هـ / ١٨٥٤م ، وعلى الرغم من الخسائر الفادحة فقد انتهت الحرب بالنصر ، وجرت مفاوضات الصلح فى باريس ، واتفقوا على فرمان الإصلاح عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م وكأنه وثيقة قام بإعدادها سفراء الدول المتحالفة فى استانبول ، وبمقتضاه حصل رعايا الدول

(٩٤) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ٣٦ - ٤١ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٩٦ - ٩٧ ، ١٠١ - ١٠٢ .

العثمانية من غير المسلمين على المساواة التامة والمطلقة فى الحقوق السياسية مع المسلمين ، وقد ترتب على إعلان فرمان الإصلاح هذا حدوث اضطرابات عامة وأحداث دامية فى أنحاء مختلفة من الدولة العثمانية ، ومنها البوسنة والهرسك وبلغاريا ، وقد انتشرت فيهما حركات السخط وكثرت المصادمات فى أنحاء متفرقة من البلاد^(٩٥) . ولم يلبث الوضع القانونى لإمارتى الأفلاق والبغدان الذى نصت عليه معاهدة باريس عام ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م أن دخل مرحلة جديدة بانتخاب أمير واحد على الإمارتين ، وهو الكسندر جوزا ، وهو الانتخاب الذى مثل الخطوة الأولى نحو الوحدة ، وقد أيدته فرنسا ، واعترفت به الدولة العثمانية هى الأخرى فى فرمان عام ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م ، وتطورت الأحداث ، وأعلن عن قيام كنيسة رومانية مستقلة وطنية عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م^(٩٦) . واستطاعت صربيا التى تمتعت بالحكم الذاتى منذ عام ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م أن تستغل فرصة الحروب العثمانية الروسية ، وتقوم بتحسين وضعها ، وتقوية موقفها حتى ضعف ارتباطها القانونى بالدولة العثمانية إلى أدنى المستويات ، ففى عام ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م تخلت الدولة العثمانية لصربيا عن قلعتى سكود واسكيشهر (Ujitsa) ، كما جرى سحب الحاميات العثمانية المرابطة فى قلاع بلغراد ويوكردلن (Sabaç) وسمندره وفتح الإسلام (Gladova) فى عام ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م ، وبذلك انفتح الباب أمام صربيا لتصبح دولة مستقلة من الناحية القانونية^(٩٧) .

ولم تشأ اليونان التى حصلت على استقلالها عقب معاهدة أدرنة عام ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م ، أن تتطلع إلى تحقيق حلمها فى اليونان الكبرى والحلم البيزنطى ، فأخذت تتوسع فى أراضيها على حساب أراضى الدولة العثمانية ، ولم تلبث إنجلترا أن قامت بتسليمها الجزر السبع التى كانت قد استولت عليها عام ١٢٣١هـ / ١٨١٥م ، وذلك فى عام ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م ، كما حاولت اليونان ضم جزيرة كريت مستغلة فى ذلك الثورات التى اندلعت فى الجزيرة عام ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م ، ولم تهدأ ثورة كريت إلا بعد القيام بعملية عسكرية وجهود دبلوماسية وذهب الصدر الأعظم على باشا بنفسه إلى الجزيرة

(٩٥) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ٤٦ - ٥٨ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٠٣ - ١٠٦ .

(٩٦) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٠٧ .

(٩٧) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

وقيامه بإصلاحات واسعة فيها ، وصدر فرمان الإصلاح المؤرخ عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م بمنح الجزيرة الحكم الذاتي^(٩٨) .

وتطورت الأحداث تطوراً سريعاً في البلقان ، فقامت ثورة البلغار الذين نجحوا في إقامة كنيسة وطنية مستقلة خاصة بهم عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م^(٩٩) ، وثورات البوسنة والهرسك عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م ، وثورة البلغار الثانية عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م ، وثورة الجبل الأسود وإعلانه الحرب على الدولة العثمانية في نفس العام (أى ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م) . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل قامت روسيا باحتلال البلقان وشرق الأناضول عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م ، وقد مهدت كل تلك التطورات السبيل لعقد مؤتمر دولي في اياستفانوس (يشيل كوى بالتركية) عام ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م لبحث ومناقشة أزمة البلقان ، وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة قد انتهت الحرب العثمانية الروسية فإنها كانت ببندوها القاسية الجائرة المكونة من ٢٩ مادة تؤمن التفوق الروسى فى البلقان على حساب العثمانيين والنمسا ، ومن ثم قامت الدبلوماسية العثمانية من قبل السلطان عبد الحميد الثانى (١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ / ١٨٧٦ - ١٩٠٩م) بدور بارز لتعديل تلك المعاهدة وكأنها لم تكن ، ومن هنا أمكن التوصل ، بعد أقل من خمسة أشهر من نفس العام (أى ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) إلى عقد مؤتمر برلين ومعاهداتها ، والتي نصت على تعديل جزئى المعاهدة الأولى وراعت مصالح الدول الأخرى ، وحالت دون تحول الميراث العثمانى الذى استولت عليه روسيا وحدها إلى ذريعة لنشوب حرب أوروبية عامة كما حدث فى حرب القرم عام ١٢٧١هـ / ١٨٥٤م ، التى سبقت الإشارة إليها .

وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة قد أطالت الوجود العثمانى فى بعض دول البلقان لمدة ٣٥ سنة أخرى فإنه يمكن القول بأنها تمثل المرحلة الثانية المهمة بعد معاهدة قارلوفجه عام ١١١١هـ / ١٦٩٩م فى تصفية الوجود العثمانى فى أوروبا عامة والبلقان خاصة^(١٠٠) ، وسوف تستكمل تلك التصفية معاهدة لندن التالية فى عام ١٣٣٢هـ /

(٩٨) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٠٩ .

(٩٩) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١١٠ .

(١٠٠) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ص ١٠٧ - ١١٦ ، ١٢١ - ١٢٣ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ١١٠ ، ١١٢ .

١٩١٣م كما سنشير فيما بعد .

وبمقتضى معاهدة برلين تم استقلال كل من صربيا والجبل الأسود (قره داغ أومونتنجرو) ورومانيا ، وتأسست إمارة بلغاريا تتمتع بالحكم الذاتى بين نهر الطونه (الدانوب) وجبال البلقان إلا أنها تظل تابعة للعثمانيين ، وتأسست فى جنوب جبال البلقان ولاية الروملى الشرقية ، ويكون مركزها مدينة فيلبه (بلوفديف حاليا) إلا أن الإمارة البلغارية سرعان ما قامت بضم هذه الولاية ضمن أراضيها فى عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م، ومن ثم ضعفت السيطرة على تلك المنطقة تماما .

وبالنسبة للبوسنة والهرسك فقد تركتا للاحتلال والحكم النمساوى المجرى بعد تحطيم المقاومة التى قام بها شعبها المسلم ، وتضع النمسا جنوداً لها فى لواء يبنى بازار (بالصربية نوفابازار (Novibazar) الذى يفصل صربيا عن الجبل الأسود ويحول دون حصولهما على حدود مشتركة ، وغير ذلك من القرارات الجائرة^(١٠١) . ومع التنازل عن بعض الأراضى للجبل الأسود ومعها مدن الموانئ مثل بار (Bar) ، ظهرت أزمات جديدة ؛ فانتهزت اليونان هى الأخرى تلك الفرصة ، ووسعت حدودها بالاستيلاء على ابىروتساليا ، وتحقيق الارتباط البرى من جديد مع مقدونيا التى أعيدت للدولة العثمانية ومع الأراضى الباقية فى الروملى فى حوزة الدولة العثمانية ، وبالتالى مع ألبانيا التى كانت تسعى هى الأخرى لتسوية أمورها بنفسها فى خضم هذا التشتت وتحاول ترسيخ آمالها القومية^(١٠٢).

وقد ترتب على هذه الأوضاع الجديدة هجرات جماعية من قبل المسلمين نحو الأماكن الآمنة تاركين خلفهم أموالهم وعقاراتهم خوفاً على أرواحهم وهرباً من المجازر الوحشية التى أعملها فيهم هؤلاء المحتلون الجدد من الصرب والبلغاريين والنمساويين والمجريين وغيرهم ، وقد أدى ذلك إلى حدوث مشكلات كثيرة سوف يستغرق حلها أعواماً طويلة ، وهو الأمر الذى كان يشكل أهم الأحداث القومية فى القرن ١٩هـ/ ١٩م^(١٠٣).

(١٠١) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ص ١٢٣ - ١٢٥ .

(١٠٢) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١١٢ .

(١٠٣) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١١٣ .

وقامت إنجلترا بالاستيلاء على جزيرة قبرص عام ١٢٩٦هـ / ١٨٧٨م أيضاً (١٠٤)، وبرزت في نفس العام المشكلة المقدونية التي جعلت مرجل البلقان الذي كان يغلى حتى عشية الحرب العالمية الأولى يأتي إلى نقطة الانفجار . ومهما يكن من أمر فقد اشتعلت الثورات في مقدونيا خلال عامي ١٣١٨ - ١٣١٩هـ / ١٩٠١ - ١٩٠٢م، وهو الأمر الذي مهد إلى حصولها على الحكم الذاتي تحت الرقابة الدولية عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠٣م (١٠٥). كذلك اشتعلت الثورات في كريت عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م، وانتهى الأمر بحصولها على الحكم الذاتي عام ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م مما سيسفر بعد ذلك عن ضمها إلى اليونان عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م (١٠٦).

وفي عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م قامت النمسا والمجر بضم البوسنة والهرسك رسمياً إلى أراضيها بعد أن كانت تديرها منذ عام ١٢٩٦هـ / ١٨٧٨م، وفي نفس العام بل وفي نفس اليوم - وهو ٥ أكتوبر ١٩٠٨م - قامت بلغاريا بإعلان استقلالها ونظامها القيصري (١٠٧).

وكان للسياسات الخاطئة التي اتبعتها حكومات الاتحاد والترقي أثرها في اشتعال الثورات في البلقان من جديد ، ومن ذلك ثورة الألبان (الارناؤوط) عام ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م مطالبين بحقوقهم في الحكم الذاتي أو الاستقلال ، وجرى إخماد الثورة بالقوة بل وقام السلطان العثماني محمد رشاد (وهو محمد الخامس ١٣٢٧ - ١٣٣٦هـ / ١٩٠٩ - ١٩١٨م) بزيارة للمنطقة في نفس العام ، طاف خلالها في الولايات التي تضم أعداداً كثيرة من الألبان مثل (اسكوب وقوصوه ومناستر وبرشتينه) غير أن ذلك لم يكف لإصلاح الأوضاع الجارية وتحقيق المصالحة بين الألبان والاتحاد والترقي ، ومن ثم ثار الألبان مرة أخرى عام ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م، وأعلنت ألبانيا استقلالها في نفس العام ،

(١٠٤) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ص ١٣٢ - ١٣٤ ؛ يحيى ، التطور التاريخي لجزيرة قبرص ، ص ص ١٣٥ - ١٣٦ ؛ شاكرك ، المسلمون في قبرص ، ص ص ٢٩ - ٣٠ .

(١٠٥) أوغلي ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ١١٣ ، ١٢١ - ١٢٤ ؛ أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ص ١٦٠ - ١٦٢ .

(١٠٦) أوغلي ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ١٢٠ - ١٢١ ، ١٢٨ .

(١٠٧) أوغلي ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٢٨ ؛ أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ص ١٧٨ - ١٧٩ .

وتحديداً في ٢٩ نوفمبر ، واعترفت الدول الكبرى بذلك في ١٧ ديسمبر من نفس العام (١٠٨) .

وكان للحرب العثمانية الإيطالية (١٣٢٩ - ١٣٣٠ هـ / ١٩١١ - ١٩١٢ م) من جهة والسياسات الخاطئة التي اتبعتها حكومات الاتحاد والترقي وقانون الكنائس والمدارس الشهير من جهة ثانية أثرها في تحالف دول البلقان (اليونان وصربيا والجبل الأسود وبلغاريا) وبالتالي اندلاع حرب البلقان الأولى عام ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م التي دارت رحاها في ألبانيا ومقدونيا وتراقيا وانتهت بهزيمة فادحة ، واستولى البلغار على أدرنة وتقدموا حتى جتالجة ، أما الصرب فقد أخذوا مناستر بينما استولت اليونان على سلانيك ، وبذلك فقدت الدولة العثمانية آخر ما كان لها من أراضي البلقان ، بل وأولى الأماكن التي فتحتها بها ، وأعقب تلك الهزيمة الفادحة موجة من الهجرة الواسعة ، وعاش الناس مرة أخرى كارثة « هزيمة عام ثلاثة وتسعين » ، واضطر مئات الآلاف من أهالي الروملى المسلمين إلى ترك ديارهم ، وتعرض الكثيرون منهم لعمليات الإبادة الوحشية ، وفتكت ببعضهم الآخر الأمراض ، وبدأ الناس يعيشون أياماً قاسية مريرة وتطورت أحداث الحرب البلقانية بدرجة كبيرة ، وهو الأمر الذي مهد السبيل إلى عقد معاهدة لندن عام ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ ، وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة أنهت الحرب البلقانية الأولى إلا أنها تمثل المرحلة الأخيرة في تصفية الوجود العثماني في البلقان ، وعلى ذلك يعتبرها البعض إحدى أقسى المعاهدات التي وقع عليها الأتراك طوال تاريخهم (١٠٩) .

ولما اضطرت الأحوال في استانبول نتيجة لما أسفرت عنه الحرب البلقانية الأولى وما أعقبها من مؤتمر لندن ، تحول التحالف بين دول البلقان إلى صدام مسلح فيما بينهما لاقتسام الإرث العثماني ، وكانت بلغاريا هي صاحبة النصيب الأكبر في تلك القسمة ، فلما عارضها الحلفاء الثلاثة الآخرين بما فيهم رومانيا اشتعلت الحرب البلقانية الثانية

(١٠٨) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ١٣٠ - ١٣٣ .

(١٠٩) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ص ٢٠٨ - ٢٢١ ؛ أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ١٣١ - ١٣٢ .

بين الدول المتحالفة في نفس العام - أي ١٣٣١هـ / ١٩١٣م - وانتهزت الدولة العثمانية الفرصة ، واستردت أدرنه وقرقلر ايلي دون أن تواجه بمقاومة تذكر ، وانتهت حرب البلقان الثانية بمعاهدة بوخارست في عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م ، وبالتحديد في العاشر من شهر أغسطس واستردت الدولة العثمانية قسماً كبيراً من أراضيها التي استولت عليها بلغاريا ، وعقدت عدة معاهدات في ذلك الوقت ، ومنها معاهدة الصلح بين العثمانيين والبلغار في استانبول في ٢٩ سبتمبر ١٩١٣م ، ومعاهدة الصلح مع اليونان في أثينا في ١٤ نوفمبر ١٩١٣م ، ومعاهدة الصلح مع صربيا في استانبول في ١٤ مارس ١٩١٤م ، وبذلك أمكن التوصل إلى صلح عام مع دول البلقان (١١٠) ، على الرغم من فقدان الدولة العثمانية لأراضيها في أوروبا باستثناء الجزء المعروف بتركيا الأوروبية أو تراقيا الغربية. ولم تلبث أن قامت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢ - ١٣٣٦هـ / ١٩١٤ - ١٩١٨م) (١١١) ، وخيمت سحبها الداكنة فوق أجواء البلقان ، وانكفأ الوجود العثماني المتبقي فوق هذه الأرض إثر الهزيمة التي حلت بالجنود الأتراك والألمان وحلفائهما ومع انتصار الحلفاء ، أعداء الدولة العثمانية ، ترك المسلمون في تلك البلاد فريسة سهلة بأيديهم وهم يصارعون ذئاب المستقبل الضارية ، وقد كشرت عن أنيابها واتجهت لتصفية حساباتها القديمة معهم .

وازدادت حدة المأساة ولوعة الأسى ألماً بعد الفراق ، فراق الفرع للأصل ، إذ تطورت الأحداث في تركيا بصورة كبيرة عقب انتهاء الحرب وهو الأمر الذي مهد السبيل إلى إعلان انتهاء السلطنة العثمانية وإلغائها إلى الأبد في عام ١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م ، ثم إعلان قيام الجمهورية التركية الحديثة برئاسة أتاتورك مصطفى كمال باشا في العام التالي - أي ١٣٤١هـ / ١٩٢٣م - مما أسفر عن إلغاء منصب الخلافة الإسلامية في عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م ، وبذلك أجبر الخليفة العثماني الأخير - وهو عبد المجيد الثاني (١٣٤٠ - ١٣٤٢هـ / ١٩٢٢ - ١٩٢٤م) وبقية أفراد الأسرة العثمانية على مغادرة البلاد نهائياً (١١٢).

(١١٠) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ؛ أوغلي ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ١٣٣ .

(١١١) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ص ٢٢٥ - ٢٤٠ ؛ أوغلي ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ص ١٣٣ - ١٤٤ .

(١١٢) أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ص ٢٦٠ - ٢٦٣ .

وهكذا غربت شمس الدولة العثمانية بعد أن عمرت فترة طويلة تقدر بنحو ٦٤٢ عاماً هجرية (٦٩٩م - ١٣٤١هـ) ويقابلها ٦٢٣ عاماً ميلادياً ١٢٩٩ - ١٩٢٢م وعلي ذلك كانت أطول دول الترك بقاءً وحكمت شعوباً ومللاً ونحلاً غير متجانسة فوق قارات ثلاث : آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وخطب لسلطينهم منذ عهد السلطان سليم الأول فى الولايات العربية طوال ٤١٩ عاماً هجرية (ويقابلها ٤٠٦ عاماً ميلادياً) .

ثالثاً : التسلسل التاريخي لعصور الخلافة ومعجم لأهم الدول والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى (١١٣) :

ينبغى أن يكون واضحاً ، بادئ ذى بدء ، إلى أننا لا نسعى فى هذه العجالة إلى

(١١٣) اعتمدنا بدرجة رئيسية على قوائم وجداول الكتب المتعلقة بدراسة الأنساب والأسر الحاكمة فى التاريخ الإسلامى مع إجراء التعديلات والتصحيحات والتصويبات فى ضوء الدراسات الحديثة ، ومن هذه الكتب Lane Poole, S, The Mohammadan dynasties : Chronological and genealogical tables with historical introduction, London (1893) . (الأسرات الحاكمة الإسلامية - قوائم فى التاريخ والأنساب - لندن ١٨٩٣م) ، وقام بترجمته إلى اللغة الروسية وأضاف إليه قائمة قيمة بتصويباته المستشرق الروسى الكبير بارتولد - Bartold, W, Musulmanskiya dynasity st Petersburg, (1899) (الأسرات الحاكمة الإسلامية - سانت بطرسبرج ١٨٩٩م) ثم قام بترجمته إلى اللغة التركية الأستاذ خليل أدهم عام ١٩٢٧م Edem. H., Duvel - i Islamiya, Istanbul 1345/ 1927 . (الدولة الإسلامية - استانبول ١٣٤٥هـ / ١٩٢٧م) وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ثلاث ترجمات ، الأولى قام بها مكى طاهر الكعبى بعنوان سلاطين الإسلام ببغداد ١٩٦٨م ، والثانية أحمد السعيد سليمان فى جزئين تحت عنوان تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ١٩٦٩م ، والثالثة محمد صبحى فرزات تحت عنوان الدول الإسلامية فى قسمين ، إشراف وتعليق محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٩٧٣م . وقام إدوارد سخاو بوضع كتاب عنوانه الأسرات الحاكمة الإسلامية عام ١٩٢٣م Sachau, E., Ein Verzeichnis Mohammedanische Dynastien, Phil. . (1923) Hist. K I. (ولم يترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعد ، فضلاً عن أنه قد اعتمد فى تأليفه بصفة رئيسية على كتاب منجم باشى المتوفى ١١١٣هـ / ١٧٠٢م) وفيه إضافات على ما ورد فى (لين بول) . ثم قام المستشرق النمساوى أدوارد فون زيمباور بوضع كتاب مهم عنوانه : Vonzambaur, E., Manuel de genealogie et de chronologie Pour : l'histoire de L'islam, Honover, 1927 . وقد تمت ترجمته تحت عنوان « معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى » - ترجمة زكى محمد حسن وآخرين ، القاهرة (١٣٧٠هـ / ١٩٥١م) ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨١م) . ثم قام =

تقديم إحاطة كاملة أو تغطية شاملة لكافة الدول والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى على نحو ما ظهر فى دراسات أخرى مهمة مثل لين بول وزامباور وسخاو وبوزورث وغيرهم ، فإن مثل هذا الموضوع ، فضلا عن كونه يخرج عن إطار خطة هذا الكتاب أو المنهج المرسوم له ، يحتاج إلى مشروع ضخم يضطلع به فريق عمل من المتخصصين فى شتى مجالات التاريخ والآثار والحضارة الإسلامية حتى يمكن تصحيح العديد من الأخطاء وسد الثغرات وإضافة الكثير من الحقائق الجديدة .

ولكن الهدف الذى نسعى إليه هو مجرد تتبع التسلسل التاريخى لعصور الخلافة وأهم الدول والأسرات الحاكمة التى كان لها دور بارز فى ركب مسيرة الحضارة الإسلامية على النحو الذى سنشير إليه فى هذا الكتاب أو فى الفصل إن شاء الله ؛ وبالتالى يستطيع القارئ العام أو الدارس المبتدئ أن يربط الاسهامات والإنجازات الحضارية بالفترة التاريخية التى ترجع إليها بصفة عامة ، وفى عهد أى من حكام هذه الفترة بصفة خاصة ؛ وهو الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى إبراز موضع هذه الفترة والقدر الذى أسهمت به بين مختلف فترات التاريخ الإسلامى من جهة ، بل وإبراز مكانة حكامها ورجالاتها من جهة أخرى .

= بوزورث بوضع كتاب عنوانه : Bosworth, C. E., Islamic Dynasties a Chronological and geneogolical handbook, (1967). وقت ترجمته إلى العربية تحت عنوان « الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى دراسة فى التاريخ والأنساب - ترجمة حسين على اللبoudى ، مراجعة سليمان إبراهيم العسكرى - الكويت - القاهرة - ط ٢ (١٩٩٥م) وانظر أيضا مقدمة الكتاب - ص ٧ - ١٤ . كذلك إعتمدنا على بعض الدراسات الحديثة ولا سيما دراسة النقوش الكتابية على مختلف أنواع الآثار الإسلامية الباقية كالعجارة والفنون الزخرفية والتشكيلية والمسكوكات (وهو المشروع الذى أسهمنا فى الكتابة فيه بدراسة عنوانها « النقوش الكتابية الإسلامية وقيمتها التاريخية ، الرياض ، (٢٠٠٠م) ، النقوش الأثرية مصدراً للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، المجلد الأول ، القاهرة (٢٠٠٢م) ؛ الحسينى ، محمد باقر ، تحقيقات واستدراكات وإضافات على ما ورد فى معجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور على ضوء نقود الدول الإسلامية فى الهند ما بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين (١١ - ١٦م) مجلة اليرموك للمسكوكات ، المجلد ٨ (١٩٩٦م) وغير ذلك .

أولاً : عصور الخلافة :

أ. الخلفاء الراشدون^(١١٤) (رضى الله عنهم) (٤ خلفاء) ١١ - ٤٠ هـ /

٦٣٢ - ٦٦١ م

١ - أبو بكر الصديق ١١ - ١٣ هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤ م .

٢ - عمر بن الخطاب ١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٣ م .

٣ - عثمان بن عفان ٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٥ م .

٤ - علي بن أبي طالب ٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٥ - ٦٦٠ م

ب. الخلفاء الأمويون^(١١٥) (١٤ خليفة) ٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م :

١ - معاوية بن أبي سفيان ٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م .

٢ - يزيد بن معاوية (يزيد الأول) ٦٠ - ٦٤ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٣ م .

٣ - معاوية بن يزيد (معاوية الثاني) ٦٤ هـ / ٦٨٣ م .

٤ - مروان (مروان الأول) بن الحكم ٦٤ - ٦٥ هـ / ٦٨٤ - ٦٨٥ م .

٥ - عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م .

(١١٤) عن عصر الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) وأحداثه الداخلية والخارجية والنقود السائدة انظر ، شاهين ، حمدى ، الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين ، القاهرة ٢٠٠٣ م ؛ رمضان ، عاطف منصور ، موسوعة النقود فى العالم الإسلامى ، الجزء الأول ، نقود الخلافة الإسلامية ، القاهرة (٢٠٠٤ م) ، ص ٤٦ - ٥٨ ؛ شلبى ، أبو زيد ، الخلفاء الراشدون ، القاهرة ، د ت ؛ بخيت ، عبد الحميد ، عصر الخلفاء الراشدين ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٦٧ م) ؛ بن سلم ، أحمد سعيد ، حروب الردة وبناء الدولة الإسلامية ، القاهرة (١٩٩٤ م) ؛ فوزى ، فاروق عمر ، وآخرين ، عصر النبوة والخلافة الراشدة ، بغداد (١٩٨٦ م) .

(١١٥) عن عصر الخلفاء الأمويين وأحداثه الداخلية والخارجية حتى سقوط الدولة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م انظر ، النجار ، محمد الطيب ، الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول القناء ، القاهرة (١٩٦٢ م) ؛ أحمد ، محمد حلمى محمد ، الخلافة والدولة فى العصر الأموى ، القاهرة (١٩٧١ م) ؛ عاقل ، نبيه ، خلافة بنى أمية ، دمشق (١٩٧٢ م) ؛ شعبان ، محمد عبد الحى ، صدر الإسلام والدولة الأموية ، بيروت (١٩٨٣ م) ؛ العش ، يوسف ، الدولة الأموية ، دمشق (١٩٨٥ م) ؛ القسوس ، نايف ، مسكوكات الأمويين فى بلاد الشام ، عمان (١٩٩٦ م) ؛ طقوش ، محمد سهيل ، تاريخ الدولة الأموية ، بيروت (١٩٩٦ م) ؛ شاهين ، حمدى ، الدولة الأموية المفتى عليها ، القاهرة (٢٠٠١) ؛ عبد اللطيف عبد الشافى محمد ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، القاهرة ، ط ٤ (٢٠٠٢ م) ؛ رمضان ، موسوعة النقود فى العالم الإسلامى ، الجزء الأول ، ص ٦١ - ١٢٦ ؛ شلبى ، أبو زيد ، تاريخ الدولة الأموية بالشرق ، القاهرة ، د ت .

- ٦ - الوليد بن عبد الملك (الوليد الأول) ٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م .
- ٧ - سليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م .
- ٨ - عمر بن عبد العزيز بن مروان ٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧٢٠ م .
- ٩ - يزيد بن عبد الملك (يزيد الثاني) ١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م .
- ١٠ - هشام بن عبد الملك ١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣ م .
- ١١ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثاني) ١٢٥ - ١٢٦ هـ / ٧٤٣ - ٧٤٤ م .
- ١٢ - يزيد بن الوليد بن عبد الملك (يزيد الثالث) ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م .
- ١٣ - إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م .
- ١٤ - مروان بن محمد بن مروان (مروان الثاني أو مروان الحمار) ١٢٧ - ١٣٢ هـ / ٧٤٥ - ٧٥٠ م .

جـ - الخلفاء العباسيون^(١١٦) (٣٧ خليفة) ١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ م ؛ العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٣٢ هـ / ٧٥٠ - ٨٤٧ م ؛ ١ - أبو العباس عبد الله السفاح ١٣٢ - ١٣٦ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٤ م .

(١١٦) عن عصر الخلفاء العباسيين بمراحله الخمس وأحداثه الداخلية والخارجية حتى سقوط الدولة على أيدي المغول ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م انظر ، الدورى ، عبد العزيز ، العصر العباسي الأول ، بغداد (١٩٤٥ م) ؛ دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، بغداد (١٩٤٥ م) ؛ أحمد ، محمد حلمى ، الخلافة والدولة فى العصر العباسي ، القاهرة (١٩٥٩ م) ؛ الزبيدى ، محمد حسين ، العراق فى العصر العباسي ، القاهرة (١٩٥٩ م) ؛ العراق فى العصر البويهي ، القاهرة (١٩٦٩ م) ؛ فوزى ، فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، ج١ ، بيروت (١٩٧٠ م) ، ج٢ ، دمشق (١٩٧٢ م) ؛ الخلافة العباسية ، جزآن ، عمان (١٩٩٨ م) ؛ الناصر لدين الله الخليفة الداهية ، بغداد (١٩٨٩ م) ؛ مصطفى ، شاكراً ، دولة بنى العباس ، جزآن ، الكويت (١٩٧٣ م) ؛ الباشا ، حسن ، دراسات فى تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة (١٩٧٥ م) ؛ محمود ، حسن أحمد ، الشريف ، أحمد إبراهيم ، العالم الإسلامى فى العصر العباسي ، القاهرة ، ط٤ ، (١٩٨٠ م) ماجد ، عبد المنعم ، العصر العباسي الأول أو القرن الذهبى فى تاريخ الخلفاء العباسيين ، التاريخ السياسى ، الجزء الأول ، القاهرة ، ط٣ (١٩٨٤ م) ؛ طقوش ، محمد سهيل ، تاريخ الدولة العباسية ، بيروت (١٩٩٦ م) ؛ رمضان ، موسوعة النقود ، ص ١٧١ - ٢٩٨ ؛ العوفى ، محمد سالم ، العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية فى العصر السلجوقى (١٩٨٢ م) ؛ الزهرانى ، محمد مسفر ، نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية ٤٤٧ - ٥٩٠ هـ ، بيروت (١٩٨٢ م) ؛ السهيل ، نايف عيد ، السياسة الخارجية للدولة العباسية فى العصر العباسي الأول ، الكويت ط٢ (١٩٩٤ م) ؛ العدوى ، إبراهيم ، المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية ، القاهرة (١٩٦١ م) ؛ الحينى ، محمد جابر ، الشيعة المتطرفين وأثرهم فى الحياة الاجتماعية والأدبية لمدينة العراق ابان العصر العباسي الأول ، القاهرة ، ط٢ ، (١٩٦٧ م) . الليلم ، عبد العزيز محمد ، العلاقات بين العلويين والعباسيين من سنة ٩٨ إلى سنة ٢٣٢ هـ ، بيروت ، ط٤ (١٩٩٢ م) ؛ بدر ، مصطفى طه ، محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول ، القاهرة ، ط٢ (١٩٩٩ م) .

- ٢ - أبو جعفر عبد الله المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م .
- ٣ - محمد المهدي ١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م .
- ٤ - موسى الهادي ١٦٩ - ١٧٠ هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م .
- ٥ - هارون الرشيد ١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م .
- ٦ - محمد الأمين ١٩٣ - ١٩٨ هـ / ٨٠٩ - ٨١٣ م .
- ٧ - عبد الله المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م .
- ٨ - أبو إسحق المعتصم بالله ٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م .
- ٩ - الواثق بالله ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م .

العصر العباسي الثاني (العصر التركي في الدولة العباسية) (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ / ٨٤٧ - ٩٤٥ م)

- ١٠ - المتوكل على الله ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م .
- ١١ - المنتصر بالله ٢٤٧ - ٢٤٨ هـ / ٨٦١ - ٨٦٢ م .
- ١٢ - المستعين بالله ٢٤٨ - ٢٥١ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٥ م .
- ١٣ - المعتز بالله ٢٥١ - ٢٥٥ هـ / ٨٦٥ - ٨٦٩ م .
- ١٤ - المهتدي بالله ٢٥٥ - ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م .
- ١٥ - المعتمد على الله ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ - ٨٩٢ م .
- ١٦ - المعتضد بالله ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢ م .
- ١٧ - المكتفي بالله ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م .
- ١٨ - المقتدر بالله ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢ م .
- ١٩ - القاهر بالله ٣٢٠ - ٣٢٢ هـ / ٩٣٢ - ٩٣٤ م .
- ٢٠ - الراضي بالله ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٠ م .
- ٢١ - المتقي لله ٣٢٩ - ٣٣٣ هـ / ٩٤٠ - ٩٤٤ م .
- ٢٢ - المستكفي بالله ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ / ٩٤٤ - ٩٤٥ م .

العصر العباسي الثالث (العصر البويهي الشيعي في الدولة العباسية)
٣٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٩٤٦ - ١٠٥٥ م ::

- ٢٣ - المطيع لله ٣٣٤ - ٣٦٣ هـ / ٩٤٦ - ٩٧٤ م .
- ٢٤ - الطائع لله ٣٦٣ - ٣٨١ هـ / ٩٧٤ - ٩٩١ م .
- ٢٥ - القادر بالله ٣٨١ - ٤٢٢ هـ / ٩٩١ - ١٠٣١ م .
- ٢٦ - القائم بأمر الله ٤٢٢ - ٤٤٧ هـ / ١٠٣١ - ١٠٥٥ م .

العصر العباسي الرابع (العصر السلجوقي في الدولة العباسية ٤٤٧ - ٥٩٠ هـ / ١٠٥٥ - ١١٩٤ م :

- القائم بأمر الله (عودته للخلافة بعد القضاء على البساسيري والنضوذ الفاطمي) : ٤٥١ - ٤٦٧ هـ / ١٠٥٩ - ١٠٧٥ م :

- ٢٧ - المقتدى بأمر الله ٤٦٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٧٥ - ١٠٩٤ م .
- ٢٨ - المستظهر بالله ٤٨٧ - ٥١٢ هـ / ١٠٩٤ - ١١١٨ م .
- ٢٩ - المسترشد بالله ٥١٢ - ٥٢٩ هـ / ١١١٨ - ١١٣٥ م .
- ٣٠ - الراشد ٥٢٩ - ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ - ١١٣٦ م .
- ٣١ - المقتفى لأمر الله ٥٣٠ - ٥٥٥ هـ / ١١٣٦ - ١١٦٠ م .
- ٣٢ - المستنجد بالله ٥٥٥ - ٥٦٦ هـ / ١١٦٠ - ١١٧٠ م .
- ٣٣ - المستضيء بأمر الله ٥٦٦ - ٥٧٥ هـ / ١١٧٠ - ١١٨٠ م .

- العصر العباسي الخامس والأخير (عصر الصحوة أو افاقة الموت للدولة العباسية) ٥٧٥ - ٦٥٦ هـ / ١١٨٠ - ١٢٥٨ م .

- ٣٤ - الناصر لدين الله (أسد بنى العباس) ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥ م .
- ٣٥ - الظاهر بأمر الله ٦٢٢ - ٦٢٣ هـ / ١٢٢٥ - ١٢٢٦ م .
- ٣٦ - المستنصر بالله ٦٢٣ - ٦٤٠ هـ / ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م .
- ٣٧ - المستعصم بالله ٦٤٠ - ٦٥٦ هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م .

د - الخلفاء الفاطميون^(١١٧) (١٤ خليفة) ٢٩٧ - ٥٦٧ هـ / ٩١٠ - ١١٧١ م :

(١١٧) عن عصر الخلفاء الفاطميين بمرحلتين المغربية والمصرية حتى سقوط الدولة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م انظر، داود ، مایسة محمود ، المسكوكات الفاطمية فی ضوء مجموعة متحف الفن الإسلامی بالقاهرة ، =

فى المغرب

- ١ - عبد الله المهدي ٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩١٠ - ٩٣٤ م :
- ٢ - القائم بأمر الله ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٥ م .
- ٣ - المنصور بالله ٣٣٤ - ٣٤١ هـ / ٩٤٥ - ٩٥٢ م .
- ٤ - المعز لدين الله ٣٤١ - ٣٦٢ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٢ م .

- فى مصر

- المعز لدين الله ٣٦٢ - ٣٦٥ هـ / ٩٧٢ - ٩٧٥ م :
- ٥ - العزيز بالله ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م .
- ٦ - الحاكم بأمر الله ٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م .
- ٧ - الظاهر لاعزاز دين الله ٤١١ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥ م .
- ٨ - المستنصر بالله ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م .
- ٩ - المستعلى بالله ٤٨٧ - ٤٩٥ هـ / ١٠٩٤ - ١١٠١ م .
- ١٠ - الأمر بأحكام الله ٤٩٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٢٩ م .
- (٥٢٤ - ٥٢٦ هـ / ١١٢٩ - ١١٣١ م سيطر على الخلافة الوزير أبو على بن الأفضل ودعى للإمام محمد أبو القاسم المنتظر لأمر الله) .
- ١١ - الحافظ لدين الله ٥٢٦ - ٥٤٤ هـ / ١١٣١ - ١١٤٩ م .
- ١٢ - الظافر بأمر الله ٥٤٤ - ٥٤٩ هـ / ١١٤٩ - ١١٥٤ م .
- ١٣ - الفائز بنصر الله ٥٤٩ - ٥٥٥ هـ / ١١٥٤ - ١١٦٠ م .
- ١٤ - العاضد لدين الله ٥٥٥ - ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ - ١١٧١ م .

= القاهرة (١٩٩١م)؛ الدشراوى ، فرحات ، الخلافة الفاطمية بالمغرب ، ترجمة حمادى الساحلى ، بيروت (١٩٩٤م)؛ ماجد ، عبد المنعم ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، القاهرة ، ط٢ ، (١٩٩٤م)؛ سيد ، أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية فى مصر تفسير جديد ، القاهرة ، ط٢ ، (٢٠٠٠م)؛ طقوش ، محمد سهيل ، تاريخ الفاطميين ، بيروت (٢٠٠١م)؛ رمضان ، موسوعة النقود ، ج١ ، ص ٣٠١ - ٤٤٩ ؛ حسن ، حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ط٤ (١٩٨١م) ؛ أحمد ، نريمان عبد الكريم ، المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ، القاهرة (١٩٩٣م)؛ كيره ، نجوى ، العامة فى مصر فى العصر الفاطمى ، القاهرة (٢٠٠٤م) .

هـ - الخلفاء الأمويون^(١١٨) فى الأندلس (٩ خلفاء) : ٣١٦ - ٤٢٢ هـ / ٩٢٩ - ١٠٣١ م :

- ١ - عبد الرحمن الناصر ٣١٦ - ٣٥٠ هـ / ٩٢٩ - ٩٦١ م .
- ٢ - الحكم المستنصر بالله ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م .
- ٣ - هشام الثانى المؤيد بالله ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٩ م .
- ٤ - محمد (للمرة الأولى) بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدى بالله (محمد الثانى) ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م .
- ٥ - سليمان (للمرة الأولى) بن الحكم بن سليمان بن الناصر الملقب بالمستعين بالله ٤٠٠ / ١٠٠٩ م .
- محمد الثانى المهدى بالله (للمرة الثانية) ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م .
- هشام الثانى المؤيد بالله (للمرة الثانية) ٤٠٠ - ٤٠٣ هـ / ١٠١٠ - ١٠١٣ م .
- سليمان المستعين بالله (للمرة الثانية) ٤٠٣ - ٤٠٧ هـ / ١٠١٣ - ١٠١٦ م .
- (على بن حمود الملقب بالناصر لدين الله ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م وهو من بنى حمود) .
- ٦ - عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر (عبد الرحمن الرابع) الملقب بالمرتضى ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م .
- (سيطرة بنى حمود ٤٠٨ - ٤١٤ هـ / ١٠١٨ - ١٠٢٣ م .
- ٧ - عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار (عبد الرحمن الخامس) الملقب بالمستظهر بالله ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م .
- ٨ - محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصر (محمد الثالث) الملقب بالمستكفى بالله ٤١٤ - ٤١٦ هـ / ١٠٢٤ - ١٠٢٥ م .

(١١٨) عن عصر الأمويين فى الأندلس بمرحلتيه (الإمارة - الخلافة) وأحداثه الداخلية والخارجية حتى سقوط الدولة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م انظر ، سالم ، السيد عبد العزيز ، قرطبة حاضرة الخلافة ، جزآن ، بيروت (١٩٧١ - ١٩٧٢ م) ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت (١٩٨١ م) ؛ الحجى ، عبد الرحمن ، التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، دمشق (١٩٨١ م) ؛ أبا الخيل ، محمد ، الأندلس فى الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى ، الرياض (١٩٩٥ م) ؛ كحيلة ، عبادة ، المغرب فى تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٠ م) ؛ مؤنس ، حسين ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، ط ٢ ، (٢٠٠٤ م) ؛ رمضان ، موسوعة النقود ، ج ١ ، ص ٤٥٣ - ٥٠٧ .

- (يحيى بن على بن خمود الملقب بالمعتلى بالله ٤١٦ - ٤١٨ هـ / ١٠٢٥ - ١٠٢٧ م) .

٩ - هشام بن محمد بن عبد الملك (هشام الثالث) الملقب بالمعتد بالله ٤١٨ - ٤٢٢ هـ / ١٠٢٥ - ١٠٣١ م .

ثانياً : معجم لأهم الدول والأسرات الحاكمة

١ - فى مصر :

أ - الدولة الطولونية^(١١٩) ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م :

١ - أحمد بن طولون ٢٥٤ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٤ م .

٢ - خماروية ٢٧٠ - ٢٨٢ هـ / ٨٨٤ - ٨٩٦ م .

٣ - جيش ٢٨٢ - ٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م

٤ - هارون ٢٨٣ - ٢٩٢ هـ / ٨٩٦ - ٩٠٥ م .

٥ - شيبان ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م .

(عودة مصر لحظيرة الخلافة العباسية ٢٩٢ - ٣٢٣ هـ / ٩٠٤ - ٩٣٤ م .

ب - الدولة الإخشيدية^(١٢٠) ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م :

١ - محمد بن طغج الإخشيد ٣٢٣ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٥ - ٩٤٥ م .

(١١٩) عن عصر الطولونيين وأحداثه الداخلية والخارجية حتى سقوط الدولة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م انظر ، كاشف سيدة إسماعيل ، أحمد بن طولون ، القاهرة (١٩٦٥ م) ؛ محمود ، حسن أحمد ، حضارة مصر فى العصر الطولونى ، القاهرة ١٩٧٧ م ؛ محمود ، محمود رزق ، المجتمع المصرى فى العصر الطولونى ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، آداب عين شمس (١٩٨٥ م) .

Hassan, Z. M., Les Tulunides, Paris, 1937 .

(١٢٠) عن عصر الإخشيديين وأحداثه الداخلية والخارجية حتى سقوط الدولة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م انظر كاشف ، سيدة إسماعيل ، مصر فى عصر الإخشيديين ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٧٠ م) ، كاشف ، محمود ، حسن أحمد ، مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ، القاهرة د ت ؛ زيود ، محمد أحمد ، العلاقات بين الشام ومصر فى العهدين الطولونى والإخشيدي ، دمشق (١٩٨٩ م) ؛ السيد ، أميمة أحمد ، سياسة مصر الخارجية فى عصر الإخشيديين ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، آداب سوهاج ، جامعة أسيوط (١٩٩٤ م) .

- ٢ - أبو القاسم أونوجور ٣٣٤ - ٣٤٩ هـ / ٩٤٥ - ٩٦٠ م .
- ٣ - على بن الاخشيد ٣٤٩ - ٣٥٥ هـ / ٩٦٠ - ٩٦٥ م .
- ٤ - كافور الاخشيدى ٣٥٥ - ٣٥٧ هـ / ٩٦٥ - ٩٦٨ م .
- ٥ - أحمد ٣٥٧ - ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ - ٩٦٩ م .

(الخلافة الفاطمية فى مصر ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م) :

جـ- الدولة الأيوبية (١٢١)

- فى مصر (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠ م) :
- ١ - صلاح الدين ٥٦٧ - ٥٨٩ هـ / ١١٧١ - ١١٩٣ م .
- ٢ - العزيز عثمان ٥٨٩ - ٥٩٥ هـ / ١١٩٣ - ١١٩٨ م .
- ٣ - المنصور ناصر الدين محمد ٥٩٥ - ٥٩٦ هـ / ١١٩٨ - ١٢٠٠ م .
- ٤ - العادل الأول سيف الدين أبو بكر ٥٩٦ - ٦١٥ هـ / ١٢٠٠ - ١٢١٨ م .
- ٥ - الكامل محمد ٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م .
- ٦ - العادل الثانى بن الكامل ٦٣٥ - ٦٣٧ هـ / ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م .
- ٧ - الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٧ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م .
- ٨ - المعظم تورانشاه ٦٤٧ - ٦٤٨ هـ / ١٢٤٩ - ١٢٥٠ م .

(١٢١) عن عصر الأيوبيين فى مصر وأحداثه الداخلية والخارجية حتى سقوط الدولة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م انظر :
 بيومى ، على ، قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، القاهرة (١٩٥٢م) ؛ ربيع ، حسنين ، النظم المالية فى
 مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة (١٩٦٤م) ؛ العرنى ، السيد الباز ، تاريخ الدولة الأيوبية ، القاهرة
 ١٩٦٠م ؛ الجعيدى ، شلبى إبراهيم ، العامة فى مصر فى العصر الأيوبي ، سلسلة تاريخ المصريين ،
 العدد ٢١٢ ؛ سيد ، أحمد فؤاد ، تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب ، القاهرة (٢٠٠١م) ؛
 Etbehairy, S., Les Institutions de L'Egypte au Temps des Ayyubidees, Paris (1971) .

د - الدولة المملوكية (١٢٢) ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م :

- الدولة المملوكية الأولى المعروفة بدولة المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م :

- ١ - السلطنة شجر الدر ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .
- ٢ - المعز أيبك ٦٤٨ - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م .
- ٣ - المنصور على ٦٥٥ - ٦٥٧ هـ / ١٢٥٧ - ١٢٥٩ م .
- ٤ - المظفر قطز ٦٥٧ - ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م .
- ٥ - الظاهر بيبرس البندقدارى (بيبرس الأول) ٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م .
- ٦ - السعيد بركة ٦٧٦ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٧ - ١٢٨٠ م .
- ٧ - بدر الدين سلامش ٦٧٨ هـ / ١٢٨٠ م .
- ٨ - المنصور قلاوون ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٨٠ - ١٢٩٠ م .
- ٩ - الأشرف خليل ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م .
- ١٠ - الناصر محمد (للمرة الأولى) ٦٩٣ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م .
- ١١ - العادل كتبغا ٦٩٤ - ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م .
- ١٢ - حسام الدين لاجين ٦٩٦ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٨ م .
- (الناصر محمد (للمرة الثانية) ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م) .

(١٢٢) عن عصر المماليك بدولتيه البحرية والچركسية وأحداثه الداخلية والخارجية حتى سقوط الدولة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م انظر ، طرخان ، إبراهيم ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة (١٩٦٠م)؛ عاشور ، سعيد ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة (١٩٦٢م)؛ العصر المماليك فى مصر والشام ، القاهرة ط٢ (١٩٧٦م) ؛ حسن ، على إبراهيم ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ، ط٣ (١٩٧٦م)؛ العبادى ، أحمد مختار ، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، بيروت ، ط٢ (١٩٨٥م)؛ الحجى ، حياة ناصر ، أحوال العامة فى حكم المماليك ، الكويت (١٩٩٤م)؛ أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك ، الكويت (١٩٩٥م)؛ عبد الدايم ، عبد العزيز ، مصر فى عصرى المماليك والعثمانيين ؛ القاهرة (١٩٩٦م)؛ الغامدى ، عبد الله ، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين ، مكة المكرمة ١٤١٠ هـ ؛ الحداد ، محمد حمزة إسماعيل ، السلطان المنصور قلاوون ، القاهرة ، ط٢ (٢٠٠٦م) ؛ عبد السيد ، حكيم أمين ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ١٩٦٧م ؛ ضومط ، انطوان خليل ، الدولة المملوكية ، التاريخ السياسى والاقتصادى والعسكرى ، بيروت (١٩٨٠م) .

- ١٣ - بيبرس الجاشنكير (بيبرس الثاني) ٧٠٨ - ٧٠٩ هـ / ١٣٠٨ - ١٣٠٩ م .
- الناصر محمد (للمرة الثالثة والأخيرة) ٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م .
- ١٤ - المنصور أبو بكر ٧٤١ - ٧٤٢ هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١ م .
- ١٥ - الأشرف كجك ٧٤٢ - ٧٤٣ هـ / ١٣٤١ - ١٣٤٢ م .
- ١٦ - الناصر شهاب الدين أحمد ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م .
- ١٧ - الصالح إسماعيل ٧٤٣ - ٧٤٦ هـ / ١٣٤٢ - ١٣٤٥ م .
- ١٨ - المظفر حاجي الأول ٧٤٧ - ٧٤٨ هـ / ١٣٤٦ - ١٣٤٧ م .
- ١٩ - الناصر حسن (للمرة الأولى) ٧٤٨ - ٧٥٢ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٥١ م .
- ٢٠ - الصالح صالح ٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤ م .
- الناصر حسن (للمرة الثانية) ٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦١ م .
- ٢١ - المنصور محمد ٧٦٢ - ٧٦٤ هـ / ١٣٦١ - ١٣٦٣ م .
- ٢٢ - الأشرف شعبان ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦ م .
- ٢٣ - المنصور على ٧٧٨ - ٧٨٣ هـ / ١٣٧٦ - ١٣٨١ م .
- ٢٤ - الصالح حاجي الثاني (للمرة الأولى) ٧٨٣ - ٧٨٤ هـ / ١٣٨١ - ١٣٨٢ م .
- وعاد مرة ثانية فيما بين ٧٩١ - ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ - ١٣٩٠ م وتلقب بالمظفر المنصور) .

الدولة المملوكية الثانية المعروف بدولة المماليك البرجية أو الجراكسة ٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م .

- ١ - الظاهر برقوق ٧٨٤ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٩ م (باستثناء الفترة التي عاد فيها حاجي الثاني السابق الإشارة إليها) .
- ٢ - الناصر فرج (للمرة الأولى) ٨٠١ - ٨٠٨ هـ / ١٣٩٩ - ١٤٠٥ م .
- ٣ - المنصور عبد العزيز ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .
- الناصر فرج (للمرة الثانية) ٨٠٨ - ٨١٥ هـ / ١٤٠٥ - ١٤١٢ م (ونصب الخليفة العباسي المستعين سلطانا في نفس العام) .
- ٤ - المؤيد شيخ ٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١ م .
- ٥ - المظفر أحمد ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م .

- ٦ - الظاهر ططر ٨٢٤هـ / ١٤٢١م .
- ٧ - الصالح محمد ٨٢٤هـ / ١٤٢١م .
- ٨ - الأشرف برسباي ٨٢٥ - ٨٤١هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٧م .
- ٩ - العزيز يوسف ٨٤١ - ٨٤٢هـ / ١٤٣٧ - ١٤٣٨م .
- ١٠ - الظاهر جمقق ٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣م .
- ١١ - المنصور عثمان ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م .
- ١٢ - الأشرف اينال ٨٥٧ - ٨٦٥هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦١م .
- ١٣ - المؤيد أحمد ٨٦٥هـ / ١٤٦١م .
- ١٤ - الظاهر خوشقدم ٨٦٥ - ٨٧٢هـ / ١٤٦١ - ١٤٦٧م .
- ١٥ - الظاهر قمرغا ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م .
- ١٦ - خاير بك (سلطان ليلة) ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م .
- ١٧ - الأشرف قايتباي ٨٧٢ - ٩٠١هـ / ١٤٦٧ - ١٤٩٥م .
- ١٨ - الناصر محمد بن قايتباي ٩٠١ - ٩٠٣هـ / ١٤٩٥ - ١٤٩٧م .
- ١٩ - الظاهر قانصوه ٩٠٣ - ٩٠٥هـ / ١٤٩٧ - ١٤٩٩م .
- ٢٠ - الأشرف جانبلاط ٩٠٥ - ٩٠٦هـ / ١٤٩٩ - ١٥٠٠م .
- ٢١ - العادل طومانباي ٩٠٦هـ / ١٥٠١م .
- ٢٢ - الأشرف قانصوه الغوري ٩٠٦ - ٩٢٢هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦م .
- ٢٣ - الأشرف طومانباي ٩٢٢ - ٩٢٣هـ / ١٥١٦ - ١٥١٧م .

(العصر العثماني (١٢٣) ٩٢٣ - ١٢١٣هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨م) :

(١٢٣) عن مصر العثمانية انظر : حراز ، السيد رجب ، المدخل إلى تاريخ مصر الحديث ١٥١٧ - ١٨٨٢م ، القاهرة (١٩٧٠م)؛ الراقده ، محمد عبد المنعم ، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، القاهرة (١٩٧٢م)؛ عبد اللطيف ، ليلى ، الإدارة فى مصر فى العصر العثماني ، مطبعة جامعة عين شمس (١٩٧٨م)؛ المجتمع المصرى فى العصر العثماني ، القاهرة (١٩٨٧م)؛ مغيث ، كمال ، مصر فى العصر العثماني ١٥١٧ - ١٧٩٨م ، القاهرة (١٩٩٧م)؛ عبد الرحيم ، عبد الرحمن ، فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثماني ، مجلدان ، ط ٢ (٢٠٠٣م)؛ عفيفى ، محمد ، الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثماني ، سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة (١٩٩١م).

هـ- أسرة محمد علي^(١٢٤) (١٢٢٠ - ١٣٧٢هـ / ١٨٠٥ - ١٩٥٣م) .

- ١ - محمد علي باشا ١٢٢٠ - ١٢٦٤هـ / ١٨٠٥ - ١٨٤٨م .
 - ٢ - إبراهيم باشا ١٢٦٤هـ / ١٨٤٨م .
 - ٣ - عباس باشا الأول ١٢٦٤ - ١٢٧٠هـ / ١٨٤٨ - ١٨٥٤م .
 - ٤ - سعيد باشا ١٢٧٠ - ١٢٨٠هـ / ١٨٥٤ - ١٨٦٣م .
 - ٥ - إسماعيل ١٢٨٠ - ١٢٩٦هـ / ١٨٦٣ - ١٨٧٩م (وقد اتخذ لقب الخديوى فى ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م) .
 - ٦ - الخديوى توفيق ١٢٩٦ - ١٣٠٩هـ / ١٨٧٩ - ١٨٩٢م .
 - ٧ - عباس حلمى الثانى ١٣٠٩ - ١٣٣٣هـ / ١٨٩٢ - ١٩١٤م .
 - ٨ - حسين كامل ١٣٣٣ - ١٣٣٥هـ / ١٩١٤ - ١٩١٧م (اتخذ لقب السلطان) .
 - ٩ - أحمد فؤاد الأول ١٣٣٥ - ١٣٥٥هـ / ١٩١٧ - ١٩٣٦م (إتخذ لقب الملك فى ١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م) .
 - ١٠ - الملك فاروق الأول ١٣٥٥ - ١٣٧١هـ / ١٩٣٦ - ١٩٥٢م .
 - ١١ - أحمد فؤاد الثانى ١٣٧١ - ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢ - ١٩٥٣م .
- (الغاء النظام الملكى وقيام النظام الجمهورى) .

٢- الشام

- ١ - الدولة الطولونية .
- العودة إلى حظيرة الخلافة العباسية ٢٩٢ - ٣٢٣هـ / ٩٠٤ - ٩٣٤م .

(١٢٤) عن عصر محمد علي وأسرته انظر ،

يحيى ، جلال ، مصر الحديثة ، ٣ أجزاء ، الاسكندرية (١٩٨٣م) ؛ إبراهيم ، سمير عمر ، الحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، القاهرة (١٩٩٢م) ؛ فارجيت ، جى ، محمد على مؤسس مصر الحديثة ، ترجمة محمد رفعت عواد ، القاهرة (٢٠٠٣م) ؛ السيد ، عفاف لطفى ، مصر فى عهد محمد على ، ترجمة عبد السميع عمر زين الدين ، مراجعة السيد أمين شلبى ، القاهرة (٢٠٠٤م) ؛ حلمى ، سهير ، أسرة محمد على ، القاهرة (٢٠٠٣م) ، البطريق ، عبد الحميد ، عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر ١٨٠٥ - ١٨٨٣م ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ١٥٥ .

- ٢ - الدولة الإخشيدية :
- الدولة الحمدانية فى حلب ٣٣٣ - ٣٩٤ هـ / ٩٤٤ - ١٠٠٣ م (١٢٥) .
- ٣ - الخلافة الفاطمية :
- الدولة المرداسية فى حلب ٤١٤ - ٤٧٢ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٧٩ م .
- ٤ - دولة سلاجقة الشام (١٢٦) :
- فى دمشق ٤٧١ - ٤٩٧ هـ / ١٠٧٨ - ١١٠٣ م .
- فى حلب ٤٧١ - ٥١١ هـ / ١٠٧٨ - ١١١٧ م .
- ٥ - أتابكة الشام :
- أ - الدولة البورية (١٢٧) فى دمشق ٤٩٧ - ٥٤٩ هـ / ١١٠٣ - ١١٥٤ م .
- ب - الدولة زنكية (١٢٨) :
- ١ - فى دمشق ٥٤٩ - ٥٧٧ هـ / ١١٥٤ - ١١٨١ م .
- السلطان نور الدين محمود ٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٤ م .
- السلطان الصالح إسماعيل ٥٦٩ - ٥٧٧ هـ / ١١٧٤ - ١١٨١ م .
- ٢ - فى حلب ٥٢١ - ٦٣١ هـ / ١١٢٧ - ١٢٣٣ م
- عماد الدين زنكى بن أقر سنقر (مؤسس الدولة) ٥٢١ - ٥٤١ هـ / ١١٢٧ - ١١٤٦ م .
-
- (١٢٥) السامر ، فيصل ، الدولة الحمدانية فى الموصل وحلب ، بغداد (١٩٧٠م) ؛ الكيالى ، سامى ، سيف الدولة وعصر الحمدانيين ، دار المعارف بمصر ، د ت ؛ فاعور ، أحمد صالح ، الدولة الحمدانية فى حلب ودورها فى التاريخ الإسلامى ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة (١٩٨٢م) .
- (١٢٦) يوسف ، أرشيد ، سلاجقة الشام والجزيرة ، عمان (١٩٨٨م) ، ص ٧٢ - ١٠٧ .
- (١٢٧) يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة ، ص ١٤٦ - ١٥٩ .
- (١٢٨) يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة ، ص ١٧٥ - ٢٠٠ ؛ خليل ، عماد الدين ، عماد الدين زنكى ، الموصل (١٩٨٥م) ، مؤنس ، حسين ، نور الدين محمود ، القاهرة (١٩٥٩م) ؛ الديوه جى ، سعيد ، الموصل فى العهد الأتابكى ، بغداد (١٩٨٥م) ؛ الجميلى ، رشيد ، دولة الأتابكة فى الموصل ، بيروت (١٩٧٠م) ، الحسينى ، محمد باقر ، العملة الإسلامية فى العهد الأتابكى ، بغداد (١٩٦٦م) .
- حبشى ، حسن ، نور الدين والصليبيون ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٥٩م) .

- ناصر الدين محمود (آخر الحكام) ٦١٦ - ٦٣١هـ / ١٢١٩ - ١٢٣٣م .

٦ - الدولة الأيوبية فى بلاد الشام (١٢٩) :

- فى دمشق ٥٨٩ - ٦٥٨هـ / ١١٩٣ - ١٢٦٠م .

- فى حلب ٥٨٢ - ٦٥٨هـ / ١١٨٦ - ١٢٦٠م .

- فى حماه ٥٨٧ - ٦٨٣هـ / ١١٩١ - ١٢٨٤م .

- فى حمص ٥٨٢ - ٦٤٦هـ / ١١٨٦ - ١٢٤٨م .

- فى بعلبك ٥٧٨ - ٦٥٨هـ / ١١٨٢ - ١٢٦٠م .

- فى الكرك ٥٨٤ - ٦٥٨هـ / ١١٨٨ - ١٢٦٠م .

٧ - الدولة المملوكية (البحرية والبرجية)

٨ - الدولة العثمانية .

٣ - العراق :

١ - الدولة الحمدانية فى الموصل ٢٩٣ - ٣٨٩هـ / ٩٠٥ - ٩٩٨م .

٢ - الدولة البويهية (١٣٠) (العصر العباسى الثالث) ٣٣٤ - ٤٤٧هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥م .

٣ - الدولة السلجوقية (١٣١) (سلاجقة العراق) ٤٤٧ - ٥٩٠هـ / ١٠٥٥ - ١١٩٤م .
أتابكة الموصل ٥١٦ - ٦٦٠هـ / ١١٢٢ - ١٢٦٢م .

(١٢٩) الغامدى ، على ، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ٥٨٩ - ٥٦٧هـ / ١١٩٣ - ١٢٥٩م ، مكة المكرمة (١٩٨٨م) ؛ سبانو ، أحمد غسان ، مملكة جماع الايوبية ، دمشق (١٩٨٤م) ؛ غوانمة ، يوسف درويش ، امارة الكرك الايوبية ، عمان (١٩٨٢م) ؛ البخيت ، محمد عدنان ، مملكة الكرك فى العهد الأيوبى ، عمان (١٩٧٦م) .

(١٣٠) الزبيدى ، محمد حسين ، العراق فى العصر البويهى ، القاهرة (١٩٦٩م) .

(١٣١) حسنين ، عبد النعيم ، دولة السلاجقة ، القاهرة (١٩٧٥م) ؛ حلمى ، أحمد كمال الدين ، السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، الكويت (١٩٧٥م) ، أمين ، حسين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، بغداد (١٩٦٥م) ؛ بدوى ، عبد المجيد ، التاريخ السياسى والفكرى للمشرق الإسلامى من القرن الخامس إلى سقوط بغداد ، القاهرة (١٩٨٨م) .

- ٤ - الدولة الإيلخانية (١٣٢٢) ٦٥٦ - ٧٣٦ هـ / ١٢٥٨ - ١٣٣٥ م : ومن حكامها :
 - قازان (غازان) خان بن أرغون ٦٩٤ - ٧٠٣ هـ / ١٢٩٤ - ١٣٠٣ م .
 - أولجايتو محمد خان خدابنده ٧٠٣ - ٧١٦ هـ / ١٣٠٣ - ١٣١٦ م .
 - أبو سعيد بهادر خان بن خدابنده ٧١٦ - ٧٣٦ هـ / ١٣١٦ - ١٣٣٥ م .
- ٥ - الدولة الجلائرية (١٣٣٣) ٧٤٠ - ٨٣٥ هـ / ١٣٣٩ - ١٤٣١ م .
 - ١ - الشيخ حسن الجلائرى ٧٤٠ - ٧٥٧ هـ / ١٣٣٩ - ١٣٥٦ م
 - ٢ - السلطان أويس بن حسن ٧٥٧ - ٧٧٦ هـ / ١٣٥٦ - ١٣٧٤ م
 - ٣ - السلطان حسين بن أويس ٧٧٦ - ٧٨٤ هـ / ١٣٧٤ - ١٣٨٢ م .
 - ٤ - السلطان أحمد بن أويس ٧٨٤ - ٧٩٥ هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٢ م . - الاحتلال التيمورى الأول ٧٩٥ - ٧٩٧ هـ / ١٣٩٢ - ١٣٩٤ م .
 - عودة السلطان أحمد بن أويس ٧٩٧ - ٨٠٣ هـ / ١٣٩٤ - ١٤٠٠ م . - الاحتلال التيمورى الثانى ٨٠٣ - ٨٠٨ هـ / ١٤٠٠ - ١٤٠٥ م . - عودة السلطان أحمد بن أويس ٨٠٨ - ٨١٤ هـ / ١٤٠٥ - ١٤١١ م .
 - ٥ - السلطان محمود بن شاه ولد ٨١٤ - ٨١٥ هـ / ١٤١١ - ١٤١٢ م .
 - ٦ - السلطان أويس الثانى بن شاه ولد ٨١٥ - ٨١٩ هـ / ١٤١٢ - ١٤١٦ م .
 - ٧ - تندو بنت حسين بن أويس ٨١٩ - ٨٢٢ هـ / ١٤١٦ - ١٤١٩ م .
 - ٨ - السلطان محمد بن شاه ولد ت ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م .
 - ٩ - السلطان حسين بن علاء الدولة بن السلطان أحمد ٨٢٧ - ٨٣٥ هـ / ١٤٢٣ - ١٤٣١ م .

(ثم استولى قراقيونلو - أصحاب الشاة أو الخراف السوداء) .

(١٣٢) الفقى ، عصام عبد الرؤوف ، الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق ، القاهرة (١٩٨٧م) ، ص ٣١٩ .
 ٣٣١ ؛ عبد الحليم ، رجب محمد ، انتشار الإسلام بين المغول ، القاهرة (١٩٨٦م) ، ص ١٧٥ - ٢٢٦ .
 (١٣٣) طرطور ، شعبان ، الدولة الجلائرية ، القاهرة (١٩٨٧م) ؛ رضوان ، يمنى ، الدولة الجلائرية ، القاهرة (١٩٩٣م) . الاشتيانى ، عباس اقبال ، تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية ، ترجمة محمد علاء الدين منصور ، مراجعة السباعى محمد السباعى ، القاهرة (١٩٨٩م) ، ص ٥٥٣ - ٥٦٠ .

٤- الجزيرة العربية وشرق أفريقيا

أ- اليمن (١٣٤) : من بين الدول الإسلامية نذكر كل من :

- الدولة الزيادية انتهت عام ٤٣١هـ / ١٠٣٩م أو بعدها بقليل .
- الدولة الصليحية (شيعية) ٤٣٩ - ٥٣٢هـ / ١٠٤٧ - ١١٣٧م . ومن حكامها :

- علي بن محمد ٤٣٩ - ٤٥٩هـ .
- المكرم أحمد بن علي ٤٥٩ - ٤٧٧هـ .
- السيدة أروى ٤٩٢ - ٥٣٢هـ .
- دولة بنى زريع فى عدن ٤٧٠ - ٥٦٩هـ / ١٠٧٨ - ١١٧٤م .
- دولة بنى حاتم فى صنعاء ٤٩٢ - ٥٩٩هـ / ١٠٩٩ - ١٠٧٤م .
- دولة بنى مهدى ٥٣٣ - ٥٦٩هـ / ١١٣٩ - ١١٧٤م .
- الدولة الأيوبية ٥٦٩ - ٦٢٦هـ / ١١٧٣ - ١٢٢٨م .
- الدولة الرسولية ٦٢٦ - ٨٥٨هـ / ١٢٢٨ - ١٤٥٤م . ومن حكامها :
- الملك المنصور عمر الأول ٦٢٦ - ٦٤٧هـ .
- الملك المظفر يوسف الأول ٦٤٧ - ٦٩٤هـ .
- الملك المؤيد داود ٦٩٦ - ٧٢١هـ .

(١٣٤) عن الدول الإسلامية فى اليمن انظر ،

أحمد ، محمد عبد العال ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما ، الاسكندرية (١٩٨٠م) ؛ دولة بنى أيوب فى اليمن ، الاسكندرية (١٩٦٨م) ؛ عسىرى ، محمد على ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى اليمن فى العصر الأيوبي ، جدة (١٩٨٥م) ؛ الهمدانى ، حسين ، فيض الله ، ومحمود ، حسن سليمان ، الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن ، بيروت ، ط ٣ (١٩٨٦م) ؛ سيد ، أيمن فؤاد ، مصادر تاريخ اليمن فى العهد الإسلامى ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة (١٩٧٤م) ، الملحق الثانى (قوائم الملوك والسلطين) ص ٣٧٩ - ٤١٦ ؛ الفيفى ، محمد يحيى ، الدولة الرسولية فى اليمن ، دراسة فى أوضاعها السياسية والحضارية ، بيروت (٢٠٠٥م) ؛ الحريرى ، محمد عيسى ، معالم التطور السياسى فى دولة بنى نجاح باليمن وعلاقتهم بالصليحيين ، الكويت (١٩٨٤م) ؛

- الملك المجاهد على ٧٢١ - ٧٦٤ هـ .
- الملك الأفضل ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ .
- الملك الأشرف إسماعيل الأول ٧٧٨ - ٨٠٣ هـ .
- الملك الناصر أحمد ٨٠٣ - ٨٢٧ هـ .
- الملك الظاهر يحيى ٨٣١ - ٨٤٢ هـ .
- الدولة الطاهرية ٨٥٨ - ٩٣٣ هـ / ١٤٥٤ - ١٥٢٦ م .
- الدولة العثمانية

ب- فى شرقى الجزيرة

- القرامطة^(١٣٥) ٢٨١ - ٣٦٦ هـ / ٨٩٤ - ٩٧٧ م

ج- فى الحجاز^(١٣٦)

- إمارة مكة المكرمة : الأشراف الحسينية (وهم ذرية الحسن السبط بن الإمام على كرم الله وجهه) .
- إمارة المدينة المنورة : الأشراف الحسينية (وهم ذرية الحسين الشهيد بن الإمام على كرم الله وجهه) .

(١٣٥) تامر ، عارف ، القرامطة ، بيروت ، د ت ، كتاب أخبار القرامطة فى الاحسام والشام والعراق واليمن، جمع وتحقيق ودراسة سهيل زكار ، دمشق (١٩٨٠م) .

(١٣٦) عن امارات مكة فى العصر الإسلامى انظر ، دحلان ، أحمد بن زنى ، خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ، القاهرة (١٣٠٥هـ/١٨٨٧م) ؛ آل زيد ، الشريف مسعود محمد ، تاريخ مكة المكرمة فى عهد الأشراف آل زيد ١٠٤١ - ١٢٩٩ هـ / ١٦٣١ - ١٨٨١م ، القاهرة (٢٠٠٥م) ص ٩ - ٢٠ ؛ السليمان ، على حسين ، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين الماليك ، القاهرة (١٩٧٣م) ؛ محمود ، جميل حرب ، الحجاز واليمن فى العصر الأيوبي ، جدة (١٩٨٥م) ؛ باقاسى ، عائشة عبد الله ، بلاد الحجاز فى العصر الأيوبي ، مكة المكرمة (١٩٨٠م) ؛ الزيلعى ، أحمد عمر ، مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١ - ٤٨٧ هـ ، الرياض (١٩٨١م) ؛ مورتيل ، ريتشارد ، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة فى العصر المملوكى ، الرياض (١٩٨٥م) ؛ جار شلى ، إسماعيل حقى ، أشراف مكة وأمرائها فى العهد العثمانى ، ترجمة خليل على مراد ، بيروت (٢٠٠٣م) .

إلا أنهم فى بعض الأحيان تناوبوا إمارة الحرمين الشريفين والتي كانت غالباً بيد الأشراف الحسنية .

وقد قسم بعض المؤرخين الأشراف من الأسر الحاكمة إلى طبقات وحسبنا أن نشير إلى الأشراف الحسنيين وهم :

- الأشراف الجعافرة (الموسويون) .

- الأشراف السليمانيون .

- الأشراف الهواشم ٤٥٥ - ٥٩٧ هـ .

- الأشراف القتاديون ٥٩٧ - ١٠٤٠ هـ .

- الأشراف آل زيد ١٠٤١ - ١٢٩٩ هـ / ١٦٣١ - ١٨٨١ م .

د - فى عمان (١٣٧) :

توالت على عمان خلال العصر الإسلامى عدة أسر حاكمة ومنها بنى جلندى وبنى سامه وبنى وجيه وبنى مكرم (الموالين للبويهيين الشيعة) وبنى نبهان ٥٤٩ - ٨٠٩ هـ ، ودولة الأئمة ٨٣٩ - ٩٦٨ هـ وبنى يعرب ١٠٢٤ - ١١٥١ هـ فى عمان وساحل شرق افريقية ، ثم الدولة البوسعيدية فى عمان وزنجبار (شرق افريقية) .

(١٣٧) ابن رزق ، حميد بن محمد ، الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد موسى عبد الله ، سلطنة عمان (١٩٨٢م) ؛ العانى ، عبد الرحمن النجم ، عمان فى العصور الإسلامية الأولى ، بغداد (١٩٧٧م) ؛ السالمى ، عبد الله بن حميد ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، الكويت (١٩٨٤م) ، عمر ، فاروق ، الخليج العربى فى العصور الإسلامية ، دوى (١٩٨٣م) ؛ تاريخ الخليج العربى فى العصور الإسلامية الوسطى ، بغداد (١٩٨٥م) ؛ كاشف ، سيدة ، عمان فى فجر الإسلام ، سلطنة عمان ، ط ٣ (١٩٨٩م) ؛ المسرى ، حسين على ، تاريخ البحرين وعمان من عصر النبوة إلى نهاية العصر الأموى ، الكويت (٢٠٠٠م) ؛ السهيل ، نايف ، الأباضية فى الخليج العربى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، مسقط ، ط ٢ (١٩٩٨م) ؛ العش ، محمد أبو الفرج ، النقود العمانية من خلال التاريخ الإسلامى ، عمان (١٩٨٤م) ؛ باثورست ، أردى ، أسرة اليعاربة العمانية ، أوكسفورد (١٩٦٧م) ؛ ولكنسون ، ج . س ، بنو الجلندى فى عان ، سلطنة عمان (١٩٨٢م) ؛ كتاب العمانيون وقلعة ممباسا ، سلسلة تراثنا ، العدد ٩ ، سلطنة عمان ، ط ٢ (١٩٨٥م) .

هـ- فى السودان وشرق افريقية (١٣٨) :

رصدت المصادر التاريخية حركة الهجرات العربية إلى السودان وشرق افريقية والمنافذ والمداخل التى تسربت منها سواء عن طريق وادى النيل (مصر والسودان) أو عن طريق الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى .

ولم يقتصر الأمر على الهجرات العربية وإنما هاجر إلى شرق افريقية أيضاً بعض مسلمى فارس من شيراز ومن ثم عرفت بالهجرة الشيرازية .

كذلك يجب ألا تنسى ما ترتب على اتساع نطاق التجارة المتبادلة والتوسع فى تجارة الرقيق بصفة خاصة من كثرة الوافدين على شرق افريقية من التجار والمغامرين والوسطاء وهو الأمر الذى ساعد على ظهور الساحلية واستقرار الكثير من الجماعات الإسلامية المهاجرة بها كما هو الحال فى أرخبيل دهلك وزيلع وسواكن وبربره وغيرها .

ولما كان المقام لا يتسع لدراسة تفصيلية حول هذه الهجرات والعوامل التى دفعت إليها من جهة أو الحركة التجارية النشطة من جهة ثانية ولذلك حسبنا أن نشير إلى أنه قد ترتب على انتشار الإسلام فى شرق افريقية قيام عدة دول أو إمارات إسلامية ومنها شوه وعدل وموره وهوبت وأوفات وسلطنة كلوه الشيرازية ؛ بل وإمتدت هذه الإمارات إلى هرر وبلاد أروسى جنوباً حتى البحيرات مطوفة بذلك الحبشة من الجنوب والشرق .

ومن الدول والممالك التى قامت فى السودان الشرقى دولة أو مملكة العبدلاب ، ومملكة الفونج فى سنار ، وسلطنة دارفور وممالك كردفان؛ تقلى (بفتح التاء) والمسبغات. وسوف نتحدث فى هذا الكتاب عن مظاهر الحضارة الإسلامية فى شرق إفريقيا عامة وفى مدنها الساحلية والداخلية ومنها مقديشيو ولامو ومالندى ومبسسه وبمبا وزنجبار وبربرة وكلوه وباضع وسواكن وزيلع وعيذاب وغيرها خاصة .

(١٣٨) عبد الجليل ، الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ، القاهرة (١٩٧٢م)؛ فضل ، يوسف ، مقدمة فى تاريخ الممالك الإسلامية فى السودان الشرقى ، الخرطوم ، ط ٢ (١٩٧٢م)؛ الحفناوى ، أحمد ، السودان وادى النيل فى ظل الإسلام ، القاهرة (١٩٨٢م)، الخويرى ، ساحل شرق افريقيا من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى ، القاهرة (١٩٨٦م) ؛ عبد الحليم ، رجب محمد ، العروبة والإسلام فى دارفور فى العصور الوسطى ، القاهرة (١٩٩١م) ؛ الغنيمى ، عبد الفتاح مقلد ، الإسلام والمسلمون فى شرق افريقية ، القاهرة (١٩٩٨م) ؛ تريمينجهام ، سبنسر ، الإسلام فى السودان ، ترجمة فؤاد محمد عكود ، القاهرة (٢٠٠١م) ؛ شببيكة ، مكى ، مملكة الفونج الإسلامية ، القاهرة (١٩٦٣م).

٥. الجناح الشرقى للدولة الإسلامية :

أولاً : إيران واسيا الوسطى :

- ١ - الدولة الطاهرية^(١٣٩) ٢٠٥ - ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ - ٨٧٣ م (وهى أول دولة شبه مستقلة فى الشرق الإسلامى وكان مقرها فى خراسان وعاصمتها نيسابور) .
- ٢ - الدولة الصفارية ٢٥٤ - ٢٩٠ هـ / ٨٦٧ - ٩٠٣ م (وكانت فى سجستان ومعظم أرجاء فارس) .
- ٣ - الدولة السامانية ٢٦١ - ٣٩٥ هـ / ٨٧٤ - ١٠٠٥ م (وكانت فى خراسان وبلاد ما وراء النهر) . ومن حكامها :
 - إسماعيل الأول بن أحمد ٢٧٩ - ٢٩٥ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٧ م .
 - أحمد بن إسماعيل ٢٩٥ - ٣٠١ هـ / ٩٠٧ - ٩١٣ م .
 - نصر الثانى بن أحمد ٣٠١ - ٣٣١ هـ / ٩١٣ - ٩٤٢ م .
 - نوح الأول بن نصر ٣٣١ - ٣٤٣ هـ / ٩٤٢ - ٩٥٤ م .
 - عبد الله بن نوح ٣٤٣ - ٣٥٠ هـ / ٩٥٤ - ٩٦١ م .
 - منصور بن نوح ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦٦ - ٩٧٦ م .
 - إسماعيل الثانى ٣٩٠ - ٣٩٥ هـ / ٩٩٩ - ١٠٠٤ م .
- ٤ - الدولة البويهية^(١٤٠) (شيعية) ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥ م ، وكانت فى العراق (العصر العباسى الثالث) وفارس والرى وهمدان واصبهان وبلاد الجبل) ومن حكامها :
 - عماد الدولة أبو الحسن على ٣٢٢ - ٣٣٨ هـ / ٩٣٣ - ٩٤٩ م .
 - عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو ٣٣٨ - ٣٧٢ هـ / ٩٤٩ - ٩٨٢ م .

(١٣٩) عن الدولة الطاهرية والصفارية والسامانية انظر ، الفقى ، الدول الإسلامية المستقلة ، ص ٥ - ٢٠ ؛
الاشتياى ، تاريخ إيران ، ص ١٣ - ١٨ ، ٩٧ - ١٣٢ ، ١٣٣ - ١٦٧ ؛ أبو سيف ، فتحى ، خراسان ،
تاريخها السياسى والحضارى فى سقوط الحكم الطاهرى إلى بداية الحكم الغزنوى ، القاهرة ، ط ٢
(١٩٩٤ - ١٩٩٥ م) .

(١٤٠) الفقى ، الدول الإسلامية المستقلة ، ص ٢٠ - ٢٢ ؛ الاشتياى ، تاريخ إيران ، ص ٥٧ - ٩٥ .

- شرف الدولة أبو الفوارس ٣٧٢ - ٣٨٠ هـ / ٩٨٢ - ٩٩٠ م .
- صمصام الدولة أبو كاليجار ٣٨٠ - ٣٨٨ هـ / ٩٩٠ - ٩٩٨ م .
- ٥ - الدولة الغزنوية^(١٤١) ٣٦٦ - ٥٨٢ هـ / ٩٧٧ - ١١٨٦ م ، (وكانت فى خراسان وأفغانستان وشمال الهند) ومن حكامها :
 - ناصر الدولة سبكتكين ٣٦٧ - ٣٨٧ هـ / ٩٧٧ - ٩٩٧ م .
 - إسماعيل بن سبكتكين ٣٨٧ - ٣٨٩ هـ / ٩٩٧ - ٩٩٨ م .
 - يمين الدولة محمود بن سبكتكين ٣٨٩ - ٤٢١ هـ / ٩٩٨ - ١٠٣٠ م .
 - مسعود الأول بن محمود ٤٢١ - ٤٣٣ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٤١ م .
 - مسعود الثانى بن مودود ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ م .
 - مسعود الثالث بن إبراهيم ٤٩٢ - ٥٠٨ هـ / ١٠٩٨ - ١١١٤ م .
- ٦ - الدولة القره خانية^(١٤٢) ٣١٥ - ٦٠٨ هـ (وكانت فى بلاد ما وراء النهر والتركستان الشرقية) . ومن حكامها :
 - أحمد الأول أرسلان قره خان ٣٨٨ - ٤٠٦ هـ / ٩٩٨ - ١٠١٥ م .
 - منصور أرسلان خان ٤٠٦ - ٤١٥ هـ / ١٠١٥ - ١٠٢٤ م .
 - إبراهيم الأول ٤٤٤ - ٤٦٠ هـ / ١٠٥٢ - ١٠٦٧ م .
 - نصر بن إبراهيم ٤٦٠ - ٤٧٤ هـ / ١٠٦٧ - ١٠٨٢ م .
- ٧ - الدولة السلجوقية^(١٤٣) ٤٢٩ - ٥٩٠ هـ / ١٠٣٨ - ١١٩٤ م . (وكانت فى إيران والعراق (العصر العباسى الرابع ٤٤٧ - ٥٩٠ هـ / ١٠٥٥ - ١١٩٤ م) وكرمان

(١٤١) الفقى ، الدول الإسلامية المستقلة ، ص ٦٩ - ١٥١ ؛ الاشتيانى ، تاريخ إيران ، ص ١٦٩ - ٢٠٨ .

(١٤٢) المحيىيد ، على صالح ، القرخانيون وجهودهم فى نشر الإسلام ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد ١٦ ، صفر ١٤١٧ هـ / يونية (١٩٩٦ م) ، ص ٢٧٣ - ٣٣١٨ ؛ رمضان ، عاطف منصور ، نقود القرخانيين ، القاهرة (٢٠٠٦ م) .

(١٤٣) الفقى ، الدول الإسلامية المستقلة ، ص ١٥٢ - ١٧٦ ؛ الاشتيانى ، تاريخ إيران ، ص ٢٢٧ - ٣٠٨ ؛ إدريس ، محمد محمود ، رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية ، القاهرة (١٩٨٣ م) ؛ تاريخ العراق والمشرق الإسلامى خلال العصر السلجوقى الأول ، القاهرة (١٩٨٥ م) ، (فضلاً عن المراجع المذكورة فى الحاشية رقم ٣٩ من هذا الكتاب) .

- والشام وأسيا الصغرى (الروم) ...) .
- ومن سلاطين السلاجقة حسبنا أن نشير إلى السلاطين العظام وهم :
- طغرل بك ٤٢٩ - ٤٥٥ هـ / ١٠٣٨ - ١٠٦٣ م .
 - الب ارسلان ٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م .
 - ملكشاه ٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م .
 - محمود الأول ٤٨٥ - ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢ - ١٠٩٤ م .
 - بركياروق ٤٨٧ - ٤٩٨ هـ / ١٠٩٤ - ١١٠٥ م .
 - ملكشاه الثانى ٤٩٨ - ٥١١ هـ / ١١٠٥ - ١١١٨ م .
 - سنجر ٥١١ - ٥٥٢ هـ / ١١١٨ - ١١٥٧ م .
- ٨ - الدولة الخوارزمية^(١٤٤) ٤٧٠ - ٦٢٨ هـ / ١٠٧٧ - ١٢٣١ م (وكانت فى إيران وأسيا الوسطى)
- ومن حكامها :
- أنوشتكين التركى ٤٧٠ - ٤٩٠ هـ / ١٠٧٧ - ١٠٩٧ م .
 - قطب الدين محمد ٤٩٠ - ٥٢١ هـ / ١٠٩٧ - ١١٢٧ م .
 - علاء الدين أتسزخوارزم شاه ٥٢١ - ٥٥١ هـ / ١١٢٧ - ١١٥٦ م .
 - علاء الدين محمد خوارزم شاه ٥٩٦ - ٦١٧ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٩ م .
 - جلال الدين منكبرتى ٦١٧ - ٦٢٨ هـ / ١٢١٩ - ١٢٣١ م .
- ٩ - الدولة الإيلخانية (مغول فارس) انتهت عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ م كما سبقت الإشارة ، ومنها أيضاً مغول القفجاق (القبيلة الذهبية) .
- ١٠ - الدولة المظفرية^(١٤٥) ٧١٨ - ٧٩٥ هـ / ١٣١٨ - ١٣٩٣ م (وكانت فى فارس وكرمان وعاصمتها شيراز) .
- ١١ - الدولة الجلائرية وكانت فى العراق وأذربيجان وكانت عاصمتها بغداد ثم تبريز) وقد سبقت الإشارة إلى أسماء حكامها .

(١٤٤) الفقى ، الدول الإسلامية المستقلة ، ص ٢٩٧ - ٣١٠ : الاشتياني ، تاريخ إيران ، ص ٣١٩ - ٣٤٢ ؛
العبود ، نافع توفيق ، الدولة الخوارزمية ، بغداد (١٩٨٧م) ؛ حمدى ، حافظ ، الدولة الخوارزمية
والمغول ، القاهرة (١٩٤٩م) .

(١٤٥) الاشتياني ، تاريخ إيران ، ص ٥٠٧ - ٥٤٤ .

- ١٢ - دولة آل كورت^(١٤٦) (فى شرق خراسان وعاصمتها هراة) ٦٤٣ - ٧٨٤هـ / ١٢٤٥ - ١٣٨٢م .
- ١٣ - دولة السريداريون^(١٤٧) ٧٣٧ - ٧٨٣هـ / ١٣٣٧ - ١٣٨١م (وكانت فى خراسان حيث إقتسموها مع دولة آل كورت) .
- ١٤ - دولة القراقيونلو^(١٤٨) (أصحاب الشاة أو الخراف السوداء) ٧٨٢ - ٨٧٤هـ / ١٣٨٠ - ١٤٦٩م . (وكانت فى أذربيجان والعراق) .
- ١٥ - دولة الآق قيونلو^(١٤٩) (أصحاب الشاة أو الخراف البيضاء) ٧٨٠ - ٩١٤هـ / ١٣٧٨ - ١٥٠٨م . (وكانت فى أذربيجان وديار بكر وشرق الأناضول) .
- ١٦ - الدولة التيمورية^(١٥٠) ٧٧١ - ٩٠٦هـ / ١٣٦٩ - ١٥٠٠م (وكانت فى إيران وأسيا الوسطى وعاصمتها سمرقند ثم هراة ، وكانت تمتد من دهلى إلى دمشق ومن بحيرة آرال إلى خليج البصرة ؛ ولم يستطع خلفاء تيمور الاحتفاظ بهذا الملك العريض طويلاً) ومن حكامها :
- ١ - تيمور لنك ٧٧١ - ٨٠٨هـ / ١٣٧٠ - ١٤٠٥م .
 - ٢ - شاه رخ ٨٠٨ - ٨٥٠هـ / ١٤٠٥ - ١٤٤٧م .
 - ٣ - اولوغ بك ٨٥٠ - ٨٥٣هـ / ١٤٤٧ - ١٤٤٩م .
 - ٤ - أبو سعيد بن محمد بن ميرانشاه ٨٥٥ - ٨٧٣هـ .
 - ٥ - أحمد بن أبى سعيد ٨٧٣ - ٨٩٩هـ /
 - ٦ - حسين ميرزا بايقرا ٨٧٣ - ٩١٢هـ / ١٤٦٨ - ١٥٠٦م .
- ١٧ - الدولة الصفوية^(١٥١) ٩٠٧ - ١١٤٨هـ / ١٥٠٢ - ١٧٣٦م (وكانت فى إيران وأحيانا العراق وبعض نواحى أسيا الوسطى ومذهبها الإمامية (الاثنى

(١٤٦) الاشتيانى ، تاريخ إيران ، ص
 (١٤٧) الاشتيانى ، تاريخ إيران ، ص ٥٦١ - ٥٦٧ .
 (١٤٨) الاشتيانى ، تاريخ إيران ، ص ٦٢٩ - ٦٣٣ .
 (١٤٩) الاشتيانى ، تاريخ إيران ، ص ٦٣٣ - ٦٣٧ .
 (١٥٠) الاشتيانى ، تاريخ إيران ، ص ٥٨٩ - ٦٢٧ .
 (١٥١) الاشتيانى ، تاريخ إيران ، ص ٦٣٩ - ٧٠٨ ؛ جمعة ، بديع ؛ الشاه عباس الكبير ، القاهرة (١٩٨٠م) ؛
 جمعه ، بديع ، الخولى ، أحمد ، تاريخ الصفويين وحضارتهم ، ج١ ، القاهرة (١٩٧٦م) ؛ الخولى ،
 أحمد ، الدولة الصفوية ، تاريخها السياسى والاجتماعى وعلاقتها بالعثمانيين ، القاهرة (١٩٨١م) .

عشرية) وانتقلت العاصمة من تبريز إلى قزوین ثم أصفهان). ومن حکامها:

- الشاه إسماعیل الأول ۹۰۷ - ۹۳۰ هـ / ۱۵۰۲ - ۱۵۲۴ م .

- الشاه طهماسب الأول ۹۳۰ - ۹۸۴ هـ / ۱۵۲۴ - ۱۵۷۶ م .

- الشاه إسماعیل الثاني ۹۸۴ - ۹۸۵ هـ / ۱۵۷۶ - ۱۵۷۷ م .

- الشاه محمد خدابنده ۹۸۵ - ۹۹۵ هـ / ۱۵۷۸ - ۱۵۸۷ م .

- الشاه عباس الأول (عباس الكبير) ۹۹۶ - ۱۰۳۸ هـ / ۱۵۸۸ - ۱۶۲۸ م .

- الشاه صفی الأول ۱۰۳۸ - ۱۰۵۲ هـ / ۱۶۲۸ - ۱۶۴۲ م .

- الشاه عباس الثاني ۱۰۵۲ - ۱۰۷۷ هـ / ۱۶۴۲ - ۱۶۶۶ م .

۱۸ - الدولة الافشارية^(۱۵۲) ۱۱۴۸ - ۱۲۱۰ هـ / ۱۷۳۶ - ۱۷۹۵ م (وكانت فی

إيران) ومن أشهر حکامها نادرشاه ۱۱۴۸ - ۱۱۶۰ هـ / ۱۷۳۶ - ۱۷۴۷ م) .

۱۹ - الدولة القاجارية^(۱۵۳) ۱۱۹۳ - ۱۳۴۲ هـ / ۱۷۷۹ - ۱۹۲۴ م . (وكانت فی

إيران) ومن حکامها :

- اقا محمد شاه ۱۱۹۳ - ۱۲۱۲ هـ / ۱۷۷۹ - ۱۷۹۷ م .

- فتح علی شاه ۱۲۱۲ - ۱۲۵۰ هـ / ۱۷۹۷ - ۱۸۳۴ م .

- محمد شاه ۱۲۵۰ - ۱۲۶۴ هـ / ۱۸۳۴ - ۱۸۴۸ م .

- ناصر الدين شاه ۱۲۶۴ - ۱۳۱۳ هـ / ۱۸۴۸ - ۱۸۹۶ م .

- أحمد شاه بن محمد علی (آخر الحکام) ۱۳۲۷ - ۱۳۴۳ هـ / ۱۹۰۹ -

۱۹۲۴ م .

(ثم تأتي الأسرة أو الدولة البهلوية ۱۹۲۴ - ۱۹۷۹ م ومنذ هذا التاريخ الأخير

قامت الجمهورية الإسلامية الحالية فی إيران) .

أما الدول الإسلامية التي أعقبت الدولة التيمورية في آسيا

الوسطى^(۱۵۴) فهي على النحو التالي :

۱ - الشيبانيون ۹۰۷ - ۱۰۰۷ هـ / ۱۵۰۰ - ۱۵۹۹ م . (وكانت فی سمرقند

(۱۵۲) الاشتياني ، تاريخ إيران ، ص ۷۰۸ - ۷۲۴ .

(۱۵۳) الاشتياني ، تاريخ إيران ، ص ۷۴۱ - ۸۵۵ .

(۱۵۴) عن تاريخ الدولة الإسلامية التي أعقبت التيموريين في آسيا الوسطى انظر : فاميري ، ارمينوس ،

تاريخ بخارى ، ترجمة أحمد محمود الساداتي ، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب ، القاهرة (۱۹۶۵ م) =

وبخارى وطشقند وبلخ) ومن حكامها الذين تولوا عرش الخانية (الخان الأعظم) :

- محمد شيبانى خان ٩٠٦ - ٩١٦ هـ / ١٥٠٠ - ١٥١٠ م .
- كوچكونجى ٩١٨ - ٩٣٧ هـ / ١٥١٢ - ١٥٣١ م .
- مظفر الدين أبو سعيد ٩٣٧ - ٩٤٠ هـ / ١٥٣١ - ١٥٣٤ م .
- عبد الله الأول ٩٤٦ - ٩٤٧ هـ / ١٥٣٩ - ١٥٤٠ م .
- عبد اللطيف ٩٤٧ - ٩٥٩ هـ / ١٥٤٠ - ١٥٥٢ م .
- نوروز أحمد ٩٥٩ - ٩٦٣ هـ / ١٥٥٢ - ١٥٥٦ م .
- بير محمد الأول ٩٦٣ - ٩٦٨ هـ / ١٥٥٦ - ١٥٦١ م .
- اسكندر ٩٦٨ - ٩٩١ هـ / ١٥٦١ - ١٥٨٣ م .
- عبد الله الثانى بن اسكندر ٩٩١ - ١٠٠٦ هـ / ١٥٨٣ - ١٥٩٨ م .
- عبد المؤمن ١٠٠٦ - ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٨ م .
- بير محمد الثانى ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٩ م .

أ- الحكام فى بخارى :

- عبيد الله خان ٩١٨ - ٩٤٦ هـ .
- عبد العزيز بن عبيد الله ٩٤٦ - ٩٥٧ هـ .
- يار محمد بالاشتراك مع برهان ٩٥٧ - ٩٦١ هـ .
- اسكندر ٩٦٤ - ٩٩١ هـ (وكان ابنه عبد الله هو الحاكم الفعلى) .
- عبد الله بن اسكندر ٩٩١ - ١٠٠٦ هـ .
- عبد المؤمن بن عبد الله ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٨ م .

ب- الحكام فى سمرقند ومنهم :

- محمد شيبانى خان ٩٠٧ - ٩١٦ هـ .
- محمد تيمور بالاشتراك مع كوچكونجى ٩١٨ - ٩٢٠ هـ .

= جابر ، مصطفى ، مدرسة بخارى فى التصوير الإسلامى ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة (٢٠٠٥م) ؛ الساداتى ، أحمد محمود ، تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، القاهرة ، ط٢ (١٩٩٧م) ، ص ٢٠٨ - ٢٢٣ .

- کوچكونجى ۹۲۰ - ۹۳۷ ھ .

- أبو سعيد بن کوچكونجى ۹۳۷ - ۹۴۰ ھ .

- عبد الله الأول بن کوچكونجى ۹۴۰ - ۹۴۷ ھ .

- عبد اللطيف بن کوچكونجى ۹۴۷ - ۹۵۹ ھ .

ج- فى طشقند : ومنهم :

- سيونج ۹۱۷ - ۹۳۱ ھ .

- سلطان محمد بهادر بن سيونج ۹۳۱ - ۹۳۹ ھ /

- نوروزا حمد (براق خان) ۹۳۱ - ۹۶۳ ھ .

د- فى بلخ : ومنهم :

- پير محمد ابن جاني بك ۹۵۵ - ۹۶۸ ھ .

۲- دولة خانات استراخان ۱۰۰۷ - ۱۲۰۰ ھ / ۱۵۹۹ - ۱۷۸۵ م . ومن حكامها :

- باقى محمد ۱۰۰۷ - ۱۰۱۴ ھ / ۱۵۹۹ - ۱۶۰۵ م .

- ولى محمد ۱۰۱۴ - ۱۰۲۰ ھ / ۱۶۰۵ - ۱۶۱۱ م .

- إمام قلى ۱۰۲۰ - ۱۰۵۱ ھ / ۱۶۱۱ - ۱۶۴۲ م .

- عبد الله ۱۰۵۵ - ۱۰۹۱ ھ / ۱۶۴۵ - ۱۶۸۰ م .

- سبحان قلى ۱۰۹۱ - ۱۱۱۴ ھ / ۱۶۸۰ - ۱۷۰۲ م .

- عبد العزيز الأول ۱۱۱۴ - ۱۱۲۳ ھ / ۱۷۰۲ - ۱۷۱۱ م .

- أبو الفيض ۱۱۲۳ - ۱۱۶۰ ھ / ۱۷۱۱ - ۱۷۴۷ م .

- أبو الغازى (آخر الحكام) ۱۱۷۱ - ۱۲۰۰ ھ / ۱۷۵۸ - ۱۷۸۵ م .

۳- دولة المنغيت ۱۲۰۰ - ۱۳۳۸ ھ / ۱۷۸۵ - ۱۹۲۰ م . ومن حكامها :

- مير معصوم شاه مراد ۱۲۰۰ - ۱۲۱۵ ھ / ۱۷۸۵ - ۱۸۰۰ م .

- حيدر توره (أمير سعيد بن معصوم شاه) ۱۲۱۵ - ۱۲۴۲ ھ / ۱۸۰۰ -

۱۸۲۶ م .

- مظفر الدين بن نصر الله ۱۲۷۷ - ۱۳۰۴ ھ / ۱۸۶۰ - ۱۸۸۶ م .

- عبد الأوحى بن مظفر الدين ۱۳۰۴ - ۱۳۲۸ ھ / ۱۸۸۶ - ۱۹۱۰ م .

- مير سليم بن عبد الأوحى ۱۳۲۸ - ۱۳۳۸ ھ / ۱۹۱۰ - ۱۹۲۰ م (وهو آخر

الحكام ثم الاحتلال الروسي) .

- ٤ - دولة خانات خيوة (أو خانات خوارزم) ٩٢١ - ١٣٣٧هـ / ١٥١٥ - ١٩١٩م)
وعدهم ٣٦ خانا ثم الاحتلال الروسي .
- ٥ - دولة خانات خوقند أو خانات فرغانه ١١١٢ - ١٢٩٣هـ / ١٧٠٠ - ١٨٧٦م
(وعدهم ١٧ خاناً ثم الاحتلال الروسي) .

ثانياً : آسيا الصغرى (الأناضول)

- ١ - دولة سلاجقة الروم^(١٥٥) ٤٧٠ - ٧٠٧هـ / ١٠٧٧ - ١٣٠٧م . ومن حكامها :
- قليج أرسلان الأول ٤٨٥ - ٥٠٠هـ / ١٠٩٢ - ١١٠٧م .
- عز الدين قليج أرسلان الثاني ٥٥١ - ٥٨٨هـ / ١١٥٦ - ١١٩٢م .
- غياث الدين كيخسرو الأول (للمرة الأولى) ٥٨٨ - ٥٩٢هـ / ١١٩٢ - ١١٩٦م
وللمرة الثانية ٦٠١ - ٦٠٧هـ / ١٢٠٤ - ١٢١٠م .
- عز الدين كيكاوس الأول ٦٠٧ - ٦١٦هـ / ١٢١٠ - ١٢١٩م .
- علاء الدين كيقيباد الأول ٦١٦ - ٦٣٤هـ / ١٢١٩ - ١٢٣٧م .
(وسقطت هذه الدولة نهائياً على يد المغول ، عام ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م ويبدأ
بعد ذلك عهد ملوك الطوائف أو البكوات (بغلر بكى بالأناضول ؛ إلى أن يتم
توحيد الأناضول ثانية تحت سيادة واحدة على يد العثمانيين ومنها ينطلقون
إلى أوروبا أولاً فالأقطار العربية ثانية) .

٢ - الدولة الدانشمندية^(١٥٦) (كانت في وسط وشرق الأناضول)

- أ - في سيواس ٤٧٧ - ٥٧٠هـ / ١٠٨٤ - ١١٧٤م ومن حكامها :
- كمشتكين أحمد الدانشمند ٤٧٧ - ٤٩٩هـ / ١٠٨٤ - ١١٠٤م .
- ملك غازي بن دانشمند ٤٩٩ - ٥٢٩هـ / ١١٠٥ - ١١٣٥م .
- ملك محمد بن ملك غازي ٥٢٩ - ٥٣٧هـ / ١١٠٥ - ١١٤٢م .

(١٥٥) راييس ، تامارا تالبوت ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الداوقى ،
بغداد (١٩٦٨م) ؛ عبد اللطيف ، أحمد تونى ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة سلاجقة
الروم ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، كلية دار العلوم ، جامعة المنيا (١٩٨٦م) ؛
Cahen, C., Pre Ottoman Turkey, 1071 - 1330, London, (1968) .

(١٥٦) الغامدى ، على محمد ، المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ، الطائف ١٤١١هـ ؛ المحميد ، على
بن صالح ، الدانشمنديون وجهادهم فى الأناضول ، الاسكندرية (١٩٩٤م) .

- ملك نظام الدين ياغى بسان بن ملك غازى ٥٣٧ - ٥٦٠ هـ / ١١٤٢ - ١١٦٤ م .

ب- فى ملطية ٥٣٧ - ٥٧٣ هـ / ١١٤٢ - ١١٧٧ م ، ومن حكامها :

- عين الدولة بن ملك غازى ٥٣٧ - ٥٤٧ هـ / ١١٤٢ - ١١٥٢ م .

- ذو القرنين بن ملك غازى ٥٤٧ - ٥٥٦ هـ / ١١٥٢ - ١١٦١ م .

- ناصر الدين محمد بن ذى القرنين (للمرة الأولى) ٥٥٦ - ٥٦٥ هـ / ١١٦١ - ١١٦٩ م

١١٦٩ م وللمرة الثانية ٥٧١ - ٥٧٣ هـ / ١١٧٥ - ١١٧٧ م

٣- دولة بنى أرتق^(١٥٧) (فى حصن كيفا وآمد (دياربكر) وماردين وميافارقين).

أ- فى حصن كيفا وآمد ٤٩١ - ٦٢٩ هـ / ١٠٩٨ - ١٢٣٢ م . ومن حكامها :

- معين الدين سكمى الأول ٤٩١ - ٤٩٨ هـ / ١٠٩٨ - ١١٠٥ م .

- ركن الدولة داود ٥٠٢ - ٥٣٩ هـ / ١١٠٩ - ١١٤٤ م .

- فخر الدين قره أرسلان ٥٣٩ - ٥٦٢ هـ / ١١٤٤ - ١١٦٧ م .

- قطب الدين سكمى الثانى ٥٨١ - ٥٩٧ هـ / ١١٨٥ - ١٢٠١ م .

(ثم استولى الأيوبيون عام ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م) .

ب- فى ماردين وميافارقين ٤٩٧ - ٨١١ هـ / ١١٠٤ - ١٤٠٨ م . ومن حكامها :

- نجم الدين ألبى ٥٤٧ - ٥٧٢ هـ / ١١٥٢ - ١١٧٦ م .

- قطب الدين ايلغازى الثانى ٥٧٢ - ٥٨٠ هـ / ١١٧٦ - ١١٨٤ م .

- حسام الدين يولاق أرسلان ٥٨٠ - ٥٩٧ هـ / ١١٨٤ - ١٢٠١ م .

- نصير الدين ارتق أرسلان ٥٩٧ - ٦٣٧ هـ / ١٢٠١ - ١٢٣٩ م .

- قره أرسلان المظفر ٦٥٨ - ٦٩١ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٩٢ م .

(ثم إستولى الآق قيونلو عام ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م) .

(١٥٧) خليل ، عماد الدين ، الإمارات الارتقية فى الجزيرة والشام ٤٦٥ - ٨١٢ هـ / ١٠٧٢ - ١٤٠٩ م .

٤- دول ملوك الطوائف أو البكوات^(١٥٨) (بكلربكى) :

ومن بينها :

- ١ - بنى قرامان (بوسط الأناضول) ٦٥٤ - ٨٨٨ هـ / ١٢٥٦ - ١٤٨٣ م .
- ٢ - بنى صاروخان (فى مغنيسة) ٧٠٠ - ٨١٣ هـ / ١٣٠٠ - ١٤١٠ م .
- ٣ - بنى آيدىن (فى سلجوق) ٦٩٩ هـ أو ٧٠٠ هـ / ١٢٩٩ م أو ١٣٠٠ م إلى ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م .
- ٤ - بنى منتشا ٧٠٠ - ٨٢٩ هـ / ١٣٠٠ - ١٤٢٥ م .
- ٥ - بنى ذى لغادر (فى مرعش والبستان وفيما حولهما) ٧٤٠ - ٩٢٨ هـ / ١٣٣٩ - ١٥٢١ م .
- ٦ - بنى رمضان (فى أذنه) ٧٨٠ - ١٠١٧ هـ / ١٣٧٨ - ١٦٠٨ م .
- ٧ - الاق قيونلو (أصحاب الشاة أو الخراف البيضاء) فى ديار بكر وشرق الأناضول وأذربيجان) ٧٨٠ - ٩١٤ هـ / ١٣٧٨ - ١٥٠٨ م .

٥- الدولة العثمانية^(١٥٩) ٦٩٩ - ١٣٤٢ هـ / ١٢٩٩ - ١٩٢٤ م ومن حكامها :

- ١ - عثمان بن ارطغرل ٦٩٩ - ٧٢٤ هـ / ١٢٩٩ - ١٣٢٤ م .
- ٢ - أورخان ٧٢٤ - ٧٦١ هـ / ١٣٢٤ - ١٣٦٠ م .
- ٣ - مراد الأول ٧٦١ - ٧٩١ هـ / ١٣٦٠ - ١٣٨٩ م .
- ٤ - بايزيد يلدرىم ٧٩١ - ٨٠٤ هـ / ١٣٨٩ - ١٤٠٢ م .
- ٥ - محمد چلبى (محمد الأول) ٨٠٥ هـ / ١٤٠٣ م (فى الأناضول فقط) وبعد ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م فى الروملى .
- ٦ - سليمان الأول (فى روملى فقط) ٨٠٦ - ٨١٣ هـ / ١٤٠٣ - ١٤١٠ م .
- ٧ - مراد الثانى (للمرة الأولى) ٨٢٤ - ٨٤٨ هـ / ١٤٢١ - ١٤٤٤ م .
- ٨ - محمد الثانى (الفتاح) (للمرة الأولى) ٨٤٨ - ٨٥٠ هـ / ١٤٤٤ - ١٤٤٦ م .

Cahen, C., Pre Ottoman Turkey, 1071 - 1330, London, (1968) ; Yücel, Y and (١٥٨) Sevin, A., Türkiye Tarihi, I, Ankara (1990)., Yücel, Y., Anadolu Beylikleri Hakkında Arastirmalar, I - II, Ankara, (1989, 1991)., Uzuncarsili, I, H., Anadolu Beylikeleri ve Akkayunlu - Karakoyunlu Devletleri, Ankara, (1969).

(١٥٩) انظر المصادر والمراجع الواردة فى الهوامش أرقام ٤١ - ١١٢ فى الدراسات التمهيدية من هذا الكتاب .

- مراد الثانى (للمرة الثانية) ٨٥٠ - ٨٥٥ هـ / ١٤٤٦ - ١٤٥١ م .
- محمد الفاتح (للمرة الثانية) ٨٥٥ - ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١ م .
- ٩ - بايزيد الثانى ٨٨٦ - ٩١٨ هـ / ١٤٨١ - ١٥١٢ م .
- ١٠ - سليم الأول (ياووز) ٩١٨ - ٩٢٦ هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠ م .
- ١١ - سليمان الثانى القانونى أو المعظم ٩٢٦ - ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م .
- ١٢ - سليم الثانى ٩٧٤ - ٩٨٢ هـ / ١٥٦٦ - ١٥٧٤ م .
- ١٣ - مراد الثالث ٩٨٢ - ١٠٠٣ هـ / ١٥٧٤ - ١٥٩٥ م .
- ١٤ - محمد الثالث ١٠٠٣ - ١٠١٢ هـ / ١٥٩٥ - ١٦٠٣ م .
- ١٥ - أحمد الأول ١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ / ١٦٠٣ - ١٦١٧ م .
- ١٦ - مصطفى الأول (للمرة الأولى) ١٠٢٦ - ١٠٢٧ هـ / ١٦١٧ - ١٦١٨ م .
- ١٧ - عثمان الثانى ١٠٢٧ - ١٠٣١ هـ / ١٦١٨ - ١٦٢٢ م .
- مصطفى الأول (للمرة الثانية) ١٠٣١ - ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ - ١٦٢٣ م .
- ١٨ - مراد الرابع ١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ / ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م .
- ١٩ - إبراهيم ١٠٤٩ - ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٠ - ١٦٤٨ م .
- ٢٠ - محمد الرابع ١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ / ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م .
- ٢١ - سليمان الثالث ١٠٩٩ - ١١٠٢ هـ / ١٦٨٧ - ١٦٩١ م .
- ٢٢ - أحمد الثانى ١١٠٢ - ١١٠٦ هـ / ١٦٩١ - ١٦٩٥ م .
- ٢٣ - مصطفى الثانى ١١٠٦ - ١١١٥ هـ / ١٦٩٥ - ١٧٠٣ م .
- ٢٤ - أحمد الثالث ١١١٥ - ١١٤٣ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٣٠ م .
- ٢٥ - محمود الأول ١١٤٣ - ١١٦٨ هـ / ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م .
- ٢٦ - عثمان الثالث ١١٦٨ هـ - ١١٧١ هـ / ١٧٥٤ - ١٧٥٧ م .
- ٢٧ - مصطفى الثالث ١١٧١ - ١١٨٧ هـ / ١٧٥٧ - ١٧٧٤ م .
- ٢٨ - عبد الحميد الأول ١١٨٧ - ١٢٠٣ هـ / ١٧٧٤ - ١٧٨٩ م .
- ٢٩ - سليم الثالث ١٢٠٣ - ١٢٢٢ هـ / ١٧٨٩ - ١٨٠٧ م .
- ٣٠ - مصطفى الرابع ١٢٢٢ - ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٧ - ١٨٠٨ م .
- ٣١ - محمود الثانى ١٢٢٣ - ١٢٥٥ هـ / ١٨٠٨ - ١٨٣٩ م .

- ٣٢ - عبد المجيد الأول ١٢٥٥ - ١٢٧٧هـ / ١٨٣٩ - ١٨٦١ م .
- ٣٣ - عبد العزيز ١٢٧٧ - ١٢٩٣هـ / ١٨٦١ - ١٨٧٦ م .
- ٣٤ - مراد الخامس ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦ م .
- ٣٥ - عبد الحميد الثانى ١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ / ١٨٧٦ - ١٩٠٩ م .
- ٣٦ - محمد (الخامس) رشاد ١٣٢٧ - ١٣٣٦هـ / ١٩٠٩ - ١٩١٨ م .
- ٣٧ - محمد (السادس) وحيد الدين ١٣٣٦ - ١٣٤١هـ / ١٩١٨ - ١٩٢٢ م .
- ٣٨ - عبد المجيد الثانى (كخليفة فقط) ١٣٤١ - ١٣٤٢هـ / ١٩٢٢ - ١٩٢٤ م .

ثالثا : الهند (١٦٠) :

أ - دول سلطنة دهلـى الإسلامية :

- ١ - دولة المماليك ٦٠٢ - ٦٨٩هـ / ١٢٠٦ - ١٢٨٧ م ومن حكامها :
- قطب الدين أيبك التركى ٦٠٢ - ٦٠٧هـ / ١٢٠٦ - ١٢١٠ م .
- شمس الدين التمش ٦٠٧ - ٦٣٣هـ / ١٢٠٦ - ١٢٣٦ م .
- ٢ - الخلجيون ٦٨٩ - ٧٢٠هـ / ١٢٩٠ - ١٣٢٠ م ومن حكامها :
- جلال الدين فيروز شاه ٦٨٩ - ٦٩٥هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٦ م .
- علاء الدين محمد شاه ٦٩٥ - ٧١٦هـ / ١٢٩٦ - ١٣١٦ م .
- قطب الدين مبارك شاه ٧١٦ - ٧٢٠هـ / ١٣١٦ - ١٣٢٠ م .
- ٣ - التغلقيون ٧٢٠ - ٨١٥هـ / ١٣٢٠ - ١٤١٢ م ومن حكامها :
- غياث الدين تغلق شاه الأول ٧٢٠ - ٧٢٥هـ / ١٣٢٠ - ١٣٢٥ م .
- محمد الثانى بن تغلق ٧٢٥ - ٧٥٢هـ / ١٣٢٥ - ١٣٥١ م .

(١٦٠) عن تاريخ الدول الإسلامية بالهند انظر :

الفقى ، الدول الإسلامية المستقلة ، ص ٣٣٤ - ٤٣٦ ؛ الساداتى ، تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، ص ٥٧ - ٩٩ ؛ تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، جزاءن ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨٠م) ؛ العبد ، محمد عبد المجيد ، الإسلام والدول الإسلامية فى الهند ، القاهرة (١٩٣٩م) ؛ البشبيشى ، أحمد إبراهيم ، الهند خلال العصور ، اجرا ، (١٩٥٨م) ؛ الندوى ، عبد الحى الحسنى ، الهند فى العهد الإسلامى ، حيدر آباد (١٩٧٠م) ؛ النمر ، عبد المنعم ، تاريخ الإسلام فى الهند ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٩٠م) .

- محمود شاه الثانى (للمرة الأولى) ٧٩٦ - ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م (وللمرة الثانية) ٨٠٢ - ٨١٥هـ / ١٣٩٩ - ١٤١٢م .

- ٤ - اللوديون ٨٥٥ - ٩٣٢هـ / ١٤٥١ - ١٥٢٦م ومن حكامها :
- بهلول اللودى ٨٥٥ - ٨٩٤هـ / ١٤٥١ - ١٤٨٨م .
- اسكندر بن بهلول ٨٩٤ - ٩٢٣هـ / ١٤٨٨ - ١٥١٧م .
- إبراهيم بن اسكندر ٩٢٣ - ٩٣٢هـ / ١٥١٧ - ١٥٢٦م .

ب- الدول التى قامت فى الأقاليم الهندية :

- ١ - ولاية بنغالة وملوكها ٥٩٩ - ٩٨٤هـ / ١٢٠٢ - ١٥٧٦م .
- ٢ - الملوك الشرقيون فى جنوبور ٧٩٦ - ٩٠٥هـ / ١٣٩٤ - ١٥٠٠م .
- ٣ - ملوك مالوه ٨٠٤ - ٩٣٧هـ / ١٤٠١ - ١٥٣٠م .
- ٤ - ملوك كشمير ٧٣٥ - ٩٩٥هـ / ١٣٣٤ - ١٥٨٧م .
- ٥ - ملوك الكجرات ٧٩٩ - ٩٨٠هـ / ١٣٩٦ - ١٥٧٢م .
- ٦ - ملوك خاندیش (الفاروقيون) ٨٠١ - ١٠٠٨هـ / ١٣٩٩ - ١٦٠٠م .
- ٧ - دول الدكن: الملوك البهمنية (ملوك كلبركه) ٧٤٨ - ٩٣٣هـ / ١٣٤٧ - ١٥٢٧م .
- ٨ - ورثة الملوك البهمنية فى الدكن :

- ١ - أسرة عماد شاه فى برار ٨٩٦ - ٩٨٣هـ / ١٤٩١ - ١٥٧٥م .
- ٢ - أسرة نظام شاه فى أحمد نكر ٨٩٦ - ١٠٠٨هـ / ١٤٩١ - ١٥٩٩م .
- ٣ - أسرة بريد شاه فى بيدر ٨٩٧ - ١٠١٨هـ / ١٤٩٢ - ١٦٠٩م .
- ٤ - أسرة عادل شاه فى بيجابور ٨٩٥ - ١٠٩٧هـ / ١٤٨٩ - ١٦٨٦م .
- ٥ - أسرة قطب شاه فى كلكنده ٩١٨ - ١٠٩٨هـ / ١٥١٢ - ١٦٨٧م .
- ٩ - الدولة المغولية ٩٣٢ - ١٢٧٤هـ / ١٥٢٦ - ١٨٥٨م . ومن حكامها :
- ظهير الدين بابر ٩٣٢ - ٩٣٧هـ / ١٥٢٦ - ١٥٣٠م .
- همايون (للمرة الأولى) ٩٣٧ - ٩٤٧هـ / ١٥٣٠ - ١٥٤٠م - (٩٤٧ - ٩٦٢هـ / ١٥٤٠ - ١٥٥٥م سيطرة الأفغان على مقاليد الحكم وأولهم شيرشاه السورى وآخرهم اسكندر شاه الثالث) .
- همايون (للمرة الثانية) ٩٦٢ - ٩٦٣هـ / ١٥٥٥ - ١٥٥٦م .

- جلال الدين أكبر الأول ٩٦٣ - ١٠١٤ هـ / ١٥٥٦ - ١٦٠٥ م .
- جيهانجير ١٠١٤ - ١٠٣٧ هـ / ١٦٠٥ - ١٦٢٧ م .
- شاه جيهان الأول ١٠٣٧ - ١٠٦٨ هـ / ١٦٢٨ - ١٦٥٧ م .
- اورنگزيب عالمكير الأول ١٠٦٨ - ١١١٨ هـ / ١٦٥٨ - ١٧٠٧ م .
- آخرهم هو سراج الدين بهادرشاه الثانى ١٢٥٣ - ١٢٧٤ هـ / ١٨٣٧ - ١٨٥٨ م .

(ثم بدأ الاحتلال الإنجليزى حتى عام ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م وبعدها قسمت شبه القارة الهندية إلى الهند وباكستان الشرقية والغربية وفى عام ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م انفصل القسم الشرقى عن نظيره الغربى وأضحى الأول يعرف الآن بـ « جمهورية بنجلادش (بنجالاديش) الإسلامية » والثانى بـ « جمهورية باكستان الإسلامية ») .

٦. الجناح الغربى للدولة الإسلامية :

أولاً : دول المغرب العربى (الشمال الافريقى) :

- ١ - دولة بنى مدرار^(١٦١) : ١٤٠ - ٣٥٤ هـ / ٧٥٧ - ٩٦٥ م ، وكانت قاعدتها مدينة سجلماصة (تافيلالت فى جنوب المغرب الأقصى) وكانت فى غالبية عهدها من الخوارج الصفرية ، ومن حكامها محمد بن الفتح بن مدرار (٣٣٢ - ٣٤٧ هـ / ٩٤٣ - ٩٥٨ م) وقد تحول إلى مذعب أهل السنة (وخاصة المذهب المالكي) وشق عصا الطاعة وقطع الخطبة للخليفة الفاطمى ودعا لنفسه وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله وضربت بذلك الدنانير والدراهم ، وأقدم المعروف منها حتى الآن ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م (وربما يعثر فى المستقبل على نماذج من بداية فترة حكمه) ، وتمكن القائد الفاطمى جوهر الصقلى من هزيمته عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م وتم القبض عليه بعد ذلك وسجنه برقادة حتى وفاته .

(١٦١) الحداد ، النقوش الأثرية مصدراً للتاريخ والحضارة الإسلامية ، المجلد الأول ، ص جلال ، نيرة رفيق ، نقود سجلماصة فى العصر الإسلامى ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الآثار - جامعة القاهرة (٢٠٠٥ م) ؛ سالم ، السيد عبد العزيز ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ،

٢ - دولة بنى رستم^(١٦٢) : ١٤٤ - ٢٩٦هـ / ٧٦١ - ٩٠٩م ، وكانت من الخوارج الأباضية فى المغرب الأوسط وقاعدتها تاهرت (فى موضع تياريت الحالية بولاية وهران غربى الجزائر) ، ومؤسس هذه الدولة عبد الرحمن بن رستم الفارسى الأصل (ت ١٦٨هـ / ٧٨٤م أو ١٧١هـ / ٧٨٧م) وخلفه ابنه عبد الوهاب (ت ٢٠٨هـ / ٨٢٣م أو ٢١١هـ / ٨٢٦م) وفى عهده وصلت الدولة إلى درجة كبيرة من الاتساع .

٣ - دولة الأدارسة^(١٦٣) : المرحلة الأولى ١٧٢ - ٣١٣هـ / ٧٨٨ - ٩٢٥م وقاعدتها فاس (وهى أول دولة للأشراف العلويين) ومن حكامها :

- إدريس الأول (ت ١٧٥هـ / ٧٩١م أو ١٧٧هـ / ٧٩٣م) .

- إدريس الثانى (ت ٢١٣هـ / ٨٢٨م) .

- محمد بن إدريس الثانى ت ٢٢١هـ / ٨٣٦م (وقد أسند حكم الولايات إلى أخوته واكتفى هو بفاس حاضرتة وأقام فيها) .

- يحيى الأول بن محمد تولى عام ٢٣٤هـ / ٨٤٩م ، وفى عهده (رغم قصره) بلغت فاس أوجها أيام الأدارسة .

- يحيى الرابع بن إدريس بن عمر ٢٩٢ - ٣٠٥هـ / ٩٠٤ - ٩١٧م (وكانت وفاته بالمهدية ٣٣٢هـ / ٩٤٣م) ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة على حد قول ابن خلدون .

٤ - دولة الأغالبة^(١٦٤) : ١٨٤ - ٢٩٦هـ / ٨٠٠ - ٩٠٩م : وكانت فى المغرب الأدنى (طرابلس وتونس (افريقية) وجزء من المغرب الأوسط (هو إقليم الزاب) ؛ فضلا عن صقلية وجنوب إيطاليا) . ومن حكامها :

(١٦٢) الحريرى ، محمد عيسى ، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامى ، ١٦٠ - ٢٩٦هـ ، الكويت ، ط ٣ ، (١٩٨٧م) ؛ سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، ص .

(١٦٣) العربى ، إسماعيل ، دولة الأدارسة ، بيروت (١٩٨٣م) ؛ سعدون ، عباس نصر الله ، دولة الأدارسة فى المغرب ، العصر الذهبى ١٧٢ - ٢٢٣هـ / ٧٨٨ - ٨٣٥م ، بيروت (١٩٨٧م) ؛ إسماعيل ، محمود ، الأدارسة فى المغرب الأقصى ، حقائق جديدة ، ١٧٢ - ٣٧٥هـ ، الكويت (١٩٨٩م) ؛ سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى .

(١٦٤) سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، ص ؛ الطالبي ، محمد ، الدولة الأغلبية ، التاريخ السياسى ، ترجمة المنجى العبادى ، بيروت (١٩٨٥م) .

- إبراهيم بن الأغلب ١٨٤ - ١٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٨١١ م .
- أبو العباس عبد الله بن إبراهيم ١٩٦ - ٢٠١ هـ / ٨١١ - ٨١٦ م .
- زيادة الله الأول بن إبراهيم ٢٠١ - ٢٢٣ هـ / ٨١٦ - ٨٣٧ م .
- أبو عقاب الأغلب الملقب بخزر ٢٢٣ - ٢٢٦ هـ / ٨٣٧ - ٨٤٠ م .
- أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم ٢٢٦ - ٢٤٢ هـ / ٨٤٠ - ٨٥٦ م .
- أبو إبراهيم أحمد بن محمد ٢٤٢ - ٢٤٩ هـ / ٨٥٦ - ٨٦٣ م .
- أبو محمد زيادة الله الثاني بن محمد ٢٤٩ - ٢٥٠ هـ / ٨٦٣ - ٨٦٤ م .
- أبو الغرائق محمد بن أحمد ٢٥٠ - ٢٦١ هـ / ٨٦٤ - ٨٧٤ م .
- إبراهيم بن أحمد ٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٠١ م .
- أبو العباس عبد الله بن إبراهيم ٢٨٩ - ٢٩٠ هـ / ٩٠١ - ٩٠٢ م .
- زيادة الله الثالث بن عبد الله (آخر أمراء الأغالبة) ٢٩٠ - ٢٩٦ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٩ م .

٥ - الخلافة الفاطمية ٢٩٧ - ٣٦٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٧٣ م .

- دولتا بنى زيرى الصنهاجيين فى المغربين الأوسط والأدنى :
- أ - دولة بنى زيرى^(١٦٥) فى المغربين الأدنى والأوسط أو أجزاء منه فيما بين ٣٦٢ - ٥٤٣ هـ / ٩٧٣ - ١١٤٨ م ومن حكامها :
 - أبو الفتوح بلكين بن زيرى ٣٦٢ - ٣٧٤ هـ / ٩٧٣ - ٩٨٤ م .
 - أبو الفتوح المنصور بن يوسف ٣٧٤ - ٣٨٦ هـ / ٩٨٤ - ٩٩٦ م .
 - نصير الدولة باديس بن أبى الفتح ٣٨٦ - ٤٠٦ هـ / ٩٩٦ - ١٠١٥ م .
 - المعز بن باديس ٤٠٦ - ٤٥٣ هـ / ١٠١٥ - ١٠٦٢ م وآخرهم الحسن بن على ٥١٥ - ٥٤٣ هـ / ١١٢١ - ١١٤٨ م .
- ب - دولة بنى حماد (وهم من بنى عمومتههم وقد استقلوا بالمغرب الأوسط داخل جبال الأوراس وتحصنوا بقلعتهم المنيعه وهى قلعة بنى حماد) ٤١٩ - ٥٤٧ هـ / ١٠٢٨ - ١١٥٢ م . ومن حكامها :

(١٦٥) إدريس ، الهادى روجى ، الدولة الصنهاجية ، تاريخ افريقية فى عهد بنى زيرى من القرن ١٠ م إلى القرن ١٢ م ، ترجمة حمادى الساحلى ، بيروت ١٩٩٢ م ؛ عويس ، عبد الحليم ، دولة بنى حماد ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٩١ م) ؛ العربى ، إسماعيل ، دولة بنى حماد ملوك القلعة وبجاية ، الجزائر (١٩٨٠ م) ؛ بن قربة ، صالح ، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامى إلى سقوط دولة بنى حماد ، الجزائر (١٩٨٦ م) ؛ سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، ص

- حماد بن يوسف (بلكين) بن زيرى ٤١٩ - ٤٤٦ هـ / ١٠٢٨ - ١٠٥٤ م .
- بلكين بن محمد بن حماد ٤٤٦ - ٤٥٤ هـ / ١٠٥٤ - ١٠٦٢ م .
- الناصر بن علناس ٤٥٤ - ٤٨١ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٨٨ م (وفى عهده صارت بجاية عاصمة للدولة منذ عام ٤٦١ هـ واتسع ملكه اتساعا كبيرا) .
- المنصور بن الناصر ٤٨١ - ٤٩٨ هـ / ١٠٨٨ - ١١٠٤ م (وكان مولعا بالبناء والتأنق فى اختطاط المباني وتشيد القصور وإجراء المياه) .
- وآخرهم يحيى بن العزيز بن المنصور ٥١٥ - ٥٤٧ هـ / ١١٢١ - ١١٥٢ م (وفى هذا التاريخ الأخير دخل الجيش الموحدى بجاية واستولوا كذلك على قلعة بنى حماد) .

٦ - الدولة المرابطية (١٦٦) ٤٤٨ - ٥٤١ هـ / ١٠٥٦ - ١١٤٦ م وكانت دولتهم تمتد من بجاية شرقا إلى السوس الأقصى غربا ومن السودان الغربى جنوبا إلى سرقسطة والثغر الأعلى فى الأندلس شمالاً وكانت مراكز قاعدة دولتهم الكبرى . ومن حكامها :

- يوسف بن تاشفين ٤٥٤ - ٥٠٠ هـ / ١٠٦٢ - ١١٠٦ م .
- على بن يوسف ٥٠٠ - ٥٣٣ هـ / ١١٠٦ - ١١٣٨ م .

٧ - الدولة الموحدية (١٦٧) ٥٢٤ - ٦٦٨ هـ / ١١٣٠ - ١٢٦٩ م (وكانت تعد أكبر دولة فى تاريخ المغرب فقد امتدت من خط الواديانه فى الأندلس إلى وادى درعه فى جنوب المغرب وترامت من المحيط إلى أحواز طرابلس أى أنها شملت الأندلس

(١٦٦) سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، ص : محمود ، حسن أحمد ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة (١٩٥٧م) ، ص : مراد ، حسين سيد عبد الله ، المتصوفة فى المغرب الأقصى فى عصرى المرابطين والموحدين ، القاهرة (٢٠٠١م) ؛ عنان ، محمد عبد الله ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، قسمان ، القاهرة (١٩٦٤م) ؛ مكى ، محمود على ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد السابع ، العددان ١ - ٢ ، مدريد (١٩٥٩م) ؛ مؤنس ، حسين ، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الأندلس ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد الثانى ، مدريد (١٩٥٤م) .

(١٦٧) الفناى ، مراجع عقيلة ، قيام دولة الموحدين ، بنغازى ، (١٩٧١م) ؛ أبو رميله ، هشام ، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية فى الأندلس ، عمان (١٩٨٤م) ؛ سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، ص : خلف الله ، ابتسام مرعى ، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى ٥٢٤ - ٩٣٦ هـ / ١١٣٠ - ١٥٢٩م ، القاهرة (١٩٨٥م) ؛ علام ، عبد الله على ، الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على ، القاهرة (١٩٦٨م) ؛ ملين ، محمد الرشيد ، عصر المنصور الموحدى ، الرباط ، ط ٢ (١٩٩٦م) ؛ المنونى ، محمد ، حضارة الموحدين ، الرباط (١٩٨٩م) .

- والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط والمغرب الأدنى) ومن حكامها :
- عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ - ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ - ١١٦٣ م .
 - أبو يعقوب يوسف الأول ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ / ١١٦٣ - ١١٨٤ م .
 - أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م . (ويمثل عهده (رغم قصره) العصر الذهبي للدولة الموحدية) .
 - أبي محمد عبد الله الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور ٥٩٥ - ٦١٠ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٣ م .
 - وآخرهم : أبو العلا الواثق بالله ٦٦٥ - ٦٦٨ هـ / ١٢٦٦ - ١٢٦٩ م .
- ٨ - الدول التي ورثت الموحدين في بلاد المغرب العربي (١٦٨) :
- أ - دولة بني حفص في تونس ٦٢٥ - ٩٨١ هـ / ١٢٢٨ - ١٥٧٣ م ومن حكامها :
 - أبو زكريا يحيى ٦٢٥ - ٦٤٧ هـ / ١٢٢٨ - ١٢٤٩ م .
 - أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الملقب بالمستنصر ٦٤٧ - ٦٧٥ هـ / ١٢٤٩ - ١٢٧٦ م .
 - أبو العباس أحمد الثاني : ٧٧٢ - ٧٩٦ هـ / ١٣٧٠ - ١٣٩٤ م .
 - أبو فارس عبد العزيز المتوكل بن أحمد الثاني ٧٩٦ - ٨٣٧ هـ / ١٣٩٤ - ١٤٣٣ م .
 - ب - دولة بني زيان أو بني عبد الواد في المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان ٦٣٣ - ٩٦٢ هـ / ١٢٣٦ - ١٥٥٤ م . ومن حكامها :
 - أبي يحيى يغمراسن بن زيان ٦٣٣ - ٦٨١ هـ / ١٢٣٦ - ١٢٨٢ م .
 - أبي سعيد عثمان الأول ابن يغمراسن ٦٨١ - ٧٠٣ هـ / ١٢٨٣ - ١٣٠٤ م .
 - ج - دولة بني مرين في المغرب الأقصى وقاعدتها فاس ٥٩٢ - ٩٥٧ هـ / ١١٩٦ - ١٥٥٠ م . ومن حكامها :

(١٦٨) عن تاريخ الدول التي ورثت الموحدين في المغرب انظر ،
 عامر ، أحمد ، الدولة الحفصية ، تونس (١٩٧٢م) ؛ الحريري ، محمد عيسى ، تاريخ المغرب
 والأندلس في العصر المريني ، الكويت ، ط ٢ (١٩٨٧م) ؛ المنوني ، محمد ، ورقات عن حضارة
 المرينيين ، الرباط ، ط ٢ (١٩٩٦م) .

- أبى يحيى أبو بكر بن عبد الحق ٦٤٢ - ٦٥٦ هـ / ١٢٤٤ - ١٢٥٨ م .
- أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ٦٥٦ - ٦٨٥ هـ / ١٢٥٨ - ١٢٨٦ م .
- أبى الحسن على بن عثمان ٧٣١ - ٧٥٢ هـ / ١٣٣١ - ١٣٥١ م .
- أبى عنان فارس المتوكل بن على ٧٤٩ - ٧٥٩ هـ / ١٣٤٨ - ١٣٥٨ م .
- أبو العباس أحمد المستنصر بالله ٧٧٥ - ٧٨٦ هـ / ١٣٧٣ - ١٣٨٤ م و ٧٨٩ - ٧٩٦ هـ / ١٣٨٧ - ١٣٩٣ م .

٩. الدولة العثمانية^(١٦٩) فى المغربين الأدنى والأوسط (ليبيا وتونس والجزائر)

أ. الجزائر:

- ١ - فترة حكم أمير الأمراء (بيگلريك) ٩٢٤ - ٩٩٦ هـ / ١٥١٨ - ١٥٨٧ م .
- ٢ - فترة حكم الباشوات ٩٩٦ - ١٠٧٠ هـ / ١٥٨٧ - ١٦٥٩ م .
- ٣ - فترة حكم الأغوات (رؤساء الجند) ١٠٧٠ - ١٠٨٢ هـ / ١٦٥٩ - ١٦٧١ م .
- ٤ - فترة حكم الدايات ١٠٨٢ - ١٢٤٦ هـ / ١٦٧١ - ١٨٣٠ م (ثم الاحتلال الفرنسى ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م) .

ب. طرابلس الغرب (ليبيا) :

- ١ - العصر العثمانى الأول ٩٥٩ - ١١٢٣ هـ / ١٥٥١ - ١٧١١ م (فترة الولاة أو الباشوات) .

(١٦٩) يحيى ، جلال ، المغرب العربى الحديث والمعاصر ، ج١ ، الاسكندرية (١٩٨٣م) ، ص ٩٥ - ١٩٥ ، ٢١٧ - ٢٣١ ؛ الجمل ، شوقى عطاالله ، المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث ، القاهرة (١٩٧٧م) ؛ رياض ، زاهر ، شمال افريقيا فى العصر الحديث ، القاهرة (١٩٦٧م) ؛ الحصرى ، ساطع ، الدولة العثمانية والبلاد العربية ، بيروت (١٩٦٥م) ، الدجاني ، أحمد صدقى ، ليبيا قبل الاحتلال الإيطالى ، القاهرة (١٩٧١م) ؛ سامح ، عزيز ، الأتراك العثمانيون فى افريقيا الشمالية ، ترجمة عبد السلام أدهم ، القاهرة (١٩٦٩م) ؛ فيرو ، شارل ، الحوليات الليبية منذ الفتح العربى حتى الغزو الإيطالى ، ٣ أجزاء ، ترجمة عبد الكريم الوافى ، طرابلس (١٩٧٣م) ؛ روسو ، البارون الفونص ، الحوليات التونسية منذ الفتح العربى حتى احتلال فرنسا للجزائر ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافى ، بنغازى (١٩٩٢م) ؛ زيبس ، سليمان مصطفى ، الدولة الحسينية فى القطر التونسى ، تونس (١٩٥٥م) ، مزالى ، محمد الصالح ، الوراثة على العرش الحسينى ومدى احترام نظامها ، تونس (١٩٦٩م) ؛ ميكاكى ، رودلفو ، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى ، ترجمة طه فوزى ، القاهرة (١٩٦١م) .

- ٢ - فترة حكم الأسرة القره مانلية ١١٢٣ - ١٢٥١هـ / ١٧١١ - ١٨٣٥م .
- ٣ - العصر العثماني الثاني ١٢٥١ - ١٣٢٩م / ١٨٣٥ - ١٩١١م .

ج- تونس :

- ١ - بكوية تابعة لأمير الأمراء في الجزائر ٩٨٢ - ٩٩٩هـ / ١٥٧٤ - ١٥٩٠م
 - ٢ - فترة حكم الدايات (رجال الحامية من رجال القوات البرية ، بينما كان لقب الداي في الجزائر يمنح لرؤساء البحر) ومنهم عثمان داي ويوسف داي .
 - ٣ - فترة حكم البكوات أو البايات (وكانوا يلقبون غالبا بلقب باشا باي) .
- أ - الأسرة المرادية :

ب - الأسرة الحسينية (حسين بن علي وهو من أصل أرناؤوطي (ألباني))
١١١٧ - ١٣٧٧هـ / ١٧٠٥ - ١٩٥٧م (ثم قيام الجمهورية التونسية
١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م) .

١٠- الدول الإسلامية بالمغرب الأقصى :

- أ - دولة الأشراف السعديين^(١٧٠) ٩١٧ - ١٠٦٩هـ / ١٥١١ - ١٦٥٩م . ومن حكامها:
 - محمد القائم بأمر الله ٩١٧ - ٩٢٣هـ / ١٥١١ - ١٥١٧م .
 - محمد المهدي بن محمد القائم ٩٢٣ - ٩٦٤هـ / ١٥١٧ - ١٥٥٧م .
 - أحمد المنصور الذهبي ٩٨٦ - ١٠١٢هـ / ١٥٧٨ - ١٦٠٣م .
- (وفي عهده بلغت دولة الأشراف السعديين أوجها كما قضى على دولة صنغى الإسلامية) .

(١٧٠) حركات ، إبراهيم ، المغرب عبر التاريخ ، ج٢ ، من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين ، دار الرشاد الحديثة ، ط٣ (١٩٩٢م) ؛ السياسة والمجتمع في العصر السعدي ، الدار البيضاء (١٩٨٧م) ؛ حجي ، محمد ، الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين ، الدار البيضاء (١٩٧٩م) ؛ كريم ، عبد الكريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، الدار البيضاء (١٩٧٧م) ؛ يحيى ، المغرب العربي ، ج١ ، ص ١٩٧ - ٢١٤ .

(١٧١) الضعيف الرباطي ، تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان ١٠٤٣ - ١٢٣٨هـ / ١٦٣٣ - ١٨١٢م ، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشخعي ، الدار البيضاء (١٩٨٨م) ؛ أوسطاش ، دانييل ، الجامع في المسكوكات العلوية (مجموعة بنك المغرب ومجموعات أخرى عالمية عمومية وشخصية) ، ٣ مجلدات ، الرباط ، بنك المغرب (١٩٨٤م) ؛ يحيى ، المغرب العربي ، ج١ ، ص ٢٣٣ - ٣٠٨ ؛ إبراهيم ، شحاتة حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون ١٥١٠ - ١٩٤٧م ، الاسكندرية (١٩٨١م) .

ب - دولة الأشراف العلويين الفلاليين^(١٧١) : منذ ١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م حتى الآن . ومن حكامها :

- المولى الرشيد بن المولى محمد الشريف بن علي ١٠٧٥ - ١٠٨٢هـ / ١٦٦٤ - ١٦٧٢م .

- المولى إسماعيل بن المولى محمد الشريف ١٠٨٢ - ١١٣٩هـ / ١٦٧٢ - ١٧٢٧م .

- في عام ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م كان إعلان الحماية الفرنسية .

- محمد الخامس (للمرة الأولى) ١٣٤٥ - ١٣٧٢هـ / ١٩٢٧ - ١٩٥٣م وللمرة الثانية ١٣٧٥ - ١٣٨١هـ / ١٩٥٥ - ١٩٦٢م .

- وفي عام ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م تمت الاطاحة بنظام الحماية الفرنسية وتمتعت البلاد باستقلالها من جديد في ظل الأسرة العلوية الفيلالية وتولى الملك الحسن الثاني الحكم عام ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م ثم ابنه الملك محمد السادس وهو الملك الحالي للمملكة المغربية) .

ثانياً : الدول الإسلامية بالأندلس :

١ - الدولة الأموية بالأندلس^(١٧٢) ١٣٨ - ٤٢٢هـ / ٧٥٥ - ١٠٣١م .

أ - عصر الإمارة ١٣٨ - ٣١٦هـ / ٧٥٥ - ٩٢٨م .

- عبد الرحمن الأول (الداخل) بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الملقب بصقر

قريش ١٣٨ - ١٧٢هـ / ٧٥٥ - ٧٨٨م .

- هشام الأول (المرتضي) ١٧٢ - ١٨٠هـ / ٧٨٨ - ٧٩٧م .

(١٧٢) عن التاريخ الإسلامي في الأندلس انظر ،

العبادي ، عبد الحميد ، المجلد في تاريخ الأندلس ، القاهرة (١٩٥٨م) ؛ عنان ، محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس ، ٨ أجزاء ، القاهرة (٢٠٠١م) ؛ سالم ، السيد عبد العزيز ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت (١٩٨١م) ؛ مؤنس ، حسين ، فجر الأندلس ، القاهرة (١٩٥٩م) ؛ الحجى ، عبد الرحمن ، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ، دمشق (١٩٨١م) ؛ أبا الخيل ، محمد ، الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ، الرياض (١٩٩٥م) ؛ دندش ، عصمت ، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ، بيروت (١٩٨٨م) ؛ فرحات ، يوسف شكرى ، غرناطة في ظل بنى الأحمر ، بيروت (١٩٨٢م) ؛ الطوخى ، أحمد ، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بنى الأحمر ، الاسكندرية (١٩٩٧م) ؛ الحسينى ، محمد باقر ، تحقيقات واستدراكات واضافات على ما ورد في معجم الأنساب لزمامباور على ضوء نقود المغرب والأندلس ما بين القرنين ٤ - ١٠هـ / ١٠ - ١٦م ، مجلة المؤرخ العربى ، العددان ٤١ - ٤٢ ، السنة ١٦ ، بغداد (١٩٩٠م) ، ص ٢٠٩ - ٢٢٧ .

- الحكم الأول (الريضي) (١٨٠ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢م) .
- عبد الرحمن الثاني (الأوسط) (٢٠٦ - ٢٣٨هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢م) .
- محمد الأول ٢٣٨ - ٢٧٣هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦م .
- المنذر بن محمد ٢٧٣ - ٢٧٥هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨م .
- عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠هـ / ٨٨٨ - ٩١٢م .
- عبد الرحمن الثالث (الناصر) (٣٠٠ - ٣١٦هـ / ٩١٢ - ٩٢٨م) .
- (ومنذ عام ٣١٦هـ / ٩٢٨م تتحول الإمارة الأموية إلى الخلافة الأموية ؛
رعلى ذلك فإن عبد الرحمن الثالث هو آخر أمير أموى بالأندلس ، وأول
الخلفاء الأمويين بالأندلس . وقد ذكرنا هؤلاء الخلفاء ضمن الحديث عن
عصور الخلفاء) .
- ٢ - دول ملوك الطوائف : (أو أمراء النواحي) من ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م أو
٤٢٢هـ / ١٠٣١م إلى ٤٨٤هـ / ١٠٩١م .
- آل حمود فى مالقة والجزيرة ٤٠٠ - ٤٤٩هـ / ١٠١٠ - ١٠٥٧م .
- آل عباد فى اشبيلية ٤١٤ - ٤٨٤هـ / ١٠٢٣ - ١٠٩١م .
- آل زيرى فى غرناطة ٤٠٣ - ٤٨٣هـ / ١٠١٢ - ١٠٩٠م .
- آل جهور فى قرطبة ٤٢٢ - ٤٦١هـ / ١٠٣١ - ١٠٦٩م .
- بنو الأفطس فى بطليوس ٤١٣ - ٤٨٧هـ / ١٠٢٢ - ١٠٩٤م .
- بنو ذو النون فى طليطلة ٤١٩ - ٤٧٨هـ / ١٠٢٨ - ١٠٨٥م .
- بنو هود فى سرقسطة ٤٣٠ - ٥٣٦هـ / ١٠٣٩ - ١١٤٢م .
- ٣ - الدولة المرابطية فى الأندلس ٤٨٤ - ٥٣٩هـ / ١٠٩١ - ١١٤٤م .
- ٤ - الدولة الموحدية فى الأندلس ٥٤٠ - ٦٤١هـ / ١١٤٥ - ١٢٤٣م .
- ٥ - دولة بنى نصر أو بنى الأحمر (مملكة غرناطة) ٦٣٥ - ٨٩٧هـ / ١٢٣٨ -
١٤٩٢م (بعد نجاح حركة الاسترداد الاسبانية فى إسقاط قواعد الأندلس
الكبرى لم يتبق بيد المسلمين سوى مملكة غرناطة وبسقوطها ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م
إنتهت الدولة الإسلامية فى الأندلس بعد حكم دام ما يقرب من ثمانية قرون
منذ فتوحات موسى بن نصير وطارق بن زياد السابق الإشارة إليها) . ومن
حكامها :
- أبو عبد الله محمد الأول بن نصر الغالب بالله ٦٢٩ - ٦٧١هـ / ١٢٣٢ -
١٢٧٢م (، وهو المؤسس الفعلى للدولة) .

- محمد بن محمد الملقب بالفقيه ٦٧١ - ٧٠١ هـ / ١٢٧٢ - ١٣٠٢ م .
- أبو الوليد إسماعيل الأول ٧١٣ - ٧٢٥ هـ / ١٣١٤ - ١٣٢٥ م .
- أبو الحجاج يوسف الأول ٧٣٣ - ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م .
- محمد الخامس الغنى بالله (للمرة الأولى) ٧٥٥ - ٧٦٠ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٥٩ م ، للمرة الثانية ٧٦٣ - ٧٩٣ هـ / ١٣٦٢ - ١٣٩١ م .
- أبو الحجاج يوسف الثانى ٧٩٣ - ٧٩٧ هـ / ١٣٩١ - ١٣٩٤ م .
- محمد بن أبى الحسن على ويعرف بأبى عبد الله أو بو أبديل (Boabdil) فى المصادر الأسبانية للمرة الأولى (٨٨٧ - ٨٨٨ هـ / ١٤٨٢ - ١٤٨٣ م) وللمرة الثانية ٨٩٢ - ٨٩٧ هـ / ١٤٨٦ - ١٤٩٢ م) وفى هذا العام الأخير استسلم أبو عبد الله وسلم غرناطة للملكين الكاثوليكين فريناند وايزابيل .

ثالثاً : الدول الإسلامية فى غرب افريقية (١٧٣) :

لم يقف إنتشار الإسلام عند حد بلاد المغرب (الشمال الافريقي) فحسب بل

(١٧٣) عن تاريخ الدول الإسلامية فى غرب أفريقية انظر ،

السعدى ، عبد الرحمن ، ت ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٦ م ، تاريخ السودان ، نشره هوداس ، باريس ، ط ٢ (١٩٦٤ م) ؛ بللو ، محمد بن عثمان ، انفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور ، القاهرة (١٩٦٤ م) ؛ التنبكتى ، محمود كعت ، تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور ، نشره هوداس ودلافوس ، باريس ١٩١٣ م ؛ زكى ، عبد الرحمن ، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بافريقيا الغربية ، القاهرة (١٩٦١ م) ؛ يونس ، إبراهيم صالح ، تاريخ الإسلام وحياة العرب فى امبراطورية كانم ورنو ، الخرطوم (١٩٧٠ م) ؛ بوفيل ، الممالك الإسلامية فى غرب افريقيا ، ترجمة زاهر رياض ، القاهرة (١٩٦٨) ؛ الدالى ، الهادى المبروك ، مملكة مالى الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا ، بيروت (١٩٩٣ م) ؛ زبادية ، عبد القادر ، مملكة سونغاي فى عهد الاسقيين ، الجزائر (١٩٧١ م) ؛ أبو شعيشع ، مصطفى ، برنو فى عهد الأسرة الكافية ، دار العلوم (١٩٨٤ م) ؛ محمود ، حسن أحمد ، الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٨٦ م) ؛ حسن ، حسن إبراهيم ، انتشار الإسلام فى القاهرة الافريقية ، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٨٤ م) ، طرخان ، إبراهيم على ، امبراطورية غانة الإسلامية ، القاهرة (١٩٧٠ م) ؛ دولة مالى الإسلامية ، القاهرة (١٩٧٣ م) ؛ امبراطورية البرنو الإسلامية ، القاهرة (١٩٧٥ م) ؛ امبراطورية الفولانيين الإسلامية ، مجلة كلية الآداب - جامعة الملك سعود ، المجلد ٦ ، الرياض (١٩٧٩ م) ، ص ٩٥ - ١٥٥ ؛ إبراهيم ، عبد الله عبد الرازق ، الإسلام والحضارة الإسلامية فى نيجيريا ، القاهرة (١٩٨٤ م) ؛ عوض الله ، الشيخ الأمين محمد ، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربى =

إمتد فشمل غرب افريقية أيضاً ، وكان وراء ذلك عدة عوامل سلمية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ ومنها هجرات العرب والبربر عقب الفتوح الإسلامية فى بلاد المغرب ، ومنها التجارة فرغم أن الصحراء الكبرى كانت تمثل بحراً من الرمال وعقبة طبيعية يصعب اجتيازها إلا أن الإسلام قد قطع فيها حيث مثلت طرق القوافل عبر الصحراء الكبرى محاوراً ربطت بين شاطئى هذا الخضم المقفر ، ومنها أيضاً الطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية والسنوسية ، ولا ننسى كذلك دور الدول الإسلامية فى المغرب العربى ؛ وبخاصة دور المرابطين فى نشر الإسلام فى غرب افريقية .

ولما كان المقام لا يتسع لدراسة هذه العوامل بالتفصيل ، ولذلك حسبنا أن نشير إلى أنه قد ترتب على إنتشار الإسلام فى غرب افريقية تأسيس عدة دول أو ممالك إسلامية ومنها :

- ١ - دولة غانة وقد إنتهت عام ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م .
- ٢ - دولة مسالى (دولة الماندنجو أو مملكة التكرور) ٦٢٨ - ٩٥٧هـ / ١٢٣٠ - ١٥٥٠م . ومن حكامها :
 - سندياتا ويلقب بمارى وجاطه ٦٨٢ - ٦٥٣هـ / ١٢٣٠ - ١٢٥٥م .
 - منساولى (السلطان على) ٦٥٣ - ٦٦٩هـ / ١٢٥٥ - ١٢٧٠م .
 - منسا موسى ٧١٢ - ٧٣٨هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م وهو أعظم سلاطينهم وفى عهده بلغت الدولة ذروة مجدها ، ورحلة حجه وموكبه صارت حديث الناس كما سنشير فيما بعد.
 - منسا سليمان ٧٤٢ - ٧٦٢هـ / ١٣٤١ - ١٣٦٠م وفى عهده وصل الرحالة ابن بطوطة مرسلاً من قبل السلطان المرينى أبى عنان فارس المتوكل ٧٤٩ - ٧٥٩هـ / ١٣٤٨ - ١٣٥٨م .
- ٣ - دولة صنغى : ٧٣٧ - ١٠٠٠هـ / ١٣٣٦ - ١٥٩١م ومن حكامها :
 - سنى على ٨٧٠ - ٨٩٨هـ / ١٤٦٥ - ١٤٩٢م .
 - اسكيا محمد الأول ٨٩٩ - ٩٣٥هـ / ١٤٩٣ - ١٥٢٨م ، وهو من أعظم حكامها وقد نسجت حوله الأساطير لعدله وكرمه وقوته حتى قيل أنه يصلح حتى لحكم دولة بنى العباس على حد قول صاحب الفتاش ، ورحلة حجة

= فى عهد السلطنتين الإسلاميتين مالى وسنغى ، جدة (١٩٧٩م)؛ الغربى ، محمد ، بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى ، بغداد (١٩٨٢م).

وموكبه لا تقل فى العظمة عن رحلة وموكب منسا موسى كما سنشير فيما بعد .

- اسكيا موسى ٩٣٥ - ٩٣٨ هـ / ١٥٢٨ - ١٥٣١ م .

- اسكيا محمد الثانى ٩٣٨ - ٩٤٤ هـ / ١٥٣١ - ١٥٣٧ م .

- اسكيا إسحاق الأول ٩٤٦ - ٩٥٦ هـ / ١٥٣٩ - ١٥٤٩ م .

- اسكيا داود ٩٥٦ - ٩٩٠ هـ / ١٥٤٩ - ١٥٨٢ م .

- اسكيا إسحاق الثانى ٩٩٧ - ١٠٠٠ هـ / ١٥٨٨ - ١٥٩١ م . وهو آخر حكام سنغى قبل سقوط الدولة فى يد جيش الأشراف السعديين فى المغرب الأقصى.

٤ - دولة البرنو : ينقسم تاريخ هذه الدولة إلى عصرين :

١ - الأول : العصر الكانمى : ويمتد من قيام الدولة فى اقليم كانم إلى أواخر القرن ٨ هـ / ١٤ م .

٢ - الثانى : العصر البرنوى : ويبدأ من أواخر القرن ٨ هـ / ١٤ م إلى نهاية الدولة فى غمرة الاستعمار الأوروبى الحديث فى مطلع القرن ٢٠ م المنصرم . (وعلى أنقاض هذه الدولة قامت الدول الإفريقية التالية : تشاد والنيجر ونيجيريا والكاميرون وإفريقيا الوسطى) (١٧٤) .

٥ - دولة الفولانيين أو الفلاتا : أنشئت هذه الدولة بفضل جهود الشيخ عثمان بن فودى وقد اتخذ من سكوتو عاصمة لها وعمرت هذه الدولة فيما بين ١٨١٧ - ١٩٠٣ م .

وحكم خلال هذه المدة أحد عشر خليفة وقد حاول كل واحد منهم أن يحافظ على الكيان الذى تركه مؤسس الدولة الشيخ عثمان بن فودى (١٧٥) .

وسوف نتحدث فى هذا الكتاب عن مظاهر الحضارة الإسلامية فى غرب إفريقيا عامة وفى مدنها مثل جنى واودغست وتبكتو وسوكوتو وغيرها خاصة .

(١٧٤) طرخان ، امبراطورية البرنو ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(١٧٥) إبراهيم ، الإسلام والحضارة الإسلامية فى نيجيريا ، ص ٦٥ .

الفصل الأول النظم الإسلامية

الباب الأول
الحضارة الإسلامية

مقدمة :

تظهر شخصية الأمة فى النظم التى تسير عليها وتنكشف حيويتها ومقدرتها على البقاء والنمو بتطور أنظمتها خلال تاريخها فالنظم والمؤسسات المختلفة تبين لنا الحلول التى وضعتها الأمة لتدبير شئونها ولمجابهة أزماتها وحاجتها كما أنها تكشف لنا عن جوهر الأمة وعبقريتها .. ؟

والحق أن دراسة النظم الإسلامية مهمة جداً لفهم العناصر الخفيه والتيارات المهمة التى أثرت فى المجتمع الإسلامى ، فالببحث إذن فى الأنواع المختلفة لهذه النظم حكومية أو شعبية ، اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو ثقافية يكشف لنا سر كثير من الحركات والتطورات الاجتماعية والفكرية . فهل نستطيع فهم نشوء الفرق الإسلامية بدون معرفة لمشكلة الخلافة وما ترتب عليها من إختلاف فى الرأى ؟ أو هل باستطاعتنا أدراك الحروب الأهلية فى الإسلام وفوضى العهد والانقسامات الكثيرة أن لم ندرك تطور نظام الخلافة ؟ أو هل باستطاعتنا إدراك السر فى كثير من الحركات الاجتماعية التى إصطبغت بصبغة دينية ان لم نفهم السياسة المالية ونظم الضرائب التى سار عليها المسلمون ؟ أيمكننا فهم الازدهار الثقافى ان لم ندرس المؤسسات التعليمية ونعرف نشوء المدارس فى الإسلام ؟ أنشعر بوجود أثر للعمامة فى تاريخ المسلمين ان لم ندرس حركات النقابات والأصناف وحركات العيارين والشطار والفتيان ؟ أليست الحوادث السياسية والفتن مظاهر لما للنظم المالية والسياسية والاجتماعية من تأثير ؟

ومن ناحية أخرى لا يمكننا فهم النظم إذا أعددناها ثابتة جامدة فكما أنها تؤثر أثراً بليغاً فى مجرى التاريخ ، كذلك نراها فى تبدل وتطور فهى تجتاز أدوراً ومراحل مختلفة، ولا يمكننا فهمها إلا إذا حاولنا تتبع نموها خلال العصور المختلفة وهذه نقطة جوهرية أغفلها الباحثون عامة فأهملوا بذلك سر الحياة فى التاريخ والحضارة الإسلامية^(١).

هذا وقد أفردت العديد من البحوث والدراسات لدراسة النظم الإسلامية وأصولها ونشأتها ومراحل نموها وتطورها سواء كانت نظاماً سياسية أو إدارية أو اقتصادية أو

(١) الدورى ، عبدالعزيز ، النظم الإسلامية ، بغداد (١٩٨٨م) ، ص ٩ .

اجتماعية أو عسكرية^(٢)؛ وهو الأمر الذى سوف نتطرق إليه تفصيلا فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) ؛ ولكن حسبنا أن نركز فى هذه العجالة - ووفقا للخطة الموضوعية لكتابنا المجمل الذى بين أيدينا - على بعض هذه النظم ومن أهمها الخلافة والوزارة والدواوين والقضاء والشرطة والحسبة والجيش .

وقبل أن نتحدث عن هذه الأنظمة ينبغى أن نشير أولاً إلى أن الأنظمة الإسلامية لم تنشأ عند ظهور الإسلام ولم تنضج فى وقت قصير بل ترجع أصولها الى عصر ما قبل الإسلام^(٣) وحين جاء الرسول ﷺ وضع أسس دولة مستقرة راسخة الكيان قام عليه الصلاة والسلام بوضع التنظيمات الإدارية لهذه الدولة مما أعتبر أساسا للتنظيمات اللاحقة وما أصابها من تطور بعد توسع رقعة الدولة الإسلامية^(٤) .

وفيما يلى تسلط الضوء على هذه الأنظمة التى أثرتنا أن نركز عليها فى هذا

(٢) هناك دراسات كثيرة أفردت للنظم الإسلامية ؛ فضلا عن تلك الفصول التى أفردت لتلك النظم أو بعضها ضمن كتب التاريخ الإسلامى العام أو الحضارة الإسلامية ، أو تلك الكتب الخاصة بدراسة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية فى عصر أو قطر معين ، ومن هذه وتلك حسبنا أن نشير إلى كل من : الدورى ، النظم الإسلامية ، بغداد (١٩٨٨م) ، عمر ، فاروق ، وآخرين ، النظم الإسلامية ، بغداد (١٩٨٧م) ؛ الضحيان ، عبدالرحمن إبراهيم ، الإدارة فى الإسلام الفكر والتطبيق ، جدة (١٩٨٦م) ؛ النبراوى ، فتحية ، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨١م) ، الرفاعى ، أنور ، النظم الإسلامية ، دمشق (١٩٧٣م) ؛ القاسمى ، ظافر ، نظم الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى ، بيروت (١٩٧٤م) ، الصالح ، صبحى ، النظم الإسلامية ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٨٢م ؛ حسن ، حسن إبراهيم ، حسن ، على إبراهيم ، النظم الإسلامية ، القاهرة ، ط ٤ (١٩٧٠م) حسيني ، س.أ.ق ، الإدارة العربية ، ترجمة إبراهيم العدوى ، مراجعة وتقديم عبدالعزيز عبدالحق ، القاهرة ط ٢ (١٩٧٣م) ؛ الشبانى ، محمد عبدالله ، نظام الحكم والإدارة فى الدولة الإسلامية منذ صدور الإسلام إلى سقوط الدولة العباسية ، الرياض ، ط ٣ (١٩٩١م) ؛ ماجد ، عبد المنعم ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، جزاءن ، القاهرة (١٩٨٣ ، ١٩٥٥م) ؛ طرخان ، إبراهيم ، النظم الأقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، القاهرة (١٩٦٨م) ، أما كتب الحضارة الإسلامية التى تضمنت فصولا عن النظم الإسلامية فقد أشرنا الى بعضها فى الصفحات السابقة ، وسوف نشير إلى بعضها الآخر فيما يستقبلنا من صفحات هذا الكتاب .

(٣) عن هذه الأصول ، انظر ، الدورى ، النظم ، ص ١٣ - ١٩ ؛

(٤) العلى ، دراسات فى الإدارة فى العهود الإسلامية الأولى ، بغداد (١٩٨٩م) ص ٧٢ - ١١٩ ؛ ولزید من التفاصيل عن دولة الرسول ﷺ وتنظيماته انظر ، العربى ، محمد ممدوح ، دولة الرسول ﷺ فى المدينة ، القاهرة (١٩٨٨م) .

الكتاب إجمالاً على أن تعود إليها ولغيرها من أنظمة الحكم والإدارة تفصيلاً في كتابنا المفصل (بمشيئة اله تعالى) .

المبحث الأول : النظم السياسية :

أولاً : نظام الخلافة :

من المعروف أن الرسول ﷺ قد أسس الدولة الإسلامية بأمر من الله سبحانه وتعالى ، وكان الله عز وجل يوحى إليه بمجملات ومفصلات من أمور الحكم وبأمر المسلمين أن يأخذوا عن رسول الله ويطيعوه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (الحشر آية ٧) وبين لهم أنهم ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، (النساء آية ٦٥) .

كذلك أمر الله سبحانه وتعالى الرسول أن يشاور المسلمين في الأمر بنص صريح في القرآن الكريم ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران آية ١٥٩) ، كما وصف الله سبحانه المسلمين في تقرير أمورهم فقال ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى آية ٣٨) .

وكان النبي ﷺ يشاور أصحابه في كل ما يعرض لهم من شئون وهو ما يمكن أن يستدل عليه في كتب السيرة النبوية الشريفة والسنن والتاريخ .

وبذلك أصبحت الشورى هي القاعدة المحددة للحكم بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة (٥) .

وفي ضوء ذلك يمكن القول أن نظام الخلافة في الدولة الإسلامية نظام مستحدث حتمته الظروف بعد وفاة الرسول ﷺ دون أن يعين للمسلمين خليفة لهم وكأنما أراد بذلك أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح لها (٦) .

(٥) الشريف ، دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ٢١٥ - ٢١٧ ، ولزيد من التفاصيل انظر ، ضيف ، الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة ، ص ٧٤ - ٨٦ ؛ العربى ، دولة الرسول في المدينة ، ص ٢٩٩ - ٣٠٣ .

(٦) عبدالرازق ، الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٤٥ - ٤٦ .

الأصل اللغوي:

اختلف في اشتقاق لفظة خليفة ف قيل أنه فعيل بمعنى مفعول كجريح بمعنى مجروح أى أن المعنى «أن يخلفه من بعده» ومن هنا حملت الآية الكريمة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة آية ٣٠) على قول من قال «ان آدم أول من عمر الأرض وخلفه فيها بنوه» ، ومن جهة أخرى قيل فعيل بمعنى فاعل ويكون المعنى «أن يخلف من قبله» وعليه حملت الآية عند من قال أنه كان قبل آدم في الأرض الجن وأنه خلفهم فيها وعليه خطب أبوبكر الصديق (رضي الله عنه) بخليفة رسول الله ﷺ أما الهاء في خليفة ف قيل لتأنيث الصيغة وقيل للمبالغة وربما حذف ، وتجمع خليفة على خلفاء وخلائف ، والنسبة الصحيحة منه خلفى ولو أن بعض الكتاب يقول خليفة (٧).

الدلالة الاصطلاحية : يقصد بالخلافة في الاصطلاح الرياسة العامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ ، وهو ما عبر عنه الماوردي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) بقوله «إن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيما خلف به النبوة وحاط به الملة وفوض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع وتجتمع الكلمة على رأى متبوع، فكانت الإمامة أصلا عليه استقرت قواعد الملة وانتظمت به مصالح الأمة حتى إستثبتت بها الأمور العامة وصدرت عنها الولايات الخاصة» (٨).

وعرف ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) الخلافة بأنها «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ؛ اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به» (٩).

- الشروط الواجب توافرها فيمن يلى أمر الخلافة : (لدى أهل السنة) :

١ - العدالة على شروطها الجامعة .

(٧) الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٣٣ ؛ ولزيد من التفاصيل انظر ، عبدالرازق ، الحضارة ، ص ٤٥ ؛ حسن ، حسن على ، محمد ، التوم الطالب ، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، القاهرة (١٩٨٦ م) ، ص ١٢ - ١٣ .

(٨) الماوردي ، أبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادي ، ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، د ت ، ص ٣ - ٤ .

(٩) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، مقدمة ابن خلدون ، وهى الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، تصحيح وفهرسة أبو عبد الله السعيد المندوه ، المجلد الأول ، مكة المكرمة - بيروت (١٩٩٤ م) ، ص ٢٠٢ .

- ٢ - العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والأحكام .
 - ٣ - سلامة الخواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها .
 - ٤ - سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض .
 - ٥ - الرأي المفضى الى سياسة الرعية وتدبير المصالح .
 - ٦ - الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو .
 - ٧ - النسب القرشى (١٠) : وهذا الأخير عليه خلاف بين الفقهاء (١١) أما الشيعة فيرون قصر الخلافة على أسرة معينة وهى أسرة النبى ﷺ أى حصر الخلافة بعد الرسول فى الإمام على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ثم أولاده من بعده عن طريق الوراثة على أساس أن عليا يستحق الخلافة بالكفاية وبالنص عليه من قبل الرسول ﷺ ، كما سنشير فيما بعد .
- وبالنسبة للخوارج فهم يرون عدم حصر الخلافة فى بيت معين كالبیت النبوى أو فى جنس معين كالجنس العربى فالخلافة فى نظرهم لله أى للأمة فهى التى تختار الشخص الصالح بغض النظر عن جنسه أو لونه مادام مستوفيا لشروط الخلافة ، وقد انتشر هذا المذهب بصفة خاصة بين البربر فى المغرب لأنه يناسب وضعهم السياسى والإجتماعى كما هو الحال فى دولة بنى مدرار الصفرية فى سجلماسة ١٤٠ - ٣٤٩ هـ / ٧٥٧ - ٩٦٠ م ، ودولة بنى رستم الأباضية فى تاهرت (حاليا تياريت فى ولاية وهران غرب الجزائر) ١٤٤ - ٢٩٦ هـ / ٧٦١ - ٩٠٩ م .
- شارات الخلافة (١٢) :**

١ - الخطبة : ويقصد بها الدعاء للخليفة على المنابر فى نهاية خطبة الجمعة فى

-
- (١٠) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٦ .
- (١١) الضحيان ، الإدارة فى الإسلام ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، الشباني ، نظام الحكم والإدارة ، ص ١١٠ ، العربى ، دولة الرسول فى المدينة ، ص ٣٠٩ - ٣١١ . شلبى ، أبوزيد ، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ، القاهرة ، ط ١٠ ، (٢٠٠٠م) ، ص ٧٨ : العبد الغنى ، عبدالرحمن ، وآخرين ، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت (١٩٩٩م) ، ص ٨٢ - ٨٣ : محمود ، محمود عرفة ، وآخرين ، دراسات فى الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت (١٩٩٧م) ، ص ٨٢ - ٨٣ .
- (١٢) العبادى ، أحمد مختار ، نظم الحكم والإدارة فى الدولة الإسلامية ، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، الكويت ، ط ٢ (١٩٨٦م) ، ص ١٣٦ ، ١٤٠ - ١٤١ ؛ وعن الخوارج انظر اسماعيل ، محمود ، الخوارج فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، الدار البيضاء (١٩٧٦م) ؛ النجار ، عامر ، الأباضية ومدى صلتها بالخوارج ، القاهرة ، (١٩٩٣م) ؛ السهيل ، نايف عيد جابر ، الأباضية فى الخليج العربى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، مسقط (١٩٩٨م) .

جميع مساجد الأمصار والولايات التابعة للخلافة .

٢- السكة : ويقصد بها نقش اسم الخليفة على النقود المتعامل بها بين الناس .

٣- الطراز : ويقصد بها نقش اسم الخليفة على المنسوجات التي تنسج في دور الطراز (طراز العامة وطراز الخاصة) .

- علامات الخلافة (١٣) :

١- البردة : ويقصد بها بردة الرسول ﷺ التي خلعها على الشاعر كعب بن زهير بعد توبته ومدحه للرسول بقصيدته «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول» وظلت بيد ورثة كعب ثم اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان وبقيت لدى بنى أمية حتى إنتقلت إلى بنى العباس الذين كانوا يحرصون على ارتدائها في المناسبات الخاصة كصلاة الجمعة والعيدين كرمز لسلطتهم الدينية وفي ذلك يقول الشاعر البحتري في مدح الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) :

ووقفت في برد النبي مذكرا لله تنذر تارة وتبشر (١٤)

هذا ويحتفظ متحف تاريخ الفن بفينا بمسكوكة صلة من الفضة مؤرخة بعام ٢٤١هـ / ٨٥٥م ويتضمن مركز الوجه نقشا يمثل الخليفة المتوكل على الله وهو يرتدى بردة الرسول ﷺ (١٥) .

٢- الخاتم : وقد اتخذ الخلفاء الراشدين تشبها بالرسول ﷺ إلى أن سقط من الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه في بثر أريس وصنع له آخر على مثله ، ومن ثم صارت عادة لكل من يلي أمر الخلافة وينقش عليه بعض الحكم والمواعظ أو اسم الخليفة.

٣- القضيب أو السيف : وهو رمز الإمامة عند المسلمين توارثه الخلفاء عن

(١٣) عبدالرازق ، الحضارة ، ص ٤٩ - ٥٣ ؛ ماهر ، سعاد ، شارات الخلافة في الفن الإسلامى ، مجلة الدارة، العدد ٣ ، الرياض ، سبتمبر (١٩٧٧م) ، ص ٦٠ - ٦٣ .

(١٤) عن : العبادى ، نظم الحكم والإدارة ، ص ١٣٨ .

(١٥) حميد ، عبدالعزيز ، بردة رسول الله على مسكوكة المتوكل المصورة ، مجلة المسكوكات ، العددان ٨ -

٩ ، بغداد (١٩٧٧ - ١٩٧٨م) ، ص ٢٨ - ٣٠ ؛ ولزيد من التفاصيل عن أهمية هذه المسكوكة التاريخية انظر كتابنا «النقوش الأثرية مصدراً للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، المجلد الأول ، القاهرة (٢٠٠٢م) ص ١٣٢ - ١٣٣ .

الرسول ﷺ أو قلده في حملته (١٦).

هذا وتوجد مسكوكات أموية (دنانير ودرهم وفلوس) (١٧) ترجع إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) وهي تمثل المرحلة الثانية من مراحل تعريب النقود إلى الطراز الإسلامي الخالص في المرحلة الثالثة والأخيرة ؛ غير أن الذي يعيننا من أمر هذه المرحلة الثانية ، هو أنها تتميز بنقش صورة الخليفة عبد الملك واقفا وهو يمسك بمقبض سيفه يهيم باستلاله وترجع هذه المرحلة الثانية إلى ما بين عامي ٧٤ - ٧٧هـ / ٦٩٤ - ٦٩٧م في ضوء الأدلة الأثرية المتوافرة حتى الآن .

ألقاب الخلافة :

١- **عبد الله** : وأول من تلقب بذلك من الخلفاء عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك ولزموه حتى أن المأمون (الخليفة العباسي ١٩٨ - ٢١٨هـ) كان اسمه عبد الله فكان يكرر في كتبه وعهوده لفظ عبد الله مرتين ، الأولى منهما اللقب والثانية الاسم الخاص ثم أحدث الخلفاء الفاطميون بالديار المصرية أيام قيامهم بها بعد ذلك «وولية» فكان يكتب في كتب خلفائهم : من عبد الله ووليه فلان أمير المؤمنين ، ويستثنى من ذلك آخر الخلفاء الفاطميين وهو العاضد حيث كان اسمه عبد الله ولذلك كان يكتب عنه : من عبد الله ووليه عبد الله إلى آخره ، ثم تبعهم على ذلك الخلفاء العباسيين بعد انتقال الخلافة إلى القاهرة على يد السلطان الظاهر بيبرس كما سنشير فيما بعد .

٢- **الإمام** : وهو من الألقاب المستجدة للخليفة في العصر العباسي ، والأصل في ذلك أن الشيعة كانوا يعبرون عمن يقوم بأمرهم بالإمام من حيث أن الإمام في اللغة هو الذي يقتدى به وهم بأئمتهم مقتدون وعند أقوالهم وأفعالهم واقفون لاعتقادهم فيهم العصمة ، ويضيف القلقشندي فيذكر أن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس قد تلقب حين أخذت له البيعة بالخلافة بالإمام نسجا على هذا المنوال (١٨) .

(١٦) عبدالرازق ، الحضارة ، ص ٤٩ ؛ الباشا ، دراسات ، ص ٣٤ .

(١٧) رمضان ، مرسوعة النقود ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٥ .

(١٨) القلقشندي ، أحمد بن عبد الله ، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، الكويت ، ط ٢ (١٩٨٥م) ، ص ٢٠ - ٢١ .

ونتفق مع ما ذهب إليه الباشا أن اللقب فى هذه الحالة لم يكن لقباً عاماً بل كان نعتاً خاصاً له (١٩)، ونضيف على ذلك فنقول أن هذا اللقب لم يصبح لقباً عاماً للخلفاء العباسيين إلا فى أواخر القرن ٢هـ / ٨م وهو ما سوف نعود إليه فى دراسة لاحقة (بمشية الله تعالى) (٢٠).

٣- لقب الخلافة الخاص بها كالمصور والهادى والرشيد والمأمون والمعتصم بالله والمتوكل على الله ونحو ذلك .

هذا وبعد الخليفة العباسى المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ) هو أول من أضيف فى لقبه اسم الله تعالى وجرى الأمر على ذلك فيمن بعده من الخلفاء العباسيين فضلاً عن الخلفاء الفاطميين ، والخلافة الأموية بالأندلس (٣١٦ - ٤٤٢هـ) منذ عهد عبد الرحمن الناصر أول الخلفاء الأمويين وليس عبدالرحمن بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر الملقب بالمرتضى بالله (٤٠٨هـ / ١٠١٨م) كما يذكر القلقشندى (٢١).

٤- أمير المؤمنين : (٢٢) وأول من لقب به الخليفة الراشدى الثانى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وولزم هذا اللقب من ولى الخلافة بعده من الخلفاء الراشدين

(١٩) الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٣٩ : الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والأثار ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٧٨م) ، ص ١٦٧ .

(٢٠) ناقشنا هذا الموضوع فى دراستنا الموسومة بـ «النقوش الآثرية مصدراً للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، المجلد الأول ، القاهرة (٢٠٠٢م) ، ص ٦٩ - ٧١ ؛ وبما أنه قد ظهرت دراسة حديثة عام ٢٠٠٤م بعنوان موسوعة النقود فى العالم الإسلامى - الجزء الأول ، نقود الخلافة الإسلامية للدكتور عاطف منصور محمد رمضان ص ٢١٣ - ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ولذلك أثرتنا أن نعود إلى طرح هذه القضية للمناقشة تفصيلاً لنحلل ونفند ما إنتهت إليه هذه الدراسة حول هذه القضية بصفة خاصة وحول ما ورد فى الكتاب بصفة عامة ، حيث أن لدينا مآخذ كثيرة ودراسة نقدية مطولة له فى ضوء المنهج العلمى السليم والتفكير المنطقى وما يرتبط بهما من تحليل مدعم وموثق ، وما نرمى إليه هو الوصول إلى الحقيقة العلمية البحتة التى هى الغاية من البحث العلمى - وعنوان دراستنا هو «دراسة نقدية تحليلية حول الجزء الأول من كتاب موسوعة النقود فى العالم الإسلامى» ، (قيد النشر) .

(٢١) القلقشندى ، مآثر الانافة ، ص ٢٥ .

(٢٢) القلقشندى ، مآثر الانافة ، ص ٢٥ .

فالأُمويين فالعباسيين والفاطميين فالأُمويين في الأندلس منذ عهد عبدالرحمن الناصر ٣١٦ - ٣٥٠ هـ وغيرهم وهو ما سنشير إليه تفصيلاً في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

هذا وبعد سد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٧٩ م) بالطائف المعروف بسد سيسد المؤرخ بعام ٥٨ هـ / ٦٧٧ م أول دليل مادي آثاري تتضمن نقوشه لقبين من ألقاب الخلافة الأربعة المشار إليها وهما عبدالله وأمير المؤمنين وذلك بصيغة «هذا السد لعبد الله معوية أمير المؤمنين ... اللهم اغفر لعبد الله معوية أمير المؤمنين...» (٢٣).

وتكرر ذلك أيضاً في نقوش الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) ومن أهمها نقوش الصوى أو الأميال التي لاتزال باقية حتى الآن (٢٤).

واستمر ذلك في نقوش الخلفاء العباسيين المبكرة لكل من السفاح والمنصور سواء كانت نقوش السكة ولاسيما الفلوس أو نقوش انشائية ؛ ومن المرجح أن لفظ عبدالله الموارد في هذه النقوش المبكرة إنما يشير إلى اسم كل من الخليفين العباسيين الأول والثاني (٢٥) ويعزز ذلك ويؤكدده نقوش مسجد البيعة بمني وأحدهما مؤرخ بعام ١٤٤ هـ / ٧٦١ م والآخر غير مؤرخ اذ يتضمن هذان النقشان مايلي «أمر عبدالله عبدالله أمير المؤمنين...» (٢٦).

وعلى ذلك يتضح أن تكرار لفظة «عبدالله» مرتين إشارة إلى اللقب والاسم إنما يرجع إلى صدر الدولة العباسية (الخليفة الثاني أبي جعفر) وليس إلى الخليفة المأمون على حد قول القلقشندي ومن نقل عنه .

التطور التاريخي للخلافة الإسلامية :

شعر المسلمون عند وفاة الرسول ﷺ بالحاجة إلى رئيس يحفظ كيان الأمة الجديدة ويوجهها في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية وهو ما عبر عنه أبو بكر

(٢٣) الحداد ، محمد حمزة ، النقوش الأثرية ، المجلد الأول ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢٤) الحداد ، النقوش الأثرية ، المجلد الأول ، ص ٢٨ ، شكلا ٣ - ٤ .

(٢٥) الحداد ، النقوش ، ص ٢٥ ؛ رمضن موسوعة ، ص ١٧٧ ، ١٨١ .

(٢٦) الحداد ، النقوش ، ص ٢٣ - ٢٥ (ومابهما من مراجع) ، شكلا ١ - ٢ .

الصديق بقوله « لا بد لكم من رجل يلى أمركم ويصلى بكم ويقا تل عدوكم » (٢٧) .

ورغم ما أسفرت عنه الأحداث السريعة من حدوث انقسام بين المسلمين حول من سيخلف الرسول ﷺ ، إلا أن اجتماع سقيفة بنى ساعده قد حسم الأمر وانتهى إلى تقرير قيام الخلافة تقريراً نهائياً وأصبح سابقة قابلة للتطبيق ؛ وقد تقرر فى هذا الاجتماع أن تكون الخلافة فى المهاجرين من صحابة الرسول ﷺ وعلى هذا الأساس تمت مبايعة أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) واختياره خليفة لرسول الله ﷺ .

وهكذا قامت الخلافة الإسلامية وتحدد مفهوم الحكم تحديداً عملياً ، وكان حل مشكلة الخلافة على هذه الصورة ومسارة الناس إلى الرضا به دليلاً على أنهم كانوا يسلمون بأن النظام الذى وضع أسسه النبى عليه الصلاة والسلام واجب البقاء وأنه - أى النبى - وان مات فإنه خلف فيهم ديناً وكتاباً وسنة يسيرون على هديهما فرضاء الناس يومئذ يعبر عن ارادة الاستمرار فى ظل النظام الذى أنشأه النبى ﷺ (٢٨) .

هذا وقد مرت الخلافة الإسلامية بمراحل من التطور نجلها فى النقاط التالية :

أ- مرحلة الخلافة الكاملة : ويقصد بها مرحلة عصر الخلفاء الراشدين وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى (رضى الله عنهم أجمعين) (١١ - ٤٠ هـ) .

وتتميز هذه المرحلة بأن اختيار الخلفاء كان يتمشى مع الشورى التى دعا إليها القرآن الكريم وندبت إليها السنة النبوية المطهرة ، كما أنها لم تكن خلافة وراثية ، بل انحصرت فى فئة معينة من صحابة الرسول ﷺ من المهاجرين لأسبقيتهم إلى الإسلام من صحابة الرسول ﷺ بأموالهم وأنفسهم وغير ذلك ، وعلى هذا الأساس تم اختيار أبى بكر الصديق (البيعة الخاصة ثم البيعة العامة) ؛ ثم رشح أبو بكر الصديق فى آخر حياته عمر بن الخطاب بعد أن استشار كبار الصحابة وعرض الأمر على المسلمين

(٢٧) الدورى : النظم ، ص ٢٨ ، عمر ، النظم ، ص ١٤ - ١٥ .

(٢٨) الشريف ، دراسات فى الحضارة ، ٢٢٠ - ٢٢١ .

فقبلوا وبذلك تمت البيعة الخاصة قبيل وفاة أبى بكر وتمت له البيعة العامة بعد وفاته .

ورشح عمر قبيل وفاته ستة من كبار الصحابة ممن كان الناس ينظرون إليهم وتم اختيار عثمان بن عفان من بينهم ثم تمت له البيعة العامة بعد ذلك ، وبعد وفاة عثمان بن عفان اختار الصحابة على بن أبى طالب ثم تمت له البيعة العامة بعد ذلك (٢٩) .

ونظراً لما حرص عليه الخلفاء الراشدين من الالتزام الشديد بمنهج القرآن والسنة النبوية المطهرة فى جميع أعمالهم مع توجه المسلمين لما فيه أمنهم وعزة دولتهم صارت هذه المرحلة نموذجاً صادقاً للخلافة الكاملة وغدت قدوة يتطلع المسلمون - إلى اليوم - إلى نماذجها الصالحة وحياتها المستقيمة (٣٠) .

هذا وقد تلقب أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فى البداية بلقب خليفة الله ولكنه أنكر إطلاق هذا التسمية عليه وقال «لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله» ومن ثم صار يلقب بخليفة رسول الله ، وعندما ولى عمر بن الخطاب الخلافة لقبه الناس بخليفة خليفة رسول الله بيد أنه استثقله لكثرتة وطول اضافته ، واتفق أن دعاه بعض الصحابة بأمير المؤمنين فاستحسن الناس هذا اللقب ودعوه به بدلاً من اللقب الأول منعاً للبس والتعقيد ، ولأنه كان مناسباً لظروف الفتوح الإسلامية التى تمت فى عهد عمر (رضى الله عنه) (٣١) .

٢- مرحلة الخلافة الأموية ٤١-١٣٢هـ .

لم يصل معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية إلى الخلافة بطريق الاختيار كما حدث فى عصر الراشدين ، وإنما بايعه الناس بعد استشهاد الإمام على بن أبى

(٢٩) شلبى ، تاريخ الحضارة ، ص ٨١ - ٨٢ ، ٨٤ - ٨٨ ، الشريف ، دراسات ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ ، الدورى ، النظم ، ص ٢٨ - ٣٧ ؛ عمر النظم ، ص ١٤ - ٢٣ ؛ الناطور ، الخلافة الإسلامية ، ص ٢٤٢ - ٢٤٤ ؛ حسن ، تاريخ الحضارة ، ص ١٤ - ٤٣ ؛ شاهين ، الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين ، ص ١٥ - ٥٣ ، ١١٧ - ١٣٠ ، ٢٣٣ - ٢٤٠ ، ٢٩٤ - ٢٩٨ . سرور ، محمد جمال الدين ، الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٧٩م) ، ص ١١ - ١٨ ، ٥٦ - ٥٨ ، ٦٨ - ٦٩ .

(٣٠) العدوى ، إبراهيم ، السهيل ، نايف ، الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت (١٩٩٤م) ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣١) عبدالرازق ، الحضارة ، ص ٤٨ .

طالب (رضى الله عنه) وتنازل ابنه الحسن (رضى الله عنه) خوفاً من الفتنة وحسماً للخلاف بين المسلمين وذلك عام ٤١ هـ / ٦٦١ م وهو العام الذى عرف واشتهر بعام الجماعة الأول (٣٢).

إلا أن معاوية لم يلبث أن خطا بالخلافة خطوة أخرى غير مسبوقة لم يرض عنها كثير من المسلمين وبخاصة أهل الحجاز فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلى الأخص أبناء كبار الصحابة ، ذلك أنه - أى معاوية - قد عزم على تولية ابنه يزيد العهد ليكون خليفة بعده وأخذ له البيعة مستخدماً فى ذلك وسائل الوعد والوعيد .

وهكذا استحدث معاوية مبدأ التوريث فى الخلافة الإسلامية وأصبحت الخلافة عصبا قيسريا وملكا كسرويا على حد قول الجاحظ وغيره (٣٣).

ومن الملاحظ أن التوارث خلال العصر الأموى لم يكن مطابقاً للوراثة المطلقة المعهودة بل كان الخليفة فى حياته يختار ولى العهد أو يختار اثنين أحدهما بعد الآخر ، ولا يشترط أن يكون ولى العهد هو الابن الأكبر للخليفة بل أحيانا لا يكون واحداً من أبنائه فقد يختار الخليفة أخاه أو ابن عمه أى واحداً من أبناء الأسرة ، ومن جهة ثانية فإنه يلاحظ أيضاً أن ولاية العهد كانت تتم بالصورة التى كانت تتم بها الخلافة بمعنى أن الترشيح كان يتم عن طريق مبايعة أهل الحل العقد وهذا هو (البيعة الخاصة) ويعرض الأمر على الأمة فإذا أقرته بايعت (البيعة العامة) ، ويتمثل أهل الحل والعقد فى العصر الأموى فى الخليفة نفسه وأهل البيت الحاكم وولاة الدولة وقوادها والفقهاء (٣٤).

ويشبه البعض الخليفة الأموى بشيخ القبيلة الذى يستمد سلطاته من القوى المادية ، ومن رضى رؤساء القبائل العربية (٣٥).

ومهما يكن من أمر فإن نظام الوراثة لم يستقر فى العصر الأموى فقد كان ذلك العصر عصر نزاع مستمر بين مبادئ ثلاثة :

(٣٢) الشريف ، دراسات ، ص ٢٣٥ ؛ عبداللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ١٠٤ .
١١١ ، ولزيد من التفاصيل انظر ، العقيلي ، عمر ، خلافة معاوية بن أبى سفيان ، الرياض (١٩٨٤م) .

(٣٣) الجاحظ ، رسالة ، ص .

(٣٤) الشريف ، دراسات ، ص ٢٣٥ - ٢٣٧ ؛ عبداللطيف ، العالم الإسلامى ، ص ١٢٩ - ١٣٤ ؛ عمر ،
النظم ، ص ٢٣ - ٢٥ .

(٣٥) العبادى ، نظم الحكم ، ص ١٣٦ .

١ - المبدأ الإسلامى الذى يؤكد اختيار أصلح المسلمين وأفضلهم وهو ما يتجلى فى الحركات المعادية للأمويين كابن الزبير والخوارج والعلويين والعباسيين .

٢ - المبدأ القبلى الذى يعترف بسيادة القبيلة أو الفخذ ويقبل باختيار أقدر أفرادها وأكثرهم حنكة وأكبرهم سنا وأكثرهم خدمة (وهو ما يتجلى فى اختيار مروان بن الحكم، كذلك فإن عهد سليمان بن عبد الملك الى عمر بن عبدالعزيز وعهد يزيد الثانى إلى أخيه هشام ثم إلى ابن الوليد كان نصراً للمبدأ القبلى ثم ان مجئ مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين كان نصراً للمبدأ القبلى وغير ذلك) .

٣ - مبدأ الوراثة المباشر من الأب إلى الابن وقد أخفق هذا المبدأ فى حالات كثيرة خلال العصر الأموى وعلى ذلك يمكن القول أن المبدأ القبلى كان أكثر المبادئ أثراً فى بنى أمية بينما كان المبدأ الإسلامى السبب الدافع للحركات التى قامت ضدهم (٣٦) .

٣ - مرحلة الخلافة العباسية ١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ م

إنتهت الثورة العباسية (٣٧) بالقضاء على الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م فهل كان لذلك أثره فى تطور نظام الخلافة ؟

والحق أن نظام الخلافة قد تطور على يد العباسيين تطوراً ملحوظاً وكان وراء ذلك تلك الأسس التى إستندوا عليها لدعم حقهم فى الخلافة وهى : حق القرابة وحق الحرمة وحق القوة .

ويتجلى الحق الأول ، وهو حق القرابة ، من قول أبو العباس الخليفة الأول فى خطبته الافتتاحية بمسجد الكوفة « وخصنا الله برحم رسول الله ﷺ وانبطنا من شجرته وأنزل بذلك كتاباً قال فيه { قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ... }

(٣٦) الدورى ، النظم ، ص ٣٨ - ٤٤ ؛ وعن الحركات المناهضة والثورات المعادية للأمويين انظر ، معروف ، نايف محمود ، الخوارج فى العصر الأموى ، بيروت (١٩٧٧م)؛ قنديل ، محمد السيد ، ثورة ابن الأشعث بالشرق الإسلامى وأثرها على الخلافة الأموية ، القاهرة (١٩٨٧م)؛ سلطان ، عبد المنعم عبد الحميد ، آل المهلب فى المشرق الإسلامى ودورهم السياسى والحربى حتى سقوط الدولة الأموية ، الاسكندرية (١٩٩٩م) ؛ الشريف ، عبد الله حسين، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، القاهرة (٢٠٠٥م)، ص ٧٨ - ١٧٧ .

(٣٧) عن الثورة العباسية بالتفصيل انظر ، عمر ، فاروق ، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت (١٩٧٠م)، (٣٤٦ صفحة)؛ الثورة العباسية ، بغداد (١٩٨٩م)، (١٧٠ صفحة)؛ شعبان ، محمد عبد الحى ، الثورة العباسية ، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسى ، أبو ظبى (١٩٧٧م) ؛ محمود ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ص ٥ - ٦١ .

وكان الخليفة يهدف من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد فرض على المسلمين أن يرث رسوله أقرباؤه فكانت هذه الآية عنوان الحق الشرعى فى الحكم للعباسيين ، وهو ما تتفق على إثباته وتأكيده المصادر التاريخية والنقوش الآثرية على السكة العباسية على السواء .

وعلى ذلك فإن العباسيين قد استندوا على نظام الوراثة ولكن بشكل يختلف تمام الاختلاف عن نظام الوراثة فى العصر الأموى ، فقد ادعوا بأنهم ورثوا الرسول ﷺ عن طريق عمه العباس بن عبد المطلب وهكذا ضرب العباسيون التقاليد القبلية ضربة قوية. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل اتهموا الأمويين بالظلم والاعتصاب بها هو أبو العباس يشير إلى عدل الخلفاء الراشدين ثم يقول « ثم وثب بنو حرب (الفرع السفينى) وبنو مروان (الفرع المروانى) فابتزوها - أى الخلافة - واستأثروا بها ظلما لأهلها ثم رد الله الحق لأهله أخيراً » (٣٨).

أما حق الحرمة فيتجلى فى قول الخليفة المنصور « إن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم فصارت للعباس من بين اخوته ... فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام ... ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى (ﷺ) غيره فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم فلم ينله إلا ولده : فالسقاية سقايته وميراث النبى له والخلافة فى ولده ... » (٣٩).

أما بالنسبة إلى حق القوة فيتجلى فى جواب المنصور على رسالة محمد النفس الزكية والذى أكد فيه - أى المنصور - على الفشل العلوى والانتصار العباسى فرغم أن بنى هاشم من علويين وعباسيين لهم نفس الحق بالخلافة إلا أن انتصار العباسيين وانتزاعهم الخلافة بالقوة من الأمويين إنما يبرر حصولهم عليها - أى الخلافة - على عكس العلويين الذين ثاروا عدة مرات ، ولكن ثوراتهم فشلت المرة تلو الأخرى (٤٠).

هذا وتتمثل أبرز مظاهر تطور نظام الخلافة فى العصر العباسى فى اصفاء القداسة على الخليفة العباسى وأنه يستمد سلطانه من الله سبحانه وتعالى فهذا هو المنصور يخطب فى مكة قائلا « إيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه

(٣٨) عمر ، النظم الإسلامية ، ص ٣٠ : الدورى ، النظم الإسلامية ، ص ٤٥ .

(٣٩) عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٢٨١ .

(٤٠) عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٣١٣ - ٣١٨ .

وتسديده فارغبوا إلى وسلوه أن يوفقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم .»

وقال المنصور في مناسبة أخرى « السلطان حبل الله الممدود » ، كذلك وصف العباسيون أنفسهم بأنهم « ظل الله وعروته الوثقى » (٤١).

وترتب على ذلك أن إزدادت قدسية الخليفة حتى صار يدعى خليفة الله وذلك لتأكيد معنى الخلافة عن الله سبحانه وتعالى فالخليفة العباسي هو خليفة الله على خلقه وهو المفوض من الله سبحانه وتعالى لاقرار دينه في الأرض ونشر الإسلام .

وظهرت مترادفات أخرى لهذا اللقب مثل « خليفة الله على كافة أهل الإسلام » وقد أطلق على الخليفة الناصر لدين الله في نقش مؤرخ بعام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م ، و«خليفته في أرضه ونائبه في خلقه » وقد أطلق على الخليفة المستنصر بالله في نقش مؤرخ بعام ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م (٤٢).

كذلك بدأت تظهر الألقاب الخلافية المضافة إلى لفظ الجلالة ومنها المعتصم بالله والواثق بالله والمتوكل على الله والمعتمد على الله والمطيع لله والطائع لله والمسترشد بالله والراشد بالله والمقتفى لأمر الله والناصر لدين الله والمستنصر بالله والمستعصم بالله وغير ذلك (٤٣).

وعلى ضوء ما تقدم نظر البعض إلى الخلافة العباسية على أنها خلافة ثيوقراطية ويرون أنه كان وراء ذلك تأثير العباسيين بنظرية الحق الالهي في الحكم التي كانت سائدة بين الفرس قبل الإسلام (٤٤) ، على حين يرى آخرون أن ذلك يرجع إلى أن الخليفة كان هو الإمام في ذات الوقت ومن ثم تعتبر معرفته فرضا من الفروض ؛ بل أن مناصرته والوفاء له فريضة أوجبها الله على العباد وهو ما يتجلى في رسائل التقريظ التي فسر

(٤١) الدوري ، النظم ، ص ٤٧ ؛ عمر ، النظم ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٤٢) الباشا ، الألقاب ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٤٣) انظر قائمة الخلفاء العباسيين ص من هذا الكتاب .

(٤٤) العبادي ، نظم ، ص ١٣٦ - ١٣٧ ؛ ماجد ، العصر العباسي الأول ، ص ١٠٩ ؛ الكروي ، إبراهيم

سلمان ، شرف الدين ، عبد التواب ، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، الكويت (١٩٨٤م) ،

ص ٣٧ - ٣٨ .

بها أنصار الخلافة ما قاموا به من تبرير لأعمالهم (٤٥).

ومهما يكن من أمر فقد اندمجت هذه النظرية فى نفوس المسلمين حتى صارت عقيدة يؤمنون بها والفضل فى ذلك يرجع إلى الدعاية الناجحة التى قام بها العباسيون لتدعيم هذه الفكرة لدرجة أنهم استخدموا فى سبيل تدعيمها وترويجها أحاديث نبوية لم تثبت صحتها تبرر لهم هذا الحق إلى يوم القيامة . كما بشوا بين الناس منذ البداية أن الخلافة باقية فى أيديهم إلى الأبد ، ومن ذلك قول داود بن على عم الخليفة أبى العباس مخاطباً أهل الكوفة « واعلموا أن هذا الأمر فىنا وليس خارجاً منا حتى نسلّمه إلى عيسى بن مريم »؛ وقبل ذلك فإن إبراهيم الإمام أرسل إلى أبى مسلم راية اسمها الظل ، وفى ذلك إشارة لا تخفى إلى أن الأرض لا تخلو من خليفة عباسى أبد الدهر مثلما هى لا تخلو من الظل أبداً (٤٦).

وحتى يؤكد الخلفاء العباسيون سلطتهم الدينية أعلنوا منذ البداية فى أكثر من مناسبة عن عزمهم على اتباع كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ومن ثم تقربوا إلى أصحاب السنة والحديث وقربوا الفقهاء ليجعلوا حكمهم يستند إلى الشريعة وبالتالي يظهر تمسكهم بالدين ؛ فها هو المنصور يوصى المهدي بقوله « وأهل الدين فليكونوا أعضادك » كما صاروا يرتدون البردة النبوية الشريفة عند توليهم الخلافة وعند حضور المظالم وفى المناسبات الدينية كصلاة الجمعة والعيدى أو حين يعلن الجهاد كما فعل المعتمد حين حارب الصفار والمقتدر حين حارب مؤنسا (٤٧).

ولكى يزيد الخلفاء العباسيون فى مهابتهم اتبعوا بعض عادات الأكاسرة الفرس ومنها الاحتجاب عن الرعية والظهور فى وسط ستار كثيف من الأتباع ، ونشأت نتيجة لذلك وظيفة الحجابة وصاحب الستر أو الستارة ولم يعد الخليفة يرى كما كان الحال من قبل إلا بعد برنامج محكم دقيق (بروتوكول) عند مقابلته ومن ذلك الانحناء أمام الخليفة وتقبيل الأرض بين يديه وإذا قرب منه الداخل قبل طرف رداءه وهذا شرف

(٤٥) حسن ، النظم الإسلامية ، ص ٤٩ ، ٢٨٠ ؛ محمود ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٤٦) الدورى ، النظم ، ص ٤٧ - ٤٨ ، عمر ، النظم ، ص ٣١ .

(٤٧) الدورى ، النظم ، ص ٤٦ ؛ عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١١٧ - ١١٨ ، ٢٨٢ .

كبير لا يناله إلا المقربون (٤٨).

ولعل هذا كله هو السر في بقاء الخلافة العباسية مدة طويلة وفي تمتعها بمركز الزعامة الروحية في العالم الإسلامي حتى بعد زوالها من بغداد على أيدي المغول ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وفي ذلك يذكر السيوطي أنه « خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب ، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله واتخذوها أدلة على ما سيحدث في العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة » (٤٩).

ومن الظواهر الملفتة للنظر أن اسم آخر الخلفاء العباسيين وهو المستعصم بالله (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) ظل ينقش على السكة لمدة تربو على نصف القرن في بعض الأقطار الإسلامية في المشرق ؛ فضلاً عن اليمن في عصر الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨هـ / ١٢٢٨ - ١٤٥٤م) رغم إحياء الخلافة العباسية في القاهرة منذ عام ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، وهو الأمر الذي يستحق أن تفرد له دراسة مستقلة لاحقة بمشيئة الله تعالى .

وإذا كان العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢هـ / ٧٥٠ - ٨٤٦م) يمثل الرمز الحقيقي للتاريخ العباسي ، فضلاً عن كونه عصر القوة والازدهار ، فإن العصور التالية ٢٣٢ - ٦٥٦هـ / ٨٤٦ - ١٢٥٨م لم تظهر فيها بصفة عامة هيبة الخلافة ولا سلطة الدولة ونفوذها ، وإنما كانت الكلمة العليا بيد الأمراء المتسلطين من القادة العسكريين الترك أو البويهيين أو السلاجقة ، ويستثنى من ذلك بعض الفترات القليلة التي حقق فيها بعض الخلفاء نجاحاً ملموساً ، رغم كونه وقتياً ، في استعادة نفوذ الخلافة والدولة كما هو الحال في عهد المعتمد (بفضل أخيه الموفق طليحة) والمعتضد والمكتفي (٢٥٦ - ٢٩٥هـ / ٨٦٩ - ٩٠٧م) وعهد المسترشد بالله ٥١٢ - ٥٢٩هـ / ١١١٨ - ١١٣٤م) والمقتفي لأمر الله ٥٣٠ - ٥٥٥هـ / ١١٣٥ - ١١٦٠م وعهد الناصر لدين الله ٥٧٥ - ٦٢٢هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥م ، وهذا العهد الأخير كان أشبه بصحوة أو

(٤٨) العبادي ، نظم الحكم ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ؛ الكروي ، المرجع ، ص ٣٨ .

(٤٩) السيوطي ، الحافظ جلال الدين ، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد

الحميد ، القاهرة (١٩٦٩م) ، ص ٢٥٨ .

افاقية الموت للدولة العباسية^(٥٠). وسوف نتحدث عن وضع الخليفة العباسي ومحاولات استعادة هيبة الخلافة ونفوذها خلال العصور العباسية المتأخرة تفصيلا في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

وعلى ضوء ما تقدم يتبين لنا كيف خلط العباسيين السياسة بالدين ومزجوا بينهما مزجا موفقا وفي ذلك يذكر ابن طباطبا « إن هذه الدولة قد ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فكان خيار الناس يطيعونها تدينا والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة »^(٥١).

وإزاء هذه المكانة المقدسة التي تمتعت بها الخلافة العباسية في العالم الإسلامي حرص السلطان المملوكي البحري الظاهر بيبرس البندقداري على إحيائها من جديد سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م في القاهرة باعتبارها ضرورة لا غنى عنها للأمة الإسلامية وباعتبارها رمزا لوحدهم ؛ هذا بالإضافة إلى رغبة المماليك في إضفاء صفة الشرعية لحكمهم ومن ثم اكتساب تأييد المسلمين^(٥٢).

وظلت القاهرة مركزاً للخلافة العباسية حتى تم للعثمانيين الاستيلاء على مصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وهو ما ترتب عليه نقل الخلافة والخليفة - بعد أن تنازل عنها الأخير - وهو المتوكل - للسلطان سليم الأول العثماني - إلى استانبول كما سنشير فيما بعد .

(٥٠) فوزي ، فاروق عمر ، النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصور العباسية الأخيرة ، بغداد (١٩٨٩م) ص ٥٥ - ٧٤ ، ٩٦ - ٩٩ ، ١٢٩ - ١٤٤ ؛ الخلافة العباسية ، ج١ ، عمان (١٩٩٨م) ، ص ٢٨٧ - ٢٩٢ ، ٣١٤ - ٣١٥ ، ج٢ عمان (١٩٩٨م) ، ص ٢١ - ٢٣٧ ، الدوري ، النظم الإسلامية ، ص ٥٠ - ٦٧ ، عمر ، النظم الإسلامية ، ص ٣٢ - ٤٠ ؛ محمود ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص ٣١١ - ٣١٢ ، ٣٢٦ - ٣٢٨ ، ٣٤٥ - ٣٨٤ ، ٥١٩ - ٥٢٦ ، ٥٨٤ - ٥٩٠ ، ٦٢٨ - ٦٣٢ ؛ الباشا ، حسن ، دراسات في تاريخ الدولة العباسية ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٩٠م) ، ص ٦٨ - ٧٠ ، ٧٣ - ٧٧ ، ٩٣ - ٩٧ ، ١٢٧ - ١٣٢ ؛ النقيب ، أحلام حسن مصطفى ، سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية ، ٥٧٥ - ٦٢٢هـ / ١١٧٩ - ١٢٢٥م ، بغداد (٢٠٠٠م) .

(٥١) ابن طباطبا ، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي ، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت (١٩٦٦م) ، ص .

(٥٢) العبادي ، نظم الحكم ، ص ١٣٧ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ص ٤٧ .

(٤) مرحلة الخلافة الفاطمية :

فى عام ٢٩٧هـ / ٩٠٩م نجحت الحركة الإسماعيلية فى إقامة دولة قوية فى افريقية هى الخلافة الفاطمية ، وبعد مرور ستة عقود انتقلت هذه الخلافة إلى مصر وذلك فى عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م وأسست مدينة القاهرة كعاصمة لهذه الخلافة حتى كتب صلاح الدين الأيوبي بيده شهادة وفاة هذه الخلافة عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م . غير أن الذى يعنينا من أمر هذه الخلافة فى هذه العجالة هو أن نركز على الأسس التى استندت عليها هذه الخلافة بوصفها خلافة شيعية إسماعيلية استطاعت أن تثبت أقدامها وتسطر لنفسها صفحات خالدة فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية .

ويمكن القول أن الخلافة الفاطمية تعد نموذجاً واضحاً للدولة الشيوقراطية فى التاريخ الإسلامى ، وقد استندوا - أى الفاطميين - فى دعم حقهم فى الخلافة على أساسين هامين : الأول : هو العلم اللدنى أو الإلهى الموروث عن النبى (ﷺ) عن طريق على بن أبى طالب ثم أولاده من بعده إلى الفاطميين ، فالإمام الفاطمى هو خليفة من سبقه بموجب الحق الإلهى ويختار ليكون وصياً للنبى (ﷺ) ولعلى بن أبى طالب (ﷺ) . والإمام أيضاً هو مستودع العلم الشرعى .

أما الأساس الثانى للإمامة الفاطمية فهو مسألة الوصية أو النص على ولاية العهد من الإمام السابق ، والمعروف فى ذلك أن الخلافة الفاطمية ترى كما يرى الشيعة عموماً أن علياً يستحق الخلافة بعد النبى (ﷺ) لا عن طريق الكفاية وحدها . أى سلامة رأى - بل عن طريق النص عليه بالاسم ، فالإمامة عندهم ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، وإنما هى ركن من أركان الدين ولا يمكن للنبى أن يتركها للأمة ؛ بل كان عليه تعيين إمام لهم معصوماً من الخطأ ؛ وأن علياً هو الذى عينه النبى إماماً بعده ومن هنا نشأت فكرة الوصية ولقب الإمام على بالوصى بينما لقب من جاء بعده بالأئمة ، ومرتبة الوصاية أعلى من مرتبة الإمامة ، وتلى مرتبة النبوة ، وقد اعتمد الشيعة على تأويل بعض الآيات القرآنية ، فضلاً عن الأحاديث التى نسبوها إلى الرسول (ﷺ) لتأكيد هذه الفكرة وترويجها حتى باتت لديهم حقيقة مؤكدة ، وهو ما نشير إليه تفصيلاً فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) ، ومهما يكن من أمر فقد انتشرت الوصية بين الشيعة عامة والفاطميين خاصة فقالوا : إن الإمامة تنتقل من الأباء إلى الأبناء ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد إنتقالها من الحسن

إلى الحسين (رضى الله عنهما) ، ولا يقوم النص فى الإمامة على أساس تولية الابن الأكبر ، فالإمام يستطيع أن ينص على أى ابن له ؛ فهذا أمر يخصه وحده لأنه يتلقى علمه ووحيه من الله (٥٣).

وكان من الممكن للإمام أن يخص وصيته عن مجموع المؤمنين به ، ولا يُعلم بها إلا بعض الثقات لا غير ، الذين عليهم أن يكشفوا عنها فقط فى الوقت المناسب ، وقد أدى هذا النظام إلى وصول عدد كبير من الأطفال والمراهقين إلى منصب الإمامة مما مكن لرجال القصر ونسائه ولوزراء وقادة الجيش السيطرة التامة على الدولة وأن تكون بأيديهم السلطة الحقيقية (٥٤) ، ومع ذلك هناك خرق لهذه القاعدة سوف نشير إليه فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

وقد تلقب الفاطميون فى سجلاتهم وعلى نقودهم بـ « الإمام » وبـ « أمير المؤمنين » ولم يتلقبوا فى الوثائق الرسمية بالخليفة حرصا منهم على اظهار صفتهم الروحية وسلطتهم الدينية (٥٥).

وفى عهد الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥ م) نقشت على النقود العبارات الشيعية الاسماعيلية ومنها « وعلى بن أبى طالب وصى الرسول ونائب الفضول وزوج الزهراء البتول » وعبارة « محيي - أى المعز - سنة محمد سيد المرسلين ووارث مجد الأئمة المهديين » وعبارة « وعلى أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين » وعبارة « دعا الإمام معد لتوحيد الاله الصمد » (٥٦) وغير ذلك.

هذا وقد تدهورت سلطة الإمام (الخليفة) قرب نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وأصبح الوزراء الأقوياء أرباب السيوف هم أصحاب السلطة الفعلية بعد انقسام الدعوة الاسماعيلية أكثر من مرة واتيان الوزراء بالإمام الذى يريدونه دون اعتبار لشروط الإمامة عند الاسماعيلية (٥٧).

(٥٣) العبادى ، نظم ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ص ٤٧ .

(٥٤) سيد ، أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية فى مصر تفسير جديد ، القاهرة ، ط ٢ ، (٢٠٠٠ م) ، ص ٣١٦ .

٣١٨ ؛ ولمزيد من التفاصيل انظر ، ماجد ، عبد المنعم ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ج ١ ،

القاهرة (١٩٥٣ م) ، ص ٥١ - ٧٧ .

(٥٥) سيد ، الدولة الفاطمية ، ص ٣٢٠ .

(٥٦) رمضان ، موسوعة النقود ، ج ١ ، ص ٣٣٦ - ٣٥١ .

(٥٧) سيد ، الدولة الفاطمية ، ص ٣٢٠ .

٥- مرحلة الخلافة الأموية فى الأندلس ٣١٦-٤٢٢هـ / ٩٢٩-١٠٣١م :

فى عام ٣١٦هـ / ٩٢٩م أعلن الأمير عبد الرحمن الناصر قيام الخلافة الأموية فى الأندلس وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله فما هى إذن الدوافع التى كانت وراء إعلان قيام خلافة ثالثة فى العالم الإسلامى ؟

وقبل أن نحدد هذه الدوافع ينبغى أن نشير ، بادئ ذى بدء ، إلى أن نظرية الخلافة السنية كانت تقوم فى بادئ الأمر على أن الخلافة وحدة لا تتجزأ ولا تتعدد ، وأن الخروج عنها عصيان ، وأن الخليفة الشرعى هو حامى حمى الحرمين الشريفين أى المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة ومركز العصبية ؛ غير أن مصلحة العمل ومقتضيات السياسة وتغيرات الظروف فيما بعد حتمت الخروج عن ذلك الأصل النظرى ووضع محل الاجتهاد ، ومن ثم أجاز الفقهاء تعدد الخلافة ما دامت هناك مصلحة تقضى بذلك ؛ بل وإعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم فى وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة واسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين .

وهكذا يتضح أن نظرية الخلافة السنية قد تكيفت كيفاً جديداً تبعاً للواقع وللضرورة السياسية ، والنظريات الناجحة دائماً تتبع الواقع وتتأثر به (٥٨) .

أما عن الدوافع التى حدث بعبد الرحمن الناصر لإعلان قيام الخلافة الأموية بالأندلس فيمكن أن نجملها فى النقاط التالية :

١- ضعف الخلافة العباسية أيام الخليفة المقتدر واستبداد القواد الأتراك بها وعجزها عن حماية العالم الإسلامى .

٢- قيام خلافة شيعية فتنية معادية فى المغرب الإسلامى وهى الخلافة الفاطمية التى كانت ترنو إلى الأندلس بعين لا تخلو من طمع .

٣- الاستجابة لرغبة الأندلسيين أنفسهم فى أن يكون خليفة للمسلمين ، ويؤيد ذلك ما رواه صاحب كتاب الحلل الموشية من أن الأندلسيين أنفسهم هم الذين بايعوا وحملوا الأمير عبد الرحمن بن محمد على حمل هذين اللقبين : أمير المؤمنين والناصر لدين الله وصاروا يخاطبونه بلقب الخليفة قبل اعلانه رسمياً ٣١٦هـ / ٩٢٩م .

(٥٨) العبادى ، نظم الحكم ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

وهكذا تحولت الإمارة الأموية بالأندلس منذ عام ٣١٦هـ / ٩٢٩م إلى خلافة سنّية تقوم على أساس التوريث فى ذرية عبد الرحمن الناصر حتى سقوط الخلافة نهائيا عام ٤٢٢هـ / ١٠٣١م (٥٩).

٦ - مرحلة الخلافة العثمانية :

ساعد القضاء على السلطنة المملوكية فى عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م السلطنة العثمانية فى أن تترث نظام الخلافة الإسلامية ، ومن المعروف أن الرواية القائلة بأن السلطان سليم الأول العثمانى قد صحب معه آخر الخلفاء العباسيين بمصر - وهو الخليفة المتوكل - إلى استانبول فتنازل له هذا الأخير عن الخلافة فى احتفال أقيم فى جامع أبا صوفيا قد ظهرت - أى هذه الرواية - فى القرن ١٨م ؛ رغم أن المصادر المعاصرة لأحداث النصف الأول من القرن ١٠هـ / ١٦م لم تذكر هذه الرواية بل ولم تشر إلى هذا الموضوع من قريب أو بعيد .

غير أن عدم وقوع حادثة كهذه لا يعنى أن السلاطين العثمانيين الذين خلفوا السلطان سليم الأول لم يقبلوا الخلافة ، فقد ذكرت الدراسات الحديثة أن العثمانيين لم يروا الخلافة فى شكلها الوراثنى ؛ بل فهموها على أنها حق طبيعى كما يدل عليه معناها ، تماما كما استخدم لقب الخليفة عند بعض حكام الدول الإسلامية الأخرى وعند العثمانيين أيضاً منذ عهد السلطان مراد الأول (٧٦١ - ٧٩١هـ / ١٣٦٠ - ١٣٨٩م) (٦٠).

ومع ذلك فإن الوجود العثمانى فى مصر قد شكل ركيزة أقوى بالنسبة لهم ، وقد حمل سليم لقب خادم الحرمين أى تكفل بحماية المدينتين المقدستين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وعلى ذلك فقد قام - تصديقا لتلك الصفة - بنقل الخليفة العباسى فى القاهرة والأمانات المقدسة إلى استانبول ورفع بذلك من مكانته فى نظر الحكام المسلمين والرعايا ، وقد كشف هذا الأمر عن نفسه بشكل أكثر حيوية فى عهد السلطان سليمان

(٥٩) العبادى ، نظم ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ؛ الحجى ، عبد الرحمن على ، التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، دار القلم (١٩٧٦م) ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ ؛ سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٢٧٩ - ٢٩١ .

(٦٠) أوغلى ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، المجلد الأول ، ترجمة صالح سعداوى ، استانبول (١٩٩٩م) ، ص ٣٥ .

القانونى فقد استخدمت فى تلك الفترة ألقاب للسلطان مثل « صاحب الخلافة الكبرى » ، و«الإمامة العظمى» و « خليفة المسلمين » وهذه الألقاب كانت إنعكاساً لفهم الخلافة بمعناها العالمى الشامل ، حيث رأى العثمانيين فيها تكليفاً من الله سبحانه وتعالى ، وكان مفهوم الخلافة عند العثمانيين قد اكتسب مغزى جديداً يختلف إلى حد ما عن مفهومها فى العصر العباسى ؛ ويتجلى هذا المغزى فى تأمين طرق الحج وحماية الأماكن المقدسة والدفاع عن الإسلام والمسلمين ووضعهم تحت مظلة الحماية ؛ وامتزج ذلك المغزى بتقاليد مبدأ الجهاد ، والتمسك بمبادئ الشريعة الإسلامية بشكل صارم فضلاً عن السعى لإيجاد مبررات للقوانين والنظم المالية من خلال الشريعة الإسلامية^(٦١).

ومهما يكن من أمر فإن العثمانيين - إبان قوتهم - لم يهتموا كثيراً باللقب وإنما بدأ اهتمامهم به فى القرن ١٨ م .

واشتد خلال القرن ١٩م وأوائل القرن ٢٠م المنصرم وذلك حين أصاب دولتهم التصدع والانحيار والضعف فاتخذوا من الخلافة وأحياء مجدها واسترداد ما كان لها من الهيبة والنفوذ والمكانة وسيلة لمقاومة ضغط الدول الأوروبية ، وكان السلاطين يهددون بتحريك هؤلاء الرعايا ضد حكومات الدول الأوروبية عن طريق إعلان الجهاد الدينى .

وليس أدل على تمسك السلاطين العثمانيين بلقب الخلافة فى أواخر القرن ١٩م من الإشارة إلى المادة الرابعة من دستور مدحت باشا الصادر فى ٢٤ ديسمبر ١٨٧٦م والتي نصت على أن حضرة صاحب العظمة السلطان بصفته خليفة المسلمين قد أصبح حامى الدين الإسلامى . وفى ٢٦ رجب ١٣٤٣هـ / ٣ مارس ١٩٢٤م أصدر مصطفى كمال أتاتورك القانون رقم ١٥٦ بشأن إلغاء الخلافة وإبعاد الأسرة العثمانية إلى خارج بلاد الجمهورية التركية وهو يشتمل على ١٣ مادة^(٦٢).

(٦١) أوغلى ، الدولة العثمانية ، المجلد الأول ، ص ٣٤ - ٣٥ ؛ ولزيد من التفاصيل انظر :

Gibb, H., Lutfi Pasha on the ottoman Caliphate , Oriens, XV, (1962), PP. 287 - 295., Inalcik, H., The Ottomans and the Caliphate, the cam-bridge History of Islam , I, (1970), PP. 320 - 323 .

٧- الخلافة الإسلامية فى غرب افريقيا فى القرن التاسع عشر الميلادى (٦٣):

استطاع الشيخ عثمان بن فودى (ت ١٨١٧م) أن يتزعم تلك الحركة الاصلاحية الكبرى فى غرب افريقيا والتي كان لها الأثر الأكبر فى انتشار الإسلام هناك ثم تأسيس امبراطورية إسلامية كبرى فى بلاد الهوسا (شمال نيجيريا الحالية) هى امبراطورية الفولانيين (١٨١٠ - ١٩٠٣م) وقد طبقت هذه الدولة مبادئ الشريعة الإسلامية فى كل منحنى من مناحى الحياة حتى قضى عليها البريطانيون عام ١٩٠٣م، ودخلت أجزاء هذه الدولة ضمن دولة نيجيريا الحالية ، وحملت اسم الاقليم الشمالى للدولة .

وبفضل جهاد الشيخ عثمان بن فودى قامت هذه الدولة ، وفى عام ١٨٠٩م وزع الشيخ المسئوليات على ابنه محمد بللو وأخيه عبد الله بن فودى ، واقتصر دور الشيخ على النصيح وتقديم المشورة للحكام والأمراء وكرس بقية عمره للدراسة والتأليف والتأمل حتى وفاته عام ١٨١٧م (٦٤).

غير أن ما يعنينا فى هذا المقام من أمر هذه الدولة هو أن نركز على نظام الخلافة كنظام للحكم فى هذه الدولة التى اتخذت مدينة سوكو تو عاصمة لها فيما بين ١٨١٧ - ١٩٠٣م وقد حكم خلالها أحد عشر خليفة ، ويمكن القول بأنه كان هناك تشابه بين

(٦٢) بركات مصطفى ، الألقاب والوظائف العثمانية ، دراسة فى تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثمانى لمصر حتى الغاء الخلافة العثمانية ، القاهرة (٢٠٠٠م) ، ص ٢٣ - ٣١ ، ٤١١ - ٤١٢ (الملحق ١) .

(٦٣) اعتمدنا بصفة رئيسية فى صياغة هذا المبحث على كتاب إبراهيم ، عبد الله عبد الرازق ، الإسلام والحضارة الإسلامية فى نيجيريا ، القاهرة (١٩٨٤م) ، (٣٥٣ صفحة) وهو فى الأصل رسالة الدكتوراة للمؤلف ، وقد اعتمد المؤلف على عدد كبير من الوثائق والمصادر ؛ فضلا عن الدراسات الحديثة عربية كانت أم أجنبية .

(٦٤) إبراهيم ، الإسلام ، ص ٦١ ؛ وانظر أيضًا ، زكى ، عبد الرحمن ، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بافريقيا الغربية ، القاهرة (١٩٦١م) ، ص ١٩٩ - ٢٠٣ ؛ بوفيل ، الممالك الإسلامية فى غرب افريقيا وأثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، ترجمة زاهر رياض ، القاهرة (١٩٦٨م) ، ص ٢٨٥ - ٢٩٩ ؛ محمود ، حسن أحمد ، الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٨٦م) ، ص ٢٦٠ - ٢٦٨ .

نظام الخلافة هنا وبين نظام الخلافة العباسية مع بعض الاختلافات فى التطبيق ، فالعباسيون اتجهوا إلى الأخذ بالنظام الاتحادى أو الفيدرالى ورضوا بمجرد الإشراف والتوجيه وهذا هو ما فعله خلفاء هذه الدولة ، كما أن الخلافة العباسية استجابت للمتغيرات فى الدولة وجمع الخليفة بين الخلافة والإمامة فلقد تحول الإمام الداعية إلى خليفة يحكم وهذا هو ما فعله خلفاء هذه الدولة أيضاً . كذلك كانت الخلافة العباسية قاصرة على البيت العباسى دون غيره يتولاها أفضلهم بشرطبيعة الناس له ، وهذا هو ما سار عليه خلفاء هذه الدولة حيث اقتصر اختيار الخلفاء على سلالة الشيخ عثمان بن فودى ، وكانت الخلافة العباسية للأقدر منهم وليست وراثية مستقرة فى الأبناء وهو ما طبق أيضاً فى هذه الدولة .

وكان الخليفة فى العصر العباسى عام الولاية ، عام الاختصاص فحكمه يسرى على كل أنحاء الدولة وهو يمارس حكمه فى كل مجال من الأمور الدينية والسياسية والمدنية والحربية وله الحق فى تفويض من يشاء من الاختصاصات ، وهذه الأحكام العامة سارت عليها الخلافة فى هذه الدولة أيضاً .

وقد جرى العرف عند العباسيين على أن يتخذ الخليفة وزيراً للتنفيذ يتلقى الأوامر من الخليفة وينفذها (هذا فى فترة سيطرة الخلفاء وقوتهم) وهو ما سارت عليه الخلافة فى هذه الدولة أيضاً ؛ ولكن مع اعطاء الوزير سلطات أكثر مما كان لدى العباسيين .

ومن الاختلافات أن الهيئة المختصة باختيار الخليفة فى هذه الدولة ويمثلها مجلس الاختيار كانت تتكون من أعضاء من خارج أسرة الشيخ عثمان بن فودى ، وكان الوزير صاحب الكلمة النهائية فى الاختيار .

كذلك لم تطبق هذه الدولة نظام ولاية العهد مثل العباسيين . وقبلهم الأمويين . ومن ثم كان اختبار الخليفة الجديد يتم بعد وفاة الخليفة الحاكم عن طريق مجلس الاختيار الذى يعين الخليفة حسب قواعد عامة منها صلة القرابة بالشيخ عثمان بن فودى ومنها مسألة السن بالإضافة إلى صفات أخرى .

وبعد اختيار الخليفة الجديد فإنه يحمل لقب أمير المؤمنين وهو اللقب الذى حمله الشيخ عثمان فى بداية الجهاد ، ونظراً لاتساع الدولة فقد استعان الخليفة بمجلسين

أحدهما استشارى ويتكون من أهم أعوانه ومساعديه والآخر مجلس تنفيذى ويعين الخليفة معظم أعضائه من الوزير والأعيان والجلاديا ، وكان هذا المجلس الأخير يتولى تنفيذ تعليمات أمير المؤمنين طبقا للشريعة الإسلامية^(٦٥).

ثانياً : نظام الوزارة :-

من المتفق عليه بين المؤرخين أن نظام الوزارة استحدث فى العصر العباسى الأول ، ولكن الباحث فى تاريخ الوزارة فى الدولة الإسلامية يواجه صعوبات جمة منها ما يتعلق بأصل اصطلاح وزير ومنها ما يعود إلى بداية نشأة منصب الوزير وتطوره ومنها ما يلاحظ من عدم تحديد صلاحيات الوزير مما أدى إلى نوع من التصادم بين سلطته وسلطة الخليفة . فمن الأسئلة التى تبحث عن جواب ... متى أصبحت الوزارة إحدى المؤسسات الرسمية فى الدولة الإسلامية ؟ وما هى نظمها ؟ أليس من الدقة أن يتحدث مؤرخ الوزارة عن شخصيات وزارية تتمتع بصلاحيات معينة تتفاوت درجاتها بحسب قابلية الوزير وحذقه السياسى ، وبمعنى آخر هل هناك منصب إدارى واضح المعالم يطلق عليه الوزارة أم أن الخليفة إختار شخصاً من مواليه أو صحابته ليحمل عنه بعض أعباء الحكم ومسئوليّاته ، أو ليعينه فى المشورة والتدبير وغير ذلك^(٦٦).

غير أن ما يعيننا فى هذا المقام ، ووفقا للخطة الموضوعية لهذا الكتاب المجمل ، هو أن نركز على بعض النقاط المتعلقة بنظام الوزارة فى الحضارة الإسلامية ، على أن نتحدث تفصيلاً عن كل ما يتعلق بخطة الوزارة فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى).

الأصل اللغوى :-

اختلف فى أصل لفظة الوزير هل هى فارسية أم عربية فمن قائل إنها فارسية الأصل من كلمة وتشير أو فشير الفارسية وتعنى الرئيس الذى يحكم أو القاضى ، وفى قول آخر أن كلمة وزير تعنى فى البهلوية مستند قانونى أو قرار وبالتالى لا تعنى وظيفة أو مرتبة أو رجل ، وقيل أن أصل هذه الكلمة أيضاً من كلمة جزيرات

(٦٥) إبراهيم ، الإسلام ، ص ٦٥ ، ١١١ - ١٢٢ .

(٦٦) عمر ، فاروق ، الجذور التاريخية للوزارة العباسية ، بغداد (١٩٨٦م) ، ص ٨ - ١٣ .

Gezirpat الدخيلة على الفارسية والتي وردت في التلمود البابلي بمعنى لقب لموظف بسيط الدرجة في القرية^(٦٧). ولكن رغم أن الغالبية قد اتفقت على أنها عربية ومع ذلك فقد اختلفوا في اشتقاقها ف قيل انها مشتقة من الوزر بفتح الواو والزاي وهو الملجأ ، سمي الوزير بذلك لأن الرعية يلجأون إليه في حوائجهم ، وقيل مشتقة من الأوزار بمعنى الأمتعة لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته ، وقيل مشتقة من الوزر بكسر الواو وسكون الزاي وهو الثقل لأنه يتحمل أثقال الملك ، وقيل من الأزر وهو الظهر سمي بذلك لأنه يقوى الحاكم الأعلى كما يقوى الظهر البدن^(٦٨).

أ - نشأة الوزارة في الدولة الإسلامية :

رغم أن وظيفة وزير قد عرفت بصفة غير رسمية عند العرب قبل ظهور الإسلام وكذلك في صدر الإسلام وحتى نهاية العصر الأموي ١٣٢هـ / ٧٥٠م غير أنها كانت تعني المساعدة والمشاورة والمؤازرة بالرأى والعمل قد تصل في بعض الأحيان إلى المشاركة الفعلية في الحكم كما ورد في القرآن الكريم ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ^(٢٩) هَٰرُونَ أَخِي ^(٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ^(٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ^(٣٢) ﴾ سورة طه من الآية ٢٩ إلى الآية ٣٢] وفي حديث زيد بن ثابت حيث قال لأحد خطباء بني قميم « نحن أنصار الله ووزراء رسوله » وفي مناقشة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) للأنصار في اجتماع سقيفة بني ساعده « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » ، أو قد لا تتعدى المشاركة الفعلية في الحكم كما يتضح من قول الإمام علي بن أبي طالب حين عرض عليه بعض الصحابة الخلافة عقب مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٣٥هـ / ٦٥٥م) قال

(٦٧) العبادي ، نظم الحكم ، ص ١٥١ : الكروي ، المرجع ، ص ٤٠ : الصالح ، النظم الإسلامية ، ص ٢٩٤ : عمر ، النظم الإسلامية ، ص ٤٧ : جواتياين ، س . د ، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية ، ترجمة وتحقيق عطية القوصي ، الكويت (١٩٨٠م) ، ص ٨٢ .
(٦٨) الباشا ، دراسات في الحضارة ، ص ٤٠ : الكروي ، المرجع ، ص ٣٩ - ٤٠ : الدوري ، النظم الإسلامية ، ص ١٥٩ : عبد الرازق ، الحضارة ، ص ٥٣ : العبد الغني ، دراسات في تاريخ الحضارة ، ص ٨٨ : محمود ، دراسات في الحضارة ، ص ٨٧ - ٨٨ : جواتياين ، دراسات ، ص ٨٢ .

«التمسوا غيرى فأنا لكم وزيراً خير منى لكم أميراً» (٦٩).

وفى العصر الأموى اطلق لقب الوزير على بعض الشخصيات التى كانت تشارك عملياً فى السياسة والحرب والإدارة ومنهم زياد بن أبيه فى خلافة معاوية بن أبى سفيان وروح بن زنباع الجذامى فى خلافة عبد الملك بن مروان ورجاء بن حيوة فى خلافة سليمان بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب فى خلافة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية (١٢٧ - ١٣٢هـ / ٧٤٤ - ٧٥٠م) (٧٠) وغيرهم .

ب- الوزارة فى العصر العباسى ١٣٢ - ٦٥٦هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨م

على ضوء ما تقدم يتضح أن الوزارة « لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فإذا حدث أمر استشار بذوى الحجا والأراء الصائبة فكل منهم يجرى مجرى وزير » (٧١).

ومع ذلك فإننا لا بد أن نشير إلى أن نظام الوزارة لم يتبلور مع مجئ العباسيين إلى كرسى الخلافة ١٣٢هـ / ٧٥٠م بل أخذ بعض الوقت ومن ثم يمكن القول بأن المفهوم الأموى للوزير بقى سارياً ردحا من الزمن من العصر العباسى الأول فلم يكن أبو سلمة الخلال فى البداية وزيراً لدولة بل وزيراً للدعوة العباسية فكان يلقب «بوزير آل محمد» كما كان المختار الثقفى وزيراً لمحمد بن الحنفية وحين تأسست الدولة العباسية لم يعط أى الخلال - لقب وزير بصورة رسمية من قبل الخليفة أبو العباس وكانت صلاحياته خلال فترة تواجده القصيرة قبل مقتله محدودة وتتضارب مع صلاحيات الخليفة بل وأبى مسلم الخراسانى أحياناً (٧٢).

(٦٩) الكروى ، المرجع ، ص ٤١ - ٤٩ ؛ الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٤٠ - ٤١ ؛ عمر ، الجذور ، ص ١٤ - ١٦ .

(٧٠) الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٤١ ؛ الكروى ، المرجع ، ص ٥٠ - ٥١ ؛ عمر ، الجذور ، ص ١٥ .
١٦ ؛ العبادى ، نظم ، ص ١٥١ .

(٧١) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٧٢) عمر ، الجذور ، ص ١٦ - ١٧ .

وكذلك استمر ورود اصطلاح الوزراء فى بدايات العصر العباسى الأول بمعنى المستشارين والمساعدين فى السياسة العامة للدولة من صحابة الخليفة ، وكان الوزير يعقوب بن داود السلمى هو أول من حصل على لقب الوزارة بصورة رسمية من قبل الخليفة العباسى محمد المهدى عام ١٦٣هـ / ٧٧٩م (٧٣).

ويذكر ابن طباطبا أنه فى عهد المهدى « ظهرت أبهة الوزارة بسبب كفاية وزرائه » (٧٤).

- أنواع الوزارة :-

تعد الوزارة « أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة على حد قول ابن خلدون ، ولذلك عد الوزير « وسيط بين الملك ورعيته » ؛ بل قيل أنه « لا يستطيع السلطان إلا بالوزراء والأعيان » (٧٥).

أما من حيث التصنيف فقد صنفت الوزارة إلى نوعين أو صنفين هما وزارة تفويض ووزارة تنفيذ .

ويقصد بوزارة التفويض « أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برايه وامضاءها على اجتهاده وليس يمتنع جواز هذه الوزارة كما ورد فى القرآن الكريم (سورة طه آيات ٢٩ - ٣٢) ... وبكل ما صح من الإمام صح من هذا الوزير فيستفيد الوزير بهذه الولاية بسط اليد ونفاذ الحكم فى أمور المملكة والتصرف فى أحوال الدولة بما يقتضيه نظره واجتهاده من تولية وعزل وإطلاق وبذل واستخدام وقطع عطاء ، كما يجوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه وأن يقلد الأحكام وأن ينظر فى المظالم ويستنيب فيها وأن يتولى الجهاد بنفسه ، ويجوز أن يباشر تنفيذ الأمور التى دبرها وأن يستنيب فى تنفيذها لأن شروط الرأى والتدبير معتبرة فيها » (٧٦).

وسلطة وزير التفويض مقيدة بسلطة الإمام إذ عليه « مطالعة الإمام لما أمضاه من

(٧٣) عمر ، الجذور التاريخية ، ص ١٤ ، ١٧ - ١٨ ، ٦٥ ؛ النظم الإسلامية ، ص ٤٨ - ٥١ .

(٧٤) ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ١٣٣ .

(٧٥) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مج ١ ، ص ٢٤٩ ؛ عمر ، الجذور ، ص ١٦ .

(٧٦) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٥ - ٢٨ ؛ الدورى ، النظم ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

تدبير وأنفذه من ولاية وتقليد لئلا يصير بالاستبداد كالإمام « ؛ وعلى الإمام « أن يتصفح أفعال الوزير وتدبير الأمور ليقر منها ما وافق الصواب ويستدرك ما خالفه لأن تدبير الأمة إليه موكل وعلى اجتهاده محمول » .

أما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف وشروطها أقل « لأن النظر فيها مقصور على رأى الإمام وتدبيره وهذا الوزير وسط بينه وبين الرعايا والولاية يؤدى عنه ما أمر وينفذ عنه ما ذكر ويمضى ما حكم ويخبر بتقليد الولاية وتجهيز الجيوش ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم ليعمل فيه ما يؤمر به فهو معين فى تنفيذ الأمور وليس بوال عليها ولا متقلدا لها فإن شورك فى رأى كان باسم الوزارة أخص وإن لم يشارك فيه كان باسم الوساطة والسفارة أشبه .. » (٧٧).

ويضيف الماوردى فيذكر فى صفات وزارة التفويض « ويعتبر تقليد هذه الوزارة شروط الإمامة إلا النسب وحده لأنه - أى الوزير - محضى الأراء ومنفذ الاجتهاد فاقضى أن يكون على صفات المجتهدين ويحتاج فيها إلى شرط زائد على الإمامة وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما أوكل إليه من أمرى الحرب والخراج خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما فإنه مباشر لهما تارة ومستنيب فيهما أخرى ... وعلى هذا الشرط مدار الوزارة وبه تنتظم السياسة » .

أما فى وزارة التنفيذ فتراعى فيها سبعة صفات :

- ١ - الأمانة حتى لا يخون فيما قد أوتمن عليه ولا يفش فيما قد استنصح فيه .
- ٢ - صدق اللهجة حتى يوثق بخبره فيما يؤديه ويعمل على قوله فيما ينهيه .
- ٣ - قلة الطمع حتى لا يرتشى فيما يلى ولا ينخدع فيتساهل .
- ٤ - أن يسلم فيهما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء فإن العداوة تصد عن التناصف وتمنع من التعاطف .
- ٥ - أن يكون ذكوراً لما يؤديه إلى الخليفة وعنه لأنه شاهد له وعليه .
- ٦ - الذكاء والفطنة حتى لا تدلس عليه الأمور فتشتبه ولا تموه عليه فتلتبس فلا

(٧٧) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٨ - ٣٠ : الدورى ، النظم ، ص ١٧٢ .

يصح مع اشتباهها عزم ولا يصلح مع التباسها حزم .

٧ - ألا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل ويتدلّس عليه المحق من المبطل فإن الهوى خادع الأبواب وصارف له عن الصواب (٧٨).

ويضيف الماوردي وصفا ثامنا وهو « الحنكة والتجربة التي تؤديه إلى صحة الرأي وصواب التدبير فإن التجارب خبرة بعواقب الأمور » وهذا في حالة إذا ما كان الوزير مشاركاً في الرأي ، أما ان لم يشارك في الرأي فإنه ليس بحاجة إلى هذا الوصف الثامن وإن كان ينتهي إليه مع كثرة الممارسة (٧٩).

وعن الوزارة ومهامها وتطورها في العصر العباسي يذكر ابن خلدون « فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت وعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في انفاذ الحل والعقد تعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف إليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذّيع والشّيع ودفع إليه فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك » (٨٠).

ثم يضيف ابن خلدون قائلاً « فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان - أي الخليفة - قائماً على نفسه وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبداً عليه ثم استمر الاستبداد وصار الأمر للوك العجم وتعطل رسم الخلافة ، ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لأنهم خول لهم فتسموا بالامارة والسلطان وكان المستبد على الدولة

(٧٨) الماوردي ، الأحكام ، ص ٢٥ ، ٣٠ ، الدوري ، النظم ، ص ١٧٢ .

(٧٩) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٣١ .

(٨٠) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مج ١ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه فى القابهم وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة فى خاصته « (٨١).

وعلى ذلك يمكن القول أنه حينما تكون الخلافة قوية مرهوبة الجانب تكون الوزارة وزارة تنفيذ ، بينما تصبح وزارة تفويض عندما تضعف الخلافة وتقل هيبتها فى النفوس ؛ وبالتالى ينعدم نفوذ الخليفة أو بمعنى آخر أنه بعد أن كان الخليفة يأمر والوزير ينفذ صار الخليفة يفوض إلى وزيره تصريف أمور الدورة كلها بينما بقى هو كالمحجور عليه ، وها هو شاعر يصف ما آل إليه حال الخليفة العباسى المستعين (٢٤٨) - ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م (٨٢).

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالأ له كما تقول البغا

هذا ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من أسر فارسية كالبرامكة وبنى سهل وبنى طاهر وبنى الفرات وبنى الجراح وبنى خاقان وبنى وهب وغيرهم (٨٣).

أما عن مراحل تطور خطة الوزارة وتدهورها خلال العصر العباسى فسوف نتطرق إليها تفصيلا فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

جـ- الوزارة فى العصر الفاطمى : ٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م :

من الثابت والمتفق عليه أن منصب الوزير لم تعرفه الدولة الفاطمية فى مرحلتها الافريقية (٨٤) (٢٩٧ - ٣٦٢هـ / ٩٠٩ - ٩٧٢م) ، وبعد فتح مصر على يد جوهر الصقلى ٣٥٨هـ / ٩٦٩م ظل - أى جوهر - يصرف أمور مصر حتى قدم الخليفة المعز لدين الله فى رمضان ٣٦٢هـ / ٩٧٢م وكان المعز « يباشر التدبير بنفسه ولا يعول فيه على غيره » (٨٥) ومع ذلك فقد أوجد ما أطلق عليه الوساطة لأن صاحبها كان يتوسط

(٨١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مج ١ ، ص ٢٥٢ .

(٨٢) الباشا ، دراسات فى تاريخ الدولة العباسية ، ص ٦٨ .

(٨٣) العبادى ، نظم ، ص ١٥٣ .

(٨٤) سيد ، أيمن ، الدولة الفاطمية ، ص ٣٢٠ .

(٨٥) ابن الصيرفى ، أبو القاسم على بن منجب ، ت ٥٤٢هـ / ١١٤٨م ، الإشارة إلى من نال الوزارة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، القاهرة (١٩٩٠م) ، ص ٤٧ .

بين الخليفة والرعية (٨٦).

ولما ولي الخلافة العزيز بالله الفاطمي عام ٣٦٥هـ / ٩٧٥م كانت أركان الدولة قد توطدت ودعائمه قد أرسيت ومن ثم بدأ الخليفة يتنازل عن شيء من سلطاته لأحد خلصائه وهو يعقوب بن كلس الذي منحه لقب الوزير الأجل في رمضان ٣٦٨هـ / ٩٧٩م وأصبح بذلك أول وزراء الدولة الفاطمية (٨٧)، ولم يثبت هذا اللقب رسمياً إلا في عهد الخليفة الفاطمي الرابع الظاهر لاعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥م) بتولى الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي وزارة التنفيذ في سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٨م حيث أصبحت الوزارة منذ هذا التاريخ منصبا وتكليفا ويطلق عليها رتبة وكانت مسئوليات الوزير مسئوليات إدارية فقط فلا يشير سجل توليته إلى أية مسئوليات عسكرية أو قضائية (٨٨).

ومهما يكن من أمر فإن الوزارة في العصر الفاطمي كانت تنقسم أيضاً إلى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض ، فقد كان وزراء العصر الفاطمي الأول وزراء تنفيذ حيث كان للخليفة كل السلطة على الوزير ويراجع جميع أفعاله وكان الوزير الحسن بن علي اليازوري (٤٢٢ - ٤٥٠هـ / ١٠٥٠ - ١٠٥٨م) هو آخر وزراء التنفيذ الأقوياء الذي أضيف إلى مسئولياته القضاء والدعوة والنظر في ديوان أم الخليفة المستنصر وكان ينعت به « الناصر للدين غياث المسلمين الوزير الأجل المكرم سيد الرؤساء تاج الأصفياء قاضي القضاة وداعى الدعاة » (٨٩).

وعندما قدم بدر الجمالي والى عكا إلى مصر عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م واستطاع أن يقضى على المعارضين وأن يعيد النظام إلى الدولة وينقذها حتى وصف في السجلات المستنصرية بأنه « الذى أعاد إلى الدولة العلوية ريق شبابها » ، و « الذى جدد الله تعالى به وعلى يده معالم الدولة الفاطمية بعد دروسها وأقام بسيفه أعلامها بعد طموسها » وغير ذلك .

(٨٦) سيد ، الدولة الفاطمية ، ص ٣٢٠ .

(٨٧) المناوى ، محمد حمدي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، القاهرة (١٩٧٠م) ، ص ٣٥ .

(٨٨) سيد ، الدولة الفاطمية ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٨٩) سيد ، الدولة الفاطمية ، ص ٣٢١ .

وكان النتيجة الطبيعية لذلك أن فوض الخليفة المستنصر بدر الجمالى فى جميع سلطاته ومنحه اشرافا عاما على شئون الدولة ؛ وهكذا أصبح بدر الجمالى أول قائد عسكرى يوليه الفاطميون الوزارة التى أصبحت منذ هذا التاريخ ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م تقوم مقام السلطنة (٩٠).

وبذلك بدأ عصر وزراء التفويض ببدر الجمالى وهو ما أكدده المقرئى بقوله «فصارت الوزارة من حينئذ وزارة تفويض ويقال لمتوليها أمير الجيوش وبطل اسم الوزارة» (٩١).

ويضيف المقرئى فيذكر أن بدر الجمالى هو « أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر » (٩٢).

وهكذا خضعت جميع شئون الدولة دون استثناء لسلطة وزراء التفويض ولم يبق للخليفة معهم أية سلطة ؛ بل إنهم جميعا حملوا ألقابا خاصة بهم لتأكيد قوة منصبهم ومنها أمير الجيوش ، الافضل والمأمون والمفضل والعاذل ، السيد الأجل ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، وسيف الإسلام تاج الملوك ، وكان الوزير رضوان بن ولخشى هو أول من لقب من وزراء التفويض بالملك مضافا إلى بقية الألقاب ، ومن أشهر الوزراء فى المرحلة الأخيرة للدولة الفاطمية الوزير طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح ، وكذلك وصل الأمر بالخليفة الفاطمى العاضد - وهو آخر الخلفاء الفاطميين ٥٥٥ - ٥٦٧هـ / ١١٦٠ - ١١٧١م أن يعهد بالوزارة إلى وزيرين سنيين هما أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبي ، وتلقب الأول « بالسيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الامة فخر الدولة ... » ، وتلقب الثانى بـ « الملك الناصر » وعلى يديه كانت نهاية الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م (٩٣).

(٩٠) سيد ، الدولة الفاطمية ، ص ٣٢١ .

(٩١) المقرئى ، تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م ، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، المجلد الثانى ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، لندن ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى (٢٠٠٢م) ، ص ٤٤٤ .

(٩٢) المقرئى ، الخطط ، مجلد ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٩٣) سيد ، الدولة الفاطمية ، ص ٣٢٢ - ٣٢٧ .

ويجمل المقرئى خصائص عهد وزراء التفويض فى العصر الفاطمى الثانى بقوله « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية.. » (٩٤).

د - الوزارة فى عهد الدولة الأموية بالأندلس : ١٣٨ - ٤٢٢هـ / ٧٥٥ - ١٠٣١م :

وجدت خطة الوزارة منذ قيام الدولة الأموية بالأندلس ، وكان منصب الوزير فى بادئ الأمر يشبه فى مدلوله ما كان سائداً فى بقية أنحاء العالم الإسلامى ، ثم جاء الأمير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) ٢٠٦ - ٢٣٨هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢م فأعاد ترتيب الجهاز الحكومى فى الإمارة ، وأجرى تعديلات فى الوظائف العامة ومن أهمها خطة الوزارة التى خصها بعنايته وقسمها إلى عدة وزارات مختلفة ، وهو ما يستدل من المصادر التاريخية المختلفة ، فها هو ابن عذارى يشير إلى أن وزراء عبد الرحمن الثانى كانوا تسعة وأن رزق (راتب) كل واحد منهم فى الشهر كان ثلاثمائة دينار (٩٥) ، ويزودنا ابن حيان بتفاصيل أكثر فيقول « والأمير عبد الرحمن الثانى أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم والتكلم معهم والمشورة لهم فى النوازل ، وأفرد لهم بيتاً رفيعاً داخل قصره مخصوصاً بهم يقصدون إليه ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم فكان يستدعيهم إلى مجلسه جماعة وأشتاتاً ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته ويفحص معهم الرأى فيما يبرمه من أحكامه ، وإذا قعدوا فى بيتهم - أى دار الوزارة - أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه فينظرون

(٩٤) المقرئى ، الخطط ، المجلد ٢ ، ص ٤٤٥ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن الوزارة فى العصر الفاطمى انظر ، المناوى ، الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى (٣٣٢ صفحة) ؛ مشرفة ، عطية مصطفى ، نظم الحكم فى عصر الفاطميين ، القاهرة (١٩٤٨م) ، ص ٩٦ - ١٢٠ ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٩٣ ؛ الشيبان ، جمال الدين ، مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة (١٩٥٨م) ، ص ١٢٧ - ١٧٨ ؛ إسماعيل ، تاريخ الحضارة ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٩٥) ابن عذارى ، أبو العباس أحمد بن محمد ، ت بعد ٧١٢هـ / ١٣١٢م ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، ج ٢ ، تحقيق كولان وبروفنسال ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨٣م) ، ص ١٢٠ - ١٢٢ .

فيما يصدر إليهم من عزائمه وجرى على ذلك من تلاهم « (٩٦) .

أما ابن خلدون فيجدد لنا اختصاصات ومهام هؤلاء الوزراء ودارهم فيقول « ... ثم قسموا - أي بنى أمية - خطته - أي الوزارة - أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً فجعلوا لحسبان المال وزيراً والترسيل وزيراً وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً وللنظر في أحوال الثغور وزيراً ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم إرتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب ... » (٩٧) .

نما تقدم يتضح أنه كان يوجد بالأندلس خلال عصر الدولة الأموية مجلس للوزراء ، كما هو الحال الآن ، حيث كانت توجد عدة وزارات ذات اختصاصات مختلفة ؛ فضلاً عن رئيس للوزراء وهو الحاجب الذي كان على اتصال مباشر بالأمير ثم بالخليفة ، وهذا النظام المتطور لا نجده في نظام الوزارة بالشرق حيث كانت السلطة مركزة في يد وزير واحد فقط كما سبق القول ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد فحسب ؛ بل كان هناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء في قصر الأمير أو الخليفة (٩٨) .

ومن المعروف أن مناصب الوزارة في الأندلس كانت لأهميتها تتوارث عندهم في الأسر المعروفة ومنها : بنى شهيد ، وبنى حدير ، وبنى فطيس وغيرهم .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذي لقبه الخليفة عبد الرحمن الناصر بلقب ذي الوزارتين ، أما أشهر الحجاب وأقواهم في الأندلس فمنهم جعفر المصحفي ثم المنصور محمد بن أبي عامر ، وقد إستبد هؤلاء الحجاب بكل

(٩٦) ابن حيان ، أبو مروان حيان بن خلف ، ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق محمود على مكى ، بيروت (١٩٧٣م) ، ص ، وانظر أيضاً ابن القوطية ، أبو بكر محمد بن عمر ، ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، بيروت (١٩٨٢م) ، ص ٦٠ .

(٩٧) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، المجلد الأول ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٩٨) العبادي ، نظم الحكم ، ص ١٥٤ - ١٥٦ ؛ الكروى ، المرجع ، ص ٥٢ - ٥٣ ؛ محمود ، دراسات في الحضارة ، ص ٩٤ ؛ إسماعيل ، تاريخ الحضارة ، ص ٦٩ .

الأمر دون الخليفة ، ومنذ ذلك الوقت أخذت مكانة الوزير أيضاً تضعف نتيجة لازديار سلطة الحاجب فى الدولة وصارت كلمة وزير تمنح للطبقة الوسطى من الموظفين والكتاب وشيوخ القرى حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس ٤٢٢هـ / ١٠٣١م (٩٩).

أما عن خطة الوزارة فى عهود الدول الإسلامية الأخرى فسوف نتطرق إليها تفصيلاً فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

المبحث الثانى : النظم الإدارية :

قبل أن نتحدث عن النظم الإدارية الإسلامية ينبغى أن نشير إلى أن العديد من المتخصصين فى الإدارة فى عصرنا هذا يتجاهلون الفكر الإدارى الإسلامى ويبدأون بدراسة الفكر الإدارى اعتباراً من القرن التاسع عشر ، فى الوقت الذى كان الفكر الإدارى الإسلامى مصدراً أساسياً لوضع مفاهيم ونظريات فى الإدارة تستوعب واقع المجتمع وتستشرف تطلعاته ، كما أنه كان سبباً لاغناء الفكر العالمى بنماذج ومبادئ إدارية متميزة (١٠٠).

كذلك لا تفوتنا الإشارة إلى أن هناك العديد من الكتب فى التراث الإسلامى تبحث فى رجال الإدارة وأسمائهم وتراجمهم وفى الوظائف وأحوالها وفى المناطق الإدارية وفى المبادئ التى تراعى فى الإدارة وغير ذلك (١٠١)، وهو الأمر الذى يشير إلى أهمية الفكر الإدارى فى الحضارة الإسلامية . وهذا يستلزم من جميع العلماء والباحثين التكاتف من أجل وضع هذا الفكر فى موضعه الصحيح فى منظومة تطور الفكر الإدارى العالمى والذى يقصره الغالبية على دراسة الفكر الغربى الحديث بدءاً من القرن ١٩م كما سبق القول .

وإذا ربطنا بين المفاهيم الإدارية الحديثة وبين مفهوم الإدارة فى الدولة الإسلامية لوجدنا تطابقاً كبيراً ، فالإدارة العامة بمفهومها الموضوعى المطلق يقصد بها سياسة الدولة وريادة مجتمعها فى المعترك الإنسانى بشتى مناهجه ومناشطه ، من حيث

(٩٩) العبادى ، نظم ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(١٠٠) عمر ، النظم الإسلامية ، ص ٧١ - ٧٢ .

(١٠١) عن هذه المصادر انظر ، العلى ، دراسات فى الإدارة فى العهود الإسلامية الأولى ، ص ١٠ - ٥٤ .

ممارسة السلطات العامة التى تتولى حكم المجتمع وحمايته وتدير مرافقه والحفاظ على تقاليده ورعاية صوالحه وتنظيم معاملاته وتقنين علاقاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بحيث تستوعب الإدارة المركزية وما يدور فى فلكها من إدارات تدين لها بالتبعية ؛ وبذلك تضم الهيئة التى تتولى الإدارة العامة جماع الأجهزة الوظيفية التى تمارس سلطات الدولة بدءاً برئيسها على القمة منها وانتهاءً بالاصغر من العاملين فى أدنى مراتب السلك الوظيفى .

وبالنظر إلى تعدد المهام التى تمارسها الإدارة العامة وتباين المستويات الوظيفية للقائمين بها فقد إصطلحت النظريات الإدارية الحديثة على تقسيمها إلى ثلاثة مستويات أساسية متفاوتة : عليا وتنفيذية ومباشرة ، يتواءم فيها الاختصاص الوظيفى فى ماهيته ومسئوليته ومداه مع مراتب القائمين عليها فى السلك الوظيفى وسلطاتهم وكفاياتهم الإدارية والثقافية (١٠٢) .

فالإدارة العليا هى مجمع السلطات العامة التى تضع للدولة سياستها وتسن تشريعاتها ومناهجها المسيطرة على شئونها الداخلية والخارجية ، وإذا كانت الإدارة العليا تمثل الحكومة المركزية فإن الإدارة التنفيذية تليها مباشرة وهى تمثل الأجهزة الإدارية التى تتولى الإشراف على تنفيذ ما تمليه الإدارة العليا من سياسات ونظم ويمثل القائمون على هذه الأجهزة الإدارة التنفيذية فى التنظيم الإدارى (١٠٣) .

وهذه المستويات الثلاثة للإدارة الحديثة وجدت فى الدولة الإسلامية منذ عصر صدر الإسلام وما تلاه فإدارة العليا كانت تتمثل فى شخص الرسول (ﷺ) والخلفاء من بعده ؛ كما تشمل الولاة المفوضين فى نطاق ولاياتهم فهؤلاء بيدهم مقاليد الحكم ويمثلون الحكومة المركزية وجماع السلطات الإدارية .

كذلك وجدت الإدارة التنفيذية وكانت تتمثل فى الأجهزة الإدارية فى الأمصار والولايات المختلفة التى يقع عليها عبء تنفيذ ما تمليه الإدارة العليا من سياسات ونظم .

(١٠٢) الهراوى ، عبد السميع سالم ، لغة الإدارة فى صدر الإسلام ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٥م) ، ص ٢٦٢ .

٢٦٣ ؛ لغة الإدارة العامة فى مصر فى القرن التاسع عشر ، القاهرة (١٩٦٣م) ، ص ٢٧ - ٣٤ .

(١٠٣) الهراوى ، لغة الإدارة ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

أما الإدارة المباشرة فلم تكن هناك إدارة مباشرة - أى خلال عصر صدر الإسلام - فى الحكومة المركزية بمعناها المتميز المحدود وانحصر وجودها فى الأقاليم المفتوحة فحسب وكانت تتكون عادة من أهل تلك الأقاليم .

أما عن نشأة النظم الإدارية فى الدولة الإسلامية فيمكن القول أن الرسول (ﷺ) كان هو أول من وضع أساس التنظيم الإدارى فى الدولة الإسلامية وقد بدأ أولاً فى المدينة ثم عمّ ثانياً أنحاء الجزيرة بعد أن دانت كلها بالإسلام .

هذا ويتجلى تنظيم الرسول (ﷺ) الإدارى للمدينة فى الصحيفة التى أصدرها (دستور المدينة الذى يشتمل على ٤٧ مادة) ووضع فيها أحكاماً تبين الخطوط الرئيسية لتنظيم الدولة والمجتمع ولتنسيق العلاقة بينهما وهى توضح الأحوال الجديدة حيث أصبح المسلمون أمة واحدة يؤمنون بالله واحد ويخضعون لأوامر دينية واحدة ويطيعون رسولاً واحداً أى أن رابطة العقيدة الدينية هى أساس الأمة وقد رسمت هذه الصحيفة أسلوب العمل بين فئات المجتمع فى المدينة كما أنها أوجبت على أفراد الأمة تنظيم العمل بينهم من أجل صيانة الأمن ومطاردة المفسدين والامتناع عن حماية المخلين بالأمن حتى ولو كان ولدهم ، فضلاً عن ما يتعلق بأمور العدالة والقضاء والأمن العام وأحوال الحرب والسلام وضمان الحرية الدينية لليهود المدينة وما يتعلق بالالتزامات المالية الناجمة من الحروب وغير ذلك (١٠٤).

أما عن الإدارة فى أنحاء الجزيرة العربية فيمكن القول أن الرسول (ﷺ) قد أناب فى حياته ومنذ السنة التاسعة للهجرة على وجه التحديد (عام الوفود) نظراً لنمو الدولة واتساع سلطانها فى أنحاء الجزيرة بعض العمال فى بعض مدن الجزيرة ، وكذلك عند بعض القبائل المهمة « ليؤمهم فى الصلاة ويجبى الزكاة ويفصل فى شؤونهم اليومية » ؛ كما استخلف الرسول (ﷺ) عمالاً على المدينة حين خروجه فى الغزوات مثل سعد بن عباد سيد الخزرج وسعد بن معاذ سيد الأوس ، وفى السنة الثامنة

(١٠٤) العلى ، دراسات فى الإدارة ، ص ٧٨ - ٨٦ ؛ عمر ، النظم ، ص ٧١ ؛ العربى ، دولة الرسول (ﷺ) فى المدينة ، ص ١٦٧ - ١٧٨ .

للهجرة عقب فتح مكة المكرمة استخلف الرسول (ﷺ) عليها أبا بكر الصديق (رضى الله عنه) (١٠٥).

وكان من الطبيعي أن تتطور التنظيمات الإدارية بعد امتداد دولة الإسلام وتوسع رقعتها خارج الجزيرة العربية خلال عصر الخلفاء الراشدين وما تلاه .

ولما كان المقام لا يتسع لابرار كافة معالم هذا التطور الإداري في دار الإسلام ولذلك حسبنا ، ووفقا للخطة الموضوعية لهذا الكتاب ، أن نشير إلى بعض هذه المعالم؛ على أن نعود إلى غيرها من المعالم الإدارية تفصيلا واسهابا في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

أ- الولايات :-

قسمت الدولة الإسلامية بعد أن امتدت خارج الجزيرة العربية وتوسعت رقعة دار الإسلام إلى مجموعة من الولايات أو الإمارات صار يعين عليها الخليفة ولاية أو عمال يستمدون سلطانهم منه ويتبعونه يطلق على الواحد منهم اسم الأمير بمعنى قائد الجيش أو عامل الخليفة أو العامل فقط ، وفي البداية كان يتم اختيارهم من الصحابة سواء من قواد الجيش الفاتحين أو من أمثال القوم وأفضلهم جريا على سنة الرسول (ﷺ) في اختيار الأصلح للولاية (١٠٦).

ويمكننا أن نقرر القواعد الإدارية التالية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) الذي تطورت على يديه أسس النظم الإدارية في الدولة الإسلامية كنتيجة طبيعية لحركة الفتوح الإسلامية وتمصير الأمصار .

١ - كان الخليفة عمر يختار الأفضل إداريا وذا الكفاءة في تصريف الأمور كعامل أو وال ويشير ابن الجوزي إلى ذلك قائلا « كان عمر بن الخطاب يستعمل قوما ويدع أفضل منهم لبصرهم بالعمل » ، ، كذلك كان عمر يفضل الوالى القوى الشخصية

(١٠٥) فوزى ، النظم ، ص ٧٢ . وعن عمال الصدقات ، انظر العلى ، دراسات فى الإدارة ، ص ٩٥ - ٩٩ .
وعن العمال أو الولاة انظر العبد الغنى ، دراسات فى تاريخ الحضارة ، ص ٩٥ ؛ محمود ، دراسات فى الحضارة ، ص ٩٥ .

(١٠٦) عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، الجزء الأول ، ص ٧٥ .

ذلك لأن الإدارة تحتاج إلى الرجل القوى بشخصيته وإرادته وعزمه على تنفيذ الأمور ، ويشير الطبرى إلى أن عمر حين عزل شرحبيل عن السواحل قال « ... إنى والله ما عزلت شرحبيل عن سخطه ولكنى أردت رجلا أقوى من رجل » .

٢ - سار عمر سيرة الرسول (ﷺ) فى الأخذ برأى الرعية فى تعيين واليهم أو عاملهم فحين اعترض قوم من بجيلة على تعيين وال عليهم قائلين لعمر « إستعمل علينا رجلا منا » قبل عمر الاعتراض بعد أن أخذ كذلك برأى الوالى المعين ولم يستبد الخليفة برأيه .

٣ - أدرك الخليفة ببعد نظره ضرورة أخذ الاعراف الاجتماعية بعين الاعتبار عند تعيين الوالى على اقليم معين ففى رواية للطبرى أن عمر كان لا يستعمل رجلا من أهل الوبر (سكان البادية) على أهل المدر (سكان الحضر) والعكس صحيح .

٤ - أكد عمر على الاختصاص فى العمل الإدارى وضرورة توزيع الواجبات على من يصلح لها من الأشخاص ففى رواية تاريخية أن عمر كتب إلى سعد بن وقاص بالعراق « إن شاور طلحة الأسدى وعمرو بن معد يكرب فى أمر حربك ولا تولهما من الأمر شيئا فإن كل صانع هو أعلم بصنعتة » .

٥ - ابتكر عمر منصب صاحب العمال وواجبه التفتيش على العمال والتحقيق فى الشكاوى التى تأتى ضدهم ففى رواية تاريخية أن عمر أرسل محمد بن مسلمة (صاحب العمال) إلى العراق للتحقيق فى شكوى ضد سعد بن أبى وقاص أمير الجيش بالعراق رغم صعوبة الموقف العسكرى واستعداد المسلمين للمعركة الحاسمة مع الفرس ؛ بل والأكثر من ذلك أن عمر كان يقوم بالتفتيش والتحقيق بنفسه حيث قام بالتحقيق مع أبى موسى الأشعرى حين شكاه ضبه العنزى وبعد التحقيق قال عمر « الا أن ضبه العنزى غضب على أبى موسى فصدق عليه وكذب فأفسد كذبه صدقه فأياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى النار » .

كذلك قام عمر بعزل عمار بن ياسر عن الكوفة سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م بعد أن شكاه أهلها .

٦ - وضع عمر شروطا معينة لعماله عليهم ألا يتركوها أو ينتهكوها ومنها « أن يركب دابة ولا يلبس رقيقا ولا يأكل نقيا ولا يغلق بابه عن حوائج الناس وما

يصلحهم»، وقد أنب عمر واليه على مصر (أى عمرو بن العاص) حين خالف هذه الشروط واستدعاه إلى المدينة وهدده بأنه يستعمله راعيا على الشاة بدلا من ولاية مصر عقوبة تأديبية له وعبرة لمن اعتبر من الولاة ، بل قام عمر أيضاً بتوبيخ واليه على مصر لأنه حابى وجامل عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ابن الخليفة ، كذلك كان عمر يراقب عماله وامراؤه وقواده ، ومن الأمثلة المشهورة الدالة على ذلك ما فعله مع خالد بن الوليد الذى كان يجتهد برأيه دون استشارة الخليفة أحيانا ، وكانت الانتصارات التى حققها سيف الله المسلول تجعل الجند يقبلون عليه ويتعلقون به فما كان من عمر إلا أن عزل خالدًا فى الوقت المناسب قائلاً له « ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن به الناس فخفت أن تفتتن بالناس ».

٧ - كان عمر يجتمع بوفود الأمصار الإسلامية ويستدعيهم إلى المدينة لسماع رأيهم فى واليهم أو أميرهم ، وفى رواية تاريخية « كان الوفد إذا قدموا على عمر سألهم عن أميرهم .. هل يعود مرضاكم ؟ هل يعود العبد ؟ كيف صنيعه بالضعيف هل يجلس على بابيه ؟ فإن قالوا لخصلة منها لا عزله ».

٨ - كان عمر يقاسم عماله إذا إقتنع بأن الزيادة فى أموالهم كانت اساءة لاستعمال مراكزهم كولاية للدولة وفى ذلك يذكر ابن الجوزى « كان عمر إذا بعث عاملاً كتب له ، وبعد انقضاء فترة عزله قارن بين السجل وبين الأموال الشخصية فإذا وجد زيادة قاسمه ورد النصف إلى بيت المال ، فالمقاسمة إذن كانت عقوبة تأديبية إذا إقتنع الخليفة بأن لها ما يبررها .

وختاماً حسبنا أن نشير إلى تلك القصة المشهورة بين الخليفة عمر مع واليه على مصر عمرو بن العاص حيث طلب - أى الخليفة عمر - من المتظلم أن يضرب عمرو بن العاص ثم قال له « ايه عمرو ؛ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً » (١٠٧).

وكان الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) لا يتردد فى عزل من يشتكيه أهل عمله ؛ ومع ذلك فقد أخذ عليه تولية أقرباءه وأهل بيته فى السنوات الست

(١٠٧) عمر ، النظم الإسلامية ، ص ٧٣ - ٧٦ .

الأخيرة من خلافته الذين أساءوا السيرة وتجاوزوا الحدود .

ورغم حرص بنو أمية على اختيار ولايتهم من بين العرب إلا أنهم ساروا على سياسة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) من حيث اسناد الولايات فى الغالب إلى آل بيتهم وأنصار دولتهم تعلقاً منهم بالسلطان والحفاظ عليه . ولم يخرج العباسيون عن سياسة الأمويين فى اختيار الولاة وإن كانوا قد أكثروا من الاستعانة بغير العرب سواء من الفرس أو من الترك .

كما شهد العصر العباسى أيضاً ظاهرة أخرى ترتبت عليها عواقب وخيمة فقد عمد بعض الولاة إلى ارسال رجال لإدارة الولايات نيابة عنهم فى حين بقوا هم فى حاضرة الخلافة حرصاً منهم على مصالحهم ومكانتهم لدى الخليفة هذا بالإضافة إلى استبداد بعض الولاة بأمر ولاياتهم بعد أن دب الضعف فى جسد الخلافة ونجاح بعضهم فى الاستقلال بأعمالهم عن تبعية الخلافة وتكوين أسرات حاكمة (١٠٨) ، وقد عرفت هذه الظاهرة باسم عصر الدول المستقلة أو الدول الاقليمية فى التاريخ الإسلامى فى المشرق والمغرب على السواء .

وقد ترتب على هذه الأوضاع الجديدة فى الدولة الإسلامية أن صنف الفقهاء الامارة إلى صنفين « عامة وخاصة » ، فأما الإمارة العامة فعلى ضربين : إمارة استكفاء بعقد عن اختيار ، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار ، فإمارة الاستكفاء التى تنعقد عن اختياره فتشتمل على عمل محدود ونظر معهود والتقليد فيها أن يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو اقليم ولاية على جميع أهله ونظراً فى المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل ومعهوداً من نظر فيشتمل نظره فيه على سبعة أمور : أحدها النظر فى تدبير الجيوش وترتيبهم فى النواحي وتقدير أرزاقهم ... والثانى النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام والثالث جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منها والرابع حماية الدين والذب عن الحرم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل والخامس اقامة الحدود فى حق الله وحقوق الأدميين والسادس الإمامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها والسابع تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه ،

(١٠٨) عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، ص ٧٥ - ٧٦ .

فإن كان هذا الاقليم ثغراً متاخماً للعدو اقترن بها ثامن وهو جهاد من يليه من الاعداء وقسم غنائمهم فى المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس ...» (١٠٩). وكان صاحب هذا النوع من الإمارة يعرف بالأمير المستكفى وهو يشبه وزير التنفيذ لأنه يدين بالطاعة المطلقة للخليفة الذى كان يضع له بعض الضوابط ليحد من سلطانه وليحول دون استبداده منها السماح له بتعيين وزير التنفيذ دون وزير التفويض .

والحق ان امارة الاستكفاء كانت فى الواقع من جملة الأسباب التى أفضت إلى تشعب الخلافة العباسية إلى مجموعة من الدول المستقلة أو الاقليمية لأن الوالى كان يقيم فى ولايته كأنه ملك مستقل إلا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج إلى الخليفة والخطبة له وضرب السكة باسمه بالاضافة إلى أمور أخرى لا تضغط على ارادته (١١٠).

أما إذا كان تقليد هذا الأمير عن الوزير ولم يصرح فيه بأنه عن الخليفة فالوزير الحق فى أن ينفرد هو بعزل الأمير ومتى إنعزل الوزير أو مات انعزل هذا الأمير (١١١).

أما عن الضرب الثانى من هذه الإمارة وهو إمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطرار فهى أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة امارتها ويفرض إليه تدبيرها وسياستها فيكون الأمير باستيلائه مستبدًا بالسياسة والتدبير « (١١٢) ولذلك يعرف هذا الأمير بالأمير المستولى ، وفى هذه الحالة كان الخليفة يضطر إلى منح الأمير المستولى تقليدًا صوريا للحفاظ على هيبة الخلافة واستدعاء لطاعة الأمير ودفعاً لمشاقته ومخالفته وحسماً لمعاندته وحرصاً على اجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ووحدة الأمة ، ومن ثم فإن الأمير المستولى تكون إمارته شاملة لكل البلاد التى استولى عليها ونظره نافذ فى جميع أمورها وهو فى ذلك يشبه وزير التفويض ، وكان يقوم بنقش اسمه على السكة والطرار ويدعى له على المنابر بعد الخليفة مباشرة (١١٣). وإذا إنتقلنا إلى الصنف الثانى من الإمارة وهو الإمارة الخاصة فهى أن يقتصر عمل

(١٠٩) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٣٥ .

(١١٠) عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(١١١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(١١٢) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٣٩ - ٤١ .

(١١٣) عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٧٧ .

الأمير فيها على « تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة والذب عن الحرم وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام ولجباية الخراج والصدقات ... ويعتبر في ولاية هذه الإمارة الشروط المعتبرة في وزارة التنفيذ وزيادة شرطين عليها : هما الإسلام والحرية ... وشروط الإمارة الخاصة تقصر عن شروط الإمارة العامة بشرط واحد وهو العلم لأن لمن عمت إمارته أن يحكم وليس ذلك لمن خصت إمارته ... » (١١٤).

ب- الدواوين :-

كانت الإدارة الحكومية في الدولة الإسلامية موزعة على عدد من الدواوين سواء في عاصمة الخلافة أو الولايات حيث وجدت دواوين محلية ويشير الأصل اللغوي لكلمة الديوان بعض الخلاف فمن قائل أن لفظة الديوان عربية إذ يقال دونه بمعنى أثبته وفي قول آخر أنها لفظة فارسية : إذ كان يقال للكتاب والحساب في الفارسية ديوان أى شياطين لحذقهم بالأمور وسمى موضعهم باسمهم (١١٥).

هذا وقد ظهرت الدواوين في الدولة الإسلامية نتيجة إلى حاجة المسلمين إلى التنظيم العسكرى والمالى ، وبدأت بطبيعة الحال بسيطة ومحدودة في عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ثم سرعان ما نمت وتعددت وتفرعت وتطورت حسب تطور الضرورات والأحوال في العصور اللاحقة .

ويمكن القول أن الخليفة عمر بن الخطاب كان أول من دون الدواوين في الدولة الإسلامية وكان الدافع المباشر لانشاء الديوان الأول هو كثرة الأموال الواردة من الفتوحات والحاجة إلى تنظيم توزيعها على المقاتلة ، وعلى ذلك كان ديوان الجند أو ديوان العطاء هو أول ديوان في دار الإسلام وكان هذا الديوان لا يعد أن يكون سجلا يحوى أسماء المقاتلة ومقدار أعطياتهم وارزاقهم ، ولعل الخليفة عمر كان أول من سار على مبدأ تصنيف المسلمين إلى مراتب حسب القرابة من الرسول (ﷺ) والاسبقية إلى الإسلام والخدمة للإسلام ثم الحاجة (١١٦).

(١١٤) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٣٧ - ٣٩ .

(١١٥) الباشا ، دراسات في الحضارة ، ص ٥٤ .

(١١٦) همز ، النظم ، ص ٧٨ - ٧٩ ؛ الدورى ، النظم ، ص ١٣٩ - ١٤٦ .

وقد كثرت الدواوين فى الدولة الإسلامية كثرة كبيرة وتنوعت وذلك نظراً لما وصلت إليه أنظمة الدولة من تنميق وتفريع وتخصص ، ومن الملاحظ أنه ربما أبطل بعضها فى وقت من الأوقات وربما استمر بعضها الآخر وكان لكل من هذه الدواوين مهماته الخاصة وتقاليده وأنظمتها (١١٧).

ولما كان المقام لا يتسع فى هذا الكتاب المجلّد لدراسة الدواوين وأنواعها وما يختص بكل منها من مهام ؛ ولذلك حسبنا أن نشير إلى بعض هذه الدواوين ، على أن نعود لها ولغيرها من الدواوين تفصيلاً فى كتابنا المفصّل (بمشيئة الله تعالى) .

١ - ديوان الجند :

استمر معمولاً به فى العصر الأموى على نفس الأساس الذى وضعه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ففيه يحفظ أسماء الجند وأوصافهم وأنسابهم وأعطياتهم ، وفى العصر العباسى أصبح هذا الديوان يضم مجلسان هما مجلس التقرير ويختص بتقرير استحقاقات الجند ومعرفة أوقات اعطياتهم وتقدير أرزاقهم والثانى هو مجلس المقابلة ويقتصر عمله على السجلات وتصفح الأسماء وما إلى ذلك ، أما فى العصر الفاطمى فقد تطور هذا الديوان ، وصار يتألف من ثلاثة دواوين تكمل بعضها البعض الأول عرف بديوان الجند ويقتصر عمله على التعرف على أحوال الجند وأخبارهم وأعدادهم والثانى عرف بديوان الرواتب ويختص بتسجيل عطاء الجند بل وجميع موظفى الخلافة من المستخدمين فى القصور وغيرهم أما الثالث فديوان الاقطاع ويقتصر عمله على ما هو مقطع للأجناد (١١٨).

٢ - ديوان البريد :

البريد جمع برد وهى لفظة تطلق على الرسول وهى أيضاً مسافة قدرها ١٢ ميلاً (حوالى ٢٤ كم) وغلب استعمال البريد للدلالة على عملية نقل الأخبار .

(١١٧) الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٥٦ .

(١١٨) الدورى ، النظم ، ص ١٤٦ ؛ عمر ، النظم ، ص ٨٠ ؛ عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٨١ .

واختلف فى أصلها اللغوى فقيل عربى مشتق من بردت الحديد أى أرسلت ما يخرج منه ومن أبردته أى أرسلته أو من برد إذا ثبت لأنه يأتى بما تستقر عليه الأخبار .

وقيل أنها لفظة فارسية معربة أصلها بالفارسية بريدہ دم أى مقصوص الذنب وسمى بذلك لأن بغل البريد عند الفرس كان يقص ذنبه علامة على أنه من بغال البريد (١١٩).

وفى قول آخر أنها لفظة لاتينية معربة أصلها باللاتينية Veridus بمعنى خيل أو Veredarü وهم نقلة الأخبار الذين يركبون الخيل وكانوا يمدون القيصر البيزنطى بالأخبار (١٢٠). ومهما يكن من أمر فإن هذا الديوان أنشأه معاوية بن أبى سفيان وكان له مهمتان رئيسيتان ، الأولى نقل الرسائل من دار الخلافة واليهما سواء كانت هذه الرسائل داخلية أو خارجية ، وفى الحقيقة أن أصل هذا الديوان وجوهر عمله كان موجوداً منذ عهد الرسول (ﷺ) فقد كان يرسل رسلاً ومبعوثين يحملون منه رسائل إلى الملوك والأمراء المعاصرين له كما حدث بعد صلح الحديبية حين أرسل إلى كسرى وهرقل والنجاشى والمقوقس وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام . والجديد فى الأمر هو أن معاوية أنشأ لهذا النوع من العمل ديواناً خاصاً له موظفون مخصوصون يقومون على العمل فيه وهو ما لم يكن موجوداً قبل معاوية .

أما المهمة الثانية التى كان يقوم بها ديوان البريد فى العصر الأموى فهى أن موظفى هذا الديوان كانوا عيوناً للخليفة يراقبون له الولاة والعمال وأعمالهم ومسلكهم ويرفعون إليه تقارير بكل ما يصل إلى علمهم من ذلك حتى يكون الخلفاء على علم بأحوال الولايات وبكل ما يدور فيها ، ومعنى ذلك أن ديوان البريد كان يقوم فى العصر الأموى بدور ما يسمى بالرقابة الإدارية فى الوقت الحاضر وهو دور خطير جداً ، وليس أدل على أهمية هذا الدور من أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان كان يوصى حاجبه ألا يحجب عنه رجل البريد فى أى ساعة جاء وكان يقول تأخير البريد

(١١٩) الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٦٣ .

(١٢٠) العبادى ، نظم ، ص ١٦٩ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛ محمود ، دراسات فى

الحضارة ، ص ١٠٧ - ١٠٨ ؛ العدوى والسهيل ، الحضارة العربية الإسلامية ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

ساعة قد يفسد عمل سنة (١٢١).

٣- ديوان الخراج :-

وهو من أهم الدواوين فى الدولة ويتولى تنظيم الخراج وجبايته والنظر فى مشكلاته وهو عماد الشئون المالية ، وقد بقى هذا الديوان على ما هو عليه فى كل من الشام والعراق ومصر إلى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م الذى أمر بنقله إلى العربية بعد أن صارت الخلافة فى ميسيس الحاجة إليه لاحتواء خراج البلاد المفتوحة وما ترتب على ذلك من زيادة الموارد ووجوه الانفاق الأمر الذى استلزم وجود ديوان الخراج المركزى فى عاصمة الخلافة ووجود فروع محلية فى كل ولاية من الولايات (١٢٢).

وقد بدأ تعريب ديوان الخراج فى عهد عبد الملك فى كل من ديوان الشام والعراق ، واستمرت عملية التعريب بعد عهد عبد الملك فعرب ديوان مصر فى ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان ٨٥ - ٩٠ هـ / ٧٠٤ - ٧٠٨ م ، وديوان خراسان فى ولاية نصر بن سيار حوالى سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م .

ولم يقتصر أثر عملية التعريب على النواحي السياسية والإدارية فحسب بل كانت لها أثراً عظيمة أخرى فى النواحي الاجتماعية والحضارية (١٢٣)، وهو ما سوف نعود إلى مناقشته تفصيلاً فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

٤- ديوان الخاتم :

يعد الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان هو أول من أنشأ هذا الديوان على أثر تزوير حصل فى رسالة إلى زياد بن أبىه أمر فيها باعطاء حاملها مائة ألف درهم فبدل حاملها المقدار إلى مائتى ألف درهم وفى هذا الديوان تحفظ نسخة من رسائل وأوامر

(١٢١) عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .

(١٢٢) الدورى ، النظم ، ص ١٤٦ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ص ٨٢ .

(١٢٣) عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ؛ حلاق ، حسان ، تعريب

النقود والدواوين فى العصر الأموى ، بيروت (١٩٨٨م) ، ص ١٨٣ - ٢٠٣ .

الخليفة الإدارية والعسكرية بعد أن تختتم النسخة الأصلية بالشمع وتحزم (١٢٤).
وهناك من ينسب نشأة هذا الديوان إلى زياد بن أبيه عامل معاوية بن أبي سفيان
على الكوفة (١٢٥).

٥ - ديوان الرسائل :-

وكان مختصا بصياغة الكتب والرسائل والعهود التي كانت تصدر عن الخلافة
إلى الولاة والعمال في داخل الدولة ويتلقى المكاتبات التي تصل منهم ويقوم موظفوه
بعرضها على الخليفة ، ولم تقتصر مهمة هذا الديوان على المكاتبات الداخلية فحسب
بل امتدت فشملت أيضاً المكاتبات الخارجية (١٢٦).

وعلى الرغم من أن بداية التراسل تعود أصلاً إلى عصر الرسول (ﷺ) والخلفاء
الراشدين من بعده ؛ إلا أن إنشاء هذا الديوان يرجع إلى العصر الأموي وهناك من
ينسبه إلى زياد بن أبيه في خلافة معاوية بن أبي سفيان (١٢٧) بينما ينسبه آخرون -
وهم الأغلبية ، إلى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (١٢٨).

وفي أوائل العصر العباسي كان الديوان يعرف باسم ديوان الرسائل أو ديوان
المكاتبات وربما قيل له أيضاً الديوان العزيز ، وعرف كذلك ولا سيما في العصرين
السلجوقي والمملوكي بديوان الانشاء وغير ذلك (١٢٩). وهو ما سنعود إليه تفصيلاً
في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

(١٢٤) الكروى ، المرجع ، ص ٨٤ ؛ العبد الغنى ، دراسات في تاريخ الحضارة ، ص ١٠٤ ؛ الدورى ، النظم ،
ص ١٤٧ ؛ عمر ، النظم ، ص ٨٠ ؛ حسن ، تاريخ الحضارة ، ص ٩٤ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ،
ص ٨٣ ؛ عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ٥٦٤ - ٥٦٥ .

(١٢٥) الخيرو ، رمزية عبد الوهاب ، إدارة العراق فى صدر الإسلام ، بغداد (١٩٧٨م) ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(١٢٦) عبد اللطيف ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

(١٢٧) الخيرو ، إدارة العراق فى صدر الإسلام ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(١٢٨) الدورى ، النظم ، ص ١٤٧ ؛ عمر ، النظم ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٨٣ -
٨٤ .

(١٢٩) الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٦٠ - ٦٣ .

المبحث الثالث : النظم القضائية والأمنية :-

أ. القضاء :-

إعتبر القضاء فى الدولة الإسلامية من الوظائف الدينية المتصلة مباشرة برأس الدولة وربما كان الاسم الرسمى للقاضى هو الحاكم .

ويشير الاشتقاق اللغوى للفظه بعض الاختلاف فمن قائل أن القضاء هو أحكام الشيء والفراغ منه ويستدل على ذلك بما ورد فى القرآن الكريم ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب ﴾ أى أخبرناهم بذلك وفرغنا لهم منه وفى قول آخر أن القضاء معناه القطع يقال قضى الشيء إذا قطعه ومنه قوله تعالى ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ وسمى القاضى بذلك لأنه يقطع الخصومة بين الخصمين بالحكم .

وقيل أن القاضى سى قاضيا لأنه يقال قضى بين الخصمين إذا فصل بينهما وفرغ (١٣٠) .

وكان القاضى هو المنفذ لأحكام الشريعة والدين ، وقد اعتمد القضاة فى تقرير أحكامهم على أدلة الشريعة وخصائصها ، وتنقسم هذه الأدلة إلى قسمين : الأدلة الأصلية وهى الكتاب (القرآن الكريم) والسنة النبوية المطهرة والاجماع والقياس ، وهذا القسم قد اتفق عليه جمهور العلماء فى الجملة ، أما القسم الثانى فيشمل الأدلة الفرعية المختلف فيها فمنهم من يرى أن مصادر التشريع هى ما فى القسم الأول ولا يرى مصدراً آخر غير الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، ومن العلماء من يرى أن هناك مصادر سميت بالمصادر الفرعية وأهمها العرف والاستصحاب والمصالح المرسلة والاستحسان وقول الصحابى وشرع من قبلنا (١٣١) .

وسوف نعالج هذه المصادر التشريعية الأصلية والفرعية على السواء فضلا عن تطور خطة القضاء فى الدولة الإسلامية فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

(١٣٠) الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٦٥ ؛ ولزبد من التفاصيل انظر ، الانبارى ، عبد الرزاق على ، منصب قاضى القضاة فى الدولة العباسية منذ نشأته حتى نهاية العهد السلجوقى ، بيروت (١٩٨٧م) ، ص ٢١ - ٢٢ .

(١٣١) عن هذا الموضوع بالتفصيل وحجية المصادر الأصلية والفرعية انظر ، كريمة ، أحمد محمود ، معالم الشريعة الإسلامية ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، ص ٢٥ - ٩٦ .

بـ الشرطة :-

يقصد بالشرطة الجند المكلفون بحفظ النظام وإقرار الأمن الداخلى فى البلاد ليل نهار وذلك لمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة وعمل التحريات اللازمة وتنفيذ العقوبة التى يحكم بها القضاة وإقامة الحدود .

وقد اختلف فى اشتقاق لفظة الشرطة فقليل أنها مشتقة من الشرط بفتح الشين والراء بمعنى العلامة لأن الشرطة كانوا يتخذون علامات يتميزون بها وقليل إنها مشتقة من الشرط بفتح الشين وسكون الراء بمعنى الدون اللئيم السافل لأن الشرطة يحتكون باراذل الناس وسفلتهم من اللصوص ونحوهم (١٣٢).

وهناك من يرى إنها مشتقة من الكلمة اللاتينية Chort وهى كلمة تتصل بالقضايا العسكرية وما شابهها أو الكلمة اللاتينية Securitas وهى كلمة تتصل بنظام الأمن عند البيزنطيين ، وهناك من يرى أن المصطلح اللاتينى الأول يظل أكثر تقبلا من المصطلح اللاتينى الثانى (١٣٣).

(١٣٢) الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٦٩ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ١١٦ - ١١٧ ؛ الحسيني ، عباس حسن ، دستور المهن فى الإسلام ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٥م) ، ص ٢٢٥ .

(١٣٣) العبادى ، نظم ، ص ١٦٥ ؛ رشيد ، أرسن موسى ، الشرطة فى العصر الأموى ، ترجمة أحمد مبارك البغدادي ، الكويت (١٩٩٠م) ، ص ١٥ - ١٧ .

ج. الحسبة .:

الحسبة لغة مأخوذة من الاحتساب فيقال كما فى المحكم لابن سيده احتسب فلان على فلان أنكر عليه قبيح عمله ومدارها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد فرضها الله سبحانه وتعالى فى كتابه ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران آية ١٠٤] .

فأمر بها وحض على القيام بها بأساليب مختلفة فكان اختلاف الأساليب وتعددتها دليل ظهور فرضيتها وارتفاعها فى المكانة إلى مصاف الفروض التى قام الإسلام عليها .

وفى الحديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

وقد تخرج إلى معان أخرى منها : الكفاية والاستعداد وحسن التدبير والعد والحساب والانكار على الشيء والاعتداد بالشيء فيقال احتسب بالشيء أى إعتد به وجعله بالحساب (١٣٤) .

وقيل أن لفظة الحسبة مشتقة من قولهم « حسبك » بمعنى اكف لأن وظيفة المحتسب الكف عن الظلم ؛ وقيل من قولهم أحسبه إذا كفاه لأنه يكفى الناس مؤنة من يبخسهم حقوقهم (١٣٥) .

أما الحسبة فى الاصطلاح فهى مصطلح من مصطلحات النظم الإدارية يطلق على معان تطورت بمرور الزمن تطوراً لا ينفصل عن المعنى اللغوى الرئيسى وهو ابتغاء وجه الله على العمل وطلب ثوابه ولكن المؤلفين الذين كتبوا فيها استعملوها بمعنى وظيفة تتولى حفظ المجتمع المدنى وتصونه وترعى الآداب العامة فيه وتسهر على وجودها بعين ثاقبة أمرة بالمعروف إذا اختفى واستتر وناهية عن المنكر إذا فشا وانتشر ويتسع هذا المعنى ليشمل كثيراً عن الجوانب الحياتية حتى أصبح معنى الحسبة يطلق فى العرف

(١٣٤) مركز إحياء التراث العلمى ، دراسات فى الحسبة والمحتسب عند العرب ، جامعة بغداد (١٩٨٨م) ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(١٣٥) الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٧٣ .

فى القرن ٦هـ / ١٢م على أمور كثيرة من بينها تقويم الموازين واصلاح الشوارع وغير ذلك فقد ذكر منها السنامى أربعة وأربعين أمراً (١٣٦).

وعلى الرغم من أصالة نظام الحسبة الإسلامية (١٣٧)، فإن هناك من يذهبون إلى القول بأن نظام الحسبة يرجع إلى أصل بيزنطى وإنها امتداداً لوظيفة الأجورانوم Agoranome أى عامل السوق التى انتشرت فى المدن البيزنطية (١٣٨).

ومهما يكن من أمر فإن نظام الحسبة نشأ بسيطاً فى عصر الرسول (ﷺ) بل ومارس الرسول الكريم نفسه مهمات الحسبة، كما عين عمر بن الخطاب عاملاً على سوق المدينة المنورة وعين سعيد بن سعيد بن العاص على سوق مكة المكرمة بعد فتحها عام ٨هـ. وفى عصر الخلفاء الراشدين مارس الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) مهام الحسبة بنفسه فكان يراقب الأسواق ويطوف فيها ويتفقد أحوالها وكثيراً ما عاقب من يقعد فى السوق ويجهل أحكامه وأعرافه، كما عين السائب بن زيد عاملاً على سوق المدينة وكذلك عين عبد الله بن عتبة وبعده اختار لهذه المهمة سليمان بن أبى خثمه، وانتدب الخليفة عمر للمهنة نفسها فى بعض أسواق المدينة امرأة هى الشفاء ابنة عبد الله بن عبد شمس العدوية، واستمر الاشراف على الأسواق وتطبيق نظام الحسبة ابان خلافة عثمان (رضى الله عنه) فقد كان الحارث بن العاص عاملاً على السوق فى زمنه ويشرف على المبيع والمشتري فيه ويرى الموازين ويأخذ العشور كما أن الخليفة على بن أبى طالب (رضى الله عنه) كان يراقب الأسواق بنفسه وحث التجار والباعة على ألا يظلموا الناس وأن يبتعدوا عن الغش والتطفيف بالكيل والميزان (١٣٩).

وبعد ذلك ولا سيما خلال العصر العباسى وما تلاه تطور نظام الحسبة وتحددت

(١٣٦) مركز إحياء التراث العلمى العربى، دراسات فى الحسبة، ص ٤٨.

(١٣٧) الكبسى، حمدان، أصالة نظام الحسبة العربية الإسلامية، بغداد (١٩٨٩م)، ص ٧ - ١٢.

(١٣٨) عن هذا الموضوع انظر عبد الرزاق، الحضارة، ج ١، ص ١١٢؛ أبو زيد، سهام مصطفى، الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكى، القاهرة (١٩٨٦م)، ص ٤٩ - ٥٠؛ ديموبين، جودفرى، النظم الإسلامية، ترجمة فيصل السامر وصالح الشماع، بغداد (١٩٥٢م)، ص ٢١٠.

(١٣٩) الكبسى، أصالة نظام الحسبة، ص ١٠ - ١٢.

معالمه وتنوعت مهام المحتسب واختصاصاته على النحو الذى ورد فى كتب الحسبة من اصلاح الشوارع والحسبة على الحمامات وفى منكرات الأسواق والحسبة على الاخلاق العامة فى الطرق والحسبة على الزروع والحسبة على المساجد وعلى خطط المدن والاحياء والساحات والحسبة على المشاقيل والأوزان والبسوع المحرمة والحسبة على الخبازين والطباخين وباعة الأطعمة والاحتساب على اللعب والاحتساب على القضاة والأمراء والحسبة على الدور والمساكن والحسبة على الحرف والصناعات بل والحسبة على تركيب مواد البناء والحسبة على حماية الطير والحيوان عند البناء وغير ذلك (١٤٠).

وهو ما سوف نتطرق إليه تفصيلا فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

هذا وبجمل ابن خلدون أهمية نظام الحسبة واختصاصاته فيذكر أنها « وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذى هو فرض على القوائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلا له فيستعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن (المنكرات ... ويؤدب على المصالح العامة فى المدينة ... » ، ثم يضيف ابن خلدون فيذكر أن خطة الحسبة « كانت فى كثير من الدول الإسلامية مثل العبيديين

(١٤٠) ابن الاخوة ، معالم القرية فى أحكام الحسبة ، تحقيق محمد شعبان وصديق المطيعى ، القاهرة (١٩٧٦م) ، ابن بسام ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، بيروت (١٩٩٠م) ؛ السقطى ، فى آداب الحسبة ، تحقيق حسن الزين ، بيروت (١٩٧٨م) ؛ السنامى ، عمر بن محمد ، نصاب الاحتساب ، تحقيق مريزن عسيري ، مكة المكرمة ١٩٨٥م - ١٩٨٦م ، الشيزرى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العرينى ، بيروت (١٩٦٢م) ؛ يحيى بن عمر ، أحكام السوق ، تحقيق حسن حسنى عبيد الوهاب ، راجعه فرحات الدشراوى ، تونس (١٩٧٥م) ؛ ومن الدراسات الحديثة (بالإضافة إلى ما ذكر فى الهوامش السابقة) حسبنا أن نشير إلى : المنيس ، وليد عبد الله ، الحسبة على المدن والعمران ، حوليات كلية الآداب ، الحولية ١٦ ، الرسالة ١٠٦ ، جامعة الكويت (١٩٩٥ - ١٩٩٦م) ؛ خلاف ، محمد عبد الوهاب ، تسع وثائق فى شئون الحسبة على المساجد فى الأندلس ، حوليات كلية الآداب ، الحولية الخامسة ، الرسالة ٢٢ ، جامعة الكويت (١٩٨٤م) ؛ الفاسى ، عبد الرحمن ، خطة الحسبة فى النظر والتطبيق والتدوين ، الدار البيضاء (١٩٨٤م) ؛ حسينى ، الإدارة العربية ، ص ٢٤١ - ٣٤٣ ؛ جرونيباوم ، جوستاف ، حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٩٤م) ، ص ٢١٢ - ٢١٤ ؛ السحيبانى ، حمد بن صالح ، الحالة الأمنية فى قرطبة خلال الفتنة البربرية (٣٩٩ - ٤٢٢هـ / ١٠٠٩ - ١٠٣١م) بحوث تاريخية ، الإصدار الرابع ، الجمعية التاريخية السعودية - جامعة الملك سعود (جمادى الأولى ١٤٢٠هـ / أغسطس ١٩٩٩م) ، (انظر ما يتعلق بخطة السوق ص ٨٢ - ٨٧) .

- أى الفاطميين - بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخله فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاما فى أمور السياسة اندرجت فى وظائف الملك وأفردت بالولاية « (١٤١).

وكان يقال لمتولى هذه الوظيفة المحتسب ومتولى الحسبة وصاحب الحسبة وناظر الحسبة ووالى الحسبة (١٤٢)، أما فى المغرب والأندلس فكان يطلق على ولاية الحسبة فى بادئ الأمر اسم ولاية السوق أو أحكام السوق ويقال لمتوليها والى السوق ثم أصبح يقال لها ولاية الحسبة أو خطة الاحتساب وملتوليها المحتسب أو صاحب الحسبة ، ويرى البعض أن اصطلاح المحتسب قد أصبح شائعا فى الغرب الإسلامى منذ أواخر القرن ١١هـ / ١٤٣م (١٤٣).

وقد انتقلت لفظة المحتسب إلى الاسبانية تحت اسم Almotacen كذلك لفظة صاحب السوق قد انتقلت إلى الاسبانية تحت اسم Zabazoque .

ولعل أحسن دليل على أهمية المحتسب فى الأندلس من الناحية العملية أن ملوك اسبانيا المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين اقليما أبقوا فيه المحتسب ولهذا رأينا لفظ المحتسب يدخل فى اللغة الاسبانية كما سبق القول ويطلق على الوالى المكلف بضبط الموازين والمكايل ، أما فى المغرب فالدليل على أهمية وظيفة المحتسب وشدة الحاجة إليها أنها ما زالت باقية مستمرة إلى اليوم فى المدن المغربية بينما زالت من المشرق (١٤٤).

(١٤١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، المجلد الأول ، ص ٢٣٨ .

(١٤٢) الباشا ، دراسات فى الحضارة ، ص ٧٣ .

(١٤٣) الفاسى ، خطة الحسبة ، ص ١٧ - ١٩ .

(١٤٤) العبادى ، نظم ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

المبحث الرابع : النظم المالية :

تعد النظم المالية جزءاً من النظام الإدارى العام للدولة الإسلامية ويقصد بالنظم المالية إيرادات الدولة الإسلامية (موارد بيت المال) أى دخلها العام ؛ وأوجه الانفاق المختلفة التى ازدادت بامتداد دار الاسلام واتساع رقعتها .

هذا وقد تعددت أبواب إيرادات بيت مال المسلمين من أموال الغنائم والفئ والخراج والجزية والعشور والركاز والزكاة والصدقات (١٤٥).

وسوف نركز فى هذا الكتاب المجل على أصل التشريع الخاص بكل منها ثم تتبع ما طرأ عليه من تطورات حسب تطور الحياة السياسية والاجتماعية فى الدولة الإسلامية .

١. النظام المالى فى عصر الرسول (ﷺ) :

وضعت أسس النظام المالى للدولة الإسلامية وتقررت قواعده فى عصر الرسول (ﷺ) ، وهى الأسس التى بنى عليها نظام الخراج كله وهذه الأسس تقوم على ما جاء بالقرآن الكريم من تشريع وأحكام تتعلق بالزكاة والصدقات والجزية والغنime والفئ وما قام به الرسول (ﷺ) من تطبيقات عملية لتنفيذ تلك الأحكام ، فقد اتبع الرسول

(١٤٥) تناولت العديد من المصادر التاريخية والفقهية وكتب السيرة والمعاجم اللغوية موارد بيت مال المسلمين وتحديد مدلول كل منها وحسبنا أن نشير إلى بعضها فمن بينها كتاب الأموال لابن سلام (ت ٢٠٦هـ) والسيرة النبوية لابن هشام والأحكام السلطانية لكل من الماوردى (ت ٤٥٠هـ) وأبى يعلى الفراء وكتاب الخراج لكل من أبى يوسف (ت ١٨٣هـ) ويحيى بن آدم (ت ٢٠٣هـ) وكتب الفتوح والحوليات والمعاجم اللغوية ، ومن الدراسات الحديثة التى عولت على ذلك الكثير من المراجع ويأتى على رأسها كتاب الريس ، محمد ضياء الدين ، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، القاهرة ، ط ٥ (١٩٨٥م) وهو من أهم وأشمل الكتب فى موضوعه ، وكتاب العلى ، صالح أحمد ، الخراج فى العراق فى العهود الإسلامية الأولى ، بغداد (١٩٩٠م) ، وكتاب صالح ، محمد أمين ، النظام المالى والاقتصادى فى الإسلام ، القاهرة (١٩٨٤م) وغير ذلك كثير ، فضلاً عن الكتب المتعلقة بالنظم الإسلامية خاصة والحضارة الإسلامية عامة وهى الكتب التى أشرنا إليها فى الصفحات السابقة وسوف نشير إليها فى ما يستقبلنا من صفحات هذا الكتاب .

الكريم مجموعة تدابير عملية تتصف بالمرونة وبمراعاة مقتضى الحال فقد راعى طريقة خضوع البلاد له بالقوة (عنوة) أو بغير القوة (صلحا)، وراعى أهلها عربا أو غير عرب ، كما لاحظ حالتهم المعاشية أكانت لهم أراض أم لا (١٤٦).

هذا ويمكن القول ، بادئ ذى بدء ، أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل أول تشريع مالى خاص بغنيمة الحرب من الأسرى والسبى والأموال والأرض وذلك عقب الانتصار فى غزوة بدر الكبرى ؛ وتنازع المسلمين فيما بينهم حول ما جمعه من معسكر العدو فنزل قوله سبحانه وتعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنفال آية ١٨].

وعلى هذا قام الرسول عليه الصلاة والسلام بتقسيم غنيمة بدر على جميع من حضرها من المسلمين بأنصبة متساوية وقال الرسول (ﷺ) « الغنيمة لمن شهد الواقعة ».

ولم يلبث أن نزل تشريع الغنيمة بقول الحق عز وجل ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الانفال آية ٤١].

وعلى هذا قام الرسول (ﷺ) بتقسيم غنيمة خيبر فكان خمس خيبر لله فأعطى الرسول منه لنسائه ولذوى القربى وكانت الحاجة فى بنى عبد المطلب أكثر ولذا أعطاهم أكثر وكذلك لليتامى والمساكين من المسلمين رجالا ونساءً وكذلك لرجال مشوا بين الرسول وبين أهل فدك بالصلح ولرجل من أهل الحديبية (جابر بن عبد الله بن عبد بن حزام) غاب عن خيبر ، أما الأربعة أخماس الباقية فقسمت بين المسلمين الذين فتحوا خيبر لكل فرس سهمان ولفارسه سهم ولكل راجل سهم أى أنه أعطى الفارس ثلاثة أسهم والراجل سهمًا واحدًا على أن الضرورة جعلت الرسول (ﷺ) يعدل فى هذا

(١٤٦) الدورى ، النظم الإسلامية ، ص ٦٨ .

التدبير ويعطى الأرض لأصحابها بالمقاسمة على النصف وذلك لقلّة الأيدي العاملة وخبرة أهل خيبر بالزراعة (١٤٧).

وفى ذلك يقول ابن هشام « فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله (ﷺ) أن يعاملهم فى الأموال على النصف وقالوا نحن أعلم بها منكم وأعمر لها » (١٤٨).

ويعطى ابن سلام تفاصيل أكثر فيقول « فلما صارت الأموال فى يدى رسول الله (ﷺ) لم يكن لهم من العمال ما يكفونه عمل الأرض فدفعها رسول الله إلى اليهود يعملونها على نصف ما خرج منها » (١٤٩).

وفى غزوة يهود بنى النضير أنزل الله عز وجل تشريع الفئ فى قوله تعالى ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهُ فَإِنَّهُ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿ [سورة الحشر الآيات ٦ - ١٠] .

(١٤٧) الدورى ، النظم ، ص ص ٦٨ - ٧٠ ؛ عمر ، النظم ، ص ١٠٠ ؛ الرئيس ، الخراج ، ص ٩١ - ٩٢ ؛

النبراوى ، تاريخ النظم ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(١٤٨) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ .

(١٤٩) ابن سلام ، الأموال ، ص ٥٦ .

وعلى ذلك فإنه لما فتح الرسول (ﷺ) وادى القرى عنوة وأصاب المسلمون منها أثاثاً ومتاعاً فما كان من رسول الله (ﷺ) إلا وأن خمس ذلك وترك النخل والأرض فى أيدي اليهود وعاملهم على نحو ما عامل أهل خيبر (١٥٠).

أما أراضى العرب التى فتحت عنوة فقد اتبع فيها الرسول (ﷺ) سياسة خاصة ذلك لأنه وضع عليها العشر وفى ذلك هدف سياسى فالخراج يحمل معنى الخضوع والذلة وهو يريد للعرب وحدة سياسية قوية وكرامة ففى اليمن مثلاً أقر السكان على أراضيتهم وفرض عليهم دفع عشر انتاج ما سقى بصورة طبيعية ونصف العشر على ما سقى بآلة وفى البحرين تركت الأرض لسكانها العرب على أن يقاسموا الدولة الثمر ؛ أما فى المدن العربية الشمالية فقد فرضت عليها الجزية فقط ومنها تيماء فقد فرضت عليهم الجزية مقابل بقائهم فى أرضهم وكذلك صالح الرسول أهل تبوك على الجزية ، كما صالح أهل أذرح على مائة دينار فى كل رجب ، وفرض الرسول كذلك جزية مقدارها دينار على رؤوس الأشخاص مع ضيافة من يمر بالمنطقة من المسلمين كما هو الحال مع أهل تبالة وجرش وصاحب آيله ، وهذه الحالة اقتضتها الواجبات العسكرية الملقة على المقاتلة فى تلك الفترة حيث كان الإسلام ينتشر وحدود الدولة تتوسع .

أما بالنسبة لأهل الذمة فقد فرض الرسول الجزية على من كان منهم فى الحجاز وقصرها أول الأمر على الرجال دون النساء والصبيان وكان على الرجل أن يدفع ديناراً واحداً أو نحوه ، وكان أهل الذمة من اليهود والنصارى أولاً ثم الحق بهم الرسول المجوس فقد روى أن رسول الله « قد قبل من مجوس البحرين الجزية وأقرهم على مجوسيتهم » وكذلك نفس الشئ مع مجوس اليمن . وقرر الرسول (ﷺ) الملكية العامة للماء والكلاً والنار وقال « الناس شركاء فى الماء والكلاً والنار » ، والكلاً مما لم ينصب فيه أحد بحرث ولا غرس ضرورى للمواشى والأغنام وكذلك الماء ضرورته عامة ولعل المقصود بالنار الحطب الذى يستعمل للوقود (١٥١).

وبالنسبة للركاز فقد حدده الرسول (ﷺ) فى قوله « ... وفى الركاز الخمس فقيل وما الركاز يا رسول الله ؟ قال : الذهب والفضة الذى خلقه الله فى الأرض يوم

(١٥٠) الرئيس ، الخراج ، ص ٩٣ - ٩٤ ، ٩٧ : الدورى ، النظم ، ص ٧٠ : عمر ، النظم ، ص ١٠١ .
(١٥١) الدورى ، النظم ، ص ٧٠ - ٧٢ : عمر ، النظم ، ص ١٠٠ - ١٠١ : الرئيس ، الخراج ، ص ٩٦ - ٩٩ .

خلقت « وقد عرف الماوردي الركاز بأنه « كل مال وجد مدفونا من ضرب الجاهلية في موات أو طريق سابل يكون لواجده وعليه خمسة يصرف في مصرف الزكاة ... » (١٥٢).

وهناك اختلاف بين الفقهاء والعلماء في الركاز حسب التعريف المعطى له وهو ما سوف نناقشه في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى ، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف سواء اعتبر أنه المال المدفون فقط أو اعتبر أنه يشمل المعادن المختلفة فإن أصل السنة في الركاز أخذ الخمس ويكون حكمه للإمام يضعه حيث يرى مثل خمس الغنيمة (١٥٣).

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نستخلص بعض القواعد والتنظيمات المالية التي سنّها الرسول (ﷺ) وذلك على النحو التالي :

١ - قسم الرسول خيبر ووادي القرى التي فتحها عنوة بين المسلمين أو سلم بمبدأ تقسيم هذه الأراضى غنائم .

٢ - عد بلاد العرب أراضى عشر .

٣ - خصص الجزية الشخصية بدينار وفرضها على أهل الكتاب والحق بها المجوس وأعفى النساء والصبيان منها .

٤ - اكتفى بفرض الجزية على أراضى الصلح وحدها .

٥ - أدخل مبدأ ضيافة المسلمين للضرورة التي صارت عسكرية .

٦ - جعل الماء والكلا والنار مشاعا أو ملكية عامة .

وعلى ذلك تعد التنظيمات النبوية سوابق هامة للخلفاء الراشدين الذين أخذوا بها واسترشدوا بالاتجاهات التي تهدف إليها ولكن مهمتهم كانت شاقة لأن الفتوحات في عصرهم شملت أراضى لها نظمها وتقاليدها المالية (١٥٤).

(١٥٢) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٥٣ .

(١٥٣) صالح ، النظام المالى ، ص ٢٣ .

(١٥٤) الدورى ، النظم ، ص ٧٣ .

ـ النظام المالى فى عصر الخلفاء الراشدين :

فى خلافة أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) فتح خالد بن الوليد بصرى واتفق مع أهلها على أن يؤدوا عن كل حالم ديناراً أو جرب حنطة وفى هذا الاتفاق نرى بداية ضريبة الخراج .

كذلك صالح خالد أهل الحيرة على جزية معينة فكان على الرجل أن يؤدى أربعة عشر درهما فى السنة من وزن خمسة دوانيق (عشرة دراهم من وزن سبعة) . وأعفى المرضى المزمنين وكان عددهم ألف رجل ، كما صالح أحد أفراد خالد أهل بانقيا (قرب الكوفة) على ألف درهم وطيلسان سنوياً (١٥٥) .

وهكذا حصلت فى خلافة أبى بكر سوابق تخص أرض الصلح - أى التى تبقى ملكية أرضها بيد أصحابها ولا تعد ملكاً للمسلمين) ، وسابقة أخذ ضريبة من الحاصل بالاضافة إلى الضريبة النقدية كما فى بصري (١٥٦) .

فماذا فعل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عندما اتسعت الدولة الإسلامية فى عهده ؟

ويمكن القول أنه فى عهد عمر (رضى الله عنه) تم فتح العراق وبلاد الشام ومصر وغيرهما ولذلك طالب بعض المقاتلة المسلمين بتوزيع الأراضى المفتوحة عليهم باعتبارها غنيمة حرب وفقاً لما جاء فى تشريع الغنيمة السابق الإشارة إليه فى عصر الرسول (ﷺ) ولكن عمر رفض ذلك قائلاً « فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف أن قسمته أن تفاسدوا بينكم فى المياه » (١٥٧) .

وفى رواية أخرى أنه قال « فكيف بمن يأتى من المسلمين ليسجدون الأرض بعلاجها قد إقتسمت وورثت عن الآباء وجيزت فإذا قسمت أرض العراق وأرض الشام بعلاجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ... أرايتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ، أرايتم هذه المدن العظام

(١٥٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج١ ، ص ١١٩ ، ٢٥٢ .

(١٥٦) الدورى ، النظم ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(١٥٧) ابن سلام ، الأموال ، ص ٥٧ .

كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدارة
العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج « (١٥٨) .

وفى رواية ثالثة أنه قال « تريدون أن يأتى آخر الناس ليس لهم شئ » (١٥٩) .

وكان ذلك موقف بعض الصحابة أيضاً فما هو معاذ بن جبل يقول لعمر « والله
إذا ليكون ما تكره : إنك إن قسمتها صار الريع العظيم فى أيدي القوم ثم يبيدون
قيصر ذلك للرجل الواحد أو المرأة ثم يأتى بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسداً وهم لا
يجدون شيئاً فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم » (١٦٠) .

وعلى الفور قرر عمر (رضى الله عنه) عدم توزيع الأراضى المفتوحة على أفراد
المقاتلة وحبسها لصالح المسلمين وعزز قراره بحكم وتشريع ورد فى القرآن الكريم عن
الأراضى التى غنمها المسلمون بعد اقضاء بنى النضير فلم توزع كالغنائم (الآيات ٦ -
١٠ المتعلقة بالفى من سورة الحشر والسابق الإشارة إليها) ، كذلك أبقى عمر من لم
يهرب من الفلاحين فى أراضيه يعملون فيها ، وهكذا فإنه بموجب هذا القرار الذى
اتخذه الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أصبحت أراضى الأقاليم المفتوحة
ملكاً للمصلحة العامة تقوم الدولة بإدارتها والنظر فى مصالحها وجباية أموالها
ولتصرف على المسلمين ومصالحهم وللدولة الحق فى وضع ما تراه من الضرائب
والشروط ، وقد استثنى من هذا القرار ثلاثة أصناف من الأراضى هى : أراضى الصلح
وأراضى المدن والصوافى (١٦١) .

والصوافى هى الأراضى التى كات لكسرى أو لأهله أو لرجل قتل فى الحرب أو
لحق بأرض الحرب وما كان لبيوت النار ثم استصفافها عمراً (رضى الله عنه) فصارت
فيها لمن أفاء الله عليه ، ويتبين من بعض الروايات أن هذه الأراضى كان يعطيها الإمام
بالمزارة بالنصف أو الثلث إلى العشر (١٦٢) .

(١٥٨) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٤ - ٢٦ .

(١٥٩) ابن سلام ، الأموال ، ص ٥٨ ، بن آدم ، الخراج ، ص ٤٨ .

(١٦٠) ابن سلام ، الأموال ، ص ٥٩ .

(١٦١) العلى ، الخراج فى العراق ، ص ٥٥ - ٦٢ : الدورى ، النظم ، ص ٧٦ - ٧٧ : صالح ، النظام المالى ،
ص ٣٩ - ٥٠ .

(١٦٢) العلى ، الخراج ، ص ٦٢ - ٦٥ : عمر ، النظم ، ص ١٠٢ - ١٠٣ : الدورى ، النظم ، ص ٨٥ - ٨٦ .

وعلى ذلك فإن عمراً (رضى الله عنه) بعد أن حبس الأراضى المفتوحة لصالح المسلمين وجعلها ملكاً عاماً للدولة فرض على أهلها وحائزيها الخراج والجزية فكان الخراج على الأرض والجزية على الرؤوس ، وهى - أى الجزية - لا تجب إلا على الرجال من أهل الذمة : اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم من المجوس والصابئة والسامرة ، ولا تؤخذ من المسكين الذى يتصدق عليه ولا من مقعد ولا من أعمى لا حرفة له ولا من الرهبان وأهل الصوامع إن لم يكونوا ذوى يسار ، ولا جزية أيضاً على صبي ولا امرأة ولا شيخ فان (١٦٣).

أما عن مقدار الجزية فقد كان على قدر الطاقة من أهل الذمة بلا حمل عليهم ولا اضرار بفئ المسلمين وقد اختلف مقدارها باختلاف الاقاليم فقد وضع عمر على أهل السواد (جنوب العراق) ٤٨ درهما بالنسبة للموسر و ٢٤ درهما بالنسبة للوسط و ١٢ درهما بالنسبة للمحتاج ، وعلى أهل الشام ٤ دنانير وأرزاق المسلمين من الحنطة مدين وثلاثة أقساط زيت لكل إنسان كل شهر ، وعلى أهل الورق ٤٠ درهما وخمسة عشر صاعاً لكل إنسان ومن كان من أهل مصر فأردب كل شهر لكل إنسان (١٦٤).

ومهما يكن من أمر فإن الفرق بين الجزية والخراج ينحصر لدى الفقهاء فى ثلاثة أوجه وهى :

- ١ - أن الجزية نص وأن الخراج اجتهاد .
 - ٢ - أن أقل الجزية مقدر بالشرع وأكثرها مقدر بالاجتهاد ، والخراج أقله وأكثره مقدر بالاجتهاد .
 - ٣ - أن الجزية تؤخذ مع بقاء الكفر وتسقط بحدوث الإسلام والخراج يؤخذ مع الكفر والإسلام (١٦٥).
- كذلك كان عمر (رضى الله عنه) هو أول من وضع العشور ويقصد بها تلك الرسوم أو الضرائب التى تؤخذ على أموال وعروض تجارة أهل الحرب (أعداء دار

(١٦٣) صالح ، النظام المالى ، ص ٢٦ .

(١٦٤) صالح ، النظام المالى ، ص ٢٦ - ٢٧ : النبراوى ، تاريخ النظم ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(١٦٥) الرئيس ، الخراج ، ص ١٢٥ - ١٢٦ : صالح ، النظام المالى ، ص ٢٧ - ٢٨ .

الإسلام) وأهل الذمة المارين بها على ثغور المسلمين وكان زياد بن حدير هو أول من بعثه عمر على العشور في العراق والشام وقد أمره ألا يفتش أحداً وأن لا يأخذ العشور إلا مرة واحدة في السنة .

على أنه يلاحظ أن عشور التجارة ليست كلها فيئاً لأن منها ما يدفعه تجار المسلمين (وهو ربع العشر) فحكمه أن يكون صدقة أما ما يؤخذ من أهل الذمة جميعاً (نصف العشر) وأهل الحرب (العشر) فحكمه حكم الخراج (١٦٦).

وبالنسبة إلى الزكاة فهي من أركان الإسلام الخمسة وقد فرضها الله سبحانه وتعالى على كل مسلم قادر عليها فأنزل الله سبحانه وتعالى آية الزكاة ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ... ﴾ (سورة التوبة آية ١٠٣) . ومن المعروف أن الزكاة تؤخذ من أموال المسلمين القادرين إذا بلغت نصاباً معيناً ومضى عليها سنة وتدفع بنسبة ربع العشر ٢٥٪ وتؤخذ من الذهب والورق والابل والبقر والغنم والحب والثمار والبضائع التجارية حيث يؤخذ منها ربع العشر أيضاً .

وتأتى الصدقة أحياناً مرادفة للزكاة ، بالرغم من أن معنى الصدقة العام هو إعطاء جزء من المال لأعمال الخير حسب تقدير الشخص فمقدار الصدقة غير محدد بينما الزكاة محدد والزكاة فريضة بينما الصدقة اختيارية .

وتصرف الزكاة (حسب ما ورد في الآية القرآنية رقم ٦٠ من سورة التوبة) ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ولا يدخل مال الصدقة في مال الخراج كما أن جباتها يختلفون عن جباة الخراج ، ويأخذ جباة الزكاة رزقهم من مال الزكاة نفسه ، وتصرف زكاة كل بلد في أهله ولا يجوز نقل صدقات بلد إلى غيره إلا سهم في سبيل الله ، وكانت الزكاة تؤخذ من كل مسلم قادر عليها لا سيما المسجلين في ديوان العطاء بل واستمر أخذ الزكاة من الأعطية في

(١٦٦) صالح ، النظام المالي ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ النبراوى ، تاريخ النظم ، ص ١٣٧ - ١٣٩ ؛ عمر ، النظم ، ص ١٠٧ .

خلافة الراشدين وردحا من العصر الأموي (١٦٧).

أما عن ملامح تطور النظم المالية خلال العصرين الأموي والعباسي والعصور الإسلامية الأخرى سواء في قلب العالم الإسلامي أو الجناح الشرقي والجناح الغربي لدار الإسلام فسوف نتطرق إليها وإلى أوجه الانفاق المختلفة خلال تلك العصور المتعاقبة في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

المبحث الخامس: النظم العسكرية .:

تعد دراسة النظم العسكرية الإسلامية على جانب كبير من الأهمية فهي تشكل جانبا مهما من جوانب الحضارة الإسلامية أسهم فيه المسلمون اسهاما كبيرا في تطوير فنون الحرب والقتال في العصور الوسطى ، ولا نبالغ الحقيقة إذا قلنا أن دور المسلمين في هذا الجانب لا يقل أهمية عما أحدثوه من تطور في مختلف الجوانب والاسهامات الحضارية الأخرى على النحو الذي أبرزتاه بهذا القدر المجل في كتابنا هذا ، على أن نعود إليه تفصيلا واسهابا في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى).

ولما كان الإسلام دين دعوة ودولة في ذات الوقت ، فرسالته رسالة عالمية للناس كافة حيث لا تقتصر على العرب وحدهم وإنما تشمل جميع الشعوب في مشارق الأرض ومغاربها لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ، ولذلك كان لا بد من وجود قوة مادية تقاوم القوة المادية للاعداء الذين يصدون عن سبيل الله ومن هنا شرع الجهاد في سبيل الله .

وحسبنا أن نستشهد بالآيات القرآنية الشريفة الدالة على ذلك ومن بينها ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ (سورة الحج آية ٣٩ - ٤٠) ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا

(١٦٧) عمر ، النظم الإسلامية ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُم وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ (سورة البقرة آية ١٩٠ - ١٩١).

وقوله سبحانه وتعالى ﴿١٩٠﴾ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٩١﴾ [سورة التوبة آية ٤١].

وقوله سبحانه وتعالى ﴿١٩١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ (سورة البقرة آية ٢١٨).

وقوله عز وجل ﴿١٩٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٩٣﴾ (سورة التوبة آية ٢٠).

وقوله عز وجل ﴿١٩٤﴾ وَاَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿١٩٥﴾ .

وكذلك ما ورد في السنة النبوية المطهرة ومن ذلك قول الرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم» .

أولاً : الجيش الإسلامى البرى :-

- عناصر الجيش :

أ- عصر الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين :

من المعروف أن العرب هم مادة الإسلام ولذلك كانوا يشكلون العنصر الغالب والرئيسى فى تكوين الجيش فى صدر الإسلام وحتى أواخر العصر الأموي^(١٦٨)؛ وإن كان هذا لم يمنع إشتراك بعض العناصر غير العربية التى دخلت الإسلام فى هذه الفترة

(١٦٨) الجنابى ، خالد جاسم ، تنظيمات الجيش العربى الإسلامى فى العصر الأموى ، بغداد ، ط ٢

(١٩٨٦م)، ص ١٥ - ٤٦ .

سواء كانوا من الفرس أو الروم أو الأحباش أو البربر فمن عصر الرسول (ﷺ) سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي ، وفي عصر الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) نجد أن الخليفة عمر بن الخطاب يسوي بين العرب ومواليهم في العطاء كما فرض لبعض نبلاء الفرس في العطاء بسبب ما قدموه من خدمات للدولة الإسلامية وليكونوا مثلاً يحتذى به بقية أهل فارس وحسبنا أن نستشهد بما أمر به عمر (رضي الله عنه) أمراء الأجناد قائلاً « من اعتقتم من الحمراء فاسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلهم اسوتهم في العطاء »؛ بل إن الأساورة وهم من الخيالة الفرس الذين انضموا إلى المسلمين في جبهة العراق جعلوا أسوة بالعرب في العطاء والحق بعضهم « في أفضل العطاء وأكثر شئ أخذه أحد من العرب » وذلك من أجل كسبهم إلى جانب المسلمين (١٦٩).

ومن هؤلاء الفارسيين الذين شاركوا في فتح مصر « وهم بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام ، أسلموا بالشام ورجبوا في الجهاد فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر فاخطوا بها » واخطوا خطة الفارسيين في المنطقة التي كانت تعرف بالأرض الصفراء وهي من جملة العسكر .

ووجدت بالفسطاط أيضاً خطط الحمراوات الثلاث وكانت عبارة عن ثلاث خطط : الحمراء الدنيا والحمراء الوسطى والحمراء القصوى ، والحمراء الوسطى منها « خطة بنى ينة وهم قوم من الروم حضر الفتح منهم مائة رجل » . والحمراء القصوى وهي خطة بنى الأزرق وكان روميا حضر الفتح منهم أربع مائة « (١٧٠) » .

ومن هؤلاء الأعاجم أيضاً الحمراء وهم حمراء ديلم من الفرس المحاربين وكان عددهم أربعة آلاف جندي فارسي يرأسهم رجل اسمه ديلم فسموا حمراء ديلم وقد نزلوا بالكوفة وتحالفوا مع قبيلة اياد (السبع السابع) .

ومنهم الأساورة من الأعاجم أيضاً وقد استسلموا عندما فتحت الأهواز وكان عددهم الفين وخمسمائة ، وقد فرض لهم في العطاء واحتفظوا بتنظيماتهم وبنيت لهم

(١٦٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ، ص : عمر ، النظم ، ص ١٤٢ .

(١٧٠) المقرئ ، الخطط ، المجلد الثاني ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ص ٣٦ ، ٣٨ - ٣٩ ؛ ناجي ، عبد الجبار

، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ، بيروت (٢٠٠١م) ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

خطط خاصة بهم وقد تحالفوا مع بنى تميم فى البصرة (خمس بنى تميم) (١٧١).

ومهما يكن من أمر فإن عدد الموالى قد ازداد فى الجيش وبصورة تدريجية حتى أواخر العصر الأموى ، ويقال أن أعدادهم كانت كبيرة للغاية فى المشرق والمغرب على السواء ، كما برز منهم قادة عسكريون متميزون أمثال حيان النبطى ومغيث الرومى وطارق بن زياد البربرى ؛ بل تميز بعضهم بأرائه فى الحرب والتعبئة للقتال مثل البخترى بن مجاهد مولى بنى شيبان والفضل بن مسلم مولى بنى ليث ويوسف بن بخت وأمية بن يزيد وعبد الله بن أبى عبد الله مولى بنى سليم وغيرهم (١٧٢).

ويرجع الفضل إلى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فى أنه أنشأ للمقاتلة ديوانا خاصا بهم تسجل فيه أسماءهم ومقدار العطاء الذى يفرض لهم سنويا والرزق الشهري الثابت وهو ما عرف باسم ديوان الجند أو ديوان العطاء وقد سبق أن تحدثنا عنه اجمالاً فى مبحث النظم الإدارية من هذا الباب ، وسوف نتطرق إليه تفصيلاً فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

أما عن أعداد المقاتلة وتجنيدهم فمن المعروف أن الإسلام جعل الأمة كلها عدة للحرب ؛ وبمعنى آخر فإن كل فرد فى المجتمع وليس الدولة وحدها مسؤولاً عن الاستعداد فى حالة الحرب ، فلم يكن يتخلف عن الجهاد إلا من له عذر مشروع ، وفى هذه الحالة كان يتعرض إلى لوم الرسول (ﷺ) وأصحابه ، وإذا تبين أنه كان متعمداً فكان يعاقب ويقاطع ويتجنبه الناس فلا يكلمه أحد .

وهكذا كانت الأمة الإسلامية كلها أمة مقاتلة أو أمة مسلحة تطبق النفير العام تطبيقاً عملياً ، إلى أن نزلت الآية الكريمة ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ

(١٧١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ؛ العلى ، صالح أحمد ، خطط البصرة ومنطقتها ، بغداد (١٩٨٦م) ، ص ٤٨ ؛ ماسينيون ، لويس ، خطط الكوفة وشرح خريطتها ، ترجمة تقى محمد المصعبى ، تحقيق كامل سلمان الجبورى ، النجف الأشرف (١٩٧٩م) ، ص ٤٧ - ٤٨ ؛ ناجى ، عبد الجبار ، دراسات فى تاريخ المدن العربية الإسلامية ، بيروت (٢٠٠١م) ، ص ١٦ ، ١٩٦ .
(١٧٢) عمر ، النظم ، ص ١٤٧ - ١٤٨ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن دور الموالى فى الجيش الإسلامى ، انظر ، الجنابى ، خالد جاسم ، تنظيمات الجيش العربى الإسلامى فى العصر الأموى ، بغداد ، ط ٢ (١٩٨٦م) ، ص ٤٦ .

مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿ (سورة التوبة الآية ١٢٢) .

ولذلك اقتضى الأمر حدوث تطور جديد فى عملية تهيئة واستنفار المقاتلة ويتمثل ذلك التطور فى أن لا يخرج عدد كبير من المقاتلة للجهاد ؛ بل تخرج طائفة كما ورد فى هذه الآية الكريمة ؛ فضلاً عن العمل على دعم الجبهة الداخلية التى تكون القاعدة الراسخة للمقاتلة ، وعلى ذلك أصبحت هذه الطائفة تشكل نواة الجيش الإسلامى (١٧٣) .

واستمر هذا الأسلوب من التجنيد فى عهد الخليفة أبى بكر (رضى الله عنه) وفق الأسس التى وضعها الرسول (عليه الصلاة والسلام) والقائمة على مبدأ التطوع والانتداب المبنى على نية الجهاد واعلاء كلمة الله ؛ إلا أن ظروف حركة الردة وعدم تغلغل الإيمان فى قلوب الذين دخلوا الإسلام حديثاً جعلت الخليفة أبى بكر لا يلزم أحد بالقتال إلا من ثبت إسلامه ولم يرتد .

وفى خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) حدث تطور جديد فى اعداد المقاتلين وتجنيدهم لمواجهة الجيوش الفارسية والرومية ولذلك أصدر أوامره إلى قواده وعماله على الاقاليم والقبائل بالإلزام ، ومن هنا ظهر ما يعرف بالتجنيد الاجبارى إلى جانب التطوع وكان ينال كل من يتخلف عن القتال من أصحاب الديوان (ديوان الجند) العقاب الأدبى الصارم فتنزع عامته ويقام فى الناس ويشهر به ؛ وواصل الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) نفس السياسة التى استنها عمر وطلب من أمراء الاجناد الالتزام بها دون تغيير ولا تبديل وذلك قبل أحداث الفتنة (١٧٤) .

ب- العصر الأموى :

أصبحت عملية إعداد الجند وتهيئة المقاتلة تأخذ الحيز الأكبر من سياسة الخلفاء الأمويين وولاتهم الأكفاء ومنهم زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة والحجاج بن يوسف

(١٧٣) الجنابى ، تنظيمات الجيش ، ص ٥٧ - ٥٩ .

(١٧٤) الجنابى ، تنظيمات الجيش ، ص ٦٠ - ٦٢ .

الثقفي أما الخلفاء فمن بينهم معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ، وقد أثمرت هذه السياسة التي مزجت بين الترهيب والترغيب مزجا موفقا في تجنيد الأعداد الهائلة من المقاتلة لمواصلة حركة الفتوح التي بلغت ذروتها خلال ذلك العصر ؛ فضلا عن حروب الأمويين مع الحركات المعارضة والمضادة التي قامت ضدهم^(١٧٥).

ورغم أن الأمويين قد قاموا بتنظيم ديوان الجند وإقامة القواعد والحصون وطبقوا نظام التجنيد الاجباري^(١٧٦) ولا سيما في العراق والشام والأقاليم الشرقية ؛ بل وحاولوا محاولات جادة لتغيير التنظيم العسكري وإصلاحه وذلك عن طريق مزج القبائل العربية وربطها برابطة جديدة أكثر قوة من رابطة العشيرة أو القبلية كما حدث في خلافة هشام بن عبد الملك على سبيل المثال ؛ إلا أن عدم تكوينهم لجيش نظامي قوى ودائم مرتبط بالدولة وموال لها ومدافع عن قضيتها كان من أهم نقاط الضعف في الخلافة الأموية بحيث جعل السلطة المركزية عرضة لأهواء وميول شيوخ القبائل والمتنفذين في أقاليم الدولة الواسعة ولعل في حركة يزيد بن المهلب في خلافة يزيد بن عبد الملك ما يوضح ذلك أحسن توضيح ، كما أن الأزمة التي حدثت في خراسان في أواخر العصر الأموي كشفت عن نقاط الضعف هذه بوضوح ولم يكن هناك من شيء يمكن عمله لانقاذ الموقف فكانت النتيجة الطبيعية والمباشرة لذلك هي سقوط الدولة بسقوط آخر خلفائها مروان بن محمد عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م.

ومع ذلك فإننا لا بد أن نشير إلى بروز بوادر وحدات شبه نظامية دائمة في العصر الأموي منها كتيبة الحرس الخاص بالخليفة بقيادة صاحب الحرس وقد أطلق معاوية على كتيبته اسم الغمامة ، كما نظم الأمويون مسالح وهي كتائب ترابط في المدن غير المستقرة أو المهمة وكانت تحت قيادة صاحب المسلحة كما ظهرت في أواخر العصر الأموي كتائب بأسماء قادتها وكانت أقرب إلى فرق عسكرية نظامية مثل الصححية والذاكوافية والأسدية والدوكانية أو باسم راياتها مثل المحمرة ، كما أدخل مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين (١٢٧ - ١٣٢هـ) نظام الكراديس في تعبئة المقاتلة فكان جيشه في الجزيرة الفراتية من أقوى الجيوش^(١٧٧).

(١٧٥) عن تفاصيل هذه السياسة انظر الجنابي ، تنظيمات الجيش ، ص ٦٢ - ٧٦ .

(١٧٦) العبادي ، نظم الحكم ، ص ١٧٢ .

(١٧٧) عمر ، النظم ، ص ١٥٠ - ١٥٢ .

جـ - العصر العباسي :

حدثت تطورات كبيرة في الجيش خلال العصر العباسي الأول وبالتحديد حتى عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م ويمكن القول أنه كان يتكون حتى هذه السنة من العرب والخراسانية والموالي والأبناء ، فضلا عن عناصر أخرى سنشير إليها فيما بعد .

وفي البداية لا بد أن نشير إلى ما انتهت إليه الدراسات الحديثة من أن مصطلح أهل خراسان كان لا يعنى الفرس وإنما يعنى العرب وغير العرب معا وعلى ذلك فإن الفرق الخراسانية في الجيش العباسي كانت تتكون من المقاتلة العرب (من ربيعة ومضر واليمن) من أهل خراسان^(١٧٨)، فضلا عن الخراسانيين أنفسهم وهو ما يشير إلى غلبة العنصر العربي في الجيش العباسي ليس خلال الثورة العباسية التي أسقطت الخلافة الأموية عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م فحسب وإنما خلال العصر العباسي الأول بصفة عامة وبالتحديد حتى عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م كما سبق القول .

هذا وقد تم تسجيل أفراد المقاتلة في الفرق الخراسانية في ديوان شيعة بني العباس حسب قراهم ومدنهم وأقاليمهم التي عاشوا فيها بخراسان لا حسب قبائلهم وأنسابهم ، وعلى ذلك فإن الجيش العباسي كان يعد أول جيش محترف منظم في تاريخ الدولة الإسلامية لأن عناصره كانوا ينتظمون كأفراد وليس كقبائل وكان ولاؤهم للدولة التي تعنى بتدريبهم وتموينهم المستمر وتجهيزهم شهريا بعطائهم^(١٧٩) .

وبالنسبة لاصطلاح الموالى في الجيش العباسي فإنه لا يقصد به الإشارة إلى كتلة

(١٧٨) عن استيطان العرب في خراسان ودورهم في الثورة العباسية والقضاء على الخلافة الأموية انظر ، على سبيل المثال ، عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت (١٩٧٠م) ؛ الخليفة المقاتل مروان بن محمد ، عرض وتحليل لقراءة دينت في شخصيته ودوره في سقوط الأمويين ، بغداد (١٩٨٥م) ، ص ٧٦ - ١٩٩ ؛ فيصل ، شكرى ، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، بيروت ، ط ٥ (١٩٨١م) ، ص ٢١٢ - ٢٢٠ ؛ العلى ، صالح أحمد ، امتداد العرب في صدر الإسلام ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨٣م) ، ص ٤٩ - ٥٦ ؛ استيطان العرب في خراسان ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد الثاني (١٩٥٩م) ؛ ص : إدارة خراسان ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد ١٥ ، (١٩٧٢م) ، ص ٣١٣ - ٣٣٠ ؛ وعن التقسيمات الإدارية لخراسان انظر ، الحديثى ، قحطان عبد الستار ، أرباع خراسان ، البصرة (١٩٩٠م) ، (٥٨٩ صفحة) .

(١٧٩) عمر ، النظم ، ص ١٥٣ - ١٦٠ .

عنصرية مكونة فى الأغلب من الفرس ولكن كتلة عبارة عن مزيج من أجناس عديدة يربطها بالخليفة رباط الولاء الذى تضعه فوق كل اعتبار ، كما أن ارتباطها بالدولة العباسية كان أقوى من أى ارتباط آخر مع وجود حالات استثنائية بطبيعة الحال ، وفى الجيش فإن كتلة الموالى كانت تتكون فى غالبيتها من عناصر غير عربية مرتبطة بأمير يرتبط هو أيضاً برباط الولاء للخليفة أو تربط هذه الكتلة بالخليفة مباشرة ، ويرجع الفضل إلى الخليفة المنصور فى تنظيم هذه الكتلة سواء فى الجيش أو فى الإدارة أو البلاط وليس أدل على أهمية هذه الكتلة من أن المنصور قد أوصى ولى عهده المهدي بالموالى قائلاً له أنه ترك له ثلاثة أشياء مهمة هى : المال والموالى ومدينة السلام وقد اعتمد عليهم المهدي اعتماداً كبيراً .

وكان للموالى ديوان خاص بهم فى بغداد يعرف بديوان الموالى والغلمان . أما الأبناء فقد ظهر هذا الاصطلاح فى أواخر عهد المهدي وفى أيام الهادي والرشيد وكان يقصد به الإشارة إلى أبناء وأحفاد أهل خراسان جند الدعوة العباسية الذين ثاروا فى وجه الأمويين وزحفوا نحو العراق والشام وأقاموا خلافة بنى العباس ١٣٢هـ / ٧٥٠م ، وكما أن أهل خراسان كانوا عرباً وعجماً فالأبناء دون شك سيكونون مزيجاً من الجنسين ولذلك أطلق عليهم بعض المؤرخين اسم « أبناء خراسان المولدين » ومن أبرز العرب من الأبناء عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي ومن أبرز العجم من الأبناء يحيى بن خالد البرمكي^(١٨٠).

وفى عهد الخليفة هارون الرشيد كان الجيش العباسي يتشكل من ثلاثة عناصر رئيسية : الأبناء وهم الجيل الثانى من أهل خراسان الذين استقروا فى العراق ، ثم العرب وهم يشكلون قوات القبائل العربية الجزرية والسورية ثم الجند العباسية وهم المجندون الجدد الذين جلبهم الفضل بن يحيى البرمكي من المشرق .

كذلك وجدت فى الجيش العباسي عناصر أخرى من السودان والزنوج والعبيد^(١٨١).

أما الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢م) فقد كان عسكرياً محترفا ورجل حرب أكثر من كونه رجل سياسة قضى معظم أوقاته مع الجيش ، ولعل أبرز ما

(١٨٠) عمر ، النظم ، ص ١٦٠ - ١٦٣ .

(١٨١) عمر ، النظم ، ص ١٦٤ - ١٦٦ .

يميز سياسته العسكرية هو اكثاره من استخدام العناصر المجندة من المشرق والتي سميت خطأ باسم الترك ؛ وذلك لأن الأكثرية من جند المعتصم لم تكن من الأتراك وهو الأمر الذي كان معروفاً في الجيش العباسي والبلات العباسي قبل عهد المعتصم .

ومن المتفق عليه أن المعتصم لم يبتدع بدعة جديدة أو تقليداً جديداً وإنما سار على سياسة الاستزادة والاستكثار من هذه العناصر وفتح لهم باب التطوع اما على شكل مجموعات تحت قيادة رؤسائهم أو أفراد فكانوا نواة لجند الشاكرية في العراق حيث بدأوا يظهرين كقوة في الجيش العباسي وغدا رؤسائهم موالى للخليفة وسجلوا في ديوان سمي « ديوان الجند والشاكرية » . وكان من النتائج المباشرة لما قام به المعتصم انشاء مدينة سامرا لهؤلاء المقاتلة الجدد واسقاط العرب من ديوان الجند وقطع أعطيائهم .

ولم يتوقف المعتصم عند هذا الحد بل أضاف فرقة عسكرية جديدة سماها المغاربة وفيها الكثير من أهل مصر من الخوف وكذلك من المغرب ؛ كذلك كانت هناك كتائب من عناصر أخرى مثل الموالى والأرمن والزلط والفراغنة والسودان^(١٨٢) .

هذا ويعد عام ٢٤٧هـ / ٨٦١م منعطفا مهما في تاريخ الجيش في العصر العباسي نظراً لقيام الجيش بأول انقلاب عسكري ضد خليفة عباسي - وهو المتوكل على الله - ونجح في قتله والتخلص من سياساته هذا من جهة ومن جهة ثانية بروز دور القادة العسكريين في سياسة الدولة وإدارتها بل اختيار وعزل الخلفاء ورؤساء الدولة ، ومن جهة ثالثة فشل جهود الدولة في الإبقاء على جيش نظامي موحد موال لها وتابع بصورة مباشرة لسلطة الخليفة^(١٨٣) .

وسوف نتطرق إلى دراسة الجيش في العصر العباسي الثاني والعصور التالية تفصيلاً في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) . وكل ما يمكن قوله في هذا المقام ، ووفقاً للخطة الموضوعية لهذا الكتاب المجلد الذي بين أيدينا ، هو أن مظاهر الضعف والتفكك الذي وصلت إليه أمور الخلافة العباسية في ظل سيطرة القواد العسكريين من الترك ثم البويهيين فالسلاجقة كانت له آثاره السلبية على فقدان هيبة الخلافة وضياع

(١٨٢) عمر ، النظم ، ص ١٦٦ - ١٧٢ ؛ الخلافة العباسية ، ج ١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٣ .

(١٨٣) عمر ، النظم ، ص ١٧٦ ؛ الخلافة العباسية ، ج ٢ ، ص ٢١ - ٢٤ .

سلطة الخليفة ؛ وان كان ذلك لم يمنع من محاولات استرداد هذه الهيبة واستعادة تلك السلطة من قبل بعض الخلفاء كما سبق القول .

غير أن ما يعنينا فى هذا المقام هو أن نشير إلى ظاهرة مهمة انتشرت فى العديد من الدول المستقلة أو الدول الاقليمية التى ظهرت فى المشرق الإسلامى ألا وهى ظاهرة احلال الاقطاع محل العطاء أو الرواتب للمقاتلة فى الجيش الإسلامى .

وقبل أن نتحدث عن هذه الظاهرة ينبغى أن نشير أولاً إلى أن هذه الدول المستقلة أو الاقليمية فى المشرق قد اعتمد جيشها على الممالك الأتراك بدرجة كبيرة ؛ وقد اتبعت هذه الدول نظاماً تربوياً وعسكرياً إسلامياً دقيقاً فى تربيتهم واعدادهم ولعل من أبرز هذه الدول الدولة السامانية التى أسست فى بلاد ما وراء النهر () وكانت عاصمتها مدينة بخارى^(١٨٤)، وقد اعتمدت هذه الدولة على الممالك الأتراك ، رغم أصلهم الفارسى ، حتى صاروا عماد جيشها ولذلك اهتموا بتربيتهم واعدادهم وفق نظام دقيق نسج على منواله فيما بعد ، ولحسن الحظ فقد أعطانا الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك (ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) وصفاً دقيقاً لهذا النظام بقوله «إن هذا النظام ما يزال قائماً فى ظل السامانيين الذين يرفعون من مرتبة الغلام - أى المملوك - تدريجياً بحسب خدماته وكفايته ولياقته ، فهم حين يشترون الغلام يضعونه فى خدمة الركاب العالى راجلاً بقاءً زندقى (نسبة إلى قرية زندقه من قرى بخارى) وموزج (أى حذاء ذو ساق) لسنة كاملة لا يسمح له فى خلالها بركوب الخيل سراً أو علانية وإذا ما فعل يعاقب على ذلك ، ولما تنتهى السنة يكلم رئيس عنبره الحاجب فى أمره فيخبر الحاجب الملك الذى يأمر له حينئذ بمهر (فرس) تركى بسرج غير مدبوغ ولجام جلدى عادى ، وبعد خدمة سنة بمهر وسوط فقط ، ويعطى فى السنة الثالثة سيفاً معقوفاً يشده على وسطه ، ويعطى فى الرابعة جعبة وكناية سهام يرتديهما عندما يمتطى جواده أما فى الخامسة فيعطى سرجاً أحسن ولجاماً مكوكباً وقباء ودبوساً وفى السادسة يولى السقاية ويوكل بالماء فيعلق فى وسطه قدحاً وفى السابعة يوكل باللباس وفى الثامنة يعطى خيمة من عمود واحد فى ستة عشر وتداً ويضاف إلى فوجه ثلاثة غلمان (ممالك) صغار ممن اشتروا حديثاً ، ويلبس قلنسوة لباد سوداء محلاة بخيوط

(١٨٤) العبادى ، نظم ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

فضية وقباء جنزيا (نسبة إلى مدينة جنزه) ، وهكذا ظل يزداد فى البسطة والاته وعدده وعدد أفراده ومقامه سنويا إلى أن يصبح قائد فوج ، وهكذا دواليك إلى أن يصير حاجبا وحين تبدو كفاءته وجدارته وشجاعته للجميع وتتم على يديه الأعمال العظيمة ثم يصبح محط أنظار صحبه ومحبا لمولاه فى ذلك الوقت ينبغى ألا يولى الإمارة أو الولاية ما لم يبلغ الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره « (١٨٥).

ويضيف نظام الملك قائلاً « ينبغى الحفاظ على العبيد والغلمان الذين يربون منذ صغرهم ويترعرون ويكبرون لأنه قلما يجود الزمان بغلام لائق متمرس ، وقد قيل « الخادم والعبد الكفء المتمرس خير من الابن »؛ وقيل « عبد مطواع واحد خير من ثلاثمائة ولد لأن هؤلاء يبيعون موت الأب والعبد ينشد عزه « (١٨٦).

أما عن الاقطاع العسكرى أو الحربى فقد اختلفت الأقوال حول نشأته بين المؤرخين القدامى والمحدثين فها هو البندارى يذكر « وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد وصرفها إلى الأجناد ولم يكن لأحد من قبل اقطاع فرأى نظام الملك أن الأموال لا تحصل من البلاد لاختلالها ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ففرقها على الأجناد اقطاعا وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا فتوفرت دواعيهم على عمارتها وعادت فى أقصر مدة إلى أحسن حال من حليتها « (١٨٧).

أما المقرئ فيقول « اعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أن تجبى أموال الخراج ثم تفرق من الديوان فى الأمراء أو العسمال والأجناد على قدرتهم وبحسب مقاديرهم وكان يقال لذلك فى صدر الإسلام العطاء ، وما زال الأمر كذلك إلى أن كانت دولة العجم فغير هذا الاسم وفرقت الأراضى اقطاعات على الجند وأول من عرف أنه فرق الاقطاعات على الجند نظام الملك أبو على الحسن بن على بن اسحق بن العباس

(١٨٥) الطوسى ، الخواجة نظام الملك ، سياست نامه سير الملوك ، ترجمة يوسف حسين بكار ، بيروت ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(١٨٦) الطوسى ، سياست نامه ، ص ١٤٢ .

(١٨٧) البندارى ، الفتح بن على بن محمد ، تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ، ط ٣ (١٩٨٠م) ، ص ٦٠ .

الطوسي (الوزير السلجوقي المتوفى ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر اقطاعه لأنه رأى أن في تسليم الأراضي إلى المقطعين عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها بخلاف ما إذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد فإن الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد ففعل نظام الملك ذلك وعمرت به البلاد وكثرت به الغلات واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين وأربع مائة إلى يومنا هذا (أى حتى زمن المقرئى المتوفى ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) ... « (١٨٨).

أما المؤرخين المحدثين فمنهم من يرى أن بذور الاقطاع الحربى أو العسكرى قد غرست فى عصر الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين من بعده ، ومنهم من يرى أن الاقطاع العسكرى يرجع إلى العصر الغزنوى فى عهد السلطان محمود الغزنوى ومنهم من يرجعه إلى عصر الدولة البويهية ومنهم من يرى أنه يرجع إلى العصر السلجوقي على يد الوزير نظام الملك الطوسى بل وأصبح منذ ذلك الوقت نمطا يحتذى فى العالم الإسلامى وتم تعميمه فى العديد من الدول الإسلامية فى المشرق والمغرب على السواء ، وهو ما سوف نعود إلى مناقشته تفصيلا واسهابا فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) (١٨٩).

-
- (١٨٨) المقرئى ، الخطط ، المجلد الأول ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، ص ٢٥٦ .
- (١٨٩) لمزيد من التفاصيل عن هذه الآراء المختلفة وحجة أصحاب كل منها انظر ، طرخان ، إبراهيم على ، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، القاهرة (١٩٦٨م) ، ص ٢١ - ٤٨ ؛ إسماعيل ، محمود ، الاقطاع فى العالم الإسلامى ، حويلات كلية الآداب ، الحولية ١١ ، الرسالة ٦٩ ، جامعة الكويت ، مجلس النشر العلمى (١٩٨٩ - ١٩٩٠م) ، ص ١١ - ٦٥ ؛ أبو الجدايل ، عائشة سعيد ، الاقطاع الحربى الإسلامى جذوره وخصائصه وضوابطه مع مقارنة ذلك بما استجد عليه من أمور دخيلة وعلاقتها بالاقطاع الغربى ، مجلة العصور ، المجلد ١٥ ، ج ١ ، (ذو القعدة ١٤٢٥هـ / يناير ٢٠٠٥م) ، ص ٢٩ - ٥٣ ؛ الانصهار والاندماج فى الاقطاع الحربى ، دراسة مقارنة ، حويلات مركز البحوث التاريخية ، الحولية ٣ ، الرسالة الأولى ، كلية الآداب - جامعة القاهرة (جمادى الأولى ١٤٢٥هـ / يوليو ٢٠٠٤م) وهذا البحث الأخير يفيد فى الدراسة المقارنة للاقطاع الإسلامى والغربى؛ ريان ، محمد رجائى ، الاقطاع العسكرى فى العهدين المملوكى والعثمانى ، الدارة ، العدد ٢ ، السنة ١٤ ، الرياض (١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م) ، وانظر أيضاً مجلة الاجتهاد ، العدد الأول ، بيروت ، دار الاجتهاد (١٩٨٨م) (وبهذا العدد مقالات عن الاقطاع الإسلامى وتطوره لكلود كاهن ولامبتون وحسن منيمه ...).

د - العصر الفاطمي :

كان الجيش فى العصر الفاطمى فى بادئ الأمر ذا صبغة بربرية صقلبية (١٩٠) ، فقد كان يتشكل فى المرحلة الافريقية (٢٩٧ - ٣٥٨ هـ / ٩٠٩ - ٩٦٩ م) من أربعة عناصر أساسية هى : الكتاميون من البربر والصقالبة والزويليون (العبيد السود) والجنود العرب ، وبعد انتقالهم إلى مصر أضيفت عناصر جديدة إلى الجيش الفاطمى ولا سيما فى خلافة العزيز بالله وكانت هذه العناصر من المشاركة ولا سيما الأتراك والفرس الديلمية ، أما الخليفة المستنصر بالله فقد استكثر من العناصر السودانية فى الجيش الفاطمى حتى بلغوا نحواً من خمسين ألف أسود ، وبعد أن قدم بدر الجمالى والى عكا إلى مصر ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ظهر الأرمن بدرجة كبيرة فى الجيش الفاطمى (١٩١) .

ومهما يكن من أمر فإن الدولة الفاطمية تعتبر الدولة الإسلامية الوحيدة التى جمعت على نطاق واسع بين الأتراك والصقالبة أى بين ممالك الشرق والمغرب (١٩٢) .

هـ - الجيش الإسلامى فى المغرب والأندلس :-

كانت جيوش المغرب والأندلس فى بادئ الأمر تقوم على أساس نظام القبائل والعشائر من العرب والبربر وكانت الدولة تستمد منهم القوة الحربية على أساس النظام الاقطاعى العسكرى السابق الإشارة إليه ، حيث وزعت القبائل العربية والبربرية على القرى والبوادر والمدن المغربية والأندلسية وأبيح لها حق استغلالها وجباية الأموال من

(١٩٠) أطلق الجغرافيون المسلمون فى العصور الوسطى لفظة صقلب وصقالبة على الشعوب السلافية لأن الجرمان دأبو على سبى تلك الشعوب وبيع رجالها ونسائها إلى المسلمين بالأندلس ، ولذا أطلق عليهم اسم الصقالبة وهو تعريب للكلمة الأوربية اسكلاف Esclaf أو سلاف Slave ومعناها عبد أو رقيق وهى الكلمة التى سميت بها الشعوب السلافية ، ثم عم إطلاقه على الأرقاء الذين جلبوا صفاراً من مختلف نواحي أوروبا بصفة عامة ومن شمال اسبانيا بصفة خاصة ، وكانت توجد فى مدينة بلرم فى صقلية حارة الصقالبة وقد وصفها الرحالة ابن حوقل ، والراجح أن هذه الحارة كانت بمثابة مركز تجمع واعداد للرقيق الصقلبي قبل إرساله إلى الأندلس والمغرب ؛ العبادى ، نظم ، ص ١٧٥ ، ١٧٨ .

(١٩١) سيد ، أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص ٦٥٧ - ٦٧٣ ؛ أبو زيد ، سهام مصطفى ، تاريخ الأرمن فى مصر الإسلامية فى مائة عام ٤٦٦ - ٥٦٦ هـ / ١٠٧٣ - ١١٧١ م ، القاهرة (١٩٩١م) ، ص ١١٣ - ١٤٧ .

(١٩٢) العبادى ، نظم ، ص ١٧٩ .

أهلها فكانت تأخذ عطاءها من هذه الأموال وترسل الفائض إلى خزانة الدولة ، وفي مقابل هذا الاقطاع كان على كل قبيلة أن تساهم بعدد من أبنائها في حالة الحرب .

وظل هذا النظام العسكرى هو النظام المتبع فى الأندلس حتى عهد الأمير الحكم بن هشام الملقب بالحكم الربضى (١٨٠ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢م) فقد رأى هذا الأمير أن يقيم إلى جانب هذا النظام الاقطاعى نظاما عسكريا دائما يعتمد عليه فى كل وقت ويتقاضى جنوده مرتبا ثابتا من الدولة وكان ذلك عقب قضائه على ثورة الرضى التى اقترن اسمه بها بعد نجاحه فى القضاء عليها ، واتخذ لنفسه فرقة من الحرس الخاص عرفوا بالصقالبة ، وهكذا وجد فى الأندلس فى عصر هذا الأمير نظام الجيش الدائم ومقره قرطبة ونظام القبائل والعشائر التى كانت تقيم فى البوادر والولايات . غير أن هذا الوضع الجديد قد أثار الحسد والتنافس بين هذه العناصر المختلفة ويتجلى ذلك بوضوح فى الهزيمة التى لحقت بالجيش الأموى أمام الاسبان فى موقعة شلمنقه ٣٢٧هـ / ٩٣٨م (شمال مدريد) وكان سبب ذلك هو أن الخليفة عبد الرحمن الناصر منح قيادة الجيش لمملوكه نجده الصقلبي مما أثار غضب القواد العرب فما كان منهم إلا أن تخلوا عنه إبان المعركة مما أدى إلى هزيمته بل وقتل نجده الصقلبي نفسه (١٩٣).

ولما جاء الحاجب المنصور بن أبى عامر وقبض على زمام الأمور فى الأندلس (٣٧١ - ٣٩٢هـ / ٩٨١ - ١٠٠١م) ، قام بإلغاء النظام الاقطاعى العسكرى وإلغاء العنصرية فى ترتيب الجيش وجعل الجيش نظاميا يتشكل من فرق متعددة وكل فرقة تتألف من العناصر المختلفة كالعرب والبربر والصقالبة ، ويتقاضى كل جندي منهم مرتبا شهريا حسب رتبته بدلا من استغلاله للاقطاع كما كان الحال من قبل ، ولقد أفاد هذا النظام الجديد فى بادئ الأمر إذ زالت العصبية العنصرية بين فرق الجيش واستطاع المنصور أن يفرض على الجيش نفوذه وسلطانه وأن يحقق به انتصاراته الحربية المشهورة ضد الاسبان .

وفى عصر المرابطين تمت إعادة النظام الاقطاعى العسكرى من جديد (١٩٤).

(١٩٣) العبادى ، نظم ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(١٩٤) العبادى ، نظم ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

و- العصر المملوكى :

كان الجيش الإسلامى فى العصر المملوكى يضم عناصر مختلفة من ترك وچركس وأكراد وروم وتركماني وعرب ومغول وغيرهم ، غير أن ما يعنينا فى هذا المقام ، ووفقا للخطة الموضوعية لهذا الكتاب المجلد ، أن نتحدث عن تشكيل الجيش الإسلامى خلال ذلك العصر .

ويمكن القول أن الجيش المملوكى كان يتشكل من ثلاث فرق رئيسية وهى :
المماليك السلطانية ، وأجناد الحلقة ، وأجناد الأمراء .

أولاً : المماليك السلطانية :

كانوا « أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدّهم إلى السلطان قربًا وأوفرهم اقطاعًا ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة ... » .

وينقسم المماليك السلطانية إلى عدة فئات :

١ - الخاصكية وهم الذين يلزمون السلطان فى كل تحركاته ويقومون بالمهام الشريفة ويمتازون عن بقية المماليك السلطانية بأن السلطان نفسه يشرف على تربيتهم وعثقتهم ولذلك كانوا أكثر قربًا منه عن غيرهم من المماليك ومن بينهم كان الترشيح للامارة ونيابة الاقاليم والقلاع .

٢ - الأجلاب أو المشتروات : وهم مماليك يشتريهم السلطان ويضعهم فى الطياق ويشرف على تربيتهم الطواشية ومقدمى المماليك الذين عرفوا بالصرامة والورع وشدة الانضباط ، وبعد أن تتم تربيتهم فى الطياق كانوا يعتقون وينعم عليهم بالخيول والقماش بالإضافة إلى السلاح والجامكية والاقطاعات .

٣ - المماليك السيفية وهم على نوعين : مماليك ينسبون إلى السلطان السابق ومماليك ينسبون إلى الأمراء ، وقد نقلوا إلى الديوان الشريف .

٤ - القرانيص وهم مماليك السلاطين السابقين وكانوا فئتين : الأولى مماليك السلاطين المتوفين من فترة طويلة والثانية مماليك السلاطين الذين لم تمض على وفاتهم فترة طويلة .

ثانيًا : أجناد الحلقة : وكانوا يعتبرون قلب الجيش المملوكى والأصل فى التوزيع الاقطاعى ، وهم الذين كان ينشئهم السلاطين دون فئات ممالك الأمراء ، ثم ازداد عدد أجناد الحلقة بمن انضم إليهم من التتار والوافدية ، كما انضم إليهم بعض أرباب الصنائع والحرف على أثر الضعف الذى أصاب الجيش حين أصبح أفرادهم يبيعون اقطاعاتهم إلى أهالى البلاد ، وأضيف إلى أجناد الحلقة أحيانًا ممالك الأمراء الذين انحلت اقطاعات أساتذتهم ، كما اعتبر من أجناد الحلقة العربان والأكراد والتركمان بحيث تركز عملهم فى حماية أطراف الدولة والاشتراك بفرسانهم فى الحرب عندما كانت تدعو الحاجة إلى ذلك . ومن الجدير بالذكر أنهم كانوا يأمرسون بأمر السلطان القائم دون أن يكونوا ملوكا له ومعنى هذا أنهم كانوا بمثابة الجيش الدائم للدولة .

ثالثًا : أجناد الأمراء : وكانوا يتبعون أمراءهم مباشرة وكان جيش الأمير يتوقف فى عدده على حسب الحالة المادية لهذا الأمير أو ذاك ، وليس أدل على أهمية أجناد الأمراء من قول المقرئى « ان مقام الأمراء بممالكهم » .

ومن مجموع هؤلاء الأمراء وأجنادهم والممالك السلطانية وأجناد الحلقة تشكل الجيش الإسلامى فى العصر المملوكى^(١٩٥) .

ولما كان المقام لا يتسع لذكر كل التفاصيل المتعلقة بالجيش فى العصر المملوكى (وهو ما سنعود إليه تفصيلاً واسهاباً فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى) ولذلك حسبنا أن نشير إلى ذلك الدور البارز للجيش الإسلامى فى العصر المملوكى فى جهاده ضد المغول والصليبيين فى عهد قطز وبيبرس وقلاوون والأشرف خليل بن قلاوون والناصر محمد بن قلاوون من سلاطين عصر الممالك البحرية^(١٩٦) .

(١٩٥) عدوان ، أحمد محمد ، العسكرية الإسلامية فى العصر المملوكى ، الرياض (١٩٨٥م) ، ص ٣٣ .
٣٦ ؛ ولزيد من التفاصيل ، انظر ، طرخان ، النظم الاقطاعية ، ص ١٤٨ - ١٧٤ ؛ الغامدى ، جهاد الممالك ضد المغول والصليبيين ، ص ٣١٢ - ٣١٧ .
(١٩٦) الغامدى ، جهاد الممالك ضد المغول والصليبيين ، ص ١٠٥ - ٢٨٥ ؛ سليمان ، نعمان الطيب ، جهود الممالك فى تصفية الوجود المغولى بالشام ، القاهرة (١٩٨٨م) ، (٢٠٧ صفحة) ؛ جهود الممالك فى تصفية الوجود الصليبي بالشرق الإسلامى ، القاهرة (١٩٨٤م) .

ز- العصر العثماني :

لم يكن للإمارة العثمانية عند قيامها جيش نظامي تعتمد عليه ، فكانت عند الحاجة تجمع في مكان عن طريق المنادين قوات العشائر المكونة من المجاهدين (الغزاة) الذين كانوا جميعا من الفرسان ثم يخرجون إلى الحرب فإذا انتهت تفرقت جموعهم وعاد كل واحد إلى عمله الأصلي . فكانت قوات الحدود تلك هي التي حققت الفتوح الأولى ، كما استعانت هذه الإمارة الحدودية بجماعة الدراويش التي تشكلت تحت أسماء : غازيان روم (أى مجاهدى الروم) وآخيان روم (أى الأخية الروم) وأبدالان روم (أى دراويش الروم) ولعبت تلك الطوائف دوراً فعالاً في تنريك الأراضي المفتوحة .

وبعد فتح مدينة بورصة (أو بروصة) جرى تشكيل أولى الوحدات النظامية على عهد أورخان الغازي من المشاه (يايا) والفرسان (مُسَلَّم) وكان عددهم الفين من فتيان الترك الأشداء ألف للمشاه وألف للفرسان ، فلما ازداد عدد المشاه والفرسان مع مرور الوقت كانوا يذهبون إلى الحرب بالتناوب ، وينقسم جنود المشاه إلى جماعات تضم عشرة جنود وبلوكات تضم مائة جندي وكان يوجد على رأس كل جماعة قائد اسمه أونباشي (أى رئيس العشرة) وعلى رأس البلوك قائد اسمه يوزباشي (أى رئيس المائة) بينما يقود الجميع قائد اسمه بيكباشي (أى رئيس الألف)، أما جنود الفرسان فقد انقسموا إلى أوجاقات تضم كل منها ثلاثين فارساً ، كما كانت تشارك في الفتوح العثمانية الأولى قوات أخرى دائمة ومؤقتة تحت أسماء مثل عزب وجانباز وغريب وجراخور ، وهؤلاء المشاة والفرسان الذين استخدموا بالفعل في الأعمال العسكرية حتى أواسط القرن ٩هـ / ١٥م ، قد جرى استخدامهم بعد تشكيل وحدات القبو قولية (قابى قولى أو جاكلر) في عمليات النقل وتشغيل المناجم وبناء القلاع ، وفي الترسانة وغيرها من الأعمال بين وحدات الخدمة فى المؤخرة .

أولاً : اوجاقات القبو قولية :-

١ - أوجاقات القبو قولية المترجلة وتشمل أوجاق العجمية الذى تأسس لأول مرة فى غاليبولى وكان ينقسم إلى ثمانية بلوكات ويضم ٤٠٠ جندي ، وبعد فتح القسطنطينية جرى تشكيل جديد لاوجاق العجمية أكبر وأكثر تنظيماً .

وأوجاق الانكشارية وكان أكبر الاوجاقات وأعظمها نفوذاً وجرى تشكيله عقب

فتح أدرنة على عهد السلطان مراد الأول ، وكان هذا الأوجاق عصب الجيش العثماني حتى أواخر القرن ١٠هـ / ١٦م عندما بدأ الخلل يتسرب إلى نظم الانكشارية وما ترتب على ذلك فى القرنين التاليين من اعلان التمرد والعصيان وكثرة الثورات وقتل السلاطين ورجال الدولة الذين أقدموا على اصلاح ما فسد من أمورهم ، ومهما يكن من أمر فقد الغى هذا الأوجاق عام ١٨٢٦م .

ومن الاوجاقات الأخرى أوجاق الجبجية بقسميه (بلوك وجماعة) وكانت وظيفتهم الأساسية هى تأمين الأسلحة للانكشارية والمحافظة عليها فضلاً عن نقلها أثناء الحرب وتوزيعها على الانكشارية واصلاح المعطوب منها ، ومنها أوجاق المدفعية وكان يتولى صب المدافع وتصنيعها ثم استخدامها بعد ذلك ، ومنها أوجاق رماة القُمبَر (الخمبرجية) وهم الذين كانوا يستخدمون هذا النوع من القنابل التى تقذف باليد أو بمدافع الهاون ومنهم أوجاق حَفَّارى الأنفاق (اللغمجية) وكانت مهمتهم حفر الأنفاق تحت الأرض ووضع المواد المتفجرة فيها ثم تفجيرها لتسهيل عملية الاختراق والفتح .

٢ - أوجاقات القبو قولية الراكبة (الفرسان) وكان يتشكل فى بادئ الأمر من بلوكات السباهية والسلحدارية ثم لم يلبث أن ارتفع عددها إلى ستة بلوكات (آلتى بلوك) وكانت قوات الخيالة أرفع منزلة من جنود القبو قولية المترجلة ، ومع ذلك كانت تأتى بعدها من حيث النفوذ .

ثانياً : قوات الايالات :

وكانت تشكل القوة الحربية الأساسية فى الدولة العثمانية ، وقد تشكلت فى أوائل عهد الدولة من وحدات مختلفة هى السباهية أصحاب التيمارات تيمارلى سپاهي) ، والمشاه (يايا) والمسلم واليورك والأجير (جراخور) والفدائية (جانباز) والمغيرة (اقينجي) والدلاة (دلى) والعزب والمتطوعة (كوكللو) والبشلو .

وكانت القوات التى تلى السباهية أصحاب التيمارات (تيمارلى سپاهي) تعد من القوات المعاونة ضمن القوات المربطة فى الايالات ، وكانت هذه القوات المعاونة تنقسم إلى ثلاث مجموعات :

أ - قوات الطلائع مثل المغيرة والدلاة والمشاة .

ب - قوات المؤخرة المشاة واليوروبوك والمسلم واللاجيرة والفدائية .

ج - قوات حماية القلاع مثل العزب والكوكللو والبشلو (١٩٧).

وفى كتابنا المفصل سوف نتطرق تفصيلاً واسهاباً إلى العديد من تشكيلات الجيش العثماني السابقة ثم نتطرق إلى دراسة العوامل التي كانت وراء تدهور حالة هذه التشكيلات ، وما ترتب على ذلك من إجراء محاولات الإصلاح فى عهد السلطان سليم الثالث (النظام الجديد) ثم فى عهد السلطان محمود الثانى (السكبانىة الجدد) أو جيش العساكر المنصورة المحمدية عقب القضاء على اوجاق الانكشارية ١٨٢٦م الرافض للإصلاح وغير ذلك من التطورات العسكرية بعد إعلان التنظيمات .

ـ أسلحة الجيش :ـ

استخدم المسلمون جميع أنواع الأسلحة المعروفة فى العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة ويمكن أن نقسم هذه الأسلحة إلى نوعين رئيسيين هما :

١ ـ الأسلحة التقليدية سواء أكانت أسلحة دفاعية (وقائية) أو هجومية أو أسلحة فردية أو جماعية خفيفة ، كانت أم ثقيلة ، ومن هذه وتلك حسبنا أن نشير إلى السيوف والرماح والنشاب أى السهام ذات النصول المثلثة ، كما استخدموا أقواس اليد والرجل وأقواس اللولب التى تشد بواسطة لولب وأقواس الركاب التى تشد من ركاب الخيل ، واستخدموا كذلك اللتوت وهى أعمدة ذات رؤوس حديدية مستطيلة ومضرسة ، والدبابيس وهى تشبه اللتوت إلا أن رؤوسها مدورة ومضرسة والطبر أو الطبرزين (الفأس) والدرق اللمطية لاتقاء ضربات العدو وسهامه وهى مغطاة بجلد اللمط (وهو حيوان يعيش فى الصحراء) كذلك لبسوا الخوذات أو البيضات لحماية رؤوسهم كما لبسوا الجواشن التى تحمى صدورهم والدروع المسبلة ذات المغافر المثلثة التى تغطى جميع أجزاء الجسم . أما الأسلحة الثقيلة فتشمل المنجنقات والدبابات والكباش والضبور والعرادات والأبراج والحسك (١٩٨).

(١٩٧) اوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ١ ، ص ٣٨١ - ٤٠٥ .

(١٩٨) العبادى ، نظم ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ؛ عبد الرؤوف ، الهندسة العسكرية فى الفتوحات الإسلامية ١١ -

١٣٢ هـ / ٦٣٢ - ٧٤٩ م ، بغداد (١٩٩٧م) ، ص ٦٢ - ٨٢ ؛ الجنابى ، تنظيمات الجيش العربى =

٢ - الأسلحة المتطورة :-

أ - القدور الكفيات :

وهى عبارة عن قدور خزفية فى حجم الرمانة محشوة بالجير والنشادر والبول ، وكانت تلقى على العدو بالكف أو اليد مثل القنابل اليدوية ، فإذا اصطكت بجسم العدو المدرع بالحديد انكسرت وخرجت رائحتها فى خياشيمه وسببت له اختناقاً .

ب - قوارير النفط أو نيم النفط أو جلل النفط :

وكانت هى الأخرى عبارة عن قدور فى حجم ثمرة الرمان وشكلها وتملاً بمادة حارقة سريعة الالتهاب أساسها النفط والكبريت وبعض الراتنجات والأدهان السائلة ، فإذا القيت على هدف من الأهداف أشعلت النار فيه ، ولحسن الحظ فقد أمدتنا الحفائر الأثرية بكميات كبيرة منها (١٩٩) (لوحة ٢٥٦) .

أما أشهر المدن الإسلامية التى أحرقت بهذه القوارير فهى مدينة الفسطاط ٥٦٤هـ / ١١٦٨م وفى ذلك يذكر المقرئى « وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة

= الإسلامى فى العصر الأموى ، ص ١٤٢ - ١٥٩ : عمر ، النظم ، ص ١٨٢ - ١٨٣ : عبد الرازق ، الحضارة ، ص ١٩٦ - ٢٠٢ : العمرى ، عبد العزيز إبراهيم ، الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول (ﷺ) ، الرياض (١٩٨٥م) ، ص ٢٤٣ - ٢٦٩ : ومما له دلالة فى هذا الصدد أن المتاحف العالمية والمجموعات الخاصة لا تزال تحتفظ بأعداد كبيرة من الأسلحة الإسلامية ، فضلاً عن الآثار الإسلامية الباقية وبخاصة زخارف الفنون التطبيقية وبعض العمائر والنقود الإسلامية والمخطوطات المصورة والصور الشخصية وغير ذلك وهو الأمر الذى بدأ يلتفت إليه العلماء والباحثين فى العقود الخمسة الأخيرة ، وحسبنا أن نشير إلى بعض هذه الدراسات ، على سبيل المثال وليس الحصر ، ومنها : زكى ، عبد الرحمن ، السيف فى العالم الإسلامى ، القاهرة (١٩٥٦) : عليوه ، حسين ، السلاح المعدنى للمحارب المصرى فى عصر المماليك ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة القاهرة (١٩٨٤م) ، ياسين ، عبد الناصر محمد حسن ، الأسلحة الهجومية فى العصر الإسلامى (بالتطبيق على زخارف الفنون التطبيقية والعمائر) ، مجلة كلية الآداب بسوهاج ، جامعة جنوب الوادى ، العدد ٢٤ ، ج ٢ ، اصدار خاص : دراسات أثرية (أكتوبر ٢٠٠١م) ، (١٨١ صفحة فضلاً عن الأشكال واللوحات) ؛ الأسلحة الدفاعية « الجنن الواقية » فى العصر الإسلامى (بالتطبيق على زخارف الفنون التطبيقية والعمائر) .

(١٩٩) العبادى نظم ، ص ١٨٠ - ١٨١ : عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

نفط وعشرة الاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظراً مهولاً فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً...» (٢٠٠).

جـ. المدافع والأسلحة النارية :-

توصل المسلمون منذ منتصف القرن ٧هـ / ١٣م إلى اكتشاف خاصية جديدة للنفط كمادة هادمة متفجرة إذا اختلطت بملح البارود (نترات البوتاسيوم) أو النشادر والفحم والكبريت بنسبة ١٠ : ٢ : ١٥ ، وهذا الاكتشاف أدى إلى ظهور المدافع والأسلحة النارية (٢٠١)، وقد شاع هذا السلاح الجديد في العصر المريني وفي ذلك يذكر ابن خلدون عندما تحدث عن هجوم السلطان يعقوب المريني على مدينة سبلماسة (تافيلالت الحالية في الجنوب) عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م أنه - أي السلطان - « نصب عليها هندام (آلة) النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها » (٢٠٢).

كذلك استخدم هذا السلاح في عصر سلاطين بني الأحمر أو بني نصر في غرناطة وفي ذلك يذكر ابن الخطيب « وفي سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م نازل السلطان - أي السلطان إسماعيل بن الأحمر - بلدة أشكر Huescar (وشقة) ونشر عليها الحرب ورمى بالآله العظي المتخذة بالنفط كرة محماة طاقة البرج المنيع فعاثت عياث الصواعق السماوية ونزل أهلها قسراً على حكمه » (٢٠٣).

ومن الطريف أن المصادر الاسبانية المعاصرة في وصفها لأحداث هذه الحرب أشارت إلى هذا السلاح الجديد ، ففي حوليات ثوريتا zurita (ج٤ ، ص ٣١) نجد هذه العبارة

(٢٠٠) المقبزي الخطط ، مج ٢ ، ص ١٤٥ ؛ سيد ، أمين فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص ٢٩٦ .

(٢٠١) العبادي ، نظم ص ١٨١ ، عبد الرازق ، الحضارة ، ج١ ، ص ٢٠٣ .

(٢٠٢) ابن خلدون ، العبر ، ج٧ ، ص ١٨٨ ؛ بنعبد الله ، عبد العزيز ، الجيش المغربي عبر العصور ، الرباط (١٩٨٦م) ، ص ٤٩ ، ٨١ .

(٢٠٣) ابن الخطيب ، لسان الدين ، ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م ، اللوحة البدرية في الدولة النصرية ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨٠م) ، ص ٧٢ ؛ بنعبد الله ، الجيش المغربي ، ص ٨١ .

« واتشهرت الاشاعات فى مدينة لقنت أن ملك غرناطة يمتلك سلاحاً جديداً مبيداً » (٢٠٤).

وعلى ذلك يرجع الفضل إلى المسلمين فى اكتشاف هذا السلاح الجديد قبل ظهوره فى أوروبا لأول مرة فى معركة كريسى Creasy ١٣٤٢م فى حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا والتي انتصرت فيها انجلترا بفضل استخدامها لهذا السلاح الجديد . هذا ولا يزال يوجد فى المغرب وفى مدينة العرائش بالذات مدافع أثرية يرجع تاريخها إلى عصر السعديين ، وقد نقش عليها « أمر بصنع هذا النفط السعيد السلطان ... » . وهو الأمر الذى يشير إلى أن لفظة النفط لم يعد يقصد بها النار الحارقة فحسب بل يقصد بها كذلك المدفع المدمر الهادم الذى يحدث فرقة مثل الصواعق السماوية (٢٠٥).

كذلك عرف سلاطين المماليك المدافع أو المكاحل وهو ما يستدل عليه من المصادر التاريخية المختلفة فضلاً عن الأدلة الأثرية الباقية كما سنشير إلى ذلك تفصيلاً واسهاباً فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

- التعبئة وأساليب القتال :

التعبئة اصطلاح معروف فى النظام العسكرى عند المسلمين ، ووردت لفظة التعبئة فى المعاجم اللغوية بمعنى فن ترتيب الجند فى مواضعهم وتهيئتهم للحرب وتعتبر الآية الكريمة ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (سورة الانفال آية ٦٠) . المرتكز الأول التى استندت إليه التعبئة الإسلامية وهو يعنى الاستخدام الأفضل للأسلحة فى المعركة مع حشد جميع الطاقات المادية والمعنوية اللازمة لتحقيق النصر ، وشملت التعبئة بهذا المفهوم كل المصطلحات العسكرية التى ظهرت فى العصر الحديث ومنها الاستراتيجية والتكتيك وغير ذلك (٢٠٦) .

(٢٠٤) عن : العبادى ، نظم ، ص ١٨٢ ، ٣٥٢ .

(٢٠٥) العبادى ، نظم ، ص ١٨٢ - ١٨٣ ، ٣٥٢ .

(٢٠٦) الجنابى ، تنظيمات الجيش ، ص ١٦٣ ؛ العدو ، النظم الإسلامية ومؤسساتها التنفيذية فى صدر الإسلام والعصر الأموى ، القاهرة (١٩٧٢م) ، ص ٣٢٨ .

هذا وقد تطورت أساليب القتال في الإسلام تطوراً كبيراً فبعد أن كان العرب ومثلهم البربر في المغرب يجيدون القتال بأسلوب الكر والفر ظهر أسلوب جديد أمر به الله سبحانه وتعالى في كتابه المحكم بقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ (سورة الصف آية ٤) .

وبفضل هذا الأمر الإلهي تحول القتال من أسلوب الكر والفر إلى أسلوب الصفوف أو الزحف حيث « ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدُمًا فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد أو القصر المشيد لا يطمع في ازالته » (٢٠٧).

والترتيب القتالي في نظام الصفوف أو الزحف كانت تقسم فيه القوات إلى خمسة أقسام : المقدمة والقلب والجناح الأيمن والجناح الأيسر والمؤخرة وكان أسلوب القتال هو ترتيب المقاتلين بصفوف مستوية متعاقبة وكان رجال الصف الأول وهم المسلحون بالرمح الطويلة يجشون على ركبهم ويحمون أنفسهم بالتروس من نبال الأعداء ورماحه ويغرسون رماحهم الطويلة في الأرض موجهين رؤوسها باتجاه تقدم العدو ويتمركز النبالون خلف المشاة حاملي الرماح ويرمون العدو المهاجم من فوق رؤوسهم (٢٠٨).

وكان عدد الصفوف يتوقف على عدد المقاتلين وعلى رأى القائد وما تتطلبه ظروف المعركة ففي القادسية واليرموك كان عددها ثلاثة صفوف ، ووصلت في بعض المعارك الأخرى إلى خمسة أو سبعة ، وهناك أنواعا لأسلوب القتال بالصفوف بحسب ما تمليه طبيعة المعركة أو تتحكم في ذلك طبيعة الأرض نفسها ومنها الصفوف المستوية والصفوف الهلالية والصفوف المعطوفة (الهلل المقلوب) (٢٠٩).

كذلك استخدم المسلمون أسلوب آخر خلال عصر الخلفاء الراشدين وهو أسلوب القتال بالكراديس وهى كلمة يونانية Khortos معناها الكتائب أو الوحدات أو الكتل، حيث كان الجيش المحارب يقسم إلى عدة كتل دعيت كل كتلة منها كردوسا

(٢٠٧) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مج ١ ، ص ٢٨٨ .

(٢٠٨) الجنابى ، تنظيمات الجيش ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢٠٩) الجنابى ، تنظيمات الجيش ، ص ١٦٦ - ١٦٨ ؛ عبد الرؤوف ، الهندسة العسكرية في الفتوحات الإسلامية ، ص ١٣٤ - ١٣٦ .

يتألف من ألف جندي وجعلوا لكل كردوس قائده وبين الكردوس والآخر فرجات مناسبة تتحكم بسعتها طبيعة الأرض وسلاح العدو (٢١٠).

ويقال أن هذا الأسلوب فى القتال قد عرفه العرب قبل الإسلام وطبقوه فى معركتهم الشهيرة مع الفرس المعروفة بيوم ذى قار ، أما فى العصر الإسلامى فالثابت تاريخيا أن هذا الأسلوب قد استخدم فى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فى كل من معركة اليرموك ومعركة القادسية الشهيرتين ، كذلك استخدم خلال العصر الأموي (٢١١).

وكما برع المسلمون فى ممارسة مختلف أساليب القتال كذلك برعوا فى استحداث أساليب تعبوية جديدة دلت على عبقريتهم وامكانياتهم القتالية الكبيرة وقوة صبرهم وذلك خلال المراحل المختلفة للمعارك التى خاضوها من الاستطلاع والهجوم والدفاع والانسحاب والمطاردة وهو ما سوف نتطرق إليه ولغيره مما لم نذكره هنا لضيق المقام تفصيلا واسهابا فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

ثانياً : الجيش الإسلامى البحرى (البحرية الإسلامية) :-

بعد الفتوح الإسلامية لكل من الشام ومصر وافريقية وجد المسلمون أنفسهم مطلين على شواطئ البحر المتوسط ومن ثم بات عليهم مواجهة أعداء الداء مثل البيزنطيين الذين دأبوا على شن الغارات على هذه الشواطئ الإسلامية ؛ ولذلك ركب كلا الفريقين البحر ليعلو خصمه وكان النصر حليف المسلمين بفضل إنشاء (٢١٢)

(٢١٠) العبادى ، نظم ، ص ١٨٣ ؛ الجنابى ، تنظيمات الجيش ، ص ١٦٨ ؛ عبد الرؤوف ، الهندسة العسكرية ، ص ١٣٨ .

(٢١١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مج ١ ، ص ٢٩٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٥ ؛ العبادى ، نظم ، ص ١٨٣ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ١٩٥ ؛ الجنابى ، تنظيمات ، ص ١٧٠ - ١٧١ ؛ عبد الرؤوف ، الهندسة العسكرية ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢١٢) الأسطول (وجمعه اساطيل) كلمة يونانية الأصل تطلق فى اللغة العربية على المراكب الحربية مجتمعة أو على السفينة الواحدة وقد يقال المراكب الاسطولية ، كذلك يقال للجندي الذى يعمل فى الاسطول «اسطولى» . النخيلى ، درويش ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٧٩م) ، ص ٢ - ٤ .

الاسطول الإسلامى فى عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) وعلى يدى معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، ونجح هذا الاسطول فى أول غزوة بحرية للمسلمين فى البحر المتوسط وهى قبرص عام ٢٨هـ / ٦٤٨م ، ثم لم يلبث الاسطول الإسلامى أن حقق أعظم انتصاراته الحربية فى هذه الفترة فى معركة ذات الصواري الشهيرة عام ٣٤هـ / ٦٥٤م التى كانت حداً فاصلاً فى تاريخ البحر المتوسط حيث قوض المسلمون اسطورة التفوق البحرى للبيزنطيين وصاروا بحق أصحاب السيادة البحرية فى البحر المتوسط .

وفى العصر الأموى أنشئت دوراً لصناعة السفن فى عكا بأمر معاوية بن أبى سفيان ثم نقلت إلى صور فى خلافة هشام بن عبد الملك ، كذلك تأسست داراً لصناعة السفن فى جزيرة الروضة بمصر عام ٥٤هـ / ٦٧٤م وفى تونس (ترشيش) عام ٨٩هـ / ٧٠٨م (٢١٣).

هذا وقد انتقلت كلمة دار الصناعة إلى اللغات الأوروبية مثل دارسانا Darsana وارسنال Arsenal وتعنى المكان الذى تصنع فيه السفن ؛ ومن الطريف أننا الآن نطلق على هذا المكان اسم ترسانة وهو تعريب للكلمة الأوروبية العربية الأصل (٢١٤)!!

ولما كان المقام لا يتسع لذكر تفاصيل نشأة الأسطول الإسلامى ومراحل تطوره فى العصور الإسلامية المتلاحقة ، وهو ما سوف نعود إليه تفصيلاً واسهاباً فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى ، ولذلك حسبنا أن نشير فى هذا المقام إلى بعض أنواع السفن الحربية فى الاسطول وذلك على النحو التالى :

- بارجة : والجمع بوارج : وهى من مراكب الهند عربها العرب عن لفظة بيرة الهندية وهى سفينة حربية كبيرة مكشوفة .

- بطسه : ويقال أحياناً بطشه وقد تحرف إلى بسطة والجمع بطسات وبتس وبتشات وبتش وهى سفن كبيرة الحجم كثيرة القلوع قد يصل عدد القلوع فى البطسة الواحدة إلى أربعين قلعا ، وكانت تختص بنقل الجنود فضلاً عن الأزواد والزخيرة

(٢١٣) عبد الرازق ، الحضارة ، ج ١ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٧ .

(٢١٤) العبادى ، نظم ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

وكانت البطسة العظيمة تشتمل على عدة طبقات يشغل كل طبقة منها فئة معينة من الجند بأسلحتها .

- الجاسوس : نوع من المراكب الذى قد يكون استعماله فى عمليات التجسس والاستطلاع والكشف .

- حديدى (والجمع حديديات) : وهو نوع من الزوارق الحربية التى كانت تستعمل فى القتال النهري .

- حراقة (والجمع حراقات وحراريق) : نوع من السفن الحربية التى ترمى بالنيران ، وتوصف بأنها من السفن الخفيفة المر .

- خيطى (والجمع خياطى وخيطيات) : - وهى مراكب تصنع من خشب الساج ولا يدخل فى تثبيت الواحها مسمار واحد ولكنها مخيطة ، وكان هذا النوع من المراكب يكون جزءاً من قطع الاسطول المملوكى الذى يخرج للغزو والجهاد .

- السميرية (والجمع سميريات) : ضرب من السفن تعددت استعمالاته غير أن ما يعيننا منها هو استخدامها فى القتال والحرب فكانت تعد لحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاحين وكان منها الصغير الذى لا يزيد عدد مجاديفه عن الأربعة ، والكبير الذى يبلغ عدد مجاديفه الأربعين مجدافاً .

- شلندى (والجمع شلنديات) : وهى مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح .

- شينى (والجمع شواني) : وهى السفن الحربية الكبيرة وكانت من أهم القطع الكبيرة التى يتكون منها الاسطول فى الدول الإسلامية ، ويستدل من النصوص التاريخية أن الشينى هو الأصل الذى يتفرع منه أسماء السفن الحربية الأخرى ولواحقتها فكل سفينة حربية شينى تحمل اسماً معيناً يدل على وظيفتها فمنها الغراب والطريدة والجفنه والحراقة وغير ذلك .

- الطريدة (والجمع طرائد وطرادات) : وهى سفينة صغيرة سريعة السير والجري وكانت مفتوحة المؤخرة بأبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب وأكثر ما يحمل فيها ٤٠ فرساً .

- الغراب (والجمع أغربة وغربان) : وهى من المراكب الحربية شديدة البأس .
- مرمة (والجمع مرمات) : نوع من السفن الحربية الكبيرة فى العصور الوسطى .
- مسطح (والجمع مسطحات) : نوع من السفن الحربية الكبيرة (٢١٥).

(٢١٥) إعتدنا بصفة رئيسية على معجم النخيلى المشار إليه فى الحاشية رقم ١٤٨ ، ص ص ١٠ - ١١ ، ١٤ - ١٧ ، ٢١ ، ٣١ - ٣٧ ، ٤٣ - ٤٤ ، ٦٧ - ٧٠ ، ٧٨ - ٨١ ، ٨٣ - ٨٥ ، ٨٩ - ٩٢ ، ١٠٤ - ١١٢ ، ١٤٠ - ١٤٤٣ ؛ ولمزيد من التفاصيل انظر ، العدوى ، ابراهيم ، الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ، د ت ، ماهر ، سعاد ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ، د ت ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج١ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ؛ عبد العليم ، أنور ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، الكويت (١٩٧٩م) ، ص ١١٠ - ١١٣ ؛ شهاب ، حسن صالح ، المراكب العربية ، تاريخها وأنواعها ، الكويت (١٩٨٧م) ، ص ٥٠ - ٥١ ، ٥٣ - ٥٤ .

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية

إمتازت الحياة الاجتماعية فى الدولة الإسلامية بأنها حياة متعددة الألوان والاتجاهات مختلفة المظاهر واسعة النشاط متباينة المؤسسات والمرافق والمنشآت مما أضفى عليها قدراً من الحيوية ليس له مثيل فى بقية أنحاء العالم المعاصر .

ومن الواضح أنه مهما تنوعت الظروف فى أنحاء الدولة الإسلامية باختلاف جذورها الحضارية قبل الإسلام وتباين أوضاعها الجغرافية فإن هناك قدراً كبيراً واحداً مشتركاً بين مختلف هذه الأنحاء جعل بينها عنصراً واضحاً من عناصر الوحدة استمد أصوله من روح الإسلام وقيمه وتقاليده من ناحية ومن الظروف والملابسات العامة التى أحاطت بتطور الحضارة الإسلامية على مر القرون وكر الدهور من ناحية أخرى^(١).

وعلى ضوء ذلك فإنه من الصعوبة بمكان ، ووفقاً للخطة الموضوعية لهذا الكتاب المجلد ، أن نلم بجميع أطراف الحياة الاجتماعية فى الدولة الإسلامية من حيث نشأتها وتتبع مراحل تطورها وازدهارها بصفة عامة أو فى كل قطر من الأقطار الإسلامية التى تشكلت منها دار الإسلام بصفة خاصة فقد امتزجت الحياة الاجتماعية بالحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والفكرية فى كل مرحلة من مراحل الدولة الإسلامية حتى أصبح من العسير الفصل بين كل جانب منها إذ أمتزجت هذه العوامل كلها وتفاعلت وأثرت كل حياة فيها فى الجوانب الأخرى^(٢) (إيجابياً وسلبياً) ، ولذلك أثرت فى هذا الكتاب أن نركز على دراسة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والأنشطة المختلفة فى الدولة الإسلامية ؛ على أن نعود للإلمام بجميع أطراف الحياة الاجتماعية والعوامل المختلفة التى أثرت فيها تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

وقبل أن نتحدث عن مظاهر الحياة الاجتماعية ينبغى أن نشير ، بادئ ذى بدء ،

(١) عاشور ، دراسات فى تاريخ الحضارة ، ص ٣٠٣ ؛ بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ، القاهرة (١٩٨٧م) ، ص ٢٥٤ ؛ زبود ، محمد أحمد ، التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للعالم الإسلامى ، جامعة دمشق (٢٠٠١ - ٢٠٠٢م) ، ص ٤٥١ .

(٢) هناك بعض الدراسات التى ركزت على إبراز هذه الجوانب والعوامل المختلفة سواء فى دراسة المدن الإسلامية عامة أو مدينة بعينها خاصة . انظر على سبيل المثال ، عثمان ، المدينة الإسلامية ، الكويت (١٩٨٨م) ، ص ٣٢٣ - ٣٧٦ ؛ الأطرقجى ، رمزية ، الحياة الاجتماعية فى بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسى الأول ، بغداد (١٩٨٢م) ، (٣٨١ صفحة) .

إلى أن الحياة الاجتماعية في الدولة الإسلامية قد اتصفت في صدر الإسلام بالحرص الشديد على التمسك بتعاليم الدين الإسلامي ، ولذلك اتسم المجتمع الإسلامي حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) بالبساطة المطلقة التي هي أقرب إلى الزهد والمساواة بين المسلمين جميعاً بحيث لم توجد فجوة بين حاكم ومحكوم ولا بين قوى وضعيف ولا بين عربي وأعجمي وكان المقياس الوحيد لتفضيل مسلم على آخر هو مقياس التقوى بمعناها الكبير الواسع^(٣) ، كذلك عمل الرسول (ﷺ) على رسم الخطوط العريضة للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين من خلال دستور المدينة أو الصحيفة السابق الإشارة إليها .

ولم يكن منتظراً مع بداية حركة الفتوح الإسلامية أن يحدث تغير سريع مفاجئ في الحياة الاجتماعية للمسلمين لأنهم كانوا عندئذ قريبى عهد بالرسول (ﷺ) والتمسك بسنته وتعاليمه ، وها هو ابن خلدون وهو يتحدث عن انتقال الدول من البداوة إلى الحضارة يشير إلى هذه المرحلة بقوله « وأهل الدول أبدأ يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون ، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً وعشروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحا ومثال ذلك كثير »^(٤).

وعلى الرغم من الغنائم الضخمة التي أصابها العرب المسلمون الأوائل في فتوحهم وقد أخذت الأموال والغنائم تسيل إلى المدينة عاصمة الدولة الإسلامية بفضل حركة الفتوح ، ويكفى في تصوير ذلك ما تركه كبار الصحابة من ثروات ، فطلحة ابن عبيد الله خلف ثلثمائة بهار من ذهب وفضة والبهار مزود من جلد عجل؛ والزبير خلف خمسين ألف دينار وديون وعقارات قيمتها ثلثمائة ألف دينار وبلغ الربع في تركة عبد الرحمن بن عوف أربعة وثمانين ألف دينار، أما عثمان فقد خلف خمسين ألف دينار وألف ألف درهم وعقارات قيمتها مائة ألف دينار ، وقد عقب المسعودي بعد ذكره لهذه

(٣) عاشور ، دراسات ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٤) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مج ١ ، ص ١٨٢ .

التركات بقوله « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيما تملك من الأموال فى أيام عثمان ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب ... وحج عمر فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً وقال لولده عبد الله : قد أسرفنا ... » (٥).

ورغم ذلك فإن بساطة الإسلام وبساطة المنبت ظلت غالبية عليهم حتى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) « فكان الفارس الواحد يقسم له فى بعض الغزوات ثلاثون ألف من الذهب أو نحوها فاستولوا من ذلك على مالا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم ، فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد وكان على بن أبى طالب يقول : ياصفراء ! ويا بيضاء ! غرى غبرى !! وكان أبو موسى الأشعرى يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها للعرب لقتلها يومئذ ، وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وإنما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها (٦).

وهناك قصة أوردها الجهمشيارى تؤكد مدى البساطة والتقشف فى عهد عمر (رضى الله عنه) « ولما استحضر عمر زياداً ، قال زياد : فأتيتُه وعلى ثياب كتان ؛ وعلى خفان ساذجان وفى يده مخصره (ما يتوكأ عليه كالعصا) على رأسها حديد ، فغمزها فى خفى حتى خرقة وأدمى رجلى ، فلما كان من الغد ، رجعت إليه فى خفين غليظين وعلى ثوبان من قطن ، فلما رأتى قال : هكذا يا زياد ! هكذا يا زياد ! ثم قال لى : بكم أخذت هذين الخفين ؟ قلت بوافٍ - يريد درهما وافيًا - فاعطاني درهما وقال : اشتر لى مثلهما » (٧).

فهل هناك بساطة وتقشف بل زهد أكثر من ذلك ؟

أما فى عهد عثمان (رضى الله عنه) فقد اتسع الشراء ، كما سبق القول ، وبالتالى اتسعت معه الرفاهية أو فلنقل أخذت تظهر الرفاهية وكان من مظاهرها الواضحة اتخاذ القصور وبناءؤها بالأجر والجص واتخاذ أبوابها من خشب الساج ووضع الشرفات أعلاها وغير ذلك (٨).

(٥) ابن عبد ربه ، العقد ، ج٢ ، ص ٢٧٩ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ؛ ضيف ، شوقى ، الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية ، القاهرة ، ط ٥ ، (١٩٩٢م) ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٦) عاشور ، دراسات ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٧) الجهمشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، ص ١٩ .

(٨) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل اقتنى الكثيرون منهم الضياع ، ورغم ذلك يمكن القول أن ذلك كله قد تم داخل إطار الدين ، ولم يكن فيما فعلوه خرقاً لتعاليم الإسلام ، لأنه مال حلال جاء عن طريق الغنائم والفئ التي أحلها الله سبحانه وتعالى ، ثم أنهم أدوا ما وجب عليهم من الزكاة ولم يتصرفوا في مالهم بعتو واسراف .

وهكذا فإن الثروة الكبيرة المفاجئة في عهد عثمان (رضى الله عنه) نتيجة لحركة الفتوح لم تفلح في تلك المرحلة في تغيير الملامح العامة الأساسية للمجتمع الإسلامي الوليد^(٩).

ولم تلبث الحياة الاجتماعية في الدولة الإسلامية أن تغيرت وتبدلت أوضاعها بانقضاء عصر الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) إذ دخلت الدولة الإسلامية في طور جديد من أطوارها أملت الظروف الجديدة والعوامل المختلفة التي أحاطت بالدولة الإسلامية بدءاً من العصر الأموي وما تلاه من عصور من اتساع وثراء وتنوع في بنيتها العنصرية وما حدث من تفاعل بعيد المدى بين طبقات المجتمع وفئاته المتباينة فانغمس الناس ولا سيما طبقة الخاصة ومن نسج على منوالهم من طبقة العامة - بياض العامة - في البذخ والترف والصبغة المادية التي اصطبغت بها حياتهم الاجتماعية ، وكلما تقدم بهم الزمن ازدادوا في الأخذ بمظاهر الرفاهية والترف أكثر وأكثر وهو ما يستدل من المصادر التاريخية المختلفة فضلاً عن الأدلة المادية الأثرية الباقية سواء كانت أثاراً ثابتة أو منقولة كما سنرى في الباب الثاني من هذا الكتاب المجمل .

وقد صور ابن خلدون خصائص المرحلة تصويراً بديعاً إذ قال « فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم أفادهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن في أحواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والأبنية وسائر الماعون والحُرثي وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الأعراس فأتوا من ذلك وراء الغاية ... »^(١٠).

(٩) عاشور ، دراسات ، ص ٢٥٣ .

(١٠) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مج ١ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

والحق أنه يجب علينا القول بأن هذا الطور الجديد من أطوار الحياة الاجتماعية فى الدولة الإسلامية لا نستطيع أن نتخذه - بأى حال من الأحوال - قاعدة عامة أو مقياسا نحكم به على جميع مراحل التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، حقا ان هناك من الحكام من ابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم على حد قول بعض المؤرخين ؛ فإن هناك فى المقابل حكاما آخرين احتفظوا بمكانتهم السامية وانمذجهم المثالى فى الدولة الإسلامية هذا من جهة ومن جهة ثانية علينا أن نذكر أن الإسلام كان دائما بعيداً عن روح التزمت والحرمان والكبت ؛ فالله سبحانه وتعالى طالب المسلم بالا ينسى نصيبه من الدنيا وأن يتمتع بكل ما خلقه الله له من ضروب المتعة بشرط أن يلتزم بالحلام وابتعد عما حرمه الله سبحانه وتعالى « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا » وبشرط ألا يسرف حتى فى متعته بالحلال « إنه لا يحب المسرفين » ، وذلك حفاظا على الفرد الذى هو عماد المجتمع وأساس تكوينه .

ومن الصنف الأول حسبنا أن نشير إلى الخليفة الأموى يزيد بن معاوية فقد كان «صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب ... وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق» (١١).

ومن الصنف الثانى حسبنا أن نشير إلى الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز الذى تعتبر فترة حكمه إمتداداً لعصر الخلفاء الراشدين ومن هنا استحق أن يلقب بخامس الخلفاء الراشدين كذلك لا تفوتنا الإشارة إلى فئة العلماء ورجال الدين الذين قاموا ببث المثل الاجتماعية والخلقية والدينية فضلاً عن تصديهم للمنكر ومقاومتهم للانحرافات الخلقية والفكرية التى كانت تظهر بين حين وآخر ، بل ان هناك من العلماء من لم يرضوا عن انحرافات وتصرفات الحكام فتصدوا لهم فى شجاعة وحرصوا العامة ضدهم عن طريق مباشر أو غير مباشر مما ظهر أثره أحيانا فى الاوضاع السياسية (١٢).

كذلك لا ننسى دور الأوقاف فى الحضارة الإسلامية بصفة عامة وفى الحياة الاجتماعية بصفة خاصة ، والتى ان دلت على شئ فإنما تدل على غلبة الوازع الدينى المستمد من مبادئ الدين الإسلامى وتعاليمه السامية ، ولم تقتصر دور هذه الأوقاف

(١١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٤ ، ص

(١٢) عاشور ، دراسات ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

وأهميتها على الحياة الاجتماعية فحسب بل امتد فشمل أيضاً الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية وهو ما سوف نشير إلى بعض جوانبه فى هذا الكتاب المجلد والى جميع جوانبه فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

وفيما يلى نتطرق إلى دراسة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى الدولة الإسلامية وذلك على النحو التالى :

- مجالس الغناء والطرب واللهو والموسيقى :-

من الثابت أنه ظهرت خلال العصر الأموى (٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م) مسحة قوية من الترف والبذخ أدت إلى تسرب تيار من الاسراف بعيد عن روح الإسلام ومبادئه السامية ، ومن ثم أخذت مجالس الغناء والطرب واللهو والموسيقى بل الغرور والخيلاء تأخذ حيزاً كبيراً لدى بعض الخلفاء الأمويين ومنهم يزيد بن معاوية - وقد سبقت الإشارة إلى أفعاله هو وأصحابه وعماله - والخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤م) الذى يروى أنه سار على نهج الخليفة عمر بن عبد العزيز أربعين يوماً ثم ترك ذلك إلى اللهو والشرب والمملاذات وقصته مع جاريتيه سلامة القس وحبابه وما أثير حول حبه لهما وكلفه بهما وحظوتاهما عنده من الأمور المبسوطة فى العديد من المصادر التاريخية ، وعن موت حبابه يقال إنها ماتت على أثر شرقها بحبة عنب فما كان من يزيد إلا وأن حزن عليها حزناً شديداً وعمل على تأخير دفنها حتى جيفت ومات بعد موتها بفترة وجيزة بالطاعون وقيل بل بالسل وقيل بل مات كمداً وأسفاً على فقدته حبابه (١٣) .

كذلك كان حال ابنه الوليد بن يزيد عندما جلس على كرسى الخلافة (١٢٥ - ١٢٦هـ / ٧٤٣ - ٧٤٤م) فوصف بانه «صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه وجالس الملحين وأظهر الشراب والملاهى والعزف...» وفى رواية أخرى «أنه تمادى فى الشراب وطلب المملاذات فأفرط...» (١٤) .

(١٣) عن الروايات المختلفة ونقدها انظر ، الشريف ، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ص ٤٣ - ٧٤ ؛ شاهين ، الدولة الأموية المفترى عليها ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(١٤) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٧ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ وعن درء الشبهات انظر ، شاهين ، الدولة الأموية المفترى عليها ، ص ٢١٤ - ٢١٨ .

وكان بعض خلفاء بنى أمية لا يظهرون للندماء بل كان بينهم حجاب حتى لا يطلع الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب فقد تأخذه نشوة الطرب وهو سكران فيقوم بحركات لا يطلع عليها إلا خواص جواريه ؛ هذا فى حين بالغ البعض الآخر - مثل يزيد بن عبد الملك - فى المجون بحضرة الندماء وأذن لهم فى الكلام والضحك والهزل فى مجلسه^(١٥).

ويقال أن الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م) قد بالغ فى التفنن فى زينته وملبسه حتى أنه فى يوم الجمعة من خلافته لبس الفاخر من الثياب وتعطر وأمسك بالمرآة وجمع الجمعة وخطب خطبته وقد أعجب بنفسه فوقف على المنبر يردد « أنا الملك الشاب السيد المهاب الكريم الوهاب ... »^(١٦).

ولم يقتصر هذا التطور على حاضرة الخلافة الأموية - أى دمشق - فحسب بل امتد فشمل أيضاً المدن المختلفة فى الولايات التابعة وحسبنا أن نشير إلى ما أصاب أهل الحجاز - مكة المكرمة والمدينة المنورة - من ترف واسع فعرفوا كثرة الألوان فى الأطعمة وأكلوا فى أوانى الذهب والفضة ، كما عرفوا التنعم فى الملبس والاكتثار من الطيب ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ملأت حياتهم فنون من اللهو المختلفة وكان الغناء على رأس هذه الفنون وقد شغفوا به شغفا شديداً بل كانت له دوراً خاصة يقصدها الناس لسماعه ، ووصل الأمر إلى أنه صار فى مكة مذهب (لون خاص) فى الغناء وللمغنين فى المدينة مذهب آخر وبين اللونين مفاخرة يسر الناس لمشاهدتها . ومن أشهر المغنين بالمدينة طويس ومعبود وسائب خاثر ابن عائشة ويونس الكاتب ومالك الطائى ، أما المغنيات فمن أشهرهن عزة الميلاء وجميلة وسلامة القس وسلامة الزرقاء ، أما فى مكة فمن أشهر المغنين ابن مسجح وابن محرز وابن سريج والغريض والآبجر والهدلى ومن المغنيات المكيات بغوم وأسماء وسمية وغيرهن^(١٧).

وازدانت قصور العباسيين بمجالس الغناء والطرب والموسيقى واللهو ، وكان

(١٥) عاشور ، دراسات ، ص ٢٥٥ .

(١٦) عاشور ، دراسات ، ص .

(١٧) ضيف ، الشعر والغناء ، ص ٣٠ - ٣٦ ، ٤٦ - ٤٩ ، ١٨٣ - ٢٠٧ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٢٥٥ -

٢٥٦ ؛ زيود ، التاريخ ، ص ٤١١ - ٤١٢ .

الخلفاء يقدرّون المغنين ويشجعونهم بالمنح والعطاء ومن أشهر هؤلاء المغنين إبراهيم بن المهدي وعليه ابنة المهدي وإبراهيم الموصلي واسحق ومخارق وزمام الزامر وعرب . ومن الجوارى اللاتى اشتهرن بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية دنانير وبذل وعريب وشاجية جارية عبد الله بن طاهر وعبيدة الطنبورية ، وكثيراً ما كانت مجالس الغناء تقترب بالشراب وان كانت هناك مجالس خاصة بالشراب (١٨).

فالخليفة العباسي محمد المهدي كان « يحب القيان وسماع الغناء » أما الخليفة محمد الأمين فكان قصره مجالاً للهو واللعب والمجون وفي ذلك يذكر الطبري « ولما ملك محمد الأمين وجه إلى جميع البلدان في طلب الملّيين وضمهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق ... وأمر ببناء مجالس لمنتزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد ... وأمر بعمل خمس حراقات (سفن) في دجلة على خلقة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس وانفق في عملها مالا عظيماً وكلها للزهوة والابهة » (١٩).

ولم تقتصر مجالس الغناء والطرب والموسيقى على قصور الحكام فحسب وإنما شغف بهما غالبية الناس على اختلاف فئاتهم ، وقد وصف بعض العلماء ورجال الدين في المصادر التاريخية بالليل « إلى سماع المغاني » بل حكى عن أحد الفقهاء أنه سمع بمغنية شهيرة تغنى في مكان ما فترك شيخه بعد الصلاة وتسلى خفية لسماعها فلما عرف شيخه سبب غيابه قال له عند عودته « أمرها عندي خفيف » (٢٠).

ونال الكثير من المغنين والمغنيات حظوة كبيرة عند أهل الدولة كما ترجم لبعضهم في المصادر التاريخية وهو ما سوف نتطرق إليه عند دراسة هذه المجالس تفصيلاً واسهاباً في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

(١٨) عاشور ، دراسات ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ زيود ، التاريخ ، ص ٤١٥ .

(١٩) الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢١٠ ؛ الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ ، الاطرقجي ، الحياة ، ص ١٩٨ ، ٢٠٣ .

(٢٠) عاشور ، دراسات ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

ـ مجالس القصاص والوعاظ :

كان من هذه المجالس ما يعقد داخل القصور ومنها ما يعقد فى الأماكن العامة وكان المفروض أن يكون الهدف منها الحث على اتباع الطريق القويم بترديد القصص الدينى وأخبار السلف الصالح ، غير أن القصاص لم يلبثوا أن انصرفوا عن هذا الهدف وصار هدفهم الأول تحقيق الكسب المادى عن طريق ترديد القصص الخرافى الذى يرضى أذواق المستمعين وكثيراً ما كان يجلس القصاص فى المساجد أو الطرقات أو الأسواق أو المقابر يرددون قصصاً لا تخلو من نزعة ماجنة الأمر الذى أغضب العلماء ورجال الدين فنادوا بوقف نشاط القصاص وقد استجاب لهذه الدعوة بعض الخلفاء العباسيين فالخليفة المعتضد أمر بمنع القصاص من الجلوس فى المساجد والطرقات والخليفة القادر بأمر الله أمر عام ٤٠٨هـ / ١٠١٧م بضرب القصاص واتخذ إجراءات مشددة للقضاء عليهم (٢١).

أما عن مجالس الوعاظ فكان المفروض فيها أن تكون ذا صبغة دينية بناءة يشرح فيها الوعاظ المسائل الشرعية ويجيبون الحاضرين على أسئلتهم ، وفى بادئ الأمر نهضت هذه المجالس برسالتها الصحيحة وقامت بها خير قيام ، ولكنها لم تلبث فى القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين أن تحولت هى الأخرى إلى مجرد وسيلة للكسب فانحط المستوى الفكرى للوعاظ واحترفوا نشر الخرافات والبدع؛ بل لقد لجأ بعضهم إلى استثارة الفرق والمذاهب الإسلامية بعضها ضد بعض ، وربما استغلهم بعض الحكام للدعاية له ضد خصومه مما صبغ مجالسهم بصبغة سياسية ، ولما أحست الدولة بخطورة هذا الوضع صدرت الأوامر من الخليفة العباسى القادر بالله بتحديد مجالس الوعاظ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٢٢).

ـ وسائل التسلية والترفيه :-

أ ـ خيال الظل : يعد من أهم وسائل الترفيه والتسلية فقد كانت التسلية العامة المفضلة لجميع طبقات المجتمع منذ العصر الفاطمى ـ وما تلاه ـ حيث عرفت مصر خيال

(٢١) عاشور ، دراسات ، ص ٢٦٤ ؛ زيود ، التاريخ ، ص ٤١٦ .

(٢٢) عاشور ، دراسات ، ص ٢٦٥ ، زيود ، التاريخ ، ص ٤١٦ .

الظل الذى يتوسل بالصورة والضوء معا ويحتاج تبعا لذلك إلى مكان محكم حتى يمكن أن يركز الضوء فيه على التمثيل فقد كان يتسم بنوع من المرونة فى الحركة بحيث يمكن أن يؤدي فى فناء الدار أو داخل فسطاط (خيمة) معين لذلك أصبح فيما يعد من وسائل احياء المواسم وحفلات الزواج والختان (الطهور) وما إليها ومن السلاطين الذين شغفوا بخيال الظل السلطان صلاح الدين الأيوبي والسلطان المملوكي الناصر محمد وابنه الناصر حسن والسلطان الأشرف شعبان الذى حمله معه عندما حج عام ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، والسلطان الناصر محمد بن قايטباى ، وعندما كانت تحدث المفاسد كان السلاطين يأمرؤن بإبطال اللعب به ومن هؤلاء السلطان جقمق الذى أمر فى سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م بإبطال اللعب بخيال الظل واحراق شخوصه وكتب على اللاهين العهود بألا يعودوا إليه^(٢٣).

وعندما دخل السلطان العثماني سليم الأول القاهرة عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وشاهد خيال الظل بحضرته بمقياس النيل ، وقيل أن المخايل صنع صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما شئق عليه وقطع به الحبل مرتين فانشرح السلطان لذلك وأنعم على المخايل بثمانين ديناراً وخلع عليه قفطاناً مخملاً مذهبا وقال له « إذا سافرنا إلى اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابني على ذلك »^(٢٤).

أما عن صفة اللعب بالخياال فإن شخوصه كانت تتخذ من الجلود أو الورق المقوى وتحرك بعصى من وراء ثوب ابيض مشدود (ستار) فيظهر خيال الدمى فيه حيث يقوم اللاعبون بادراج دمي الخيال خلف الستارة البيضاء بواسطة سيقان خشبية يحركها أحد اللاعبين ، يختص بتحريك جميع ما يقدم على المسرح من شخوص فى حين يقوم اثنان من اللاعبين بالعزف على آلات موسيقية ، وأشهر من تفوق فى هذا الفن التمثيلي خلال العصر المملوكي ابن دانيال الموصلي وتمثيلياته الشهيرة (البابات) (وسنتطرق

(٢٣) عن خيال الظل انظر ، تيمور ، أحمد ، خيال الظل ، القاهرة (١٩٥٧م) ، ص ١٩ - ٢٣ ؛ يونس ، عبد الحميد ، خيال الظل ، القاهرة (١٩٦٥م) ، ص ٩ - ٥٩ ؛ حمادة ، إبراهيم ، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيا ، (٤٢٦ صفحة) ؛ أبو زيد ، على إبراهيم ، تمثيليات خيال الظل ، القاهرة ، ط ٥ (١٩٩٩م) ، (٣٠٧ صفحة) ؛ نصار ، لطفى أحمد ، وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك فى مصر ، القاهرة (١٩٩٩م) ، ص ٣٣٣ - ٣٥٤ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٢٦٨ .

(٢٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

إليها تفصيلا واسهابا فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى) ولم يقتصر دور هذا الفن التمثيلى على التسلية والترفيه فحسب بل كان له مواقف نقدية رمزية تشير السخرية والضحك فى نفوس الجماهير من السلطان وحاشيته أى أنه عالج الكثير من الأوضاع السياسية والاجتماعية السلبية فى المجتمع وقتئذ . هذا وقد تزامن مع خيال الظل خاصة فى أواخر العصر المملوكى فن شعبى آخر شاع بين الناس باسم الراجوز أو قرقوز وهى كلمة تركية الأصل ويمثل الراجوز بواسطة دمي من الخشب أو الجص متحركة الأعضاء وهى تتحرك بواسطة خيوط تشد إلى أسفل المنضدة الموضوعة عليها تلك الدمي ويصاحب حركاتها حوار يلقيه صاحب الراجوز الذى ينغم صوته تبعا لمقتضيات الموقف^(٢٥)؛ وفى كتابنا المفصل سوف نتطرق لدراسة أبرز الفروق والخصائص بين خيال الظل والراجوز .

٢- الخروج إلى المتنزهات :-

إزدانت العديد من المدن الإسلامية بمواضع النزهة ومن ثم كان يخرج إليها الناس للتسلية والترفيه والترويح عن النفس ، وفى مثل هذه المتنزهات اعتاد أن يلتقى الرجال بالنساء فيختلطون فى غير كلفة أو حجاب فتحدث المفاسد والرزائل ومن ثم كانت تصدر الأوامر والعقوبات .

ولما كان المقام لا يتسع لدراسة كافة المتنزهات فى المدن الإسلامية فحسبنا أن نشير إلى أشهرها ولا سيما فى الشام والقاهرة .

ففى الشام كانت غوطة دمشق من أجل المتنزهات فقد اعتاد الشاميون فى مختلف المناسبات خاصة فى فصل الربيع ومطلع فصل الصيف الذهاب إلى مشاهده الغوطة ومنتزهاتها ويكفى استقراء ما ورد من أوصاف فى كتاب نزهة الأنام فى مجالس الشام للبدرى للدلالة على ذلك^(٢٦) . كما حرص ابن عساكر على ذكر بساتين دمشق ومروجها وما إشتهرت به من محاسن ومنتزهات^(٢٧) .

(٢٥) نصار ، وسائل الترفيه ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ ، ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢٦) زعرور ، إبراهيم ، الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبي والمملوكى ، دمشق (١٩٩٣م) ، ص ١٧٩ - ١٨١ .

(٢٧) عاشور ، بعض أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقى فى عصره ، ضمن أعمال ندوة ابن عساكر ، دمشق (١٩٧٩م) ، ص ٢٣٢ .

أما عن مواضع النزهة بمدينة القاهرة فمن أشهرها نهر النيل والبرك والقرافة (الجبانة) والميادين ، حيث اعتاد الناس الخروج إلى هذه المواضع التي كانت من المتنزهات كما يستدل من المصادر التاريخية ومشاهدات الجغرافيين والرحالة فها هو ابن دقماق يصف جزيرة الروضة بأنها غدت « فرجا ومتنزهات »^(٢٨) ووصفها الرحالة المغربي ابن بطوطة بأنها « مكان النزهة والتفرج »^(٢٩).

ومن أشهر البرك التي كان لها دورها في الحياة الاجتماعية كموضع من مواضع النزهة كل من بركة الحبش (البساتين وأثر النبي حالياً) وبركة الرطلى وبركة الأزبكية^(٣٠).

أما الميادين فمن أشهرها أيضاً ميدان الرميطة (ميدان صلاح الدين أسفل القلعة بحى الخليفة جنوب القاهرة) والميدان الناصرى على النيل (ويمثل موقعه الآن جزء من حى جاردن سيتى بالقاهرة)^(٣١).

وكما اهتم المصريين بنهر النيل وفيضانه لارتباط حياتهم به كذلك حرصوا على أن يقيموا الأعياد المختلفة في مواسم معينة من السنة بعضها لاعتقادهم أنها تجلب فيضانا مناسباً والبعض الآخر احتفالاً بالوفاء وتقام الزيادة المطلوبة ومن هذه وتلك ورد في المصادر التاريخية المختلفة ذكر أربعة أعياد منها عروس النيل وليلة الغطاس (وهو من الأعياد المسيحية ومع ذلك كان من الاحتفالات الكبيرة لجميع المصريين من مسلمين ونصارى)^(٣٢) وقد وصف ابن أبى السرور البكرى هذه الليلة بأنها « أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم في النيل

(٢٨) ابن دقماق ، الانتصار ، ق ٤ ، ص ١١٠ .

(٢٩) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٧٠ ؛ عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة (١٩٦٢م) ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٣٠) المقرئى ، الخطط ، ؛ كيلانى ، محمد سيد ، فى ربوع الأزبكية ، دار

الفرجاني ، ط ٢ (١٩٨٥م) ، (١٢٠ صفحة) ، ولزبد من التفاصيل انظر ، الششتاوى ، محمد ، متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى ، القاهرة (١٩٩٨م) .

(٣١) الششتاوى ، ميادين القاهرة فى العصر المملوكى ، القاهرة (١٩٩٩م) ، ص ٣٤ - ٣٧ ، ٧٣ .

(٣٢) المناوى ، محمد حمدى ، نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة (١٩٦٦م) ، ص ١٥٤ - ١٦٥ .

ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة من الدواء « (٣٣) .

ومنها عيد الشهيد وكان من أنزه فرج مصر وقد أبطل نهائيا عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م وأحرق التابوت الذى به الأصبع وذرى رماده فى النيل .

أما أعظم هذه الاحتفالات فهو الاحتفال بوفاء النيل وكسر السد وتخليق مقياس النيل بجزيرة الروضة (٣٤) .

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل نرى الناس قد اهتموا اهتماما بالغاً باستغلال النيل والتنعم بمناظره وهوائه فزرعوا على شواطئه الحدائق الغناء الغنية بأشجارها ولجأ بعضهم ولا سيما أيام الفيضان صيفا - إلى استئجار القوارب والسفن واستصحاب المغانى وجوقات العوالم معهم ، وتمتعت بولاق أيضاً بشهرة واسعة فى ميدان اللهو والتنزه فقصدوها الناس وأقاموا فيها الأخصاص (وتقوم مقامها فى أيامنا الشاليهات والكبائن) وزرعوا حولها الرياحين وزينوها بالرخام وأنواع الدهانات حتى بلغ ما ينفق على الشخص الواحد منها بين ألفين وثلاثة آلاف درهم ، وهناك اعتاد أن يزدهم المتنزهون من الرجال والنساء ويتبعهم عدد عظيم من الباعة فيختلط الناس فى غير كلفة أو حجاب (٣٥) حيث ينكشف ستر الحياء ؛ وهو الأمر الذى أثار الفقهاء ورجال الدين فنادوا بمنع النساء من الخروج على ذلك الوجه السافر سواء فى مواضع النزهة أو فى الأسواق أو غيرها كما حدث فى سنوات كثيرة (٣٦) .

أما القرافة (الجبانة) فقد كانت هى الأخرى من مواضع النزهة فيخرج إليها العامة والخاصة فى مختلف المناسبات ، فكان الناس يجتمعون عند جوسق المادرائى فى الأعياد ، وكانت الناس تهرع أيضاً إلى مسجد النارج بالقرافة للتنزه كما كان

(٣٣) ابن أبى السرور البكرى ، قطف الأزهار من الخطط والآثار ، (مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٥٧ جغرافيا) ، ورقة ٤٣ ب .

(٣٤) ابن دقماق ، الانتصار ، ق ، ٤ ، ص ١١٥ ؛ سليم ، محمود رزق ، النيل فى عصر المماليك ، القاهرة (١٩٦٥م) ، ص ٥٣ - ٦٧ ؛ قاسم ، قاسم عبده ، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة (١٩٧٨م) ، ص ٤٣ - ٤٩ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٢٧٠ .

(٣٥) عاشور ، المجتمع ، ص ١٠٣ .

(٣٦) عبد الرازق ، أحمد ، المرأة فى مصر المملوكية ، القاهرة ، ط ٢ ، (١٩٩٩م) ، ص

مسجد تاج الملوك بالقرافة الكبرى مجتمع أهل مصر عنده فى الأعياد والمواسم وليالى الوقود (٣٧).

ويذكر ياقوت الحموى أن القرافة « من نزه أهل القاهرة ومصر ومتفرجاتهم فى أيام المواسم » (٣٨).

ويذكر ابن عبد الظاهر عن والده « كنا نطلع إليها - أى القلعة - قبل أن تسكن فى ليالى الجمع نبئت متفرجين كما يبات فى جواسق الجبل والقرافة » (٣٩).

ونظراً لاجتماع الرجال بالنساء أثناء زيارتهن للقرافة كانت تحدث الكثير من الرزائل والمفاسد وهو الأمر الذى أثار كثيراً من الفقهاء وحسبنا أن نشير إلى ابن الحاج فقد عاب على النساء أثناء ذهابهن إلى القرافة « ركوبهن على الدواب فى الذهاب والرجوع ومس المكارى لهن وتحضينه للمرأة فى اركابها وانزالها وحين مضيتها يحصل يده على فخدها وتجعل يدها على كتفه مع أن يدها ومعصمها مكشوفان لا ستر عليهما سيما مع ما ينضاف إلى ذلك من الخواتم والأساور من الذهب والفضة أو هما معا مع الخضاب (الحنة) فى الغالب وتقصد مع ذلك اظهار ذلك كله » (٤٠).

كما عاب - أى ابن الحاج - عليهن « مشيهن بالليل مع الرجال وكثرة الخلوات هناك وكثرة الدور المتيسرة وكشفهن لوجوهن وغيرها حتى كانهن مع أزواجهن خاليات فى بيوتهن ، وينضم إلى ذلك محادثتهن مع الرجال الأجانب ومزحهن وملاعبتهن وكثرة الضحك مع الغناء فى موضع الخشوع والاعتبار والذل » (٤١).

(٣٧) الحداد ، محمد حمزة ، موسوعة الجبانات المصرية فى العصر الإسلامى ، المجلد الأول ، قرافة القاهرة ، الجزء الأول من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر المملوكى ، القسم الأول ، الدراسة الحضارية ، القاهرة (٢٠٠٣م) ، ص ٢١٧ - ٢٢٣ .

(٣٨) الحموى ، معجم البلدان ، مج ٧ ، ص ٤٣ .

(٣٩) ابن عبد الظاهر ، الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، بيروت (١٩٩٦م) ، ص ١٣١ .

(٤٠) ابن الحاج ، المدخل ، مج ١ ، ص ٢٦٧ .

(٤١) ابن الحاج ، المدخل ، مج ١ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

وقد صدق من قال :

تعجبت من أمر القرافة

اذ غدت على وحشة الموتى قلبنا لها يصبو

إن القرافة قد حوت ضدين

من دنيا وأخرى فهى نعم المنزل

ـ دور المرأة فى الحياة العامة فى المجتمع الإسلامى :

المرأة هى الشطر الثانى فى المجتمع كما يقولون ، ولأمر يعلمه الله سبحانه وتعالى كانت الوصية بها خيراً أمّا وأختاً وبنّاتاً وزوجاً ، وبلغ الأمر مداه عندما أكد الرسول (ﷺ) ذلك مثنى وثلاث .

والحق ان المرأة المسلمة لم تكن غائبة عن الحياة وإنما شاركت الرجل فى بناء المجتمع ومارست دورها ضمن اطار القيم الإسلامية والرؤية الإسلامية الشاملة ؛ ولم تكن مجرد سلعة رخيصة للاستهلاك تنتهى إلى التحلل واهدار الكرامة باسم التحرر.

والحق ان المرأة المسلمة فى مرحلة صدر الإسلام قد بايعت وجاهدت رهاجرت ومرّضت وعلمت وكانت من رواة الأحاديث واستدركت أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) على الصحابة ، وقدمت أم المؤمنين أم سلمة (رضى الله عنها) المشورة والرأى والحكمة للرسول (ﷺ) . الموحى إليه المستغنى عن الشورى بالوحى . فى صلح الحديبية عندما اختلطت الرؤية وكادت أن توقع فى الهلكة الأمر الذى شكل منعطفاً تاريخياً وكانت له أبعاده الممتدة فى التاريخ الإسلامى (٤٢).

وهناك عدد كبير من الدراسات العربية الحديثة التى أبرزت دور المرأة فى الحياة

(٤٢) قرداش ، آمال ، دور المرأة فى خدمة الحديث فى القرون الثلاثة الأولى ، قطر (١٩٩٩م) ، ص ١٩ ، ١٧ (ومما له دلالة أن هذا الكتاب يعد من الكتب المهمة التى أبرزت بالأدلة الشبوتية دور المرأة فى خدمة الحديث النبوى الشريف خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة) .

الإسلامية العامة خلال العصور التاريخية المتعاقبة^(٤٣).

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن هذا الدور ما يزال بحاجة إلى المزيد والمزيد من الدراسات التحليلية المتعمقة ولا سيما تلك التي تعنى بإبراز الدور الإيجابي للمرأة في التاريخ الإسلامى بدلا من التركيز على الدور السلبي للمرأة والذي لم يكن سوى استثناءً للقاعدة .

ويمكن القول أنه رغم القيود الاجتماعية التي فرضتها التقاليد على المرأة فإنها أسهمت بدور بارز يدل عليه ذلك العدد الضخم من تراجم النساء الذي تحتويه المصادر التاريخية وبخاصة كتب التاريخ المحلي والرحالة وكتب التراجم والطبقات من ذكر لنساء شهيرات أسهمن في مختلف ألوان النشاط السياسى والفكرى والدينى والاجتماعى وخلدن أسماءهن ضمن مشاهير العصر ، وحسبنا أن المؤرخ السخاوى وحده أفرد جزءاً كاملاً في كتابه للنساء ذكر فيه ما يزيد عن الألف ترجمة لامرأة من شهيرات النساء اللاتي توفين في القرن ٩هـ / ١٥م^(٤٤).

فمن بين النساء اللاتي تدخلن في شئون الحكم وشاركن في توجيه سياسة الدولة

(٤٣) حسبنا أن نشير إلى أحدث هذه الدراسات ومن بينها : حسن ، على إبراهيم ، نساء لهن في التاريخ الإسلامى نصيب ، القاهرة (١٩٨١م) ؛ عبد الرازق ، أحمد ، المرأة في مصر المملوكية ، القاهرة (١٩٩٩م) ؛ حبشى ، حسن ، صحابيات صنعن التاريخ ، القاهرة (٢٠٠٢م) ؛ على ، وفاء محمد ، نفوذ النساء في الدولة الإسلامية في العراق ومصر ، القاهرة (١٩٨٦م) ، عبد الكريم ، نرمان ، المرأة في مصر في العصر الفاطمى ، القاهرة (١٩٩٣م) ؛ على ، على السيد ، المرأة المصرية والشامية في عصر الحروب الصليبية ، القاهرة (٢٠٠٢م) ؛ وهناك دراسات ركزت على موضوعات معينة منها ، محمود ، على السيد ، الجوارى في مجتمع مصر المملوكية ، القاهرة (١٩٨٨م) ؛ الوكيل ، فايزة ، الشوار جهاز العروس في مصر في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة (٢٠٠١م) ؛ الحفنى ، محمود أحمد ، ثلاثة أعراس أودت بخزانة الدولة إلى الافلاس ، القاهرة (١٩٦٨م) ؛ المزينى ، عبد الرحمن سليمان ، الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجريين ، المدينة المنورة (٢٠٠٣م) ، ص ٢٧٧ - ٢٨٦ ؛ العبيكان ، طرفة عبد العزيز ، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة ، الرياض (١٩٩٦م) ، ص ١٥٥ - ١٦٤ ؛ وهناك دراسة مطولة عن أعلام المكيات خلال العصر المملوكى قمنا بتحكييمها للنشر بمركز دراسات الخليج والجزيرة العربية بجامعة الكويت (قيد النشر) .

(٤٤) عاشور ، دراسات ، ص ٢٧٥ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، المجلد ١٢ ، القاهرة (١٩٥٥م) .

أم البنين زوجة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك والخيزران زوجة الخليفة العباسي محمد المهدي وأم الهادي والرشيد وزبيدة زوجة الرشيد وأم الأمين ، وقبيصة زوجة المتوكل وأم المعتز ، وشجى والد الخليفة المقتدر بالله (العصر العباسي). وصبح أم هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر في الأندلس (العصر الأموي في الأندلس) وست الملك أخت الخليفة الفاطمي العزيز بالله وعمه الخليفة الحاكم بأمر الله (العصر الفاطمي).

وهناك نساء حاكمات ضربن النقود بأسمائهن أو بالقابهن ومنهن الملكة أروى الصليحية (في اليمن) والسلطانة شجر الدر (في مصر).

كذلك شاركت النساء بسهم وافر في الحياتين العلمية والدينية كما هو الحال في الفقه والحديث والرواية والسمع والاملاء والتدريس والنحو والوعظ ونظم الشعر والتصوف وتفيض المصادر التاريخية بأسماء الكثيرات منهن في هذه المجالات جميعها ، وليست أدل على مكانة المرأة العلمية من الإشارة إلى أن الكثير من كبار المحدثين والفقهاء لم يروا حرجا في الاعتراف بأنهم سبمعوا من فلانة وفلانة من المحدثات وأن بعضهن أجزن لهم ، فالحافظ ابن عساكر في دمشق يروي أنه سمع عن ملكة بنت داود وأنها أجازت له جمع حديثها والحافظ ابن حجر العسقلاني يذكر أنه حصل على إجازتين : الأولى من شمس بنت ناصر الدين محمد والثانية من خديجة بنت العماد الصالحية .

ولعل مما يبرز دورهن في إثراء الحركة العلمية والتغلغل فيها قول السخاوي مترجما سارة بنت جماعة « ... ونزل أهل مصر بموتها في الرواية درجة ».

وتلك المراسلات المدونة في الضوء اللامع والتي كانت متبادلة بين مؤلفه - أي السخاوي - وفاطمة ابنة محمود الحنفية بم احتوت عليه من المطارحات الأدبية شعراً ونشراً (٤٥).

(٤٥) عاشور ، دراسات ، ص ٢٧٥ - ٢٧٧ ؛ عز الدين ، محمد كمال الدين ، الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة ، بيروت (١٩٩٠م) ، ص ٩٤ - ٩٥ ؛ السلمي ، أبي عبد الرحمن (ت ٤١٢هـ / ١٠٢١م) ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات ، تحقيق محمود محمد الطناحي ، القاهرة (١٩٩٩م) ؛ المزني ، الحياة العلمية ، ص ٢٧٧ - ٢٨٦ ؛ العبيكان ، الحياة العلمية ، ص ١٥٥ - ١٦٤ .

أما عن بقية التفاصيل المتعلقة بدور المرأة وما يتصل بذلك من الموضوعات الأخرى كالشوار والزينة وإبراز المفاتن والمستحدثات (الموضة) فى الملابس والزينة وغير ذلك فسوف نتطرق إليه تفصيلا واسهابا وتحليلا فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى).

- المؤسسات والمنشآت الاجتماعية :-

ازدانت المدن الإسلامية المتعددة بالعديد من المؤسسات والمنشآت التى نهضت بدور بارز جليل الشأن فى الحياة الاجتماعية فى دار الإسلام ، وحسبنا أن نركز فى هذا المقام على منشآت الرعاية الاجتماعية من الأسبلة ومكاتب السبيل والحمائم والبيمارستانات (المستشفيات) ولعل الظاهرة الواضحة هى أن هذه المنشآت قد استطاعت البقاء والاستمرار طويلا دون أن تتوقف عن أداء رسالتها عقب وفاة منشئها وذلك بفضل نظام الأوقاف الذى ازدهر مع ازدهار الحضارة الإسلامية ، وقد هيات هذه الأوقاف لتلك المنشآت صفة الاستمرار والدوام فقد ضمن لها دخلا ثابتا ومستمر ، كما أن أداء هذه المنشآت كان مقننا تحكمه شروط الواقف والعرف السائد مما خرج بهذه المنشآت عن طابع الإحسان الفردى إلى التزام المجتمع والدولة .

ونضيف على ذلك فنقول أن هذه المنشآت الإسلامية كانت لها كل صفات وخصائص منشآت الرعاية الاجتماعية الحديثة وذلك من خلال انطباق المقاييس الحديثة لمنشآت الرعاية الاجتماعية وممارستها على الأنشطة والخدمات التى قدمتها المنشآت الإسلامية ، وعلى ذلك فقد كان للحضارة الإسلامية فضل السبق فى رفع شعار التكافل الاجتماعى ونجاحها فى تطبيقه تطبيقا ناجحا ومستمر قبل أن تعرفه أوروبا وتطبقه بقرون عديدة^(٤٦).

(٤٦) أبو الفتوح ، محمد سيف ، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، آداب سوهاج ، جامعة أسيوط (١٩٨٠م) ، ص ٤٦٣ ؛ ولزيد من التفاصيل انظر ، محمد محمد ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م ، القاهرة (١٩٨٠م) ، ص ١٣١ - ١٧٧ .

- الأسبلة :-

تعد الأسبلة فرعاً مهماً من أفرع العمائر المدنية في الحضارة الإسلامية وفي العمارة الإسلامية خاصة ويندرج ذلك الفرع تحت ما يمكن أن يطلق عليه اصطلاحاً اسم العمائر أو المنشآت الخيرية وهو ما سوف نشير إليه في الباب الثاني من هذا الكتاب المجلد الذي بين أيدينا .

وكانت أسبلة الماء وهي التي كانت تعرف بالسقايات خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة النبوية الشريفة قد انتشرت في أقطار العالم الإسلامي انتشاراً كبيراً كما يستدل من خلال ما ورد في المصادر التاريخية فضلاً عن مشاهدات الجغرافيين والرحالة والأدلة الأثرية الباقية في العديد من المدن الإسلامية حتى الآن .

فها هو الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) يذكر أنه « كان يشرب من سقايات كان يضعها الناس بين مكة والمدينة » (٤٧).

ويضيف المؤرخ الفاكهي فيقول « وبمكة في فجاجها وشعابها من باب المسجد إلى منى ونواحيها ومسجد التنعيم نحو مائة سقاية منها لأبي أحمد الموفق بالله ثلاث سقايات في ظهر جبل العيرة ومنها سقايتان لابن أبي الشوارب ، ومنها سقاية للحارث بن عيسى أبي غانم ومنها لأبي سهل محمد بن أحمد سقايتان ومنها سقاية للسلطان عند مسجد الشجرة وأخرى عند مسجد عائشة (رضي الله عنها) بالتنعيم وسائر ذلك للغرباء ولغيرهم من أهل مكة » (٤٨).

وعن سقايات صنعاء يذكر ابن رسته « ويقرب كل مسجد من مساجدهم إلا القليل منها سقاية فيها ماء السبيل ومغتسل ومتوضئ كل مصهرج وفيه طاق كبير قد عقد من حجارة بقرب الجزارين ... » (٤٩).

(٤٧) الشافعي ، أبي عبد الله محمد بن إدريس ، كتاب الأم ، ج ٣ ، طبعة بولاق (١٩٠٣م) ، ص ٢٧٩ .
(٤٨) الفاكهي ، أبي عبد الله محمد بن إسحاق ، من علماء ق ٣هـ / ٩م ، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، ج ٣ ، تحقيق عبد الملك بن دهيش ، مكة المكرمة (١٩٨٧م) ، ص ٩٧ ؛ ولزيد من التفاصيل انظر كتابنا الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة (وهو الجزء الرابع من سلسلة العمارة الإسلامية في الجزيرة العربية) ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، (صفحة فضلاً عن الأشكال واللوحات) .
(٤٩) ابن رسته ، أبي علي أحمد بن عمر ، العلاقات النفيسة ، بيروت (١٩٨٨م) ، ص ١٠٧ ؛ وبما له دلالة أن هذه السقايات قد اشتهرت في اليمن باسم المحسنة . الحجري ، مساجد صنعاء ، ص ٦ ، ٣٠ .

وعن القدس يذكر المقدسى « وقلّ دار ليس بها صهريج أو أكثر وقل حارة إلا وفيها جب مسبل » (٥٠).

وعن القيروان يذكر البكرى « وخارج القيروان خمسة عشر ماجلا للماء سقايات لأهلها منها من بنيان هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢ م) وغيرها وأعظمها شأنًا ما جل إبراهيم الأغلبى ... » (٥١).

وعن سبته يذكر الأنصارى السبتي « وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية ... » (٥٢).

وعن دمشق يذكر ابن عساكر أن بها « إحدى وعشرين سقاية داخل السور وسبعًا في أرياض دمشق خارج السور » (٥٣).

وعن بغداد يذكر الرحالة التركى أوليا چلبى أن بها مائة سبيل ومائتى چشمة ولم يتبق منها سوى ٤٣ ترجع كلها إلى العصر العثمانى (٥٤).

وعن سمرقند يذكر الجغرافيين والرحالة ما نصه « وقلّ ما رأيت خانا أو طرف سكة أو محلة أو مجمع ناس فى الحائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل وقد أخبرنى من يرجع إلى خبره أن بسمرقند فى المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارجى زيادة على الفى مكان يسقى فيها ماء الجمد مسبلا ما بين سقاية مبنية وجباب نحاس منصوبة وقلال خزف مثبتة فى الحيطان مبنية » (٥٥).

(٥٠) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٦٧ .

(٥١) البكرى ، المغرب ، ص .

(٥٢) الأنصارى السبتي ، محمد بن القاسم ، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سنى الآثار ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط (١٩٩٦ م) ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٥٣) عاشور ، بعض أضواء جديدة ، ص ٢٢٥ .

(٥٤) عن : رؤوف ، عماد عبد السلام ، تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة فى بغداد ، بغداد (١٩٧٩ م) ، ص ٧٩ ؛ وعن الأسبلة البغدادية انظر ، رؤوف ، معالم بغداد فى القرون المتأخرة ، بغداد (٢٠٠٠ م) ، ص ٢٦٧ - ٢٧٣ .

(٥٥) الاصطخرى ، أبى اسحق إبراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر الحينى ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٤ م) ، ص ١٦٣ ؛ بن حوقل ، أبى القاسم ، صورة الأرض ، القاهرة ، ط ٢ ، د ت ، ص ٣٨٦ ؛ متر ، الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

أما فى مصر فقد انتشرت هذه الأسبلة انتشاراً كبيراً ولا سيما خلال العصرين المملوكى والعثمانى وعهد أسرة محمد على وهو ما يستدل عليه من المصادر التاريخية المختلفة ووثائق الوقف الكثيرة التى ترجع إلى هذه العصور فضلاً عن الأدلة المادية الآثرية التى لا تزال باقية بمدينة القاهرة حتى الآن فضلاً عن بعض المدن المصرية الأخرى ومنها طنطا ورشيد^(٥٦).

ولعل فى هذا القدر ما يكفى للدلالة على مدى انتشار هذه الأسبلة أو السقايات فى المدن الإسلامية المختلفة بدار الإسلام وأنها لم تكن تقتصر على الاقطار الحارة فحسب كما هو شائع فى العديد من الدراسات المنشورة وإنما انتشرت فى الأقطار الباردة كذلك .

وعن تسبيل الماء وتوزيعه فى أسبلة القاهرة فقد كان يتولى ذلك المزملا تى ، ويعاونه عدد من السبلجية ولا سيما خلال العصر العثمانى وكان يشترط فيمن يتولى أمر هذه الوظيفة شروطاً خلقية وخلقية كأن يكون سالماً من العاهات والأمراض وأن يسهل الشرب على الناس ويعاملهم بالحسنى والرفق ليكون أبلغ فى ادخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة^(٥٧) .

كذلك يلاحظ ثمة مواقيت حددت لتسبيل الماء فكانت عملية التسبيل تستمر غالباً طوال النهار من شروق الشمس حتى غروبها ؛ وربما استمرت فى بعض المدن من بعد الغروب إلى أن تمضى حصّة من الليل عندما يأوى الناس إلى مساكنهم وتنقطع الرجل عن الطرقات ، أما فى شهر رمضان فكان تسبيل الماء يستمر من وقت الغروب إلى ما بعد صلاة التراوىح ثم من وقت التسبيح إلى الفجر .

(٥٦) نوبصر ، حسنى محمد ، مجموعة سبل السلطان قايتباى بمدينة القاهرة ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، جامعة القاهرة (١٩٧٠م) ؛ زكى ، عبد الرحمن ، الأسبلة الأثرية فى مدينة القاهرة ، مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة (١٩٧٧م) ؛ الحسينى ، محمود حامد ، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ، القاهرة (١٩٨٨م) ؛ أبو طربوش ، محمد هاشم ، أسبلة القرن التاسع عشر فى القاهرة ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، آداب سوهاج ، جامعة جنوب الوادى (١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) ؛ فضلاً عن دراساتنا عن أسبلة القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى فى كل من ندوة الفيوم وندوة أندريه ريمون (٢٠٠٤م) وموسوعتنا عن العمارة الإسلامية فى مصر من الفتح العثمانى إلى نهاية عصر محمد على .

(٥٧) عاشور ، دراسات ، ص ٢٩٢ ؛ أمين ، الأوقاف ، ص ١٥١ - ١٥٢ ؛ الحسينى ، الأسبلة العثمانية ، ص ٣٠٣ - ٣٠٧ ، ٣٥٤ ؛ أبو الفتوح ، منشآت الرعاية الاجتماعية ، ص ٤٤١ - ٤٤٢ .

أما عن عمارة هذه الأسبلة وطرزها وأنماطها وسماتها المعمارية والفنية فسوف نتطرق إليها اجمالاً في الباب الثانى من هذا الكتاب المجلد الذى بين أيدينا ؛ على أن نعود إليها تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

- مكاتب السبيل :-

تعد من أبرز منشآت الرعاية الاجتماعية فى الحضارة الإسلامية ، وقد انتشرت فى الأقطار الإسلامية انتشاراً كبيراً ، وقد عرفت بمكاتب الصبيان أو مكاتب الأيتام أو الكتاتيب أو مكاتب السبيل ، أما فى الغرب الإسلامى فقد عرفت باسم المحاضر (ومفردتها محضرة) فها هو ابن جبير يصف ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي بقوله « ومن مآثره - أى صلاح الدين - الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة أنه أمر بعمارة محاضر (مكاتب أو كتاتيب) ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتجري عليهم الجراية الكافية لهم » (٥٨).

وقام ابن جبير بزيارة مدينة دمشق وشاهد فيها مكتبا للأيتام وصفه بقوله «وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منها المعلم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسوتهم وهذا أيضاً من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد ... » (٥٩).

ويذكر صاحب الفتاش أنه كانت بمدينة تمبكت فى عهد (اسكيا) مائة وخمسون أو ثمانون مكتبا لتعليم الصبيان القرآن الكريم وتارة يسميها المدارس ولكن السعدى يعبر عنها فى كتابه تاريخ السودان باسم محضر (وهى التسمية الشائعة فى الغرب الإسلامى كما سبق القول) وكان التلميذ يعرف باسم المحضرى (٦٠).

ومن أمثلة مكاتب السبيل بالقاهرة المكتب الذى أمر بإنشائه السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بجانب مدرسته بين القصرين (المدرسة الظاهرية العتيقة) وقرر لمن

(٥٨) رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة (١٩٩٢م) ، ص ٤٩ .

(٥٩) رحلة ابن جبير ، ص ٣٤٢ .

(٦٠) انظر بحثنا عن تاريخ الثقافة الإسلامية والتعليم فى السودان الغربى ، مجلة الدارة ، العدد ٢ ، السنة ١٩ ، محرم - ربيع الأول ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٨ .

فيه من أيتام المسلمين الخبز فى كل يوم والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف^(٦١)، ولا تزال بقايا هذا المكتب قائمة بل وتعد الجزء الوحيد الباقي من المدرسة الظاهرية وهو الجزء الذى يرى البعض خطأ أنه سبيل الظاهر بيبرس كما سنشير فيما بعد .

ومنها مكتب السبيل الذى أنشأه السلطان المنصور قلاوون ومنها مكتب السبيل الذى أنشأه الأمير صرغتمش بدهليز مدرسته بشارع الخطيرى بالصليبية^(٦٢).

وكانت بعض هذه المكاتب تخصص لتعليم الإناث ومنها المكتب أعلى سبيل حسن أغا كوكليان بشارع سوق السلاح بالقاهرة المعد لتعليم الإناث^(٦٣).

ولم يقف الأمر عند حد توفير الطعام والكسام والمعلوم الشهري للأيتام فحسب وإنما تعدى ذلك إلى توفير أدوات الكتابة نفسها من أقلام ومداد وأوراق وغير ذلك .

وكان يقوم بتعليم الأيتام معلم يطلق عليه عادة المؤدب أو الفقيه وكان يشترط فيه شروطا خلقية واجتماعية منها أن يكون خيراً ديناً ذا عقل وعفة متزوجاً أميناً على أطفال المسلمين ، صحيح العقيدة حافظاً لكتاب الله العزيز ، وكان يساعد المؤدب العريف وتشتترط فيه نفس الشروط التى يجب توافرها فى المؤدب .

وكان هؤلاء الأطفال يتعلمون فى المكاتب القرآن الكريم والخط العربى والهجا والاستخراج والآداب^(٦٤).

(٦١) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩٠ ؛ المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٥٧م) ، ص ٥٠٤ .

(٦٢) بيبرس المنصورى ، التحفة المملوكية ، ص ١١١ ؛ الحداد ، محمد حمزة ، السلطان المنصور قلاوون ، ص ٥٤ - ٥٥ ؛ أمين ، الأوقاف ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٦٣) حجة وقف حسن اغا كوكليان الشهير ببليفا ، (أوقاف رقم ٢٢٤٣) .

(٦٤) عاشور ، دراسات ، ص ٢٨٣ ؛ أمين ، الأوقاف ، ص ٢٦٣ - ٢٧٥ ؛ ولزيد من التفاصيل انظر ، صبرة ، آدم ، الفقر والإحسان فى مصر عصر سلاطين المماليك ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، القاهرة ، (٢٠٠٣م) ، ص ١٣٦ - ١٤٢ ؛ الحجى ، حياة ناصر ، صور من الحضارة العربية الإسلامية فى سلطنة المماليك ، الكويت (١٩٩٢م) ، ص ١٨٧ - ١٩٠ ؛ عبد العاطى ، عبد الغنى محمود ، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٢م) ، ص ٩١ - ١١٢ .

كذلك كان على المؤدب أن يعامل هؤلاء الأطفال بالاحسان والتلطف والاستعطاف فيما يرغبهم به فى الاشتغال ومن أتى منهم بما لا يليق أدبه بفعل ما أباحه له الشرع الشريف ولا يضرب الضرب المبرح وغير ذلك مما ورد فى وثائق الوقف المختلفة وهو ما سوف نعود إليه ولغيره مما يرتبط بموضوع مكاتب السبيل فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى).

أما عن عمارة مكاتب السبيل الباقية حتى الآن فسوف نتطرق إليها اجمالاً فى الباب الثانى من هذا الكتاب ؛ على أن نعود إليها تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

- الحمامات :-

قامت الحمامات العامة بدور بارز جليل الشأن فى الحياة الاجتماعية فى الأقطار الإسلامية فى المشرق والمغرب على السواء ، ويمكن أن نجمل أهمية الحمامات فى ذلك الوقت فى النقاط التالية :

١ - لم تكن الحمامات مجرد مكان أو منشأة لنظافة البدن وطهارته مع لذلك من معانٍ ودلالات اجتماعية .

٢ - كان دخول المريض الحمام ايذاناً بشفائه أو دليلاً على برئه .

٣ - كانت زفة العروس لا بد أن تخرج من الحمام وهو ما يعد احتفالاً عائلياً لا ينسى للعروسين والأهل والأحباب ، فضلاً عن حفلات الختان للأطفال .

٤ - كان الحمام موضعاً لعلاج الكثير من الأمراض كالبرص والجذام والروماتيزم .

٥ - كانت الحمامات بمثابة الأندية الاجتماعية الحالية حيث تحرص غالبية النساء على الذهاب إليها بمفردها أو مع صويحباتها فيتناقلن أخبار الحى والناس ، ويقصصن على بعضهن كثيراً من أخبارهن وحياتهن المنزلية ، وإلى الحمام كانت تتجه المرأة بأفخر ثيابها وأنفس حليها لتلبسها بعد الاستحمام حتى يراها غيرها فتقع المفاخرة والمباهاة ، فضلاً عن أن النساء كن يحرصن على أن يأخذن الشعر الزائد فى الوجه والجسد بالتحفيف وشعر الحاجب بالمساواة والزينة على يد البلانة والنساء فى هذا المقام أشد تهالكا من الرجال على حد قول ابن الأخوة . والحمامات فى هذه

الحالة كانت أشبه بمعاهد التجميل والنوادي الصحية الحالية^(٦٥).

٦ - كانت الحمامات موضعا ملائما ومكانا مناسباً بعيداً عن أعين الرقباء لوضع الخطط وتدبير المؤامرات والاعتياالات وفي المصادر التاريخية اشارات كثيرة حول هذا الموضوع في المشرق والمغرب على السواء وهو ما سوف نعود إليه دراسة لاحقة (بمشيئة الله تعالى) .

هذا وقد انتشرت الحمامات في الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء فابن جبير يذكر عن حمامات بغداد ما نصه « وأما حماماتها فلا تحصى عدة ، ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل ، وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لأن شأنه عجيب يُجلب من عين بين البصرة والكوفة وقد أنبط الله ماء هذا العين ليتولد منه القار فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب وقد انعقد فسبحان خالق ما يشاء لا إله سواه »^(٦٦).

ويذكر ابن جبير عن دمشق « وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمام فيها وفي أرباضها »^(٦٧).

أما ابن عساكر فقد أشار إلى أن حمامات دمشق في عهده تبلغ نحو سبعة وخمسين حماماً .

ومن الثابت أن حمامات الشام بوجه عام قد استرعت أنظار الفرنج ودهشتهم واعجابهم بها في عصر الحروب الصليبية فتردد بعضهم عليها للاستحمام على نحو

(٦٥) عاشور ، دراسات ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ؛ عبد الرازق ، المرأة ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ؛ أبو الفتوح ، منشآت الرعاية الاجتماعية ، ص ١٦١ - ١٦٩ .

(٦٦) رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٣ ؛ وعن حمامات بغداد في العصر العباسي وما قيل فيها من أقوال ومبالغات، انظر ، الصابى ، هلال (ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦ م) ، رسوم دار الخلافة ، بغداد (١٩٦٤م) ، ص ١٩ - ٢١ ؛ عواد ، ميخائيل ، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي ، بغداد ، ط ٢ (١٩٨٦م) ، ص ١٠٥ - ١٠٩ ؛ ناجي ، عبد الجبار ، البهادلى ، حسين داخل ، بغداد في كتابات الرحالة العرب والأجانب ، بغداد (٢٠٠٣م) ، ص ١٨١ - ١٨٢ ؛ وعن الحمامات البغدادية في القرون الأخيرة . انظر ، رؤوف ، معالم بغداد ، ص ٢٦٠ - ٢٦٦ .

(٦٧) رحلة ابن جبير ، ص ٣٦٥ .

ما ورد فى كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ ، وعن طريق الفرنج فى بلاد الشام انتقلت هذه الظاهرة إلى الغرب الأوروبى^(٦٨).

وفى قرطبة بلغ عدد الحمامات العامة فى عهد عبد الرحمن الناصر ثلاثمائة حمام ثم زاد زيادة كبيرة فى عهد المنصور محمد بن أبى عامر فبلغ سبعمائة حمام فى قول وتسعمائة حمام فى قول آخر و ٣٩١١ حماماً فى قول ثالث ، وأيا ما كان الرقم الصحيح فإن هذه الأرقام تعبر عن كثرة الحمامات العامة وتسابق الناس على بنائها فى قرطبة^(٦٩).

أما مصر فقد انتشرت فيها هى الأخرى الحمامات بدرجة كبيرة فالفسطاط كان يوجد بها ألف ومائة وسبعون حماماً وكان من بينها حمام جنادة فى القرافة الذى ما كان « يتوصل إليه إلا بعد عناء من الزحام وإن قبالة الحمام فى كل يوم جمعة خمسمائة درهم التى تساوى اثنين وأربعين ديناراً إلا ثلثاً لأن الدينار كان صرفه يوم ذاك اثنى عشر درهما »^(٧٠).

وليس أدل على عظمة الحمامات المصرية فى العصر الأيوبرى من وصف الرحالة والطبيب العراقى عبد اللطيف البغدادى بقوله « وأما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظراً ومخبراً ... جاماته مختلفة الألوان صافية الأصباغ بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ داراً لجلوسه وتناهى فى ذلك لم تكن أحسن منه »^(٧١).

وهناك عدد من العاملين فى الحمام من بينهم الحمامى والوقاد والقيم والسقاء والزبال والناطور والمزين ، وحسبنا أن نشير فى هذا المقام إلى الشروط التى يجب أن

(٦٨) عاشور ، دراسات ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ ؛ ابن منقذ ، أسامة ، الاعتبار ، القاهرة (٢٠٠٢م) ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٦٩) العنانى ، كمال ، حمامات الأندلس ، ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع للحضارة الأندلسية ، القاهرة (١٩٩٨م) ، ص ٦٨٤ - ٦٨٥ .

(٧٠) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٤٣ - ٤٤ ، الحداد ، محمد حمزة ، قرافة القاهرة ، ص ٥٧ .

(٧١) البغدادى ، عبد اللطيف ، الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، تحقيق بول غليونجى ، أعلام العرب ، القاهرة (١٩٨٥م) ، ص ١١٨ - ١١٩ .

تتوافر في المزين فمنها أن يكون خفيفا رشيقا بصيرا بصنعتة وأن يكون حديدة (الأمواس) رطبا قاطعا ولا يأكل ما يغير نكهته كالبصل والثوم والكراث في يوم نوبته لئلا يتضرر الناس برائحة فيه عند الخلابة ، وأن لا يحلق شعر صبي إلا بإذن وليه وأن لا يحلق عذار أمرد ولا لحية مخنث (٧٢).

هذا ولا تزال الكثير من الحمامات الآثارية باقية في المدن العربية والإسلامية في اسيا وأفريقيا وأوروبا ، وبعضها ما يزال يعمل ويؤدي دوره في الحياة الاجتماعية ولا سيما في الأحياء الشعبية ؛ ويحرص بعض الأثرياء فضلا عن السياح الأجانب على ارتيادها حتى اليوم .

أما عن عمارة الحمام وطرزها وأنماطها وسماتها المعمارية والفنية فسوف نتطرق إليها اجمالاً في الباب الثاني من هذا الكتاب المجلد ؛ على أن نعود إليها ولغيرها مما يتعلق بالحمام وأهميته وأرباب وظائفه في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى).

- البيمارستانات :-

البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من مقطعين (بیمار) بمعنى مريض و علیل أو مصاب و (ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذاً دار المرضى ثم اختصرت في الاستعمال فصارت ماستان ، وكانت البيمارستانات مستشفيات عامة تعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية إلى أن أصابتها الكوارث ودار بها الزمن وحل بها البوار وهجرها المرضى فأقفرت إلا من المجانين حيث لا مكان لهم سواها ، ومن ثم صارت كلمة ماستان (أو مورستان) إذا سمعت لا تنصرف ، إلا إلى مأوى المجانين (٧٣) (وهو يعرف اليوم بمستشفى الأمراض العقلية والعصبية).

وقد نهضت هذه البيمارستانات بدور بارز جليل الشأن في الحياة الاجتماعية في الحضارة الإسلامية .

(٧٢) الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص ٨٨ ؛ ابن الأخوة ، معالم القرية ، ص ١٥٦ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٢٩٦ ؛ أبو الفتوح ، منشآت ، ص ١٨٣ - ١٨٥ .

(٧٣) عيسى ، أحمد ، تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨١م) ، ص ٤ .

وكانت البداية بسيطة متواضعة تتناسب مع بساطة الدولة الإسلامية الناشئة في عصر الرسول (ﷺ) إذ يذكر البخاري « ولما أصيب سعد بن معاذ (رضي الله عنه) في الكحل في يوم الخندق أو رسول الله أن تضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب » .

ويضيف ابن اسحاق فيذكر أن الذي كان يقوم على تريضه وعلاجه امرأة اسمها رفيدة من قبيلة أسلم وكان لها خيمة في المسجد وكانت تداوى الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين ويقول : وكان رسول الله (ﷺ) قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب » (٧٤) .

وعلى ذلك تعد هذه الخيمة أول بيمارستان في دار الإسلام وإن لم يطلق عليه هذا الاسم في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الحضارة الإسلامية ، ويضيف أحمد عيسى فيذكر أن الرسول (ﷺ) هو أول من أمر بالبيمارستان الحربى المتنقل (٧٥) .

أما أول بيمارستان حقيقى في الحضارة الإسلامية فهو الذى أمر بإنشائه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك فى دمشق عام ٨٨هـ / ٧٠٦م وجعل فيه الأطباء وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق (٧٦) .

وانتشرت البيمارستانات فى الأقطار الإسلامية المختلفة ؛ وحسبنا أن نشير إلى بعضها فمنها فى مصر بيمارستان المعافر بالفسطاط وكان « فى خطة المعافر التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر وبين مصلى خولان التى بالقرافة بناء الفتح بن

(٧٤) صحيح البخارى ، ج١ ، ص ١١٩ ، ج٥ ، ص ٥١ ؛ ابن هشام ، السيرة ، ج٣ ، ص ١٤٥ ؛ الطبرى ، تاريخ الرسل ، ج٢ ، ص ٥٨٦ ؛ الكتانى ، التراتيب الإدارية ، ج١ ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ ؛ كحالة ، أعلام النساء ، ج١ ، ص ٤٥١ ، ج٤ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ الوكيل ، محمد السيد ، الحركة العلمية فى عصر الرسول وخلفائه ، جده ، ط ٥ (١٩٨٩م) ، ص ٩١ - ٩٢ ؛ السامرائى ، خليل إبراهيم ، محمد ، نائر حامد ، المظاهر الحضارية للمدينة المنورة فى عصر النبوة ، الموصل (١٩٨٤م) ، ص ٦٩ .

(٧٥) عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٩ - ١٠ ؛ الديوه جى ، الموجز فى الطب الإسلامى ، ص ٣٢ .

(٧٦) المقرئى ، الخطط ، المجلد الرابع ، ج٢ ، ص ٦٩١ .

خاقان فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) وقد باد أثره» (٧٧).

وأمر كافور الاخشيدى وهو قائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور بن محمد الاخشيدى ببناء بيمارستان بمدينة مصر فى سنة ٣٤٦هـ / ٩٧٨م إلا أنه لم يبق له أثر .

أما أشهر البيمارستانات التى أقيمت بمصر فى القرون الأربعة الأولى للهجرة فهو بيمارستان الأمير أحمد بن طولون ٢٥٩هـ / ٨٧٣م إلا أنه لم يبق له أثر . وقد أنفق على هذا البيمارستان ومستغله ستين ألف دينار ، ولما «فرغ منه حبس عليه دار الديوان ودوره إلى الأساكفة والقيسارية وسوق الرقيق ، وشرط أن لا يعالج فيه جندى ولا مملوك وعمل فيه حمامين : احداهما للرجال والأخرى للنساء وحبسهما على البيمارستان وغيره ، وشرط أنه إذا جئ بالعليل تنزع ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين البيمارستان ثم يلبس ثيابا ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ فإذا أكل فروجاً ورغيفاً أمر بالأنصراف وأعطى ماله وثيابه» (٧٨).

هذا وقد بلغ من عناية ابن طولون بهذا البيمارستان أنه كان يتفقده بنفسه « فى كل يوم جمعة ، ويتفقّد خزائن المارستان وما فيها والأطباء وينظر إلى المرضى وسائر الاعلاء والمحبوسين من المجانين » وظل على هذا الحال حتى غافله أحد المجانين ذات مرة ورماه برمانة عريشية . كان قد أمر له بها من ساعتها . فى صدره فنضحت على ثيابه ولو تمكنت منه لأتت على صدره ، فلم يعاود البيمارستان بعد ذلك (٧٩).

ومما يحسب لابن طولون أيضاً أنه قد عمل فى مؤخر جامعته الشهير « ميضأة وخزانة شراب (صيدلية) فيها جميع الشرابات والأدوية وعليها خدم وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة » (٨٠).

(٧٧) المقرئى ، الخطط ، المجلد الرابع ، ج٢ ، ص٦٩٢ .

(٧٨) المقرئى ، الخطط ، مج ٢ ، ج١ ، ص٦٩١ - ٦٩٢ .

(٧٩) المقرئى ، الخطط ، مج ٢ ، ج١ ، ص٦٩١ - ٦٩٢ ؛ عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص٧٠ ؛ أمين

الأوقاف ، ص١٥٥ - ١٥٦ ؛ كاشف ، أحمد ابن طولون ، ص٢٥٣ .

(٨٠) المقرئى ، الخطط ، مج ٢ ، ج١ ، ص٦٩١ .

وعندما سقطت الدولة الطولونية عام ٢٩٢هـ / ٩٠٤م أخذ الشعراء على عاتقهم
رثاء هذه الدولة وما تركت من جلائل الآثار ومنهم من رثى البيمارستان بقوله :

ولا تنس مارستانه واتساعه

وتوسعة الأرزاق للحول والشهر

وما فيه من قوامه وكفاته

ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقر

فاللميت المقبور حسن جهازه

وللحى رفق فى علاج وفى جبر^(٨١)

أما عن بيمارستانات بغداد فمنها بيمارستان للخليفة الرشيد وآخر للبرامكة
عرف باسمهم ، وأنشأ الوزير على بن عيسى بن الجراح بيمارستانا فى محلة الحربية
قرب مقبرة الإمام أحمد بن حنبل وأنفق عليه من ماله الشئ الكثير .

واشتهر البيمارستان الذى أسسه بدر غلام الخليفة المعتضد بالله العباسى بمحلة
المخرم ، ومن طريف ما يحكى عن هذا البيمارستان أن النفقة عليه نقصت فى سنة من
السنين فلما علم الوزير بذلك كتب إلى صاحب بيت المال قائلاً « إنه لا بد من تعديل
الحال فيه بل هو أحق بالتقدم على غيره لضعف من يلجأ إليه وعظيم النفع به إلى أن
قال : وفى هذا الوقت خاصة مع الشتاء واشتداد البرد فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم
ويعجل حتى يدفأ من فى البيمارستان من المرضى بالذثار والكسوة والفحم ويقام لهم
القوت ويفصل لهم العلاج والخدمة وأجبنى بما يكون منك فى ذلك »^(٨٢).

ومن البيمارستانات الأخرى بيمارستان الخليفة المقتدر بالله فى محلة باب الشام
بالجانب الغربى من بغداد وقد عرف بالبيمارستان المقتدرى وكان ينفق عليه من ماله
فى كل شهر مائتى دينار؛ وكذلك بيمارستان والدة الخليفة المقتدر فى سوق يحيى على
شاطئ دجلة وكانت تنفق عليه بسخاء حتى بلغت النفقة ستمائة دينار فى كل شهر .

(٨١) الكندى ، الولاة ، ص ٢٥٧ : المقرئى ، الخطط ، مج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٨٢) عواد ، صور مشرقة ، ص ١١٢ - ١١٣ .

وأنشأ الوزير ابن الفرات بيمارستانا بدرب المفضل وكان ينفق عليه من ماله مائتي دينار في كل شهر .

وأنشأ الأمير بجكم (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) بيمارستانا في عام ٣٢٩هـ / ٩٤١م فوق رابية جميلة على الشاطئ الغربي لدجلة كان في موضعها قصراً للخليفة الرشيد من قبل ، وقد جدد هذا البيمارستان عضد الدولة البويهى في عام ٣٦٨هـ / ٩٧٨م وسمى باسمه وافتتحه وزوده بالأطباء والمعاجين والخُزان والبوابين والوكلاء والناطورين وغيرهم ونقل إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير الشئ الكثير ، كما جمع إليه الأطباء من كل موضع فاجتمع فيه أربعة وعشرين طبيباً بينهم الطبائعى والجراح والكحال والمجبر ، وكان هذا البيمارستان ملجأ الكثير من المرضى والمساكين في بغداد ثم قام باصلاحه وتجديده وتجهيزه الوزير عميد الملك^(٨٣) (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) وأثناء زيارة الرحالة ابن جبير لبغداد عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م شاهد هذا البيمارستان ووصفه بقوله « المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة وتتفقد فيه الأطباء كل يوم اثنين وخميس وبطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون لأخذه وبين أيديهم قومه لذلك يتناولون طبخ الأدوية والأغذية وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل إليه من دجلة »^(٨٤).

ومن الملاحظ أن بيمارستانات بغداد العباسية كان يتم اختيار أحسن المواضع لبنائها فكانوا يختارون المواضع النزهة تحف بها الرياض والحدائق وكذلك الروابى المطلة على السهول الفسيحة ولذلك كانت أكثر البيمارستانات البغدادية تتوسط شاطئ دجلة فإن هذه المواضع موصوفة برقة الهواء وحسن المستشرف^(٨٥).

وإذا ما انتقلنا إلى دمشق يقابلنا البيمارستان النورى الشهير ٥٤٩هـ / ١١٥٤م نسبة إلى السلطان نور الدين محمود بن السلطان عماد الدين زنكى .

وقد وصفه ابن جبير بأنه أكبر وأحفل من البيمارستان القديم ثم يضيف قائلاً

(٨٣) عواد ، صور مشرقة ، ص ١١٣ - ١١٦ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٨٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٨ ؛ ناجى ، بغداد فى كتابات الرحالة ، ص ٢٠٩ .

(٨٥) عواد ، صور ، ص ١١٦ .

« وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وبه قومه بايديهم الأزيمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية وغير ذلك والأطباء يبكرون إليه كل يوم ويتفقّدون المرضى ويأمرون بأعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم ... » (٨٦).

وكان السلطان نور الدين محمود قد وقف هذا بیمارستان على الفقراء دون الأغنياء اللهم إذا لم يجد الأغنياء الدواء اللازم لهم إلا فى هذا بیمارستان مما يؤكد الأهمية الاجتماعية لهذا بیمارستان ، ومن هذا المنطلق شرب السلطان نور الدين نفسه من دواء هذا بیمارستان (٨٧).

وأمر السلطان نور الدين محمود بإنشاء بیمارستان آخر فى حماه ومثله فى حلب (٨٨).

ويقابلنا بیمارستان صلاح الدين الأيوبي بمدينة القاهرة وقد وصفه ابن جبیر فى رحلته بقوله « وما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان المارستان الذى بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً ، أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً وعين له قيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت فى مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون تفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم وبأزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ولهن أيضاً من يتكفلهن ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شيايبك الحديد اتخذت محابس للمجانين ولهم أيضاً من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها

(٨٦) رحلة ابن جبیر ، ص ٣٥٧ .

(٨٧) عاشور ، دراسات ، ص ٢٨٧ .

(٨٨) عن هذه بیمارستانات النورية انظر ، عيسى ، تاريخ بیمارستانات ، ص ٢٠٦ - ٢٢٩ ؛ شهادة ، كامل ، من مآثر نور الدين الزنكى العمرانية فى حماه (البیمارستان النورى) ، الحوليات الأثرية العربية السورية ، المجلد ١٧ ، ج ١ - ٢ ، دمشق (١٩٦٧م) ، ص ٧٩ - ٩٤ .

بالبحث والسؤال ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد^(٨٩).

ووصف ابن جبير أيضاً بيمارستان صلاح الدين بالاسكندرية قائلاً « ونصب لهم - أى السلطان صلاح الدين - مارستانا لعلاج من مرض منهم ووكل به أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء وقد رتب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون - أى يترفعون - عن الوصول إلى المارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم »^(٩٠).

أما أشهر البيمارستانات الإسلامية عامة والمصرية خاصة فهو البيمارستان المنصورى الذى أمر بإنشائه السلطان المملوكى البحرى المنصور قلاوون بخط بين القصرين (شارع النحاسين سابقا والمعز لدين الله حالياً) بالقاهرة وذلك فيما بين ربيع الآخر ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م وشوال ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م ، وهذا يعنى أن بناءه قد إستغرق خمسة أشهر فحسب . وقد أشاد به عدد كبير من المؤرخين والرحالة ، ومن بين هؤلاء وأولئك حسبنا أن نشير إلى كل من ابن عبد الظاهر الذى ذكر أنه « مارستان عظيم الشأن لا تصل همة ملك إلى ابتناء مثله » ، وابن شاعر الكتبى « البيمارستان العظيم الذى لم يكن مثله » والقلقشندي « المعروف العظيم الذى ليس له نظير فى الدنيا » وابن شاهين الملطى « ما بنى مثله فى الإسلام » من المؤرخين^(٩١).

أما الرحالة المسلمين فحسبنا أن نذكر ابن بطوطة ووصفه بقوله « يعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم »^(٩٢).

(٨٩) رحلة ابن جبير ، ص ٤٨ .

(٩٠) رحلة ابن جبير ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٩١) ابن عبد الظاهر ، تشرىف الأيام ، ص ٥٦ ؛ ابن شاعر الكتبى ، فوات الوفیات ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ؛

القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٠ ، ابن شاهين الملطى ، نزهة الاساطين ، ص ٧٩ ؛ الحداد ،

محمد حمزة ، السلطان المنصور قلاوون ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٩٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٣ .

والبلوى المغربى ووصفه بقوله « ولو لم يكن للقاهرة ما تذكر به إلا المارستان وحده لكفاها وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسنا وجمالا واتساعا لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكمل انتهاء من الحسن والجمال » (٩٣).

ووصفه الرحالة التركى أوليا چلبى بقوله « مستشفى عظيم فى سرّة القاهرة ... بناء عجيب لا نظير له فى بلاد الترك (الروم) والعرب والعجم فقد بنى على أسلوب لو اختل عقل امرئ عابجه الحكماء فارتد عاقلا ... ». ويضيف قائلا « وموجز القول أننا ما رأينا فى البلاد التى جبنّاها (زرنّاها) مستشفى عظيم البناء كهذا المستشفى » (٩٤).

ومما له دلالتة أن هذا الرحالة التركى كان قد ألم به مرض نتيجة لحادث وقع له عقم بسببه واستمر على ذلك سبعة وعشرين عاما حتى جاء القاهرة وزار البيمارستان المنصورى وشرب من الترياق الفاروقى الذى يحضر به فتم شفاؤه وصح جسمه وقوى لحمه وشحمه حتى كان زملاؤه يكسرون عليه البندق ، وكان هذا الترياق يستخرج من سم الثعابين ويصنع مرة واحدة فى العام ويصدر من مصر إلى الخارج (٩٥).

هذا وقد وقف السلطان قلاوون هذا البيمارستان لعلاج جميع المسلمين من مختلف الطبقات العليا والدنيا على حد سواء ويتساوى فى الانتفاع منه الملك والمملوك والكبير والصغير والحر والعبد والذكر والانثى وهو ما تؤكد وثيقة الوقف بما نصه « وهذا البيمارستان ... لمدّواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء والمثريين والفقراء المحتاجين بالقاهرة ومصر وضواحيهما من المقيمين بهما والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأوصابهم من أمراض الأجسام قلت أو كثرت اتفقت أو اختلفت وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت واختلال العقول التى حفظها أعظم المقاصد والأغراض وأول ما يجب الاقبال عليه دون

(٩٣) البلوى ، خالد بن عيسى البلوى ، تاج المفرق فى تحلية علماء أهل المشرق ، (مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥٣ جغرافيا) ، ورقة ٤٥ ب ، الحداد ، السلطان المنصور قلاوون ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٩٤) أوليا چلبى ، سياحتنامه مصر ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٨ .

(٩٥) أوليا چلبى ، سياحتنامه مصر ، ص ٣٥٦ - ٣٥٨ ؛ الحداد ، السلطان المنصور قلاوون ، ص ١٣٦ .

الانحراف عنه والأعراض وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب ... » .

وزيادة على ذلك تؤكد الوثيقة أن البيمارستان للجميع : « يدخلونه جموعا ووحدا شيوخا وشبانا وبلغا وصبيانا وحرما وولدانا ، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداءاتهم إلى حين برئهم وشفائهم ويصرف ما هو معد فيه للمداواة ويفرق للبعيد والقريب والأهلى والغريب والقوى والضعيف والدانى والشريف والعلى والحقير والغنى والفقير والمأمور والأمير والأعمى والبصير والمفضول والفضل والمشهور والخامل والرفيع والوضيع والمترف والصعلوك والمليك والمملوك من غير اشتراط لعوض من الأعواض ولا تعريض بانكار على ذلك ولا اعتراض بل لمحض فضل الله العظيم » .

وكانت الرعاية الصحية لمرضى البيمارستان على أعلى مستوى بل ويفوق ما نراه فى الكثير من المستشفيات الاستثمارية الحديثة فى عصرنا الحاضر وهو ما يتضح فى النقاط التالية :

- ١ - يهين لكل مريض ما يلائمه من سرير وفرش حسب الحالة الصحية .
- ٢ - تزويد المريض يوميا بالمشموم .
- ٣ - يخصص لكل مريض أوانى فخارية لطعامه وأقداح زجاج لشرابه وأباريق فخار مع سرج وقناديل وزيت للوقود من أجل الاضاءة .
- ٤ - ضرورة صرف مراوح من الخوص ليستخدمها المرضى فى التخفيف من حرارة الصيف .
- ٥ - كان لكل مريض قائمة طعام خاصة لغذائه وعشائه حسب أوامر الطبيب المعالج .
- ٦ - ضرورة أن يكون هناك غطاء للأوانى التى يقدم فيها غذاء المرضى لمنع التلوث ، ويختص كل مريض بآناء منفرد لغذائه دون مشاركة أحد من أجل الوقاية الصحية .
- ٧ - العلاج بالموسيقى حيث اشترط الواقف أن يحضر فى كل ليلة من أرباب الآلات أربعة يضربون بالعود حتى يساهروا الضعفاء وأجريت عليهم الجوامك (الرواتب) فى كل شهر .

٨ . تمت ممارسة الطب السريري (الكلينيكي) فى هذا الـبـيـمارـسـتـان حيث خصص فيه مكاناً لتدريس الطب ويقوم رئيس الأطباء بتدريس الطب لهم وهو نفس النظام المعروف حالياً بالمستشفيات الجامعية الحديثة .

٩ . تم فى هذا الـبـيـمارـسـتـان تطبيق نظام المناوبة (الوردية) بين الأطباء «يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا الـبـيـمارـسـتـان مجتمعين ومناوبين باتفاقهم على التناوب أو باذن الناظر فى التناوب» . كما كان الأطباء يلتزمون بالمبيت فى كل ليلة بالـبـيـمارـسـتـان مجتمعين أو متناوبين لمواجهة حالات الطوارئ .

١٠ . لم تستقر منفعة هذا الـبـيـمارـسـتـان على رعاية المرضى المقيمين فيه بل امتدت فشملت كذلك مرضى العيادة الخارجية والمرضى المستقرين فى منازلهم، وقد بلغ عدد المترددين فى قسم العيادة الخارجية حوالى أربعة آلاف نفس ، أما مرضى المنازل فقد تمتعوا بالرعاية الطبية والدواء والشراب والغذاء حتى زاد عدد مرضى المنازل فى بعض الأوقات على مائتى مريض .

١١ . كانت تصرف لمن يخرج معافى من هذا الـبـيـمارـسـتـان كسوة ، ومن مات جهز وكفن ودفن^(٩٦) .

والحق ان هذا الـبـيـمارـسـتـان كان علامة حضارية وانجازاً إنسانياً مبكراً فى مجال الرعاية الاجتماعية والصحية قل أن وجود الزمان بمثلها .

وإذا ما انتقلنا إلى الغرب الإسلامى يقابلنا بـيـمارـسـتـان مراكش الذى أمر بإنشائه السلطان أبى يوسف يعقوب (المنصور) بن يوسف بن عبد المؤمن وقد وصفه عبد الواحد المراكشى بقوله « وبني بمدينة مراكش بـيـمارـسـتـانا ما أظن أن فى الدنيا مثله

(٩٦) الحداد ، محمد حمزة ، السلطان المنصور قلاوون ، ص ١٢١ - ١٣٩ ؛ أمين ، محمد محمد ، وثائق وقف السلطان قلاوون على الـبـيـمارـسـتـان المنصورى (ملحق بكتاب تذكرة النبيه لابن حبيب ، ج ١ ، مطبعة دار الكتب القاهرة ، (١٩٧٦م)؛ الأوقاف ، ص ١٥٧ - ١٧٠ ؛ عيسى ، تاريخ الـبـيـمارـسـتـانات ، ص ١٣٤ - ١٤٩ ؛ الحجى ، صور من الحضارة العربية الإسلامية فى عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٠٩ - ٢٤٤ ؛ أبو الفتوح ، منشآت الرعاية الاجتماعية ، ص ٨١ - ١٢٥ ، ١٤٤ - ١٥٤ .

وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع فى البلد وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه وأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ... وأجرى له ثلاثين ديناراً فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فإذا نقه (برئ) المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وإن كان غنياً دفع إليه ماله وتركته وسيبه .»

ويضيف المراكشى فيقول أن هذا البيمارستان لم يقتصر على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلا أن يستريح أو يموت» (٩٧).

وفى الأندلس يقابلنا بيمارستان غرناطة وقد أمر بانشائه السلطان محمد الغنى بالله وقد وصفه ابن الخطيب بقوله « ومن مواقف الصدق والاحسان من خارق جهاد النفس بناء المارستان الأعظم حسنة هذه التخوم القصوى ومزية المدينة الفضلى ، لم يهتد إليه غيره من الفتح الأول مع توفر الضرورة وظهور الحاجة فأغرى به همة الدين ونفس التقوى فأبرزه موقف الأخذان ورحلة الأندلس وفذلكة الحسنات ، فخامة بيت وتعدد مساكن ورحب ساحة ودرور مياه وصحة هواء وتعدد خزائن ومتوضآت وانطلاق جراية وحسن ترتيب أبر على مارستان مصر بالساحة العريضة والأهوية الطيبة وتدفق المياه من فوارات المرملة وأسود الصخر وتموج البحر وانسدال الأشجار إلى موافقته إياى - أى ابن الخطيب نفسه - وتسويفه ما اخترعته بأذنه ... » (٩٨).

(٩٧) المراكشى ، عبد الواحد بن على ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، مطبعة السعادة بمصر (١٣٢٤هـ) ، ص ١٩٠ - ١٩١ ؛ عيسى ، تاريخ البيمارستانات ٢٨٠ - ٢٨١ ؛ المنونى ، حضارة الموحدين ، الدار البيضاء (١٩٨٩م) ، ص ٩٢ - ٩٣ ؛ ملين ، محمد الرشيد ، عصر المنصور الموحدى ، الرباط ، ط ٢ (١٩٩٦م) ، ص ١٧٨ .

(٩٨) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٥٠ - ٥١ ؛ المغراوى ، رابع عبد الله ، تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦هـ) ، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ، الرسالة ١٤٠ ، الحولية ٢٠ ، جامعة الكويت ، مجلس النشر العلمى (١٩٩٩ - ٢٠٠٠م) ، ص ٩٦ - ٩٨ .

أما عن بقية البيمارستانات في دار الإسلام وغير ذلك مما يتصل بأهميتها في الحياة الاجتماعية في الحضارة الإسلامية فسوف نتطرق إليها تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

وبالنسبة لعمارة البيمارستانات الباقية وطرزها وأنماطها وسماتها المعمارية والفنية فسوف نتطرق إليها اجمالاً في هذا الكتاب المجلد ؛ على أن نعود إليها تفصيلاً وتحليلاً في كتابنا المفصل المشار إليه (بمشيئة الله تعالى) .

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية

المبحث الأول : الزراعة :

عنى الإسلام بالأرض وزراعتها واستصلاحها وهو ما يستدل عليه من المصدرين الرئيسيين للحضارة الإسلامية وهما القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بأهمية الماء والأرض والزرع والحرث والثمرات ومن بينها على سبيل المثال قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون ﴾ ، وقوله عز وجل ﴿ أفريئتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ .

وقوله عز من قائل ﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخيل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابهة كلوا من ثمره إذا أثمر وأتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ﴾ .

أما السنة النبوية الشريفة فقد اهتمت هى الأخرى بأهمية الأرض وأحيائها وزراعتها ومن ذلك قول الرسول (ﷺ) « من أحيا أرضا ميتة فهى له فان مات فهى لورثته وله أن يبيعها ان شاء » ، وقوله (ﷺ) « ما من مؤمن يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيراً أو بهيمة الا كان له به صدقة » .

كذلك لا تفوتنا الإشارة إلى الهدى النبوى الكريم الذى كان يوصى به قادة الفتوح ومن ذلك « انطلقوا باسم الله ... لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم واصلحوا واحسنوا ان الله يحب المحسنين ... ولا تغورا عينا ولا تقطعوا شجرا الا شجراً ليزركم ولا تمثلوا بأدمى ولا بهيمة ولا تظلموا ولا تعتدوا ... »^(١) .

واستمر الهدى النبوى خلال عصر الخلفاء الراشدين فها هو الخليفة الأول أبو بكر

(١) عن الزراعة والأغذية فى المدينة المنورة فى عهد الرسول (ﷺ) انظر ، إدريس ، عبد الله عبد العزيز ، مجتمع المدينة فى عصر الرسول (ﷺ) الرياض ، ط ٢ (١٩٩٢م) ، ص ٢٠٣ - ٢٠٨ ؛ آل الشيخ ، نورة عبد الملك إبراهيم ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى المدينة المنورة فى صدر الإسلام ، جدة (١٩٨٣م) ، ص ١١٨ - ١٣٣ ؛ وانظر أيضاً نصيف ، عبد الله ادم ، القنوات والقوانين الزراعية فى المدينة المنورة ، الكويت (١٩٨٨م) ، ص ٦٤٧ - ٦٧٣ ؛ الجميل ، محمد فارس ، الأطعمة والأشربة فى عصر الرسول (ﷺ) ، حوليات كلية الآداب ، الحولية ١٧ ، الرسالة ١١٤ ، جامعة الكويت (١٩٩٦م) .
(١٩٩٧م) ، (١٣٨ صفحة) .

الصديق (رضى الله عنه) يوصى قادة الفتوح بقوله « لا تخونوا ولا تعلقوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله » .

ومن أقوال الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) « اتقوا الله فى الفلاحين »^(٢).

وعلى ضوء ما تقدم برزت أهمية الزراعة فى الحضارة الإسلامية نظراً لأهميتها فى الحياة الاقتصادية للدولة والرعية على السواء فها هو الماوردى يؤكد على ذلك بقوله « فأما المزارع فهى أصول المواد التى يقوم بها أود الملك وتنتظم بها أحوال الرعايا فصلاحيها خصب وثراء وفسادها جذب وخلاء »^(٣).

هذا وتزخر المصادر التاريخية المختلفة بإشارات كثيرة تبين مدى اهتمام الحكام والأمراء ومن نهج نهجهم بتشجيع الزراعة وبذل الجهود الكبيرة لتطويرها وهو ما سوف نتطرق إليه اجمالاً فى هذا الكتاب المجلد ؛ على أن نعود إليه ولغيره مما يتصل بموضوع الزراعة وأهميته فى الحضارة الإسلامية فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

ومما له دلالة فى هذا الصدد أن التراث العلمى للحضارة الإسلامية يزخر بعدد كبير من المصادر العربية المتعلقة بالفلاحة والمياه والرى والنبات^(٤)، وفيها شرح واف للأسس التى قامت عليها زراعة الأراضى وكيفية تنظيمها فى كافة الأقطار التى انضوت تحت رايات الحضارة الإسلامية سواء من حيث طرق استغلال الأرض أو الأساليب الزراعية أو عمال الزراعة أو الثروة الحيوانية أو الأدوات الزراعية^(٥)؛ أو

(٢) زيود ، التاريخ ، ص ٧ - ٨ .

(٣) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص .

(٤) انظر على سبيل المثال ، صالحة ، محمد عيسى ، فليح ، عبد الله ، فهرس مخطوطات الفلاحة - النبات - المياه والرى ، الكويت (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ، (٤٣٦ صفحة) ؛ اسهامات العرب فى علم الفلاحة ، الكويت (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ، اسهامات العرب فى علم المياه والرى ، الكويت (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) اسهامات العرب فى علم النبات ، الكويت (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) وجميع هذه الدراسات هى نتاج الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب التى عقدت بالكويت من ١٠ - ١٤ ديسمبر ١٩٨٣م .

(٥) السبع ، محمد مروان ، أسس الزراعة ونظمها عند العرب ، ص ٩٣ .

من حيث ما يتعلق بانبساط المياه من باطن الأرض بواسطة الامارات الدالة على وجوده وهو ما عرف عند العرب بعلم الريافة الذى كان يعد من فروع علم الفراسة من جهة معرفة وجود المياه ومن فروع علم الهندسة من جهة حفر الآبار واصعاد مائها إلى أعلي^(٦).

ومما يتصل بالزراعة ويرتبط بها أشد الارتباط العمل على اصلاح طرق الرى لتأمين مرافقها ومنابع ثروتها ويتجلى ذلك فى حفر الترع والأنهار والقنوات واقامة السدود والجسور وغير ذلك مما تفيض بذكره المصادر التاريخية المختلفة .

ولما كان المقام لا يتسع لذكر أمثلة كثيرة من هذه وتلك ولذلك حسبنا أن نشير إلى بعضها ، ولتكن البداية فى الحجاز حيث نشأت أولا الدولة الإسلامية ومن ذلك أن عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فتح من وادى العقيق بالمدينة المنورة خليجا يسمى خليج بنات نائلة ليسقى الأرض التى امتلكتها بناته من زوجته نائلة ، وقيل أنه استعمل فيه ثلاثة الاف من سبى بعض الأعاجم .

وأنشأ عبد الله بن عمرو بن عثمان سداً على رانونا ليرفع الماء ويسقى مزارعه^(٧).

وفى العصر الأموى أنشأ معاوية بن أبى سفيان سدوداً فى المدينة منها سد عنتر وسد الصهباء وسد الخنق ، كما اتخذ معاوية فى مكة عشرة حيطان ((بساتين) لكل منها عين ومشرفة وفى هذه الحيطان النخل والزرع ، فضلا عن سد معاوية بالطائف الذى ما يزال باقيا حتى اليوم ويعرف بسد سيسدو يؤرخ بعام ٥٨هـ / ٦٧٧م^(٨).

(٦) صالحة ، بحوث ومقالات فى الحضارة الإسلامية ، بيروت ، الكويت (١٩٨٨م) ، ص ٥ - ٦ .
(٧) العلى ، الحجاز فى صدر الإسلام ، دراسة فى أحواله العمرانية والإدارية ، بيروت (١٩٩٠م) ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٨) الأزرقى ، أبى الوليد محمد بن عبد الله ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، ج ٢ ، تحقيق رشدى الصالح ملحق ، بيروت (١٩٦٩م) ، ص ٢٢٧ - ٢٣٠ ؛ طراوى ، حجازى حسن ، مظاهر الاهتمام بالحج والحرمين الشريفين فى العصر الأموى ، القاهرة (٢٠٠٣م) ، ص ١٨٧ - ١٨٩ ؛ السيف ، عبد الله ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى نجد والحجاز فى العصر الأموى ، بيروت (١٩٨٣م) ، ص ٤٧ - ٥٨ ؛ الحداد ، محمد حمزة ، النقوش الأثرية ، المجلد الأول ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

ولا شك أن ما قام به معاوية وغيره من خلفاء بنى أمية وولاتهم من حفر الأبار والعيون وشق الطرق واقامة السدود فى العديد من المدن الحجازية انما يدل على مدى حرصهم على تشجيع الزراعة وبذل المحاولات الجادة لنموها وتحسينها وهو الأمر الذى نتج عنه فى النهاية توسع الرقعة الزراعية وزيادة الاقطاعات والملكيات الزراعية خاصة^(٩).

أما عن مشاريع الرى فى المدن الإسلامية فنذكر منها ما تم فى العراق خلال عصر الخلفاء الراشدين من حفر الانهار وشق الجداول وفتح القنوات والترع وانشاء القناطر والجسور والعناية الفائقة بخصوبة التربة من حيث ازالة الشوائب والملوحة عنها وهو ما يطلق عليه فى الوقت الحاضر عمليات البزل ، ويمكن القول أن هذه المشاريع قد شملت مختلف أنحاء سهول الرافدين من شماله إلى جنوبه .

ومن ذلك ما حدث فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) من انشاء قناطر على نهر دجلة على يدى حذيفة بن اليمان ، وقام أبو موسى الأشعرى بحفر أنهار عديدة فى البصرة .

وفى خلافة عثمان (رضى الله عنه) تم انجاز حفر نهر الأبله فى البصرة ، كما اتخذ جسر منبج فى الجزيرة الفراتية ، وأقام جابر المزنى قنطرة فى سواد العراق (الجزء الجنوبى من العراق) .

وفى خلافة على بن أبى طالب (رضى الله عنه) تم حفر الأنهار بل وأمر واليه قرضة بن كعب الأنصارى بحفر نهر لأهل الذمة .

وشهد العصر الأموى نشاطا واسعا فى هذا المجال تجلّى فى حفر الأنهار وشق القنوات والجداول والسدود والمسنيات وأحواض المياه وانشاء القناطر والجسور واستصلاح التربة وتحليصها من الشوائب ومن أهمها سد حصن مسلمة الذى أقامه على نهر البليخ ومنها نهر يزيد ونهر عدى ونهر المبارك ونهر عمر فى البصرة ونهر

(٩) الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ، ت ق ٣هـ / ٩م ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلى ، الرياض (١٩٦٨م) ، ص ٤٠١ ، الحري ، المناسك ، ص ص ٣٣٠ ، ٤٥٦ ؛ السمهودى ، وفاء الوفا ، ج ٣ ، ص ١٠٤٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٧٢ ، ج ٤ ، ص ١٢٣١ ، ١٢٣٩ ، ١٣٠٩ ؛ الحداد ، النقوش الأثرية ، مج ١ ، ص ١٤٦ .

المكشوف في الموصل ، فضلاً عن حفر المرغاب والسواقي والمعترضات بالتغلب على الماء في البصرة .

ويمكن القول أن مشاريع الري الأموية المتعددة بالعراق لم تقتصر على سهول وادي الرافدين الجنوبية بل امتدت لتشمل كذلك سهوله الشمالية ؛ فضلاً عن الجزيرة الفراتية وحتى الثغور الجزرية في أعالي نهر الفرات (١٠) .

وفي العصر العباسي بذل الخلفاء الأوائل جهودهم في المحافظة على نظام الري بأحسن صورة وأضافوا قنوات جديدة وأعادوا حفر القنوات القديمة ، وكانت النتيجة الطبيعية والمباشرة لذلك أن أصبحت العراق أغنى بلاد العالم المعروف آنذاك (١١) .

وفي مصر تمثلت مشروعات الري في الجسور والخلجان والترع ، وكان الغرض من الجسور هو تحصيل المنفعة بسوق الماء إليها أو صرفه عنها ومن هذه الجسور ما هو عام وخاص وقد سميت الجسور العامة بالسلطانية والخاصة بالبلدية ، والجسور السلطانية هي العامة النفع وكان يجب على السلطان الاهتمام بعمارتهما أما الجسور البلدية فهي الخاصة النفع أي خاصة ببلد دون بلد أو بناحية دون ناحية ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم .

ومن بين هذه الجسور جسر أم دينار ٧١٣هـ / ١٣١٢م وجسر شبين القصر ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م .

وكان الاهتمام بإقامة الجسور وحفظها وصيانتها يؤدي إلى امكانية زيادة رقعة المساحة الزراعية كما حدث في عهد السلطان المملوكي البحري الناصر محمد بن قلاوون .

(١٠) الأعظمي ، عواد مجيد ، تاريخ الري في سهول الرافدين في عصر صدر الإسلام والخلافة الأموية ، الكويت (١٩٨٨م) ، ص ٢٧٩ - ٣١٤ .

(١١) الفيل ، محمد رشيد ، نظام الري في العراق ابان الدولة العباسية ، الكويت (١٩٨٨م) ، ص ٣٥١ - ٣٨٤ ؛ ولزيد من التفاصيل عن استصلاح الأراضي ومشاريع الري المختلفة في العراق ، انظر ، الكبيسي ، حمدان عبد المجيد ، الزراعة والري في العراق في العصور الإسلامية ، بغداد (٢٠٠٢م) ، (١٤٥ صفحة) .

كذلك كان لا بد لتحسين سبل الاستفادة من نهر النيل وما يتفرع منه من العمل على ضرورة شق مجار مائية كالخلجان والترع الجديدة والتي تستمد مياهها من النهر وفروعه ومنها بحر يوسف وسد اللاهون وخليج الفيوم وخليج أمير المؤمنين (خليج القاهرة ويحتل موضعه الآن شارع بور سعيد) وخليج سردوس وبحر أبو المنجا وخليج مليج وخليج المحلة وخليج ابيار وخليج الاسكندرية وغير ذلك (١٢).

أما نظام الري في مصر فقد كان النظام السائد فيها هو نظام الري الحوضي ، فضلا عن نظام الري الدائم عند توافر ماء الري في موسم الزراعة الصيفية وذلك بالاستفادة بالمجارى المائية دائمة الجريان سواء أكان الري سيحا (بالراحة) أم برفع المياه بالدواليب (على أعناق البقر) ، وقد قام نظام الري الحوضي - الذى يمثل النسيج العام للري في مصر - على أساس الاستفادة من ظاهرة فيضان النيل ، وكان يقاس النيل في الخامس والعشرين من بؤونة وينادى به أو في اليوم التالى (٢٦ بؤونة) ويتم القياس من مقياس النيل بجزيرة الروضة ، فكان المقدار اللازم لري جميع أراضي مصر هو ١٦ ذراعاً وذلك في القرون الأربعة الأولى للهجرة وبعد ذلك تغيرت الأحوال واختلفت أحكام الأعمال ، فقد انتهى إلى ٢٠ ذراعاً في القرن ٩هـ / ١٥م وإلى ٢٢ ذراعاً في ق ١٠هـ / ١٦م وإلى ٢٣ ذراعاً في القرن ١١هـ / ١٧م .

وكان الري الحوضي يقوم نظامه على أساس تقسيم الأراضي الزراعية إلى حياض تفصلها جسور وتغذيها ترع (١٣).

وفي المشرق الإسلامى أقيمت السدود والسكور والقنوات ؛ علاوة على الاستفادة من مياه الأمطار والأنهار والبحيرات المتوافرة في الاقليم ، وكان لما الري بهرو خلال العصر العباسى ديوانا سمي بديوان الماء ويشرف على هذا الديوان موظف كبير يعاونه أكثر من عشرة الاف عامل وتودع في سجلاته مقادير خراج الأراضي على حسب نوع

(١٢) الشامى ، عبد العال عبد المنعم ، نظم الري والزراعة في مصر في الكتابات العربية ، القاهرة (١٩٩٢م) ، ص ٣١٣ - ٣٥٩ ؛ عدوان ، التاريخ الاقتصادي لدولة المماليك ، الرياض (١٩٩٨م) ، ص ٥٩ - ٦٥ ؛ سيد ، أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية ، ص ٤٦٧ - ٤٧١ ؛ سالم حلمى محمد ، اقتصاد مصر الداخلى وانظمته في العهد المملوكى ، الاسكندرية ، د. ت . ص ١٥ - ٢٩ .

(١٣) الشامى ، نظم الري ، ص ٢٩٧ - ٣١٣ .

ريها ، كما كانت تقام المقاييس على الأنهار للوقوف على معرفة مقدار ارتفاع الماء أو انخفاضه لكى يأخذوا ذلك فى الحسبان عند تقدير الضرائب^(١٤).

وفى الغرب الإسلامى أبدع أهل الأندلس فى هندسة الري وما زالت آثارهم باقية حية إلى الآن وأكبر مثال على ذلك محكمة المياه التى ما زالت تعقد فى بلنسية شرق اسبانيا لتقسيم المياه على الفلاحين كما كان يفعل أهل الأندلس فى ظل الحكم الإسلامى بها فى العصور الوسطى ، وهى محكمة أهلية لا دخل للحكومة فيها وحكمها نافذ ويحرم المخالف من المياه وهذه المحكمة من التراث العربى الإسلامى بالأندلس وما زالت تعقد كل يوم خميس عند الظهر فى نفس المكان الذى كانت تجتمع فيه خلال العصر الإسلامى فى الفضاء المجاور لمسجد هناك تحول الآن إلى الكنيسة الكبرى فى المدينة^(١٥).

- طرق استغلال الأرض :-

أ- المزارعة : وهى دفع الأرض إلى من يزرعها أو يعمل فى استنباتها والمردود يقسم بينهما مناصفة وأحيانا بالربع أو بالثلث .

ب- المساقاة : وهى أن يسمح صاحب الأرض بتقديم شجرة إلى آخر ليقوم بسقيه ورعايته وسائر العمليات الزراعية مقابل جزء معلوم من ثمره كالنصف أو الثلث أو الربع^(١٦).

وهناك أساليب أخرى سوف نتطرق إليها وإلى حكمها الشرعى فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

- الأساليب الزراعية :

أ- طريقة تبوير الأرض حيث يترك نصفها أو قسم منها دون زراعة حولا

(١٤) الجبر ، حصة عبد الرحمن ، الحياة الاقتصادية فى فارس (٢٣٢ - ٣٣٤هـ / ٨٤٦ - ٩٤٥م) ، الرياض (٢٠٠٤م) ، ص ١٩٣ - ١٩٧ .

(١٥) العبادى ، دراسات فى الحضارة ، ص ٣٧٧ .

(١٦) السبع ، أسس الزراعة ، ص ٩٤ - ٩٥ .

كاملا وفى السنة الثانية يزرعون الأرض المبورة ويتركون الأرض المزروعة بوراً وهكذا دواليك .

ب. التسميد : والهدف منه هو زيادة انتاجية الأرض الزراعية عن طريق اخصابها بالمواد الغذائية والمعدنية ، وفى كتب الفلاحة لابن وحشية وابن العوام وابن الحجاج وغيرهم أبوابا خاصة بالأسمدة تحت عناوين مختلفة مثل الأزبال وفوائدها فى اصلاح الأراضى والزراعة ، وتشمل الأسمدة على روث الحيوانات ونجيعها وفضلاتها وزرق الطيور وفضلات الناس كما استعمل الرماد والتبن كسماد ويرى ابن وحشية أن أفضل أنواع السماد زرق الطيور وفضلات الناس وهو ما اكدته الدراسات العلمية الحديثة .

ج. التقليم : وقد اتبعت هذه الطريقة بشكل متقن عبر كافة العصور لتشذيب الاغصان وازالة التالف والزائد والغليظ والمهترئ والمكسور منها عن الأشجار ويجرى التقليم بالمنشار ، ويذكر ابن الحجاج أن نشر الأغصان لا يجرى إلا من الأسفل للأعلى حتى لا ينسلخ قشر الشجرة ويكون سببا فى فساد الجذع .

د. التطعيم : ويقصد به تطعيم أصول الأشجار المثمرة وقد تمت ممارسته بجميع أشكاله وكان بالغوطة أشجار تحمل الواحدة منها أربع أنواع من الفاكهة وكذلك الكرمة الواحدة تحمل العنب الأبيض والأسود والأحمر .

هـ. الترقيد : وتعرف أيضاً بالتكبيس وهى أن يعمد المزارع إلى الفروع النابتة من أصل الشجرة فتطمر فى جورة قريبها على هيئة قناة وتغطى بالتراب على أن يترك رأس الفرع من الناحية الأخرى حراً ، وكلما كان الفرع طويلا وامتد فى الحفرة التى أعدت له كان أحسن . وتترك الفروع المرقدة فى هذه الحفر مدداً مختلفة قد تصل إلى عامين ، ثم تنتقل بعد ذلك إلى المكان الذى يراد غرسها فيه بعد أن تقطع عن الشجرة الأصل ويكون قد تشكل لها جذور كثيرة خاصة بها وتنقل مع التراب المحيط بالجزء المرقد .

و. مكافحة الآفات الزراعية : قاوم الفلاحون الآفات الزراعية ومن ذلك دودة شجرة العنب عندما تتكون العناقيد بواسطة مادة تعرف بالحمرية تدهن بها سيقان الكروم لمنع الدودة من الصعود إلى الأشجار وكانت هذه المادة تجمع من ضفاف البحر

الميت وهذه الطريقة هي التي تعرف الآن بطريقة التكليس^(١٧).

وكانت نتيجة هذه الجهود المبذولة أن نمت الأراضي والثروة الزراعية على طول امتداد دار الإسلام من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب بحيث لا يقع البصر فيها إلا على خضرة يتصل خضارها بلون السماء الأزرق وقد أثارت هذه المناظر الخلابة كوا من المشاعر واستوحى منها الشعراء تلك الروضات الشعرية الرائعة في وصف الطبيعة وهو ما سوف نعود إليه في دراسة لاحقة (بمشيئة الله تعالى) وحسبنا أن نشير إلى ما ذكره ابن حوقل عن بخارى بقوله « لم أر ولم أسمع في الإسلام ظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارى لأنك إذا علوت مرتفعاتها لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء وكأن السماء مكبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللمطة أو كالكواكب العلوية بياضا ونورا من أراضى ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرأة »^(١٨).

أما المنتوجات الزراعية فكثيرة ومتنوعة ، ويمكن تصنيفها إلى نوعين منتوجات غذائية ومنتوجات صناعية ، ويندرج تحت الأولى جميع الحاصلات الغذائية المعروفة فضلا عن الأشجار المثمرة وغير المثمرة ومن بين هذه وتلك حسبنا أن نشير إلى كل من القمح والأرز والشعير والذرة والبقول والحمص والزيتون وقصب السكر والفاكهة على اختلاف أنواعها كالعنب والتفاح والرمان والموز والبلح والتين والمشمش والخوخ والبرقوق والبطيخ وغير ذلك كثير .

ومن بين المنتوجات الصناعية القطن والعنب والكتان والسمن والنيلة والقرمس (القرمز) والزعفران والورد فضلا عن الأشجار غير المثمرة وما توفره من الأخشاب اللازمة في مختلف مناحي الحياة كما لا يخفى^(١٩).

(١٧) السبع ، أسس الزراعة ، ص ٩٧ - ١٠٠ .

(١٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣٩١ .

(١٩) لمزيد من التفاصيل عن هذه المنتوجات الزراعية وأماكن زراعتها وأهميتها انظر ، زيود ، التاريخ الاقتصادي ، ص ٣٩ - ٦٠ ؛ سالم ، حلمي محمد ، اقتصاد مصر الداخلي ، ص ٩ - ١٥ ؛ الجبر ، الحياة الاقتصادية في فارس ، ص ٢٠٠ - ٢٢٤ ؛ عدوان ، التاريخ الاقتصادي ، ص ٦٦ - ٨٥ ؛ البكري ، خالد عبد الكريم ، النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة ، الرياض (١٩٩٣م) ، ص ١٢٥ - ١٣٨ ؛ متز ، الحضارة الإسلامية ، مج ٢ ، ص ٣٠٢ - ٣١٢ .

المبحث الثانى : الصناعة :-

من المعروف أنه كان لدى العرب فى العصر الجاهلى بعض الأعراف والعادات التى ساروا عليها والتى أثرت عليهم فى حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ومن جملة هذه الأعراف احتقارهم لبعض الحرف وابتعادهم عنها وقبولهم لبعض الحرف الأخرى فقد كانوا لا يأنفون من الرعى ولا من التجارة ، أما الزراعة فقد كانت محترمة إلى حد ما عند الحضر وأما البادية فكانوا يحتقرون الزراعة ويأنفون منها .

أما الصناعة فتختلف فمنها ما هو مقبول عندهم ويمتحنها الكثير منهم كالغزل والنسيج الذى ينتشر فى الحاضرة والبادية على السواء دون أدنى احتقار لمن يعمل ذلك عندهم . وكانوا يحتقرون من يمتحن بعض الصناعات الأخرى كالحدادة ويطلقون على من يمتحنها القين ، ولذلك ابتعد أشرف العرب عن الصناعات وسيطر عليها الموالى واليهود مما جعل هذه الحرف حكراً عليهم مما أكسبهم الأموال الوفيرة (٢٠).

وعندما جاء الإسلام تغيرت تلك النظرة الخاطئة عن بعض الحرف والصناعات فقد حض الإسلام على العمل وأكد على حرمة وجعل من الانتاج عبادة وتقرباً إلى الله بل وجهاداً فى سبيله ، ومن ذلك قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ و ﴿ أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ والمقصود هنا القوة فى الحرب والقوة فى العمل والانتاج ؛ وقوله عز وجل ﴿ فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ﴾ ، و ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفىهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ و ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ﴾ و ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزیه الجزاء الأوفى ﴾ (٢١).

كذلك حاول الرسول (ﷺ) تغيير المفهوم الخاطئ لدى العرب عن الحرف والصناعات سواء بالتوجيه الكريم من الرسول (ﷺ) أم بتطبيق الرسول لبعض الأمور التى تخالف هذا المفهوم حتى يرى أصحابه منه ذلك وبالتالي يقتدون به وينقلون ذلك

(٢٠) العمرى ، الحرف والصناعات ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢١) العبادى ، دراسات ، ص ٣١٦ ؛ زيود ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٧٣ .

إلى الناس فقد كان الناس لا يستجيبون لصانع إذا دعاهم إلى طعام ولكن الرسول خالف ذلك واستجاب لدعوة خياط في المدينة .

ومن منطلق سلوك الرسول (ﷺ) في تغيير مفاهيم الناس الخاطئة فإن الرسول (ﷺ) دفع ابنه إبراهيم إلى زوجة أبي سيف وهو قين - أي حداد - في المدينة لكي ترضعه فكان الرسول يأتي إلى منزل أبي سيف الحداد وهو ينفخ من كيره وقد امتلأ البيت بالدخان .

والرسول بذل العمل يريد أن يرفع من نظر الناس إلى المحترفين الصانع حيث أسند إلى زوجة أحدهم ارضاع ولده الوحيد إبراهيم في الوقت الذي كان الناس يتخبرون لأولادهم المرضعات من القبائل الشريفة في البوادي . كما أن الرسول الكريم (ﷺ) كان يعمل بيده الشريفة مع أصحابه (رضي الله عنهم) كما هو الحال عند بناء مسجد قباء ومسجده الشريف وفي حفر الخندق .

ومن الملاحظ أن معظم كتب الحديث النبوي الشريف كالبخاري وسنن ابن ماجه وسنن أبي داود وغيرها قد وضعت أبوابا عن الكسب والعمل باليد والصناعات^(٢٢) .

وهكذا تغيرت نظرة العرب إلى الحرف والصناعات فبعد أن كان يأنف من العمل في الحرف وينظر إلى العاملين بها نظرة ازدراء لأنها في عرفهم حرف وضيعة خلقت للعبيد والموالي ولا تليق بالحر ، وجدنا العرب يقبلون على العمل في الحرف والصناعات المختلفة وينخرطون فيها كغيرهم من المسلمين بل بدأوا يقبلوا أسماء وكنى تدل على الصنعة ؛ وازداد اقبال العرب على ممارسة الحرف والصناعات بعد أن أسقط الخليفة العباسي المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ) العرب من ديوان العطاء وهكذا بدأت اسهامات العرب في تطوير الصناعات المختلفة كغيرها من العلوم والمعارف التي قاموا بتطويرها والاضافة إليها بل والابتكار كما سنرى في الفصل الرابع من هذا الكتاب المجل .

هذا وقد ساعد على ارتقاء الصناعة وتقدمها في الحضارة الإسلامية توفر المواد الأولية اللازمة والضرورية للصناعات المختلفة في أقطار العالم الإسلامي ؛ وبالتالي

(٢٢) العمري ، الحرف والصناعات ، ص ٥٦ - ٦٠ .

كانت هذه الاقطار تكمل بعضها بعضا من حاجتها لمثل هذه المواد ومنها المعادن الثمينة كالذهب والفضة ؛ فضلا عن الحديد والنحاس والقصدير ، والجواهر والأحجار النفيسة والبللور الصخرى والرخام وغير ذلك (٢٣).

ويضاف إلى ذلك المنتوجات الزراعية الكثيرة والمتنوعة (بنوعيتها الغذائية والصناعية) والتي أشرنا إلى عدد منها من قبل .

كذلك لا تفوتنا الإشارة إلى الطوائف المهنية أو النقابات أو الأصناف والتي كان لها دور كبير في رفع المستوى المادي والفني لأرباب الحرف والصناعات المختلفة وبالتالي تقدم وتطور وارتقاء الصناعات المختلفة وهو ما تدل عليه الأدلة المادية الآثارية الباقية للعديد من نماذج الصناعات المختلفة والتي تحتفظ بها المتاحف ودور الكتب والمجموعات الفنية في أقطار العالم المختلفة .

كذلك فقد لعب أرباب الحرف والصناعات المختلفة دوراً هاماً في الثورات الشعبية والجمعيات السرية والفرق الدينية والطرق الصوفية ؛ فضلا عن الاحتفالات والمواكب المختلفة (٢٤).

ولما كان المقام لا يتسع لابرار ذلك الدور ولذلك حسبنا أن نشير إلى انضمامهم إلى جماعة الشطار والعيارين أو الفتيان في بغداد (٢٥).

وكذلك كان لهم دورهم في القاهرة الفاطمية وذلك في الفرقة التي اشتهرت باسم الصُّبَّان الحُجَرِيَّة والتي كانت جُحَرهم بجوار دار الوزارة (فيما بين خانقاة بيبرس الجاشنكير وقبة القاصد بشارع باب النصر بحي الجمالية بالقاهرة) وفي ذلك يذكر المقرئى نقلا عن ابن أبي طى أن الخليفة المعز لدين الله « وجعل كل ماهر في صنعة

(٢٣) زيود ، التاريخ ، ص ٧٤ - ٩٠ .

(٢٤) عن هذه الطوائف أو الأصناف وأهميتها انظر ، العبادي ، دراسات ، ص ٣٢١ - ٣٢٧ ؛ لويس ، برنارد ، النقابات الإسلامية ، ترجمة عبد العزيز الدوري ، مجلة الرسالة ، العدد ٨ ، القاهرة (١٩٤٠م) ، ص ٦٩٦ - ٦٩٨ ، ٧٣٥ - ٧٣٧ ، ٧٨٦ - ٧٨٨ ، ٩٧٣ - ٩٧٥ ؛ الشيخلى ، صباح إبراهيم ، الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها ، بغداد (١٩٧٦م).

(٢٥) لمزيد من التفاصيل عن هؤلاء الشطار والعيارين انظر الدراسة القيمة للدكتور محمد رجب النجار تحت عنوان « حكايات الشطار والعيارين في التراث العربى » ، الكويت (١٩٨١م) ، (٤٦٠ صفحة) .

صانعا للخاص وأفرد لهم مكانا برسمهم وكذلك فعل بالكتاب والأفاضل وشرط على ولاية الأعمال عرض أولاد الناس بأعمالهم فمن كان ذا شهامة وحسن خلقه أرسله ليعخدم فى الركاب فسيروا إليه عالما من أولاد الناس فأفرد لهم دوراً وسماها الحجر» (٢٦).

هذا وقد تعددت الصناعات فى المدن الإسلامية المختلفة فى المشرق والمغرب على السواء حتى صارت مظهراً من مظاهر ازدهارها الاقتصادية ويكفى لتأكيد هذه الحقيقة أن نقرأ ما كتبه الرحالة والمؤرخين فى وصفها أو أن نشاهد النماذج العديدة التى بقيت منها والمحفوظة فى المتاحف ودور الكتب والمجموعات الفنية الخاصة فى العالم . ومن بين هذه الصناعات صناعة المنسوجات والسجاد والخشب والعاج والزجاج والبللور الصخرى والمعادن والفخار والخزف وسوف نتطرق إلى دراستها اجمالاً فى الباب الثانى من هذا الكتاب ؛ على أن نعود إليها ولغيرها من الصناعات تفصيلاً واسهباً فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

ومن الصناعات المهمة فى الحضارة الإسلامية صناعة الخبز وقد كان له - أى الخبز - دور كبير فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وقد اهتم المسلمون به وأسهموا فى تقدم صناعته ذلك التقدم الذى يتمثل فى تعدد أصنافه وبيان مزايا كل صنف منها غذائياً وصحياً ، كما يتجلى فى حرص الدولة على توافره والحيلولة دون ارتفاع أسعاره ومراقبة صنعه للالتزام بمراعاة الشروط الصحية ومنع الغش مما ينم على تقدم حضارى كبير فى ذلك الوقت .

وليس أدل على أهمية الخبز لدى المسلمين من قول الجاحظ أنه « قوام أهل الأرض وأصل الأقوات وأمير الأغذية » (٢٧). وقول داود الأنطاكى « انه فى الغالب قوام الأبدان وعين ما أحكمته الصناعة من الحبوب المقيمة » (٢٨).

هذا وتشمل عملية صنع الخبز طحنه ونخله وعجنه وخبزه وبيعه فضلاً عن مراقبة ما يجرى من هذه العمليات فى المطاحن العامة والمخابز العامة والأسواق من قبل

(٢٦) المقرئى ، الخطط ، مج ٢ ، ص ٤٥٣ ؛ العبادى ، دراسات ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٢٧) الجاحظ ، البخلاء ، تحقيق طه الحاجرئى ، سلسلة ذخائر العرب ، القاهرة د ت ، ص ١٢٦ .

(٢٨) الأنطاكى ، داود بن عمر ، ت ١٠٠٨ هـ / ١٥٩٩ م ، تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجائب ، ج ١ ،

بيروت ، د ت ، ص ١٣٦ .

المحتسب وهو ما أفردت له كتب الحسبة أبواباً خاصة مثل الحسبة على الطحانين أو الدقاقين الذين يحولون الحبوب إلى دقيق والحسبة على نخل الدقيق والحسبة على العجائين والحسبة على خبز العجين وبيع الخبز لمنع التلاعب والغش .

وقد تنوعت وسائل تأديب المحتسب للذين يخالفون أصول صناعة الخبز وقواعدها فمن ثبت عليه منهم تطفيف الميزان أو زاد على سعر السوق كان يجرس بمصر وذلك بأن تعلق فى أنفه كعكة بطول الشبر وعرض الاصبع أو يضرب ضرباً موجعاً كما حدث عام ١٠٢٤هـ/١٠٢٤م على نحو ما ذكر المسبحى .

ومن أنواع الخبز المصنوعة من الحبوب خبز القمح أو الحنطة أو البر ومنه خبز الحواري وخبز السميد وخبز الخشكار وخبز الذرة وخبز الأرز وغير ذلك .

وهناك أنواع أخرى من الخبز كانت تصنع من بزور وجذور وثمار متنوعة ويخلط معظمها بحبوب أخرى تجعلها أكثر ملائمة للأكل ومنها خبز الآس وخبز البلوط وخبز الترمس وخبز الثوم وخبز التوت وخبز الجزر وخبز الخشخاش وخبز النخل (من طلع النخل وجماره) وغير ذلك^(٢٩) .

ومن الصناعات المهمة أيضاً صناعة السفن وصناعة السكر وصناعة العسل وصناعة العطور وصناعة الصابون وغير ذلك^(٣٠) .

أما صناعة الورق فقد كانت من أهم الصناعات الإسلامية التى كان لها دورها العظيم ليس فى الحضارة الإسلامية فحسب بل وفى الحضارة الإنسانية كلها ، ولا غرو فى ذلك فقد كانت هذه الصناعة « من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهما فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلهما فى الأفاق والأعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتابية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران...»^(٣١) .

(٢٩) اعتمدنا بصفة رئيسية فى صناعة الخبز على ذلك البحث القيم للدكتور إحسان صدقى العمدة ، وموضوعه « الخبر فى الحضارة الإسلامية » ، حوليات كلية الآداب ، الحولية ١٢ ، الرسالة ٧٦ ، الكويت (١٩٩١م - ١٩٩٢م) (١٤٩ صفحة) .

(٣٠) زيود ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٩٠ - ١١٧ .

(٣١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مج ٢ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

هذا ويكاد يجمع كل من كتب فى صناعة الكاغد (الورق) أن الصينيين هم أول من صنعوه فى القرن الأول الميلادى . بيد أن هناك بعض الدراسات التى ترجع صناعته إلى قرنين قبل هذا التاريخ .

ومنهم تعلمه المسلمون وذكروا حكاية الأسرى الصينيين الذين بدأوا بصناعته فى سمرقند فى سنة ١٣٤هـ / ٧٥٢ م ، ولما كانت صناعة الكاغد الصينية تعتمد على لحاء شجر التوت وقصب الخيزران أو قصب الغار والخرق القديمة وشباك الصيد القديمة وألياف القنب ، ولما كانت شجرة التوت لا تنمو فى سمرقند فقد لجأ الصناع الصينيون إلى سيقان نبات الكتان والخرق القديمة والقنب لصناعته ولهذا يقول النديم أن الورق الخراسانى كان يصنع من الكتان . ومن أنواع هذا الورق التى ذكرها النديم السليمانى (نسبة إلى سليمان بن راشد صاحب بيت المال فى خراسان زمن هارون الرشيد) ، والطلحى (نسبة إلى طلحة بن طاهر حاكم خراسان) والنوحى (نسبة إلى نوح السامانى حاكم خراسان ٣٣١ - ٣٤٣هـ) والجعفرى (نسبة إلى جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى) والطاهرى (نسبة إلى طاهر الثانى من أسرة عبد الله بن طاهر) والفرعونى (وقد صنع ليشبهه ورق البردى وتوجد منه عينات تحمل كتابة عربية مؤرخة ما بين ١٨٠هـ و ٢٠٠هـ) (٣٣) .

ولم يقتصر المسلمون على صناعة ورق الكتابة بأنواعه المذكورة بل تفننوا فى صناعة الكواغد الملونة التى تشيع البهجة فى نفس القارئ ، فقد اكتشفت أكوام من أنواع الورق الملون بألوان مختلفة فى كيماش الاشمونين والفيوم والفسطاط بمصر .

كذلك نجح المسلمون فى صنع الورق النشاف والورق الشفاف والورق الخفيف الجرم جداً وهو الذى يسمى ورق البطائق الذى كان يستعمل فى ارسال الرسائل العاجلة تحت أجنحة الحمام الزاجل (٣٤) .

وانتقلت صناعة الورق من العالم الإسلامى إلى أوروبا عبر مسارب متعددة وهو ما سوف نتطرق إليه عند دراسة أثر الحضارة الإسلامية فى أوروبا فى الفصل الخامس من هذا الباب .

(٣٢) السامرائى ، قاسم ، علم الاكتناه العربى الإسلامى ، الرياض (٢٠٠١م) ، ص ٢٥٧ .

(٣٣) النديم ، محمد بن إسحاق ، الفهرست ، اعتنى بها وعلق عليها الشيخ إبراهيم رمضان ، بيروت

(١٩٩٤م) ، ص ٣٦ : السامرائى ، علم الاكتناه ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٣٤) السامرائى ، علم الاكتناه ، ص ٢٦٥ - ٢٦٨ .

المبحث الثالث : التجارة :-

إزدهرت التجارة فى الدولة الإسلامية أيا إزدهار وكان وراء ذلك عوامل عدة من أهمها الموقع الاستراتيجى العام للدولة الإسلامية فبعد أن انتشر الإسلام وإمتدت رقعة دولته من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب صارت دار الإسلام تشغل موقعها الاستراتيجى المتميز فى قلب العالم المعروف آنذاك ومن ثم استطاعت الدولة الإسلامية أن تتحكم فى مفاتيح التجارة العالمية والمنافذ الواصلة بين الغرب والشرق أو بمعنى آخر أن تربط الخيوط والشرابين التجارية فى العالم أجمع .

وكان الحج إلى الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة من بين العوامل التى أسهمت مساهمة فعالة فى نقل السلع التجارية والنشاطات التجارية وعمليات التبادل التجارى بين أقاليم العالم الإسلامى .

كما كان للعناية بطرق القوافل وحمايتها وحفر الآبار وإنشاء الرباطات والفنادق والخانات والأسواق الكبيرة وبناء الأساطيل لحماية الشواطئ وإقامة الجسور والقناطر على الأنهار لتسهيل الحركة والتنقل ؛ فضلا عن الوسائل الأخرى التى أسهمت فى حفظ ممتلكات التجار وأمنت الأموال من الوقوع فى أيدي اللصوص وقطاع الطرق كالسفاتج والصكوك والحوالات والسندات من العوامل التى أسهمت اسهاماً فعالاً فى ازدهار النشاط التجارى وتطويره^(٣٥) ، وإذا كنا قد ذكرنا بعض هذه العوامل اجمالاً فى هذا الكتاب المجلد ؛ فإننا سنعود إليها ولغيرها من العوامل تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

(٣٥) زيود ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٢٠٧ - ٢١٣ ؛ ولزيد من التفاصيل عن التجارة فى الدولة الإسلامية انظر ، متز ، الحضارة الإسلامية ، ص ٣٦٩ - ٣٩١ ؛ عثمان ، شوقى عبد القوى ، التجارة بين مصر وأفريقيا فى عصر المماليك ، القاهرة (٢٠٠٠م) ؛ لويس ، ارشيبالد ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال ، القاهرة (١٩٦٠م) ؛ حورانى ، جورج فاضلو ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة يعقوب بكر ، تصدير يحيى الخشاب ، القاهرة (١٩٥٨م) ، ص ١٧١ - ٢٣٨ ؛ فهمى ، نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ، القاهرة (١٩٧٣م) ؛ العسكرى ، سليمان ، التجارة والملاحة فى الخليج العربى فى العصر العباسى ، القاهرة (١٩٧٢م) ؛ الجبر ، الحياة الاقتصادية ، ص ٣١٧ - ٣٩١ ؛ سالم ، اقتصاد مصر الداخلى ، ص ٢٠٥ - ٢٥٧ ؛ عدوان ، التاريخ الاقتصادى ، ص ٢٦٥ - ٣٨٥ .

هذا ولم يقتصر الأثر الحضارى للتجارة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية بل والسياسية فحسب بل امتد أثرها إلى ما هو أبعد من ذلك فقد كانت التجارة من أهم العوامل التى أدت إلى انتشار الإسلام واللغة العربية فى العديد من الأقطار كما هو الحال فى جنوب شرق آسيا وفى شرق افريقيا وغربها^(٣٦)؛ فضلا عن دورها الهام فى انتقال العديد من التأثيرات الحضارية الإسلامية إلى أوروبا كما سنشير فيما بعد .

الطرق والمسالك التجارية :-

١- **الطريق البحرى إلى الهند والصين** : وكان يبدأ من مدينة البصرة فى جنوب العراق ثم تسير السفن فى الخليج العربى إلى ميناء سيراف (جنوب شيراز على الساحل الفارسى قبالة البحرين) وكانت تعد من الموانئ التجارية الإسلامية الهامة إذ اشتهرت بتجارة اللؤلؤ والبهار Spices وكانت مرسى للسفن الكبيرة التى تنقل تجارة المسلمين إلى بلاد الهند والصين ، وقد وصف سليمان التاجر هذا الطريق من سيراف ، إلى خانقوا (كانتون الحالية) أكبر موانئ الصين وكانت هذه الرحلة من البصرة إلى ميناء كانتون بالصين تستغرق ستة أشهر تقريبا .

٢- **الطريق البرى إلى الهند والصين** : ويعرف بطريق الحرير العظيم أو طريق خراسان وكان يبدأ من بغداد ويمر شرقا عبر خراسان من نيسابور إلى مرو ومنها إلى بخارى وسمرقند ويستمر شرقا إلى بلاد الشاش (طشقند) وفرغانة من بلاد الترك إلى أن يصل إلى كاشغر عند حدود الصين ومنها يدخل التجار إلى الصين .

(٣٦) حسن ، حسن إبراهيم ، انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٨٤م) ، ص ٧٣ - ٧٥ ؛ محمود ، حسن أحمد ، الإسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨٦م) ، ص ٥٥ - ٥٩ ؛ السامر ، فيصل ، الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية فى الشرق الأقصى ، بغداد ، ط ٢ (١٩٨٦م) ، ص ١٣ - ١٦ ؛ عوض الله ، الشيخ الأمين ، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادى ؛ ضمن كتاب تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر ، بغداد (١٩٨٤م) ، ص ٩٤ - ٩٦ ؛ عثمان ، التجارة بين مصر وافريقيا فى عصر المماليك ، ص ٣٨ - ٦٢ .

ومن هذا الطريق البرى المشهور كانت تتفرع شعب أخرى يتجه بعضها جنوباً إلى بلاد الهند والسند والملتان ويتجه البعض الآخر شمالاً إلى بلاد خوارزم والبلغار حيث أنواع الفرو والرقيق التركى والصقلى وقد اكتشفت نقوداً إسلامية كثيرة فى هذه المناطق الشمالية فى روسيا وحوض نهر الفولجا وحوض بحر البلطيق .

٣- **الطريق البحرى بين دار الإسلام وأوروبا :** وكان يستغل هذا الطريق تجار اليهود الذين أطلق عليهم المسلمون اسم « تجار البحر » وكانوا يتكلمون عدة لغات من بينها العربية والفارسية والاسبانية والفرنسية وتبدأ الرحلة من بروفانس فى جنوب فرنسا ويعبرون بسفنهم البحر المتوسط إلى ميناء الفرما (قرب بور سعيد) ثم يحملون تجارتهم على ظهور الدواب إلى القلزم (السويس) ومن هناك تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانيه الهامة مثل جدة ثم يخرجون إلى بحر العرب متجهين إلى ميناء عدن ثم يتجهون إلى السند والهند والصين ، وفى طريق العودة إلى أوروبا كانوا يحملون معهم سلع المشرق ، فإذا وصلوا القلزم اتجهوا إلى الفرما أو الفسطاط والاسكندرية ومنها يبحرون إلى بروفانس وأحياناً كانوا يتجهون إلى انطاكية أهم ميناء تجارى فى الشام وكذلك إلى القسطنطينية (عاصمة البيزنطيين) لبيعوا بضائعهم .

٤- **الطريق البرى بين دار الإسلام وأوروبا :** وكان يبدأ من شرق المانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى الأندلس (اسبانيا الإسلامية) عن طريق نهر الرون وممر قطلونية ثم يستمر من الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق مجتازاً المغرب الكبير من أقصاه إلى أدناه حتى يصل إلى مصر ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق ثم إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة ثم إلى فارس ماراً بالأهواز (خوزستان أو عربستان) ثم إلى كرمان والهند والصين (٣٧) .

(٣٧) العبادى ، دراسات ، ص ٣٦٠ - ٣٦٧ .

٥- طرق القوافل بالصحراء الكبرى حتى القرن ١٩م : شهدت الصحراء الكبرى الافريقية خلال العصور الوسطى مدا إسلاميا واسعا ومكثفا عن طريق بلدان المغرب العربى فى الشمال الافريقى وعن طريق صعيد مصر ، والساحل الارتيرى وبلاد الحبشة والصومال فى الشرق ، ولعب المرابطون والموحدون دوراً هاماً وبارزاً فى نشر الإسلام إلى أعماق الصحراء الكبرى خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى وما بعده إلى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى .

وقامت بالصحراء الكبرى مراكز عمرانية وحضارية هامة من أبرزها تنبكتو وجاو وجنى ، كما قامت مجموعة من الممالك والامارات فيما بين القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى والقرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى ، اختلفت أعمارها فى غرب افريقيا وشرقها .

ففى غرب افريقيا برزت ملكة غانا (٣٠٠ - ١٠٧٦م) ومملكة صوصو غرب مالى (ما بين القرن ١٢ ومنتصف القرن ١٤م) ومملكة مالى (١٢٢٥ - ١٦٧٠م) ، ومملكة صنغى (١٣٢٦ - ١٥٩٤م) ومملكة الخوصة شمال نيجيريا التى بقيت حتى القرن ١٩م ومملكة اليوربا شمال نيجيريا وبقيت حتى سيطر عليها البريطانيون فى أواخر القرن ١٩م . ومملكة بورنو شرق نيجيريا (من القرن ١٥ إلى أواخر القرن ١٩م) ومملكة كانم شمال شرق بحيرة تشاد بوسط الصحراء وماراقموس وداجونيه بين نهر الفولتا ومنحنى نهر النيجر ومملكة الكامبارا فى سيحو وكارتا غرب مملكة الخوصة التى قضى عليها الفرنسيون فى أواخر القرن ١٩م .

وفى شرق افريقيا قامت مملكة النوبة بدنقلة جنوب مصر ، ومملكة الفونج فى سنار بالسودان (١٥٠٥ - ١٨٢٠م) ومملكة دارفور (١٦٣٧ - ١٨٧٥م) ومملكة تغلى وغيرها . وقد لعبت التجارة دوراً بارزاً فى ربط العلاقات وتحديد طابعها بين هذه الممالك والامارات الصحراوية طوال العصر الوسيط والعصر الحديث حتى قضى عليها الأوروبيون جميعا خلال القرن ١٩م واحدة بعد أخرى .

ويمكن أن نحدد طرق القوافل بالصحراء الكبرى على النحو التالى :

أ- طريق مراكش إلى تنبكتو : يمر على تارودانت وتاويرت وتيندوف ..

ويخترق رمال ايقىدى وعرق شيش ويتجه إلى تاودينى كما يخترق صحراء الجوف شرقا ويمر باونان واروان ليتجه إلى تنبكتو وقد سلكه الدكتور اوسكار لينز عام ١٨٨٠ م .

ولهذا الطريق فرع من تيندوف يتجه إلى الجرف الأصغر واوقلت العزل وقرونة وزمورو الفلته وسما ميت وحاس بوتلان ومن هناك يتجه فرع إلى تنبكتو وفرع إلى قصر البرشاف وعطار وأوجيفت وتيوروت على شاطئ المحيط الأطلسى .

بـ . طريق فاس ومكناس إلى تنبكتو : يمر بقصة المخزن وأم دريبينه ويتبع حوض وادغير إلى ايجلى ثم حوض واد أم الساورة إلى توات وكابلى وبيرتير يشومين ووالسن وعين زنان ومبروك وتنبكتو . وهناك طريق آخر يخرج من مراکش ليتصل بهذا الطريق فى توات ويمر على مسينه والمسيتر والمعسف وتامنتيت إلى اكابلى ويثر تير يشومين وقد سلك هذا الطريق رونى كامى ١٨٢٧ - ١٨٢٨ م .

جـ . طريق وهران وارزيو إلى تنبكتو : يمر على خيشو ومشرية وعين الصفراء وفيقيق ويتبع مجرى واد زوزفانه إلى ايجلى حيث يلتقى بطريق فاس إلى تنبكتو . ولهذا الطريق فرع آخر إلى شرق الأول ، مستقيم يبدأ من خيشر إلى البيض والأبيض سيدى الشيخ والمنقب وتوات حيث يلتقى بطرق : وهران وفاس ومكناس إلى تنبكتو . وقد سلكه الضابط كولونيو ١٨٦٠ م .

د . طريق مدينة الجزائر إلى تنبكتو : يمر على البليده وبوغار والأغواط وغرداية والقلية وعين صالح واكابلى ويثر تير يشومين حيث يلتقى بطريق توات إلى تنبكتو وقد سلكه الضابط بالا . ولهذا الطريق فرع آخر من عين صالح إلى بئر عسيو وتنتيلو ست حيث يتفرع إلى فرعين كذلك : فرع إلى أقادم وماو شرق بحيرة تشاد إلى أقادم وكوكه جنوبها ، وفرع إلى الجنوب الغربى نحو أقاديس حيث يتفرع هو الآخر إلى فرعين : فرع إلى سوكتو وفرع إلى كاتسنا .

هـ . طريق سكيكده وقسنطينة إلى أمقيد والهقار وتنبكتو : يمر على

باتنه وبسكده وتفرت وورفله والبيوض وأمقيد ويتمبيساد وايفروان إلى مبروك وتنبيكتو أو إلى شط بوروم (برنوح) وقد مر على جانب من هذا الطريق الضابط فلاتر عبر حوض ايفرعر عام ١٨٨٠ - ١٨٨١ م . ولهذا الطريق فرع يبدأ من جنوب بسكده ويتجه إلى الواد بسوف ومن هناك إلى غدامس وغات وجبادو وبلمه وأقاديم وماو ، وفرع آخر من البيوض إلى عين صالح وفرع ثالث إلى غات .

و- طريق طرابلس إلى تنبيكتو : يمر على سناون وغدامس وتيما سينين والبيوض حيث يتصل بطريق قسنطينه إلى تنبيكتو ، ولهذا الطريق فرع من غدامس إلى غات وبيرعسيو وأفاديس ثم إلى سوكونتو وكاتسنه غربا وإلى أقاديم وماو شرقا .

ز- طريق طرابلس إلى مرزق : عبر سبها ثم إلى بئر بكر وتيجري وتومود (واحات كاوار) حيث يتفرع إلى فرعين : فرع إلى بلمه وأقاديم وماو وكوكه ، بالتشاد ، وفرع إلى أبشر شرقا بوادي . وهذا الطريق سلكه كل من فوجيل ١٨٥٤م وبارت ١٨٥٥م وبورمان ١٨٦٢م وروهلف ١٨٦٦م وناشتيفال ١٨٧٠م . ولهذا الطريق فرع من مسيده وسلكه كل من بارت ١٨٥٠م وباري ١٨٧٦م ، وفرع من سكنه وسلكه كل من فوجيل ١٨٥٤م ودوفيري ١٨٦٤م . وناشتيفال ١٨٦٩م وروهلف ١٨٧٩م .

ح- طريق طرابلس إلى جغبوب ، وسيوه ، والضرافرة ، والاقصر بصحراء مصر ويتصل بهذا الطريق عدة طرق أخرى أتية من مراكز العمران الشمالية الساحلية مثل سرت وبنغازي ودرنه والقصر الجديد .

ط- طريق بنغازي إلى وادي : يمر على اوجله وجالو وسرهن وكيانو وتاهينه حيث يتفرع إلى فرعين : فرع إلى ماو وفرع إلى ابشي وهو الذي سلكه روهلف ١٨٦٤م .

ي- طريق اسيوط واسنا وأسوان إلى دارفور بالسودان (وهو المعروف بدرب الأربعين) يمر على سليمه والفاشر ، وعندما يصل إلى الفوجة يتفرع إلى فرعين : فرع إلى دنقلة القديمة عبر مجري وادماليه وفرع إلى سنار أو الخرطوم ويمتد فرع الخرطوم إلى بربره وسواكن على سواحل البحر الأحمر شرقا .

وقد سلك هذا الطريق كل من براون وكوني ١٨٥٨م وناشتيغال ١٨٧٤م
وموسون عامي ١٨٧٦م و١٨٧٧م وأنسور الأمريكى ١٨٧٥م و١٨٧٦م
ومارسارى ١٨٨٠م (٣٨).

أما عن السلع التجارية فى السودان الغربى فكانت الذهب والرقيق والفل
السودانى والكولا والعاج . وبطبيعة الحال فقد لعبت تجارة الذهب دوراً كبيراً فى نمو
العلاقات بين المغرب والسودان الغربى لعدة قرون وساعدت على ازدياد اتصال شعوبهما
وانتشار الإسلام والحضارة الإسلامية فى السودان الغربى ، غير أن الصراع على الذهب
أدى إلى تحطيم سلطنة سنغى عام ١٥٩٠م على يد الأشراف السعديين بالمغرب
الأقصى؛ كما ساعد الذهب فى تنشيط حركة الكشف الجغرافية فى غرب افريقية وإلى
استعماره فيما بعد بواسطة الأوروبيين . والحق أن السودان الغربى كان منذ القرن
الثامن الميلادى وحتى اكتشاف أمريكا هو المصدر الرئيسى لتمويل العالم بالذهب
وليس أدل على وفرة الذهب من أن التجار المغاربة كانوا يبادلون الملح بالذهب وزنا
بوزن فقد كان الملح معدوماً فى السودان الغربى وبالتالى كان عندهم أهم من الذهب
الذى يتوفر بكثرة لديهم ، حتى أنهم قاموا باتخاذ الملح عملة شرائية حيث كانوا
يقطعون الملح قطعاً ويتبايعون بها .

ويأتى الرقيق فى الدرجة الثانية بعد الذهب وكان يصدر إلى المغرب ومنها إلى
بعض البلاد الإسلامية وإلى أوروبا ، وقد زاد إقبال الأوروبيين على الرقيق بعد
اكتشاف الأمريكتين لاستخدامهم كأيدى عاملة فى الزراعة والتعدين ونشأت بذلك
تجارة الرقيق كتجارة رابحة .

وكان الفول السودانى والكولا يعد من سلع التصدير المهمة وكان الفول هو الآخر
يبادل بالملح .

أما العاج فقد كان من أهم الصادرات إلى المغرب ومصر وأوروبا .

أما السلع التى كانت ترد إلى السودان الغربى فمن أهمها الأقمشة والحلى
الزجاجية والعطور والكتب والودع والنحاس والملح وهذا الأخير كانت تتم مبادلتة
بالذهب ؛ فضلاً عن الفول السودانى كما سبق القول .

(٣٨) بوعزيز ، يحيى ، طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن
التاسع عشر ، ص ١٢٥ - ١٣٠ .

ومن أهم المراكز التجارية فى السودان الغربى مدينة ينى أو نيانى ومدينة تنبكتو ومدينة جاو ومدينة جني^(٣٩).

كذلك ينبغى أن نشير إلى مدينة أودغست (فى موريتانيا الحالية) التى تعد مثلاً واضحاً للمدن الإسلامية التى نشأت وتطورت عمرانياً نتيجة موقعها الجغرافى على مسلك تجارى شهير ، وبدأت تدب فيها عوامل الهرم وأخذت طريقها نحو الانحدار لما فقد هذا المسلك أهميته أو وقع التحول عنه فازدهار هذه المدينة ارتبط بازدهار مدينة سجلماسة فقد كانت تمثل محط رجال قوافل التجارة الكبرى بين سجلماسة باعتبارها آخر مدينة مغربية فى اتجاه الجنوب وبلاد غانة هدف القوافل لتوريد الذهب والرقيق ، ولكنها لم تكن محط رحال القوافل لمجرد الاستراحة ثم مواصلة السير ، فذلك أمر لا يكفى لخلق حركة تجارية دائبة وازدهار عمرانى بل كان سوقها نقطة لقاء يغير فيها تجار قوافل الشمال بضائعهم بالبضائع المستوردة إلى أودغست من بلاد غانة لا سيما الذهب^(٤٠).

أما سجلماسة فهى أولاً وقبل كل شئ مدينة تجارية ويعود الفضل فى ازدهارها وتقدمها المعمارى ومظاهر الترف فى حياتها الاجتماعية وهجرة الناس إليها إلى نشاطها التجارى ومركزها البارز فى مفترق مسالك تجارية شهيرة فى تاريخ التجارة المغربية فى العصر الإسلامى الوسيط .

والحق أن سجلماسة لم تكن تمثل خاتمة المطاف بالنسبة للقوافل فهى تتجه إليها باعتبارها مركزاً تجارياً نشطاً مع بلاد السودان فهى إذن باب لمعدن التبر أو مينااء صحراوى تتجمع فيه بضاعتان ثمينتان من بضائع العصر هما الذهب والرقيق ، وعلى ذلك فإن جميع القوافل التجارية المتجهة نحو بلاد السودان الغربى أو العائدة منها كانت تمر بسجلماسة ومن ثم كانت سجلماسة مركزاً تجارياً عالمياً عصرئذ^(٤١).

(٣٩) عوض الله ، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى ، ص ٨٤ - ٨٩ .

(٤٠) الجنحاني ، الحبيب ، المجتمع العربى الإسلامى ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، الكويت (٢٠٠٥م) ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٤١) الجنحاني ، المجتمع العربى ، ص ١٥٨ - ١٦٠ ؛ وعن الطريق من سجلماسة إلى مصر . انظر ، موسى ، عز الدين عمر ، دراسات إسلامية غرب افريقية ، بحوث تاريخية ، الإصدار الثانى ، الرياض (١٩٩٩م) ، ص ٤١ - ٥٦ .

الفصل الرابع

الحياة العلمية والفكرية

مقدمة :-

يختلف تعريف الناس للعلم على مر العصور ، كما اختلفت مفاهيمه وقيمه عندهم ، علماء وعامة على حد سواء ، وإذا كان الأمر كذلك فما هو المفهوم الذى يتجلى فى أذهاننا عند سماع كلمة علم بمعنى Science .

إن هناك علوما محددة كالفيزياء والكيمياء نستطيع تعريفها وتمييزها حسب موضوعاتها وحقولها الخاصة والعامة فهل العلم هو مجموعة المعارف التى تشملها هذه العلوم مجتمعة ؟

ان قبولنا هذا التعريف للعلم يخرج من نطاقه دراسات قيمة كالتاريخ والآثار وفقه اللغة والنقد الأدبى . إن الجامعات تجرى على تقليد تاريخى يقسم الجامعة إلى كليات متميزة منها كلية الآداب وكلية العلوم وموضوعات كلية الآداب تضم التاريخ والجغرافيا والفلسفة وموضوعات أخرى لا تعنى بها كلية العلوم إلا حيث يدرس تاريخ العلوم وفلسفتها فهل تبعد هذه الموضوعات عن حقل العلم لمجرد أنها تبعد عن كليات العلوم ؟

ومهما يكن من أمر تعريفنا للعلم والمنهج العلمى فإن مناهج البحث فى العلوم النظرية والتطبيقية لا تختلف فى جوهرها عن مناهج البحث فى كثير من موضوعات كليات الآداب كبحث علماء الآثار الذين ينقبون فى الأطلال سعيا لاكتشاف شئ عن التاريخ القديم ، وهى أيضاً لا تختلف فى جوهرها عن منهج البحث عند المؤرخ الذى يؤمن بأن الكلمة المكتوبة - أى المستندات والوثائق التى بين يديه - قد لا تعطى الحقائق كما وقعت ، وإنما كما أريد لها أن تعرف ، سياسات خاصة أو أهواء خاصة ، ومن ثم فالمؤرخ يكذب ليقرأ ما بين السطور كما يجد ليستقرئ العوامل الخفية التى قد تجلو الحقيقة . إنه يخضع الوثائق والمستندات والنصوص التاريخية إلى نقد علمى رصين .

ومنهج فى هذا لا يختلف عن منهج الناقد الأدبى والدارس لفقه اللغة والباحث فى آثار الفن وعوامل تطوره . وكما تتفق مناهج البحث فى هذه الحقول ، كذلك تتفق الطبائع العامة للمعارف التى تضمها : فإذا جرى العرف الأكاديمى على استبعاد هذه الحقول عن نطاق كليات العلوم فهل يحق لنا نحن الذين ندرس المنهج العلمى أن نساير

هذا العرف ونحن نعرف أن المنهج الذى ندرسه يسرى فى حقول العلم كما يسرى فى غير ما جرى العرف الأكاديمى على اعتباره علما .

والعلم هو مجموعة الخبرات والمعارف الإنسانية التى تشملها العلوم المختلفة التى تجعل الإنسان قادراً على التنبؤ والتقدير والفهم من حيث ربط الأسباب بالمسببات ، وعلى ضوء ذلك قسم العلم إلى فرعين : العلوم التجريبية والعلوم التجريدية ، ولكل علم منهما طبقات متعددة .

فالعلوم التجريبية تبدأ بالعلوم الفيزيائية وتنتهى بالعلوم الاجتماعية وبين البداية والنهاية تنضوى كل هذه المعارف التى نحصل عليها بالدراسات التجريبية ، وترتيب المعارف التجريبية بهذا النظام الطبقي يقتضى أن يكون العالم المبدع فى موضوعه ذا الملم بالعلوم التى هى دونه ترتيباً ، فالعالم الكيميائى ينبغى أن يلم بحقول الفيزياء والعالم الاجتماعى ينبغى أن يلم بجميع حقول العلوم التجريبية .

وغنى عن البيان فإن هذا الترتيب الطبقي لم يعد يؤخذ مأخذ الجدل لأن العلوم فى عصرنا قد اتسعت بحيث صار العالم الفيزيائى مثلاً غير قادر على اللحاق بالتطور العلمى فى حقل تخصصه المحدود بل الالمام بكل حقول الفيزياء .

أما العلوم التجريدية فيجرى السعى وراء الحقيقة فيها عن طريق التفكير المجرد أكثر مما يجرى عن طريق التجارب العملية ، وهذه قسمت من قديم إلى طبقات ثلاث أدناها العلوم الرياضية وفوقها الفلسفة والفكر الأدبى وفوقها الفقه والروحانيات .

ويضع العلماء هذه الطبقات التجريدية فوق صرح الطبقات التجريبية على اعتبار أن العالم المختص فى أى منها هو بحاجة إلى الالمام بما هو دون طبقتة من معارف إذا هو تطلع إلى أن يكون مبدعاً ذا رسالة وذا رأى .

وهكذا فإن حقول المعرفة الإنسانية لا يمكن أن يقوم أى منها بمعزل عن الآخر إذا أريد لها أن تبقى معرفة بناءة متطورة خلاقة ، ومن ثم فلا بد للعلم من أن يقف على أرض صلبة من العلوم التجريبية والعلوم التجريدية على حد سواء ، والا كان كمن يسبح فى فراغ أو يصرخ فى خواء ، فالعلم هو سبيلنا إلى النصر فى معركة البقاء ، انه روح العصر الحاضر والعصر المقبل وطابعهما به تقرر مصائر الأمم والشعوب ، وربما كانت الخطيئة الكبرى التى ارتكبها رجال التربية فى الدول النامية (أو دول العالم

الثالث) أنهم وضعوا برزخا بين العلم والأدب لا يبغيان^(١).

أما عن الحركة العلمية فى الحضارة الإسلامية فىمكن القول أن الحياة العلمية والفكرية فى دار الإسلام قد إزدهرت أىما ازدهار بحيث صارت اللغة العربية لغة عالمية للعلم والمعرفة فى العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث .

هذا وقد كان وراء هذا الازدهار العلمى والفكرى فى دار الإسلام عدة عوامل نستطيع أن نجملها فى عدة نقاط :

ويأتى على رأس هذه النقاط الإسلام نفسه فقد حث على العلم والتعلم ، وكان أول لفظ نزل فى القرآن الكريم هو « اقرأ » والقراءة ليست غاية فى حد ذاتها وإنما هى وسيلة لطلب العلم من أوسع أبوابه ، كما حث الإسلام على النظر والتأمل فى ملكوت السموات والأرض ، ورفع من قدر العلم والعلماء وأكد على تحرير الإنسان وانطلاق تفكيره والاستفادة من مواهبه وملكاته والاهتداء بمداركه البشرية إلى دراسة الظواهر الطبيعية وكشف أسرارها وقوانينها وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تدل على هذا وذاك وهو الأمر الذى يشير إلى أن النشاط العلمى لا بد أن يشكل جزءاً لا يتجزأ من حياة المجتمع الإسلامى .

والأحاديث النبوية الشريفة أيضاً كثيرة وتدعو إلى أهمية العلم والتعلم منها قوله (ﷺ) « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » وقوله (ﷺ) « غدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة » و « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء » و « إنما العلماء ورثة الأنبياء » و « لا خير فىمن كان من أمتى ليس بعالم ولا متعلم » و « لكل شئ عماد وعماد الإسلام العلم » و « من علم علماً فله أجر ما علم به » و « خير العلم خير من خير العبادة » و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وليس أدل على اهتمام الرسول (ﷺ) بالعلم والتعلم من أنه فرض على كل أسير من أسرى المشركين عقب معركة بدر الكبرى يجيد القراءة والكتابة ولا يستطيع أن يفدى نفسه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين ، كما حث الصحابة على تعلم اللغات غير العربية حين بعث دعواته ورسله إلى الملوك والأمراء المعاصرين له فنصح زيد بن

(١) سعيدان ، أحمد سليم ، مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الإسلام ، الكويت (١٩٨٨م) ، ص ١٢ - ٢١ .

ثابت (رضى الله عنه) بأن يتعلم كتابة اليهود لأنه لا يأمن جانبهم وقال « من عرف لغة قوم أمن شرهم »^(٢).

كذلك أشاع الإسلام جواً من الحرية والتسامح لم يعرفهما العالم من قبل فأباح الاستفادة بالعناصر البناءة في تراث السابقين يهوداً كانوا أو نصارى أو وثنيين ، عرباً كانوا أو أعاجم - ولم يمانع في أن يتعلم المسلم علماً نافعا على يد أستاذ غير مسلم أو في أن يقوم طبيب غير مسلم بعلاج مريض مسلم كما سنشير فيما بعد .

وفي ظل الدولة الإسلامية التي اتسعت رقعتها وامتدت حدودها من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب تم تحقيق قدر كبير من الأمن والأمان لم يعرفه أى جزء من أجزاء العالم من قبل وهو الأمر الذى يسر الرحلة في طلب العلم بحيث غدا الانتقال من بلد إلى آخر في المشرق والمغرب من الأمور المألوفة والشائعة ، وعلى ذلك كانت الرحلة في طلب العلم عاملاً آخر من عوامل ازدهار الحركة العلمية والفكرية في الحضارة الإسلامية^(٣).

كذلك كانت حركة الترجمة من أهم العوامل التي أدت إلى ازدهار الحركة العلمية والفكرية كما سنشير فيما بعد .

ويضاف إلى ما سبق تشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ومن نهج نهجهم من ذوى الجاه واليسار ، فضلاً عن النساء ، للعلم والتعلم بالاكثار من انشاء دور العلم المختلفة وترجمة الكتب وتأليفها ووقف الأوقاف الكثيرة المغلة دوره البارز والمهم في ازدهار الحركة العلمية والفكرية في الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء^(٤).

(٢) عاشور ، دراسات ، ص ٢٣ ؛ فؤاد باشا ، أحمد ، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة ، القاهرة (١٩٨٣م) ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٣) عاشور ، دراسات ، ص ٢٣ - ٢٥ .

(٤) مما له دلالة في هذا الصدد أن نشير إلى أنه لا يخلو كتاب من الكتب التي تناولت الحضارة الإسلامية من دراسة الحركة الفكرية والعلمية وإبراز العوامل التي كانت وراء ازدهارها بصفة عامة وهى تلك الكتب التي يراها القارئ في هوامش الكتاب ، ومن جهة أخرى هناك بعض الدراسات التي ركزت على دراسة الحركة العلمية في قطر بعينه أو مدينة بعينها إما خلال عصر معين أو خلال قرن أو أكثر أو من خلال المصادر التاريخية أو أبرزت دور الأوقاف في ازدهارها وحسبنا أن نشير إلى بعض ما صدر من هذه الدراسات ومنها ، الوكيل ، الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه ، جده ، ط ٢ (١٩٨٩م) ؛ العبيكان ، طرفه عبد العزيز ، الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة ، الرياض (١٩٩٦م) ؛ شهاب ، على منصور نصر ، الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجرى (في ضوء كتاب الدرر الكامنة لابن حجر) ، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ، الرسالة ١٦٩ ، =

ولما كان المقام لا يتسع ، ووفقا للخطة الموضوعية لهذا الكتاب المجلد ، لا يبرز كافة التفاصيل والمفردات المتعلقة بموضوع الحركة العلمية والفكرية في دار الإسلام والعوامل المختلفة التي كانت وراء تطورها وازدهارها بصفة عامة أو في كل عصر من العصور التاريخية المتعاقبة في المشرق والمغرب بصفة خاصة ، ولذلك أثرنّا أن نخصص هذا الفصل لدراسة حركة الترجمة وأهم العلوم الإسلامية في الحضارة الإسلامية على أن نعود إلى دراسة كل ما يتعلق بهذا الموضوع تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

المبحث الأول : حركة الترجمة :-

بفضل حركة الفتوح وما أسفرت عنه من اتساع دولة الإسلام واستقرار المسلمين في الأقطار المفتوحة ؛ تلك الأقطار التي كانت مراكز حضارية مهمة قبل الإسلام من جهة وما آثاره الإسلام في المسلمين من حماسة للعلم وما حثهم عليه من تسامح ازاء أهل الديانات والثقافات الأخرى من جهة أخرى نشأت حركة الترجمة إذ كان لا بد للفاتحين الجدد من التزود بقسط نافع من تلك الحضارات التي التقوا بها ووجدوا بين ظهرانيها ولا سبيل إلى ذلك بطبيعة الحال إلا بترجمتها إلى لغتهم .

هذا وقد مرت حركة الترجمة بمراحل مختلفة من النضج والكمال فالترجمة في القرن الأول الهجري هي غير الترجمة في القرن التالي أي أن التباين كائن بينهما في أمور عدة منها : ثقافة المترجم ومعرفته بالمادة المترجمة ودرجة اتقانه للغات التي

= الخولية ٢٢ ، الكويت (٢٠٠٠ - ٢٠٠١م)؛ المزني ، عبد الرحمن سليمان ، الحياة العلمية في القرنين السابع والثامن الهجريين ، المدينة المنورة (٢٠٠٣م) ، عسيري ، مريزن سعيد ، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، مكة المكرمة (١٩٨٧م)؛ العريني ، يوسف علي ، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين ، الرياض (١٩٩٥م)؛ أمين ، محمد محمد ، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م) ، القاهرة (١٩٨٠م) ، ص ٢٣٣ - ٢٧٥ ؛ عبد العاطي ، عبد الغنى محمود ، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٢م)؛ الحجى ، حياة ناصر ، صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك ، الكويت (١٩٩٢م) ؛ عز الدين ، محمد كمال الدين ، الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسة ، بيروت (١٩٩٠م) ؛ الزور ، خليل داود ، الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة ، بيروت (١٩٧١م)؛ عبد العزيز ، محمد الحسيني ، الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، الكويت (١٩٧٣م)؛ حسين ، كرم عجيل ، الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية ٩٢ - ٤٩٤هـ ، بيروت (١٩٧٦م) .

يترجم منها وإليها وعدد تلك اللغات التي يتقنها والمحيط الذي يترجم فيه والمصادر التي يترجم عنها ... إلى غير ذلك من أمور هي من صفات ومميزات الترجمة ، كان القرن الثاني فيها قد جاوز القرن الأول كثيراً أى أن عامل الزمن هنا كان يمضى لصالح تطور هذه الحركة .

وهكذا فإن ما ينطبق على القرنين الأول والثاني فى هذا الباب ، ينطبق أيضاً على القرنين التاليين وهما القرن الثالث والرابع الهجريين .

ولكى نقف على حقيقة هذا التطور وأهميته فى حركة الترجمة عبر تاريخها لا بد لنا من جعلها ضمن مراحل زمنية ابتداء من مرحلة قيامها وحتى مرحلة انتهائها وذلك للوقوف على مقدار تطورها ضمن كل مرحلة من تلك المراحل .

ومن هذا المنطلق اختلف الباحثون المحدثون حول تقسيم الأدوار أو المراحل التي مرت بها حركة الترجمة فمنهم من يجعل هذه الحركة فى مرحلتين من التطور مقتصرأ فى ذلك على العصر العباسى دون الرجوع إلى العصر الأموى ، ومنهم من يجعلها فى مرحلتين رئيسيتين هما الترجمة فى العصر الأموى والترجمة فى العصر العباسى ، ومنهم من يجعل تطورها فى ثلاث مراحل هى مرحلة ما قبل الرشيد والمأمون ومرحلة الرشيد والمأمون والبرامكة ومرحلة ما بعد المأمون ، ومنهم من يجعل هذه الحركة فى العصر العباسى فى ثلاث أدوار هى من خلافة المنصور إلى أواخر عهد الرشيد ، ومن عهد المأمون إلى نهاية القرن الثالث الهجرى ثم المرحلة الأخيرة من أوائل القرن الرابع الهجرى .

وهناك من يجعل حركة الترجمة فى مرحلتين رئيسيتين تبدأ الأولى منها بالعصر الأموى وتنتهى باعتلاء المأمون عرش الخلافة ، أما المرحلة الثانية فإنها تبدأ بخلافة المأمون وتستمر فى عهد خلفائه من بنى العباس .

وهناك من يجعل حركة الترجمة فى أربعة مراحل رئيسية هى :

- ١ - الترجمة فى العصر الأموى .
- ٢ - الترجمة فى عهد المنصور والرشيد .
- ٣ - الترجمة فى عهد المأمون .
- ٤ - الترجمة فى عصر ما بعد المأمون^(٥) .

(٥) الجميلى ، رشيد ، حركة الترجمة فى المشرق الإسلامى فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، بغداد (١٩٨٦م) ، ص ٢٧ - ٢٩ .

والحق ان الجذور الأولى لحركة الترجمة ترجع إلى عصر الرسول (ﷺ) فقد كان يكلف بعض الصحابة بتعلم بعض اللغات الأخرى كالعبرية والسريانية ومنهم زيد بن ثابت (رضي الله عنه) الذي يقال أنه تعلم السريانية في سبعة عشر يوماً.

ويروى عن زيد أنه قال « قال لي النبي (ﷺ) أني اكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو أن ينقصوا فتعلم السريانية فتعلمها في سبعة عشر يوماً » وفي رواية أخرى « وكانت ترد على رسول الله (ﷺ) كتب بالسريانية فأمر زيداً فتعلمها وكتب بعد النبي (ﷺ) لأبي بكر وعمر وكتب لهما معه معيقب الدوسي أيضاً^(٦).

كما أن بعض الصحابة كانوا ينتمون إلى أصول غير عربية (أعاجم) ومنهم سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي .

ومن الطبيعي أن أهمية الترجمة في تلك الفترة كانت محدودة للغاية إذ إقتصرت على ترجمة الرسائل التي بعثها الرسول (ﷺ) إلى الملوك والأمراء المعاصرين له (ومنهم كسرى الفرس وقيصر الروم ونجاشي الحبشة والمقوقس عظيم القبط بمصر وغيرهم) وكان كل رسول من الرسل المكلفين بحمل هذه الرسائل يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم^(٧).

كذلك كان على هؤلاء الرسل ترجمة الردود المختلفة من قبل هؤلاء الملوك والأمراء إلى الرسول (ﷺ) .

وقد استمرت الترجمة تسير في نفس الاتجاه خلال عصر الخلفاء الراشدين ولا سيما بعد أن إتسعت رقعة الإسلام بفضل حركة الفتوح في العراق والشام ومصر وفارس

(٦) ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ٢ ، بيروت ، د ت ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ؛ حمد ، محمد ، عبد الحميد ، اسهام الرقة وديار مضر في الترجمة ، ضمن أعمال المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب ، حلب (١٩٨٤م) ، ص ١٠٦ ، النملة ، على إبراهيم ، مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين ، الرياض (١٩٩٢م) ، ص ٥٦ - ٥٩ ؛ الباشا ، دراسات في الحضارة . ص ٨٤ ؛ عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(٧) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ؛ وبما له دلالتة في هذا الصدد أنه لا تزال توجد نسخ عربية من رسائل الرسول (ﷺ) محفوظة في عدة أماكن وهناك اختلاف بين العلماء والباحثين حول مدى أصلية النسخ الباقية لهذه الرسائل من عدمه . انظر في ذلك ، حميد الله ، محمد ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، بيروت ، ط ٣ (١٩٦٩م) ؛ المنجد ، صلاح الدين ، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته حتى نهاية العصر الأموي ، بيروت (١٩٧٢م) ، ص ٣٢ - ٣٥ ؛ الفهر ، محمد فهد عبد الله ، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري ، جدة (١٩٨٤م) ، ص ١٠٧ - ١١٥ ؛ التل ، صفوان ، تطور الحروف العربية على آثار القرن الهجري الأول ، عمان (١٩٨٠م) ، ص ١٥ - ٢٤ .

فكان لا بد من وجود مترجمين بين الفاتحين وأهالي الأقطار المفتوحة سواء كانوا من العرب أنفسهم أو من أهالي تلك الأقطار ، وتؤكد الأدلة الأثرية الباقية ذلك إذ توجد بعض البرديات التي تحتوى على نص واحد ولكنه مكتوب بلغتين مختلفتين هما العربية واليونانية والذي إن دل على شئ فإنما يدل على وجود مترجمين فى هذه الفترة وترجع أقدم هذه البرديات إلى عصر الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ومنها بردية أهناسيا المحفوظة فى مجموعة راينر فى فيينا والمؤرخة بشهر جمادى الأولى عام ٢٢هـ / ٦٤٢م^(٨).

وبعد انتقال الخلافة الإسلامية إلى دمشق على يد الأمويين وبلغت الدولة الإسلامية أقصى إتساعها بعد أن أدركت الفتوح الإسلامية - برا وبحرا - أقصى مداها شرقا وغربا كان لا بد أن تحظى الترجمة بمزيد من العناية والاهتمام فى ذلك المجتمع الجديد - أى مجتمع دمشق عاصمة الخلافة الأموية - الذى ينطق كل أثر فيه بمختلف النواحي الحضارية التى إزدهرت قبل الإسلام فى ظل الدولة البيزنطية . غير أن ما يعيننا من هذه النواحي الحضارية فى هذا المقام هو ما يتصل بالحركة العلمية .

ومن هذا المنطلق نظر البعض إلى حركة الترجمة فى العصر الأموى فيرون أنها تمثل حجر الأساس لحركة الترجمة عموما بل إنها كانت المنطلق الأول لها فى أنحاء العالم الإسلامى مشرقه ومغربه^(٩).

هذا وقد اختلفت الآراء حول أول ترجمة تمت فى العصر الأموى بين المؤرخين القدامى والمحدثين فالنديم وغيره يرون أن خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بالحكيم أو حكيم آل مروان (المتوفى ٨٥هـ / ٧٠٤م وقيل ٩٠هـ / ٧٠٩م) هو أول من أمر بترجمة كتب الصنعة (الكيمياء) والطب وغيرها^(١٠).

(٨) صالح ، عبد العزيز حميد ، وآخرين ، الخط العربى ، بغداد (١٩٩٠م) ، ص ٤٩ - ٥٠ ؛ الحسن ، صالح إبراهيم ، الكتابة العربية من النقوش إلى الكتاب المخطوط ، الرياض (٢٠٠٣م) ، ص ٥٥ ؛ الجبورى ، يحيى وهيب ، الخط والكتابة فى الحضارة العربية ، بيروت (١٩٩٤م) ، ص ٥٠ - ٥١ ؛ المنجد ، دراسات ، ص ٣٧ . ومما له دلالة فى هذا الصدد أن نشير إلى رواية مهمة فحواها أنه قامت علاقة وطيدة بين الوالى عمير بن سعد (المتوفى ٢٦هـ / ٦٤٦م) وبين البطريق يوحنا الثانى (٦٣١ - ٦٤٨م) الذى قام بناءً على طلب الوالى بترجمة الأناجيل إلى العربية فندب لهذه المهمة مترجمين من بنى عقيل وتنوخ وطى و تمت أول ترجمة عربية للعهد الجديد فى أديرة الرقة والجزيرة عام ١٤٣هـ / ٧٦٠م . (وهناك من يرى أن هذه الرواية تحتاج إلى مزيد من التثبيت فى النسبة والعلاقة) . حمد ، اسهام الرقة وديار مضر ، ص ١٠٩ ؛ النملة ، مراكز الترجمة ، ص ٥٨ - ٦٠ حاشية ١٤٧ .

(٩) الجميلى ، حركة الترجمة ، ص ٣٠ .

(١٠) النديم ، الفهرست ، ص ٣٠٠ ، ٤٣٤ ؛ الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٢٦ ؛ ابن خلكان =

ويرى بعض المستشرقين أن أول كتاب ترجم إلى العربية تمت ترجمته عام ١٢٥هـ / ٧٤٢م ، أى فى أواخر العصر الأموى^(١١).

ويذكر رأى ثالث أن أول ترجمة ترجع إلى معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية وأول خلفائها (٤١ - ٦٠هـ / ٦٦١ - ٦٧٩م) فقد كان مغرماً بالاطلاع على سير الملوك وسياستهم فترجمت له كتب متصلة بهذا الموضوع^(١٢)، وقد استنبط صاحب هذا الرأى ذلك من خلال ما ذكره المسعودى عن برنامج معاوية الخاص فيقول « يدخل - أى معاوية - فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات »^(١٣).

ويرى البعض أن تلك الكتب كانت باللغتين اليونانية واللاتينية وفيها أخبار اليونان والرومان ، وأضاف البعض اللغة الصينية على أثر استلام معاوية لهدية من ملك الصين كانت كتاباً ترجم فى عهده أو بعيد عهده .

وعلى ذلك كان دور هؤلاء الغلمان ينحصر فى تفسير هذه الكتب لمعاوية باللغة العربية ، ولكن هل كانت هذه الترجمة فورية ؟ أم انها كانت معدة مسبقاً وكان الغلمان يقرأون ما ترجموه سابقاً ؟ والأصح هو الرأى الأخير لأن الترجمة الفورية فى هذا الموضوع عملية مملة ولا يمكن أن يستوعبها عقل^(١٤).

كذلك ينسب البعض الترجمة إلى الخليفة الأموى مروان بن الحكم فقد أمر بترجمة

= وفيات الأعيان ، مج ١ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ؛ (ومن الكتب التى نسبت ترجمتها إلى خالد بن يزيد غير الصنعة والطب كتب النجوم والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات والفلك)؛ الكتانى ، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية ، مج ٢ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(١١) عن : قارى ، لطف الله ، نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين فى العصر الأموى ، الرياض (١٩٨٦م) ، ص ٩٢ ؛ حماد ، محمد رفيق ، علم الكيمياء عند العرب وأعلامه ، الكويت (٢٠٠٠) ، ص ٩٢ .

(١٢) قارى ، نشأة العلوم ، ص ٦٦ - ٦٧ ؛ بدايات الترجمة فى العهد الأموى ، ضمن أعمال المؤتمر السنوى السادس لتاريخ العلوم عند العرب ، حلب (١٩٨٤م) ، ص ٢٨٥ - ٣٠٠ ؛ النملة ، على إبراهيم ، مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين ، الرياض (١٩٩٢م) ، ص ٦٢ .

(١٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

(١٤) قارى ، نشأة العلوم الطبيعية ، ص ٦٧ ؛ بدايات الترجمة ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ؛ النملة ، مراكز الترجمة ، ص ٦٢ ؛ حماد ، علم الكيمياء ، ص ٩٥ ؛ زيدان ، جورجى ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ١ ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨٣م) ، ص ٢٢٥ .

كتاب الكناش (وكان عبارة عن ثلاثين مقالة) لأهرن بن اعين المعروف بـ «أهرن القس» على يد الطبيب ماسرجيس أو ماسرجويه (Masarjuaih)، وكان أهرن من الأطباء الذين عاشوا في الاسكندرية في عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) ووضع كتابا باليونانية ثم نقله إلى السريانية ويقال أن الكتاب أصلاً كان مؤلفاً باللغة السريانية، وظل هذا الكتاب المترجم محفوظاً في خزائن الكتب بالشام حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) « فحرضه بعضهم على اخراجه إلى المسلمين للانتفاع به فاستخار الله في ذلك أربعين يوماً ثم أخرجه إلى الناس وبثه في أيديهم »^(١٥).

وعلى ضوء ما تقدم يتضح أن المصادر التاريخية تكاد تجمع كلها على أن خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من أمر بترجمة الكتب إلى اللغة العربية، وكان خالد الذي اطل على الخلافة ثلاثة أشهر ثم أثر التفرغ للعلم مولعاً بالصناعة (الكيمياء) لا سيما وأنه قد ورث عن جده معاوية مكتبة كبيرة وتلقى علوم الأوائل على يد معلمه ماريوحنا الدمشقي ويسمى أحياناً مريانوس وكان صديقاً لوالد خالد (يزيد بن معاوية المتوفى ٦٤هـ) ونديمه في صباه، وقد ترجم مريانوس لخالد بن يزيد، ومن ترجم له أيضاً اصطفن (ويقال له اصطفن الحصري أو القديم) وترجم له أيضاً بعض الكتب عن الفارسية جبلة بن سالم، ومن الكتب التي ترجمت لخالد بن يزيد كتاب مفتاح النجوم أو مفتاح أسرار النجوم لهرمس الحكيم^(١٦). (وهناك من يذكر أن هذا الكتاب قد ترجم عام ١٢٥هـ).

ويضيف النديم فيذكر عن خالد بن يزيد أنه كان خطيباً شاعراً فصيحاً ذا رأى وأن له « عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه - أي النديم - نحو خمسمائة ورقة ورأيت من كتبه: كتاب الحرات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير، كتاب وصيته إلى ابنه في الصناعة (الكيمياء) ... »^(١٧).

(١٥) النديم، الفهرست، ص ٣٥٨؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٥٨؛ زيدان، تاريخ آداب العربية، ج ١، ص ٢٣٣؛ الكتاني، نظام الحكومة النبوية، ص ٢٦٩ - ٢٧٠؛ حماد، علم الكيمياء، ص ٩٣ - ٩٤؛ ابن جلجل، أبو داود سليمان، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة (١٩٥٥م)، ص ٦٣؛ قارى، بدايات الترجمة، ص ٢٩٣ - ٢٩٥؛ النملة، مراكز، ص ٧١.

(١٦) النملة، مراكز الترجمة، ص ٦٢ - ٦٥.

(١٧) النديم، الفهرست، ص ٤٣٤.

أما ابن خلدون فقد كان من أوائل من شككوا فيما نسب إلى خالد بن يزيد وقد برر موقفه هذا بقوله « ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربى والبداءة إليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب الناظرين فى ذلك من الطبيعيات والطب ولم تظهر بعد ولم تترجم اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن » (١٨).

وفى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز تم نقل مدرسة الطب من الاسكندرية إلى انطاكية ثم إلى حران على يد طبيبه وصديقه عبد الملك بن أبجر الكنانى الذى قام بتنفيذ أمر الخليفة وكان عمر بن عبد العزيز « يستطب ابن ابجر ويعتمد عليه فى صناعة الطب » (١٩).

وفى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) ترجمت بضعة كتب منها كتاب فى السياسة عن الفارسية وكتب فى البيزرة منها ما نسب إلى خاقان ملك الترك وكان لدى هشام من يترجم أو يراجع الترجمات مثل أبى العلا سالم بن عبد الملك ونقل له من رسائل « ارسطاليس إلى الاسكندر » وله مجموع رسائل وقد ترجمها عن اليونانية ومنهم جبلة بن سالم الذى نقل عن الفارسية كتاب رستم واسفنديار وكتاب

(١٨) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مج ٢ ، ص ٢٠٢ . ومما له دلالة فى هذا الصدد أن هذا القول كان دافعاً قوياً لبعض المستشرقين للتشكيك فيما نسب لخالد بن يزيد ، والواقع أن هذا الاسلوب صار مألوفاً لدينا فنرى بين الحين والآخر بعض الغربيين من يشكك فى عمل بارز يرفع من شأن الإسلام وحضارته ورجاله والغرض من ذلك واضح وجلى فهم يهدفون إلى غمز الإسلام وطمس دوره فى ظهور أعظم حضارة عرفت البشرية فى العصور الوسطى ، ومن ذلك أنهم شككوا فى شخصية جابر بن حيان أبو الكيمياء فى العصور الوسطى ، وشككوا فى شخصية قسطنطين الافريقى الذى ترجم كتب الطب العربية إلى اللاتينية مما أدى إلى مولد مدرسة سالرنو الطبية بل لقد ذهب الكاتب السوفيتى السابق لوتسيان كاسيموفتش إلى التشكيك فى شخصية محمد عليه الصلاة والسلام فكتب كتاباً عنوانه « لم يكن هناك محمد اطلاقاً » ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٨٦ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ٢ ، ص ١٥ .

(١٩) ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ١٧١ ؛ النملة ، مراكز الترجمة ، ص ٧١ ؛ الخالد ، صلاح الدين ، السريان ونقلهم التراث العلمى اليونانى الى الحضارة الإسلامية ، ضمن أعمال المؤتمر السنوى السادس لتاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٣٢ .

بهرام شوس وهما فى التاريخ والسياسة (٢٠).

ويذكر المسعودى « أنه رأى فى عام ٣٠٣ خ/٩١٥ م بمدينة أصرخر ... كتابا عظيما يشتمل على علوم كثيرة من علومهم - أى علوم الفرس - وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياستهم لم أجدها فى شئ من كتب الفرس ... وكان تاريخ هذا الكتاب أنه كتب مما وجد فى خزائن ملوك الفرس للنصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائة ونقل لهشام بن عبد الملك من الفارسية إلى العربية » (٢١).

وعن أهمية حركة الترجمة التى تمت خلال العصر الأموى (٤١ - ١٣٢ هـ) يرى الكثير من العلماء والباحثين أن هذه الحركة رغم أنها كانت تمثل حجر الأساس لحركة الترجمة عموما بل والمنطلق الأول لها فى أنحاء العالم الإسلامى كما سبق القول ، إلا أنها كانت حركة بدائية وضعيفة المستوى إذا ما قورنت بالترجمات الأخرى فى العصر العباسى أو أنها كانت مجرد محاولات فردية ضيقة محدودة لم تلق اهتمام الدولة وإنما اعتمدت على الجهود الخاصة والرغبة الفردية وأنها وإن كانت قد انتعشت على يد الأشخاص المهتمين بها والقائمين عليها إلا أنها ماتت بموتهم ، ودليل ذلك أنه لم يصلنا ما وضع أو ترجم فى هذا العصر ويعزى ذلك لانشغال الأمويين بالحروب وتشبث أركان الدولة التى اتسعت فى عهدهم . فضلا عن ذلك كانت هذه الترجمة مقصورة على بعض العلوم كالصناعة والطب والنجوم دون أن تتعدى ذلك إلى العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة وما وراء الطبيعة وغير ذلك (٢٢).

أما فى العصر العباسى فقد أخذت حركة الترجمة تتسع وتزداد قوة وصارت أوسع أفقا بل وغدت تمثل ركنا من أركان سياسة الدولة وحكامها (٢٣).

(٢٠) النملة ، مراكز الترجمة ، ص ٧٢ - ٧٣ ، حماد ، علم الكيمياء ، ص ٩٦ - ٩٧ ؛ قارى ، بدايات الترجمة ، ص ٢٩٨ .

(٢١) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، بيروت (١٩٨١م) ص ١٠٨ - ١٠٩ ؛ حماد ، علم الكيمياء ، ص ٩٧ .

(٢٢) الجميلى ، حركة الترجمة ، ص ٢٠ ؛ حماد ، علم الكيمياء ، ص ٩٧ - ٩٨ ؛ عبد الرحمن ، حكمت نجيب ، دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ، الموصل ، ص ١٦ ؛ العمرى ، عبد الله ، تاريخ العلم عند العرب ، الأردن (١٩٩٠م) ، ص ٥٠ ؛ سليمان ، مصطفى محمود ، تاريخ العلوم والتكنولوجيا فى العصور القديمة والوسطى ، القاهرة (١٩٩٥م) ، ص ١٨٣ .

(٢٣) عاشور ، دراسات ، ص ٨٨ .

ويمكن القول بأنه قد تضافرت خلال العصر العباسي عوامل كثيرة عملت مجتمعة على تشجيع وتنشيط هذه الحركة العلمية ، ونستطيع أن نجمل هذه العوامل فى النقاط التالية (٢٤) :

١ - كانت رعاية الخلفاء العباسيين للترجمة من أهم هذه العوامل التى دفعت حركة الترجمة خطوات واسعة إلى الأمام ، وقد استخدموا فى ذلك شتى السبل والوسائل المادية منها والمعنوية ومن هؤلاء الخلفاء الذين رعوا هذه الحركة - رغم وجود تفاوت بين وعظيهم بين واحد وآخر - كل من المنصور والرشيد والمأمون والمتوكل ، وكان المأمون أبرزهم فى رعاية هذه الحركة واحتضانها فقد سخر كل الامكانيات وطرق كل السبل ليعثر على الكنوز الفكرية الحبيسة فى مكتبات القسطنطينية وفى ذلك يذكر النديم ان المأمون « كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ؛ وقد استظهر عليه المأمون فكتب إليه يسأله الإذن فى انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله - أى ترجمته إلى العربية - فنقل ... » (٢٥).

٢ - رعاية بعض الأسر للترجمة :

اهتمت بعض الأسر بحركة الترجمة اهتماماً كبيراً مما كان له الأثر الفعال فى تشجيع وتنشيط هذه الحركة ولعل أشهر هذه الأسر هى أسرة البرامكة وأسرة موسى بن شاكر والتى كانت مصدراً مالياً رئيسياً لأبرز المترجمين فى ذلك الوقت .

٣ - رعاية بعض الأطباء والوزراء :

كان لرغبة بعض الأطباء والوزراء فى الحصول على ترجمات لشتى المصنفات ومن مصادرها المختلفة لا سيما الاغريقية منها أثرها فى تنشيط هذه الحركة ورعايتها ومن هؤلاء يحيى بن خالد البرمكى (ت ١٩٠هـ / ٨٠٥م) وزير الرشيد ، ومحمد بن عبد الملك

(٢٤) الجمبلى ، حركة الترجمة ، ص ٤٨ - ٦٤ .

(٢٥) النديم ، الفهرست ، ص ٣٠١ .

الزيات (ت ٢٣٣هـ / ٨٤٦م) وزير المعتصم والواثق والمتوكل ، والطبيب يوحنا بن ماسوية (ت ٢٤٣هـ / ٨٥٦م) والطبيب سلمويه بن بنان (ت ٢٢٥هـ / ٨٣٨م) وغيرهم .

٤ . حاجة المسلمين إلى تراث الحضارات القديمة :

كانت حاجة المسلمين إلى تراث الأمم الأخرى التي سبقتهم في ميدان الحضارة أثرها القوى والفعال ، ومن المعروف أن مرحلة الحاجة تسبق مرحلة التشوق والاستمتاع العقلي وهذا هو ما يفسر اقبال العرب على ترجمة بعض المعارف والعلوم مثل الطب دون غيرها من الآداب اليونانية والاساطير فاقبلوا على ترجمة الطب والفلسفة والمنطق ولم يترجموا الياذة هوميروس .

٥ . طبقات النقلة والمترجمين :

تعتبر جماعة النقلة من العوامل الفعالة والمكمل الرئيسى لمجموع العوامل الأخرى التي أدت إلى قيام حركة الترجمة ، لقد كان هؤلاء النقلة والمترجمين ينتمون إلى جنسيات وأديان مختلفة فهناك العربى والفارسى والهندي وهناك المسلم والمسيحي واليهودي والصابئي والمجوسى ، ولقد كان هناك اختلاف بين هؤلاء جميعا سواء فى معرفة عدد اللغات التي يتقنها كل منهم وأصلها ودرجة نقله بها وثقافته التي يتميز بها وأهميته بالنسبة لمترجمي عصره .

٦ . حركة الشعوبية :

كان التنافس بين العرب والشعوبيين من العوامل المهمة فى ازدهار حركة الترجمة، إذ كان من نتائج هذه الحركة العنصرية أن عكف الفرس على ترجمة تراثهم إلى العربية لا لشيء سوى لسبب واحد هو اظهار المجد الفارسى القديم ووضعهم أمام العرب ليسألوهم وبصورة غير مباشرة : هذا تراثنا فماذا عندكم من تراث أيها العرب ؟ ومن أشهر هؤلاء ابن المقفع (٢٦) .

(٢٦) لمزيد من التفاصيل عن الشعوبية وأثرها ، انظر ، قدورة ، زاهية ، الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الإسلامية فى العصر العباسى الأول ، بيروت (١٩٧٢م).

٧ - ظهور صناعة الورق :-

كان لظهور صناعة الورق السابق الإشارة إليها فى الفصل السابق أثرها الكبير ليس فى ازدهار حركة الترجمة فحسب بل فى كل الجوانب الثقافية المتعلقة بهذه الحركة سواء كان ذلك فى التأليف والنسخ أو - وهو الأهم - فى كتابة علوم ومعارف المصنفات المترجمة من مصادرها المختلفة إلى اللغة العربية وما تمخضت عنه من نتائج كثيرة ظهرت أثارها فيما بعد فى شتى مضامين العلوم والآداب والفنون .

٧ - الفرق الإسلامية :

كان لظهور الفرق الإسلامية الأثر الكبير فى ازدهار حركة الترجمة ولا سيما الفلسفة اليونانية خاصة ، حيث حاولت كل فرقة أن تدعم آراءها وأفكارها أولاً ثم دحض آراء وأفكار خصومهم ثانياً مما كان دافعا إلى شدة الاقبال على طلب الكتب الفلسفية ومن أبرز هذه الفرق المعتزلة الذين كانوا يشعرون بمدى حاجتهم إلى مجادلة خصومهم المسيحيين واليهود والمجوس بالحجج والبراهين ذاتها التى كان هؤلاء يستندون إليها ونعنى بذلك قواعد المنطق ومبادئ الفلسفة اليونانية .

وبمعنى آخر كانت هذه الفرق الإسلامية فى حاجة إلى قوالب علمية منطقية تصب فيها أفكارهم فتزداد أسلحتهم ويزداد تفكيرهم انطلاقا فكان الاقبال على تراث المناطق والمفكرين الاغريق عن طريق الترجمة^(٢٧) .

ووصل الأمر إلى أنهم ذهبوا فى تفسيرهم لمعانى القرآن إلى حد تحميله مالا يطيق لدعم حججهم واقحام خصومهم .

٨ - اللغة العربية :

استطاعت اللغة العربية بما وهبها الله (سبحانه وتعالى) من مرونة فى مادتها وثراء فى اللفظ والمعنى وكثرة مترادفات وقدرتها على دقة التعبير أن تكون وسيلة ناجحة لهذه الترجمة دون عناء فاستوعبت اللغة العربية كل هذه المعارف والعلوم بكل يسر ورحابة صدر .

(٢٧) محمود والشريف ، العالم الإسلامي فى العصر العباسي ، ص ٢٧٠ .

واستطاع المترجمون أن يجدوا فى مواردها الخصبة أداة غنية بالتعبير والمترادفات والأدب العربى بطبعه أدب غنى بالتعابير الدقيقة التى يستطيع الكاتب أن يستغلها فى وصف أدق الحالات وأعقدها^(٢٨).

ولا أدل على مرونة اللغة العربية وقدرتها على التعبير العلمى من أن المسلمين عندما بدءوا حركة الترجمة عن اليونانية أخذوا كثيراً من المصطلحات اليونانية بألفاظها العربية فقالوا : انالوطيقا وسوفسطيقا وقاطاغورياس وارثماطيقا وابيذيميا ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن لغتهم العربية قادرة على أن تعبر عن هذه المصطلحات بألفاظ عربية خالصة فتركوا الألفاظ السابقة وقالوا عنها بالترتيب : التحليل والمغالطة والمقولات العشر والرياضيات والوافدة ، وبذلك أظهرت اللغة العربية مقدرة عجيبة على مسايرة الاوضاع الجديدة والتطور^(٢٨).

أما عن مراحل حركة الترجمة فى العصر العباسى فقد قسمها العلماء والباحثين إلى ثلاثة أدوار وهى :

١ - الترجمة فى عهد المنصور والرشد ١٣٦ - ١٩٣ هـ / ٧٥٣ - ٨٠٨ م :

يعتبر المنصور أول خليفة عباسى يقوم على رعاية حركة الترجمة ويعمل على تشجيعها وترجمت فى عهده الكتب عن اليونانية والسريانية والفارسية والسنسكريتية ومنها كتب النجوم على يد نوبخت المجوسى وإبراهيم الفزائى وعلى بن عيسى الاسطرلابى ومن الكتب المترجمة فى عهده كتاب السند الهند (وهو أحد المذاهب الهندية فى علم النجوم) وكتاب ارسطوطاليس وكتاب المجسطى لبطليموس وكتاب اقليدس المسمى كتاب الأصول وكتاب الأركان وكتاب الارثماطيقى وعن الفارسية كتاب كليلة ودمنه لعبد الله بن المقفع^(٢٩).

أما الرشد فيعد عهده من أزهى العصور التى مرت بها حركة الترجمة حتى مطلع عصر ابنه المأمون ، فقد وصلت الترجمة فى عهده حداً من التطور الكمى والنوعى لم تصل إليه من قبل ، ولا نغفل فى عهد الرشد أيضاً دور البرامكة فى رعاية حركة الترجمة وعلى رأسهم يحيى بن خالد البرمكى .

(٢٨) الجميلي ، حركة الترجمة ، ص ٤٨ - ٦٤ .

(٢٩) عاشور ، المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية ، القاهرة (١٩٦٣م) ، ص ١١ .

٢. الترجمة فى عهد المأمون ١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م :

ويمثل عهده العصر الماسى لحركة الترجمة وبرزت فى هذه الفترة ظاهرة التخصص فى الترجمة من اللغات المختلفة (الغريقية والفارسية والسريانية) إلى العربية وقبل أن ينتهى عهد المأمون أصبح هناك إمام جيد بعلوم الطب والفلسفة والرياضيات والتاريخ الطبيعى والفلك ، كما أصبح فى حوزة المسلمين أفضل ترجمات لمصنفات ابقراط وجالينوس وبطليموس واقليدس وارسطوطاليس .

وكان عهد المأمون هو أزهى عصور بيت الحكمة^(٣٠) الذى كان أول مكتبة عامة ذات شأن فى العالم الإسلامى أنفقت عليها الدولة العباسية بسخاء .

ان بيت الحكمة هذا كان أكاديمية علمية بالمعنى الصحيح ولم تكن حركة النسخ داخل بيت الحكمة بأقل أهمية من حركة الترجمة ذاتها بل هما عمليتان متلازمتان تكمل احدهما الأخرى للدلالة على أهمية وجود بيت الحكمة فما أن يكون الكتاب المترجم قد تمت ترجمته حتى يتناوله النساخ بالنسخ وبأكثر من نسخة وذلك لتبقى النسخة الأصلية داخل بيت الحكمة ولتوزع النسخ الأخرى على المشاهير من الوزراء والعلماء ، وبعد عملية النسخ تأتى المرحلة الثالثة من مراحل انجاز الكتاب وهى مرحلة التجليد للمحافظة على الكتاب واعطائه منظرًا جميلاً ، أما المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل انجاز الكتاب فهى مرحلة التوزيع .

٣. الترجمة بعد عهد المأمون :

من أهم الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون وكان لهم دور فى رعاية حركة الترجمة الخليفة المتوكل على الله ٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٦ - ٨٦١م ، الذى أعاد للترجمة بعض ما كانت عليه فى عصر المأمون ، كذلك فإن النصف الأول من القرن ٤هـ / ١٠م كان المكمل المباشر لنظيره النصف الأول من القرن ٣هـ / ٩م ، ورغم ذلك فإنه خلال هذه الفترة انبثقت حركة واسعة فى التدوين والتأليف على حساب حركة الترجمة وكنتيجة مباشرة لها ، كما أن القرن ٤هـ / ١٠م كان هو العصر الذهبى للمترجمين العرب الذين أثبتت ترجماتهم ما كانوا يتمتعون به من مقدرة وكفاءة فى هذا المجال فنافسوا بذلك أقرانهم التراجمة من غير العرب ومن أشهر هؤلاء ، على سبيل المثال ، سنان بن ثابت بن قرة وعيسى بن اسحق بن زرعة .

(٣٠) عن بيت الحكمة انظر ، الديوه جى ، سعيد ، بيت الحكمة ، الموصل (١٩٥٤م)؛ ناجى ، معروف ،

أصالة الحضارة العربية ، بيروت ، ط ٣ (١٩٧٥م) ، ص ٤٤١ - ٤٤٩ .

ومن ناحية أخرى فإن عدداً كبيراً من الترجمات فى هذا القرن كان من الاغريقية مباشرة ، وكثيراً ما وضع المترجم نفسه ترجمتين من الاغريقية إحداهما بالسريانية والأخرى بالعربية ومن هؤلاء المترجمين الذين سلكوا هذا السبيل عيسى بن اسحق بن زرعة^(٣١).

أما عن المترجمين فى العصر العباسى فحسبنا أن نشير إلى كل من عبد الله بن المقفع (ت ١٤٢هـ / ٧٥٩م) وجورجيس بن جبريل بن بختيشوع وبختيشوع بن جورجيس ويوحنا بن ماسويه ويوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وعمر بن الفرخان الطبرى وجبريل بن بختيشوع وبختيشوع بن جبريل وعبيد الله بن بختيشوع وحنين بن اسحاق (ت ٢٦٠هـ) ويعقوب بن اسحق الكندى (ت ٢٥٢هـ) واسحق بن حنين (ت ٢٩٨هـ) وحبيش بن الاعسم وهو ابن أخت حنين بن اسحق وثابت بن قره الحرانى (ت ٢٨٨هـ) وقسطا بن لوقا البعلبكي (ت ٣٠٠هـ) ومتى بن يونس (ت ٣٢٨هـ) وسنان بن ثابت بن قرة (ت ٣٣١هـ) ويحيى بن عدى (ت ٣٦٤هـ) وعيسى بن اسحق بن زرعة (ت ٣٩٨هـ) وجبريل بن عبيد الله بن بختيشوع (ت ٣٩٦هـ) وعبيد الله بن جبريل (ت ٤٥٠هـ). ومن المترجمين الذين نقلوا عن الهندية منكه وابن دهن الهندى وإبراهيم الفزاوى وغيرهم^(٣٢).

ولما كان المقام لا يتسع ، وفقاً للخطة الموضوعية لهذا الكتاب المجلد ، أن نتحدث عن أسماء الكتب التى قام بترجمتها هؤلاء ودور كل منهم ؛ ولذلك حسبنا أن نركز فقط على أشهرهم ، وهو حنين بن اسحق ، على أن نعود لهم جميعاً بالتفصيل والاسهاب فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

هذا ويعد حنين بن اسحق (١٩٤ - ٢٦٠هـ / ٨٠٩ - ٨٧٣م) أشهر مترجم عرفته

(٣١) الجميلي ، حركة الترجمة ، ص ٣١ - ٣٦ ، ٧٧ - ١٣٩ ؛ وانظر أيضاً ، النملة ، مراكز الترجمة ، ص ٧٧ - ٩٧ .

(٣٢) عن هؤلاء المترجمين واسهاماتهم فى حركة الترجمة انظر ، الجميلي ، حركة الترجمة ، ص ٢٤٣ - ٣٣١ ؛ حماد ، علم الكيمياء ، ص ١٠٠ - ١١٥ ؛ النجار ، عامر ، حركة الترجمة وأهم أعلامها فى العصر العباسي ، القاهرة (١٩٩٣م) ، ص ٢٣ - ٤٧ ؛ اوليري ، دي لاسي ، مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب ، ترجمة تمام حسان ، القاهرة (١٩٥٧م) ، ص ٢٣٣ - ٢٦٣ ؛ معروف ، أصالة الحضارة العربية ، ص ٤٣٥ - ٤٤٠ .

حركة الترجمة فى تاريخها عبر أربعة قرون من القرن الأول إلى القرن الرابع الهجرى / ٧ - ١٠ م ، وليس أدل على أهمية حنين من ذلك الآجر الذى كان يحصل عليه من الخليفة المأمون فقد كانت ترجماته توضع فى كفة ميزان ويوضع ما يعادلها ذهباً فى الكفة الأخرى ، ولعمري فانه لا يوجد ثمن أعلى من ذلك الذى دفع به إلى حنين قديماً وحديثاً ، واتفق مع ما ذكره الجميلي من أنه لو كان هناك ما هو أعلى من الذهب عند المأمون لما تراجع أو بخل به على حنين بن اسحق لأن تحقيق الهدف يبرر سبل تجسيده .

أما أهم الترجمات التى اضطلع بها حنين بن اسحق فمنها بعض مصنفات أرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وكانت غالبية ترجماته إلى اللغة السريانية أولاً ثم العربية ثانياً^(٣٣) . وهو ما سنشير إليه فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

ولا تفوتنا الإشارة فى هذا المقام إلى المراكز التى ساهمت فى نقل تراث الأمم التى اعتمدت عليها الحضارة الإسلامية إبان نشأتها ، وعلى الرغم من تعدد هذه المراكز واختلاف أهمية بعضها عن البعض الآخر فى عملية الاسهام فى نقل ذلك التراث القديم إلا أنها كانت فى مجموعها ذات أثر فعال ومباشر فى ذلك الازدهار الذى تميزت به حركة الترجمة فى بعض الفترات من تاريخها .

ومن هذه المراكز مدرسة الاسكندرية ومدرسة انطاكية ومدرسة حران ومدرسة نصيبين ومدرسة الرها ومدرسة جنديسابور ومما له دلالتة أن هذه المراكز كانت موجودة بالفعل قبل ظهور الإسلام وظلت أعمالها ومهامها الأصلية قائمة بعد ظهور الإسلام وتمت الاستفادة منها فائدة كبيرة فى حركة الترجمة^(٣٤) (وهو ما سنشير إليه تفصيلاً

(٣٣) الجميلي ، حركة الترجمة ، ص ٥٣ - ٥٤ ؛ ٢٣٣ - ٢٦٣ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن حنين واسهاماته ومدرسته انظر ، سزكين ، فؤاد ، مكانة حنين فى تاريخ الترجمة من الاغريقي والسرياني إلى العربية ، بغداد (١٩٧٤م) ؛ الحلوجي ، عبد الحميد ، السامرائي ، عامر ، آثار حنين بن اسحق ، بغداد (١٩٧٤م) ؛ الديبان ، أحمد محمد ، حنين بن اسحق دراسة تاريخية ولغوية ، مجلدان ، الرياض (١٩٩٣م) ؛ كار ، مريم سلامة ، الترجمة فى العصر العباسي ، مدرسة حنين بن اسحاق وأهميتها فى الترجمة ، ترجمة بخيت غزاوي ، دمشق (١٩٩٨م) ؛ زيود ، مدرسة آل حنين وآثرها فى التراث العلمي العربي ، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى ، اتحاد المؤرخين العرب (٢٠٠٢م) ، ص ٣٦٥ - ٣٩٤ .

(٣٤) عن هذه المراكز انظر ، الجميلي ، حركة الترجمة ، ص ١٩٧ - ٢٤٠ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٨٢ - ٨٥ ؛ أوليري ، مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب ، (الفصل الثالث والخامس) ؛ معروف ، أصالة الحضارة العربية ، ص ٤١٨ - ٤٢٢ ؛ النملة ، مراكز الترجمة ، ص ٢٠ - ٢٨ ، ٤٢ - ٥٥ .

واسهابا فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

وهكذا استطاع المسلمون عن طريق حركة ترجمة واسعة الأطراف أن يقفوا على تراث كبرى الحضارات البشرية القديمة وأن يفيدوا من هذا التراث فى بناء حضارتهم .

والحق ان استفادة المسلمين من تراث الحضارات السابقة لا يقلل من شأن الحضارة الإسلامية لأن دور العلماء المسلمين لم يقتصر على النقل والترجمة وإنما تخطى ذلك إلى الدراسة والنقد والتحليل والتصحيح ثم الابتكار والإضافة^(٣٥) .

وهو ما سوف نلمسه فيما يستقبلنا من صفحات هذا الفصل .

المبحث الثانى : فى تصنيف العلوم عند المسلمين :

من المعروف أن أى تصنيف للعلوم يتم انجازه فى فترة ما من فترات التطور العلمى لهو بمثابة مرآة عاكسة لطبيعة العلم وحدوده ونماذجه المقررة ولما وصل إليه من تطور واكتمال . وذلك فى ضوء علاقته بالأنساق المعرفية الأخرى . وعاكسة أيضاً للإطار الاجتماعى الذى تحددت من خلاله على العموم بنية المعرفة العلمية ذاتها . فنحن فى تصنيف العلوم - إذن - مع عقل الفترة التاريخية وروحها ومناخها العام ومع الفلسفة التى ألهمت العلم واستلهمته كذلك : المؤثرة فيه والمتأثرة به على السوء .

هذا وقد مرّ العلم الإسلامى بمراحل متعاقبة من الارتقاء تعددت معها صور الاحصاء أو التصنيف أو التقسيم والترتيب النسقى فكانت تظهر تباعاً أية على التطور المستمر الحاصل فى قلب العلوم ذاتها كما تعددت كذلك محاولات التفسير لطبيعة العلاقة المنطقية بين مختلف المعارف ، وعلى تعدد هذه المحاولات ظلّ مفهوم الوحدة - بتأثير من العقيدة الإسلامية - هو المفهوم الحاكم والأكثر بروزاً وتوجيهاً^(٣٦) .

ولما كانت محاولات تصنيف العلوم كثيرة فى الحضارة الإسلامية (جابر بن حيان والكندى والفارابى والخوارزمى وابن سينا وابن حزم وأبو حيان التوحيدي وابن

(٣٥) عاشور ، دراسات ، ص ٩٣ ؛ عبد الرازق ، الحضارة ، ج ٢ ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٣٦) عبد الغنى ، مصطفى لبيب ، دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ، (١) مقدمات وبحوث ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠١م) ، ص ٦٩ - ٧٠ .

الأكفاني والطوسي والبيضاوي وابن خلدون وطاش كبرى زاده وحسن صديق خان وغيرهم^(٣٧). وهو ما لا يتسع له هذا الكتاب المجلد وفقا للخطة الموضوعية له ولذلك حسبنا أن نشير إلى بعض هذه المحاولات على أن نعود لبقيتها في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

ومنها محاولة الفارابي (ت ٣٣٩هـ / ٩٥٠م) التي تعتبر من أنضج المحاولات المبكرة في بداية القرن ٤هـ / ١٠م لتصنيف العلوم ويتمثل ذلك في كتابه احصاء العلوم وهو « كتاب لم يسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه »^(٣٨).

ويضيف محققه فيقول « وهو - أي الكتاب - مختصر لعلوم زمانه ومرشد موجز لمن أراد الوقوف عليها أو التبحر فيها معطيا إياه فكرة واضحة عامة عن موضوع كل علم ومنفعته النظرية والعلمية »^(٣٩).

أما الفارابي فيوضح مقصده من احصاء العلوم بقوله « قصدنا في هذا الكتاب أن نحصى العلوم المشهورة علماً علماً ، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، وأجزاء كل ما له منها أجزاء وجعل ما في كل واحد من أجزائه ونجعله في خمسة فصول - على نحو ما هو وارد في الجداول التالية - ... ».

أما الغرض من هذا الاحصاء فيحدده الفارابي بقوله « ان الإنسان إذا أراد أن يتعلم علماً من هذه العلوم وينظر فيه ... ماذا يقدم وفي ماذا ينتظر وأي شيء سيفيد بنظره وما غناء ذلك وأي فضيلة تنال به ليكون اقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لا على عمى وغرور ، وبهذا الكتاب يقدر الإنسان أن يقايس بين العلوم فيعلم أيها الفضل وأيها أنفع وأيها أتقن وأوثق وأقوى وأيها أوهن وأوهى

(٣٧) عن بعض هذه المحاولات انظر ، دياب ، مفتاح محمد ، مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، بنغازي (١٩٩٢م)، ص ١٢٩ - ١٦٥ ؛ سليمان ، عباس ، وحلاق ، حسان ، دراسات في تاريخ العلوم عند المسلمين ، الاسكندرية (١٩٩٨م)، ص ٢٥ - ٥٤ ؛ ولزيد من التفاصيل عن العلوم أو الفنون المدونة في أمهات كتب موضوعات العلوم انظر ، خوري ، يوسف ، العلوم عند العرب ، تبويب وتعريف ونصوص ، بيروت (١٩٨٣م)، (٥١٠ صفحة) .

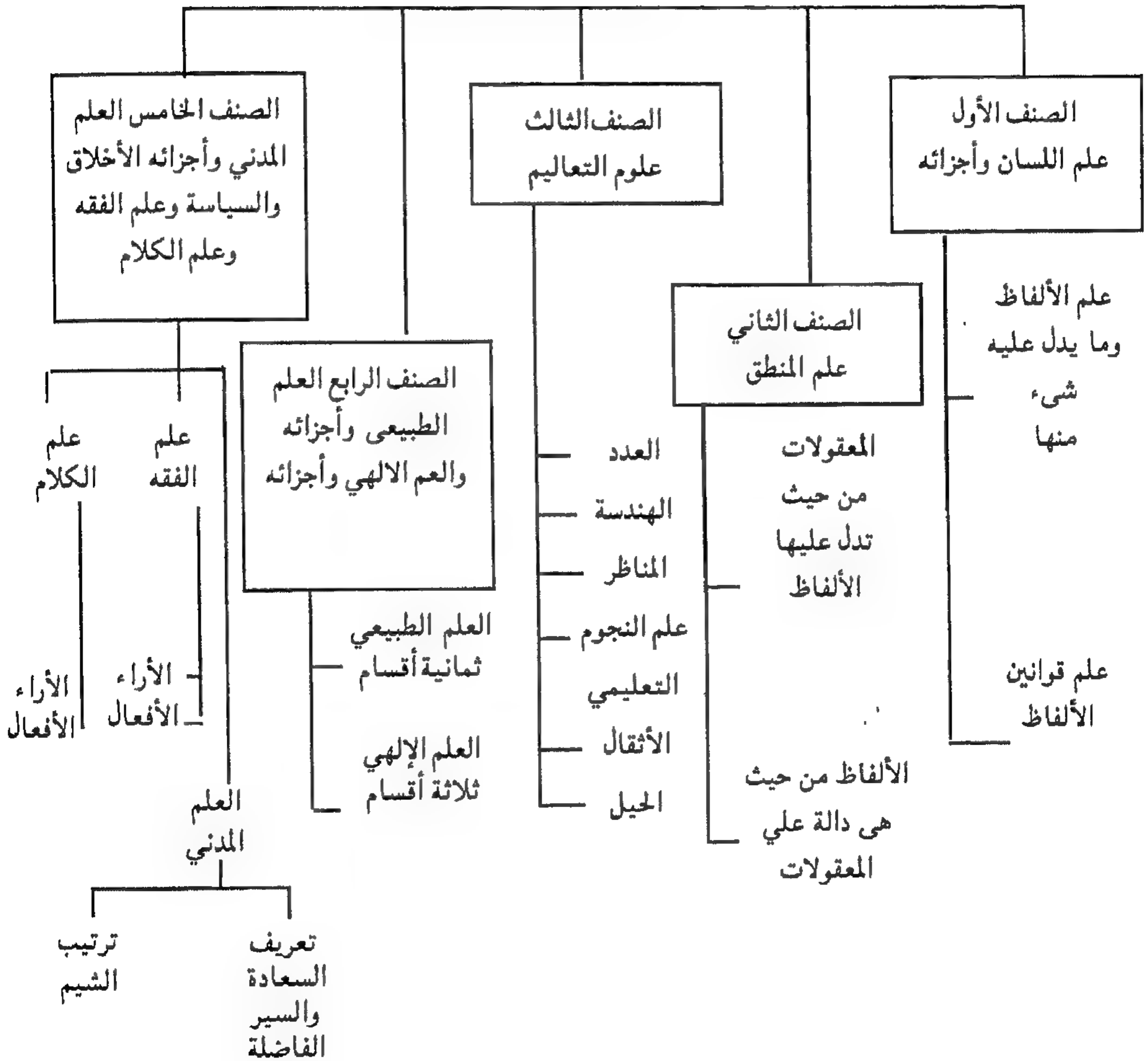
(٣٨) صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، بيروت ، ط ٢ ، د ت ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٣٩) الفارابي ، احصاء العلوم ، تحقيق عثمان أمين ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٦٨م)، مقدمة التحقيق .

وأضعف ، وينتفع به أيضاً فى تكشيف من ادعى البصر بعلم من هذه العلوم ولم يكن كذلك ... وبه يتبين أيضاً فيمن يحسن علماً منها هل يحسن جميعه أو بعض أجزائه وكم مقدار ما يحسنه وينتفع به المتأدب المتفنن الذى قصده أن يشدو جمل كل ما فى كل علم ومن أحب أن يتشبه بأهل العلم ليظن به أنه منهم « (٤٠) ».

ويمكن أن نوضح جملة مراتب « الإحصاء » على النحو التالى (٤١) :

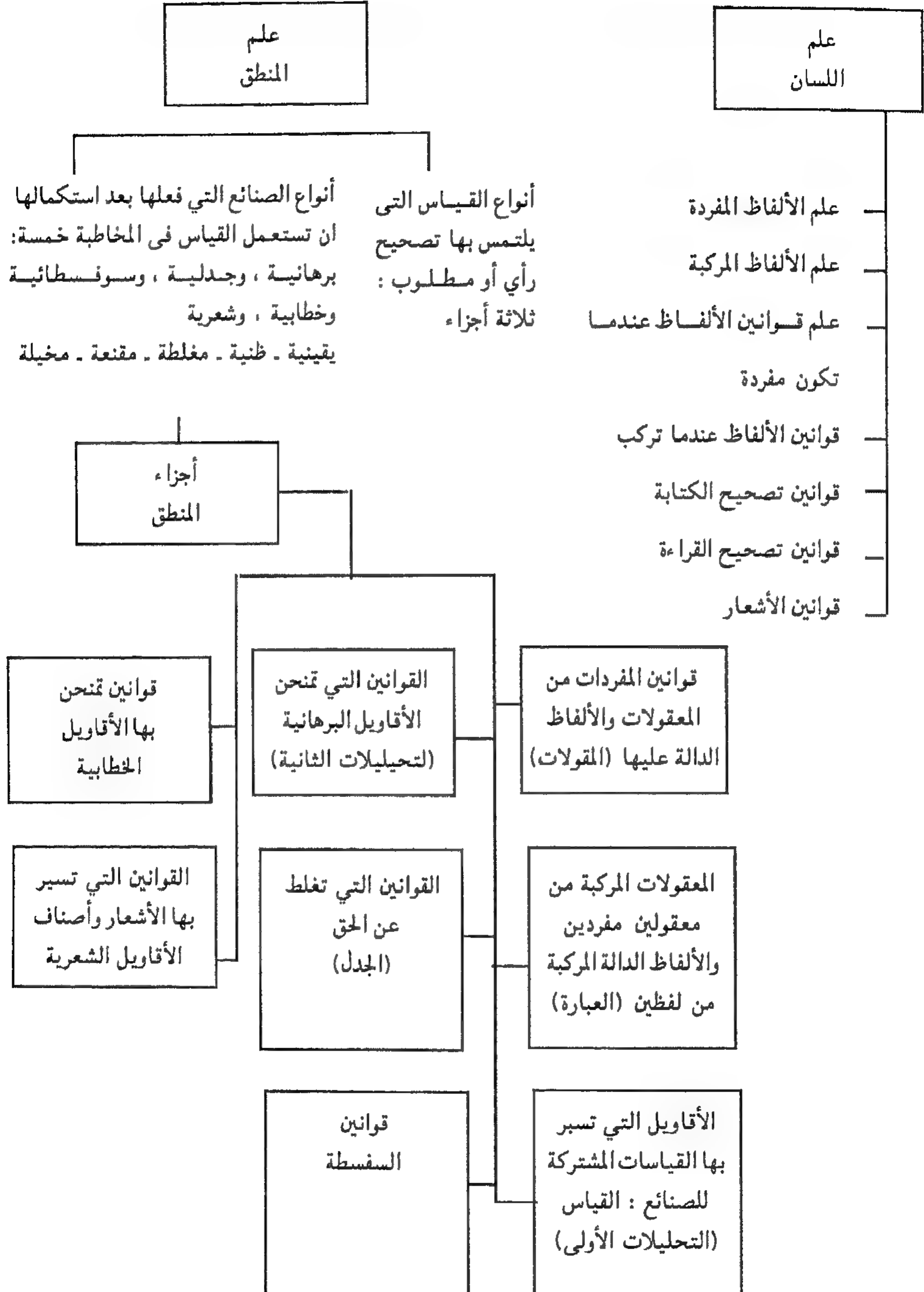
أولاً : جملة أصناف العلوم



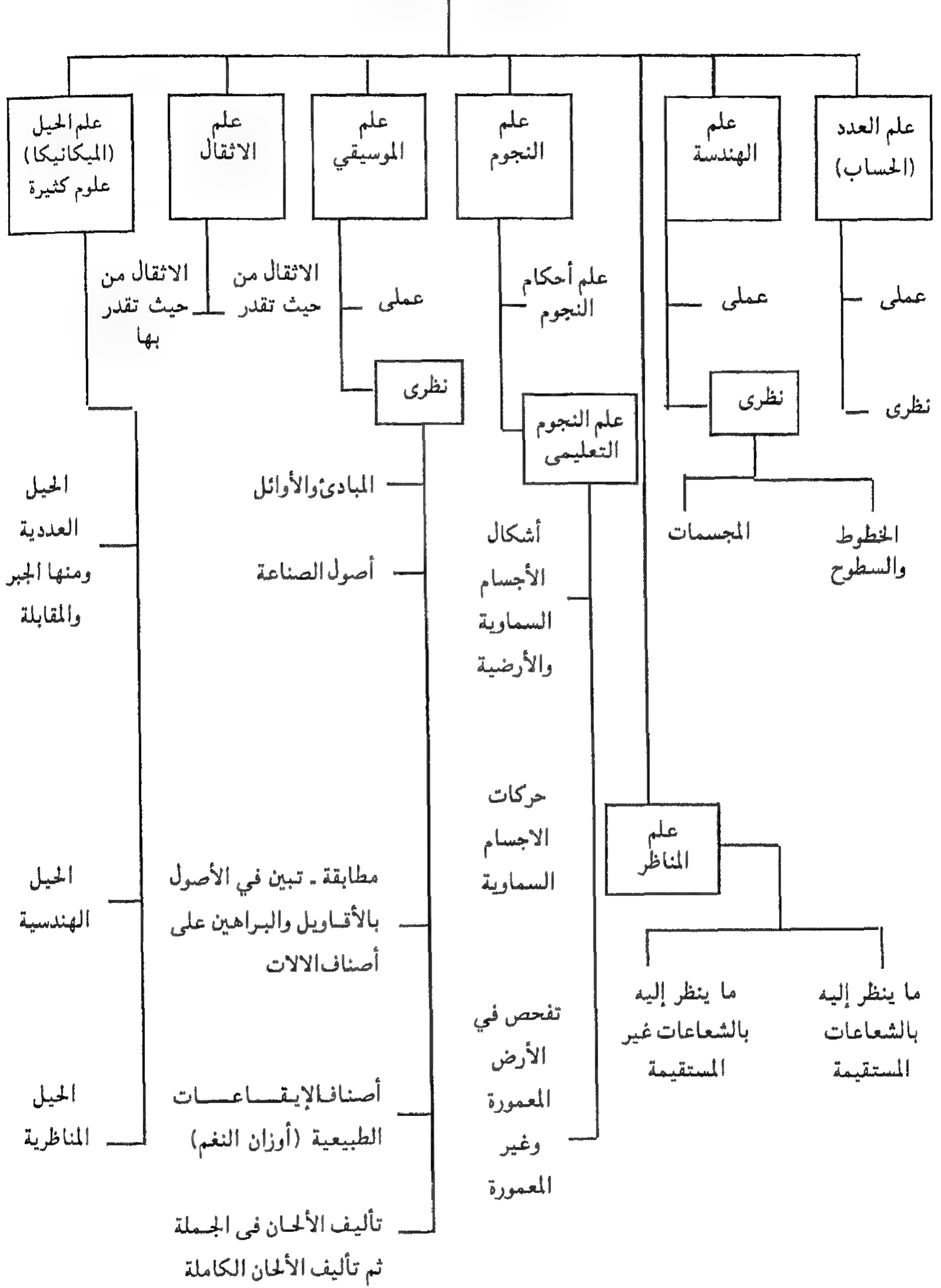
(٤٠) الفارابى ، إحصاء العلوم ، ص ٥٣ - ٥٥ ؛ عبد الغنى ، دراسات ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٤١) الفارابى ، إحصاء العلوم ؛ عبد الغنى ، دراسات ، ص ٧٢ - ٧٦ ؛ دياب ، مقدمة ، ص ١٣٥ - ١٤٤ .

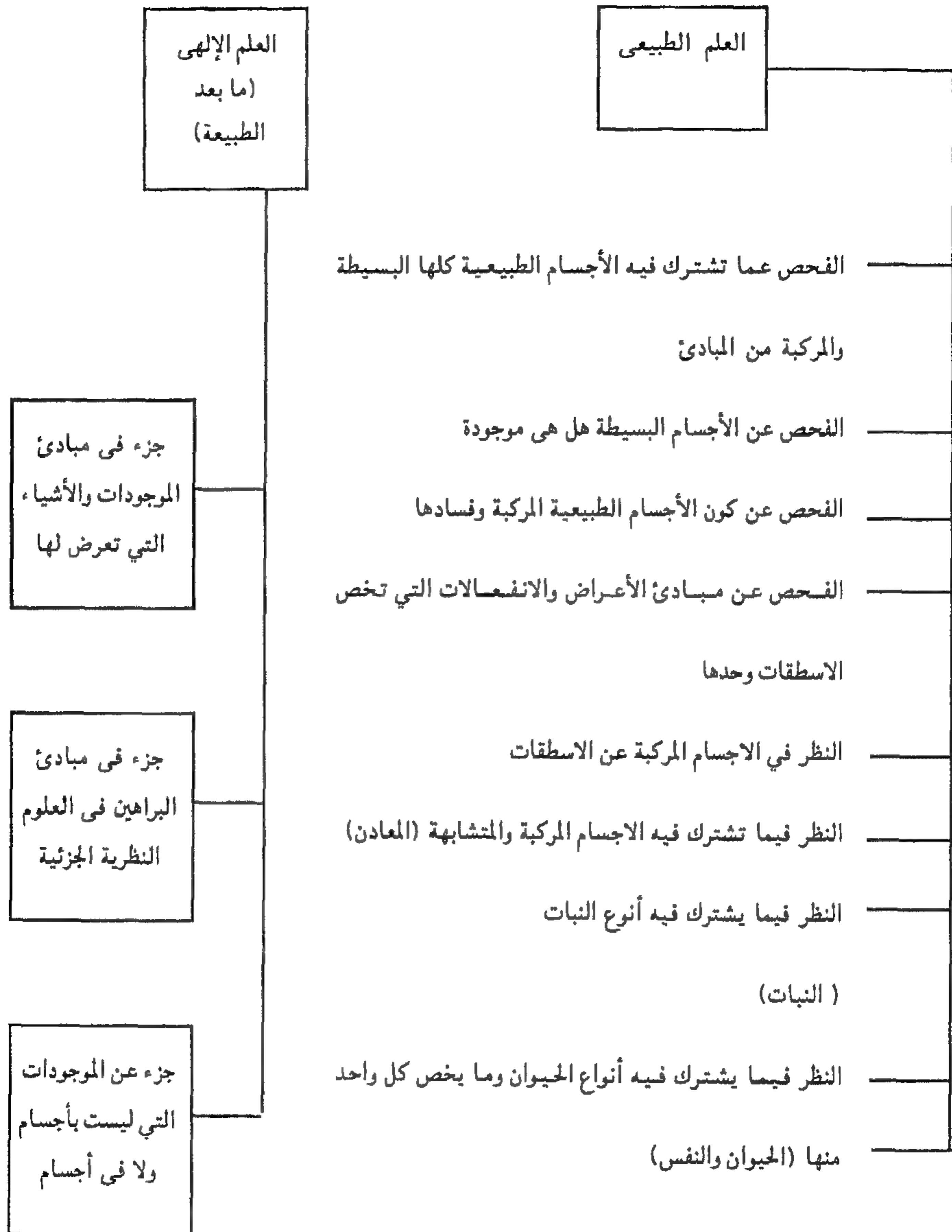
ثانياً : أقسام علم اللسان وأجزائه وعلم المنطق وأجزائه



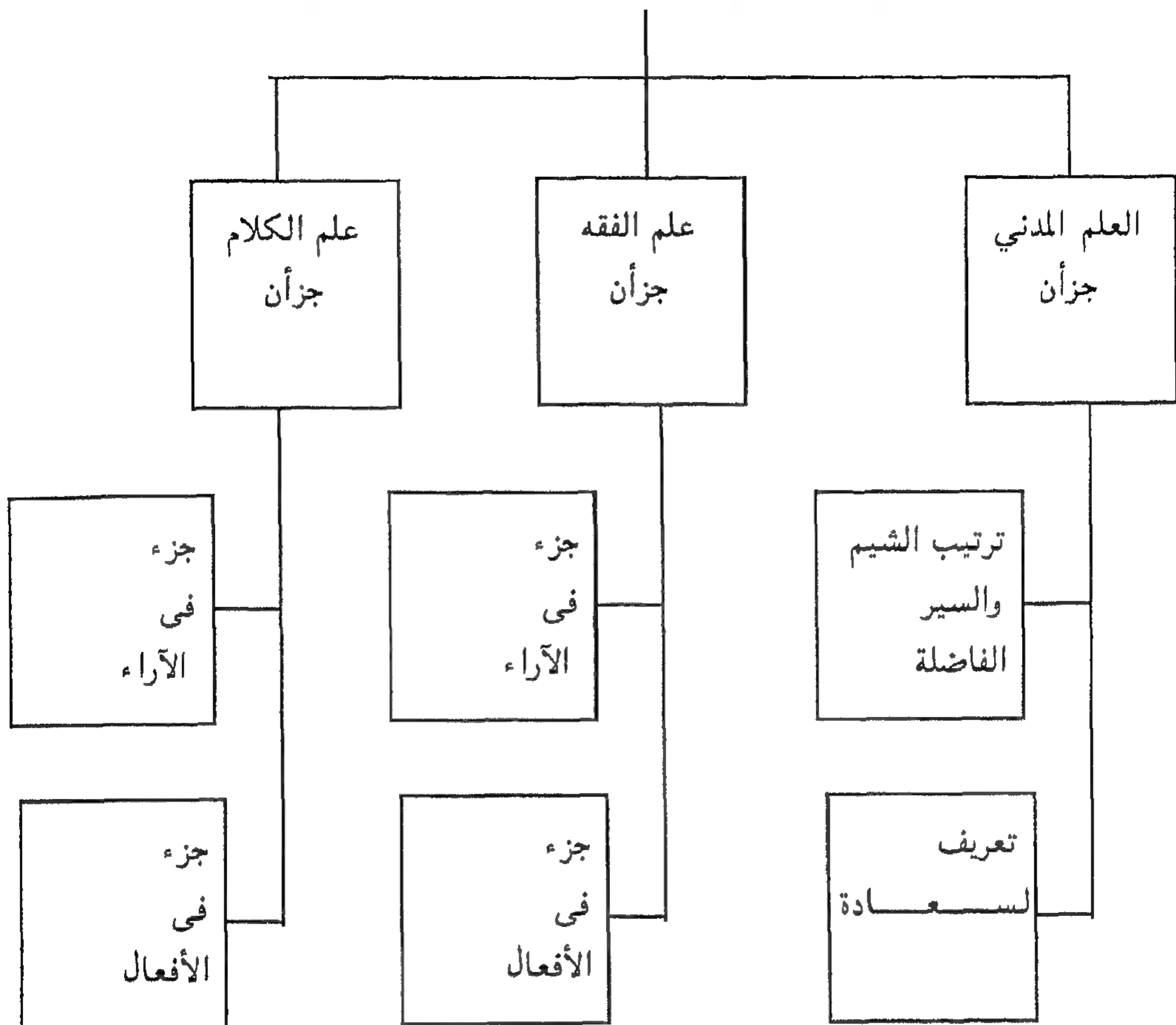
ثالثًا : أقسام علوم التعاليم (الرياضيات)



رابعاً : أقسام العلم الطبيعي والعلم الآلهي



خامساً : فى أقسام العلم المدنى و علم الفقه و علم الكلام



والمحاولة الثانية التى نذكرها هى محاولة أبى عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى الكاتب (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م) وكتابه يسمى « مفاتيح العلوم » ، وعن دوافع تأليفه لهذا الكتاب يذكر الخوارزمى « ... دعتنى نفسى إلى تصنيف كتاب باسمه النباه - أى الشيخ أبى الحسن عبيد الله بن أحمد العتبي وزير نوح بن منصور الساماني - أعلاه الله يكون جامعاً لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات مضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من المواصفات والاصطلاحات التى خلت منها أو من جلها الكتب المحاصرة ...

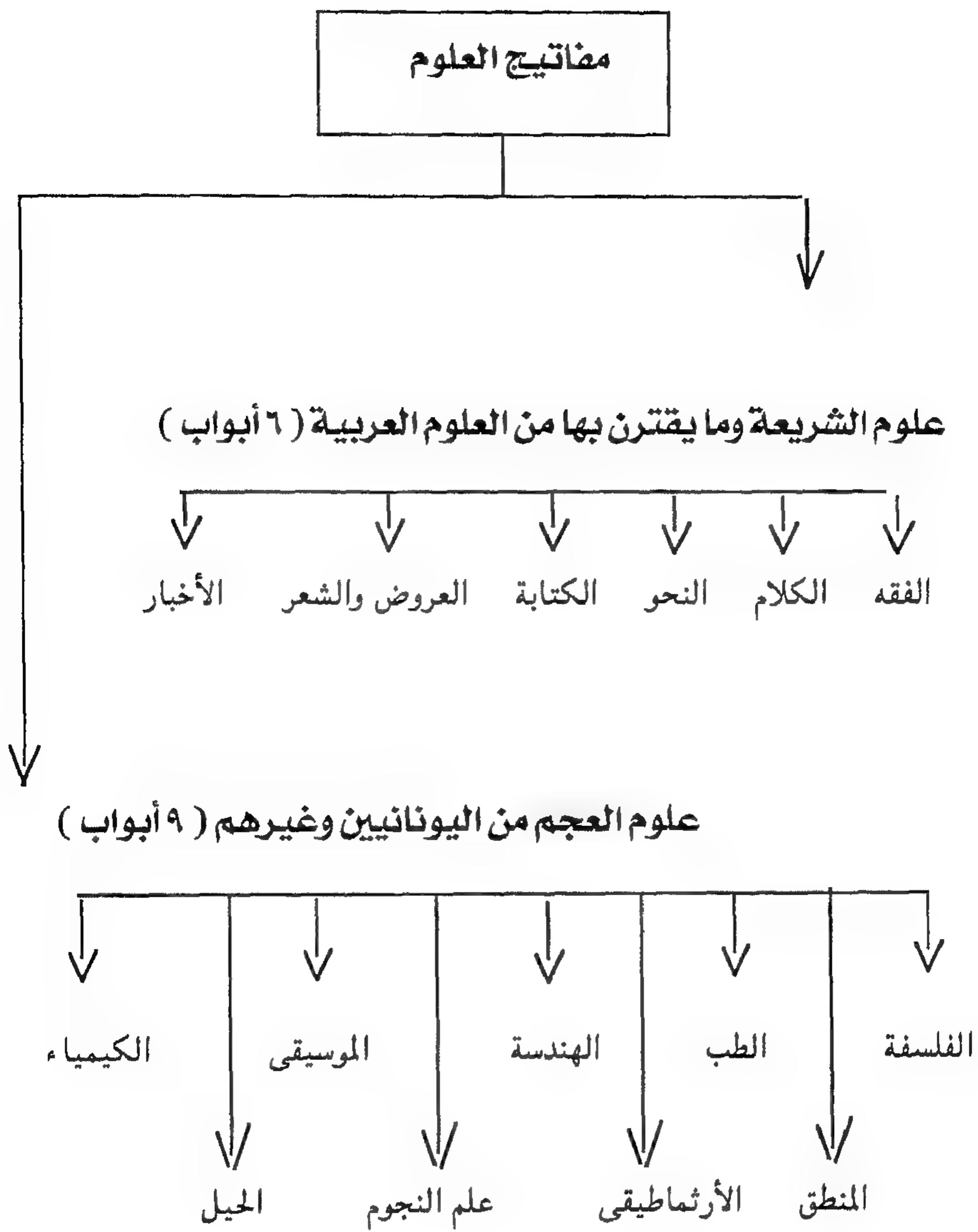
وقد جمعت فى هذا الكتاب أكثر ما يحتاج إليه من هذا النوع متحريراً للإيجاز والاختصار ومتوقياً للتطويل والاكثار والغيت ذكر المشهور والمتعارف بين الجمهور ... وسميت هذا الكتاب مفاتيح العلوم إذ كان مدخلاً إليها ومفتاحاً لأكثرها فمن قرأه وحفظ ما فيه ونظر فى كتب الحكمة هذا وأحاط بها علماً وإن لم يكن زاولها ولا جالس أهلها ... » (٤٢).

ويرى البعض أن كتاب مفاتيح العلوم يعد موسوعة مختصرة للعلوم كما فعل بروكلمان فى تاريخه ؛ بينما يرى آخرون أنه يعد من بين المعاجم المتخصصة لأن الخوارزمى اقتصر فيه على احصاء المصطلحات وتعريفها وهذا هو أساس المعجم المتخصص ، ولعل الذى مال ببعضهم إلى أنه موسوعة أنه يتوسع أحياناً ببعض المعارف الخاصة ببعض المصطلحات ، بيد أن عنايته بالتأصيل اللغوى للمصطلحات عربية أو معربة وبيان حدودها يجعله أقرب إلى المعجم المتخصص ، وعلى ذلك فهذا الكتاب هو من قبيل المعجم المتخصص بمصطلحات العلوم وحدودها وتبلغ مصطلحاته فى نشرة المستشرق فان فلوتن ٢٣٨٢ مصطلحاً موزعة فى مقالتين : الأولى فى العلوم الشرعية وما يقترب بها من العلوم العربية وفيها ستة أبواب تتفرع إلى اثنين وخمسين فصلاً والثانية : فى علوم العجم اليونانيين وغيرهم من الأمم ، وفيها خمسة عشر باباً تتفرع إلى ثلاثة وتسعين فصلاً (٤٣).

(٤٢) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، تحقيق فان فلوتن ، ط ٢ ، (قدم هذه الطبعة محمد حسن عبد العزيز) ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، ص ٢ - ٥ .

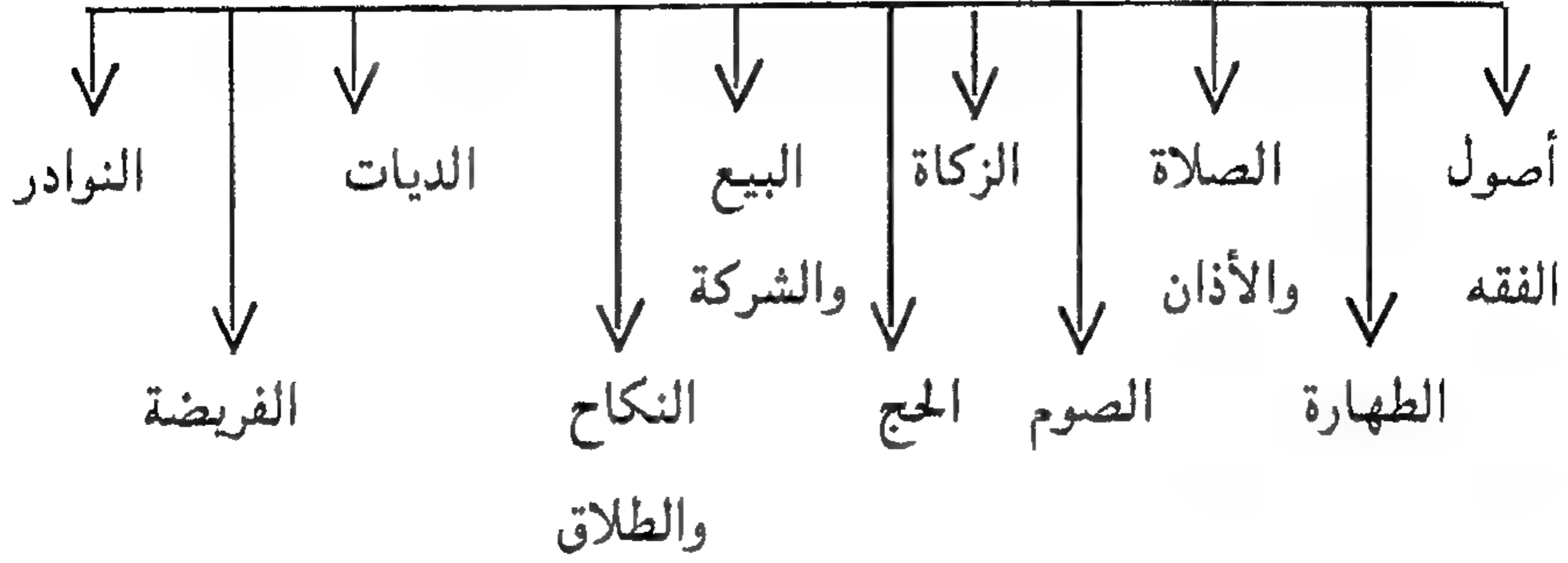
(٤٣) عبد العزيز ، محمد حسن ، مقدمة الطبعة الثانية لكتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي ، ص ٣٧ - ٤٤ .

وهذا مخطط لأبواب الكتاب وفصوله وعنوان ما بها من مصطلحات

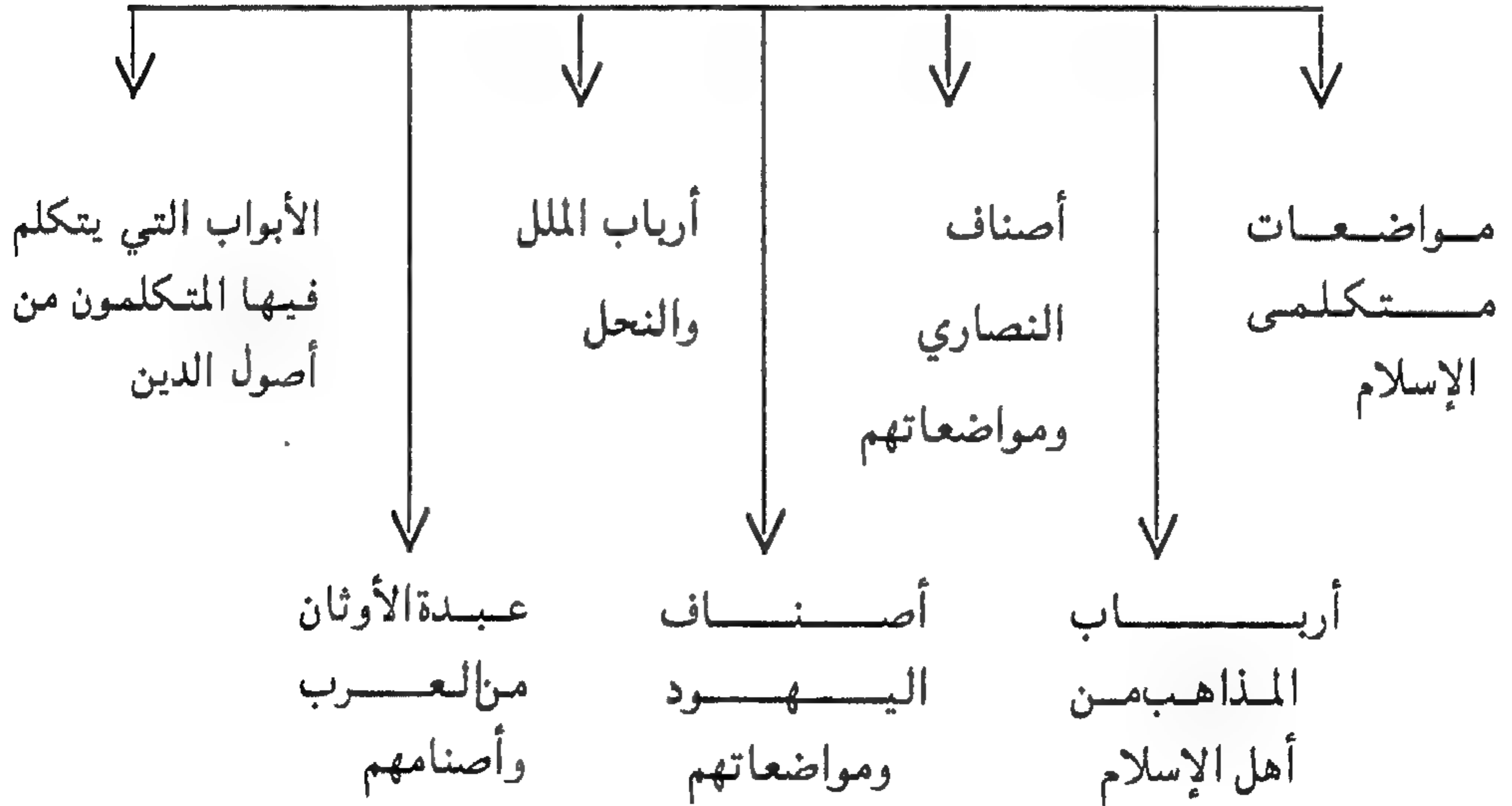


علوم الشريعة وما يقتدرن بها

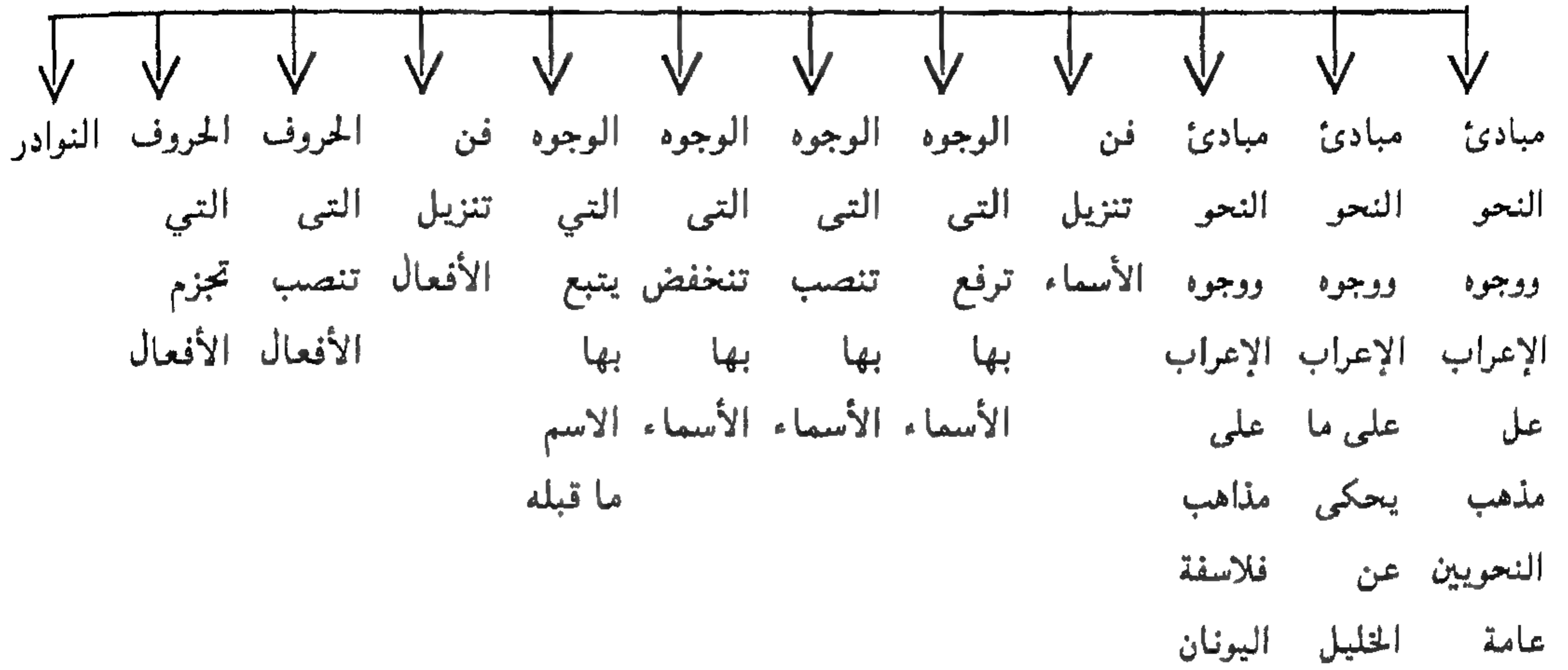
الباب الأول : الفقه ويضم الفصول الآتية (١١ فصلاً) :



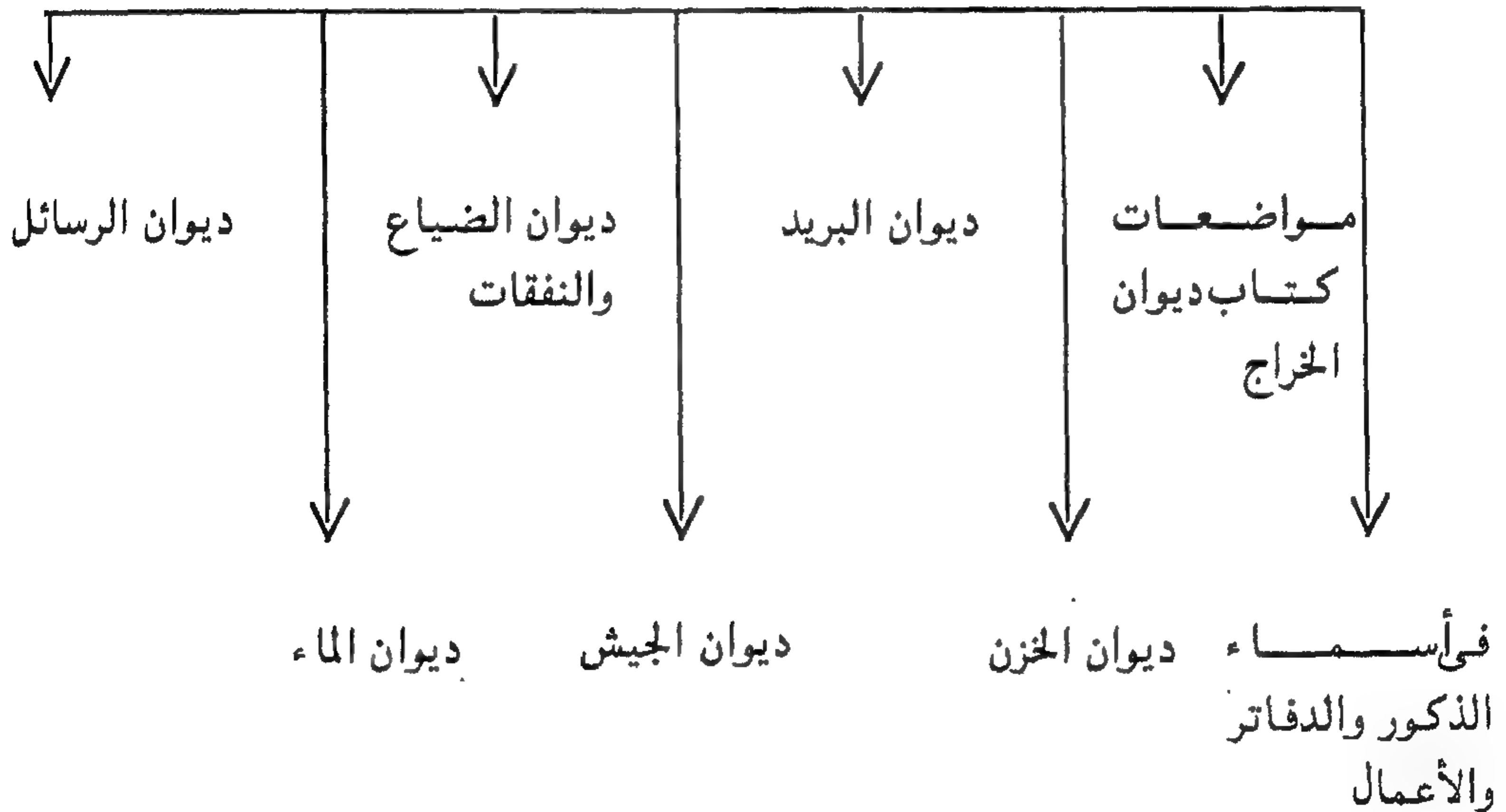
الباب الثاني : الكلام ويضم الفصول الآتية (٧ فصول) :



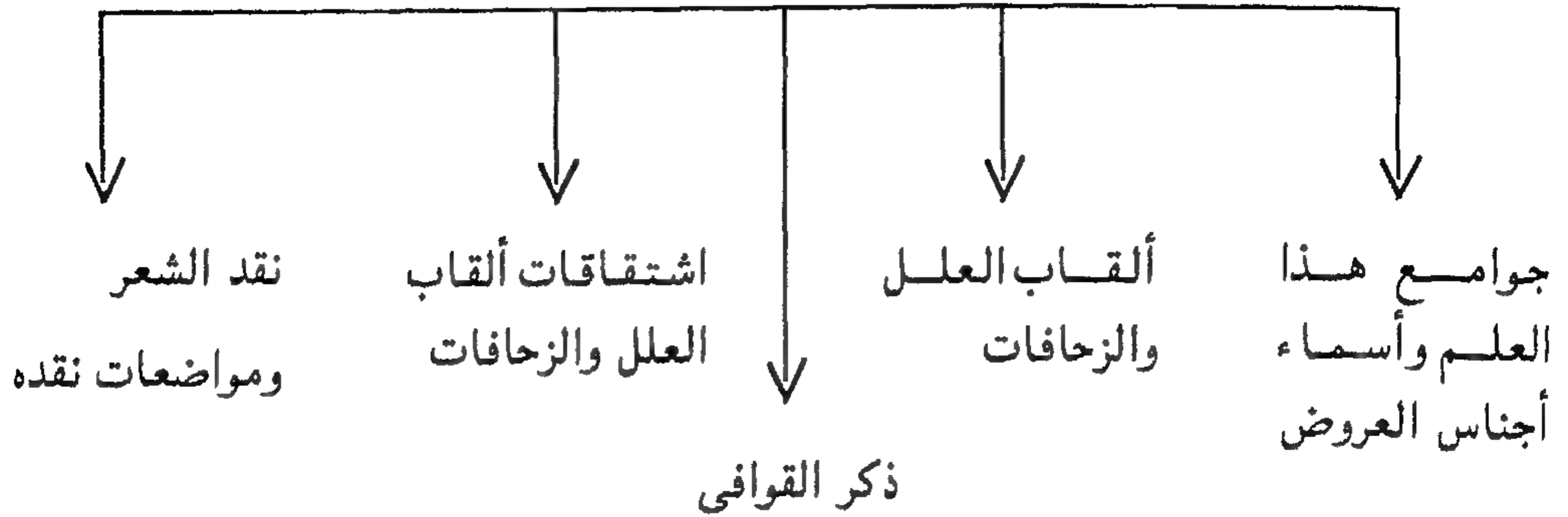
الباب الثالث : النحو ، ويضم الفصول الآتية (١٢ فصلاً) :



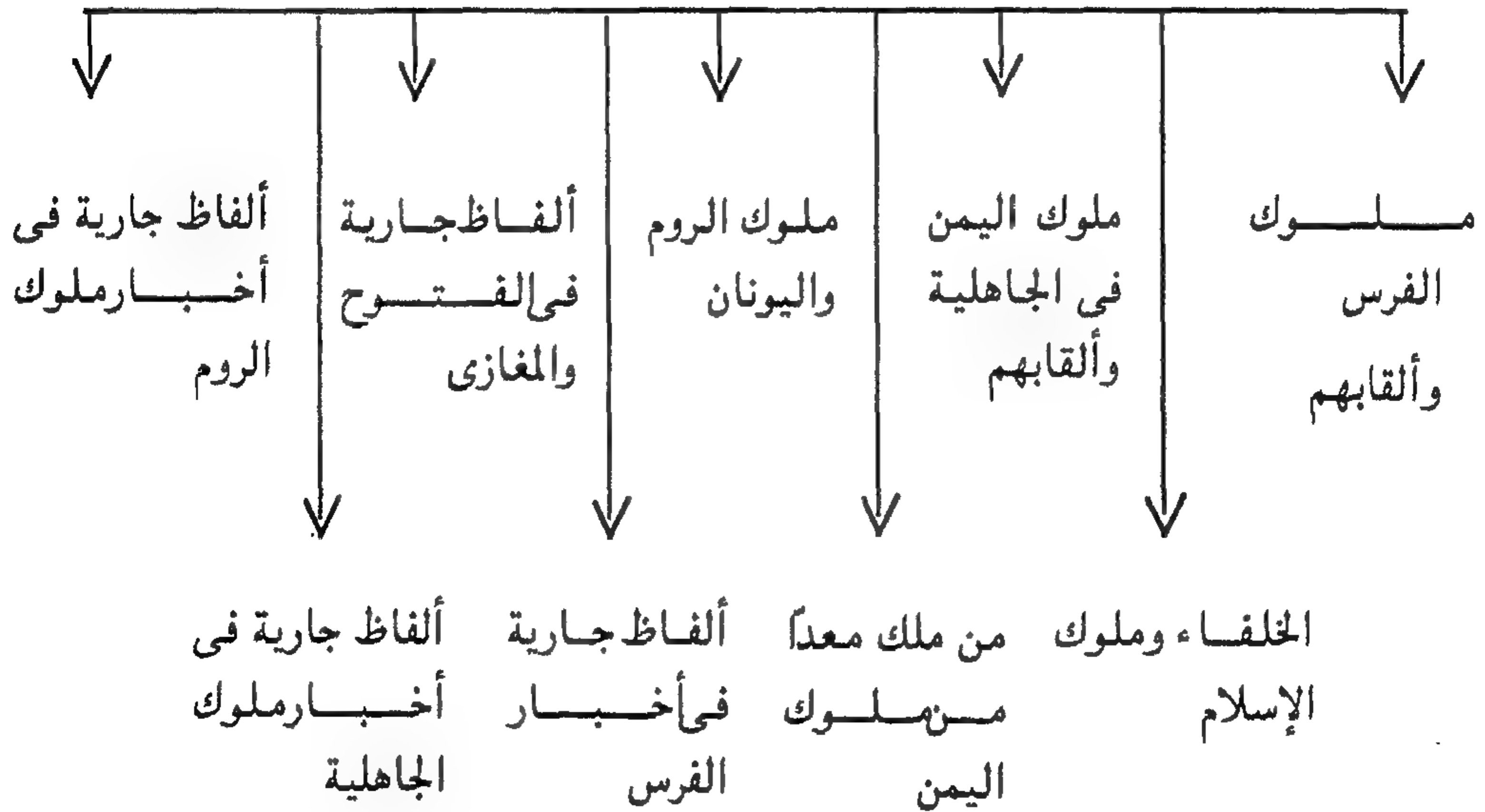
الباب الرابع : الكتابة ، ويضم الفصول الآتية (٨ فصول)



الباب الخامس : الشعر والعروض ، ويضم الفصول الآتية (٥ فصول)

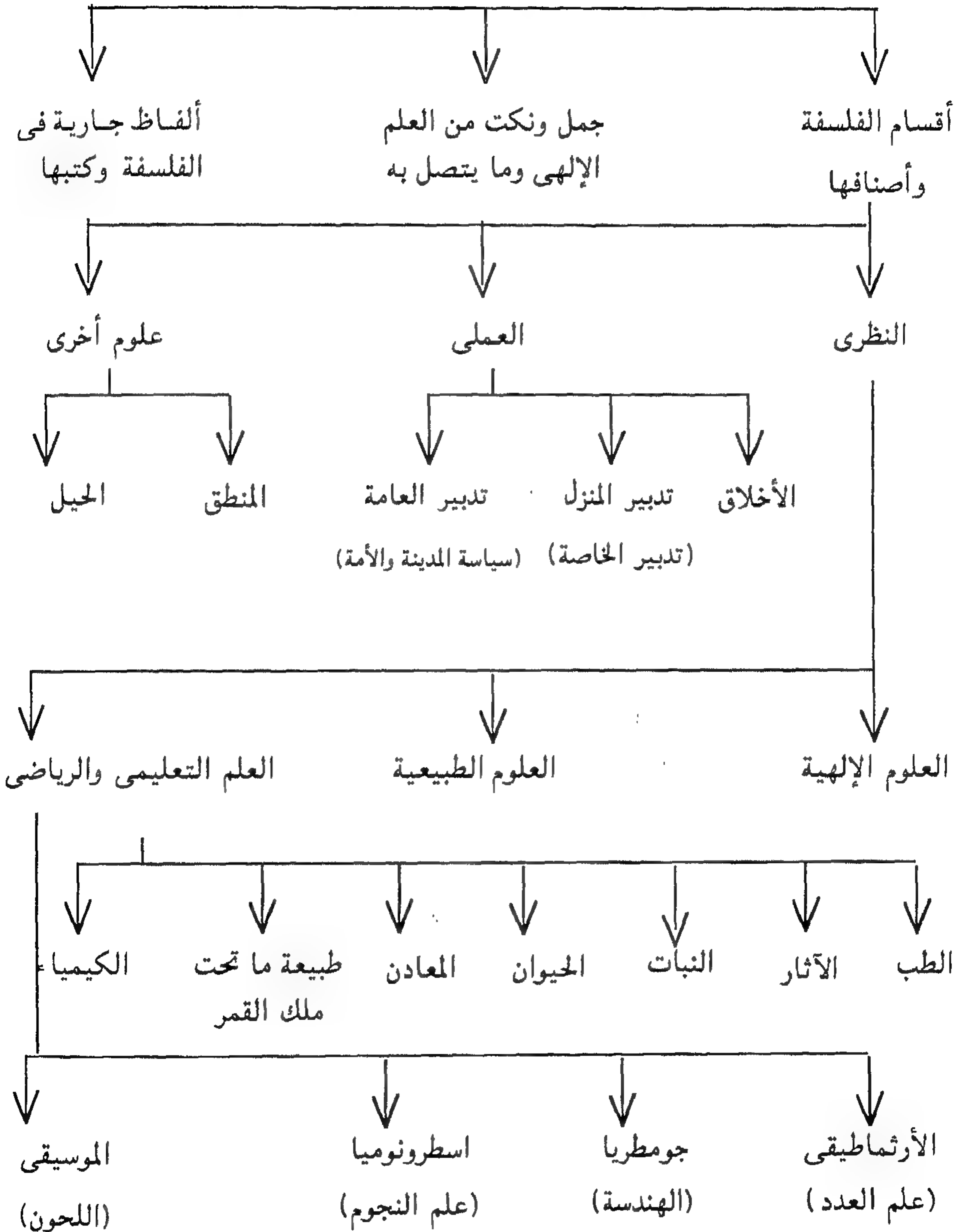


الباب السادس : الأخبار ، ويضم الفصول الآتية (٩ فصول)

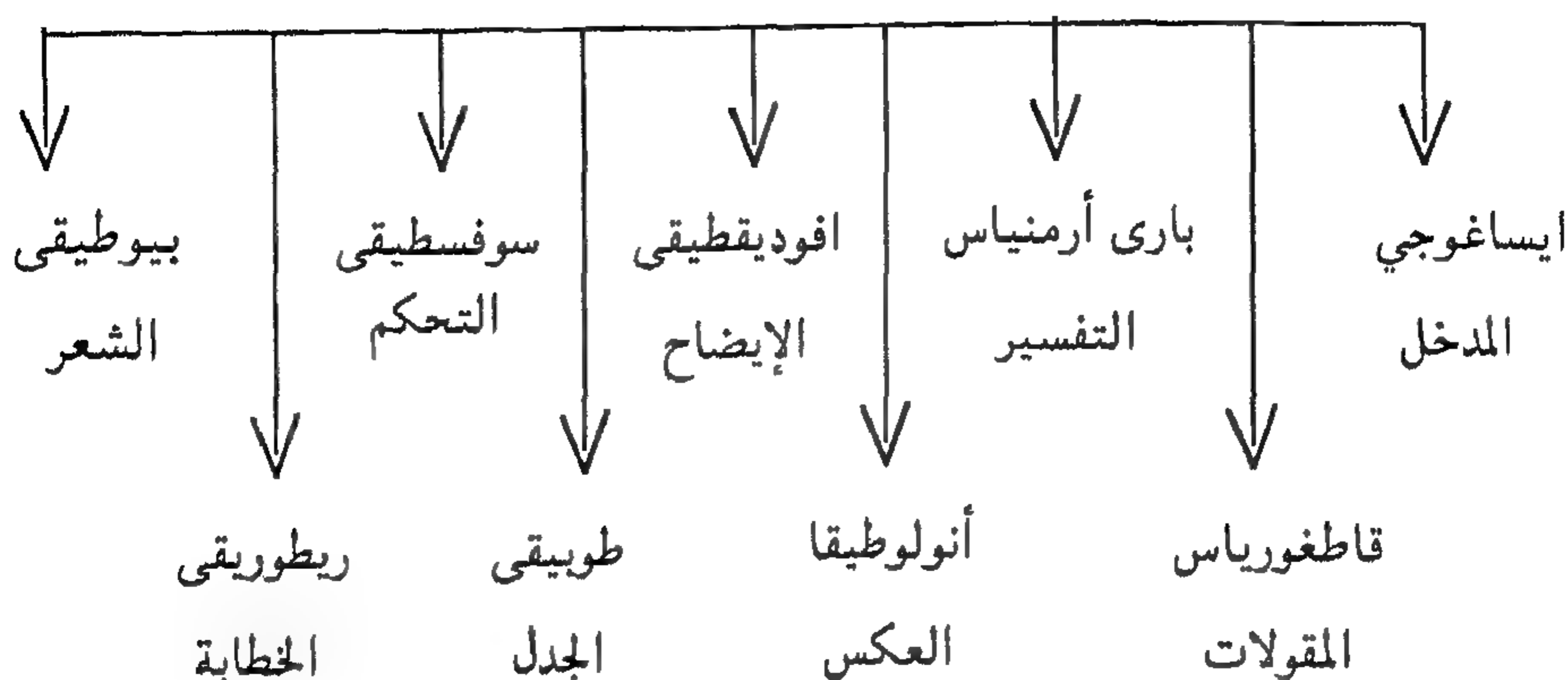


علوم العجم واليونانيين وغيرهم

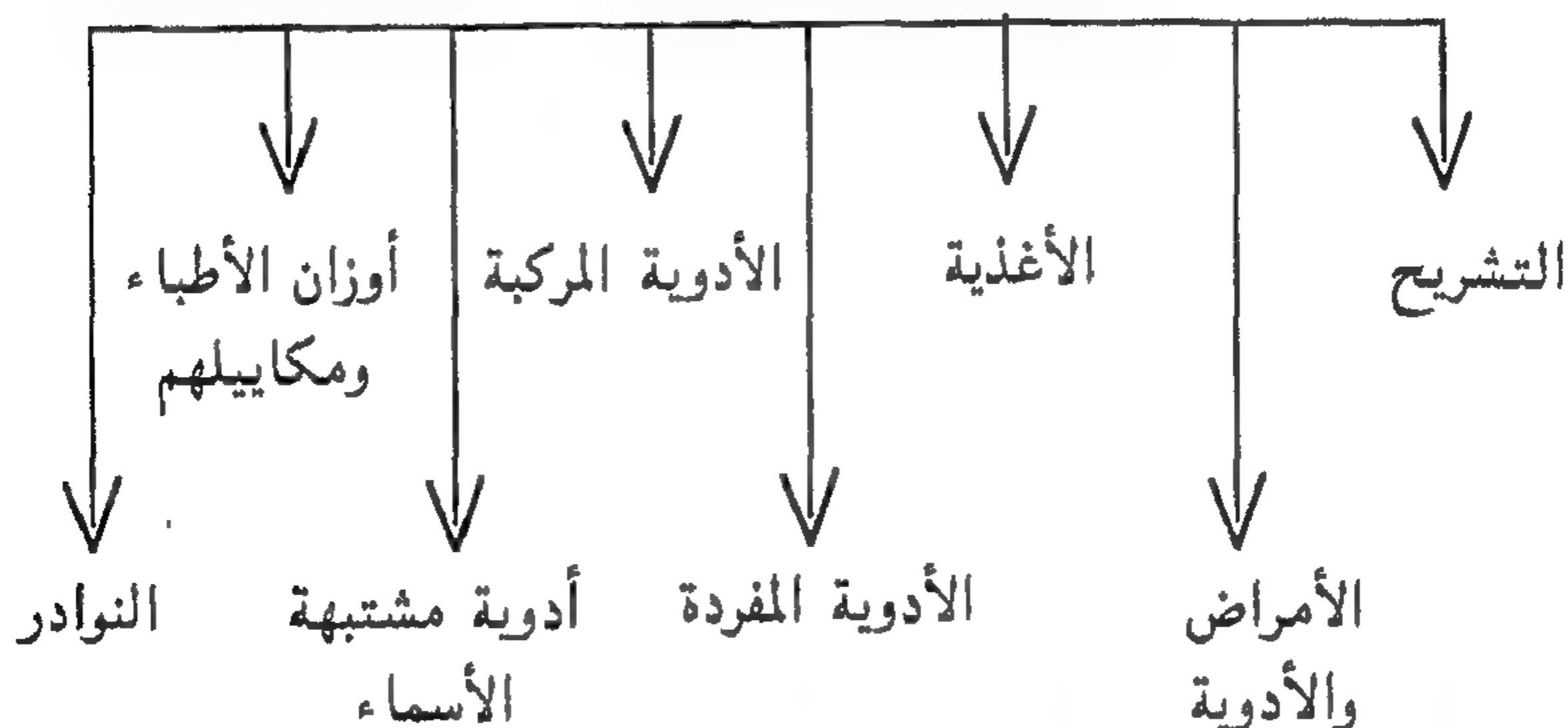
الباب الأول : الفلسفة ويضم الفصول الآتية (٣ فصول)



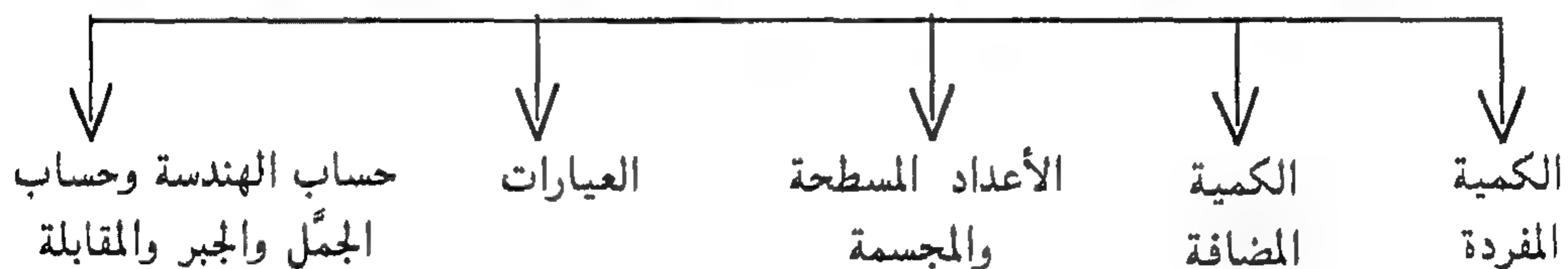
الباب الثاني : المنطق ، ويضم الفصول الآتية (٩ فصول)



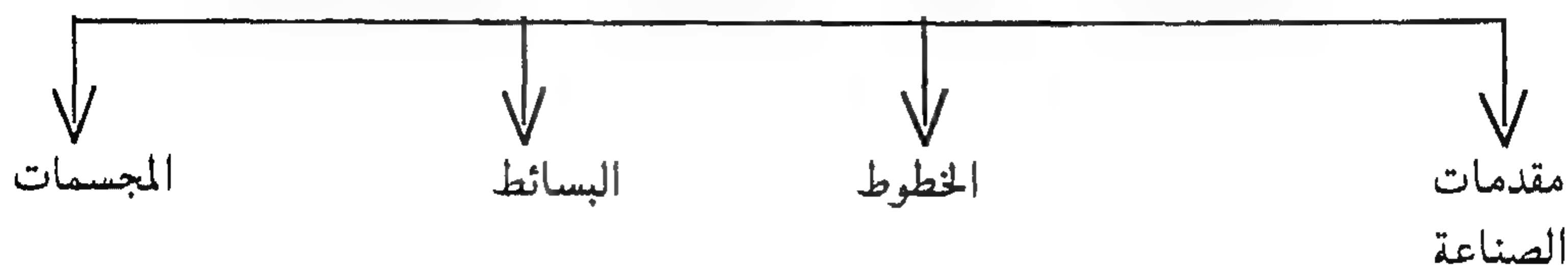
الباب الثالث : الطب ، ويضم الفصول الآتية (٨ فصول)



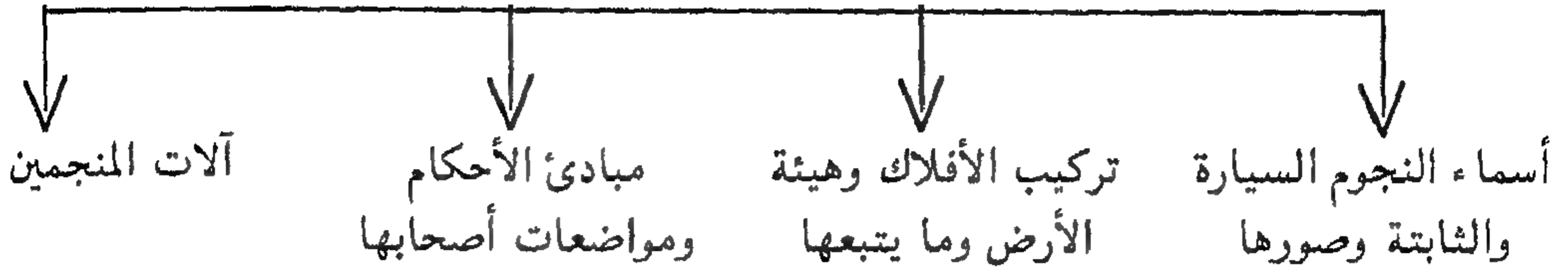
الباب الرابع : الأرثماطيقى (علم العدد) ويضم الفصول الآتية (٥ فصول)



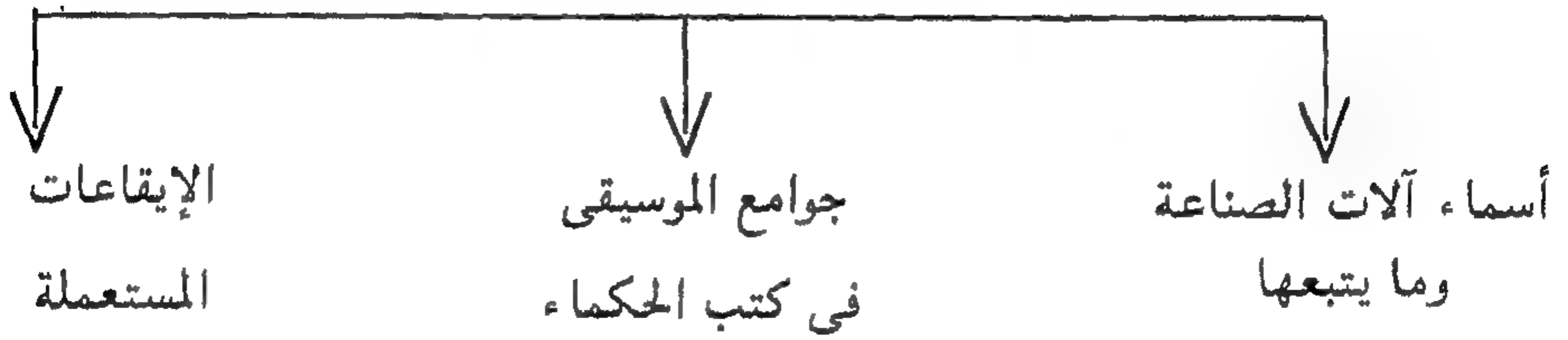
الباب الخامس : الهندسة ، ويضم الفصول الآتية (٤ فصول)



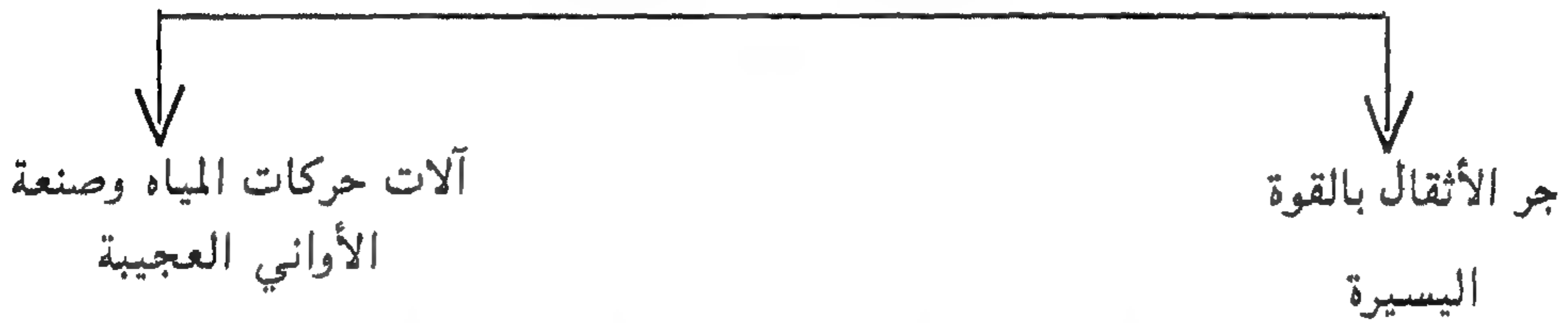
الباب السادس : علم النجوم ، ويضم الفصول الآتية (٤ فصول)



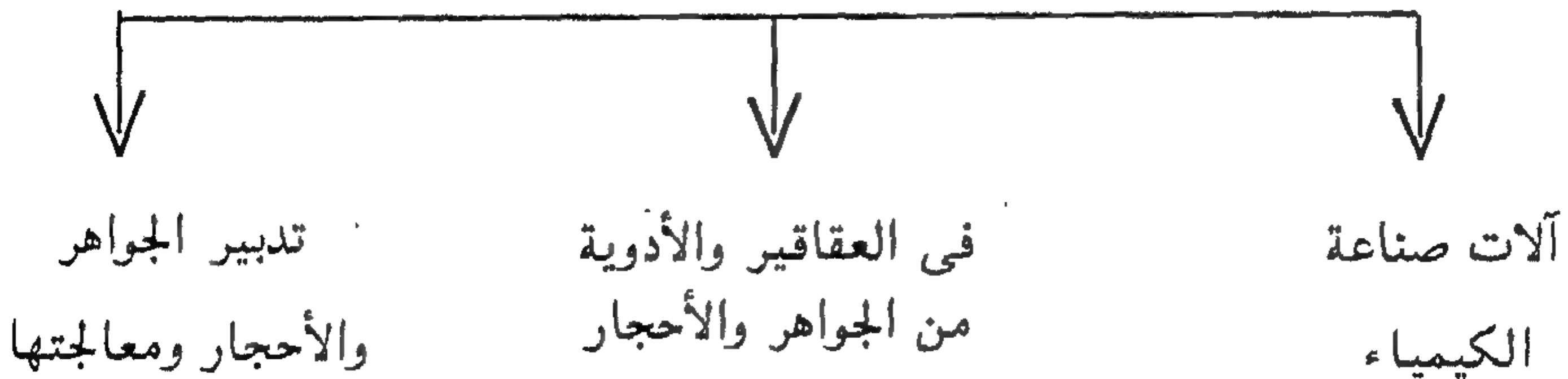
الباب السابع : الموسيقى ، ويضم الفصول الآتية (٣ فصول)



الباب الثامن : الحيل ، ويضم الفصلين الآتيين



الباب التاسع : الكيمياء ، ويضم الفصول الآتية (٣ فصول)



وفى المقابلة بين كتاب الخوارزمى والفارابى نلاحظ :

١ - لم يذكر الفارابى من بين العلوم التى أحصاها علم الطب والكيمياء على حين جعلهما الخوارزمى من العلوم الطبيعية .

٢ - لم يفرق الفارابى بين ما سماه الخوارزمى علوم الشريعة وما يقترن بها من العلوم العربية وعلوم العجم من اليونانيين وغيرهم ، ومع ذلك فقد جعل الفقه وعلم الكلام ، وهما من علوم الشريعة علمين مفردين من بين العلوم الثمانية التى أحصاها .

أما ما ذكره عن علم اللسان وهو ما يمكن أن يقابل علم النحو عند الخوارزمى فيعنى به موضوعاً أوسع من موضوع النحو الذى قصره الخوارزمى على الإعراب .

والفارابى يقصد بعلم اللسان ضربين : أحدهما : حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما ، وعلم ما يدل عليه كل لفظ منها ، والثانى علم قوانين تلك الألفاظ ، وهى نظرة أعم وأوسع من نظرة الخوارزمى وأقرب أن تكون شاملة لكل اللغات الإنسانية .

٣ - الكتابة عند الفارابى مختلفة تماماً عما يعنيه الخوارزمى ، فهى عند الفارابى جزء من علم اللسان يعنى بها قواعد الإملاء . وهى عند الخوارزمى علم مستقل يدور حول إدارة الدواوين والمواضع المتداولة بين الكُتاب .

٤ - علم الأثقال وعلم الحيل علمان عند الفارابى من علوم التعليم ، وعلم واحد عند الخوارزمى .

٥ - من علوم التعاليم عند الفارابى علم الهندسة وعلم المناظر ، وإن كان الثانى يدخل فى موضوع الأول . وهما علم واحد عند الخوارزمى .

٦ - علوم المنطق عند الفارابى ثمانية - على ما يقتضيه المنقول عن أرسطو فيما يسمى (الأورجانون) . وقد أضاف إليها الخوارزمى (ايساغوجى) وهو لفرغوريوس الصورى الذى جعله مدخلا ضرورياً للمنطق الأرسطى .

٧ - لم يذكر الفارابى من بين العلوم علم الأخبار أو التاريخ على حين عده الخوارزمى من بين علوم الشريعة .

ونستخلص مما سبق :

ان إحصاء العلوم يعكس رؤية أرسطو فى المقام الأول . فالعلوم الطبيعية ، وهى

ثمانية أجزاء تبحث كلها فى كتب أرسطو عن : السماع الطبيعى ، والسماء والعالم ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، وكتاب النبات ، وكتاب الحيوان ، وكتاب النفس .

كما أن أبواب المنطق الثمانية هى بعينها تجئ وفقاً لأورجانون أرسطو أو قانونه الذى يتألف من ثمانية أبواب .

ويشير الفارابى إلى أنه يتابع أرسطو - فيما يتصل بالعلم الالهى أو الميتافيزيقا - فى كتابه المسمى (ما بعد الطبيعة) .

أما ما ذكره عن العلم المدنى فيعترف أنه تابع فيه آراء أفلاطون فى كتاب (الجمهورية) وآراء أرسطو فى كتاب السياسة .

وأعتقد أن تقسيم الخوارزمى للعلوم لا يعكس موقفاً فلسفياً محدداً فلم يكن فيلسوفاً له نظرية فى الاحصاء ، بل يسجل ما يشيع فى عصره بين العلماء والفلاسفة بغض النظر عن موقف فلسفى محدد^(٤٤) .

والمحاولة الثالثة التى نذكرها هى محاولة محمد بن إسحق النديم الكاتب (المتوفى عام ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) وكتابته يسمى « الفهرست » ويذكر النديم فى مقدمته أن هذا الكتاب هو « فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم وأخبار مصنفها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومشالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلثمائة للهجرة / ٩٨٧م »^(٤٥) .

ويبدو أن ما ذكره فى كتابه من الأغراض أقل مما كان لديه ، إذ رأى - أى النديم - ألا يطول على قارئه فى العبارة ويصل إلى النتائج دون المقدمات حيث يقول « النفوس تشرئب إلى النتائج دون المقدمات وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات »^(٤٦) .

(٤٤) عبد العزيز ، مقدمة الطبعة الثانية لكتاب مفاتيح العلوم ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٤٥) النديم ، الفهرست ، ص ٧ .

(٤٦) النديم ، الفهرست ، ص ٧ .

وهذه المقابلة بين أصناف العلوم عنده موزعة على مقالات كتابه وفنون (فصول) كل باب وذلك على النحو التالي :

المقالة الأولى : وهى ثلاثة فنون :

الضن الأول : فى وصف لغات الأمم من العرب والعجم ، ونعوت أقلامها ، وأنواع خطوطها ، وأشكال كتاباتها .

الضن الثانى : فى أسماء كتب الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين ومذاهب أهلها .

الضن الثالث : فى نعت الكتاب الذى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٤٧) ، وأسماء الكتب المصنفة فى علومه ، وأخبار القراء ، وأسماء رواتهم ، والشواذ من قرأتهم .

المقالة الثانية : وهى ثلاثة فنون فى النحويين واللغويين :

الضن الأول : فى ابتداء النحو وأخبار النحويين البصريين ، وفصحاء الأعراب وأسماء كتبهم .

الضن الثانى : فى أخبار النحويين واللغويين من الكوفيين ، وأسماء كتبهم .

الضن الثالث : فى ذكر قوم من النحويين خلطوا المذهبين وأسماء كتبهم .

المقالة الثالثة : وهى ثلاثة فنون فى الأخبار والآداب والسير والأنساب :

الضن الأول : فى أخبار الأخباريين والرواة والنسابين وأصحاب السير والأحداث وأسماء كتبهم .

الضن الثانى : فى أخبار الملوك والكتاب ، والمترسلين ، وعمال الخراج وأصحاب الدواوين وأسماء كتبهم .

(٤٧) سورة فصلت الآية ٤٢ .

الضن الثالث : فى أخبار الندماء والجلساء ، والمغنيين ، والصفادمة ، والصفاعنة ، والمضحكين وأسماء كتبهم .

المقالة الرابعة : وهى فنان فى الشعر والشعراء :

الضن الأول : فى طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ممن لحق الجاهلية ، وصناع دواوينهم وأسماء رواتهم .

الضن الثانى : فى طبقات شعراء الإسلاميين وشعراء المحدثين إلى عصرنا هذا .

المقالة الخامسة : وهى خمسة فنون فى الكلام والمتكلمين :

الضن الأول : فى ابتداء أمر الكلام والمتكلمين من المعتزلة والمرجئة ، وأسماء كتبهم .

الضن الثانى : فى أخبار متكلمى الشيعة والإمامية ، والزيدية ، وغيرهم من الغلاة والإسماعيلية وأسماء كتبهم .

الضن الثالث : فى أخبار متكلمى المجبرة والحشوية ، وأسماء كتبهم .

الضن الرابع : فى أخبار متكلمى الخوارج وأصنافهم ، وأسماء كتبهم .

الضن الخامس : فى أخبار السباح والزهاد والعباد والمتصوفة والمتكلمين على الوسوس والخطرات وأسماء كتبهم .

المقالة السادسة : وهى ثمانية فنون فى الفقه والفقهاء والمحدثين :

الضن الأول : فى أخبار مالك وأصحابه وأسماء كتبهم .

الضن الثانى : فى أخبار أبى حنيفة النعمان وأسماء كتبهم .

الضن الثالث : فى أخبار الإمام الشافعى وأصحابه وأسماء كتبهم .

الضن الرابع : فى أخبار داود وأصحابه وأسماء كتبهم .

الضن الخامس : فى أخبار فقهاء الشيعة وأسماء كتبهم .

الضن السادس : فى أخبار فقهاء أصحاب الحديث والمحدثين وأسماء كتبهم .

الضن السابع : فى أخبار أبى جعفر الطبرى وأصحابه وأسماء كتبهم .

الضن الثامن : فى أخبار فقهاء الشراة وأسماء كتبهم .

المقالة السابعة : وهى ثلاثة فنون فى الفلسفة والعلوم القديمة :

الضن الأول : فى أخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين وأسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجود منها وما ذكر ولم يوجد وما وجد ثم عدم .

الضن الثانى : فى أخبار أصحاب التعاليم والمهندسين والأرثماطيقين والموسيقين والحساب والمنجمين وصناع الآلات وأصحاب الحيل والحركات .

الضن الثالث : فى ابتداء الطب وأخبار المتطبين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ونقولها وتفاسيرها .

المقالة الثامنة : وهى ثلاثة فنون : فى الأسماء والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة :

الضن الأول : فى أخبار المسامرين والمخرفين والمصورين وأسماء الكتب المصنفة فى الأسماء والخرافات .

الضن الثانى : فى أخبار المعزمين والمشعبذين والسحرة وأسماء كتبهم .

الضن الثالث : فى الكتب المصنفة فى معانى شتى لا يعرف مصنفوها ولا مؤلفوها .

المقالة التاسعة : وهى فنون فى المذاهب والاعتقادات .

الضن الأول : فى وصف مذاهب الحرائية الكلدانيين المعروفين فى عصرنا بالصابئة ومذاهب الثنوية من المانية والديصانية والخرمية والمرقيونية والمزدكية وغيرهم وأسماء كتبهم .

الضن الثانى : فى وصف المذاهب الغربية الطريقة كمذاهب الهند والصين وغيرهم من أجناس الأمم .

المقالة العاشرة : تحتوى على أخبار الكيمياء والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم .

المقابلة بين العلوم المصنفة عند الخوارزمي والنديم

النديم

المقالة السادسة " وهي ثمانية فنون
(فصول) في الفقه والفقهاء
والمحدثين .

المقالة الخامسة : في فنون الكلام
والمتكلمين .

الفن الثاني : في أسماء كتب
الشرائع المنزلة علي مذهب المسلمين
ومذاهب أهلها .

المقالة التاسعة : الفن الأول في
وصف مذاهب الحرانية الكلدانيين
المعروفين بالصابئة ، ومذاهب
الثنوية .

القن الثاني : في المذاهب
والاعتقادات .

المقالة الثانية : وهي ثلاثة فنون في
النحويين واللغويين .

المقالة الثالثة : وهي ثلاثة فنون في
الأخبار والسير والأنساب وفي أخبار
الملوك والكتّاب والمترسلين وعمال
الخراج وأصحاب الدواوين وأسماء
كتبهم ... إلخ .

المقالة الرابعة : وهي فنان في الشعر
والشعراء .

الخوارزمي

علوم الشريعة وما يقتدرن بها من
العلوم العربية ، وهي ستة أبواب :
الباب الأول : الفقه ويضم أحد عشر
فصلاً

الباب الثاني : الكلام ويضم سبعة
فصول .

الباب الثالث : النحو ويضم اثني
عشر فصلاً .

الباب الرابع : الكتابة ، ويضم
ثمانية فصول .

الباب السادس : الأخبار ويضم تسعة
فصول .

الباب الخامس : العروض والشعر ،
ويضم أربعة فصول .

علوم العجم من اليونانيين ، وهي
تسعة أبواب :

الباب الأول : الفلسفة ويضم ثلاثة
فصول .

الباب الثاني : المنطق ، ويضم تسعة
فصول .

الباب الثالث : الطب ويضم ثمانية
فصول

الباب الرابع : الأرثماطيقى (علم
العدد) ويضم خمسة فصول .

الباب الخامس : الهندسة ، ويضم
خمسة فصول .

الباب السادس : علم النجوم ، ويضم
ثلاثة فصول .

الباب السابع : الموسيقى ويضم ثلاثة
فصول .

الباب الثامن : الحيل ويضم فصلين .

الباب التاسع : الكيمياء ، ويضم
ثلاثة فصول .

المقالة السابعة : الفن الأول في أخبار
الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين
وأسماء كتبهم .. وترتيب كتب
أرسطو في المنطقيات والطبيعات
والإلهيات والخلقيات .

المقالة السابعة : الفن الثالث في
أخبار المتطبيين القدماء والمحدثين ،
وأسماء ما صنفوه من الكتب .

المقالة السابعة : الفن الثاني في
أخبار أصحاب التعاليم
والأرثماطيقىين والموسيقيين
والمنجمين وصناع الآلات ، وأصحاب
الحيل والحركات .

المقالة العاشرة : أخبار الكيميائيين
والصنعويين .

وفى المقابلة بين كتابى الخوارزمى والنديم نلاحظ :

١ - أن عدة العلوم فى الفهرست تكاد تطابق عدتها فى المفاتيح فيما عدا المقالة
الثامنة وموضوعها (فى الأسماء والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة) .
وما أظن هذا الموضوع معدوداً بين العلوم بالمعنى المتعارف عليه للعلم فضلاً
أن يكون له مصطلحات وحدود .

٢ - المقالة الأولى فى الفهرست فى وصف لغات الأمم ومن العرب والعجم ونعوت

أقلامها وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها ، وفى أسماء كتب الشرائع المنزلة ، وفى نعت القرآن الكريم وأسماء الكتب الخاصة فى علومه . لا نظير له أيضاً فى كتاب الخوارزمى ، ومع ذلك فمن اليسير إلحاق موضوعها بموضوعات المقالة الأولى عند الخوارزمى الخاصة بعلوم الشريعة وما يقترن بها من علوم العربية .

٣ . النديم كاتب الخوارزمى يسجل فحسب ما هو متداول بين القراء من مصنفات العلوم وما هو فى دكاكين الوراقين وخزائن الكتب . وليس فيلسوفاً كالفارابى له نظرية فى تقسيم العلوم وبيان موضوعاتها (٤٨).

وبعد فإن المؤلفون الثلاثة يكاد يجتمعون على أنهم وضعوا كتبهم للأديب والكاتب وطالب العلم الناشئ (انظر مقدمة إحصاء العلوم ص ٤٣ ، ٤٤ ومقدمة مفاتيح العلوم ص ١ - ٥ ومقدمة الفهرست ص ٧) .

فإذا ما نظرنا فى هذه الكتب وجدنا أنها تكاد تتفق أيضاً على عدة العلوم التى تحدثوا عنها وعلى ما يتضمنه كل علم منها من موضوعات .

والكتب الثلاثة - مع اتفاقها فى عد العلوم - تختلف فى الغرض من عدها .

فالفارابى يحصى العلوم ، ويحدد موضوع كل علم والغاية من تعلمه . والخوارزمى يحصى العلوم ويحدد مصطلحاتها ، ويبين حدود كل مصطلح منها .

والنديم يحصى العلوم ويبين ما ترجم منها وما ألف ، ويتحدث عن أخبار مصنفها وطبقاتهم وأنسابهم ، وتاريخ مواليدهم ، ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم ، وأماكن بلادهم ، ومناقبهم .

وهكذا تتكامل الكتب الثلاثة لتقدم للأديب والكاتب وطالب العلم ما يحتاج إليه من العلوم وموضوعاتها ، وبمصطلحاتها وحدودها وبالمؤلفين ومؤلفاتهم (٤٩).

والمحاولة الرابعة والأخيرة التى نذكرها فى هذا الكتاب المجمل هى محاولة محمد بن إبراهيم بن ساعد شمس الدين الأنصارى المعروف بابن الأكفانى (المتوفى ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) وكتابه يسمى « ارشاد القاصد إلى أسنى المقاصد فى أنواع العلوم » ، ويحدد ابن الأكفانى فى مقدمة كتابه أن الغرض من تصنيفه هو « فان بنا حاجة إلى

(٤٨) عبد العزيز ، مقدمة الطبعة الثانية لكتاب مفاتيح العلوم ، ص ٦٣ - ٦٦ .

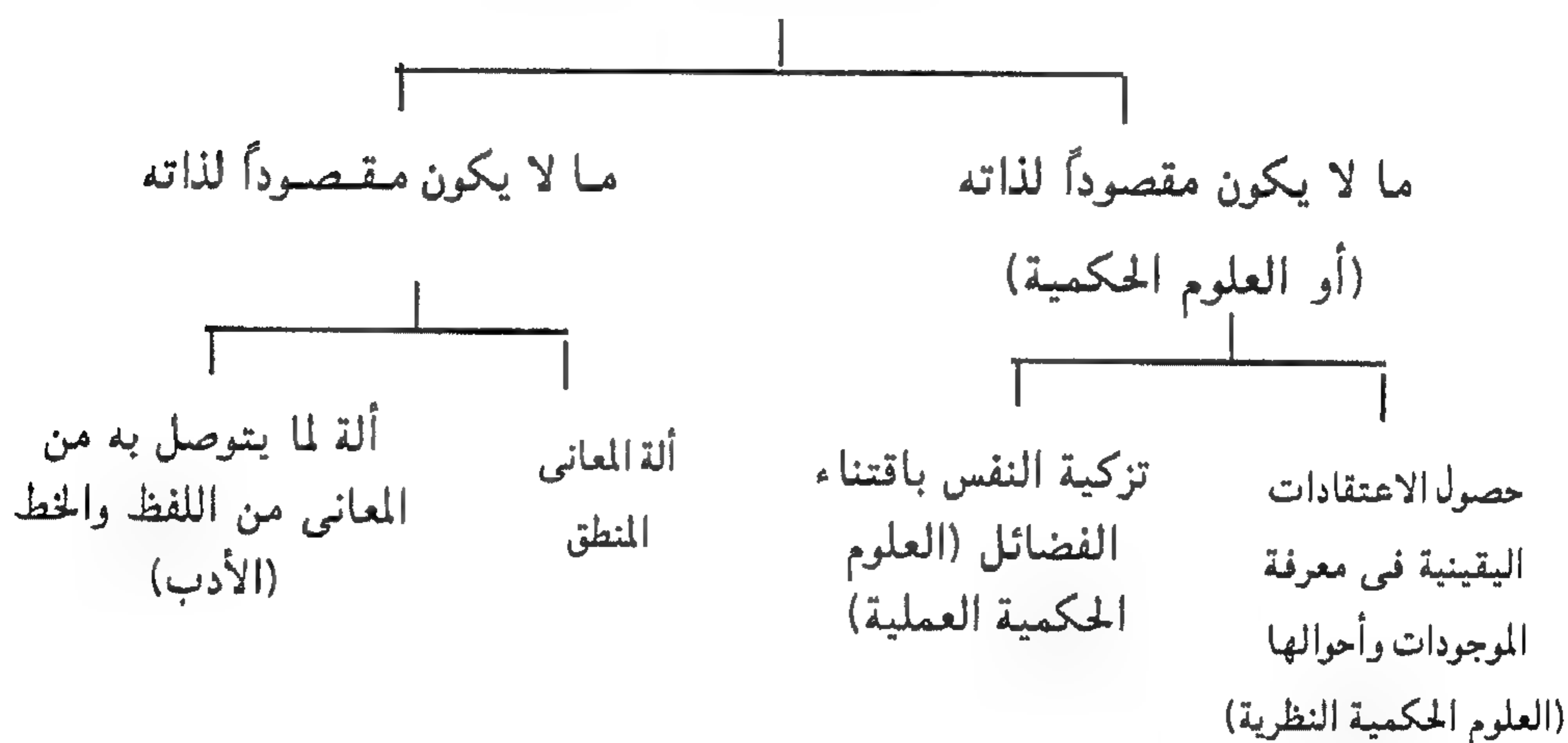
(٤٩) عبد العزيز ، مقدمة الطبعة الثانية لكتاب مفاتيح العلوم ، ص ٥٥ - ٥٦ .

تكميل نفوسنا البشرية فى قواها النظرية والعملية إذ كان ذلك هو الوسيلة إلى السعادة الأبدية ، ولما كان هذا انما يتم بالعلم بحقائق الأشياء على ما هى عليه ليعتقد الحق ويفعل الخير وجب علينا أن نعلم العلم المتكفل بتحقيق الحقائق وما هو إليه كالوسائل وما يشتمل على بيان ما يجب أن يقصد من الفضائل ويجتنب من الرزائل»^(٥٠).

ومن أهداف تصنيفه التى بيّنها أيضاً « أن يُعلم حال كل من العلوم فى نفسه ومرتبته بالنسبة إلى غيره من العلوم ، وحال العالم به ، وهل يستفاد به كمال نافع فى المعاد أو أدب يفيد فى المعاش أو غير ذلك ... وأن يُقايَس بين العلوم فيعلم أيها أفضل وأشرف ، وأيها أتقن وأوثق ، وأيها أوهن وأوهى .. ومعرفة حال من يدعى علما من العلوم وكشف دعواه ، وهل يخبر خبراً تفصيلياً عن موضوع ذلك العلم وغايته ، ومبادئه ومسائله ومرتبته فى العلوم فيُحسَّن الظن به فيما ادعاه »^(٥١)، وذلك على نحو يذكّرنا بما ذهب إليه الفارابى من قبل .

ويمكن أن نوضح ما ذهب إليه ابن الأكفانى من تقسيم للعلوم على النحو التالى^(٥٢):

أولاً : تقسيم اجمالى للعلوم



(٥٠) ابن الأكفانى ، ارشاد القاصد ، تحقيق عبد المنعم محمد عمر ، مراجعة أحمد حلمى عبد الرحمن ،

القاهرة (١٩٩٠م) ، ص ٩١ ؛ عبد الغنى ، دراسات ، ص ٨٣ - ٨٤ .

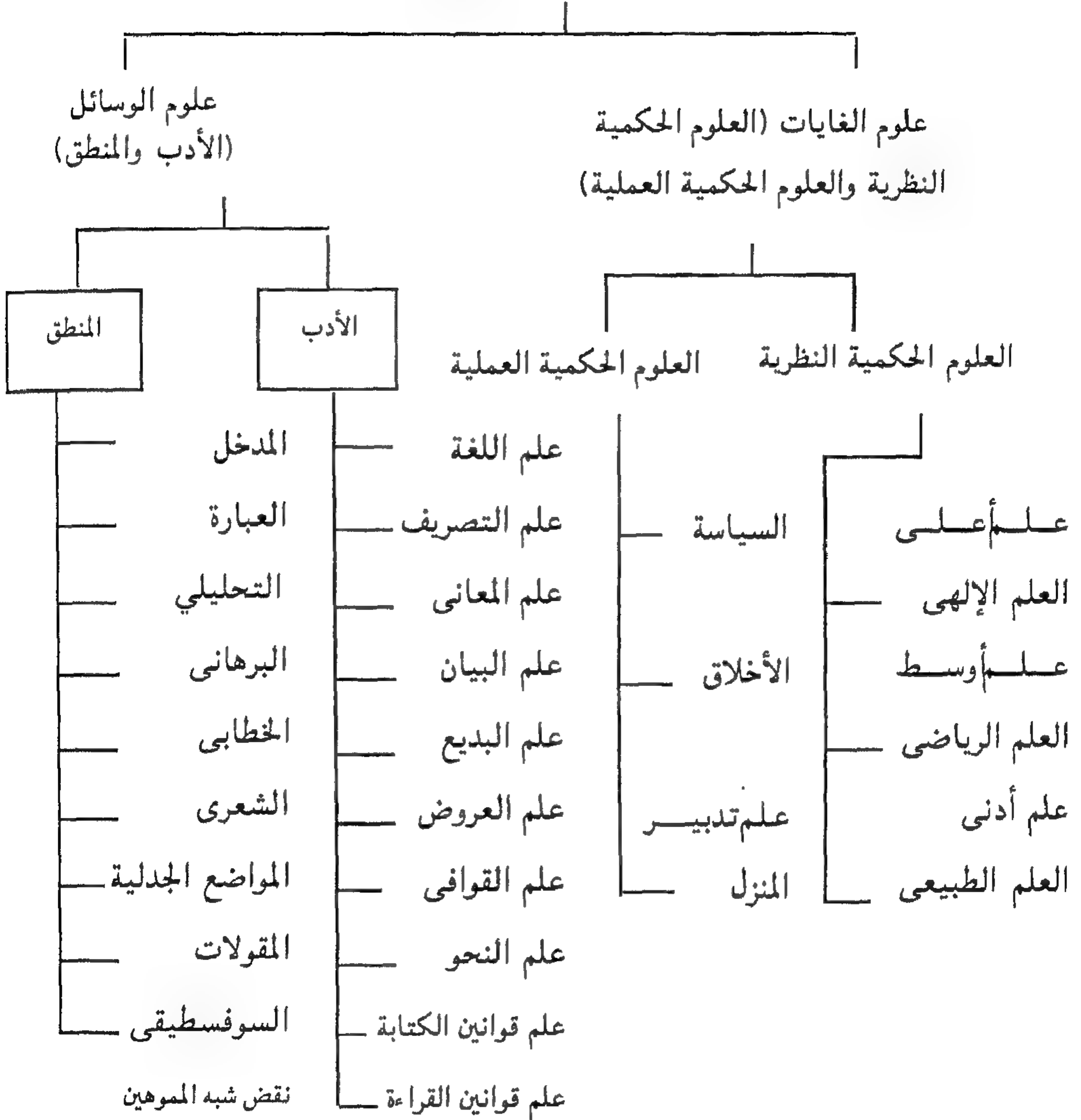
(٥١) ابن الأكفانى ، ارشاد القاصد ، ص ٩٢ .

(٥٢) ابن الأكفانى ، ارشاد القاصد ، عبد الغنى ، دراسات ، ص ٨٦ - ٩١ .

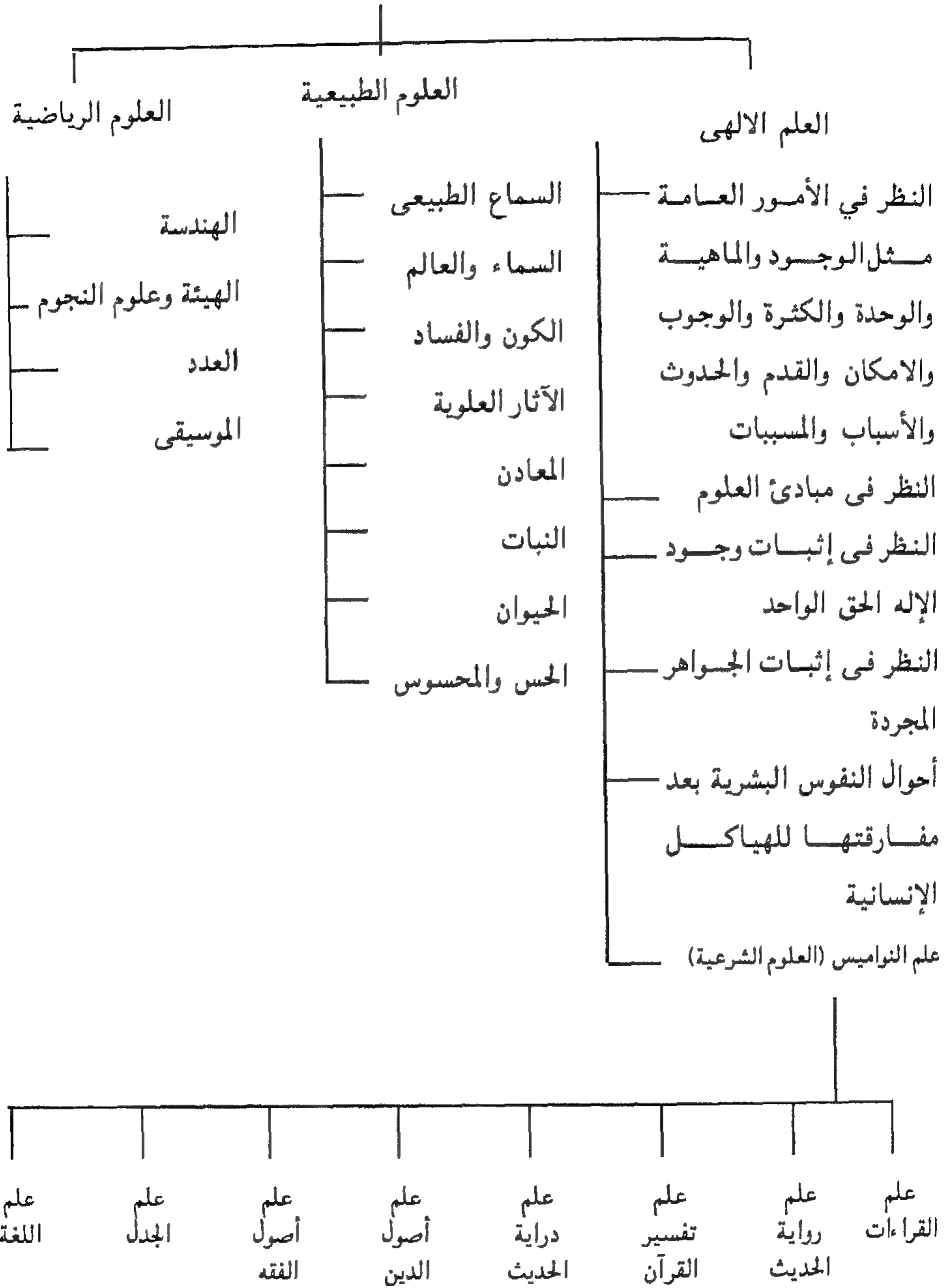
ثانياً : تقسيم العلوم إلى علوم الغايات

العلوم الحكمية النظرية والعلوم الحكمية الأدبية وعلوم الوسائل

(الأدب والمنطق)



ثانيًا : أقسام العلوم الحكمية النظرية

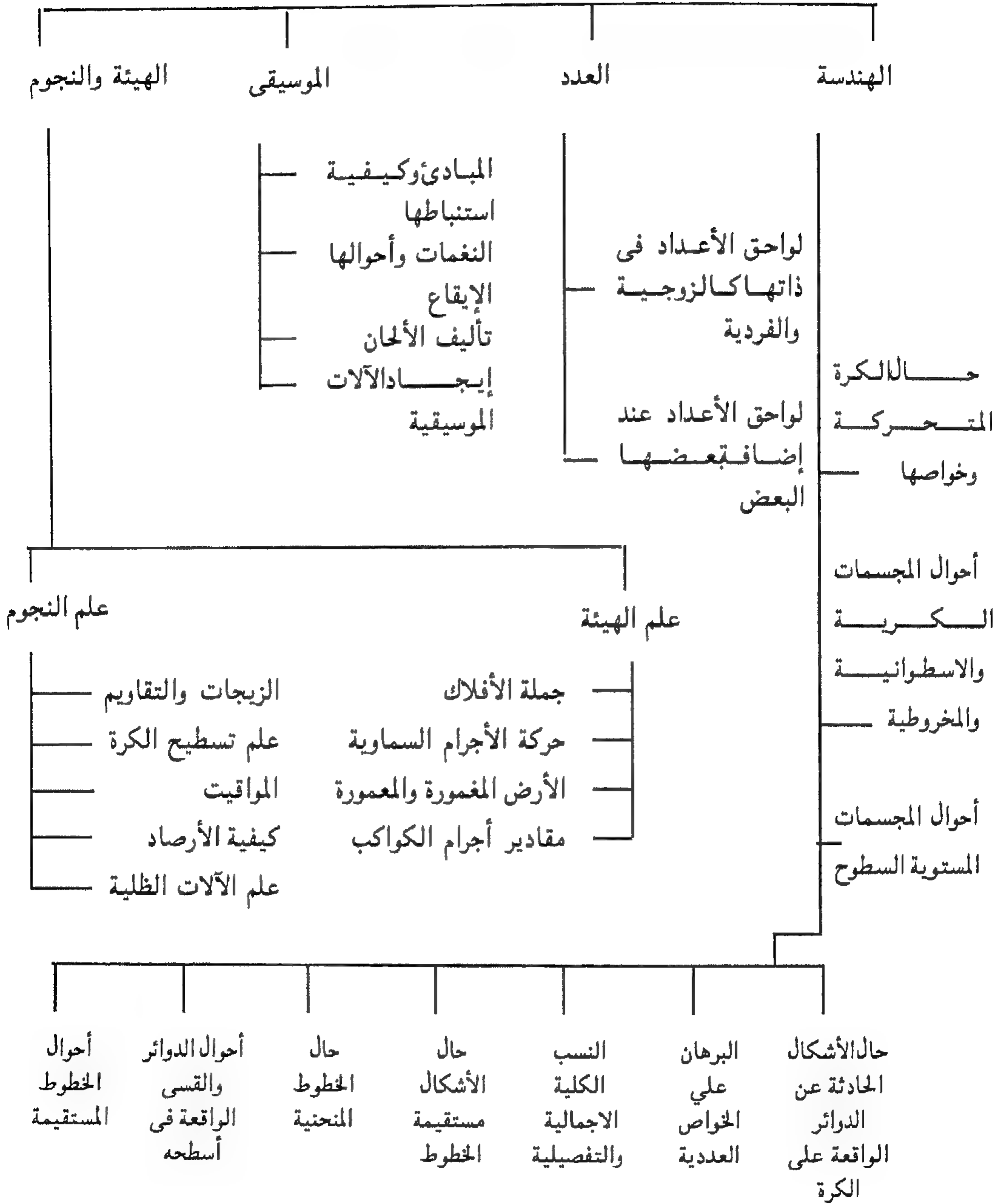


رابعاً : أقسام العلوم الطبيعية

الطب
البيطرة والبيطرة
الفلاحة
الفراسة
تعبير الرؤيا
أحكام النجوم
السحر
الطلسمات
السيمياء
الكيمياء

خامساً : أقسام العلوم الرياضية

(أ) الهندسة والعدد والموسيقى والهيئة والنجوم :



خامساً : أقسام العلوم الرياضية

(ب) أقسام علم العدد (الحساب) وأقسام علم الهندسة :

تصنيف علم العدد	تصنيف علم الهندسة
علم الحساب المفتوح	علم عقود الأبنية
علم حساب التخت والميل	علم المناظر
علم الجبر والمقابلة	علم المرايا المحرقة
علم حساب الخطأين	علم مراكز الاثقال
علم الدور والوصايا	علم المساحة
علم حساب الدرهم والدينار	علم إنباط المياه
	علم جر الاثقال
	علم البنكومات
	علم الآلات الحربية
	علم الآلات الروحانية

وهكذا نجد أن ابن الأكفاني قد عرض في كتابه ستين علماً وذيلاً تصنيفه بتفسير للألفاظ المستخدمة التي يحتاج المبتدئ في العلوم إلى تفسيرها لئلا يحتاج الناظر في هذه الرسالة إلى كتاب آخر في فهمها وهذه الألفاظ هي : العلم والحد والرسم والكليات الخمس والمقولات العشرة (٥٣)

(٥٣) ابن الأكفاني ، ارشاد القاصد ، ص ٢٢٤ : عبد الغنى ، دراسات ، ص ٨٥ : ولمزيد من التفاصيل انظر ، عباس ، صالح مهدي ، تصنيف العلوم العربية وتعريفها عند شمس الدين ابن الأكفاني ، ضمن أعمال الندوة القطرية الخامسة لتاريخ العلوم عند العرب ، ج ١ ، بغداد (١٩٨٩م) ، ص ٥٩٨ - ٦٢٨ .

المبحث الثالث : العلوم في الحضارة الإسلامية :

لما كان المقام لا يتسع لدراسة كل العلوم في الحضارة الإسلامية في هذا الكتاب المجلد ، ولذلك أثرنّا أن نركّز على إسهامات العلماء المسلمين في تقدم بعض العلوم التجريدية والتجريبية على أن نعود إليها ولغيرها من أنواع العلوم التي لم نذكرها (ومنها العلوم الدينية والعلوم اللغوية والأدبية وعلم التاريخ والفلسفة وعلم الحيوان وعلم النبات وغير ذلك) تفصيلاً وإسهاباً وتحليلاً في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى.

١ - علم الجغرافيا :

علم المسلمون علم الجغرافيا وأدركوا خطورته وأهميته بين العلوم نظراً للحاجة إليه في الحل والترحال ، في العبادة والحج وطلب العلم في الزراعة والتجارة وفي ذلك يذكر المقدسي أن الجغرافيا علم « لا بد منه للتاجر والمسافر والملوك والكبراء والقضاة والفقهاء » (٥٤).

وإذا كان انتقال المعرفة من حضارة إلى أخرى يتطلب بالضرورة أن يأخذ اللاحق عن السابق ما وصل إليه ، فإن جغرافى المسلمين قد نقلوا عن الحضارات القديمة ما وصل إليهم من كتابات قرءوها بلغاتها الأصلية أو مترجمة ، واستطاعوا بذلك المحافظة على التراث الجغرافى العالمى فى تطوره ، ثم أضافوا - وهم الأهم - إلى المعارف الجغرافية خلال العصر الوسيط - ما نقل الجغرافية والخرائط من مرحلة العصور القديمة إلى مرحلة أكثر تقدماً واقترباً من عصر النهضة (٥٥).

هذا وتمثل الملاحظة الشخصية أهم مصدر من مصادر المعرفة الجغرافية ، إلى جانب المصادر الأخرى كالاعتماد على تراث السلف والحساب الرياضى والرصد الفلكى ... إلخ ، وكنتيجة لاتساع الدولة الإسلامية غدت المعطيات الجغرافية لدى المسلمين أعظم بكثير مما كانت لدى أسلافهم من اليونان والرومان .

ولقد امتدت معرفتهم الجغرافية إلى جزر اليابان (واق واق) وكوريا

(٥٤) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص : عاشور ، دراسات ، ص ٧٤ .

(٥٥) الشامى ، جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط ، الكويت (١٩٨١م) ، ص ٦ .

(سيلا أوشيلا) شرقا ومعظم آسيا بما فيها كتلة انجارا وجزر الهند الشرقية ، أما فى افريقيا فقد عرفوا جيداً شمال افريقيا حتى خط عرض ١٠ شمالاً ، كما تاجروا مع الساحل الشرقى لافريقيا حتى موزمبيق (سفالة) بل وصلوا حتى الناتال جنوبا ، ويعتقد البعض أنهم داروا حول رأس الرجاء الصالح منذ القرن ١٤هـ / ١٠م ، كما عرفوا جزر كنارى (الخالدات والسعادات) وفى أوروبا عرفوا جنوب أوروبا ووسطها كما عرفوا بريطانيا وايرلنده والدول الاسكندنافية ومعظم روسيا^(٥٦). كذلك عرفوا أمريكا قبل كريستوفر كولبوس بخمسة قرون على الأقل كما سنشير فيما بعد .

هذا وقد كان وراء تقدم علم الجغرافيا وازدهاره فى الحضارة الإسلامية عدة عوامل منها اتساع أراضى دار الإسلام فقد امتدت الدولة الإسلامية من حدود الصين الغربية شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا وجميع جزر البحر المتوسط واسبانيا ... إلخ ، ومنها الحج والرحلة فى طلب العلم والتجارة واستعداد العرب الفطرى وواقع حياتهم فى جزيرتهم ومنها حب الاستطلاع والرحلات من أجل البحث الجغرافى وغيره من العلوم فضلا عن الاتصال بالثقافات الأجنبية (نتيجة حركة الترجمة السابق الإشارة إليها) .

ولقد طرق المسلمون جميع الفروع الجغرافية والوصفية والطبيعية والإدارية والاقتصادية والتاريخية والمدن والسكان ، وهناك من عنى بأقطار العالم الإسلامى كالبلخى والاصطخرى وابن حوقل والمقدسى ، ومنهم من تخصص فى قطر واحد كالهمدانى فى صفة جزيرة العرب ، والبيرونى فى الهند .

ومنهم من وضع المعاجم الجغرافية كمعجم ما استعجم للبكرى ومعجم البلدان لياقوت الحموى .

ومنهم من وضع الموسوعات الجغرافية التى بلغت ذروتها فى القرنين ٨ - ٩هـ / ١٤ - ١٥م ومنها مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط (ت٧١٨هـ / ١٣١٨م) ونهاية الارب للنويرى (ت٧٣٢هـ / ١٣٣١م) ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى (ت٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) وصبح الأعشى فى صناعة الانشا للقلقشندي

(٥٦) الفيل ، أثر التجارة والرحلة فى تطور المعرفة الجغرافية عند العرب ، الكويت (١٩٧٩م) ، ص ٥ - ٦ .

(ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) (٥٧). وها هو كرا تشكوفسكى يعترف بأهمية علم الجغرافيا الإسلامية بقوله « ... إلا أن عدداً من فروع الأدب العربى قد اكتسبت أهمية تجاوزت بكثير حدود اختصاصاته الضيقة . ولعل هذا يصدق قبل كل شىء على الأدب التاريخى والجغرافى العربى الذى اعترف العلماء به منذ عهد بعيد بأنه المصدر الأساسى والموثوق به فى دراسة ماضى العالم الإسلامى ؛ اذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافى فحسب بل أيضاً لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخى الأدب والعلم والدين واللغويين وعلماء الطبيعة ، ولا يقتصر محيط الأدب الجغرافى العربى على البلاد العربية وحدها بل يمدنا بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التى بلغها العرب أو التى تجمعت لديهم معلومات عنها وذلك بنفس الصورة المتنوعة التى وصفوا بها بلاد الإسلام » (٥٨).

وحسبنا فى هذه العجالة أن نركز على بعض اسهامات الجغرافيين المسلمين وانجازاتهم ومن بينها أنهم صححوا كثيراً من الأخطاء التى وقع فيها بطليموس السكندرى وغيره من السابقين ، وأضافوا معلومات جديدة غزيرة عن طبيعة الأرض وشكلها كما فسروا العديد من الظواهر الطبيعية والجغرافية تفسيراً علمياً يتفق مع ما

(٥٧) عن نشأة علم الجغرافيا الإسلامية وتطوره انظر الدراسة القيمة للمستشرق الروسى كراتشكوفسكى ، اغناطيوس بوليانوفتش ، وعنوانها « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، ط ٢ ، بيروت (١٩٨٧م) (١١١١ صفحة) ؛ وانظر أيضاً ، علوى ، س . م . ضياء الدين ، الجغرافيا العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين) ترجمة وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم وطه محمد جاد ، القاهرة (١٩٨٤م) ؛ شوكة ، إبراهيم ، الجغرافيا العربية حتى نهاية القرن العاشر الميلادى ، ترجمة صالح فليح حسن الهيثى وخلدون داؤد صبرى القيسى ، بغداد (١٩٩٠م) ؛ نفيس ، أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ترجمة فتحى عثمان ، مراجعة على أدهم ، القاهرة د . ت ؛ خصباك ، شاكر ، فى الجغرافيا العربية ، بغداد (١٩٧٥م) ؛ حميدة ، عبد الرحمن ، أعلام الجغرافيين العرب ، دمشق (١٩٨٠م) ؛ التراث الجغرافى ، جامعة دمشق (١٩٨٨ - ١٩٨٩م) ؛ مينورسكى ، الجغرافيون والرحالة المسلمون ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، الكويت (١٩٨٥م) ؛ مؤنس ، حسين ، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨٦م) ؛ محمدى ، محمد محمود ، التراث الجغرافى العربى ، الرياض (١٩٨٤م) ؛ محمد ، صباح محمود ، دراسات فى التراث الجغرافى العربى ، بغداد (١٩٨١م) ؛ بارتولد ، جهود العلماء العرب المسلمين فى علم الجغرافية ، ترجمة وتعليق عبد الجبار ناجى بغداد (٢٠٠٠م) ، (٨٣ صفحة) ؛ فرحات ، كرم حلمى ، التراث العلمى للحضارة الإسلامية فى الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجرى ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، ص ٤٨٧ - ٥١٤ .

(٥٨) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى ، ص ١٩ .

أقره العلماء المحدثون ومن ذلك أنهم تمسكوا بفكرة كروية الأرض وبنوا على هذه الفكرة كثيراً من الاستنتاجات الصحيحة كما يتجلى فى كتابات ابن خرداذبة وابن رسته والمقدسى والمسعودى والإدريسى ، وقد استندوا فى إثبات كروية الأرض إلى نفس الأسانيد التى يرددها المعلمون والمتكلمون حتى اليوم وهى أن الشمس لا تطلع على جميع بلاد العالم فى وقت واحد ولا تغرب عنها فى وقت واحد « بل يرى طلوعها عن المواضع المشرقية قبل غيبوتها عن المغربية » على حد قول ابن رسته^(٥٩).

أما المسعودى فيذكر أن الشمس إذا غابت فى أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التى فى بحر أو قيانوس الغربى وإذا غابت فى هذه الجزائر كان طلوعها فى أقصى الصين ... »^(٦٠).

والإدريسى هو أعظم جغرافى فى الإسلام ، فقد نظر إلى الجغرافية كعلم قائم بذاته لا يختلط بالتاريخ ولا تمتزج مادته بالأساطير ولا تتعلق حقائقه بمسائل الفلك ، فهو جغرافى موضوعى يذكر الحقائق كما تصورها واضحة مجردة ويصوغها فى أسلوب بسيط منطقي لا تكلف فيه ولا تظاهر بالعلم ولا دعوى برحلات طويلة أو قراءات مستبصرة ، ومن ثم جاء كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق جغرافية طبيعية وبشرية كاملة للعالم أجمع ، فقد أورد وصف كل جزء من جغرافيته بطريقة علمية موضوعية خالصة كما يكتب أى باحث جغرافى اليوم وهو بذلك يقدم لنا مفهوما علميا كاملاً سليماً للجغرافيا^(٦١). أما خريطته فسوف نشير إليها عند الحديث عن جهود المسلمين فى رسم الخرائط .

أما بالنسبة إلى جهود الجغرافيين المسلمين فى رسم الخرائط الجغرافية فنلاحظ وجود اتجاهين واضحين :

(٥٩) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص : ابن رسته ، العلاقات النفيسة ، ص ١٣ - ١٤ : المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٦٢ - ٦٣ : الإدريسى ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مج ١ ، ص ٧ : عاشور ، دراسات ، ص ٧٨ .

(٦٠) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٨٩ : الخربوطلى ، المسعودى ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨٠م) ، ص ٧٨ .

(٦١) مؤنس ، تاريخ الجغرافية ، ص ٢١٥ - ٢٣١ : إسلام ، أحمد مدحت ، علماء العرب والمسلمين وإنجازاتهم فى بناء الحضارة الإنسانية ، القاهرة (١٩٩٩م) ، ص ١٣٣ - ١٣٧ .

أولهما : اتجاه عام متأثر بالجهود السابقة فى الجغرافية والخرائط بمعنى أن عدداً من الجغرافيين المسلمين قد اعتمدوا على الخرائط السابقة ونقلوها وأضافوا إليها ما وصلت إليه معارفهم وصححوا ما وقفوا عليه فيهما من أخطاء وحين رسموا خرائطهم الإسلامية وقعوا عليها ما تمت معرفته عن أطراف المعمورة خلال العصر الوسيط وما استجد من مراكز عمرانية حادثة فى الإسلام ويطلق على أصحاب هذا الاتجاه اسم المدرسة التقليدية فى رسم الخرائط ومن أمثال هؤلاء الخوارزمى والزهرى والإدريسى وابن سعيد وابن فضل الله العمري والقزوينى والدمشقى .

وثانيهما : اتجاه خاص قام فى ظل الجهود الجغرافية الإسلامية المجددة التى لم تتأثر بالفكر الجغرافى اليونانى وخرائطه ويطلق على أصحاب هذا الاتجاه اسم المدرسة المجددة لأن خرائطهم نمط فريد ومتفرد جاء وليد جهودهم الخاصة أى من ابتكارهم وابتداعهم ، وتعرف مجموعة خرائط أصحاب هذه المدرسة اسم « أطلس الإسلام » لأنها تغطى أقاليم العالم الإسلامى بسلسلة من الخرائط التى تتمشى مع التقسيم الجغرافى الذى ابتدعه هؤلاء مخالفين بذلك التقسيم السباعى للمعمورة الذى كان سائداً من قبل فى الفكر الجغرافى القديم (قبل الإسلام) وعند أصحاب المدرسة التقليدية (الاتجاه الأول فى العصر الإسلامى) . ومن هؤلاء البلخى والاصطخرى وابن حوقل والمقدسى (٦٢) .

غير أن ما يعنينا فى هذا المقام هو أن نركز على الإدريسى من أعلام الاتجاه الأول أو المدرسة التقليدية فى رسم الخرائط فإنه إذا كان الإدريسى هو أعظم جغرافى الإسلام كما سبق القول ، فإنه قد نال هذه المكانة على وجه الخصوص بفضل ملكاته المختارة فى رسم الخرائط ، وقد اعتبر أطلسه أهم أثر للخرائط فى العصور الوسطى ويمثل فى الوقت نفسه القمة التى بلغها المسلمون فى رسم الخرائط .

ومهما يكن من أمر التفاصيل فإن الإدريسى قد رسم لنا صورة الأرض مرتين : الأولى : فى صورة كرة أو دائرة هى من الناحية الخرائطية أقرب للدقة من الصورة .

والثانية : وهى المبسطة على مسقط مركاتور وهى المشهورة .

(٦٢) الشامى ، جهود ، ص ٦ - ٥٦ .

ومن المعروف أن الرسم على سطح الكرة يختلف فى قواعده عن الرسم على مسطح منبسط أو مبسوط ، ولذا فإن الإدريسى هو أول من وضع أصول الرسم على مسطح كروى مما كان له أثره جغرافيا فى تحديد معالم الكرة الأرضية تحديداً واقعياً سليماً .

وهكذا كانت خرائط الإدريسى نقطة تحول فى تطور علم الخرائط فقد تغيرت نوعية الخرائط وبدأ الاهتمام بتقسيم خط نصف النهار وخط الاستواء وضبط درجات الطول والعرض للمدن والبلدان بدقة كما فى الخرائط الحديثة^(٦٣) .

وليس أدل على أهمية خرائط الإدريسى من أنه ظل الاعتماد عليها فى أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادى كما سنشير فى الفصل الخامس من هذا الباب .

ولا تفوتنا الإشارة كذلك إلى استخدام الألوان فى التمييز بين الظاهرات الجغرافية على الخرائط ؛ كما كانت هناك رموز أو صور اصطلاحية لتمثيل الظاهرات الطبيعية والبشرية على الخرائط كالجبال والمحيطات والبحار والأنهار والنطاقات ذات التكوينات الرملية وتوقيع بعض النباتات والطيور وتصويرها على الخرائط ومراكز الاستقرار البشرى والطرق وتوقيع العجائب والمباني المهمة ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد فحسب بل سجلت معلومات على الخرائط تتعلق بالظاهرات الطبيعية والبشرية^(٦٤) .

ولا ننسى كذلك ما تزخر به مصادر التراث العربى الإسلامى عامة والجغرافى خاصة بالعديد من المصطلحات المتعلقة بأشكال سطح الأرض والمصطلحات المناخية وما يرتبط بالحرات والحماة والبراكين وغير ذلك^(٦٥) .

وفيما يتعلق بموضوع الطواف حول الكرة الأرضية وأن المسلمين هم أول من حاولوا ذلك ومن ثم عرفوا أمريكا قبل كولبوس بخمسة قرون على الأقل ، فإن ذلك يتضح

(٦٣) الشامى ، جهود ، ص ٢١ - ٢٣ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٧٩ .

(٦٤) الشامى ، جهود ، ص ٥٧ - ٦٥ .

(٦٥) الغنيم ، عبد الله يوسف ، المصادر العربية لمصطلحات الأشكال العربية ، الكويت (١٩٨٣م) ؛ منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض ، الكويت (١٩٨٤م) ؛ البراكين والحرات والحماة فى التراث العربى ، الكويت (١٩٨٨م) ؛ أحمد بدر الدين يوسف محمد ، المصطلحات المناخية فى التراث العربى ، الكويت (١٩٩٥م) .

من خلال ما ذكره البكرى عند حديثه عن رجال البحر الأندلسيين وما قاموا به من محاولات ومغامرات فى المحيط الأطلسى لكشف غياهية وظلماته فى منتصف القرن ٣هـ / ٩م ، ومن هؤلاء خشخاش بن سعيد بن أسود الذى خاطر مع جماعة من الأحداث فركبوا المراكب ودخلوا المحيط وغابوا فيه مدة ثم عادوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة ، وكان بيت بنى أسود من البيوت المشهورة فى بلدة بجانة ولهم رباط على ساحلها عرف بقابضة بنى الأسود ومكانه اليوم Cabo de Gata على ساحل المرية .

وكذلك حديث الفتية المغرورين أو المغربين من أهل لشبونة الذين اقتحموا المحيط الأطلسى ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه ولهم بلشبونة موضع بقرب الحمة منسوب إليهم يعرف بدرب المغرورين ، وقد أورد خبرهم الإدريسى ونقله عنه كل من أبو حامد الغرناطى والقزوينى والحميرى ، وخلاصته أن ثمانية رجال كلهم أبناء عم أعدوا مركبا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، وقد قضوا فى المحيط الأطلسى ٣٨ يوماً (١١ يوم + ١٢ يوم + ١٢ يوم + ٣ يوم) قطعوا فيها قرابة ٣٨٠٠ كيلو متراً فى مياه هذا المحيط وهذه أطول مسافة قطعت فيه إلى ذلك الحين (٦٦) .

وهناك أدلة أخرى أشار إليها عدد من العلماء والباحثين سوف نتطرق إليها ونقوم بتحليلها فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

٢ - علم الملاحة وعلوم البحار :

من المعلوم أن التراث اليونانى القديم لم يترك لنا علما بهذا الاسم - أى علم البحر - كما أن هذا الاسم لم يرد ذكره فى علوم العرب فى القرون الأولى كعلم مستقل وإنما كان يعالج من نواحيه المختلفة ضمن العلوم الأخرى كالجغرافيا أو فى كتب العجائب - عجائب البر والبحر - وعلى ذلك يعد أحمد بن ماجد ت ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م هو أول من أطلق هذا المصطلح ويتجلى ذلك فى اسم كتابين له وهما :

(٦٦) الإدريسى ، المغرب والأندلس وإفريقية ، ص ١٨٤ - ١٨٥ ؛ أبو حامد الغرناطى ، تحفة الألباب ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٧ - ١٨ ؛ القزوينى ، عجائب المخلوقات ، ج ١ ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ؛ مؤنس ، تاريخ الجغرافية ، ص ٢٧٥ - ٢٧٨ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ٨٠ - ٨١ ، ١٩٨ - ١٩٩ ؛ الفيل ، أثر التجارة والرحلة ، ص ٦ - ٧ حاشية ٤ ؛ عزب ، خالد ، المسلمون واكتشاف الأمريكتين ، القاهرة (١٩٩٣م) ، (٧٨ صفحة) .

« كتاب الفوائد فى اصول علم البحر والقواعد »^(٦٧) و « حادية الاختصار فى اصول علم البحار » وقد ضمنها المؤلف كل ما عرف عن البحر على أيامه من الناحية التكنيكية التى تفيد الملاح وتيسر له سبل السير فى أودية البحر ودخول الموانى ، فى جانب القياسات الفلكية للنجوم الملاحية المختلفة ومواعيد فتح البحر وغلق البحر يتكلم المؤلف عن السواحل والجزر والتيارات والمد والجزر والرياح وطبيعة القاع وما إليها من إشارات تفيد تعين الملاح على أداء مهمته بنجاح ولم يهمل تطعيمها كذلك بمادة اجتماعية تاريخية أدبية ، وتعرف مثل هذه الكتب فى العصر الحديث باسم المرشديات الملاحية Sailing Directions وعلى ذلك فابن ماجد هو مؤسس علم البحر وليس لويجى فرناندو مرسيللى (١٦٥٨ - ١٧٣٠م) أو السيرجون مرسى (١٨٧٢ - ١٨٧٥م) أو ماتيوس فونتين ماورى (+ ١٨٧٣م)^(٦٨) .

أما عن الملاحة وعلم البحر قبل ابن ماجد فيمكن القول أن الاتصال التجارى الذى كان بين جزيرة العرب والهند منذ الألف الثانى قبل الميلاد (كما دلت على ذلك الاكتشافات والدراسات الأثرية) قد استمر فى العصر الإسلامى بل انه ازداد عن ذى قبل (ويستثنى من ذلك الفترات التى انقطعت فيها الملاحة عن بعض الموانى لوجود قلاقل أمنية وسياسية بها) ، ومع تطور العلوم واتصال المسلمين بغيرهم من الأمم وأخذهم عنهم نجد أن الآلات الفلكية كالاسطرلاب والربع المجيب وبيت الابهرة (البوصلة) من الآلات المستعملة^(٦٩) - كما سنشير فيما بعد - ونجد كذلك كتب الارشادات البحرية التى كانت تسمى رهمانجات (مفردها رهمانج وهى مأخوذة من اللغة الفارسية «راه نامه» أى كتاب الطريق .

ومن الذين ألفوا فى ذلك قبل ابن ماجد محمد بن شاذان وسهل بن أبان وليث بن كهلان (العصر العباسى) وأشار إلى ذلك أيضاً المقدسى والمسعودى وابن الجاور^(٧٠) .

(٦٧) قام بتحقيق هذا الكتاب إبراهيم خورى وعزت حسن ، دمشق (١٩٧١م) ، والطبعة الثانية ، رأس الخيمة (١٩٨٩م) ، وعلى هذا التحقيق دراسة نقدية لحسن صالح شهاب ، الكويت (١٩٨٩م) .

(٦٨) عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار ، ص ٧ - ٩ .

(٦٩) قارى ، لطف الله ، القمباص والخرائط البحرية العربية ، الكويت (١٩٩٦م) ، ص ٤ - ٥ .

(٧٠) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٤ - ٢٥ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٤٦ ؛ ابن الجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماه تاريخ المستبصر ، تحقيق اوسكر لو فجرين ، ليدن (١٩٥١م) ، ص ٢٦٧ ؛ شهاب ، علوم العرب البحرية من ابن ماجد إلى القطامى ، (دراسة مقارنة) ، الكويت (١٩٨٤م) ، ص ٩ .

هذا وقد حرفت لفظة رهمانج إلى الرحمانى ، ولدينا عدد من هذه الرحمانيات أو المرشديات البحرية العربية من أواخر القرن ٩هـ / ١٥م وأوائل ق ١٠هـ / ١٦م ومنها «الفوائد فى علم أصول البحر والقواعد» و «حادية الاختصار فى أصول علم البحار» لابن ماجد ، و «العمدة المهرية فى حفظ العلوم البحرية» لسليمان بن أحمد المهرى وتقدم هذه المرشديات معلومات غزيرة عن طرق الملاحة والموانى الشهيرة والجزر المتناثرة فى عرض البحار ومواسم الرياح وأساليب قياس خطوط الطول والعرض وتحديد موقع السفينة ، إلى جانب الإشارات النافعة لربابنة السفن عن كيفية الابحار ودخول الموانئ واتقاء الأخطار وتحديد المعالم التى يهتدى بها نواخذة السفن ليعرفوا اين هم من البر ومن الموانى التى يقصدونها إلى غير ذلك من المعلومات المفيدة (٧١).

كذلك فان المرشديات البحرية التالية لا تختلف فى محتوياتها عن المرشديات المتقدمة عنها إلا فى الجانب الفلكى خاصة فى قياس العرض (٧٢). وهو ما سوف نشير إليه فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

وهناك خرائط بحرية إسلامية (عربية وتركية) ومنها خرائط كل من إبراهيم بن أحمد الكاتبى التونسى ٨١٦هـ / ١٤١٤م وإبراهيم المرسى ٨٦٥هـ / ١٤٦١م وبيرى ريس وعلى مجر ريس وأطلس على بن أحمد بن محمد الشرفى الصفاقسى (وبه خمس خرائط بحرية وخارطة واحدة للعالم) وغير ذلك ، وكانت خرائط البحر المتوسط تعرف

(٧١) شهاب ، رحمانى يوسف بن ناصر الخرافى « مرشد بحرى » تحقيق وشرح ، الكويت (٢٠٠٤م) ، ص ٧ (التصدير للدكتور عبد الله يوسف الغنيم) .

(٧٢) عن هذه الكتب انظر ، شهاب ، علوم العرب البحرية من ابن ماجد إلى القطامى ، الكويت (١٩٨٤م) ، (٣٤٣ صفحة) ؛ بحار مجهول ، فرجة الهموم والغموم فى العلامات والمسافات والنجوم ، شرح وتحقيق حسن صالح شهاب ، الكويت (١٩٨٤م) ، (١٠٨ صفحة)؛ شهاب ، قواعد علم البحر (شرح وتحقيق لمخطوطين فى فن الملاحة البحرية) ، الكويت (١٩٨٦م) ، (٢٣٨ صفحة)؛ الدليل البحرى عند العرب ، الكويت (١٩٨٣م) ، (٨٩ صفحة) ؛ رحمانى يوسف بن ناصر الخرافى ، الكويت (٢٠٠٤م) ، (١١٦ صفحة) . وعن طرق الملاحة فى الخليج العربى والمحيط الهندى انظر ، شهاب ، طرق الملاحة التقليدية فى الخليج العربى ، الكويت (١٩٨٣م) (١١٨ صفحة) ؛ أسطورة هبسالوس والملاحة فى المحيط الهندى ، الكويت (١٩٨٧م) (٤٣ صفحة) ؛ حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ١٧١ - ٢٣٨ .

فى المصادر الإسلامية باسم القمباص وتعنى أحداثيات خرائط البورتولانو الأوروبية وليس البوصلة (بيت الابرّة) كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء والباحثين (٧٣).

وحسبنا أن نختتم هذه العجالة بالإشارة إلى الرحالة البحرى ابن فاطمة (حوالى ق ٦ أو ٧هـ / ١٢ أو ١٣م) ويظن أنه من أهل غرب افريقيا وقد قدم إلينا كمية وافرة من المعلومات حول سواحل افريقيا حيث دار ابن فاطمة هذا حول القارة حتى وصل إلى مدغشقر التى وصف سكانها وصف عالم محيط بأحوالها ، كما وصف بعض الجزر القريبة من السواحل والخلجان الضحلة التى لا تسلكها السفن الكبيرة وذلك بمنطقة غرب افريقيا التى تسمى بلاد السنغال حاليا ، وتمثل كشفه فى سواحل ووسط افريقيا فتحاً جديداً فى الجغرافيا بحيث كانت معلوماته مجهولة لدى الأوروبيين إلى مائتى عام بعده (٧٤).

هذا وقد أشار الرحالة البرتغال P. Da Covilha فى رسالة كتبها من القاهرة إلى الملك جوان الثانى ١٤٨٧م إلى أن العرب يعرفون رأس الرجاء الصالح معرفة جيدة ، وهذا قبل أن يعرفه الغربيون الذين لم يعرفوه إلا بعد رحلات بارثليمو دياز وفاسكو دى جاما فى السنوات التى تلت الرسالة المذكورة (٧٥).

٣ - علم الفلك :

اختلف مفهوم علم الفلك الذى كان يعرف قديما باسم علم الهيئة بين الأمس واليوم ، كما تنوعت مجالاته وتعددت ميادينه عما كان سابقاً ولكنه فى كافة العصور كان هو العلم الذى يتوجه إلى السماء ليدرس ما فيها من أجرام سماوية تبدو للناظر إليها بالعين المجردة أو باستخدام الأجهزة المقربة ؛ غير أن نظرة الإنسان إلى الكون اختلفت ما بين القديم والحديث واختلفت معها أيضاً نظرتة إلى الأجرام السماوية القريبة منا نحن سكان الأرض .

وبصورة عامة فإن علم الفلك لم يعرف بهذا الاسم إلا فى العصر الحديث ، إذ كان

(٧٣) قارى ، القمباص ، ص ٧ - ٢٦ ؛ وعن بيرى ريس انظر ، الكندرى ، فيصل ، الملاح والجغرافى بيرى ريس (ت ٩٦١هـ / ١٥٥٤م) ، الكويت (١٩٩٩م) ، (٧٥ صفحة) .

(٧٤) قارى ، القمباص ، ص ٧ .

(٧٥) قارى ، القمباص ، ص ٧ ؛ ولمزيد من التفاصيل انظر ، جلال ، السيد حسين ، فضل المسلمين فى كشف الطريق البحرى إلى الهند (١٤١٥ - ١٤٩٨م) ، القاهرة (١٩٩٥م) ، (١٦٤ صفحة) .

سابقا مجموعة من العلوم التى تتجه جميعا اتجاهها واحداً لدراسة الوحدات السماوية نفسها وانعكاسها على العالم الأرضي (٧٦).

أما عن تسمية هذا العلم بعلم الهيئة فترجع إلى كونه يبحث فيه عن هيئة الأجرام العلوية والسفلية وكيفيةها .

وليس أدل على أهمية هذا العلم من قول الإمام الغزالي « من لم يعرف الهيئة والتشريح فهو عنين فى معرفة الله تعالى » .

وهذا يعنى مدى أهمية هذا العلم وضرورة تحصيله كوسيلة من وسائل المعرفة وبالتالي فى التفكير فى خلق السموات والأرض قال الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۚ ﴾ (آل عمران ١٩٠ - ١٩١) ومن المعروف أن التفكير فى خلق السموات والأرض يحتاج إلى التعمق وعلم الهيئة هو العلم الوحيد فى القيام بهذه المهمة ، يضاف إلى ذلك أهمية علم الفلك بالنسبة إلى العلوم الإسلامية الأخرى ومنها علم التفسير وعلم الفقه وعلم البلاغة وتجلّى هذه الأهمية فى تفسير الآيات القرآنية ومن بينها ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۚ ﴾ الرحمن آية ١٧ ، ﴿ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ۚ ﴾ المعارج آية ٤٠ . ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۚ ﴾ البروج آية ١ .

ومن القضايا الفقهية التى تحتاج إلى علم الهيئة قضية الطلوع والغروب وظهور الأحمرار فى الأفق ومعرفة الصبح الصادق والصبح الكاذب والفرق بينهما ، وقضية توقيت الصلاة فى المناطق التى يكون أطول أيامها ٢٤ ساعة والمناطق التى يزيد على ذلك إلى أن يصل أطول أيامها إلى ستة أشهر تقريبا ، ومنها قضية الصوم برؤية الهلال والأفطار برؤيته ومنها تعيين سمت القبلة ومعرفة جهة الاتجاه فى الصلاة وغير ذلك (٧٧).

(٧٦) موسى ، على حسن ، علم الفلك فى التراث العربى ، دمشق (٢٠٠١م) ، ص ١٩ - ٢٠ .
(٧٧) ابلاغ ، عناية الله ، علم الهيئة «الفلك» وصلته بالعلوم الإنسانية ، الكويت (١٩٩٣م) ، ص ٣ - ٢٩ .
ولمزيد من التفاصيل عن علم الفلك والمجتمع الإسلامى انظر ، موسوعة تاريخ العلوم العربية ، ج ١ ، بيروت (١٩٩٧م) ، ص ١٧٣ - ٢٣٨ ؛ هيل ، دونالد ، العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية ، ترجمة أحمد فؤاد باشا ، الكويت (يوليو ٢٠٠٤م) ، ص ٦٢ - ٦٥ .

هذا وقد اشتبه الفرق بين علم الهيئة وعلم النجوم حتى اعتقد البعض أن علم الهيئة هو علم النجوم ومن ثم نادوا بتحريم تعلمه مستنديين في ذلك إلى بعض الأحاديث النبوية ومنها « من اقتبس علما من النجوم اقتبس بابا من السحر » أخرجه ابن ماجة في كتاب الأدب ؛ ومنها حديث رواه الطبراني من حديث ابن مسعود باسناد حسن « إذا ذكر القدر فامسكوا وإذا ذكرت النجوم فامسكوا وإذا ذكر أصحابي فامسكوا » ولا شك أن علم النجوم له صلة بعلم الهيئة (الفلك) لا أن علم النجوم هو نفس علم الهيئة ويدل على ذلك ما ذكره علماء الهيئة (الفلك) من أن علم الفلك يبحث عن الفلكيات كما ووضعها وحركة وعن العناصر أيضا تبعا للفلكيات .

أما علم النجوم فيقوم على التنبؤ بشخصية ومستقبل الشخص من طالع ؛ أى من الأوضاع النسبية للشمس والقمر والكواكب والنجوم عند مولده أو عند الحمل فيه أى عند ٢٧٩ يوما قبل مولده وهذا يتطلب من المنجم أن يكون على معرفة بدائرة البروج السماوية وكوكباتها البروجية الاثنى عشر ومسارات الكواكب وأوضاعها بالنسبة إلى تلك الكواكب البروجية وإلى بعضها ، وعلى ذلك فعلم النجوم هو فى أساسه ذو طبيعة دينية حيث يؤمن بأن الكواكب ذات طبيعة مقدسة تؤثر على الحياة على ظهر الأرض وتستطيع تغيير مجرى الأمور ومن ثم ارتبطت النجوم والكواكب بالكائنات الحية والأشياء غير الحية على الأرض بروابط غير مرئية .

وقد حرم الإسلام التنجيم لأن معرفة الغيب هى من قدرات الله سبحانه وتعالى { قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله } ورغم ذلك اعتقد الكثير من المسلمين - حكاما ومحكومين - فى التنجيم وهو ما ترتب عليه ظهور أعداد كبيرة من المنجمين الحاذقين الماهرين الذين شقوا طريقهم إلى بلاط الخلفاء والسلاطين والأمراء وغيرهم (٧٨) .

غير أن هناك قسما فى علم النجوم ليس بمذموم وهو القسم الحسابى الذى يرتبط بحساب الليل والنهار ، مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ الرحمن آية ٥ .

(٧٨) موسى ، علم الفلك ، ص ١٩٣ - ١٩٥ ؛ ابلاغ ، علم الهيئة ، ص ٣٠ - ٣٨ ؛ هيل ، العلوم والهندسة ، ص ٨٤٤ - ٨٦ .

وقوله عز وجل ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (سورة يس آية ٣٩).

ومهما يكن من أمر فقد فرق علماء المسلمين بين التنجيم وعلم الهيئة (الفلك) فنادى معظمهم بعدم تأثير الكوكب في الإنسان ونفوا أن يكون للكواكب والنجوم صفات معينة من النحاس أو السعد ومن هؤلاء الكندي والفارابي وابن سينا وغيرهم ممن سفهوا أثر الكواكب على الناس من خير وشر^(٧٩).

هذا وقد كان وراء تقدم علم الفلك في الحضارة الإسلامية عدة عوامل منها القرآن الكريم وما ورد به من آيات كثيرة حول النظر في السموات والتفكر في خلقها وغير ذلك من الظواهر الفلكية والأجرام السماوية وارتباط ذلك بالعلوم الإسلامية الأخرى السابق الإشارة إليها .

ومن هذه العوامل الظروف الطبيعية والخيال العربي والموقع الجغرافي المتميز للدولة الإسلامية وغير ذلك^(٨٠).

وترجع بداية ترجمة الكتب المرتبطة بعلم الفلك إلى العصر الأموي وبالتحديد إلى الأمير خالد بن يزيد بن معاوية حكيم آل مروان الذي أمر بنقل الكتب إلى العربية ومنها كتب النجوم كما سبق القول .

وقيل أن الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي وجد في خزانة الكتب بالقاهرة في عام ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م كرة سماوية نحاسية من عمل بطليموس وعليها نقش كتابي بصيغة « حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية » ، كما وجد كرة أخرى من عمل أبي الحسين الصوفي لعضد الدولة البويهى وزنها ثلاثة الاف درهم قد اشترت بثلاثة الاف دينار^(٨١).

(٧٩) عاشور ، دراسات ، ص ١١٠ .

(٨٠) موسى ، علم الفلك ، ص ٣٣ - ٣٦ ؛ نلينو ، كركلو ، علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، بيروت ، ط ٢ (١٩٩٣م) ، ص ٢٢٩ - ٣٣٧ ؛ الدفاع ، على عبد الله ، أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨٣م) ، ص ١٥ - ١٦ .

(٨١) القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م ، ص ٢٨٦ ؛ موسى ، علم الفلك ، ص ٣٧ - ٣٨ .

وفى أواخر العصر الأموى وبالتحديد عام ١٢٥هـ / ٧٤٢م تمت ترجمة كتاب عرض مفتاح النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم وهو كتاب موضوع على تحاويل سنى العالم وما فيها من الأحكام النجومية ومن هذا الكتاب نسخة محفوظة فى مكتبة الامبروز يانو فى ميلانو بايطاليا وعليها تاريخ ترجمتها (٨٢).

وفى العصر العباسى الأول ترجمت الكتب الفلكية ومنها السندهانتا الذى أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بترجمته من اللغة السنسكريتية إلى العربية وقام محمد بن إبراهيم الفزارى بترجمة هذا الكتاب وأسماء كتاب السند هند الكبير .

كذلك قام أبو يحيى البطريق بترجمة كتاب الأربع مقالات لبطليموس فى أحكام النجوم (٨٣).

وهكذا نجد أن علماء المسلمين لم يبدأوا دراساتهم الفلكية من نقطة الصفر ؛ وإنما استفادوا من معارف اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان عن طريق حركة الترجمة والتي كانت الكتب الفلكية من بينها ، ولكن علماء المسلمين لم يقفوا عند حد اضافة الصيغة العلمية على الدراسات الفلكية وتنقيتها من هواجس التنجيم وعلم الغيب والتنبؤ فحسب ، وإنما يرجع إليهم الفضل فى تصحيح كثير من الأخطاء الحسابية التى وقع فيها السابقون واكتشاف معلومات جديدة والتوصل إلى نتائج غير مسبقة (٨٤). وكان لتفوق المسلمين فى العلوم الرياضية والطبيعية على نحو ما سنرى فيما يستقبلنا من صفحات هذا الكتاب - أثره البارز فى تحقيق ذلك التفوق فى علم الفلك .

ولما كان المقام لا يتسع ، وفقا للخطة الموضوعية لهذا الكتاب المجل ، لذكر كل التفاصيل المتعلقة باسهامات العلماء وانجازاتهم فى علم الفلك ، ولذلك حسبنا أن نشير هنا إلى بعض هذه الاسهامات وأعلام العلماء فى هذا المجال ؛ على أن نعود إلى

(٨٢) نلينو ، علم الفلك ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ؛ طوقان ، قدرى حافظ ، علماء العرب وما أعطوه للحضارة ، نابلس ، الأردن ، د ت ، ص ٦٥ .

(٨٣) موسى ، علم الفلك ، ص ٣٨ - ٣٩ ؛ طوقان ، علماء العرب ، ص ٦٥ - ٦٦ ؛ خليل ؛ ياسين ، العلوم الطبيعية عند العرب ، بغداد (١٩٨٠م) ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٨٤) عاشور ، دراسات ، ص ١١٠ - ١١١ .

تلك الاسهامات والانجازات تفصيلا واسهابا وتحليلا فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

ومن النتائج غير المسبوقه لعلماء المسلمين أنهم كانوا أول من عرف أصول الرسم على سطح الكرة وقالوا باستدارة الأرض ويدورانها على محورها ، وهم أول من أوجدوا بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار ، وهم الذين ضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل فلكها فى أفلاك أخر ، وعملوا الأزياج (الجداول الفلكية) الكثيرة العظيمة النفع .

كذلك اختلف علماء الغرب فى نسبة اكتشاف بعض أنواع الخلل فى حركة القمر إلى البوزجاني أو (تيخوبراهي) ؛ ولكن ظهر حديثا أن اكتشاف هذا الخلل يرجع إلى أبى الوفا البوزجاني لا إلى غيره .

وهم - أى علماء الحضارة الإسلامية - الذين حسبوا الحركة المتوسطة للشمس فى السنة الفارسية ، وحسب البتاني ميل فلك البروج على فلك معدل النهار فوجده ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة وظهر حديثا أنه أصاب فى رصده إلى حد دقيقة واحدة ودقق فى حساب طول السنة الشمسية وأخطأ فى حسابه بمقدار دقيقتين و ٢٢ ثانية والبتاني من الذين حققوا مواقع كثيرة من النجوم ، وقالوا بانتقال نقطة الرأس والذنب للأرض ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي وكتبوا عن كلف الشمس وعرفوها قبل أوروبا .

وانتقد أبو محمد جابر بن الأفلح المجسطى فى كتابه المعروف بكتاب اصلاح المجسطى ودعم انتقاده عالم آخر هو نور الدين أبو اسحق البطروجى الاشبيلى فى كتابه الهيئة الذى يشتمل على مذهب حركات الفلك الجديد ، ويذكر جورج سارتون أنه على الرغم من نقص هذه المذاهب الجديدة فإنها مفيدة جداً ومهمة جداً لأنها سهلت الطريق للنهضة الفلكية الكبرى التى لم يكمل نموها قبل القرن ٤هـ / ١٠م وأوحت بحوثهم الفلكية لكبلر أن يكتشف الحكم الأول من أحكامه الثلاثة الشهيرة وهى اهليلجية فلك السيارات « وعملوا جداول دقيقة لبعض النجوم الثوابت فقد وضع الصوفى مؤلفا فيها وعمل لها الخرائط المصورة جمع فيها أكثر من ألف نجم ورسمها كوكبات فى صورته الأناسى والحيوان ، وأثبت البتاني النجوم الثوابت لسنة ٢٩٩هـ / ٩١١م ، ولهذا وغيرها من الجداول شأن عند علماء الفلك - فى هذا العصر - إذ لا يستغنون عنها عند البحث فى تاريخ بعض الكواكب ومواقعها

وحرركاتها ، وبلغ من شدة ولوع المسلمين بهذا العلم درجة جعلت بعضهم يضع فى بيته هيئة السماء وخيل للناظرين فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود ...» (٨٥).

ولا شك أن علماء الحضارة الإسلامية لم يصلوا بعلم الفلك إلى ما وصلوا إليه إلا بفضل المراصد ومن بينها مرصد الخليفة المأمون على جبل قاسيون بدمشق وفى الشماسية ببغداد ، ومرصد بنى موسى ببغداد على طرف الجسر ومرصد شرف الدولة فى بسستان دار الملكة والمرصد الحاكمى على جبل المقطم بالقاهرة ومرصد ابن الشاطر بالشام ومرصد الدينورى بأصبهان ومرصد البيرونى ومرصد أولوغ بك بسمرقند ومرصد البتانى بالشام ومرصد المراغة لنصير الدين الطوسى الذى كان من أشهر المراصد وأكبرها واشتهر باللاته الدقيقة وتفوق المشتغلين فيه ، وليس أدل على أهمية هذا المرصد من أن علماء أوروبا فى عصر النهضة وما بعده قد اعتمدوا على أرصاد هذا المرصد فى بحوثهم الفلكية، ومرصد استانبول وغير ذلك (٨٦).

وكان للرصد آلات وهى على أنواع وتختلف بحسب الغرض منها وهناك أسماء بعضها : اللبنة والحلقة الاعتدالية وذات الأوتار وذات الحلق وهى خمسة دوائر متخذة من نحاس (الأولى دائرة نصف النهار وهى مركوزة على الأرض ودائرة معدل النهار ودائرة منطقة البروج ودائرة العرض ودائرة الميل) وذات السمات والارتفاع والآلة الشاملة

(٨٥) طوقان ، علماء العرب ، ص ٦٧ - ٦٨ ؛ ولزبد من التفاصيل انظر طوقان ، تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، القاهرة ، بيروت (١٩٦٣م) ، ص ١١٥ - ١٣٨ ؛ موسى ، علم الفلك ، ص ٤٢ - ١٨٩ ؛ سليمان وحلاق ، دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٧١ - ١٧٥ ؛ خليل ، العلوم الطبيعية عند العرب ، ص ٨٣ - ١١٤ ؛ عاشور ، دراسات فى الحضارة ، ص ١١١ - ١١٤ ، الميدانى ، محمود عصام ، خطوط الطول والعرض وقياس محيط الأرض فى الجغرافيا العربية ، الكويت (١٩٩٣م) ، (٦٢ صفحة) ؛ الدفاع ، أثر علماء ، ص ٢٠ - ٢١ ؛ مجموعة علماء ، موسوعة تاريخ العلوم العربية ، الجزء الأول ، علم الفلك النظرى والتطبيقى ، بيروت ، (١٩٩٧م) ، (١ - ٢ من الجزء الأول .) ؛ فؤاد باشا ، أحمد ، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة ، القاهرة (١٩٨٣م) ، ص ٩٤ - ١٠٧ ؛ صالحية ، محمد عيسى ، بحوث ومقالات فى الحضارة العربية الإسلامية ، بيروت ، الكويت (١٩٨٨م) ، ص ١٧١ - ١٩٥ .

(٨٦) طوقان ، علماء العرب ، ص ٦٨ - ٦٩ ؛ ولزبد من التفاصيل انظر الكتاب القيم الموسوم بـ « المراصد الفلكية فى العالم الإسلامى » لمؤلفه أيدين صايلى ، ترجمة عبد الله العمر ، مراجعة عبد الحميد صبره ، الكويت (١٩٩٥م) ، (٧٠٠ صفحة فضلا عن سبع لوحات) وهو أوفى كتاب فى بابه ، موسى ، علم الفلك ، ص ٢٣٥ - ٢٤٦ ؛ هيل ، العلوم والهندسة ، ص ٨٢ - ٨٤ .

وذاات الشعبتين وذاات الجيب وذاات المشتبهة بالناطق ، والاسطرلاب وأنواعه المتعددة ، وقد اعترف علماء الغرب بأن المسلمين أتقنوا صنعة هذه الآلات وثبت أن الاصطرلاب ، ذاات السميت ، والارتفاع والآلة الشاملة ، والرقاص ، وذاات الأوتار ، والمشتبهة بالناطق ، وكل هذه من مخترعات المسلمين عدا ما اخترعوه من البراكير والمساطر ، فضلا عن التحسينات التى ادخلوها على كثير من آلات الرصد المعروفة قبل الإسلام .

وفى هذه المراصد أجرى المسلمون أرصاداً كثيرة ووضعوا الأزياج القيمة الدقيقة (وهى جداول حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة فى وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك) ومن خلالها يعرف مواضع الكواكب فى افلاكها وقواعد معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية ومعرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض.

ومن أشهر الأزياج زيغ إبراهيم الفزارى وزيغ الخوارزمى وزيغ البتانى وأزياج المأمون وابن السمع وابن الشاطر وأبى حماد الأندلسى وابن يونس المصرى وأبى حنيفة الدينورى وأبى معشر البلخى والایلخانى وعبد الله المروزى البغدادى والشامل والصغانى لأبى الوفا البوزجانى والشاهى لنصير الدين الطوسى وشمس الدين وملكشاهى والمقتبس لأبى العباس أحمد وغير ذلك^(٨٧).

وبامعان النظر فى كتاب الزيغ الصابى للبتانى نجده دائرة معارف فلكية ضخمة وضع فيها البتانى دائرة الفلك وارتفاع القطب الشمالى ومعرفة زيادة النهار ومعرفة سمت الارتفاع والظل من دائرة الافق ومعرفة عروض البلدان ومعرفة ارتفاع الشمس وقت انتصاف النهار ومعرفة ارتفاع الكواكب وطول السنة الشمسية وأفلاك القمر والكواكب ومعرفة كسوف الشمس ومطالع البروج وغير ذلك من المعلومات الهامة المدعمة بجداول رياضية غاية فى الدقة والوضوح^(٨٨).

أما عن أعلام الفلك قحسبنا أن نشير إلى بعضهم ومنهم البتانى (أبى عبد الله

(٨٧) طوقان ، علماء العرب ، ص ٦٩ - ٧٠ : الدفاع ، أثر علماء ، ص ٣٢ : موسى ، علم الفلك ، ص ٢٩١

- ٣١١ : هيل ، العلوم والهندسة ، ص ٧٤ - ٨٢ .

(٨٨) عاشور ، دراسات ، ص ١١٢ .

محمد بن جابر بن سنان المتوفى ٢١٧هـ / ٨٣٢م) وقد حرف الأوروبيون اسمه إلى Al-bateyni أو الباتاغانيسوس ومن مؤلفاته الزيج الصابئ ورسالة فى عمليات التنجيم الدقيقة وكتاب تعديل الكواكب وكتاب فى معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك وكتاب عن دائرة البروج والقبة الشمسية وغير ذلك .

والصوفى (وهو أبو الحسن عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سهل الصوفى المتوفى ٣٧٦هـ / ٩٨٦م) ومن مؤلفاته كتاب الكواكب الثابتة وكتاب صور الكواكب الثماني والأربعين وكتاب العمل بالاسطرلاب وغير ذلك .

والبوزجاني (وهو أبو الوفاء محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس الحاسب المتوفى ٣٨٨هـ / ٩٩٨م) ومن مؤلفاته كتاب فى الفلك ورسالة فى حركة الكواكب ورسالة فى الأمور التى تعرف حركات الكواكب وكتاب الزيج الشامل وكتاب الكامل وغير ذلك .

وابن يونس المصرى (وهو على بن عبد الرحمن أحمد بن يونس الصدفى المتوفى ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م) ومن مؤلفاته كتاب الزيج الحاكمى وكتاب الظل وكتاب الميل وكتاب عن الرقاص وغير ذلك ؛ ويرجع الفضل إلى ابن يونس فى اختراع الرقاص (الموار) المعروف عند الغرب بالبندول لمعرفة الزمن وليس جاليليو ؛ ومع ذلك فإنه يحسب للأخير أنه صاغ قانون البندول فى صورته الرياضية المعروفة .

المجريطى (وهو أبو القاسم مسلمة أحمد المرحيط المعروف بالمجريطى المتوفى ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) ومن مؤلفاته رسالة فى الاسطرلاب وكتاب اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني وغير ذلك .

والبيرونى (وهو أبو الريحان محمد بن أحمد المتوفى ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) ومن مؤلفاته رسالة فى علم الفلك وعنوانها القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم وكتاب علم الهيئة وكتاب عن النجوم وكتاب منازل القمر وكتاب جلاء الاذهان فى زيج البتاني وكتاب عن حركة الشمس وكتاب العمل بالاسطرلاب ورسالة « افراد المقال فى أمر الظلال » ، ورسالة تمهيد المستقر لمعنى الممر وغير ذلك .

والعرضى (وهو مؤيد الدين بن بريك المهندس العرضى العامرى المتوفى

(٦٦٤هـ / ١٢٦٦م) ومن مؤلفاته كتاب الهيئة (وقد تم تحقيقه مؤخراً) (٨٩). ورسالة فى كيفية عمل آلات الرصد وكيفية استعمالها ورسالة العمل فى الكرة الكاملة ورسالة برهان الشكل الرابع فى تاسعة المجسطى وغير ذلك .

وابن الشاطر (وهو أبو الحسن علاء الدين على بن إبراهيم بن محمد الأنصارى المتوفى (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) ومن مؤلفاته الزيج الجديد ورسالة عن صنع الاسطرلاب وكتاب المختصر فى عمل الاسطرلاب ورسالة فى تعليق الأرصاء ومقالة عن النفع العام فى العمل بالربع التام ورسالة فى العمل بالربع الهلالى ورسالة فى الربع العلالتى وغير ذلك (٩٠).

وفى كتابنا المفصل سوف نتطرق بالتفصيل إلى دراسة اسهامات هؤلاء العلماء وغيرهم فى مجال علم الفلك .

كذلك لا تفوتنا الاشارة إلى أن تقدم علم الفلك كان له أثره الكبير فى تطور وتقدم الملاحة وعلوم البحار فى الحضارة الإسلامية (٩١). (وهو ما سنعود إلى تفاصيله فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى) .

(٨٩) العرضى ، مؤيد الدين ، ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م، كتاب الهيئة ، تحقيق وتقديم جورج صليباً ، ضمن سلسلة تاريخ العلوم عند العرب (٢) تاريخ علم الفلك العربى ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣ (٢٠٠١م)، (٤٠٨ صفحة) .

(٩٠) الدفاع ، أثر علماء العرب والمسلمين فى تطوير علم الفلك ، ص٤٣ - ١٣١ ؛ رواد علم الفلك فى الحضارة العربية والإسلامية ، الرياض (١٩٩٣م)، ص٤١ - ١٣٣ ؛ العلوم البحتة فى الحضارة العربية والإسلامية ، بيروت ، ط٢ (١٩٨٣م)، ص٣٦٥ - ٤٣٠ ؛ طوقان ، تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، (من الفصل الأول إلى الفصل التاسع)؛ عرابى ، سمير ، علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا عند علماء العرب والمسلمين ، القاهرة ، الكويت ، الجزائر (١٩٩٩م)، ص١١ - ٢٩ ؛ إسلام، علماء ، ص٦٨ - ٧٢ ، ٨٦ - ٨٧ ، ٩١ - ٩٤ ، ٩٨ - ١٠٤ ، ١٠٩ - ١١٢ .

(٩١) عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ص١٦٩ - ١٨٠ ؛ شهاب ، حسن صالح ، الملاحة الفلكية عند العرب ، الكويت (٢٠٠١م)، (١٢٣ صفحة)؛ مجموعة علماء ، موسوعة تاريخ العلوم العربية ، ج١ ، بيروت (١٩٩٧م)، ص٢٩٣ - ٣٣٧ .

٤ - علم الرياضيات :

للرياضيات دور أساسى خطير فى خدمة كافة العلوم فالفلك والفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة وغيرها من العلوم لا غنى لها جميعا عن الرياضيات .

وقد برع المسلمون فى العلوم الرياضية وأجادوا فيها وأضافوا إليها اضافات هامة أثارت الدهشة والاعجاب لدى علماء الغرب فاعترفوا بفضل علماء الحضارة الإسلامية وأثرهم الكبير فى التقدم العلمى .

ونستطيع أن نجمل اسهامات العلماء وانجازاتهم فى العلوم الرياضية فى النقاط التالية :

١ - نظام الترقيم : - اطلع المسلمون على حساب الهنود فأخذوا عنه نظام الترقيم إذ أنهم رأوا أنه أفضل من النظام الشائع بينهم (نظام الترقيم وفق حساب الجمل - ايجاد هوز حطى كامن سعفص قرشت ثخذ ضظغ - ..) وكان لدى الهنود أشكال عديدة للأرقام هذب العرب بعضها وكونوا من ذلك سلسلتين عرفت احدهما بالأرقام الهندية وهى التى تستعملها أكثر الأقطار العربية والإسلامية وعرفت الثانية بالأرقام الغبارية وقد انتشر استعمالها فى الغرب الإسلامى (بلاد المغرب والأندلس) وعن طريق الأندلس والتجارة دخلت هذه الأرقام إلى أوروبا وعرفت فيها باسم الأرقام العربية Arabic Numerals ، وليس المهم هنا هو تهذيب المسلمين للأرقام وتوفيرهم فى اختيار هاتين السلسلتين أو ادخالهما إلى أوروبا ، بل المهم إيجاد طريقة جديدة لها وهى طريقة الاحصاء العشرى واستعمال الصفر لنفس الغاية التى نستعملها الآن .

ومن مزايا الأرقام العربية أنها تقتصر على عشرة أشكال بما فيها الصفر ومن هذه الأشكال يمكن تركيب أى عدد مهما كان كبيراً^(٩٢). فى حين أن الأرقام الرومانية تتصف بالتعقيد الشديد والصعوبة البالغة فى إجراء العمليات الحسابية بحيث كان لا يمكن فى ظله أن يرتقى علم الحساب ذلك أن قيمة الرقم فى هذا النظام الرومانى لا يمكن أن تتغير بنقله من منزل أو خانة إلى منزل أو خانة أخرى فالخمس لا تغنى سوى خمسة ولا يمكن نقلها إلى خانة أخرى لتعنى خمسين أو خمسمائة أو خمسة آلاف ، هذا

(٩٢) طوقان ، علماء العرب ، ص ٥٢ - ٥٣ .

إلى أن الأرقام الرومانية محدودة العدد تنحصر فيما يلي :

$$\begin{array}{ll} ١٠٠ = C & ١ = I \\ ٥٠٠ = D & ٥ = V \\ ١٠٠٠ = M & ١٠ = X \\ & ٥٠ = L \end{array}$$

فإذا أردنا أن نكتب ٣٨٣ بالأرقام الرومانية فإنها تكتب على هذا النحو CCCLXXXIII فما بالنا إذا أردنا أن نكتب رقما يعبر عن بضعة ملايين أو مليارات أو أن نحجى بتلك الأرقام عملية حسابية معقدة فيها من الضرب والقسمة والجذور والكسور بعض الشيء ، لذلك كان من المتعذر أن يرتقى علم الحساب في ظل هذا النظام (٩٣).

أما الأرقام العربية فمن مزاياها أنها تقوم على النظام العشري وعلى أساس القيم الوضعية بحيث يكون للرقم قيمتان : قيمة في نفسه ، وقيمة بالنسبة إلى المنزلة التي يقع فيها ، ولعل من أهم مزايا هذا النظام ادخال الصفر في الترقيم واستعماله في المنازل الخالية من الأرقام ، ولا تقتصر هذه المزايا على تسهيل الترقيم وحده بل تعدته إلى تسهيل جميع الأعمال الحسابية ، وعلى ذلك يمكن القول أنه لولا الصفر واستعماله في الترقيم لما فاقت الأرقام العربية غيرها من الأرقام ولما كان لها أية ميزة بل لما فضلتها الأمم المختلفة على الأنظمة الأخرى المستعملة في الترقيم . وللصفر فوائد أخرى - هي من عظم الشأن في مكان لا يقل خطرها عن التي المحنا إليها - فلولاها لما استطعنا أن نحل كثيراً من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات بالسهولة التي نحلها بها الآن ولما تقدمت فروع الرياضيات تقدمها المشهود ، وكذلك لما تقدمت المدنية هذا التقدم العجيب (٩٤).

(٩٣) عاشور ، دراسات ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٩٤) طوقان ، علماء ، ص ٥٣ - ٥٤ ؛ ولزبد من التفاصيل انظر ، طوقان ، تراث العرب العلمي ، ص ٤٧ - ٥١ ؛ سليمان وحلاق ، دراسات في تاريخ العلوم ، ص ١٨٣ - ١٨٥ ؛ سليمان ، مصطفى محمود ، تاريخ العلوم ، ص ٣١٧ - ٣٢١ ؛ الخوري ، موسى ديب ، قصة الأرقام عبر حضارات الشرق القديم ، دمشق (٢٠٠٢م) ، ص ٢٢٦ - ٢٣٥ ؛ حيدر ، غريتا ، الأرقام العربية ، مصدرها وتطورها ، الكويت (١٩٩٩م) ، ص ١١٩ - ١٤٠ ؛ سعيدان ، أحمد سليم ، قصة الأرقام والترقيم ، عمان (١٩٨٣م) ، ص ٦٧ - ٨٨ ؛ سعد ، قاسم على ، الأرقام العربية ، الأحمدية ، العدد الثاني ، دبي ، أغسطس ، (١٩٩٨م) ، ص ٢٥٤ - ٣٠٩ .

٢ - يرجع الفضل إلى هؤلاء العلماء في أنهم عرفوا الكسر العشري ووضعو علامته على يد غياث الدين الكاشي .

٣ - يرجع إليهم الفضل في تحديد النسبة بين محيط الدائرة وقطرها وهي النسبة التي يرمز إليها بحرف (ط) ، وقسموا الأعداد إلى زوجية وفردية وقالوا ان الواحد أصل الاعداد جميعا فردية كانت أو زوجية ووضعو الطرق العديدة لإجراء العمليات الحسابية وتوسعوا في بحوث النسبة والتناسب ، وغير ذلك من المباحث التي ارتفعت بعلم الحساب والتي لولاها ما وصل هذا العلم إلى ما وصل إليه اليوم .

٤ - اشتغل هؤلاء العلماء بالجبر واتوا فيه بالعجب والعجاب وهم أول من أطلق لفظة جبر على العلم المعروف الآن بهذا الاسم وعنهم أخذ الغرب هذه اللفظة (Algebra) وكذلك هم أول من ألف فيه بصورة علمية منظمة ، وأول من ألف فيه محمد بن موسى الخوارزمي في عهد الخليفة العباسي المأمون وكان كتابه الجبر والمقابلة منهلاً نهل منه علماء العرب والغرب على السواء واعتمدوا عليه في بحوثهم وأخذوا عنه كثيراً من النظريات ، وقد أحدث هذا الكتاب أكبر الأثر في تقدم علمي الجبر والحساب بحيث يصح القول بأن الخوارزمي وضع علم الجبر وعلم الحساب للناس أجمعين.

٥ - قسم هؤلاء العلماء المعادلات إلى ستة أقسام ووضعو حلولاً لكل منها وحلوا المعادلات الحرفية واستخدموا الجذور الموجبة ، ولم يجهلوا أن المعادلة ذات الدرجة الثانية لها جذران ، كما استخرجوا جذري المعادلة إذا كانا موجبين ، وحلوا كثيراً من معادلات الدرجة الثانية بطرق هندسية ، كما وضعوا حلولاً جبرية وهندسية لمعادلات ابتدعوها مختلفة التركيب واستعملوا منحنى نيكوميديس (Conchoid) في تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية ، وكذلك استعملوا الطريقة المعروفة الآن في إنشاء الشكل الاهليلجي .

٦ - استعملوا الرموز (قبل فيتا وستيفنس وديكارت) ومن ذلك استعمالهم لعلامة الجذر الحرف الأول من كلمة جذر (ج) وللمجهول الحرف الأول من كلمة شيء (ش) يعنى (س) وللمربع المجهول الحرف الأول من كلمة مال (م) يعنى س^٢ ، وللمكعب المجهول الحرف الأول من كلمة كعب يعنى س^٣ ، ولعلامة المساواة حرف (ل) وللنسبة ثلاث نقط (:) ، وكان لاستعمال الرموز أثر بليغ في تقدم الرياضيات العالية .

٧ - حلوا معادلات الدرجة الثالثة وقد أجادوا فى ذلك وابتكروا ابتكارات قيمة هى محل اعجاب علماء الغرب مثل كاجورى وبول ؛ فيكونون بذلك قد سبقوا ديكارت وبيكر وغيرهما فى هذه البحوث ، كما حلوا بعض أوضاع المعادلات ذات الدرجة الرابعة واكتشفوا النظرية القائلة بأن مجموع مكعبين لا يكون مكعبا وهذه أساس نظرية فرما Fermat .

٨ - وضعوا أساس الهندسة التحليلية عن طريق الجمع بين الهندسة والجبر فاستخدموا الجبر فى بعض الأعمال الهندسية كما استخدموا الهندسة محل بعض الأعمال الجبرية .

٩ - مهدوا لعلم التفاضل والتكامل وعلم اللوغاريتمات عن طريق بحوثهم فى المتواليات العددية والهندسية .

١٠ - يرجع الفضل الأكبر لهؤلاء العلماء فى أنهم وضعوا علم حساب المثلثات بشكل علمى منظم مستقل عن الفلك وفى الاضافات الأساسية الهامة التى جعلت الكثيرين يعتبرونه علما إسلاميا كما اعتبروا الهندسة علما يونانيا ، ولا يخفى ما لعلم حساب المثلثات من أثر فى الاختراع والاكتشاف وفى تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية والصناعية .

١١ - استعملوا الجيب بدلا من وتر ضعف القوس الذى كان يستعمله اليونان ولهذا أهمية كبرى فى تسهيل حلول الأعمال الرياضية وهم أول من أدخل المماس فى عداد النسب المثلثية ، وبرهنوا على أن نسبة جيوب الأضلاع بعضها إلى بعض كنسبة جيوب الزوايا الموتره بتلك الأضلاع بعضها إلى بعض فى أى مثلث كروى واستعملوا المماسات والقواطع ونظائرها فى قياس الزوايا والمثلثات ، كما عملوا الجداول الرياضية للمماس وتمامه والقاطع وتمامه وأوجدوا طريقه لعمل الجداول الرياضية للجيب ، واكتشفوا العلاقة بين الجيب والمماس والقاطع ونظائرها وتوصلوا إلى القاعدة الأساسية لمساحة المثلثات الكروية ، كما اكتشفوا القانون الخامس من القوانين الستة التى تستعمل فى حل المثلث الكروى القائم الزاوية .

١٢ - اخترعوا حساب الأقواس التى تسهل عمليات قوانين التقويم وتريح من استخراج الجذور المربعة .

١٣ - وإذا كان العرب قد ترجموا كتاب اقليدس فى الهندسة وسموه كتاب

الأصول ، وأفادوا منه وألفوا كتباً على نسقه ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد بل أدخلوا قضايا جديدة غير مسبقة ، وصححوا وأضافوا وابتكروا بحيث خلقوا هذا العلم خلقاً جديداً ، ومن ذلك أنهم بينوا كيفية إيجاد نسبة محيط الدائرة إلى قطرها ، وقد أوجدوا تلك النسبة إلى درجة كبيرة من التقريب كانت محل إعجاب العلماء الغربيين . كذلك استطاع الطوسي إصلاح نظرية اقليدس فعدل عن نظريته القائمة على الخطين المتوازيين على أساس الفراغ المدرك ، وبذلك وضع الطوسي لأول مرة أساس نظرية الحيز الزائد وهي النظرية التي تضيف أحداثاً رابعة - وهو الزمان - إلى الأحداث أو الأبعاد الثلاثة في نظرية اقليدس .

ومهما يكن من أمر فإن مؤلفات علماء المسلمين في الهندسة كثيرة في المساحات والحجوم وتحليل المسائل الهندسية واستخراج المسائل الحسابية بجهتي التحليل الهندسي والتقرير العددي وفي التحليل والتركيب الهندسيين على جهة التمثيل للمتعلمين وفي موضوعات أخرى لتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية ورسم المضلعات المنتظمة وربطها بمعادلات جبرية وفي محيط الدائرة وغير ذلك مما يتعلق بالموضوعات التي تحتاج إلى استعمال الهندسة ، كما طبقوا الهندسة على المنطق وألف ابن الهيثم كتاباً في ذلك^(٩٥).

(٩٥) طوقان ، علماء ، ص ٥٤ - ٦٤ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ١٠٥ - ١٠٩ ؛ ولزيد من التفاصيل انظر ، طوقان ، تراث العرب العلمي ، ص ٥١ - ١٠٨ ؛ سليمان وحلاق ، دراسات في تاريخ العرب ، ص ١٨٥ - ١٨٩ ؛ سليمان ، مصطفى محمود ، تاريخ العلوم ، ص ٣٢٢ - ٣٢٥ ؛ الدفاع ، العلوم البهتة ، ص ١١١ - ١٤٨ ؛ الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي ، نيويورك (١٩٧٩م) ، ص ٦٢ - ٨٠ ؛ شربل ، مورييس ، الرياضيات في الحضارة الإسلامية ، طرابلس - لبنان (١٩٨٨م) ، ص ٧٧ - ٢٢٥ ؛ هيل ، العلوم والهندسة ، ص ٣٤ - ٥٢ ؛ فرحات ، التراث العلمي ، ص ٦٤١ - ٦٦٣ ؛ فؤاد باشا ، التراث العلمي ، ص ٤٨ - ٦٦ ؛ منتصر ، عبد الحليم ، تاريخ العلم ودور العرب في تقدمه ، القاهرة ، ط ٨ ، (١٩٩٠م) ، ص ٦١ - ٧٣ ؛ صالحة ، بحوث ومقالات ، ص ٢٦٧ - ٢٩٠ . ولمن أراد أن يتوسع في بعض الموضوعات فليتنظر في المؤلفات التالية من مصادر ومراجع : الكرجي ، أبي بكر محمد بن الحسن ، الكافي في الحساب ، تحقيق ودراسة سامي شلهوب ، معهد التراث العلمي ، جامعة حلب (١٩٨٦م) ، (٣١٧ صفحة) ؛ ابن الهائم المقدسي ، الحاوي في الحساب ، تحقيق رشيد الصالحى وخضير المنشداوى ، جامعة بغداد (١٩٨٨م) ، (١٢٤ صفحة) ؛ البوزجاني ، أبي الوفا محمد بن محمد ، ما يحتاج إليه الصانع من علم الهندسة ، تحقيق صالح أحمد العلي ، جامعة بغداد (١٩٧٩م) (١٧٧ صفحة) ؛ منظومات أبو الياسمين في أعمال الجبر والهندسة تحقيق ودراسة جلال شوقي (١٩٨٨م) ، (٢٠٦ صفحة) ؛ سعيدان ، أحمد سليم تاريخ علم الجبر في العالم العربي دراسة مقارنة =

أما عن أعلام علم ارياضيات فحسبنا أن نشير إلى بعضهم ومنهم الخوارزمي (وهو محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى (٢٣٥هـ / ٨٥٠م) ومن مؤلفاته كتاب حساب الجبر والمقابلة وكتاب الجمع والتفريق وكتاب جمع فيه بين الحساب والهندسة ورسالة عن النسبة التقريبية وقيمتها الرياضية ورسالة وضع فيها معنى الوحدة المستعملة في المساحات والحجوم وغير ذلك . والكندي (وهو أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي المتوفى (٢٥٢هـ / ٨٦٧م) ومن مؤلفاته كتاب في مبادئ الحساب وكتاب في استعمال الحساب الهندي ورسالة في تناسق الأعداد ورسالة في استعمال الخط المستقيم لتسهيل عملية الضرب (وهي الطريقة المستعملة الآن في الرياضيات المعاصرة) ورسالة في علم الهندسة الكروية ورسالة في الهندسة المستوية ورسالة في تقسيم المثلث والمربع وعملهما ، ورسالة في كيفية عمل دائرة متساوية لسطح اسطوانة مفروضة ورسالة في قسمة الدائرة ثلاثة أقسام وغير ذلك .

وثابت بن قرة (وهو أبو الحسن ثابت بن قرة بن عرفان الحراني الصابئي المتوفى (٢٨٨هـ / ٩٠٠م) وهو أول من مهد تمهيداً عملياً لعلم التفاضل والتكامل وله في الهندسة محاولة البرهنة على فرضية التوازي المعروفة باسم الموضوع أو المصادرة الخامسة لاقليدس وكان نتيجة هذه المحاولة والمحاولات التالية لها لابن الهيثم وعمر الخيام والطوسي ظهور هندسة جديدة تعرف بالهندسة الفوقية (اللاقليدية) .

وابتكر ثابت قوانين للاعداد المتحابية وعمم نظرية مثلث قائم الزاوية القائلة أن مساحة المربع المنشأ على الوتر تساوي مجموع مساحة المربعين المنشئين على الضلعين الآخرين ولم يكتف في المربع المنشأ على الوتر ولكنه استخدم كذلك المستطيل ومتوازي الاضلاع بدلاً من المربع وهذا يعني أنه تناول النظرية من جميع الجوانب كما هو الحال في الرياضة الحالية .

= مع تحقيق لأهم كتب الجبر العربية ، جزءان ، الكويت (١٩٨٦م) ؛ ابن سنان ، أبو اسحق إبراهيم ، ت ٣٣٥هـ / ٩٤٦م ، رسائل ابن سنان ، تحقيق أحمد سليم سعيدان ، الكويت (١٩٨٣م) ، (٣٧٥ صفحة) ، مجموعة علماء ، سلسلة تاريخ العلوم العربية ، ج١ ، تاريخ الرياضيات العربية بين الجبر والحساب ، بيروت (١٩٨٨م) ، (٣٩٤ صفحة) ؛ ج٢ ، الرياضيات والعلوم الفيزيائية ، بيروت (١٩٩٧م) ، (الأبحاث ذات الأرقام من ١٠ إلى ١٥) ؛ ج٥ ، الجبر والهندسة في القرن الثاني عشر ، مؤلفات شرف الدين الطوسي ، بيروت (١٩٩٨م) ، (٦٩٧ صفحة) .

والبستاني المتوفى (٣١٧هـ / ٩٢٩م) واسهاماته فى علم حسابات المثلثات ونظريات الجيب الذى ابتكره من فكرة الأوتار كما ابتكر مفاهيم جيب التمام والظل وظل التمام فضلا عن تطبيق القوانين والعمليات الجبرية على المعادلات المثلثية .

واليوزجاني المتوفى (٣٨٨هـ / ٩٩٨م) ومن مؤلفاته كتاب حساب اليد وكتاب فى الأشكال الهندسية عموما ورسالة فى الرسم الهندسى واستعمالات آلات الرسم وكتاب عن علم حساب المثلثات وكتاب استخراج الأوتار وكتاب فى الهندسة ورسالة فى استخراج ضلع المربع .

والكرخى (وهو أبو بكر محمد بن الحاسب الكرخى المتوفى (٤٢١هـ / ١٠٢٠م) ومن مؤلفاته العدد الذى لو أضيف إليه مربعه لكان الناتج مربعاً ولو طرح منه مربعه لكان الناتج مربعاً وعدداً مجموع مكعبهما يساوى مربع العدد الثالث وتطوير القانون العام المعروف لحل معادلات الدرجة الثانية ، واستنباط قانوناً جديداً لإيجاد الجذر التربيعى ودراسة مفصلة للمتواليات العددية والهندسية والتوافقية وغير ذلك .

وابن الهيثم (وهو أبو على الحسن بن الحسن بن الهيثم المتوفى ٤٣٠هـ / ١٠٣٩م) ومن مؤلفاته المختصر فى علم الهندسة والكتاب الجامع فى أصول الحساب وكتاب فى الجبر والمقابلة ورسالة عن المخروط وكتاب مساحة المجسمات المكافئة وكتاب حل شكوك اقليدس فى الأصول وكتاب فيه حلول مسائل من الكتاب الخامس لاقليدس ورسالة تحتوى على دراسة نظرية الخطوط المتوازية ومحاولة لبرهان المسلمة الخامسة لاقليدس .

ورسالة فى حساب الخطأين ومقالة فى علم الهندسة والمثلثات وحساب المعاملات وغير ذلك .

والبيرونى (وهو أبو الريحان محمد بن أحمد المتوفى ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) ومن مؤلفاته رسالة فى استخراج الأوتار فى الدائرة بخواص الخط المنحنى فيها وكتاب فى طرق الحساب وكتاب جمع الطرق السائرة فى معرفة أوتار الدائرة ورسالة فى الهندسة وجداول رياضية للجيب والظل وكتاب حساب المثلثات وكتاب المسائل الهندسية وغير ذلك .

وعمر الخيام (وهو أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام السمرقندى المتوفى

(٥١٧هـ/١١٢٣م) واسهاماته كثيرة فى حل معادلات الدرجة الثالثة وتطوير علم الجبر وعلم الهندسة التحليلية وحاول البرهنة على فرضية التوازى لاقليدس وقدم فيها برهانا جديداً فضلاً عن منهجه المدهش فى دراسة المعادلات الجبرية من الدرجة الأولى والثانية والثالثة والرابعة وهو أول من ذكر أن المعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة لها جذران كما حصل على الجذور التكعيبية والتربيعية بطرق رياضية بحتة .

ويرجع إليه الفضل فى ابتكار التقويم الجلالى (نسبة إلى السلطان السلجوقى جلال الدين ملكشاه) وهو أدق وأضبط من التقويم الجريجورى المتبع الآن فى العالم ذلك أن هذا التقويم الأخير يؤدى إلى فرق يوم كل ٣٣٣٠ سنة فى حين أنه فى التقويم الجلالى لا يبلغ يوماً إلا كل ٥٠٠٠ سنة .

والكاشى (وهو غياث الدين جمشيد بن مسعود الكاشى (نسبة إلى مدينة قاشان) المتوفى (٨٢٩هـ / ١٤٣٦م) ؛ ومن مؤلفاته استخراج جيب الدرجة الأولى وكتاب مفتاح الحساب ويرجع إليه الفضل فى ابتكار الكسر العشرى وفى تعميم نظرية ذات الحدين لأى أس حقيقى (كسراً كان أو عدداً صحيحاً موجباً أو سالباً) وهى النظرية التى تنسب خطأً إلى اسحاق نيوتن .

والقلصادى (وهو أبو الحسن على بن محمد المتوفى (٨٩١هـ / ١٤٩٦م) ومن مؤلفاته كشف الأسرار عن علم الغبار وكتاب قانون الحساب وكتاب كشف الجلباب عن علم الحساب ، ويرجع إليه الفضل فى ابتكار الرموز والإشارات الجبرية^(٩٦) (السابق الإشارة إليها) .

وفى كتابنا المفصل سوف نتطرق بالتفصيل إلى اسهامات هؤلاء العلماء وغيرهم فى مجال علم الرياضيات .

(٩٦) الدفاع ، رواد العلوم الرياضية فى الحضارة العربية والإسلامية ، منشورات نادى جازان الأدبى ، السعودية (١٩٩٣م) ، ص ٥٩ - ٢٠٢ ؛ العلوم البحتة ، ص ١٤٨ - ٢٩٥ ؛ موسوعة نوابغ العرب والمسلمين فى العلوم الرياضية ، الرياض ، ط ٢ (١٩٩٨م) ، ص ٥٩ - ٢٠٢ . (ومما له دلالة أن هذا الكتاب هو نفسه كتاب رواد العلوم الرياضية ولكن العنوان فقط هو الذى تم تغييره) ؛ عاشور ، دراسات ، ص ١٠٥ - ١٠٩ ؛ عرابى ، علوم الفلك والرياضيات ، ص ٤٤ - ٦٢ ؛ إسلام ، علماء العرب والمسلمين ، ص ٤٢ - ٤٥ ، ٦٨ - ٧٢ ، ٩١ - ٩٤ ، ١٠٥ - ١١٢ ، ١٢٥ - ١٢٧ ، ١٨٦ - ١٨٩ .

٥- علم الفيزياء أو الطبيعة :-

يهتم هذا العلم بدراسة الكثير من الظواهر الطبيعية المرتبطة بطبيعة المواد والصوت والضوء والمغناطيسية والحركة والروافع وغير ذلك من الظواهر التي تفسر كثيراً من طبيعة الكون وخصائص المواد والتي تخدم الإنسان في حياته الخاصة .

وقد كان هذا العلم من العلوم المعروفة قبل ظهور الإسلام ويرجع الفضل إلى علماء اليونان في اكتشاف كثير من مبادئه الأولية ولهم مؤلفات عديدة تمت ترجمة الكثير منها إلى اللغة العربية ، غير أن المسلمين لم يقفوا عند حد النقل والترجمة بل توسعوا فيها وأضافوا إليها اضافات هامة تعتبر أساساً لبعض المباحث الطبيعية ، وهم الذين وضعوا أساس البحث العلمي الحديث وقد قويت عندهم الملاحظة وحب الاستطلاع ورغبوا في التجربة والاختبار فأنشأوا المعامل ليحققوا نظرياتهم وليستوثقوا في صحتها .

وبذلك ابتكروا وتوصلوا إلى ما لم يتوصل إليه من قبل وعلى ضوء هذا المنهج أصبح علم الفيزياء أو الطبيعة بفضل المسلمين علماً متكاملأً يستند إلى ركائز وأسس علمية تجريبية وليس إلى فروض نظرية وأوهام غير واقعية .

وعن اسهامات علماء الحضارة الإسلامية وانجازاتهم في هذا العلم حسبنا أن نشير إلى بعضها ومنها في البصريات أو علم الضوء الذي وصل إلى أعلى درجة من التقدم والازدهار بفضل الحسن بن الهيثم ويعد كتابه المناظر من أهم الكتب في العصور الوسطى ومن أكثرها استيفاءً لبحوث الضوء ، وابن الهيثم هو الذي أضاف القسم الثاني من قانون الانعكاس القائل بأن زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوى واحد ، وأثبت خطأ نظرية بطليموس القائلة بأن النسبة بين زاويتي السقوط والانعكاس ثابتة بينما أثبت ابن الهيثم أن هذه النسبة لا تكون ثابتة بل تتغير .

وقام بحل معادلة من الدرجة الرابعة باستعمال القطع الزائد وكتب في الزيج الكرى وفي تقليل الشفق وهو أول من كتب عن أقسام العين وأول من رسمها بوضوح تام وبين كيف ننظر إلى الأشياء بالعينين في آن واحد وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئي إلى العينين ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية في محلين متماثلين ، وله أيضاً معرفة بخصائص العدسات اللامة والمفرقة والمرايا في تكوين الصور ، ومهما

يكن من أمر فإن مؤلفات ابن الهيثم ومباحثه كانت المرجع المعتمد فى أوروبا حتى القرن ١٠هـ / ١٦م .

كما بحث هؤلاء العلماء فى ظاهرة قوس قزح وفى المرايا المحرقة كما بحثوا فى سرعة الضوء وأنها إذا قيست بسرعة الصوت كانت عظيمة جداً على حد قول البيروني ، وعلى ذلك قالوا إن الضوء يسبق الصوت وأنه أسرع منه وعللوا ذلك برؤية البرق قبل سماع الصوت « واعلم أن الرعد والبرق يحدثان معا لكن يرى البرق قبل أن يسمع الرعد ؛ لأن الرؤية تحصل بمראה البصر وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى الصماخ وذلك يتوقف على نموذج الهواء وذهاب النظر (أى سير الضوء) أسرع من وصول الصوت» .

وكان لهم اسهاماتهم فى مجال المغناطيسية وعمل بعض التجارب عليها ، وقالوا ان الصوت ينتشر على شكل موجات تتسع دائرتها وتضعف كلما ابتعدت عن مركز صدور الصوت « فإذا صدم جسم جسم آخر انسل ذلك الهواء بينهما وتدافع وتوج إلى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروى واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل » وعللوا صدى الصوت بأنه يحدث لانعكاس الموجات الصوتية عند اصطدامها بحاجز مثل جبل أو حائط . وقد طبقوا نظرياتهم فى الصوت وغيره على الموسيقى وبرعوا فى هذا الفن وقطعوا فيه شوطا بعيداً ، فقد قاموا بتطوير الآلات الموسيقية المعروفة واخترعوا آلات جديدة بل والفوا كتباً نفيسة فى الموسيقى بلغ بعضها الذروة وكانت ولا تزال من المصادر المعتمدة جداً فى تاريخ الموسيقى وتطورها .

واستعملوا موازين غاية فى الدقة والتطور فقد ثبت أن فرق الخطأ فى الوزن كان أقل من أربعة أجزاء من ألف جزء من الجرام وكان لديهم موازين أدق من ذلك ، وقاموا بتأليف الكتب فى أنواع الموازين وعملها ، ويرتبط بذلك بحثهم فى الروافع وأنواعها وآلاتها وعملها ومنافعها وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية تمكنهم من جر الأثقال بقوى يسيرة ومن هذه الآلات المحيط والمخل والبيرم والاسفين واللولب والاسقاطولى وغيرها .

وكان لهم الفضل فى علم السوائل وضغطها وتوازنها وطبقوا نظرية الأوانى المستطرفة تطبيقاً عملياً وفسروا فى ضوئها اندفاع الماء من العيون والفوارات إلى

أعلى ، كما شرحوا تجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب حيث يكون مأخذها من المياه القريبة إليها وتكون سطوح ما يجتمع منها موازية لتلك المياه .

وقد استنبطوا طرقا واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من حساب الوزن النوعي لعدد من السوائل والمواد الصلبة والمعادن والأحجار الكريمة .

وقام علماء المسلمين ببحوث ضافية فى الجاذبية وعالجوا العلاقة بين سرعة الجسم والبعد الذى يقطعه والزمن الذى يستغرقه وأثبتوا أن قوى التشاقل تتجه دائماً إلى مركز الأرض وبذلك مهدوا لفكرة الجاذبية قبل نيوتن ويرجع الفضل إلى هذا الأخير فى أنه وضع قوانين الجاذبية بالشكل الذى نعرفه .

كذلك بحثوا فى الضغط الجوى وأثبتوا أن وزن الجسم فى الهواء ينقص عن وزنه الحقيقى اعتماداً على أن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل إلى أعلى على أى جسم مغمور وكان ذلك من الأسس التى بنى عليها علماء الغرب بعض الاختراعات كالبارومتر ومفرغات الهواء^(٩٧).

هذا وينبغى ألا تفوتنا الإشارة إلى علم الحيل أو الميكانيك فى الحضارة الإسلامية ذلك العلم الذى عنى به العلماء عناية كبيرة وينقسم هذا العلم إلى قسمين : الأول يبحث فى جر الأثقال الكبيرة بالقوة اليسيرة ؛ والثانى فى آلات الحركة وصفة الأوانى العجيبة^(٩٨).

(٩٧) طوقان ، علماء ، ص ٣٦ - ٥١ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ١١٥ - ١١٦ ؛ سليمان ، مصطفى محمود ، تاريخ العلوم ، ص ٤٠٤ - ٤٠٧ ؛ خليل ، العلوم الطبيعية عند العرب ، (الفصل الرابع والخامس والثامن) ؛ الدمرداش ، أحمد سعيد ، علم الفيزياء عند العرب ، سوسة ، تونس (١٩٩٤م) ، ص ٩ - ٥٧ ؛ هيل ، العلوم والهندسة ، ص ٨٧ - ١٠٨ ؛ فؤاد باشا ، التراث العلمى ، ص ٦٧ - ٦٨ ، ٧٢ - ٩٣ ؛ مشعل ، محمد شاكر ، الدور العربى فى التراث العلمى العالمى ، القاهرة (١٩٨٣م) ، ص ١٨٨ - ٢٠٨ . ولمن أراد أن يتوسع فى بعض الموضوعات فليُنظر ، هيل ، العلوم والهندسة ، ص ٨٧ - ١٠٨ ؛ موسوعة تاريخ العلوم العربية ، ج ٢ ، الرياضيات والعلوم الفيزيائية ، بيروت (١٩٩٧م) ، (الأبحاث ذات الأرقام من ١٧ إلى ٢٠) ؛ مجموعة علماء ، على الهندسة والمناظر فى القرن الرابع الهجرى (ابن سهل - القوهى - ابن الهيثم) ، بيروت (١٩٩٦م) ، (٥٢٧ صفحة) . وعن الموسيقى انظر ، على سبيل المثال ، اللاذقى محمد بن عبد الحميد ، (كان حيا ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م) ، الرسالة الفتحية فى الموسيقى ، شرح وتحقيق الحاج هاشم محمد الرجب ، الكويت (١٩٨٦م) ، (٢٧٨ صفحة) ؛ رشيد ، صبحى أنور ، الآلات الموسيقية فى العصور الإسلامية ، بغداد (١٩٧٥م) ؛ النقشبندى ، أسامة ناصر ، مخطوطات الموسيقى والغناء والسماع فى مكتبة المتحف العراقى ، بغداد (١٩٧٩م) ؛ فارمر ، هنرى جورج ، تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، ترجمة جرجيس فتح الله المحامى ، بيروت (١٩٧٢م) ، (٤٦٩ صفحة) .

(٩٨) عاشور ، دراسات ، ص ١٠٩ .

وفى البداية تمت ترجمة الكتب اليونانية فى هذا المجال ومنها كتاب أو طولوقس Autolycus وكتاب فيلون البيزنطى المسمى الحيل الروحانية ومخانيقا الماء^(٩٩).

ومن علماء المسلمين الذين اسهموا فى هذا العلم وأضافوا فيه أبناء موسى بن شاكر (وهم محمد وأحمد وحسن) ، ولهم كتاب فى هذا العلم يسمى كتاب الحيل وهو يحتوى على مائة حيلة يمكن تقسيمها إلى خمسة أنواع هى :

١ - النوع الأول : فى صناعة الأوانى العجيبة وهى ٨٧ شكلا . (الأشكال من ١ - ٨٧) .

٢ - النوع الثانى : فى عمل الفوارات وهى سبعة أشكال (الأشكال من ٨٨ - ٩٤) .

٣ - النوع الثالث : فى أنواع من السراج وهى أربعة أشكال (الأشكال من ٩٥ - ٩٨) .

٤ - النوع الرابع : آلة الآبار (شكل ٩٩) .

٥ - النوع الخامس : آلة استخراج الأشياء من البحر (شكل ١٠٠) (١٠٠) .

ومن العلماء ابن الرزاز الجزرى ت ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م وكتابه الموسوم بـ « كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل » .

وقد رتب الجزرى كتابه على ستة أنواع هى :

١ - النوع الأول : فى عمل بناكيم - وقيل فناكين - أى ساعات يعرف منها ما مضى ساعات مستوية وزمانية وهو عشرة أشكال .

٢ - النوع الثانى : فى عمل أوان وصور تليق بمجالس الشراب وهو عشرة أشكال .

٣ - النوع الثالث : فى عمل أباريق وطاس للفصد والوضوء وهو عشرة أشكال .

٤ - النوع الرابع : فى عمل فوارات فى برك تتبدل وآلات الزمر الدائم وهو عشرة أشكال .

(٩٩) شوقى ، جلال ، أصول الحيل الهندسية فى الترجمات العربية ، الكويت (١٩٩٥م) ، (٢٥٧ صفحة) .
(١٠٠) شوقى ، جلال ، العلوم والمعارف الهندسية فى الحضارة الإسلامية ، الكويت (١٩٩٥م) ، ص ٢٥٨ .
٢٦٢ : بنى موسى بن شاكر ، كتاب الحيل ، تحقيق أحمد يوسف الحسن وآخرين ، معهد التراث العلمى العربى ، جامعة حلب (١٩٨١م) (٤٦٤ صفحة) .

٥ - النوع الخامس : فى عمل الات ترفع ماء من غمرة ويثر ليست بعميقة ونهر جار وهو خمسة أشكال .

٦ - النوع السادس : فى عمل أشكال مختلفة غير متشابهة وهو خمسة أشكال .
وبذلك تبلغ عدة أشكال هذا الكتاب خمسين شكلاً .

ومما له دلالة أنه توجد من هذا الكتاب مخطوطات مزوقة بالتصاویر من فترات مختلفة وهو ما سنشير إليه فى فصل التصوير من الباب الثانى من هذا الكتاب .
ومهما يكن من أمر فإن هذا الكتاب يعد أعظم انجاز هندسى ليس فى الحضارة الإسلامية فحسب بل فى العصور الوسطى عامة (١٠١) .

ومن العلماء أيضاً بن معروف الدمشقى المتوفى ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م وكتابه الموسوم بـ « الطرق السنية فى الآلات الروحانية » ويشتمل هذا الكتاب على ستة أبواب وهى :
١ - الباب الأول : فى البنكومات (الساعات) وهو أربعة أشكال بنكام الفيل - بنكام القمر - بنكام السراج - بنكام رملی .

٢ - الباب الثانى : فى آلات جر الاثقال (بالدواليب المتداخلة - بتعداد البكر وتمشية الخيط الجاذب فيها - بالجر باللولب) .

٣ - الباب الثالث : فى حيل اخراج الماء إلى جهة العلو وهو أربعة أشكال وهى (المضخة ذات الاسطوانتين المتقابلتين - والمضخة الحلزونية التى تدار بدولاب مائى - ومضخة الحبل ذى اكر القماش - والمضخة ذات الاسطوانات الست) .

٤ - الباب الرابع : فى عمل الزمر الدائم والنقارات وغير ذلك من الفوارات المختلفة الأشكال والأوضاع (قسم يشتمل على ثلاث آلات - وقسم ثان فيه أربع فوارات) .

(١٠١) شوقى ، العلوم والمعارف الهندسية ، ص ٢٦٤ - ٢٦٦ : الشمس ، ماجد عبد الله ، مقدمة لعلم الميكانيك فى الحضارة العربية ، بغداد (١٩٧٧م) ، ص ٩١ - ٢٣٢ : ابن الرزاز الجزرى ، كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل ، تحقيق أحمد يوسف الحسن وآخرين ، معهد التراث العلمى العربى ، جامعة حلب (١٩٧٩م) (٦٧٦ صفحة) .

- ٥ - الباب الخامس : أنواع شتى من الملح واللطائف وتضم ١١ حيلة .
- ٦ - الباب السادس : فى عمل السيخ الذى يوضع فيه اللحم على النار فيدور بنفسه من غير حركة حيوان .
- وبذلك تبلغ عدة الحيل والالات والطرائف فى هذا الكتاب ثلاثين حيلة (١٠٢) .
- ولما كان المقام لا يتسع لدراسة اسهامات المسلمين وانجازاتهم فى علم الحيل ولذلك حسبنا أن نشير إلى بعض هذه الحيل ؛ على أن نعود إليها ولغيرها تفصيلا واسهابا فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .
- فمن بين حيل صنعة الأواني العجيبة نذكر ما يلى :
- ١ - عمل كأس يصب فيه مقدار من الشراب أو الماء فإن زيد عليه زيادة بقدر مثقال من الشراب أو الماء خرج كل شئ فيه .
 - ٢ - عمل ابريق له بلبلة إذ ملئ لا يمكن أن يتوضأ به أكثر من واحد .
 - ٣ - عمل تماثيل من الوحش يصب لها الماء فى جامات يكون فيها فلا تشرب منه ، ومعها تمثال أسد فإذا صب للأسد الماء فى جامة يشرب وتشرب الوحوش كلها من الماء الذى فى جاماتها فمتى انقطع شرب الأسد لا يشرب الوحش ، فان شرب الأسد ثانية شربت الوحوش معه وهكذا لا يزال .
 - ٤ - عمل ابريق يصب فيه ماء حار وماء بارد من ثقب واحد فى رأسه ولا يختلطان فإذا أخذه الغلام ليوضى به فان شاء أن يصب على إنسان ماءً بارداً صب وان شاء أن يصب ماءً حاراً صب وان شاء ممزوجاً - أى الاثنين - فعل ذلك ويحسب القوم أجمعين أنهم توضوا بماء واحد .
 - ٥ - عمل قفل يقفل على صندوق بحروف اثنى عشر من حروف المعجم ويدل هذا العمل على تمكن الجزرى وتميزه وسبقه وطول باعه فى إنشاء الآليات واحداث الحركات والتحكم فيها .

(١٠٢) شوقى ، العلوم والمعارف الهندسية ، ص ٢٦٨ - ٢٧٢ ؛ ابن معروف الدمشقى ، الطرق السنية فى الالات الروحانية ، دراسة تحليلية ، ل منى سنجقدار شعرانى ، د ت ، (٢٢٨ صفحة) ؛ الحسن ، أحمد يوسف ، تقى الدين والهندسة الميكانيكية العربية مع كتاب الطرق السنية فى الالات الروحانية ، معهد التراث العلمى العربى ، جامعة حلب (١٩٧٦م) .

هذا ولا تفوتنا فى هذا الصدد الإشارة إلى آلات رفع المياه وطواحين المياه المائية والهوائية^(١٠٣) (وهو ما سنعود إلى دراسته تفصيلا فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى) .

٦ - علم الكيمياء :

مرت الكيمياء فى تطورها كغيرها من العلوم الإسلامية بمرحلة الترجمة أولاً فقد تمت ترجمة كتب الصنعة بأمر خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥هـ أو ٩٠هـ) كما سبق القول ؛ ومن ثم إنحصرت البداية فى اتباع نفس الممارسات السابقة من حيث تعدد المحاولات لكشف اكسير الحياة (Elixir) الذى يحمى شاربه من الشيخوخة ويحفظ له شبابه وحيويته ، فضلا عن محاولاتهم كذلك معرفة حجر الفلاسفة الذى يحول المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة (الذهب) .

ويرى بعض العلماء أن هذه المحاولات هى التى دفعت العلماء المسلمين وقادتهم إلى معرفة العديد من العمليات الكيميائية كالتقطير والتصعيد والتبلور والملغمة والتذويب وغيرها ، كما أدت إلى اكتشاف فهم العديد من العناصر والمركبات الكيميائية مثل الزئبق والخارصين والأثمد والنشادر والزاج النقى وماء الفضة وماء الذهب والدهنج والفيروزج والشب والبورق والسليمانى وغير ذلك مما سنشير إليه فيما يستقبلنا من صفحات .

وعلى ذلك استطاع هؤلاء العلماء أن يخلصوا الكيمياء من أوهامها وخرافاتها وأساطيرها ؛ وصنعوا بذلك أسس الكيمياء الحديثة بتجاربهم العلمية المتقنة وملاحظاتهم الدقيقة ومستحضراتهم الهامة^(١٠٤) .

وقد تمت ممارسة العديد من العمليات الكيميائية على يد هؤلاء العلماء ومنها

(١٠٣) شوقى ، العلوم والمعارف الهندسية ، ص ٣١٢ - ٣٨٨ (بما فى ذلك الأشكال المختلفة التى تتضمنها هذه الصفحات) ؛ هيل ، العلوم والهندسة ، ص ١٢٧ - ١٥٥ (بما فى ذلك الأشكال المختلفة التى تتضمنها هذه الصفحات) .

(١٠٤) طوقان ، علماء ، ص ٢٩ - ٣٠ ؛ فؤاد باشا ، التراث العلمى ، ص ١٤٩ ؛ هيل ، العلوم ، ص ١١٦ - ١١٧ ؛ حماد ، علم الكيمياء ، ص ١١٩ - ١٢٥ ؛ عاشور ، دراسات ، ص ١١٦ - ١١٧ ؛ مشعل ، الدور العربى ، ص ١٦٨ - ١٨٧ .

التقطير والتصعيد (التسامي) والتبلور والملغمة والتكليس والترشيح والتشميع والتصويل (الغسل) والتشويه والتحليل والتخمير والاقامة والتذويب (الصهر) .

وكان لا بد لإجراء هذه العمليات الكيميائية المتعددة في المعامل من وجود الأدوات والمعدات اللازمة ومن هذه وتلك الموقد نافخ نفسه والهاوى والبوتقة والمنفاخ (الزق) وبوط بربوط (Descansory) والأثال والانبيق فضلا عن الكرة والقمع والقدم والقارورة والقابلة والسكرجة والحريرة والمقص والمغرفة والمبرد والماسك والمرجل والقدر وغير ذلك ، ولا تفوتنا الإشارة كذلك إلى الموازين والمكاييل ذات الدقة المتناهية لتقدير الوزن النوعي للعناصر وفحص المعادن الثمينة^(١٠٥).

هذا ولا يزال العديد من هذه الأدوات مستعملا حتى اليوم^(١٠٦).

هذا ويمكن أن نجل اسهامات هؤلاء العلماء وانجازاتهم في علم الكيمياء في النقاط التالية :

١ - يرجع إليهم الفضل في التوصل إلى ما يعرف اليوم باسم الكيمياء الصناعية - أى إستخدام المواد والعمليات الكيميائية في خدمة الصناعة (الصناعات الثقيلة والخفيفة على السواء) - ومن هذه وتلك صناعة المدافع والأسلحة النارية (على نحو ما سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن أسلحة الجيش الإسلامى المتطورة) ونضيف هنا إلى أن تأثير البارود على العلم كان كبيراً فان تحضير المادة الأساسية في تركيبه (وهى نترات البوتاسيوم) تحتاج إلى دراسة دقيقة لفصل الأملاح وتنقيتها وهو الأمر الذى لفت الأنظار إلى ظاهرتى التحليل والتبلور ، كما كانت قوة الانفجار ذاتها وقذف الكرة من فوهة المدفع دليلاً قويا على امكانية الاستخدام العلمى للقوة الطبيعية ، كما كانت الملهم لظهور المحرك البخارى ، كذلك كانت حركة المدفع فى الهواء هى المحرك للدراسة الجديدة فى الديناميكا ؛ فضلاً عن أن استخدام البارود قد ساعد على اتمام كثير من المشروعات العمرانية الجبارة كشق الطرق والممرات بين الجبال وتفتيت الصخور وغيرها .

(١٠٥) عن هذه العمليات والأدوات والمعدات اللازمة ، انظر حماد ، علم الكيمياء ، ص ١٢٦ - ١٤١ .

(١٠٦) هيل ، العلوم ، ص ١١٨ - ١١٩ .

ومن الصناعات الأخرى صناعة الزجاج وقد استخدموا فى صناعته العديد من المركبات الكيميائية لتحسينه وتجويده ومنها ثانى أكسيد المنجنيز وكربونات الصوديوم وكذلك البلور (الكريستال) فقد برعوا فى صناعته ، وممن برع فى صناعته عباس بن فرناس (ت ٢٧٤هـ / ٨٨٧م) وذلك بعد أن قام بمعايرة العناصر التى تدخل فى صنع الزجاج وإضافة الرصاص . ومنها صناعة الورق وصناعة المداد (الحبر) والأصباغ النباتية والمعدنية والطبيعية واستخدموا الأملاح المثبتة كالشرب (كبريتات اليوناسيوم أو الالمنيوم) لتثبيت الألوان فى الصباغة وهى مادة لا تزال تستخدم فى عمليات الصباغة حتى اليوم ، ومن أهم الأصباغ التى استعملت الكرمم والزعفران والنيلة والقوة (١٠٧).

٢ - ابتكروا المواد العازلة للحريق وفى ذلك يذكر ابن الأثير ضمن حوادث عام (٢٦٩هـ / ٨٨٢م) أن جيش العباسيين قد إستخدم « أدوية إذا طلى بها الخشب امتنع احتراقه » (١٠٨).

والمقصود بالدواء هنا هى طلى الخشب بمادة كيميائية من أصل معدنى أو نباتى لها خاصية الالتصاق على سطح المواد التصاقاً تاماً بالإضافة إلى خاصية إطفاء النار ، وربما كان هذا الدواء مركباً خليطاً من مواد مختلفة كان الزيت أحد مكوناتها إذ أن الزيت لديه خاصية الالتصاق بمواد كثيرة وهو كثير الاستخدام لمواد الطلى إلى الوقت الحاضر (١٠٩).

٣ - ومن الصناعات الأخرى صناعة العطور والصابون ومواد التجميل وصناعة الشموع ودباغة الجلود ؛ فضلاً عن استخلاص الزيوت النباتية والحيوانية بأحسن وأدق الطرق الكيميائية .

٤ - درسوا المعادن دراسة علمية وقدموا فى مؤلفاتهم الأسس العلمية الأولية لعلم المعادن كالسفافية والمخدش ووزنها النوعى ، كما برعوا فى تركيب المعادن وصقلها وتنقيتها وتفتيت معدن بآخر ومن ذلك أنهم مزجوا الذهب بالفضة واستخدموا القصدير فى طلاء الأوانى النحاسية لمنع التأكسد وحدوث الصدأ ومزجوا النحاس

(١٠٧) عاشور ، دراسات ، ص ١١٨ - ١١٩ ؛ حماد ، علم الكيمياء ، ص ١٤٢ - ١٧٩ .

(١٠٨) ابن الأثير ، الكامل ، مج ٣ ، ص ٣٧٨ .

(١٠٩) حماد ، علم الكيمياء ، ص ١٨٠ .

بالقصد للتحصول على النحاس الأصفر وأدخلوا طرق فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة حمض النيتريك وهذه الطريقة لا تزال مستخدمة حتى الآن ولها شأن في تقدير عيارات الذهب في المشغولات الذهبية والسبائك ونحوها .

كما عرفوا طرق حفظ الحديد من الصدأ وذلك بالطرق الكيميائية ومعاملة الحديد بمواد معدنية وغير معدنية بما يكسبه الصلابة والمتانة ويحول دون تأثير الماء والأكسجين عليه (١١٠).

أما عن اسهاماتهم الأخرى فسوف نشير إلى بعضها عن دراسة أعلام علم الكيمياء ؛ على أن نعود لها ولغيرها تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

ويأتى على رأس هؤلاء الأعلام جابر بن حيان (ت ١٦٠هـ / ٧٧٦م كيميائي المسلمين الأول ويعد من أكبر العلماء في العصور الوسطى بل وأعظم علماء عصره فقد كان حجة في الكيمياء لا ينازعه في ذلك منازع وإليه يرجع الفضل في جعل عصبه من التلاميذ المجتهدين على متابعة البحوث عدة قرون فمهدوا بذلك لعصر العلم الحديث . ويرجع الفضل إلى جابر بن حيان في أنه جعل الكيمياء علماً يقوم على التجربة وعدم التعويل إلا عليها مع دقة الملاحظة والاستنتاج واتباع التعليمات في إجراء التجارب لأن لكل صنعة أساليبها .

وعرف جابر الأحماض العضوية من خليك وليمونيك وطرطريط كما ميز بين الأحماض والقلويات وقال بأنها تتعامل مع بعضها بعضاً لتنتج الأملاح ، وحضر من مركبات النحاس الزاج الأزرق (الزاج القبرصي) وهو كبريتات النحاسيك وخلات النحاسيك أو الزنجار ، والماء الذهبى أى كبريتيد النحاسيك (مادة براقه تستعمل في الكتابة) وكلس النحاس الأحمر . ومما حضره جابر الأسرنج الأحمر (السلقون) والزاج الأخضر كبريتات الحديدوز) والسليمانى (ثانى كلوريد الزئبق والزنجفر (كبريتيد الزئبق) وعرف كثيراً من مركبات البوتاسيوم والصوديوم وبين أوجه الشبه بين الكبريت والزرنيخ مما جعله يسميهما بالتوأمين كلاهما يتسامى بالتسخين . كما أن ظاهرة التأصل معروفة في كليهما .

(١١٠) حماد ، علم الكيمياء ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ، ١٨٢ - ١٨٥ .

وعرف جابر طريقة فصل الذهب عن الفضة بواسطة حمض النيتريك ، والحصول على الزرنيخ والأثمد من كبريتيدهما وزاول ما يسمى الآن بالكيمياء الصيدلية وقال بزيادة المعادن فى الوزن بعملية التكلّيس أو التأكسد ، وقد تمكن جابر من تحضير مداد (حبر) مضى من بيرين الحديد ينفع فى كتابة المخطوطات والمصاحف الثمينة وصنع ورقا غير قابل للاحتراق وحضر طلاء يقى الثياب من البلل ويمنع صدأ الحديد واستطاع أن يصل إلى طرق لصبغ الأقمشة ودباغة الجلود ، كما استطاع تقطير الخل لاستخراج حمض الخليك المركز وأعد أحماض الكبريتيك والنيتريك ، وله نظرياته فى تكوين المعادن ورفضه لنظرية أرسطو ، ونظرية الاتحاد الكيميائى (الزئبق والكبريت) وغير ذلك . ومن بين مؤلفاته كتاب الاستتام وكتاب الخواص وكتاب التصريف وكتاب الزئبق وكتاب الموازين وكتاب كشف الأسرار أو أسرار الكيمياء وكتاب خواص اكسير الذهب وكتاب السموم ودفع مضارها وبذلك يكون جابر قد ربط بين الكيمياء والطب ، وقد ترجمت معظم أعماله إلى اللاتينية فأثرت فى ازدهار الحركة العلمية فى عصر النهضة^(١١١).

ومن العلماء المشهورين أيضاً فى الكيمياء الرازى (وهو أبو بكر محمد بن زكريا المتوفى فيما بين ٣١١ - ٣٢٠ هـ / ٩٢٣ - ٩٣٢ م) ومنهجه فى الكيمياء لا يختلف عن منهج جابر بن حيان إلا أن منهجه كان أكثر علمية ودقة ويتميز هذا المنهج بأربع قواعد أساسية وهى الوضوح والتحليل والتدرج والإعادة والاستقصاء ، وقد قسم المواد الكيميائية إلى مواد معدنية (ترابية) من ستة أقسام (الأرواح والأجساد والأحجار والزاجات والبوارق والأملاح) ومواد حيوانية (الشعر والقحف والبيض والصدف والقرون وغيرها) ومواد نباتية (الأشنان) ، كما قسم الآلات والأدوات الكيميائية إلى قسمين : الآلات لاذابة المعادن والآلات لتدبير المواد الكيميائية ، ويرجع إليه الفضل فى اختراع الميزان الطبيعى (المكشاف) لقياس الأوزان النوعية للسوائل ومعرفة كثافتها .

وكذلك ربط الرازى بين الكيمياء والطب كغيره من أطباء عصره واستخدم

(١١١) حماد ، علم الكيمياء ، ص ٢٣٨ - ٢٦٠ ؛ طوقان ، علماء ، ص ٩٧ - ١٠٣ ، فؤاد باشا ، التراث العلمى ، ص ١٥٢ - ١٥٤ ؛ غنيمة ، عبد الفتاح مصطفى ، جابر بن حيان ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، ص ١٧ - ١٠٢ ؛ إسلام ، علماء ، ص ٣٣ - ٤١ ؛ فياض ، محمد محمد ، الكيميائيون العرب ؛ جابر بن حيان وخلفاؤه ، القاهرة ، ط ٤ ، (١٩٩٨م) ، (١٢٤ صفحة) .

الكيمياء الصناعية والتطبيقية حيث استعمل لأول مرة الفحم الحيوانى فى قصر الألوان ولا يزال هذا النوع من الفحم مستعملا حتى الآن فى ازالة الألوان والروائح من المواد العضوية ، كما حضر حمض الكبريتيك بتقطير الزاج الأخضر وسماه (زيت الزاج) وغير ذلك .

ومن مؤلفاته كتاب سر الأسرار وكتاب فى أن صناعة الكيمياء إلى الوجوب أقرب منها إلى الامتناع وكتاب شرف الصناعة وفضلها وكتاب الأكسير وكتاب الأحجار وكتاب الاثبات وغير ذلك^(١١٢).

٧- الطب :-

الإسلام دين الرحمة ومن دواعى الرحمة مداواة المريض والتخفيف عنه وعلاج ما يشكو منه من الام لذلك اهتم الاسلام منذ مولده بالطب اهتماماً بالغاً ، فقد تحدث الرسول (ﷺ) فى الطب والصحة والمرض والوقاية من العدوى وفى فضائل الأطباء حتى جمعت للرواة ثلاثمائة من أحاديث الشريعة بهذا الموضوع سميت بعدئذ : الطب النبوى ، وهى تشمل وصايا صحية فى الوقاية من الأمراض واختيار الأطعمة النافعة وطب البيئة والطب الوقائى والطب العلاجى وأصول عيادة المرضى ولزوم استشارة الطبيب ، والتركيز على أهمية النظافة والرياضة للصحة فقال (عليه الصلاة والسلام) « النظافة من الإيمان » ، كذلك قال (ﷺ) « إن المعدن بيت الداء » والحمية رأس كل دواء » وقال « إنما الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء » وقال فى العدوى « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه » .

كذلك قال (ﷺ) « العلم علمان : علم الابدان وعلم الاديان » وفى ذلك إشارة لا تخفى على أهمية العلوم الطبية والعلوم الشرعية على السواء .

وفى محيط التسامح الذى أحاط بالدولة الإسلامية ، لم يوجد ما يحول دون تداوى المسلم على يد طبيب غير مسلم ، أو دون أن يتعلم المسلم أصول مهنة الطب على يد طبيب غير مسلم الأمر الذى ترك الباب مفتوحاً فى الدولة الإسلامية أمام عديد من

(١١٢) حماد ، علم الكيمياء ، ص ٢٦٩ - ٢٨٠ ؛ فؤاد باشا ، التراث العلمى ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

أطباء أهل الذمة ليزاولوا مهنة الطب ويداؤوا مرضى المسلمين وغير المسلمين وهؤلاء
فى نشاطهم هذا انما كانوا يعبرون عن سمو روح الإسلام وعظمة حضارته .

وكان الرسول (ﷺ) هو أول من استن هذه السنة حينما قال لسعد بن أبى وقاص
وكان يعودده أثناء مرضه بمكة « ادع له الحارث بن كلده فانه رجل يتطبب » (١١٣) فما
أعظم المغزى من هذا الحديث الشريف إذ أن الرسول (ﷺ) لم يلتفت إلى كون الحارث
وثنيا أى من غير الكتابيين أو أهل الذمة طالما لديه من العلم ما ينتفع منه
الناس (١١٤).

وليس أدل على أهمية مهنة الطب من الإشارة إلى ما حدث فى عهد الخليفة
العباسى المقتدر بالله وبالتحديد عام ٣١٩هـ / ٩٣١م حيث عقد امتحان للأطباء وفى
ذلك يذكر ابن أبى أصيبعة عن ثابت بن سنان « ولما كان فى سنة تسع عشرة وثلثمائة
اتصل بالمقتدر أن غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل
فأمر إبراهيم بن محمد بن بطحا بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا من امتحنه والذى
سنان بن ثابت وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة فصاروا إلى والذى
وامتحنهم وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه وبلغ عددهم فى جانبى
بغداد ثمانمائة رجل ونيفا وستين رجلاً سوى من استغنى عن محنته باشتهاره بالتقدم
فى صناعته وسوى من كان فى خدمة السلطان » (١١٥).

هذا وقد مر الطب كغيره من العلوم الإسلامية الأخرى بمرحلة الترجمة أولاً ثم
جاءت مرحلة الدراسة النقدية وتصحيح الأخطاء فالإضافة والابتكار ، وكان منهج
العلماء يقوم دائماً على أساس التجربة والمشاهدة والملاحظة الدقيقة فالحقوا دراسة
الطب بالبيمارستانات (المستشفيات) - الطب السريرى أو الاكلينيكى - ليتمكن
المعلمون والمتعلمون من تشخيص الحالات المرضية ومتابعتها والوقوف على تطور

(١١٣) ابن أبى أصيبعة ، عيون الانباء ، ص ١٦١ : القفطى ، تاريخ العلماء ، ص ١٦٢ .

(١١٤) عاشور ، دراسات ، ص ١١٩ - ١٢٠ : السامرائى ، كمال ، مختصر تاريخ الطب العربى ، ج ١ ،

بغداد (١٩٨٤م) ، ص ٢٦٣ - ٢٦٦ : هندى ، أمجد ، دور العرب فى تقدم علوم الطب ، الكويت

(١٩٩٧م) ، ص ٢٠ - ٢٥ : الديوه جى ، سعيد ، الموجز فى الطب الإسلامى ، الكويت (١٩٨٩م) ،

ص ١٧ - ١٨ : منتصر ، تاريخ العلم ، ص ٧٨ .

(١١٥) ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٣٠٢ .

المرض وأعراضه وإجراء الفحوص اللازمة ، وفي جميع الحالات يبدأ الطبيب بالوقوف على حالة نبض القلب وفحص بول المريض ، وكان على الطبيب أن يكتب نسخة أى تقريراً أو صحيفة - بحالة المريض ، ويرتب له قانوناً أى نظاماً يتبعه فى الطعام والدواء والراحة والحركة ؛ فإذا انتقل علاج المريض من طبيب إلى آخر وجب على الطبيب الثانى أن يبدأ بالاطلاع على الصحيفة العلاجية للمريض والوقوف على الأدوية التى تعاطاها ، وقد حدث أن استحضر طبيب لعلاج الخليفة الناصر لدين الله العباسى عام ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م فرفض الطبيب أن يصف له دواء إلا بعد أن يقف على الصحيفة العلاجية للخليفة وقال « السمع والطاعة ؛ ولكنى أحتاج أن أعرف من الطبيب المتقدم مبادئ المرض وأحواله وتغيراته وما عالج به منذ أول المرض إلى الآن » (١١٦).

ولما كان المقام لا يتسع ، وفقاً للخطة الموضوعية لهذا الكتاب المجلد ، على دراسة علم الطب ومراحل نشأته وتطوره وازدهاره وأعلامه ولذلك آثرنا أن نركز على دراسة اسهامات العلماء وانجازاتهم فى هذا العلم ؛ على أن نعود إليها تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

هذا ويمكن أن نجمل أهم اسهامات هؤلاء العلماء وانجازاتهم فى علم الطب فى النقاط التالية :

١ - الكشف عن أمراض جديدة .

اكتشف الأطباء فى الحضارة الإسلامية من خلال بحوثهم ودراساتهم وممارستهم لمهنتهم مجموعة من الأمراض الجديدة التى لم يسبق إليها من قبل لدى أبقرات وارسطو ووروفوس وجالينوس ، وفى حالات أخرى هناك أمراض تحدث عنها بعض هؤلاء ولكن الأطباء العرب والمسلمين حددوا أسبابها وأعراضها بشكل أفضل أو وصلوها بأمراض أخرى غير معروفة أو ميزوها عن غيرها .

ومن بينها :

أ - فى مجال الحميات : اكتشف الرازى عدة أنواع من الحميات غير معروفة مثل الحمى الفارسية ، وعرف الداء الذى يتسلط على نسيج الأدمغة الداخلية تعريفاً كاملاً ،

(١١٦) عاشور ، دراسات ، ص ١٢١ .

وكان ابن سينا هو أول من فرق بين التهاب الدماغ والالتهابات الأخرى ووصف بشكل دقيق مرض التهاب السحايا .

ب . الأمراض الوبائية : كان ابن سينا هو أول من اكتشف الفرق بين البيرقان الناتج بسبب انحلال كريات الدم واليرقان الناتج عن انسداد القنوات الصفراوية ، وكان أول من أشار إلى وجود حيوانات دقيقة لا ترى بالعين يتناولها الإنسان مع الماء فتسبب له الأمراض ؛ ولذلك ينصح بالشرب من مياه العيون والينابيع حصراً ، وكان أول من فصل الكلام عن مرض السل الرئوى وميز بين مراحله الثلاث وبين أنه مرض مُعدٍ للآخرين عن طريق الماء والتراب ولذلك فمن الأفضل للمسلول وللمحيطين به عزله عن غيره ، ونجد كذلك ابن زهر يتحدث فى تصانيفه الطبية عن الحميات والأمراض الوبائية أما الزهراوى فيتحدث باستفاضة عن الأمراض الدموية ومنها بعض الأمراض الوبائية .

ج . الأمراض الوراثية : كان الرازى رائداً فى اكتشاف بعض الأمراض التى تنتقل عن طريق الوراثة ولعل هذا هو السبب الذى جعل الرسول (ﷺ) يقف ضد زواج الأقارب فقال « اغتربوا ولا تزوا » .

د . الأمراض الجلدية : كان للأطباء قصب السبق فى كشف بعض هذه الأمراض ومنها مرض الجذام وذكر ثابت بن قرة أنه من الأمراض المعدية وأوصى بعدم إقامة علاقات جنسية مع أى شخص يحمل أعراضه ، ومنها حكة الجرب التى وصفها الطبرى وكشف عن الطفيل المسمى عث الجرب الذى ينقل هذا المرض وميز بين هذا المرض وبين مرض الجذام .

أما ابن الأشعث الموصلى فقد اهتم بالأمراض الجلدية والكتابة عنها فأصدر كتابيه الشهيرين « فى الجدرى والحصبة والحمى » « والبرص والبهاق ومداواتهما » وكان الرازى قد سبقه فى التمييز بين مرض الجدرى والحصبة ، وكذلك وصف على بن العباس مرض الجدرى والجمرة الخبيثة (النار المقدسة) بشكل جعل من الممكن التمييز بينهما من حيث الأعراض والعلاج ، واهتم نجيب الدين السمرقندى بالأمراض الجلدية وخاصة بمرض البهاق وشدد على أهمية العلاج بالمجمرات والكاويات .

٢ . الكشف عن طرق جديدة فى التشخيص والعلاج : كان علم الطب فى الحضارة

الإسلامية يعتمد على المنهج التجريبي في دراسة الأمراض وتشخيصها ثم علاجها وذلك من خلال التقيد بعدد من القواعد العلمية وأهمها :

أ - رفض الاعتماد على صيت الأسماء الكبيرة مثل أبقراط وارسطو وجالينوس عندما يتعلق الأمر بالحقيقة العلمية .

ب - الدعوة إلى أعمال العقل أو كما يقول الرازي « أعمال الماهر الحكيم لرأيه » .

ج - تفضيل التجربة العملية على المرويات النظرية التي تحويها الكتب لأن «الحس أصدق من السمع» على حد قول موفق الدين البغدادي .

ويطالب الرازي في هذا المجال بتجريب العقار على الحيوان قبل صرفه لبنى الإنسان .

د - اخضاع النظريات العلمية المتوارثة للمعاينة (أى للتجربة) والاعتبار (أى القياس) فإن حصل التوافق قبلت وإن لم يحصل لفظت وهو ما فعله ابن سينا عندما كشف أخطاء أبقراط وجالينوس وكما فعل من بعده ابن النفيس عندما اكتشف أخطاء النظرية اليونانية القائلة بمرور الدم مباشرة بين البطن والأذين . وبفضل تطبيق هذه القواعد اكتشف العلماء أساليب التشخيص والعلاج الجديد ومنها مرض الحلو (السكري) واستدلوا عليه بوجود السكر فى البول ، وقد ابتكر الرازي طريقة للتأكد من وجود السكر فى بول المريض من عدمه ، وذلك بأن يجعل المريض يبول فوق بقعة من الرمل فإذا قصدت أسراب النمل بقايا البول دل ذلك على وجود السكر حتماً وإذا لم تفعل ذلك كان البول خالياً منه .

هـ - نادوا بتطبيق نظام العزل فى حالة الأوبئة وقد طبقوه أخيراً لعزل المجذومين والمجانين والعجزة .

و - توصلوا إلى امكانية التغذية الصناعية للمريض الذى لا يستطيع تناول غذائه بالطريقة الطبيعية وذلك عن طريق الفم أو الشرج بواسطة محقنة تصنع من النحاس أو الفضة .

ز - قاموا بفحص البصاق للاستدلال على الأمراض الصدرية وخاصة السل .

ح - استخدم الرازي الزئبق ومركباته فى مداواة الأمراض الجلدية .

ط - كان ابن سينا أول من استخدم الثلج بدلا من الماء كنوع من الكمادات لمعالجة

الحميات .

ى - تمكنوا من معرفة نوع المرض انطلاقاً من النظر إلى دم المريض فحسب ، ففي مخطوط عنوانه « غاية الامنيات في معرفة الحميات » تم نسخه عام ٨٨٤هـ / (١٤٧٩م) نجد شرحاً مبدئياً لكيفية التعرف على نوع الحمى من خلال النظر إلى دم المريض (١١٧) .

٣ - علم وفن الجراحة :

من المسلم به أن الجراحة علم لا يمكن اتقانه نظرياً لأنه يحتاج إلى ربط النظر بالعمل أو بمعنى آخر لا بد أن يمارس الطبيب الجراحة عملياً حتى يصبح جراحاً ماهراً ولذلك عرفت الجراحة في بادئ الأمر « علم الصنعة اليدوية » ، ومعرفة الجراحة عملياً تحتاج إلى اتقان التشريح ، وهذا الأمر من الأهمية بمكان حيث أن الأطباء الأوائل تهيّبوا من ممارسة التشريح ، لأنهم كانوا يرون ذلك حراماً شرعاً على اعتبار إنه يشكل مساساً بحرمة الموتى ، ولهذا اقتصرَت العمليات الجراحية في القرن الأول الهجرى على العمليات التقليدية البسيطة مثل الحجامة والفصد والكى وبتراً الأطراف الصغرى .

ومع تقدم علم الطب وضغط الحاجة للاعتناء بجرحى المسلمين في الحروب بدأ الأطباء بممارسة التشريح على الحيوانات أولاً ثم على جثث الموتى لمعرفة تركيبها الدقيق معرفة تؤهل لإجراء التدخل الجراحى فيما بعد .

وقد مارس الرازى وعلى بن العباس وابن سينا التشريح ، وإن لم يقرؤا بذلك صراحة ، وكان الزهراوى أول من تجرأ على المناداة بأن التشريح لا يتنافى مع الدين ، كذلك اعتبر ابن رشد أن التأمل فى تشريح بدن الإنسان من الإيمان ، لأنه يدل على عظمة الله فى خلقه ، ونادى ابن النفيس بضرورة القيام بعمليات التشريح بالرغم من أنه نفى ذلك فى مقدمة كتابه « شرح تشريح القانون لابن سينا » . وليس أدل على ما بلغت الجراحة فى الحضارة الإسلامية من تقدم وازدهار كبيرين سواء من حيث العمليات الجراحية نفسها أو من حيث المواد والأدوات المستخدمة فى الجراحة ، من

(١١٧) هندی ، دور العرب ، ص ١٢٢ - ١٢٩ .

أنها قد تركت أثراً بعيداً فى الجراحة لدى الأوروبيين كما سنشير فيما بعد .

ومن العمليات الجراحية الصغيرة ما يتعلق بالجروح والكسور ومن ذلك عمليات التحكم فى النزف وقد استخدموا فى ذلك الضغط بالابهام والرباط والاسفنج والتبريد بالماء الثلج وربط أماكن النزف بالخيط الجراحية والكيّ فى بعض الحالات وفى كتاب التصريف للزهاوى تفاصيل فنية لهذه الطرق .

وكذلك علاج الجروح بالمطهرات مثل ماء الورد ونوع من المساحيق (الذرور) الصفراء اللون وقد أطلق ابن سينا اسم الخيار الجاف على الجروح ، ومنها ما يتعلق بصرف الخرايج وقد استخدموا أحيانا ما يسمى الطريقة المغلقة فى العناية بالجروح المتقيحة أى استخدام التقيح نفسه لشفاء الجروح .

وبرع الزهاوى فى علاج بتر الأطراف وكيفية وصل الشرايين ببعضها قبل الجراح الفرنسى شولياك بأربعة قرون .

كذلك مارس العديد من الأطباء ومنهم على بن العباس وابن سينا والزهاوى وابن القف الجراحة البولية فنجحوا فى عمليات تفتيت الحصاة المترسبة فى الحالب أو الاحليل أو المثانة وأوصى الزهاوى بضرورة إزالة الجلطات الدموية من المثانة كذلك . وتكلم الرازى وعلى بن العباس عن ضرورة استئصال أورام المعدة والأمعاء عن طريق الجراحة ، وعرف ابن زهر الأورام السرطانية ووصفها وصفا دقيقا وهو أول من بحث فى الفرق بين القرحة المعدية وسرطان المعدة .

وعالجوا كذلك البواسير بالجراحة أو بدونها وينظر فى ذلك كتاب العمدة لابن القف وكتاب البواسير لابن ميمون وكتاب زاد المسير فى علاج البواسير لابن محمود المتوفى ٥٢٥هـ / ١١٣٦م. أما العمليات الجراحية الكبرى فمنها جراحة العمود الفقرى والجمجمة، وقد بحث الزهاوى فى التصريف وابن القف فى العمدة فى جراحة العمود الفقرى وكيفية وصل العروق ببعضها بعد ذلك .

وفى مجال جراحة الدماغ والجمجمة فقد اهتموا بها وشرحوا بعضها وقد قسموا الكسور فى الجمجمة إلى نوعين مغلقة ومفتوحة فالمغلقة هى التى لا تصاحبها جروح وهى الأخطر لأنها قد تؤدى إلى تورم فى الدماغ كما ذكر ابن سينا ، أما الكسور المفتوحة فهى التى تصاحبها جروح وهى أقل خطراً من الأولى حيث يتم تنظيفها

وتعقيمها ثم خياطتها مع الانتباه لضرورة انقاص المياه فى الجسم قبل الشفاء لتخفيف الضغط داخل الجمجمة .

أما عمليات جراحة الجمجمة التى قام بها الزهراوى فقد كانت نقطة البداية فى الجراحة الأصلية للجمجمة فى اسبانيا ودول أوروبا الغربية على حد قول الطبيب الأسباني جارسيا بالستر .

ويكفى القول أن عمليات شق الجمجمة التى وصفها الزهراوى لا تزال تمارس وتجرى بنفس الطريقة حتى اليوم . ومن الاحتياطات الواجب اتخاذها عند اجراء عمليات جراحية فى الجمجمة ضرورة تليين الطبيعة (أى الحقن الشرجية) وفصد العرق بغرض انقاص ضغط السوائل على الدماغ على نحو ما فعل نجيب الدين السمرقندى ، ولا تزال هذه الطريقة مستخدمة ولكن باستعمال مدرات البول بدلا من المسهلات أو المليينات .

أما عن المواد والأدوات المستخدمة فى العمليات الجراحية فقد استخدموا المواد المخدرة ومنها السيلم والزوان والسيكران ، وبعد ذلك اكتشفوا خواص الافيون والقنب الهندى (الحشيش) فى هذا المجال . وكانت تستخدم هذه المواد عن طريق الفم كما فعل ابن سينا والزهراوى ، وكان بن زهر أول من استخدم التخدير عن طريق الاستنشاق بالفم . واستخدموا الخيوط الجراحية المستخرجة من أمعاء الحيوانات والتى كانت تستخدم أوتاراً لآلتى العود والرباب حتى ذلك الوقت وقد سميت هذه الخيوط (القصاب) وكان الرازى هو أول من استخدمها وتابعه على بن العباس . واخترع ابن سينا أداة سماها القاتاتير لمعالجة مرض الأسر - أى حصر البول - ومنها جاءت كلمة القثطرة أو القسطرة المستخدمة حالياً .

كذلك اخترع الزهراوى العديد من الأدوات الجراحية ومنها (انبوب البرونج) الذى يصنع من الذهب والفض ويستخدم فى علاج أمراض البلعوم والأداة المسماة الملقط أو الجفت التى تستخدم فى حالات تعسر الولادة وأداة تفتيت الحصى فى المثانة ، وقد وضع الزهراوى فى كتابه التصريف لمن عجز عن التأليف ٢٧٨ رسماً منها رسوم لأكثر من مائتى آلة وأداة جراحية بعضها من اختراعه هو وبعضها الآخر كان معروفاً قبله، وقد شرح استخدامها جميعاً (شكل ٣٧٧). وقد أكد الزهراوى على أهمية أن تكون

هذه الآلات جاهزة بشكل دائم لاستخدامها فى حالات الطوارئ ؛ فضلا عن تعقيمها عن طريق تحميتها على النار قبل استخدامها^(١١٨).

٤. فروع الطب فى الحضارة الإسلامية :

أ. الأمراض النفسية والعقلية :

يعد أبو الحسن على بن سهل بن ربن الطبرى حسب الرأى السائد حتى الآن هو أول من بحث فى الطب النفسى بشكل مستقل عن الطب العادى وكان ذلك فى القرن ٣هـ / ٩م ، وتابعه بعد ذلك ابن سينا ومن وسائله من حيث التشخيص والعلاج طريقة (تداعى الأفكار) فى التشخيص وطريقة (الابهام) فى العلاج ، فضلا عن بعض العوامل المساعدة لتهدئة أعصاب المريض ومنها الحمامات الساخنة وسماع الموسيقى وتناول بعض المشروبات .

ومن أشهر الأطباء فى هذا المجال اسحاق بن عمران (عصر الأغالبة فى تونس) الذى نجح فى علاج حالات نفسية مستعصية ، وألف مؤلفا شهيراً فى الطب النفسى هو « رسالة فى المالىخوليا » وهى كلمة يونانية الأصل وقد أوجد مرادفا لها وهو تعبير (الوسواس السوداوى) ولا يزال هذا التعبير مستخدما حتى الآن .

ويصف هذا المرض بأنه « مرض يحل فى الجسم وتلحق أعراضه وأضراره بالنفس ، فأما أعراضه فى النفس فالخوف والحزن وهمنا شرعوا رضى النفس وأسقامها... »^(١١٩).

أما أبى زيد البلخى (المتوفى ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) فهو نفسانى سبق عصره بعشرة

(١١٨) هندى ، دور العرب ، ص ١٢٩ - ١٣٨ ؛ ولزید من التفاصيل انظر ، قاسم ، محمود الحاج ، الطب عند العرب والمسلمين ، تاريخ ومساهمات ، جدة - الدمام (١٩٨٧م) ، ص ١٠٥ - ١٥٣ ؛ حسين ، محمد كامل ، الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، د ت ، ص ٩٧ - ١٤٧ ؛ خليل ، ياسين ، الطب والصيدلة عند العرب ، بغداد (١٩٧٩م) ، ص ١٢٣ - ١٥٧ ؛ موسوعة تاريخ العلوم العربية ، ج ٣ ، بيروت (١٩٩٧م) ص ١٢٠١ - ١٢١١ .

(١١٩) هندى ، دور العرب ، ص ١٣٩ - ١٤٠ ؛ ولزید من التفاصيل انظر ، قاسم ، الطب ، ص ٢١٧ - ٢٢٣ .

قرون فقد استطاع البلخي التفريق بين المرض النفسى أو العصاب Neurosis والمرض العقلى أو الجنون كما هو متعارف عليه Psy Chosis ثم ركز تركيزاً شديداً على دور العوامل النفسية فى الصحة والمرض النفسى والجسمى ، وكأنه من متخصصى الطب السيکوسوماتى والشمولى الحديث Psy Chosomatic and Holistic Medicine .

وقد سبق البلخي بعلاجه للمخاوف (الفوبيا كما تعرف الآن) بتعريض الخائف تدريجياً إلى المصدر الذى يخافه مثل الثعابين والعناكب وغيرها رواد المدرسة السلوكية ورواد مدرسة التعلم الاجتماعى فى هذا المجال . كذلك سبق البلخي رواد علاج الضعف الجنسى عن طريق الجمع بين العلاج النفسى والجسمانى فى علاجه علاجاً عملياً . أى سلوكياً . وهذا النوع من العلاج لم يعرف إلا بعد الخمسينات من القرن العشرين المنصرم .

ومهما يكن من أمر فإن البلخي وغيره من علماء المسلمين كانوا هم الرواد للعلاج السلوكى Behavior Therapy وللثورة المعرفية الحديثة فى ميدان العلاج النفسى Cognitive Therapy (١٢٠) .

ومن الأطباء الذين برعوا فى علاج الأمراض النفسية العضوية (السيکوسوماتيك) الرازى وابن سينا وكانوا يركزون دائماً على أن القوة الداخلية للجسم هى التى تساعد فى اتمام عملية الشفاء وهى القوة التى يطلق عليها اليوم فى الطب الحديث المناعة (١٢١) .

جـ- طب الأسنان :

بدأت المرحلة الأولى لطب الأسنان فى الحضارة الإسلامية مبكراً ، وذلك عن طريق شد الأسنان السائبة بواسطة أسلاك لتثبيتها وأول من شدوا أسنانهم بالذهب

(١٢٠) البلخي ، أبى زيد ، مصالح الابدان والأنفس ، تقديم ودراسة مالك بدرى ، ومصطفى عشوى ،

الرياض ، (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) ، ص ٢٦ - ١٠٧ .

(١٢١) هندی ، دور العرب ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وعبد الملك بن مروان وأبو مسلم الهراء (١٢٢).

ومن الوسائل التالية لعلاج الأسنان سد الحفر والنخرات السنية بالمسك والشاب بعد تنظيمها على نحو ما فعل الرازي ، وكان يوصى في بعض الحالات بتشبيط اللثة وتسكين الألم بالافسيون أو عطر الورد ، فضلا عن تحاشي الحوامض لتأثيرها في عناصر السن . وكذلك كان ابن سينا يشير على الشخص السليم بتجنب استخدام المساحيق الكاوية وكان ابن سراج يوصى باستعمال المقبضات ويدعم الأسنان بربط بعضها ببعض بخيوط من الذهب والفضة ، أما الزهراوى فقد أبدع في ما يسمى اليوم جراحات الأسنان وفي كتابه التصريف صور لآلات قلع الأسنان وأصولها أو لجردها وتنظيفها أو آلات قطع اللحم الزائد في اللثة (الناصور اللثوي) وشرح أساليب العمل وطرق العلاج ، ومع ذلك نادى الزهراوى بعدم قلع الأسنان وخلعها إلا بعد استنفاد جميع الوسائل لحفظها وهو نفس الاتجاه الطبى الحالى .

وفي مجال تسكين الألم السنى نصح الأطباء باستعمال بزر البطيخ المدقوق المزوج مع القرنفل وملح الطعام على شكل معجون أو سائل وهذه المواد الثلاث لا تزال مستخدمة حتى الآن للتخفيف من ألم الأسنان كما أوصوا باستخدام مستحضرات معينة لتنظيف الأسنان والعناية بها مثل العسل والملح المحروق ومسحوق الفحم (١٢٣).

د. طب العيون (الكحالة) :

من اسهامات الأطباء في هذا المجال ابتكار آلات متخصصة في جراحة العين على يد الزهراوى ومنها آلة المسبار وكانت تستخدم في علاج مرض تزحزح العدسة وهو المرض المعروف اليوم باسم (القدح أو الساد) ، وكان ابن سينا هو أول من اكتشف تركيب العين وهو أول من قال بأن مركز الابصار هو العصب البصرى وليس الجسم البلورى للعين مصححا بذلك آراء الأقدمين ، ووصف الرازي جراحة معينة لاستخراج

(١٢٢) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص ٢٥٤ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١٠٢ ، ١٥٦ ؛ ابن الأثير ،

الكامل ، ج ٦ ، ص ١٨٩ ؛ ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(١٢٣) هندى ، دور العرب ، ص ١٤٢ - ١٤٤ ؛ ولزيد من التفاصيل انظر ، حسين ، الموجز ، ص ١٩٧ .

٢٢٣ ؛ خطاب ، فرات فائق ، الكحالة عند العرب ، بغداد (١٩٧٥م) ، (١٠٢ صفحة) .

الماء الأزرق من العين ، وقد أوصى بتمزيق قشرة العدسة (تشطيبها) إذا لم يمكن زحزحة الماء ، كما تعرض لذكر بعض الطرق لإزالة الضغط على العين أو تخفيضه عن طريق الفصد أو التدخل الجراحي . وكان على بن عيسى هو أول من وصف التهاب الشريان الصدغي والقحفى ولاحظ العلاقة بين الشرايين الملتهبة واضطراب الرؤية فى مرض الشقيقة ، فضلا عن أنه كان أول من استخرج الماء الأزرق من العين بواسطة ابرة مجوفة وذلك عبر عملية تسمى الشفط Succion وهى الطريقة المستخدمة حاليا وتعرف هذه العملية بالكاتراكت (Cataracte) ويوجد وصف دقيق لهذه العملية فى كتابه المعروف (تذكرة الكحالين) .

ونجح عمار الموصلى فى ابتكار طريقة لسلخ القزحية مع محافظة العين على قدرة الابصار (١٢٤).

هـ- طب الأنف والأذن والحنجرة :

ومن اسهامات الأطباء فى هذا المجال العمليات الجراحية لعظم الفك وجراحة الحلق ومضاعفات استئصال اللوزتين والأورام على يد الزهراوى وابن القف ، واستخدم الزهراوى انبوبة للتنفس الاصطناعى فى حالة اصابة الحنجرة بالورم ويقال إنه أول من أجرى استئصال للغدة الدرقية عام ٩٥٢ م .

ومن العمليات الجراحية الأخرى ما يتعلق بعلاج التشوهات الولادية فى منطقة الأنف والأذن والحنجرة مثل شقاق الشفة ووصل رباط اللسان وسدّة الأذن (١٢٥).

و- طب النساء والأطفال :

ومن اسهامات الأطباء فى هذا المجال ما أشار إليه على بن العباس من أن سبب الطلق الذى تعاني منه المرأة يعود لتقلص الرحم وليس ناجما عن حركة الجنين ذاته وهو

(١٢٤) هندى ، دور العرب ، ص ١٤٤ - ١٤٦ ؛ ولزید من التفاصيل انظر ، قاسم ، الطب ، ص ٢٩٩ - ٣١١ ؛ حسين ، الموجز ، ص ١٧٣ - ١٩٤ ؛ خليل ، الطب ، ص ١٥٩ - ١٨٦ ؛ موسوعة تاريخ العلوم ، ج ٣ ، ص ١٢١١ - ١٢١٥ .

(١٢٥) هندى ، دور العرب ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

. على بن العباس - أول من قال ذلك .

ووضع الطبيب البلدى (ت. ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) كتاب يسمى « كتاب تدبير الحبالى » ، وبحث الزهراوى أوضاع الجنين الطبيعية وغير الطبيعية عند الولادة ووصف آلة تشبه الملقط ، وتسمى الجفت ، وتستخدم للمساعدة فى خروج الجنين من الرحم ، ولا تزال هناك آلة تشبهها حتى اليوم تستخدم فى حالات الولادة المتعسرة .

كما وصف الزهراوى عملية فغر الجمجمة بواسطة آلة سماها (هارس الرأس) لتسهيل مرور الجنين من فوهة الرحم إذا كان الجنين ميتا أو مصابا بمرض الاستسقاء مما يعرض حياة الأم للخطر فى حالة بقاءه ضمن الرحم . ومارس الأطباء كذلك العملية القيصرية كما تعرف اليوم إلا أنهم لم يمارسوها إلا فى حالة موت الأم وبقاء الجنين فى رحمها على قيد الحياة ، وكان ابن زهر أول من استعان بالمساعدات الطبيات القابلات (Sage - Femmes) لمساعدته فى توليد نساء الملوك والوزراء ، وقد نبغ منهن ابنته الشهيرة بلقب أخت الحفيد .

وقد سمح ابن الخطيب جهاراً لأول مرة بممارسة الاجهاض فى حالة كون بقاء الحمل يعرض حياة الأم للخطر (١٢٦) .

أما طب الأطفال فلدينا العديد من المؤلفات فى طب الأطفال ومن اسهامات الأطباء فى هذا المجال حسبنا أن نشير إلى أن الرازى كان أول من فصل بين طب الأطفال والأمراض النسائية وجعله يأخذ شكلاً مستقلاً بذاته عندما ألف رسالته فى طب الأطفال فى حدود سنة ٢٨٧هـ / ٩٠٠م ، وقد بحثوا فى صفات الطفل الطبيعى والخديج (الناقص) والمريض ، والعناية بالمولود حديث الولادة وأدوار حياة الطفل وتطوره الطبيعى وتغذية الطفل ، فضلاً عن أمراض الأطفال وطرق معالجتها سواء أمراض الجهاز الهضمى أو الجهاز التنفسى أو الجهاز العصبى أو الجهاز البولى والتناسلى والأمراض المعدية والأمراض الجلدية وأمراض الفم والأنف والاذن والحنجرة وأمراض العين والأمراض الوراثية والتشوهات الخلقية .

ولما كان المقام لا يتسع لدراسة اسهامات هؤلاء الأطباء فى علاج أمراض الأطفال

(١٢٦) هندى ، دور العرب ، ص ١٤٧ - ١٤٨ ؛ ولزید انظر ، حسين ، الموجز ، ص ١٥١ - ١٧٢ ؛ قاسم ، الطب ، ص ١٥٥ - ١٧٢ .

جميعها ؛ ولذلك حسبنا أن نشير إلى بعض الاسهامات فى مجال جراحة الأطفال ومنها علاج بعض النشويهاات الخلقية البسيطة ومنها شقاق الشفة (الرازى والزهرراوى) وقطع الرباط تحت اللسان والذى يمنع الكلام وسدة الأذن وتشويهاات الأصابع (الزهرراوى) والمقعدة غير المثقوبة وانسداد مجرى البول الولادى (الزهرراوى) والخنثى (ابن سينا) وتجمع الماء فى رؤوس الصبيان والشتيره (قصر الجفن) Ectropion (الزهرراوى) والرتقة (الرازى) .

ومن الجراحات العامة جراحة المجارى البولية والختان والفيلة المائية Hydrocele والحصى المتولد فى مثانات الأطفال والفتوق ، فضلا عن جراحات الرأس والرقبة والفقرات وغير ذلك (١٢٧) .

ز- علم الصيدلة (الاقربازين) :

أصاب علم الصيدلة فى الحضارة الإسلامية تطورا كبيرا نتيجة لتطور المعرفة الطبية - بفصل حركة الترجمة والممارسات والابتكارات الطبية - من جهة وزيادة المعرفة بالأدوية والعقاقير من جهة أخرى . وعلى الرغم من ارتباط الصيدلة بالطب إلا أننا نلمس فى الوقت نفسه اتجاها واضحا للفصل بين المعرفة الطبية والمعرفة الصيدلانية وبين مهنة الصيدلة ، بحيث يمكن القول أن التخصص فى معرفة الأدوية والعقاقير النباتية والحيوانية والمعدنية كان من نصيب الصيدلى ؛ ولكن ذلك لم يمنع الطبيب نفسه من تحضير الأدوية لعلاج الأمراض . كما نلمس بوضوح تام ظهور الصيدلية باعتبارها دكانا أو حانوتا (خزانة شراب أو أجزاء خاانة) للأدوية يديرها من له معرفة جيدة بالأدوية والعقاقير بحيث يمكن القول أن المسلمين هم أول من وضعوا الأساس المتين لعلم الصيدلة وأول من أسسوا الصيدلية ووضعوا لها الشروط الصحية . والشروط الواجب توافرها فى من يديرها . ونظرا لأهمية الصيدلية بالنسبة للأطباء والمرضى على السواء وما يمكن أن يؤديه الدواء الخطأ أو الفاسد وغير ذلك من أخطار على صحة المرضى ، وما يجوز للأشخاص من ادعاء معرفة بأمر الصيدلة فقد وضعت

(١٢٧) قاسم ، الطب ، ص ٢٣٥ - ٢٧٧ ؛ تاريخ طب الأطفال عند العرب ، بغداد ، ط ٣ (١٩٩٣م) ، (٢٤٠) صفحة) .

شروطاً وامتحانات لمن يزاول مهنة الصيدلة فكان نظام الحسبة هو الجهاز الذى يراقب الأدوية ويمنعها ويراقب أعمال الصيدلى وأفعاله لكى يجنب الناس الأخطار ويكشف الغش فى الدواء^(١٢٨).

وليس أدل على أهمية هذا العلم من وضع المؤلفات المستقلة عنه ومن ذلك كتاب الصيدلة فى الطب للبيرونى ، وكتاب « المغنى فى الأدوية المفردة » و « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » لابن البيطار ، وكتاب « تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجائب » لداود الأنطاكى ، وكتاب « أصول تركيب الأدوية » للسمرقندى وغير ذلك^(١٢٩).

يضاف إلى ذلك ما ورد فى المؤلفات الطبية نفسها عن الأدوية والعقاقير .

ومهما يكن من أمر فقد ازدهرت الصيدلة وتطورت تطوراً كبيراً فى الحضارة الإسلامية سواء من حيث العناية بمفردات الأدوية والعقاقير وانتقاؤها ومواصفاتها وأعمارها وتصنيفها أو من حيث المبادئ التى يقوم عليها فعل الأدوية ومنها معرفة قوى الأدوية والأفعال الكلية والجزئية للأدوية والأفعال التى للأدوية فى نفسها واختلاف قوى الأدوية وغير ذلك أو من حيث تحضير الأدوية ومراحلها المختلفة من الطبخ والسحق والاحراق والغسل والجمود والمجاورة والتنقية والتنظيف والتحميص (التشويه) والتلغيم أو الالغام والتصعيد والتكليس والتصدية والتشميع والحل والتحليل والعقد والتبلور وتذهيب الحبوب وتفضيضها ، فضلاً عن الأجهزة والألات والأوزان والمكاييل وأنواع التركيبات (المستحضرات) الصيدلية وأشكالها وغير ذلك^(١٣٠).

وحسبنا أن نشير فى هذا المقام إلى انهم اخترعوا كثيراً من المعاجين والمربيات

(١٢٨) خليل ، الطب الصيدلة ، ص ١٩١ ؛ حسين ، الموجز ، ص ٣١٤ - ٣٢٣ .

(١٢٩) انظر ، دراسات عن ابن البيطار وأثره فى الطب والصيدلة ، بغداد (١٩٨٨م) (١٢١ صفحة)؛

عواد ، كوركيس ، مصادر النباتات الطبية عند العرب ، بغداد (١٩٨٦م) ، (١٨٢ صفحة)؛

السمرقندى ، محمد بن على ، أصول تركيب الأدوية ، دراسة وتحقيق نجلاء قاسم عباس ، بغداد

(١٩٨٩م) ، (١٤٩ صفحة)؛ حسين ، الموجز ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(١٣٠) حسين ، الموجز ، ص ٣٢٨ - ٣٨٢ .

والخلاصات والمشاريب ومنها شراب براء الساعة المنسوب إلى داود الانطاكي (البصير) والذي قالوا عنه : انه يقطع الاسهال في ساعة والصداع في يوم والمفاصل في جمعة والبخار في شهر والاستسقاء في سنة (١٣١).

هذا ولا تفوتنا الإشارة إلى الكتب المتعلقة بصناعة الطب وكيفية تعليمه وأدب الطبيب وأخلاقه والتأكيد على سمو مهنة الطب وعلمية مهنة الطب وبعدها عن التقاليد البالية والخرافات والسحر والشعوذة وغير ذلك (١٣٢).

أما عن مؤلفات الأطباء والصيدلة الذين كانت لهم اسهامات وانجازات متميزة في علم الطب والصيدلة على نحو ما بينا في هذه العجالة ، فحسبنا أن نشير إلى أشهرهم ؛ على أن نعود لهم ولغيرهم اسهابا وتفصيلا وتحليلا في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

ومن هؤلاء أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري القرن ٣هـ / ٩م وكتابه فردوس الحكمة الذي يعد مدخلا لدراسة الطب في الحضارة الإسلامية .

وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت فيما بين ٣١١ - ٣٢٠هـ / ٩٢٣ - ٩٣٢م) ومن مؤلفاته رسالة في طب الأطفال وهي أول مؤلف مستقل في طب الأطفال كما سبق القول ، ورسالة في الجدرى والحصبة ، والكتاب المنصوري وكتاب الحاوي وكتاب منافع الأغذية ومضارها وكتاب المرشد أو الفصول ، ويحسب للرازي أنه كان أول من أدخل

(١٣١) هندی ، دور العرب ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(١٣٢) ابن رضوان ، على ، الكتاب النافع في كيفية تعليم صناعة الطب ، تحقيق كمال السامرائي (١٩٨٦م) ؛ (١٧٢ صفحة) ؛ قطاية ، سلمان ، الطبيب العربي على بن رضوان رئيس أطباء مصر ، تونس (١٩٨٤م) ، ص ٩٨ - ١٠٤ ؛ ابن بطلان ، المختار بن الحسن ، دعوة الأطباء ، صفحات من الأدب الطبي العربي ، تحقيق ودراسة عزت عمر ، دمشق (٢٠٠٣م) ، (٢٠٦ صفحة) ؛ عوض ، محمد مؤنس ، من تاريخ الطب العربي في العصور الوسطى أبو اسحاق بن علي الرهاوي ومخطوطته أدب الطبيب ، القاهرة (١٩٩٣م) ، (٩١ صفحة) ؛ عسيري ، مريزن سعيد ، تعليم الطب في المشرق الإسلامي نظمه ومناهجه حتى نهاية القرن السابع الهجري ، مكة المكرمة (١٤١٢هـ / ١٩٩١م) (١٠٩ صفحة) ؛ الرازي ، أبو بكر محمد بن زكريا ، أخلاق الطبيب ، تحقيق عبد اللطيف العبد ، القاهرة (١٩٧٧م) ؛ السامرائي ، كمال ، محنة الطبيب ، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الطب والعلوم العربية ، بغداد (١٩٩٣م) ، ص ٥٣ - ٦١ .

المستحضرات الطبية فى مداواة المرضى وعلاجهم .

وعلى بن أبى العباس وكتابه الملكى أو الكامل فى الصناعة الطبية (العصر البويهى) .

وعلى بن عيسى الكحال ويعتبره البعض مؤسس طب العيون فى العالم وكتابه تذكرة الكحالين .

وأبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى أشهر الأطباء فى الأندلس وأول اسم فى عالم الجراحة فى العصور الوسطى وكتابه الأشهر الموسوم بـ « التصريف لمن عجز عن التأليف » .

وعماد الدين عمار الموصلى وكتابه المنتخب فى أمراض العيون .

وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار القيروانى (ت ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م) ومن مؤلفاته « زاد المسافر وقوت الحاضر » و « طبيب الفقراء والمساكين » و « الاعتماد فى الأدوية المفردة » وغير ذلك .

وأبو على حسين بن عبد الله الشهير بلقب ابن سينا وهو شخصية فذة وعبقريّة نادرة قل أن يجود الزمان بمثّلها ، فى حين يعتبره آخرون ظاهرة فكرية ، ومن مؤلفاته الطبّية القانون فى الطب و « أرجوزة فى الطب » و « التصريح فى فن التشريح » و « كتاب الأدوية القلبية » أى أمراض القلب و « الاستبصار فى علاج الابصار » ورسائل فى المتانة وشقاق البواسير والفصد والأغذية والأدوية وفى الطب النفسى تحمل عنوان الفصول وغير ذلك .

والطبيب المصرى على بن رضوان (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٨م) ومن مؤلفاته « الأصول فى الطب » و « كفاية الطبيب فى ما صح لدى من التجارب » وكتاب « النافع فى تعليم صناعة الطب » وغير ذلك .

وأبو مروان عبيد الملك بن أبى العلاء زهر بن أبى مروان بن زهر (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م ودفن باشبيلية) ومن مؤلفاته « التيسير فى مداواة والتدبير » وكتاب « الأغذية والأدوية » وكتاب « القانون المقتضب » و « رسالة فى البرص والبهق » وغير ذلك .

وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٩٤هـ / ١١٩٨م) ومن مؤلفاته موسوعته الطبية الشهيرة (الكليات) فى سبعة مجلدات .

وأبو عمران موسى بن ميمون (ت ٦٠١هـ / ١٢٠٤م) ومن مؤلفاته « الفصول في الطب » و « مقالة في تدبير الصحة » و « مقالة في البواسير وعلاجها ».

وعبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م) وكتابه الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر ، ، وقد اشتهر البغدادي بمنهجه التجريبي الذي طبقه على دراسة الهياكل العظيمة والجماجم في مصر ، وقد أثبت خطأ جالينوس في كلامه عن الفك السفلي عندما وصفه بأنه مكون من قطعتين من العظم يشدهما مفصلان من جهة الحنك ، أما البغدادي فقد أثبت أنه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلاً .

وأبو محمد عبد الله المالقي الأندلسي المعروف بابن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) وقد صنف أهم مؤلف في علم العقاقير وهو « الكتاب الجامع في الأدوية المفردة » ووصف فيه ما ينوف عن ١٤٠٠ عقار منها ٣٠٠ عقار لم يرد ذكرها في المؤلفات الأخرى .

وعلاء الدين أبو الحسن علي القرشي المعروف بابن النفيس ت ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م أو ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م ، وهو مكتشف الدورة الدموية الصغرى أو الدورة الرئوية قبل وليم هارفي (١٥٧٨ - ١٦٥٧م) بعدة قرون . ومن مؤلفاته كتاب « شرح تشريح القانون لابن سينا » و « قواعد علم التشريح » وغير ذلك .

وأبو الفرج موفق الدين يعقوب بن اسحاق الكركي الشهير بابن القف (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) ومن مؤلفاته عمدة الاصلاح في عمل الجراح المعروف اختصاراً باسم العمدة ، وقد اكتشف ابن القف الشعيرات الدموية وتوصل لمعرفة وظيفتها .

وداود بن عمر الأنطاكي (ت ١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م) ومن أهم مؤلفاته « تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب » ويعرف اختصاراً باسم التذكرة أو تذكرة داود (١٣٣).

(١٣٣) لمزيد من التفاصيل عن هؤلاء وغيرهم من الأطباء والصيادلة انظر ، قاسم ، الطب ، ص ٧١ - ٩٢ ؛ هندی ، دور العرب ، ص ٤٤٨ - ١١٩ ؛ حسين ، الموجز ، ص ٣٨٣ - ٤١٧ ؛ عبد القادر ، ماهر ، دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي ، الاسكندرية (١٩٩٦م) ، ص ٢٢٥ - ٢٩٢ ؛ النجار ، عامر ، في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٩٤م) ، ص ٩٠ - ٢٢٩ ؛ السامرائي ، مختصر تاريخ الطب العربي ، ج ١ ، ص ٤٦٧ - ٦٠٣ ؛ عرابي ، سمير ، علوم الأدوية والصيدلة عند علماء العرب والمسلمين ، القاهرة (١٩٩٩م) ، (٦٥ صفحة) ؛ الشيخ ، عادل محمد علي ، ابن الجزار القيرواني ، بغداد (١٩٨٩م) ، (٤٣ صفحة) ؛ أعمال ندوة أبو بكر الرازي وأثره في الطب ، بغداد (١٩٨٨م) ، (١٧٤ صفحة) ؛ ابن البيطار وأثره في الطب والصيدلة (١٢١ صفحة) ؛ قطاية ، الطبيب العربي علي بن رضوان ، (١٤٥ صفحة) ؛ صالحية ، بحوث ومقالات في الحضارة العربية الإسلامية ، ص ١٥٤ - ١٦٩ .

الفصل الخامس

أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا

أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا :

يمكن القول ، من خلال ما تقدم عرضه ، أن الحضارة الإسلامية قد قامت بدورها فى خدمة الحضارة الإنسانية خير قيام ؛ ورغم ذلك فإن هناك كثيرين ممن يجهلون هذا الدور البارز للحضارة الإسلامية ولولاه لتأخرت النهضة الحديثة عدة قرون .

حقا قد يكون هناك أسباب لهذا الجهل ... وقد يكون تحامل بعض المستشرقين والعلماء الغربيين على التراث الإسلامى ، بل وإهمال المسلمين أنفسهم لتراثهم وتاريخه فترة طويلة من عوامل وجود ذلك الاعتقاد .

وعن جذور هذا التحامل يمكن القول أنه كاد ينعقد الرأى عند جمهرة المستشرقين فى القرن التاسع عشر الميلادى على الاستخفاف بدور العرب فى بناء الحضارة الإنسانية ، والاصرار على أن الحضارة الأوروبية لا تدين بالفضل لغير أجدادهم من اليونان والرومان ، والادعاء بأن العرب بطبيعتهم لم يخلقوا للتفكير الأصيل المبتكر، وجاء هذا فى وقت اشتد فيه التعصب الدينى وقوى فيه الشعور بالتحزب الجنسى الذى يؤكد تفوق الجنس الأرى الأبيض على غيره من الأجناس ، وسبق أوروبا فى الخلق الحضارى على غيرها من القارات ، والارتفاع بالمسيحية فوق غيرها من الديانات ، وهكذا تمزقت العلاقات بين الحضارات الإنسانية بعضها والبعض الآخر ، واستقلت كل ثقافة غالية عن غيرها من الثقافات . وفى هذا الجوفت الاحقاد بين الشعوب بعضها والبعض وتهيأت الظروف لاستعمار الأقوياء للضعفاء .

ومنذ أواخر القرن ١٩م وأوائل القرن العشرين المنصرم قدر للتعصب الدينى والتحزب الجنسى أن تخف حدته وأن يعالج موضوع الحضارات الكبرى والثقافات العالمية - فى كثير من الحالات - بموضوعية وأمانة علمية . وعندئذ كشف العلماء والباحثون فى مؤتمراتهم العالمية وندواتهم الدولية وبحوثهم ودراساتهم الموضوعية عن نصوص ووثائق رفعت الحواجز التى كانت تقوم بين الحضارات بعضها والبعض ؛ وأثبتت هذه وتلك أن الحضارة الإنسانية متنوعة ينباع متعددة المصبات وأن الحضارات الكبرى تتفاعل بعضها مع بعض وخلال عمليات الأخذ والعطاء يزداد مضمونها خصوبة وثراءً ، وبالتالي فإن حضارة اليوم فى أعلى مستوياتها ليست إلا

حصيلة جهود سبقت إليها حضارات عالمية تركت بصماتها فى تاريخ البشرية وتقدمها وهذا خير تمهيد للوحدة الإنسانية التى تنتفى معها الأحقاد وتتلاشى الاطماع وتحقق الدعوة إلى السلام .

غير أن ما يعنينا فى هذا المقام هو أنه كان من دلالات هذا التحول من التعصب الدينى والتحزب الجنى فى القرن التاسع عشر إلى السماحة والانصاف عند الكثيرين فى القرن العشرين المنصرم ما نراه من أحكام موضوعية صدرت فى تقييم الدور البارز للحضارة الإسلامية التى حملت مشعل النور والحضارة فى العالم كله خلال العصور الوسطى .

وليس أدل على اتصال حلقات الفكر الإنسانى عبر تاريخه الطويل من الإشارة إلى أن عميد مؤرخى العلم جورج سارتون (+ ١٩٥٦م) كان يسفه الرأى الذى يجعل العلم - أى علم - من خلق مفكر واحد لم يسهم فى انشائه أحد قبله ؛ أو يجعل الحضارة - أية حضارة - من صنع شعب واحد لم يسبقه إليها شعب آخر ، ومن أقواله « إن من الضلال أن يقال ان اقليدس هو أبو علم الهندسة أو أن أبقرط هو أبو علم الطب أو ... فان تاريخ العلم لا يعترف من الآباء الذين لم يولدوا الا أبانا الذى فى السموات ! ... » .

وبالنسبة للحضارة الإسلامية فان سارتون يؤكد أن ما حققته المعجزة العربية ويقصد الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى - فى المجال العلمى يكاد يتجاوز حد التصديق^(١) .

ويؤكد ذلك أيضاً العالم كويلر يونج فى بحثه الذى القاه فى مؤتمر الثقافة الإسلامية الذى عقد برعاية جامعة برنستون ومكتبة الكونجرس فى واشنطن عام ١٩٥٣م حيث يذكر فى ختام بحثه الموسوم بـ « أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب المسيحى » ما نصه « وبعد ، فهذا عرض تاريخى قصد به التذكير بالدين الثقافى

(١) الطويل ، توفيق ، العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبى ، القاهرة (١٩٦٨م) ، ص ٨٦ - ٩٠ ؛ فى تراثنا العربى الإسلامى ، الكويت (١٩٨٥م) ، ص ٥٨ - ٦١ .

الذى ندين به للإسلام ، منذ أن كنا نحن المسيحيين - داخل هذه الألف سنة نسافر إلى العواصم الإسلامية وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة الحياة الإنسانية، وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكى الذى قام الإسلام على رعايته خير قيام حتى استطاعت أوروبا مرة أخرى أن تتفهمه وترعاه ، كل هذا يجب أن يماذج الروح التى نتجه بها - نحن المسيحيين - نحو الإسلام نحمل إليه هدايانا الثقافية والروحية فلنذهب إليه - إذن - فى شعور بالمساواة نؤدى الدين القديم ، ولن نتجاوز حدود العدالة إذ نحن أدينا ما علينا بربحه ولكننا سنكون مسيحيين حقا إذا نحن تناسينا شروط التبادل واعطينا فى حب واعتراف بالجميل «^(٢) .

ومن هؤلاء أيضا كراوثر الذى عرض فى كتابه موجز تاريخ العلم الصادر فى لندن ١٩٦٩م للدور الخلاق الذى قام به المسلمون والذى يتجاوز حدود النقل إلى التطوير والإضافة والإبداع واكتسب العلم على أيديهم وربما لأول مرة فى التاريخ صفة العالمية^(٣) .

أما توماس جولدشتاين الذى أفرد دراسة مهمة حول المقدمات التاريخية للعلم الحديث من الاغريق القدماء إلى عصر النهضة (نيويورك - ١٩٩٥م) فقد أطلق على الفصل الذى عقده لدراسة اسهامات العصر الإسلامى اسم « هبة الإسلام » فهل هناك عنوان أجمل من هذا يعبر عن الدور البارز للحضارة الإسلامية فى نشأة وتقدم العلم الحديث ؟ ، وقد ختم هذا الفصل بقوله « لم تستقبل أوروبا العلم العربى من أجل رصانته وحدها بأى حال بل استقبلته بدرجة كبيرة كجزء من حركة ثقافية كانت أوروبا مستعدة لها وكل طاقاتها موجهة باتجاهها . ثمة وميض وتألق وتوهج وبهاء ينبعث من البلدان الإسلامية عبر أوروبا خلال القرون الوسيطة الأخيرة له علاقة أكبر بتحرير الحواس مما له بمجرد الدراسة المجتهدة للبصريات أو الحساب ، لكن بالنسبة لقلّة من العقول التى لا تزال منعزلة ومستوحدة فى العادة تصادف أن يعنى العلم بالضبط ما عناه بالنسبة إلى علماء الإسلام غمطا من البحث الشديد التخصص كانوا مستعدين

(٢) أحمد ، محمد خلف الله ، الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، بحوث ودراسات إسلامية ، القاهرة (١٩٥٥م) ، ص ٢٥٧ .

(٣) قام بترجمة هذا الكتاب إلى العربية يمنى طريف الخولى وبدوى عبد الفتاح تحت عنوان قصة العلم ، القاهرة (١٩٩٨م) ، ص ٩ ، ٥٦ ، ٦٣ .

لمواصلته من حيث انتهى المسلمون وللتقدم به بشروطه المدققة والمضنية»^(٤).

ويذكر جيوم « وقد قضى جهل أسلافنا - من أهل الغرب - بلغة العرب ألا يتذوقوا إلا القليل من هذه الحياة الخصبة المتنوعة ، ولهذا فإن الامبراطورية الإسلامية فى أوروبا حين غابت شمسها واندحر البربر ضاعت باندحارهم كل الوان العلم الذى لم يكن الغربيون قد قمتلوه من قبل ، ورغم هذا فقد بقيت الحالة العقلية فى الشرق والغرب إلى القرن الثالث عشر على اتصال لم يكن له نظير منذ ذلك العهد ... وسوف نرى عندما تخرج إلى النور الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوروبية أن تأثير العرب الخالد فى حضارة العصور الوسطى كان أجل شأنًا وأكبر خطراً مما عرفناه حتى الآن»^(٥).

ومهما يكن من أمر فقد إتضحت الرؤية الصائبة لأسببية الحضارة الإسلامية فى العديد من المجالات فى العصور الوسطى مما مهد لقيام الحضارة الأوروبية الحديثة .

ويمكن القول أن المسلمين قد تسلموا القبس من بناء الحضارات السابقة بفضل حركة الترجمة السابق الإشارة إليها ، وأنه قد ظل فى أيديهم بضعة قرون من الزمان يضيئون بنوره حياتهم وحياة من إتصل بهم أو عاش فى ظلهم ، وفى الوقت الذى أوقد فيه العرب شعلة الحضارة الوضاعة كانت أوروبا - منذ سقوط الدولة الرومانية الغربية فى أيدي القبائل الجرمانية المتوحشة ٤٧٦م - فى حالة مزرية من البداوة والجهالة والتخلف ، وحين أخذت تستيقظ بعد سبات عميق دام بضعة قرون من الزمان^(٦) ارتدت إلى تراث الحضارة الإسلامية التى كانت تحمل وحدها مشعل النور وراحت تنهل

(٤) جولدشتاين ، توماس ، المقدمات التاريخية للعلم الحديث ، من الاغريق القدماء إلى عصر النهضة ، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد ، الكويت (٢٠٠٣م) ، ص ١٠٩ - ١٤٤ ؛ ط ٢ ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، ص ١٠٩ - ١٤٤ .

(٥) جيوم ، الفرد ، الفلسفة والالهيات ، ترجمة وتعليق توفيق الطويل ، ضمن كتاب تراث الإسلام ، ج ١ ، القاهرة (١٩٣٦م) ، ط ٢ ، (١٩٨٣م) ، ص ٣٢٣ .

(٦) كانت الفترة الموافقة بين عامى ٤٧٦ - ١٠٠٠م ، هى فترة العصور المظلمة فى أوروبا عامة وبالنسبة للمدن الأوروبية ومكانتها وما صاحبها من تدهور فى التجارة والصناعة وغير ذلك ؛ نسيم ، جوزيف ، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، بيروت ، ط ٢ (١٩٨٧م) ، ص ٢٢١ .

من معينه وتسقى ظمأها من ينابيعه^(٧).

وإذا كان الأمر كذلك فما هى إذن المعابر التى انتقلت من خلالها الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبى ؟

ها علماء الغرب بعض الاختراعات

يمكن القول أن الاتصال الحضارى بين العالم الإسلامى وبين الغرب الأوروبى قد تم من خلال عدة معابر وهى :

- ١ - اسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا .
- ٢ - التجارة .
- ٣ - الحروب الصليبية .
- ٤ - حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية .
- ٥ - الدولة العثمانية .

ولما كان المقام لا يتسع لابرار أثر كل معبر من هذه المعابر على حده ، وفقا للحظة الموضوعة لهذا الكتاب المجلد ؛ على أن نعود إليها تفصيلا واسهابا وتحليلا فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) ولذلك حسبنا أن نؤكد على عدة حقائق تتعلق بهذا الموضوع :

- ١ - ان اسبانيا أصبحت منذ الفتح العربى للأندلس عام ٩٢هـ / ٧١١م نقطة التقاء حضارتين متضادتين قام بينهما صراع مرير طال أمده وانتهى يتفوق احدهما على الأخرى فى نهاية القرن ٩هـ / ١٥م وبالتحديد عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م عندما تغلب الملكان الكاثوليكيان على غرناطة وأطفت بذلك آخر جذوة لحضارة الإسلام فى الأندلس . وعلى هذا الأساس كانت اسبانيا تنقسم خلال ثمانية قرون إلى شطرين متعادين منفصلين جغرافيا وعنصريا ، على أن ذلك لا يعنى أنه لم تكن هناك خلال تلك القرون الطويلة اتصال بينهما سوى قرعات السلاح ، بل كانت هناك اتصالات أخرى وتقاليد مشتركة بطبيعة الحال .. إذ كانت التأثيرات الحضارية تتسرب من أكثر هذين الشطرين تقدماً وحضارة إلى أشدهما تأخراً . كالماء يندفع من أعلى المناطق إلى أشدها انخفاضاً . وذلك عن طريق المستعربين والمسالمة فى اسبانيا الإسلامية والمدجنين

(٧) الطويل ، فى تراثنا ، ص ٦٢ .

ومتنصرة العرب أو الموريسكيين في اسبانيا المسيحية ، ومن هنا أضحت أسبانيا معبراً رئيسياً لانتقال التأثيرات الحضارية الإسلامية إلى أوروبا^(٨).

أما صقلية فقد انضوت تحت لواء الحضارة الإسلامية فيما بين ٢١٢ - ٤٨٤هـ / ٨٢٧ - ١٠٩١م، وظل المسلمون بها من ٤٨٤هـ / ١٠٩١م ، حتى تم نفيهم إلى جنوب إيطاليا ثم القضاء عليهم نهائياً عام ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م، ورغم ذلك فقد ازدهرت الحضارة الإسلامية في ظل رعاية وتشجيع ملوك النورمان بها ، وهو الأمر الذي جعل من صقلية معبراً أساسياً من معابر الحضارة الإسلامية إلى إيطاليا ومنها إلى بقية الغرب الأوروبي^(٩).

٢ - كان للتجارة أثر بارز في الاتصال الحضارى بين العالم الإسلامى والغرب

(٨) سالم ، فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس ، الاسكندرية (١٩٨٥م)، ص ٣٠٥ ؛ وعن أهمية هذا المعبر انظر ، عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ٤٩ - ٥٣ ؛ الملا ، أحمد على ، أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ، بيروت (١٩٩٦م)، ص ١٢٦ - ١٣٠ ؛ وات ، مونتجومرى ، فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ترجمة حسين أحمد أمين ، القاهرة (١٩٨٣م)، ص ٨ - ١١ ، ٢٣ - ٢٥ ، ٤٣ - ٤٥ ؛ القاضى ، مختار ، أثر المدنية الإسلامية فى الحضارة الغربية ، القاهرة (١٩٧٢م)، ص ٦٧ - ٨٠ ؛ أبو خليل ، شوقى ، علماء الأندلس ابداعاتهم المتميزة وأثرها فى النهضة الأوروبية ، دمشق (٢٠٠٤م)، (٩٦ صفحة) ؛ مظهر ، جلال ، مآثر العرب على الحضارة الأوروبية ، القاهرة (١٩٦٠م)، ص ٤٧ - ٥١ ؛ غوميز ، مارغريتا لوبيز ، اسهامات حضارية للعالم الإسلامى فى أوروبا عبر الأندلس ، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، ج ٢ ، بيروت ، ط ٢ (١٩٩٩م) ، ص ١٤٧٧ - ١٤٨١ ؛ مكى ، محمود ، تاريخ الأندلس السياسى ٩٢ - ٨٩٧هـ / ٧١١ - ١٤٩٢م ، دراسة شاملة ، ضمن الموسوعة المشار إليها سابقا ، ج ١ ، ص ٥٥ - ١٥٠ ؛ نتنج ، انتونى ، العرب ، انتصاراتهم وامجاد الإسلام ، ترجمة راشد البرواى ، القاهرة (١٩٧٤م)، ص ٢٠٧ - ٢١٢ .

(٩) عن تاريخ صقلية الإسلامية وأهميتها انظر ، عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ٥٣ - ٥٦ ؛ رسلان ، عبد المنعم ، الحضارة الإسلامية فى صقلية وجنوب إيطاليا ، جده (١٩٨٠)، ص ١٧ - ٢٥ ؛ غانم ، حامد زيان ، تاريخ الحضارة الإسلامية فى صقلية وأثرها على أوروبا ، القاهرة (١٩٧٧م)، (وهو من الكتب المهمة فى هذا الشأن)؛ الجندى ، جمعة محمد مصطفى ، علاقة نورمان صقلية بالقوى الإسلامية فى شمال افريقية خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة ١٩٤ ، الحولية ٢٣ ، الكويت (٢٠٠٢ - ٢٠٠٣م)، (١١٢ صفحة)؛ المدنى ، أحمد توفيق ، المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، الجزائر (١٩٦٩م)؛ مورينو ، مارتينوماريو ، المسلمون فى صقلية ، بيروت (١٩٦٨م)؛ الطيبى ، أمين توفيق ، دراسات فى تاريخ صقلية الإسلامية ، =

الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى وكان للمدن التجارية الإيطالية ومن أهمها البندقية وجنوه ويزا دور كبير في هذا المجال^(١٠).

٣- الحروب الصليبية: مهما كانت الدوافع التي كانت وراء تلك الحملات التي خرجت من أوروبا إلى الشرق والمعروفة باسم الحروب الصليبية فيما بين ٤٩٠ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م؛ إلا أن ما يعنينا منها في هذا المقام هو ما تمخض عنها من توسيع دائرة الاتصالات والعلاقات بين الشرق والغرب، وبالتالي حدوث التأثيرات

= ليبيا (١٩٩٠م)، أحمد، عزيز، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة أمين توفيق الطيبي، طرابلس الغرب، تونس (١٩٨٠م)؛ أماري، ميخائيل، المكتبة العربية الصقلية، نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع، ليبسك (١٨٥٧م)، بيروت، دار صادر، ط ٢، د ت (٧٤٠ صفحة)؛ نتنج، العرب، ص ٢١٢ - ٢١٤؛ عباس، احسان، العرب في صقلية، القاهرة (١٩٥٩م)؛ الدوري، تقى الدين، صقلية وعلاقتها بدول البحر المتوسط، بغداد (١٩٨٠م)؛ محمد، عمر يحيى، السياسة الفاطمية في صقلية وجنوب إيطاليا، وقائع تاريخية، مركز البحوث والدراسات التاريخية، كلية الآداب، جامعة القاهرة (يناير ٢٠٠٥م)، ص ٥ - ٣٥.

(١٠) وات، فضل الإسلام، ص ٢٩ - ٣٢؛ لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص ١، ١٨٩، ١٩١، ٢٦٦ - ٢٧١؛ القاضي، أثر المدنية الإسلامية، ص ١٧٥ - ١٧٧؛ عطية، عزيز سوريال، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة (١٩٩٠م)، ص ١٥٠ - ١٩٤؛ اليوسف، عبد القادر أحمد، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، صيدا، بيروت (١٩٦٩م)، ص ٢٥٩ - ٢٦٤؛ ديل، شارل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر، القاهرة (١٩٤٧م)، (٢٥٢ صفحة)؛ عاشور، فايد حماد، العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، القاهرة (١٩٨٠م)، (٣٣٦ صفحة)؛ نسيم، جوزيف، علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية في ضوء وثائق صبح الأعشى، الاسكندرية (١٩٧١م)؛ عبد النبي، ناجلا محمد، مصر والبندقية، العلاقات السياسية والاقتصادية في عصر الماليك، القاهرة (٢٠٠١م)، (٢٥٧ صفحة)؛ غابرييلي، فرانثيسكو، الإسلام في عالم البحر المتوسط، تراث الإسلام، ج ١، الكويت، ط ٢ (١٩٨٨م)، ص ١٠١ - ١٥٩؛ أبو العافية، داود، دور التجارة في الاتصال الإسلامي / المسيحي خلال العصور الوسطى، ضمن كتاب التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة (١٩٩٩م)، ص ١٥ - ٤٢؛ كونستيل، اوليفيا ريمي، التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج ٢، ص ١٠٦٣ - ١٠٨٦.

٤ . حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية :

قامت حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية بدور بارز جليل الشأن فى النهضة الأوروبية ، وكانت اسبانيا وصقلية من أهم مراكز حركة الترجمة ؛ ومن بين هؤلاء المترجمين روبرت الشستري ، وأديلارد الانجليزى وهوغو الشنتالى وقسطنطين الافريقى وجيرارد الكريمنى (ايطاليا) وهرمان الألمانى من كارنشيا (شرقى التيرول وشمالى البندقية) وبطرس الفونس وحنا الاشبيلى وإبراهيم بن عزرا والفرد الانجليزى وفرج بن سالم اليهودى وايوجنيوس بالرمى (من بالرمو بصقلية) وغيرهم^(١٢).

وليس أدل على أهمية حركة الترجمة من الإشارة إلى ما ذكره جرونيباوم بقوله « كان العلماء العرب ... مصدر الهام قوى للغرب ابان العصر الوسيط ، ولم يكن

(١١) عاشور ، الحركة الصليبية ، جريان ، القاهرة (١٩٧١م) ؛ المدنية الإسلامية ، ص ٥٦ - ٦٠ ؛ القاضي ، أثر المدنية الإسلامية ، ص ١٧١ - ١٧٤ ؛ عطية ، الحروب الصليبية ، (٢٧٢ صفحة) ؛ الحويرى ، محمود محمد ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد ، القاهرة (١٩٧٩م) ، (٢٩٢ صفحة) ؛ العرينى ، السيد الباز ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، القاهرة (١٩٦٣م) ؛ رنسيما ، ستفن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ أجزاء ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت (١٩٦٧ - ١٩٦٩م) ؛ باركر ، ارنست ، الحروب الصليبية ، ترجمة العرينى ، بيروت ، ط ٤ ، (١٩٦٧م) ؛ حلاق ، حسان ، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، بيروت (١٩٨٦م) ؛ لويس ، برنارد ، السياسة والحرب ، ضمن تراث الإسلام ، ج ١ ، ط ٢ ، (١٩٨٨م) ، ص ٢٧٠ - ٢٧٧ ؛ اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٥٥ - ١٨٨ ، ٢١٣ - ٢٣٠ ، ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(١٢) عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ٦٠ - ٦٧ ؛ القاضي ، أثر المدنية ، ص ١٧٨ ؛ وات ، فضل الإسلام ، ص ٨٣ - ٨٧ ؛ بيرنيت ، تشارلز ، حركة الترجمة من العربية فى القرون الوسطى فى اسبانيا ، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٤٣٩ - ١٤٧٥ ؛ السامرائى ، كمال ، الطب العربى فى أوروبا اللاتينية ، ضمن كتاب فضل العرب فى الطب على الغرب ، بغداد (١٩٨٩م) ، ص ٨٣ - ٩٥ ؛ على ، سيد رضوان ، العلوم والفنون عند العرب ودورهم فى الحضارة العالمية ، الرياض (١٩٨٧م) ، ص ١٠٧ - ١٢٠ ؛ الطويل ، فى تراثنا العربى الإسلامى ، ص ٢٠٩ - ٢١٨ ؛ النجار ، زغلول ، الدفاع ، على ، اسهام علماء المسلمين الأوائل فى تطور علوم الأرض ، الرياض ، مكتب التربية العربى لدول الخليج (١٩٨٨م) ، ص ٢٠ - ٢٢ .

الغرب فى بعض الاحيان يكتفى بالتلهف على قبول المادة التى يقدمها المسلمون والتى أصبح فى المستطاع الوصول إليها بما تم من تراجم واسعة النطاق نظمت فى أول الأمر فى طليطلة على معيار ضخم وبمساعدة علماء من اليهود فى أوليات القرن الثانى عشر ؛ بل كان الغرب يتبنى كذلك الشروح التى وضعها مفكرو العرب لهذه المادة ففى القرن الرابع عشر لم تقبل جامعة باريس ادخال دراسة أرسطو إلا مفسرة فى شروح ابن رشد وكان كبار علماء المسلمين ينظر إليهم بعين الرهبة وربما أوتو ثقة وسلطاناً لا سبيل إلى تحديهما « (١٣) .

٥. الدولة العثمانية :

كانت علاقة الدولة العثمانية بأوروبا ولا سيما خلال القرنين ٩ - ١٠ هـ / ١٥ - ١٦ م تقوم على أساس أنها الدولة العظمى التى تستجلب ما تحتاج إليه من خارج نطاق عالمها ودائرة نفوذها ؛ ولذلك كان يشعر العثمانيون بأنهم أقوى من خصومهم الأوروبيين فى كافة المجالات العسكرية والاقتصادية ؛ إذ كانوا يسيطرون على المناجم الغنية ويتحكمون فى طرق التجارة ، ويخرجون من كافة المعارك التى يخوضونها بالنصر مما جعلهم يشعرون بالتفوق المادى ، أضف إلى ذلك إيمانهم العميق بأن الدين الذى يعتنقونه هو خاتم الأديان وأصدقها وبأنهم ورثة الحضارة الإسلامية الزاهرة فى القرون السابقة ، وقد كان هذا الاحساس المادى والمعنوى هو الذى يوجه نظرتهم إلى أوروبا ثم لم يلبثوا أن أدركوا مدى تفوق أوروبا فى مجال التقنية العسكرية أو القوة الاقتصادية وحاولوا اللحاق بها (١٤) .

وعلى ذلك يمكن القول بأن التأثير الإسلامى على أوروبا خلال تلك الفترة لا يمكن مقارنته بتأثير المرحلة السابقة ؛ ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى اختلاف الأوضاع الحضارية فى أوروبا عن ذى قبل ؛ ففى المرحلة الأولى كانت أوروبا لا تزال تستيقظ من سباتها العميق ومن ثم ارتقت فى أحضان الحضارة الإسلامية لتنهل من معينها وترتوى من ينباعها ، أما الآن - أى خلال المرحلة الثانية المعاصرة للدولة العثمانية فى القرنين

(١٣) جرونيباوم ، حضارة الإسلام ، ص ٤٣٢ .

(١٤) أوغلى ، الدولة العثمانية ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ - ٤٩٦ .

٩ - ١٠ هـ / ١٥ - ١٦ م وما بعد ذلك - فقد أصبحت الحال غير ذات الحال ؛ إذ صارت أوروبا تعيش عصر نهضتها وعصر الإصلاح ، وقد اكتسبت وعيا بذاتها وتملكها حب استطلاع عقلى لم يكن له أى نظير فى العالم الإسلامى المعاصر آنذاك ، والذى كان هو نفسه مهدداً بالنزعة التوسعية السياسية والاقتصادية للأوروبيين^(١٥).

ولذلك فقد شهدت هذه المرحلة نوعاً من التأثيرات المتبادلة فى بادئ الأمر ، ثم لم تلبث أن غلبت التأثيرات الأوروبية وأصاب الناس حمى التفرنج ولا سيما خلال القرن ١٩ م وما تلاه .

وفى ضوء ذلك فإن معالجة التأثيرات الحضارية فى تلك المرحلة الثانية تحتاج إلى نظرة تحليلية أكثر شمولاً وهو ما سوف نعود إليه فى دراسة لاحقة (بمشيئة الله تعالى) .

أما عن مظاهر أثر الحضارة الإسلامية فى أوروبا فنستطيع أن نجملها فى النقاط التالية :

أ- فى الأدب : يختلف أثر العرب فى النهضة الأوروبية فى ميدان الأدب عنه فى أى ميدان آخر نظراً إلى طبيعة المادة نفسها وإلى ظروفها ، فالشعر العربى لم يكن كالفلسفة والطب نتاج حضارات سابقة حملها العرب بأمانة وأضافوا إليها فى أصالة ولعبوا فيها الدور الأخير والأساسى قبل أن يسلموها إلى عصر النهضة ؛ وإنما الشعر العربى كان عربياً خالصاً لم يتأثر بأدب حضارات سابقة ، ومن ثم فإن الشعر العربى كان شعراً عربياً خالصاً لم يسهم فى تطوره وفى مراحل الأخرى إلا قوم استظلوا بالحضارة الإسلامية وتأثروا بها ، وتفرعاً من هذه الحقيقة نجد أن الشعر لم ينتقل عن طريق الترجمة وإنما انتقل من خلال عملية معقدة متأثرة بهذه الحقائق . كان لا بد إذن من انصهار سكان جنوبى اسبانيا وصقلية وجنوب غرب فرنسا فى بوتقة الحضارة الإسلامية حتى يستسيغوا النماذج العربية فى فن الأدب ، كما أنه كان لا بد لشكل هذا الفن ومضمونه من أن يتطور بفضل هذا الشعب الخليط الجديد لتوحيد النماذج المؤثرة فى شكل متجدد متطور ليس من السهل رصد حلقاته ، ولقد أخذ الدارسون المدققون يستخرجون نصوص هذه النماذج حديثاً ليدلوا بالبرهان العملى على عملية

(١٥) غابريلى ، الإسلام فى عالم البحر المتوسط ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

التأثير والعطاء العربيين لشعر النهضة وآدابها لأن الأدب لا يد فيه من النماذج : من الأصل ومن التقليد معاً لتدل على الأخذ والعطاء^(١٦).

وكان أهم ميدان لهذا الالتقاء والامتزاج فى مجال الأدب هو ما حدث فى الأندلس أولاً ثم صقلية ثانياً .

هذا وقد تأثرت الآداب الأوروبية فى العصور الوسطى وبداية العصر الحديث تأثراً واضحاً بموضوعات الأدب العربى وقد اعترف بذلك عدد كبير من العلماء والمستشرقين وحسبنا أن نشير إلى بعضهم فها هو المستشرق جب يقول « ... ربما كان خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب القرون الوسطى أنها أثرت بثقافتها العربية وفكرها العربى فى كلا شعر القرون الوسطى ونشرها سواء أظهرت فى هذا الشعر أو النشر مواد أخذت عن مصادر عربية أم لم تظهر ... ».

ويضيف جب فيذكر « وهكذا نجد أن تشرب العصور الوسطى بموضوعات الأدب العربى كان فى الحقيقة يؤلف مظهراً من مظاهر حركة فكرية عامة شملت تلك العصور، فقد كانت النظم الدينية الضيقة التى اتصفت بها العصور الوسطى لا تتسع للحضارة اللاتينية ويات الناس يتشوقون إلى معرفة مسائل كانت إلى هذا الحين تملئها عليهم السلطات العليا فيقبلونها فى غير مشقة ، ولما لم يجدوا مقنعا فيما لديهم من الآداب اللاتينية على ضيقها وجذبها وافتقارها إلى قوة الإبداع ، كان لا بد لهم من أن يولوا وجوههم شطر جهة أخرى لعلهم أن يظفروا بما كانوا يرغبون فيه ، ولقد كانوا إلى ذلك الحين يعترفون على مضض بتفوق العالم الإسلامى فى الناحية الحربية فحسب ، ولكنهم لم يلبثوا يومئذ أن لاحظوا فى شئ من الخجل أنه يبرزهم فى الحياة العقلية أيضاً^(١٧).

ويؤكد ذلك ما ذكره أيضاً جرونيباوم بقوله « ... وإن نفس وجود العالم الإسلامى كان له أثر كبير فى صوغ التاريخ الأوروبى والحضارة العربية ... ذلك أن القصص الإسلامى والأخيلة الشعرية وفلسفة الغيبات الإسلامية وجراة المذاهب الصوفية

(١٦) القلماوى ، سهير ؛ مكى ، محمود على ، أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية (الفصل الأول - فى الأدب)، ص ٢١ - ٢٢ .

(١٧) جب ، الأدب ، ضمن تراث الإسلام ، ج ١ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

الإسلامية قد تركت جميعا آثارها ببلاد الغرب فى القرون الوسطى ، ولا شك أن أعظم رجال اللاهوت وأعظم الشعراء فى القرون الوسطى الأوروبية مدينون للإسلام بأكبر الفضل فى ناحيتى الإلهام والمادة ...»^(١٨).

وتتجلى مظاهر هذا التأثير فى مجالى الشعر والنثر على السواء .

ففى الشعر نجد أن الشعر الأوروبى المعروف بشعر التروبادور (وهناك من يرى أن هذه اللفظة تتركب من مقطعين (هما دور طرب) قدمت فيه الصفة على الموصوف) ، قد تأثر بالشعر العربى الأندلسى الذى امتاز بالرومانتيكية البالغة فى الغزل الرقيق والثناء الباكى وغير ذلك كما هو الحال فى الموشحات (باللغة الفصحى) والأزجال (بالعامية) وما يمتاز به من صدق تمثيله لنفسية الإنسان وخواطره وانفعالاته .

وكان المستشرق الأسباني دون خوليان ريبيرا هو أول من تنبه إلى وجود تماثل فى تركيب الأبيات وتعاقب القوافى بين الشعر العربى الأندلسى وأغاني التروبادور الاكيتانية والبروفانسية وكان جيوم التاسع دوق اkitانيا هو أول شاعر غنائى معروف كتب بلغة رومانسية وكانت له علاقة وثيقة باسبانيا المسيحية ؛ فقد زار اسبانيا وساعد الفونسو المحارب ، كذلك فان التروبادور ماركو برو رحل إلى قشتاله واشترك مع الفونسو السابع فى إحدى حملاته على اسبانيا الإسلامية وهكذا تغلغل الشعر الشعبى الأندلسى فى الشعر الغنائى البروفانسى فظهر فى جنوب فرنسا ووسطها ثم انتشر فى شمال شبه جزيرة ايبيريا وايطاليا بعد ذلك .

أما الأثر العربى فى النثر الأوروبى فليس فيه مجال للشك أيضاً ، فقد أثرت القصص العربية الشهيرة فى الآداب الغربية ومنها قصص ألف ليلة وليلة وقد تأثر بها الكاتب الايطالى الشهير بوكاشيو فى كتابه الموسوم بـ « الأيام العشرة » ويحوى هذا الكتاب مائة قصة ، أبطالها سبع سيدات وثلاث رجال عاشوا فى مكان منعزل وخصص لكل واحد منهم قصة يرويها على رفاقه لمقاومة ما يعتريهم من ملل فى وحدتهم ، وقد ظهر هذا الأثر أيضاً فى قصص شوسر المعروفة بـ « قصص كانتو

(١٨) جرونيباوم ، حضارة الإسلام ، ص ٤٣٥ .

ولا تفوتنا الإشارة إلى دانتي اليجييري (+ ١٣٢١م) الذي تأثر أكثر من غيره بالأدب العربي والتراث الفلسفي والديني الإسلامي وهو ما يتجلى في الكوميديا الإلهية التي تعكس بوضوح تأثر دانتي بالثقافة الإسلامية ومنها قصة الإسراء والمعراج ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري والفتوحات المكية لمحيي الدين ابن عربي ولا سيما الفصل المعروف بكيمياء السعادة وأضاف البعض أيضاً منظومة سير العباد إلى المعاد للشاعر الفارسي الكبير سنائي (المتوفى ٥٢٦هـ / ١١٣١م) (٢٠).

أما في إيطاليا فإنه يكفي لفهم مدى تأثير العرب الأدبي عليها أن نذكر هذه المقاطع من شعر بترارك شاعر إيطاليا الأكبر (+ ١٣٧٤م) حيث قال « ماذا ؟ .. أيحل شيشرون محل ديموستين ويضحى فيرجيل شاعراً بعد هوميروس ثم لا يبقى بعد العرب من هو قادر على الكتابة ؟ ... نحن متعادلون مع الاغريق في أكثر الأحيان وأحياناً تجاوزناهم ، بل تجاوزنا جميع الأمم ولكن قل لي هل تجاوزنا العرب ، ياللعجب ، يالرحمة ، يا عبقرية إيطاليا انهضى أو فلتنطفئ » (٢١).

كذلك كان للقصاص الخيالية والخرافية ذات المغزى الأخلاقي أو التي تتخذ الحيوان

(١٩) عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ٧٢ - ٧٨ ؛ القلماوي ومكي ، أثر ، ص ٣١ - ٦٢ ؛ سالم ، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس ، ص ٢٠٧ - ٢١٣ ؛ ولزيد من التفاصيل انظر ما كتبه جيوم في تراث الإسلام (ج١) السابق الإشارة إليه ، يعقوب ، جورج ، أثر الشرق في الغرب ، ترجمة فؤاد حسنين على ، القاهرة (١٩٤٦م) ، ص ٨٢ - ٨٦ ؛ بروفنسال ، ليفي ، الشعر العربي في الأندلس وأثره في الشعر الأوروبي في العصر الوسيط ، مجلة الكتاب (مايو ١٩٤٧م) ، ص ١٠٤٠ - ١٠٤١ ؛ ومن الدراسات الحديثة : ولستان ، دافيد ، الغلمان والنساء والسكراري : هل هناك تأثير إسباني - موريسكي على الأغنية الأوروبية ؟ ضمن كتاب التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى ، ص ١٥٩ - ١٩٠ ؛ الجيوسي ، سلمى الخضراء (تحرير) ، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، ج١ ، بيروت ، ط ٢ (١٩٩٩م) ، ص ٦٥٧ - ٦٩٦ ، ٧٢٧ - ٧٩٩ .

(٢٠) آسي ، ميجيل ، أثر الإسلام في الكوميديا الإلهية ، ترجمة جلال مظهر ، القاهرة (١٩٨٠م) ، (٢٧٢ صفحة) ؛ فضل ، صلاح ، تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي ، القاهرة ، ط ٣ ، (١٩٨٦م) ، (٣٩٢ صفحة) .

(٢١) عن : بهنسي ، عفيف ، أثر الجمالية الإسلامية في تكوين الفن الحديث ، القاهرة ، دمشق (٢٠٠٠م) ، ص ٦٦ .

محوراً لها أثرها فى الأدب الأوروبى بعد أن تمت ترجمة العديد من هذه القصص الى اللغة اللاتينية وغيرها ، ومن القصص الأوروبية التى نتلمس فيها هذا التأثير قصة ايزولد ذات اليد البيضاء وقصة فلورا والزهرة البيضاء وقصة القاسم ونيقوليت وقصة أماديس دى جولاء وغيرها ، وقد اعترف المستشرق جب بأنه لولا قصص ألف ليلة وليلة لما عرف الأوروبيون قصة روبنسون كروزو أو قصة رحلات جلفر ، بل ويضيف البعض فيذكر أن قصة روبنسون كروزو مأخوذة عن قصة حى بن يقظان للفيلسوف الأندلسى ابن طفيل (المتوفى ٥٨١هـ / ١١٨٥م) والتى ترجمت إلى اللاتينية ١٦٧١م وإلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨م (٢٢).

ولا تفوتنا الإشارة إلى أثر فن المقامات العربية ومنها مقامات الحريري والهمداني فى الأدب الأوروبى أيضاً (٢٣).

٢ - فى الموسيقى :

من المعروف أن المشتغل بالموسيقى لا بد أن يلم بالكثير من العلوم والفنون ليكون أهلاً لاحتراف هذا الفن ؛ إذ لا بد له من اكتمال ثقافته فى نواحيها حتى يكون مرآة صادقة لعصره وصورة مترجمة لزمانه : يجيد العزف بالالات وعلى معرفة أكيدة بفنون الشعر والأدب والقصص وأدب السلوك والمؤانسة ، ليتمتع من يريد الاستمتاع فى مجالس الغناء بجميع هذه النواحي مجتمعة .

هذا ولم يكن افتتان العرب فى الموسيقى مقصوراً على ضبط فنون الغناء والعزف

(٢٢) عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ٧٩ - ٨٣ ؛ جب ، الأدب ، ضمن تراث الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ؛ يعقوب ، أثر الشرق ، ص ٨١ ؛ وعن قصة حى بن يقظان انظر ، بيرغل ، ج. ك ، ابن طفيل وكتابه «حى بن يقظان» نقطة تحول فى الكتابة الفلسفية العربية ، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، ج ١ ، ص ١١٥٥ - ١١٧٦ .

(٢٣) عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص ٨٢ - ٨٣ ؛ ولزيد من التفاصيل عن أثر الأدب الإسلامى فى مثيله الأوروبى انظر البحث القيم لكل من القلماوى ومكى فى كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية ، ص ٢٧ - ١٢٠ .

والتعرف إلى أصول الموسيقى وقواعدها واستكمال الآلات الموسيقية وتطوير صناعتهما فحسب ، بل افتنوا كذلك فى ألوان التأليف الموسيقى وتطوروا بأساليب الشعر والغناء .

وقد كان للموسيقى العربية أثرها فى الموسيقى الأوروبية بعد أن تمت ترجمة الكثير من الكتب فى الموسيقى للكندى وثابت بن قرة والرازى والفارابى وابن سينا واخوان الصفا وابن باجة وصفى الدين عبد المؤمن الأرموي^(٢٤) . ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى الدور البارز الذى لعبه أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب (غلب عليه هذا اللقب من أجل سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله وشبه بطائر أسود غرد فى العراق قبل أن ينتقل إلى الأندلس) بعد أن قدم إلى قرطبة فى عهد أميرها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ؛ غير أن ما يعنينا فى هذا المقام هو أن زرياب قد جدد فى الألحان تجديداً لم يعرفه أحد من معاصريه ، ولم يكتف بذلك بل أسس مدرسة فى الغناء والموسيقى فى قرطبة كان لها أثرها الكبير فى وضع الأسس القوية التى قامت عليها الموسيقى العربية فى الأندلس ؛ وهى التى تركت آثارها البعيدة فى الموسيقى الأوروبية^(٢٥) .

هذا وتدين أوروبا للعرب فى أكثر آلاتها الموسيقية فقد انتشرت فى جنوب وغرب أوروبا منذ القرن ٣هـ / ٩م آلات الموسيقى العربية وكثير من هذه الآلات انتقل إليها بأسماء تنم عن اشتقاقها من أصلها العربى ومن أشهرها العود ومعناه الخشب فقد انتقلت التسمية العربية بلغتها إلى جميع اللغات الأوروبية وحسبنا أن نسجل هنا أسماء العود فى اللغات المختلفة : الاسبانية Laud - السويدية Luito - البرتغالية Alau - الانجليزية Lute - الفرنسية Luth - الإيطالية Luito - الألمانية Laute - الدانماركية Lut - الروسية Ljutnja - البولونية Lutnia - الفنلندية Luuto - الصربية Lutnja - المجرية Laut - الرومانية Leuta وهكذا ...

ومن الآلات الأخرى الرباب Rebec والنقارة nakers ، والصنوج Sonajas ،

(٢٤) الحفنى ، محمود أحمد ، أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية (الموسيقى) ، ص ٤١٨ - ٤١٩ .

(٢٥) سالم ، فى تاريخ وحضارة ، ص ١٥١ - ١٥٣ .

والدف adufe والطبل atabal والنفیر anafil والبوق ablogue والقيثارة Guitarra والجيتار Guitar والشقيير Echiquier . وما كاد العود ينتقل من الأندلس إلى فرنسا حتى أصبح فى القرن ١٢هـ / ١٢م من آلاتها الشائعة ، كما لاقى رواجاً كبيراً فى ألمانيا ثم فى إيطاليا ثم فى بقية البلاد الغربية^(٢٦).

وكما هو معروف فى علم الآلات ، ان الآلات الموسيقية حين تنتقل من بلد إلى آخر لا بد أن تنتقل معها موسيقاها أيضاً ، وهكذا نجد أن أوروبا عن طريق انتقال العود إليها سرعان ما اهتمت إلى التدوين الجدولى المعروف باسم تابولاتور Tabulatur ، وترجع بداية هذا التدوين إلى ما كان العرب يصنعونه من الدساتين (ومفردها دستان) على رقبة العود وما شابهه مثل آلات الطنابير والجيتار لبيان مواضع عفق الأصابع على الأوتار لتحديد مواقع النغمات وفى كتاب الموسيقى الكبير للفارابى ذكر دساتين العود ودساتين الطنبور البغدادى ودساتين الطنبور الخراسانى^(٢٧).

وتؤكد المستشرق الألمانية زيغريد هونكه على ذلك بقولها « وبينما كان العازفون فى الغرب يعزفون على الهارب والسيطار والسنطور معتمدين على السماع فقط - أى أن ضبط هذه الآلات الوترية كان يعتمد على الاذن فقط - كان الطلبة فى مدرسة زرياب يعزفون باتقان على العود والجيتار بالعرفق على الدساتين لتحديد درجة كل نغمة ولهذا لقيت الموسيقى العربية فى الشرق رواجاً كبيراً وخاصة العود منها ... »^(٢٨).

وكان أول ظهور التدوين الجدولى فى أوروبا هو التدوين الجدولى للعودذى الأوتار الخمسة ثم العود ذى الأوتار الستة فى فرنسا وإيطاليا .

وهذا التدوين الجدولى على اختلاف أنواعه يبنى على أساس التعبير عن النغمات ومواقعها بالحروف الهجائية والأرقام الحسابية ، ولم تستخدم أوروبا هذا النوع قبل القرن ٩هـ / ١٥م^(٢٩)، ويرجع الفضل إلى صفى الدين عبد المؤمن الأرموى (ت ٦٩٤هـ /

(٢٦) الحفنى ، أثر العرب والإسلام ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٤ ؛ رايت ، أوين ، الموسيقى فى الأندلس ، دراسة شاملة ، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، ج ١ ، ص ٨٢٠ .

(٢٧) الفارابى ، كتاب الموسيقى الكبير ، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة ، مراجعة وتصدير محمود أحمد الحفنى ، القاهرة (١٩٦٧م) ، ص ٤٩٨ - ٥٠٢ ، ٦٣٢ ، ٦٥٣ - ٦٥٤ ، ٦٩٨ ، ٧٠١ ، ٧٢٠ .

(٢٨) هونكه ، شمس العرب ، ص ٤٩٣ .

(٢٩) الحفنى ، أثر العرب والإسلام ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

١٢٩٤م) فى أنه كان أول من سجل التدوين اللحنى للنغمات باستخدام الحروف الهجائية فى بيان اختلاف حدة الأصوات مقرونة بالأرقام الحسابية لبيان تقديرها الزمنى .

وكان هذا التدوين الجدولى الجديد البداية التى أضاءت طريق أوروبا إلى استكمال التدوين الذى تحدد به النغمات وتضبط الموسيقى زمنها وإيقاعها (٣٠).

وكذلك عرفت أوروبا الآلات الوترية ذات القوس حوالى القرن ٥هـ / ١١م حين انتقل إليها الرباب العربى من الأندلس إلى فرنسا وإيطاليا ، ثم البلاد الأوروبية الأخرى ، كما أنه ترتب على انتشار آلة الشقيير Echiquier فى أوروبا أثرها فى ظهور وانتشار آلة البيانو التى تعتمد فى بنائها على تعدد التصويت (الهارموني) .

على أن أهم أثر للموسيقى العربية فى أوروبا هو ظهور السلم الموسيقى الكبير (الماجير) ثم السلم الصغير (المينير) والسلم الكروماتى على يد الموسيقار تسارلينو فى القرن ١٠هـ / ١٦م الذى يعتبر أول مؤسس لعلم الهارموني والكونتر بونيت فى رأيهم .

والحق أن العرب قد عرفوا أيعاد هذا السلم الموسيقى قبل ذلك بعدة قرون وأسهب العلماء فى توضيح نسب هذه التجنيسات الصوتية واستعملت عملياً فى العزف والتوقيع بالآلات كما يتضح لدى الفارابى وابن سينا وصفى الدين عبد المؤمن الأرموى وعندما انتقلت إلى أوروبا الدساتين الموضوعة على رقبة الآلات الوترية العربية كالعود والجيتار وأصناف الطنابير تعرفت على هذه الأبعاد فى الموسيقى العملية ، وبالتالى فإن ما نسب للموسيقار تسارلينو فى القرن ١٦م ليس ابتكاراً ؛ وإنما هو يعبر عن أثر الموسيقى العربية فى تطوير الموسيقى الأوروبية التى كانت تعتمد قبل ذلك على السلم الموسيقى المعروف بسلم فيثاغورس .

أما عن تأليف الأصوات وانسجامها وهو ما يعبر عنه الغربيون باسم الهارموني

(٣٠) فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، ص ٣٢٢ - ٣٢٥ ، والصورة الزنكوغرافية المنشورة فيما بين صفحتى ٣٢٠ - ٣٢١ ؛؛ وانظر أيضاً كتاب الأدوار للارموى ، تحقيق وشرح الحاج هاشم محمد الرجب ، بيروت (١٩٨٠م) .

فقد كان الأساس في ذلك راجعاً أيضاً إلى ما سبقهم إليه العرب في هذا الميدان ويكفي مراجعة ما ذكره ابن سينا في كتاب النجاة تحت عنوان محاسن اللحن ما يؤكد ذلك (٣١).

كذلك فإن المقاطع الصولفائية : فا (Fa) مى (Mi) رى (Re) دو (Do) سى (Si) لا (La) صول (Sol) والتي يقال أن الموسيقى الايطالى جيدفون أرينزو قد أخذها عام ١٠٢٦م عن نشيد يوحنا ، إنما هي مأخوذة عن الأحرف العربية دال ، راء ، ميم ، فاء ، صاد ، لام ، سين التي نجدتها مع غيرها في مقطوعات من الموسيقى اللاتينية في القرن ١١م (٣٢).

٣- في اللغة :-

كان لا بد أن تؤثر اللغة العربية في لغات الغرب الأوروبى ، وليس أدل على ذلك من آلاف الألفاظ التي يزخر بها قاموس هذه اللغات ، ومما له دلالة أن هذه الألفاظ لا تقتصر على العلوم كالطب والفلسفة والفلك والرياضة والكيمياء والموسيقى وغيرها فحسب ، وإنما تتجاوز ذلك إلى الحياة الاجتماعية والسياسية والتقاليد العسكرية ونظم الزراعة والتجارة والصناعة والعمارة وال عمران . وعلى ذلك فان هذه

(٣١) الحفنى ، أثر العرب والإسلام ، ص ٤٢٤ - ٤٢٧ .

(٣٢) هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٤٩٤ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن الموسيقى العربية وأثرها في أوروبا انظر ، فارمر (تاريخ الموسيقى العربية) وهونكه (شمس العرب تسطع على الغرب) وهما من المراجع السابق الإشارة إليها ، وانظر أيضاً المصادر والمراجع الآتية :

الفارابى ، كتاب الموسيقى الكبير ، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة ، القاهرة (١٩٦٧م)؛ الارموى ، الأدوار ، تحقيق الحاج هاشم محمد الرجب ، بيروت (١٩٨٠م) ، الكندى ، مؤلفات الكندى الموسيقية ، تحقيق زكريا يوسف ، بغداد (١٩٦٤م) ، اللازقى ، الرسالة الفتحية في الموسيقى ، تحقيق الحاج هاشم محمد الرجب ، الكويت (١٩٨٦م)؛ رشيد ، صبحى أنور ، الآلات الموسيقية في العصور الإسلامية ، بغداد (١٩٧٥م) ؛ رايت ، الموسيقى في الأندلس ، ص ٨٠٣ - ٨٣٥ ؛ الحسجى ، على ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، بيروت (١٩٦٩م)؛ الجرارى ، آثار الأندلس على أوروبا في مجال النغم والايقاع ، الرباط (١٩٨٢م)؛ الطنجى ، محمد تاويت ، الطرائق والألحان الموسيقية في افريقيا والأندلس ، الأبحاث ، السنة ٢١ ، الأعداد ٢ - ٤ ، بيروت (١٩٦٨م)؛ الحفنى ، زرياب ، موسيقار الأندلس ، أعلام العرب ، العدد ٥٤ ، القاهرة د ت .

الألفاظ العربية هي أبلغ سجل باق خلدت فيه الحضارة الإسلامية في الغرب الأوروبي .

وإذا بدأنا باللغتين الإسبانية والبرتغالية نجد أن عدد الألفاظ العربية فيهما أضخم مما يتصوره العقل ، وقد عمل المستشرق المعروف دوزي معجما للألفاظ ذات الأصل العربى الشائعة فى هاتين اللغتين ، ورغم ضخامة هذا المعجم فإنه يعترف بأنه يمكن إضافة ألفاظ أخرى .

ونجد كذلك العديد من الألفاظ فى اللغة الانجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية .

وحسبنا فى هذه العجالة أن نشير إلى بعض هذه الألفاظ (٣٣) :

فى الإسبانية :

Acequia	ساقية
Noria	ناعورة
Arriate	الرياض
Arrayan	الريحان
Arroz	الأرز
Alcoba	القبة
Atahona	الطاحونة
Alaud	العود

(٣٣) انظر ، عاشور ، دراسات ، ص ١١٤ ؛ المدنية ، ص ٨٣ - ٨٦ ؛ سالم ، فى تاريخ ، ص ٣١٦ - ٣٢٢ ؛ تراث الإسلام ، ج ١ ، ط ٢ (١٩٨٨م) ، ص ١٢٦ ، ١٣٥ - ١٣٩ ؛ وات ، فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ص ١١٥ - ١٢٥ ؛ ميسز ، ديتر ، مزيد من المفردات العربية وتصنيفاتها فى اللغات الرومانسية - الأيبيرية ، ضمن الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس ، ج ١ ، ص ٦٥١ - ٦٩٦ ؛ هونكه ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، بيروت ، ط ٩ (٢٠٠٠م) ، ص ٥٥٢ - ٥٥٩ ؛

Taylor, W., Arabic Words in English, London, (1933) .

Tambore	الطنبور
Atabale	الطبل
Alboque	البوق
Adoufe	الدف
Alizar	الازار
Almaizer	المثزر

فى الإيطالية :

Bossala	البوصلة
Dogana	دكان
Magazzion	مخزن
Maona (شركة تجارية)	معونة
Moatra (نوع من القروض بفائدة)	مخاطرة
Ziro	الزير
Giara	الجرة
Giubba	الجبة
Caffatanuk	القفطان

فى الانجليزية :

Admiral	أمير البحر
Adobe	الطوب
Alcaide	القائد
Alcohol	الكحول
Algebra	الجبر
Algorithm	اللوغارتم
(نسبة إلى اسم الخوارزمى).	
Chiffre - Cipher	الصففر

Arsenal	دار الصناعة
Atlas	أطلس (قماش ناعم الملمس)
Caliph	خليفة
Camel	جمل
Chemistry	كيمياء
Cheque	صك
Cotton	قطن
Gala	خلعة
Howda	هودج
jar	جرة
Henna	حناء
Mattress	مطرح
Sacre	صقر
Sugar	سكر
Shrub	شُرْب
Crown	قرون (تاج)

أسماء الكواكب والأبراج فى علم الفلك

Algol	الغول
Algorab	الغراب
Akrab	العقرب
Caph	الكف
El-Rakis	الراقص
Sadr	صدر الدجاجة
Tauri	قرن الثور
Cursa	كرسي الجوزاء

٤- فى صناعة الورق :

انتقلت صناعة الورق من العالم الإسلامى إلى أوروبا عبر مسارب متعددة فدخلت صناعته إلى الأندلس فى القرن ٤هـ / ١٠م ويرجع الفضل فى استعمال الطواحين المائية فى تفتيت مواد الكاغد الأولية إلى العرب الأندلسيين فى شاطبة وذلك فى حوالى ٥٤٦هـ / ١١٥١م بدلا من استعمال القوة البدنية أو مطارق الهاون إذ سرعان ما قلدها صناع الكاغد الأوروبيين فأنشأوا أمثال على الأنهار واستمروا يستعملونها حتى أواخر ق ١٢هـ / ١٨م .

وفى سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م أنشئ فى إيطاليا أول معمل للورق ويسمى طاحون الورق لأن صناعته اعتمدت على الطواحين التى كانت تسير بقوة اندفاع التيار المائى ، وبعد إيطاليا انتشرت صناعة الورق فى أكثر الأقطار الأوروبية ومنها هولندا التى استعملت الطواحين الهوائية بدلا من المائية .

كذلك قلد الصناع الأوروبيون الخطوط والعلامات المائية فى الكاغد الإسلامى وأضافوا إليها علامة خاصة بمصانعهم وترجع أقدم علامة مائية فى الورق الأوروبى إلى عام ٦٨١هـ / ١٢٨٢م وبعد ذلك تطورت هذه العلامات وأتقنت^(٣٤) .

٥- فى قواعد المنهج العلمى الحديث :

من المعروف أن الفكر العلمى العربى لم يكن ناقلا للفكر اليونانى - وغيره - ومقلداً له بل كان على الدوام فكراً نقدياً يتحرى الحقيقة ويطلبها متوسلاً بالشك المنهجى العلمى من أجل التثبت من الآراء والفروض والنظريات ، فتصدى الكثير من العلماء للكثير من المعارف القديمة بالتحليل والنقد دون التسليم بها لمجرد أنها مطروحة من قبل أساطين الفكر ، وكان الهدف من ذلك التمييز بين الحق والباطل من جهة والابقاء على ما أيدته الشواهد والوقائع واختبرته التجربة من جهة أخرى .

وقد طور الفكر العربى منهجا نقدياً مستخدماً بثقة الشك العلمى والتحليل الاختبارى للمعلومات النظرية والمعارف الكلية أو العامة من أجل تطوير المعرفة

(٣٤) السامرائى ، علم الاكتناء العربى الاسلامى ، ص ٢٦٨ - ٢٧١ ، ٢٩٥ - ٢٩٦ .

العلمية وتقدمها بعد أن وطد الأسس القويمة التي يقوم عليها البناء العلمى ، وكان ذلك السبيل الأمثل الذى تعلمه الإنسان العربى بفضل عقيدته أن يميز بين الحق والباطل والذى طوره فى التحرى عن الأقوال والأخبار الصائبة فيما يتصل بالرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) وصحابته فإذا بهذا المنهج النقدى (الجرح والتعديل وهو مذهب أهل الحديث) ، يأخذ طريقه فى التحرى عن صدق الآراء والفروض العلمية التى أخذوها عن اليونان .

وقد تميز الفكر العلمى العربى باحلال المنهج العلمى التجريبى محل هذا المنهج النقدى لأهل الحديث (الجرح والتعديل) ، وبذلك فهم قد خالفوا الفكر اليونانى السابق الذى تميز فى الغالب بالصورية والبحث عن المبادئ والأصول ، ولم يكن المنهج التجريبى الإسلامى بسيطاً وساذجاً ؛ بل كان قائماً على قواعد وأسس سليمة من المشاهدة والملاحظة للحالات والأشياء ؛ فضلاً عن اعتماد التجارب المختبرية والتوسع فيها لكشف العلاقات القانونية بين الحالات أو الأشياء واستقراء الحالات والنظر فيها من أجل الوصول إلى الأحكام الكلية أو القوانين ، ويمكن للمرء أن يلمس الاتجاه التجريبى فى الفكر العلمى العربى إذا ما راجع المعلومات الفلكية الكثيرة التى جمعت عن طريق الرصد والارصاد والمعلومات الكيميائية والنباتية والحيوانية وما يتصل بالمعادن والأحجار فكانت الأساس لتطوير هذه العلوم ؛ كما ساعدت المعلومات التجريبية والمختبرية فى حقل البصريات والميكانيكا والمعادن والكيمياء إلى تغيير كثير من الآراء الصائبة التى نقلها العرب عن اليونان لتحل محلها آراء وفروض وقوانين علمية أساسها التجارب المختبرية والتدابير العلمية .

وبذلك تميز الفكر العلمى بالأصالة والابتكار والإضافة من جهة واستغلال المعرفة العلمية وما تزوده من عناصر تطبيقية فى الحياة العملية سواء فى السلم أو الحرب من جهة أخرى .

ولا يقصد بالأصالة هنا الابداع العلمى من لا شئ ؛ إذ لا يوجد ابداع من دون مقدمات وجذور يعتمد عليها ، والفكر العلمى العربى أخذ عن غيره من العلوم السابقة - بفضل حركة الترجمة - فرسم حدودها بدقة ووضع بعضها فى المكان المناسب والطريق الصحيح وتوصل إلى قوانين علمية وكشف خصائص جوهرية لا تزال صحيحة حتى يومنا هذا ، وربط بين المعارف للإفادة منها وتسليط الضوء على بعض المجهولات فيها وأسس قواعد البحث العلمى وطرق البرهنة على صحة الآراء والفروض بالنظر

البحث والتجارب المختبرية وأضاف معلومات علمية هائلة كان من شأنها أحداث تغييرات كبيرة فى نظرتنا إلى المعرفة والكون مؤكدة الأصالة والابتكار^(٣٥).

وهكذا وضع العلماء فى الحضارة الإسلامية قواعد وأسس المنهج العلمى التجريبى الذى يعتبر أهم المراحل التى مر بها منهج البحث فى العلوم الطبيعية ، ولا يزال هو حجر الزاوية فى تعريف المنهج العلمى الحديث القائم على الجمع بين كل من المنهج الاستنباطى والمنهج التجريبى الاستقرائى بدرجة تختلف من علم إلى آخر .

ويمكن القول أنه بفضل هذا المنهج بشقيه النظرى والتطبيقى تقدمت العلوم فى العصور الوسطى تقدماً كبيراً على نحو ما أشرنا إليه اجمالاً فى الفصل الرابع من هذا الباب (وسوف نتطرق إليه تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى) وهو التقدم الذى كان الأساس الراسخ للتطور العلمى فى عصر النهضة الأوروبية وما تلاه .

وهكذا تأثر علماء أوروبا بالتقدم العلمى فى الحضارة الإسلامية بعد أن قاموا بترجمة العديد والعديد من الكتب العلمية من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية عبر حركة الترجمة التى ألمعنا إليها من قبل .

وليس أدل على أهمية العلوم العربية من أن الكثير من اسهامات وانجازات العلماء ظلت تدرس فى جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادى بل ان بعضها ظل حتى أوائل القرن العشرين المنصرم .

غير أن هناك حقيقة ينبغى الا تفوتنا الإشارة إليها وهى أن العلماء فى الحضارة الإسلامية قد ضربوا مثلاً رائعاً فى الأمانة العلمية ونسبة الكتب والأفكار والحقائق والآراء إلى أصحابها ، وذلك عندما قاموا بترجمة الكتب السابقة من لغاتها المختلفة

(٣٥) خليل ، العلوم الطبيعية ، ص ٢٦ - ٢٨ ؛ ولزيد من التفاصيل ، خليل ، ياسين ، منطق البحث العلمى ، بيروت (١٩٧٤م)؛ فؤاد باشا ، التراث العلمى ، ص ٤١ - ٤٥ ؛ منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، ص ٥٣ - ٦٠ ؛ الطويل ، فى تراثنا ، ص ٣٥ - ٥٨ ؛ سعيدان ، مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الإسلام ، ص ٨٣ - ١٠٠ ؛ صليبيا ، جورج ، الفكر العلمى العربى ، نشأته وتطوره ، جامعة البلمند (١٩٩٨م) ، (٢٠٥ صفحة) .

إلى العربية ، أما العلماء فى الحضارة الغربية فقد كانوا على عكس ذلك تماما حيث أغفلوا الكثير من نسبة الحقائق والاكتشافات والنظريات إلى أصحابها من علماء الحضارة الإسلامية مما جعلها تبدو وكأنها من ابداعاتهم واكتشافاتهم ؛ وهو الأمر الذى كان من نتيجته رسوخ الاعتقاد فى نسبة الكثير من الحقائق والاكتشافات والنظريات العلمية إلى هؤلاء العلماء الغربيين ؛ رغم أن الأدلة المادية والعلمية تؤكد أن العكس هو الصحيح ، وحسبنا أن نشير إلى بعض الأمثلة التى تؤكد أسبقية علمائنا لعلماء الغرب فى الكثير من المجالات العلمية المختلفة من ذلك :

- البتانى سبق كنج وكوبرنيق فى علم الفلك .
- الكاشى سبق نيوتن فى نظرية ذات الحدين .
- الكاشى سبق كبلر فى أن مسار الكواكب اهليلجى وليس دائرى .
- القلصادى سبق العالم الفرنسى فييت فى اكتشاف الرموز الجبرية .
- ابن الهيثم وجابر بن حيان سبقا بىكون فى القول بالمنهج العلمى التجريبى .
- ابن سينا سبق نيوتن فى قانون الحركة .
- الخازن والهمدانى والبىرونى سبقوا نيوتن فى نظرية الجاذبية وأن هناك علاقة بين السرعة والثقل والمسافة .
- الخوارزمى هو مؤسس علم الجبر .
- الكرخى ابتكر مثلث معاملات نظرية ذات الحدين وقد سبق بذلك باسكال .
- الخازن سبق فى علم الميكانيكا والهيدروستاتيكا تورشيلى .
- مهد علماء الحضارة الإسلامية لحساب التفاضل والتكامل وعلم اللوغاريتمات والهندسة التحليلية .
- ابن النفيس سبق وليم هارفى فى كشف الدورة الدموية الصغرى .
- ابن يونس المصرى كشف الرقاص (البندول) قبل جاليليو .
- الجاحظ والتشريح المقارن قبل علماء أوروبا .
- البغدادى مكتشف القانون الثالث للحركة لكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ومضاد له فى الاتجاه وقد سبق بذلك نيوتن .

- ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع .
- أبو بكر الرازى هو أول من طرح نظرية الشك العلمى كوسيلة للوصول إلى الحقيقة قبل ديكارت بثمانية قرون على الأقل فى كتابه الشكوك على جالينوس ومن ثم وضع قاعدة عدم تصديق الاما ثبت بالتجربة والقياس .
- أبو بكر الرازى هو أول من ميز بين الجدرى والحصبة .
- على بن ربن الطبرى هو أول من بحث فى الطب النفسى وأول من وصف حكة الجرب وميز بين هذا المرض والجذام .
- المقرئى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) وضع القاعدة الاقتصادية القائلة بأن النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من السوق (ويقصد بالنقود الرديئة النقود التى تقومها الدولة بأكثر من قيمتها فى السوق العالمية كسلعة أما النقود الجيدة فهى نقود المعدن المقوم قانونا بأقل من قيمته التجارية كسلعة) وقد سبق بذلك جريشام فى القرن ١٠هـ / ١٦م. (فهى ، ص ٩٦) .
- زين الدين على بن أحمد الأمدى (حوالى ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م) ابتدع الكتابة البارزة للعميان وقد سبق بذلك برايل الفرنسى الذى لا تزال تعرف هذه الطريقة باسمه منذ عام ١٨٢٩م وحتى يومنا هذا (عواد ، ص ٧٥ - ٧٧) .
- عرف العرب ومنذ فترة مبكرة لا تتجاوز ٢٤٧هـ / ٨٦١م طريقة التنظيف بالبخار (Dryclean) وهى الطريقة المنتشرة والشائعة الآن (صالحية ، ص ٢٤٧) .
- سبق ابن العوام الاشبيلى (ق ٦هـ / ١٢م) علماء الغرب فى ابتكار فكرة الرى بالتنقيط باستخدام جرار فخارية مملوءة بالماء وفى أسفل كل جرة ثقب يجرى منه الماء إلى أصل الشجرة المغروسة جريا لطيفا أى نقطة نقطة وهذه الطريقة هى المستخدمة فى عصرنا هذا ولكن مع فارق واحد هو استعمال المواد البلاستيكية بدلا من الجرار الفخارية (العمامى ١٠٩ - ١١٠) .
- الادريسى هو أول من وضع أصول الرسم على مسطح كروى وظل الاعتماد على خرائطه فى أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادى .
- أحمد ابن ماجد (ت ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م) هو أول من أنشأ علم البحر كعلم مستقل

وقد سبق بذلك لويجى فرناندو مرسيلى (١٦٥٨ - ١٧٣٠م) أو السيرجون مرى (١٨٧٢ - ١٨٧٥م) أو ماتيوس فونتين ماورى (+ ١٨٧٣م).

- البوزجاني هو أول من اكتشف بعض أنواع الخلل فى حركة القمر وقد سبق بذلك تيخوبراهى .

- سبق العلماء فى الحضارة الإسلامية غيرهم من العلماء الغربيين فى معرفة الكيمياء الصناعية .

وبعد هذا غيض من فيض وقليل من كثير يثبت أسبقية علمائنا لعلماء الغرب فى الكثير من المجالات العلمية ، ويضاف إلى ذلك العديد من التصويبات والاضافات والنظريات والقواعد والأسس العلمية الحديثة التى تمت معالجة بعضها اجمالاً فى الفصل الرابع من هذا الباب (وسوف نعود إلى دراستها - هى وغيرها - تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى) .

الباب الثانى

الأثار الإسلامية

تفہیم

تقديم

تحتل الآثار الإسلامية مكانة فريدة بين الآثار الأخرى ، سواء السابقة لها أم اللاحقة عليها . وقد لفت القرآن الكريم الأنظار لأخذ العبرة والعظة فى النظر إلى آثار السابقين ، وكيف كانت عاقبتهم لما أسرفوا وبطروا وأساءوا استعمال ما خولهم الله من نعمة وأشركوا له فى آيات كثيرة . ومن المعروف أن العبرة الكاملة والفائدة من السير فى الأرض إنما تكون بعد مشاهدة ورؤية جميع ما ترك الأولون من آثار . ومن هنا وضحت عناية المسلمين بالآثار والكتابة عنها ونذكر من بين هؤلاء الهمداني والأزرقى والمقرئى والقضاعى وابن عبد الحكم والكندى ، فضلاً عن العديد من البلدانين والرحالة ومن أهمهم اليعقوبى والمقدسى وابن جبير والهروى والنابلسى وابن بطوطة والبلوى والورثيلاى والعبدى والأدرسى وأوليا جلبى وغيرهم كثير .

وقبل أن تبدأ الدراسة العملية للآثار الإسلامية فى القرن ١٨م كان الغرب الأوروبى قد أدرك مكانة تلك الآثار فتأثرت بها فنونه المختلفة .

وقد خط الغرب للشرق خطوات البحث فى ميدان الآثار الإسلامية ولقد برزت من بين رجالاته شخصيات لامعة وضعت اللبنة الأولى فى نشأة ودراسة الآثار الإسلامية وأرست أبحاثهم دعائم هذا العلم ، ومن بين هذه الأسماء البارزة التى كانت أبحاثهم حجر الزاوية فى تثبيت الأسس العلمية لدراسة الآثار الإسلامية علماء عديدون منهم : كرابتشك - فان برشم - جايية - سلادين - لين بول - كازانوف - سالمون - كريزول - بريجز - جاسنون فبيت - ماير - روفيلر - جرابار وغيرهم^(١) .

(١) كان للعلماء الغربيين فضل السبق فى دراسة علم الآثار الإسلامية ومراحل تطوره المختلفة على يد الرواد من المستشرقين والعلماء الأجانب ويأتى على رأس هؤلاء العالم اليهودى ماير فى مؤلفه نشأة الآثار الإسلامية وتطورها (بالعبرية) ، القدس (١٩٣٥م) ثم العالم ريتشارد اتنجهاوزن فى بحثه المهم الموسوم بـ «الفنون والآثار الإسلامية» (برنستون ١٩٥١م) ترجمة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة (١٩٥٣م) ، ص ٦٣ - ١٠٧ ، وتوجد ترجمة أخرى لذات البحث عنوانها « الفن الإسلامى والآثار الإسلامية » ترجمة عبد الرحمن محمد أيوب ، مراجعة أبو العلا عفيفى ومحمد محمود الصياد ، القاهرة (١٩٥٧م) ص ٢٠ - ٧٤ ؛ كما كان لبعض العلماء العرب إسهاماتهم المحمودة فى هذا المجال ومنهم أحمد فكرى ؛ مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٦ - ٢١ ؛ عبد الرحمن زكى ، دراسة الآثار الإسلامية ، مجلة كلية الآثار ، العدد ٢ (١٩٧٧م) ، ص ٧٣ - ٨٣ ؛ حسن الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، =

وقد اتجه الاهتمام بدراسة الآثار الإسلامية فى اتجاهين رئيسيين : -

(١) الاتجاه الأول : وصفى تسجيلى يهدف إلى وصف ودراسة الآثار الإسلامية بفروعها المختلفة سواء الظاهرة فوق الأرض أو المحفوظة فى المتاحف ودور العرض العامة والخاصة .

(٢) الاتجاه الثانى : تطبيقى كشفى يهدف إلى إجراء الحفائر المختلفة للكشف عن العديد من المدن الإسلامية التى تردد ذكرها كثيراً فى ثنايا المصادر التاريخية المختلفة وكتب الرحالة العرب والأجانب على حد سواء .

* أما عن الاتجاه الأول فقد مر بعدة مراحل خلال القرون الثلاثة الماضية نوجزها فى النقاط التالية :

- ١ - مرحلة دراسة المسكوكات والنقوش الكتابية .
- ٢ - مرحلة الدراسات العامة المتعلقة بالفن الإسلامى « المرحلة شبه الموسوعية » .
- ٣ - مرحلة الدراسات المتخصصة « العمارة - الفنون الزخرفية - فنون الكتاب » .

● المرحلة الأولى : دراسة المسكوكات والنقوش الكتابية :

بدأت هذه المرحلة فى الربع الأول من القرن ١٨م، وبالتحديد فى سنة ١٧٢٤م حينما ظهر كتاب جورج جاكوب كير^(٢) الذى يعد أول مؤلف فى المسكوكات الإسلامية بصفة خاصة وفى الآثار الإسلامية بوجه عام . وقد امتاز هذا المؤلف بصحة كتابة وقراءة النقوش المسكوكة ودقة التعليق عليها^(٣) ، وفى أعقاب دراسة المسكوكات^(٤) الإسلامية

= القاهرة ط ٢ ، (١٩٩٠م) ، ص ١٠ - ١٤ ؛ وعبد القادر الرياحى ، تقييم البحوث الأجنبية فى الآثار الإسلامية ، تونس (١٩٨٥م) ، ص ٢٢٩ - ٢٥٤ ؛ ومحمد حمزة إسماعيل الحداد ، المستشرقون والآثار الإسلامية (ضمن أعمال مؤتمر الاستشراق وحوار الحضارات - مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة - أكتوبر ١٩٩٥م) ، وفى هذا البحث اضافات على ما ورد فى الدراسات السابقة المشار إليها والتى اعتمدنا عليها فى كتابة هذا التمهيد .

(٢) Kehr, G. J., Monarchiae Asiaticae saracenicae status qualis VIII et ix . (هذا وتوجد نسخة من هذا الكتاب النادر فى مكتبة الكونغرس) .

(٣) اتنجهاوزن ، الفن الإسلامى ، ص ٢٧ ؛ الفنون ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٤) نشرت فى أواخر القرن ١٩م والنصف الأول من القرن العشرين المنصرم كتالوجات للمسكوكات الإسلامية فى المتاحف والمكتبات المختلفة مثل المتحف البريطانى ومتحف برلين ومتحف استانبول والمكتبة الأهلية فى باريس . وهى من المصادر الرئيسية التى لا يزال يعول عليها حتى الآن فى دراسة المسكوكات الإسلامية (فضلاً عن الكتالوجات الحديثة والمجموعات الخاصة) .

أنبثقت فروع أخرى تتعلق بدراسة النقوش الكتابية وكانت تلك الدراسة في البداية ذات صلة ما بالدراسات التاريخية وهى فرعان متميزان هما :

أحدهما يتناول الدراسات التحليلية لتلك النقوش الأثرية من مناقشة الخط العربى وأنواعه ونسبه ومدارسه المختلفة ، وهو ما يطلق عليه اصطلاحاً اسم « علم الباليوجرافى » .

ومن أشهر علماء هذا الفرع من الدراسات الأثرية كل من كرايتشك وغان برشم وتلاميذه من بعده أمثال كومب - سوفاجيه - جاستون فييت وغيرهم .

والفرع الآخر يتناول قراءة النقوش الأثرية المسجلة على العمائر والتحف المختلفة وهو ما يطلق عليه اصطلاحاً علم الإيبجرافى .

وفى عام ١٩٣٩ قام ماير بوضع أول مؤلف يعد بمثابة سجل شامل لأهم المؤلفات التى تناولت دراسة المسكوكات الإسلامية منذ بدايتها حتى عام ١٩٣٤ م .

● المرحلة الثانية : مرحلة الدراسات العامة « المرحلة شبه الموسوعية » .

بدأت هذه المرحلة فى أوائل القرن ١٩ واضطرت فى الزيادة خلال ذلك القرن ثم فى النصف الأول من القرن العشرين ، وقد كانت مصر وأسبانيا من أوائل البلاد التى بعثت هذا الاهتمام ودفعت إلى إنتاج المؤلفات الكبيرة ويعد كتاب وصف مصر الذى أعده علماء الحملة الفرنسية فيما بين ١٧٩٨ - ١٨٠١م « وقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٨٠٩ - ١٨١٣م والثانية ١٨٢٢م - ١٨٢٩م » (٢٦ مجلد بخلاف اللوحات) أقوى أساس تقوم عليه معرفتنا بالآثار الإسلامية فى مصر .

ويأتى بعد ذلك كتاب باسكال كوست المسمى العمارة العربية وقد كتبه المؤلف فيما بين ١٨١٨ - ١٨٢٥م ولكنه لم يظهر إلا فى سنة ١٨٣٩م .

وزاد الأهتمام بعد ذلك كما يتجلى فيما كتبه كل من برجوان ١٨٧٣ - ١٨٩٣م وبريس دافين ١٨٨٧م وفى أسبانيا تقابلنا مؤلفات كل من لابورد (١٨٠٦ - ١٨٢٠م) وميرفى ١٨١٣م وبرانجى (١٨٣٢ - ١٨٣٩م) . كذلك لم يكن من نتائج غزو فرنسا للجزائر ١٨٣٠م رحلة لاكروا إلى مراكش سنة ١٨٣٢م ورسومه الرائعة التى تصور الحياة الإسلامية فيها ، بل كان من نتائجها نشر كتاب اكتشافات علمية فى الجزائر سنة

١٨٤٠ - ١٨٤٣م وهو من تأليف رافوازيه . وتبع كتاب باسكال كوست عن العمارة العربية سلسلة من المؤلفات عن العمارة الفارسية للمؤلف ذاته عاونه فى اخراجها الفنان فلاندين وقد صدرت هذه السلسلة فيما بين سنة ١٨٥١ - ١٨٦٧م ، كذلك كتاب رحلة فى تركيا وفارس لدى هيل المنشور سنة ١٨٥٩م .

ولهذه المجلدات الضخمة أهمية عظمى فى دراسة الآثار الإسلامية فهى تحوى صوراً رائعة جذابة أنيقة المظهر والمخبر للآثار الإسلامية^(٥) . تفيد العلماء والباحثين فى معرفة ما أصاب هذه الآثار من تخريب وتدمير وتلف ، فضلاً عن الآثار التى اندثرت كلية .

ومنذ أواخر القرن ١٩م والنصف الأول من القرن العشرين الميلادى زادت الكتابات العامة ومن أبرزها كتابات الرواد مثل لين بول ، وزرة ، وجاييه ، وفييت ، وفاجو ، وسلادين ، وميجون ، ومارسيه ، وكونل ، وهرتزفلد ، وكريزول ، وهوتكير وماير وغيرهم .

ومن بين العلماء العرب الذين نحو هذا المنحى فى الدراسة المرحوم الدكتور زكى محمد حسن فى مؤلفه الجامع المانع المسمى فنون الإسلام ، ثم معالجته للآثار الإسلامية فى ايران فى مؤلفه المعروف الفنون الايرانية فى العصر الإسلامى .

● مرحلة الدراسات المتخصصة :

أ - العمارة : بدأت هذه المرحلة منذ أواخر القرن ١٩م وإضطردت فى الزيادة على مرور القرن العشرين المنصرم ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى مراحل فرعية .

١ - الدراسات العامة : من أمثلتها العمارة الإسلامية الأولى : كريزول .

- جرابار : العمارة الإسلامية .

- ريشموند : العمارة الإسلامية

- أرنست ديز : العمارة الإسلامية .

- هيلنبراند : العمارة الإسلامية .

(٥) اتنجهاوزن ، الفن الإسلامى ، ص ٢٩ - ٣٧ : الفنون ص ٧١ - ٧٦ .

٢- الدراسات الخاصة بأقليم أو منطقة أو مدينة أو عصر أو جنس معين :

- كريزول : العمارة الإسلامية في مصر (مجلدان) .
- مارسيه : العمارة الإسلامية في المغرب .
- براون : العمارة الإسلامية في الهند .
- جابرييل : العمارة الإسلامية في الأناضول .
- أونسال : العمارة الإسلامية في تركيا .
- جودوين : تاريخ العمارة العثمانية .
- هرتزفلد : العمارة في دمشق .
- فلزنجر وفتزنجر : دمشق .
- كازانوف : القسطنطينية - قلعة الجبل .
- كوبيك : القسطنطينية .
- بالباس : الفن المرابطي والموحدي .
- مالدونادو : الفن الطليطلي الإسلامي والمدجن .
- أصلان ابا : فنون الترك وعمائرهم .
- كيل : العمارة الإسلامية في البلقان .

٣- البحوث المتخصصة بموضوع معين :

- هوتكير وفييت ، مساجد القاهرة .
- اردمان : محطات القوافل والخانات في الأناضول .
- ايكوشار : الحمامات في دمشق .
- بوتى : حمامات القاهرة .
- ديفز : مساجد القاهرة .
- ديز : المسجد .
- ثان برشم : المسجد .
- كونل : المسجد .
- مالدونادو : عمارة المياه في الأندلس .
- كوران : المسجد في العمارة العثمانية المبكرة .
- تحسين اوز : جوامع استانبول .

٤- بحوث متخصصة لبناء بمزده :

- سواقية : مسجد الرسول فى المدينة - قلعة دمشق .
- كازانوا : قلعة القاهرة .
- جابرييل : مسجد الجمعة فى أصفهان .
- تيراس : جامع القرويين فى فاس - جامع الأندلسيين فى فاس .
- جرابار : قبة الصخرة .
- كرىزول : مسجد عمرو .
- كرىزول : قلعة الجبل .
- إيلى لامبير : مسجد قرطبة .
- سلادين : مسجد سيدى عقبة .
- ديولافوا : مسجد حسان .
- ماسينيون : الأخضر .

٥- البحوث الخاصة بالعناصر المعمارية والزخرفية :

- مارجرىث فان برشم : فسيفساء قبة الصخرة .
- كونل : الأرابسك .
- جوفيل ، كرىزول ، تيرش : المآذن .
- مارسية : القباب والسقوف .
- روزنتال ، ديز ، هوتكير : المقرنصات .
- مالدونادو : الزخارف الهندسية فى الفن الإسلامى بالأندلس ،
الزخارف النباتية فى الفن الإسلامى بالأندلس .

٦- الصنوع الزخرفية :

- ديماندا : الفنون الإسلامية .
- كونل : الفن الإسلامى .
- ميجون : الفنون والصناعات .
- مارسية : الفن الإسلامى .
- مارسية : الفن الإسلامى .

٧- الدراسات حسب المادة :

- زره : التجليد الإسلامى .

- آرثرلين : الخزف الإسلامى المبكر ، الخزف الإسلامى المتأخر .
- بتلر : الخزف الإسلامى .
- هويسن : الخزف الإسلامى « المرشد إلى الخزف الإسلامى » .
- أولمير : شبابيك القلل .
- Carsweell : خزف أزنيق .
- Venetia Porter : البلاطات الخزفية الإسلامية .
- راشل وورد : المعادن الإسلامية .
- ماير : الملابس المملوكية .

٨- الدراسات الخاصة بالرمزية فى الفن الإسلامى (الايقونوغرافيا) :

- هارتنر ، الأشكال الفلكية لمنازل القمر فى التصاوير الهندية والإسلامية .
 - هاتنر وايتنجهاوزن ، الأسد المظفر قصة حياة رمز .
 - ايتنجهاوزن ، الكأس الطويلة العنق فى متحف كليفلاند للفن ، أصله وزخرفته .
 - باير ، سفنكس (أبو الهول) فى الفن الإسلامى الوسيط .
 - دود ، صورة الكلمة : ملاحظات حول الرموز الدينية (الايقونوغرافيا) .
 - أوكين ، الأيقونوغرافيا فى الفن الإسلامى (٢٠٠٥م) .
- ومن أبرز الباحثين المصريين الذين أفردوا عدة بحوث فى مثل هذا النوع من الدراسات فى الفن الإسلامى الزميل الدكتور / حسين رمضان وسوف نشير إلى بعض بحوثه فيما بعد .

٩- الدراسات المتعلقة بأثر الفن الإسلامى فى أوروبا :

كان للمستشرقين والعلماء الغربيين فضل السبق فى دراسة أثر الفن الإسلامى فى أوروبا منذ الربع الأول من القرن ١٩م ومن بينهم سميث ١٨٢٠م وفيلمان ١٨٣٠م ولونجيرييه ١٨٤٦م واميل برتو ١٨٩٥م ؛ واميل مال ١٩١١م ، ١٩٢٣م ؛ ومورينو ١٩١٩م ، وجلوك ١٩٢١م ، وسوليه ١٩٢٤م ، وديلاتوريت ١٩٢٣م ، وديفونشير ١٩٢٨م ، ثم تتابعت الدراسات حول هذا الموضوع الحيوى المهم ، وحسبنا أن نشير إلى بعضها ومنها :

- جروبيه : عناصر إسلامية فى عمارة البندقية فى العصور الوسطى (١٩٦٦م) .
- زره : رسوم رمبرانت نقلا عن منمنمات هندية إسلامية (١٩٠٤م) .

- بورن : الات الحركة الذاتية الأوروبية الأولى (١٩٣٧م) .
- اردمان : أوروبا والسجاد الشرقى .
- فولباخ : المخلقات المقدسة وأوعيتها الشرقية (١٩٣٧م) .
- ايتنجهاورن : جلود الكتب الشرقية وتأثيرها على فن التجليد فى أوروبا (١٩٥٩م) .
- بوختال : ملاحظات على المعادن الإسلامية المطلية بالمينا وأثرها على الغرب اللاتينى (١٩٤٦م) .
- ماتكوفسكى : تأثير الفن الإسلامى فى بولندا .
- دى لونجيرييه : استخدام الحروف العربية فى الزخرفة عند الشعوب المسيحية الغربية (١٨٤٥م) .
- راىخ : نقش مملوكى فى رسم إيطالى من القرن الخامس عشر (١٩٤٠م) .
- جيراز بهوى ، التأثيرات الشرقية فى الفن الغربى (١٩٦٥م) .
- تراث الإسلام (الكتاب الأول) ١٩٣١م (أرنولدوكريستى وبريجز) ترجمة زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٣٦م .
- تراث الإسلام (الكتاب الثانى) ١٩٧٣م (شاخ و بوزورث) ترجمة حسين مؤنس وآخرين ، الكويت ، ط ٢ (١٩٨٨م) .

كذلك كان هو الحال فى معالجة التصوير الإسلامى الذى درس فى البداية ضمن كتب الفن الإسلامى العامة ؛ ثم أصبحت هناك دراسات متخصصة إما حسب المدارس الفنية التى اصطلح عليها العلماء ، وإما حسب الاقليم كالتصوير الفارسى والتصوير الهندى أو حسب العصر كالتصوير العثمانى والتصوير المغولى ، وإما حسب نوع التصوير ذاته سواء فى المخطوطات أو جدارى «فسيفساء» صور مائية (فرسكو) ، والتصوير فى المخطوطات نفسه خضع للعديد من الدراسات سواء المخطوطات الأدبية أو العلمية أو دراسة صور خاصة بحادثة معينة أو ذات طبيعة واحدة مثل التى عكف على دراستها سنة ١٩٤٨م . بشر فارس . (وهى عن تصويرة دينية من مدرسة بغداد العربية) أو دراسة الصور الشخصية أو المصورين أو غير ذلك .

ومن ذلك على سبيل المثال :

- ارنولد : التصوير فى الإسلام .

- بلوشيه : التصوير الإسلامى .
- رايس : التصوير الإسلامى .
- روبنسون : التصوير الإسلامى وفنون الكتاب - المنمنات الفارسية المصورة من المجموعات الموجودة فى الجزر البريطانية .
- ايتنجهاوزن : التصوير عند العرب . - التصاوير السلطانية على الطريقة الفارسية .
- Canby : التصوير الفارسى .
- ساكسيان : التصوير الفارسى .
- مارتن : تصاوير المنمنات والمصورين الفرس والهنود والأتراك .
- رايس : مخطوطات كتاب الأغاني والتصوير الدينى فى الإسلام .
- باريت وجرای : التصوير الهندى .
- بنيون وولكنسون وجرای : تصاوير المنمنات الفارسية .
- شرودر : التصوير الفارسى .

● الاتجاه الكشفى التطبيقى « الحفائر الإسلامية » .

- أوائل الحفائر الإسلامية كانت فى حفائر قلعة بنى حماد فى الجزائر سنة ١٨٩٨م ثم سنة ١٩٠٨م ، ثم إستمرت فى عدة مواسم متتالية حتى الآن .
- حفائر الزهراء بالأندلس سنة ١٩١٠م ثم فى عدة مواسم متتالية .
- حفائر الفسطاط فى مصر سنة ١٩١٢م ، ثم فى عدة مواسم متتالية ولا تزال تجرى بها الحفائر حتى الآن .
- حفائر سامراء بالعراق سنة ١٩١٨م .
- حفائر إيران قامت بها بعثة سويدية فى سنة ٣٢ - ١٩٣٣م وحفائر نيسابور التى قام بها متحف المتروبوليتان^(٦) ، فضلا عن الرى وترمزواصطخر وخراسان وغير ذلك.

* وبالنسبة للحفائر الإسلامية فى الفسطاط بمصر فقد بدأت سنة ١٩١٢م وتلتها فى مواسم أخرى لاحقة ، وكانت هذه الحفائر تحت إشراف على بهجت فى هذه المرحلة ومعه جابريل ، ثم حسن الهوارى فى المرحلة الثانية ، ثم جمال محرز ، ثم عبد الرحمن

(٦) الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ١٣ .

عبد التواب ولا تزال الحفائر تجرى فى الفسطاط بإشراف المجلس الأعلى للآثار ، ومن أجرى حفائر فيها أيضاً مركز البحوث الأمريكى واكتشفوا مكتشفات عديدة وذلك فى الستينات وأسفرت عن نتائج هامة ، ثم الحفائر اليابانية والفرنسية فى الفسطاط (اصطبل عنتر) .

• الحفائر الإسلامية فى بلاد الشام :

حفائر الرصافة الأموية ، حفائر قصر الحير الغربى وقصر الحير الشرقى ، حفائر الرقة ، حفائر جبل سيس ، حفائر اريحا ؛ فضلاً عن العديد من الحفائر بالمدن الشامية المختلفة فى سوريا وفلسطين والأردن ولبنان .

• الحفائر الإسلامية بالعراق :

أجريت فى العديد من المدن الشهيرة المختلفة منها تل المحيسن فى تكريت - حفائر دار الامارة بالكوفة - حفائر تلول الشعبية القريبة من البصرة واكتشفوا قصر زياد الأموى ثم حفائر قسم الآثار بآداب بغداد سنة ١٩٦٨م فى منطقة العطفية فى الجانب الغربى من بغداد الحالية بهدف البحث عن مدينة المنصور المدورة .

• الحفائر الإسلامية فى ليبيا :

حفائر مدينة سرت القديمة ، وهى أول حفائر من نوعها فى ليبيا ، حفائر مدينة أجدابية.

• الحفائر الإسلامية فى تونس :

الحفائر فى مدينة القيروان وتونس والمهدية وحفائر مدينة رقادة (للأستاذ محمد الشابى) وغير ذلك .

• الحفائر فى الجزائر :

بالإضافة إلى استمرار الحفائر فى عدة مواسم فى قلعة بنى حماد كما سبق القول ، أجريت حفائر فى مواقع أخرى عديدة منها حفائر سيدراتا الواقعة فى صحراء الجزائر الجنوبية وحفائر مدينة ميله شمال قسطنطينة - حفائر حى القصبة بالجزائر العاصمة .

• حفائر المغرب :

أجريت حفائر فى مدن مغربية عديدة فى فاس والرباط ومكناس ؛ فضلاً عن اكتشاف قصر مصمودة فى شمال المغرب ، وحفائر شاله المغربية وغير ذلك .

• حفائر السعودية :

تعد المملكة العربية السعودية أول دولة عربية تقوم باعداد أول خريطة أثرية شاملة كافة المواقع الأثرية والتاريخية بدءاً من عصور ما قبل التاريخ حتى العصور الحديثة ، ومن أشهر تلك الحفائر حفائر الريزة الاسلامية والمسوحات الأثرية فى درب زبيدة ومدينة عشم ووادى حلى وحفائر تيماء وغير ذلك .

• حفائر مصر :

بالإضافة إلى استمرار الحفائر فى مدينة الفسطاط من قبل مصلحة الآثار أو البعثات الأجنبية مثل مركز البحوث الأمريكى والبعثة اليابانية والفرنسية أجريت حفائر عديدة فى عدة مواقع من الفسطاط قام بها على بهجت ، ثم قام بها على التوالى حسن الهوارى ، محمد عبد العزيز مرزوق ، جمال محرز ، عبد الرحمن عبد التواب ومن الأجانب جورج سكانلون وكوبياك .

كذلك أجريت عدة حفائر فى أجزاء مختلفة من القرافة شرقى الفسطاط ، وأجريت مصلحة الآثار حفائر فى المناطق القائمة ومن أشهرها حفائر المصلحة (هيئة الآثار المصرية) فى مدرسة المنصور قلاوون بشارع المعز ، وأسفرت عن نتائج غاية فى الأهمية، وأجريت الحفائر فى أجزاء مختلفة من مصر مثل تل القزم بالسويس ، وحفائر سيناء وأخميم والقصير والبهنسا ، الاسكندرية ، رشيد ، فوة وغير ذلك من المواقع الأثرية الهامة فى مصر ، فضلاً عن حفائر كلية الآثار فى ظاهر الفسطاط تحت إشراف أ. د. سعاد ماهر محمد ، (١٩٧٦م) وفى قصر العينى تحت إشراف أ. د. حسن الباشا (١٩٧٩م).

• الحفائر الإسلامية فى غرب أفريقيا :

ومن أشهرها حفائر مدينة تجداوست (مدينة أودغست القديمة) عاصمة دولة غانا وهى أول الدول الإسلامية فى افريقية كما سبق القول .

• الحفائر الإسلامية فى شرق افريقيا :

الصومال : مقديشيو ، مركا ، براوة جنوب مقديشيو ؛ ساحل كينيا : لامو ، بات ، فازه ، ماندا ، تندوا ، تكوا ، المجوانا ، موانا ، مالندى ، جيدى ، كليفى متوانا لاجومبى ، متوابا ، ممباسا ، فومبا جنوب ممباسا ؛ ومن أشهرها حفائر مدينة جيدى بالقرب من مالندى التى اكتشفها العلامة كيركمان .

تنزانيا : جزيرة زنجبار ، جزيرة بمبا ، جزيرة تومباتشو . وحفائر مدينة كلوه للعلامة نيفل تشيتك .

● الحفائر الإسلامية فى باكستان وأفغانستان :

ومن أشهرها الحفائر التى أجريت فى مدينة بنبهور تلك المدينة التى تبعد أربعة أميال عن كراتشى على الطريق المؤدى إلى حيدر آباد ، فضلا عن المسوحات الأثرية والحفائر فى غزنة وقصر لشكرى بازار والمسجد الكبير فى لشكرى بازار ورباط ماهى وغير ذلك.

ويضاف إلى ذلك العديد من الحفائر الإسلامية فى تركيا (أسيا الصغرى أو الأناضول) ومنها حفائر سيواس وقيصريّة وديار بكر ، والحفائر الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر كما هو الحال فى حفائر خوارزم واوزبكستان ؛ ومنها أيضاً حفائر مدينة بركة سراى على نهر الفولجا وهى عاصمة مغول القبيلة الذهبية (القفجاق) وغير ذلك .

أما فيما يتعلق بالدراسات العربية الحديثة التى تطرقت إلى شتى مجالات الآثار الإسلامية فيمكن القول أنها قد نهجت نفس النهج فى الدراسات الأجنبية ، وعلى ذلك نستطيع أن نقسمها إلى مرحلتين هما :

أولاً - مرحلة الدراسات العامة :-

وفى هذه المرحلة تمت دراسة الآثار الإسلامية فى جميع مجالاتها سواء تحت مسمى الفن تارة أو مسمى الآثار تارة أخرى ومن هذه الدراسات ما يلى :

- زكى محمد حسن : فنون الاسلام (القاهرة ١٩٤٨م - بيروت ، ط ٢ (١٩٨١م) .
- محمد عبد العزيز مرزوق : بين الآثار الإسلامية فى العالم - الفن الإسلامى تاريخه وخصائصه (بغداد ١٩٦٥م) .
- حسن الباشا : مدخل إلى الآثار الإسلامية (ط ٢ - ١٩٩٠م) .
- أبو صالح الألفى : الفن الإسلامى ، أصوله ، فلسفته ، مدارسه .
- نعمت إسماعيل علام : فنون الشرق الأوسط فى العصور الإسلامية .
- حسنى محمد نويصر : الآثار الإسلامية .
- سعد زغلول عبد الحميد : العمارة والفنون فى دولة الاسلام .

- عبد الرحمن زكى : الفن الاسلامى .
- نجده خماش : دراسات فى الآثار الاسلامية .
- عفيف بهنسى : الفن الاسلامى .
- ومن هذه الدراسات العامة ما خصص لدراسة اقليم أو قطر معين تحت نفس المسمى أى الفنون تارة أو الآثار تارة أخرى ، أو تحت مسمى العمارة والفنون ومن بينها :
- زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الإسلامى (القاهرة ١٩٤٦م - بيروت ، ط ٢ (١٩٨١م) .
- مصطفى عبد الله شيحة : مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية العربية اليمنية .
- سعد الراشد : دراسات فى الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة .
- على حامد غبان : الآثار الإسلامية فى شمال غرب المملكة العربية السعودية مدخل عام .

ثانياً : مرحلة الدراسات المتخصصة :

١ - العمارة الاسلامية .

- دراسات عامة :

- فريد شافعى : العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها .
- سعاد ماهر محمد : العمارة الاسلامية على مر العصور .
- ثروت عكاشة : القيم الجمالية فى العمارة الاسلامية .
- عبد القادر الريحاوى : العمارة فى الحضارة الاسلامية .
- ايناس يحيى أحمد مرسى : فن العمارة الاسلامية وأشهر معالمها .

- دراسات خاصة باقليم أو منطقة أو مدينة أو عصر معين :

- فريد شافعى : العمارة العربية الإسلامية - المجلد الأول - عصر الولاية .
- كمال الدين سامح ، العمارة فى صدر الإسلام - العمارة الاسلامية فى مصر .
- عبد القادر الريحاوى : العمارة العربية الاسلامية خصائصها وآثارها فى سوريا .
- طاهر مظفر العميد : العمارة العباسية فى سامرا .

- عيسى سلمان وآخرين : العمارة العربية الاسلامية فى العراق (مجلدان) .
- حسنى محمد نوبصر ، العمارة الإسلامية فى مصر عصر الايوبيين والمماليك .
- أحمد عبد الرازق أحمد ، العمارة الاسلامية فى العصرين العباسى والفاطمى .
- سوسن سليمان يحيى : العمارة فى صدر الاسلام والعصر العباسى الأول .
- محمد حمزة إسماعيل الحداد : موسوعة العمارة الاسلامية فى مصر من الفتح
العثمانى إلى نهاية عهد محمد على (١٣ مجلد) - العمارة الاسلامية فى أوروبا
العثمانية .
- منظمة العواصم والمدن الإسلامية : أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري
فى العصور الاسلامية المختلفة بالعاصمة القاهرة .
- مختار الكسباني والعربى صبره ، العمارة الإسلامية فى القاهرة ودمشق عصر
دولة المماليك البحرية .
- طاهر مظفر العميد ، العمارة العباسية فى سامرا .
- سوسن سليمان يحيى : منشآت السيف والقلم فى الجهاد الإسلامى ، العمارة
الأيوبية (١٩٩٤م) .
- السيد عبد العزيز سالم : العمارة الإسلامية فى الأندلس وتطورها .
- صالح لمعى مصطفى : التراث المعماري الاسلامى فى مصر .
- دراسات خاصة بموضوع معين :
- أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام .
- محمد عبد العزيز مرزوق : مساجد القاهرة قبل عصر المماليك .
- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية - الرسومات الهندسية فى العمارة
الاسلامية .
- أحمد فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها (مدخل + ٢ مجلد) .
- عطا الحدينى ، هناء عبد الخالق : القباب المخروطية فى العراق .
- القاضى إسماعيل الأكوع : المدارس الاسلامية فى اليمن .
- سيد كمال جوادى - مساجد ايران - الجزء الأول .

- سعاد ماهر محمد ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون (٥ مجلدات) .
- أحمد رجب محمد على ، تاريخ وعمارة المساجد الأثرية فى الهند ، تاريخ وعمارة المزارات والأضرحة الأثرية الإسلامية فى الهند .
- محمد الباجى بن مامى : جوامع تونس فى العهد الحفصى .
- محمد محمد مرسى الكحلاوى : مساجد المغرب والأندلس فى عصر الموحدين - المدارس المغربية - السقايات المغربية - مقاصير الصلاة .
- محمود حامد الحسينى : الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة .
- محمد حمزة إسماعيل الحداد : القباب فى العمارة المصرية الإسلامية
- طراز المسجد القبلة فى المدينة المنورة والهفوف - الرواق فى العمارة الإسلامية بمكة المكرمة - الأسبلة فى العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة .
- الأسبلة السلیمانیة بالقدس الشريف - المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية .
- يحيى وزيرى : العمارة الإسلامية والبيئة .
- محمد عبد الستار عثمان : نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة . - نظرة جديدة لتفسير بناء قبة الصخرة .
- عبد المنصف سالم نجم : قصور الأمراء والباشوات فى مدينة القاهرة فى القرن التاسع عشر (مجلدان) .
- رفعت موسى محمد : الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية .
- رشيد بورويبه والدكالى ، المساجد فى الجزائر .
- كمال عنانى ، حمامات الأندلس .
- نجوى عثمان : مساجد القيروان .
- غادة الجميعى : مساجد أصفهان فى العصر الصفوى ، عهد الشاه عباس الأول والشاه عباس الثانى (ماجستير) .
- لمياء الجاسر : مدارس حلب الأثرية .
- محمد السيد أبو رحاب : مدارس المغرب الأقصى فى عهد بنى مرين (ماجستير)
- العمارة الدينية والجنازية الباقية للأشراف السعديين بالمغرب الأقصى (دكتوراه) .

- نللى حنا : بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .
- غزوان مصطفى ياغى : منازل القاهرة ومقاعدها فى العصرين المملوكى والعثمانى .
- محمد حسام الدين إسماعيل : الأصول المملوكية للعمائر العثمانية .
- **دراسات خاصة بالمدن الإسلامية عامة أو مدينة بعينها خاصة :**
- محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية - مدينة سدوس - مدينة ظفار .
- طاهر مظفر العميد ، تخطيط المدن العربية الإسلامية - بغداد مدينة المنصور المدورة .
- أحمد على إسماعيل : المدينة العربية والإسلامية توازن الموقع والتركيب الداخلى.
- عبد الجبار ناجى : دراسات فى تاريخ المدن العربية الإسلامية .
- صالح لمعى مصطفى : المدينة المنورة - تطورها العمرانى وتراثها المعمارى .
- هشام جعيط : الكوفة : نشأة المدينة العربية الإسلامية .
- صالح أحمد العلى : خطط البصرة ومنطقتها - معالم بغداد الإدارية والعمرانية ، دراسة تخطيطية .
- سعد محمد الغامدى : مدينة الفتح الإسلامى فى سىكرى .
- وليد عبد الله المنيس : التفسير الشرعى للتمدن - المنهاج فى احياء التمدن الإسلامى .
- محمد حسام الدين إسماعيل : مدينة القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل.
- أيمن فؤاد سيد ، التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ نشأتها وحتى الآن .
- محمود الحسينى ، التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية (دكتوراه) .
- السيد عبد العزيز سالم : تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها فى العصر الإسلامى .
- عبد القادر الريحاوى : دمشق : تراثها ومعالمها التاريخية .
- عبد العزيز الدولاتلى ، مدينة تونس فى العهد الحفصى (مترجم) .

- دراسات خاصة ببناء بمفردة :

- محمود أحمد : جامع عمرو .
- عفيف بهنسى : الجامع الأموى بدمشق .
- محمود عكوش ، تاريخ ووصف الجامع الطولونى .
- محمد هزاع الشهري : عمارة المسجد النبوى الشريف (مجلدان) .
- محمد حمزة إسماعيل الحداد : دراسة جديدة لعمارة المسجد النبوى الشريف فى ضوء مشاهدات ابن عبد ربه القرطبى الأندلسى - مصلى المؤمنى بالقاهرة .
- أحمد فكرى : قبة الصخرة - المسجد الجامع بالقيروان - جامع الزيتونة .
- السيد عبد العزيز سالم : مسجد المدجنين فى طليطلة .
- سامى عبد الحليم إمام : مسجد الأمير آق سنقر .
- خالد خليل الاعظمى : المدرسة المستنصرية فى بغداد .
- أحمد رجب : المسجد الحرام بمكة المكرمة - المسجد النبوى بالمدينة المنورة .
- سليمة عبد الرسول : القصر العباسى فى بغداد .
- محمد نادر العطار : قلعة حلب .
- شوقى شعث : قلعة حلب .
- عبد القادر الرياحوى : قلعة دمشق .
- عبد المنصف سالم نجم : قصر إسماعيل صديق باشا المفتش بلاط أوغلى .
- محمد حمزة إسماعيل الحداد : مصلى المؤمنى بالقاهرة .
- عبد الهادى التازى : جامع القرويين (٣ مجلدات) .
- آمال العمرى : مسجد عبد الباقي جوريجى بالاسكندرية .

- دراسات خاصة بالمضردات والعناصر المعمارية والزخرفية ومواد البناء .

- كمال الدين سامح : تطور القبة فى العمارة الاسلامية .
- فريد شافعى : مئذنة ابن طولون ورأى فى تكوينها المعمارى .
- كامل حيدر : العمارة العربية الاسلامية : الخصائص التخطيطية للمقرنصات .
- نجاة يونس الحاج محمد التوتونجى : المحاريب العراقية .
- حسين مصطفى حسين رمضان : المحاريب الرخامية فى القاهرة الماليك البحرية (ماجستير) .

- جمال عبد الرحيم : الزخارف الجصية فى عمائر القاهرة الدينية الباقية فى العصر المملوكى البحرى (ماجستير) .
- محمد حمزة إسماعيل الحداد : الزخارف الخطية فى العمارة الاسلامية .
- محمد محمد مرسى الكحلاوى : القباب المقرنصة فى المغرب الأقصى - قبة الضلوع المتقاطعة فى المغرب والأندلس فى عصر المرابطين .
- السيد عبد العزيز سالم : المآذن المصرية .
- عبد الله كامل : تطور المئذنة المصرية (دكتوراه) .
- صالح بن قريه : المئذنة المغربية الأندلسية فى العصور الوسطى .
- سامى عبد الحليم إمام : الحجر المشهر - الخط الكوفى الهندسى .
- أسامة طلعت عبد النعيم ، المآذن الأندلسية بين النصوص التاريخية والدلائل الأثرية من الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر الخلافة .

٢- الفنون الزخرفية الإسلامية ؛ دراسات عامة ؛

- سعاد ماهر محمد : الفنون الاسلامية .
- عبد العزيز حميد وآخرين : الفنون الزخرفية الاسلامية .
- صلاح حسين العبيدى : الفنون الزخرفية العربية الاسلامية .
- محمد عبد العزيز مرزوق : قصة الفن الاسلامى .
- دراسات خاصة باقليم أو مدينة أو عصر أو موضوع معين ؛
- محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية (قبل الفاطميين - فى المغرب والأندلس - فى العصر العثمانى) - العراق مهد الفن الاسلامى .
- فريد شافعى : الزخرفة الكأسية فى الفن الاسلامى (E) .
- ربيع حامد خليفة : فنون القاهرة فى العهد العثمانى - الفنون الزخرفية اليمينية فى العصر الاسلامى - الفنون الاسلامية فى العصر العثمانى .
- أحمد عبد الرازق أحمد : الفنون الاسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى - الفنون الاسلامية فى العصرين الايوبى والمملوكى - الرنوك الاسلامية .
- محمود إبراهيم حسين : الفنون الاسلامية فى العصر الفاطمى - موسوعة الفنانين المسلمين .

- أبو الحمد فرغلى : الفنون الزخرفية الاسلامية فى عصر الصفويين بايران .
- جمال عبد الرحيم : الفنون الزخرفية الاسلامية فى العصرين الايوبى والمملوكى .
- عبد الناصر ياسين : الفنون الزخرفية الاسلامية فى مصر منذ الفتح الاسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى (دراسة آثارية حضارية للتأثيرات الفنية الوافدة - الفنون الزخرفية الاسلامية فى العصر الأيوبي . - الرمزية الدينية فى الزخرفة الاسلامية (دراسة فى ميتافيزيقا الفن الاسلامي) - الأسلحة الهجومية فى العصر الاسلامى (بالتطبيق على زخارف الفنون التطبيقية والعمائر) - وسائل السفر عند المسلمين تاريخها وآثارها ، دراسة عن الهودج وشاكلاته فى ضوء المصادر المكتوبة والأثرية - قسمان (القاهرة ٢٠٠٥م) .
- حسين مصطفى حسين رمضان : سيمرغ « العنقاء » فى الفن الاسلامى - جريفيين فى الفن الاسلامى - الزخرفة النباتية ذات الكائنات الحية فى الفن الاسلامى المعروفة بالواق واق - جوزهر فى الفن الاسلامى - تكوينات الحركة الدوارة ذات الكائنات المائية فى الفن الاسلامى .
- على أحمد الطايش : الفنون الزخرفية الاسلامية المبكرة (فى العصرين الأموى والعباسى) .
- فايزة الوكيل : الشوار جهاز العروس فى مصر فى عصر سلاطين المماليك .

- دراسات حسب المادة :

- سعاد ماهر محمد - الخزف التركى - النسيج الاسلامى - خزف الرقة - الحصر فى الفن الاسلامى .
- أحمد عبد الرازق : شبابيك القلل الفخارية فى دار الآثار الاسلامية .
- هناء عبد الخالق : الزجاج الاسلامى .
- فريال داود المختار : المنسوجات العراقية الاسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة العباسية .
- محمود إبراهيم حسين : الخزف الاسلامى فى مصر .
- سامى عبد الحليم : المنسوجات الأثرية القبطية والاسلامية المحفوظة فى متحف جاير اندرسون بالقاهرة .
- محمد مصطفى : الخزف الاسلامى - سجاجيد الصلاة التركية - خزف الاناضول وزجاج مموه بالمينا .

- صلاح حسين العبيدى : التحف المعدنية الموصلية فى العصر العباسى .
- عبد العزيز صلاح سالم : التحف المعدنية فى العصر الأيوبي .
- عبد الرؤوف على يوسف : طبق غبن والخزف الفاطمى المبكر - الخزف الايرانى .
- فريد شافعى : الأخشاب المزخرفة فى الطراز الاموى - مميزات الأخشاب المزخرفة فى الطرازين العباسى والفاطمى فى مصر - زخارف وطرز سامرا .
- شادية الدسوقي : الأخشاب فى العمائر الدينية بالقاهرة العثمانية - فن الصدفكارى .
- محمد أبو الفرج العش : الزجاج السورى المموه بالمينا والذهب فى العصر الوسيط .
- السيد عبد العزيز سالم : تحف العاج الأندلسية فى العصر الإسلامى .
- محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية - فخار العراق وخزفة فى العصر الاسلامى - صفحات من الفن الاسلامى فى الأندلس : التحف المصنوعة من العاج - الطنافس اليدوية فى العصر الاسلامى .
- آمال العمرى : الشماعد المصرية فى العصر العربى (ماجستير) .
- فائزة محمود عبد الخالق الوكيل : آثاث المصحف فى مصر فى عصر المماليك .
- آمال المصرى : أزياء المرأة فى العصر العثمانى .
- حسن محمود نور : تحف زجاجية وبللورية من عصر الأسرة القاجارية .

٣- التصوير الإسلامى :

- دراسات عامة :

- أحمد تيمور : التصوير عند العرب .
- أبو الحمد فرغلى : التصوير الإسلامى نشأته وموقف الإسلام منه وأصوله ومدارسه .
- ثروت عكاشة : التصوير الإسلامى الدينى والعربى .
- محمود إبراهيم حسين : المدخل فى دراسة التصوير الإسلامى - المدرسة فى التصوير الإسلامى .

- دراسات خاصة باقليم أو منطقة أو مدينة أو عصر أو جنس أو المصورين أو موضوع معين :

- زكى محمد حسن : مدرسة بغداد فى التصوير الاسلامى - التصوير فى الإسلام عند الفرس .
- حسن الباشا : فنون التصوير الاسلامى فى مصر .
- ثروت عكاشة : التصوير الفارسى والتركى - فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى - التصوير الإسلامى المغولى فى الهند .
- جمال محرز : الرسوم الشخصية فى التصوير الاسلامى - التصوير بالأندلس .
- حسن محمد نور : صور المعارك الحربية فى المخطوطات العثمانية .
- ربيع حامد خليفة : فن الصور الشخصية فى مدرسة التصوير العثمانى - فن التصوير عند الأتراك الاويغور وأثره على التصوير الاسلامى .
- محمود إبراهيم حسين : أعلام المصورين المسلمين وأشهر أعمالهم الفنية - دراسة للصور الشخصية فى المدرسة المغولية الهندية من خلال مجموعة من الصور تنشر لأول مرة .
- مصطفى جابر : مدرسة بخارى فى التصوير الإسلامى ، (ماجستير - ٢٠٠٥م) .
- منى سيد على حسن : التصوير الاسلامى فى الهند (الصور الشخصية فى المدرسة المغولية الهندية - تسليات البلاط وحياة الشعوب فى التصوير المغولى الهندي) .
- خالد الجادر : المخطوطات العراقية المرسومة فى العصر العباسى .
- أبو الحمد فرغلى : تصاوير المخطوطات فى عصر الايوبيين (ماجستير) - صور مخطوطات الشاهنامة المحفوظة بدار الكتب المصرية (دكتوراه) .
- عبد الناصر ياسين : الاعلام البحرية فى تصاوير المخطوطات الاسلامية .
- منى محمد بدر : الاعلام الاسلامية بالتطبيق على صور المخطوطات الاسلامية .
- صلاح أحمد البهنسى : مناظر الطرب فى التصوير الايرانى فى العصرين التيمورى والصفوى .
- عيسى سلمان: الواسطى : رسام وخطاط ومذهب ومزخرف.
- محمد عبد الجواد الأصمعى : تصوير وتجميل الكتب العربية فى الاسلام ونوابغ المصورين والرسامين من العرب فى العصور الاسلامية .

- محمد مصطفى : بهزاد - التصوير الايرانى فى العصرين التيمورى والصفوى -
تساوير قاهرية .
- سمية حسن : المدرسة القاجارية فى التصوير الاسلامى (ماجستير) - صور
الاحتفالات فى المخطوطات العثمانية (دكتوراه) .

- التجليد والتذهيب :-

- محمد عبد العزيز مرزوق : المصحف الشريف .
- اعتماد القصيرى : فن التجليد عند المسلمين .
- عبد اللطيف إبراهيم : جلدة مصحف بدار الكتب المصرية .
- عبد العزيز مؤذن : فن الكتاب المخطوط فى العصر العثمانى (دكتوراه - جامعة
أم القرى) .
- فريد شافعى : زخارف مصحف .
- سامى نوار : فن صناعة المخطوط الفارسى .
- شادية الدسوقي : فن التذهيب العثمانى فى المصاحف الأثرية .
- عبد الله المنيف : دراسة فنية لمصحف مبكر .
- سهام محمد المهدى : تجليد الكتب فى مصر فى العصر المملوكى .

٥ - النقوش الأثرية والخط العربى (الشكل والمضمون) :

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار - الفنون الإسلامية
والوظائف على الآثار العربية (٣ مجلدات) - الخط الفن العربى الأصيل .
- حسن محمد نور : شواهد قبور من تربة البايات بتونس العاصمة دراسة فى
الشكل والمضمون .
- حسين عليوة : الكتابات الأثرية العربية : دراسة فى الشكل والمضمون .
- مایسة محمود داود : الكتابات العربية على الآثار الإسلامية منذ القرن الأول
حتى أواخر القرن الثانى عشر للهجرة .
- حسين مصطفى حسين : الاعجام فى ضوء الكتابات الأثرية .
- أحمد الزيلعى : تطور الكتابات الإسلامية فى إمارات مكة الجنوبية - الخلف
والخليف آثارهما ونقوشهما الإسلامية .

- سعد الراشد : كتابات اسلامية غير منشورة من « رواه » المدينة المنورة - كتابات اسلامية من مكة المكرمة .
- ناصر الحارثي : النقوش العربية المبكرة بالطائف .
- مجاهد توفيق الجندى : الخط العربى وأدوات الكتابة .
- مصطفى بركات : النقوش الكتابية على عمائر مدينة القاهرة فى القرن التاسع عشر (دكتوراه) .
- محمد حسام الدين إسماعيل ، الكتابات العربية حتى القرن السادس الهجرى .
- محمد حمزة إسماعيل الحداد : النقوش الأثرية مصدراً للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية (٣ مجلدات) .
- محمد فهد الفعر : تطور الكتابات والنقوش فى الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجرى .
- محمد يوسف صديق ، رحلة مع النقوش الكتابية الإسلامية فى بلاد البنغال - دراسة تاريخية حضارية (٢٠٠٤م) .
- محمود شكر الجبورى : نشأة الخط العربى وتطوره .
- سهيلة ياسين الجبورى : أصل الخط العربى وتطوره حتى نهاية العصر الأموى - الخط العربى وتطوره فى العصور العباسية .
- عبد الرحمن الزهرانى ، كتابات إسلامية من مكة المكرمة (ق ١ - ٧هـ / ١٣م) .
- عبد الفتاح عبادة : انتشار الخط العربى .
- محمد طاهر الكردى : تاريخ الخط العربى وآدابه .
- صلاح الدين المنجد : دراسات فى تاريخ الخط العربى حتى نهاية العصر الاموي .
- يوسف أحمد : الخط الكوفى .
- عبد العزيز حميد وآخرين : الخط العربى .
- يحيى وهيب الجبورى : الخط والكتابة فى الحضارة العربية .
- خير الله ، جمال عبد العاطى ، دراسة أثرية لشاهدى قبرين من دهلك محفوظين بالمتحف البريطانى فى لندن (يناير ٢٠٠٣م) ، دراسة أثرية فنية لشاهدى قبرين من تركيا العثمانية محفوظين بالمتحف البريطانى فى لندن (يناير ٢٠٠٤م) .

٦- السكة الإسلامية :

- عبد الرحمن فهمى محمد : النقود العربية ، ماضيها وحاضرها - موسوعة النقود العربية وعلم النميات .

- رأفت النبراوى : النقود الاسلامية فى مصر : عصر دولة المماليك الچراكسة - النقود الصليبية فى مصر والشام - الصنج الزجاجية للسكة الفاطمية - النقود الاسلامية .
- العش والجابر : النقود العربية الاسلامية فى متحف قطر الوطنى (مجلدان) .
- حامد العجابى : جامع المسكوكات العربية بافريقية .
- خلف الطراونه ، المسكوكات الأيوبية .
- صالح بن قرية : المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامى إلى سقوط دولة بنى حماد .
- مايسة محمود داود : المسكوكات الفاطمية بمجموعة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة .
- نايف القسوس : مسكوكات الأمويين فى بلاد الشام .
- ناهض دفتر عبد الرازق القيسى : موسوعة النقود العربية والإسلامية - النقود فى العراق .
- سمير شما ، أحداث عصر المأمون كما تروىها النقود .
- سامح عبد الرحمن فهمى : القيم النقدية فى الوثائق المملوكية .
- ناصر النقشبندى : الدرهم الاسلامى .
- أحمد الصاوى : النقود المتداولة فى مصر العثمانية .
- وليم قازان : المسكوكات الاسلامية .
- نايف الشرعان : نقود الدولة العيونية فى بلاد البحرين .
- نيرة رفيق جلال : نقود سجلماسة فى العصر الإسلامى (ماجستير ٢٠٠٥م) .
- عاطف منصور رمضان : موسوعة النقود فى العالم الاسلامى ، الجزء الأول : نقود الخلافة الاسلامية .

وقد اعتمدنا فى كتابنا هذا على البحوث والدراسات الأجنبية والعربية المشار إليها، وغيرها مما لم نذكرها هنا لضيق المقام ، ومن ثم سوف نشير إلى هذه وتلك فى هوامش الكتاب وثبت المصادر والمراجع .

وختاماً فإنه يحسن بنا أن نشير إلى أنه يجب الرجوع إلى بليوغرافيا العمارة

والفنون والحرف فى الاسلام للعلامة الكابتن كريزول ، وتعتبر هذه الببليوغرافيا أشمل ما صدر حتى الآن عن المراجع المتعلقة بالآثار الاسلامية وقد صدرت فى ثلاثة مجلدات : الأول عام ١٩٦١ م ، والثانى عام ١٩٧٢ م ، والثالث عام ١٩٨٤ ، وقد شارك فى اعداد المجلدين الثانى والثالث كل من بيرسون وماينكه وسكانلون من أساتذة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والمجلد الأول يشتمل على ١٢٣٠٠ مؤلف فى الآثار الاسلامية حتى أواخر عام ١٩٥٩ م ، والثانى يشتمل على ٤٠٠٠ مؤلف أخرى حتى أواخر عام ١٩٧١ م ، والثالث يشتمل على ١١٠٠٠ مؤلف حتى أواخر عام ١٩٨٠ م ، ورغم هذا العدد الضخم من المؤلفات التى صدرت عن الآثار الاسلامية فى هذه الببليوغرافيا بمجلداتها الثلاثة إلا أنه ينقصها الكثير ولا سيما المؤلفات والبحوث المنشورة باللغة العربية^(٧) ، ولذلك يجب العمل على اعداد قوائم للمراجع المتعلقة بالآثار الاسلامية وتحديثها كل خمس سنوات على الأقل ، ولا شك أن التقنيات العلمية الحديثة تساعد كثيراً بل وتيسر مثل هذا الأمر .

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقسم الآثار الإسلامية إلى مجالين رئيسيين وهما :

١- **الآثار الثابتة** : ويقصد بها تلك العماير أو الأبنية التى لا تزال باقية فى موضعها منذ أن أنشئت وحتى الآن سواء بقيت على حالتها الأصلية أو مرت عليها مراحل التوسعة والإضافة والزيادة والتجديد والزخرفة ، ويضاف إليها أيضاً تلك الأبنية أو العماير التى يعثر على بقاياها فى الحفائر الأثرية المختلفة .

٢- **الآثار المنقولة** : ويقصد بها آثار الفنون الإسلامية المختلفة سواء كانت فنونا زخرفية (تطبيقية أو صناعية أو فنون صغرى) كالفسار والحزف والحشب والعاج والنسيج والسجاد والزجاج والبللور الصخرى والمعادن أو التصوير وفنون الكتاب كالخط والتذهيب والتجليد ، فضلاً عن السكة الإسلامية (الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية أو البرونزية) وما يرتبط بها من مفردات علم النميات ، ومجمل القول فإن هذه الآثار المنقولة بأنواعها هى مما تحفظ فى المتاحف ودور الكتب وأماكن

(٧) الباشا ، قاعة بحث فى العمارة والفنون الإسلامية ، القاهرة (١٩٨٨م) ، ص ١١٨ - ١٢٤ .

الحفظ المختلفة وبعضها فى الكنائس والكاتدرائيات ، وبعضها الآخر فى مجموعات خاصة .

ويشمل هذا الباب على خمسة فصول :

الأول : العمارة الإسلامية . والثانى : الفنون الزخرفية الإسلامية ، والثالث : التصوير الإسلامى وفنون الكتاب ، والرابع : السكة الإسلامية ، والخامس : أثر الآثار الإسلامية فى أوروبا .

الفصل الأول

العمارة الإسلامية

كانت العمارة الإسلامية ولا تزال تحتل مكانة مرموقة بين طرز العمارة التي عرفتتها الحضارة الإنسانية عامة ؛ فقد استطاعت العمارة الإسلامية التي إنتشرت فى أقطار عديدة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب أن تحقق لنفسها طرازاً فريداً بين تلك الطرز فمن جهة أضافت العمارة الإسلامية إلى التراث المعمارى العالمى نظاماً تخطيطية لم تكن معروفة من قبل كالمساجد والمدارس والخانقاوات والزوايا وغير ذلك ، ومن جهة ثانية أدخلت على نظم العمارة الجنائزية والمدنية والحربية أنظمة جديدة جعلت لها طابعاً فريداً مميزاً ، وما تاج محل فى أجرا (بالهند) وطوبقابى سراى باستانبول (تركيا) وقصر الحمراء بغرناطة (اسبانيا) إلا خير شواهد مادية حية باقية تكفى للتدليل على ذلك .

وفضلاً عن هذه وتلك ابتكرت العمارة الإسلامية أيضاً عناصر معمارية وزخرفية عديدة إتسمت بالمهارة والتنوع والدقة البالغة وبقيمتها الفنية والجمالية التى لا تخطئها العين .

ويكفى للدلالة على مكانة هذا الطراز وعلو شأنه أن نشير إلى أنه قد أثر تأثيراً واضحاً فى العمارة والفنون الأوروبية على حد سواء كما هو معروف وهو ما سوف نسلط عليه الضوء فى الفصل الخامس من هذا الباب .

ومن الحقائق المعروفة فى تاريخ العمارة والفنون أن الطرز المختلفة تكاد تتشابه كلها فى مراحل تطورها من حيث الخضوع لعدد من العوامل العامة التى يتأثر بها كل طراز بطريقته الخاصة فتوجهه وتؤثر عليه عند نشأته وفى أثناء خطوات تطوره وتساعد على خلق شخصيته وطابعه وملامحه ؛ وقد ساهمت فى نشأة وتطور طراز العمارة الإسلامية عدة عوامل دينية وبيئية واقتصادية وسياسية . ويمكن القول بأن هذه العوامل تكاد تكون متشابهة فى معظم أقطار العالم الإسلامى مما زاد من الروابط التى تربطها ببعضها توثيقاً ، وهو الأمر الذى أضفى على الطراز الإسلامى طابعه العام الذى يتسم به وهو طابع الوحدة الظاهرة التى لا مجال لانكارها أو التشكك فيها على الرغم من احتفاظ كل قطر بطابع محلى مميز له خاص به^(١) .

(١) شافعى ، فريد ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، المجلد الأول ، عصر الولاة ، القاهرة (١٩٧٠م) ، ص ٢٣١ - ٢٩٢ ؛ فكرى ، أحمد ، عوامل الوحدة فى الآثار الإسلامية بالبلاد العربية ، ضمن كتاب دراسات فى الآثار الإسلامية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة (١٩٧٩م) ، ص ١ - ٧ .

وفى ضوء ما تقدم يمكن القول بأنه يوجد طراز إسلامى عام إنبثقت منه أو تفرعت عنه طرز محلية ؛ إذ أن كل قطر من الأقطار الإسلامية قد أخذ يتخذ لنفسه سمات خاصة وشخصية مستقلة يتميز بها فى قليل أو كثير عن بقية الأقطار الأخرى متأثراً فى ذلك بعوامل البيئة المحلية ، وغير ذلك من العوامل المشار إليها ، ويستطيع المتخصص وغير المتخصص أن يتبين بوضوح هذا الطراز الإسلامى بطابعه العام الذى لا يمكن أن تخطئه العين ، وهذه الطرز المتفرعة عنه بطابعها المحلى التى تنضوى كلها تحت لوائه .

ومن هذه الطرز الفرعية أو المحلية نذكر كلا من : طراز الجزيرة العربية والطراز العراقى والطراز الشامى والطراز الايرانى وطراز أسيا الوسطى والطراز الأناضولى (أو طراز أسيا الصغرى) والطراز الهندى والطراز المصرى والطراز المغربى والطراز الأندلسى وطراز شرق أفريقيا وطراز غرب أفريقية .

ونضيف على ما تقدم فنذكر أنه إذا كانت هذه الطرز الفرعية أو المحلية قد إرتبطت فى نشأتها ومراحل تطورها بعوامل البيئة المحلية من جهة ، فإنها من جهة ثانية قد إرتبطت أيضاً بالدول الإسلامية التى حكمت كل قطر - أو عدة أقطار - وما تعتنقه من مذاهب دينية ، فضلاً عن إستقرار الأحوال السياسية والاقتصادية ، وما كان يصاحب هذه وتلك من إستقرار الأوضاع الاجتماعية وتحسن العلاقات الخارجية التى كان لها أثرها البالغ فى تبادل التأثيرات المعمارية والفنية وبالتالى فى إثراء كل طراز من هذه الطرز .

ومما له دلالة فى هذا المقام أن نشير إلى أنه بالاضافة إلى وجود هذا الطراز الإسلامى العام والطراز المحلى الخاص فقد يشترك فى بعض الخصائص والسمات قطران أو أكثر متجاورين أولهما خصائص بيئية مشتركة أو خضعا لحكم دولة واحدة ، ومن أمثلة ذلك الجناح الشرقى لدولة الإسلام كما هو الحال فى ايران وأسيا الوسطى وأسيا الصغرى والهند أو قلب العالم الإسلامى كما هو الحال فى مصر والشام والحجاز بالجزيرة العربية ، أو الجناح الغربى للدولة الإسلامية كما هو الحال فى المغرب والأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين .

كذلك ينبغى ألا تفوتنا الإشارة فى هذا المقام إلى أن المدن الرئيسية التى تنتمى إلى كل طراز من تلك الطرز الفرعية أو المحلية كانت لها سماتها الخاصة وطابعها العام الذى تتميز به فى قليل أو كثير عن بقية المدن الأخرى ، ولكن دون أن تفقد صلتها وارتباطها بالطراز الأم الذى تنتمى إليه والتى هى فرع منه وامتداد له .

وينطبق ذلك الأمر على جميع طرز العمارة الإسلامية فالطراز المصرى ، على سبيل

المثال ، تتضح شخصيته وخصائصه وسماته وملامحه فى مدينة القاهرة والمدن المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى ، ومع ذلك فإن لكل مدينة من تلك المدن مميزات العامة وسماتها الخاصة التى تنفرد بها عن غيرها من المدن كما هو الحال فى مدينة القاهرة - التى تعد بمثابة الطراز الأم للعمارة المصرية الإسلامية - وكل من الاسكندرية ودمياط والمحلة الكبرى ورشيد وفوه فى طراز الدلتا ، والفيوم وجرجا وأخميم وقوص واسنا واسوان فى طراز الصعيد .

وفى الطراز الشامى نجد أن لكل مدينة من المدن التى تنتمى إلى هذا الطراز سماتها الخاصة ومميزات العامة كما هو الحال فى صيدا وصور وطرابلس وبغداد بالجمهورية اللبنانية ، والقدس وغزة فى فلسطين ، ودمشق وحماه وبصرى وحلب فى سوريا وغير ذلك . وفى الطراز العراقى ينطبق نفس الشئ على العديد من المدن كما هو الحال فى البصرة والكوفة وواسط وبغداد وسامرا والموصل وغير ذلك .

وفى الطراز الأناضولى (أسيا الصغرى) كما هو الحال فى ديار بكر وقيصريه ومغنيسه (أو مانيسا) وسيواس وبورصة (أو بروسه) وأزنيق واستانبول وغير ذلك .

وفى الطراز الايرانى كما هو الحال فى أصفهان وكرمان ومشهد والرى وخراسان وطوس وقزوین وغير ذلك .

وفى طراز أسيا الوسطى كما هو الحال فى بخارى وسمرقند وخیوه وبلخ وهراة وغزنه وغير ذلك . .

وفى الطراز المغربى كما هو الحال فى القيروان والمهدية وسوسة والمنستير وطرابلس الغرب وبجاية وتاهرت وتلمسان وفاس ومراكش والرباط وغير ذلك .

وفى الطراز الأندلسى كما هو الحال فى قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وسرقسطة وغير ذلك .

وفى طراز الجزيرة العربية كما هو الحال فى مكة المكرمة والمدينة المنورة والهفوف والمدن العمانية المختلفة وصنعاء وتعز وجبله وعدن وغير ذلك .

هذا وتشتمل العمارة الإسلامية على أربعة أنواع رئيسية وهى :

أولاً : العمارة الدينية : وتشمل المساجد والجوامع والمدارس والخوانق والزوايا والأربطة فى مرحلتها الثانية بعد أن صارت تقام فى داخل المدن .

ثانيًا : العمارة الجنائزية : وتشمل المدافن والترب والقباب والمشاهد والعتبات المقدسة سواء كانت مستقلة - أى منفردة بذاتها - أو ملحقة بغيرها من العمائر الدينية غالباً ، والمدنية والحربية أحياناً .

ثالثًا : العمارة المدنية : وتشتمل هي الأخرى على الأنواع التالية :

١ - العمائر الخيرية : وتشمل الأسبلة (السقايات) وأحواض السبيل ومكاتب السبيل .

٢ - العمائر الصحية : وتشمل البيمارستانات (المستشفيات) .

٣ - العمائر المتعلقة بالنظافة والصحة العامة : وتشمل الحمامات العامة .

٤ - العمائر السكنية : وتشمل الدور والرباع والقصور .

٥ - العمائر التجارية : وتشمل الخانات والفنادق والقيساريات والسماسر والوكالات .

٦ - العمائر الصناعية : وتشمل الأفران والمعامل والمصانع والمعاصر والطواحين .

٧ - عمائر المنافع العامة : وتشمل المقاييس والسدود والجسور والقناطر والصهاريج والبرك والمواجل .

رابعاً : العمارة الحربية :

وتشمل القلاع والحصون والقصبات وما يرتبط بها من أسوار وبوابات وأبراج ومرافق ومنافع متعددة .

أما قبة الصخرة فهي نوع خاص جداً حيث ارتبط بناؤها بتخليد ذكر حادثة بعينها لم تحدث سوى مرة واحدة في التاريخ - ولن تحدث بطبيعة الحال مرة ثانية - وهي حادثة ليلة الإسراء والمعراج للرسول الكريم سيدنا محمد (ﷺ) ولذلك فإن هذه القبة التي بنيت فوق الصخرة المقدسة إنما كانت أشبه بخزانة محكمة الغلق لحفظ هذه الصخرة من أيدي العابثين ، ولما كانت قبة الصخرة هي نوع خاص يصعب أن ندرجه تحت أى نوع من أنواع العمارة الإسلامية المشار إليها ، ومن ثم سوف نفرد لها دراسة موجزة لابرار أهميتها وخصائصها المعمارية والفنية .

وفيما يلي نسلط الضوء على كل نوع من الأنواع الأربعة الرئيسية المشار إليها ، وذلك حسب الخطة الموضوعية لهذا الكتاب .

قبة الصخرة (٢)

قبل أن نتحدث عن العمائر الإسلامية وأنواعها المشار إليها ، ينبغي ، بادئ ذي بدء ، أن نقف وقفة قصيرة عند نموذج معمارى نادر فى العمارة الإسلامية عامة وفي بلاد الشام خاصة ألا وهو قبة الصخرة المقدسة بالقدس الشريف حتى نبرز فى عجالة أهميتها الدينية والتاريخية والمعمارية والفنية .

وبعد فإن قبة الصخرة مبنى فريد فى العمارة الإسلامية وتقع فى منطقة الحرم القدسى الشريف ، وهى منطقة أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، فى أعلى جبل موريا . وقد أمر بنائها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) بعد أن عهد إلى اثنين من رجاله بالإشراف على عملية البناء وهما :

- رجاء بن حيوة الكندى .

- يزيد بن سلام .

وقد تم الانتهاء من بنائها سنة ٧٢ هـ / ٦٩١ م حيث خصص لها عبد الملك خراج

(٢) قام بدراسة قبة الصخرة عدد كبير من المستشرقين والعلماء والباحثين الغربيين والعرب وأبرزوا أهميتها الدينية والتاريخية والأثرية (المعمارية والفنية) ، فضلاً عن تلك الدراسات التى عنيت بتفسير كيفية بنائها والأصول المعمارية والفنية لها ، وهو ما سوف نقوم بمناقشته فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) ، وحسبنا الآن أن نشير إلى عدد من الدراسات التى عولنا عليها ومنها : بدر ، محمد عباس ، قبة الصخرة ضمن كتاب دراسات فى الآثار الإسلامية ، ، القاهرة ١٩٧٩ م ، ص ٨٥ - ٨٢ ؛ بن نايف ، وجدان على ، سلسلة التعريف بالفن الإسلامى (١) الأمويون العباسيون الأندلسيون ، عمان (١٩٨٨ م) ، ص ٢٧ - ٣٢ ؛ الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٩٠ م) ، ص ١٠٧ - ١٠٨ ؛ التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٧٨ م) ؛ ص ٢٤ - ٣٠ ، الريحاوى ، عبد القادر ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، جدة (١٩٩٠ م) ، ص ٤٠ - ٥٣ ؛ فان برشم ، مارجرى ، واورى ، سولانج ، القدس الإسلامية فى أعمال ماكس فان برشم ، ترجمة عطا الله دهينة وآخرين ، دمشق (١٩٩٤ م) ، ص ٤١ - ٦٩ ؛ يحيى ، سوسن سليمان ، آثارنا الإسلامية ، العمارة فى صدر الإسلام والعصر العباسى الأول ، القاهرة (١٩٩٧ م) ، ص ٨٣ - ٨٥ ؛ سامح ، كمال الدين ، العمارة فى صدر الإسلام ، القاهرة (٢٠٠٠ م) ، ص ١٧ - ٢٦ ؛ كريزول ، ك . أ . س . الآثار الإسلامية الأولى ، ترجمة عبد الهادى عبله ، دمشق (١٩٨٤ م) ، ص ٣٣ - ٦١ ؛ عبده ، عبد الله كامل ، الأمويون وآثارهم المعمارية ، القاهرة (٢٠٠٣ م) ، ص ٥٤ - ٥٩ ؛ نوبصر ، حسنى محمد ، الآثار الإسلامية ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٤ م) ، ص ٧٤ - ٨٢ ؛ مرسى ، إيناس يحيى أحمد ، فن العمارة العربية وأشهر معالمها ، الكويت (٢٠٠٠ م) ، ص ٩٣ - ٩٨ .

مصر لسبع سنوات متصلة ، وهذا يعنى أن البناء بدأ سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م وقيل أنه تبقى
مائة ألف دينار فأمر عبد الملك بصرفها مكافأة سخية للرجلين ، لكنهما رفضا معللين
ذلك أنهم أولى أن يزيدوه من حلى نسائهم فيصرفها فى أحب الأشياء إليه ، فأمر
بصهرها وتفريغها على القبة والأبواب والشبابيك . ولهذه القبة التى شبهناها بخزانة
محكمة الغلق ، كما سبق القول ، أهمية :

- دينية . - تاريخية . - معمارية . - فنية .

• الأهمية الدينية :

تتجلى الأهمية الدينية لقبة الصخرة فى ارتباطها بليلة الإسراء والمعراج ، فإلى
المسجد الأقصى اسرى بالرسول (ﷺ) ومن فوق هذه الصخرة عرج به إلى السماوات
العليا ، وبذلك بلغ مبلغا كبيرا لم يصل إليه ملك مقرب ولا نبي كريم ، وقد عبر القرآن
الكريم عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ . صدق الله
العظيم .

• الأهمية التاريخية :

تعد هذه القبة أقدم مبنى أثري إسلامي باقٍ فى الحضارة الإسلامية ؛ بالإضافة إلى
ذلك يحتوى هذا المبنى على أقدم دليل لأول سرقة تاريخية وانتحال فى العصر
الإسلامي ، حيث قام النقاش فى عهد الخليفة العباسي المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ -
٨٣٣م) بمحو اسم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وإحلال اسم الخليفة المأمون محله ،
لكن فات على النقاش أن يغير التاريخ ليتناسب مع فترة حكم المأمون ، وبالتالي فإن
بقاء التاريخ الأصلي كما هو أضحي دليلاً مادياً أو قرينة آثارية مهمة على هذه السرقة.

• الأهمية المعمارية (شكلا ٥٩ - ٦٠ ، لوحات ٩ - ١١) :

تتمثل هذه الأهمية فى روعة تخطيطها وحسن تصميمها وإبداع شكلها ، بحيث
اعتبرها كثير من المستشرقين والعلماء الأجانب أعظم بناء معماري فى العصور
الوسطى ، فضلا عن أنه نموذج لم يتكرر بعد ذلك ؛ مما جعل منه نموذج فريد بل ونادر فى
العمارة الإسلامية .

● التصميم المعماري (شكلا ٥٩ - ٦٠) :

يتكون التصميم العام لقبة الصخرة من مثنى خارجي مصمت ؛ إذ لا يحوى سوى أربعة أبواب محورية تواجه الجهات الأصلية الأربعة ، وتبلغ أبعاد الأبواب ٣م ارتفاعا و٢م عرضا ، ولم تتغير مقاييس الأبواب منذ عهد عبد الملك . ويتقدم هذه الأبواب سقيفة محمولة على أعمدة من الرخام . يلى ذلك مثنى داخلى مفرغ - مفتوح من جميع الجوانب - يتكون من الأعمدة والدعامات بواقع ثمانية دعامات فيما بينها ستة عشر عموداً - أى عمودين بين كل دعامتين - يلى ذلك دائرة وسطى مفرغة تتكون أيضاً من الدعامات والأعمدة ، بواقع أربع دعامات فيما بينها اثنتى عشر عموداً - أى ثلاثة أعمدة بين كل دعامتين . وهذه الدائرة هى التى تحيط بالصخرة المقدسة ، وهى التى أقيمت فوقها القبة . أما عن الصخرة نفسها فهى معلقة إذ أنها ترتفع عن أرض الهضبة من ثلاثة جوانب بواقع ١٥م وهى مساحة غير منتظمة الشكل حيث تبلغ أبعادها ١٧م × ١٣م .

وقد ترتب على هذا التصميم - مثنى خارجى ثم آخر داخلى ثم دائرة وسطى - ممرين داخليين أحدهما يحيط بمنطقة الصخرة والآخر مجاور إليه باتجاه الخارج ، وكان المهندس بارعا فى هذا التصميم حيث وضع الدعامات المحيطة بالصخرة بشكل ملفوف بعض الشيء حتى لا يحجب الرؤية عن الصخرة من أى اتجاه . وقد تم تغطية السقف بواسطة سطح مائل يستند أحد طرفيه على الدائرة الوسطى ، وهو الطرف الأعلى ، ويستند الطرف الآخر على المثنى الخارجى ، وهو الطرف الأدنى ، ومحمول فى الوسط على المثنى الداخلى .

● القبة : (لوحات ٩ - ١١) :

ذات قشرتين أو طبقتين ، أحدهما داخلية والأخرى خارجية ، وهى من الخشب المكسو بالواح الرصاص ومغطى برقائق الذهب . وتقوم هذه القبة على رقبة اسطوانية - فتحت بها ست عشرة نافذة والتى تستند بدورها على الدائرة الوسطى ، ويبلغ قطر هذه القبة ٢٠م .

● الأهمية الفنية (لوحات ٣٣٨ - ٣٣٩) :

تعد قبة الصخرة أقدم العمائر الاسلامية الباقية التى نقشت بالفسيفساء متنوعة

المواد ، لكن أشهرها الفسيفساء الزجاجية والذهبية والفضية ، وكلها عبارة عن مناظر طبيعية بحتة تمثل الأشجار والأعشاب والنخيل وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم عن وصف الجنة التي وعد بها المتقون . وسوف نتحدث عن هذه الفسيفساء عند الحديث عن التصوير الجدارى فيما بعد .

هذا يوجد بالجزء العلوى من المثلث الداخلى شريط كتابى من الفسيفساء المذهبة على أرضية بيضاء طوله ٢٤٠م مكتوب بالخط الكوفى البسيط ، ومضمون الكتابة آيات من القرآن الكريم تنتهى بنقش تأسيس : « بنى هذه القبة عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين فى سنة اثنتين وسبعين » . وقد ناقشنا من قبل مسألة التغير الذى أدخل على النقش حيث اسم المأمون مكتوب بخط يختلف عن بقية النقش وكذلك سنة ٧٢هـ / ٦٩١م ، لا تقع فى فترة حكم المأمون .

أما عن الدراسة التفصيلية والتحليلية والنظريات المتعلقة بكيفية بناء هذه القبة فسوف نعرض لها تفصيلاً فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

أولاً : العماثر الدينية :-

تحتل العماثر الدينية المكانة الأولى والمقام الأسمى بين أنواع العماثر الإسلامية الأخرى كما هو معروف ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أن العاطفة الدينية والرغبة في التقرب إلى الله سبحانه وتعالى التي صاحبت إنشاء هذه العماثر كانت من أهم العوامل التي ساعدت على بقاء الكثير منها بحالة جيدة حتى الآن ، وهو الأمر الذي يمكن في ضوءه دراسة طرز هذه العماثر وتخطيطها من جهة ، ودراسة وحداتها ومفرداتها وعناصرها المعمارية ونقوشها الكتابية والزخرفية من جهة ثانية ، ودراسة الأصول والتأثيرات المتبادلة من جهة ثالثة . وتشمل العمارة الدينية المساجد والجوامع والمدارس والخوانق والزوايا والأربطة في مرحلتها الثانية بعد أن صارت تقام داخل المدن ، وينبغي قبل أن نتناول طرز هذه العماثر الدينية أن نحدد أولاً مدلول بعض المصطلحات المرتبطة بتخطيط تلك العماثر حتى لا يحدث اللبس أو الخلط أو التضارب بين الدارسين والقراء على السواء .

- **البائكة (Arcade)** هي صف من الأعمدة أو الدعامات تحمل فوقها عقود (أقواس) Arches يرتكز عليها السقف (لوحات ١ - ٣ ، ١٥ ، ١٩ ، ٣٢ ، ٨ ، ٥٨ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٣) وأحياناً يرتكز السقف على الأعمدة أو الدعامات دون وساطة العقود .

- **الرواق (البلاطة) Aisle** : تعد الأروقة من أهم مفردات العمارة الإسلامية عامة وعصب الطراز التقليدي الذي صممت على أساسه غالبية المساجد في دار الإسلام خاصة ، وكان مصطلح الرواق هو المصطلح السائد والمتداول في الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر وأقطار المشرق الإسلامي ، بينما يقابله ويرادفه في أقطار الغرب الإسلامي مصطلح آخر هو البلاطة ؛ وقد عبر بذلك المصطلح الأخير - أي البلاطة - جميع رحالة الغرب الإسلامي من المغاربة والأندلسيين عند مشاهداتهم للعمائر المختلفة التي شاهدوها خلال رحلاتهم في الأقطار الإسلامية ، كذلك لم تغب هذه الحقيقة عن المؤرخين المسلمين فيها هو السمهودي مؤرخ المدينة المنورة يعلق على وصف ابن جبير للمسجد النبوي الشريف قائلاً « ... هذا ما ذكره ابن جبير إلا أنه عبر في الجميع بالبلاطات بدل الأروقة وكذا صنع ابن عبد ربه في العقد ... » ؛ وفي موضع آخر يذكر « ... وهو مراد

بن جبير فى رحلته بعد أن ذكر أن فى الجهة القبلىة من المسجد خمس بلاطات يعنى أروقة...» (٣).

ورغم ذلك غابت تلك الحقيقة عن العلماء والباحثين المحدثين ممن فضلوا المصطلحات المعروفة والمتداولة فى الغرب الإسلامى وعملوا على ذيوعتها وانتشارها وبصفة خاصة كل من مصطلحى البلاطة والاسكوب ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ؛ بل فسر المصطلح الأول منها - وهو البلاطة - تفسيراً أدى إلى حدوث الخلط والتضارب فى الدراسات المنشورة (٤).

غير أن ما يعنينا فى هذا المقام هو أن نشير إلى ما انتهت إليه دراستنا حول هذا الموضوع وفحواها أنه لا فرق بين مدلول كل من الرواق والبلاطة والاسكوب ، وأن المصطلحات الثلاثة مرادفة لبعضها ، وأن المصطلح الأول منها - وهو الرواق - قد اختصت به الجزيرة العربية والعراق والشام وأقطار المشرق ؛ بينما اختصت بالمصطلح الثانى - وهو البلاطة - أقاليم الغرب الإسلامى (٥)، أما مصطلح الاسكوب فهو مصطلح محلى دارج فى تونس بصفة خاصة .

وعلى ذلك نستطيع أن نضع تعريفاً جديداً وهو أنه يقصد بتلك المصطلحات الثلاثة صفوف البائكات والمساحات المسقوفة المحصورة بينها سواء كانت عقودها موازية لجدار القبلة فحسب ، أو عمودية على ذلك الجدار فحسب ، أو كانت عقوداً متقاطعة أى تتجه موازية وعمودية على جدار القبلة فى ذات الوقت ، وهذه الحالة الأخيرة لا تكون إلا فى العماثر المغطاة بالقباب أو الأقبية أو الاثنين معاً .

(٣) السمهودى ، نور الدين على بن أحمد ، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، ج ٢ ، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ، بيروت ، ط ٤ ، (١٩٨٤م) ، ص ٥١٢ ، ٦٧٢ .

(٤) فكرى ، أحمد مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، القاهرة (١٩٦١) ، ص ٩٢ ؛ مسجد القيروان ، القاهرة (١٩٣٦م) ، ص ١٩ ؛ الكحلوى ، محمد محمد مرسى ، القيم الدينية وأثرها فى تخطيط عمارة المساجد ، مجلة دراسات فى علم الآثار والتراث ، العدد الأول ، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية ، الرياض (١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) ، ص ١٩١ - ١٩٣ ؛ الحداد ، عبد الله عبد السلام ، مقدمة فى الآثار الإسلامية ، صنعاء (٢٠٠٣م) ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٥) الحداد ، محمد حمزة ، المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية ، القاهرة ، ط ١ (١٩٩٦م) ، ط ٢ (٢٠٠١م) ، ص ٤٠ - ٦٩ ، ٨٥ ؛ سلسلة العمارة الإسلامية فى الجزيرة العربية ، ج ٣ ، الرواق فى العمارة الإسلامية بمكة المكرمة ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، ص ٧ - ١١ .

ولا شك أن هذا التعريف الجديد من شأنه أن يمنع حدوث اللبس والخلط والتضارب لو إقتصرت كل باحث على المصطلح السائد والمتداول في القطر الذي يتحدث عنه، على أن يضع المصطلحين الآخرين أو أحدهما بين قوسين ، وبالتالي يحسن الانتفاع بما ينشر من دراسات عن العمارة الإسلامية عامة والمساجد خاصة في الأقطار العربية والإسلامية فضلا عن الدراسات الأجنبية .

وهو الأمر الذي طبقناه في دراساتنا العديدة المنشورة ، وسوف نطبقه في كتابنا هذا .

ونضيف على ما تقدم فنقول أنه في حالة وجود الأروقة (البلاطات) في عمارة المساجد يستطيع المرء أن ينتقل عبر أجزاء المسجد المختلفة (المقدم والمؤخر والمجنبتين) دون أن تطأ قدمه صحن المسجد .

- الإيوان Iwan أو Liwan : هو عبارة عن مساحة مستطيلة أو مربعة ذات ثلاثة جدران ، واحد في الصدر واثنان جانبيان ، أما الجدار الرابع والأخير فمفتوح الوجه ، ويطل على المساحة الوسطى (الصحن أو الدرقاعة) بعقد أيا كان نوعه ، وأحيانا بهيئة مسطحة، (لوحات ٦ ، ٦١ - ٦٢ ، ١٤٢ - ١٤٣) .

ونضيف على ذلك فنقول أن هناك بعض الإيوانات التي تقسم من داخلها إلى أروقة (بلاطات) قد تكون موازية لجدار القبلة فحسب مثل إيوان القبلة بجامعة المؤيد شيخ بالقاهرة (شكل ١٥٠) ، أو عمودية على جدار القبلة فحسب كما هو الحال في إيوان القبلة بكل من مدرسة المنصور قلاوون ومدرسة الظاهر برقوق بالبحاسين (شارع المعز) بالقاهرة أشكال ١٣٧ - ١٣٧ مكرر ، ١٤٢ ، لوحة ٥٢) أو تكون أروقة متقاطعة - أي تتجه عقودها عمودية وموازية لجدار القبلة في ذات الوقت - كما هو الحال في خانقاة الناصر فرج بن برقوق (شكل ١٥٣ ، لوحة ٦٦) بالقاهرة .

وفي أحيان أخرى يكون الإيوان على هيئة رواق واحد يطل على الصحن أو الدرقاعة ببائكة ثلاثية العقد كما هو الحال في مدرسة الأشرف برسباي (بقرافة صحراء المماليك شرق القاهرة) (شكلا ١٥٤ - ١٥٤ مكرر) ومدرسة أبو بكر مزهر وغير ذلك ، أو ببائكة ثنائية العقد كما هو الحال في الإيوانين الجانبيين بمسجد أحمد المهندي بالقاهرة (٦) .

(٦) الحداد ، بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية ، (الكتاب الأول) القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٤م) ، أشكال ١٥٤ ، ٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٩ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ - ٢٠٨) .

والمهم هو أنه فى حالة وجود الإيوانات ، بأنماطها المشار إليها ، لا يستطيع المرء أن ينتقل من إيوان لآخر داخل المنشأة نفسها دون المرور بالصحن أو الدرقاعة .

- الصحن : Open Court أو Court Yard

يقصد به المساحات المكشوفة التى تتوسط المساجد التى صممت وفق التخطيط التقليدى العربى المتأثر بتخطيط المسجد النبوى الشريف ، وقد أطلقت على هذه المساحة المكشوفة عدة مصطلحات من أشهرها الصحن ، وهو مصطلح متعارف عليه قديما وحديثا ، ولهذا المصطلح مترادفات أخرى كثيرة منها الفناء والساحة والرحبة والباحة والصرحة (أو الصوح أو الشماسى فى اليمن) والحائر (بالنسبة للمشاهد والمراقدين المقدسة فى العراق وإيران) وحياط (فى إيران) والدرقاعة (فى مصر) كذلك أطلق على الجزء المكشوف الذى يتقدم الجزء المغطى فى التخطيط التقليدى أو الكلاسيكى التركى للمساجد الإسلامية خلال العصر العثمانى مصطلح الحرم (Avlu, Harim) (أشكال ٢٧٤ - ٢٧٥ ، ٢٧٨ - ٢٨٦ ، لوحتا ٤٧ ، ١٨٩) .

(٧) الحداد ، المدخل إلى دراسة المصطلحات ، ص ٣٣ - ٣٥ وما بها من هوامش ؛ أما بالنسبة للدرقاعة فقد كان يعتقد حتى وقت قريب أن هذا المصطلح يقتصر على الفناء الأوسط المغطى الذى يتوسط المدارس المملوكية المتطورة ؛ ولكن ثبت بعد الدراسة التاريخية والوثائقية والأثرية للعمائر الباقية أن مدلول هذا المصطلح أوسع من ذلك بكثير فهو يطلق أيضاً على الصحن الصغيرة أو الكبيرة مكشوفة كانت أم مغطاة كما أطلق على بعض المجازات أو الاستطراقات الأرضية المستطيلة كما هو الحال فى قلاوون والسلطان حسن والمؤيد شيخ والأشرف برسباى وجانم البهلوان وغير ذلك .
الحداد ، بحوث ودراسات ، (الكتاب الأول) ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

١ - طرز العمائر الدينية فى العمارة الإسلامية :-

- المبحث الأول : المساجد :-

من المعروف أن عمارة المساجد^(٨) تأتى على رأس النظم التخطيطية فى العمارة الإسلامية عامة والعمارة الدينية منها خاصة ؛ ولا غرو فى ذلك فالمساجد تحتل المكانة الأولى فى الإسلام ؛ فهى بيوت الله وتعميرها من أفضل القربات إلى الله عز وجل وأسس المسجد لتقام فيه الصلاة : عماد الدين ؛ ومن ثم علت منزلة المسجد عند المسلمين ، ولم تقتصر وظيفة المسجد فى أول الأمر على الصلاة بل كان المسجد مركزاً للحكم والإدارة والدعوة والتشاور فى ذلك كله ، كما كان محل القضاء والافتاء والعلم والإعلام وغير ذلك من أمور الدين والدنيا ، ومن جانب آخر فقد ارتبطت الفنون الإسلامية على اختلافها بالمسجد وبيمارته وآثاته وشعائره^(٩).

هذا وقد كان الشائع والمعتقد حتى وقت قريب أن العمائر الدينية عامة وعمارة المساجد خاصة قد اقتصر تخطيطها على أربعة طرز فحسب^(١٠) وهى :

١ - الطراز الأول : ويعرف بالطراز النبوى أو الطراز العربى أو طراز الأروقة أو الظلات حول صحن أوسط ، ونفضل نحن مصطلح الطراز العربى التقليدى .

(٨) تجدر الإشارة إلى أن مصطلح المسجد المتداول فى هذه الدراسة يقصد به المساجد فى العمارة الإسلامية بصفة عامة سواء كانت مساجد للصلوات الخمس اليومية (مساجد الأوقات) أو مساجد جامعة (تقام فيها صلاة الجمعة والعيدى) وذلك من باب الحرص على التمسك والالتزام بما ورد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة التى أشارت إلى المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال بصيغة المسجد فحسب أو المساجد فحسب رغم إنها مساجد جامعة كبيرة كما هو معروف .

(٩) الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ٢٥ - ٢٦ ، ١٠٨ - ١٠٩ .

(١٠) الباشا ، مدخل ، ص ١٠٩ - ١١١ ؛ شافعى ، فريد ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ١٢٥ ، ١٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ ؛

العمارة العربية الإسلامية ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، الرياض (١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) ، ص ٨١ - ٨٣ ، ١٤٠ - ١٤١ .

٢- الطراز الثانى : ويعرف بالطراز السنى أو الطراز الإيوانى أو طراز الإيوانات حول صحن أو درقاعة ، ونفضل نحن مصطلح الطراز الإيوانى .

٣- الطراز الثالث : وهو الطراز الذى يجمع بين الإيوانات والأروقة ولم يقدر لهذا الطراز الذبوع والانتشار فى جميع الأقطار العربية والإسلامية وإنما اقتصر ظهوره على المشرق الإسلامى بصفة عامة .

٤- الطراز الرابع : ويعرف بالطراز التركى أو العثمانى وفيه يتكون تخطيط المسجد من قسمين رئيسيين أحدهما مغطى والآخر مكشوف ويعرف هذا الجزء المكشوف فى الاصطلاح باسم الحرم (Avlu, Harim) كما سبق القول ، ونفضل نحن مصطلح الطراز التقليدى (أو الكلاسيكى) التركى .

ولكن الدراسات الحديثة قد أثبتت وجود طرز أخرى ذاعت وانتشرت فى العديد من الأقطار العربية والإسلامية .

وفيما يلى نتناول الخصائص العامة والسمات الرئيسية وملامح التخطيط العام لغالبية الطرز التى صممت على أساسها المساجد فى العمارة الإسلامية وذلك على النحو التالى :

- الطراز الأول : الطراز العربى التقليدى : وهو أهم طرز عمارة المساجد فى دار الإسلام حيث إنتشر فى غالبية الأقطار الإسلامية ؛ وكانت نواته الأولى الرئيسية فى عمارة المسجد النبوى الشريف سواء فى مرحلته الأولى : وفيها كان المسجد عبارة عن صحن أوسط (رحبة) ومقدم جهة الشمال (أى جهة بيت المقدس قبله المسلمين الأولى وذلك قبل تحويل القبلة إلى المسجد الحرام فى منتصف شعبان ٥٢هـ / ٦٢٣م) ؛ أو مرحلته الثانية : وفيها صار المسجد عبارة عن صحن أوسط ومقدم جهة الجنوب (أى جهة المسجد الحرام بمكة المكرمة وذلك بعد تحويل القبلة فى منتصف شعبان ٥٢هـ / ٦٢٣م) ومؤخر جهة الشمال (حيث كانت القبلة الأولى وقد أصبح موضعاً لأهل الصفة) ، وقد استمرت هذه المرحلة الثانية حتى إنتقل الرسول الكريم (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى فى يوم

الاثنين ١٢ ربيع الأول ١١هـ / ٦٣٢م)، وكان مقدم المسجد يشتمل على ثلاث بائكات تتكون كل بائكة منها من تسعة أساطين (أعمدة) وتحصر هذه البائكات فيما بينها ثلاثة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة ، والمؤخر مثله مثل المقدم^(١١). (شكل ١٨) أو مرحلته الثالثة والأخيرة وفيها اكتمل تخطيط المسجد النبوي الشريف واتخذ شكله النهائي فصار يشتمل على صحن أوسط ومقدم ومؤخر ومجنبتين (جناحان) وذلك في عمارة الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ٢٩هـ / ٦٤٩م ترجيحاً^(١٢) (شكل ١٩) أو في عمارة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك على يدى واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز فيما بين عامي ٨٨ - ٩١هـ / ٧٠٦ - ٧٠٩م يقينا^(١٣). (شكل ٢٠).

وعلى ذلك صار تخطيط المسجد النبوي الشريف^(١٤) بمراحله الثلاث هو النموذج

(١١) عن تفاصيل عمارة المسجد النبوي الشريف في عصر النبي (ﷺ) وفي عصر الخلفاء الراشدين من بعده وبخاصة عمر وعثمان (رضي الله عنهم) انظر :

الشهرى ، محمد هزاع ، عمارة المسجد النبوي منذ إنشائه حتى نهاية العصر المملوكى ، القاهرة (٢٠٠١م) ، ص ٢٣ - ١٠١ ؛ كامل ، عبد الله ، المسلمون وآثارهم المعمارية حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين ، القاهرة ، (٢٠٠٣م) ، ص ٦٥ - ٧٧ .

(١٢) شافعى ، العمارة العربية في مصر الإسلامية ، المجلد الأول ، ص ٦٦ .

ومما له دلالة أن شافعى قد بنى ترجيحه على أنه لما كان عثمان (رضي الله عنه) هو أول من اتخذ الأروقة في المسجد الحرام (لوحة ١) ، وبالتالي فإنه من المنطقي أنه أمر بإضافة أروقة (بلاطات) جانبية . أى في مجنبتى المسجد النبوي الشريف الشرقية والغربية (شكل ١٩) ولم يوافق على هذا الرأى صالح لمعى والشهرى لعدم وجود أى سند لهذا الرأى فى المصادر التاريخية التى أرخت لعمارة المسجد النبوي الشريف .

الشهرى ، عمارة المسجد النبوي ، ص ٩٩ ؛ لمعى ، صالح ، المدينة المنورة تطورها العمرانى وتراثها المعمارى ، بيروت (١٩٨١م) ، ص ٦٣ .

(١٣) الحداد ، سلسلة العمارة الإسلامية فى الجزيرة العربية ، ج ١ ، عمارة المسجد النبوي الشريف فى العصرين الأموي والعباسي ، القاهرة ، ط ٢ ، (٢٠٠٤م) ، ص ٢٨ - ٦١ .

(١٤) يرى الباشا أن عمارة عثمان (رضي الله عنه) فى المسجد الحرام حين وسعه وزاد فيه وأقام الأروقة فى جميع جوانبه عام ٢٦هـ / ٦٤٦م (لوحة ١) كان لها أثرها فى تطور عمارة المساجد التى صممت وفق الطراز التقليدى بصورته النهائية التى ذاعت وانتشرت فى الشرق والغرب على السواء ، ومن أقدم النماذج المؤكدة لذلك الطراز مسجد الكوفة بعد عمارته وإعادة بنائه بأمر زياد بن أبيه عام ٥١هـ / ٦٧١م. (شكل ٣١) .

الذى نسج على منواله فى تخطيط المساجد فى دار الإسلام ؛ ولكن مع الاختلاف فى بعض التفاصيل والعناصر والمفردات ؛ ومن بينها كبر المساحة التى يشغلها المسجد أو صغرها ؛ وفيما إذا كان جدار القبلة يشغل المحور الطولي أو المحور العرضي لهذه المساحة ، واختلاف عدد الأروقة (البلاطات) سواء فى مقدم المسجد أو فى مؤخره أو المجنبتين ؛ فضلا عن اختلاف اتجاه صفوف البائكات التى تفصل بين الأروقة (البلاطات) ووجود زيادات تحيط بالمسجد من عدمه وطرق التسقيف والتغطية ، فضلا عن طبيعة الطراز المعماري السائد فى كل عصر من العصور الذى ينعكس بطبيعة الحال على عمارة المسجد وعناصره ومفرداته ونقوشه الكتابية والزخرفية . ومجمل القول انه إذا كانت المساجد التى صممت وفق هذا الطراز تتفق مع بعضها البعض فى المميزات الرئيسية والتخطيط العام ، إلا إنها تختلف من حيث التفاصيل والعناصر والمفردات حسب الطراز المعماري والفنى السائد ، وبمعنى آخر فإن لكل مسجد منها شخصية قائمة بذاتها وطابع مميز له خاص به .

على أنه ينبغي قبل أن نتحدث عن أنماط هذا الطراز فى العمارة الإسلامية أن نشير إلى حقيقة مهمة فحواها أن الصحن الأوسط المكشوف هو العنصر المميز الغالب على هذا الطراز ، سواء بصورته الأولى - أى غير النهائية - (مقدم فحسب أو مقدم ومؤخر فحسب أو مقدم ومجنبتين فحسب) أو بصورته الثانية - أى الصورة النهائية أو المكتملة - (مقدم ومؤخر ومجنبتين) وبالتالي فإنه يصعب أن نتصور أى نمط من أنماط هذا الطراز بدون وجود الصحن . أما عن أنماط المساجد التى صممت وفق هذا الطراز فنستطيع أن نحصرها فى الأنماط التالية :

أولاً : النمط الأول :

ويتمثل جوهر التخطيط فى هذا النمط فى أن جميع عقود البائكات فى مقدم المسجد فحسب أو فى مقدم المسجد ومؤخره تسير موازية لجدار القبلة (ويستثنى من ذلك بعض النماذج التى نشاهد فيها الرواق الأوسط العمودى (البلاطة الوسطى العمودية)

= الباشا ، أثر عمارة عثمان بن عفان فى المسجد الحرام فى تخطيط المساجد وفى العمارة الإسلامية ، ضمن دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثالث (الجزيرة العربية فى عصر الرسول ^[1] والخلفاء الراشدين) ج ٢ ، الرياض (١٤٠١هـ / ١٩٨٩م) ص ٢٣٩ - ٢٤٥ .

المعروف خطأً بالمجاز القاطع الذى يقطع صفوف البائكات الموازية لجدار القبلة وهو يمتد من الصحن إلى أن ينتهى على جانبى المحراب بجدار القبلة (أشكال ٢٠ - ٢١ ، ٦١ ، ١٠٨ - ١١١ ، ٢٣٢) .

وقد ساد هذا النمط وانتشر بصفة رئيسية فى مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وأقطار المشرق الإسلامى ؛ على أن ذلك لا يعنى عدم وجود نماذج له فى الغرب الإسلامى ؛ إلا إنها قليلة بل ونادرة كما سنشير فيما بعد .

أما عقود بائكات كل من المجنبتين فتتجه فى نماذج هذا النمط عمودية على جدار القبلة غالباً ، وموازية له أحياناً كما سنشير فيما بعد .

ونستطيع أن نحصر نماذج هذا النمط فى نموذجين رئيسيين وهما :

أ- النموذج الأول : وهو الذى يشتمل على الرواق الأوسط العمودى (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأً بالمجاز القاطع ، وتعد أمثله الباقية فى العمارة الإسلامية قليلة، ومن أقدمها المسجد الأموى بدمشق (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٥م) وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف ومقدم ومؤخر ومجنبتين ، والمقدم يشتمل على ثلاثة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة يقطعها رواق أوسط عمودى (بلاطة وسطى عمودية) يعلو قسمه الأوسط القبة المعروفة بقبة النسر ، والمؤخر يشتمل على رواق واحد يتجه هو الآخر موازياً لجدار القبلة ، أما المجنبتين فبكل مجنبه منهما رواق واحد أيضاً ، ولكن عقود بائكته تتجه عمودية على جدار القبلة^(١٥) . (شكلا ٦١ - ٦٢ ، لوحات ١٣ - ١٦) .

ومنها المسجد الملحق بقصر الحير الشرقى ١١٠هـ / ٧٢٨م وهو يعد صورة مصغرة

(١٥) سامح ، العمارة فى صدر الإسلام ، ص ٢٧ ؛ شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٢٤٣ ؛ الرياحى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٥٤ - ٦٠ ؛ العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سورية ، دمشق (١٩٧٩م) ، ص ٤٧ - ٥٣ ؛ كريسويل ، الآثار الإسلامية الأولى ، ص ٧٥ - ٨٢ ؛

Creswell, K. A. C., and Allan, J. W., Ashort Account of Early Muslim Architecture, A. U. C. (1989), P. 51 - 55., Hillenbrand , R., Islamic Architecture, A. U. C. (2000), P. 70 - 73 .

من المسجد الأموى (شكلا ٦٣ ، ٩٢) وإن كان هناك اختلاف بطبيعة الحال فى بعض المفردات والتفاصيل^(١٦) .

ومن النماذج الباقية بالعمارة المصرية الاسلامية الجامع الأزهر (٣٥٩ - ٣٦١هـ / ٩٦٩ - ٩٧١م) وكان تخطيطه فى مرحلة إنشائه الأولى عبارة عن صحن أوسط مكشوف ومقدم ومجنبتين فقط ، والمقدم يشتمل على خمسة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة يقطعها الرواق الأوسط العمودى (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع ، ويعلو أربعة المحراب بنهاية الرواق الأوسط العمودى قبة ، فضلا عن وجود قبتين أخريتين بطرفى الرواق الأول (البلاطة الأولى) مما يلى جدار القبلة ، أما المجنبتين فبكل مجنبه منهما أحد عشر رواقا (بلاطة) تتجه عقود بئكاتها العشر موازية لجدار القبلة^(١٧) . (شكل ١٠٨) .

وقد أضاف الخليفة الحافظ لدين الله أربعة أروقة حول الصحن بواقع رواق (بلاطة) بكل جانب ، وبذلك إكتمل الشكل النهائى للطراز العربى التقليدى بالجامع الأزهر ، ومن الملاحظ أن الرواق القبلى المضاف يتميز عن الأروقة الثلاثة الأخرى بأنه تعلوه عند

(١٦) الريحاوى ، العمارة العربية ، ص ٧٥ ؛ كريزول ، الآثار ، ص ١٦١ - ١٦٤ .

Creswell , Ashort , P. 156 - 157 .

ولعل ما أشرنا إليه بالنسبة لتخطيط المسجد ينفى ما أشار إليه عبد الله كامل من أن ظلة القبلة - أى مقدم المسجد - تنقسم إلى ثلاث بلاطات تمتد من الشرق إلى الغرب موازية لجدار القبلة . كامل ، عبد الله ، الأمويون وآثارهم المعمارية ، القاهرة (٢٠٠٣م) ، ص ١١٥ . فأين الرواق الأوسط العمودى المعروف خطأ بالمجاز القاطع إذن ؟

(١٧) كريزول ، العمارة الإسلامية فى مصر ، المجلد الأول الاخشيدون والفاطميون ، ترجمة عبد الوهاب علوب ، واجعه واستخرج نصوصه وقدم له وعلق عليه محمد حمزة إسماعيل الحداد ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، ص ٦٧ - ٦٨ ؛ فكرى ، أحمد ، مساجد القاهرة ومدارسها ، الجزء الأول العصر الفاطمى ، القاهرة (١٩٦٥م) ، ص ٤٨ - ٥٠ ؛ فهمى ، عبد الرحمن ، الجامع الأزهر ، ضمن كتاب القاهرة ، تاريخها فنونها آثارها ، مؤسسة الأهرام (١٩٧٠م) ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥ ؛ العمرى ، آمال ، الطائش ، على ، العمارة فى مصر الإسلامية (العصرين الفاطمى والأيوبي) ، القاهرة (١٩٩٦م) ، ص ٧٢ - ٧٣ ؛ عبد الرازق ، أحمد ، العمارة الإسلامية فى العصرين العباسى والفاطمى ، القاهرة (١٩٩٩م) ، ص ١٤٦ - ١٤٨ ؛ الريحاوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

بداية الرواق الأوسط العمودى من جهة الصحن القبة المعروفة بقبة البهو^(١٨) (شكل ١٠٨ ، لوحة ٣٨) .

ومنها جامع الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٠ - ٤٠٣ هـ / ٩٩٠ - ١٠١٣ م) ويتكون تخطيطه من صحن أوسط مكشوف ومقدم ومؤخر ومجنبتين ، والمقدم يشتمل على خمسة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة يقطعها الرواق الأوسط العمودى (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأً بالمجاز القاطع ، ويعلو الرواق الأول (البلاطة الأولى) مما يلى جدار القبلة ثلاث قباب غير متجاورات ، وهما قبة مربعة المحراب بنهاية الرواق الأوسط العمودى المعروف خطأً بالمجاز القاطع وقبتين بطرفى الرواق ، بواقع قبة بكل طرف أو ركن ، والمؤخر يشتمل على رواقين موازيين لجدار القبلة ، أما المجنبتين فبكل جنبنة ثلاثة أروقة (بلاطات) عمودية على جدار القبلة^(١٩) (شكل ١٠٩) .

ومنها جامع السلطان المملوكى البحرى الظاهر بيبرس البندقدارى (بيبرس الأول) المعروف بجامع الظاهر (٦٦٥ - ٦٦٧ هـ / ١٢٦٧ - ١٢٦٩ م) بحى الظاهر بالقاهرة ، ويتكون تخطيطه من صحن ومقدم ومؤخر ومجنبتين ، والمقدم يشتمل على ستة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة يقطعها الرواق الأوسط العمودى (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأً بالمجاز القاطع ، وقد صمم هنا بطريقة غير مسبقة فى العمارة المصرية الإسلامية حيث قسم إلى قسمين : القسم الأول يتقدم المحراب ويمثل المقصورة وكانت تعلوها قبة ضخمة على قدر قبة الإمام الشافعى على حد قول المقرئى فى خطه. وليس أدل على ضخامة هذه القبة من القول بأن قاعدتها المربعة قد شغلت مساحة تسعة عقود من عقود بئكات الأروقة (البلاطات) الثلاثة الأولى مما يلى جدار القبلة ، والقسم الثانى يتقدم القسم الأول ويطل على الصحن ، وقد قسم من داخله إلى ثلاثة أروقة (بلاطات) عمودية ، ويشتمل المؤخر على رواقين موازيين لجدار القبلة

(١٨) كريزول ، العمارة ، ص ٢٦٩ - ٢٧٣ ؛ فكرى ، مساجد القاهرة ، ج ١ ، ص ٥٠ ؛ الريحوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٢٣٩ .

(١٩) كريزول ، العمارة ، ص ٧٩ ، ٨٦ - ٩٥ ؛ العمرى ، العمارة ، ص ٧٧ - ٧٨ ، ٨١ - ٨٤ ؛ عبد الرازق ، العمارة ، ص ١٧٠ - ١٧٣ ؛ فكرى ، مساجد القاهرة ، ج ١ ، ص ٦٥ - ٦٧ ؛ الريحوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

Bloom, J. M., The Mosque of Al-Hakim in Cairo, Muqarnas, vol 1, (1983), PP. 15 - 36 .

يقطعهما عند المدخل (على محور المحراب) رواق أوسط عمودى ، أما المجنبتين فبكل
مجنبة منهما ثلاثة أروقة (بلاطات) عمودية على جدار القبلة يقطعها عند المدخل رواق
موازى لجدار القبلة^(٢٠) (شكلا ١١٠ - ١١١) .

ومنها مسجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م (لوحة
٥٨) ويتكون تخطيطه من صحن ومقدم ومؤخر ومجنبتين ، والمقدم يشتمل على أربعة
أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة يقطعها الرواق الأوسط العمودى (البلاطة الوسطى
العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع ، وهو يمثل مقصورة السلطان ، وتعلوه قبة
ضخمة شغلت هى الأخرى مساحة تسعة عقود من عقود البائكتين العموديتين اللتين تشكلان
الثلاثة الأولى مما يلى جدار القبلة ؛ حيث أن عقود البائكتين العموديتين اللتين تشكلان
الرواق الأوسط العمودى لا تمتد حتى تنتهى عند الصحن كما هو المألوف ، وهو الأمر
الذى سوف يقابلنا فى بعض المساجد فى المشرق الإسلامى كما سنشير فيما بعد^(٢١) .

ومن النماذج الباقية فى اليمن مسجد الملكة الحرة السيدة بنت أحمد الصليحية فى
مدينة ذى جبلة ٤٦٠ - ٤٦١هـ / ١٠٦٧ - ١٠٦٨م^(٢٢) .

ومنها فى ليبيا كل من مسجد أجداوية ومسجد مدينة سلطان^(٢٣) (سرت) . ومنها
فى فاس بالمغرب الأقصى كل من مسجد القرويين ومسجد الأندلسيين^(٢٤) ، وقد صمم

(٢٠) الريحاوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٣٠٢ ؛ نويسر ، حبنى ، العمارة الإسلامية فى مصر
عصر الأيوبيين والمماليك ، القاهرة (١٩٩٦م) ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، ١٤١ - ١٤٣ ؛ الحداد ، محمد
حمزة ، وآخرين ، أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري فى العصور الإسلامية المختلفة ، دراسة
تحليلية على العاصمة القاهرة ، منظمة العواصم والمدن الإسلامية ، جدة (١٩٩٠م) ، ص ٨٩ - ٩٣ .

(٢١) الحداد ، أسس التصميم ، ص ١٠٥ - ١١٠ .

(٢٢) فنستر ، بريارة ، حول بعض المباني الإسلامية فى اليمن ، ضمن كتاب تقارير أثرية من اليمن ، ج ١ ،
ترجمة عبد الفتاح البركاوى ، المعهد الألماني للآثار - صنعاء (١٩٨٢م) ، ص ٥٣ - ٦٣ ؛ كامل ، عبد
الله ، الفاطميون وآثارهم المعمارية فى إفريقيا ومصر واليمن ، القاهرة (٢٠٠١م) ، ص ١٦٩ - ١٧١ ؛
شيحة ، مصطفى ، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية اليمنية ، القاهرة (١٩٨٧م) ،
ص ٦٠ - ٦٤ .

(23) Hillenbrand, Islamic , P. 86, Figs, 2. 144 , 2. 148 .

(٢٤) سالم ، تاريخ المغرب ، ص ٦٦٦ - ٦٧٦ ، ٧٦٤ - ٧٦٨ ؛ الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٣٦٧ ؛
الكحلاوى ، مساجد المغرب والأندلس فى عصر الموحدين ، ص ٢٩٤ - ٣١٦ .

فى كليهما بطريقة غير مألوفة فى عمارة المساجد الإسلامية عامة ومساجد الغرب الإسلامي والمغرب الأقصى خاصة (أشكال ١٨٩ - ١٩١) (لوحة ٩٧) .

وفى المشرق الإسلامي تقابلنا عدة نماذج ومن بينها مسجد ديار^(٢٥) بكر ٤٨٤هـ / ١٠٩١م (شكل ٢٣٢) ومسجد دنيصر^(٢٦) (قزيل تبه) ٦٠١هـ / ١٢٠٤م (شكل ٢٣٣) وإن كان يلاحظ هنا أن الرواق الأوسط العمودى (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع يقطع فقط الرواقين الأول والثانى مما يلى جدار القبلة ؛ أى أنه لا يمتد حتى ينتهى عند الصحن كما هو المألوف .

ومثله فى ذلك مسجد ماردين^(٢٧) . ومسجد علاء الدين^(٢٨) فى قونية وبصفة خاصة مرحلته الأولى ٥٥٠هـ / ١١٥٥م (شكل ٢٣٤) .

أما مسجد عيسى بك فى سلجوق قرب أفسوس ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م (عصر^(٢٩) بنى أيدين بالأناضول) فيتميز الرواق الأوسط العمودى (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع الذى يقطع رواقى مقدم المسجد بأنه مغطى بقبتين طوليتين متماثلتين (شكل ٢٣٥) .

ب- النموذج الثانى : وهو الذى يخلو من وجود الرواق الأوسط العمودى (البلاطة الوسطى العمودية) المعروف خطأ بالمجاز القاطع ، وتعد أمثله كثيرة ولا سيما فى مصر والشام والعراق والجزيرة العربية ، ومنها المسجد النبوى الشريف قبل عمارة الوليد بن عبد الملك على يدى عمر بن عبد العزيز فيما بين ٨٨ - ٩١هـ / ٧٠٦ - ٧٠٩م (شكل ١٨) وأثناء عمارته فى العصرين المملوكى والعثمانى (شكل ٢٣) .

ومنها مسجد الكوفة^(٣٠) عقب عمارة زياد بن أبيه له عام ٥١هـ / ٦٧١م

(٢٥) أصلان آبا ، أوقطاي ، فنون الترك وعمائرهم ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، استانبول (١٩٨٧م) ، ص ٦٣ - ٦٤ ، تخطيط ١ .

(٢٦) أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ٦٧ - ٦٩ ، تخطيط ٦ ؛ الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٢٠١ .

(٢٧) أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢٨) أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ٧٨ - ٨٠ ، تخطيط ١٢ .

(٢٩) أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ١٦٠ - ١٦١ ، تخطيط ٣٧ .

(٣٠) الطبرى ، أبى جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبرى ، ج ٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة (١٩٦٣م) ، ص ٤٤ ، ٤٦ ، ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٥٣ ؛ فكرى ، المدخل ، ص ٢٠٠ - ٢٠٣ ؛ شافعى ، العمارة العربية ، ص ٢٣٩ - ٢٤١ ؛ رجب ، غازي ، العمارة العربية فى العصر الإسلامى فى العراق ، بغداد (١٩٨٩م) ، ص ٥٨ - ٦٠ .

(٢×٢×٢×٥) (شكل ٣١) ؛ ومسجد^(٣١) واسط ٨٣ - ٨٦ هـ / ٧٠٢ - ٧٠٥ م (١×١×١×٥) .

ومنها مسجد صنعاء^(٣٢) الأموى (عصر الوليد ٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) (شكل ٢٤) . ومسجد بصرى^(٣٣) ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م (٢×٢×١×٢) .

ومنها مسجد^(٣٤) حران ١٢٧ - ١٣٢ هـ / ٧٤٥ - ٧٥٠ م (١×١×١×٤) (شكل ٦٤) .

ومنها مسجد بغداد^(٣٥) ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م، (شكل ٣٤) (٢×٢×٢×٥) ومنها مسجد الرقة^(٣٦) ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م (٢×٢×٢×٣) .

ومنها المسجد الملحق بقصر الأخيضر^(٣٧) الشهير بالعراق حوالى ١٦١ هـ / ٧٧٨ م ، وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف ومقدم ومجنبتان ، والمقدم يشتمل على رواق (بلاطة) واحد موازى لجدار القبلة ويطل على الصحن ببائكة ذات خمسة عقود ، ويسقف المقدم قبو برميلي ينتهى من جانبيه بنصفى قبتين منطقة انتقال كل منهما عبارة عن حنيتين ركنيتين ، أما المجنبتين فبكل مجنبه رواق (بلاطة) واحد أيضاً ولكنه عمودى

(٣١) رجب ، العمارة ، ص ٦٤ - ٦٧ ؛ سلمان ، عيسى ، وآخرين ، العمارات العربية الإسلامية فى العراق ، ج ١ ، بغداد (١٩٨٢ م) ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣٢) شيحة ، مصطفى ، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية اليمنية ، القاهرة (١٩٨٧ م) ، ص ٢٩ - ٣٦ ؛

Creswell, Ashort, PP. 83 - 88, Fig 54 .

(٣٣) فكرى ، المدخل ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

Creswell, Ashort, PP. 121 - 130

(٣٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ١٧٥ ؛ فكرى ، المدخل ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧ ؛

Creswell, Ashort, PP. 218 - 221 .

(٣٥) رجب ، العمارة العربية ، ص ١٠٠ - ١٠٢ ؛ سلمان ، العمارات ، ج ١ ، ص ٨٧ - ٨٨ ؛

Creswell, Ashort, PP. 240 - 242 .

(٣٦) الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ١١٩ - ١٢٠ ؛

Creswell, Ashort, PP. 247 - 248 .

(٣٧) الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ١١٦ ؛ رجب ، العمارة العربية ، ص ١١٨ ؛ سلمان ، العمارات العربية ، ج ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٨ ؛

Creswell, Ashort, P. 255 .

على جدار القبلة ، ويطل على الصحن ببائكة ذات ثلاثة عقود . (شكل ٥١) ، (الوحتا ٢ - ٣) .

ومنها فى مصر كل من : مسجد أحمد بن طولون ^(٣٨) ٢٦٣ - ٢٦٥ هـ / ٨٧٦ م .
٨٧٨ م (٢×٢×٢×٥) ويتميز بوجود زيادة عبارة عن ثلاثة أروقة مكشوفة تحيط
بالجامع من ثلاث جهات عدا جهة القبلة . (شكلا ١٠٢ - ١٠٣) ومسجد الصالح ^(٣٩)
طلّاع خارج باب زويلة (بوابة المتولي) بالقاهرة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م (١×١×١×٣)
ويتميز بوجود رواق خارجى أو سقيفة تتقدم مدخله الرئيسى بالجهة البحرية (الشمالية
الغربية) وتطل على الشارع من خلال بائكة ذات خمسة عقود . (شكل ١٠٤) (الوحتا
٤ - ٤١) .

ومن العصر المملوكى كل من جامع الماس الحاجب وجامع لاجين السيفى وجامع
سودون من زادة وغير ذلك .

ومن العصر العثمانى كل من الجامع اليوسفى بملوى (فى المنيا) ١٠٢٧ هـ /
١٦١٧ م وجامع الأمير محمد باخميم قبل ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م والجامع العمرى ببهجورة
١١٣٣ هـ / ١٧٢٠ م وجامع عثمان بك الچرجاوى (بجرجا) ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م وجامع
الأمير همام بفرشوط ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م بالصعيد ؛ وكلا من جامع الجندى وجامع
المحلى برشيد وجامع عبد الله العمرى البرلسى بفوة والجامع العمرى بمحلة مرحوم (مركز
طنطا - محافظة الغربية) .

وهناك بضعة نماذج تتبع هذا النمط ، ولكن صحنونها مغطاة وليست مكشوفة ،
ومنها بالقاهرة كلا من جامع مصطفى جوريجى ميرزه ببولاق ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م وجامع

(٣٨) الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ١٢٣ - ١٣٠ ؛ شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ،
ص ٤٦٣ - ٤٩٧ ؛ الياور ، طلعت ، العمارة العربية الإسلامية فى مصر ، بغداد (١٩٨٩ م) ، ص ٤٩ -
٧٤ ؛ عبد الرازق ، أحمد ، العمارة الإسلامية فى العصرين العباسى والفاطمى ، القاهرة (١٩٩٩ م) ،
ص ١٠٢ - ١١٨ ؛

Creswell, Ashort, PP. 392 - 406 .

(٣٩) الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٢٤٦ - ٢٥٠ ؛ عبد الرازق ، العمارة الإسلامية ، ص ١٩٥ -
٢٠٢ ؛ العمرى ، العمارة فى مصر ، ص ٩٤ - ١٠٠ ؛ كريسول ، العمارة الإسلامية فى مصر ، المجلد
الأول ، ص ٢٩٧ - ٣١٠ .

الأمير عثمان كتحدا المعروف بجامع الكيخيا (على رأس شارع قصر النيل عند تقاطعه مع شارع الجمهورية بميدان الأوبرا القديمة) ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م (شكل ١٠٧) وجامع الفكهانى بالعقادين ١١٤٨هـ / ١٧٣٥م، وفى الفيوم جامع الأمير سليمان الشهير بالمعلق ٩٦٦هـ / ١٠٥٦م^(٤٠).

وفى المشرق الإسلامى تقابلنا عدة نماذج ومنها مسجد سيرا فى مرحلتيه الأولى والثانية على السواء^(٤١) (شكل ٢٢٠). ومسجد سوسة^(٤٢) (خوزستان) (شكل ٢٢١). ومنها المرحلة الثانية بمسجد علاء الدين فى قونية^(٤٣) ٦١٦هـ / ١٢١٩م (شكل ٢٣٤).

ثانياً : النمط الثانى :

ويتمثل جوهر التخطيط فى هذا النمط فى أن جميع عقود البائكات فى مقدم المسجد فحسب ، أو فى مقدم المسجد ومؤخره ومجنتيه ، تسير عمودية على جدار القبلة ، ويكون الرواق الأوسط (البلاطة الوسطي) أوسع الأروقة (البلاطات) وأكثرها إرتفاعا غالبا ، ويستثنى من ذلك بعض النماذج التى نشاهد فيها عقود بائكة (أو بائكات) رواق المؤخر أو المجنبتين تسير موازية لجدار القبلة .

وقد ساد هذا النمط وانتشر بصفة رئيسية فى المغرب والأندلس ؛ على أن ذلك لا يعنى عدم وجود نماذج له فى العراق والجزيرة العربية والمشرق الإسلامى إلا أنها قليلة ؛ فضلا عن أنها ذات سمات خاصة وشخصية قائمة بذاتها . وبعد المسجد الأقصى المبارك فى القدس الشريف ١٦٣هـ / ٧٧٩م أقدم نموذج معروف لهذا النمط من التخطيط (شكلا ٦٦ - ٦٧) (لوحة ١٢) .

ويشتمل المقدم على ١٤ بائكة عمودية على جدار القبلة تحصر فيما بينها ١٥ رواقا (بلاطا) أوسعها وأكثرها إرتفاعا الرواق الأوسط (البلاطة الوسطي) ، ومن الظواهر الملفتة للنظر هنا وجود بائكتان عرضيتان - أى موازيتان لجدار القبلة - تسيران

(٤٠) الحداد ، بحوث ودراسات ، (الكتاب الأول) ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ؛ موسوعة العمارة الإسلامية فى مصر ، المدخل ، ص ٧٨ - ٨٠ .

(41) Creswell, Ashort, PP. 346 - 347 .

(42) Creswell, Ashort, PP. 222 - 224 .

(٤٣) أصلان آبا ، فنون الترك وعمائرهم ، ص ٨٠ ، تخطيط ١٢ .

قرب جدار القبلة وتوازيانه^(٤٤) كما سبق القول ، ولا يخفى أن الغرض من ذلك هو تمهيد قاعدة مربعة لحمل القبة التى تعلو المربعة التى تتقدم المحراب بنهاية الرواق الأوسط (البلاطة الوسطي) .

وقد وصفه المقدسى فذكر أنه يتكون من جزئين هما المغطى والصحن وأن للمغطى - أى المقدم - « ... ستة وعشرون بابا .. وعلى الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام ... وعلى الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخام وأساطين ، وعلى المؤخر أروقة أزاج من الحجارة وعلى وسط المغطى جمل - أى سقف جمالونى - عظيم خلف قبة حسنة ... وليس على الميسرة أروقة ، والمغطى لا يتصل بالحائط الشرقى ... »^(٤٥) . (شكلا ٦٧ - ٦٨) .

أما مجير الدين الحنبلى مؤرخ القدس الشهير المتوفى ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م فقد وصفه بقوله « ... المسجد الأقصى يشتمل على بناء عظيم به قبة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة وتحت القبة المنبر والمحراب وهذا الجامع ممتد من جهة القبلة إلى جهة الشمال وهو سبع أكوار - أى أروقة - متجاورة مرتفعة على العمد الرخام والسوارى ... »^(٤٦) . (شكل ٦٦) .

ولهذا النص أهمية خاصة فهو يسجل ما كان عليه تخطيط المسجد الأقصى فى أواخر ق ٩هـ / ١٥م أى وقت وصف مجير الدين الحنبلى الذى فرغ من تأليف كتابه عام ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م وبما أن هذا الوصف يكاد يتطابق مع التخطيط الحالى للمسجد الأقصى (شكل ٦٦ ، لوحة ١٢) ولذلك يمكن القول بأن تخطيط المسجد الأقصى لم يتغير منذ ذلك الوقت وحتى الآن^(٤٧) .

(٤٤) شافعى ، العمارة العربية ، ص ٢٤٣ ؛ كريسول ، الآثار الإسلامية ، ص ٢٨٠ - ٢٨٢ ؛ رجب ، غازى ، المسجد الأقصى بالحرم الشريف بيت المقدس ، سومر ، المجلد ٢٨ ، ج ١ - ٢ ، بغداد (١٩٧٢م) ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٤٥) المقدسى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق محمد مخزوم ، بيروت (١٩٨٧م) ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٤٦) الحنبلى ، القاضى مجير الدين أبو اليمن ، ت ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ، مصر ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٤٧) الحداد ، المدخل إلى دراسة المصطلحات ، ص ٧١ - ٧٢ .

٢- النمادج الباقية فى المغرب والأندلس :

لما كان هذا النمط قد ذاع وانتشر فى المغرب والأندلس حتى صار سمة رئيسية لعمارة المساجد فى المغرب الإسلامى ولذلك حسبنا أن نشير إلى أشهر نماذجه الباقية وأهمها ومنها كل من : مسجد القيروان^(٤٨) بتونس الذى إتخذ شكله النهائى فى عهد الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد عام ٢٦١هـ / ٨٧٥م ، وجوهر تخطيطه عبارة عن صحن أوسط مكشوف ومقدم ومؤخر ومجنبتان ، والمقدم يشتمل على ١٦ بائكة عمودية على جدار القبلة تحصر فيما بينها ١٧ بلاطاً (رواقاً) أوسعها وأكثرها ارتفاعاً البلاط الأوسط (الرواق الأوسط) وتعلو بدايته ونهايته قبتان هما قبة مربعة المحراب وقبة البهو على مدخل البلاط (الرواق) الأوسط مما يلي الصحن وقد وصفها البكرى بقوله « ... القبة المعروفة بباب البهو على آخر بلاط المحراب »^(٤٩) .

ومن الظواهر الملفتة للنظر هنا وجود أربع بائكات عرضية - أى موازية لجدار القبلة - وهى البائكة الأولى (وتمثل واجهة مقدم المسجد) والثالثة والسابعة والعاشرة (وهى البائكة الأخيرة التى يقف عندها امتداد البائكات العمودية ولا يتعدها حتى نهاية جدار القبلة باستثناء عقود البلاطة الوسطى (الرواق الأوسط) التى تمتد طويلاً حتى نهاية جدار القبلة عن يمين المحراب ويساره) مما يلي صحن المسجد ، ولا يخفى أن الغرض من ذلك ولا سيما بالنسبة لكل من البائكة الأولى والثالثة والعاشرة مما يلي الصحن هو تمهيد قواعد مربعة عند تقاطع هذه البائكات مع البلاطة الوسطى (الرواق الأوسط) لحمل القبتين اللتين ببداية ونهاية هذه البلاطة الوسطى (وهما قبة مربعة المحراب وقبة البهو السابق الإشارة إليهما) (شكلاً ١٨٦ - ١٨٦ مكرر) (لوحات ٨٨ - ٩٢) .

ويعد ذلك تطوراً لنمط المسجد الأقصى فقد استطاع المعمار من جهة أن يوجد بلاطة (رواقاً) عرضية - أى موازية - متسعة تتقدم جدار القبلة (حيث أنها أوسع من

(٤٨) فكرى ، مسجد القيروان ، القاهرة (١٩٣٦م) ، ص ١٩ - ٢٦ ، ٦٣ - ٨٤ ؛ مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، القاهرة (١٩٦١م) ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩ ؛ سالم ، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، ص ٣٣٦ - ٣٤٥ ؛ العميد ، طاهر مظفر ، آثار المغرب والأندلس ، بغداد (١٩٨٩م) ، ص ٦٥ - ٨١ ؛ عثمان ، نجوى ، مساجد القيروان ، دمشق (٢٠٠٠م) ، ص ٦٥ - ١٣٤ .

Creswell, Ashort, PP. 315 - 329 .

(٤٩) البكرى ، أبى عبيد ، ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، بغداد ، ط ٢ ، د ت ، ص ٢٤ .

البلاطات (الأروقة) العمودية باستثناء البلاطة الوسطى (الرواق الأوسط) التي تمتد عقود بئكتيها طوياً حتى نهاية جدار القبلة عن يمين المحراب ويساره كما سبق القول) وهو مالا نجد في المسجد الأقصى ، ومن جهة ثانية استطاع أن يضيف قبة ثانية على مدخل البلاط الأوسط (الرواق الأوسط) مما يلي الصحن وهي القبة المعروفة بقبة البهو . وكان لهذا التطور أثره الكبير على تخطيط المساجد التالية في المغرب والأندلس على السواء .

والمؤخر يشتمل على بلاطتين (رواقين) موازيين لجدار القبلة ، أما بالنسبة لكل من المجنبتين فبكل مجنبية منهما بلاطتان (رواقان) عموديان على جدار القبلة . (شكلا ١٨٦ ١٨٦ مكرر) ، (لوحات ٨٨ - ٩٢) .

ومن المساجد التالية التي اتبعت هذا النمط مسجد الزيتونة^(٥٠) بتونس ٢٥٠هـ / ٨٦٤م ولكن على مقياس أصغر ، فضلا عن الاختلاف في بعض التفاصيل والمفردات الأخرى فلكل مسجد منهما شخصية مستقلة وطابع خاص به .

ومن النماذج التالية مسجد المهديّة الفاطمي بتونس ٣٠٣ - ٣٠٥هـ / ٩١٥ - ٩١٧م وهو الآخر له شخصيته المستقلة وطابعه الخاص . إلا أن أهم ما يميزه هو المدخل التذكاري البارز الذي يظهر لأول مرة في العمارة الإسلامية عامة (شكل ١٨٧) ، ومن الملاحظ أنه لا توجد فيه قبة البهو ، كما يرى البعض أنه كان يشتمل على ثلاثة صحن ، الصحن الأوسط الرئيسي وصحنان على جانبي بلاطات (أروقة) مقدم المسجد التسعة من الداخل وتظهر المساقط الهندسية للمسجد في عام ١٩٦٠م ، هذان الصحنان الجانبيان ؛ بالإضافة إلى الصحن الأوسط الرئيسي^(٥١) . وإذا ما انتقلنا إلى الأندلس يقابلنا مسجد قرطبة الذي اتخذ شكله النهائي عام ٣٧٧هـ / ٩٨٧م - أي عقب زيادة المنصور بن أبي

(٥٠) فكري ، مسجد الزيتونة الجامع في تونس ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الثاني القاهرة (١٩٥٢م) ، ص ٦٥ - ١١٢ ؛ سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص ٣٤٩ - ٣٥٧ ؛ العميد ، آثار المغرب ، ص ١٠٣ - ١٠٩ ؛ عثمان ، مساجد القيروان ، ص ١٥١ - ١٦٠ .

(٥١) كريزول ، العمارة الإسلامية ، المجلد الأول ، ص ٧ - ١١ ؛

Hillenbrand, Islamic, P. 80., Lézine, A., Mahdiya, Paris, (1965), PP. 65

- 136, Figs, 30, 36, 39, 42, 47, 52 - 57 .,

Golvin, L., Mahdiya, a la Période Fatimide, Romm, XXVII, (1979),

PP. 75 - 89 .

عامر وهى الزيادة الخامسة والأخيرة للمسجد - وقد تمت هذه الزيادة شرقى مقدم المسجد وبذلك أصبح مقدم المسجد يشتمل على ١٩ بلاطة (رواقا) عمودية على جدار القبلة (شكل ١٨٨) . أما عن تخطيط المسجد منذ انشائه وحتى زيادة المنصور بن أبى عامر^(٥٢) المشار إليها فيمكن القول أن المسجد كان فى بادئ أمره - أى فى عهد منشئه الأول الأمير عبد الرحمن الداخل - ١٧٠هـ / ٧٨٦م عبارة عن صحن ومقدم فحسب ، وكان المقدم يشتمل على ٩ بلاطات عمودية على جدار القبلة ، ثم لم يلبث أن زاد فيه الأمير عبد الرحمن الأوسط زيادتين : الأولى ٢١٨هـ / ٨٣٤م وفيها أضيفت بلاطتان (رواقان) واحدة شرقية وأخرى غربية - أى على جانبي البلاطات التسع السابقة فصارت أحد عشر بلاطة - وأضيفت فى هذه المرحلة إلى الصحن مجنبتان واحدة شرقية والأخرى مقابلة لها فى امتداد البلاطتين (الرواقين) الجديدتين .

أما الزيادة الثانية لعبد الرحمن الأوسط فتمت عام ٢٣٤هـ / ٨٤٨م وفيها تم هدم جدار القبلة وزيد المسجد من جهتها سبع بائكات على نفس امتداد البائكات السابقة وبذلك ظل عدد بلاطاته (أروقته) كما هو ١١ بلاطة (رواقا) إلا أن المسجد قد إمتد طولاً أكثر من ذى قبل .

والزيادة الرابعة تمت فى عهد الخليفة الحكم المستنصر عام ٣٥١ - ٣٥٤هـ / ٩٦١ - ٩٦٥م وفيها هدم جدار القبلة مرة ثانية وزيد المسجد من جهتها ١١ بائكة على نفس

(٥٢) البكرى ، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبد الرحمن الحجى ، بيروت (١٩٦٨م) ، ص ١٠١ - ١٠٣ ؛ ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، ج ٢ ، تحقيق كولان ، ج. س ، و بروفنسال ، ليفى ، بيروت ، ط ٣ (١٩٨٣م) ، ص ٢٢٩ - ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٨٧ ؛ المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٨٤ - ٨٦ ؛ فكرى ، المدخل ، ص ٢٤٤ - ٢٤٧ ؛ سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، الاسكندرية (١٩٦١م) ، ص ٣٧٧ - ٣٩٧ ؛ الريحاوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٣٤٩ - ٣٥٩ ؛ بالباس ، ليو بولدو توريس ، تاريخ اسبانيا الإسلامية ، المجلد الثانى ، الجزء الثانى ، الفن والعمارة حتى سقوط الخلافة القرطبية ، ترجمة على إبراهيم منوفى وآخرين ، القاهرة (٢٠٠٢م) ، ص ٢٨ - ٤٧ ، ٧٢ - ٩٥ ، ١٦١ - ١٧٠ ، ١٧٧ - ٢٢٢ ، ٢٣٧ - ٢٤٢ .

إمتداد البائكات السابقة ؛ ومن ثم فإن عدد بلاطات (الأروقة) مقدم المسجد ظلت كما هي - أى ١١ بلاطة - إلا أن المسجد قد إمتد طولاً أكثر من ذى قبل حتى صار جدار القبلة قريباً من الوادى الكبير ، وهو الأمر الذى حال دون زيادة المسجد من هذه الجهة فيما بعد . وبهذه الزيادة « كملت محاسن هذا الجامع وصار فى حد يقصر الوصف عنه »^(٥٣) ولعل أبرز ما فى هذه الزيادة هو القباب الأربع والمقصورة والمحراب والمنبر وهو ما سنشير إليه فيما بعد . (لوحات ١٠٢ - ١١٠) .

وقمت بعد ذلك الزيادة الخامسة والأخيرة على يدى المنصور بن أبى عامر ، وكانت من الجهة الشرقية كما سبق القول ، وفيها أضيفت ٧ بائكات تمتد بطول المسجد من أوله إلى آخره وتحصر هذه البائكات فيما بينها ٨ بلاطات (أروقة) وبذلك صار مقدم المسجد يشتمل على ١٩ بلاطة (رواقاً) عمودية على حدار القبلة .

وإذا كانت هذه الزيادة الأخيرة قد أضافت الى مسطح المسجد مساحة جديدة تعادل نصفه تقريباً وتمتد بطوله من أوله إلى آخره - أى من الجنوب إلى الشمال - إلا أنها قد أفقدت المسجد تناسقه واتزانه وتعادل أجزائه وأصبح المحراب متطرفاً عن وسط جدار القبلة ، بعد أن كان يقع فى محور الجامع^(٥٤) . (شكل ١٨٨)، (لوحات ١٠٢ - ١١٠) .

ومنها مسجد مدينة الزهراء^(٥٥) الذى أمر بإنشائه الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر ٣٢٩هـ / ٩٤١م (١×١×٥) ومن الملاحظ عدم وجود قبتي مربعة المحراب والبهو ، فضلاً عن أن عقود بائكة رواق المؤخر تسير موازية لجدار القبلة . وقد إستمر هذا النمط فى المغرب والأندلس بل وتطور فى بعض النماذج وبصفة خاصة خلال عصرى المرابطين والموحدين وحسبنا أن نشير إلى كل من : مسجد تلمسان بالجزائر ٤٧٥ - ٥٣٠هـ / ١٠٨٢ - ١١٣٦م (العصر المرابطى - يوسف ابن تاشفين وابنه على - ثم كانت

(٥٣) المقرئ ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٩٧ .

(٥٤) سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٣٩٧ .

(٥٥) المقرئ ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص ١٠٠ ؛

Hillenbrand, Islamic, P. Fig, 2. 125, 2. 126., Maldonado, B. P., las excavacions de la mezquita de Medinat al-zahra, Madrid, (1966), P. 136 - 137 .

المرحلة الأخيرة لهذا المسجد على يدى يغمراسن ابن زيان من سلاطين بنى عبد الواد أو بنى زيان^(٥٦)، (شكل ١٩٢).

ومسجد الجزائر ٤٧٣ - ٤٧٥ هـ / ١٠٨٠ - ١٠٨٢ م (الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي)^(٥٧).

ومن المساجد الموحدية^(٥٨) كل من : مسجد تازا ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م ، ومسجد الكتبية فى مراكش ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، ومسجد تنمل ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، ومسجد قصبة اشبيلية بالأندلس ٥٦٧ - ٥٧٧ هـ / ١١٧٢ - ١١٨٢ م ومسجد القصبة فى مراكش ٥٩٠ هـ / ١١٩٥ م ومسجد حسان بالرباط ٥٩٠ هـ / ١١٩٥ م وغير ذلك . (أشكال ١٨٩ ، ١٩٣ - ١٩٥ ، لوحتا ٩٩ - ١٠٠ ، ١١٨).

وبعض هذه المساجد يتكون تخطيطها من صحن ومقدم ومجنبتين ولا يشتمل تخطيطها على المؤخر ومنها مسجد تازا ومسجد تنمل ، وتتميز بلاطة (رواق) المحراب العرضية (الموازية لجدار القبلة) بوجود ثلاث قباب بواقع قبة تعلو أربعة المحراب وقبة بكل من الركنين الجانبين للبلاطة وهو نفس عدد القباب التى شاهدناها فى الأزهر والحاكم بالقاهرة . (أشكال ١٠٨ - ١٠٩ ، (لوحة ٩٨) .

أما مسجد الكتبية فى مراكش فيشتمل مقدمه على ١٦ بائكة عمودية على جدار

(٥٦) الريحوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٣٦٤ - ٣٦٦ .

(٥٧) الريحوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٣٦٨ .

(٥٨) عن المساجد الموحدية وأهميتها التاريخية والمعمارية والفنية فى العمارة الإسلامية عامة وفى الغرب الإسلامى خاصة انظر ، على سبيل المثال : الريحوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٣٧١ - ٣٧٦ ؛ سالم ، تاريخ المغرب ، ص ٧٥٢ - ٧٦٤ ، ٧٦٨ - ٧٧٢ ؛ الكحلوى ، محمد محمد مرسى ، مساجد المغرب والأندلس فى عصر الموحدين ، القاهرة (١٩٩٩م) ، ص ٩٩ - ٣٧٦ ؛ بالباس ، الفن المرابطى والموحدى ، ترجمة سيد غازى ، الاسكندرية (١٩٧٦م) ، ص ١٦ - ٢٣ ؛ لومبير ، ايلى ، تطور العمارة الإسلامية فى اسبانيا والبرتغال وشمال افريقيا ، ترجمة عطا الله جليان ، بيروت (١٩٨٥م) ، ص ١٩٩ - ٢٢٥ (الأشكال ١٩٣ - ١٩٦) ؛ إسماعيل ، عثمان عثمان ، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى ، ج ٣ ، (عصر دولة الموحدين) ، (١٩٩٣م) ، أما الدراسات الأجنبية فكثيرة ومنها دراسات تيراس وباسيه ومارسيه وهوج ومونييه وماسلو وكاييه وهيلنبراند وسوف نشير إليها تفصيلا فى كتابنا المفصل إن شاء الله تعالى .

القبلة تحصر فيما بينها ١٧ بلاطة (رواقا) ، ويتميز مقدم هذا المسجد بأنه يعلو بلاطة المحراب العرضية (الموازية لجدار القبلة) خمس قباب بنهاية البلاطات (الأروقة) العمودية التى تمتد طويلاً حتى نهاية جدار القبلة وهى البلاطات : الأولى والخامسة والتاسعة (وهى البلاطة الوسطى) والثالثة عشرة والبلاطة السابعة عشر والأخيرة ، ولا يخفى أنه لولا وجود البائكة المستعرضة التى تقف عندها غالبية بلاطات (أروقة) مقدم المسجد باستثناء البلاطات الخمس المشار إليها لما استطاع المعمار (عريف البناء) أن يمهّد للقواعد المربعة التى أقيمت فوقها هذه القباب الخمس ؛ والمؤخر بلاطة واحدة (رواق واحد) موازية لجدار القبلة ، أما كل من المجنبتين فبكل مجنبية ٤ بلاطات (أروقة) عمودية على جدار القبلة ؛ ومن الملاحظ أن عقود البائكات الأربع لبلاطات المجنبتين تمثل فى ذات الوقت امتداداً للبائكات الأربع بطرفى مقدم المسجد . (شكل ١٨٩ ، لوحة ٩٩) .

أما مسجد القصبة فى مراكش فإنه يبدو للوهلة الأولى أنه يشبه كل من مسجدى تازا وتنمل من حيث التخطيط العام إلا أنه يتميز عنهما بوجود خمسة صحن : الصحن الرئيسى فى الوسط ، وأربعة صحن جانبية بواقع صحنين بكل مجنبية ، كذلك يتميز هذا المسجد عن المساجد الموحدية الأخرى بأنه يلى المداخل الثلاثة المحورية التى تتوسط أضلاع المؤخر والمجنبتين ثلاثة مجازات : مجاز المؤخر منها على هيئة مربع تعلوه قبة على محور قبة مربعة المحراب ، أما كل من مجازى المجنبتين فكل منهما على هيئة رواق مستطيل تسير عقود بائكتيه موازية لجدار القبلة ، ومن الملاحظ أن مدخل المجنبية اليسرى (الشمالية الشرقية) قد سد موضعه (شكل ١٨٩) .

أما مسجد حسان بالرباط فهو وإن كان ينتمى من حيث تخطيطه العام إلى طراز المساجد الموحدية ، إلا أنه يتميز عنها بشخصية مستقلة قائمة بذاتها وطابع مميز له خاص به فهو من جهة يتكون من صحن ومقدم ومؤخر ومجنبتين إلا أن المقدم يمتد ليشغل أكثر من ثلثى مساحة المسجد ، ويشتمل المقدم على ٢١ بلاطة (رواق) عمودية على جدار القبلة البلاطة الوسطى (البلاطة ١١) فضلا عن البلاطتين المتطرفتين (وهما البلاطة الأولى والبلاطة الواحدة والعشرون) هما أكثر البلاطات (الأروقة) اتساعاً .

ومن الملاحظ أن عقود بائكات هذه البلاطات (الأروقة) لا تمتد طويلاً حتى تنتهى عند جدار القبلة ؛ وإنما تقف عند بائكة مستعرضة تتقدم بلاطة المحراب العرضية - أى

الموازية لجدار القبلة - وقد إشتملت هذه البلاطة العرضية لأول مرة فى الغرب الإسلامى على بئكتين آخريتين تسير عقودهما موازية لجدار القبلة ، وتحصر هذه البئكتات فيما بينها ثلاث بلاطات (أروقة) موازية لجدار القبلة .

ويتميز هذا المسجد كذلك بوجود ثلاثة صحنون : الصحن الرئيسى يتقدم مقدم المسجد وقد اتخذ هو الآخر محوراً عرضياً أى موازياً لجدار القبلة ، أما الصحنان الأخران فيشغلان طرفى مقدم المسجد من أعلاه حيث قطع وجودهما فى ذلك الموضع إمتداد عقود ثلاث بئكتات من بئكتات البلاطات الثالثة والرابعة (من اليمين) والثامنة عشر والتاسعة عشر (من اليسار) ، والمؤخر يشتمل على ١١ بلاطة (رواق) عمودى على جدار القبلة ، ومن الملاحظ أن وجود كتلة الصومعة (المئذنة) التى تبرز عن سمات جدار الواجهة الشمالية الغربية قد أثر على شكل ثلاث بلاطات (أروقة) من بلاطات المؤخر ؛ وهى البلاطات الخامسة والسادسة والسابعة . وتشتمل كل مجنبية من المجنبتين على خمس بلاطات (أروقة) عمودية على جدار القبلة ، وعقود بئكتات هذه البلاطات تمثل إمتداداً لمثيلتها بطرفى مقدم المسجد . (شكلا ١٨٩ ، ١٩٤) (لوحة ١٠٠) .

وبالنسبة إلى مسجد قصبة اشبيلية الموحدى فهو يشبه مسجد حسان من حيث التخطيط العام ، حيث أن المقدم يمتد ليشغل أكثر من ثلثى مساحة المسجد ، أما من حيث التفاصيل فإنه يقتصر على صحن واحد ، ويشتمل المقدم على ١٧ بلاطة (رواق) عمودية على جدار القبلة ، البلاطة الوسطى (البلاطة ٩) فضلا عن البلاطتين المتطرفتين (وهما البلاطة رقم ١ ورقم ١٧) هما أكثر البلاطات (الأروقة) اتساعا ، ويعلو بلاطة المحراب العرضية - الموازية لجدار القبلة - ثلاث قباب : قبة مربعة المحراب فى الوسط وقبتان بطرفى البلاطة (بواقع قبة بكل طرف) وهو ما لا نجده بمسجد حسان بالرباط والمؤخر يشتمل على بلاطة (رواق) موازية لجدار القبلة ، أما المجنبتين فبكل مجنبية بلاطتان (رواقان) عموديتان على جدار القبلة ، وتمثل بئكتيهما فى ذات الوقت إمتداداً لمثيلتهما بطرفى مقدم المسجد وهو النمط السائد فى المساجد الموحدية غالبا .

وهناك من يرى أن كل مجنبية كانت تشمل بلاطة واحدة فحسب ، وأن بلاطة المحراب العرضية - الموازية لجدار القبلة - كانت تعلوها خمس قباب^(٥٩) . (شكلا ١٨٩ ،

(59) Terrasse, H., L'art Hispano, Mouresque, Paris (1932), P. 311, Fig, 52 .

(١٩٥) على أن أهم ما يميز عمارة هذا المسجد صومعته الشهيرة المعروفة بالخيرالدا (٦٠) (دوارة الرياح أو الدوارة) والتي يصل ارتفاعها إلى حوالي ٩٦م وسوف نشير إلى طرازها وسماتها المعمارية والفنية فيما بعد (لوحة ١١٨) .

وقد استمر هذا النمط خلال العصر المريني مع ما أصابه من تطور في بعض النماذج، وحسبنا أن نشير إلى كل من : مسجد سيدي بومدين بتلمسان في الجزائر ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م (١×١×١×٥) ومسجد سيدي الحلوى ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م (١×١×١×٥) . ومسجد المنصورة بتلمسان فيما بين ٧٠٣ - ٧٣٧هـ / ١٣٠٣ - ١٣٣٦م (٦١) .

وهذا المسجد الأخير - أي مسجد المنصورة - يعد تخطيط مقدمه تطوراً لتخطيط مقدم مسجد حسان بالرباط رغم أنه يخلو من وجود الصحنين الجانبيين بطرفي المقدم ، ويتمثل ذلك التطور بصفة خاصة في تخطيط بلاطة المحراب العرضية التي تشتمل على ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة تقطعها بلاطة وسطى (رواق أوسط عمودي) تمثل مقصورة السلطان وقد غطيت بقبة ؛ وهو ما لا نجده في مسجد حسان بالرباط ، والمقدم بصفة عامة يشتمل على ١٣ بلاطة (رواق) عمودية على جدار القبلة ، والمؤخر بلاطة واحدة موازية لجدار القبلة ، وبكل مجنبية من المجنبتين ثلاث بلاطات (أروقة) عمودية على جدار القبلة ، وتمثل عقود البائكات الثلاث بكل مجنبية امتداداً لما يماثلها بطرفي مقدم المسجد .

أما عن بقية التفاصيل والعناصر والمفردات والسمات المعمارية والفنية للمساجد التي عرضنا لنمطها التخطيطي على سبيل الاجمال وفقا للخطة الموضوعية لهذا الكتاب فسوف نتطرق إليها تفصيلاً في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

النماذج الباقية في المشرق الإسلامي :

بقيت في المشرق الإسلامي عدة نماذج صممت وفق ذلك النمط وكان لكل مسجد

(٦٠) سالم ، بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار ، القسم الثاني ، بيروت (١٩٩٢م) ، ص ٢٦١ - ٢٦٨ .

(٦١) عن هذه المساجد انظر ، الريحاوي ، العمارة في الحضارة الإسلامية ، ص ٣٨٨ - ٣٩٨ .

منها شخصيته المستقلة وطابعه المميز الخاص به ؛ فضلا عن سمات الطراز المعماري والفني السائد خلال الفترة التي شيدت فيها تلك المساجد ، وهو الأمر الذي يساعد في تأريخ بعض المساجد التي تخلو من نقوشها التأسيسية . ومن بين هذه المساجد حسبنا أن نشير إلى كل من : مسجد تاريخانه^(٦٢) (طارق خانه) بدمغان الذي يؤرخ بالفترة فيما بين ١٣٠ - ١٧٠ هـ / ٧٤٨ - ٧٨٦ م في قول أو النصف الثاني من القرن ٢ هـ / ٨ م في قول آخر . (شكل ٢٣٠) (٦×٦×٥×٧) ومن الملاحظ أن أروقة كل من المجنبتين تسير عقود بآكاتها موازية لجدار القبلة ، أما عقود بآكات المقدم والمؤخر فعمودية على جدار القبلة .

ومنها مسجد بقرية فهرج باقليم كرمان في إيران ويشتمل المقدم على أربع بآكات تحصر فيما بينها خمسة أروقة (بلاطات) عمودية على جدار القبلة ، وهي مغطاه بأقبية برميلية ، وبكل مجنبة رواق (بلاطة) واحد تمثل عقود بآكته امتداداً لما يماثلها بطرفي مقدم المسجد ، ويؤرخ هذا المسجد اعتماداً على تخطيطه وخصائصه المعمارية بالنصف الثاني من القرن ٣ هـ / ٩ م^(٦٣) .

ومنها الجامع الكبير (أولو جامع) في سيواس^(٦٤) ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م وهو يتكون من صحن ومقدم فحسب ، والمقدم يشتمل على ١٠ بآكات تحصر فيما بينها ١١ رواقا (بلاطة) عموديا على جدار القبلة ، ومما يتميز به هذا المسجد هو أنه يتقدم مقدمه رواق خارجي (أو سقيفة) يطل على الصحن ، ويوجد بصدر هذا الرواق محرابان صغيران (شكل ٢٣١) .

(٦٢) شافعي ، العمارة العربية الإسلامية ، ص ٩٦ ؛ فكري ، المدخل ، ص ٢٨٤ ؛ جوادى ، سيد كمال ، مساجد إيران ، ج ١ ، طهران (١٣٧٥ هـ . ش / ١٤١٧ هـ . ق / ١٩٩٦ م) ، ص ٧٦ - ٨٤ ؛ الريحوى ، العمارة في الحضارة الإسلامية ، ص ، قباديان ، وحيد ، بررسى اقليمى أبنية سنتى إيران ، تهران (١٩٩٤ م) ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ؛

Pope, A. U., A survey of Persian, Art, Vol2, Oxford, (1939), P. 933 - 934, Fig 314 .

Creswell , Ashort, P. 264 - 266 .

(63) Creswell, Ashort, P. 410 - 413 .

(٦٤) أصلان آبا ، فنون الترك وعمائرهم ، ص ٧٠ - ٧١ تخطيط ٨ .

ومن النماذج المتميزة لهذا النمط في المشرق مسجد وزيرى خان^(٦٥) بـلاهور في باكستان ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م، وتخطيطه عبارة عن صحن كبير مستطيل الشكل يمتد من الشرق إلى الغرب ومقدم يشغل الضلع الغربى للصحن ، وهو عبارة عن رواق واحد (بلاطة واحدة) قسم إلى خمسة مربعات بصدر كل مربع منها محراب ، ويغشى هذا الرواق خمس قباب أكبرها القبة الوسطى التى تعلو المربع الذى يتقدم المحراب الرئيسى ، ويتميز هذا المسجد باشتماله على أربع مآذن فى الأركان الأربعة ، بواقع مئذنة بكل ركن، كما أنه يشغل المؤخر والمجنبتين حجرات أو خلوات للتدريس ، وهذه من السمات المميزة للمساجد فى شبه القارة الهندية ، كذلك يوجد على جانبى كتلة المدخل الرئيسى بالجانب الشرقى للمسجد سوق مسقوف تتوزع الحوانيت (الدكاكين) على جانبيه من الداخل والخارج . (شكل ٢٢٤) .

وإذا ما إنتقلنا إلى الأقطار العربية لوجدنا بضعة نماذج صممت وفق ذلك النمط الثانى ومنها فى العراق مسجد سامرا^(٦٦) الجامع ٢٣٤ - ٢٣٧هـ / ٨٤٩ - ٨٥٢م وتخطيطه عبارة عن مقدم ومؤخر ومجنبتين ، والمقدم يشتمل على ٢٥ رواقا (بلاطة) عموديا على جدار القبلة أوسطها أوسعها وأكثرها ارتفاعا ، والمؤخر يماثل المقدم فى عدد أروقه ونظامها ، أما المجنبتين فبكل مجنبه ٢٣ رواقا (بلاطة) موازياً لجدار القبلة (لوحة ٤) . ومن مميزات هذا المسجد أنه كانت تحيط به زيادة من ثلاث جهات عدا جهة القبلة مثل الجامع الطولونى بالقاهرة فيما بعد . إلا أن أهم ما يميز هذا المسجد هو مئذنته الشهيرة المعروفة بالملوية وسوف نتحدث عنها فيما بعد . (شكلا ٣٥ - ٣٦) ، (لوحتا ٤ - ٥) .

(٦٥) رجب ، أحمد ، تاريخ وعمارة المساجد الأثرية بالهند ، القاهرة (١٩٩٧م) ، ص ١٧٥ - ١٧٧ ؛ الريحاوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٥٧١ - ٥٧٢ .

Khan, A. N., Monuments of islamic civilization in Islamic Republic of Pakistan, Isesco (2000), P. 67, Fig 21 .

(٦٦) كريزول ، الآثار الإسلامية الأولى ، ص ٣٦١ - ٣٦٨ ؛ سامح ، العمارة فى صدر الإسلام ، ص ١٠٥ - ١٠٩ ؛ العميد ، طاهر مظفر ، العمارة العباسية فى سامرا فى عهدى المعتصم والمتوكل ، بغداد (١٩٧٦م) ، ص ١٢٩ - ١٦٤ ؛ سلمان ، عيسى ، وآخرين ، العمارات العربية الإسلامية فى العراق ، ج١ ، بغداد (١٩٨٢م) ، ص ١١٠ - ١٢٥ ؛ رجب ، غازى ، العمارة العربية فى العصر الإسلامى فى العراق ، بغداد (١٩٨٩م) ، ص ١٤١ - ١٥٥ ؛ الريحاوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ١٠٠ - ١٠٣ .

ومنها بسامرا أيضاً مسجد أبى دلف^(٦٧) الجامع ٢٤٧هـ / ٨٦١م والمقدم يشتمل على ١٧ رواقا (بلاطة) عموديا على جدار القبلة أوسطها أوسعها ، إلا أن عقود هذه البائكات لا تمتد طولا حتى تنتهى بجدار القبلة ، وإنما تقف عند بائكة عرضية (أى موازية لجدار القبلة) وهو الأمر الذى أدى إلى وجود رواق عرضى (بلاطة عرضية) عمقه ١٠ر٦٠م يتقدم جدار القبلة ، ويشغل هذا الرواق ١٨ قاعدة دعامة اثنتان منهما ملتصقتان بجدارى المسجد الجانبيين ، والمؤخر يشتمل على ١٣ رواقا (بلاطة) عموديا على جدار القبلة أوسطها أوسعها ، أما المجنبتين فبكل مجنبة رواقان (بلاطتان) عموديان على جدار القبلة ، وتمثل عقود بائكتيهما إمتداداً لما يماثلهما بطرفى مقدم المسجد (أى على نفس النمط الذى ساد وانتشر فى المساجد المغربية والأندلسية السابق الإشارة إليها. (شكلا ٣٧ - ٣٨) .

وفى اليمن تقابلنا بضعة نماذج ومنها مسجد سليمان بن داود فى مأرب ومسجد ظفار ذى بين ومسجد ذى أشرق ٤١٠هـ / ١٠١٩م^(٦٨) .

ثالثاً : النمط الثالث :

ويتميز هذا النمط بأنه يغلب عليه طراز الأروقة (البلاطات) المتقاطعة أى التى تتجه عقود بائكاتها عمودية على جدار القبلة وموازية له فى ذات الوقت ، ولا سيما فى المساجد التى تغطى بالقباب أو الأقبية أو الاثنين معاً ، سواء فى مقدم المسجد فحسب أو فى مقدمه ومؤخر ومجنبتيه أو فى مقدمه ومجنبتيه .

وتعد النماذج الباقية التى صممت وفق هذا النمط من الطراز التقليدى العربى قليلة فى العمارة الإسلامية بصفة عامة ؛ ومن جهة أخرى فإن أكثر ما بقى منها يوجد فى شبه القارة الهندية .

(٦٧) كريزول ، الآثار ، ص ٣٦٩ - ٣٧٤ ؛ العميد ، العمارة العباسية ، ص ١٧٩ - ٢١٢ ؛ سلمان ، العمارات العربية ، ج ١ ، ص ١٢٦ - ١٤٣ ؛ رجب ، العمارة العربية ، ص ١٥٨ - ١٦٦ ؛ الريحوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ١٠٤ - ١٠٦ ؛ فكرى ، المدخل ، ص ٢٤٠ ، شكل ٩٨ .

(٦٨) فنستر ، حول بعض المباني الإسلامية فى اليمن ، ص ٤٥ - ٥٢ ، ٧٩ - ٨٦ ؛ شيحة ، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية اليمنية ، ص ٦٤ - ٧٠ ؛ هاشم ، أحمد محمد ، من معالم الحضارة الإسلامية فى الجمهورية اليمنية ، ايسيسكو (١٩٩٩م) ، ص ٤٢ - ٤٣ ، ١٢٦ - ١٢٨ .

وحسبنا أن نشير إلى عدد من هذه النماذج ومنها مسجد سوسه^(٦٩) الجامع ٢٣٦هـ / ٨٥١م وهو يجمع فى تسقيفه بين الأقبية البرميلية (بالنسبة للمسجد الأصلي) والأقبية المتقاطعة (بالنسبة للزيادة) فضلا عن قبة مربعة المحراب الأصلي وقبة مربعة محراب الزيادة . (لوحة ٩٣). ومنها فى مصر مسجد الأقمر^(٧٠) بالقاهرة ٥١٩هـ / ١٢٥م (لوحة ٣٩) وتسقيفه يعتمد على القباب الضحلة المقامة على مثلثات كروية ، ويستثنى من ذلك سقف الرواق الأول (البلاطة الأولى) مما يلى جدار القبلة بمقدم المسجد فهو سقف خشبي مسطح .

ومنها أيضاً الأروقة المتقاطعة بخانقاة الناصر^(٧١) فرج بن برقوق بالقاهرة ٨٠١هـ - ٨١٣هـ / ١٣٩٨ - ١٤١٠م (شكل ١٥٣)، ومنها مسجد الأمير آق سنقر^(٧٢) المعروف بالجامع الأزرق (بشارع باب الوزير) بالقاهرة ٧٤٧ - ٧٤٨هـ / ١٣٤٦ - ١٣٤٧م ؛ وبصفة خاصة مقدم المسجد ويعتمد تسقيفه على الأقبية المتقاطعة ، ويستثنى من ذلك مربعة المحراب التى تغطيها قبة . (شكل ١٠٥) .

وفى بلاد الشام يقابلنا الجامع المنصوري^(٧٣) الكبير بطرابلس الشام ٦٩٣هـ /

(٦٩) كريزول ، الآثار الإسلامية ، ص ٣٥٤ - ٣٦٠ ؛ سامح ، العمارة فى صدر الإسلام ، ص ١٥١ - ١٥٣ ؛ شافعى ، العمارة العربية ، ص ٢٤٥ ، شكل ١٦٨ ؛ الريحوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ١٤٣ - ١٤٥ .

(٧٠) عبد الرازق ، العمارة الإسلامية ، ص ١٨٣ - ١٩٢ ؛ العمرى ، العمارة فى مصر ، ص ٨٦ - ٩٣ ؛ فكرى ، مساجد القاهرة ، ج ١ ، ص ٩٥ - ١٠٢ ؛ كريزول ، العمارة الإسلامية فى مصر ، المجلد الأول ، ص ٢٥٣ - ٢٥٧ ؛

Williams, C., The Cult of Alid Saints in the Monuments of Cairo, Part I : The Mosque of al-Aqmer, Muqarnas, vol 1, New Haven and London, (1983), PP. 37 - 52 .

(٧١) نوبصر ، العمارة الإسلامية فى مصر ، ص ٣١٦ - ٣٢٥ ؛ الحداد ، أسس التصميم المعماري ، ص ١٧٣ - ١٨٠ .

(٧٢) إمام ، سامى عبد الحليم ، مسجد الأمير آق سنقر الناصرى ، مجلة كلية الآداب - جامعة المنصورة ، العدد الثالث والرابع ، (مايو ١٩٨٢م) ، ص ٢٨٩ - ٢٩٧ .

(٧٣) سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، الإسكندرية (١٩٦٦م) ، ص ٤٠٠ - ٤٠٧ ؛ تدمرى ، عمر عبد السلام ، آثار طرابلس الإسلامية ، طرابلس (١٩٩٤م) ، ص ١٩ - ٧٢ .

Liebich, H, S., The Architecture of the Mamluk city of tripoli, Harvard Unwersity (1983) PP . .

١٢٩٣م و٧١٥هـ / ١٣١٥م ويعتمد التسقيف هنا على الأقبية المتقاطعة . ويستثنى من ذلك القبة التى تعلو مربعة المحراب (شكل ٦٥) .

وإذا ما انتقلنا إلى المشرق الإسلامى يقابلنا مسجد ناين^(٧٤) بإيران وقد أرخه فلورى بأواخر ق ٣هـ / ٩م أو أوائل ق ٤هـ / ١٠م بينما أرخه بوب بمنتصف ق ٤هـ / ١٠م. (شكل ٢٢٢) . وفى شبه القارة الهندية تقابلنا عدة نماذج ومنها مسجد قوة الإسلام^(٧٥) المعروف بمسجد قطب منار بدلهى ٥٨٩ - ٥٩٤هـ / ١١٩٣ - ١١٩٧م ، ومسجد بيجمبورى قرب دلهى ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م ، ومسجد خيركى شمال دلهى ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م ويتميز هذا المسجد باشتماله على أربعة صحنون ، ومثله فى ذلك مسجد كالان بحى نظام الدين شمال دلهى ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م .

ومنها مسجد كالان بمدينة شاه جهان آباد ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م^(٧٦) .

ومنها مسجد شامبانير الجامع ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ولا سيما مقدم المسجد (شكلا ٢٢٣ - ٢٢٣ مكرر) ، ومسجد موتى (أو مسجد اللؤلؤة) فى أجرا ١٠٥٦ - ١٠٦٦هـ / ١٦٤٨ - ١٦٥٥م ولا سيما مقدم المسجد^(٧٧) .

ومنها المسجد الجامع فى بيجابور^(٧٨) ويؤرخ بمنتصف القرن ١١هـ / ١٧م وهو من

(٧٤) الريحوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ١٥٠ : جوادى ، مساجد ايران ، ج ١ ، ص ٨٦ - ٩٤ : قباديان ، بررسى ، ص ٢٥٠ ، شكل ٩/٣٤ .

Pope, Asurvey, vol 3, PP. 934 - 939 , Fig 315 .

(٧٥) الريحوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٥٦٤ - ٥٦٦ : رجب ، تاريخ وعمارة المساجد الأثرية فى الهند ، ص ٣٢ - ٤٢ .

Havel , E. B., Indian Architecture, London (1927), PP. 47 - 52 .

(٧٦) رجب ، تاريخ وعمارة ، ص ٥٤ - ٦١ ، ٦٤ : الحليبة ، سعد بن زيد بن محمد ، مساجد مدينة دلهى (دلهى) فى الهند ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الآداب - قسم الآثار والمتاحف - جامعة الملك سعود بالرياض (١٩٩٦م) ، ص ٨٢ - ١٨٤ .

(٧٧) رجب ، تاريخ وعمارة ، ص ٩٤ - ٩٦ ، ١٩٩ - ٢٠٨ : الريحوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٥٧٩ - ٥٨٠ .

Havel, Indian, P. 135 - 142 .

(78) Havel, Indian, PP. 190 - 193 .

النماذج المتميزة التي تتسم بشخصية مستقلة قائمة بذاتها وطابع مميز خاص به وبصفة خاصة مقدم المسجد والقبة الكبرى التي تتوسطه ، فضلاً عن قباب المجنبتين إذ أن هذا المسجد لا يشتمل على مؤخر . (شكل ٢٢٧) .

ومن النماذج المتميزة لهذا النمط مسجد Adina الذي أمر بإنشائه اسكندر شاه عام ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م في عاصمة البنغال القديمة (فيروز آباد) بجانب الطريق الرئيسي المؤدى إلى شمال البنغال ، وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف ومقدم ومؤخر ومجنبتان ، واللافت للنظر أنه يقطع أروقة المقدم رواق أوسط (بلاطة وسطى) عمودى على جدار القبلة هو المعروف خطأً بالمجاز القاطع ، ويعتمد التسقيف هنا على الأقبية البرميلية وليس القباب وهي النمط الشائع والسائد للتسقيف في شبه القارة الهندية^(٧٩) . (شكل ٢٢٨) .

رابعاً : النمط الرابع :

لم يخرج هذا النمط في تخطيطه العام عن الطراز العربى التقليدى فى صورته النهائية وجوهرها يتمثل فى الصحن الأوسط المكشوف والمقدم والمؤخر والمجنبتين ، إلا أنه صمم بطريقة جديدة غير مألوفة ؛ وبصفة خاصة فى تصميم مقدم المسجد إذ لم يسبق أن شاهدناها فى الأنماط الثلاثة السابقة ، وقد أضفى هذا التصميم الجديد على مساجد ذلك النمط شخصية جديدة قائمة بذاتها وطابعاً مميزاً خاصاً بها .

هذا وقد إقتصر ظهور هذا النمط بلامحه المميزة وسماته الخاصة على مساجد شبه القارة الهندية ، ومنها مسجد فتح يورسكرى ٩٧٩هـ / ١٥٧١م ، ومسجد دلهى الجامع ١٠٤٥هـ / ١٦٤١م ، ومسجد فتحبورى بيجم (بمدينة شاه جهان آباد شمال دلهى) ١٠٥٤هـ / ١٦٥٠م ، ومسجد باديشاهى فى لاهور (باكستان) ١٠٨٤هـ / ١٦٧٤م^(٨٠) .

وأول ما يلاحظ فى تصميم هذه المساجد أنها اتخذت شكلاً مستطيلاً يمتد من

(79) Michel, G., The Islamic Heritage of Bengal , Unesco (1994), PP.

(٨٠) الريحوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٥٦٨ - ٥٧٥ ، ٥٧٩ ؛ رجب ، تاريخ وعمارة ، ص ١٢٦ - ١٣٤ ، ١٥٨ - ١٧٤ ؛

Havel, Indian, PP. 170 - 173 .

الشرق إلى الغرب ، وأن مساحة الصحن كبيرة جداً وهو نفس التصميم الذى يميز غالبية المساجد الهندية بصفة عامة .

أما الملمح الجديد هنا فيتمثل فى أن مقدم المسجد لا يشغل الضلع الغربى (جهة القبلة) بكامله من جهة ، وفى تصميمه من جهة ثانية ، أما عن هذا التصميم فهو عبارة عن قلب وجناحين ويتكون القلب من الإيوان والكنبدخانة بصدرها المحراب الرئيسى للمسجد ، أما الجناحين فكل جناح منهما يشتمل على أروقة يتوسطها تجاه المحراب مربعة مغطاة بقبة أصغر من قبة الكنبدخانة ، وعلى ذلك فإن هذا التصميم الجديد إنما كان نتيجة لتأثره بالمساجد الإيرانية التى صممت وفق الطراز المعروف بالطراز الجامع بين الإيوانات والأروقة والذى ظهر لأول مرة فى العمارة الإسلامية فى إيران خلال العصر السلجوقى كما سنشير فيما بعد .

أما المؤخر والمجنبتين فبكل منها رواق (بلاطة) واحد موازى لجدار القبلة فى المؤخر وعمودى فى المجنبتين ، وتوجد خلف الأروقة (البلاطات) الثلاثة حجرات للتدريس أو للصوفية وهو الطابع المميز لغالبية المساجد الهندية أيضاً . ومن السمات التى يتميز بها هذا المسجد أيضاً المداخل التذكارية الثلاثة ومن أهمها وأشهرها المدخل الجنوبي المعروف بـ « بولاند دروازه » . (شكل ٢٢٦) ، (لوحة ١٦٣) .

واتبع مسجد دلهى الجامع نفس النمط فى تصميم مقدمه ، ولكن جناحى المقدم هنا قد صمما بطريقة مغايرة عن جناحى مسجد فتح بورسكرى ، ويشغل ركنى الجناحين المطلين على الصحن مئذنتين عاليتين بواقع مئذنة بكل ركن .

وهنا أيضاً نشاهد المداخل التذكارية الثلاثة البارزة والأروقة (البلاطات) الثلاثة بالمؤخر والمجنبتين وخلفها حجرات للتدريس .

أما باديشاهى مسجد فى لاهور فمن الواضح أن مقدمه متأثر بطريقة مباشرة بمسجد دلهى الجامع الا أن أركانه الأربعة قد زودت بالشادروانات المميزة لعمارة المساجد الهندية بصفة عامة ، والمؤخر يشتمل على عدد من الحجرات للتدريس ، وبكل من المجنبتين رواق مسقوف مقسم بطريقة غير مألوفة فى المساجد بصفة عامة ، وزود هذا المسجد بأربعة مآذن عالية فى أركانه الأربعة ، ولا يوجد به سوى مدخل تذكارى بارز

واحد يتوسط الضلع الشرقي على محور المحراب بالضلع الغربى . (لوحة ١٦٤) .

أما مسجد فتحبورى بيجم فقد صمم مقدمه بطريقة مغايرة لما شاهدناه فى المساجد الثلاثة السابقة ، فالقلب هنا يقتصر فقط على الكنبخانة (المربعة المغطاة بقبة ويصدرها المحراب الرئيسى) دون وجود الإيوان المطل على الصحن ، كذلك جناحى القلب فكل جناح منهما يشتمل على ثلاث بائكات موازية لجدار القبلة تحصر فيما بينها أربعة أروقة (بلاطات) ، وبصدر كل جناح ثلاثة محارب ، ويوجد بكل من ركنى الجناحين المطلين على الصحن مئذنتين عاليتين ، بواق مئذنة بكل ركن ، كذلك يلاحظ أن بئكتى الجناحان الأولى والثانية ، مما يلى جدار القبلة ، تمتدان إلى الخارج (أى عن يمين ويسار الجناحين) لتتصلان برواقى مجنبتى الصحن العموديان على جدار القبلة ، والمؤخر يشتمل كذلك على رواق واحد (بلاطة) موازى لجدار القبلة ، إلا أنه لا يوجد خلف الأروقة الثلاثة فى هذا المسجد حجرات للتدريس كما هو الحال فى المساجد السابقة .

٢- الطراز الثانى : ويعرف بالطراز السنى أو الطراز الايوانى أو طراز الايوانات حول صحن أو درقاعة ، أما عن تسميته بالطراز السنى فترجع إلى أن هذا الطراز قد إرتبط عند نشأته بالمدارس التى أنشئت لتدريس ودعم المذاهب السنية الأربعة فى مقابل هدم وتقويض دعائم المذهب الشيعى على حد قول فريد شافعى^(٨١) .

ولكن أثبتت الدراسات التالية أن هذا الطراز قد إستخدم فى تصميم المساجد قبل ظهوره وإنتشاره فى المدارس كما هو الحال فى مسجد نيريز^(٨٢) فى فارس ٣٦٣هـ / ٩٧٣م ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن هذا الطراز كان معروفا فى عمارة الدور والقصور الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة النبوية الشريفة كما سنشير فيما بعد .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الطراز قد استخدم فى تصميم العديد من العمائر الدينية فى العمارة الإسلامية ومنها المساجد والمدارس والخوانق والزوايا والأربطة فى مرحلتها الثانية .

(٨١) شافعى ، العمارة العربية الإسلامية ، ص ٨١ - ٨٢ ؛ العمارة العربية فى مصر ، ص ٢٤٨ .

(82) Pope, A survey, vol 2, P. 939. Godard, A., L'art de L'iran, Paris

(1962), PP. 344 - 345 .

وجوهر التخطيط العام فى عمائر هذا الطراز هو أنه يتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به الإيوانات سواء إيوان واحد فقط أو إيوانين فقط أو ثلاثة إيوانات فقط أو أربعة إيوانات ، وهى الصورة النهائية لتخطيط عمائر هذا الطراز وقد إصطلح على تسميتها بالطراز الصليبي (The Cruciform Plan) ونفضل نحن استبدال هذا المصطلح المفرض بمصطلح طراز الإيوانات المتقابلة .

كذلك ينبغى أن نشير إلى أن الصحن فى هذا النمط قد يكون كبيراً أو صغيراً وقد يكون مكشوفاً أو مغطى أو يكون مجرد ممر أو مجاز أرضى أو استطراق ، ولا سيما فى النماذج المتأخرة وبصفة خاصة فى المساجد المصرية خلال العصرين المملوكى والعثمانى .

وحسبنا أن نشير هنا إلى النماذج الباقية من المساجد التى صممت وفق هذا الطراز أما نماذج العمائر الدينية الأخرى فسوف نشير إليها ونحن نتحدث عن كل نوع منها .

ويعد مسجد نيريز قرب مدينة سروستان فى إقليم فارس ٣٦٣هـ / ٩٧٣م هو أقدم النماذج الباقية المعروفة فى العمارة الإسلامية حتى الآن ، لمسجد صمم وفق الطراز الإيوانى وهو عبارة عن صحن وإيوان واحد (وقد جرت عليه إضافات لاحقة ليس هنا مجال للحديث عنها) . ولحسن الحظ تحتفظ العمارة المصرية الإسلامية بالنصيب الأوفى من العمائر الدينية التى صممت وفق هذا الطراز بصفة عامة والمساجد بصفة خاصة .

ونستطيع أن نحصر تخطيطات المساجد التى صممت وفق هذا الطراز فى مصر فى الأنماط التالية :

١- النمط الأول : وهو عبارة عن صحن أو درقاعة يشغل الضلع القبلى له إيوان رئيسى واحد هو إيوان القبلة كما هو الحال فى مسجد فرج بن برقوق المعروف بزاوية الدهيشة (تجاه باب زويلة أو بوابة المتولى بشارع تحت الربع أو أحمد ماهر حالياً) ٨١١هـ / ١٤٠٨م ، ومسجد داود باشا (بسويقة اللالا) ٩٥٥ - ٩٦١هـ / ١٥٤٨ - ١٥٥٤م ، ومسجد البردينى (بالداودية) ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م وغير ذلك .

النمط الثانى : وهو عبارة عن صحن أو درقاعة وإيوانين رئيسيين هما إيوان القبلة (الجنوبى الشرقى) والمقابل له (الشمالى الغربى أو الإيوان البحرى) كما هو الحال فى مسجد السنبغا البوبركى (بحارة درب سعادة) ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م ، ومسجد المحمودية (بميدان صلاح الدين بحى القلعة) ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م ، ومسجد عبد اللطيف

القرافى (بالخرنفش) ٩٩٥هـ / ١٥٨٦م ، ومسجد تغرى بردى (بالمقاصيص) ١٠٤٤هـ / ١٦٣٤م ، بالقاهرة وغير ذلك .

٣- **النمط الثالث** : وهو عبارة عن صحن وثلاثة إيوانات ونشاهد ذلك فى نموذج فريد فى تخطيط المساجد المصرية بالقاهرة ، وهو مسجد الدشطوطى (بباب الشعرية) ٩٢٤هـ / ١٥١٨م ، وهو فى ذلك يذكرنا بتخطيط مدرسة تتر الحجازية (بالجمالية) ٧٦١هـ / ١٣٥٩م ، وهى نموذج فريد بالنسبة للمدارس كما سنشير فيما بعد .

٤- **النموذج الرابع** : وهو عبارة عن صحن أو درقاعة يحيط به أربعة إيوانات كما هو الحال فى مسجد آل ملك الجواكندار ٧١٩هـ / ١٣١٩م ، ومسجد أحمد المهندار ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م ، ومسجد أصلم السلحدار ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م ، والمسجد بقلعة قايتباى بالاسكندرية ٨٨٢ - ٨٨٤هـ / ١٤٧٧ - ١٤٧٩م ، وغير ذلك . أو يحيط بالصحن إيوانان رئيسيان كبيران (الإيوان القبلى والإيوان البحرى) وسدلتان (إيوانان صغيران) جانبيان كما هو الحال فى مسجد جانى بك الأشرفى ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م ، ومسجد القاضى يحيى زين الدين (بالموسكى) ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م ، ومسجد قراقجا الحسنى (بدرج الجمايز) ٨٤٥هـ / ١٤٤١م ، ومسجد قجماس الإسحاقى (أبو حريبة) بالدرب الأحمر ٨٨٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٨٠ - ١٤٨١م بالقاهرة .

ومن العصر العثمانى جامع محب الدين أبو الطيب (بالخرنفش) ٩٣٤ - ٩٣٦هـ / ١٥٢٧ - ١٥٢٩م وجامع يوسف الحين (بباب الخلق قرب متحف الفن الإسلامى ومديرية أمن القاهرة) ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م (٨٣) .

ورغم أن المساجد السابقة تكاد تتفق مع بعضها فى التخطيط العام ، إلا أنها تختلف فيما بينها من حيث بعض المفردات والعناصر والتفاصيل فلكل مسجد منها شخصيته المستقلة وطابعه المميز ، ولا تفوتنا الإشارة إلى أن غالبية المساجد السابقة لم تكن مجرد مساجد أو مساجد جامعة فحسب ، وإنما تعددت بها الوظائف على النحو الذى تميزت به عمائر القاهرة الدينية خلال العصر المملوكى .

(٨٣) الحداد ، بحوث ودراسات ، (الكتاب الأول) ، ص ٢١٤ - ٢١٨ ، ٢٨٢ - ٢٨٦ ، موسوعة العمارة الإسلامية فى مصر (الكتاب الأول) المدخل ، القاهرة (١٩٩٨م) ، ص ٨٧ - ٩٢ .

٣- الطراز الثالث : وهو الطراز الذى يجمع بين الايوانات والأروقة ، ومن الملاحظ أن هذا الطراز قد اقتصر ظهوره وانتشاره على العمارة الإسلامية فى المشرق^(٨٤) (إيران وآسيا الوسطى والهند) ، كما أسهم هذا الطراز فى ظهور نمط جديد من أنماط الطراز العربى التقليدى وهو النمط الرابع الذى إقتصر على شبه القارة الهندية، كما سبق القول .

ويتمثل جوهر التخطيط العام لهذا الطراز فى أنه عبارة عن صحن أوسط مكشوف يتوسط أضلاعه أربعة إيوانات (بواقع إيوان بكل ضلع) ، وقد شغلت المساحات المحصورة بين الضلعين الجانبيين لكلا إيوان من الايوانات الأربعة بعدد من الأروقة (البلاطات) يختلف من مسجد لآخر ، وتنتمى غالبية هذه الأروقة (البلاطات) إلى النمط المعروف بالأروقة المتقاطعة (أى التى تسير عقود بأكثاتها موازية لجدار القبلة وعمودية عليه فى ذات الوقت) أما بقية الأروقة فتتنمى إلى الأنماط التقليدية المعروفة، وهى اما أن تكون موازية لجدار القبلة فحسب ، أو عمودية على ذلك الجدار فحسب .

ولا يقف الأمر عند ذلك فحسب ، وإنما أضاف المعمار خلف إيوان القبلة كنبذخانة (قاعة القبة التى كانت بمثابة مقصورة للسلطان) وبصدرها المحراب الرئيسى للمسجد .

وكانت بداية ظهور هذا الطراز خلال العصر السلجوقى ، ثم استمر خلال العصر الإيلخانى والتميمورى فالصفوى والقاجارى فى إيران وآسيا الوسطى والمغولى الهندى فى شبه القارة الهندية .

وحسبنا أن نشير إلى أهم وأشهر المساجد التى تنتمى إلى هذا الطراز ويأتى على رأسها المسجد الكبير فى أصفهان ٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م ، ومسجد گلبايگان ٤٩٩ - ٥٠٢ هـ / ١١٠٥ - ١١٠٨ م ، ومسجد زواره ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م ، ومسجد اردستان ٥٥٣ - ٥٥٥ هـ / ١١٥٨ - ١١٦٠ م ، ومسجد ملك فى كرمان وغير ذلك^(٨٥) (أشكال ٢٩٧ - ٢٩٩) . وإذا كانت المساجد السابقة يجمع تخطيطها فى جهة

(٨٤) شافعى ، العمارة العربية الإسلامية ، ص ٨٢ .

(٨٥) الريحوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ١٦٦ - ١٧١ ؛ شافعى ، العمارة العربية الإسلامية ، ص ٨٢ .

٨٣ ؛ جوادى ، مساجد إيران ، ج ١ ، ص ١١٢ - ٢١٩ ، ٣٤٣ - ٣٤٦ ، ٢٧١ - ٢٧٣ ؛ أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ٣٢ - ٣٦ ؛

Pope, Asurvey , vol 2, PP. 949 - 963 , 1004 - 1024 , Godard, L'art de L'iran, PP. 350 - 355., Hillenbrand, Islamic, P.

القبلة بين الإيوان والكنبدخانة ، فإن هناك من مساجد هذا الطراز ما يقتصر على الإيوان جهة القبلة دون الكنبدخانة كما هو الحال في مسجد كرمان .

ومن العصر الإيلخاني حسبنا أن نشير إلى مسجد فرامين ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م (٨٦) .

ومن العصر التيمورى كل من مسجد بيبي خانم بسمرقند (بجمهورية أوزبكستان الإسلامية) ٨٠١ - ٨٠٨هـ / ١٣٩٨ - ١٤٠٥م ، ومسجد جوهر شاد ضمن مجموعها بمشهد ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م (لوحة ١٣٣) ومسجد كالان ببخارى ٨٣٤ - ٩٢٠هـ / ١٤٣٠ - ١٥١٤م (أشكال ٣٠٠ - ٣٠٢) ، والمسجد الجامع بهرات ٩٠٣ - ٩٠٥هـ / ١٤٩٧ - ١٤٩٩م (٨٧) .

وقد بلغ هذا الطراز غايته معماريا وفنيا في مساجد العصر الصفوى (٨٨) ، ومن بينها مسجد الشاه (الإمام) بأصفهان ١٠٢٠ - ١٠٣٨هـ / ١٦١١ - ١٦٢٨م ، ومن بين ملامح التطوير والتجديد في تخطيط هذا المسجد أنه يوجد خلف كل إيوان من الإيوانين

(٨٦) الريحوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٥٢٦ - ٥٢٧ ؛

Wilber, D., The Architecture of Islamic Iran, The Il-Khanid Period, Princeton, (1955), PP.

(87) Hillenbrand, Islamic, PP.

Golombek, L., and Wilber, D., The Timurid Architecture of Iran and Turan, vol. I, Princeton, (1988), PP. Paugachenkova, G. A., The Architectural of central Asia at the Time of the Timurids, Afghanistan (1970), pp.

(٨٨) عن أهمية المساجد الصفوية المعمارية والفنية انظر على سبيل المثال :

Pope, Asurvey , vol 2, PP. 1185 - 1191 ., Hillenbrand., Islamic, PP.

هنرقر ، لطف الله ، كنجينه آثار تاريخى أصفهان ، چاپ دوم ، أصفهان ، (مهرماه ١٣٥٠ ش / ١٩٧٤م) فصل هفتم ، ص ٤٠١ - ٤١٥ ، ٤٢٧ - ٤٦٤ ، ٤٦٧ - ٤٧٠ ، ٤٧٥ - ٤٧٨ ، ٥٠١ - ٥٠٥ ، ٥٤٧ - ٥٥٢ ، ٥٨٥ - ٥٨٧ ، ٦١٢ - ٦٢٠ ؛ مهر آبادى ، أبى القاسم رفيعى ، آثار ملى أصفهان ، (تهران ١٣٥٢ ش / ١٩٧٦م) ، ص ٥١٠ - ٥١٤ ، ٦٠٤ - ٦١٠ ، ٦٣٣ - ٧١٠ ؛ كنجنامه ، فرهنگ آثار معماری إسلامی ایران ، دفتر دوم ، مساجد أصفهان ، (صيف ١٩٩٦م) ، (١٧٣ صفحة) ؛ قباديان ، وحيد ، بررسى اقليمى أبنية سنتى ایران ، تهران (١٩٩٤م) ، ص : الريحوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٥٤٥ - ٥٤٨ ؛ الجميعى ، غادة عبد المنعم ، مساجد أصفهان فى العصر الصفوى عهد الشاه عباس الأول والشاه عباس الثانى ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الآثار - جامعة القاهرة (٢٠٠٣م) ، (٥٦١ صفحة فضلا عن الأشكال واللوحات) .

الجانبين في الصحن كنبد خانة مثل إيوان القبلة وغير ذلك من الخصائص والسمات التي سنشير إليها في كتابنا المفصل ؛ فضلا عن كتابنا الموسوم بـ « العمارة في المشرق الإسلامي ، المجلد الثاني بمشيئة الله تعالى . (شكل ٣.٣) ، (لوحات ١٤٠ - ١٤٧) .

ومن العصر القاجاري حسبنا أن نشير إلى مسجد امام بتهران^(٨٩) ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م (شكلا ٣.٤ - ٣.٥) .

ومن العصر المغولي الهندي حسبنا أن نشير إلى مسجد شاه جهان في تها (باكستان) ١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م^(٩٠) . (شكل ٣.٦) .

٤. الطراز الرابع ؛ ويعرف بالطراز العربي غير التقليدي ، أو طراز الأروقة دون الصحن الأوسط .

ويتمثل جوهر التخطيط في هذا الطراز في خلوه من الصحن الأوسط ؛ ومن ثم أصبح يتكون من مساحة مستطيلة أو مربعة تقسم إلى أروقة بواسطة عدد من البائكات يختلف من مسجد لآخر ، وتتكون هذه البائكات من صفوف من الأعمدة (حجرية أو رخامية وأحيانا من الجرانيت أو الخشب) أو الدعامات تعلوها عقود غالبا ، اما أن تتجه موازية لجدار القبلة فحسب ، أو تتجه عمودية على جدار القبلة فحسب ، وإما أن تكون متقاطعة (أي تتجه عقود البائكات عمودية على جدار القبلة وموازية له في ذات الوقت ولا سيما في المساجد التي تغطي بالقباب أو الأقبية أو الاثنين معاً) ، وأحيانا كان لا يعلو الأعمدة أو الدعامات عقود ، وفي هذه الحالة كان السقف الخشبي للمسجد يرتكز على كمرات أو عوارض خشبية فوق الأعمدة أو الدعامات مباشرة .

وقد أثبتت دراساتنا السابقة أن هذا الطراز من التخطيط يمثل النظام التخطيطي الثاني الذي صممت على أساسه المساجد في العمارة الإسلامية - بل وغيرها من أنواع العماثر الأخرى الدينية وغير الدينية - منذ الفترة المبكرة جنبا إلى جنب مع الطراز العربي التقليدي الذي تحدثنا عنه من قبل .

(٨٩) گنجنامه ، دفتر سوم ، بناهای مذهبی تهران ، تهران (١٩٩٨م) ، ص ١٢ - ٢٠ ؛ بلاغی نائینی ، سید

عبد الحجة ، مساجد تهران ، قم (١٣٥٠هـ ش / ١٣٩٤ هـ ق (١٩٧٤م) ، ص ؛ مصطفى ،

محمد تقی ، آثار تاریخی طهران ، تهران ١٣٦١هـ ش / ١٤٠٥ هـ ق / ١٩٨٤م) ، ص .

(٩٠) الريحوى ، العمارة في الحضارة ، ص ٥٧٥ - ٥٧٩ .

ونستطيع فى ضوء الأدلة الآثرية المتوافرة أن نحصر تخطيطات المساجد التى صممت وفق هذا الطراز فى ثلاثة أنماط رئيسية^(٩١) وهى :

١- النمط الأول : وفيه تسير عقود البائكات موازية لجدار القبلة ، ويتراوح عدد هذه البائكات بين بائكة واحدة وست بائكات ، وبالتالى فإن عدد الأروقة (البلاطات) فى هذا النمط يتراوح بين رواقين وبين سبعة أروقة .

وحسبنا أن نشير إلى بعض النماذج التى صممت وفق هذا النمط فى العمارة الإسلامية ، فمن المساجد التى تشتمل على بائكة واحدة تحصر فيما بينها رواقين موازيين لجدار القبلة كل من المسجد الملحق بقصر جبل سيس ٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٥م (شكل ٦٩) ، وبالقاهرة كل من : مسجد سيدى عقبة بن عامر ١٠٦٦هـ / ١٦٥٥م ، ومسجد ذو الفقار بك ١٠٩١هـ / ١٦٨٠م ، ومسجد عبد الرحمن كتحدا المعروف بجامعة الشوازلية (بالموسكى) ١١٦٨هـ / ١٧٥٤م ، وهذه المساجد تشتمل على بائكة واحدة تحصر فيما بينها رواقين موازيين لجدار القبلة .

ومن المساجد التى تشتمل على بائكتين تحصران فيما بينها ثلاثة أروقة (بلاطات) كل من مسجد قصر الحلابات بالأردن ٩٦ - ١٠٥هـ / ٧١٥ - ٧٢٣م (شكل ٧١) . ومسجد محمد بن خيرى المعافرى المعروف بمسجد الأبواب الثلاثة بالقيروان بتونس ٢٥٢هـ / ٨٦٦م (شكل ١٩٧) ، ومسجد تيشد باليمن أوائل ق٧هـ / ١٣م (شكل ٢٦) ، ومسجد بارسيما فى سيواس ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م ، ومسجد سارى على بقيصرية بالأناضول (أسيا الصغرى أو تركيا) (شكلا ٢٣٧ - ٢٣٨) ، ومسجد مراد باشا بالموسكى بالقاهرة ٩٧٦ - ٩٧٩هـ / ١٥٦٨ - ١٥٧١م (شكل ١١٣) وغير ذلك .

ومن المساجد التى تشتمل على ثلاث بائكات ، وبالتالى أربعة أروقة (بلاطات) كل من مسجد قصر الوليد بن عبد الملك المعروف بقصر المنية ٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ -

(٩١) عن هذا الطراز وأنماطه وأمثلتها انظر دراساتنا السابقة ومنها ، بحوث ودراسات فى العمارة الإسلامية (الكتاب الأول) ، (الفصل الرابع والفصل السادس وما ورد بهوامشهما من مراجع عديدة عربية وتركية وأجنبية) ؛ موسوعة العمارة الإسلامية فى مصر ، المدخل ، ص ٨٠ - ٨٧ ، ١١٣ - ١١٨ ، وكتابنا الموسوم بـ « العمارة الإسلامية فى أوروبا العثمانية ، المجلد الأول ، الكويت (٢٠٠٢م) ، ص ٢٠٠ - ٢٠٦ .

٧١٥م (شكل ٧٠) ، ومسجد قور باليمن ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م (شكل ٢٥) ، ومسجد محرم أفندى المعروف بجامع الكردي (بسويقة اللالا بالسيدة زينب) ١١٣٦هـ / ١٧٢٣م ، ومسجد الشيخ العريان (بباب البحر) ١١٧١ - ١١٧٣هـ / ١٧٥٧ - ١٧٥٩م ، وغير ذلك من النماذج فى الوجهين القبلى والبحرى على السواء .

ومن المساجد التى تشتمل على أربع بائكات ، وبالتالى خمسة أروقة (بلاطات) كل من مسجد إبراهيم تربانه بالإسكندرية ١٠٩٧هـ / ١٦٨٥م ، ومسجد عبد الباقي جوريجى بالإسكندرية أيضاً ١١٧١هـ / ١٧٥٨م ، ومسجد نصر الله بفوه ١١١٥هـ / ١٧٠١م ، ومسجد أبو المكارم بفوه أيضاً وغير ذلك .

ومن المساجد التى تشتمل على خمس بائكات ، وبالتالى ستة أروقة (بلاطات) كل من مسجد إسماعيل بك ايواظ بقرية جناح (مركز بسيون - محافظة الغربية) ١١٣٤هـ / ١٧٢١م ومسجد سيدى جلال بجرجا بصعيد مصر ١١٨٩هـ / ١١٧٥م .

ومن المساجد التى تشتمل على ست بائكات ، وبالتالى سبعة أروقة (بلاطات) مسجد الأمير حسن بأخميم بصعيد مصر ١١١٦هـ / ١٧٠٤م .

٢- النمط الثانى : وفيه تسير عقود البائكات عمودية على جدار القبلة ، وتعد النماذج الباقية لهذا النمط قليلة ، إذا ما قورنت بنماذج النمطين الأول والثالث ، ومنها مسجد فنيانه بالأندلس ، ويؤرخ بأواخر العصر الموحدى وأوائل عصر بنى نصر أو بنى الأحمر (شكل ١٩٩) ، ومسجد بيرجى الجامع بالأناضول ٧١٢هـ / ١٣١٢م ، وهو يشتمل على أربع بائكات عمودية على جدار القبلة ، تحصر فيما بينها خمسة أروقة (بلاطات) إلا أن أربعة المحراب بالرواق الأوسط (الثالث) تعلوها قبة صغيرة ، كما يتميز هذا المسجد بأنه يتقدمه سقيفة أو رواق خارجى ، ومسجد آلتى برمق (بسويقة المسيب من شارع سوق السلاح بالقاهرة قبل ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣م ، وهو من النماذج الفريدة إذ يسقف كل من الرواقين الجانبين أقبية متقاطعة بواقع أربعة أقبية بكل رواق ، أما الرواق الأوسط فيسقف المساحة التى تتقدم المحراب قبوة مدببة ، أما بقية المساحة فيسقفها سقف خشبى ذى زخارف نباتية ملونة ومذهبة إلا أنها بحالة سيئة . (شكل ١١٤) .

٣- النمط الثالث : وفيه تسير عقود البائكات فى الاتجاهين العمودى والموازى

(الطولى والعرضي) لجدار القبلة فى ذات الوقت ، وتسقف مساجد هذا النمط بالأقبية أو القباب أو الاثنين معاً .

ويعد هذا النمط أكثر أنماط هذا الطراز ذيوعا وانتشاراً فى العمارة الإسلامية ، فضلاً عن أنه قد استخدم فى تصميم العديد من أنواع العمارات الدينية والجنازية والمدنية فى الأقطار العربية والإسلامية على السواء .

وحسبنا أن نستشهد بعدد من النماذج الباقية فى العمارة الإسلامية ومنها صهرج الرملة بفلسطين ١٧٢هـ / ٧٨٨م ، وتسقفه الأقبية البرميلية (شكل ٧٢) .

ومسجد بوفتاته فى سوسه بتونس ٢٢٣ - ٢٢٦هـ / ٨٣٨ - ٨٤١م (٣ أروقة (بلاطات) متقاطعة تسقفها ٩ أقبية برميلية ، ويتميز بأنه يتقدمه سقيفة) (شكل ١٩٦) . ومسجد السيدة بالمنستير بتونس ٤١٢هـ / ١٠٢١م (وتسقفه ٦ أقبية متقاطعة ويقع أسفل أحدها مقبرة السيدة أم ملال عمه الأمير المعز بن باديس (شكل ١٩٨) ، وفى مصر مشهد آل طباطبا بعين الصيرة بالقاهرة حوالى ٣٣٤هـ / ٩٤٥م (العصر الاخشيدي) (وهو عبارة عن ٣ أروقة (بلاطات) متقاطعة تسقفها ٩ قباب متساوية ، ويتميز بأن دعاماته متقاطعة - صليبية الشكل -) (شكلا ١٢٠ - ١٢١) .

ومنها مشهد السبع وسبعين ولى ويؤرخ بالنصف الثانى من ق ٥هـ / ١١م ، والمشهد القبلى بأسوان ويؤرخ بأواخر ق ٥هـ / ١١م ، أو أوائل ق ٦هـ / ١٢م ، جنوب مصر (شكلا ١٢٢ - ١٢٣) .

ومنها مسجد عابدى بك بمصر القديمة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م ومسجد مصطفى بك بن بنت غزال المعروف بمسجد أبو على بحى الجمرك بالإسكندرية ١١١٧ - ١١٢١هـ / ١٧٠٥ - ١٧٠٩م (شكلا ١٢٤ - ١٢٥) ، ومنها مسجد سيدى محمد المشيد بالنور برشيد ١١٧٨هـ / ١٧٦٤م .

وفى الأندلس مسجد الباب المردوم المعروف حالياً بكنيسة الكريستو دى لالوث ٣٩٠هـ / ٩٩٩م ويتميز بقبابه التى تمثل أولى مراحل تطور القباب ذات الضلوع البارزة المتقاطعة . (شكل ٢٠١) ، (الوحثا ١١٢ - ١١٣) . ومنها مسجد المدجنين بطليطلة ويؤرخ بالنصف الثانى من القرن ٦هـ / ١٢م . (شكل ٢٠٢) .

وفى ليبيا مسجد مراد أغا فى تاجوراء ٩٥٩ - ٩٦٤هـ / ١٥٥١ - ١٥٥٦م

(وتسقفه الأقبية البرميلية ويمكن مقارنته بصهريج الرملة بفلسطين ١٧٢هـ / ٧٧٨م (شكل ٧٢) مما يؤكد مدى صلاحية التخطيط لتأدية عدة وظائف دينية ومدنية بل وحربية أيضاً) (شكل ٢٠٠) . ومنها جامع الخروبة ق ٩هـ / ١٥م ، وجامع شائب العين محمد باشا ١١١٠هـ / ١٦٩٨م ، وجامع أحمد باشا القره مانللى ١١٥٠ - ١١٥١هـ / ١٧٣٧ - ١٧٣٨م وجامع مصطفى قورجى ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م بطرابلس الغرب بليبيا (أشكال ٢٠٣ - ٢٠٥ ، ٢١٠ - ٢١١) ، وفى بغداد مسجد الخفافين ٩٩٩هـ / ١٥٩١م ومسجد العاقولى ١١١٧هـ / ١٧٠٥م ، ومسجد قمريه ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م ، وترجع كلها إلى أعمال إعادة بناء وتجديد ولكن على الطراز الأصيل الذى كان سائداً فى بغداد منذ النصف الثانى من ق ٦هـ / ١٢م .

وفى أسيا الوسطى مسجد بلخ ويؤرخ بالربع الثانى من القرن ٣هـ / ٩م (٣ أروقة (بلاطات) متقاطعة تعلوها ٩ قباب متساوية) (شكل ٢٤١) ، ومنها مسجد ترمز ومسجد الشيخ خراسان فى أذربيجان (شكلا ٢٤٢ ، ٢٥٠) والأول ٩ قباب والثانى ٦ قباب .

وفى شبه القارة الهندية تقابلنا نماذج كثيرة ، ولا سيما فى البنغال (بنجلاديش) ومنها مسجد ظفر خان غازى ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م ، ومسجد بابا آدم فى رامبال ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م (شكل ٢٤٧) ، ومسجد جهانبيان ٩٤١هـ / ١٥٣٥م (٦ قباب) ، ومسجد قطب شاهى ٩٩٠هـ / ١٥٨٣م (١٠ قباب) ، ومتها مسجد Saith gumbad ويؤرخ بمنتصف ق ٩هـ / ١٥م (١١ رواق عمودى تتقاطع مع ٧ أروقة موازية يغطيها ٧٠ قبة والرواق الأوسط العمودى (الرواق السادس) مغطى بأقبية) (شكل ٢٤٨) ، ومسجد Gunmant فى غور (غرب البنغال) ويؤرخ بأواخر ق ٩هـ / ١٥م وأوائل ق ١٠هـ / ١٦م ، (ويتميز بوجود رواق أوسط عمودى (بلاطة وسطى) يقطع صفوف الأروقة (البلاطات) المتقاطعة وهو المعروف خطأً بالمجاز القاطع ويغضى المسجد ٢٤ قبة ١٢ عن يمين الرواق الأوسط ومثلها عن يساره) (شكل ٢٢٩) ، ومسجد باراسونا ٩٣٢هـ / ١٥٢٦م (١١ رواق عمودى تتقاطع مع ٤ أروقة موازية ويغضى المسجد ٤٤ قبة) (شكل ٢٤٩) وغير ذلك (٩٢) .

(92) Michell, G., The Islamic Hertiage of Bengal, Unesco (1984), PP.

ومن أشهر المساجد الهندية مسجد گلبرجا^(٩٣) الجامع ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م (عصر سلاطين بهمن) وهو ذو تصميم فريد ويأخذ شكل مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب ، وقد قسم إلى ثلاثة أقسام أوسطها أوسعها وأهمها حيث يشتمل على عدد من الأروقة المتقاطعة (البلاطات المتقاطعة) بواقع ٧ أروقة عمودية يتقاطع معها ١٢ رواق موازى، ويغضى هذه الأروقة ٧٥ قبة صغيرة متساوية فضلا عن قبة مربعة المحراب الكبيرة والتي حلت محل ٩ قباب صغيرة من قباب الأروقة (البلاطات) الأولى مما يلى جدار القبلة ؛ وهى الأروقة العمودية رقم ٣ - ٤ - ٥ والتي تتقاطع معها الأروقة الموازية رقم ١ - ٢ - ٣ مما يلى جدار القبلة ، أما القسمان الجانبيان فيتصلان بالقسم الأوسط بواسطة عقود موازية لجدار القبلة ، وبأركان هذين القسمين ٤ قباب متساوية ، بواقع قبتين بكل ركن، وبذلك يصبح المجموع الكلى لقباب المسجد ٨٠ قبة (شكل ٢٤٣) .

وإذا ما انتقلنا إلى تركيا تقابلنا نماذج كثيرة ، ومنها مسجد القلعة فى أرضروم ويؤرخ بأواخر ق ٦هـ / ١٢م ، وأوائل ق ٧هـ / ١٣م (عصر السلطقيين)^(٩٤) . (شكل ٢٣٩) . ومنها مسجد علاء الدين فى نيگده^(٩٥) ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م (٥ أروقة موازية تقطعها ٣ أروقة عمودية ، وتغطيها الأقبية والقباب) ، ويستثنى من ذلك سقف المساحة الوسطى من الرواق الأوسط (وهو الرواق الثالث الموازى الذى يتقاطع مع الرواق الثانى العمودى) حيث حل محل القبو منور سماوى للإضاءة والتهوية (شكل ٢٤٠) .

ومن أشهر النماذج التركية المسجد الكبير (أولو جامع) فى بروسه (أو بورصة) ٧٩٩ - ٨٠٣هـ / ١٣٩٦ - ١٤٠٠م (٥ أروقة عمودية تقطعها ٤ أروقة موازية ، ويغضى جميع الأروقة ٢٠ قبة صغيرة متساوية) ، والمسجد القديم أو العتيق فى أدرنة (اسكى جامع) ٨٠٦ - ٨١٧هـ / ١٤٠٣ - ١٤١٤م (٣ أروقة (بلاطات) متقاطعة تغطيها ٩ قباب متساوية) ، ومسجد عتيق على باشا فى ذنجلى قويو باستانبول ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م ، ومسجد بيالى باشا باستانبول أيضاً ٩٨١هـ / ١٥٧٣م (أشكال ٢٤٤ - ٢٤٦) (لوحة ١٩٧) .

(٩٣) الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٥٦٦ - ٥٦٧؛ رجب ، تاريخ وعمارة ، ص ٦٢ - ٦٣؛
Havel, Indian Architecture, PP. 60 - 63 .

(٩٤) أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ٧١ ، تخطيط ٩ .

(٩٥) أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ٨١ - ٨٢ ، تخطيط ١٣ .

٥- الطراز الخامس^(٩٦) : وهو طراز المسجد على هيئة حرف T المقلوب (The Reverse T) ، ويعرف أيضاً بطراز بورصة (أو بروسه) الثالث أو طراز المسجد ذى الوظائف المتعددة أو طراز المسجد الزاوية على اعتبار أن الحجرات الجانبية كانت تستخدم نزلاً للدراويش أو طراز المسجد ذى المساحات الجانبية أو طراز المسجد ذى التخطيط المحورى الصليبي أو المتقاطع (Cross - Axial Masque) .

ويرى العلماء أن هذا التخطيط قد اشتق أساساً من تخطيط المدارس السلجوقية ذات القباب المرتبة على هيئة حرف T المقلوب مثل مدرسة كل من قره طاي وانجه مناره لى بقونية وسنشير إليهما عند الحديث عن المدارس .

والحق أن هذا الطراز ينتمى إلى الطراز الإيوانى السابق الإشارة إليه ، على اعتبار أن جوهر التخطيط فى هذا الطراز هو المساحة الوسطى المربعة وإيوان واحد جهة القبلة ، ويغضى المساحة الوسطى قبة غالباً ، بينما يغضى الإيوان قبة أو نصف قبة أو قبو ، وفى أحيان قليلة بل ونادرة يغضى الإيوان نصف قبة يتقدمها قبو ، أما المساحات التى تكتنف المساحة الوسطى المربعة من جانبيها فهى تشغل نفس امتداد تلك المساحة الوسطى من جانبيها (أى المحور العرضي) ومن هنا يظهر إيوان القبلة بارزاً عن سمت جدارى جهة القبلة لتلك المساحات الجانبية ، وبسبب ذلك اتخذ المسجد شكله المميز على هيئة حرف T ، وهذه المساحات الجانبية غالباً ما تكون على هيئة حجرتين ، بواقع حجرة بكل جانب ، قد تفتح على المساحة الوسطى بكامل اتساعها أو بفتحة باب ، وأحياناً تضاف حجرتان ، وبذلك تصبح الحجرات أربع بواقع حجرتان بكل جانب ، وفى أحيان ثالثة تكون هذه المساحات الجانبية على هيئة إيوانين صريحين ، بواقع إيوان بكل جانب ، وفى هذه الحالة يصبح المسجد ذا ثلاثة إيوانات حول المساحة الوسطى ، وهنا أيضاً يشغل كل من الإيوانين نفس إمتداد تلك المساحة الوسطى (أى المحور العرضي) ؛ وبالتالي يظهر إيوان القبلة بارزاً (أى على هيئة حرف T) ، وتوجد غالبية النماذج الباقية لهذا الطراز فى الأناضول والبلقان ومنها مسجد اورخان فى ازنيق ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م أو

(٩٦) عن هذا الطراز وأمثله الباقية انظر دراساتنا المنشورة وما بها من مراجع عديدة ومنها بحوث ودراسات (الكتاب الأول) ، ص ٢٨٩ - ٢٩٢ ؛ موسوعة العمارة ، المدخل ، ص ٩٣ - ٩٦ ، العمارة الإسلامية فى أوروبا العثمانية ، المجلد الأول ، ص ١٩٤ - ١٩٩ .

٧٣٥هـ / ١٣٣٤م ، ومسجد أورخان بك فى بورصة ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م ، والجامع الأخضر فى بورصة (يشيل جامع) ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م ، ومسجد يخشى بك فى تيره ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م ، ومسجد حمزة بك فى بورصة ويؤرخ بالنصف الثانى من ق ٩هـ / ١٥م ، ومسجد إسحاق باشا فى آينة گول ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م . (أشكال ٢٨٧ - ٢٩٠ ، ٢٩٥) .

ومن النماذج الباقية فى أوروبا العثمانية (البلقان) ، مسجد شهاب الدين باشا فى فيليه (بلوفديف ببلغاريا) ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م ، ومسجد عيسى بك فى أسكوب ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م ، ومسجد غازى خسرو بك فى سراييفو (بوسنه سراي) ٩٣٨هـ / ١٥٣١م ، ومن المطاعم الخيرية (عمارت) التى صممت وفق هذا الطراز حسبنا أن نشير إلى عمارت غازى أورنوس فى كوموتينى (كومولجينه) باليونان ٧٧٧ - ٧٨٢هـ / ١٣٧٥ - ١٣٨٠م وعمارت ميخال اوغلو محمد بك فى اهتمام ببلغاريا ٧٩٣ - ٧٩٨هـ / ١٣٩٠ - ١٣٩٥م ، وعمارت نيلوفر خاتون المعروفة بزاوية نيلوفر خاتون بازنيق ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م ، وعمارت يعقوب چلبى فى أزنيق أيضاً قبل ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م . وغير ذلك . (أشكال ٢٩١ - ٢٩٤) .

ومن النماذج المتميزة لهذا الطراز الجامع الأزرق فى تبريز ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م (عصر القره قيونلو) (شكلا ٢٩٦ - ٢٩٧) (لوحتا ١٣١ - ١٣٢) .

وتحتفظ مصر كذلك بنموذج فريد لمسجد صمم وفق هذا الطراز ، وهو مسجد سليمان باشا المعروف بجامع سارية الجبل أو سيدى سارية بالقلعة ٩٣٥هـ / ١٥٢٨م ، ويكفى لبيان أهمية هذا المسجد القول بأنه هو النموذج الوحيد المعروف حتى الآن لمسجد صمم على هيئة حرف T (الجزء المغطى) ويتقدمه الحرم (الجزء المكشوف) حيث أن غالبية النماذج المعروفة فى تركيا والبلقان يتقدمها سقيفة أو رواق خارجى ، كما يتميز أيضاً بأن الجزء المغطى فيه تغطيه قبة مركزية فى الوسط وثلاثة أنصاف قباب بواقع نصف قبة بكل إيوان من الإيوانات الثلاثة التى تحيط بدرقاعة الجزء المغطى (شكل ١٥٦) .

كذلك تحتفظ ليبيا بنموذج فريد لمسجد صمم على هيئة حرف T ومغطى باثنتين وثلاثين قبة وهو مسجد درغوت باشا بطرابلس الغرب ٩٦٤ - ٩٧١هـ / ١٥٥٦ - ١٥٦٣م وهو المسجد الوحيد المعروف حتى الآن الذى صمم على هذا الطراز وغطى بهذا العدد الكبير من القباب . (شكل ٢٠٦) .

٦- الطراز السادس : طراز المسجد القببة :

من المعروف أن القببة لم تكن شيئاً مستحدثاً في العمارة الإسلامية فقد كان استخدامها شائعاً ومعروفاً قبل العصر الإسلامي بقرون عديدة ، سواء كانت من الآجر أو الحجر^(٩٧) أو من الآدم وهذا النوع الأخير كان يعرف بقببة المبناة وكان شائعاً عند العرب قبل ظهور الإسلام ، وكانت هذه القبباب تخصص للسادات الأشراف والأغنياء أو لأصحاب الجاه وسادات القبائل الكبار ممن كانوا يفدون على ملوك الحيرة (المناذرة أو اللخمين) مما يعنى أن هذا النوع من القبباب كان يعد من امارات التعظيم والتفخيم والجاه عند الملوك^(٩٨)؛ كما كانت تطلق على نوع من الهودج المستخدمة في السفر عند المسلمين في العصور الوسطى^(٩٩).

على أن استخدام القبباب في تصميم مساجد قائمة بذاتها فضلاً عن بعض أنواع العماير الدينية الأخرى كالزوايا والخوانق يعد بلا شك من الإضافات التي إستحدثها المعمار المسلم ؛ بل وقام بتطويرها وابتكار أنماط جديدة منها لم يسبق إليها .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الطراز يتكون في جوهره من مساحة مربعة ، تختلف من مسجد لآخر ، يتوسط صدرها المحراب ، وتغطي هذه المساحة قبة يختلف قطرها وارتفاعها من مسجد لآخر أيضاً ، وتقوم هذه القببة على منطقة انتقال من الحنايا الركنية أو المثلثات الكروية أو المثلثات التركبية أو المقرنصات ، وكانت هذه المساجد ، في حالة إستخدامها كمساجد جامعة ، تزود بالمنابر ، رخامية كانت أم خشبية ، هذا ويتقدم

(٩٧) شكرى ، محمد أنور ، العمارة في مصر القديمة ، القاهرة (١٩٧٠م) ، ص ٣٦٨ ؛ الحدينى ، عطا ، وآخرين ، القباب المخروطية في العراق ، بغداد (١٩٧٤م) ، ص ١٠ - ١٢ ؛ لمعى ، صالح ، القباب ، أشكالها ، مصادرها ، تطورها ، بيروت (١٩٧٧م) ، ص ٣ - ٦ ؛ فخري ، أحمد ، الصحراء المصرية جبانة البجوت في الواحة الخارجة ، ترجمة عبد الرحمن عبد التواب ، القاهرة (١٩٨٩م) ، ص ٤٥ - ٤٨ ؛ بدوى ، اسكندر ، تاريخ العمارة المصرية القديمة ، ج ١ ، ترجمة محمود عبد الرازق وصلاح رمضان ، القاهرة (١٩٩١م) ، ص ١٠٢ ، ٣٧١ ؛ Badawy, A., Brick vaults and Domes in the Giza Necropolis, Cairo, (1953), PP. 129 - 143, Pope, A. U., A survey of Persian Art, vol II, London and New York, (1938), P. 501 - 503; Smith, B., the Dome, A study in the History of ideas, Princeton, New Jersey (1950), P. 3 - 44 .

(٩٨) على ، جواد ، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، مج ٥ ، بيروت (١٩٧٠م) ، ص ٥ - ٧ ، ١٧٣ .
(٩٩) ياسين ، عبد الناصر ، وسائل السفر عند المسلمين ، تاريخها وآثارها ، دراسة عن الهودج وشاكلاته في ضوء المصادر المكتوبة والآثرية ، القسم الأول ، (القاهرة ٢٠٠٥م) ص ٢٧٩ - ٣٠١ .

غالبية تلك المساجد رواق خارجي (سقيفة Portico) تغطي بالقباب أو الأقبية أو الاثنين معاً ، وفي أحيان قليلة كانت تغطي بأسقف خشبية مسطحة كما هو الحال في بعض مساجد البلقان (جنوب شرقي أوروبا) ، أما النماذج التي تخلو من وجود مثل هذا الرواق الخارجي فتعد قليلة بل واستثناءً لتلك القاعدة التي لازمت مساجد هذا الطراز خلال مراحل تطوره المختلفة .

كذلك تشتمل غالبية تلك المساجد على مئذنة وأحياناً على مئذنتين . هذا وقد مر ذلك الطراز بعدة مراحل من التطور كان الهدف الرئيسي منها هو توسعة المسجد ليستوعب عدداً أكبر من المصلين ، وهو نفس الهدف الذي تحقق في كثير من طرز المساجد الإسلامية الأخرى السابق الإشارة إليها ، عن طريق ما اصطلح على تسميته بالزيادة أو التوسعة أو الاضافة سواء من داخل المسجد نفسه أو من خارجه .

وعلى ضوء ذلك نستطيع أن نحصر نماذج هذا الطراز بمراحل تطوره المختلفة في العمارة الإسلامية في عدة أنماط^(١٠٠) وذلك على النحو التالي :

أ- النمط الأول : وهو يمثل النمط البسيط من أنماط طراز المسجد القبة والذي ينحصر تخطيطه في جوهره في مساحة مربعة تعلوها القبة ويتقدم هذه المساحة المربعة رواق خارجي أو سقيفة غالباً وأحياناً تخلو هذه المساجد من مثل هذا الرواق الخارجي أو السقيفة كما سبق القول .

هذا ويستدل من خلال الإشارات التاريخية المتناثرة في المصادر المختلفة أن بعض مساجد القبائل العربية في خطط مدينة الفسطاط كانت مصممة وفق هذا النمط البسيط ، ومنه اما كان يتقدمه رواق خارجي أو سقيفة^(١٠١) .

(١٠٠) عن هذه الأنماط ونماذجها الباقية انظر دراساتنا المنشورة وما بها من مراجع متعددة ومنها : بحوث ودراسات (الكتاب الأول) ، (الفصل الثاني والثالث والرابع والسادس) ؛ موسوعة العمارة ، المدخل ، ص ١٠٣ - ١١٢ ؛ العمارة الإسلامية في أوروبا العثمانية ، المجلد الأول ، ص ١٦٨ - ١٩٤ ، ١٩٩ - ٢٠٠ ، طراز المسجد القبة في المدينة المنورة والهفوف (الكتاب الأول) ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، ص ١١ - ٥٨ .

(١٠١) ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن ، ت ٢٥٧هـ / ٨٧٠م ، فتوح مصر وأخبارها ، تقديم وتحقيق محمد صبيح ، القاهرة (١٩٧٤م) ، ص ٨٦ - ٨٧ ؛ ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن أيدير العلاني ، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م ، الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، ق ١ ، بيروت ، د. ت ، ص ٣٤ ، ٤٩ .

إلا أنه لسوء الحظ قد إندرست هذه المساجد المبكرة ؛ ومع ذلك فهي تمثل الارهاصات الأولى لهذا النمط البسيط خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة النبوية الشريفة .

أما عن أقدم النماذج الباقية فتوجد فى مدن المشرق الاسلامى ومنها كل من : مسجد يزدى - كاشت ، ومسجد أبرقوه ، ومسجد بيرون ، ومسجد قرفه فى بلاد فارس (١٠٢) .

ومنذ القرن ٥هـ / ١١م فصاعداً إنتشر هذا النمط فى غالبية الأقطار العربية والاسلامية وحسبنا أن نشير إلى بعض النماذج التى تؤكد مثل هذا الذبوع وذلك الإنتشار ومنها كل من :

المسجد الملحق بقصر الجعفرية بسرقسطة (اسبانيا) ٤٣٨ - ٤٧٤هـ / ١٠٤٦ - ١٠٨١م ، وهو مربع الشكل طول ضلعه ٤٦ر٥م ، أما قبته المثمثة فهي تمثل مرحلة جديدة من مراحل تطور القباب ذات الضلوع وهي المرحلة التى إستهدفت الناحية الزخرفية الخالصة على النحو الذى سنشاهده بعد ذلك فى قبة المحراب بمسجد تلمسان ٥٣٠هـ / ١١٣٥م ، ويكفى لبيان الأهمية الزخرفية أن نشير إلى ما ذكره أحد مؤرخى الفن الاسبان بقوله من أن هذا المسجد ليس بيتا للصلاة وإنما هو « بيت للفن يضم اروع ما أبدعه الفن الأندلسى » (١٠٣) . (شكل ٢٠٧) ، (لوحة ١١٧) .

ومنها مسجد الحيدرية بقزوين (شكل ٢٥١) .

وكل من : مسجد طاش ٦١٢هـ / ١٢١٥م ومسجد صرغالى ويؤرخ بالنصف الثانى من القرن ٧هـ / ١٣م بقونية (عصر سلاجقة الروم بأسيا الصغرى أو الاناضول) . (شكلا ٢٥٢ - ٢٥٣) .

وكل من : مسجد حاجى اوزبك فى ازنيق ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م ، ومسجد علاء الدين بك فى بورصة (أو بروسة) ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م ، ومسجد بايزيد يلدريم فى مودورنو

(١٠٢) Ferrier, R. W., The Arts of Persia, Yale University Press, New Haven and London, (1989), P. 810 .

(١٠٣) الحداد ، بحوث ودراسات ، (الكتاب الأول) ، ص ١٩٤ - ١٩٨ ، (وما بها من مراجع بالهوامش) .

٧٨٤هـ / ١٣٨٢م ، ومسجد حاجى شهاب الدين باشا فى أدرنه ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م ،
ومسجد قاسم باشا فى أدرنه ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م ، ومسجد فيروز أغا فى استانبول
٨٩٦هـ / ١٤٩١م ، وغير ذلك . (أشكال ٢٥٤ - ٢٥٩) .

وفى بلغاريا كل من اسكى جامع (المسجد القديم أو العتيق أو مسجد حمزة بك)
فى اسكى زغرا (شتارا زاجور حاليا) ٨١١هـ / ١٤٠٩م ، ومسجد الفاتح فى كستنديل
قبل ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م ، وغير ذلك . (شكلا ٢٦٢ - ٢٦٣) .

وفى المجر مسجد ياكوفالى حسن باشا فى Pécs ويؤرخ بالنصف الثانى من
ق. ١٠هـ / ١٦م ، ومسجد على باشا فى Szigwtvar ٩٩٧ - ٩٩٨هـ / ١٥٨٨ -
١٥٨٩م ، وغير ذلك . (شكلا ٢٦٤ - ٢٦٥) .

وفى اليونان بنى جامع (المسجد الجديد) فى كوموتينى ١٠١٧ - ١٠١٨هـ /
١٦٠٨ - ١٦٠٩م ، وغير ذلك . (شكل ٢٦٦) .

وفى دول الاتحاد اليوغسلافى السابق نماذج عديدة منها مسجد نيش ٩٢٨ -
٩٣٠هـ / ١٥٢١ - ١٥٢٣م ، ومسجد قرا گوز محمد باشا فى موستار ٩٦٥هـ /
١٥٥٧م ، ومسجد Hadun فى ياكوفكا (Djakovica) ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م ، وغير
ذلك . (شكلا ٢٦٧ - ٢٦٨) .

وفى شبه القارة الهندية نماذج عديدة أغلبها فى بنجالاديش (البنغال) ومنها مسجد
خيرخان بحى نظام الدين بدهلى ٧٢١هـ / ١٣٢١م .

ومسجد القبة (Gopol gami) ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م ، ومسجد بارى ٨٧٠هـ /
١٤٦٥م ، ومسجد شامكاتى (Chamkati) ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م ، ومسجد لاتان
(Lattan) أواخر ق. ٩هـ / ١٥م ، وأوائل ق. ١٠هـ / ١٦م ، ومسجد جولدى (Goaldi)
٩٢٥هـ / ١٥١٩م ومسجد سورا (Sura) ق. ١٠هـ / ١٦م ، ومسجد عطية ١٠١٨هـ /
١٦٠٩م ، وغير ذلك .

وفى سوريا كل من مسجد خسرو باشا ضمن مجمعه بحلب ٩٤٣ - ٩٤٤هـ /
١٥٣٦ - ١٥٣٧م ، ومسجد عثمان باشا ضمن مجمعه بحلب أيضاً ١١٤٠هـ / ١٧٣٠م ،
وكذلك المسجد الملحق بكل من التكية السليمانية ٩٦٢ - ٩٦٧هـ / ١٥٥٤ - ١٥٥٩م ،
والمدرسة السليمانية المجاورة لها ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م ، بدمشق . وفى اليمن مسجد

المرادية ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م فى صنعاء ، ومسجد حاجى محمد باشا فى يريم ١٠٣٠هـ / ١٦٢٠م ، ومسجد قبة دادية بمدينة ذمار القديمة ويؤرخ بالنصف الأول من ق ١١هـ / ١٧م ، ومسجد طلحة ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م بصنعاء ، والملاحظ أن الرواق أو السقيفة التى تتقدم هذا المسجد الأخير لا تقع على محور المحراب كما هو العادة وإنما تقع إلى الغرب من المسجد وتشرف على الفناء الغربى ببائكة ذات عقدتين ، ويغضى هذه السقيفة أربع قباب صغيرة ، ومنها أيضاً البكيرية بصنعاء والتى تختلف فى بعض التفاصيل من جهة ومن جهة ثانية فإن الرواق الذى يتقدمها يشرف على الفناء (الصوح أو الصرحة حسب الاصطلاح اليمنى) المكشوف . (شكلا ٢٧ - ٢٨) .

وفى المدينة المنورة كل من مسجد أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) ١٢٤٥هـ / ١٨٣٨م ، ومسجد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ١٢٦٦هـ / ١٨٤٩م ، ومسجد الحميدية المعروف بمسجد العنبرية ١٣٢٥ - ١٣٢٦هـ / ١٩٠٧ - ١٩٠٨م .

وفى ليبيا المسجد الملحق بزاوية (مدرسة) عمورة بجنزور ١١٣٤هـ / ١٧٢١م ، ومسجد مدرسة الكاتب بطرابلس الغرب ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م ، ومسجد الباش بمدينة الخمس ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م .

وفى ايران يقابلنا مسجد الشيخ لطف الله باصفهان^(١٠٤) ١٠١١ - ١٠٢٨هـ / ١٦٠٢ - ١٦١٨م وهو من أبداع وأروع النماذج الباقية المصممة وفق طراز المسجد القبة ولا سيما الطابقين الأول والثانى (الأوسط والأعلى) حيث أن الطابق الأرضى (البدروم) يمثل الشبستان (وهو مصلى للصلوات الخمس ومصلى شتوى صمم وفق طراز الأروقة المتقاطعة المغطاة بالأقبية المتقاطعة) ، أما الطابقين الأول والثانى فكل منهما عبارة عن مساحة مربعة مغطاة بقبة ضخمة ذات نقوش زخرفية بديعة ، ويحيط بمربع القبة من جانبين فقط رواقين بواقع رواق بكل جانب مغطى بالقباب الصغيرة .

وقد خصص الطابق الأول (الأوسط) لاقامة حلقات الدرس بينما خصص الطابق الثانى (العلوي) لاقامة الشيوخ والمدرسين (أشكال ٢٦٩ - ٢٧١) ، (لوحات ١٣٤ - ١٤٠) .

(١٠٤) الريحوى ، العمارة فى الحضارة الإسلامية ، ص ٥٤٧ - ٥٤٨ ؛ الجميى ، مساجد أصفهان ، ص ١٠٣ - ١٣٣ ؛ قباديان ، بررسى اقليمى ، ص ٢٠٥ ؛ كنجنامه ، مساجد أصفهان ، ص ١٢٣ - ١٣٥ .

وفى مصر زاوية الأحمدية الرفاعية المعروفة بقبة معبد الرفاعى قرب منتصف ق ٩هـ / ١٥م ، وزاوية الدمرداش بالعباسية أواخر ق ٩هـ / ١٥م . (شكلا ١١٥ - ١١٦) .

وإذا كانت المساجد السابقة تكاد تتفق مع بعضها فى التخطيط العام وفى المميزات الرئيسية ؛ إلا أنها تختلف فيما بينها فى التفاصيل والمفردات وبعض العناصر ، فضلا عن طبيعة الطراز المعماري والفنى السائد خلال الفترة التى صمم فيها كل مسجد من تلك المساجد ، أو بمعنى آخر فإن لكل مسجد منها شخصية مستقلة وطابع خاص يميز له .

ب- النمط الثانى : وهو يمثل حلقة من حلقات تطور طراز المسجد القبلة فى العمارة الاسلامية ، وفى هذا النمط لم يعد التخطيط ينحصر فى المساحة المربعة المغطاة بقبة وتتقدمها من الخارج السقيفة (الرواق الخارجى) أم لا فحسب وإنما قام المعمار بزيادة مساحة المسجد الداخلية وذلك عن طريق إضافة رواق (بلاطة) داخلى يلى باب الدخول للمسجد مباشرة ويتقدم القبلة ، ويغطى هذا الرواق غالبا ثلاث قباب صغيرة أو أقبية أو الاثنين معاً ، وتعد النماذج الباقية لمساجد هذا النمط قليلة بصفة عامة ومنها المسجد الأخضر فى ازنيق ٧٨٠ - ٧٩٥هـ / ١٣٧٨ - ١٣٩٢م .

ومسجد شاه ملك فى ادرنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م ، ومسجد دار الحديث فى أدرنه أيضاً ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م ، (شكلا ٢٦٠ - ٢٦١) .

ج- النمط الثالث : وهو يمثل حلقة أخرى من حلقات تطور طراز المسجد القبلة فى العمارة الاسلامية حيث قام المعمار بزيادة مساحة المسجد الداخلية من الجانبين (المحور العرضي) عن طريق إضافة رواقين غالبا أو ايوانين أحيانا عموديين على جدار القبلة ، ويشرفان على المساحة الوسطى - أى القبلة - ويغطى كل منهما القباب أو الأقبية أو الاثنين معا وفى أحيان قليلة استخدمت الأسقف المسطحة ، وبهذه الاضافة ظهر نمط جديد فى العمارة الاسلامية أطلقت عليه الوثائق المختلفة مصطلح « القلب والجناحين » ، ومن الملاحظ أنه يغلب على تصميم المساجد وغيرها من العماثر التى صممت وفق ذلك النمط الاتجاه الطولى (العمودى على جدار القبلة) غالبا بينما توجد بعض النماذج الأخرى التى يغلب عليها الاتجاه العرضي (أى الموازى لجدار القبلة) أحيانا .

وحسبنا أن نشير إلى بعض النماذج الباقية ومن أقدمها مسجد طلختان بابا (الذى يقع على بعد ٣٠ كم من مدينة مرو القديمة) ويؤرخ بأواخر ق ٥هـ / ١١م أو أوائل ق ٦هـ / ١٢م (عصر القره خانيين بأسيا الوسطي) . (شكل ٢٧٦) .

ومنها مسجد رستم چلبى (كودوك منار) فى توقات بالاناضول ويؤرخ بالنصف الأول من ق ٩هـ / ١٥م . (شكل ٢٧٧) .

وقد استخدم فى تصميم بعض المساجد الملحقه بالمدارس ومنها المسجد الملحق بالمدرسة المرجانية ببغداد ٧٢٨هـ / ١٣٥٦م (شكلا ٤٤ - ٤٥) ، والمسجد الملحق بالمدرسة الأشرفية الكبرى بتعز اليمنية ٨٠٠ - ٨٠٣هـ / ١٣٩٨ - ١٤٠٠م (عصر الدولة الرسولية) (شكل ٢٩) .

وترجع غالبية المساجد اليمنية الأخرى إلى عصرى الدولة الرسولية والدولة الطاهرية باليمن (٦٢٦ - ٩٢٣هـ / ١٢٢٩ - ١٥١٧م) ومنها مسجد الموفى الأعلى ومسجد المدرسة (الباقونية) فى مدينة حيس اليمنية وغير ذلك . ومنها المساجد الملحقه ببعض مدارس حلب بسوريا مثل مدرسة أبو الفوارس فى معرة النعمان ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، والمدرسة السلطانية ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م ، والمدرسة الشرفية ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ، والمدرسة الكاملية وتؤرخ بالنصف الأول من ق ٧هـ / ١٣م .

ومن المساجد الأخرى الجامع المجاهدى فى الموصل ٥٧٢ - ٥٧٦هـ / ١١٧٦ - ١١٨٠م ، وجامع الخاتونية فى مغنيسة (مانسيا) ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م ، وجامع مصطفى بك فى سيريز (باليونان) ٩٢٥هـ / ١٥١٩م وغير ذلك .

وفى بغداد مسجد الأحمديّة ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م ، ومسجد الحيدر خانة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م ، (شكلا ٤٠ - ٤١) ومن المساجد الباقية بالمدينة المنورة مسجد الجمعة ٩٣٩ - ٩٤٨هـ / ١٥٣٢ - ١٥٤٢م ، ومسجد على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ضمن مساجد الفتح (غربى جبل سلع بالمدينة المنورة فى الساحة المعروفة الآن باسم المساجد السبعة) ١٢٦٨ - ١٢٦٩هـ / ١٨٥١ - ١٨٥٢م .

وفى دراسة سابقة أثبتنا أن هذا النمط من التخطيط قد عرف فى العمارة الجنائزية الاسلامية المبكرة كما هو الحال فى مقابر الطراز الثالث بأنماطه الثلاثة بجبانة أسوان التى يرجح إنها ترجع إلى عصر الولاية بمصر قبل ٢٥٤هـ / ٨٦٨م، ثم استمر هذا التخطيط خلال العصر الفاطمى وبصفة خاصة فى تصميم المشاهد ومنها المشهد بأسوان جنوب مصر ٤٩٤ - ٥٠٤هـ / ١١٠٠ - ١١١٠م (شكلا ١٦١ - ١٦١مكرر) ومشهد خضرة الشريفة بالقرافة الكبرى (عزبة خير الله الجديدة بعين الصيرة جنوب القاهرة)

١٠٧ هـ / ١١٠٧ م ، ومشهد السيدة رقية (بشارع الأشرف قرب السيدة نفيسة) ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م. (شكل ١٦٣) .

د - النمط الرابع : وهو يمثل حلقة أخرى من حلقات تطور طراز المسجد القبلة في العمارة الإسلامية ، حيث لم يقتصر التطور على مجرد توسيع المساحة الداخلية للمسجد من الجانبين (المحور العرضي) فحسب وإنما امتد التطور فشمل أيضاً ، علاوة على ذلك ، توسيع هذه المساحة من العمق (المحور الطولي) ، ويمكن أن نميز بين أربعة نماذج في هذا النمط وهي :

١ - النموذج الأول : وفيه قام المعمار بزيادة عمق المسجد (المحور الطولي) من جهة القبلة (الجنوب) وذلك باضافة نصف قبة تتقدم القبة الوسطى المركزية ويكتنفها من جانبيها (المحور العرضي) قبتان صغيرتان بواقع قبة بكل جانب ، وبذلك صار قلب المسجد في هذا النموذج يشتمل على قبة مركزية كبرى تتقدمها جهة القبلة نصف قبة ، أما الجناحين فيغطى كل منهما ست قباب بواقع ثلاث قباب بكل جناح ومن أمثلة ذلك مسجد تترخان بكوزلوه بالقرم (روسيا) ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م ، ومسجد السليمية بقونية ٩٧٤ - ٩٨٢ هـ / ١٥٦٦ - ١٥٧٤ م ، ويتقدم كل من هذين المسجدين رواق خارجي (أو سقيفة) مغطاه بخمس قباب صغيرة في المسجد الأول ويسبع قباب في المسجد الثاني .

ومن النماذج المتميزة لهذا النموذج مسجد محرمه سلطان في اسكدار باستانبول ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م ، وفيه يشتمل القلب على قبة مركزية وسطى يتقدمها جهة القبلة نصف قبة ، أما الجناحين فيشتملان على نصف قبتين على جانبي القبة المركزية وقبتين صغيرتين (جهة القبلة) على جانبي نصف القبة التي تتقدم القبة المركزية جهة القبلة بواقع نصف قبة ، وقبة صغيرة بكل جناح ويتقدم هذا المسجد رواق خارجي (سقيفة) مغطى بخمس قباب صغيرة .

٢ - النموذج الثاني : وهو يشبه النموذج الأول من حيث أن زيادة عمق المسجد (المحور الطولي) كانت من جهة القبلة أيضاً إلا أنه يختلف عنه من حيث أن الزيادة لم تستوعب داخل كيان المساحة الداخلية للمسجد وبصفة خاصة جدار القبلة ، وإنما قام المعمار في هذا النموذج باضافة ايوان بارز عن سميت جدار القبلة يتوسط صدره المحراب ، ويغطي هذا الايوان قبة أو نصف قبة وأحياناً قبو ، وبهذه الاضافة صار تخطيط المسجد على هيئة حرف T .

وبذلك صار قلب المسجد فى هذا النموذج يشتمل إما على قبة مركزية كبرى تتقدمها جهة القبلة نصف قبة وفى الجناحين أربع قباب بواقع قبتان بكل جناح ، كما هو الحال فى مسجد عتيق على باشا فى استانبول ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م .

أو قبتين طوليتين فى القلب وست قباب فى الجناحين بواقع ثلاث قباب بكل جناح كما هو الحال فى مسجد السلطان بايزيد فى أماسيا ٨٩١هـ / ١٤٨٦م .

أو قبتين طوليتين فى القلب ونصفى قبتين فى الجناحين بواقع نصف قبة بكل جناح وذلك على جانبى القبة الصغرى كما هو الحال فى مسجد أحمد بك أورنوس فى يانيس فردار باليونان ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م .

أما مسجد المرادية فى مغنيسة (مانيسا) ٩٩١ - ٩٩٤هـ / ١٥٨٣ - ١٥٨٥م ، فهو من النماذج القليلة الباقية التى يشتمل قلب المسجد فيها على قبة مركزية وسطى يتقدمها قبو جهة القبلة وفى الجناحين قبوات بواقع قبو بكل جناح . ويتقدم هذا المسجد رواق خارجى (سقيفة) مغطى بخمس قباب صغيرة متساوية .

٣ - النموذج الثالث : وهو يشبه النموذج الأول ، إلا أن الاضافة لم تقتصر على زيادة عمق المسجد من جهة القبلة (الجنوب) (كما هو الحال فى النموذج الأول) فحسب ، وإنما شملت أيضاً الجهة المقابلة (الشمال) وذلك باضافة نصف قبة ثانية تتقدم القبة الوسطى المركزية من هذه الجهة (الشمال) وعلى جانبيها قبتان صغيرتان ، بواقع قبة بكل جانب ، وبذلك صار قلب المسجد فى هذا النموذج يشتمل على قبة مركزية وسطى يحيط بها من الجنوب والشمال (المحور الطولى) نصفى قبتين ، أما الجناحين فبهما ثمان قباب بواقع أربع قباب بكل جناح ، كما هو الحال فى مسجد السلطان بايزيد باستانبول ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، أو عشر قباب بواقع خمس قباب بكل جناح كما هو الحال فى مسجد السلیمانیة باستانبول ٩٥٧ - ٩٦٥هـ / ١٥٥٠ - ١٥٥٧م ، ومن الملاحظ أن هذه القباب العشر قد رتبت بالتبادل وذلك بواقع قبة كبيرة تليها قبة صغيرة ، وهكذا وهو اسلوب جذاب غير مألوف فى قباب رواقى الجناحين قبل عهد المعمار سنان (شكل ٢٨٢) (لوحتا ١٨٩ - ١٩٠) .

ويتقدم كل من مسجدى السلطان بايزيد والسلیمانیة حرم .

ومن النماذج المتميزة مسجد قليج على باشا باستانبول ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م ،

ويشتمل القلب على القبة ونصفى القبتين ، أما الجناحين فيغطى كل منهما أقبية متقاطعة بواقع أربعة أقبية بكل جناح ، ويتقدم هذا المسجد رواق خارجى (سقيفة) وغير ذلك من السمات التى سنعرض لها فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

٤ - النموذج الرابع : وهو يشبه النموذج الثالث إلا أنه يختلف عنه فى اسلوب التغطية حيث أصبحت عبارة عن قبة مركزية وسطى تحيط بها أربعة أنصاف قباب غالبا أو أربعة أقبية أحيانا ، فضلا عن وجود أربع قباب صغيرة فى الأركان (بواقع قبة بكل ركن) غالبا أو أربع أقبية أحيانا . ومن أقدم الأمثلة الباقية فى العمارة الاسلامية مسجد خزار قرب بخارى ويؤرخ بالقرن ٥هـ / ١١م (عصر القره خانيين باسيا الوسطى) وهو عبارة عن قبة مركزية وسطى تحيط بها أربعة أقبية فضلا عن أربع قباب صغيرة بالأركان .

ومنهما مسجد محمد چلبى فى ديموتيقا باليونان ٨٢٤هـ / ١٤٢١م ، ومسجد الفاتحية الصغيرة فى اثينا باليونان ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م ، والمسجد الكبير (اولو جامع) فى البستان جنوب الأناضول ويؤرخ بأواخر ق ٩هـ / ١٥م أو أوائل ق ١٠هـ / ١٦م ، ومسجد فاتح باشا بديار بكر ٩٢٢ - ٩٢٧هـ / ١٥١٦ - ١٥٢٠م .

ويتقدم الأمثلة السابقة باستثناء ، مسجد خزار قرب بخارى ، رواق خارجى (سقيفة) مغطى بثلاث قباب فى مسجد محمد چلبى وخمس قباب فى مسجد الفاتحية الصغير وسبع قباب فى مسجد فاتح باشا وثلاثة أقبية متقاطعة فى مسجد البستان .

ومن النماذج الأخرى مسجد لاله مصطفى باشا بارضروم ٩٧٠ - ٩٧١هـ / ١٥٦٢ - ١٥٦٣م ، وهو عبارة عن قبة مركزية تحيط بها أربعة أقبية فضلا عن أربع قباب صغيرة فى الأركان والرواق الخارجى (السقيفة) المغطى بخمس قباب صغيرة متماثلة .

ومسجد نصوح باشا بديار بكر ١٠١٥ - ١٠٢٠هـ / ١٦٠٦ - ١٦١١م ، وهو عبارة عن قبة مركزية وسطى تحيط بها أربعة أقبية متقاطعة فضلا عن أربعة أقبية متقاطعة أخرى فى الأركان الأربعة ويخلو هذا المسجد من وجود الرواق الخارجى (السقيفة) .

وكذلك صممت مكتبة راغب باشا باستانبول ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م، وفق هذا النموذج ، وهى عبارة عن قبة مركزية وسطى تحيط بها أربعة أقبية فضلا عن أربع قباب صغيرة فى الأركان الأربعة والرواق الخارجى (السقيفة) المغطى بقبتين صغيرتين جانبيتين يتوسطهما قبر .

هـ- النمط الخامس :- وهو يمثل حلقة أخرى من حلقات تطور طراز المسجد القبة فى العمارة الاسلامية ، حيث تم توسيع أو زيادة المساحة الداخلية للمسجد عن طريق اضافة أربعة ايوانات أو دخلات صغيرة غير عميقة فى أغلب الأحيان - ولكنها أكثر امتداداً - تحيط بمربع القبة من جهاته الأربع ، وفى هذه الحالة تشرف هذه الايوانات أو تلك الدخلات الصغيرة على المساحة الوسطى من خلال أربعة عقود (أقواس) تحصر فيما بينها - أى فى كوشاتها - منطقة الانتقال التى تقوم فوقها قبة المسجد (وهى لا تخرج بطبيعة الحال عن أى من مناطق الانتقال المشار إليها من قبل) .

وتعد النماذج الباقية لهذا النمط قليلة للغاية ومنها مسجد اورخان غازى فى بيلاچك ٧٥٧ - ٧٧٦هـ / ١٣٥٦هـ / ١٣٧٤م ، ومسجد خوجه Hoca Yadigar فى اينونو Inönü ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م ، والمسجد العتيق أو القديم (اسكى جامع) فى يامبول ببلغاريا ، وقد رجحنا تأريخه بالربع الأخير من ق ٨هـ / ١٤م ، أو العقد الأول من ق ٩هـ / ١٥م .

ومسجد أحمد كتخدا العزب خلف باب العزب بقلعة القاهرة ١١٠٩هـ / ١٦٩٧م ، (شكل ١١٩) ، ومسجد خان Han Cami فى طلاس بالأناضول ١٣١٦هـ / ١٨٩٩م . (شكل ٢٧٢) .

وقد أثبتنا فى دراسة سابقة أن هذا النمط من التخطيط قد عرف كذلك فى العمائر الجنائزية ، كما هو الحال فى تصميم القبة الملحقه بمدرسة الأمير صرغتمش (بجوار جامع أحمد بن طولون بشارع الصليبة بالقاهرة) ، ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م (شكلا ١٣٨ ، ١٦٨) ، والقبة الملحقه بمدرسة الأمير اينال اليوسفى (بالخيامية بالقاهرة) ٧٩٤ - ٧٩٥هـ / ١٣٩١م - ١٣٩٢م ، وقبة الشيخ على الروبى بالفيوم ١١٢٠هـ / ١٧١٧م .

وهو الأمر الذى يضيف قرينة جديدة على مدى ملائمة التخطيط فى العمارة الاسلامية لتأدية أكثر من وظيفة كما سبق القول .

و- النمط السادس : وهو يمثل حلقة أخرى من حلقات تطور طراز المسجد القبة فى العمارة الاسلامية ، وفيه تمت الاضافة خارج كيان المساحة الداخلية للمسجد عن طريق زيادة عبارة عن ثلاثة أروقة (بلاطات) تحيط بمربع القبة من ثلاث جهات عدا جهة القبلة .

ويغطي هذه الأروقة قباب صغيرة ، ومن الملاحظ أنه يتوسط صدر كل رواق من الرواقين الجانبيين لهذه الزيادة محراب صغير غالبا .

وتعد النماذج الباقية لهذا النمط قليلة للغاية ومنها مسجد لارى چلبى بادرنه (تركيا) ٩٢٠هـ / ١٥١٤م ، وجامع سنان باشا ببولاق بالقاهرة ٩٧٩هـ / ١٥٧١م ، ومسجد ومدرسة على باشا بالهفوف (الاحساء) بالمملكة العربية السعودية ٩٧٩هـ / ١٥٧١م ، والجامع الخزفى فى اسكدار باستانبول ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م ، وجامع محمد بك أبو الذهب (تجاه الأزهر بالقاهرة) ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م . (أشكال ١١٧ - ١١٨ ، ٢٧٣) (لوحة ٤٥) .

أما المسجد الملحق بمشهد الشيخ عبد القادر الجيلانى ببغداد ٩٤١هـ / ١٥٣٤م ، فهو ينتمى إلى طراز المسجد القبة بنمطة البسيط ، ولكن أضيفت له فى عام ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م زيادة بأمر الوزير حسين باشا السلحدار ، وتحيط هذه الزيادة بالمسجد من ثلاث جهات عدا جهة القبلة ، وتتكون هذه الزيادة من رواقين بكل جهة وليس رواق واحد كما هو الحال فى النماذج المشار إليها سابقا . (شكل ٣٩) .

وقد أثبتنا فى دراسة سابقة أن هذا النمط قد عرف هو الآخر فى تصميم العمائر الجنائزية فى العمارة الاسلامية خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ومن أمثلة ذلك نموذج المقبرة رقم ٤٢ من مقابر جبانة أسوان جنوب مصر وتؤرخ بعصر الولاة قبل ٢٥٤هـ / ٨٦٨م ، ثم استمر ذلك النمط خلال العصر الفاطمى ولا سيما فى تصميم المشاهد ، ومنها مشهد كلثوم (كلثم) ٥١٦هـ / ١١٢٢ ، ومشهد القاسم الطيب ويؤرخ بمنتصف ق ٦هـ / ١٢م ، ومشهد يحيى الشبيه حوالى ٥٤٥هـ / ١١٥٠م ، بالقرافة جنوب الامام الشافعى بالقاهرة .

وهو الأمر الذى يضيف قرينة جديدة على مدى ملائمة التخطيط فى العمارة الاسلامية لتأدية أكثر من وظيفة كما سبق القول .

٧- الطراز السابع^(١٠٥) : ويعرف بالطراز التركى أو العثمانى ، ونفضل نحن

(١٠٥) عن هذا الطراز بنماذجه المختلفة انظر دراساتنا المنشورة وما بها من مراجع متعددة ومنها ، بحوث ودراسات (الكتاب الأول) ، ص ١٤٩ - ١٦٢ ؛ موسوعة ، المدخل ، ص ٩٣ - ١٠٣ ، العمارة الإسلامية فى أوروبا العثمانية ، المجلد الأول ، ص ٢٠٧ - ٢٢٠ .

تسميته بالطراز التقليدي (أو الكلاسيكي) التركي ويشتمل جوهر التخطيط العام في هذا الطراز في أن المسجد أو الجامع صار يتكون من قسمين رئيسيين أحدهما مغطى ويمثل المسجد نفسه (وهو ما يعرف خطأ في الدراسات الأجنبية والمعربة والعربية باسم بيت الصلاة) والآخر مكشوف (وهو ما يعرف في الاصطلاح باسم الحرم Avlu, Harim كما سبق القول) .

والحق فإن هذا الطراز لا يقتصر فقط على النموذج المثالي له وهو النموذج الذي يشتمل على القبة المركزية وأنصاف القباب الأربع والقباب الأربعة الصغيرة في الأركان (كما هو شائع في غالبية الدراسات المنشورة) فحسب ، وإنما يندرج تحت هذا الطراز كل النماذج التي أضيف إليها حرم (بدلاً من الرواق الخارجي أو السقيفة) سواء أكانت تتبع طراز المسجد القبة بنمطه البسيط أو بأنماطه المتطورة السابق الإشارة إليها ، أو طراز المسجد على هيئة حرف T .

وعلى ذلك نستطيع أن نحصر هذا الطراز في النماذج التالية :

١- **النموذج الأول** : وهو عبارة عن النمط البسيط الأول (مسجد قبة) ولكن يتقدمه حرم ومن أمثلة ذلك مسجد الخنكار في سراييفو (بوسنه سراي) ٨٦٦هـ / ١٤٦٣م ، ومسجد بايزيد ضمن مجمعه بادرنه ٨٨٩ - ٨٩٤هـ / ١٤٨٤ - ١٤٨٨م ، (شكلاً ٢٧٤ - ٢٧٤ مكرر) ، ومسجد السليمية (سليم الأول) باستانبول ٩٢٩هـ / ١٥٢٢م .

٢- **النموذج الثاني** : وهو عبارة عن النمط الثالث (النمط المعروف بالقلب والجناحين) يتقدمه حرم ، ومن أمثلة ذلك مسجد أوج شرفلى بادرنه ٨٤١ - ٨٥١هـ / ١٤٣٧ - ١٤٤٧م ، ومسجد جوزليج حسن بك في خيرابولو ٩٠٥هـ / ١٥٩٩م (أشكال ٢٧٨ - ٢٨٠) . (شكل ٣٠) ، والمدرسة السكندرية في زبيد باليمن قبل ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م (شكل ٣٠) . ومنها مسجد السليمية (سليم الثاني) في أدرنة ٩٧٦هـ - ٩٨٣هـ / ١٥٦٩ - ١٥٧٤م ، ويمثل آخر ابداعات وتجليات المعمار العظيم قوجه سنان . (شكل ٢٧٥) (الوحة ١٩٢) ، ومسجد الوالدة الجديد في اسكدار باستانبول ١١٢٠ - ١١٢٢هـ / ١٧٠٨ - ١٧١٠م .

ومنها مسجد الدرويشية بدمشق ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م (شكل ٧٦) ، ومسجد سنان

باشا بدمشق ٩٩٥ - ٩٩٩ هـ / ١٥٨٦ - ١٥٩٠ م ، (شكل ٧٥) ، ومن الملاحظ فى هذه المساجد الأربعة الأخيرة اختلاف تصميم الجناحين أو الرواقين الجانبيين عن النماذج السابقة ؛ فضلا عن بعض السمات والخصائص الأخرى التى ينفرد بها كل مسجد وهو ما سنشير إليه فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

٣- النموذج الثالث ؛ وهو عبارة عن النموذج الثانى من النمط الرابع ، ولكن يتقدمه حرم ، ومن أمثلة ذلك مسجد الملكة صفية بالداودية بالقاهرة ١٠١٩ هـ / ١٦١٠ م ، (شكل ١٥٧) .

٤- النموذج الرابع ؛ وهو عبارة عن النموذج الأول من النمط الرابع ، ولكن يتقدمه حرم ، ومن أمثلة ذلك مسجد الفاتح القديم (قبل تجديده عام ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م) ٨٦٧ - ٨٧٥ هـ / ١٤٦٢ - ١٤٧٠ م (شكل ٢٨١) .

٥- النموذج الخامس ؛ وهو عبارة عن النموذج الثالث من النمط الرابع ، ولكن يتقدمه حرم ، ومن أمثلة ذلك مسجد بايزيد باستانبول ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ، ومسجد السلمانية باستانبول ٩٥٧ - ٩٦٥ هـ / ١٥٥٠ - ١٥٥٧ م ، (شكل ٢٨٢ ، لوحا ١٨٩ - ١٩٠) .

٦- النموذج السادس ؛ وهو عبارة عن النموذج الرابع من النمط الرابع ، ولكن يتقدمه حرم ، ويمثل هذا النموذج النموذج المثالى للطراز التقليدى (أو الكلاسيكى) فى العمارة الاسلامية خلال العصر العثمانى ، ويحلو للبعض تسميته بالطراز الامبراطورى ، ومن أمثلته جامع شاهزاده باستانبول ٩٥١ - ٩٥٥ هـ / ١٥٤٤ - ١٥٤٨ م ، وجامع السلطان أحمد الأول المعروف بالجامع الأزرق باستانبول ١٠١٨ - ١٠٢٧ هـ / ١٦٠٩ - ١٦١٧ م ، (لوحه ١٩١) ، وجامع الوالدة الجديد (ينى جامع) باستانبول ١٠٢٣ - ١٠٧٤ م ، ١٦١٤ - ١٦٦٣ م ، وجامع السلطان محمد الفاتح باستانبول بعد تجديده عام ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م (أشكال ٢٨٣ - ٢٨٦) ، وجامع محمد على بقلعة القاهرة ١٢٤٦ - ١٢٦٥ هـ / ١٨٣٠ - ١٨٤٨ م . (شكل ١٥٨) (لوحا ٤٦ - ٤٧) .

٧- النموذج السابع ؛ وهو عبارة عن طراز المسجد على هيئة حرف T ولكن يتقدمه الحرم (بدلا من الرواق الخارجى أو السقيفة) والمعروف منه حتى الآن - فيما أعلم - النموذج وحيد باق بالقاهرة ، وهو مسجد سليمان باشا المعروف بجامع سيدى سارية بقلعة القاهرة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م (شكل ١٥٦) .

المبحث الثاني : المدارس :-

دارت مناقشات عديدة بين العلماء والباحثين حول أصل المدرسة ونشأتها في الحضارة الإسلامية بصفة عامة من جهة ، وحول العوامل التي كانت وراء ظهورها وانتشارها في العمارة الإسلامية بصفة خاصة من جهة ثانية ؛ بل وحول نظم تخطيطها ومصادرها وأصوله من جهة ثالثة .

ولما كان المقام لا يتسع لدراسة كل الآراء والنظريات التي إنتهى إليها العلماء والباحثين^(١٠٦) ، ولذلك سوف نؤجل مثل هذه الدراسة المطولة إلى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

ولكن حسبنا أن نشير هنا إلى أن المدرسة من حيث كونها كيان معمارى مستقل تعد طرزاً مستحدثاً ، بعد المساجد ، في العمارة الدينية الإسلامية ؛ فلم يكن يعرف قبل القرن ٢هـ / ٨م ؛ ثم لم تلبث أن إنتشرت في مدن المشرق الإسلامي خلال القرن ٤هـ / ١٠م ، فها هو المقدسى الذي كتب كتابه الموسوم بـ « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » عام ٣٧٥هـ / ٩٨٥م ، يذكر في مقدمته أنه قد أمم في المساجد واختلف إلى المدارس وأكل مع أهل الخانقاوات الشرائد^(١٠٧) ، وفي بعض المصادر التاريخية الأخرى

(١٠٦) حسبنا أن نحيل القارئ والمتخصص إلى بعض الدراسات التي دارت حول هذه الموضوعات ومنها : فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ج٢ ، العصر الأيوبي ، القاهرة (١٩٦٩م) ، ص ٩٩ - ١٩٢ ؛ سعد الدين ، محمد منير ، المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى ، بيروت - صيدا (١٩٩٥م) ؛ الديوه جى ، سعيد ، التربية والتعليم في الإسلام ، الموصل (١٩٨٢م) ؛ معروف ، ناجى ، نشأة المدارس المستقلة في الإسلام ، بغداد (١٩٦٦م) ؛ حيدر ، كامل ، العمارة العربية الإسلامية ، نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسى ، بيروت (١٩٩٥م) ، رؤوف ، عماد عبد السلام ، مدارس بغداد في العصر العباسى ، بغداد (١٩٦٦م) ؛ المقدسى ، جورج ، نشأة الكليات ، معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب ، ترجمة محمود سيد محمد ، مراجعة وتعليق محمد على حبشى وعبد الوهاب أبو سليمان ، جدة (١٩٩٤م) ؛ الجاسر ، لياء ، مدارس حلب الأثرية تاريخها وعمارتها ، حلب (٢٠٠٠م) ، ص ٢٤ - ٧٦ .

(١٠٧) المقدسى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل (١٩٠٦م) ، ص ٤٤ .

أسماء لعدد من المدارس التى أنشئت فى المشرق خلال القرن ٤هـ / ١٠م (١٠٨) .

واستمر ذلك الانتشار خلال القرن ٥هـ / ١١م ، إلا أن التطور المهم فى ذلك الوقت يتمثل فى أن المدارس أصبحت مؤسسات سياسية تخضع للإشراف الرسمى للدولة ، وكان وراء هذا التطور الوزير نظام الملك الطوسى (ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) الذى أمر بإنشاء عدة مدارس عرفت كلها بالنظامية نسبة إلى لقبه وكانت أقدمها وأولها نظامية بغداد ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م ، وتلتها مدارس نظامية أخرى فى البصرة والموصل وأصبهان وآمل وطبرستان ومرو ونيسابور وبلخ (١٠٩) .

وبعد ذلك انتشرت المدارس فى دار الاسلام انتشاراً كبيراً وهو ما يستدل عليه من خلال ما ورد فى المصادر التاريخية المختلفة ؛ فضلاً عن الأدلة المادية الأثرية الباقية .

ومهما يكن من أمر ، فإن إنشاء المدارس كان بداية عهد جديد فى تطور العمارة الاسلامية - وبخاصة العماير الدينية - من جهة وفى ازدهار الحركة العلمية فى أقطار العالم الاسلامى من جهة ثانية (وهو ما قمنا بتسليط الضوء عليه فى الفصل الرابع من الباب الأول فى هذا الكتاب .

وفيما يلى نتحدث عن أهم وأشهر الطرز التى صممت على أساسها عمارة المدارس فى الأقطار الاسلامية المختلفة .

١ - مصر :

من المعروف أن المدارس قد وجدت طريقها إلى مصر فى أواخر العصر الفاطمى فى الاسكندرية أولاً ثم فى القاهرة ثانياً (١١٠) ، وخلال العصر الأيوبي أنشئت بمصر ٢٥

(١٠٨) انظر الدراسات المذكورة فى الحاشية رقم ١٠٦ ، وانظر أيضاً ، معروف ، ناجى ، مدارس قبل النظامية . مجلة المجمع العلمى العراقى ، المجلد ٢٢ ، بغداد (١٩٧٣م) ، ص ١١١ - ١٥٥ (وفية احصاء لعدد ٣٣ مدرسة بنيت قبل النظامية) .

(١٠٩) السبكى ، أبو نصر عبد الوهاب ، ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٤ ، القاهرة (١٩٠٦م) ، ص ٣١٣ - ٣١٤ ؛ أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج ١ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة (١٩٥٦م) ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(١١٠) سيد ، أيمن فؤاد ، المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبي ، ضمن كتاب تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٠م) ، ص ١١٤ - ١٢٦ .

مدرسة منها ٢٢ مدرسة بالقاهرة و ٢ مدرسة بالفيوم ومدرسة واحدة بالاسكندرية ولم يتبق منها جميعا سوى بقايا مدرستين وهما دار الحديث الكاملية (بشارع النحاسين) ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م ، والمدارس الصالحية النجمية (بذات الشارح) ٦٣٩ - ٦٤١هـ / ١٢٤١ - ١٢٤٣م (١١١) .

وفى العصر المملوكى بنى بمصر من المدارس ما لا يحيط به أحد لكثرتها على حد قول الرحالة ابن بطوطة (١١٢) ، وقد بنى منها بالقاهرة وحدها « ما ملأ الأخطاط (الأحياء) وشحنها » على حد قول القلقشندي (١١٣) . إلا أنه لم يتبق من كل ذلك سوى ٤٨ مدرسة بالقاهرة ؛ ولو أضفنا إليها المدارس الأربع الفرعية الملحقه بمدرسة السلطان حسن يصير العدد الكلى للمدارس الباقية ٥٢ مدرسة مملوكية (١١٤) . ونستطيع أن نحصر تخطيطات هذه المدارس الباقية فى ثلاثة أنواع رئيسية وهى :

أ - التخطيط ذوالايوانات حول صحن أو درقاعة (١١٥) :

يعد هذا النوع من التخطيط أكثر أنواع التخطيطات شيوعا وانتشاراً حيث يبلغ عدد المدارس المصممة وفق ذلك النوع ٤٤ مدرسة مملوكية فضلا عن بقايا المدرستين الأيوبيتين المشار إليهما .

ويمكن أن نحصر تخطيطات هذا النوع فى خمسة نماذج رئيسية وذلك على النحو التالى :

(١١١) فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ج٢ ، ص ٤٩ - ٧٥ ؛ صبرة ، عفان سيد ، المدارس فى العصر الأيوبي ، ضمن كتاب تاريخ المدارس المشار إليه ، ص ١٤٣ - ٢٠٤ ؛ الحداد ، محمد حمزة ، بحوث ودراسات (الكتاب الأول) ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(١١٢) ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م ، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسماه برحلة ابن بطوطة ، بيروت ، ط ٢ ، د ت ، ص ٣٣ .

(١١٣) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن على ، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

(١١٤) الحداد ، محمد حمزة ، بحوث ودراسات (الكتاب الأول) ، ص ٢١٢ حاشية ١ .

(١١٥) عن هذا النوع من التخطيط بنماذجه الخمسة الرئيسية التى ترجع إلى العصر المملوكى انظر دراستنا المطولة الموسومة بـ « العلاقة بين النقش التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعماري لمدارس القاهرة فى العصر المملوكى » ، ضمن كتابنا بحوث ودراسات المشار إليه ، ص ٢٢٢ - ٢٢٥ .

- النموذج الأول : وهو عبارة عن صحن (أو درقاعة) أوسط مكشوف تحيط به أربعة ايوانات أكبرها وأعمقها ايوان القبلة غالبا ومن أمثلته الباقية كل من : مدرسة الناصر محمد (بالنحاسين) ٧٠٣م / ١٣٠٣م ، ومدرسة صرغتمش (بجوار جامع ابن طولون) ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م ، ومدرسة السلطان حسن ٧٥٧ - ٧٦٤هـ / ١٣٥٦ - ١٣٦٢م ، ومدرسة خوند بركة (أم السلطان شعبان (بالتبانة) ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م ، ومدرسة اولجاي اليوسفى (بشارع سوق السلاح) ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م ، ومدرسة الظاهر برقوق (بالنحاسين) ٧٨٦ - ٧٨٨هـ / ١٣٨٤ - ١٣٨٦م ، ومدرسة جمال الدين يوسف الأستاذار (بالجمالية) ٨١١هـ / ١٤٠٨م ، ومدرسة الأشرف برسباي (بالصاغة) ٨٢٦ - ٨٢٩هـ / ١٤٢٢ - ١٤٢٥م ، ومدرسة عبد الغنى الفخرى (جامع البنات) بشارع بور سعيد ٨٢١هـ / ١٤١٨م ، ومدرسة القاضى عبد الباسط (بالخرنفش) ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م . (أشكال ١٣٨ - ١٤٣) (لوحات ٥٣ - ٥٤ ، ٥٩ - ٦٣ ، ٦٥) .

- النموذج الثانى : وهو عبارة عن صحن (أو درقاعة) أوسط مكشوف أو مغطى يحيط به إيوانان رئيسيان هما الإيوان القبلى (الجنوبى الشرقى) والإيوان البحرى (الشمالى الغربى) وسدلتان جانبيتان (أى إيوانان صغيران هما الجنوبى الغربى والشمالى الشرقى) ومن أمثلته الباقية كل من : مدرسة قلاوون (قبل تغيير معالمها) ٦٨٣ - ٦٨٤هـ / ١٢٨٤ - ١٢٨٥م ، كما يستدل من الوثيقة ، ومدرسة مثقال (بدر بقرمز) ٧٦٣هـ / ١٣٦١م ، ومدرسة جوهر اللالا (بدر البان) ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م ، والمدرسة الجوهريّة الملحقّة بالأزهر قبل ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م ، ومدرسة تغرى بردى بالصليبة ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م ، ومدرسة جقمق (بدر سعادة) ٨٥٥هـ / ١٤٥١م ، ومدرسة السلطان إينال (بقرافة الغفير) ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م ، ومدارس السلطان قايتباي الثلاث : (بالقرافة) ٨٧٧ - ٨٧٩هـ / ١٤٧٢ - ١٤٧٤م ، والثانية (بقلعة الكيش) ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م ، والثالثة (بالميل) ٨٨٦ - ٨٩٦هـ / ١٤٨١ - ١٤٩٠م ، ومدرسة أبو بكر مزهر (بحارة برجوان) ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م ، ومدرسة أزبك اليوسفى (ببركة الفيل) ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م ، ومدرسة قانى باي أمير آخور (بدر البان) ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م ، ومدرسته الأخرى (بالناصرية) ٩١١هـ / ١٥٠٥م ، ومدرسة الغورى (بالغورية) ٩٠٩ - ٩١٠هـ / ١٥٠٣ - ١٥٠٤م ، ومدرسة قرقماس أمير كبير (بقرافة الغفير) ٩١١ - ٩١٣هـ / ١٥٠٥ - ١٥٠٧م ، ومدرسة بيبرس الخياط (بالجودرية) ٩٢١هـ / ١٥١٥م . (أشكال ١٠٨ مكرر، ١٣٧ - ١٣٧ مكرر ، ١٤٤ - ١٤٩) (لوحات ٥٢ ، ٦٩ - ٧٥ ، ٧٨) .

- النموذج الثالث : وهو عبارة عن صحن (أو درقاعة) أوسط مغطى غالباً

ومكشوف أحياناً يحيط به إيوانان رئيسيان هما إيوان القبلة (الجنوبى الشرقى) والإيوان البحرى (الشمالى الغربى) المقابل له ، ومن أمثلة المدارس ذات الصحن المكشوفة كل من : مدرسة دار الحديث الكاملية ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م ، إلا أن الإيوان القبلى قد حل محله مسجد فى العصر العثمانى على يدى الأمير حسن كتحدا مستحفظان ١١٦٦هـ / ١٧٥٢م ، (وهو الذى تطل واجهته على شارع المعز الآن) وقد أثبتت الحفائر الأثرية أنه كان يتقدم الحجرات فى الضلعين الجانبيين للصحن رواق بكل جانب (١١٦) .

والمدرسة الشمالية وهى الجزء المتبقى من المدارس الصالحية ٦٣٩ - ٦٤١هـ / ١٢٤١ - ١٢٤٣م ، فضلاً عن الواجهة الغربية لكلا المدرستين الجنوبية والشمالية ويتوسطها كتلة المدخل الرئيسى وتعلوه المئذنة ، وكانت هذه المدارس الصالحية هى أول المدارس التى خصصت لتدريس المذاهب السنية الأربعة فى مصر بواقع مذهبين فى المدرسة الجنوبية الدارسة (وهما المذهب الحنفى والمذهب الحنبلى) ومذهبين فى المدرسة الشمالية التى لا تزال بقاياها قائمة (وهما المذهب الشافعى والمذهب المالكى) ، وثانى المدارس فى دار الاسلام بعد المدرسة المستنصرية فى بغداد ٦٣١هـ / ١٢٣٣م ، كما سنشير فيما بعد. وكان يتقدم حجرات الضلعين الجانبيين للصحن رواق بكل جانب كما أثبتت الحفائر الأثرية .

هذا وقد حل محل قاعة شيخ المالكية بالمدرسة الشمالية ضريح للسلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب أمرت بانشائه له زوجته شجر الدر عقب وفاته فى المنصورة (أثناء الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع) فى منتصف شعبان ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م (١١٧) . (شكل ١٣١) (لوحة ٤٨) .

-
- (١١٦) فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ج٢ ، العصر الأيوبي ، ص ٥٥ - ٥٩ ؛ نويسر ، العمارة الإسلامية فى مصر عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٦٨ - ٧٥ ؛ العمرى ، العمارة فى مصر الإسلامية (العصرين الفاطمى والأيوبي) ، ص ١١٨ - ١٢٢ ؛ يحيى ، سوسن سليمان ، منشآت السيف والقلم فى الجهاد الإسلامى ، العمارة الأيوبية ، القاهرة (١٩٩٤م) ، ص ٩٨ - ١٠٥ ؛ موسى ، رفعت ، معلومات جديدة عن نشأة المدرسة الكاملية ووظيفتها فى العصر العثمانى بمدينة القاهرة فى القرن ١١هـ / ١٧م ، مجلة كلية الآداب - جامعة حلوان ، العدد السابع (يناير ٢٠٠٠م) ، ص ٥٦٧ - ٦٢٠ .
- (١١٧) فكرى ، مساجد ، ج٢ ، ص ٤١ ، ٦٠ - ٧٥ ؛ نويسر ، العمارة الإسلامية ، ص ٧٦ - ٩٥ ؛ العمرى ، العمارة فى مصر ، ص ١٢٣ - ١٣١ ، ١٧٠ ؛ يحيى ، منشآت ، ص ١٠٦ - ١١٩ ، ١٤٤ ؛
- Abouseif, Islamic Architecture in Cairo, PP. 87 - 91 .

أما المدارس المملوكية التي صممت وفق ذلك النموذج فكلها ذات صحن مغطاة ، ومن أمثلتها كل من : مدرسة اينال اليوسفس ٧٩٤ - ٧٩٥ هـ / ١٣٩١ - ١٣٩٢ م ، ومدرسة جمال الدين محمود الاستادار (بالخيامية) ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥ م ، ومدرسة قانى باى المحمدى (بالصلبية) ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م ، ومدرسة السويدى (بمصر القديمة) ٨٢٩ هـ / ١٤٢٦ م ، ومدرسة الجمالى يوسف (بالحمزاوي) ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م ، ومدرسة جانم البهلوان (بالسروجية) ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨ م ، ومدرسة خاير بك (بباب الوزير) ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م . (أشكال ١٣٢ - ١٣٤ ، ١٥٤ - ١٥٤ مكرر) ، (الوحة ٧٧) .

النموذج الرابع : وهو عبارة عن صحن (أو درقاعة) مكشوف أو مغطى يشغل ضلعه القبلى ايوان رئيس واحد هو ايوان القبلة ومن أمثلة ذلك المدارس الأربع الفرعية الملحققة بمدرسة السلطان حسن ٧٥٧ - ٧٦٤ هـ / ١٣٥٦ - ١٣٦٢ م ، والمدرسة البشيرية ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م ، ومدرسة أيتمش البجاسى ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م ، ومدرسة فيروز الساقى ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م ، أما مدرسة قطلوبغا الذهبى ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ، فإن ايوانها الرئيسى يشغل الضلع الشمالى الغربى للصحن أو للدقاعة ، أما صدر الصحن أو الدقاعة فيتوسطه المحراب (وهو من الأمثلة النادرة لهذا الوضع) (أشكال ١٢٦ - ١٢٨ ، ١٣٩ - ١٤٠) .

- النموذج الخامس : وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف تحيط به ثلاثة ايوانات كما هو الحال فى مدرسة تتر الحجازية (شكل ١٣٦) (بحسب الرحبة بالجمالية ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م ، وهى انموذج فريد فى عمارة المدارس المصرية الاسلامية . وإذا كانت المدارس المشار إليها سابقا تكاد تتفق مع بعضها البعض فى المميزات العامة والتخطيط العام (حسب النموذج الذى تنتمى إليه كل مدرسة) إلا إنها تختلف فيما بينها من حيث بعض العناصر والمفردات والتفاصيل والملحقات ؛ فضلا عن الخلاوى والطباقات وغير ذلك؛ أو بمعنى آخر فإن لكل مدرسة منها شخصية مستقلة قائمة بذاتها وطابع خاص يميز لها خاص بها .

وأعظم هذه المدارس هى مدرسة السلطان حسن الشهيرة (٧٥٧ - ٧٦٤ هـ / ١٣٥٦ - ١٣١٢ م) ، وليس فى مصر وحدها بل فى عمارة المدارس الاسلامية عامة ، وصدق فيها قول القائل :

فى جامع السلطان قم يا من أتى مصرا
وطف سعيًا بذياك الحرم
وانظر بناءً ينجلي للناس فى ثوب
الشباب واطرح ذكر الهرم

ب- التخطيط المتأثر بالتخطيط العربى التقليدى للمساجد الإسلامية^(١١٨):

وهو عبارة عن صحن (أو درقاعة) مكشوف أو مغطى ، ومقدم ومؤخر ومجنبتان ،
ومن أمثلته المدرسة الأقبغاوية (الملحقة بالأزهر) ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م ، ومدرسة قانى باى
الچركسى ٨٤٥هـ / ١٤٤١م. والمدرسة الأولى عبارة عن درقاعة وسطى مغطاة تحيط بها
أربعة أروقة (بلاطات) بواقع رواق واحد بكل من المقدم والمؤخر والمجنبتين ، وتشرف هذه
الأروقة (البلاطات) الأربعة على الدرقاعة ببائكة ذات ثلاثة عقود (أقواس) أوسطها
أوسعها . (شكل ١٠٨ مكرر) ، أما المدرسة الثانية فهى تشبه المدرسة الأولى إلا أن
الدرقاعة مكشوفة فضلا عن أن المجنبتين تشرفان عليها ببائكة ذات عقدين فقط وليس
ثلاثة كما هو الحال فى الأقبغاوية ، أما بائكتى المقدم والمجنبتين فمتماثلتين فى كلا
المدرستين من حيث الاشراف على الدرقاعة بثلاثة عقود .

ج- التخطيط المتأثر بالتخطيط العربى غير التقليدى للمساجد الإسلامية^(١١٩):

وهو التخطيط الذى اصطلحنا على تسميته بالتخطيط ذو الأروقة دون الصحن
الأوسط أو الدرقاعة ، ومن أمثلة ذلك المدرسة البندقدارية (بالسيوفية) وتعرف بزاوية
الآبار ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م ، والمدرسة الطيبرسية (الملحقة بالأزهر) ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م
(شكلا ١٠٨ مكرر ، ١١٢) .

(١١٨) الحداد ، العلاقة ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(١١٩) الحداد ، العلاقة ، ص ٢٢٦ .

أما عن تقرير أى درس من الدروس ، بل وأى وظيفة من الوظائف فى المدارس السابقة ، فكان يتوقف أولاً وأخيراً على رغبة الواقف وإمكانياته ، فهو وحده الذى كان يقرر الدروس والوظائف فى منشآته أيا كان نوع التخطيط الذى صممت على أساسه من الأنواع الثلاثة السابقة ، وفى ضوء ذلك فإنه لا يصح مطلقاً الربط بين عدد الايوانات فى المدرسة وبين عدد المذاهب التى كانت تدرس بها كما هو شائع فى العديد من الدراسات ويؤيد ذلك الحقائق التالية :

أ - لم يقتصر تدريس المذهب الواحد على المدارس ذات الايوان الواحد مثل البقرية وأيتمش بل درس أيضاً فى المدارس ذات الايوانين مثل مدرسة السويدي وذات الأربعة ايوانات مثل مدرسة صرغتمش ، بل وفى مدارس صممت وفق التخطيط العربى غير التقليدى للمساجد الاسلامية ، مثل المدرسة الطبرسية بالأزهر الشريف .

ب - لم يقتصر تدريس المذهبين على المدارس ذات الايوانين مثل مدرسة قانى باى المحمدى بل درس فى مدارس ذات ثلاثة ايوانات مثل مدرسة تتر الحجازية ، ومدارس رباعية الايوانات مثل أم السلطان شعبان وأولجاي اليوسفى بل وفى مدارس صممت وفق التخطيط العربى التقليدى للمساجد الاسلامية مثل المدرسة الأقبغاوية بالأزهر الشريف .

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول أنه قد حدث خلال العصر المملوكى فى مصر نوعاً من التشابه والتقارب المعمارى بين العماثر الدينية الثلاث الرئيسية (المساجد - المدارس - الخوانق) فلم يعد هناك ثمة فرق كبير بينها سواء فى التخطيط المعمارى أو فى الوحدات والعناصر والمفردات والملحقات ، وهو الأمر الذى كان له أثره الكبير فى ايجاد ما يمكن أن يطلق عليه تجاوزاً مصطلح التقارب الوظيفى فأصبح المبنى الواحد بتخطيطه (سواء ذى الايوانات أو ذى الاروقة حول صحن أو دون الصحن) ملائماً وصالحاً للقيام بالوظيفة أو الوظائف التى تقرر فيه والتى كانت تتوقف أولاً وأخيراً على رغبة الواقف وإمكانياته (١٢٠) ، كما سبق القول .

(١٢٠) عن هذا الموضوع بالتفصيل انظر دراستنا الموسومة بـ « العلاقة » المشار إليها ، ص ٢٢٧ - ٢٦٨ .

٢- العراق :

من المعروف أن المدارس انتشرت في العراق بدرجة كبيرة فها هو الرحالة ابن جبير الذي زار بغداد في أواخر ق ٦هـ / ١٢م ، يذكر أن المدارس بها « نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية ... وما منها مدرسة إلا (وهي) يقصر القصر البديع عنها وأعظمها شأنًا وأشهرها النظامية » (١٢١).

إلا أنه لم يتبق من هذه المدارس سوى القليل وحسبنا أن نشير إلى أهمها وهي المدرسة الشراعية المعروفة بالقصر العباسي ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م ، (وتقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من وزارة الدفاع الحالية ، ويفصل بينها وبين الوزارة جامع القلعة) (١٢٢) ، والمدرسة المستنصرية ٦٣١هـ / ١٢٣٣م ، وتقع بوسط بغداد الحالية على الضفة الشرقية لنهر دجلة قريباً من راس الجسر الشمالي المسمى بجسر الشهداء من جهته السفلي (العصر العباسي) (١٢٣) ، والمدرسة المرجانية ٧٥٨هـ / ١٣٥٦م (العصر الجلائري) (١٢٤).

ويرى بعض العلماء أن المشهد المعروف بمزار الأربعين في تكريت إنما هو مدرسة يرجح أنها أنشئت في أواخر ٥هـ / ١١م (١٢٥) ، أو الربع الأخير من ق ٦هـ / ١٢م (١٢٦). ورغم ذلك فإنه يمكن في ضوء تلك النماذج القليلة الباقية أن نحدد الخصائص العامة والسمات الرئيسية التي تميز طراز عمارة المدارس العراقية ، وذلك على النحو التالي :

(١٢١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٨٣ .

(١٢٢) حيدر ، العمارة العربية الإسلامية ، ص ٥٠ - ٦٣ ؛ معروف ، ناجي ، المدارس الشراعية ببغداد وواسط ومكة ، بغداد ، ط ٢ ، (١٩٧٧م) ، ص ١٤٤٩ - ١٩٧ ؛ وعن القول بأن هذا المبنى هو القصر العباسي وليس المدرسة الشراعية انظر عبد الرسول ، سليمة ، القصر العباسي في بغداد ، بغداد (١٩٨١م) ، (٩٠ صفحة) ؛ رجب ، غازي ، العمارة العربية ، ص ١٤٩ - ٢٥٧ .

(١٢٣) حيدر ، العمارة ، ص ٧٤ - ١٠٠ ؛ الأعظمي ، خالد خليل ، المدرسة المستنصرية في بغداد ، بغداد (١٩٨١م) ، (٤٦ صفحة) ؛ أمين ، حسين ، المدرسة المستنصرية ببغداد ، بغداد (١٩٦٠م) ؛ ص ١٠٤ - ١١٦ ، معروف ، ناجي ، تاريخ علماء المستنصرية ، جزآن ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٧٦م) ؛ رجب ، غازي ، العمارة العربية ، ص ٢٦١ - ٢٧٧ .

(١٢٤) رجب ، غازي ، العمارة العربية ، ص ٣٦٩ - ٣٨١ ؛ النقشبندی ، ناصر ، المدرسة المرجانية ، سومر ، ج ١ ، المجلد الثاني ، كانون الثاني (١٩٤٦م) ، ص ٣٣ - ١٢٦ .

(١٢٥) حميد ، عبد العزيز ، عمارة الأربعين في تكريت ، مجلة سومر ، المجلد ٢١ ، الجزء ١ - ٢ ، بغداد (١٩٦٥م) ، ص ١٢٣ - ١٥٦ ؛ فكري ، مساجد ، ج ٢ ، ص ١٠١ - ١٠٣ .

(١٢٦) حيدر ، العمارة العربية ، ص ٣٥ - ٤٩ .

ويمكن القول ، بادئ ذي بدء ، أن المدارس الثلاث الباقية فى بغداد تكاد تتشابه فيما بينها من حيث الشكل العام والتخطيط العام من طابقين وما يشتمل عليه من المساجد والايوانات والأروقة والقاعات الكبرى والحجرات والغرف والمجازات والدهاليز والمداخل والسلالم الصاعدة إلى الطابق العلوى ؛ فضلا عن الأسقف والعقود والمقرنصات والنقوش الكتابية والزخرفية ، ومع ذلك نستطيع أن نميز بين نمطين فى عمارة هذه المدارس وهما :

١- النمط المربع : ويتمثل فى كل من المدرسة الشراعية والمدرسة المرجانية ببغداد (شكلا ٤٤ - ٤٥) فضلا عن مشهد الأربعين فى تكريت الذى يرجح أنه كان مدرسة كما سبق القول .

ويشتمل هذا النمط على صحن مكشوف يشغل ضلعه القبلى مسجد المدرسة ويقابله ايوان رئيسى واحد يرتفع إلى ما يوازى ارتفاع الطابقين فى الشراعية والمرجانية ، أما فى الأربعين فى تكريت فلا نجد هذا الايوان المقابل للمسجد ، بل نجد ايوانين صغيرين متقابلين فى الضلعين الآخرين للصحن (وهما الايوان الشرقى والايوان الغربى) .

وفى المدرسة الشراعية رواق يحيط بالصحن من ثلاث جهات عدا جهة القبلة (مسجد المدرسة) وتوجد خلف هذا الرواق حجرات الطلبة وتعلوها غرف فى الطابق الأول ويناhez عدد هذه وتلك الأربعين حجرة وغرفة .

والمسجد فى هذه المدارس الثلاث متشابه إلى حد كبير فهو عبارة عن مساحة مستطيلة تطل على الصحن بثلاثة أبواب أو فتحات ويسقف هذه المساحة قبة فى الوسط وقبوان جانبيان أو ثلاث قباب أوسطها أكبرها وأكثرها ارتفاعا ، وهو نفس الطراز الذى شاع فى غالبية مدارس حلب كما سنشير فيما بعد .

كذلك يتميز هذا النمط بوجود مدافن ذات قباب ملحقة بالمدارس ، كما هو الحال فى الأربعين بتكريت والمرجانية ببغداد ، أما الشراعية ببغداد فتفتقر إلى مثل هذه القباب المدافن . وتنفرد المدرسة المرجانية ببغداد بوجود مئذنتين على جانبى كتلة المدخل الرئيسى وهو ما لا نجده فى الأربعين بتكريت أو الشراعية ببغداد أو حتى المستنصرية ببغداد .

٢- النمط المستطيل : ويتمثل في المدرسة المستنصرية ببغداد ٦٣١هـ/

١٢٣٣م (الوحة ٦) وهى عبارة عن مساحة مستطيلة تمتد من الشرق إلى الغرب (المحور العرضي) وتشتمل هذه المساحة فى ضلعها القبلى على مسجد المدرسة وهو يشبه مساجد المدارس الثلاث السابقة ويقابل المسجد إيوان المدخل وهو ما لا نجده فى المدارس السابقة، أما الضلعين القصيرين للصحن فيشتملان على ايوانين صغيرين (هما الإيوان الشرقى والايوان الغربى) يشبهان ايوان مدرسة الاربعين فى تكرير من حيث موضعهما، وتشغل حجرات المدرسة المساحات المحصورة بين الايوانات والمسجد وتعلوها غرف فى الطابق الأول ، ومن الملاحظ أن حجرات الطابق الأرضى تفتح على الصحن مباشرة بينما يتقدم غرف الطابق الأول رواق مسقوف . ويبلغ عدد الحجرات والغرف فى المدرسة نحو المائة . هذا وتنفرد المدرسة عن المدارس المشار إليها باشتغالها على دار للقرآن، ودار للحديث ودار الشفاء (بیمارستان)، فضلا عن كونها أول مدرسة خصصت لتدريس المذاهب السنية الأربعة فى الحضارة الاسلامية ، وكان يبلغ عدد طلاب هذه المذاهب ٢٤٨ طالبا بواقع ٦٢ لكل مذهب ، بالإضافة إلى ٣٠ طالبا فى دار القرآن و ١٠ طلاب فى دار الحديث و ١٠ طلاب فى دار الشفاء (البیمارستان) فضلا عن المدرسين والشیوخ والمعیدین والطیب وغيرهم من أرباب الوظائف بالمدرسة^(١٢٧) .

والحق فإن المدرسة المستنصرية كانت من أعظم المدارس فى الحضارة الاسلامية عامة وفى العراق خاصة وقد بلغت شهرتها وعظمتها درجة كبيرة حتى قيل عنها إنها «أعظم من أن توصف وشهرتها تغنى عن وصفها» وقال آخر « لم يعمر فى الدنيا مثلها فعمرت على أعظم وصف فى صورتها وألاتها واتساعها وزخرفتها وكثرة فقهاءها وأوقافها»^(١٢٨).

مما سبق يمكن القول أنه إذا كانت المدارس العراقية قد صممت وفق الطراز الايوانى (سواء ايوان واحد أو ايوانين أو ثلاثة ايوانات) إلا أنها قد عولجت بطريقة محلية مما أكسبها شخصية مستقلة وطابعا مميزا لها .

(١٢٧) لمزيد عن هذه المدارس انظر دراسات كل من : حيدر (العمارة العربية) ناجى (المدارس الشرايية) رجب ، غازى ، (العمارة العربية) ، الأعظمى (المدرسة المستنصرية) المذكورة فى هوامش الصفحات السابقة .

(١٢٨) ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول ، بيروت (١٩٢٧م) ، ص ٤٢٥ .

٣- سوريا :

من المعروف أن المدارس قد انتشرت كذلك في سوريا انتشاراً كبيراً وبخاصة في مدينتي دمشق وحلب ، فها هو الرحالة ابن جبير الذي زار دمشق في أواخر القرن ٦هـ / ١٢م ، يذكر ٢٠ مدرسة بدمشق ، وقد أحصى النعيمى عام ٩٢٧هـ / ١٥٢٨م ، بدمشق: ٦٠ مدرسة شافعية و ٥٢ مدرسة حنفية و ٤ مدارس مالكية و ١٠ مدارس حنابلة و ٣ مدارس للطب و ٧ دور للقرآن و ١٦ داراً للحديث و ٣ دور للحديث والقرآن معا ويعود أغلبها إلى القرن ٧هـ / ١٣م ، وفي حلب بلغ عدد المدارس في عهد أولاد صلاح الدين الأيوبي نحو ٤٤ مدرسة^(١٢٩) .

وأقدم مدرسة باقية في سوريا هي مدرسة كومشتكين (جامع مبرك الناقة) في بصرى ٥٣٠هـ / ١١٣٦م (شكل ٧٧) ، وكانت مخصصة للمذهب الحنفي ، وهي عبارة عن صحن أوسط مربع مغطى بقبة ، وعلى ذلك فهي تعد أقدم مدرسة معروفة حتى الآن ذات صحن مغطى بقبة في العمارة الإسلامية على الإطلاق^(١٣٠) ، وكان لهذه المدرسة أثرها على عمارة المدارس السلجوقية في الأناضول كما سنشير فيما بعد .

ويحيط بهذا الصحن المغطى أربعة ايوانات أكبرها وأعمقها الايوان القبلي وبصدره المحراب وعلى جانبيه أربع حجرات بواقع حجرتان بكل جانب يتوصل إليها من أربعة أبواب بالضلعين الجانبيين للايوان بواقع بابان بكل ضلع ، ويطل الايوان على الصحن ببائكة ذات ثلاثة عقود (أقواس) أوسطها أوسعها وإذا كان الايوان القبلي يغلب عليه الاتجاه العمودي (المحور الطولي) فإن الايوان المقابل له يغلب عليه الاتجاه الموازي لجدار

(١٢٩) الجاسر ، مدارس حلب ، ص ٢٥ - ٢٦ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن حركة إنشاء المدارس في سوريا خلال العصرين الزنكي والأيوبي ، انظر ، الجاسر ، مدارس حلب ، ص ١٠٠ - ٢٥٨ ؛ شمساني ، حسن ، مدارس دمشق في العصر الأيوبي ، بيروت (١٩٨٣م) ، (٢٨٤ صفحة) ؛ مرسى ، محمود مرسى ، العمارة الإسلامية بسورية ، الجزء الأول ، دور الحديث والمدارس الباقية بمدينة دمشق من العصرين الزنكي والأيوبي ، القاهرة (٢٠٠٥م) ، (١٥٠ صفحة فضلا عن الأشكال واللوحات) .

(١٣٠) الريحاوي ، العمارة في الحضارة ، ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛ الجاسر ، مدارس حلب ، ص ٢٩ - ٣٠ ؛ حيدر ، العمارة ، ص ١٠١ ؛ فكرى ، مساجد القاهرة ، ج ٢ ، ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ أصلان آبا ، فنون الترك وعمائرهم ، ص ٥١ ؛

Creswell, The Muslim Architecture of Egypt, vol 2, Oxford, (1959), P. 108 .

القبلة (المحور العرضي) ويطل هذا الايوان هو الآخر على الصحن المغطى ببائكة ذات ثلاثة عقود (أقواس) أوسطها أوسعها ، وبالضلعين الجانبيين للايوان بابين ، باب بكل ضلع ، يؤديان لمدخلى المدرسة عبر دركاة مربعة ، أما الايوانين الآخرين للمدرسة فيطل كل ايوان منهما على الصحن بعقد . (شكل ٧٧) .

والحق أنه لا يوجد في سوريا إنموذج آخر صمم على غرار هذه المدرسة .

أما المدارس السورية الأخرى التى ترجع إلى العصرين الزنكى والأيوبي فتكاد تتشابه فى الشكل العام والتخطيط العام مع المدارس العراقية المشار إليها من حيث اشتغالها على الصحن الأوسط المكشوف والايوانات ومسجد المدرسة وقبة الدفن إلا أنها هنا قد عولجت أيضاً بطريقة محلية مما اكسبها شخصية مستقلة وطابع مميز خاص بها ، وحسبنا أن نشير إلى بعض هذه المدارس ومنها المدرسة النورية^(١٣١) بدمشق ٥٦٧هـ / ١١٧٢م وكانت مخصصة لفقهاء المذهب الحنفى ، ويتكون تخطيطها العام من صحن مكشوف تتوسطه بحرة ، ويشغل الضلع القبلى مسجد المدرسة وهو عبارة عن مساحة مستطيلة يتوسط صدرها المحراب وتطل هذه المساحة على الصحن من خلال ثلاثة أبواب أوسطها أكبرها ، ويقابل المسجد (الضلع الشمالى) إيوان ، فضلا عن ايوانين متقابلين بالضلعين الجانبيين للصحن بواقع إيوان يتوسط كل ضلع وتوجد على جانبيه حجرات تعلوها غرف فى الطابق الأول ، وملحق بالمدرسة بالركن الجنوبي الشرقى تربة تعلوها قبة مقرنصة وهى من طراز القباب المقرنصة، كما سنشير فيما بعد . (شكل ٧٨) .

وتشبه المدرسة العادلية الكبرى بدمشق ٦١٢هـ / ١٢١٥م وكملت ٦١٩هـ / ١٢٢٢م (وهى الآن مقر المجمع العلمى العربى بدمشق) المدرسة النورية مع الاختلاف فى بعض المفردات والتفاصيل^(١٣٢) . (شكل ٨٣) .

(١٣١) حيدر ، العمارة ، ص ١٠٣ - ١٠٤ ؛ أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ٥٢ ، الجاسر ، مدارس حلب ، ص ٣٠ ، مرسى ، العمارة الإسلامية ، ص ٦٢ - ٦٧ ؛ الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ١٩١ - ١٩٢ ؛ سوفاجيه ، جان ، الآثار التاريخية فى دمشق ، ترجمة أكرم حسن العلبى ، دمشق (١٩٩١م) ، ص ٧٠ - ٧١ ؛ عبو ، عادل نجم ، المدرسة فى العمارة الأيوبية فى سوريا ، الحوليات الأثرية العربية السورية ، المجلد ٢٤ ، الجزء ١ - ٢ ، دمشق (١٩٧٤م) ، ص ٨٠ - ٨١ .

(١٣٢) حيدر ، العمارة ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ؛ الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٢٦٢ ؛ العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها فى سورية ، ص ١٤٩ - ١٥٤ ؛ مرسى ، العمارة الإسلامية بسورية ، ص ٩٤ - ١٠١ ؛ سوفاجيه ، الآثار التاريخية ، ص ٧٩ - ٨١ ؛ عبو ، المدرسة ، ص ٨٦ - ٨٧ .

وكانت هذه المدرسة مخصصة لفقهاء الشافعية ، أما المدرسة الصاحبية فى الصالحية بدمشق قبل ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م ، فهى عبارة عن صحن وأربعة ايوانات متقابلة ، وغير ذلك من المفردات والتفاصيل التى اكتسبتها طابعا خاصا مغايرا للمدارس الدمشقية السابقة (١٣٣) .

أما مدارس حلب فمنها مدرسة شاد بخت (١٣٤) (الجوانية وتعرف أيضا بجامع الشيخ معروف) ٥٨٩هـ / ١١٩٣م وهى عبارة عن صحن أوسط مكشوف مستطيل المساحة يشغل ضلعه القبلى المسجد ، وهو عبارة عن مساحة مستطيلة يتوسط صدرها المحراب وتطل هذه المساحة على الصحن بثلاثة عقود أوسطها أوسعها ويسقف المسجد قبة فى الوسط وقبوان جانبيان ، ويقابل المسجد ايوان مقبى ، وفى الضلعين الجانبيين للصحن حجرات وممرات ومنافع عامة ، وكانت هذه المدرسة مخصصة لفقهاء المذهب الحنفى . (شكل ٧٩) .

ومنها المدرسة السلطانية (١٣٥) (الظاهرية الجوانية) ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م ، وكانت مخصصة لفقهاء الشافعية والحنفية ، وهى عبارة عن صحن مكشوف ومسجد يشغل الضلع القبلى ، يتوسط صدره المحراب ، ويطل على الصحن بثلاثة عقود أوسطها أكبرها ، ويغضى المسجد قبة كبيرة فى الوسط ، وقبوان جانبيان ، ويقابل العقد الأوسط للمسجد ايوان المدخل ، وبالضلعين الجانبيين للصحن حجرات ، وملحق بالمدرسة تربة تعلوها قبة أيضا . (شكل ٨٢) ، أما مدرسة الفردوس (١٣٦) بحلب فتعد من أبداع وأروع المدارس الاسلامية عامة ، وفى سوريا خاصة ، وهى عبارة عن صحن مكشوف تتوسطه بركة ماء ، ويشغل الضلع القبلى للصحن مسجد مغطى بثلاث قباب أكبرها

(١٣٣) الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٢٦٢ ، شكل ١٨٢ .

(١٣٤) الجاسر ، مدارس حلب ، ص ١٦٤ - ١٧١ ؛ عبو ، المدرسة ، ص ٨١ - ٨٢ ؛ لوفرى ، ج ، المدرسة السلطانية فى حلب ، دراسة عن عمارتها ، الحوليات الأثرية السورية ، المجلد ٣ ، الجزء ١ - ٢ ، دمشق (١٩٥٣م) ، ص ١٠٩ - ١١٣ .

(١٣٥) الجاسر ، مدارس حلب ، ص ١٩٠ - ٢٠١ ؛ عبو ، المدرسة ، ص ٧٧ - ٨٨ .

(١٣٦) الجاسر ، مدارس حلب ، ص ٢٠٩ - ٢٢١ ؛ الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٢٧٩ - ٢٨٤ ؛ العمارة العربية الإسلامية ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ؛ عبو ، عادل نجم ، الرباط فى العمارة الأيوبية فى سوريا ، مجلة كلية الآثار - عدد خاص ، ج ٢ ، القاهرة (١٩٧٨م) ، ص ٤٠ - ٤٢ .

أوسطها ، وفى الركنين الجانبين حجرتان مربعتان تتصلان بالمسجد من جهة ، وبالحجرات الجانبية للصحن من جهة ثانية ، ويغطى كل حجرة منهما أيضاً قبة ، ويتقدم واجهة المسجد رواق يطل على الصحن ببائكة ثلاثية العقد ، كما يوجد على جانبى الصحن رواقات آخرا بواقع رواق بكل جانب يطل على الصحن ببائكة ذات أربعة عقود ، ويوجد خلف كل رواق ثلاث حجرات مغطاة بقباب متماثلة .

أما الجانب المقابل للمسجد فيشغله ايوان المدرسة (الايوان الشمالي) المقيبى ، كذلك يحتل الركنين الشماليين للمدرسة جناحين مستقلين ربما كان خاصين بالدراسة والاقامة على غرار ما عرف بعد ذلك فى المدارس المملوكية بالمدارس الفرعية ، كما هو الحال فى مدرسة السلطان حسن بالقاهرة ، ولكن مع الاختلاف فى بعض التفاصيل والمفردات ، كذلك فإن محراب مسجد هذه المدرسة يعد من أروع وأبدع المحاريب فى العمارة الاسلامية بصفة عامة ، كما سنشير فيما بعد . (شكلا ٨٠ - ٨١) ، (لوحتا ١٧ - ١٨) . وفى ضوء ما تقدم يمكن القول أن الطراز الايوانى فى المدارس السورية قد عولج بطريقة محلية مما أكسبها شخصية مستقلة وطابع مميز خاص بها ، على أن أهم ما يميز المدارس الحلبية عن الدمشقية هو أن مساجد الأولى مغطاه بقبة فى الوسط وقبوين جانبيين غالبا ، أو ثلاث قباب ، أكبرها أوسطها ، أما مساجد المدارس الدمشقية فالغالب عليها الأسقف المسطحة وأحيانا أقبية ، كذلك فإن غالبية المدارس السورية لا تشتمل على مئذنة وإن وجدت فيها فإنها لا ترجع إلى عصر الانشاء وإنما إلى عهود لاحقة (١٣٧) .

٤ - الأناضول (أسيا الصغرى) :-

أ - مدارس المرحلة الأولى :

من المعروف أن المدارس قد انتشرت بدرجة كبيرة فى الأناضول (أسيا الصغرى) على يدى الدول الاسلامية هناك ، ومنها الدانشمنديين والارتقيين والسلاجقة والایلخانيين وملوك الطوائف أو البكوات (بغلرگى) وقد حصر بعض العلماء عدد

(١٣٧) الجاسر ، مدارس حلب ، ص ٣١ .

المدارس الباقية فى الأناضول خلال الفترة من منتصف ق٦هـ / ١٢م ، إلى أواخر ق٩هـ / ١٥م بنحو ٦٧ مدرسة (١٣٨) .

ويغلب على تصميم هذه المدارس الطراز الايوانى أيضاً إلا أنها عولجت بطريقة محلية مما أكسبها شخصية مستقلة قائمة بذاتها وطابعا خاصا مميزا لها ، ونستطيع أن نحصر نماذج هذا الطراز فى نمطين رئيسيين ، وذلك على النحو التالى :

- النمط الأول : وتمثله المدارس الايوانية ذات الصحن المغطى بقبة ، وإذا كانت جذور هذا النمط فى مدرسة كومشتكين فى بصرى ٥٣٠هـ / ١١٣٦م ، (شكل ٧٧) كما سبق القول .

إلا أن نظرة واحدة إلى النماذج الأناضولية الباقية تؤكد مدى اختلاف أسلوب المعالجة والتصميم مما اكسبها طابعا مغايراً ذو سمة أناضولية محلية خاصة (١٣٩) ، ومن أمثلة ذلك كل من : مدرسة ياغى باسان فى توقات ٥٤٦ - ٥٥٢هـ / ١١٥١ - ١١٥٧م ، ومدرسته الأخرى فى نيكسار ٥٥٢هـ / ١١٥٧م ، وكل منهما عبارة عن صحن مربع مغطى بقبة قطرها فى الأولى ١٤م ، وفى الثانية ١١م ، ويحيط به ايوانين مقببين ولكنهما ليسا متقابلين فضلا عن عدد من الحجرات المقبية (شكل ٣٠٧) .

ومنها مدرسة قرة طاي فى قونية ٦٤٩هـ / ١٢٥١م ، وهى عبارة عن صحن مغطى بقبة وايوان رئيسى واحد توجد على جانبيه حجرتان مربعتان بواقع حجرة بكل جانب تغطيها قبة (شكلا ٣٠٨ - ٣١٠) ، (لوحتا ١٧٢ - ١٧٣) .

ومثلها فى ذلك مدرسة انجه مناره لى فى قونية ٦٥٩هـ / ١٢٦١م . إلا إنها تتميز بانه ملحق بها مسجد قبة ذو رواق خارجى (سقيفة) فضلا عن المئذنة (شكلا ٣٠٩ - ٣١٠ أسفل) ، (لوحتا ١٧٤ - ١٧٥) .

(١٣٨) أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ٩٥ .

(١٣٩) لمزيد من التفاصيل عن مدارس هذا النمط ومفرداتها وخصائصها المعمارية والفنية انظر ، أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ٩٥ - ١٠١ ؛ الريحاوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٢٠٨ - ٢١٣ ؛ الشعبان ، طلال محمد ، المدارس الباقية فى قونية والقاهرة خلال عصر سلاجقة الروم والمماليك البحرية ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، كلية الآثار - جامعة القاهرة (١٩٩٥م) ، ص :

Kuran, A., Anadolu Medreseleri , I. Cilt, Ankara (1969), PP. 15 - 18, 44 - 59 .

ومنها مدرسة يوسف بن يعقوب فى چاى بولاية افيون ٦٨٠هـ / ١٢٧٨م؛ ومدرسة ارتكوش فى اتاباى (عطابك) قرب اسبارطه ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ، ولكن قبة الصحن مقامة على أربعة أعمدة تتوسط الصحن ، والمدرسة ذات ايوان واحد على جانبيه الحجرتان المقبتان .

أما مدرسة جاجا بك فى قير شهر ٦٧١هـ / ١٢٧٣م ، فقد بنيت فى الأصل لتكون مرصداً فلکيا ، وتتميز بأنه يحيط بالقبة المركزية ثلاثة ايوانات صغيرة مقبية وغير ذلك من السمات التى تنفرد بها عن المدارس السابقة ، وهو ما سنعود إليه فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

- النمط الثانى (١٤٠): - وتمثله المدارس الايوانية ذات الصحن المكشوف ومنها مدارس مفردة وأخرى ملحقة بالمسجد أو المجمعات ، ومنها مدارس توأم (جفته مدرسة) .

ومن أمثلة ذلك المدرسة المسعودية الملحقة بمسجد ديار بكر الجامع ٥٩٥ - ٦٢٠هـ / ١١٩٨ - ١٢٢٣م (شكل ٢٣٢) وجفته مدرسة (المدرسة التوأم أو المزدوجة) فى قيصرية ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م. (شكل ٣١١) .

والمدرسة بمجمع خواندختون فى قيصرية ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م (شكلا ٣١٢ - ٣١٣) ، ومدرسة صرچالى بقونية ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م (لوحة ١٧١) ، ومن العصر الايلخانى المدرسة الخاتونية (جفته مناره أى المنارة المزدوجة أو التوأم) فى أرضروم ٦٧٠هـ / ١٢٧١م ، (شكل ٣١٣) ، ومن عصر البكوات (أو ملوك الطوائف) المدرسة الملحقة بالجامع الكبير فى مغنيسه (مانيسا) ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م (عصر بنى صاروخان). (شكل ٢٣٦) .

ب- مدارس المرحلة الثانية : وتمثلها المدارس التى أنشئت خلال العصر العثمانى سواء كانت مدارس مفردة أو ملحقة بالمساجد أو ضمن المجمعات المعمارية (الكليات) .

(١٤٠) لمزيد من التفاصيل عن مدارس هذا النمط ومفرداتها وخصائصها المعمارية والفنية انظر ، آصلان آبا ، فنون الترك ، ص ١٠١ - ١٠٧ ، ١٥٣ - ١٥٤ ، ١٥٩ ؛ الريحوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٢١٣ - ٢١٧ ؛ الشعبان ، المدارس الباقية فى قونية ، ص ؛

Kuran, Anadolu, PP. 63 - 113, 116 - 124 , 128 - 130 .

وإذا كانت غالبية مدارس هذه المرحلة تعد إستمراراً لمدارس النمط الثانى من المرحلة الأولى فى مدارس الأناضول (أسيا الصغرى) وهى المدارس التى صممت وفق الطراز الايوانى ذو الصحن المكشوف والمشار إليها سابقا ، إلا أنها قد عولجت خلال العصر العثمانى بطريقة خاصة وأسلوب متميز مما اكسبها شخصية مستقلة قائمة بذاتها وطابعا جديداً لا يختلف عليه اثنان فى نسبته إلى معمارى العصر العثمانى ، ومن جهة ثانية فإنه ظهرت خلال ذلك العصر أنظمة معمارية جديدة للمدارس لم يسبق إليها فى عمارة المدارس الاسلامية .

وحسبنا أن نتحدث فى هذه العجالة عن بعض أنماط المدارس^(١٤١) الباقية من العصر العثمانى ، وذلك على النحو التالى :

النمط الأول : وهو عبارة عن صحن أوسط مكشوف تحيط به ثلاثة أروقة (بلاطات) مغطاه بقباب أو أقبية بواقع رواق بكل جانب يشرف على الصحن من خلال بائكة ، وتشغل الأضلاع الداخلية لهذه الأروقة خلاوى وهى عبارة عن حجرات مربعة مغطاة بقباب غالبا أو حجرات مستطيلة مغطاة بأقبية أحيانا ، وتشغل هذه الخلاوى ثلاثة أضلاع فقط ، ويحوى هذا النمط قاعة الدرس (درس خانه) وهى اما أن تكون على هيئة حجرة مربعة مغطاة بقبة أو على هيئة ايوان صريح مغطى بقبة أيضاً ، وغالبا ما يكون الايوان أو الحجرة بارزاً عن سمت الجدار ، وهناك نموذجان رئيسيان لهذا النمط: الأول وفيه يظهر تخطيط المدرسة على هيئة حرف U - أى أن المدرسة يقتصر تخطيطها على ثلاثة أضلاع فحسب - وهو النموذج جديد لم يسبق إليه وتعد أمثله الباقية قليلة ، ومنها مدرسة سليمان باشا فى ازنيق ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م ، ومدرسة اسحاق باشا فى اينه گول ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م (شكلا ٣١٧ - ٣١٨) وغير ذلك .

أما النموذج الثانى فيتميز بوجود أربعة أضلاع للمدرسة ؛ إلا أن الضلع الرابع للصحن يقتصر على الدرس خانه (قاعة الدرس) فحسب ، وغالبا ما تكون على هيئة إيوان صريح مغطى بقبة أو حجرة مغطاة بقبة أحيانا ، وهذا يعنى أن ذلك النموذج يخلو

(١٤١) لمزيد من التفاصيل عن مدارس كل من النمطين الأول والثانى انظر الحداد ، محمد حمزة ، بحوث ودراسات (الكتاب الأول) ، ص ٣١٠ - ٣١٥ ؛ موسوعة العمارة الإسلامية ، المدخل ، ص ١٢٨ - ١٣١ ؛ العمارة الإسلامية فى أوروبا العثمانية ، ص ٢٢٠ - ٢٢٤ .

من وجود الرواق الرابع وخلاوى الطلبة فى هذه الجهة كما هو الحال فى مدرسة بايزيد الأول ضمن مجمعه فى بروسه (أو بورصة) ٧٩٣ - ٧٩٨ هـ / ١٣٩٠ - ١٣٩٥ م ، والمدرسة الخضراء فى بروسه ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م ، ومدرسة السلطان بايزيد الثانى فى استانبول وغير ذلك (شكال ٣١٤ - ٣١٦) .

- النمط الثانى : وهو عبارة عن صحن وأربعة أروقة (بلاطات) بواقع رواق بكل جانب يشرف على الصحن من خلال بائكة ، وتشغل خلاوى الطلبة الأضلاع الداخلية لهذه الأروقة الأربعة ، ويتوسط أحد هذه الأروقة والخلاوى درس خانة ، سواء على هيئة حجرة مربعة مغطاة بقبة أو على هيئة ايوان صريح مغطى بقبة أيضاً ، ومن أمثلة ذلك مدرسة السلطان بايزيد الثانى ضمن مجمعه بادرنه ٨٨٩ - ٨٩٤ هـ / ١٤٨٤ - ١٤٨٨ م (شكل ٢٧٤ رقم ٤ شكل ٢٧٤ مكرر) وبعض مدارس السلطان سليمان القانونى ضمن مجمعه باستانبول ٩٥٧ - ٩٦٥ هـ / ١٥٥٠ - ١١٥٧ م ، إلا أن الأروقة مغطاه بأقبية متقاطعة (شكل ٢٨٢ ، المدرستان رقم ٥ - ٦) .

هذا وقد كان لطراز المدارس العثمانية أثره فى الأقطار العربية التى خضعت للحكم العثمانى بدءاً من عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م ، وحسبنا أن نشير إلى بعضها ومنها فى مصر المدرسة السلیمانية (بالسروجية) ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م ، والمدرسة المحمودية (بشارع بور سعيد) ١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م ، وفى المدرسة الأولى ايوان واحد حل محله فى المدرسة الثانية مسجد .

ورغم وضوح التأثير العثمانى فى هاتين المدرستين إلا أن هذا لا يعنى عدم وجود صيغة مصرية محلية فى كليهما^(١٤٢) . (شكلا ١٥٩ - ١٦٠) . وفى سوريا تقابلنا التكية والمدرسة السلیمانيتان بدمشق^(١٤٣) ، وقد أنشئت التكية ٩٦٢ - ٩٦٧ هـ / ١٥٥٤ - ١٥٥٩ م ، والمدرسة المجاورة لها ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦ م ، ويذكرنا تخطيط التكية

(١٤٢) الحداد ، محمد حمزة ، عمائر القاهرة الدينية فى العصر العثمانى ، ضمن كتابنا بحوث ودراسات المشار إليه ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

(١٤٣) الريحوى ، عبد القادر ، الأبنية الأثرية بدمشق ١ : التكية والمدرستان السلیمانيتان بدمشق ، الحوليات الأثرية السورية ، مج ٧ ، ج ١ - ٢ ، دمشق (١٩٥٧ م) ، ص ١٢٦ - ١٢٨ ؛ العمارة فى الحضارة ، ص ٤٩٦ - ٤٩٩ ؛ سوفاجيه ، الآثار التاريخية فى دمشق ، ص ٩٩ - ١٠٢ .

بنموذج المدارس على هيئة حرف U ، ورغم وضوح التأثير العثماني في المنشأتين إلا أن هذا لا يعنى عدم وجود صيغة سورية محلية في كليهما . (شكل ٨٥) .

أما مدرسة عبد الله باشا العظم بدمشق^(١٤٤) ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م ، فتعيد إلى ذاكرتنا نمط المدارس ذات الايوان الواحد ، والصحن المكشوف الذى إنتشر فى الأناضول (أسيا الصغرى) خلال العصر السلجوقى وما تلاه ، وفى العصر العثمانى ، ولكن على نطاق أصغر فضلا عن أن الايوان يتميز بطابع خاص بين ايوانات المدارس المصممة وفق هذا النمط (وهو ما سوف نعود إليه فى دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى) . (شكل ٨٦) .

وفى ليبيا مدرسة عثمان باشا الساقزلى بطرابلس الغرب ١٠٦٤هـ / ١٦٥٣م ، وزاوية (مدرسة) عمورة بجنزور ١١٣٤هـ / ١٧٢١م ، ومدرسة أحمد باشا القره مانلى ١١٥٠ - ١١٥١هـ / ١٧٣٧ - ١٧٣٨م ، ومدرسة قورجى ١٢٤٩ - ١٢٥٠هـ / ١٨٣٣ - ١٨٣٤م ، بطرابلس الغرب أيضا^(١٤٥) .

وإذا كانت هذه المدارس تكاد تتفق مع بعضها فى التخطيط العام إلا أنها تختلف فيما بينها من حيث بعض العناصر والمفردات والتفاصيل (وهو ما سوف نعود إليه فى دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى) . (أشكال ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٢) .

- النمط الثالث :- وهو نمط نادر فى عمارة المدارس الاسلامية عامة والعثمانية خاصة ولدينا منه امودجان : الأول : هو المدرسة المشتمة التخطيط ، والثانى : هو المدرسة التى يجمع تخطيطها بين الشكل المربع من الخارج والمثلث من الداخل ، ولم يتبق من مدارس هذا النمط سوى مدرستين : الأولى : تتبع النموذج الأول وهى مدرسة قابى أغاسى فى أماسيا (الأناضول أو أسيا الصغرى) ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م ، (شكل ٣١٩) ،

(١٤٤) الريحاوى ، العمارة العربية الإسلامية ، ص ٢٢٩ .

(١٤٥) شقوف ، مسعود رمضان ، موسوعة الآثار الإسلامية فى ليبيا ، ج ١ ، ص ٨١ - ٨٢ ، ٩٨ - ١٠٧ ؛ البهنسى ، صلاح ، العمارة الدينية فى طرابلس فى العصر العثمانى الأول ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، كلية الآثار - جامعة القاهرة (١٩٩٤م) ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ؛ نجيب ، محمد مصطفى ، مدرستان مستقلتان بطرابلس الغرب (الساقزلى والكاتب) ، مجلة كلية الآثار ، المجلد الخامس ، مطبعة جامعة القاهرة (١٩٩٦م) ، ص ١٤٥ - ١٦٠ ؛ ميسان ، غاسبرى ، العمارة الإسلامية فى ليبيا ، ترجمة على الصادق حسنين ، بيروت ، طرابلس الغرب (١٩٩٨م) ، ص ٩٨ - ١٠٧ .

(لوحة ١٧٥ مكرر) ، وكانت هذه المدرسة مصدر الوحي المباشر والرئيسي لابتكار النموذج الثانى وتمثله مدرسة رستم باشا باستانبول لعبقري العمارة الاسلامية عامة والعثمانية خاصة قوجه معمار سنان عام ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م (١٤٦) ، (شكل ٣٢٠) .

٥- أسيا الوسطى :

ترجع أهم المدارس الباقية فى أسيا الوسطى إلى العصرين التيمورى والشيبانى ، ومن المدارس التيمورية المدرسة الملحقه بمجمع گورامير بسمرقند ٨٠٧ - ٨٠٨هـ / ١٤٠٤ - ١٤٠٥م ، ومدرسة اولوغ بك فى بخارى ٨٢٠هـ / ١٤١٧م ، ومدرسته الأخرى فى سمرقند ٨٢٠ - ٨٢٣هـ / ١٤١٧ - ١٤٢٠م ، والمدرسة الغياثية فى خرجرد (باقليم خراسان شرقى ايران) ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م ، وتتكون هذه المدارس من طابقين غالبا (١٤٧) .

ورغم أن هذه المدارس قد صممت وفق الطراز الايوانى الغالب على عمارة المدارس الاسلامية بصفة عامة إلا أنها قد عولجت بطريقة محلية خاصة مما اكسبها طابعا معماريا وفنيا متميزا ليس فقط فى أسيا الوسطى وايران ، بل وفى عمارة المدارس الاسلامية على الاطلاق ، ويتمثل جوهر التخطيط العام فى هذه المدارس فى وجود الصحن الأوسط المكشوف وتحيط به أربعة ايوانات متماثلة بواقع ايوان يتوسط كل ضلع من الأضلاع الأربعة للصحن ، وفى الفراغات المحصورة بين الايوانات تتوزع الحجرات والغرف فى طابقين ، وإذا كانت المدرسة الغياثية تخلو من وجود المسجد (شكل ٣٢٢) فإن مدرسة اولوغ بك فى سمرقند تشتمل على مسجد خلف الايوان القبلى وهو يجمع

(١٤٦) أصلان آبا ، فنون الترك ، ص ٢٠٥ ؛ الحداد ، محمد حمزة ، العمارة الإسلامية فى أوروبا العثمانية ، ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ؛ بدر ، متى محمد ، المدارس التركية العثمانية ذات التخطيط المثلث بالتطبيق على مدرستى قابى أغاسى ورستم باشا باستانبول ، ضمن كتاب ندوة الآثار الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى ، كلية الآثار (١٩٩٨م) ، ص ٢٩٤ - ٢٩٨ ؛

Goodwin, A History, P. 151 - 152 .

(١٤٧) الريحوى ، العمارة فى الحضارة ، ص ٥٣٤ - ٥٣٥ ، ٥٣٧ - ٥٣٨ ، ٥٤٣ - ٥٤٤ .

Hillenbrand, Islamic, PP. 226 - 228 ., Galombek, L., and Wilber, D., The Timurid Architecture of Iran and Turan, vol I, Princeton - New Jersey (1988), PP. 47 - 48, 73 - 78 .

فى تسقيفه بين الأقبية والقاب وأكبها الوسطى (شكل ٣٢١) .

كذلك تتميز هذه المدارس باشمالها على أربع قاعات متماثلة للدراسة فى الأركان الأربعة للمدرسة ، بواقع قاعة بكل ركن منها ، وقد صممت هذه القاعات وفق الطراز الايوانى أيضاً فكل منها عبارة عن مساحة وسطى (صحن أو درقاعة) مربعة مغطاه بقبة ، وتحيط بهذه المساحة الوسطى أربعة ايوانات صغيرة متقابلة ، ومن السمات الأخرى المآذن ، وقد تزود المدرسة بمئذنتين فى ركنى الواجهة الرئيسية كما هو الحال فى المدرسة الغياثية (شكل ٣٢٢) أو أربعة مآذن فى الأركان الأربعة للمدرسة ، كما هو الحال فى اولوغ بك بسمرقند (شكل ٣٢١) .

وقد استمرت المدارس خلال عصر الشيبانيين وما تلاه على نفس النمط الايوانى ، ولكن مع اختلاف المعالجة وبعض العناصر والتفاصيل والمفردات (وهو ما سوف نعود إليه فى دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى) ومهما يكن من أمر فإن عدد الايوانات فى هذه المدارس يتراوح بين ايوان واحد وأربعة ايوانات ، فضلاً عن بناء المدارس المتقابلة التى أخذت فى الظهور سواء فى بخارى أو سمرقند وتعرف فى المصطلح (قوش مدرسة) ، وحسبنا أن نشير إلى بعض هذه المدارس ومنها مدرسة براق خان (نوروز أحمد خان المتوفى ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م) فى طشقند (وهى اليوم مقر الإدارة الدينية لمسلمى أسيا الوسطى وكازاخستان) ومدرسة كوكلتاش بطشقند أيضاً ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م . ومدرسة مير عرب فى بخارى ٩٤٢هـ / ١٩٣٥م ، ومدرسة مادرخان ٩٧٤هـ / ١٥٦٧م ، ومدرسة عبد الله خان ٩٩٦ - ٩٩٨هـ / ١٥٨٨ - ١٥٩٠م ، ومدرسة عبد العزيز خان ١٠٦٢هـ / ٦٥٢م ، تجاه مدرسة اولوغ بك فى بخارى (شكلا ٣٢٣ - ٣٢٤) ، (لوحة ١٥٧) . وفى ريجستان سمرقند أقيمت أمام مدرسة اولوغ بك مدرستان ، الأولى : مدرسة شيردار ١٠٢٩ - ١٠٤٦هـ / ١٦١٩ - ١٦٣٦م ، (لوحة ١٥٨) والثانية مدرسة طلاكارى (المزينة بالذهب) ١٠٥٦ - ١٠٧١هـ / ١٦٤٦ - ١٦٦٠م (١٤٨) .

(١٤٨) الإدارة الدينية لمسلمى أسيا الوسطى ، آثار الإسلام التاريخية فى الاتحاد السوفيتى ، طشقند (١٩٦٢م) ، ص ٩ - ١٢ ؛ عبید ، شبل إبراهيم ، دراسة أثرية معمارية لمدرسة براق خان بمدينة طشقند ، ضمن كتاب ندوة الآثار الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى المشار إليه سابقا ، ص ١٦٨ - ١٧٥ ؛ دراسة أثرية معمارية لمجمع زنكى أتا بقرية زنكى أتا من أعمال طشقند ، مجلة كلية الآداب - جامعة حلوان ، العدد السابع ، (يناير ٢٠٠٠م) ، ص ٦٤٤ ؛

Hillenbrand , Islamic, PP. 228 ' 234 .

أما المدرسة الملحقه بمجمع رنكي أتا بقرية رنكي أتا من أعمال طشقند ١٢٨٦هـ / ١٨٣٢م فتتفرد بتخطيطها بين مدارس أسيا الوسطي الباقيه^(١٤٩) المشار إليها سابقا وغيرها وهو ما سوف نعود إلي مناقشته تفصيلا سواء في كتابنا المفصل أو في كتابنا العمارة الإسلامية في المشرق بمشيئة الله تعالى .

٦- ايران :-

من المعروف أن ايران كانت من أوائل الأقطار الاسلاميه التي ظهرت فيها عمارة المدارس قبل القرن ٤هـ / ١٠م ، كما يستدل من الإشارات التاريخية في المصادر المختلفة، وبخاصة كتب البلدانين والرحالة .

ومنذ العصر السلجوقي وما تلاه انتشرت المدارس في ايران انتشاراً كبيراً ، وحسبنا في هذه العجالة أن نشير إلى الخصائص العامة والسمات الرئيسية للمدارس التي أقيمت في ايران خلال العصرين الصفوي والقاجاري .

ويحسن بنا أن نشير ، بادئ ذي بدء ، إلى أن المساجد الصفوية قامت أيضاً بوظيفة المدرسة سواء كان تخطيطها يتبع طراز المسجد القبة مثل مسجد الشيخ لطف الله بأصفهان أو كان يتبع طراز التخطيط الذي يجمع بين الايوانات والأروقة السابق الإشارة إليها ، ومنها مسجد الشاه (الإمام) ومسجد سرخي ومسجد آقانور ومسجد مصرى ومسجد حكيم بأصفهان وغير ذلك^(١٥٠) .

أما المدارس فقد بنيت إما مفردة أو ملحقة بالمساجد أو المنشآت التجارية ، ومن أمثلة هذه وتلك كل من المدرسة السليمانية والمدرسة الناصرية بمسجد الشاه بأصفهان ومسجد ومدرسة على أكبر باردبيل ، ومدرسة نجفي الملحقه بمسجد ساروتقي بأصفهان ، ومسجد ومدرسة اقبرزك بقاشان وكروان سراي ، ومدرسة مادر شاه (چهار مدرسه) بأصفهان ، ومدرسة معز الدولة بتهران ، ومدرسة خان بشيراز وغير ذلك^(١٥١) .

(١٤٩) عبيد ، دراسة أثرية معمارية لمجمع زنكي أتا ، ص ٦٣٥ - ٦٣٧ ، ٦٤٥ .

(١٥٠) الجميعی ، مساجد أصفهان ، ص ١٠٩ - ١١٣ ، ١٤٦ - ١٤٧ ، ١٦٢ ، ١٦٧ - ١٦٨ ، ٢١٤ - ٢١٦ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ - ٢٨٧ ، ٥٣٢ .

(١٥١) الجميعی ، مساجد أصفهان ، ص ١٧٦ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٤٠ ؛

Hillenbrand, Islamic , PP. 234 - 235 .

قباديان ، بررسی اقليمي أبنية سنتی ايران، ص ٢٤١ - ٢٥٧؛ هنر فر ، كنجينه آثار تاريخی أصفهان =

وعن التخطيط العام لهذه المدارس فانه من الملاحظ أن غالبيتها قد صممت وفق الطراز الايوانى إلا أنها قد عولجت بطريقة محلية خاصة ، مما أضفى عليها شخصية مستقلة قائمة بذاتها وطابع خاص بها مميز لها فضلاً عن الخصائص المعمارية والسمات الفنية التى يتميز بها الطراز الايرانى خلال العصرين الصفوى والقاجارى ، وبصفة خاصة المداخل والعقود والقباب والايوانات والمحاريب والنقوش الزخرفية والكتابية وغير ذلك مما سنشير إليه اجمالاً فى هذا الكتاب وتفصيلاً سواء فى كتابنا المفصل فى تاريخ الحضارة الإسلامية أو العمارة الإسلامية فى المشرق بمشيئة الله تعالى .

وبعض هذه المدارس عبارة عن صحن اوسط مكشوف (حياط وفق الاصطلاح الفارسى) تحيط به أربعة ايوانات ويوجد خلف ايوان القبلة غالباً الكنبدخانة كما هو الحال فى مدرسة مادرشاه (چهارباغ) ١١١٨هـ / ١٧٠٦م ، بأصفهان (شكل ٣٥٥) ومدرسة شهيد مطهرى ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م ، وتتوزع بيوت الطلاب فيما بين الايوانات إلا أن هناك بطبيعة الحال بعض الاختلاف فى التفاصيل والمفردات والعناصر والمعالجة ، ومن ابرزها تصميم الكنبدخانه فى كل من المدرستين المشار إليهما فضلاً عن الملحقات الأخرى .

ومن المدارس التى تشتمل فقط على الصحن والايوانات الأربعة دون وجود الكنبدخانة مدرسة خان فى شيراز ، كما أن القباب الأربع بأركان المدرسة قد صممت بطريقة مغايرة لمثيلاتها فى مدرسة مادر شاه .

وتتميز مدرسة خان بشيراز بوجود مئذنتين بطرفي الواجهة الرئيسية وهى فى ذلك مثل مدرسة مادر شاه بأصفهان إلا أن المئذنتين بهذه المدرسة الأخيرة توجدان على جانبي ايوان القبلة .

وهناك مدارس عبارة عن صحن (حياط) مكشوف ، وبيوت الطلبة وكنبدخانة (الكتاب) ومنها مدرسة ميرزا على اكبر فى أردبيل ١٣هـ / ١٩م ، أو تشتمل على صحن (حياط) مكشوف وبيوت الطلبة ودرس خانه (قاعة الدرس) ومنها مدرسة نجفى الملحق بمسجد ساروتقى بأصفهان ؛ ومدرسة أقا بزرك بقاشان ١٢٦٤هـ / ١٨٤٧م .

= ص ٤٧٠ - ٤٧٥ ، ٥٥٣ - ٥٥٦ ، ٥٨٩ - ٥٩٢ ، ٦١٠ ، ٦٤٩ - ٦٥٠ ، ٦٦٠ - ٦٦٧ ، ٦٨٥ - ٧٢٢ ؛ مهر آبادى ، آثار ملى أصفهان ، ص ٤٣١ - ٥٠٩ ؛ گنجنامه ، دفتر سوم ، بناهاى مذهبي تهران (١٩٩٨م) ، ص ٤٠ - ١٣٩ .

أما عن بقية المدارس والأنماط الأخرى للتخطيط فضلا عن خصائصها المعمارية وسماتها الفنية فسوف نتطرق إليها على النحو السابق الإشارة إليه .

٧- الغرب الاسلامى :

من الثابت تاريخيا أن المدارس قد وجدت طريقها إلى أقطار الغرب الاسلامى خلال عصر الدولة الموحدية ٥٢٤ - ٦٦٨ هـ / ١١٣٠ - ١٢٦٩ م ، وبدأت أول ما بدأت على يد أول خلفائهم عبيد المؤمن بن على ٥٢٤ - ٥٥٨ هـ / ١١٣٠ - ١١٦٣ م ، فى المغرب الأقصى ، وهو ما يستدل عليه من خلال الإشارات التاريخية ومشاهدات الرحالة ، ومنهم الحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف بليون الافريقى ، ومارمول كرفچال ، فضلا عن بعض النصوص الوقفية (الحبسية حسب الاصطلاح المغربى) ، إلا أن هذه المدارس للأسف قد اندرست ولم يتبق منها أى أثر . وخلال العصر المرينى انتشرت المدارس فى المغرب الأقصى انتشاراً كبيراً ، وبذلك أضحت المرينيون أعظم بناءة المدارس فى الغرب الاسلامى عامة والمغرب الأقصى خاصة^(١٥٢) ، وقد شيدت المدارس المرينية الباقية فيما بين ٦٧٤ - ٧٥٦ هـ / ١٢٧٥ - ١٣٥٥ م^(١٥٣) ، وفى تونس يرجع الفضل إلى الحفصيين (ورثة الموحدين فى تونس) فى إنشاء المدارس بها ، منها المدرسة الشماعية التى أنشأها أبو زكريا يحيى الأول فى حدود عام ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م ، حسب رواية ابن الشماخ^(١٥٤) ، وقد قام بتجديدها الداى أحمد خوجه (١٠٥٠ - ١٠٥٧ هـ / ١٦٤٠ - ١٦٥٧ م ، وما زالت قائمة حتى الآن ، ومنها المدرسة التوفيقية قبل ٦٥٧ هـ / ١٢٦١ م ، والمدرسة المعرضية والعصفورية والمغربية والمرجانية والعنقية وغيرها ، إلا أن أشهر

(١٥٢) عن الآراء المختلفة التى أثيرت حول موضوع نشأة المدارس فى الغرب الإسلامى وفيما إذا كانت قد عرفت قبل العصر المرينى من عدمه انظر ، الكحلاوى ، المدارس المغربية ، مجلة العصور ، المجلد ٦ ، ج١ ، جمادى الثانى ١٤١١ هـ / يناير ١٩٩١ م) ، ص : أبو رحاب ، محمد السيد ، مدارس المغرب الأقصى فى عصر بنى مرين ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة جنوب الراءى (١٩٩٩ م) ، ص ٨٢ - ٨٣ ، ٩٢ - ١٠١ : مراد ، حسين سيد عبد الله ، الأوقاف مصدراً لدراسة مجتمع فاس فى العصر المرينى ، القاهرة (٢٠٠٢ م) ، ص ٧٧ - ٨١ .

(١٥٣) أبو رحاب ، مدارس المغرب ، ص ١٠٩ .

(١٥٤) ابن الشماخ ، أبو عبد الله محمد بن أحمد ، الأدلة البينة النورانية فى مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق وتقديم الطاهر محمد المعمورى ، الدار العربية للكتاب (١٩٨٤ م) ، ص ٥٦ .

المدارس الحفصية هي المدرسة المنتصرية (نسبة إلى الخليفة أبى عبد الله محمد المنتصر (٨٢٧ - ٨٣٩ هـ / ١٤٣٤ - ١٤٣٥ م) وأكملها ابنه الخليفة أبى عمرو عثمان (٨٣٩ - ٨٩٣ هـ / ١٤٣٥ - ١٤٨٨ م من بعده) فيما بين ٨٣٨ - ٨٤٠ هـ / ١٤٣٤ - ١٤٣٦ م ، وهي عبارة عن صحن أوسط تحيط به أربعة ايوانات^(١٥٥) .

أما عن طراز المدارس الحفصية الأخرى وغيرها من المدارس التى أنشئت فى العصر العثمانى ، فقد أفردنا لها دراسة مفردة سوف تنشر فى القريب بمشيئة الله تعالى .

أما الأندلس فإنه رغم ما شهدته من ازدهار الحركة العلمية والفكرية فيها بشكل منقطع النظير كما هو ثابت ومعروف ؛ إلا أن المدارس لم تعرف طريقها إليها إلا فى عصر دولة بنى نصر أو بنى الأحمر فى غرناطة - وهي آخر القواعد الأندلسية الكبرى ويسقوطها ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، انتهت دولة الاسلام بالأندلس) ، وكان ذلك على يد حاجب السلطان أبو الحجاج يوسف ، وهو الحاجب أبى النعيم رضوان النصرى ، فهو الذى أحدث المدرسة بغرناطة ولم تكن بها بعد على حد قول صاحب الإحاطة ، وقد عرفت هذه المدرسة بالمدرسة النصرية أو المدرسة اليوسفية وكان انشاؤها عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م^(١٥٦) .

أما عن المدارس المرينية^(١٥٧) الباقية بالمغرب الأقصى فيمكن أن نحصرها فى فطين رئيسيين وهما :

أ- النمط الأول : وهو المدرسة المسجد ، ويقصد به تلك المدارس التى وقفت للدراسة والتعليم وخصصت كمسجد للصلوات الخمس فحسب (ومما له دلالة أن هذا المكان الذى خصص للصلاة فى المدارس المغربية قد عرف باسم القبّة ، وهو ما تؤكدّه النقوش الكتابية المسجلة على لوحات الحبوس (الأوقاف) ومنها نقوش المدرسة

(١٥٥) المعمورى ، الطاهر ، جامع الزيتونة ومدارس العلم فى العهدين الحفصى والتركى ، الدار العربية للكتاب (١٩٨٠م) ، ص ٨١ - ٩٠ .

(١٥٦) ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، المجلد الأول ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة (١٩٧٣م) ، ص ٥٠٨ ؛ شبانة ، محمد كمال ، يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة ، القاهرة (١٩٦٩م) ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(١٥٧) لمزيد من التفاصيل عن الدراسة الوصفية والتحليلية للمدارس المرينية بالمغرب الأقصى انظر ، الكحلاوى ، المدارس المغربية ، ص ٧١ - ١١١ ؛ أبو رحاب ، مدارس المغرب الأقصى ، ص ١٥٤ - ٣٥٣ ؛ Hillenbrand, Islamic, PP. 242 - 251 .

المصباحية بفاس القديمة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م^(١٥٨)، ومن ثم كان لا يسمح لأحد - غير طلبتها - من الدخول إليها والانتفاع بمرافقها ومنافعها كالمسجد والميضاة ، وقد صرح بذلك بعض الفقهاء المغاربة فمنهم من قال أن بناء مسجد فى المدرسة كان لتمييزها عن الفنادق أو الخانقاوات ، ومنهم من أضاف قائلا أن مسجد المدرسة ليس فى الحكم كغيره من المساجد المباحة لعموم المسلمين ، ولهذا قيل فى الآذان فيها ما قيل^(١٥٩) .

ومن الملاحظ أن هذا النمط كان هو الغالب والسائد خلال العصر المريني ، ولذلك لم تزود كل المدارس بمنبر أو مئذنة باستثناء مدرسة الصفارين ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م ، فهى المدرسة الوحيدة التى زودت بمئذنة تعلو كتلة المدخل الرئيسى بالواجهة الشمالية للمدرسة^(١٦٠) .

هذا وتتميز مدارس هذا النمط بصغر مساحتها وبساطة تخطيطها فهى عبارة عن صحن أوسط مكشوف يشغل ضلعه الجنوبى غالبا القبة (مسجد المدرسة) وتخطيطها قد يكون مجرد مساحة مستطيلة مسقوفة لا تحوى سوى المحراب مثل مدرسة الشهود أو القاضى بمكناس ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م ، ومدرسة الصهرىج بفاس القديمة ٧٢١ - ٧٢٣هـ / ١٣٢١ - ١٧٢٣م ، ومدرسة أبى الحسن بمكناس ٧٣٦ - ٧٤٢هـ / ١٣٣٦ - ١٣٤١م .

وقد تكون مساحة مربعة تحوى محرابا مثل مدرسة الصفارين بفاس القديمة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م ، أو مساحة مربعة لا تحوى محرابا ، كما هو الحال فى المدرسة المصباحية بفاس القديمة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م ، وقد كان ذلك راجعا إلى أن القبة وضعت بالجهة الشمالية للصحن ، ومن ثم فإن جدار القبلة (الجنوبى) أصبح هو الذى يطل على الصحن ، ولذلك إستبدل المحراب بفتحة باب الدخول التى تصل القبة بالصحن .

وقد تكون القبة (مسجد المدرسة) عبارة عن مساحة مستطيلة تقسم إلى بلاطين (رواقين) غير متساويتين غالبا بواسطة بائكة ترتكز عقودها على الأعمدة أو الدعامات أو كليهما كما هو الحال فى مدرسة دار المخزن - أى القصر الملكى - بفاس الجديدة ٧٢٠ - ٧٢١هـ / ١٣٢٠ - ١٣٢١م ، والبائكة ذات خمسة عقود حدوة الفرس ، ومدرسة

(١٥٨) عن : أبو رحاب ، مدارس المغرب ، ص ٢٥١ ، ٢٥٥ .

(١٥٩) عن : أبو رحاب ، مدارس المغرب ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(١٦٠) الكحلوى ، المدارس ، ص : أبو رحاب ، مدارس المغرب ، ص ٣٠٠ .

الطارين بفاس القديمة ٧٢٣ - ٧٢٥ هـ / ١٣٢٣ - ١٣٢٥ م ، والبائكة ذات ثلاثة عقود
حدوة الفرس (ومن الملاحظ أن قبة مدرسة الطارين (أى مسجد المدرسة) تشغل الجهة
الشرقية للصحن ويتوسط المحراب جدارها الجنوبي) .

وفى بعض النماذج تقسم قبة المدرسة (مسجد المدرسة) إلى ثلاثة بلاطات (أروقة)
أوسطها أوسعها وذلك بواسطة بئكتين عموديتين على جدار القبلة ويرتكز عقدى
البائكتين على دعامتين مستطيلتين مدمجتين فى كل من الجدارين الشمالى والجنوبى ،
كما هو الحال فى مدرسة أبى الحسن فى سلا ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م .

ومن الملاحظ فى جميع الحالات السابقة أن واجهة قبة المدرسة (مسجد المدرسة) قد
حجبت بالكامل عن الصحن باستثناء فتحات الدخول ، سواء كانت فتحة واحدة أو ثلاث
فتحات ، أكبرها أوسطها ويغلق عليها حجاب من خشب الخرط ، كذلك فإن واجهة قبة
المدرسة المطلة على الصحن كانت ترتفع إلى ما يوازى ارتفاع بيوت الطلبة سواء كانت
من طابقين أو ثلاثة طوابق كما سنشير فيما بعد .

أما عن الأضلاع الثلاثة الأخرى للصحن فكانت تشغلها بطبيعة الحال أروقة تتقدم
بيوت الطلبة غالبا ، وهى إما أن تكون عبارة عن رواقين فى الضلعين الجانبين للصحن
(وهما الضلع الغربى والضلع الشرقى) غالبا بواقع رواق بكل ضلع ، كما هو الحال فى
كل من مدرسة الشهود أو القاضى بمكناس ومدرسة الصفارين بفاس القديمة ومدرسة
الصهرىج بفاس القديمة ومدرسة دار المخزن بفاس الجديدة ، وتتقدم هذه الأروقة بيوت
الطلبة فى هذه المدارس ، وهى تتكون من طابقين أو ثلاثة طوابق . ويستثنى من ذلك
مدرسة الطارين بفاس القديمة ، حيث يوجد الرواقان فى الضلعين الشمالى والجنوبى
للصحن ، بواقع رواق بكل ضلع ، لأن قبة المدرسة (مسجد المدرسة) تشغل الجهة
الشرقية للصحن ، كما سبق القول .

ولا يوجد بهذه المدرسة بيوت للطلبة فى طابقها الأرضى ، وبالتالى فإن هذان
الرواقان لا يتقدمان بيوتا للطلبة ، كما هو الشائع ، وهى فى ذلك مثل مدرسة أبى
الحسن بسلا حيث تتوزع بيوت الطلبة على الطابقين الأول والثانى .

وفى بعض النماذج الأخرى تشغل الأروقة الأضلاع الثلاثة للصحن (الشمالى

والشرقي والغربي) ، كما هو الحال في مدرسة أبي الحسن في مكناس ٧٣٦ - ٧٤٢هـ / ١٣٣٦ - ١٣٤١م ، بواقع رواق بكل ضلع يتقدم بيوت الطلبة وهي من طابقين (أرضي وأول) .

وفي النموذج آخر توجد في الأضلاع الأربعة للصحن أربعة أروقة بواقع رواق بكل ضلع ، وهذا يعنى أن قبة المدرسة (مسجد المدرسة) يتقدمها رواق كما هو الحال في مدرسة أبي الحسن في سلا وعلى ذلك فهي تعد النموذج الوحيد الذي يشتمل على رواق يتقدم قبة المدرسة (المسجد) ، ومن جهة ثانية فإن الطابق الأرضي لا يشتمل على بيوت للطلبة ، ولذلك فقد وزعت البيوت في الطابقين الأول والثاني من ثلاث جهات : الشرقية والغربية والشمالية (١٦١) .

ب- النمط الثاني : وهو المدرسة الجامع ، ويقصد به تلك المدارس التي خصصت للدراسة والتعليم ووقفت مسجداً جامعاً مباحاً لعموم المسلمين ، ومن ثم زودت بمنبر ومئذنة ومصلى جنازى وميضأة خارجية بخلاف الميضأة الداخلية ، ولا توجد سوى مدرسة واحدة تتبع هذا النمط وهي المدرسة البوعناية (أو الفارسية أو المتوكلية) بفاس القديمة ٧٥١ - ٧٥٦هـ / ١٣٥٠ - ١٣٥٥م .

وقد امتازت هذه المدرسة بكبر حجمها وبِعظمتها وفخامة واثراء نقوشها الزخرفية ، وقد زارها الرحالة ابن بطوطة ووصفها بقوله « ... لا نظير لها في المعمور اتساعا وحسنا وابداعا وكثرة ماء وحسن وضع ، ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها » (١٦٢) .

وهذه المدرسة تعد من أعظم المدارس الإسلامية عامة وفي الغرب الإسلامي والمغرب خاصة وتخطيطها بصفة عامة عبارة عن صحن أوسط مكشوف يشغل ضلعه الجنوبي قبة المدرسة (المسجد الجامع بالمدرسة) وهي عبارة عن مساحة مستطيلة قسمت بواسطة بائكة واحدة ذات خمسة عقود حدوة الفرس موازية لجدار القبلة إلى بلاطتين (رواقين) موازيين لجدار القبلة وهما غير متساويتين من حيث المساحة ويسقفهما سقف خشبي منشوري الشكل ويطل المسجد على الصحن ببائكة ذات خمسة عقود حدوة الفرس العقدان الأول

(١٦١) الكحلوي ، المدارس ، ص ؛ أبو رحاب ، مدارس المغرب ، ص ٢٨٦ - ٢٩٩ ، ٣٠٤ - ٣٣٠ .

(١٦٢) ابن بطوطة الرحلة ، ص ٦٦٢ .

والأخير يتوجان المدخلين الموصولين لداخل المسجد . وتشغل الأضلاع الثلاثة الأخرى للصحن (الشرقي والغربي والشمالي) ثلاثة أروقة ، بواقع رواق بكل ضلع ، ويتميز الرواقان الشرقي والغربي بأنه يتوسطهما قاعتان شبه مربعتين للدراسة بواقع قاعة بكل جهة ، وهاتان القاعتان متماثلتان ومتناظرتان ، ويغطي كل قاعة منهما قبة خشبية ذات ضلوع مشعة ، وبكل قاعة فتحة باب تطل على الصحن يغلق عليها باب خشبي من مصراعين ، هذا وتتقدم أروقة الصحن الثلاثة بيوت الطلبة وهي من طابقين : الأرضي يشتمل على ١٤ بيتاً والطابق الأول يشتمل على ٣٥ بيتاً (١٦٣) . (شكلا ٢٠٩ - ٢٠٩ مكرر) .

أما عن مدارس عصر الأشراف السعديين فحسبنا أن نشير إلى مدرسة ابن يوسف بمراكش (المدرسة الغالبية) التي أمر بانشائها السلطان السعدي الغالب بالله عام ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م ، وتعد هي الأخرى من المدارس الرائعة المتميزة ، وهي عبارة عن صحن أوسط مكشوف يشغل ضلعه الجنوبي قبة المدرسة (مسجد المدرسة) وهي عبارة عن مساحة مستطيلة قسمت إلى ثلاثة بلاطات (أروقة) أوسطها أوسعها ، وذلك عن طريق بئكتين تتكون كل بئكة منهما من ثلاثة عقود حدوة الفرس عمودية على جدار القبلة ، ويشغل الضلعان الجانبيان للصحن (الشرقي والغربي) رواقان بواقع رواق بكل ضلع يطل على الصحن ببئكة ذات خمسة عقود ، وبيوت الطلبة من طابقين وقد وزعت في الطابق الأرضي على ضلعي المدرسة الغربي والشرقي منفصلة تماما عن صحنها الأوسط ، ومن ثم صار كل عدد من البيوت يطل على صحن داخلي مستقل ، وبذلك وصل عدد الصحن الصغيرة بالمدرسة إلى ستة صحن ، ثلاثة بالضلع الغربي ومثلها بالضلع الشرقي . (شكل ٢٠٨) .

ويبلغ عدد بيوت الطابق الأرضي ٥٤ بيتا والطابق الأول ٨٦ بيتا في ثلاث جهات، الشمالية والشرقية والغربية (١٦٤) . أما عن السمات المعمارية والفنية للعناصر المعمارية

(١٦٣) الكحلاوي ، المدارس ، ص : أبو رحاب ، مدارس المغرب ، ص ٢٥٨ - ٢٨٥ ؛ الريحاني ، العمارة في الحضارة ، ص ٣٨٤ - ٣٨٧ .

(١٦٤) أبو رحاب ، مدارس المغرب ، ص ٤٢٤ - ٤٣٥ ؛ العمارة الدينية والجنائزية الباقية للإشراف السعديين بالمغرب الأقصى ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة جنوب الوادي (٢٠٠٥م) ، ص ٣٢٠ - ٣٤٥ ؛ خصيف ، محمد ، مدرسة ابن يوسف أكبر مدرسة عتيقة بالمغرب العربي ، مجلة المتحف العربي ، السنة الثالثة ، العدد الثالث (جمادى الأولى - رجب ١٤٠٨هـ / يناير - مارس ١٩٨٨م) ، ص ٥٢ - ٥٧ ؛ ولزيد من التفاصيل عن المدارس السعدية الأخرى ، انظر ، أبو رحاب ، العمارة الدينية ، ص ٣٤٦ - ٣٥٦ .

والنقوش الكتابية والزخرفية المنقذة على كافة المواد فسوف نشير إليها اجمالاً في كتابنا هذا فيما بعد ، وتفصيلاً في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

٨ - اليمن :-

من الثابت والمعروف تاريخياً أن المدارس قد وجدت طريقها إلى اليمن في أواخر العصر الأيوبي ٥٦٩ - ٦٢٦هـ / ١١٧٣ - ١٢٢٩) حينما أنشئت للملك المعز إسماعيل بن طغتكين مدرستين أحدهما في تعز وسماها المدرسة السيفية نسبة إلى أبيه سيف الاسلام طغتكين المتوفى ٥٩٣هـ / ١١٩٧م ، والأخرى في زبيد عام ٥٩٤هـ / ١١٩٨م ، وقد عرفت بالمدرسة المعزية نسبة إليه ثم عرفت فيما بعد بمدرسة الميلىن (١٦٥) .

وفي العصر الرسولى (٦٢٦ - ٨٥٨هـ / ١٢٢٠ - ١٤٥٤م) انتشرت المدارس انتشاراً كبيراً في تعز والجند وذى جبلة وزبيد وعدن ونواحيها وامتدت إلى ظفار الحبوضى شرقاً وإلى مكة المكرمة شمالاً ؛ وعلى ذلك كانت المدارس الرسولية سمة من سمات دولتهم ومظهر بارزاً من مظاهر الحضارة الاسلامية في عصرهم .

واستمر انشاء المدارس بعد بنى رسول في عهد الدولة الطاهرية فبنيت مدارس في جبن ورداع وتعز وزبيد والمقرانة ، وظل الحال على ذلك خلال العصر العثمانى حيث بنيت مدارس في صنعاء وزبيد (١٦٦) .

ويمكن تقسيم المدارس اليمنية الباقية إلى مجموعتين (١٦٧) متميزتين : الأولى :

(١٦٥) الأكوع ، القاضى إسماعيل بن على ، المدارس الإسلامية في اليمن ، بيروت - صنعاء ، ط ٢ (١٩٨٦م) ، ص ٥٥ - ٦٠ ؛ شيحة ، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية ، ص ٨٥ .

(١٦٦) لمزيد من التفاصيل عن انتشار المدارس الإسلامية في اليمن من العصر الرسولى إلى العصر العثمانى انظر ، الأكوع ، المدارس الإسلامية في اليمن ، (٤٥٣ صفحة فضلاً عن الفهارس والمصادر والمراجع) .

(١٦٧) عن الدراسة الوصفية والتحليلية للمدارس اليمنية بمجموعتيها انظر ، شيحة ، مدخل ، ص ٨٦ - ١٠٧ ؛ دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية ، ضمن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية المشار إليه سابقاً ، ص ٤٣٨ - ٤٦٧ ؛ أبو الفتوح ، محمد سيف النصر ، نظرة عامة إلى المدارس اليمنية تخطيطاتها وعناصرها المعمارية ، مجلة الأكليل ، السنة ٣ ، العدد ١ ، صنعاء (١٩٨٥م) ، ص ؛ المدرسة الدعاسية بمدينة زبيد باليمن ، مجلة كلية الآداب بقنا - العدد ٢ ، جامعة أسيوط ، (١٩٩٢م) ، ص ٨٤ - ١٢٦ ؛ الراشد ، عبد الله ، المنشآت المعمارية الرسولية في اليمن ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود بالرياض (١٩٩٢م) ؛ المصرى ، آمال =

المدارس الكبرى ، والثانية : المدارس الصغرى ، ومن المدارس التى تنتمى إلى المجموعة الأولى : المدرسة المعتبية بتعز قبل ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م ، والمدرسة الأشرفية الكبرى بتعز ٨٠٠ - ٨٠٣هـ / ١٣٩٧ - ١٤٠٠م ، والمدرسة الظاهرية بتعز قبل ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م ، والمدرسة المنصورية فى جبن ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م ، والمدرسة العامرية فى رداع ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م .

ومن المدارس التى تنتمى إلى المجموعة الثانية المدرسة المنصورية العليا والمدرسة المنصورية السفلى بزيد قبل ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م ، والمدرسة الدعاسية بزيد قبل ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م ، والمدرسة الجبرتية بزيد قبل ٨٠٦هـ / ١٤٠٣ ، والمدرسة النظارية فى اب ٩٢١هـ / ١٥١٥م ، والمدرسة الوهابية فى زيد ٩٢٣هـ / ١٥١٧م .

ومن مدارس العصر العثمانى المدرسة الكمالية ٩٢٧ - ٩٣٠هـ / ١٥٢٠ - ١٥٢٣م ، والمدرسة السكندرية قبل ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م ، فى زيد والمدرسة البكيرية ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م ، فى صنعاء . أما عن تخطيط هذه المدارس فيمكن القول أن المدارس الكبرى تكاد تتفق فيما بينها من حيث السمات العامة والتخطيط العام مع الاختلاف فى بعض العناصر والمفردات والتفاصيل ، حيث يوجد صحن أوسط مكشوف (الصوح أو الصرحة أو الشماسى أو الشمسية حسب الاصطلاح اليمنى) ، تحيط به الأروقة من ثلاث جهات كما فى المدرسة المعتبية فى تعز أو أربع جهات كما فى المدرسة العامرية فى رداع .

ويشغل صدر المدرسة (الضلع الشمالى للصحن وهو الضلع القبلى بالنسبة لليمن) مسجد المدرسة (البنية وفق الاصطلاح اليمنى) أو مجلس قبلى على ضوء ما ورد فى الوقفية الغسانية ، ويتبع تخطيطه إما الطراز الذى اصطلاحنا على تسميته بطراز القلب والجناحين ، أو على حد قول الوقفية الغسانية مجلس قبلى وجناحان شرقى وغربى ،

= حامد ، مدارس مدينة تعز باليمن فى عصر بنى رسول ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة (١٩٩٨م) ؛ الحداد ، عبد الله عبد السلام ، مدينة حيس اليمنية ، تاريخها وآثارها الدينية ، القاهرة (١٩٩٩م) ؛ مقدمة فى الآثار الإسلامية ، ص ٣٤ - ٣٦ ؛ وبطبيعة الحال فإنه لا يمكن الاستغناء عن كتاب المدارس الإسلامية فى اليمن للقاضى الأكوع فهو عصب دراسة المدارس اليمنية لا سيما وأنه قد اعتمد على الوقفية الغسانية وهى من أهم المصادر لدراسة المدارس اليمنية كما لا يخفى .

وتعلو المجلس القبلى قبة كبيرة فيها المحراب - أى بصدر المجلس القبلى - محمولة على أربعة عقود ، أما الجناحان فبكل جناح أربع قباب كما هو الحال فى المدرسة الأشرفية الكبرى بتعز (شكل ٢٩) .

والمدرسة الظاهرية قبل ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م ، بتعز أيضاً . واستمر نفس هذا الطراز فى العصر العثمانى ، ولكن على مقياس أصغر كما هو الحال فى المدرسة الكمالية والمدرسة السكندرية بزييد ، فالقلب تغلوه قبة كبرى بينما يشتمل كل جناح على قبتين متماثلتين ، ومن الملاحظ أيضاً فى هاتين المدرستين وجود الصحن المكشوف والأروقة الأربعة حوله . (شكل ٣٠) .

ويتبع التخطيط الآخر لمساجد المدارس اليمينية الكبرى الطراز الذى اصطلاحنا على تسميته بطراز الأروقة (البلاطات) المتقاطعة حيث توجد بائكة ذات ثلاثة عقود موازية لجدار القبلة تقطعها بئكتان عموديتان على جدار القبلة وهو الأمر الذى نتج عنه رواقين موازيين يتقاطع معهما ثلاثة أروقة عمودية ، ويغضى المسجد ست قباب متماثلة غالباً كما هو الحال فى المدرسة المعتبية فى تعز والمدرسة العامرية فى رداع .

ومن مفردات التخطيط فى هذه المدارس أيضاً الايوانات والدهاليز والخانقاة والحمامات والمطاهير وفى بعضها كالأشرفية الترب وغير ذلك من المنافع والمرافق والملحقات وهو الأمر الذى اكسب المدارس اليمينية طابعاً محلياً متميزاً وشخصية مستقلة قائمة بذاتها وهو ما سوف نعود إليه لإبرازه فى دراسة لاحقة مفصلة بمشيئة الله تعالى .

أما فى المدارس الصغرى فالمسجد فيها إما أن يكون على هيئة مساحة مستطيلة يتوسط صدرها المحراب ، كما هو الحال فى المدرسة المنصورية العليا فى زبيد أو تقسم هذه المساحة إلى رواقين (بلاطتين) بواسطة بائكة واحدة ذات خمسة عقود كما هو الحال فى المدرسة الياقوتية فى زبيد والتغطية غالباً ما تكون الأقبية ، وهناك بعض النماذج التى غطيت بقبة مركزية كما فى المدرسة الدعاسية والمدرسة الوهابية فى زبيد ، وإن كانت هذه المدرسة الأخيرة تتميز بوجود ايوانين جانبيين صغيرين (شرقى وغربى) يطل كل ايوان منهما على المساحة الوسطى بعقد ليساعدا مع العقدین الآخرين (الشمالى والجنوبى) فى إقامة القبة الوسطى المركزية .

أما المدرسة البكيرية بصنعاء فتتميز بأنه يتقدم مسجدها المغطى بقبة كبرى رواق خارجي (سقيفة) مغطى بثلاث قباب صغيرة متماثلة يشرف على الفناء (الصوح أو الصرحة) المكشوف^(١٦٨) ، كما سبق القول . (شكل ٢٧) .

(١٦٨) الحداد ، محمد حمزة ، بحوث ودراسات (الكتاب الأول)، ص ١١٨ ، ١٥١ ؛ خليفة ، ربيع حامد ، البكيرية المسجد والمدرسة ، الأكليل ، السنة ٥ ، العدد ١ ، صنعاء (صيف ١٩٨٧م) ، ص ١٣٤ .
١٤٤ ؛ (فضلا عن المراجع المشار إليها سابقا وبصفة خاصة الأكوع وشيخة وأبو الفتوح) .

ثالثاً : العمارة المدنية :-

تحتل العمارة المدنية مكانة هامة فى دراسة العمارة الإسلامية بصفة عامة ، وعلى الرغم من كثرة أنواع العماثر المدنية التى تفيض بذكرها المصادر التاريخية والوثائق المختلفة ، إلا أن نماذجها الباقية قليلة ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أن العماثر المدنية بأنواعها المختلفة كانت كالكلا المباح يستحله لنفسه من يشاء من ذوى القوة والسيطرة والجاه والنفوذ ، ومن ثم كان عرضة للهدم والانذار والاحلال والتغيير سواء فى العصور الوسطى ذاتها أو فى عصرنا الحديث المكتظ بالطرز المعمارية العديدة التى تسربت إلينا فافسدت علينا طرازنا الإسلامى الموروث ، وهو الطراز الذى كان وما يزال وسيظل صالحاً وملائماً ومناسباً لبيئتنا من جهة ولعاداتنا وتقاليدها الإسلامية والشرقية من جهة ثانية .

ومهما يكن من أمر فإنه من خلال دراسة هذه النماذج الباقية نستطيع التعرف على أنواع العماثر المدنية المختلفة وطرزها وتخطيطها ووحداتها ومفرداتها وعناصرها المعمارية والزخرفية ، وهو الأمر الذى يمكن فى ضوئه معرفة نشأة كل نوع من هذه الأنواع ومراحل تطوره والتأثيرات المختلفة التى اثرت عليه من جهة ، والنشاطات المختلفة التى كانت تمارس فى كل نوع من جهة ثانية .

وفيما يلى يلى نتناول أنواع العماثر المدنية السابق الإشارة إليها وذلك على النحو التالى :

١. العماثر الخيرية :

يقصد بتلك العماثر تلك الأبنية التى أنشئت رغبة فى التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وأملا فى ثواب الآخرة ، وذلك بفعل الخير ومن ثم سبيلها أصحابها أي وقفوها فى سبيل الله تعالى أى بغير أجر ، وهذا يعنى أن تلك الأبنية كانت لا تدر دخلاً للواقف يتصرف فيه كيف يشاء ، ومن أشهر أنواع هذه العماثر أو الأبنية الخيرية أسبلة الماء أو الأسبلة كما هو معروف وشائع .

وقبل أن نحدد أنواع هذه العماثر أو الأبنية الخيرية ينبغى أن نشير أولاً إلى قضية هامة ألا وهى : قضية إختلاف الآراء حول تفسير مدلول لفظة السبيل وأصل اشتقاقها

من جهة ، وارتباطها بنوع خاص معروف وشائع - وهو أسبلة الماء - من جهة ثانية .

أما من حيث مدلول اللفظة وأصل اشتقاقها فيرى البعض أنها مشتقة من أسبل الماء بمعنى صبه وأسبل المطر بمعنى هطل^(١٦٩) ، بينما يرى البعض الآخر أن هذه الأسبلة اشتقت تسميتها من ابن السبيل أى الطريق^(١٧٠) .

وعلى ضوء هذا التفسير إنحصرت لفظة السبيل وصارت إصطلاحاً على نوع خاص من المنشآت المائية ، هو المعروف والشائع باسم السبيل أو السقاية - وهذه التسمية الأخيرة شائعة في الغرب الإسلامى - ولم يقف الأمر عند ذلك الحد فحسب ، بل وصل الأمر إلى القول أن تسمية الكتاب بمكتب السبيل إنما ترجع إلى بنائه أعلى السبيل أو لارتباطه بهذا الموضع^(١٧١) .

والحق أن لفظة السبيل لم يكن يقصد بها ، خلال العصور الوسطى الإسلامية ، ذلك المبنى المخصص لشرب الماء فحسب ، كما هو شائع ومعروف ، ومن جهة ثانية فإن هناك نماذج كثيرة من الكتاتيب لا تعلو أسبلة ، ومع ذلك عرفت فى وثائق الوقف المختلفة ، فضلاً عن المصادر التاريخية ، وبصفة خاصة كتب التاريخ المحلى والخطط والرحالة ، بمكتب السبيل^(١٧٢) .

وفى ضوء ذلك يمكن القول أن لفظة السبيل كانت إصطلاحاً مرتبطاً بالعديد من

(١٦٩) الباشا ، مدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ١٦٣ ؛ الكحلاوى ، محمد محمد مرسى ، السقايات المغربية بمدينتى فاس ومراكش ، دراسة أثرية مقارنة مع الأسبلة المملوكية بالقاهرة ، مجلة كلية الآداب بقنا ، جامعة جنوب الوادى ، العدد الرابع (١٩٩٥م) ، ص ٣١٩ ؛

Mostafa, S. L., The Cairene Sabil, Muqarnas, vol 6, Leiden, Brill, E. J, (1989), P. 34 .

(١٧٠) عثمان ، محمد عبد الستار ، أسبلة القاهرة المملوكية ، مجلة المتحف العربى ، السنة ٢ ، العدد ٣ ، الكويت (جمادى الأولى - رجب ١٤٠٧هـ / يناير - مارس ١٩٨٧م) ص ٨٦ .

(١٧١) أمين ، محمد محمد ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر عصر سلاطين المماليك ، القاهرة (١٩٨٠م) ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ؛ عثمان ، محمد عبد الستار ، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، الإسكندرية (٢٠٠٠م) ، ص ٣٤٧ ؛ أبو رحاب ، مدارس المغرب الأقصى فى عصر بنى مرين ، ص ٣٧٤ .

(١٧٢) الحداد ، محمد حمزة ، الطراز المصرى لعمائر القاهرة الدينية خلال العصر العثمانى ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة (١٩٩٠م) ، ص ٥٤ - ٥٥ .

الأبنية التى وقفت سبيلاً لله تعالى ، وذلك رغبة فى التقرب إليه عز وجل ، وأملاً فى ثواب الآخرة ، ومن هذه الأبنية ما خصص لتوفير المياه كل يوم وعلى مدار العام كله للإنسان والحيوان كالسقايات والأسبلة وأحواض السبيل ، ومنها ما خصص لتعليم الأيتام والفقراء وغيرهم كمكاتب السبيل (الكتاب) ، ومنها ما خصص لإقامة الغرباء والفقراء كخانات السبيل ، ومنها ما خصص لطحن الغلال كطاحون السبيل وغير ذلك .

هذا ولم ترتبط هذه اللفظة بتلك الأبنية فحسب ، وإنما إرتبطت أيضاً بالعديد من أوجه الأنشطة الخيرية الأخرى ، ومن بينها ، على سبيل المثال وليس الحصر ، المصاحف المسبلة والتوابيت المسبلة ، والسواقي المسبلة والترب والمدافن المسبلة ، وغير ذلك مما ورد فى وثائق الوقف والمصادر التاريخية المختلفة^(١٧٣) .

ونضيف على ما تقدم فنذكر أن لفظة السبيل عرف بها الماء أيضاً فقليل له « الماء المسبل أى المجعل فى سبيل الله^(١٧٤) » ، كذلك هناك المال المسبل - أى الموقوف فى سبيل الله تعالى - وغير ذلك^(١٧٥) .

ومما له دلالة فى هذا الصدد أن هذه الأبنية التى وقفت وخصصت لتوفير المياه العذبة لينتفع بها فى سقى الناس كل يوم وعلى مدار العام كله ، تعد الأبنية الخيرية الوحيدة التى ظل لفظ السبيل ملتصقاً بها حتى طفى على ما عداه من مصطلحات أخرى ، ولا سيما خلال العصر المملوكى ، ويؤكد ذلك الفاسى بقوله : « بمكة وحرمةا عدة سقايات وتسمى أيضاً السبل بسين مهملة وباء موحدة مضمومتين جمع سبيل وشهرتها عند الناس بالسبل أكثر وهى كثيرة ، إلا أن بعضها صار لا يعرف لخراجه وبعضها معروف مع الخراب^(١٧٦) » ونضيف على ذلك فنذكر أن هذه اللفظة لا تزال

(١٧٣) الحداد ، عمائر القاهرة الخيرية فى العصر العثمانى ضمن أعمال ندوة أندريه ريمون ، القاهرة (ابريل ٢٠٠٥م) ، قيد النشر .

(١٧٤) مبارك ، على باشا ، ت ١٣١١هـ / ١٨٩٣م ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، ج ٦ ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨٧م) ، ص ١٦٦ .

(١٧٥) ابن أحمد الفراهيدى ، أبى عبد الرحمن الخليل ، ت ١٧٥هـ / ٧٩١م ، كتاب العين ، ج ٧ ، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائى ، بيروت (١٩٨٨م) ، ص ٢٦٣ .

(١٧٦) الفاسى ، تقى الدين محمد بن على ، ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج ١ ، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى ، بيروت (١٩٨٥م) ، ص ٥٣٨ - ٥٣٩ .

عالقة فى أذهان الناس ، خاصتهم وعامتهم إلى اليوم ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى استمرار هذا النوع من الأنشطة الاجتماعية فى القيام بوظيفته الخيرية خير قيام ، وهو الأمر الذى كان من نتيجته ابتكار أشكال وأنماط من هذه الأسيلة بما يتناسب مع التقنيات الحديثة والمعاصرة ، وهو ما نشاهده فى الأقطار العربية المختلفة مثل مصر والسعودية والكويت والإمارات وغيرها .

أما ما عداها من الأبنية أو المنشآت الخيرية الأخرى ، السابق الإشارة إليها ، فلم يعد الناس - بما فيهم من بعض المتخصصين - يذكرونها سوى باسمها المجرد المرتبط بوظيفتها فحسب ، لا بدالاتها الخيرية التى كانت تعرف بها حتى أوائل القرن ١٤هـ / ٢٠م ، مثل المكتب أو الكتاب بدلاً من مكتب السبيل أو كتاب السبيل ، والطاحونة بدلاً من طاحونة السبيل ، وحوض الدواب أو حوض سقى الدواب بدلاً من حوض السبيل والخان بدلاً من خان السبيل وغير ذلك .

ومهما يكن من أمر فإن هذه العماثر أو المنشآت الخيرية قد نهضت بدور بارز جليل الشأن فى خدمة المجتمعات الإسلامية المختلفة خلال العصور المتعاقبة وحتى أوائل القرن ١٤هـ / ٢٠م .

غير أن ما يعنينا من هذه العماثر الخيرية فى هذا المقام ، هو أسيلة الماء ، وهى التى كانت تعرف بالسقايات خلال القرون الخمسة الأولى بعد الهجرة ، ثم إنتشرت واشتهرت باسم الأسيلة منذ أواخر القرن ٥هـ / ١١م ولا سيما فى الشام ومصر والجزيرة العربية ، وفى إيران باسم سقاخانه وفى الأناضول اسيا الصغرى باسم چشمه ؛ أما أقطار الغرب الإسلامى فقد ساد وإنتشر فيها مصطلح السقاية وصار علماً - أى ذلك المصطلح - على ذلك النوع من الأبنية أو المنشآت الخيرية هناك .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل ظهرت بضعة مترادفات أخرى ، ولا سيما فى الجزيرة العربية والشام ومصر ، ومنها المحسنة والمعروف ، والأول منها إنتشر فى اليمن خاصة (١٧٧) ، بينما عرف المصطلح الآخر فى الشام والحجاز ومصر ، ورغم أن هذه

(١٧٧) انظر على سبيل المثال ، الحجرى ، الحاج محمد بن أحمد ، مساجد صنعاء عامرها وموفيتها ، بيروت ، ط ٢ ، (١٩٧٧م) ، ص ٣٠ - ٣١ .

المترادفات تؤكد الدلالة الخيرية وتتطابق معها فى ذات الوقت ، إلا أنها لم تلق من الذبوع والانتشار ما لقيه مصطلح السبيل فى هذه الأقطار العربية الإسلامية الثلاثة ، ومن ثم إقتصر وورد هذان المصطلحان وغيرهما على المصادر التاريخية ، فضلاً عن بعض النقوش الإنشائية التى لا تزال باقية حتى الآن^(١٧٨) .

هذا وقد حظيت أسبلة الماء بالعناية الفائقة سواء من حيث إختيار موقعها ، أو من حيث عمارتها ، أو من حيث حليتها وكسوتها ، أو من حيث الأوقاف الكثيرة المغلة التى أوقفت عليها كى يصرف من ريعها المبرور على أوجه الصرف المختلفة لإستمرار منفعتها ودوامها .

وكان يتولى تسبيل الماء وتوزيعه على الناس موظف خاص يعرف بالمزملا تى ، وقد اشترطت فيه ، كما ورد فى كثير من الوثائق المملوكية ، شروطاً خلقية وخلقية كأن يكون سالماً من العاهات والأمراض ، وأن يسهل الشرب على الناس ، ويعاملهم بالحسنى والرفق ، ليكون أبلغ فى إدخال الراحة على الواردين ، كما كان يتعهد الرخام والدهاليز فى السبيل بالكنس والمسح وتبخير الأوانى ، وعليه أن يفتح السبيل فى المواعيد المقررة ، حيث كان السبيل يجب أن يظل مفتوحاً طوال النهار من شروق الشمس حتى غروبها ، وأحياناً من بعد الغروب إلى أن تمضى حصه من الليل ، عندما يأوى الناس إلى مساكنهم ، وتنقطع الرجل عن الطرقات ، أما فى شهر رمضان فكان تسبيل الماء يستمر من وقت الغروب إلى ما بعد صلاة التراويح ، ثم من وقت التسبيح إلى الفجر .

وكانت أسبلة الماء تزود بالعديد من الأدوات لتقوم بوظيفتها خير قيام ، ومنها سلب الليف أو الكتان والإسفنج والبخور والمكانس والأدلية الجلد والبكر وأنية الشرب والكيزان والأباريق والقلل الفخار والطشوت والأسطال النحاس وغير ذلك مما ورد فى وثائق الوقف المختلفة^(١٧٩) .

وارتبطت أسبلة الماء بالبيئة التى تقام فيها فمنها ما أقيم فوق آبار تجمع فيها مياه

(١٧٨) ومن أهمها النقش الإنشائى للسبيل الملحق بخانقاة وقبة السلطان الأشرف قانصوه الغورى على رأس شارع الغورية عند تقاطعه مع شارع الأزهر بالقاهرة ٩٠٩ - ٩١٠ هـ / ١٥٠٣ - ١٥٠٤ م .

(١٧٩) أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ١٥١ - ١٥٤ ؛ عثمان ، نظرية الوظيفة ، ص ١٥١ - ١٥٢ ؛ الحسينى ، محمود حامد ، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ١٥١٧ - ١٧٩٨ م ، القاهرة (١٩٨٨م) ، ص ٣٠٣ - ٣٠٧ ، ٣٥٤ .

الأمطار ، كما كان عليه الحال فى الحجاز والقدس^(١٨٠) ، ومنها ما أقيم فوق صهاريج مبنية فى تخوم الأرض تنقل إليها مياه الأنهار العذبة كما كان عليه الحال فى أسبلة القاهرة حيث كانت تنقل إليها من نهر النيل ، وفى مدن أخرى كان يسقى ماء الجمد مسبلاً كما كان عليه الحال فى سمرقند (جمهورية أوزبكستان بآسيا الوسطى) حيث كان فى المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على ألفى مكان يسقى فيها ماء الجمد مسبلاً ما بين سقاية مبنية وحباب نحاس منصوبة وقلال خزف مثبتة فى الحيطان^(١٨١) .

أما من حيث طرز الأسبلة فلدينا منها طرز بسيطة فى العمارة والزخرفة ، ومنها طرز مركبة جمعت بين روعة التخطيط والمهارة فى الإبداع والتأنق الزخرفى والجمالى . وحسبنا فى هذه العجالة أن نشير إلى بضعة نماذج من هذه وتلك .

ومن ذلك طراز الجشمة وتوجد منه أنماط بسيطة ترجع إلى العصر السلجوقى فى الأناضول (سلاجقة الروم) وما تلاه (لوحتا ١٧٨ - ١٧٩) وأنماط متطورة تعد تحفًا معمارية وفنية ترجع إلى العصر العثمانى ، وبصفة خاصة فى تركيا والبلقان ، سواء كانت مفردة فى القصور والحدائق (لوحة ١٩٦) أو مدمجة مع السبيل ذى الشبايك فى مبنى واحد بحيث تتوسط الجشمت المبنى ، بينما توضع الشبايك فى الأركان^(١٨٢) (لوحة ١٩٥) .

كذلك فإن بعض الجشمت الباقية فى قبرص (جشمة غازي باشا فى ليماسول) تعيد إلى الأذهان ما يعرف بطراز التربة المفتوحة فى العمارة الإسلامية^(١٨٣) . ومن نماذج هذا الطراز فى المدن العربية الأسبلة السلیمانية فى القدس الشريف^(١٨٤) (لوحة ٢٩) .

(١٨٠) انظر دراساتنا عن الأسبلة فى الحجاز والقدس الشريف ومنها الأسبلة فى العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، القاهرة (٢٠٠٤م) ، (٧٦ صفحة فضلاً عن الأشكال واللوحات) ؛ الأسبلة السلیمانية الباقية بالقدس الشريف ، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية ، الرسالة ١٩٩ ، الحولية ٢٣ ، مجلس النشر العلمى ، جامعة الكويت (١٤٢٣ - ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣م) ، (١٤٤ صفحة) .

(١٨١) ابن حوقل ، أبى القاسم ، كتاب صورة الأرض ، القاهرة ، د ت ، ص ٣٨٦ ؛ الاصطخرى ، أبى اسحق إبراهيم ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر الحينى ، القاهرة ، ط ٢ (٢٠٠٤م) ، ص ١٦٣ .

(١٨٢) الحداد ، محمد حمزة ، العمارة الإسلامية فى أوروبا العثمانية ، ص ٢٤٢ - ٢٤٩ .

(١٨٣) الحداد ، العمارة الإسلامية ، ص ٢٤٤ .

(١٨٤) الحداد ، الأسبلة السلیمانية ، المشار إليها فى الحاشية رقم ١٨٠ .

وبالقدس نماذج فريدة للأسبلة ومنها السبيل المعروف بالكأس^(١٨٥)، ومنها سبيل السلطان قايتباى وهو يعيد إلى الأذهان صورة القباب الجنائزية فى أواخر عصر المماليك الجراكسة أو كما يقال طراز مصرى غرس فى أرض شامية^(١٨٦).

أما أسبلة القاهرة فمنها الأسبلة ذات الشاذروانات أو السلسبيل (لوحات ٧٤ - ٧٥ ، ٨٠) ومنها الأسبلة دون الشاذروانات أو السلسبيل (لوحات ٦٩ ، ٨١)، وتحتوى هذه وتلك على عدد من شبابيك التسبيل يتراوح ما بين شباك واحد وثلاثة شبابيك ، بأرضية كل منها - من الداخل حوض المياه ، كذلك عرفت القاهرة فى العصر العثمانى الأسبلة ذات الواجهة المقوسة أو نصف الدائرية (لوحة ٨٢) .

هذا وتبنى أسبلة القاهرة اما منفردة أو مستقلة ومن أشهرها سبيل قايتباى بالصليبة أو ملحقة بغيرها من العمارات الدينية والمدنية والجنائزية الأخرى مثل المساجد والمدارس والخوانق والدور والقصور والترب والقباب ، وقد يبنى فوق حجرة السبيل مكتب للسبيل (كتاب) غالباً وأحياناً يحل محل المكتب مفردات ووحدات أخرى لا مجال للحديث عنها هنا .

وتميزت أسبلة القاهرة بحلياتها الزخرفية سواء فى الواجهات عامة والمداخل خاصة ، أو فى داخل حجرة التسبيل من الأرضيات والجدران والأسقف ودخلة الشاذروان وقبلة الشاذروان - وذلك فى الأسبلة التى تشتمل على هذا العنصر - والشبابيك من النقوش الكتابية والزخرفية ، كالأشرطة الكتابية والرنوك (الدروع والخراطيش) ، (لوحة ٧٦) والجفوت والكرندازات ، والدوائر والجامات الزخرفية والزخارف النباتية والهندسية المنفذة على كافة المواد الحجرية والرخامية والخشبية ، فضلاً عن الخزف (البلاطات الخزفية أو الزليج فى الغرب الإسلامى) .

(١٨٥) العسلى ، كامل جميل العسلى ، من آثارنا فى بيت المقدس ، عمان (١٩٨٢م) ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ؛ عبد الدايم ، عبد العزيز ، بيت المقدس فى العصر الأيوبى ، القاهرة (١٩٨٩م) ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .
(١٨٦) العسلى ، من آثارنا ، ص ٢٤٨ - ٢٥٥ ؛

Kessler, C., The Fountaine of Sultan Qaytbay in the Sacred Precinct of Jerusalem, in Archaeology in the levant, England, (1978), PP. 213 - 257 .

نجيب ، محمد مصطفى ، دراسة جديدة على سبيل السلطان اينال المندثر والسبيل الحالى للسلطان قايتباى بالحرم الشريف بالقدس ، القاهرة (١٩٨٨م) ، ص ٧ - ٤٥ ؛ الحداد ، محمد حمزة ، القدس وأندر الآثار الإسلامية ، الهلال ، فبراير (١٩٩٦م) ، ص ١٠٣ - ١٠٧ .

ولا ننسى السقايات المغربية بشخصيتها المستقلة وطابعها المعماري والزخرفي المتميز ، ومن بينها سقاية سيدى فرج بفاس ٨٤٠هـ / ١٤٣٩م ، من العصر المريني ، وسقاية جامع المواسين بمراكش ٩٧٠ - ٩٨٠هـ / ١٥٦٢ - ١٥٧٢م ، وسقايتان بجامع القرويين بفاس : السقاية الشرقية ٩٨٦هـ / ١٠١٢م ، والسقاية الغربية ١٠٢٢ - ١٠٣٤هـ / ١٦٠٣ - ١٦٢٤م ، من عصر الأشراف السعديين .

وسقايتان بمدرسة الشراطين ١٠٨١هـ / ١٦٦٩م ، من عهد الأشراف العلويين أو الفلايين وغير ذلك^(١٨٧) .

ومن بين الآيات القرآنية الكريمة التى نقشت على الأسبلة ﴿ عينا فيها تسمى سلسيلاً ﴾ ﴿ ويسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾ ﴿ وسقاهم ربهم شرابهم طهورا ﴾ .
ومن بين الأشعار :

ياوارد الماء الزلال الصافى اشرب هنيئا صحة وعوافى

ومن التراث الغنائى : عطشان يا صبايا دلونى على السبيل .

وهكذا كانت أسبلة الماء من بين العمائر أو المنشآت التى قامت بدور بارز فى تحقيق الرعاية الاجتماعية فى الحضارة الإسلامية : ذلك الدور الذى يعبر عن روح الإسلام وقيمه ومثله ، والتى لولا نظام الوقف ما نجحت فى تحقيق ذلك الدور واستمرار المنفعة ودوامها ، وهو الأمر الذى نتمنى أن يعود وينتشر من جديد بعون الله سبحانه وتعالى ويتوفيقه .

(١٨٧) الكحلأوى ، السقايات المغربية ، ص ٣٣٠ - ٣٥٧ .

٢- عمائر المنافع العامة :

أ- مقياس النيل بالقاهرة :

كان الهدف من إنشاء المقاييس هو قياس مناسيب المياه فى نهر النيل ، لمعرفة مقدار ارتفاعها من عدمه (الزيادة أو النقصان) نظراً لعلاقتها الوثيقة بمواسم الزراعة ؛ وبالتالى رى الأراضى الزراعية وما يرتبط بذلك من رخاء البلاد أو قحطها ، ومن ثم كان يتوقف على مقدار هذه الزيادة تقدير الخراج (ضريبة الأراضى) ، فإذا بلغت الزيادة ١٦ ذراعاً كان ذلك عام وفاء النيل ، وتقام الاحتفالات بوفاء النيل ويتم تخليق المقياس (بالزعفران والمسك) ويكسر الخليج^(١٨٨) - أى يحفر السد حتى يجرى الماء فى الخليج (وهو خليج أمير المؤمنين الذى ردم فى أواخر القرن ١٩م ، ويعرف موضعه بشارع الخليج المصرى وحالياً بشارع بور سعيد) وشارع السد بالسيدة زينب لا يزال يحمل اسمه حتى الآن - ويعم الفرع والسرور جميع طبقات الشعب حكاما ومحكومين خاصتهم وعامتهم على السواء كما أشرنا عند دراسة مظاهر الحياة الاجتماعية فى الحضارة الإسلامية فى الباب الأول من هذا الكتاب .

أما إذا لم يوف النيل فيصيب الناس القلق والفرح ويزيد الغلاء وترتفع الأسعار ؛ بل ويذبح المسكين بغير سكين على حد قول ابن عباس .

ومهما يكن من أمر فإن مقياس النيل الحالى هو أقدم أثر باق على حالته الأصلية فى مصر الإسلامية من عصر الولاة (٢١ - ٢٥٤هـ / ٦٤١ - ٨٦٨م) .

- الموقع :-

يقع هذا المقياس فى الطرف الجنوبى الشرقى من جزيرة الروضة بحى المنيل بالقاهرة.

(١٨٨) سليم ، محمود رزق ، النيل فى عصر المماليك ، القاهرة (١٩٦٥م) ، ص ٤٥ - ٦٧ ؛ المناوى ، محمد حمدى ، نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة (١٩٦٦م) ، ص ١٤٧ - ١٥٤ ، ١٥٨ - ١٦٥ ؛ قاسم ، قاسم عبده ، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة (١٩٧٨م) ، ص ١٦ - ١٨ ، ٤٠ ، ٤٣ - ٤٦ .

- المنشئ :-

أمر بإنشاء هذا المقياس الخليفة العباسي المتوكل على الله عام ٢٤٧هـ / ٨٦١م ، على يدى أحمد بن محمد الحاسب مهندس المقياس ؛ وقد توالى عليه أعمال الإصلاح والتجديد والترميم والاضافة وتنظيف البئر ورفع ما كان يتراكم بقاعه من الطمي وغير ذلك ، ومن ذلك فى حدث فى عام ٢٥٩هـ / ٨٧٢م ، على يد أحمد بن طولون ، وعام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، على يد بدر الجمالى فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) وبنى إلى جواره جامعاً عرف بجامع المقياس (مدرس الآن) .

وفى العصر المملوكى البحرى أقيمت قبة لهذا المقياس فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وفى عهد السلطان الجركسى الأشرف قايتباى تم ترميمه واصلاحه ، واستمر ذلك خلال العصر العثمانى على يدى على بك الكبير وحمزة باشا ، ثم فى فترة الاحتلال الفرنسى لمصر (١٧٩٨ - ١٨٠٠م) ثم فى عهد أسرة محمد على ، على يدى وزارة الأشغال (نظارة الأشغال) المصرية ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م و١٣١١هـ / ١٨٩٣م ، ومصلحة المباني وتفتيش رى الجيزة ولجنة حفظ الآثار العربية ١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م ، وفى عام ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م ، أقيمت القبة الحالية للمقياس وهى قبة خشبية مخروطية الشكل تزدان بنقوش زخرفية ملونة ومذهبة (١٨٩) .

ثم قام المجلس الأعلى للآثار المصرية بترميم المقياس والأبنية المجاورة له . ولهذا المقياس أهمية أثرية سواء من حيث تخطيطه العام أو من حيث عناصره المعمارية ونقوشه الكتابية والزخرفية .

- التخطيط :- يعد هذا المقياس من أجل الأعمال المعمارية الهندسية ، فهو عبارة عن بئر عميقة يصل عمقها إلى نحو ١٢م وعرض فوهتها المربعة (الطابق الثالث)

(١٨٩) نوار ، سامى محمد ، المنشآت المائية بمصر منذ الفتح الإسلامى وحتى نهاية العصر المملوكى ، الإسكندرية (١٩٩٩م) ، ص ١٨ - ٢٣ ؛ عبد الرازق ، العمارة الإسلامية فى العصرين العباسى والفاطمى ، القاهرة (١٩٩٩م) ، ص ٨٤ - ٨٩ ؛ تاريخ مصر وآثارها الإسلامية ، القاهرة (١٩٩٣م) ، ص ٧٨ - ٨٢ .

نحو ٦ م ، وقد شيدت جدرانها على طبليّة من جذوع الأشجار الضخمة ، وقد حملت هذه الطبليّة أحجار البناء المتقنة النحت وهى من نوع الأحجار المبوصة . وصممت هذه البئر على ثلاثة طوابق الأول - وهو السفلى - دائرى والثانى - وهو الأوسط - مربع طول ضلعه أكبر من قطر الدائرة والثالث - وهو العلوى ويمثل فى ذات الوقت فوهة البئر - مربع ولكن ضلعه أكبر من ضلع الطابق الثانى (الأوسط) ، ويدل هذا التدرج فى سمك الجدران على دراية ومعرفة بالنظرية الهندسية الخاصة بازدياد الضغط الأفقى للأتربة على الجدران ، كلما ازداد عمقها ، ولهذا السبب بنيت جدران البئر بحيث يزيد سمكها كلما ازداد عمقها فى الأرض .

كذلك فإن المونة التى استخدمت فى لصق أحجار البناء المتقنة النحت ظلت تقاوم التحلل بفعل الماء فترة تزيد على أحد عشر قرناً من الزمان . ويجرى حول جدران البئر من الداخل درج يصل إلى القاع ، ويتصل البئر بالنيل بواسطة ثلاثة أنفاق يصب ماؤها فى البئر من خلال ثلاث فتحات فى الجانب الشرقى بعضها فوق بعض حتى يظل الماء ساكناً فى البئر ، وقد صممت واجهاتها على هيئة دخلات غائرة فى الجدران ، متوجة بعقود مدببة ذات مركز ترتكز على أعمدة مندمجة فى الجدران ذات تيجان وقواعد ناقوسية أو كأسية الشكل .

هذا وقد وضع فى محور البئر وفوق الطبليّة (القاعدة) الخشبية عمود رخامى مرتفع بارتفاع البئر حيث يصل ارتفاعه إلى نحو عشرة أمتار ونصف المتر ، وعلى ذلك يمكن القول بأن الطبليّة الخشبية التى شيدت كأساس ارتفعت فوقه جدران البناء كما سبق القول ، قد استخدمت فى نفس الوقت كقاعدة يرتكز عليها العمود الأوسط بحيث لا يتعرض للهبوط أو الزحزحة من مكانه إذا كان له أساس منفصل . مما يدل على العبقرية الهندسية فى ذلك الوقت .

كذلك فقد ثبت العمود من أعلى بكمرّة أو رباط خشبى ثبت طرفاها بجدران فوهة (الطابق الأعلى) ، وعمود المقياس ذو قطاع متعدد الأضلاع وقد حفرّت عليه علامات تمثل الأذرع والقراريط التى تعين ارتفاع منسوب الماء فى البئر وبالتالى منسوبه فى النيل الذى يتصل بالبئر من خلال الأنفاق الثلاثة المشار إليها .

ومن الواضح أن أعمال البناء فى المقياس قد إستغرقت ما يقرب من ستة أشهر

وهى الفترة ما بين هبوط النيل إلى الحد الذى يكاد يجف فيه تماما فرع النيل بين الروضة والفسطاط وبين فيضانه مرة أخرى (١٩٠) .

- العناصر المعمارية والنقوش :-

تتجلى أهمية المقياس من هذه الناحية فى النقاط التالية :

١ - يشتمل المقياس على أقدم مثل مؤرخ للعقد المدبب ذو المركزين فى مصر ، وهو يتوج الدخلات الأربع المشار إليها سابقا .

٢ - قاعدة الأعمدة الركنية المندمجة التى اتخذت الهيئة الكأسية أو الناقوسية الشكل تعد أقدم نموذج باق لها فى مصر .

أما عن أقدم نموذج لها فى العمارة الإسلامية فيوجد فى سامرا ، ولدينا بعد ذلك نماذج لاحقة كثيرة سواء لقواعد الأعمدة أو لتيجانها .

٣ - يشتمل هذا المقياس على أقدم النقوش الكتابية التسجيلية المحفورة والمسجلة على العمائر الإسلامية فى مصر ومنها نقوش الجانبين الشمالى والشرقى ، وترجع إلى المتوكل العباسى ٢٤٧هـ / ٨٦١م ، ونقوش الجانبين الجنوبى والغربى وترجع إلى أحمد بن طولون ٢٥٩هـ / ٨٧٣م (١٩١) .

(١٩٠) شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٣٩١ - ٣٩٣ ؛ العمارة العربية الإسلامية ، ص ٣٣ .
٣٤ - عبد الرازق ، العمارة الإسلامية ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛ تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، ص ٨٠ - ٨١ .
(١٩١) انظر : شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٣٩٣ ؛ جمعة ، إبراهيم ، دراسة فى تطور الكتابات الكوفية على الأحجار فى مصر فى القرون الخمسة الأولى للهجرة ، القاهرة (١٩٦٩م) ، ص ١٩٢ - ١٩٦ .

الفصل الثانى

الفنون الزخرفية الاسلامية

مقدمة:

الفن هو لسان الحياة والدليل الناطق عليها فأينما وجد الانسان على سطح الأرض وجد الفن معه ، فمثلا كان الرجل البدائي فى عصور ما قبل التاريخ يزين جدران كهوفه وسطوح أوانيهِ وأدوات حياته اليومية رغم شظف العيش وخشونة الحياة بزخارف تتكون من خطوط محفورة أو مرسومة بالألوان المختلفة ، وهكذا نشأت الفنون منذ أقدم العصور وكأن تلك الأعمال التى تبدو لنا بدائية فى مظهرها كانت نبراسا صارت عليه الأجيال فما من شعب وما من أرض إلا ونبت فيها فن بشكل من الأشكال ، والفن فى أى مكان وليد البيئة ربيب الطبيعة وما من فن إلا وقد استوحى مقوماته من عادات الشعوب وتقاليدها واستلهم خصائصه من ظواهر البلد الطبيعية والجغرافية واستمد أصوله من ظروف الحياة ولونها وتشكلت مميزاته تبعا لموقع دياره وتراثها الموروث وللفنون صنوف ولها مظاهر متنوعة وكما رأينا فقد ت بدأت أول الأمر لتسد حاجة الإنسان فى حياته المعيشية ، ثم تطورت لتؤدى دورها فى تربية الذوق السليم وإشاعة البهجة فى النفوس إلى أن أصبحت ضروبا من التعبير الروحى والوجدانى والعقلى لتنظيم العلاقة بين الناس بما يكفل الكمال والانسجام بينهم .

وإذا كان الأمر كذلك فما هو الفن إذن ؟

والواقع أن كل ما كتب فى تعريف الفن يعتمد أكثر ما يعتمد على الإنشاء وبلاغة التعبير ، ولذلك اختلف تعريف الفن باختلاف المعرف له وكثر الكلام عن معناه لكثرة الزوايا التى يتناولها منه المؤرخون والنقاد والكتاب ، لكثرة الزوايا التى يتناولها منه كل منهم ، وبذلك تعددت المحاولات فى التعبير عن معناه .

ومن الأسر أن نبدأ بتعريف الملموس من الأشياء لتندرج منها إلى تعريف المطلق الذى تدل عليه ولذلك نبدأ المحاولة بتعريف الفنان ، ثم العمل الفنى لنتهى إلى تعريف الفن ذاته .

فمن هو الفنان إذن ؟

فى الواقع ان الفنان هو ذلك الإنسان الذى يمكنه التعبير عن مشاعره وأفكاره بالنسبة إلى المشاعر والأفكار المنبعثة عن المجتمع الذى يعيش فيه على مستوى عالٍ أو

بمعنى آخر : هو ذلك الإنسان الذى يجيد التعبير عن حياته المتفاعلة مع حياة من حوله من الناس وما حوله من مظاهر الطبيعة فالحياة بالنسبة لانتاجه المنبع والمصب .

وما هو العمل الفنى إذن ؟

العمل الفنى هو ما يحمل معنى من معانى الحياة ، يتصل اتصالاً عميقاً مباشراً أو غير مباشر بحياة المجتمع الذى يصدر عنه بوجه عام وبحياة الفنان الذى أخرجه والمتذوق له بنوع خاص مضافاً إلى ذلك المعنى مقدرة ذلك الفنان على إخراج ذلك العمل اخراجاً مناسباً . فالفن إذن بمعناه المطلق لا يخرج عن كونه حياة الفنان والمتذوق والمجتمع الذى يشملهما فى أحسن أحوالهما .

والعمل الفنى هو تلك الثمرة التى تنمو على شجرة هذه الحياة الشاملة يسعى إلى تذوقها كل منا عن طريق حواسه .

ونحن فى الواقع نحتفى بكل ما يحمل إلينا من معانى الحياة التى نقدها ونعتز بها بما يوقظ فينا الحواس النائمة وما العمل الفنى إلا صورة لتلك المعانى مترجمة بلغة نستسيغها ونفهمها ، وفى هذا الصدد يذكر بعض العلماء « أن فى لغة الفن ما يشبع حاسة الجمال فى الإنسان أنى وجد ولذلك كانت هى اللغة العالمية الوحيدة التى استطاعت البشرية أن تصل إليها » .

ومن ناحية أخرى فإننا جميعاً نمارس الفن على مستويات مختلفة فى كل ما نقوم به من أفعال طوال حياتنا فإن كل ما نؤديه من حركات أو نتفوه به من كلام ، وكذلك نوع معاً ملاتنا تجاه من نحب ومن نكره ومجرد انتقاء ملابسنا أو اختيار من نعاشرهم من الناس ، كل ذلك يحمل نزعة فنية أو نوعاً من ممارسة الفن بشكل يستحيل معه أن نفصل الحياة عن الفن .

وأخيراً فإن الفنان هو ذلك الواعظ الذى يقف على أسرار الحياة عن طريق الحس فيشعر بالعيب فينا ، ويحاول اصلاحه ويدفعنا إلى ما فيه الخير لنا وللمجتمع الذى نعيش فيه عن طريق التذوق الفنى (سعد المنصوري ، ١٩٦٠م) .

وعلى ذلك يمكن القول أن الفن بالنسبة للحضارة هو بمثابة روحها وقلبها الخفاق ،

وليس فى وسعنا أن ندرك ثقافات الشعوب المختلفة من قراءة الكتب بقدر ما نستطيع أن نلمسها من تأمل ما خلفته هذه الشعوب من آيات الفن ؛ كما أن الفن مصدر نشوة للنفوس تسمو بها فوق هموم حياتنا اليومية واكدارها وخيال الانسان لا يقل عن جزمة حاجة إلى الغذاء والفن هو ينبوع الفياض الذى يستمد منه خيالنا هذا الغذاء .

ونضيف على ذلك فنقول إن من أهم العوامل المؤثرة فى فنون الحضارات المختلفة الدين الذى تتبعه ومدى تغلغله فى طبقات الشعب المختلفة ، ومدى إيمانهم به فالدين هو الذى يحدد المعاملات والأصول والتقاليد وما يجب وما لا يجب وبالتالى فإن المؤثرات الحضارية كالفنون وغيرها تتأثر تلقائياً بالدين فمثلاً ما شاع عن كراهية التصوير فى الإسلام كان له أثره فى الفن الإسلامى سلباً وإيجاباً كما سنشير عند الحديث عن مميزات الفن الإسلامى وخصائصه فيما يستقبلنا من صفحات وإذا كانت الغاية الأساسية من العناية بالفنون على اختلاف ضروبها هى تهذيب الذوق وارهاف الحس مما يكون له أثره فى تربية حاسة الجمال فىنا ، وذلك على النحو الذى أشرنا إليه من قبل ، فإن الدين الإسلامى قد رسم لنا هذه الغاية وصور لنا الطريق إليها وفتح الأذهان إلى أهمية الفن الجميل ، فى العديد من الآيات القرآنية الشريفة ، فى صورة تبارك والأنفال والنبأ ، وغيرها من السور الشريفة .

ولكن إذا أردنا أن نتفهم الفن الإسلامى علينا أن نحدد أولاً الغاية الأساسية للحضارة الإسلامية التى بزغ فيها نجم هذا الفن ، وبعد ذلك نستطيع أن نفهم كيف استطاعت تلك الفنون أن تقف شامخة عملاقة عبر العصور الزاهرة للحضارة الإسلامية ، ولا زالت تلك الفنون تشد أنظار العالم إليها حتى الآن .

ولما كان الانسان هو محور كل حضارة باعتباره أدواتها بعقله وفكره ويديه ، كما أنه هدفها وغايتها لأن مقومات أية حضارة ووسائلها مسخرة كلها لخدمته وتطوير حياته نحو الأفضل لذلك حظى الانسان فى الإسلام بمكانة خاصة وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الغاية الأساسية للحضارة الإسلامية تتمثل فى الغاية التى وضعها الإسلام للإنسان (على اعتبار أنه محور كل حضارة كما بينا) وهى الله جماع كل القيم والمثل العليا ، والقرآن الكريم ملئ بالآيات الشريفة التى تحث الإنسان على التدبر والتأمل فى خلق الله وفى الكون والنظر إلى مكوناته وأجزائه ، وفى السماء وما فيها من كواكب ونجوم

وأجرام ، وفى الأرض وما يدب فوقها من كائنات وما تنبت من ذرع ونبات وأشجار وثمار ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل دعاه الخالق عز وجل ليستفيد من كل ما حوله من خلق الله ونعمه ويطوعها لفائدته ويسخرها لتطوير حياته ، كما أنه سبحانه وتعالى حبا للإنسان بجمال الخلقة وحسن الهيئة ، وعلاوة على ذلك دعاه عز وجل للنظر إلى نفسه وإلى خلقه وإلى نشأته ، وهكذا نرى أن الدين الإسلامى حث الإنسان على التأمل فى مظاهر الكون المختلفة ثم دعاه للنظر إلى نفسه ، وذلك لتكون العظة أقرب إلى فهمه وأكبر تأثيراً فى عقله .

والحق ان التأمل فى مظاهر الجمال ، فضلاً عن كونه يشحذ فى الانسان قوة الملاحظة وقوة التفكير وقوة التدبر وهذه من العمد الأساسية التى يقوم عليها الفن ، فإنه من شأنه أن يصفى الذوق ويرهف النفس ويزكى فى النفس حب الجمال ومن المعروف أن حب الزينة والجمال هما الباب الفن (مرزوق : الإسلام والفن - الإسلام والفنون الجميلة) . ولما كانت الغاية الأساسية للحضارة الإسلامية تتمثل فى الغاية التى وضعها الإسلام للإنسان وهى الله سبحانه وتعالى جماع كل القيم والمثل العليا ، كما سبق القول .

وهذا يعنى أن الإنسان فى الحضارة الإسلامية لا يمثل محور الدائرة أو محور ارتكازها إلا بقدر ما هو خليفة لله فى الأرض حمل الأمانة التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال وكلفه الله باستعمار الأرض وسخر له الطبيعة وهياً له السبل لتسخير كل طاقاته فى تمهيد ما خلقه الله عز وجل لخدمة الإنسانية ، وهذا كله مرتبط أشد الارتباط بالغاية النهائية التى لا غاية بعدها وهى الله سبحانه وتعالى جماع كل القيم والمثل العليا .

وعلى هذا الأساس كان الإنسان المسلم الذى شيد حضارة عظمى شاخصاً ببصره فى كل نشاطاته إلى السماء يحقق خلافته لله على هذه الأرض ، ولذلك كانت حضارة إنسانية الهيئة لا عنصرية متعصبة تسع الإنسان أينما كان ، فهى حضارة تشع عليها قيم السماء .

وإذا كان من خصائص الإنسان الأساسية أن الفكرة تدفعه وتفعل فعل السحر فى تحويل طاقاته فإن الإسلام كان بالنسبة للإنسان المسلم هو الفكرة والعقيدة التى حركت كل طاقاته ودفعته إلى البناء والتعمير وتذوق القيم الجمالية أينما كانت .

ومن هنا نرى أن الفنان المسلم كان يمارس ابداعه الفنى فى روحانية واخلاص وتجرد وكأنه يمارس العبادة نفسها ، كما أن القيود الدينية التى فرضتها السنة النبوية الشريفة فى تحريم المجسمات والصور الأدمية جعلت طاقة الفنان مركزة فى اتقان تخصصات محددة ليس أمامه إلا إجادتها والتفوق فيها .

وهناك العامل الحاسم فى الإبداع الفنى وهو التشجيع فنرى الفنان المسلم لا يتجه للفنون الترفيحية ، ولكنه ينتج فنونا تطبيقية أو صناعية نافعة ، وبذلك استطاع أن يوزع لمساته الساحرة على الحياة اليومية بكل متطلباتها وأدواتها ، أى أن انتاجه ليس مرغوبا فقط ، ولكنه ضرورى كأحد العوامل الأساسية للحياة .

وإذا أضفنا إلى هذه العوامل عاملاً نفسياً هاما وهو الأمان وضمان الحياة الكريمة تحت مظلة الإسلام متمثلة فى نقابات الحرف (الأصناف أو الطوائف) وجدنا أن الإبداع يشع من منطلق نورانى وبصيرة وضاءة مطمئنة .

إن رسالة الفن الجميل فى الحياة هى أن يخفف عنا بعض متاعبها فيكون لنا مهرباً نلجأ إليه ونلوذ بحماه حتى ينقلنا بأنغامه وألوانه وزخارفه وأشكاله إلى عالم السحر والجمال ، وإلى عالم نستمتع فيه بالهدوء والنشوة وبالإنشراح والغبطة ، وتلك هى الرسالة التى آمن بها أخيراً الفنان الغربى بعد أن بشر بها الإسلام من خمسة عشر قرناً من الزمان .

ومن ثم كان حرص الفنان المسلم على أن يضيف على كل ما أخرجته يده جمالاً زخرفياً يشيع الغبطة فى النفس ويشهد لمبدعه بحسن الذوق ودليلنا على ذلك أنه كما عنى بزخرفة السلع والمنتجات الغالية النفيسة حرص كذلك على زخرفة السلع الرخيصة كشبابيك القلل التى تدلنا نماذجها الجميلة المتقنة على أن الفنان المسلم أحب الفن للفن^(١) .

(١) مرزوق ، محمد عبد العزيز ، الإسلام والفن ، المجلة ، العدد ٤٦ ، أكتوبر (١٩٦٠م)؛ ص ٢٠ - ٢٥ ؛
الفنون الزخرفية الإسلامية فى مصر قبل الفاطميين ، القاهرة (١٩٧٤م) ، ص ٦ - ٩ ؛ ولزبد من
التفاصيل عن الإسلام والفن انظر ، مرزوق ، الإسلام والفنون الجميلة ، القاهرة (١٩٤٤م) ، (٢٦ صفحة
فضلاً عن اللوحات ووصفها وعددها ١٥ لوحة)؛ الفاروقى ، إسماعيل ، الإسلام والفن ، ترجمة وفاء
إبراهيم ، القاهرة (١٩٩٩م) ، (١٠٢ صفحة) .

وإذا كان الأمر كذلك فما هو إذن الفن الإسلامى ؟ وما هى خصائصه ومميزاته العامة الرئيسية ؟

والحق إن الفن الإسلامى هو ذلك الفن الذى نشأ وظهر وازدهر وتطور ونضج وبلغ الغاية فى دار الإسلام فيما بين القرنين ١ - ١٢هـ / ٧ - ١٨م ، ولذلك فإننا إذا استثنينا الفن الصينى فإن الفن الإسلامى يعد من أوسع الفنون العالمية إنتشاراً وأطولها عمراً ، حيث أشرق نور ميلاده فى الحجاز خلال خلافة عثمان بن عفان (رضى الله عنه (٢٣ - ٣٥هـ) ثم تجاوز مرحلة الميلاد وبدأ فى بلاد الشام خلال العصر الأموى (٤١ - ١٣٢هـ) يهبو على أربع ، ثم سرعان ما لبث أن ودع مرحلة الطفولة ليبدأ مرحلة الشباب فى العراق فى ظل الخلافة العباسية ، وتجلت رجولته ونضجه فى مواطن ثلاثة : مصر خلال العصر الفاطمى فالأيوبي ، والمغرب والأندلس خلال عصور الخلافة وملوك الطوائف بالأندلس والمرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، والمشرق الإسلامى خلال العصر السلجوقى وعهود الأتابكة والایلخانيين والبكوات .

وواصل الفن الإسلامى مرحلة النضج حتى بلغ الغاية فيما بين القرنين ٨ - ١٢هـ / ١٤ - ١٨م ، وذلك خلال : العصر المملوكى فى مصر والشام وعصر دولة بنى نصر فى غرناطة بالأندلس ، والتموريين فى آسيا الوسطى والصفويين فى إيران والعثمانيين فى الأناضول والبلقان والعصر المغولى الهندى فى شبه القارة الهندية .

ومنذ القرن ١٢هـ / ١٨م ، اصاب الفن الإسلامى الضعف والوهن وركبت الناس حمى التفرنج أى السير على نهج الغرب الأوروبى حيث اشتد التأثير بالفنون الأوروبية ، ومن هنا بلغ الفن الإسلامى شيخوخته^(٢) .

هذا وقد اختلف العلماء حول تسمية هذا الفن التى انتشرت فى ظل الحضارة الإسلامية واتسع باتساع رقعتها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، فمنهم من أطلق عليه اسم

= وعن شبابيك القل انظر ، على سبيل المثال ، عبد الرازق ، شبابيك القل الفخارية فى دار الآثار الإسلامية ، الكويت (١٩٨٨م) ، (١٢١ صفحة بما فى ذلك الأشكال واللوحات) .

(٢) مرزوق ، قصة الفن الإسلامى ، القاهرة (١٩٨٠م) ، وفيه ابراز موجز لهذه المراحل المتعاقبة ، (٢٢١ صفحة) .

الفن العربى ، ومنهم من أسماه الفن الشرقى ، أو الفن الغربى ، وهاتين التسميتين الأخيرتين ناقصتين لأنها تفصل بين جناحى الحضارة الإسلامية وهما الجناح الشرقى والجناح الغربى من جهة ، ومن جهة ثانية فإن هذين الجناحين لا يمثلان دار الإسلام بكاملها .

كما أن التسمية الأولى وهى الفن العربى من شأنها أن تبخس اسهامات شعوب الأقطار المفتوحة فى تطور وازدهار الفن الإسلامى ، وحسبنا للرد على هذه التسمية القول بأنه لو جاز لنا القول الدين العربى لحق لنا أن نقول الفن العربى .

ومنهم من أطلق عليه اسم الفن المحمدى ، على غرار تسمية الفن المسيحى ، نسبة إلى السيد المسيح (عليه السلام) ، ومن ثم فإن هذه التسمية ، فضلاً عن كونها غير مستحبة ، لا يجوز أن تطلق على هذا الفن^(٣) .

وخلاصة الأمر أن هذه الأسماء كلها قاصرة وليست جامعة من جهة وبعضها مستهجنة وغير مستحبة كتسمية الفن المحمدى من جهة ثانية ، ولذلك فإن أصح هذه الأسماء جميعاً هى تسمية ذلك الفن بالفن الإسلامى ، لأن الإسلام كان حلقة الوصل التى ربطت بين أقطار دار الإسلام ، وهو الذى جمع شتاتها وجعلها وحدة واحدة على الرغم من تباين بيئاتها واختلاف أصولها .

خصائص الفن الإسلامى ومميزاته العامة الرئيسية :-

- يتميز بكونه فناً زخرفياً إستمد عناصره النباتية والهندسية والأدمية والحيوانية وجعلها محورة عن الطبيعة وذين بها الجدران وصفحات المخطوطات والتحف التطبيقية، هذا إلى جانب خلوه من وجود تماثيل أو لوحات مستقلة نظراً لما شاع عن كراهية تصوير الكائنات الحية فى الإسلام .

- ويمتاز أيضاً بكراهية الفراغ أو الخوف منه ومعناها أن الفنان المسلم كان يشغل كل المساحات التى أمامه بالزخرفة دون أن يترك منها أى جزء بدون زخرفة مما دفعه إلى التكرار سواء بالنسبة للوحدة الزخرفية أو الموضوع الزخرفى .

(٣) حسن ، زكى محمد ، فنون الإسلام ، القاهرة ، ط ٢ ، د ت ، ص ٣ - ٥ .

- الزخارف المسطحة وهذا يرجع إلى إنصراف الفنانين المسلمين عن التجسيم وإن كان هذا لا يمنع وجود زخارف بارزة ومجسمة .

- البعد عن الطبيعة وهذا يعنى أن الزخارف مستوحاة من واقع الخيال ، خوفاً من تقليد خلق الله تعالى ، وأدى هذا إلى الاهتمام بالكائنات الخرافية والمحورة حتى يتجنب رسم الحيوانات الطبيعية .

- استخدام الكتابة العربية كعنصر زخرفى رئيسى سواء كانت بالخط الكوفى أو النسخى ، أو غير ذلك ، ولولا وجود الكتابة العربية على التحف الإسلامية المبكرة لصعبت نسبتها إلى تلك الفترة المبكرة لصلتها الوثيقة بفنون ما قبل الإسلام .

- الفن الإسلامى فن ملكى ، فإزدهاره ونضوجه يقوى فى ظل رعاية الحكام والأمراء للفنانين ، بينما يضعف ويقل إزدهاره فى حالة قلة تشجيع الحكام والأمراء للفنانين وعدم تعاضدهم لهم .

- الفن الإسلامى فن إبتكارى أصيل فمن المعروف أن العقيدة الإسلامية تميل إلى البساطة وعدم الإسراف والمبالغة وإتضح ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين ، أما فى العصور التالية حيث ازداد الثراء وكثر الرخاء فكان لا بد من وجود حلول ابتكارية تتناسب مع تلك الحالة التى وصل إليها المسلمون لا سيما الخلفاء والحكام .

وفى نفس الوقت تتفق مع المبادئ السامية للعقيدة الإسلامية ومن هذه الابتكارات البريق المعدنى كبديل عن استعمال الأوانى الذهبية والفضية .

كذلك لم يصنع المحراب مع ما له من أهمية خاصة فى المسجد من الذهب أو يرصع بالأحجار الكريمة ، بل صنع من الخشب أو الحجر أو الرخام ، ومع بساطة هذه الخامات إلا أن الفنان المسلم أضفى عليها مسحة جمالية فنية جذابة بنقوشها الزخرفية الدقيقة وألوانها الجميلة .

طرز الفن الإسلامى^(٤) :

لما كان المقياس الحقيقى فى أى فن من الفنون هو الطراز لأنه أبرز صورة لأفكار

(٤) حسن ، فنون الإسلام ، ص ١٢ - ٢٠ ؛ عبد الرازق ، أحمد ، الفنون الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى ، جامعة عين شمس (٢٠٠١م) ، ص ٤١ - ٤٥ .

الفنان وأفصح مظهر لطابع حضارته فإن ما حدث من إمتزاج العناصر السابقة التى كانت موجودة قبل الإسلام لا ينهض دليلاً على سيطرة وغلبة تلك العناصر على الفن الإسلامى ، وإنما كان إختلاط هذه العناصر فى تلك الفترة المبكرة نتيجة طبيعية لاجتماع العرب المسلمون وأهل البلاد المفتوحة فى بيئة واحدة ، وكذلك لقدرة الفنان على أن يكيف نفسه حسب الظروف التى يعيش فى كنفها فأخذ الفنان (وهو من أهل البلاد المفتوحة) من العناصر الموروثة ما لاءم طبيعة الفاتحين الجدد وإتفق مع دينهم الجديد الذى يتبعونه ويسيروا على نهجه .

وهكذا يمكن القول بأن الطراز الفنى فى تلك الفترة المبكرة كانت ساداته وطمته غير إسلامية ، أما روحه فكانت إسلامية حيث أضيفت الكتابات العربية إلى جميع الفنون المنتجة فى تلك الفترة والتى لو لم توجد لأصبحت نسبة هذه الفنون إلى العصر الإسلامى من الصعوبة بمكان .

أولاً : الطراز الأموى فى الفن الإسلامى :

يعد هذا الطراز أول الطرز الفنية الإسلامية حيث كان العرب المسلمون فى صدر الإسلام وفى عهد الخلفاء الراشدين فى دور من أدوار حياتهم لا يمكن أن يترك للعناية بالفنون مكانة تستحق الذكر فقد كان أمامهم مهمات أخرى جلية هى نصره الدين الجديد ونشره وتأسيس دولتهم الواسعة الأرجاء ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن بساطة الدين الإسلامى وحياة الجهاد وروح التقشف وتجنب الرفاهية ساعدت على تدعيم وتقوية الجانب الحربى فى نفوس المسلمين فى تلك الفترة .

وهكذا نرى أن العرب كان لهم الفضل فى قيام الامبراطورية الإسلامية ونشر الدين الإسلامى ، ولكن نصيبهم فى بداية الأمر فيما يتعلق بالفنون كان محدوداً ، وروحياً فحسب كما أن المباني التى شيدت فى تلك الفترة كانت بسيطة جداً وتتلاءم مع طبيعة الفترة التى شيدت فيها مثل مسجد الرسول فى المدينة ، ومسجدى البصرة والكوفة فى العراق ، ومسجد عمرو بن العاص فى فسطاط مصر .

وما لبث أن تخطى العرب عهد البساطة وتوسعوا فى البناء وأنتجوا فى الفنون أيام خلافة الأمويين ، فكان الطراز الأموى الذى ينسب إليهم أول الطراز أو المدارس الفنية فى العصر الإسلامى كما سبق القول .

إزدهر هذا الطراز فى القرن الأول وحتى العشرينات من القرن الثانى الهجرى وهى الفترة التى شملها حكم الأمويين لأقاليم العالم الإسلامى ، حيث إمتد حكمهم فيما بين ٤١ - ١٣٢ هـ. وانتشر هذا الطراز فى جميع الأقاليم التى دانت لحكم الخلافة الأموية فى دمشق ومن بينها مصر بطبيعة الحال .

وكان هذا الطراز طراز إنتقال من الفنون والعمارة السابقة على الإسلام - التى كانت منتشرة فى الأقاليم التى خضعت للإسلام وللخلافة الأموية - إلى الطراز العباسى الذى ساد فى الفترة العباسية بعد ذلك^(٥) .

فمن المعروف أنه عندما استتب الأمر لبنى أمية واتخذوا الشام مقراً لخلافتهم وجدوا من حولهم ومن بين أيديهم حضارة ناضجة كان لها مركز هام فى تلك البلاد هى الحضارة الهيلنستية - أو الاغريقية الممتزجة بالحضارة الشرقية - وكانت سائدة منذ عصور سابقة فى كثير من البلاد التى فتحها المسلمون وتكونت فيها امبراطوريتهم والتى كانت قبل ذلك ضمن مستعمرات الاسكندر المقدونى ، وتوغلت فيها الحضارة الإغريقية التى نشرها الاسكندر وأتباعه وخلفاؤه هناك ، فأخذ المسلمون فى تلك المرحلة ما احتاجوا إليه منها لبناء أساس حضارتهم الإسلامية الناشئة .

والحق ان الفن الإسلامى فى بدايته كان عدد كبير من عناصره وأساليبه منقولاً بأمانة من بقايا عريقة من فن هيلنستى هو أحد المظاهر الهامة لتلك الحضارة الإغريقية التى نشرها الاسكندر ، وامتزجت بتلك العناصر والأساليب تقاليد وعناصر أخرى من مدارس فنية تفرعت من الفن الهيلنستى أو امتزجت به أو تأثرت به وهى المدرسة الرومانية التى انتشرت فى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وزحفت حتى مست فارس. ثم المدرسة البيزنطية فى بيزنطة ومستعمراتها - الشام ومصر وشمال افريقيا - والمدرسة الساسانية فى العراق وفارس والمدرسة القوطية الغربية فى أسبانيا .

وما كان الفن الإسلامى فى هذه المرحلة إذن إلا مزيجاً من تقاليد وعناصر وأساليب المدارس الفنية فى البلاد التى دخلت فى نطاق الإمبراطورية الإسلامية ولم ينشأ عن هذا المزج تغيير كبير لا فى التقاليد ولا فى ملامح العصر إذ كانت صلة القرابة بين بعضها وبين المنبع الذى جاءت منه وهو الفن الهيلنستى قوية وكان التغيير الوحيد الذى حدث هو إضافة الكتابات العربية كما سبق القول .

(٥) حسن ، فنون ، ص ١٢ ؛ عبد الرازق ، الفنون ، ص ٤٢ .

ويتضح كل هذا جيداً فى التحف الفنية والآثار التى وصلتنا من الطراز الأموى إذ نراها محتفظة بالأساليب المحلية المعروفة فى كل قطر من الأقطار الإسلامية والتى كان أغلبها مكوناً من رواسب هيلنستية ممتزجة ببعض تأثيرات وعناصر بيزنطية وساسانية تتراوح درجة ظهورها بين الوضوح والغموض .

والآن قبل أن نتحدث عن التحف المختلفة التى تمثل هذا الطراز ينبغى علينا أن نحدد أولاً - فيما يخص الفنون بالذات - أهم العناصر الزخرفية التى استمرت منتشرة فى ذلك الطراز سواء فى الزخارف الهندسية أو النباتية وزخارف الكائنات الحية .

أ- الزخارف الهندسية : نلاحظ أنه لم ينتقل من الطرز السابقة إلى الطراز الأموى منها سوى عدد قليل مثل الصليب المعكوف الاغريقى والذى إنتقل إلى الطراز الرومانى وإلى الطراز الساسانى وتظهر أمثلة منه فى العصر الإسلامى المبكر فى قطع جصية عثر عليها فى الفسطاط وتسمى بالمفروكة فى الاصطلاح الدارج .

وأيضاً زخرفة الجدران وهى معروفة منذ العصور القديمة فى العراق وفى مصر الفرعونية ولعلها هى مصدر الايحاء للجدران الإغريقية ، وكذلك عناصر المشبكات البيزنطية إلى جانب الزخارف الهندسية المنتظمة مثل الدوائر المتشابكة والأشكال المضلعة والمفصصة ونرى أمثلتها فى العصر الإسلامى فى الشمسيات الرخامية فى المسجد الأموى بدمشق .

ب- زخارف الكائنات الحية : وهى التى تشتمل على العناصر الأدمية أو الحيوانات أو الطيور أو الأسماك أو أجزاء منها على هيئتها الطبيعية أو محورة عنها أو العناصر المركبة التى تمتزج فيها أعضاء من أنواع مختلفة تتخذ فيها أوضاعاً زخرفية أو تشترك مع عناصر هندسية أو نباتية لإخراج موضوع زخرفى ولا يسمى أى منها بزخرف إذا كان القصد منه تصويرياً يوضح قصة أو أسطورة أو موضوعاً .

وتحوى واجهة قصر المشتى الموجودة فى متحف برلين على بعض ما ذكرناه من عناصر الكائنات الحية ، ولا يكاد مثلث من مثلثات تلك الواجهة يخلو من أكثر من عنصر منها وسط الزخارف النباتية التى تغطى مساحة كبيرة من تلك الواجهة .
(الوحة ٢٠)

ويعد أسلوب توزيع هذه الكائنات وسط التكوينات الزخرفية وأسلوب نحتها كذلك من أروع ما انتجته قريحة الفنانين فى تلك الفترة ، وذلك على الرغم من تعدد المصادر

التي جاءت منها فمنها عناصر ساسانية خالصة مثل العنقاء ، وهو عنصر مركب من أعضاء من طيور أو حيوانات ، فله وجه نسر وأجنحة مع جسم حيوان أو العكس ومنها حيوانات وطيور طبيعية يمكن معرفة نوعها أو حورت لدرجة يصعب معرفة نوعها ويغلب عليها الطابع البيزنطى .

ونشاهد أمثلة للكائنات الحية أيضاً فى زخارف فسيفساء خربة المفجر الذى يرجع إلى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) ، ومهما يكن من أمر فإن هذا النوع من الزخارف لم ينقطع إستخدام عناصره من آدميين وحيوانات وطيور طوال عصور الفن الإسلامى ، غير أن بعض تلك العناصر قد نالها تحوير كبير عن أصولها وبعضها بقى محتفظاً بها ويتجلى استخدام هذا العنصر بشكل مفرط فى شرق العالم الإسلامى خاصة .

٣. الزخارف النباتية :-

يمكن القول بأن عناصر كثيرة منها قد دخلت فى الثوب الخارجى للفن الإسلامى فى هذه المرحلة المبكرة منها عنصر الأكانتس الذى كانت له الصدارة فى العصر الأموى سواء فى الفسيفساء أو النحوت على الحجر أو الجص وسواء كانت هيئاتها مقتبسة من الطراز البيزنطى أو الطراز الساسانى .

ومن تلك العناصر أيضاً المراوح النخيلية ، وأوراق العنب التى انتقلت من الفن الهيلنستى إلى الرومانى والبيزنطى والساسانى وأخيراً الإسلامى ، غير أن ما دخل على العناصر الثلاثة السابقة من تحوير وتجريد قد جعلها فى بعض الأحيان تتخذ هيئات متشابهة يخلط الأمر فيها فلا يمكن تحديد أصل هذه الهيئة أو تلك ، فمثلاً فى زخارف واجهة المشتى توجد أشكال صريحة من الأكانتس والمراوح النخيلية وأوراق العنب البسيطة والمركبة وإلى جانبها توجد أشكال أخرى تمت بصلة لكل هذه العناصر مجتمعة هنا إلى جانب زهرة اللوتس ، كما فى واجهة المشتى والطوبة ، وكذلك فى زخارف قبة الصخرة التى تشبه نماذج لها ساسانية فى قلعة كهنه فى فارس وفى طاق يستان .

ونشاهد كذلك بين زخارف الفسيفساء فى قبة الصخرة عناصر كثيرة من الثمار مثل التمر والرمان والعنب وعناصر تشبه الكمثرى واللوز والبندق وكيزان الصنوبر ، وقد

اختلفت أكثرها بعد ذلك ، ولم يظهر في زخارف الفن الإسلامي ، بينما ظهرت عناصر أخرى في العصر العثماني وبخاصة في الشام وأسيا الصغرى مثل القشده والخشخاش وغيرها (٦) .

ثانياً : الطراز العباسي في الفن الإسلامي :

هو ثاني الطرز الفنية التي انتشرت وازدهرت في أقاليم العالم الإسلامي ، وينتسب هذا الطراز إلى بني العباس بن عبد المطلب الذين إنتزعوا الخلافة من بني أمية في عام ١٣٢هـ / ٧٥٠م ، واعتبروها حقاً مكتسباً لأنفسهم بدلاً من أبناء عمومتهم من نسل علي بن أبي طالب على الرغم من أن الفرعين العباسي والعلوي قد إعتبروا الأمويين مغتصبين للخلافة ، ومن ثم وجد نوع من الاتحاد والترابط بين الفرعين في سبيل إنتزاع الخلافة من الأمويين وجعلها تعود إلى أصحابها الشرعيين من آل بيت النبوة ، وكان شعارهم الذين يدعون به ويؤلبون الناس ضد بني أمية هو (للرضا من آل محمد) ولكن ما لبث العباسيين أن قوضوا دعائم الأمويين وظفروا بالخلافة لأنفسهم ولم يقفوا عند هذا الحد بل إضطهدوا أبناء عمومتهم من العلويين ونكلوا بهم أشد التنكيل مما جعلهم يدعون لأنفسهم في السر ولا سيما في المناطق البعيدة عن نفوذ العباسيين كاليمن وشمال افريقيا ، ويطلق على هذا الدور اسم (دور التقية) ثم جاء دور العلانية والظهور بعد ذلك ، حتى استطاع الفرع العلوي أن يؤسس دولته في شمال افريقيا أولاً ثم مصر ، ومن ثم نشأت الخلافة الفاطمية التي ناوشت العباسيين واستطاعت أن تفرض نفوذها على الشام وغيرها من مناطق الخلافة العباسية ، بل استطاع أحد وزرائها هو البساسيري أن يدخل بغداد ويذكر اسم الخليفة الفاطمي على منابرهما إلى أن استطاع السلاجقة إنهاء النفوذ الفاطمي من هناك بعد ذلك وهذه الأحداث لا مجال لسردها هنا الآن .

وإتخذ العباسيون من مدينة بغداد مقراً لخلافتهم ، وكان هذا شيئاً طبيعياً حيث يوجد أنصار بني العباس من الفرس في هذه المنطقة ، ومن ثم تغلفت التأثيرات

(٦) شافعي ، العمارة العربية في مصر الإسلامية ، ص ٢١٧ - ٢٢٣ .

الفارسية فى المجتمع العباسى واتضحت مظاهرها بصورة كبرى ، كذلك فى الفنون التى أنتجت فى تلك الفترة ، وإذا كانت التأثيرات الساسانية قد ظهرت جنباً إلى جنب التأثيرات الهيلنستية فى الطراز الأموى إلا أنها كانت قليلة جداً إذا قورنت بمشيلتها الأخرى وأعنى بها التأثيرات الهيلنستية التى كانت سمة غالبية على معظم منتجات هذا العصر الأموى ، ومقر خلافته فى دمشق التى كانت قبل الإسلام من أعظم مراكز الحضارة البيزنطية المتأثرة بالطراز الهيلنستى والرومانى .

بعض مظاهر الطراز العباسى فى الفنون والتى كان لها صدى فى العالم الإسلامى بأسره :

١ - طراز سامرا :-

تتميز سامرا بين سائر المدن التى نشأت فى العصر الإسلامى بعدة ظواهر هامة قل إن وجدت فى أى مدينة إسلامية أخرى ، فقد سار العمران فيها بخطوات سريعة متلاحقة وصار تخطيط المدينة أبعد ما يكون عن الاقتصاد فى التوسع ، فقد ترامت رقعتها فى مساحة هائلة إلا أنها لم تعمر طويلاً إذ كانت السرعة فى خرابها وهجرانها تتناسب مع السرعة الجبارة فى نموها فالفترة بين البداية والنهاية تكاد لا تتجاوز نصف القرن إلا قليلاً ، (٢٢١ - ٢٧٩هـ) وهى فترة إن كانت قصيرة الزمن فهى طويلة الأثر ، إذ تم فيها على قصرها تطور ليس بالمألوف فى تاريخ الفنون والزخارف وأكثر معالم هذا التطور وضوحاً كان فى الزخارف النباتية بوجه خاص ، سواء المحفورة منها أو المرسومة ، مما اتفق على تسميتها بطرز سامرا فى الفن الإسلامى .

ويتمثل فى طرز سامرا - وخاصة الثانى والثالث منها - مظهر جديد بحق لزخارف الفن الإسلامى ، بل ويتضح فيهما طابع مميز للفن كله بوجه عام والزخارف النباتية بوجه خاص ، إذ تحررت شخصيته من قيود الفنون السابقة التى كان يعتمد عليها كل الاعتماد منذ نشأته .

وبادئ ذى بدء نقول ان الأساليب الزخرفية التى حدثت فى سامرا قد تدرجت فى مراحل متتالية من التطور وهى التى إصطلح على تسميتها بالطراز الأول والثانى والثالث ، ولكل من هذه الطرز مميزات خاصة به .

فالطراز الأول هو فى حقيقته استمرار للطراز الزخرفى الذى كان يسود العالم الإسلامى - بما فيه العراق - قبل إنشاء سامرا وهو يمتاز بقرب زخارفه من الطبيعة ولا سيما أوراق العنب وعناقيده ، وغير ذلك من العناصر التى لازالت تحتفظ بإصولها الهيلنستية إذ لم يتطرق إليها إلا التطور المنتظم المعتاد فى الفنون .

ويمتاز كذلك برسم زخارفه داخل أشكال هندسية وبوضوح خلفية الرسم وضوحاً قوياً ، ونفذت هذه الزخارف بالحفر العميق .

أما الطراز الثانى فقد تضاءلت فيه الأرضيات أو الخلفيات إلى أن صارت قنوات ضيقة تفصل ما بين العناصر التى كادت أن تفقد ما ألفناه من إتصال بعضها ببعض بواسطة عروق ، كما كان الحال فى الطراز الأول ، فتطورت العناصر إلى وحدات كبيرة منبسطة لا تجسيم فيها وتتمم بعضها البعض بحيث لا تترك أرضية أو فراغاً بينها ونتج عن ذلك تصرف كبير فى أشكال كثيرة منها مما كان تمهيداً لما حدث بعد ذلك فى الطراز الثالث .

وفى الطراز الثالث ازداد ابتعاد الفنان عن الطبيعة تماماً وأصبح يرسم خطوطاً منحنية وحلزونية ، قد يصعب على المشاهد إدراك الصلة بينها وبين العناصر الزخرفية التى لاحظناها فى الطرازين السابقين ، كما لم تعد هناك خلفية ، فالسطح أصبح يزدان بخطوط متصلة بعضها ببعض دون أن يكون هناك فاصل بين عنصر وعنصر ، ونفذت زخارف هذا الطراز بطريقة جديدة لم تكن معروفة من قبل وهى طريقة الحفر المائل أو المشطوف Slant Cut بدلاً من طريقة الحفر العميق Deep Cut التى كانت شائعة وقد اهتدى إلى هذه الطريقة نتيجة استعمال القوالب Moulds فى عمل الزخرفة حتى يستطيع أن ينجز أعماله فى أسرع وقت ممكن ، وبأقل النفقات .

وليس فى استعمال القوالب فى الزخرفة جديد حيث عرفها الفرس من قبل ، وطبيعى أن يكون من المعمارين فى سامرا بنائين من الفرس والدولة العباسية ، كما نعلم قامت على أكتاف الفرس وهم من غير شك أصاب الفضل فى نقل الخلافة إليهم من الأمويين .

ويرى البعض أن مراحل التطور السابقة التى تمت فى فترة وجيزة كانت نتيجة

للحاجة الشديدة إلى الاقتصاد فى الوقت الذى يتطلبه عمل الزخارف وتغطية أوجه الجدران بها ، فالعمران كان سائراً بخطى سريعة جداً وكان على الصناع أن يلبوا مطالب أصحاب العمائر من حيث البناء والزخرفة فلجأ المزهرفون إلى التبسيط من الطراز الأول الذى كان يتطلب مجهوداً فنياً خاصاً من حيث التأني فى العناصر وتفصيلها الدقيقة وحفر الأرضيات حولها ، ومن ثم كان الطراز الثانى الذى يتميز بالعناصر المسطحة التى تتم بعضها البعض فتكاد تتلاصق ، فلا يفصلها عن بعضها إلا قنوات ضيقة واختفت بذلك تلك الأرضيات التى كانت تحيط بالعناصر فى الطراز الأول ، ثم تطور الطراز الثانى إلى الثالث وتلاصقت فيه العناصر تماماً وأصبح قطاعها محدباً يعطى لها ظلالاً متدرجة تختلف عن تلك الظلال الحادة الحالكة التى كانت تلقيها العناصر على الأرضيات الغائرة حولها فى الطرازين الأول والثانى .

وهكذا انتشر طراز سامرا فى جميع أرجاء العالم الإسلامى وعندما جاء أحمد بن طولون إلى مصر جاءت معه تلك التقاليد فى العمارة والفنون فاستوطنت مصر وترعرعت فيها وطفئت هذه الأساليب الجديدة على الأساليب المحلية التى كانت موجودة ، كما أنها لم تنته بإنهاء عصر الطولونيين ، بل استمرت فترة تؤدى دورها فى بداية العصر الفاطمى (٧) .

(٧) شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٤١٧ - ٤٢٢ ؛ زخارف وطرز سامرا ، مجلة كلية الآداب - المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) ، ديسمبر (١٩٥١م) ، ص ١ - ٣٩ ؛ مميزات الأخشاب فى الطرازين العباسى والفاطمى فى مصر ، مجلة كلية الآداب ، المجلد ١٦ ، ج ١ ، جامعة القاهرة (١٩٥٤م) ، ص ٥٧ - ٦٦ ؛ مرزوق ، الفنون الزخرفية ، ص ١٤٧ - ١٦٠ ؛ العراق مهد الفن الإسلامى ، بغداد (١٩٧١م) ، ص ٢١ - ٢٧ ؛ عبد الرزاق ، الفنون الإسلامية ، ص ٦٠ - ٦٦ ؛ حميد ، عبد العزيز ، وآخرين ، الفنون الزخرفية العربية الإسلامية ، بغداد (١٩٨٢م) ، ص ٧٤ - ٧٦ ؛ ياسين ، عبد الناصر ، الفنون الزخرفية الإسلامية فى مصر ، منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى ، ج ١ ، الاسكندرية (٢٠٠٢م) ، ص ٤٩٢ ؛ هرتسفلد ، ارنست ، تنقيبات سامرا ، ج ١ ، حلية جدران المباني فى سامرا وفن زخرفتها ، ترجمة على يحيى منصور ، بغداد (١٩٨٥م) ، (٢٤٤ صفحة فضلاً عن الأشكال واللوحات) ومما له دلالة أن ترتيب طرز سامرا لدى هرتسفلد يختلف عن الترتيب الذى أجمع عليه علماء الآثار والفنون الإسلامية والذى اتبعناه فى كتابنا هذا .

٢- الخزف ذو البريق المعدنى Luster Pottery :

يعد الخزف ذو البريق المعدنى ابتكار إسلامى خالص غير مسبوق لم تعرفه الحضارات السابقة على الإسلام ، ولم يهتد إليه الصينيون رغم علو شأنهم فى ميدان الخزف والبورسلين ، ولم يفلح صناع الخزف الغربيين فى تقليده إلا فى ق ١٨ م ، وقد انتشرت صناعته فى أنحاء العالم الإسلامى إذ عثر على تحف منه فى إيران والعراق ومصر وأسبانيا ، وقد أدى هذا الإنتشار إلى إنقسام علماء الآثار فيما بينهم حول مهد هذه الصناعة ، فبينما يقرر فريق أن مهد هذا الأسلوب كان العراق ، نجد فريقاً آخر يرى أن إيران كانت هى صاحبة الفضل فى هذا الابتكار ، ويذهب فريق ثالث إلى أن مصر هى مهد هذا الابتكار (٨) .

ونحن نعلم أن مصر عرفت البريق المعدنى واستخدمته قبل غيرها من أقطار العالم الإسلامى إلا أن ذلك كان على الزجاج وليس على الخزف ، كما حدث فى ق ٣هـ / ٩ م ، كما فى قاع إناء من الزجاج المزخرف بالبريق المعدنى عليه شريط كتابى نصه (بما عمل فى طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م) والتاريخ مكتوب بالأرقام القبطية و(طراز الفيلة بمصر) يعنى أن هذا الإناء عمل حسب طراز مصنع الفيلة بمدينة مصر أى الفسطاط. (عبد الرؤوف يوسف - القاهرة) .

كذلك يوجد كأس من الزجاج بالمتحف الإسلامى عليه زخرفة بالبريق المعدنى واسم الأمير عبد الصمد بن على حوالى ١٥٥هـ / ٧٧٢ م .

ونص الكتابة الكوفية (الأمير عبد الصمد بن على أصلحه الله وأعز نصره) وكان هذا الأمير واليا على مصر من قبل أبو جعفر المنصور العباسى سنة ١٥٥هـ / ٧٧٢ - ٧٧٣م (٩) .

(٨) حسن ، فنون الإسلام ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ ماهر ، سعاد ، الفنون الإسلامية ، القاهرة (١٩٨٦م) ، ص ٢٧

- ٢٨ ؛ عبد الرازق ، الفنون الإسلامية ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ حسين ، محمود إبراهيم ، الخزف الإسلامى

فى مصر ، القاهرة (١٩٨٤م) ، ص ٢٢ - ٣٧ ؛ ياسين ، الفنون الزخرفية ، ص ٤٠٩ - ٤١٥ .

(٩) يوسف ، عبد الرؤوف على ، الزجاج ، ضمن كتاب القاهرة تريخها فنونها آثارها ، مؤسسة الأهرام ،

القاهرة (١٩٧٠م) ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ؛ دراسة فى الزجاج المصرى ، ضمن أعمال الندوة الدولية لتاريخ

القاهرة ، مارس - إبريل (١٩٦٩م) ، ج ٢ ، القاهرة (١٩٧١م) ، ص ٨ ؛ حميد ، الفنون الزخرفية ،

ص ١٥٠ - ١٥١ .

ويرى (Lane) فى كتابه الخزف الإسلامى المبكر أن العامل الأساسى فى هذا الابتكار هو تقدم صناعة الخزف فى العراق فى العصر العباسى وإدراك الصناع أنه من الممكن أن يخلق من الخزف تحفا فنية تستحق التقدير ، ثم وجود الأوانى الخزفية الجميلة التى كانت تستورد من الشرق الأقصى والتى كانت تغمر أسواق بغداد وقد استمد منها الخزاف العراقى الوحي فى ابتكاره هذا^(١٠) .

ولا يوافق الدكتور مرزوق على رأى السابق الذى طرحه (مستر لين) وإنما يرى أن هناك عاملان رئيسيان لعبا دوراً هاماً فى هذا الابتكار ، هما موقف الدين الإسلامى من إستعمال الأوانى الذهبية والفضية ، ثم رغبة الخزاف فى إيجاد بديل لهذه الأوانى الذهبية التى كان يحوم الشك حول استعمالها ، ويرى أن العراق كان موطن هذه الصناعة ومنها انتشرت فى بقية أقاليم العالم الإسلامى^(١١) .

وخلاصة القول أنه إذا كانت مصر قد عرفت استخدام مادة البريق المعدنى على التحف الزجاجية منذ النصف الثانى من ق ٢هـ / ٨م - فقد عرفت أيضاً العراق والشام كما يستدل من الاكتشافات الأثرية - إلا أن هذه المادة لم تظهر على الخزف إلا فى ق ٣هـ / ٩م (سواء كان موطن هذه الصناعة مصر أو العراق أو إيران) والمهم أن الخزف ذو البريق المعدنى إبتكار إسلامى غير مسبوق ، فلم تعرفه الصين ذات الباع الطويل فى هذا المضمار ، ولم تعرفه أوروبا إلا فى ق ١٢هـ / ١٨م .

(10) Lane, A., Early Islamic Pottery, London, (1953); P. 10 .

(١١) مرزوق ، الفنون الخزفية ، ص ١٧٧ - ١٨٠ ؛ العراق معهد الفن الإسلامى ، ص ٦٥ - ٦٧ .

مختارات من الفنون الزخرفية تمثل طرز الفن الإسلامي المختلفة (١٢) :

أولاً : الفخار والخزف :

١ - الفخار هو كل ما صنع من طينة طبيعية محلية - أي خاصة بكل قطر من الأقطار - تصنع منها الأواني مباشرة وهي إذا احترقت في درجة حرارة معينة في أفران خاصة اكتسبت شيئاً من الصلابة.

وقد وصلنا نوعين من الفخار الإسلامي : فخار غير مطلي أي غير مزجج وفخار مطلي أي مزجج أو مطلي بطبقة من الزجاج الزائب (١٣) .

ومن النماذج التي تم اختيارها قارورة نبط من الفخار غير المطلي علي هيئة رمانية الشكل ذات زخارف محزوزة (الطراز الفاطمي - مصر - ق ٤ - ٥هـ / ١٠ - ١١م) (١٤) . (الوحة ٢٥٦) .

ومن أبداع أمثلة هذا النوع من الفخار غير المطلي شبابيك القلل (وتعرف أيضاً

(١٢) مما له دلالة في هذا الصدد أننا قد اعتمدنا في اختيار هذه الابداعات والروائع التي تمثل طرز الفن الإسلامي المختلفة في الفنون الزخرفية علي العديد من الكتب المنشورة ومنها :

Grube, E, The World of Islam, New York (1967) ,

Atil, Renaissance of Islam, Art of the Mamluks, Washington, (1981). ,

Carswell, J, Iznik Pottery, London (1998), Porter, V., Islamic Tiles, Lon-

don, (1995). Ward, R., Islamic Metal Work, London, (1993). ,

أصلان آبا ، أوقطاي ، فنون الترك وعمائرهم ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، استانبول (١٩٨٧م)؛

جنكينز ، مارلين ، الفن الإسلامي في متحف الكويت الوطني ، مجموعة الصباح ، لندن (١٩٨٣م)؛

كنوز الفن الإسلامي ، ترجمة حصة صباح السالم (وآخرين) مراجعة أحمد عبد الرازق ، الكويت

(١٩٨٥م)؛

Variety in Unity , Kuwait, (1987). , Zebrowski, M., Gold, Silver and

Bronze from Mughal india, London, (1997). , Golombek, L., and Wil-

ber, D., The Timurid Architecture of Iran and Turan, 2 vols, Princetton,

(1988) .

(١٣) عبد الرازق ، الفنون الإسلامية حتي نهاية العصر الفاطمي .

Variety in Unity, Kuwit, (1987), P. 50 .

(١٤)

باسم مرشح القلة أو حجاب القلة^(١٥) . (لوحتا ٢٥٤ - ٢٥٥) .

أما النوع الثاني ، وهو الفخار المطلي^(١٦) فقد تم اختيار كسرة منه قوام زخرفتها رنك وظيفي هو رنك الهدف (وتمثل الطراز المملوكي - مصر - ق٨هـ / ١٤م) (لوحة ٢٥٧)

٢- الخزف :-

هو ما صنع من طينة غير طبيعية ، أي صناعية ، كانت تختلف من اقليم إلى آخر ، الجيدة منها تتألف من ثلاث مواد : مرنة وخشنة وصاهرة ولا توجد في الطبيعة طينة صالحة للاسعمال أي تشتمل علي المواد الثلاث السابقة^(١٧) .

وقد تم اختيار عدة نماذج تمثل أشهر أنواع الغضار الإسلامي ومنها :

أ - الخزف ذو البريق المعدني : (الفخار المذهب) :

١ - الطراز العباسي في العراق (لوحات ٢٠٩ - ٢١١) .

٢ - الطراز الفاطمي في مصر (لوحات ٢١٣ - ٢١٦) .

٣ - الطراز السلجوقي والمغولي في ايران (لوحات ٢١٧ - ٢١٩) . أواني وبلاطات نجمية الشكل (ايران) .

٤ - الطراز الأيوبي في الشام (لوحة ٢٢٠) .

٥ - طراز بني الأحمر أو بني نصر في الأندلس (لوحة ٢٢١) .

ب - خزف مينائي (لوحتا ٢٢٢ ، ٢٢٤) (ايران)

ج - خزف الفيوم (لوحة ٢٢٣) (مصر) .

(١٥) مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر قبل الفاطميين ، ص ٥٣ - ٥٤ ؛ عبد الرازق ، الفنون الإسلامية حتي نهاية العصر الفاطمي ، ص ١٥٥ - ١٥٨ ؛ شبابيك القلل الفخارية في دار الآثار الإسلامية ، الكويت (١٩٨٨م) ، (١٢١ صفحة) .

(١٦) انظر عنه : عبد الرازق ، الفنون الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي ، ص ٢٠٣ - ٢٠٨ .

(١٧) عبد الرازق ، الفنون الإسلامية حتي نهاية العصر الفاطمي ، ص ١٣٥ .

- د - خزف سلطان آباد (لوحة ٢٢٥) (إيران) .
- هـ - الخزف المرسوم تحت الطلاء باللونين الأزرق والأسود علي أرضية بيضاء (الطراز المملوكي - مصر ، ق٨هـ / ١٤م) لوحات ٢٢٦ - ٢٢٨ .
- و - خزف ازنيق الشهير (أواني وبلاطات) (لوحات ٢٢٩ - ٢٥١ تركيا) .
- ز - الفسيفساء الخزفية وفق الأسلوب المعروف بالعراق (كاشيكاري معرق) - الطراز التيموري في آسيا الوسطي (لوحة ٢٥٢) .

٣- الزجاج :

- أ - وقع اختيارنا علي أشهر أنواع الزجاج الإسلامي وهو الزجاج المموه بالمينا المتعددة الألوان (لوحات ٢٥٨ - ٢٦٣) وتمثل الطراز المملوكي .
- ب - زجاج بوهيميا الشهير وكان هذا النوع من الزجاج الفاخر يصدر إلي العديد من البلدان أو يصنع برسم بعض سلاطين الدولة العثمانية ومحمد علي باشا وأسرته بمصر (لوحة ٢٦٤) .

٤- المعادن :

- أ - ابريق من البرونز يعرف بابريق مروان بن محمد (الطراز الأموي) (لوحة ٢٦٥) .
- ب - التماثيل المجوفة والمصمتة وتمثل الطراز الفاطمي في مصر (لوحات ٢٦٦ - ٢٦٧) .
- ج - ابريق من الذهب يمثل الطراز البويهري في العراق أو إيران (ق٤هـ / ١٠م) (لوحة ٢٦٨) .
- د - شمعدان من البرونز يمثل الطراز السلجوقي في شرق إيران . ق٧هـ / ١٣م . (لوحة ٢٦٩) .
- هـ - شماعد وثريات وتنانير ومناضد (هي المعروفة بكراسي العشاء) ومقلّمات وطسوت وقماقم ومشكاوات ومباخر من النحاس المكفت بالذهب والفضة أو

الفضة فحسب وتمثل الطراز المملوكي أصدق تمثيل ؛ بل وتعد من ابداعات وروائع الفن الإسلامي بصفة عامة - (لوحات ٢٧٠ - ٢٨٤) .

و - ابريق من الفضة مطلي بالذهب يمثل الطراز التركي العثماني ق ١٠هـ / ١٦م . (لوحة ٢٨٦) .

ز - مجموعة مختارة تمثل ابداعات الفن الإسلامي في الهند المغولية من تحف المجوهرات المختلفة علب وأختام ودلايات وخناجر وسيوف وصحن من الذهب بأسلوب Kundan (لوحات ٢٨٧ - ٣٠٠) .

ح - قلادة (أعلى) وقرط (أسفل إلي اليمين) من أواخر العصر الأيوبي أو أوائل العصر المملوكي ، وقلادة ونيشان من عهد الأسرة العلوية (محمد علي وأسرته بمصر) (لوحة ٣٠١) .

ط - أدوات فلكية من اسطرلابات وربعية ودائرة معدل تمثل الطراز العباسي والصفوي والتركي العثماني والمغرب في القرن ١٣هـ / ١٩م (لوحات ٣٠٢ - ٣٠٥) .

٥- الخشب والعاج :

أ - منبر جامع القيروان من خشب الساج ٢٤٨هـ / ٨٦٢م (الطراز العباسي - عصر الأغالبة في افريقية (تونس) .

ب - مقلمة مبكرة عثر عليها في حفائر الريزة بالملكة العربية السعودية (العصر العباسي الأولي ١٣٢ - ٢٣٢هـ) . (لوحة ٣٠٧) .

ج - ألواح بيمارستان قلاوون (وهي في الأصل من القصر الغربي الفاطمي الصغير) وتمثل المرحلة الثانية من مراحل تطور الأخشاب في الطراز الفاطمي بمصر (لوحة ٣٠٨) .

د - السقف الخشبي الذي يغطي الكابلا بلاتينا في بالرمو بصقلية وتزينه رسوم متنوعة منفذة بطريقة الفرسكو (ويمثل استمرار الطراز الفاطمي خلال عصر النورمان بصقلية) (لوحة ٣٠٩) .

هـ - بوق صيد من العاج ق ٦هـ / ١٢م يمثل الطراز الفاطمي مصر أو صقلية (لوحة ٣١١) .

(و) علبة عاجية اسطوانية الشكل مؤرخة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م تمثل طراز الخلافة الأموية بالأندلس (لوحة ٣١٠) .

ز - مناضد من الخشب المطعم بالعاج والأبنوس (وهي المعروفة بكراسي العشاء) تمثل الطراز المملوكي في مصر (لوحتا ٣١٢ - ٣١٣) .

ح - صندوق مصحف من الخشب المصفح بالنحاس المكفت بالفضة والذهب ، يمثل الطراز المملوكي في مصر (لوحة ٣١٤) .

ط - سقف تربة السلطان العثماني مراد الثاني في بورصة أو بروسة ويمثل الطراز العثماني المبكر . (لوحة ٣١٥) .

٦- النسيج :

أ - مجموعة من قطع المنسوجات الحريرية والكتانية تمثل الطراز المملوكي في مصر (لوحات ٣١٦ - ٣١٩) .

ب - قطعة من نسيج الحرير تزينها مناظر تصويرية تمثل الطراز الصفوي في إيران ق ١٠هـ / ١٦م . (لوحة ٣٢٠) .

٧- السجاد :

أ - نماذج تمثل طراز السجاد المملوكي في مصر (لوحتا ٣٢١ - ٣٢٢) .

ب - سجادة تجمع بين خصائص الطرازين المملوكي والعثماني في أوائل ق ١٠هـ / ١٦م (لوحة ٣٢٣) .

ج - السجاد التركي العثماني من النوع المعروف بسجاجيد عشاق ذات النجوم أو الجامات (أعلي) وسجاجيد هولباين (أسفل) (لوحة ٣٢٤) .

د - نماذج تمثل السجاد الإيراني من طراز الجامعة ذي المناظر التصويرية وطراز الحدائق وسجادة ثلاثة تنسب إلي هراة (أفغانستان) (ق ١٠هـ / ١٦م) (لوحات ٣٢٥ - ٣٢٧) .

هـ - سجادة هندية تمثل الطراز المغولي الهندي أواخر ق ١٠هـ / ١٦م . (لوحة ٣٢٨) .

الفصل الثالث

التصوير الاسلامى وفنون الكتاب

يعد التصوير الإسلامى وفنون الكتاب من المجالات الفنية التى أبدع فيها الفنان المسلم أيما أبداع ؛ وهو ما يستدل عليه من تلك الثروة المادية التى لا تزال باقية من المخطوطات المزوقة بالتصاوير والمصاحف وجلود الكتب فى العديد من المتاحف ودور الكتب والمكتبات والمجموعات الفنية المحلية والاقليمية والدولية من جهة ، ودراسات العديد من المستشرقين والعلماء والباحثين فى الفنون الإسلامية عامة ، وفنون التصوير والكتاب خاصة .

المبحث الأول : التصوير الإسلامى :

يكاد يكون من المتعذر أن نعين فنا من الفنون الإسلامية لم يعتمد على التصوير فى تحلية منتجاته : ففى التحف من الخزف والنسيج والخشب والمعدن والجص والفسيفساء وغيرها لعب التصوير دوراً على جانب كبير من الأهمية ، وإن الزائر لمتاحف الفنون الإسلامية ليعجب لما يراه من كثرة التحف التى تدين بجمالها لما يزخرفها من صور بديعة .

ولم تقف زخرفة التحف الإسلامية بالصور عند حد الأجزاء الظاهرة منها ، بل إن بعض التصوير قد أسهم فى تجميل كثير من الأجزاء التى قلما تظهر للعيان ، ومن الأمثلة البالة على ذلك شبابيك القلل الفخارية التى حرص الفنان على زخرفتها بأنواع مختلفة من الصور . ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة بمجموعة من شبابيك القلل بعضها يزينه صور آدميين جالسين القرفصاء منهم من له انف طويل هزلى (أرقام سجل ١٨٧٢٦ و ٦٥٢٩/٣) ومنهم من يمسك بيده كأساً يقربه إلى فمه (أرقام سجل ٦٥٢٩/٣ و ٦٤٤٧/٤ و ٨٥٧٧/١١٢) ومن أجمل هذه التحف شباك قلة تزخرفه صورة طاووس جميل قد نشر ذيله ورفع رأسه فى زهو وخيلاء (رقم السجل ٨٥٧٦) (١).

(١) الباشا ، حسن ، التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ط٢ (١٩٧٨م) ، ص ٥ ؛ ولزبد من التفاصيل عن هذه الشبابتك وتصاويرها الآدمية والحيوانية انظر ، عبد الرازق ، شبابتك القلل ، ص ٢٧ - ٣١ ، لوحات ٤٠ - ٤٦ .

Olmer, R., Les Filteres de gargoulettes, Catalogue Générale du Musée Arabe du Caire, Le Caire, (1932) .

وعلى الرغم من التأثير المتبادل بين الصور المنقوشة على التحف المصنوعة فى الأقطار الإسلامية خلال العصور التاريخية المتعاقبة فقد جرت العادة أن تدرس هذه الصور ضمن الفنون التطبيقية التى استخدمتها : أى أن ندرس مثلاً الصور المرسومة على الخزف ضمن دراسة الخزف أو أن ندرس الصورة المحفورة فى الخشب ضمن دراسة الخشب وهكذا والسر فى ذلك هو أن الصور نفسها تعتبر عنصراً من العناصر الأساسية فى هذه الفنون من جهة ، وأن طريقة الصناعة تتحكم فى أسلوب الصور المنقوشة عليها من جهة أخرى .

وقد سبق أن تحدثنا عن بعض هذه الصور فى الفصل الثانى من هذا الباب وهو الفصل المتعلق بالفنون الزخرفية الإسلامية .

أما هذا المبحث فسوف نعى فيه فقط بالتصوير الصرف كما يتمثل فى الصور الجدارية والمخطوطات المزوقة بالتصاوير : ذلك أن دراسة هذين الفرعين من فروع التصوير إنما تبحث فى التصوير لذاته^(٢) .

والحق أن دراسة التصوير الإسلامى ، ولا سيما فى ضوء المخطوطات المزوقة بالتصاوير ، تعد على جانب كبير من الأهمية حيث أن هذه التصاوير تعد بمثابة وثائق مادية مهمة تكشف ملامح وسمات الحياة فى الفترة التى ترجع إليها ؛ ومن ثم فهى مرآة عاكسة لظروف العصر وطبيعته ووقائعه المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية .

وعلى ذلك فإن أهمية دراسة التصوير الإسلامى لا تقف عند حد الجانب الفنى بأبعاده وزواياه المختلفة فحسب ؛ وإنما تمتد لتشمل كذلك الجوانب التاريخية والحضارية المختلفة ، ولو استطعنا تحقيق التكامل فى المنهج العلمى بين هذه الجوانب كلها لخرجنا بنتائج جديدة غير تقليدية فى التاريخ والحضارة والآثار الإسلامية على السواء وهو الأمر الذى يجب أن تتوفر عليه الدراسات المستقبلية .

هذا ولن نتطرق فى هذه العجالة لموضوع حكم التصوير فى الإسلام وأثر ذلك على

(٢) الباشا ، التصوير ، ص ٦ .

طبيعة الفن الإسلامى بصفة عامة ، والتصوير الإسلامى بصفة خاصة ؛ فمن جهة سبق وأن تناولت هذا الموضوع العديد من الدراسات العربية وغير العربية على السواء^(٣) ، ومن جهة أخرى فإن مناقشة هذا الموضوع تحتاج إلى تفاصيل كثيرة وتحليل عميق ؛ وهو الأمر الذى أفردنا له دراسة مطولة لاحقة سوف تنشر فى القريب (بمشيئة الله تعالى) .

أولاً : التصوير الجدارى :

استخدم المسلمون فى تزيين الجدران بالصور طريقتين هما الفسيفساء والفرسكو .

١- الفسيفساء :

ويقصد بها الزخرفة عن طريق لصق عدد من القطع الصغيرة والفصوص ذات الألوان المختلفة بعضها إلى جانب بعض على طبقة من الجص أو الملاط بحيث تؤلف زخارف وصوراً ، وقد تكون هذه القطع من الأحجار أو الرخام أو الصدف أو الزجاج أو الذهب أو الفضة ، وقد تكون على هيئة مكعبات دقيقة وقد تكون غير منتظمة الشكل^(٤) .

(٣) حسبنا أن نشير إلى عدد من هذه الدراسات ومنها : كريزول ، الآثار الإسلامية الأولى ، ص ١٣٦ - ١٣٨ ؛ اتنجهاوزن ، ريتشارد ، فن التصوير عند العرب ، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتى ، بغداد (١٩٧٤م) ، ص ١٢ - ١٤ ؛ الباشا ، التصوير الإسلامى ، ص ٩ - ٢٠ ؛ فنون التصوير الإسلامى فى مصر ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٧٣م) ، ص ٩ - ١٦ ؛ مدخل إلى الآثار الإسلامية ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٩٠م) ، ص ١٩٦ - ١٩٩ ؛ محرز ، جمال محمد ، التصوير الإسلامى ومدارسه ، القاهرة (١٩٦٢م) ، ص ٥ - ١٢ ؛ بهنسى ، عفيف ، جمالية الفن العربى ، الكويت (١٩٧٩م) ، ص ١٩ - ٢٢ ، ٨٤ - ٩٠ ؛ عكاشة ، ثروت ، التصوير الإسلامى الدينى والعربى ، بيروت (١٩٧٧م) ، ص ١٠ - ٢٧ ، ٤٤ - ٧٩ ؛ حسين ، محمود إبراهيم ، أعلام المصورين المسلمين وأشهر أعمالهم الفنية ، القاهرة (١٩٨٢م) ، ص ٣ - ١٩ ؛ فرغلى ، أبو الحمد محمود ، التصوير الإسلامى ، نشأته وموقف الإسلام منه وأصوله ومدارسه ، القاهرة (١٩٩١م) ، ص ٢١ - ٢٧ ؛ إبراهيم ، وفاء ، فلسفة فن التصوير الإسلامى ، القاهرة (١٩٩٦م) ، ص ١٦ - ٢٢ ، عبده ، مصطفى ، النحت والتصوير بين الإباحة والتجريم ، القاهرة (١٩٩٩م) ، ص ١١ - ٧٤ ؛ وعن أحدث الآراء الدينية انظر ، مرزوق ، عبد الصبور ، القرآن والرسول ومقولات ظالمة ، القسم الثانى ، القاهرة (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م) ، ص ٧٠ - ٧٢ ؛ زقزوق ، محمود حمدى ، حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك ، القاهرة ، ط ٥ (١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م) ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٤) الباشا ، التصوير ، ص ٢٧ .

وترجع أقدم العمائر الباقية المزخرفة بهذه الطريقة إلى العصر الأموي كما هو الحال في قبة الصخرة ٩٢هـ / ٦٩١م بالقدس الشريف والجامع الأموي ٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٥م ، بدمشق من العمائر التذكارية والدينية (لوحات ٣٣٨ - ٣٤١) والحمام الملحق بقصر هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م) المعروف بقصر خربة المفجر (أريحا) بفلسطين (لوحتا ٣٤٢ - ٣٤٣) وإذا كانت تصاوير الفسيفساء في قبة الصخرة والجامع الأموي تخلو من صور الكائنات الحية ، فإن تصاوير حمام قصر خربة المفجر تتضمن صوراً لكائنات حية كما سنشير فيما بعد . وبالنسبة لتصاوير قبة الصخرة والجامع الأموي فهي عبارة عن مناظر طبيعية بحتة تتمثل في قبة الصخرة على هيئة أشجار كاملة بأوراقها وثمارها كالنخيل والزيتون أو تشكيلات زخرفية نباتية متنوعة تمتزج بأواني الزهور والقواقع وقرون الرخاء وأنواع الفواكه المختلفة كالعنب والرمان والبلح والتفاح والكمثرى ، فضلاً عن تصاوير النجوم والأهلة والمجوهرات (كالأصداف والأحجار الكريمة) وأوراق الاكانتس (نبات شوكة اليهود) أو الأوراق الثلاثية الفصوص وغير ذلك، ويغلب على الألوان اللوم الأخضر بدرجاته المختلفة والذهبي ، وتوجد درجات من اللون الأبيض والأسود والبنفسجي والأحمر والفضي والرمادي الداكن^(٥). (لوحتا ٣٣٨ - ٣٣٩) .

وليست أدل على أهمية هذه الفسيفساء من الإشارة إلى ما ذكره العلامة ايتنجهاوزن بقوله « ليس هناك شك في أن هذه الفسيفساء انجاز فني كبير وأن تأثيرها بالغ الأهمية أيضاً وكانت هذه النقوش أكثر من مجرد زخرفة ، أما مهمة هذه الفسيفساء الأولى فكانت اشباع الرغبات الدينية والجمالية للخليفة ، واستهواء العرب وغيرهم من المهتدين الجدد »؛ ثم يضيف فيقول « ويبدو الغرض الأساسي من هذه الزخارف وكأنه ليس ابهار المشاهد فحسب بل هو أكثر من ذلك ؛ انه الاعلان عن انتصار آخر الأديان السماوية ومن المحتمل تبيان سيادته العالمية أيضاً »^(٦).

(٥) الباشا ، التصوير ، ص ٢٤ - ٣٠ ؛ فرغلي ، التصوير ، ص ٤٧ - ٤٩ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامي الديني والعربي ، ص ٢٦٣ - ٢٦٧ .

(٦) ايتنجهاوزن ، ريتشارد ، فن التصوير عند العرب ، ص ٢٠ - ٢٢ ؛ بهنسي ، الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه ، بيروت ، دمشق (١٩٨٣م) ، ص ٦٢ .

وإذا كان البعض يرى فى زخارف قبة الصخرة أيضاً أنها ما هى إلا مجرد عناصر مجردة تمثل براءة الطبيعة ونقاء العقيدة وصفاء النفس وأنها لا تعكس بأية حالة إشارة أو رمزاً يدل على غير ذلك^(٧)، فإن هناك من يرى أن لهذه الزخارف صلة بالجنة وأنها تعكس دلالة رمزية وفق الجو العقائدى الذى كان سائداً آنذاك وهو ما تؤكد العناصر الزخرفية المستخدمة فأكثرها يمت بصله وثيقة إلى الفكر الإسلامى (كأشجار وثمار النخيل والزيتون والكرمة والرمان واللؤلؤ والجواهر) ولها معانيها الباطنة المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة^(٨).

أما المناظر الطبيعية فى زخارف فسيفساء الجامع الأموى فبعضها يمثل زخارف نباتية وبعضها الآخر يمثل أشجاراً أى على غرار مناظر قبة الصخرة، غير أن أهم هذه المناظر تلك التى تقع فى داخل الجامع على مقربة من مدخله الرئيسى وهى المعروفة باسم مصورة نهر بردى ويتألف التصميم العام لهذه المصورة من نهر يجرى من اليسار إلى اليمين، وتظهر فى جانبه الأيسر فى أعلاه قصور وعمائر ذات عدة طوابق ومن طرز مختلفة ويحف بهذه المباني حدائق مزدهرة مثمرة وجبال وتلال^(٩). (لوحتا ٣٤٠ - ٣٤١).

وقد لفتت هذه الزخارف أنظار البلدانين والرحالة فيها هو المقدسى يذكر أنها تمثل «صور أشجار وأمصار وقل شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مثل على تلك الحيطان»^(١٠).

أما القزوينى فيذكر أن من عجائب هذا الجامع «... لو أن أحداً عاش مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فى كل يوم ما لم يره من حسن الصنعة ومبالغة التنميق»^(١١).

(٧) التل، صفوان، مبادئ الفن الإسلامى، ضمن أعمال الندوة الدولية المنعقدة باستانبول فى إبريل ١٩٨٣م، وموضوعها «المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة»، دمشق (١٩٨٩م)، ص ٦٥.

(٨) ياسين، عبد الناصر، الرمزية الدينية فى الزخرفة الإسلامية، دراسة فى ميتافيزيقا الفن الإسلامى، مجلة كلية الآداب بسوهاج جامعة جنوب الوادى، العدد ٢٣، ج ٢، اصدار خاص: دراسات أثرية، أكتوبر (٢٠٠٠م)، ص ٣٠ - ٣٧.

(٩) الباشا، التصوير الإسلامى، ص ٣١ - ٤٣؛ فرغلى، التصوير الإسلامى ص ٥١ - ٥٣؛ اتنجهاوزن، فن التصوير، ص ٢٢ - ٢٩؛ عكاشة، التصوير الإسلامى الدينى والعربى، ص ٢٦٨ - ٢٧٣.

(١٠) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١٥٧.

(١١) القزوينى، آثار البلاد، ص ١٨٩ - ١٩٠.

هذا وقد اختلفت الآراء حول تفسير مغزى هذه المصورة فمن قائل أنها ترمز إلى مدينة دمشق ونهر بردى الذى يخترقها والتي تدين له بخصبها العجيب وبعداثقها الغناء وبغوطتها البهيجة وبمناظرها الطبيعية الجميلة^(١٢).

ومن قائل أنها تمثل مدينة الله وفى قول ثالث أنها تعبير عن قوة الإسلام وشموله أكبر رقعة من العالم وأن تعاليم الإسلام أدت إلى ظهور العصر الذهبى والفردوس على الأرض^(١٣).

ورأى رابع أنها ترمز إلى الجنة التى وعد الله بها المؤمنين الاتقياء والتي تهفوا لها قلوب العرب الظامئة إلى فردوس الحياة أى أنها وضعت كنوع من أنواع الحوافز لهؤلاء المؤمنين^(١٤).

والحق أن هناك علاقة واضحة بين هذه المصورة وما ورد عن أوصاف الجنة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وهو الأمر الذى يؤكد صلة هذه الزخارف الوثيقة بالفكر الإسلامى وليس الفكر المسيحي^(١٥).

وإذا انتقلنا إلى تصاوير حمام قصر خربة المفجر (أريحا) نجد أنها عبارة عن شجرة تفاح (وقيل نارنج أو رمان) ضخمة ينبثق حولها بعض النباتات ، وإلى جانبها الأيسر غزالتان قمرحان بين بعض النباتات ، وإلى جانبها الأيمن أسد ينقض على غزال يحاول الأفلات منه^(١٦). (لوحتا ٣٤٢ - ٣٤٣) يغلب على هذه التصويرة الأسلوب الواقعى فى

(١٢) الباشا ، التصوير ، ص ٣٢ .

(١٣) اتنجهاوزن ، فن التصوير عند العرب ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ بهنسى ، جمالية الفن العربى ، ص ٥٢ ؛ وما له دلالتة أن بهنسى فى دراسة تالية له ذكر أن هذه المصورة ترمز لمدين مجمعة أو دول ؛ وأن بعض القصور إنما يعبر عن العواصم التى أصبحت تحت سيطرة الخليفة وهيمنته .

الفن العربى الإسلامى فى بداية تكونه ، ص ٤٦ ؛ الجامع الأموى الكبير ، دمشق (١٩٨٨م) ، ص ١٤٠ .
(١٤) Grabar, O., the Formation of Islamic Art, Yale, (1973), P.

حسين ، محمود إبراهيم ، الأنا الفاعلة فى الفن والعمارة الإسلامية ، ضمن كتاب الأرابيسك ، الكويت (١٩٩٦م) ، ص ٢٢٧ .

(١٥) ياسين ، الرمزية الدينية فى الزخرفة الإسلامية ، ص ٣٩ - ٤٧ .

(١٦) الباشا ، التصوير ، ص ٤٧ ، فرغلى ، التصوير ، ص ٥٥ ؛ رايى ، الفن الإسلامى ، ص ٢١ - ٢٢ ؛ اتنجهاوزن ، فن التصوير ، ص ٣٦ - ٤٠ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامى الدينى والعربى ، ص ٢٧٩ - ٢٨٢ .

صورة الشجرة ، كما تفنن انقاش فى التعبير عن المنظور الهوائى فبدت الأوراق ذات أبعاد فى الفراغ تجلت بتأثير حسن ترتيب الألوان وتركيز تضادها (الظل والنور) ، ويبدو التحجم دقيقاً فى تكوين الأسد والغزلان الثلاثة فى أسفل الشجرة فقد كان التظليل شديد الوضوح مفيداً فى التعبير عن التشريح والحركات^(١٧).

أما عن منظر الأسد وهو ينقض على فريسته فيعد رمزاً يعبر عن قوة الخلافة التى لا تقاوم^(١٨) ، وتعكس الأدلة الأثرية الباقية استمرار هذه الدلالة الرمزية لعدة قرون فى الفن الإسلامى^(١٩).

٢. الفرسكو : Fresco

ويقصد به الرسم بالألوان المائية على الجدران وطريقة اعداد الصور بها هى أن يكسى الجدار بطبقة من الجص ثم يطلى فوقها بالألوان الأرضية المذابة فى الماء ويراعى أن يوضع الطلاء قبل أن يتم جفاف الجص حتى يتشرب الجص اللون فى أثناء جفافه وبذلك يتفادى تساقط الطلاء^(٢٠).

ومن الملاحظ أن الرسم بهذه الطريقة يبدو أسهل تناولاً ولقد استعاض به عن الفسيفساء لقلّة تكاليفه وسرعة انجازه^(٢١).

هذا وتمثل التصاویر الباقية فى قصر عمرة بالأردن (يقع على بعد خمسين ميلاً شرقى عمان) أقدم الصور المائية المعروفة حتى الآن ؛ بل وتمثل أضخم مجموعة من هذه الصور عثر عليها فى مبنى دنيوى (مدنى) قبل العصر الرومانسكى^(٢٢).

(١٧) بهنسى ، جمالية الفن العربى ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(١٨) ايتنجهاوزن ، فن التصوير عند العرب ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(١٩) Hartner, W., and Ettinghausen , R., The Conquering Lion, the life cycle of a symbol, Oriens, vol, 17, (1964), pp. 161 - 171 .

(٢٠) الباشا ، التصوير ، ص ٤٩ .

(٢١) بهنسى ، جمالية الفن العربى ، ص ٥٤ .

(٢٢) كريزول ، الآثار الإسلامية الأولى ، ص ١٢٣ .

ويرجع غالبية العلماء والباحثين تاريخ بناء هذا المبنى إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) وبالتحديد إلى الفترة الواقعة فيما بين ٩٢ - ٩٦ هـ / ٧١١ - ٧١٥ م ؛ وذلك اعتماداً على دراسة ترتيب الرسوم الأدمية في الصورة المعروفة بصورة أعداد الإسلام أو ملوك الأرض^(٢٣)، ونحن نفضل تسميتها بصورة انتشار الإسلام حيث أن الفتوح الإسلامية قد أدركت أقصى مداها شرقاً وغرباً قبيل وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك ٩٦ هـ / ٧١٥ م .

هذا وتنحصر الألوان المستخدمة في صور قصير عمرة المائية في اللون الأزرق واللون البنّي الداكن والبنّي الفاتح واللون الأصفر الداكن واللون الأخضر المشوب بزرقة . وتمثل هذه الصور موضوعات مدنية شتى منها مناظر صيد ورقص وتدريبات رياضية وحرف صناعية متنوعة ورسوم نساء عاريات وشبه عاريات وكيوييد ومراحل العمر المختلفة (لوحة ٣٤٥) بالإضافة إلى صور سافرة وأشكال رمزية ورسوم حيوان وطير وزخارف هندسية ونباتية .

غير أن أهم الصور المرسومة بالمبنى تتمثل في ثلاث صور :

الأولى هي : الصورة المعروفة بصورة أعداء الإسلام أو ملوك الأرض والتي فضلنا تسميتها بصورة انتشار الإسلام ، وتوجد عند الطرف الجنوبي للحائط الغربي بقاعة الاستقبال ، وتمثل هذه الصورة ستة رجال يلبسون ثياباً حسنة يصطف ثلاثة منهم في الأمام وقد مدوا أيديهم ويقف الثلاثة الباقيون خلفهم ، وقد بقيت أسماء أربعة فوق رؤوسهم : وهم من اليسار إلى اليمين قيصر وكسرى في الصف الأمامي ولذريق (ملك

(٢٣) كريزول ، الآثار الإسلامية الأولى ، ص ١٢٧ - ١٣٠ ؛ الباشا ، التصوير ، ص ٥١ - ٥٢ ؛ الريحاني ، العمارة في الحضارة الإسلامية ، ص ٨٥ ؛ سامح ، العمارة في صدر الإسلام ، ص ٣٩ - ٤٠ ؛ يحيى ، آثارنا الإسلامية ، العمارة في صدر الإسلام والعصر العباسي الأول ، ص ٩١ - ٩٥ .
وهناك من يرى أن أعمال البناء بدأت في عهد الوليد واستمرت زخرفته وزياداته حتى عهد هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م) وذلك استدلالاً من كتابة عثر عليها موجهة إلى أحد أفراد الأسرة الحاكمة .
رايس ، الفن الإسلامي ، ص ٢٧ ؛ فرغلي ، التصوير الإسلامي ، ص ٦١ ؛ بهنسي ، الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه ، ص ١٠٧ ؛ اتنجهاوزن ، فن التصوير ، ص ٣٣ .

القوط الغربيين فى أسبانيا) والنجاشى .

والصورة الثانية : فى قاعة الاستقبال أيضاً وهى مرسومة فى حنية مستطيلة الشكل فى الحائط الجنوبي وتمثل حاكماً جالساً على عرشه وفوق رأسه مظلة ترتكز على عمودين حلزونيين وعلى جانبي العرش وقف شخصان : أحدهما إلى اليمين يحمل مذبة (لوحة ٣٤٤) .

ومن المرجح أن هذه الصورة إنما ترمز إلى الخليفة الأموى ، ويقال إنه كانت هناك كتابه تشير إلى اسمه تلفت فى عهد الوا موزيل مكتشف القصر ١٨٩٨م دون أن يتمكن أحد من قراءتها .

ويعتقد ايتنجهاوزن أن مواضيع هذه الصور وهى صورة الخليفة المتوج الذى يشبه سيد الكون وصور الملوك الستة (صورة انتشار الإسلام) إنما تدل على الفكرة القائلة من أن الخليفة كان يحكم الأرض التى كان يظن أنها محاطة بالمحيط ، تدل عليه الوحوش البحرية وتغطيه السماء التى رمز إليها بالطيور .

أما الصورة الثالثة فهى تلك الصورة التى تزين باطن قبة الحجرة الثالثة بالحمام (الجوانى وفق المصطلح الشامى وبيت الحرارة وفق المصطلح المصرى) وهى تمثل السماء بما فيها من بروج ومجموعة شمسية (Zodiac) ولهذه الصورة قيمة علمية فى الدراسات الفلكية ، فضلاً عن قيمتها الفنية^(٢٤) .

ومن الصور المائية التى ترجع إلى العصر الأموى أيضاً تصورتان من قصر الحير الغربى فى تدمر بـالميرا) الذى يرجع إلى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م) وبالتحديد عام ١٠٩هـ / ٧٢٨م وهى محفوظتان فى المتحف الوطنى بدمشق ، والصورة الأولى (لوحة ٣٤٦) تنقسم رأسياً إلى ثلاثة أقسام ، ويشمل القسم الأعلى صورة عقدين متصلين ، ويقف تحت العقد الأيمن رجل ينفخ فى

(٢٤) عن الدراسة الوصفية والتحليلية لهذه الصور انظر ، كرزول ، الآثار الإسلامية ، ص ١٢٢ - ١٣٦ ؛ الباشا ، التصوير الإسلامى ، ص ٥٥ - ٦٧ ؛ فرغلى ، التصوير الإسلامى ، ص ٥٧ - ٦١ ؛ بهنسى ، الفن العربى الإسلامى ، ص ١٠٧ - ١١٣ ؛ ايتنجهاوزن ، فن التصوير عند العرب ، ص ٢٩ - ٣٣ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامى والدينى والعربى ، ص ٢٧٤ - ٢٧٧ .

مزمار وأمامه أربع زهرات ، ويقف تحت العقد الأيسر امرأة تعزف على قيثارة ، وفي القسم الأوسط يشاهد صورة فارس قد امتضى صهوة جواده الراكض وشرع يرمى غزالاً بسهم (ومن المرجح أنها تمثل القسم الأول من قصة بهرام گور ومحظيته فتنة أو أزده) (لوحة ٣٤٦) أما القسم الأسفل - وهو أكبر الأقسام - فيتضمن صوراً آدمية وحيوانية ربما كانت تمثل مناظر صيد وفلاحا يسوق مواشيه أو صياداً ومعه صيده .

أما الصورة الثانية (لوحة ٣٤٧) فيتوسطها رسم جامعة دائرية الشكل بها صورة نصفية لسيدة فى وضع مواجه ، وقد أمسكت بيديها منديلاً مملوءاً بالفاكهة ، ويزين إطار الجامعة حبات اللؤلؤ الساسانية ، وكذلك يزين عنق السيدة عقد من حبات اللؤلؤ أيضاً وتحت يلف ثعبان ، ويشاهد فوق الجامعة كائنان بحريان خرافيان متقابلان على أرضية ذات زخارف نباتية ، ويمسك كل منهما فى يده عصا ، ويتألف كل من الكائنين من النصف العلوى لإنسان والنصف السفلى لسمكة ، وربما تمثل هذه الصورة الثانية الهة الأرض المسماه جيا^(٢٥).

واستمرت زخرفة الجدران بهذه الطريقة بعد العصر الأموى وهو ما يستدل عليه من المصادر التاريخية المختلفة ؛ فضلا عن الأدلة المادية الأثرية الباقية ومن بينها تصاوير قصر الجوسق الخاقاني^(٢٦) بمدينة سامرا (٢٢١ - ٢٧٦هـ / ٨٣٦ - ٨٨٩م) بالعراق (لوحتا ٣٤٨ - ٣٤٩) ؛ وتصاوير الحمام المعروف بالحمام الفاطمي^(٢٧) المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة وربما ترجع إلى القرن ٤هـ / ١٠م أو القرن ٥هـ / ١١م (لوحة

(٢٥) عن الدراسة الوصفية والتحليلية لكل من هاتين الصورتين انظر ، الباشا ، التصوير الإسلامى ، ص ٦١ - ٦٤ ، فرغلى ، التصوير الإسلامى ، ص ٦٢ - ٦٣ ؛ بهنسى ، الفن العربى الإسلامى ، ص ١٣٦ - ١٣٧ ؛ اتنجهاوزن ، فن التصوير عند العرب ، ص ٣٣ - ٣٦ ؛ حسين ، محمود إبراهيم ، المرأة فى إنتاج المصور المسلم ، القاهرة ، (١٩٨٣م) ، ص ٤ - ٥ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامى الدينى والعربى ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢٦) الباشا ، التصوير الإسلامى ، ص ٦٩ - ٧٦ ؛ فرغلى ، التصوير الإسلامى ، ص ٦٤ - ٦٨ ؛ حسين ، المرأة فى إنتاج المصور المسلم ، ص ٥ - ٧ ؛ اتنجهاوزن ، فن التصوير ، ص ٤٢ - ٤٤ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامى الدينى والعربى ، ص ٢٨٤ - ٢٨٦ .

(٢٧) الباشا ، التصوير الإسلامى ، ص ٧٧ - ٨١ ؛ فنون التصوير الإسلامى فى مصر ، ص ٥٦ - ٥٩ ؛ ٦٥ - ٧١ ؛ فرغلى ، التصوير الإسلامى ، ص ٧١ - ٧٣ ؛ حسين ، محمود إبراهيم ، الفنون الإسلامية فى العصر الفاطمى ، القاهرة (١٩٩٩م) ، ص ٦٥ - ٧٤ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامى الدينى والعربى ، ص ٢٨٦ - ٢٩٠ .

٣٥٠)؛ وتصاوير سقف الكابلاتينا فى بالرمو بجزيرة صقلية^(٢٨) (لوحات ٣٥١ - ٣٥٣).

ومنها بعض التصاوير المكتشفة بمدينة الزهراء عام ١٩١٢ م .

وتصاوير البرطل بقصر الحمراء فى غرناطة المكتشفة عام ١٩٠٨ م وترجع إلى الربع الأول من القرن ٨هـ / ١٤ م .

ومن الملاحظ أن تصاوير الزهراء قد رسمت بالفرسكو، بينما رسمت تصاوير البرطل بطريقة التمبر Temple وقوام هذه الطريقة هو أن تذاب الألوان فى محلول صمغى أو فى زلال البيض وترسم الموضوعات بهذا المحلول على السطح الجاف ، وقد حددت الرسوم أولاً بالقلم الأسود أو الأحمر ثم لونت بعد ذلك المساحات المحصورة بين هذه الحدود ، أما الألوان فهى الأبيض والأحمر والبنفسجى والأخضر والأصفر والأسود والأزرق والذهبى . وقد وزعت الموضوعات على أربعة أشرطة يحدها من أعلى اطار مزين بأوراق نباتية ومن أسفل اطار به رسوم هندسية وآخر به كتابات كوفية منها اليمن الدائم - العز القائم - البركة ، وتمثل الموضوعات جنوداً ممتطين صهوات الجياد وأسرى ورجال داخل خيام وسيدات فى هودج على جمال ومناظر طرب وخيولا وجمالاً وبغالاً وقطعاناً من البقر مع حراسها^(٢٩) .

والحق أن أهمية دراسة التصوير الجدارى تكمن فى كونها تمثل البدايات الأولى والمراحل المبكرة التى قطعها التصوير الإسلامى قبل القرن ٦هـ / ١٢ م وهو القرن الذى ترجع إليه أقدم المخطوطات الباقية المزوقة بالتصاوير وفق أسلوب المدرسة العربية ، ومن ثم يمكن أن يقاس تطور التصوير فى المخطوطات منذ بدايته إلى نهاية ق ٦هـ / ١٢ م

(٢٨) الباشا ، التصوير الإسلامى ، ص ٨٢ - ٨٨ ؛ فنون التصوير ، ص ٨٤ - ٨٩ ؛ فرغلى ، التصوير الإسلامى ، ص ٧٣ - ٧٥ ؛ حسين ، الفنون الإسلامية ، ص ٧٥ - ٩٥ ؛ المرأة فى إنتاج المصور المسلم ، ص ١٠ - ١١ ؛ رسلان ، عبد المنعم ، الحضارة الإسلامية فى صقلية وجنوب إيطاليا ، ص ١١١ - ١٣٠ ؛ اتنجهاوزن ، فن التصوير ، ص ٤٤ - ٥٠ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامى الدينى والعربى ، ص ٢٨٦ - ٢٩٠ .

(٢٩) الباشا ، التصوير الإسلامى ، ص ٩٠ - ٩١ ؛ محرز ، جمال ، الرسوم الجدارية الإسلامية فى البرطل بالحمراء ، مدريد (١٣٧٠هـ / ١٩٥١م) ، ص ١٥ - ٥١ ، لوحات ١ - ٣٠ ؛ التصوير الإسلامى فى الأندلس ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلدان التاسع والعاشر ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة (٦٠ - ١٩٦٢م) ، ص ٣٤ - ٣٨ ، أشكال ١ ، ٣ ، ٨ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامى الدينى والعربى ، ص ٤١٣ - ٤١٦ ،

بتطوره فى الرسوم الجدارية المنفذة بالفرسكو والتبل فى الفترة نفسها^(٣٠).

ثانياً : المخطوطات المزوقة بالتصاوير :-

من المتفق عليه أن دراسة التصوير الإسلامى تقوم بصفة أساسية على التصاوير التى تزوق صفحات المخطوطات أو توضح نصوصها ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى ندرة ما استطاع علماء الآثار والفنون كشفه من الصور التى كانت تزين جدران العماائر المختلفة دينية كانت أم مدينة أم حربية .

هذا وتنقسم التصاوير فى المخطوطات الإسلامية إلى نوعين أساسيين : النوع الأول يشمل التصاوير التى توضح نصوص الكتب العلمية والنوع الثانى يشمل التصاوير التى تزوق الكتب الأدبية . وسوف نشير إلى عدد من النماذج التى تنتمى إلى كلا النوعين فيما يستقبلنا من صفحات .

ولما كانت تصاوير المخطوطات الباقية ليست ذات أساليب ومميزات فنية واحدة ؛ إذ تختلف فيما بينها من عصر لآخر ؛ ولذلك اصطلح على تقسيم التصوير الإسلامى إلى عدة طرز أو مدارس حتى يمكن تتبع نشأة التصوير الإسلامى ومراحل تطوره خلال العصور التاريخية المتعاقبة ، مع إبراز خصائص كل مرحلة والتيارات الفنية السائدة ؛ فضلاً عن سمات المراكز الفنية وشخصيتها ومصوريها .

ومن المعروف أن التصوير الإسلامى حتى أواخر القرن ٩هـ / ١٥م لا يدرس إلا فى ضوء الإنتاج دون العناية بالمصورين أنفسهم . وذلك بحكم ندرة المعروف عنهم . أما منذ أواخر القرن ٩هـ / ١٥م وما تلاه فيدرس التصوير الإسلامى على أساس دراسة المصورين أنفسهم ؛ إذ تنسب الصور فى كثير من الأحيان إلى مصورين يتميز كل منهم بشخصية مستقلة وأسلوب خاص^(٣١) .

ومن هذه المدارس المدرسة العربية والمدرسة المغولية والمدرسة المظفرية والمدرسة الجلائرية والمدرسة التيمورية والمدرسة الصفوية (الأولى والثانية) والمدرسة التركية العثمانية والمدرسة المغولية الهندية .

ولما كان المقام لا يتسع لدراسة كل هذه المدارس بالتفصيل ، ولذلك حسبنا أن نركز

(٣٠) الباشا ، التصوير ، ص ١٢٦ .

(٣١) الباشا ، التصوير ، ص ٦-٧ ، ٩٠-٩٣ ، ١٢٣-١٢٤ .

فقط على الخصائص العامة والسمات الفنية الرئيسية ، وأهم المراكز الفنية وأشهر المخطوطات والمصورين بكل مدرسة من هذه المدارس .

١- المدرسة العربية :-

تعتبر أولى مدارس تصوير المخطوطات فى التصوير الإسلامى ، وقد انتشرت هذه المدرسة تقريبا فى جميع أنحاء العالم الإسلامى (فالى جانب العراق ازدهرت فى مصر وسوريا واليمن وامتدت إلى المغرب والأندلس كما عاشت فترة طويلة فى ايران) فيما بين القرنين ٧ - ٩ هـ / ١٣ - ١٥ م ؛ بل واستمرت فى بعض الأقطار المذكورة بعد ذلك .

الخصائص العامة للمدرسة العربية :

- غلبة الطابع العربى ويتمثل فى سحنة الرسوم الأدمية والملابس والعناية برسوم الابل والخيول .

- البساطة وعدم التعقيد وتتمثل فى عدم تحديد التصاوير بإطار فى أغلب الأحيان وفى أن الأرضية على هيئة خط مستقيم تخرج منه أوراق نباتية مدمجة محورة أو شجرة صغيرة محورة كما تخلو الخلفية من أية رسوم وان وجدت رسوم عمائر مثلا فإنها ترسم بطريقة اصطلاحية تخطيطية مبسطة .

- البعد عن التمثيل الواقعى ويتمثل فى إهمال تصوير المناظر الطبيعية وعدم التعبير عن التكتل أو العمق ورسم النبات رسما محورا ورسم الأدميين رسما اصطلاحيا وتركيز العناية بالرسوم الأدمية دون سائر عناصر البيئة ودون مراعاة أى تناسب بينها والاهتمام بالشخص الرئيسى فقط سواء فى كبر حجمه تمييزاً له عن الآخرين أو فى زخرفة ثوبه بزخارف مختلفة عن الآخرين ، ويتجلى كذلك فى رسم الهالات حول رؤوس الأشخاص وأحيانا حول رؤوس الطير بل وحول الأزهار كما فى تصاوير مخطوطة الترياق لجالينوس المحفوظة بالمكتبة الأهلية فى فيينا .

- الميل الزخرفى ويتمثل فى استخدام الألوان البراقة الزاهية والخلفية المذهبة ورسم السيقان والمياه بطريقة زخرفية تشبه تجمع الديدان أو الأمواج المتكسرة ، كما

يتجلى أيضا أسلوب رسم طيات الثياب (على هيئة خطوط هندسية أو أزهار أو حيوان أو أهلة وبروج أو زخرفة عربية مورقة - على هيئة خطوط مناسبة تشع من مركز تجمع واحد - أو على هيئة زخرفة عقدية على هيئة الأمواج المتكسرة أو تجمع الديدان)^(٣٢).

- المراكز الفنية للمدرسة العربية :

من الملاحظ أن كل مركز كان يتميز ببعض السمات الفنية والملامح الخاصة به بالإضافة إلى الخصائص الرئيسية التي تميز المدرسة العربية بصفة عامة والسابق الإشارة إليها .

أ - بغداد : ومن المخطوطات التي تنسب إليها :

أ - كتاب البيطرة المحفوظ بدار الكتب المصرية والذي نسخه على بن حسن بن هبة الله في آخر رمضان ٦٠٥هـ / مارس ١٢٠٩م .

ونسخة أخرى من نفس المخطوط مؤرخة ٦٠٦هـ / ١٢١٠م وهي محفوظة بمكتبة طوبقابي سراي (أحمد الثالث رقم ٢١١٥) باستانبول (لوحة ٣٥٤).

ب - بعض تصاوير من كتاب خواص العقاقير لديسقوريدس موزعة بين بعض المتاحف والمجموعات الفنية وترجع إلى عام ٦٢١هـ / ١٢٢٤م (لوحة ٣٥٥) .

ج - نسخة أخرى من خواص العقاقير لديسقوريدس مؤرخة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ومحفوظة بمتحف طوبقابي سراي باستانبول (لوحات ٣٥٦ - ٣٥٨) (٣٣).

د - نسخة من مقامات الحريري محفوظة في المكتبة الأهلية في باريس (تحت رقم (arabe 5847) وتعرف بحري شيفر وقد كتبها وزوقها يحيى بن

محمود بن يحيى بن محمود بن يحيى الواسطي عام ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م ، وتمثل

(٣٢) الباشا ، التصوير ، ص ١٢٥ - ١٢٩ ؛ فرغلي ، التصوير ، ص ٨٣ - ٨٦ .

(٣٣) الباشا ، التصوير الإسلامي ، ص ١٢٩ - ١٣٤ ؛ فرغلي ، التصوير ، ص ٨٦ - ٩٢ ؛ الجادر ، خالد ، المخطوطات العراقية المرسومة في العصر العباسي ، بغداد (١٩٧٢م) ، ص ٥٩ - ٦٠ ، ٦٥ - ٦٧ ؛ اتنجهاوزن ، فن التصوير عند العرب ، ص ١٠٤ - ١٢٤ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامي الديني والعربي ، ص ٣٩١ - ٤٠٥ .

تصاويرها أروع ما أنتجته مدرسة بغداد ، وتعكس تصاوير هذه النسخة مظاهر الحياة اليومية والريفية كما أن ألوانها كثيرة وغنية ورسومها الأدمية تمتاز بتنوع الشخصيات واختلاف الملامح ووضوح التعبير عن العواطف المختلفة . (لوحات ٣٥٩ - ٣٦٣) (٣٤).

هـ - مخطوطة رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا بمكتبة جامع السليمانية في استانبول وهى مؤرخة بعام ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م (لوحتا ٣٦٤ - ٣٦٥) وهى تمثل ازدهار مدرسة بغداد حتى بعد سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول فى عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م (٣٥).

ب. بلاد الجزيرة (الموصل وديار بكر) :

ومن المخطوطات التى تنسب إليها :

- كتاب الترياق لجالينوس بالمكتبة الأهلية فى باريس تحت رقم (2964 arabe) وهو مؤرخ بعام ٥٩٥هـ / ١١٩٩م. (لوحتا ٣٦٦ - ٣٦٧)، وينسب إلى مدينة الموصل .

- كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني بمكتبة فيض الله الأهلية باستانبول ومؤرخ بعام ٦١٤هـ / ١٢١٧م ، ومن أهم تصاويره صورة غرة الجزء التاسع عشر

(٣٤) الباشا ، التصوير ، ص ١٣٤ - ١٣٧ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ٩٣ - ٩٦ ؛ الجادر ، المخطوطات العراقية ، ص ٢٣ - ٢٨ ؛ حسين ، أعلام المصورين ، ص ٤٤ - ٤٦ ؛ السلطان ، عيسى ، الواسطى ، يحيى بن محمود بن يحيى رسام وخطاط ومذهب ومزخرف ، بغداد (١٩٧٢م) ، (٦١ صفحة) ؛ عواد ، ميخائيل ، يحيى الواسطى شيخ المصورين فى العراق ، بغداد (١٩٧٢م) ؛ النعيمى ، ناهدة عبد الفتاح ، المرأة فى رسوم الواسطى ، بغداد (١٩٧٢م) ؛ آل سعيد ، شاكى حسن ، الخصائص الفنية والاجتماعية لرسوم الواسطى ، بغداد (١٩٧٢م) ؛ عكاشة ، ثروت ، فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى ، أثر إسلامى مصور ، القاهرة (١٩٧٤م) ، (١٠٣ صفحة) .

(٣٥) اتنجهاوزن ، فن التصوير ، ص ١٠٠ - ١٠٣ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ٩٦ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامى الدينى والعربى ، ص ٤٠٦ - ٤٠٨ ، حسن ، زكى محمد ، التصوير فى الإسلام عند الفرس ، ط ١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦م ، ص ٢٤ - ٣٠ ؛ مدرسة بغداد فى التصوير الإسلامى ، مجلة سومر ، الجزء الأول ، المجلد الحادى عشر ، ١٩٥٥م . ص ١٥ - ٤٦ ، لوحات ١٦ - ١.

وقتل الأتابك بدر الدين لؤلؤ (الوحتا ٣٦٨ - ٣٦٩) أتابك الموصل فيما بين عامى ٦٣١ - ٦٥٧هـ / ١٢٣٣ - ١٢٥٨م ، مما يدل على أن إضافة هذه الصورة قد تمت بعد نسخ المخطوط وكتابته بفترة طويلة .

- كتاب كليلة ودمنة بالمكتبة الأهلية بباريس (تحت رقم 3465 arabe) ويرجع إلى حوالى ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م ترجيحاً . (ديار بكر) .
- نسخة من كتابات مقامات الحريرى بالمكتبة الأهلية بباريس (تحت رقم 6094 arabe) مؤرخ بعام ٦١٩هـ / ١٢٢٣م . (ديار بكر) (٣٦) .

جـ- مصر وسوريا :

- ومن المخطوطات التى تنسب إلى مصر وسوريا فى العصر المملوكى :
- رسالة دعوة الأطباء للمختار بن الحسن بن بطلان البغدادى نسخها محمد بن قيصر الاسكندرى ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م وهى محفوظة فى مكتبة الامبروزيانا فى ميلان بايطاليا (تحت رقم A. 125 inf) (لوحة ٣٧٣) .
- نسخة من مقامات الحريرى محفوظة بالمكتبة الأهلية فى فيينا (تحت رقم A. F. 9) انتهى من نسخها أبو الفضل بن إسحاق فى شهر رجب ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م وهى تعد من أبداع نماذج المخطوطات المصورة التى ترجع إلى العصر المملوكى . (لوحات ٣٨٩ - ٣٩٢) .
- نسخة مؤرخة من كتاب كليلة ودمنة محفوظة فى المكتبة البودلية باوكسفورد فى انجلترا (تحت رقم Pocockee 400) أتمها محمد بن أحمد عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م (لوحة ٣٧٢) .
- نسخة غير مؤرخة من كتاب كليلة ودمنة محفوظة بالمكتبة الأهلية فى باريس (تحت رقم 3467 arabe) .
- واعتماداً على الدراسة المقارنة بينها وبين النسخة المؤرخة من نفس الكتاب والمحفوظة بالمكتبة البودلية فى اوكسفورد فإنه من المرجح أنها ترجع إلى الربع الثانى من القرن ٨هـ / ١٤م . (لوحة ٣٧١) .

(٣٦) الباشا ، التصوير ، ص ١٤٠ - ١٥٨ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ٩٦ - ١٠٤ ؛ اتنجهاوزن ، فن التصوير عند العرب ، ص ٦١ - ٦٦ .

- نسخة من كتاب الحيوان للجاحظ محفوظة في مكتبة الامبروزيانا في ميلان (تحت رقم A. R. A. F. D. 140 inf) وتنسب إلى حوالي منتصف القرن ١٤هـ / ١٤م (لوحة ٣٩٣) .

- وينسب أيضاً إلى العصر المملوكى مجموعة من نسخ كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل لابن الرزاز الجزرى وأقدم هذه النسخ المعروفة حتى الآن والتي ترجع إلى العصر المملوكى مؤرخة بعام ٧١٥هـ / ١٣١٥م وتساويرها موزعة بين مجموعة كيفوركيا و متحف فرير فى واشنطن ومتحف المتروبوليتان ودار الآثار الإسلامية بالكويت . (لوحات ٣٧٥ - ٣٨٨) .

ولا تفوتنا الإشارة أيضاً إلى بعض المخطوطات المتعلقة بتعليم فنون القتال والفروسية ومنها مخطوط يرجع إلى أواخر العصر المملوكى الجركسى .

واستمر أسلوب المدرسة العربية خلال العصر العثمانى فى مصر ، ومن النماذج الدالة على ذلك مخطوطة مزوقة من كتاب قانون الدنيا وعجائبها للشيخ أحمد المصرى مؤرخة بعام ٩٧٠هـ / ١٥٦٣م ومحفوظة بمكتبة طوبقابى سراى فى استانبول (تحت رقم Revan 1638) (لوحة ٣٩٤) .

ومنها أيضاً نسخة من كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى محفوظة بالمكتبة الأهلية فى ميونخ (تحت رقم C. Arab 463) وربما ترجع هذه المخطوطات إلى القرن ١٢هـ / ١٨م ويتضح فى تصاويرها ميل واضح نحو الفن الشعبى كما أن بعض تصاويرها تذكرنا بمسوحات الفن الحديث^(٣٧) . (لوحة ٣٩٥) .

(٣٧) اتنجهاوزن ، فن التصوير ، ص ١٤٣ - ١٦٠ ؛ الباشا ، التصوير ، ص ١٦٥ - ١٧٧ ؛ فنون التصوير الإسلامى فى مصر ، ص ١٠٦ - ١٣٠ ؛ ١٤٥ - ١٤٩ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ١٤٦ - ١٥١ ؛ مصطفى محمد ، مخطوط مصور فى تعليم فنون القتال والفروسية من أواخر عصر المماليك الجراكسة ، مجلة المجمع العلمى المصرى ، المجلد ٥١ ، القاهرة (١٩٦٩ - ١٩٧٠م) ، ص ١ - ١٤ . (وهو منشور بنفس العدد باللغة الإنجليزية أيضاً ، ص ١ - ١٣ فضلاً عن ٢٠ لوحة) ؛ غكاشة ، التصوير الإسلامى الدينى والعربى ، ص ٤٢٥ - ٤٥١ .

Atil, E., Renaissance of islam, Art of the Mamlukes, Washington, (1981), PP. 250 - 265 .

ولمزيد من التفصيل انظر ،

Haldane, D, Mamluk Painting. England, 1978 . Atil, E., Mamluk Painting in the late Fifteenth Century, Muqaras, vol. 2, 1984. P. 159 - 171 .

Atasoy, N., un Manuscrit Mamluk illustré du Sahnama, Revue des études islamiques - XXXVII, Paris, 1969. P. 151 - 158, Planche 1 - XIV.

د- اليمن :-

لحسن الحظ تم اكتشاف نسخة من مقامات الحريري مزوقة بالتصاوير بالمكتبة الغربية بالجامع الكبير في صنعاء وقد بدأ نسخها أحمد بن دغيش ثم ابنه محمداً وكان تاريخ الفراغ من نسخها وتزويقها عام ١١٢١هـ / ١٧٠٩م .

وعلى ذلك فإن اكتشاف هذه المخطوطة الفريدة في اليمن يضيف مركزاً فنياً جديداً من مراكز المدرسة العربية ، وهو اليمن ، وتشتمل هذه النسخة على خمسين مقامة أولها المقامة الصنعائية وآخرها المقامة البصرية ، وتجمع تصاوير هذه المخطوطة بين خصائص المدرسة العربية التي شاعت في مصر وسوريا خلال العصر المملوكي ؛ بل واستمرت خلال العصر العثماني من جهة والأساليب العثمانية من جهة ثانية ؛ فضلاً عن وضوح الطابع اليمني وبعض الملامح الهندية من جهة ثالثة^(٣٨) .

هـ- المغرب والأندلس :

ومن المخطوطات التي تنسب إلى أسلوب المدرسة العربية في المغرب والأندلس :

- مخطوطة من الكواكب الثابتة للصوفي محفوظة بمكتبة الفاتيكان (تحت رقم روس ١٠٣٣) ومن المرجح أنها أنجزت في سبته عام ٦٢١هـ / ١٢٢٤م (لوحة ٣٩٦) (المغرب) .

- مخطوطة من قصة بياض ورياض محفوظة بالفاتيكان تحت رقم (٣٦٨ عربي) وتنسب إلى الأندلس في القرن ٨هـ / ١٤م) ، وتحتوي هذه المخطوطة على ١٤ صورة تمثل حوادث قصة الحب التي نشأت بين بياض (من دمشق) وبين رياض، والمراسلات التي دارت بينهما والمؤامرات التي دبرت لجمعهما أو للتفريق بينهما ، ويغلب على العماثر الطابع الأندلسي ، فضلاً عن اختلاف سحن الأشخاص عن مثيلتها المعاصرة في المشرق^(٣٩) . (لوحات ٣٩٧ - ٣٩٩) .

(٣٨) خليفة ، الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي ، ص ٢٤٥ - ٢٥١ ؛ العريقى ، سمير مقبل أحمد ، المدرسة اليمنية في فن تزويق المخطوطات الإسلامية ، الرياض (١٩٩٧ - ١٩٩٨م) ، ص ٣٤٣ - ٣٦٤ .

(٣٩) محرز ، التصوير الإسلامي في الأندلس ، ص ٣٨ - ٣٩ ؛ الباشا ، التصوير الإسلامي ، ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ فرغلي ، التصوير الإسلامي ، ص ١٥٣ - ١٥٦ ؛ اتنجهاوزن ، فن التصوير عند العرب ، ص ١٢٥ - ١٣٢ ؛ عكاشة ، التصوير الإسلامي الديني والعربي ، ص ٤٠٨ - ٤١٠ . .

و- ايران :

ازدهرت المدرسة العربية فى ايران ؛ بل إنه من المحتمل أن هذا القطر خاصة قد لعب أهم الأدوار فى نشأة هذه المدرسة ، ولقد عاشت هذه المدرسة فى ايران إلى ما بعد الغزو المغولى وعاصرت المدرسة المغولية الجديدة نفسها :

ومن أهم المخطوطات :

- نسخة من منافع الحيوان لابن بختيشوع محفوظة فى مكتبة مورجان بنيويورك ، وقد تم نسخها فى مراغة بأمر السلطان الايلخانى غازان خان فيما بين ٦٩٤ - ٦٩٩هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٩م (لوحة ٤٠٠) .

- بعض مخطوطات فارسية من كتاب كليلة ودمنة .

- نسخة من شاهنامه الفردوسى تنسب إلى القرن ٨هـ / ١٤م موزعة بين بعض المتاحف والمجموعات الفنية .

- نسخة من شاهنامه الفردوسى مؤرخة ٧٣١هـ / ١٣٣٠م محفوظة فى طوبقابى سراى باستانبول (٤٠) .

٢- المدرسة المغولية :

لم يمنع بقاء المدرسة العربية فى ايران من ظهور مدرسة جديدة ذات طابع صينى مغولى واضح هى التى اصطلح على تسميتها بالمدرسة المغولية ، وقد انتشرت تقاليد هذه المدرسة فى المراكز المغولية بصفة خاصة ومن أهمها مدينة تبريز .

ويمكن أن نجمل خصائص هذه المدرسة فى النقاط التالية :

- تغير الطابع العام للتصوير بفضل التأثيرات الصينية حيث أصبحت التصاویر تشتمل على مقدمة ومؤخرة قمثلان الأرض والسماء على التعاقب ومن ثم صار هناك تعبيراً عن العمق أو البعد الثالث كما ظهر ميل نحو التجسيم وأصبحت الأرضية متعددة المستويات ، كما أنه ليس هناك اتصال بين المقدمة أو المؤخرة أو بمعنى آخر ليس هناك تعبير عن المساحة الوسطى .

- وضوح الملامح الصينية فى السحن والثياب والأدوات المنزلية ورسم المناظر الطبيعية بروح صينية قريبة من الواقع .

(٤٠) الباشا ، التصوير ، ص ١٨٣ - ٢٠٦ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ١٥٧ - ١٦٦ .

- رسم بعض الحيوانات المغولية كالحصان والهجين والعناية بالتعبير عن أعضاء الحيوان بمهارة ومراعاة التناسب بعض الشيء بين العناصر المختلفة فى الصورة.

- رسم بعض الحيوانات الخرافية الصينية كالتنين ، ورسم السحب الصينية (تشى).

- التركيز على الرسوم الآدمية والحيوانية التى أضحت تمثل العناصر الرئيسية فى الصورة ؛ ومن ثم ترسم بمقياس كبير ، فضلاً عن تنوع أغطية الرؤوس وتمييز أغطية الرجال عن النساء .

- العناية برسم الموضوعات الحزينة التى تمثل الصراع والحرب .

ومن أهم المخطوطات :

- نسخة من كتاب منافع الحيوان السابق الإشارة إليها عند الحديث عن المدرسة العربية فى ايران حيث رسمت بعض تصاويرها حسب أسلوب المدرسة المغولية (لوحة ٤٠١) وتتميز تصاويرها بالجمع بين الطابعين الواقعى والزخرفى جمعاً موفقاً .

- نسخة من كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى محفوظة بمكتبة جامعة ادنبرة وقد نسخها ابن القطبى ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م ، وبهذا المخطوط أيضاً تصاوير وفق المدرسة العربية وأخرى وفق المدرسة المغولية ومن هذه الأخيرة صورة المباهلة وصورة البشارة وصورة تعميد المسيح (عليه السلام) .

- نسخة من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين محفوظة بمكتبة جامعة أدنبرة ومؤرخة بعام ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م .

- شاهنامه ديموت يرجح أنها نسخت بالقرب من تبريز فى النصف الأول من القرن ٨هـ / ١٤م ؛ ومن صورها الحرب بين اردشير و اردوان واعدام اردوان^(٤١) .

(٤١) الباشا ، التصوير الإسلامى ، ص ٢٠٨ - ٢٤٤ ، فرغلى ، التصوير الإسلامى ، ص ١٧٠ - ١٨٩ ؛ عكاشة ، التصوير الفارسى والتركى ، ص ٢٨ - ٤٠ ؛ حسن ، التصوير فى الإسلام ، ص ٣١ - ٣٧ .

٣- ارهاصات المدرسة التيمورية :-

ظهرت فى بعض المخطوطات الإيرانية المزوقة بالتصاوير خلال القرن ٨هـ / ١٤م ارهاصات فنية تنبئ بقرب ظهور أسلوب وطنى جديد يستمد مميزاته وخصائصه من تقاليد ايران ومجتمعها وثقافتها وروحها ؛ وذلك فى ظل رعاية وتشجيع حكام بعض الدويلات المستقلة فى تلك الفترة ؛ ومنها الدولة المظفرية ٧١٨ - ٧٩٥هـ / ١٣١٨ - ١٣٩٣م (وكانت فى فارس وكرمان وعاصمتها شيراز) والدولة الجلائرية ٧٤٠ - ٨٣٥هـ / ١٣٣٩ - ١٤٣١م (وكانت فى العراق وأذربيجان وعاصمتها بغداد ثم تبريز) التى ازدهرت فى عصريهما الكثير من المظاهر الحضارية ومن بينها التصوير ، أما الدويلات الأخرى فى تلك الفترة مثل دولة آل كورت (فى هراة شرقى خراسان) ٦٤٣ - ٧٨٤هـ / ١٢٤٥ - ١٣٨٢م ؛ والدولة السريدارية (وكانت فى خراسان أيضاً حيث اقتسموها مع آل كورت) ٧٣٧ - ٧٨٣ / ١٣٣٧ - ١٣٨١م^(٤٢).

فلم تسلط الأضواء على المظاهر الحضارية المختلفة - بما فى ذلك التصوير - فى عصريهما بعد .

هذا وتتجلى هذه الارهاصات فى العديد من المخطوطات المزوقة بالتصاوير فى عهد كل من الدولة المظفرية والدولة الجلائرية ، بحيث صارت التصاوير تختلف اختلافا تاما عن التصاوير فى المدرسة المغولية السابقة . وبصفة عامة يمكن أن نلاحظ وجود مرحلتين متميزتين خلال تلك الفترة : وهما المرحلة المبكرة والمرحلة المتطورة وذلك على النحو التالى :

ومن المخطوطات التى تمثل المرحلة المبكرة للمدرسة الجلائرية فى تبريز نسخة من

(٤٢) عن تاريخ هذه الدويلات انظر ، رضوان ، الدولة الجلائرية (١٩٥ صفحة)؛ طرطور ، الدولة الجلائرية (١٧٤ صفحة)؛ العانى ، نورى عبد الحميد ، العراق فى العهد الجلائرى ٧٣٨ - ٨١٤هـ / ١٣٣٧ - ١٤١١م ، دراسة فى أوضاعه الإدارية والاقتصادية ، ط ١ ، بغداد ، ١٩٨٦م (٣٩٩ صفحة) أشتيانى ، تاريخ ايران ص ٥٠٧ - ٥٦٨ ؛ سليمان ، تاريخ الدول ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ - ٥٣٤ ؛ شبولر ، برتولد ، العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، ترجمة خالد أسعد عيسى ، مراجعة وتقديم سهيل زكار ، دمشق (١٩٨٢م) ، ص ٨١ - ٨٣ ؛ وعن الأوضاع السياسية التى مهدت لقيام تلك الدويلات انظر ، فهمى ، عبد السلام عبد العزيز ، تاريخ الدولة المغولية فى ايران ، القاهرة (١٩٨١م) ، ص ٢٢٠ - ٢٤٩ .

الشاهنامة هي المعروفة بشاهنامة ديموت وتمثل بعض تصاويرها المدرسة المغولية ، فى حين تمثل بعض تصاويرها الأخرى ارهاصات التطور ؛ وعلى ذلك فان هذه النسخة تمثل أساليب فنية مختلفة مما يشير إلى اشتراك عدد من المصورين فى تزويقها ونسبتها إلى فترات مختلفة ؛ إلا أنه من المرجح أنها زوقت فى تبريز فى منتصف القرن ١٤هـ / ١٤م أو خلال عقد الستينات من نفس القرن ، ومن خصائصها اتساع المقدمة حتى طغت على المؤخرة وبالتالي فقدت التصويره معنى العمق الذى تتميز به التصويرة المغولية ومنها زيادة عدد الرسوم الأدمية ، وبالتالي صغر حجمها ، مما هيا الفرصة للمصور للعناية بعناصر البيئة الأخرى سواء أكانت وحدات طبيعية أو معمارية ورسم الوحدات المستعارة من الفن الصينى بأسلوب وطنى ايرانى وبروح زخرفية والتميز بين الشخصيات المختلفة وازهار التعبير عن الوجوه واستخدام الألوان القوية وتذهيب الخلفية وتمثيل موضوعات البطولة بمهارة وفخامة وحيوية . ومن التضاوير التى تظهر بها تلك الخصائص بهرام گور يقتل التين ، وجنازة اسفنديار ومحاولة بنت اردوان قتل زوجها الملك اردشير^(٤٣).

ومن المخطوطات التى تمثل مرحلة أحدث من شاهنامة ديموت نسخة من كتاب كليله ودمنة فى البوم (مرقعة) باسم الشاه طهماسب الصفوى محفوظة فى مكتبة الجامعة باستانبول (وكانت من قبل فى مكتبة قصر يلدز) وهى تنسب إلى النصف الثانى من القرن ١٤هـ / ١٤م ومن خصائصها أن المصور يجمع داخل الإطار الواحد أكثر من صورة واحدة كل منها فى إطارها الفرعى ، كما أن التصويرة الواحدة قد تشغل أكثر من إطار واحد بعضها داخل بعض ، ومنها اتساع المقدمة وطغيانها على المؤخرة واستخدام الخطوط القوية التى تضيف على التصويرة الحركة والحيوية والبراعة فى رسم الحيوان والتعبير عن حركته ، والتألق فى رسم العمائر والأثاث ، والعناية برسم المناظر الطبيعية التى لا تمت للفن الصينى بصلة ، وتعد فى نفس الوقت مسرحا ملائما لقصص كليله ودمنة ، فضلا عن الطريقة الزخرفية فى تمثيل المياه وفى رسم أوراق الشجر وفى زخرفة العمائر والأثاث ، ومن تصاوير هذه النسخة تصويرة تمثل كيف خدع رب البيت اللص

(٤٣) ديماندى ، الفنون الإسلامية ، ص ٤٩ - ٥٠ ؛ حسن ، التصوير ، ص ٣٥ - ٣٦ ؛ الفنون الإيرانية ، ص ٦٤ - ٩٥ ؛ الباشا ، التصوير ، ص ٢٤٧ - ٢٥٥ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ٢٢٧ ؛ عكاشة ، التصوير الفارسى ، ص ٤١ - ٤٩ .

حتى سقط من فوق سطح داره (وهى تصويرة داخلية) (لوحة ٤٠٢). (المدرسة الجلائرية - تبريز - النصف الثانى من القرن ٨هـ / ١٤م) (٤٤).

ومن المخطوطات التى تمثل المرحلة المبكرة فى عصر آل جلائر وتجمع فى ذات الوقت بين خصائص المدرسة المغولية والارهاصات الفنية الجديدة نسخة فارسية من عجائب المخلوقات للقزوينى محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ومؤرخة بعام ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م وتنسب إلى تبريز ، ومنها جامع التواريخ لرشيد الدين فى المكتبة الأهلية بباريس وتنسب إلى تبريز فى نفس الفترة التى يرجع إليها المخطوط السابق أو بعدها بقليل وغير ذلك (٤٥).

أما المخطوطات التى تمثل المرحلة المبكرة للمدرسة المظفرية فى شيراز فمنها نسخة من الشاهنامه مؤرخة ٧٧٢هـ / ١٣٧١م ومحفوظة فى طوبقابى سراى باستانبول (تحت رقم ١٥١١ حزين) ومن خصائصها اتساع المقدمة وطغيانها على المؤخرة ، والاهتمام بالعناصر الأساسية وعدم الاهتمام بالتفاصيل وعدم تزويد التصوير بالوحدات الكثيرة المتأنقة والاقتصار على رسم الشخصية الرئيسية فى الصورة بحجم كبير نسبيا ، ولكنه أقل من مثيله فى المدرسة المغولية وتلوين الخلفية باللون الأزرق وغير ذلك .

وتتجلى هذه الخصائص أيضاً فى نسخة من الشاهنامه مؤرخة بعام ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م ومحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، غير أن بعض التصاوير فى هذا المخطوط الأخير تزدان بخصائص هى من قبيل الارهاصات للأسلوب الوطنى الجديد ومنها تعدد مستويات الأرضية بواسطة خطوط متعرجة تمتد بانحراف بين جانبي الصورة ، ورسم الأفق على هيئة قوس ورسم الصخور بأسلوب محور اسفنجى وتشكيل بعضها على هيئة الحيوان (٤٦).

(٤٤) الباشا ، التصوير ، ص ٢٥٦ - ٢٦٢ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ٢٢٧ - ٢٣١ ؛ عكاشة ، التصوير الفارسى ، ص ٥١ - ٥٦ ؛ أما زكى حسن فيرى أنه من المحتمل نسبته إلى هراة فى منتصف القرن ٨هـ / ١٤م (عصر أسرة آل كورت) ؛ حسن ، التصوير ، ص ٢٩ ؛ الفنون الإيرانية ، ص ٩٦ .

(٤٥) الباشا ، التصوير ، ص ٢٧٥ - ٢٨٣ ؛ عكاشة ، التصوير الفارسى ، ص ٦٥ - ٧٢ .

(٤٦) الباشا ، التصوير ، ص ٣١٦ - ٣١٩ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ١٩٩ - ٢١٥ ؛ عكاشة ، التصوير الفارسى ، ص ٧٥ - ٧٧ .

وإذا ما انتقلنا إلى المرحلة الثانية ، وهى المرحلة المتطورة لوجدنا الخصائص التالية:

- المدرسة الجلائرية :-

- بلغ المصورون مستوى رفيعا من حيث الصنعة والالمام باصول تزويق المخطوطات .

- البراعة فى استخدام الألوان وتوزيعها توزيعا جميلاً واستعمال درجات اللون الواحد .

- العناية برسوم العمائر وكسوتها بالزخارف الجميلة الدقيقة المتأنقة التى تعبر عن الثراء والإبداع .

- الشغف الشديد بمظاهر الطبيعة بتصوير عناصرها ، كل على حدة ، بهيئة زخرفية جميلة مع الاعتناء بالتعبير عن أحاسيس المصور تجاهها .

- التعبير عن المشاعر والخلجات والاحاسيس الشاعرية .

- القدرة الفائقة على التحكم فى الخطوط المتعرجة والمنسابة الرشيقة وتوزيعها فى الوقت نفسه توزيعا زخرفيا .

- العناية برسم العناصر الأدمية والكائنات الحية وتشخيصها ؛ مع التركيز على العناصر الرئيسية ، والايحاء إلى باقى العناصر برسم بعض أجزائها .

- التعبير عن العمق بتعدد مستويات سطح التصوير .

- تشكيل بعض الصخور (فى بعض المخطوطات) عند الأفق على هيئة رؤوس الطير والحيوان .

- تنفرد بعض المخطوطات بوجود حاشية من خط النستعليق داخل إطار يتألف أسفله من خط منكسر ، وبذلك جمعت التصويرة بين موضوع الصورة وجزء من النص (مثل مخطوط خسرو وشيرين).

ومن أهم المخطوطات التى تمثل هذه المرحلة المتطورة مخطوطة تشتمل على ثلاث منظومات من خمسة خواجوكرمانى قام بنسخها الخطاط المشهور مير على التبريزى فى بغداد عام ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م ، كما قام بتزويقها بالصور جنيد نقاش السلطانى وهذه المخطوطة محفوظة بالمكتبة البريطانية فى لندن .

ومن تصاويرها : همای يبارز همایون قبل أن يتعرف عليها - احتفال همای

وهمايون فى حديقة الياسمين - هماى عند مدخل قصر همايون التى تطل عليه من شرفة فى أعلى القصر^(٤٧).

ومن المخطوطات الشهيرة التى تنسب إلى تبريز مخطوطة من منظومة خسرو وشيرين لنظامى محفوظة فى Freer gallery بواشنطن وناسخها هو على بن حسن السلطانى فى دار السلطنة تبريز ، ولكنها غير مؤرخة ، ولكن نظراً لأن تصاويرها الخمسة قريبة الشبه من تصاوير خواجوكرمانى المؤرخة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م إلا أنها تمثل مرحلة أكثر تطوراً عنها ؛ ولذلك فمن المرجح أنها ترجع إلى أوائل ق ٩هـ / ١٥م . ومن تصاويرها صورة تمثل شابور يقدم فرهاد إلى شيرين^(٤٨).

وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول أن ما أصاب فن التصوير من تطور وازدهار خلال عصر الدولة المظفرية والدولة الجلائرية فى شيراز وبغداد وتبريز كان بمثابة الارهاصات الفنية القوية التى غيرت وجه التصوير الإسلامى فى ايران من حيث الموضوعات والأساليب والخصائص الفنية . مما كان ايذاناً ببذوغ الاسلوب الوطنى الجديد فى ايران خلال عصر الدولة التيمورية ٧٧١ - ٩٠٦هـ / ١٣٦٩ - ١٥٠٠م .

٤- المدرسة التيمورية :-

على الرغم من نجاح تيمورلنك فى تأسيس دولة قوية مترامية الأطراف مرهوبة الجانب فى ايران وآسيا الوسطى ؛ إلا أن خلفائه من بعده لم يستطيعوا الاحتفاظ بهذا الملك العريض طويلاً^(٤٩).

غير أن ما يعنينا فى هذا المقام هو ما يتعلق بفن التصوير خلال العصر التيمورى فى ايران وآسيا الوسطى على السواء .

(٤٧) حسن ، الفنون الايرانية ، ص ٩٨ ؛ التصوير ، ص ٣٩ ؛ الباشا ، التصوير ، ص ٢٨٣ - ٢٨٨ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ٢٢٣ - ٢٢٦ .

(٤٨) الباشا ، التصوير ، ص ٢٩٥ - ٣٠٧ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ٢٣٣ - ٢٣٥ .

(٤٩) عن هذه الدولة وتأسيسها وأهم أحداثها الداخلية والخارجية انظر على سبيل المثال ، أشتيانى ، تاريخ ايران ، ص ٥٨٩ - ٦٢٧ ؛ سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٥٥٩ - ٥٦٢ ؛ شبولر ، العالم الإسلامى فى العصر المغولى ، ص ١٢١ - ١٢٨ ؛ عمر ، فاروق ، النقيب ، مرتضى حسن ، تاريخ ايران ، دراسة فى التاريخ السياسى لبلاد فارس خلال العصور الإسلامية الوسيطة ، بغداد (١٩٨٩م) ، ص ٢١٥ - ٢٢٦ ؛ فامبرى ، ارمينيوس ، تاريخ بخارى ، ترجمة أحمد محمود الساداتى ، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب ، القاهرة (١٩٦٥م) ، ص ٢٠٥ - ٢٩٤ .

ويمكن القول ، بادئ ذي بدء ، أن مدرسة التصوير قد ازدهرت فى هذا العصر أيما ازدهار ، وقد ساعد على ذلك عناية تيمور وأفراد أسرته من بعده بالفنون وحبهم لها وتقديرهم لأربابها وعطفهم عليهم ، فها هو تيمور يحرص على استدعاء الفنانين من مختلف البلدان إلى سمرقند ، ومن بعده تم انشاء مجامع لفن الكتاب منها مجمع هراة الذى أسسه شاه رخ وقد جمع فيه الخطاطين والمذهبين والمصورين والمجلدين ، وقام بايسنقر بجمع أربعين فنانا فى استراباد لنسخ المخطوطات وتصويرها باشراف شيخ المذهبين آنذاك (وهو مولانا جعفر) .

ولما كانت الدولة مقسمة إلى ولايات فقد أثرت المنافسات بين كل أمير وآخر على تجميل بلاطه بوسائل منها الحصول على الصور القيمة والاستحواز على الفنانين وجلبهم إلى البلاط ليزينوا المخطوطات بالتصاوير .

وهذا أمر لا يخفى أثره على المصورين أنفسهم فهو ولا شك باعث لهم على الاجادة والاتقان فى عملهم ليحوزوا رضا الأمير .

ومن الأمور التى ساعدت على التقدم الفنى أيضاً تبادل البعثات الدبلوماسية مع الصين ، ذلك أن بعض هذه البعثات كان يصحبها بعض المصورين فأتاحت بذلك الفرصة لأمثال هؤلاء للاطلاع على روائع الآثار والفنون الصينية ومشاهدة ما لم يتيسر نقله إلى ايران وأسيا الوسطى ، وقد ذكر أن المصور غياث الدين خليل قد صاحب بعثة شاه رخ التى أوفدها إلى الصين عام ٨٢٢هـ / ١٤١٩م .

ومما لا شك فيه أن مثل هذه البعثات والزيارات قد ساعدت المصورين الذين أتيحت لهم هذه الفرصة على التعرف على كثير من أسرار هذا الفن ليستفيدوا منها فى انتاجهم خاصة وأن الصور الصينية كانت تقدر تقديراً عظيماً فى ذلك الوقت ولم يكن يعادلها شئ آخر (٥٠) .

وصفوة القول أن المدرسة التيمورية فى التصوير إذا كانت تمثل إستمراراً لما بلغه فن التصوير من تطور وازدهار خلال عصر الدولة المظفرية والدولة الجلائرية فى تبريز وبغداد وشيراز وليس أدل على ذلك من استقدام تيمور لبعض المصورين الذين كانوا يعملون فى البلاط الجلائرى ومنهم جنيد نقاش السلطانى والأستاذ عبد الحى الى حاضرتة سمرقند

(٥٠) محرز ، التصوير الإسلامى ومدارسه ، ص ٥١ - ٥٣ .

إلا أنها من جهة ثانية تمثل الخطوة الأخيرة نحو التهذيب والروعة والاتقان والكمال وبصفة خاصة على يد المصور الأشهر كمال الدين بهزاد وتلامذته الذين حملوا لواء هذا الفن في صدر الدولة الصفوية ، كما سنشير فيما بعد .

ومن أهم المراكز الفنية في تلك الفترة شيراز وسمرقند وهراة ومن أهم رعاية الفن شاه رخ وبايسنقر وسلطان حسين ميرزا بايقرا .

ومن الخصائص الفنية الميل نحو تمثيل مسرات الحياة ومجالس الطرب والمناظر الغرامية والاحاسيس الوجدانية والاغراق في الخيال ومحاسن الطبيعة ومناظر القصور ومجالس الأمراء بما في ذلك المتع الروحية كمجالس الدراويش والمتصوفة ومساجلات العلماء ودروس الوعاظ ، وحتى حينما تمثل موضوعات بعض التصاوير مناظر الحروب أو سفك الدماء أو ما يشابه ذلك من موضوعات القسوة والألم فإنها ترسم بروح بعيدة عن الحزن والألم والقسوة ؛ بل وتبدو أحيانا كأنها حركات استعراضية .

كذلك اهتم المصورون بالبيئة والمناظر الطبيعية ورسم الجبال والمرتفعات على هيئة الاسفنج والعناية برسوم العمائر ونقوشها وزخرفتها والنجاح في حفظ النسبة بينها وبين الأشخاص الظاهرين بجوارها أو بداخلها ، وكذلك استخدام الألوان الساطعة الزاهية والتوفيق في الجمع بينها جميعاً لا ينفر منه الزوق بالرغم مما قد يوجد بينها من تنافر . وغير ذلك من الخصائص والسمات الفنية^(٥١).

ولما كان المقام لا يتسع لدراسة تفصيلية للمخطوطات المزوقة بالتصاوير في هذه المدرسة ومراكزها الفنية ولذلك حسبنا أن نشير إلى بعضها ؛ على أن نعود إليها تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى ، ومن المخطوطات التي تنسب إلى شيراز مخطوطة تشتمل على مجموعة من الأشعار الفارسية مؤرخة بعام

(٥١) محرز ، التصوير الإسلامي ، ص ٥٣ - ٥٥ ؛ حسن ، الفنون الإيرانية ، ص ١٠٠ - ١٠٧ ؛ فرغلي ، التصوير ، ص ٢٤٢ - ٢٤٤ ؛ الباشا ، التصوير ، ص ٣٥٦ ، ٤١٠ - ٤١١ ؛ البهنسي ، صلاح أحمد ، مناظر الطرب في التصوير الإيراني في العصرين التيموري والصفوي ، القاهرة (١٩٩٠م) ، ص ٤١ - ٥٢ . ولمزيد من التفصيل عن المدرسة التيمورية راجع ؛

Gray, B. (editor), The Arts of the Book in Central Asia 14 th - 16 th Centuries, Unesco, 1979. P. 147 - 214 .

Soudavar, A., Art of the Persian Courts, Selections From the Art and History Trust Collection, New York, 1992 . P. 57 - 125 .

١٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م وهي محفوظة بمتحف الفن الإسلامى والتركى باستانبول (تحت رقم ١٩٥٠) ومن بين تصاويره تصوية تمثل منظر طبيعى بحت خال من الرسوم الأدمية^(٥٢). (لوحة ٤٠٣).

ومن أهم المخطوطات التيمورية المزوقة بالتصاوير نسخة من مخطوطة البستان لسعدى الشيرازى نسخها الخطاط المشهور سلطان على ٨٩٣ هـ / ١٤٨٨ م وقام بتذهيبها يارى المذهب كذلك قام المصور الأشهر بهزاد (ت ٩٤٠ - ٩٤٤ هـ / ١٥٣٣ - ١٥٣٧ م) بعمل الصور الست الأولى من تصاوير هذا المخطوط ، وهذه النسخة تعد من أنفس كنوز دار الكتب المصرية بالقاهرة ، وتنسب هذه النسخة إلى مدينة هراة تحت رعاية السلطان سلطان حسين ميرزا بايقرا^(٥٣).

والحق ان بهزاد يعد أستاذاً مجدداً فى ميدان التصوير الإسلامى ، فقد استطاع أن يخلق اسلوباً جديداً فى فن التصوير يمتاز برقة الأداء والعناية برسوم الأشخاص والواقعية الواضحة فى الأعمال والحركات واندماج شخصيات صوره ، فرادى ، أو جماعات ، اندماجا صادقا فى أعمالهم ، وتبدو تصاويره كأنها لوحة من الفسيفساء تتألف أجزاءها من مناظر مختلفة ، ويمتاز رسم كل جماعة بطابع خاص يعبر عن اتجاهات الفنان العاطفية ، فضلا عن أنه تناول موضوعات لم تكن مألوفة فى أيامه وأفاض عليها من عبقريته فى استخدام الألوان مما جعلها من الروائع النادرة ، واستخدم عدة درجات للون الواحد فى توافق وانسجام ، ومما الفه بهزاد رسم شخص زنجى بين أشخاص صوره وربما كان مرجعه فى ذلك رغبته فى أن يلفت النظر إلى شئ بعينه فى الصورة أو ربما كان مرجعه فى هذا هو ما فطر عليه من حب الألوان المتباينة (وبضدها تتميز الأشياء) وغير ذلك من الخصائص والسمات التى جعلت منه أستاذاً ذائع الصيت سارع إلى تقليده عدد كبير من المصورين ؛ بل وعمدوا كذلك إلى تقليد توقيعه رغبة فى الحصول على كسب مادى كبير لأعمالهم الفنية ؛ فضلاً عن تلاميذه الذين ساروا وفق منهجه الفنى واقتفوا أثر أسلوبه الواقعى^(٥٤).

(٥٢) الباشا ، التصوير الإسلامى ، ص ٣٢٠ - ٣٢٢ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ عكاشة ، التصوير الفارسى ، ص ٩٠ - ٩٨ .

Rice, D. T., Islamic Painting , Asurvey, Edinburgh, 1971 . P. 104, pl. 43.

(٥٣) فرغلى ، التصوير ، ص ٢٧٧ .

(٥٤) مصطفى ، محمد ، صور من مدرسة بهزاد فى المجموعات الفنية بالقاهرة ، سلسلة الينبوع الفضى (العدد ٣٨) ، الناشر قولدمار كلاين ، ص ٧ - ٩ ؛ عكاشة ، التصوير الفارسى ، ص ١٦٥ - ١٦٧ .

Roxburgh, D. J., Kamal Al-Din Bihzad and authorship in Persianate Painting, Muqarnas, vol. 17, Leiden - Brill, 2000. P. 119 - 146 .

ومن تصاوير بهزاد فى هذه المخطوطة والتي تعكس بوضوح خصائص مدرسته وأسلوبه الفنى تصويرية عبارة عن صفحتين متقابلتين (فاتحة المخطوط) اليسرى تمثل السلطان سلطان حسين ميرزا يسمر فى قصره (لوحة ٤٠٤) واليمنى تمثل مجلس طرب وموسيقى بين يدى السلطان سلطان حسين ميرزا (ويلاحظ أنه حدث خطأ فى الطباعة فتم قلب الصفحات فصارت اليمنى يسرى والعكس) (لوحة ٤٠٥) . ومنها تصويرة تمثل الملك دارا وراعى خيوله (لوحة ٤٠٦) وأخرى تمثل مناظر فى مسجد (لوحة ٤٠٧) وتصويرة تمثل فقهاء يتدارسون العلم فى المسجد (لوحة ٤٠٨) ، وتصويرة تمثل قصة يوسف وزليخا^(٥٥) . (لوحة ٤٠٩) .

ومن بين التصاوير الأخرى التى تنسب إلى أحد تلاميذ بهزاد (ولا علاقة لها بمخطوط البستان) تصويرة تمثل عفريتاً من الجن يحمل عاشقين فى سريرهما فى حضرة الملك سليمان (لوحة ٤١٠) .

وَبِمُتَحَفِ الفَن الإسلامي بالقاهرة لوحة مفردة من ديوان أشعار فارسية من المرجح أنها ترجع إلى حوالى ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م . ويشاهد بها حفل استقبال رسمى ، وهى تمثل أسلوب بهزاد ولكن وفق منهج مدرسة تبريز ؛ (لوحة ٤١٣) ومثلها فى ذلك تصويرة تمثل زليخا وصويحباتها من مخطوطة يوسف وزليخا للشاعر جامى بدار الكتب المصرية والمؤرخة بعام ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م . (لوحة ٤١٤) .

ومن بين أعمال تلامذة بهزاد نسخة من مخطوطة المنظومات الخمس للشاعر نظامى مؤرخة ٩١٧هـ / ١٥١١م ومن تصاويرها صفحتان متقابلتان اليمنى تمثل دعوة إلى مآدبة ملكية (لوحة ٤١١) واليسرى تمثل حفل فى حديقة (لوحة ٤١٢) وهما من عمل المصور بهرام قلى تلميذ بهزاد^(٥٦) . (هذا وسوف نقوم بمناقشة هذه الصور الثلاث الأخيرة التى نسبها الدكتور محمد مصطفى إلى أسلوب بهزاد أو أحد تلامذته للتحقق من صحة هذه النسبة من عدمه فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى) .

(٥٥) مصطفى ، صور من مدرسة بهزاد ، ص ١٠ - ١٦ ، لوحات ١ - ٦ ؛ عكاشة ، التصوير الفارسي ، ص ١٦٧ - ١٧٠ ؛ الطرايز ، نصر الله مبشر ، الفهرس الوصفى للمخطوطات الفارسية المزينة بالصور المحفوظة بدار الكتب ، تقديم ثروت عكاشة ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٨م . ص ٢١ - ٢٧ .
Grabar, O., Mostly Miniatures, An introduction to Persian Painting, Princeton and Oxford, 2000 . Fig. 29, 60, 65 - 66 .

(٥٦) مصطفى ، صور من مدرسة بهزاد ، ص ١٧ - ٢٢ ، لوحات ٧ - ١٢ .

٥- المدرسة الصفوية :-

بلغ فن التصوير خلال عصر هذه الدولة درجة عظيمة من الإبداع والالتقان ولا غرو فان استيلاء الشاه إسماعيل على هراة ٩١٦هـ / ١٥١٠م وهجرة بعض الفنانين إلى تبريز ثم تعيين كمال الدين بهزاد رئيسا لمجامع الفنون عام ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م كان باعثا على ازدهار فن التصوير وبلوغه الذروة .

هذا ولا نستطيع أن نغفل في هذا الصدد أهمية المدرسة التركمانية التي كانت سائدة في تبريز وشيراز قبل العصر الصفوي وما حدث من مزج موفق للغاية بين هذا التيار الفني المستمر وبين التيار الفني الوافد من هراة في ما أصاب المدرسة الصفوية من تطور وازدهار .

وقد قسم العلماء التصوير الصفوي إلى مدرستين هما :

المدرسة الصفوية الأولى : وتعتبر هذه المدرسة نتاج عملية المزج الموفق بين تقاليد المدرسة التيمورية عامة وبهزاد وتلامذته خاصة وبين تقاليد المدرسة التركمانية في تبريز وشيراز كما سبق القول . ومن مميزات هذه المدرسة كثرة الانتاج الفني بسبب الاقبال المتزايد من قبل الشاهات والأمراء على اقتناء المخطوطات المزوقة بالتصاوير ، وتعكس التصاوير عظمة ذلك العصر بقصوره الفخمة ، وحدائقه الغناء فضلاً عن الحياة الاجتماعية الصاخبة لرجال البلاط والطبقة المترفة ، ويغلب على أشكال الأشخاص الرشاقة والتأنق ، والألوان زاهية وشديدة التنوع ؛ فضلاً عن العناية بدقة الرسم وأناقة الزخرف والبراعة في التأليف وتوزيع الأشخاص والتصميم بصفة عامة ، ويتميز غطاء الرأس بأنه عبارة عن عمامة مخروطية الشكل تتألف من قلنسوة داخلية ذات عصي حمراء في بادى الأمر ثم تعددت ألوانها بعد ذلك ويلتف حول القلنسوة شال من اثنتى عشرة لفة أوطية وكانت ترمز إلى الأئمة الاثنى عشر والتي يرجع أصلها إلى الجيش التركمانى الذى كونه الشيخ حيدر والد الشاه إسماعيل الصفوي وميزه بالقلنسوة الحمراء ذات الاثنى عشرة طية وسموا لذلك بالقزلباش أى ذو الرؤوس الحمراء .

ومن أهم المصورين فى العصر الصفوي الأول بعد بهزاد أقاميرك ومما ينسب إليه خمس تصاوير فى مخطوطة كتاب المنظومات الخمس لنظامى المؤرخة ٩٤٦-٩٤٩هـ / ١٥٣٩-١٥٤٣م ، والمحفوظة بالمكتبة البريطانية (تحت رقم ٢٢٦٥ شرقى) ومنها صورة تمثل كسرى انوشروان ووزيره يصغيان إلى البومتين اللتين تنعقان على أنقاض قصر خرب (لوحة ٤١٥) ، وثانية تمثل خسرو على العرش (لوحة ٤١٦) وثالثة تمثل مجنون ليلى فى الصحراء بين الوحوش (لوحة ٤١٧) ورابعة تمثل خسرو وشيرين على

العرش (لوحة ٤١٨) وإن كان هناك من ينسب هذه التصويرة الأخيرة إلى المصور سلمان محمد .

هذا ويمتاز أسلوب أقاميرك بزخرفة الملابس بالزخارف الجميلة المختلفة ولكن يلاحظ قصوره عما وصل إليه استاذة في تنويع السحن بالنسبة للأشخاص والتمييز بينها واكساب التصويرة شيئاً من الحركة وقوة التعبير ، كما اشتهر أيضاً بالصور الشخصية . ومنهم سلطان محمد الذى برع فى مزج الألوان واتقانها اتقانا ليس بعده اتقان ، كما برع فى رسم الجموع والوجوه الأدمية ورسم الحيوانات ولا سيما الخيل وفى توزيع الأشخاص واكسابها شيئاً من التمييز والتنويع فى السحن ، كذلك عنى بمناظر الطرب والمرح والمناظر الطبيعية فضلاً عن رسمه للصور الشخصية ومن تصاويره فى مخطوطة المنظومات الخمس لنظامى المحفوظة بالمكتبة البريطانية والسابق الإشارة إليها تصويرة تمثل بهرام گور يصطاد الأسد المنقض على الحمار الوحشى (لوحة ٤٢٢) ، وثانية تمثل عجوزاً تشكو للسلطان سنجر (لوحة ٤٢٣) وثالثة تمثل خسرو يفاجئ شیرين وهى تستحم (لوحة ٤٢٤) .

وهناك تصويرة من ديوان حافظ تمثل عاشقين فى مجلس طرب فى الهواء الطلق تنسب إلى سلطان محمد (لوحة ٤٢٦) وإن كان هناك من ينسبها إلى أقاميرك .

ومن المصورين الآخرين ميرزا على ومن تصاويره فى مخطوطة المنظومات الخمس بالمكتبة البريطانية السابق الإشارة إليها تصويرة تمثل خسرو يستمع إلى المغنى باريد (لوحة ٤٢٠) وثانية تمثل شابور يعرض صورة خسرو على شیرين (لوحة ٤١٩) .

ومنهم المصور مظفر على وينسب إليه فى مخطوطة المنظومات الخمس لنظامى بالمكتبة البريطانية تصويرة تمثل عالمان يتناظران (لوحة ٤٢١) ويتشابه أسلوبه إلى حد كبير مع أسلوب ميرزا على ، ومنهم المصور صادق وشيخ محمد ومحمدى .

ومنهم المصور ميرسيد على الذى كان له دور كبير هو وعبد الصمد الشيرازى فى نشأة المدرسة المغولية الهندية (كما سنشير فيما بعد) ، وما ينسب للمصور ميرسيد على فى مخطوطة المنظومات الخمس لنظامى بالمكتبة البريطانية تصويرة تمثل عجوزاً تقود المجنون إلى خيمة ليلي^(٥٧) (لوحة ٤٢٥) .

(٥٧) عن المدرسة الصفوية الأولى ومميزاتها ومراكزها الفنية ومصورها وأعمالهم الفنية من الناحيتين

الوصفية والتحليلية انظر ، حسن ، الفنون الايرانية ، ص ١١٧ - ١٢٩ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ٣٠٣ .

٣١٨ ؛ البهنسى ، مناظر الطرب ، ص ٧٧ - ٩٠ ؛ عكاشة ، التصوير الفارسى والتركى ، ص ٢٢١ .

= .

٢٦٤ ؛ حسن ، التصوير فى الإسلام ، ص ٥٧ - ٦٤

- المدرسة الصفوية الثانية^(٥٨) :

ومن أشهر مصوري هذه المدرسة رضا عباسى ثم معين مصور وحيدر نقاش ومحمد قاسم التبريزى ومحمد يوسف ومحمد على التبريزى وحبيب الله ومحمد زمان وسوف نتطرق إلى دراسة مميزات هذه المدرسة والتيارات الفنية السائدة وأعمال مصوريها وخصائص أسلوبهم الفنى فى كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

ولا تفوتنا الإشارة فى هذا المقام إلى مدرسة بخارى وأهميتها فى التصوير الإسلامى ولا سيما خلال القرن ١٠ هـ / ١٦ م بأسلوبها المبكر والانتقالى والأصيل ومن مصوريها شيخ زاده ومحمود مذهب وعبد الله مصور^(٥٩) (وهو ما سوف نعود إليه فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى) .

٦- المدرسة التركية العثمانية :

تكتسب مدرسة التصوير التركية العثمانية أهمية خاصة بين مدارس التصوير الإسلامى نظراً لطول الفترة الزمنية التى عاشتها والتى إمتدت من القرن ٩ هـ / ١٥ م إلى أواخر القرن ١٣ هـ / ١٩ م)، فضلا عن كثرة المخطوطات المزوقة بالتصاوير واختلاف

Hillenbrand, R. (editor), Persian Painting From the Mongols to the Qajars, Studies in Honour of Basil W. Robinson, London & New York, 2000. P. 19 - 38, 319 - 323 .

Rice, Islamic Painting , P. 139 - 151 .

Canby, S. R., Persian Painting, London, 1993, P. 76 - 86 .

(٥٨) عن هذه المدرسة انظر ، على سبيل المثال ، حسن ، الفنون الإيرانية ، ص ١٢٩ - ١٣٦ ؛ محرز ، التصوير الإسلامى ، ص ٦٣ - ٦٦ ؛ فرغلى ، التصوير ، ص ٣١٩ - ٣٣٠ ؛ صدى الاتجاهات الدينية فى أعمال رضا عباسى ، ضمن أعمال ندوة الآثار الإسلامية فى شرق العالم الإسلامى ، ص ٥٩٩ - ٦٣٠ ؛ البهنسى ، مناظر الطرب ، ص ٩٦ - ١٠٩ ؛ عبد الوهاب ، محمد عباس ، رضا عباسى ، مجلة المجلة ، العدد ١٦ ، السنة الثانية ، إبريل ١٩٥٨ م ، ص ٢٥ - ٣٢ ؛ حسن ، التصوير فى الإسلام ، ص ٦٥ - ٧٣ .

Hillenbrand, Persian Painting, P. 283 - 299 .

Gandjei, T., Notes on the Life and Work of Sadiqi : A Poet and Painter of Safavid Times, Der Islam, Band 52, Haft 1, 1975. P. 112 - 118 .

Canby, Persian Painting, P. 90 - 116 .

Canby, S. R., The Rebellious Reformer, the Drawings and Paintings of Riza - Yi Abbasi of Isfahan , London, 1996 .

(٥٩) عن هذه المدرسة بالتفصيل انظر الدراسة المهمة للباحث مصطفى جابر محمد مصطفى وموضوعها « مدرسة بخارى فى التصوير الإسلامى خلال القرن العاشر الهجرى / ١٦ م » ، رسالة ماجستير ، كلية الآثار - جامعة القاهرة (٢٠٠٥ م) ، (٥٤٢ صفحة و ٣١٧ لوحة و ٩٤ شكلا) ؛ عكاشة ، التصوير الفارسى ، ص ٢٠٦ - ٢١٠ .

موضوعاتها ما بين مخطوطات أدبية ومخطوطات علمية ؛ بالإضافة إلى عشرات الألبومات التى تشتمل على صور متنوعة .

ورغم أن هذه المدرسة قد تأثرت بالتأثيرات الايرانية والأوروبية إلا أنها إستطاعت أن تحقق لنفسها شخصية مستقلة ذات سمات فنية متميزة ، كما حظى رسم الصور الشخصية بتشجيع ورعاية السلاطين العثمانيين حتى أصبح يمثل أبرز جوانب النشاط الفنى فى الرسم السلطانى (٦٠).

وحسبنا أن نشير فى هذه العجالة إلى بعض المظاهر الفنية لهذه المدرسة ؛ على أن نعود لدراساتها تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

ومن أبرز هذه المظاهر الصور الشخصية ومن أهمها صورة شخصية للسلطان محمد الفاتح بمتحف طوبقابى سراى فى استانبول (فى البوم الفاتح خزانة رقم ٢١٤٣ صفحة رقم ١٠ ومقاسها ٢٧ × ٣٩) وقد رسمها المصور التركى سنان بك ، ويشاهد السلطان الفاتح وهو يجلس الجلسة الشرقية ويرتدى عمامة كبيرة تتكون من شال أبيض وطاقيه حمراء وقفطان أصفر اللون له حاشية حمراء حول الرقبة والصدر وعند أطراف الاردان فوقه جبة قصيرة الاردان زرقاء اللون بينما ينسدل على كتفيه عباءة بيضاء اللون .

ومن الملاحظ أن السلطان قد رسم وجهه فى وضعة ثلاثية الارباع وقد أمسك فى احدى يديه مجموعة من أزهار الورد يتنسم عبيرها وفى اليد الأخرى منديلاً (٦١) (لوحة ٤٢٧)

وبمتحف طوبقابى سراى أيضاً صورة شخصية للسلطان سليمان القانونى أو المعظم بعد أن تقدمت به السن وهى من رسم المصور حيدر ريس المعروف بـ (نجارى) (ت ٩٨١هـ / ١٥٧٣م).

ويشاهد فى هذه الصورة السلطان سليمان وهو يتريض فى حديقة قصره وخلفه اثنان من الانكشارية ، ومن الملاحظ أن نجارى رسم وجه السلطان من الجانب فى حين أنه رسم الجسم فى وضعة ثلاثية الأرباع ، ويرتدى السلطان عمامة كبيرة لها شال أبيض اللون

(٦٠) خليفة ، ربيع حامد ، فن الصور الشخصية فى مدرسة التصوير العثمانى ، القاهرة (٢٠٠٣م) ، (تصدير الكتاب) .

(٦١) خليفة ، فن الصور الشخصية ، ص ٦٣ - ٦٦ .

وطاقيّة حمراء اللون مضلعة وبها إستطالة وتزدان من الجانب بريشة ، وجبة ذات لون أزرق فاتح مبطنة بالفراء الأبيض اللون أسفلها قفطان ضيق الأكمام ذو لون رمادي ، ويتمنطق بحزام أحمر اللون وينتعل حذاءً بنياً ، ويظهر السلطان وقد بسط يده اليسرى إلى الأمام في حين يقبض في يده اليمنى على منديل مطرز .

ويغلب على أسلوب رسم الصورة الأساليب الفنية الشرقية من حيث التسطيح وعدم استخدام الظلال أو التدرج في الألوان واستخدام الرمزية إذ يظهر في الركن الأيمن السفلي للصورة فرع نباتي يرمز إلى الحديقة .

وقد نجح نجاري في تمثيل ملامح السلطان أصدق تمثيل من خلال رسم الوجه النحيف واللحية الرمادية اللون والرقبة النحيلة المجددة التي تدل على تقدم السلطان في السن (٦٢) .

أما عن المخطوطات المزوقة بالتصاوير فمن أهمها مخطوطة كتاب المهرجان (سورنامه Surname) المحفوظة بمكتبة متحف طوبقابي سراي باستانبول والمؤرخة بعام ٩٩١هـ / ١٥٨٣م ، ويعد هذا المخطوط فريداً في نوعه بين المخطوطات الإسلامية عامة حيث أنه يدور حول وصف الاحتفالات التي عقدت بمناسبة ختان ابن السلطان مراد الثالث في ميدان السلطان أحمد ؛ وما قامت به طوائف الحرفيين المختلفة من استعراض لحرفهم وصناعتهم . ومن بين تصاوير هذه المخطوطة الفريدة تصويرة تمثل القرن الذي يصهر فيه الزجاج وحوله الصناعات كل واحد يؤدي عمله (لوحة ٤٢٩) ، وتصويرة أخرى تمثل صناعات النوافذ الجصية المفرغة والمعشقة بالزجاج الملون (القمریات المدورة والمطاولة) ونشاهد أربع من هذه القمریات قد تم صنعها (لوحة ٤٣٠) ، وتنسب هذه الصور إلى المصور عثمان (٦٣) .

ومن الاسهامات المتميزة لمدرسة التصوير العثمانية ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح

(٦٢) خليفة ، فن الصور الشخصية ، ص ٩١ - ٩٢ ؛ مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨٧م) ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٦٣) مرزوق ، الفنون الزخرفية ، ص ٢٠٣ - ٢٠٦ ؛ أصلان أبا ، فنون الترك ، ص ٣٠٣ ؛ عكاشة ، التصوير الفارسي والتركي ، ص ٣٢٣ - ٣٣٠ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن المدرسة التركية العثمانية انظر ، عكاشة ، التصوير الفارسي والتركي ، ص ٣٠٦ - ٣٦١ ؛ الشيسيتي ، نعيمة ، التصوير الإسلامي التركي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السادس عشر ، العدد الثالث ١٩٨٥م ، ص ٢٣٧ - ٢٧٢ .

« التصوير الطبوغرافى » للمصور نصوح المطراقبى الذى شارك فى عدة حروب فى عهد السلطان سليمان القانونى فسجل أحداثها ورسم المدن والموانى التى فتحها العثمانيون ، ومن أشهر تصاويره الطبوغرافية مدينة استانبول فى كتابه الموسوم بـ « بيان منازل سفر عراقين » المحفوظ بمكتبة جامعة استانبول (تحت رقم T. 5964 - ورقة ٨ ب و ٩ أ) وهذه التصويرة مرسومة على صفحتين ويشاهد بها معالم المدينة البارزة مثل حى غلطة وبرجها الشهير فى اليسار ، وسراى طوبقابى وأيا صوفيا وميدان الخيل (أت ميدانى) والسوق المغطاة والسراى القديم ومجمع السلطان محمد الثانى فى اليمين ، أما القرن الذهبى الذى يفصل بين غلطة واستانبول فهو يمتد رأسيا فى وسط الصورة تماما ؛ وعلى ذلك تعد هذه الصورة وثيقة طبوغرافية مهمة للغاية لمدينة استانبول فى الثلاثينات من القرن ١٦م^(٦٤).

ومن المخطوطات المهمة أيضا مخطوطة شاهنشاهنامة المحفوظة بمكتبة جامعة استانبول (تحت رقم Ty. 6605) ومن تصاويرها الهامة تصويرة تمثل مرصد استانبول الذى أقامه تقي الدين الراصد فى عهد السلطان مراد الثالث (٩٨٢ - ١٠٠٢هـ / ١٥٧٤ - ١٥٩٥م) (لوحة ٤٣١) وتصويرة ثانية تمثل ذات الحلق الموجودة فى مرصد استانبول الذى أقامه تقي الدين الراصد^(٦٥). (لوحة ٤٣٢) .

٧. المدرسة المغولية الهندية ؛

تعد المدرسة المغولية الهندية من المدارس الفنية المتميزة فى الفنون الإسلامية بصفة عامة وفن التصوير بصفة خاصة ، وقد نمت هذه المدرسة وازدهرت بفضل رعاية وتشجيع أباطرتها ، ولذلك فانه يلاحظ أن تاريخ هذه المدرسة وتطورها بمعنى أوضح يرتبط ارتباطا وثيقا بعهود هؤلاء الأباطرة فلكل عهد من تلك العهود صفاته الخاصة به .

والمعروف أن هذه المدرسة كانت متأثرة فى أول عهدها بالأساليب الإيرانية فقد ذكر أن بابر أحضر معه إلى الهند أحسن النماذج التى أمكنه جمعها من مكتبات أجداده التيموريين ، كما أحضر ابنه وخليفته همايون عقب رجوعه من منفاه بایران كلا من

(٦٤) أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ٧٠٧ ، لوحة ١٩٤ ؛ ولزید من التفصيل عن نصوح ورحلته انظر ؛ مطراقى زاده ، نصوح السلاحي ، (ت بعد ٩٥٨هـ) ، رحلة مطراقى زاده ، ترجمة صبيحى ناظم توفيق ، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف ، أبو ظبى - الإمارات العربية المتحدة ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م (١٩٤ صفحة) .

(٦٥) عن هذا المرصد انظر ، أوغلى ، الدولة العثمانية ، مج ٢ ، ص ٤٩٣ - ٤٩٥ .

المصورين الشهيرين ميرسيد على وعبد الصمد الشيرازى ، وعهد إليهما الاشراف على المصورين الهنود البالغ عددهم خمسين مصوراً والذين عكفوا على توضيح قصة الأمير حمزة بالصور ؛ فضلا عن اشتراكهم بأنفسهم فى رسم بعض موضوعاتها .

وكذلك فعل أكبر الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لهذه المدرسة فقد كان راعيا للفنون يشرف بنفسه على شئون الفنانين والمصورين ويبدى لهم ملاحظاته ويزودهم بارشاداته ، وكانت تعرض عليه اسبوعيا أعمالهم ، ويقرر المكافأة للمجد المحسن منهم فى عمله أو يزيد فى راتبه ، وهذا بخلاف المرتب الشهري الذى كان يدفعه لجميع المصورين .

وقد جمع أكبر فى مكتبته أجمل النماذج وأبدعها من انتاج المصورين الايرانيين مثل بهزاد وأقاميرك ، وزين جدران قصره بالرسوم والنقوش الايرانية ، وأسس مجمعا لفنون الكتاب ضم إليه حوالى سبعين فنانا من الهنود يعملون تحت اشراف المصورين الايرانيين ؛ ومنهم عبد الصمد الشيرازى الذى وصل فى عهد أكبر إلى مرتبة رفيعة إذ قلده رئاسة دار الضرب (سك النقود) فى مدينة فتح بورسكرى (عاصمته الجديدة) وأطلق عليه شيرين قلم (أى القلم الجميل) ومنهم أيضاً ميرسيد على وفروخ بيك وخسرو قلى وغيرهم .

وبالإضافة إلى التقاليد الايرانية ظلت التقاليد الهندية المحلية قائمة بل قدر لهذه الأخيرة أن تتغلب على التقاليد الايرانية فى أواخر القرن ١٠هـ / ١٦م .

وفى عهد جيهانجير يتخلص التصوير الهندى من التأثيرات الايرانية وتصبح له صفاته المميزة الواضحة ومن أهمها الملابس الهندية الطراز ولا سيما لباس الرأس وتفضيل رسم الوجه جانبيا مع اكسابه شيئا من التجسيم والحيوية ، كذلك العمائر الهندية الطراز التى يتفق رسمها فى كثير من الأحيان مع قواعد المنظور التى احترامها المصور الهندى احتراما أكثر من باقى المصورين المسلمين لها ، ولم يقتصر اتباعه لها على رسم العمائر التى تبدو فى الأجزاء البعيدة من خلفية الصورة بل وفى التكوين العام للصورة أيضاً .

ومما يميز الصور الهندية أيضاً ألوانها الهادئة الداكنة فلا نجد لها ذلك البريق واللمعان اللذين نشاهدتهما فى التصوير الايرانى أو التباين والشذوذ الموجودين فى ألوانه .

كذلك تميز التصوير الهندى برسوم الأشخاص والطيور والحيوان والنبات فقد فاق فيهما غيره من مدارس التصوير الإسلامى ويرجع الفضل فى ذلك إلى كل من

الامبراطور أكبر الذى أمر بعمل مرقعة تحتوى على صور كبار رجال الدولة ، وإلى الامبراطور جيهانجير الذى كان مغرماً بالمناظر الطبيعية الجميلة وتسجيل رسوم الحيوان والطيور والنبات بدقة ، وكان يكلف المصورين بعمل هذه الرسوم ، كما كان يكلفهم بتسجيل الأحداث فى حياته اليومية أينما ذهب ، ولذلك كان يستصحب معه عدداً من المصورين .

ومن مميزات التصوير الهندى أيضاً أنه قد يشترك أكثر من مصور فى عمل صورة واحدة كما هو الحال فى مخطوطة تيمور نامة ومخطوطة رازنامة ، أو أن يعهد إلى كل واحد برسم ما يجيده ويتقنه كما هو الحال فى مخطوطة أكبر نامة .

أما عن التأثيرات الأوروبية فقد أخذت تشق طريقها إلى التصوير الهندى منذ عهد أكبر وقد تم ذلك بالنقل عن الصور التى كان يجلبها المبشرون الجزويت معهم أو الهدايا التى كان يجلبها معهم السفراء لعقد المعاهدات التجارية ومنهم السير توماس رولم وسفير الملك جيمس الأول إلى الهند ، وكان الأباطرة يأمرؤن المصورين بتقليد هذه الصور الأوروبية ، ويقال أن السير توماس لم يستطع التمييز بين الأصل الذى أحضره والصورة المقلدة كذلك تميزت المدرسة الهندية برسم الصور الشخصية ورسوم النساء والزهاد .

ومن المصورين بشنداس وفروخ بيك ومنصور (نادر العصر) وأبو الحسن (نادر الزمان) ومراد ومنوهر ومحمود نادر السمرقندى ومحمود مراد (٦٦).

هذا فضلاً عن المدارس المحلية وهو ما سوف نعود إليه فى كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

(٦٦) محرز ، التصوير الإسلامى ، ص ٦٧ - ٧٤ ؛ ولزید من التفاصيل انظر ، فرغلى ، التصوير الإسلامى ، ص ٣٦٦ - ٣٧٤ ؛ عكاشة ، ثروت ، التصوير الإسلامى المغولى فى الهند ، القاهرة (١٩٩٥م) ، ص ٥٧ - ١٦٨ ؛ حسين ، محمود إبراهيم ، دراسة للصور الشخصية فى المدرسة المغولية الهندية من خلال مجموعة من الصور تنشر لأول مرة ، مجلة دراسات أثرية إسلامية ، المجلد الرابع ، المجلس الأعلى للآثار (١٩٩١م) ؛ على ، منى سيد ، التصوير الإسلامى فى الهند (الصور الشخصية فى المدرسة المغولية الهندية) ، القاهرة (٢٠٠٢م) ؛ التصوير الإسلامى فى الهند (تسلييات البلاط وحياة الشعوب فى التصوير المغولى الهندى ، القاهرة (٢٠٠٣م) ؛ فنانون فى مراسم أباطرة المغول فى الهند ، مراجعة وتقديم محمود إبراهيم حسين ، القاهرة (٢٠٠٥م) .

Okada, A., Imperial Mughal Painters , Indian Miniatures From the Sixteenth and Seventeenth Centuries, Paris, 1992 .

المبحث الثاني :

مختارات من فنون الكتاب :

- أ - مصاحف شريفة تمثل الطراز المملوكي في مصر (لوحات ٣٢٩ - ٣٣٤) .
- ب - فاتحة مصحف شريف كامل مخطوط محفوظ بدار الآثار الإسلامية بالكويت ،
وتعد صفحتا فاتحة هذا المصحف المذهبتين انعكاساً صادقاً لخاتمته . (شمال
الهند ق ١٢هـ / ١٨م)
- ج - نماذج من الأغلفة (الجلود) تمثل الطراز الصفوي في إيران (ق ١٠هـ / ١٦م)
والطراز التركي العثماني في تركيا (ق ١٠هـ - ١١هـ / ١٦ - ١٧م) . (لوحتا
٣٣٦ - ٣٣٧) .

الفصل الرابع

السكّة الإسلامية

المبحث الأول : تعريف المصطلحات (*) :-

١- السكة :

يعبر لفظ السكة عن معانى متعددة تدور كلها حول النقود المتعامل بها بين الناس فها هو الماوردى يذكر « والسكة هى الحديدية التى يطبع عليها الدراهم ولذلك سميت الدراهم المضروبة سكة ... » (١).

أما ابن خلدون فيزودنا بتفاصيل أكثر فيقول أن السكة « وهى الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة ، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى ، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عدداً وان لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً (٢).

ويضيف ابن خلدون فيذكر أن لفظ السكة « كان اسماً للطابع وهى الحديدية المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهى النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة فصار علماً عليها فى عرف الدول ، وهى وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات ويتقنون فى سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة ... » (٣).

مما تقدم يتضح أن لفظ السكة يقصد به تلك النقوش التى تزدان بها النقود على اختلاف أنواعها ، ويعنى أيضاً قوالب السك التى يختم بها على النقود المتداولة كما يطلق أيضاً على الوظيفة التى تقوم على سك العملة تحت إشراف الدولة ؛ غير أن المعنى

(*) نظراً لضيق الوقت وقرب الامتحانات للفصل الدراسى الأول لطلبة السنة الأولى المقرر عليهم هذا الكتاب، إقتصرنَا فى هذه الطبعة على تعريف بعض المصطلحات المتعلقة بالسكة وتعريب السكة فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، أما الطبعة الثانية من هذا الكتاب المجلد فسوف نتناول فيها كل ما يتعلق بدراسة السكة وفق الخطة الموضوعية لهذا الكتاب المجلد .

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٧ .

(٢) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، المجلد الأول ، ص ٢٧٦ ؛ الكرملى ، ، أنستاس ، النقود العربية والإسلامية وعلم النميات ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨٧م) ، ص ١١٣ .

(٣) ابن خلدون ، مقدمة ، مج ١ ، ص ٢٧٧ ؛ الكرملى ، النقود ، ص ١١٣ - ١١٤ .

الشائع هو اطلاق كلمة السكة على النقود التى تضرب فى دور الضرب أو السك والتى أصبحت وسيلة التعامل الرئيسية فى العصور الوسطى بين مختلف شعوب العالم ، تشهد بذلك تلك المجموعات الضخمة من النقود الإسلامية التى عشر عليها فى روسيا وبولندا وفنلنده والمانيا وقد عاش لفظ السكة فى أوروبا غريبا عن وطنه وأمعن فى الاغتراب حتى تبنته الفرنسية باسم Sequin واشتقت منه الإيطالية لفظ Zecchino^(٤) .

- **الدينار** : هو العملة الذهبية الإسلامية فى العصور الوسطى ولفظة دينار مشتقة من اسم عملة ذهبية بيزنطية كانت تعرف باسم Denarius وكان يقال لها أيضا Aureus وأحيانا أخرى Denarius Aureus ، واستخدم العرب قبل الإسلام الديناريوس وعربت اللفظة إلى دينار وورد ذكره فى القرآن الكريم ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ آل عمران آية ٧٥ .

وعيار الدينار - أى الوزن الشرعى له - منذ تعريبه على يد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ٢٥٤ رء جراما (أى ٦٦ حبة) .

وبالاضافة إلى الدينار استخدمت مضاعفاته وأجزاؤه ومنها الثلث ووزنه ٤٠ رء جرام (٢٢ حبة) والربع ووزنه تقريبا جرام (١٥ ر٥ حبة) والنصف .

- **الدرهم** : عملة فضية عرفها العرب من الساسانيين وكانت تسمى بالفارسية درم، وتعرف عند اليونانيين باسم دراخما ، وورد ذكر الدرهم فى القرآن الكريم ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ سورة يوسف آية ٢٠ . وكان الوزن الشرعى للدرهم الإسلامى ٩٧ ر٢ جرام على اعتبار أن الدرهم يمثل $\frac{7}{3}$ الدينار وكان للدرهم أيضا مضاعفات كما كانت له أجزاء لتسهيل العمليات التجارية .

- **الفلس** : (والجمع فلوس) : عملة نحاسية واللفظة مستمدة من كلمة يونانية وهذه مأخوذة بدورها من الكلمة اللاتينية Follis ، وفوليس هو اسم العملة النحاسية

(٤) فهمى ، النقود العربية ، ص ٦ - ٧ .

البيزنطية التى تعادل ٤٠ نومييا Nummia ومن ثم كان الفوليس البيزنطى تحمل على ظهرها العلامة التى تدل على قيمته ، وهى حرف M وترمز إلى ٤٠ نومييا وكان وزن الفوليس فى الأصل أوقية (حوالى ٣٠ جراما) ، وكانت النسبة الشرعية بين الفلوس والدرهم $\frac{1}{48}$ ولو أن النسبة بين العملتين كانت مجال اختلاف مستمر .

ومن المعروف أن الأصل فى ضرب هذا النوع من النقود النحاسية أن تكون عملة تساعد على إجراء العمليات التجارية البسيطة ، ولكن رغم ذلك كان هناك اهتمام بنقوشها وأوزانها وصنعت لضبط أوزانها وتحديد صحتها زجاجة خاصة مقدرة بالقراريط والخراريب (مفردتها الخروبة) (٥).

٢- صنع السكة :

الصنجة بالصاد أو السنجة بالسین كلاهما بالفتح من الفارسية سنكة وتعنى الحجر والوزن ويراد بها العيار Poids وتحمل جميع الصنج الزجاجة الخاصة بالسكة الإسلامية ما يعبر عن هذا العيار أو الوزن بلفظ مثقال أو ميزان ، ولا شك أن المقصود بلفظ ميزان هنا هو مقدار ثقل السنجة التى تعبر عليها قطعة العملة ، ويشير ورود لفظ المثقال على الصنج إلى معنى العيار أو الميزان مثل « أمر ... بمثقال دينر أو فلس » وهكذا يكون لفظ المثقال على الصنج يعنى ما يوزن به وهو من الثقل وذلك اسم لكل سنج ، وقد صنعت صنجا زجاجة لا تستحيل إلى زيادة أو نقصان لتقدير أوزان السكة على وجه التحديد (٦).

هذا وتعد دراسة السكة الإسلامية على جانب كبير من الأهمية فى الدراسات التاريخية والحضارية والأثرية على السواء حيث أنها تعتبر وثائق رسمية صحيحة لا يسهل الطعن فى قيمتها أو التشكك فى أصالتها ومن ثم يمكن الاعتماد عليها فى

(٥) فهمى ، النقود العربية ، ص ٧ - ١٠ ؛ الباشا ، حسن ، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ، المجلد الثانى ، بيروت (١٩٩٩م) ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ ؛ النقشبندى ، ناصر السيد محمد ، الدرهم الإسلامى ج ١ ، الدرهم الإسلامى المضروب على الطراز الساسانى ، بغداد (١٩٦٩م) ، ص ١ ، ٨ ؛ النقشبندى ، ناصر ، والبكرى ، مهذب درويش ، الدرهم الأموى العربى ، بغداد (١٩٧٤م) ، ص ٩ ، ١٥ . ١٦ .

(٦) فهمى ، صنع السكة فى فجر الإسلام ، القاهرة (١٩٥٧م) ، ص ١ - ٢ ؛ النبراوى ، رأفت (وآخرين) ، الصنج الزجاجة للسكة الفاطمية المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، القاهرة (١٩٩٧م) .

تصحيح الكثير من الأخطاء التاريخية من جهة وإضافة حقائق تاريخية جديدة مستمدة منها ولم ترد في المصادر التاريخية المعاصرة من جهة أخرى :
ونستطيع أن نجمل أهمية دراسة السكة في النقاط التالية :

- يمكن من خلال دراسة النقود الإسلامية ملاحظة التطور في تكون الدولة الإسلامية وتوسعها .

- إذا صنفنا النقود نحصل على قوائم الأسر الحاكمة في العالم الإسلامي وضبط تواريخ حكمها بكثير من الدقة .

- أكثر النقود تحمل مكان الضرب ، كما أن أسماء المدن التي ضربت بها النقود تحدد امتداد نفوذ كل دولة وكل حاكم ، وهي تمدنا بمعلومات جغرافية واسعة ، ومن حسن الحظ أن كتب البلدانين والجغرافيين والرحالة يمكن أن تعطينا وصفا لكل مدينة وتحدد موقعها وتبين أهميتها الاقتصادية والسياسية ، ولكن الكثير من هذه المدن قد اندثر الآن ، ومن ثم فإن النقود تحفظ لنا ذكراها .

- جميع النقود تحمل بالاضافة إلى التاريخ الهجري اسم الخليفة أو الملك أو السلطان أو الأمير أو الوالي وأحيانا اسم المشرف على الضرب والوزير ، ويفيدنا ظهور أسماء بعض الثوار والمغتصبين للحكم في استنباط الكثير من الحقائق التاريخية .

- نستطيع من خلال فحص هذه النقود أن نتعرف على نقاء المعدن الذي سكت منه النقود أو على الخلط المعدنية كما نتعرف على طريقة السك ودقة صنعه .

- تعد النقود مجالا مهما للغاية في تتبع تطور الخط العربي ومراحل تطوره عبر العصور المتلاحقة .

- تفيدنا أيضا في دراسة أنواع الزخارف النباتية والهندسية والكائنات الحية (٧) .

(٧) العش ، محمد أبو الفرج ، النقود العربية الإسلامية المحفوظة في متحف قطر الوطني ، ج١ ، الدوحة (١٩٨٤م) ، ص ١٠ - ١٣ ؛ فهمي ، النقود ، ص ٤ - ٦ ؛ النبراوي ، النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري ، القاهرة (٢٠٠٠م) ، ص ٥ - ٣١ ؛ رمضان ، عاطف منصور ، موسوعة النقود في العالم الإسلامي ، ج١ ، ص ١٧ - ٢١ ؛ الشرعان ، نايف ، نقود الدولة العيونية في بلاد البحرين ، الرياض (٢٠٠٢م) ، ص ٧ - ١٢ .

وانظر أيضاً دراستنا الموسومة بـ « النقوش الآثرية مصدراً للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية » ، المجلد الأول ، القاهرة (٢٠٠٢م) وفيه دراسة حول حسم الخلاف بين المؤرخين وتصحيح الأخطاء التاريخية الشائعة اعتماداً على نقوش السكة وغيرها من النقوش الآثرية ، أما المجلد الثاني (قيد النشر) ففيه إضافة لحقائق تاريخية من خلال نقوش السكة وغيرها - لم ترد أصلاً في المصادر التاريخية المعاصرة .

المبحث الثاني : تعريب السكة (الاصلاح النقدي) :

أ- قبل التعريب : من الثابت أن العرب قبل الإسلام قد عرفوا الدراهم الساسانية والدنانير البيزنطية وقد ورد ذكرها في أخبارهم وأشعارهم ، وقيل أنهم كانوا يتبايعون بالدنانير علي أنها تبر ويطلقون عليها العين ، كما يطلقون علي الدراهم الفضية «الورق»^(٨).

فلما جاء الإسلام أقر الرسول (ﷺ) النقود علي ما كانت عليه ، وتعامل الرسول نفسه بهذه النقود وزوج عليا (رضي الله عنه) ابنته فاطمة علي ٤٨٠ درهما وزن ستة دوايق^(٩).

وكذلك فرض الرسول (ﷺ) زكاة الأموال بهذه النقود السائدة فجعل في كل خمس أوقيات من الفضة خمسة دراهم كما جعل في كل عشرين ديناراً نصف دينار .

ولما أقر الرسول (ﷺ) هذه النقود عمل خليفته أبو بكر (رضي الله عنه) بسنته في تبني النقود الجارية بين المسلمين ولم يغير منها شيئاً .

ولما استخلف عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م) (رضي الله عنه) وفتح الله علي المسلمين بلاد الفرس أمر النقود الساسانية في ايران والعراق كما هي بلغتها وحروفها البهلوية ، وكذلك بشاراتها وشعائرها غير الإسلامية ، كما حافظ علي أسماء دور السك وتاريخ الضرب باللغة البهلوية كذلك .

ويذكر المقرئ أن عمر بن الخطاب في عام ١٨هـ / ٦٣٩م ضرب الدراهم علي نقش الكسروية وشكلها وأعيانها (صورها) ولكنه زاد عليها عبارة (الحمد لله) وفي بعضها (محمد رسول الله) ، وفي البعض الآخر (لا اله الا الله وحده) .

ولما استخلف عثمان (٢٣ - ٣٥هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦م) (رضي الله عنه) ضرب دراهم في خلافته ونقش عليها عبارة التكبير (الله أكبر)^(١٠).

ومن العبارات التي نقشت علي الدراهم التي ضربت في عهد عثمان (رضي الله عنه) كلمة (جيد) وكلمة (بركة) وهو ما يستدل عليه من الدراهم الأثرية الباقية المؤرخة سنة ٢٠ يزدجدي / أي ٣١هـ / ٦٥١م و ٣٢هـ / ٦٥٢م .

(٨) فهمى النقود العربية ، ص ٢١ .

(٩) ابن سلام ، الأموال ، ص ٦٣١ .

(١٠) المقرئ ، شذور العقود ، ص ١٠٣ ، ١٠٥ .

واستمرت الدراهم تضرب في خلافة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ٣٥ - ٤٠ هـ / ٦٥٦ - ٦٦١ م وكان ينقش عليها عبارة (بسم الله) وعبارة (بسم الله ربي) كما نقش اسم (محمد) بالخط الكوفي علي بعض الدراهم المؤرخة بعام ٣٩ هـ / ٦٥٩ م^(١١).

واستمرت النقود تضرب في عصر الدولة الأموية حتي خلافة عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م دونما أحداث تغيرات جوهريّة كما كان عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين ، فالدراهم ظلت تضرب علي الطراز الساساني مع اضافة الكتابات العربية عليها ، وكان التاريخ يسجل عليها أحياناً وفقاً للتقويم الفارسي (اليزدجردى) أو التقويم الهجري ، كما سجلت أسماء بعض الخلفاء الأمويين وألقابهم باللغة البهلوية ، ومن ذلك (معاوية أمير و رشينكان أي معاوية أمير المؤمنين) علي دراهم مؤرخة بـ ٤١ هـ و ٤٣ هـ .

كما سجل أمراء الاقاليم الشرقية أسماءهم علي الدراهم المضروبة علي الطراز الساساني باللغة البهلوية ، ويستثني من هؤلاء الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان أول من سجل اسمه علي هذه الدراهم بالحروف العربية (في ضوء الدراهم الأثرية الباقية والمعروفة حتي الآن) ؛ كما يعد الحجاج أيضاً هو أول من أضاف إلي الدراهم شهادة التوحيد والرسالة المحمدية .

وهناك نوع من الدراهم اصطلح علي تسميتها بالدراهم العربية الساسانية المغلفة أي التي تخلو من أسماء الخلفاء وأمراء الاقاليم وقد استمر ضربها حتي عام ٦٤ هـ / ٦٨٤ م (في ضوء ما هو معروف منها حتي الآن)^(١٢).

ب- تعريب السكة في عهد عبد الملك بن مروان^(١٣) ٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م : مرّ الاصلاح النقدي في عهد عبد الملك بن مروان ببضعة مراحل حتي تم التعريب الكامل للنقود .

(١١) رمضان ، موسوعة النقود ، ج١ ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(١٢) رمضان ، موسوعة ، ج١ ، ص ٦٣ - ٧٩ ؛ القيسي ، موسوعة ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ النقود في العراق ، ص ٤١ - ٤٨ ؛ العش ، النقود العربية الإسلامية ، ج١ ، ص ٢٤ - ٢٨ ؛ النقشبندي ، الدرهم الإسلامي ، ج١ ، الدرهم الإسلامي المضروب علي الطراز الساساني ، بغداد (١٩٦٩ م) ؛ النقشبندي ، والبكري ، الدرهم الأموي المعرب ، ص ٩ - ١٠ .

(١٣) رمضان ، موسوعة ، ج١ ، ص ٨٠ - ١٠٦ ؛ العش ، النقود العربية الإسلامية ، ج١ ، ص ١٦ - ٢٣ ؛ القيسي ، موسوعة ، ص ٢٩ - ٣٢ ؛ النقود في العراق ، ص ٤٩ - ٥٦ ؛ النقشبندي والبكري ، الدرهم الأموي المعرب ، ص ١٠ ، ٢٢ - ٢٦ ؛ فهمي ، النقود العربية ، ص ٢٩ - ٣٨ .

ويمكن في ضوء الأدلة الآثارية المعروفة والمتوفرة حتي الآن ان نقسم هذه المراحل إلي ثلاث :

- المرحلة الأولى : مرحلة الصور الامبراطورية ٧٢ - ٧٤هـ / ٦٩٢ - ٦٩٤م .

- المرحلة الثانية : مرحلة الصور العربية ٧٤ - ٧٧هـ / ٦٩٤ - ٦٩٧م .

- المرحلة الثالثة : مرحلة التعريب النهائي وظهور الطراز الإسلامي الخالص .

أما عن المرحلة الأولى فتتميز بنقش صورة الأباطرة البيزنطيين علي النقود الذهبية والنحاسية أو صورة كسري الفرس علي الدراهم الفضية فضلا عن بعض المظاهر الأخرى ومنها العمود القائم علي مدرجات علي الدنانير وحرف M الكبير و m الصغير علي الفلوس أو رسم معبد النار الزرادشتي علي الدراهم الساسانية ، وكذلك ظهور بعض الكتابات والحروف اللاتينية علي الدنانير والفلوس والكتابات البهلوية علي الدراهم .

أما المرحلة الثانية فتتميز بظهور صورة بمركز وجه الدينار تمثل الخليفة عبد الملك واقفا بملابسه العربية تعلو رأسه كوفية ويضع يده اليمني علي مقبض سيفه يهيم باستلاله ، وفي الهامش نقش بالخط الكوفي البسيط نصه (بسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله) أما الظهر فيوجد به عمود قائم علي مدرجات أربعة ينتهي في أعلاه بكرة ، بينما نقش بالهامش بالخط الكوفي البسيط نصا يتعلق بتاريخ الضرب بصيغة «بسم الله ضرب هذا الدينر سنة ... ٧٤ أو ٧٥ أو ٧٦ أو ٧٧هـ .

أما الدراهم التي تنتمي إلي هذه المرحلة فتتميز بأن صورة كسري قد اختلفت في بعض تفاصيلها ، كما حذفت الكتابة البهلوية وحلت محلها الكتابة العربية ، كذلك حذف معبد النار ونقشت بدلا منه صورة الخليفة عبد الملك مماثلة لما هو منقوش بالدنانير ، وعلي جانبي صورة الخليفة نقشت ألقابه بصيغة (خليفة الله - أمير المؤمنين) .

وهناك اصدارات أخرى من الدراهم سوف نتطرق إليها في كتابنا المفصل (بمشيئة الله تعالى) .

كذلك فإن النقود النحاسية والبرونزية في هذه المرحلة تتميز بأنها تحمل صورة الخليفة عبد الملك تحيط بها أحيانا نفس العبارات (بسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله) أو بدون عبارة (بسم الله) أو تنقش عليها عبارة (لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين) أو (خليفة الله أمير المؤمنين) ، أما الظهر فيوجد العمود القائم علي مدرجات يعلوه كره ونقش مدينة الضرب عن يمينه أو يساره ، وأحيانا تنقش كلمة (واف) ، وأحيانا يضاف هامش كتابي يشتمل علي شهادة التوحيد والرسالة المحمدية .

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتخلو تماما من كافة التأثيرات الفارسية والبيزنطية التي سبق أن شاهدناها في المرحلتين السابقتين ، ومن ثم فهي تتميز بظهور الطراز الإسلامي الخالص حيث حلت الكتابات الإسلامية محل الصور وذلك علي النحو التالي :

- الدنانير الذهبية

الوجه	الظهر
مركز : لا اله الا الله وحده لا شريك له	مركز : الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد
هامش : محمد رسول الله ارسله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله	هامش : بسم الله ضرب هذا الدينر [فى] سنة سبع وسبعين

- الدراهم الفضية : وأقدم المعروف منها حتي الآن مؤرخ بـ ٧٨ هـ

الوجه	الظهر
مركز : لا اله الا الله وحده لا شريك له	مركز : الله احد الله الصمد لم يلد و لم يولد ولم يكن له كفوا أحد
هامش : محمد رسول الله ارسله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولو كره المشركون وهناك اصدار آخر نقوشه	هامش : ضرب هذا الدرهم + مدينة الضرب وتاريخه

الوجه	الظهر
مركز : لا اله الا الله وحده لا شريك له	مركز : الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد
هامش : بسم الله ضرب هذا الدرهم + مدينة الضرب وتاريخه	هامش : محمد رسول الله ارسله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولو كره المشركون

ـ الضلوس :

الوجه

الظهر

مركز : لا اله

مركز : محمد

الا الله

رسول

وحده

الله

هامش : أمر به عبد الله الوليد

هامش : بسم الله ضرب هذا بدمشق

امير المؤمنين

سنة سبع وثمانين

وهناك فلوس أخرى عديدة تحمل أسماء الخلفاء والولاة وتحمل اسم مدينة الضرب وتاريخ الضرب .

هذا وقد كانت وراء تعريب السكة عدة دوافع دينية وسياسية واقتصادية وقومية^(١٤) ، (وهو ما سوف نتطرق إلى مناقشته وتحليله تفصيلا واسهابا في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

وكذلك سوف نتناول في هذا الكتاب المفصل كل ما يتعلق بالسكة الإسلامية في العصور المتعاقبة وسكة الثوار والخارجين وتقليد الصليبيين للنقود الإسلامية في الشام ومصر وغير ذلك من الموضوعات والمفردات المرتبطة بدراسة السكة الإسلامية (بمشيئة الله تعالى) .

(١٤) عن الآراء المختلفة التي ذكرت في المصادر التاريخية فضلا عن دراسات العلماء والباحثين انظر ، البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص ٤٦٧ - ٤٧٠ ؛ الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، ج ١ ، ص ٦٢ - ٦٤ ، المناوي ، النقود والموازين والمكابيل ، ص ٦٢ - ٦٣ ؛ المقرئ ، شذور العقود ، ص ١٠٧ ، ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، مج ٢ ، ص ٢٨٨ ؛ فهمي ، النقود العربية ، ٢٩ - ٣٩ ؛ تعريب النقود ومدلوله الحضاري ، المنهل ، العدد ٤٥٤ السنة ٥٣ ، المجلد ٤٨ ، جده (١٩٨٧م) ، ص ٣٨٢ - ٣٩٣ ؛ الرمضاني ، عبد الواحد ، البعد القومي لتعريب النقود ، مجلة آداب الرافدين ، العدد ١٤ ، (١٩٦١م) ، ص ٤٧ - ٨٧ ؛ اليوزكي ، توفيق ، التعريب في العصرين الأموي والعباسي ، مجلة آداب الرافدين ، العدد ٧ ، (١٩٧٦م) ، ص ٤٥ - ٦٩ ؛ رمضان ، موسوعة ، ج ١ ، ص ١٠٩ - ١٢٦ ؛ الكبيسي ، حمدان ، أصول النظام النقدي في الدولة العربية الإسلامية ، بغداد (١٩٨٨م) ، ص ٢٢ - ٢٧ .

الفصل الخامس

آثار الآثار الإسلامية في أوروبا

مقدمة :-

ألمعنا فى الفصل الخامس من الباب الأول إلى المعابر الرئيسية التى إنتقلت من خلالها التأثيرات الحضارية الإسلامية إلى أوروبا ، ثم تحدثنا عن أهم مظاهر هذا التأثير فى النواحي الحضارية ، غير أن ما يعيننا فى هذا المقام هو أن نستكمل بعض جوانب هذا الموضوع المهم بدراسة أثر الآثار الإسلامية فى أوروبا .

وينبغى قبل أن نتحدث عن مظاهر هذه التأثيرات الآثرية الإسلامية فى أوروبا أن نشير إلى أن الرواد من المستشرقين والعلماء والباحثين الغربيين كان لهم فضل السبق فى إبراز الجوانب المختلفة لهذا الموضوع^(١) ، ثم لم يلبث أن سار على نهجهم واقتفى أثرهم الرواد الأوائل من العلماء المصريين منذ بداية الثلاثينيات من القرن العشرين المنصرم^(٢) .

وقد استطاع هؤلاء العلماء أن يثبتوا كيف أن الفن الإسلامى قد ترك بصماته الواضحة فى فنون أوروبا ، وكان وراء ذلك عدة عوامل منها ما يتعلق بالقيمة الجمالية الواضحة للمنتوجات الفنية الإسلامية التى تتمثل فى تناسقها وفخامتها وما تحفل به فى كثير من الأحيان من غنى فى الألوان ؛ فضلا عن الدرجة العالية من الاتقان الفنى الواضح فى صناعتها وهى درجة تفوق بمراحل أى شئ كان من الممكن أن ينتجه الغرب فى تلك العصور ، ناهيك عن طرافتها الغريبة ، ويضاف إلى ذلك شئ هام زاد من قدر

(١) حسبنا أن نشير هنا إلى تلك القائمة من الدراسات التى أوردها البروفسور كريزول عن أثر العمارة والفنون الإسلامية فى الغرب ، ص ١٢٩٧ - ١٣٢٦ ؛

Creswell, K. A. C., Abibliography of the Architecture, Arts and Crafts of islam to 1 st jan, 1960, A. U. C. (1961), PP. 1297 - 1326 .

(٢) الهوارى ، حسن محمد ، أثر الفن الإسلامى فى الحضارة العالمية ، الهلال ، السنة ٤٢ ، ج ٦ ، ١٧ ذى الحجة ١٣٥٢هـ / أول ابريل ١٩٣٤م ، ص ٦٧٣ - ٦٨٠ ؛ حسن ، زكى محمد ، أثر الفنون الإسلامية فى بولندة ، الثقافة ، السنة الأولى ، العدد ٤١ ، ٢٦ شعبان ١٣٥٨هـ / ١٠ أكتوبر ١٩٣٩م ، ص ٢٠٠٩ - ٢٠١٣ ؛ تراث الفنون الإسلامية فى البلقان وأوروبا الوسطى ، الكتاب ، أغسطس ١٩٤٦م ، ص ٥٤٥ - ٥٥٣ ؛ فكرى ، أحمد ، ما شاء الله ، الكاتب المصرى ، مجلد ١ ، العدد ٤ ، يناير (١٩٤٦م) ، ص ٥٦٩ - ٥٧٦ ؛

Fikry, A., L'Art Roman du Puy et les Influences Islamiques, Paris, (1934), PP. 341, With 61 plates and 118 figs .

تلك المنتوجات الفنية وهو ارتباطها الصحيح أو المفترض بالأرض المقدسة (بيت المقدس) وبشخصيات دينية معينة^(٣).

وهنا لا تفوتنا الإشارة إلى أثر الحج إلى الأراضى المقدسة وما كان يحمله هؤلاء الحجاج عند عودتهم إلى أوطانهم من المنتوجات الفنية فى تأكيد نظرة التقدير والاعجاب الممزوج بالتقديس لهذه التحف الفنية وليس أدل على ذلك من أن بعض هذه التحف كانت تحفظ فيها أعز المخلقات الدينية فى الكنائس ، كما كانت تستخدم فى المراسم الدينية مثل التعميد بل أن بعضها كانوا يتبركون بها وكانت النساء منهن يعتقدن أنها تساعد العواقر منهن على أن يحملن^(٤).

ويضيف اتنجهاوزن عاملاً آخر وهو أنه لم يوجد فن تصوير إسلامى خاص أو فن تشيع فيه رموز دينية خاصة يمكن أن تجرح احساس العقلية المسيحية فالأشكال الرقيقة البريئة التى اتخذها التصوير الإسلامى فى هيئة حيوانات وطيور وتوريقات مع بعض تصاوير آدمية بين الحين والحين جعلت الأشياء التى تحمل هذه التصاوير مقبولة تماماً حتى عند استخدامها فى تدثير بقايا قديس أو فرشها على درج مذبح كنيسة ، ولم يستثن من ذلك شئ حتى الكتابات العربية التى كانت تستعمل على نطاق واسع والتى نجدها فى الهالة التى تحيط برأس المادونا (أى صورة السيدة مريم العذراء) كما نجدها على أطراف الأثواب التى يلبسها القديسون فى التصاوير وعلى أبواب الكاتدرائيات وعلى كل سطح آخر يمكن الرسم عليه ...»^(٥).

وهكذا نجد أن اعجاب الغرب بالفنون الإسلامية لم يقتصر على مجرد قبول تلك الفنون بطريقة سلبية بل تجلّى فى ادخال ما تيسر له من هذه الفنون فى أكثر منشأته احتراماً وجلالاً سواء أكانت تلك المنشآت دينية أو دنيوية ، كما يظهر ذلك الاعجاب أيضاً فى اقتباس الغرب فنون الشرق بصورة أو بأخرى .

هذا ولم يكن ذلك التأثير مقصوراً على الأقاليم التى ينتظر أن يكون فيها مجال

(٣) اتنجهاوزن ، ريتشارد ، أثر فنون الزخرفة والتصوير عند المسلمين على الفنون الأوروبية ، ضمن تراث الإسلام ، ج ٢ ، ط ٢ ، الكويت (١٩٨٨م) ، ص ٤٤٣ .

(٤) مرزوق ، قصة الفن الإسلامى ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٥) اتنجهاوزن ، أثر فنون ، ص ٤٤١ - ٤٤٢ .

لالتقاء الروحي العميق بين الجانبين ، والتي حدث فيها بالفعل التقاء كهذا ، ففي أقاليم الحدود نجد ذلك الأثر متمثلاً في التصاویر المستعربية وأعمال الحفر الايطالية على العاج ، بالإضافة إلى العملة ذات اللغتين التي نجدها في اسبانيا وامالفي وسالرنو . وقد وجدت في بلاد شمال أوروبا ٥٢ ألف قطعة من العملات الإسلامية ما بين كاملة وناقصة وبعضها صنعت منه حلى وترجع هذه العملات إلى الفترة الواقعة بين أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الخامس الهجري / ٨ - ١١م وهي تظهر أنه كانت لهذه الأقاليم علاقات تجارية طويلة المدى مع العالم الإسلامي .

كذلك اكتشف في جزيرة جوتلاند (Gotland) السويدية وحدها أكثر من ٣٠ ألف قطعة من العملات الإسلامية التي ترجع إلى عصر الدولة السامانية في شرق إيران وبلاد ما وراء النهر ، كما وجدت قطع أخرى كثيرة من العملات الإسلامية في جزر أخرى وعلى طول شواطئ بحر البلطيق^(٦) .

وهنا لا تفوتنا الإشارة إلى بولنדה التي يمكن أن نعتبرها حلقة من حلقات الاتصال بين الغرب والشرق ولا سيما في القرنين ٨ - ٩هـ / ١٤ - ١٥م حين امتدت أملاكها إلى حدود البلقان الشمالية ومن ثم تأثرت بالفنون الإسلامية في تركيا وإيران .

على أن اتصال بولنדה بالشرق لم يكن في البداية اتصالاً شخصياً ومباشراً ، وإنما كانت المدن الواقعة جنوب شرق بولنדה ولا سيما كامينيس بودولسكي Camieniec Podolski ولوفوف (أولبرج) Lwow تحصل على تحف شرقية كثيرة من مستعمرات جمهورية جنوه الايطالية على البحر الأسود ، وأعظم هذه المستعمرات شأنًا ثغر كافا Kaffa في شبه جزيرة القرم (ويعرف باسم ثيودوسيا) ؛ فضلاً عن ذلك فقد كان في مدن بولنדה - وعلى الأخص لوفوف - مهاجرون من الأرمن واليونان نزحوا إلى تلك البلاد منذ القرن ٧هـ / ١٣م ولكنهم لم يقطعوا أسباب الاتصال بأوطانهم الأولى فكانوا يستوردون منها البضائع والتحف الشرقية ، كما كانوا يشيدون الكنائس والعمائر في

(٦) اتنجهاوزن ، أثر فنون ، ص ٤٣٨ - ٤٤٠ ؛ ولزيد من التفاصيل عن هذه العملات انظر ،

Stenberger, M., Die schatzfunde Gotlands der wikingerzeit, stockhol;, (1958), Miles, G. C., Bomone de Barcelone, vol 2, Paris, (1962), PP. 683 - 693, the coinage of the Umayyads of Spain, New York, (1950), PP. 539 - 540 .

مهجرهم على الأساليب الفنية التي ألفوها في بلادهم ، والمعروف أن هذه الأساليب الفنية كانت قد أصبحت ذات صلة وثيقة بالفنون الإسلامية منذ أن استولى المسلمون على أرمينيا وامتد نفوذهم الفني إلى البلقان .

وخير دليل على ذلك الزخارف المحفورة في الحجر بالكنيسة الأرمنية في مدينة لوفوف وترجع إلى النصف الثاني من القرن ٨هـ / ١٤م والتي تمت بصلة وثيقة إلى الطراز السلجوقي .

وزاد اتصال بولندة بالشرق في القرنين ١٠ - ١١هـ / ١٦ - ١٧م بعد أن امتد نفوذ الأتراك العثمانيين في البلقان إلى حدود بولندة ، وبعد أن صار ثغر كافا Kaffa في قبضة يدهم منذ عام ١٤٧٥م فعظم نشاط التجار من الأرمن والترك واليونان وأصبحت بولندة من أهم الأسواق لتصريف البضائع والتحف التركية واليرانية التي كان التجار يجلبونها من الشرق ، وقد كان الأرمن يقومون بالرحلات إلى وطنهم الأول لإنشاء العلاقات التجارية واختيار التحف بل أن بعض ملوك بولندة كانوا يوفدون عملاءهم من أولئك التجار إلى قاشان أو اصفهان لشراء السجاجيد الثمينة والمنسوجات النفيسة والأسلحة الغالية ، وقد ورد ذكر التحف الشرقية في كثير من الوثائق البولندية في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين .

هذا ولم يقف دور بولندة عند حد المتاجرة في التحف الشرقية فحسب وإنما قامت في بعض مدنها حركة صناعية كبيرة استطاعت تقليد التحف الشرقية من المنسوجات والسجاجيد والجلود والمعادن ولقد أصابوا توفيقا عظيما في هذا التقليد حتى القرن ١٣هـ / ١٩م حين حلت الزخارف الأوروبية محل الزخارف الإسلامية^(٧) .

أما عن مظاهر التأثيرات الإسلامية في فنون أوروبا فيمكن أن نتناولها اجمالا (على أن نعود إليها تفصيلا واسهابا وتحليلا في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى) في النقاط التالية :

(٧) حسن ، أثر الفنون الإسلامية ، ص ٢٠٠٩ - ٢٠١٣ ؛ تراث الفنون الإسلامية ، ص ٥٤٦ - ٥٤٨ ؛ فنون الإسلام ، ص ٦٥٥ - ٦٥٧ ؛

Mankowski, T., Influence of Islamic Art in Poland, Ars Islamica, vol II, (1935) PP. 93 - 117., with 29 illus and 17 Plates .

١ . العمارة : تأثرت العمارة الأوروبية فى العصور الوسطى تأثيراً بالغاً بالتقاليد المعمارية الإسلامية ، وكانت أولى المناطق التى ظهرت فيها قوة هذا التأثير هى شمال اسبانيا منذ أواخر القرن ٣هـ / ٩م وأوائل القرن ٤هـ / ١٠م فى مقاطعات ليون وقشتالة وجليقية من جهة وبلاد قطالونيا من جهة أخرى ويتجلى ذلك بوضوح فى كنائس المستعربين التى أقاموها فى تلك المناطق ومن بينها كنيسة سان ميغل دى اسكالادا وسانتياجودى بنيالبا (فى ليون) وكنيسة سان ميان دى لاكوجيا وكنيسة سان ثيريان دى ماثوتى وكنيسة سان باوديل دى برلانجا وكنيسة سان ميغل دى فلوجيا وكنيسة شنت ياقب (سنتياجو) وهى التى كانت كعبة الحجاج من فرنسا واسبانيا وغيرهما من البلاد المسيحية وكان طريق الحج هذا مكتظاً بالكنائس والأديرة المستعربة فى اراغون ونبره وقشتالة وليون ، وبالرغم من أن المستعربين قد حاولوا التخلص فى عمارتهم من التقاليد الإسلامية إلا أنهم لم يستطيعوا اتمام أعمالهم بدونها؛ إذ كانت هذه التقاليد من القوة بحيث فرضت عناصرها على عناصر العمارة المسيحية ، وكان من أهم مظاهرها تلك العناصر المعمارية والزخرفية ومنها العقود المنفوخة المتجاوزة لنصف الدائرة والعقود الثلاثية الفتحات (العقد المدائنى) والعقود المفصصة أو المقصوصة والعقود الصماء ومنها النوافذ المزدوجة (التوأمية) والشرفات أو الكوابيل والقبوات والقباب ذات الضلوع البارزة والمتقاطعة ومنها الأبراج والزخارف المعمارية .

وامتدت هذه التأثيرات إلى الكنائس الفرنسية والايطالية والانجليزية ، فالعقود المنفوخة نراها فى العديد من هذه الكنائس ومنها سان ميشيل دى بوى وسويك فى فرنسا وفيرونا وسنيولى فى ايطاليا ، والعقود الثلاثية فى كنائس سان فيدال وفى كاتدرائية كاهور ومارينى والعقود المفصصة أو المقصوصة نراها فى كنائس لاندو ومواساك وشانتول وشارتروريو وكاتدرائية كليرمونت ودير كلونى ، وكنيسة كلاى Clay ونورفولك Norfolk فى انجلترا ؛ فضلا عن عشرات الأمثلة الأخرى سواء فى الأبواب أو النوافذ أو الأبراج أو القباب أو المذابح .

والعقود الصماء نراها فى كاتدرائية درم وكاتدرائية نورويش فى انجلترا ، والعقود المنفرجة انتقلت إلى انجلترا أيضاً وعرفت هناك بالعقد التيودورى Tudor Arch .

كذلك كان للقباب والقبوات أثرها فى تطور العمارة الأوروبية وهو ما يتجلى فى

القبوات القوطية كما هو الحال فى قبة مصلى مستشفى سان بليز فى فرنسا وكاتدرائية درم فى انجلترا والعديد من الكنائس الاسبانية .

كذلك فإن أبراج الكنائس فى اسبانيا وايطاليا تبدو وكأنها صور مطابقة لماذن المغرب والأندلس ومنها أبراج كنائس طليطلة وسرقسطة فى اسبانيا وإحدى كنائس فيرونا وكنيسة دومو سوليتو فى ايطاليا وبرج سانت مارى لوباو فى لندن الذى أقيم فى أواخر القرن ١٧م^(٨).

ولعل من أكثر الآثار الأوروبية عجباً وتعبيراً عن التأثيرات الإسلامية فى العمارة والزخرفة المعمارية تلك المجموعة من الكنائس التى بنيت فى مدينة البوى فى وسط فرنسا فى الربع الأول من القرن ٦هـ / ١٢م حيث نشاهد فيها جملة من العناصر الإسلامية لم يجتمع مثلها فى أى أثر من الآثار الأوروبية مثل العقود المنفوخة والعقود الثلاثية الفتحات والعقود المفصصة وأشكال التيجان والقباب وتناوب الألوان (الأبلق) ، ونجد فوق هذا كله خاتم العروبة والإسلام مطبوعاً على إحدى بوابات كاتدرائية البوى وهو « الملك لله » وتكرر هذه الجملة العربية المقروءة الواضحة المعنى حول اطار باب العذراء وحول كل مصراع من مصراعى الباب^(٩).

ومن العناصر الأخرى المداخل المنكسرة (الباشورة) Bent Entrances كما هو الحال فى أسوار مدينة Carcassonne ومدينة Ranparte d'avignons nons بفرنسا والأولى من القرن ١٢م والثانية من القرن ١٤م .

(٨) فكرى ، فى العمارة والتحف الفنية ، ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية ، ص ٣٧٨ - ٣٩٦ ؛ سالم ، بحوث إسلامية فى التاريخ والحضارة والآثار ، القسم الثانى ، ص ٢٢٢ - ٢٣٧ ؛ ولزید من التفاصيل عن القباب والقبوات الإسلامية فى المغرب والأندلس وتأثيرها فى القبوات القوطية انظر ، Lambert, E., L'Architecture Musulmane du X^e Siecle, Acordoue et Atolède, Gazette des Beaux Arts, 67^e Année, tome Douzieme, (1925), PP. 141 - 161., Les Voutes Nervées Hispano - Musulmanes du xie siècle et leur Influence Possiple sur L'Art chretien, Hespéris, Tome VIII, (1928), PP. 147 - 175., les Origins de la croisée d'ogives, offices des instituts d'Archéologie et d'histoire d'art, No. 8 - 9, Novembre, 1936 - Mars 1937, PP.

(٩) فكرى ، فى العمارة ، ص ٣٩٨ - ٤٠١ ؛ ما شاء الله ، ص ٥٧٤ - ٥٧٥ .

ومنها الأبواب المنزقة Portcullis ومن أمثلتها قلعة Harléch فى انجلترا وتؤرخ بين عامى ١٢٨٥ - ١٢٩٠م ومنها السقاطات Machicoulis لالقاء المواد الملتهبة كالزيت والماء المغلى وغيرها على رؤوس الاعداء خارج الأسوار ومن أمثلتها قصر شاتيون Chattillon ١١٨٦م بفرنسا وغيره من القصور مثل شاتو جيار رونورويتشى ووينشستر وغير ذلك من القصور فى فرنسا وانجلترا^(١٠).

ولا تفوتنا الإشارة أيضاً إلى أن العمائر التى أنشئت بصقلية خلال العصر النورمانى ومنها كنيسة الكابلا بلاتينا ١١٣٢م وكنيسة المرتوران ١١٣٦م وقصر العزيزة (La Ziza) ١١٥٤م وقصر القبة (La Cuba) ١١٨٠م فى بالرمو تزخر بالعديد من الظواهر المعمارية الإسلامية البحتة ، تلك الظواهر التى توجد أيضاً فى ايطاليا نفسها بمدينةنى امالفى وسالرنو . وتنتشر فى المدن الإيطالية الأخرى مثل بيزا وفلورنسا وجنوه ومسينا ظاهرة تتابع طبقات أفقية من أحجار قائمة اللون وأخرى من أحجار زاهية اللون وهى من التأثيرات المملوكية التى انتقلت إلى هناك^(١١).

الخط العربى :

كان الخط العربى من أهم الفنون الإسلامية التى استرعت أنظار الأوروبيين وذلك لطابعه الأصيل وميزاته الجمالية والزخرفية ولما يكتنفه من غموض وابهام بالنسبة لغالبية الأوروبيين الذين يجهلون قراءته . وربما ضاعف من اعجاب الأوروبيين بهذا الخط صلته الوثيقة بالأماكن المقدسة فى بيت المقدس ، ولقد تيسر انتقال أثر الخط العربى إلى أوروبا بوسائل عدة منها حركة ترجمة العديد من الكتب العلمية والأدبية من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية الأخرى ، ومنها العملات

(١٠) بريجز ، مارتين ، فن العمارة ، ضمن تراث الإسلام ، ج٢ ، ترجمة زكى محمد حسن ، القاهرة ، ط ٢ (١٩٨٣م) ، ص ١٣٨ - ١٤٠ ؛ حسن ، فنون الإسلام ، ص ٦٦١ ؛ الجلالى ، أحمد عبد المعطى ، التأثيرات الإسلامية فى عمارة الغرب خلال العصور الوسطى ، عاديات حلب ، الكتاب الأول (١٩٧٥م) ، ص ٢٢٦ - ٢٣٣ ؛ العبيدى ، صلاح حسين ، الآثار العربية الإسلامية وأثرها فى الفنون الأوروبية فى عصر النهضة ، مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد العدد ٢٣ (١٩٧٨م) ، ص ٥٠٩ - ٥١٠ .

(١١) بريجز ، فن العمارة ، ص ١٤١ - ٤٣١ ؛ حسن ، فنون الإسلام ، ص ٦٦١ - ٦٦٢ ؛ رسلان ، الحضارة الإسلامية فى صقلية وجنوب ايطاليا ، ص ٩١ - ٩٤ .

الإسلامية بفضل العلاقات الاقتصادية من جهة والوجود الصليبي في بلاد الشام من جهة ثانية ، ولقد عثر على الآلاف من قطع العملة في أجزاء مختلفة من أوروبا كما سبق القول .

وربما لعبت تحف الفنون التطبيقية والآلات العلمية والفلكية دوراً أهم في نقل الخط العربى إلى أوروبا وذلك لما يتميز به الخط على هذه التحف في جميع الأحيان تقريباً من طابع زخرفى يلفت الأنظار . ولقد استخدم الأوروبيون مختلف التحف الإسلامية من نسيج وسجاد وعاج وزجاج ومعادن وبلور صخرى وأخشاب وغير ذلك . وازدهرت التجارة في هذه المنتجات الفنية الإسلامية التى أقبل على شرائها واستعمالها أثرياء الأوروبيين لجودتها واتخذوها مظهراً لغناهم وثرائهم ، ودليلاً على تمتعهم بالذوق الحسن . ومن الطريف أن بعض هذه التحف ارتبط في أذهان الأوروبيين بشئ من القداسة واعتبر تراثاً دينياً مقدساً . ومن أمثلة ذلك معمدانية القديس لويس وعبادة القديسة حنة وبعض أباريق البلور الصخرى وأوانى الاكوامانيل ولا تزال بعض الكنائس والأديرة تحتفظ ببعض التحف الإسلامية كتراث مقدس . ودخل الخط العربى أوروبا أيضاً عن طريق الصناعات التى تفوق فيها العرب وأخذها عنهم الأوروبيون إذ استتبع ذلك في كثير من الأحيان انتقال أساليب الصناعة نفسها والزخارف المستخدمة فيها بما في ذلك الزخرفة بالخط العربى .

ويرجع تأثير الخط العربى في أوروبا إلى عصر مبكر إذ حرص بعض الملوك الأوروبيين على الكتابة بالخط العربى على عملاتهم في القرن ٨م ، كما يتضح من العملة الذهبية التى سكها الملك أوفاملك مرسية ويلاحظ أن هذه العملة تشتمل على كتابة نصها « لا اله الا الله وحده لا شريك له » على أحد الوجهين و « محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » على الوجه الآخر ، وذلك بالإضافة إلى تاريخ ١٥٧هـ / ٧٧٣م ، ويستدل من صيغة هذه الكتابات الإسلامية الصرفة أنها منقولة دون وعى من دينار إسلامى كان هو نفسه النموذج الذى سكت منه العملة المسيحية .

غير أن الخط العربى وجد عن وعى على عملات مسيحية أخرى ترجع إلى عصر النورمان بصقلية ومن أمثلة ذلك ربع دينار باسم الملك غليالم ملك صقلية (٥٤٨ - ٥٦١هـ / ١١٥٤ - ١١٦٦م) جاء على وجهه كتابه بالخط الكوفى نصها « الملك غليالم المستعين بالله » .

وهناك نماذج كثيرة من عملات نورمان صقلية صنعت تقليداً للعمالات الإسلامية .
والحق ان العملة الإسلامية وبخاصة الدينار كان يجد رواجاً في أوروبا كعملة لها قيمتها واحترامها^(١٢).

وقام الصليبيون بتقليد السكة الفاطمية ثم الأيوبية في مصر والشام^(١٣)، بل إن البنادقة قاموا بسك نقوداً ذهبية نقشت عليها كتابات وآيات قرآنية بالخط العربى فضلاً عن التاريخ الهجرى وقد أطلقوا عليها اسم النقود البيزنطية العربية Byzantini Saracenati^(١٤).

ولقد امتد تأثير الخط العربى إلى توقيعات بعض ملوك أوروبا وعلاماتهم واشتملت بعض المخطوطات الأوروبية على وحدات زخرفية مستوحاة من حروف عربية فضلاً عن بعض الصلبان ومنها صليب من ايرلندا محفوظ بالمتحف البريطانى بلندن يزخرف وسطه كتابة بالخط الكوفى نصها « باسم الله ».

والحق ان القيمة الزخرفية والجمالية للخط العربى كانت من أهم العوامل التى دفعت الفنانين الأوروبيين إلى ادخال هذا الخط فى مصنوعاتهم ومنتجاتاتهم ؛ ولقد كان هذا الخط فى معظم الحالات مجرد حروف عربية نسخية أو كوفية لا مغزى لها .

هذا وقد انتشرت الزخارف المستوحاة من الخط الكوفى فى منتجات الفنون التطبيقية من مختلف المواد من أخشاب ومعادن وزجاج ورخام ونسيج وغير ذلك .

ومن أشهر المنسوجات المزخرفة بالخط العربى عباءة تتويج روجر الثانى ملك صقلية

(١٢) الباشا ، أثر الخط العربى فى الفنون الأوروبية ، ضمن كتاب حلقة بحث الخط العربى ، القاهرة (١٩٦٨م) ، ص ١٠٩ - ١١٤ ؛ موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ، مج ٣ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٦ .
(١٣) النبراوى ، رأفت محمد ، النقود الصليبية فى الشام ومصر ، القاهرة (١٩٩٦م) ، (٢٩٤ صفحة فضلاً عن اللوحات) ؛ فهمى ، النقود الصليبية تحت تأثير النقود الإسلامية فى الشرق العربى ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، السنة السادسة ، العدد السادس (١٤٠٢ / ١٤٠٣هـ) ، ص ٢٧٧ - ٢٩٨ .

(١٤) فهمى ، النقود العربية ، ٦٨ ؛ أثر التراث الإسلامى فى الحضارة الأوروبية ، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، السنة ٦ ، العدد ٢ ، القاهرة (١٩٦٦م) ، ص ٢٢ .

١١٣. ١١٥٤م المؤرخة بعام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م ومن العمائر التي تزدان بزخارف من الخط العربى سقف كنيسة الكابلا بلاتينا فى بالرمو بصقلية ، ومنها إحدى بوابات كاتدرائية البوى بوسط فرنسا وتكرر فيها عبارة « الملك لله » كما سبق القول ؛ ومنها الباب الشهير بكنيسة القديس بطرس بالفاتيكان والذي يحتشد بالكتابات العربية على مصراعيه .

كذلك ظهر أثر الخط العربى فى الفنون التشكيلية الأوروبية خلال عصر النهضة فقد حرص العديد من الفنانين والمصورين على استخدام الخط العربى (الكوفى أو النسخى) فى أعمالهم ومن بينهم بيزانلو وجنتيلى دافيريانو ، وجيوتو وفيليبوليبى ، أما فيروكيو فقد استخدم الخط العربى فى تمثاله البرونزى داود المحفوظ فى البارجيلو فى فلورنسا وذلك على هيئة أشرطة من الخط النسخ المملوكى تزخرف حواف الثوب الذى يرتديه داود .

كذلك ظهرت السجاجيد الإسلامية من طراز معين فى لوحات بعض المصورين كما هو الحال فى لوحات المصور المشهور هانس هولباين الأصغر (١٤٧٩ - ١٥٤٣م) وقد أطلق على هذا الطراز من السجاجيد اسم سجاجيد هولباين^(١٥) . (كما سنشير فيما بعد) (لوحة ٣٢٤) .

الفنون الزخرفية :

- النسيج :

كانت قطع النسيج الإسلامى تستخدم لحفظ مخلفات القديسين المسيحيين فى العصور الوسطى ، وكان ينظر إليها فى بعض الأحيان نظرة تبجيل ، كما كانت تربط أحيانا بطريقة خاطئة بأشخاص ينتمون إلى عصور تاريخية سابقة ، ومن أمثلة ذلك نقاب القديسة آن (Anne) المحفوظة فى زجاجة من البندقية يرجع تاريخها إلى القرن ٩هـ / ١٥م) ضمن مقتنيات كنيسة ابت (Apt) فى بلدة فوكلوز (Vaucluse)

(١٥) الباشا ، أثر الخط ، ص ١١٣ - ١٢٠ ؛ السامرائى ، عبد الجبار محمود ، أثر الخط العربى فى الفن الأوروبى ، المورد ، المجلد ١٥ ، العدد الرابع ، بغداد (١٩٨٦م) ، ص ١٠٤ - ١١١ ؛ العبيدى ، الآثار العربية ، ص ٤٧٦ - ٤٨٦ .

بفرنسا ، وفي هذه الحالة نتبين استحالة صحة التاريخ الذي يزعمون أن هذه القطعة المنسوجة قد صنعت فيه ؛ لأنها تتضمن طرازاً باسم الخليفة الفاطمي المستعلي (٤٨٧ - ٤٩٥هـ / ١٠٩٤ - ١١٠١م) ووزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي ويتضمن أيضاً أنها نسجت في طراز الخاصة بدمياط سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م (١٦).

ومن هذه القطع أيضاً ما يعرف بنقاب السيدة العذراء المحفوظ الآن في كنيسة شارتر قرب باريس وهو في الأصل قطعة نسيج مبكرة عليها رسم لطائر واستخدمت غطاء لهذا النقاب (١٧).

ومن أجمل القطع التي تعكس التأثير الإسلامي عباءة التتويج الخاصة بالملك روجر (رجار) الثاني المحفوظة بمتحف كنوز الدولة بفينا والمؤرخة بعام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م (كما سبق القول) وهي منسوجة من الكتان المطرز بالحرير المذهب واللالتي علي أرضية حمراء وتأخذ هيئة نصف دائرية تقريباً تتضمن نقشاً زخرفياً مكرراً قوامه أسد يفترس جملاً ويتوسط النقش نخلة مثمرة ؛ وهذا النقش ما هو إلا تعبير زمزي لاستيلاء التورمان علي جزيرة صقلية من المسلمين ، وعلي الحافة نقش كتابي نفذ بالخط الكوفي يتضمن بنهايته تاريخ ومكان النسيج وهو مدينة صقلية عام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م (١٨).

وليس أدل علي أهمية هذه العباءة من أنها صارت عباءة التتويج لأباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة حتي عام ١٨٠٦م ، وبما له دلالة أن هذه العباءة تظهر في لوحة رسمها البريخت ديورر تمثل شارلمان متدثراً بها (١٩).

وهناك قطع كثيرة تثبت أن النسيج الإسلامي قد أصبح نموذجاً ينسج علي منواله

(١٦) اتنجهاوزن ، أثر فنون ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ ؛ ولزيد من التفاصيل عن هذه القطعة انظر ،

حسن ، فنون ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٦ ؛ عبد الرازق ، الفنون الإسلامية حتي نهاية العصر الفاطمي ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

Guest, R., Veil of Saint Anne, The Burlington Magazine, vol 68, (1936), PP. 140 - 145 .

(١٧) اتنجهاوزن ، الفن والآثار الإسلامية ، ص ١٨ شكل ٤ .

(١٨) حسن ، فنون الإسلام ، ص ٣٦٠ ؛ ديمان ، الفنون الإسلامية ، ص ٢٧٤ ؛ رسلان ، الحضارة الإسلامية في صقلية ، ص ٨٩ - ٩١ ؛ عبد الرازق ، الفنون الإسلامية حتي نهاية العصر الفاطمي ، ص ١٩٧ .

(١٩) اتنجهاوزن ، أثر ، ص ٤٥٠ - ٤٥١ .

مع التصرف وان كان ذلك التصرف محدوداً ، ويتمثل ذلك في أشكال الجمامات الدائرية وبداخلها زوجين من الحيوان وفي الأشكال البيضاوية وغير ذلك ، وخلال العصر العثماني حدث نوع من التأثير المتبادل بين النساجين الأتراك والإيطاليين ، ولا تفوتنا الإشارة كذلك إلى الأحزمة البولندية ، وهناك تأثير متأخر للنسيج الإسلامي ظهر في النصف الثاني من القرن ١٩م في تصميمات وليم موريس (+ ١٨٩٦م) (١٩).

وصفوة القول أن المنسوجات الإسلامية قد لعبت دوراً هاماً في أوروبا ، وليس أدل علي ذلك من تلك الألفاظ التي تنطلق علي تلك المنسوجات في اللغات الأوروبية ومنها فستيان Fustian (نسبة إلى مدينة الفسطاط أولي عواصم مصر الإسلامية) والدمكس Damasks (نسبة إلى مدينة دمشق) وموسولينا Mussolina أو مسلين Muslin (نسبة إلى مدينة الموصل) و Baldacco (نسبة إلى بغداد وكان اللفظ يطلق علي المنسوجات الحريرية الفاخرة) و Baldacchino (نسبة إلى بغداد أيضاً وكان اللفظ يطلق علي المظلة الحريرية التي كانت تعلق علي المذبح في كثير من الكنائس) و Grenadines (نسبة إلى غرناطة) و Tabis أو Taby (نسبة إلى حي العتابية Atabiyah ببغداد وقد اشتهر بنسج الحرير العتابي وكان هذا الحرير يتميز بتموجات غير منتظمة ، ولا يزال هذا الاسم يطلق علي نوع من القطط التي يشبه لونها لون الحرير العتابي أو لأن فيه خطوط وتوشيم مثل الحرير العتابي ، ومن ثم يطلق عليها Tabby Cat) ومنها ديميتي Dimiti (نسبة إلى مدينة دمياط علي نحو ما تري ديفونشير) (٢١).

(٢٠) اتنجهاوزن ، أثر ، ص ٤٥١ - ٤٥٣ ؛ كريستي ، الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الأوروبية ، ضمن تراث الإسلام ، ترجمة زكي محمد حسن ، دمشق ، طرابلس (١٩٨٤م) ص ٦٦ - ٦٧ ، ٦٩ - ٧٢ ؛ (فضلاً عن المراجع والأبحاث المذكورة من قبل عن أثر الفن الإسلامي في بولندا لكل من مانكوفسكي وزكي محمد حسن) .

(٢١) كريستي ، الفنون الإسلامية الفرعية ، ص ٦١ - ٦٤ ؛ المختار ، فريال داود ، المنسوجات العراقية الإسلامية ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٧٨ ؛ Devonshire, R., Quelques influences Islamiques sur les Arts de Europe, le Caire (1935), P.

جودي ، محمد حسين ، ابتكارات العرب في الفنون وأثرها في الفن الأوروبي في القرون الوسطي ، عمان (١٩٩٦م) ، ص ٤٥ ؛ العبيدي ، الآثار العربية الإسلامية ، ص ٤٨٨ - ٤٩٢ .

أما نسيج القباطي (Tapestry) الشهير فقد أخذت أوروبا تنتجه تحت أسماء أخرى مستعارة هي : جوبلان وهو اسم لمصانع فرنسية اشتهرت بنسيج القباطي كان قد أنشأها أول الأمر جيل وجين جوبلان في باريس عام ١٤٥٠م كمصانع للصبغة ثم استعملت بعد ذلك في نسيج القباطي في القرن السابع عشر وبالتحديد عام ١٦٦٢م عندما اشترى تلك المصانع Colbert لحساب الحكومة، وأصبحت تنتج منسوجات القباطي ذات المناظر التصويرية .

والاسم هو الأبيسون Aubisson نسبة إلى مدينة أبيسون احدي ضواحي باريس والتي اشتهرت بنسيج القباطي ذي المناظر التصويرية منذ القرن ١٥م (٢٢).

- السجاد :-

وصلت إلى أوروبا عن طريق التجار الكثير من السجاجيد الشرقية من تركيا ومصر وإيران والقوقاز والهند ، وظهرت في العديد من التصاوير الأوروبية الايطالية والألمانية اما مفروشة تحت عرش السيدة العذراء داخل الأماكن التي كانت تقام فيها الطقوس والصلوات ، واما نراها متدلية من النوافذ كزينة زاهية تعرض علي الناس في أيام الأعياد ، ثم لم تلبث أن أصبحت هذه السجاجيد تؤدي وظيفة جديدة كما يستدل من اللوحات المرسومة أيضاً إذ استخدمت كمفارش للموائد وأطلق عليها في الوثائق الايطالية سجادة المائدة (Tepedi da Tavola) أو سجادة الأكل (Tapedi da De-sco) ، وليس أدل علي أهمية هذا النوع من السجاجيد من أنها كانت تقدم كنوع من أنواع الهدايا الدبلوماسية .

ومن هذه السجاجيد التي صنعت في مصر العثمانية وأرسلت إلى أوروبا ما كان منها علي هيئة مربعة أو مدورة أو علي هيئة صليب ؛ وربما كان ذلك بناءً علي طلب خاص تلبية لرغبات أوروبية محددة ولا سيما لهذا النوع الذي يستخدم مفارش للموائد

(٢٢) ماهر ، النسيج الإسلامي ، ص ١٠٢ ؛ وما تجب الإشارة إليه أن الدكتور مرزوق يطلق علي نسيج التابستري مصطلح الزخرفة المنسوجة (وهو ما سنعود إلي مناقشته في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى)

ولقد ظهرت علي السجاجيد الرنوك - أي شعارات الأسر النبيلة - ومن هذه السجاجيد ما صنع في قاشان (ايران) وعشاق (تركيا) والقاهرة والهند ، وكان وضع هذه الرنوك يتم في أغلب الاحيان بناءً علي طلب خاص ويؤيد ذلك تلك السجادة التي صنعت في قاشان عام ١٠١١هـ / ١٦٠٢م يطلب من الملك سيجسموند الثالث ملك بولندا .

وأنشئت في أوروبا في بولندا وإيطاليا وإسبانيا بل وفي بروسيا الشرقية مصانع لتقليد السجاجيد الشرقية ؛ وفي بعض الأحيان كان التقليد يتم بأمانة تامة ، ولا ننسي أيضاً تصميمات وليم موريس في النصف الثاني من القرن ١٩م التي اعتمدت علي الأصول الشرقية بصورة مقصودة^(٢٣) .

- المعادن :-

هناك دلائل علي وجود قطع من المعادن الإسلامية في أوروبا وعلي ما خلفته من أثر ومنها جريفين بيزا المعروف بعقاب بيزا أو العنقاء نسبة إلي مدينة بيزا بإيطاليا وينسب إلي مصر في القرن ٥هـ / ١١م ، وهو يعد من أقدم النماذج التي وصلت إلي أوروبا وأشهرها^(٢٤) .

ومنها معمدانية القديس لويس وهي من القطع الشهيرة أيضاً ، وقد ظلت هذه القطعة مجرد تحفة عجيبة علي الرغم من ظهور أسطورة قرب نهاية ق ١٨م تربط القديس لويس الذي اشتهر في الحروب الصليبية بهذا الطست الكبير المطعم الذي كان قد صنع أصلاً في مصر أو الشام حوالي سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م^(٢٥) .

ومنها طست السلطان الصالح نجم الدين أيوب المحفوظ الآن في قاعة فريير للفن بواشنطن^(٢٦) .

-
- مرزوق ، الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ، القاهرة (١٩٤٢م) ، ص ٧٣ - ٧٤ .
- (٢٣) اتنجهاوزن ، أثر فنون ، ص ٤٥٣ - ٤٥٧ ؛ كريستي ، الفنون الإسلامية الفرعية ، ص ٧٢ - ٧٤ ، ٧٦ .
- (٢٤) عن هذا الكائن الخرافي الذي استخدم كعنصر زخرفي في الفن الإسلامي انظر ، رمضان ، حسين مصطفى ، جريفين (Griffin) في الفن الإسلامي ؛ « سيمرغ » العنقاء في الفن الإسلامي ، مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة ، العدد السادس (١٩٩٥م) ، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ .
- (٢٥) اتنجهاوزن ، أثر فنون ، ص ٤٥٨ .
- (٢٦) عن هذا الطست انظر ، سالم ، عبد العزيز صلاح ، الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي ، ج ١ ، التحف المعدنية ، القاهرة (١٩٩٩م) ، ص ١٥٨ - ١٦٢ .

هذا ونستطيع أن نجمل أثر المعادن الإسلامية في أوروبا في النقاط التالية :

١ - تقليد الاسطرلابات الإسلامية تقليدًا دقيقًا .

٢ - تقليد التحف المعدنية المكففة في البندقية من أواخر ق ٩هـ / ١٥م إلى النصف الأول من القرن ١٠هـ / ١٦م وتمثل ذلك في ظهور عدد من الطسوت والقصاص والأطباق الكبيرة والأباريق والشماعد ، ويحتمل أيضًا أن بعض المدن الإيطالية الأخرى قد قامت بتقليد هذه التحف المعدنية الإسلامية المكففة ، وازدانت هذه التحف بالرنوك أيضًا ومنها رنك أسرة أوكي دكاني (Occhi di Cani) من فيرونا ، وعلي بعض التحف وجد توقيع لأحد الصناع الإيرانيين وهو محمود الكردي (٢٧).

- الاكوامانيل :-

علي الرغم من صغر حجم هذه القطع المعدنية ، وأنها لم تكن في شهرة القطع الكبيرة السابق الإشارة إليها ، إلا أنه كان لها تأثير محدد ؛ بل إنه في بعض الأحيان نجد أن النموذج الأصلي لهذه القطع غير معروف ، إلا عن طريق القطع التي صنعت علي منواله ، وكانت هذه القطع تستخدم لصب الماء (٢٨).

- الخزف :

ترك الخزف الإسلامي هو الآخر أثره في أوروبا وبصفة خاصة الخزف الأندلسي ذي البريق المعدني والذي صار في القرن ٨هـ / ١٤م موضع تقدير كبير ليس في أوروبا وحدها ، وإنما في الأقطار الإسلامية أيضًا ، وهو ما تؤكد الدلالة الأثرية الباقية وكانت مدينة بلنسية تصنع العديد من التحف تلبية لطلب أصحاب الحياة المترفة والذوق الرفيع

(٢٧) كريستي ، الفنون الإسلامية الفرعية ، ص ٣٢ - ٣٥ ؛ اتنجهاوزن ، أثر فنون ، ص ٤٦١ - ٤٦٢ ؛ جودي ، ابتكارات العرب ، ص ٨٥ - ٨٧ .

(٢٨) اتنجهاوزن ، أثر فنون ، ص ٤٥٩ - ٤٦٠ ؛ كريستي ، الفنون الإسلامية الفرعية ، ص ٢٥ ؛ ولمزيد من التفاصيل انظر ، آلان ، جيمس ، تأثير المشغولات المعدنية في منطقة البحر المتوسط العربية علي مثيلاتها في أوروبا العصور الوسطي ، ضمن كتاب التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطي ، ص ٦٣ - ٩٢ .

سواء اسبانيا نفسها أو في أوروبا ومن بين هؤلاء في أوروبا أسرة المديتشي في فلورنسا وملك نابولي وأدواق بيرغنديا بل والبابا ليو العاشر ، ومن ثم كانت هذه التحف تزين برنوك هؤلاء ، وبعد ذلك انتقلت هذه الصناعة إلى إيطاليا وتم إتقانها بدرجة كبيرة .

ولا ننسى أيضاً تلك الأواني المعروفة عند الإيطاليين باسم الباريلو (Albarello) وقد يكون هذا الاسم مشتقاً من اللفظ العربي البرنية بمعنى وعاء لحفظ الأدوية وهو يدل على الغرض الذي استعملت من أجله هذه الأواني في الشرق والتي ظلت تستعمل من أجله في إيطاليا ، وكانت تشاهد في إيطاليا خلال القرن ١٥م في الصيدليات كثير من هذه الأواني مملوءة بالأدوية والمحفوظات المستوردة من الشرق .

ثم لم تلبث أن تطورت هذه الأواني واكتسبت طابعاً إيطالياً مغايراً لطابعها الشرقي السابق ، كما هو الحال في منتجات مدينة فاينزا (Faenza) ، كذلك فإن بعض المنتجات الخزفية الشرقية كانت تستخدم للمخلفات المقدسة وبعضها الآخر يشغل مكان الصدارة في الكنائس الإيطالية أما في الواجهة الرئيسية للكنيسة أو في برج الأجراس ومن أمثلة ذلك تلك الأواني المعروفة بطراز البتشيوني Bacini والراجح أنها تنتمي إلى الخزف المصري ، ومن القطع الشهيرة أيضاً تلك القطعة (كانت محفوظة في كنيسة سان جيرولامو وكانت في الأصل في كنيسة القديسة اناستاسيا وهي الآن في المتحف المقدس في الفاتيكان) المعروفة بكأس القربان (Chalice) (٢٩).

- الزجاج :-

كانت التحف الزجاجية الإسلامية تصل إلى أوروبا وتستقر في الكنائس والكاتدرائيات والأديرة ، وتحظى بتقدير كبير إذ كان يظن أنها هدايا من الصليبيين أو من شارلمان نفسه زيادة في التعظيم ، ومن أشهر هذه الزخائر الإسلامية في الكنائس الأوروبية قارورة زجاجية موهة بالمينا ترجع إلى حوالي ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م وهي في كنيسة القديس اصطفان في فينا ، ومنها أيضاً التحفة المعروفة بحظ ادينهول (Luck of Edenhall) كما أن التحف المصنوعة من البلور الصخري ، رغم أنها صنعت أصلاً

(٢٩) كريستي ، الفنون الإسلامية الفرعية ، ص ٤٦ - ٤٩ ؛ اتنجهاوزن ، أثر فنون ، ص ٤٦٦ - ٤٦٨ ؛ جودي ، ابتكارات العرب ، ص ٧٣ - ٧٥ .

للأغراض المدنية ، الا أنها أصبحت في أوروبا تستخدم لحفظ المخطوطات المقدسة كما هو الحال في التحف المحفوظة في ذخائر كنيسة القديس مرقس والقديس لورنزو في فلورنسا حيث نجد واحدة منها تحتوي علي أثر ديني يعادل في مكانته الدم المقدس ، كما أن قطع البللور الصخري نظراً لصلابتها ونفاذ الضوء فيها غدت ترمز إلي سر ولادة العذراء .

ونجح صناع البندقية في تقليد التحف الزجاجية الإسلامية المموهة بالمينا ؛ حتي أن هذا الفن لم يعد حكراً علي الصناع المسلمين بدليل أن البندقية كانت تصدر مثل هذا الزجاج إلي الشرق ؛ إلا أن هذا لا يعني عدم وجود نماذج مقلدة غير متقنة ومن هذه الأخيرة مشكاة باسم السلطان قايتباي محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة^(٣٠).

- التجليد :-

- يتمثل أثر التجليد الإسلامي في أوروبا في النقاط التالية :
- احلال الورق المقوي محل الخشب مادة داخلية لجلد الكتاب .
- استعمال الغلاف الذي يصنع علي هيئة الصندوق ، فضلا عن اسلوب الزخرفة وعناصرها .
- طريقة ملء الزخارف الغائرة الناتجة عن الضغط بماء الذهب ، ثم لم تلبث أن حلت محلها طريقة أخرى في أواخر ق ٩هـ / ١٥م وهي التذهيب بصفائح رقيقة من الذهب تلصق علي الجلدة بآلة ساخنة .
- اللسان المستعمل في كافة أغلفة الكتب^(٣١) . وذلك لحماية الأطراف الأمامية من الكتاب .

(٣٠) كريستي ، الفنون الإسلامية الفرعية ، ص ٥٣ - ٥٦ ؛ اتنجهاوزن ، أثر فنون ، ص ٤٦٨ - ٤٧٢ ؛ العبيدي ، الآثار العربية ، ص ٤٩٦ - ٤٩٨ ؛ جودي ، ابتكارات العرب ، ص ٧٩ - ٨١ .

(٣١) كريستي ، الفنون الإسلامية العربية ، ص ٨٧ - ٩٢ لوحة رقم ٢٠ ؛ اتنجهاوزن ، أثر فنون ، ص ٤٧٢ .

٤٧٣ ؛ القصيري ، اعتماد يوسف ، فن التجليد عند المسلمين ، بغداد (١٩٧٩م) ، ص ٨٧ - ٩٠ ؛

Ettinghausen, Near Eastern Book Covers and their influence on European Bindings, Ars Orientalis, vol 3, (1959), PP. 121 - 130 .

- التصوير الأوروبي :-

يتمثل أثر الفن الإسلامي في التصوير الأوروبي في النقاط التالية :

- استعارة الموضوعات الشرقية في أعمال الزخرفة ، كما هو الحال في مدرسة التصوير الايطالية في سينا (Siena) وزاد وضوحا في الفن التوسكاني فظهرت الصور المعممة والوجوه ذات السحنة الشرقية في الصور الايطالية منذ النصف الثاني من القرن ١٤ م .

- رسوم السجاجيد ورسم المنسوجات والملابس الشرقية علي الأشخاص حتي علي الذين يلعبون منهم دوراً رئيسياً في الصورة ، كما يبدو هذا التأثير أيضاً في ادخال الحيوانات غير المعروفة في الغرب كالفهد والقردة والببغاوات ، وتري كذلك في رسم المناظر الطبيعية تفصيلات أشجار وأوراق نباتية يظهر أنها تقليد مقصود لرسوم شرقية .

- استعمال الحروف العربية في أغراض الزخرفة في فن التصوير ، وقد ظهر ذلك في التصوير الايطالي منذ أيام جيوتو ، وتبعه غيره مثل فرانشيليكو وفرا ليبوليبي .

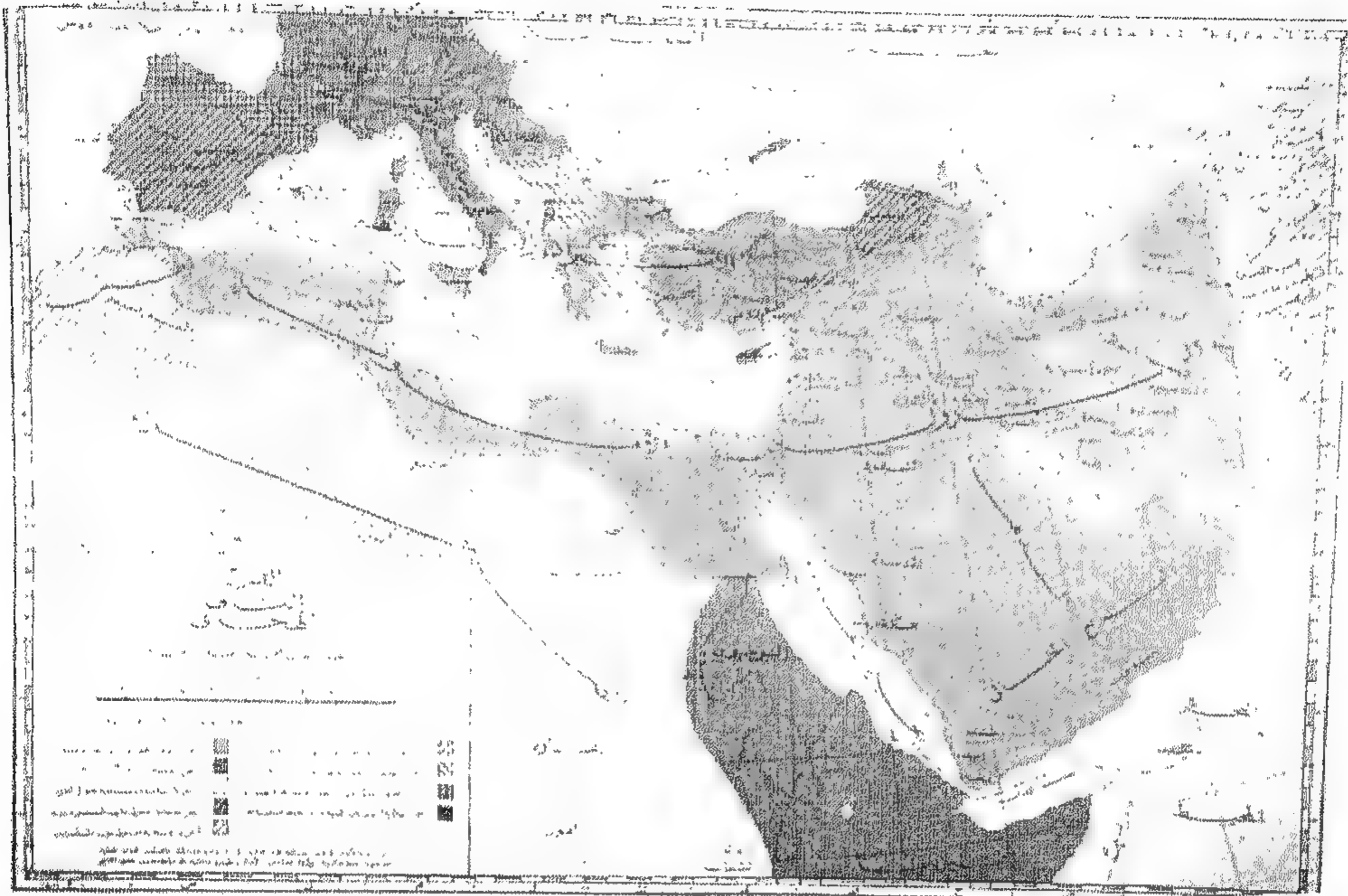
ومن الفنانين الذين كان لهم دور في هذا المجال جنتيلي بليني وهانس هولباين الأصغر ورمبرانت وديلاكروا وباول كاليه وماتيس وبيكاسو وغيرهم^(٣٢) .

ولا تفوتنا الإشارة ايضاً إلي الرنوك الإسلامية وأثرها في أوروبا ؛ فضلاً عن كتب النماذج والتي مكنت الأوروبيين من دراسة أساليب الزخرفة والصناعة الإسلامية دراسة دقيقة ، مما يسرت لهم معرفة قوانين الزخرفة عند المسلمين وتطبيقها في منتوجاتهم وفنونهم كما هو الحال عند الفنان ليوناردو دافنشي ، وهو ما سوف نعود إليه ولغيره تفصيلاً واسهاباً وتحليلاً في كتابنا المفصل بمشيئة الله تعالى .

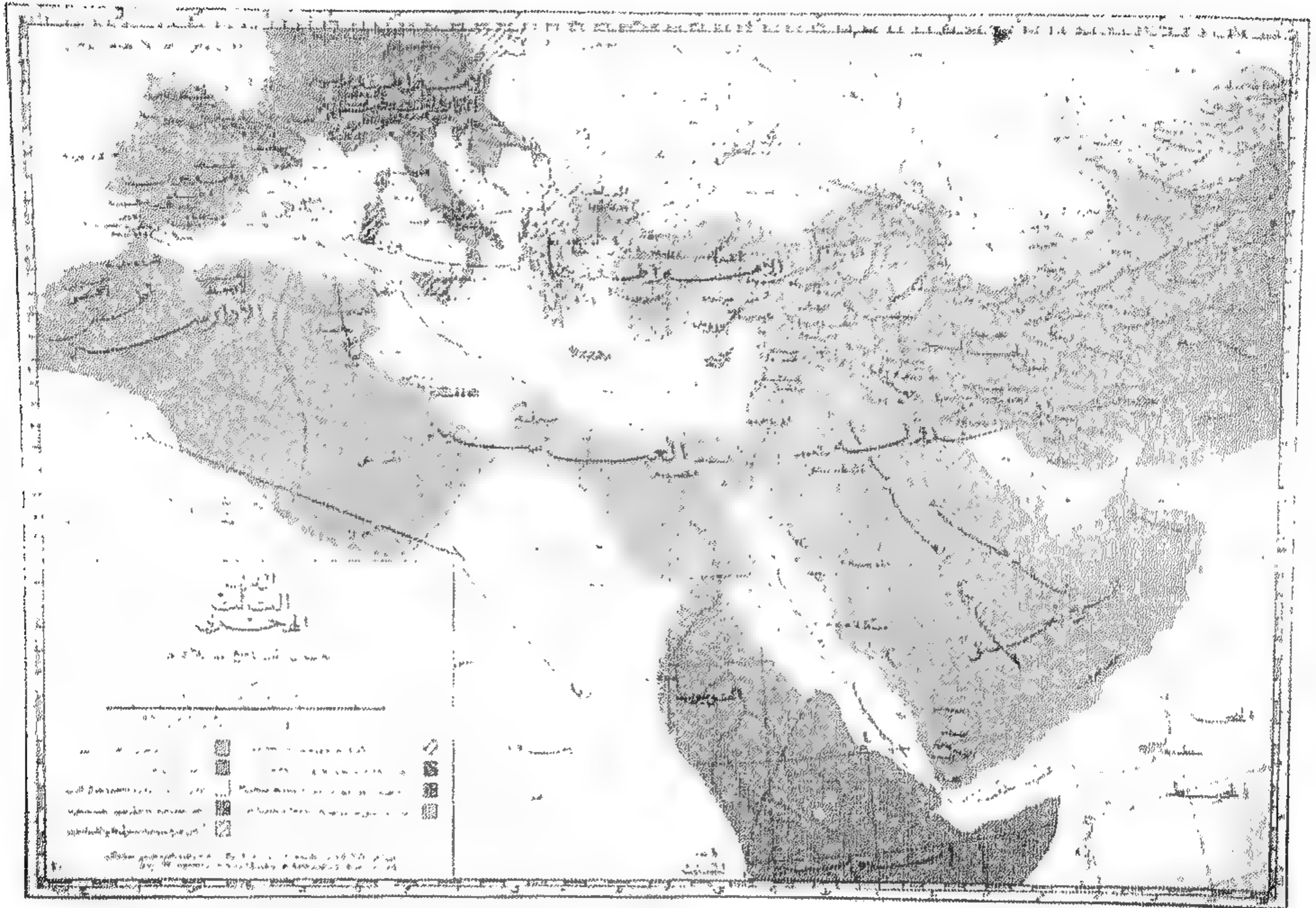
(٣٢) أرنولد ، توماس ، الفن الإسلامي وتأثيره في التصوير في أوروبا ، ضمن كتاب تراث الإسلام ، ترجمة زكي محمد حسن ، ص ١٠٣ - ١٠٨ ؛ اتنجهاوزن ، أثر فنون الزخرفة ، ص ٤٧٣ - ٤٧٥ ؛ الباشا ، دراسات في فن النهضة وتأثره بالفنون الإسلامية ، القاهرة (١٩٩٠م) ، ص ٤٠ - ٤٥ ؛ موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية ، مج ٣ ، ص ١١٥ - ١٢٠ ؛ كليسه ، بريجيتته ، زخارف إسلامية في اللوحات الايطالية ، فكر وفن ، العدد ١٠ ، (١٩٦٧م) ، ص ١٨ - ٢٩ ؛ انعكاسات الفنون الإسلامية علي الفن الألماني ، فكر وفن ، العدد ١٩ ، (١٩٧٢م) ، ص ٤ - ١٥ ؛ البهنسي ، أثر الفن العربي الإسلامي علي الفن الغربي ، فكر وفن ، العدد ٣٥ (١٩٨١م) ، ص ٤٠ - ٥١ .

Soulier G, Les Caracteres coufiques dans La Peinture Toscane, Gazette des Beaux Arts, 66 Année Paris (1924). PP. 347 - 358., Jairazbhoy, R. A., Oriental Influences in Western Art, india, (1965), PP. 68 - 79 .

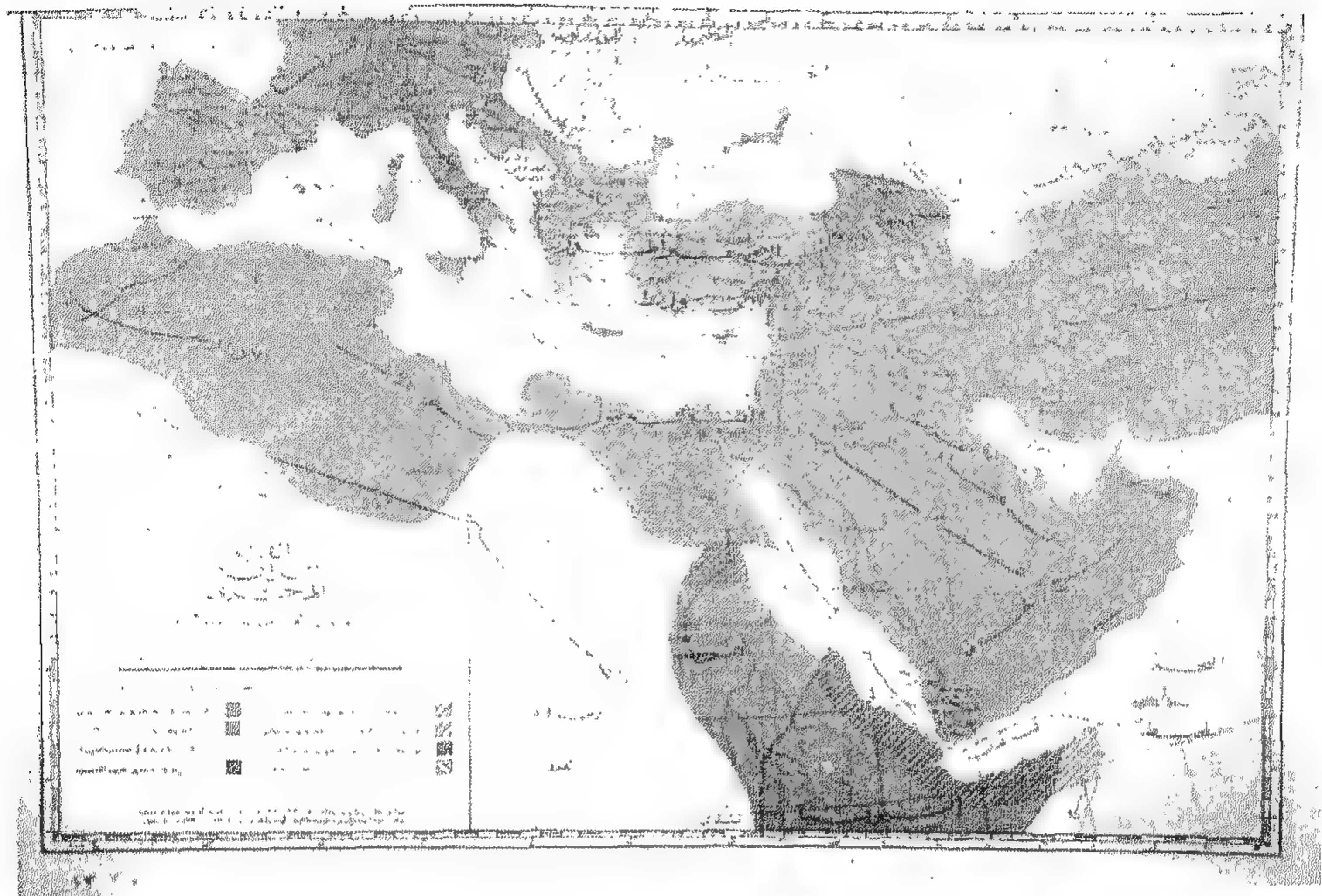
الأشكال واللوحات



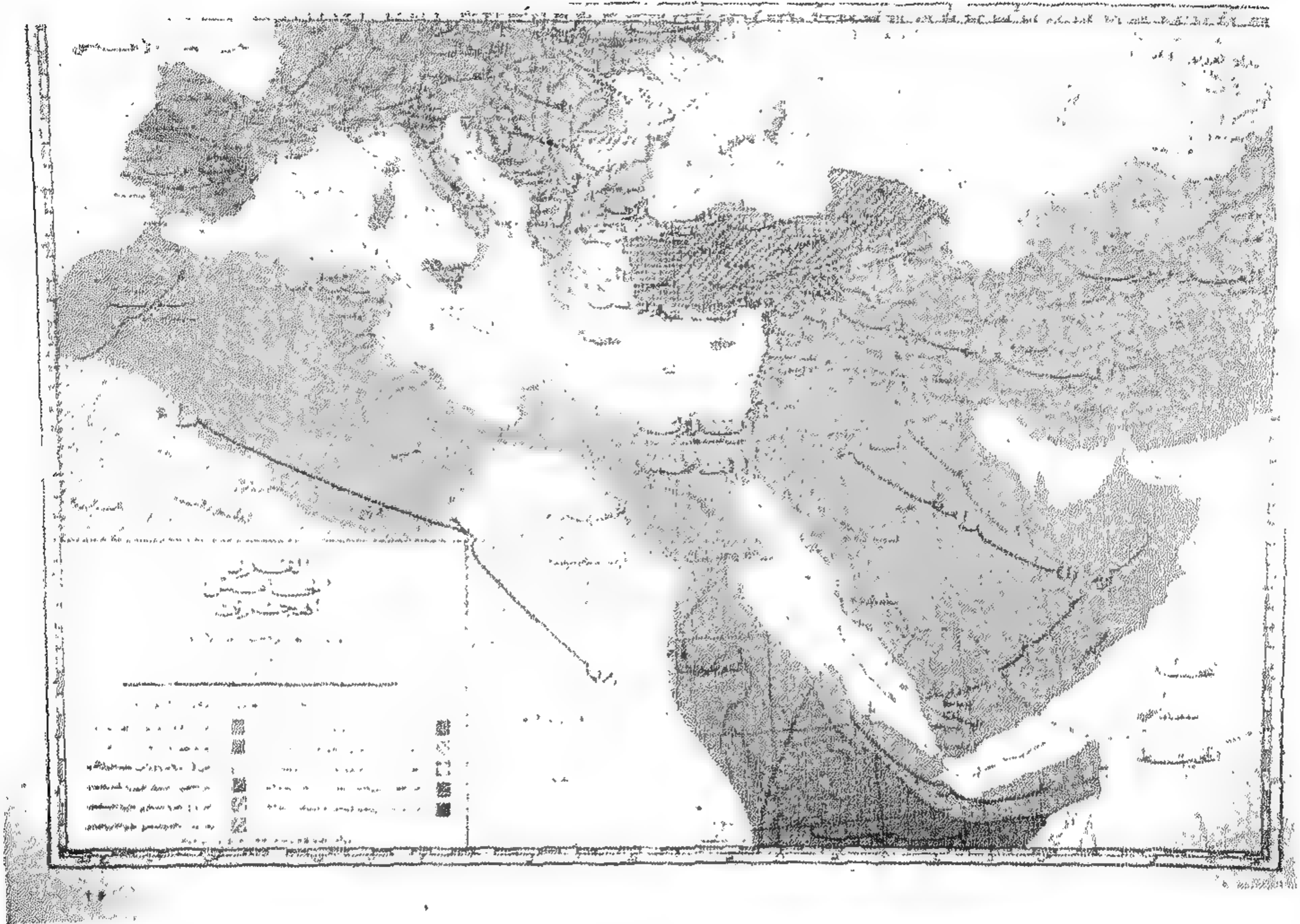
(شكل ٢) خريطة القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي
(عن : سميلي وكوك) .



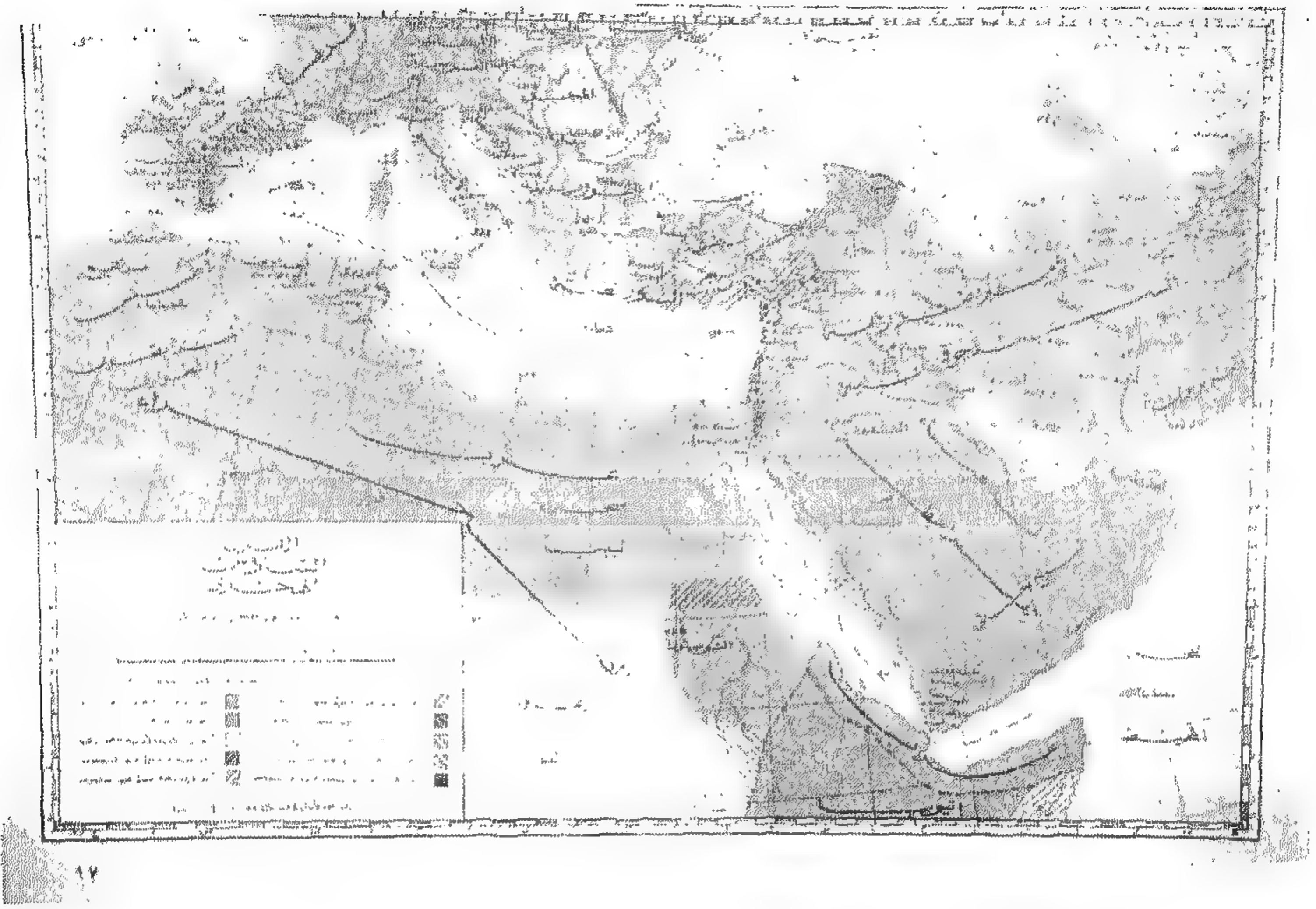
(شكل ٣) خريطة القرن الثالث الهجري/السابع الميلادي
(عن : سميلي وكوك) .



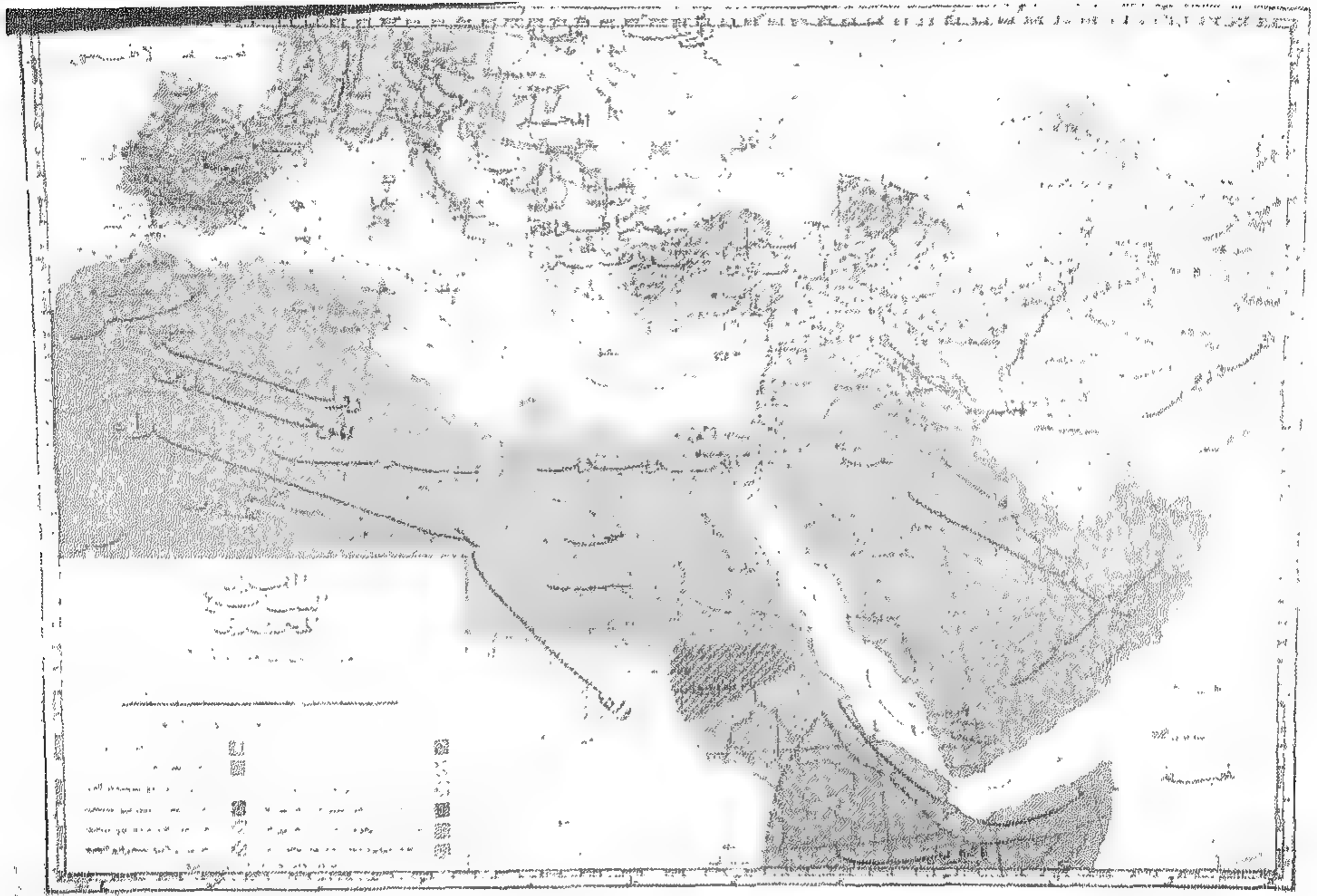
(شكل ٤) خريطة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي
(عن : سميلي وكوك) .



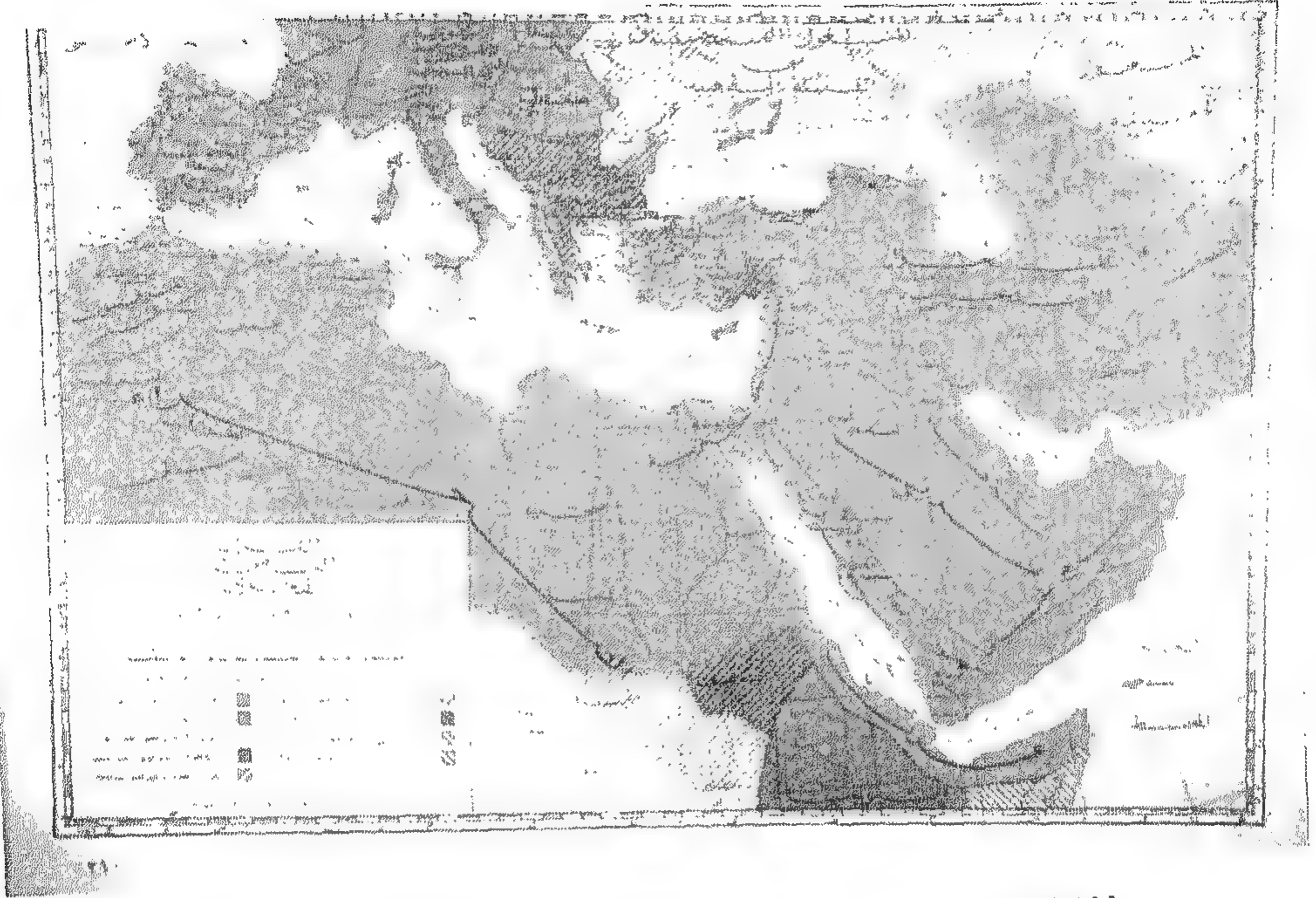
(شكل ٥) خريطة القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي
(عن : سميلي وكوك).



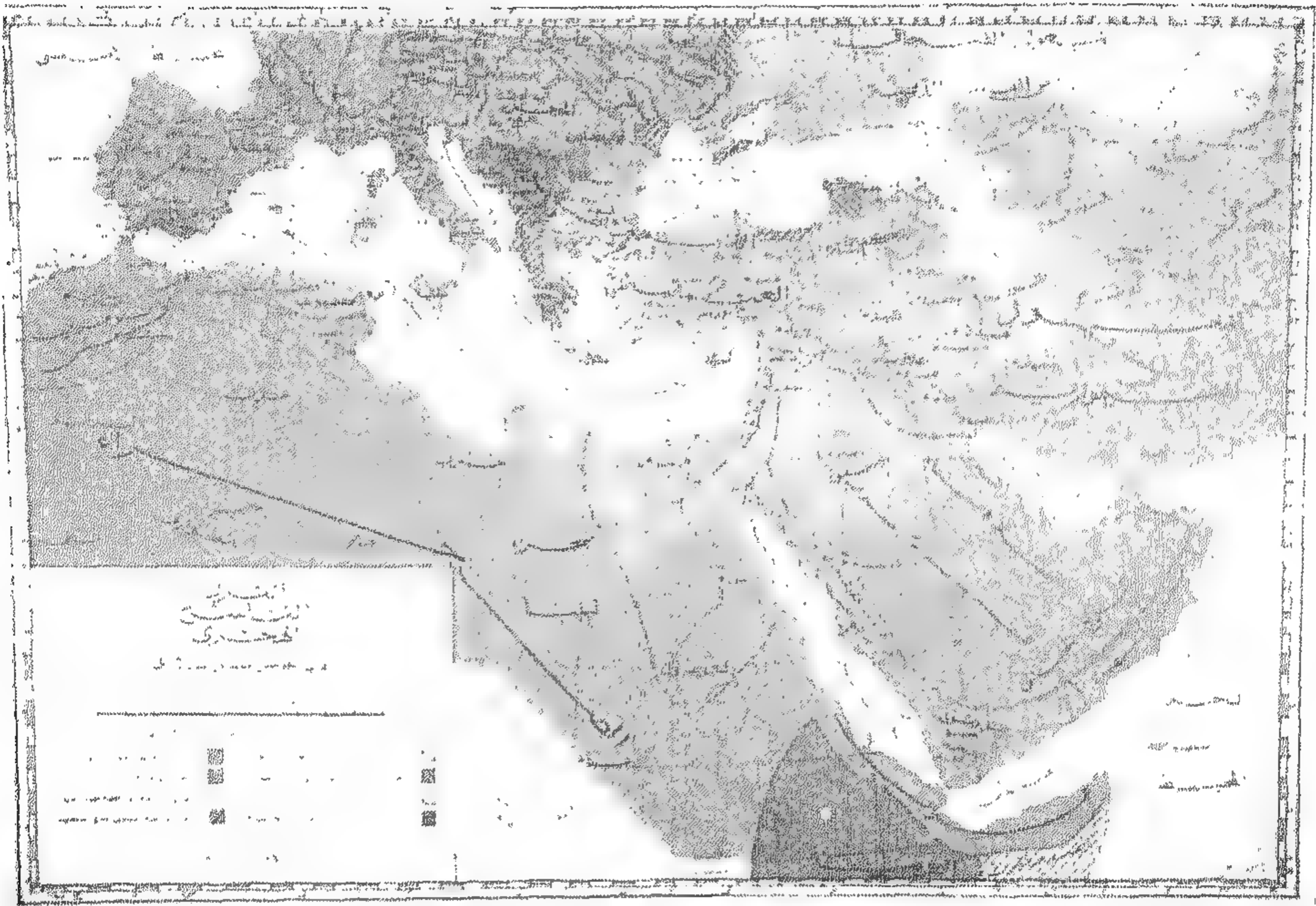
(شكل ٦) خريطة القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي
(عن : سميلي وكوك)



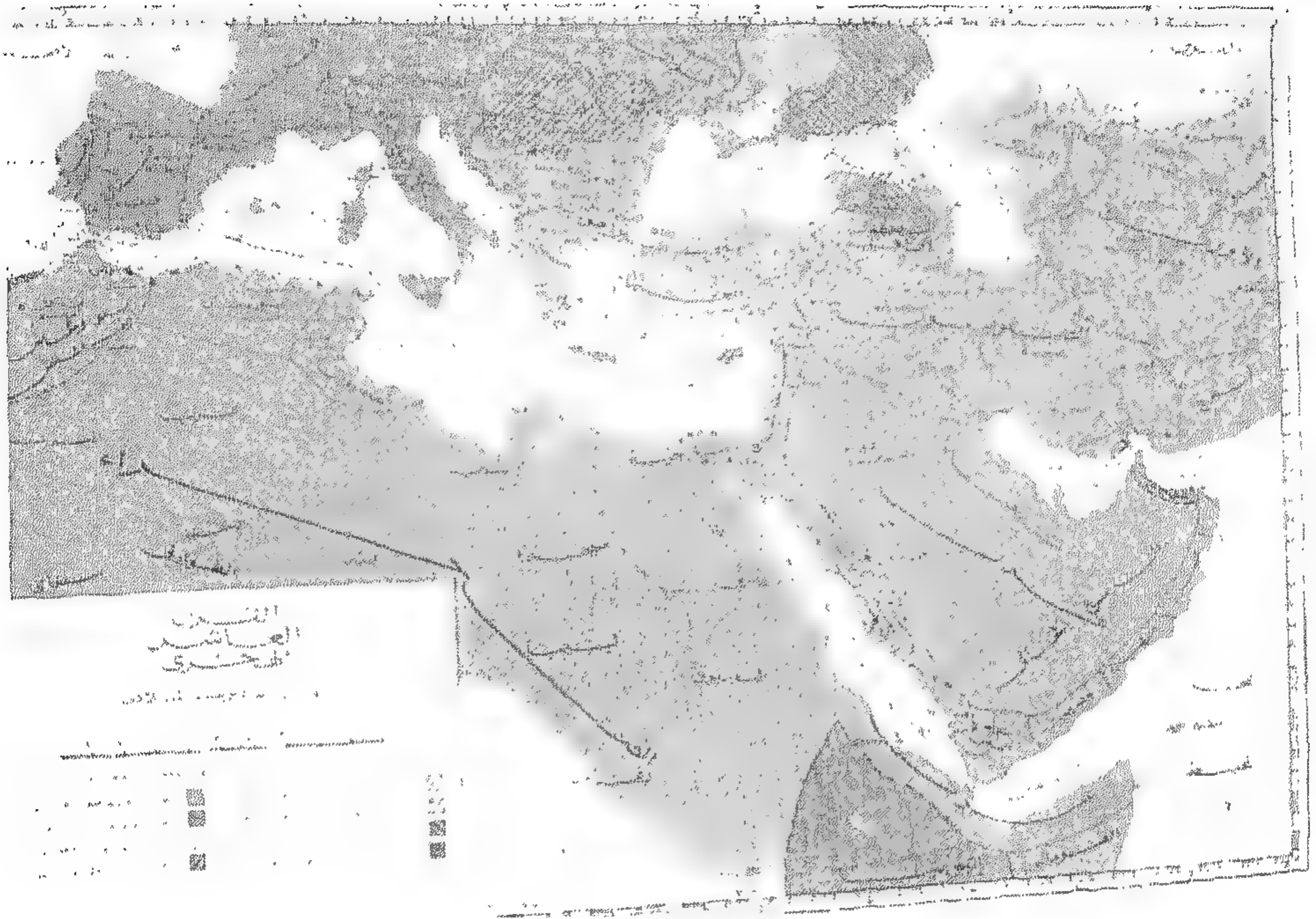
(شكل ٧) خريطة القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي
(عن : سميلي وكوك) .



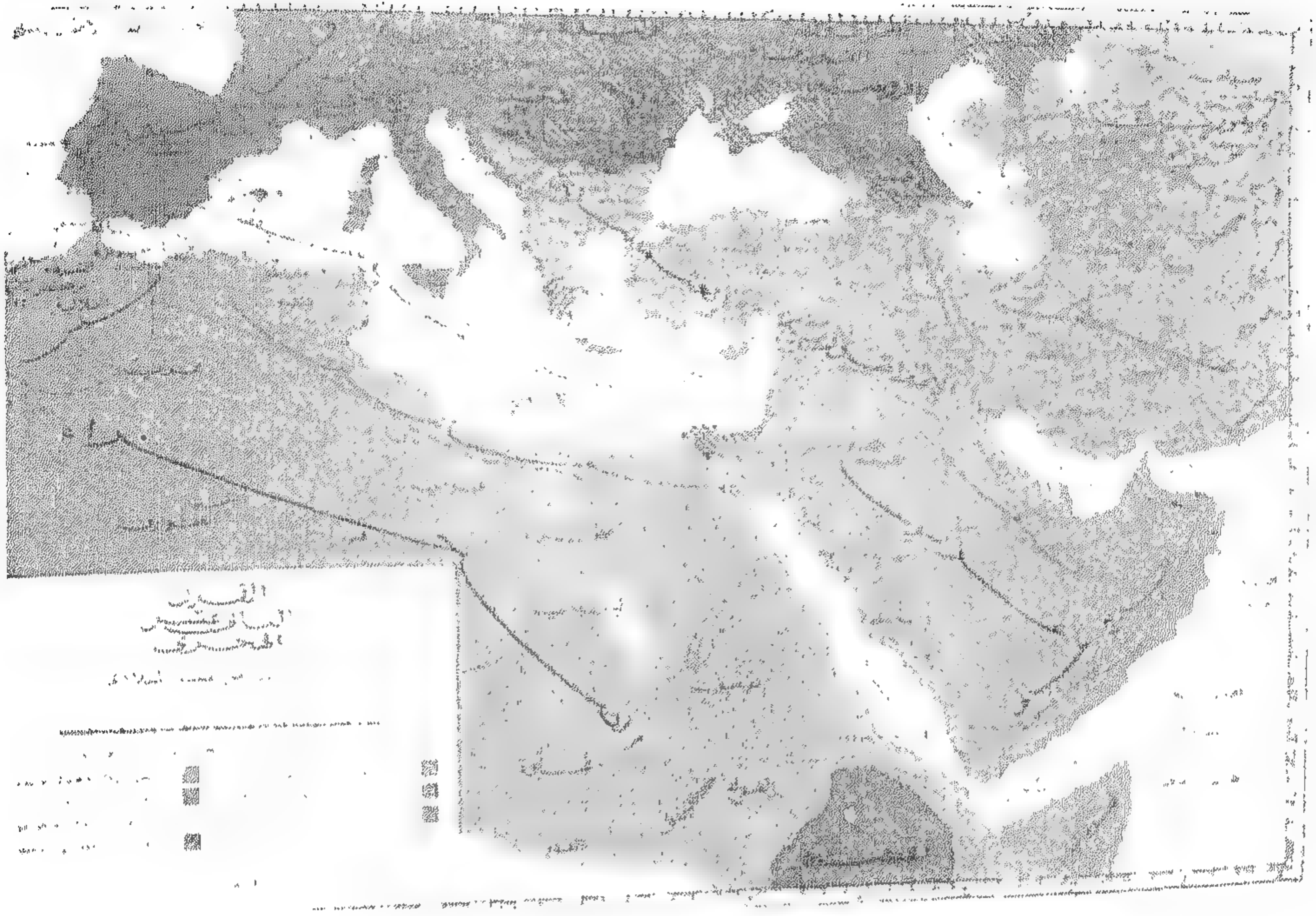
(شكل ٨) خريطة القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي
(عن : سميلي وكوك).



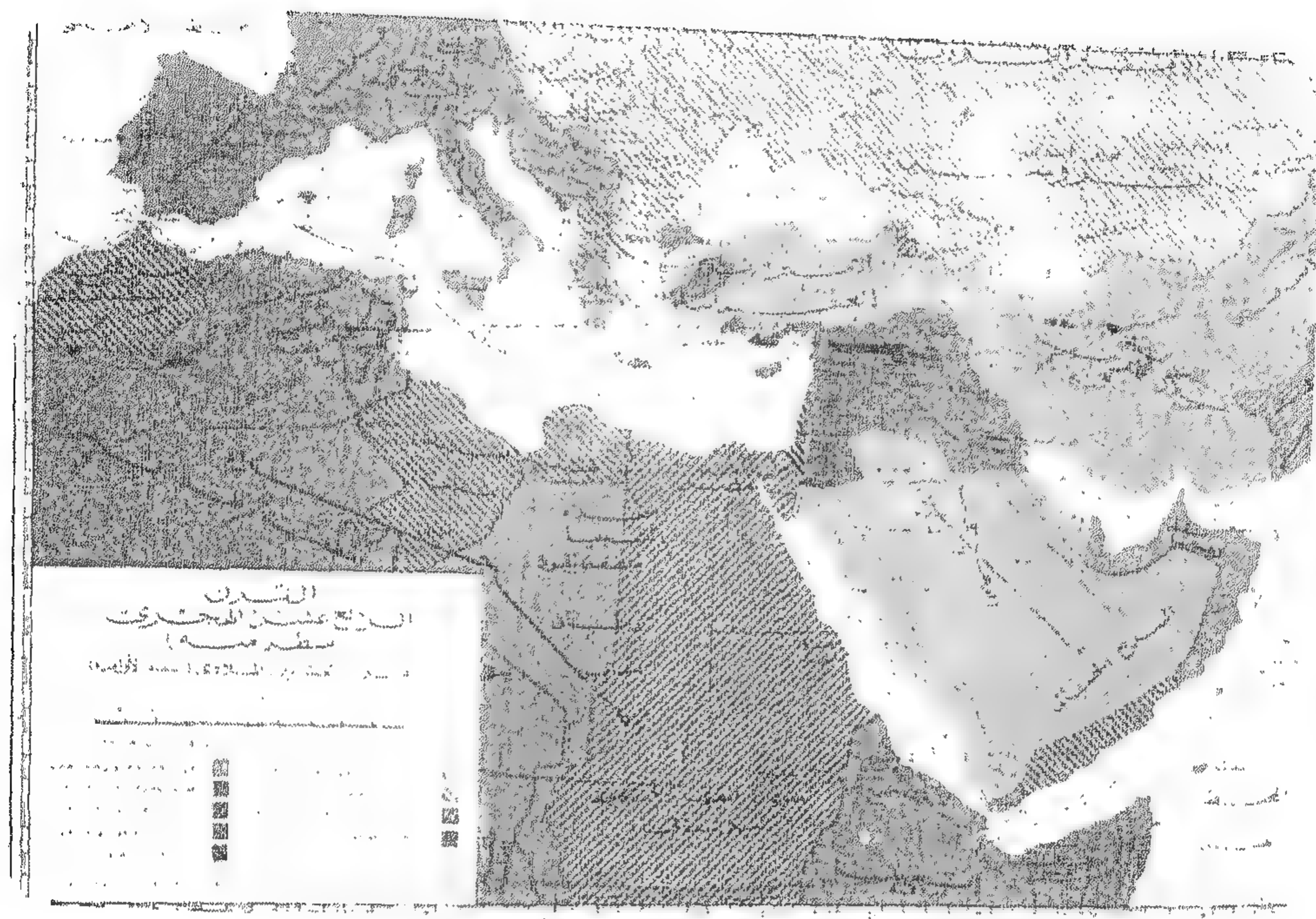
(شكل ٩) خريطة القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي
(عن : سميلي وكوك).



(شكل ١٠) خريطة القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي
(عن : سميلي وكوك).



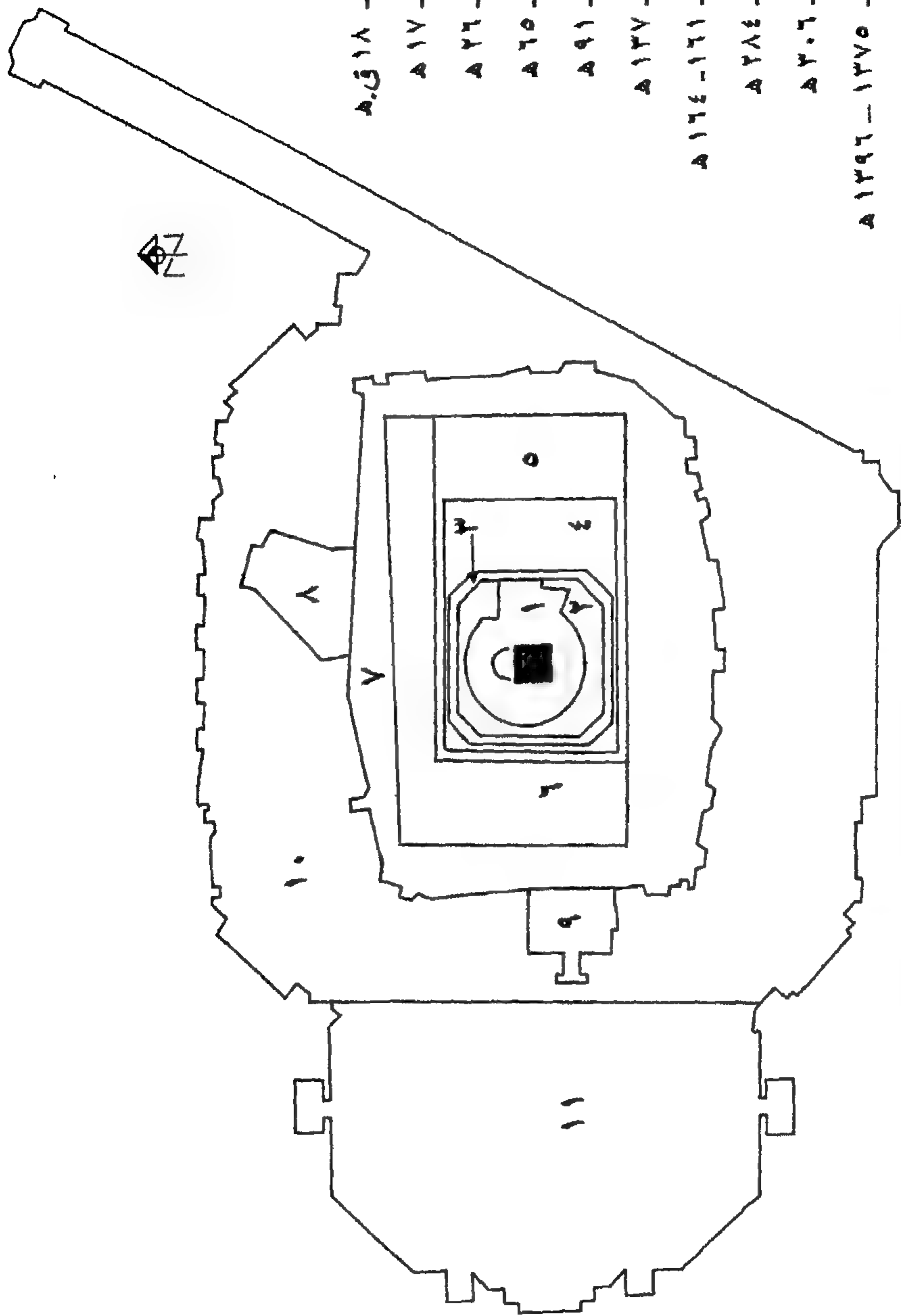
(شكل ١٢) خريطة القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي
(عن : سميلي وكوك).



(شكل ١٤) خريطة القرن الرابع عشر الهجري (شطر منه) / القرن العشرون الميلادي
(النصف الأول منه) (عن : سميلي وكوك) .

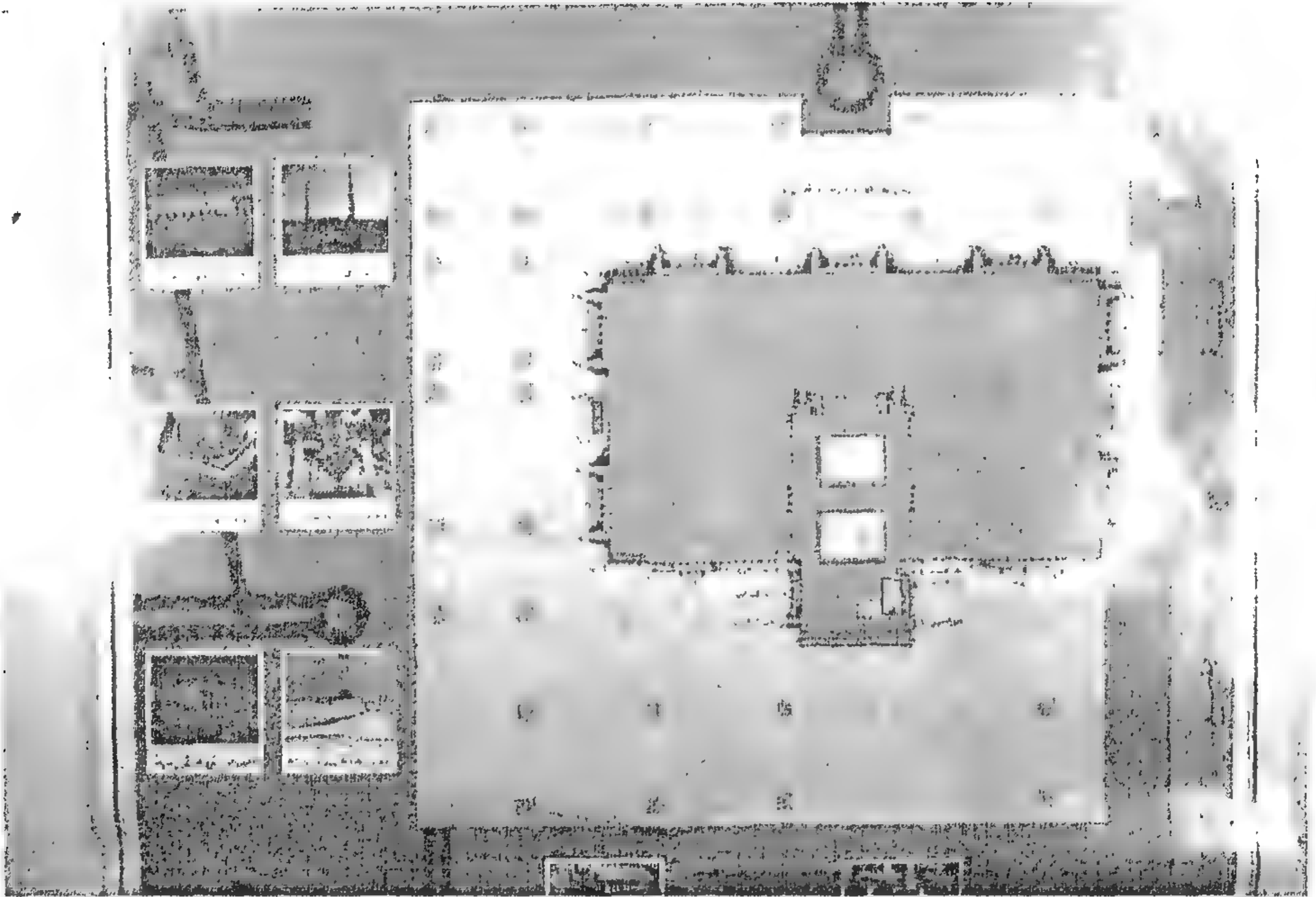


(شكل ١٥) الحرم المكي الشريف .

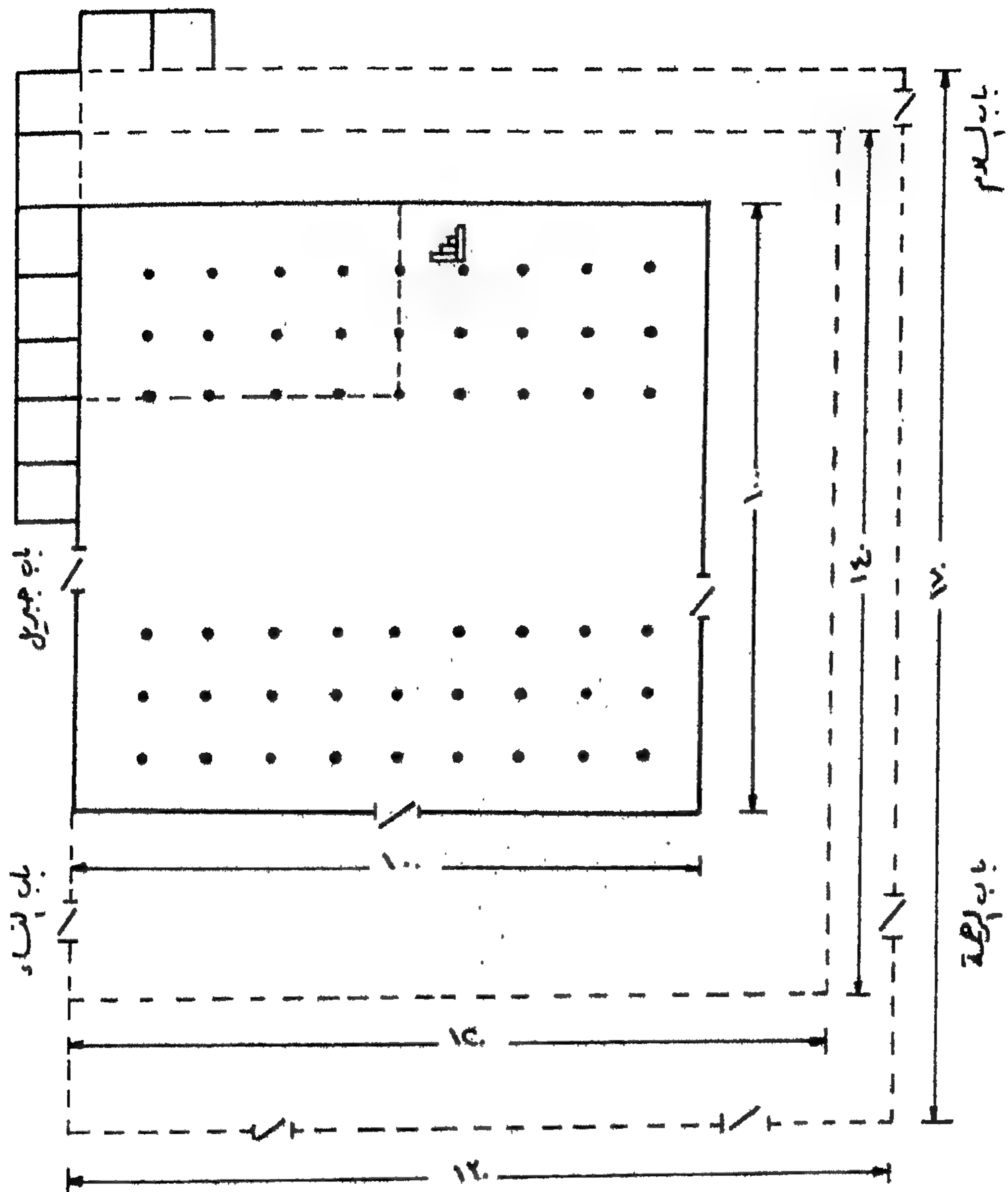


- ١ - ١٨ ق.هـ
- ٢ - ١٧ هـ
- ٣ - ٢٦ هـ
- ٤ - ٦٥ هـ
- ٥ - ٩١ هـ
- ٦ - ١٣٧ هـ
- ٧ - ١٦٤ - ١٦١ هـ
- ٨ - ٢٨٤ هـ
- ٩ - ٣٠٦ هـ
- ١٠ - ١٣٧٥ - ١٣٩٦ هـ
- ١١ - ١٤٠٩ هـ

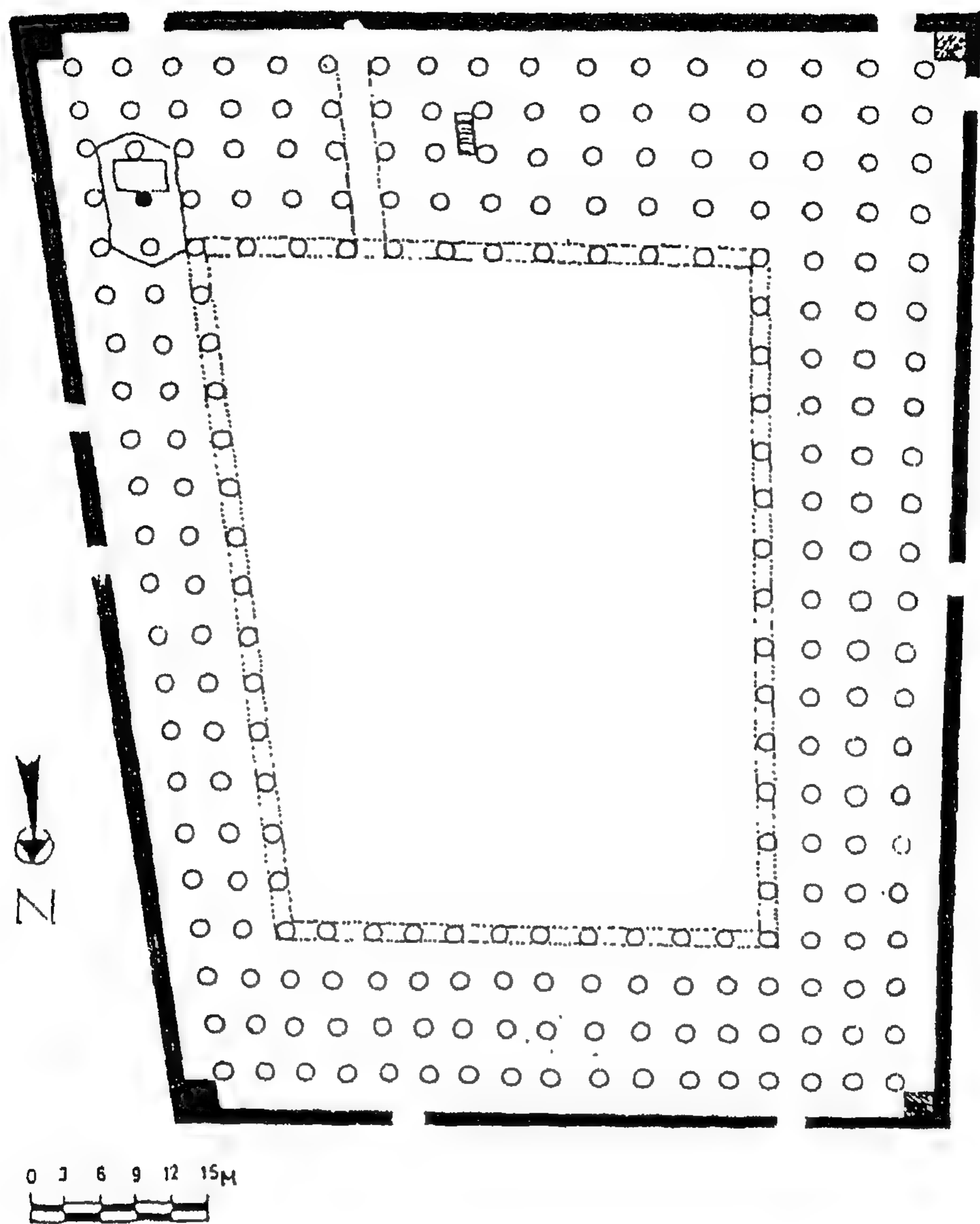
(شكل ١٦) مراحل توسعة وزيادة الحرم المكي الشريف حتي توسعة وزيادة خادم
الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود. (عن : خلوصي)



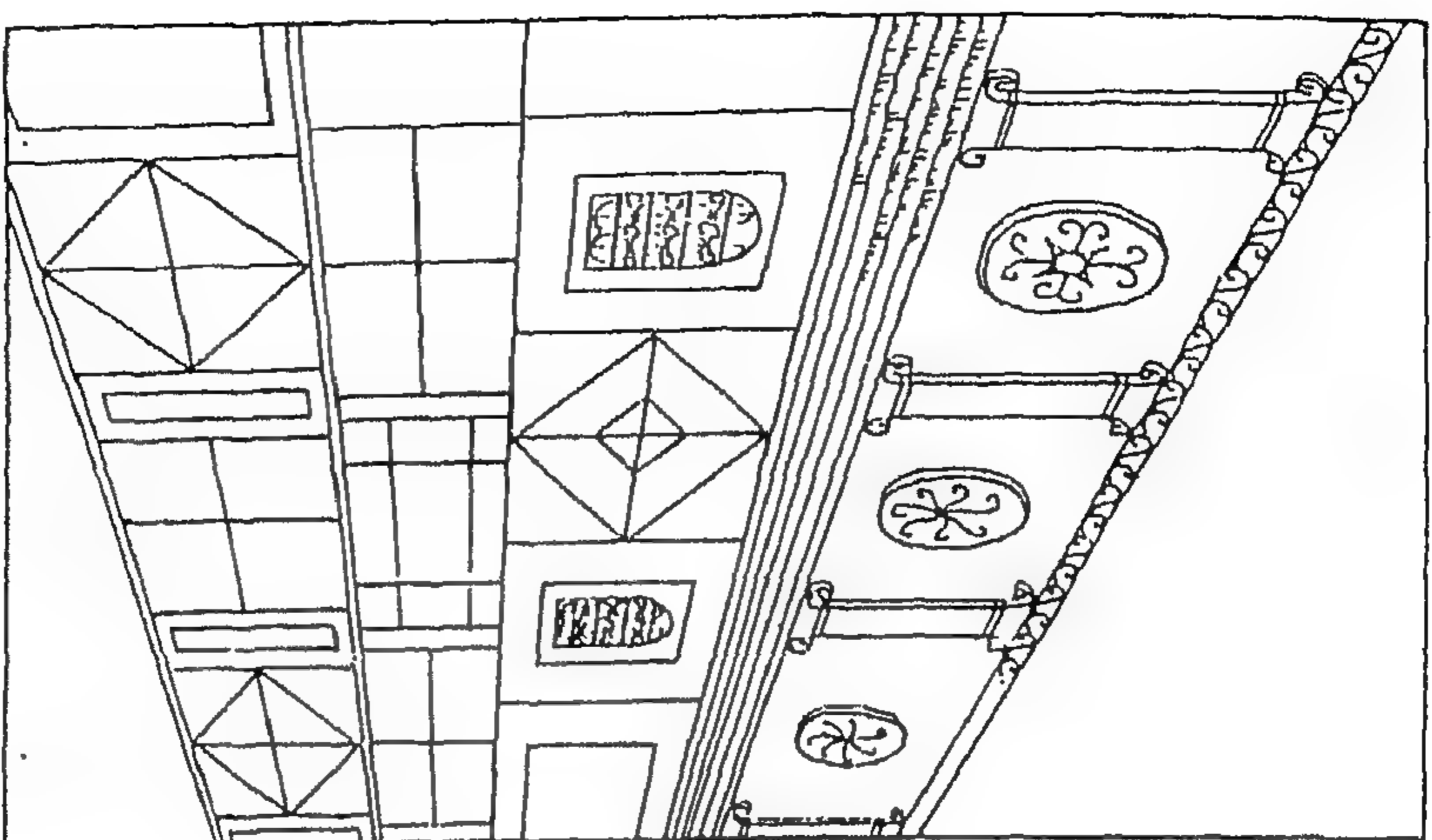
(شكل ١٧) الحرم النبوي الشريف .



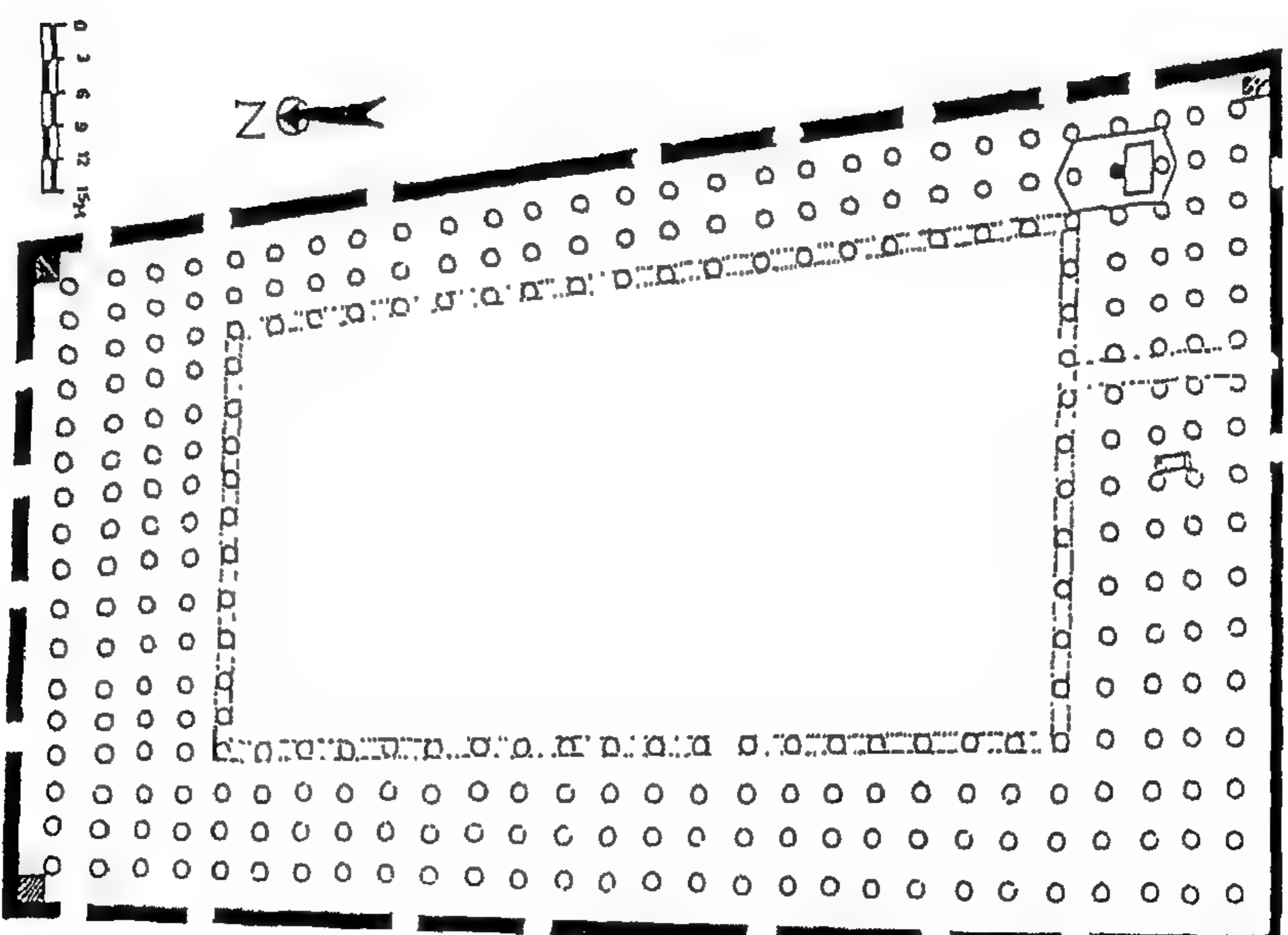
(شكل ١٨) تصور لتخطيط المسجد النبوي الشريف في عهد الرسول (صلي الله عليه وسلم) وزيادة الخليفتين عمرو عثمان (رضي الله عنهما) (عن : الشهري) .



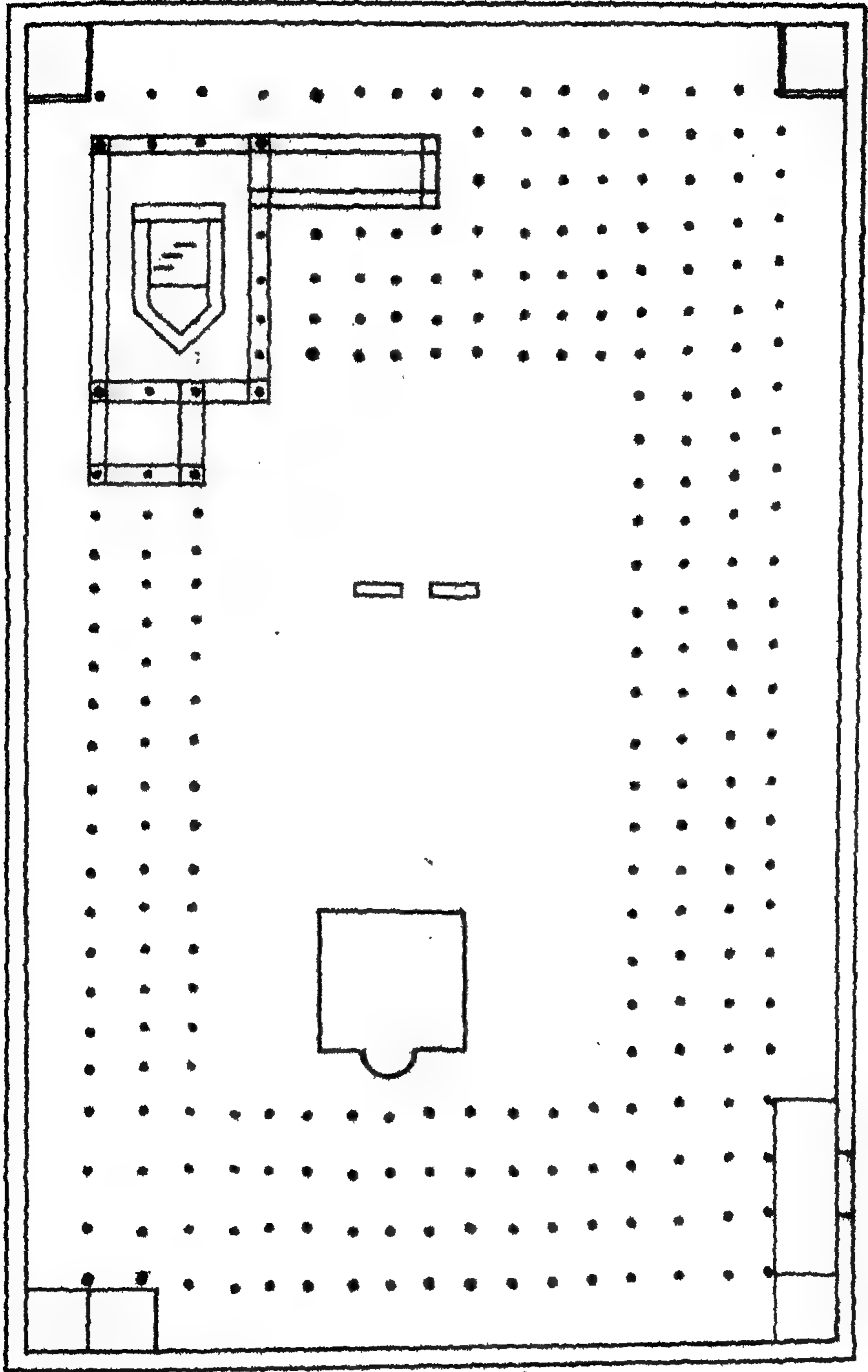
(شكل ٢٠) مسقط أفقي للمسجد النبوي الشريف عقب عمارة الوليد بن عبد الملك
(عن: محمد حمزة الحداد).



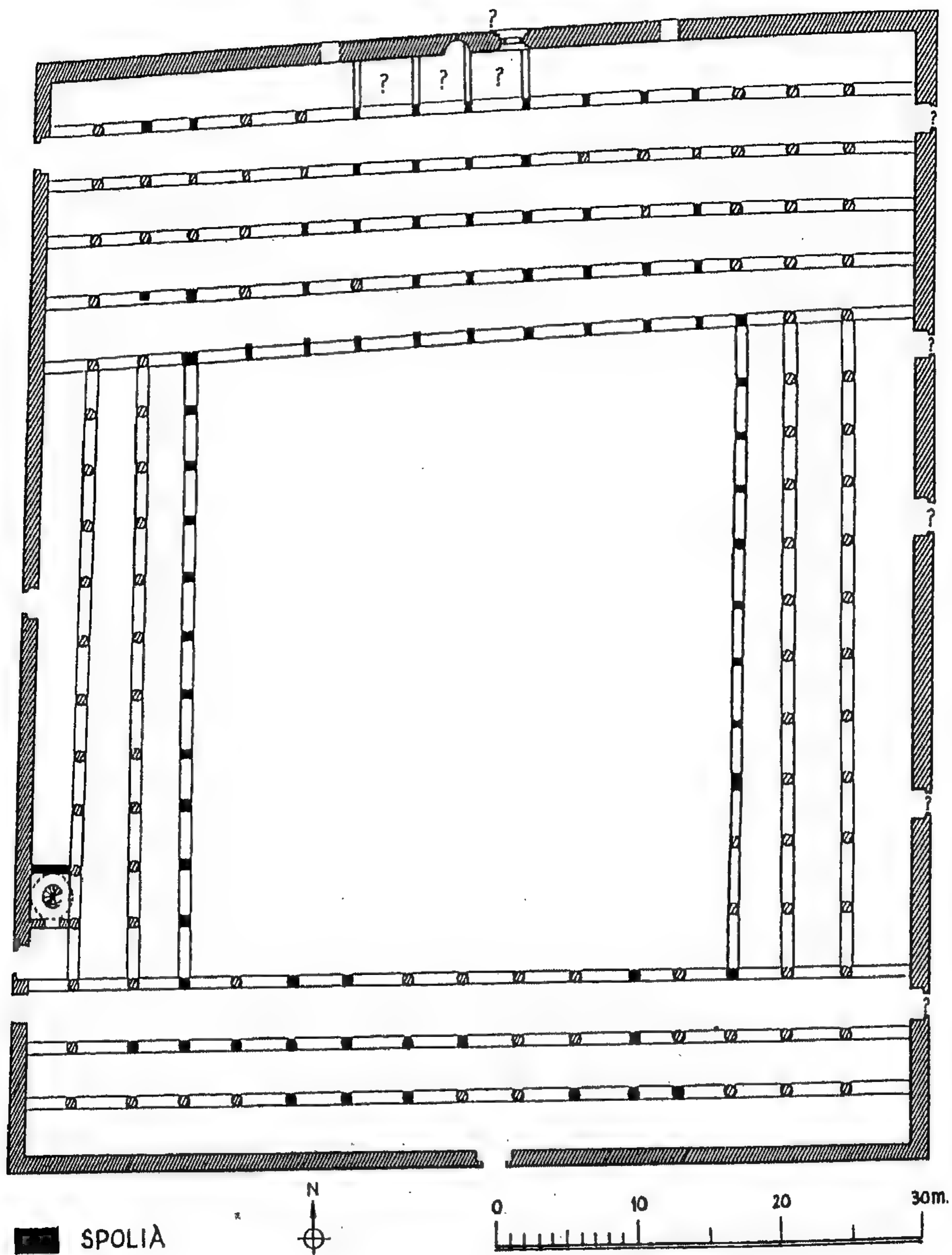
(شكل ٢٢) الكسوات الزخرفية بجدار القبلة كما تصورهما
سوقا حنية .



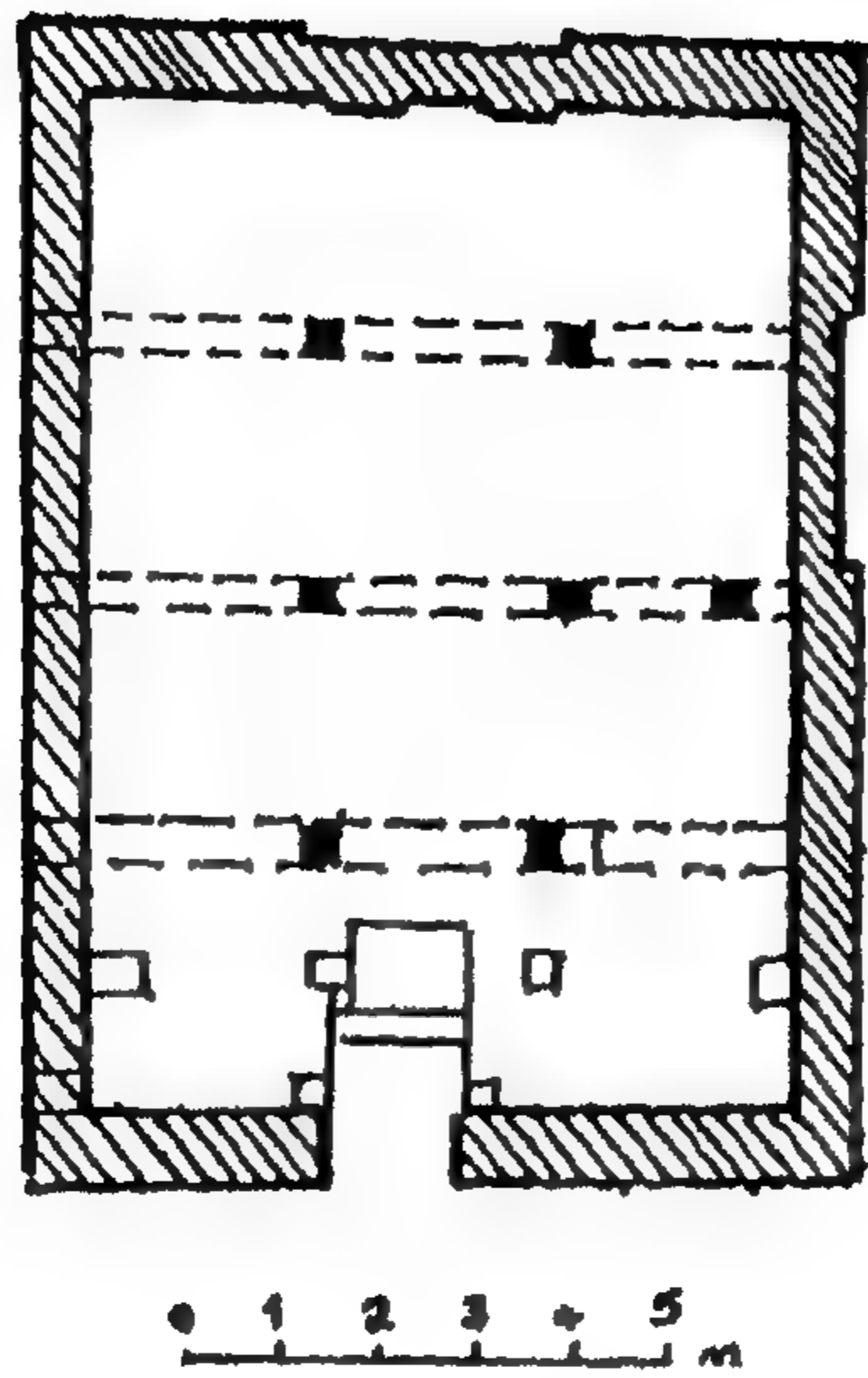
(شكل ٢١) مسقط أفقي للمسجد النبوي الشريف عقب عمارة المهدي العباسي
(عن: محمد حمزة الحداد) .



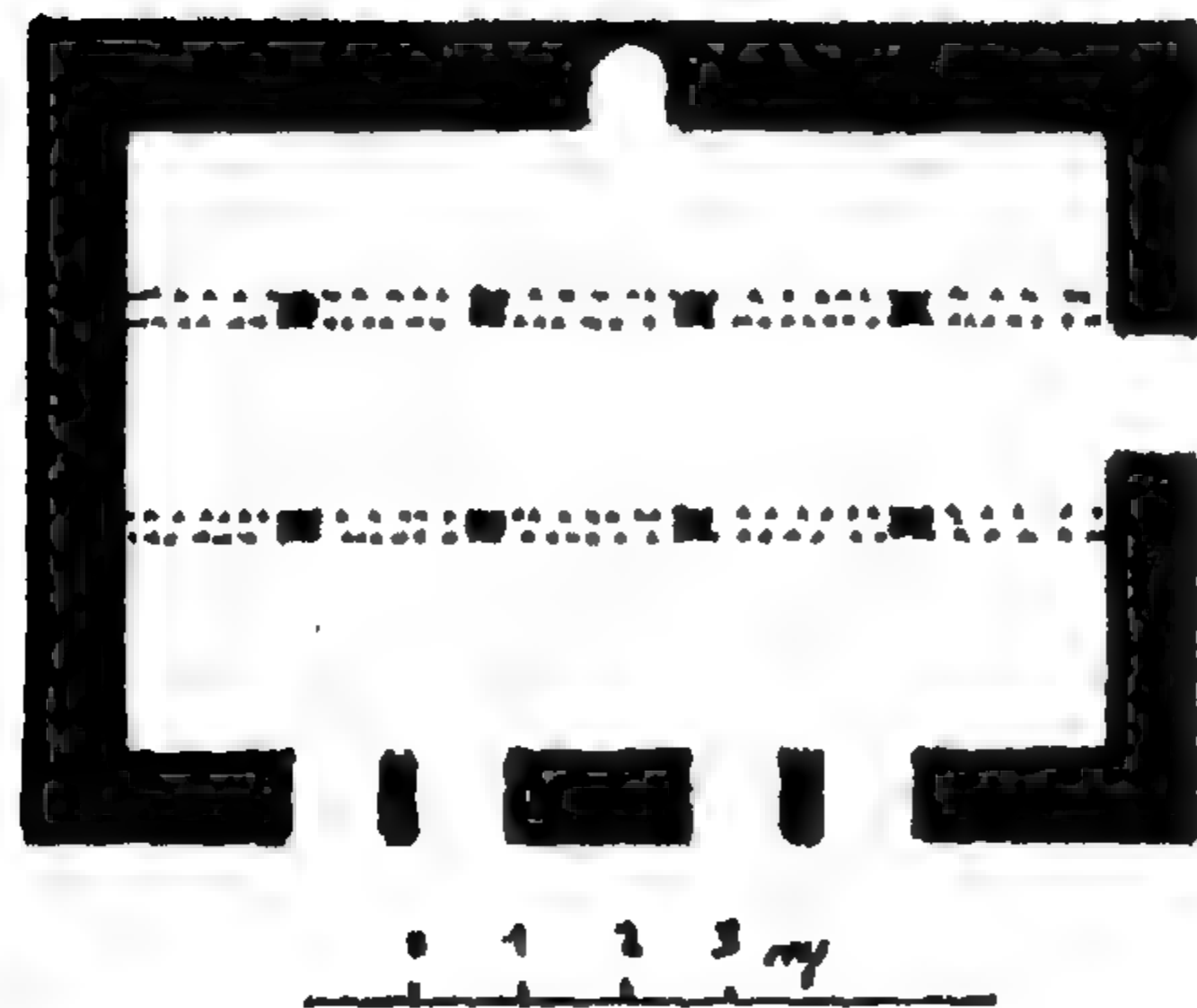
(شكل ٢٣) المسجد النبوي الشريف عقب عمارة السلطان المملوكي الجركسي
الأشرف قايتباي (العمارة الثانية) وما به من حواصل لمؤلف مجهول لمخطوط
بالمكتبة الأهلية ببغداد (رقم ٦٥٦٥ غربي) . (عن سوفاجيه) .



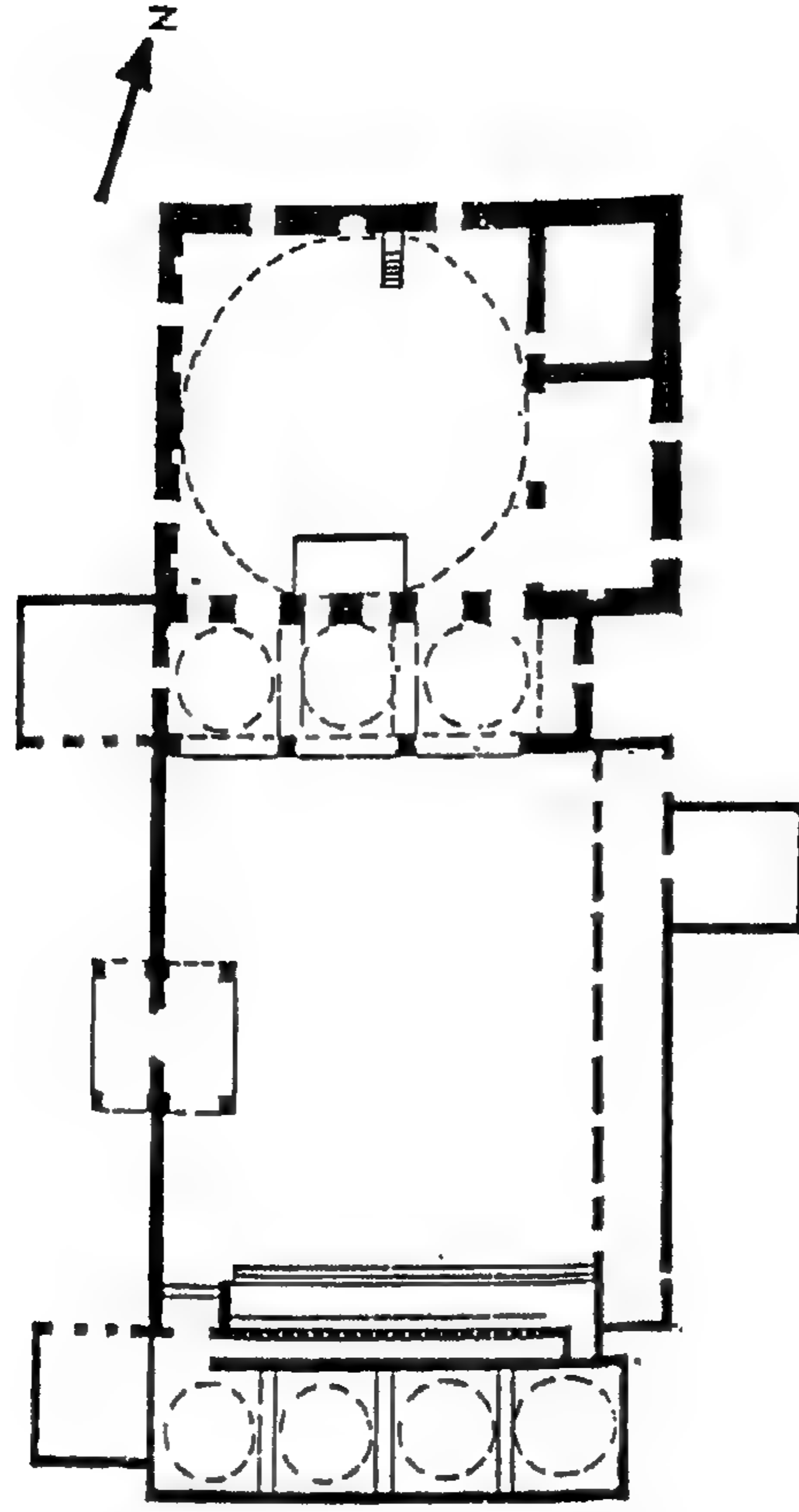
(شكل ٢٤) مسقط أفقي للجامع الكبير بصنعاء اليمن (عن : كريزول) .



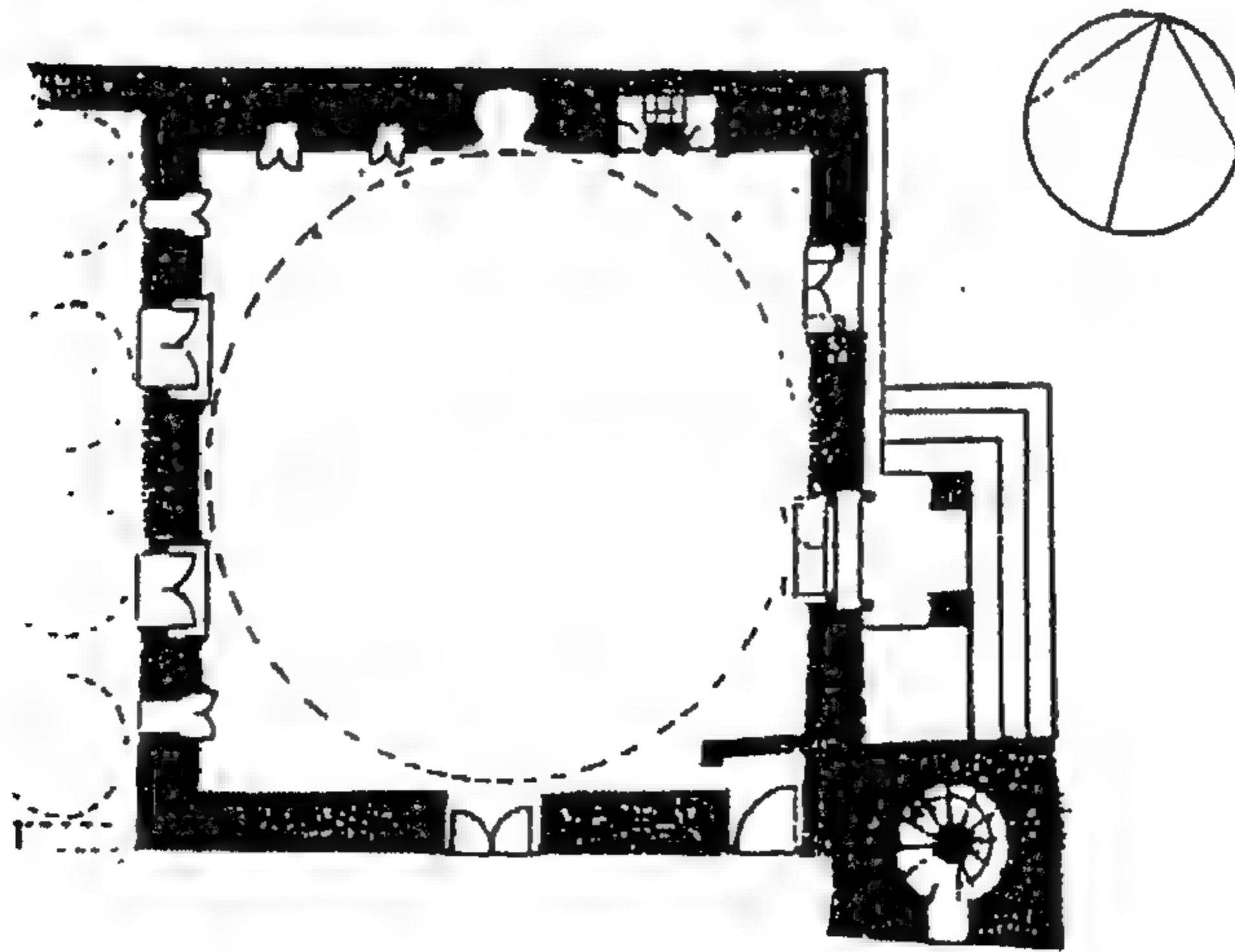
(شكل ٢٥) مسقط أفقي لمسجد تميم باليمن - (عن : فتستر) .



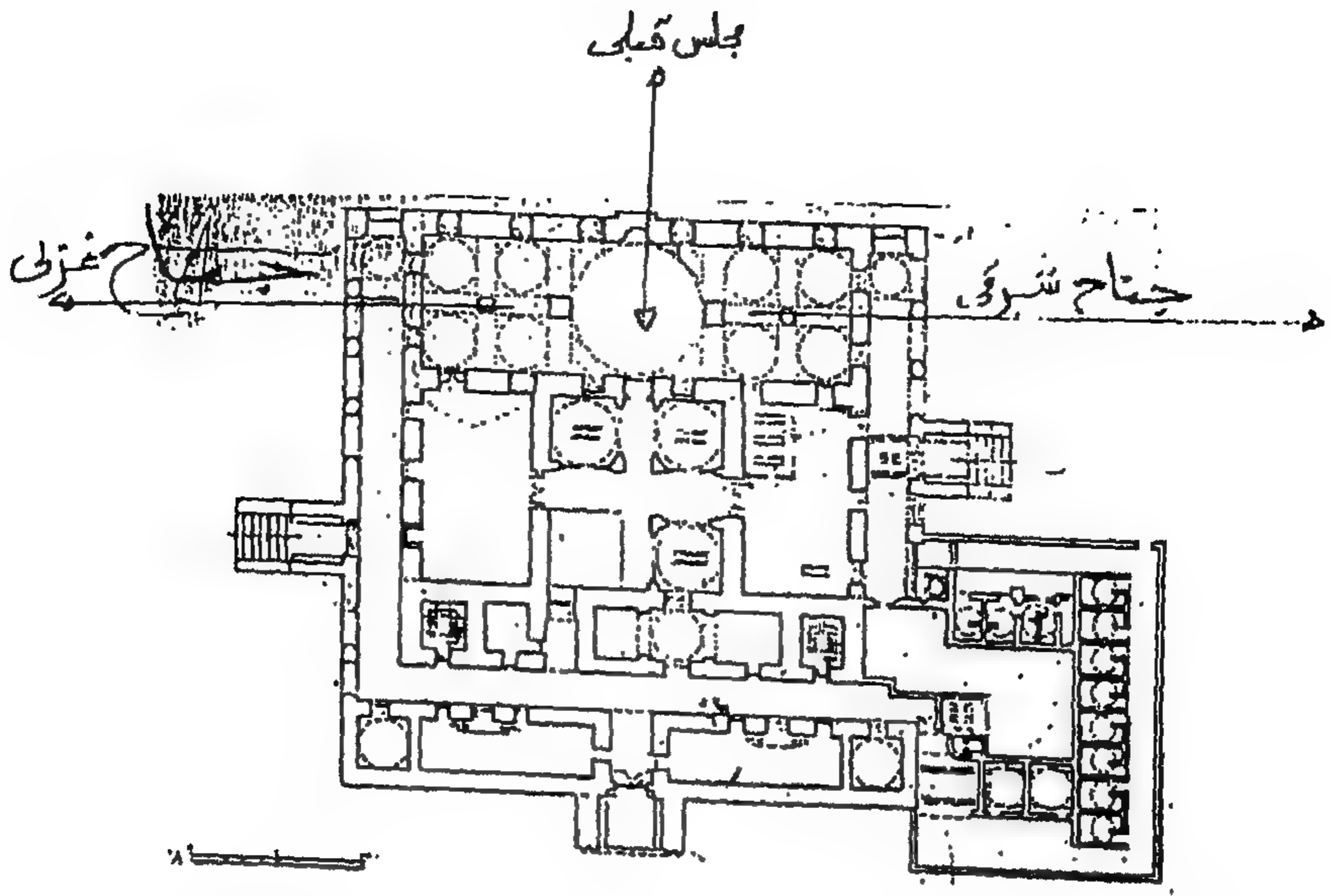
(شكل ٢٦) مسقط أفقي لمسجد تميم باليمن - (عن : فتستر) .



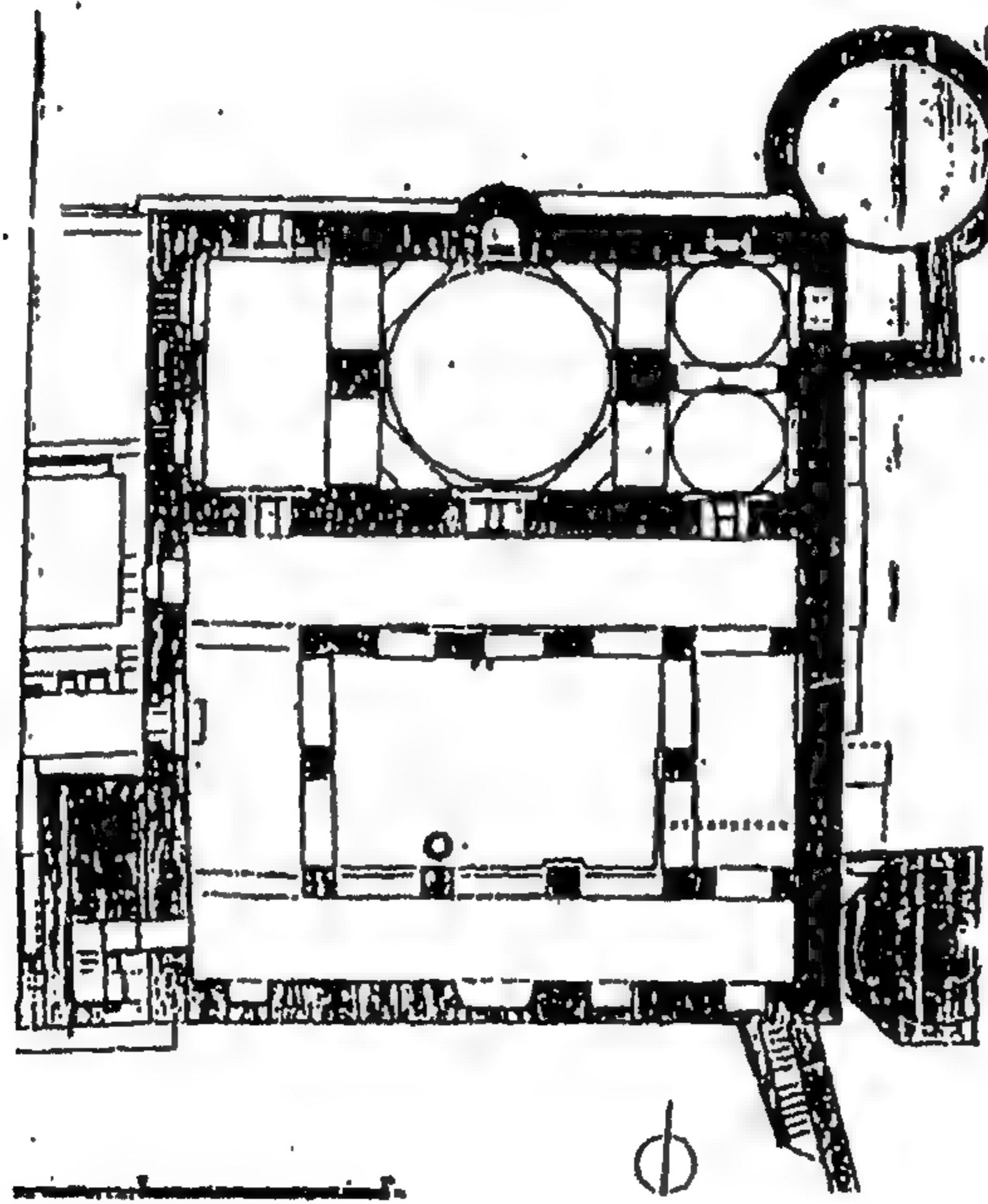
(شكل ٢٧) مسقط أفقي للبكيرية بصنعاء اليمن . (عن : سرجنت) .



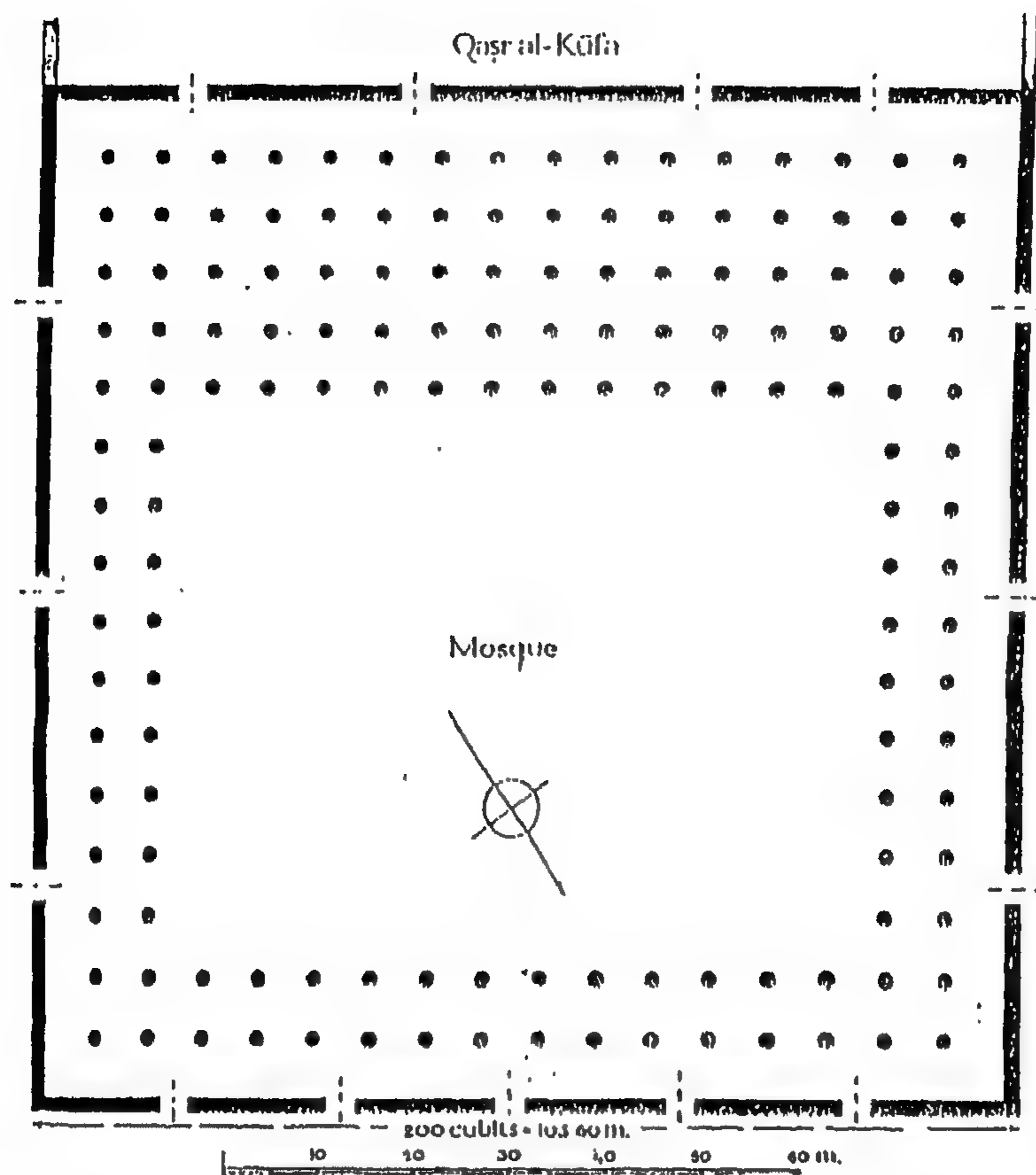
(شكل ٢٨) مسقط أفقي لمسجد طلحة بصنعاء اليمن . (عن : سرجنت) .



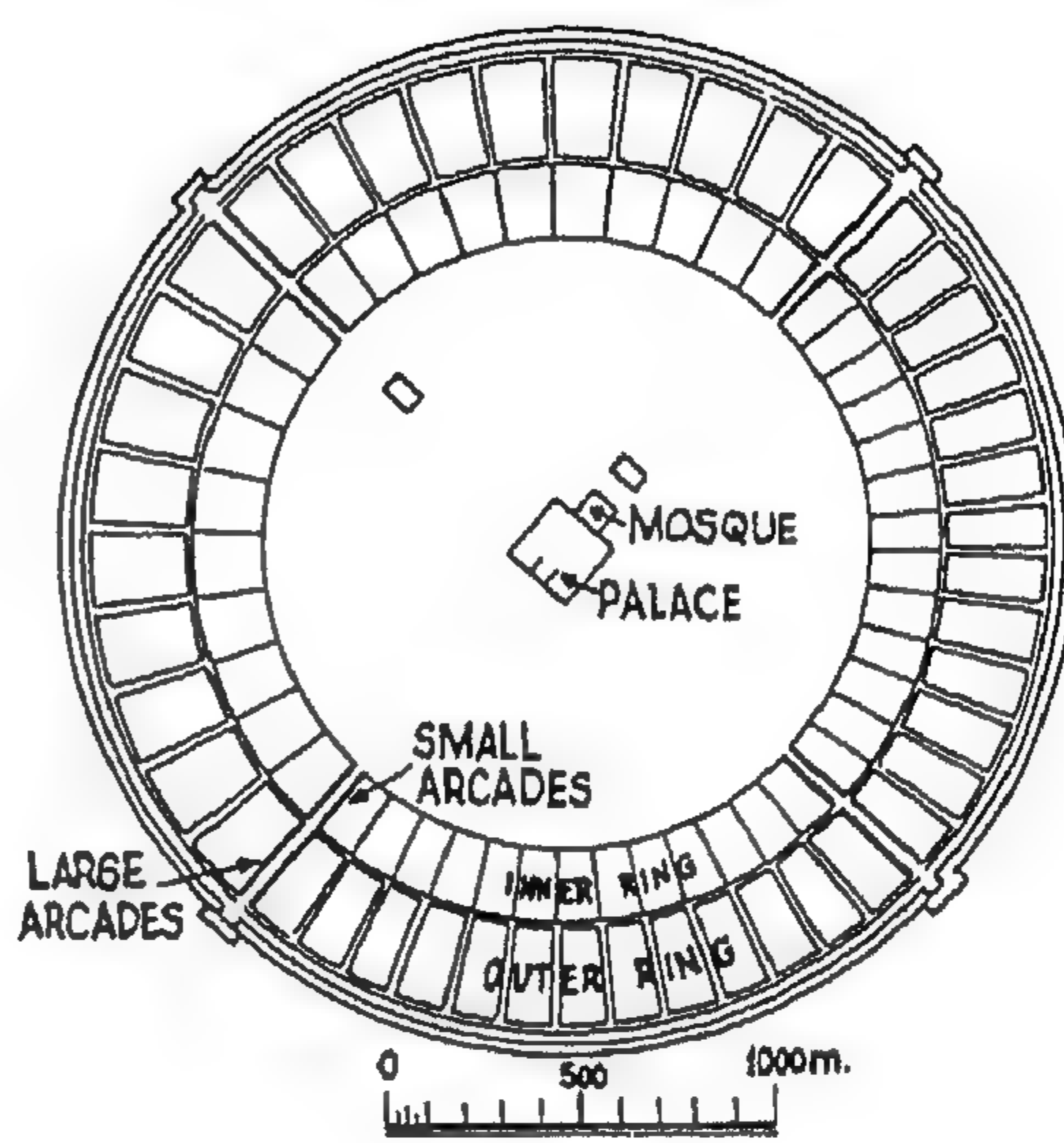
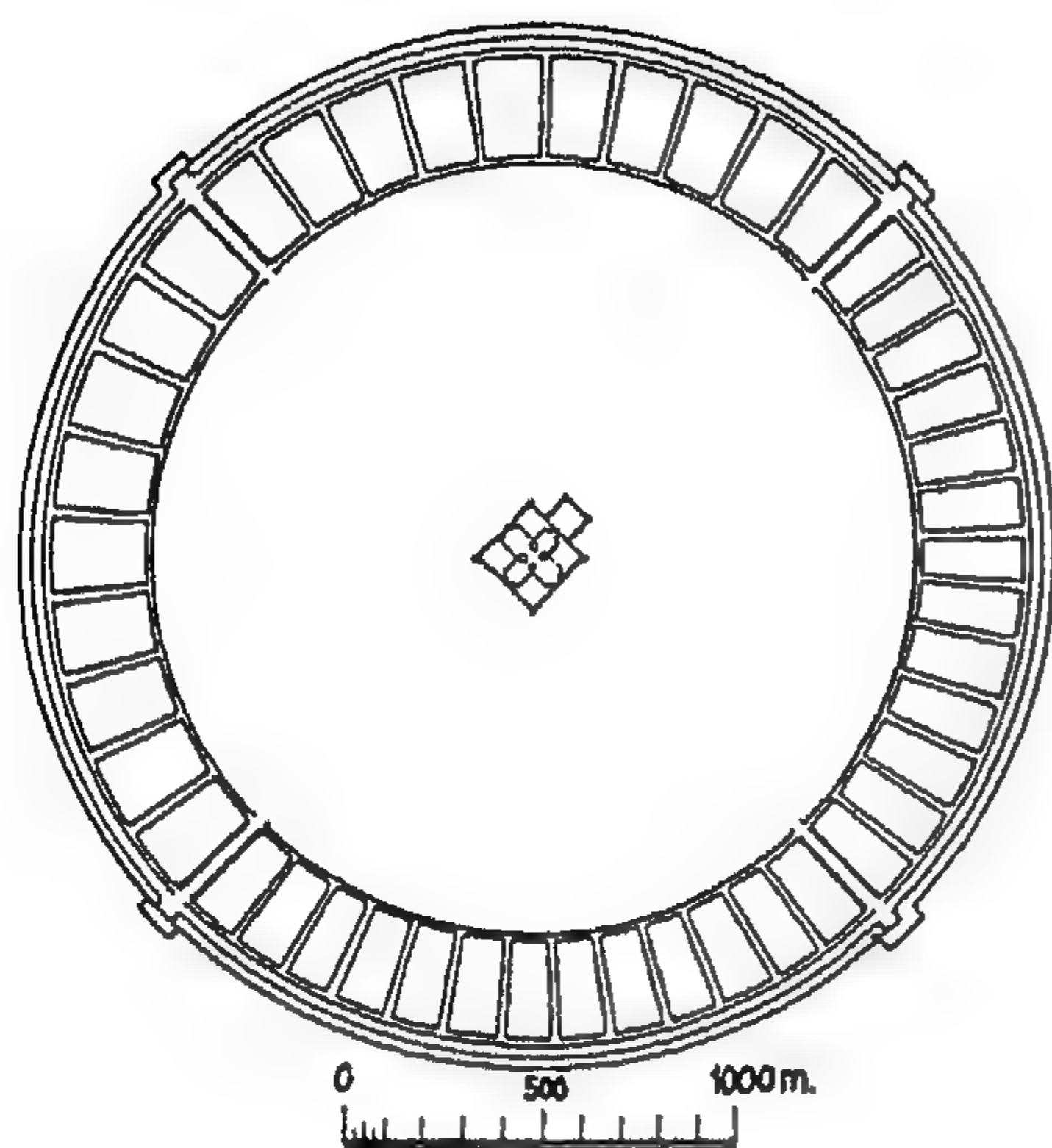
(شكل ٢٩) مسقط أفقي للمدرسة الاشرفية الكبرى بتعز باليمن
(عن هيئة الآثار اليمنية) .



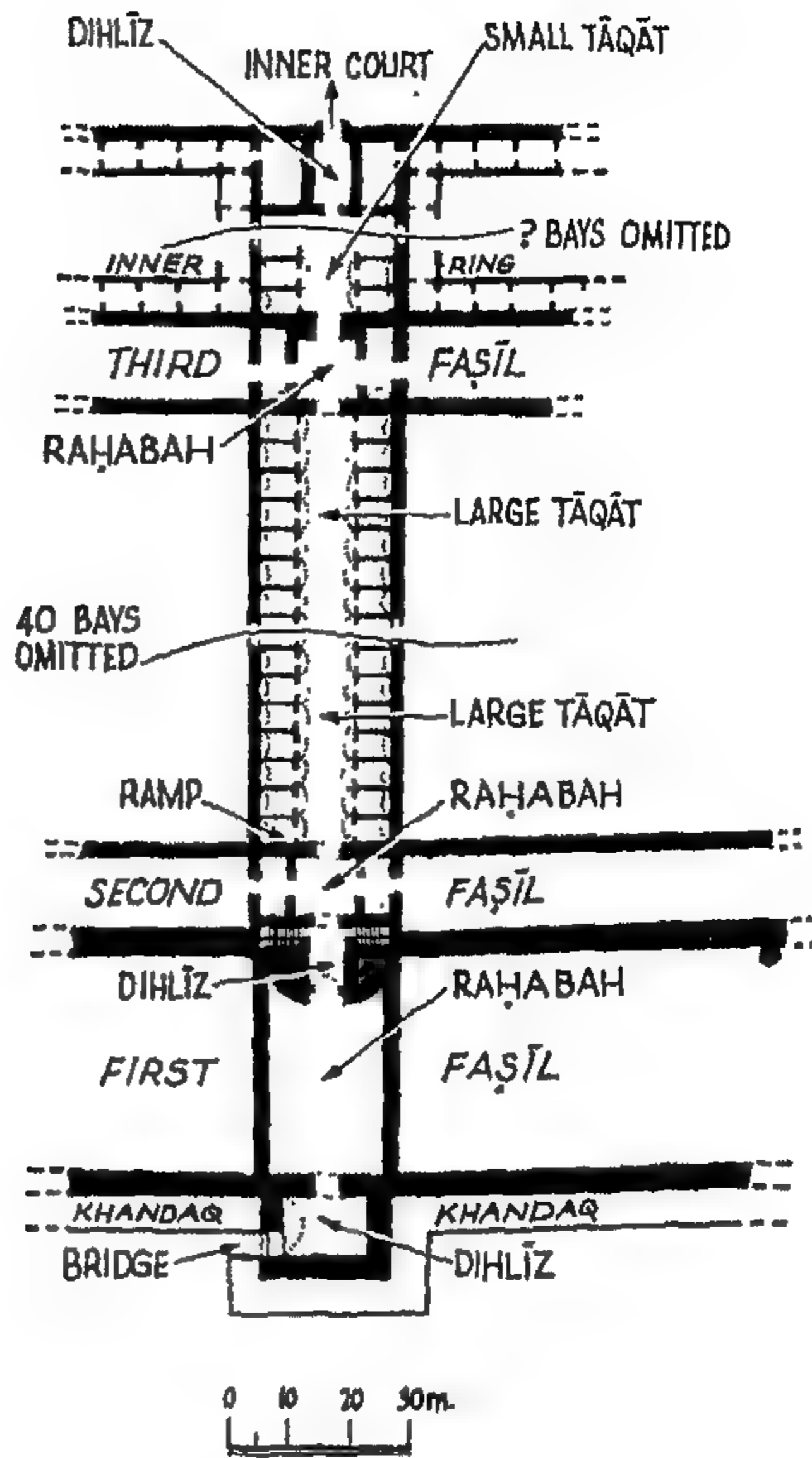
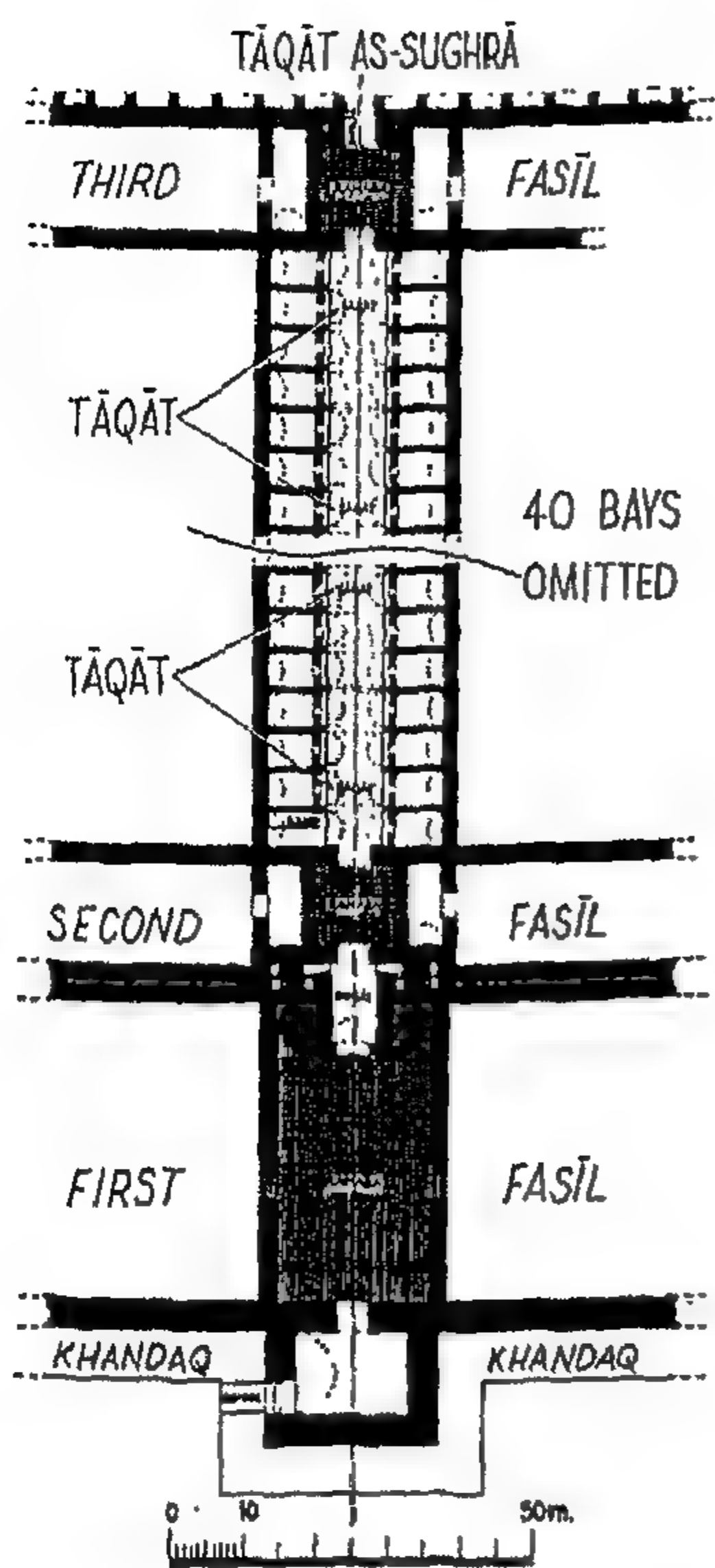
(شكل ٣٠) مسقط أفقي للمدرسة السكندرية او الاسكندرية بزبيد في اليمن
(عن هيئة الآثار اليمنية) .



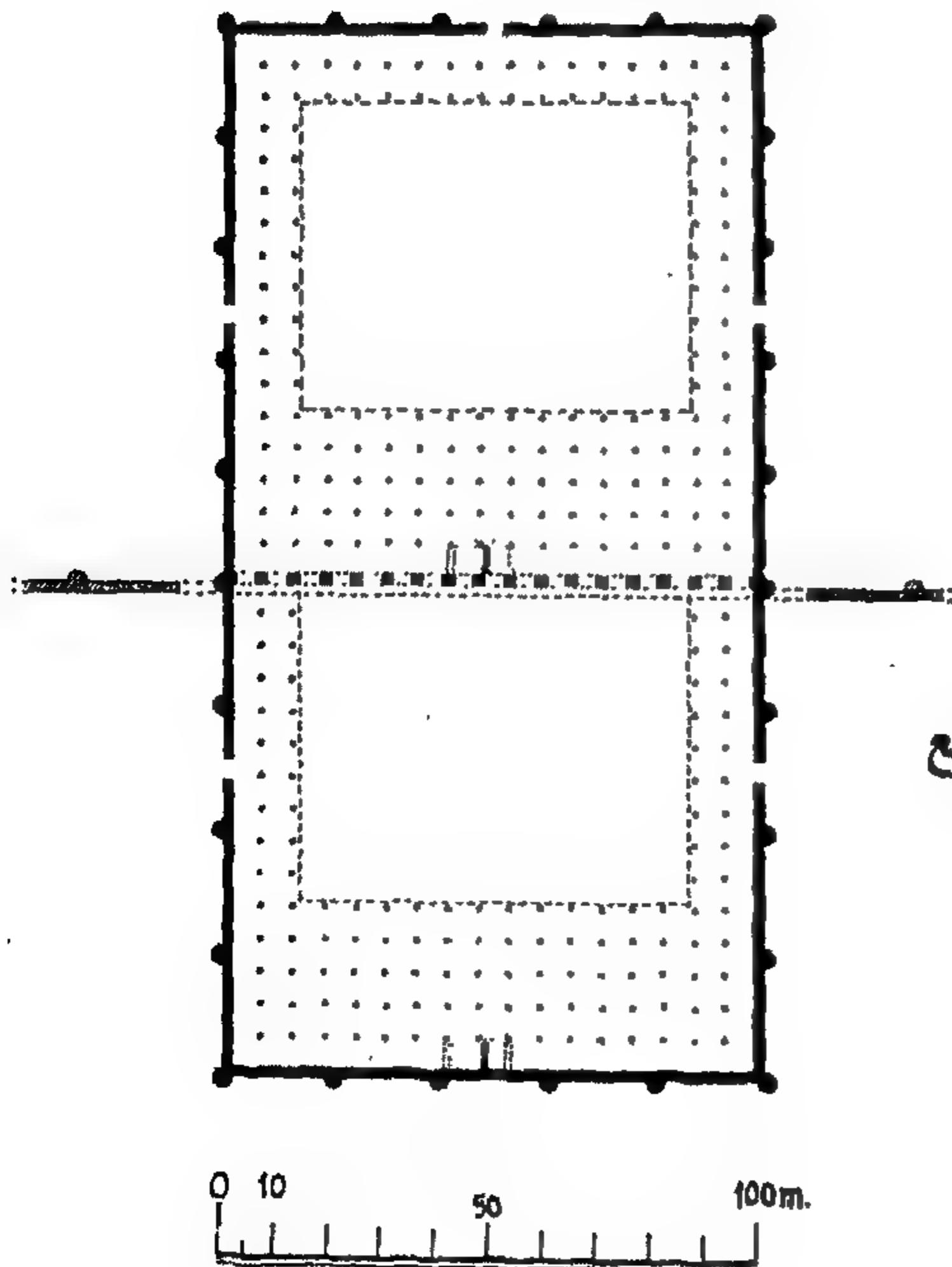
(شكل ٣١) مسقط أفقي لجامع الكوفة عقب عمارة زياد بن أبيه
(عن : كريزول) .



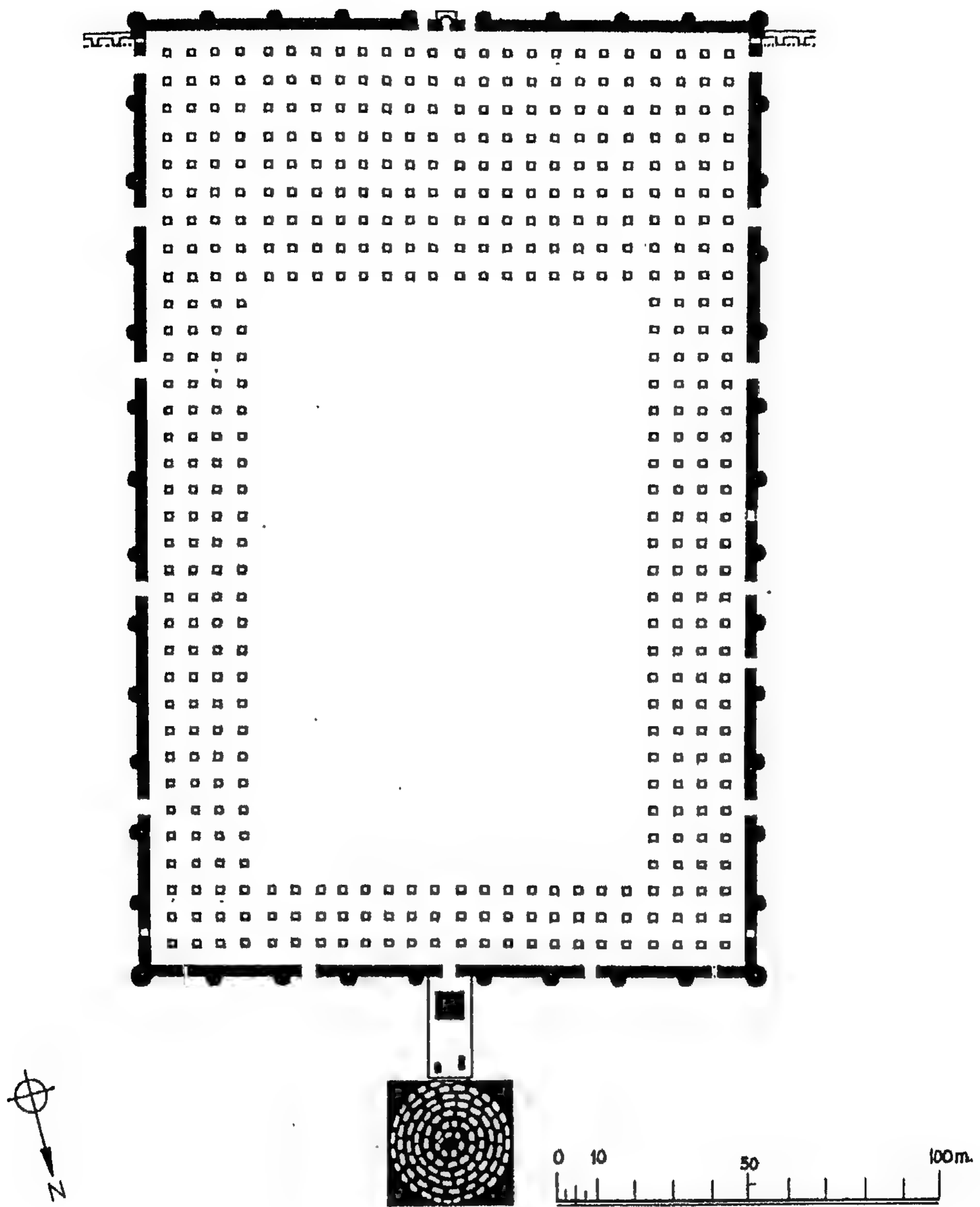
(شكل ٣٢) بغداد مدينة المنصورة المدورة (الأيمن) تصور
(Lassner)، (والأيسر) تصور (Creswell).



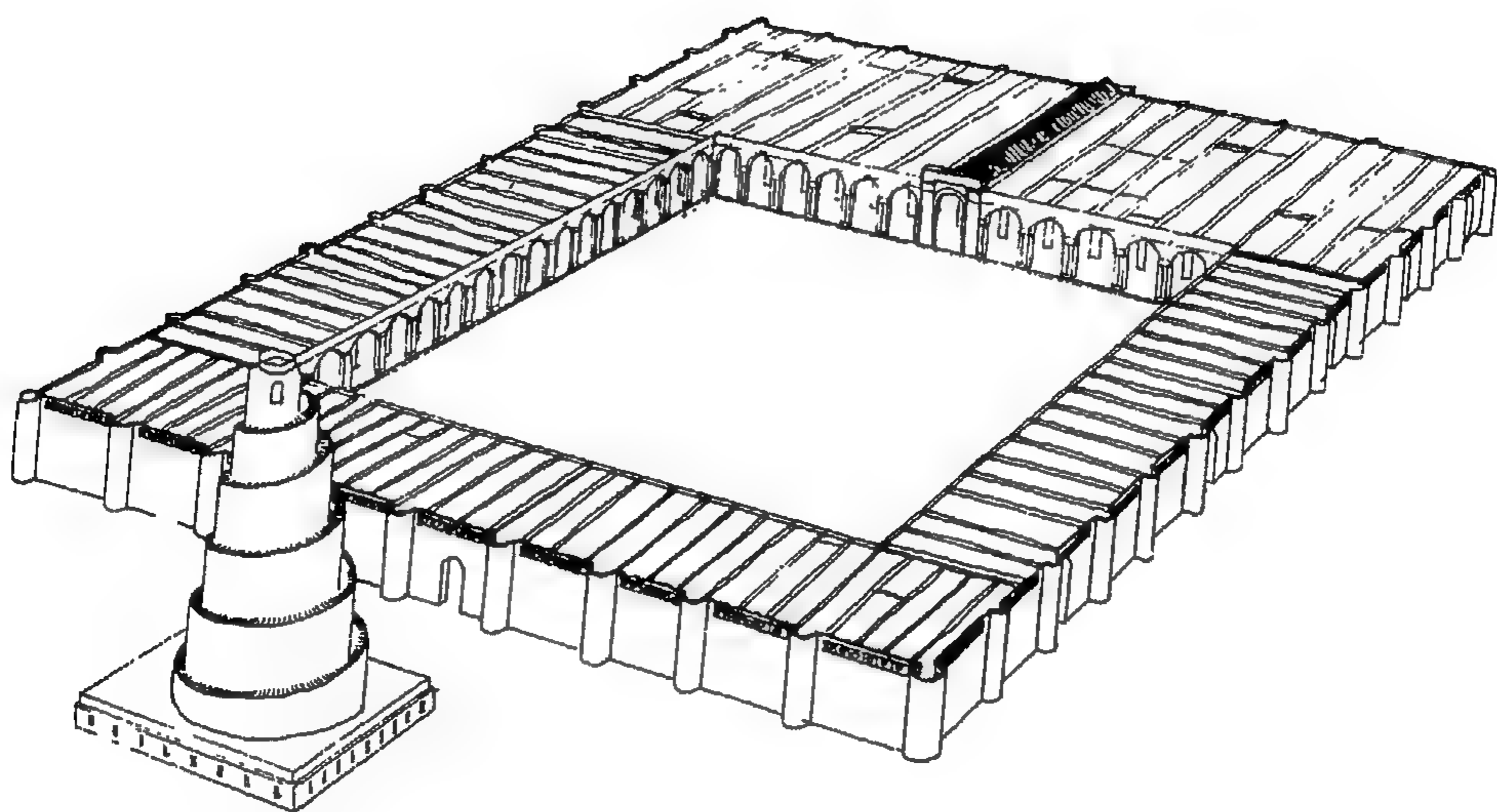
(شكل ٣٣) مدينة بغداد : الطاقات (الأيمن) تصور
(Lassner) ، (والأيسر) تصور (Creswell) .



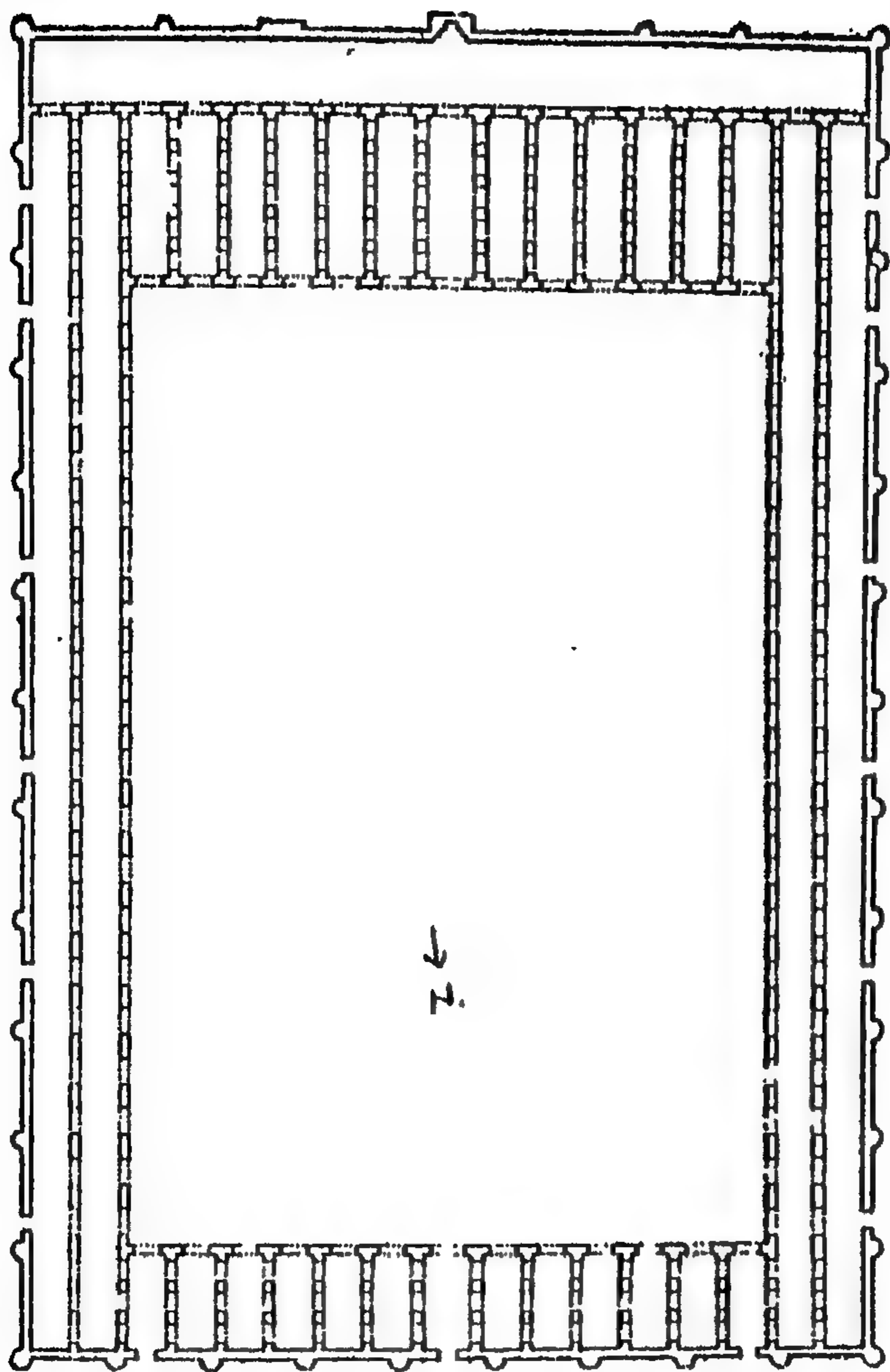
(شكل ٣٤) مسقط أفقي للمسجد الجامع
بمدينة بغداد (عن: كريزول) .



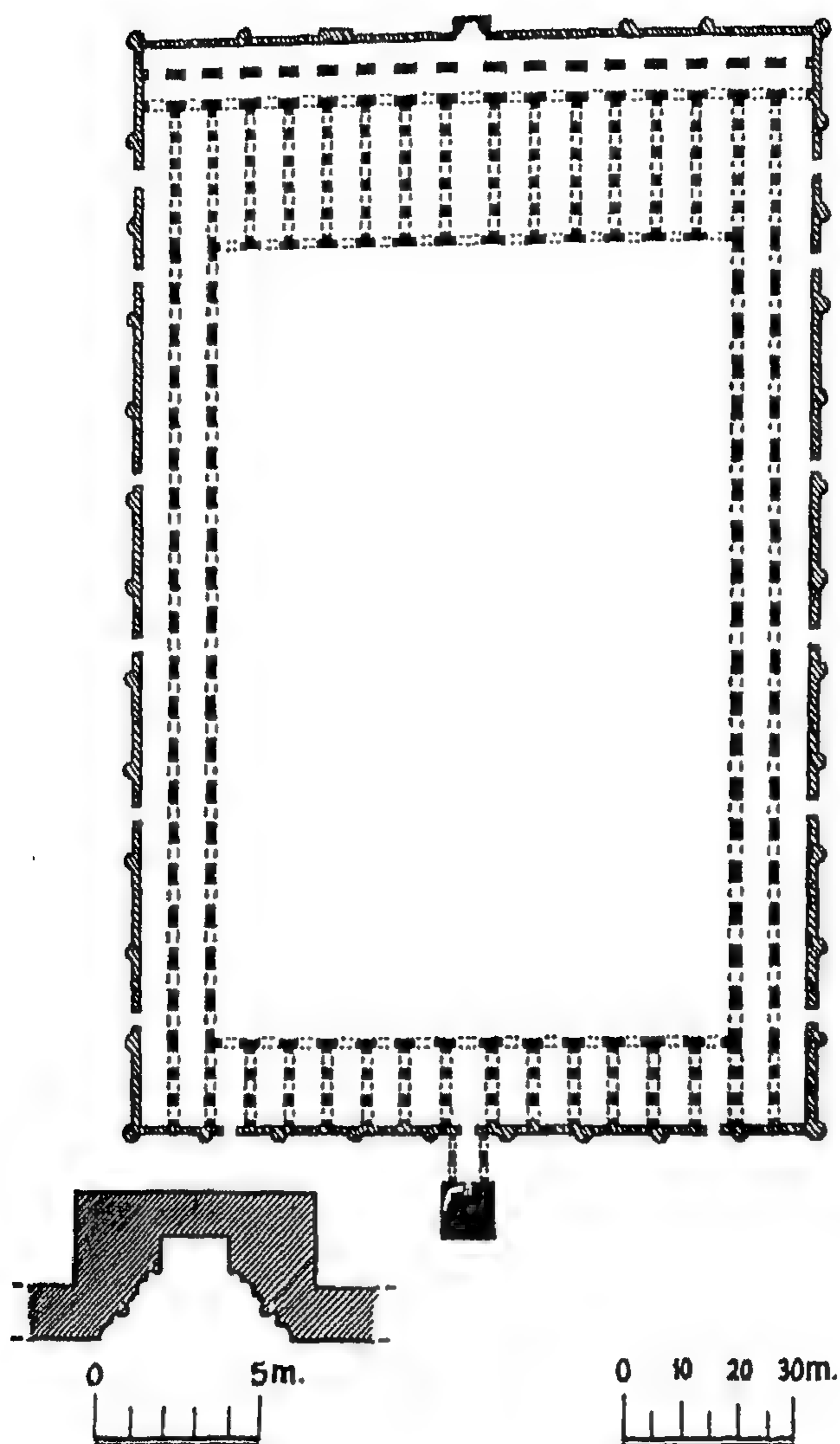
(شكل ٣٥) مسقط أفقي لجامع سامرا الكبير. (عن : كريزول) .



(شكل ٣٦) جامع سامرا الكبير (عن : هيلنبراند) .

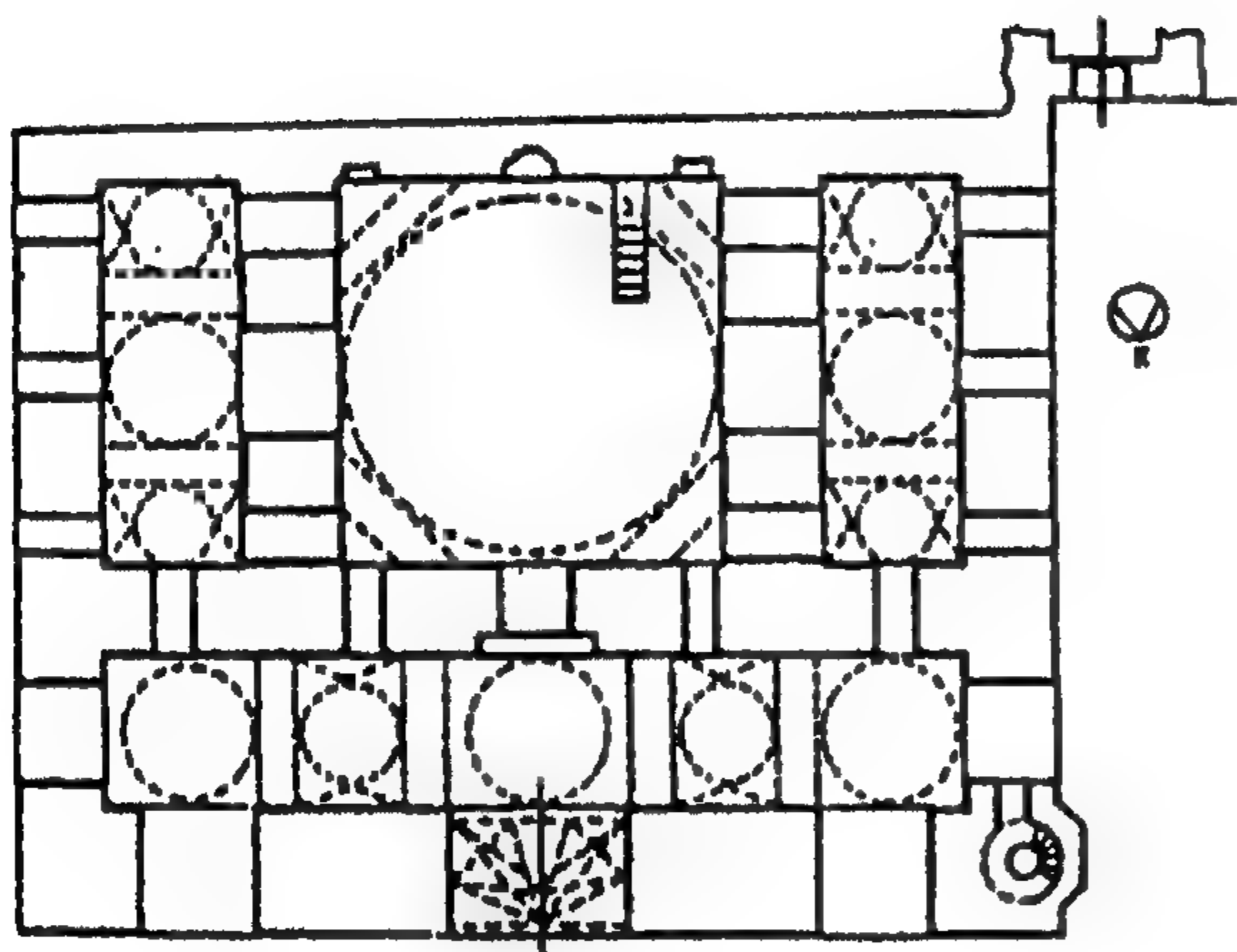
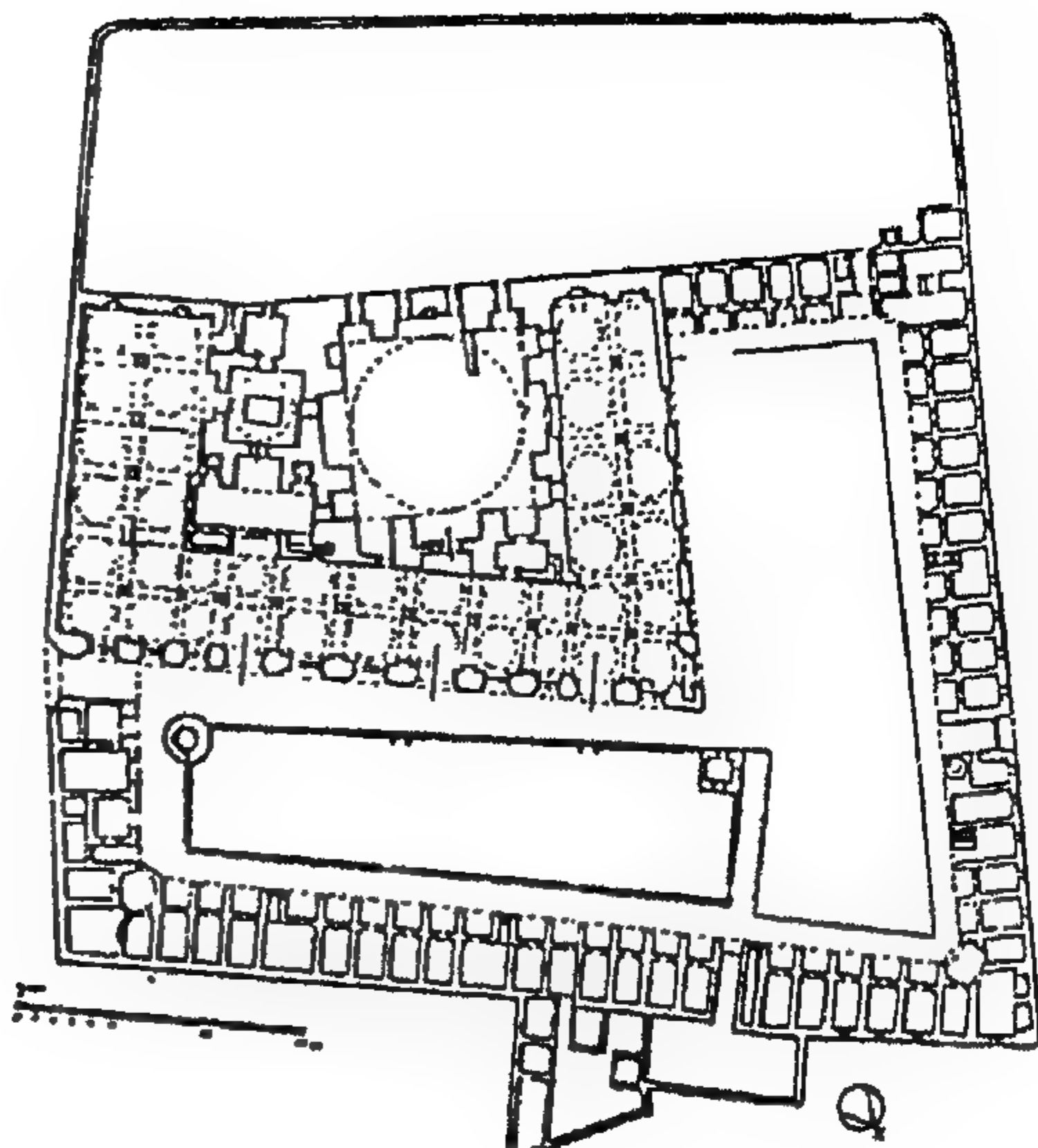


(شكل ٣٧) مسقط أفقي لجامع أبي دلف بسامرا . (عن : هرتزفيلد) .

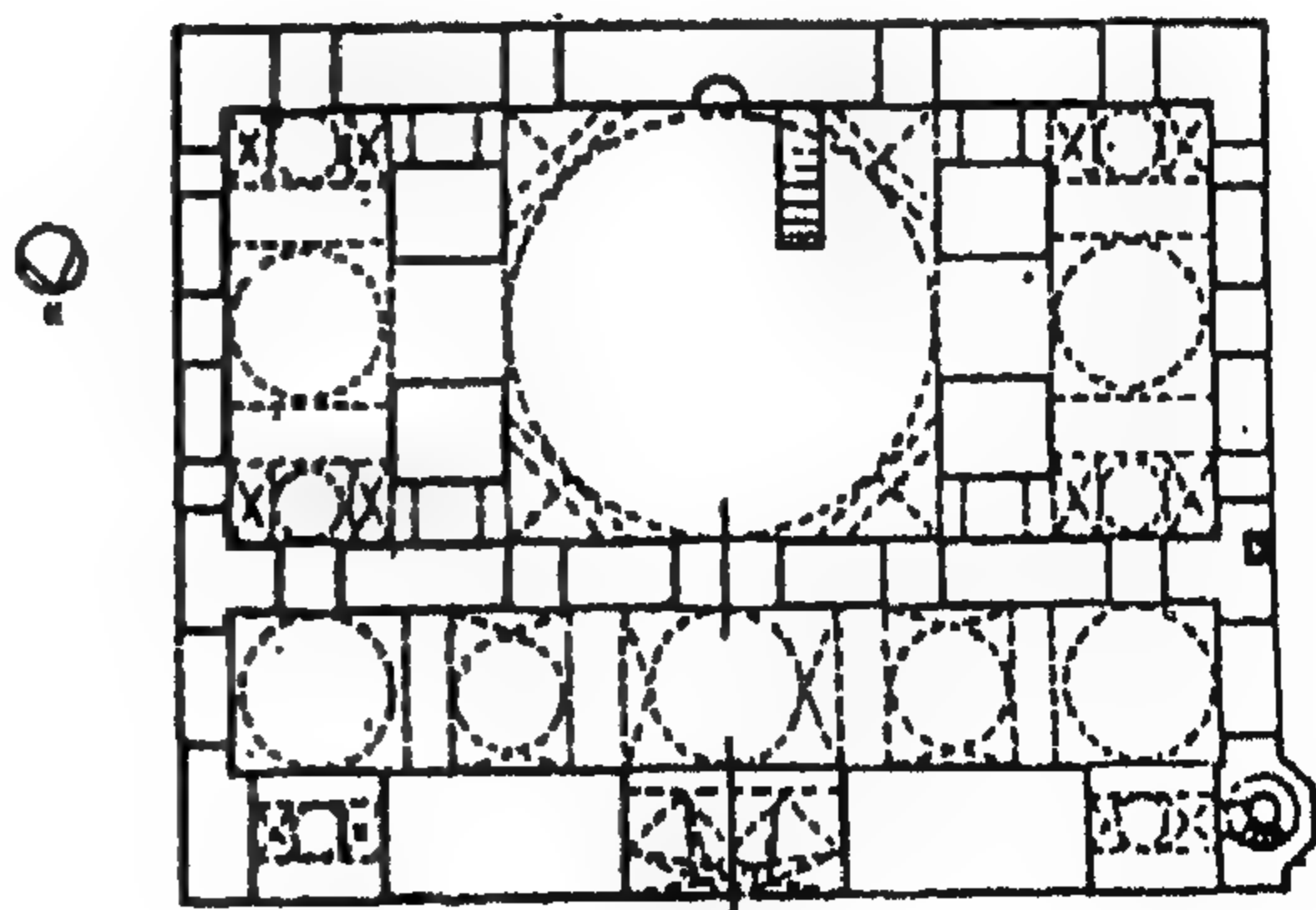


(شكل ٣٨) مسقط أفقي لجامع أبي دلف بسامرا . (عن : كريسول) .

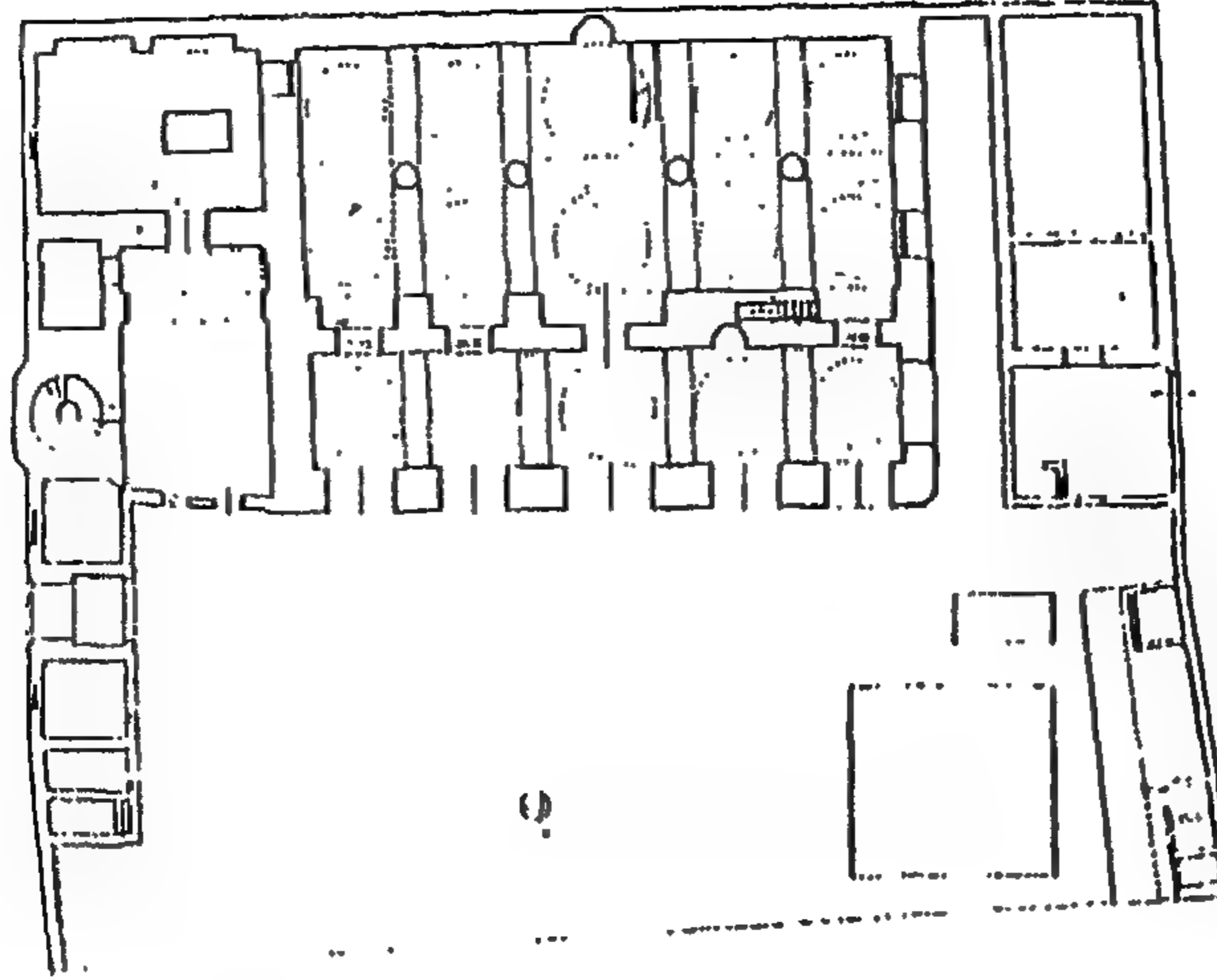
(شكل ٣٩) مسقط أفقي لجامع
عبد القادر الجيلاني ببغداد
(عن Ulucam).



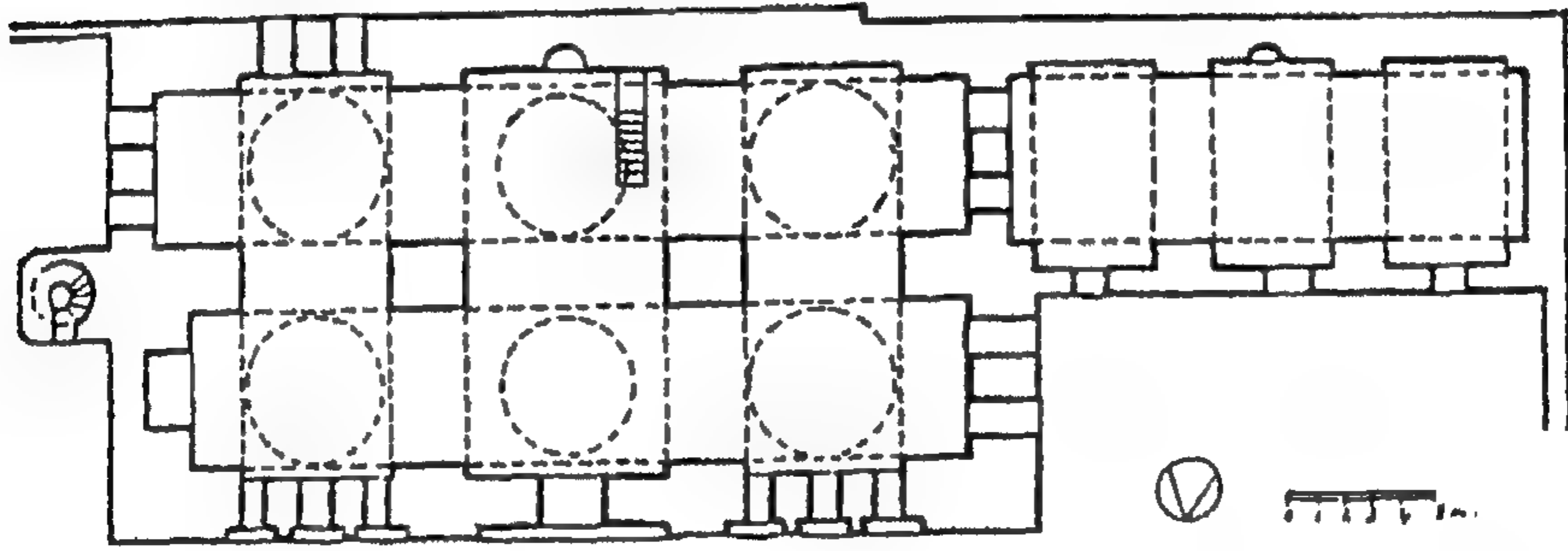
(شكل ٤٠) مسقط أفقي
لجامع الأحمدية ببغداد
(عن Ulucam).



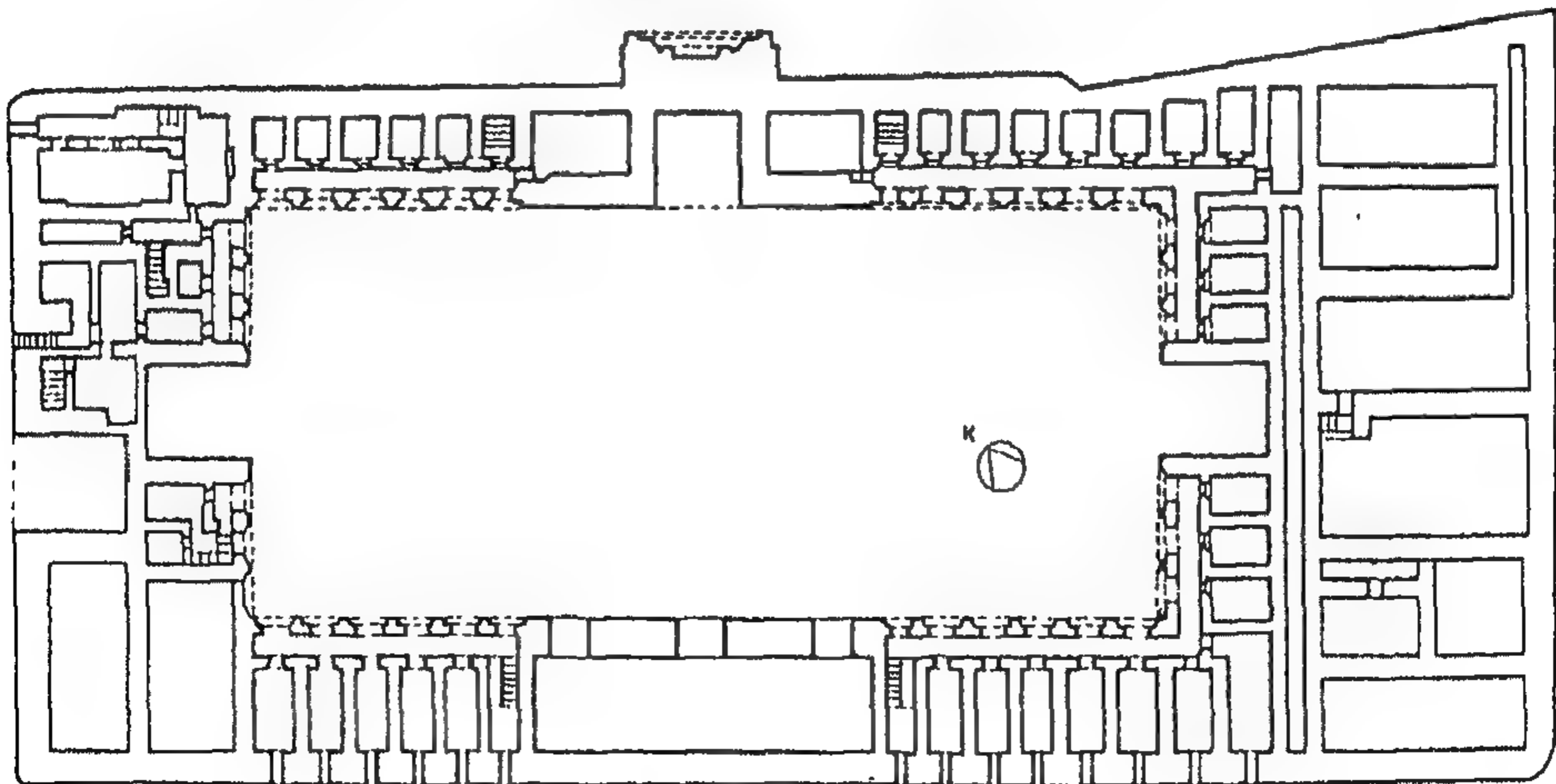
(شكل ٤١) مسقط أفقي
لجامع الحيدر خانة ببغداد
(عن : كوبان).



(شكل ٤٢) مسقط أفقي لجامع العاقولي ببغداد . (عن : Ulucam) .

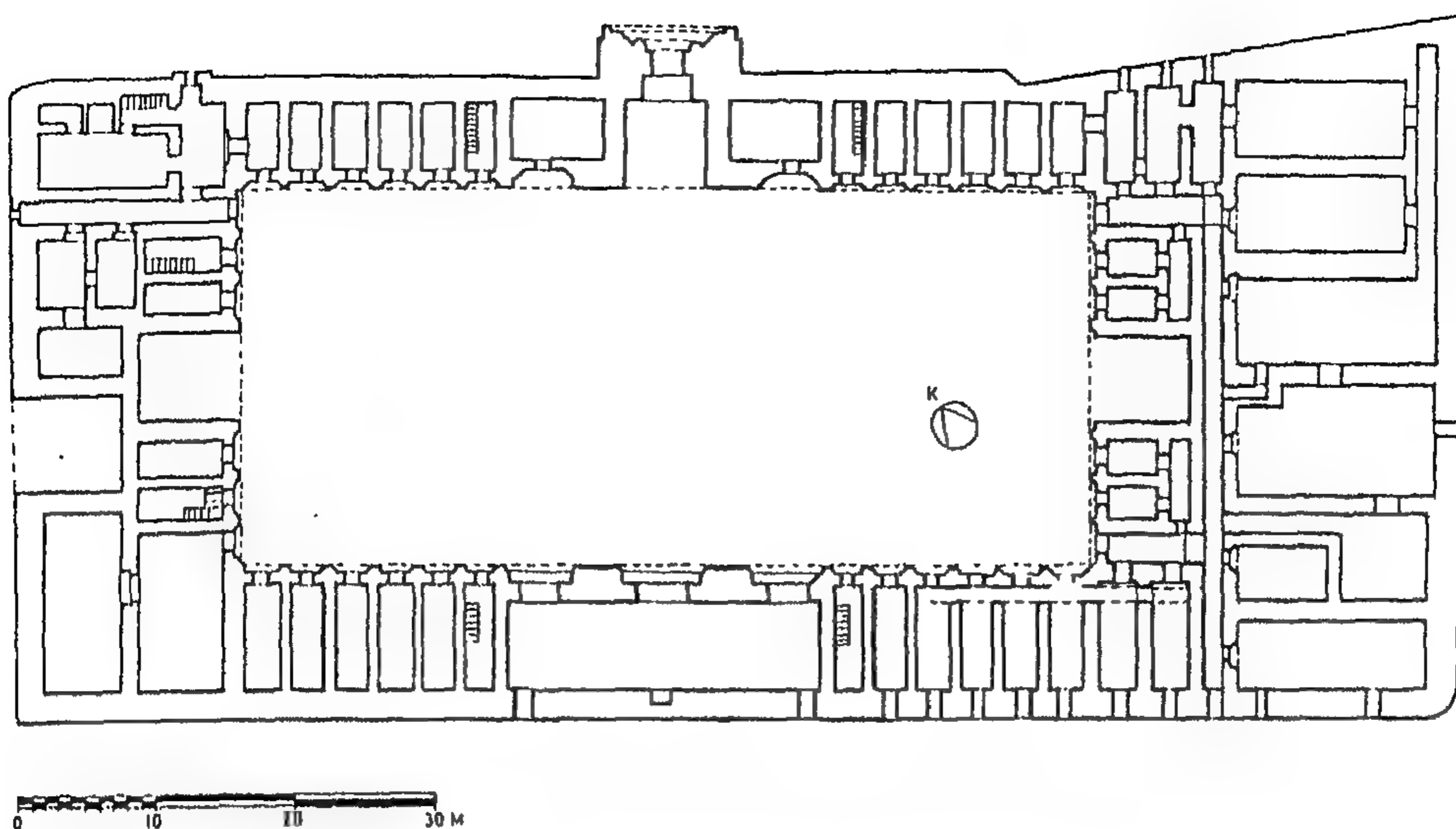


(شكل ٤٣) مسقط أفقي لجامع قمرية ببغداد . (عن : Ulucam) .

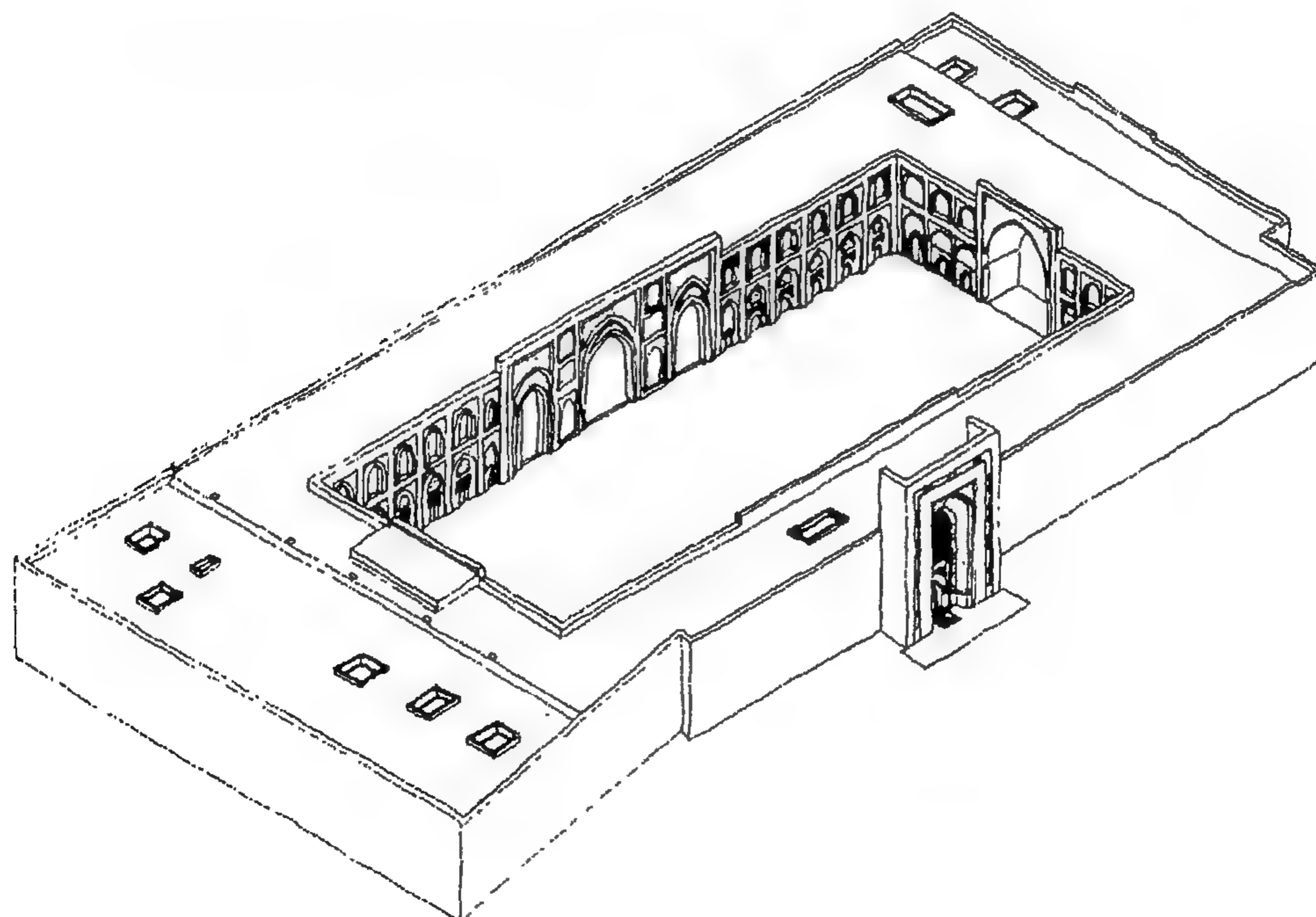


0 10 20 30 M

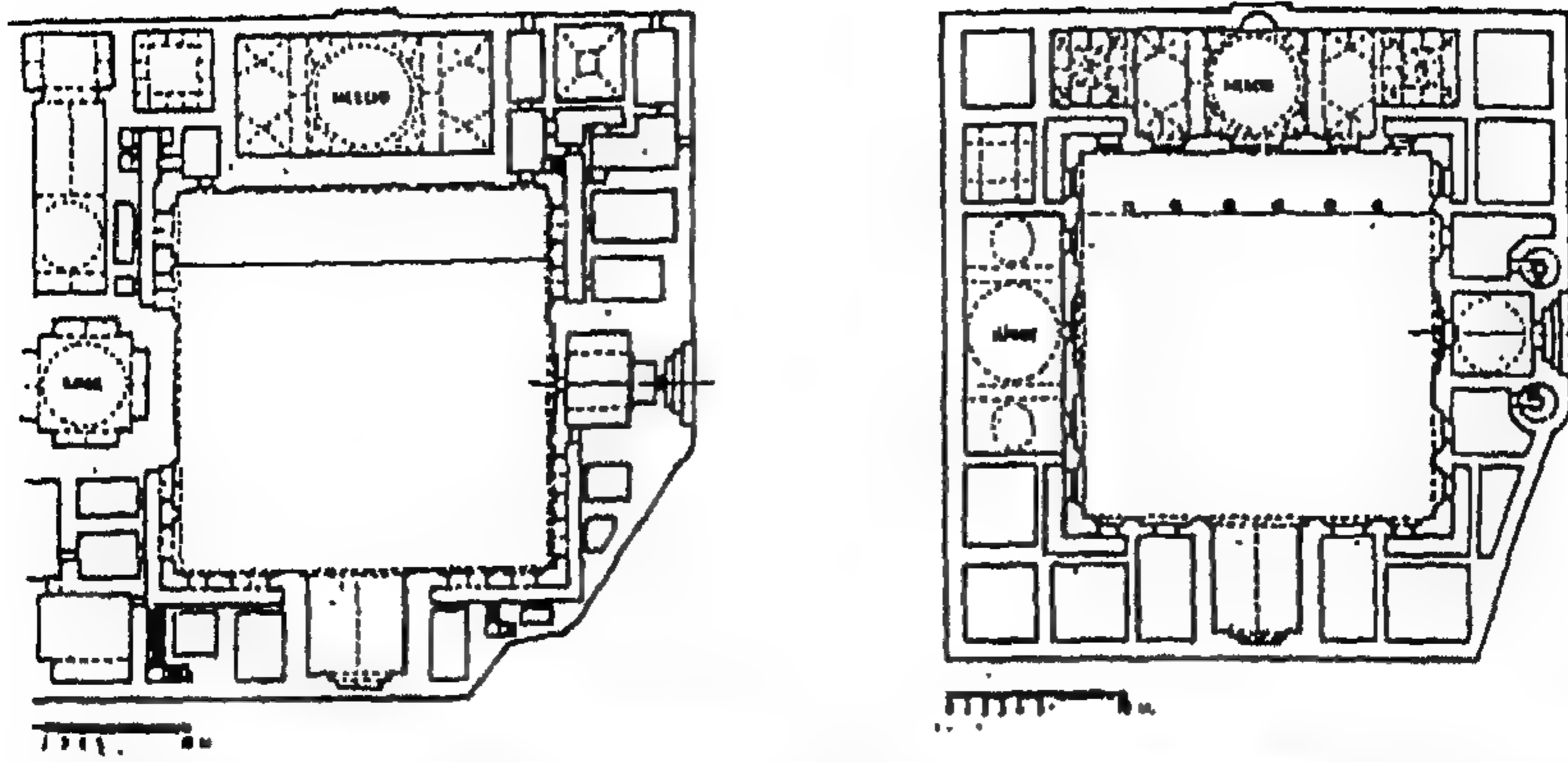
(شكل ٤٤) المدرسة المستنصرية ببغداد : مسقط أفقي للطابق الأرضي .



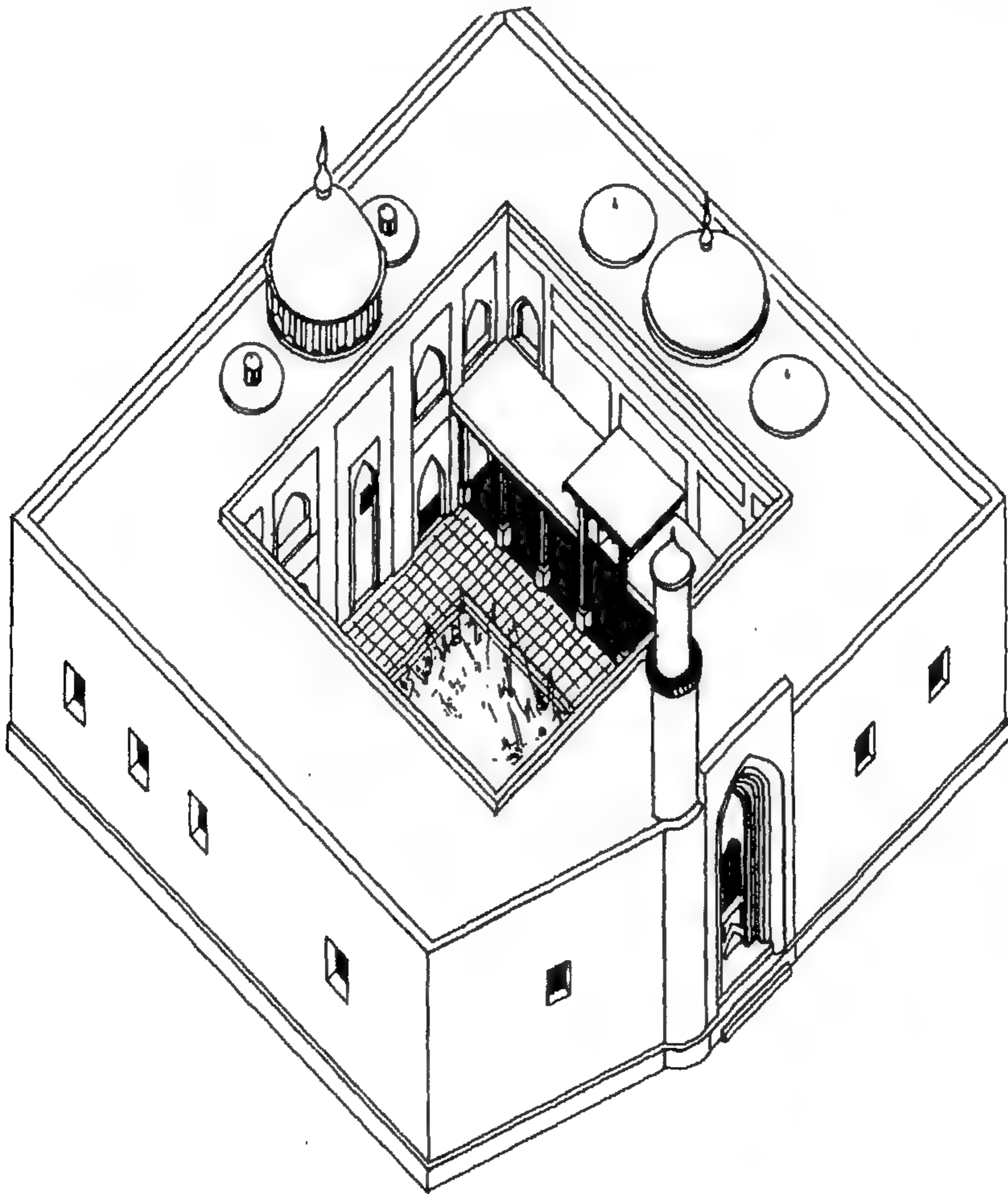
(شكل ٤٤ مكرر) المدرسة المستنصرية ببغداد : مسقط أفقي للطابق الأول .



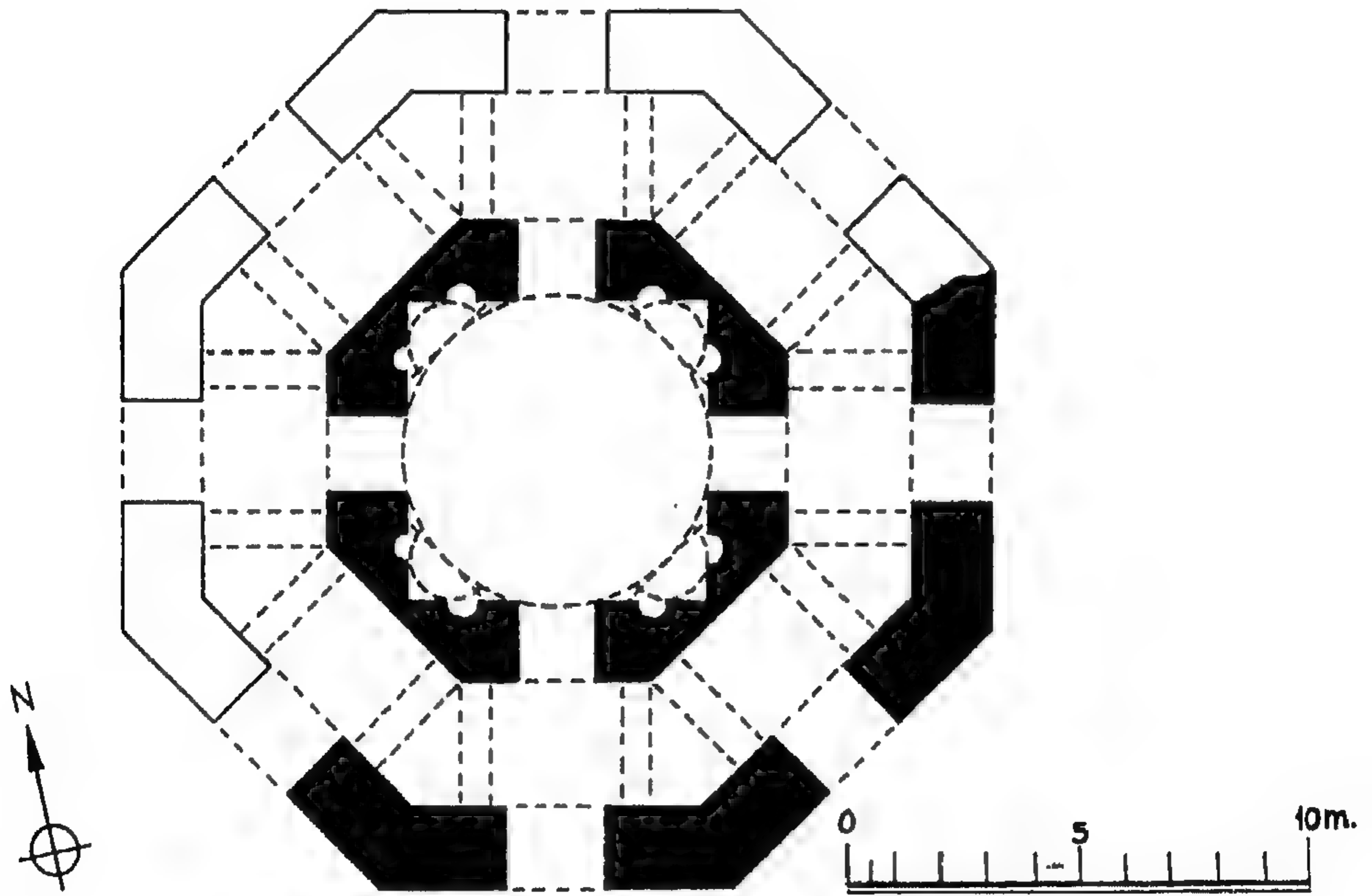
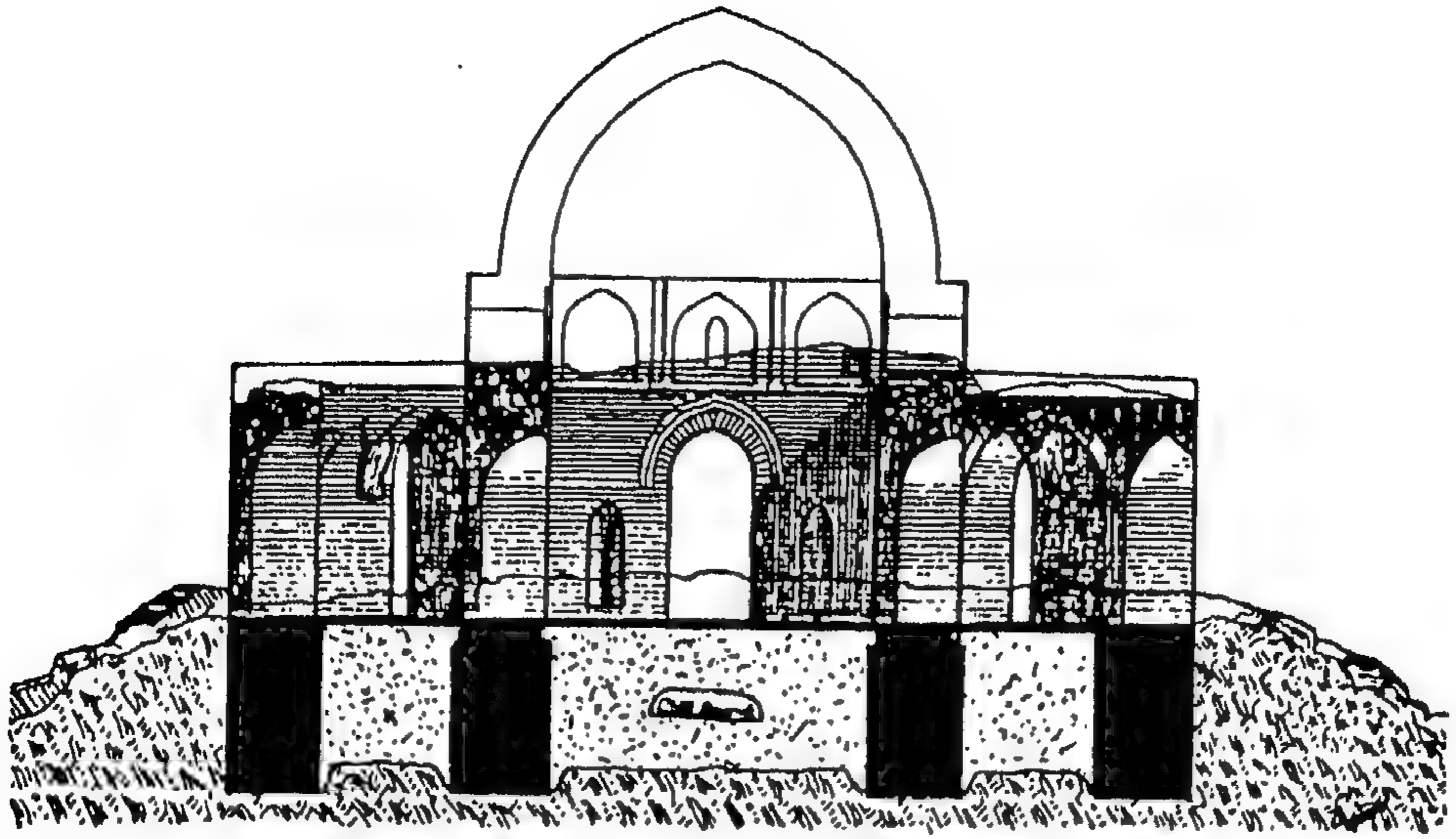
(شكل ٤٥) المدرسة المستنصرية ببغداد، (عن : هيلنبراند) .



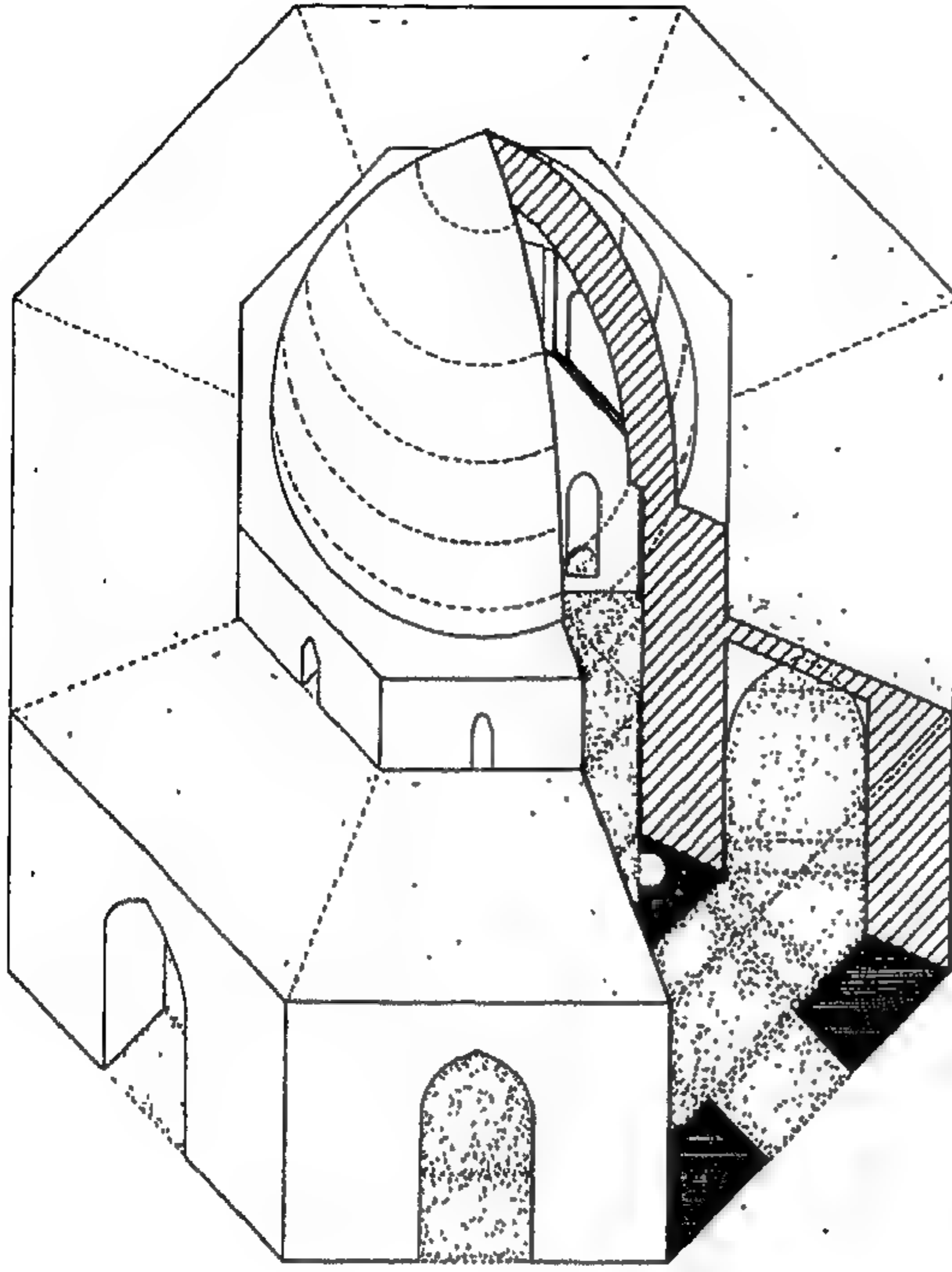
(شكل ٤٥ مكرر) مسقط أفقي للمدرسة المرجانية ببغداد - الطابق الأرضي (اليمين) والطابق الأول (اليسار) (عن : Ulucam) .



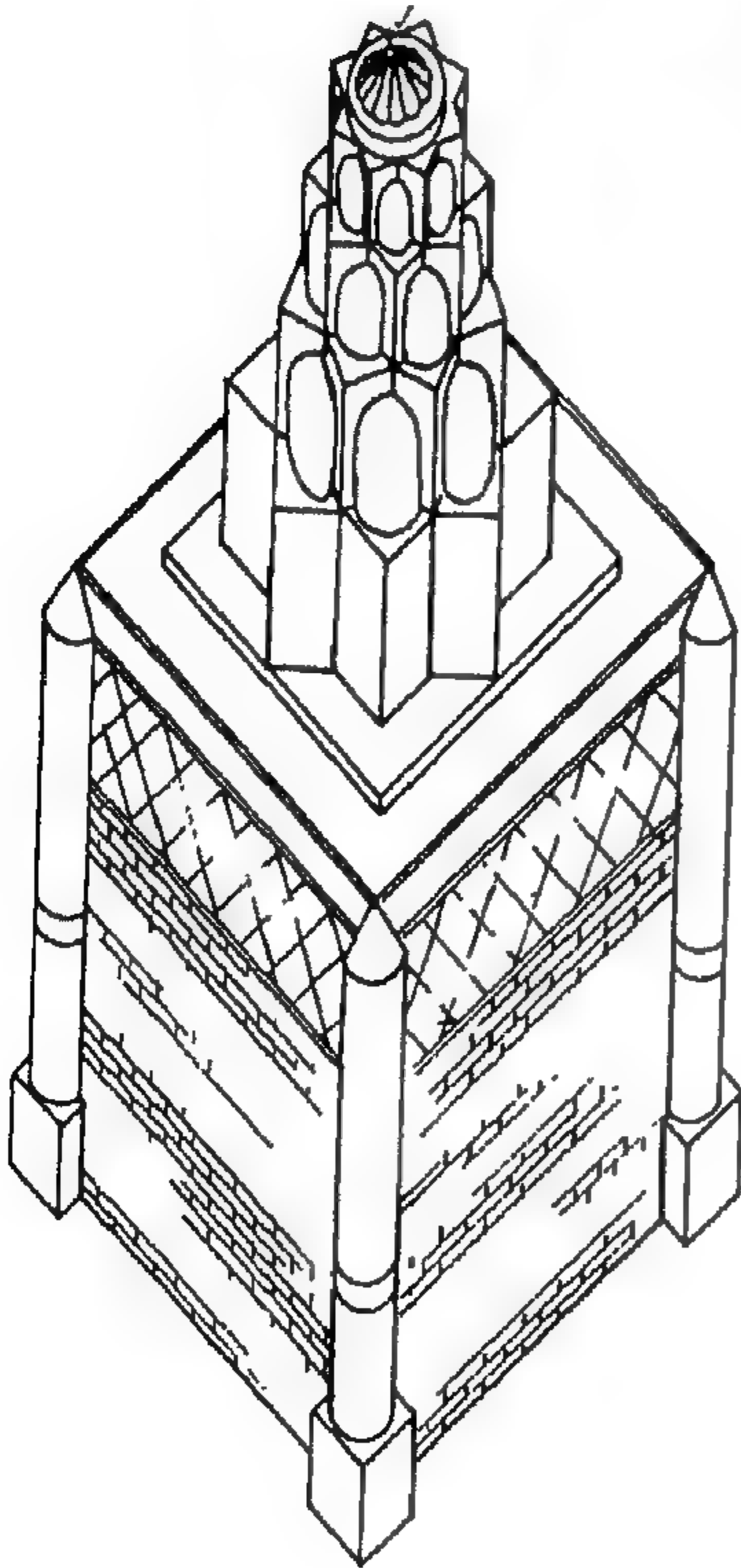
(شكل ٤٦) المدرسة المرجانية ببغداد (عن : هيلنبراند) .



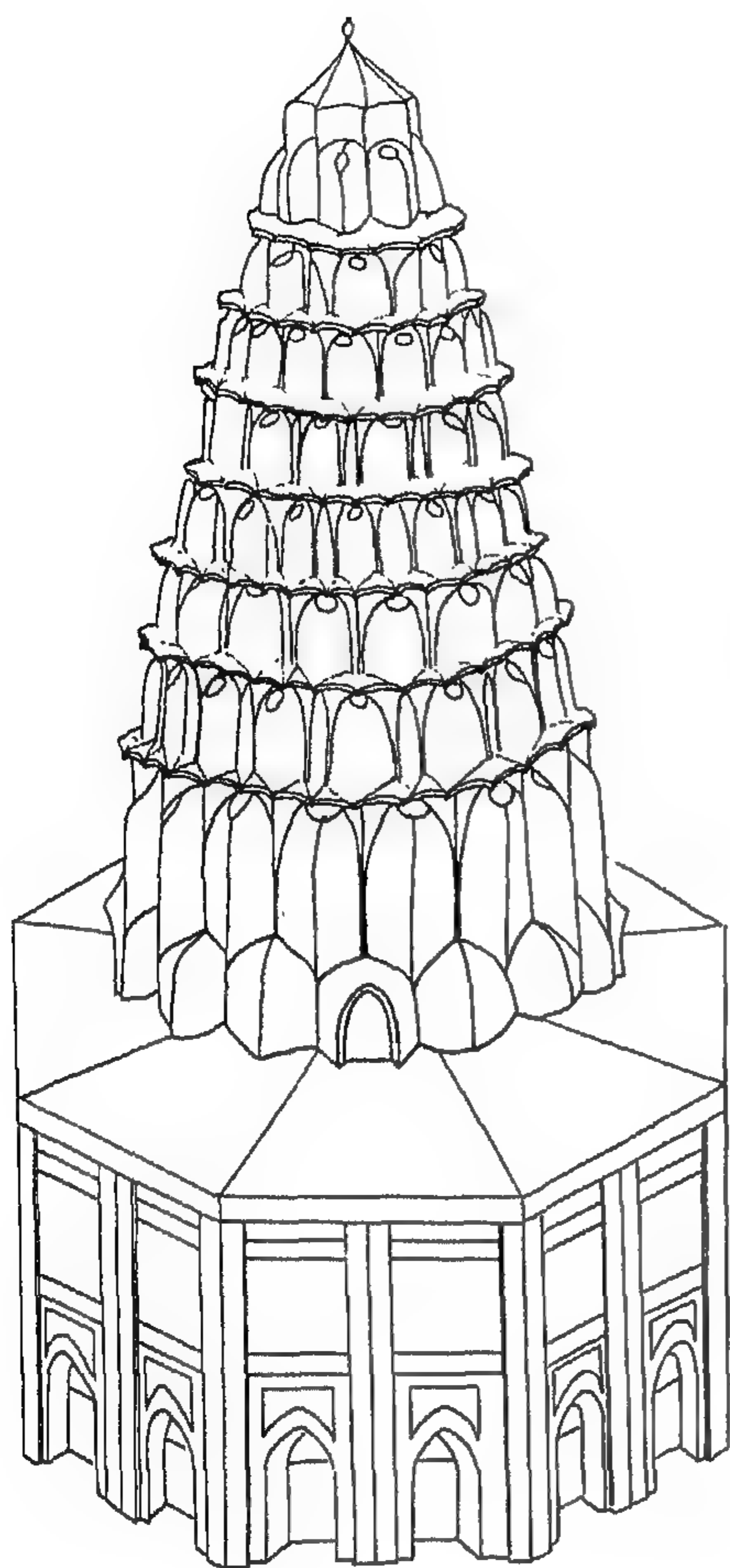
(شكل ٤٦ مكرر) قبة الصليبية في سامرا بالعراق
(مسقط وقطاع) (عن : كريزول) .



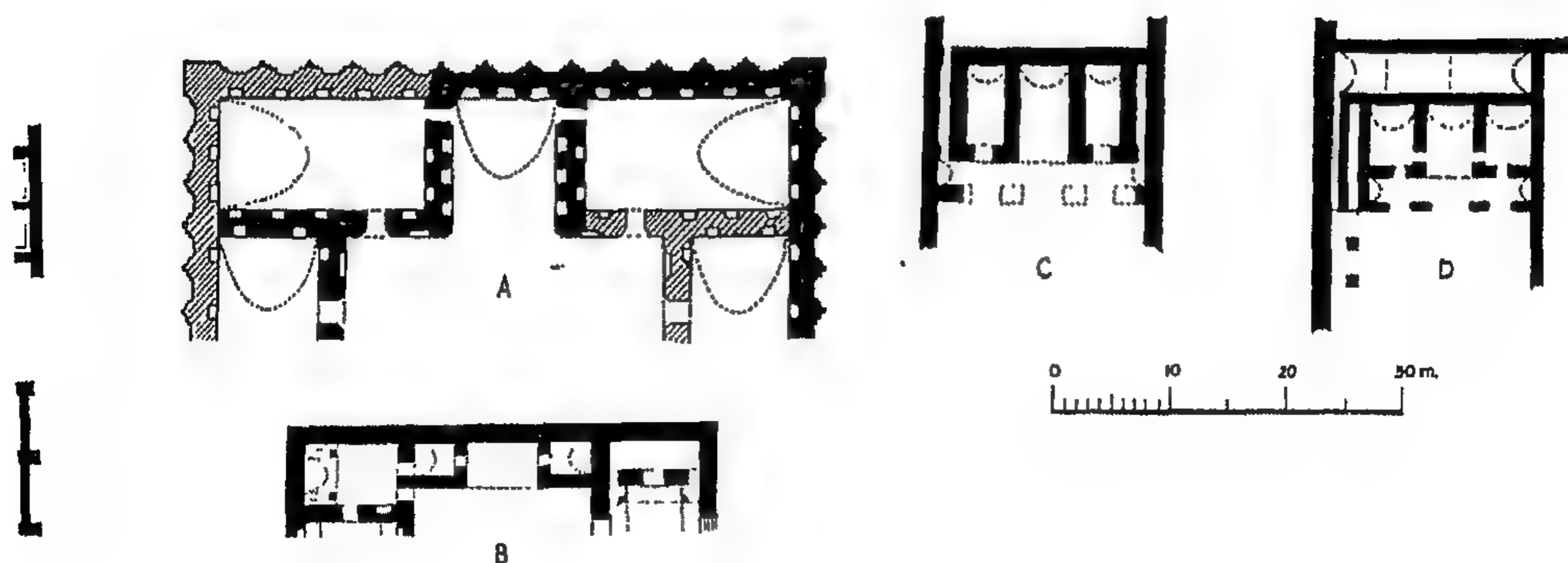
(شكل ٤٧) قبة الصليبية في سامرا
(عن : هيلنيراند) .



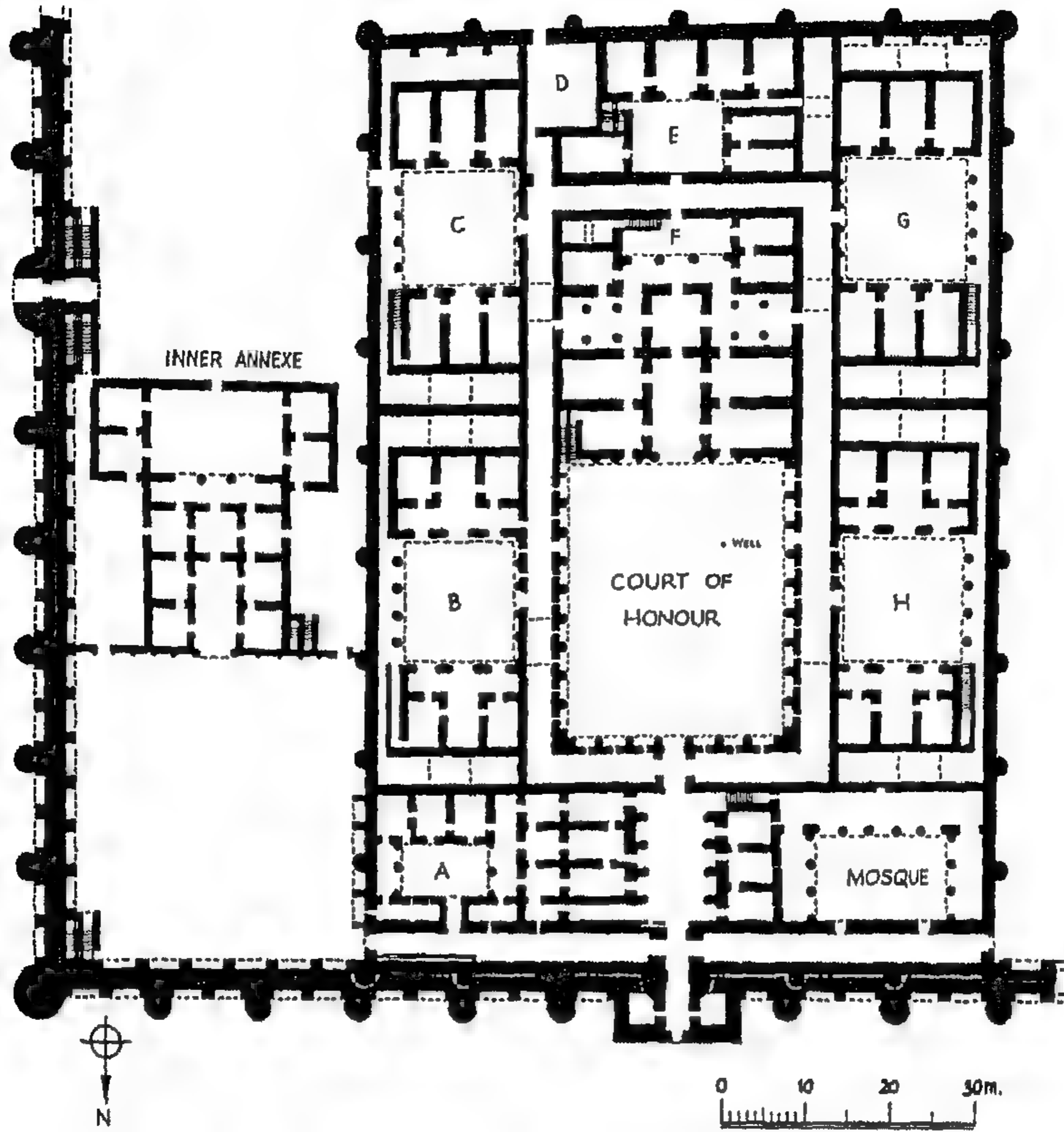
(شكل ٤٨) قبة الامام الدور (محمد الدوري)
بمدينة الدور شمال سامرا بحوالي ٣٠ كم
(عن : هيلنيراند) .



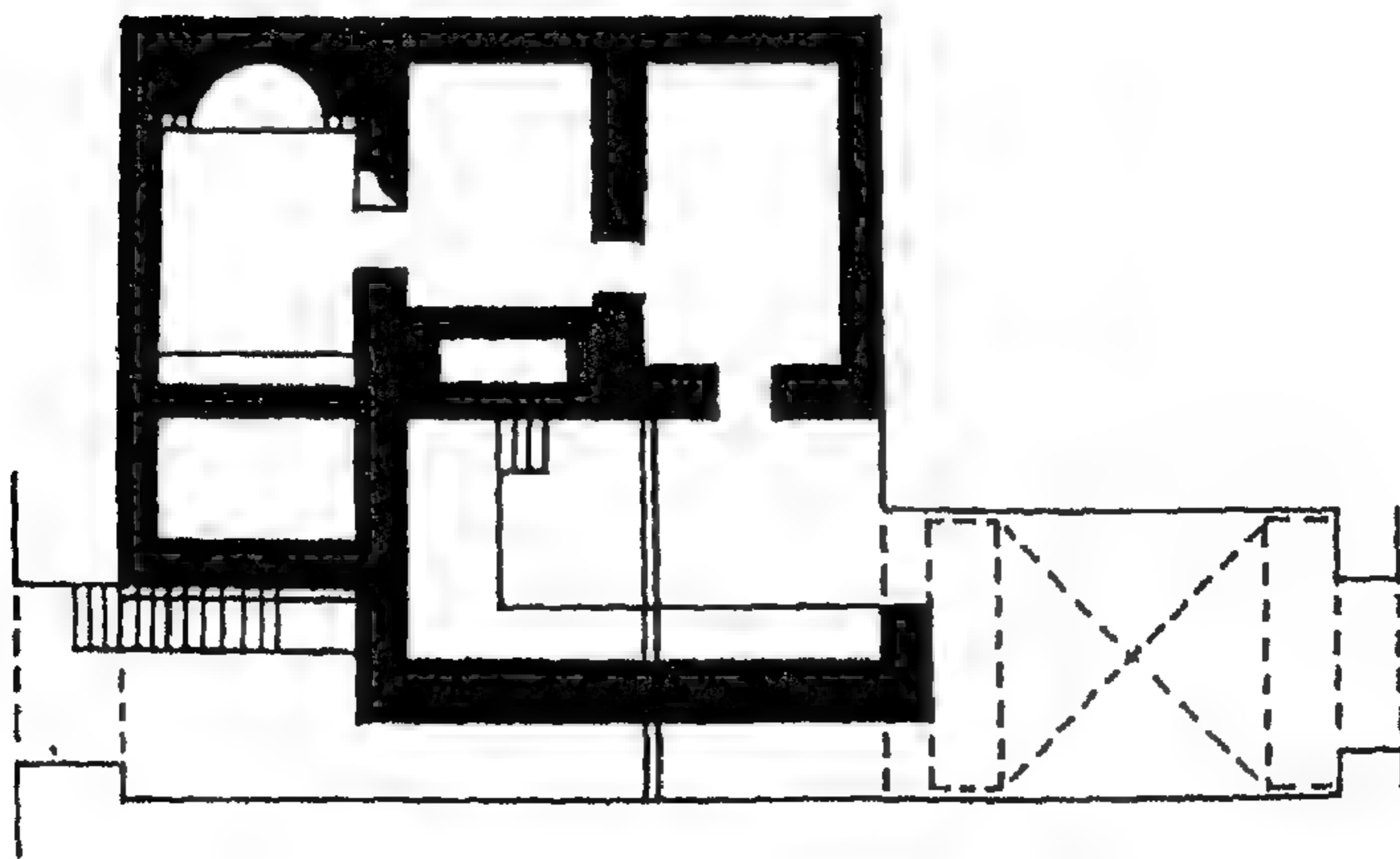
(شكل ٤٩) قبة زمرد خاتون المعروفة بضريح الست زبيدة بوسط مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الجانب الغربي من بغداد . (عن : هيلنبراند).



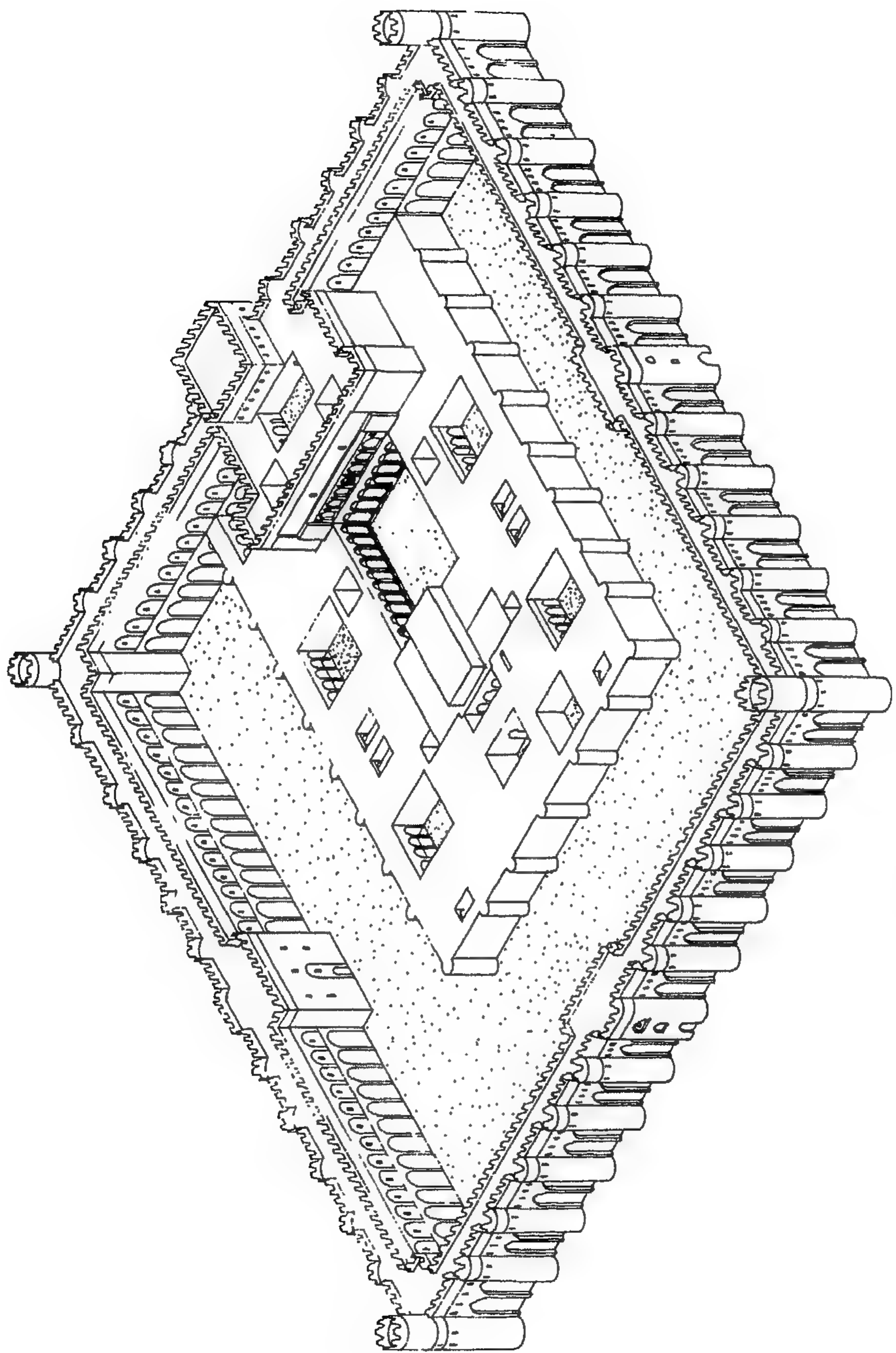
(شكل ٥٠) أنماط البيوت الفارسية : A فيروز آباد، B سرفستان، C قصر شيرين، D قصر الأخيضر (عن كريزول) .



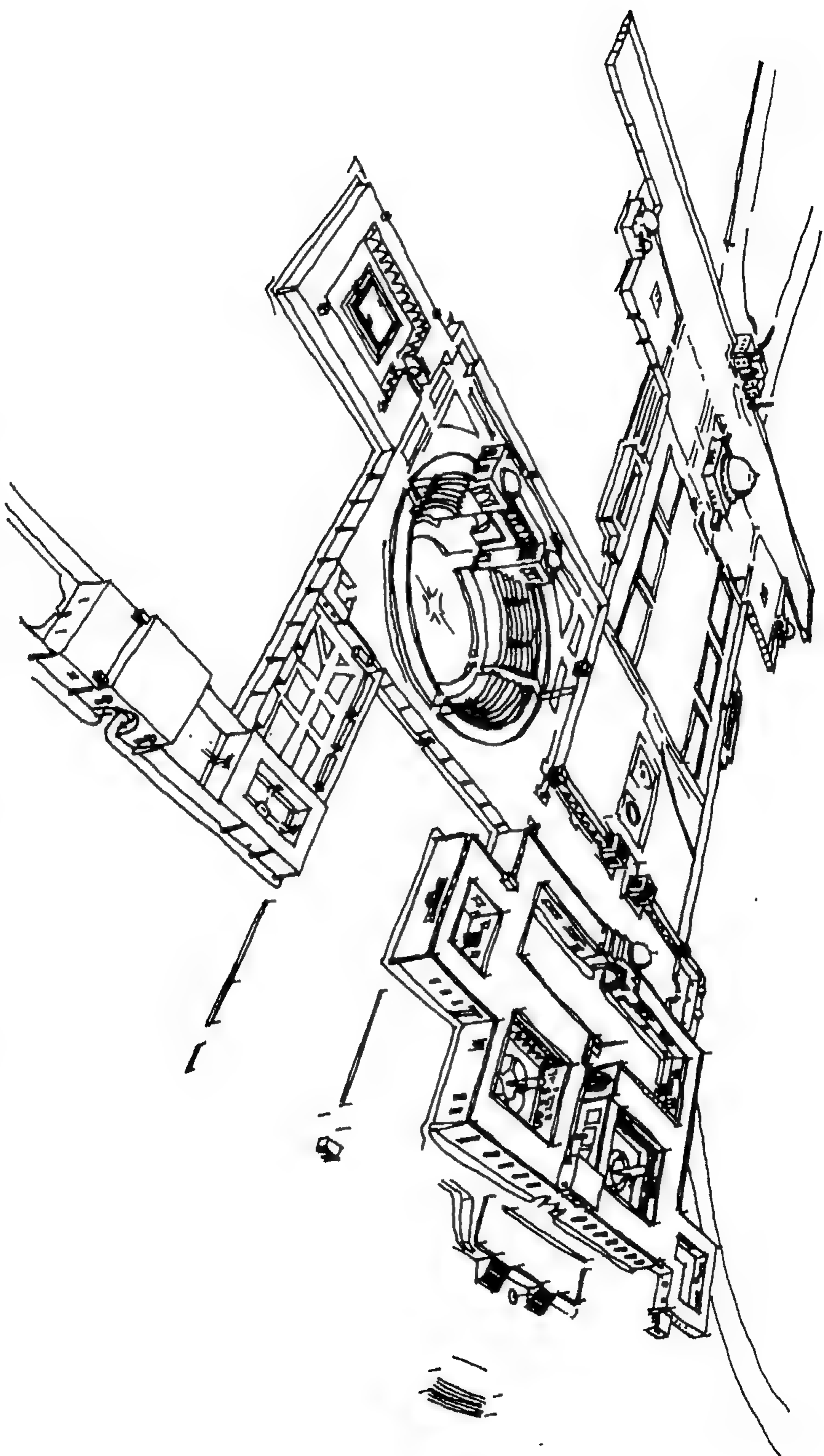
(شكل ٥١) مسقط أفقي لقصر الأخيضر (عن : كريزول) .



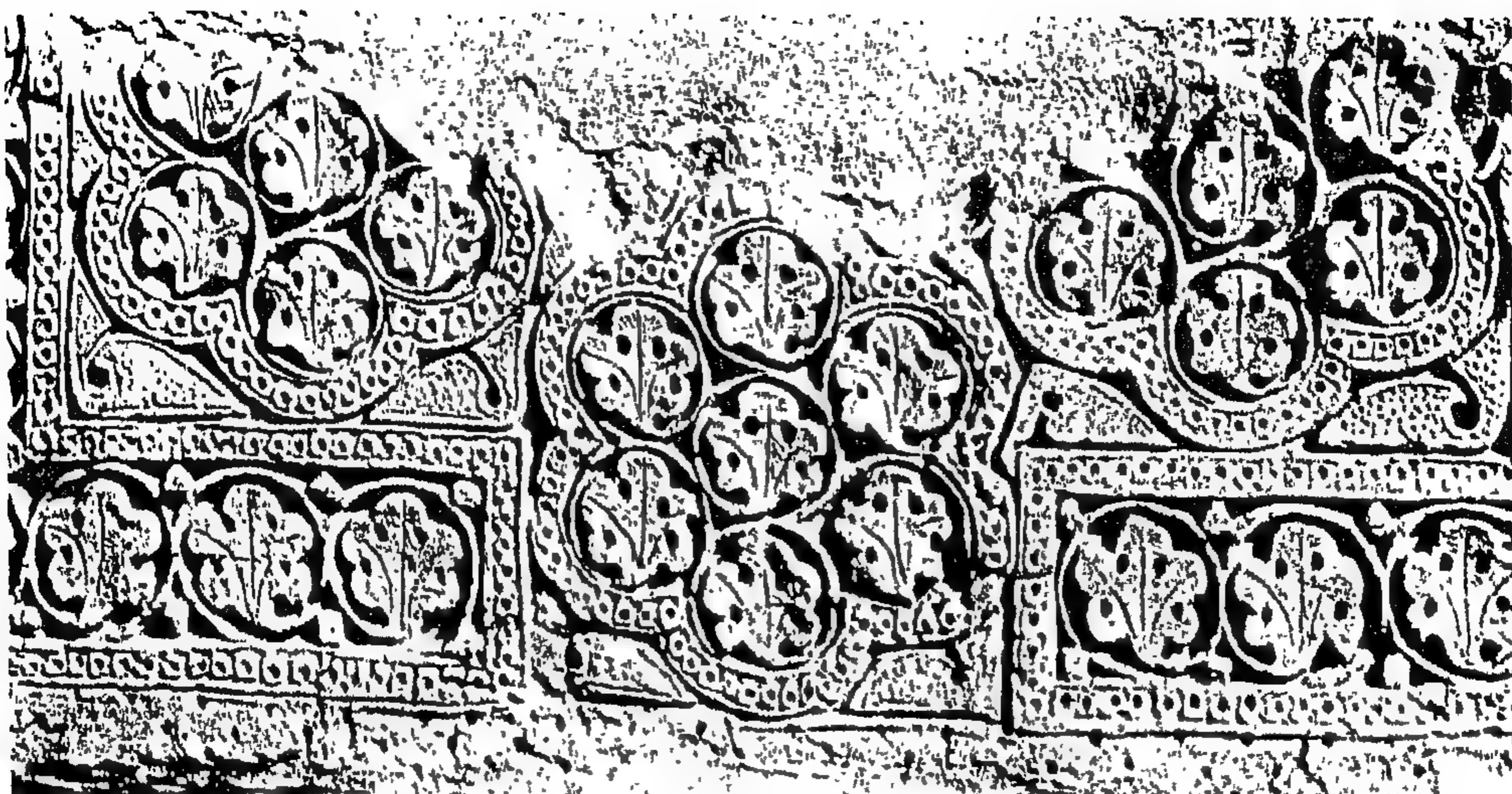
(شكل ٥١ مكرر) قصر الأخيضر : مسقط أفقي للحمام . (عن : كريزول) .



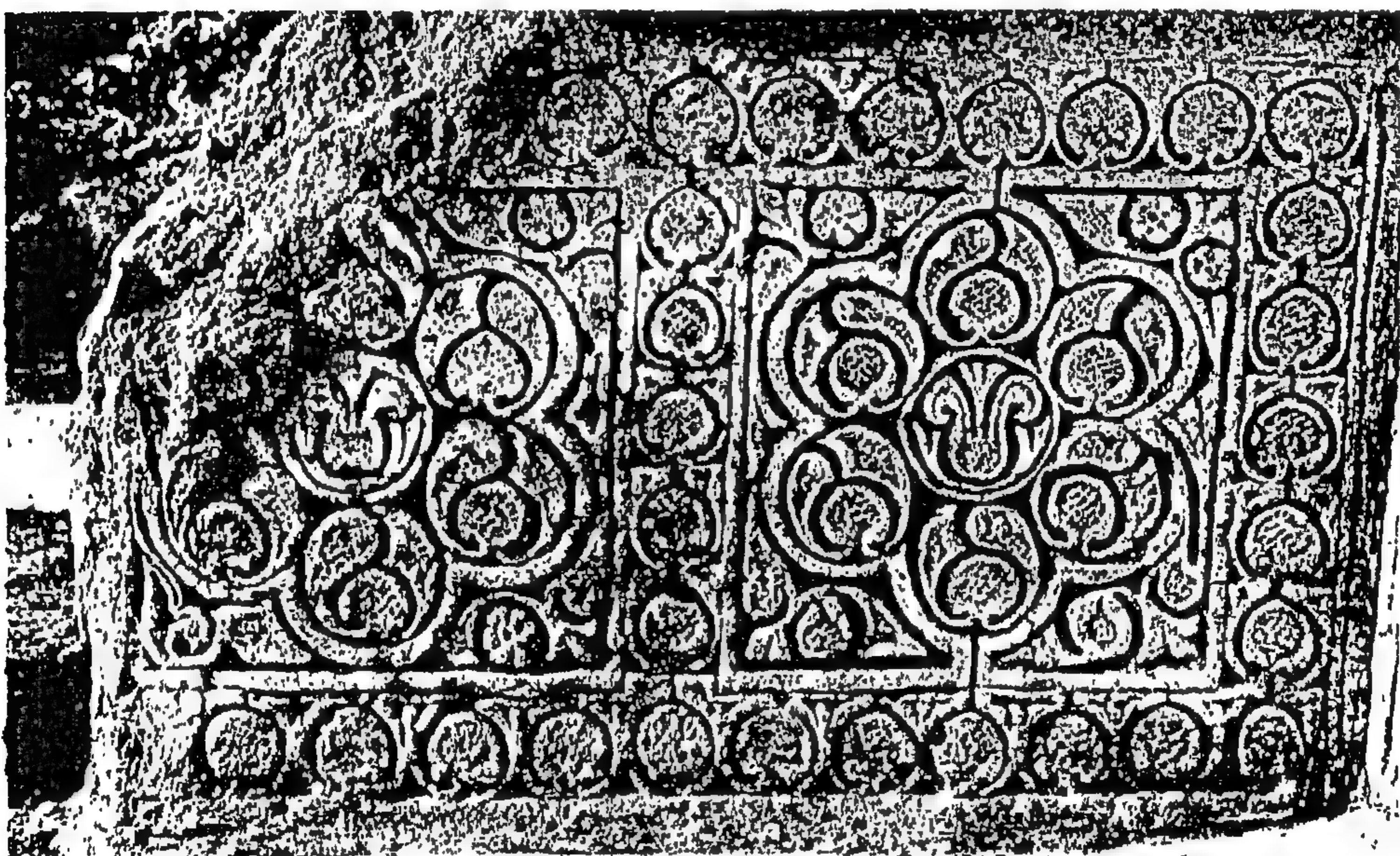
(شکل ۵۲) قصر الأخيضر (عن : هيلنبراند) .



(شكل ٥٣) مدينة سامرا : قصر الجوسق الخاقاني - (عن هيلبراند) -

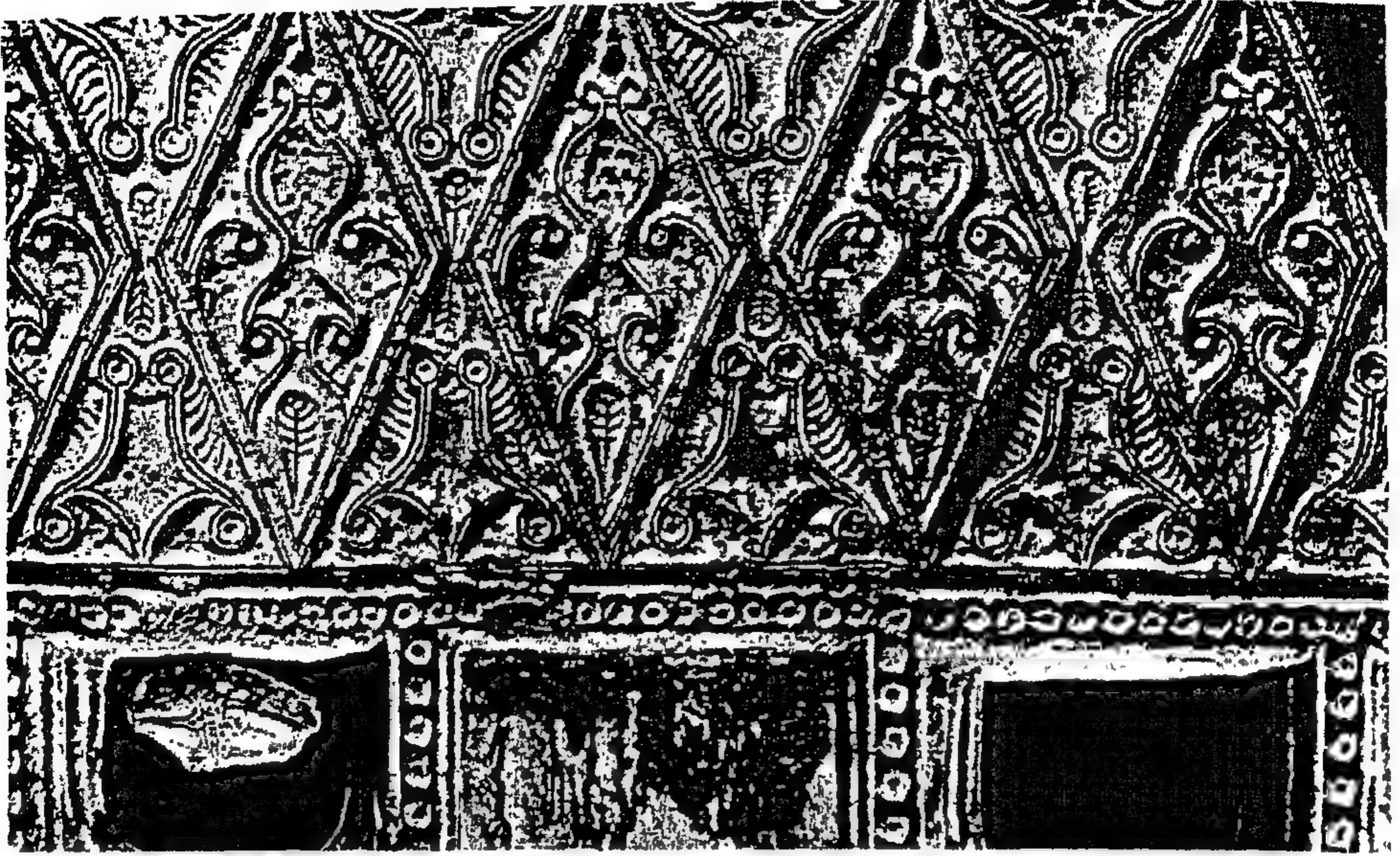


A



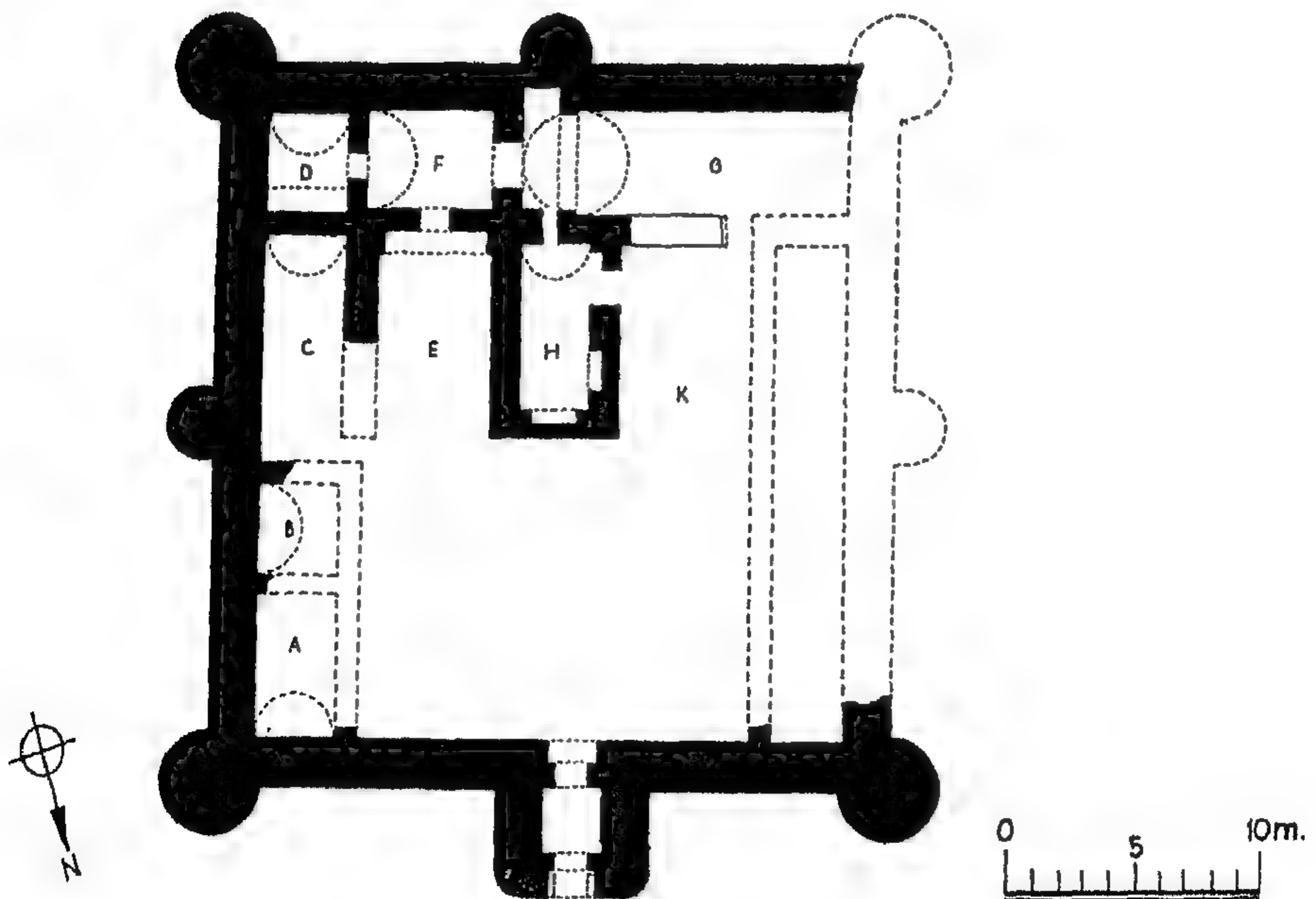
B

(شكل ٥٤) مدينة سامرا : طرز سامرا الزخرفية علي الجص
(الطرزان الأول والثاني A-B) (عن : كريزول).

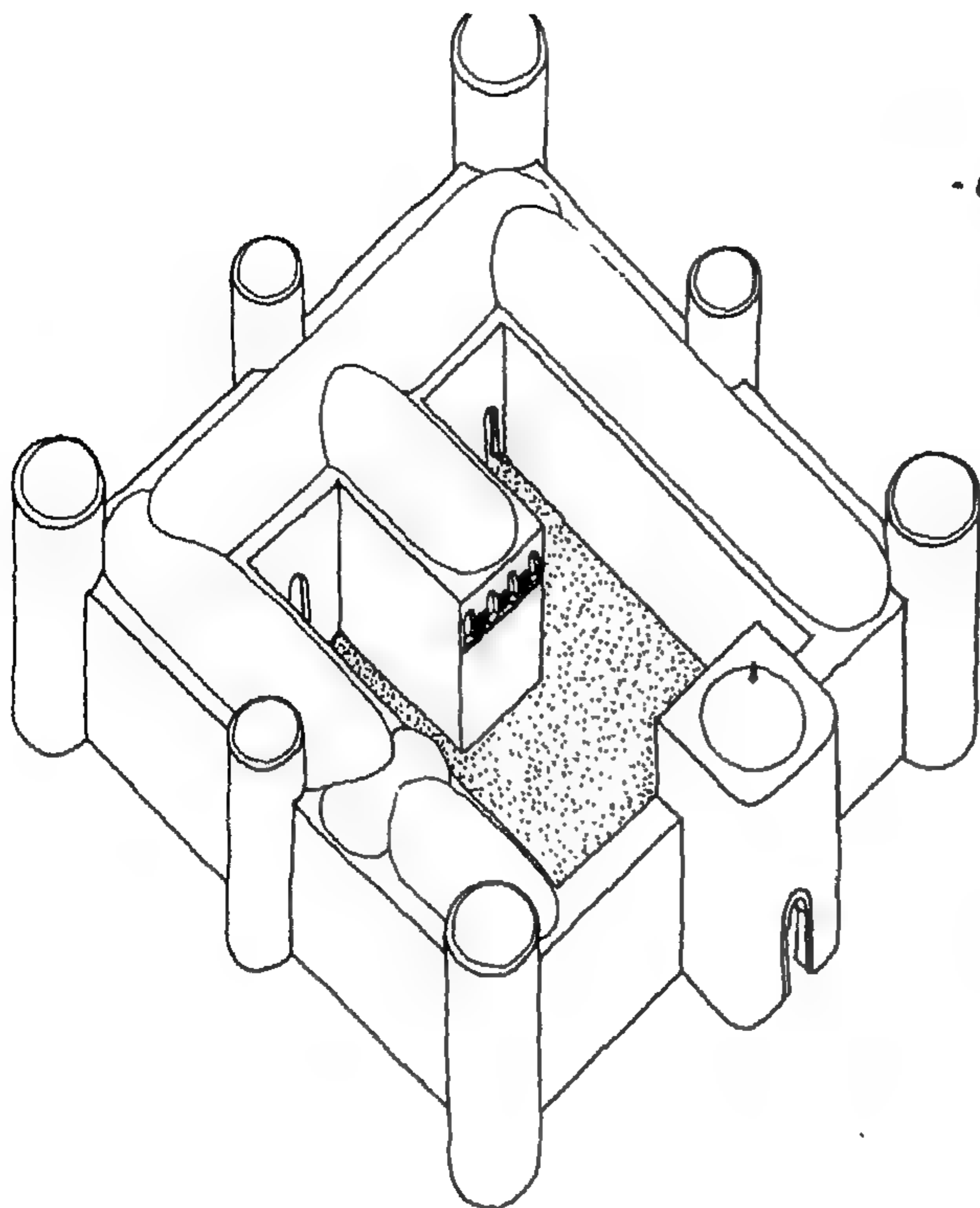


C

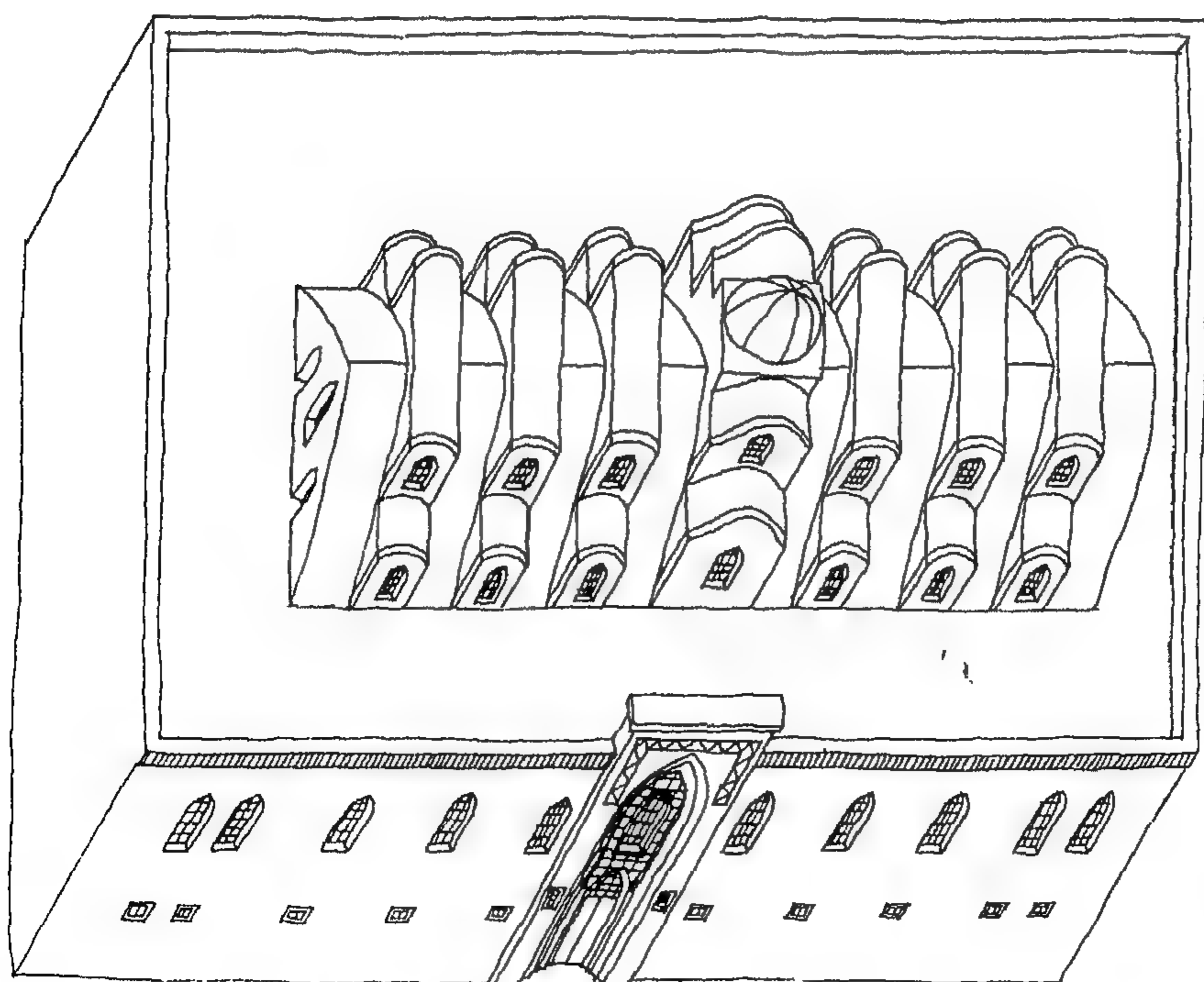
(شكل ٥٥) مدينة سامرا : طراز سامرا الثالث علي الجصر (C) (عن : كريزول).



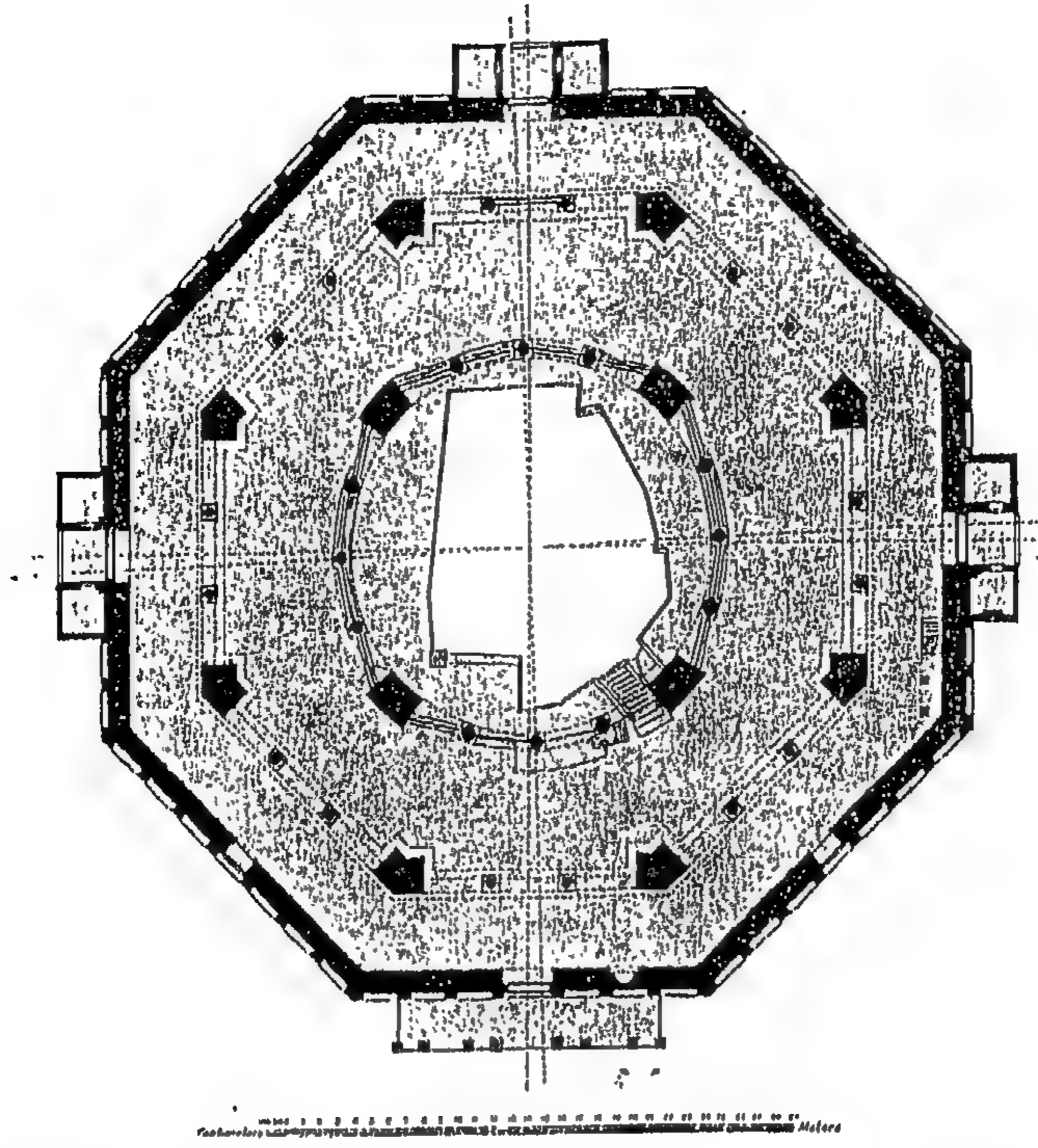
(شكل ٥٦) خان عطشان (عن : كريزول) .



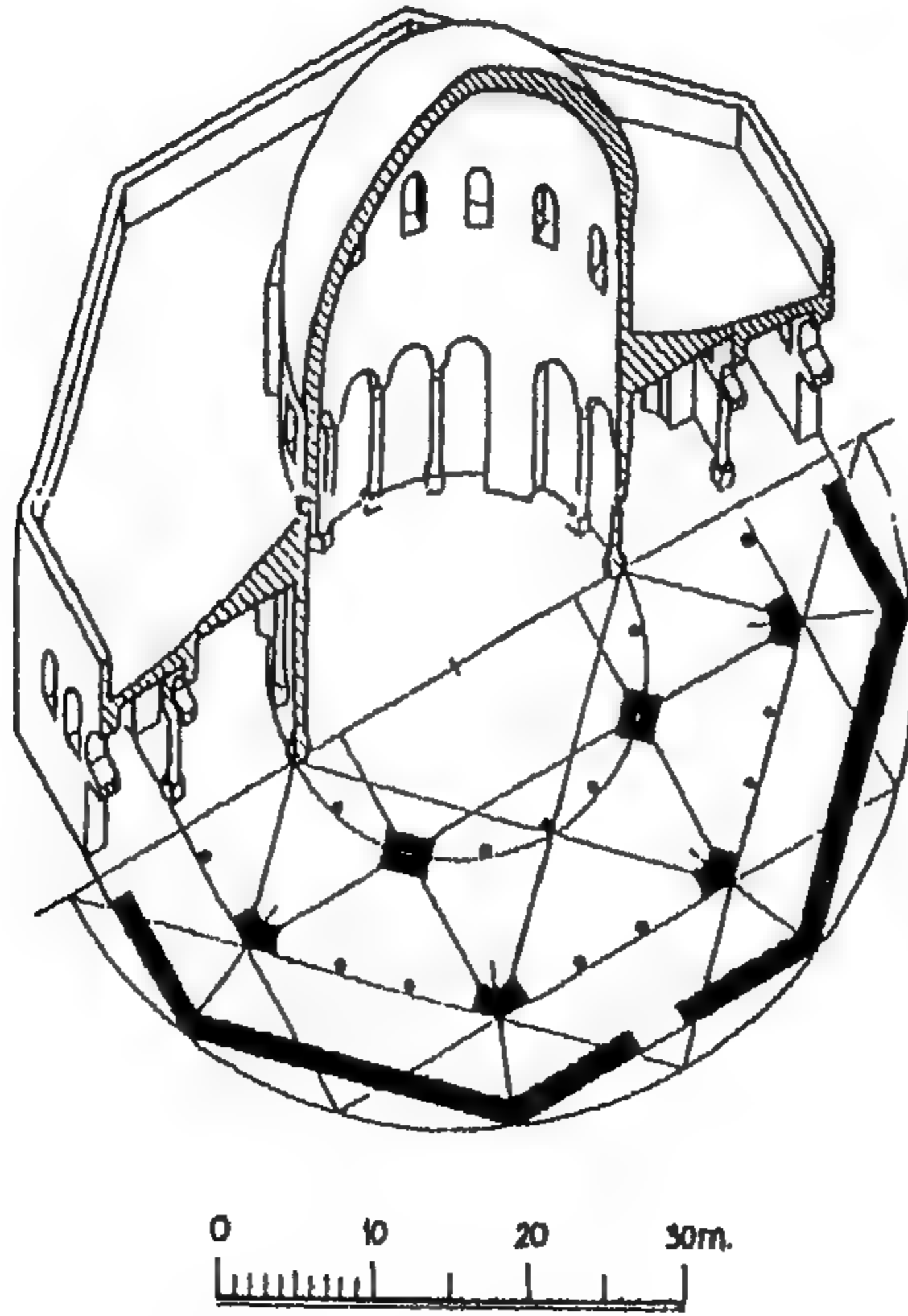
(شکل ۵۷) خان عطشان .
(عن : هیلنبراند) .



(شکل ۵۸) خان مرجان فی بغداد (عن : هیلنبراند) .

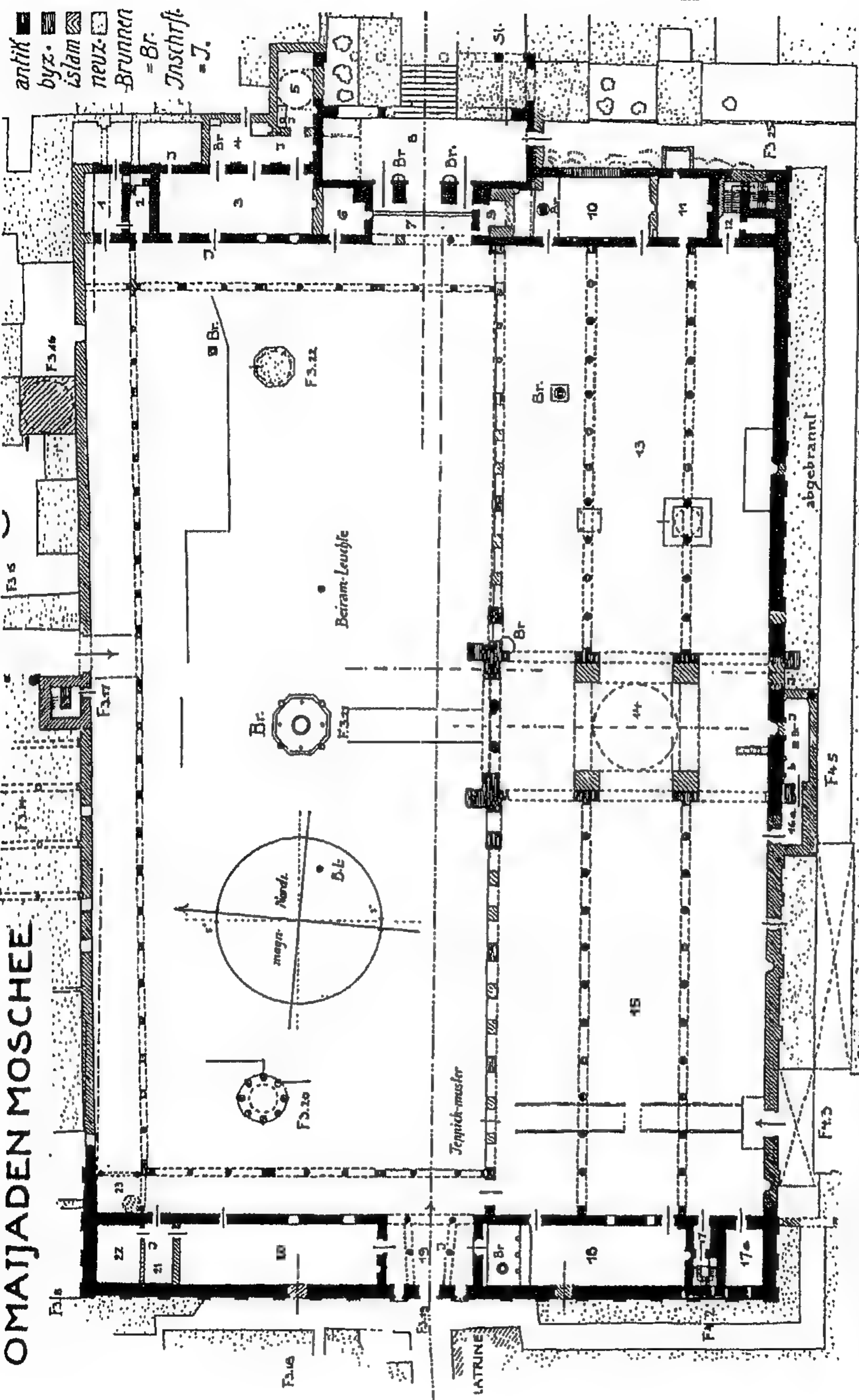


(شكل ٥٩) مسقط أفقي لقبة الصخرة بالقدس الشريف (عن : ريشموند).

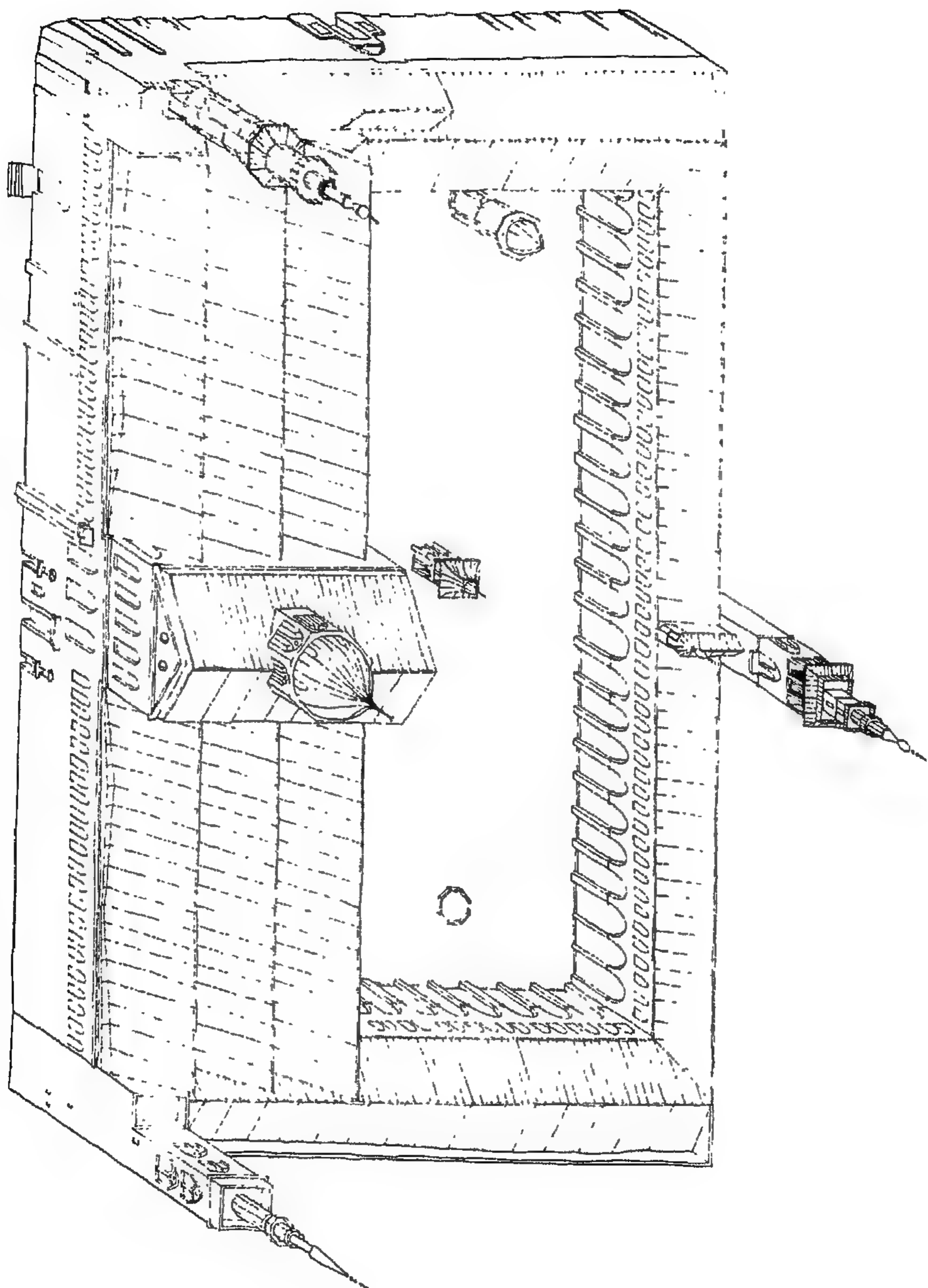


(شكل ٦٠) قطاع رأسي لقبة الصخرة (عن : كريزول).

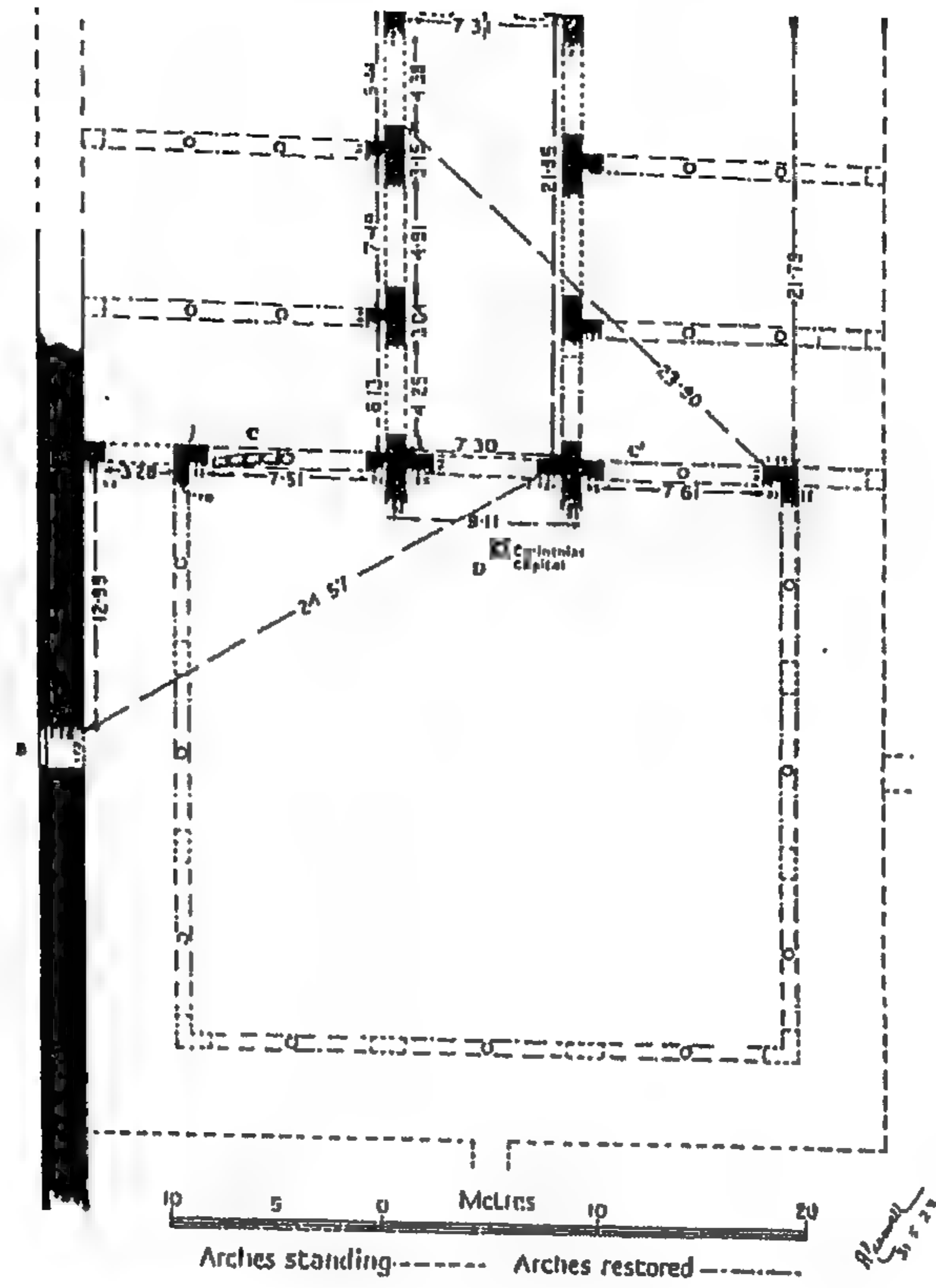
OMAIJADEN MOSCHEE



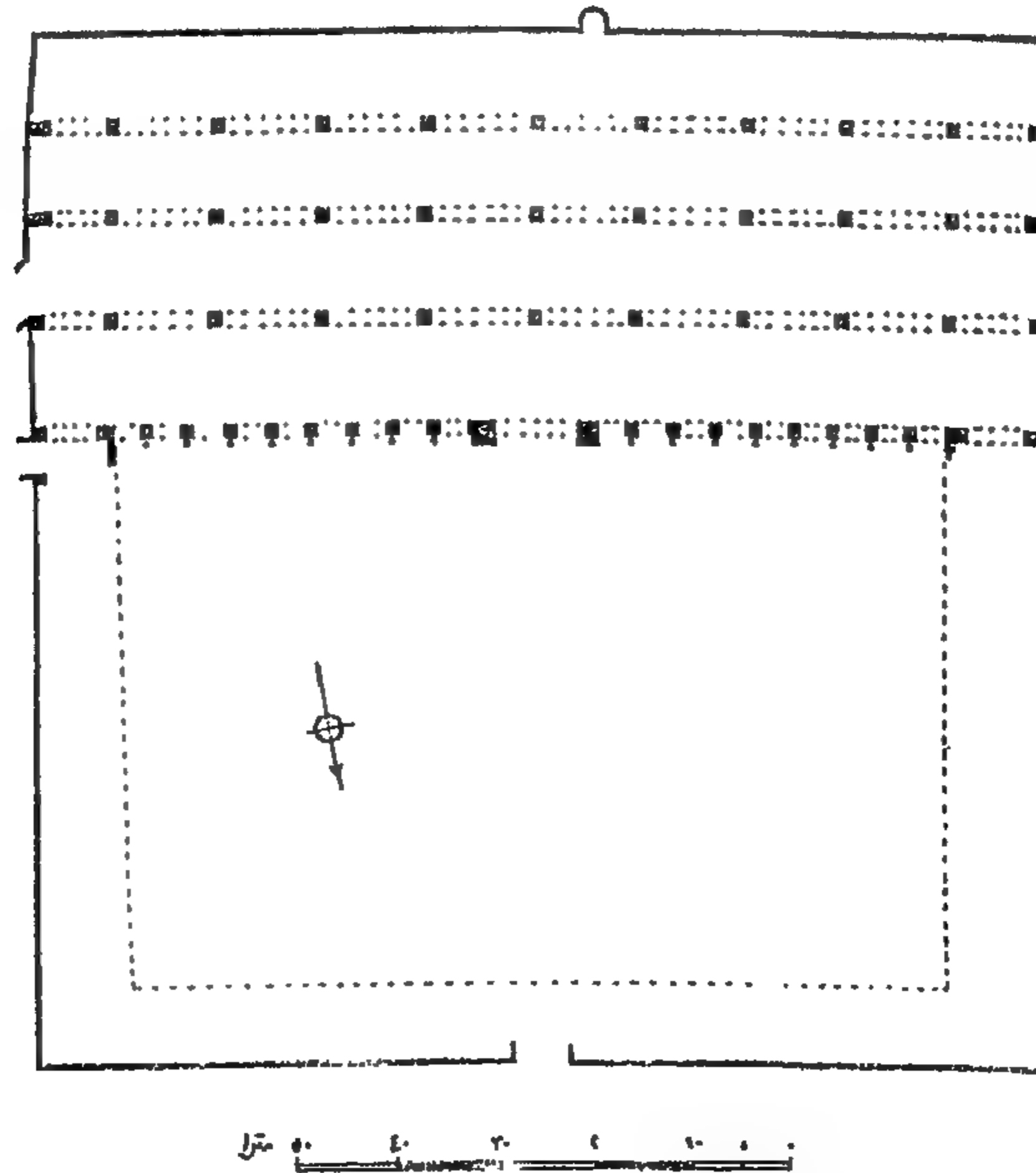
(شكل ٦١) مسقط افقي للجامع الأموي بدمشق - (عن : فلزجروفتزجر) .



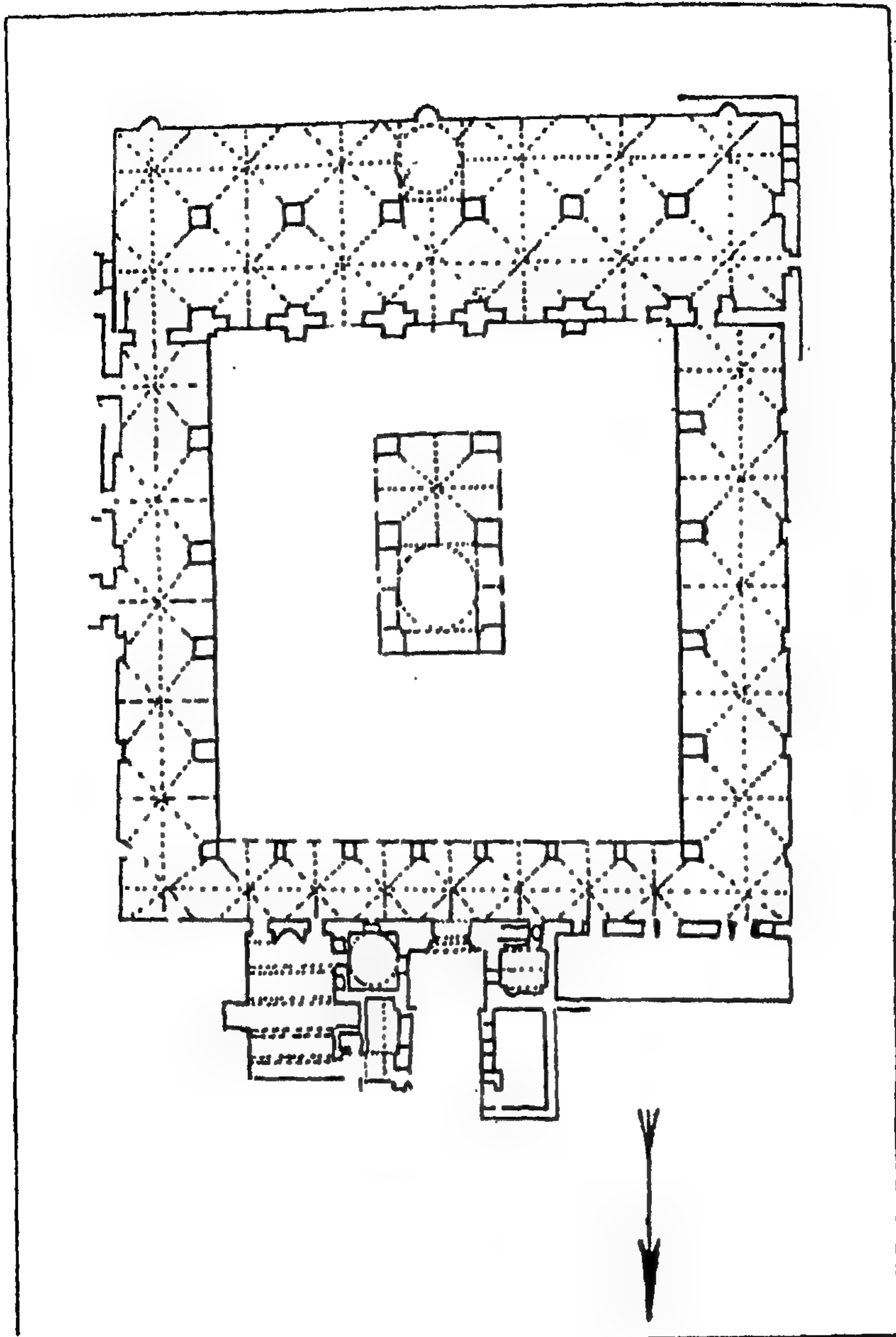
(شكل ٦٢) الجامع الأموي بدمشق - (عن: هيلبراند).



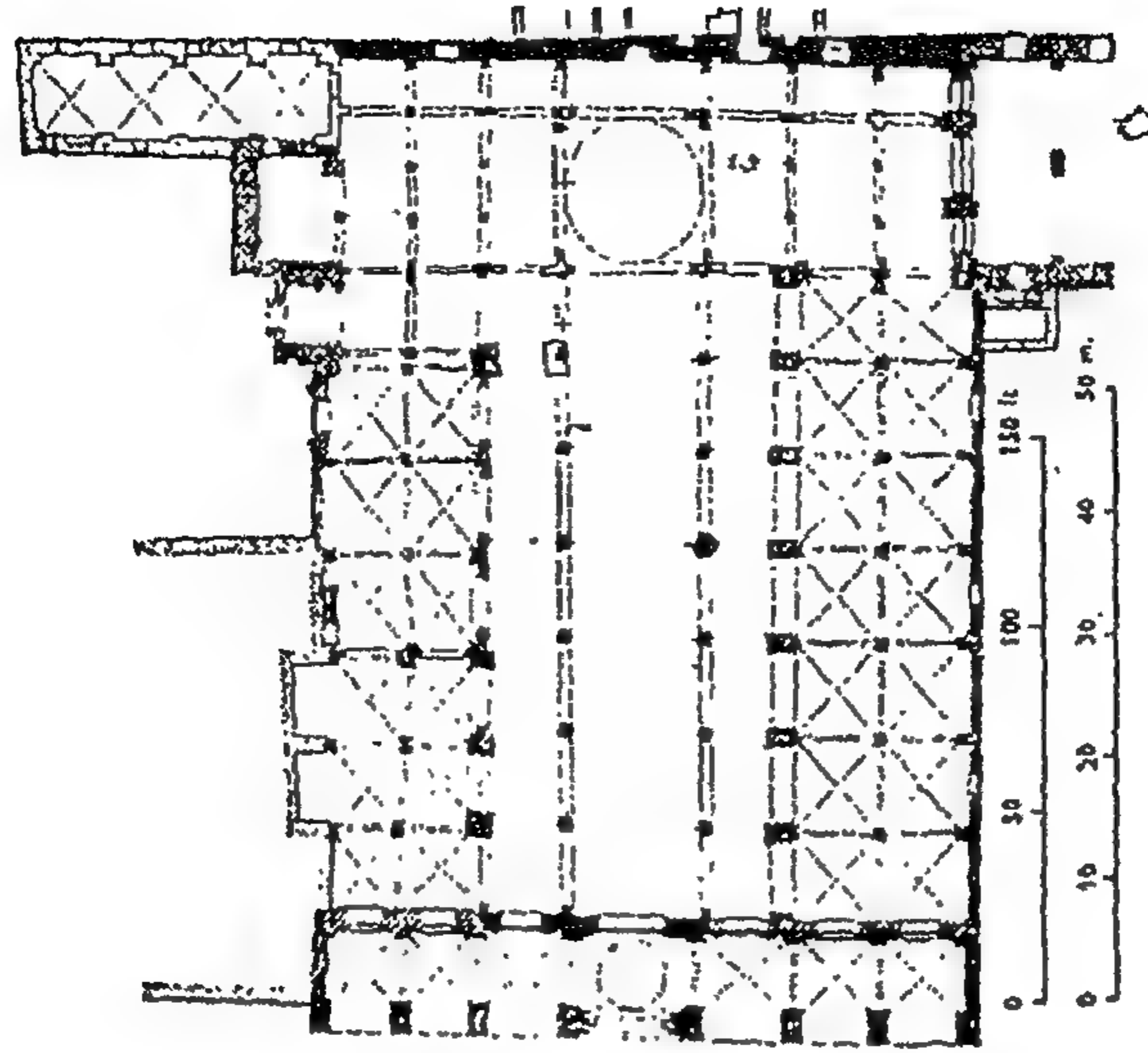
(شكل ٦٣) مسقط أفقي للمسجد الملحق بقصر الحير الشرقي . (عن : كريزول) .



(شكل ٦٤) مسقط أفقي لجامع حران . (عن : أحمد فكري) .

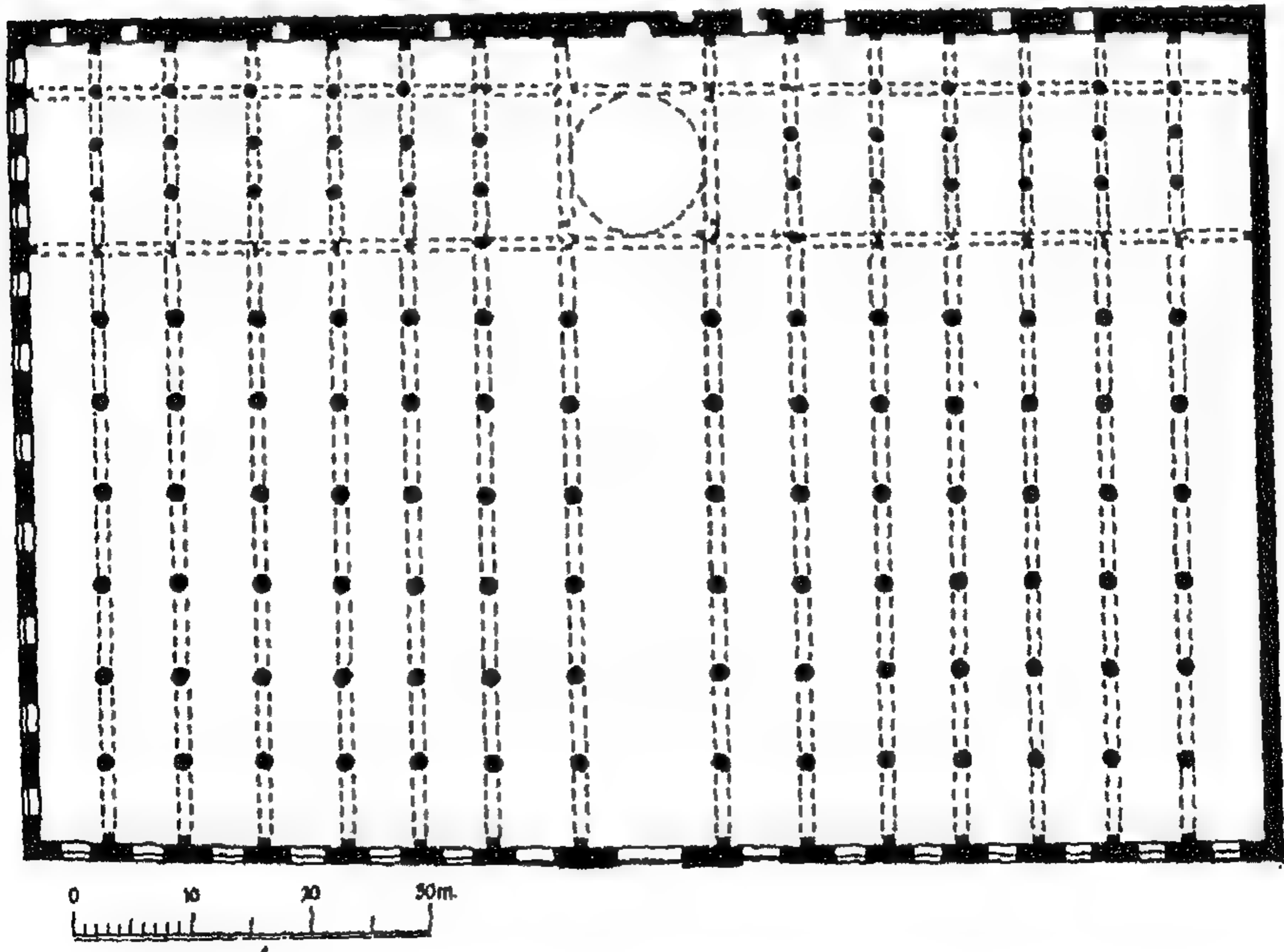


(شكل ٦٥) مسقط أفقي للجامع المتصوري الكبير بطرابلس الشام بليمان
(عن : Liebich) .

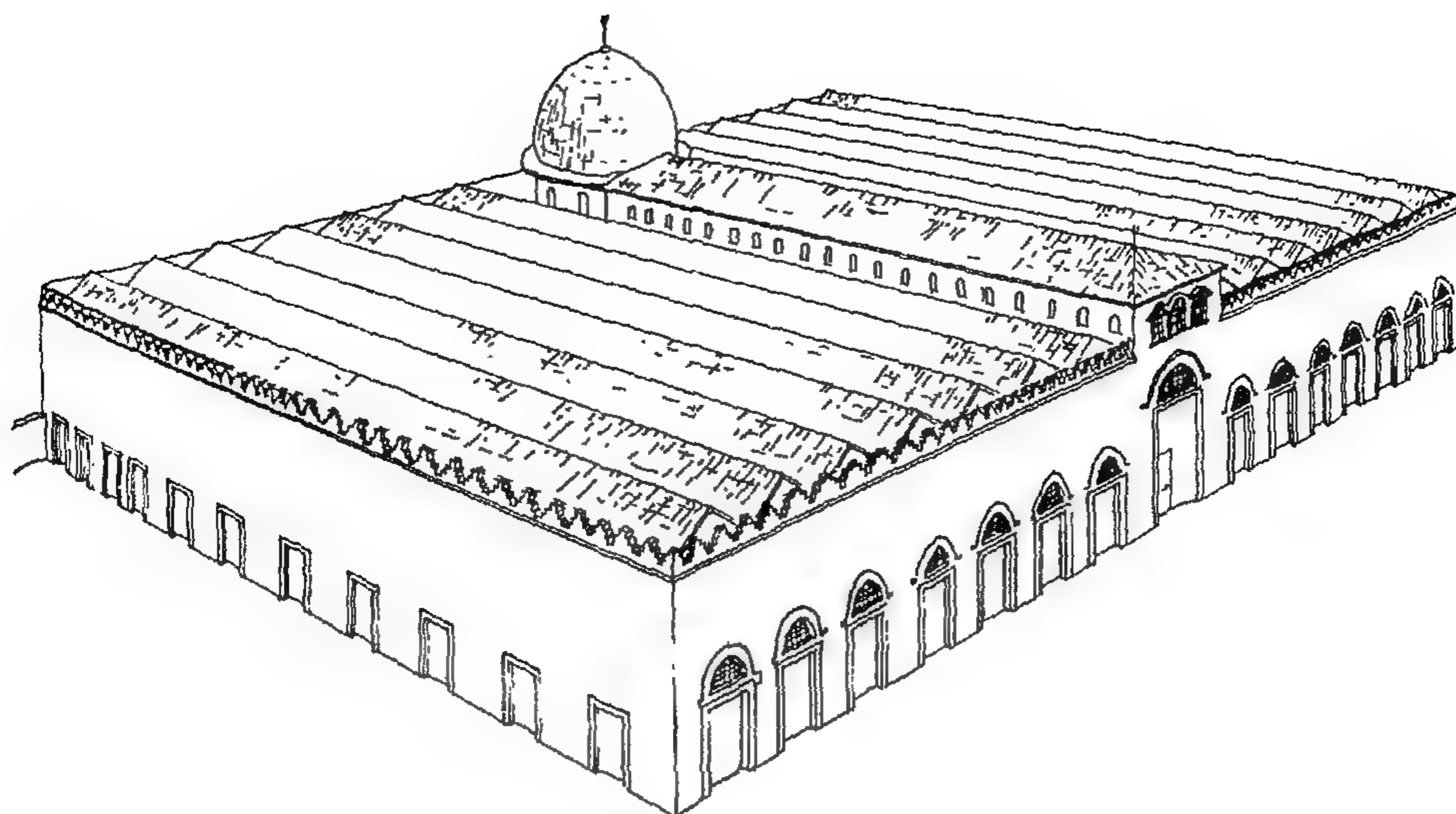


AZ-ZAHIR AND EARLIER
 CRUSADERS WORK OR SLIGHTLY LATER
 DATED 614 H. (1217:8) LATER

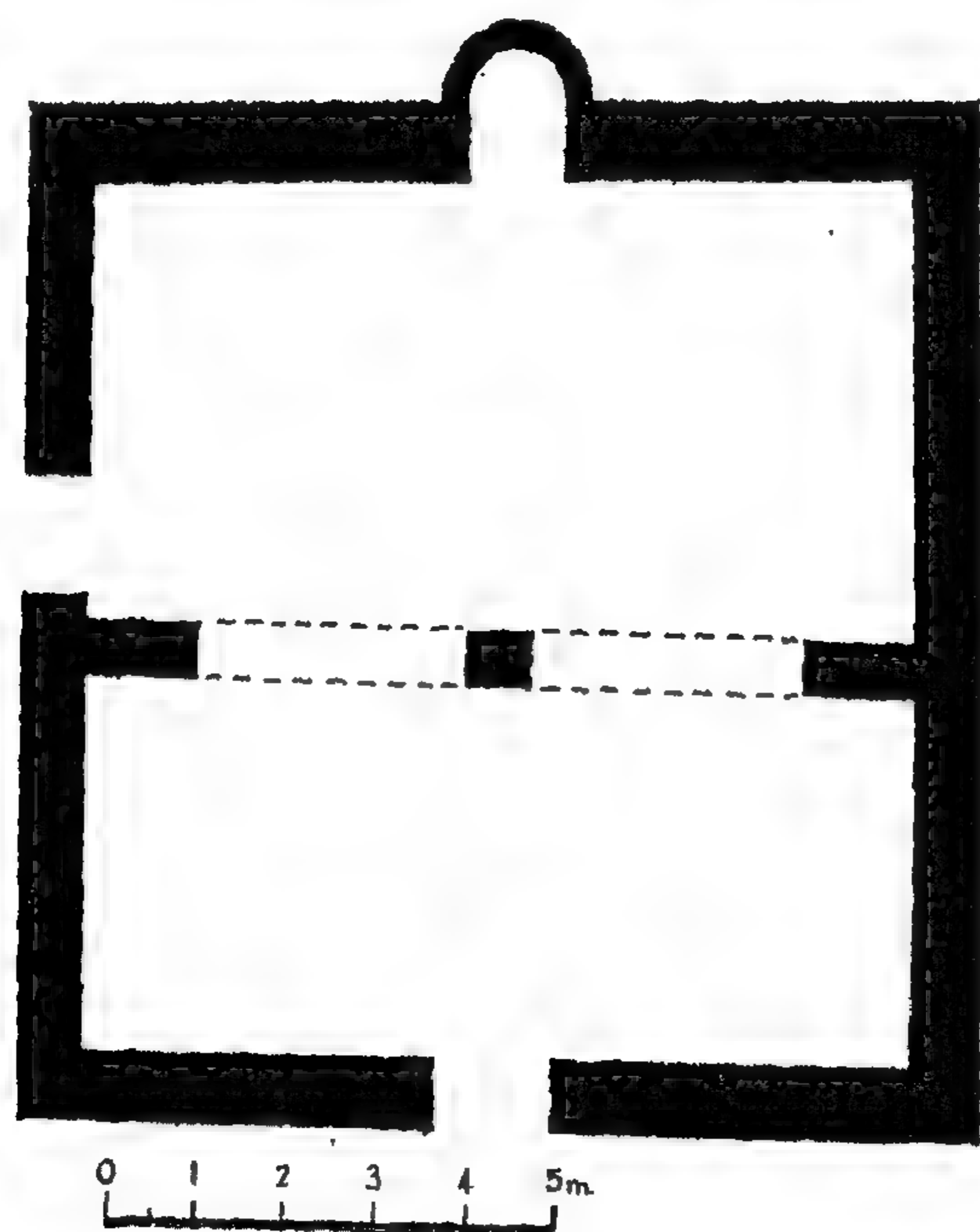
(شكل ٦٦) مسقط أفقي للجامع الأقصى الحالي . (عن : كريزول) .



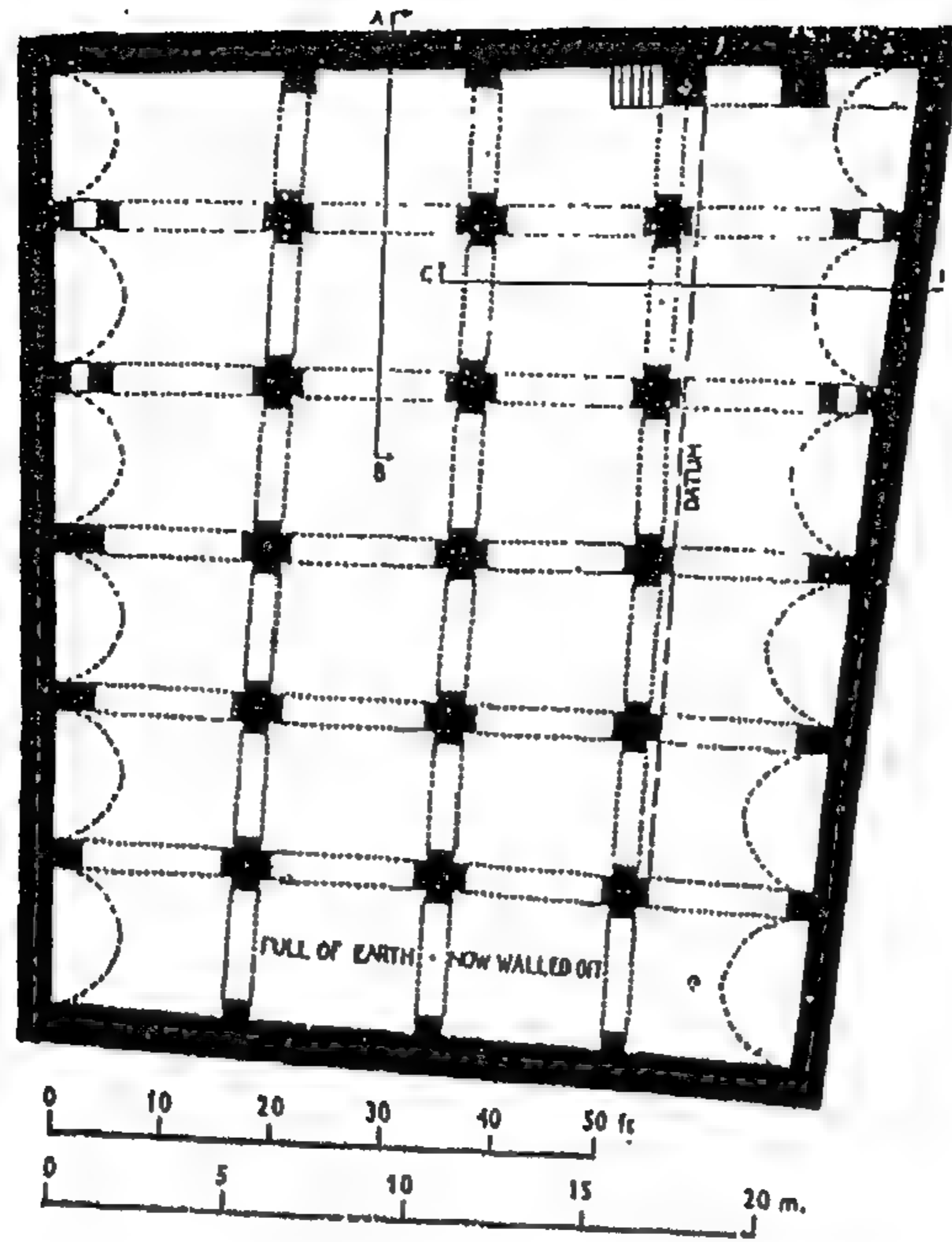
(شكل ٦٧) مسقط أفقي للجامع الأقصى في عهد الخليفة العباسي المهدي
 (عن : كريزول) .



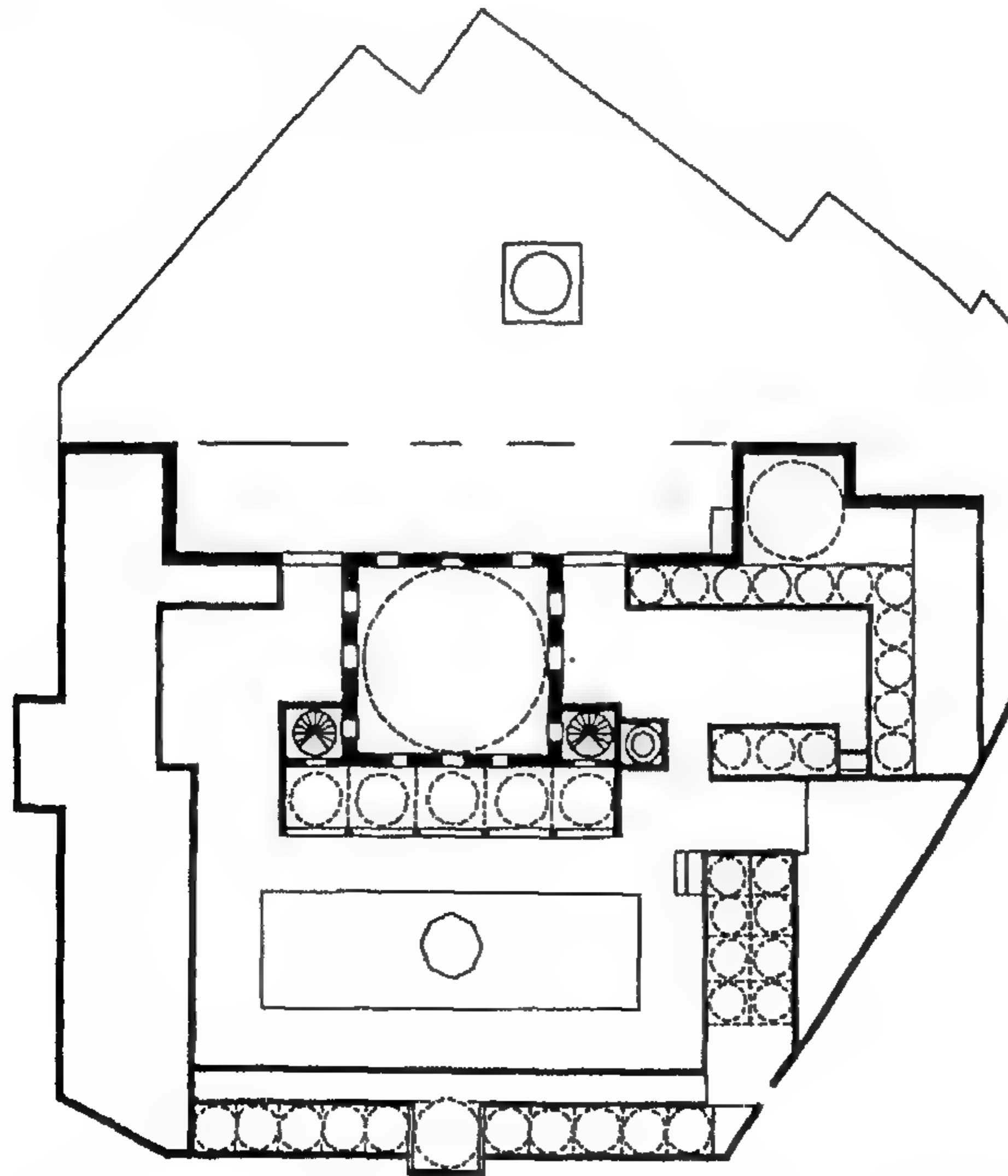
(شكل ٦٨) منظور للجامع الأقصى في عهد الخليفة العباسي المهدي. (عن : هيلنبراند) .



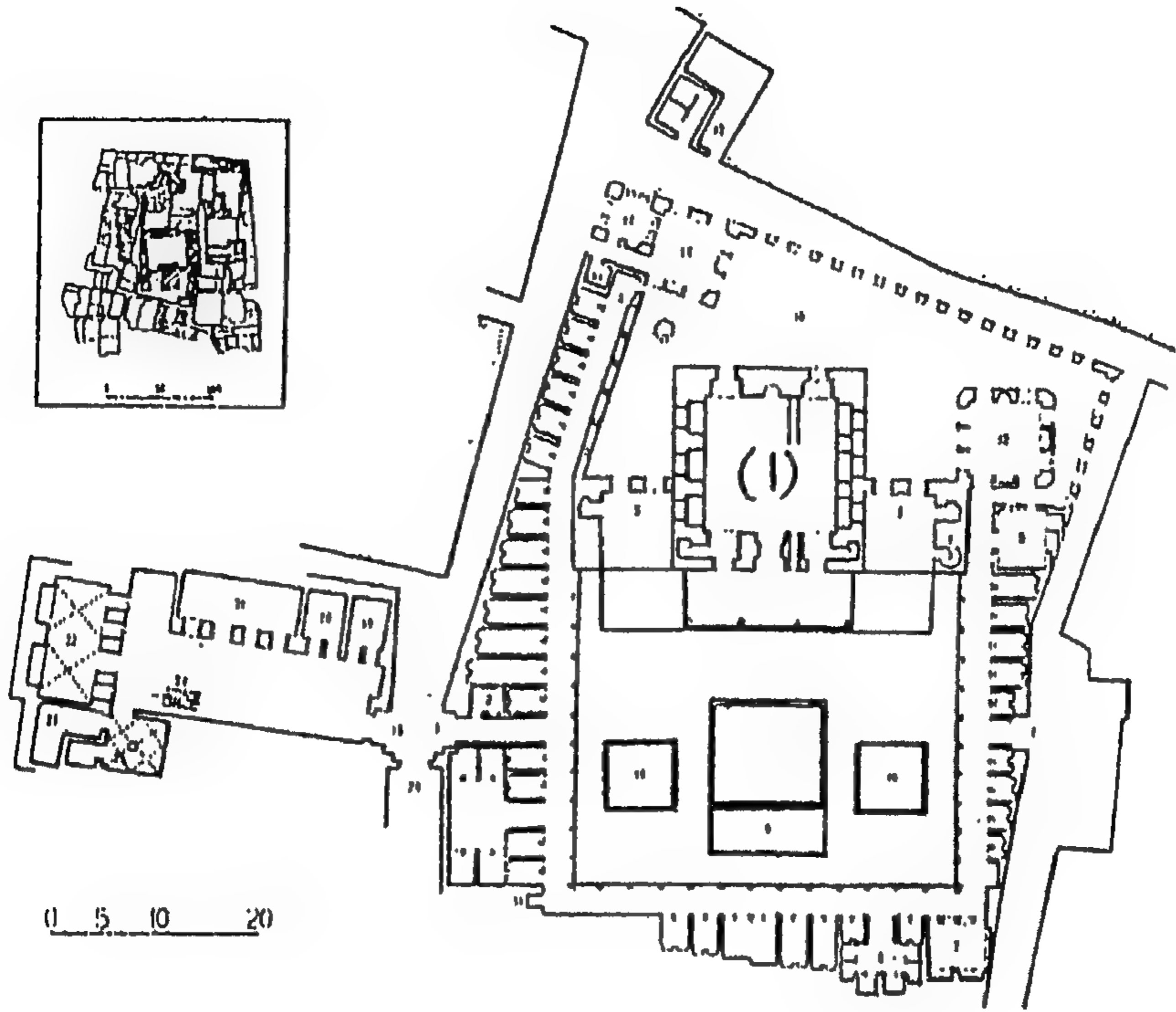
(شكل ٦٩) مسقط أفقي لمسجد قصر جبل سيس . (عن : كرينزول) .



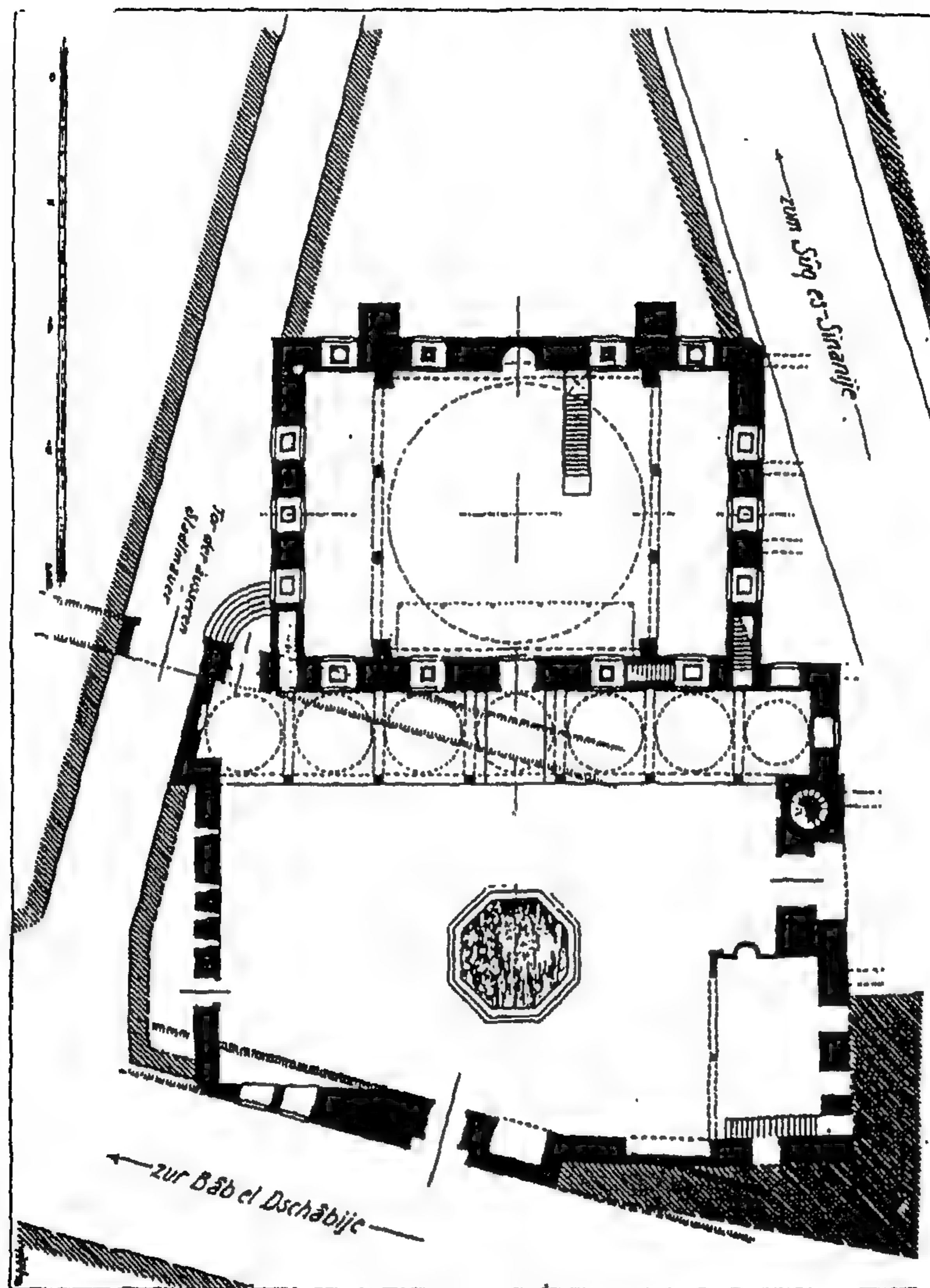
(شكل ٧٢) مسقط أفقي لصهريج الرملة بفلسطين . (عن : كريزول) .



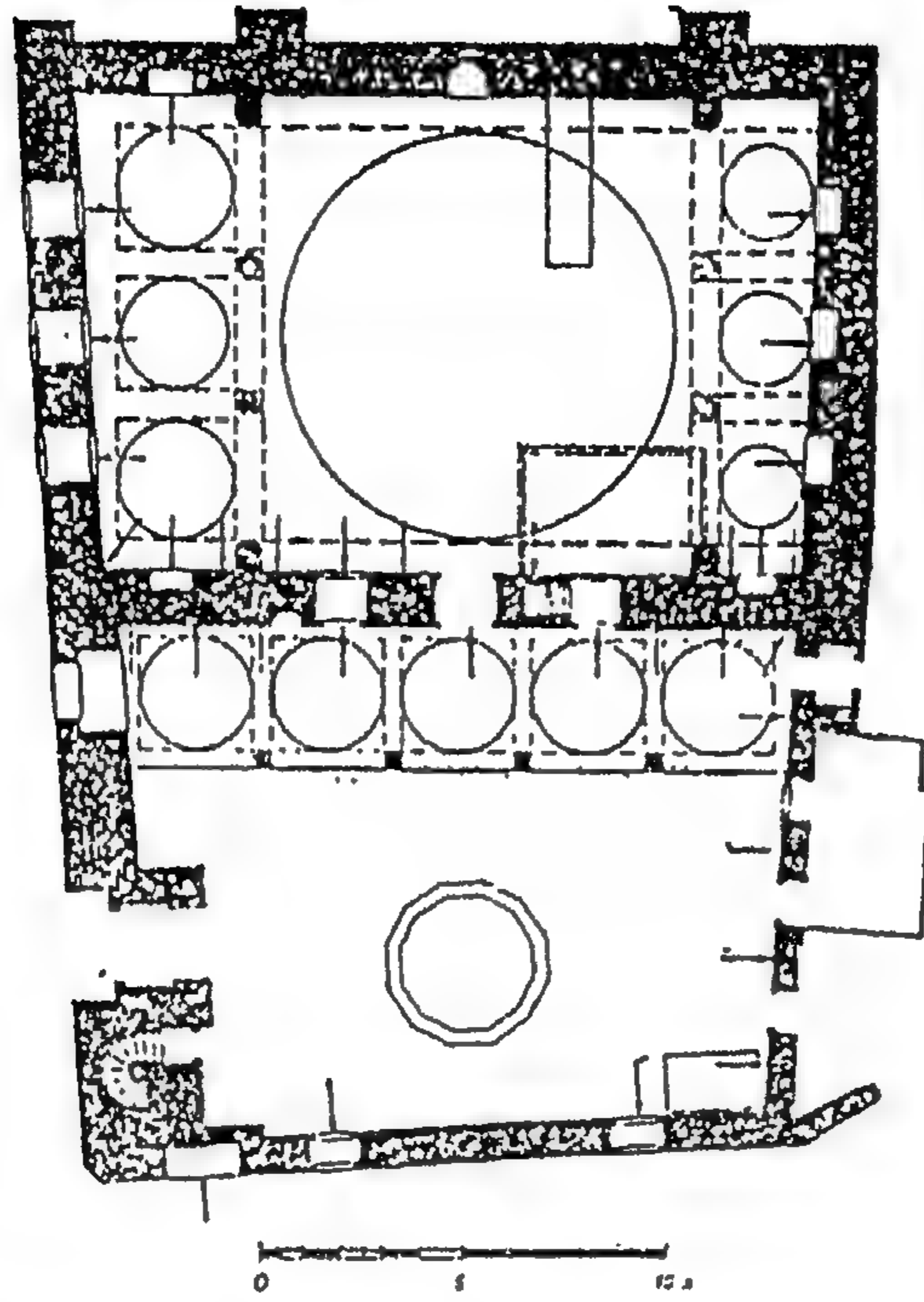
(شكل ٧٣) مسقط أفقي لجامع خسروياشا ضمن مجمعه بحلب (عن : جودوين) .



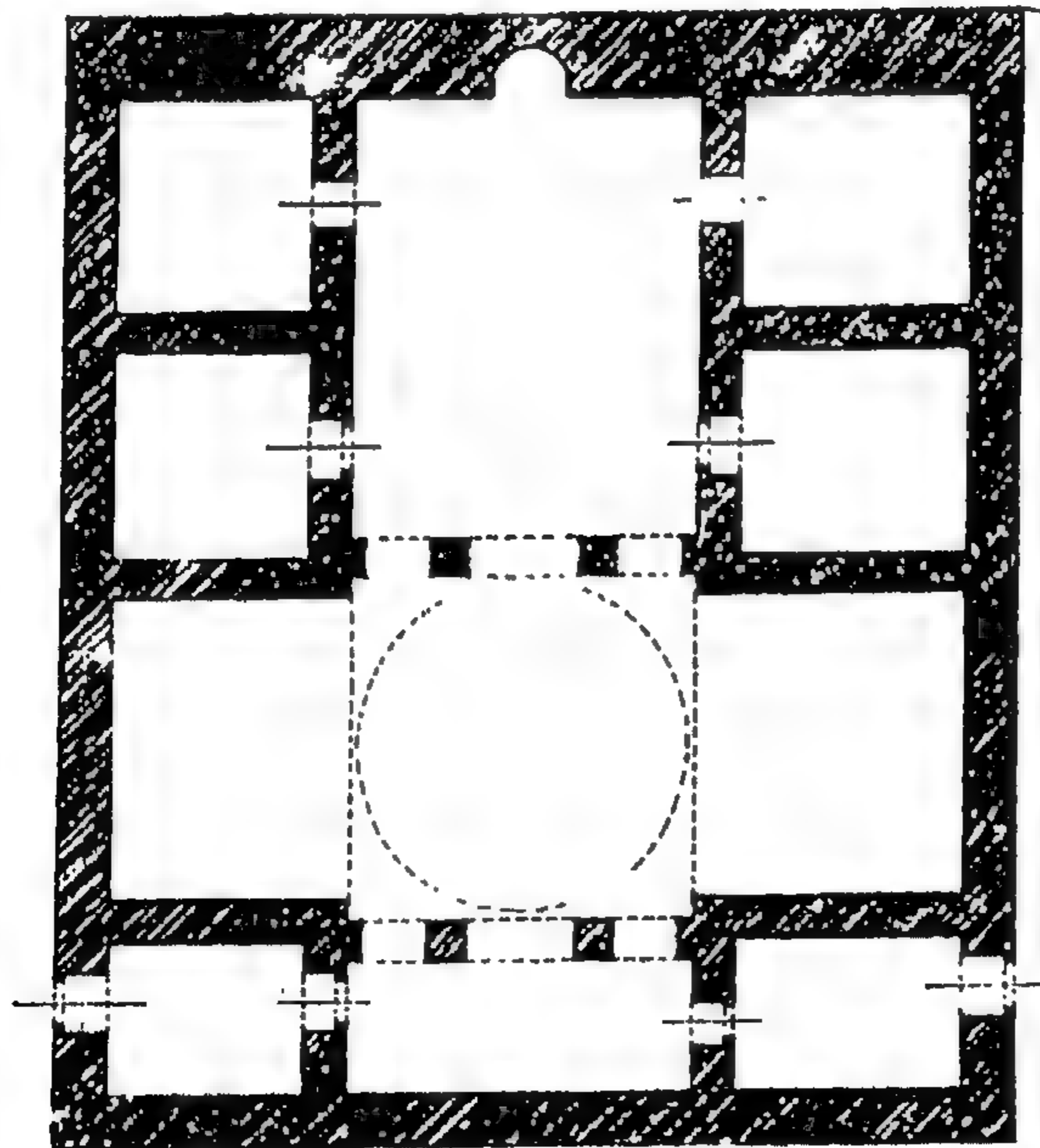
(شكل ٧٤) مسقط أفقي لجامع عثمان باشا (١) ضمن مجمعة بحلب
(عن : سوفاجيه) .



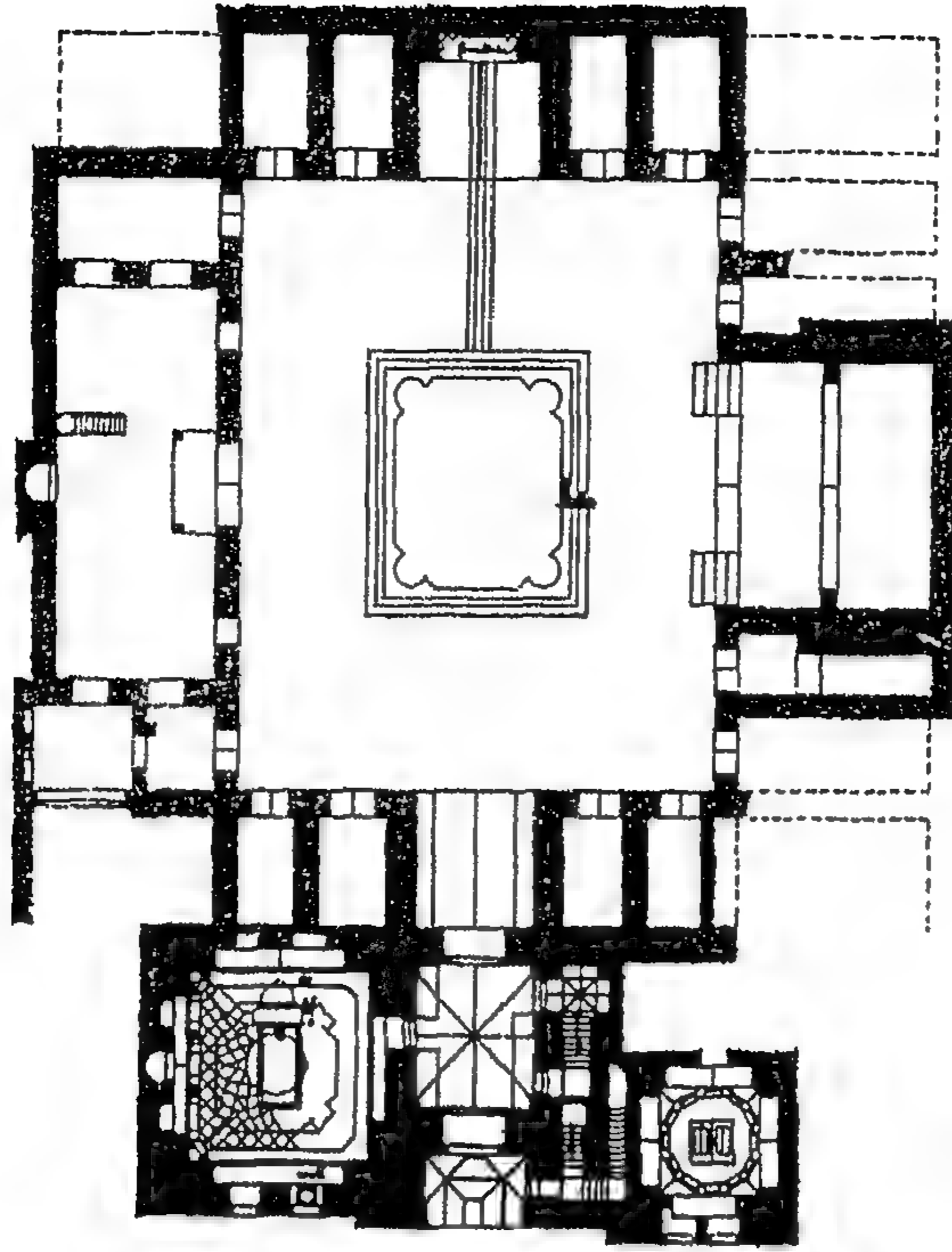
(شكل ٧٥) مسقط أفقي لجامع السنانية بدمشق
(عن : فلزنجروفتزنجير).



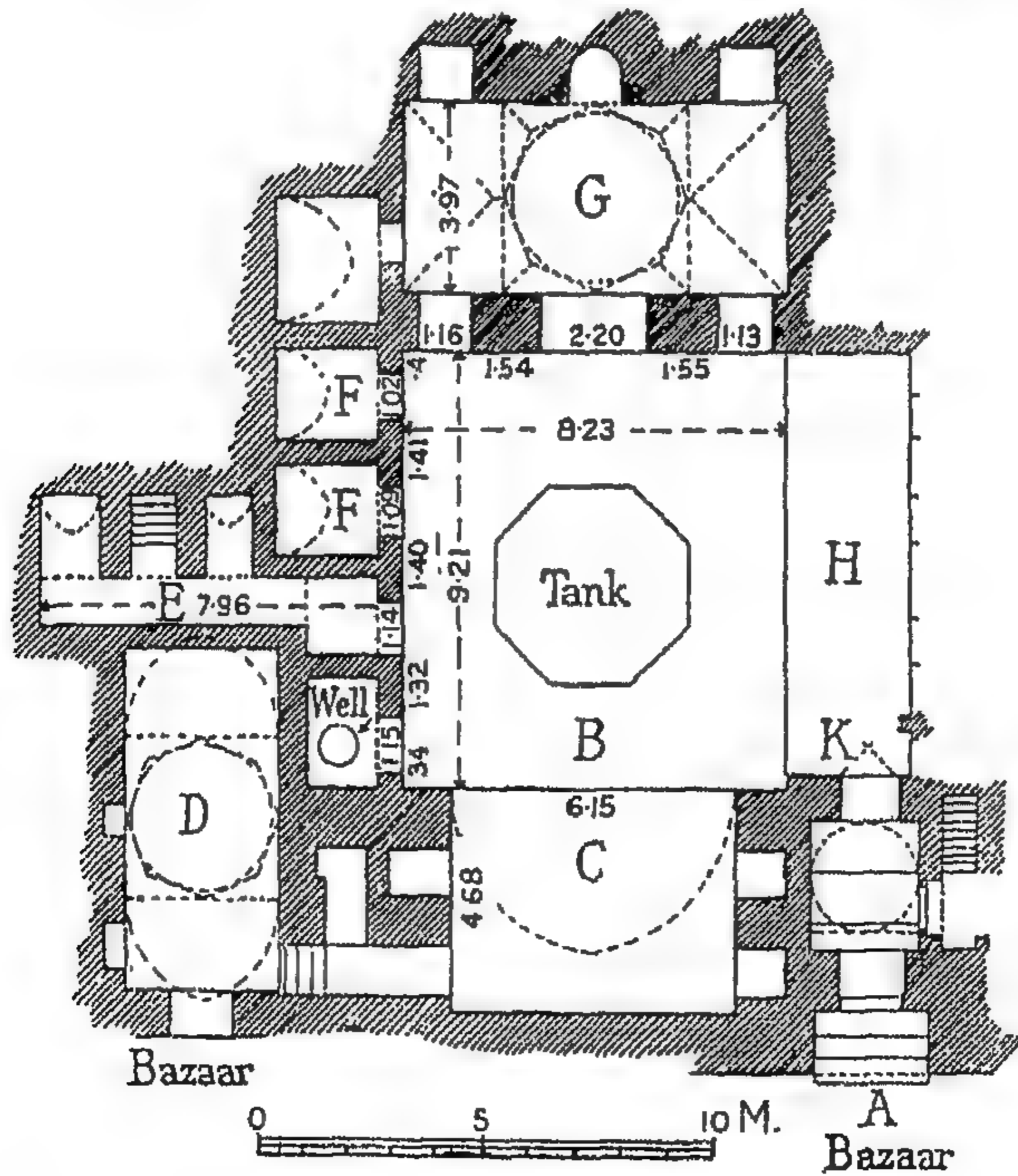
(شكل ٧٦) مسقط أفقي لجامع الدرويشية بدمشق (عن : سوفاجيه) .



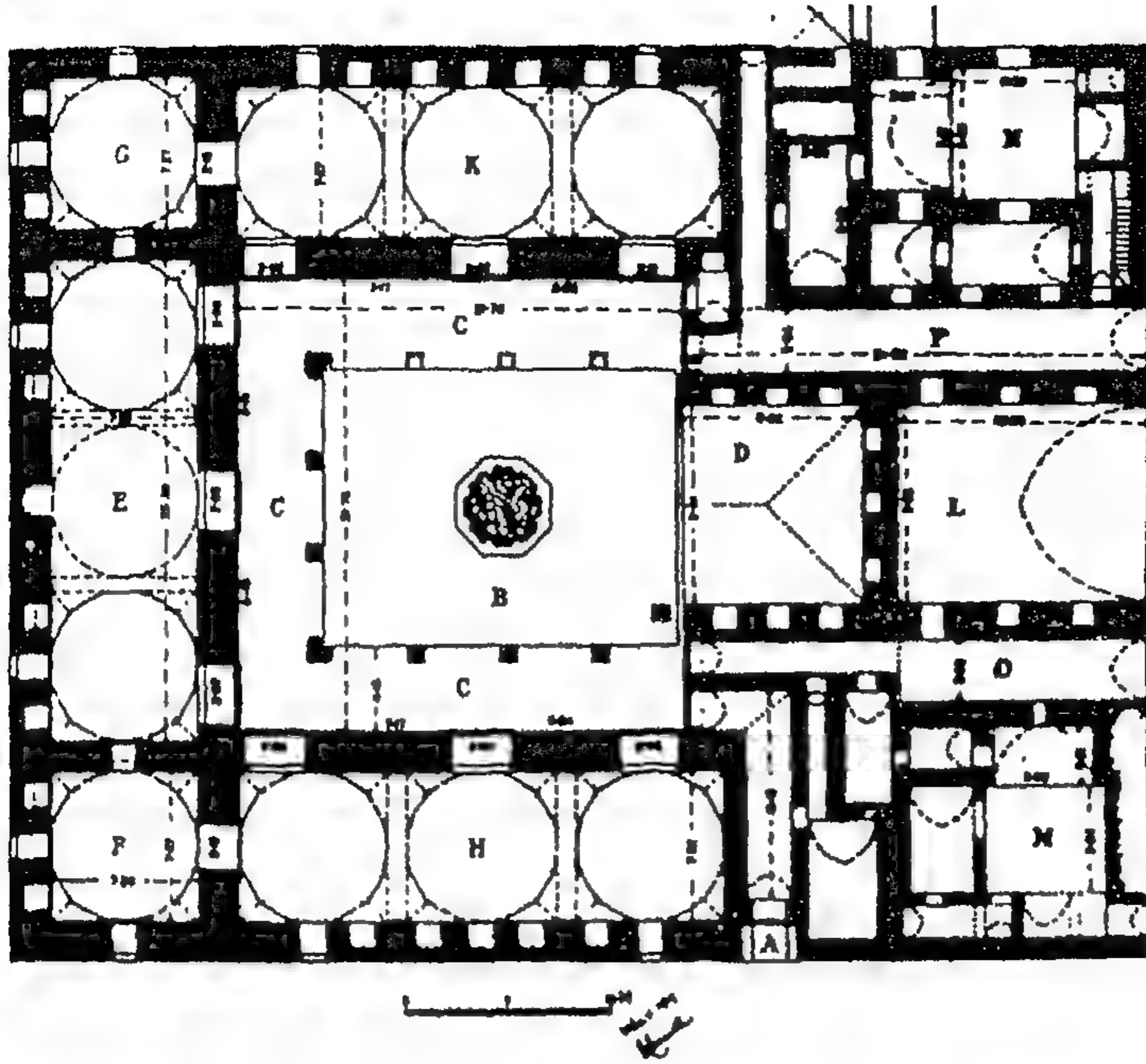
(شكل ٧٧) مسقط أفقي لمدرسة كومتكين في بصري (عن : أصلان آبا) .



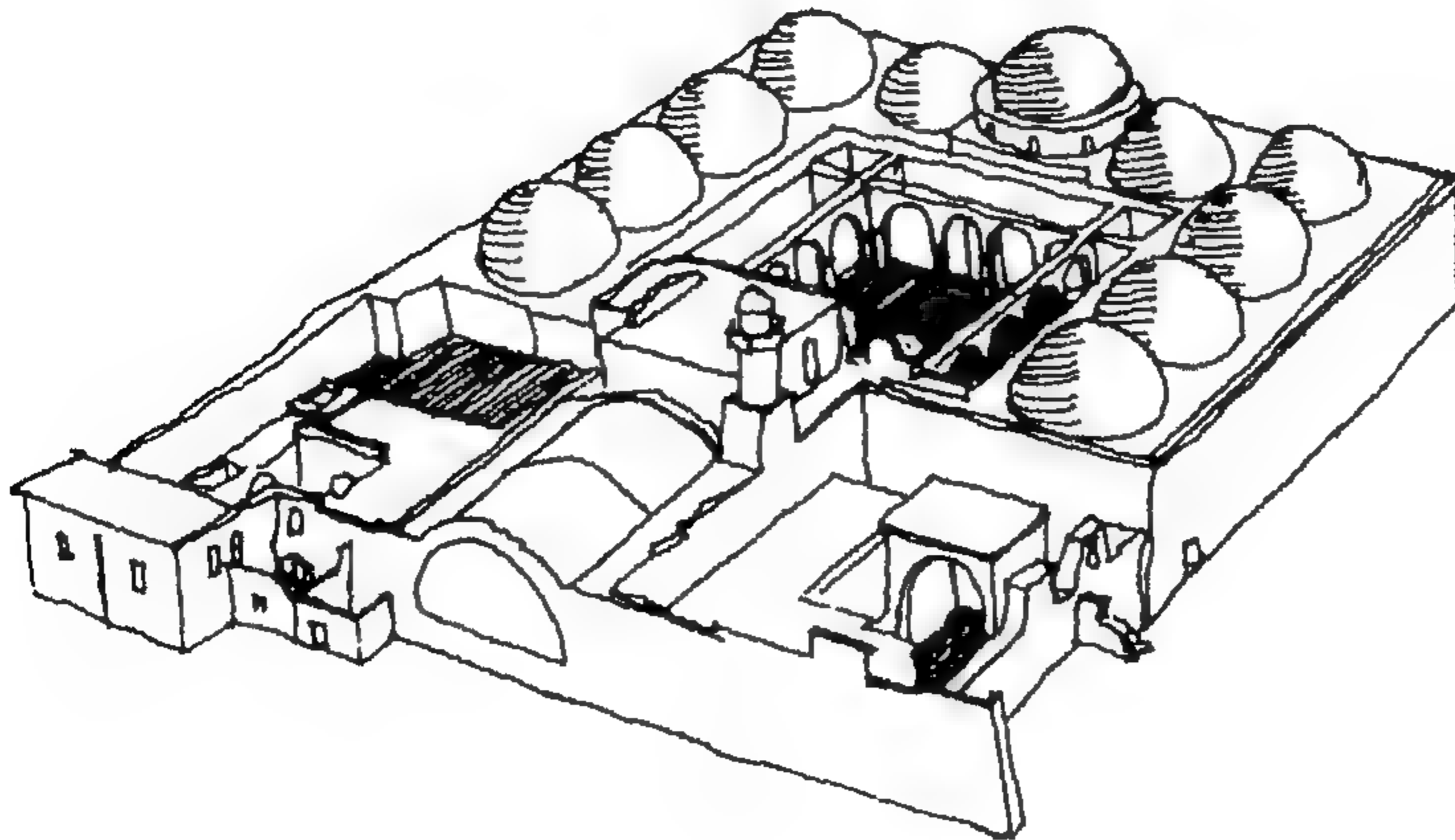
(شكل ٧٨) مسقط أفقي للمدرسة النورية في دمشق ٥٦٧هـ/١١٧٢م. (عن: الريحاني).



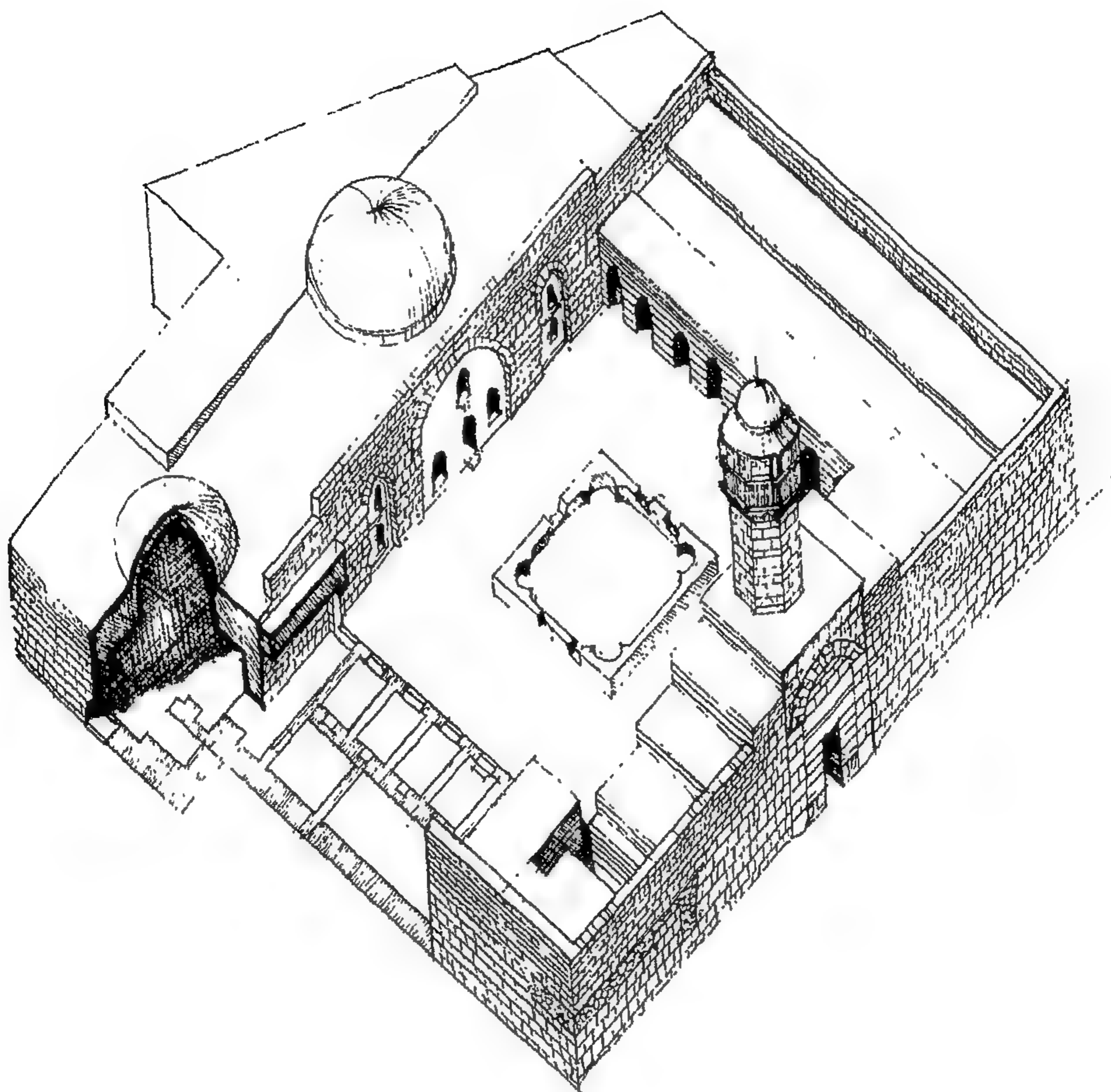
(شكل ٧٩) مسقط أفقي لمدرسة شاذبخت في حلب ٥٨٩هـ/١١٩٣م (عن: كريزول).



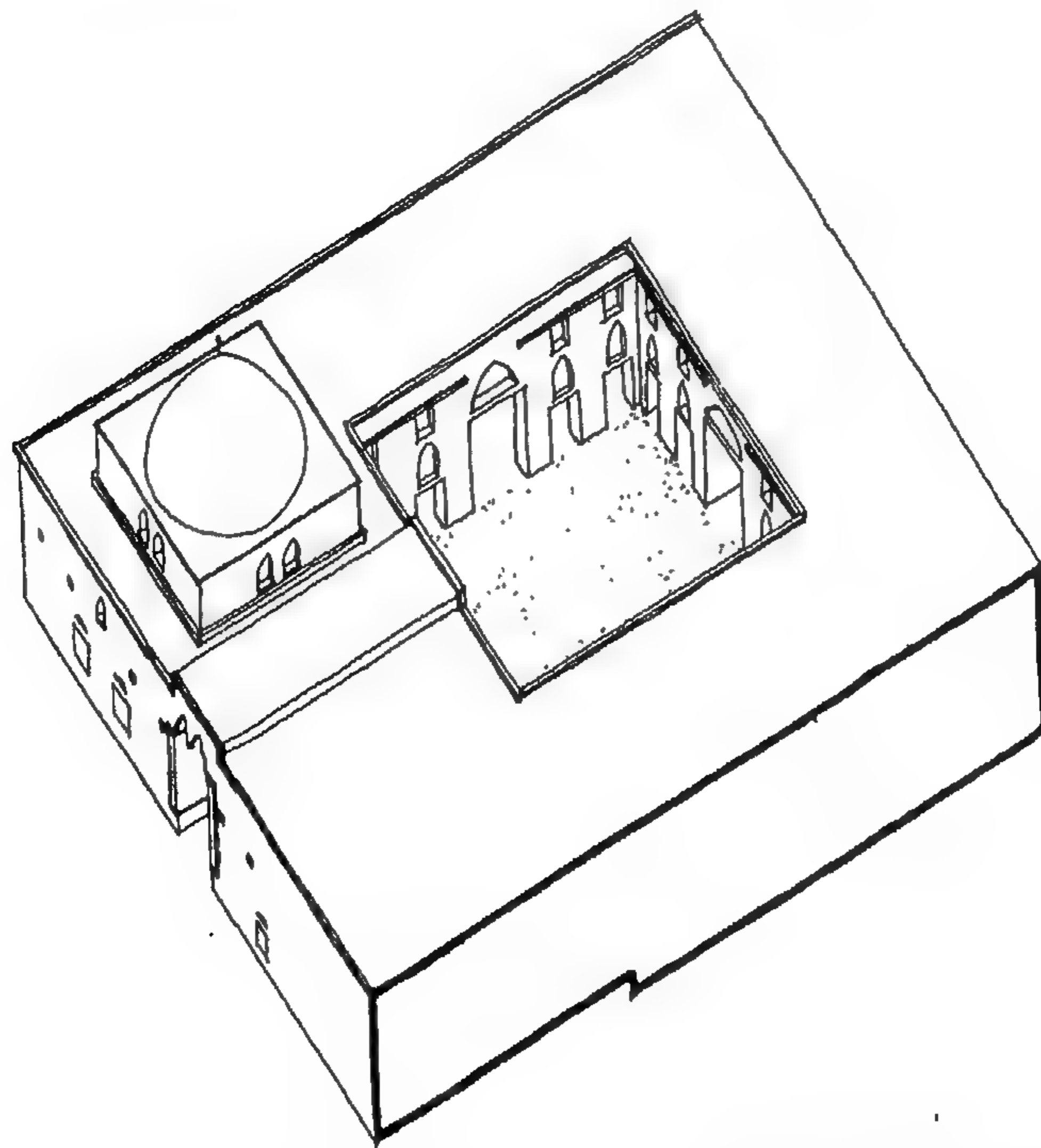
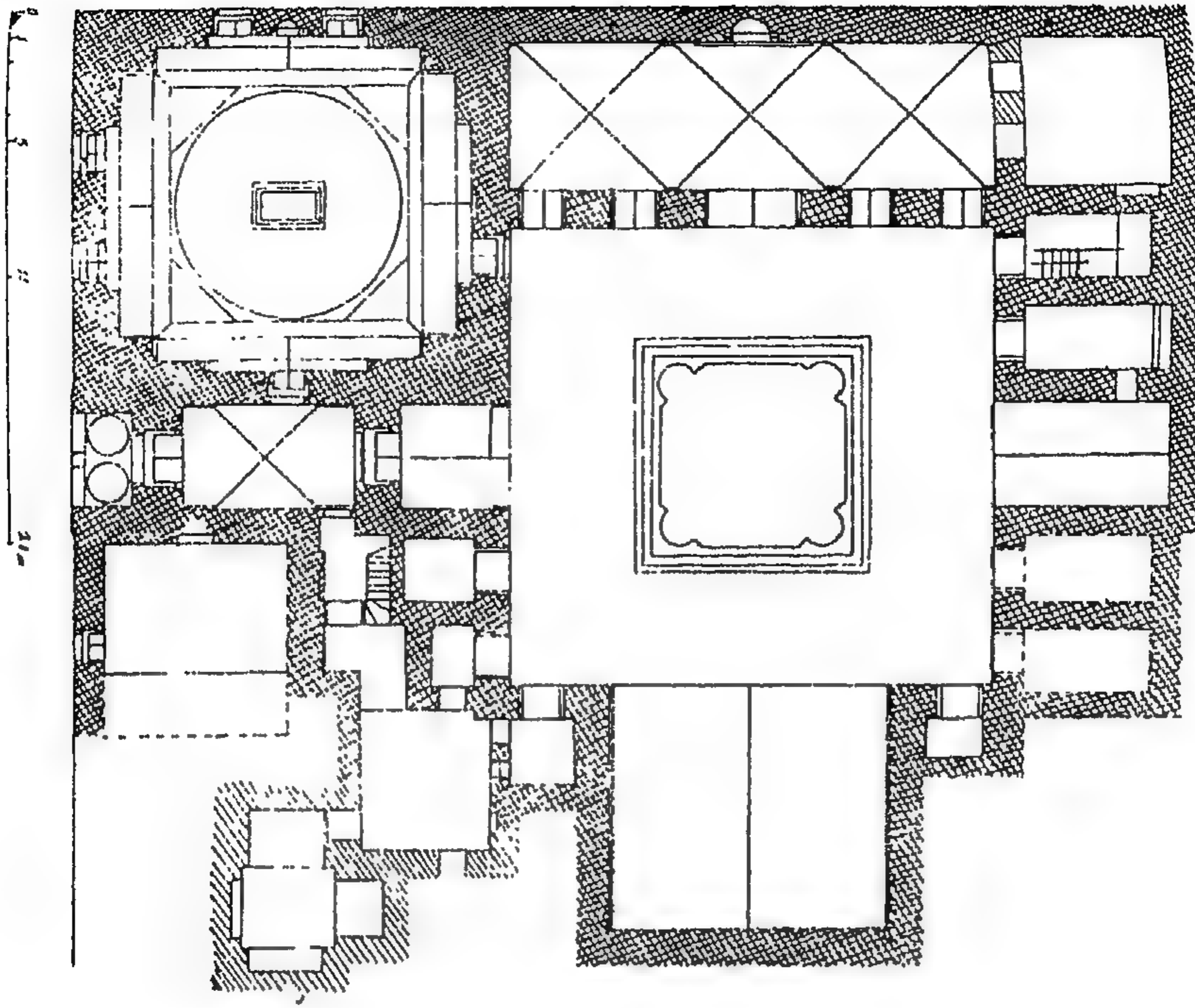
(شكل ٨٠) مسقط أفقي لمدرسة الضردوس في حلب (عن : كريزول) .



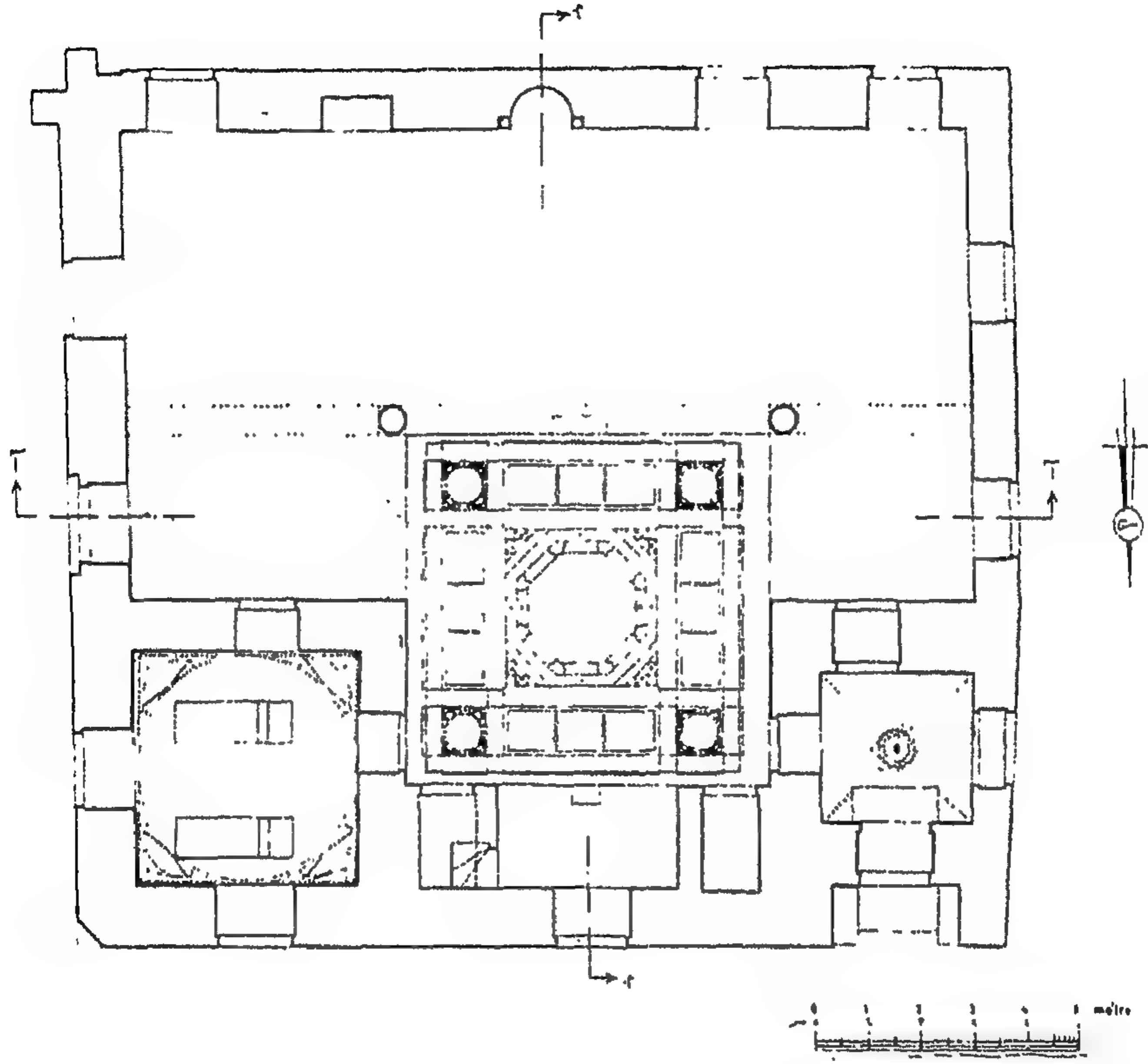
(شكل ٨١) مدرسة الضردوس في حلب . (عن : هيلنبراند) .



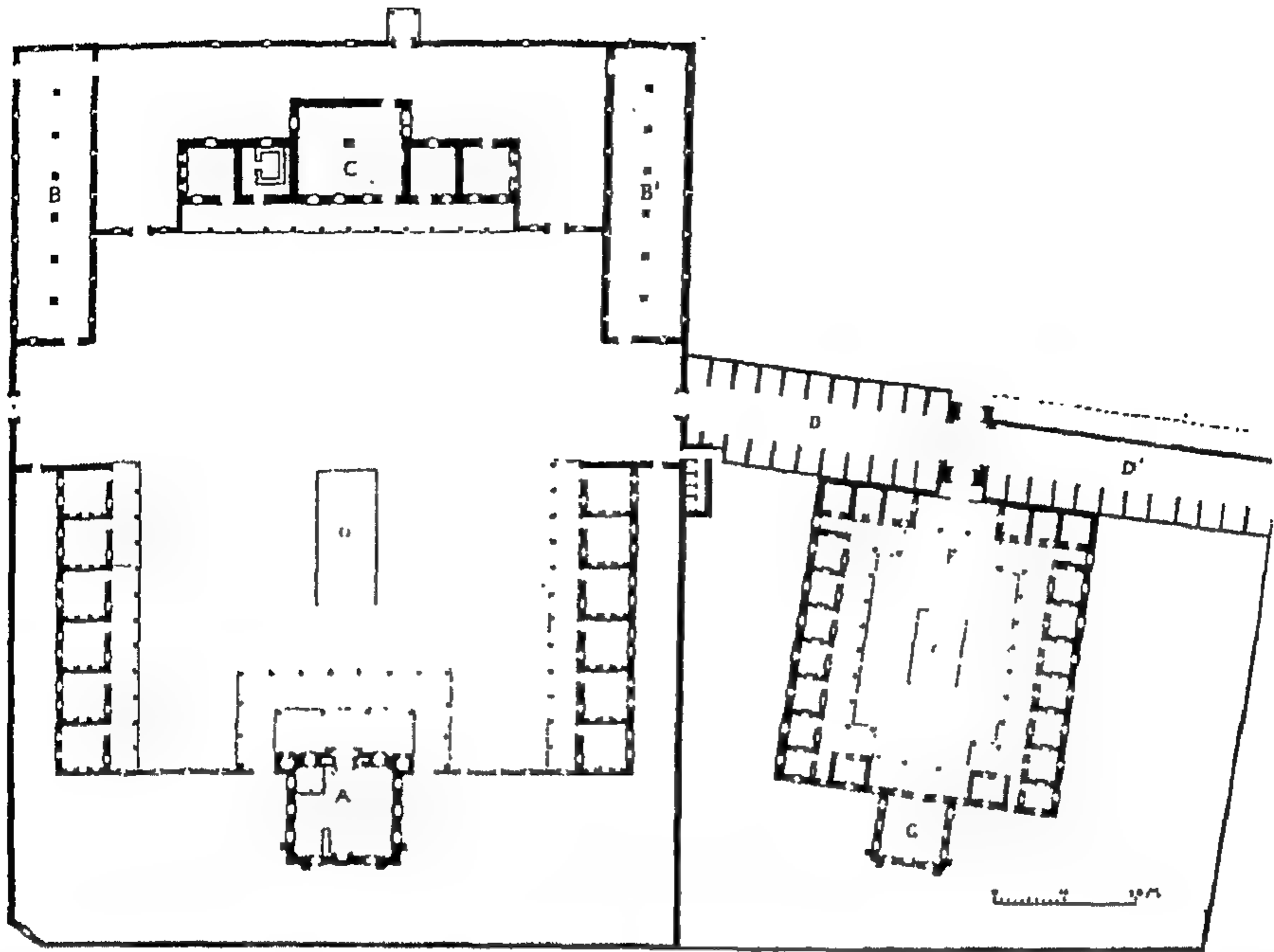
(شكل ٨٢) المدرسة السلطانية في حلب (عن : هيلنبراند) .



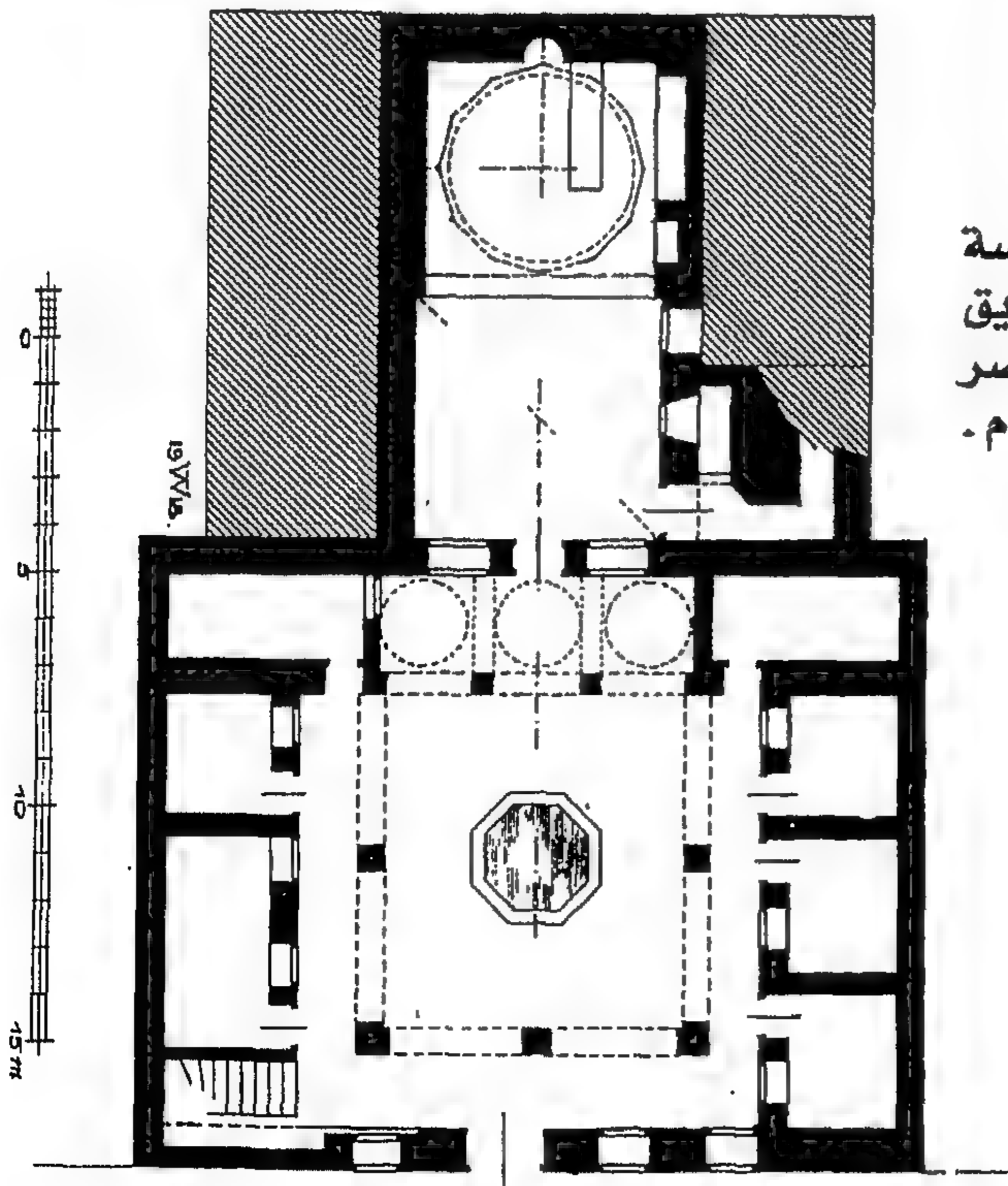
(شكل ٨٣) المدرسة القادرية في دمشق (أعلى) (عن : الريحاني)
(أسفل) (عن: هيلنبراند) .



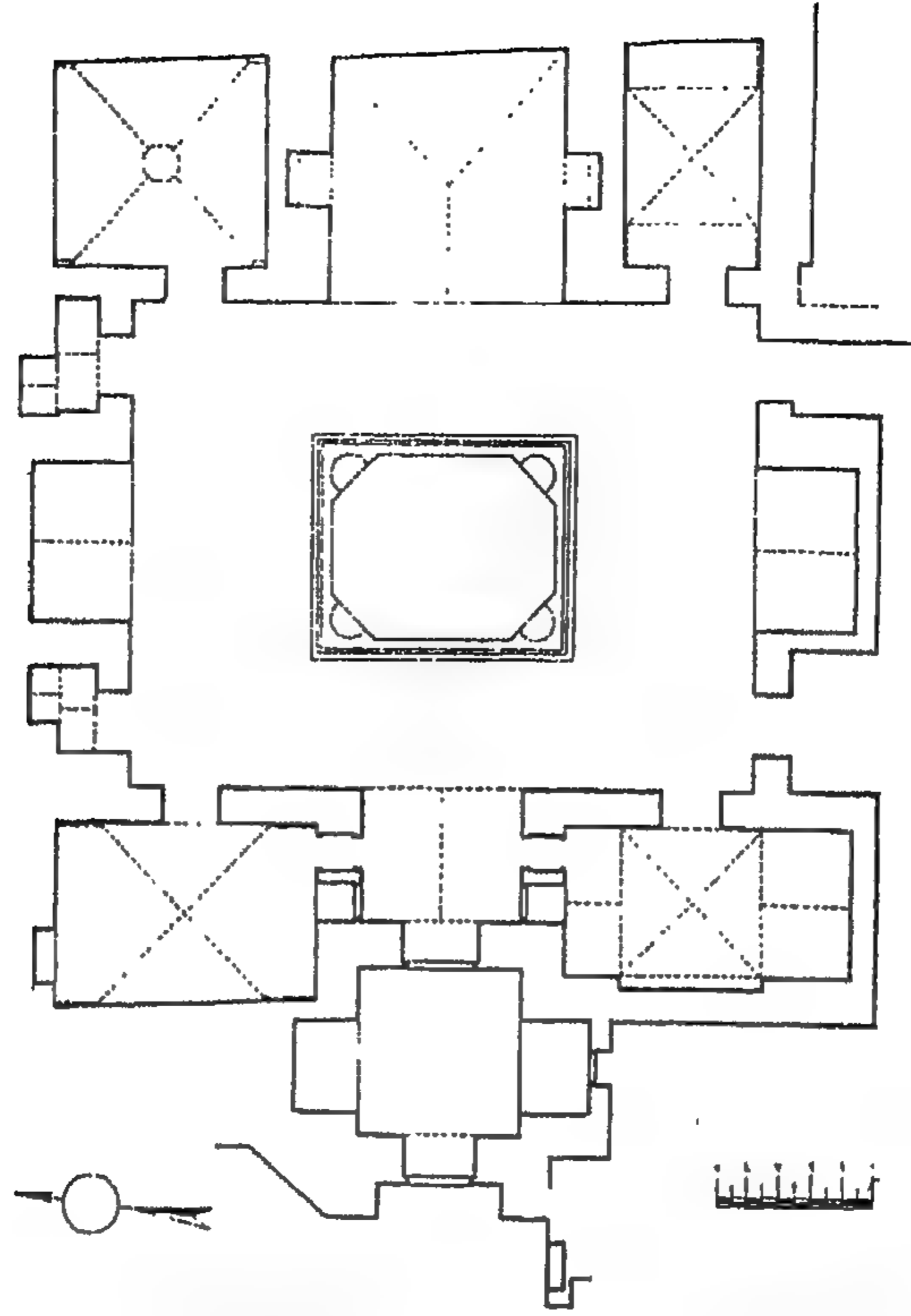
(شكل ٨٤) مسقط أفقي للخانقاة والتربة المعروفة
بالمدرسة الجقمقية في دمشق (عن : الريحاني) .



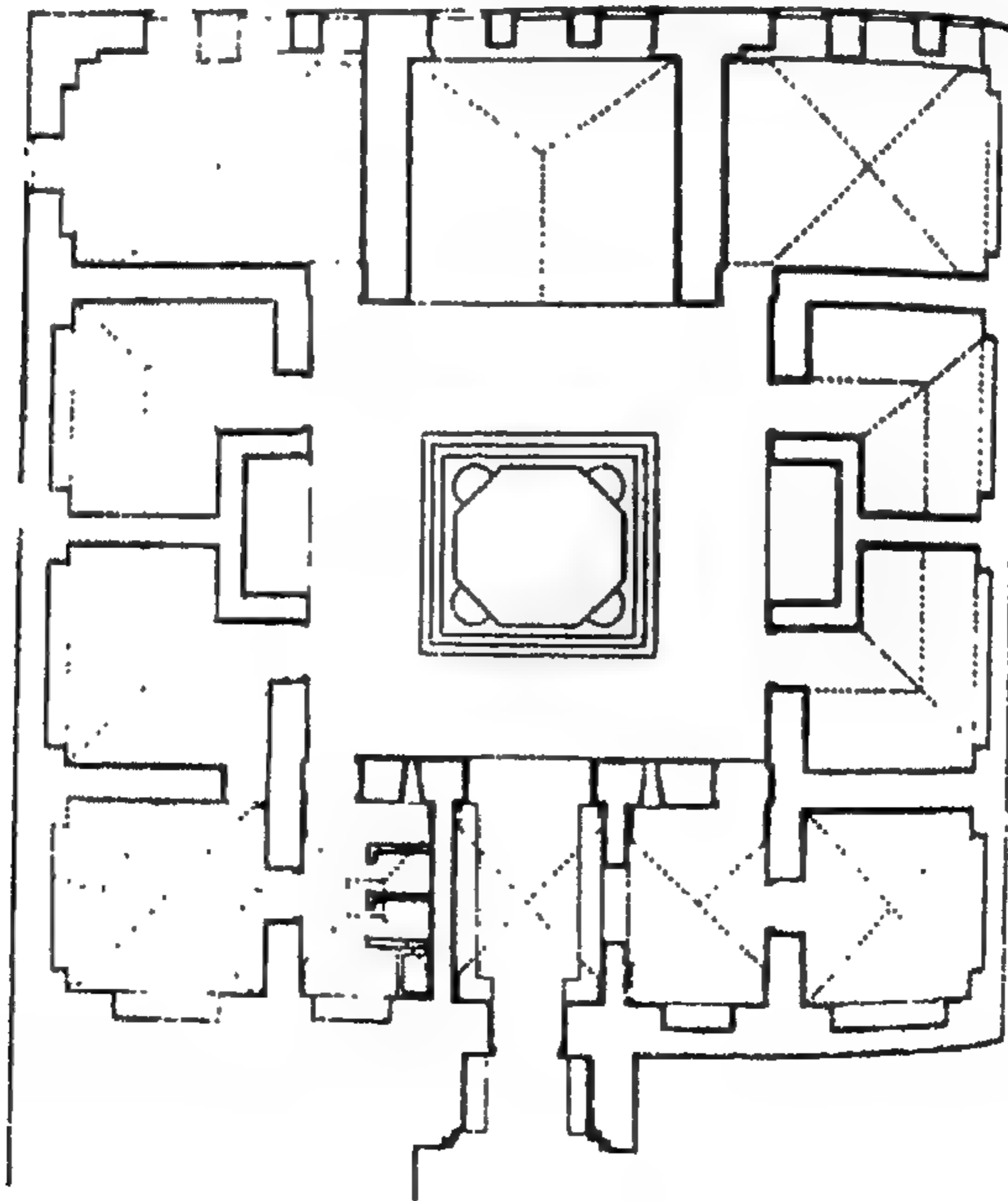
(شكل ٨٥) مسقط أفقي للتكية والمدرسة السليمانيتان بدمشق (عن : فلزنجروفتزنجر).



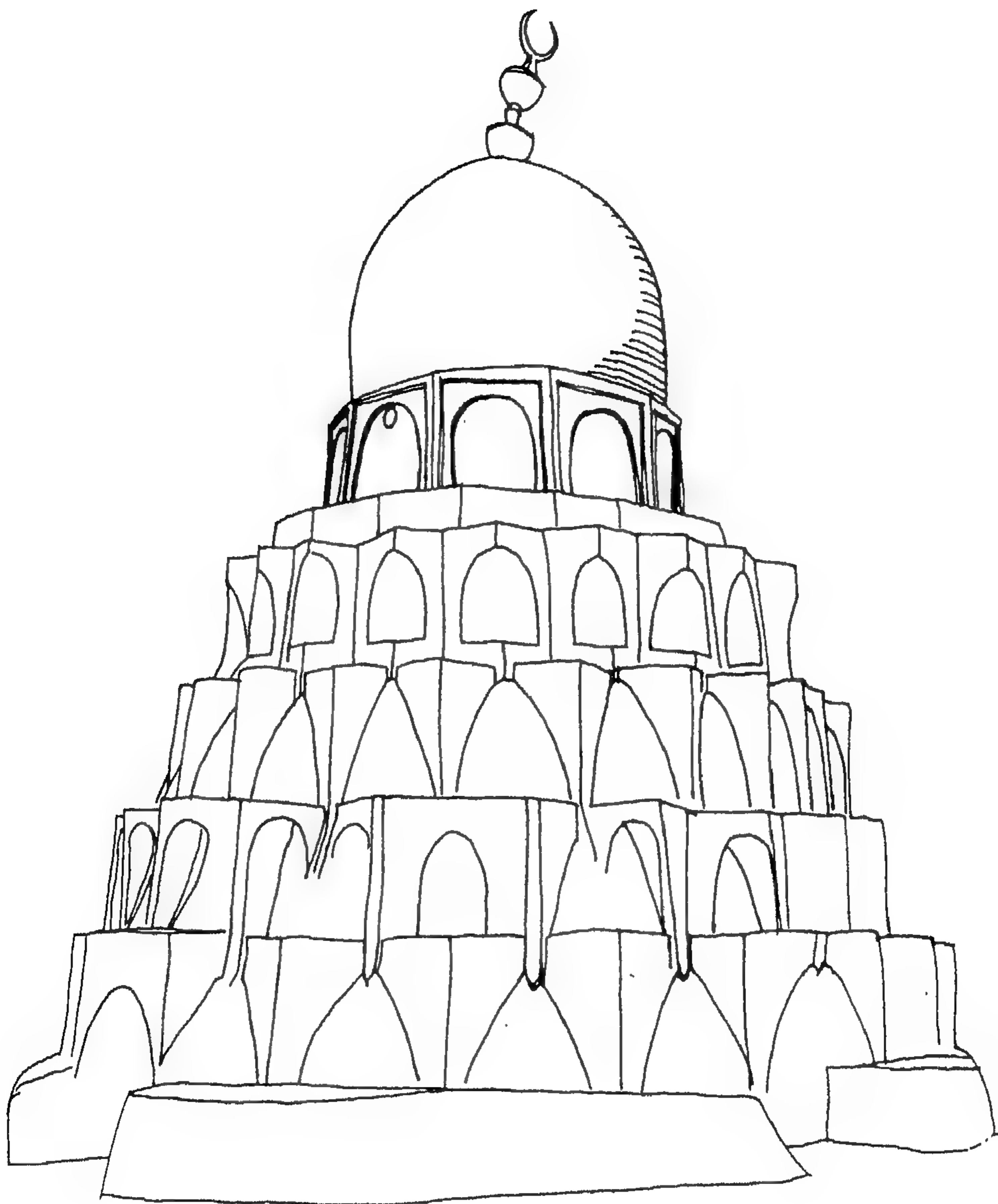
(شكل ٨٦) مسقط أفقي لمدرسة
عبد الله باشا العظم (في الطريق
بين المدرسة النورية وقصر
العظم) بدمشق ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م.



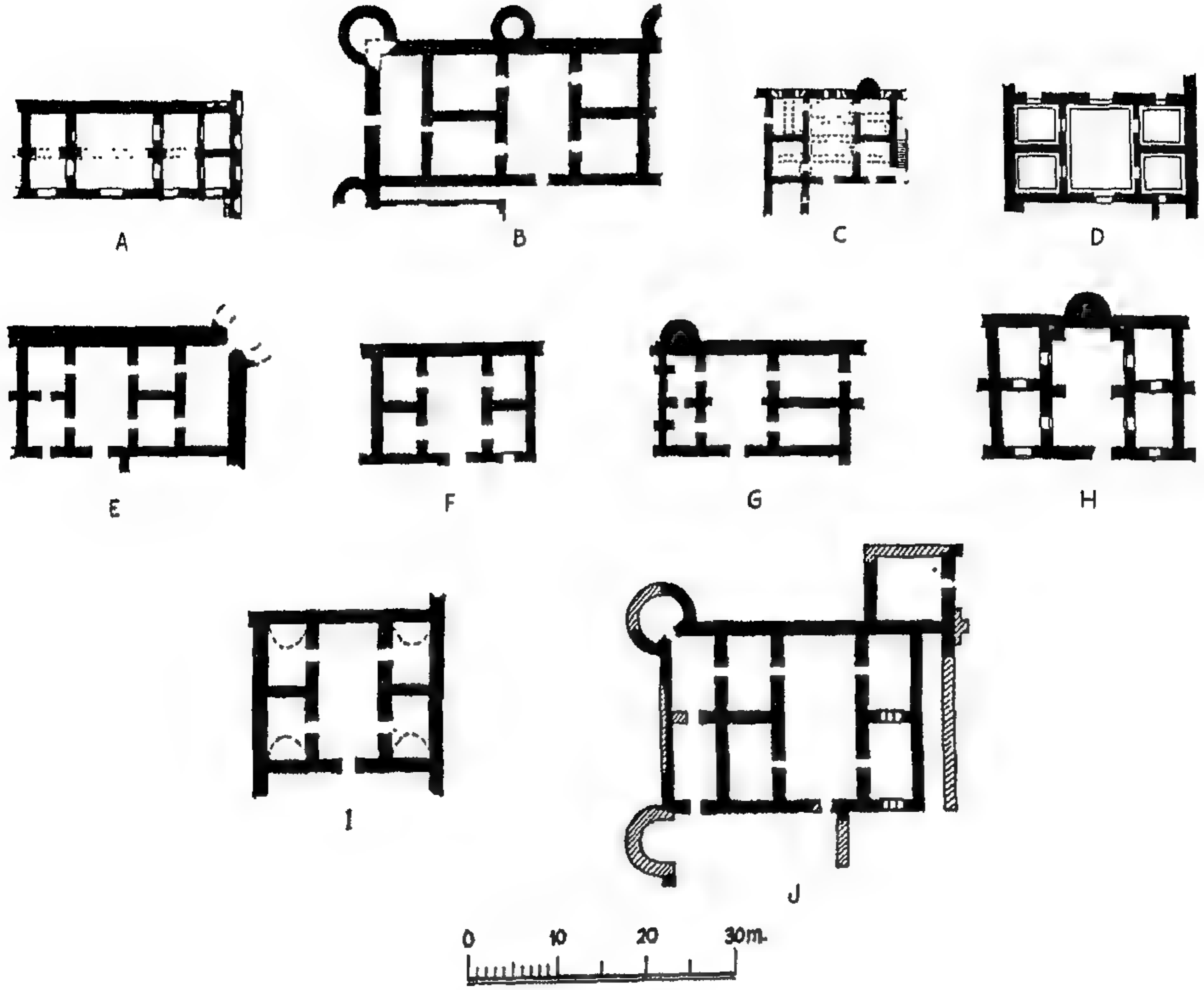
(شكل ٨٧) مسقط أفقي للبيمارستان النوري في دمشق (عن: الريحاوي).



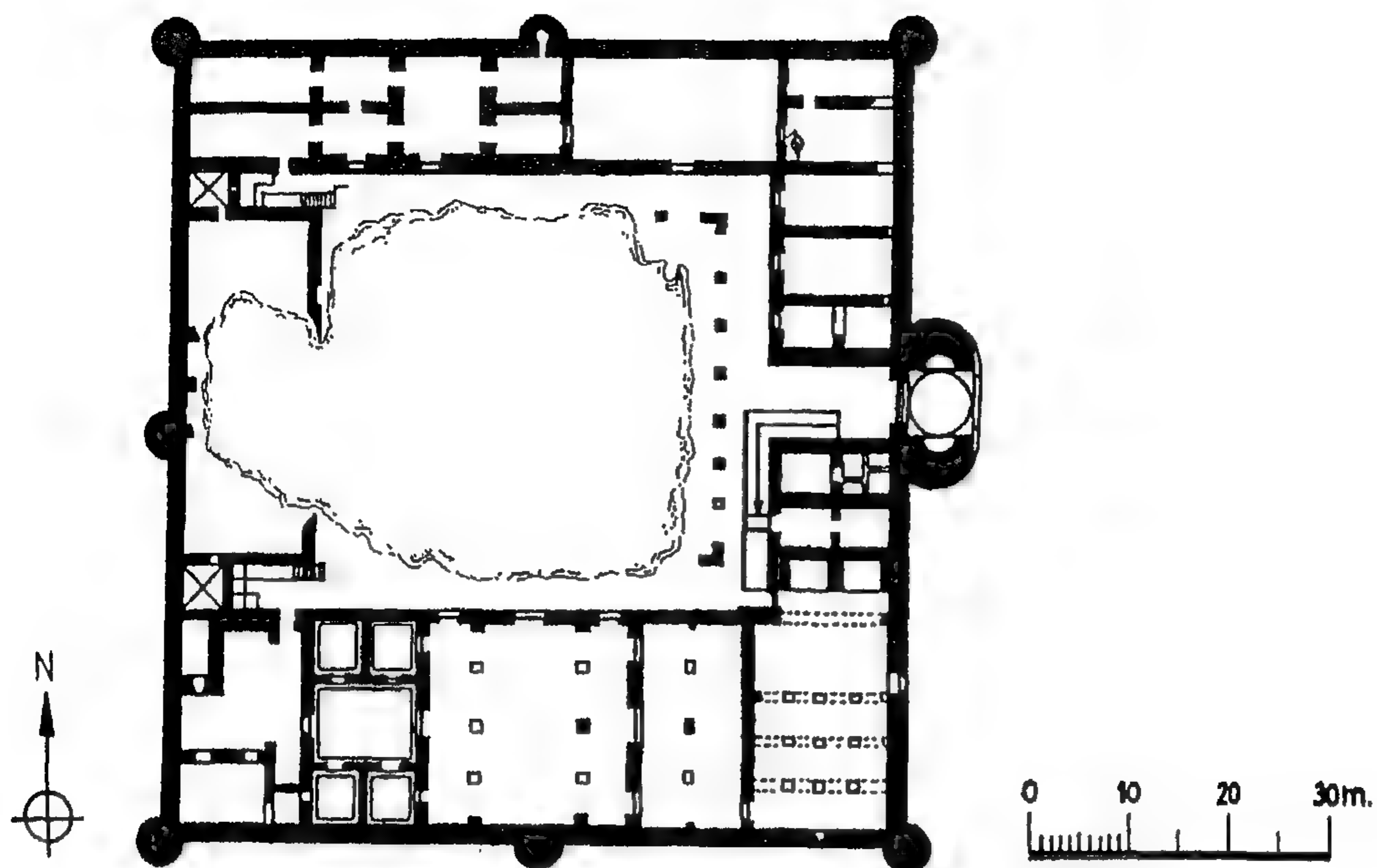
(شكل ٨٨) مسقط أفقي للبيمارستان القيمري في دمشق (عن: الريحاوي).



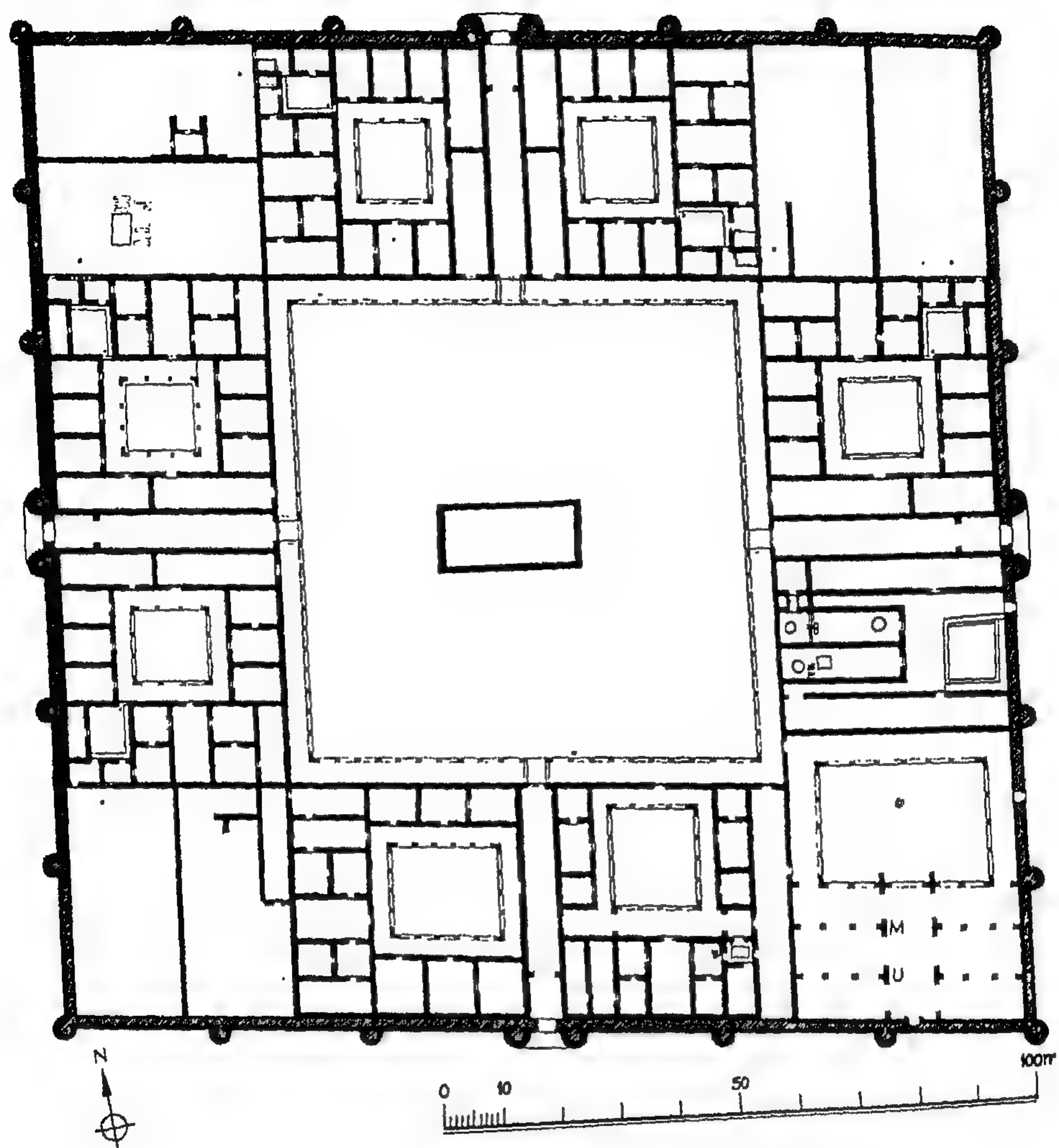
(شكل ٨٩) القبة النورية في دمشق (القبة المقرنصة)
(عن : هيلنبراند)



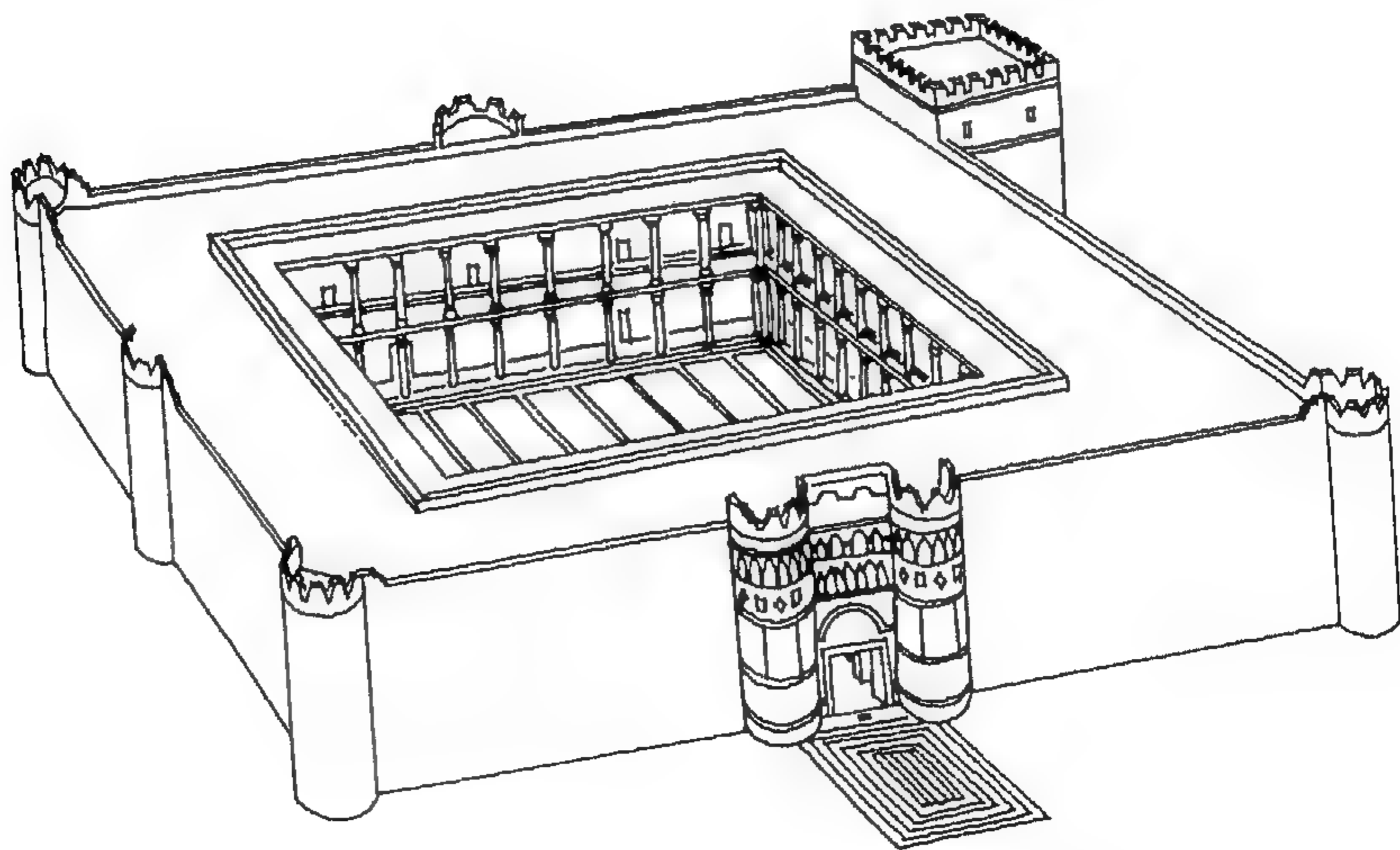
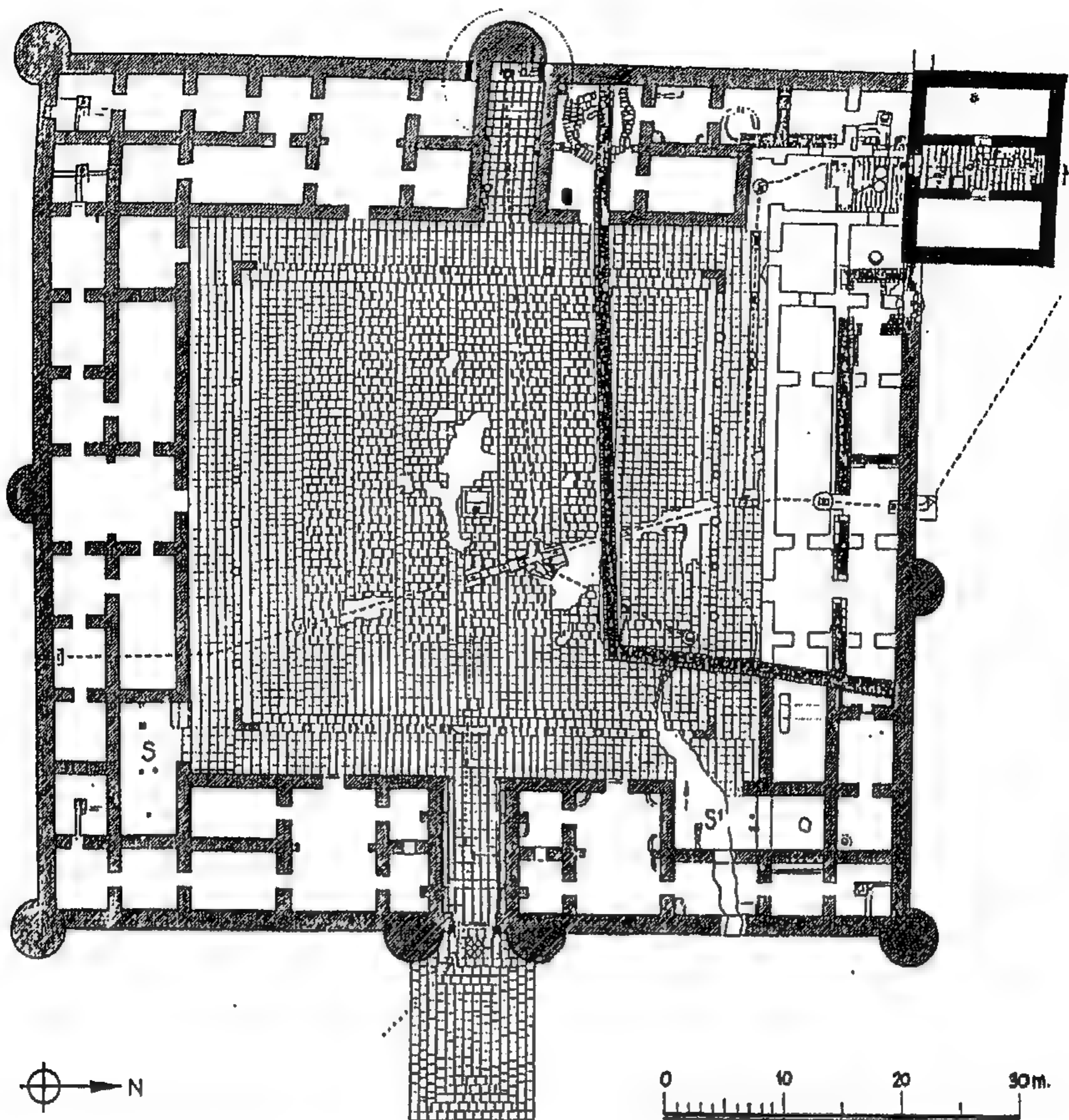
(شكل ٩٠) أنماط البيوت الشامية ، A بصري ، B القسطل ، C حرانة ،
D المنية ، E جبل سيس ، F عنجر (عين الجار) ، G قصر الحير الغربي
H خربة المفجر ، I المشتي ، J قصر الطوبة (عن : كريزول) .



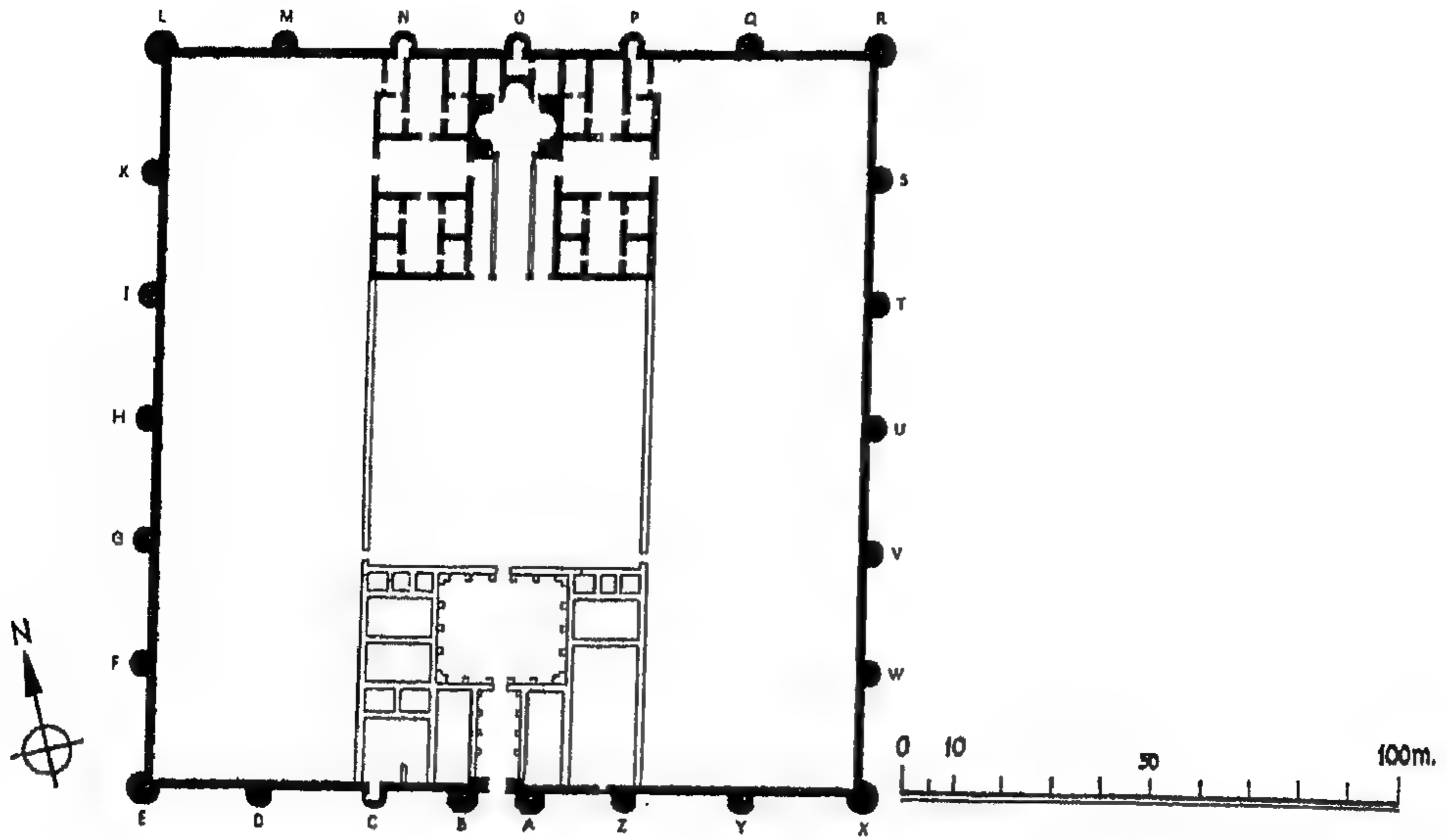
(شكل ٩١) مسقط أفقي لقصر الوليد بن عبد الملك المعروف
بقصر المنية (عن : كريزول) .



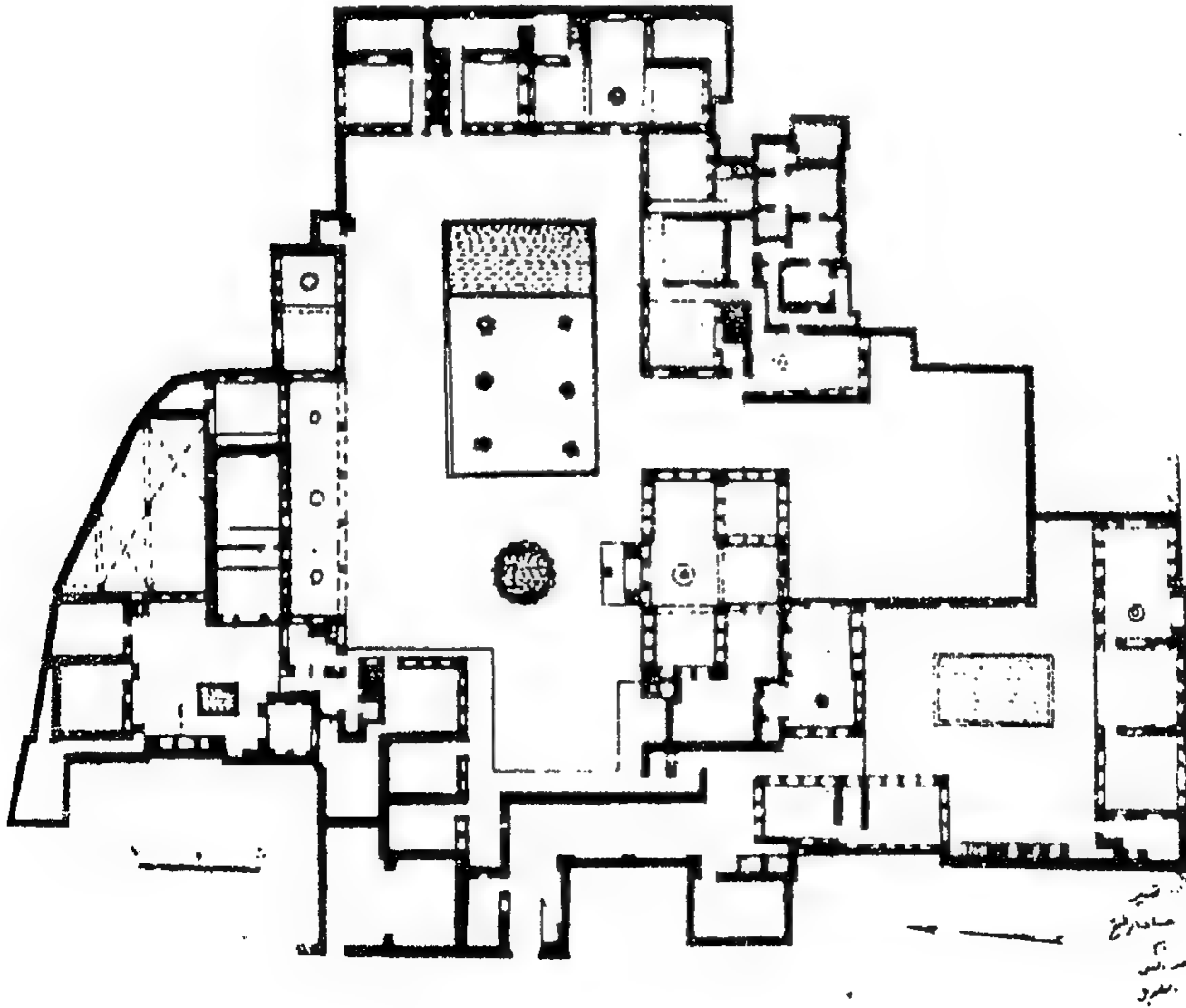
(شكل ٩٢) مسقط أفقي لقصر الحير الشرقي، تصور جرابار
(عن : كريزول) .



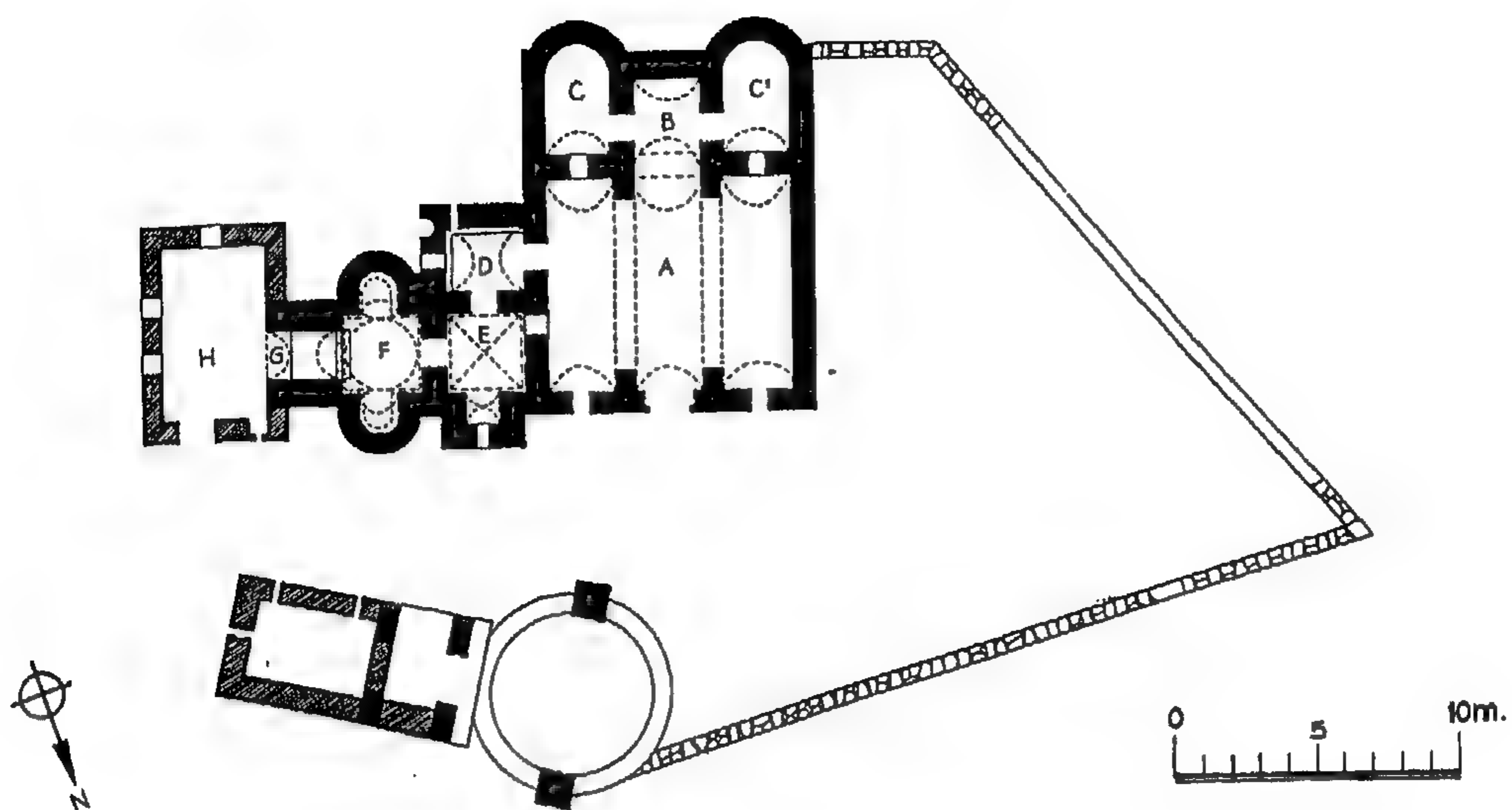
(شكل ٩٣) قصر الحير الغربي : مسقط أفقي (أعلي) (عن : كريزول)
(واسفل) (عن : هيلنبراند) .



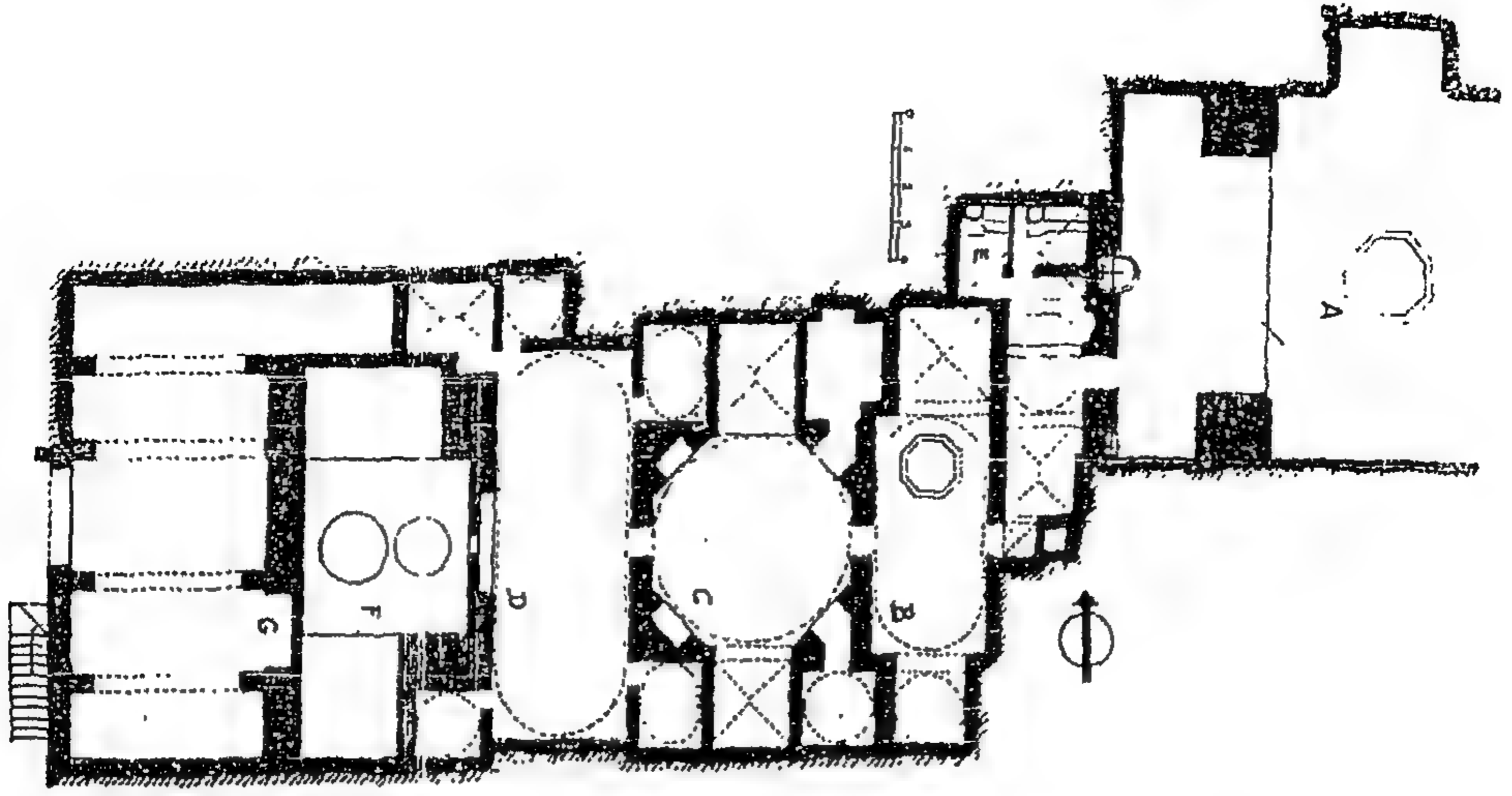
(شكل ٩٤) مسقط أفقي لقصر المشتي. (عن : كريزول).



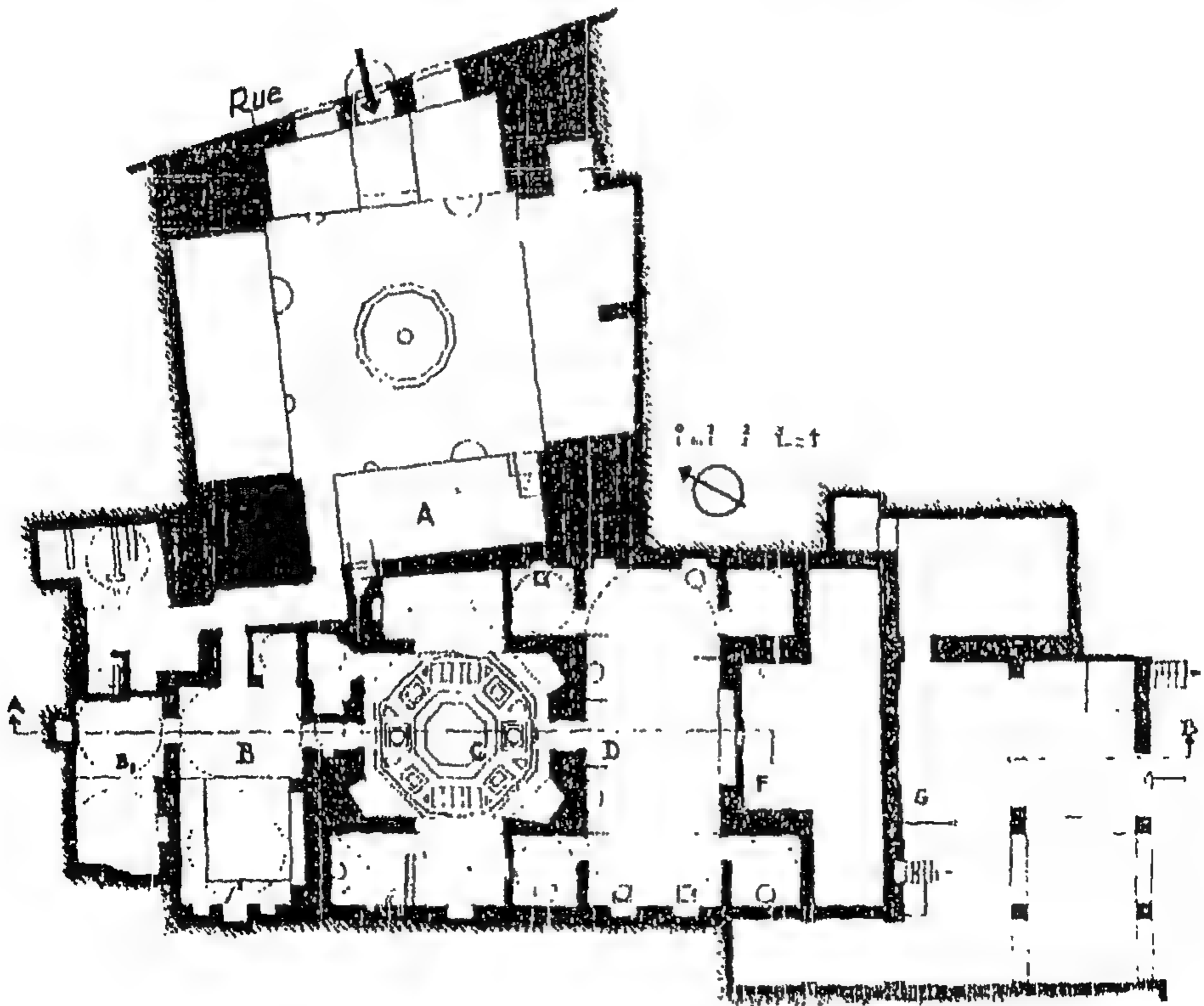
(شكل ٩٥) مسقط أفقي لقصر العظم في دمشق.
(الطابق الأرضي) (عن : الريحاوي).



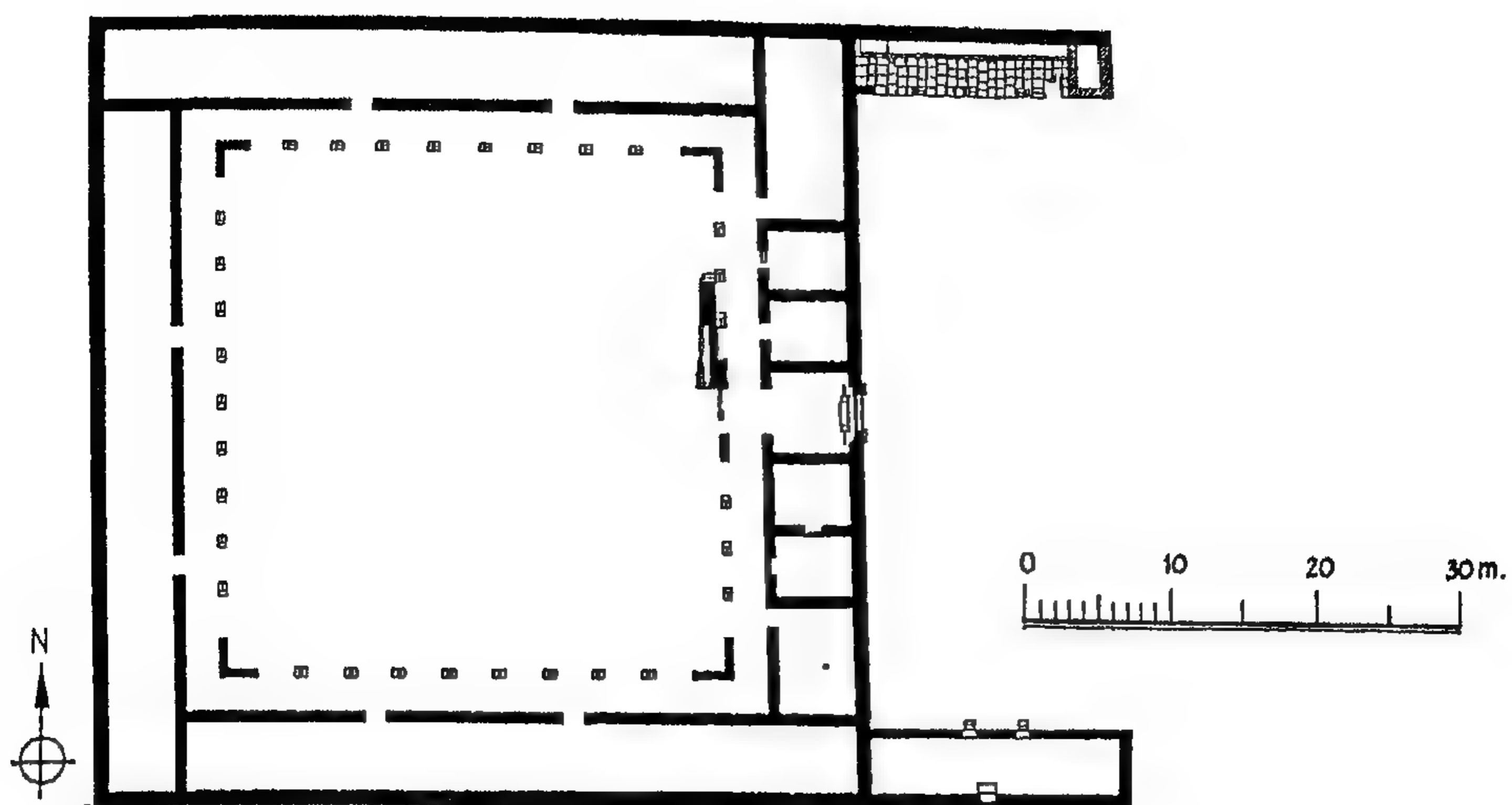
(شكل ٩٦) مسقط أفقي لحمام قصير عمره . (عن : كريزول) .



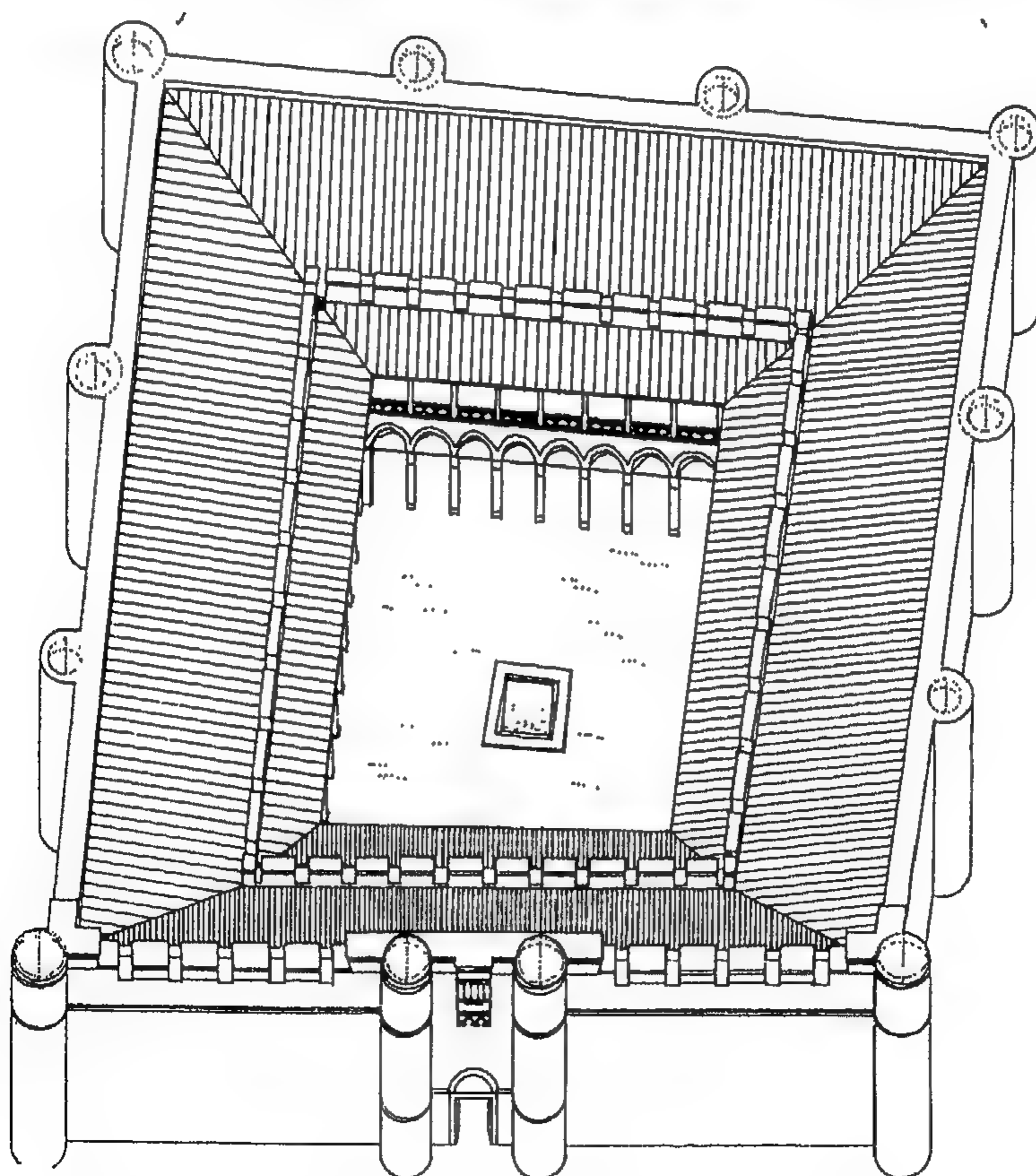
(شكل ٩٧) مسقط أفقي لحمام الملك بدمشق . (عن : ايكوشار) .



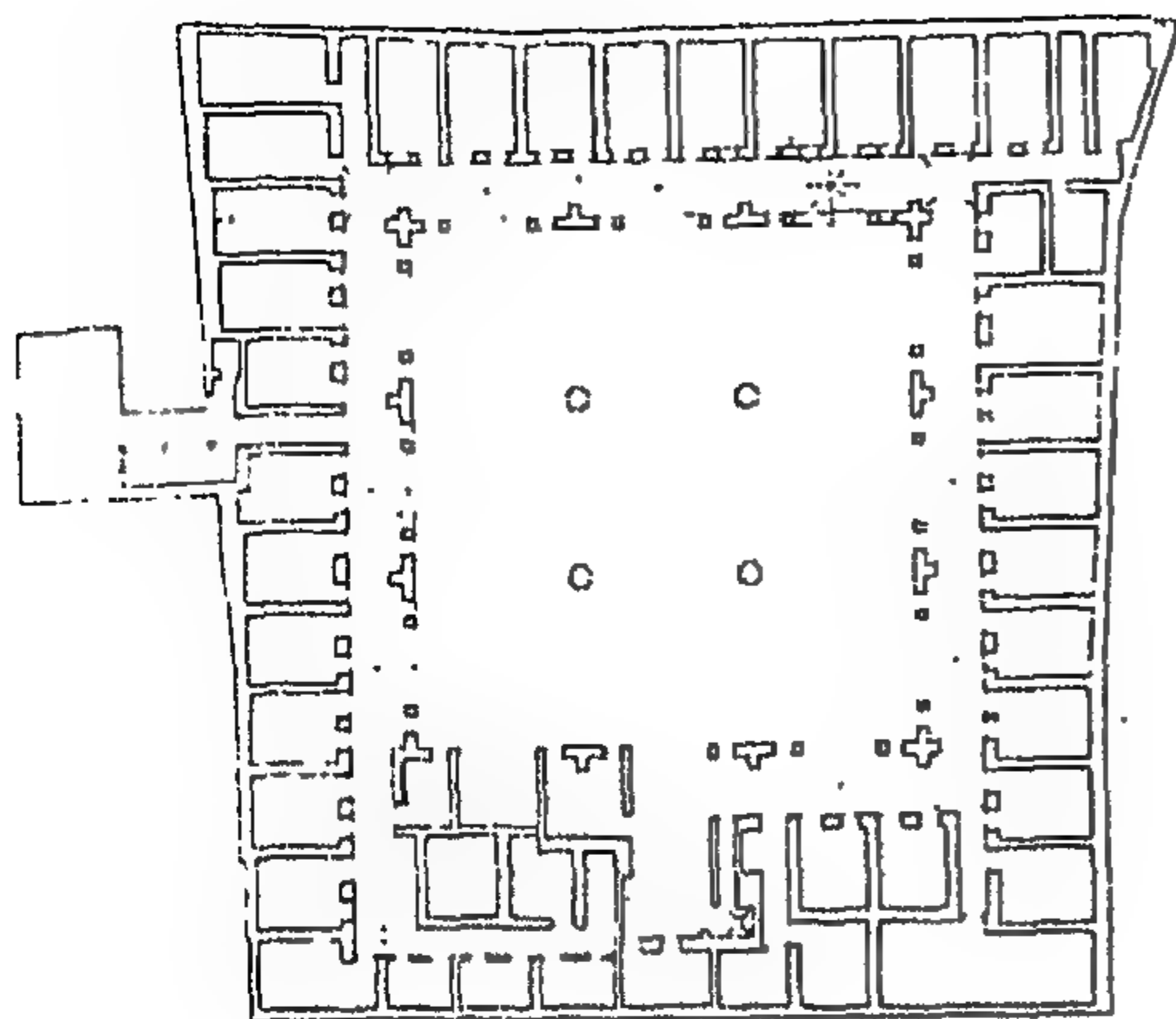
(شكل ٩٨) مسقط أفقي لحمام السنانية بدمشق . (عن : ايكوشار) .



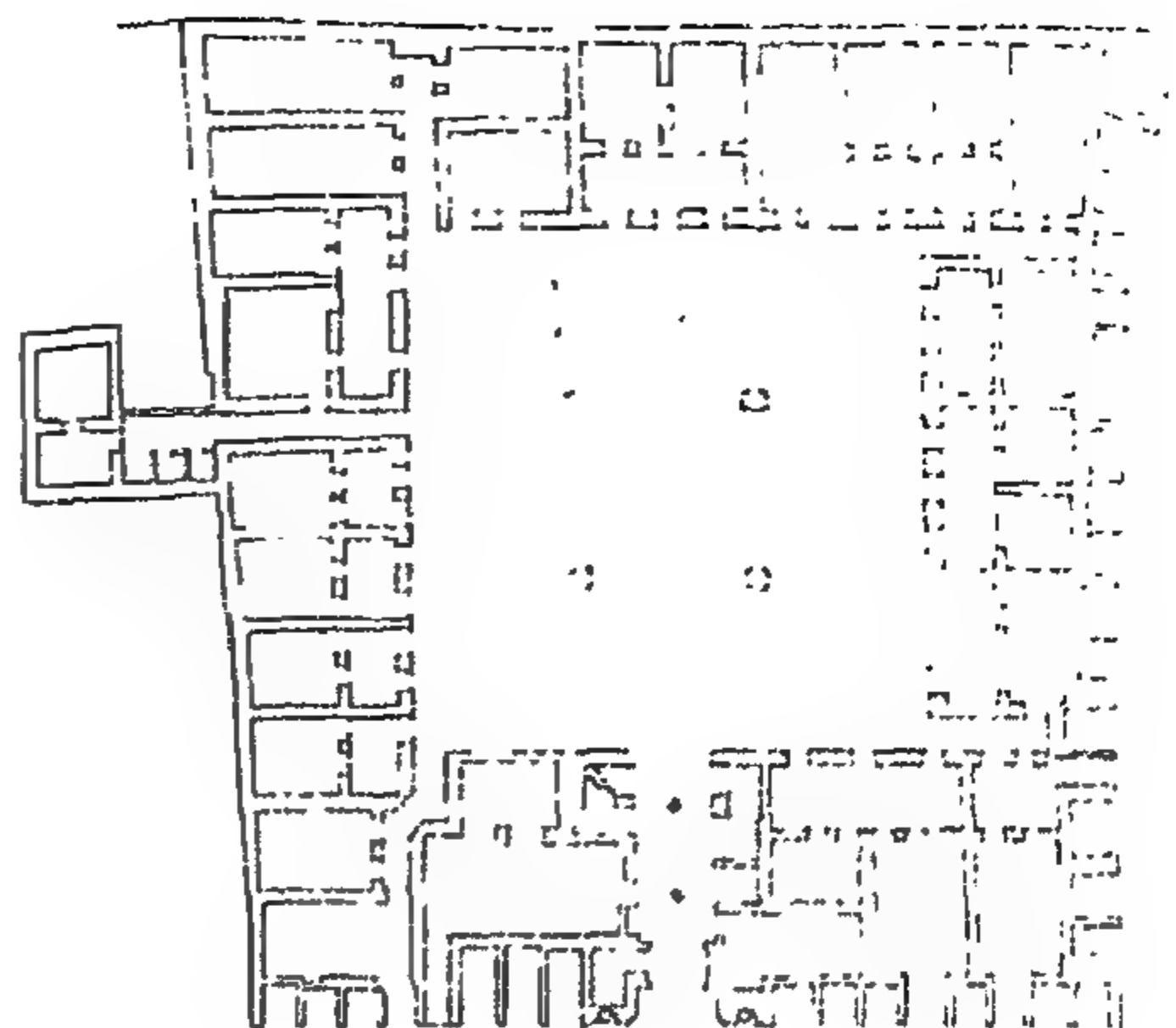
(شكل ٩٩) مسقط أفقي للخان بقصر الحير الغربي . (عن : كريزول) .



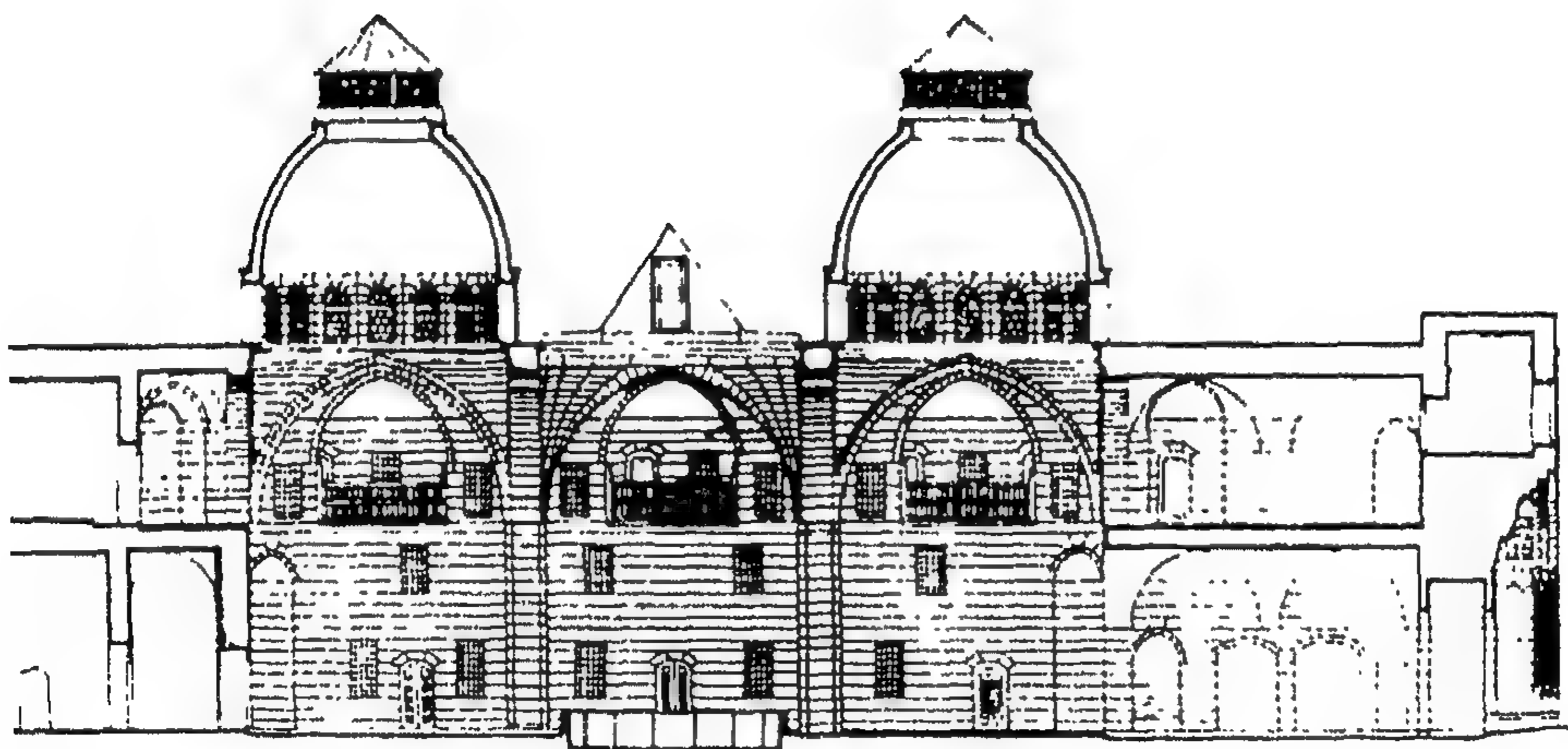
(شكل ٩٩ مكرر) قصر الحير الشرقي : الخان . (عن : هيلنبراند) .



مسقط الطابق الاول

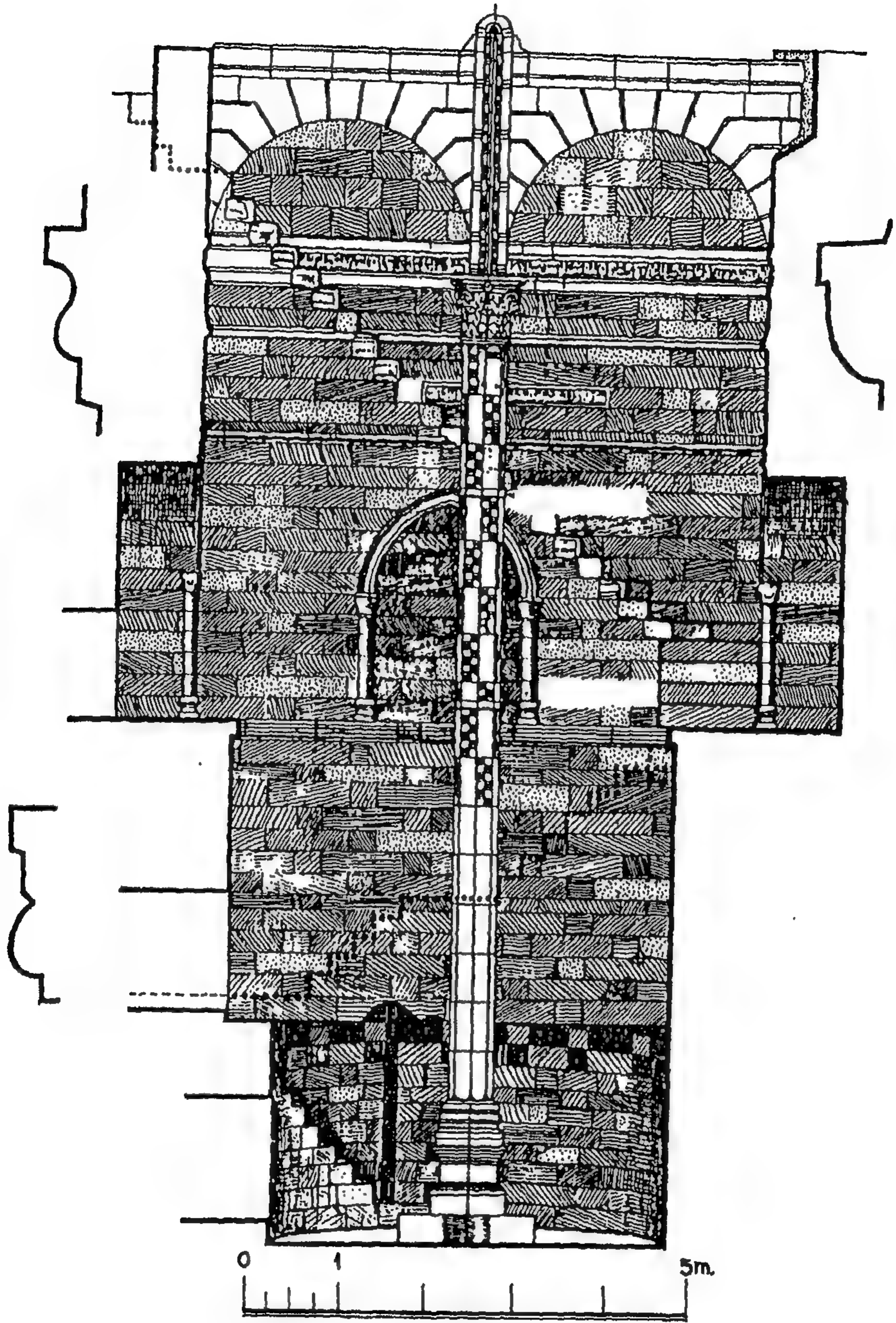


مسقط الطابق الارضي

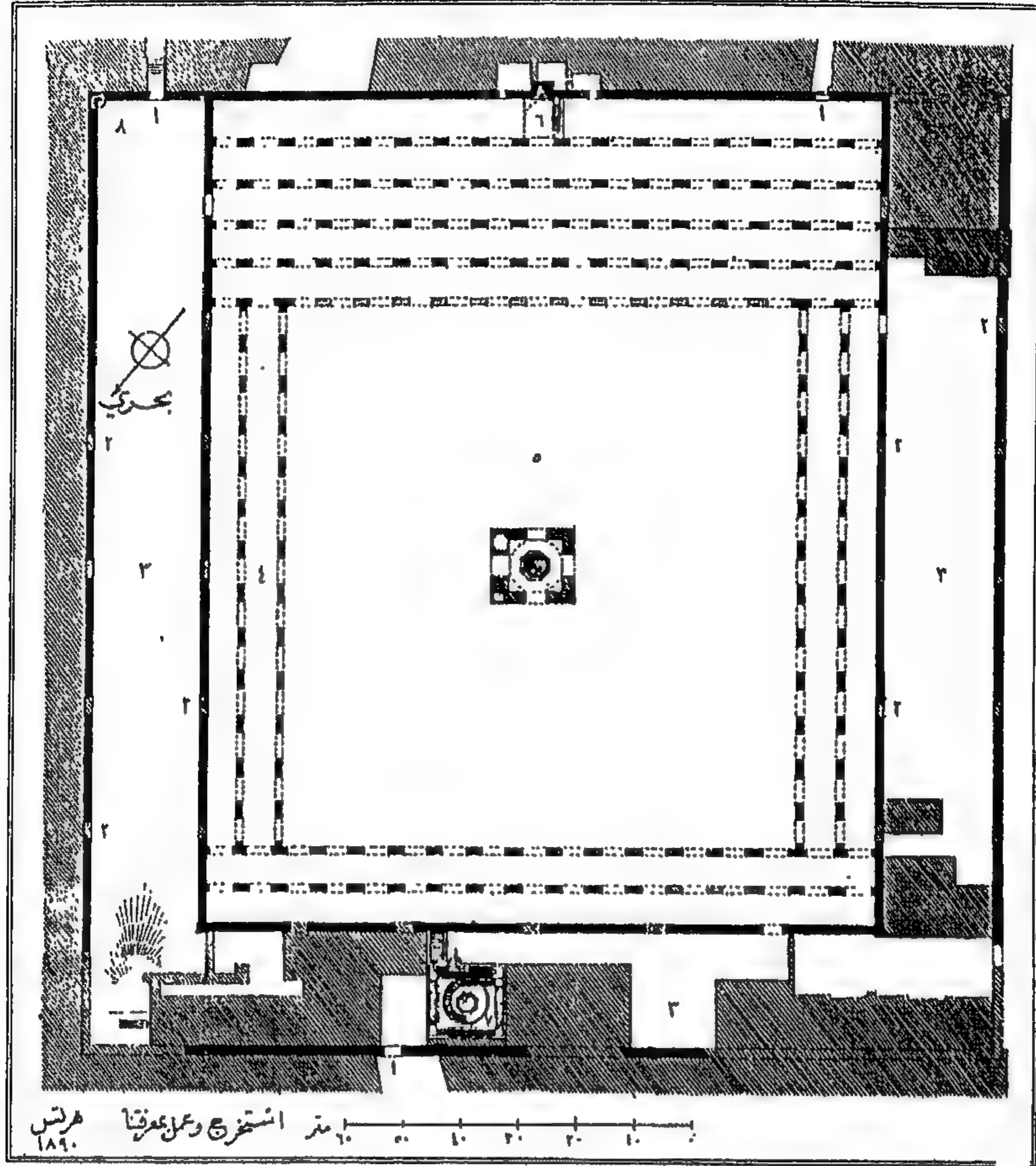


قطاع

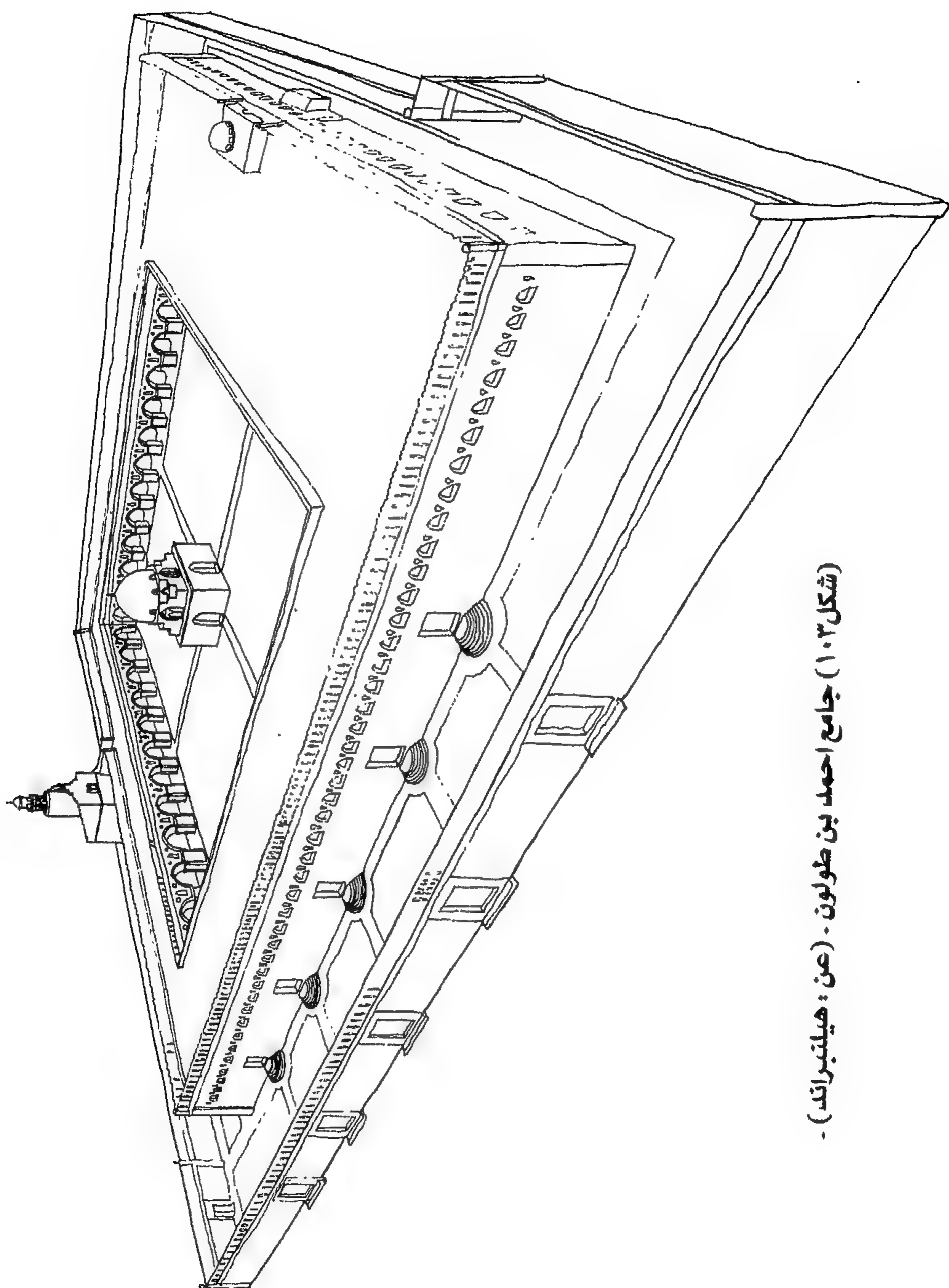
قطاع (شكل ١٠٠) خان اسعد باشا العظم في دمشق . (عن: الريحاني) .



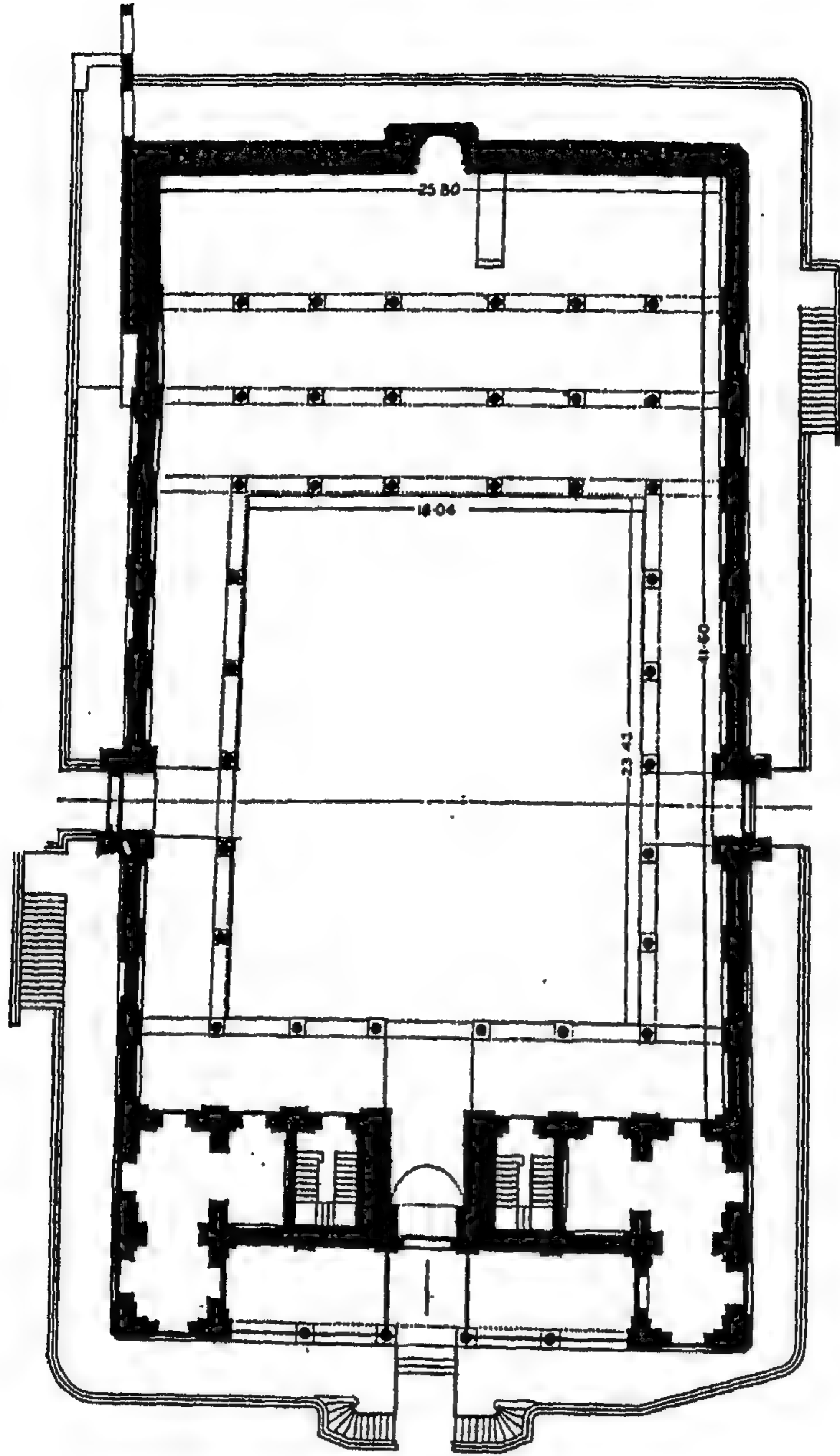
(شكل ١٠١) مقياس النيل بجزيرة الروضة بالقاهرة : قطاع .
(عن : كريزول) .



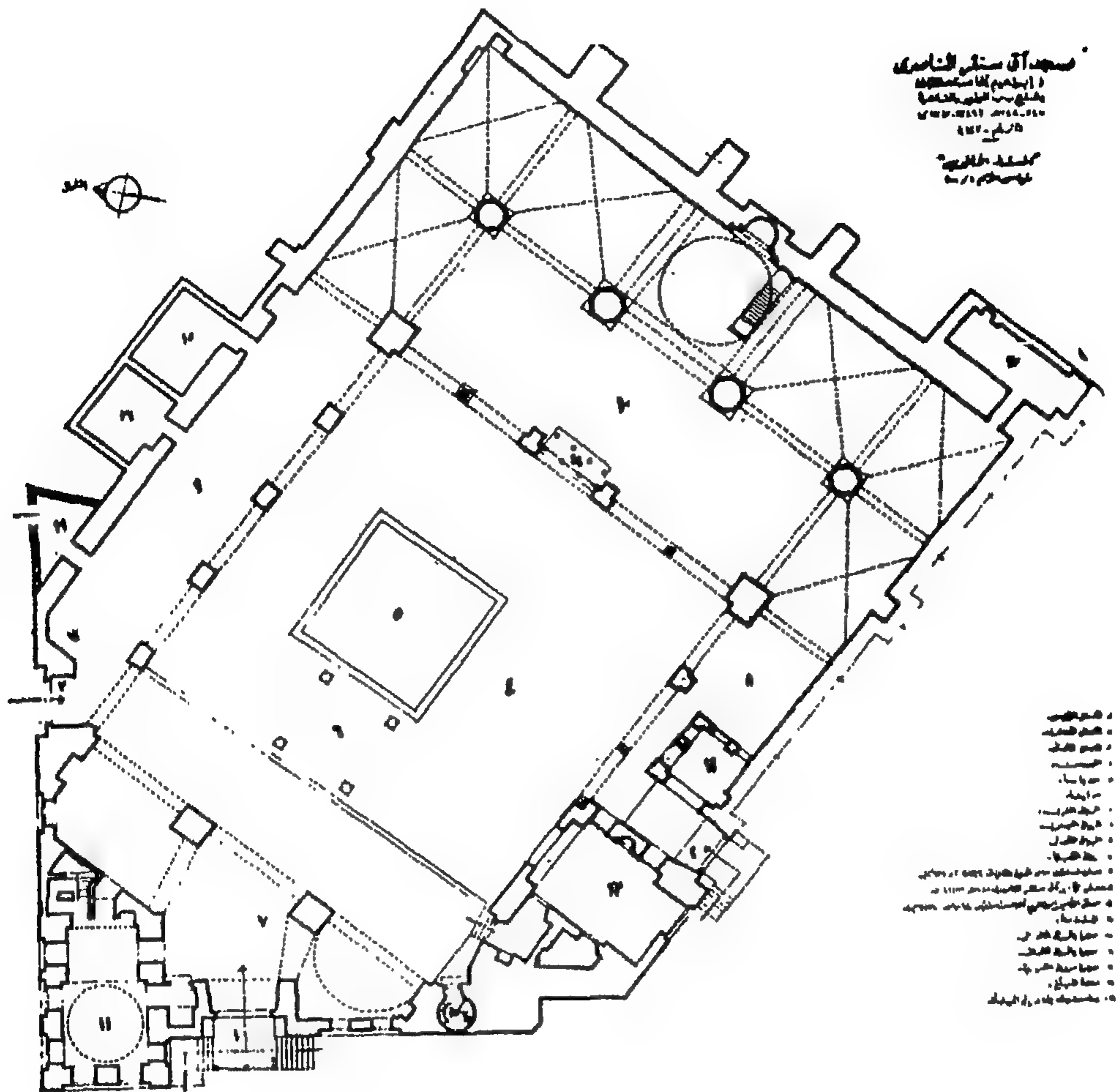
(شكل ١٠٢) مسقط أفقي لجامع أحمد بن طولون بالقاهرة
(عن لجنة حفظ الآثار العربية).



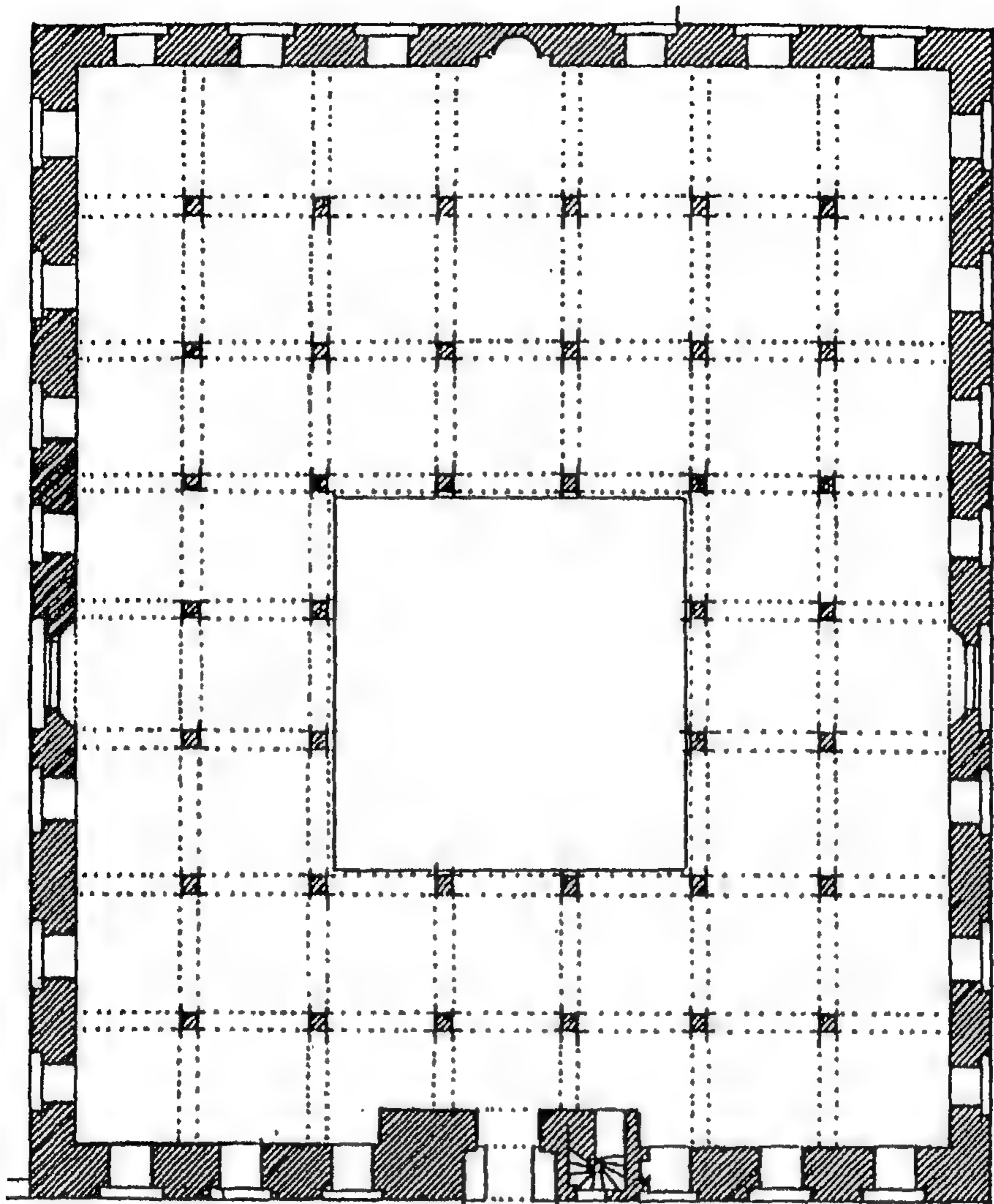
(شكل ١٠٣) جامع احمد بن طولون - (عن : هيلبراند) -



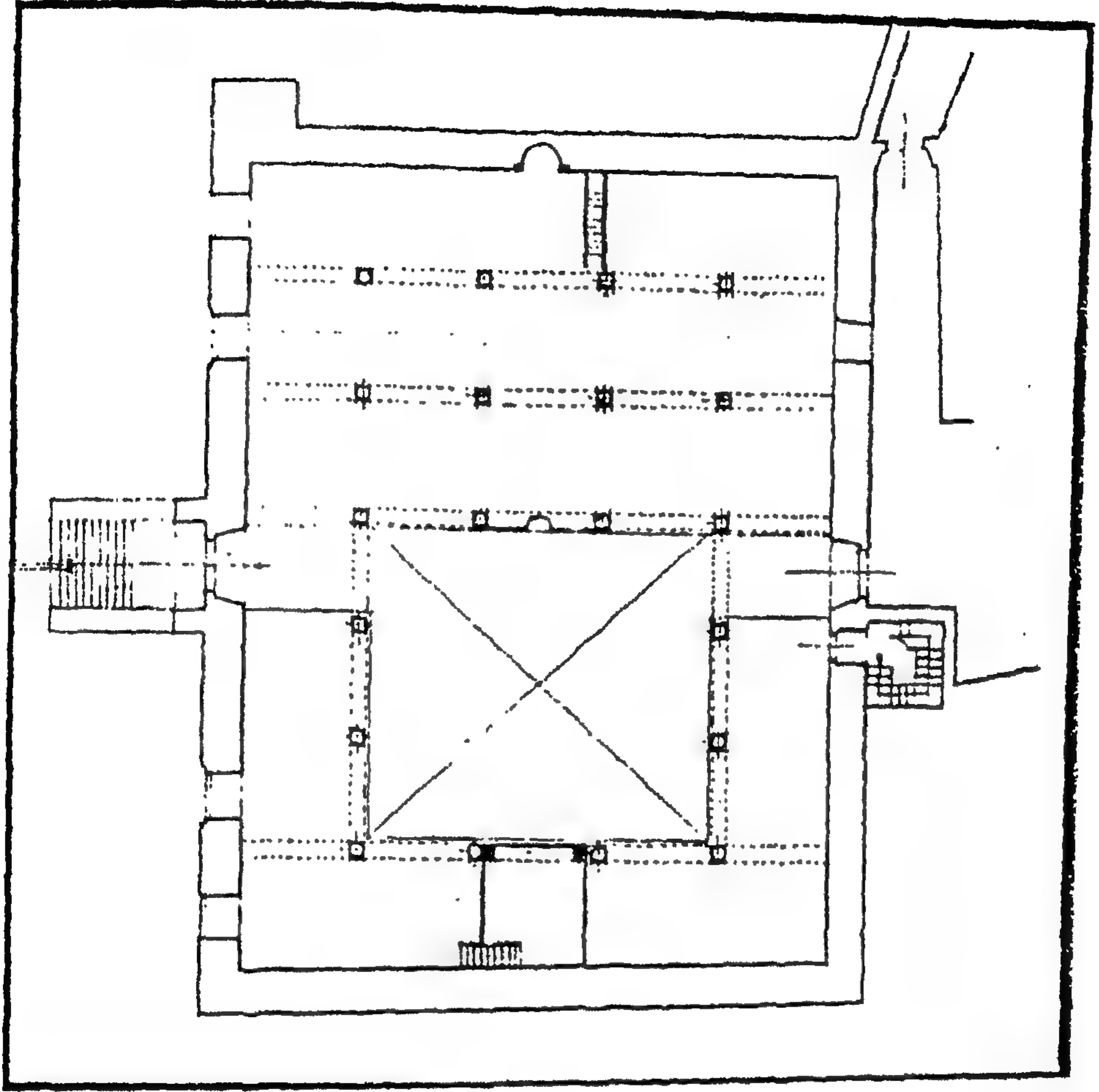
(شكل ١٠٤) مسقط أفقي لمسجد الصالح طلائع بالقاهرة .
(عن : لمسجد براندنبرج) .



(شكل ١٠٥) مسقط أفقي لمسجد آق سنقر المعروف بالجامع الأزرق بالقاهرة .
 (عن سامي عبد الحلیم).



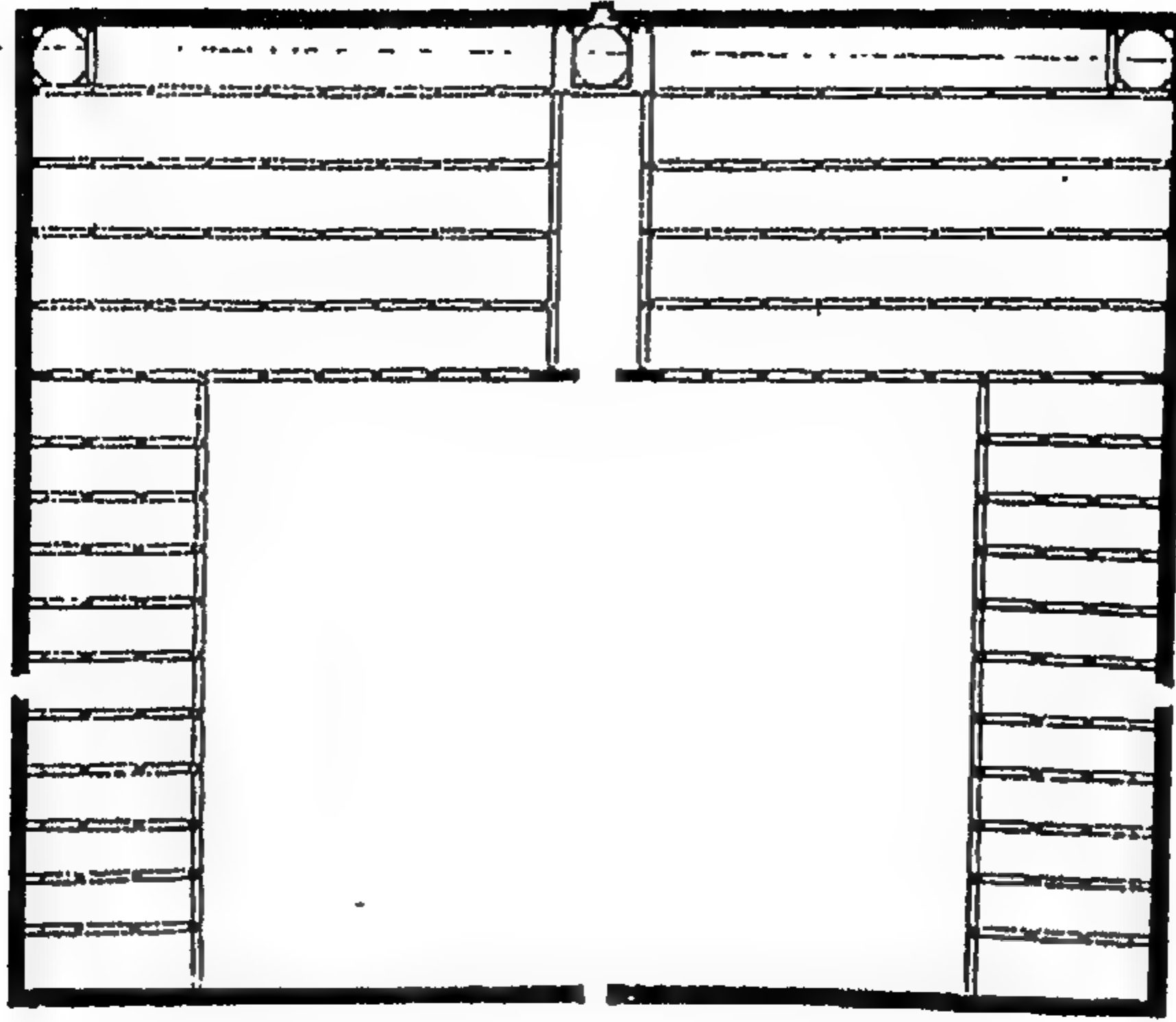
(شكل ١٠٦) مسقط أفقي لمسجد القاضي يحيى زين الدين ببولاق بالقاهرة
(عن : هوتكروفييت) .



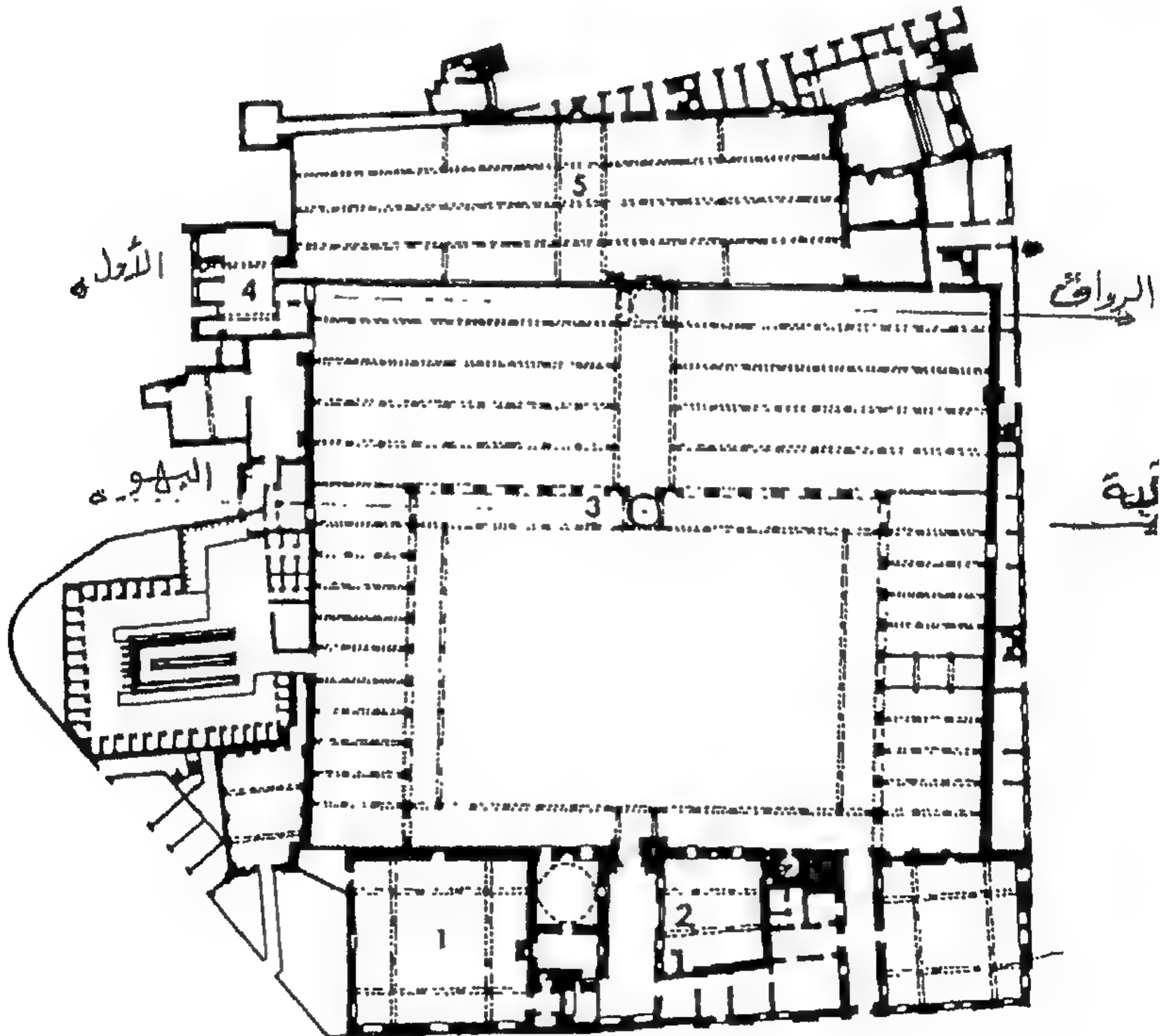
(شكل ١٠٧) مسقط أفقي لجامع عثمان كتحدا (الكخيا) بالقاهرة .
(عن حسن عبد الوهاب) .

الأول

الرواق

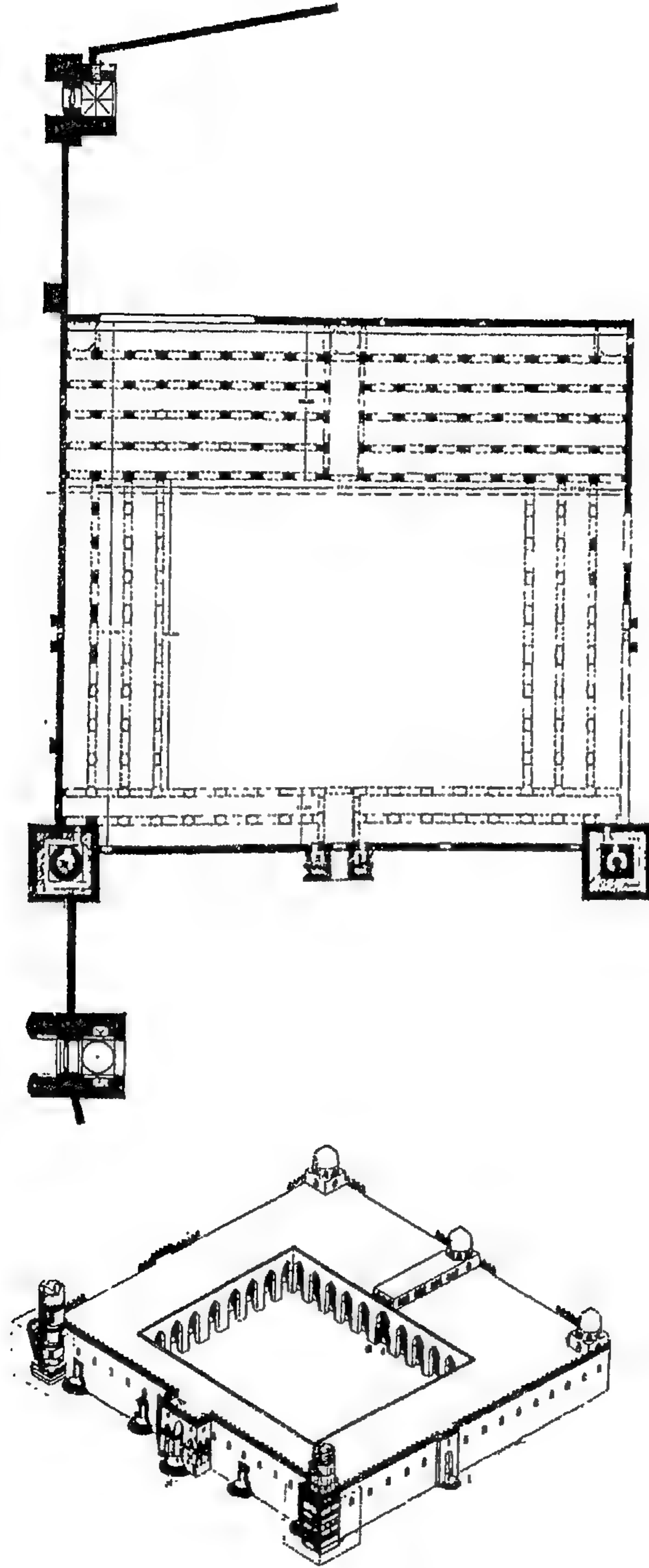


(شكل ١٠٨) مسقط أفقي للجامع الأزهر في مرحلة إنشائه الأولى بالقاهرة (عن : هوج) .

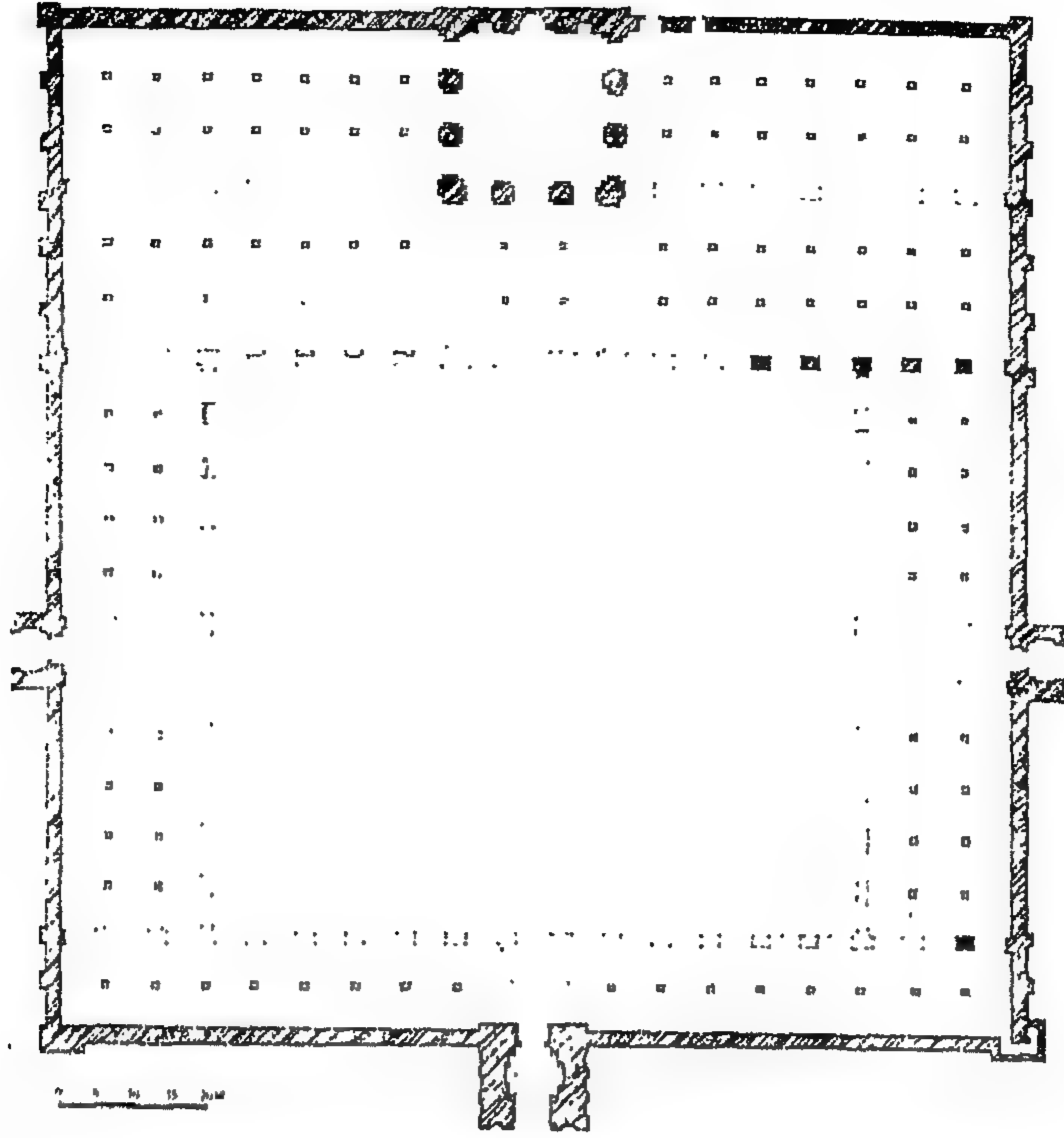


(شكل ١٠٨ مكرر) مسقط أفقي للجامع الأزهر الحالي . (عن : كريزول) .

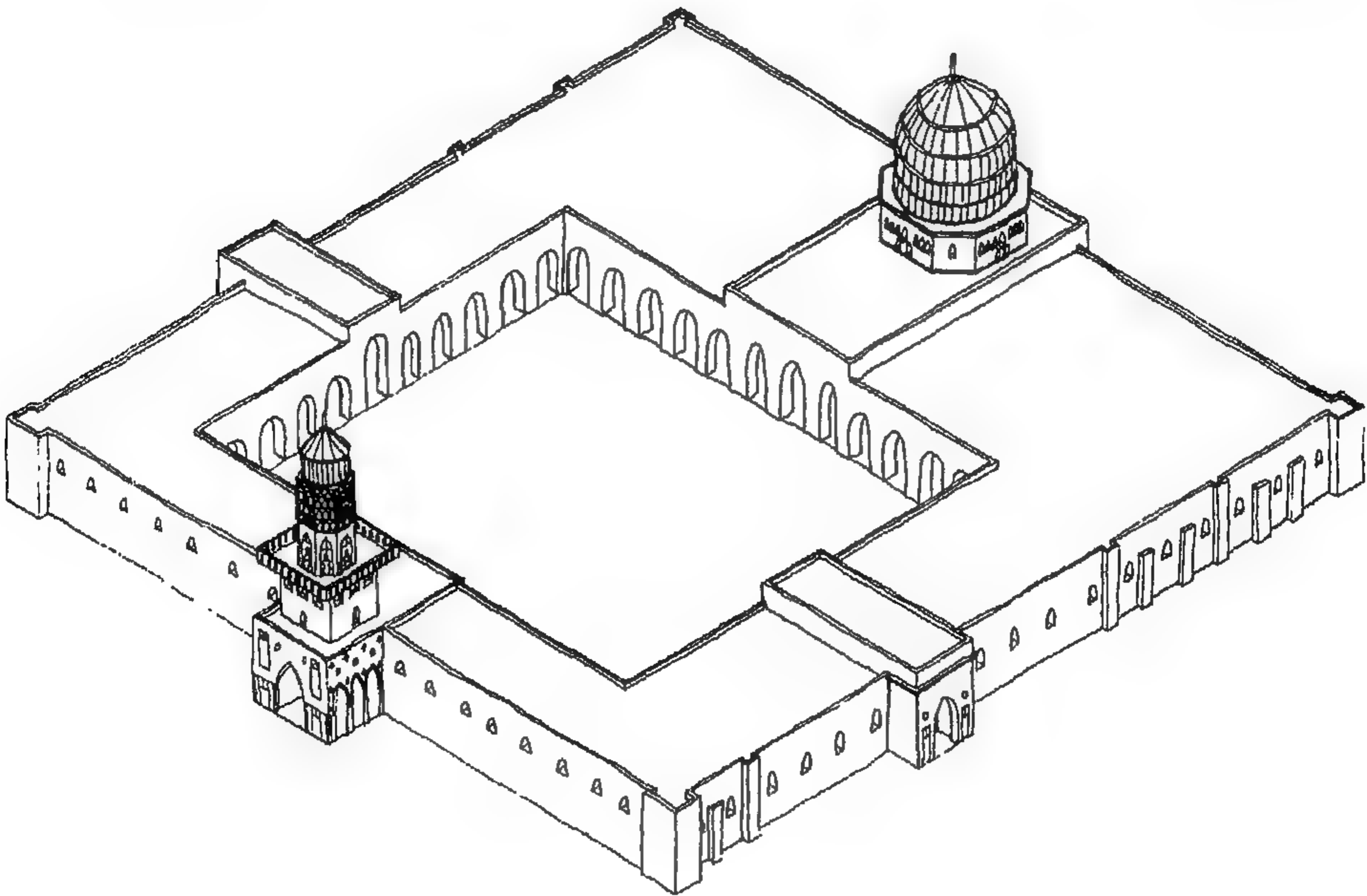
- ١ - المدرسة الاقبغاوية .
- ٢ - المدرسة الطيبرسية .
- ٣ - زيادة الخليفة الحافظ لدين الله .
- ٤ - المدرسة الجوهريية .
- ٥ - زيادة عبد الرحمن كتخدا .



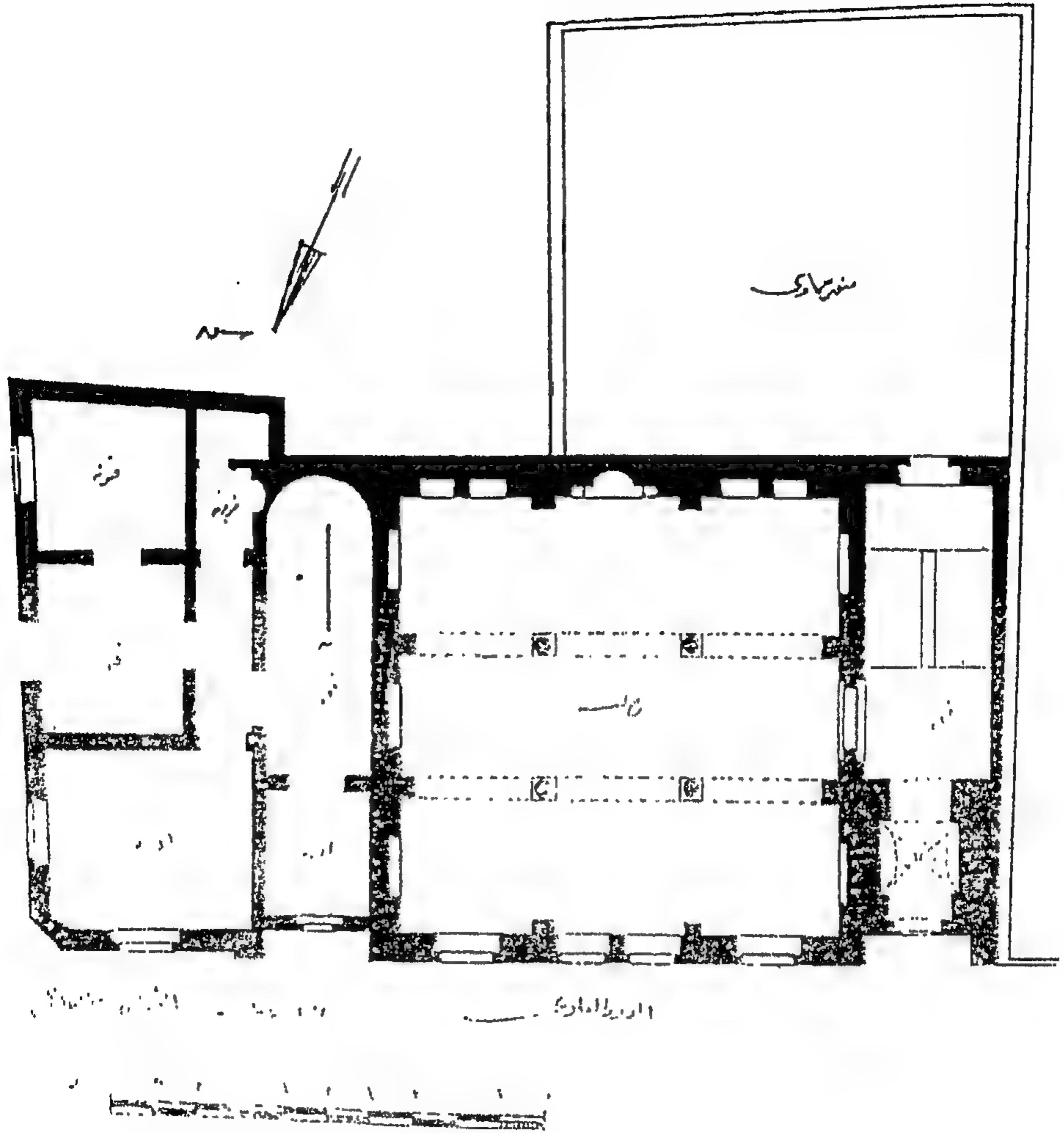
(شكل ١٠٩) مسقط أفقي ومنظور لجامع الحاكمة بامر الله الفاطمي . (عن : صالح لمعي) .



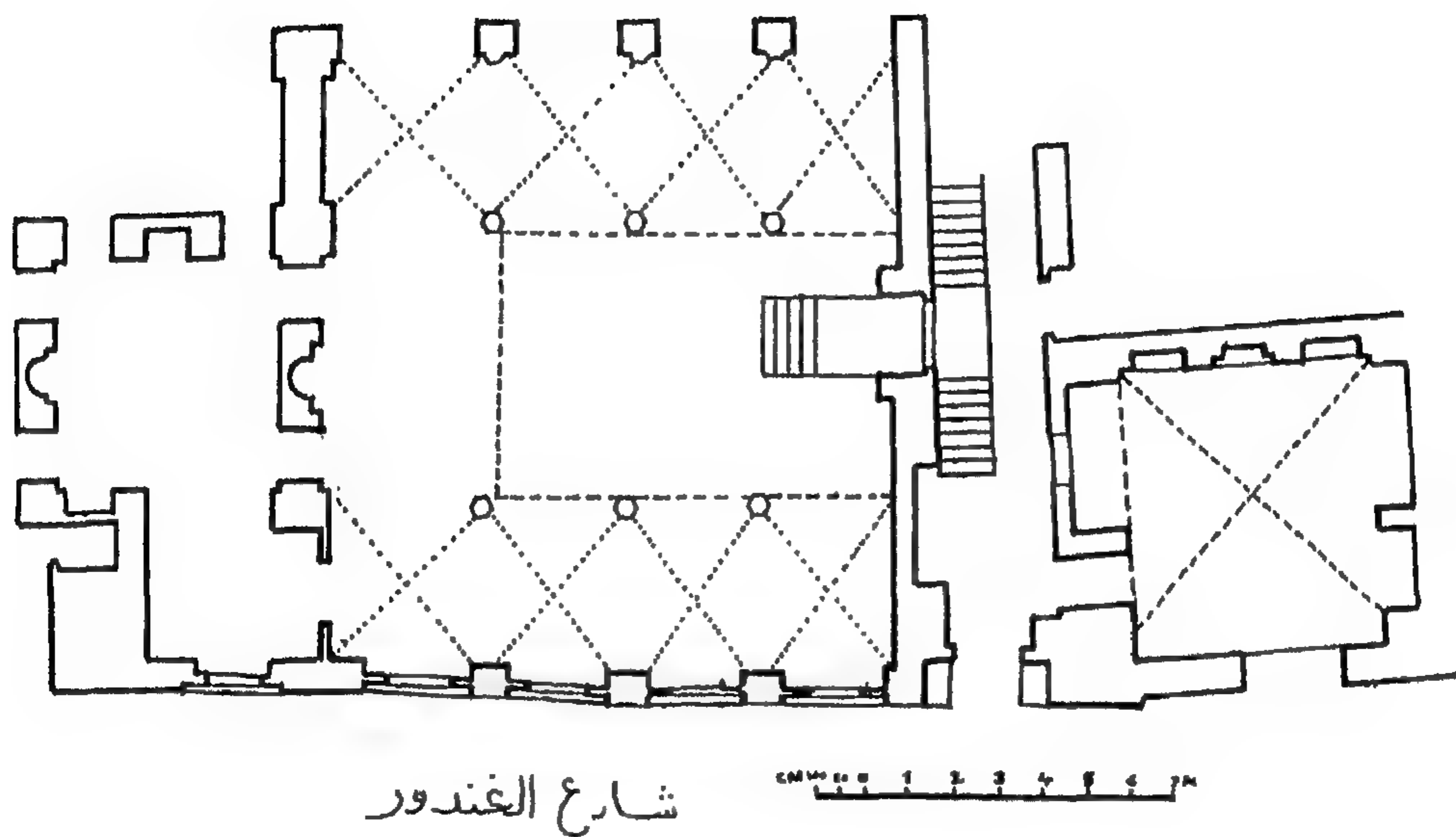
(شكل ١١٠) مسقط أفقي لجامع الظاهر بيبرس بحي الظاهر بالقاهرة. (عن : أصلان آبا) .



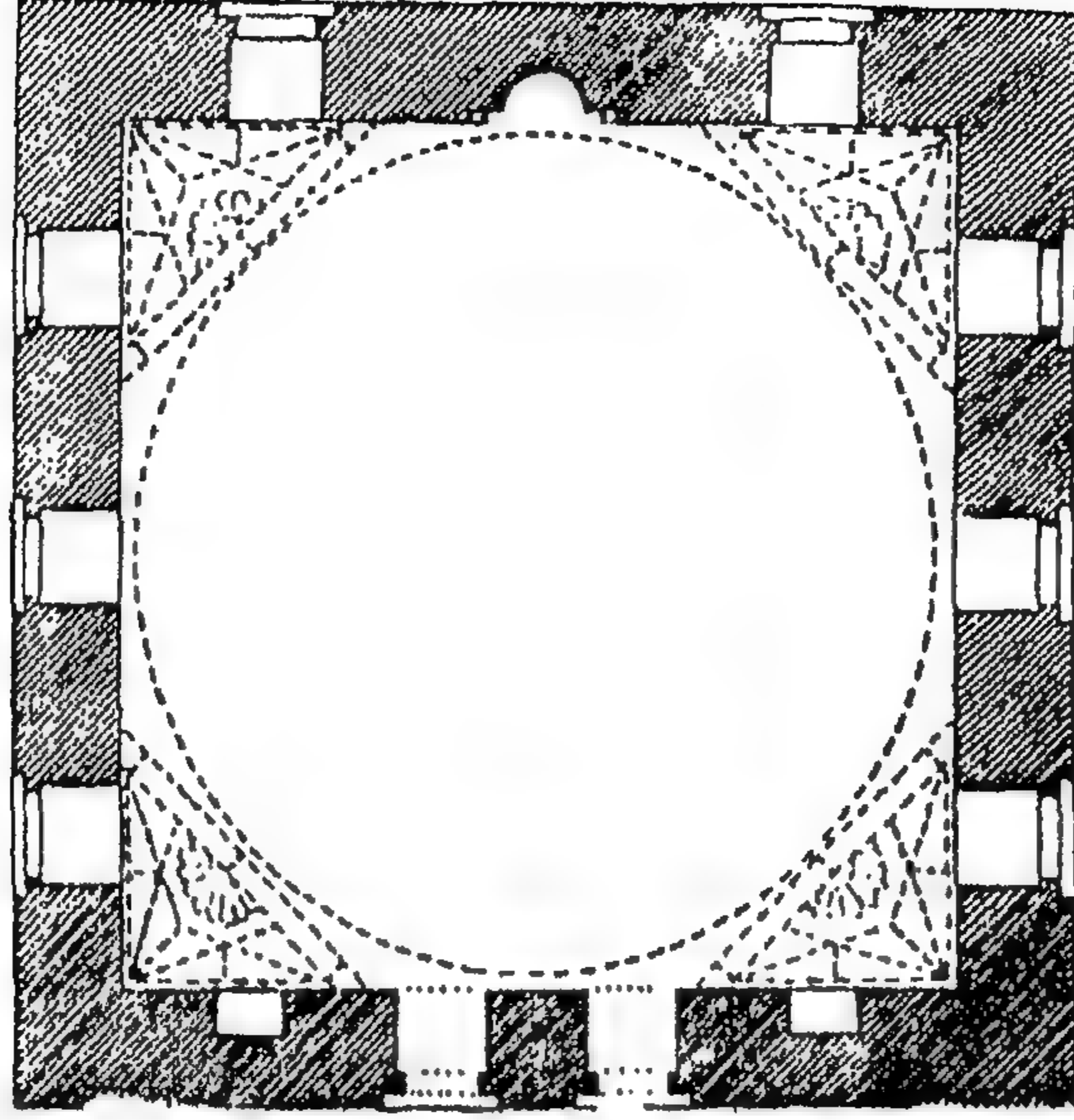
(شكل ١١١) جامع الظاهر بيبرس بحي الظاهر بالقاهرة. (عن : هيلنبراند) .



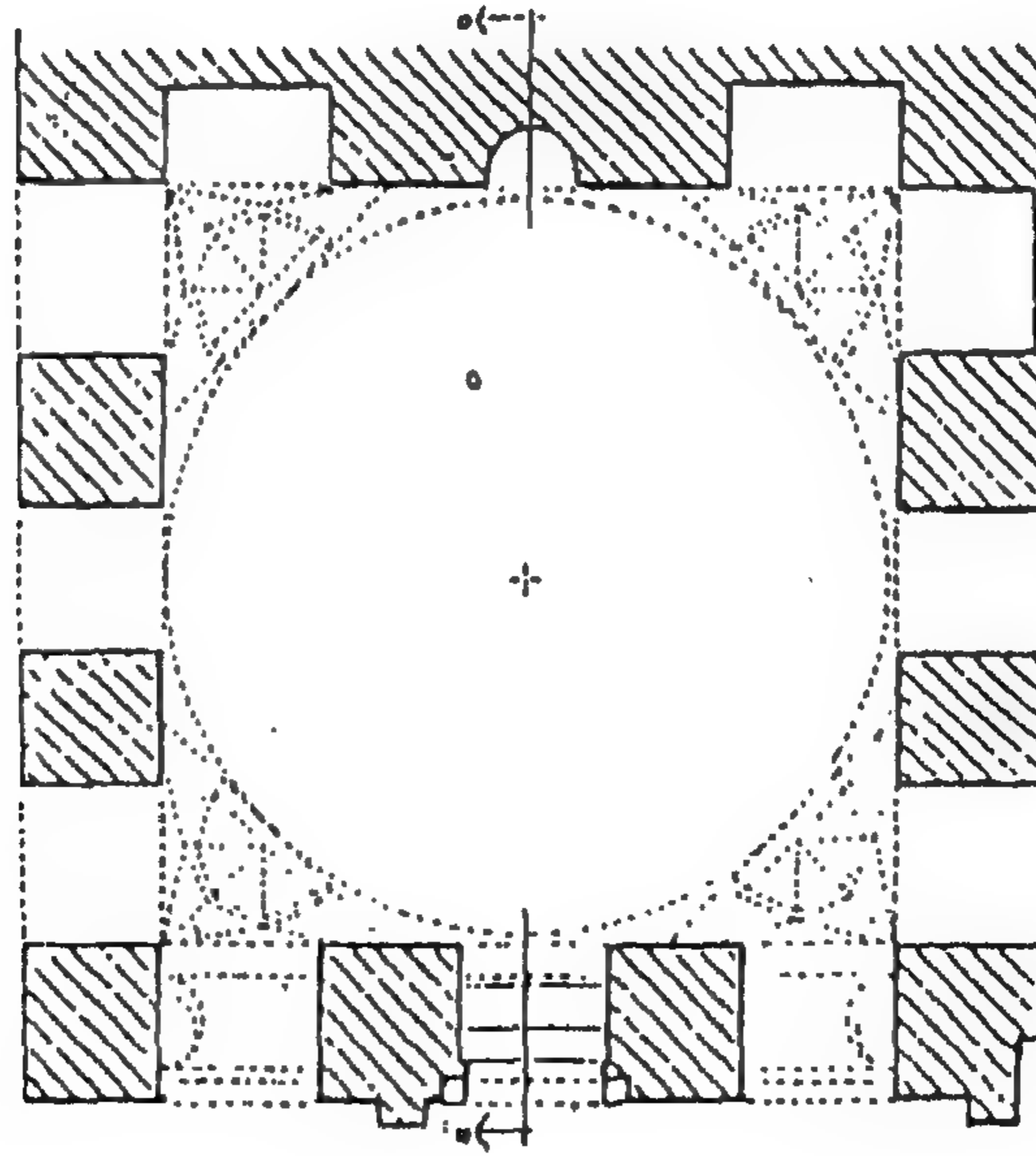
(شكل ١١٣) مسقط أفقي لجامع مراد باشا بالقاهرة.



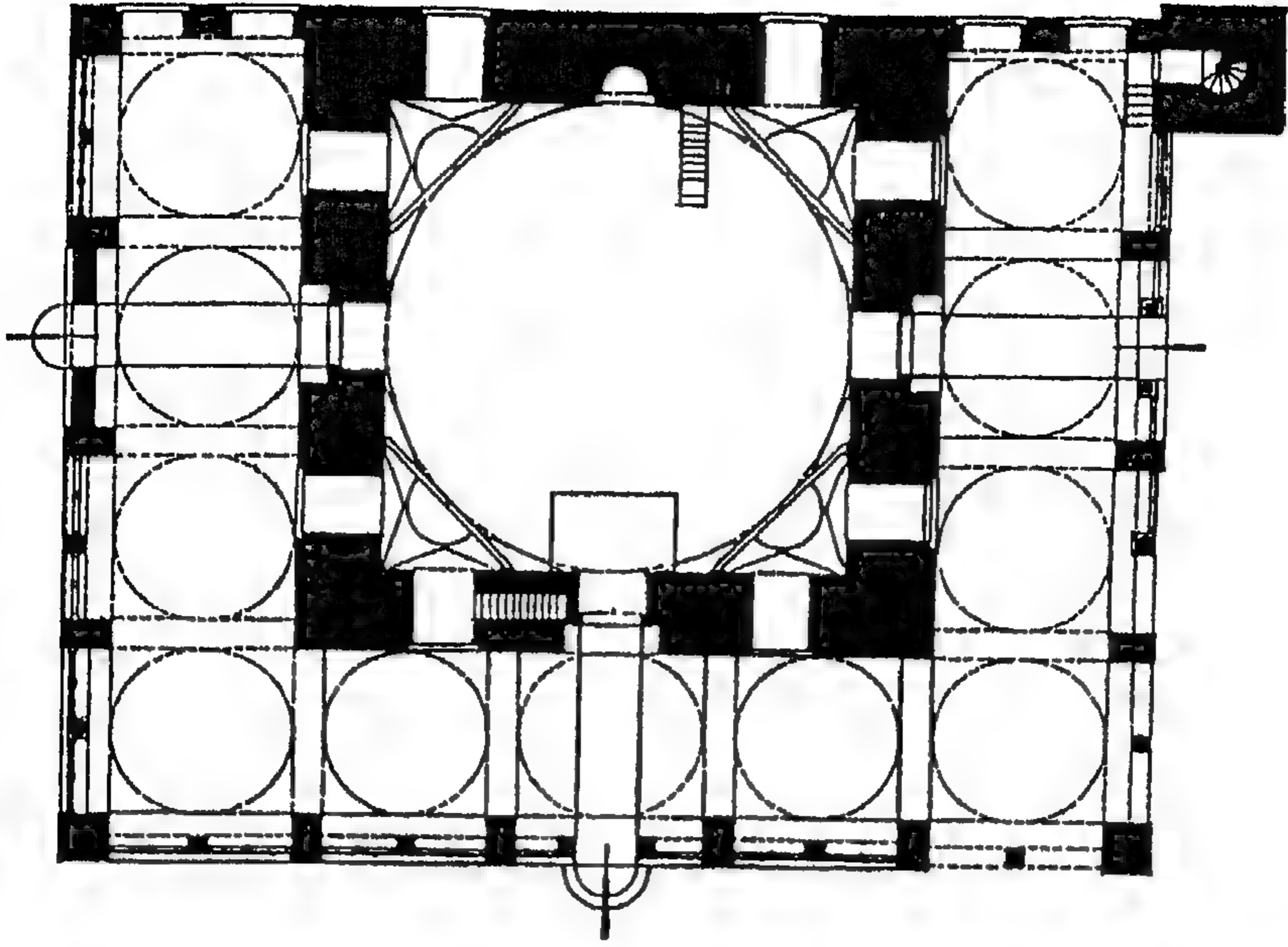
(شكل ١١٤) مسقط أفقي لجامع التي يرمق بالقاهرة .



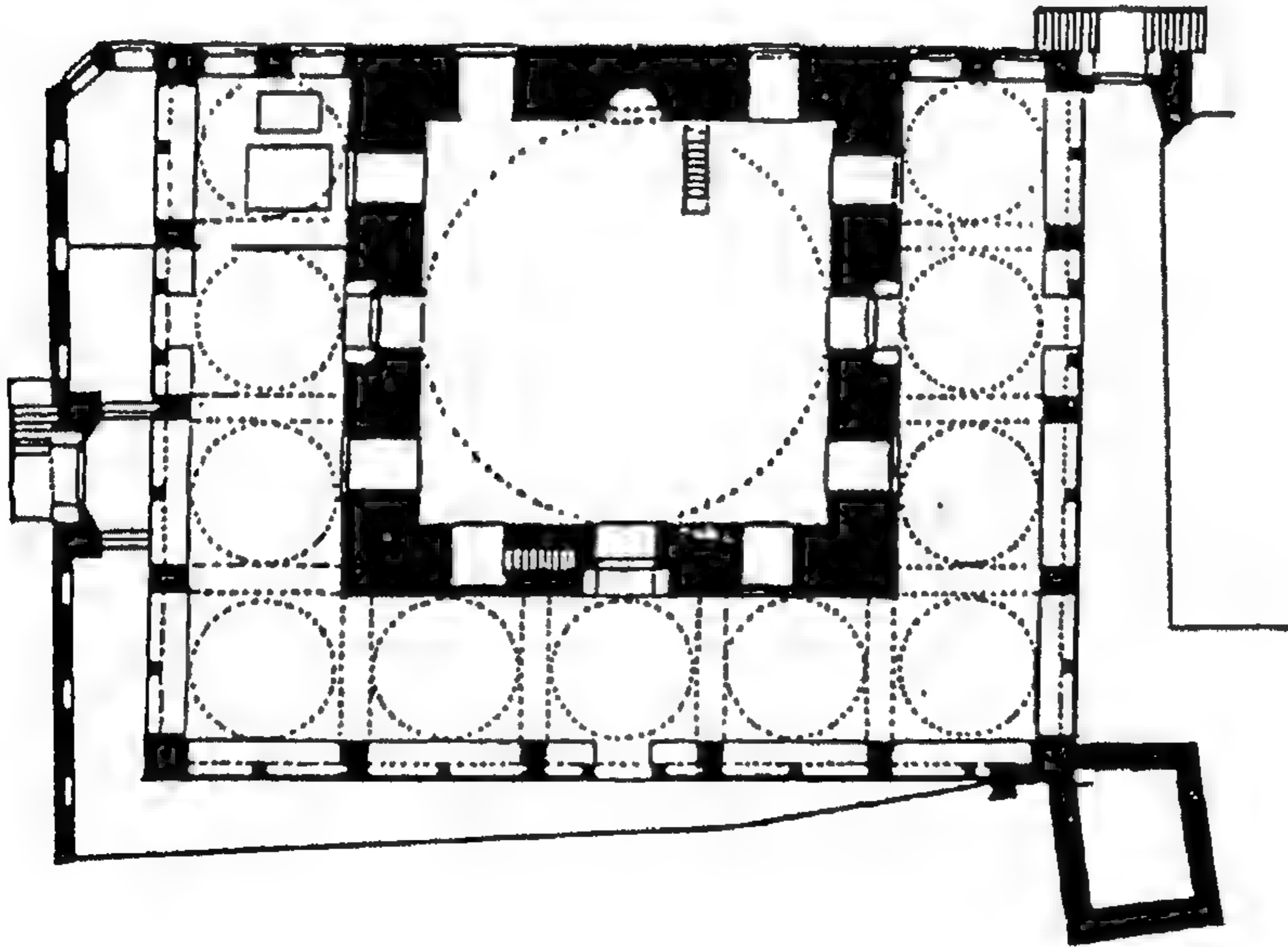
(شكل ١١٥) مسقط أفقي لزاوية الاحمدية الرفاعية المعروفة بقبة معبد الرفاعي
(بقرافة صحراء المماليك بالقاهرة) .



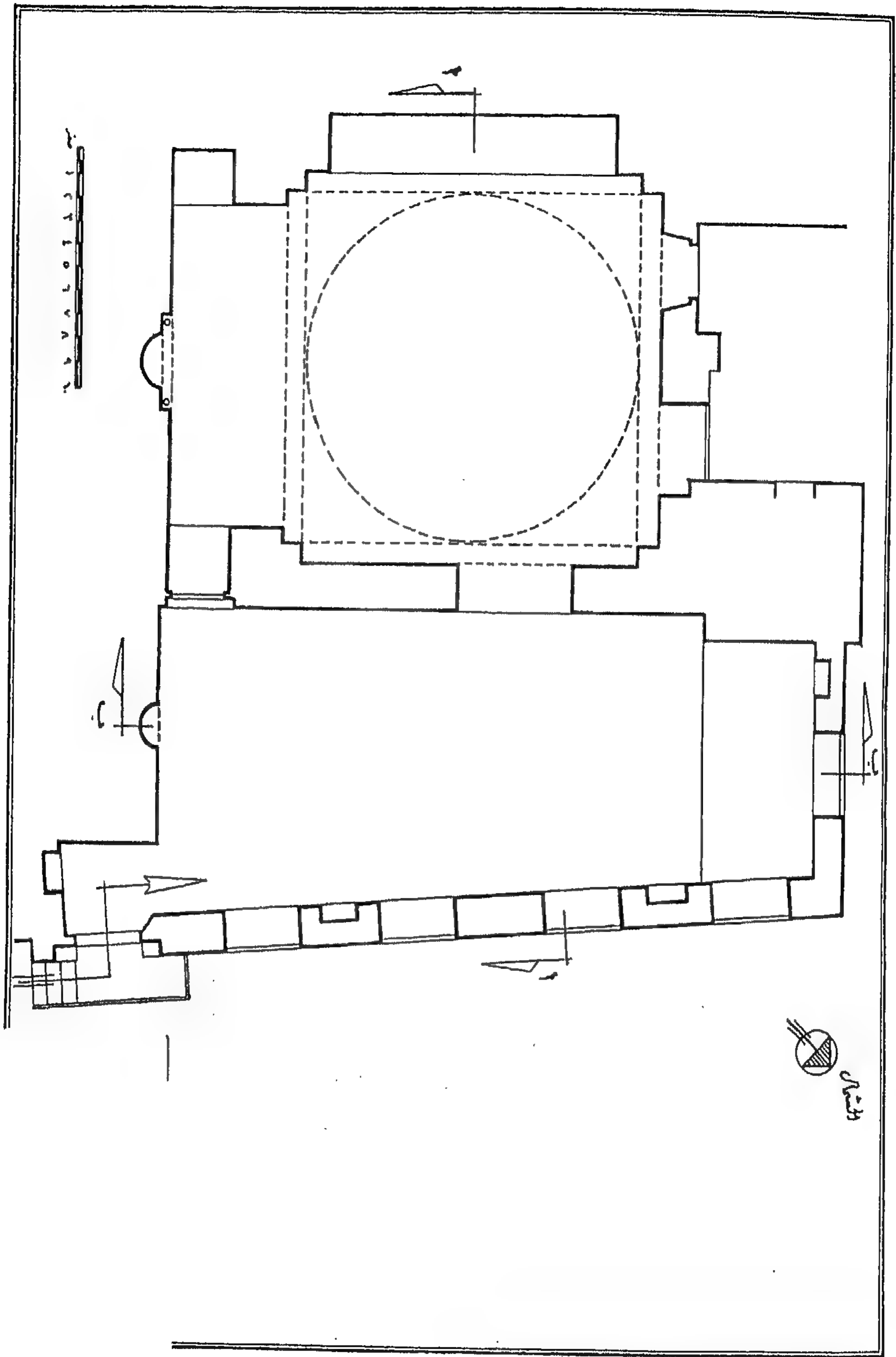
(شكل ١١٦) مسقط أفقي لزاوية الدمرداش بالعباسية (عن : درويس أبو سيف) .



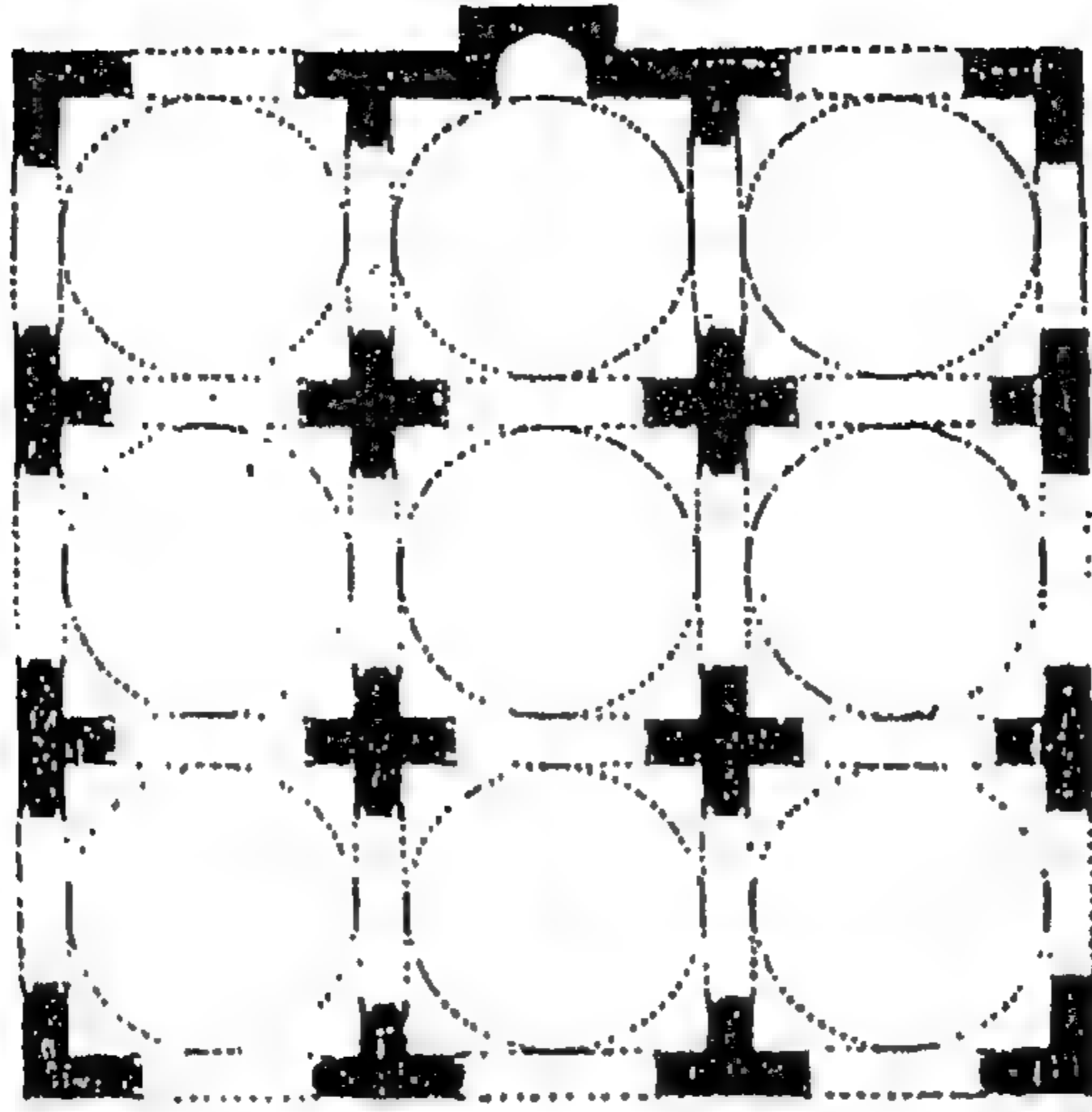
(شكل ١١٧) مسقط أفقي لجامع السنانية ببولاق بالقاهرة (عن : Brandenburg) .



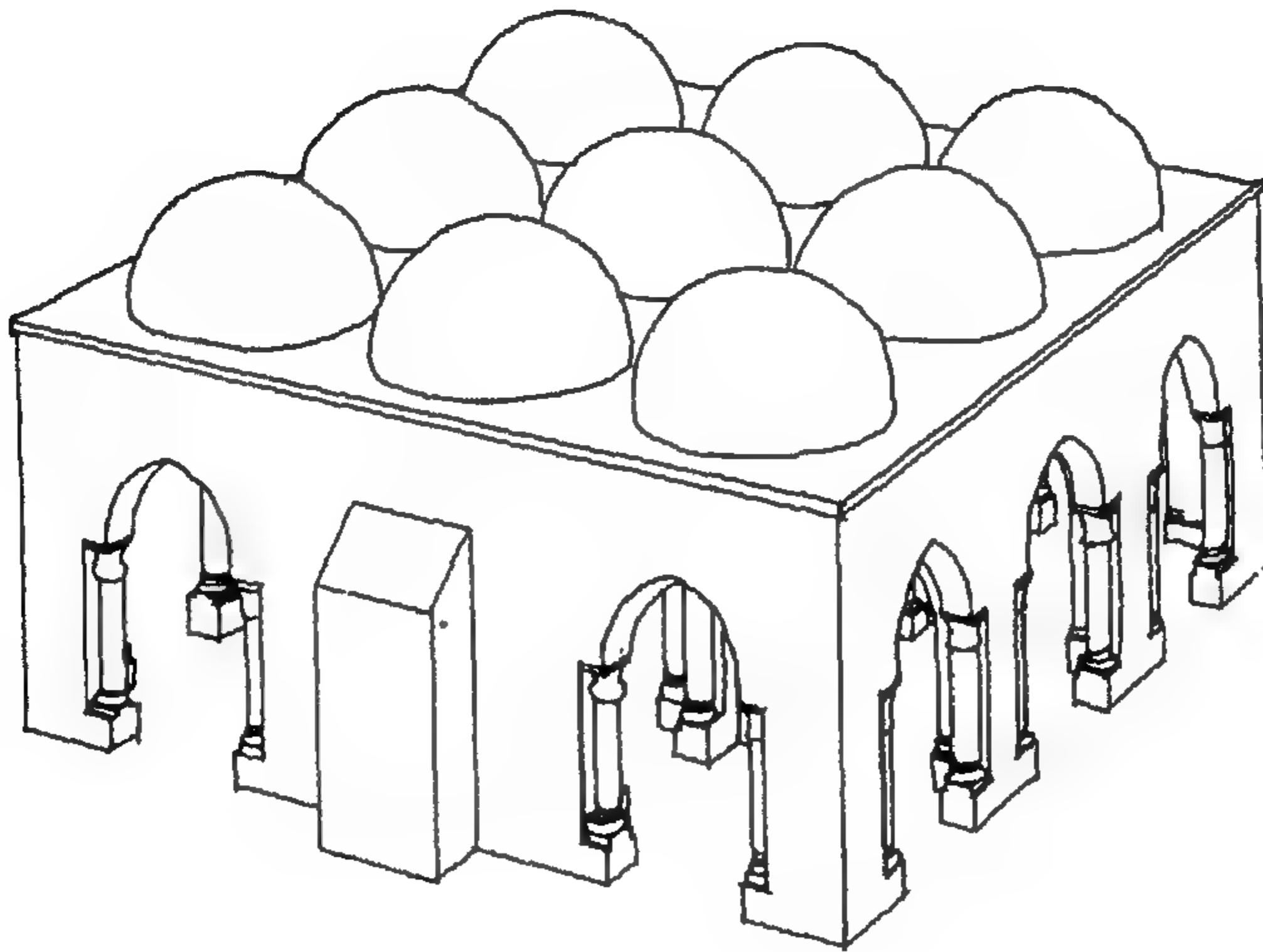
(شكل ١١٨) مسقط أفقي لجامع أبو الذهب تجاه الأزهر بالقاهرة
(عن لجنة حفظ الآثار بالقاهرة) .



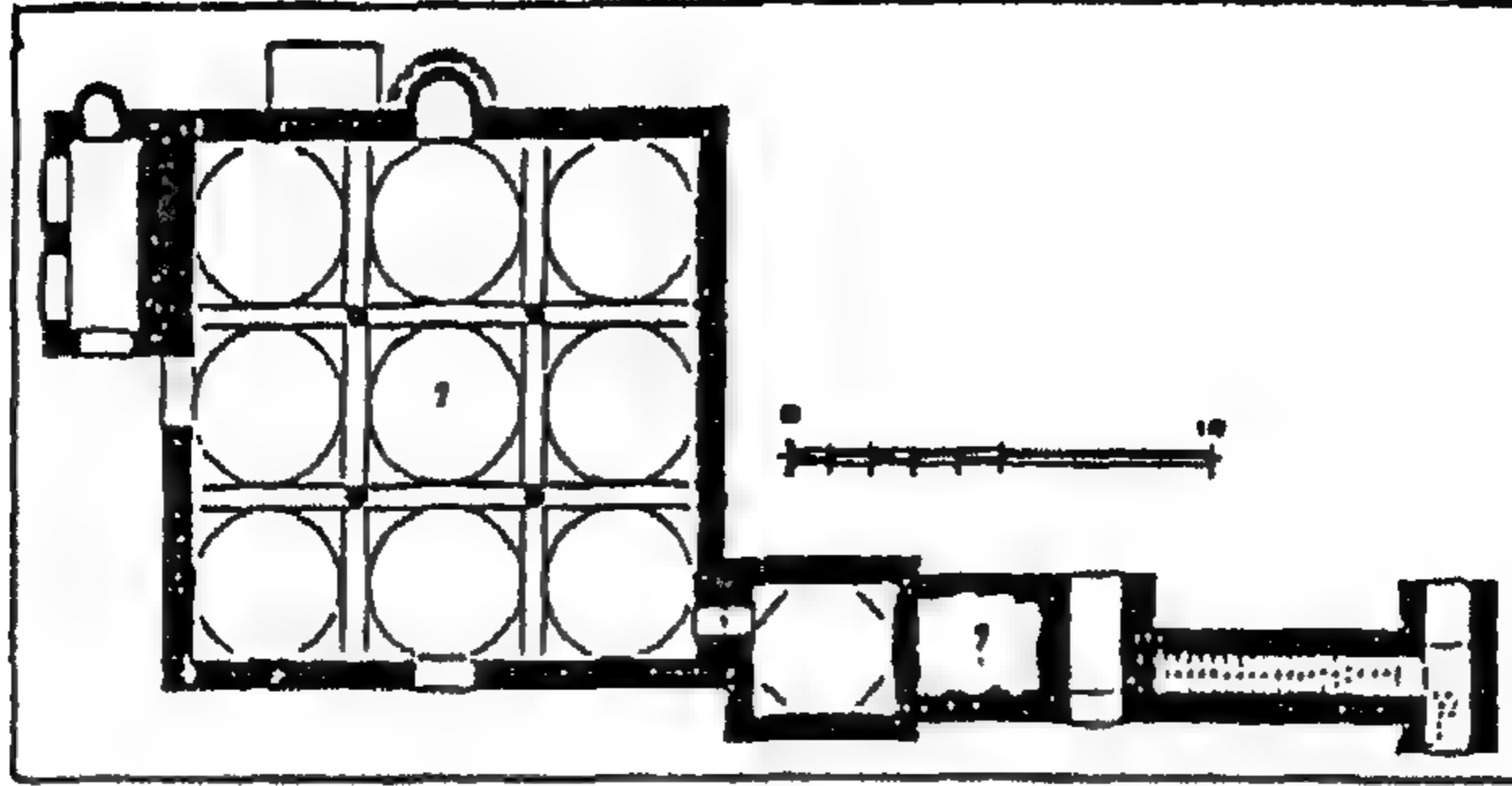
(شكل ١١٩) مسقط أفقي لجامع أحمد كتخدا العزب خلف باب العزب بقلعة القاهرة .



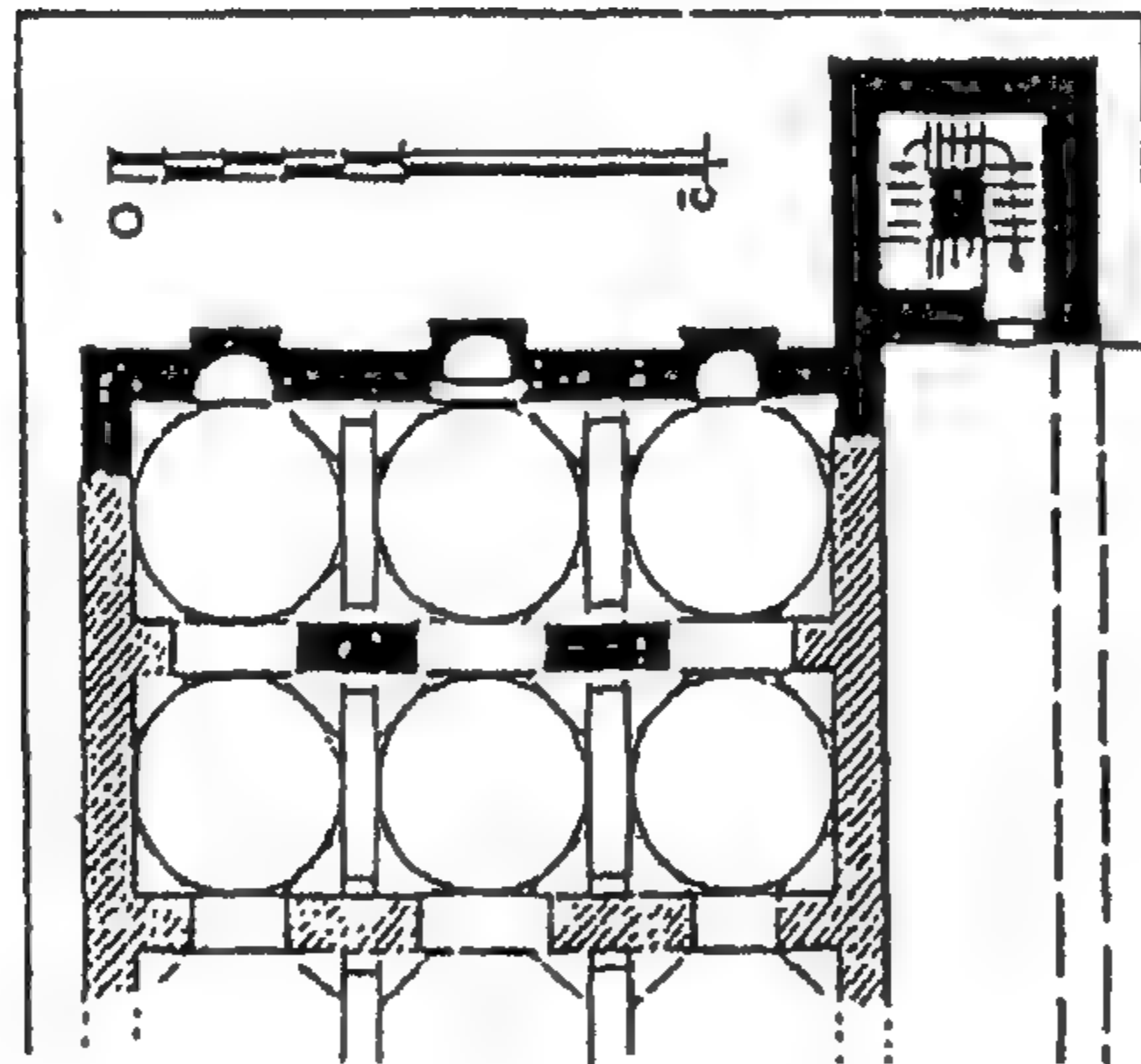
(شكل ١٢٠) مسقط أفقي لمشهد آل طباطبا بعين الصيرة جنوب القاهرة
(عن : Creswell) .



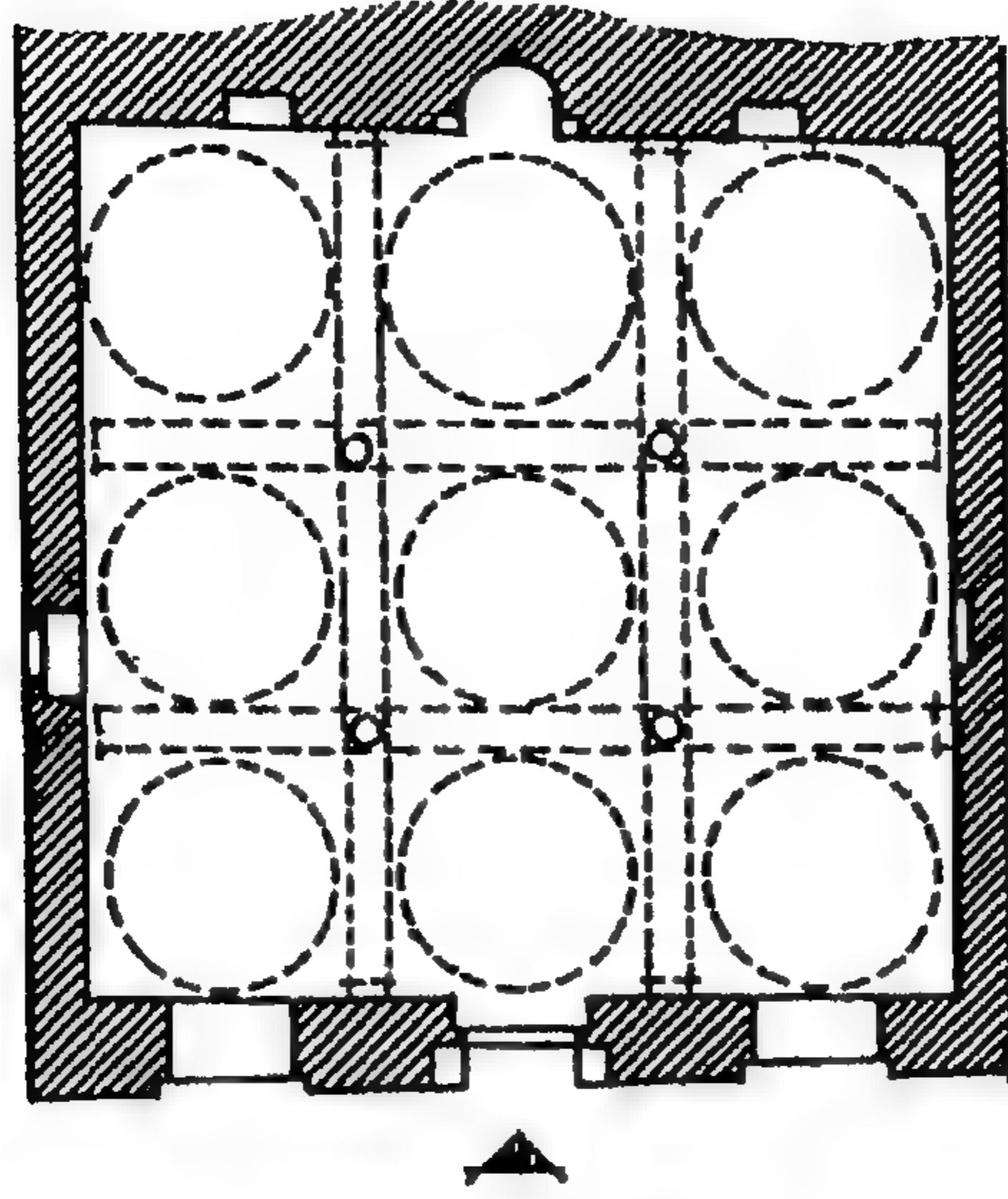
(شكل ١٢١) مشهد آل طباطبا ،
(عن : هيلنبراند) .



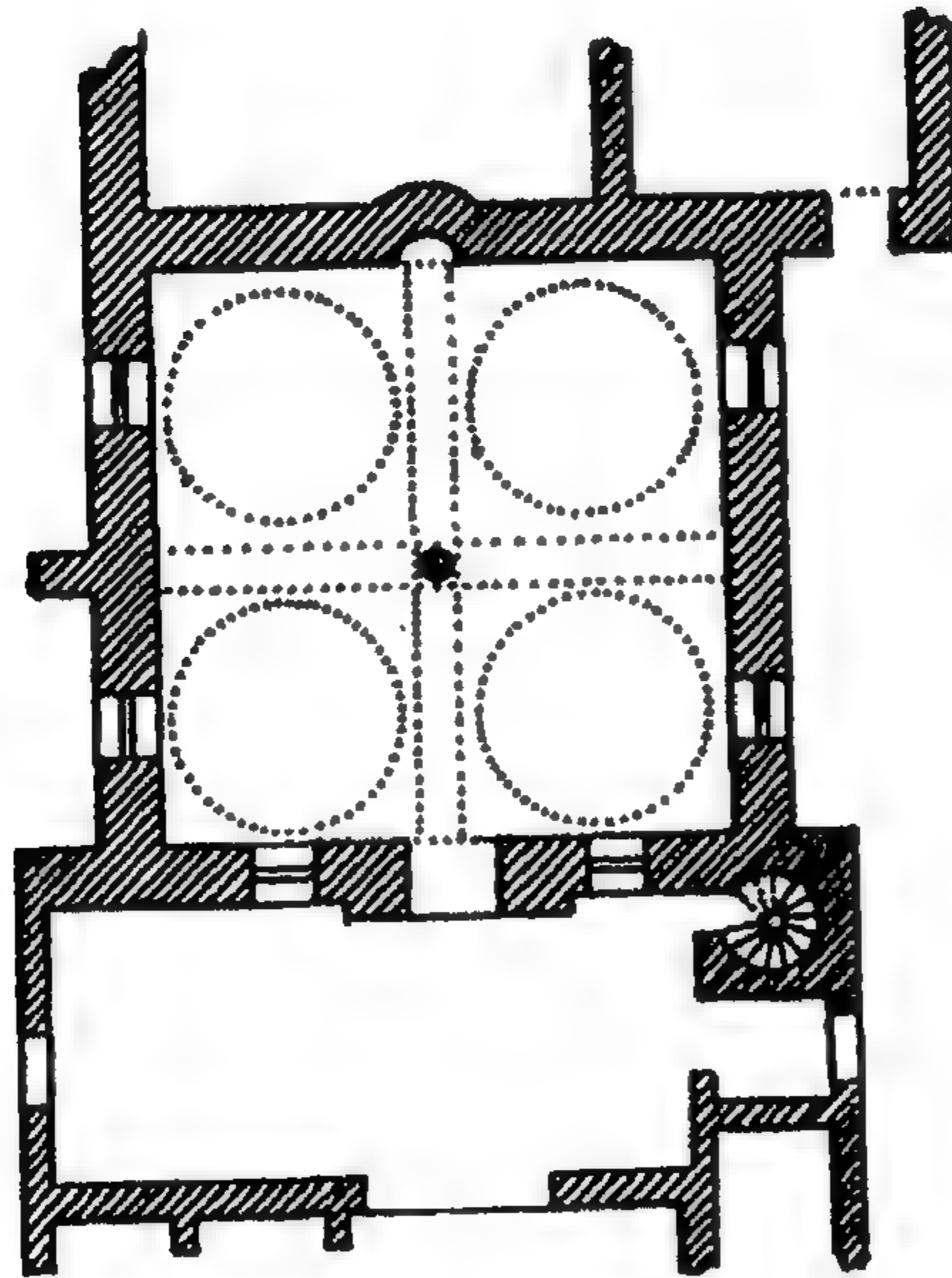
(شكل ١٢٢) مسقط أفقي لمشهد السبع وسبعين ولي باسوان
جنوب مصر (عن : Villard) .



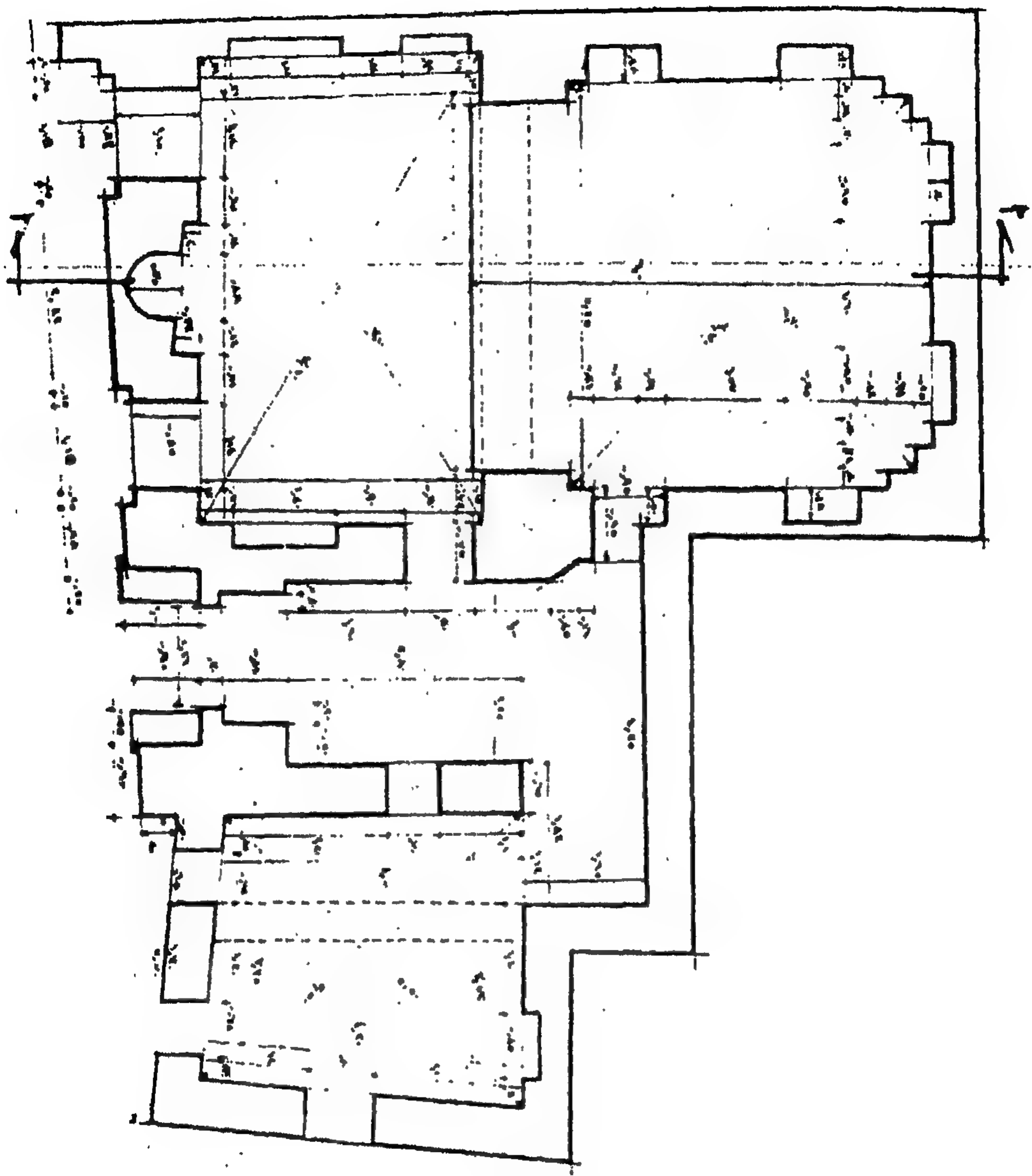
(شكل ١٢٣) مسقط أفقي للمشهد القبلي
باسوان (عن : Villard) .



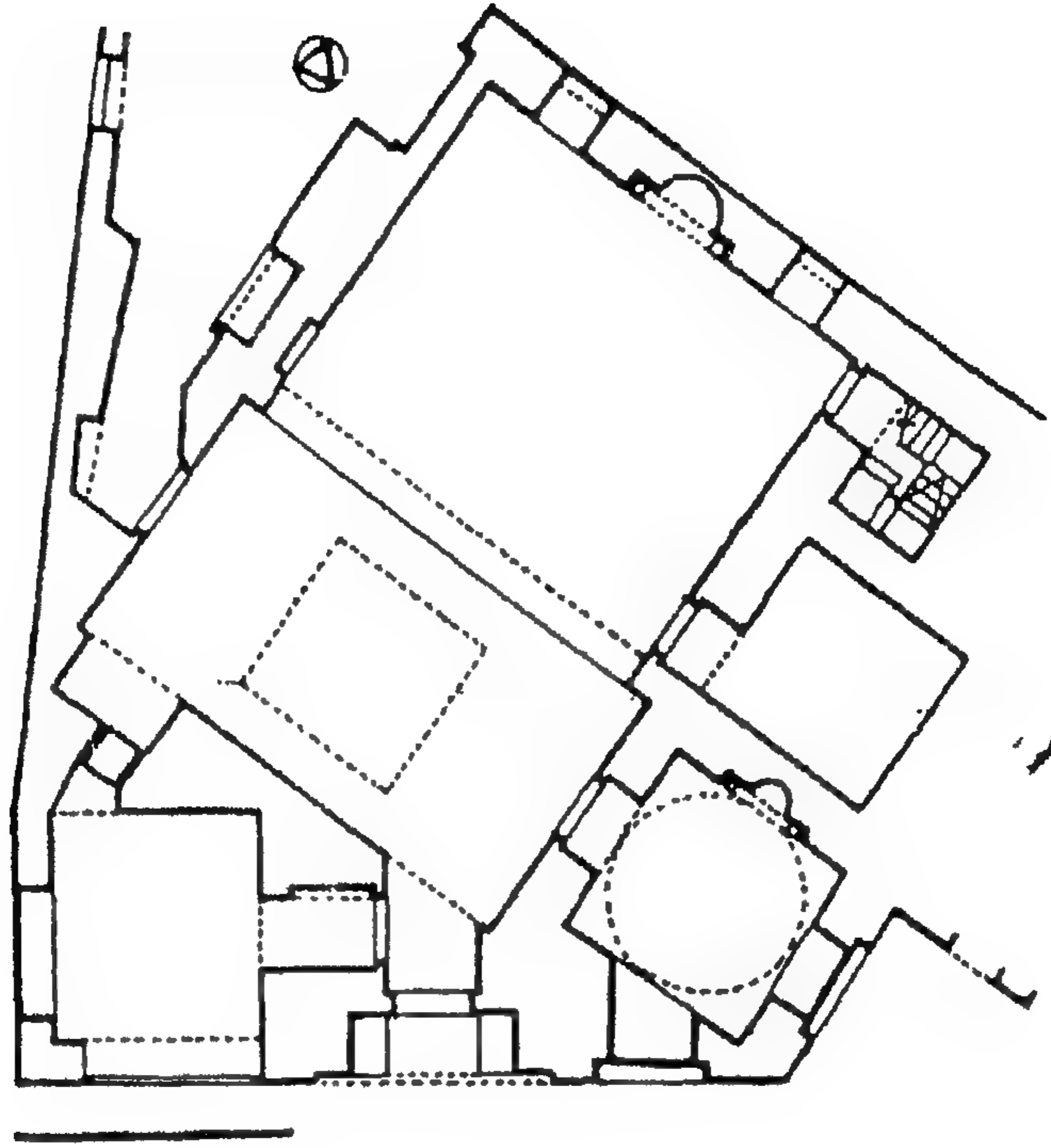
(شكل ١٢٤) مسقط أفقي لجامع عابدي بك بمصر
القديمة جنوب القاهرة . (عن : Herz pascha) .



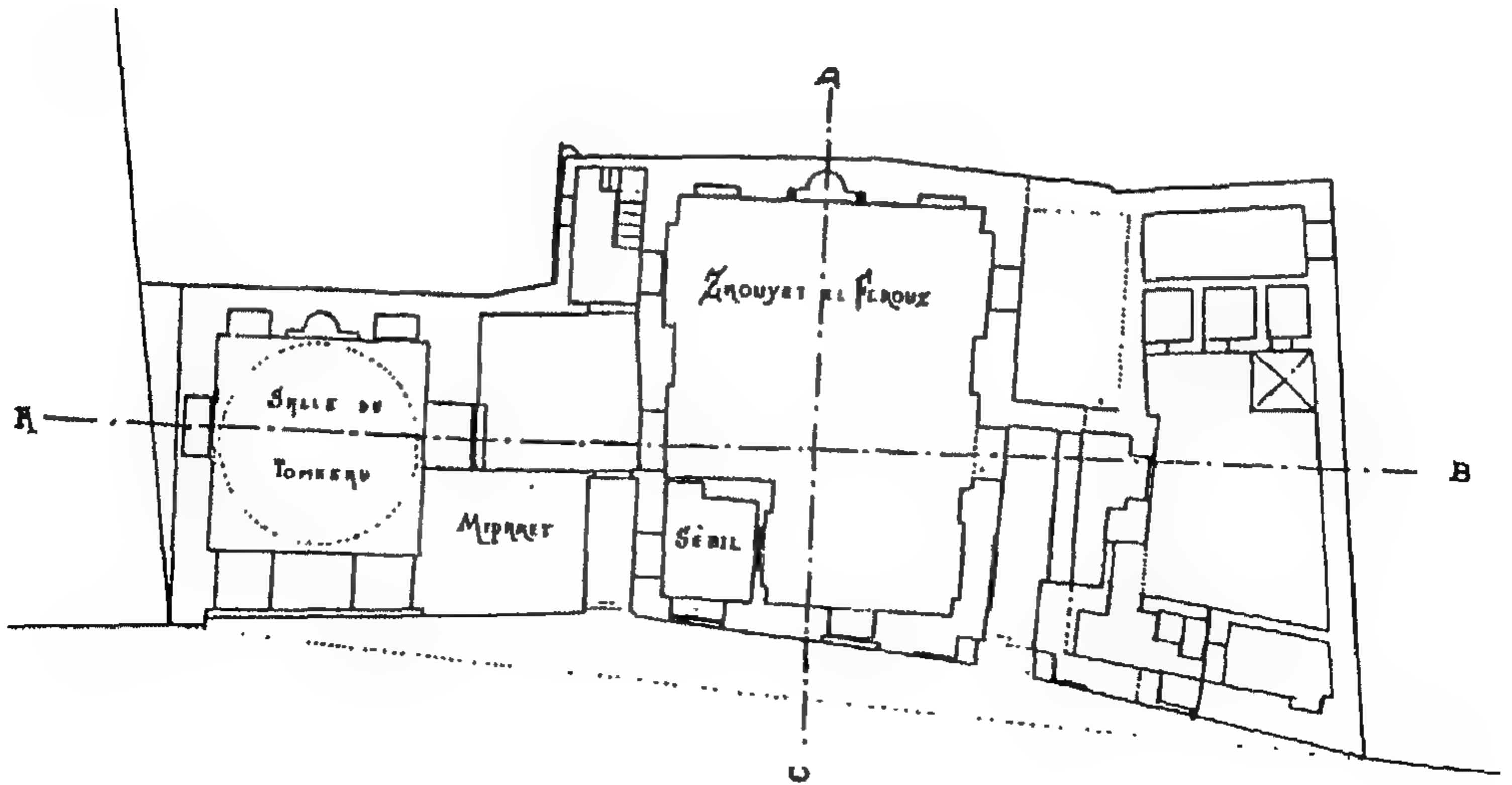
(شكل ١٢٥) مسقط أفقي لمسجد مصطفى بك بن بنت
غزال المعروف بمسجد أبو علي بحي الجمرك بالأسكندرية
(عن : Herz pascha) .



(شكل ١٢٦) مسقط أفقي لمدرسة قطلوبغا الذهبي
بالقاهرة (عن أمال العمري).

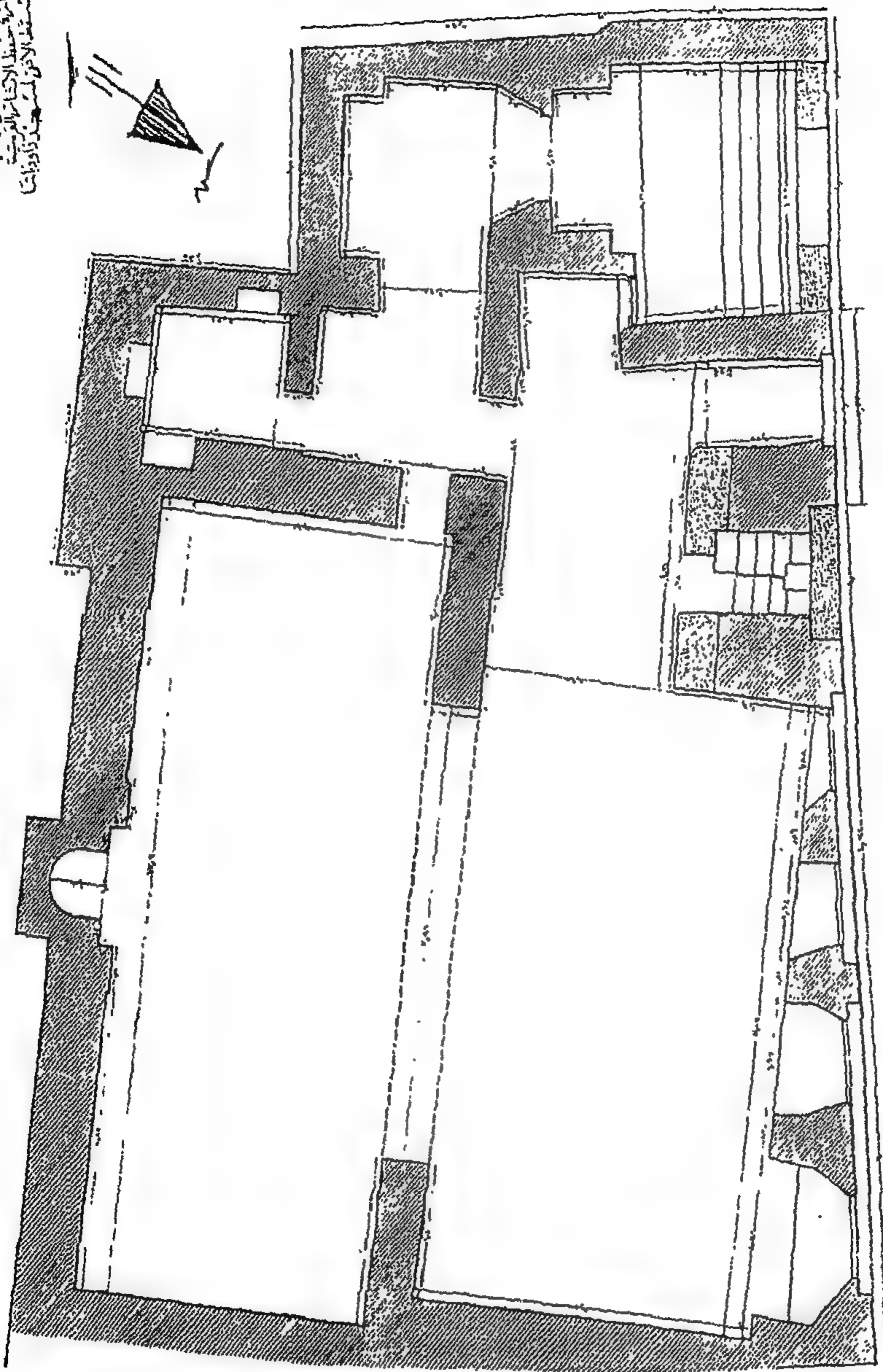


(شكل ١٢٧) مسقط أفقي لمدرسة أيتمش البجاسي بالقاهرة . (عن صالح لمعي) .



(شكل ١٢٨) مسقط أفقي لمدرسة فيروز الساقي بالقاهرة (عن المجلس الأعلى للآثار) .

قوس الدار البيضاء
 اسقف الاسكندرية
 اسقف الاسكندرية

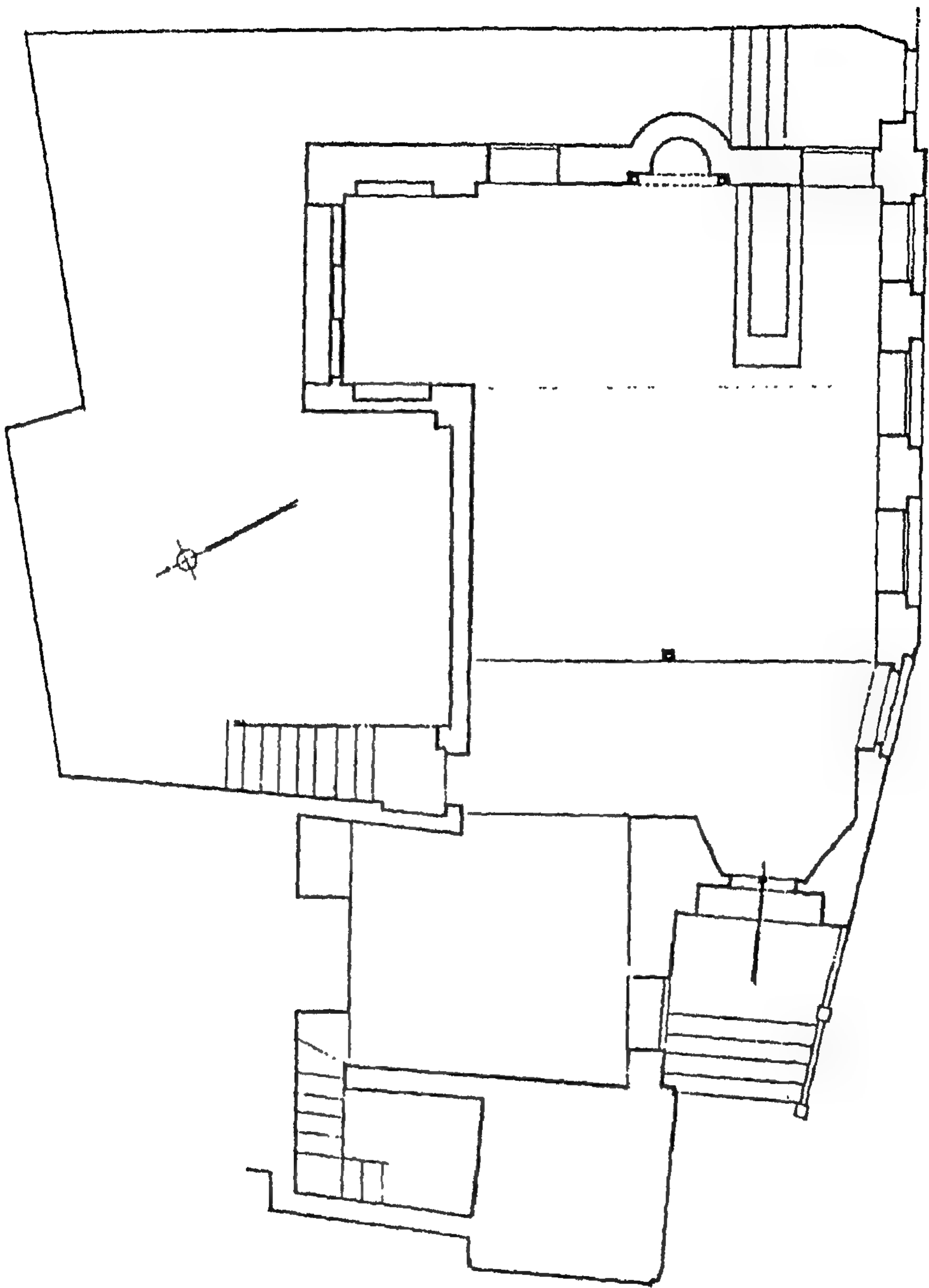


الاسقف
 الدار البيضاء

الاسقف
 الدار البيضاء

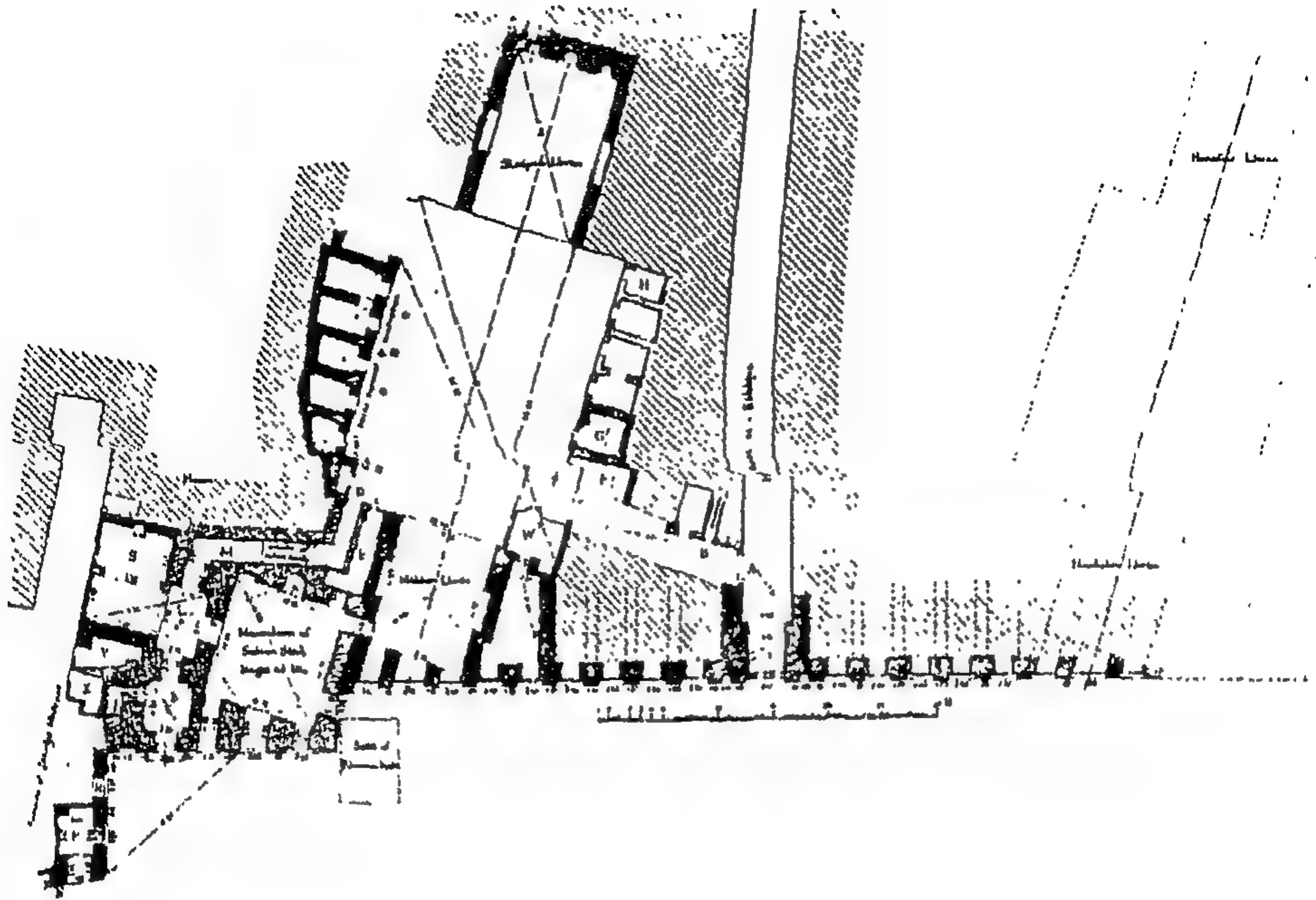
الاسقف
 الدار البيضاء

(شكل ١٢٩) مسقط أفقي لجامع داود باشا بالقاهرة .

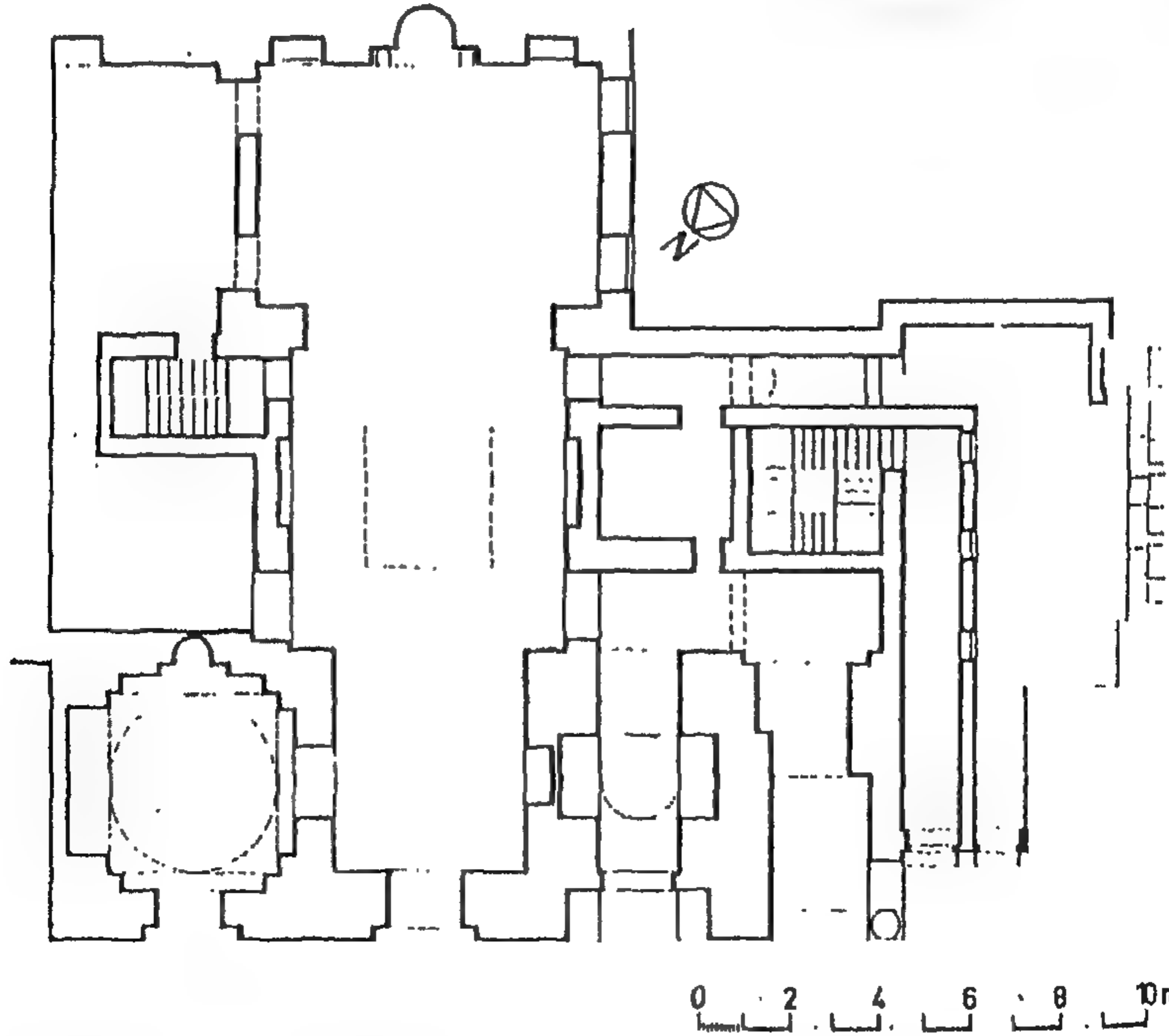


مسجد البرديني بالقاهرة

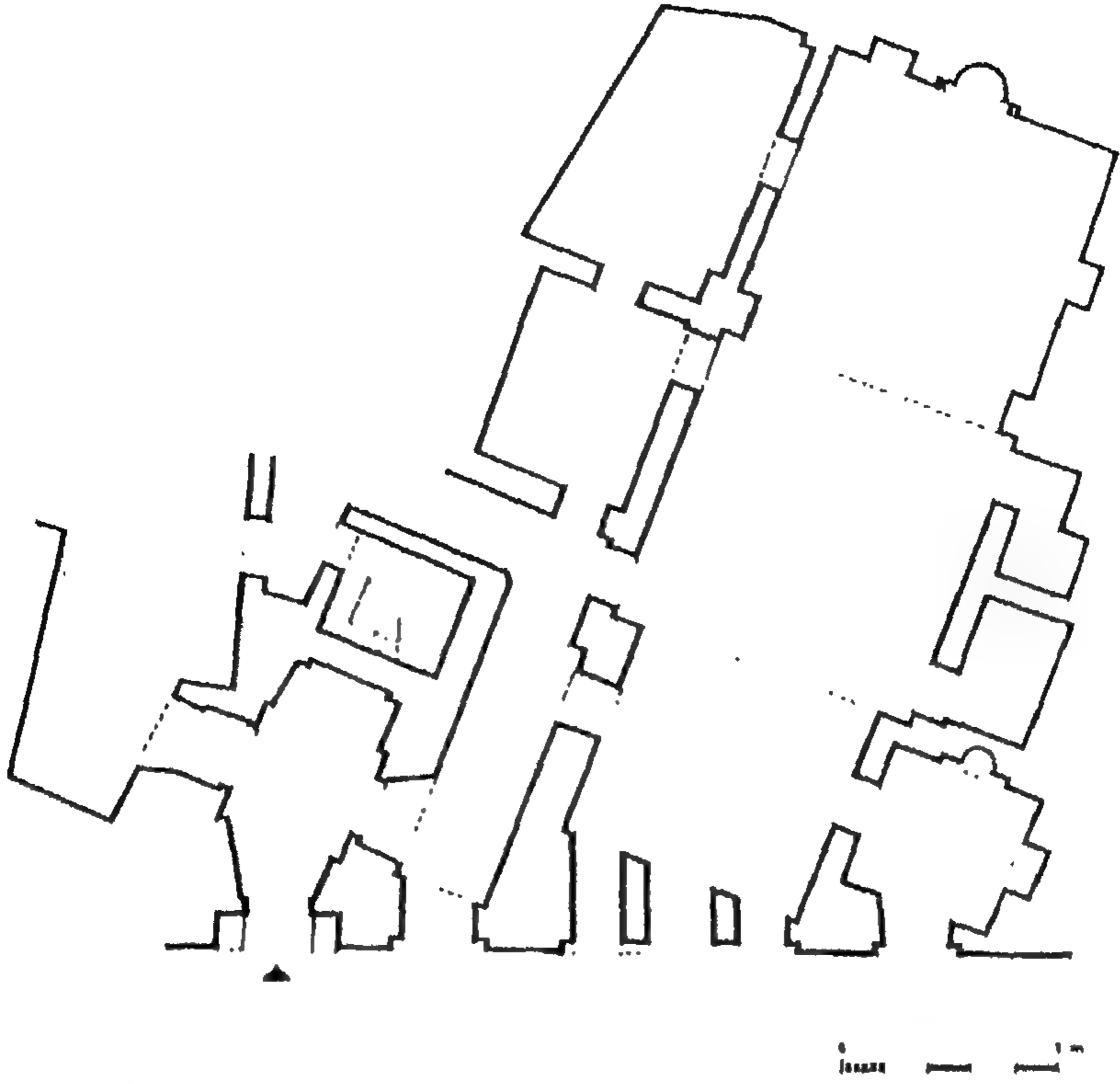
(شكل ١٣٠) مسقط أفقي لجامع البرديني بالقاهرة .



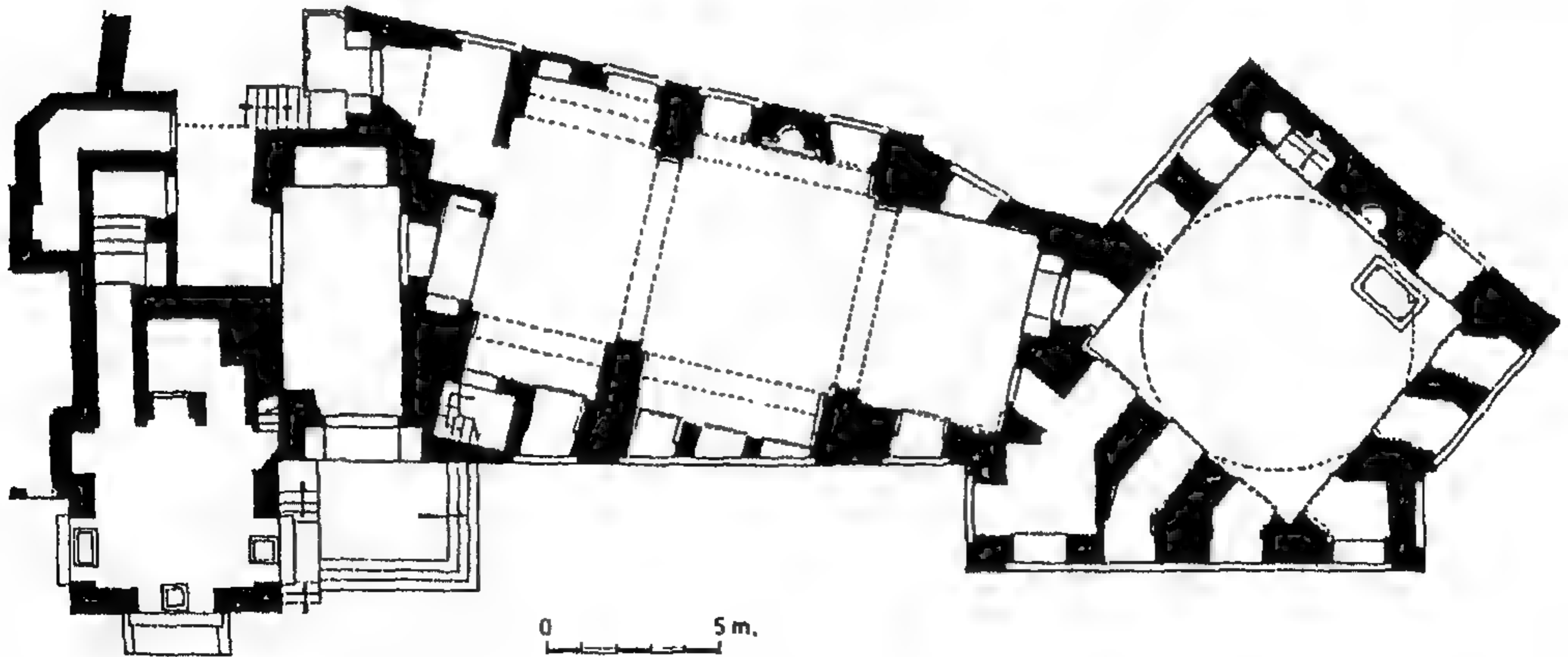
(شكل ١٣١) مسقط أفقي لبقايا مدرسة (المدرسة الشمالية) الصالح نجم الدين ايوب
بالقاهرة . (عن : Creswell) .



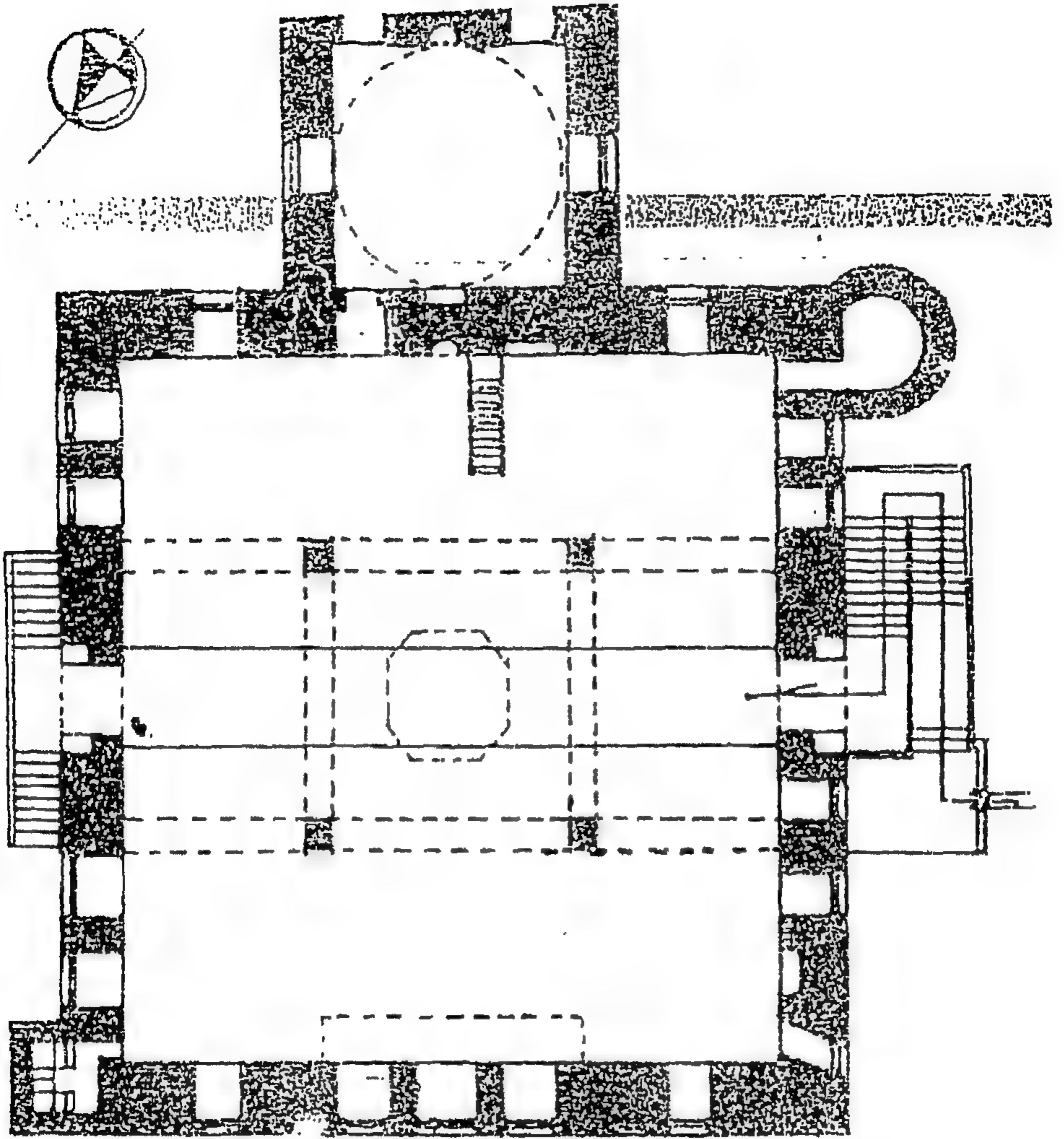
(شكل ١٣٢) مسقط أفقي لمدرسة اينال اليوسفي بالقاهرة (عن صالح لمعي) .



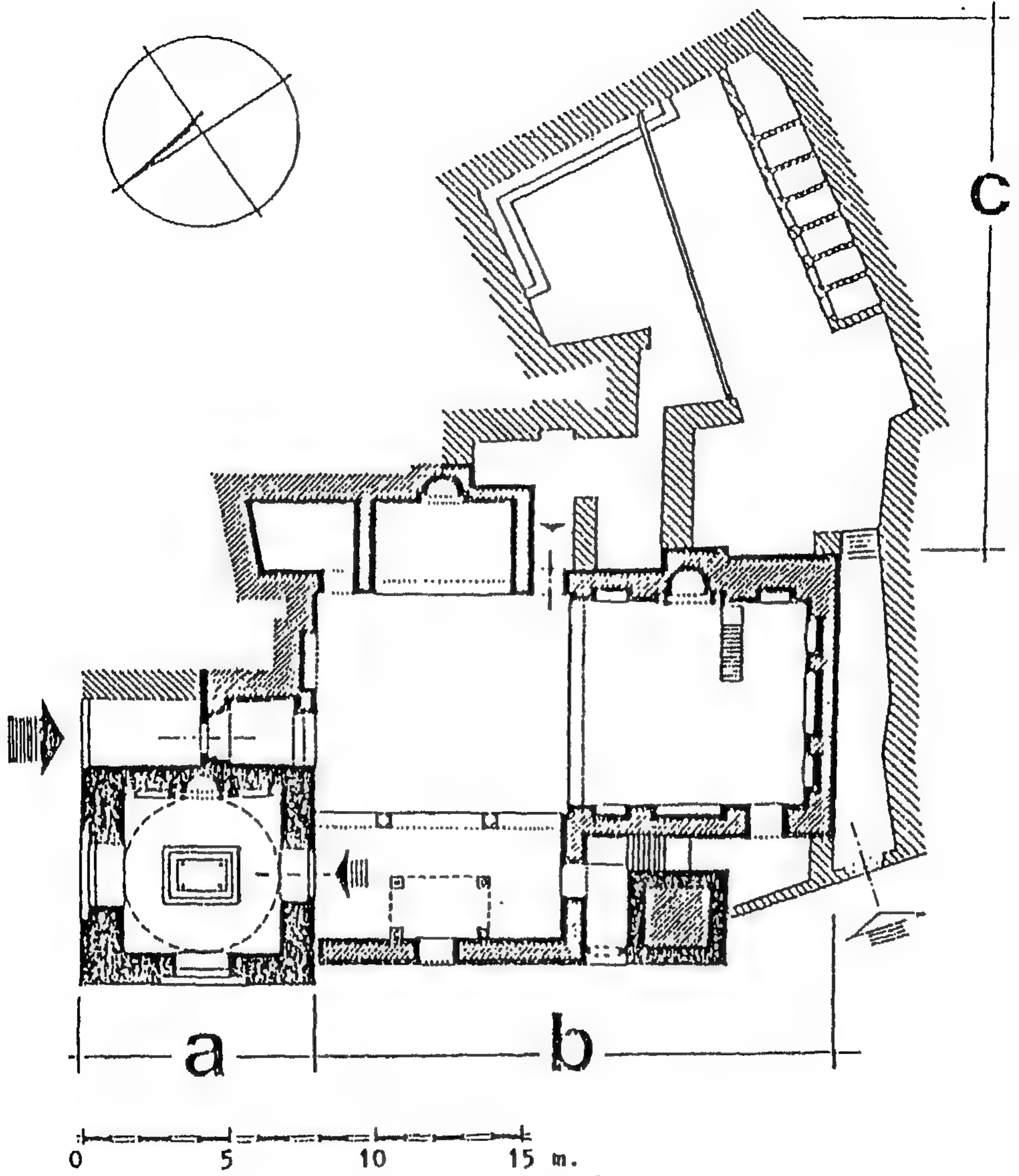
(شكل ١٣٣) مسقط أفقي لمدرسة الأمير جمال الدين محمود الاستادار المعروفة
بجامع الكردي بالقاهرة . (عن صالح لمعي) .



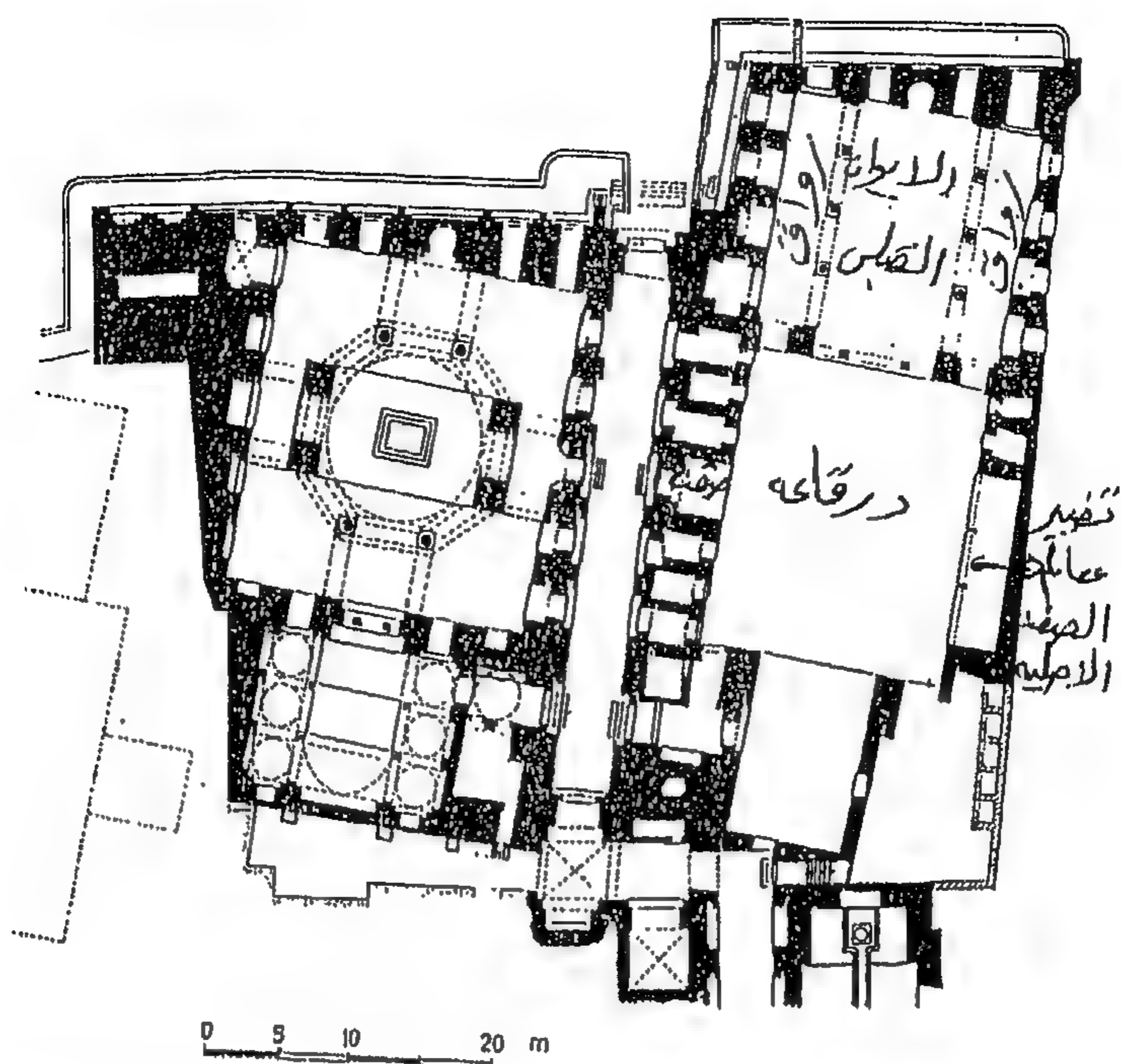
(شكل ١٣٤) مسقط أفقي لمدرسة الأمير خير بك بباب الوزير بالقاهرة .
(عن Abouseif) .



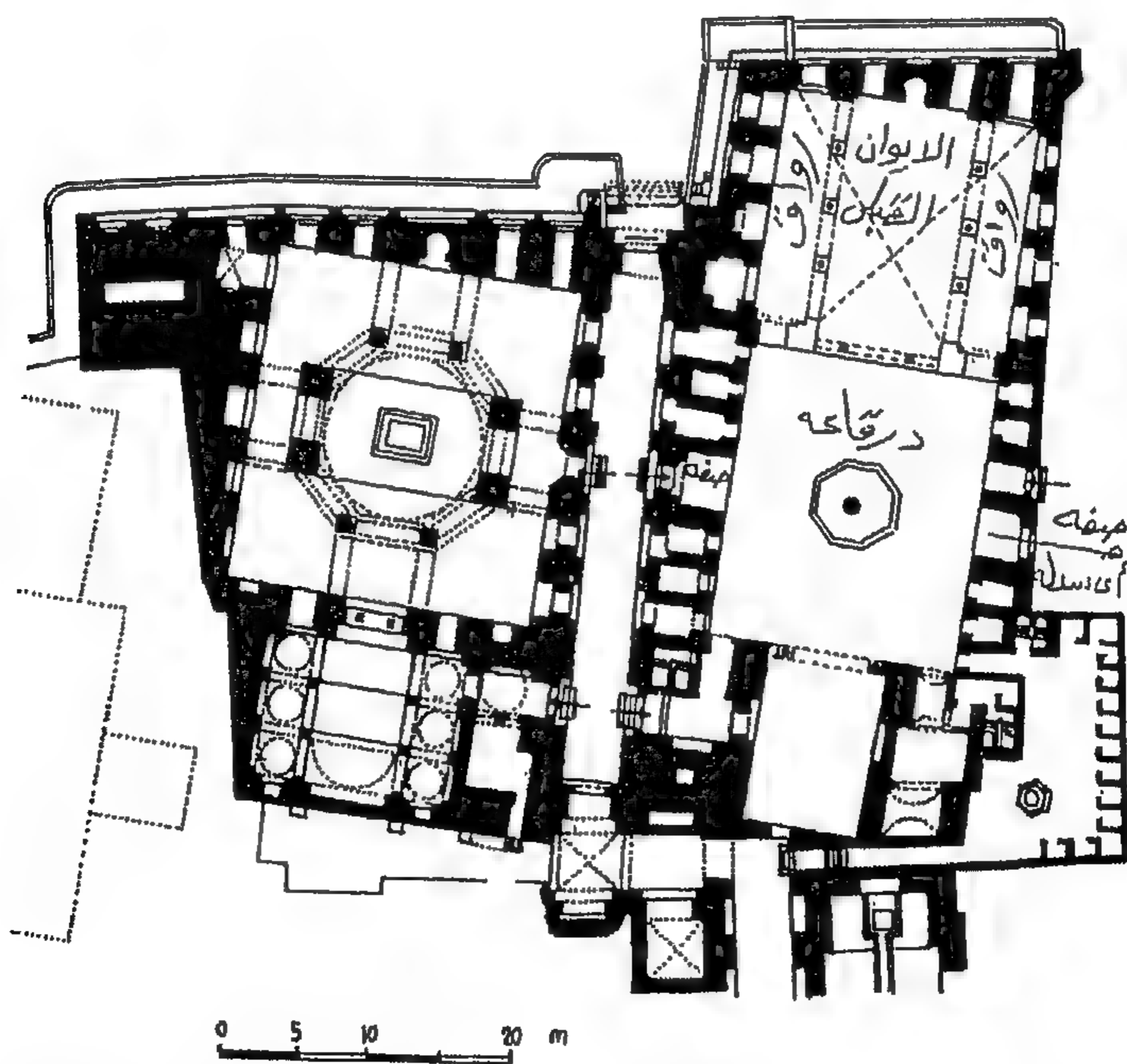
(شكل ١٣٥) مسقط أفقي لجامع المحمودية بالقاهرة
(عن المجلس الاعلي للآثار).



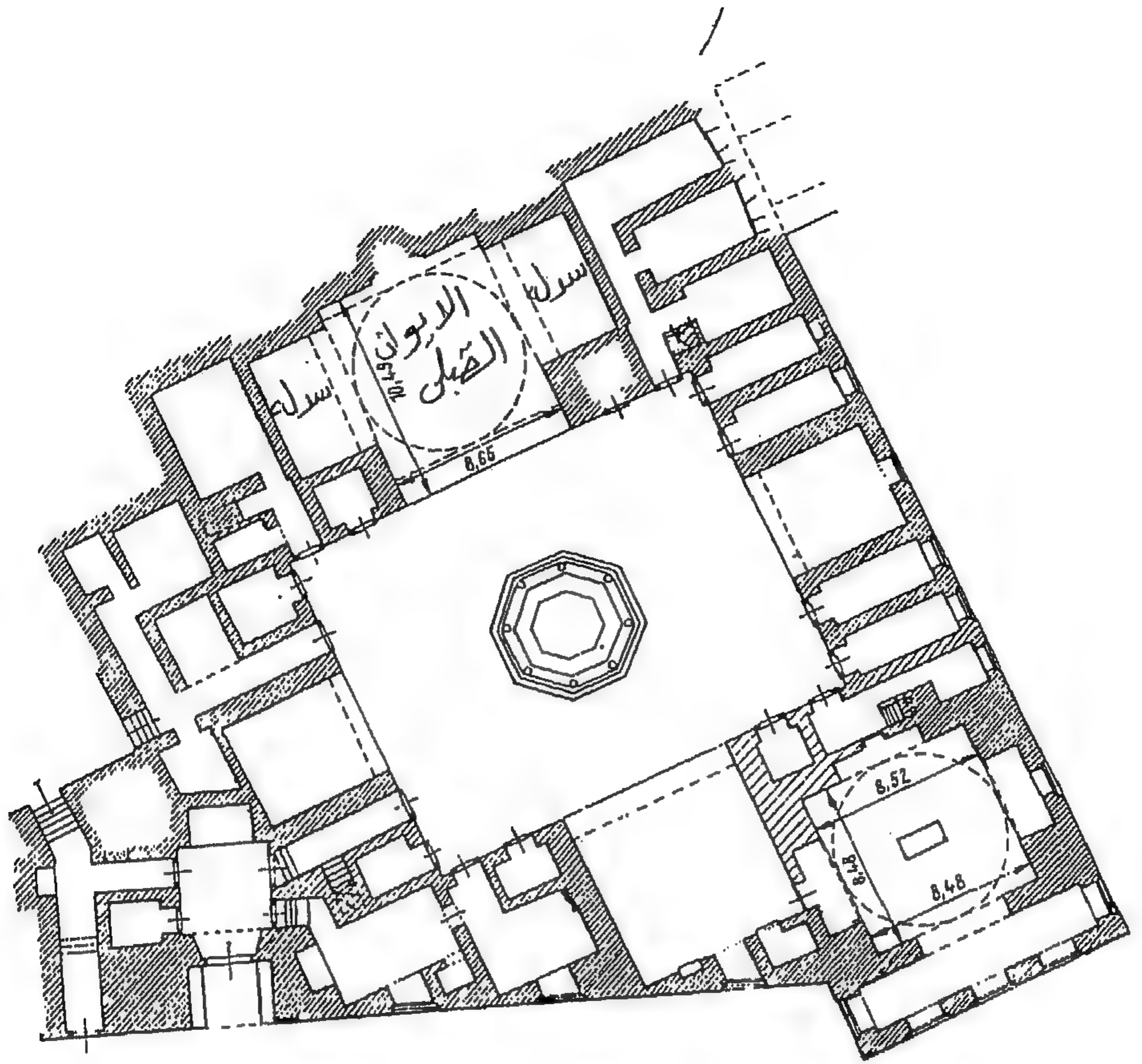
(شكل ١٣٦) مسقط أفقي لمدرسة تتر الحجازية
بالقاهرة . (عن المجلس الاعلي للآثار) .



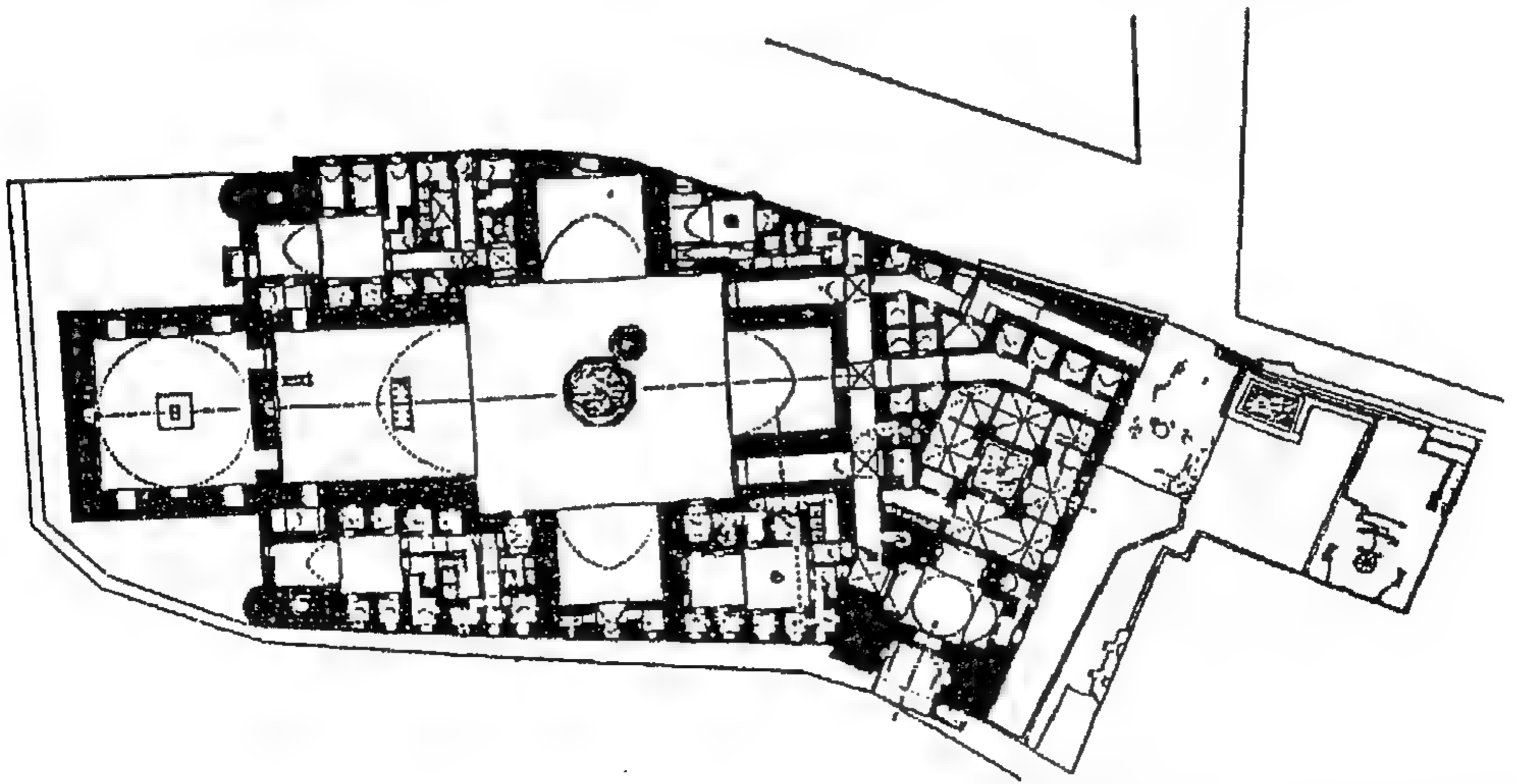
(شكل ١٣٧) مسقط أفقي لمجمع السلطان قلاوون بالقاهرة . (عن : Creswell) .



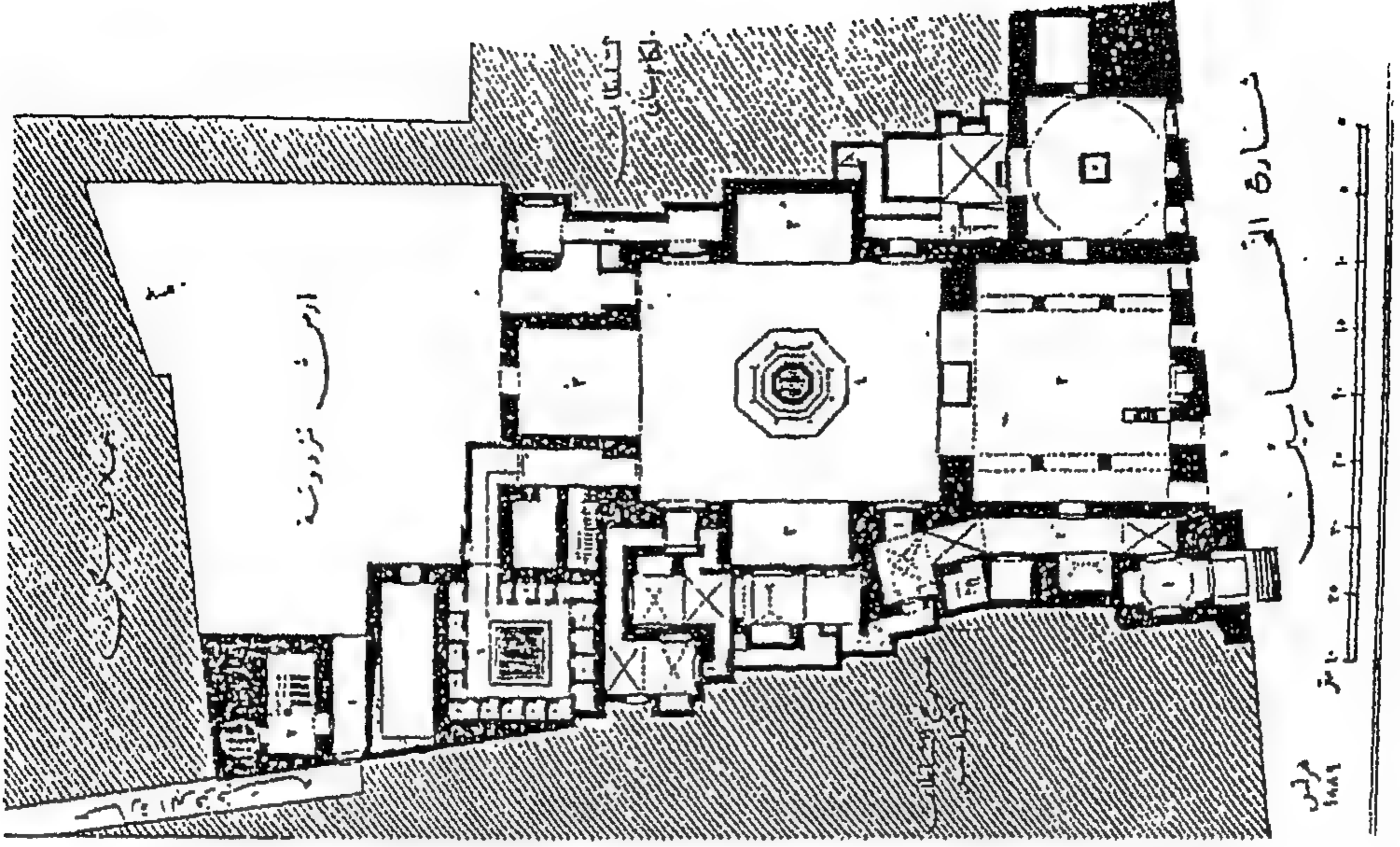
(شكل ١٣٧ مكرر) مسقط أفقي لمدرسة السلطان قلاوون إلى اليمين
(المدرسة المنصورية، وقت إنشائها) .



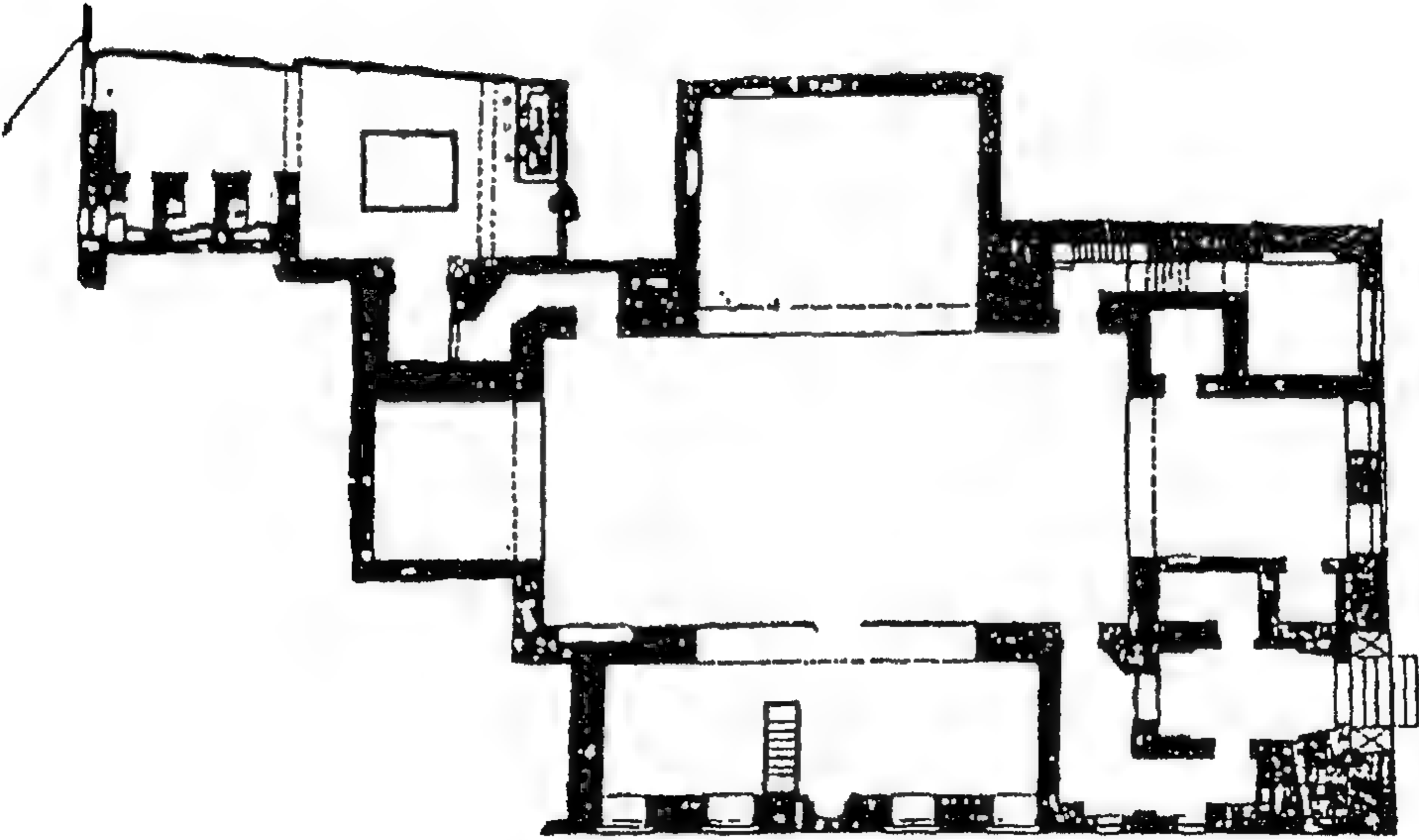
(شكل ١٣٨) مسقط أفقي لمدرسة صرغتمش بالقاهرة (عن Kessler) .



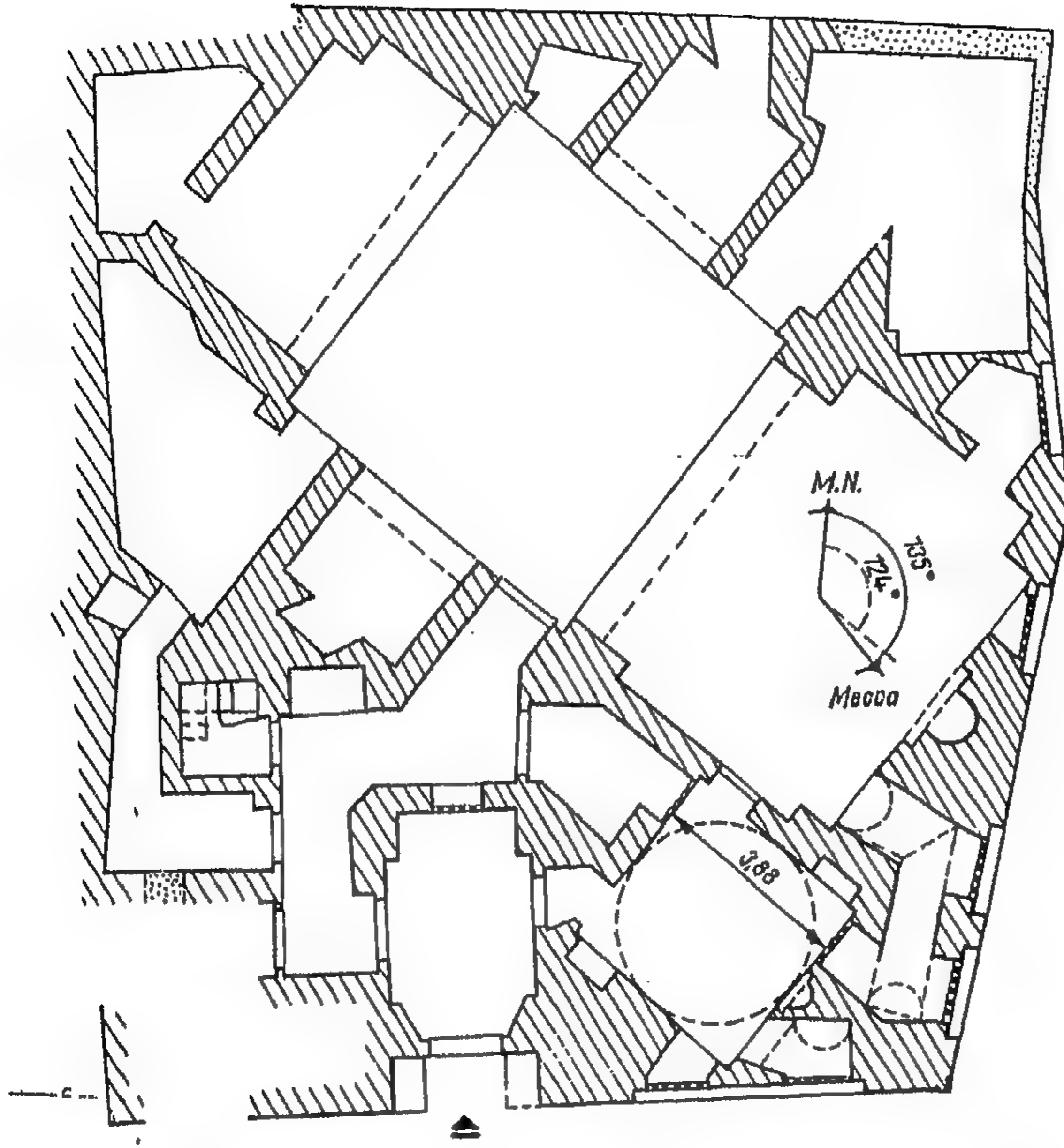
(شكل ١٣٩) مسقط أفقي لمدرسة السلطان حسن بالقاهرة . (عن Herz Pascha) .



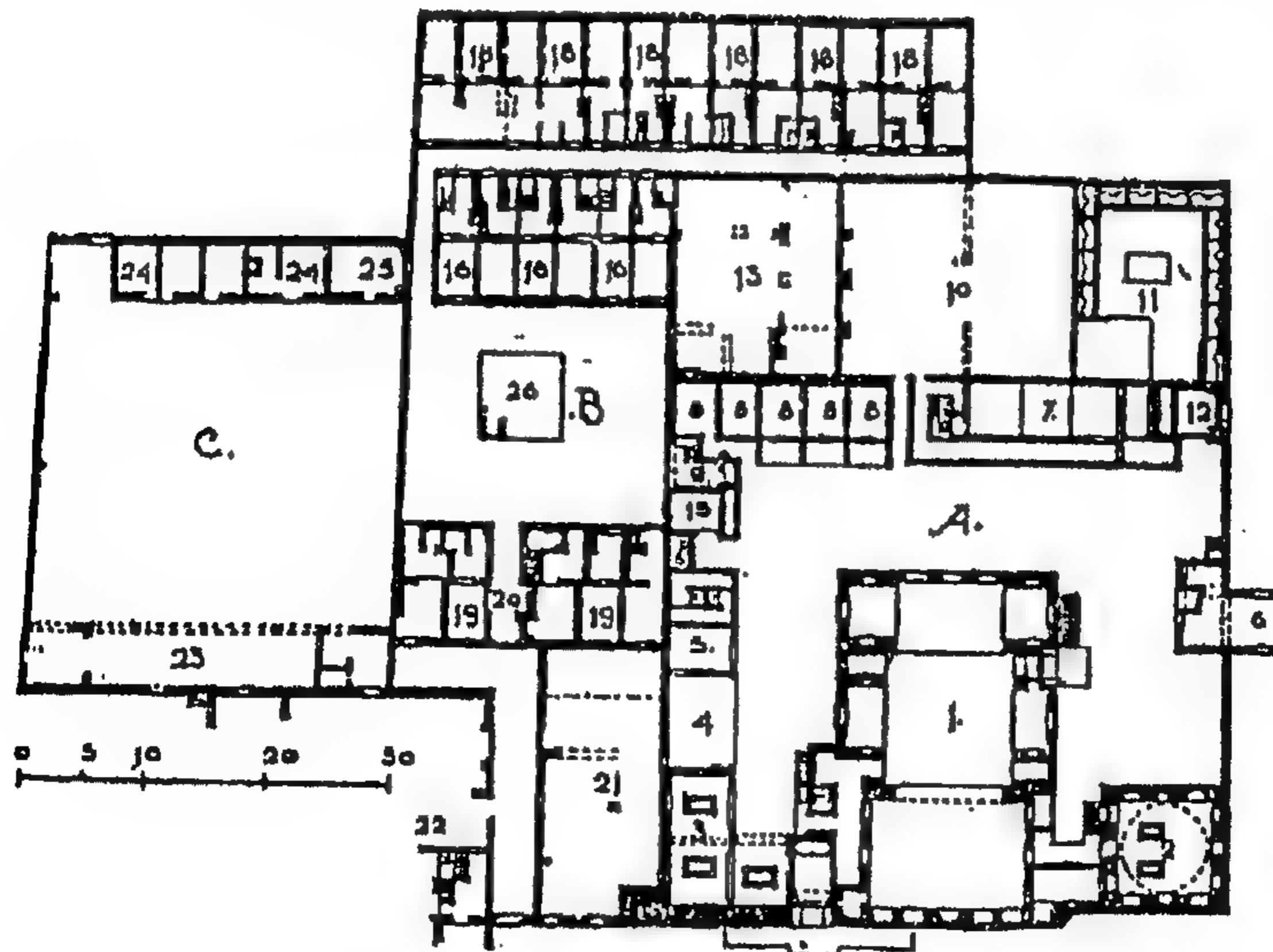
(شكل ١٤٢) مسقط أفقي لمدرسة وخانقاة الظاهر برقوق بالنحاسين بالقاهرة .
(عن لجنة حفظ الآثار العربية) .



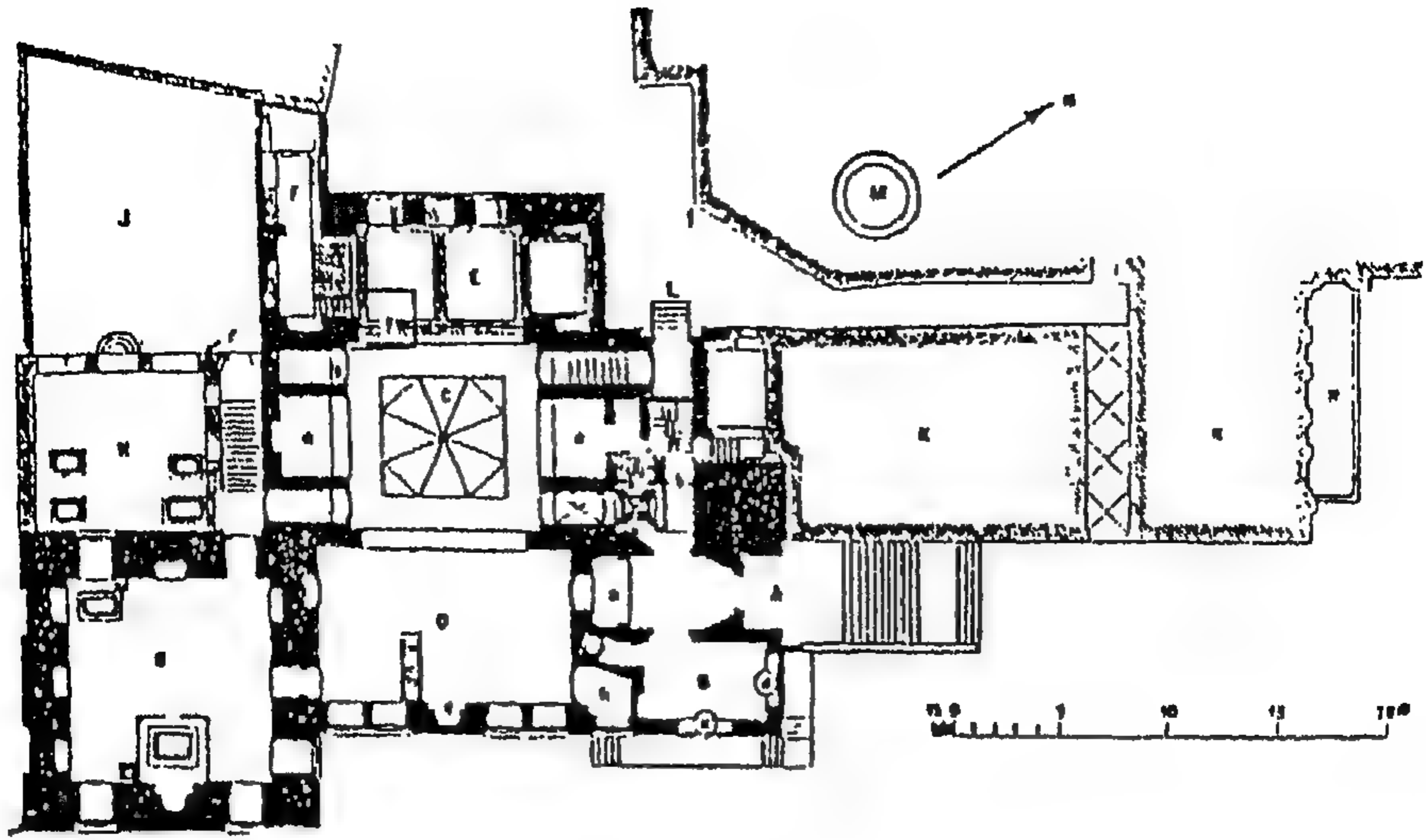
(شكل ١٤٣) مسقط أفقي لمدرسة جمال الدين يوسف الاستادار بالقاهرة .
(عن المجلس الأعلى للآثار) .



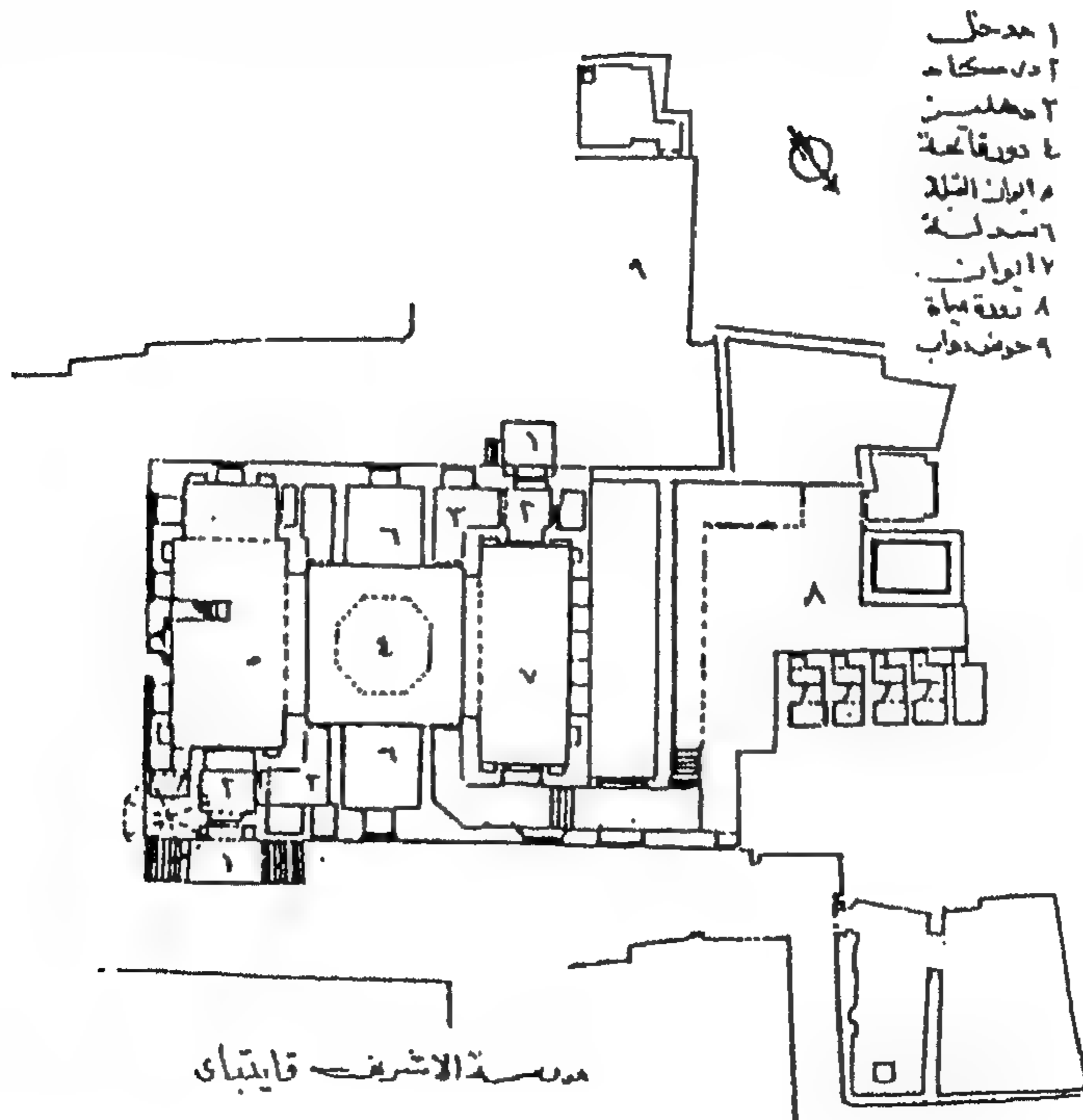
(شكل ١٤٤) مسقط أفقي لمدرسة تغري بردي بالقاهرة. (عن : Kessler) .



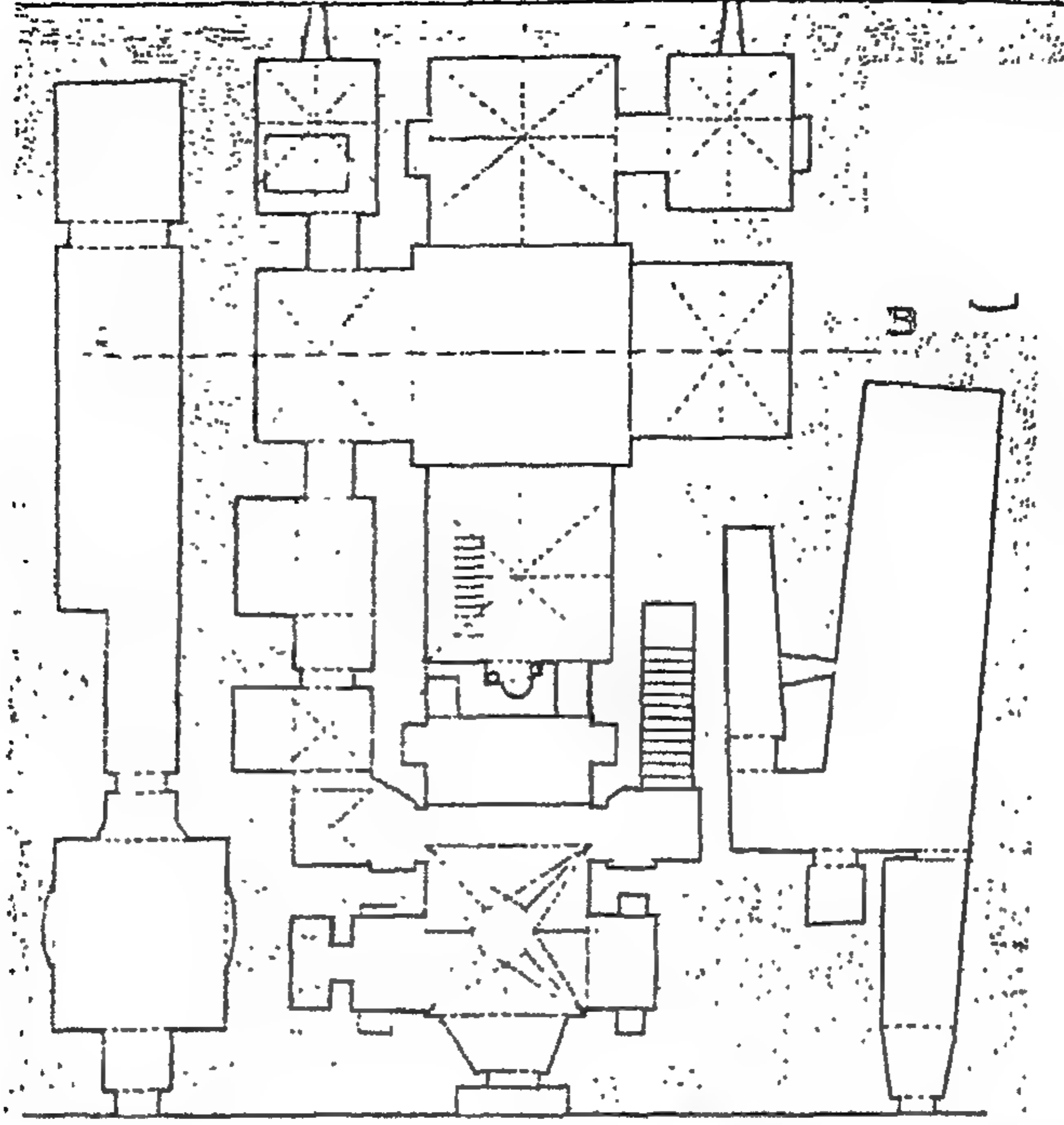
(شكل ١٤٥) مسقط أفقي لمجمع السلطان اينال بقرافة صحراء المماليك (الفير) بالقاهرة
(عن لجنة حفظ الآثار العربية) .



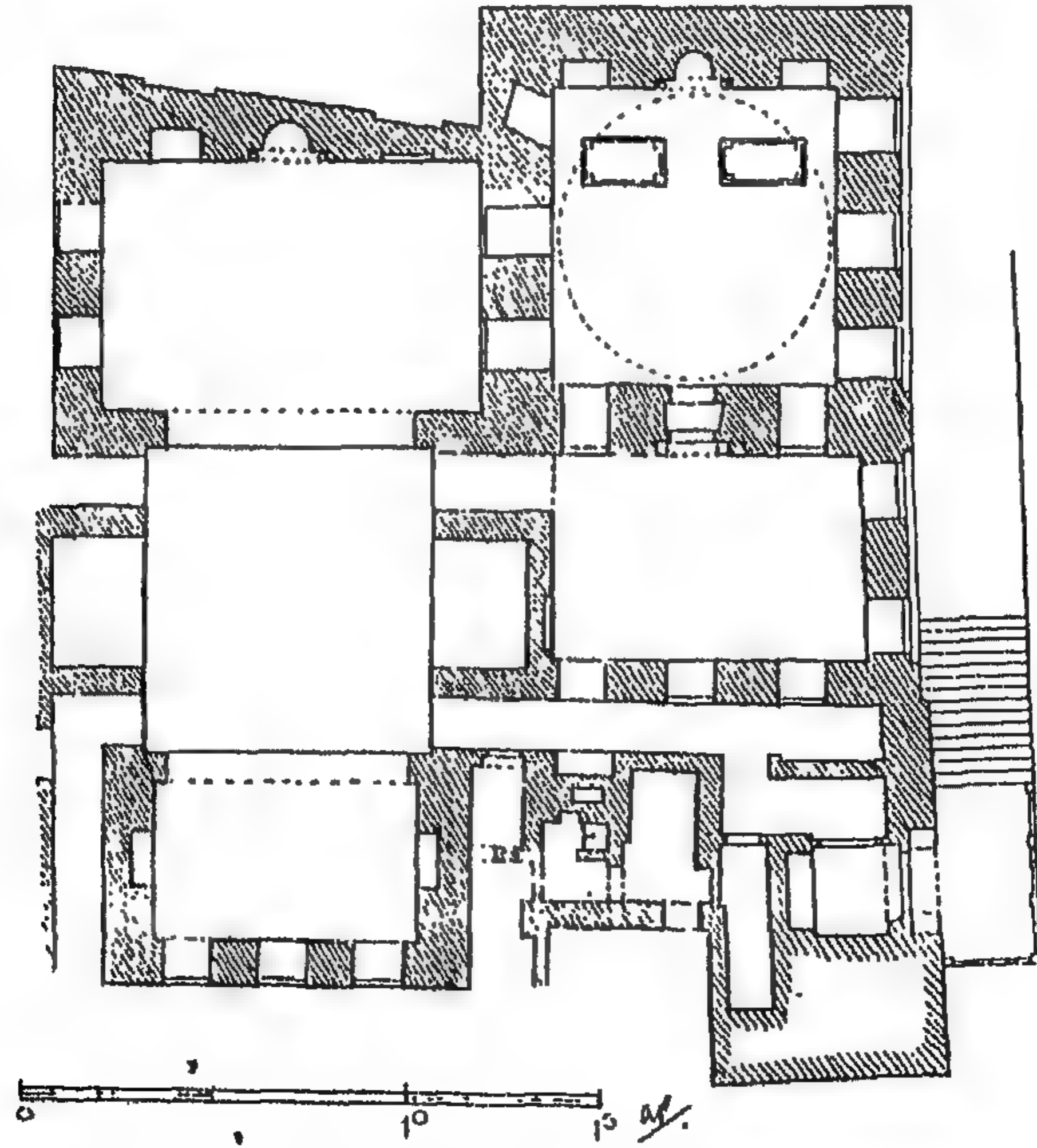
(شكل ١٤٦) مسقط أفقي لمدرسة السلطان قايتباي بقرافة صحراء المماليك بالقاهرة .
(عن : Franz Pascha) .



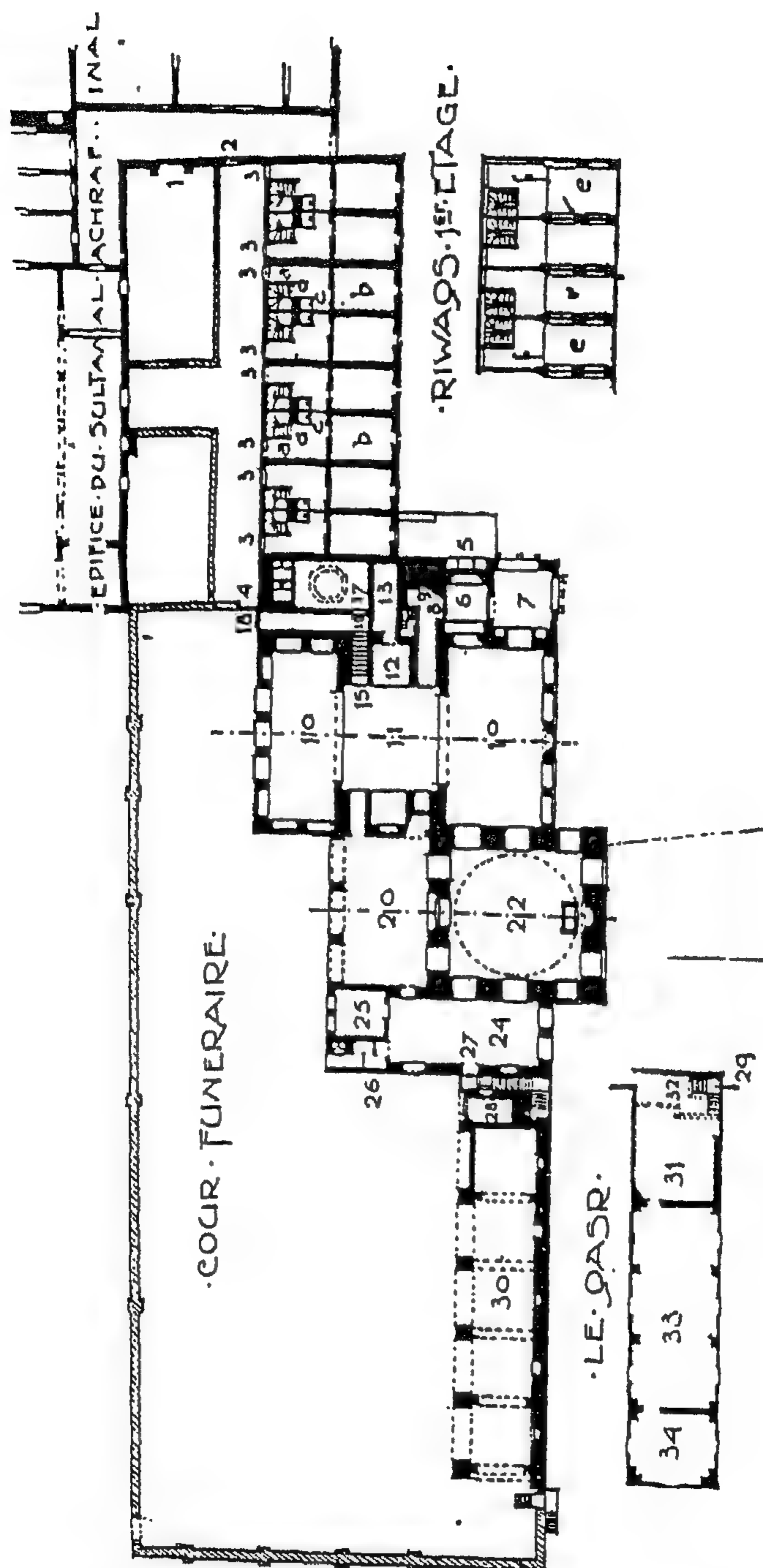
(شكل ١٤٧) مسقط أفقي لمدرسة السلطان قايتباي بقلعة الكيش بالقاهرة .
(عن المجلس الأعلى للآثار) .



(شكل ١٤٧ مكرر) مسقط أفقي للمسجد بقلعة قايتباي بالاسكندرية
(عن لجنة حفظ الآثار العربية) .



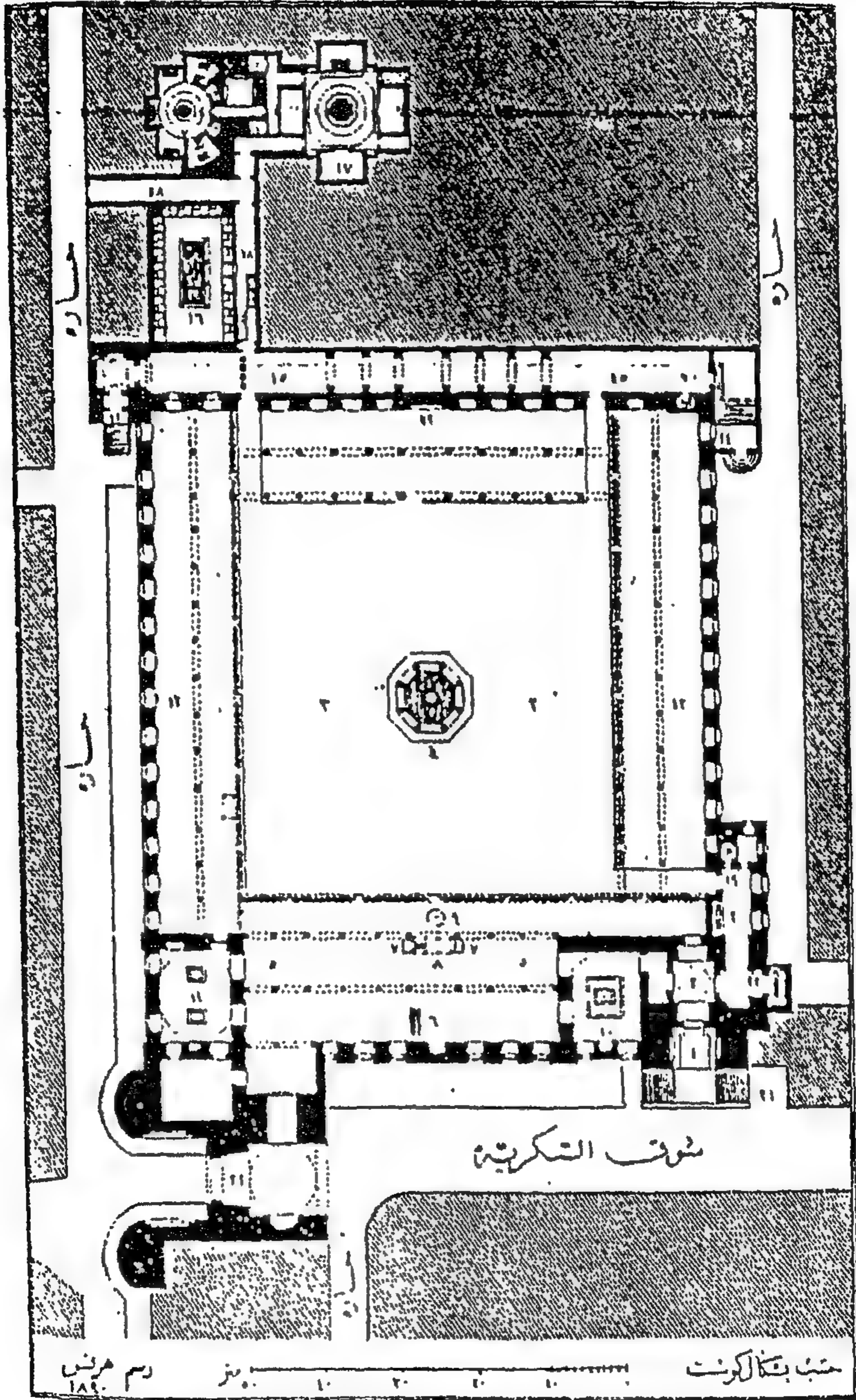
(شكل ١٤٨) مسقط أفقي لمدرسة قاني باي أميراخوور بميدان القلعة
بالقاهرة (عن لجنة حفظ الآثار العربية) .



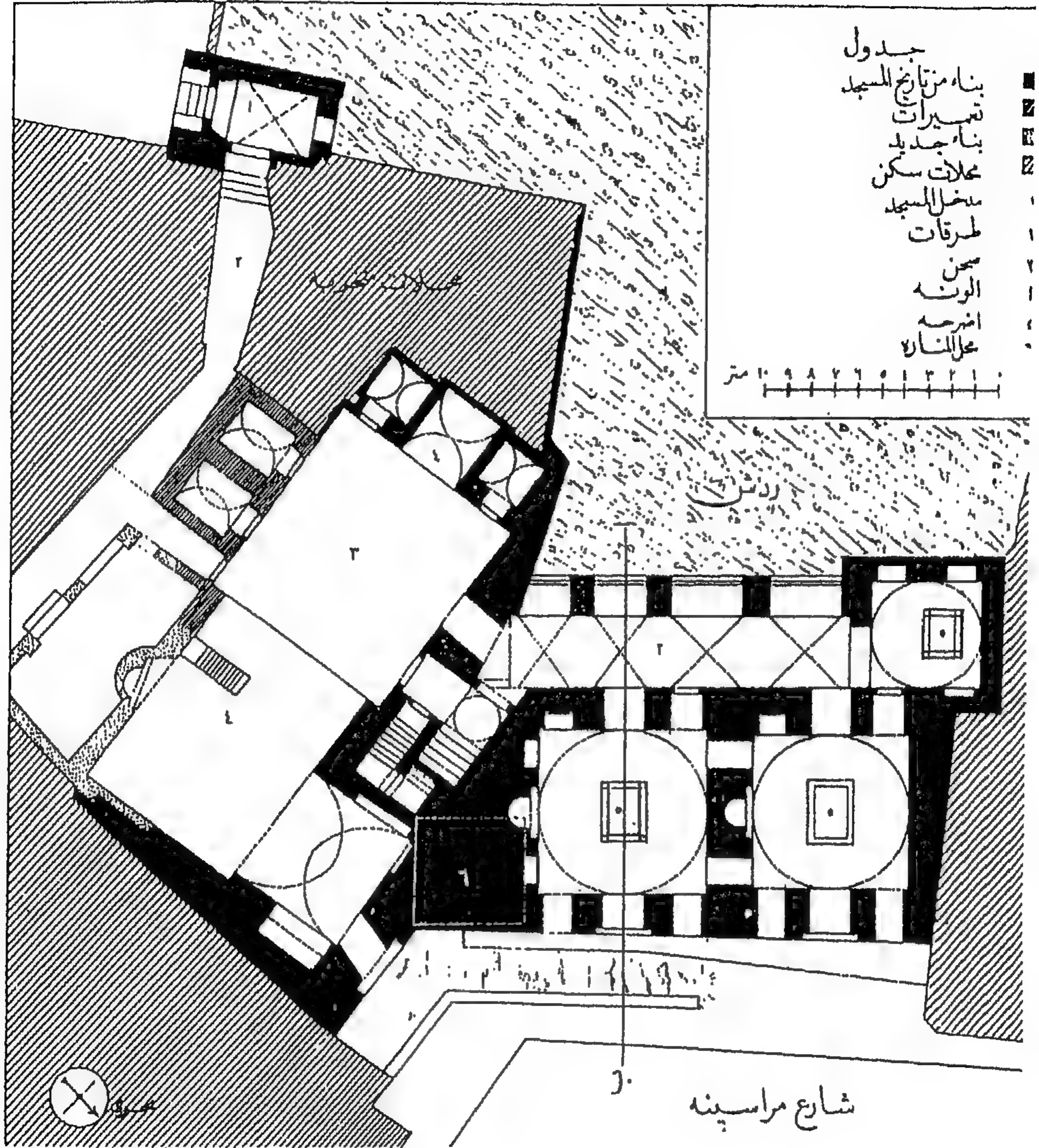
(شكل ١٤٩) مسقط أفقي لمجمع قرقماس أمير كبير بقرافة صحراء المماليك بالقاهرة
(عن لجنة حفظ الآثار العربية).

لوحة نمشة

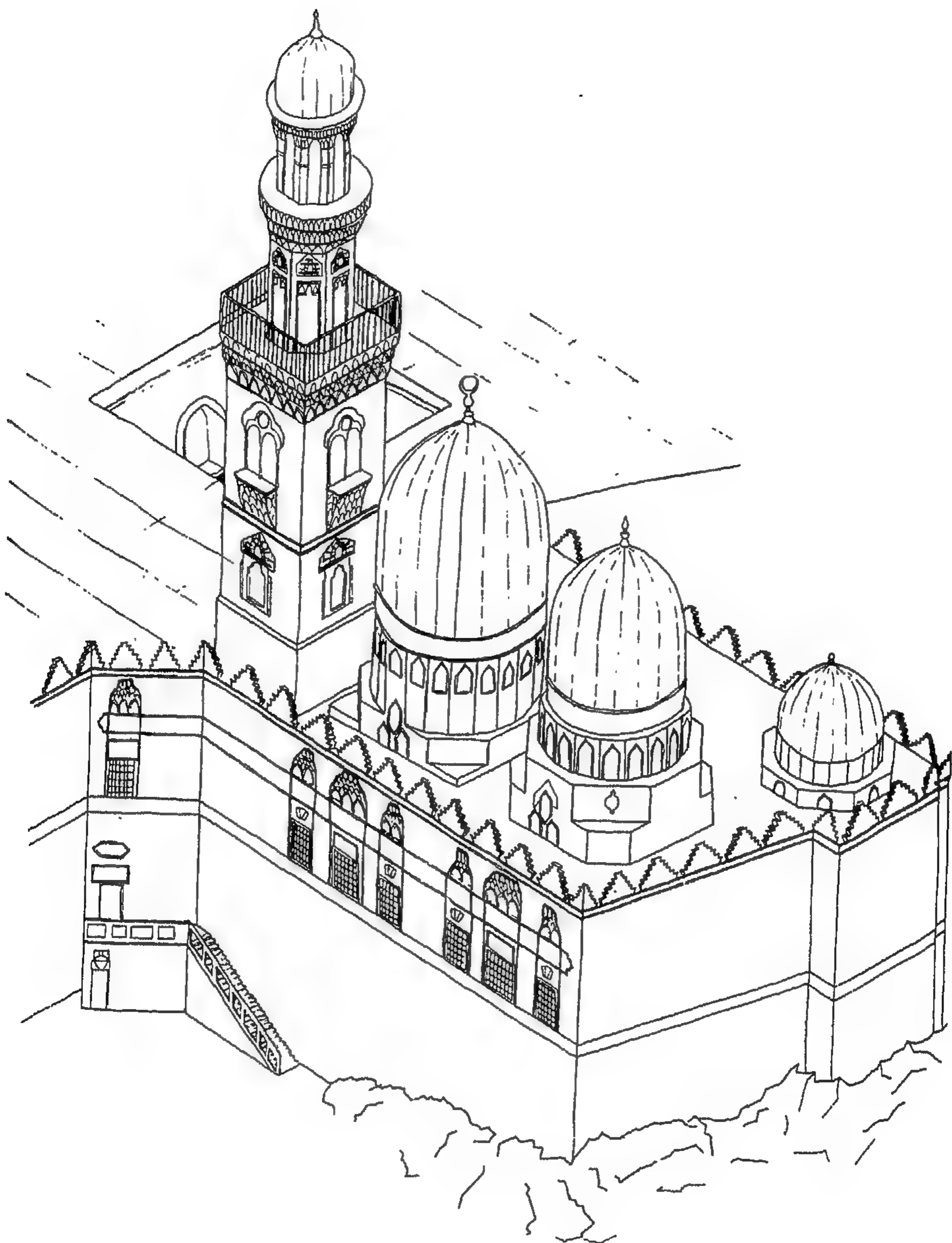
انظر التقرير نمشة



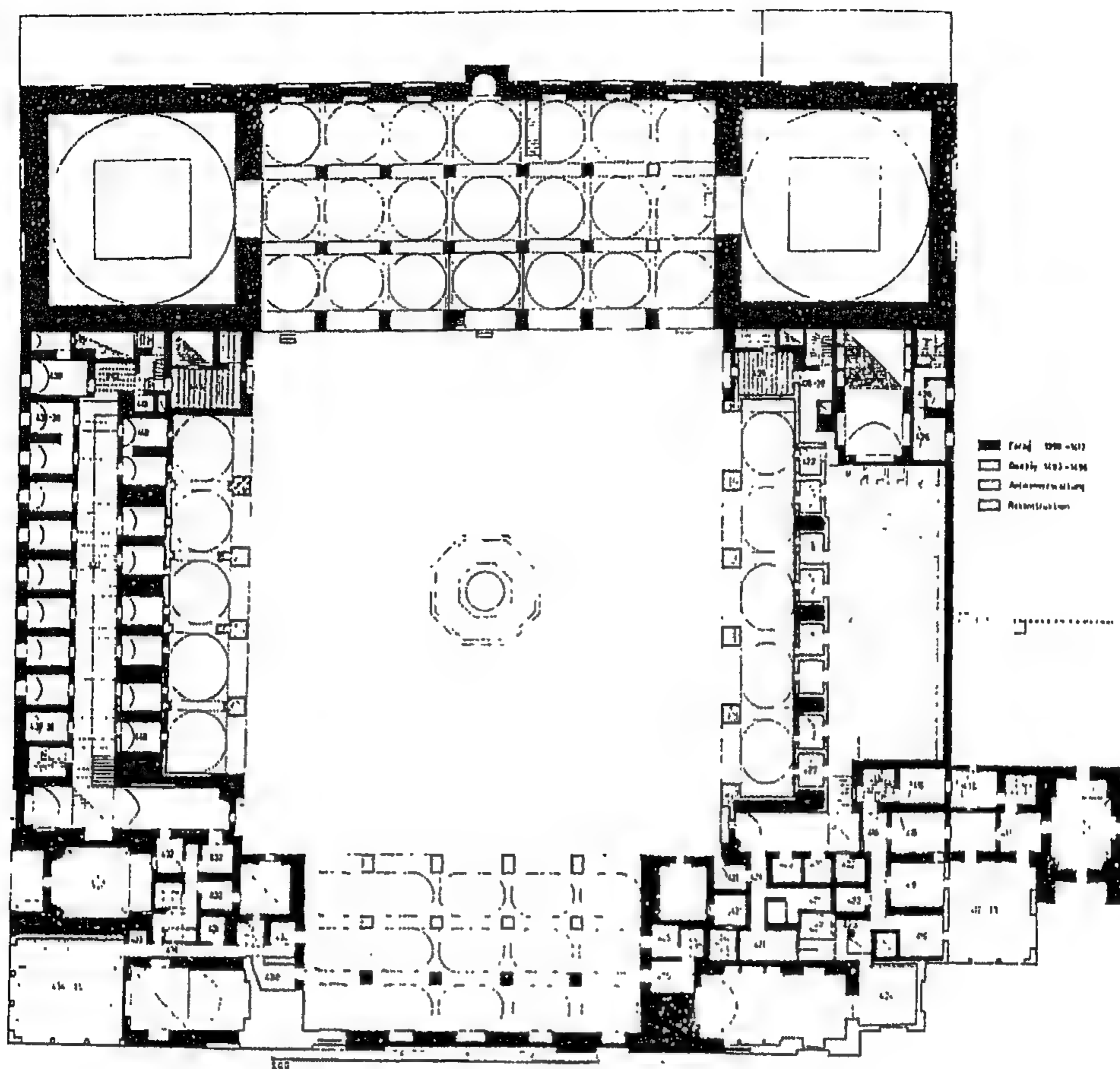
(شكل ١٥٠) مسقط أفقي لجامع المؤيد شيخ لبسكال كوست قام برسمه هرتس باشا ١٨٩٠م (عن لجنة حفظ الآثار العربية).



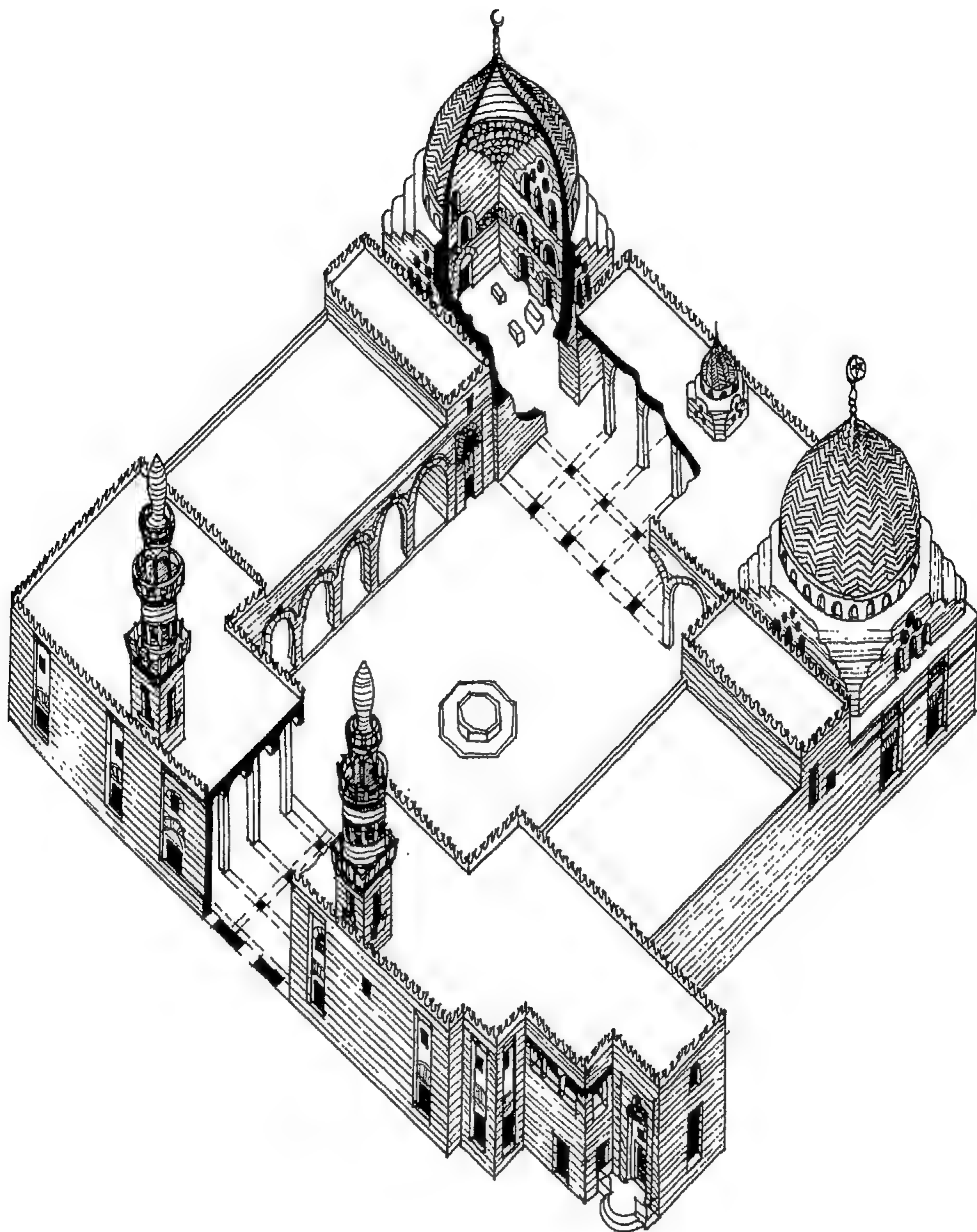
(شكل ١٥١) مسقط أفقي لخانة سلاو سنجر الجاولي
بالقاهرة (عن لجنة حفظ الآثار العربية).



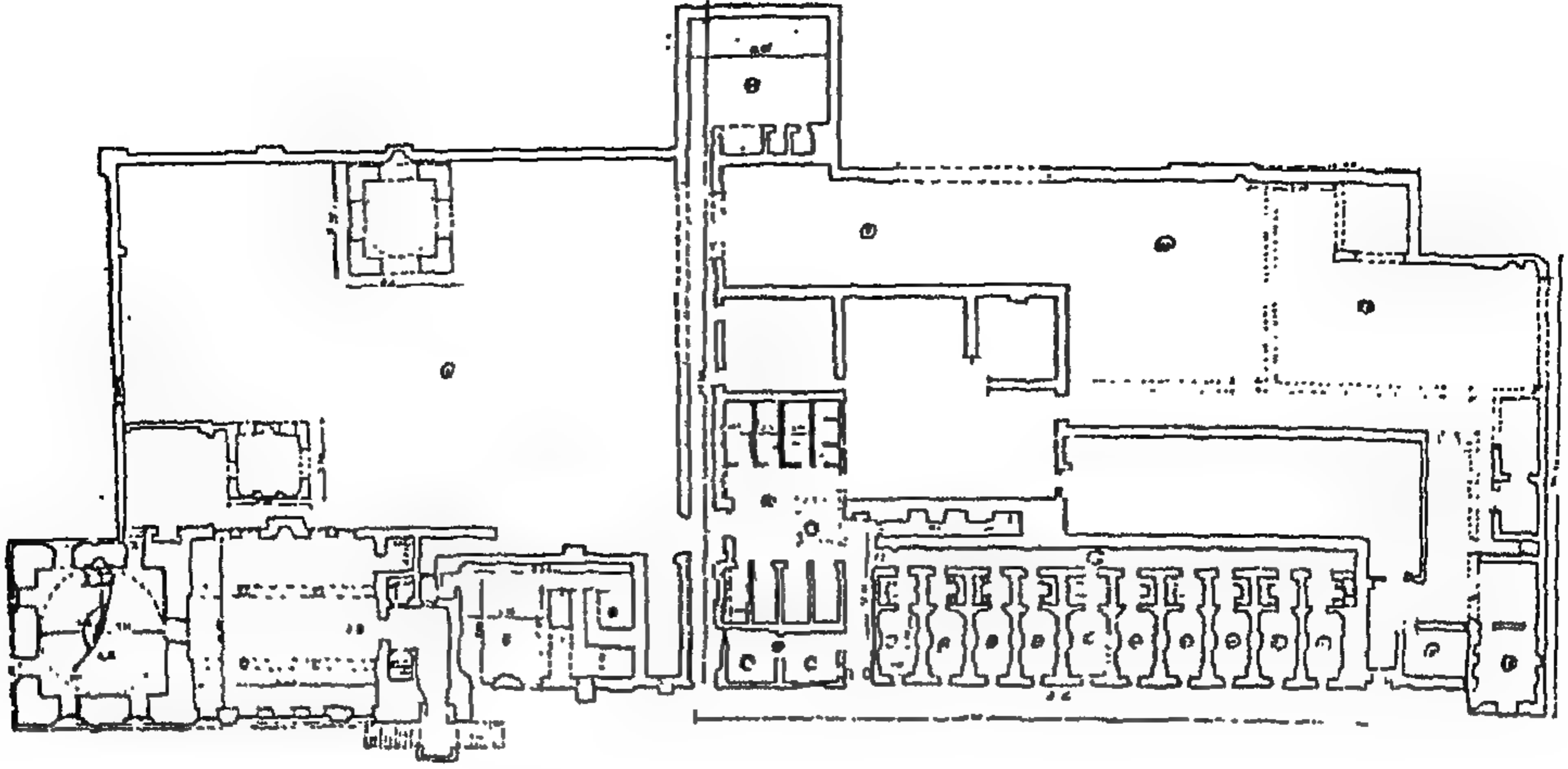
(شكل ١٥١ مكرر) خانقاة سلاروسنجر الجاولي بالقاهرة
 . (عن : هيلنبراند) .



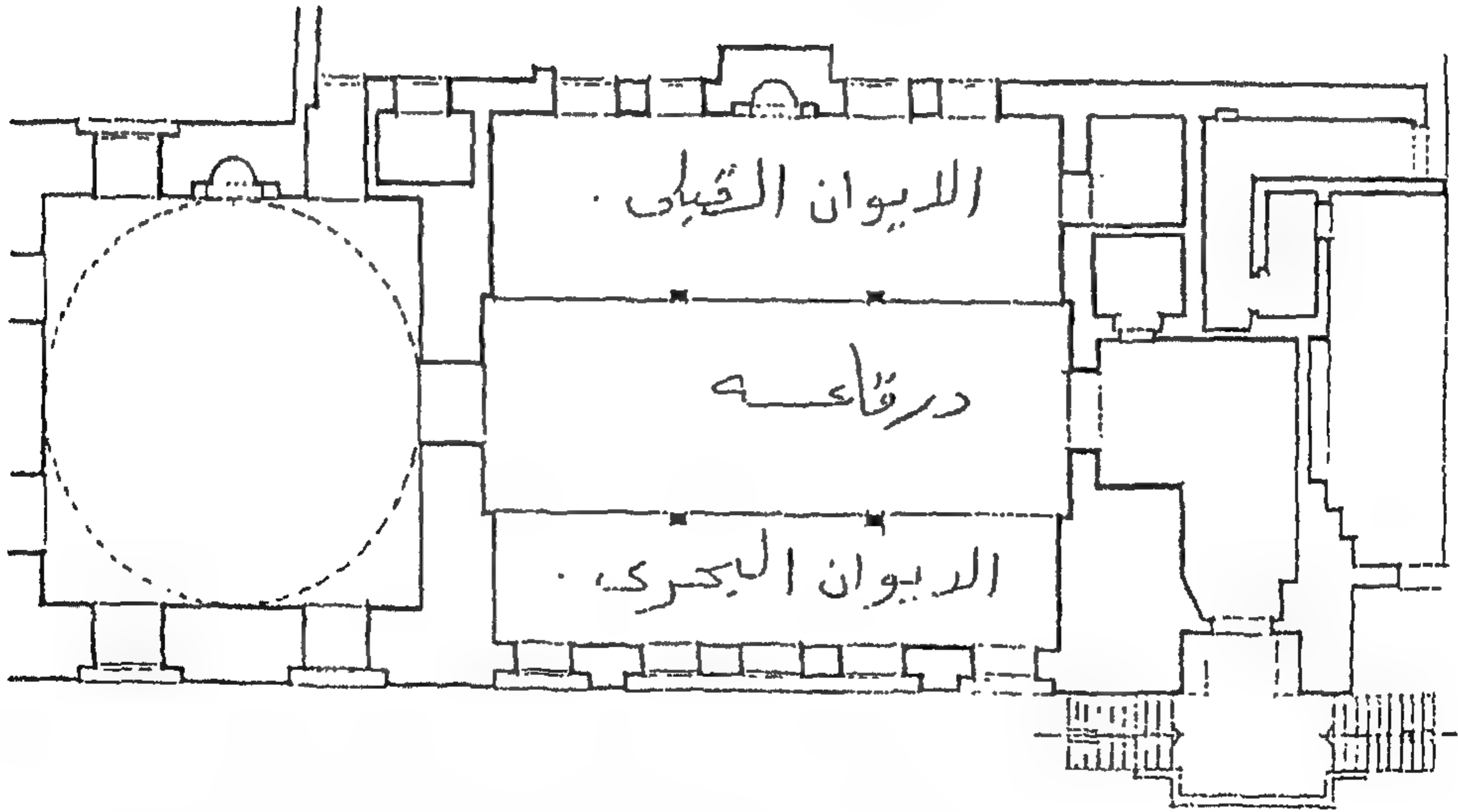
(شكل ١٥٣) مسقط أفقي لخانقاة الناصر فرج بن برقوق بقرافة
صحراء المماليك بالقاهرة . (عن صالح لمعي) .



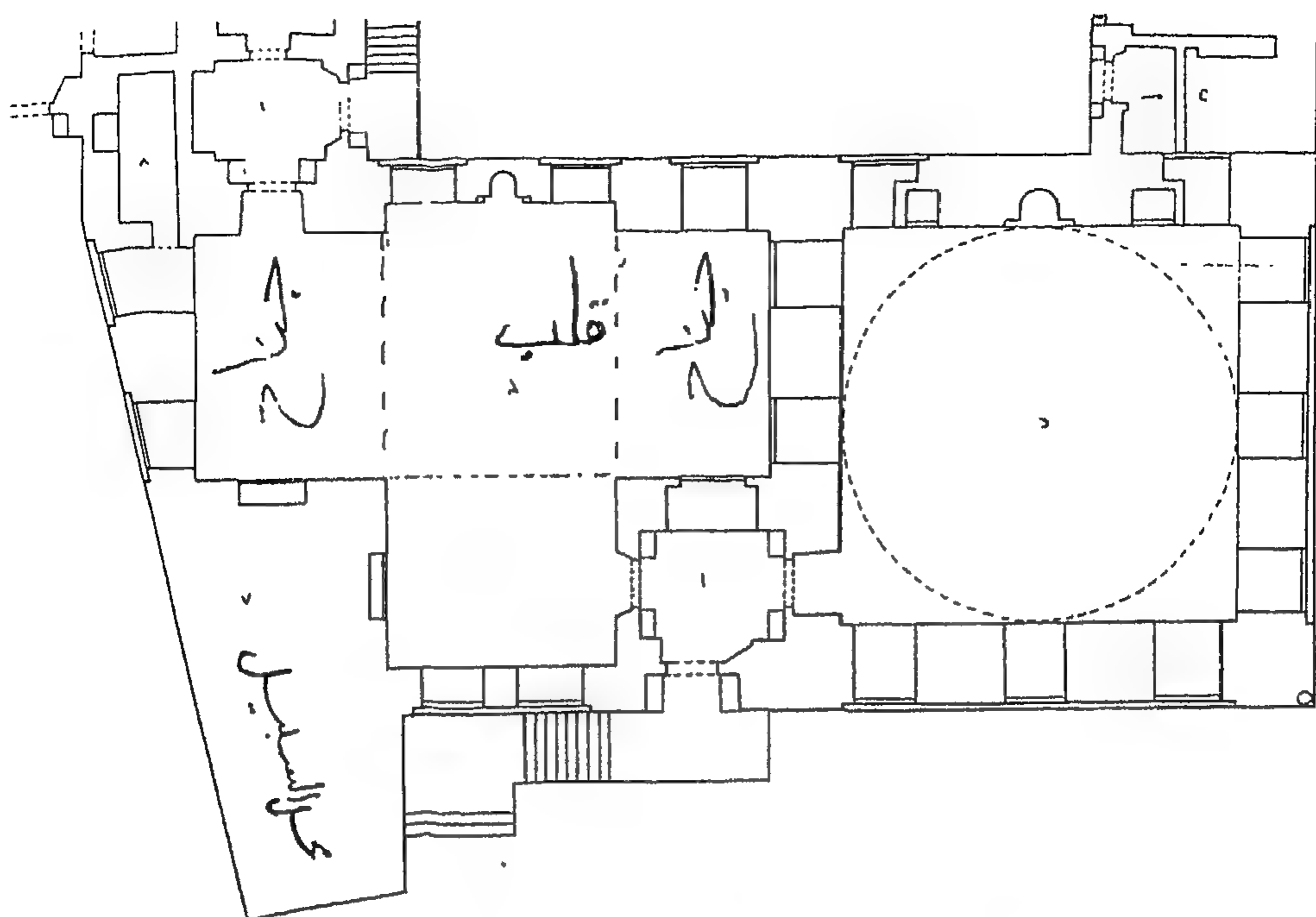
(شکل ۱۵۳ مکرر) خانقاه الناصر فرج بن برقوق (عن : هیلنبراند) .



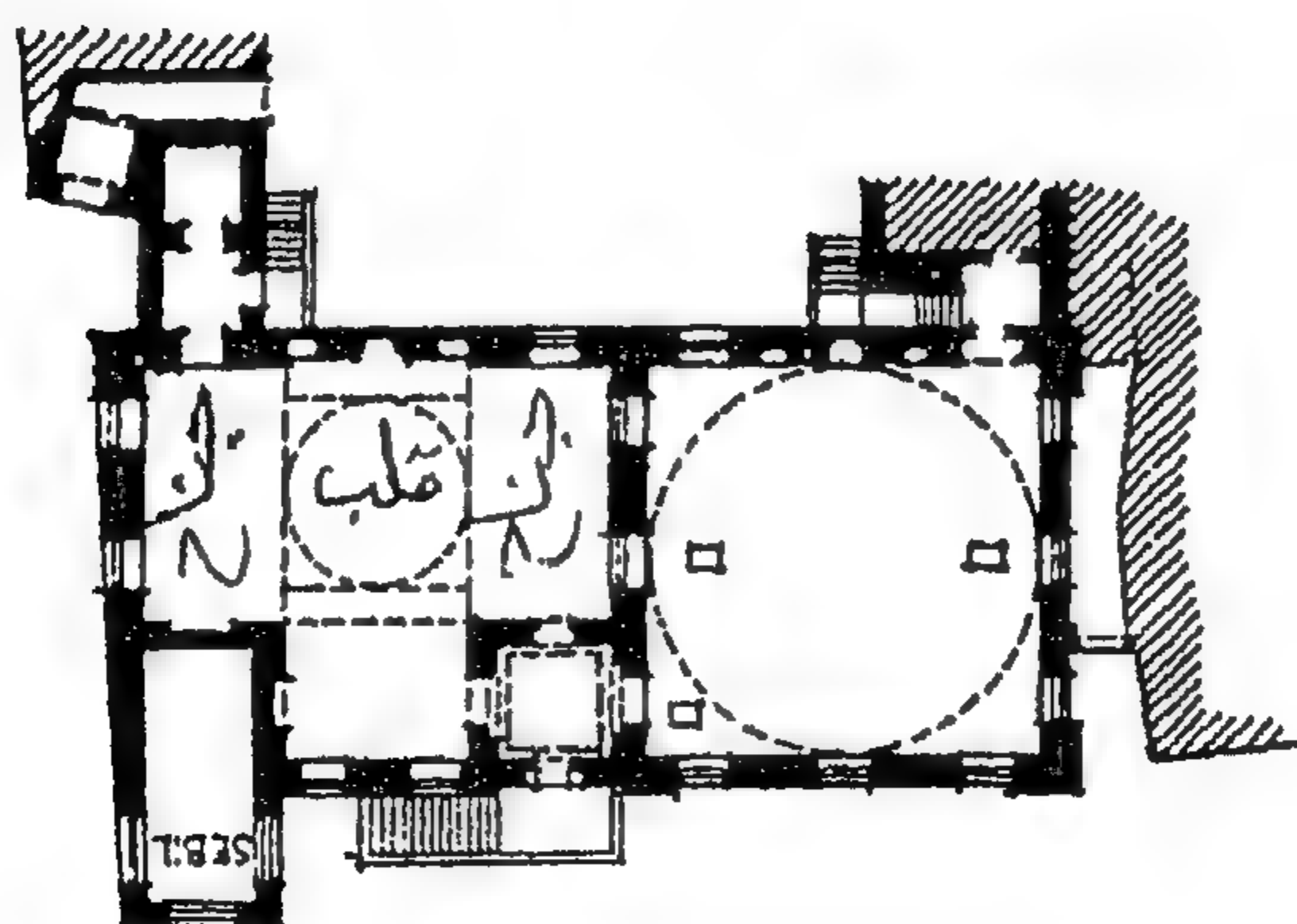
(شكل ١٥٤) مسقط أفقي لمجمع السلطان برسباي بقرافة صحراء الممالك
بالقاهرة . (عن : Fernands)



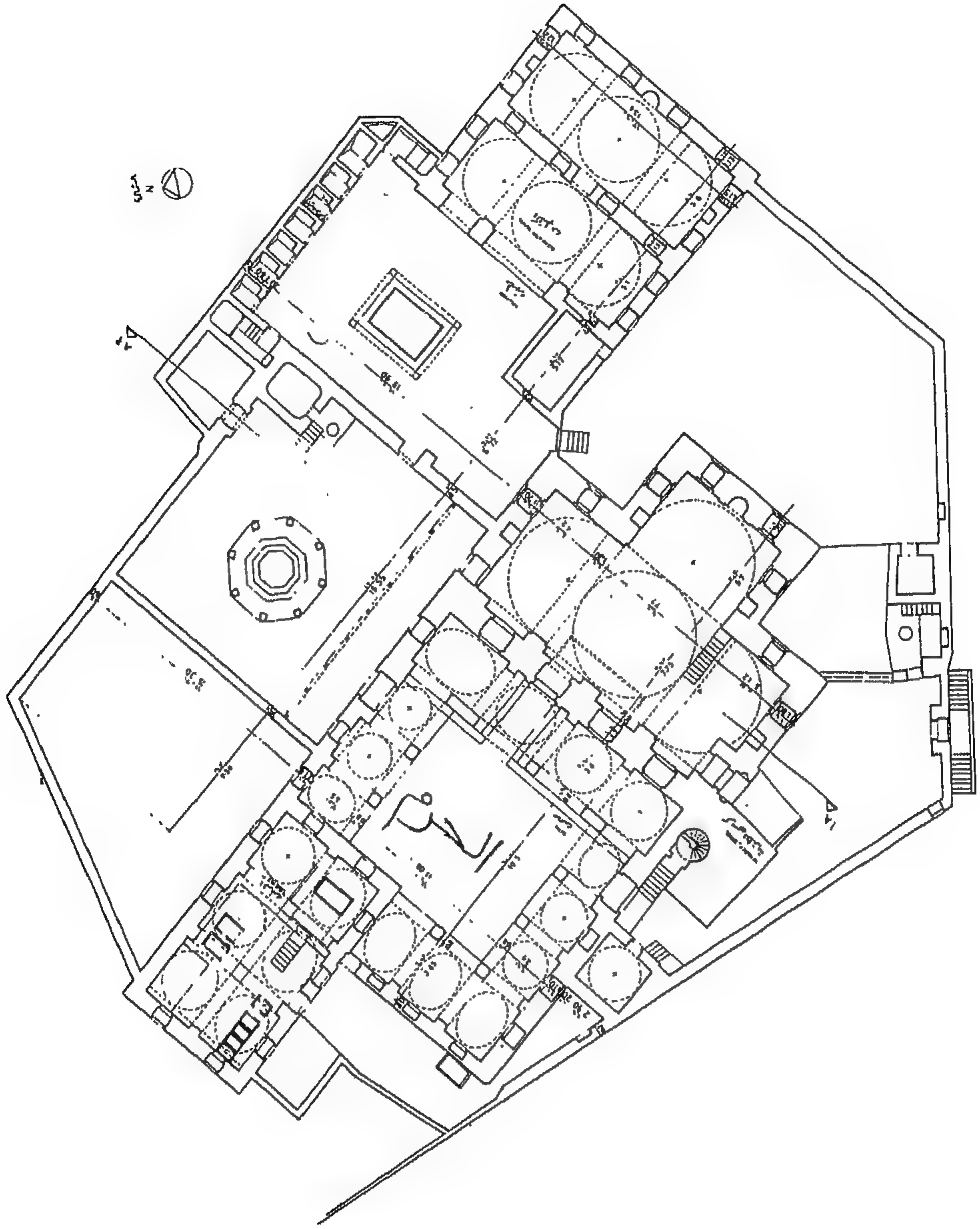
(شكل ١٥٤ مكرر) مسقط أفقي لخانقاة السلطان برسباي ضمن مجمعه
بقرافة صحراء الممالك بالقاهرة .



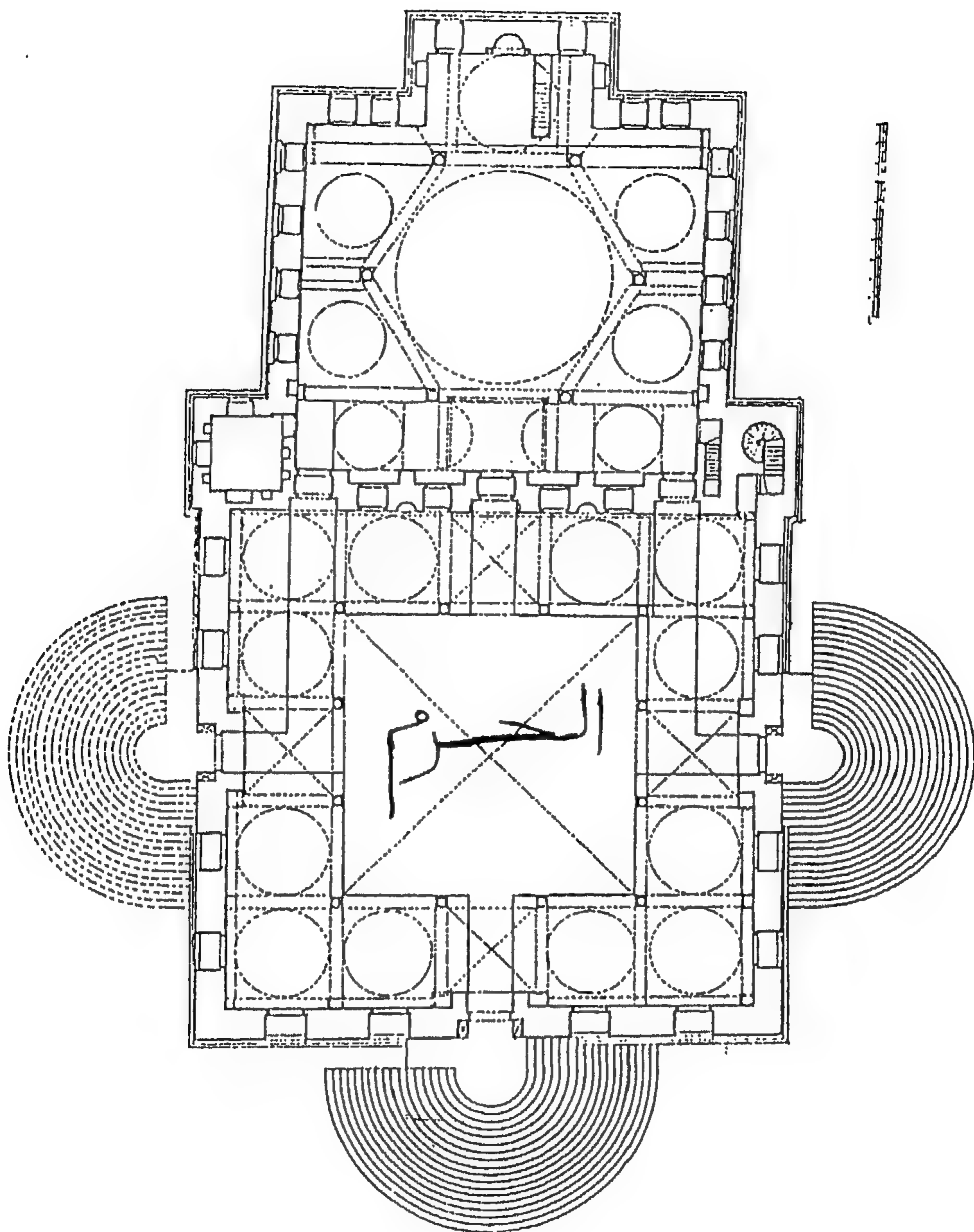
(شكل ١٥٥) مسقط أفقي لقبة وخانقاة الغوري بالغورية بالقاهرة .
(عن المجلس الأعلى للآثار) .



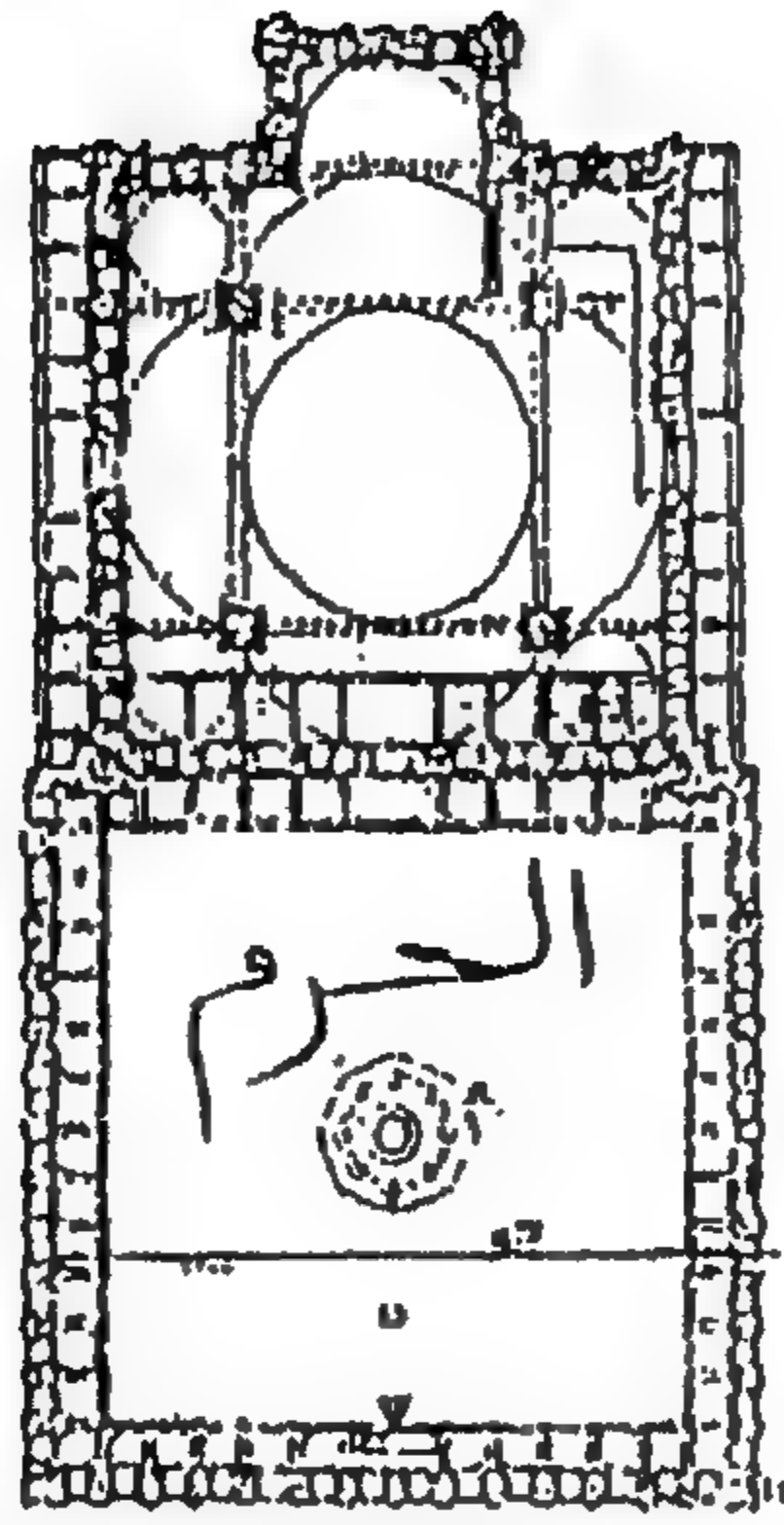
(شكل ١٥٥ مكرر) مسقط أفقي لقبة وخانقاة الغوري بالغورية بالقاهرة .
(عن : Brandenburg) .



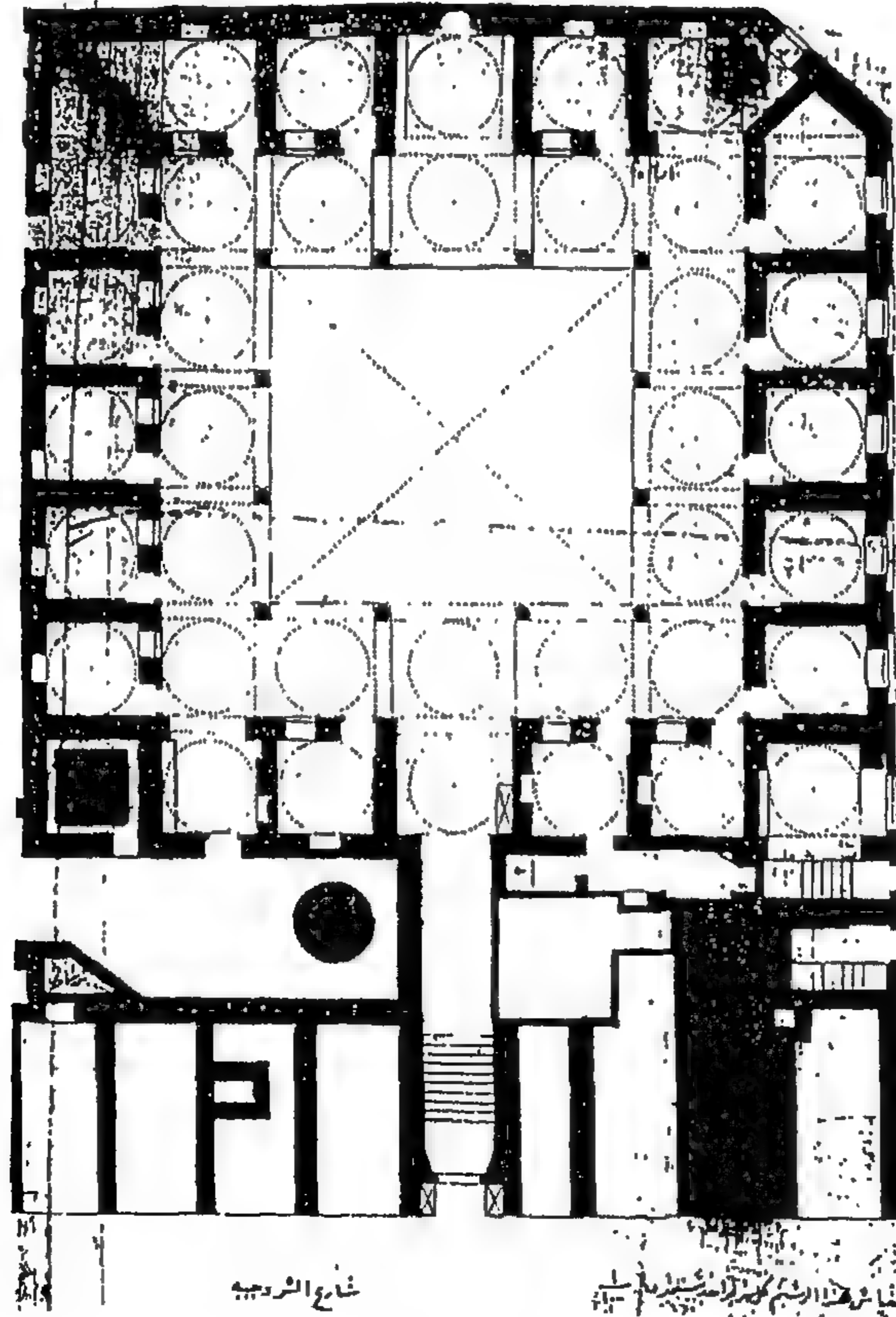
(شكل ١٥٦) مسقط أفقي لجامع سليمان باشا المعروف بجامع سيدي سارية
الجبيل بالقلعة بالقاهرة. (عن موسوعة القاهرة لمنظمة العواصم الإسلامية).



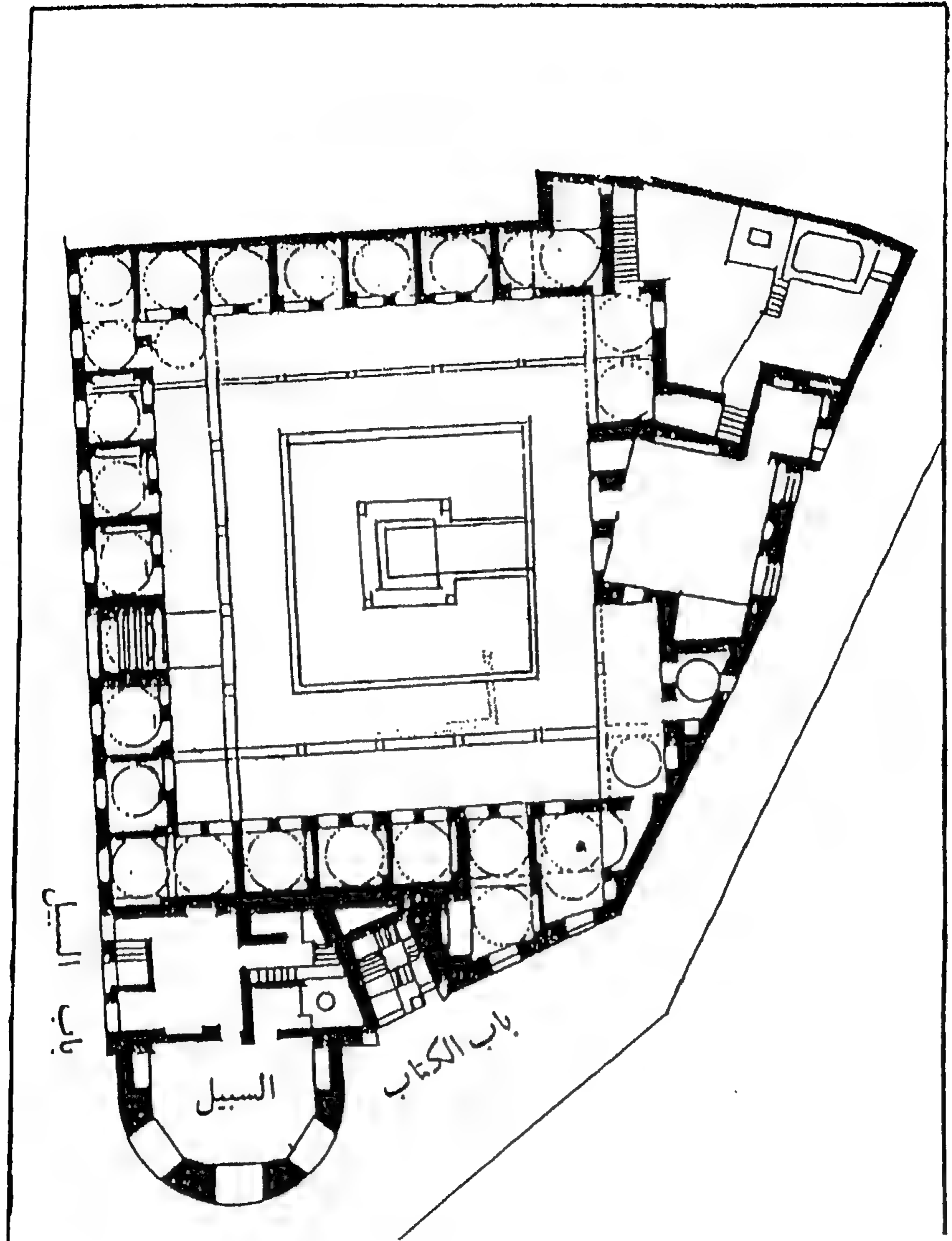
(شكل ١٥٧) مسقط أفقي لجامع الملكة صفية بالقاهرة .
(عن المجلس الأعلى للآثار) .



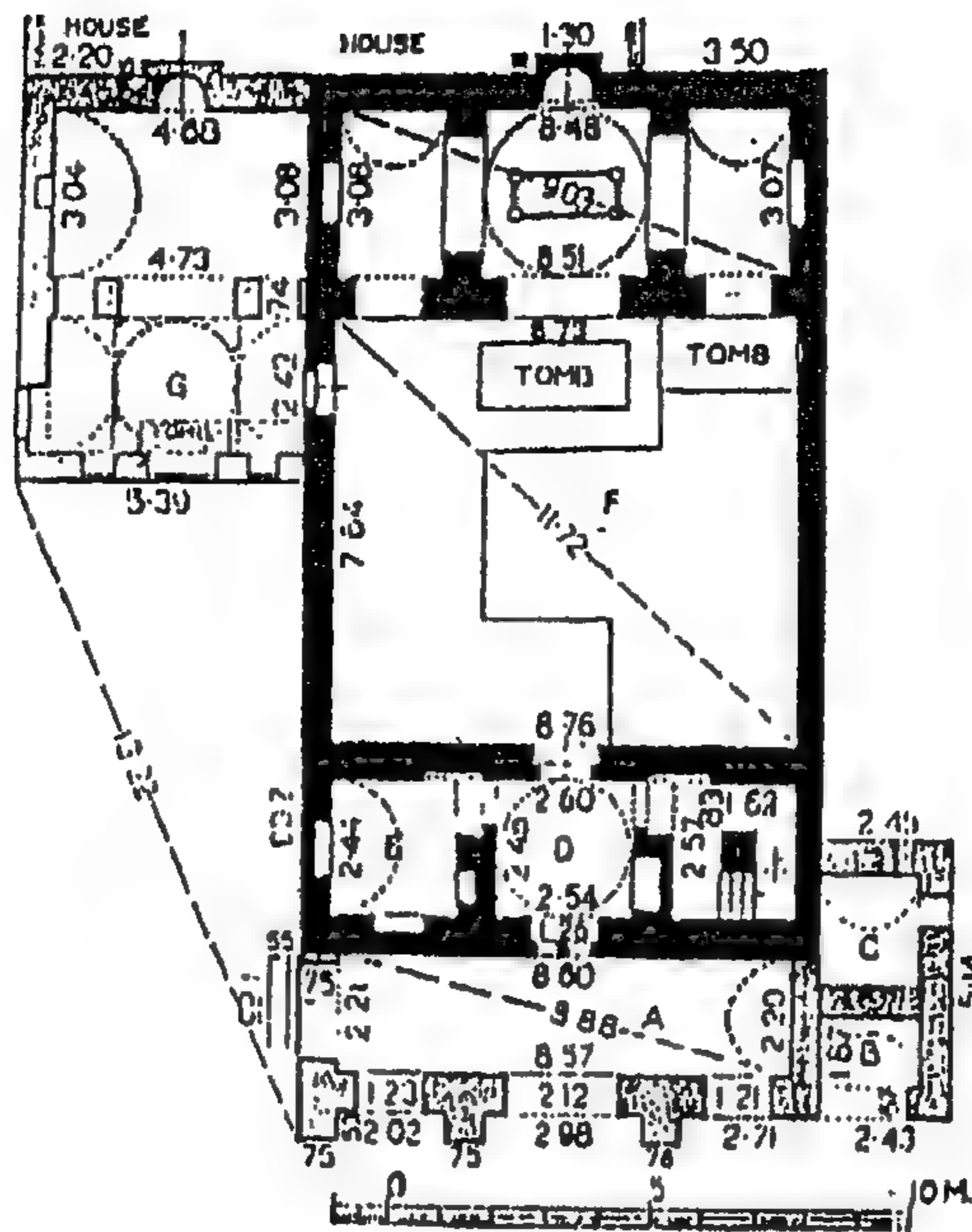
(شكل ١٥٨) مسقط أفقي لجامع محمد علي بالقاهرة . (عن : هوتكروفييت) .



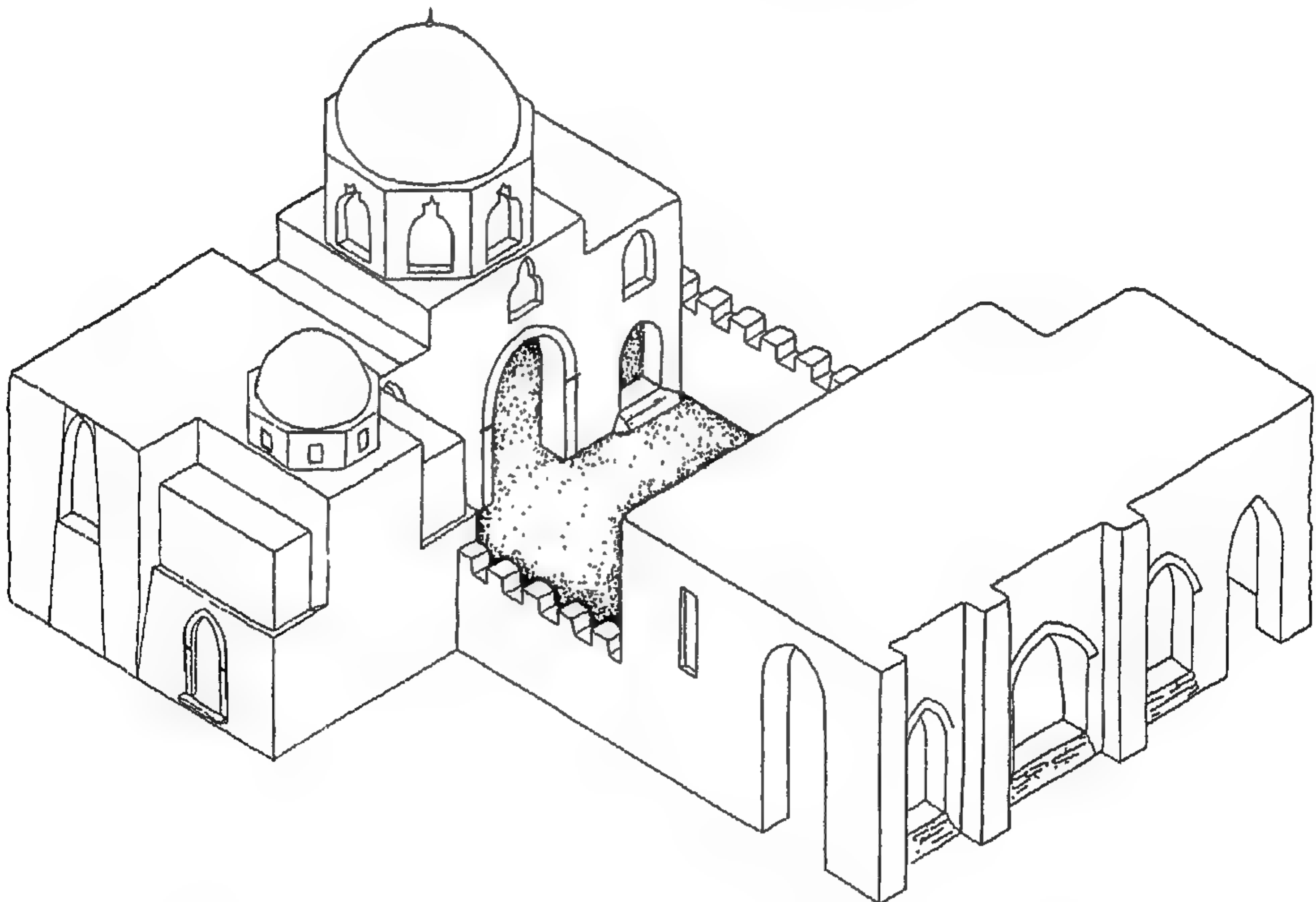
(شكل ١٥٩) مسقط أفقي للمدرسة السليمانية بالسروجية بالقاهرة
(عن المجلس الأعلى للآثار) .



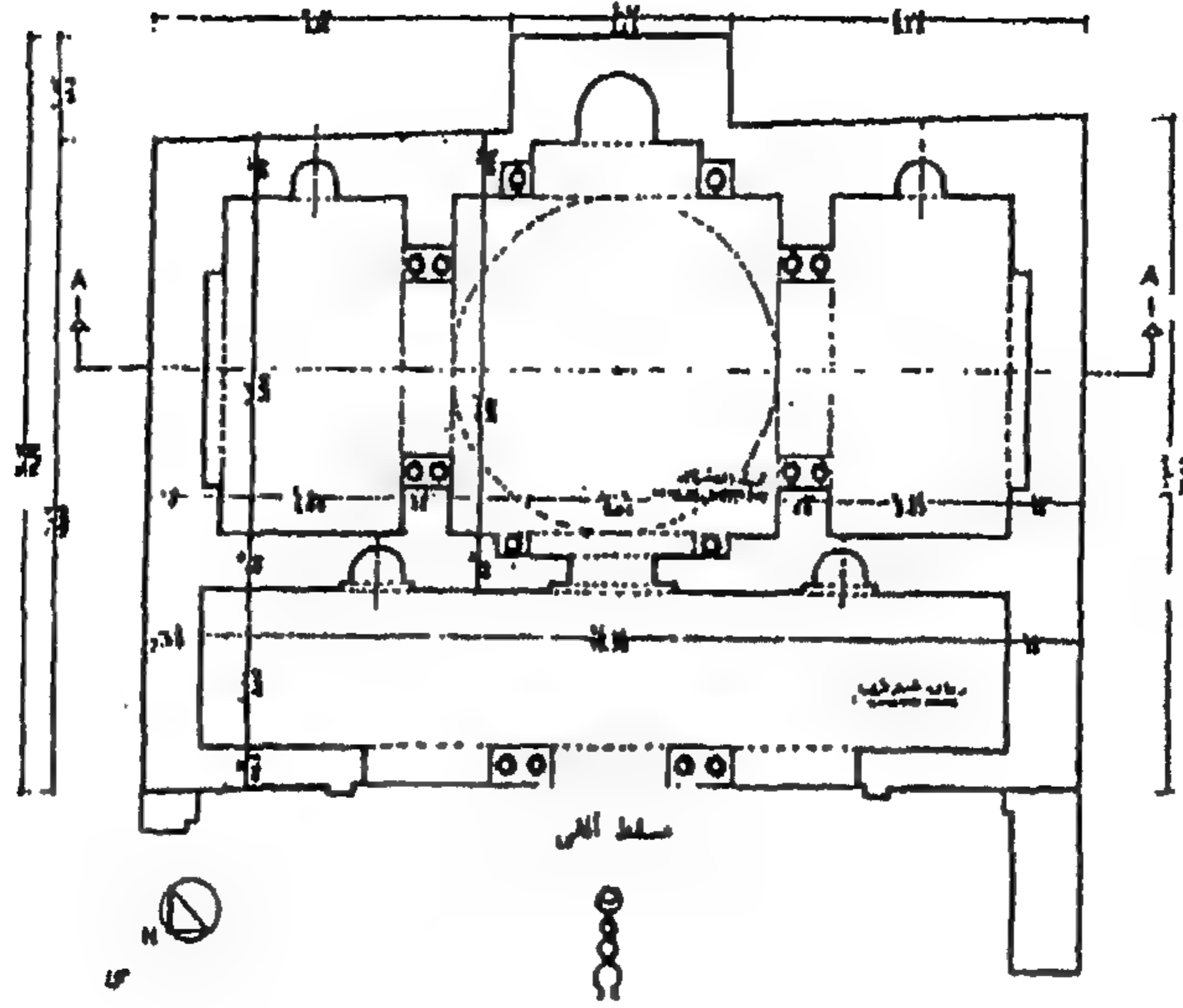
(شكل ١٦٠) مسقط أفقي للمدرسة المحمودية بالجبانية (شارع بورسعيد) بالقاهرة .
(عن : محمود الحسيني) .



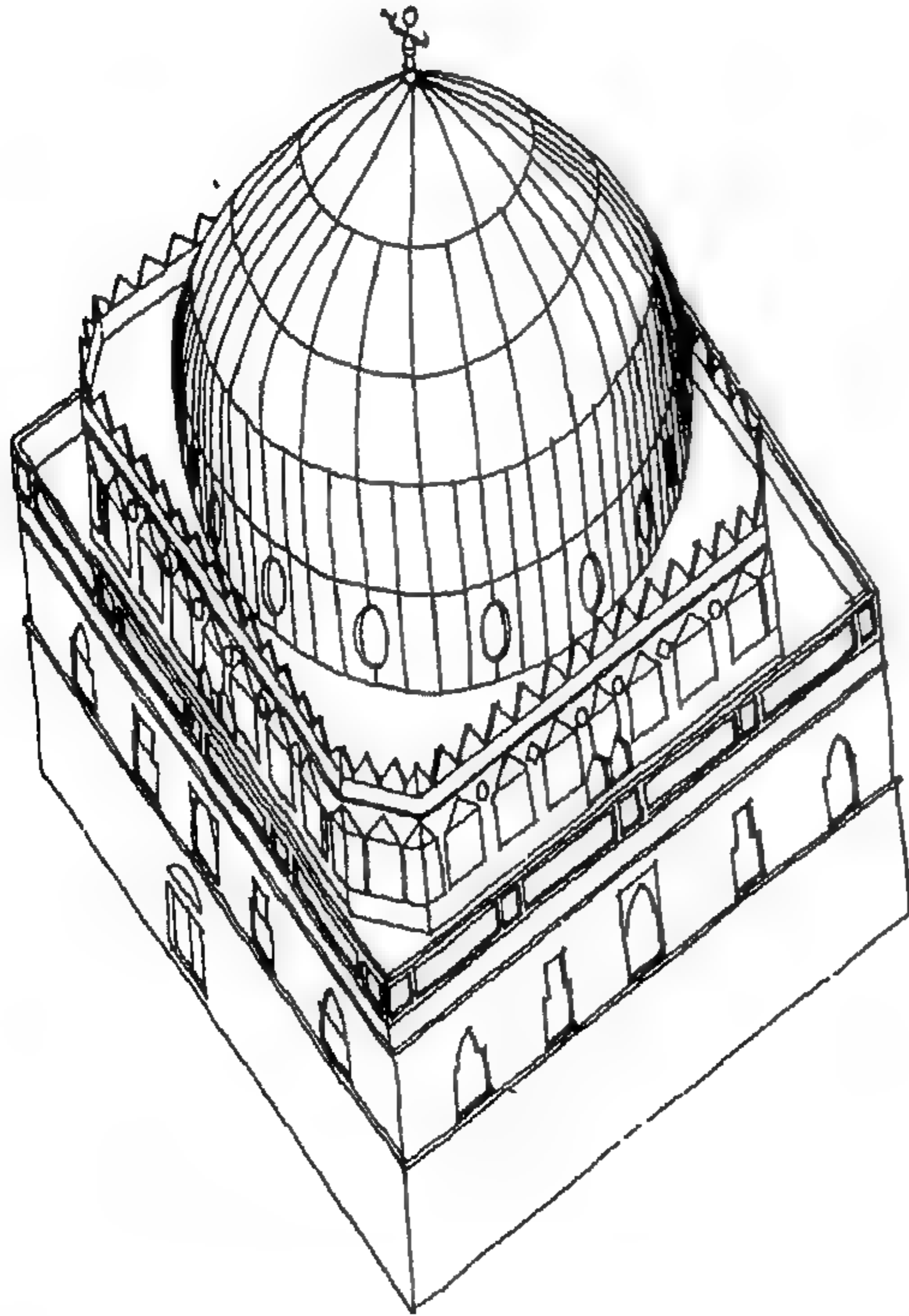
(شکل ۱۶۱) مسقط افقی للمشهد باسون جنوب مصر (عن : Creswell).



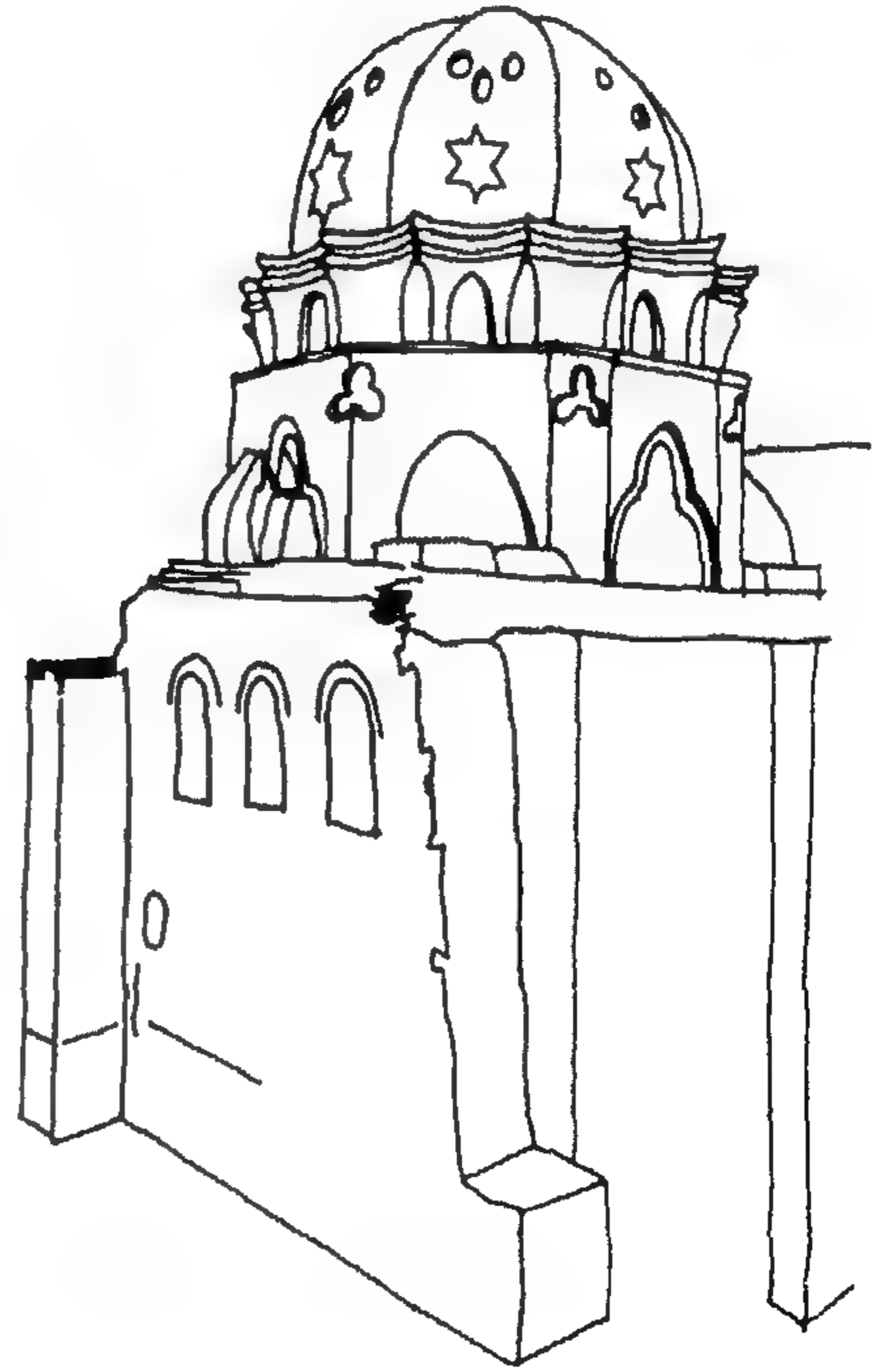
(شکل ۱۶۱ مکرر) المشهد باسوان جنوب مصر. (عن : هیلنبراند).



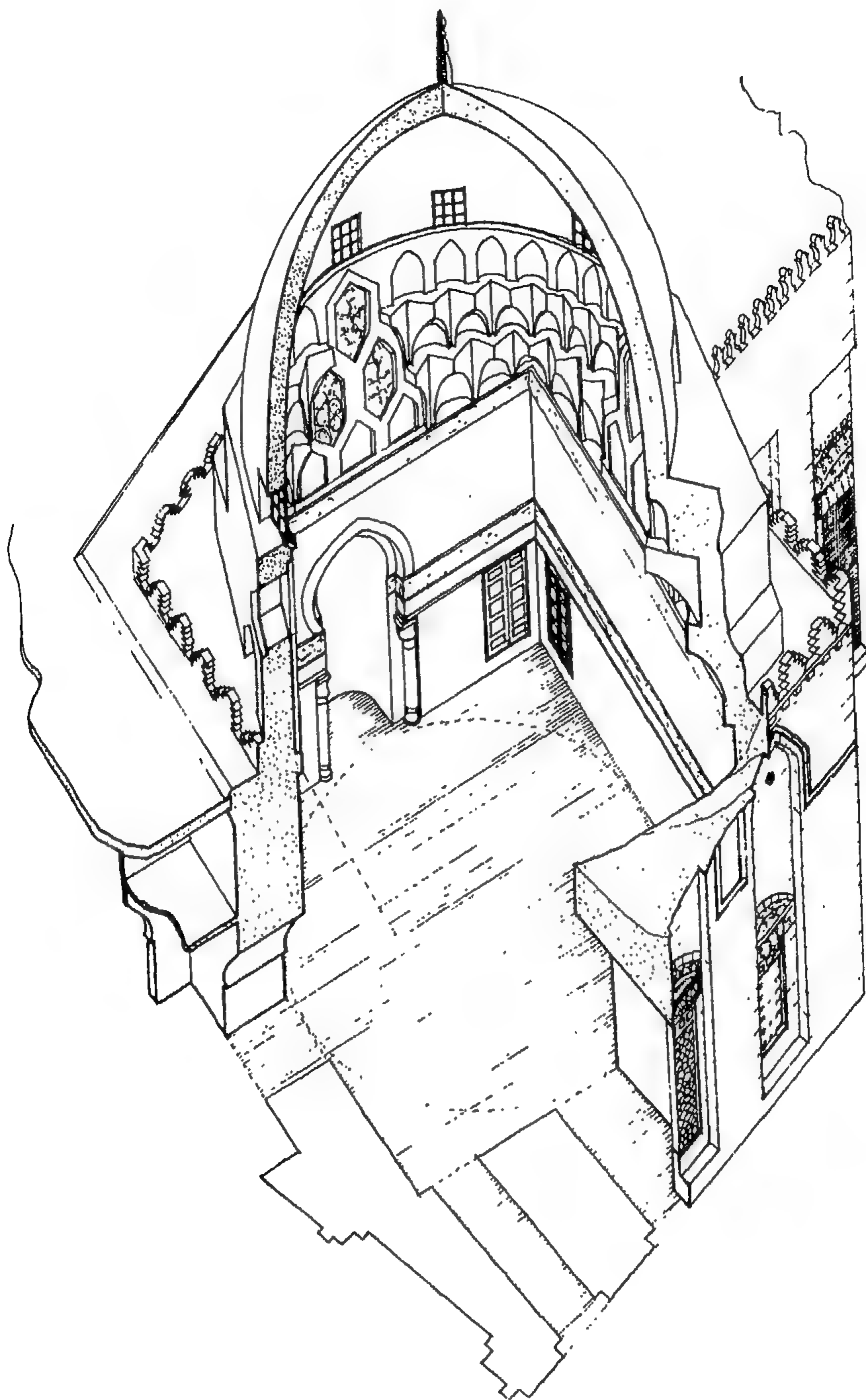
(شكل ١٦٣) مسقط أفقي لمشهد السيدة رقية بشارع الاشرف بحي الخليفة بالقاهرة
(عن موسوعة مدينة القاهرة لمنظمة العواصم الاسلامية).



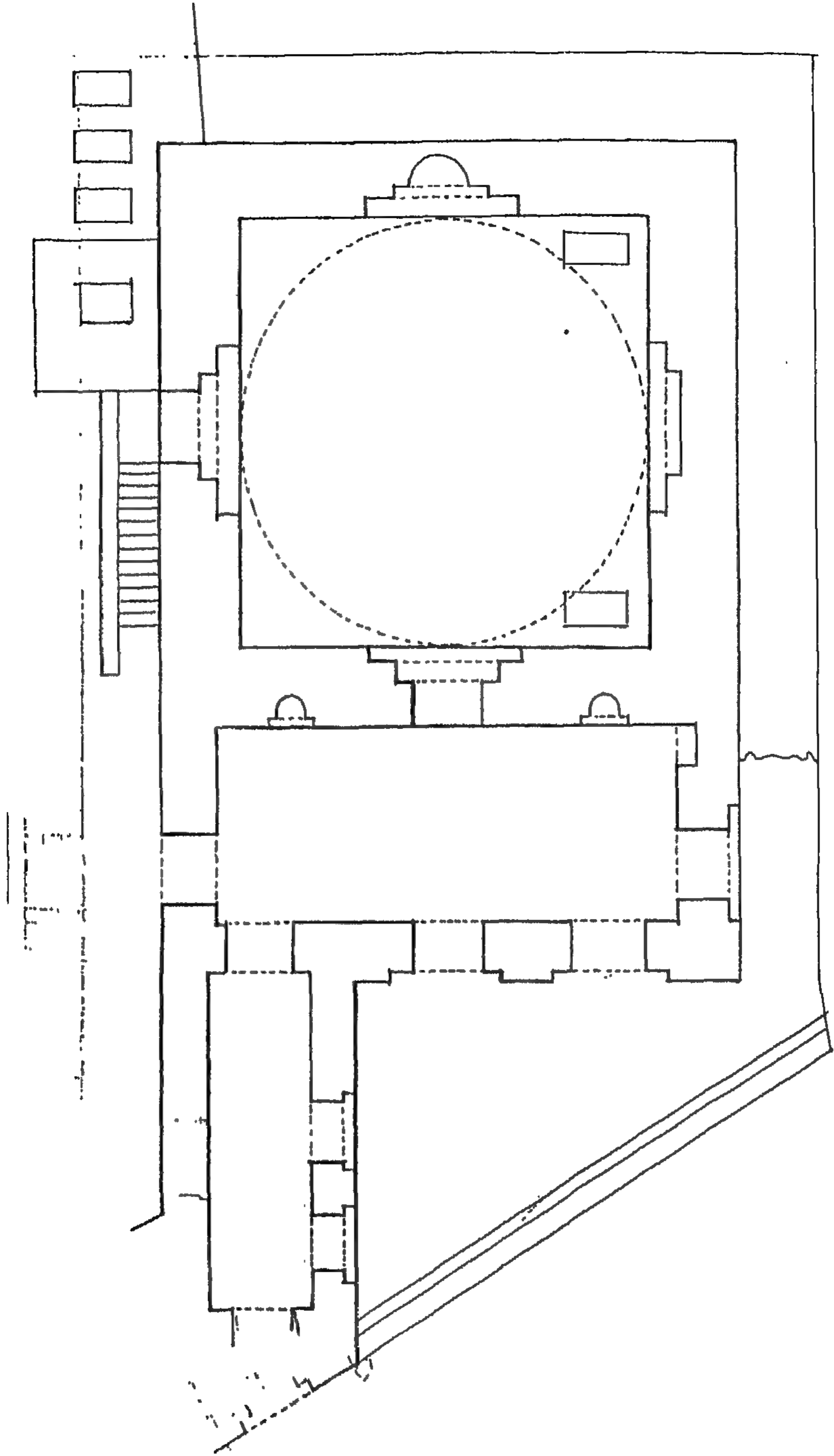
(شكل ١٦٥) قبة الامام الشافعي بالقاهرة .
(عن : هيلنبراند) .



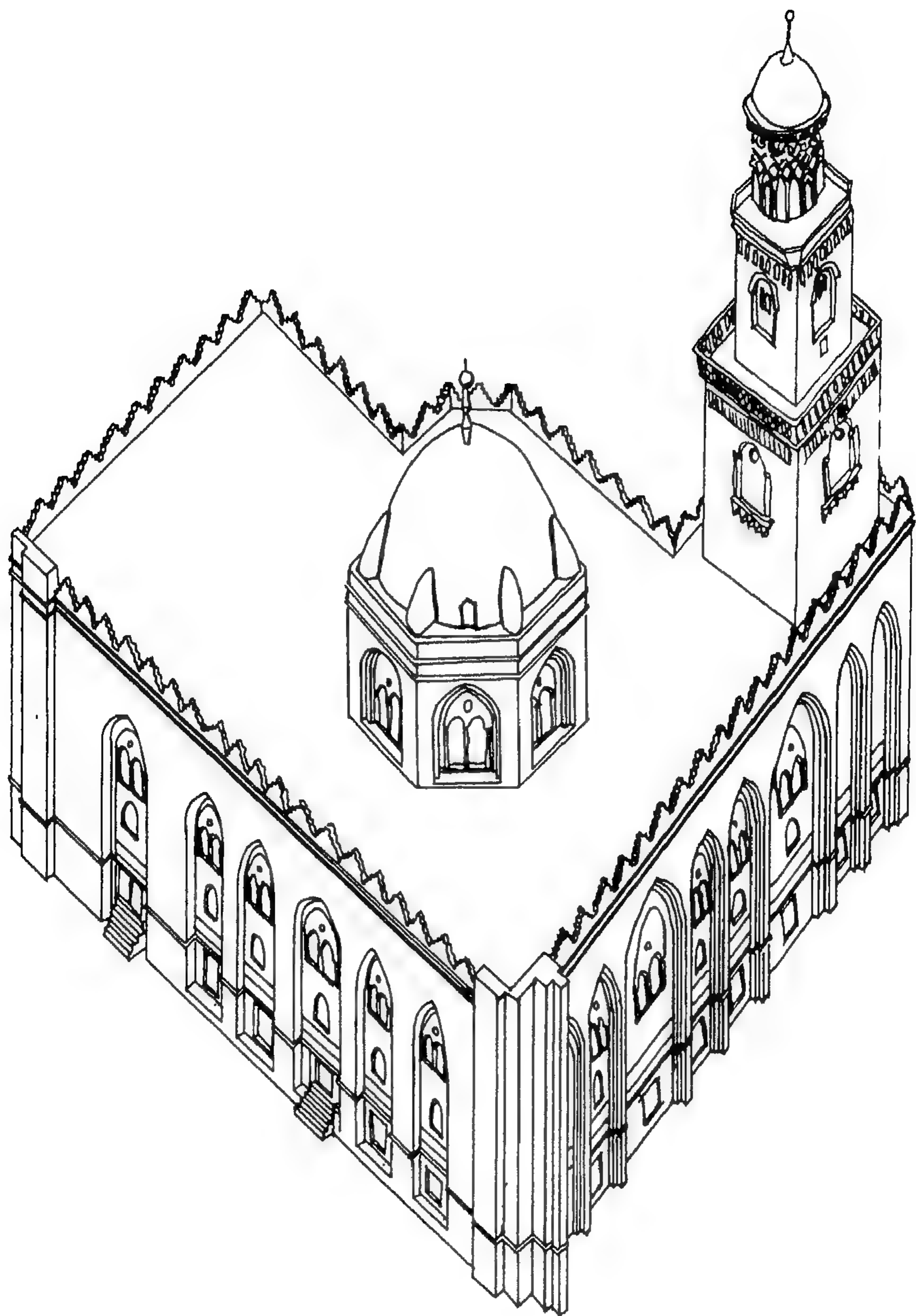
(شكل ١٦٤) القبة الملحقة بجامع قوص
بصعيد مصر . (عن : هيلنبراند) .



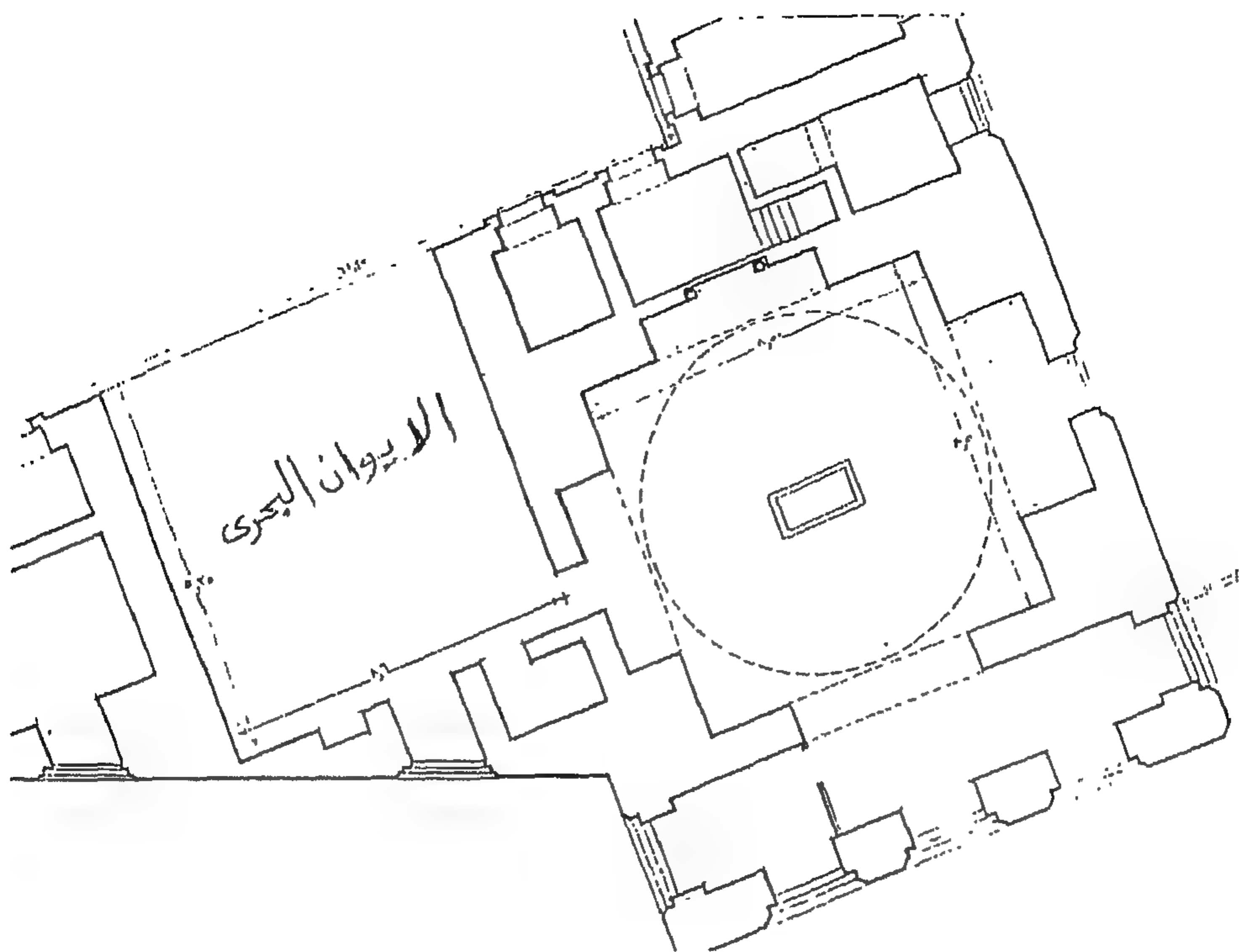
(شكل ١٦٦) قبة الصالح نجم الدين أيوب الملحقة بمدرسته بالقاهرة
(عن : هيلبراند) .



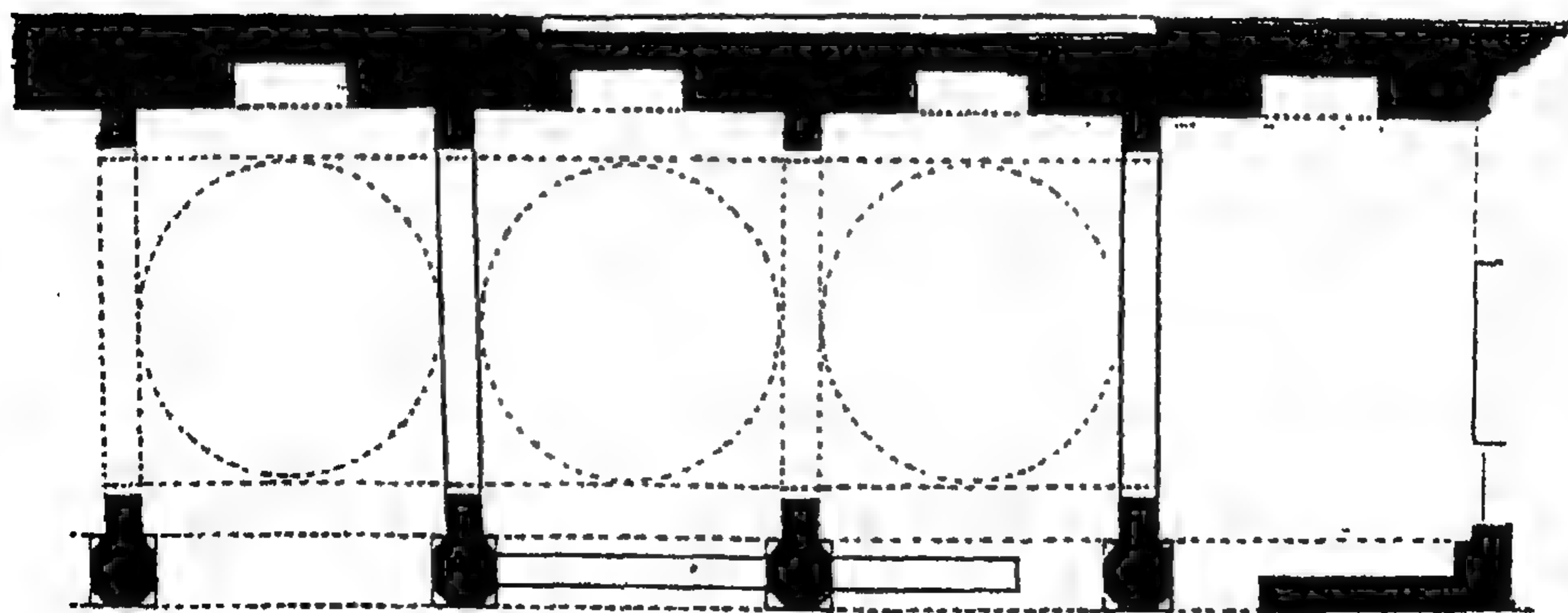
(شكل ١٦٧) مسقط أفقي لقبة فاطمة خاتون (ام الصالح) بالقاهرة .
(عن المجلس الأعلى للآثار) .



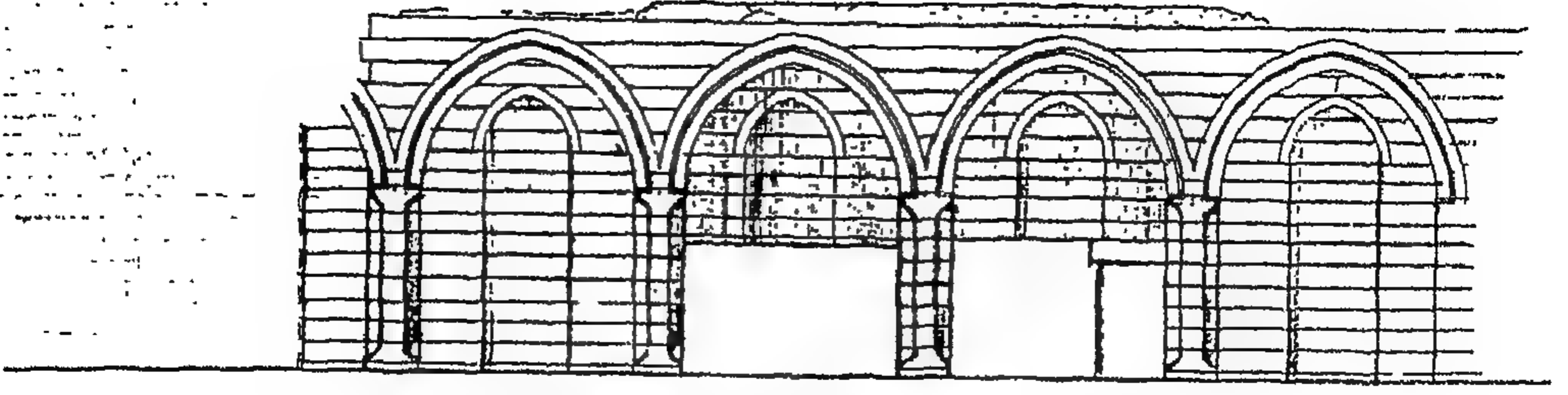
(شكل ١٦٧ مكرر) القبة المنصورية قلاوون (بشارع المعز لدين الله)
والمئذنة بطرف الواجهة الرئيسية . (عن : هيلنبراند) .



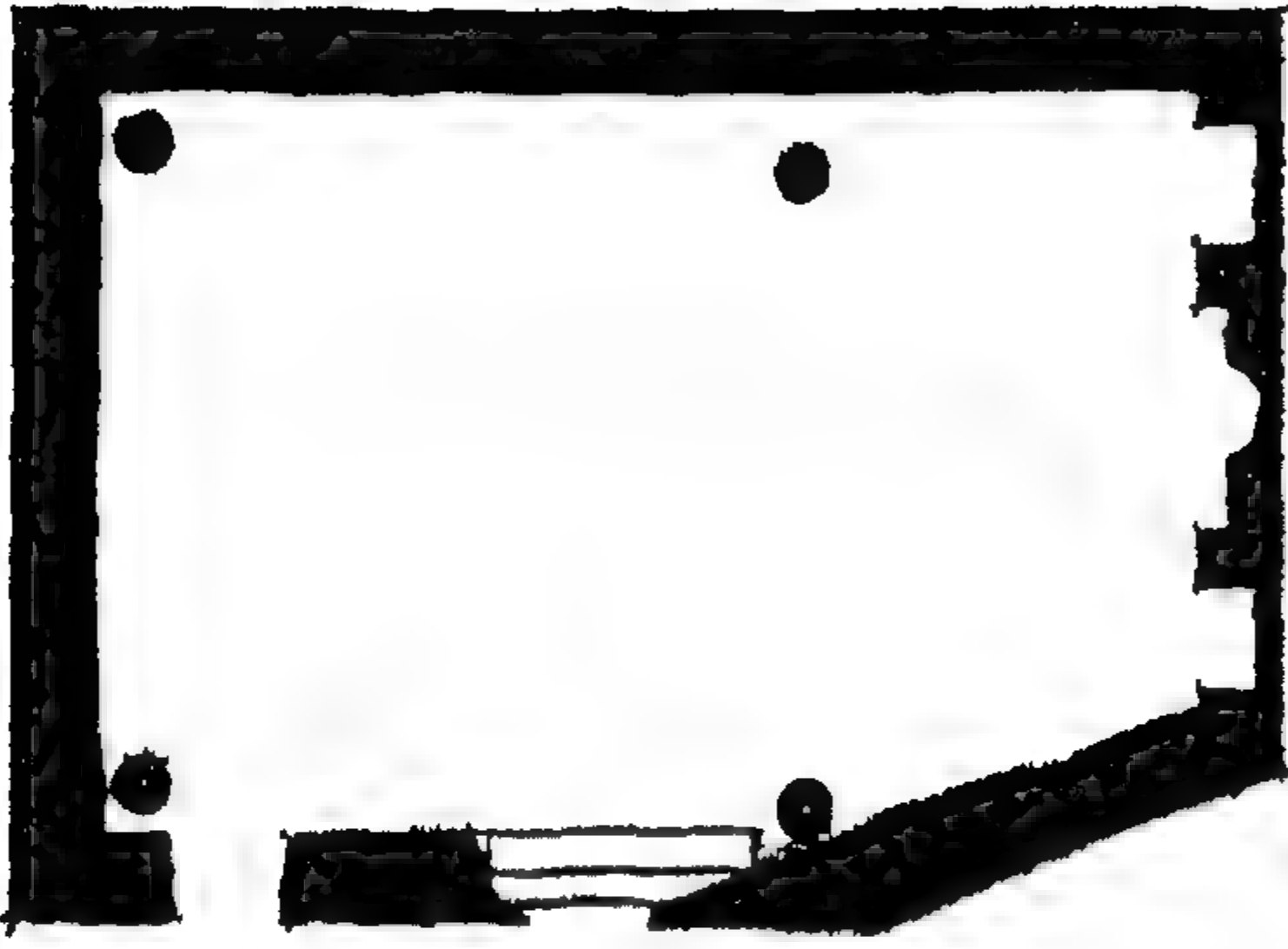
(شكل ١٦٨) مسقط أفقي لقبة صرغتمش الملحقة بمدرسته بالقاهرة .
(عن المجلس الأعلى للآثار) .



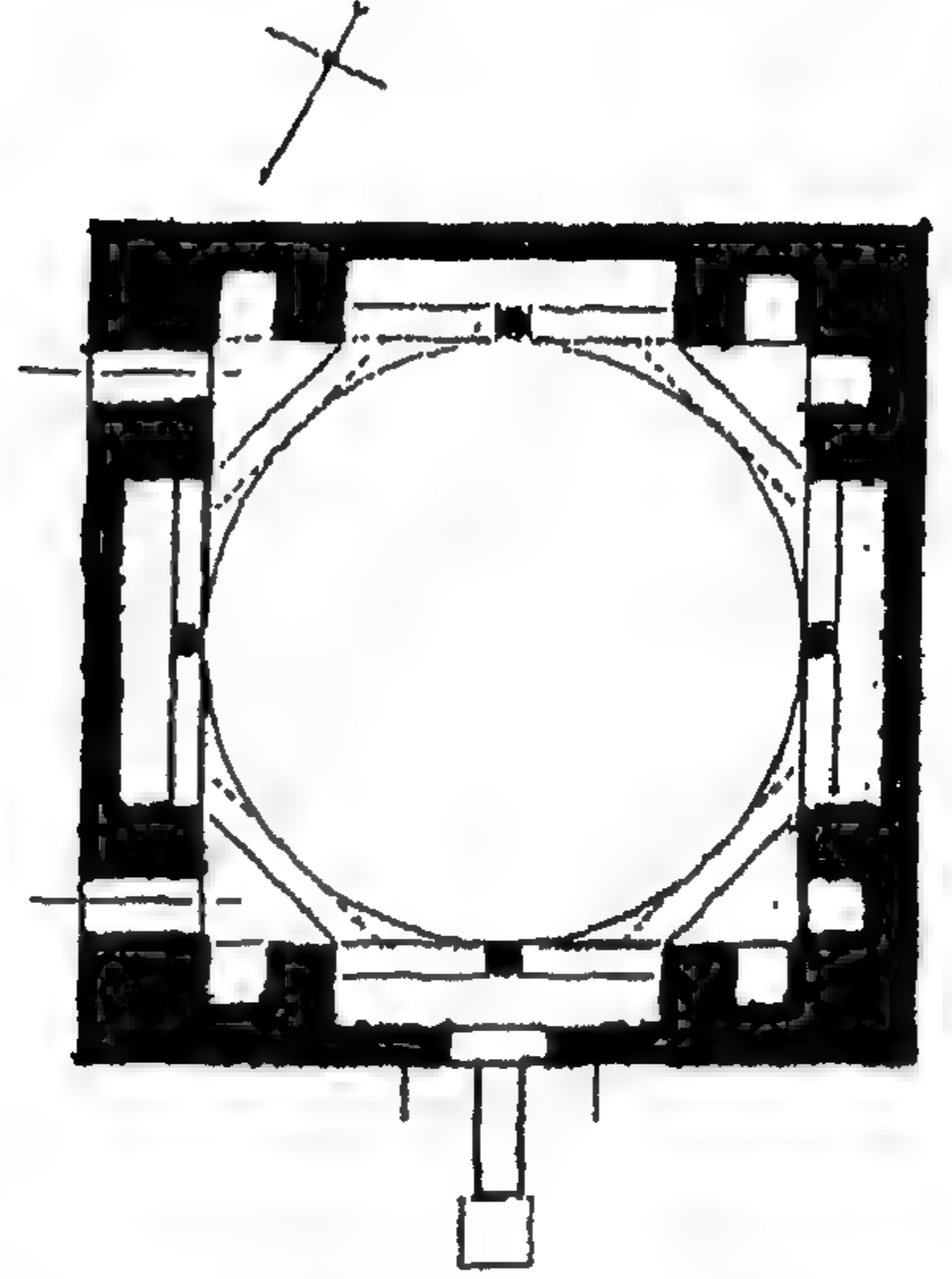
(شكل ١٦٩) مسقط أفقي لمقصورة الأمير نوروز المعروفة بإيوان ريحان
(بقرافة السيوطي بالقاهرة) .



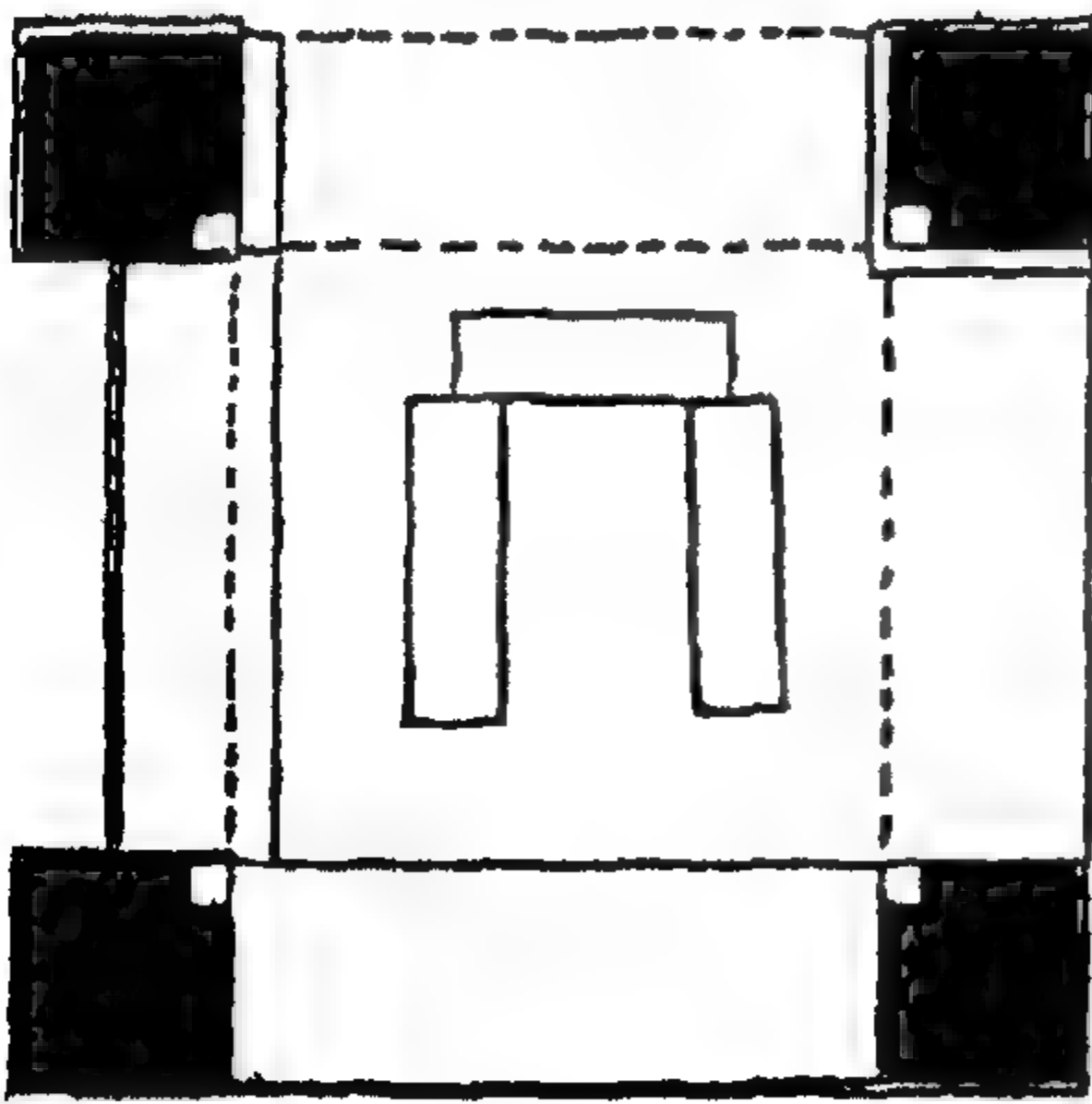
(شكل ١٦٩ مكرر) قطاع لمقصورة الأمير نوروز.



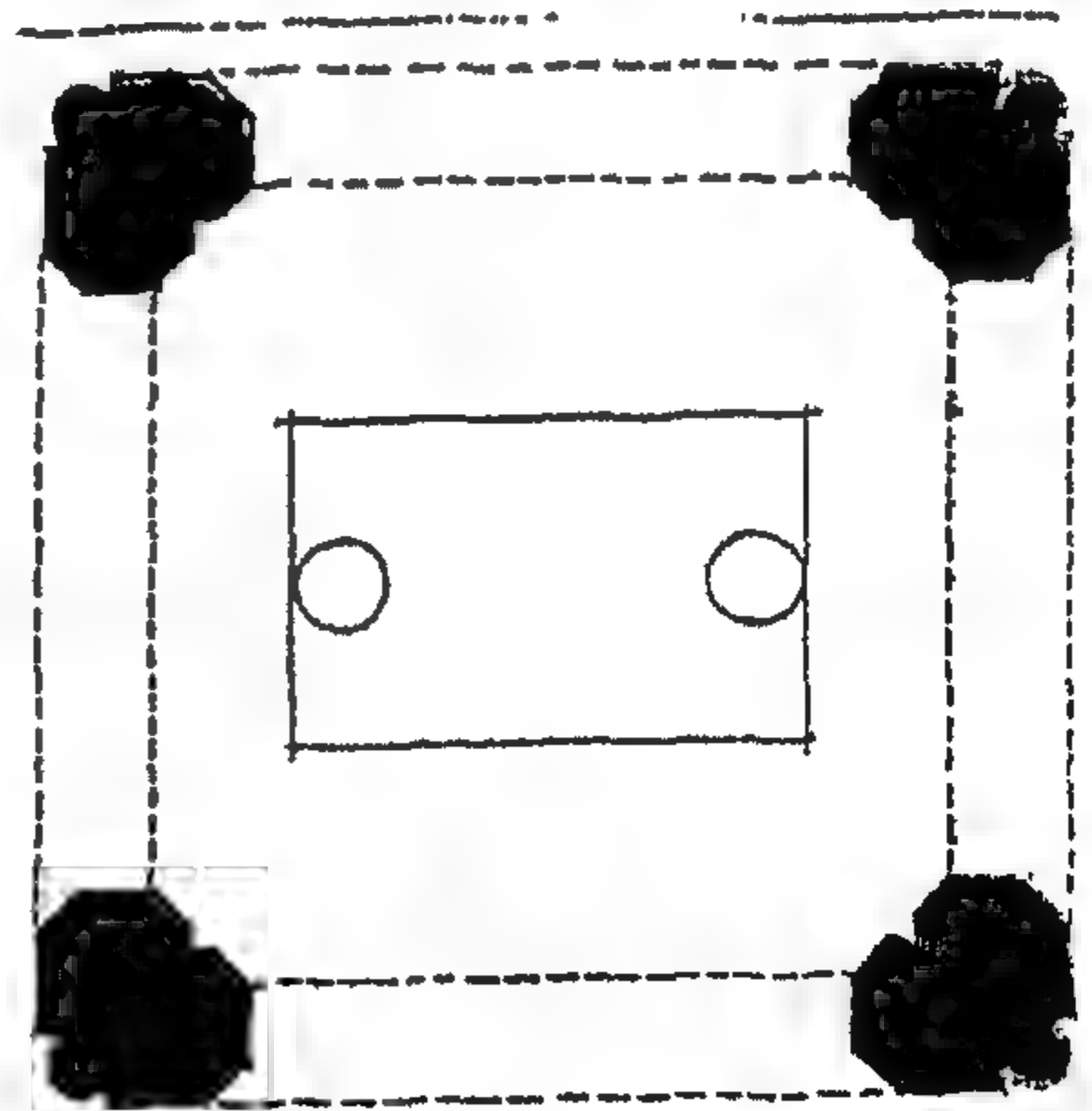
(شكل ١٧١) مسقط أفقي لقبة الشيخ سنان بدرب قرمز بالقاهرة (عن حمزة عبد العزيز).



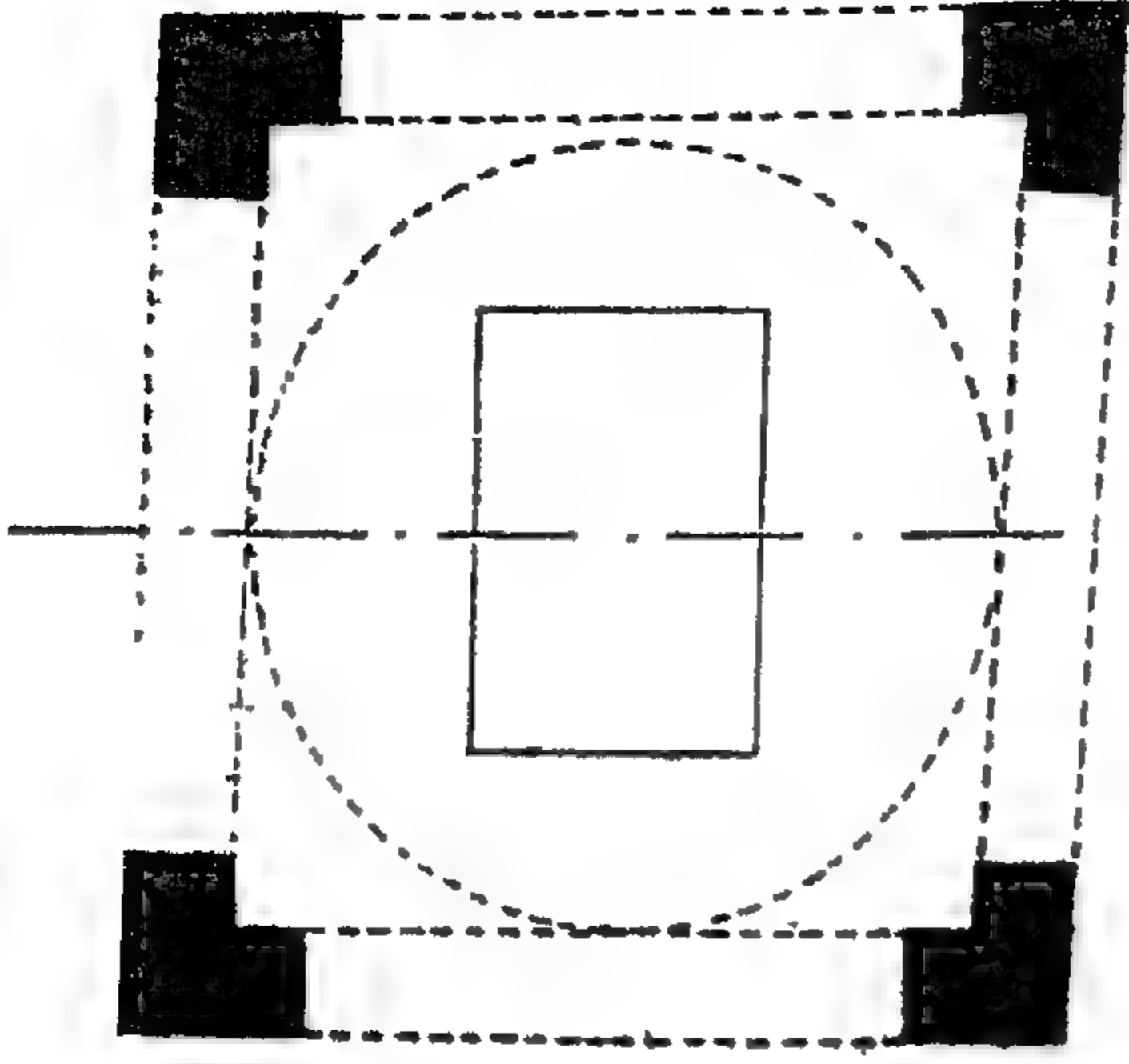
(شكل ١٧٠) مسقط أفقي لقبة الشيخ الروبي بالفيوم (عن إبراهيم عامر).



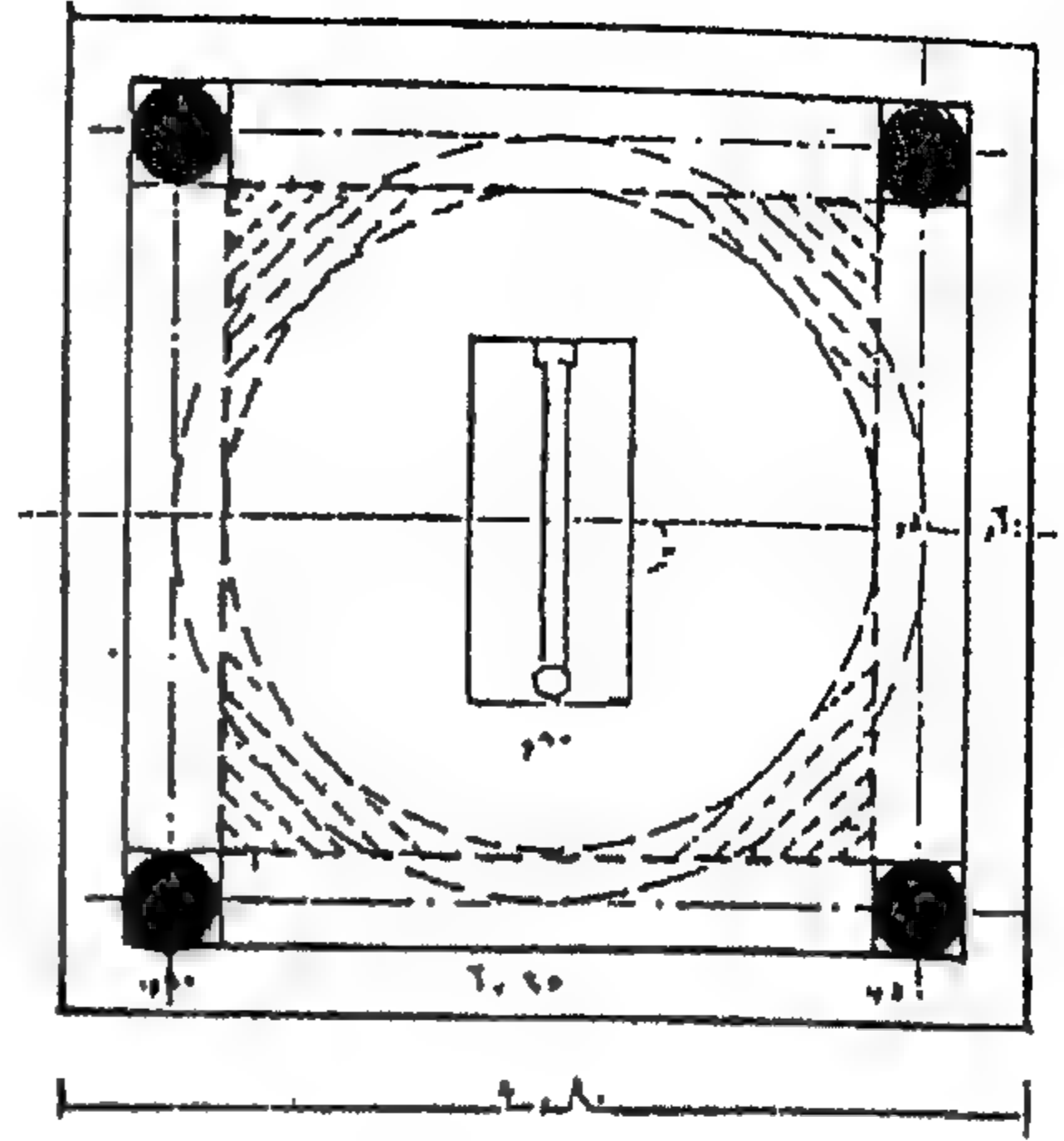
(شكل ١٧٢ مكرر) مسقط أفقي لمدفن مصطفى أغا جالق (بقرافة السيوطي بالقاهرة).



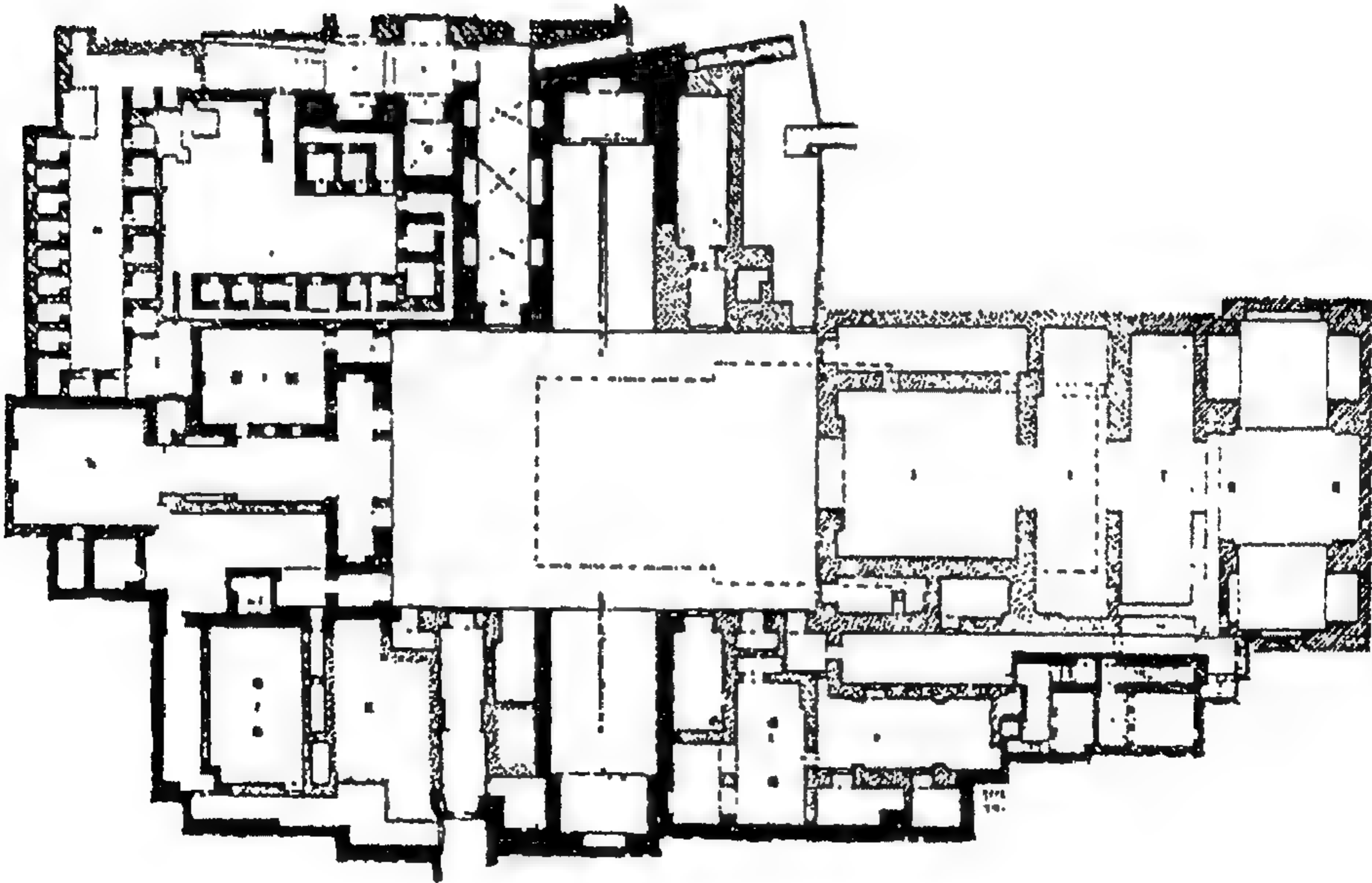
(شكل ١٧٢) مسقط أفقي لقبة المزني (عن : حمزة عبد العزيز).



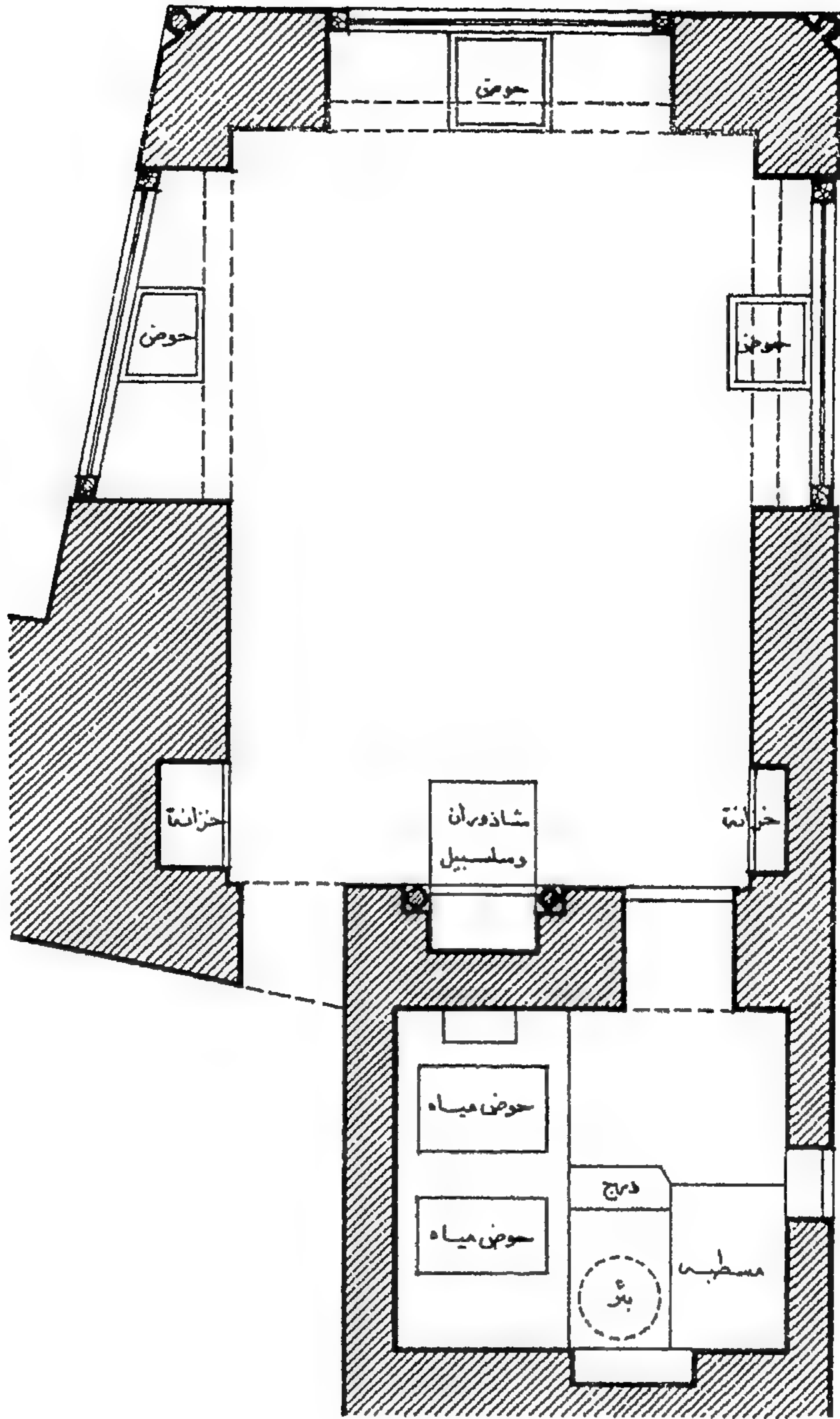
(شكل ١٧٣ مكرر) مسقط أفقي لقبة
أبو تراب بالعباسية .



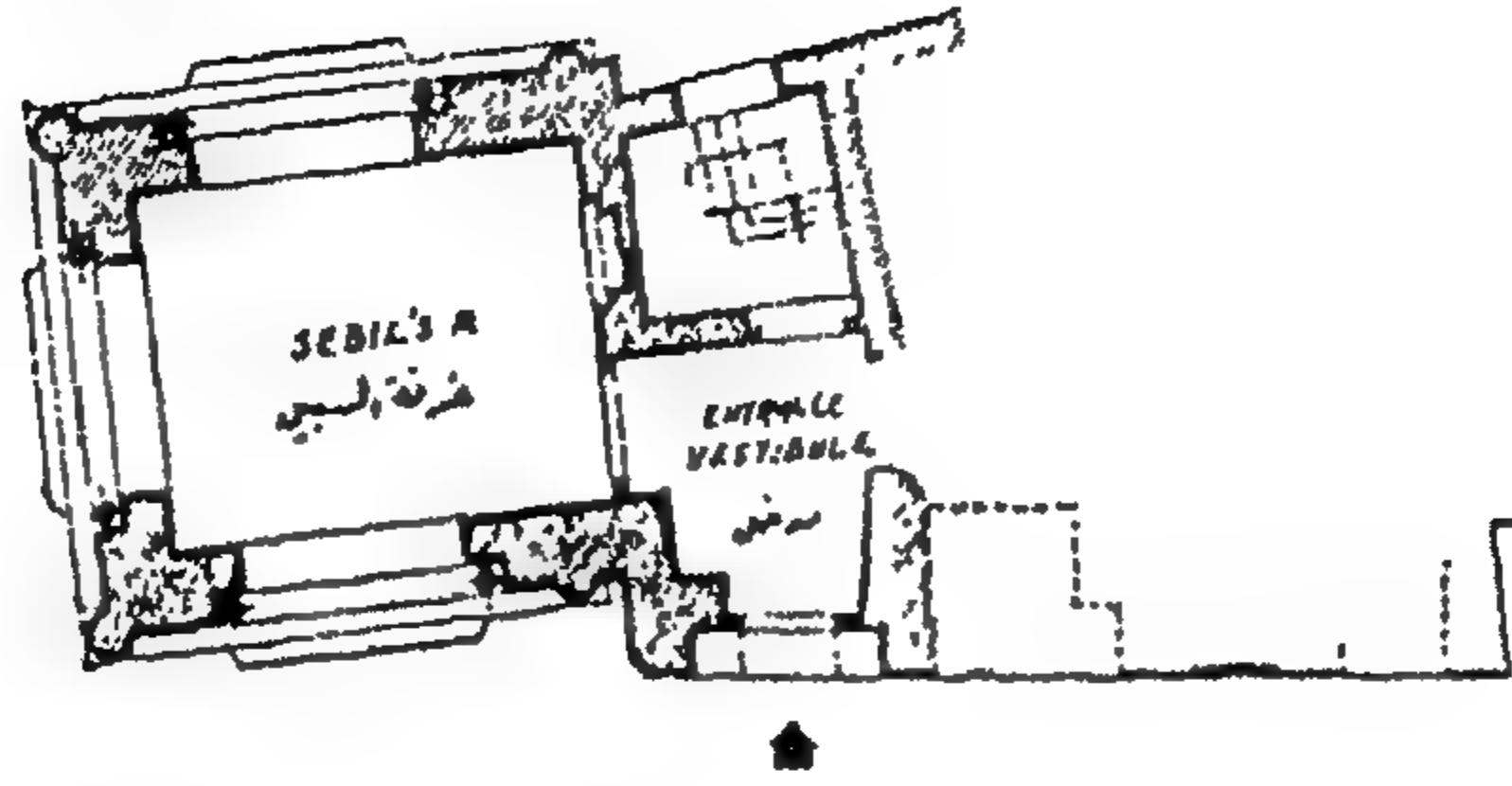
(شكل ١٧٣) مسقط أفقي لقبة رقية
دودو (عن: سوسن سليمان) .



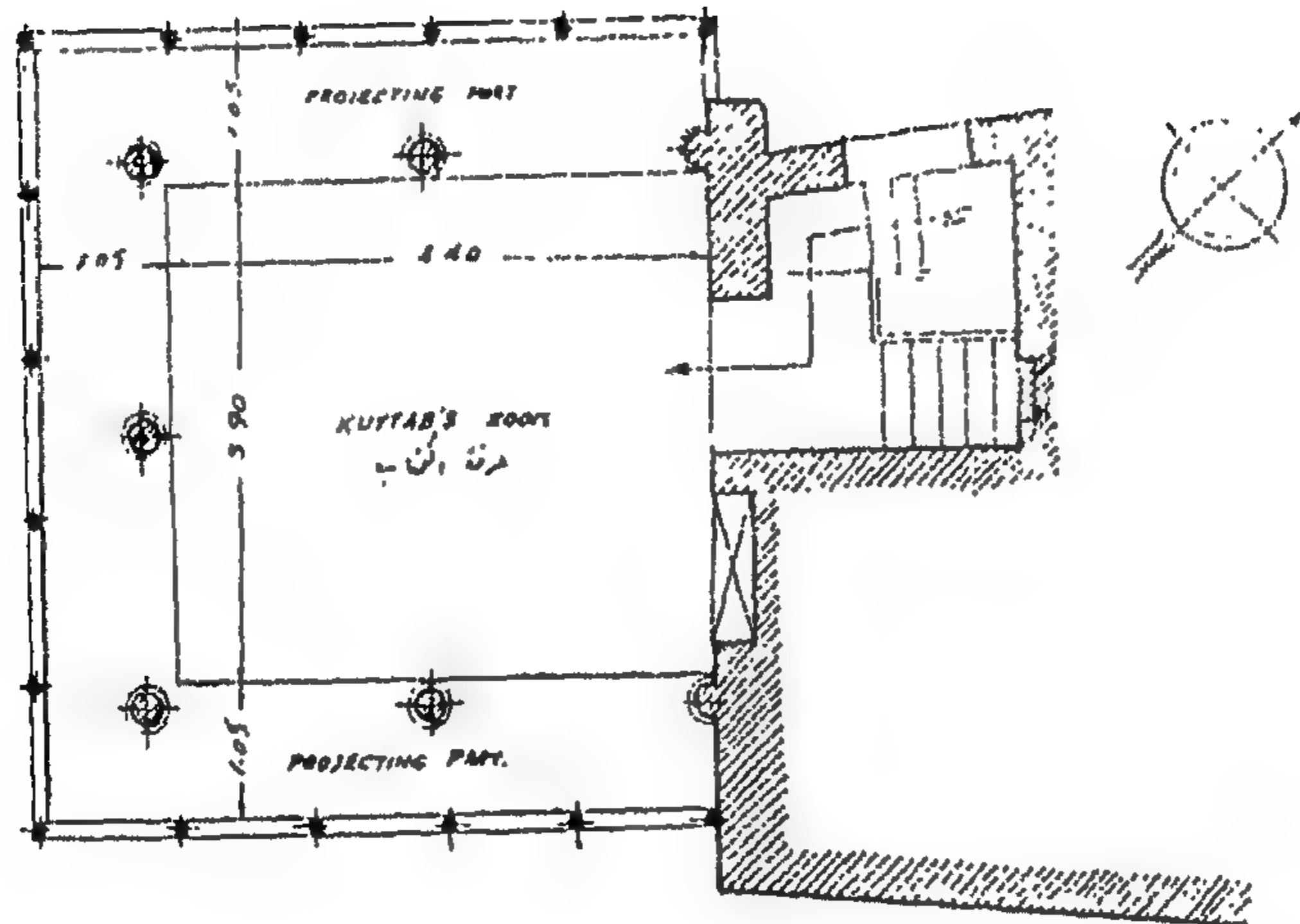
(شكل ١٧٤) مسقط أفقي للبيمارستان المنصوري بالقاهرة .
(عن: هرتزباشا) .



(شكل ١٧٥) مسقط أفقي لسبيل السلطان الغوري الملحق بقبته وخانقائه بالغورية
(عن : لمعي) .

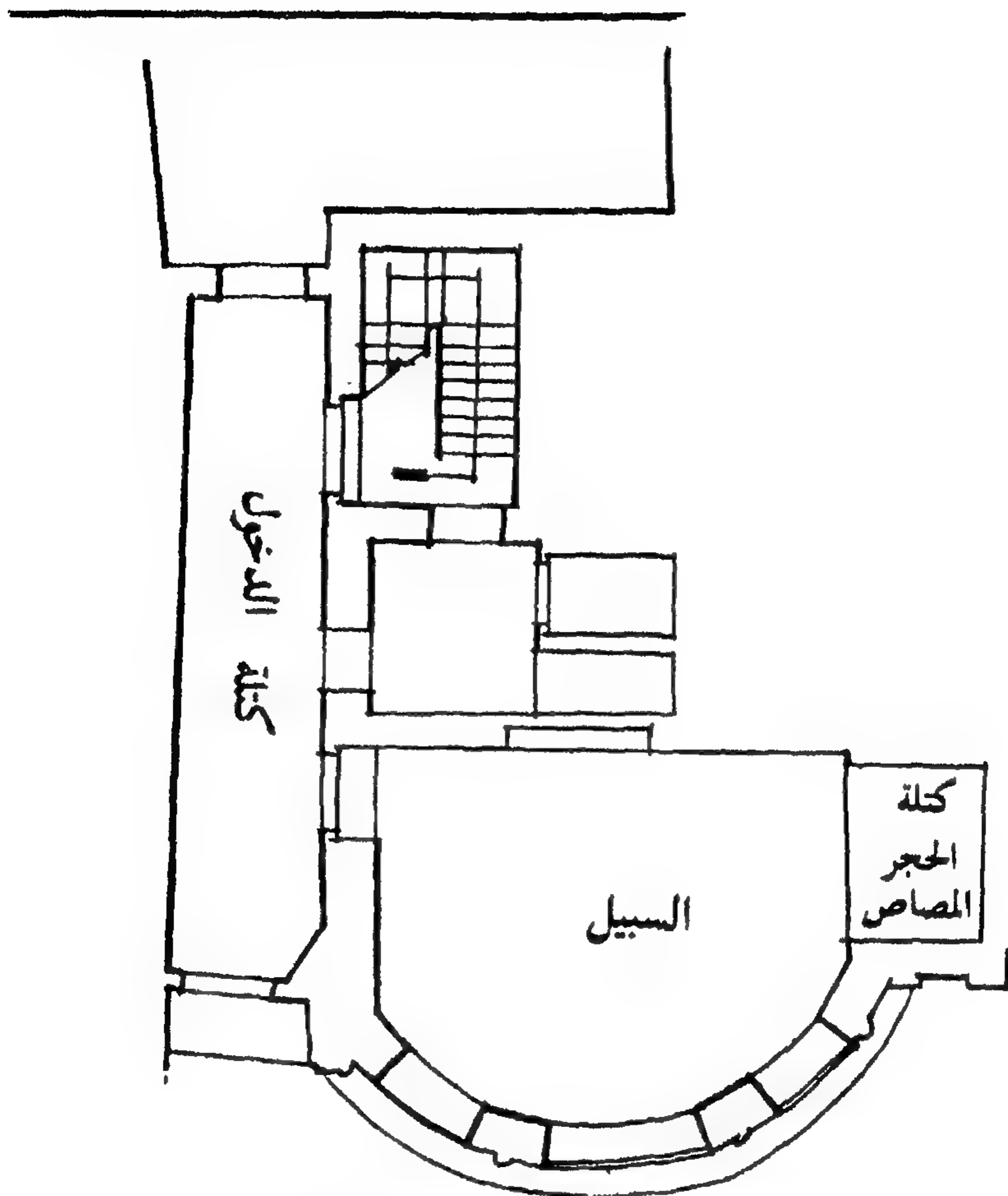


السبيل

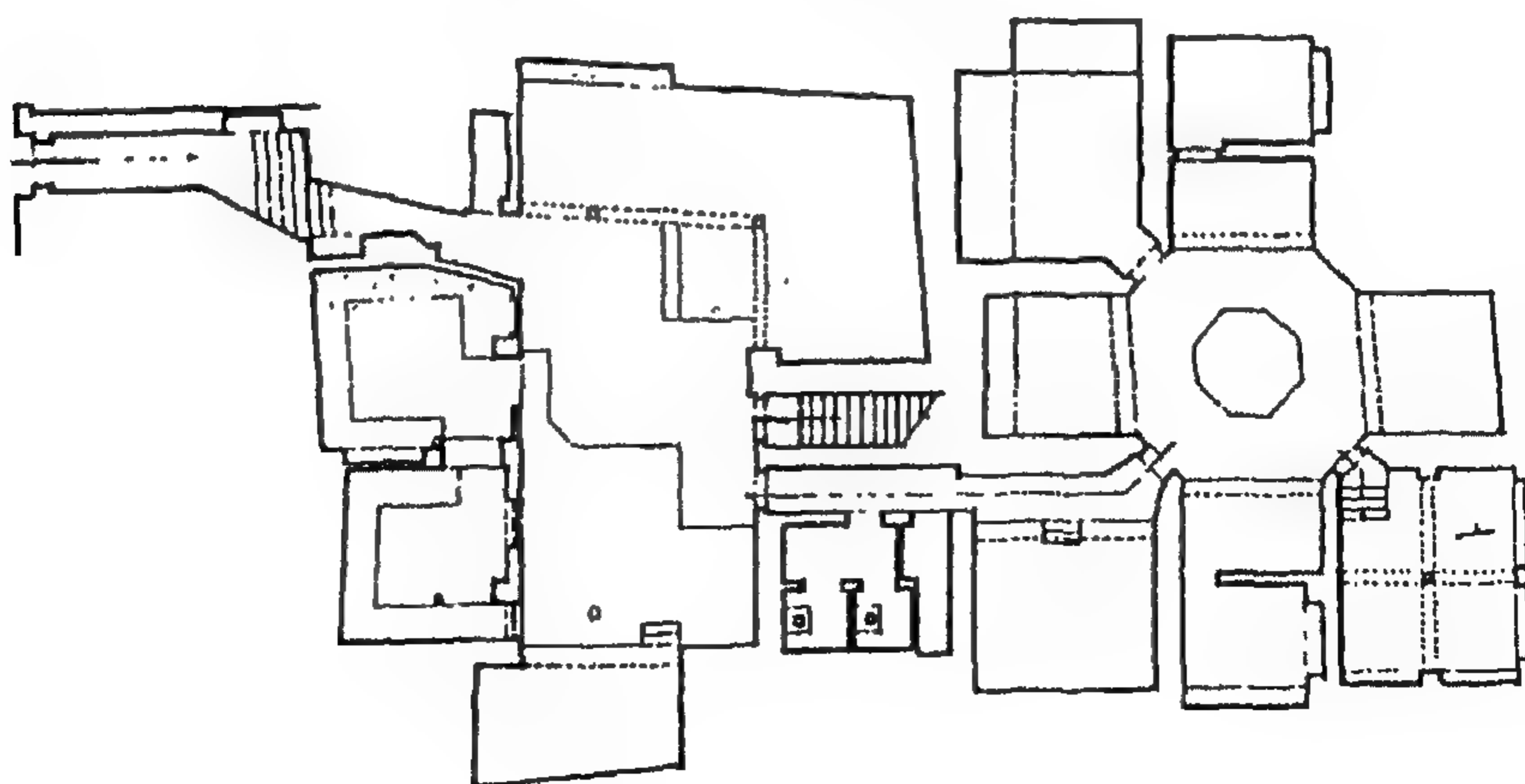


مكتب السبيل

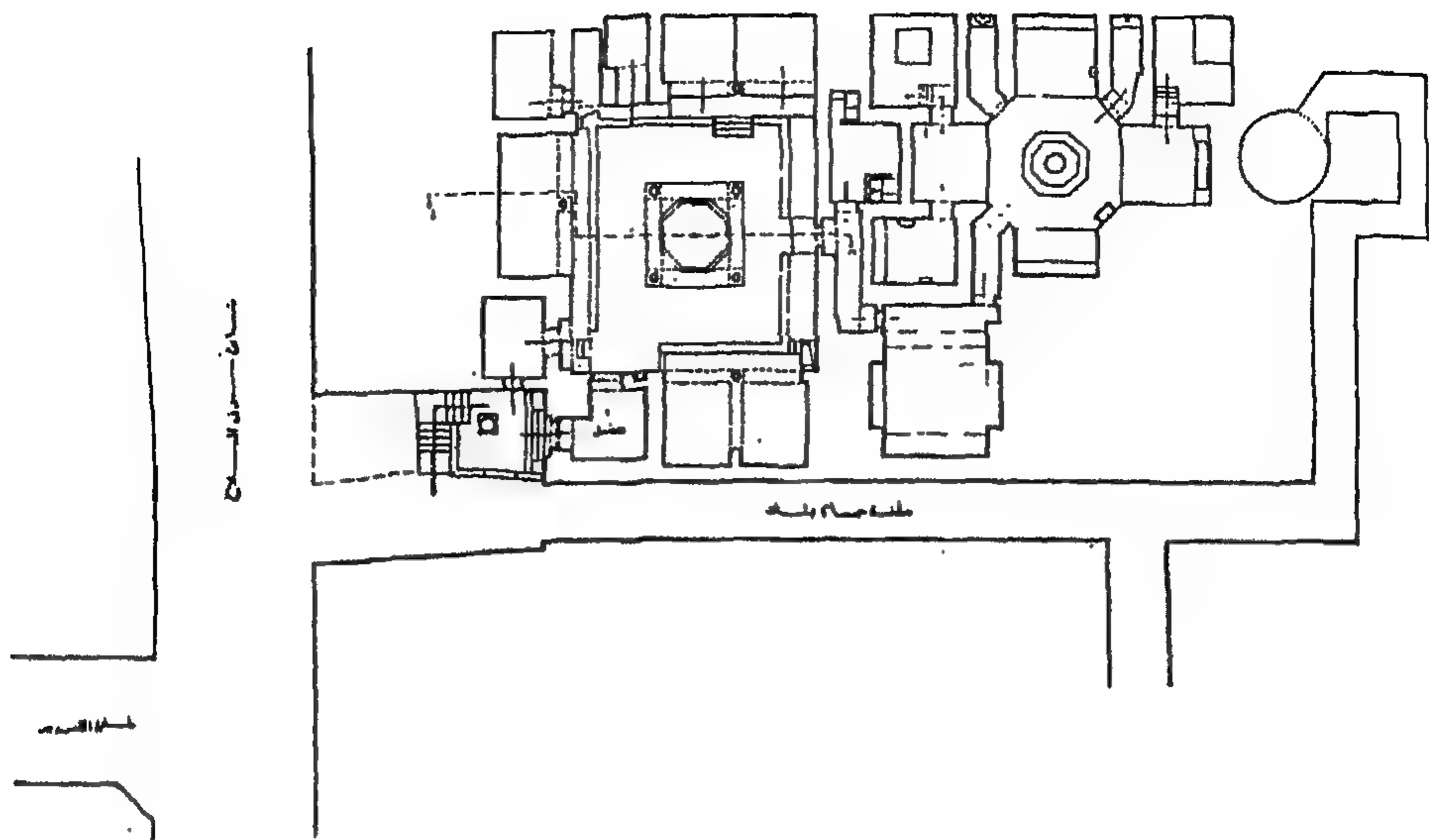
(شكل ١٧٦) مسقط أفقي لسبيل ومكتب سبيل الأمير عبد الرحمن كتحدا المعروف بسبيل بين القصرين بالقاهرة . (عن : كمال الدين سامح) .



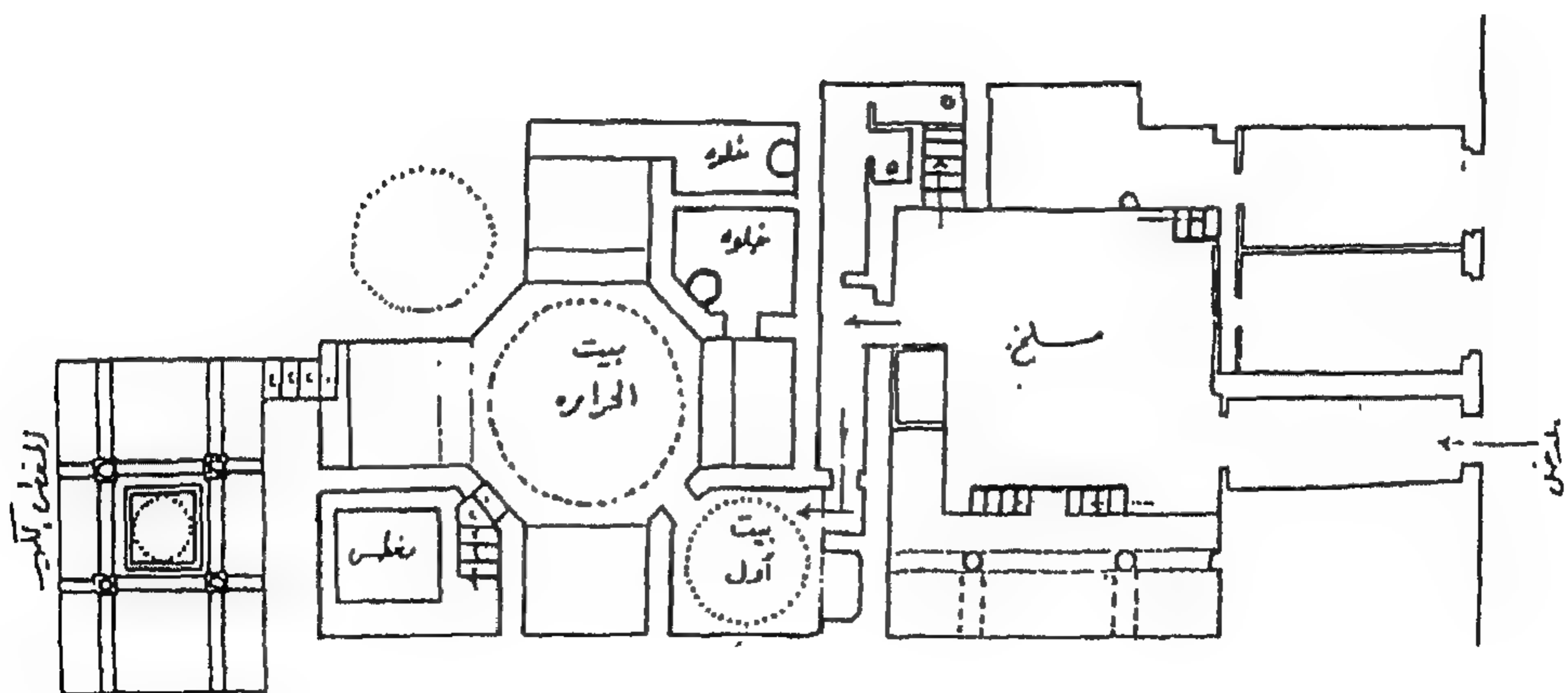
(شكل ١٧٧) مسقط أفقي لسبيل جنبلاط . (عن : محمود الحسيني) .



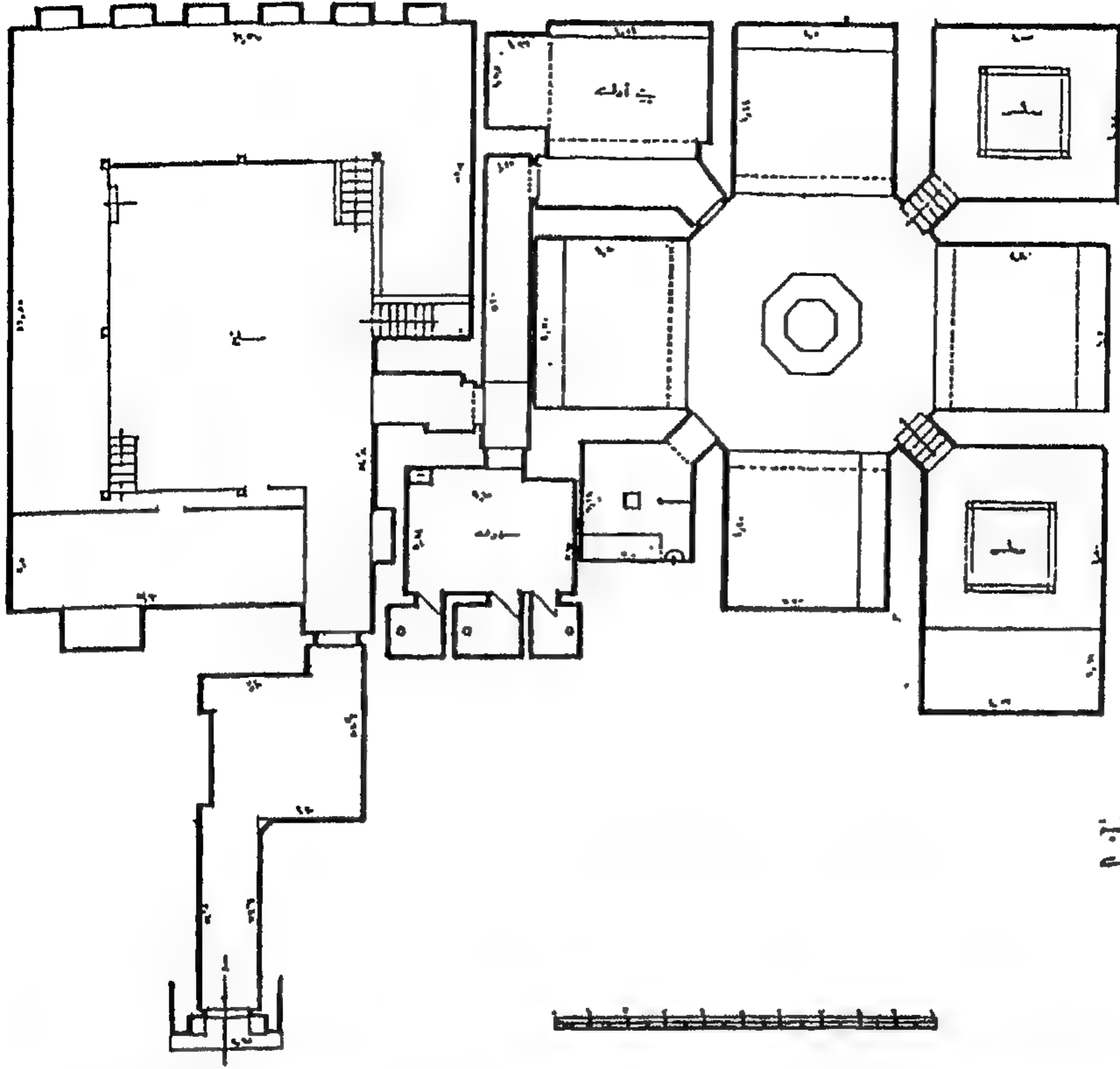
(شكل ١٧٨) مسقط أفقي لحمام السكرية بالقاهرة . (عن : سعاد حسن) .



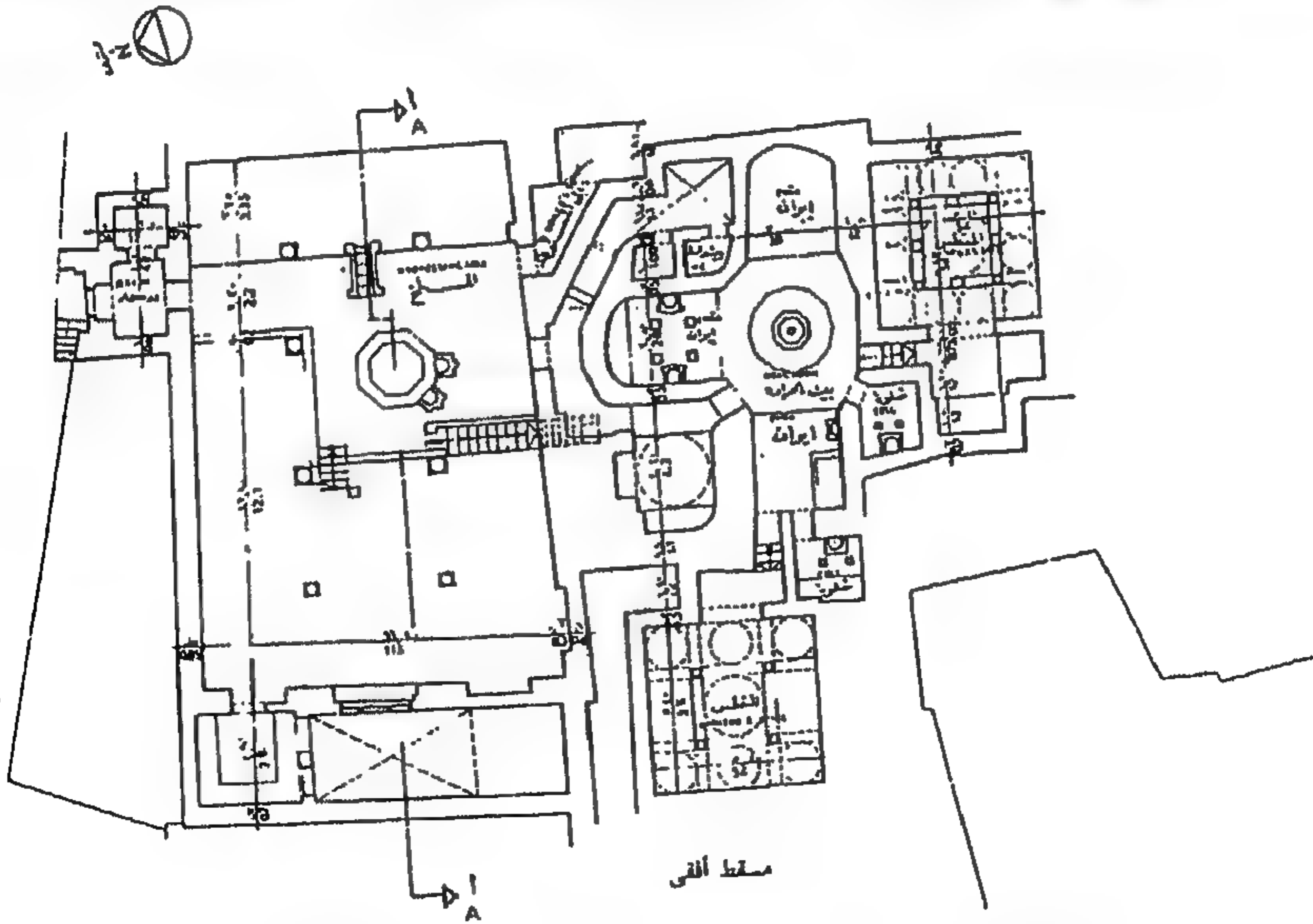
(شكل ١٧٩) مسقط أفقي لحمام يشتاك بالقاهرة. (عن المجلس الأعلى للآثار) .



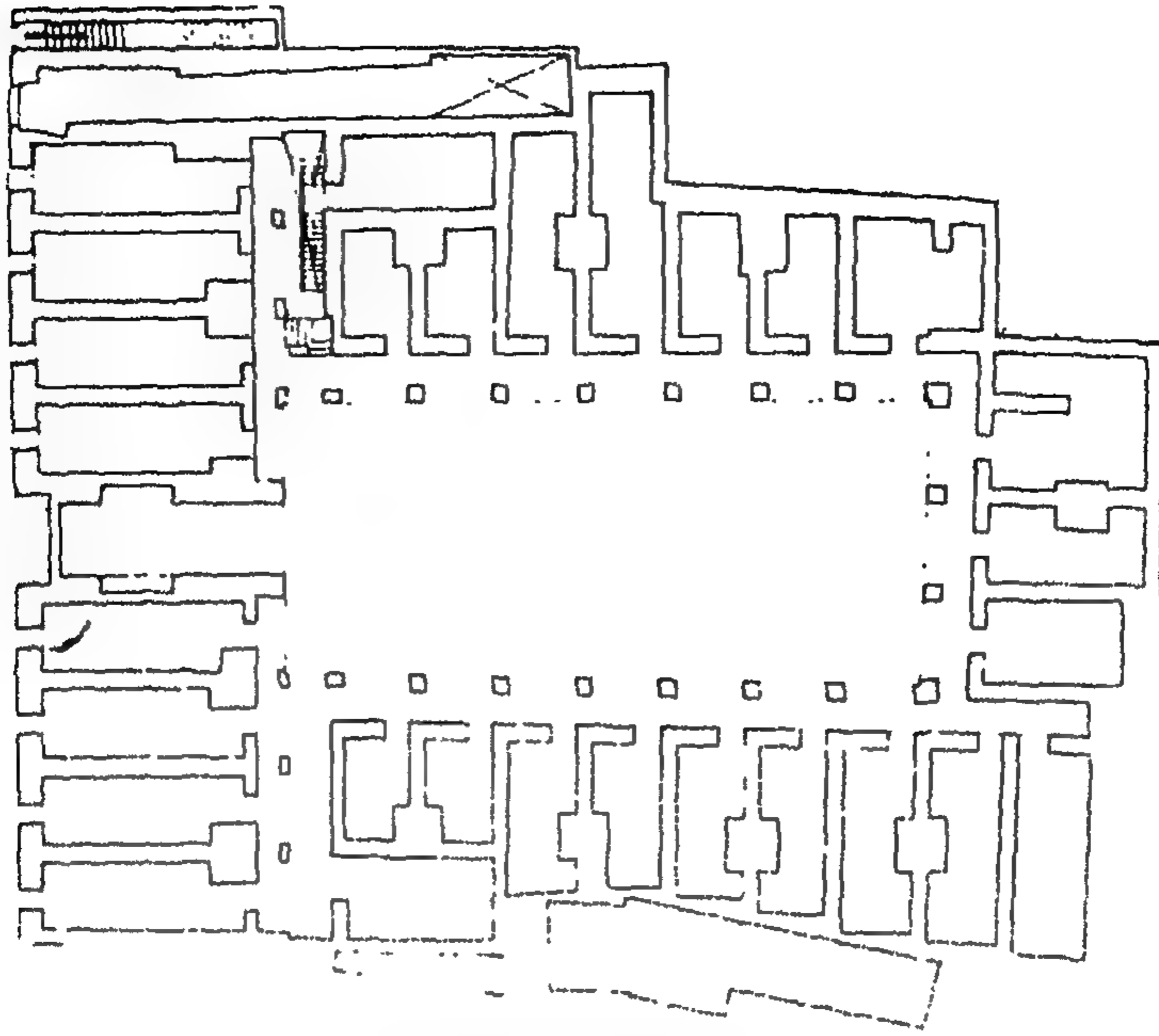
(شكل ١٨٠) مسقط أفقي لحمام الملاطيلي بالقاهرة. (عن Pauty) .



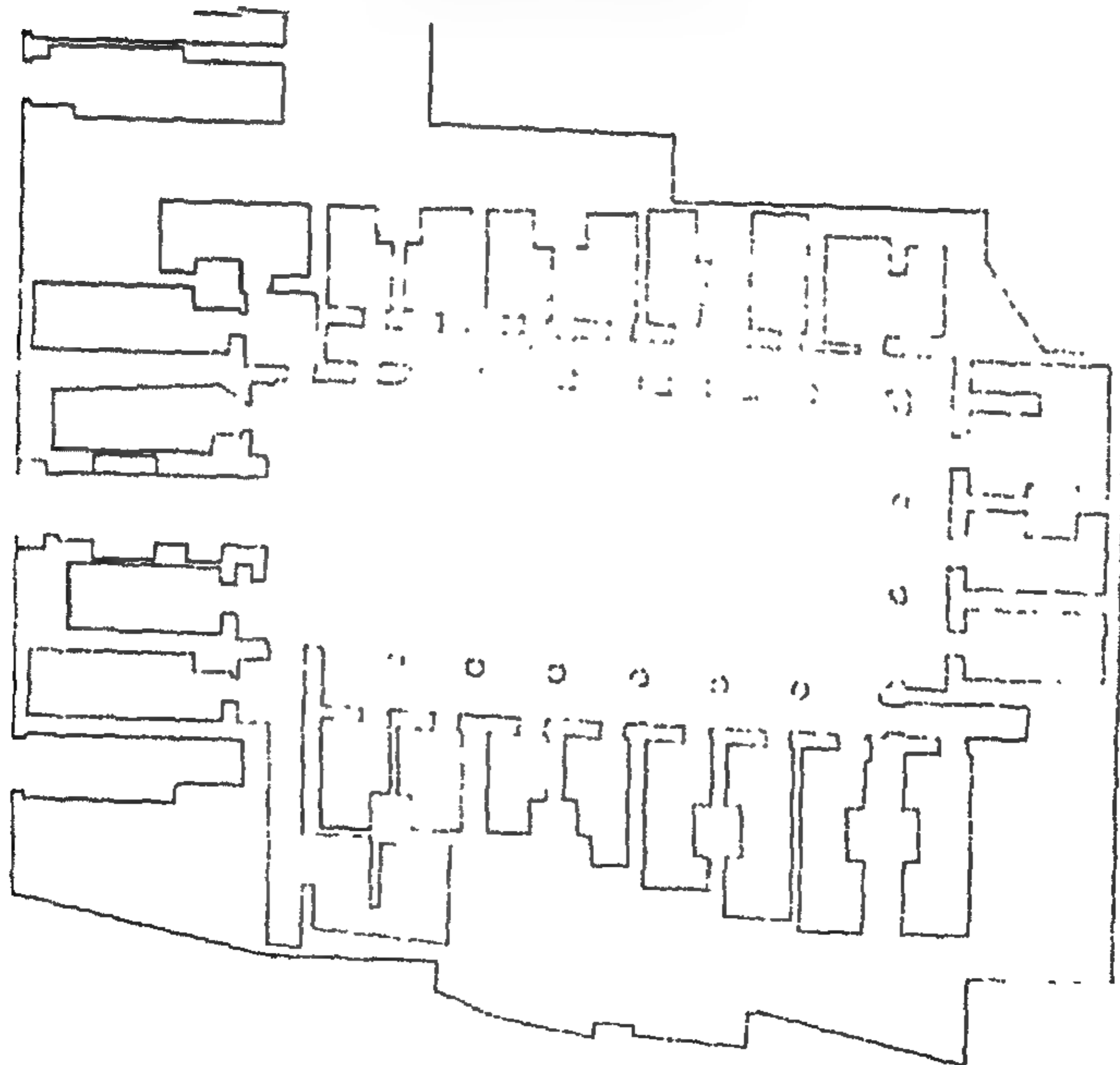
(شكل ١٨١) مسقط أفقي لحمام السنانية ببولاق بالقاهرة . (عن المجلس الأعلى للآثار) .



(شكل ١٨٢) مسقط أفقي لحمام الطنبلي بالقاهرة .
(عن موسوعة القاهرة لمنظمة العواصم الإسلامية) .

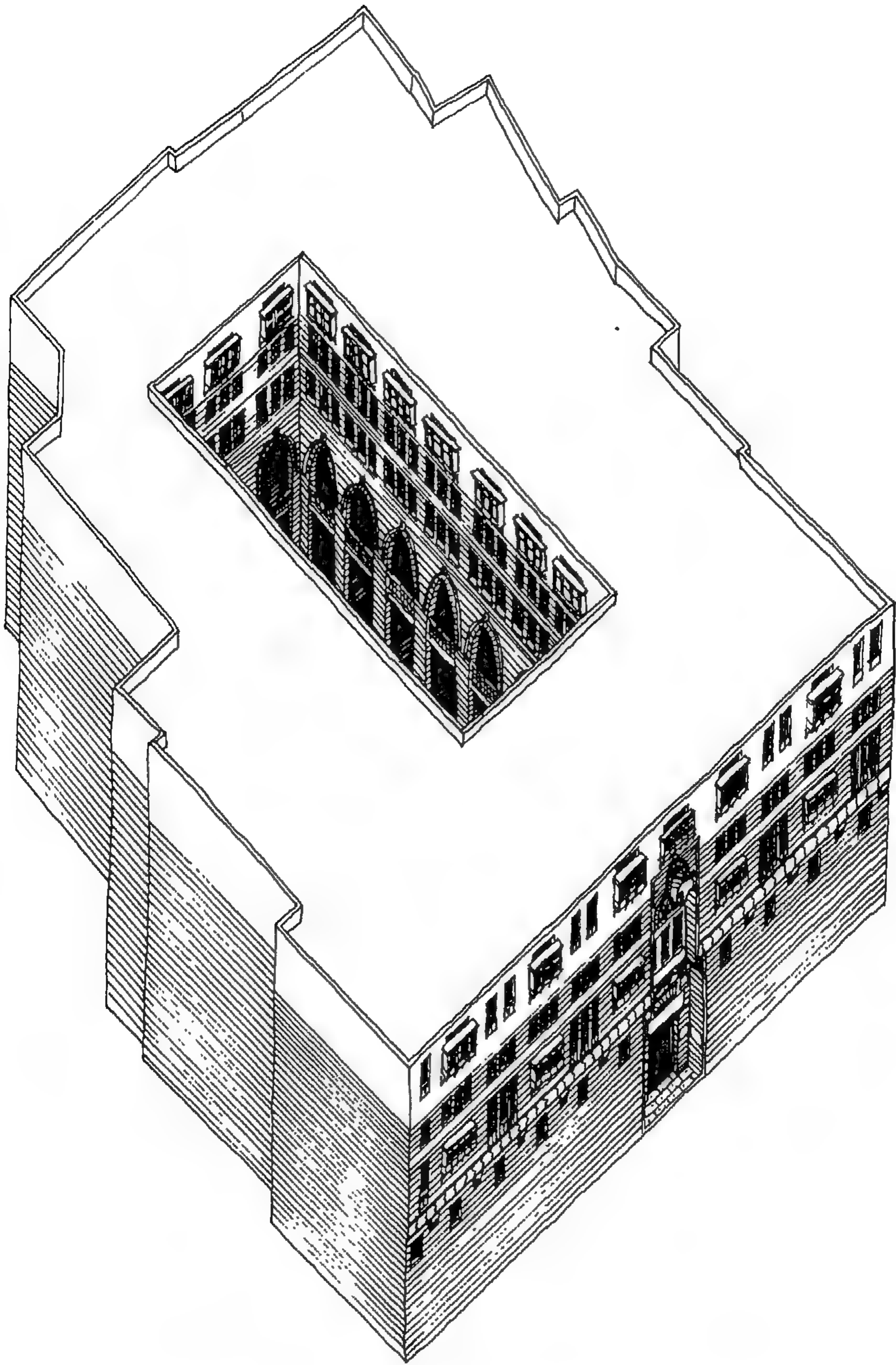


الطابق الأرضي

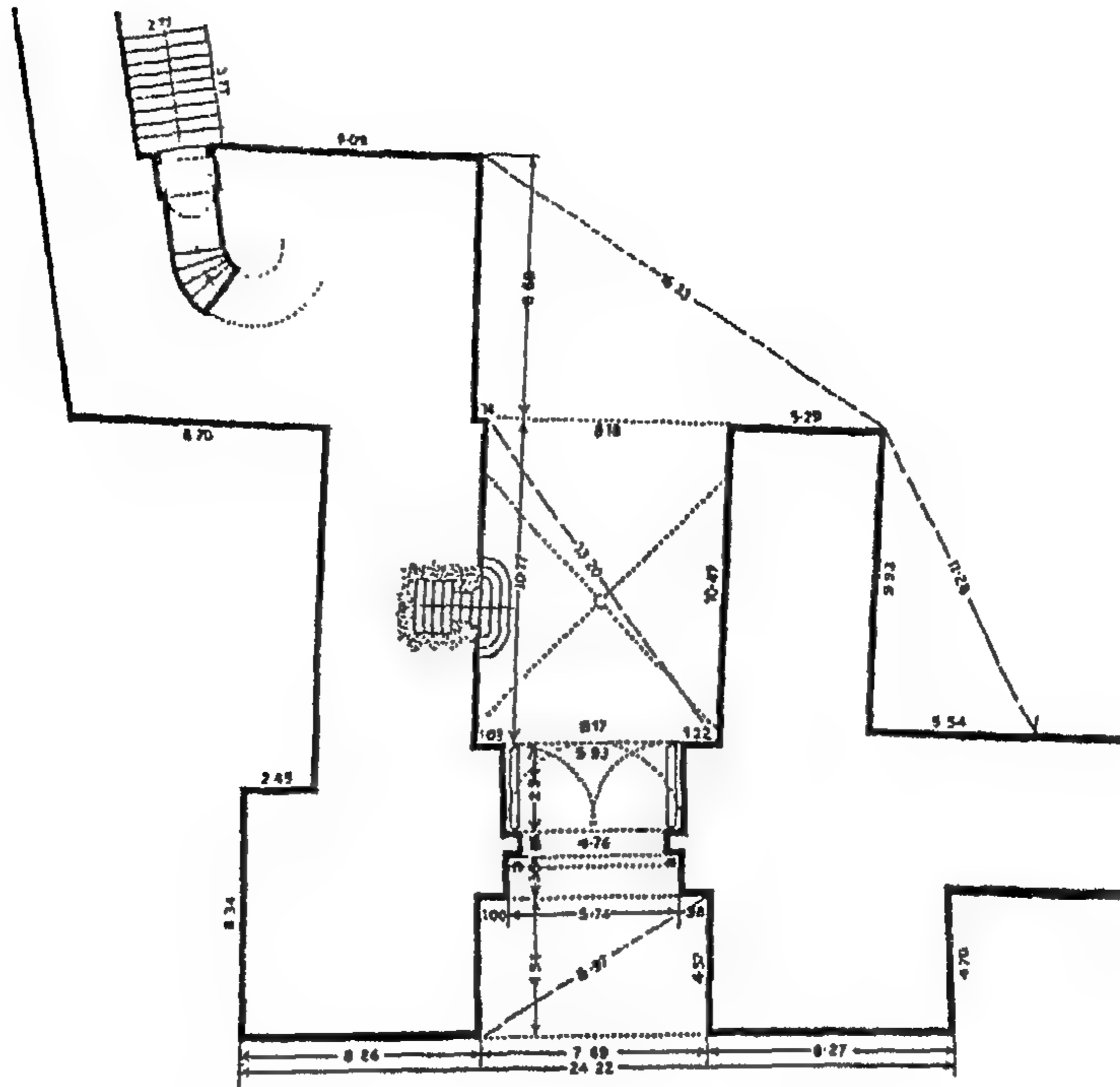


الطابق الأول

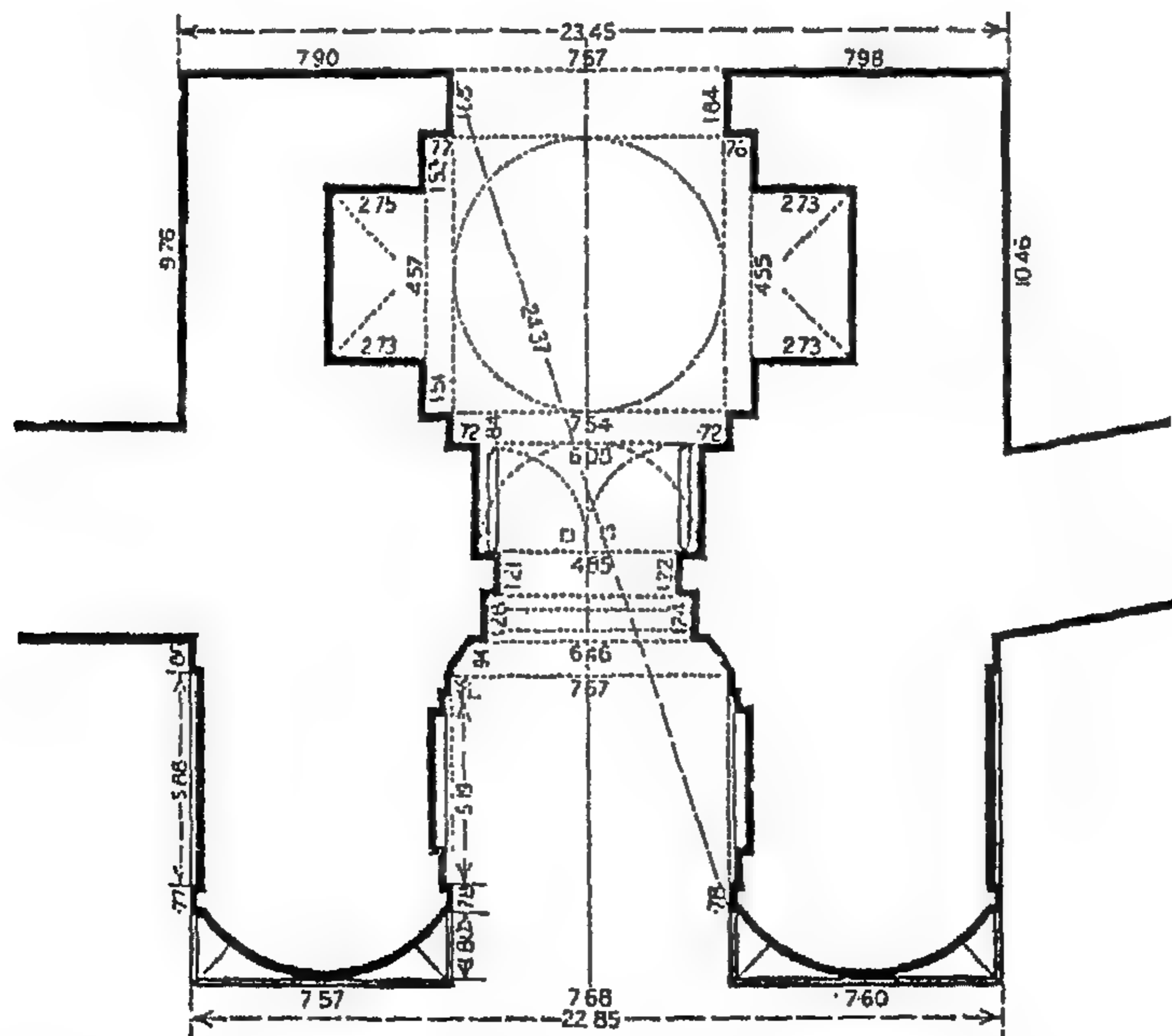
(شكل ١٨٣) مسقط أفقي لوكالة الغوري بالقاهرة . (الطابقان الأرضي والأول)
(عن : لمعي) .



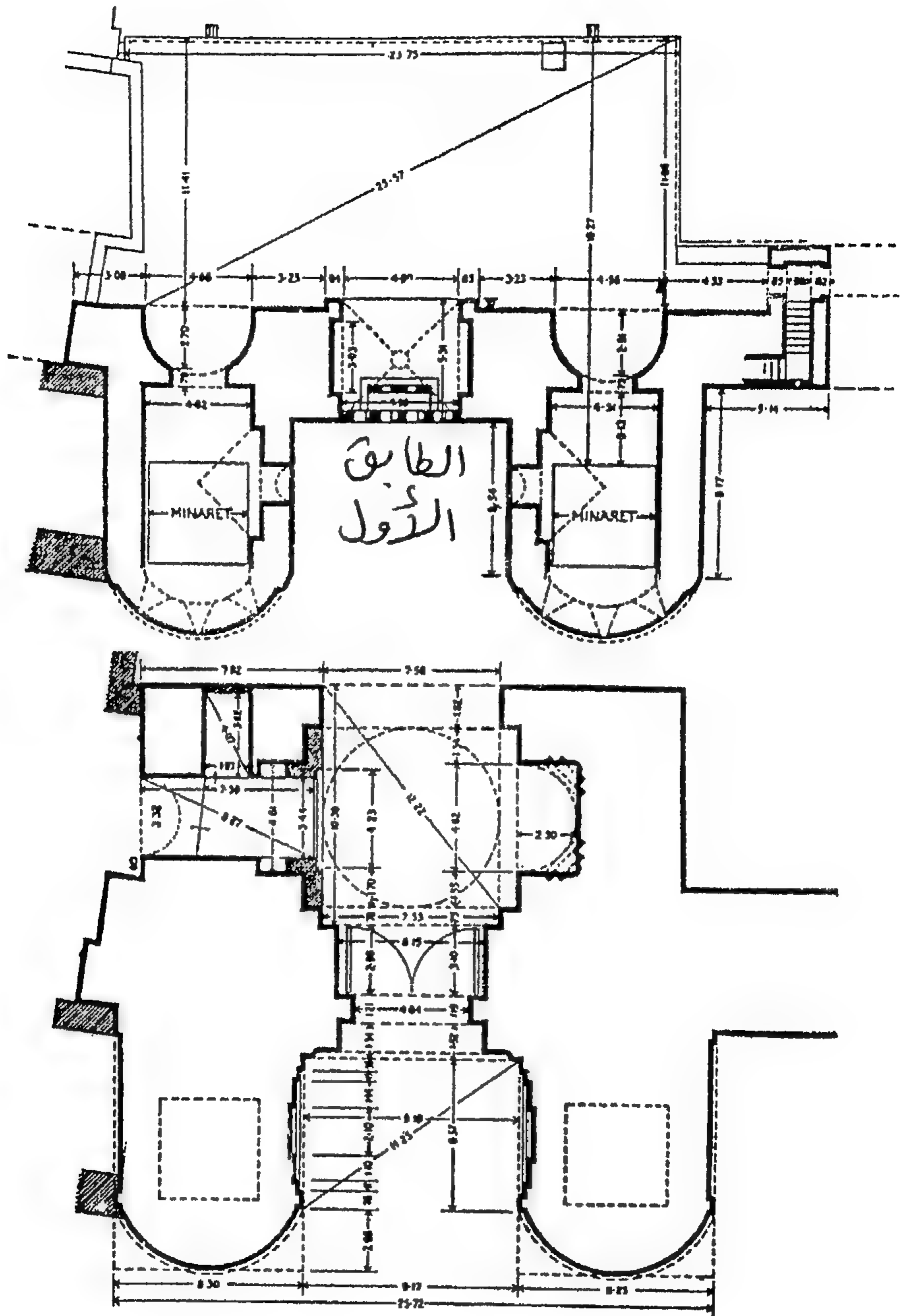
(شكل ١٨٣ مكرر) وكالة الغوري بالقاهرة . (عن : هيلنيراند) .



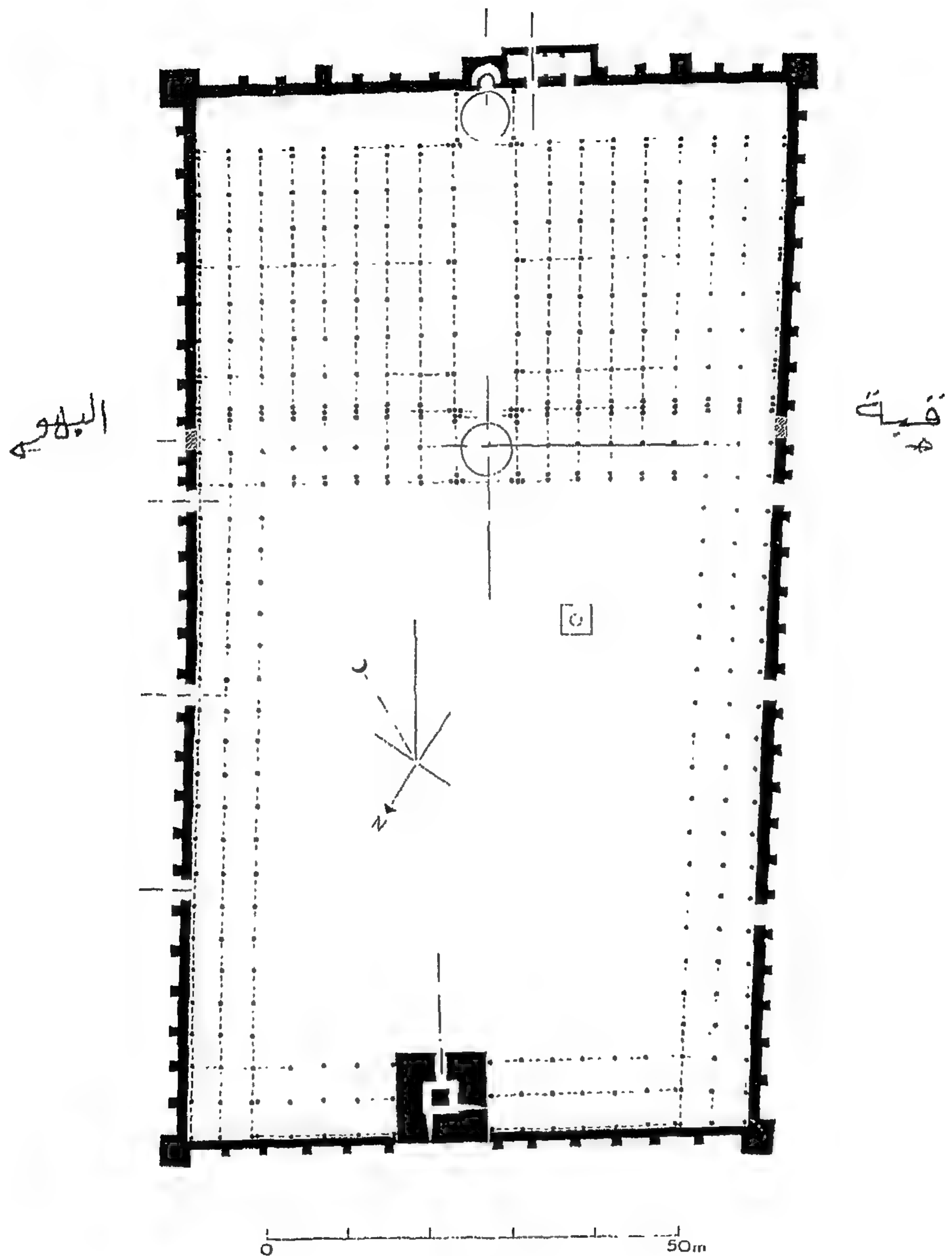
(شكل ١٨٤) مسقط أفقي لباب النصر ٤٨٠هـ/١٠٨٧م. (عن: كريزول).



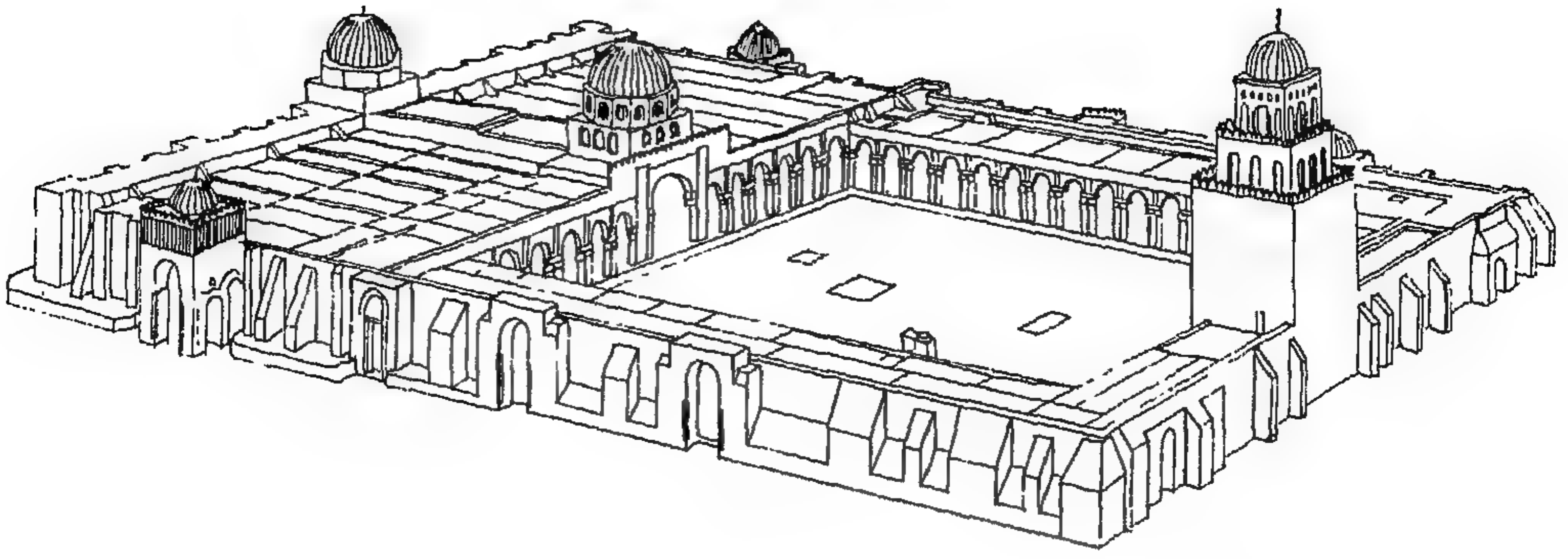
(شكل ١٨٤ مكرر) مسقط أفقي لباب الفتوح ٤٨٠هـ/١٠٨٧م (عن : كريسول).



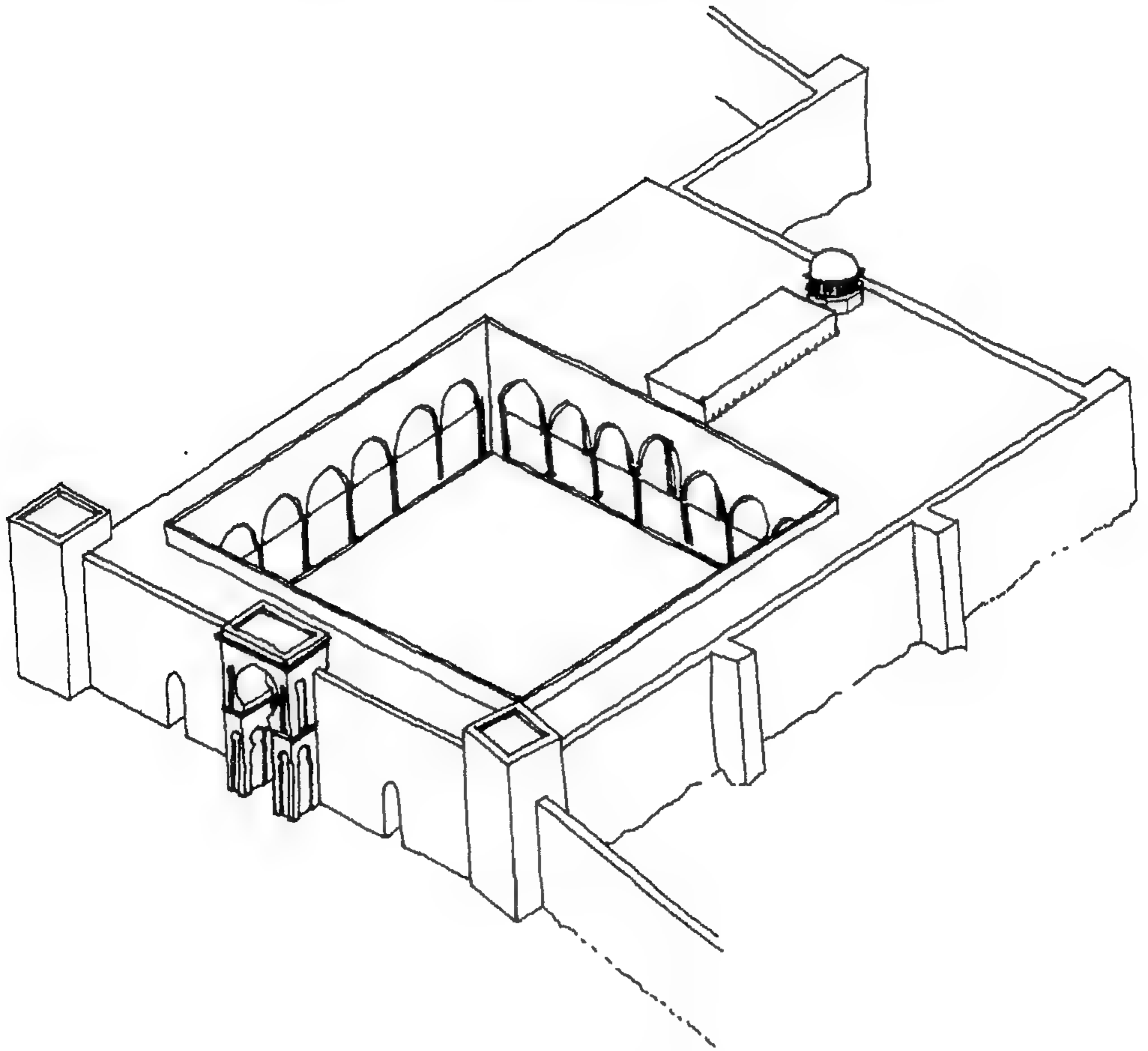
(شكل ١٨٥) مسقط أفقي لباب زويلة المعروف ببوابة المتولي ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م .
(الطابقان الأرضي والأول) - (عن : كريزول) -



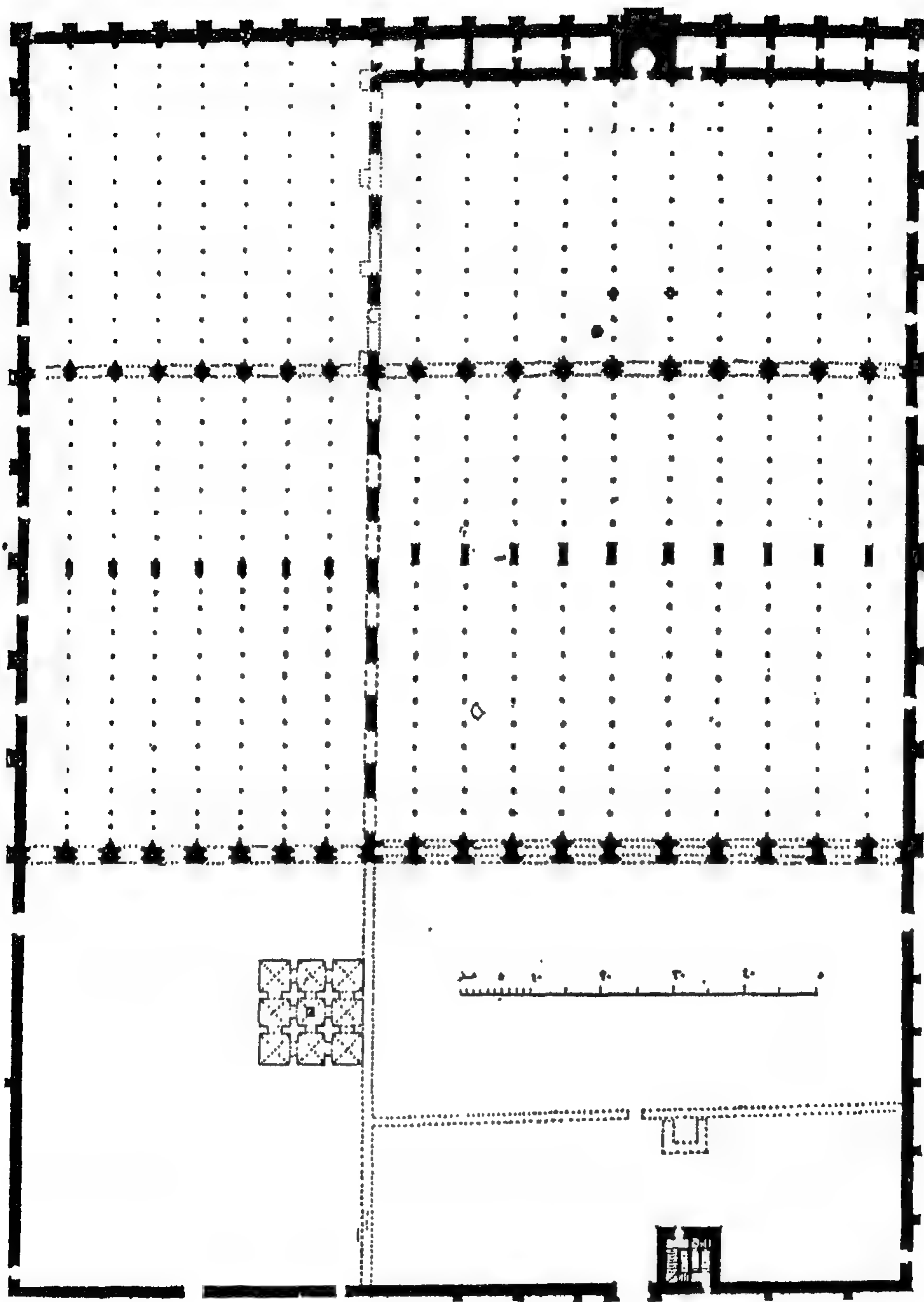
(شكل ١٨٦) مسقط أفقي لجامع القيروان بتونس (عن : Lezine) .



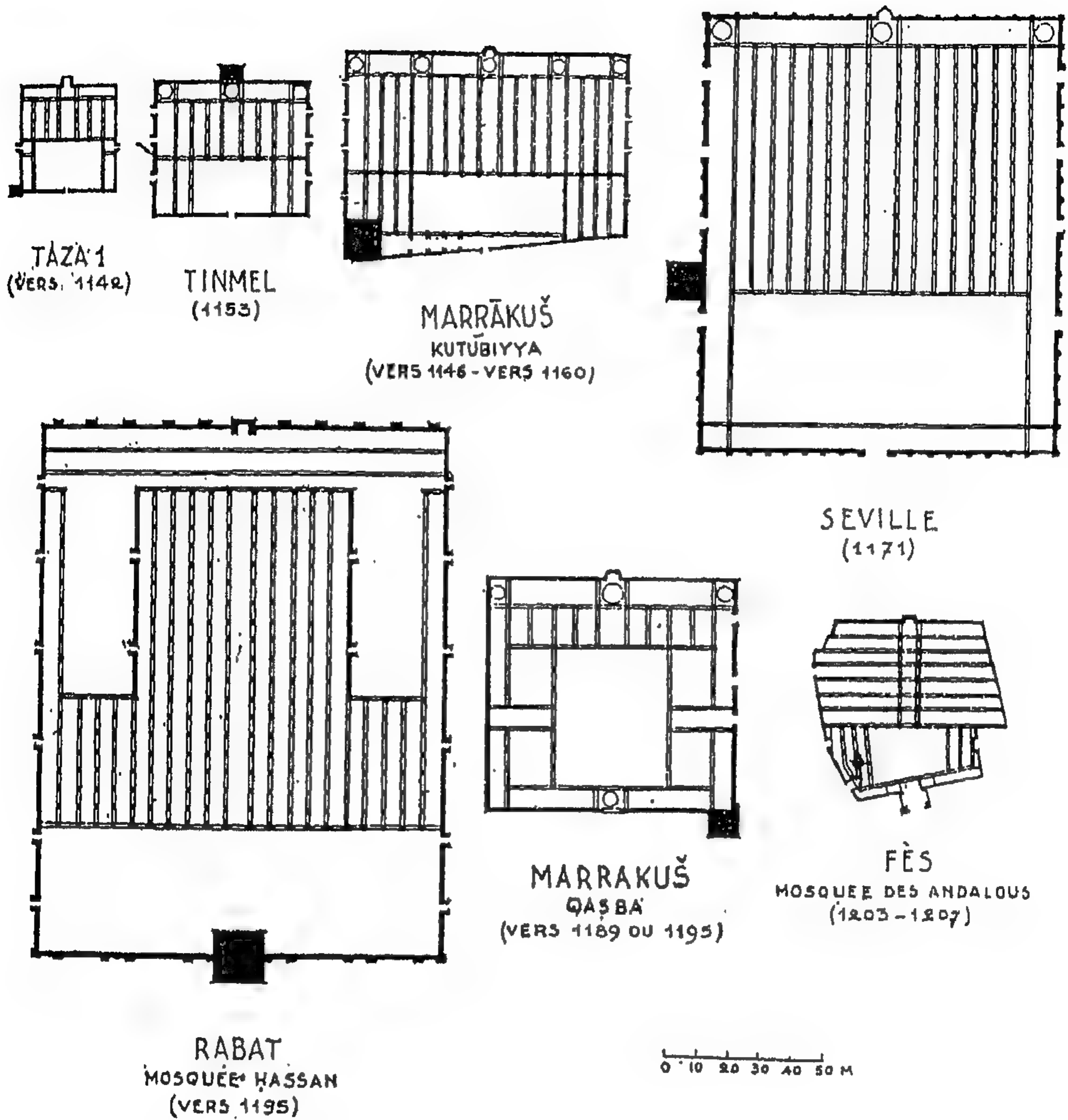
(شکل ۱۸۶ مکرر) جامع القيروان بتونس . (عن : هيلنبراند) .



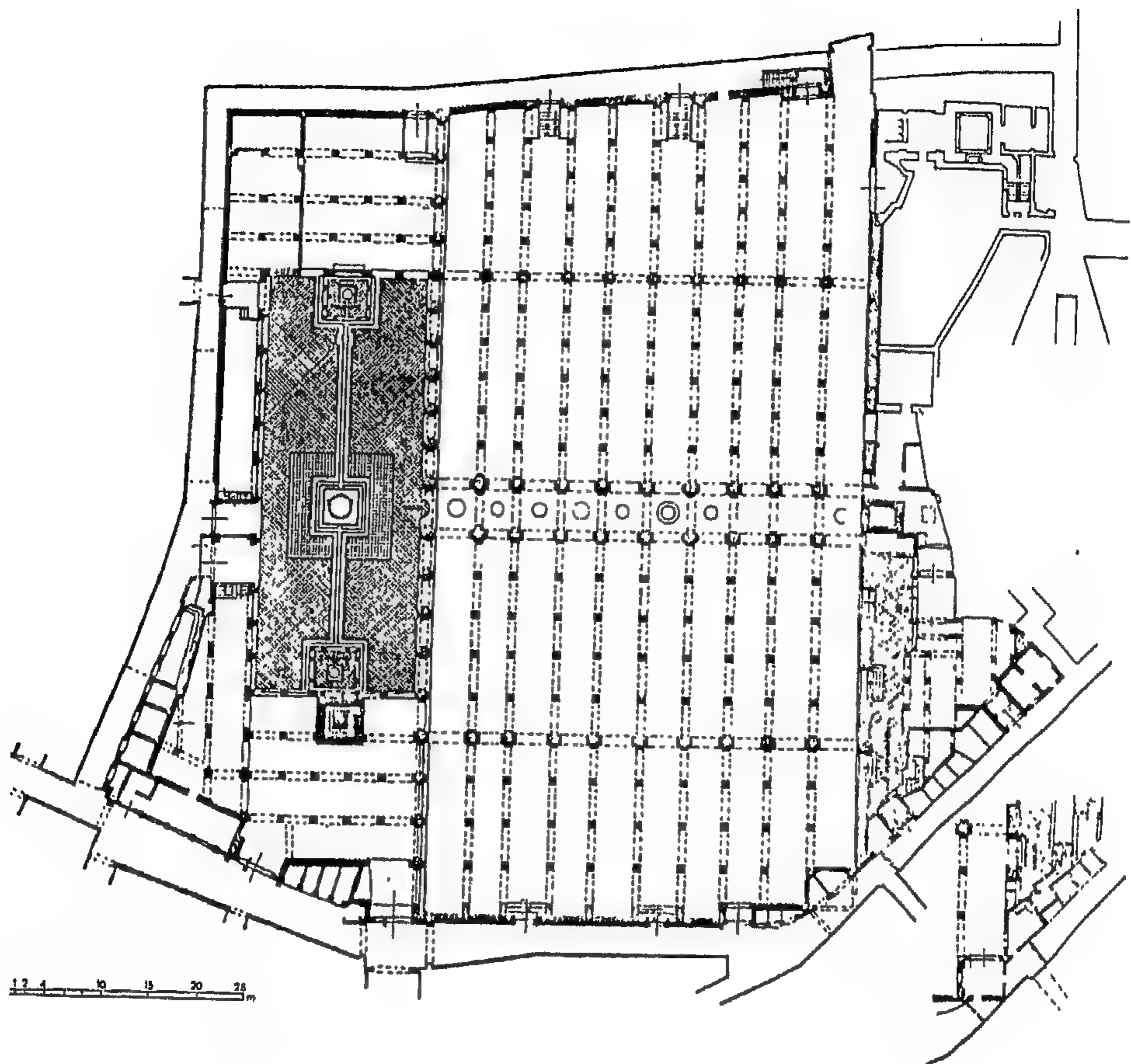
(شکل ۱۸۷) جامع المهدية بتونس . (عن : هيلنبراند) .



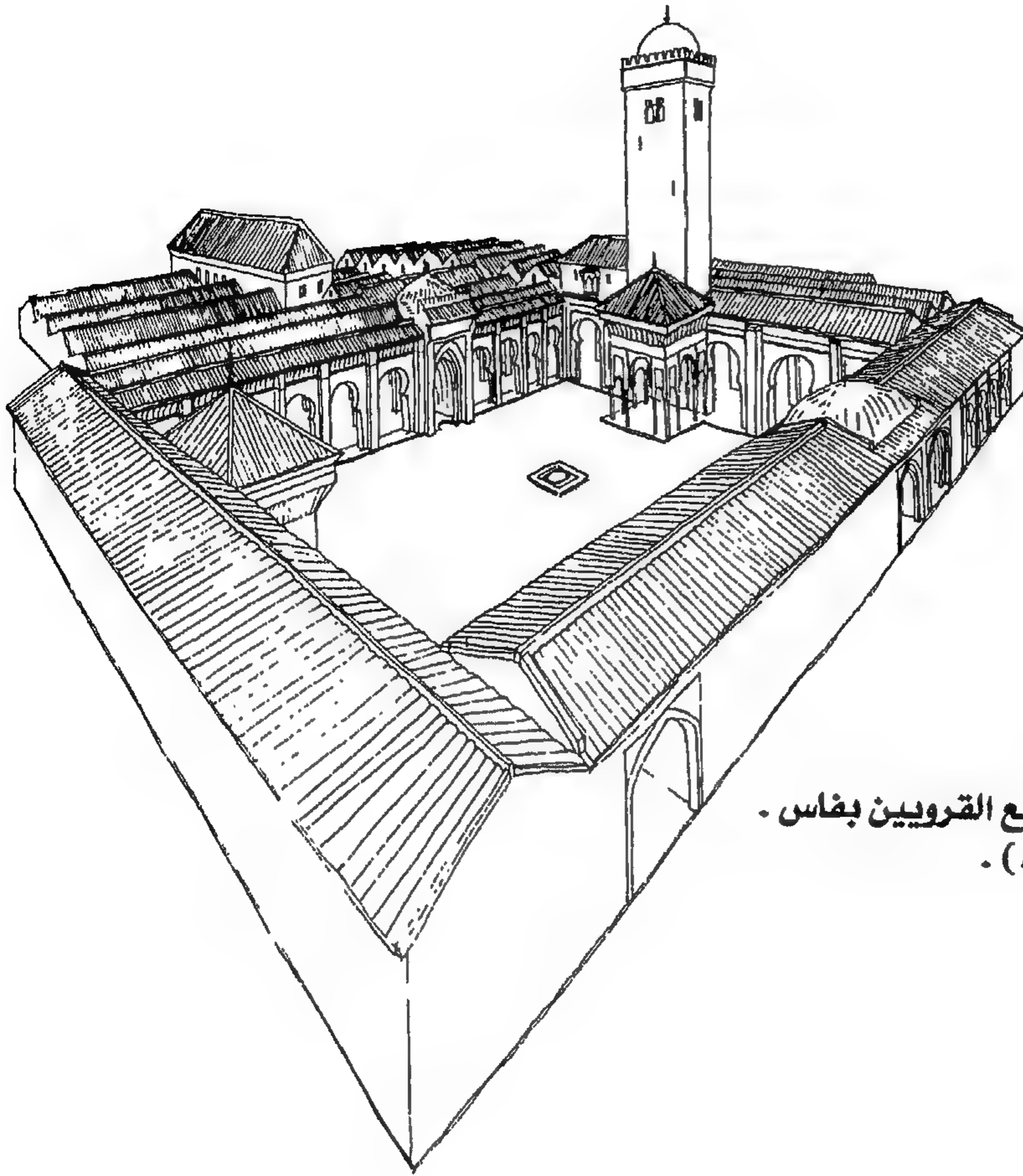
(شكل ١٨٨) مسقط أفقي لجامع قرطبة. (عن : Moreno) .



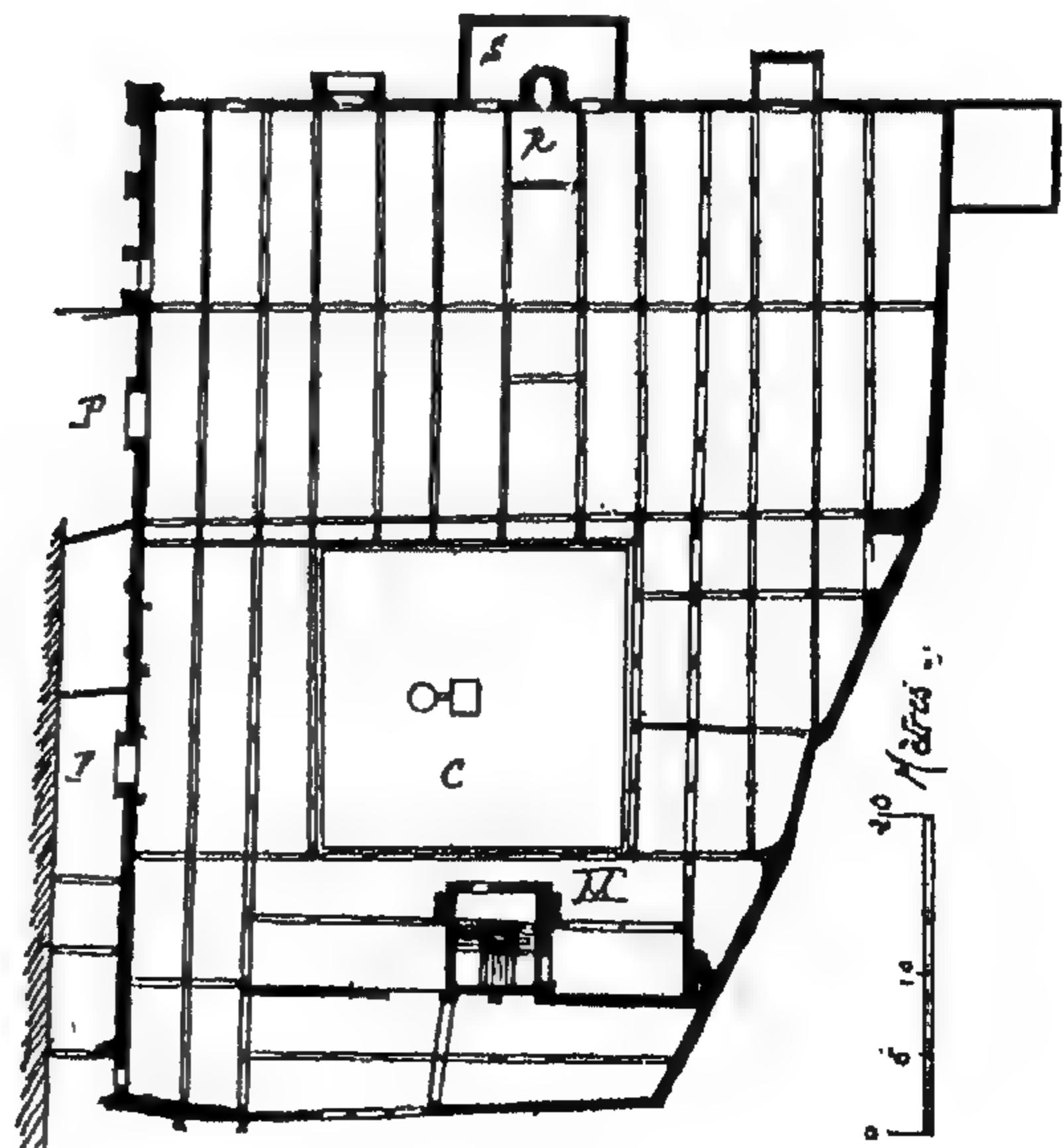
(شكل ١٨٩) مسقط أفقي لبعض الجوامع التي صممت علي غرار جامع قرطبة والمتطورة عنه في إشبيلية والمغرب الأقصى . (عن : Lambert) .



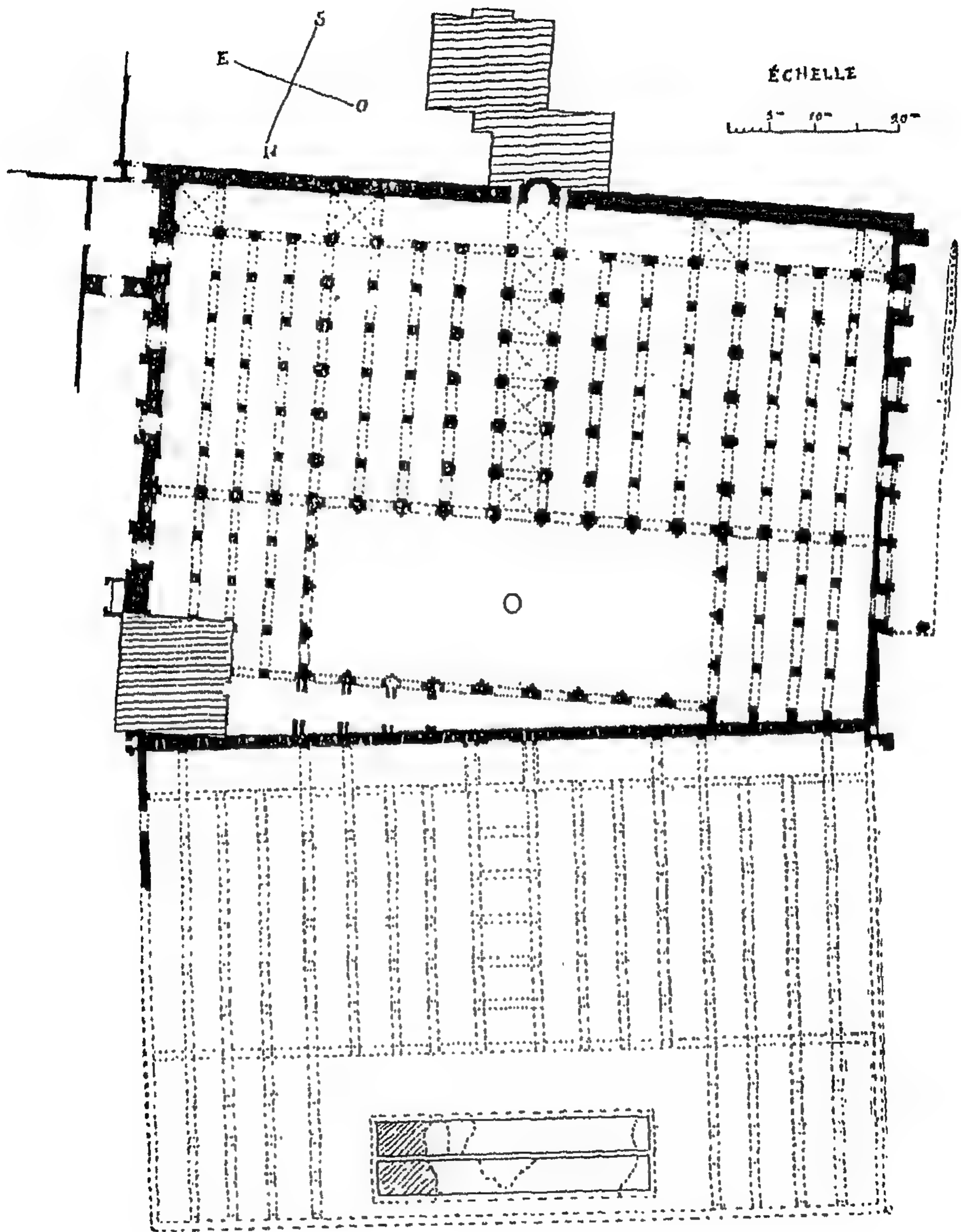
(شكل ١٩٠) مسقط أفقي لجامع القرويين بفاس
(المغرب الأقصى) . (عن : هوج) .



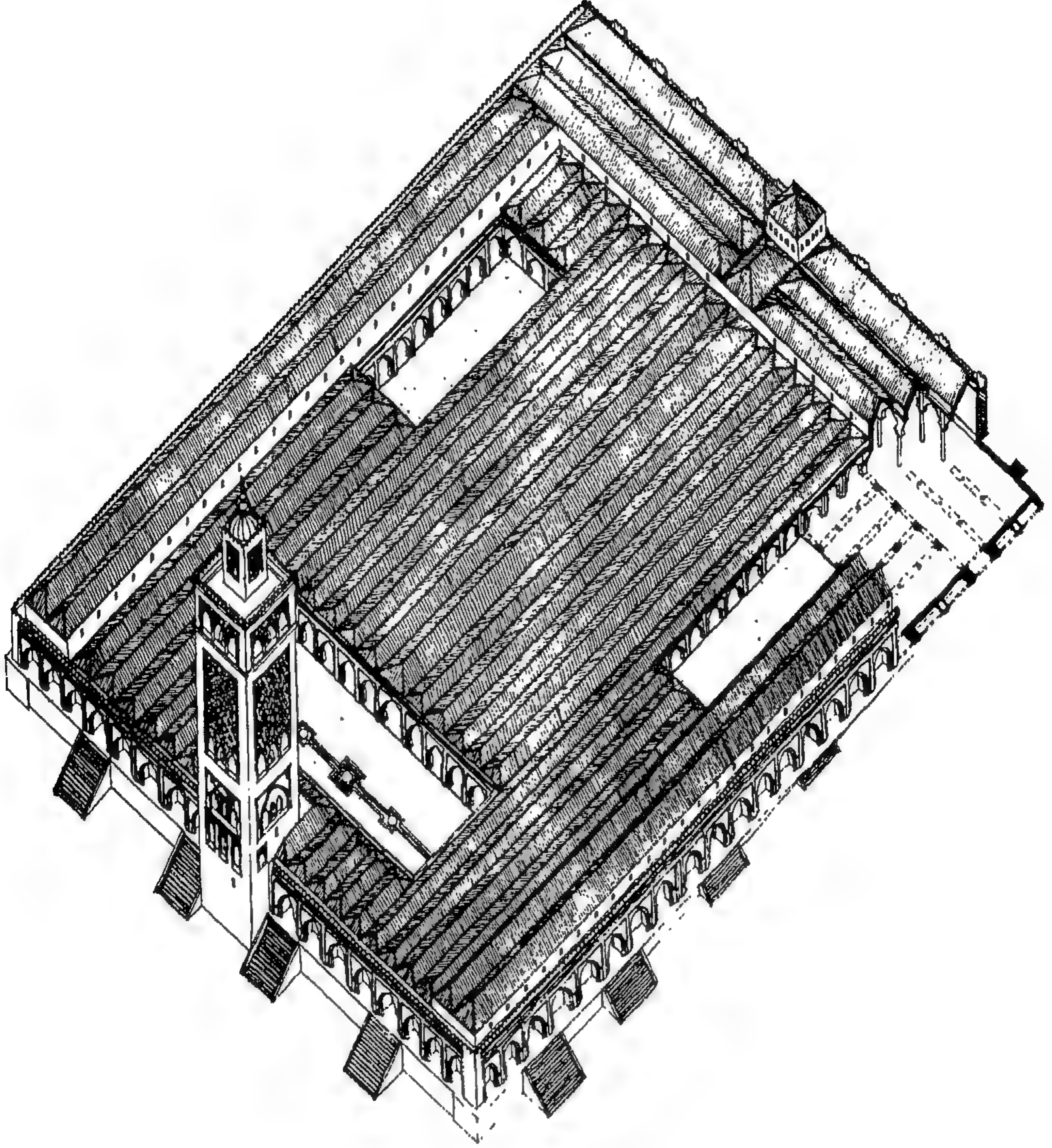
(شکل ۱۹۱) جامع القرویین بفاس .
(عن : هیلنبراند) .



(شکل ۱۹۲) مسقط أفقي لجامع تلمسان
بالجزائر . (عن : تیراس) .

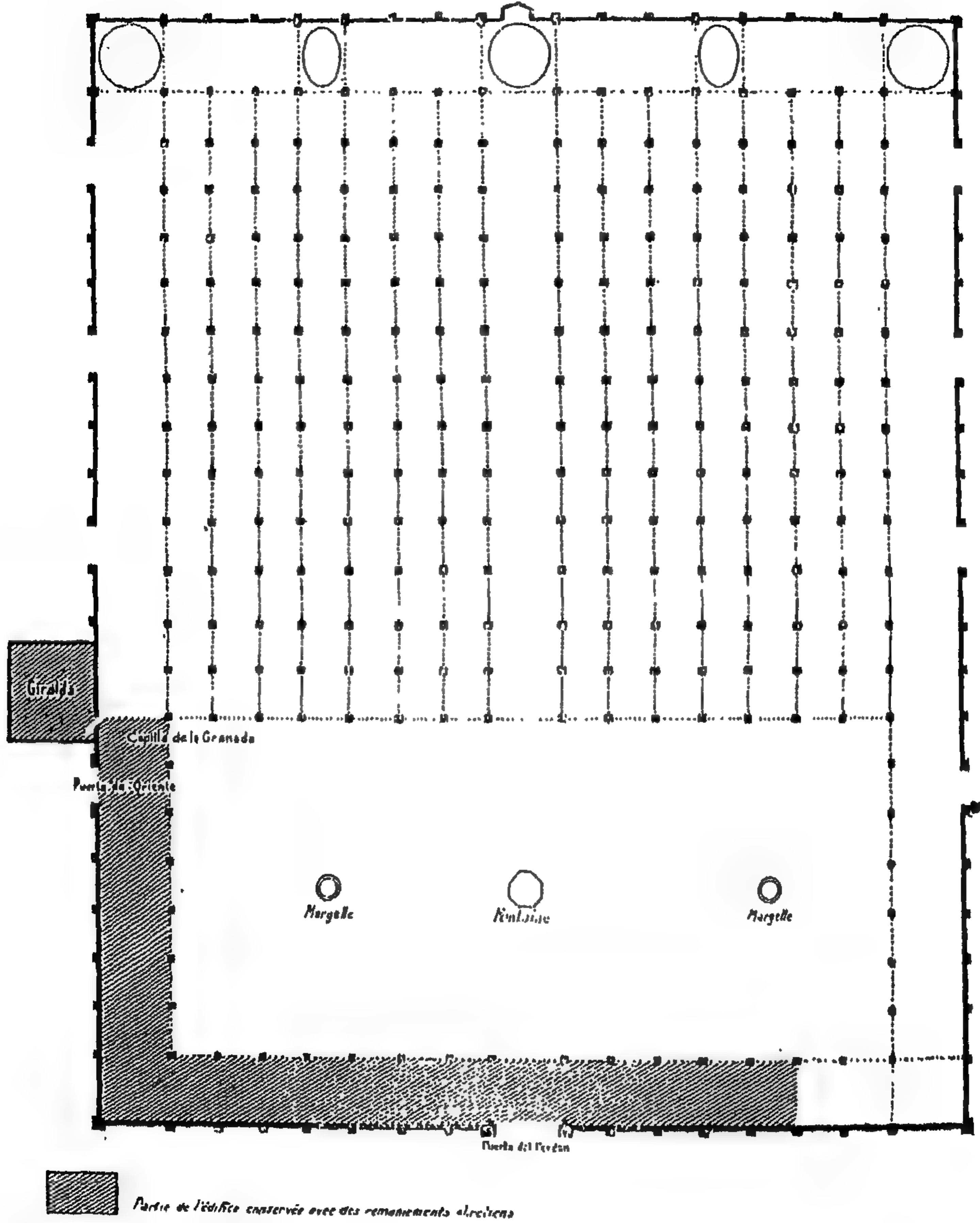


(شكل ١٩٣) مسقط أفقي لجامع الكتبية. (عن : تيراس).

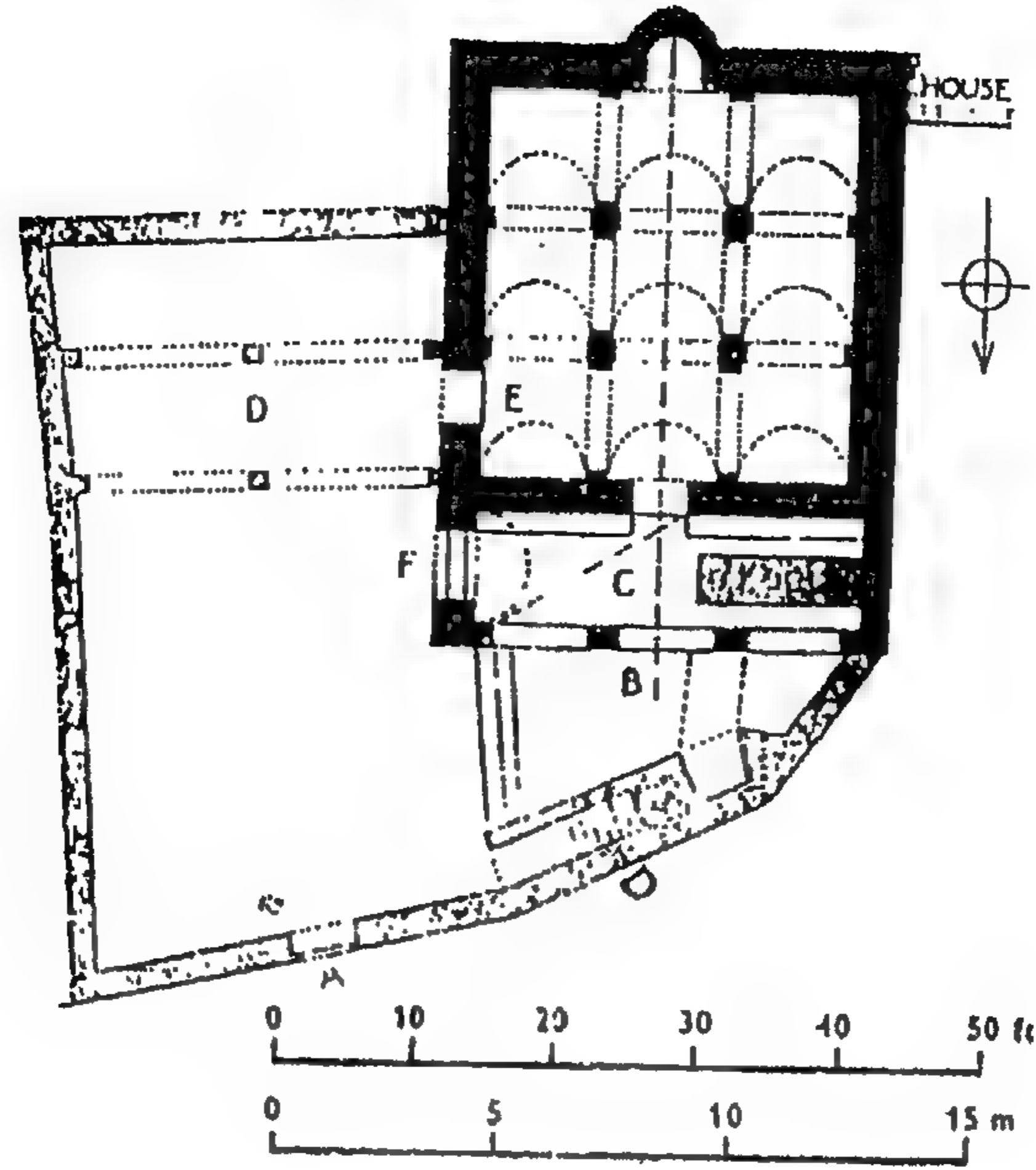


(شكل ١٩٤) جامع حسان بالرباط (المغرب الأقصى).
(عن : هيلنبراند).

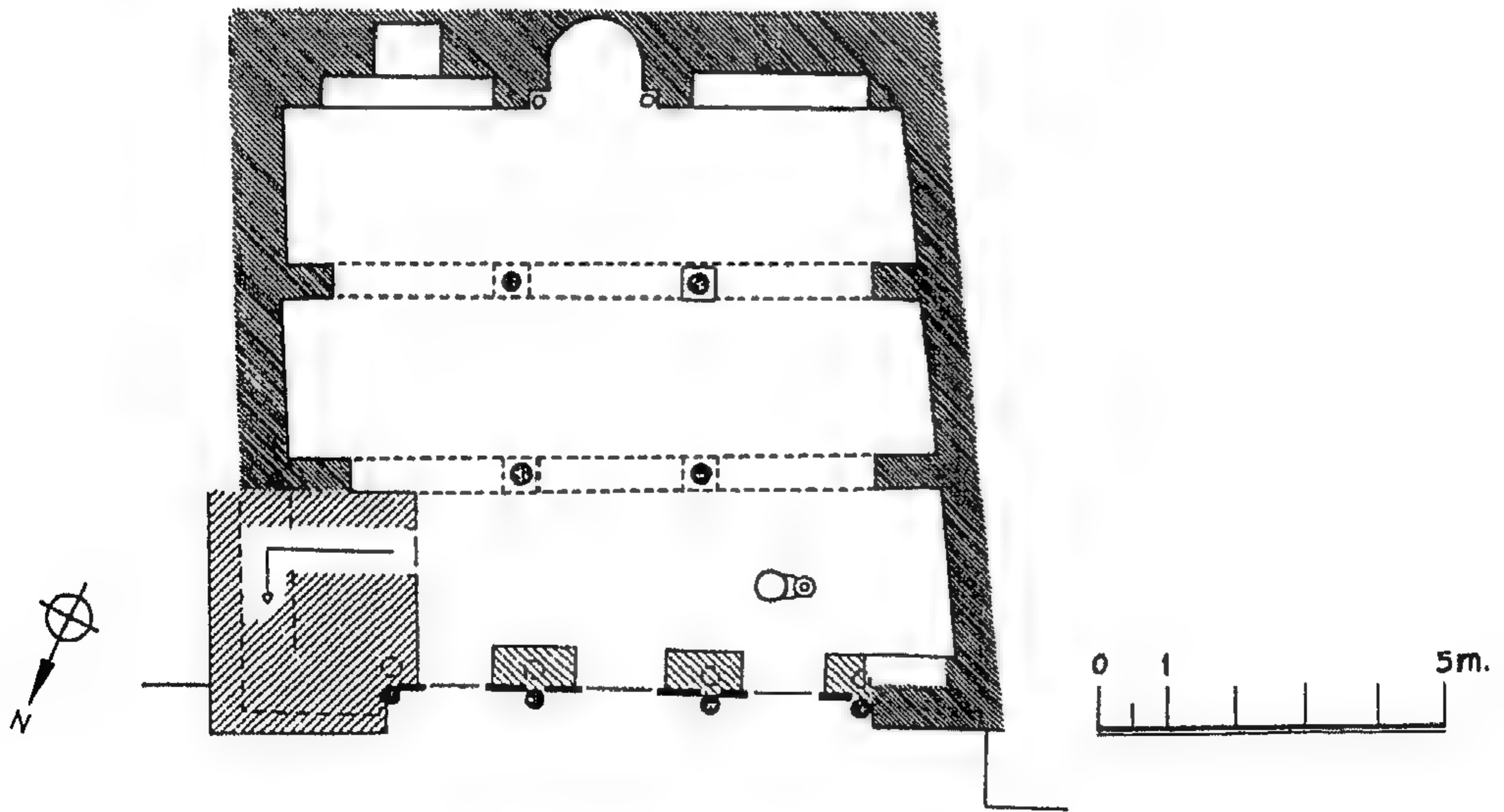
Mosquée almohade de Séville
(Restitution schématique)



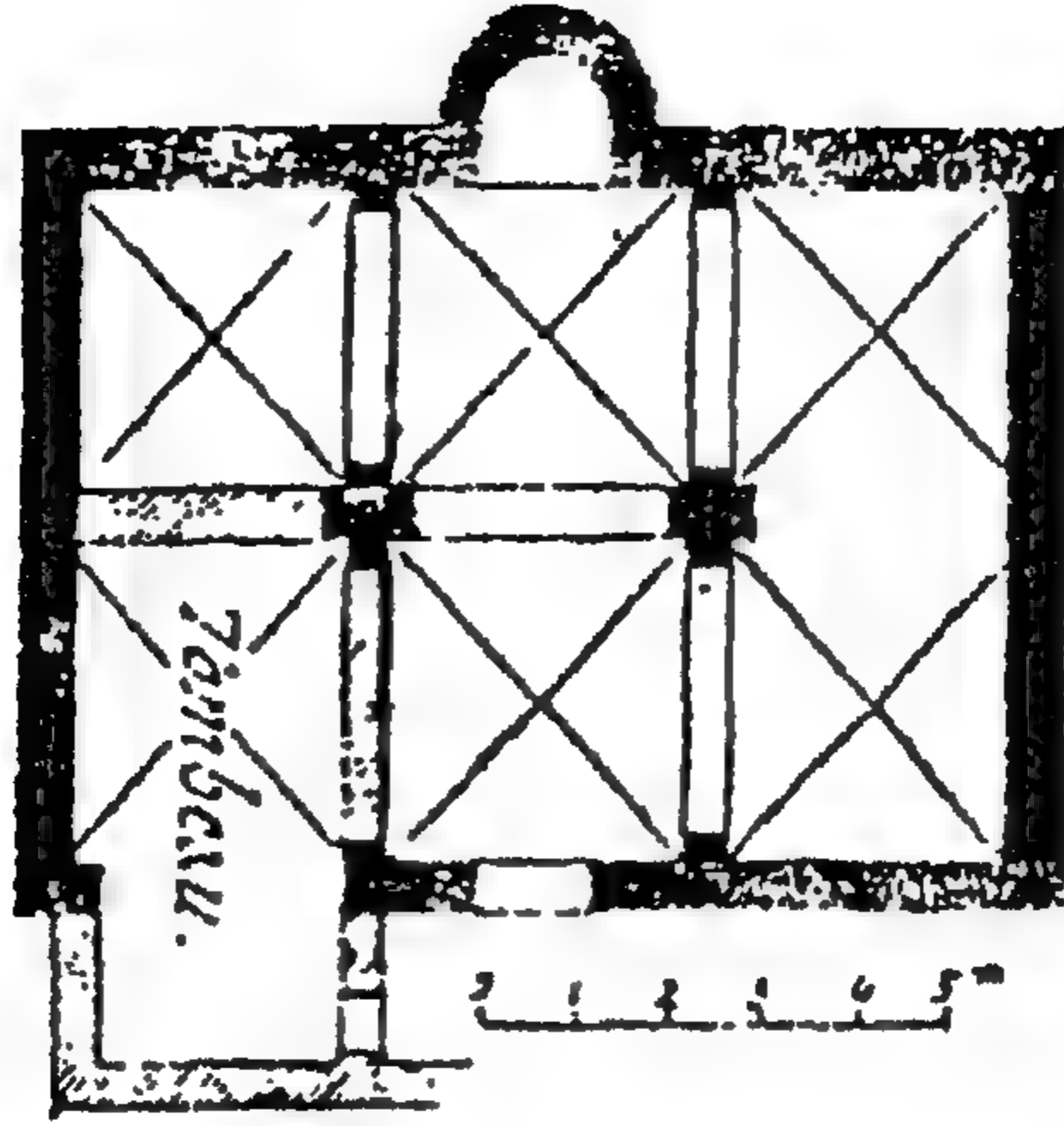
(شكل ١٩٥) مسقط أفقي لجامع اشبيلية الموحدى . (عن : تيراس) .



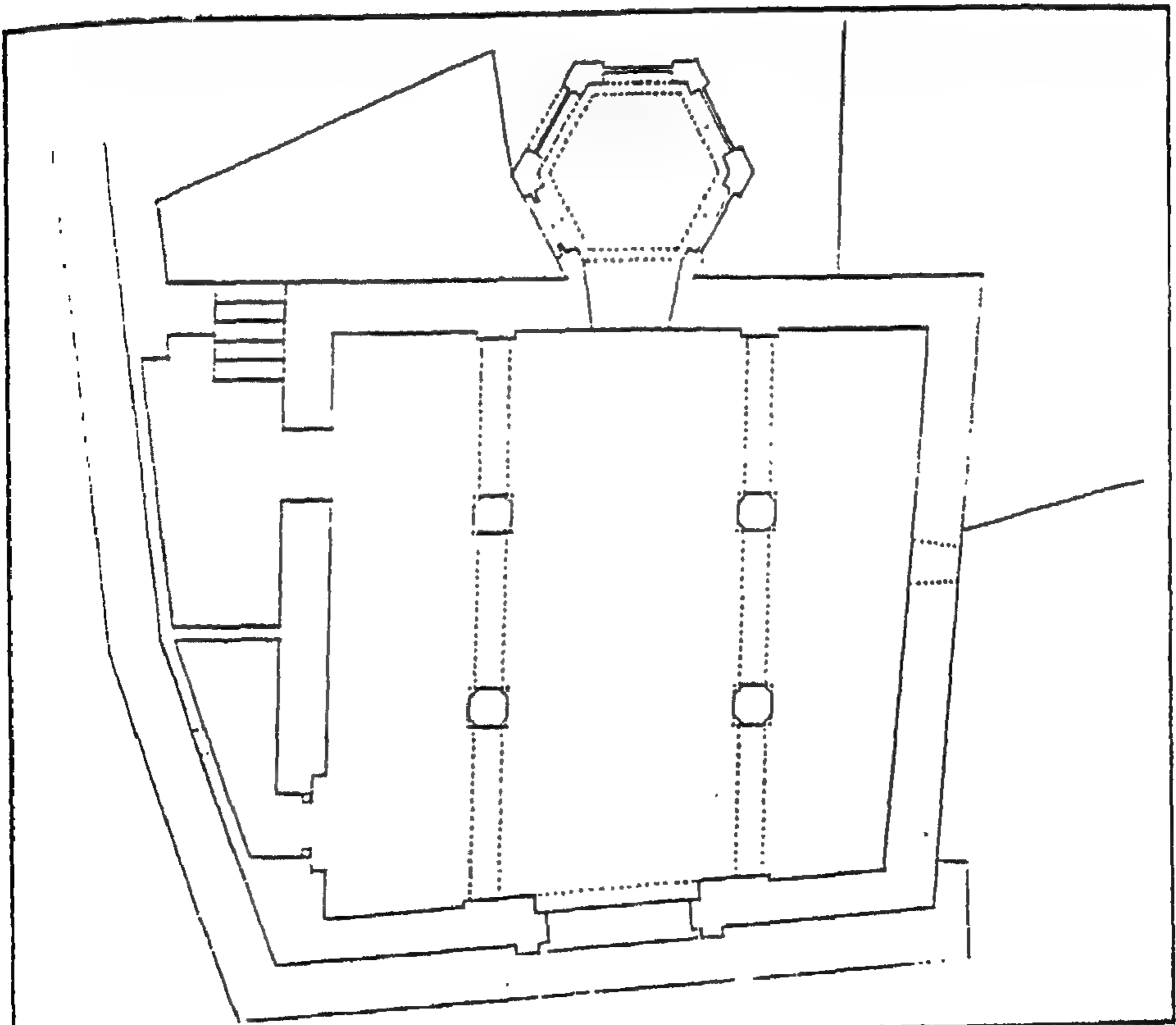
(شكل ١٩٦) مسقط أفقي لمسجد بوفتاته في سوسة بتونس . (عن : Creswell) .



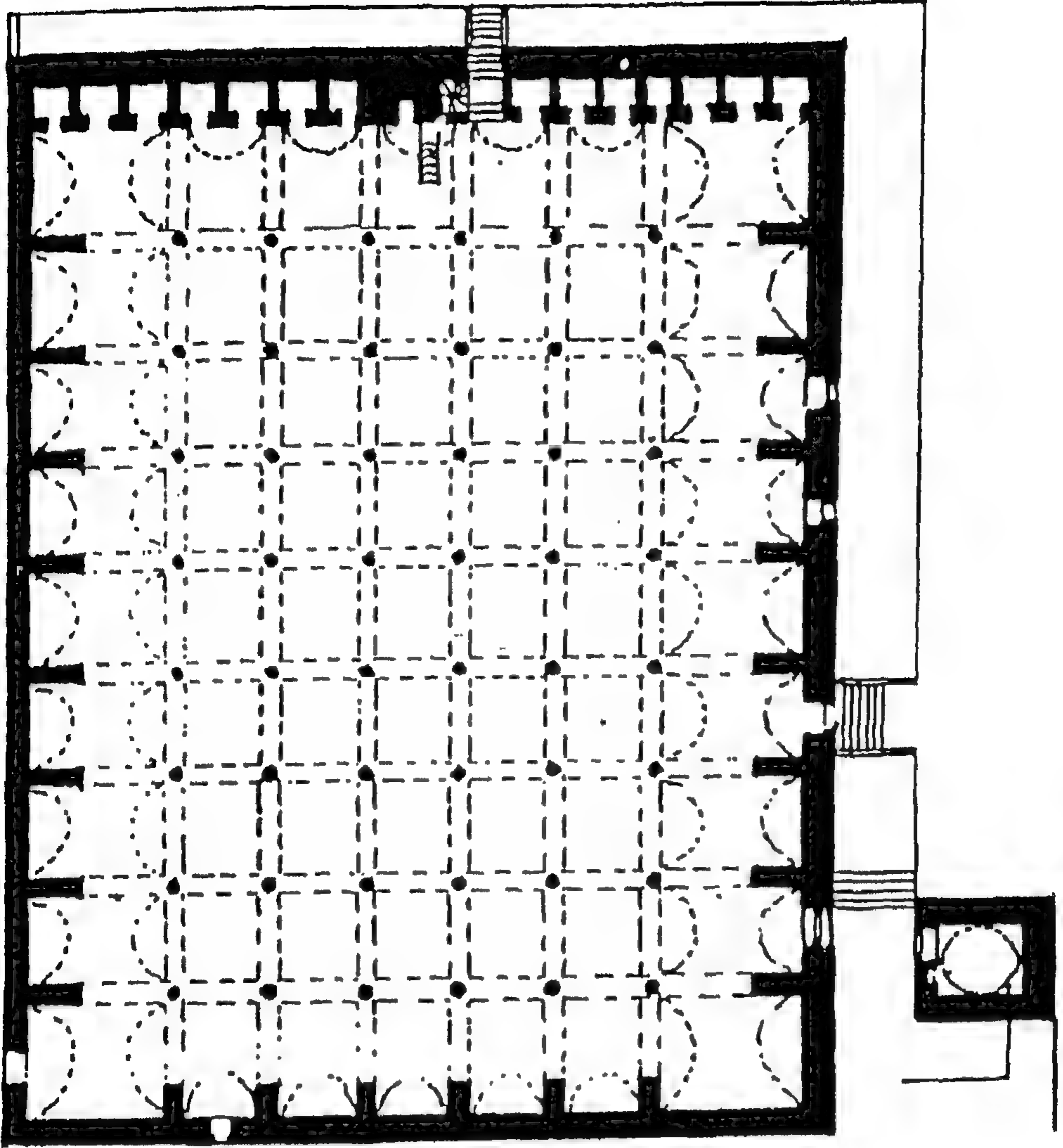
(شكل ١٩٧) مسقط أفقي لمسجد محمد بن خيرون المعافري المعروف
بمسجد الأبواب الثلاثة بالقيروان بتونس . (عن : Creswell) .



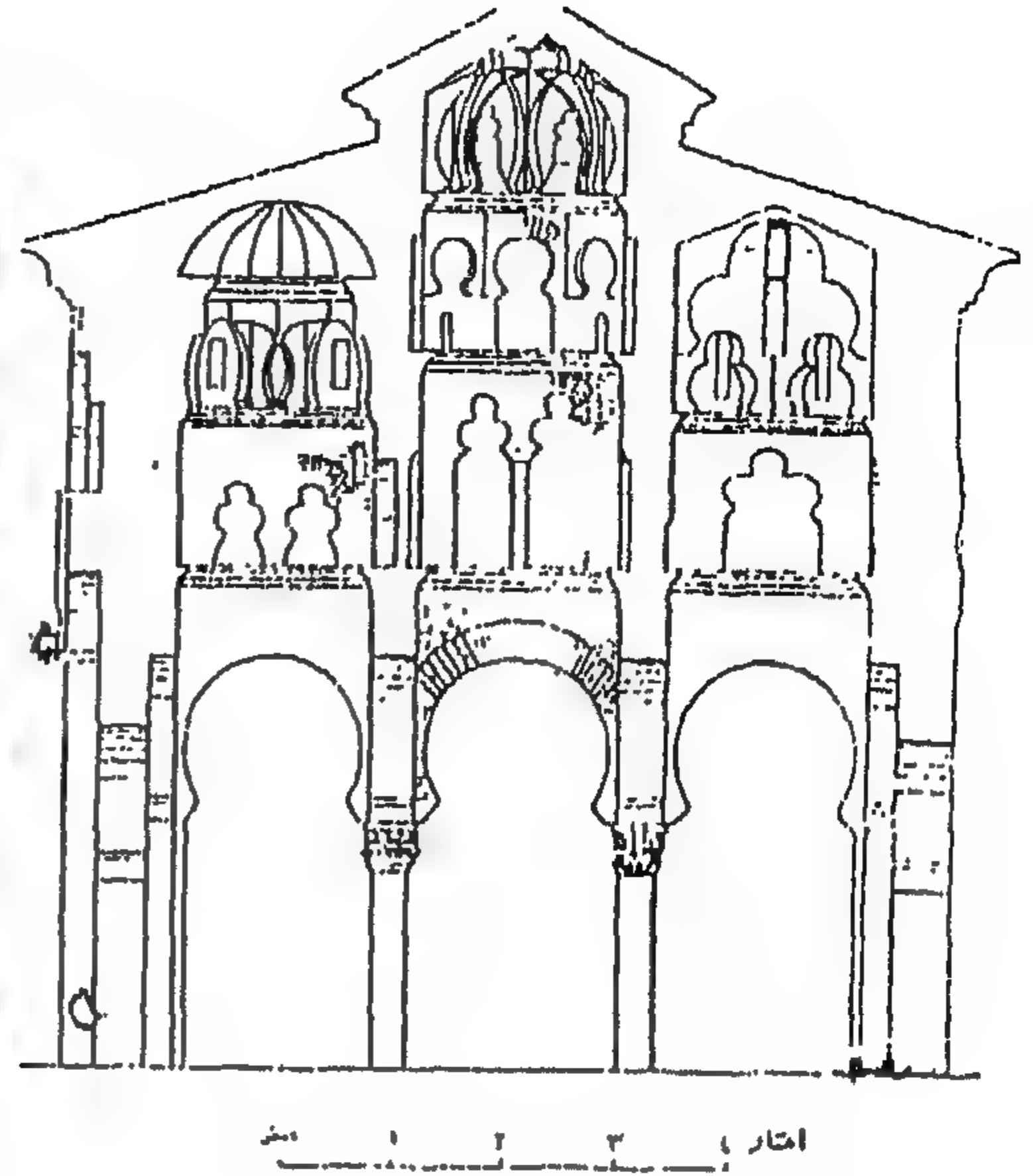
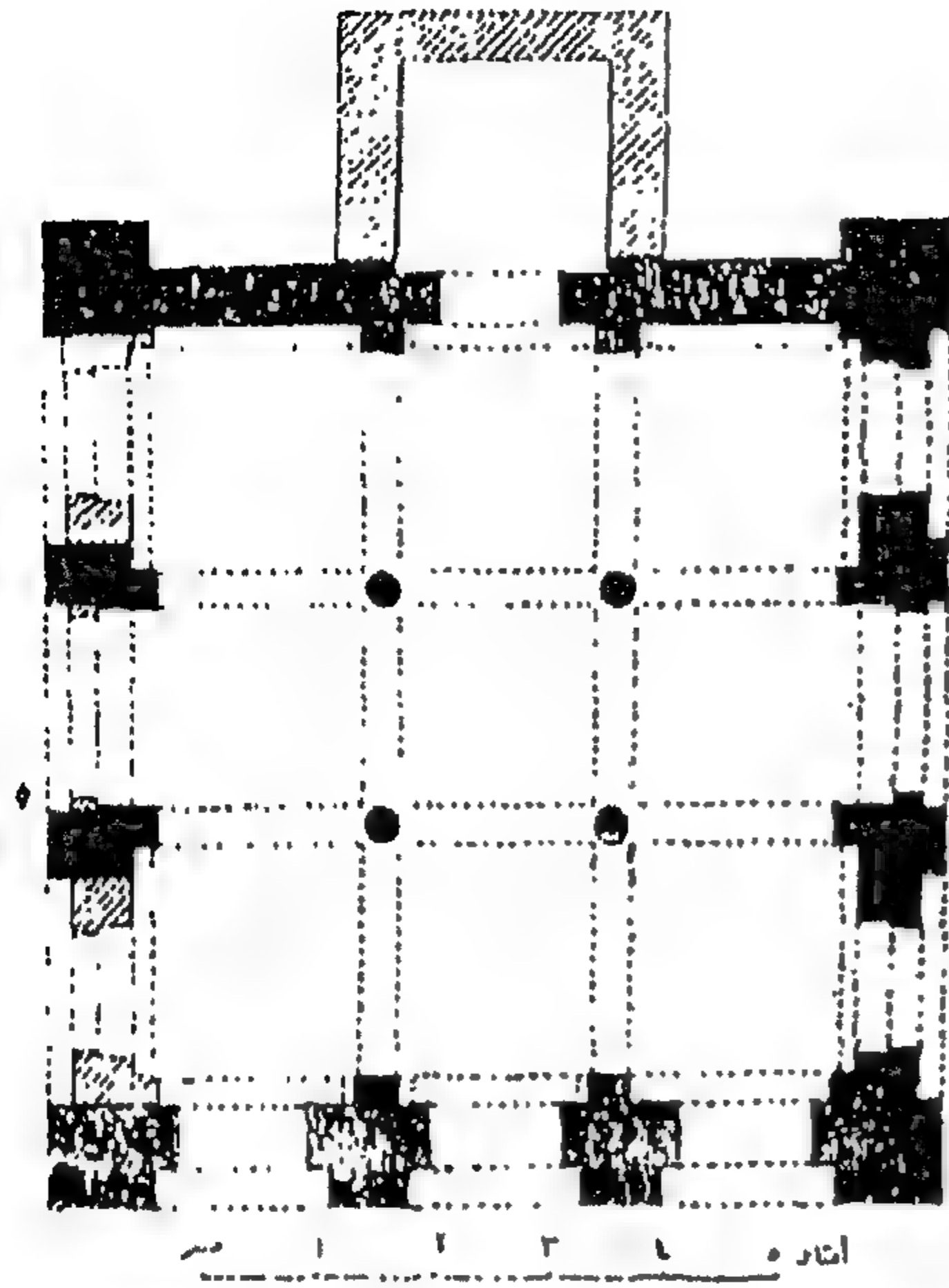
(شكل ١٩٨) مسقط أفقي لمسجد السيدة بالمنستير بتونس . (عن : Marcais) .



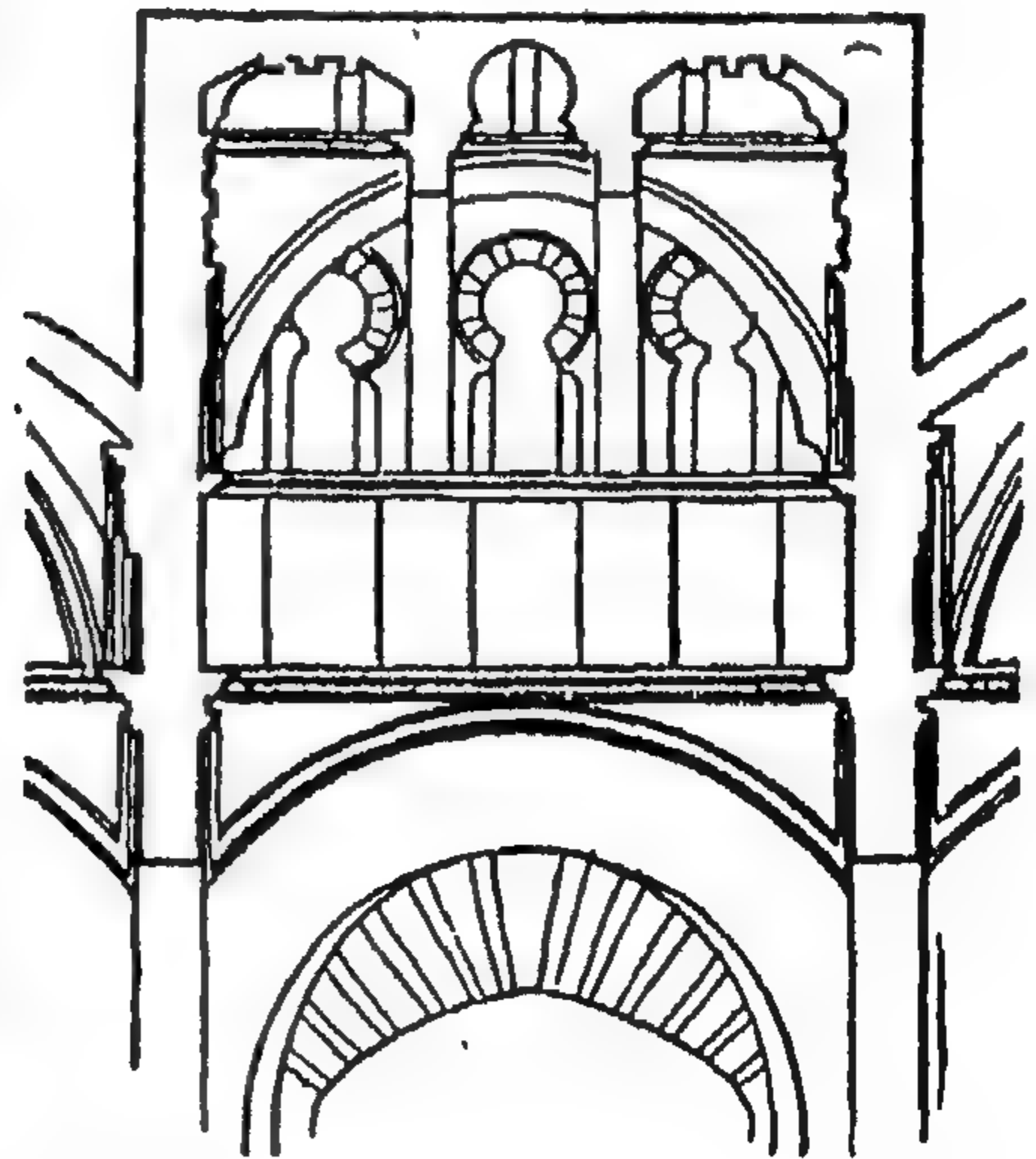
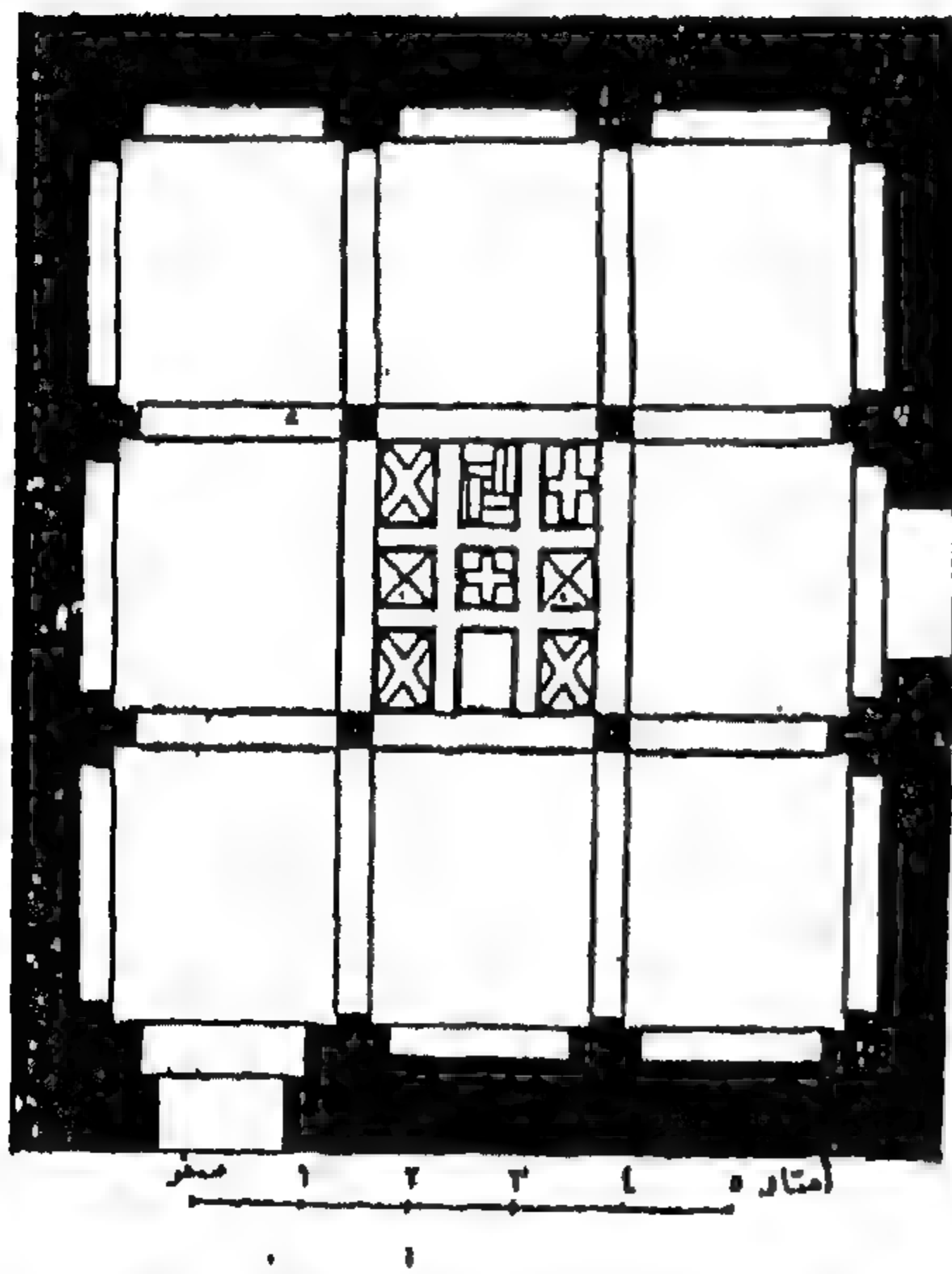
(شكل ١٩٩) مسقط أفقي لمسجد فنيانه بالأندلس . (عن : كمال عناني اسماعيل) .



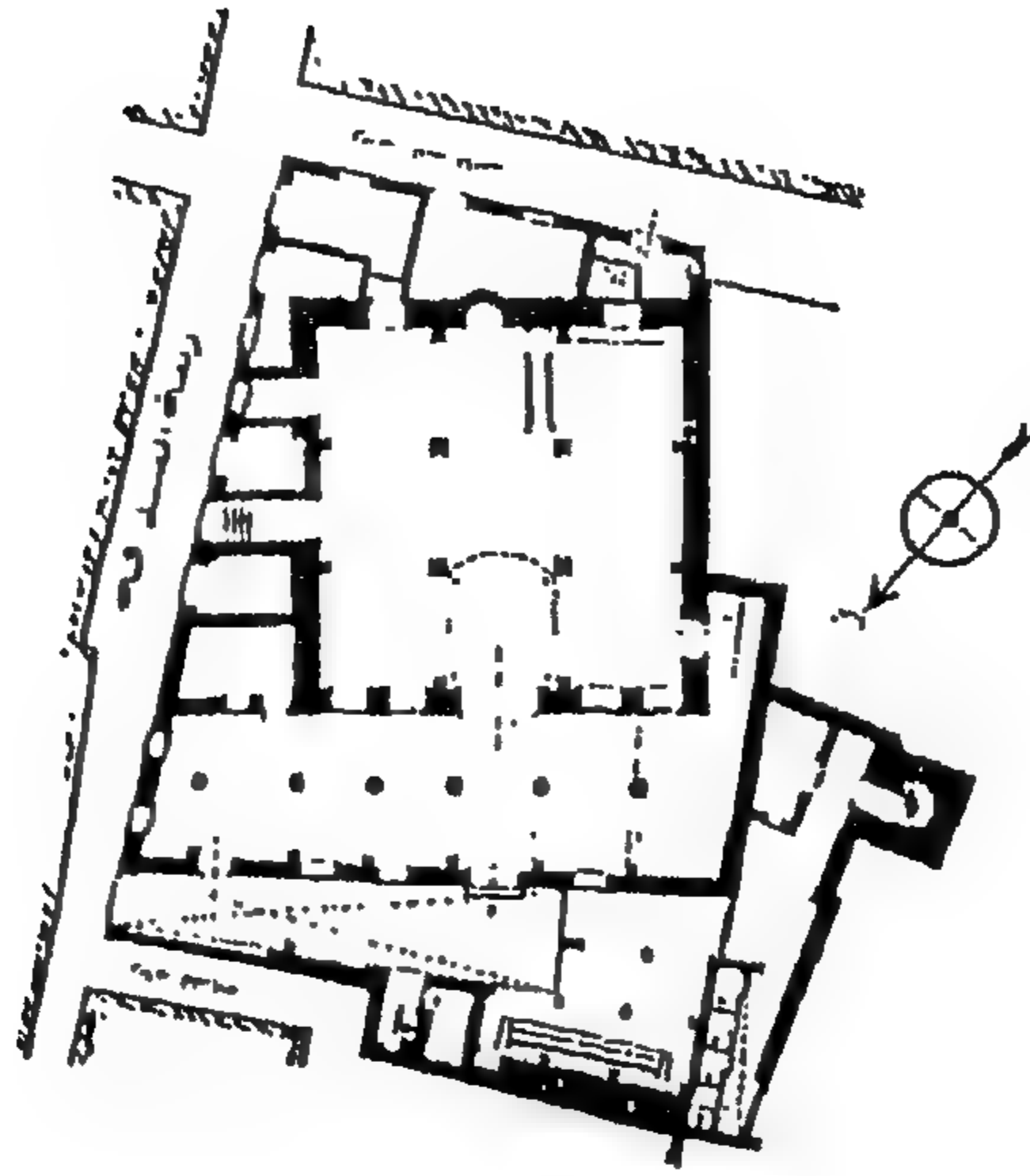
(شكل ٢٠٠) مسقط أفقي لجامع مراد أغا في تاجوراء بليبيا . (عن : El-Mahmudi) .



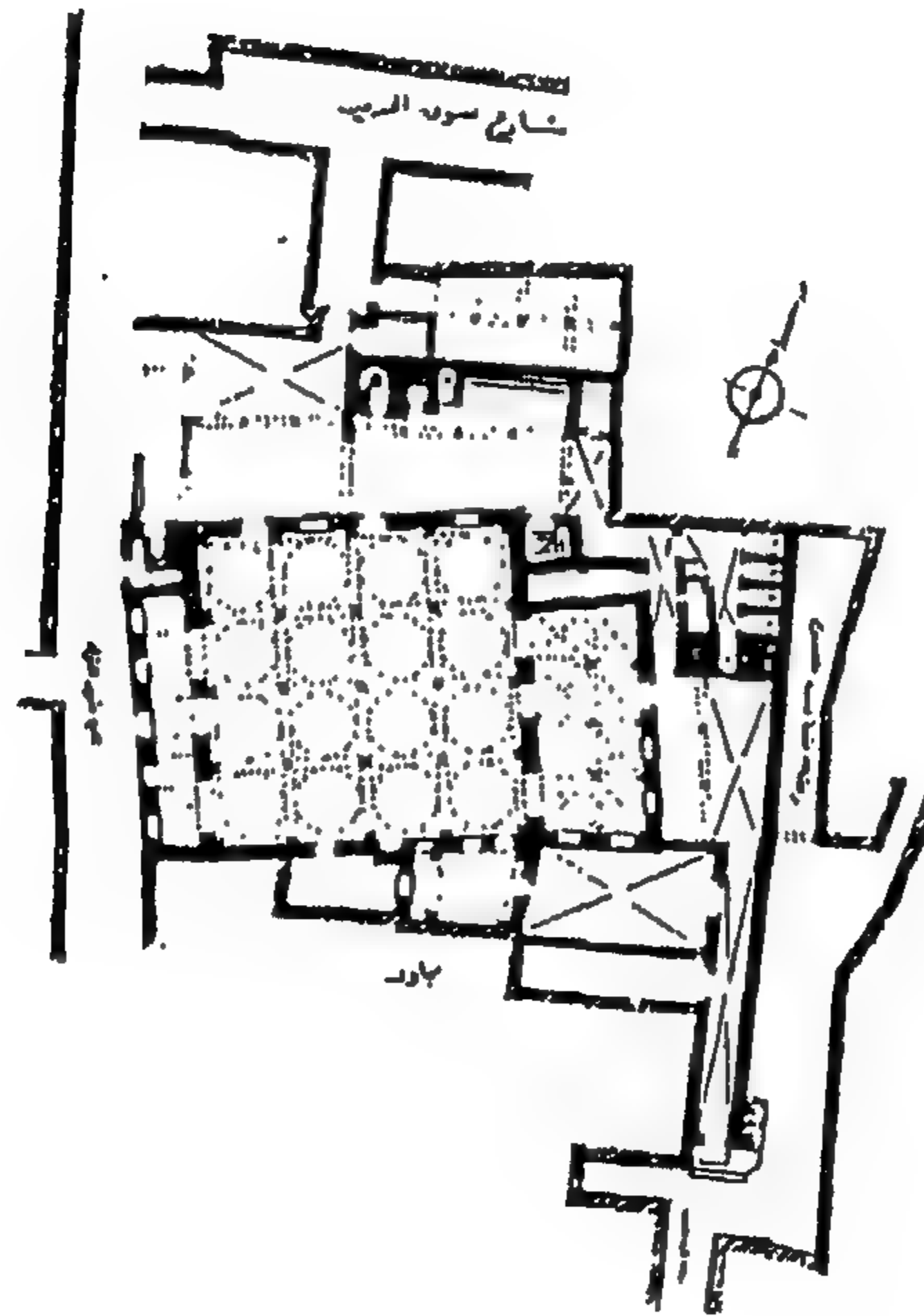
(شكل ٢٠١) مسقط أفقي وقطاع رأسي لمسجد الباب المردوم بطليطلة .
(عن : Moreno) .



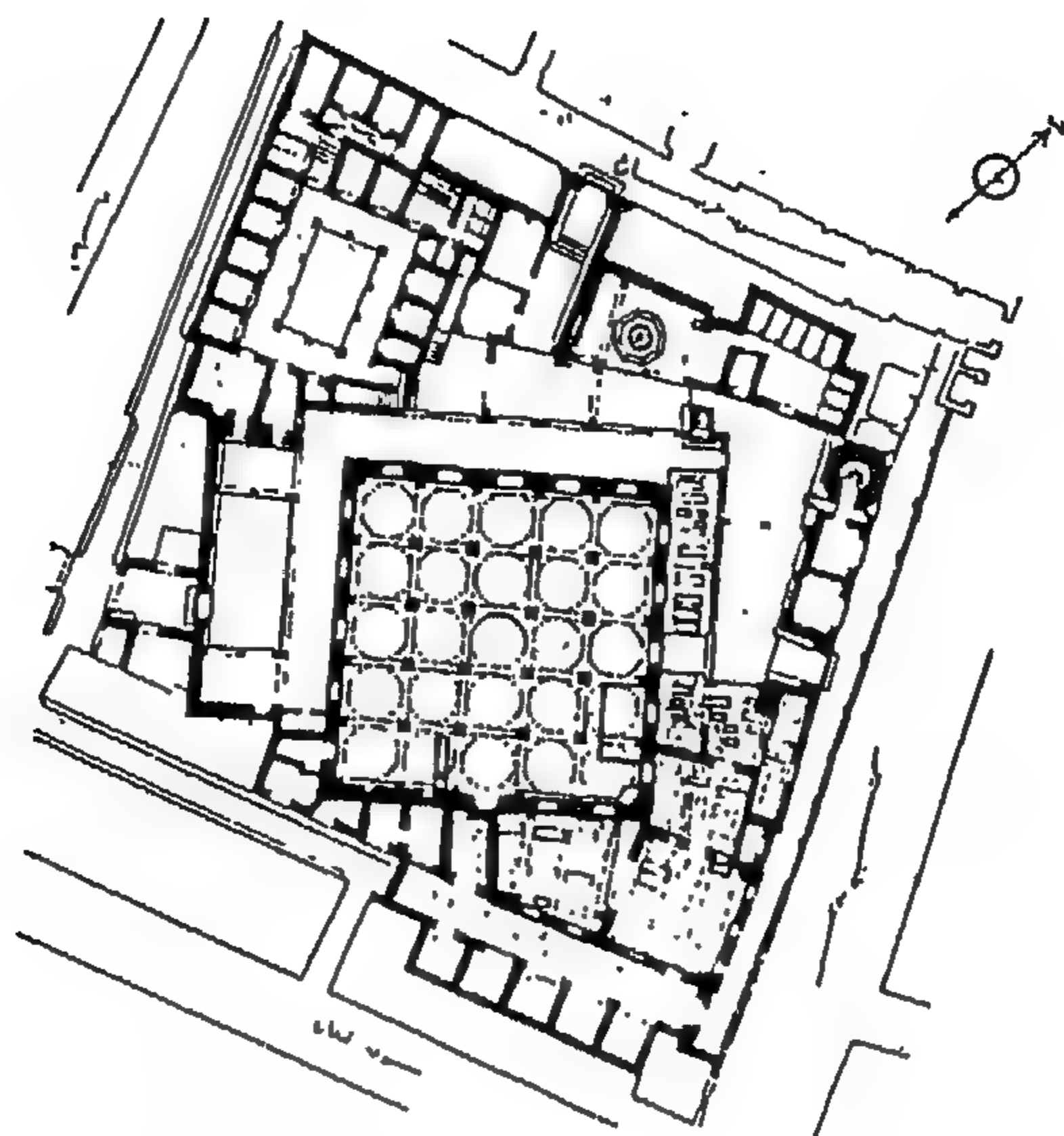
(شكل ٢٠٢) مسقط أفقي لمسجد المدجنين بطليطلة . (عن : Moreno) .



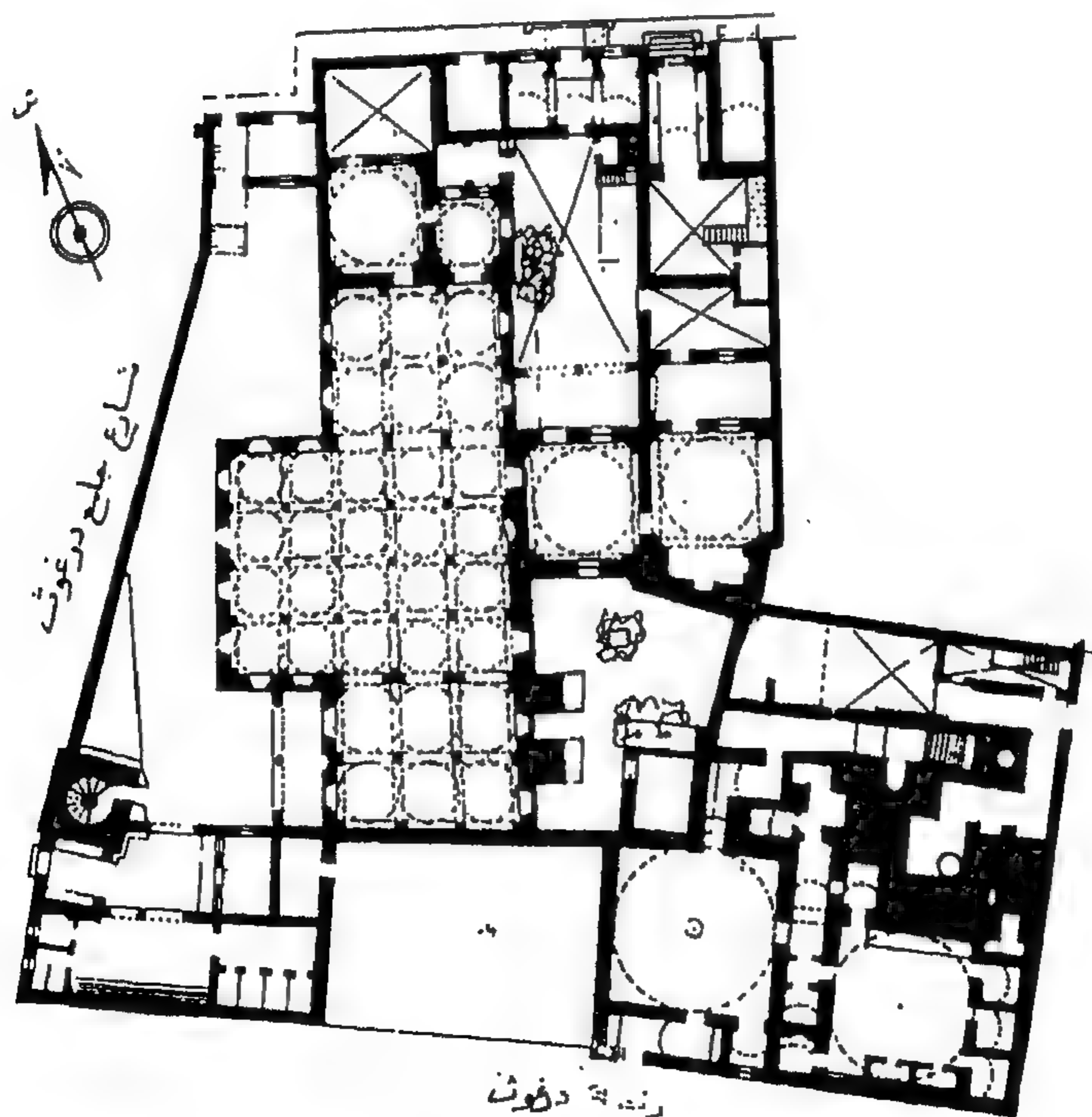
(شكل ٢٠٣) مسقط أفقي لجامع الخروية بطرابلس الغرب في ليبيا.
(عن موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا - ج ١).



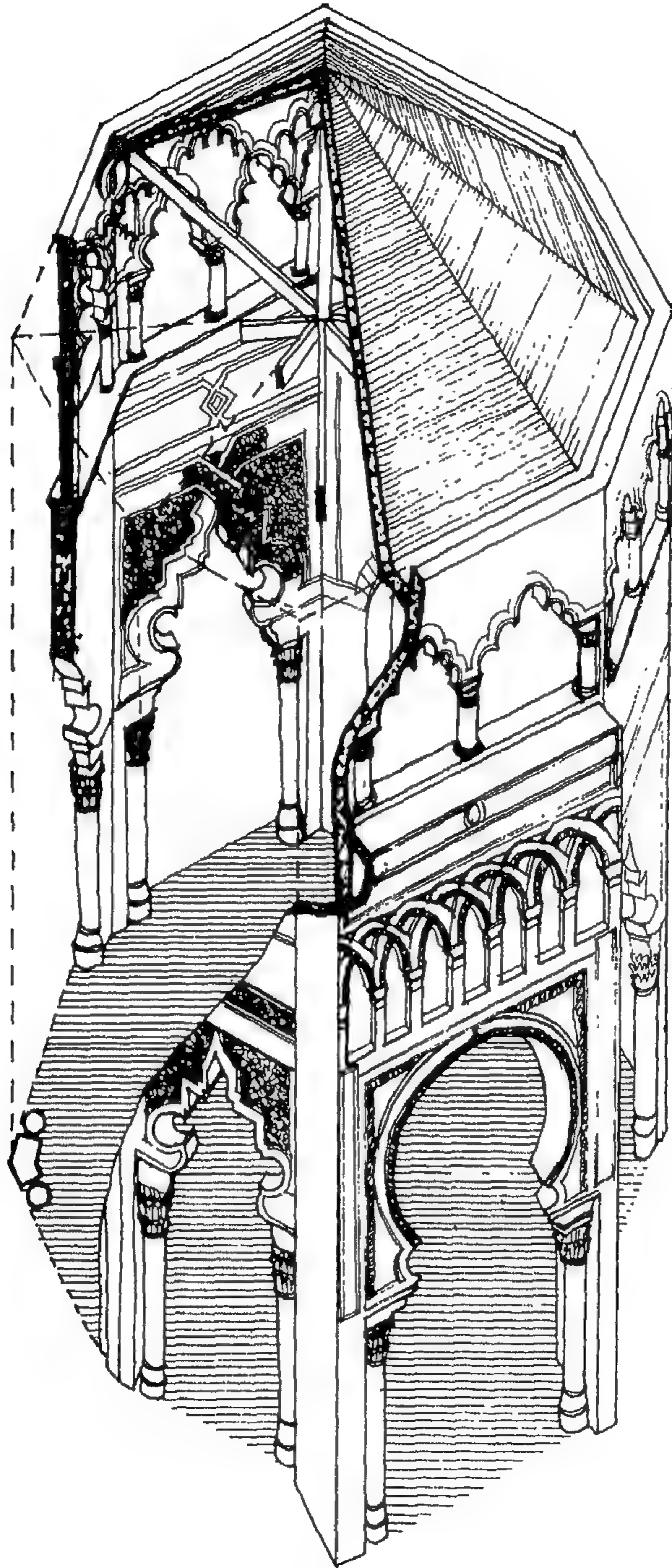
(شكل ٢٠٤) مسقط أفقي لجامع شائب العين محمد باشا بطرابلس الغرب.
(عن موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا - ج ١).



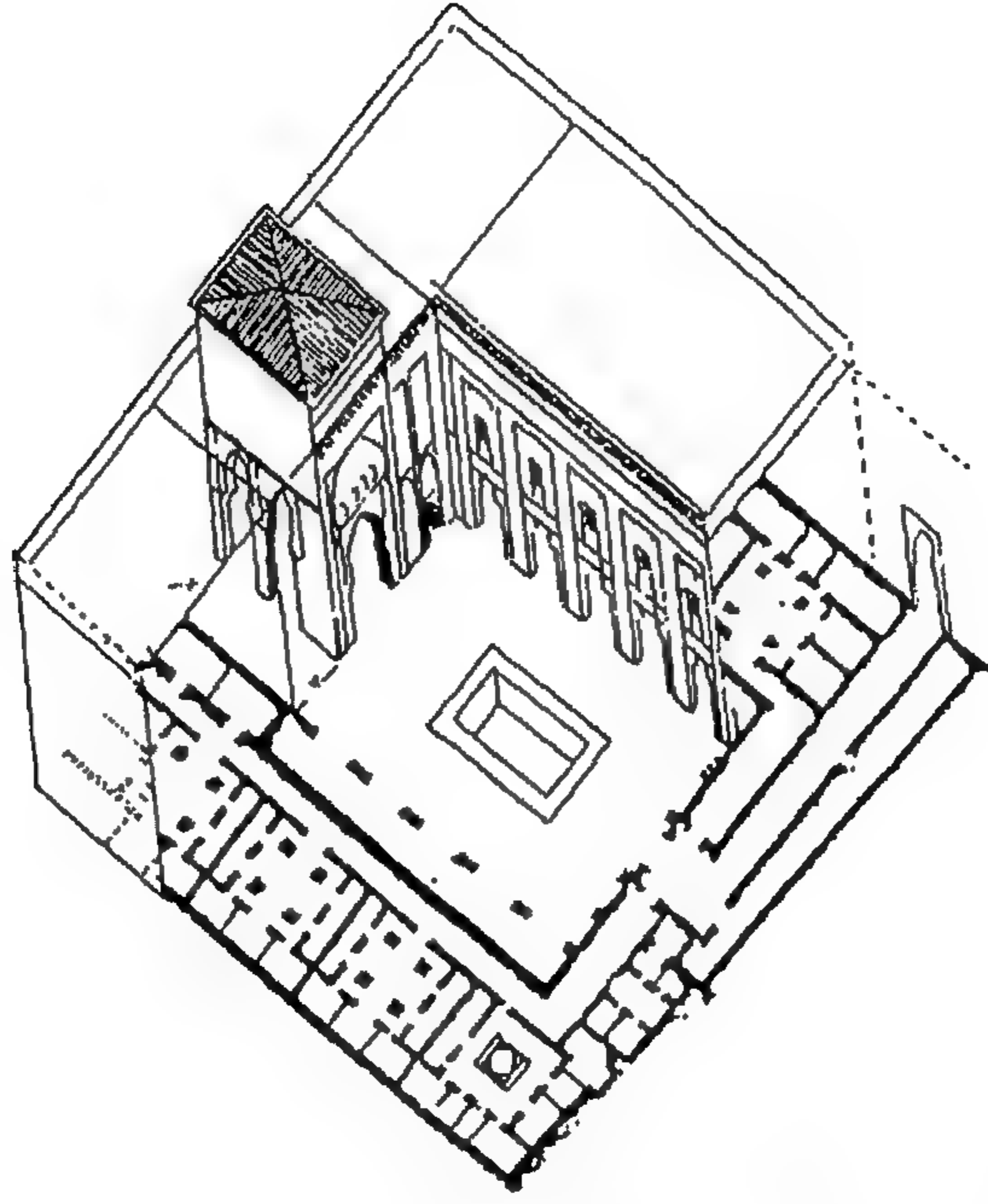
(شكل ٢٠٥) مسقط أفقي لجامع أحمد باشا القره مانللي بطرابلس الغرب.
(عن موسوعة الآثار الإسلامية المشار إليها) .



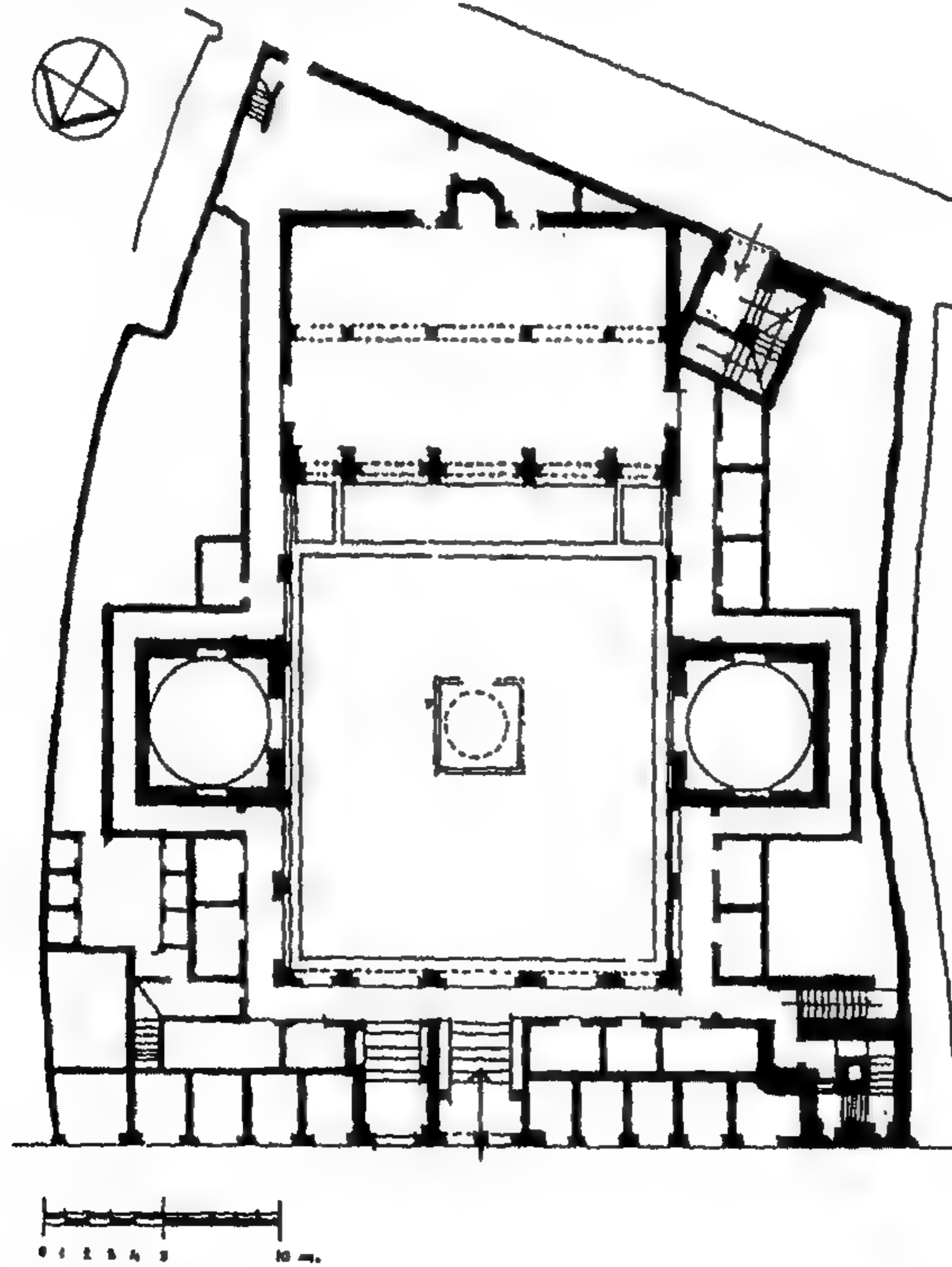
(شكل ٢٠٦) مسقط أفقي لجامع درغوت باشا بطرابلس الغرب بليبيا
(عن موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا - ج ١) .



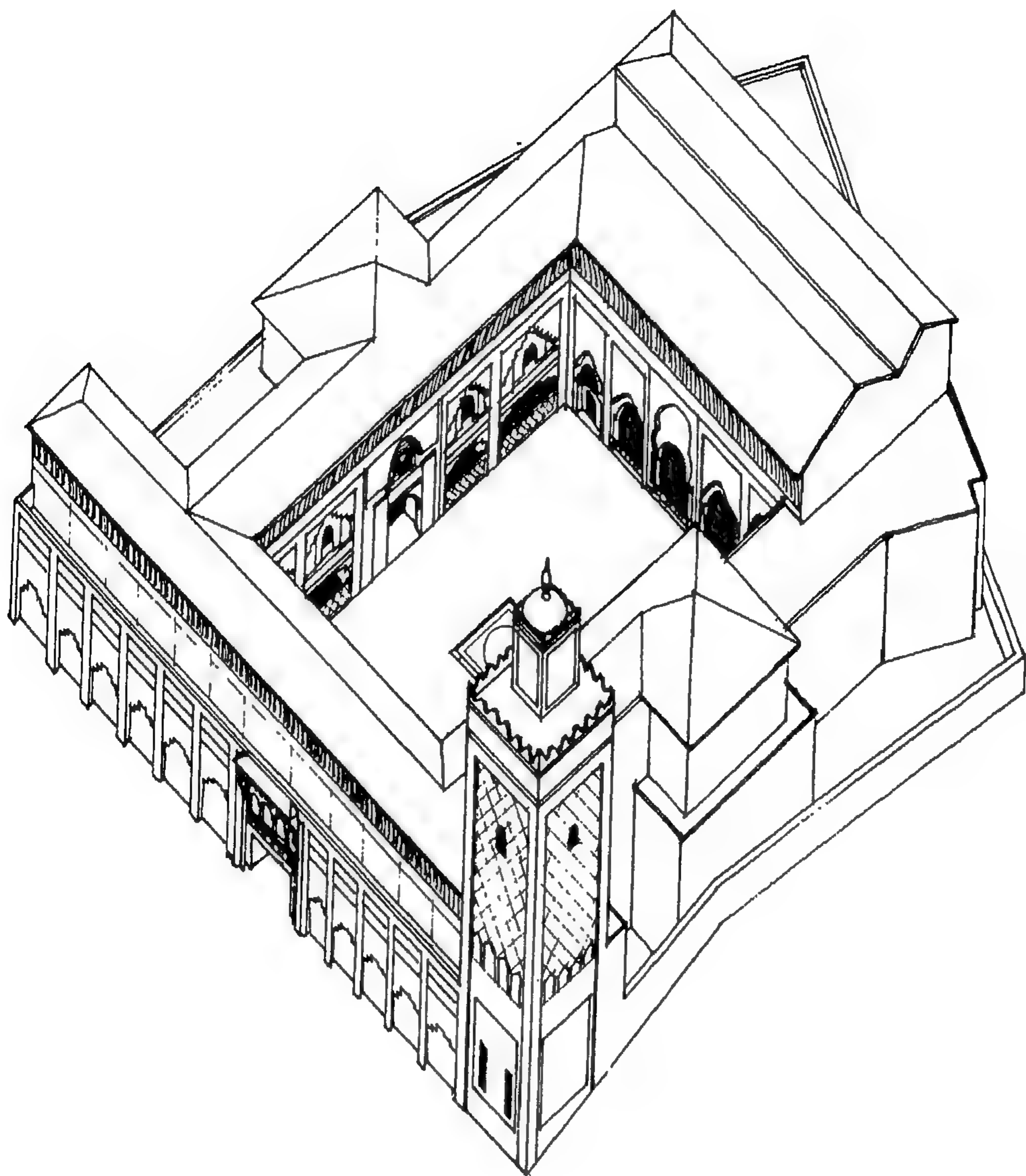
(شكل ٢٠٧) المسجد الملحق بقصر الجعفرية بسرقسطة . (الثغر الأعلى بالأندلس)
(طراز المسجد القبلة) (عن : هيلنبراند) .



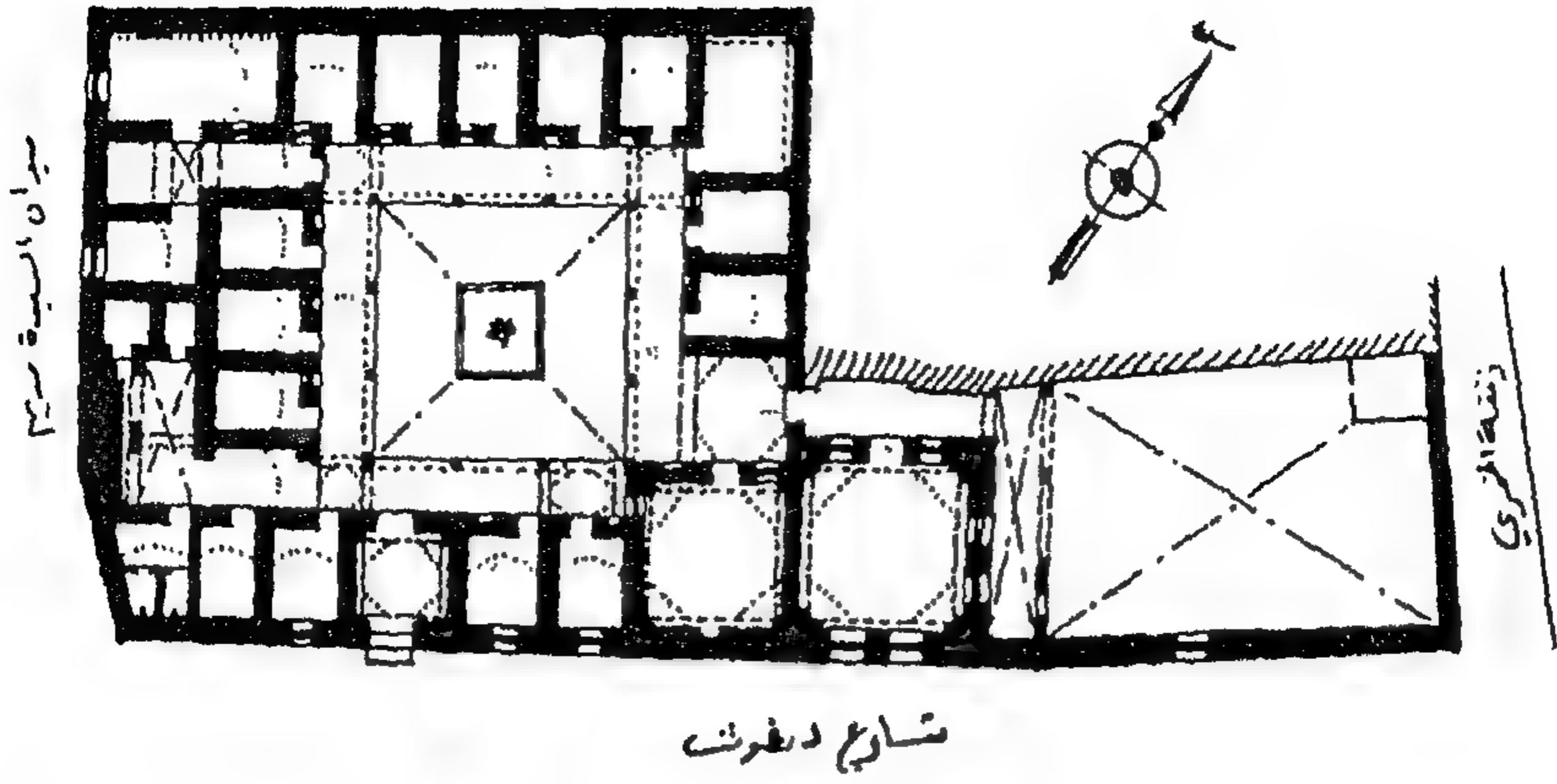
(شكل ٢٠٨) مدرسة ابن يوسف بمراكش (عن : الكحلوي) .



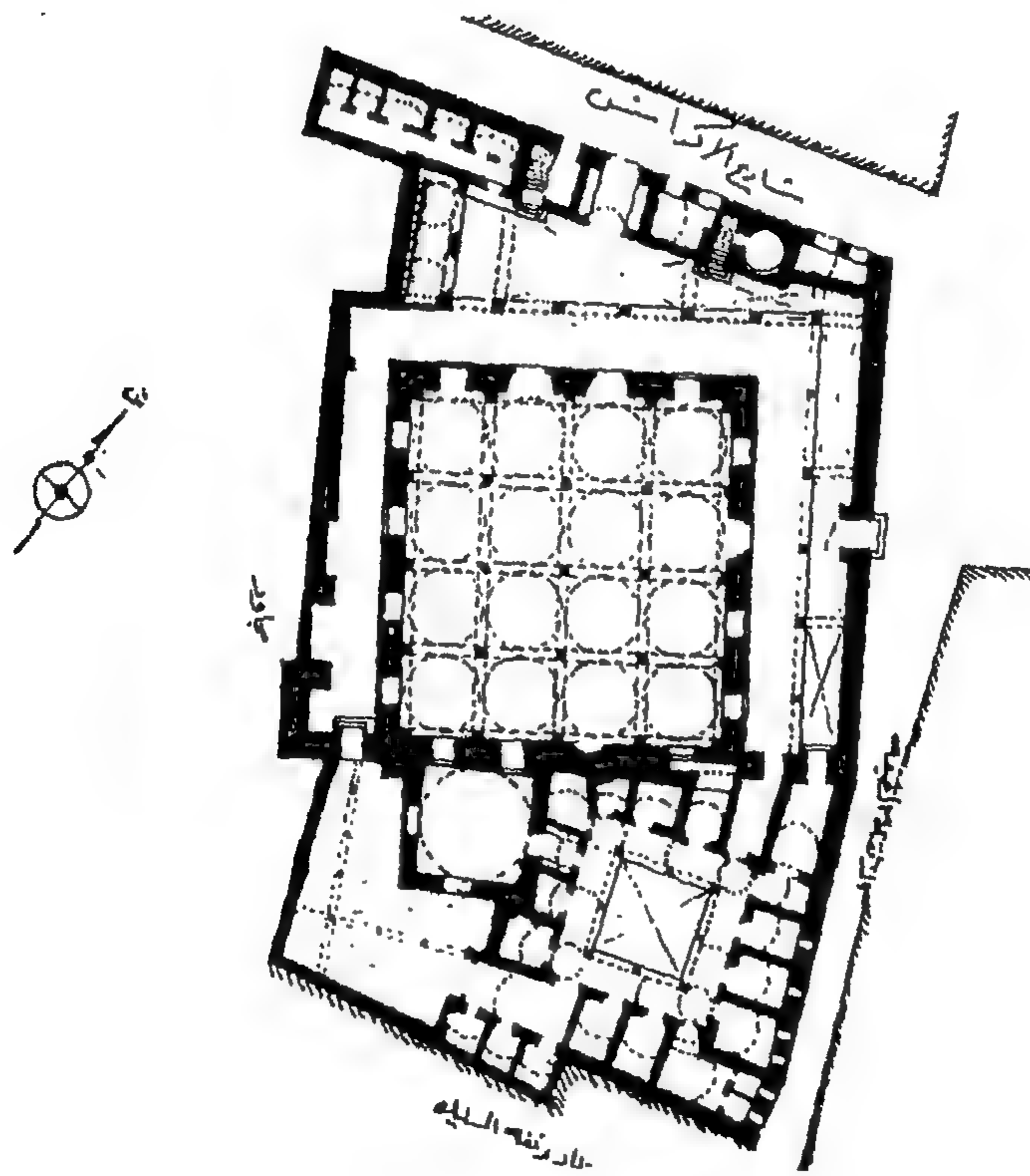
(شكل ٢٠٩) مسقط أفقي للمدرسة البوعنانية بفاس. (عن : الكحلوي) .



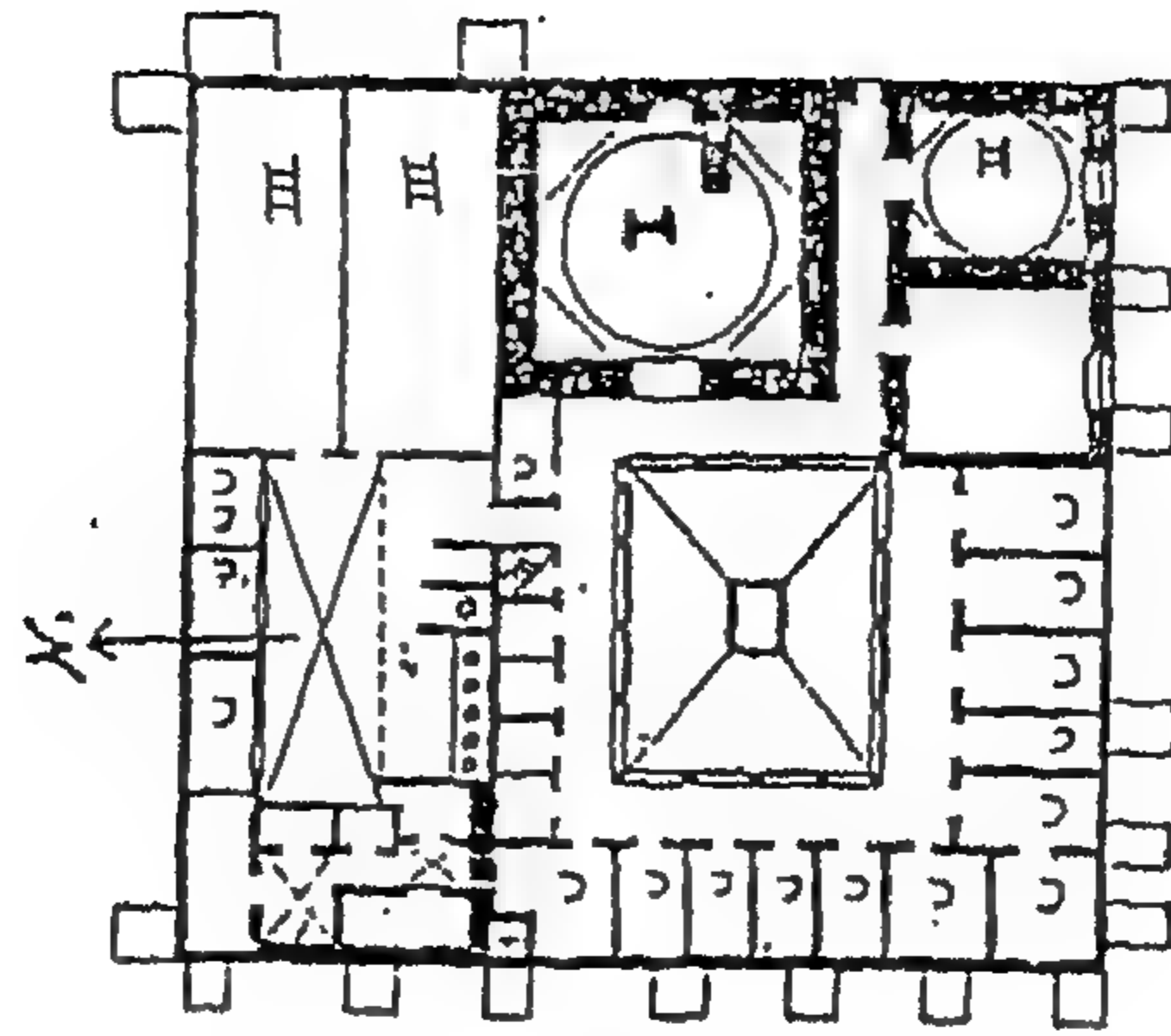
(شكل ٢٠٩ مكرر) المدرسة البوعنانية بفاس . (عن : هيلنبراند) .



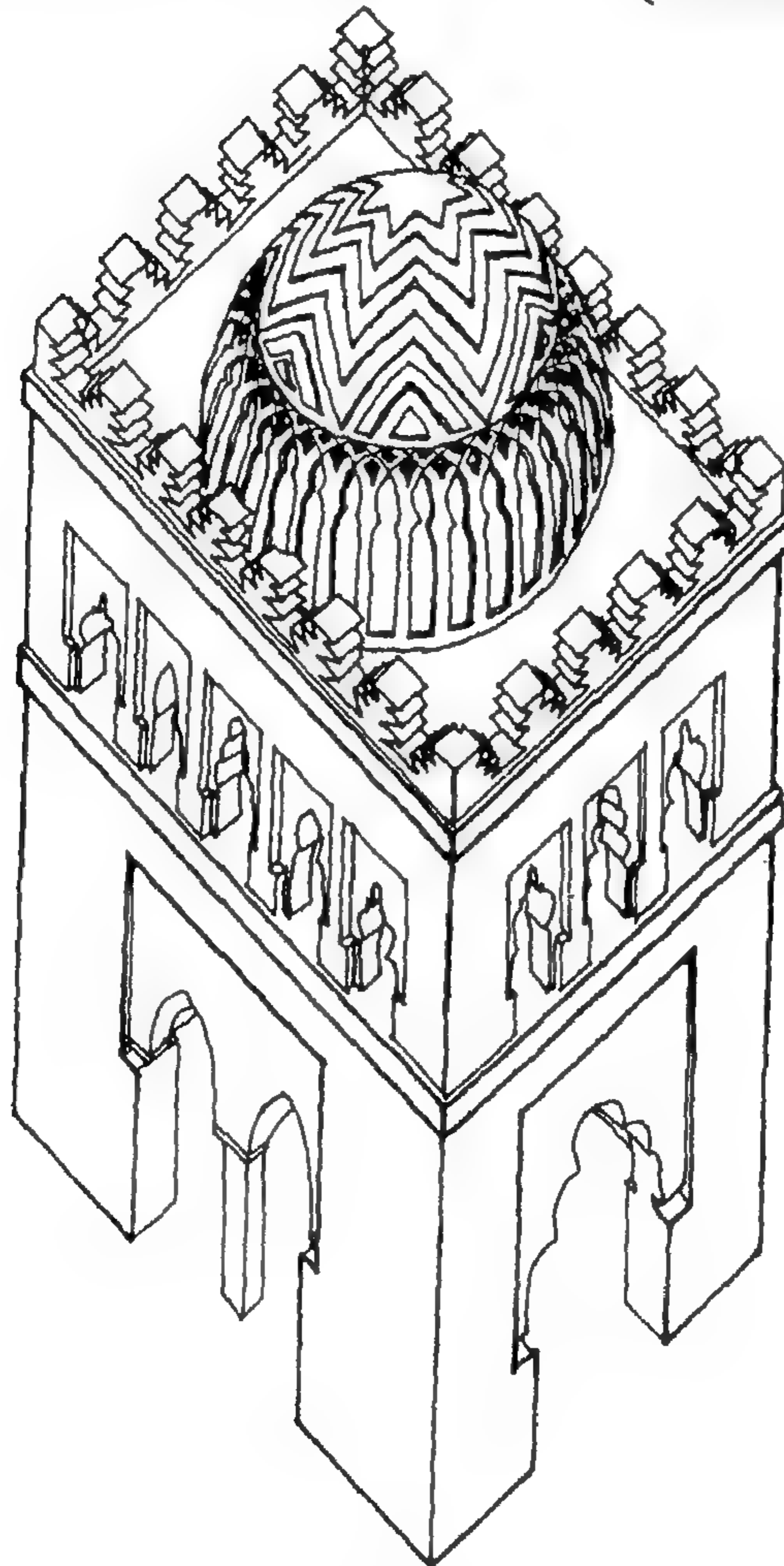
(شكل ٢١٠) مسقط أفقي لمدرسة عثمان باشا الساقزلي بطرابلس الغرب بليبيا
(عن موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا) .



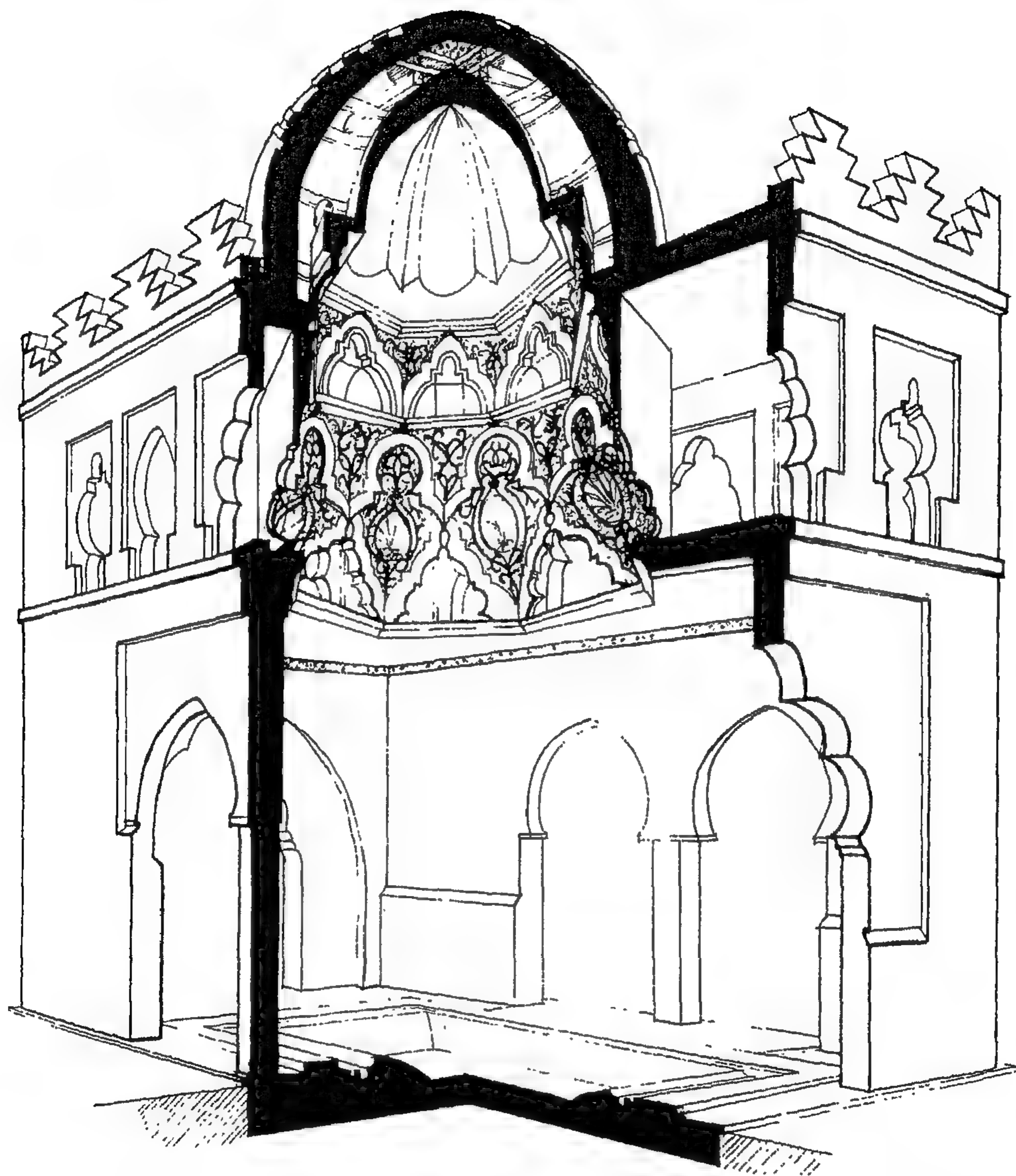
(شكل ٢١١) مسقط أفقي لمدرسة وجامع مصطفى قورجي بطرابلس الغرب بليبيا
(عن موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا) .



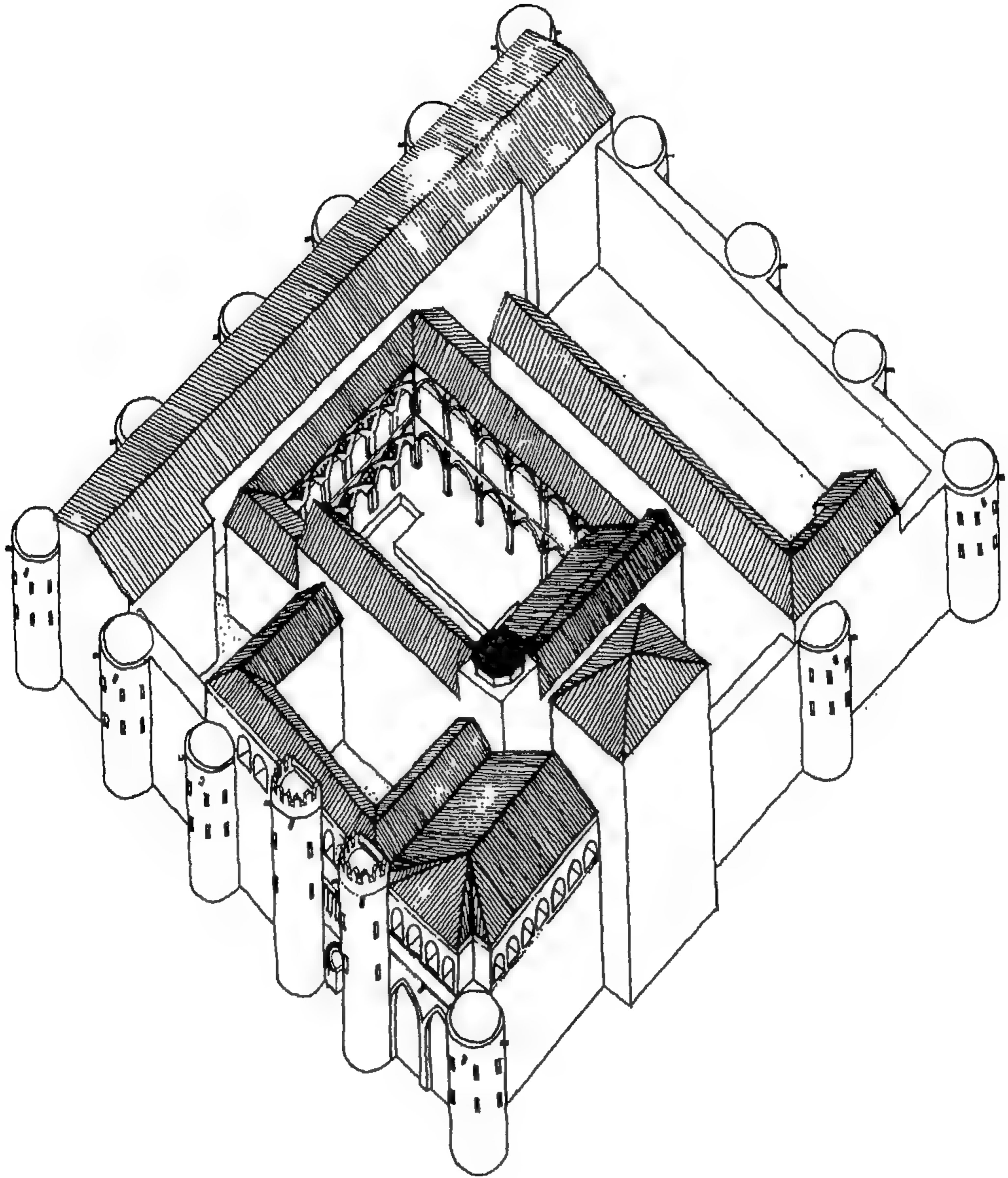
(شكل ٢١٢) مسقط أفقي لزاوية (مدرسة) عموره بجنزور في ليبيا .
(عن : El-Mahmudi) .



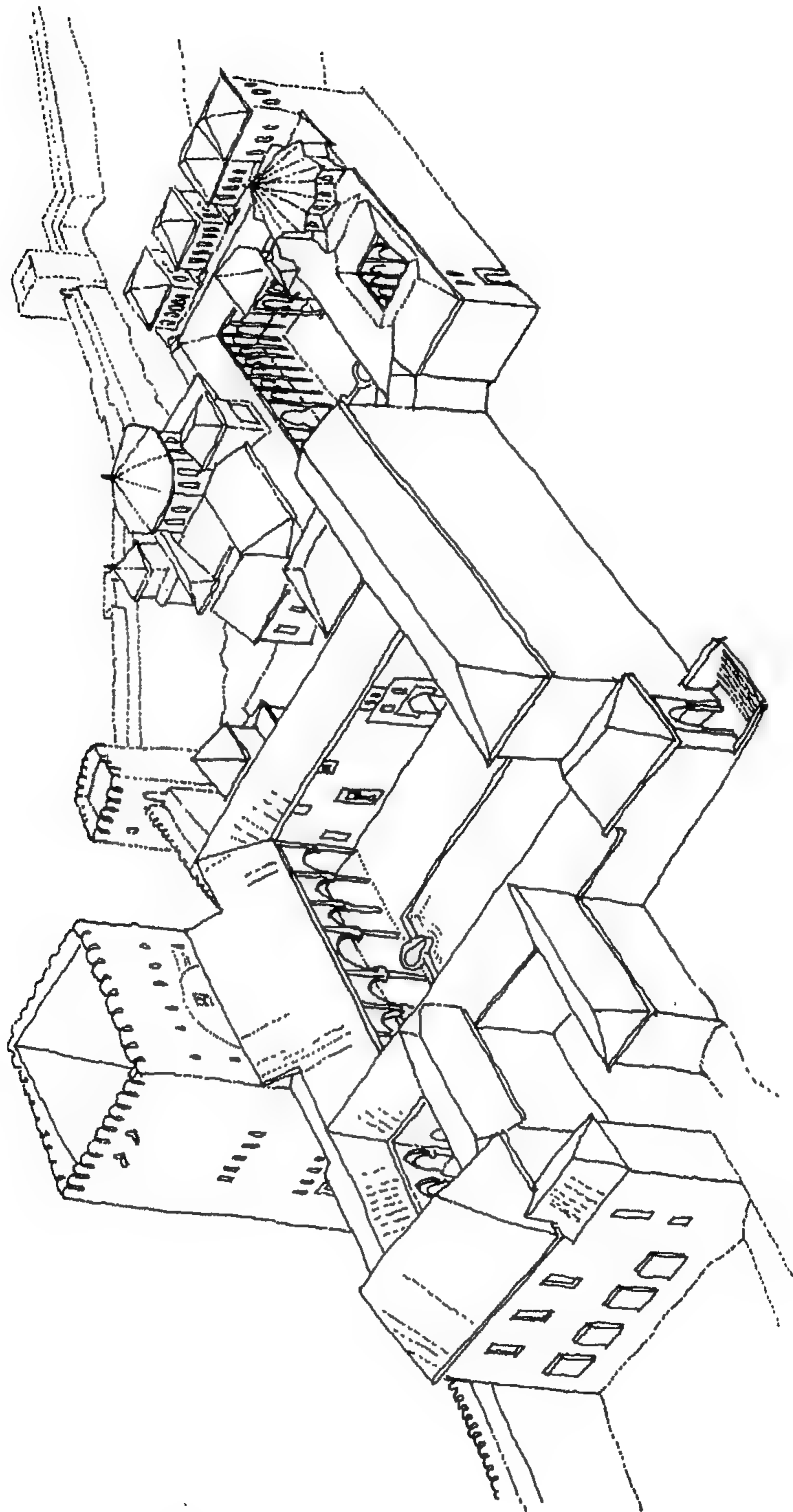
(شكل ٢١٣) قبة البروديين بمراكش . (عن : هيلنبراند) .



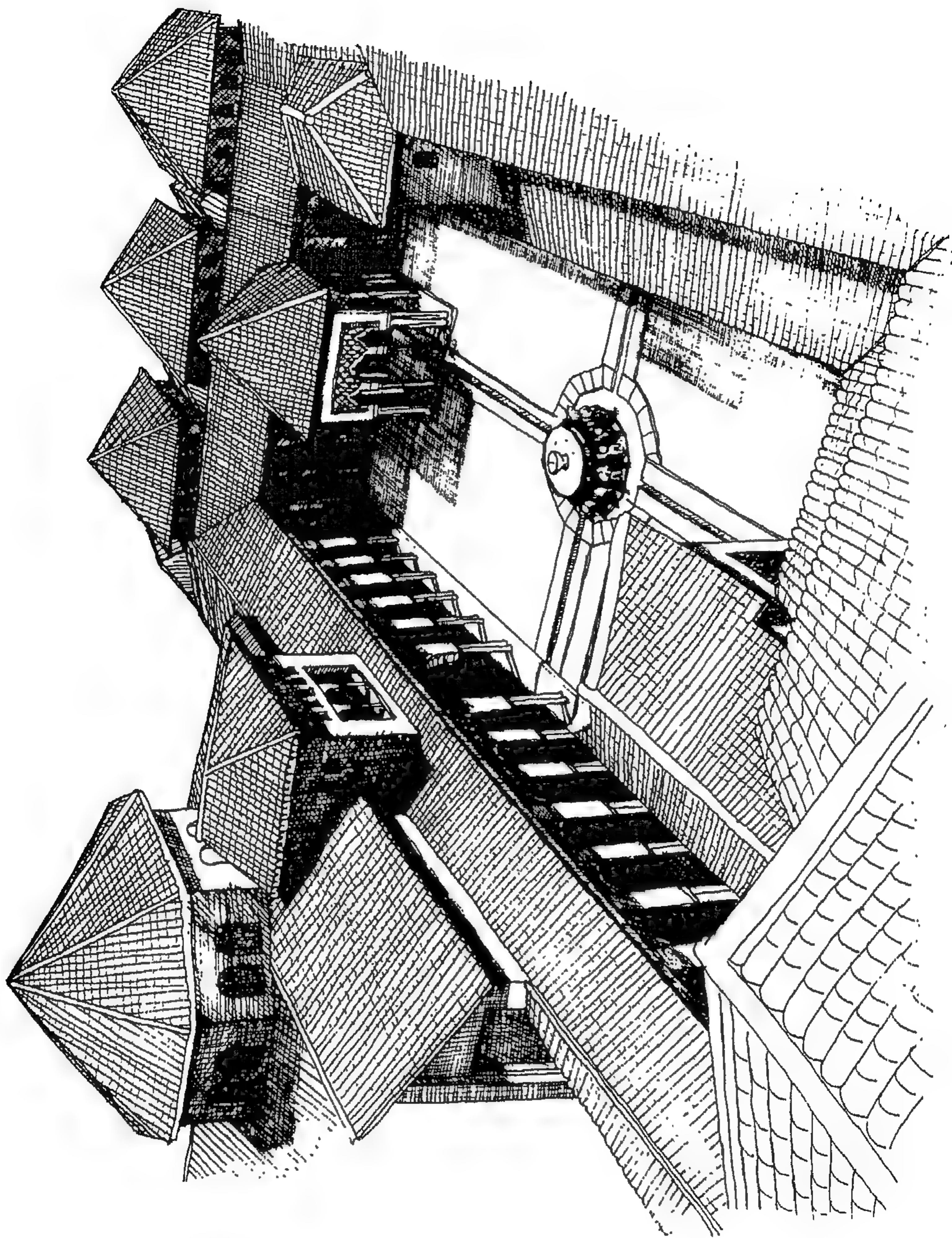
(شکل ۲۱۳ مکرر) قبة البرودیین بمراکش . (عن : هیلتبراند) .



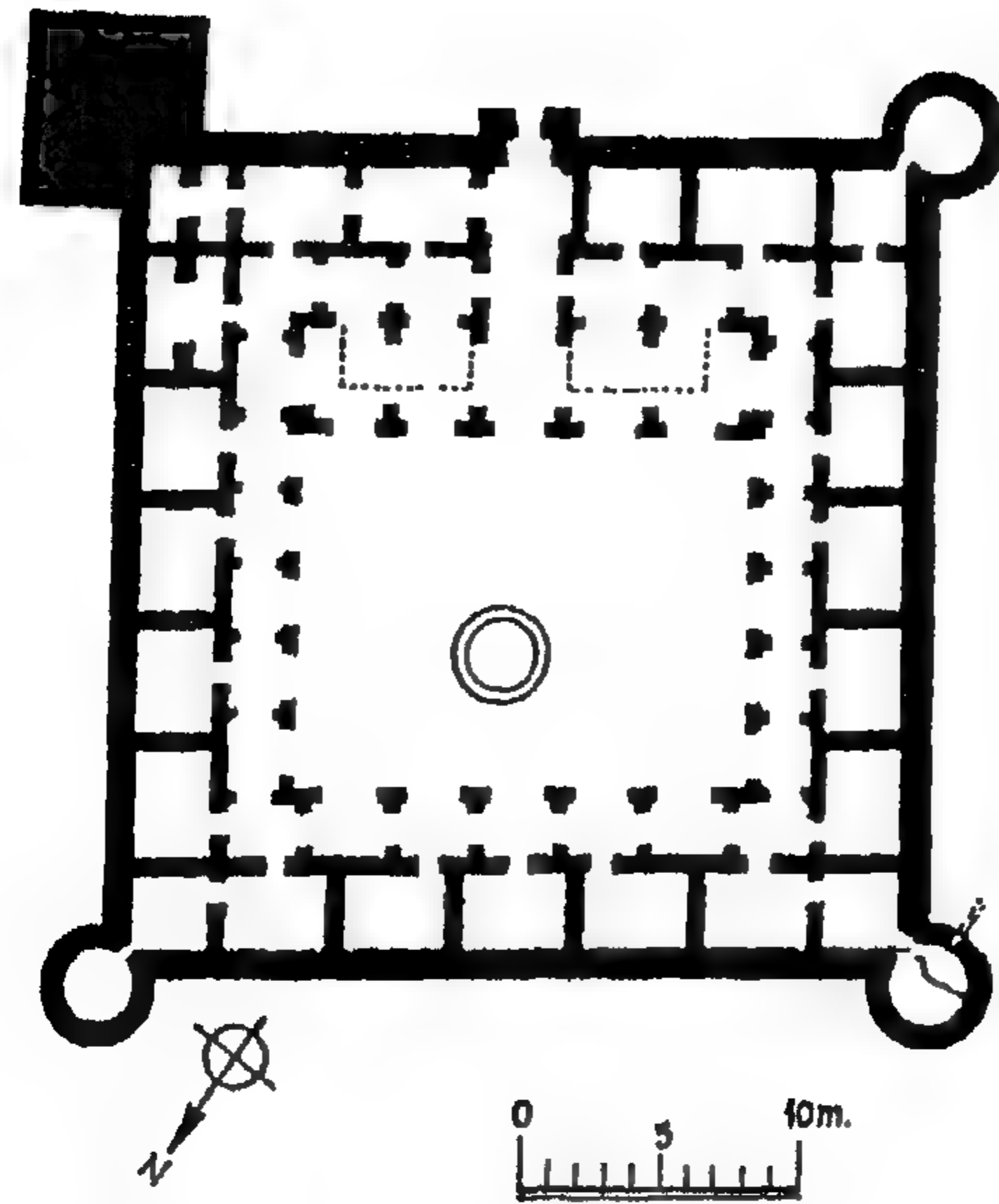
(شكل ٢١٤) قصر الجعفرية بسرقسطة . (عن : هيلنبراند) .



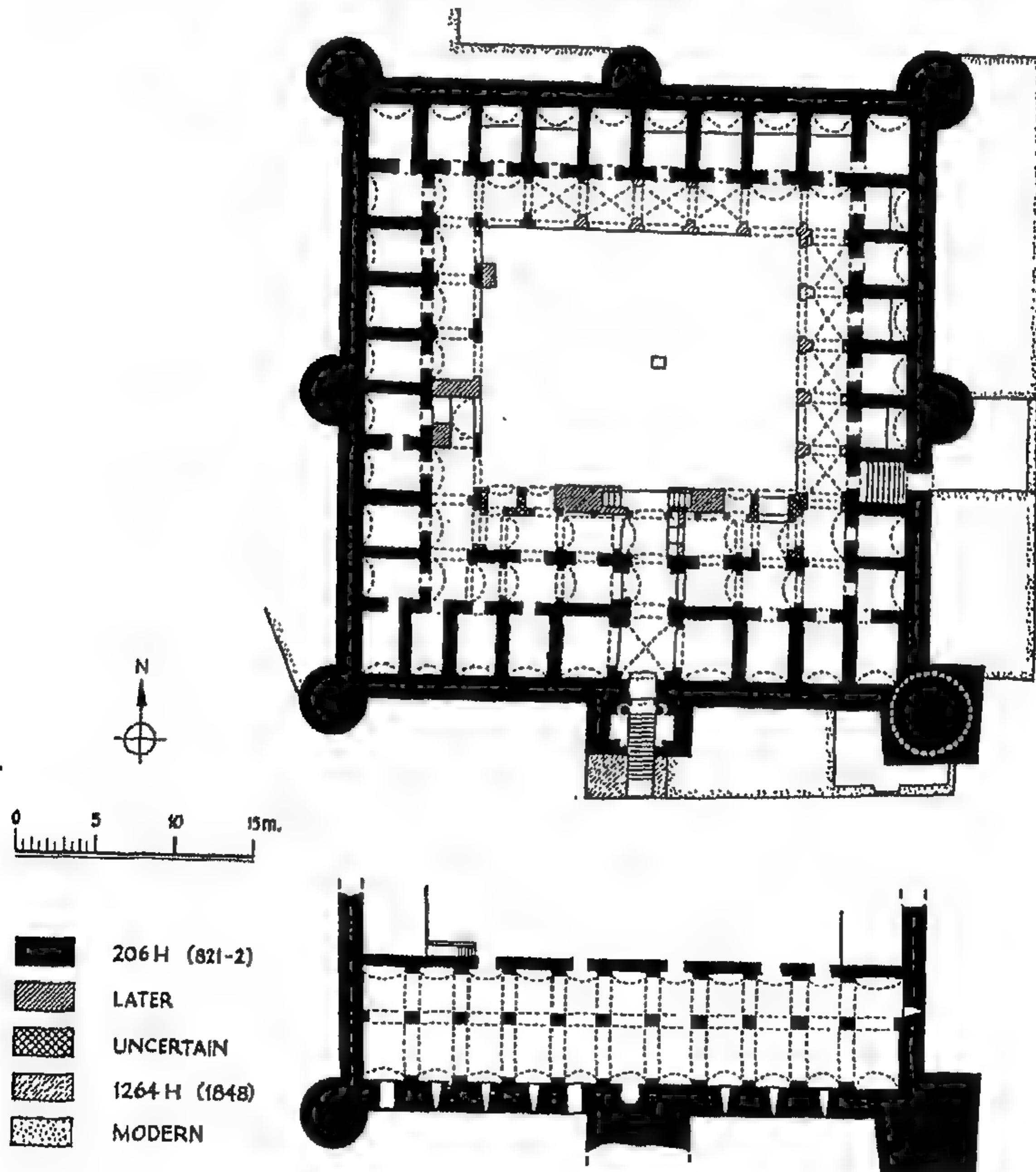
(شکل ۲۱۵) قصر الحمراء بغرناطه . (عن : هیلنبراند) .



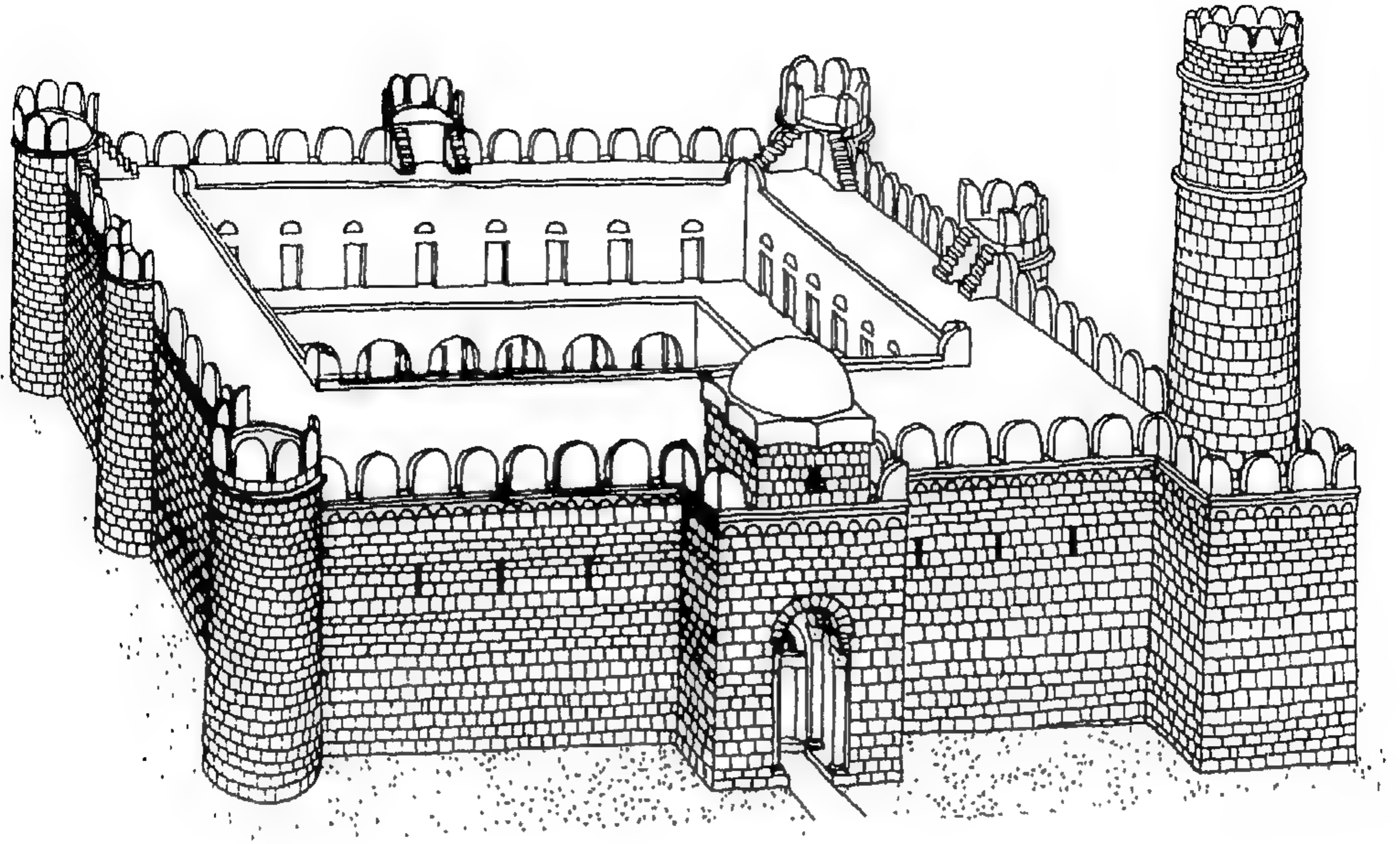
(شكل ٢١٦) بهو السباع أو الاسود بقصر الحمراء بغرناطة - (عن : هيلنبراند) .



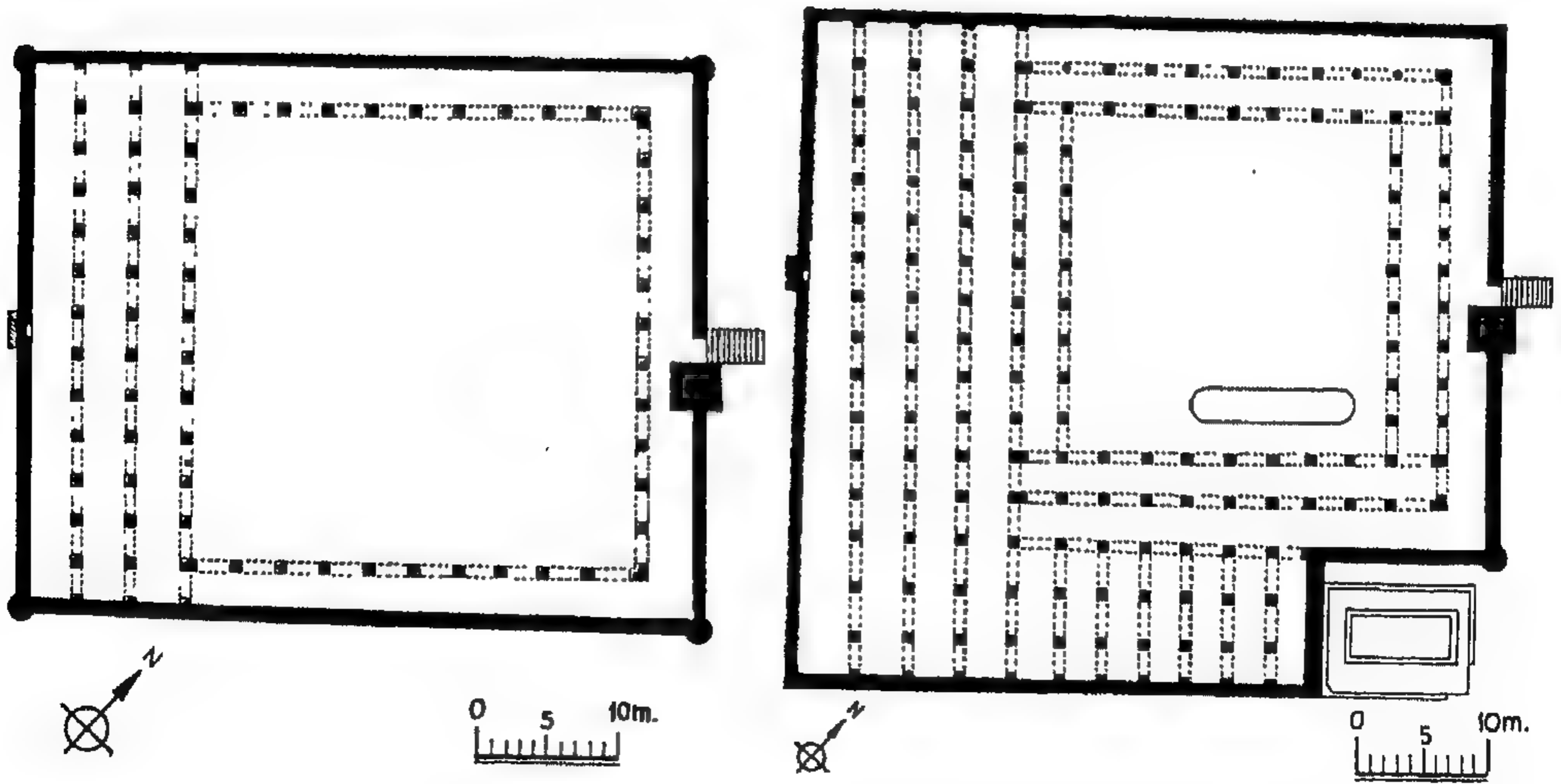
(شكل ٢١٧) مسقط أفقي لرباط المنستير بتونس . (عن : ليزين) .



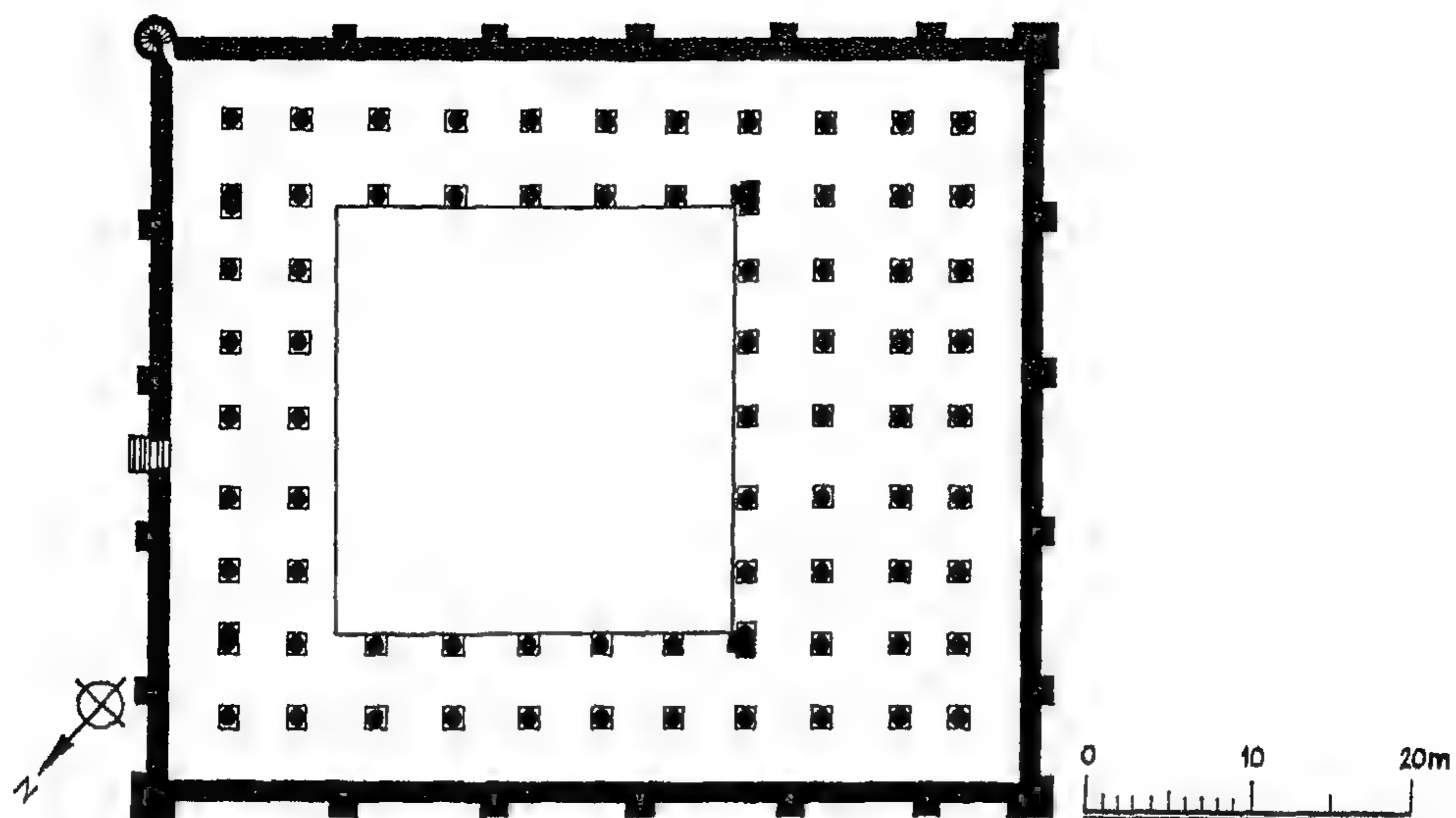
(شكل ٢١٨) مسقط أفقي لرباط سوسة بتونس . (عن : كريزول) .



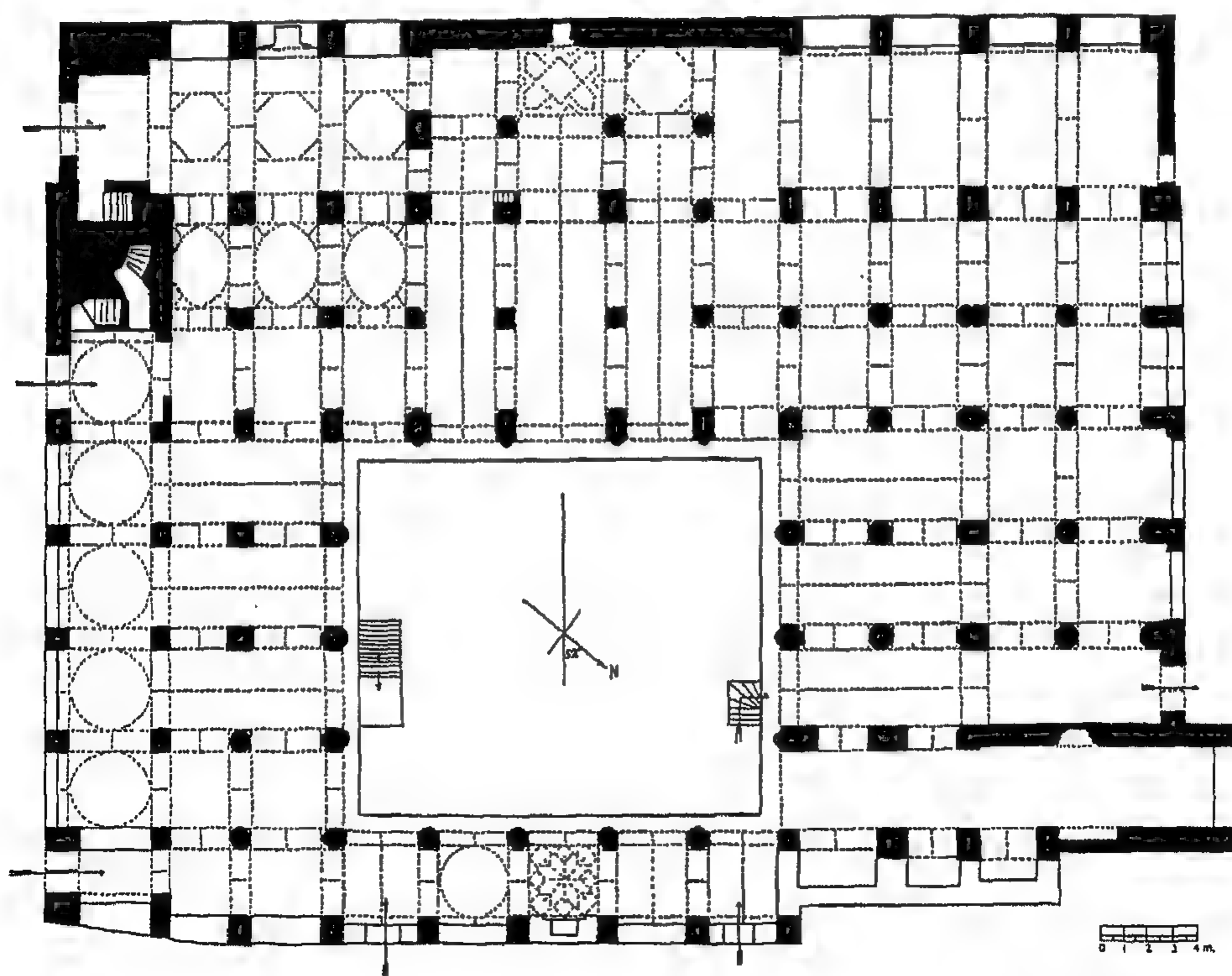
(شكل ٢١٩) رباط سوسة بتونس . (عن : هيلبراند) .



(شكل ٢٢٠) مسقط أفقي لجامع سيراف (الأيسر) المرحلة الأولى ، (الأيمن) المرحلة الثانية . (عن : كريزول) .

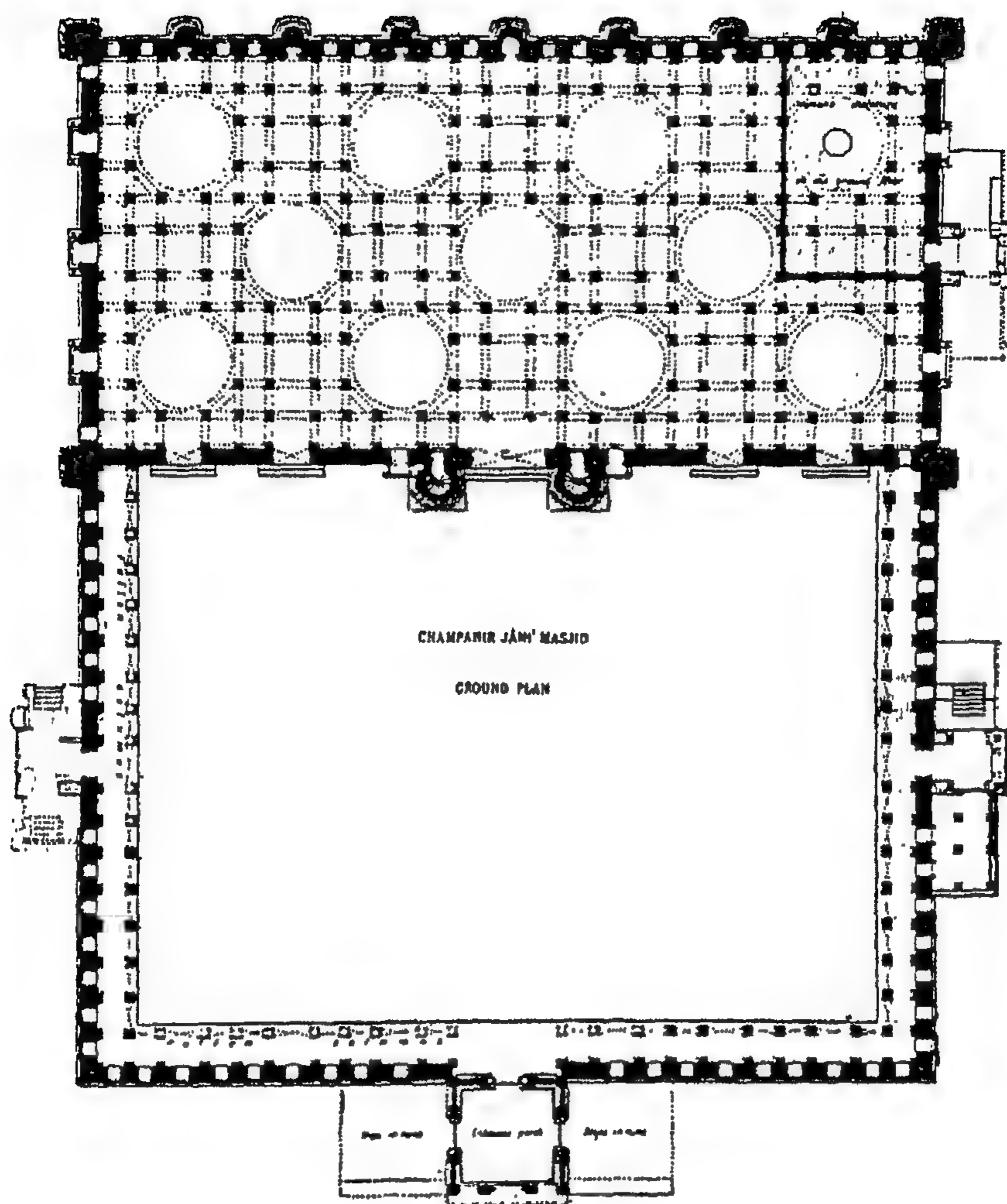


(شکل ۲۲۱) مسقط أفقي لجامع سوسة (خوزستان) . (عن : کریزول) .

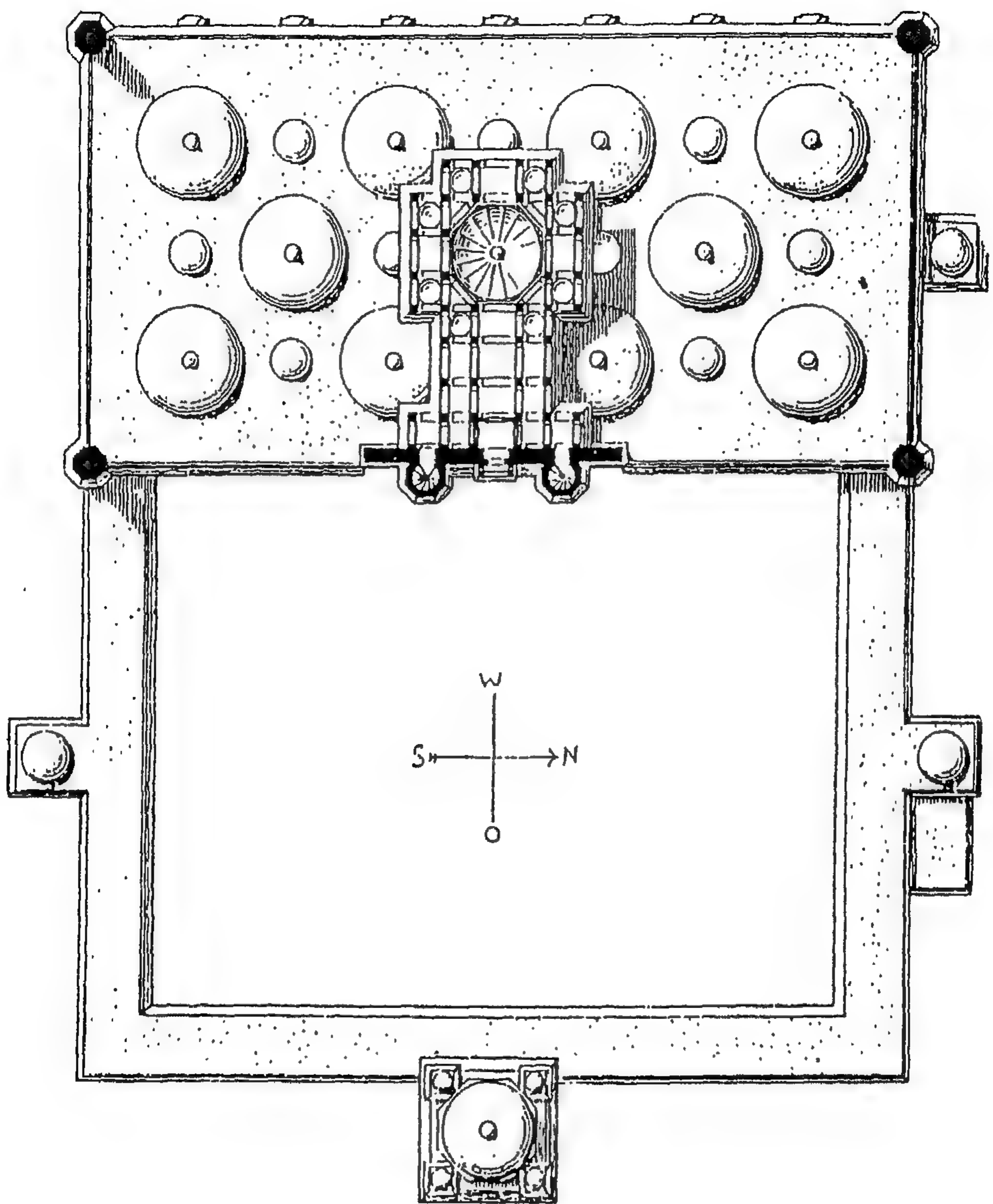


Drawn by Eric Schroeder.

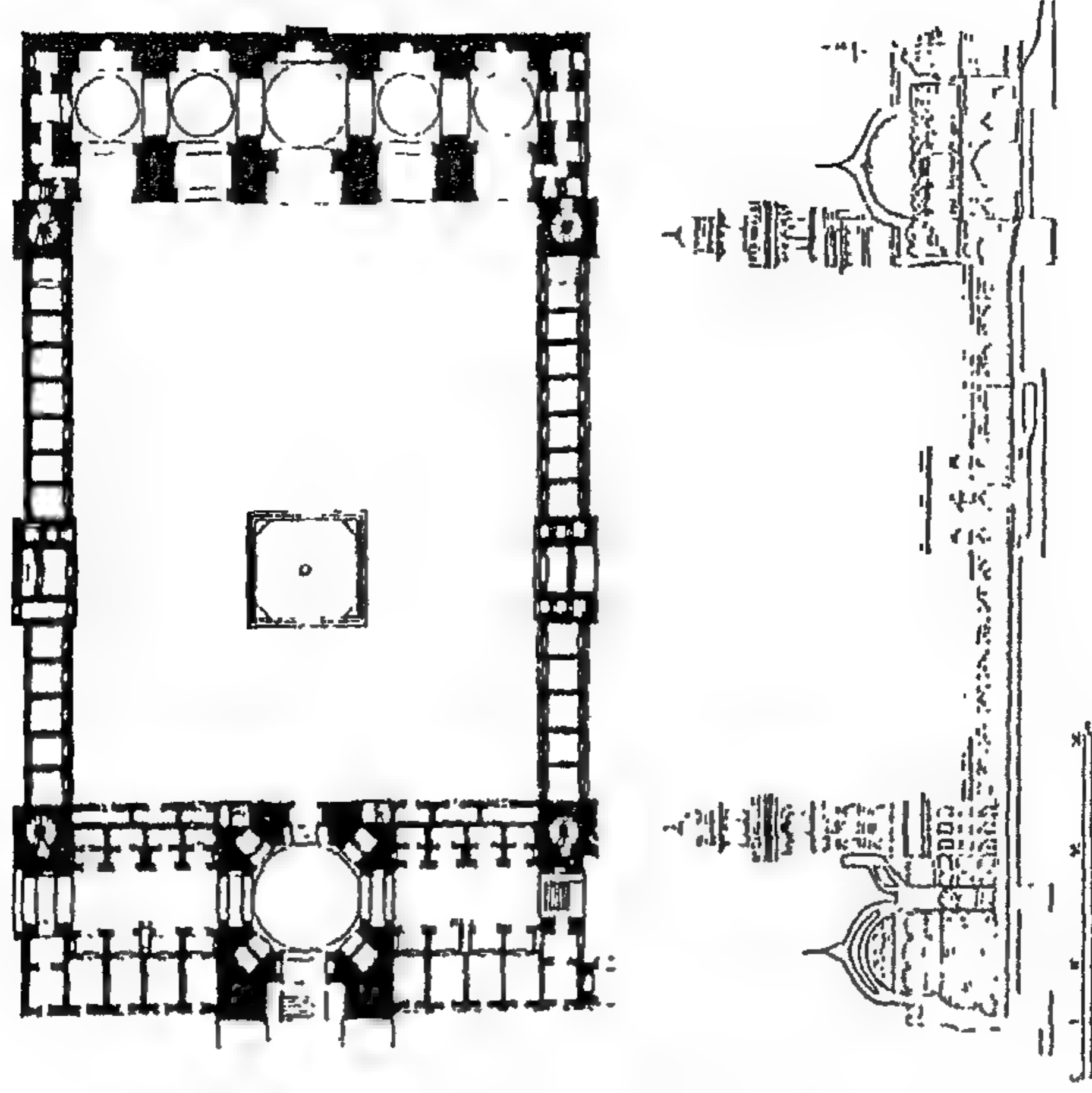
(شکل ۲۲۲) مسقط أفقي لجامع نایین . (عن : بوب) .



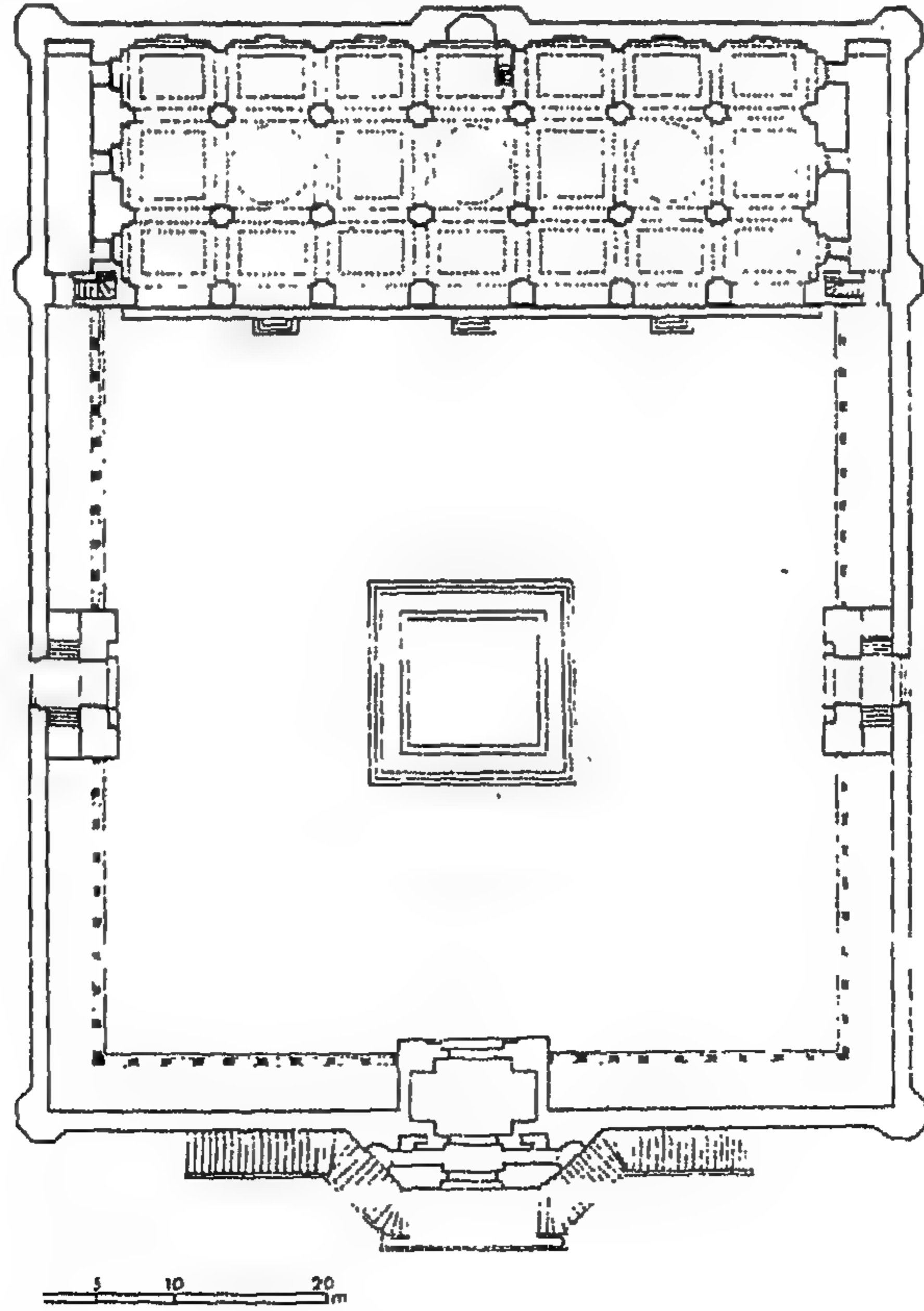
(شكل ٢٢٣) المسجد الجامع في شامبانير (مسقط)
٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م (عن : براون) .



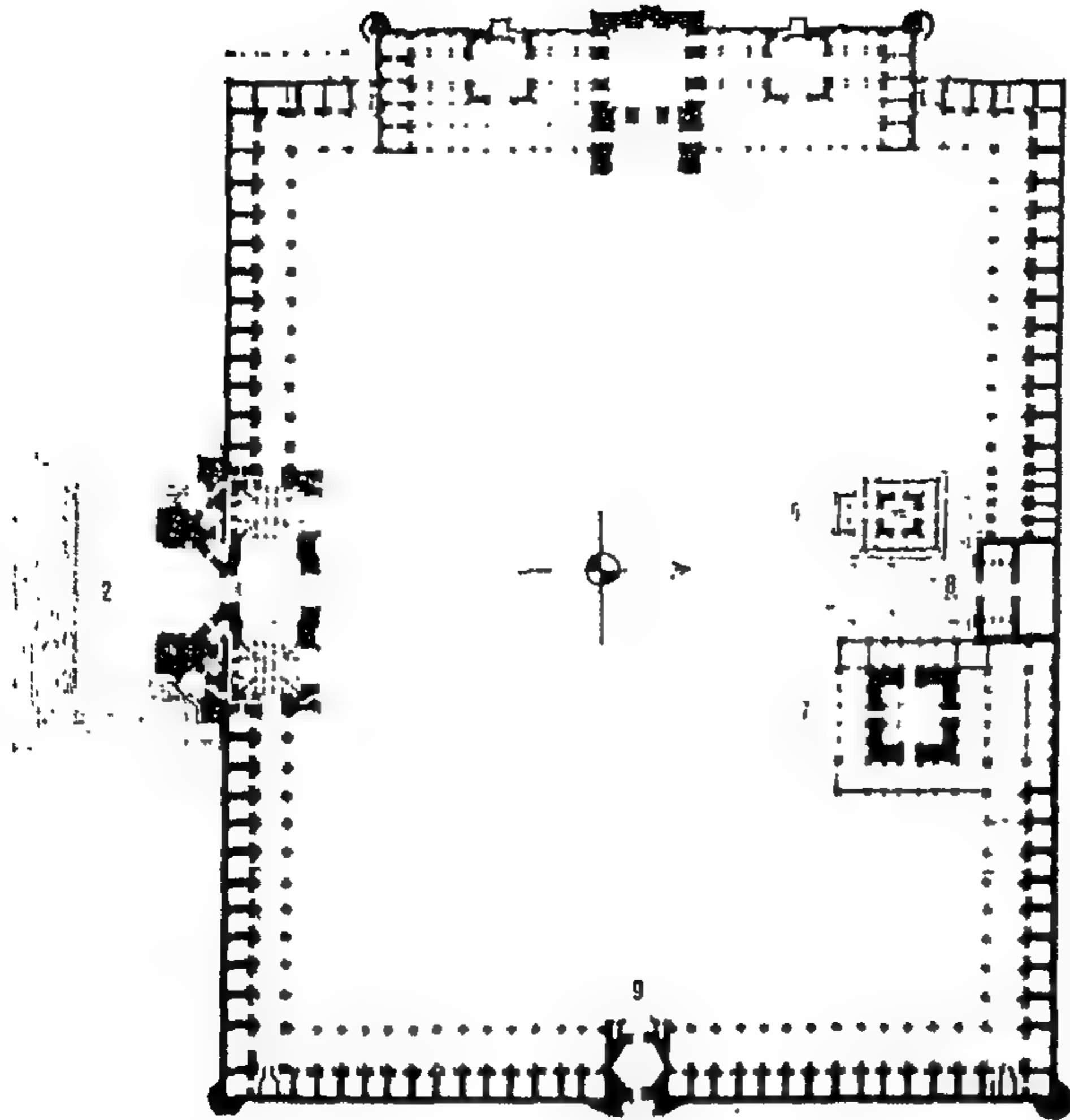
(شكل ٢٢٣ مكرر) المسجد الجامع في شامبانيير
٩٠٦هـ/١٥٠٠م.



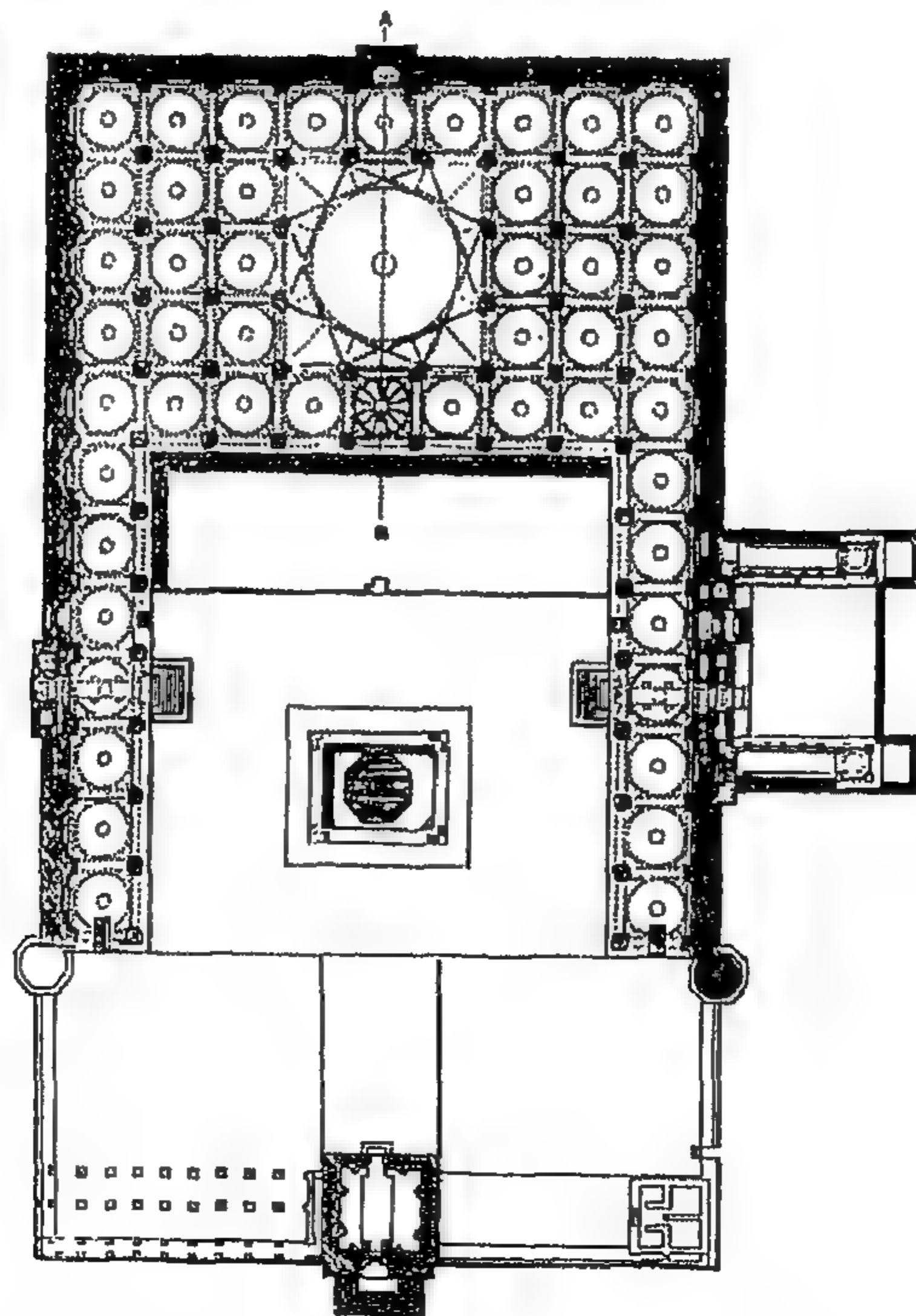
(شكل ٢٢٤) مسجد وزيرخان في لاهور (باكستان) ١٠٥٣هـ / ١٦٤٣م.



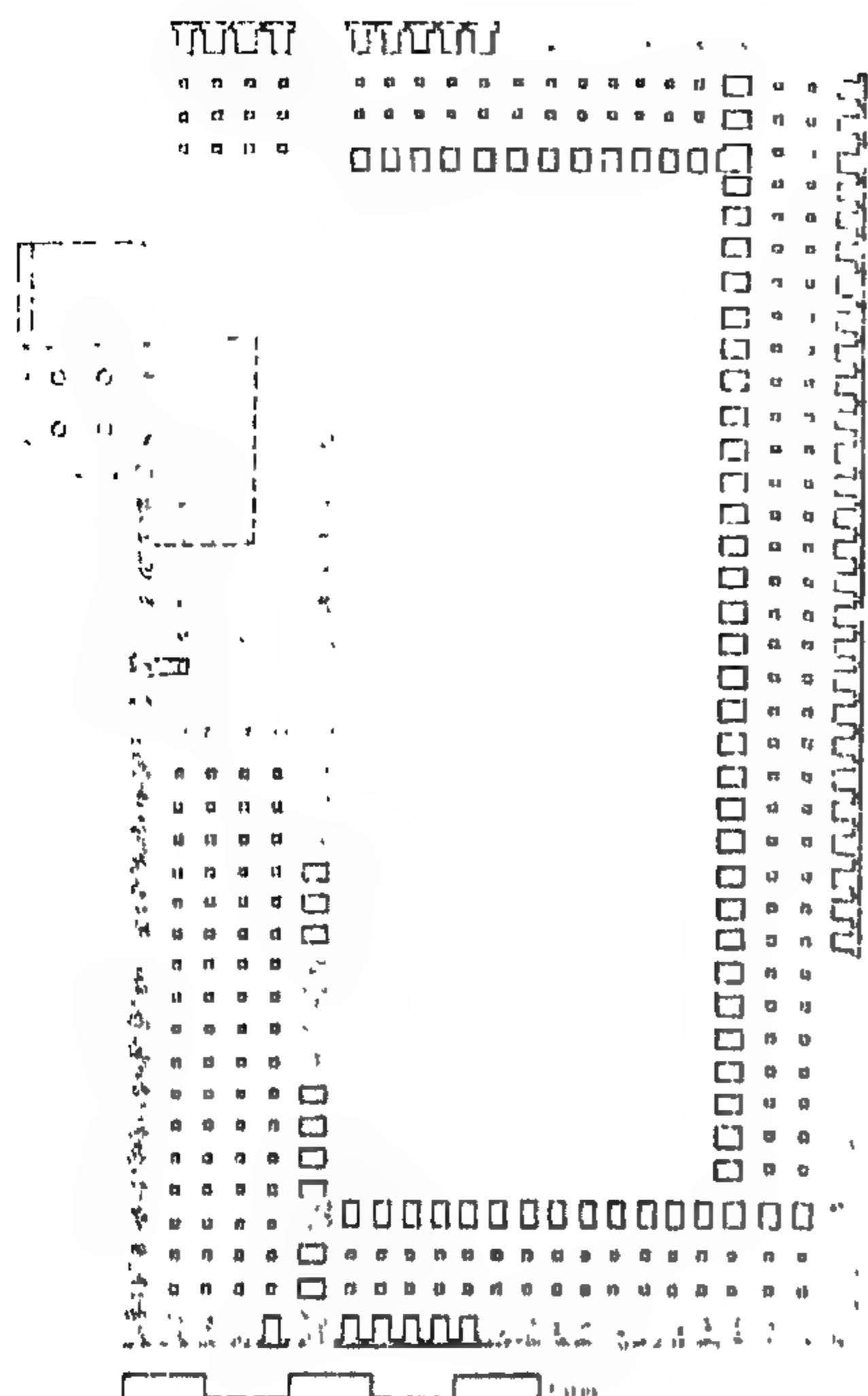
(شكل ٢٢٥) مسجد موتي (أمسجد اللؤلؤة) في أجرا ١٠٥٦ - ١٠٦٦هـ / ١٦٤٨ - ١٦٥٥م.



(شكل ٢٢٦) المسجد الجامع بمدينة فتح بورسكري ٩٧٩هـ/١٥٧١م (مسقط).

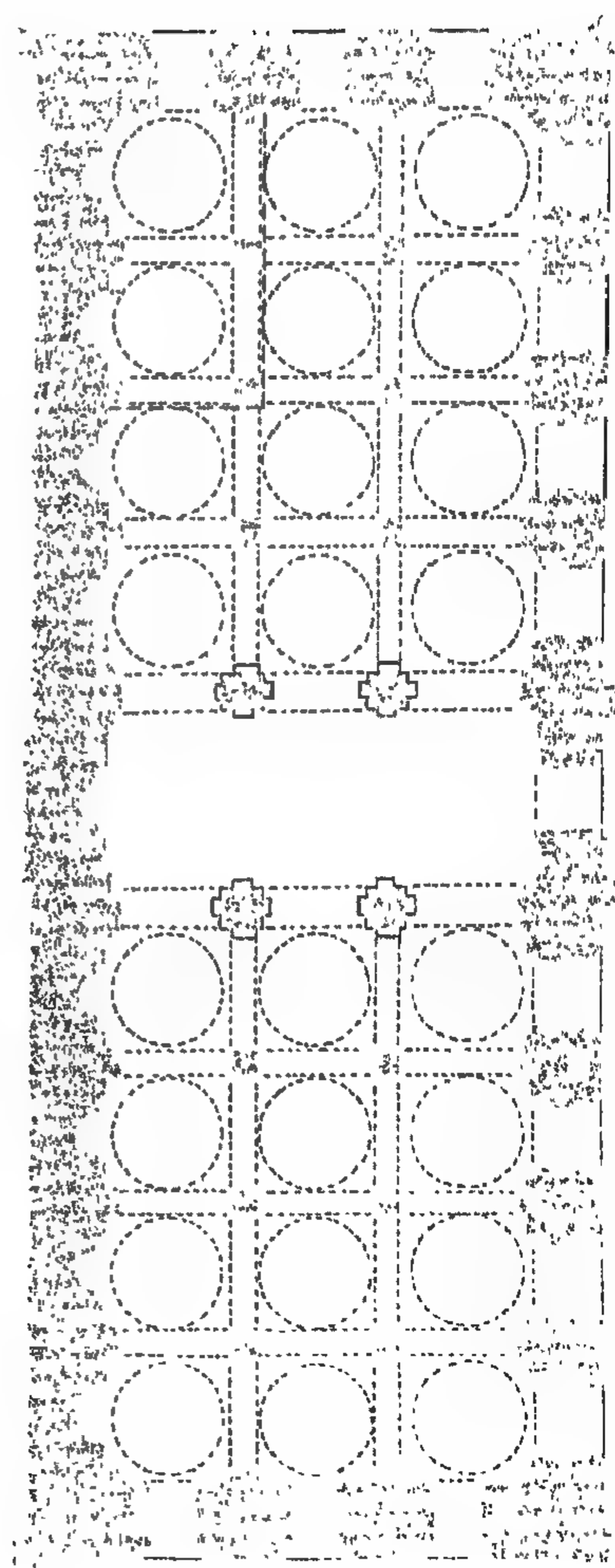


(شكل ٢٢٧) المسجد الجامع في بيجابور منتصف ق ١١هـ/١٧م). (عن : فرجسون).

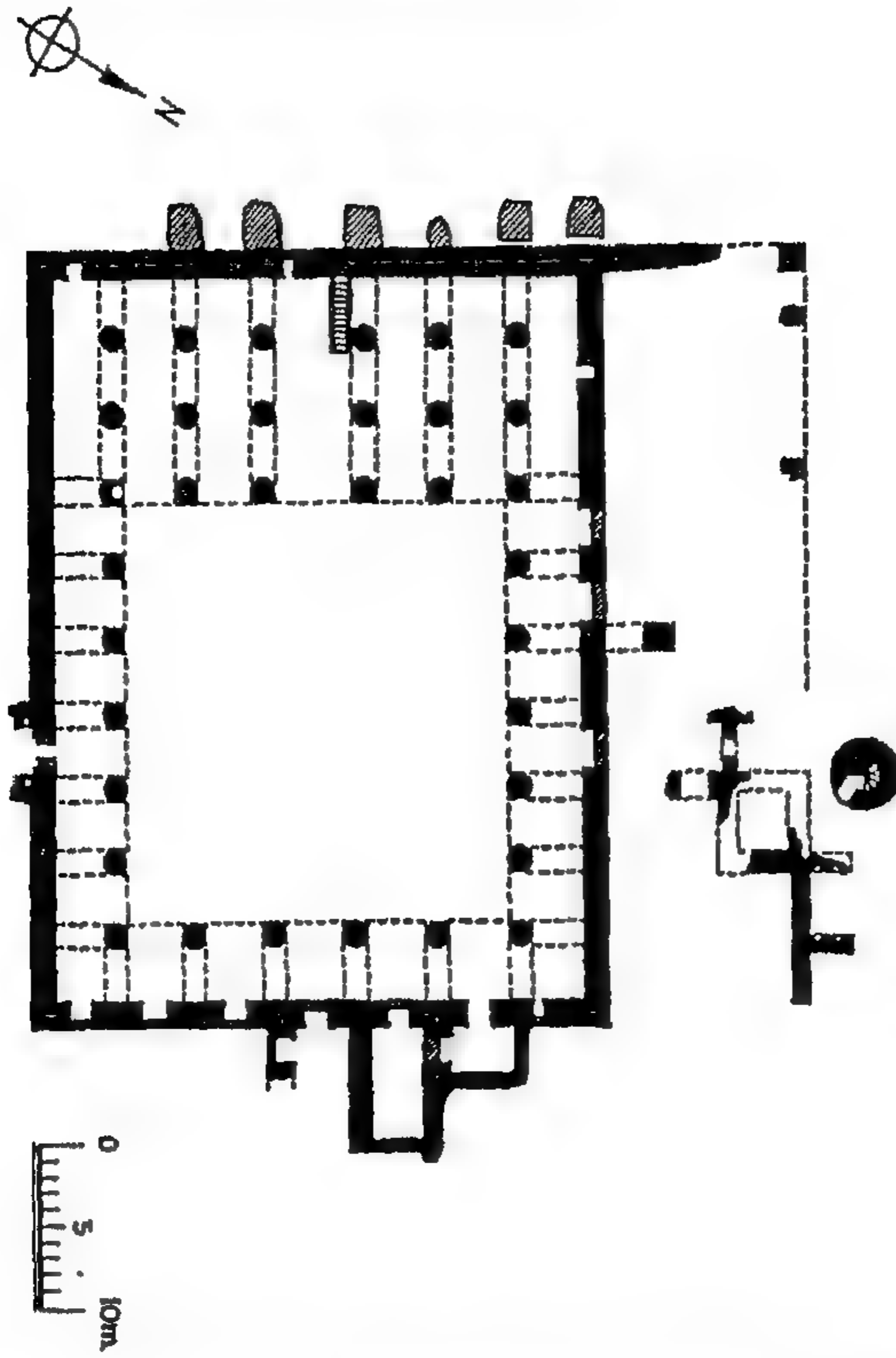


(شكل ٢٢٨ مسقط أفقي لمسجد Adina
٧٧٦هـ/١٣٧٤م في باندوا (غرب البنغال)
(عن : جورج ميشيل) .

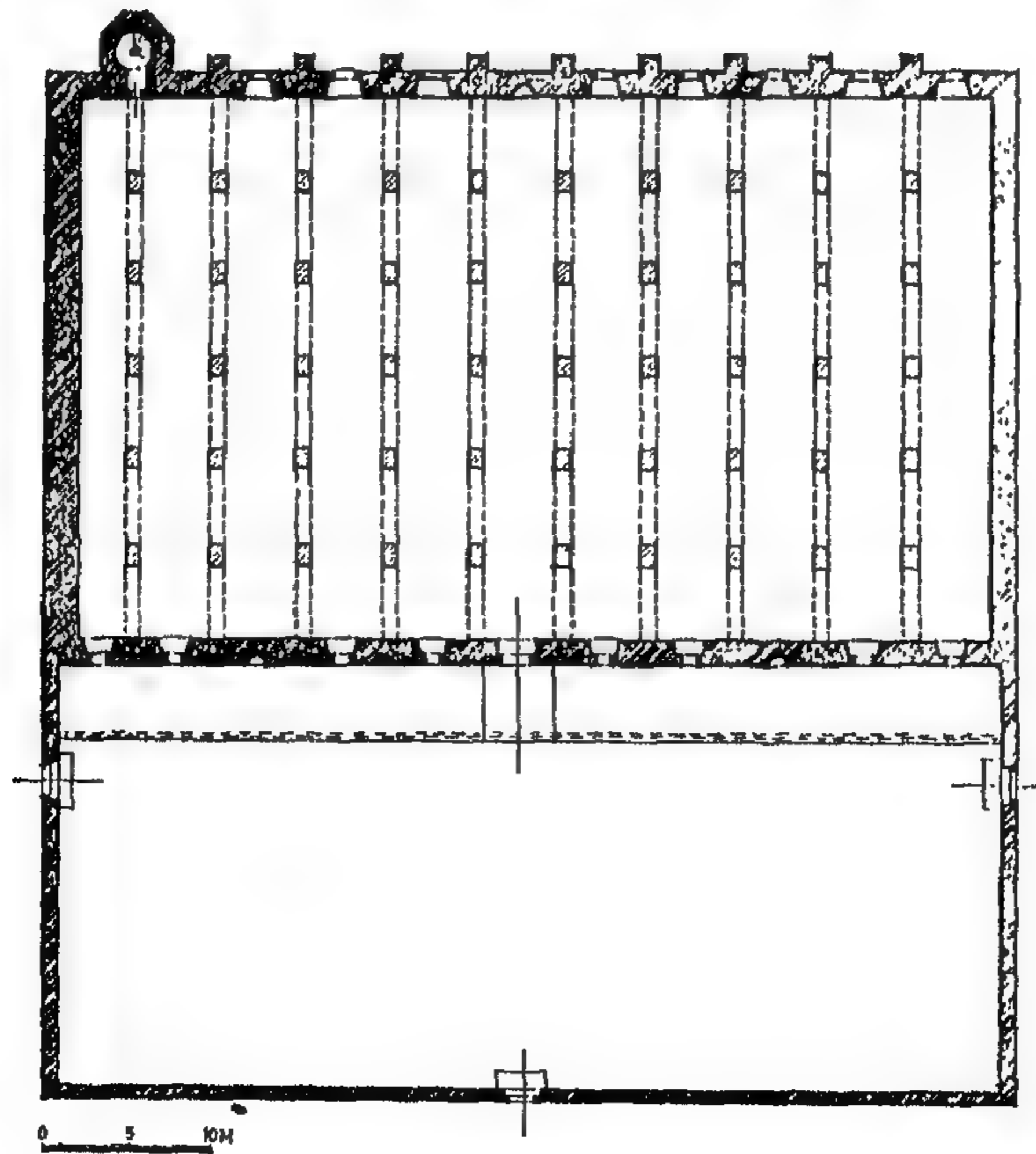
(شكل ٢٢٩) مسقط أفقي لمسجد Gunmant
في Gaur (غرب البنغال) . (عن : جورج ميشيل) .



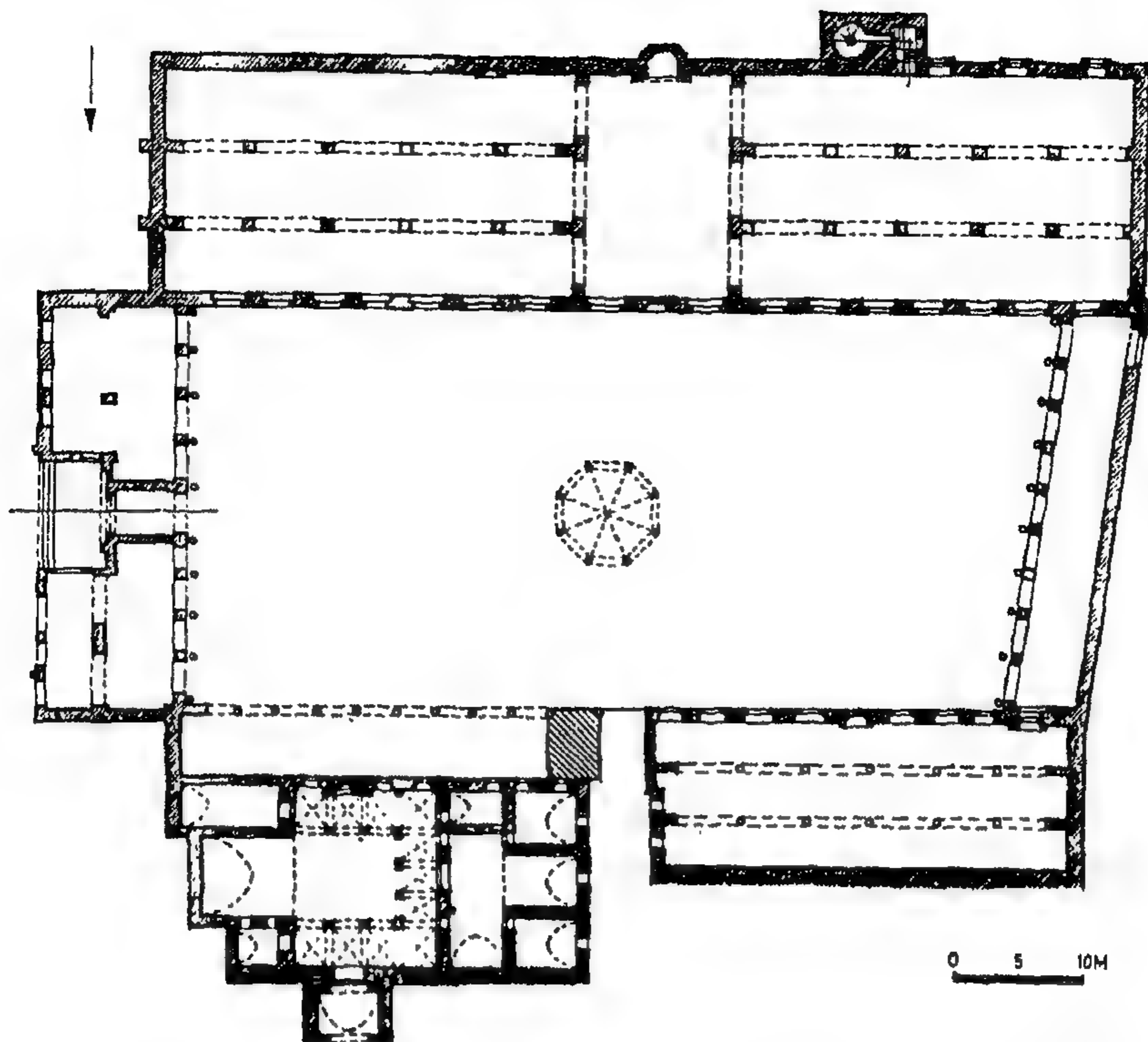
10 m



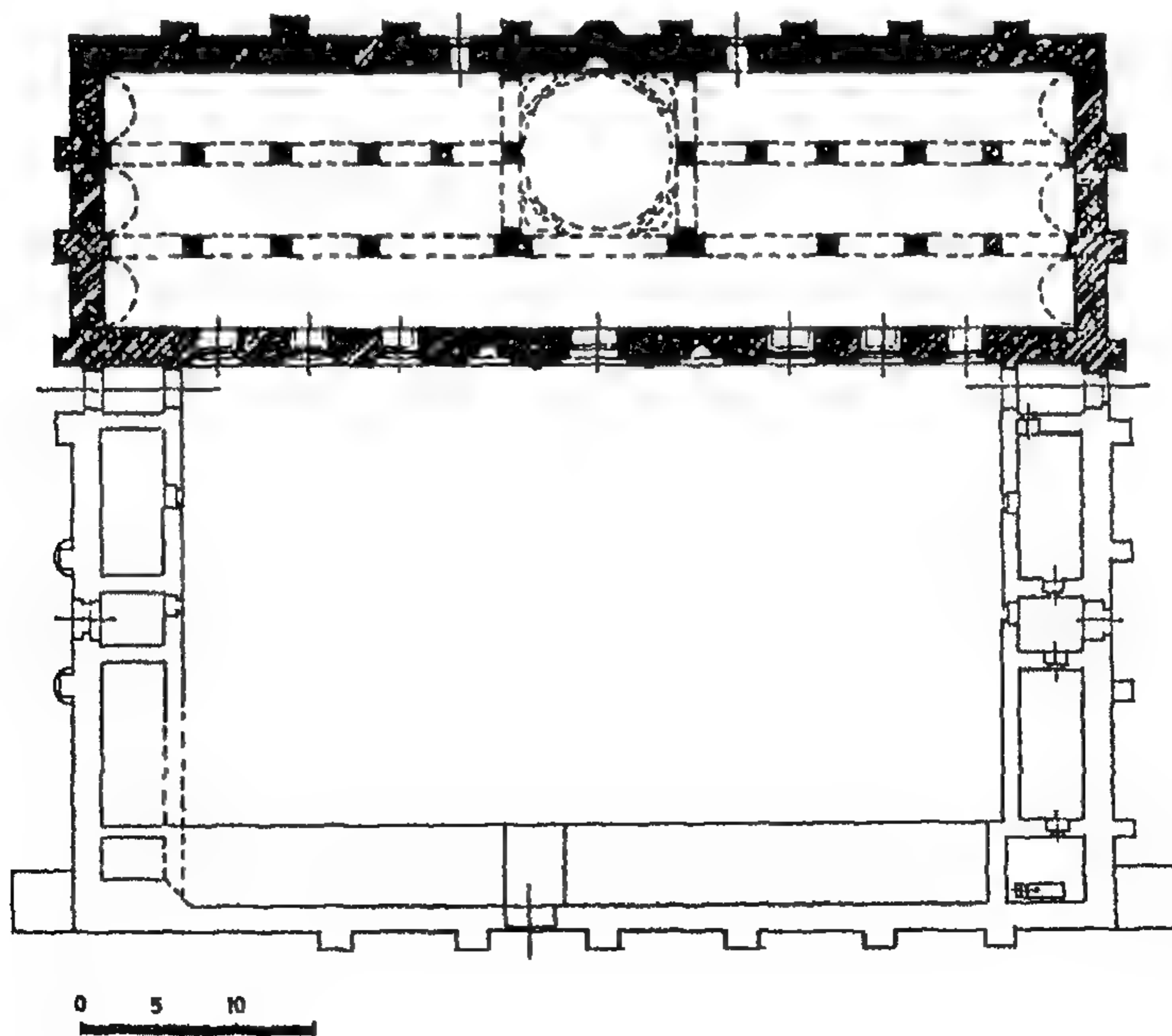
(شكل ٢٣٠) مسقط أفقي لجامع تاريخخانه (طارق خانه) بدمغان . (عن : Creswell) .



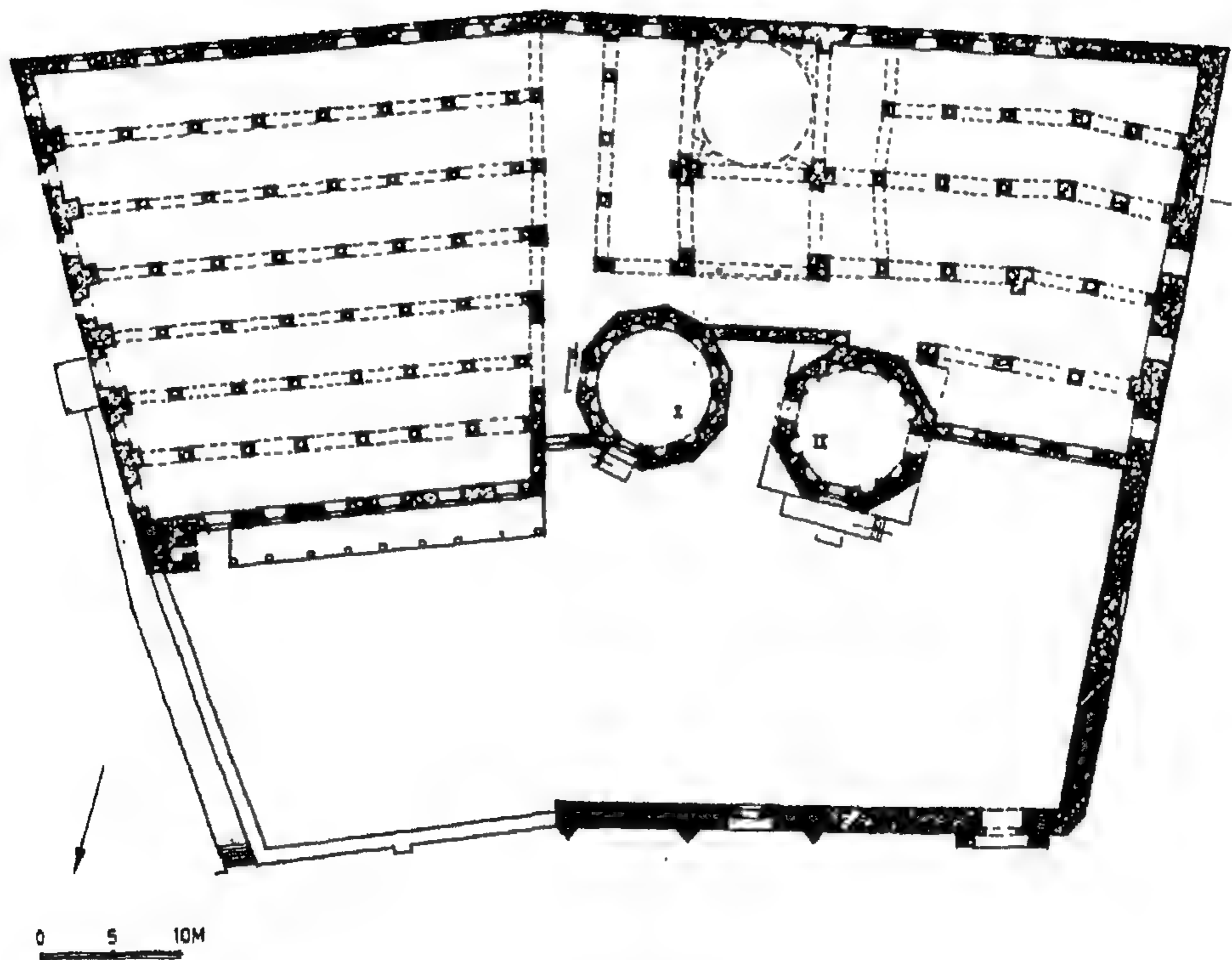
(شكل ٢٣١) مسقط أفقي للجامع الكبير (أولو جامع) في سيواس (عن : Aslanapa) .



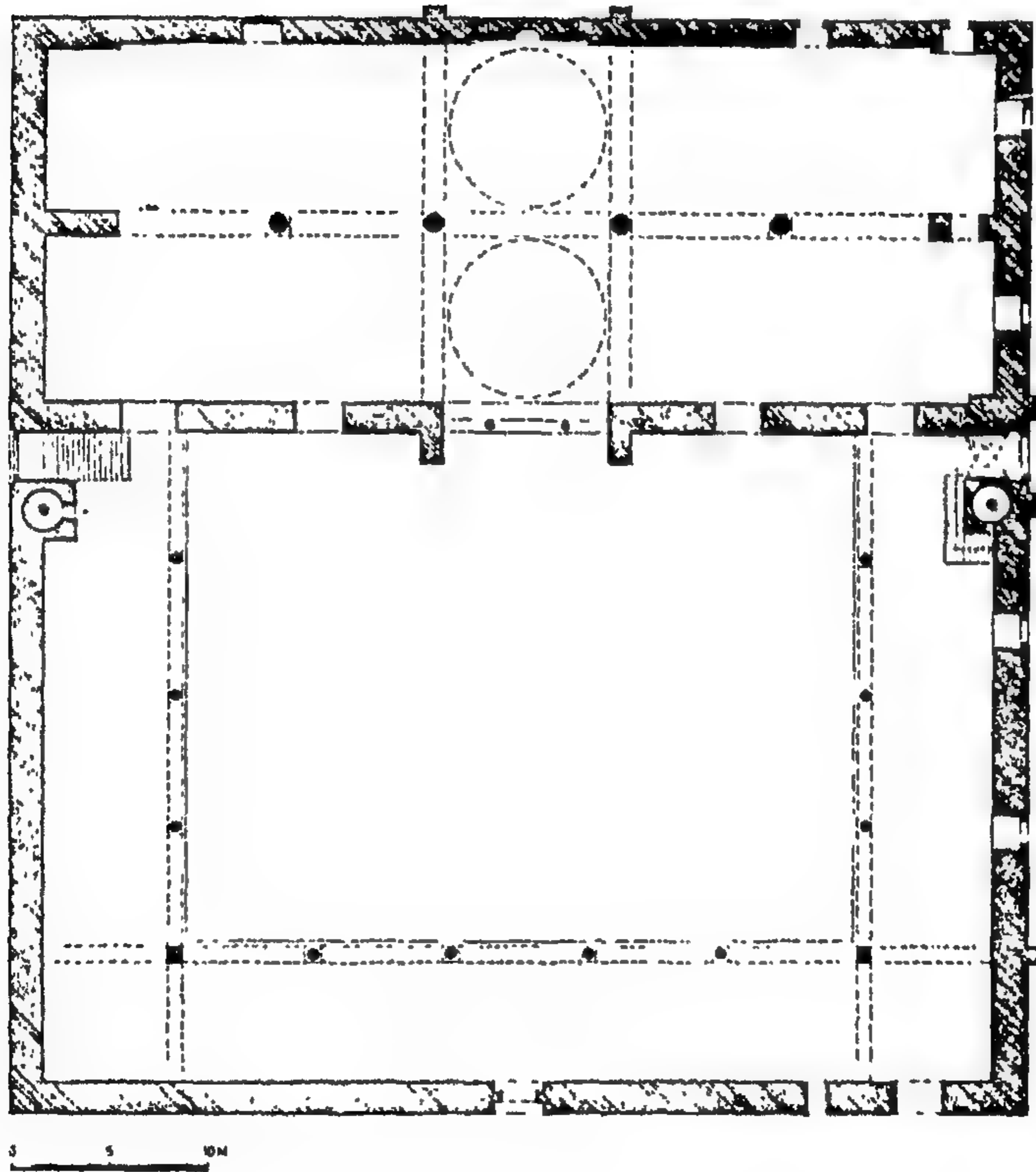
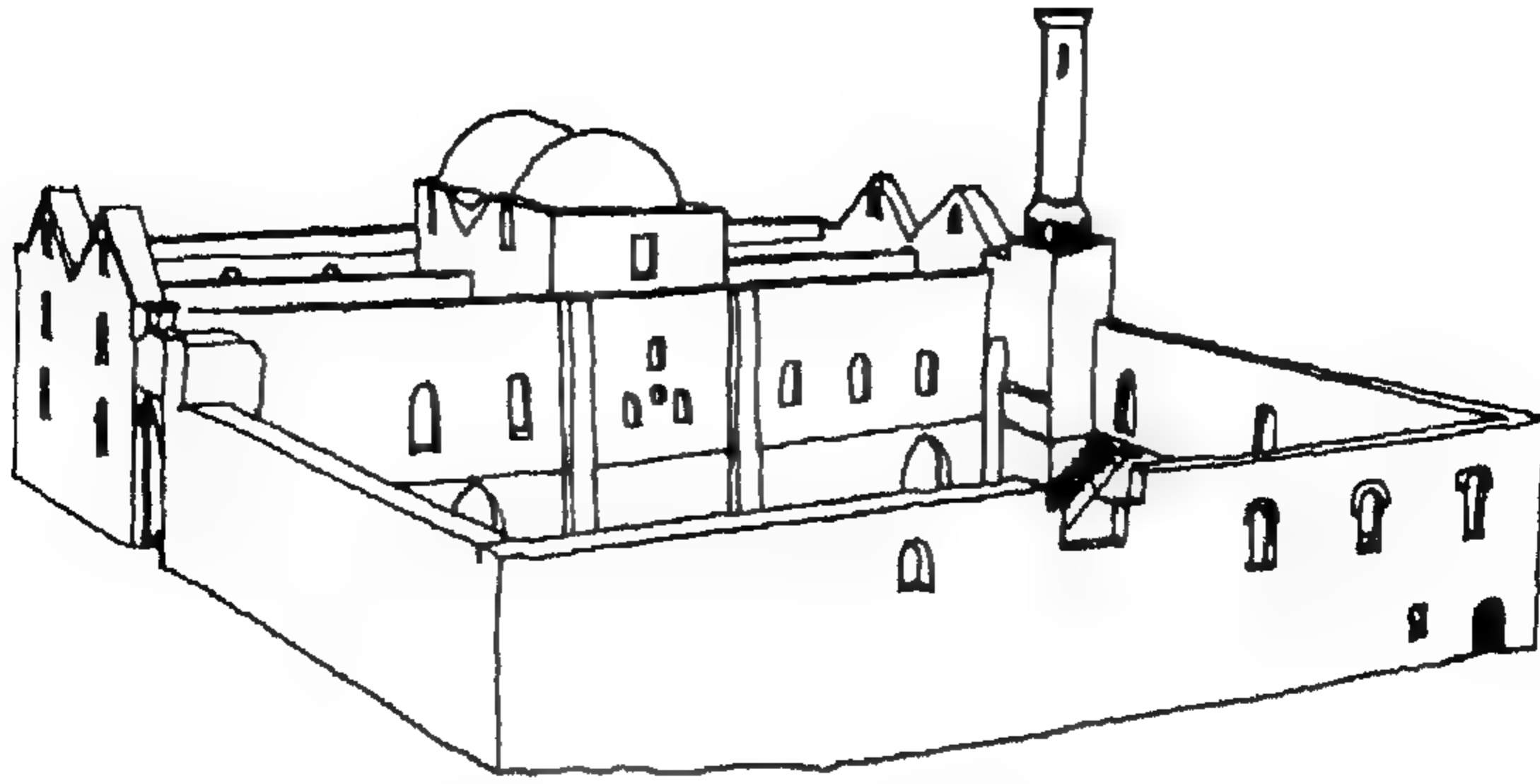
(شكل ٢٣٢) مسقط أفقي للجامع الكبير بديار بكر. (عن : أصلان آبا) .



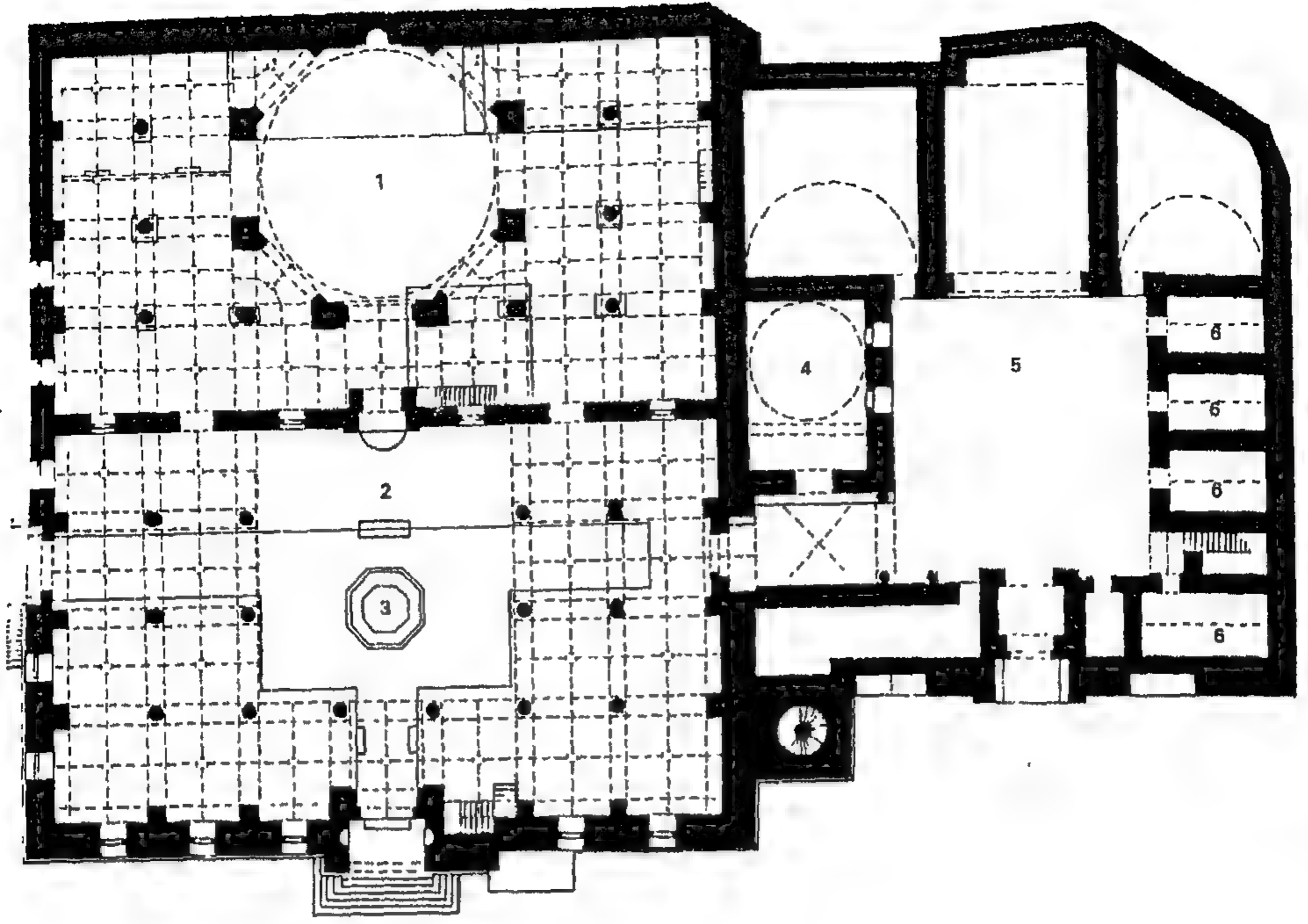
(شكل ٢٣٣) مسقط أفقي للجامع الكبير في دنيصر (قزيل تبه) (عن : أصلان آبا) .



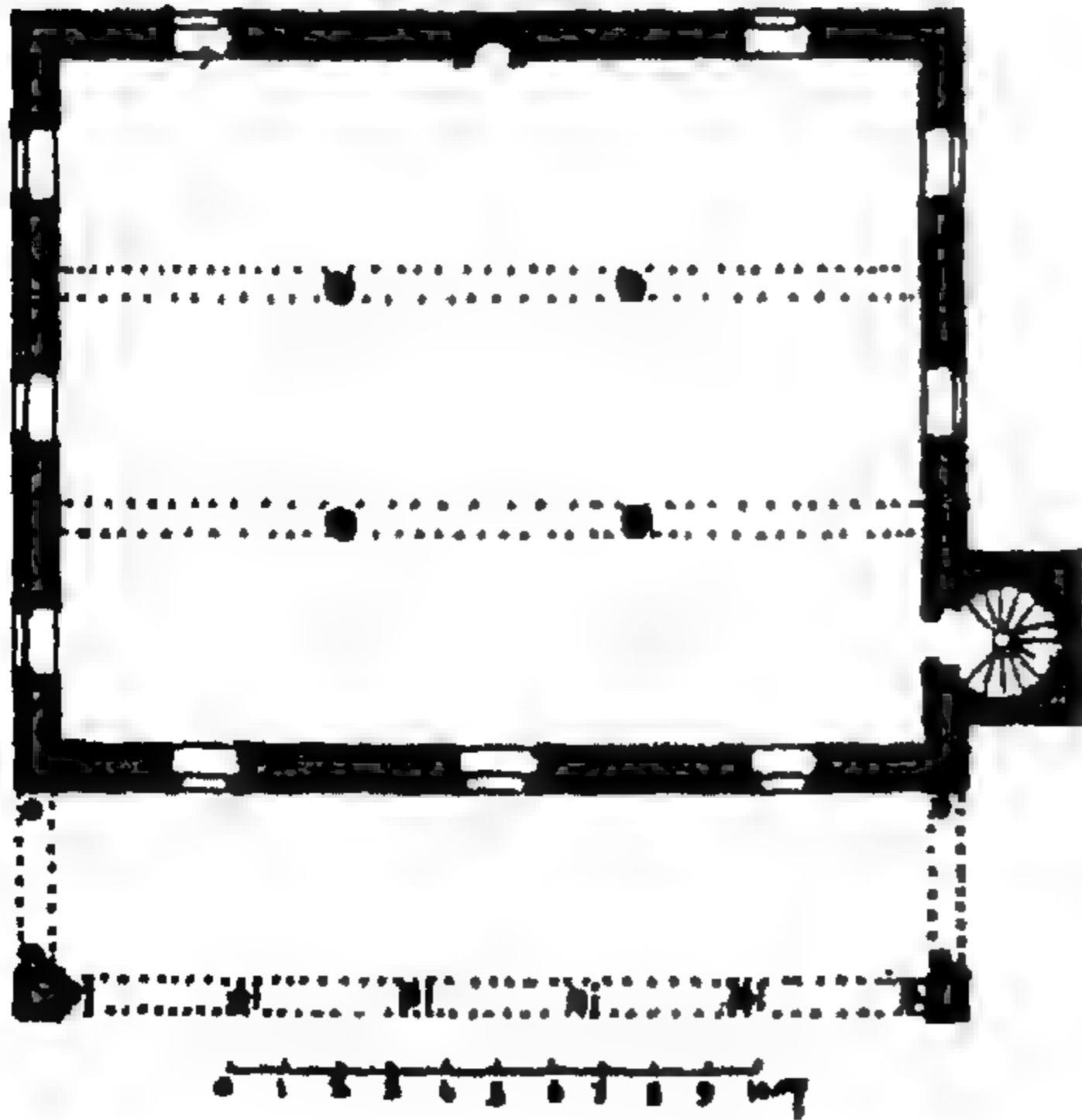
(شكل ٢٣٤) مسقط أفقي لمسجد علاء الدين في قونية . (عن : أصلان آبا) .



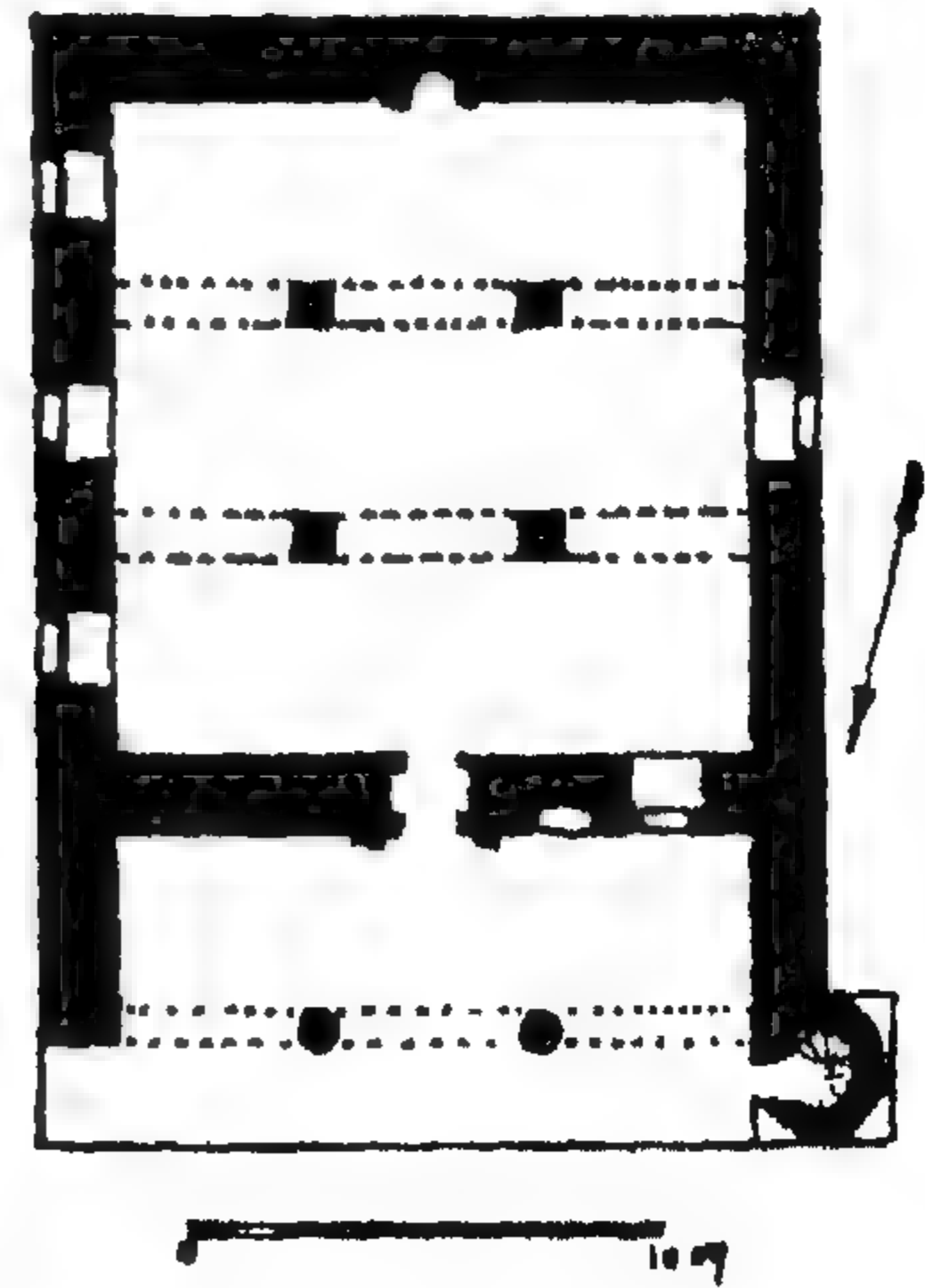
(شكل ٢٣٥) مسجد عيسي بك في سلجوق قرب افسوس (عصر بني آيدين)
 ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م (أعلي) عن : هيلنبراند (أسفل) عن (أصلان آبا) .



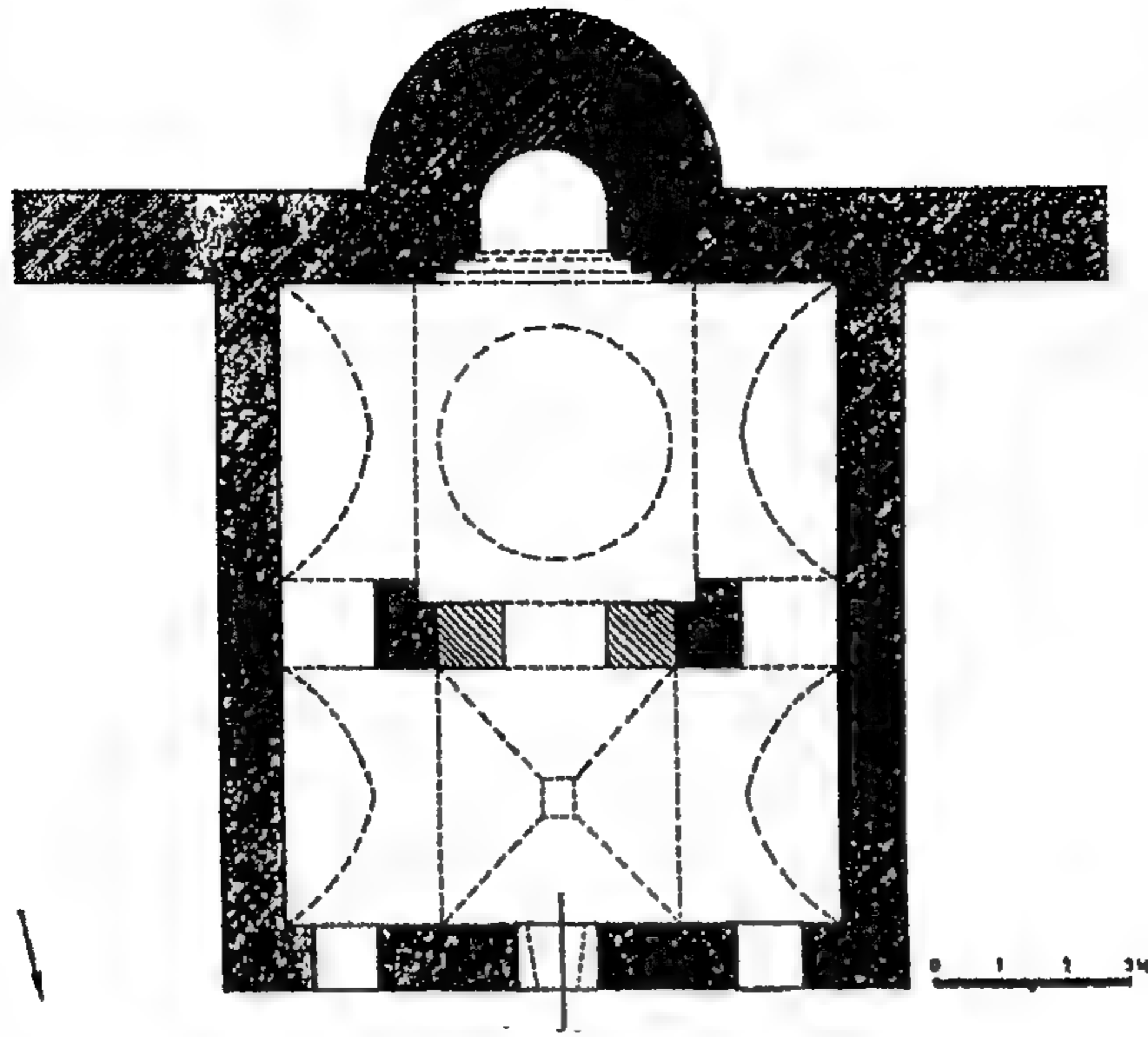
(شكل ٢٣٦) الجامع الكبير (أولو جامع) والمدرسة الملحقة به في مغنيسة (مانيسا)
 ٧٧٨هـ/١٣٧٦م (عصر بني صاروخان) (عن : جود وين) .
 ١- الجامع ٢- الحرم ٣- الشادروان ٤- التربة ٥- صحن المدرسة ٦- الخلاوي .



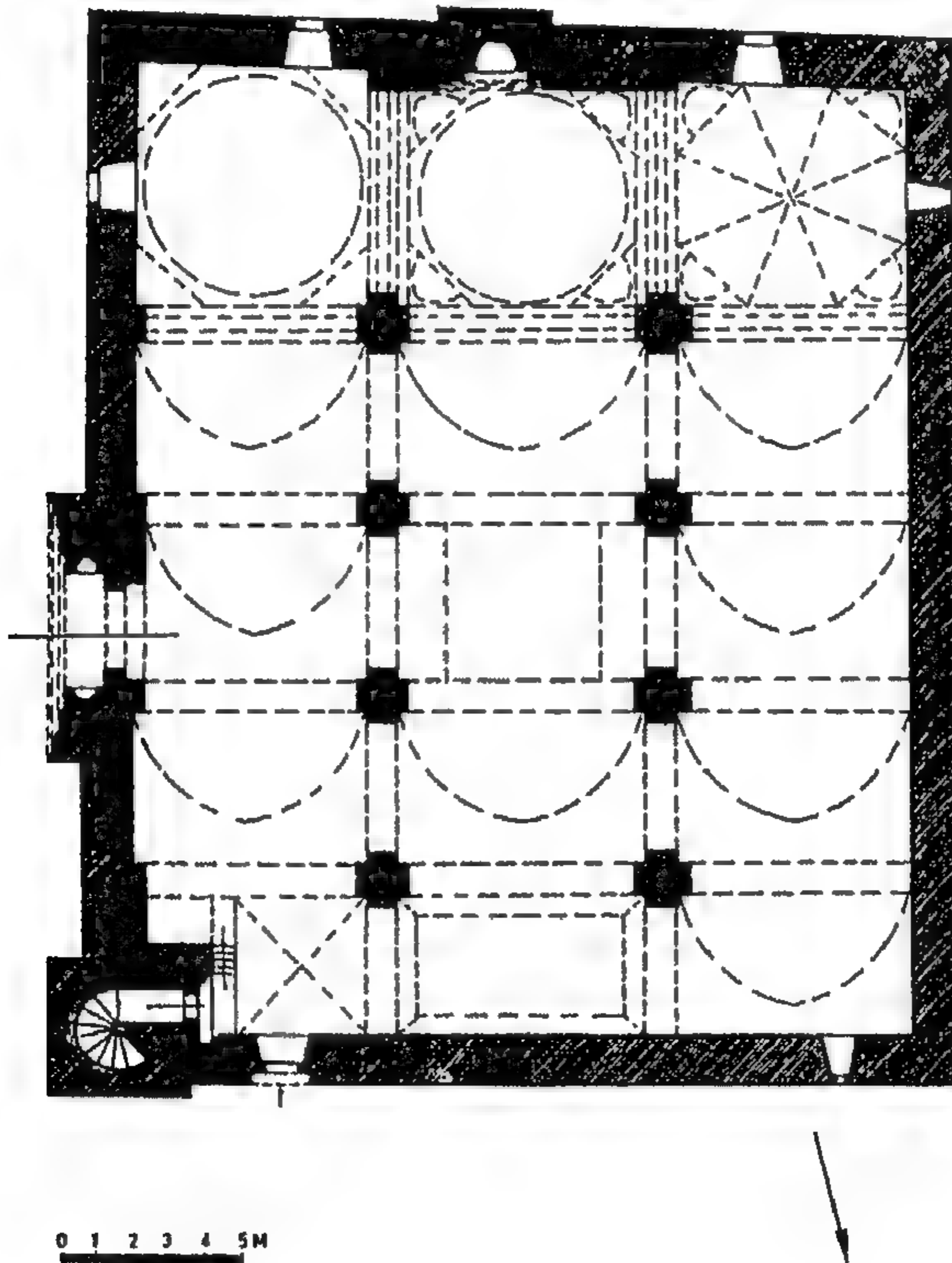
(شكل ٢٣٨) مسقط أفقي لمسجد
 ساري علي . (عن : Gabriel) .



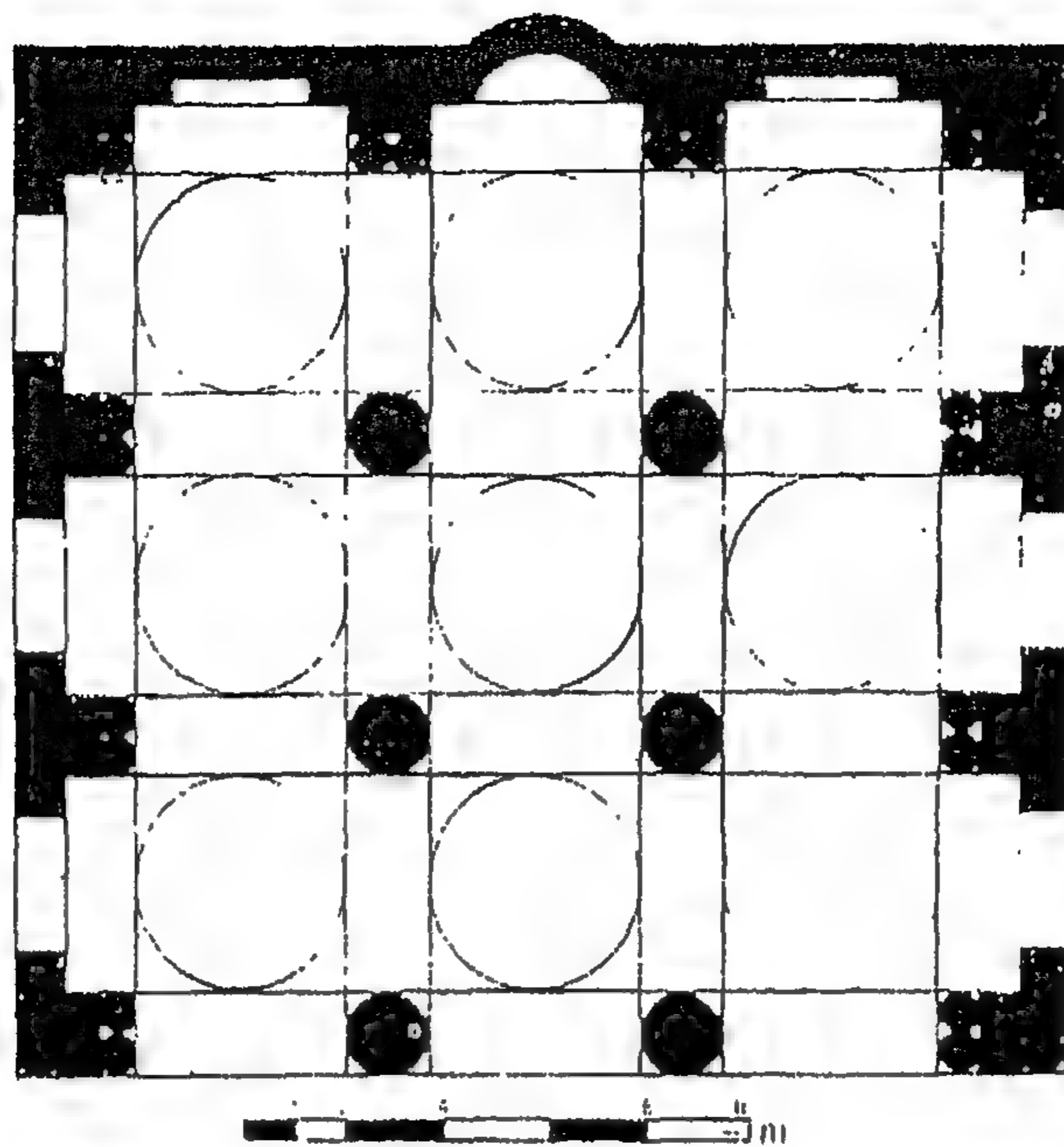
(شكل ٢٣٧) مسقط أفقي لمسجد
 بارسيما . (عن : Gabriel) .



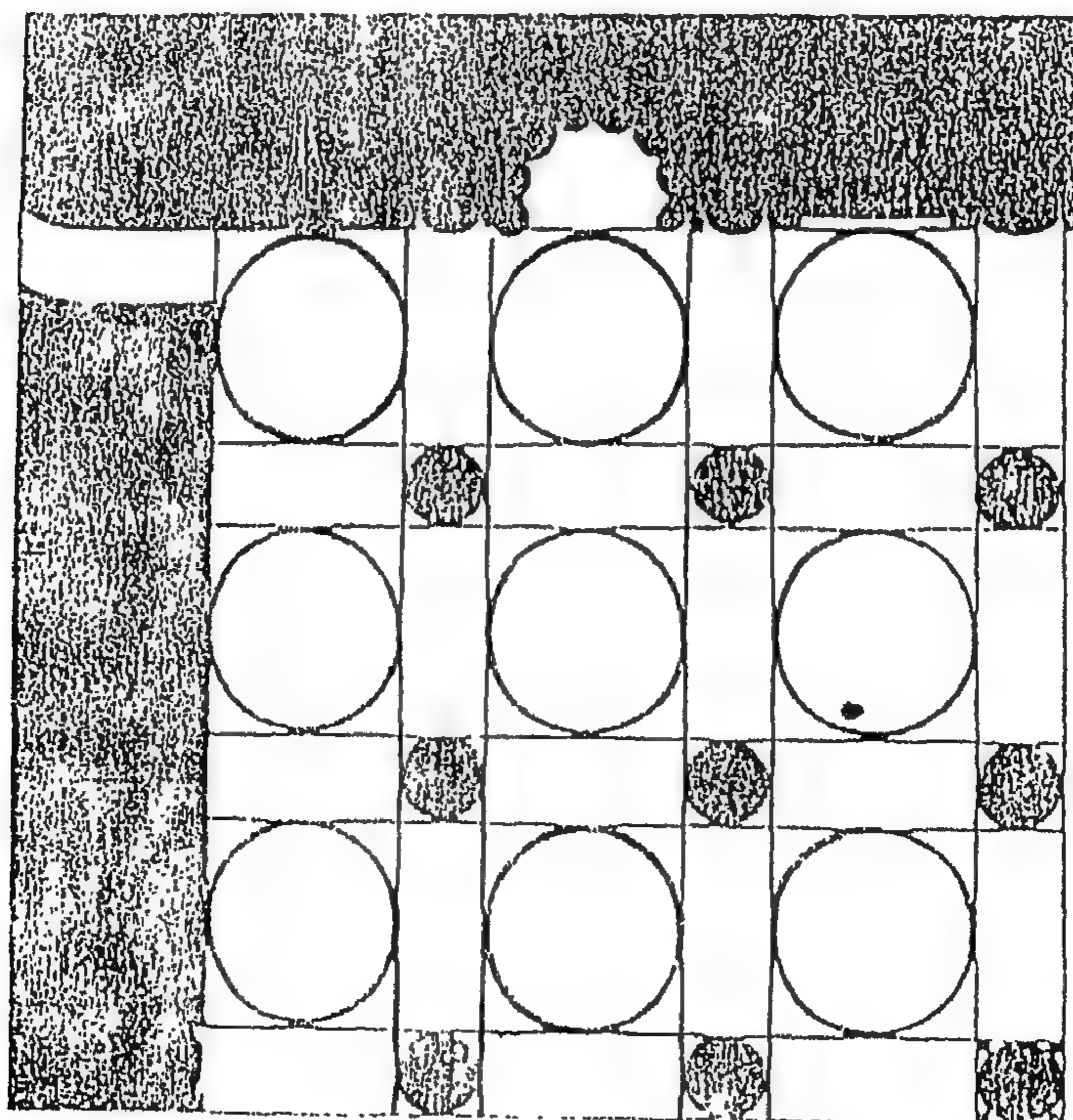
(شكل ٢٣٩) مسقط أفقي لمسجد القلعة بأرضروم أواخر ق ٦هـ / ١٢م وأوائل ق ٧هـ / ١٣م (عصر السلطقيين) - (عن : أصلان آبا).



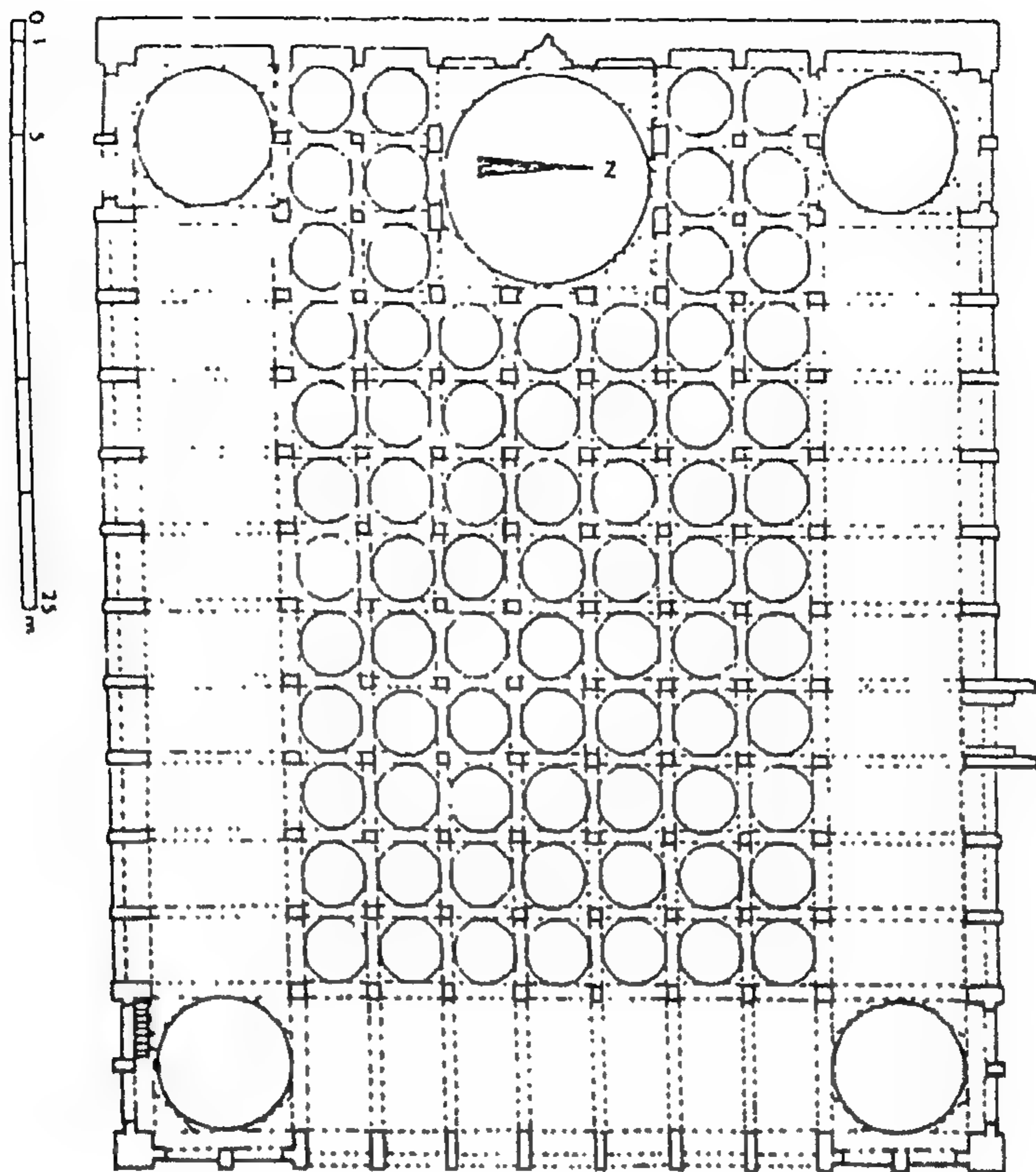
(شكل ٢٤٠) مسقط أفقي لمسجد علاء الدين في نيكده - (عن : أصلان آبا).



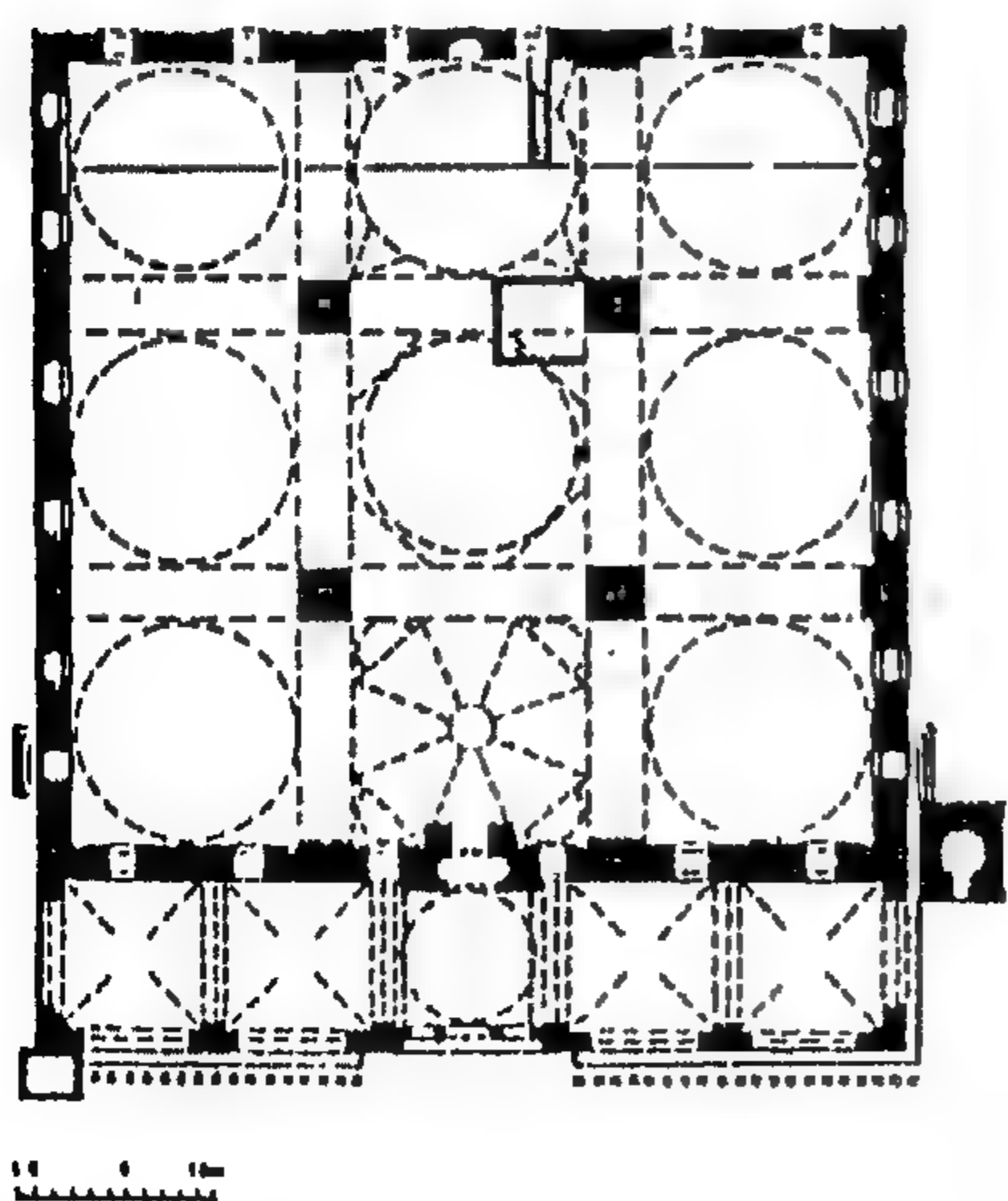
(شكل ٢٤١) مسقط أفقي لمسجد بلخ في أفغانستان . (عن : Golombek) .



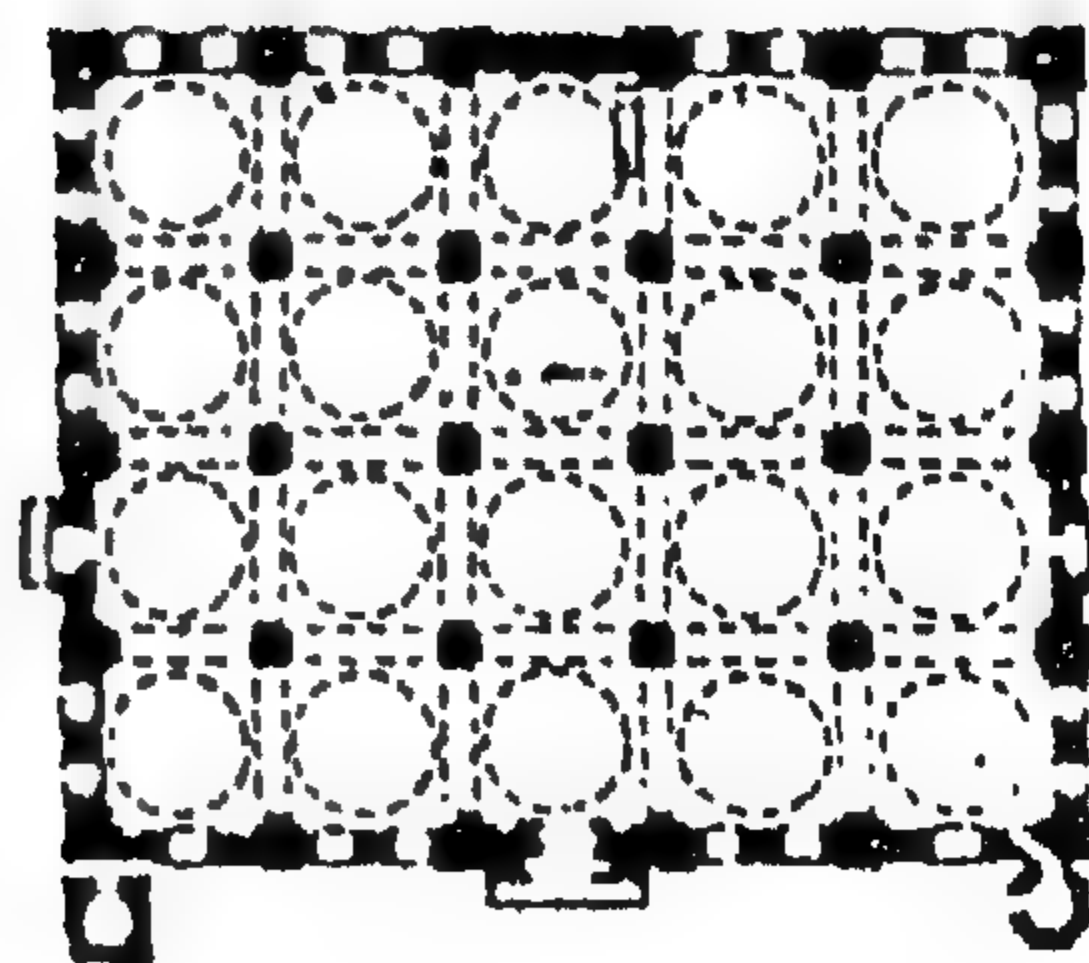
(شكل ٢٤٢) مسقط أفقي لمسجد ترمذ . (عن : Hillenbrand) .



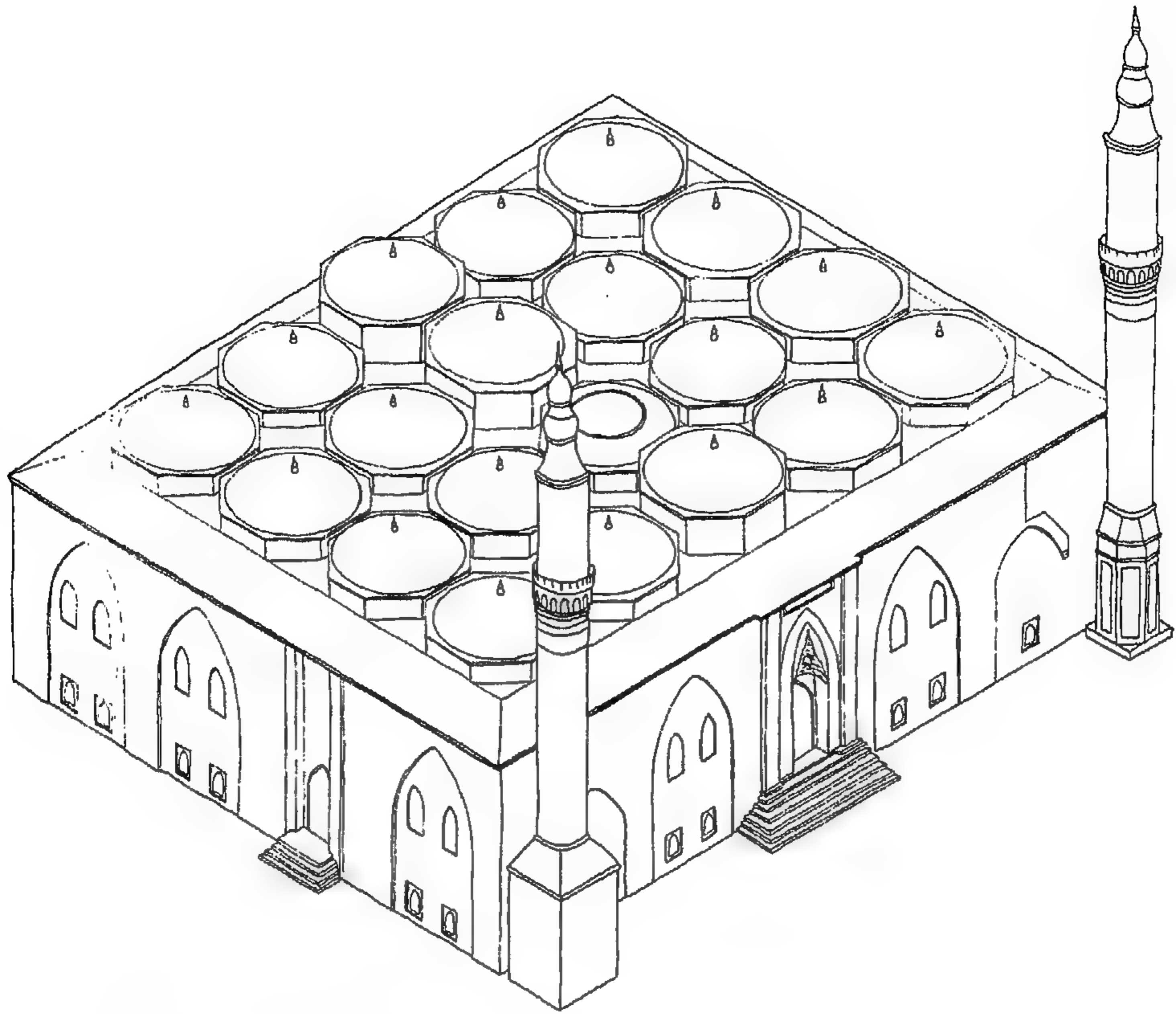
(شكل ٢٤٣) مسجد كلبرجا الجامع ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م (سلاطين بهمن) : مسقط أفقي .



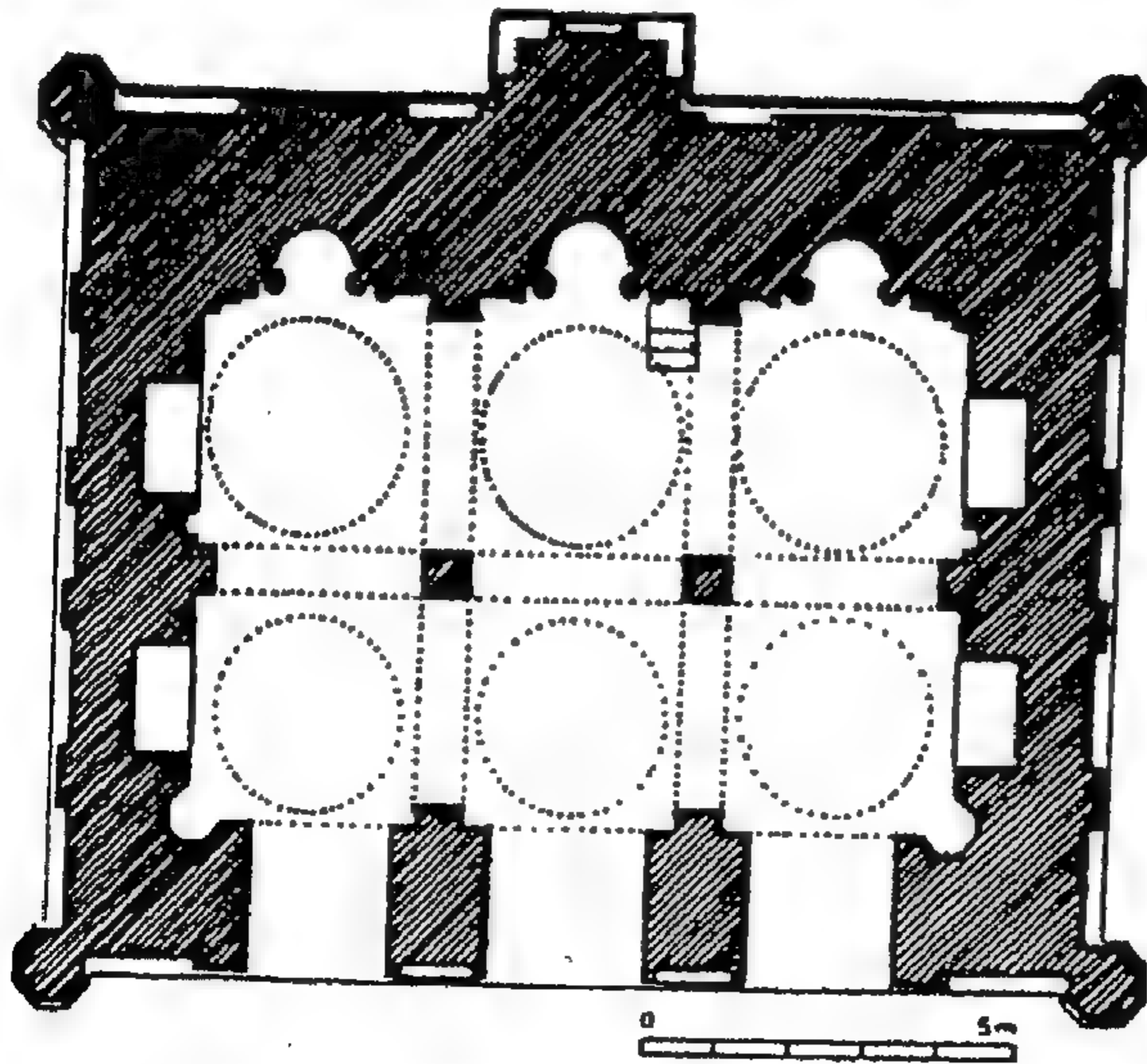
(شكل ٢٤٥) مسقط أفقي للجامع العتيق أو القديم في ادرنه .



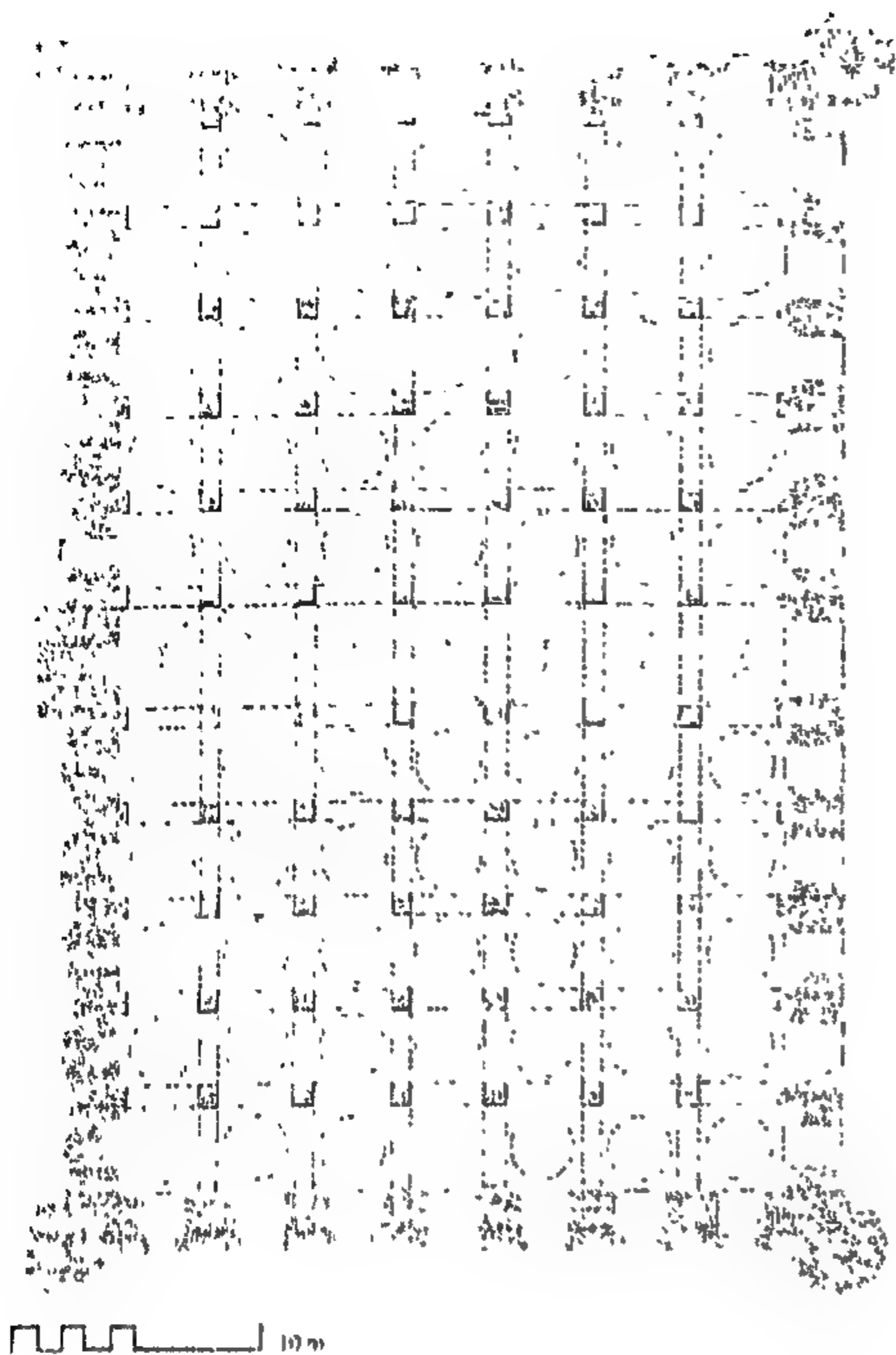
(شكل ٢٤٤) مسقط أفقي للجامع الكبير في بروسه (بورصة) - (عن : Goodwin) .



(شكل ٢٤٦) الجامع الكبير (أولو جامع) في بروسه (أوبورصة) (عن : هيلنبراند) .

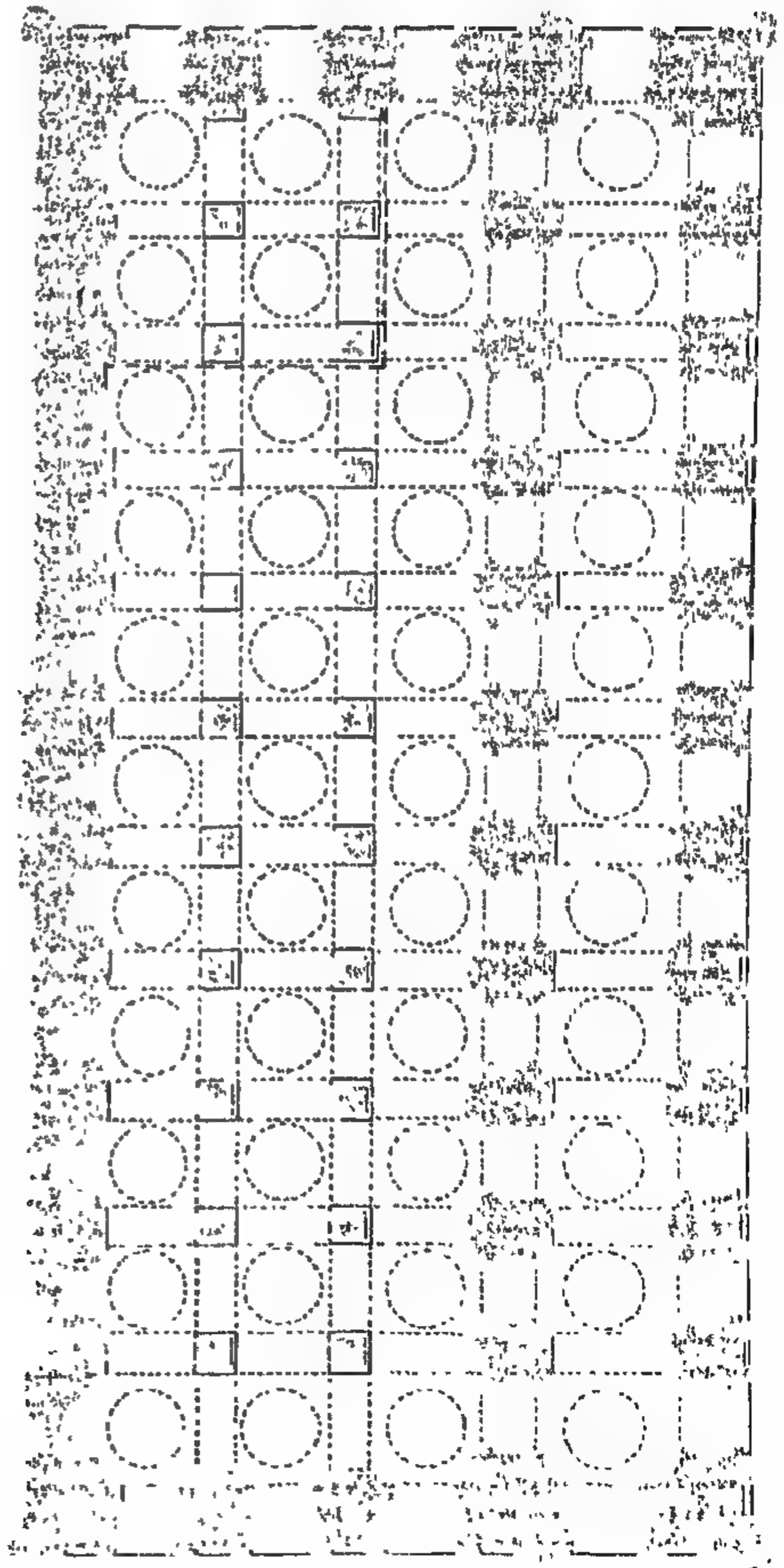


(شكل ٢٤٧) مسقط أفقي لجامع بابا آدم في رامبال بالبنغال . (عن : Michell) .



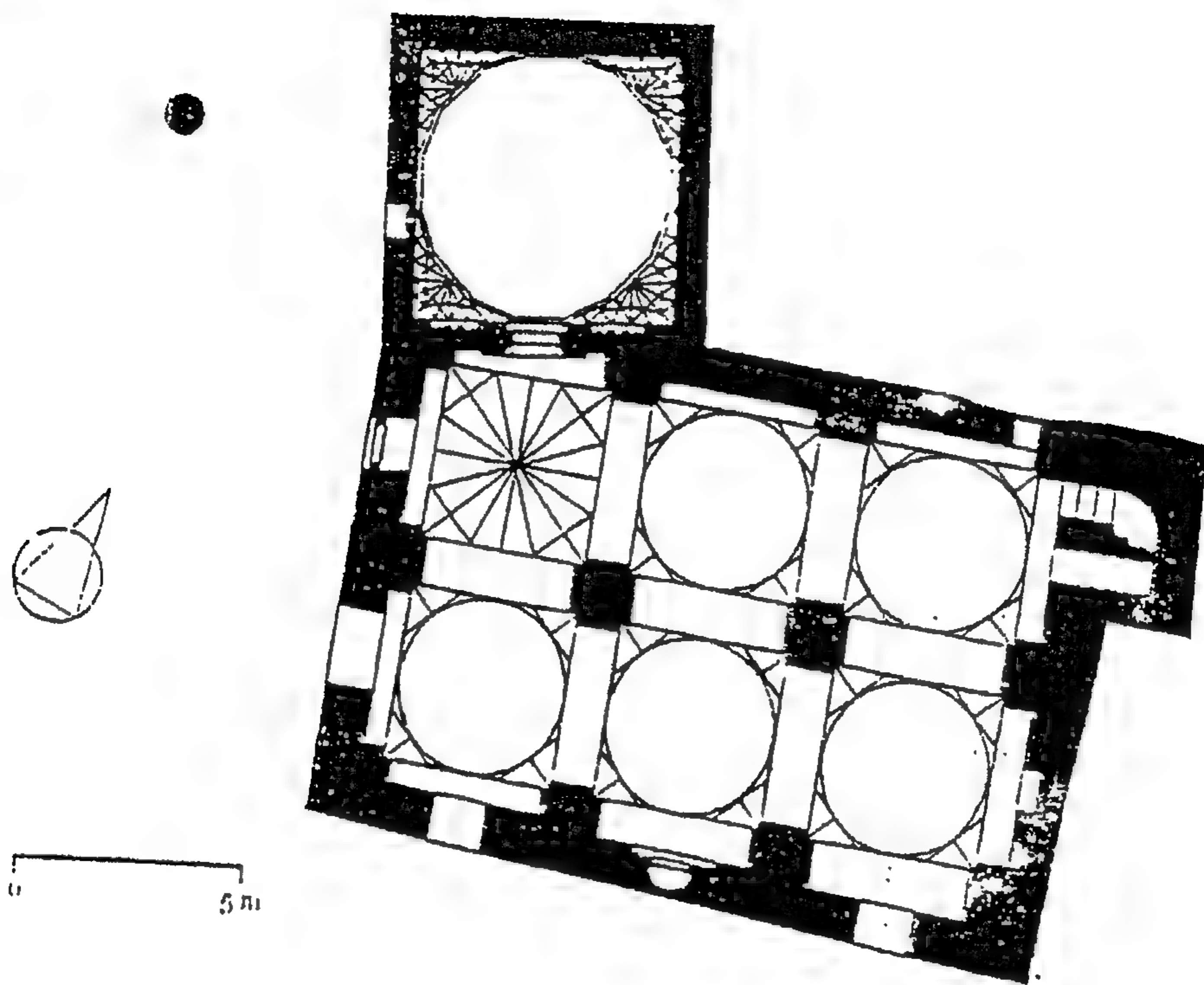
10 m

(شكل ٢٤٨) مسقط أفقي
لمسجد Saithgumbad في
بنجلاديش . (عن : جورج
ميشيل) .

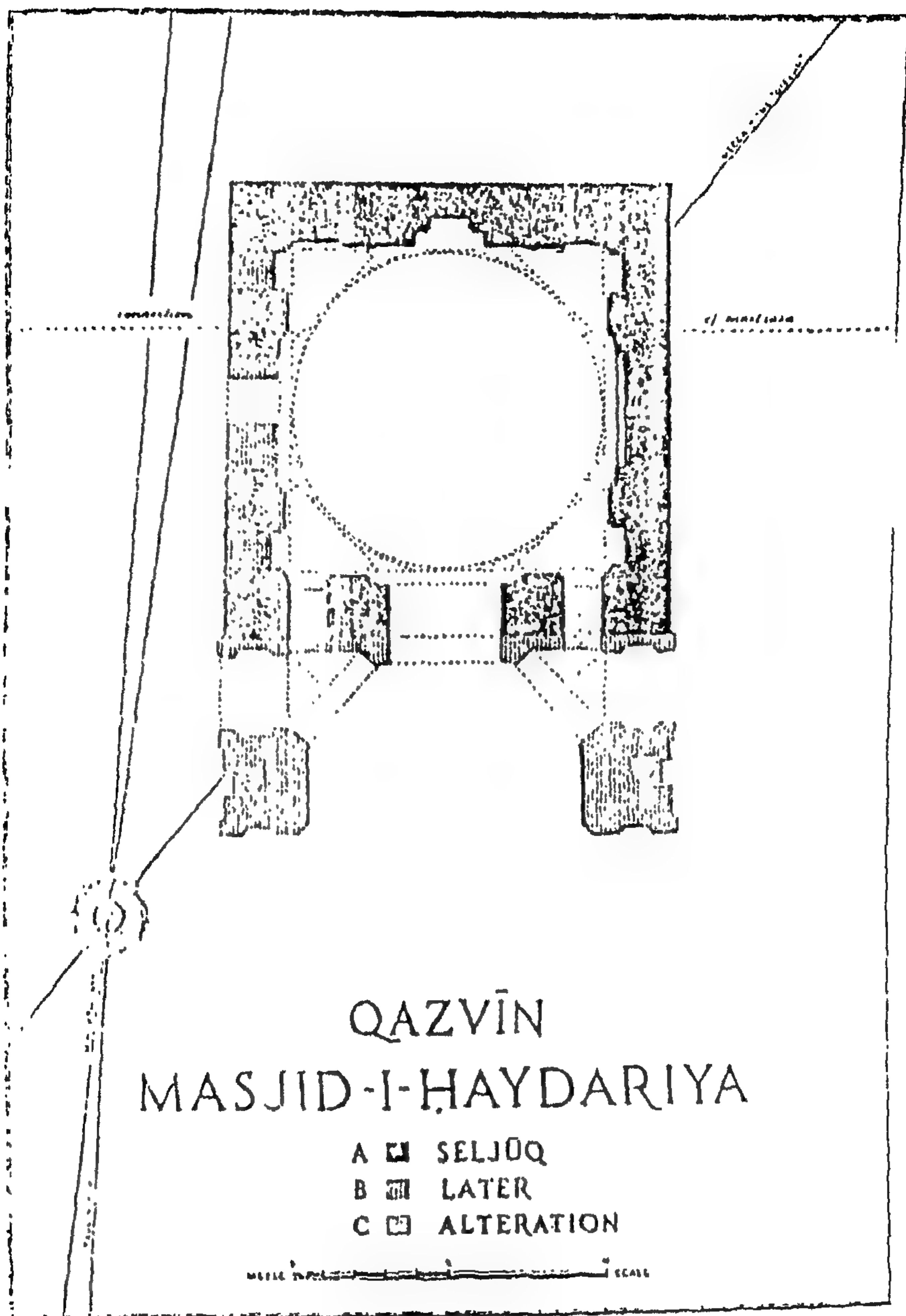


10 m

(شكل ٢٤٩) مسقط أفقي لمسجد
باراسونا في بنجلاديش ٩٣٢هـ / ١٥٢٦م
(عن : جورج ميشيل) .

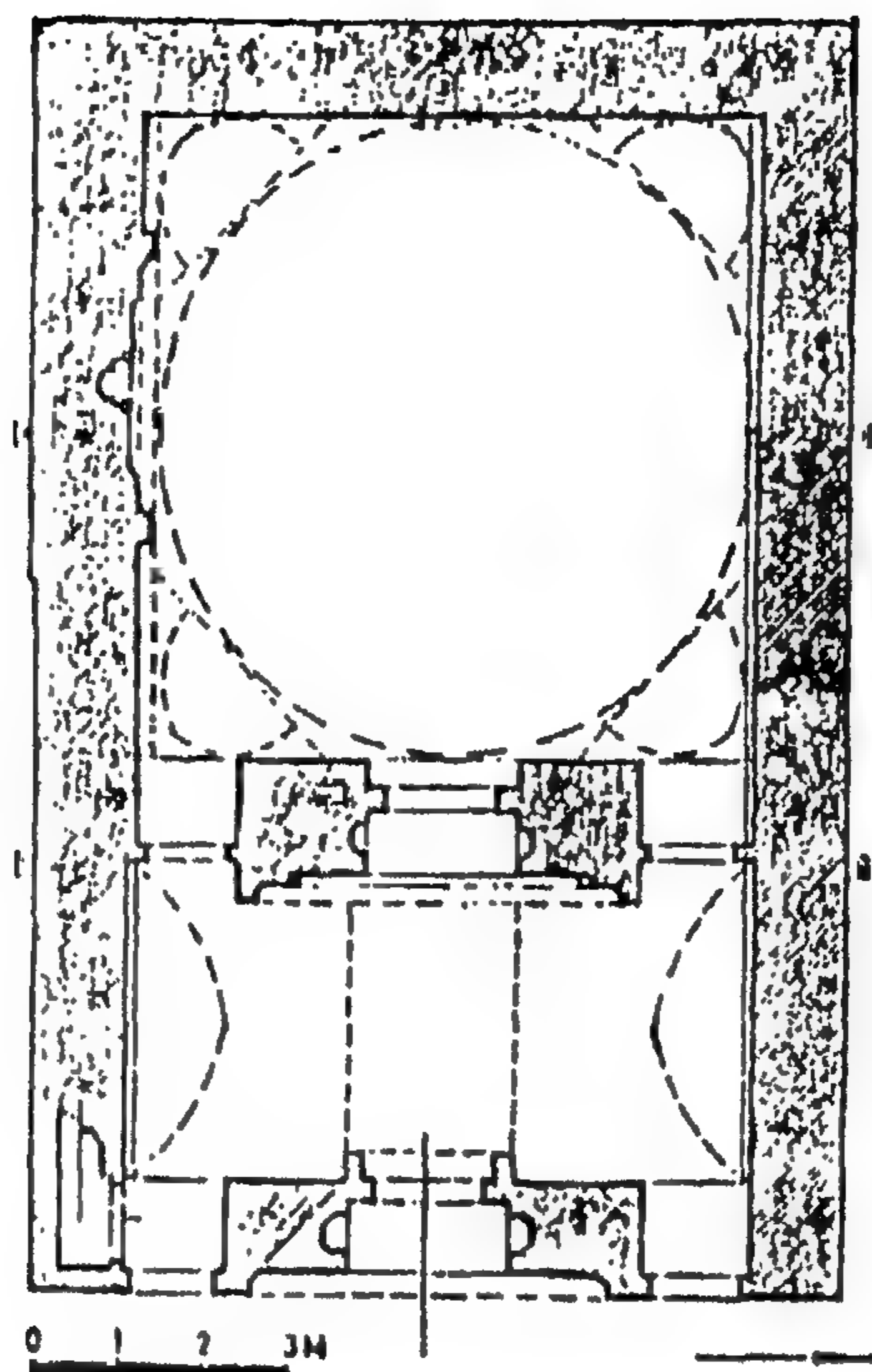


(شكل ٢٥٠) مسقط أفقي لجامع وقبة الشيخ خراسان في ازربيجان .
(عن : Bretanizki) .

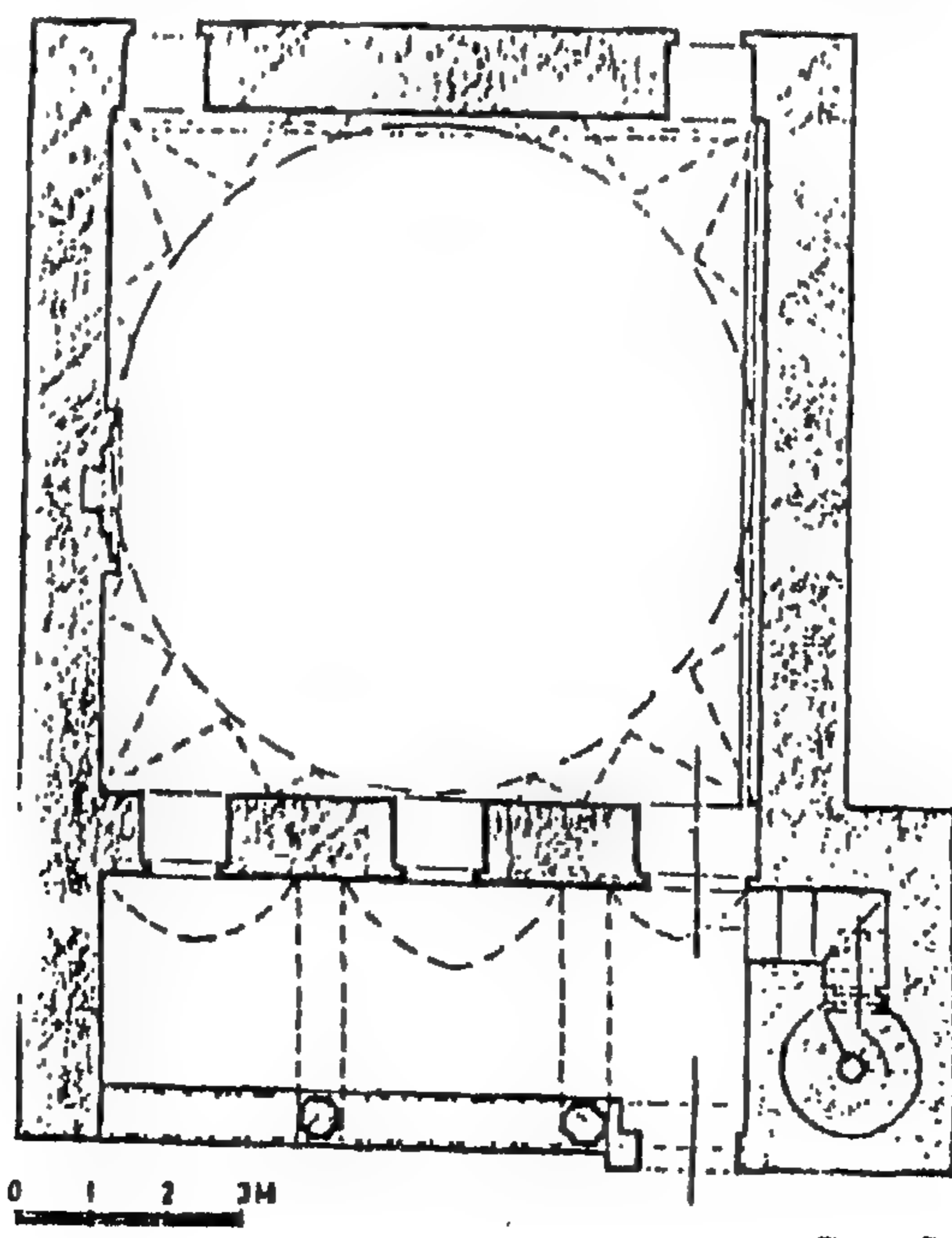


Drawn by Donald Willet

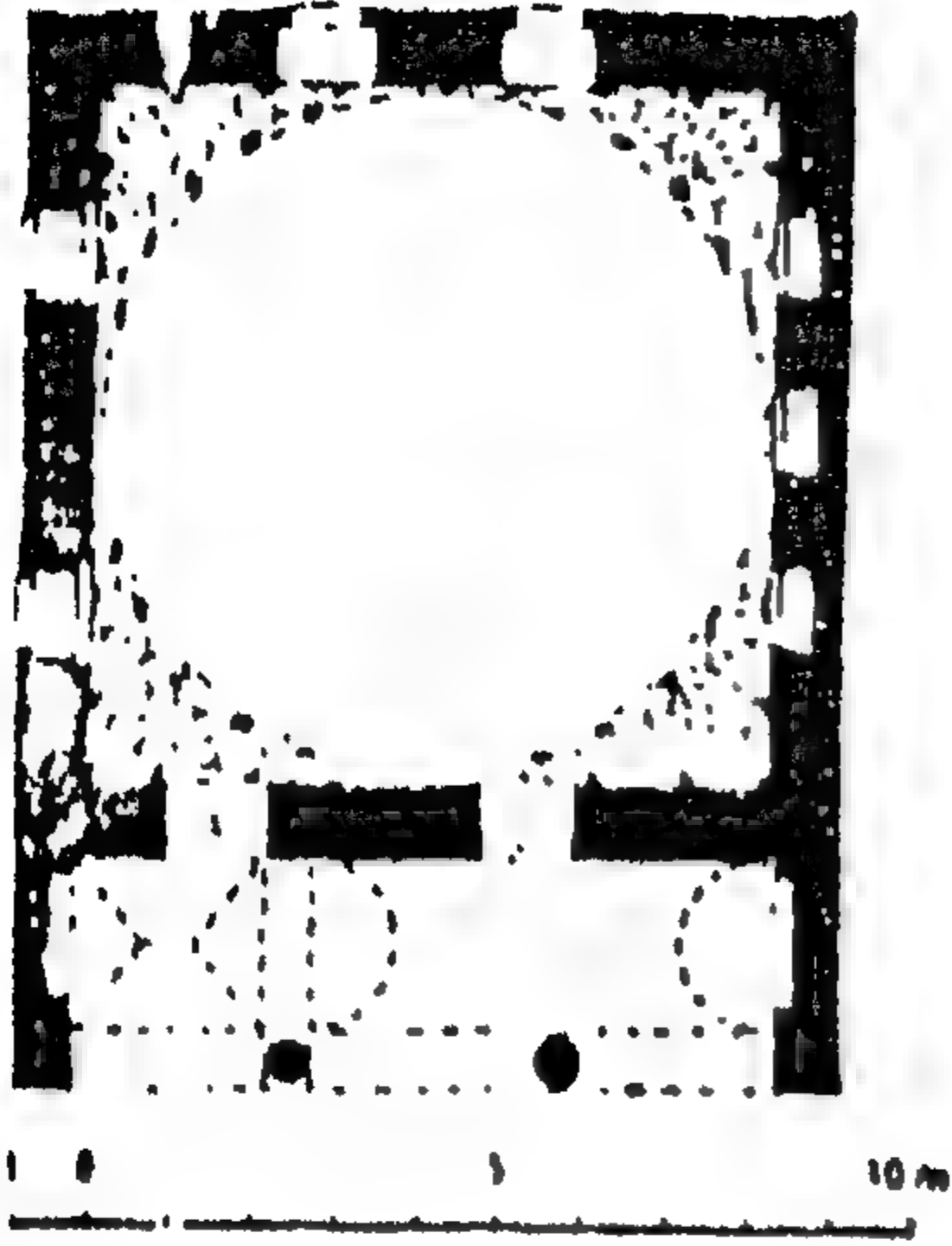
(شكل ٢٥١) مسقط أفقي لمسجد الحيدرية بقزوین . (عن : بوب) .



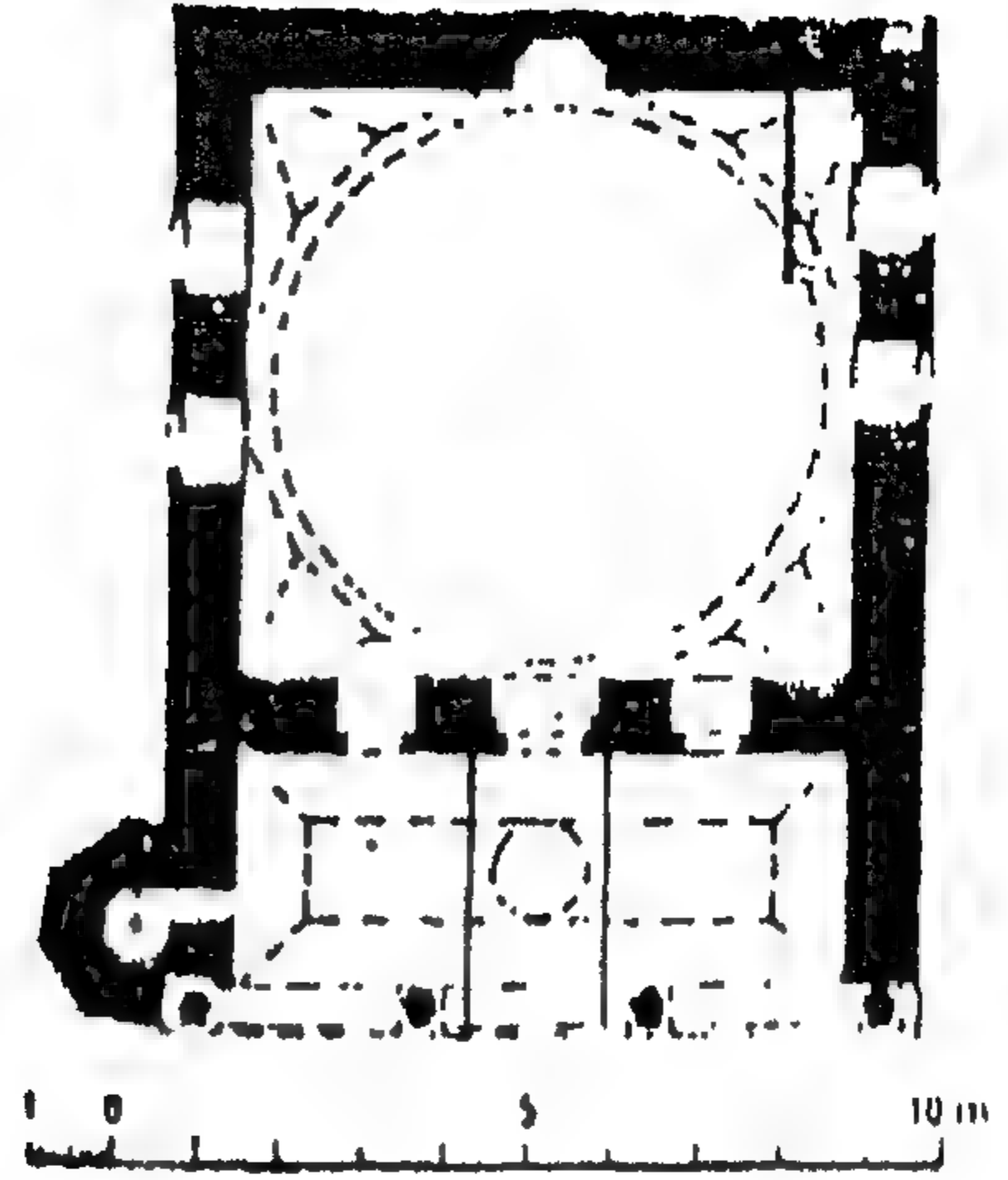
(شكل ٢٥٢) مسقط أفقي لمسجد طاش بقونية (عن : Aslanapa) .



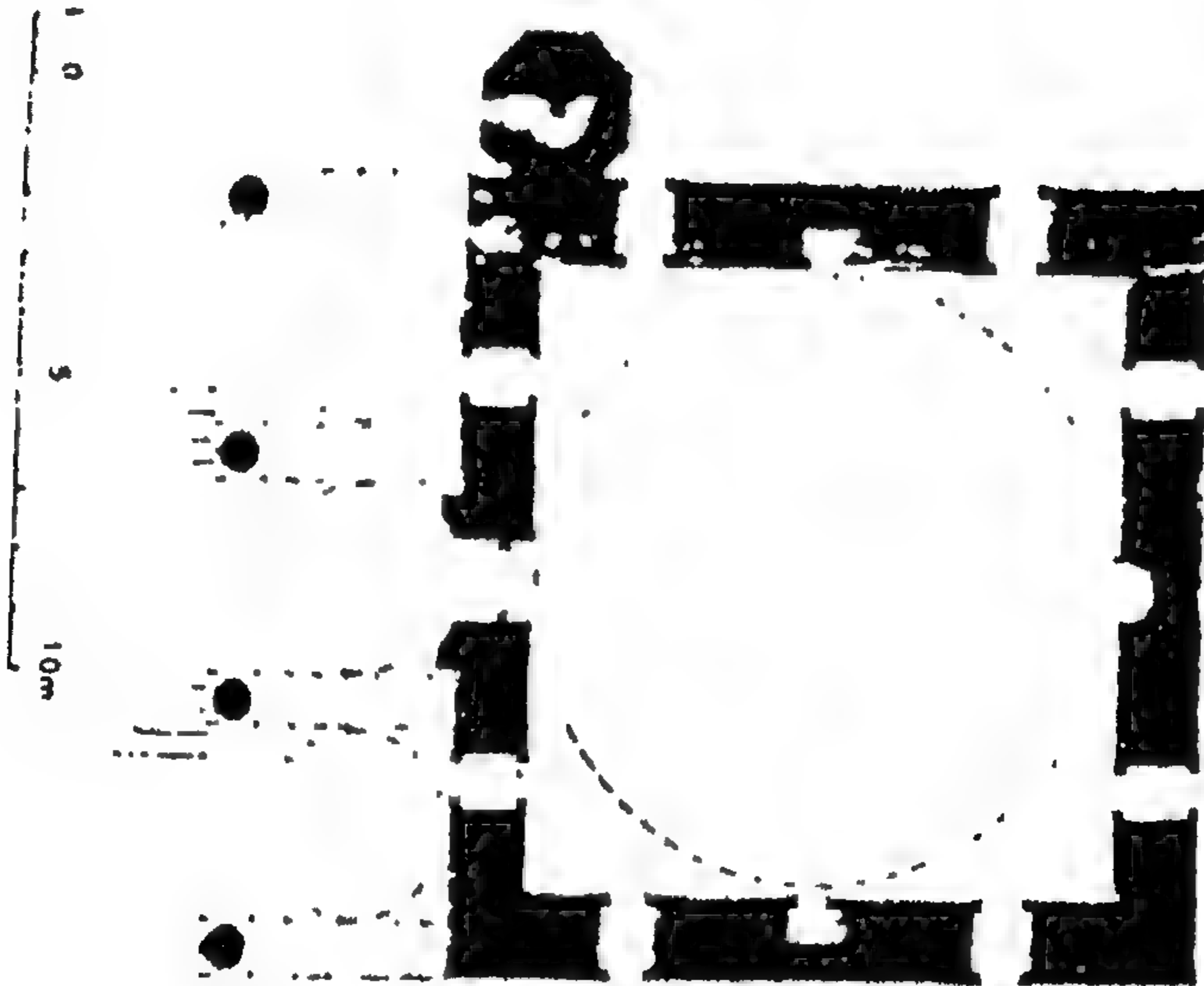
(شكل ٢٥٣) مسقط أفقي لمسجد صرجالي بقونية (عن : Aslanapa) .



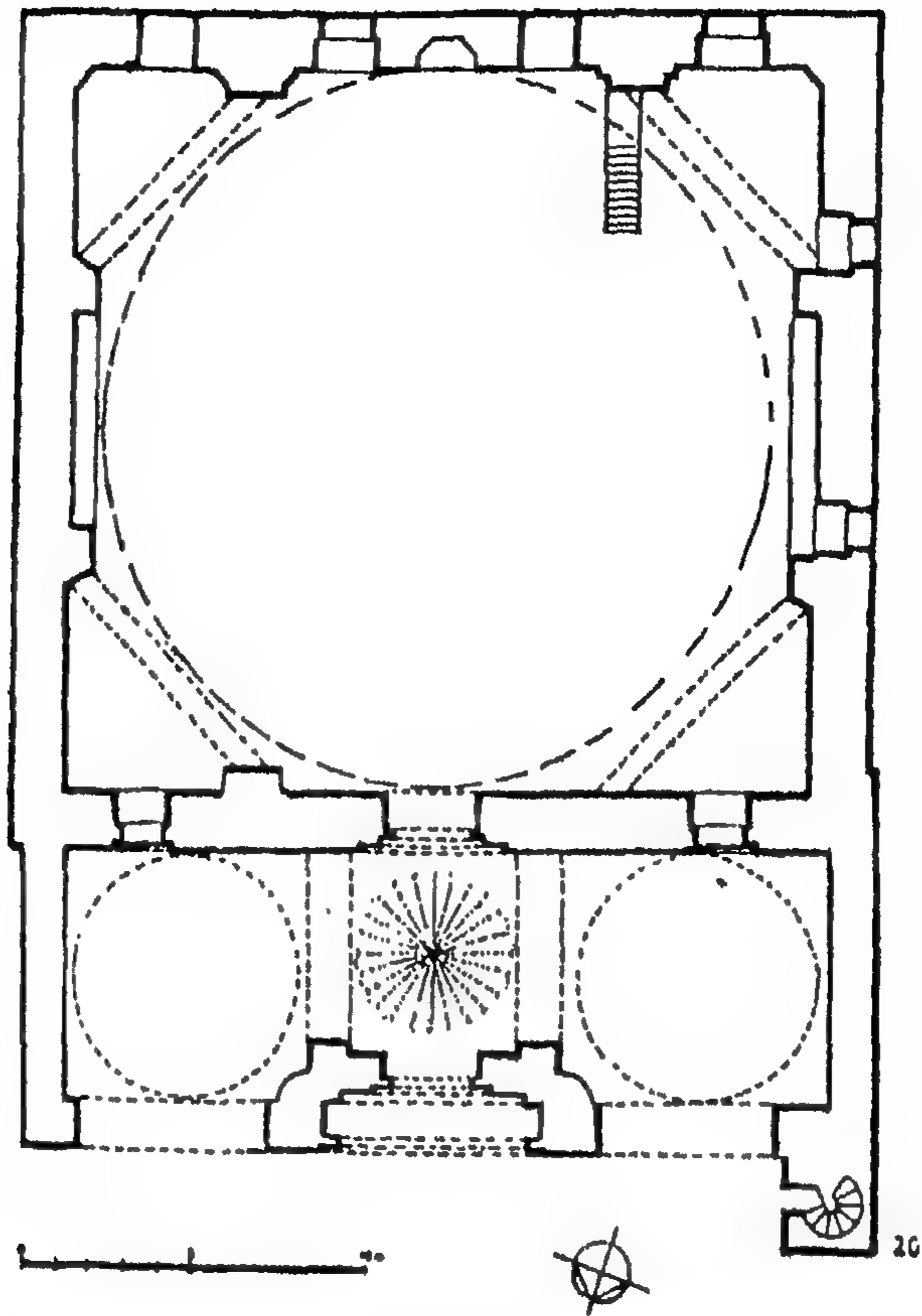
(شكل ٢٥٥) مسقط أفقي لمسجد
علاء الدين بك في بروسه (اوبورسه)
(عن : Goodwin).



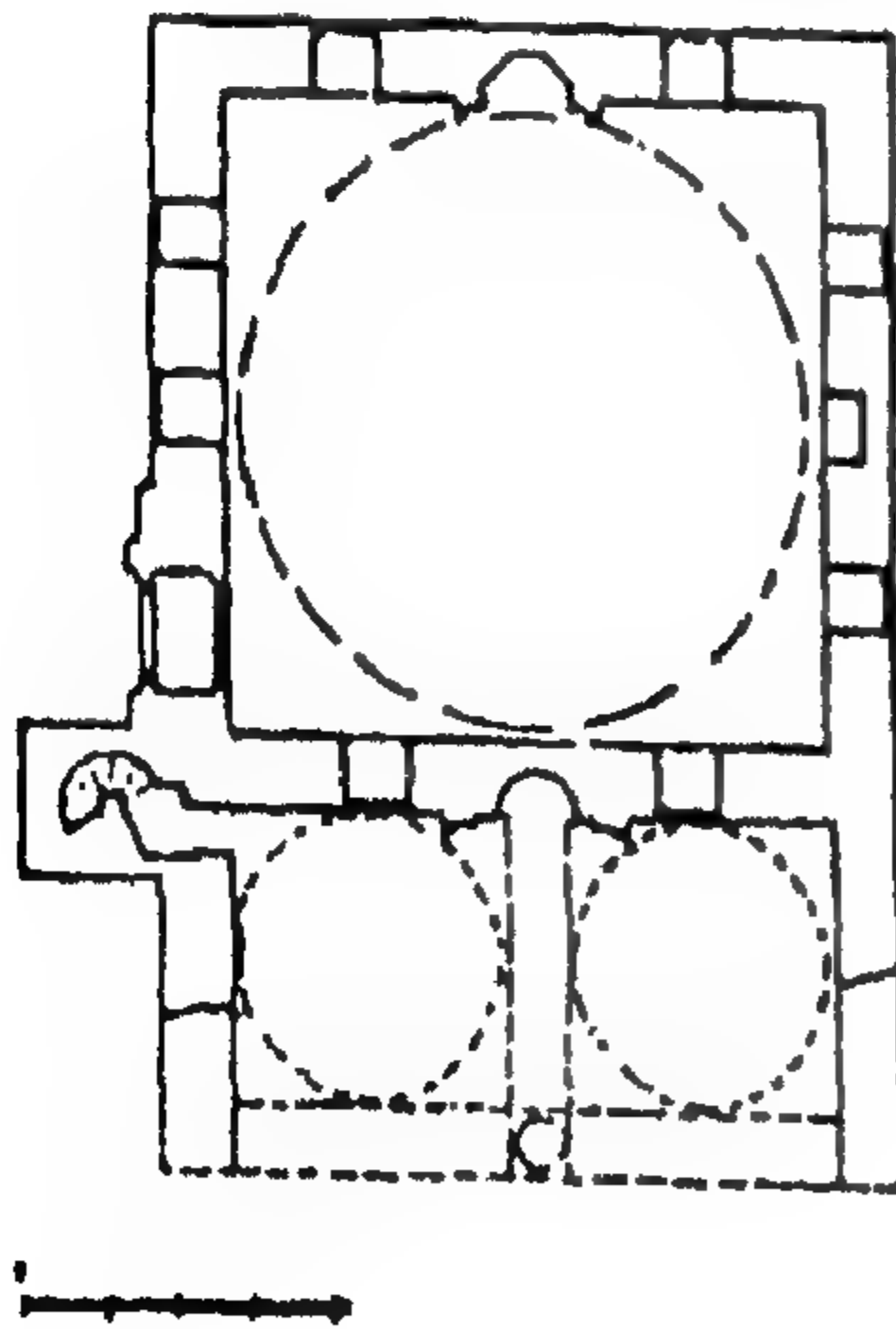
(شكل ٢٥٤) مسقط أفقي
لجامع حاجي اوزبك في ازنيق.
(عن : Goodwin).



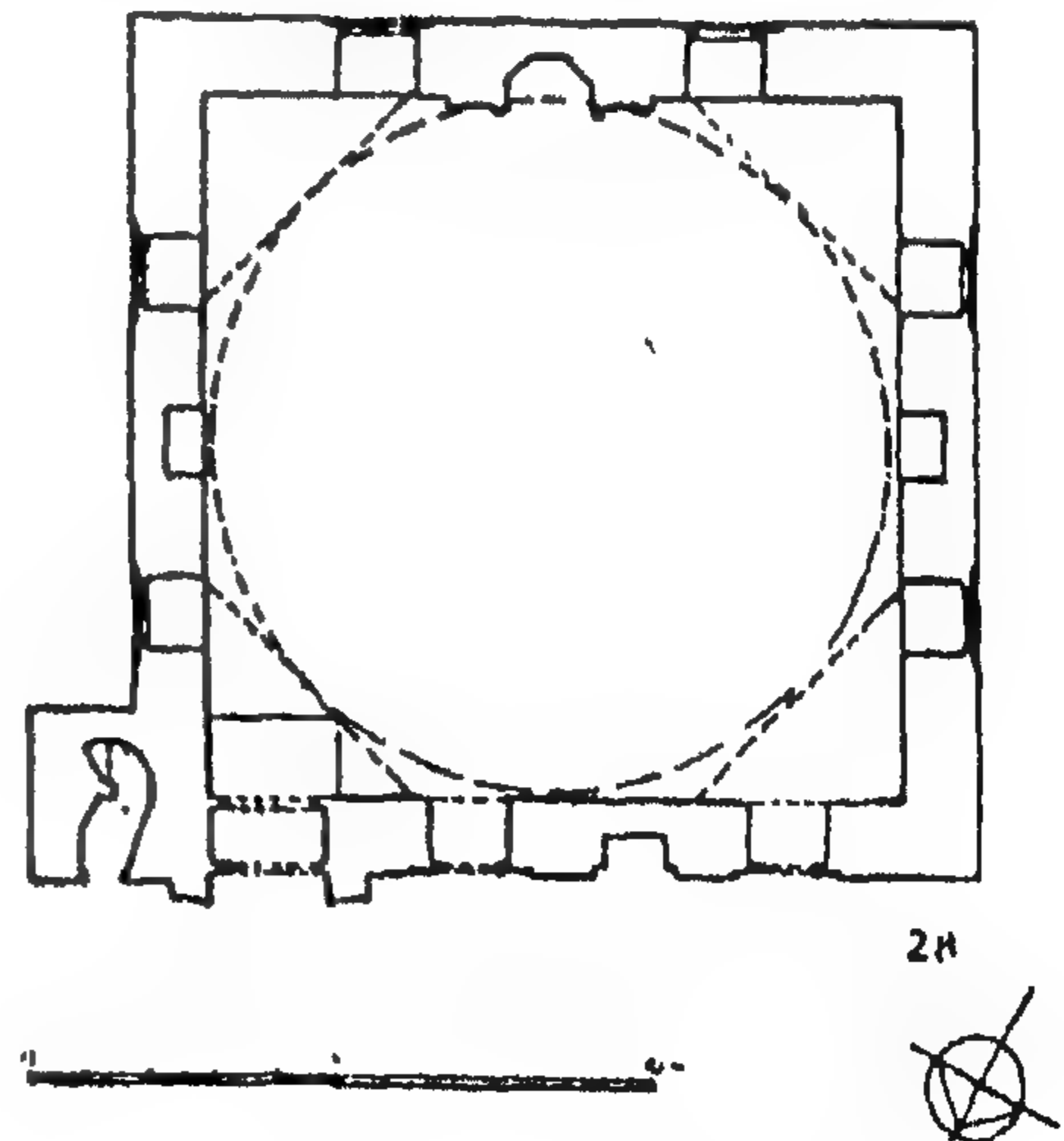
(شكل ٢٥٦) مسقط أفقي لجامع فيروز آغا
في استانبول . (عن : Goodwin).



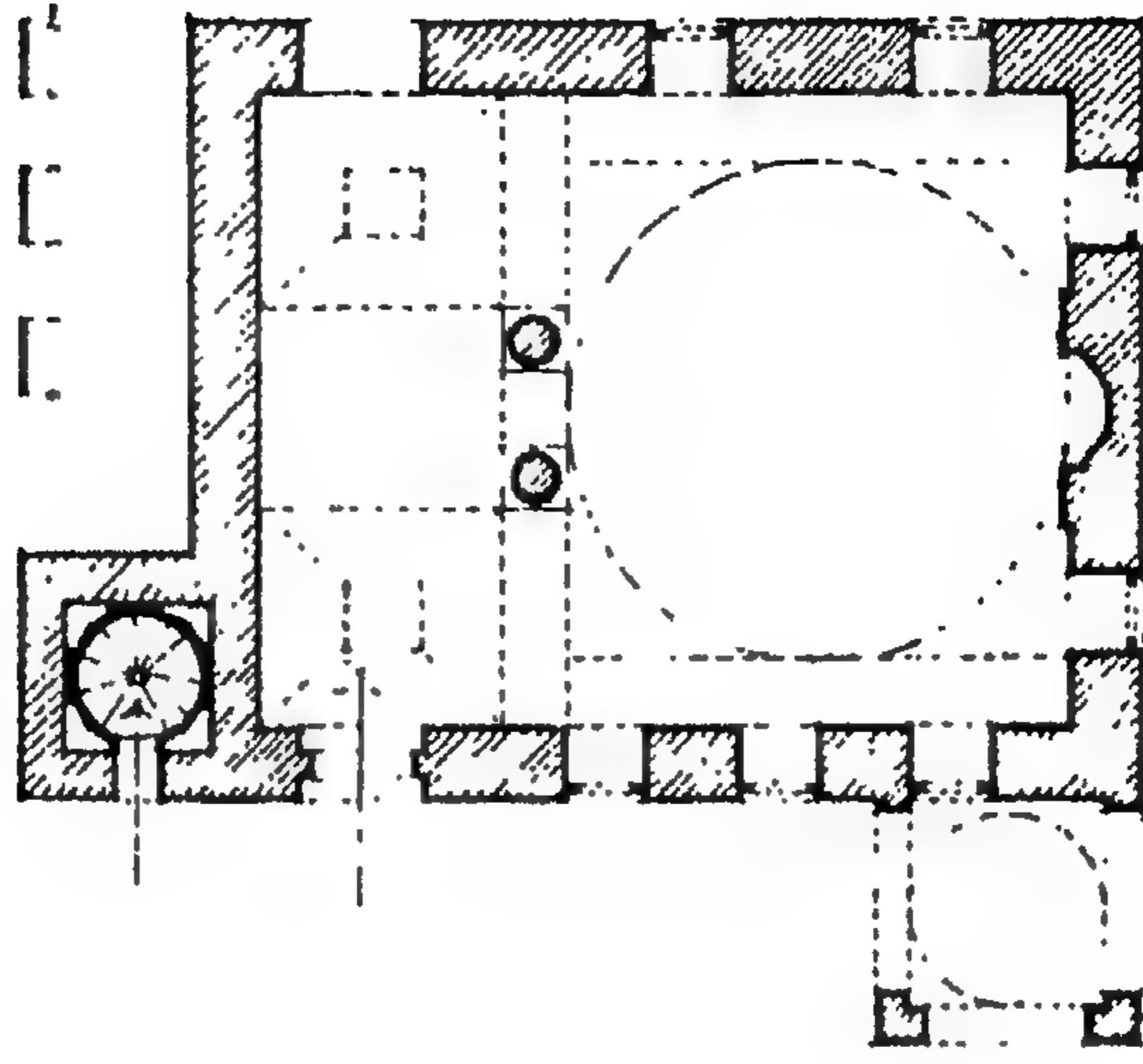
(شكل ٢٥٧) مسقط أفقي لجامع بايزيد يلديرم في مودورنو . (عن : Kuran) .



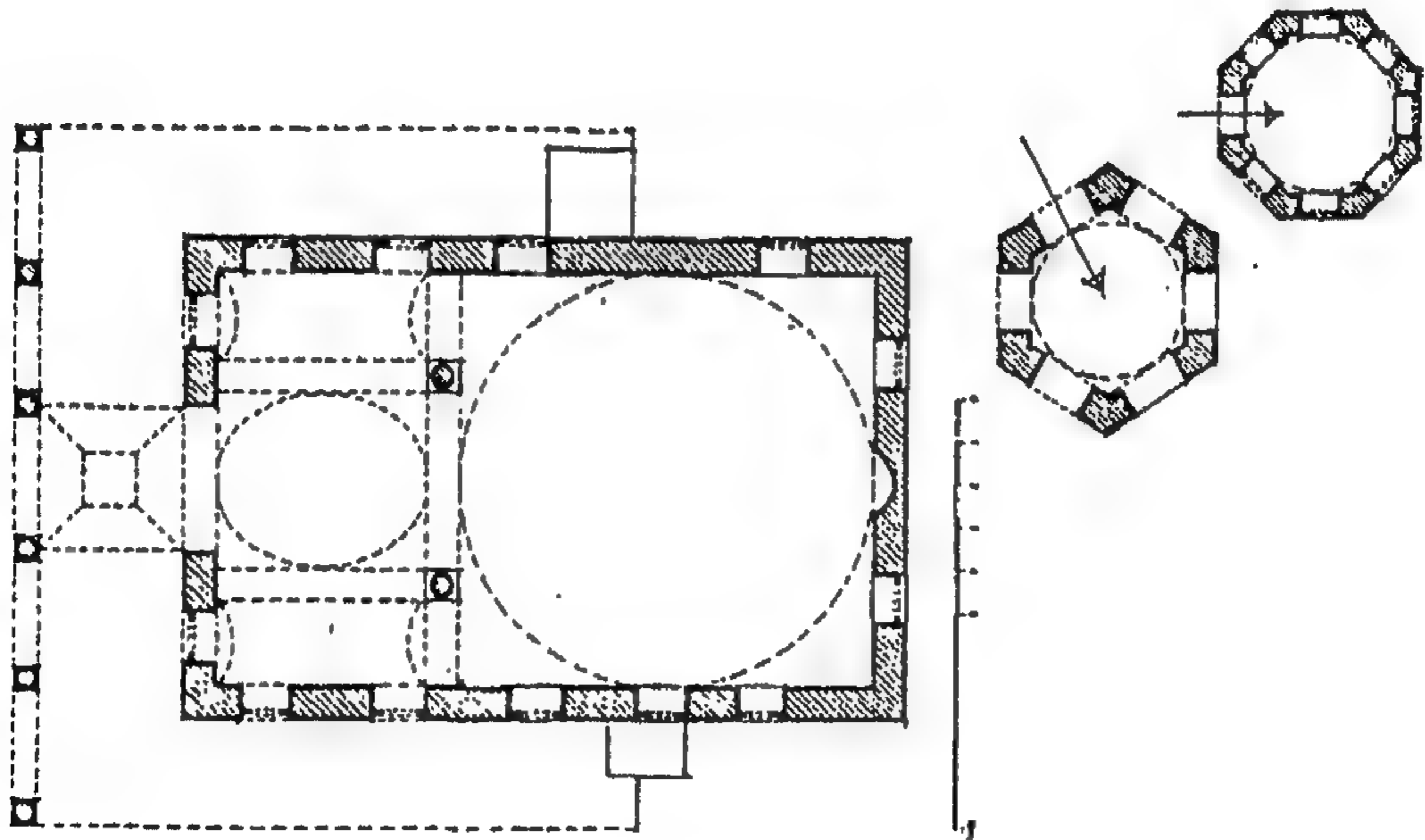
(شكل ٢٥٩) مسقط أفقي لمسجد حاجي شهاب الدين باشا في ادرنه . (عن : Kuran) .



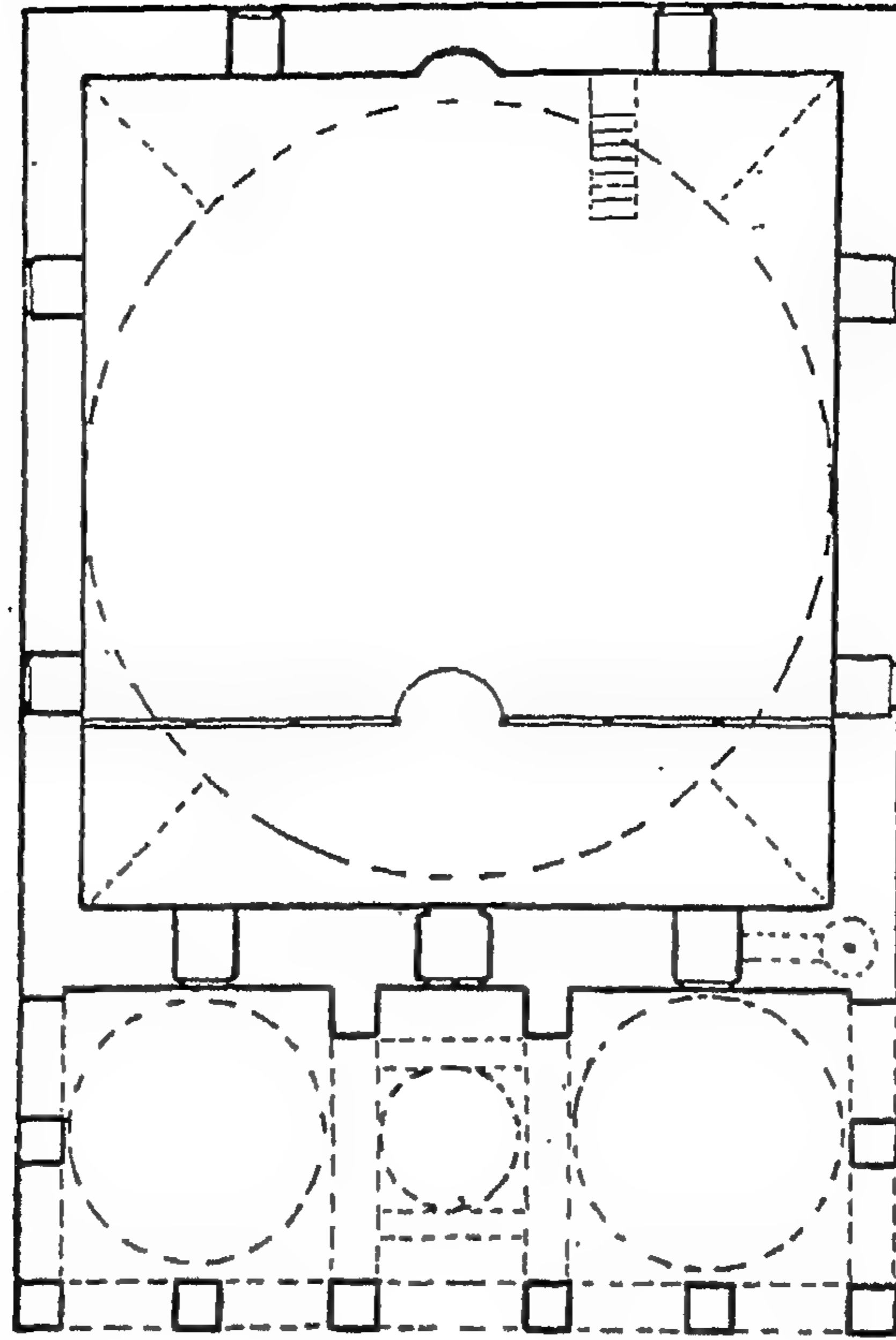
(شكل ٢٥٨) مسقط أفقي لمسجد قاسم باشا في ادرنه . (عن : Kuran) .



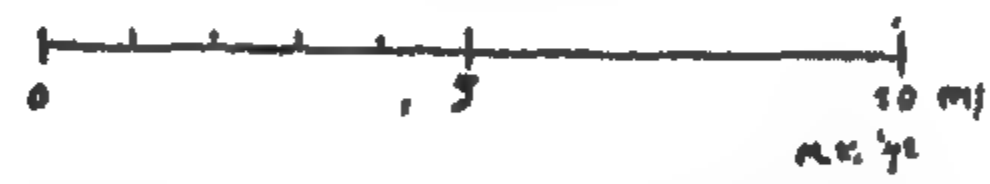
(شكل ٢٦٠) مسقط أفقي لمسجد شاه ملك في أدرنه (عن أصلان أبا) .



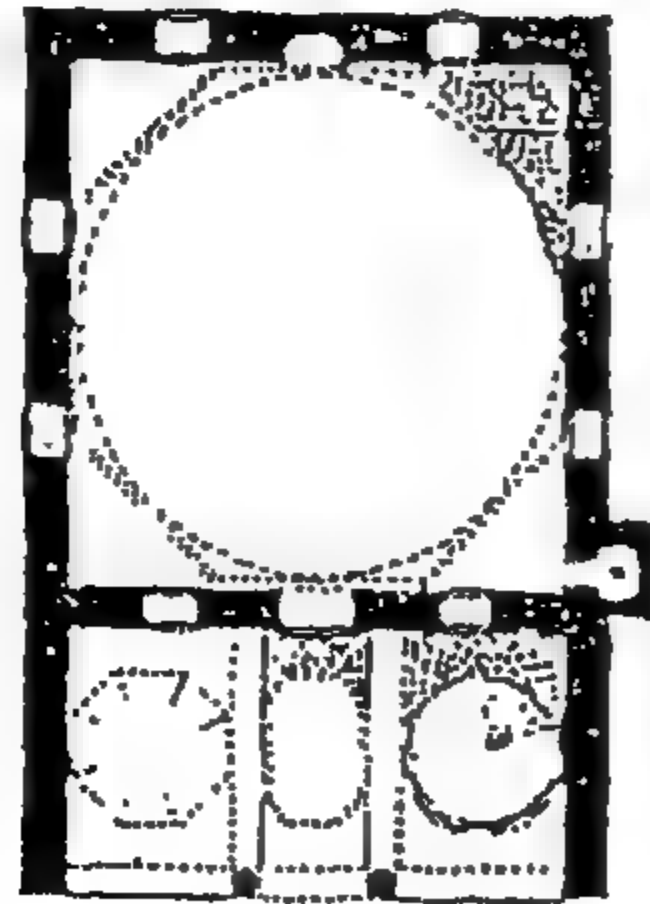
(شكل ٢٦١) مسقط أفقي لدار الحديث في أدرنه (عن : أصلان أبا) .



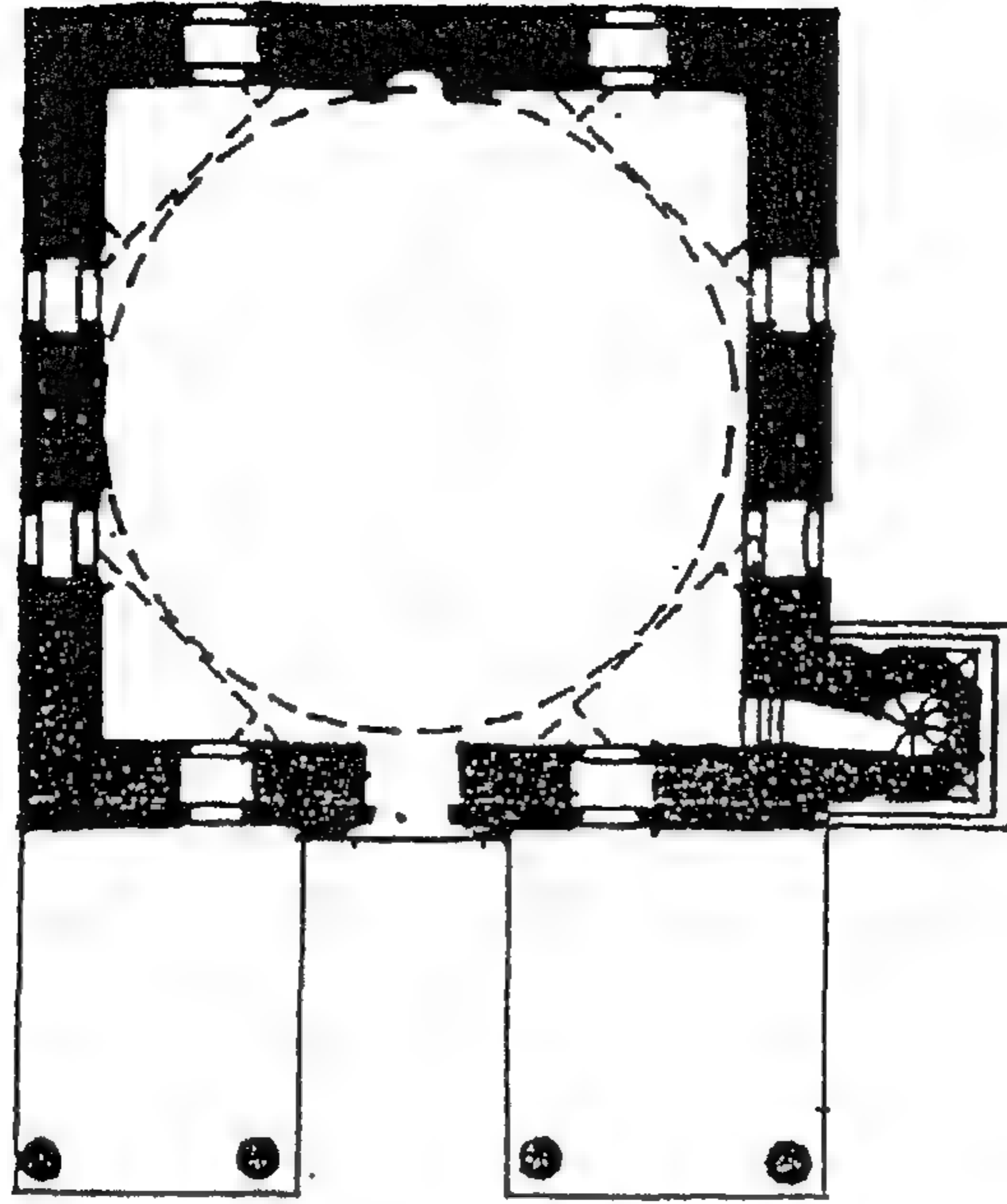
Staro Zagora Hamza Bey Mosque



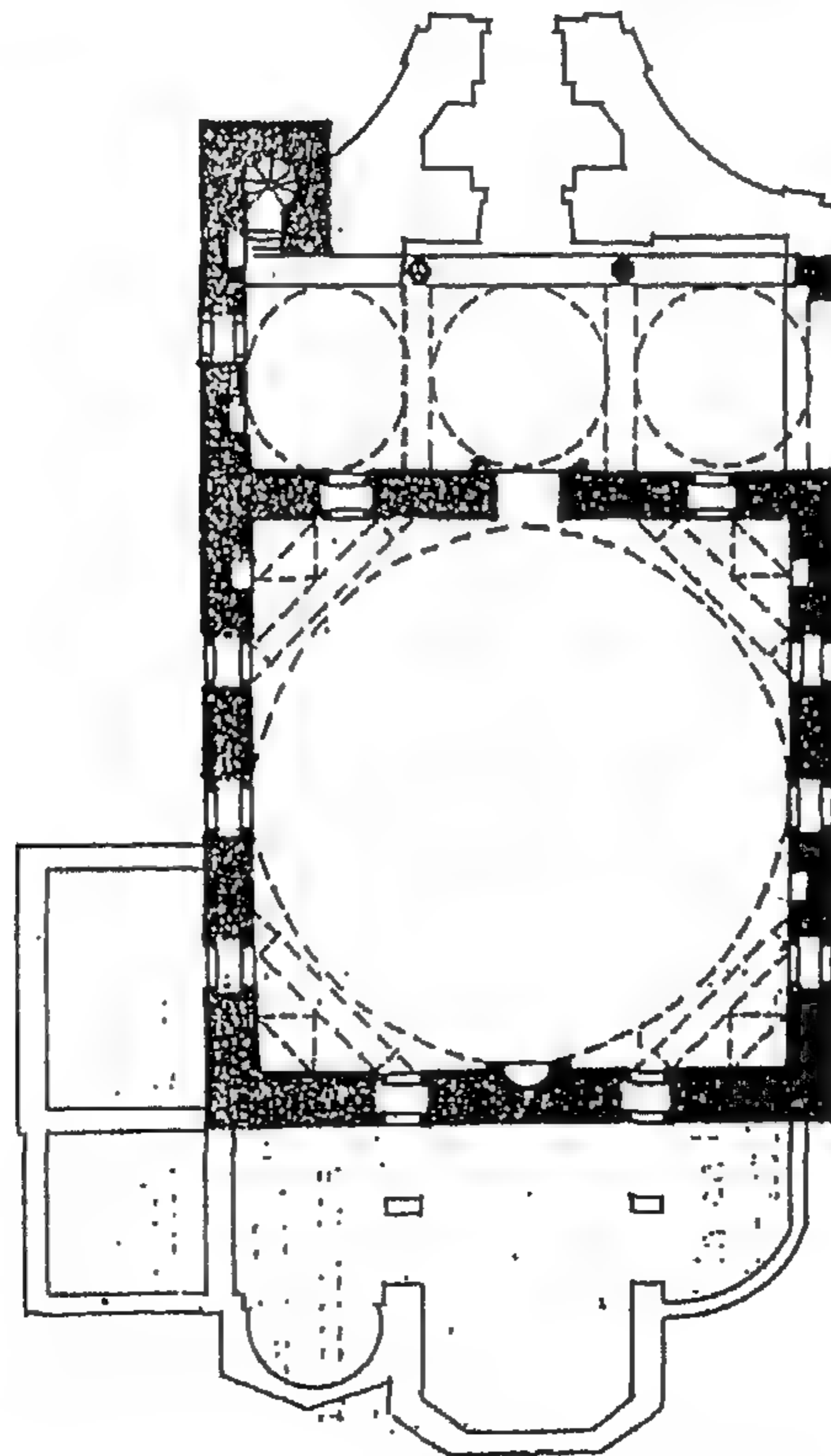
(شكل ٢٦٢) مسقط أفقي للمسجد القديم (اسكي جامع) في اسكي زغرا
في بلغاريا (عن : كيل) .



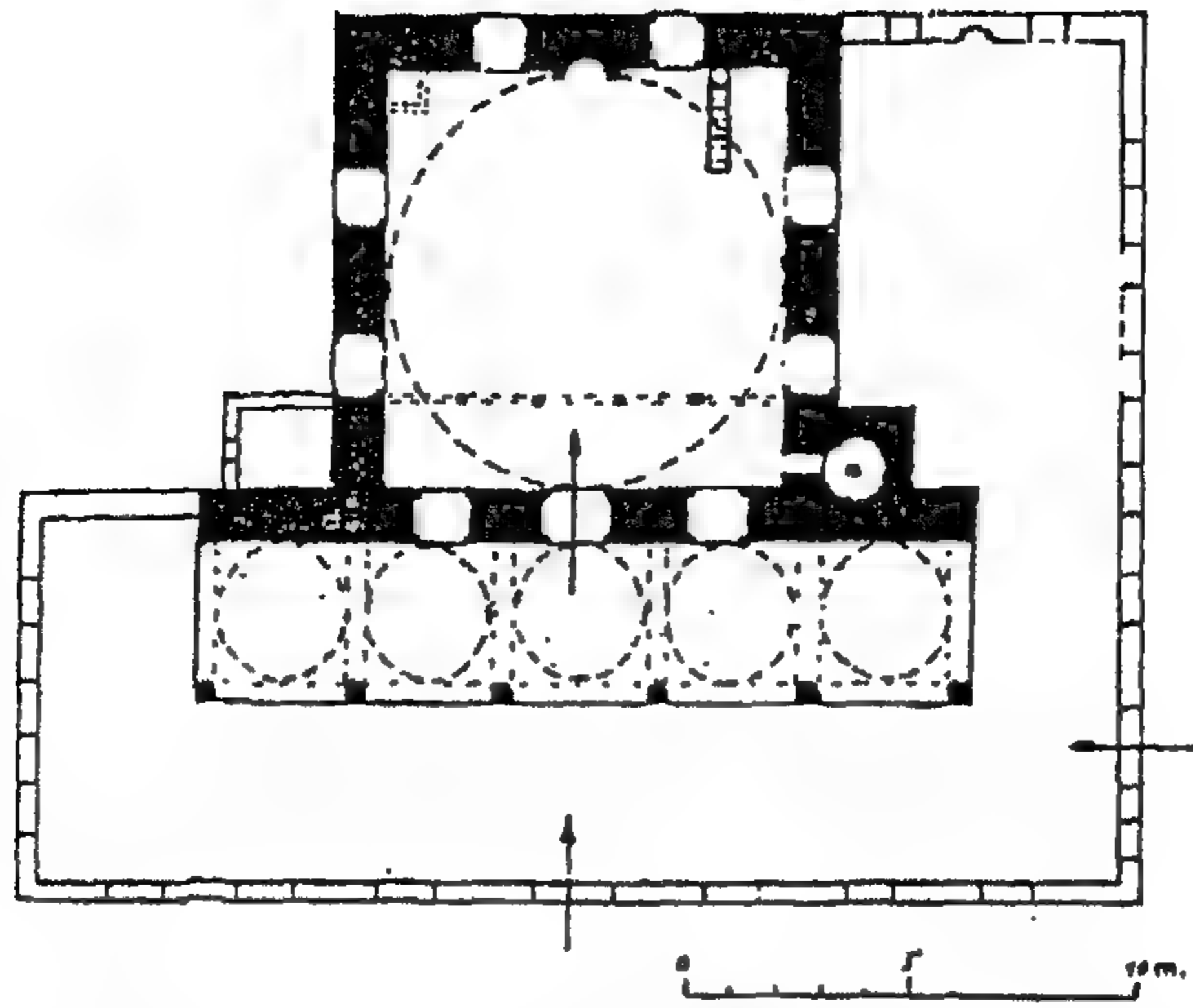
(شكل ٢٦٣) مسقط أفقي لمسجد الفاتح في كستنديل (عن : ايفردي) .



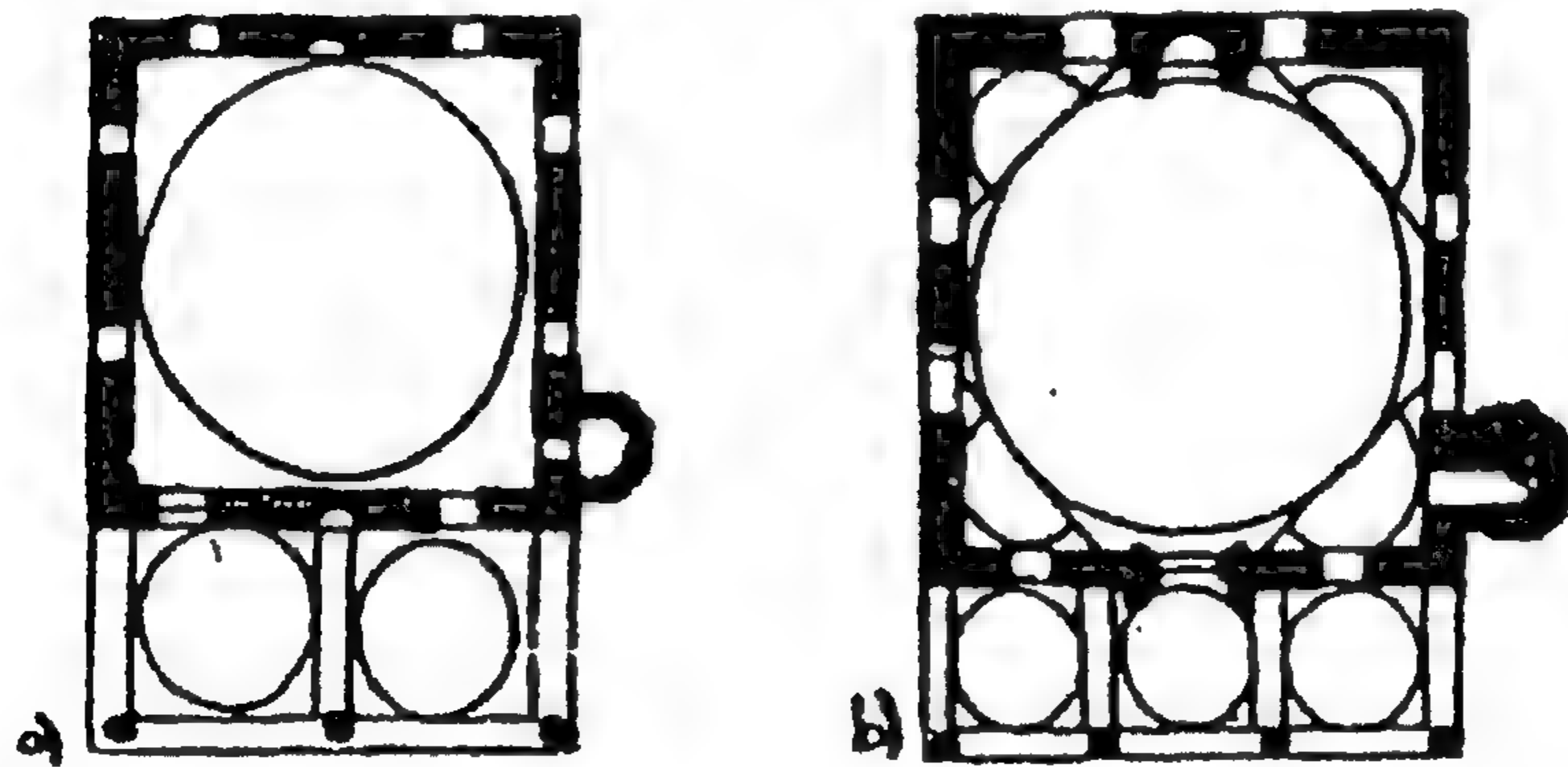
(شكل ٢٦٤) مسقط أفقي لمسجد ياكوفالي حسن باشا في Pécs المجرية (عن : جيرو) .



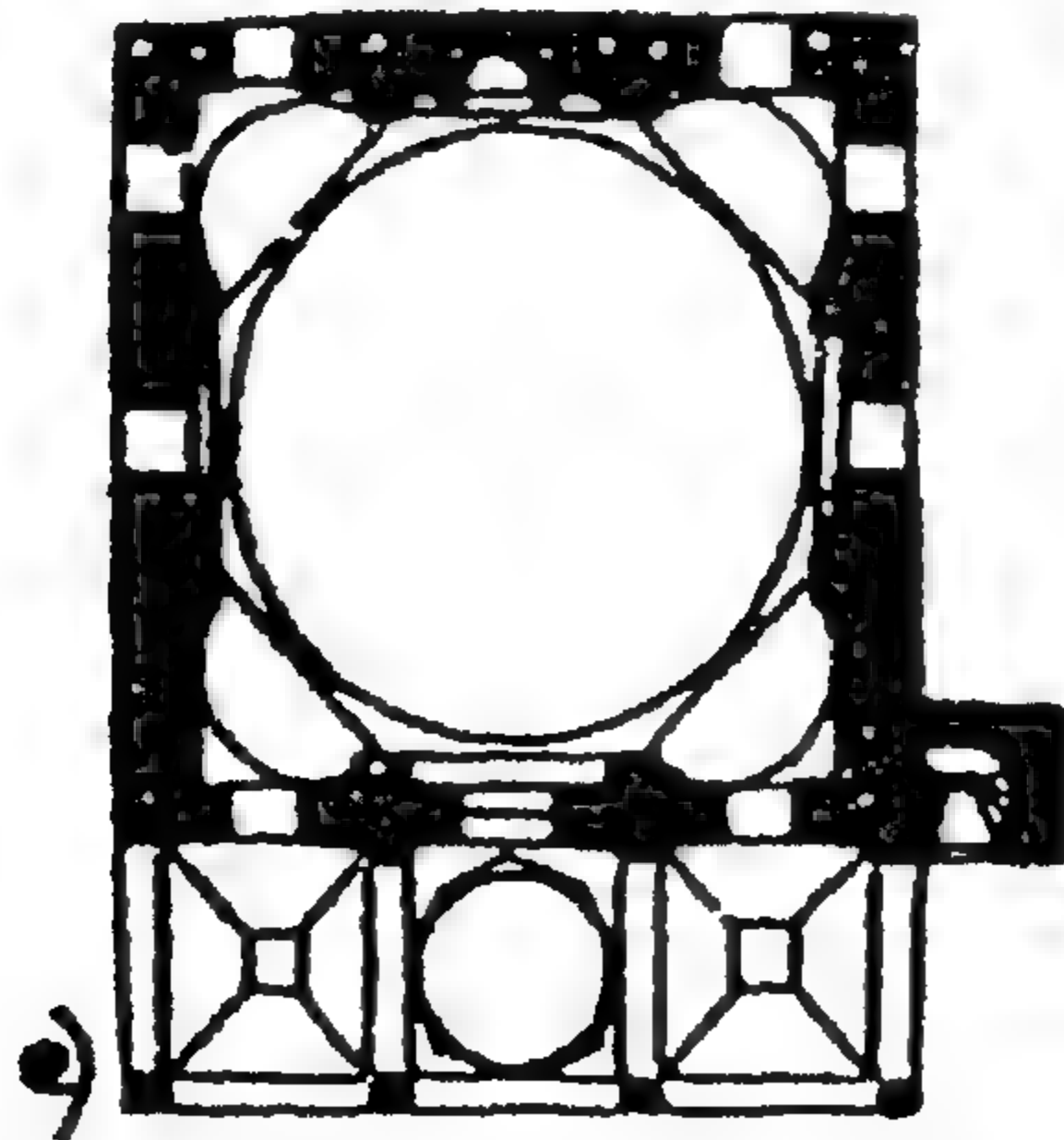
(شكل ٢٦٥) مسقط أفقي لمسجد علي باشا في Szigetvár المجرية (عن : جيرو) .



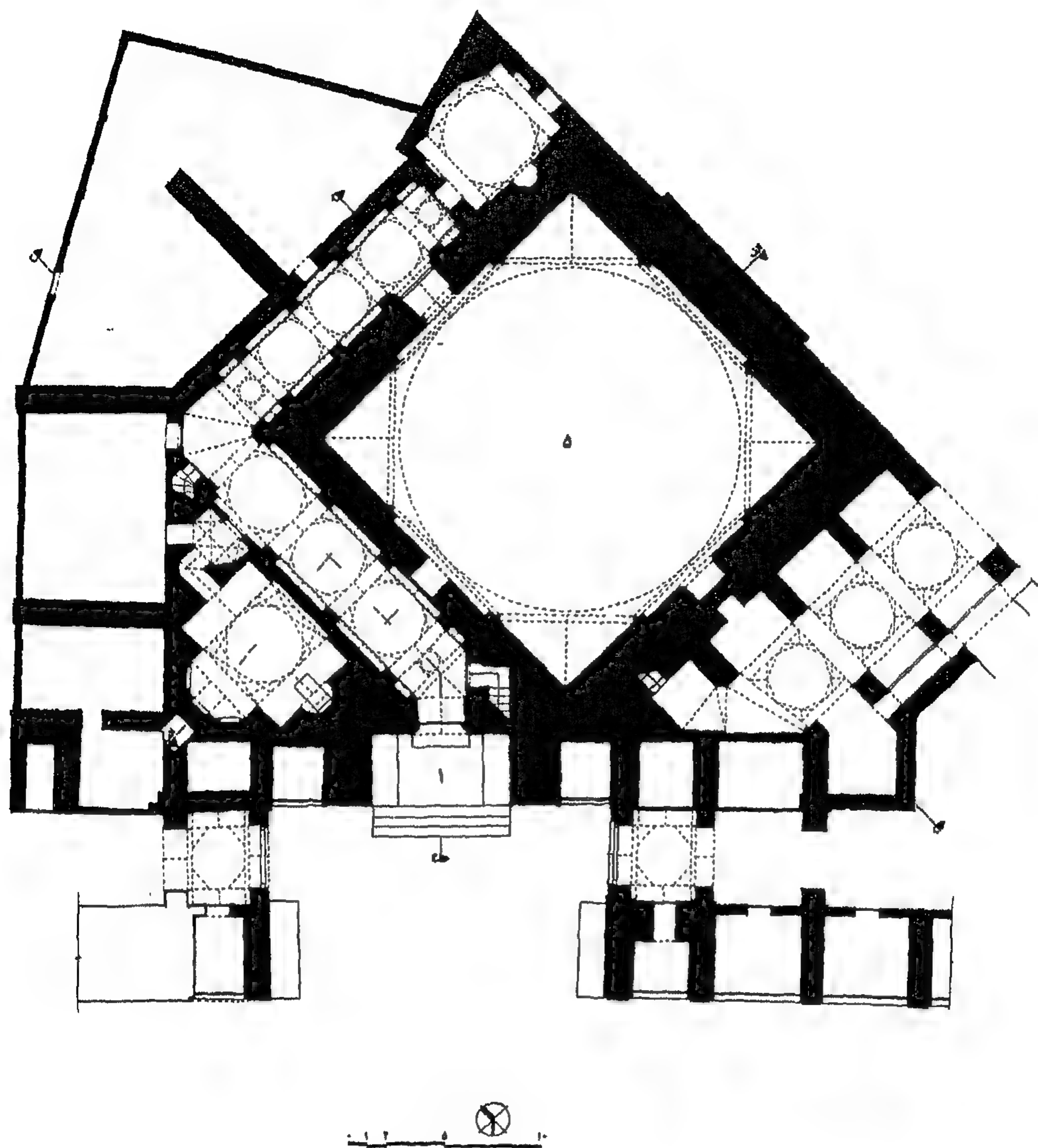
(شكل ٢٦٦) مسقط أفقي للمسجد الجديد (يني جامع)
في كوموتيني باليونان (عن : كيل) .



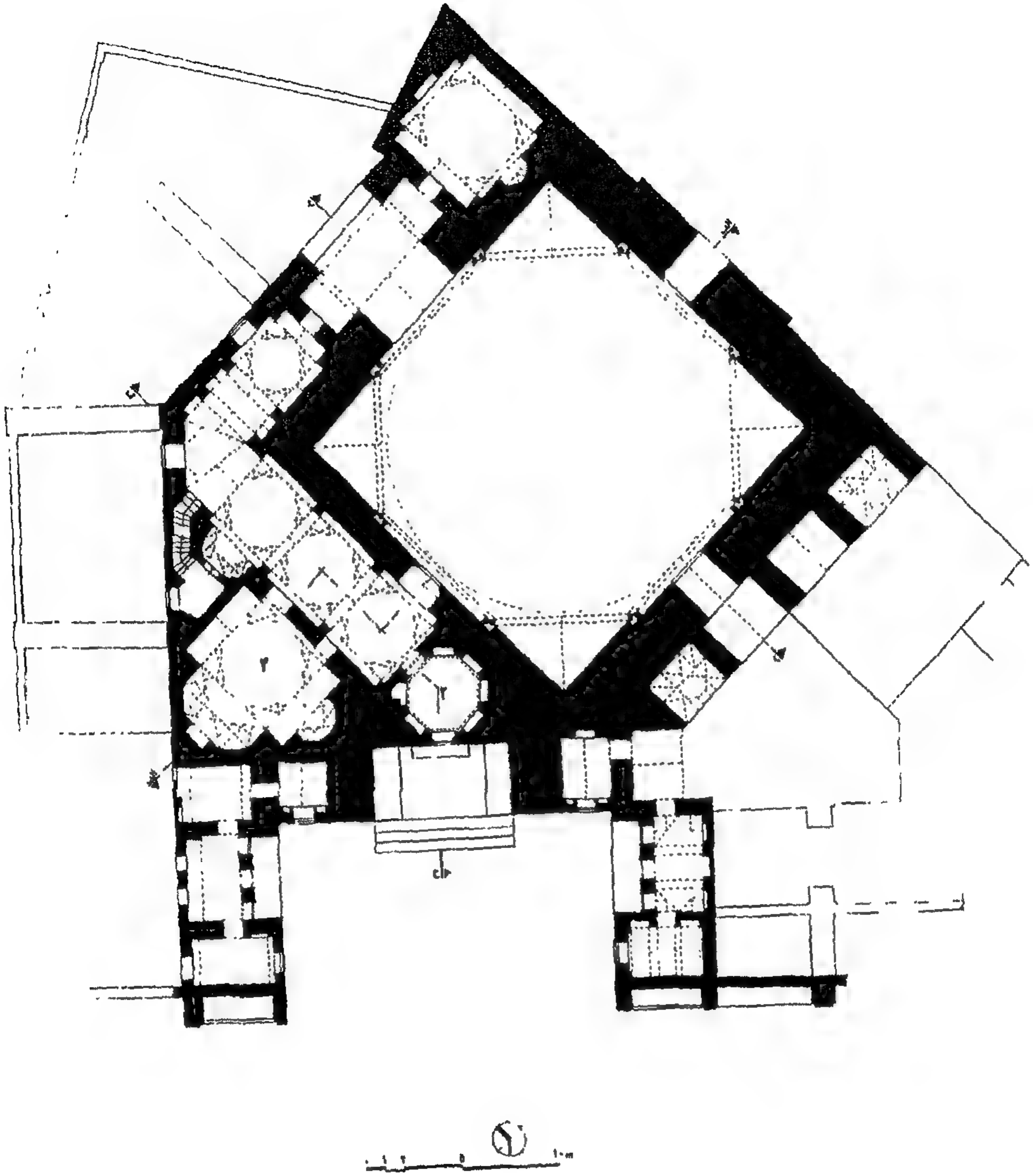
(شكل ٢٦٧) مسقط أفقي لمسجد نيش A ومسجد قراکوز محمد باشا B
في موستار (عن : Pašić) .



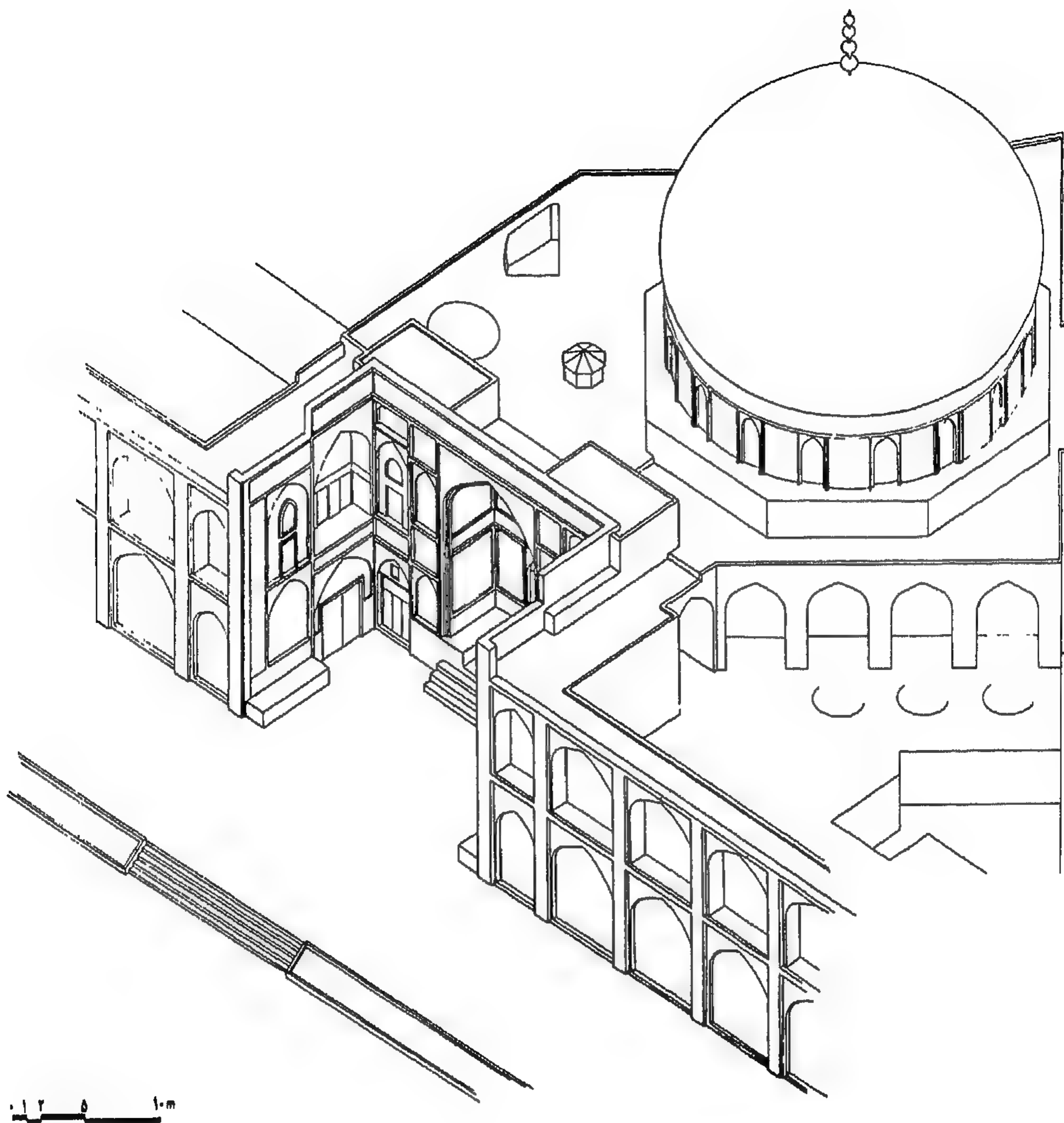
(شكل ٢٦٨) مسقط أفقي لمسجد Hadun في ياكوفكا (عن : Pašić) .



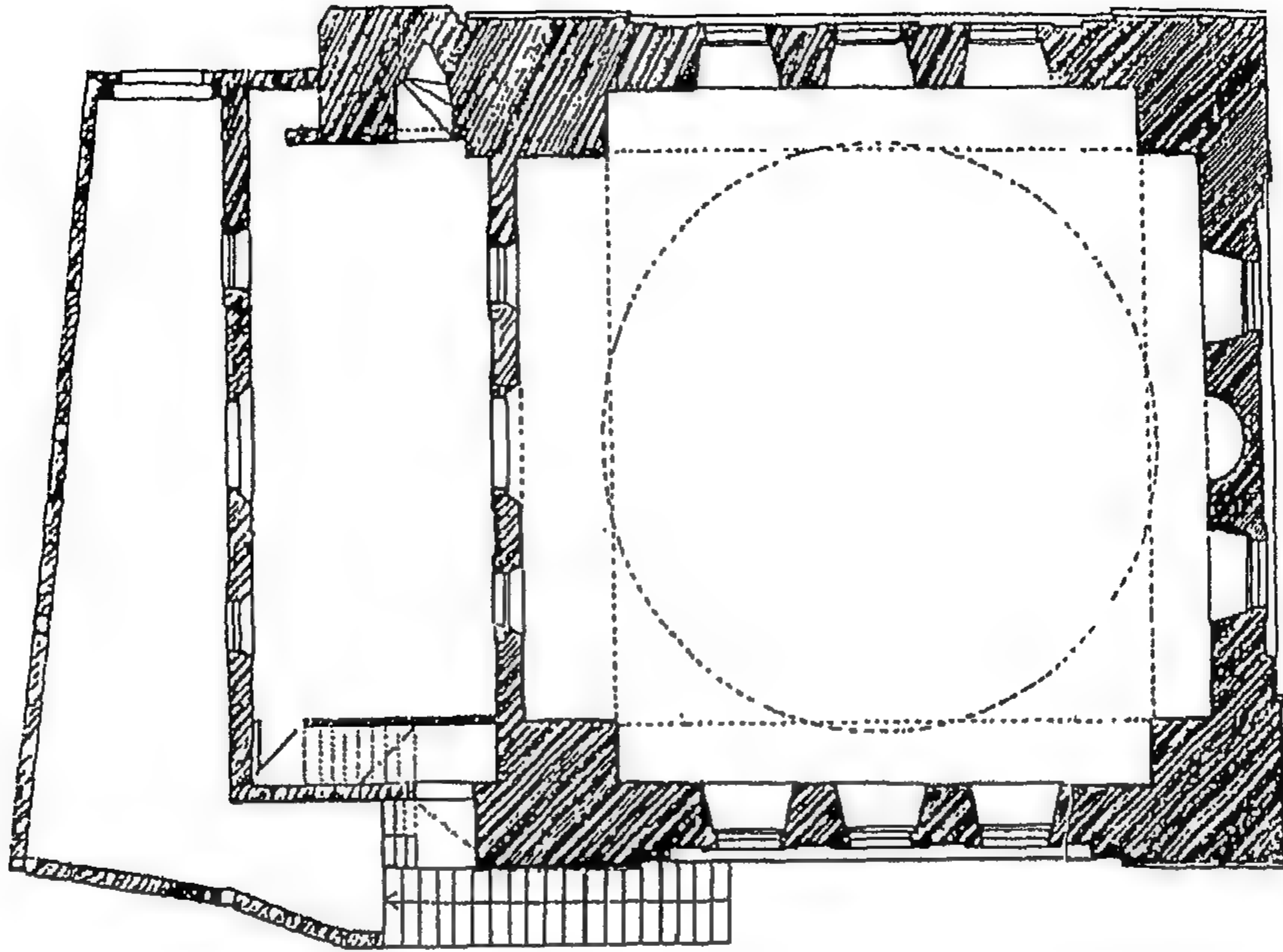
(شكل ٢٦٩) مسقط أفقي لمسجد الشيخ لطف الله في أصفهان
(الطابق الأول) عن : كنجنا .



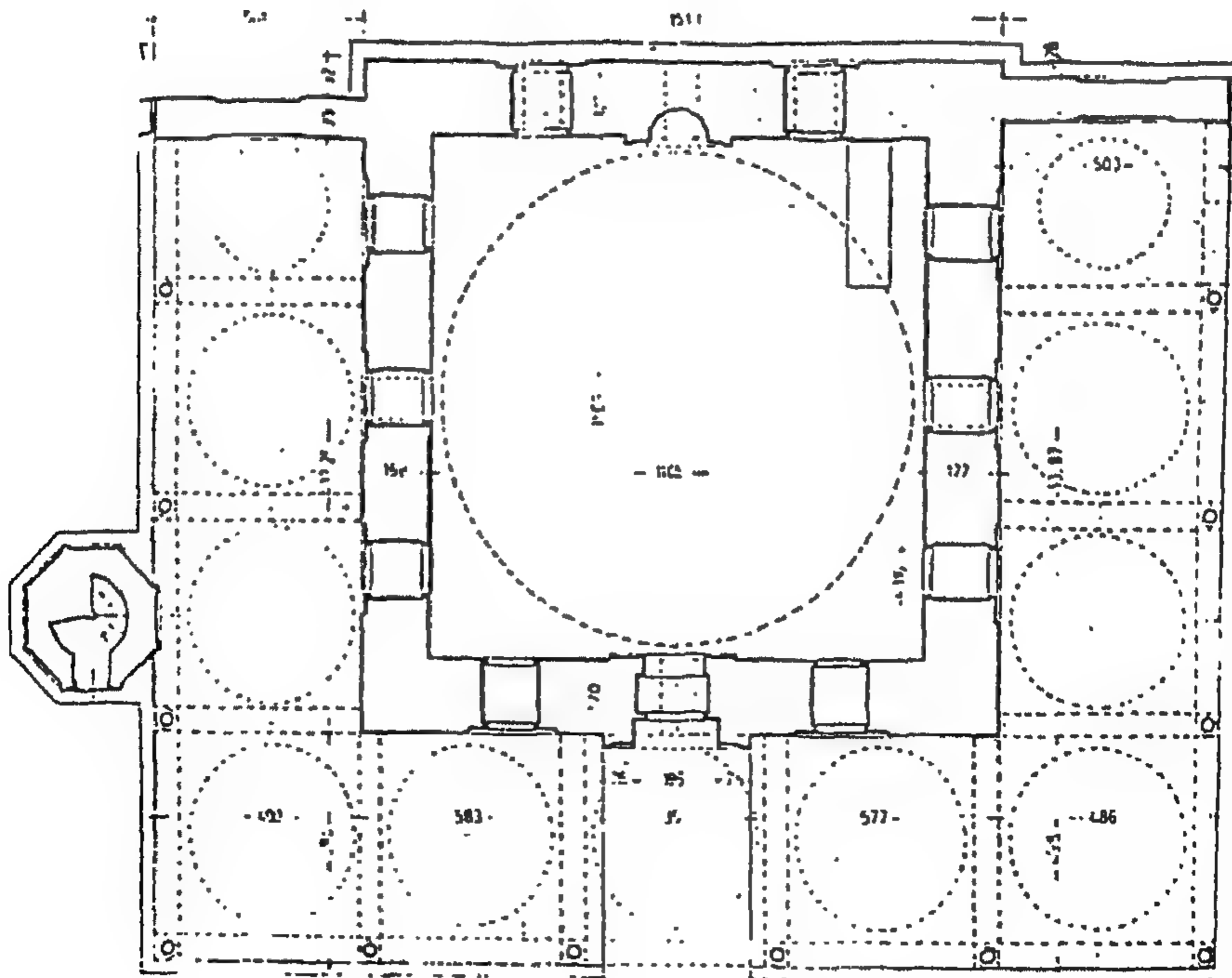
(شكل ٢٧٠) مسقط أفقي لمسجد الشيخ لطف الله (الطابق الثاني)
(عن: كتبخانة).



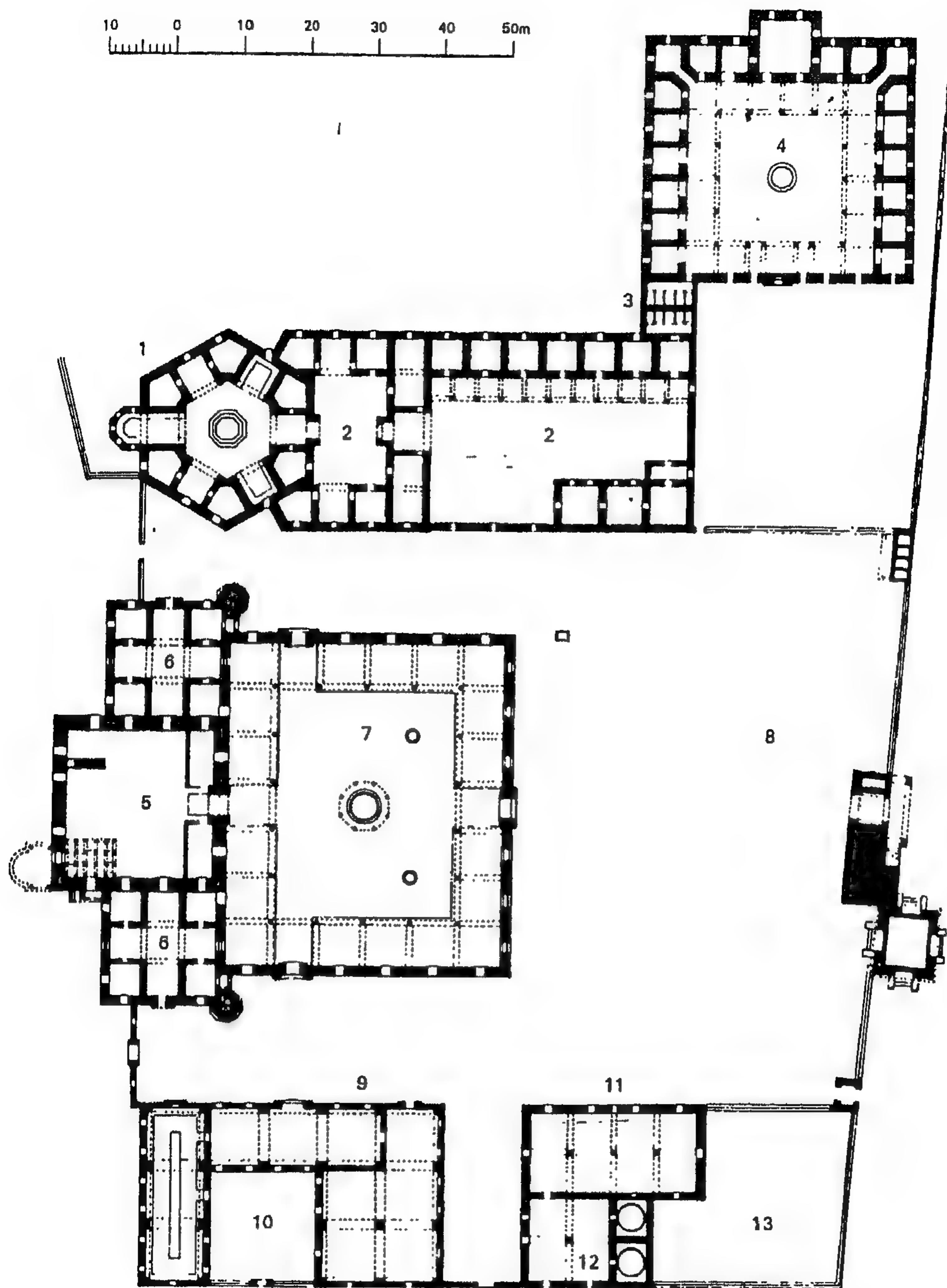
(شكل ٢٧١) مسجد الشيخ لطف الله . (عن : كنجنامه) .



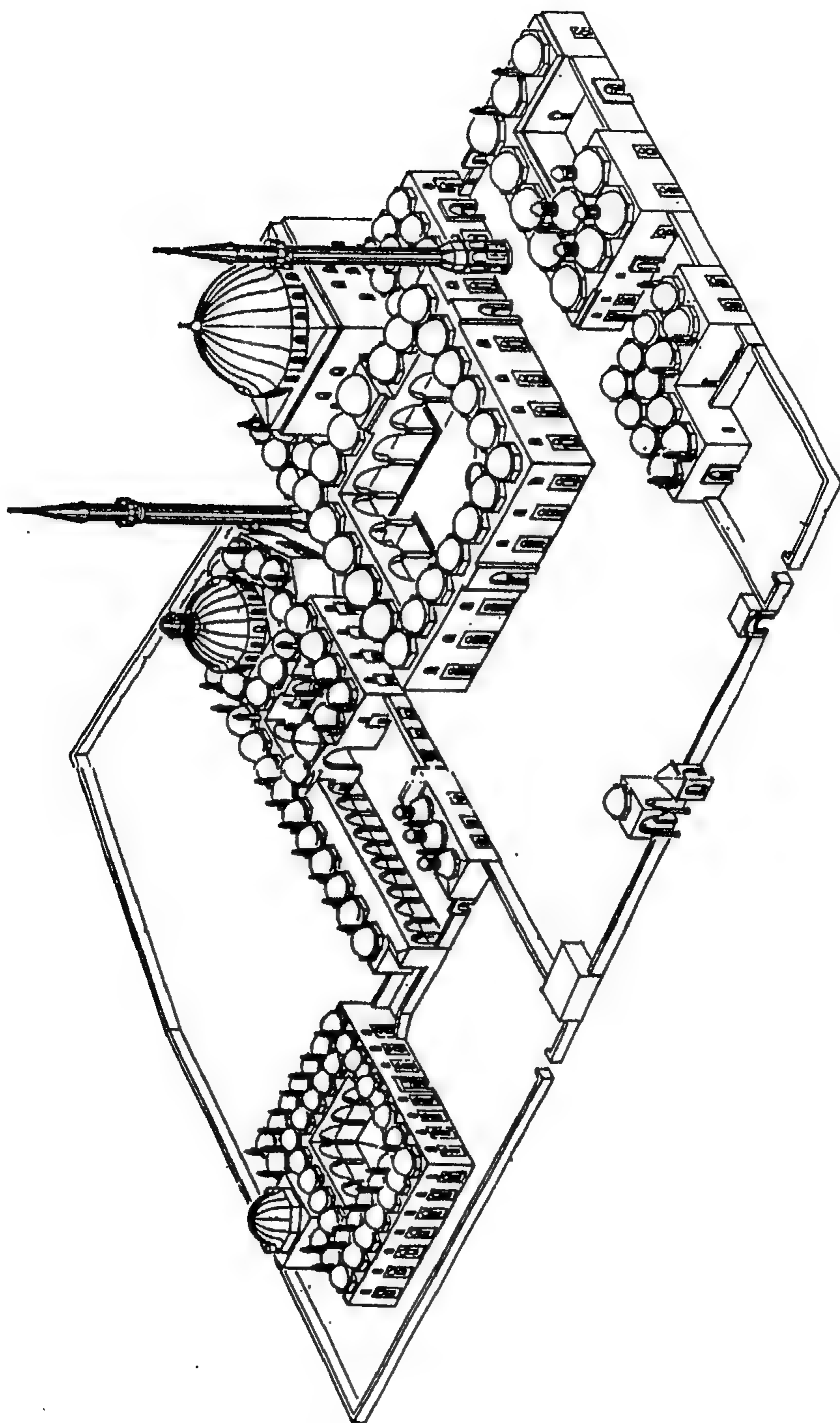
(شكل ٢٧٢) مسقط أفقي لمسجد خان في طلاس (عن : Türkmen).



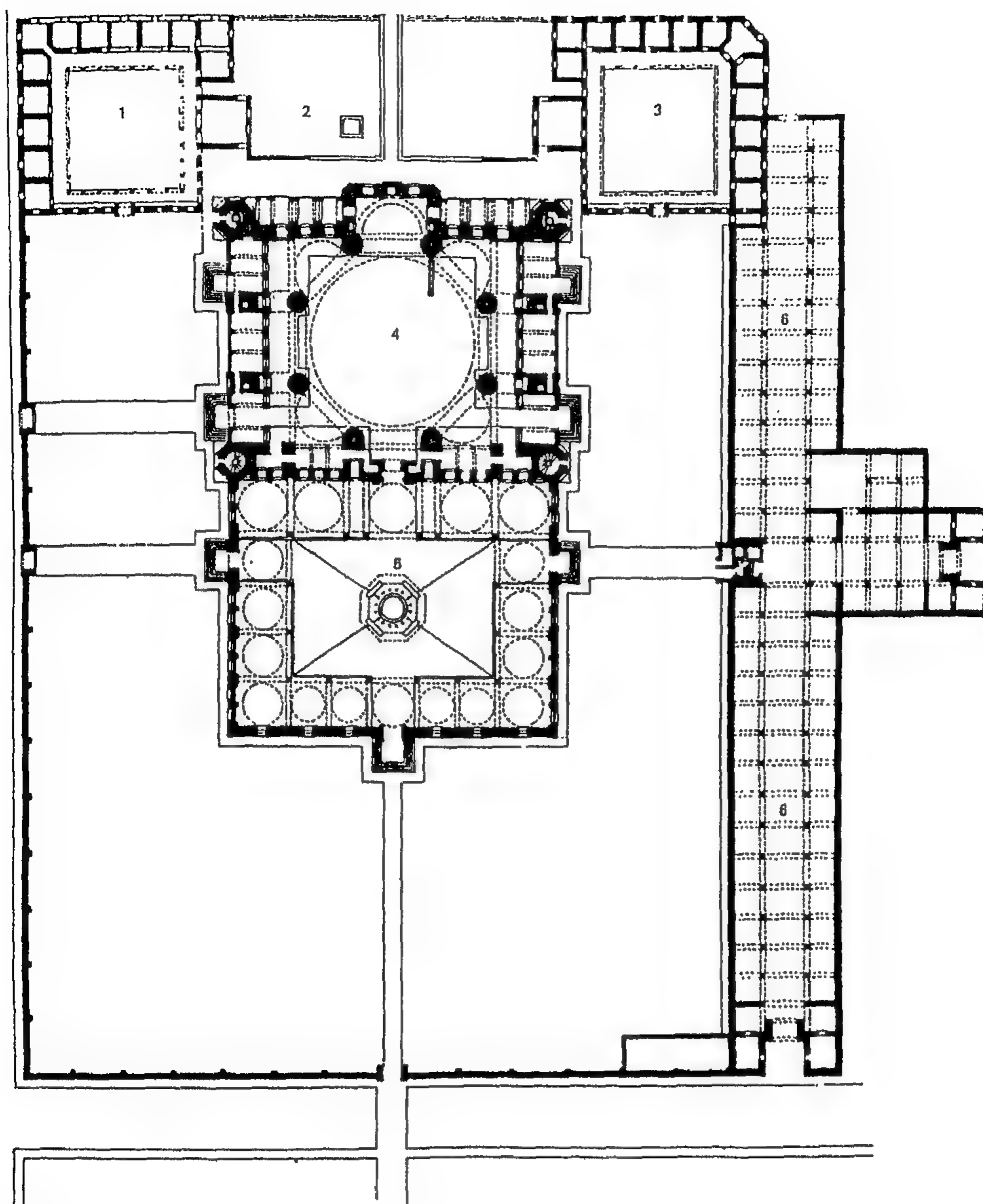
(شكل ٢٧٣) مسقط أفقي لمسجد لاري چلبي في أدرنة (عن : Tüksel).



(شكل ٢٧٤) مسقط أفقي لمجمع (كلية) السلطان بايزيد بأدرته (عن : Goodwin) .

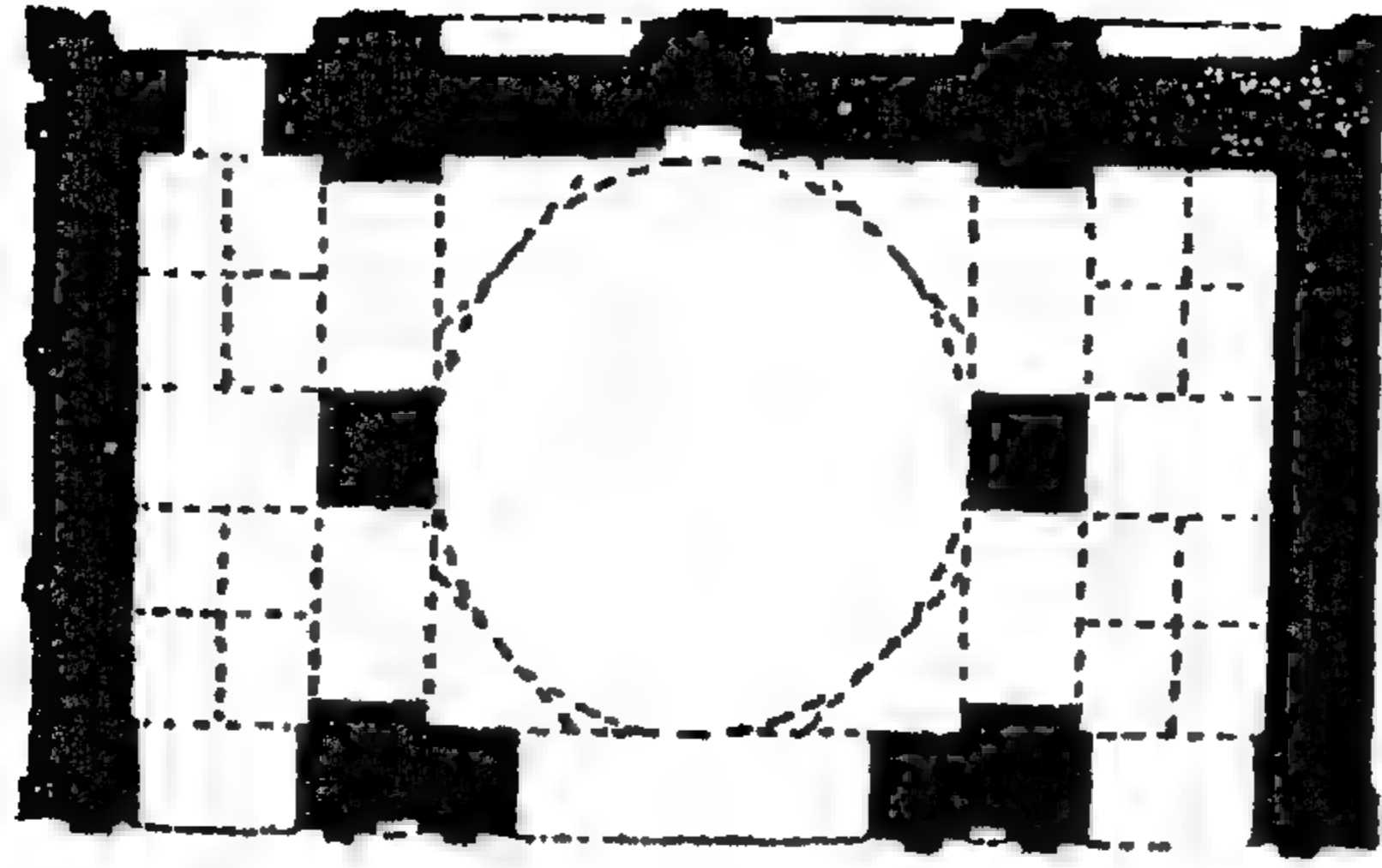


(شکل ۲۷۴ مکرر) مجمع السلطان بایزید بادرنه .

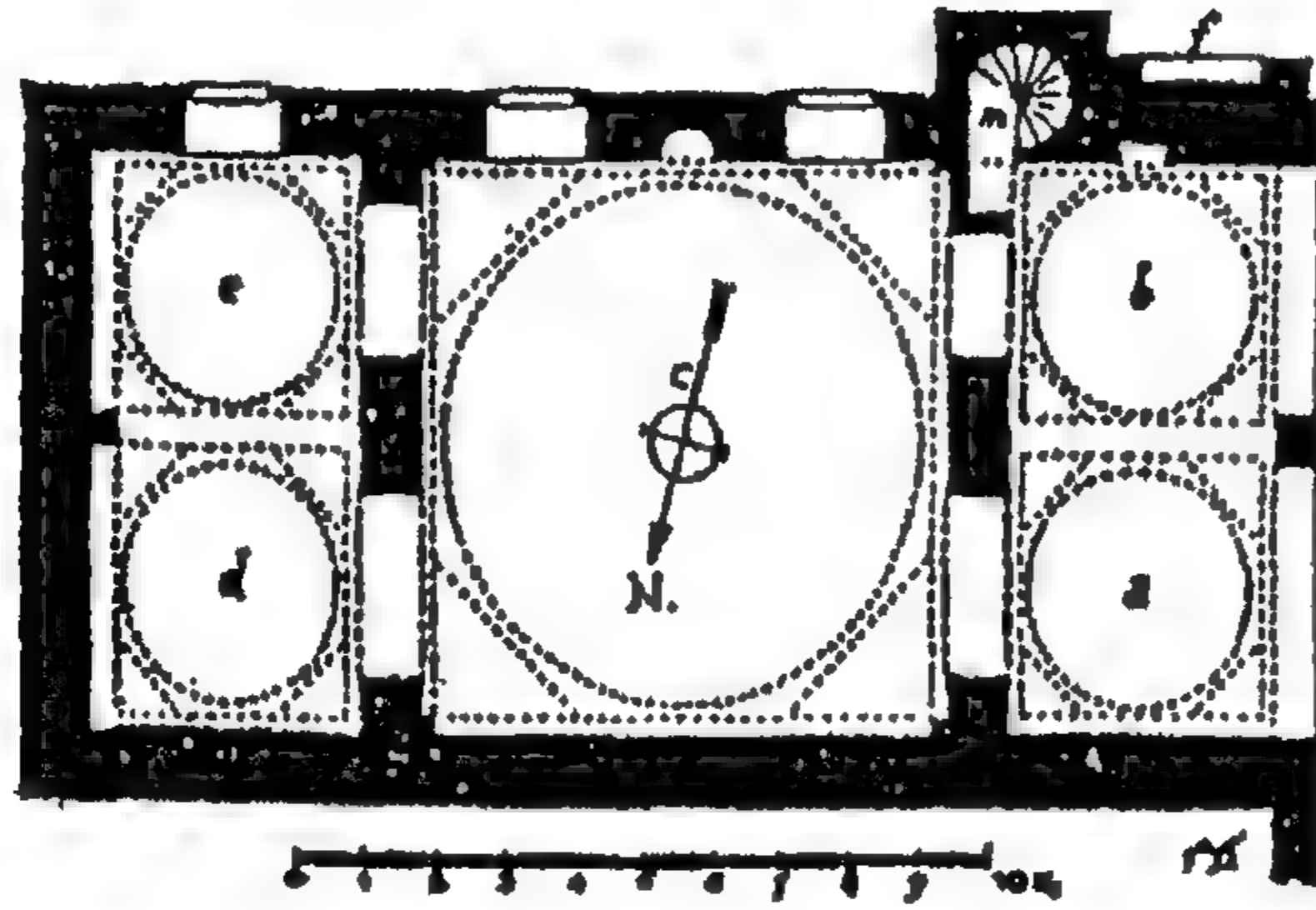


10 0 10 20 30 40 50m

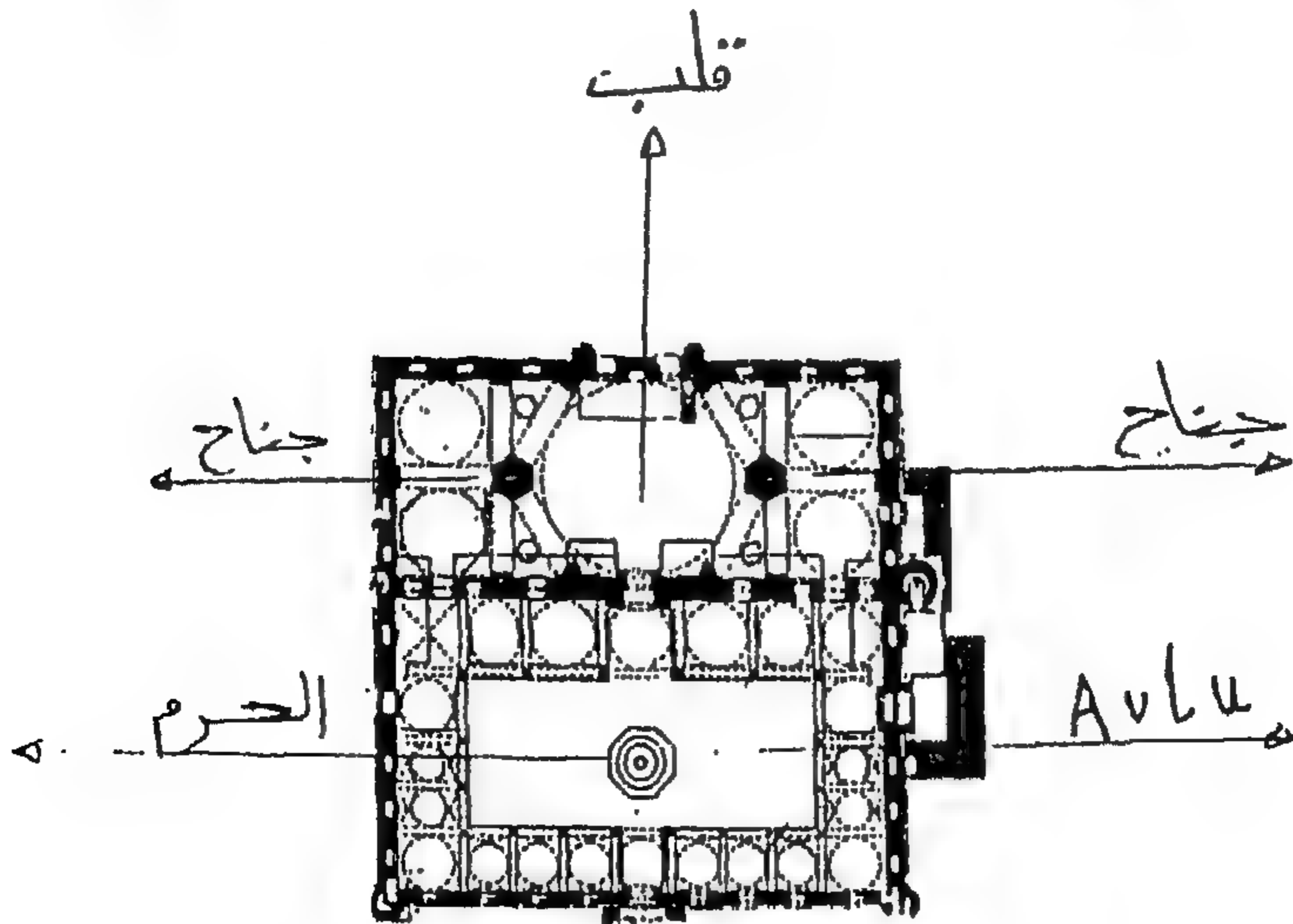
(شكل ٢٧٥) مسقط أفقي لمجمع (كلية) السلطان سليم الثاني بادرته
 . (عن : Goodwin) .



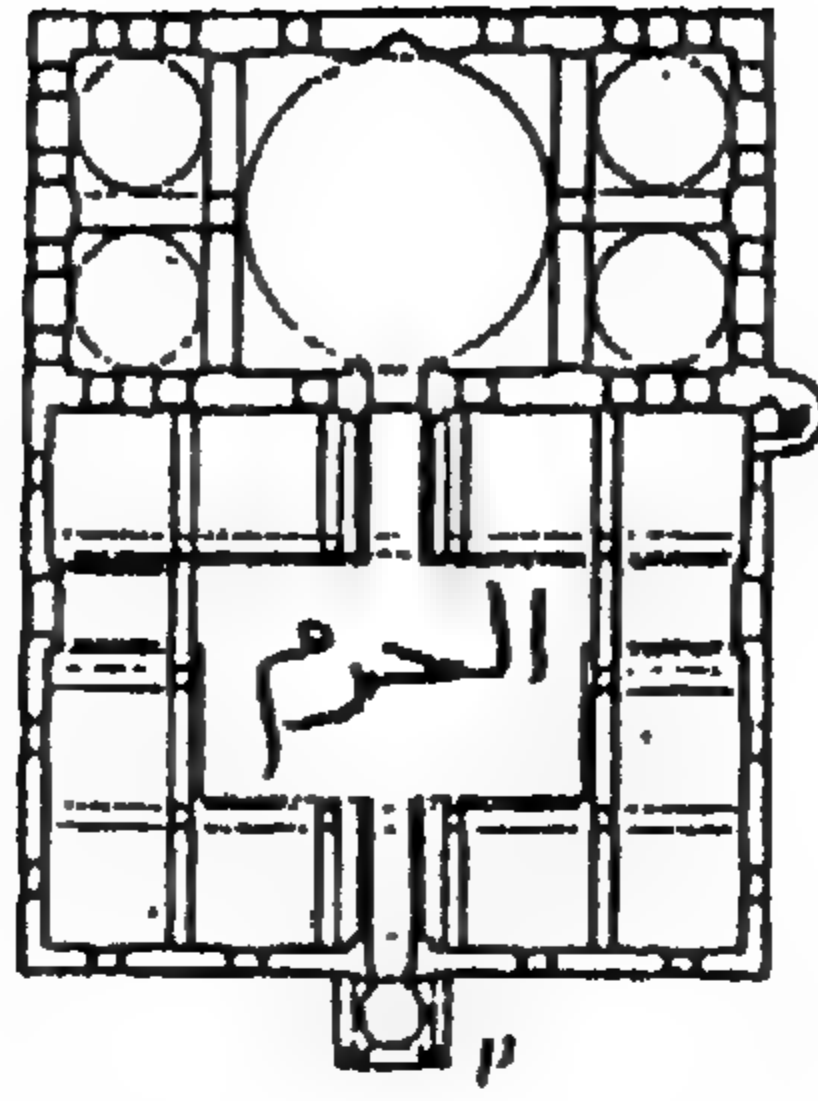
(شكل ٢٧٦) مسقط أفقي لمسجد طلختان بابا قرب مرو . (عن : Kuban).



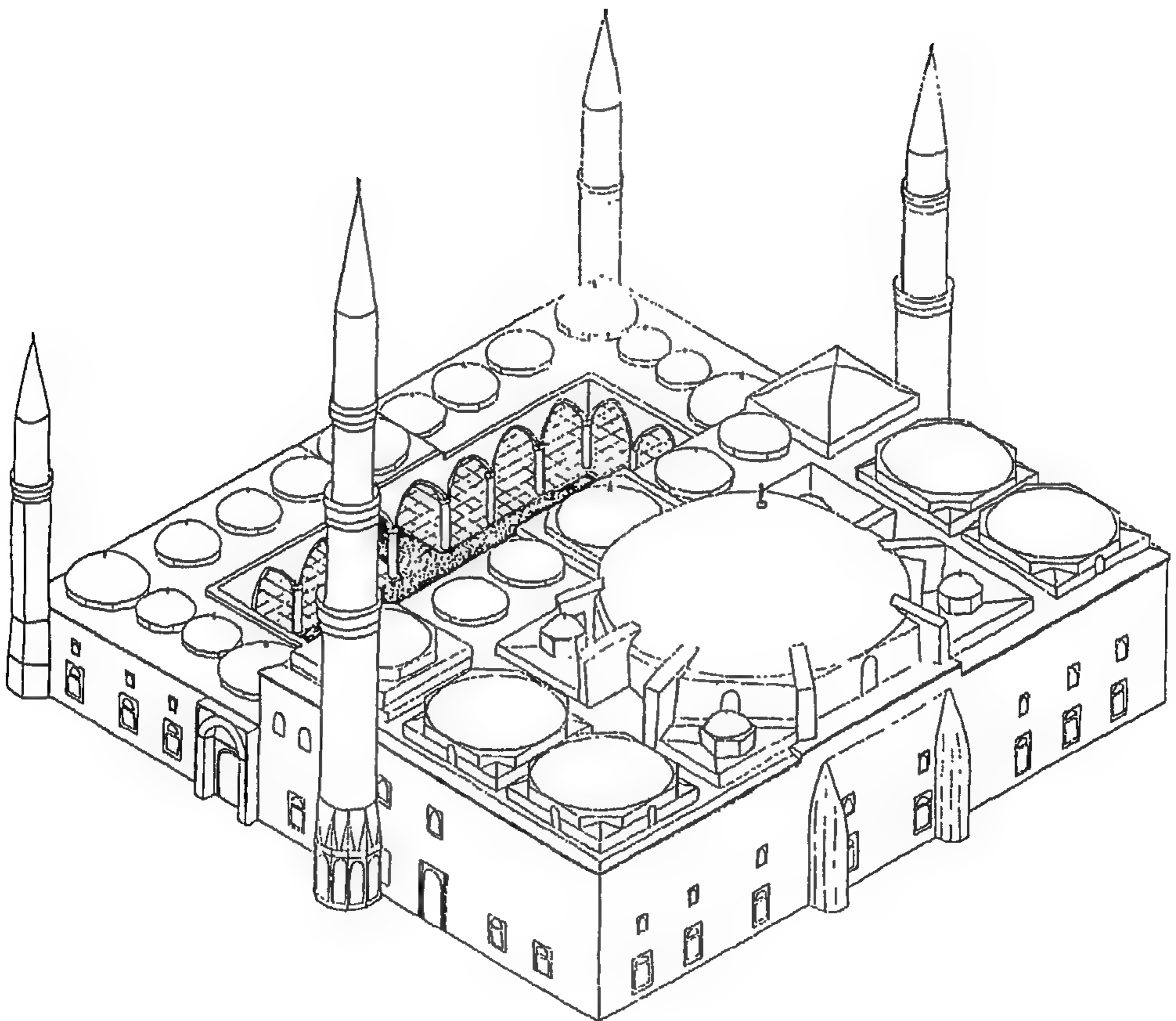
(شكل ٢٧٧) مسقط أفقي لمسجد رستم جلبی (كودوك منار) في توقات (عن : Gabriel).



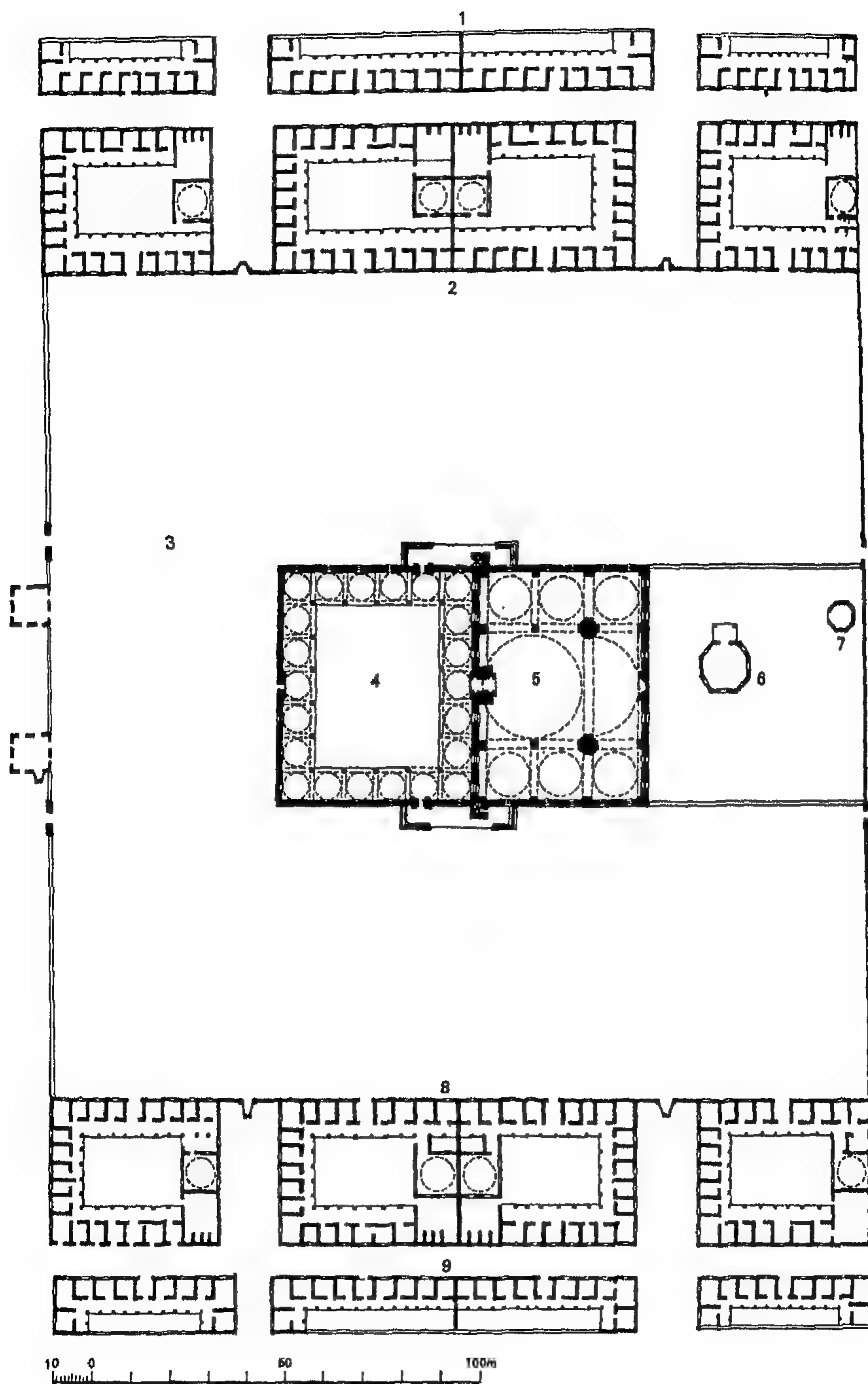
(شكل ٢٧٨) مسقط أفقي لجامع اوج شرفلي في ادرنه (عن : Goodwin).



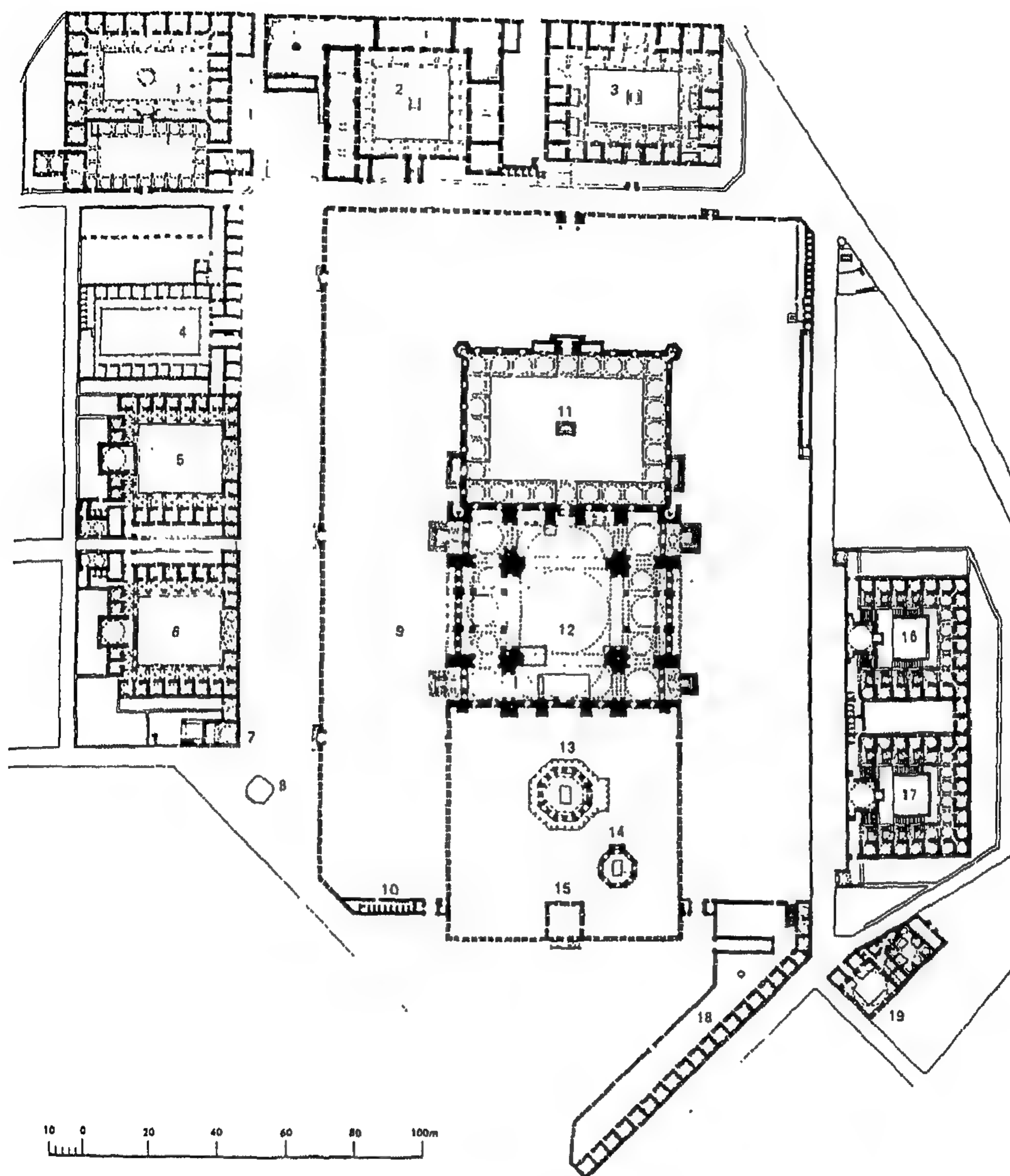
(شكل ٢٧٩) مسقط أفقي لجامع حسن بك في خيرابولو (عن : Kuran) .



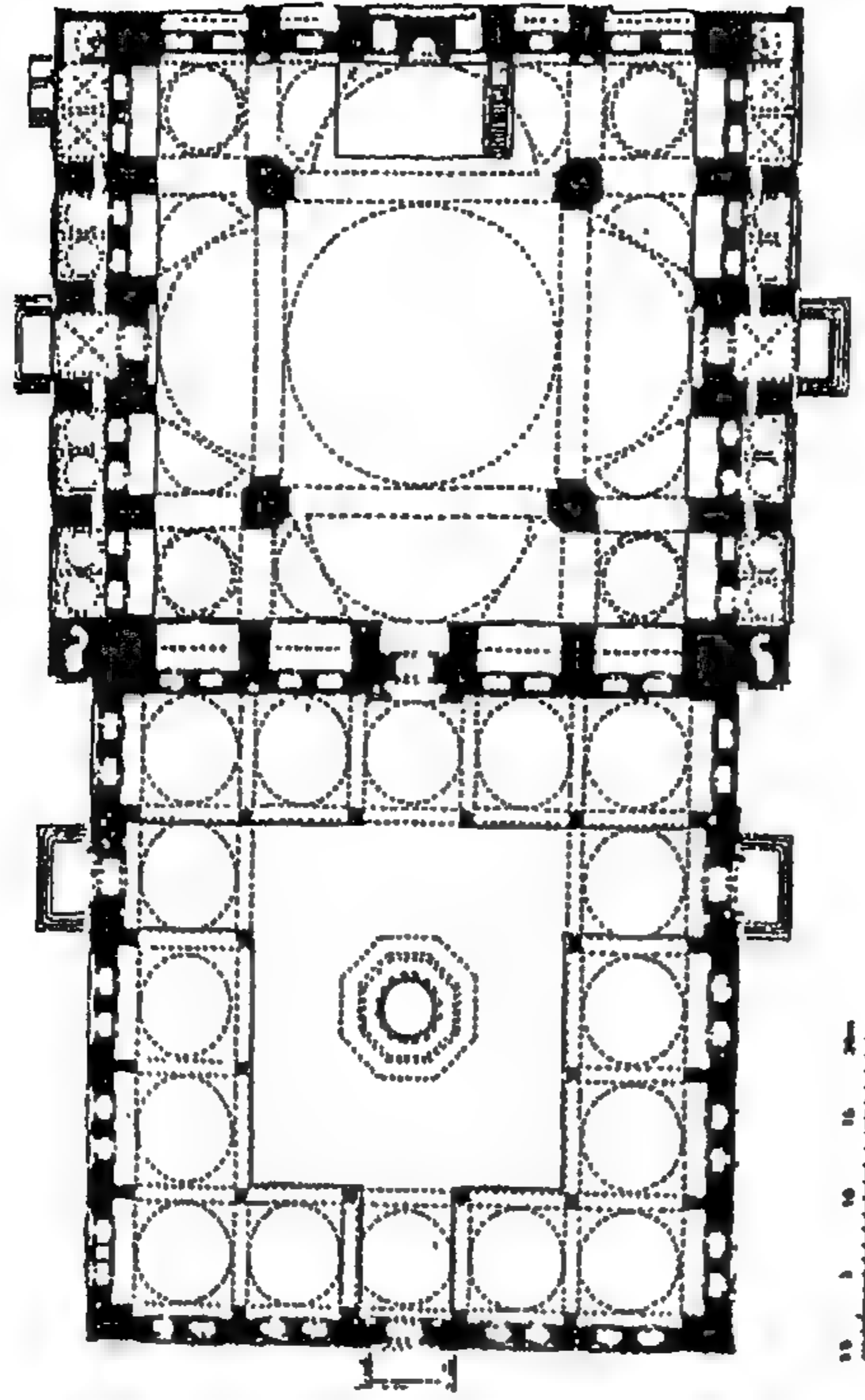
(شكل ٢٨٠) منظور لمسجد أوج شرفلي في ادرنه (عن : هيلنبراند) .



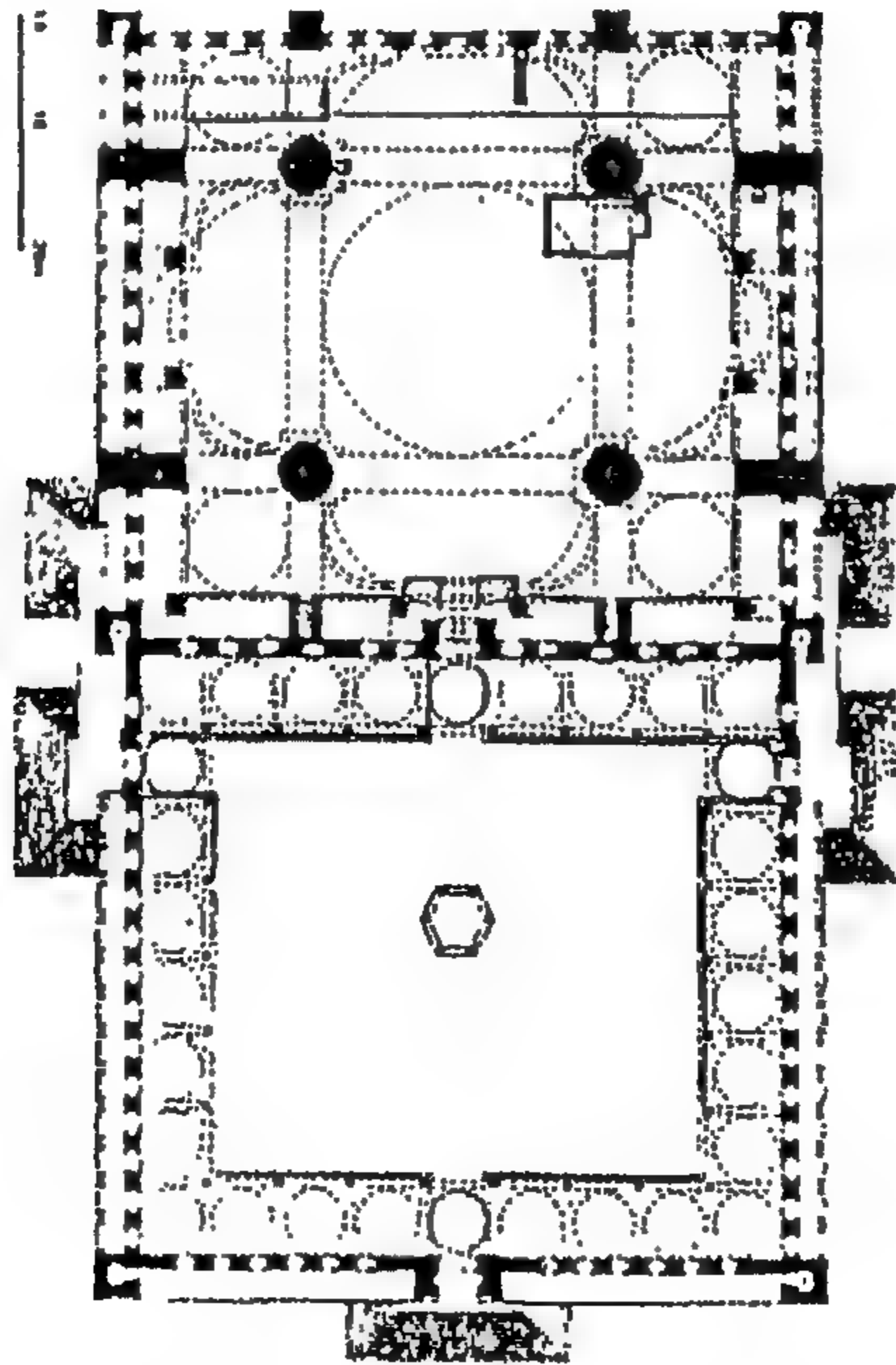
(شكل ٢٨١) مسقط أفقي لمجمع (كلية) السلطان محمد الفاتح بإستانبول .
(عن : Goodwin) .



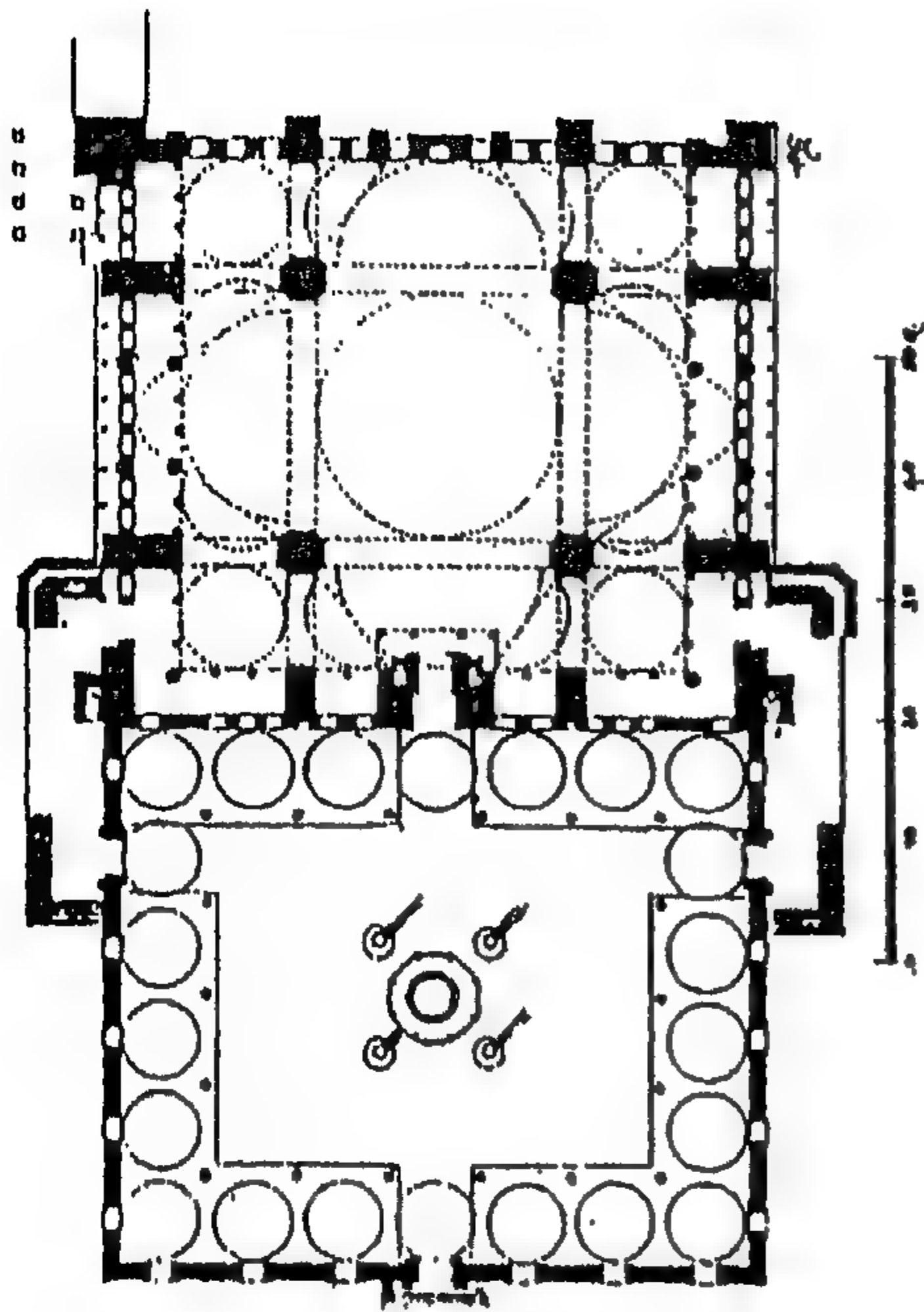
(شكل ٢٨٢) مسقط أفقي لمجمع (كلية) السلطان سليمان القانوني بإستانبول .
(عن : Goodwin) .



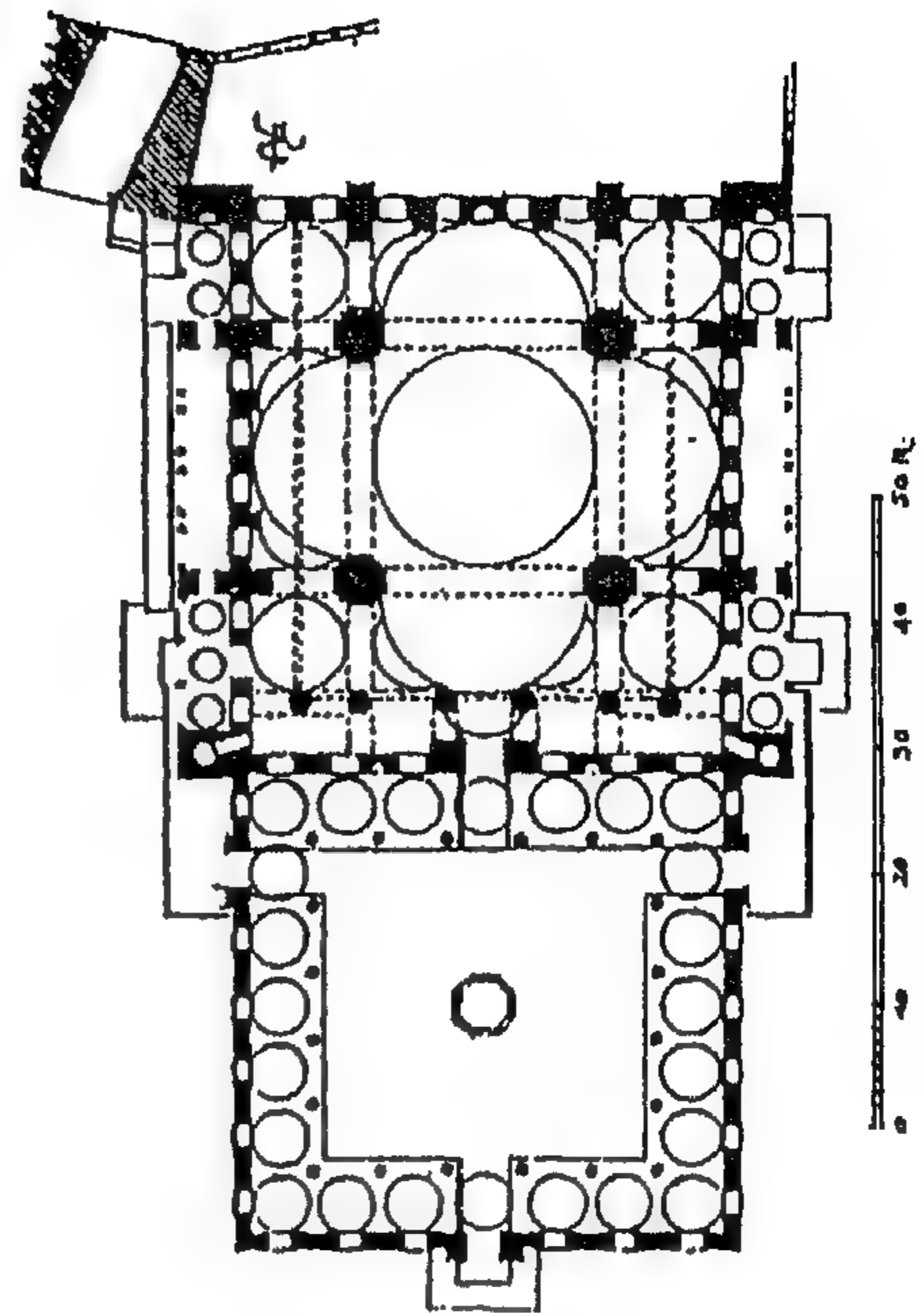
(شكل ٢٨٣) مسقط أفقي لجامع شاهزاده باستانبول . (عن : Goodwin) .



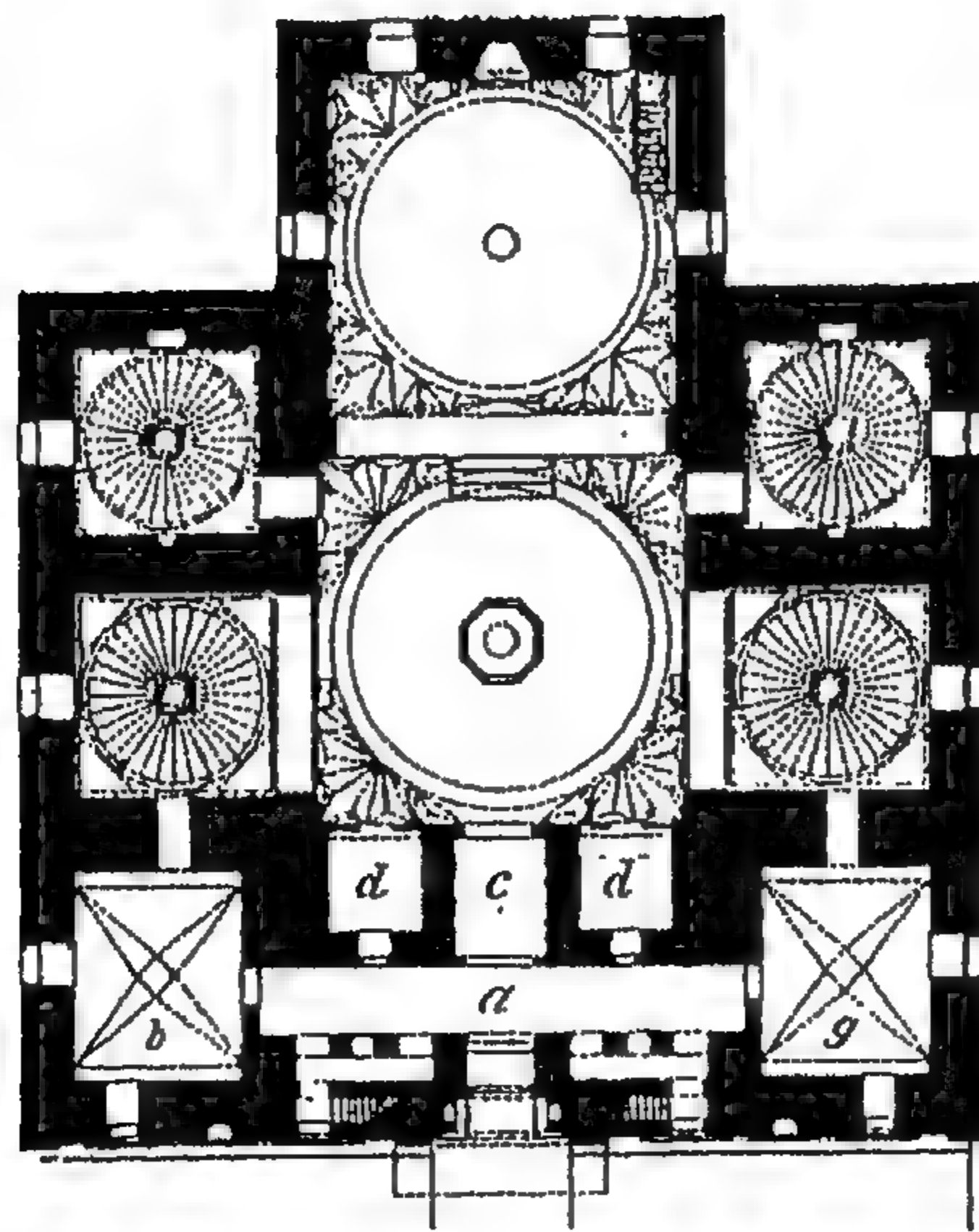
(شكل ٢٨٤) مسقط أفقي لجامع السلطان أحمد الاول باستانبول (عن : Goodwin) .



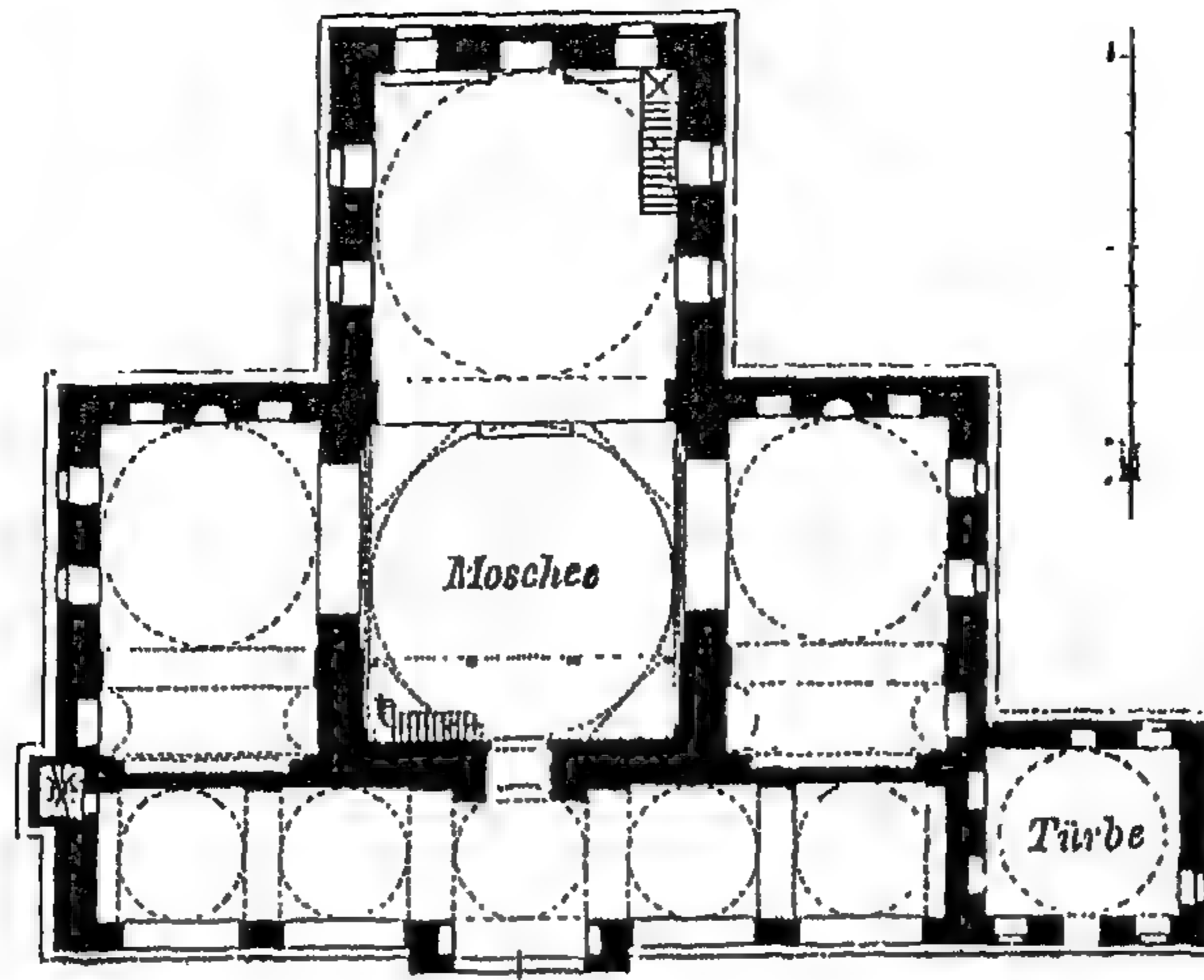
(شكل ٢٨٦) مسقط أفقي لجامع الفاتح
الجديد بإستانبول (عن : Gabriel) .



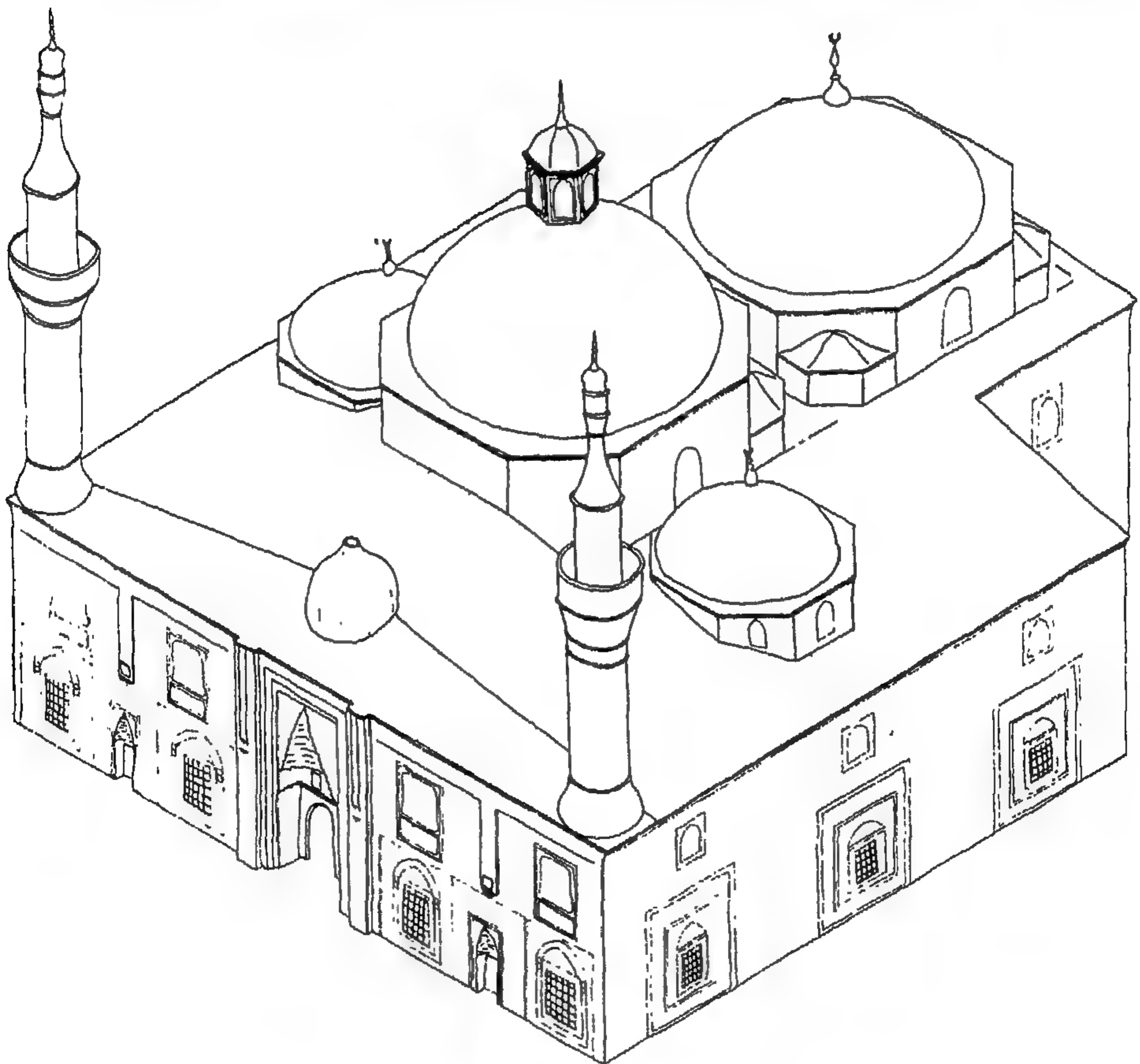
(شكل ٢٨٥) مسقط أفقي لجامع الوالدة
الجديد بإستانبول (عن : Gabriel) .



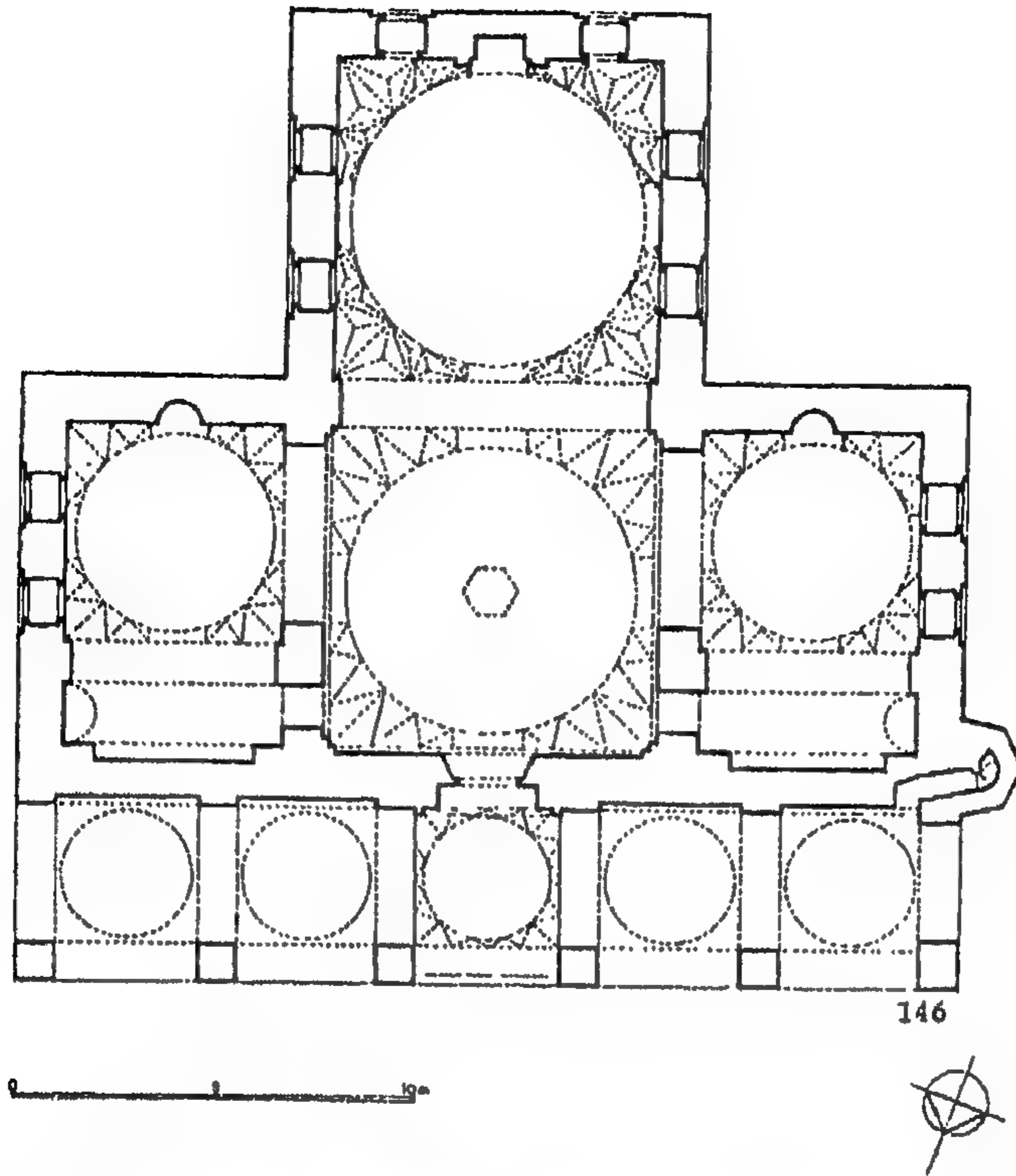
(شكل ٢٨٧) مسقط أفقي للجامع الاخضر (يشيل جامع) في بورصة (او بروسه) .
(عن : Wilde) .



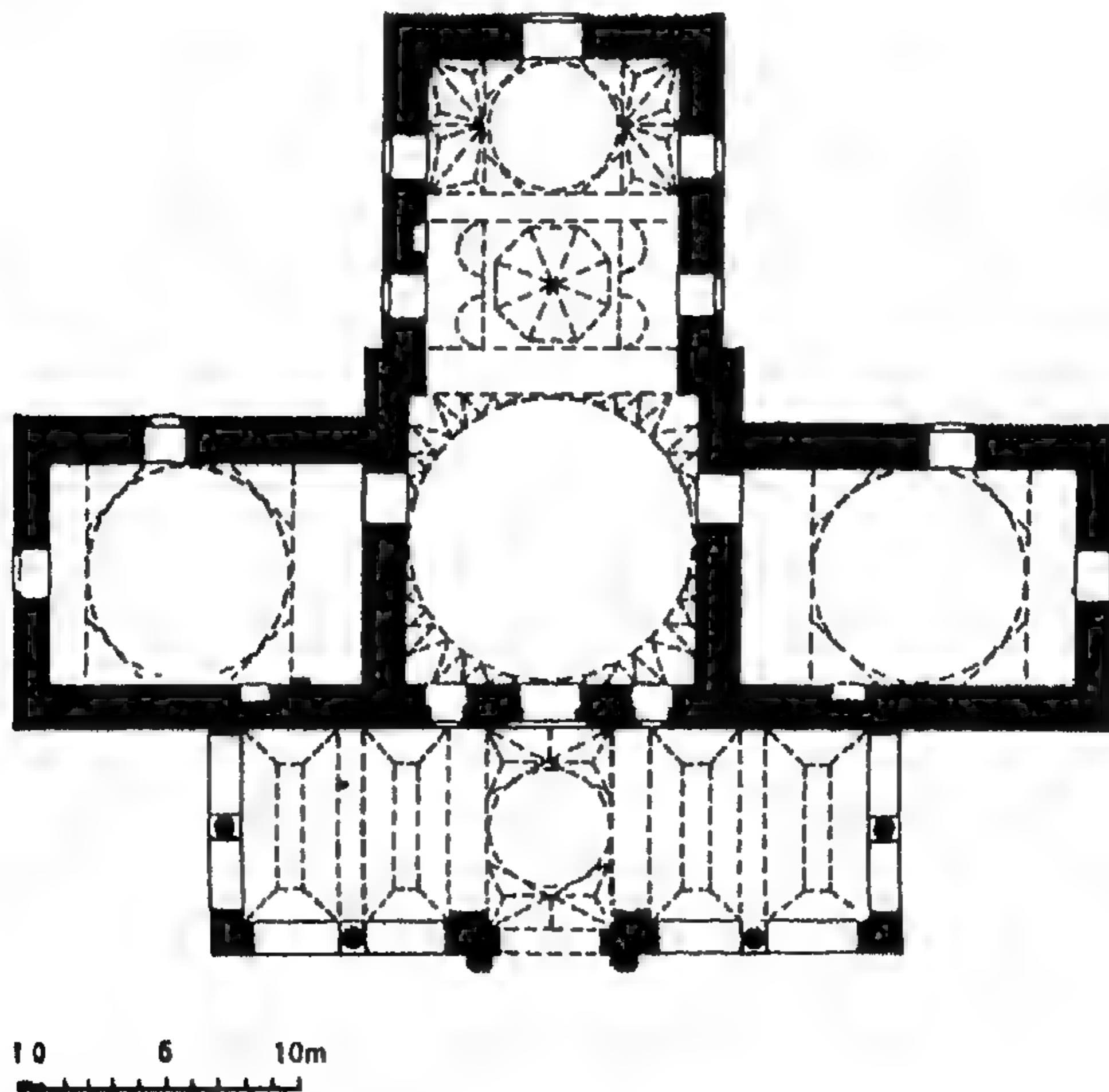
(شكل ٢٨٨) مسقط أفقي لجامع حمزة بك في بورصة (اوبروسه) (عن : Wilde) .



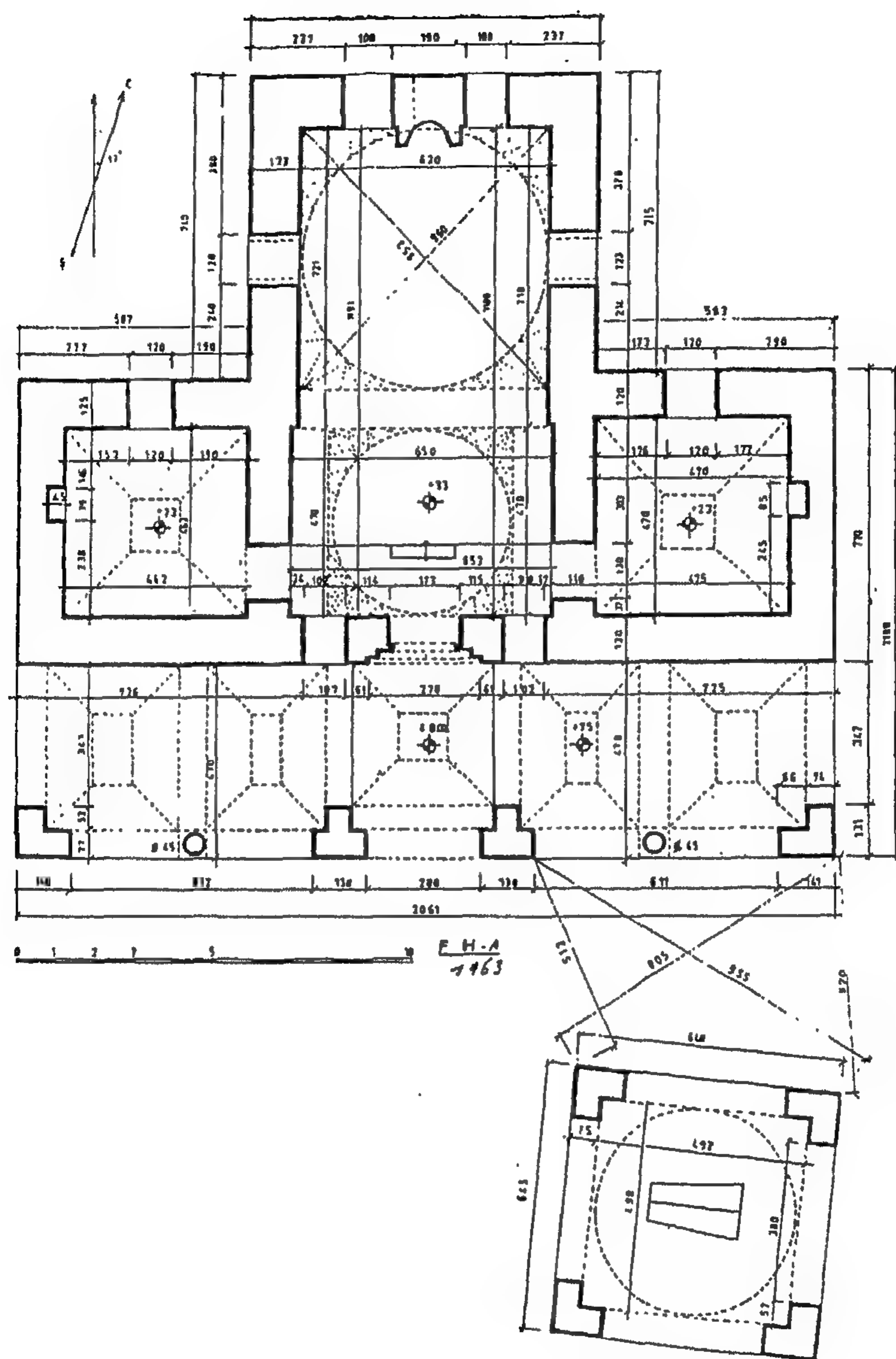
(شكل ٢٨٩) الجامع الاخضر (يشيل جامع) في بورصة (اوبروسه). (عن : هيلنبراند) .



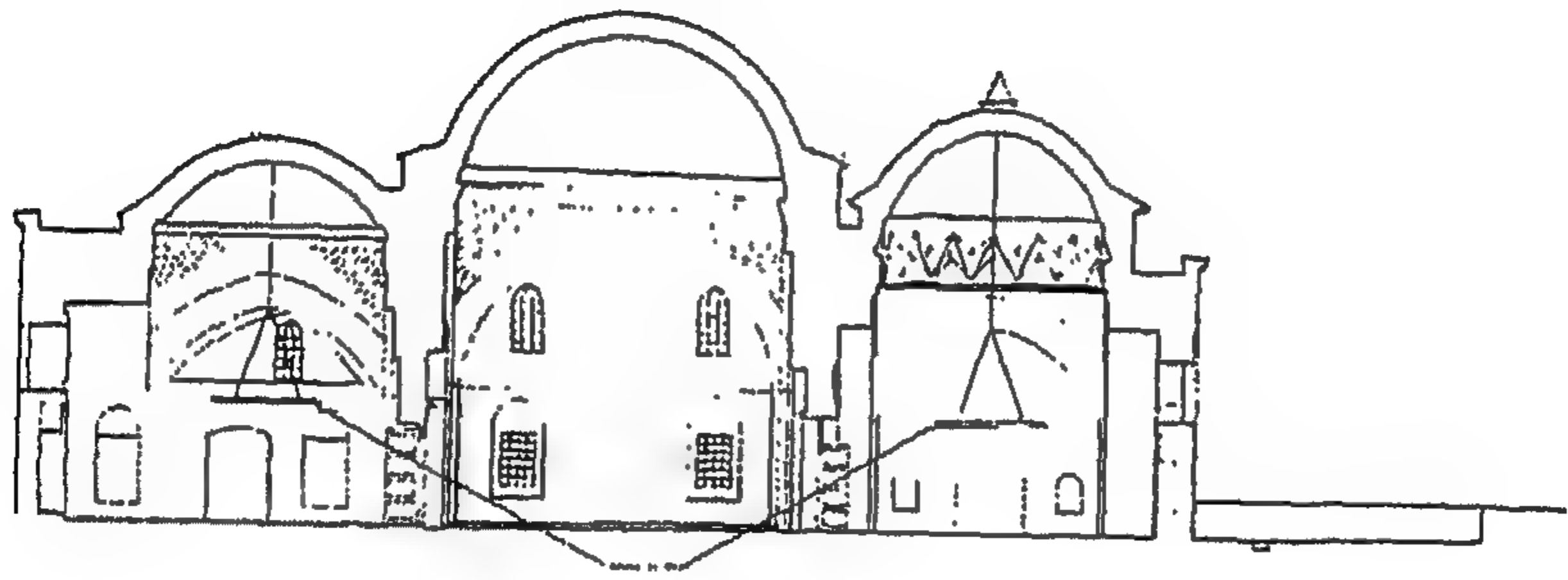
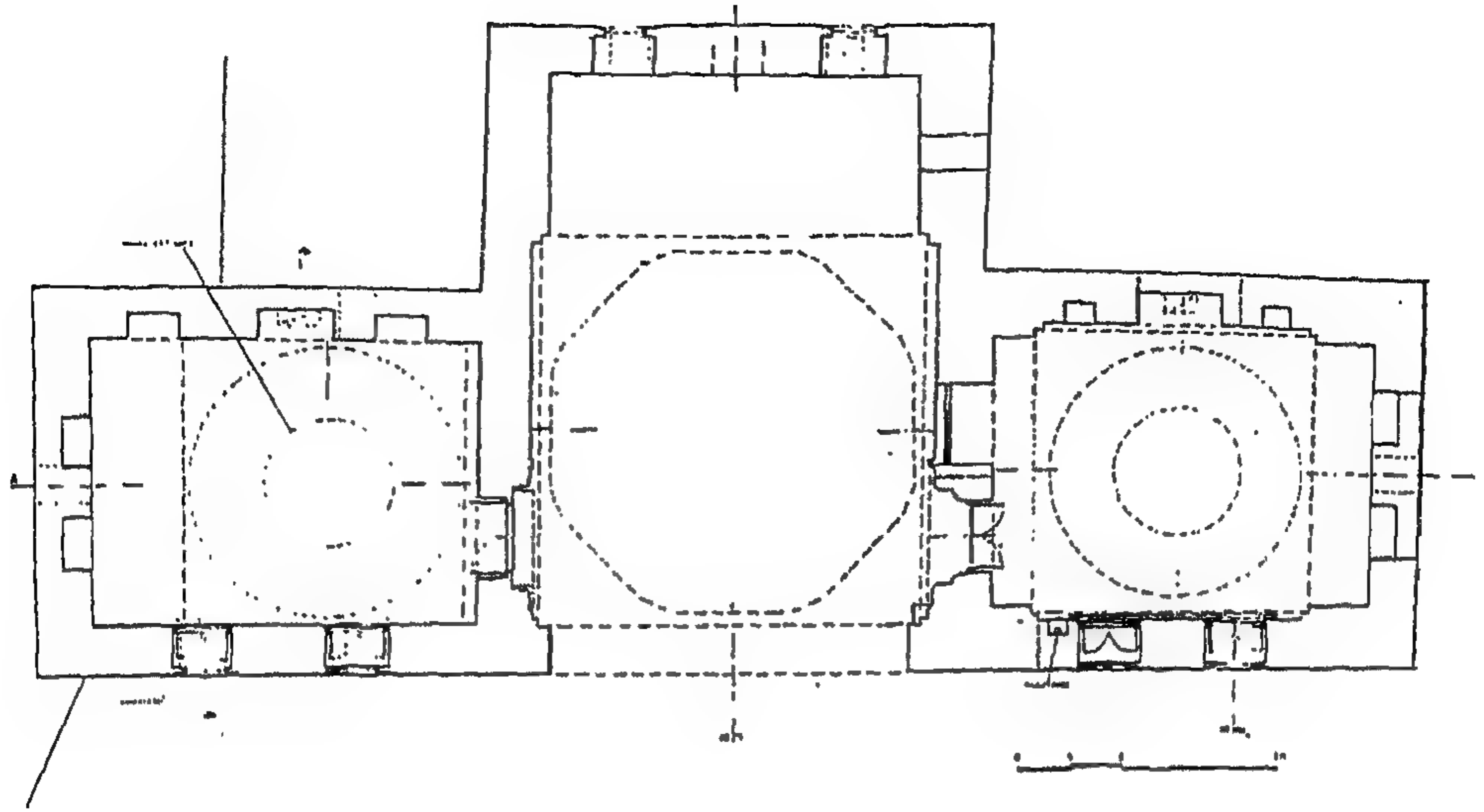
(شكل ٢٩٠) مسقط أفقي لجامع اسحاق باشا في إينه كول . (عن : Kuran).



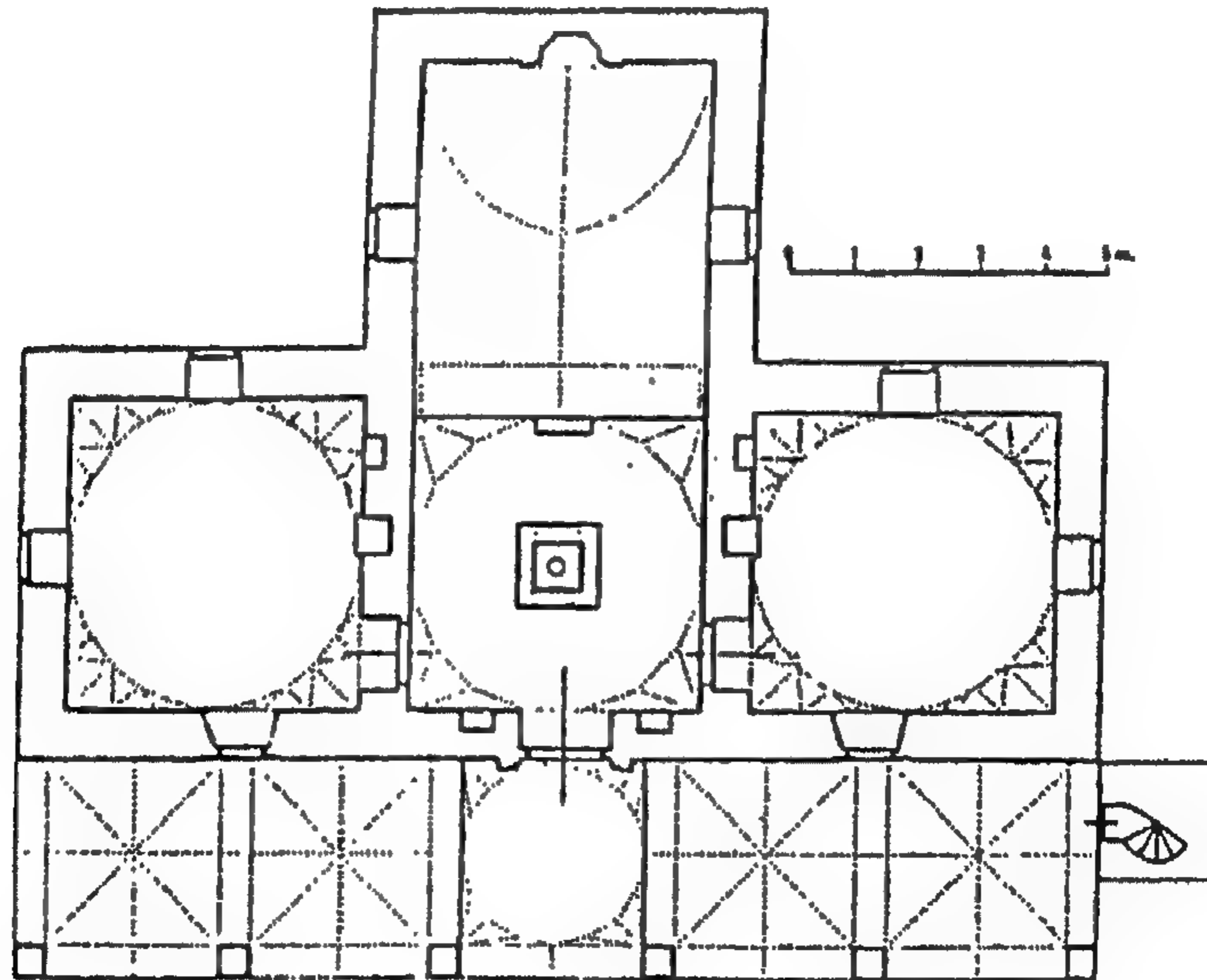
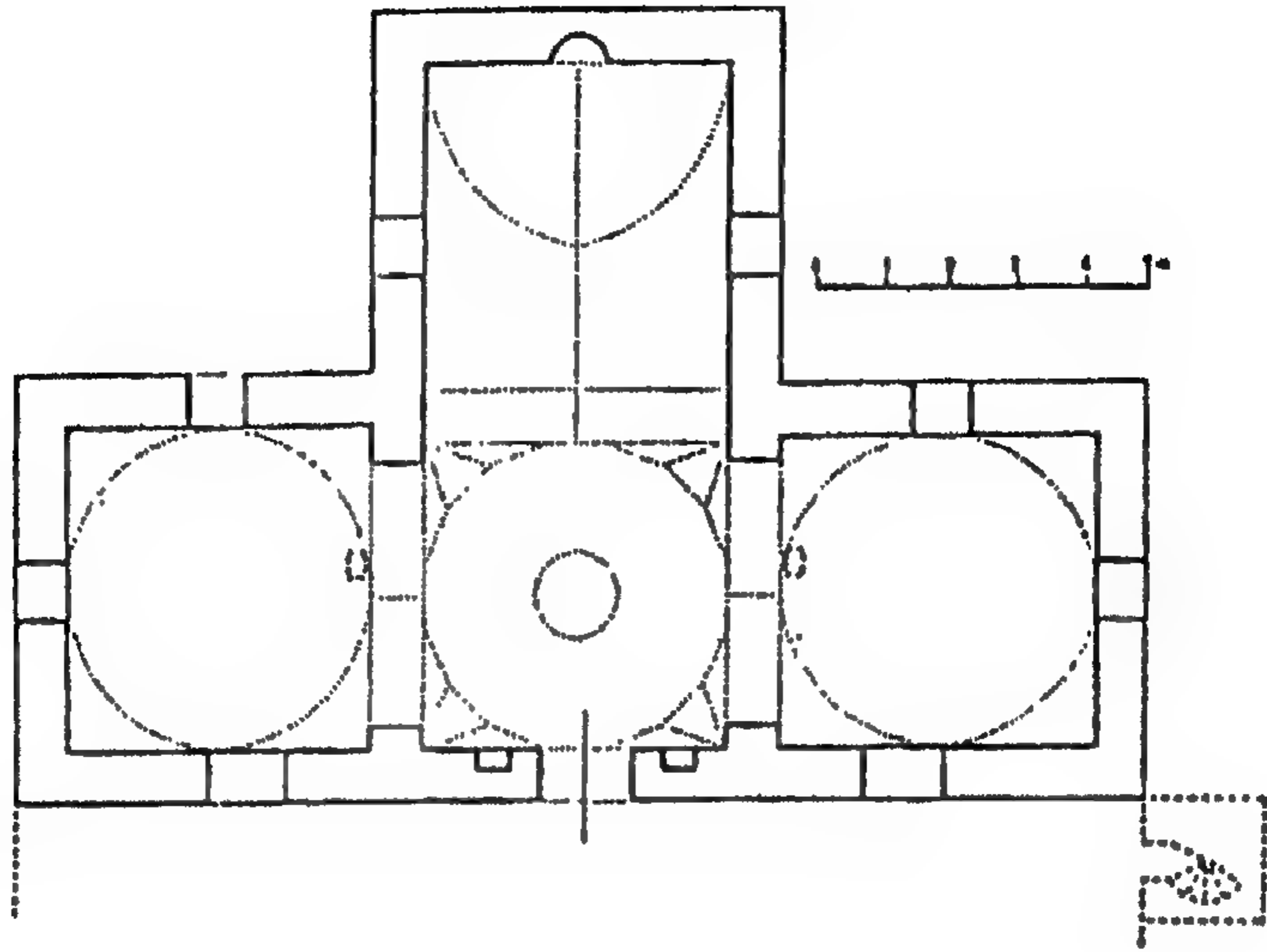
(شكل ٢٩١) مسقط أفقي لزاوية نيلوفر خاتون في ازنيق . (عن : Kuran).



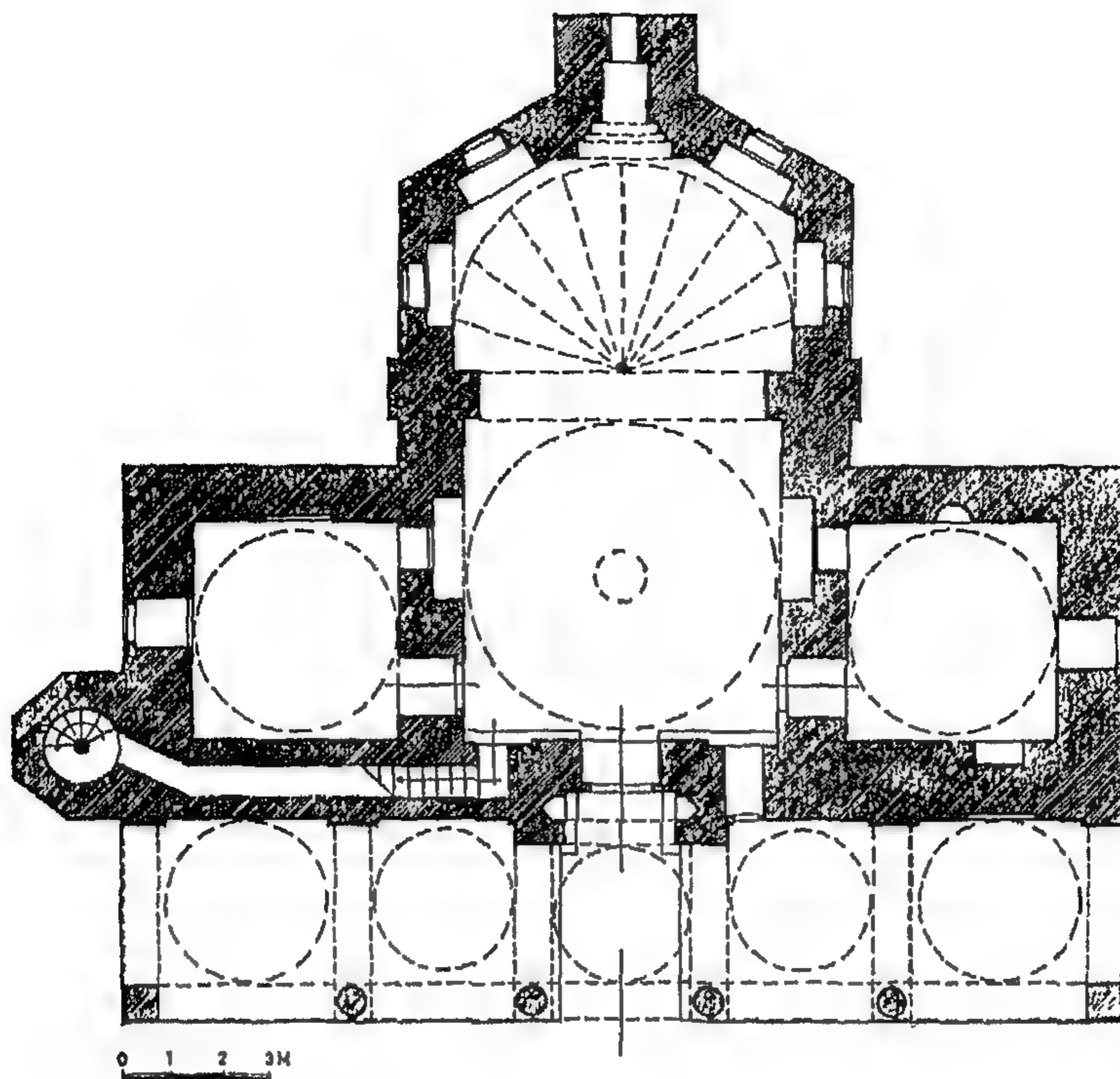
(شكل ٢٩٢) مسقط أفقي لعمارت وتربة يعقوب جلببي بازنيق
(عن : إيفردي) .



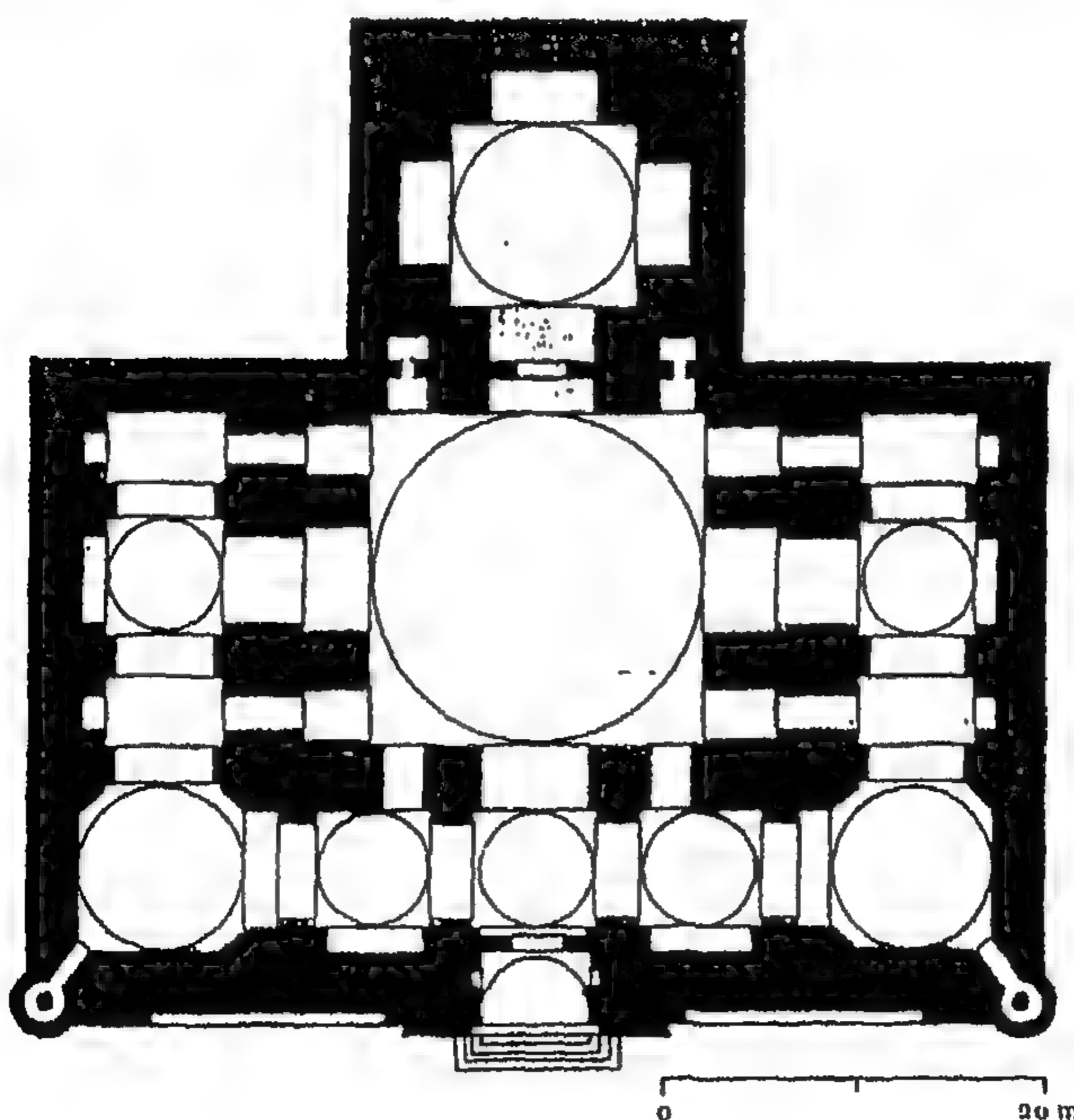
(شكل ٢٩٣) مسقط أفقي وقطاع لعمارت غازي أرنوس بك
 في كوموتيني باليونان (عن : Bakirtzis etxydas) .



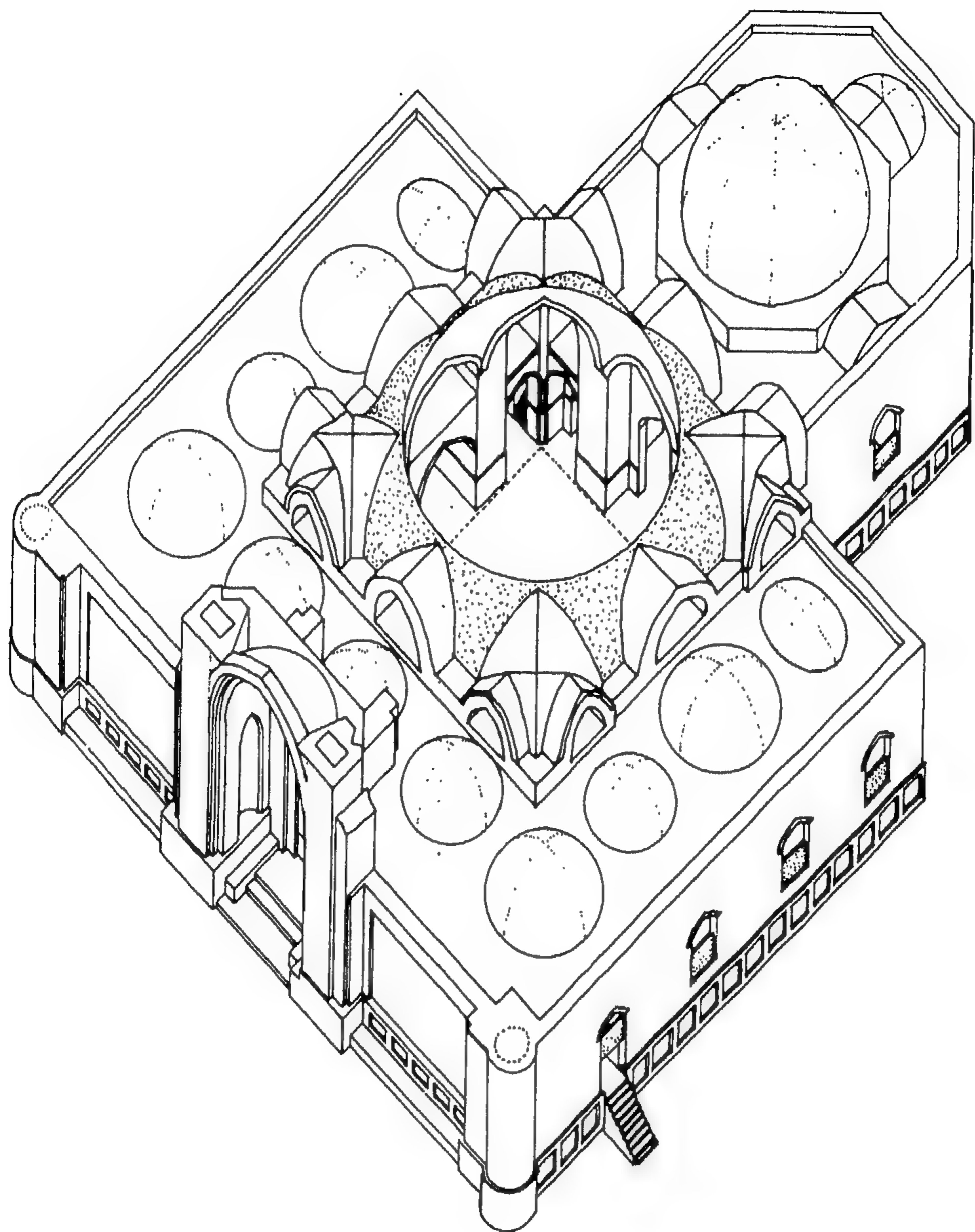
(شكل ٢٩٤) مسقط أفقي لعمارت ميخال أو غلو محمد بك
في اهتمام بيلغاريا (عن : كيل) .



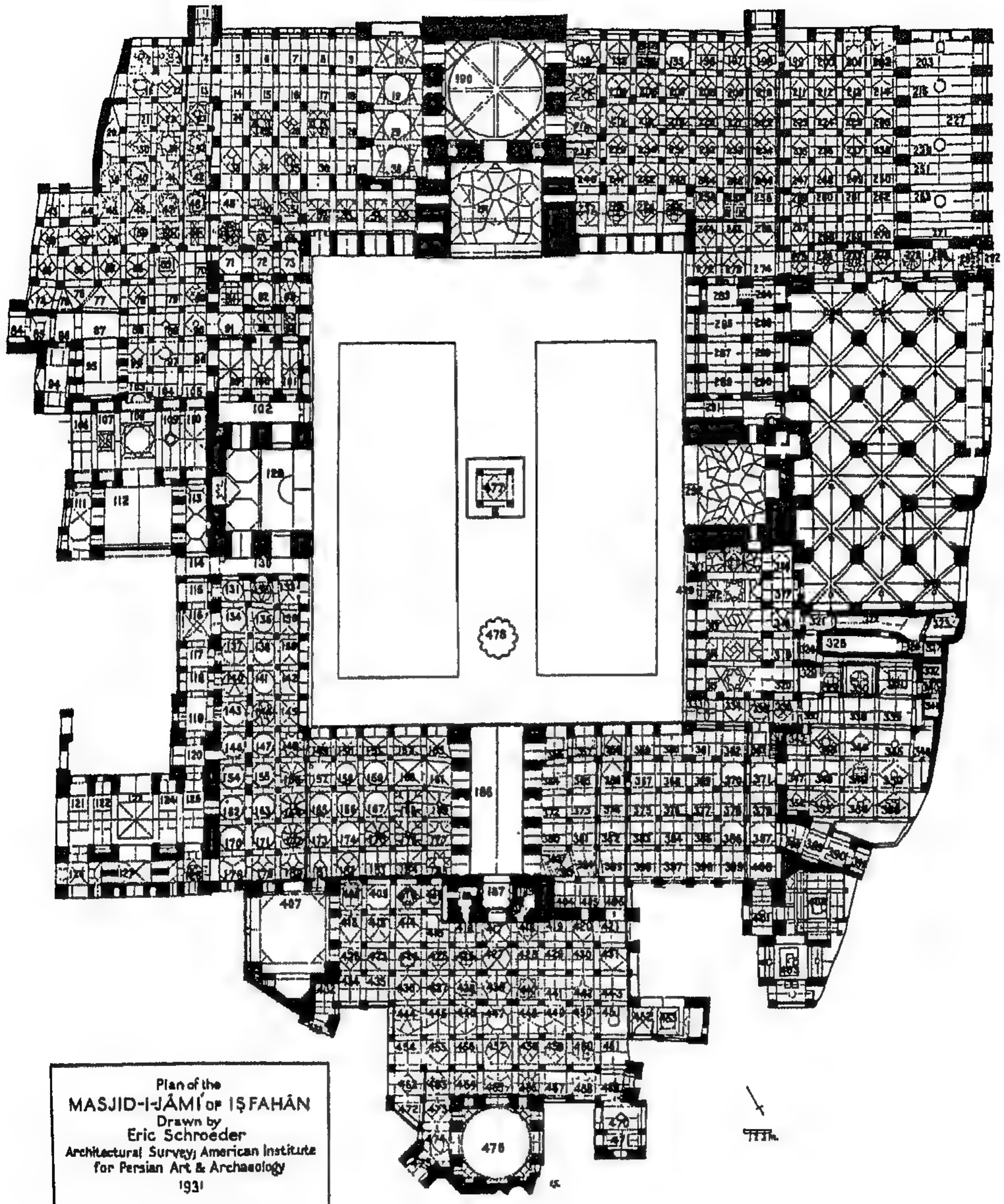
(شكل ٢٩٥) مسقط أفقي لمسجد يخشى بك في تيره. (عن : Aslanapa) .



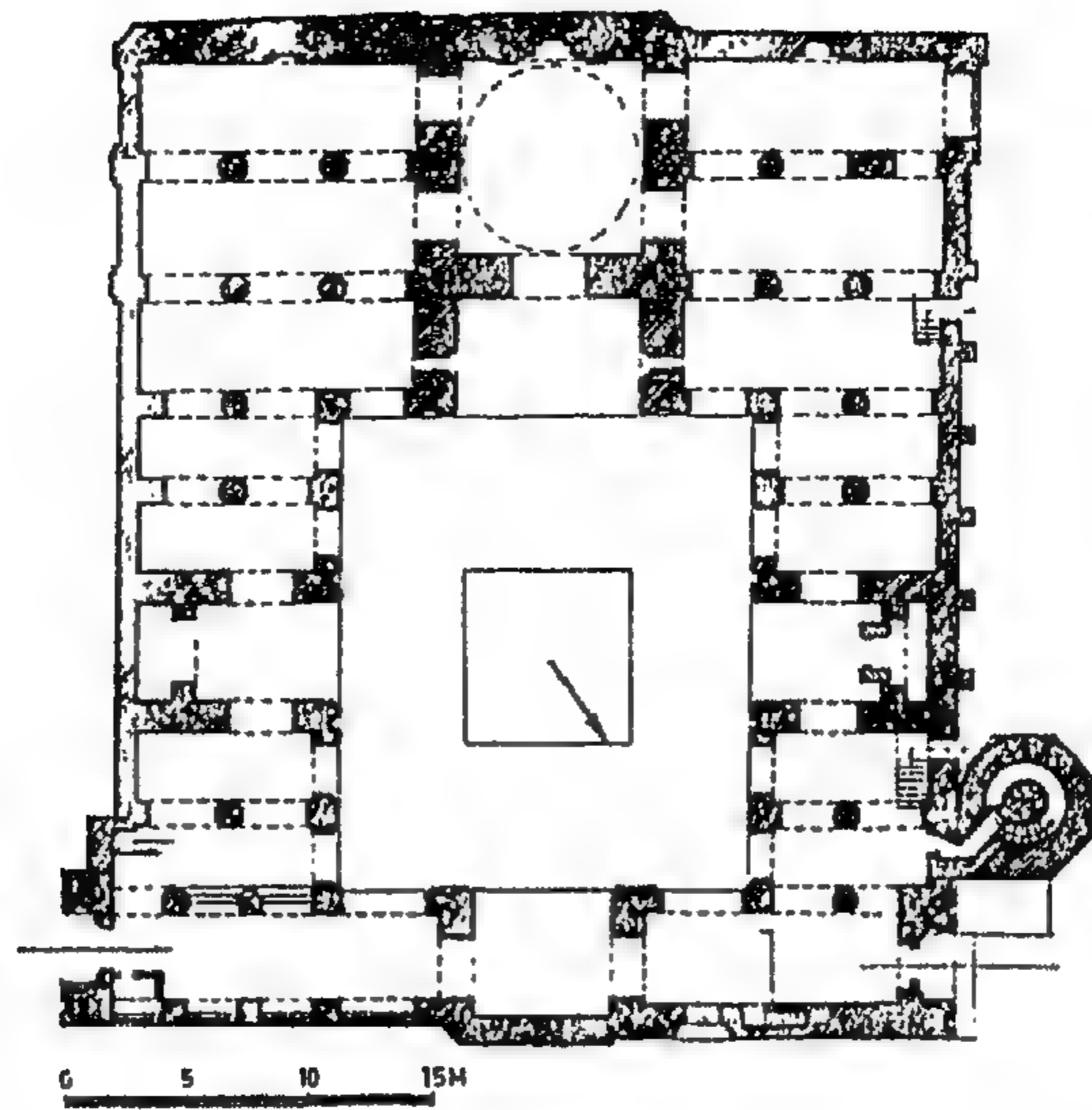
(شكل ٢٩٦) مسقط أفقي للجامع الأزرق في تبريز. (عن : Pope) .



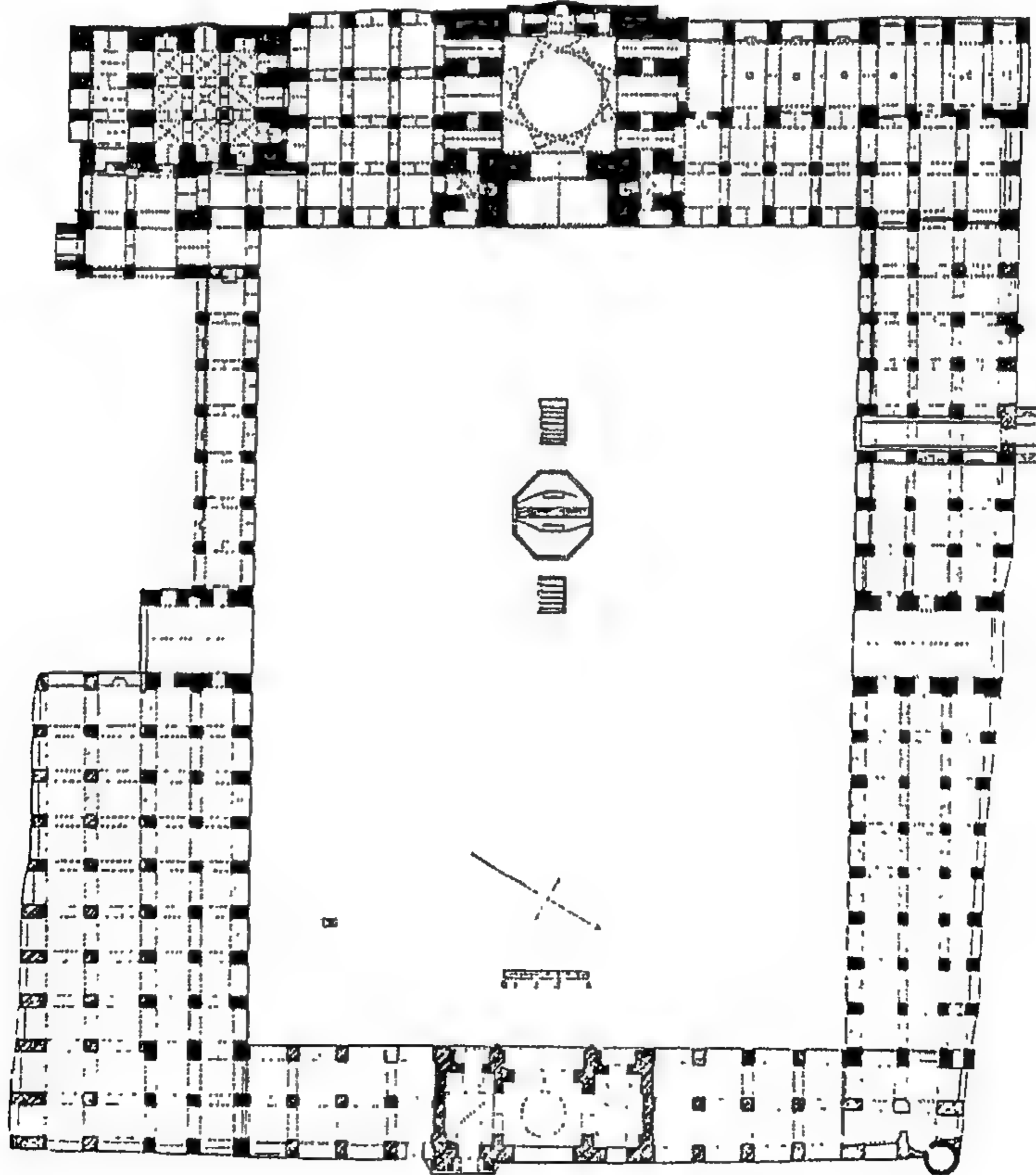
(شكل ٢٩٦ مكرر) الجامع الازرق في تبريز. (عن : هيلنبراند) .



(شكل ٢٩٧) مسقط أفقي للجامع الكبير بأصفهان - (عن : بوب) -

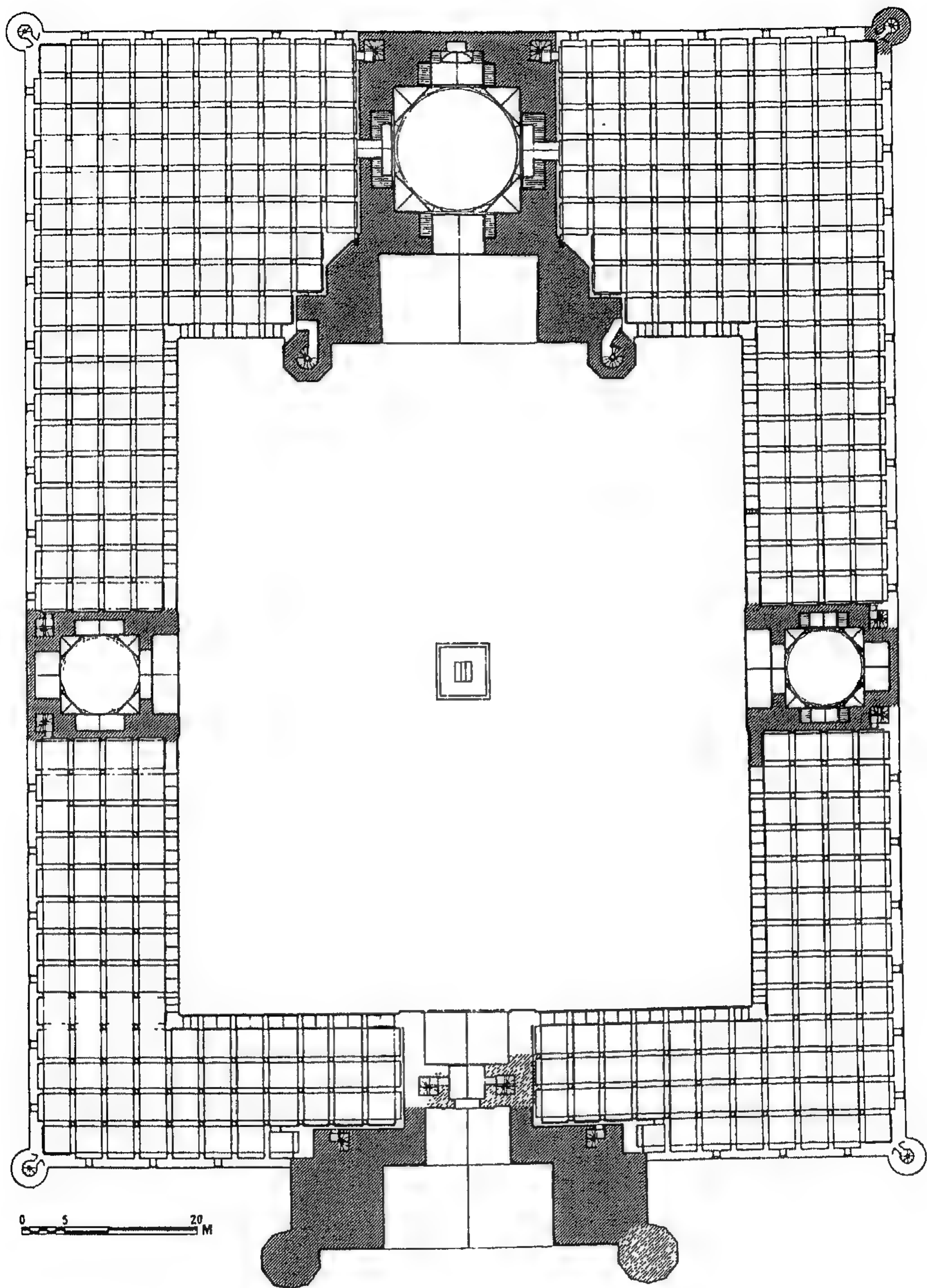


(شكل ٢٩٨) مسقط أفقي لجامع زواره . (عن : أصلان آبا) .

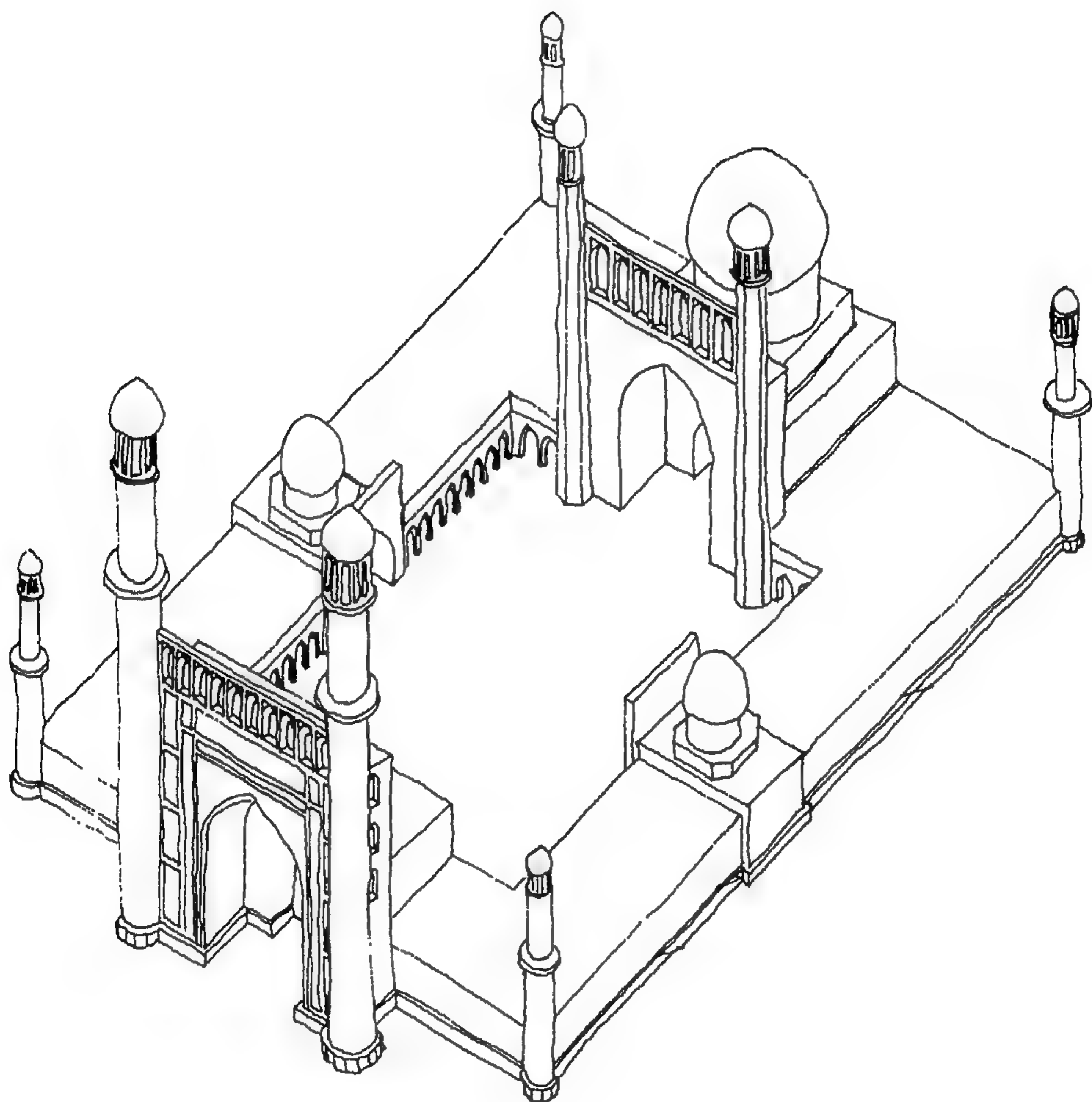


Drawn by Eric Schrueder.

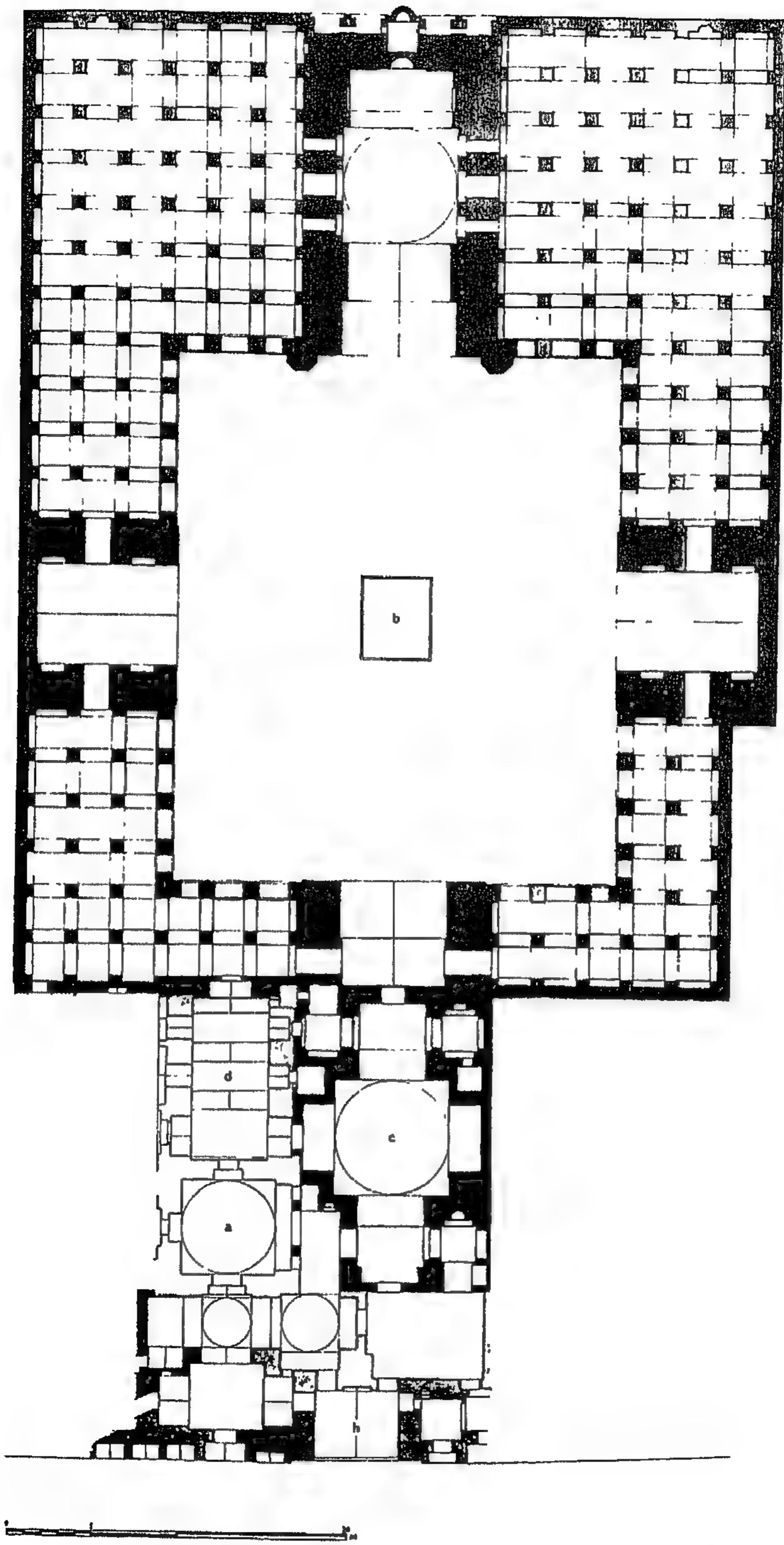
(شكل ٢٩٩) مسقط أفقي لمسجد ملك في كرمان . (عن : بوب) .



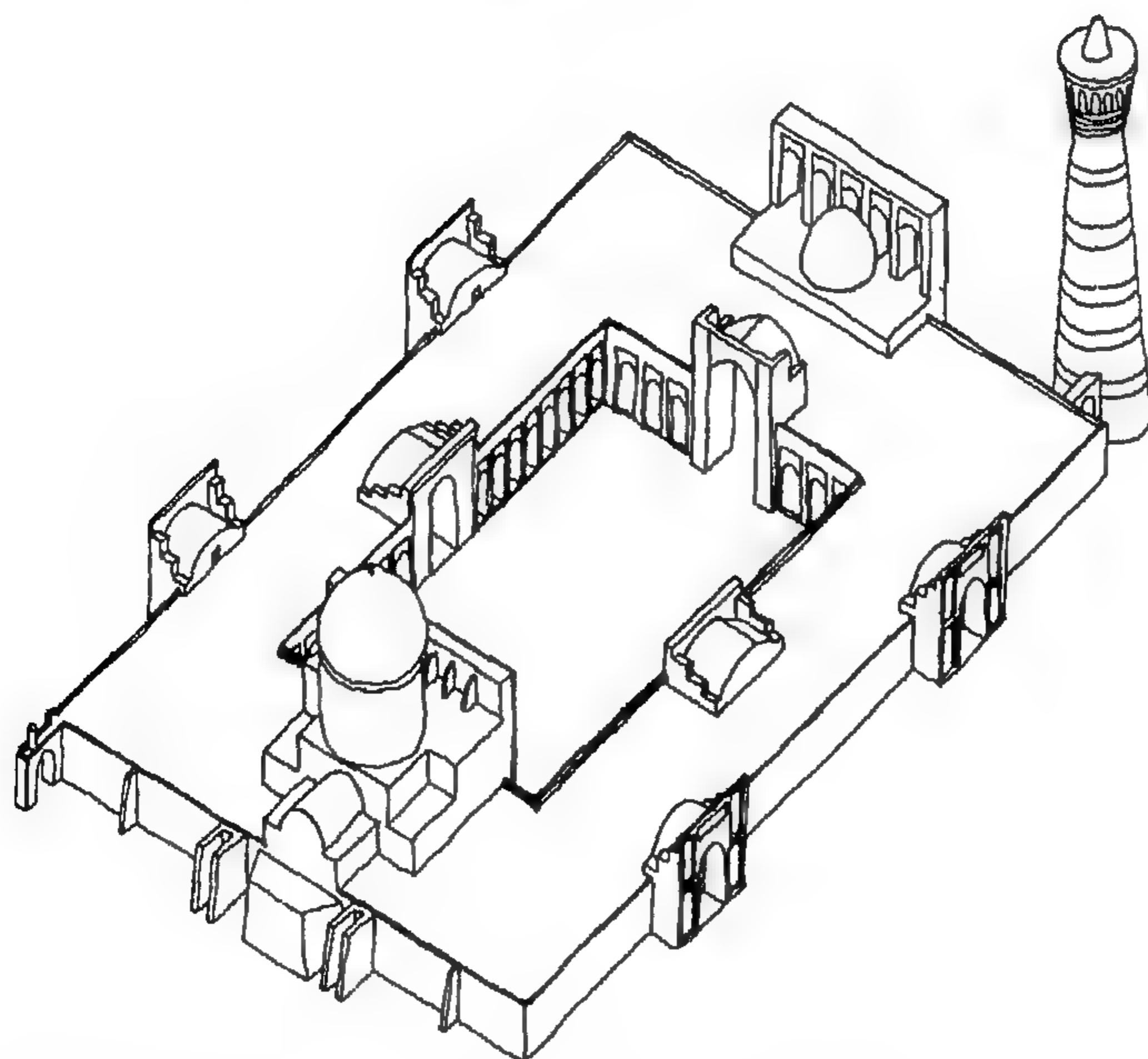
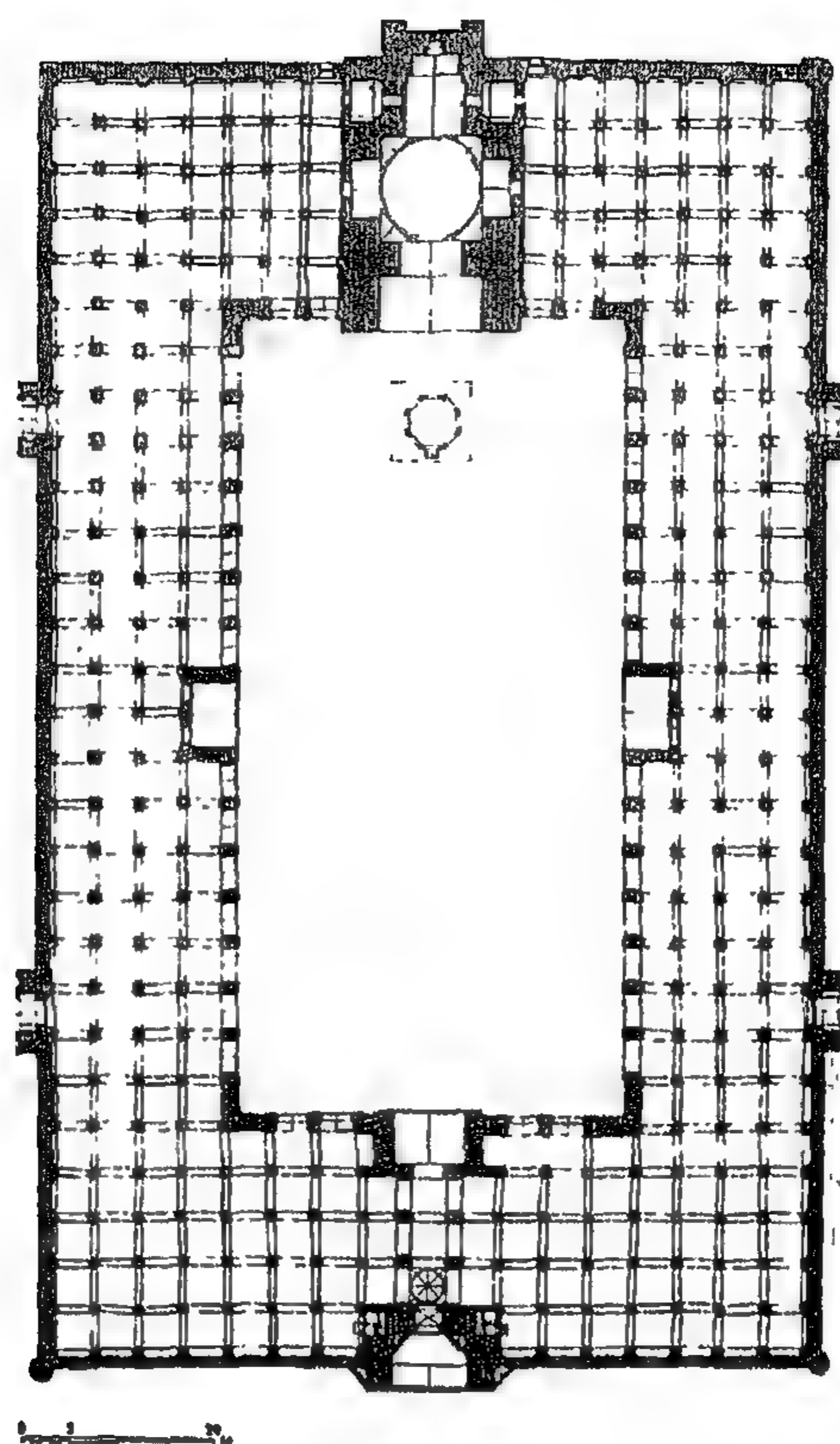
(شكل ٣٠٠) مسقط أفقي لمسجد بيبي خانم في سمرقند .
(عن ليذا جلومبك ودونالد ولبر) .



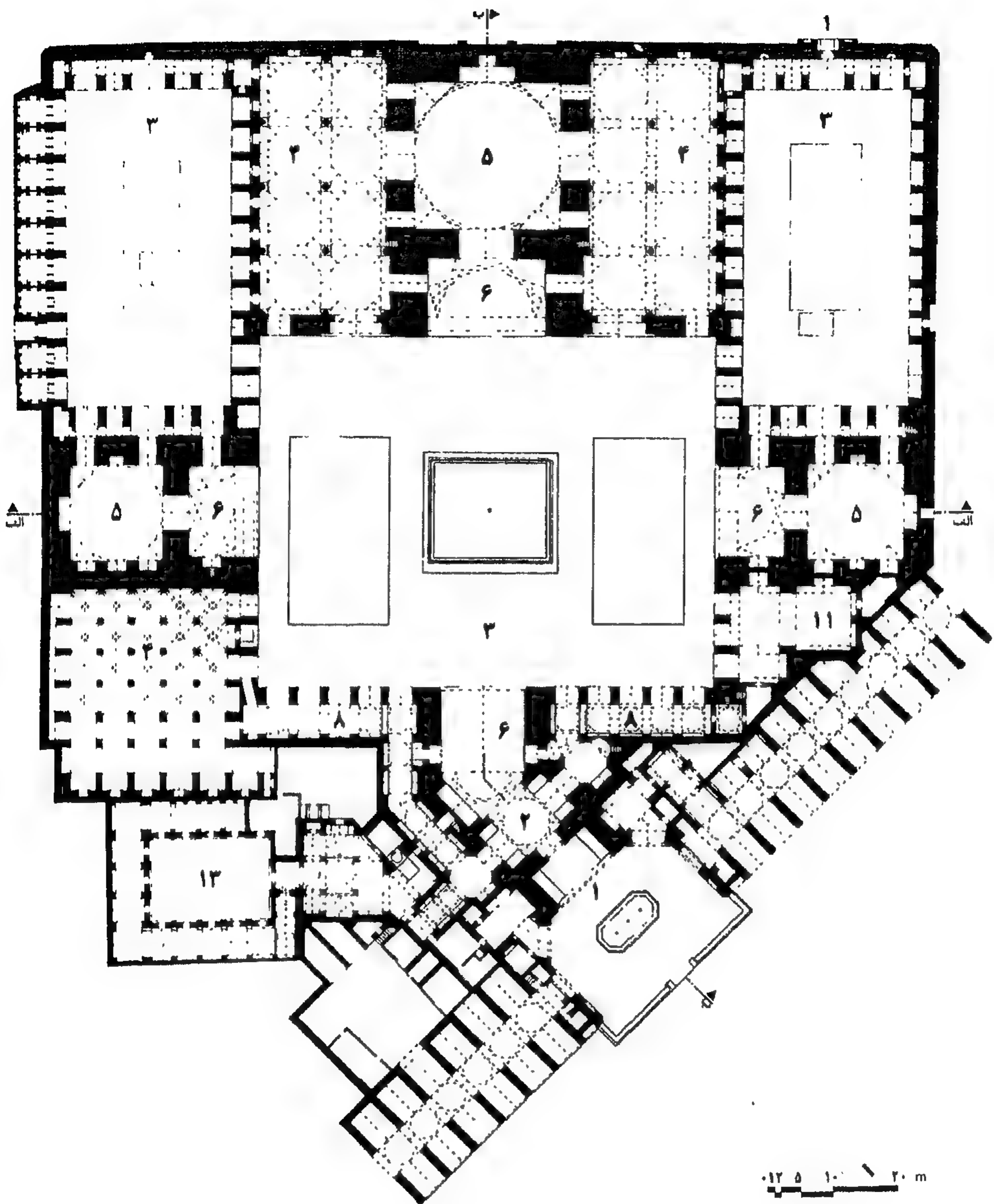
(شکل ۳۰۰ مکرر) مسجد بیبی خانم بسمرقند
 . (عن : هیلنبراند) .



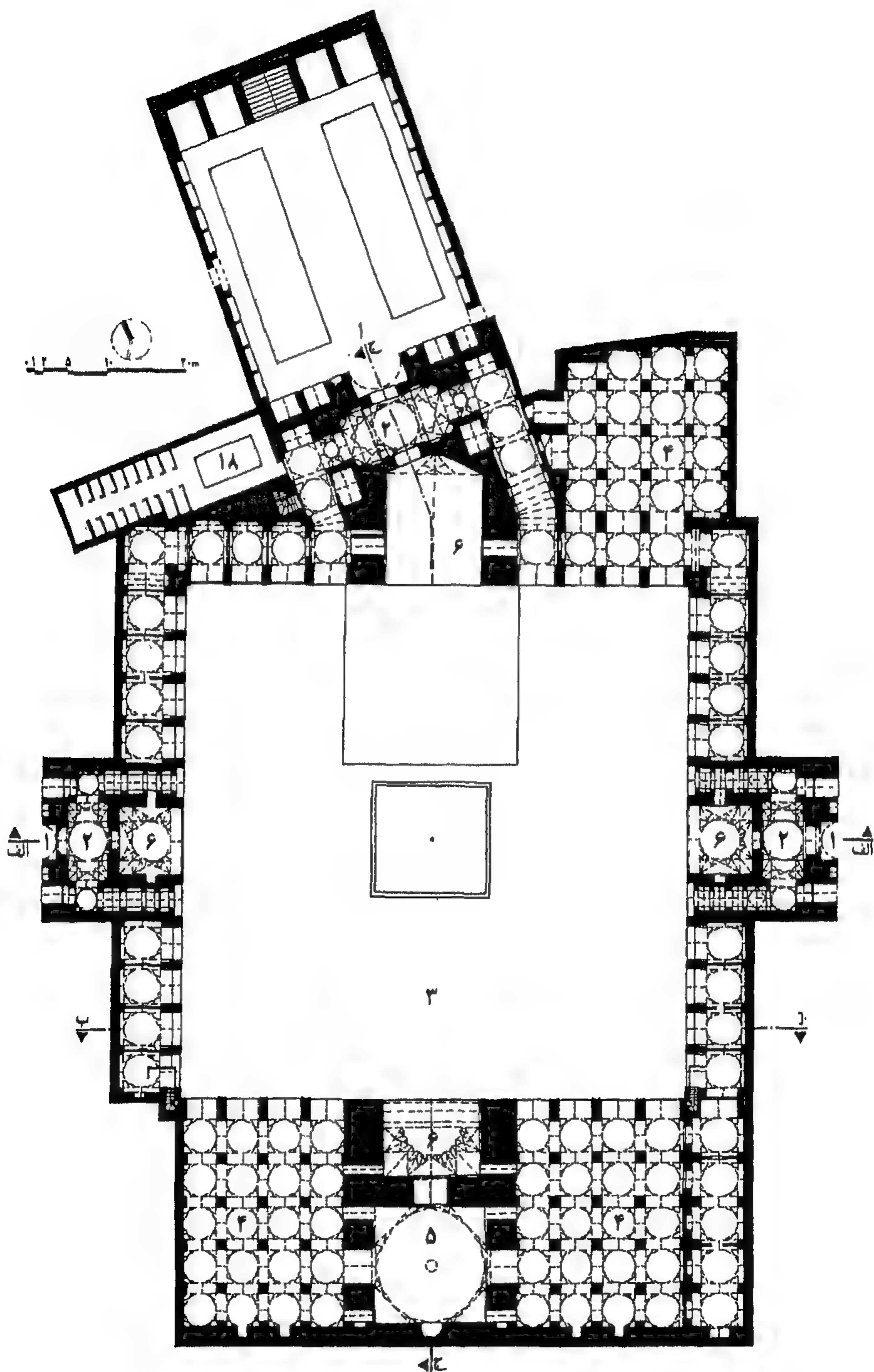
(شكل ٣٠١) مسقط أفقي لمسجد جواهر شاد بمشهد .
(عن : ليزا جلومبيك ودونالد ولبر) .



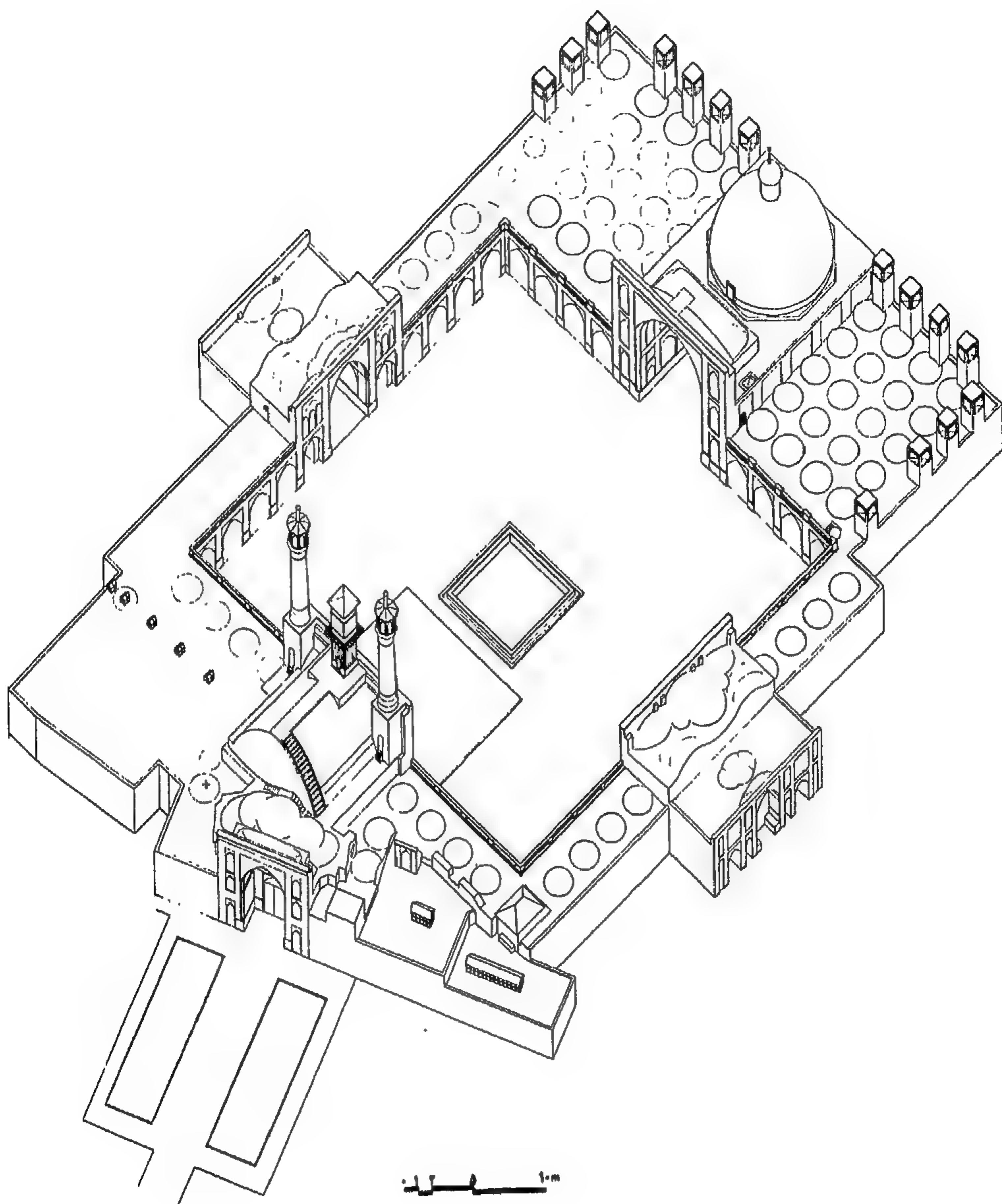
(شكل ٣٠٢) مسجد كالان الجامع ببخاري . (اعلي) عن : ليذا جلومبك
ودونالد ولبر ، (أسفل) عن : هيلنبراند .



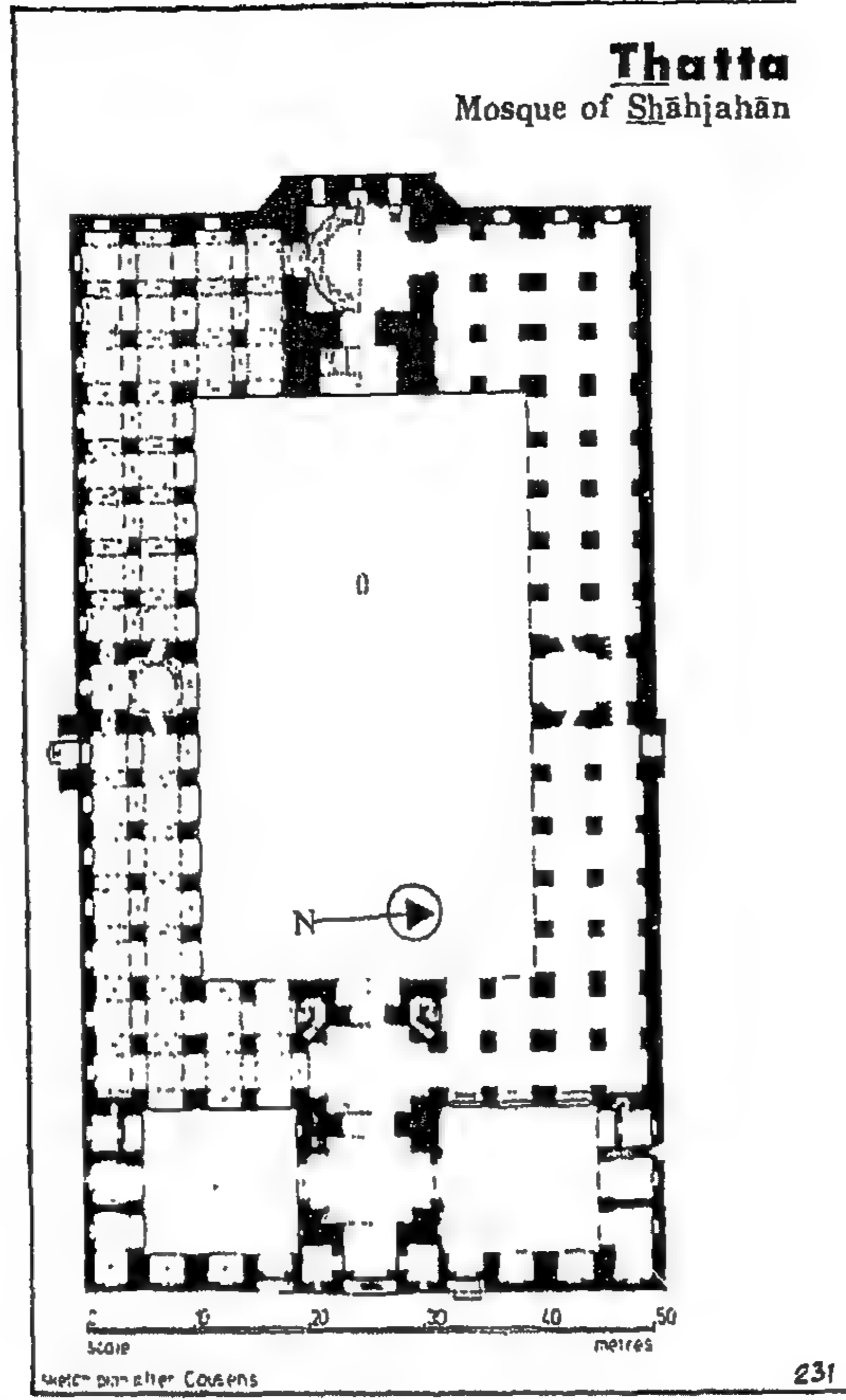
(شكل ٣٠٣) مسقط أفقي لمسجد الشاه (الإمام) بأصفهان : (عن : كنزنامه) .



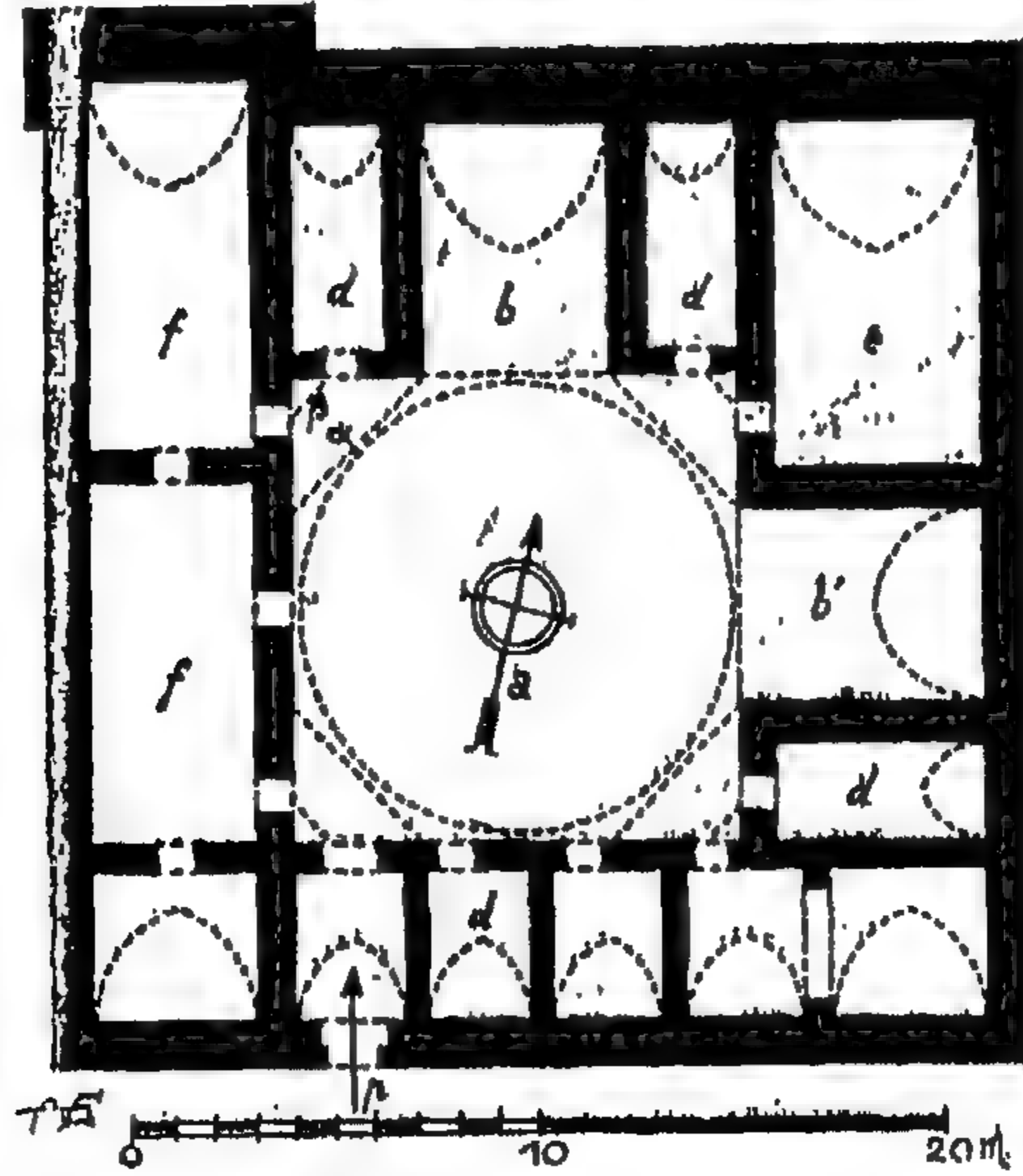
(شکل ۳۰۴) مسقط افقی لمسجد امام تهران . (عن : کنجنامه) .



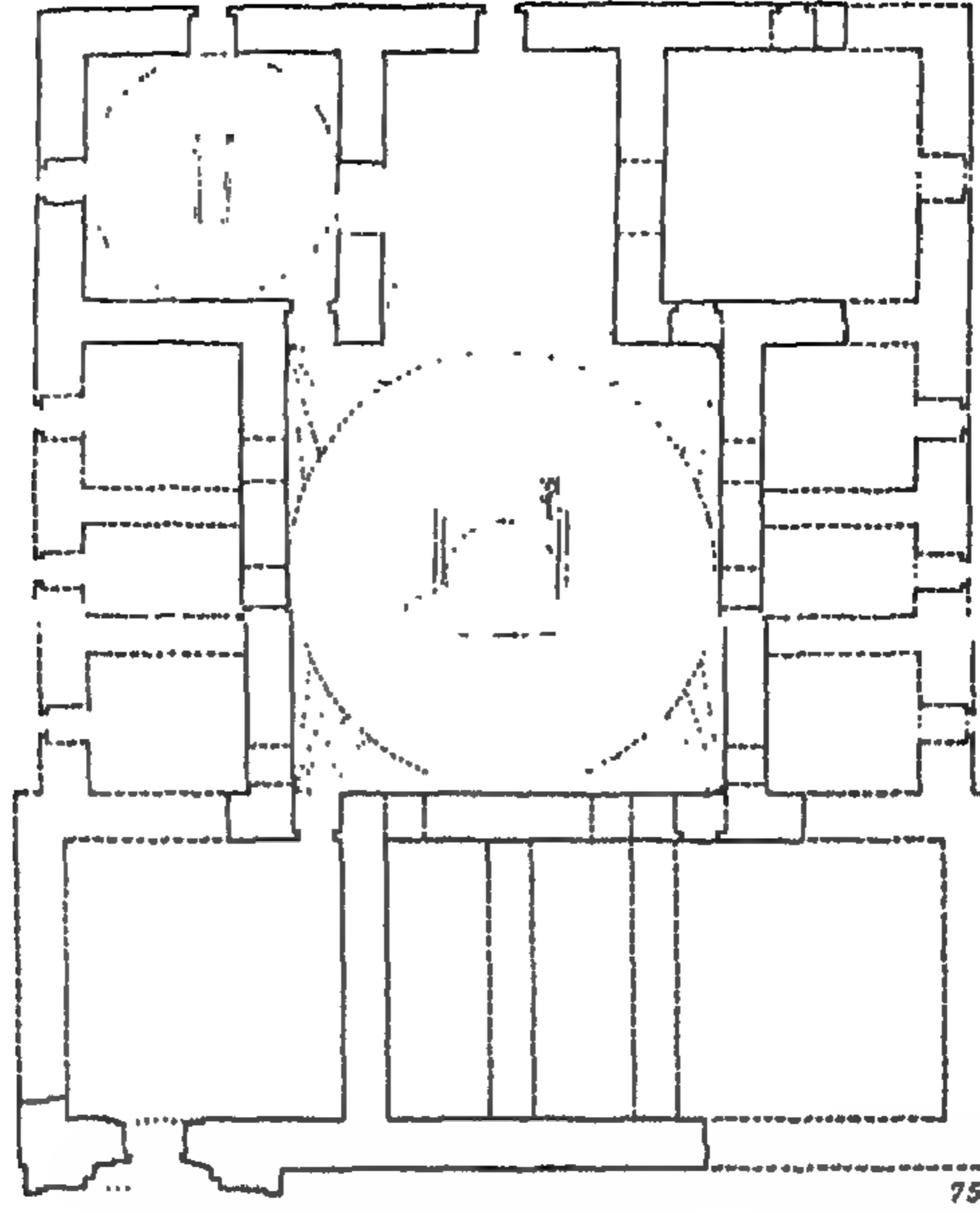
(شکل ۳۰۵) مسجد امام بتهران (عن : کنجنامه) .



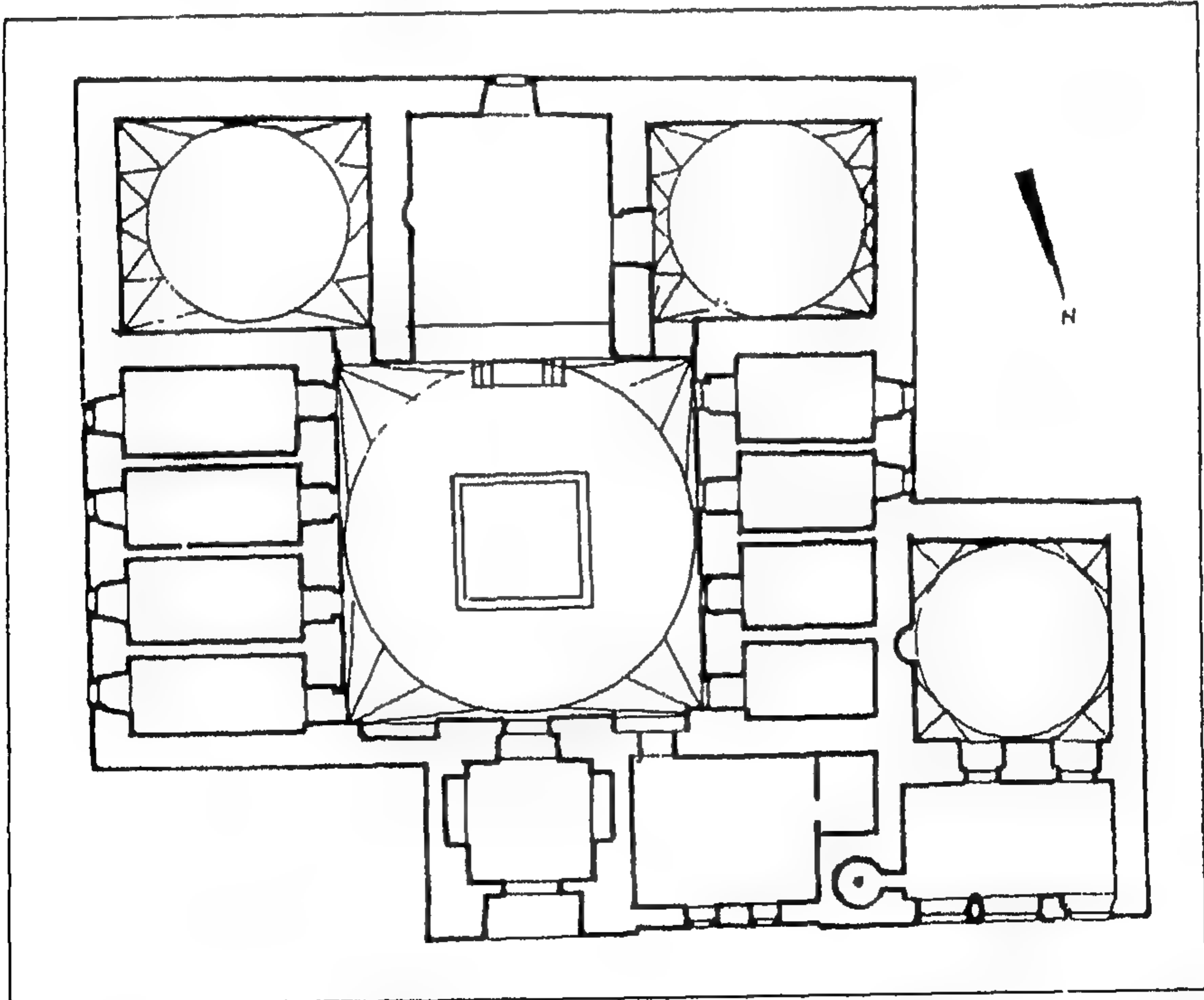
(شكل ٣٠٦) مسقط أفقي لمسجد شاه جهان في تهتا (باكستان) ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م .



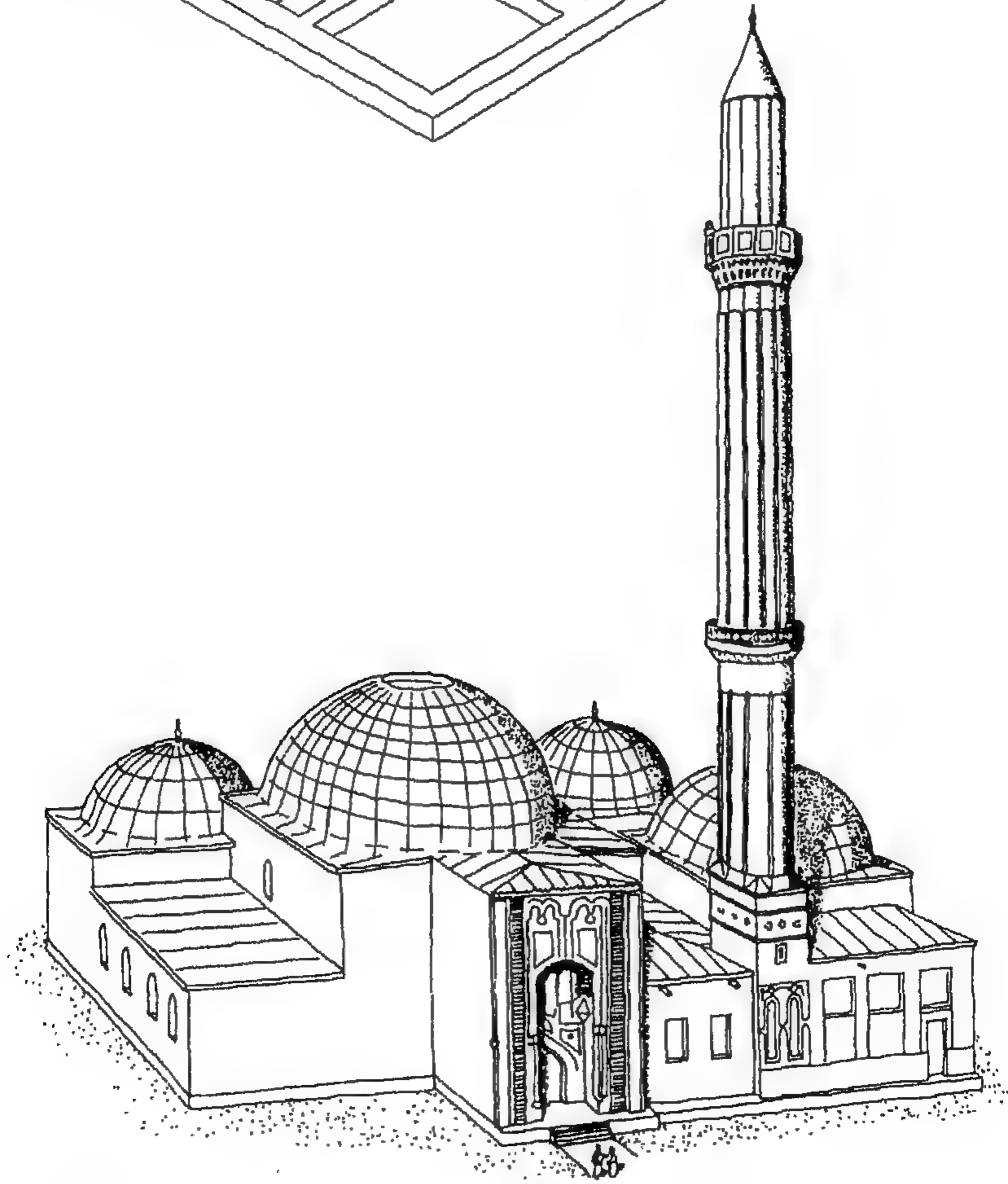
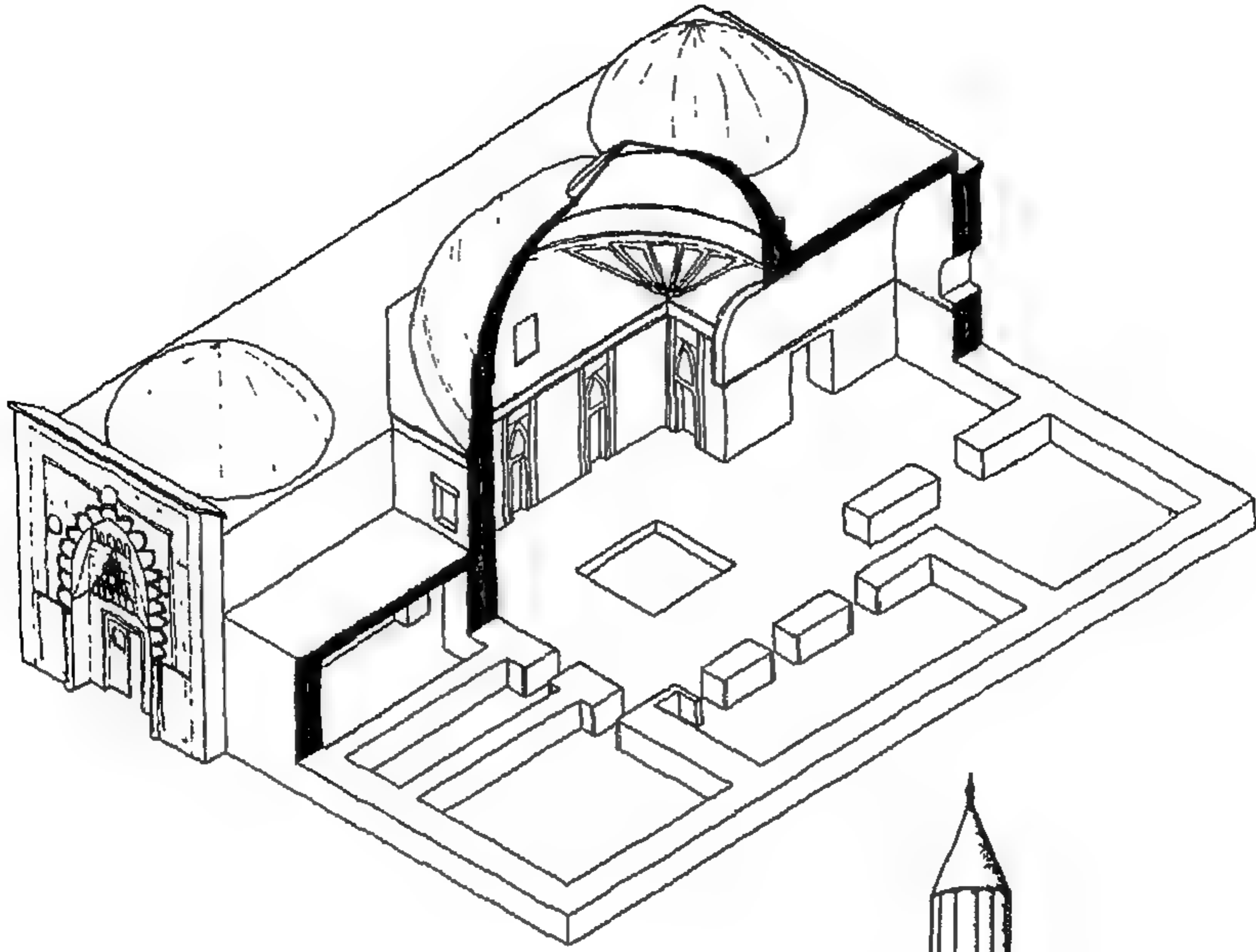
(شكل ٣٠٧) مسقط أفقي لمدرسة ياغي باسان في نكسار . (عن : جابرييل) .



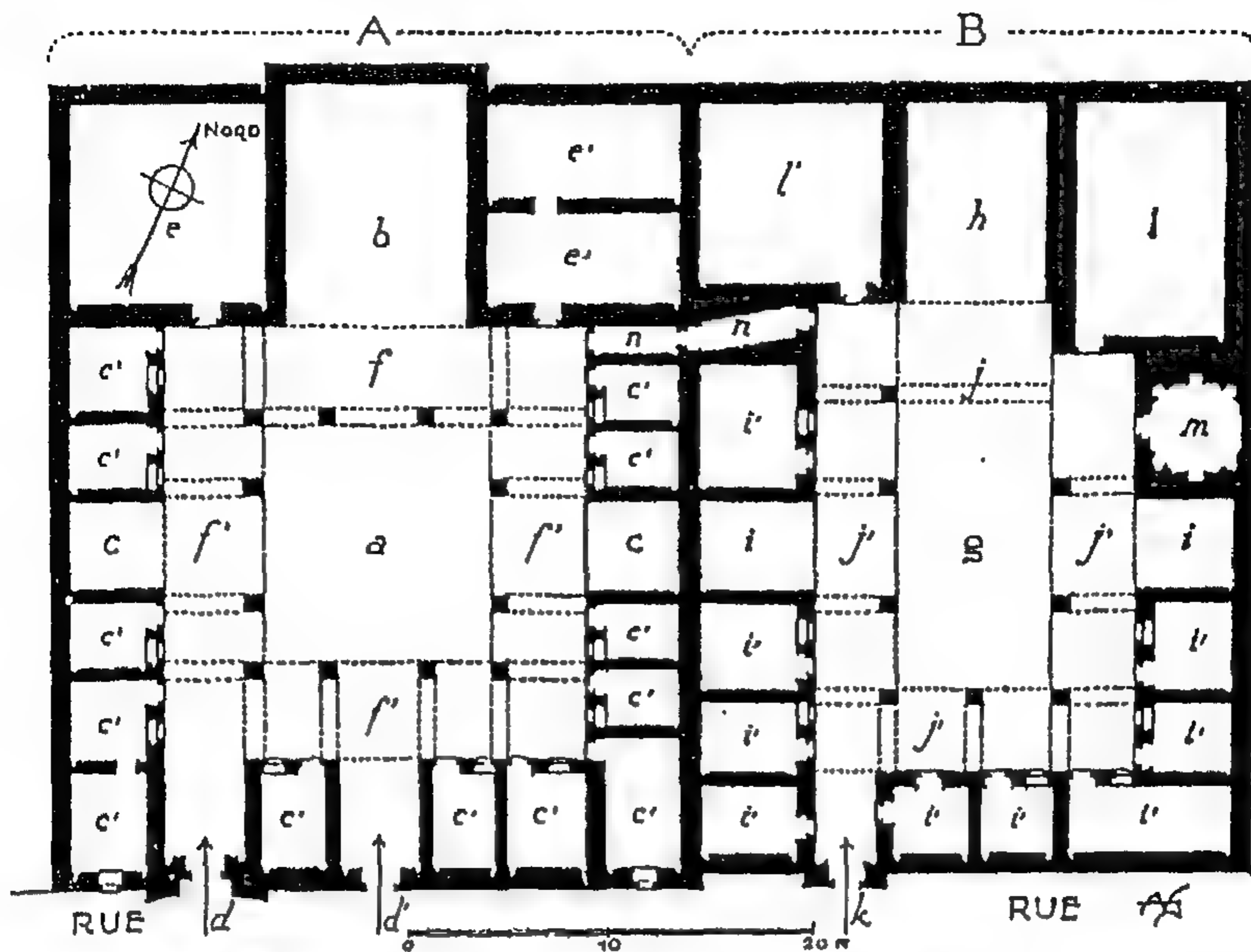
(شكل ٣٠٨) مسقط أفقي لمدرسة قره طای في قونية ٦٤٩هـ / ١٢٥١م.



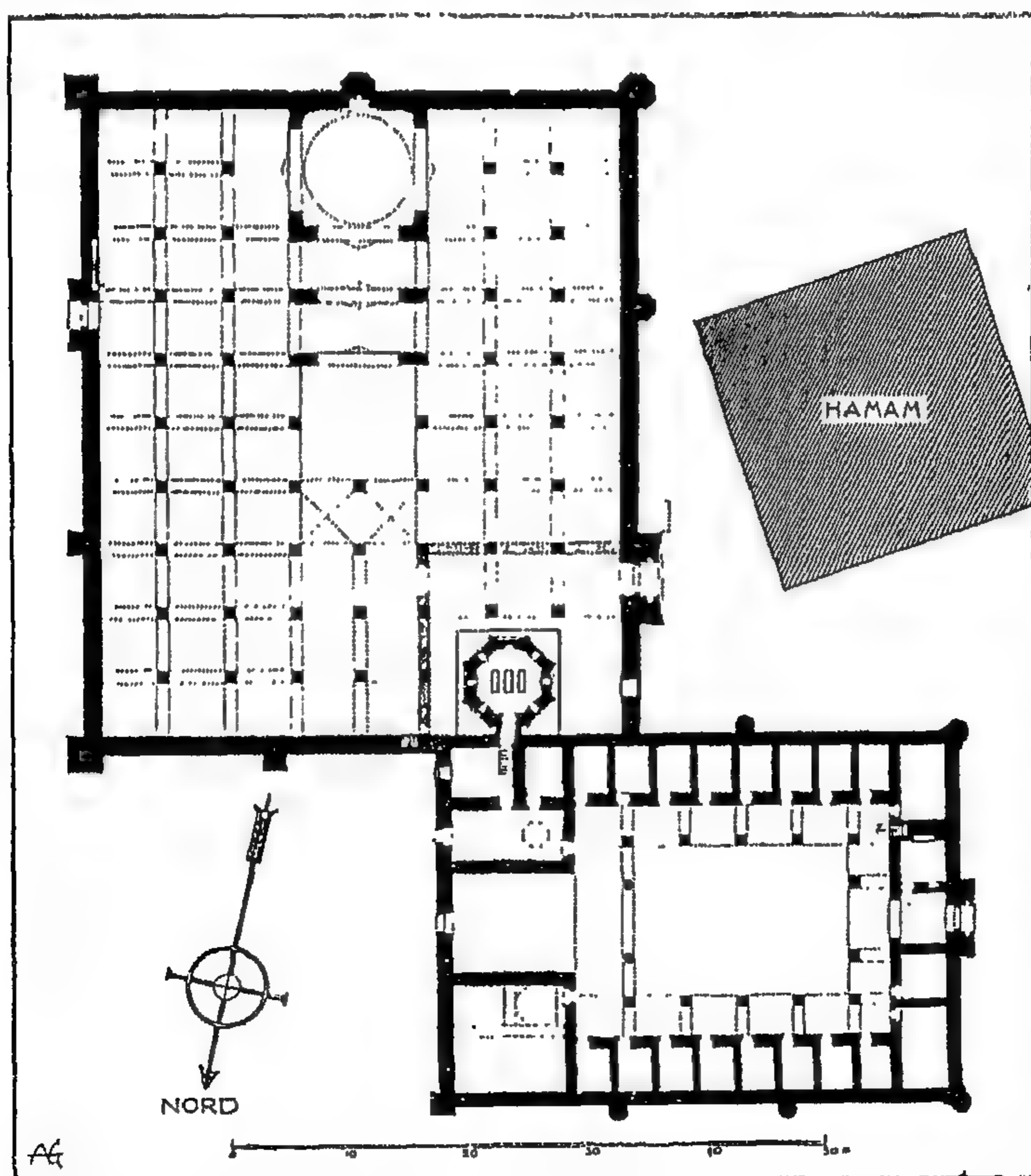
(شكل ٣٠٩) مسقط أفقي لمدرسة انجه مناره لي في قونية (الوزير صاحب عطا)
٦٥٩هـ / ١٢٦١م : مسقط أفقي .



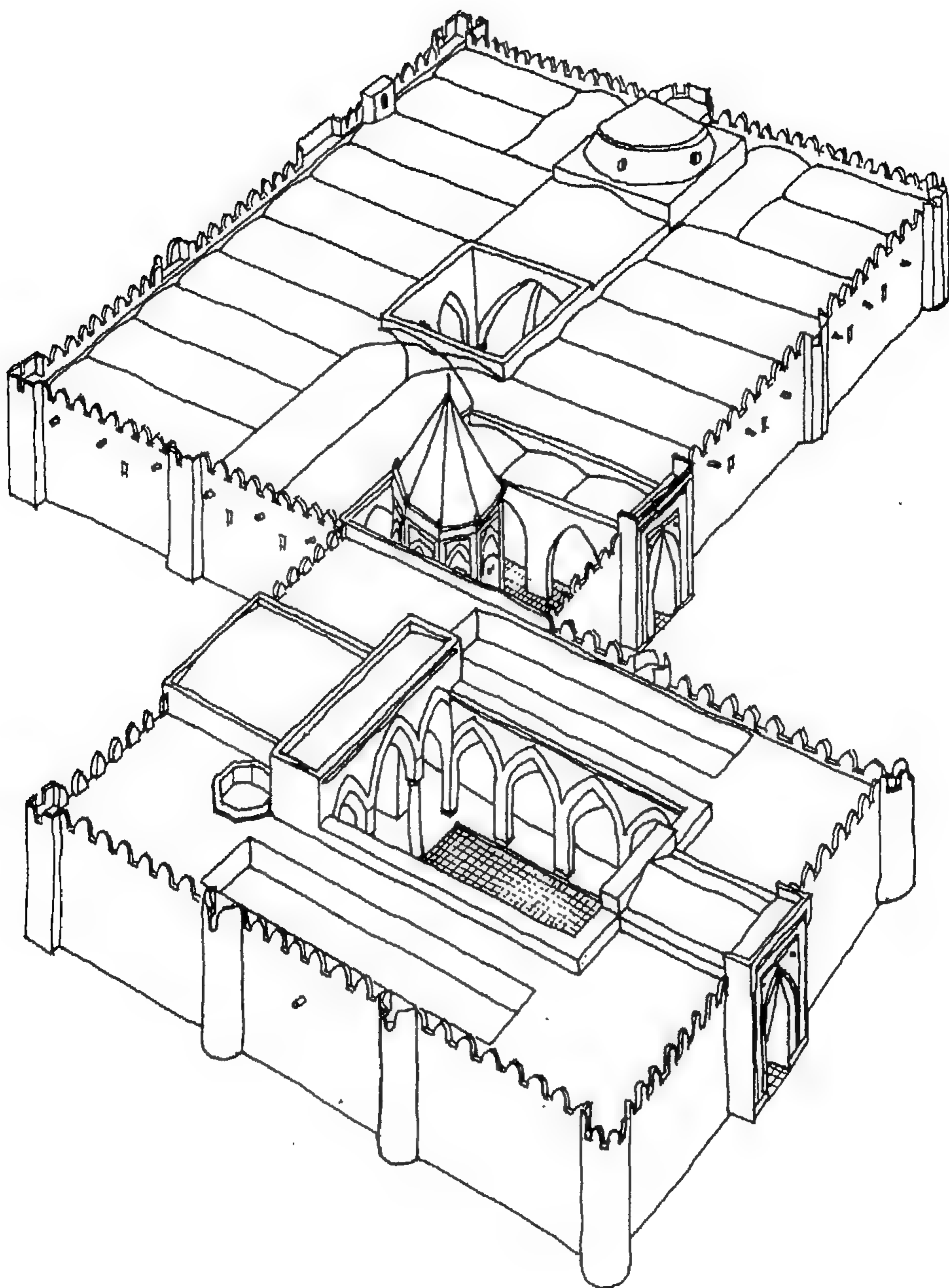
(شكل ٣١٠) مدرسة قره طاي (أعلي) وانجه مناره لي (اسفل) في قونية .
(عن : هيلنبراند) .



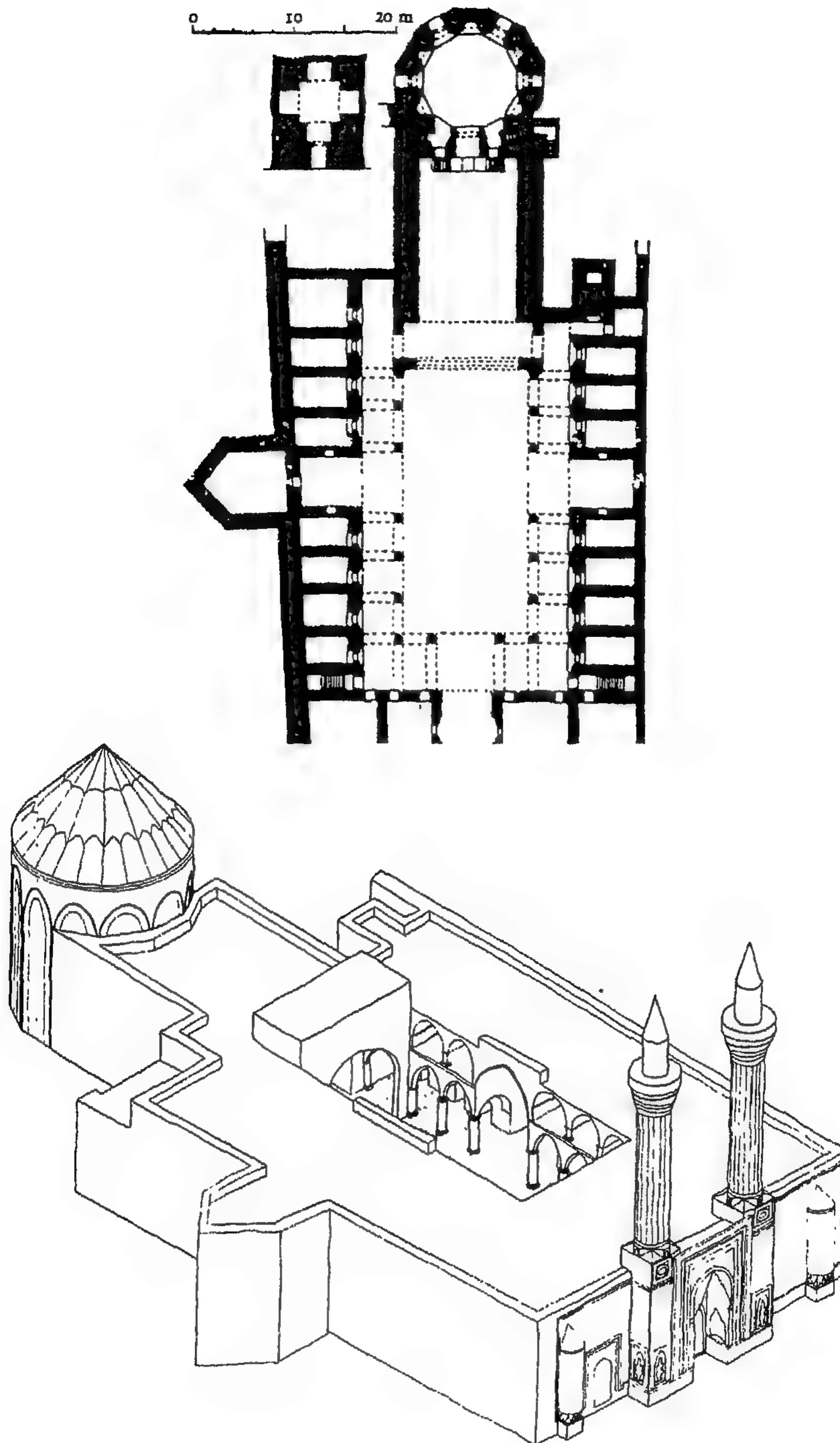
(شكل ٣١١) مسقط أفقي لمدرسة جفته في قيسرية ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م.



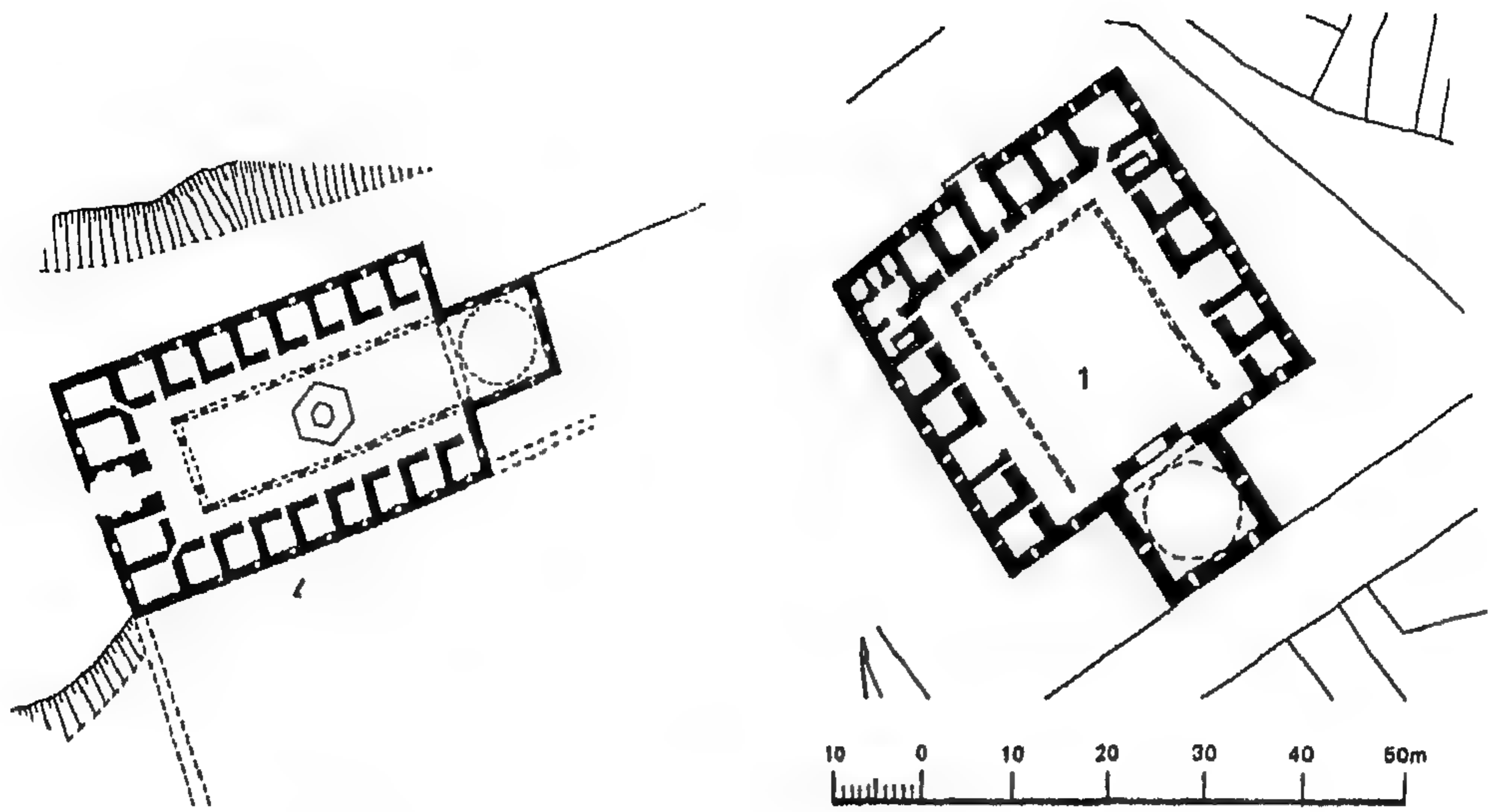
(شكل ٣١٢) مسقط أفقي لمجمع (كلية) خواند خاتون في قيسرية ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م.



(شكل ٣١٢ مكرر) مجمع خواند خاتون في قيصرية . (عن : هيلنبراند) .

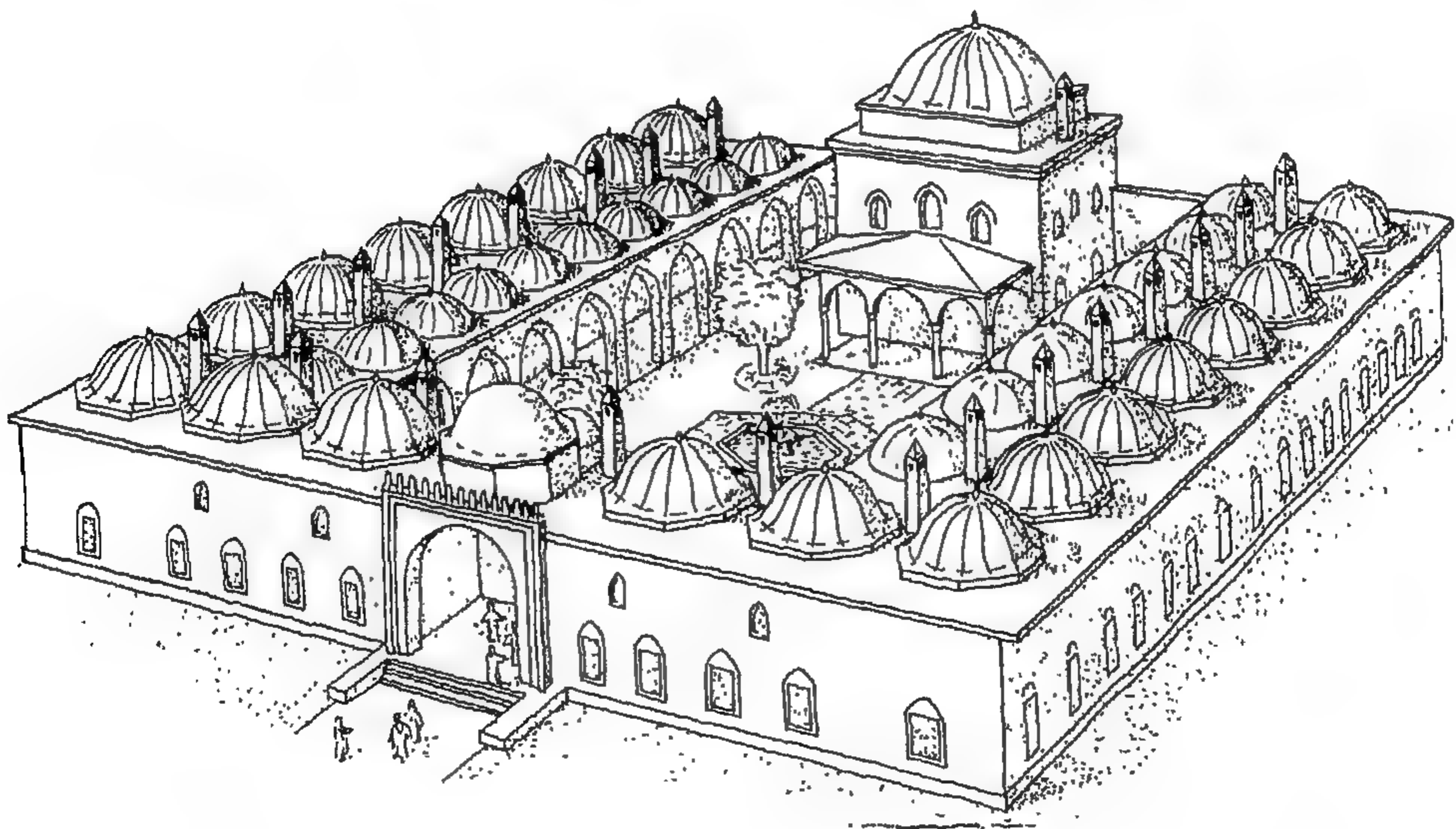


(شكل ٣١٣) المدرسة الخاتونية (جفتة مناره) بأرضروم (أعلى) مسقط أفقي (أسفل)
(عن : هيلنبراند) .

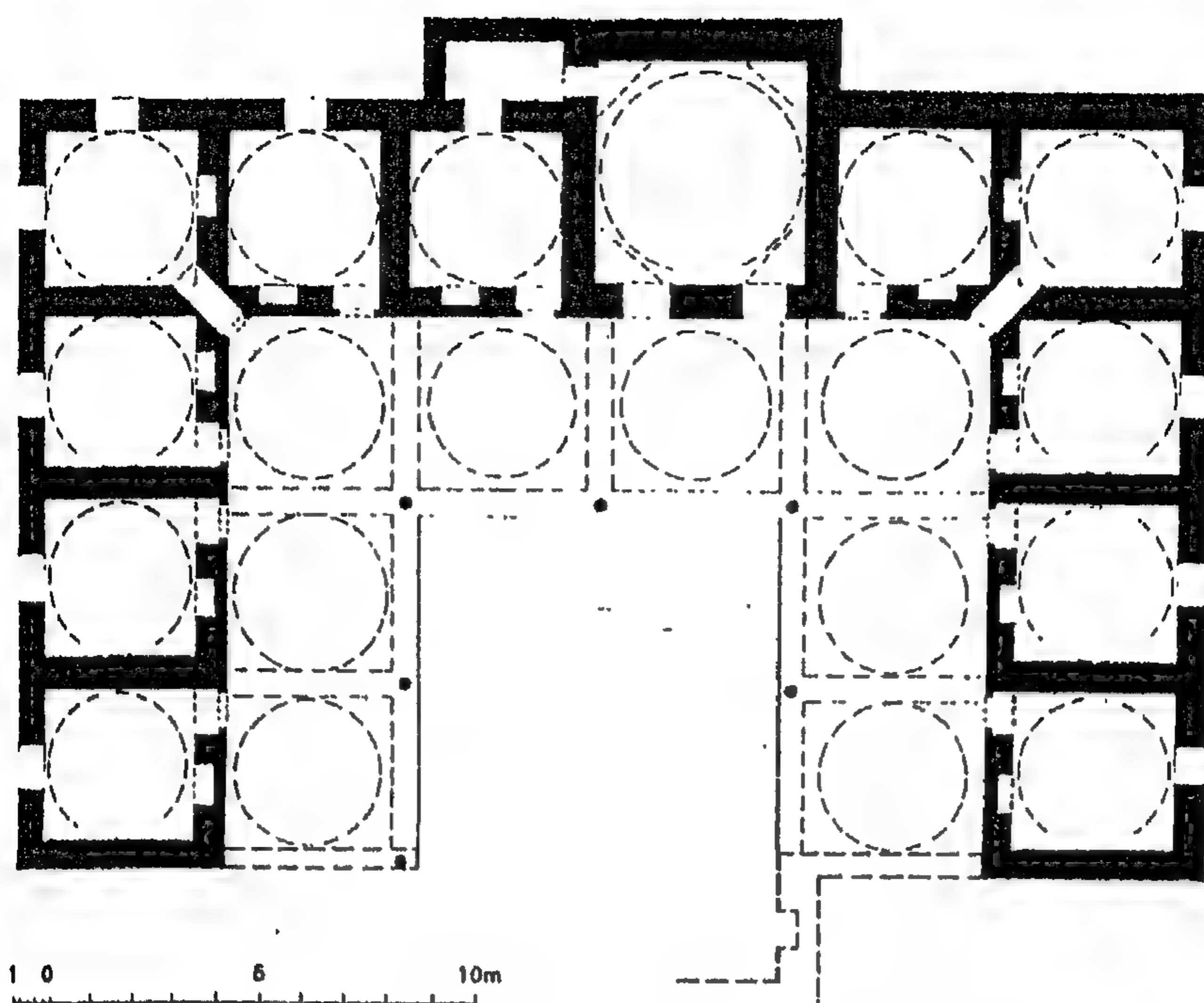


(شكل ٣١٥) مسقط أفقي لمدرسة بايزيد
يلدريم ضمن مجمعه في بورصة (أوبروسة)
(عن Goodwin).

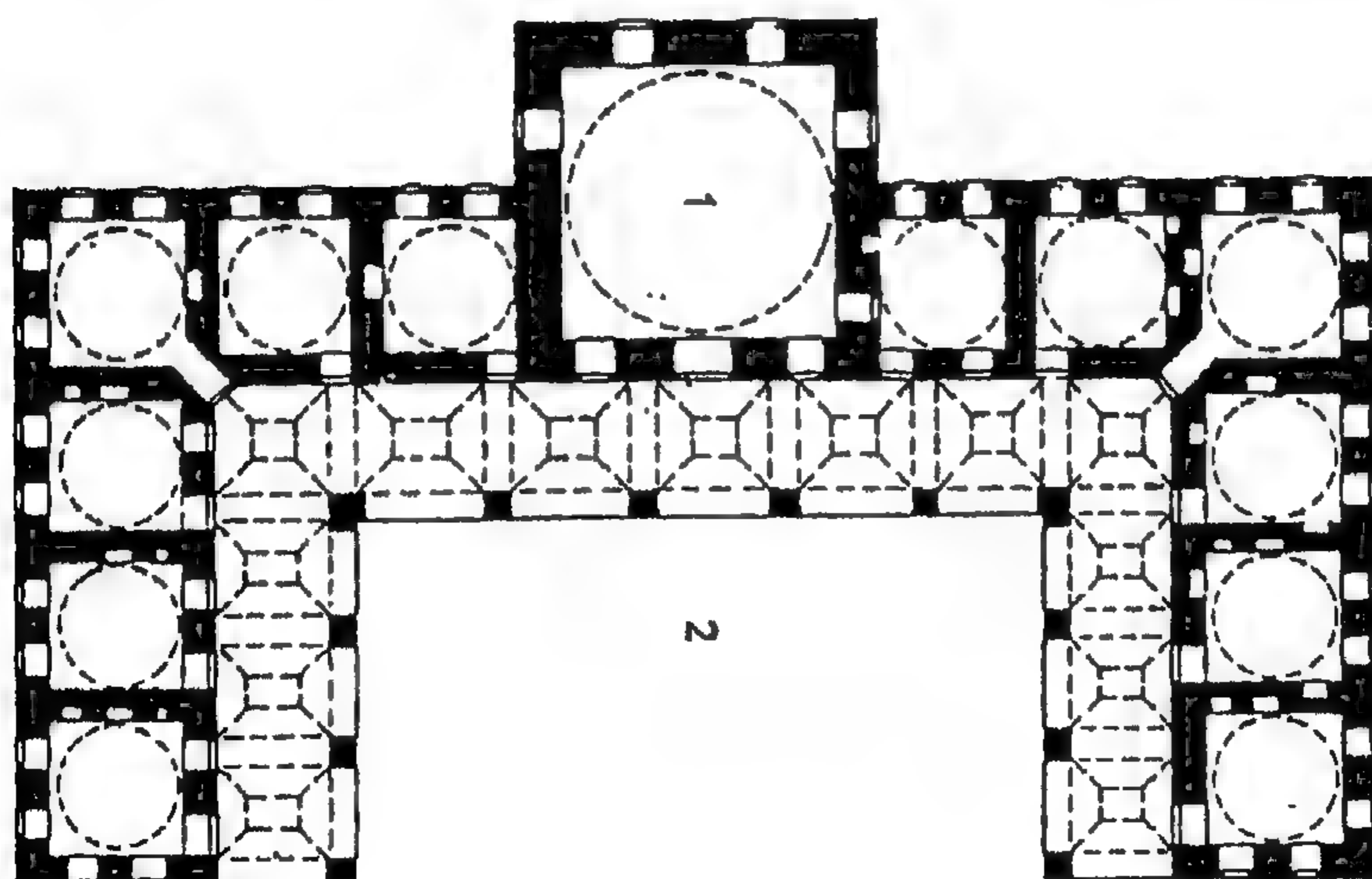
(شكل ٣١٤) مسقط أفقي للمدرسة ضمن
المجموعة الخضراء في بورصة (أوبروسة)
(عن Goodwin).



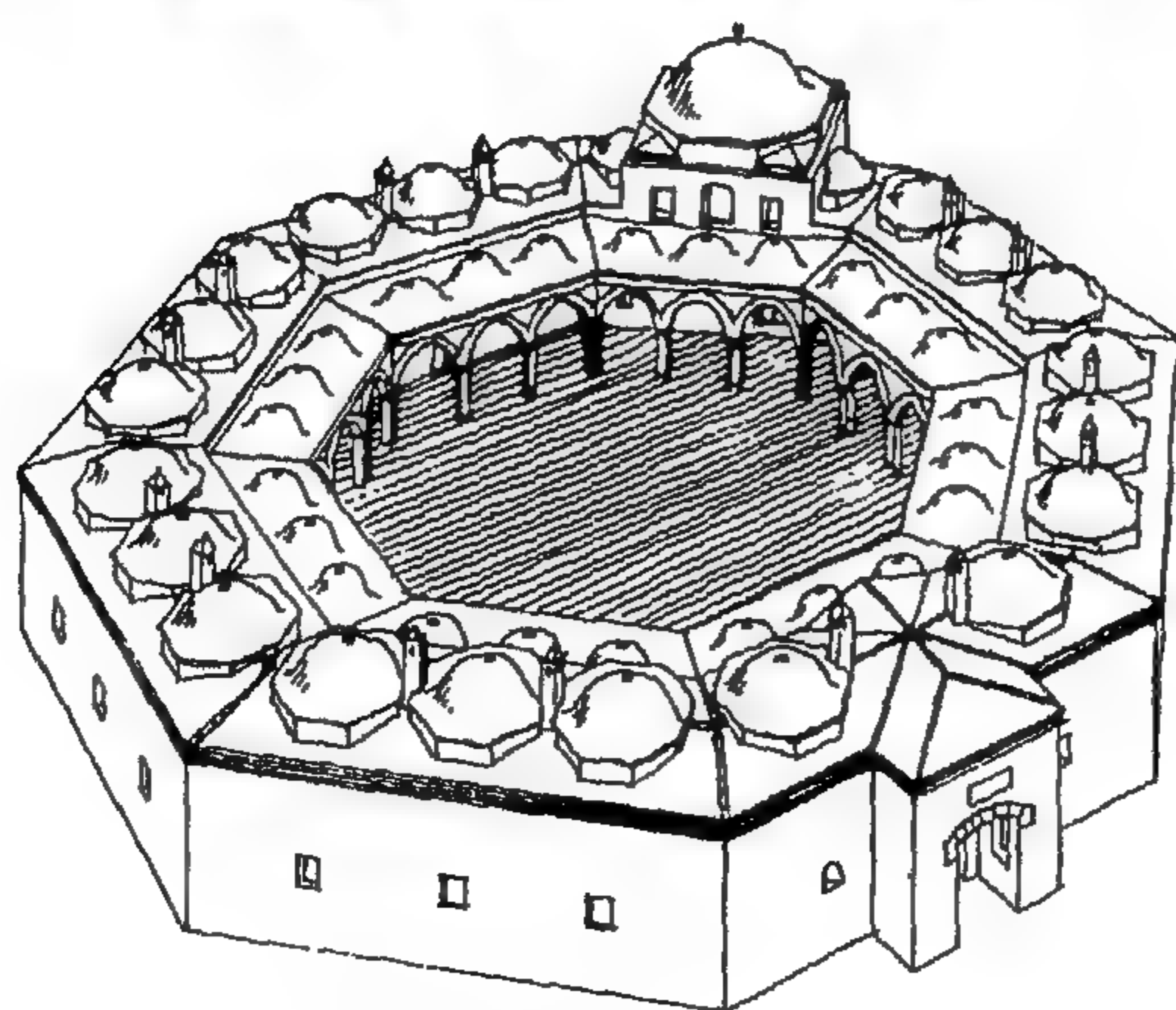
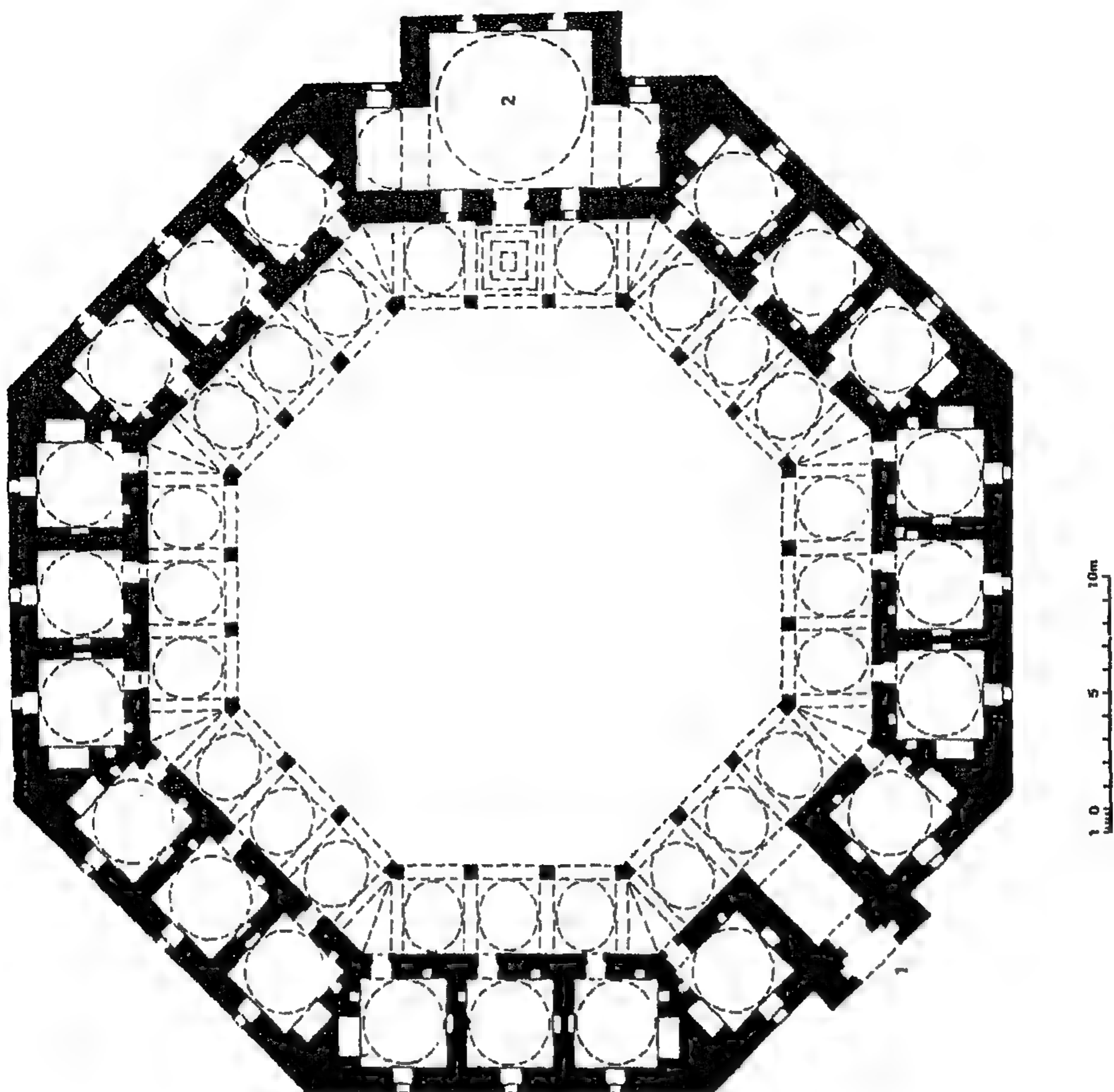
(شكل ٣١٦) مدرسة السلطان بايزيد الثاني باستانبول (عن هيلنبراند).



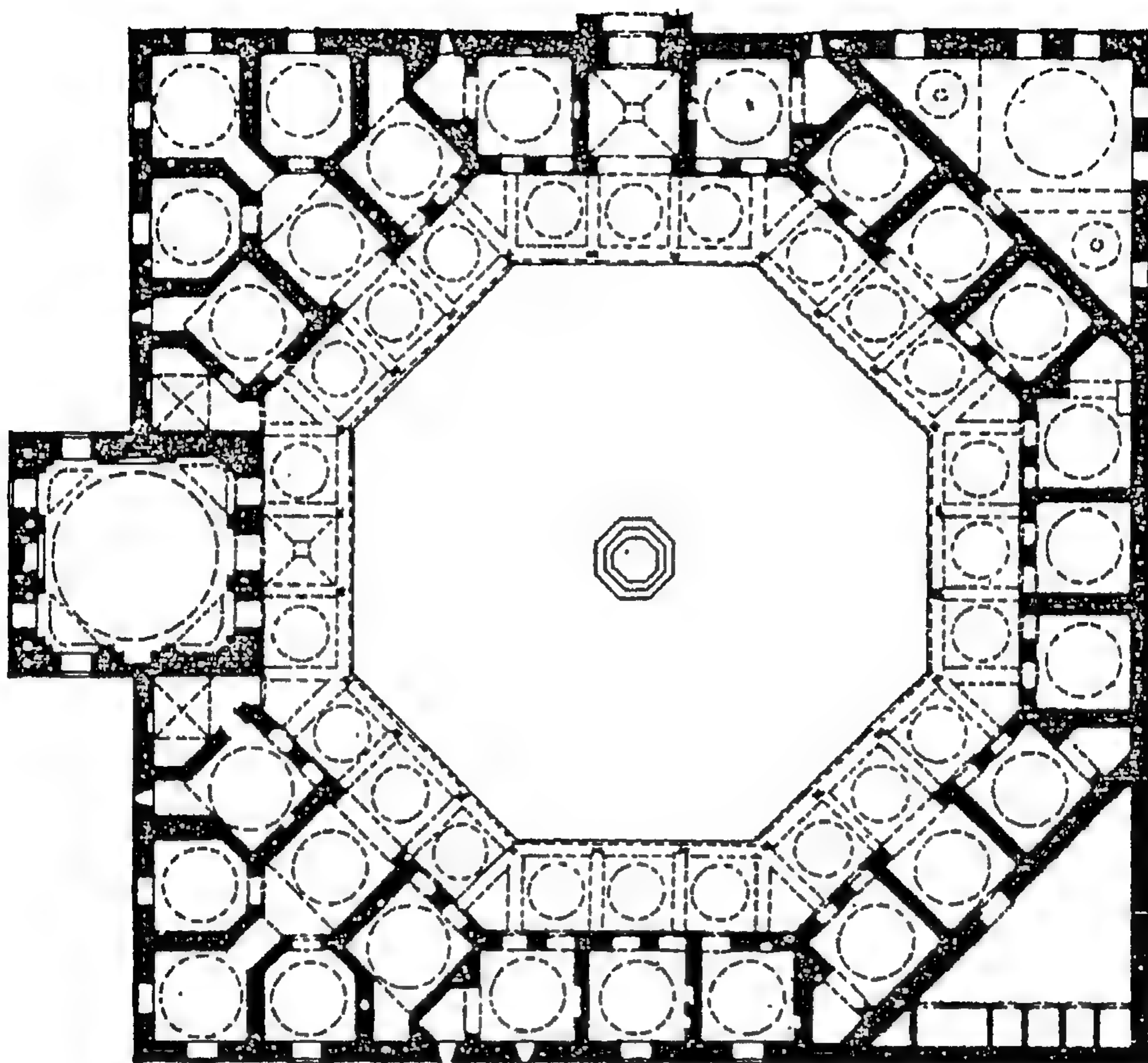
(شكل ٣١٧) مسقط أفقي لمدرسة سليمان باشا في أزنيق . (عن : Goodwin) .



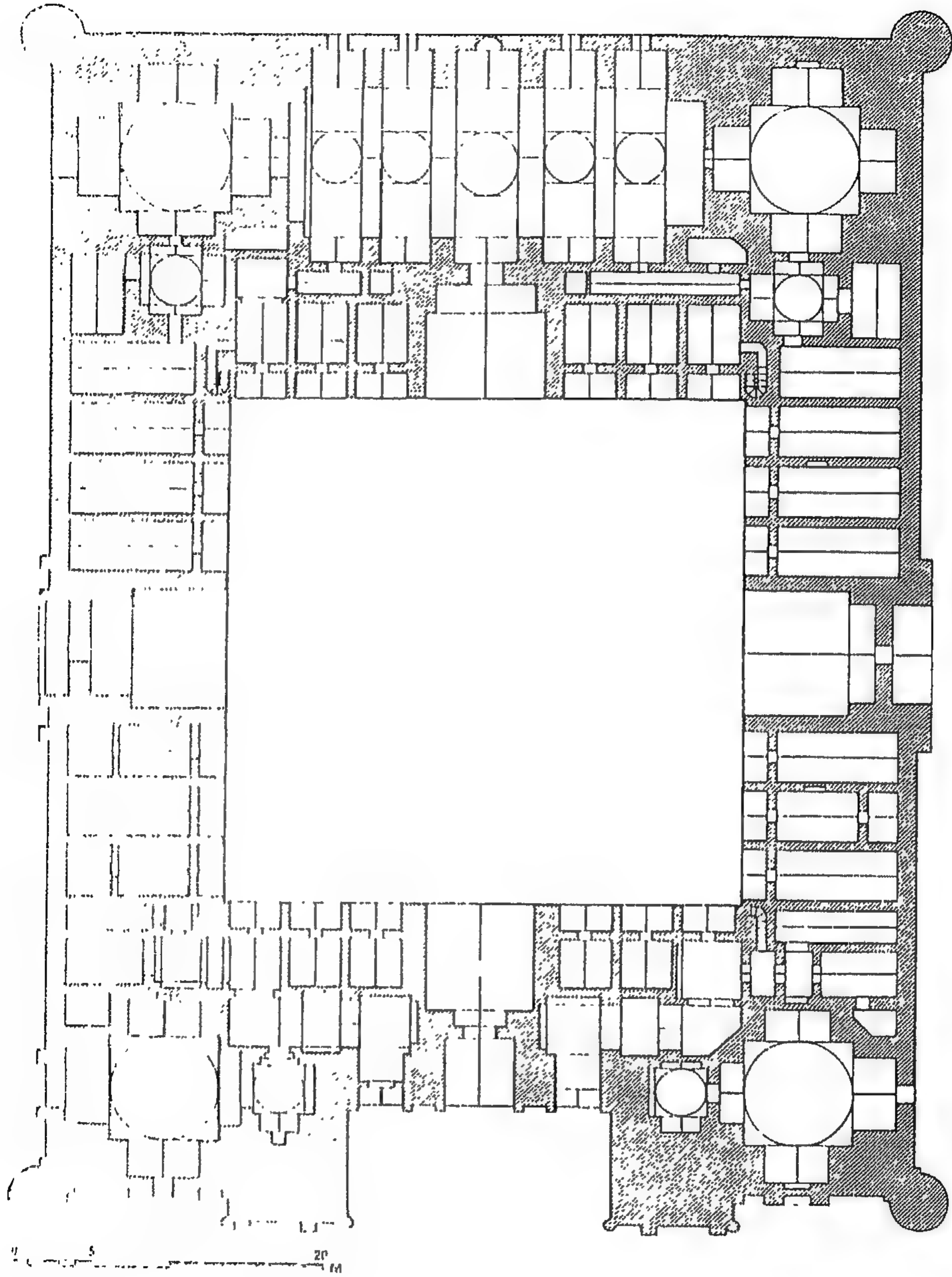
(شكل ٣١٨) مسقط أفقي لمدرسة اسحاق باشا في اينه كول (عن Goodwin) .



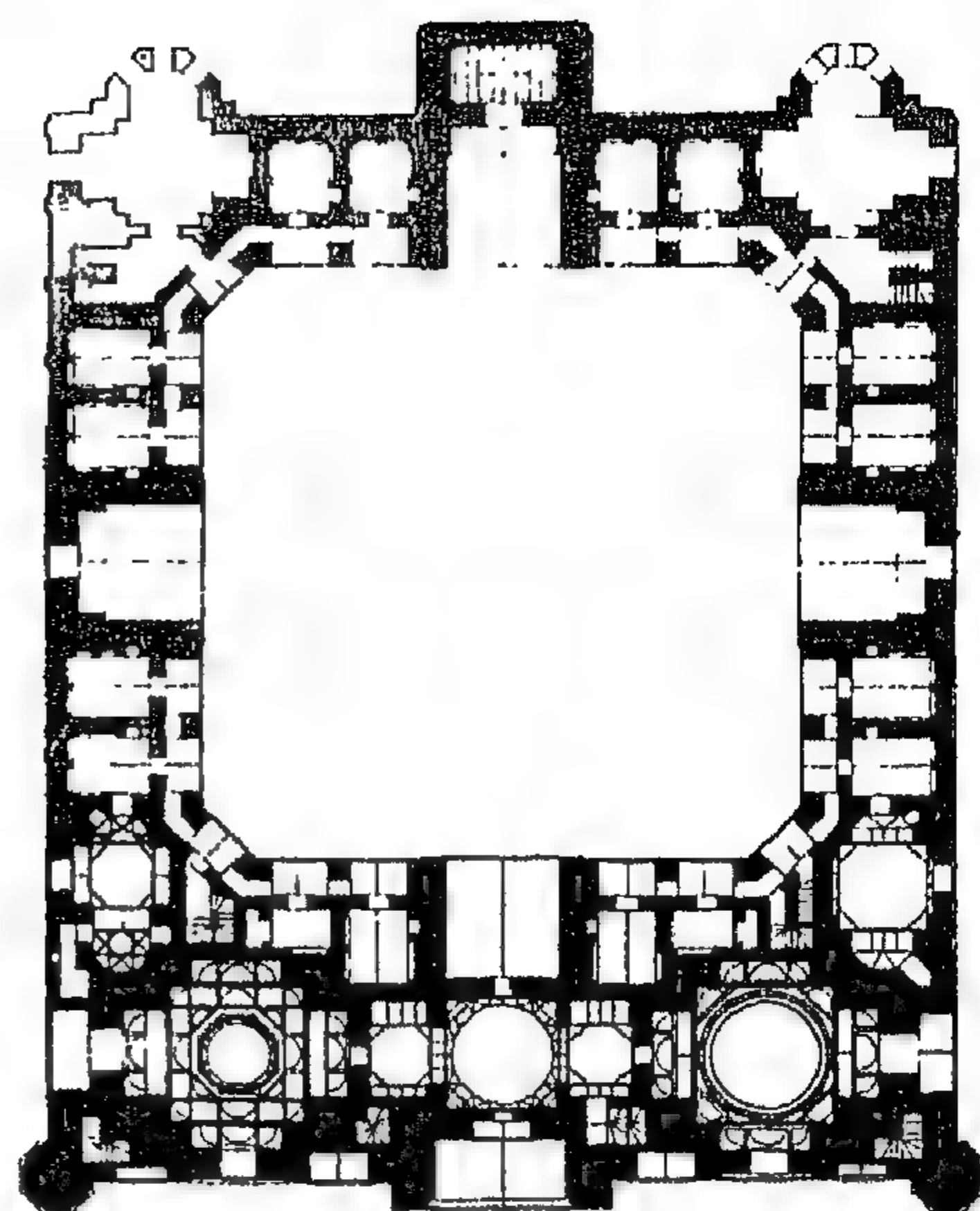
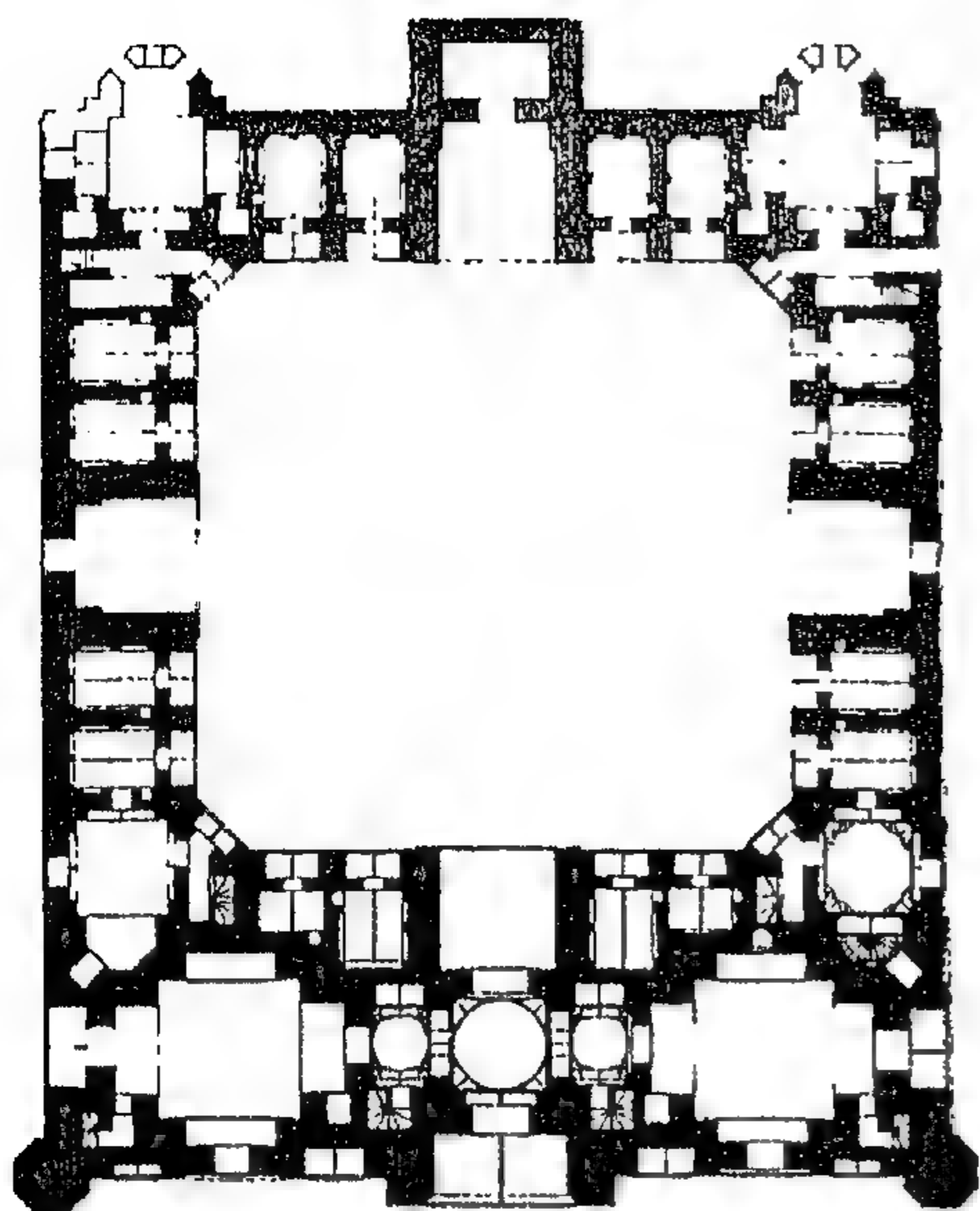
شكل (٣١٩) قابی آغاسی مدرسة فی اماسیا اعلی (عن : جابرییل)، واسفل (عن : هیلتبراند) .



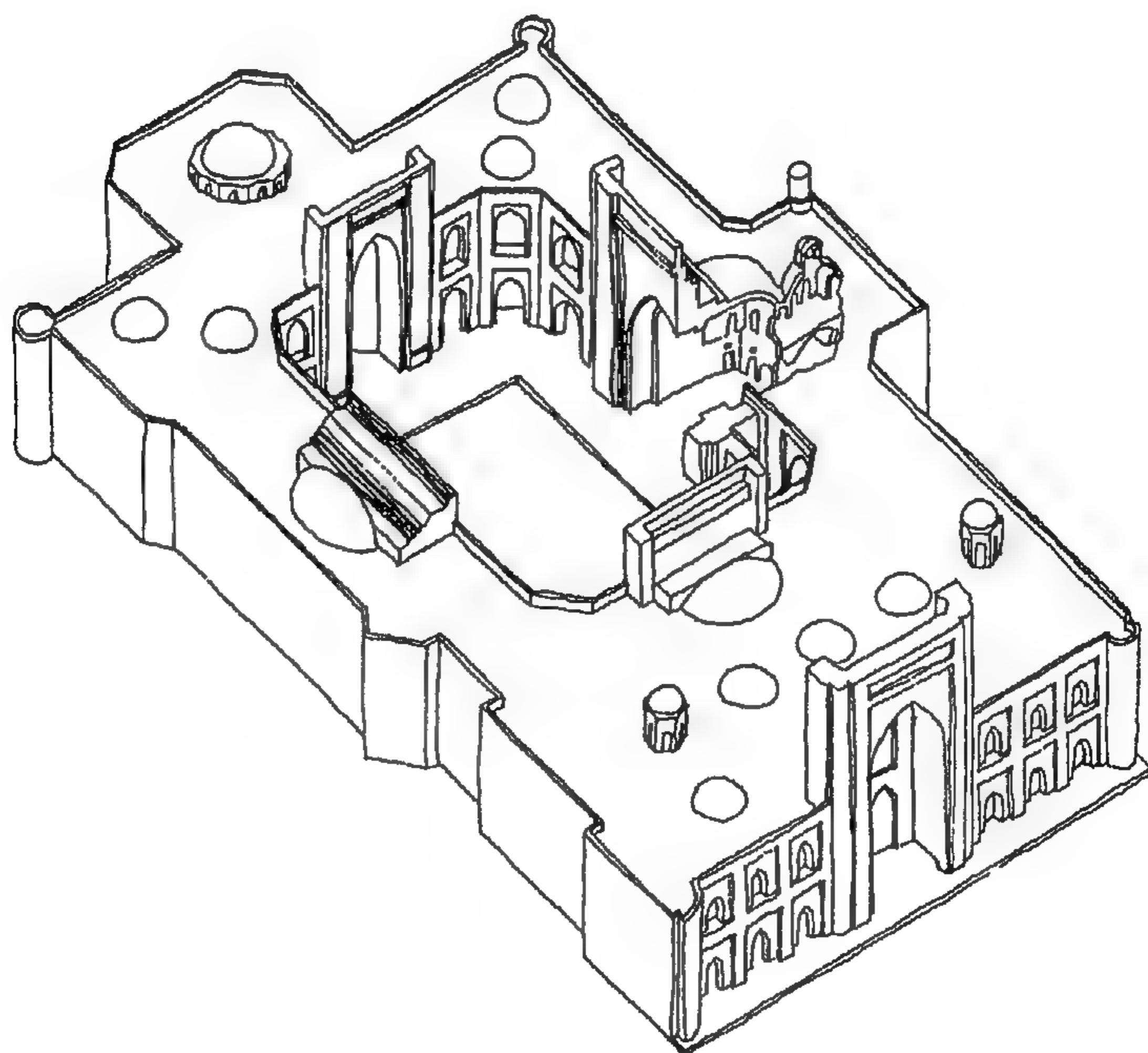
شكل (٣٢٠) مسقط أفقى لمدرسة رستم باشا فى استانبول (عن : كوران) .



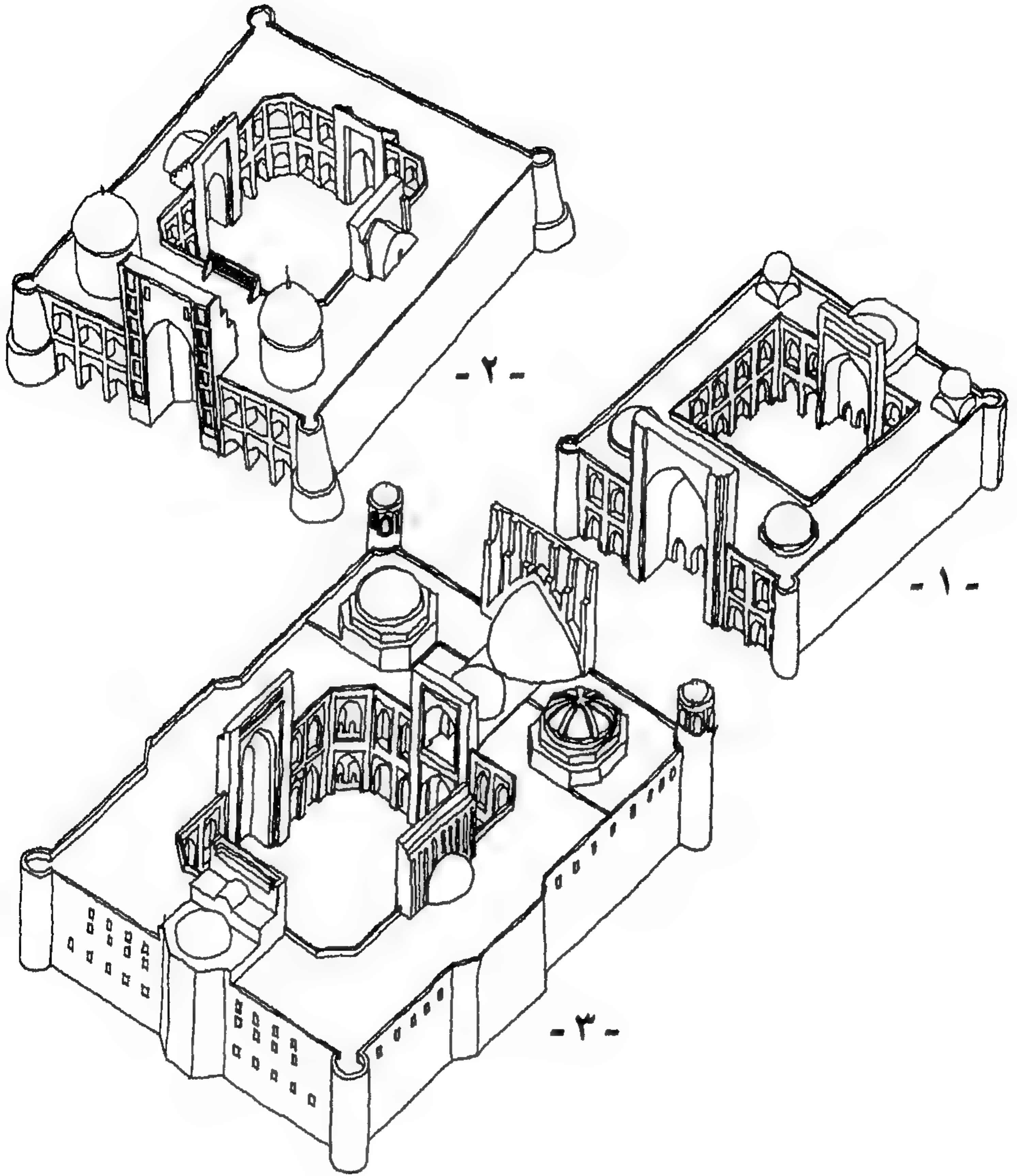
شكل (٣٢١) مسقط أفقى لمدرسة أولوغ بك فى سمرقند
(عن : ليزا جلومبك ودونالدولبر) .



شكل (٣٢٢) مسقط أفقى للمدرسة الغياثية فى خوجرد : الايسر (الطابق الأرضى) و (الايمن) الطابق الأول (عن : ليزا جلومبيك ودونالدولبر) .

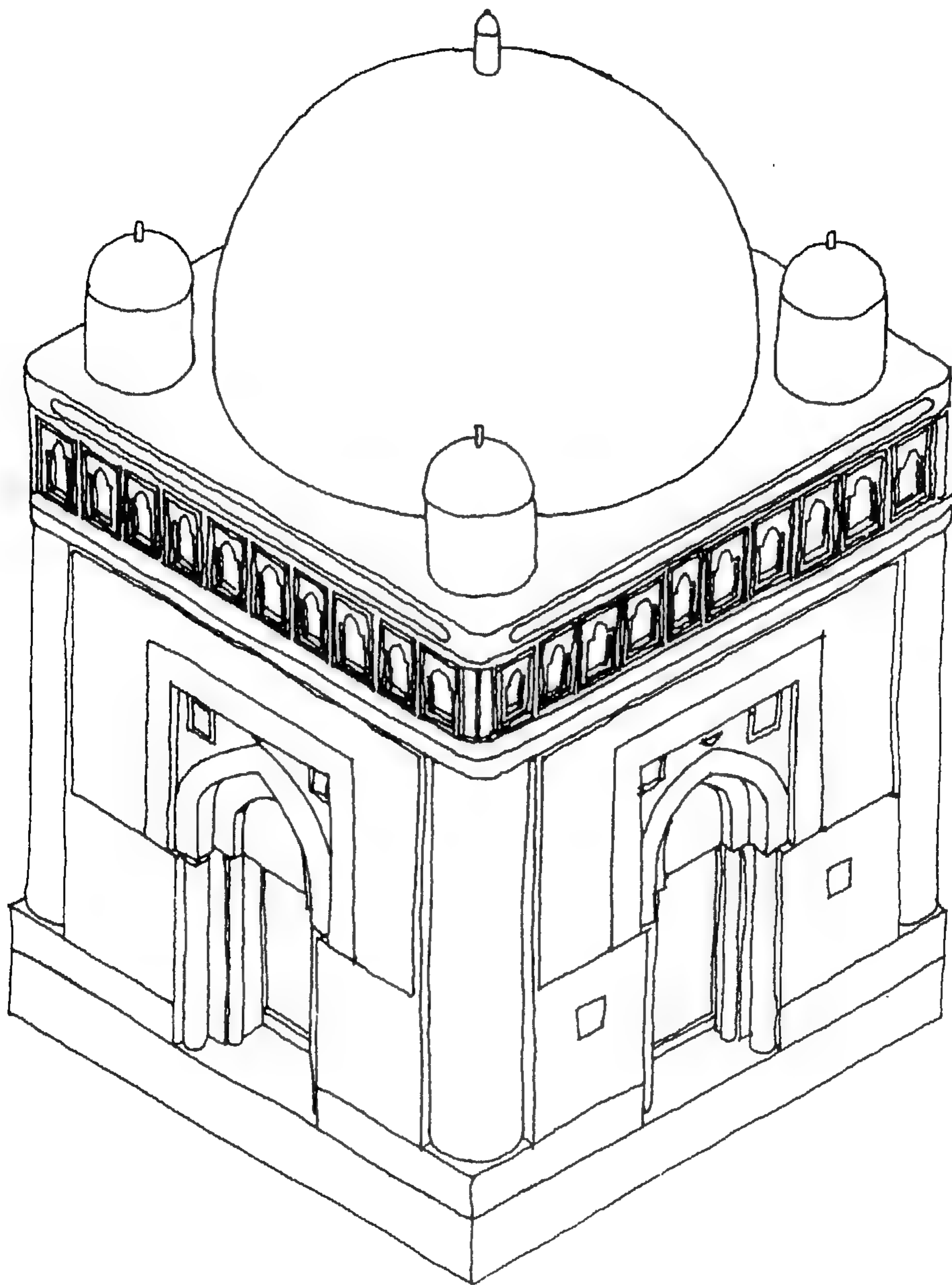


شكل (٣٢٣) مدرسة عبدالله خان فى بخارى (عن : هيلنبراند) .

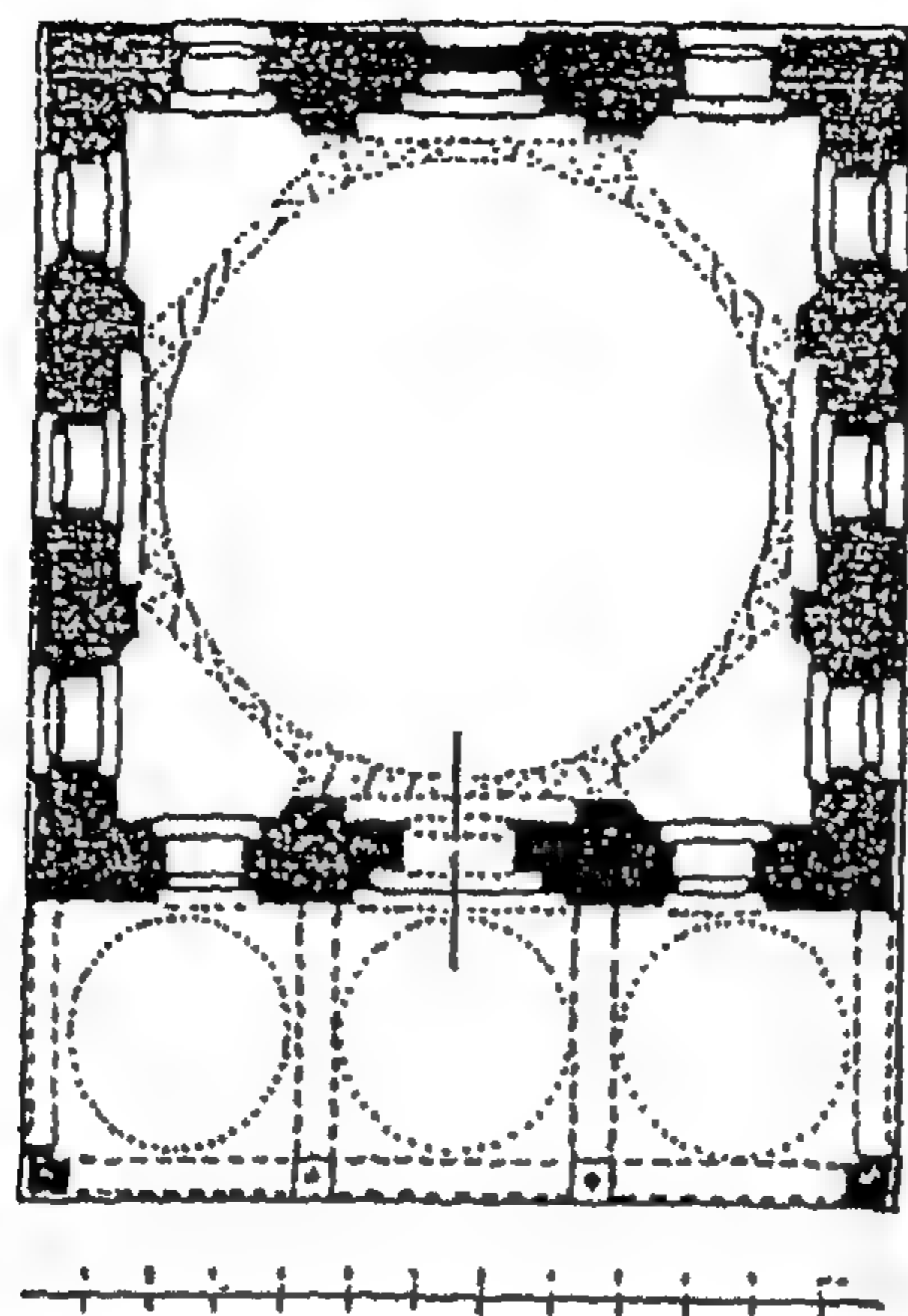


شكل (٣٢٤) مدارس بخارى فى العصرين التيمورى والشييبانى

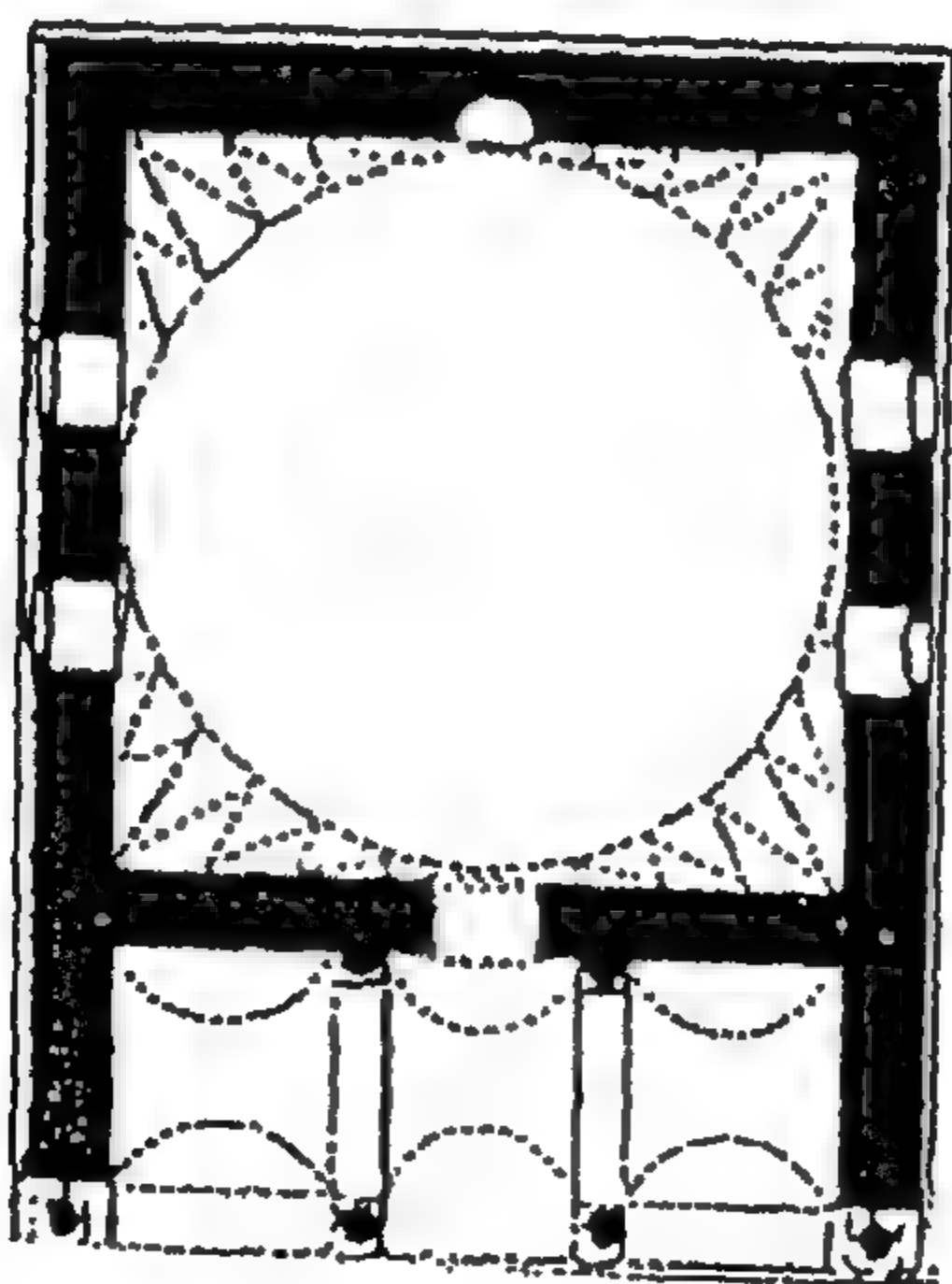
- ١- مدرسة أولوغ بك .
- ٢- مدرسة مير عرب .
- ٣- مدرسة عبد العزيز خان (عن : هيلنبراند) .



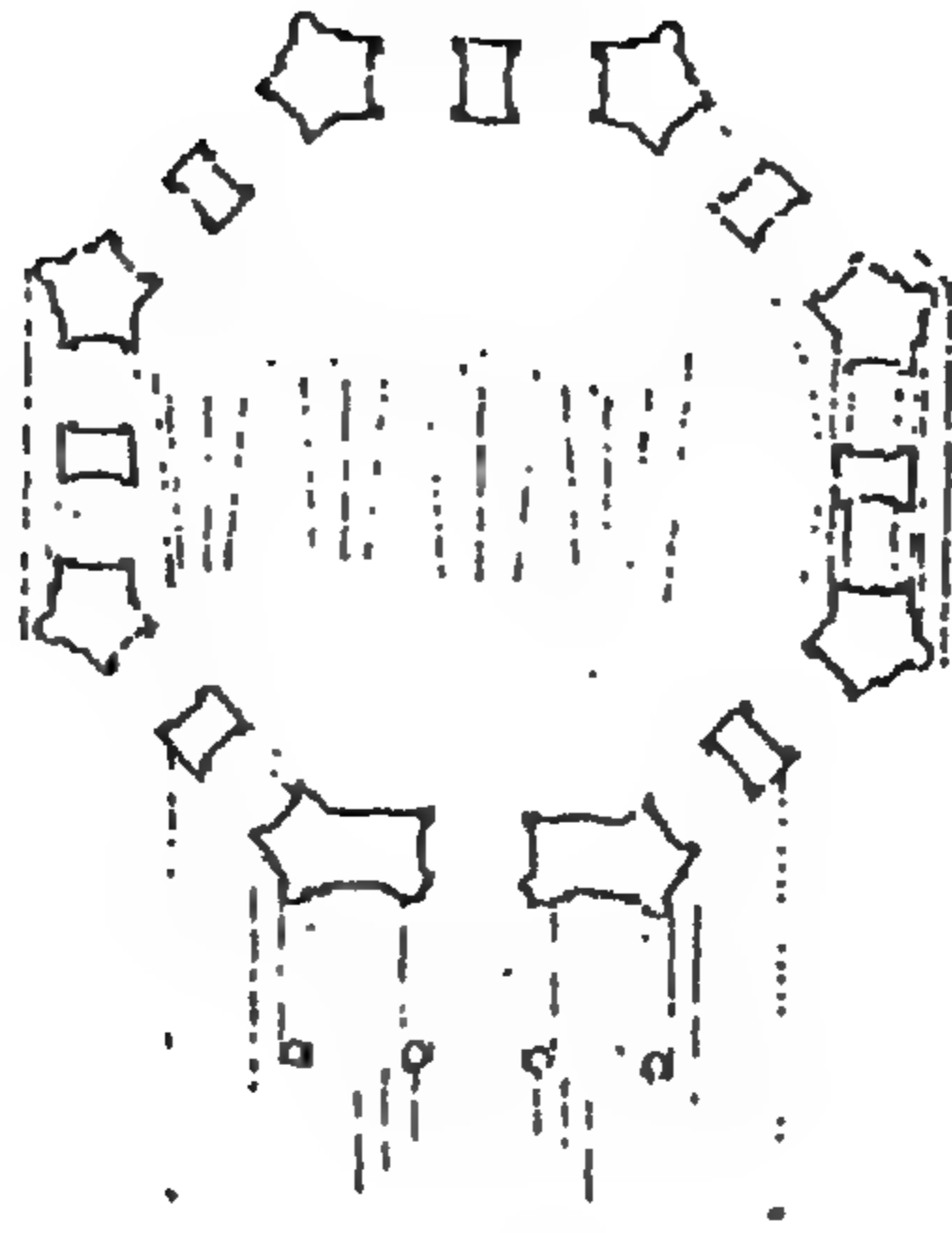
شكل (٣٢٥) قبة اسماعيل الساماني في بخارى (عن : هيلنبراند) .



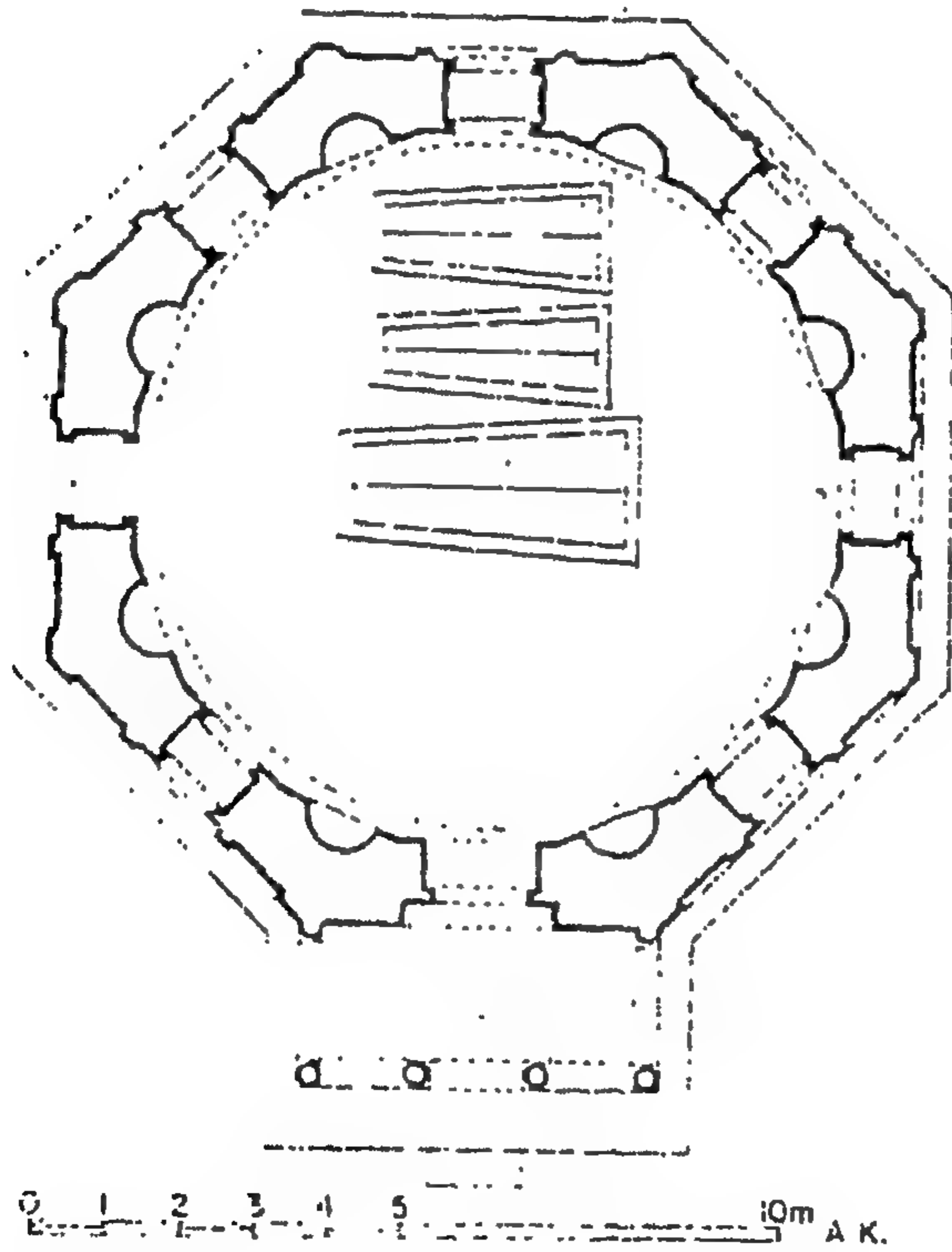
شكل (٣٢٦) مسقط أفقى لتربة بايزيد يلدريم فى بورصة (أوبروسه) (عن : Wilde) .



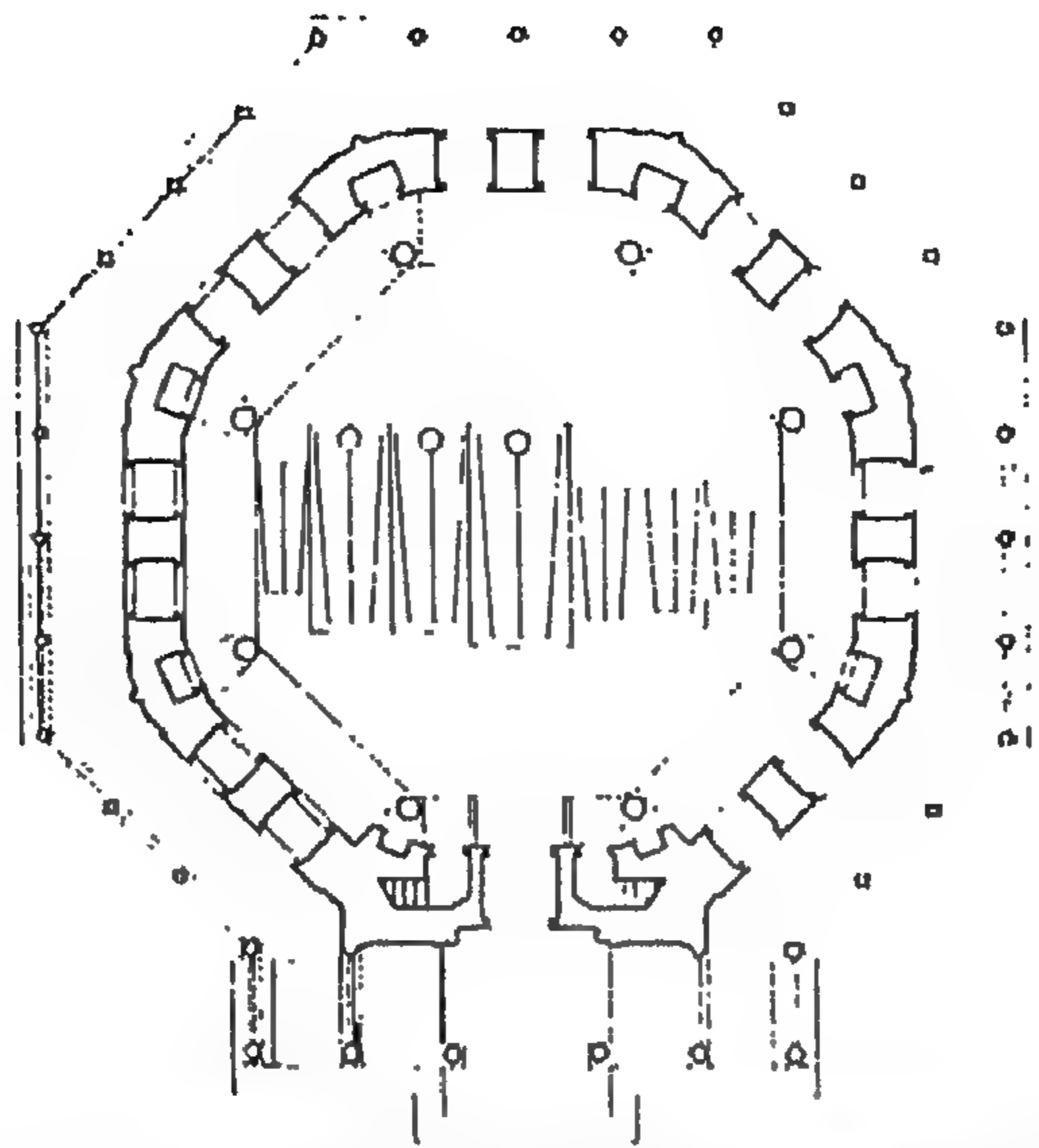
شكل (٣٢٧) مسقط أفقى لتربة حاجى سلطان فى بورصة (عن : Wilde) .



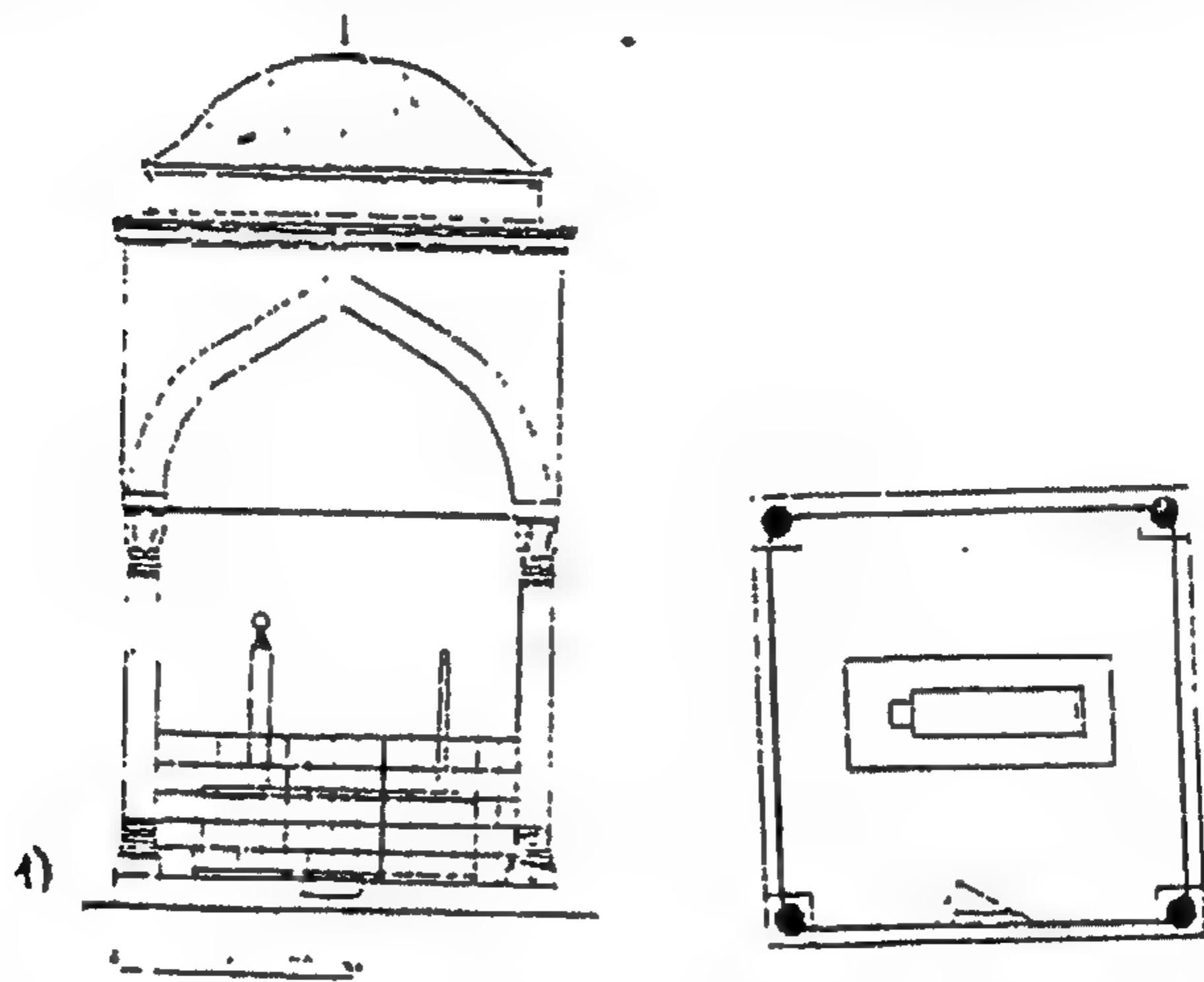
شكل (٣٢٨) مسقط أفقي لتربة شاهزاده محمد باستانبول (عن : اصلان ابا) .



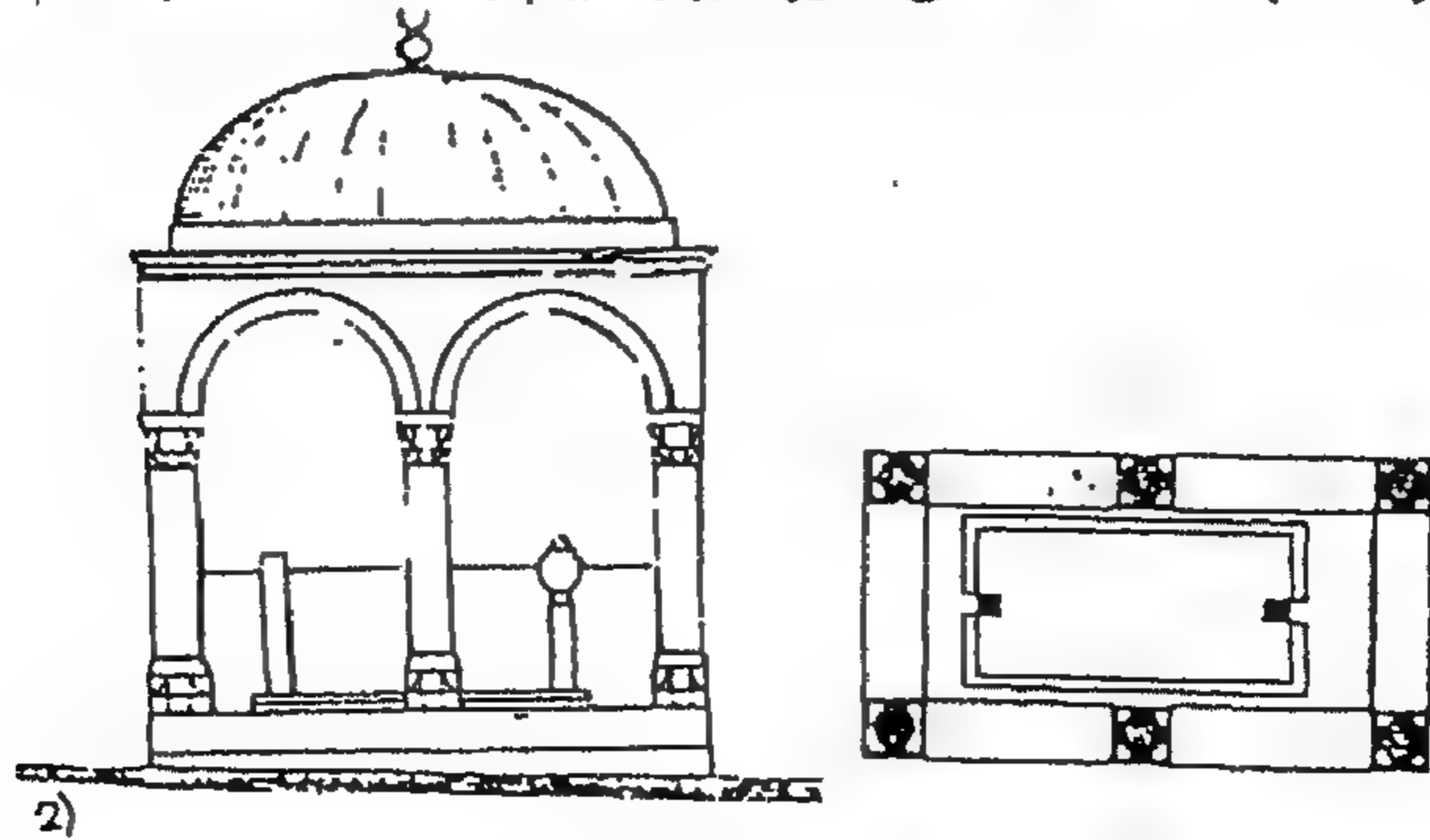
شكل (٣٢٩) مسقط أفقي لتربة خاصكى حرم بمجمع السلیمانیة باستانبول
(عن : اصلان ابا)



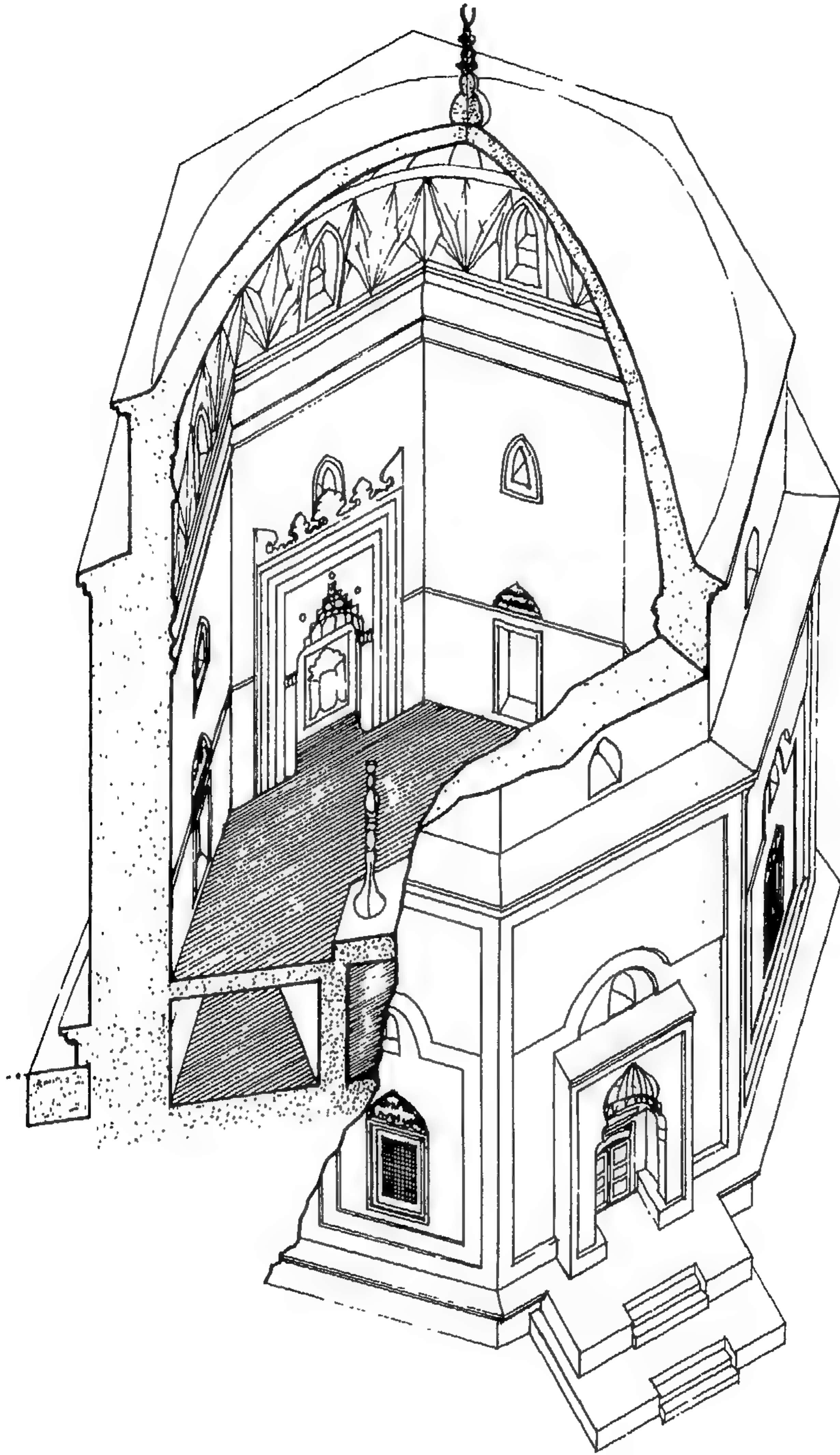
شكل (٣٣٠) مسقط أفقى لتربة السليمانية باستانبول (عن : اصلان ابا)



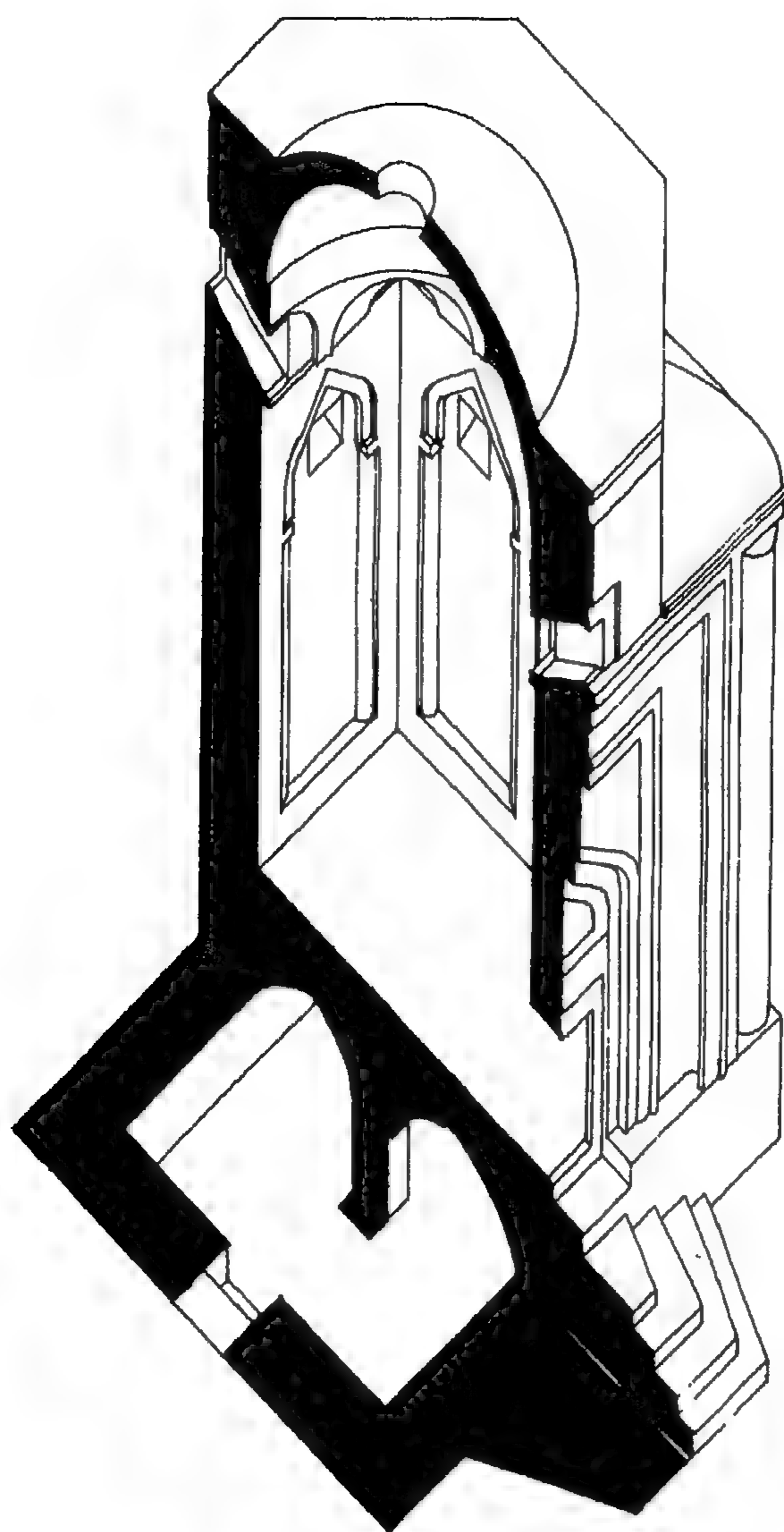
شكل (٣٣١) مسقط أفقى لتربة إبراهيم باشا فى فوتجا (عن : Pašić) .



شكل (٣٣٢) مسقط أفقى لتربة الشيخ Jujino فى موستار (عن : Pašić) .

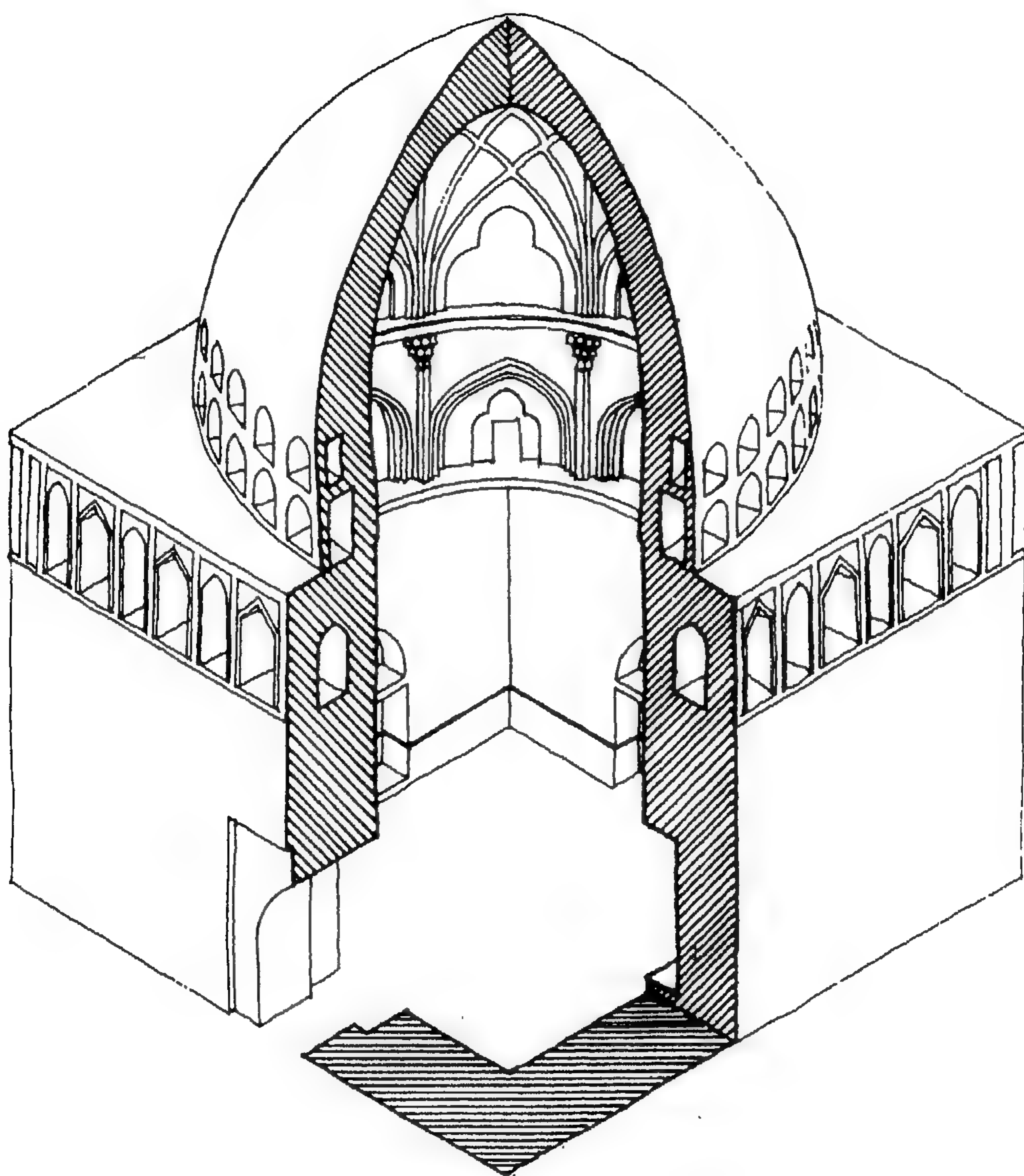


شكل (٣٣٣) التربة الخضراء (يشيل قرية) في بورصة (أوبروسة) (عن : هيلنبراند) .

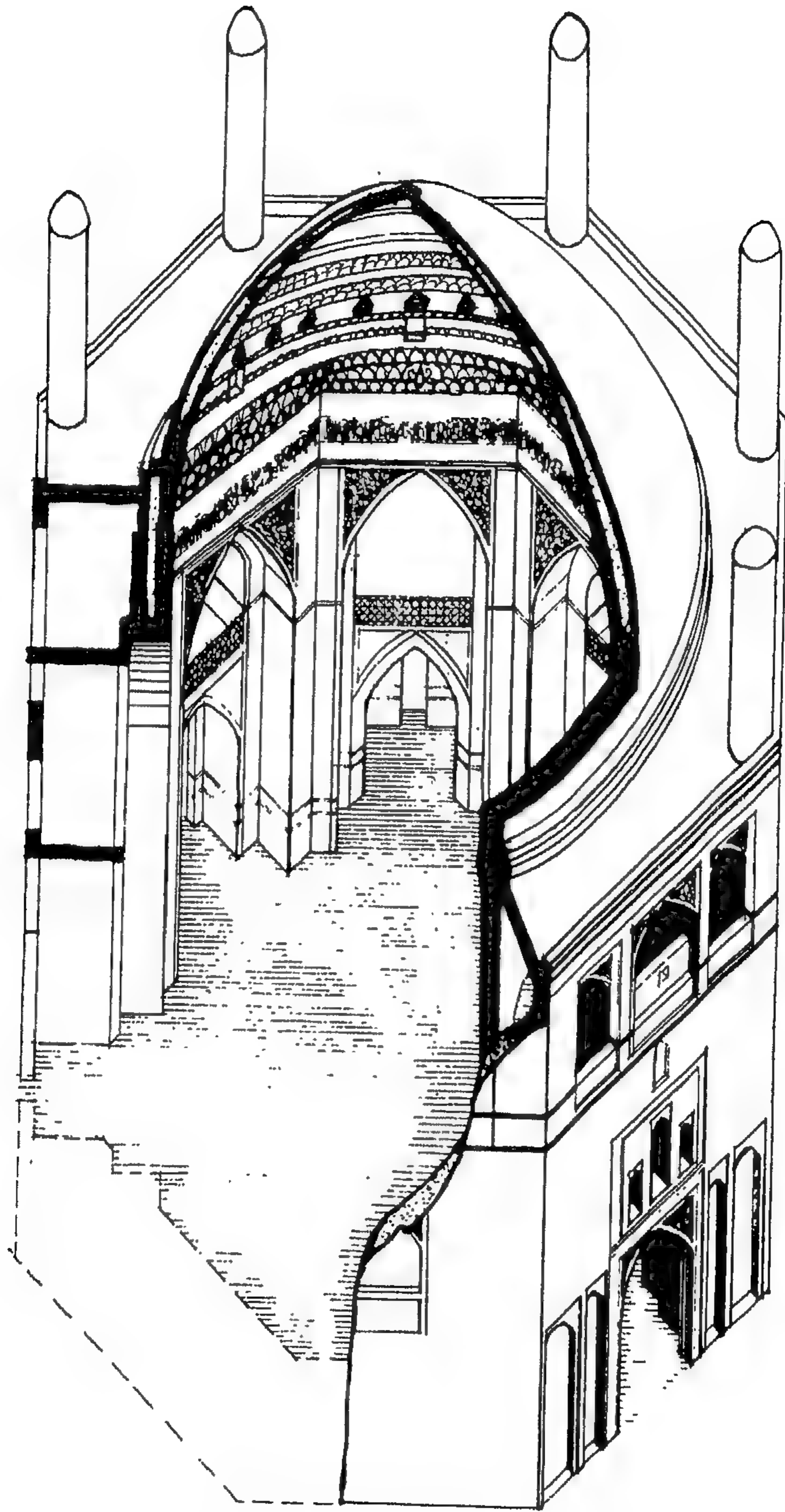


0 5m

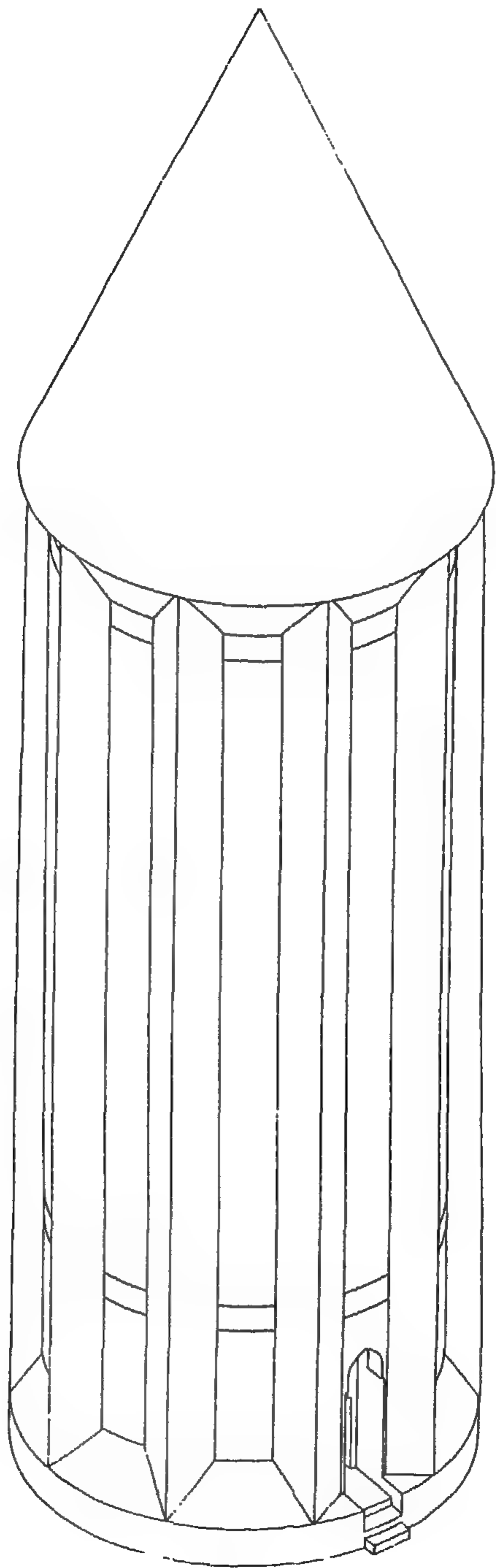
شکل (۳۳۴) کنبد سرخ (القبة القرمزية) فی مراغه بازربيجان (عن : هيلنبراند) .



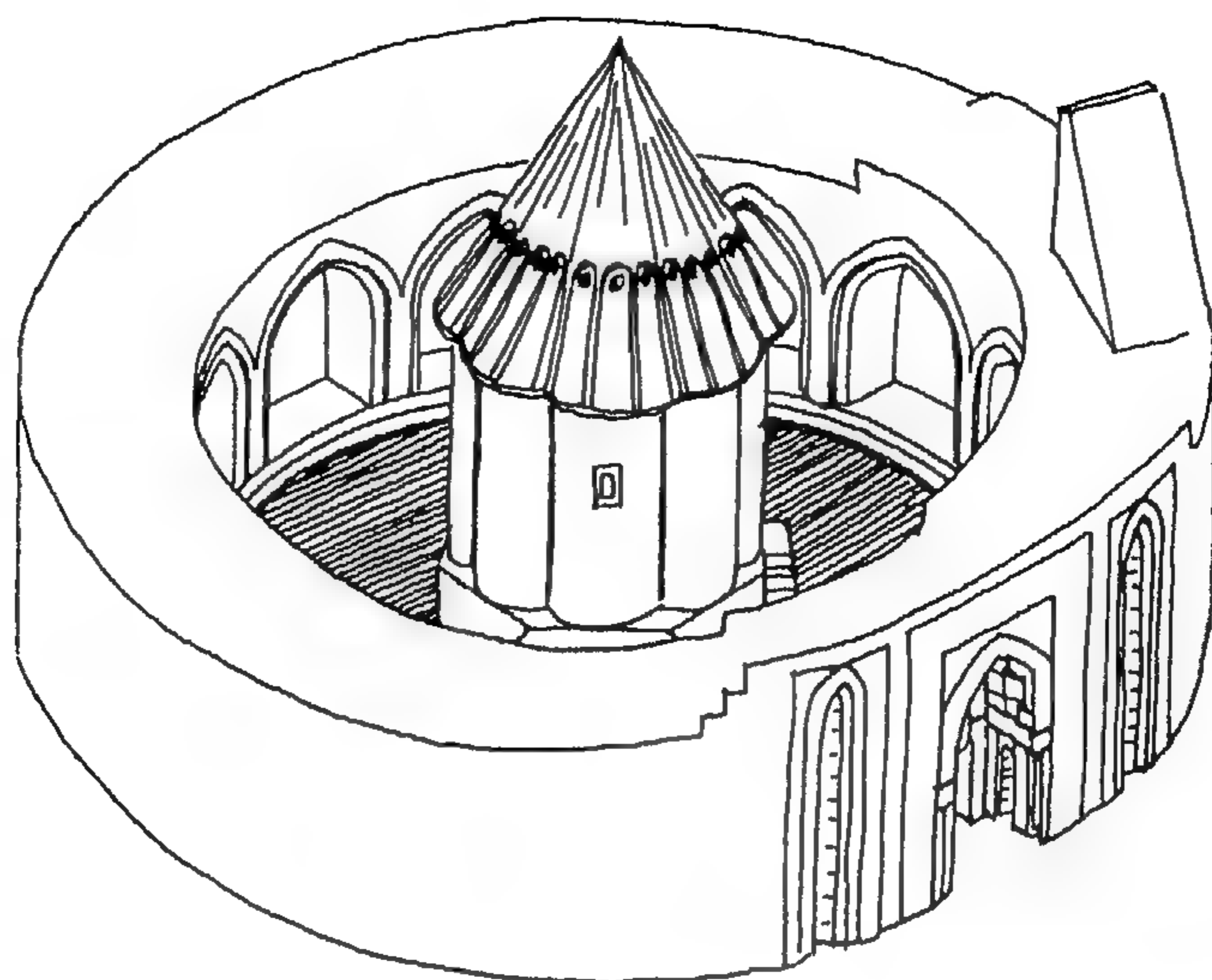
شکل (۳۳۵) قبة السلطان سنجر فی مرو (عن : هیلنبراند) .



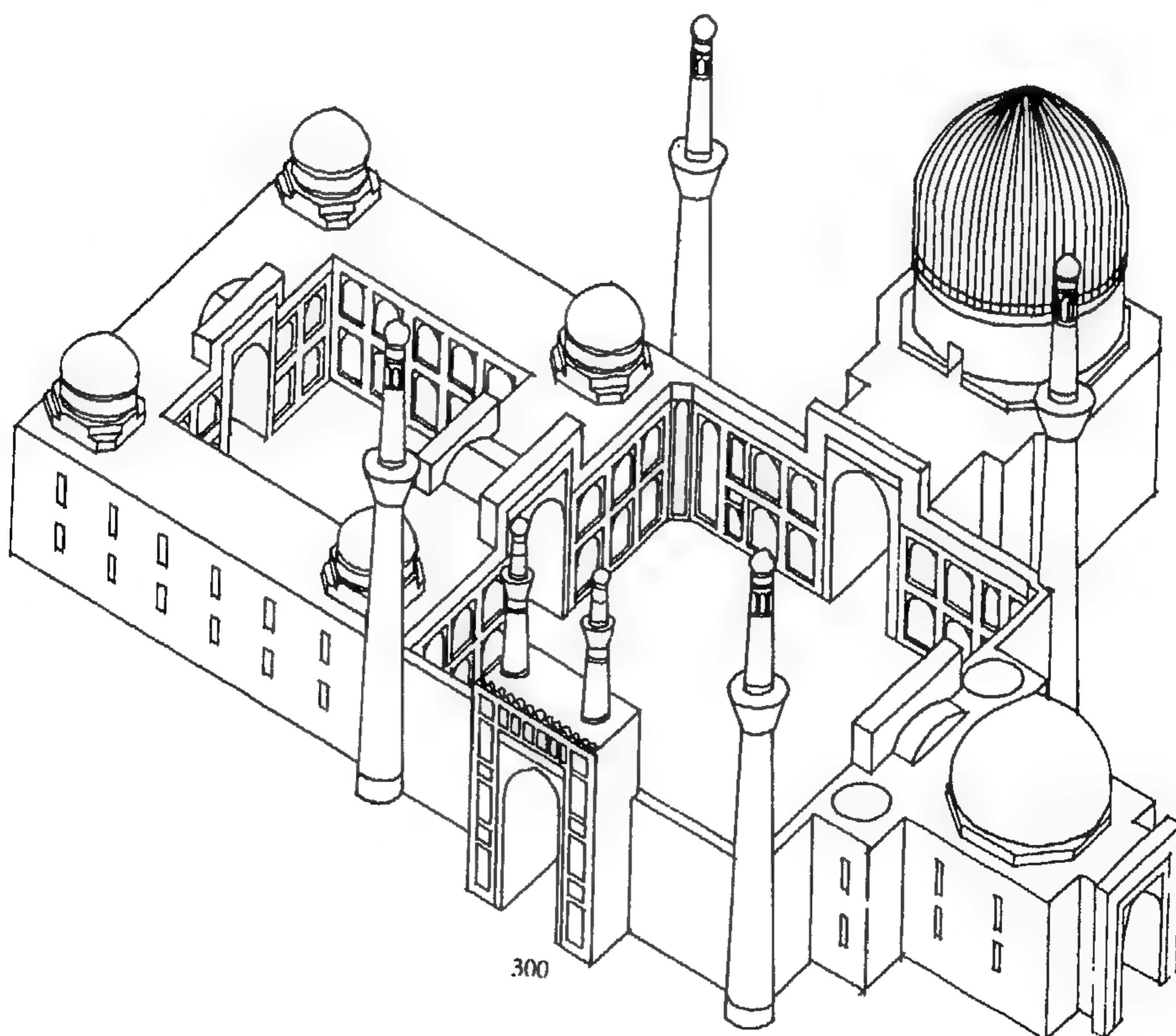
شکل (۳۳۶) تریة الجایتو خدا بنده فی سلطانیة (عن : هیلنبراند) .



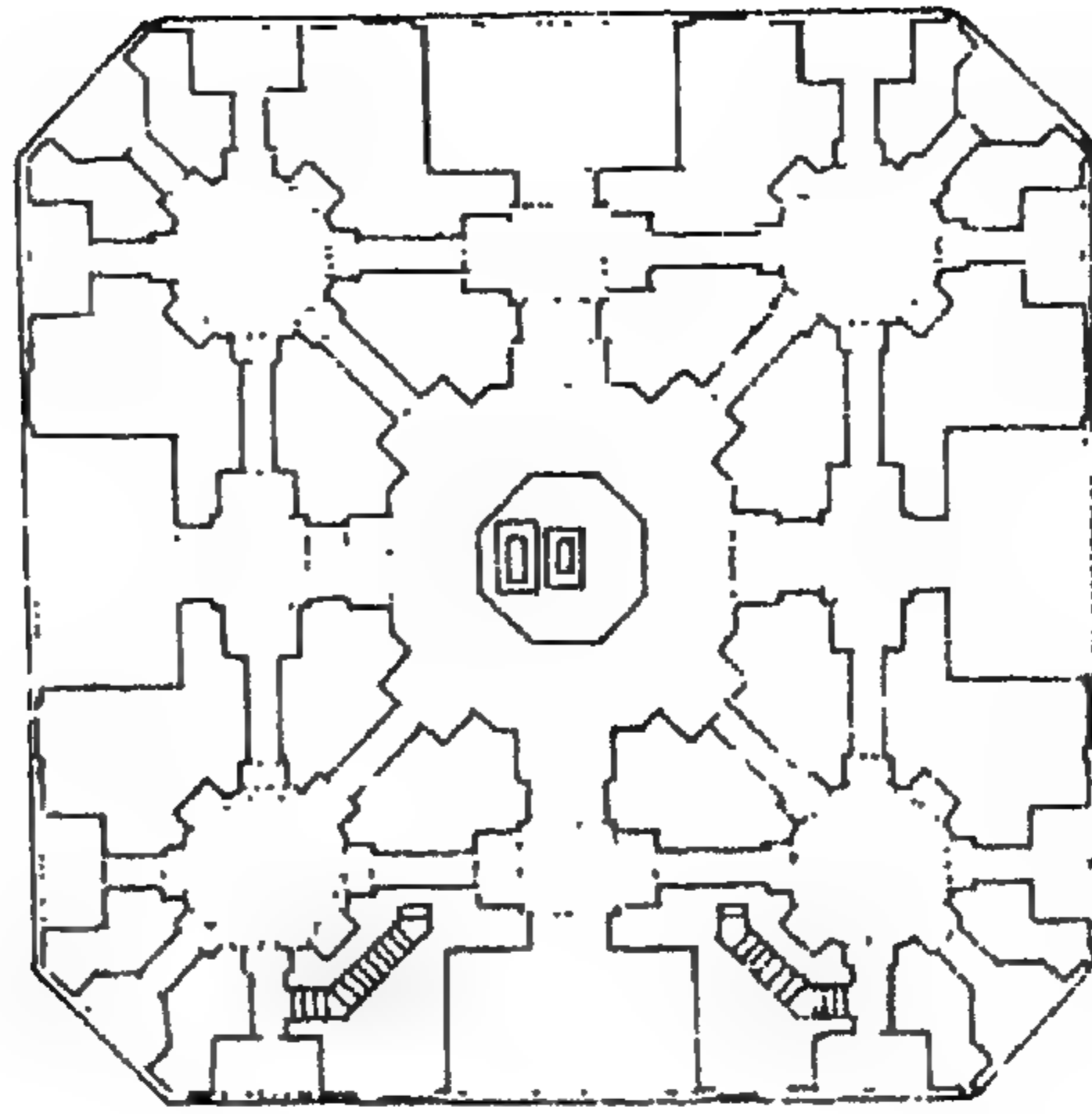
شکل (۳۳۷) کتبد قابوس فی جرجان ۳۹۷ هـ / ۱۰۰۶ م (عن : هیلتبراند) .



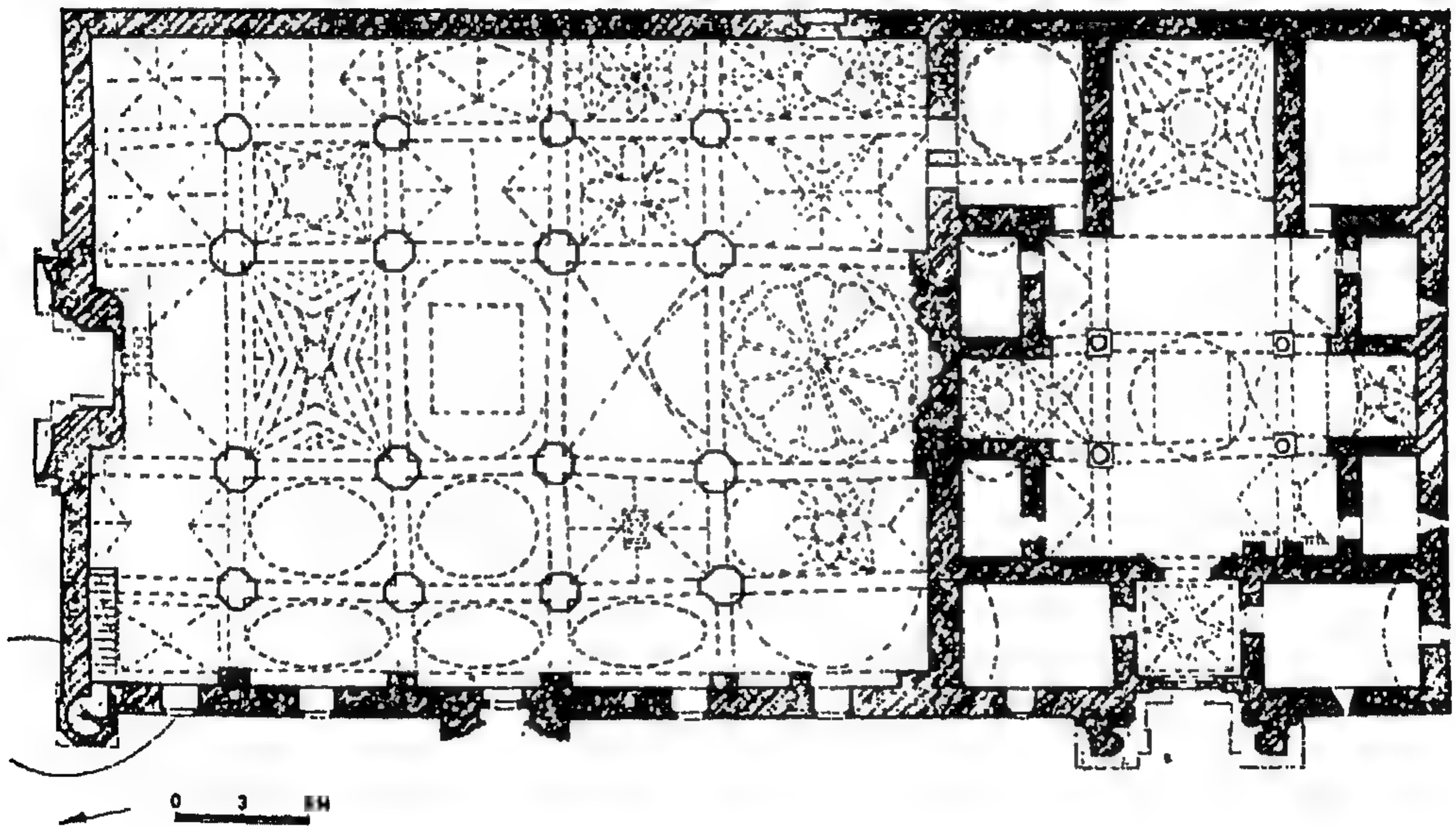
شكل (٣٣٨) تریة ماما خاتون فی ترکان ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م (عن : هیلنبراند) .



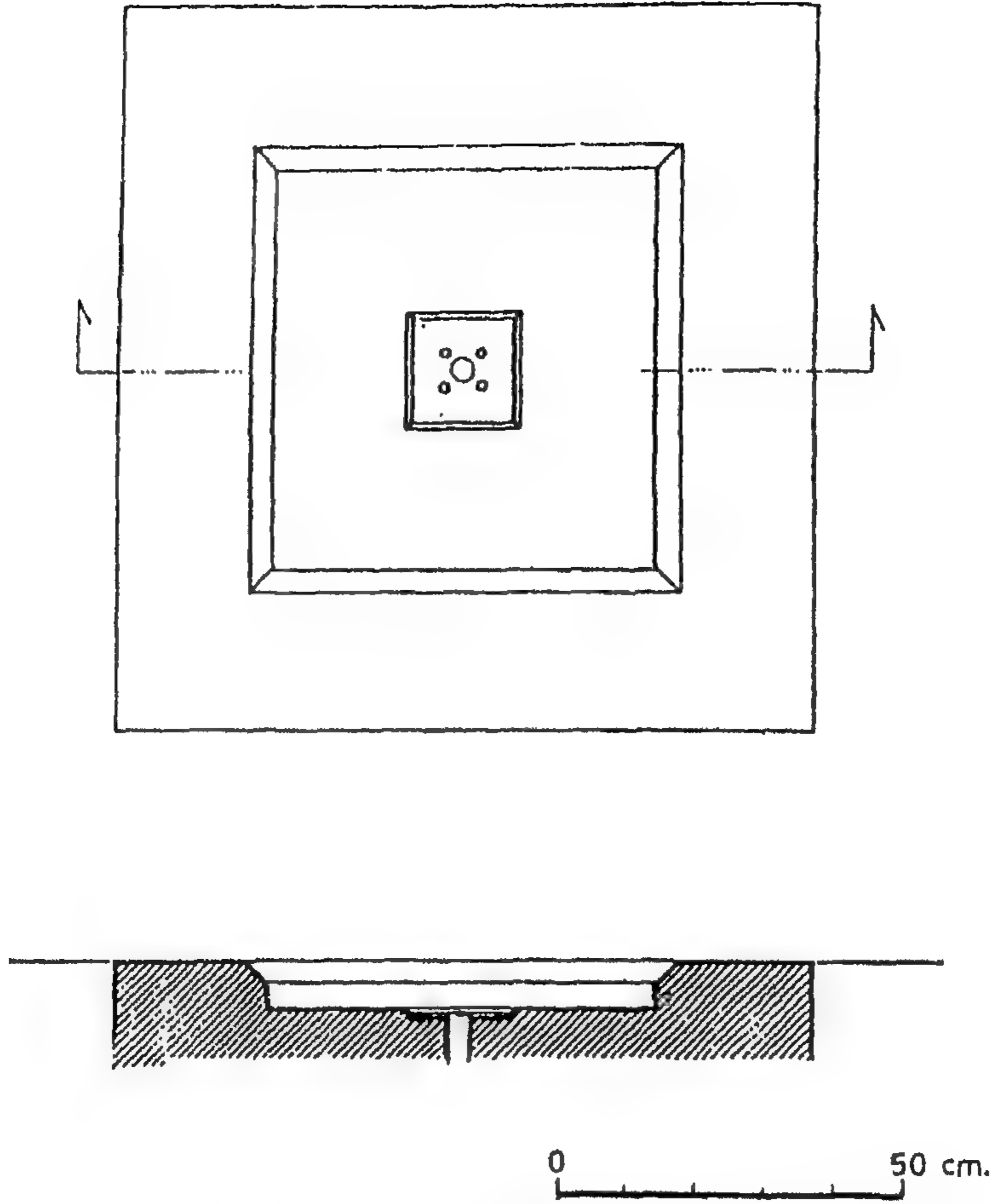
شكل (٣٣٩) کور امیر (تیمورلنک) فی سمرقند (عن : هیلنبراند) .



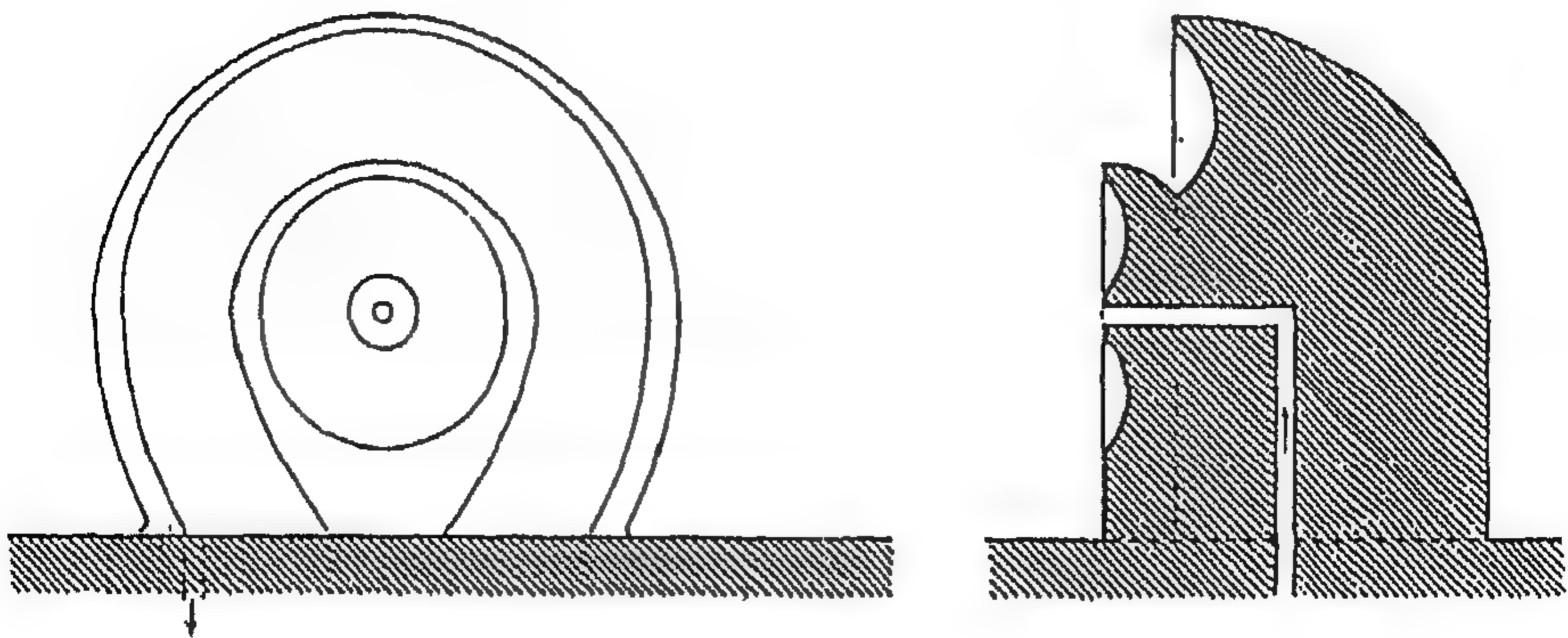
شكل (٣٤٠) تاج محل في اجرا (مسقط) (عن : الريحاني) .



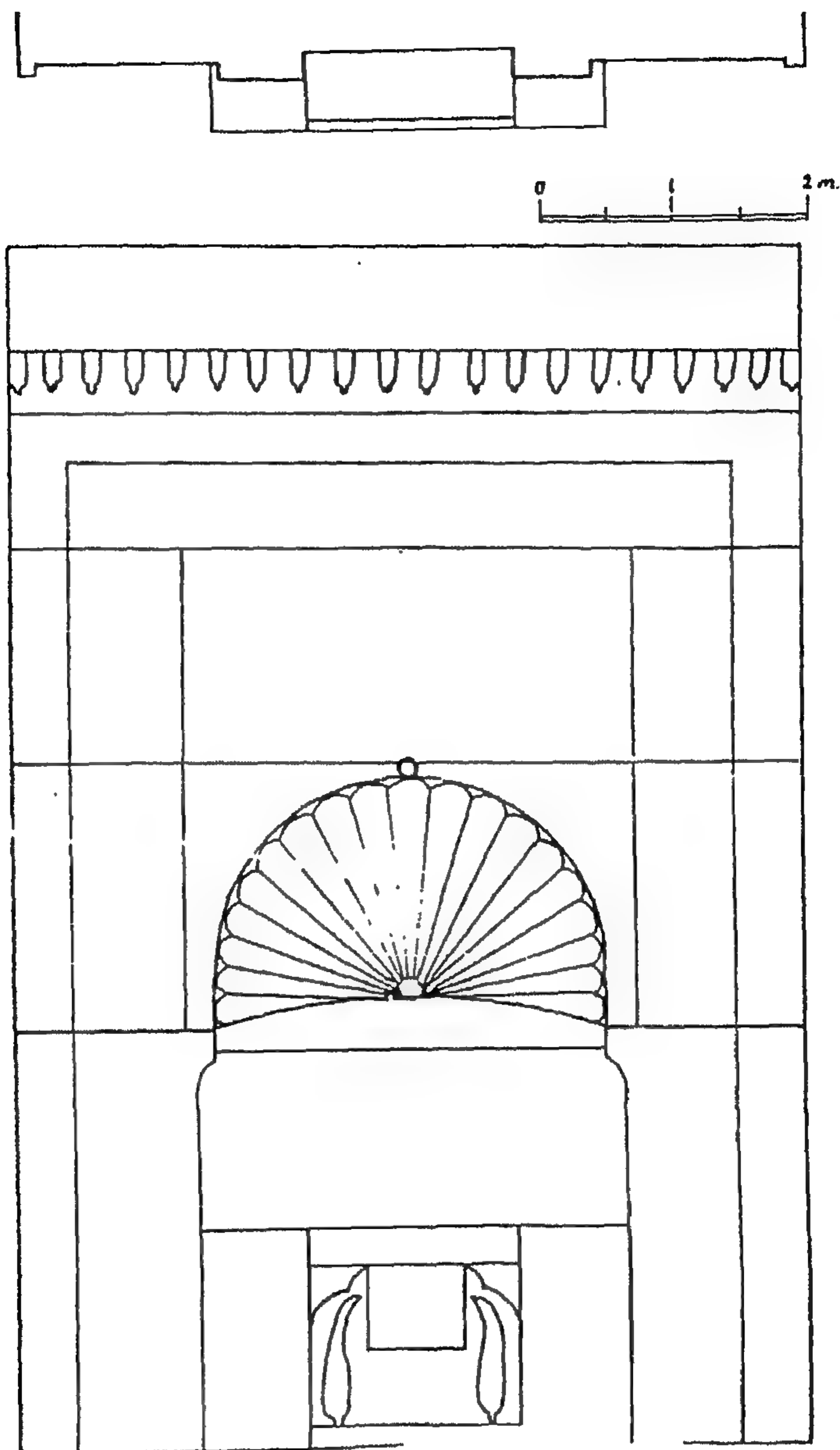
شكل (٣٤١) مسقط أفقي للبيمارستان الملحق بالجامع الكبير في ديوريكي
(ديفرجي) ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م (عن : أصلان آبا) .



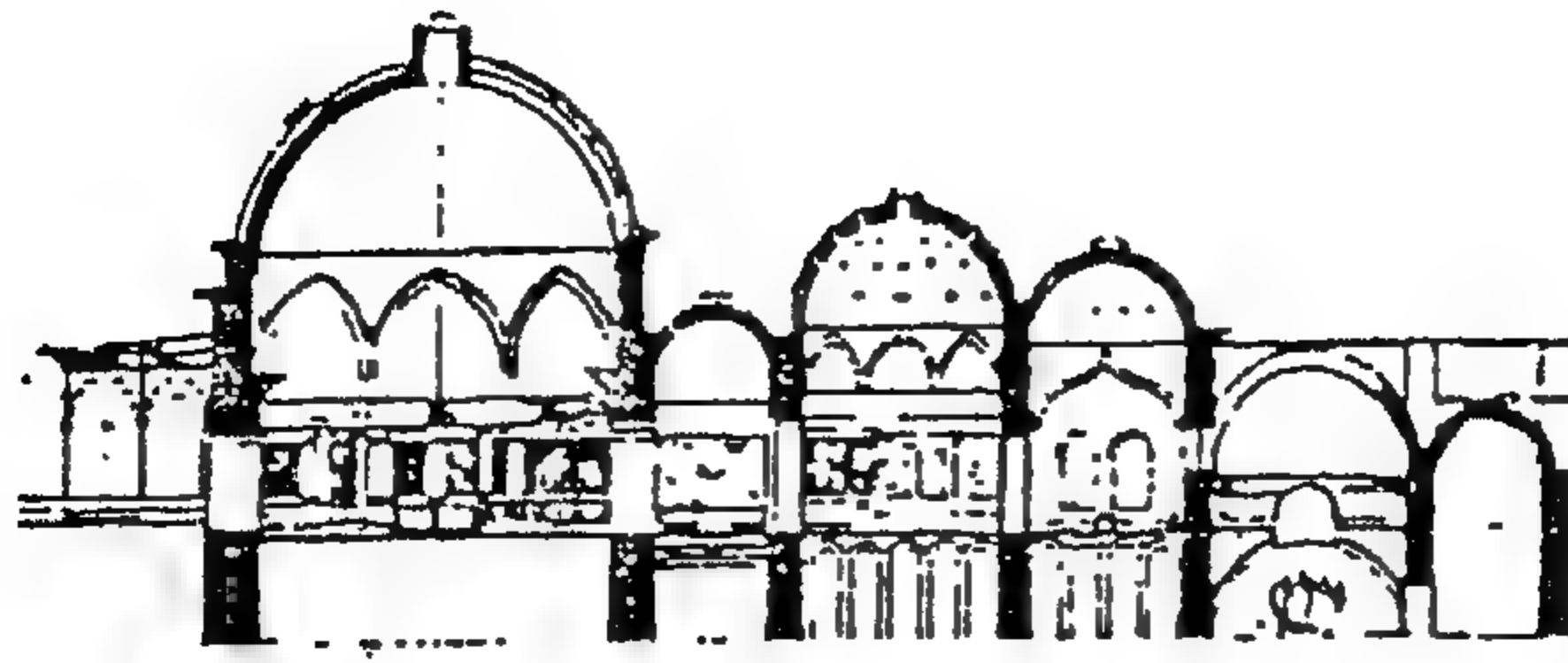
شكل (٣٤٢) مسقط أفقي للجشمة ضمن الجامع الأخضر (يشيل
جامع) في بروسة (أوبورصة) (عن : ÖNGE) .



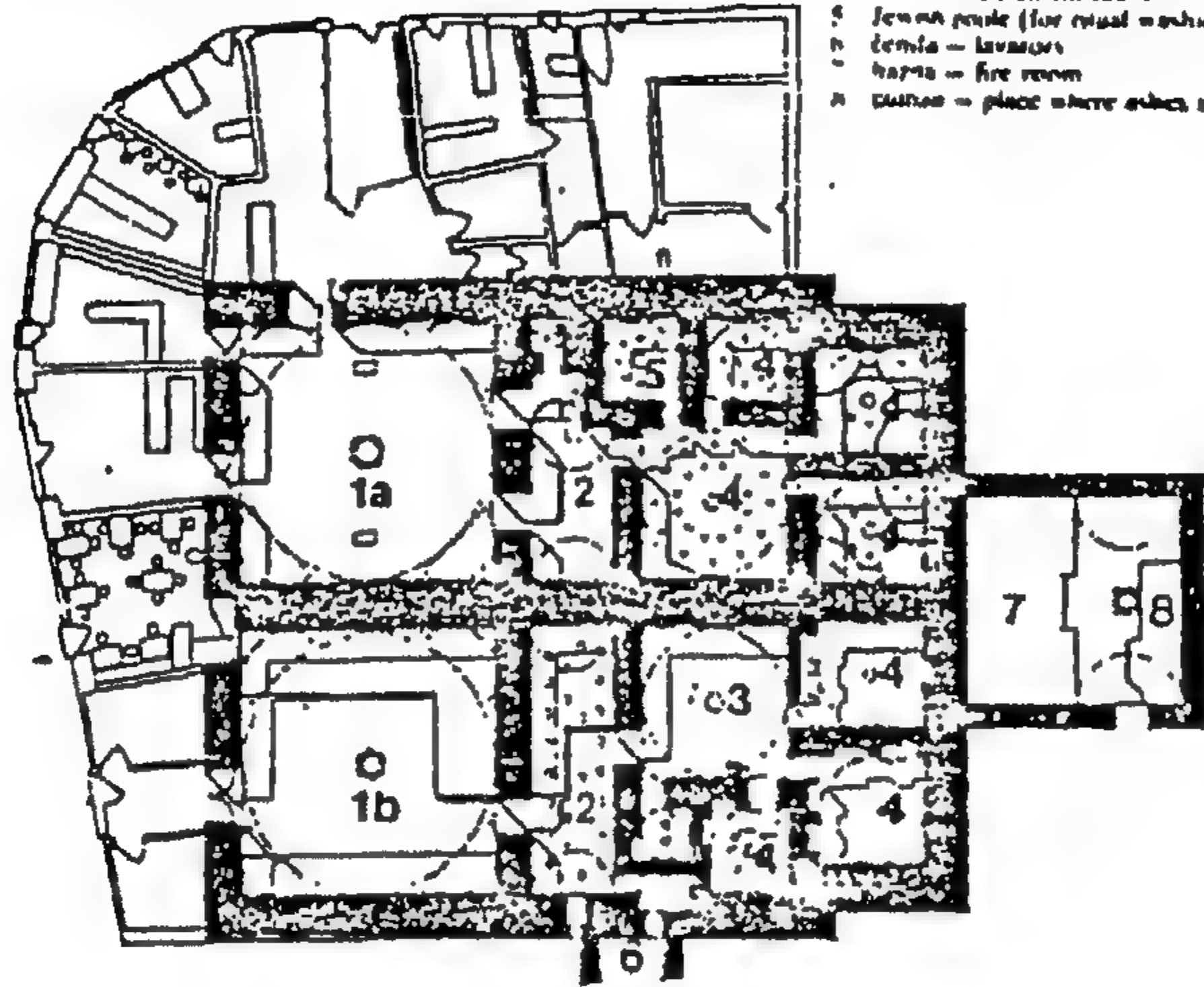
شكل (٣٤٣) مسقط أفقي لجشمة قره مصطفى باشا في أدرنة (عن : ÖNGE) .



شكل (٣٤٤) مسقط أفقى وواجهة چشمه إسماعيل
أغا باستانبول (عن : بارشتا) .

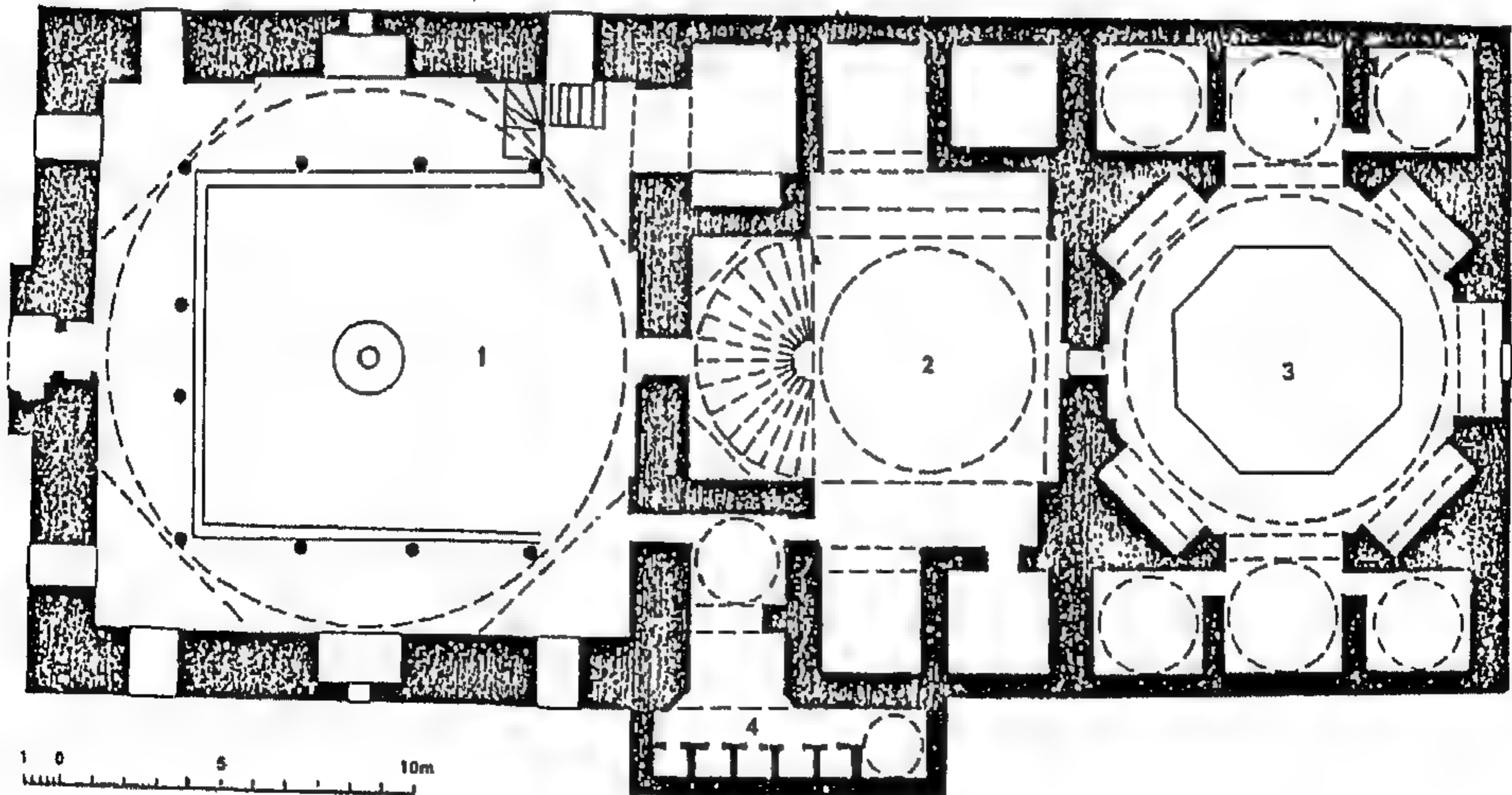


Ground plan

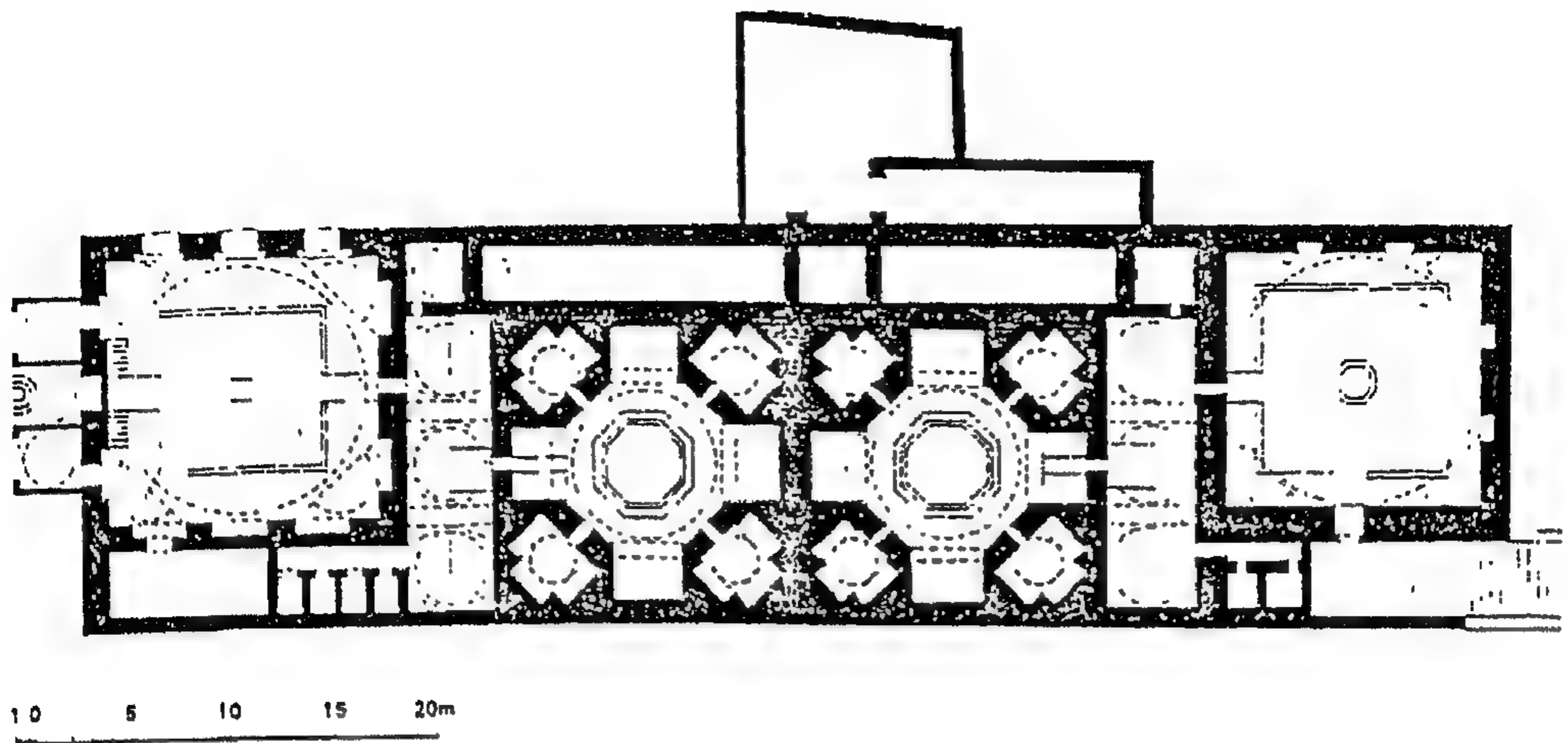


- 1 a Sadrwan - men's bath anteroom
- 1 b Sadrwan - women's bath anteroom
- 2 Kapakak - warmed up bathhouse
- 3 Mezdan - marriage room
- 4 Halat - bathroom room
- 5 Sadrwan (for ritual washing)
- 6 Temla - lavatory
- 7 Hapra - fire room
- 8 Dukkan - place where robes are kept

شكل (٣٤٥) مسقط أفقى وقطاع لحمام غازي خسرو بك فى سراييفو (عن : Pašić) .



شكل (٣٤٦) مسقط أفقى لحمام محمود باشا باستانبول (عن : جودوين) .



شكل (٣٤٧) مسقط أفقى لحمام خاصكى حرم باستانبول (عن : جودوين) .

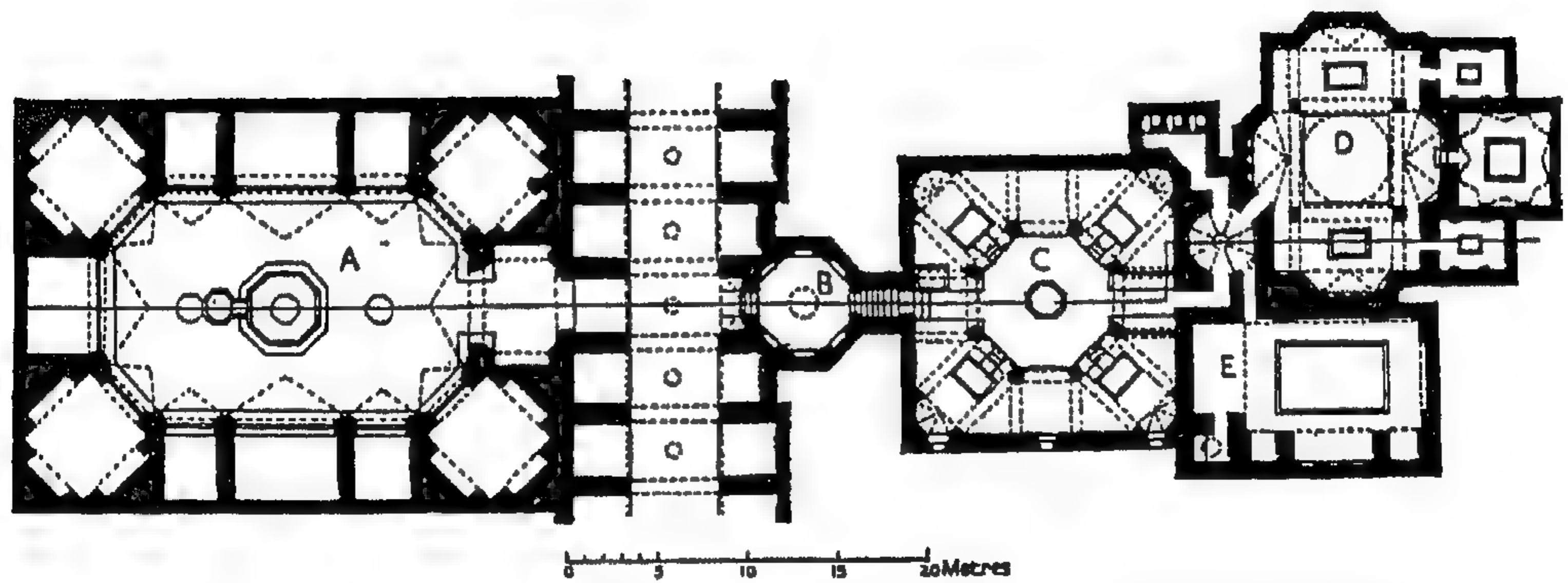
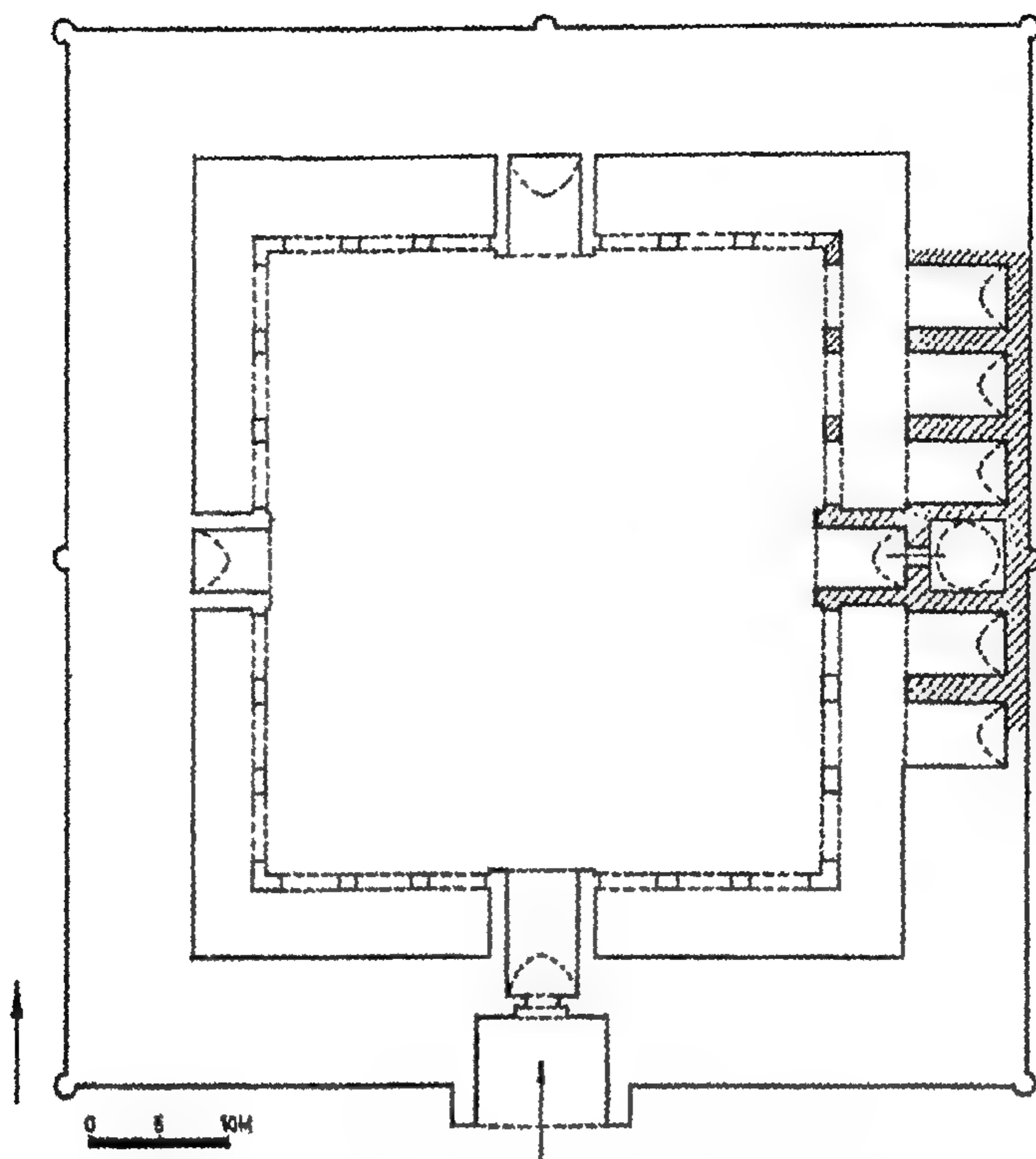


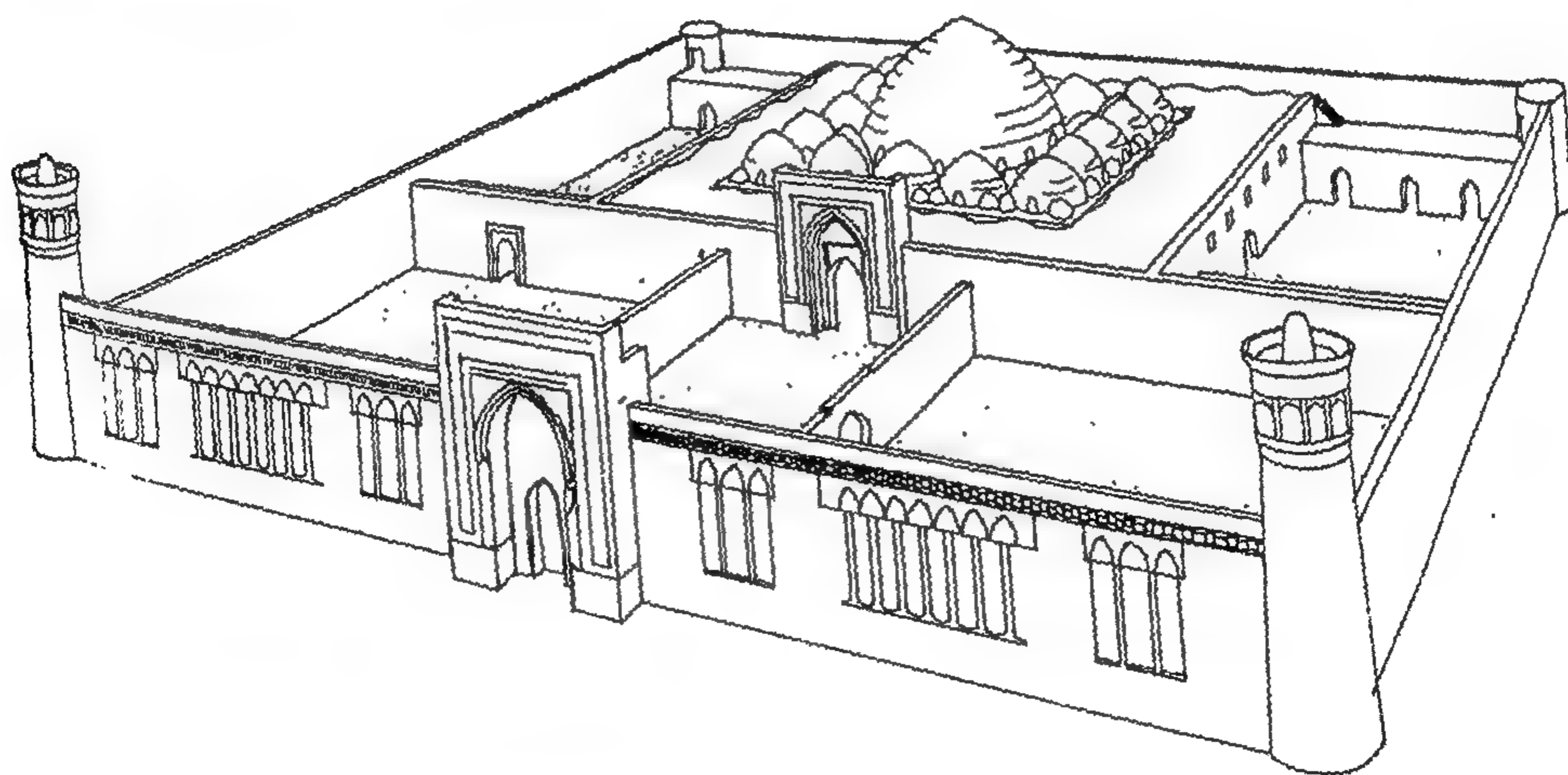
FIG. 427. Kāshān, bazaar and bath of Hājji Sayyid H̄usayn: ground plan.

A. Bazaar. B. Vestibule to bath. C. Main room of bath. D. Hot room.
E. Summer pool.

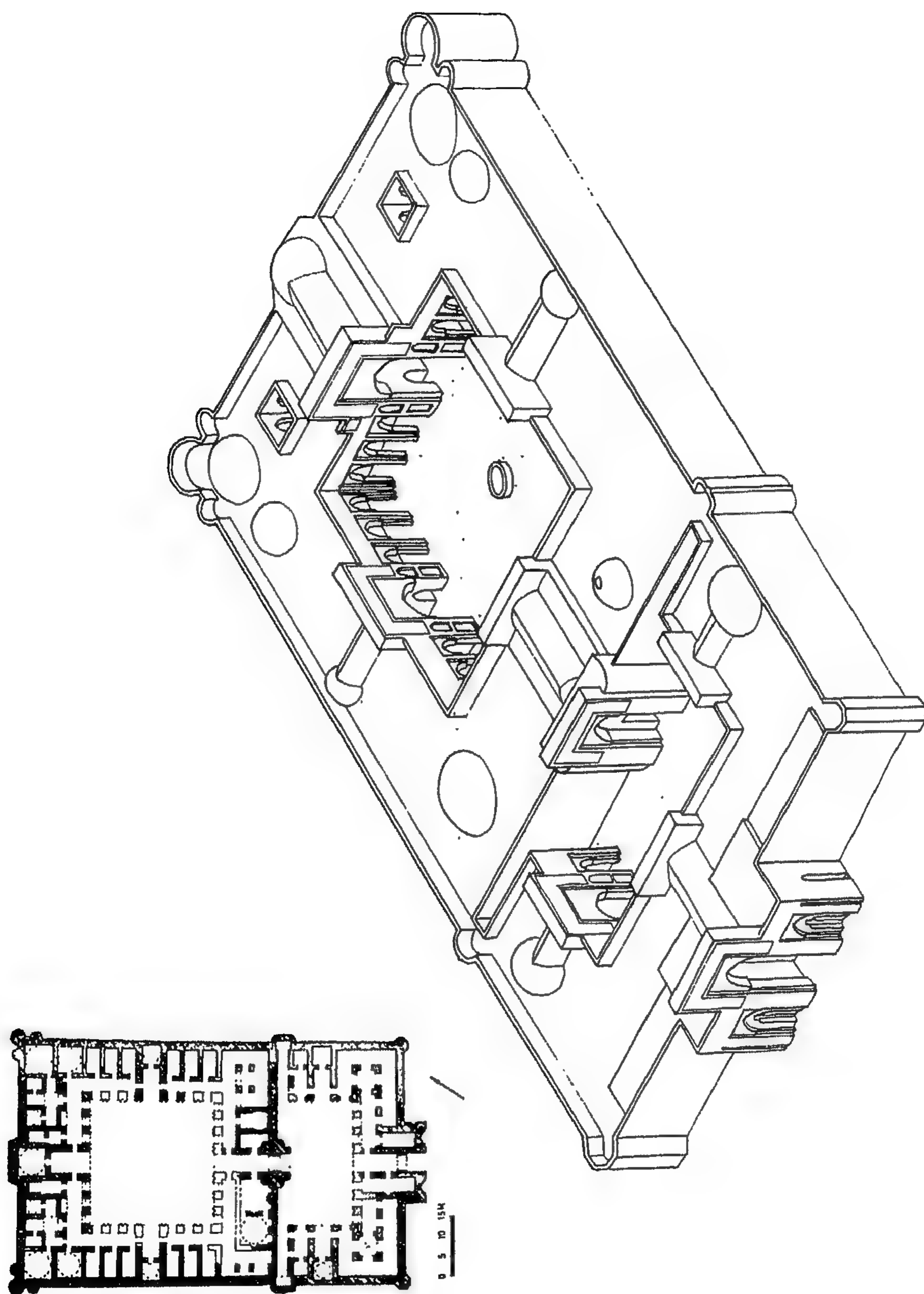
شكل (٣٤٨) مسقط أفقى لحمام (إلى اليمين) حاجى سيد حسين فى قاشان .



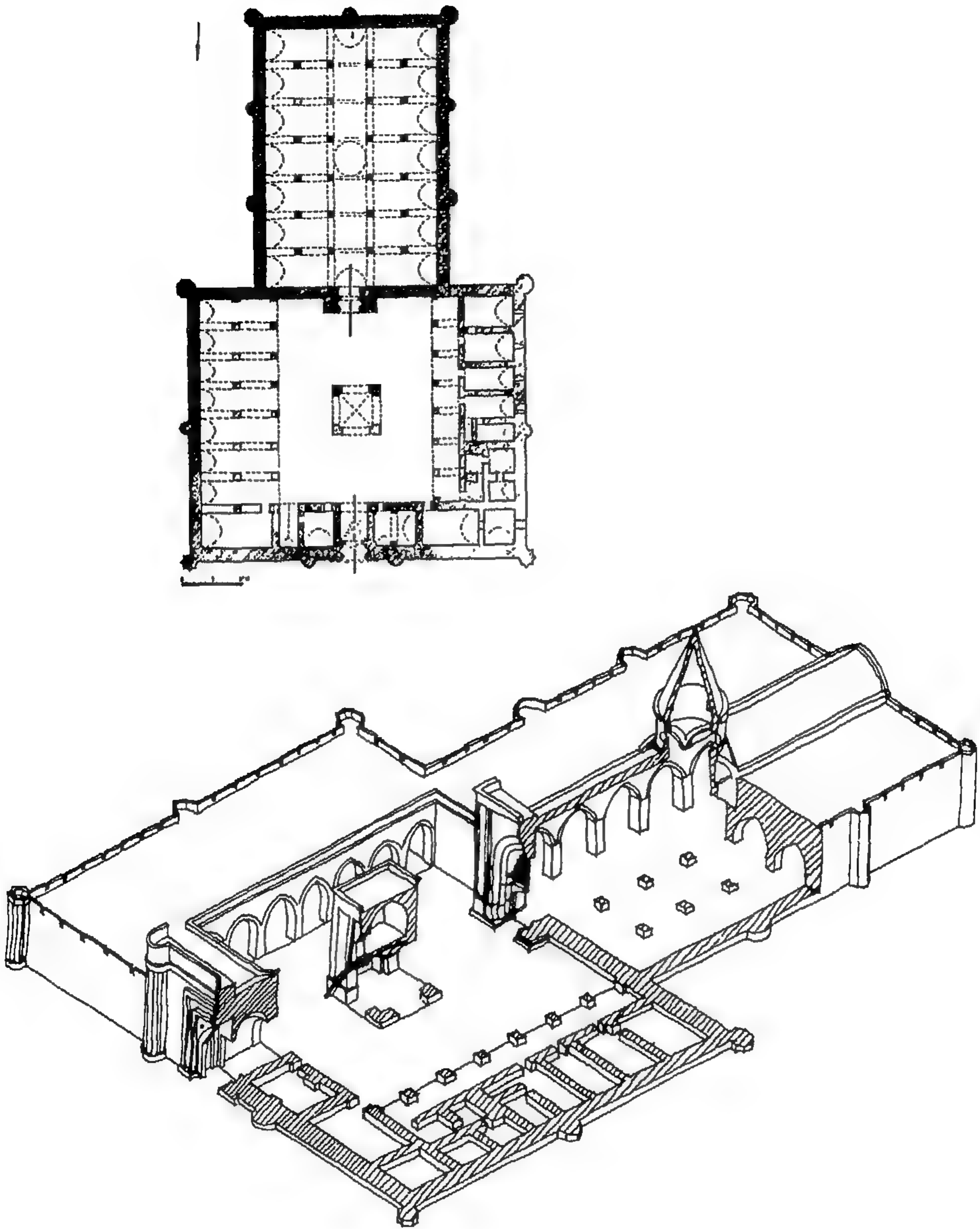
شکل (۳۴۹) مسقط افقی ریاط ماهی (طریق مشهد سرخس) (عن: اصلان آبا) .



شکل (۳۵۰) ریاط ملک (عن: هیلنبراند) .



شکل (۳۵۱) رباط شرف (طریق نیسابور - مرو) عن : (اصلان آبا) و (هیلنبراند) .



شكل (٣٥٢) سلطان خان قرب قيسرية (علي طريق قيسرية - سيواس عند قرية بالاس)
 (عن : أصلان آبا (أعلى) وهيلنبراند (أسفل) .

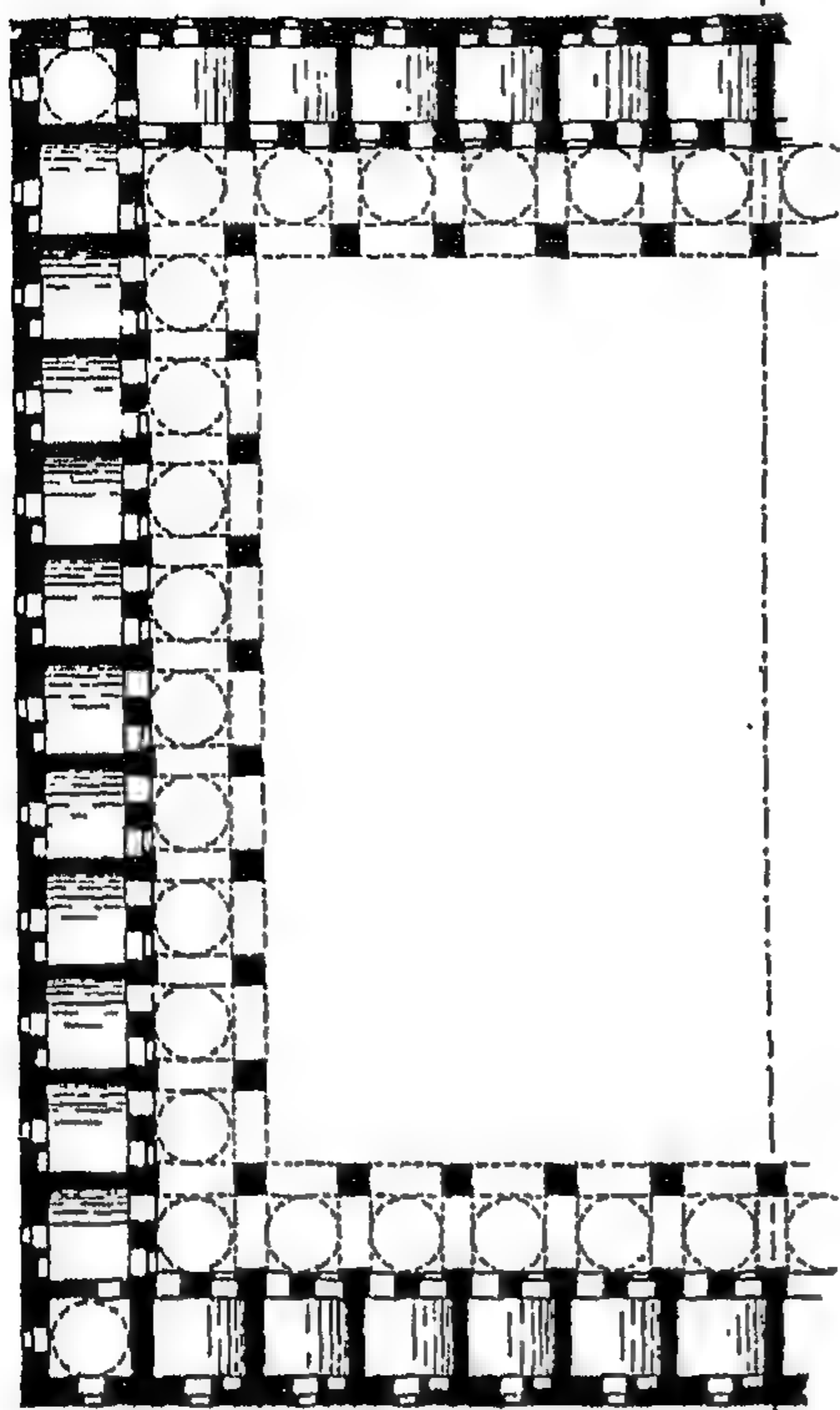


Fig. 144.
Mahmud-Pascha-Han.

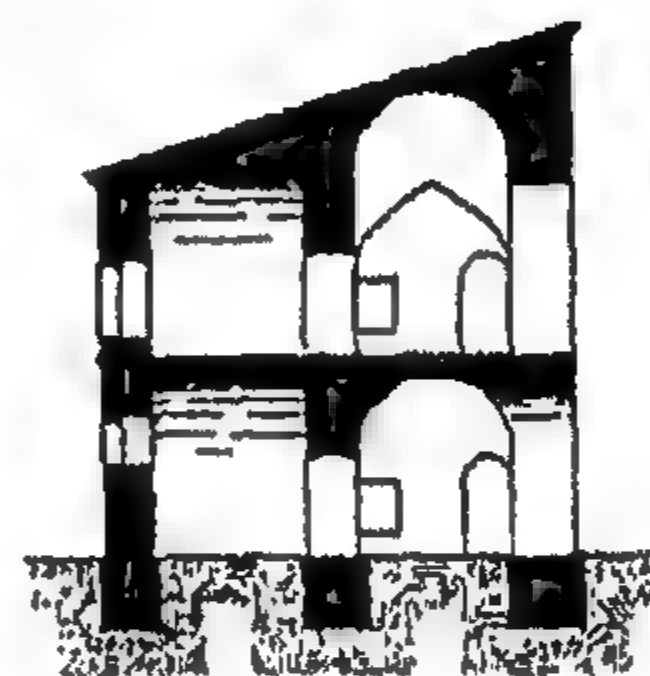
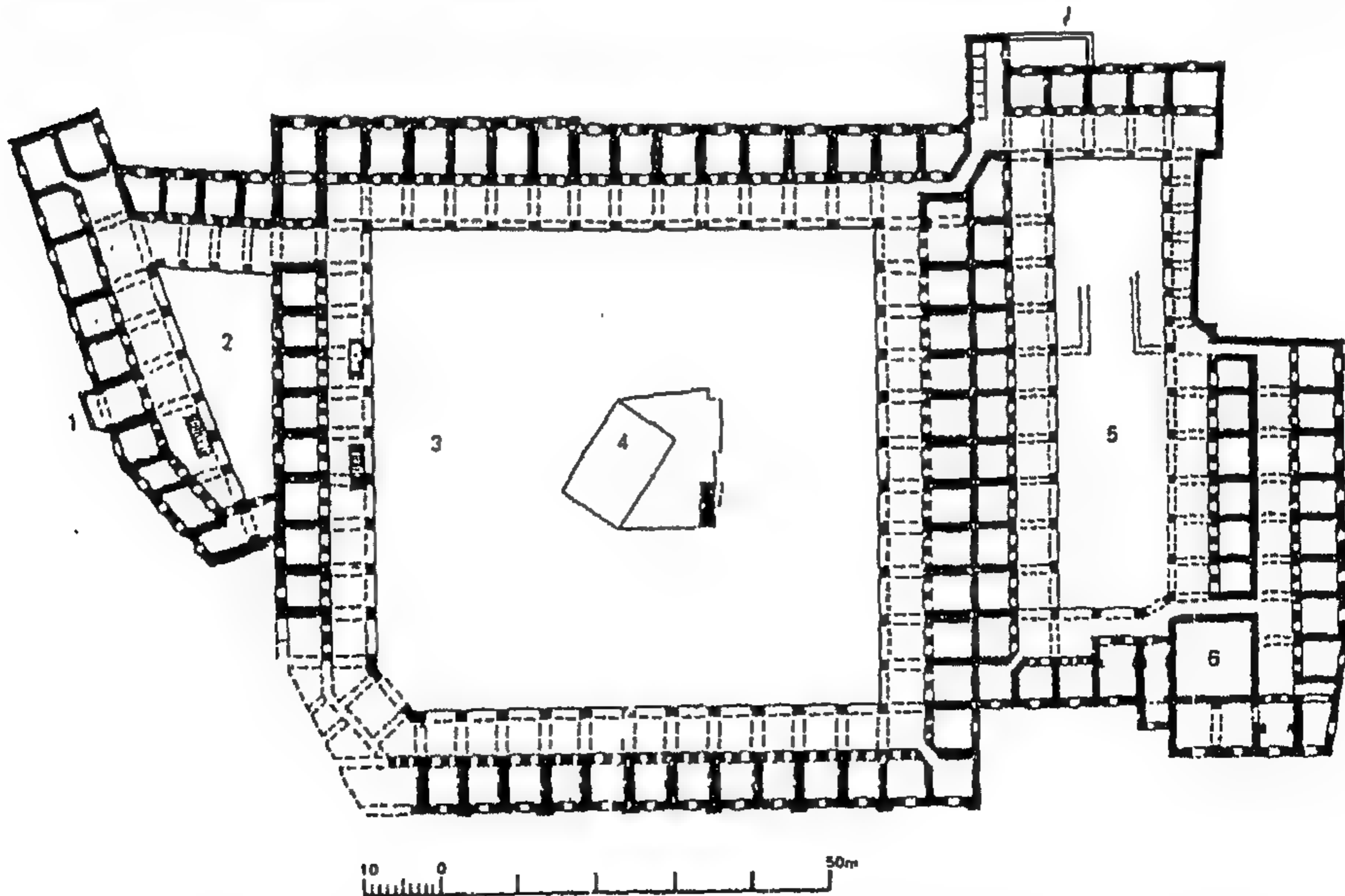
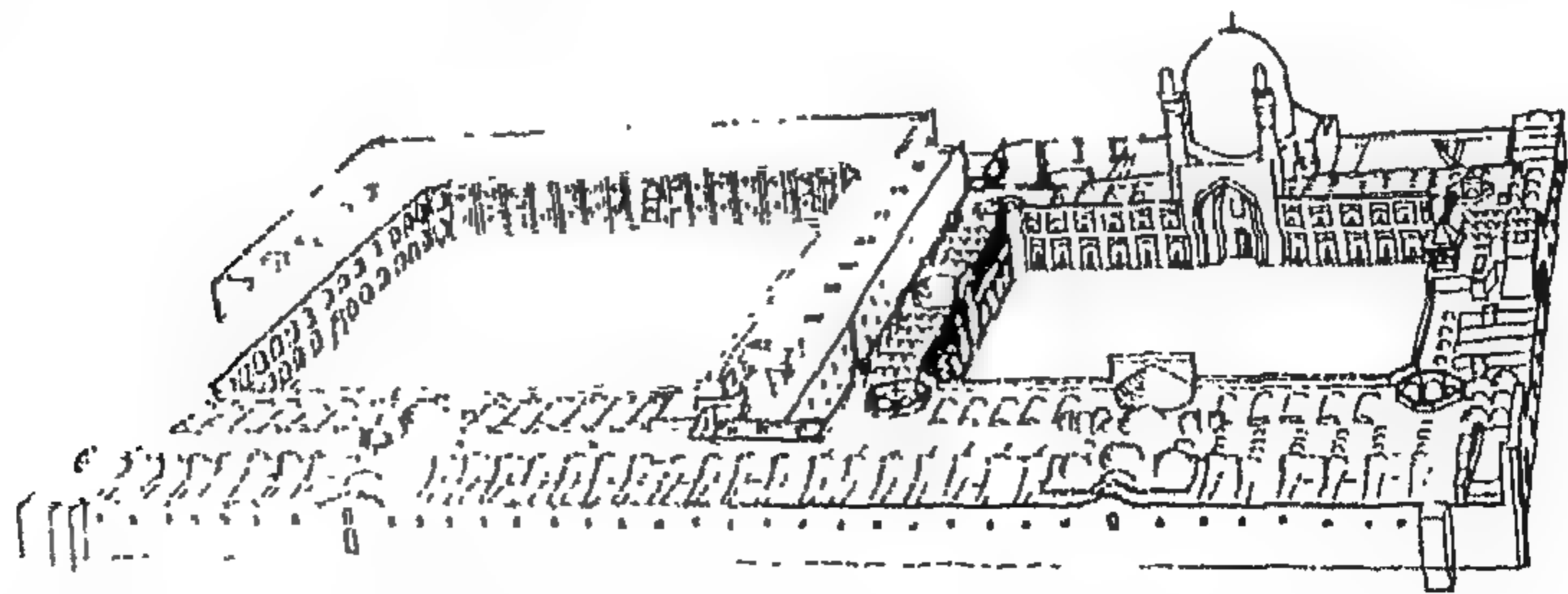
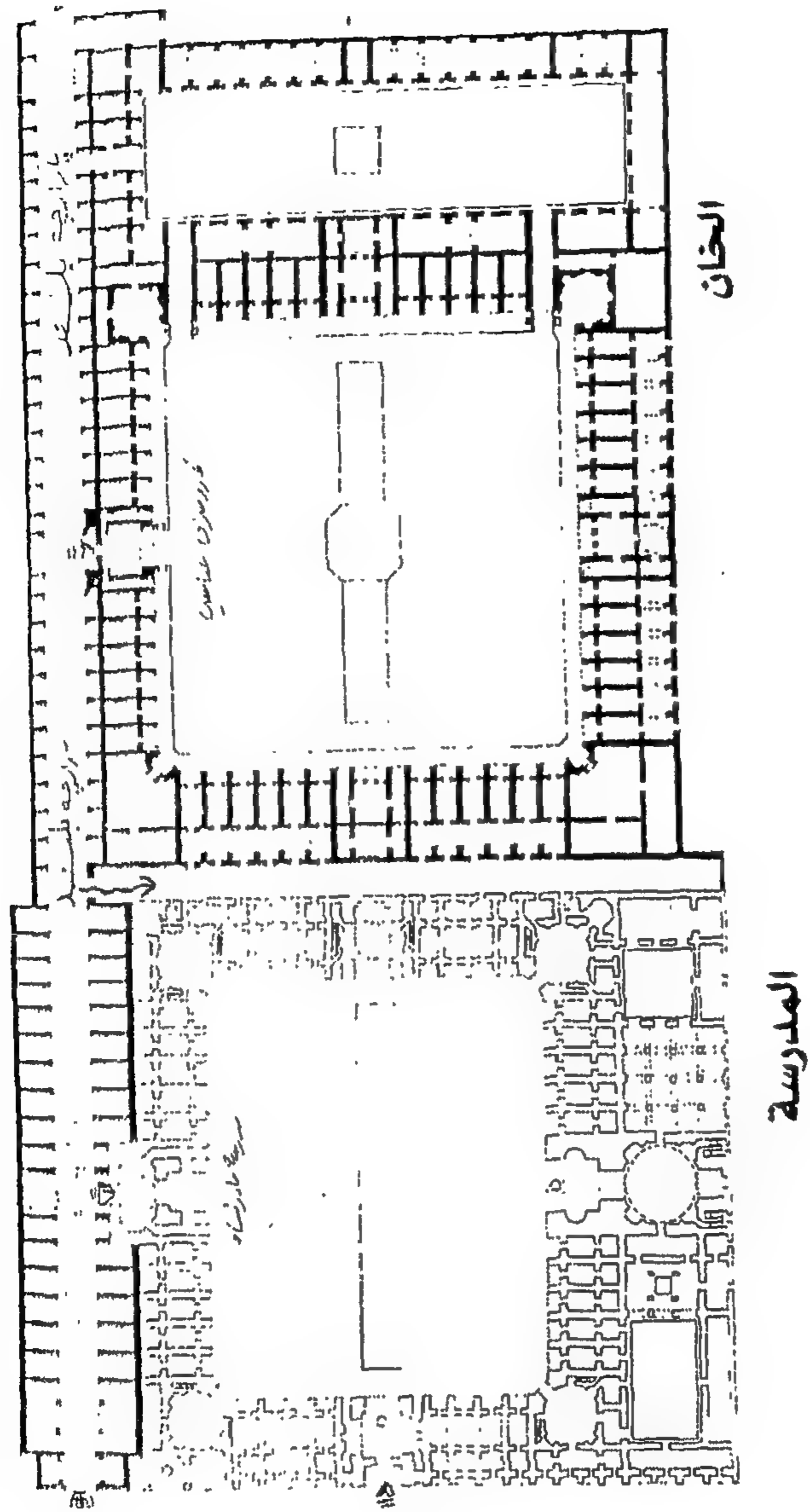


Fig. 145.
Schnitt durch den Mahmud-Pascha-Han.

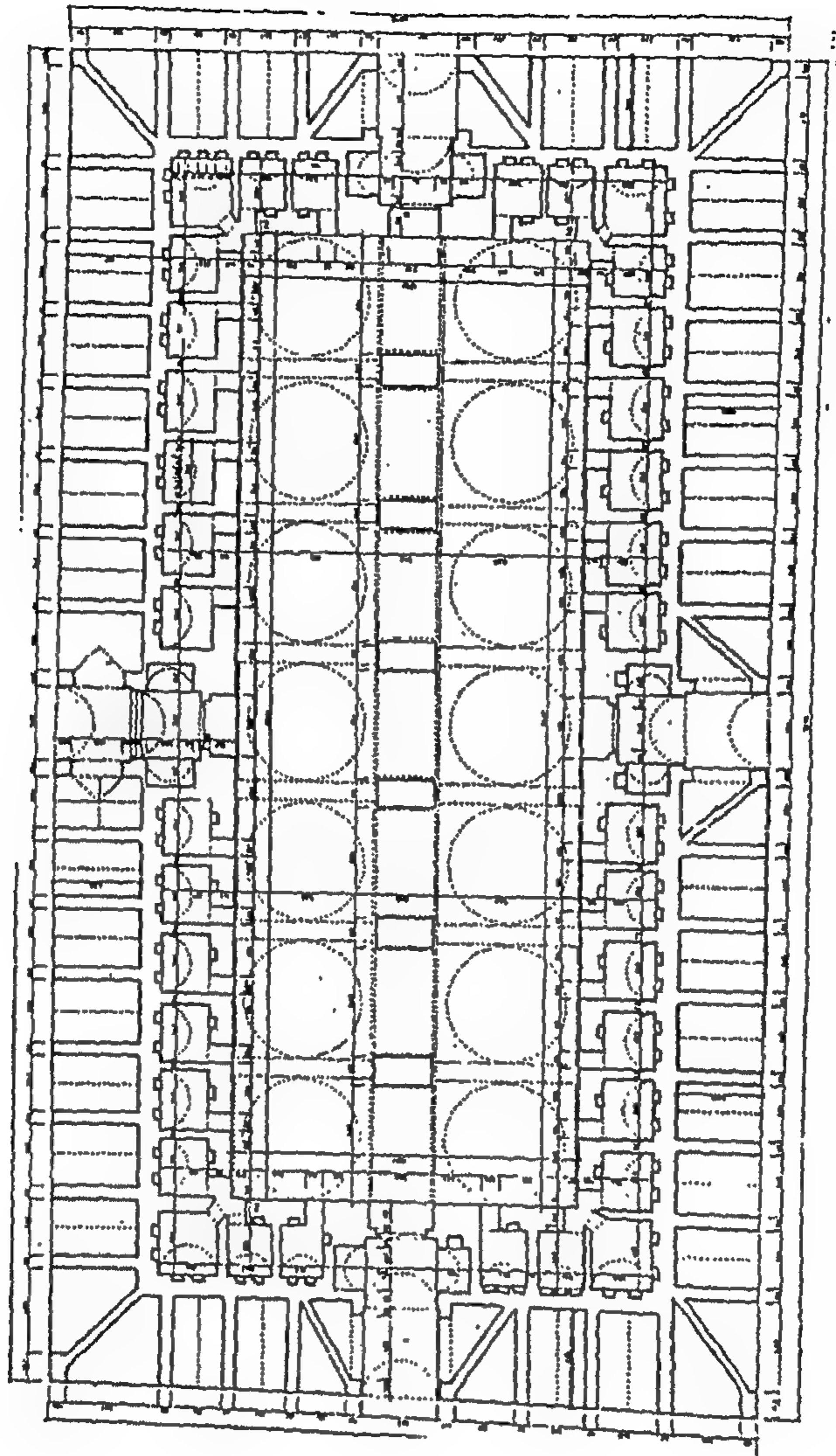
شكل (٣٥٣) مسقط أفقى وقطاع لخان محمود باشا فى بورصة (أوبروسه) (عن : فيلد) .



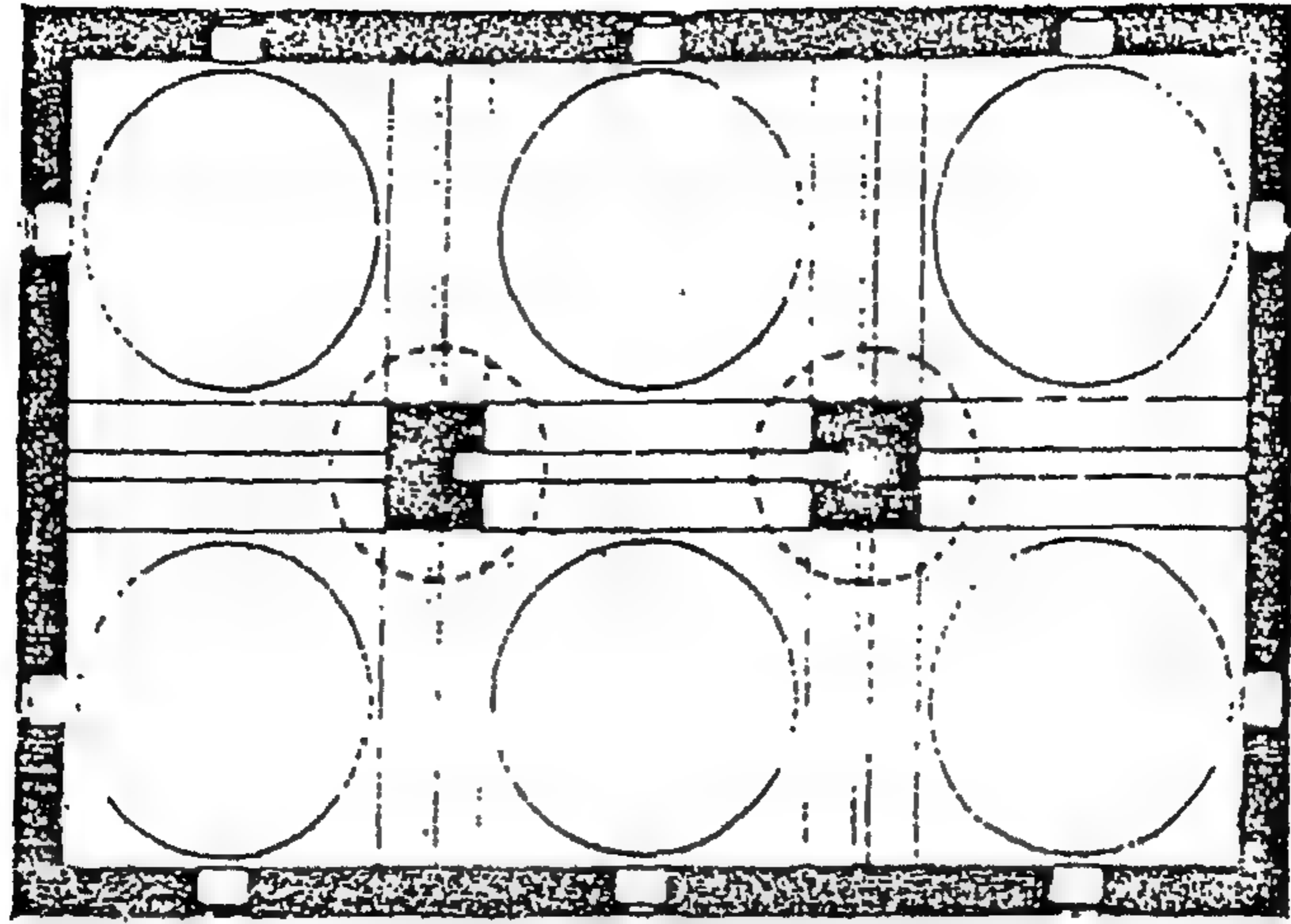
شكل (٣٥٤) مسقط أفقى لوالده خان فى استانبول (عن : جودوين) .



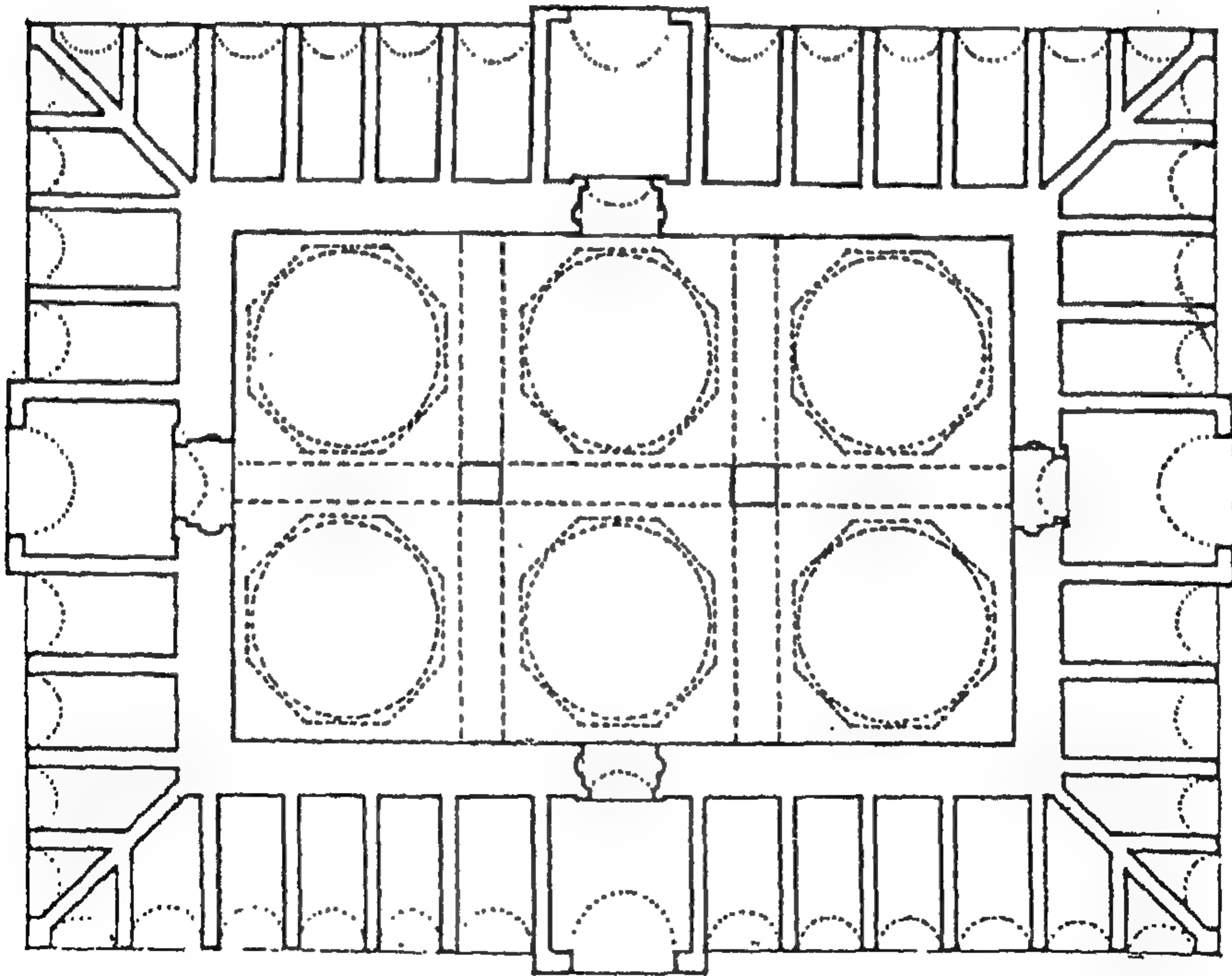
شكل (٣٥٥) كرفان سراي عباسي (خان) ومدرسة مادرشاه في أصفهان .



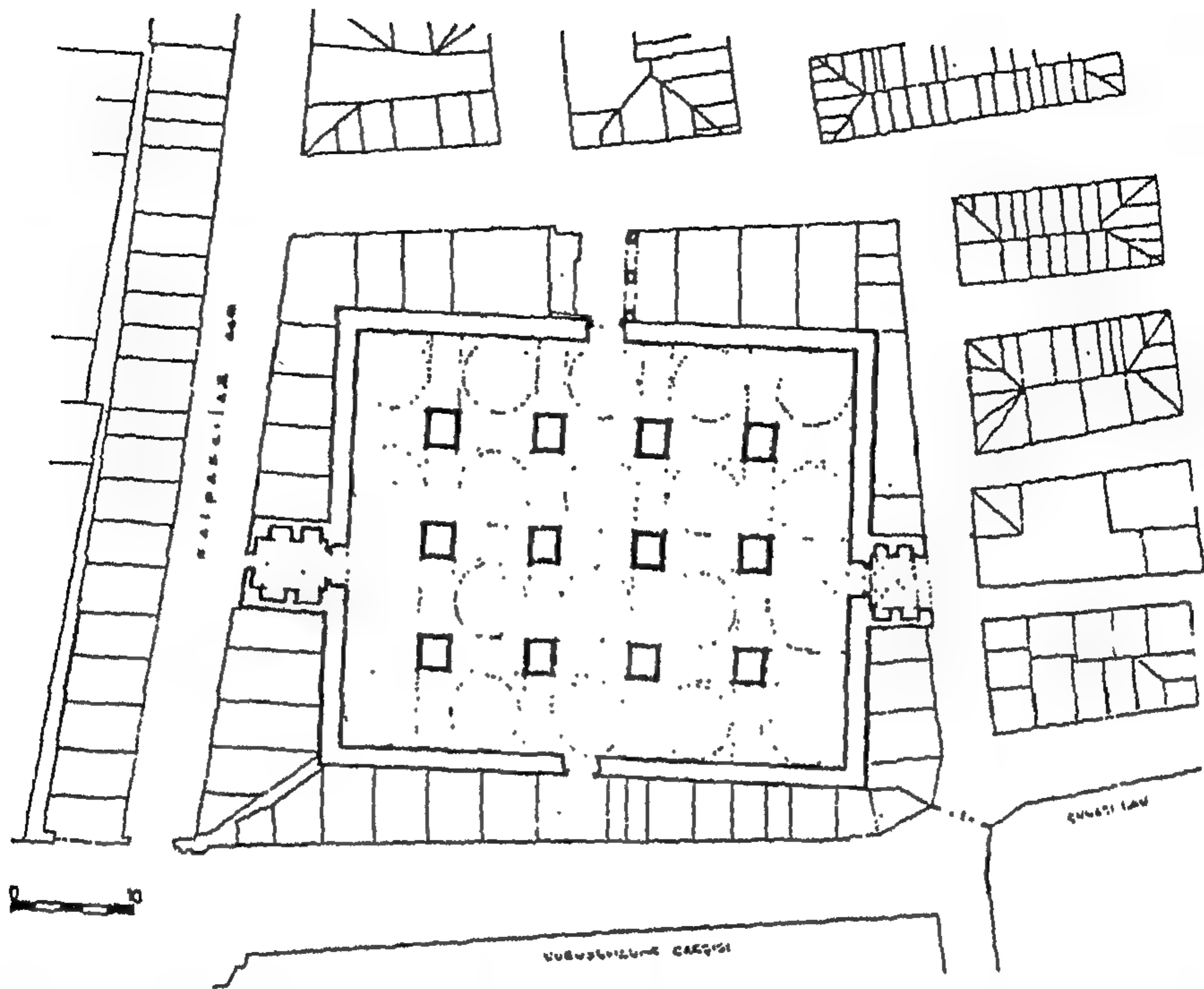
شكل (٣٥٦) مسقط أفقي لبادستان أدرنه (عن : Cezar) .



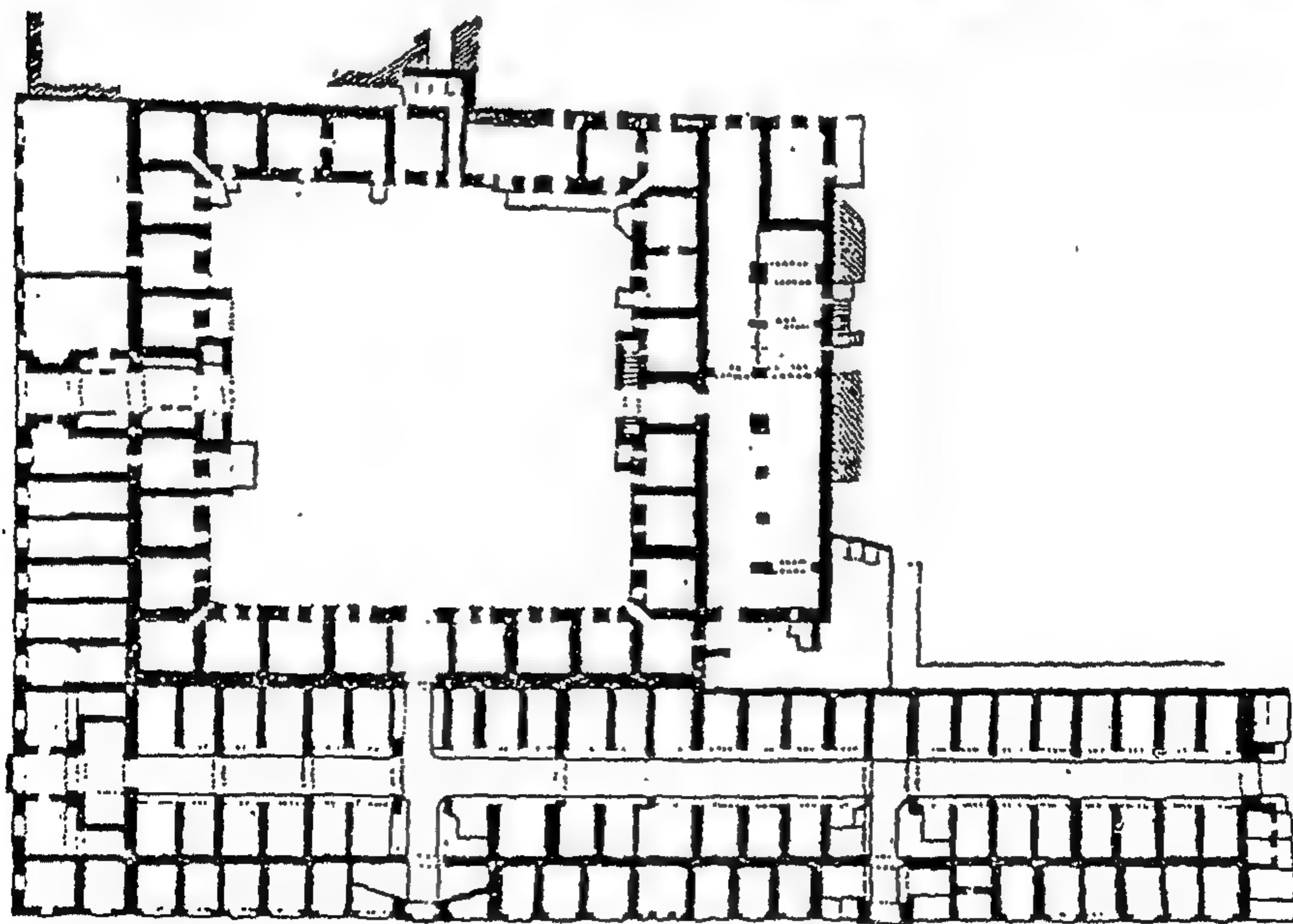
شكل (٣٥٧) مسقط أفقى لبادستان رستم باشا المعروف ببادستان بورصة
فى سراييقو (عن : Pašić) .



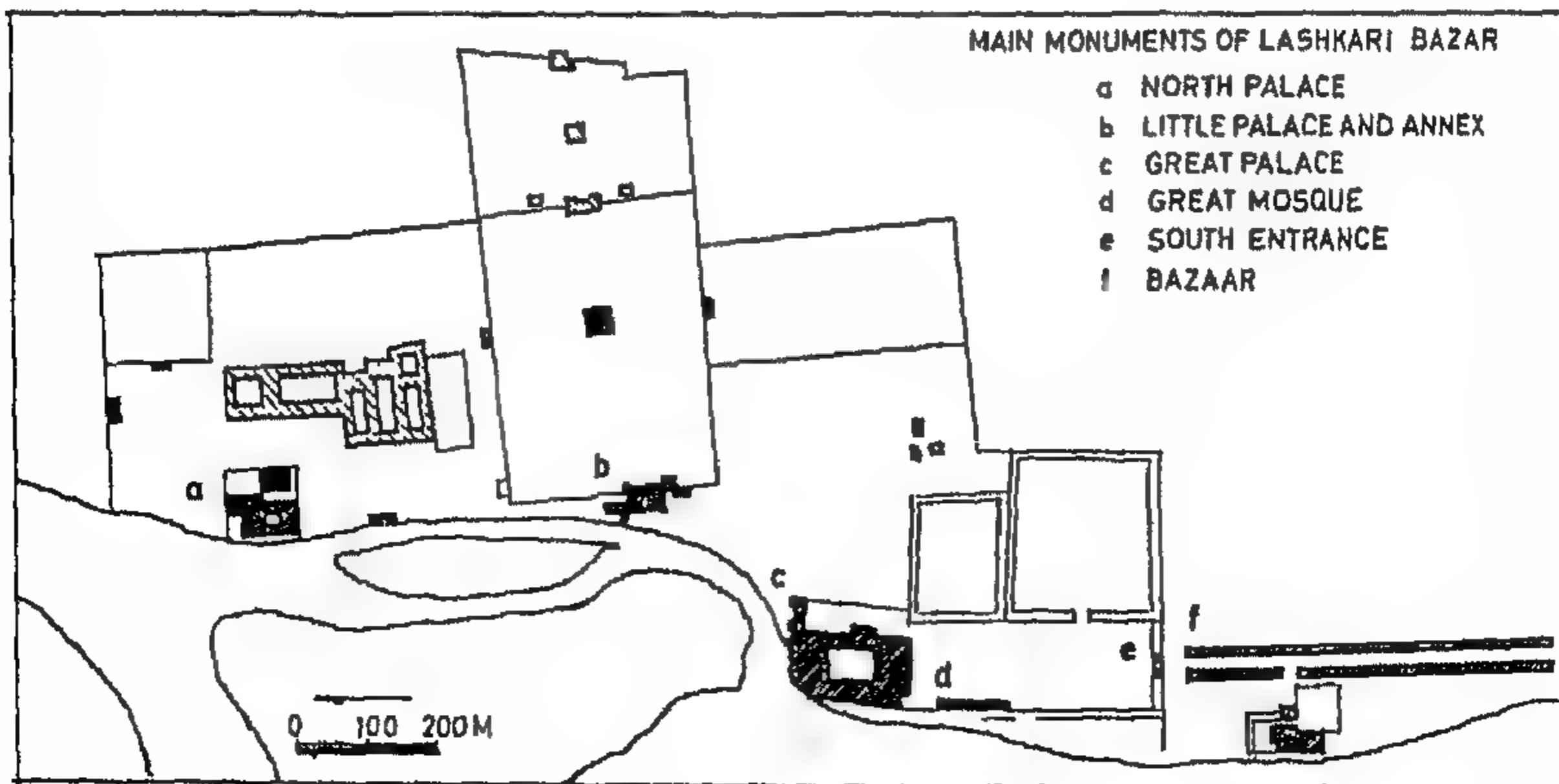
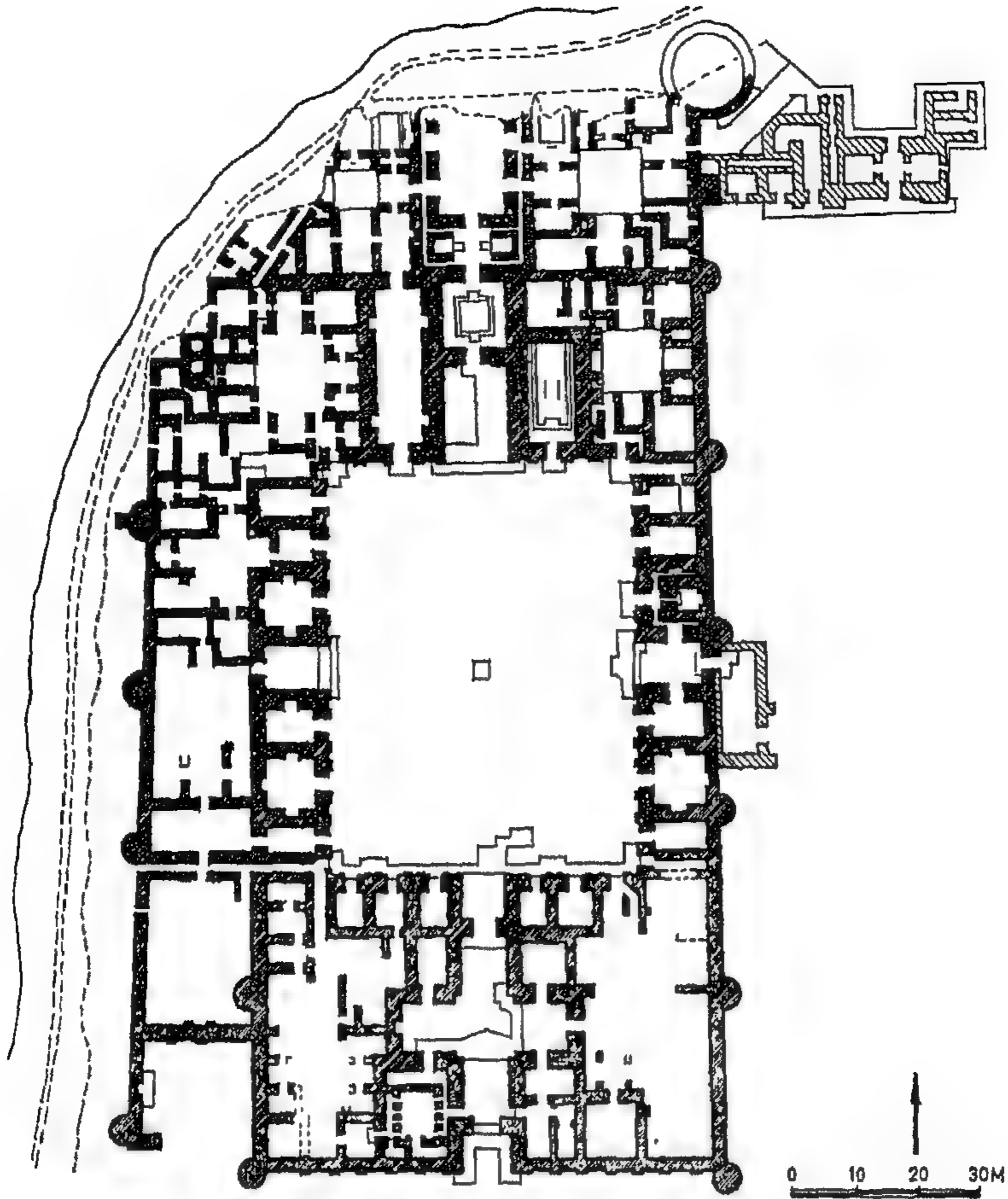
شكل (٣٥٨) مسقط أفقى لبادستان سيريز باليونان (عن : Cezar) .



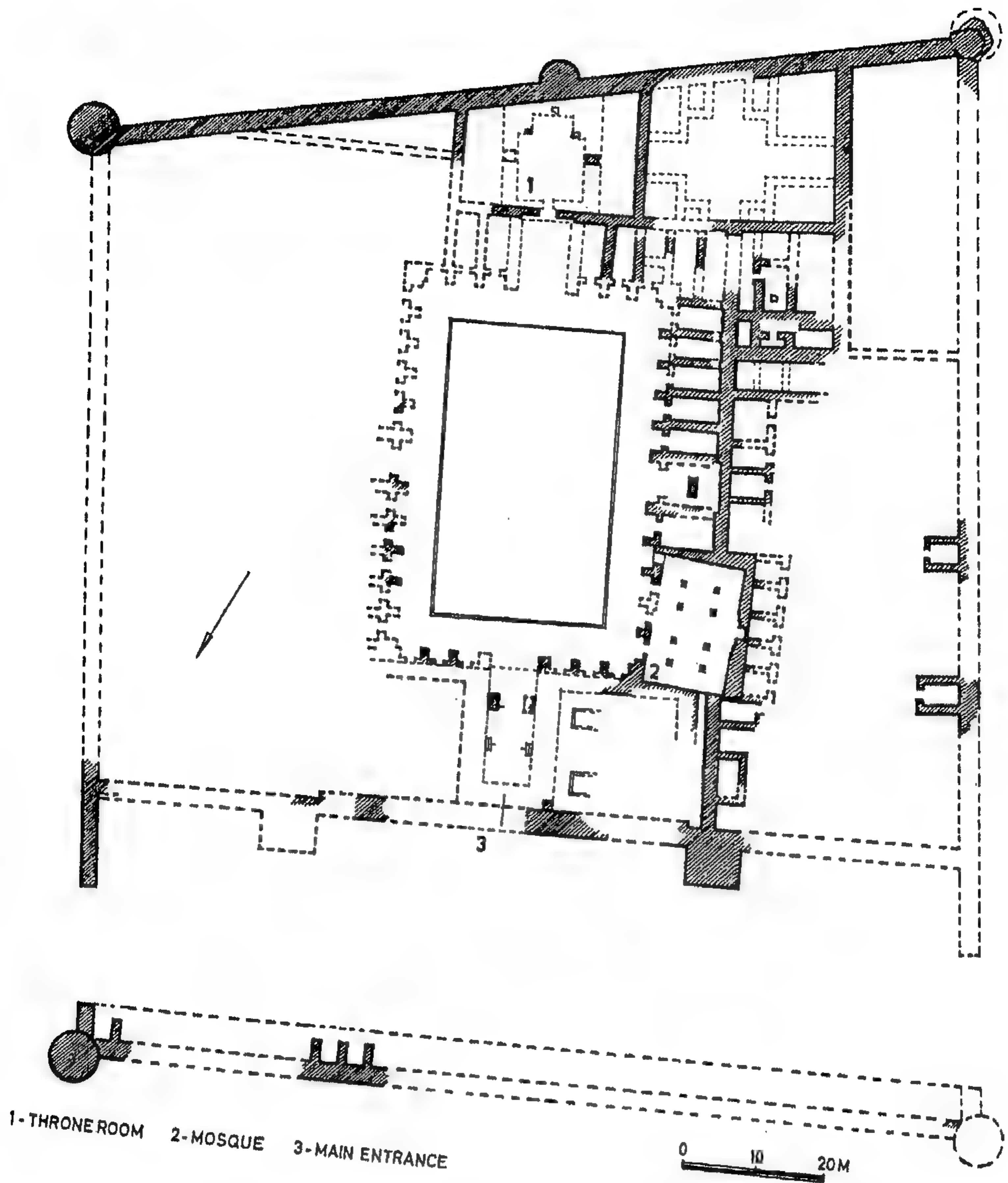
شكل (٣٥٩) مسقط أفقي لصندل بادستان باستانبول (عن : Cezar) .



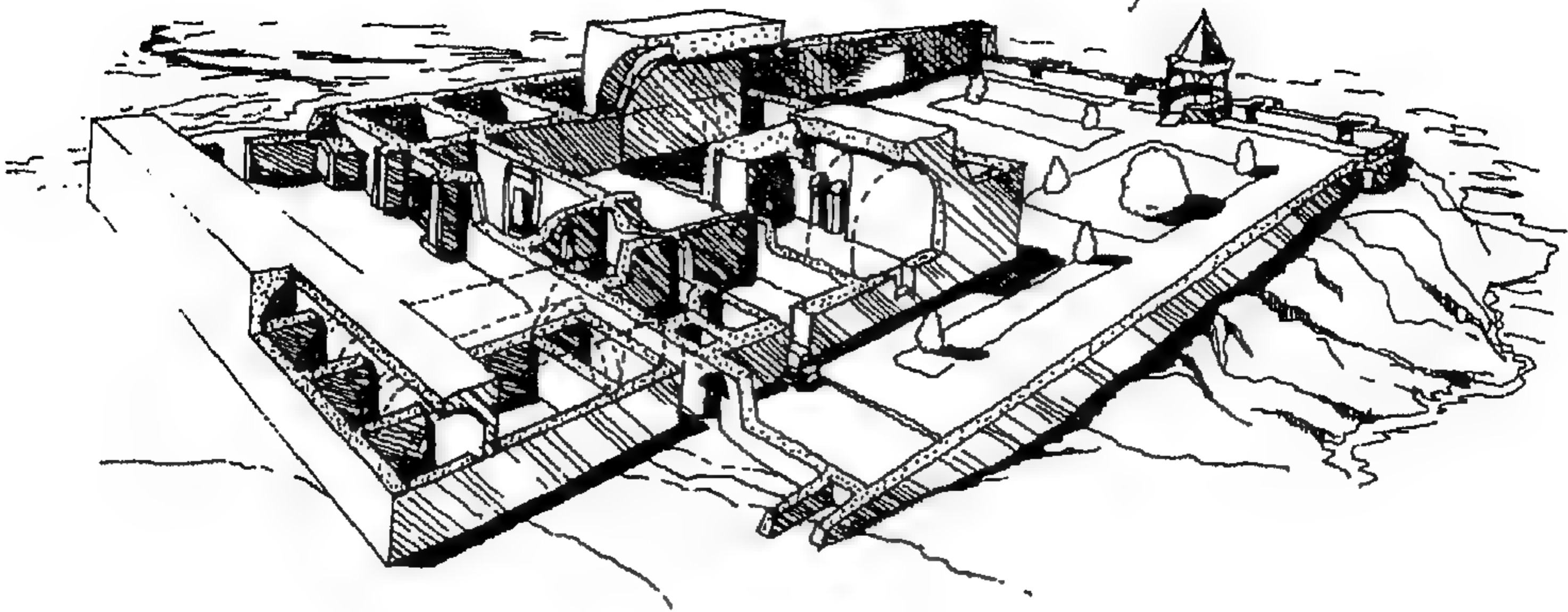
شكل (٣٦٠) مسقط أفقي لاراستا غازى خسرو بك الملحقة
بخان Taşlı فى سراييفو (عن : Cezar) .



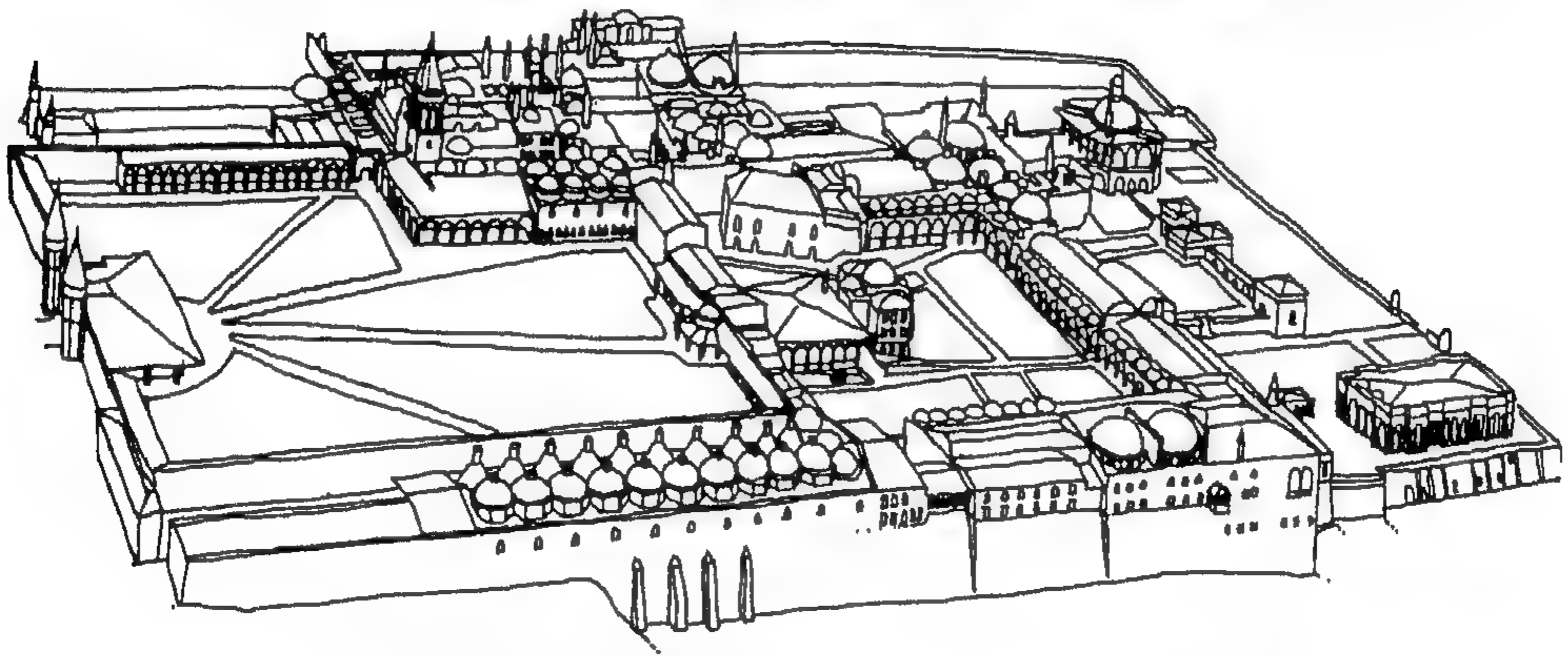
شكل (٣٦١) مسقط أفقى لقصر لشكرى بازار (عن : أصلان آبا) .



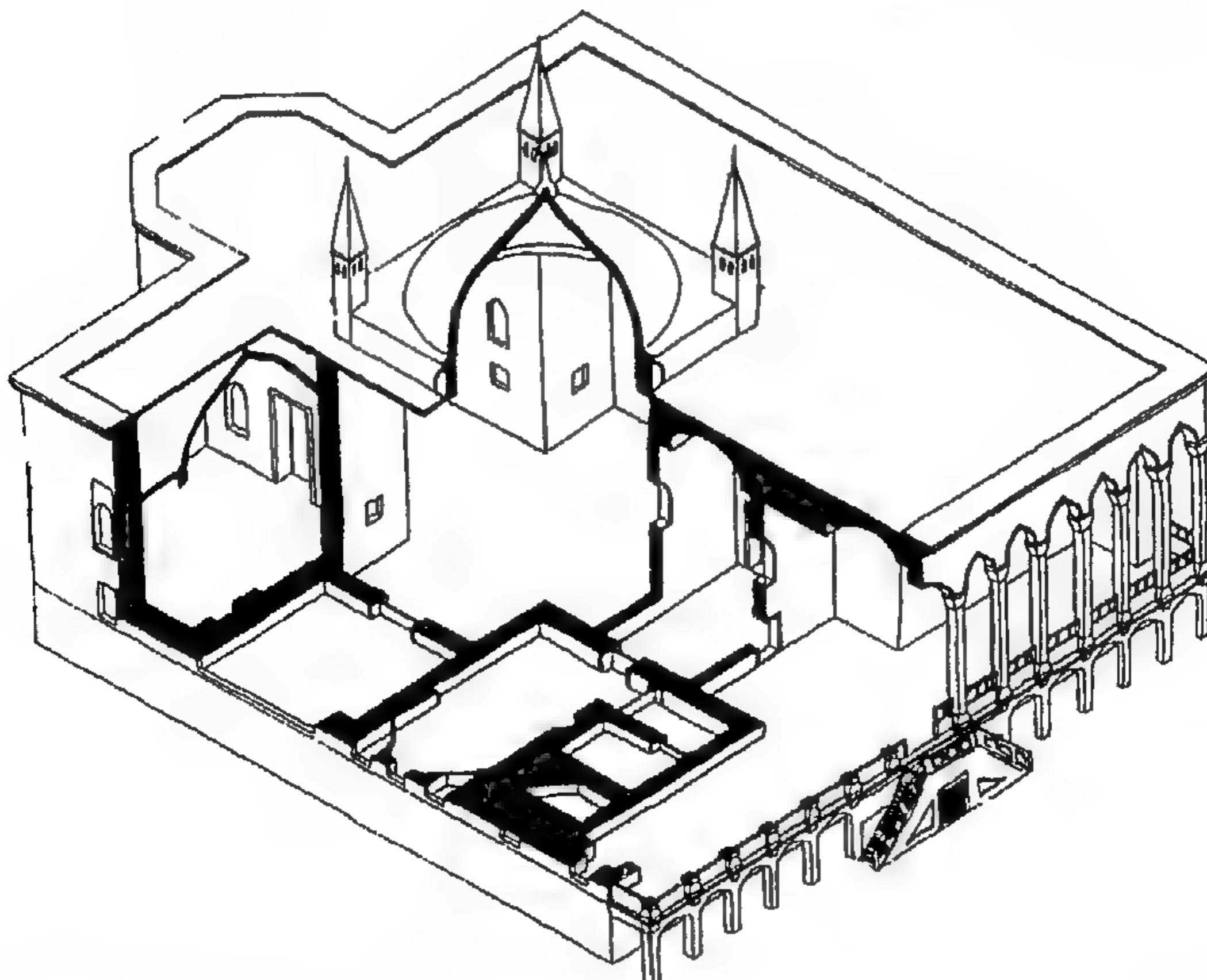
شكل (٣٦٢) مسقط أفقى لقصر السلطان مسعود الثالث فى غزنه (عن :اصلان ابا).



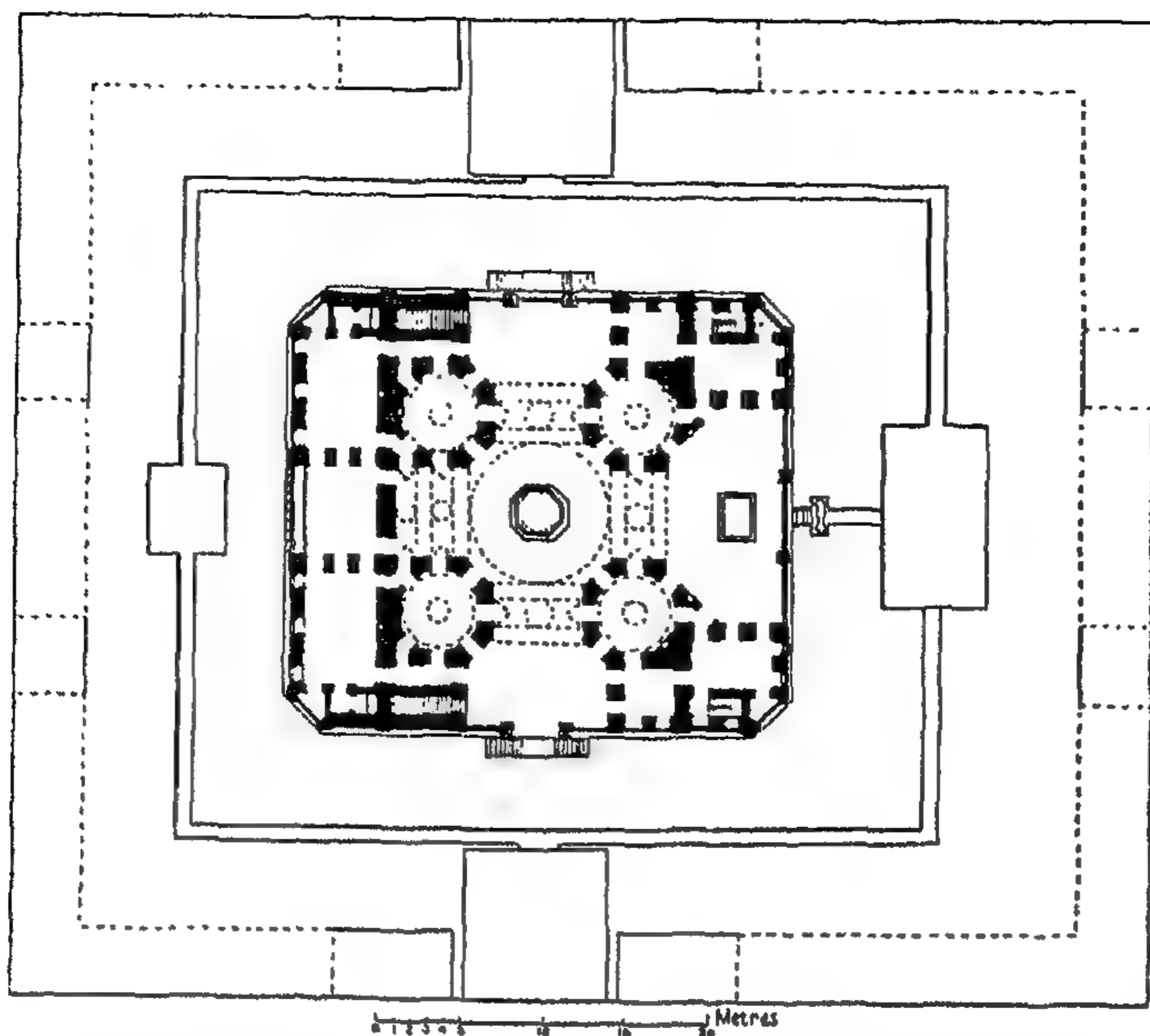
شکل (۳۶۳) قصر السلطان السلجوقی علاء الدین کیقباد (عن : هیلنبراند) .



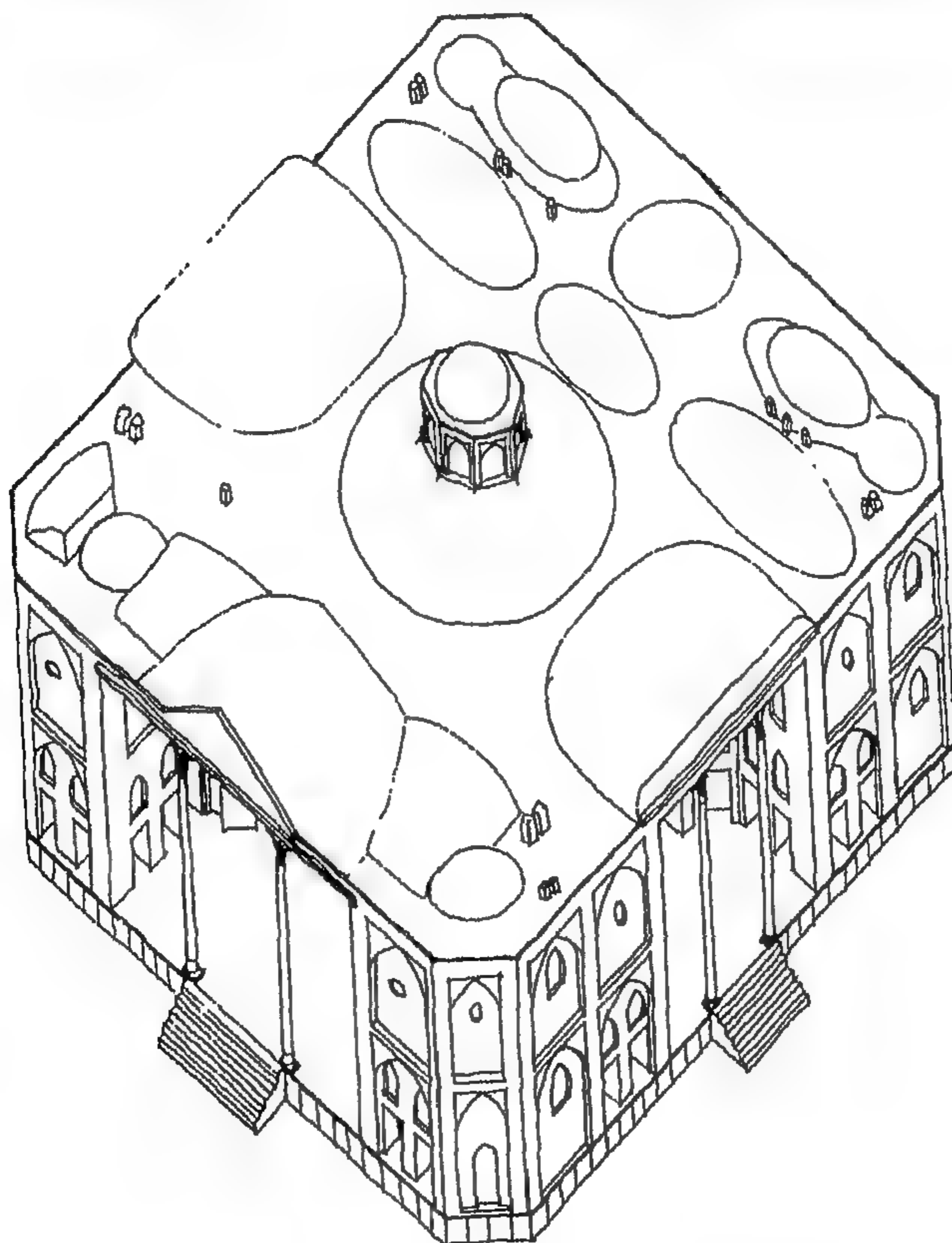
شکل (۳۶۴) طوبقابی سرای باستانبول (عن : هیلنبراند) .



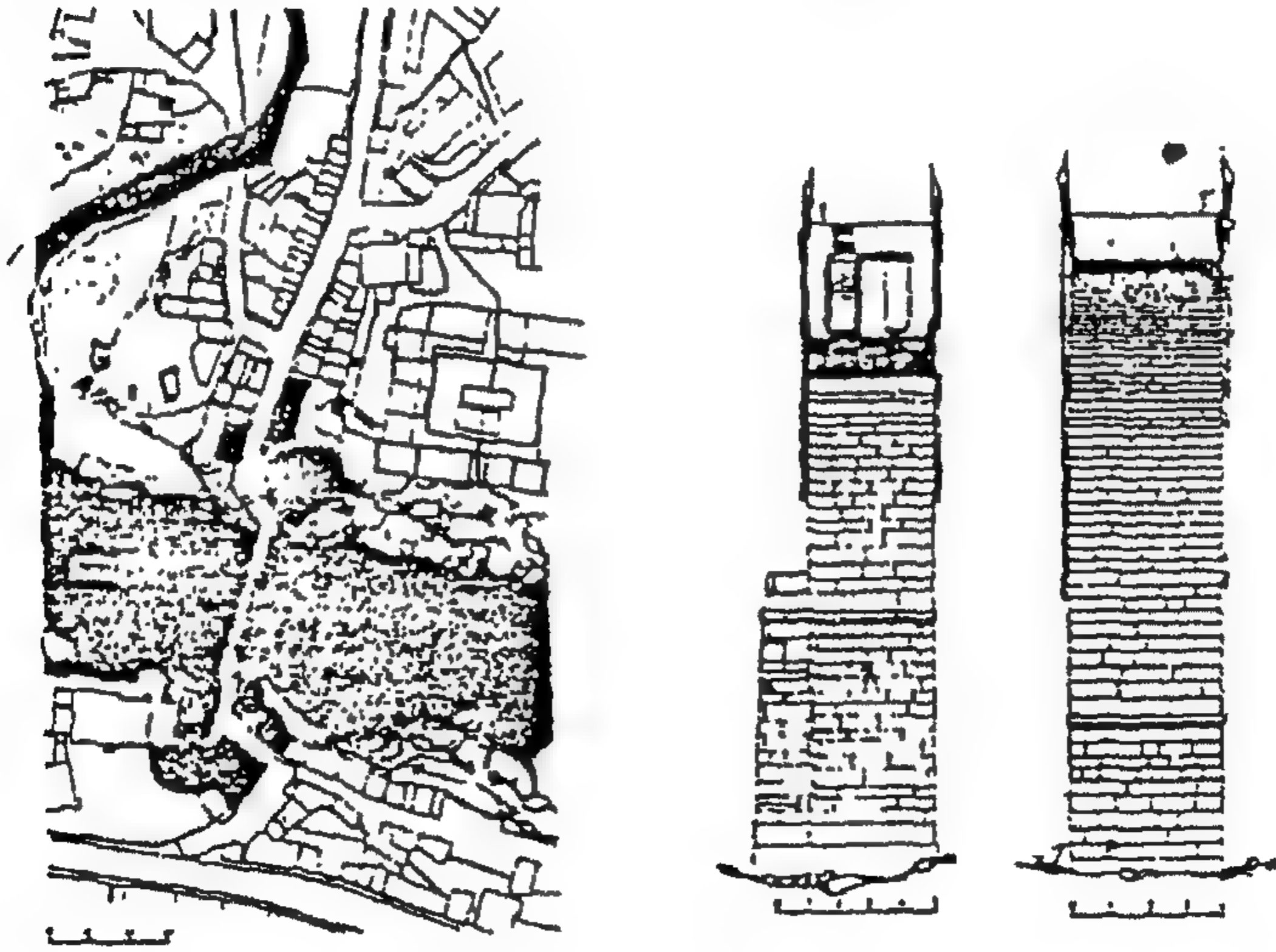
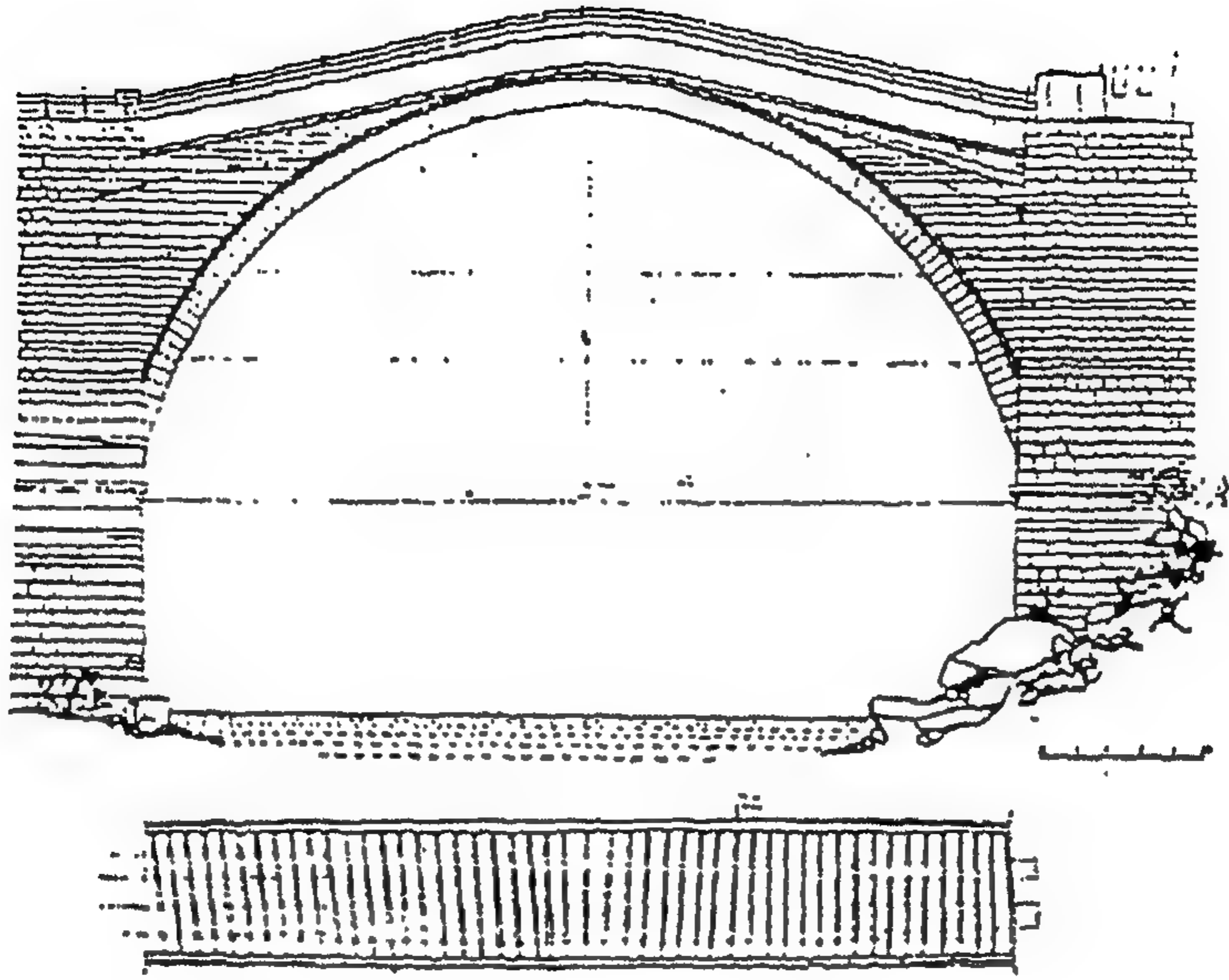
شکل (۳۶۵) چینیلی کوچک بطوبقابی سرای فی استانبول (عن : هیلنبراند) .



شكل (٣٦٦) مسقط افقى لقصر هشت بهشت الجنات الثمان فى آصفهان (عن : بوب) .



شكل (٣٦٧) قصر هشت بهشت بأصفهان (عن : هيلنبراند) .



شكل (٣٦٨) الجسر القديم (the stari Most) في موستار (عن : Pašić) .

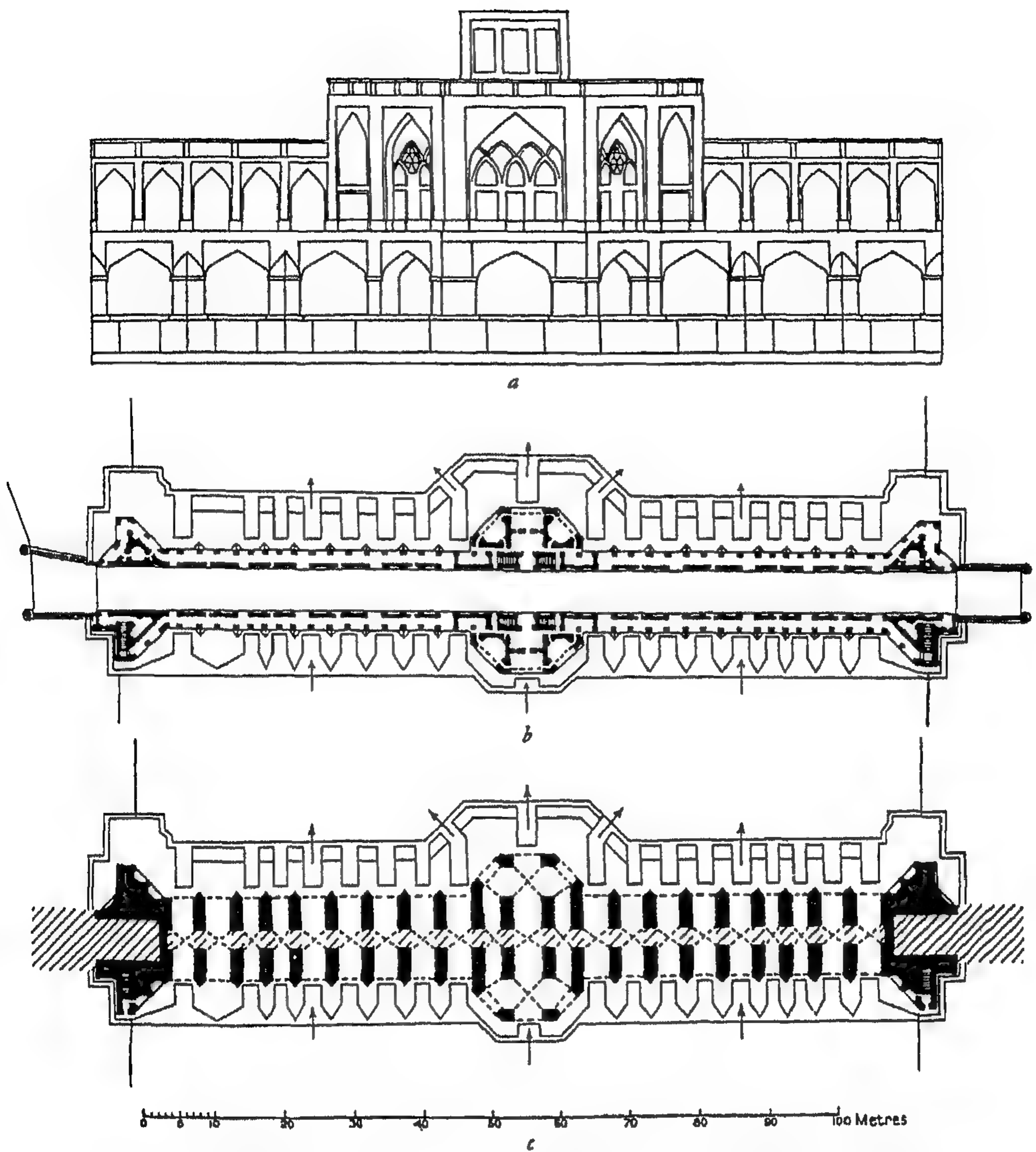
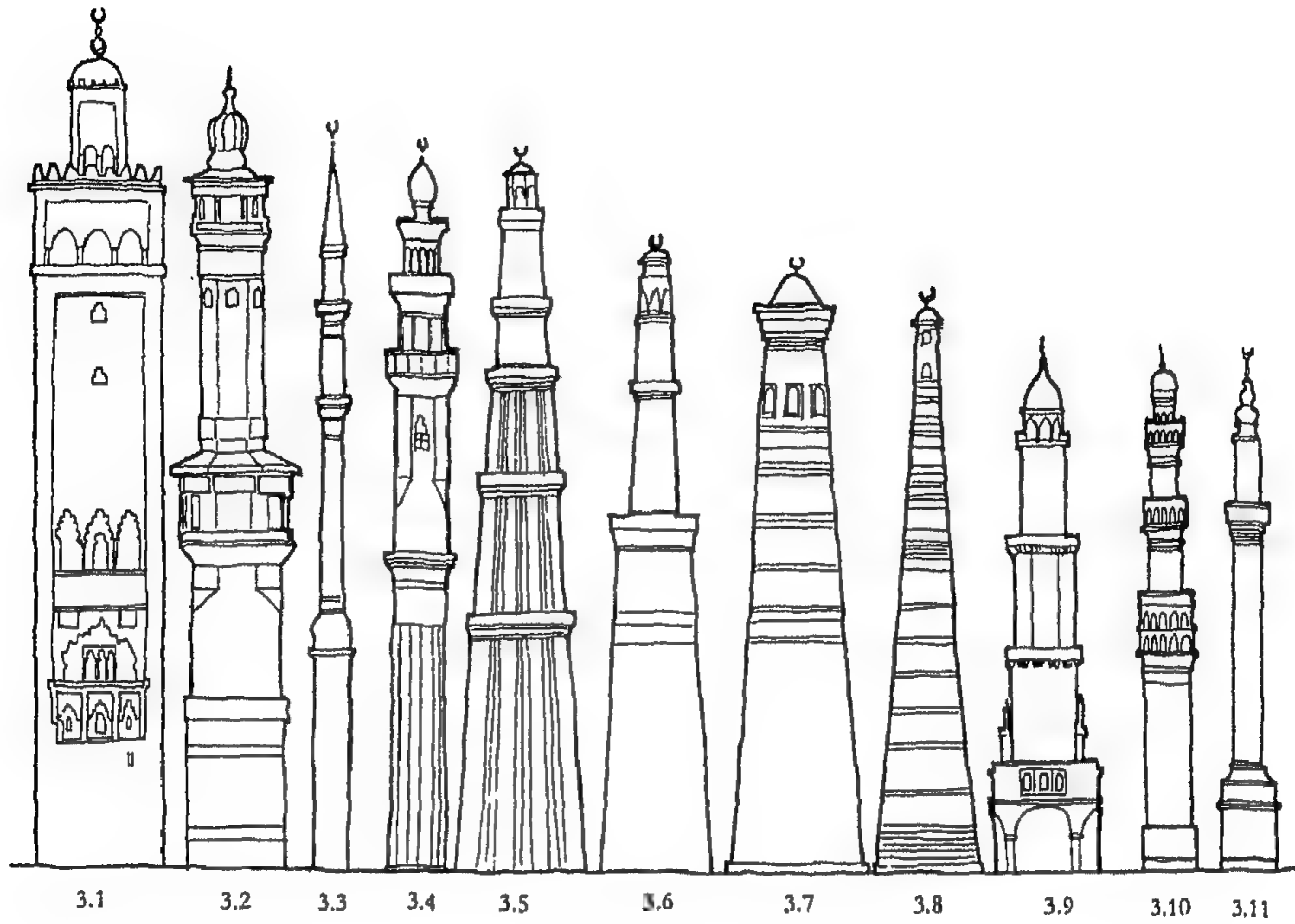


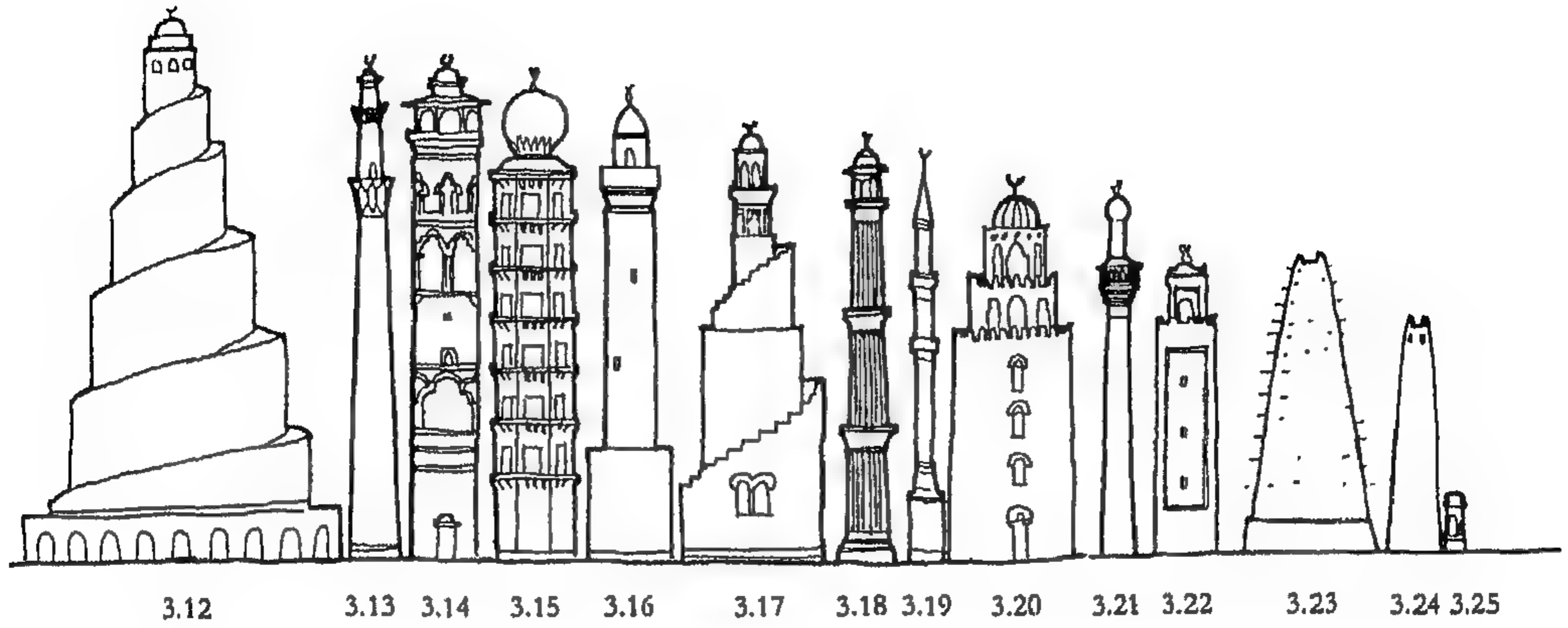
FIG. 439 *a-c*. Isfahān, Pul-i-Khājū. *a*. Longitudinal section. *b*. Plan of upper story. *c*. Plan of lower story.

شکل (۳۶۹) بول خاجوفی اصفهان (عن : بوب) .



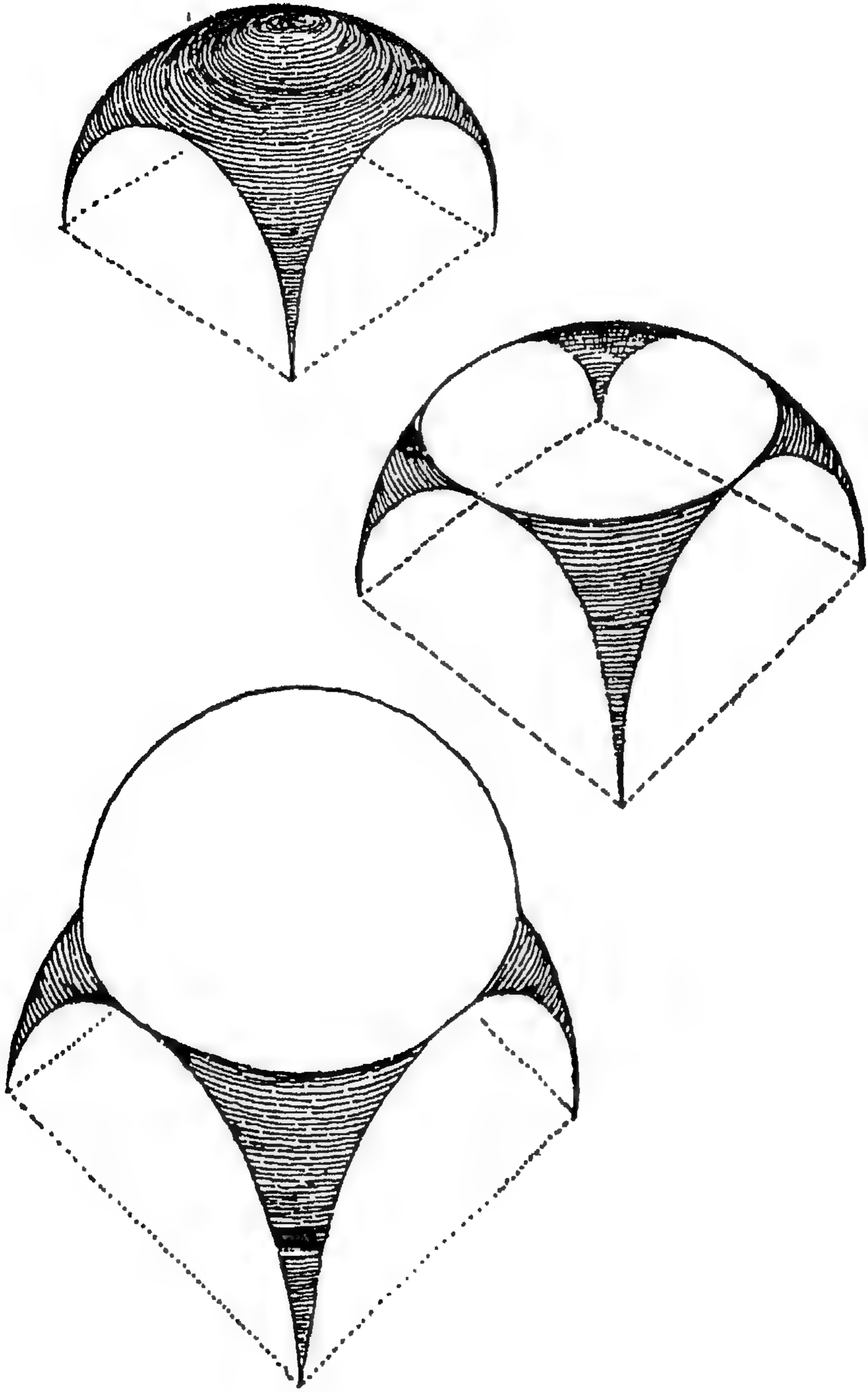
شكل (٣٧٠) طراز المآذن في العمارة الإسلامية (عن : هيلنبراند)

- ١- مئذنة حسان بالرباط (المغرب) .
- ٢- مئذنة بالحرم المكي الشريف .
- ٣- مئذنة جامع محمد علي بقلعة القاهرة .
- ٤- مئذنة مدرسة السلطان حسن بالقاهرة .
- ٥- قطب منار بدلهي (الهند) .
- ٦- مئذنة جامع (أفغانستان) .
- ٧- مئذنة المسجد الجامع في خيوة (آسيا الوسطى) .
- ٨- مئذنة المسجد الجامع في أوركنج .
- ٩- مئذنة Lednice في جمهورية Czech .
- ١٠- جهاز منار في حيدرآباد (الدكن بالهند) .
- ١١- مئذنة الجامع الكبير (اولو جامع في بورصة (أوبروسه) تركيا .

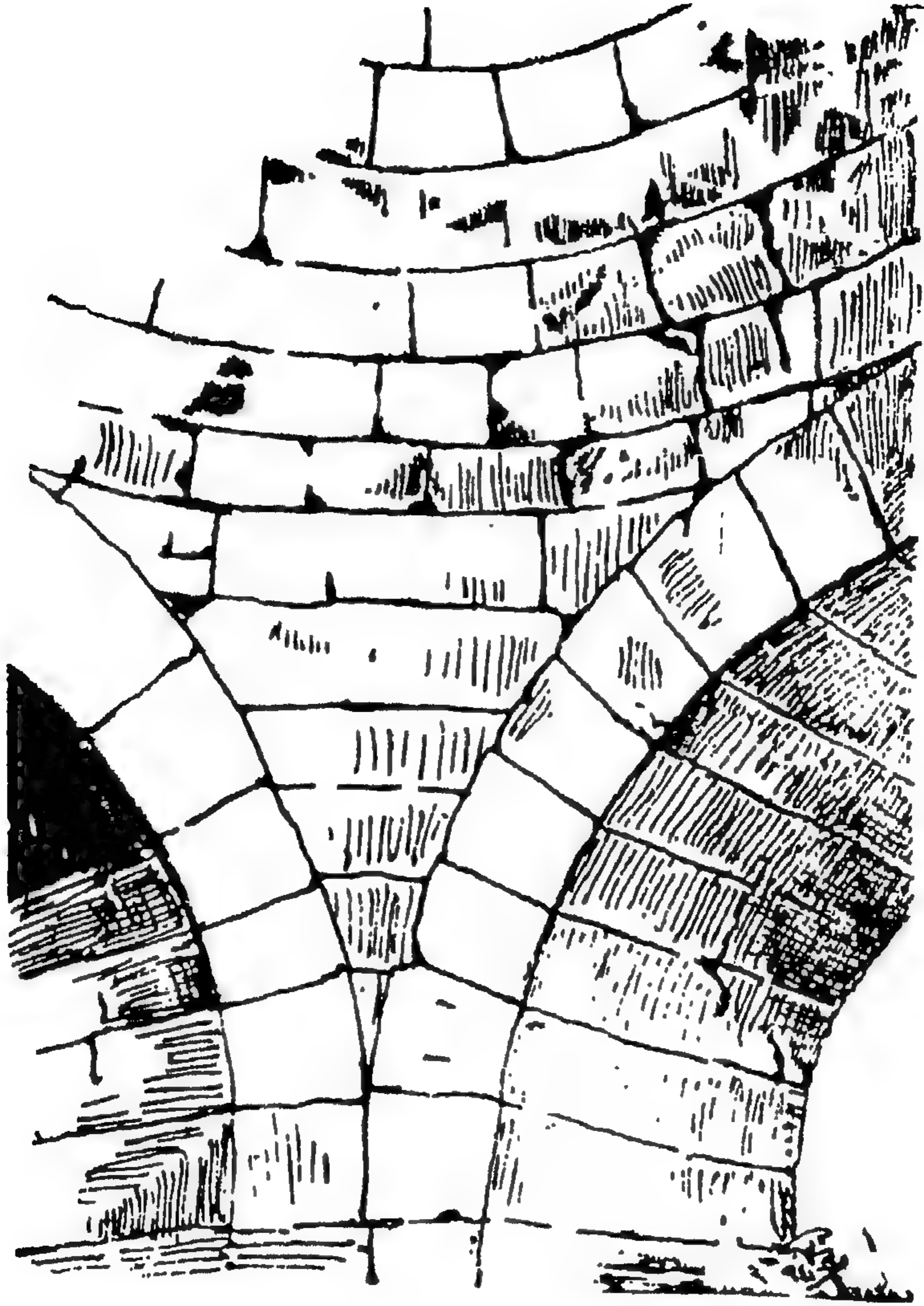


(شكل ٣٧١) طرز المآذن في العمارة الإسلامية (بقبة) :

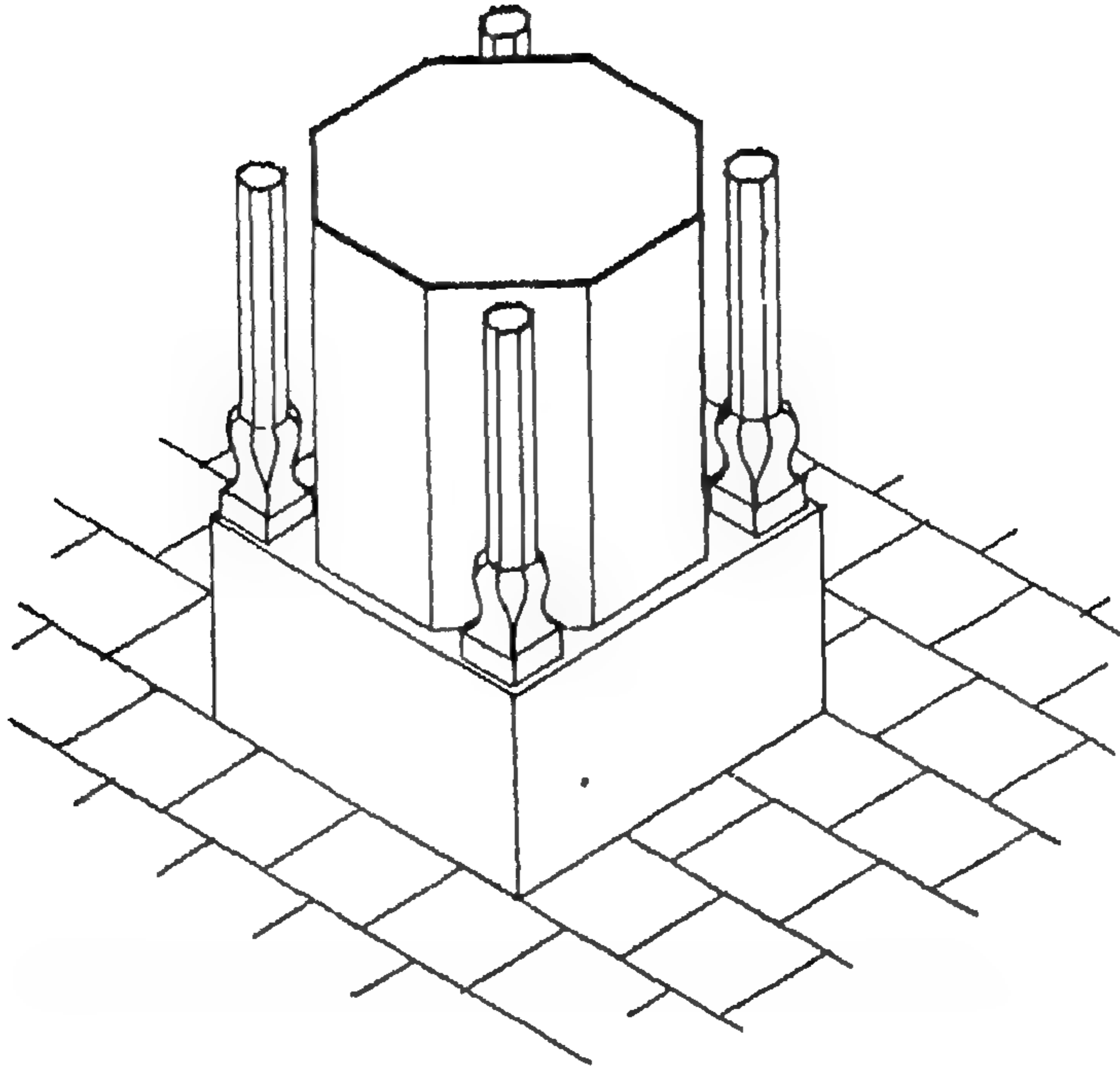
- ١٢- ملوية سامرا (العراق) .
- ١٣- منارة Saraban في أصفهان (إيران) .
- ١٤- مئذنة الجامع الكبير بحلب (سوريا) .
- ١٥- مئذنة مسجد الجمعة في بيجابور (الهند) .
- ١٦- مئذنة الجامع النوري في الموصل (العراق) .
- ١٧- مئذنة ابن طولون بالقاهرة (مصر) .
- ١٨- مئذنة مسجد الجمعة في دلهي (الهند) .
- ١٩- مئذنة مسجد مراد الاول في بورصة (أيروسنة) (تركيا) .
- ٢٠- مئذنة جامع القيروان بتونس .
- ٢١- مئذنة المشهد الحسيني في كربلاء (العراق) .
- ٢٢- مئذنة جامع السماك في الجزائر .
- ٢٣- مئذنة مسجد Agadez في النيجر .
- ٢٤- مئذنة جامع Ghardaya .
- ٢٥- مئذنة جامع الجند (اليمن) (عن : هيلنبراند) .



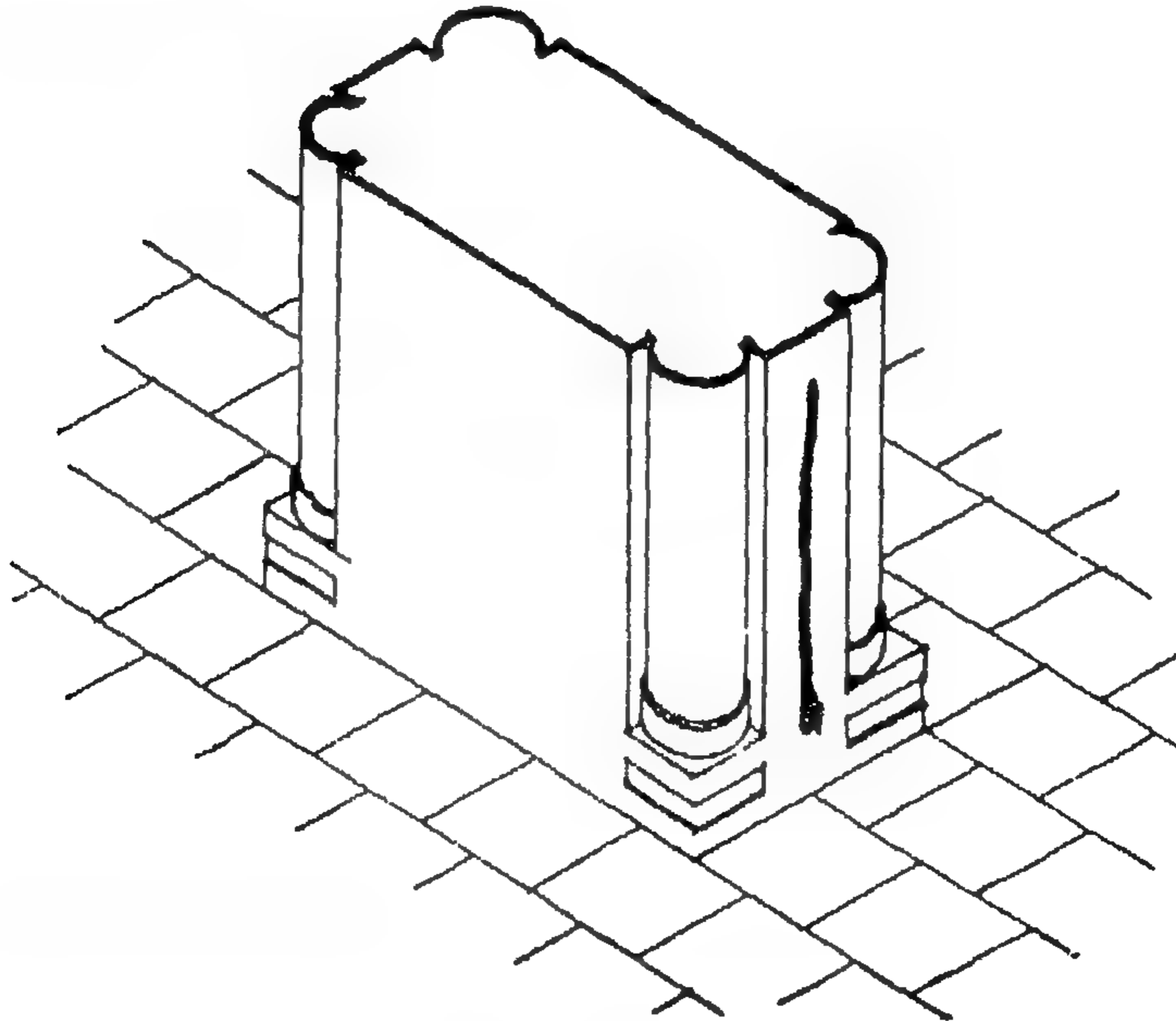
(شكل ٣٧٢) القباب الضحلة (غير العميقة) المقامة على منطقة انتقال من المثلثات الكروية . (عن : فريد شافعي) .



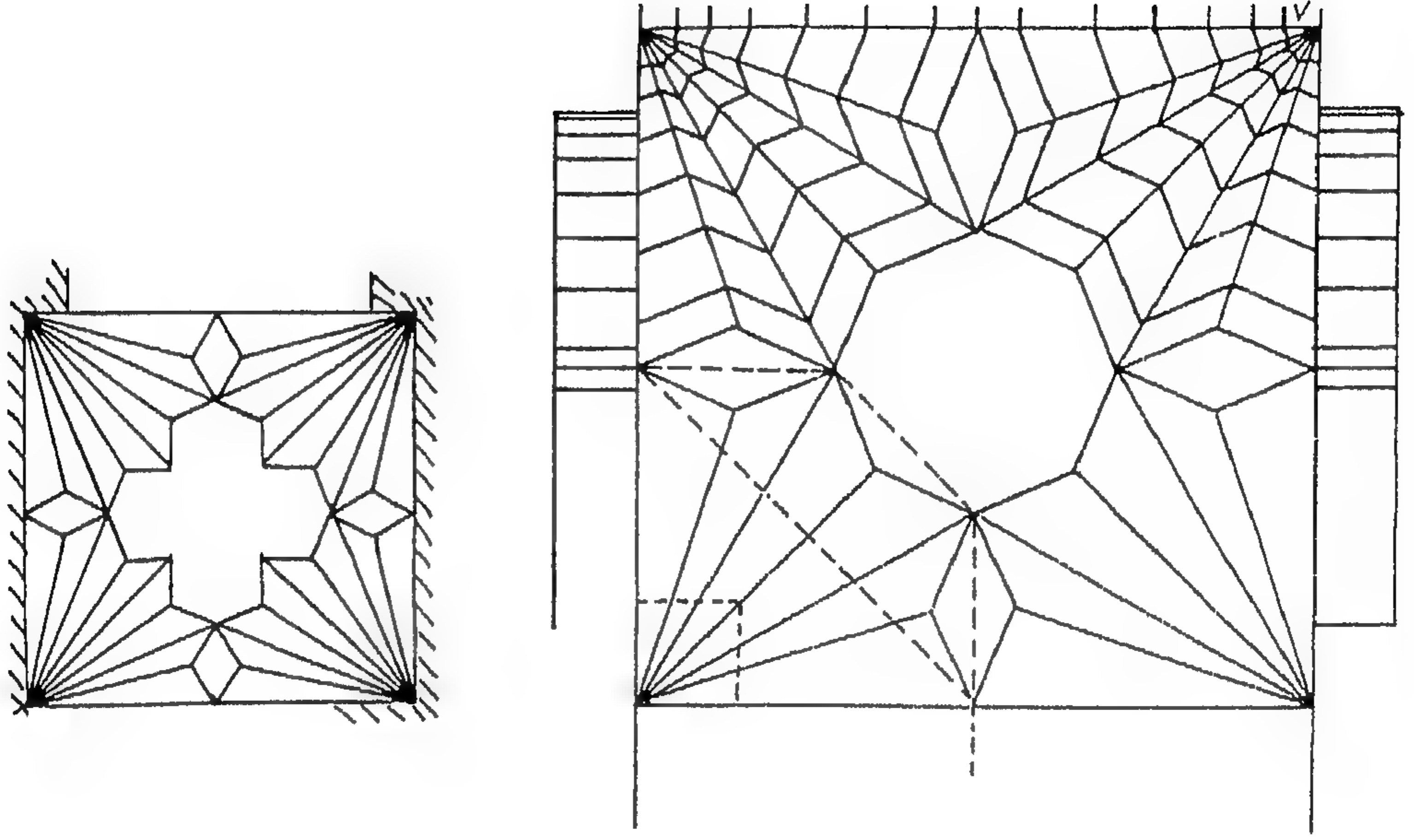
(شكل ٣٧٣) مثلث كروي كمنطقة إنتقال لقبة قصر النويجس في عمان
(الاردن). (عن: فريد شافعي) .



(شكل ٣٧٤) الدعامات وباركانها الاعمدة المدمجة بجامع سامرا الكبير
(في العراق) (عن :فريد شافعي) .



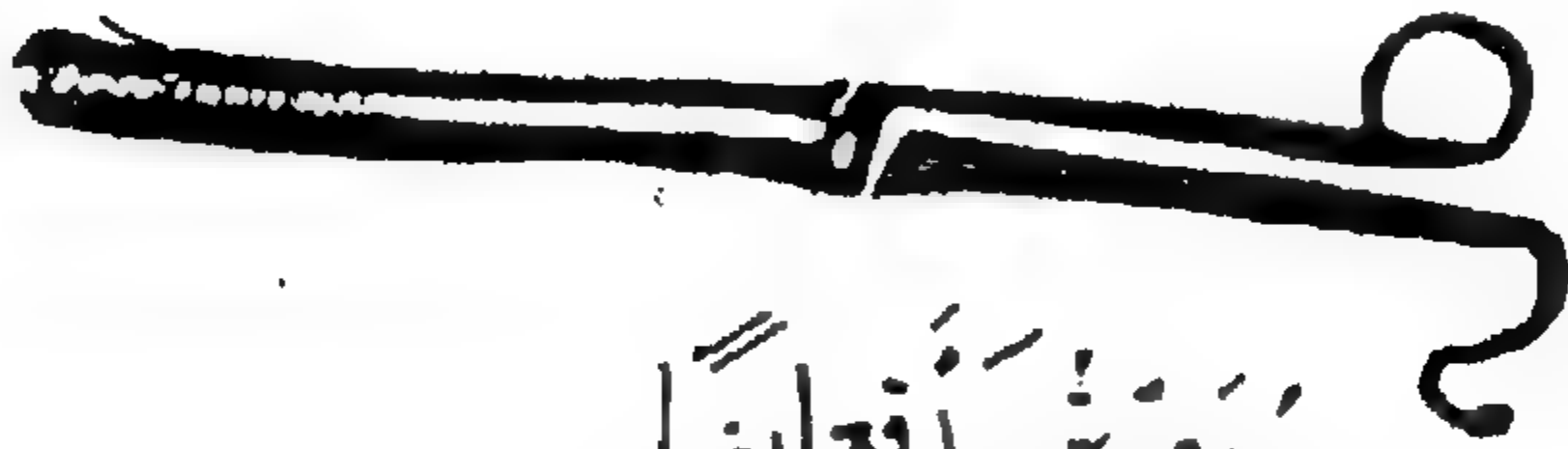
(شكل ٣٧٥) الدعامات وباركانها الاعمدة المدمجة بجامع أبي دلف بسامرا
في العراق-(عن:فريد شافعي)



(شكل ٣٧٦) أقبية مروحية مركبة يتوسطها مئمن (الايمن) أوشكل متقاطع
(الايسر) . (عن : صالح لمعي) .



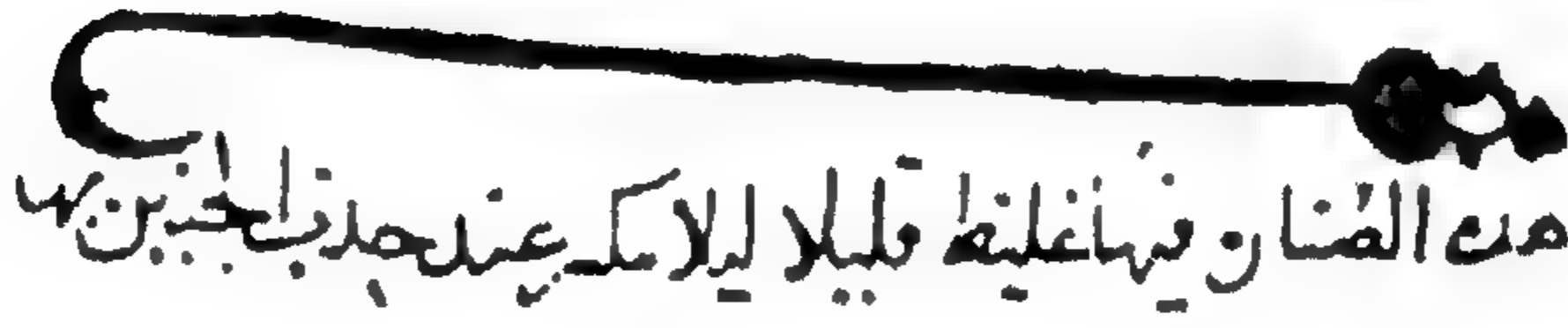
شبه المفصل اسنان في الطرف كاتري وقد صنع بستانيلة
كالأيدى هذه الصور كما ترى لها اسنان كالأسنان الملتصقة
بها ويرى ان شاء الله تعالى



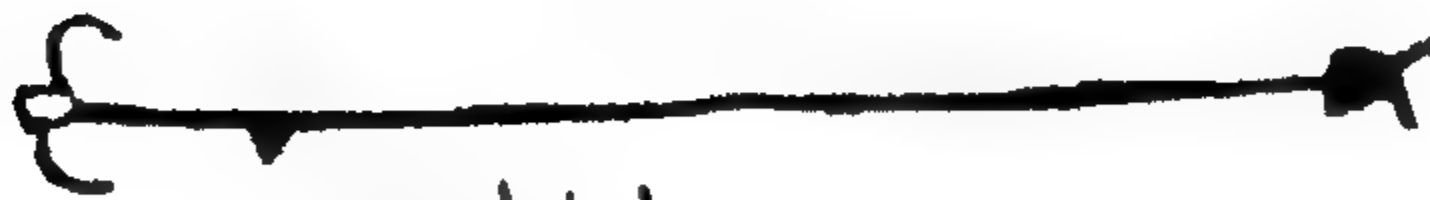
صورة مدفع أيضا



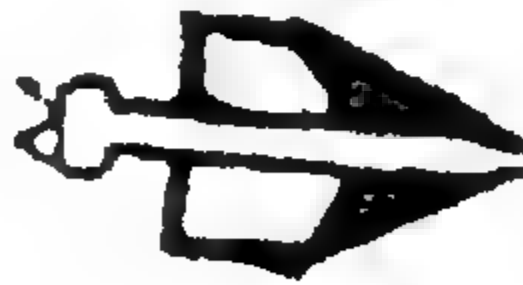
صورة صنارة



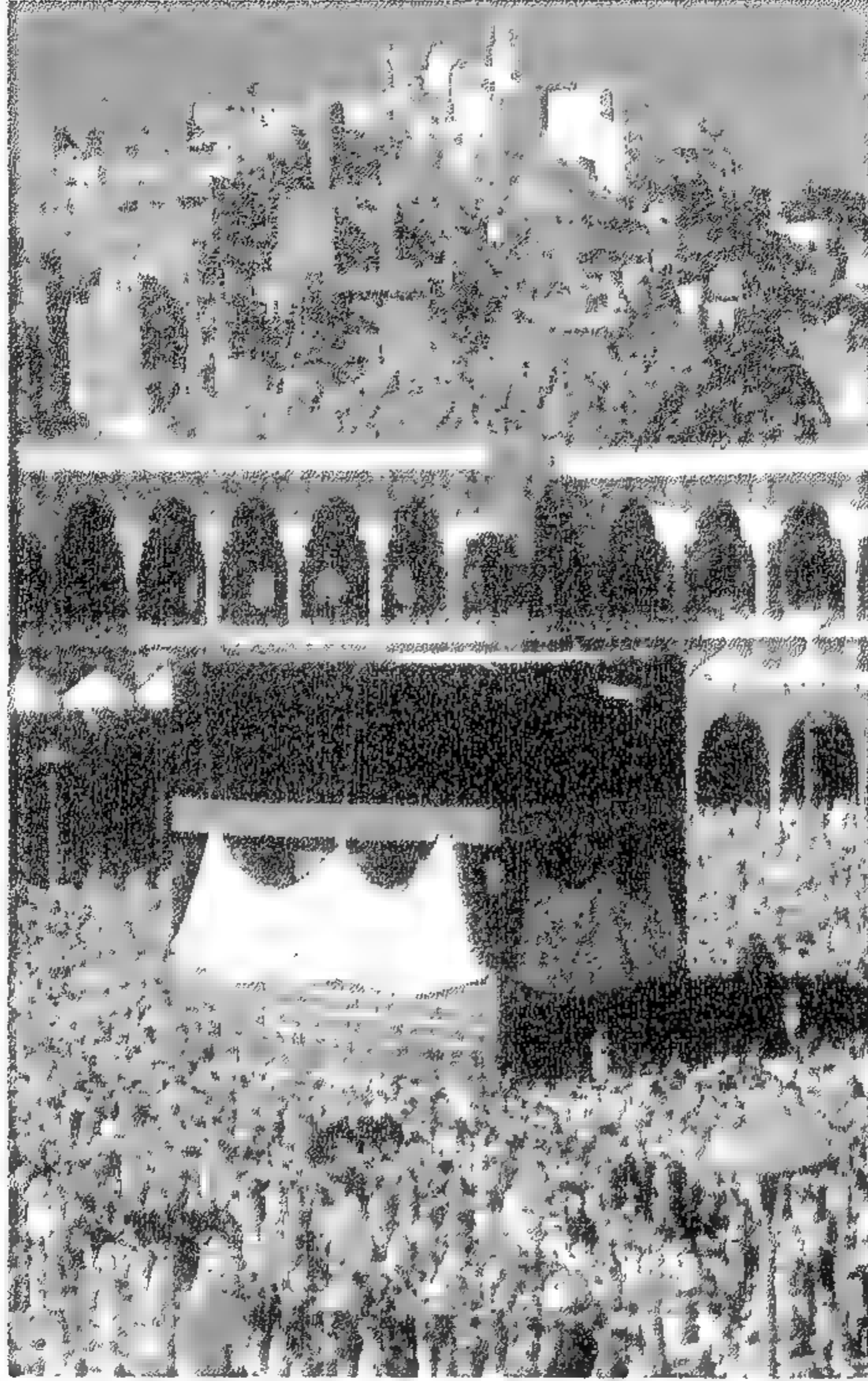
هذه الصنارة فيها غلظ قليلا لئلا يلامس عند جذب الجنين
صورة صنارة ذات الشوكتين



صورة مبضعين ترينين لقطع الجنين

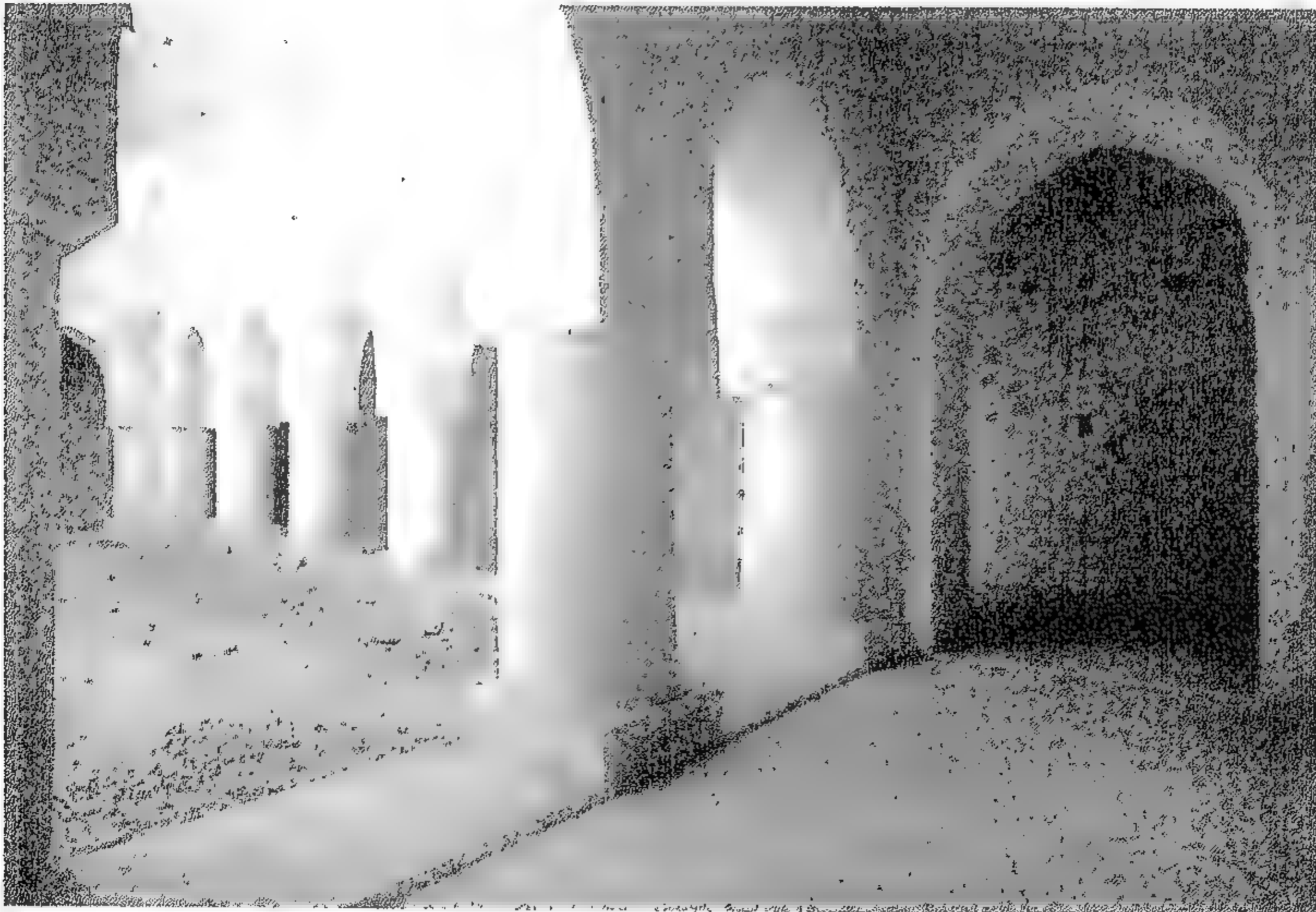


١ - الجزيرة العربية



لوحة (١) المسجد الحرام بمكة المكرمة وتتوسطه الكعبة المشرفة قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، (وكان الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (رضى الله عنه) هو أول من عمل للمسجد الحرام الأروقة ٢٦ هـ / ٩٤٦ م).

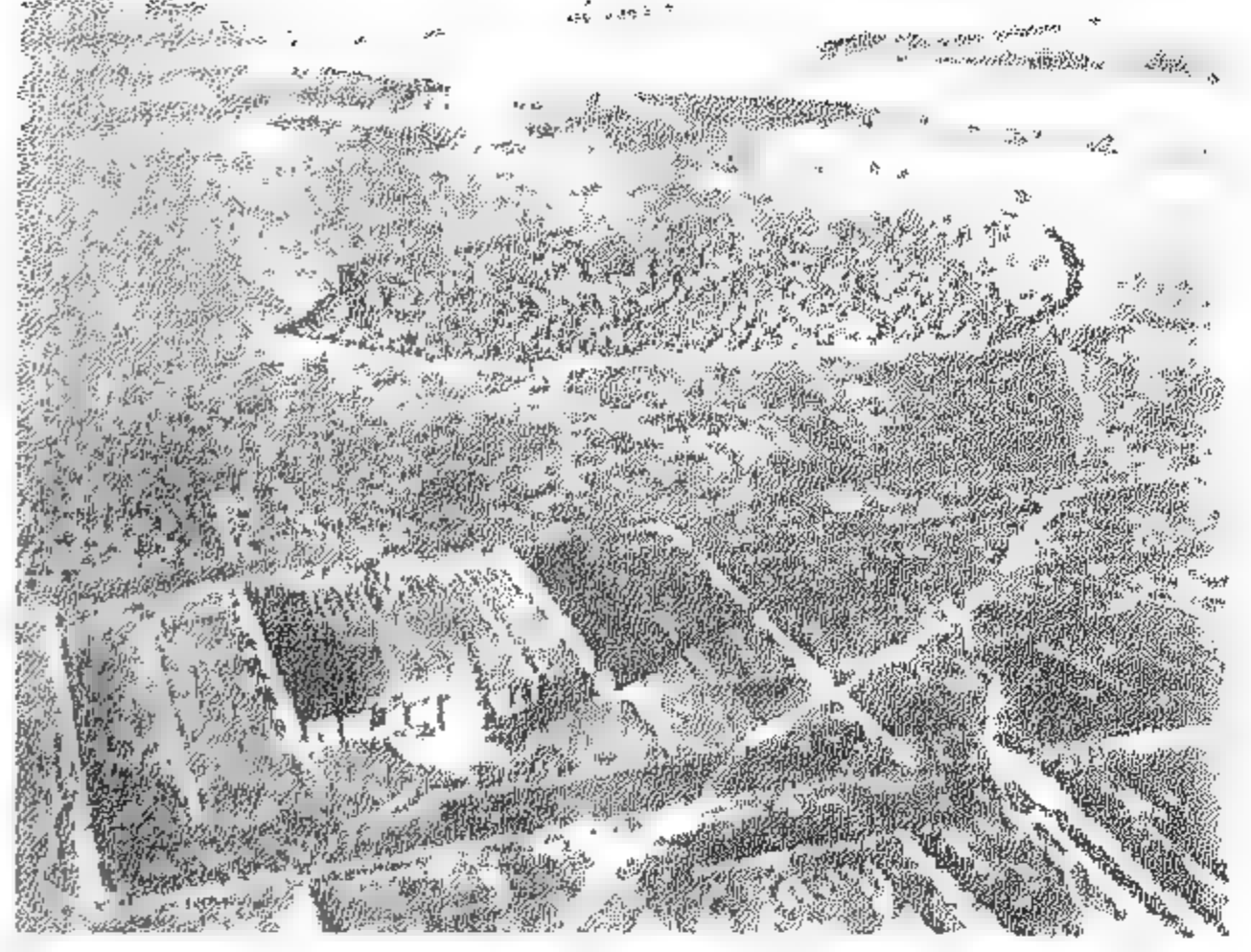
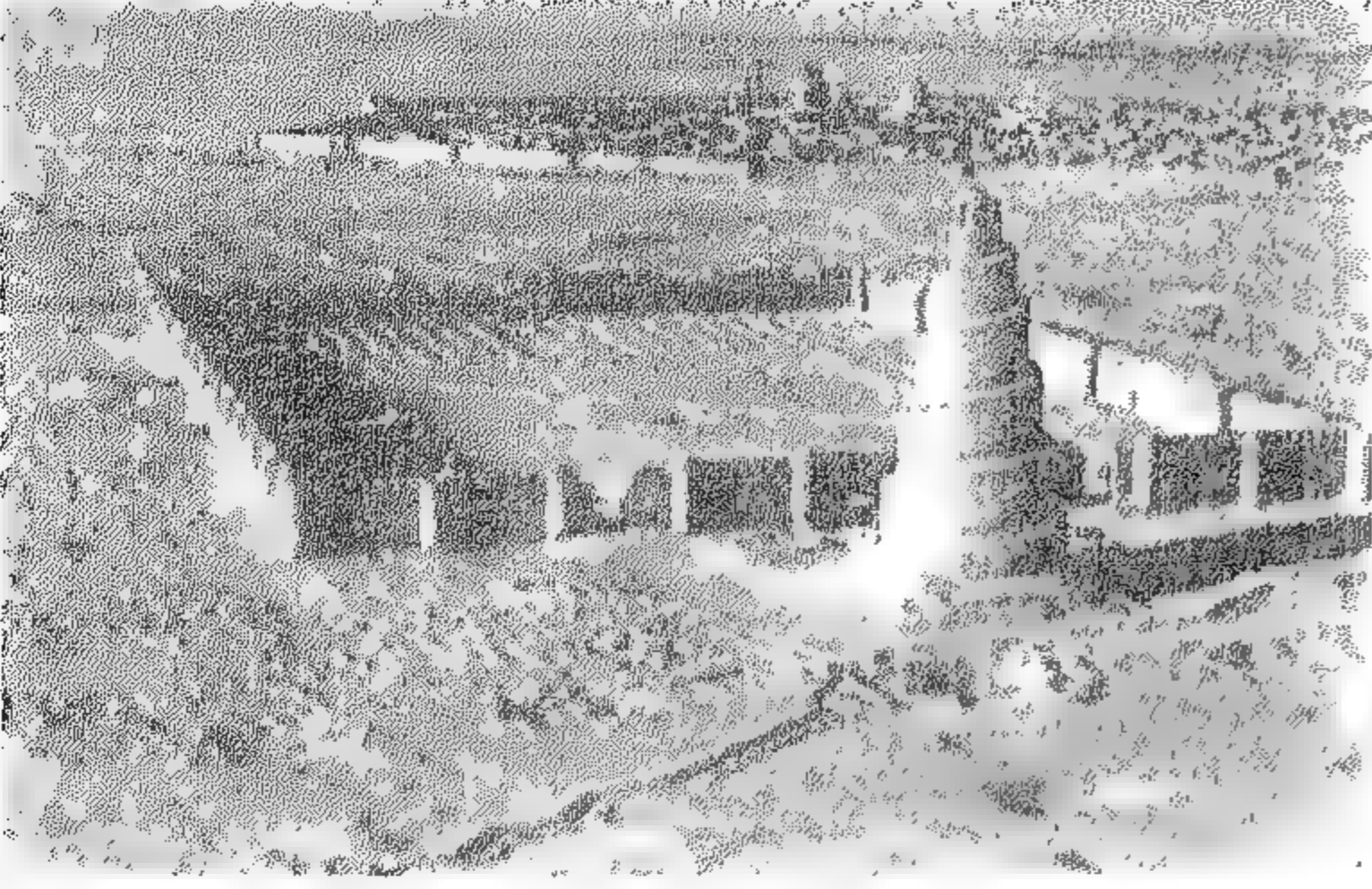
٢ - العراق



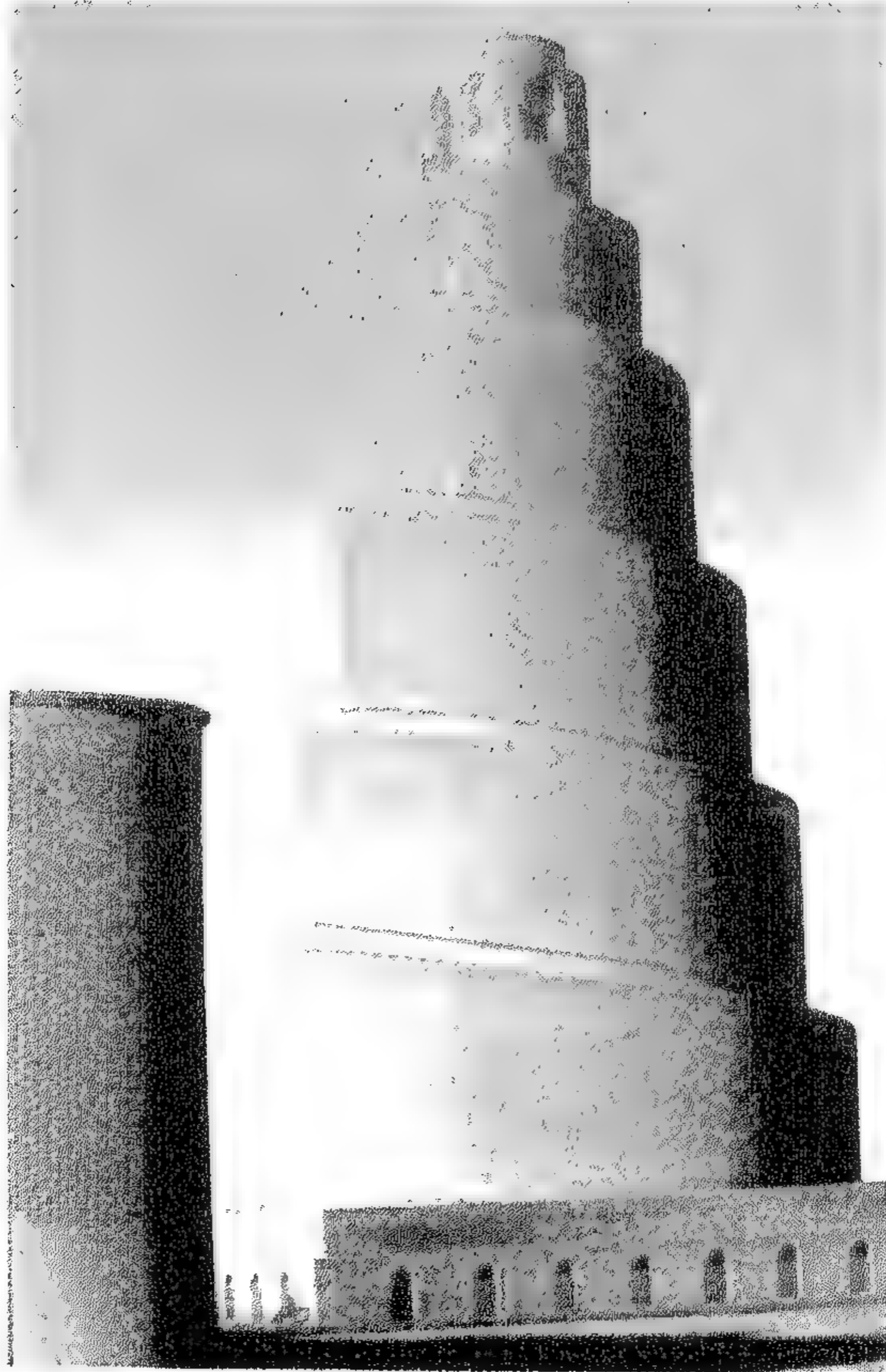
لوحة (٢) المسجد الملحق بقصر الأخيضر بالعراق حوالي ١٦١ هـ / ٧٧٧ م (العصر العباسي الأول) .



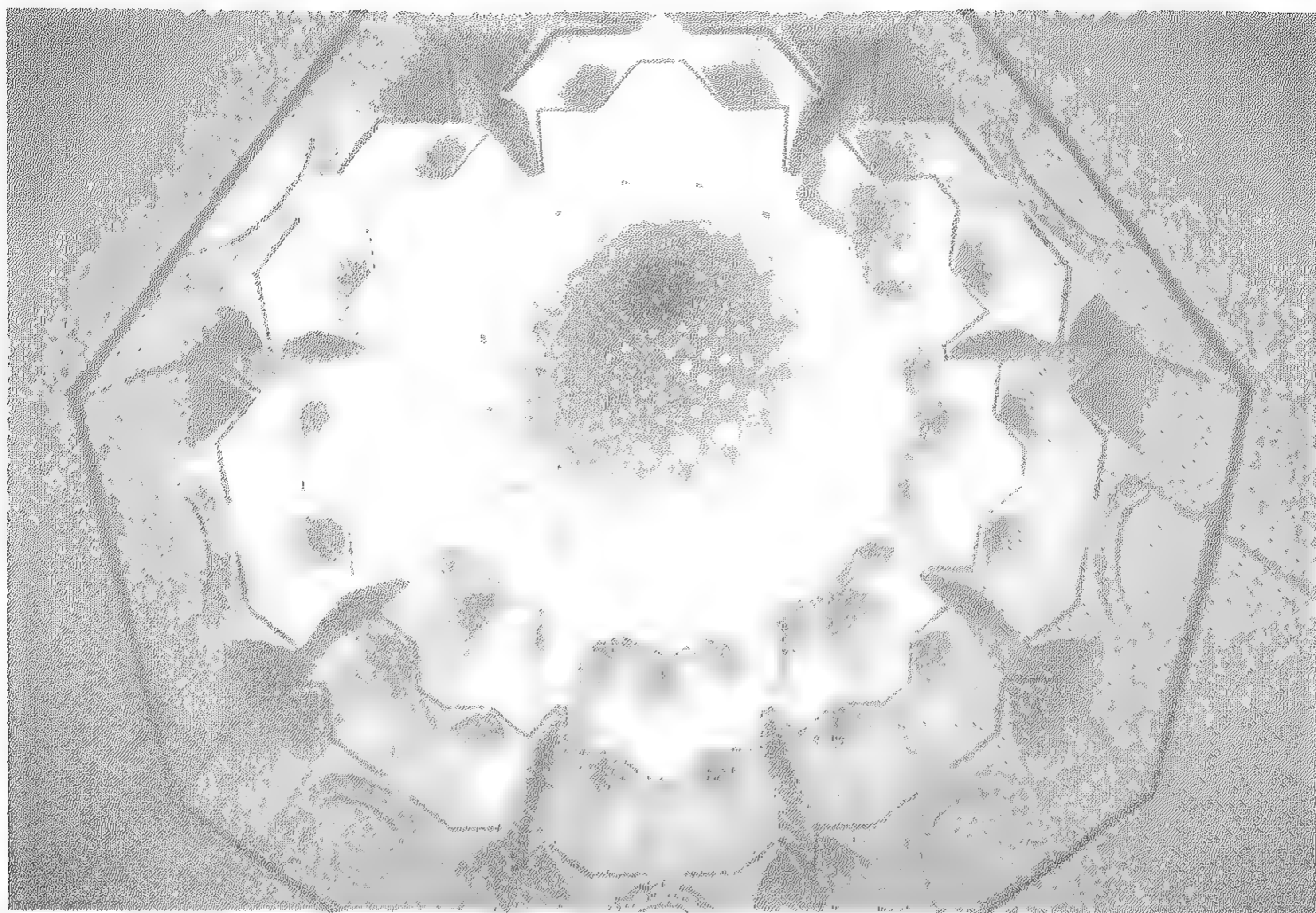
لوحة (٣) المسجد الملحق بقصر الأخيضر، تفصيل (القبو البرميلي بنقوشة
الزخرفية الجصية).



لوحة (٤) مدينة سامرا ٢٢١-٢٧٩هـ / ٨٣٦-٨٩٢م (شمال بغداد) ومسجدها
الجامع ٢٣٤-٢٣٧هـ/٨٤٩-٨٥٢م (العصر العباسي الثاني)



لوحة (٥) مئذنة المسجد الجامع بسامرا المعروفة بالملوية .

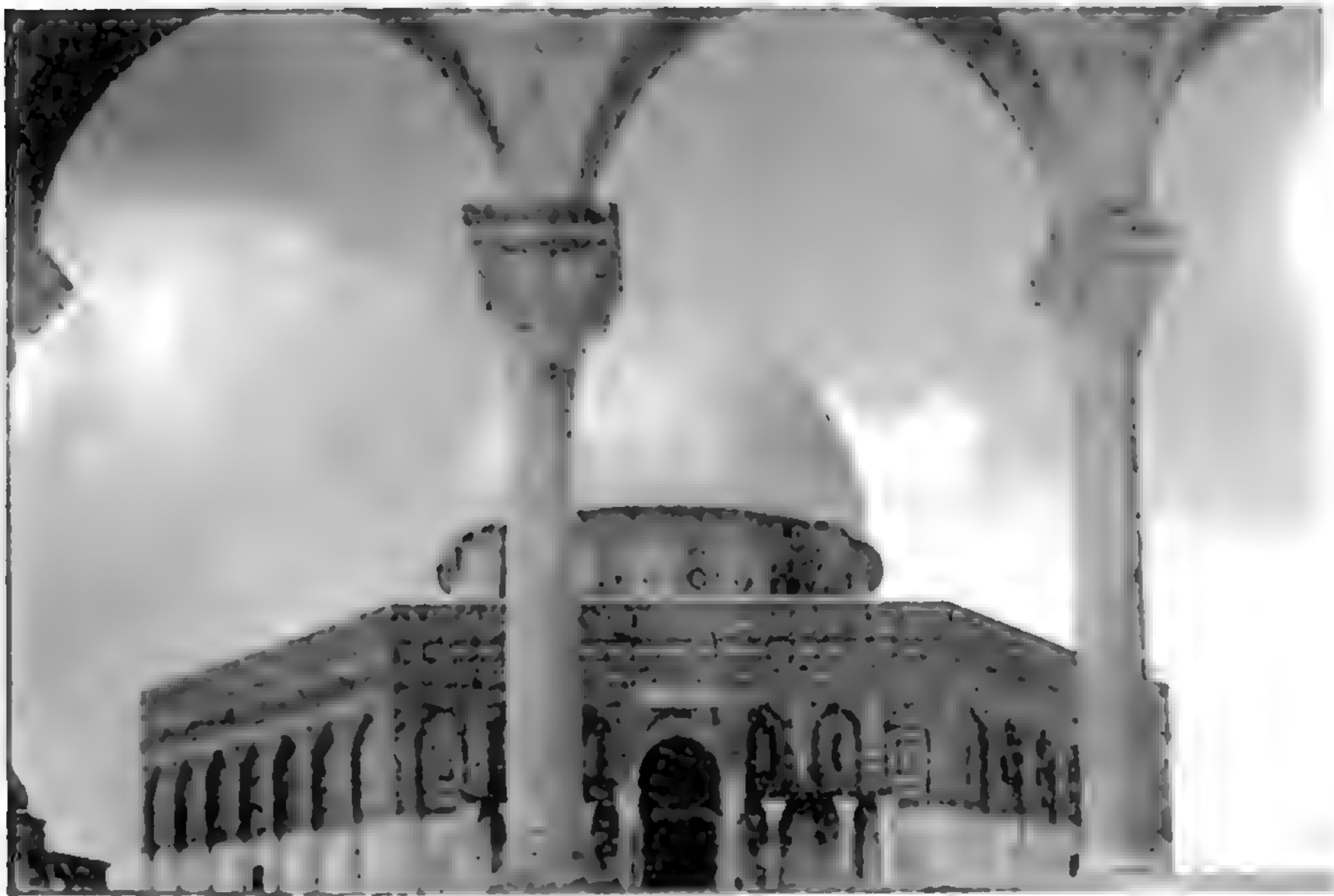


لوحة (٧) تربة زمرد خاتون المعروفة بضريح الست زبيدة في وسط مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الجانب الغربي من بغداد (طراز القباب المخروطية أو الميل) .



لوحة (٨) تربة الشيخ عمر السهروردي المتوفى ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م في بغداد
(طراز القباب المخروطية أو الميل) .

٣- الشام



لوحة (٩) قبة الصخرة بالحرم القدسي الشريف ٧٢ هـ / ٦٩١ م من الخارج (العصر الأموي) .



لوحة (١٠) قبة الصخرة بالحرم القدسي الشريف ، منظر داخلي للدائرة المقامة فوقها القبة والقمریات وباطن القبة .



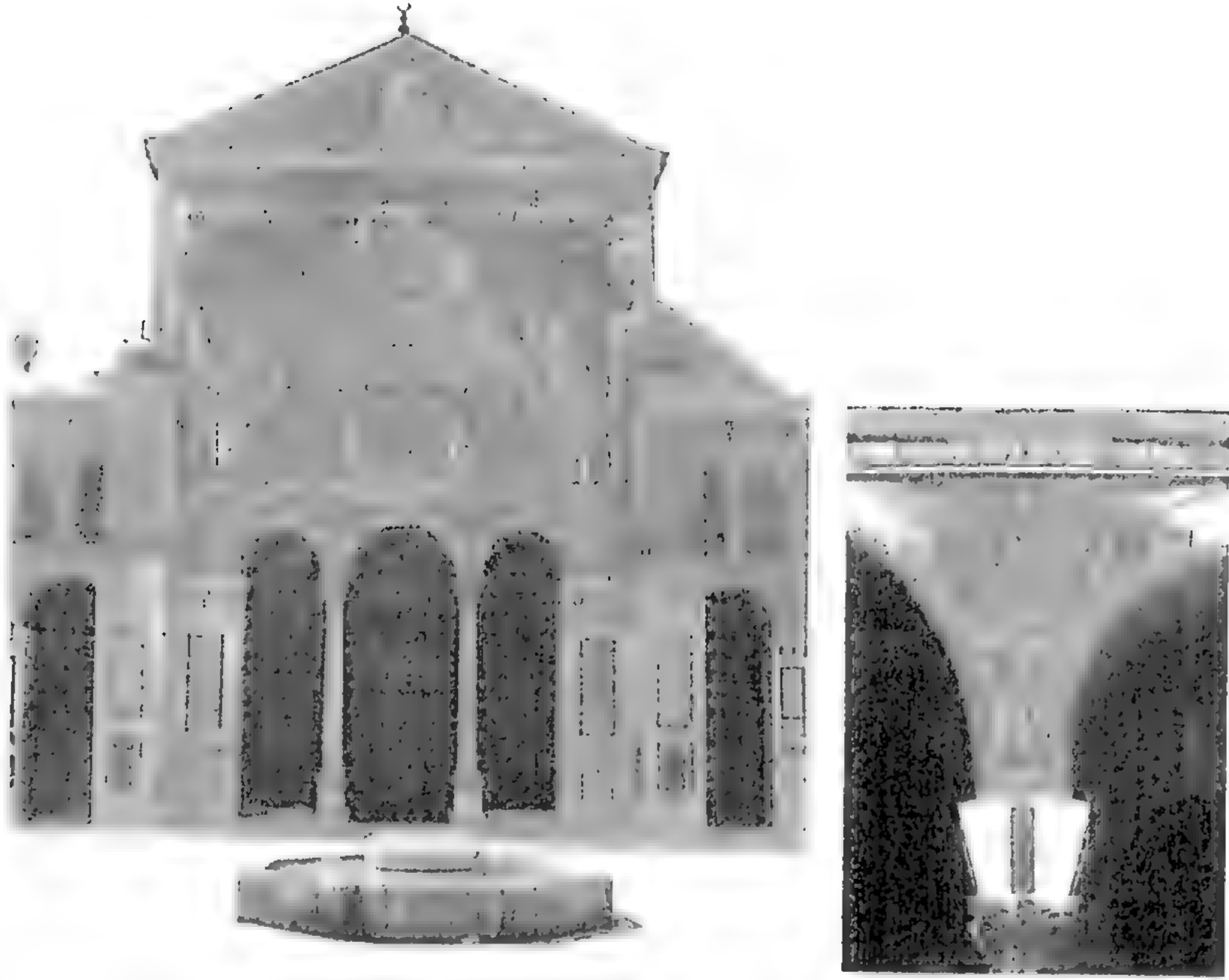
لوحة (١١) قبة الصخرة بالحرم القدسي الشريف : تفصيل للنقوش الزخرفية والكتابية بباطن القبة ويظهر في النقش الكتابي اسم السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) .



لوحة (١٢) المسجد الأقصى المبارك (القبلة الأولى للمسلمين حتى منتصف شعبان ١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م) : منظر عام من الخارج . (وهو يمثل أصل النمط الثاني للطراز التقليدي الذي ساد وانتشر في المغرب والأندلس بصفة خاصة) .



لوحة (١٣) المسجد الأموي بدمشق ٨٦-٩٦ هـ / ٧٠٥-٧١٥ م ، منظر عيني الطائر (الطراز التقليدي لعمارة المساجد الإسلامية وهو يمثل النمط الأول لمساجد ذلك الطراز الذي انتشر في مصر والشام والجزيرة العربية والمشرق الإسلامي ولكن مع إستثناء يتمثل في وجود الرواق الأوسط العمودي من عدمه) .



لوحة (١٤) المسجد الأموي بدمشق ، واجهة الرواق الأوسط (البلاطة الوسطى) العمودي الذي يخترق أروقة المقدم الموازية لجدار القبلة وهو يمتد من الصحن الى جدار القبلة ويعلو أوسطة القبة المعروفة بقبة النسر.



لوحة (١٥) المسجد الأموي بدمشق : مؤخر المسجد ومئذنة باب الفردوس .



لوحة (١٦) المسجد الأموي بدمشق ، قبة بيت المال بصحن المسجد ، وتتميز
بنقوشها الزخرفية المنفذة بالفسيفساء .



لوحة (١٧) مدرسة الفردوس بحلب ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م منظر عام من الخارج
(العصر الأيوبي) .



لوحة (١٨) مدرسة الفردوس بحلب : المحراب .



لوحة (١٩) الجامع المنصوري الكبير بقطر ابلس الشام ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م
(العصر المملوك، البحري) .



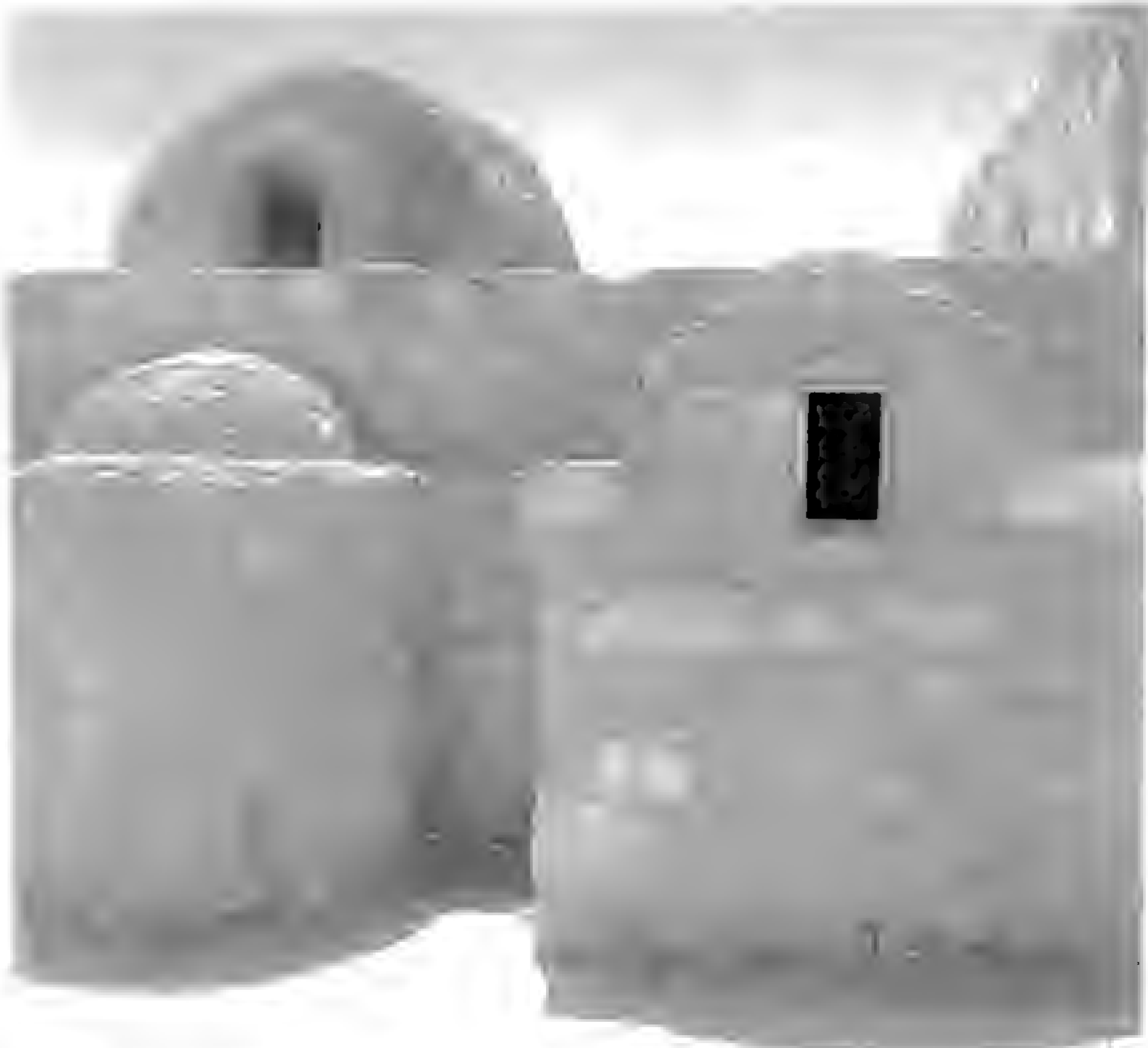
(لوحة ٢٠) النقوش الزخرفية بواجهة قصر المشتى (عن اكريزول) .
(العصر الأموي) .



لوحة (٢١) نماذج لبعض مداخل المدارس المملوكية بخرابلس الشام ، مدرسة الشيخ الهندي (الى اليمن) ق ٨هـ / ١٤م ومدرسة الأمير قرقطاي (الى اليسار) حوالي ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ، وشاهد طراز الطاقية (العتاسة) المقامة على حطات مقرنصة ذات دلايات .



لوحة (٢٢) قصير عمره على بعد ٥٠ ميلاً جنوب شرق عمان ويؤرخ بحوالي ٩٢-٩٦هـ / ٧١٠-٧١٥م ، منظر عام من الخارج (أعلى) ومسقط أفقي (أسفل الى اليسار) (العصر الأموي) .



لوحة (٢٣) قصير عمره ، الحجرتان الثانية والثالثة (الداكنة والساخنة)
من حجرات الحمام الثلاثة من الخارج .



لوحة (٢٤) قلعة حلب .



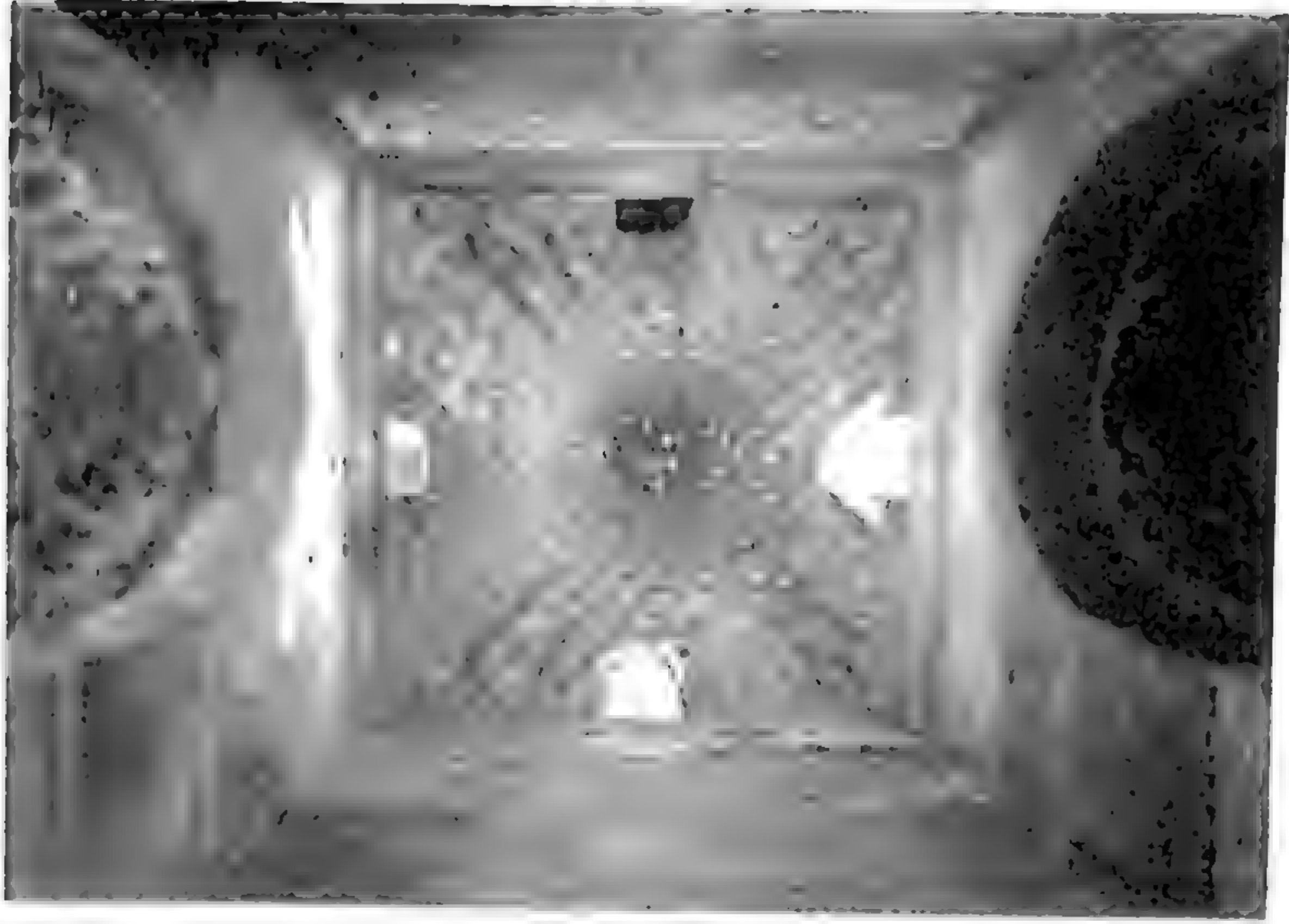
لوحة (٢٥) قلعة حلب .



لوحة (٢٦) قصر العظم في حماه .



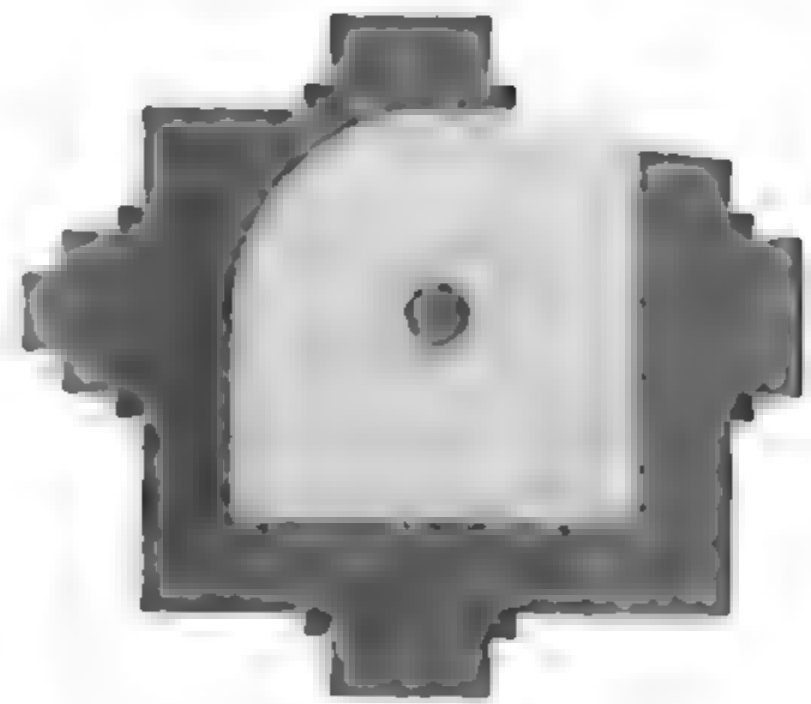
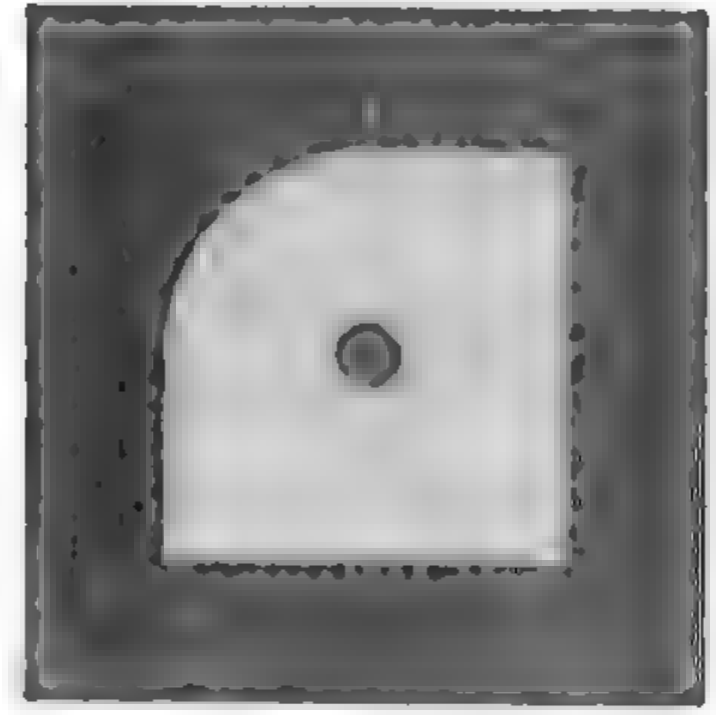
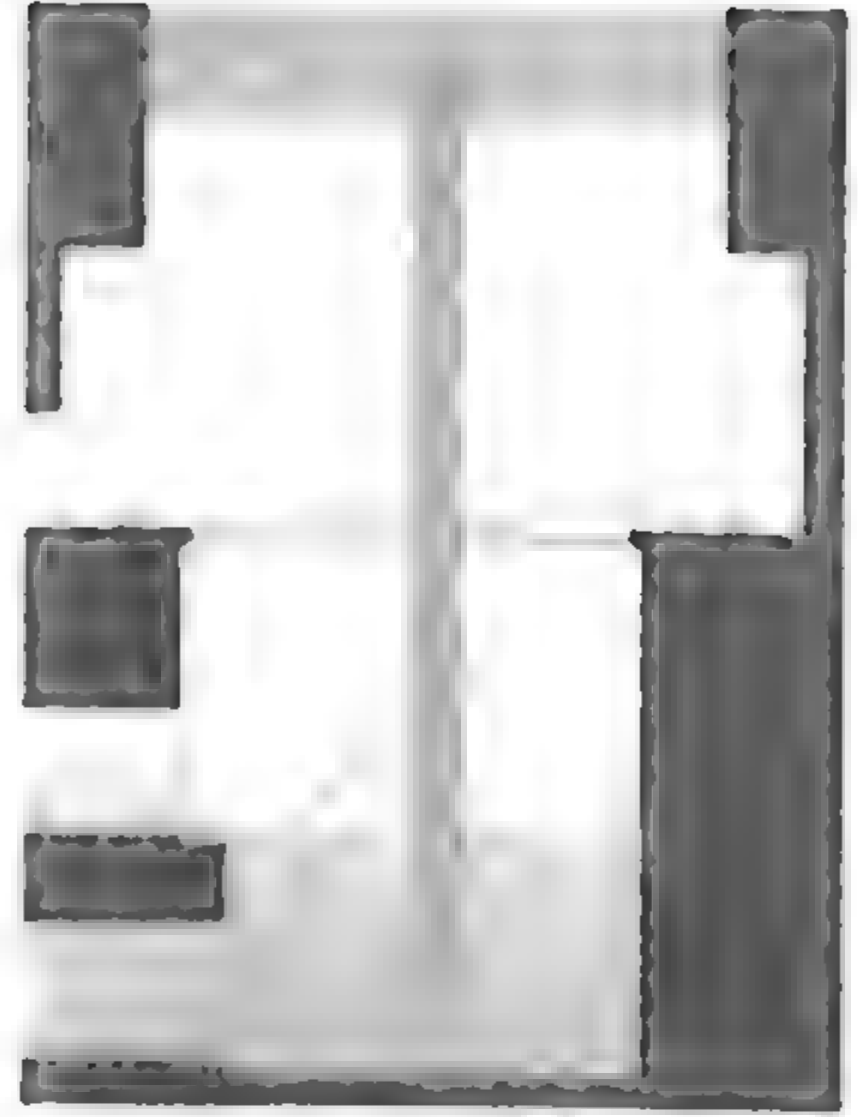
لوحة (٢٧) مئذنة المسجد الكبير في حلب ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م.



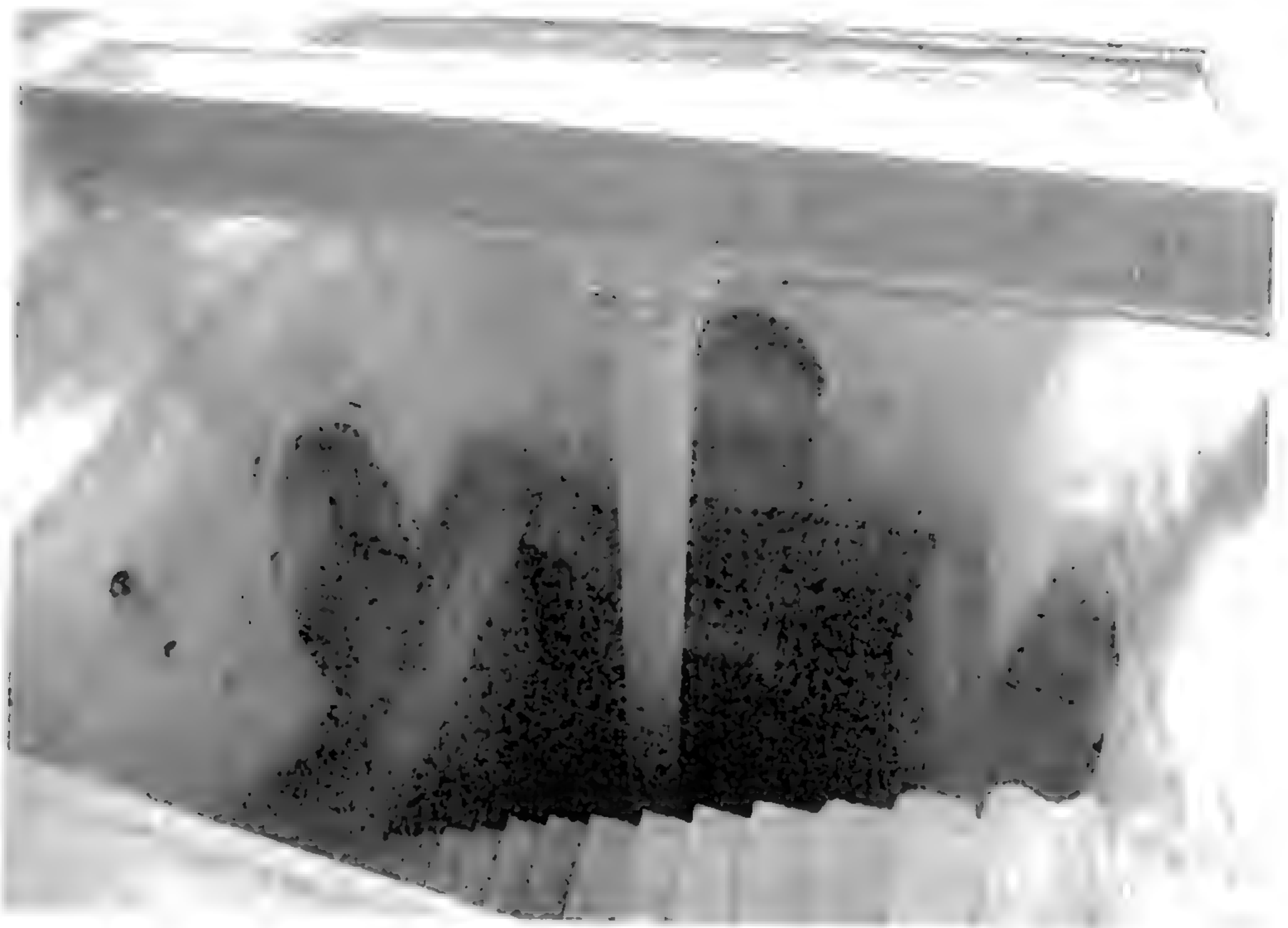
لوحة (٢٨) البيمارستان النوري في دمشق ٥٤٩هـ / ١١٥٤م : القبة المقرنصة التي تغطي دركاة المدخل (العصر الزنكي) .



لوحة (٢٩) سبيل السلطان العثماني سليمان القانوني أو المعظم بالقدس الشريف المعروف بسبيل باب السلسلة ٢٢ رجب ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م (طراز السبيل الجشمة) (العصر العثماني) .



لوحة (٣٠) مقياس النيل بجزيرة الروضة بالقاهرة ٢٤٧هـ / ٨٦١م ، منظر داخلي
ومسقط وقطاع (العصر العباسي الثاني) .



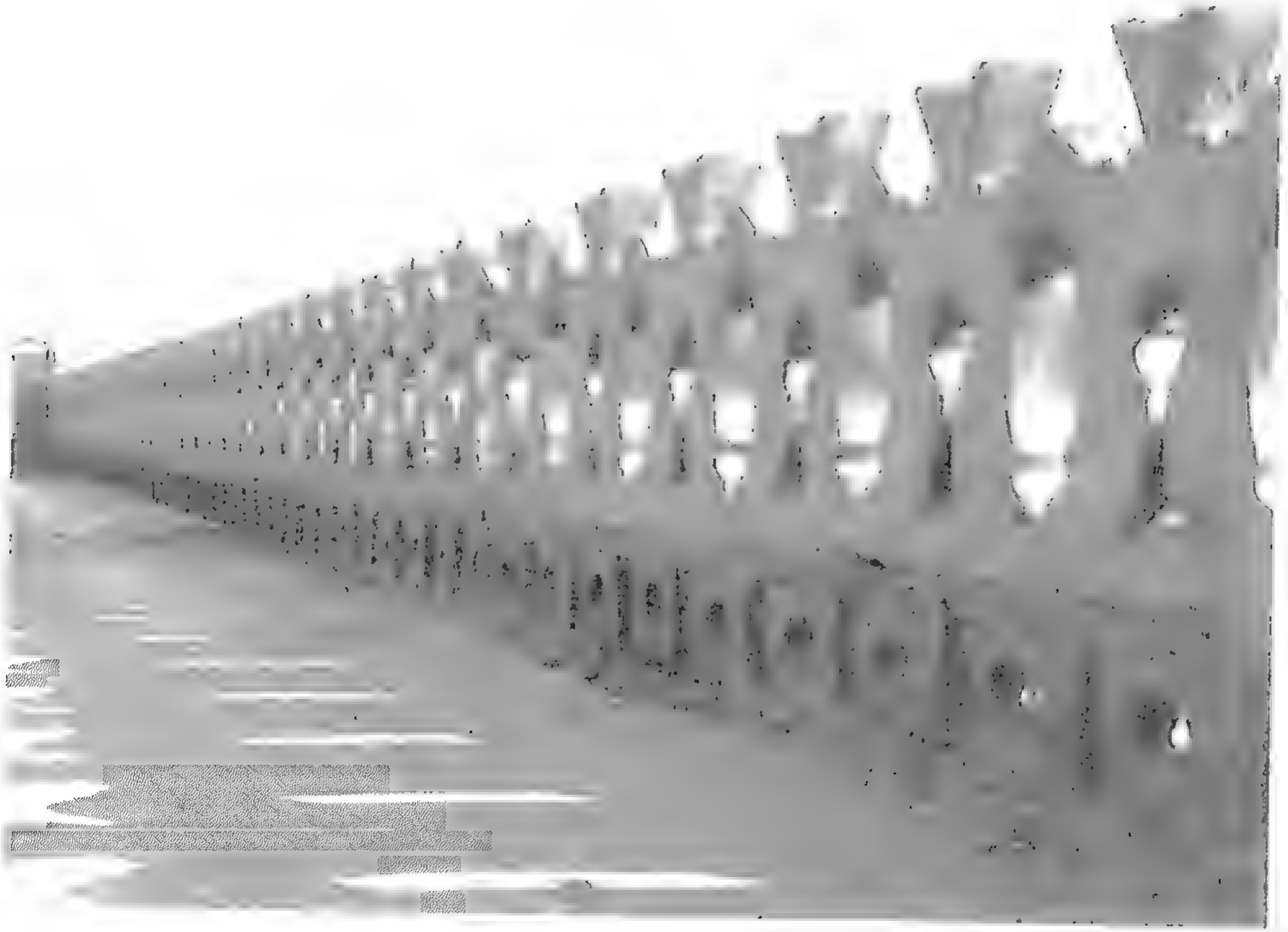
لوحة (٣١) مقياس النيل بجزيرة الروضة بالقاهرة ، منظر داخلي في أوائل القرن ١٩ م
للرحالة لويس مايير (في اعلى) ، وصورة حديثة في أسفل .



لوحة (٣٢) مسجد أحمد بن طولون بالقاهرة ٢٦٣- ٢٦٥ هـ / ٨٧٦-٨٧٨ م (الطراز التقليدي لعمارة المساجد الإسلامية وهو يمثل النمط الأول الذي يتكون من صحن ومقدم ومؤخر ومجنبتان ، وأروقة المقدم والمؤخر بانكاتها موازية لجدار القبلة ولا يخترقها الرواق الأوسط العمودي (البلاطة الوسطى) المعروف خطأً بالمجاز القاطع) ومئذنة المعروفة بالملوية (العصر العباسي الثاني - الدولة الطولونية في مصر) .



لوحة (٣٣) مسجد أحمد بن طولون بالقاهرة ، المحراب والمنبر .



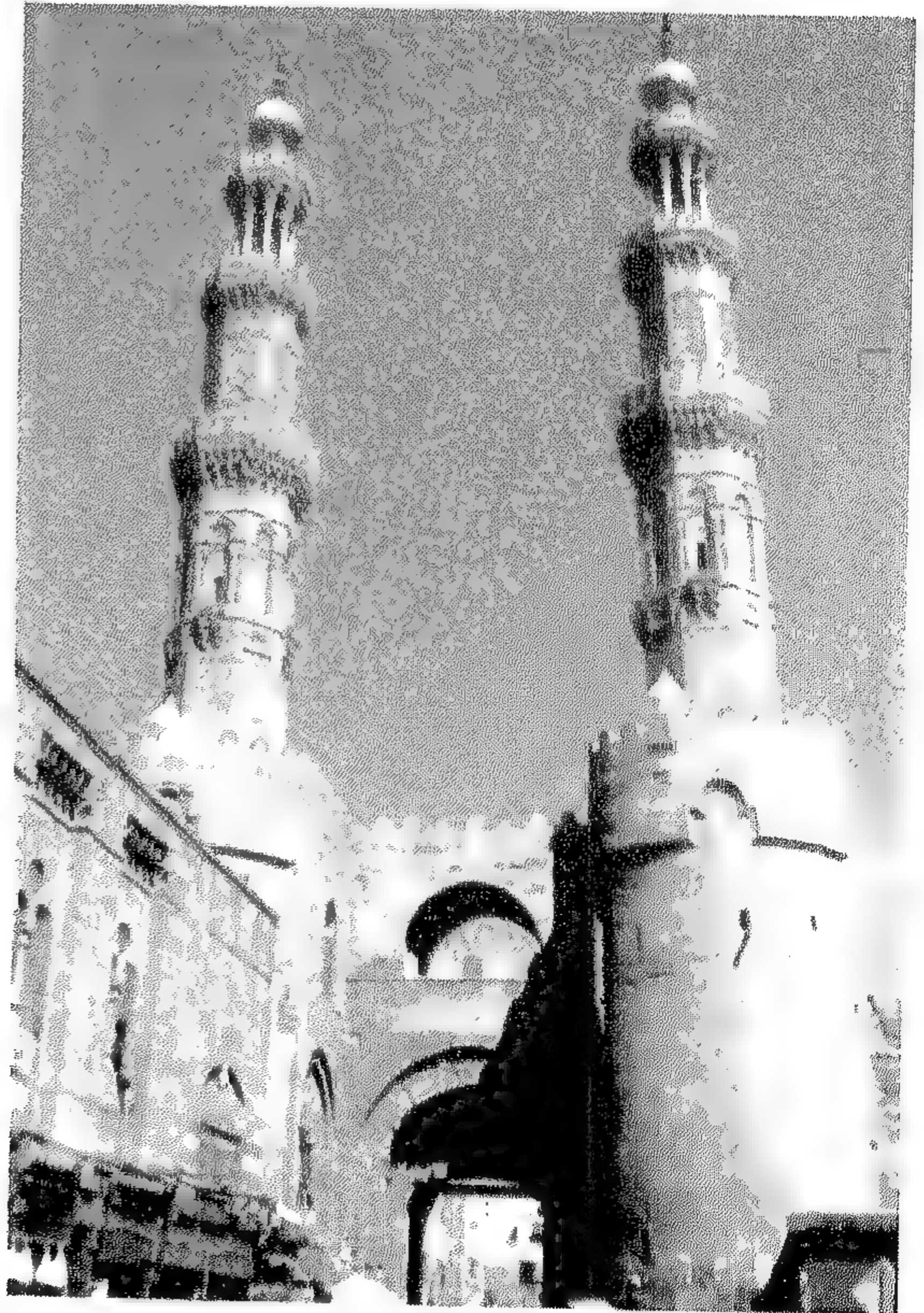
لوحة (٣٤) مسجد أحمد بن طولون بالقاهرة : الشرافات الفريدة
التي تتوج واجهات المسجد .



لوحة (٣٥) السور الشمالى للقاهرة الفاطمية وفى أعلى باب النصر
٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م (العصر الفاطمى) .



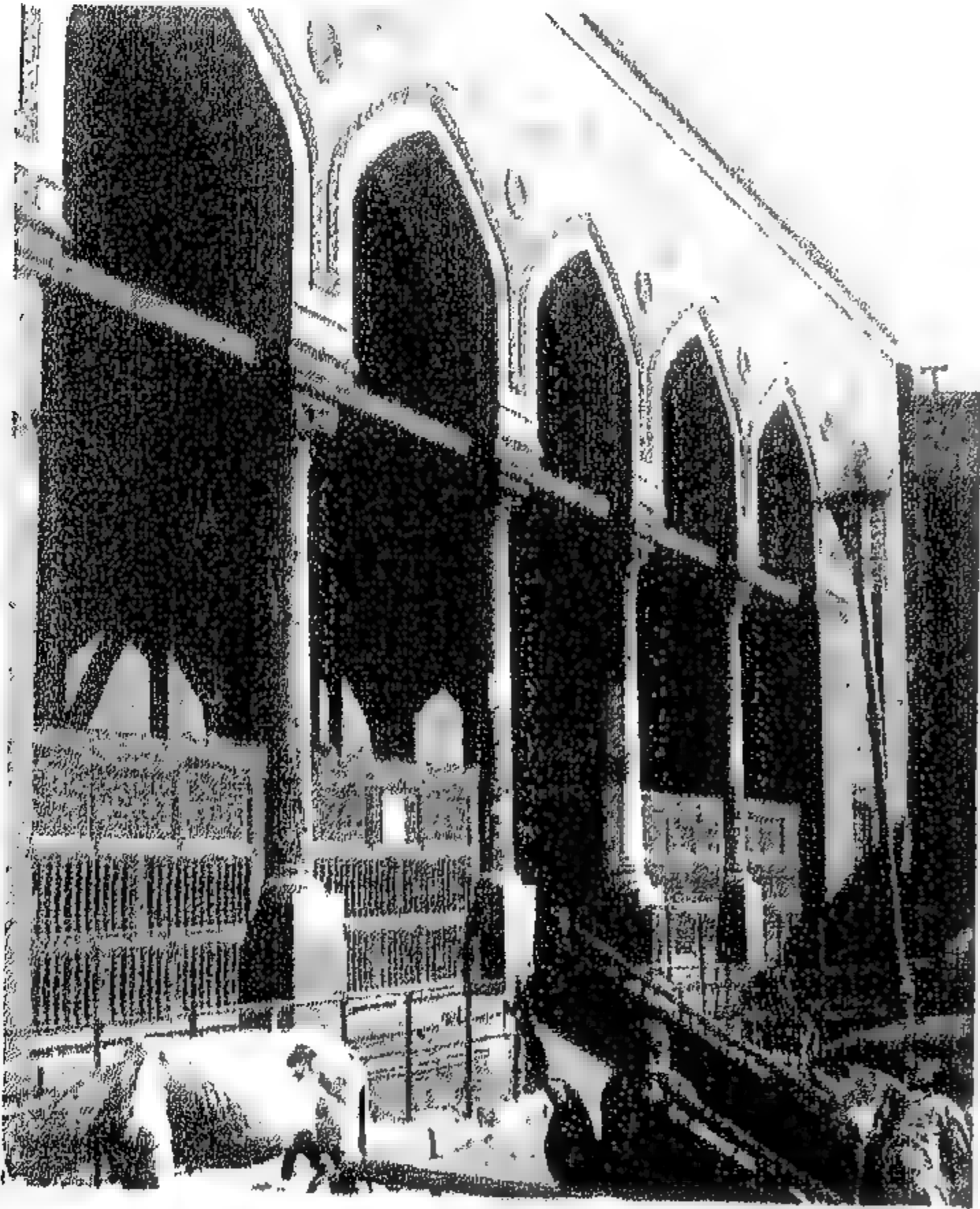
لوحة (٣٦) باب الفتوح في السور الشمالى
للقاهرة الفاطمية ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م (العصر
الفاطمى) .



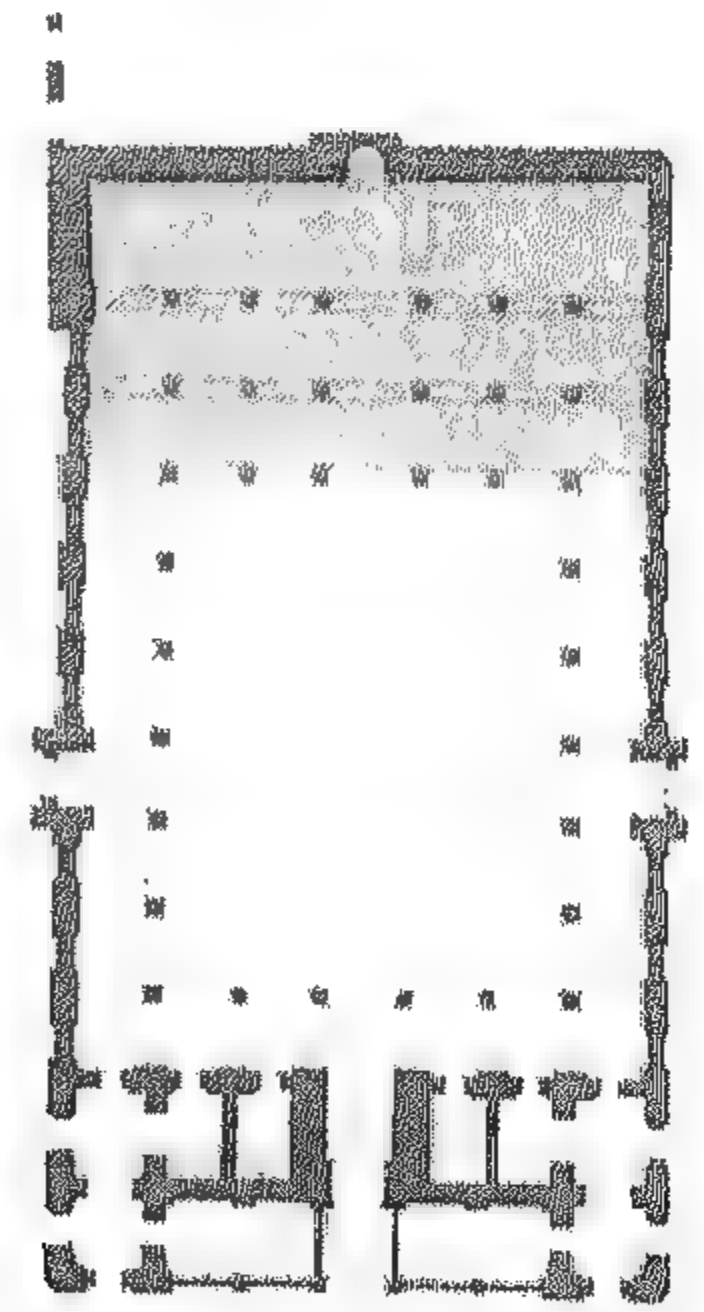
لوحة (٣٧) باب زويلة المعروف ببوابة
المتولى فى السور الجنوبى للقاهرة
الفاطمية ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م (العصر
الفاطمى) ، (والمئذنتان من العصر
المملوكى الجركسى - عهد السلطان
المؤيد شيخ) .



لوحة (٣٨) الجامع الأزهر الشريف بالقاهرة الفاطمية ، صحن
المسجد والمؤخر (العصر الفاطمي) (والقبة والمئذنتين من
العصر المملوكي البحري والجركسي) .



لوحة (٣٩) مسجد الأقرع بشارع المعز ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م (فى اعلى) الواجهة ،
ومسجد الصالح طلائع خارج باب زويلة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م (فى أسفل) : واجهة
الرواق الخارجى (السقيفة) (العصر الفاطمى) .



0	5	10	15
1	1	1	1
1	1	1	1
0	10	20	30

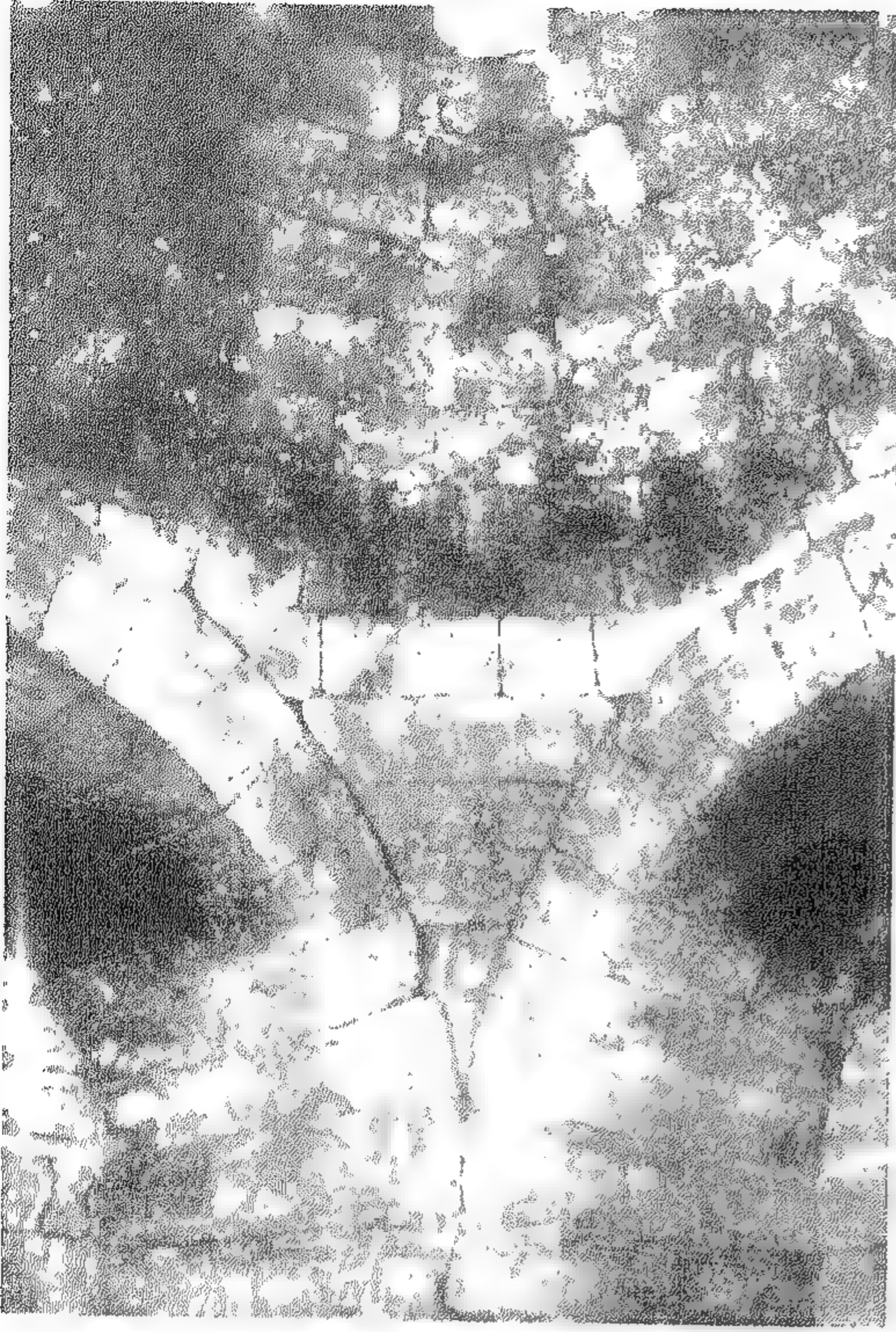
لوحة (٤٠) مسجد الصالح طلائع خارج باب زويلة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م : داخل
المسجد ومسقط أفقى للمسجد (العصر الفاطمى) .



لوحة (٤١) مسجد الصالح ملاح خارج باب زويلة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م تفصيل
للأجزاء التي تعلو قيجان الأعمدة ، فضلاً عن الأريطة الخشبية التي تمتد
فيما بين أرجل العقود والنقوش الزخرفية والكتابية (العصر الفاطمي) .

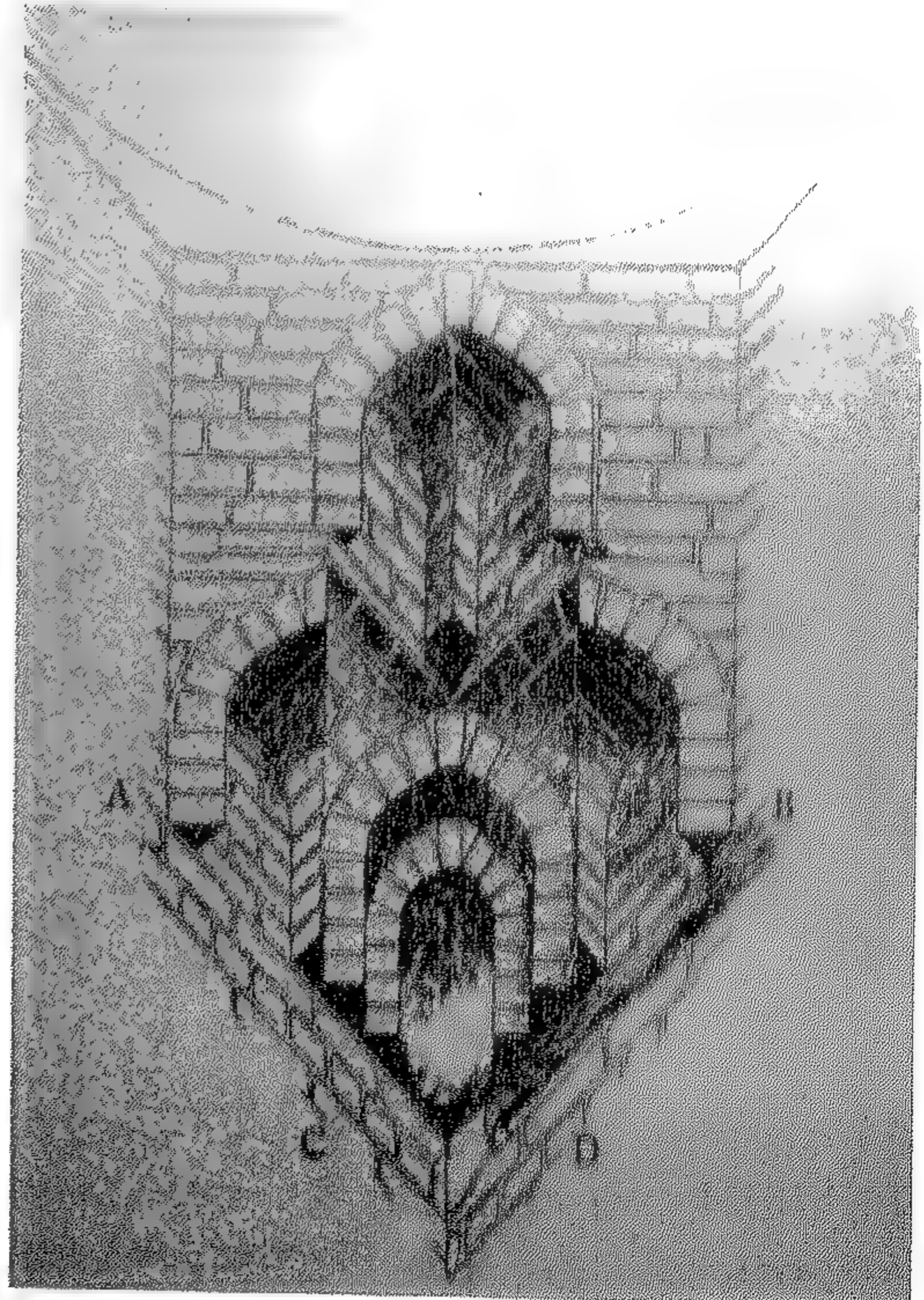


لوحة (٤٢) بعض المقابر الأثرية الباقية بجبانة أسوان جنوب مصر .



لوحة (٤٣) نموذج للمثلثات الكروية المستخدمة كمناطق انتقال للقباب الضحلة (غير العميقة) وهذا النوع كان معروفا قبل العصر الاسلامي وظل مستخدما في العمارة الاسلامية (منطقة إنتقال قبة قصر النويجس في عمان ق ٢م) .

لوحة (٤٤) نموذج لمناطق انتقال القباب الفاطمية المتطورة والتي تتكون من حطتين : الأولى من ثلاث حنايا والثانية من حنية واحدة (العصر الفاطمي - منطقة إنتقال القبة الفاطمية تجاه خانقاة بيبرس الجاشتكير بالجمالية) .





لوحة (٤٥) جامع محمد بك أبو الذهب تجاه الجامع الأزهر (وهو يمثل طراز المسجد القبلة الذي تحيط به زيادة من ثلاث جهات عدا جهة القبلة) (العصر العثماني في مصر) .



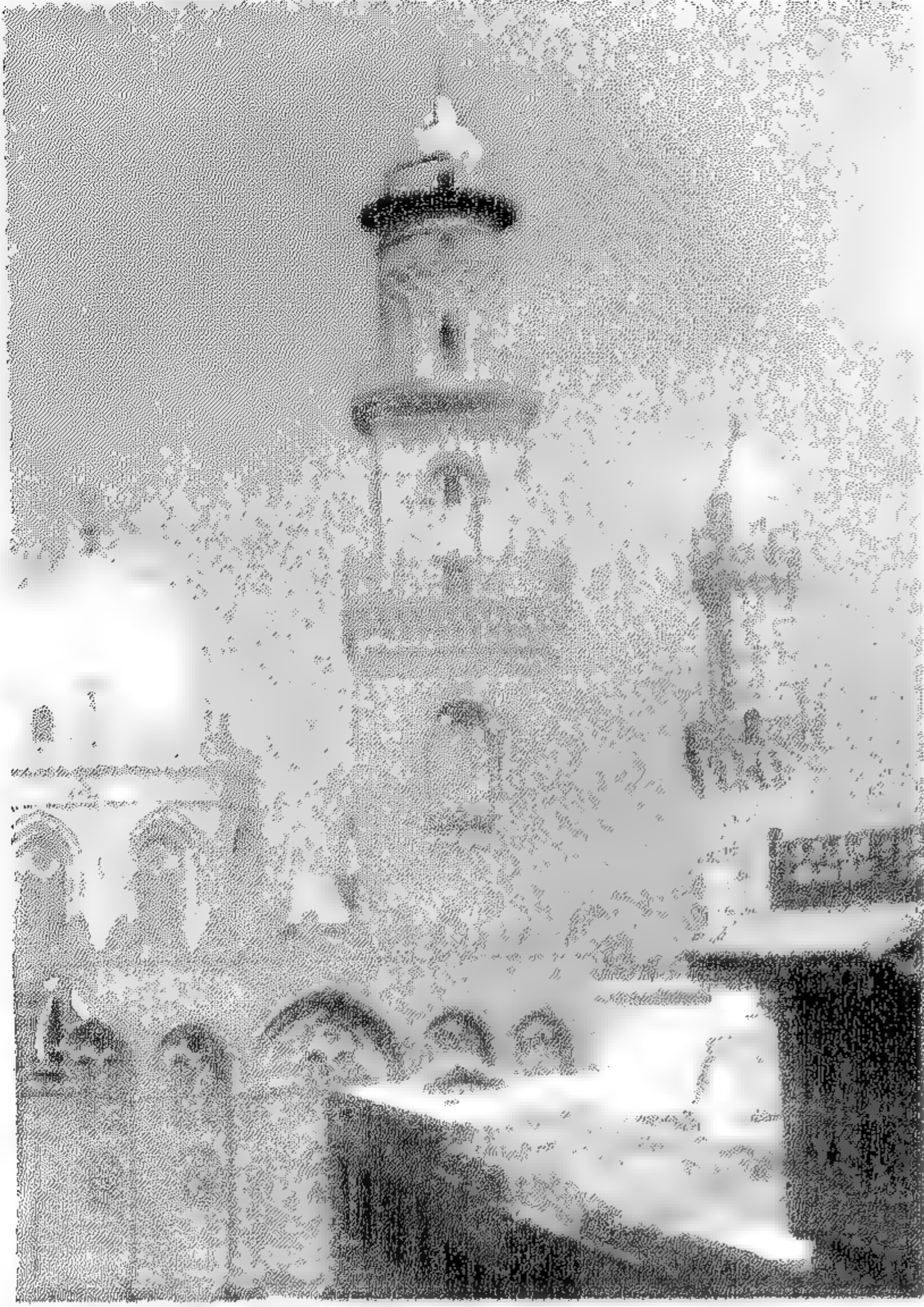
لوحة (٤٦) ميدان صلاح الدين (الرميطة) بحى الخليفة جنوب القاهرة ويشاهد : جامع المحمودية (الى اليسار) وباب العزب وخلفه مسجد أحمد كتخدا العزب وفي أعلى جامع محمد على الشهير (جامع الألباستر) (العصر العثماني - عهد محمد علي باشا) .



لوحة (٤٧) جامع محمد علي بالقلعة ، الحرم ويتوسطه الشادروان وبرج الساعة .

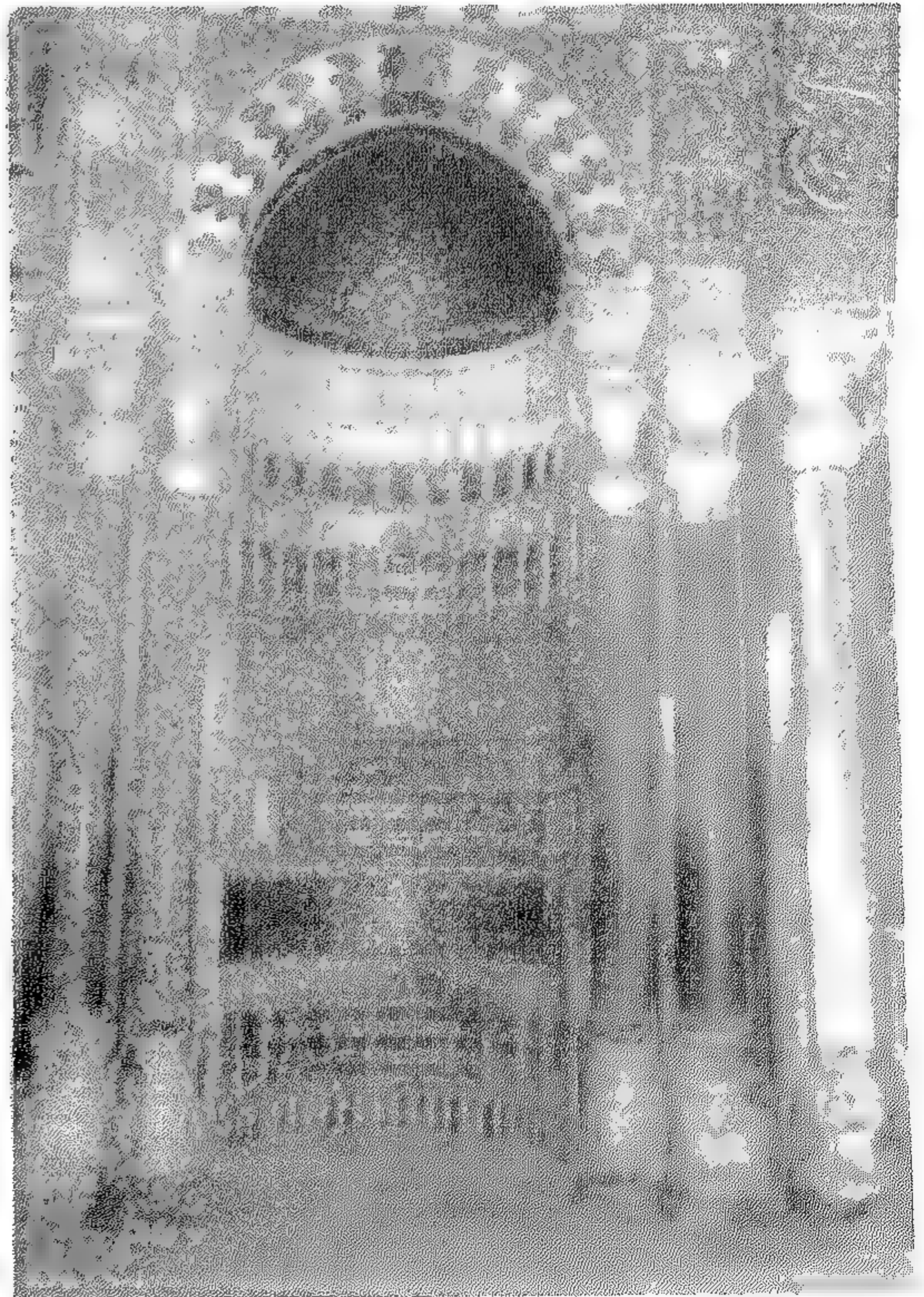


لوحة (٤٨) المدرسة الصالحية النجمية بشارع المعز (وهي أول مدرسة للمذاهب الأربعة في مصر وثاني مدرسة في العالم الإسلامي بعد المستنصرية ببغداد) ٦٣٩-٦٤١ هـ / ١٢٤١-١٢٤٣ م المدخل الرئيسي والمئذنة التي تعلوه (العصر الأيوبي) .



لوحة (٤٩) مجمع السلطان المنصور قلاوون
بشارع المعز ٦٨٣-٦٨٤ هـ / ١٢٨٤-١٢٨٥ م :
واجهة القبة المنصورية والمئذنة .

لوحة (٥٠) مجمع السلطان قلاوون بشارع
المعز : محراب القبة المنصورية (وهو
من أبداع المحاريب في العمارة الإسلامية
عامة وفي مصر خاصة) .





لوحة (٥١) مجمع السلطان قلاوون بشارع
المعز : نموذج للخط الكوفي الهندسي
في القبة المنصورية (اسم الرسول ﷺ
مكرراً ٢١ مرة) .

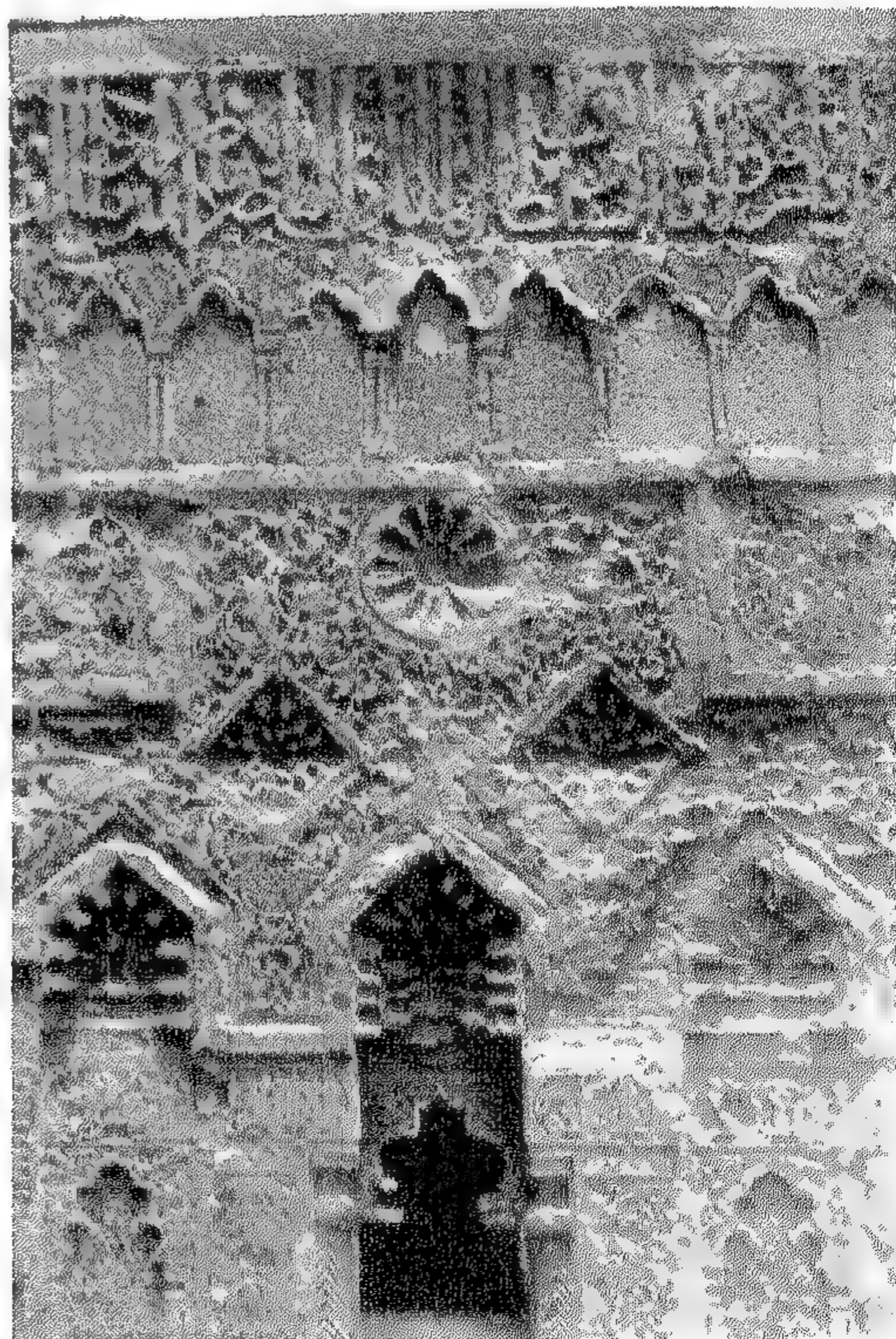
لوحة (٥٢) مجمع السلطان قلاوون بشارع
المعز : واجهة ايوان القبلة بالمدرسة
المنصورية .

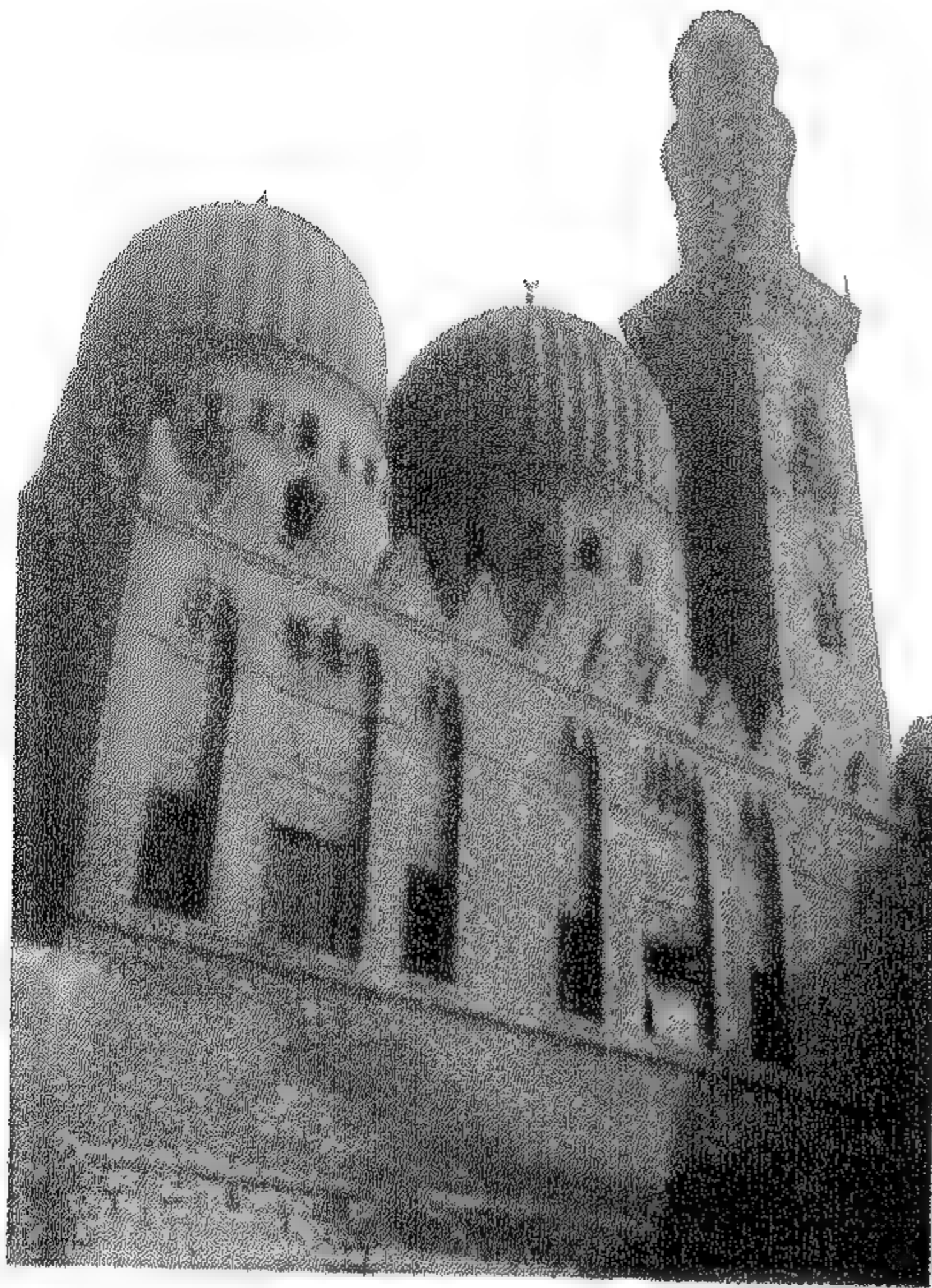




لوحة (٥٣) المدرسة الناصرية بشارع
المعز ٦٩٨-٧٠٣هـ / ١٢٩٨-١٣٠٣م : كتلة
المدخل والمئذنة التي تعلوها (العصر
المملوكي البحري) .

لوحة (٥٤) المدرسة الناصرية بشارع
المعز : تفصيل للنقوش الزخرفية
والكتابية البديعة على بدن المئذنة .

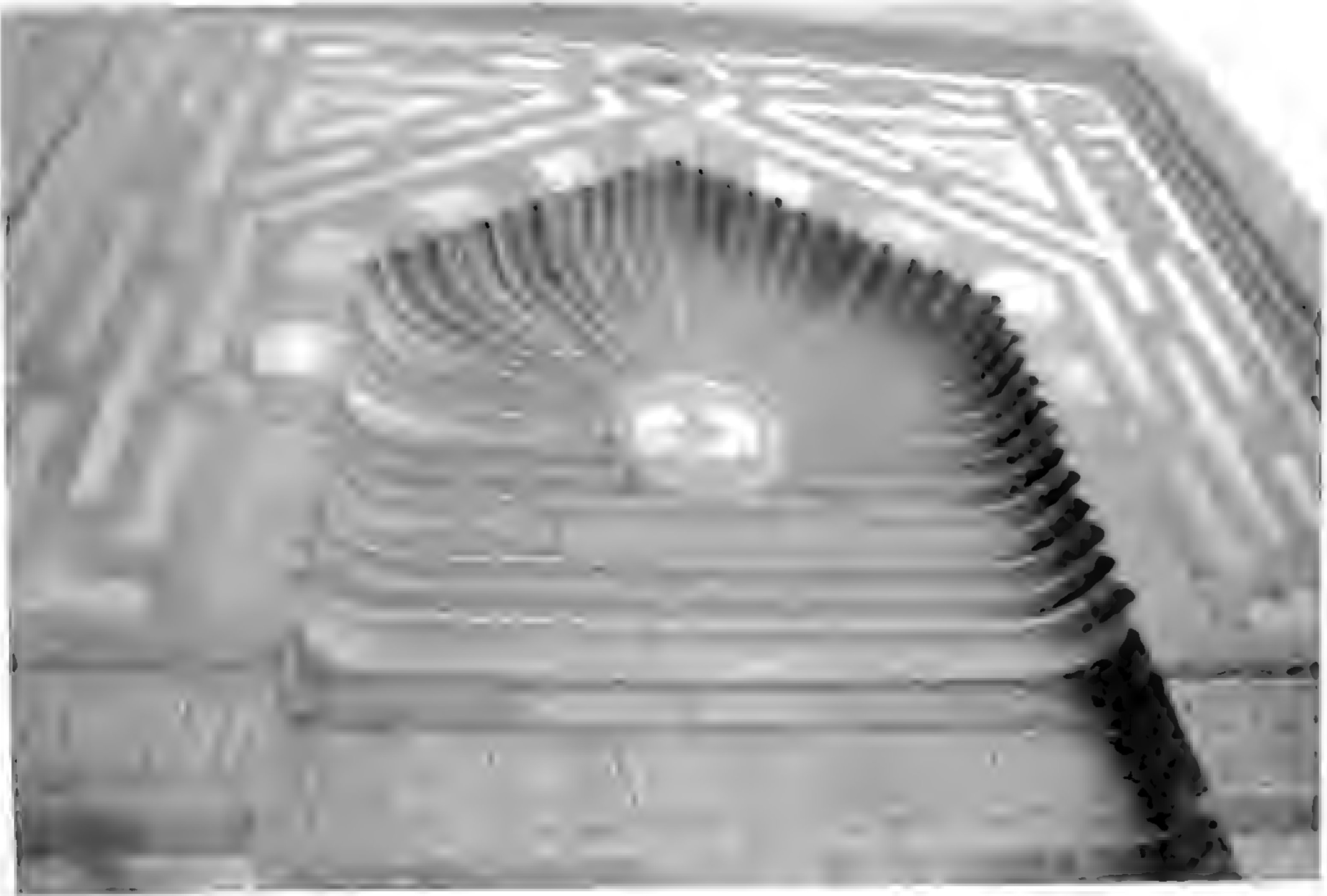




لوحة (٥٥) خانقاة سلاروسنجر الجاولى
بشارع مراسينا بحى السيدة زينب جنوب
القاهرة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م : الواجهة الرئيسية
على الشارع والقبتين والمئذنة (العصر
المملوكى البحرى) .

لوحة (٥٦) خانقاة بيبرس الجاشنكير بشارع
الجمالية قرب باب النصر بالقاهرة ٧٠٦-
٧٠٩هـ / ١٣٠٦-١٣٠٩م : المدخل الرئيسى
(ويشاهد طراز الطاقية (الطاسة) المقامة
على حطات مقرنصة) العصر المملوكى
البحرى) .





لوحة (٥٧) حمام بشتاك قبل ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ، المدخل الرئيسى
(العصر المملوكى البحرى) .



لوحة (٥٨) جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م ، مقدم
الجامع والمجنية القريبة (اليمنى) (العصر المملوكى البحرى) .



لوحة (٥٩) مدرسة السلطان حسن وجامع الرفاعي (وهما يشكلان منظرًا من أروع المناظر الأثرية عامة وفي مصر خاصة) وتجاه جامع الرفاعي يوجد جامع محمودية (الى اليسار) ومدرسة قانى باى الرماح أمير أخور (الى اليمين) .



لوحة (٦٠) مدرسة السلطان حسن ، كتلة المدخل الرئيسى ٧٥٧-٧٦٤ هـ / ١٣٥٦-١٣٦٢ م (العصر المملوكى البحرى) .



لوحة (٦١) مدرسة السلطان حسن من الداخل .



لوحة (٦٢) مدرسة السلطان حسن ، ايوان القبلة وبمقدمة توجد دكة المبلغ الرخامية .



لوحة (٦٣) مدرسة السلطان حسن ، صدر ايوان القبلة حيث يشاهد المحراب والمنبر .



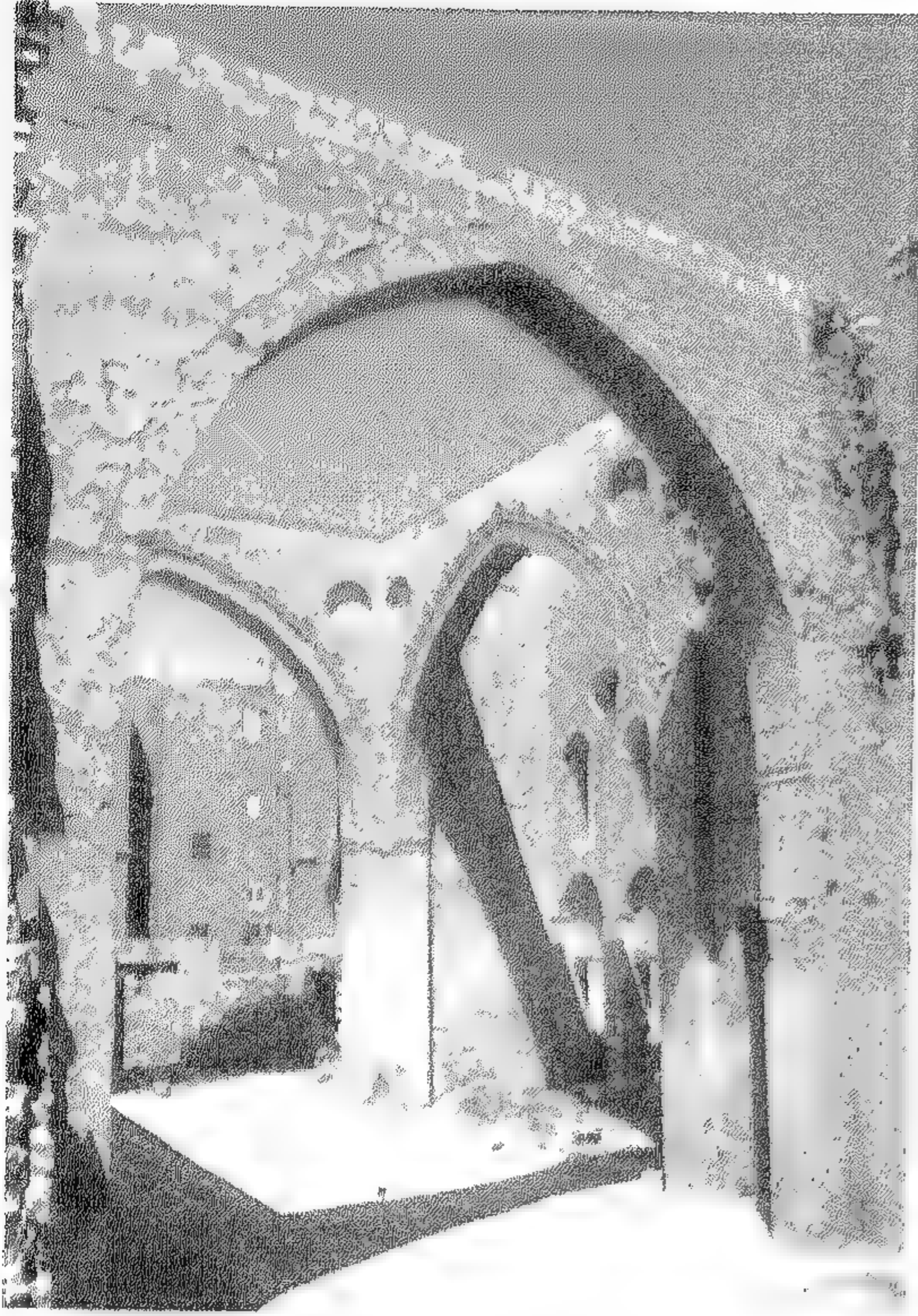
لوحة (٦٤) بقايا الخانقاة المعروفة بالتربة السلطانية بقراة سيدى جلال (بمنطقة السيدة عائشة) ، الربع الثالث من ق ٨ هـ / ١٤ م (والقباب تتبع الطراز المعروف بطراز القباب السمرقندية) (العصر المملوكى البحرى) .



لوحة (٦٥) مدرسة وخانقاة السلطان
الظاهر برقوق بشارع المعز ٧٨٦-٧٨٨ هـ /
١٣٨٤-١٣٨٦ م (ويقع تجاهها سبيل محمد
على باشا بالنحاسين وهو يتبع الطراز
العثماني ذو الواجهة المقوسة وقد تحول
مؤخراً الى متحف للمنسوجات (العصر
المملوكي الجركسي) .

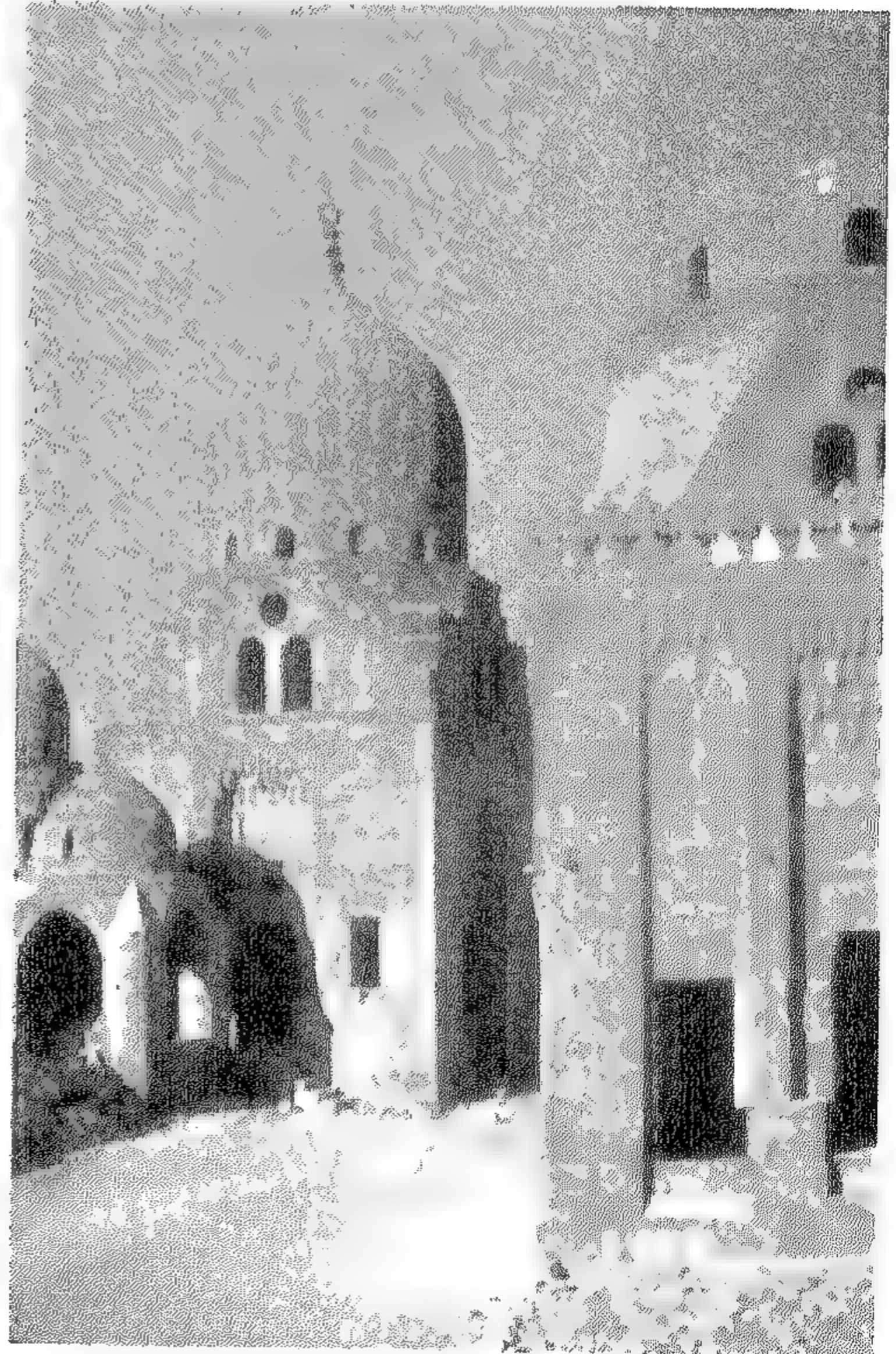
لوحة (٦٦) خانقاة السلطان الناصر فرج بن
برقوق ٨٠١-٨١٣ هـ / ١٣٩٨-١٤١٠ م : الصحن
وبقايا الفسقية وجانب من واجهة ايوان
القبلة وقبة الرجال (القبلة الشرقية أو
اليسرى) (العصر المملوكي الجركسي) .





لوحة (٦٧) بقايا البيمارستان المؤيدى
٨٢٣-٨٢١ هـ / ١٤١٨-١٤٢٠ م (العصر
المملوكى الجركسى) .

لوحة (٦٨) خانقاة الأمير برسباى البجاسى
حوالى ٨٦٠ هـ / ١٤٥٦ م بقرافة صحراء
المماليك ويحوشها قبة الأمير سليمان أغا
٩٥١ هـ / ١٥٤٤ م وتجاه مدخلها تربة تتبع
طراز التربة المفتوحة وتاريخها ٩١٩ هـ /
١٥١٣ م (العصر المملوكى الجركسى وأوائل
العصر العثمانى فى مصر)





لوحة (٦٩) مجمع السلطان الأشرف قايتباي
٨٧٧-٨٧٩ هـ / ١٤٧٢-١٤٧٤ م : كتلة المدخل
الرئيسي والسبيل ومكتب السبيل (العصر
المملوكي الجركسي) .

لوحة (٧٠) مجمع السلطان الأشرف
قايتباي : واجهة ايوان القبلة والقبلة
الملحقة بالمدرسة .





لوحة (٧١) مجمع السلطان الأشرف
قايتباي : تفصيل للقبة ونقوشها الزخرفية
والكتابية (وهى من أبداع القباب الأثرية
على الإطلاق) .

لوحة (٧٢) مجمع السلطان الأشرف
قايتباي : المئذنة (وتعد هي الأخرى
من أروع المآذن الأثرية على الإطلاق) .





لوحة (٧٣) الفورية ، سوق الحرير للرحالة ديفيد روبرت ١٨٤٩م .



لوحة (٧٤) مجمع السلطان الأشرف قانصوه الغورى بالغورية ٩٠٩-٩١٠ هـ / ١٥٠٣-١٥٠٤ م :
المدرسة والمنذنة (الى اليمين) والخانقاة والقبة والسبيل ومكتب السبيل (الى اليسار)
(العصر المملوكى الجركسى)



لوحة (٧٥) سبيل السلطان الأشرف قانصوه الغورى الملحق بقبته وخانقاته ضمن مجمعه بالغورية
(وهو يتبع طراز الأسيلة المصرية ذات السلسبيل أو الشادروان) ويعلوها مكتبا للسبيل .



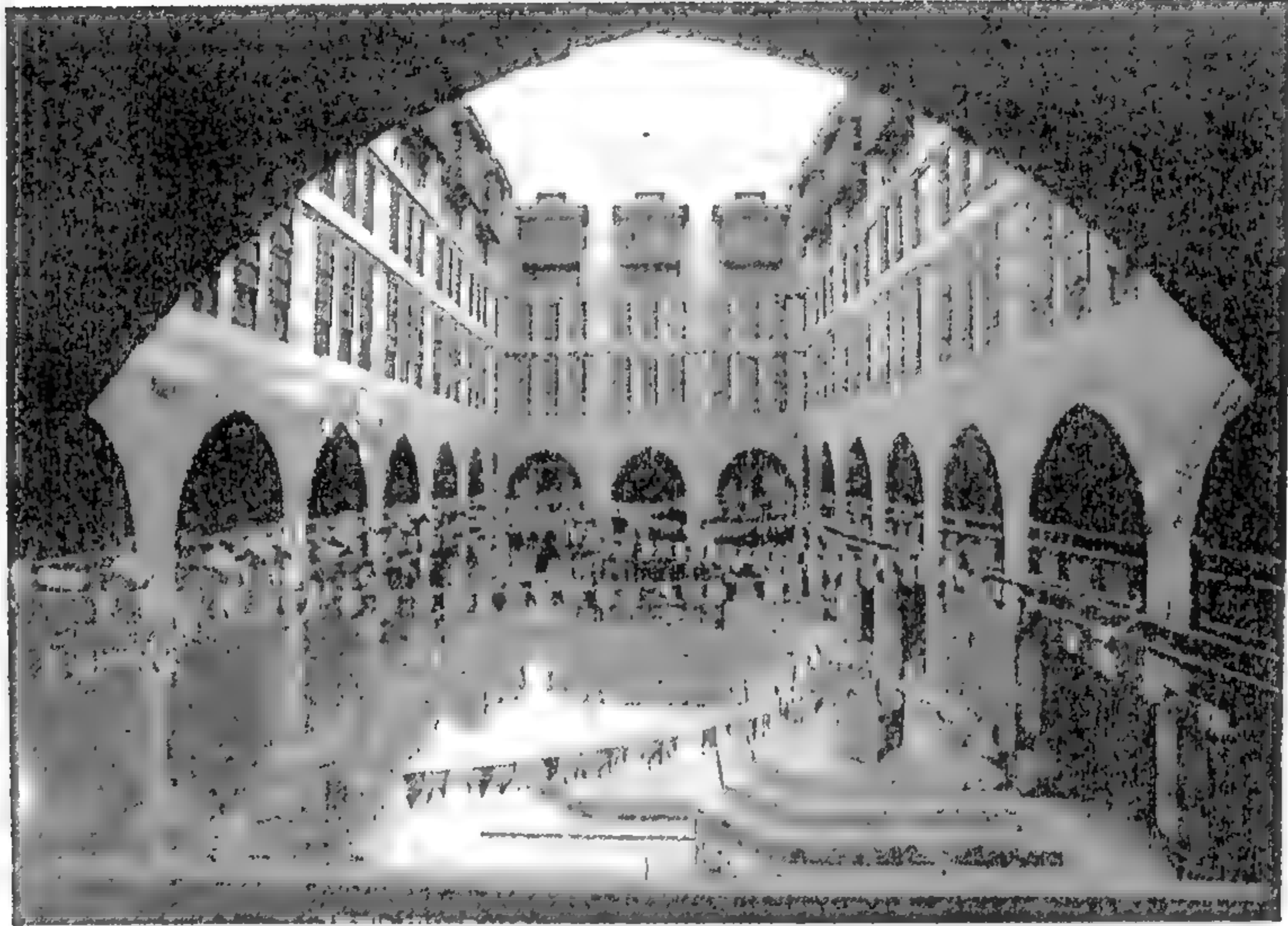
لوحة (٧٦) رنك كتابی (درع او خورطوش) باسم السلطان الغوری والقابله والدعاء له .
القسم الأوسط (الشطب) ، عز لمولانا السلطان الملك الأشرف .
القسم الأعلى ، قانصوه الغوري .
القسم الأسفل ، عز نصره .



لوحة (٧٧) مدرسة الأمير خير بك بشارع باب الوزير ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ : المئذنة والقبة
(العصر المملوكي الجركسي) .



لوحة (٧٨) مجموعة من المآذن والقباب بميدان صلاح الدين (الرمييلة) ودرب اللبان
بمنطقة القلعة بالقاهرة : السلطان حسن والرفاعي وقبة ومئذنة قاني باي الرماح أمير آخور
(المئذنة ذات الرأسين) .



لوحة (٧٩) وكالة السلطان الأشرف قانصوة الغورى ٩٠٩-٩١٠هـ / ١٥٠٣-١٥٠٤م
(العصر المملوكى الجركسى) .



لوحة (٨٠) سبيل خسرو باشا بشارع المعز ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م (وهو يتبع طراز
الأسبلة المصرية ذات السلسبيل أو الشادروان) (العصر العثمانى فى مصر) .



لوحة (٨١) سبيل الأمير عبد الرحمن
كتخدا (بشارع المعز) المعروف بسبيل
بين القصرين ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م (العصر
العثماني في مصر) .

لوحة (٨٢) سبيل رقية دودو بشارع سوق
السلح بالقاهرة ١١٧٤هـ / ١٧٦١م (وهو
يتبع طراز الأسبلة العثمانية ذات الواجهة
المقوسة) (العصر العثماني في مصر) .





لوحة (٨٣) مقصورة الأمير نوروز المعرفة بايوان ريحان (بقرافة سيدى جلال بمنطقة السيدة عائشة بالقاهرة) ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م (العصر العثماني فى مصر) .



لوحة (٨٤) نموذج يوضح طراز المدافن المعروفة بطراز التربة المفتوحة أو المقابر الكانوبية (العصر العثماني فى مصر) .



لوحة (٨٥) تركيبة قبر محمد علي باشا بمدفنه الملحق بجامعة الشهير بالقلعة
(العصر العثماني - عهد محمد علي وأسرة) .



لوحة (٨٦) قصر المنتزة الشهير بالأسكندرية (الخديوى عباس حلمي الثاني
١٣١٠هـ / ١٨٩٢م) (العصر العثماني في مصر - عهد الأسرة العلوية) .



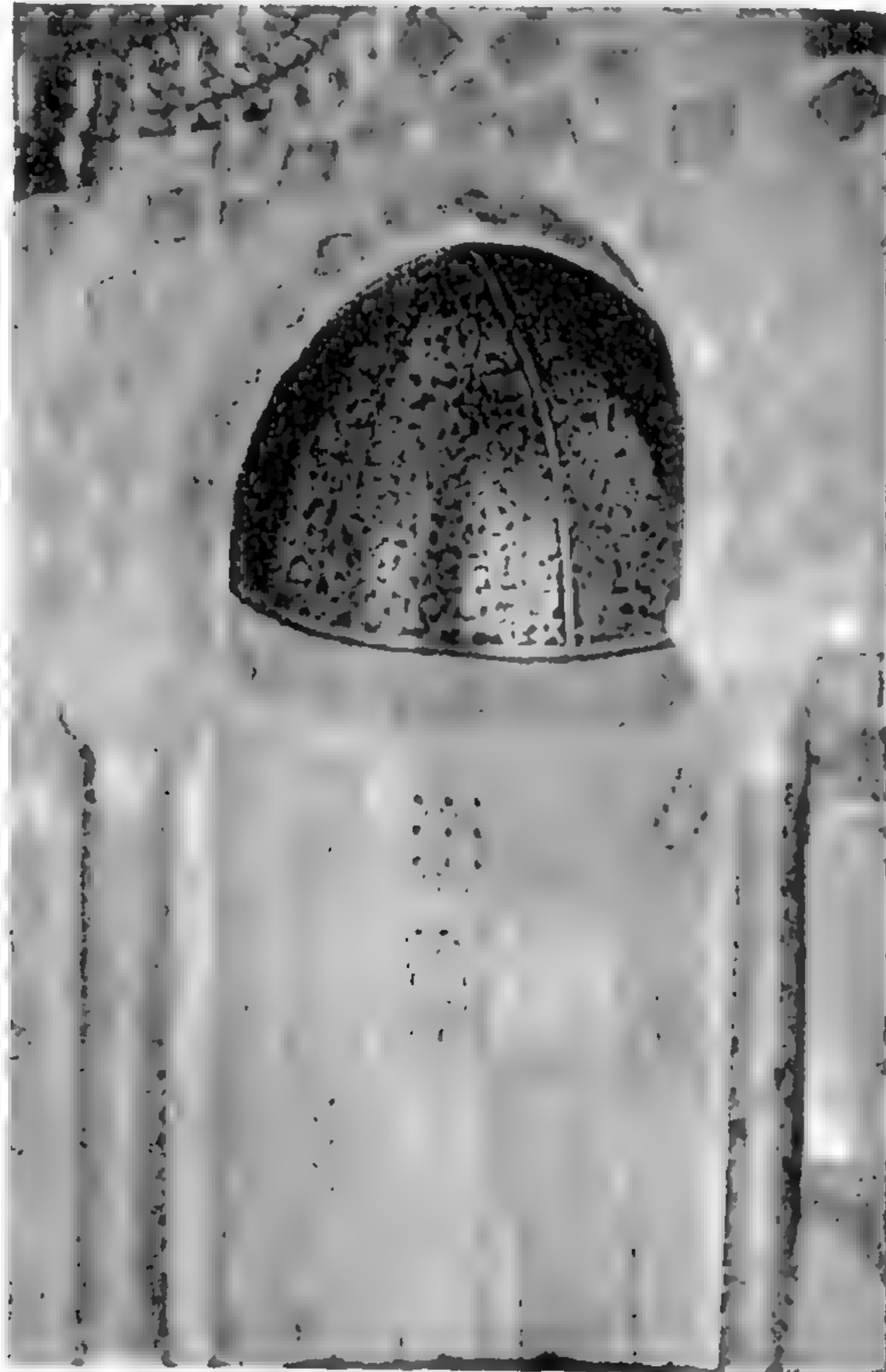
لوحة (٨٧) قصر المنتزة الشهير بالأسكندرية.

الجناح الغربي لدار الإسلام

١ - المغرب



لوحة (٨٨) جامع القيروان الشهير بتونس ، منظر عام (وهو يمثل النمط الثاني للطراز التقليدي لعمارة المساجد الإسلامية ، وفيه تسير عقود البلاطات (الأروقة) عمودية على جدار القبلة والبلاطة الوسطى (الرواق الأوسط) أكثرها اتساعا وارتفاعا ، وهذا النمط يعد سمة رئيسية لعمارة المساجد في المغرب والأندلس مع وجود بعض الاستثناءات بطبيعة الحال) (عصر الأغالبة) .



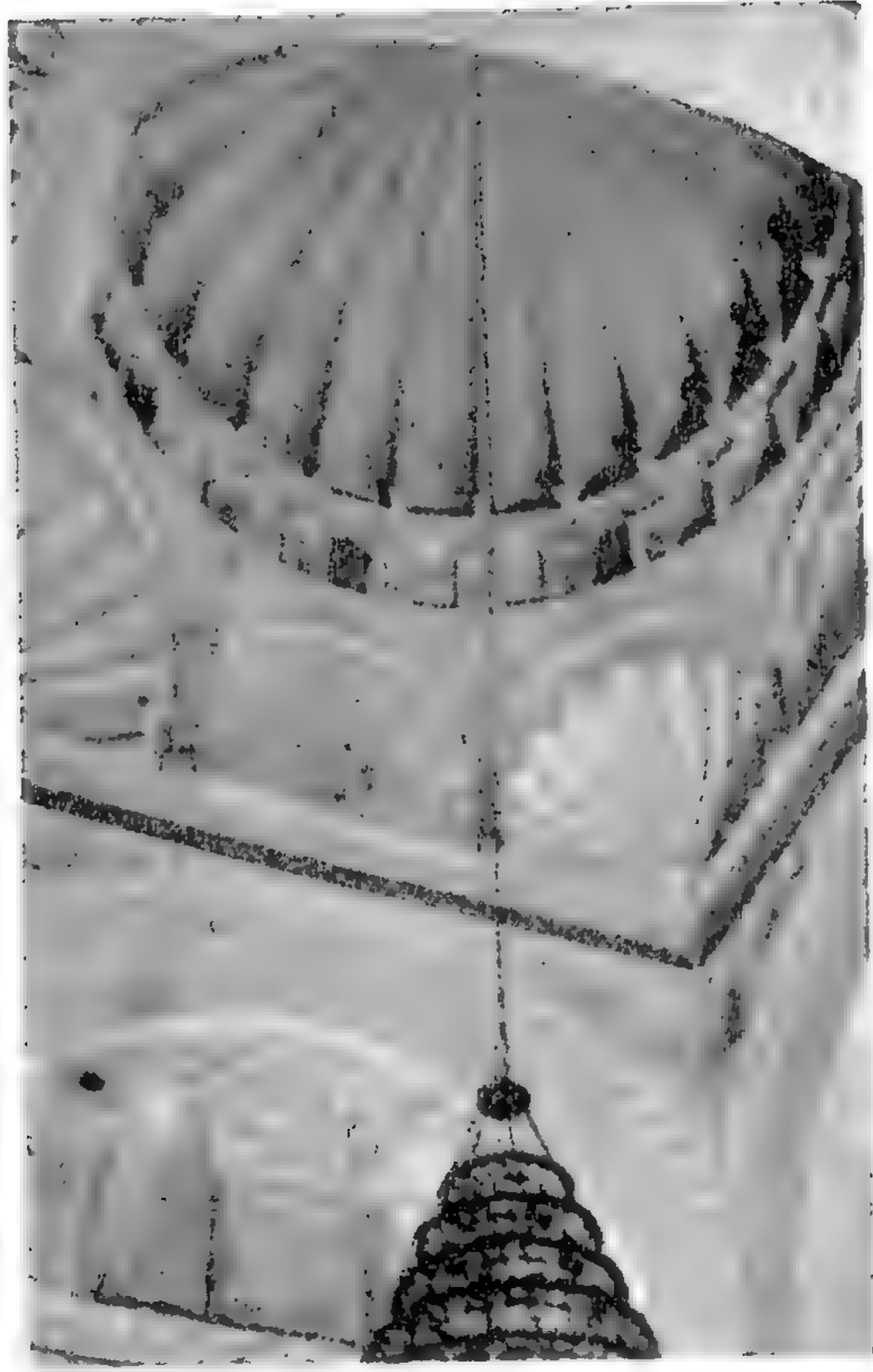
لوحة (٨٩) جامع القيروان ، المحراب



لوحة (٩٠) جامع القيروان ، المنذنة (وهي تتبع طراز الأبراج أو الصوامع) وترجع الى عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك .



لوحة (٩١) جامع القيروان ، القبة التي تغطي مربعة المحراب .



لوحة (٩٢) جامع القيروان ، منطقة انتقال القبة التي تغطي مربعة المحراب وهي عبارة عن أربعة حنايا ركنية (سكونشات) بواقع حنية محارية الشكل بكل ركن من الأركان .



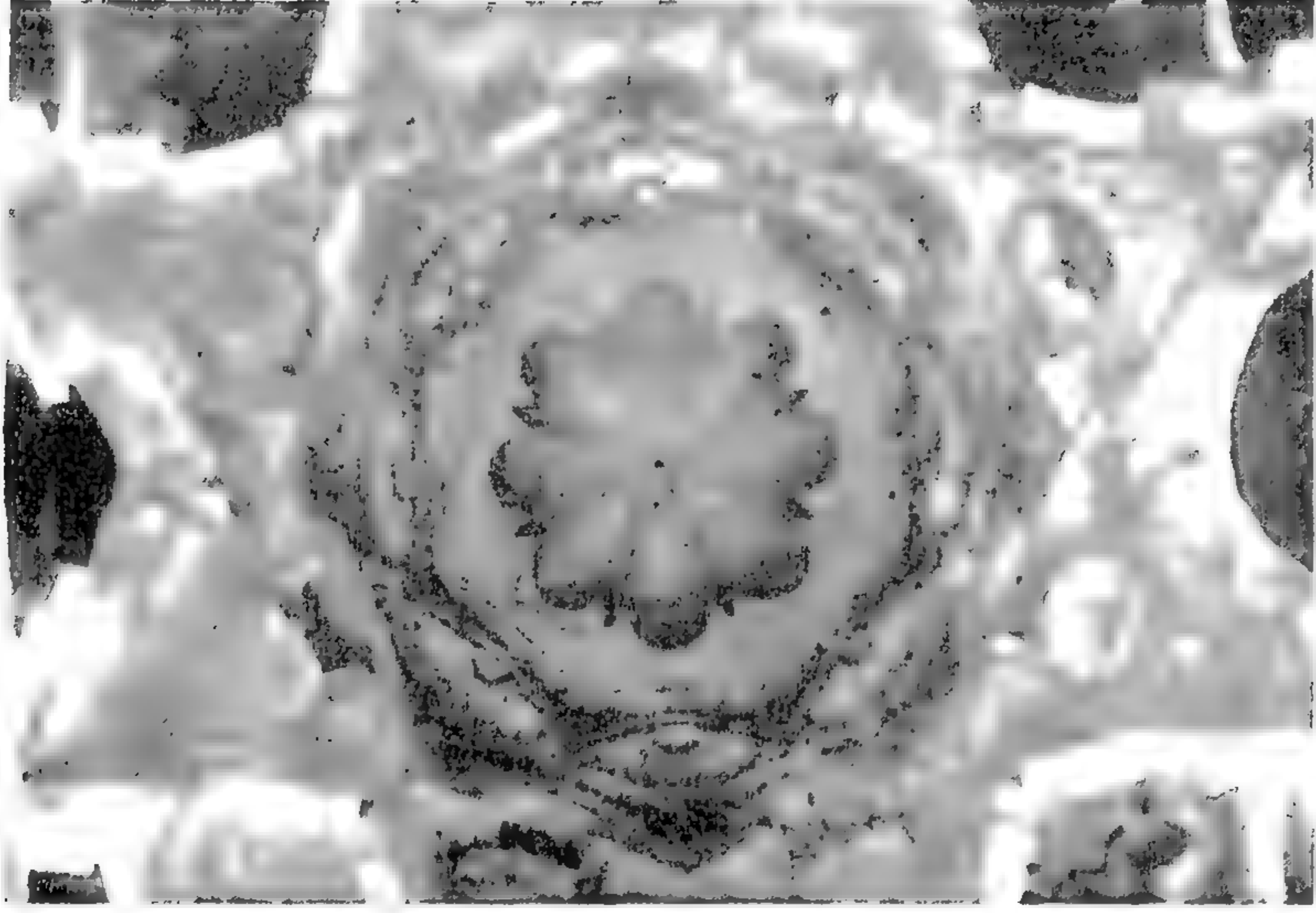
لوحة (٩٣) جامع سوسة بتونس ٢٣٦هـ / ٨٥٠م (عصر الأغالبة) .



لوحة (٩٤) رياض سوسة بتونس
٢٠٦هـ / ٨٢١م (عصر الأغلبية) .



لوحة (٩٥) قبة البروديين في مراكش
بالمغرب الأقصى (العصر المرابطي)
من الخارج .



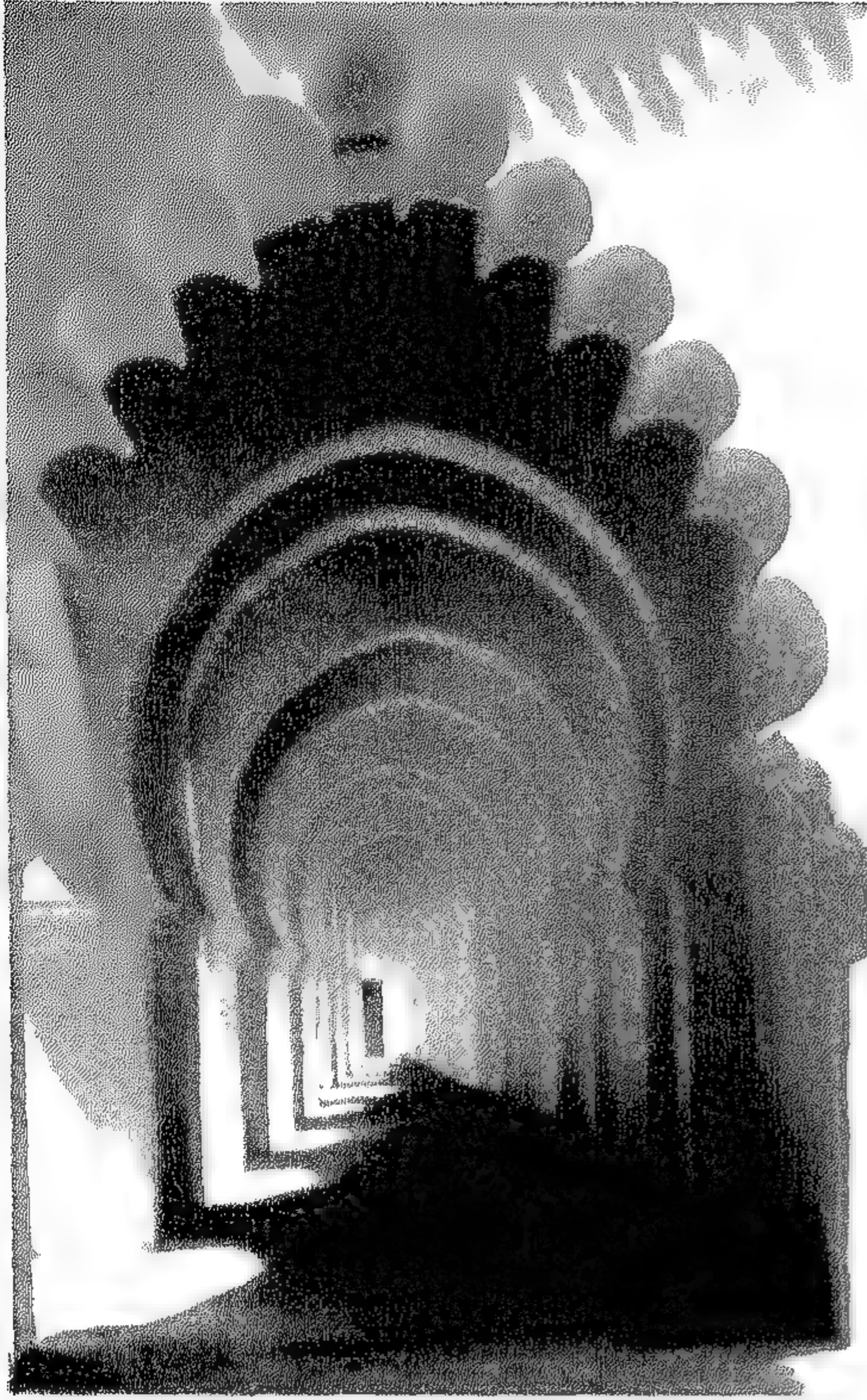
لوحة (٩٦) قبة البروديين في مراكش من الداخل (وهي من أبداع وأروع نماذج القباب المقرنصة في العمارة الإسلامية على الإطلاق).



لوحة (٩٧) مسجد القرويين بفاس بالمغرب الأقصى من الداخل (المرحلة الأخيرة تمت في العصر المرابطي ٥٢٨-٥٣١ هـ / ١١٣٣-١١٣٦ م) .

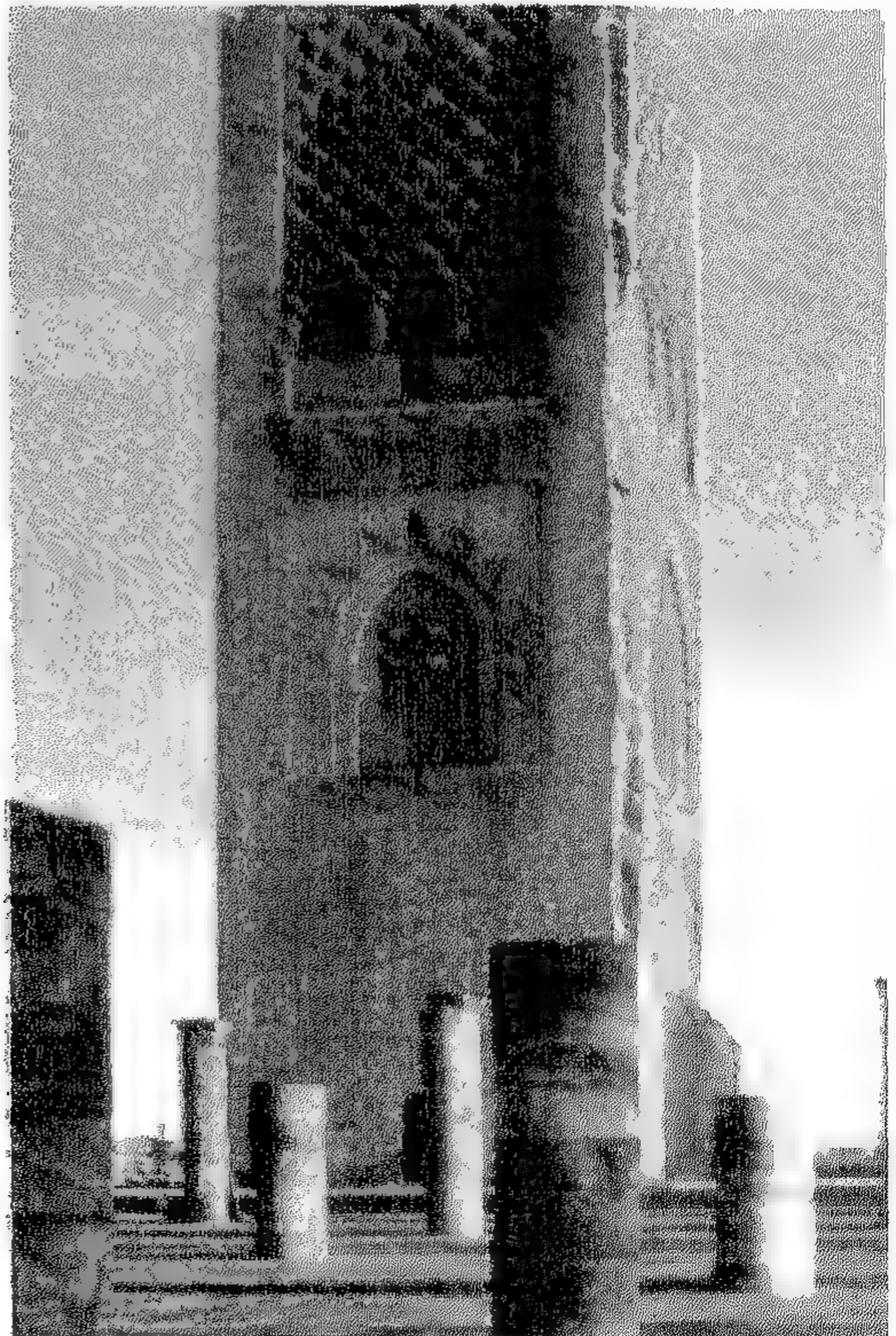


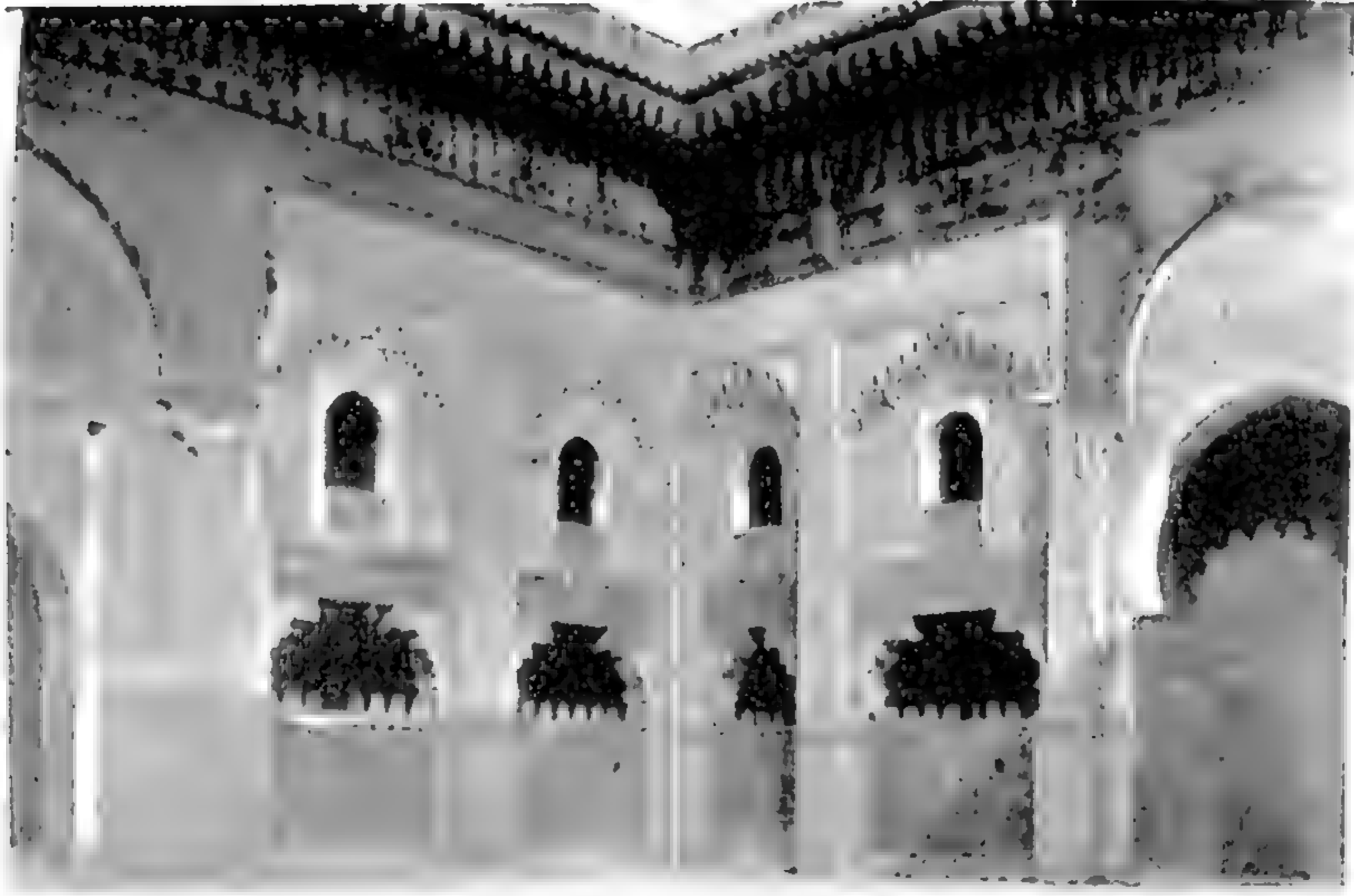
لوحة (٩٨) مسجد تينمل الجامع في المغرب الأقصى
(العصر الموحدي) ٥٤٨هـ / ١١٥٣م .



لوحة (٩٩) مسجد الكتبية في مراكش
بالمغرب الأقصى ٥٥٣هـ / ١١٥٨م (العصر
الموحدي) .

لوحة (١٠٠) جامع حسان بالرباط
بالمغرب الأقصى : المئذنة (العصر
الموحدي) .





لوحة (١٠١) المدرسة البوعنانية بفاس بالمغرب الأقصى ٧٥١-٧٥٦ هـ / ١٣٥٠-١٣٥٥ م
(العصر المريني).

ب - الأندلس



لوحة (١٠٢) المسجد الجامع بقرطبة (إسبانيا) وعلى مقربة منه القنطرة
العتيقة المقامة على نهر الوادي الكبير (العصر الأموي في الأندلس).



لوحة (١٠٣) المسجد الجامع بقرطبة : باب سان استييان .



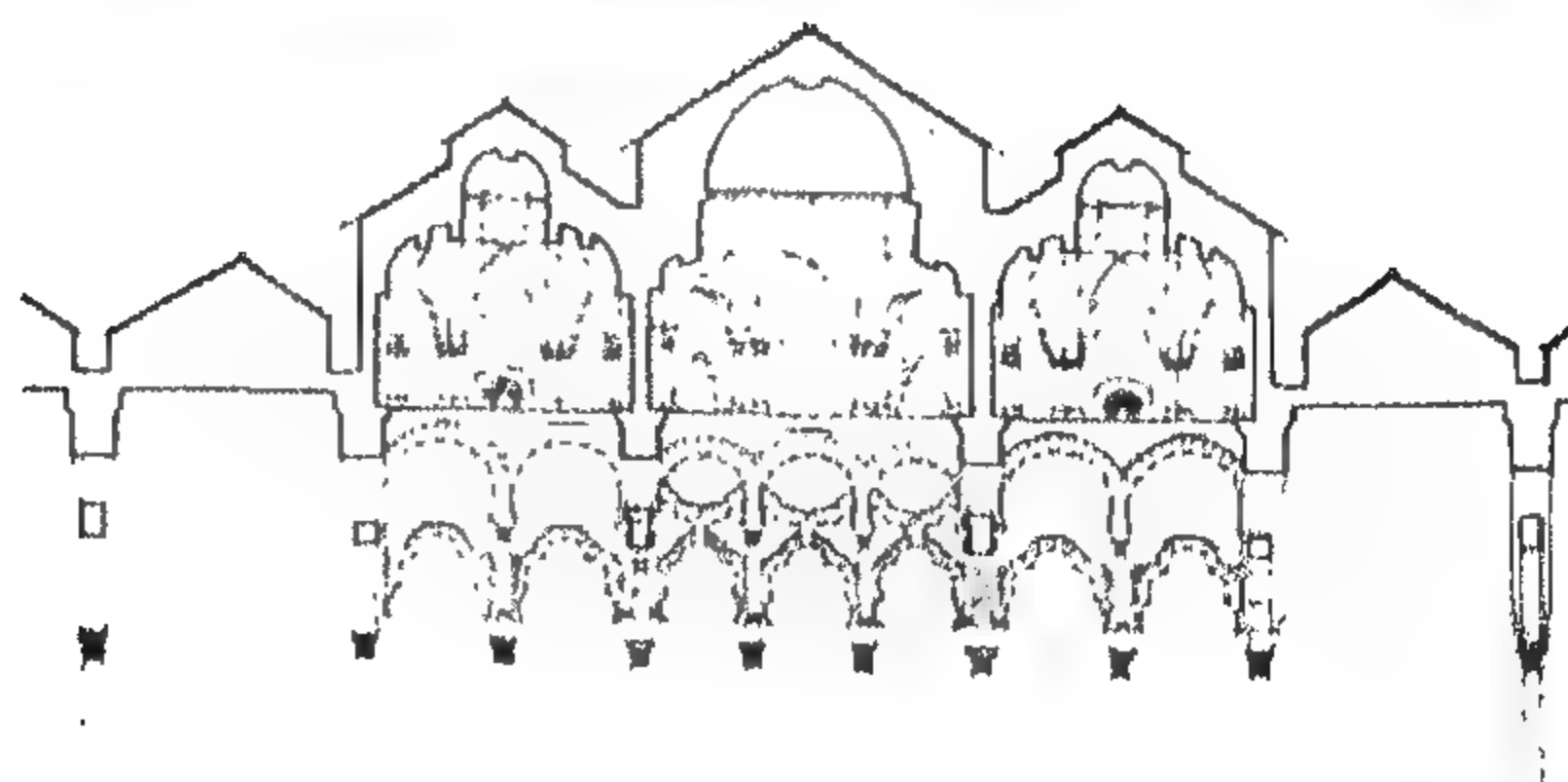
لوحة (١٠٤) المسجد الجامع بقرطبة : العقود بمقدم الجامع .



لوحة (١٠٥) المسجد الجامع
بقرطبة ، العقود بمقدم الجامع .



لوحة (١٠٦) المسجد الجامع
بقرطبة ، مقصورة الخليفة الأموي
الحكم المستنصر ويصدرها المحراب .

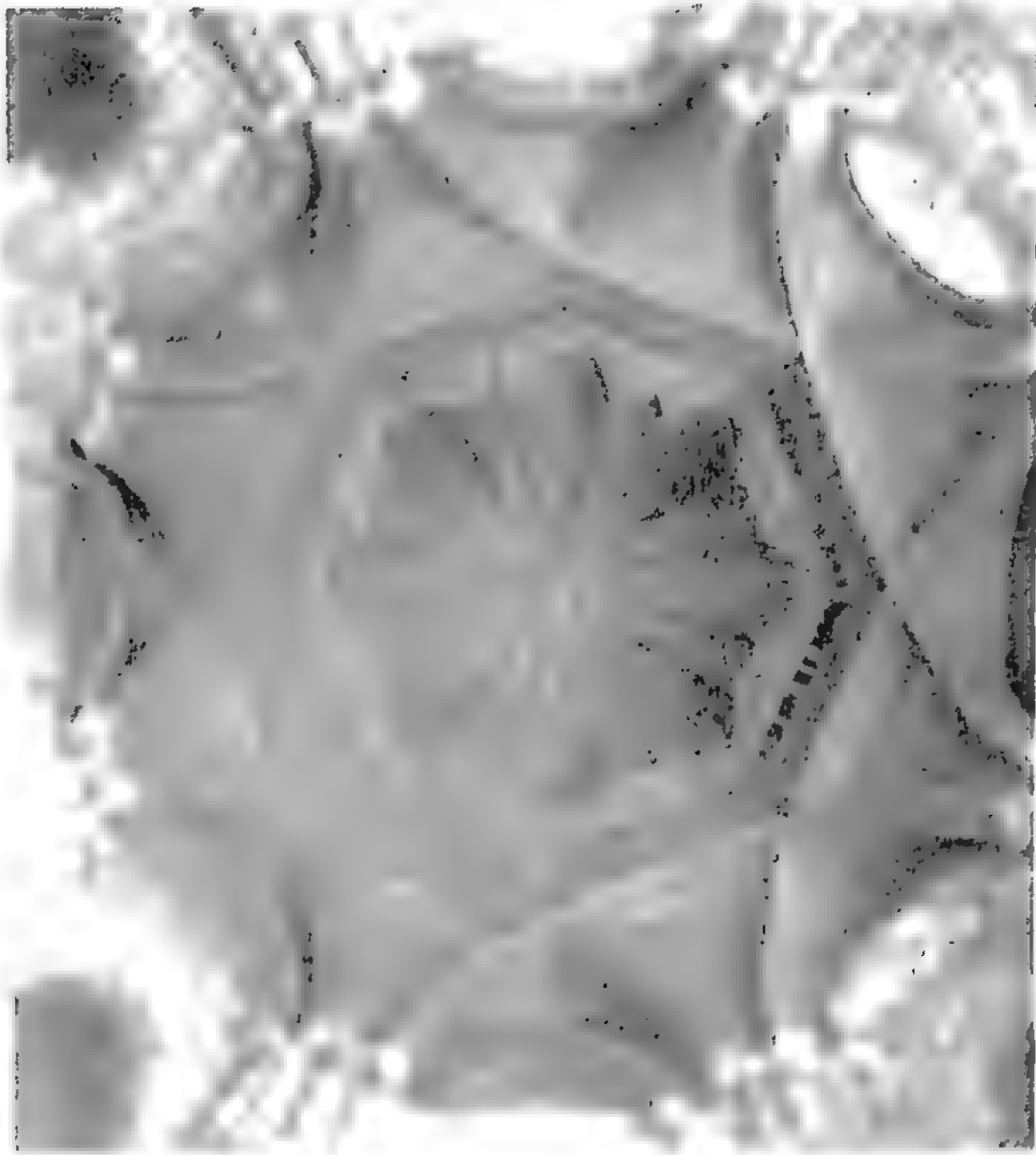




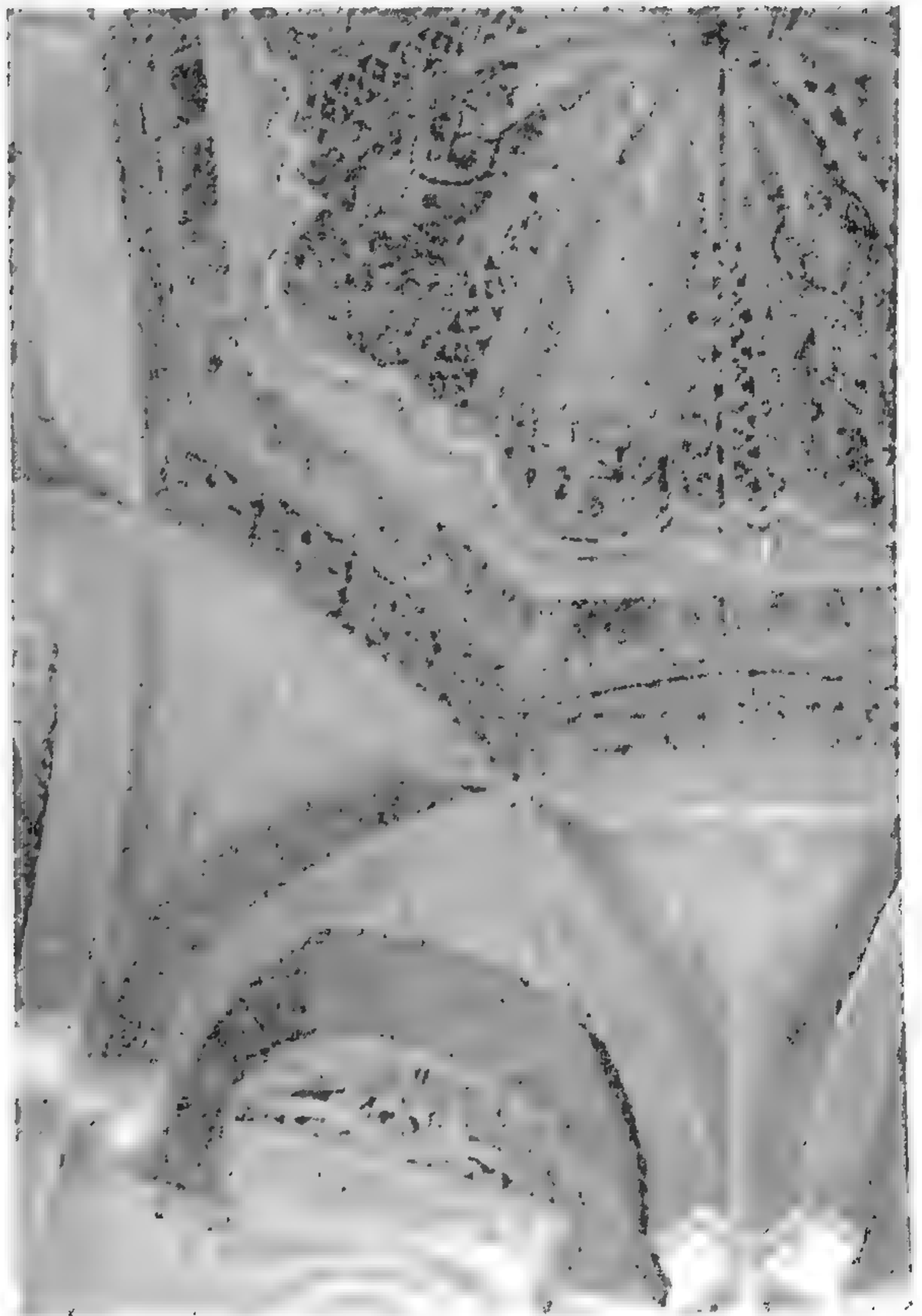
لوحة (١٠٧) المسجد الجامع بقرمطبة : تفصيل لمقصورة الخليفة الحكم المستنصر.



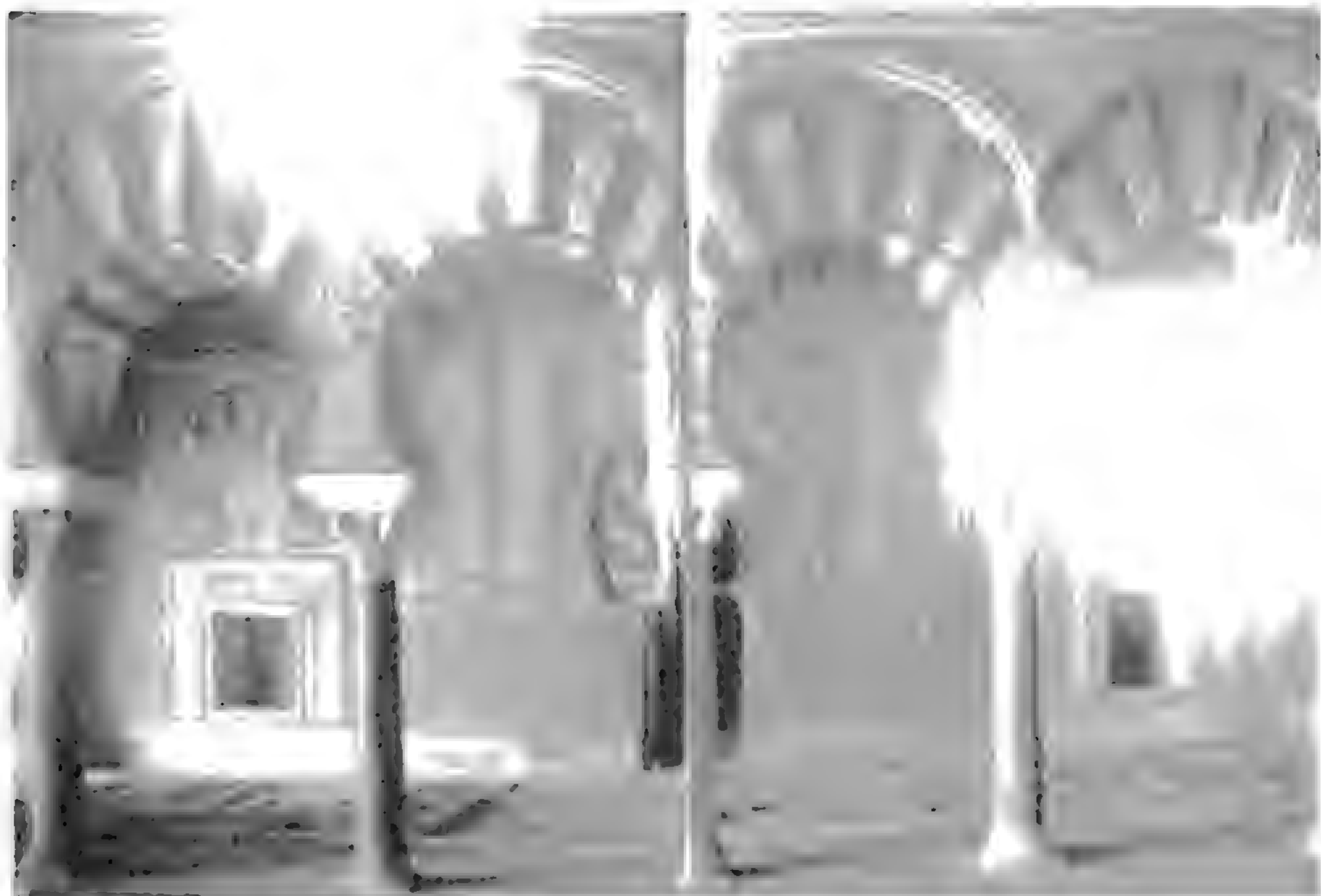
لوحة (١٠٨) المسجد الجامع بقرمطبة : محراب الخليفة الحكم المستنصر .



لوحة (١٠٩) المسجد الجامع
بقرطبة ، القبة التي تغطي مربعة
المحراب بزيادة الخليفة الحكم
المستنصر ٣٥٤هـ / ٩٦٥م .



لوحة (١١٠) المسجد الجامع
بقرطبة ، تفصيل للقبة التي
تغطي مربعة المحراب بزيادة
الحكم المستنصر .



لوحة (١١١) مدينة الزهراء مجلس الخليفة عبد الرحمن الناصر (المجلس الثرى أو الضخم) ويرجع بناء المدينة وعمارتها فيما بين ٣٢٥-٣٤٦هـ / ٩٣٦-٩٥٧م (العصر الأموي في الأندلس).



لوحة (١١٢) مسجد الباب المردوم بجليطة (اسبانيا) ٣٩٠هـ / ٩٩٩م (كنيسة الكريستودى لالوث) من الخارج (العصر الأموي في الأندلس).



لوحة (١١٣) مسجد الباب المردوم
بطليطلة : قطاع وواجهة وتفصيل لقباب
المسجد التسع .

لوحة (١١٤) حمام الجوز بحى البيازين
بغرناطة البانويلىو (عصر ملوك
الطوائف - المظفر باديس بن حبوس
بن زيرى ٤٢٨-٤٦٥ هـ / ١٠٣٧-١٠٧٣ م) ؛
بيت أول أو البيت البارد .

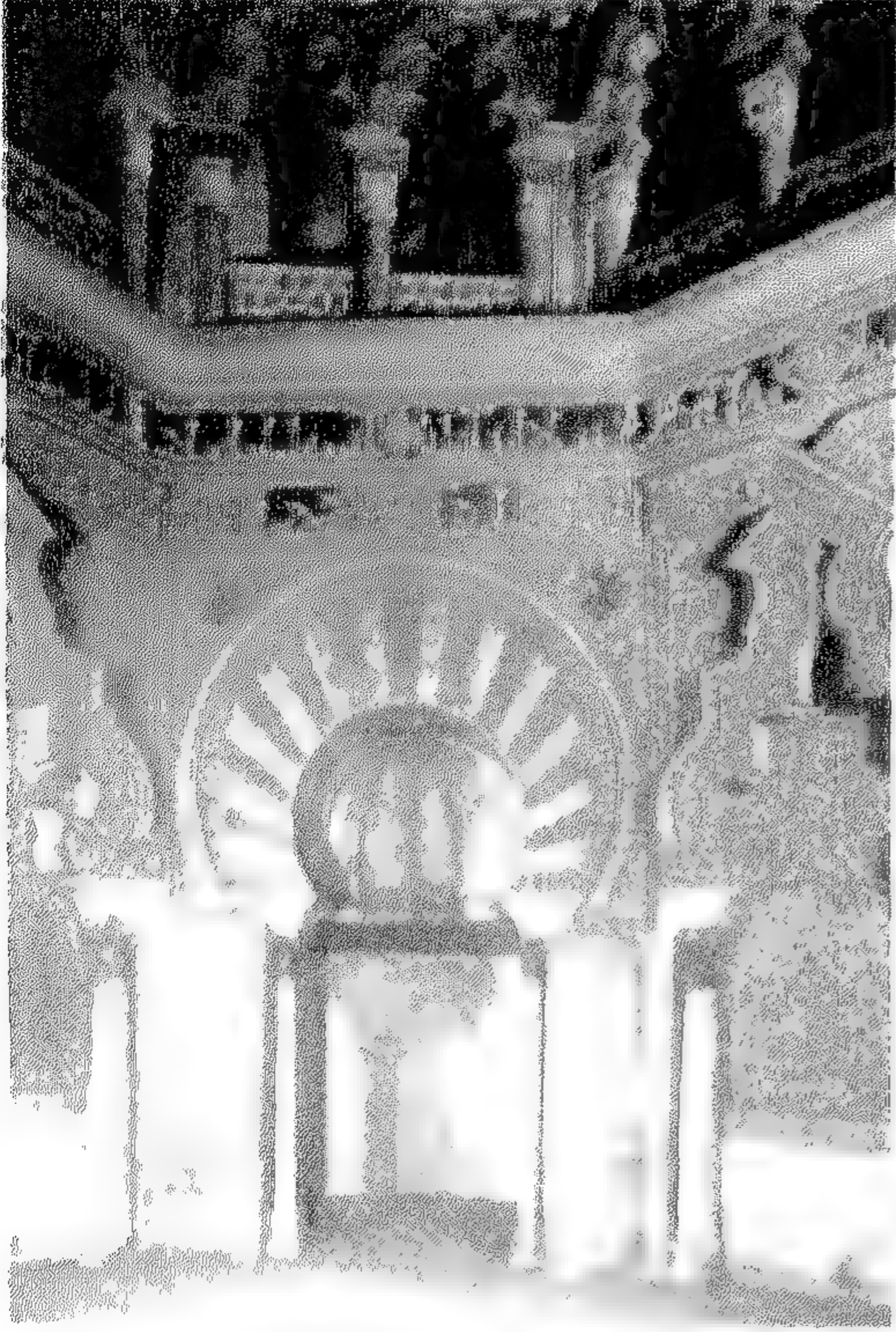




لوحة (١١٥) قصر الجعفرية بسرقسطة (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ / ١٠٤٦ - ١٠٨١ م) (اسبانيا)
البلاطة (الرواق) المؤدى الى مدخل المسجد القبلة في الجزء الشمالى من القصر
(عصر ملوك الطوائف) .



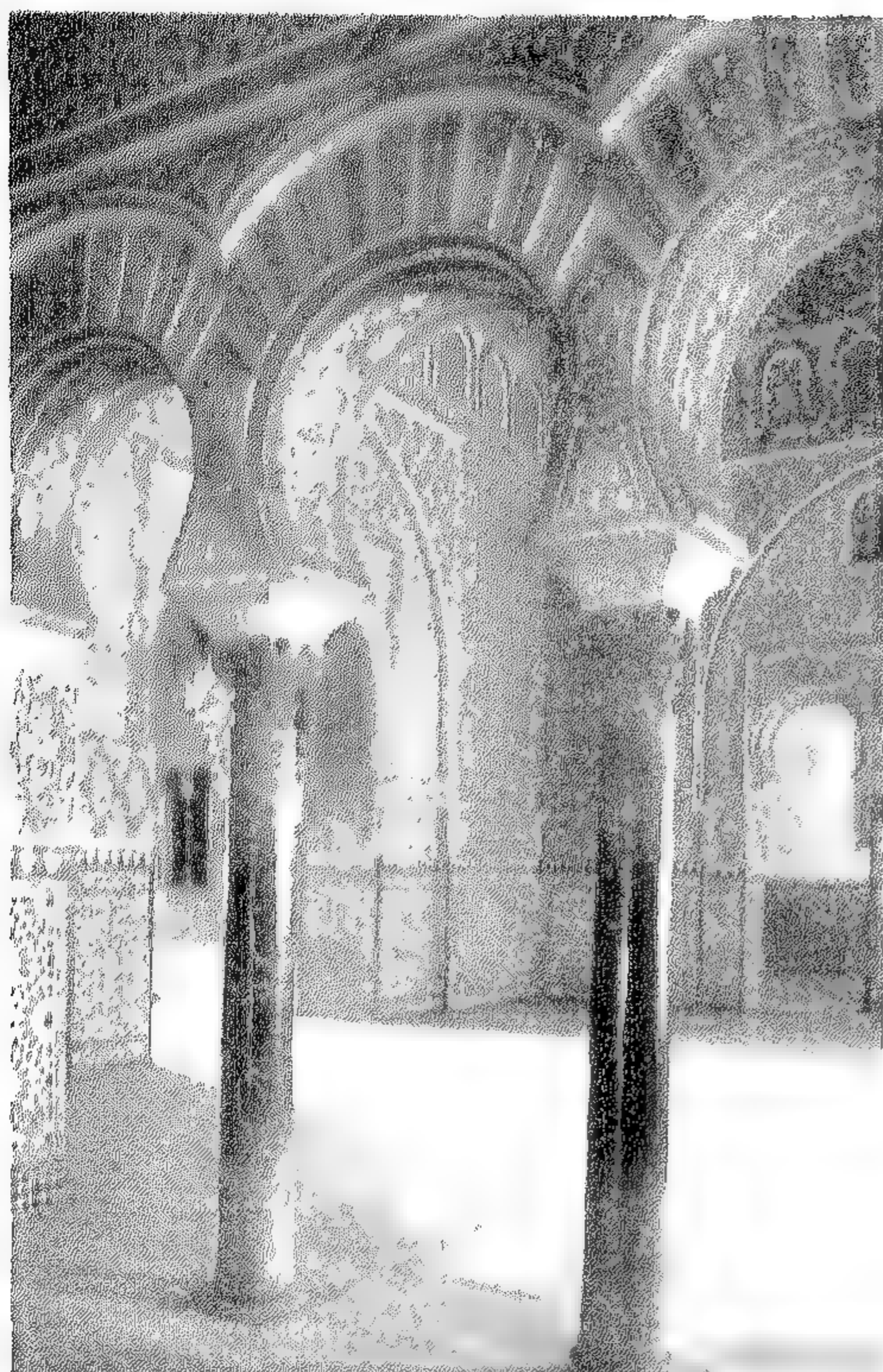
لوحة (١١٦) قصر الجعفرية بسرقسطة : قاعة استقبال تشرف على بركة (بحيرة) .



لوحة (١١٧) قصر الجعفرية بسرقسطة :
المسجد الملحق بالقصر (وهو يتبع طراز
المسجد القبة) .

لوحة (١١٨) مئذنة جامع اشبيلية
الموحدي ٥٦٧-٥٧٧ هـ / ١١٧٢-١١٨٢ م
المعروفة بالخيرالدا (الدوارة) (العصر
الموحدي في الأندلس) .





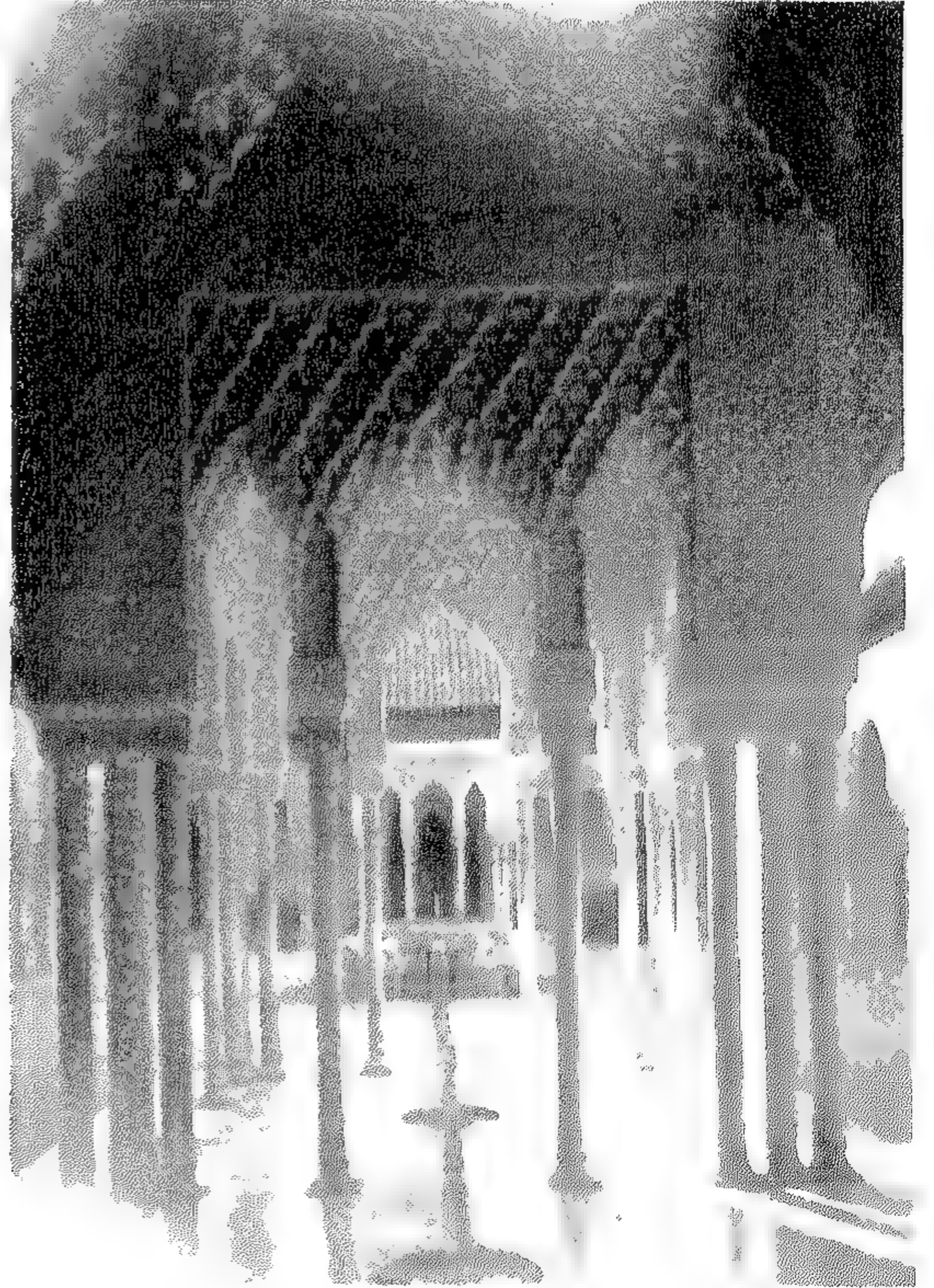
لوحة (١١٩) صالة السفراء بقصر اشبيلية
(الكازار) (العصر الموحدى فى الأندلس
والمراحل التالية تمت فى عهد الملك بدرو
القاسى فى الربع الثالث من ق ١٤م والصناع
كانوا من غرناطة بنى نصرأوبنى الأحمر) .

لوحة (١٢٠) قصر الحمراء بغرناطة : منظر
عام (عصر دولة بنى نصرأوبنى الأحمر) .





لوحة (١٢١) قصر الحمراء بغرناطة : دار
الذهب : الجدار الجنوبي لقصر قمارش (عهد
السلطان محمد الخامس الغنى بالله .



لوحة (١٢٢) قصر الحمراء بغرناطة :
بهو الأسود أو السباع (السلطان محمد
الخامس الغنى بالله) .



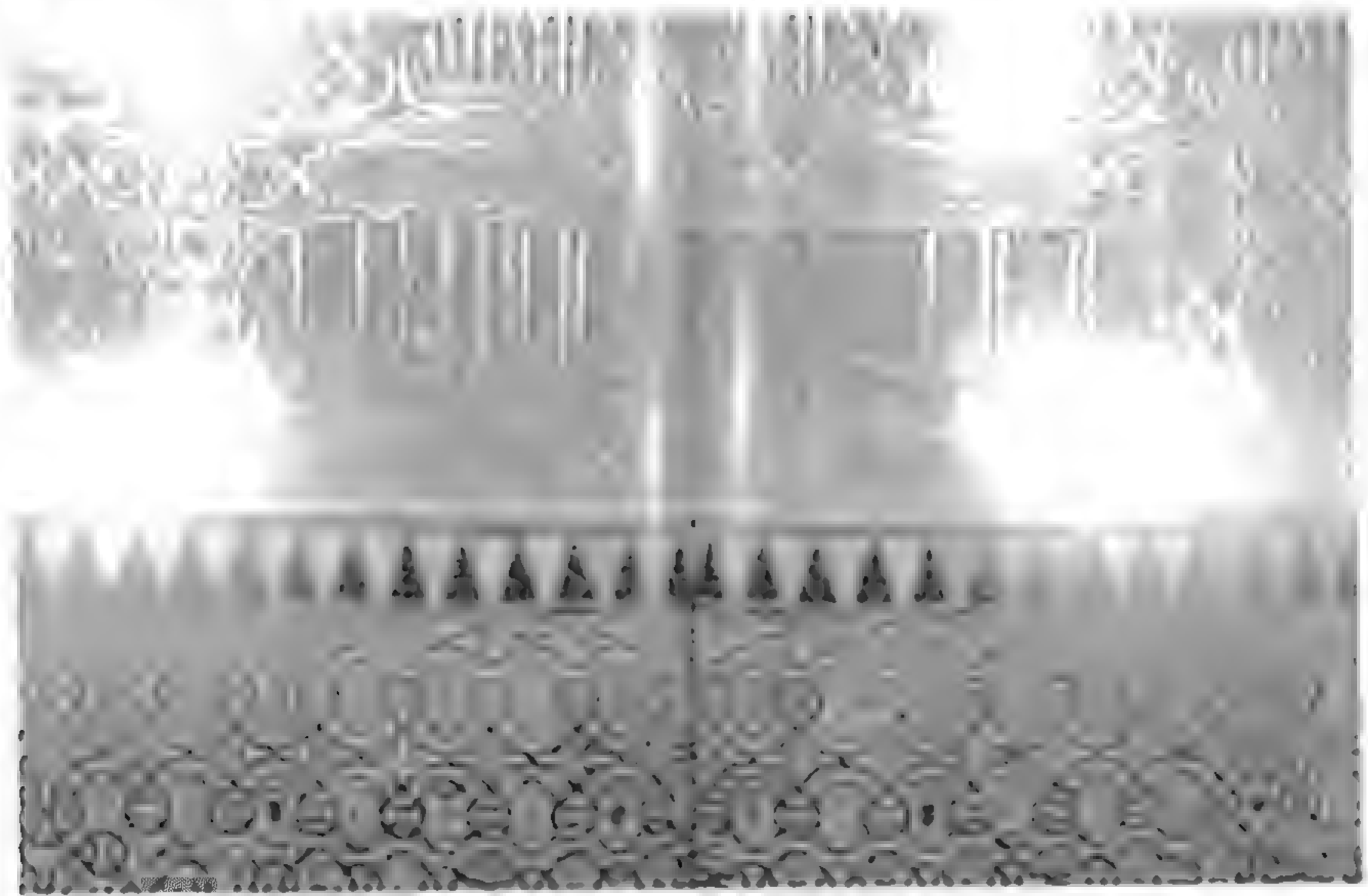
لوحة (١٢٣) قصر الحمراء بفرناطلة ، نافورة الأسود أو السباع وهي على شكل قصصة مستديرة يحملها اثني عشر أسداً تمج المياة من أفواهها .



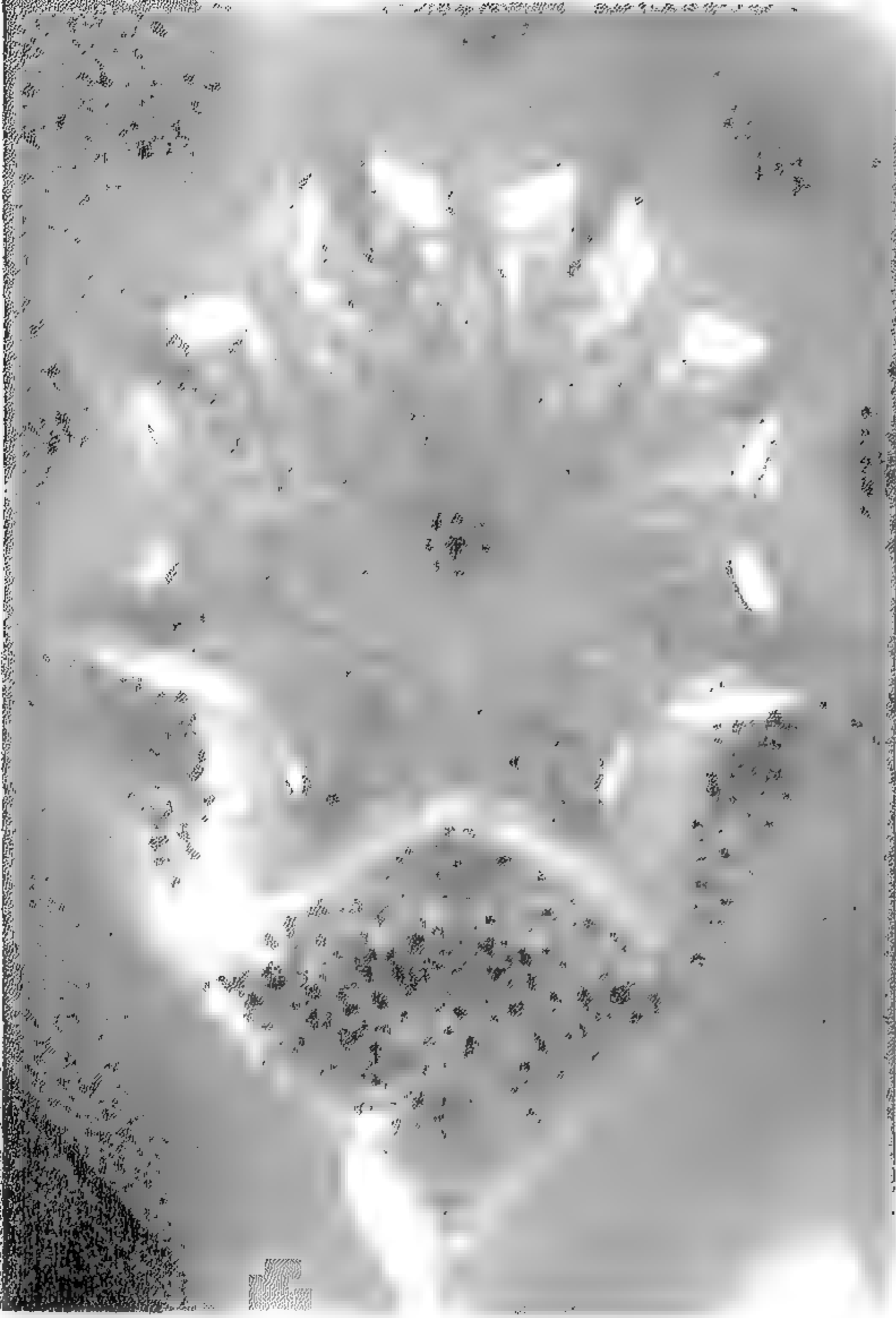
لوحة (١٢٤) قصر الحمراء بفرناطلة ، بهو الأسود أو السباع تفاصيل النقوش الزخرفية والكتابية.



لوحة (١٢٥) قصر الحمراء بقرنطة ، بهو الأسود أو السباع تفاصيل النقوش الزخرفية والكتابية.



لوحة (١٢٦) قصر الحمراء بقرنطة ، النقوش الزخرفية والكتابية بجدران قاعة الاختين ، النقش الكتابي يتضمن النقش الكتابي (في اعلى) شعار دولة بني نصر أو بني الأحمر وهو (لا غالب إلا الله) . والنقش الذي يليه يتضمن ثلاثة أبيات من ديوان الشاعر ابن زمرق ، اثنان في الدائرتين الجانبيتين المفصصتين والثالث في الشريط الأوسط المستعرض وهو الآخر ينتهي من جانبية بهيئة مفصصة.



لوحة (١٢٧) قصر الحمراء بغرناطة :
القبة المقرنصة (المقربصة) فى قاعة
بنى سراج .

لوحة (١٢٨) قصر الحمراء بغرناطة :
قاعة الملوك أوقاعة العدل وتقع فى
النهاية الشرقية لبهو الأسود أو السباع
ويشاهد مجموعة العقود المقربصة
(المقرنصة) المتتالية ذات المظهر
الأخاذ الخارق للعادة فضلا عن قوة
الاحساس بالعمق .





لوحة (١٢٩) قصر جنة العريف
بغرناطة (السلطان محمد الثالث
واستكمل في عهد أبو الوليد اسماعيل
٧١٣-٧٢٥ هـ / ١٣١٣-١٣٢٤ م) .

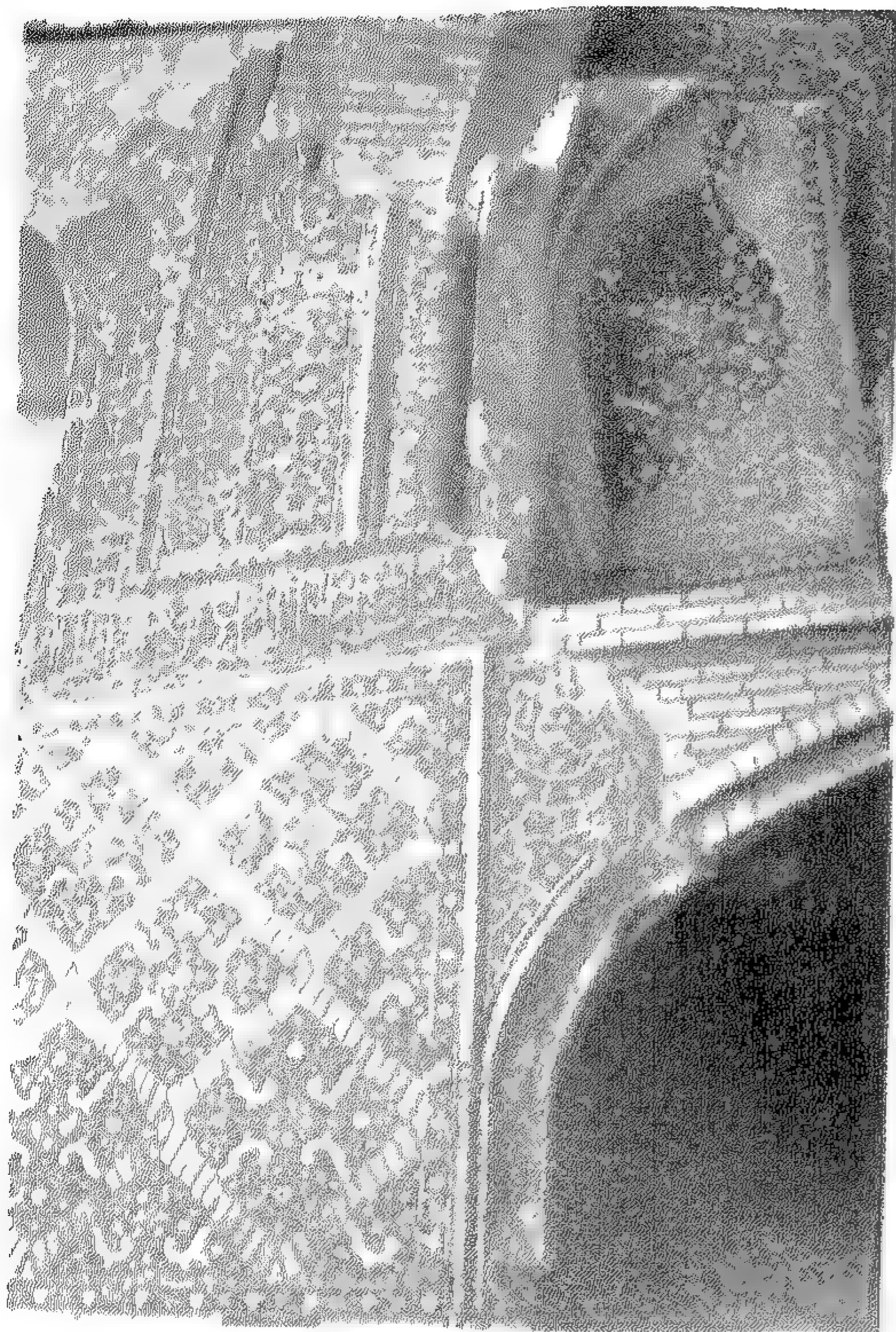
الجناح الشرقي لدار الإسلام ١ - إيران

لوحة (١٣٠) قرية أولجايتو
خدا بنده (المتوفى ٧١٦ هـ /
١٣١٦ م) في مدينة سلطانية
(العصر الايلخاني) .



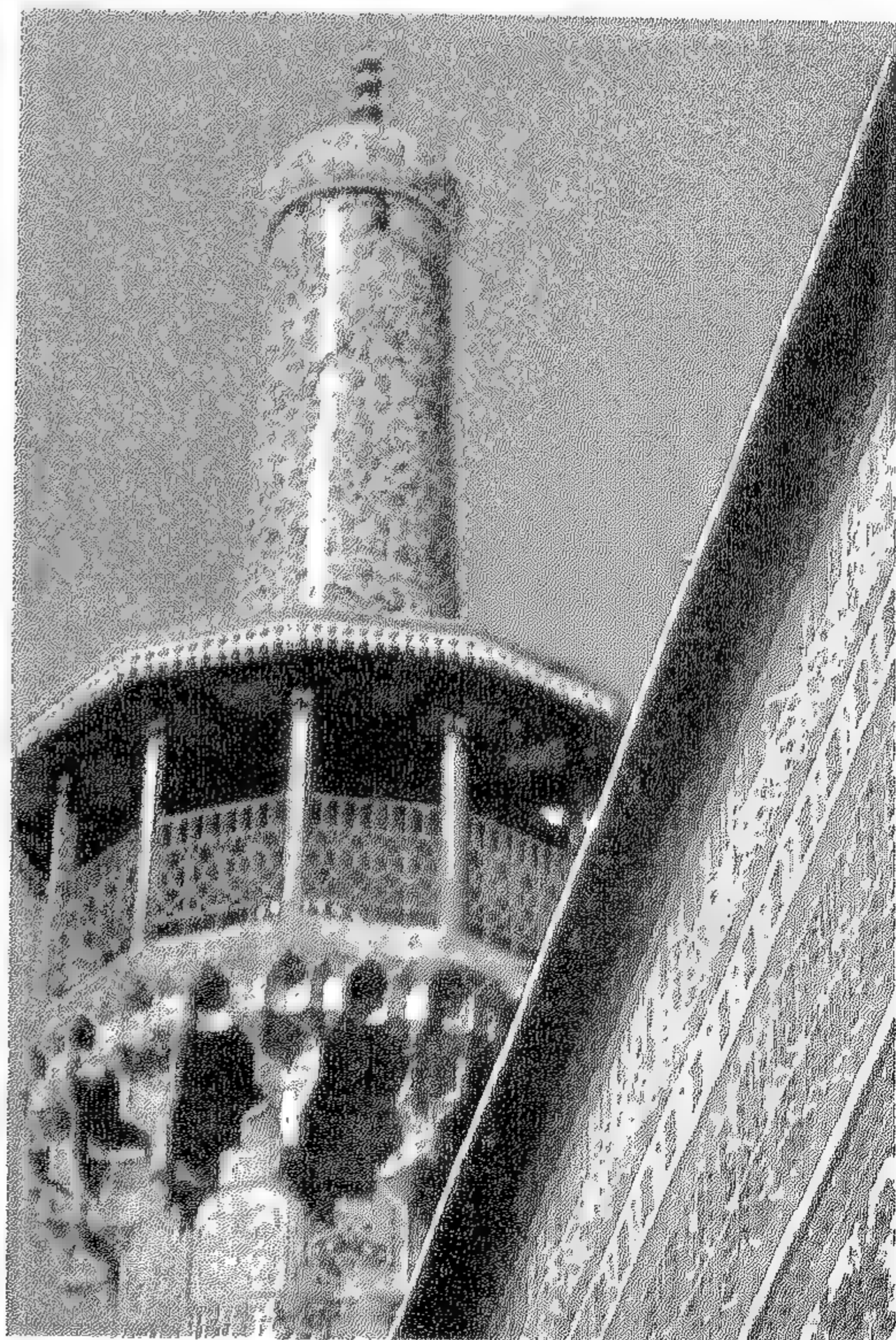


لوحة (١٣١) الجامع الأزرق في تبريز ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م
(عصر القره قيونلو - أصحاب الشاة أو الخراف السوداء) .



لوحة (١٣٢) الجامع الأزرق في
تبريز: تفاصيل النقوش الزخرفية
والكتابية.

لوحة (١٣٣) جامع جوهرشاد في مشهد
: تفاصيل النقوش الزخرفية والكتابية
بالواجهة والمئذنة (العصر التيمورى)
٨٢٣هـ / ١٤٢٠م .

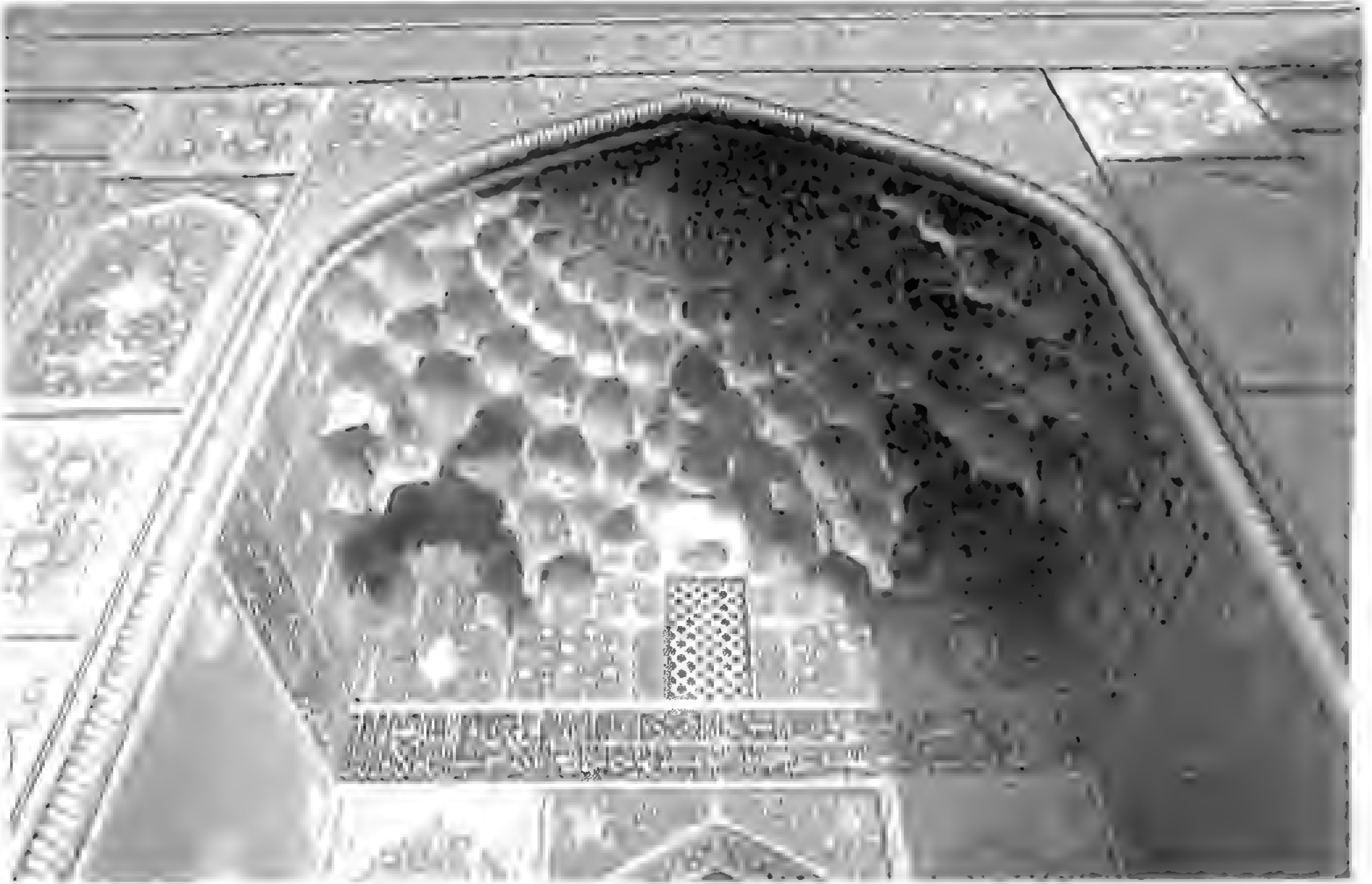




لوحة (١٣٤) جامع الشيخ لطف الله في الضلع الشرقي من ميدان نقش جهان بأصفهان
١٠١١-١٠٢٨ هـ / ١٦٠٢-١٦١٨ م ، الواجهة الرئيسية المطلّة على الميدان (العصر الصفوي) .



لوحة (١٣٥) جامع الشيخ لطف الله ، المدخل الرئيسي المطل على الميدان .



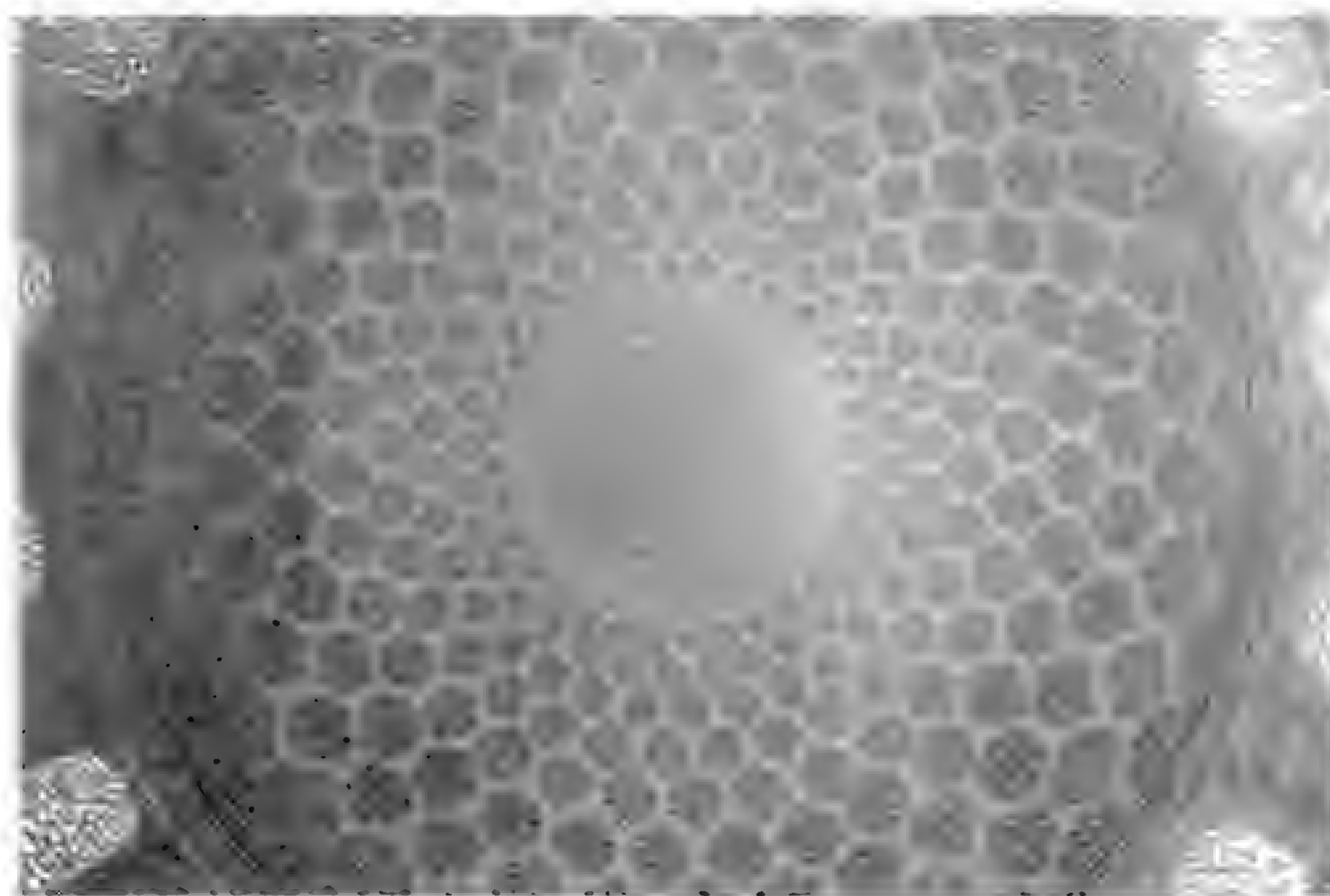
لوحة (١٣٦) جامع الشيخ لعطف الله : تفصيل للمدخل الرئيسى بنقوشة الزخرفية
والكتابية والمقرنصات .



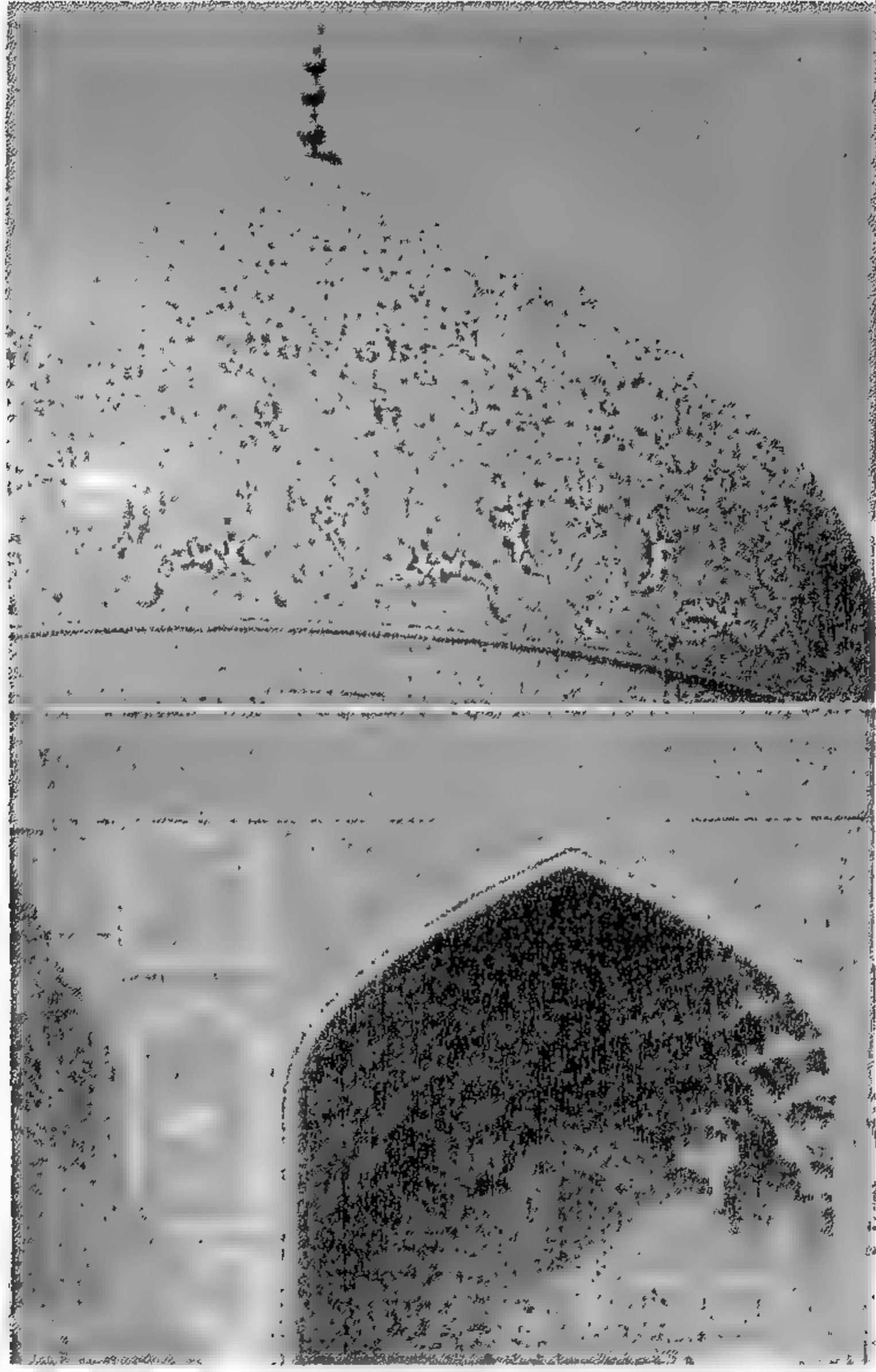
لوحة (١٣٧) جامع الشيخ لعطف الله : الكنبه خانه (الى اليمين) الرواق (الى اليسار) .



لوحة (١٣٨) جامع الشيخ لطف الله ، الكتيد خاله ، وبالصدر المحراب .



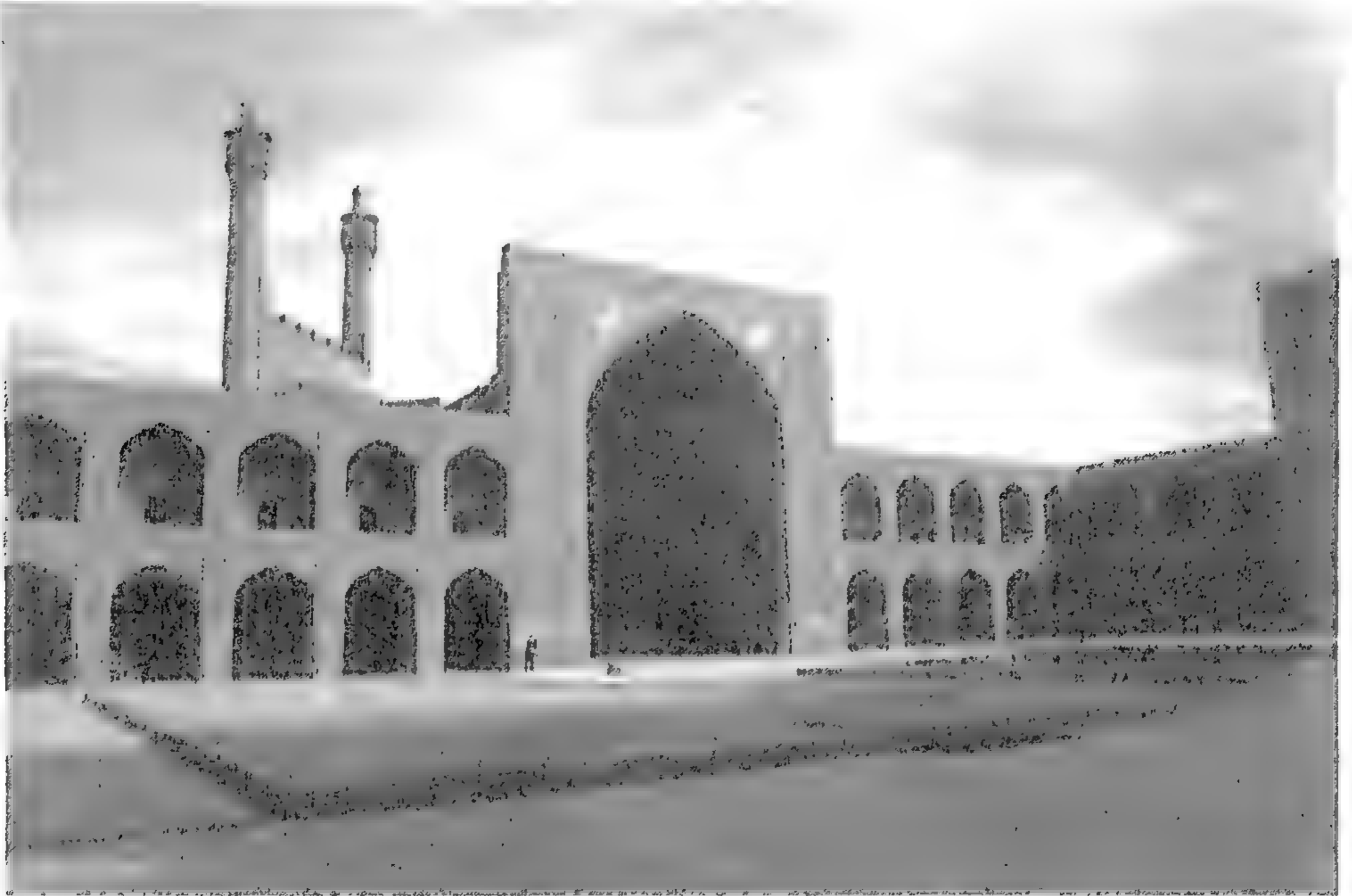
لوحة (١٣٩) جامع الشيخ لطف الله ، النقوش الزخرفية بباطن القبة .



لوحة (١٤٠) جامع الشيخ لطف الله : النقوش الزخرفية بظاهر القبة .



لوحة (١٤١) جامع الشاه عباس الأول (الكبير) فى منتصف الضلع الجنوبى من ميدان نقش جهان ويعرف بجامع الامام ١٠٢٠-١٠٣٨ هـ / ١٦١١-١٦٢٨ م ، واجهة الجامع المطللة على الميدان (العصر الصفوى) .



لوحة (١٤٢) جامع الشاه عباس : الصحن (حياط) من الجهة الشمالية ومدخل المئذنتين .



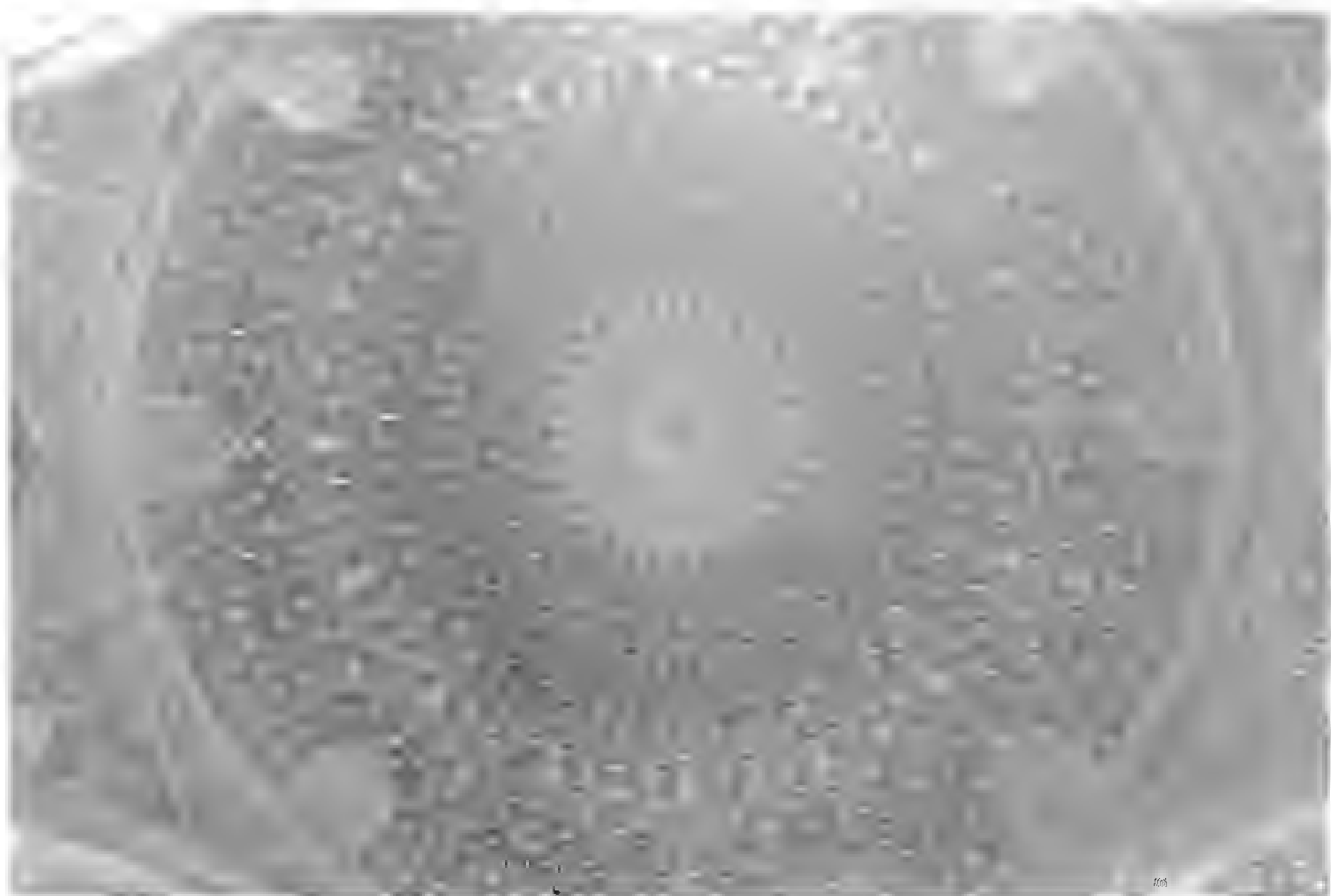
لوحة (١٤٣) جامع الشاه عباس : الصحن (حياط) من الجهة الشرقية .



لوحة (١٤٤) جامع الشاه عباس ، كتلة المدخل (الى اليمين) الايوان الشمالى (الى اليسار) .



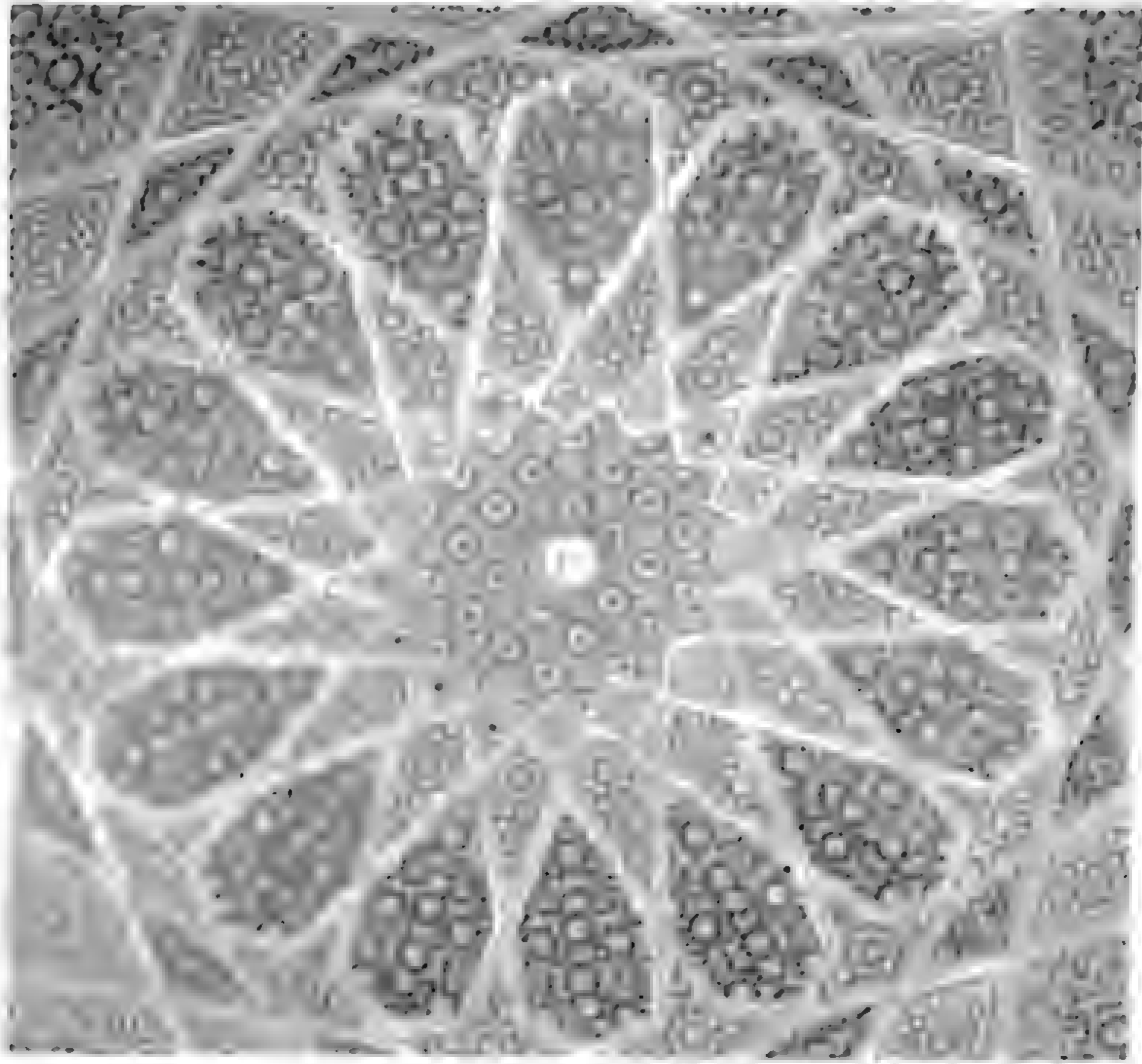
لوحة (١٤٥) جامع الشاه عباس ، الكتيد خانه الرئيسى (الجنوبى) (الى اليمين) ، والايوان الشرقى (الى اليسار) .



لوحة (١٤٦) جامع الشاه عباس ، النقوش الرخرية بباطن القبة الرئيسية
(الجنوبية) .



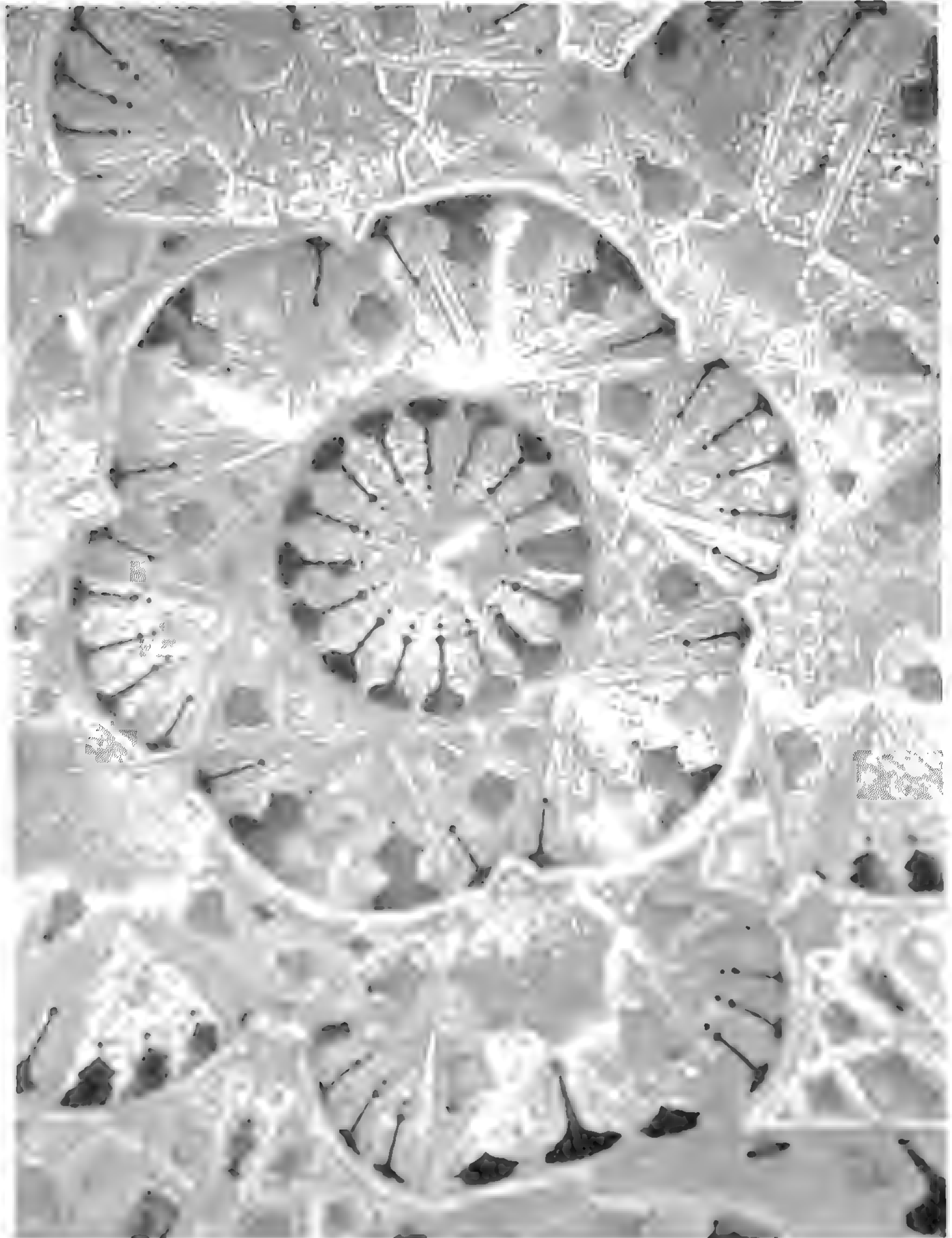
لوحة (١٤٧) جامع الشاه عباس ، الشبستان (المصلى) المجاور للكنبد خانه الرئيسى
(الجنوبية) .



لوحة (١٤٨) النقوش الزخرفية بسقف تربة حافظ في شيراز
(طبق نجمي ١٦ كندة) .



لوحة (١٤٩) جسر الشاه عباس الثاني المعروف بجسر بولي خاجو في اصفهان
(العصر الصفوي) .

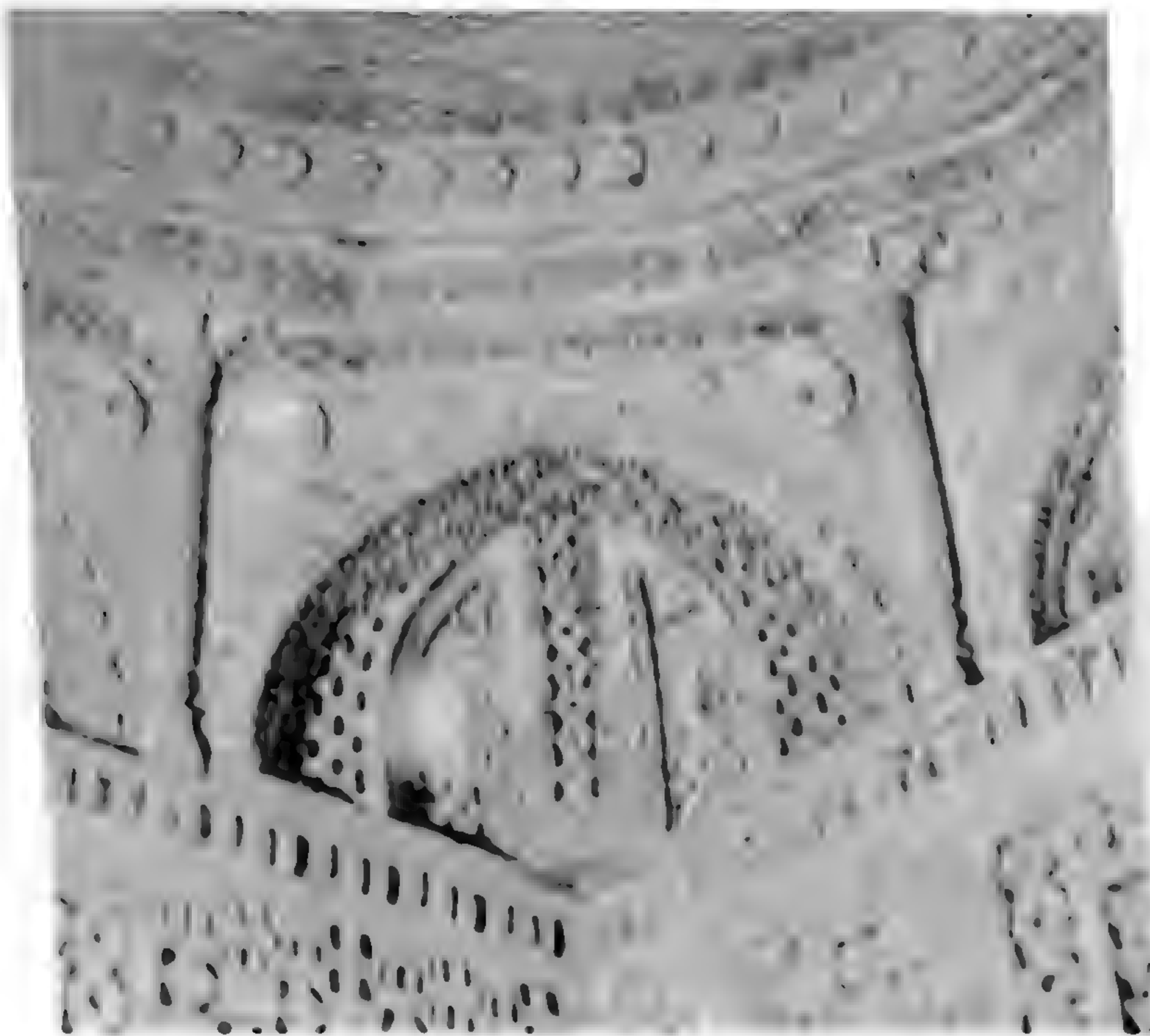


لوحة (١٥٠) قصر عالي قنابى (الباب العالى) فى أصفهان ، سقف حجرة
الموسيقى (وهو من أبدع الأسقف على الإطلاق) (العصر الصفوى) .

ب - آسيا الوسطى



لوحة (١٥١) قبة اسماعيل الساماني في بخارى (عصر الدولة السامانية) .



لوحة (١٥٢) منطقة انتقال قبة اسماعيل الساماني في بخارى .



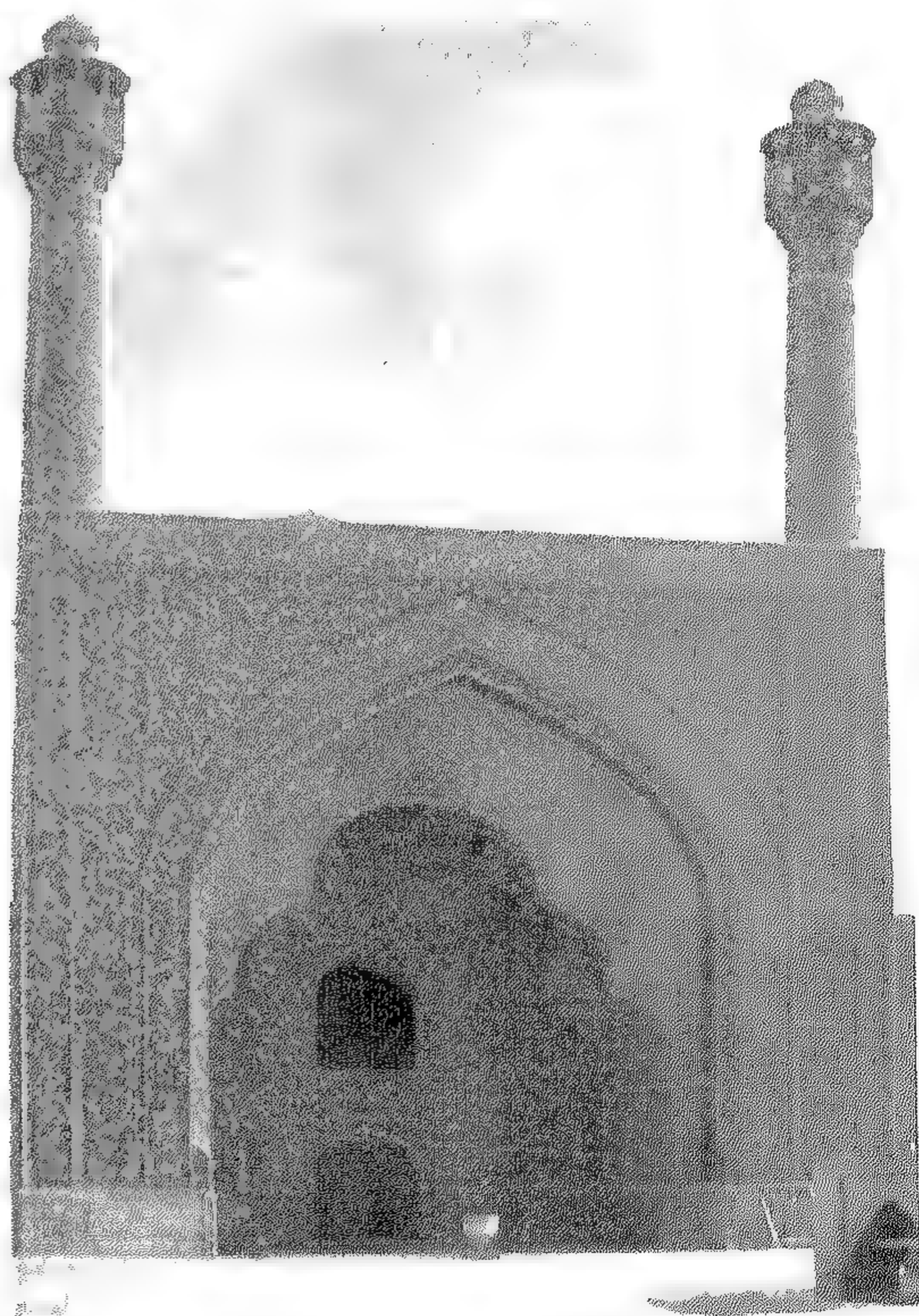
لوحة (١٥٣) برج مسعود الثالث بغزنة فى
افغانستان (عصر الدولة الغزنوية) .

لوحة (١٥٤) منئنة مسجد كالان
الجامع ببخارى .

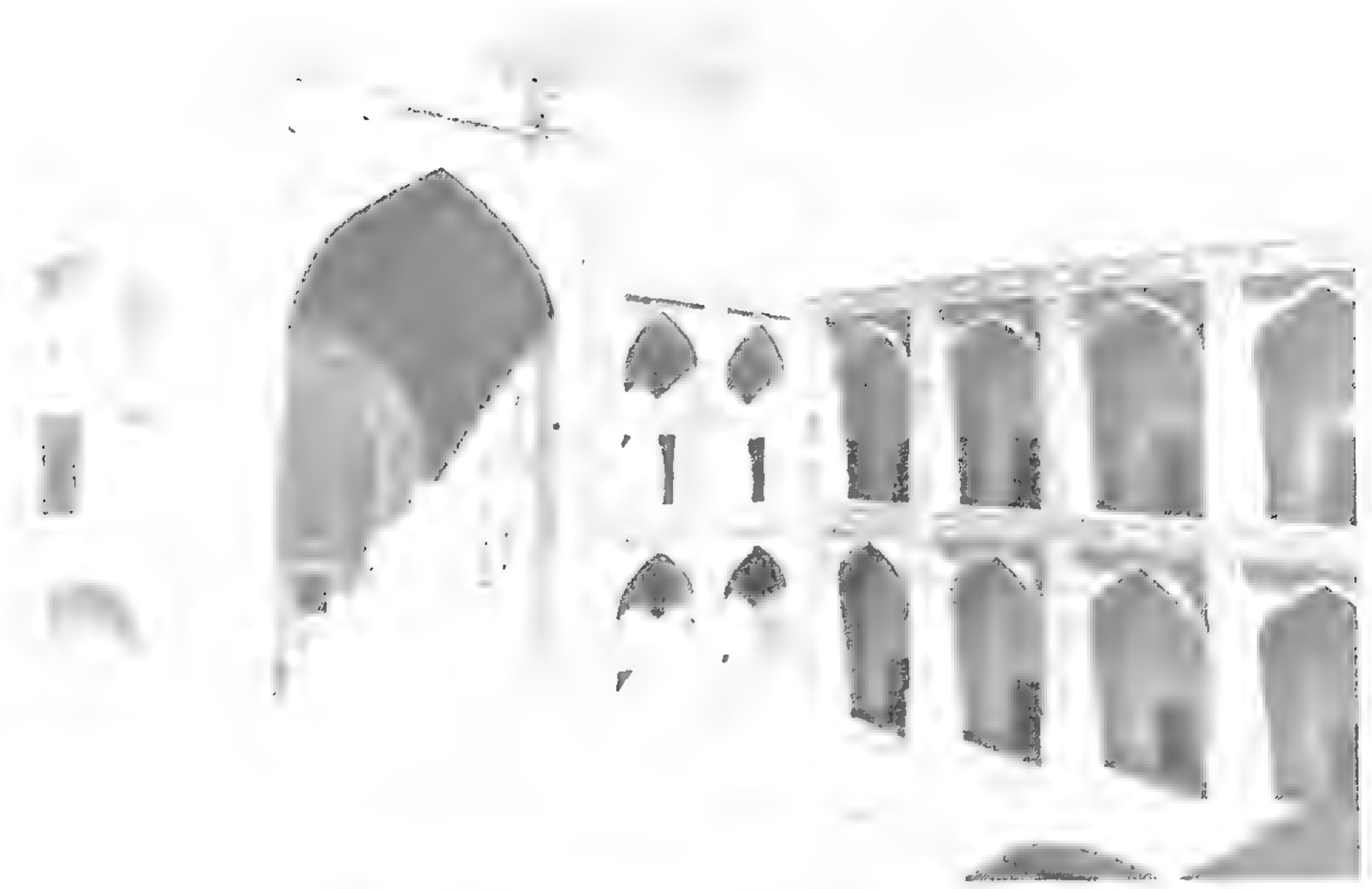




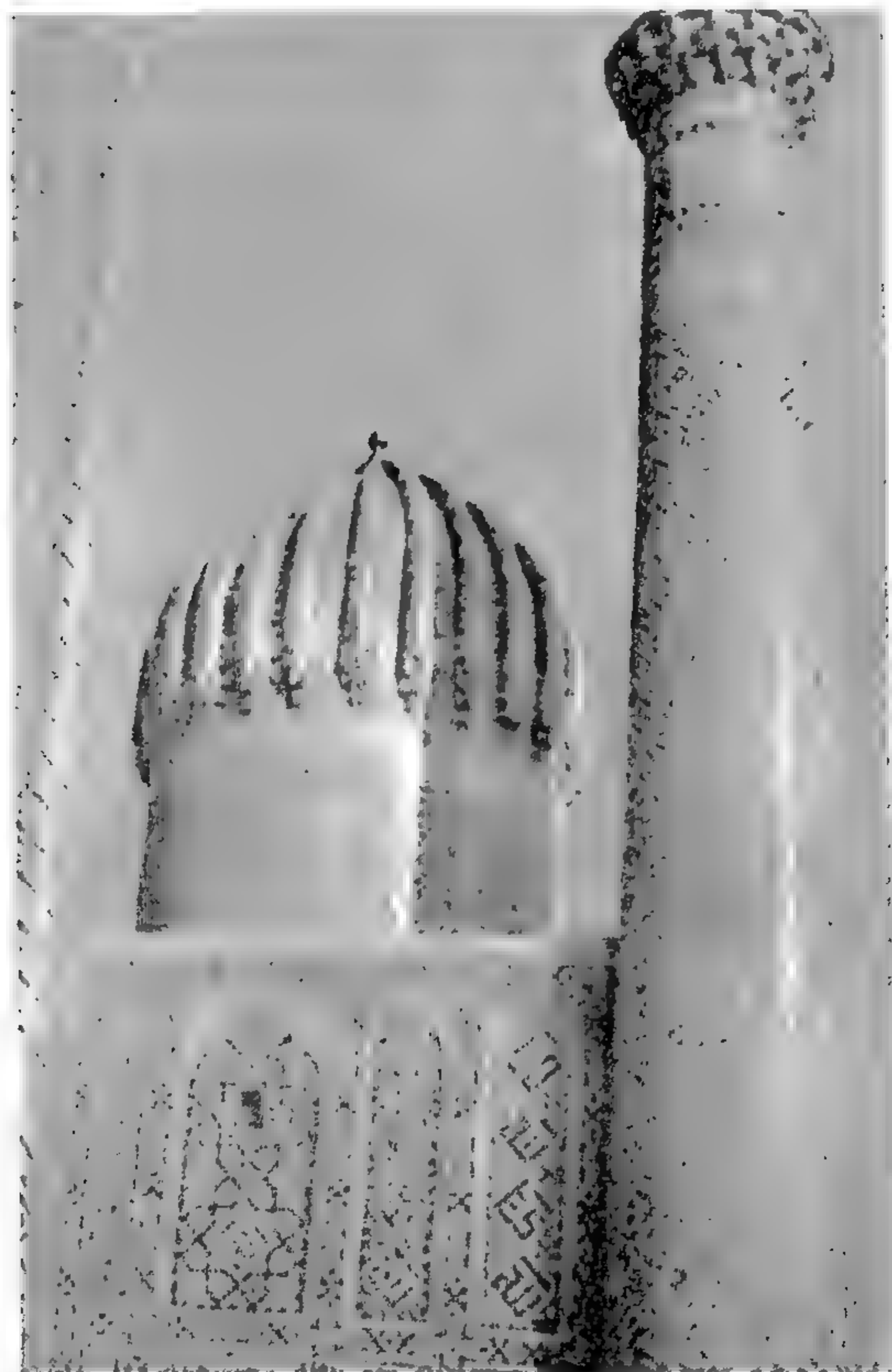
لوحة (١٥٥) مسجد الجمعة في
هرات (أفغانستان).



لوحة (١٥٦) مسجد الجمعة
باصفهان (ايران) .



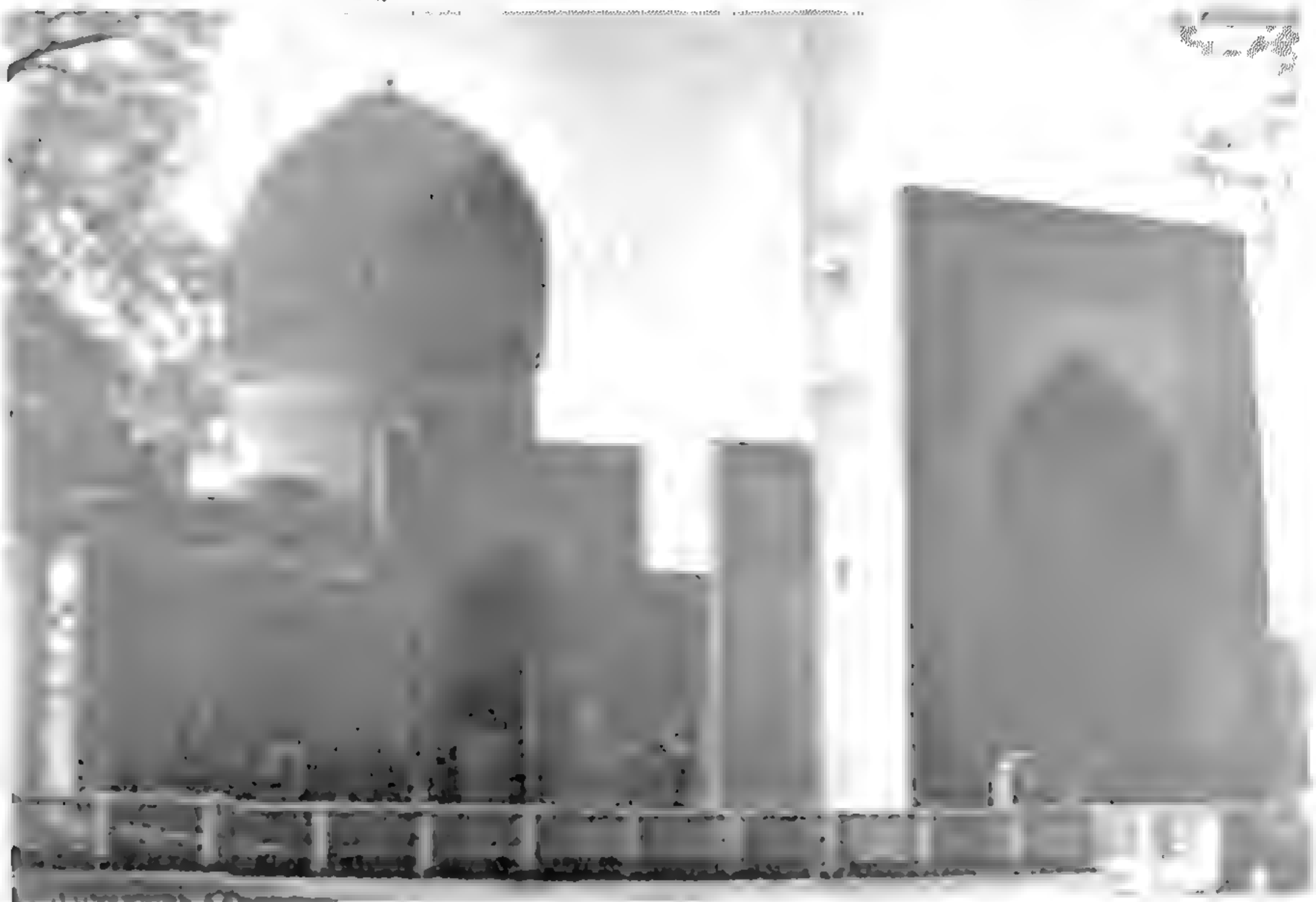
لوحة (١٥٧) مدرسة أولوغ بك فى بخارى .



لوحة (١٥٨) مدرسة شردار بسمرقند .



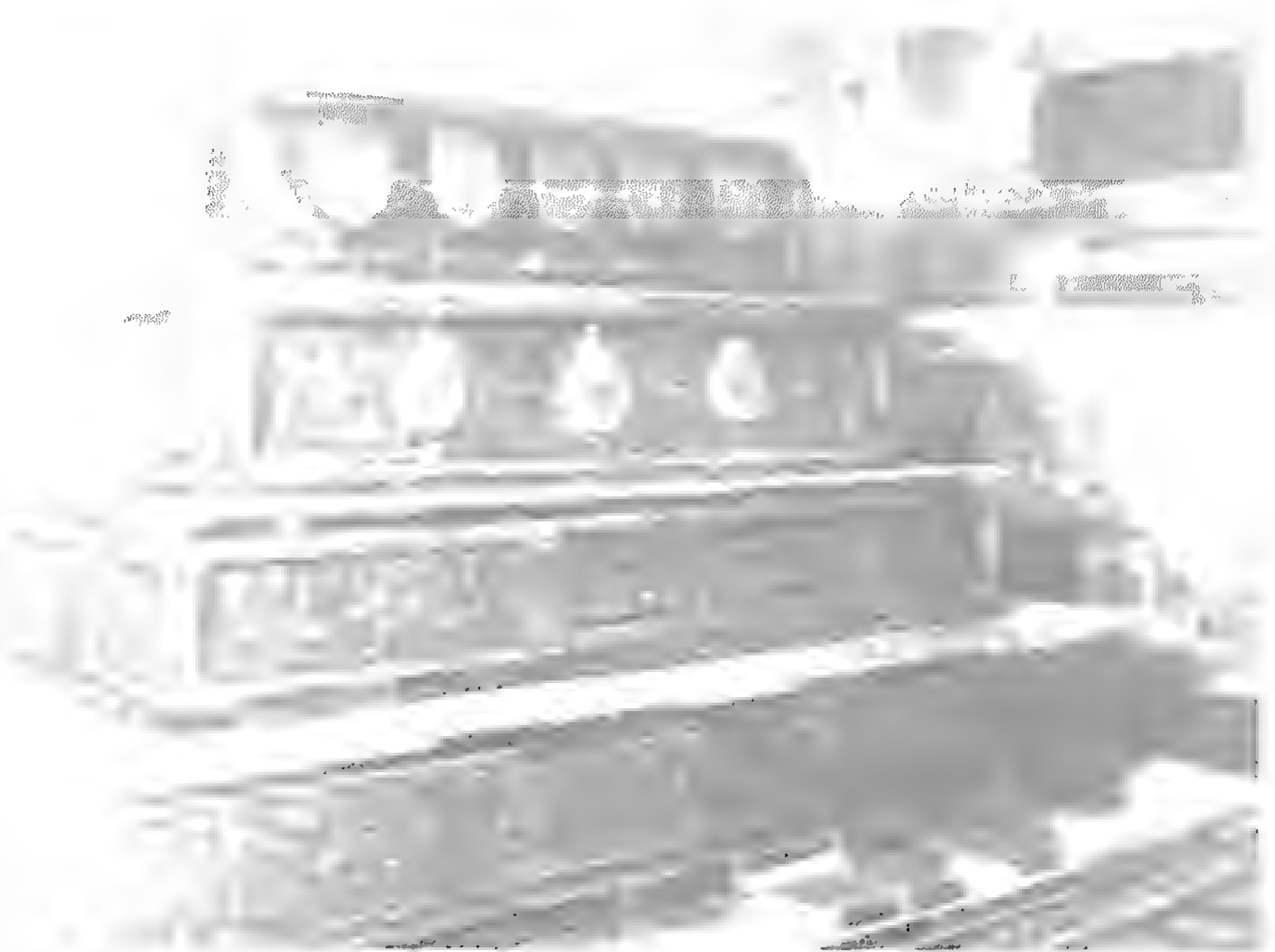
لوحة (١٥٩) مدرسة مادرشاه في اصفهان (ايران).



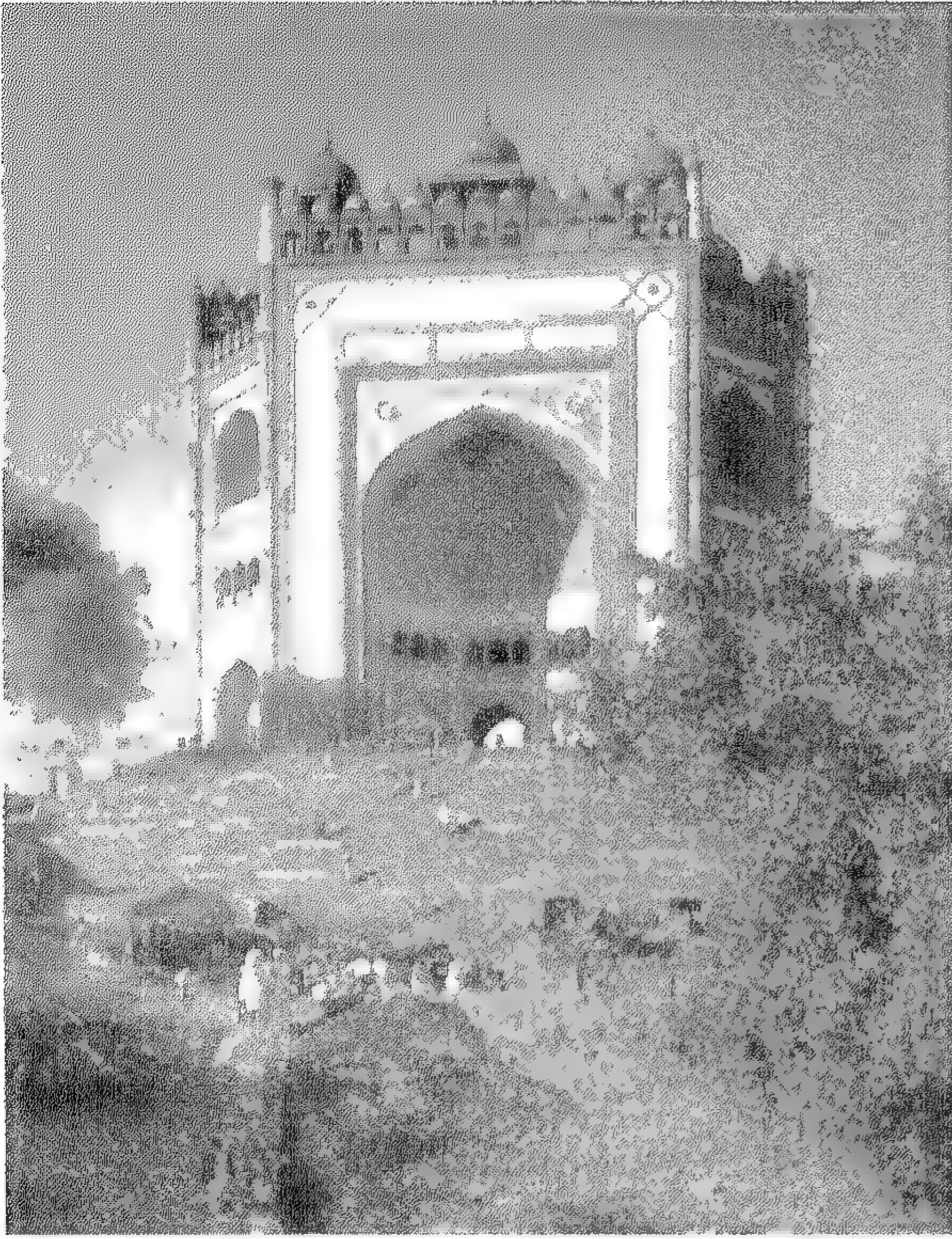
لوحة (١٦٠) گورامير بسمرقند.



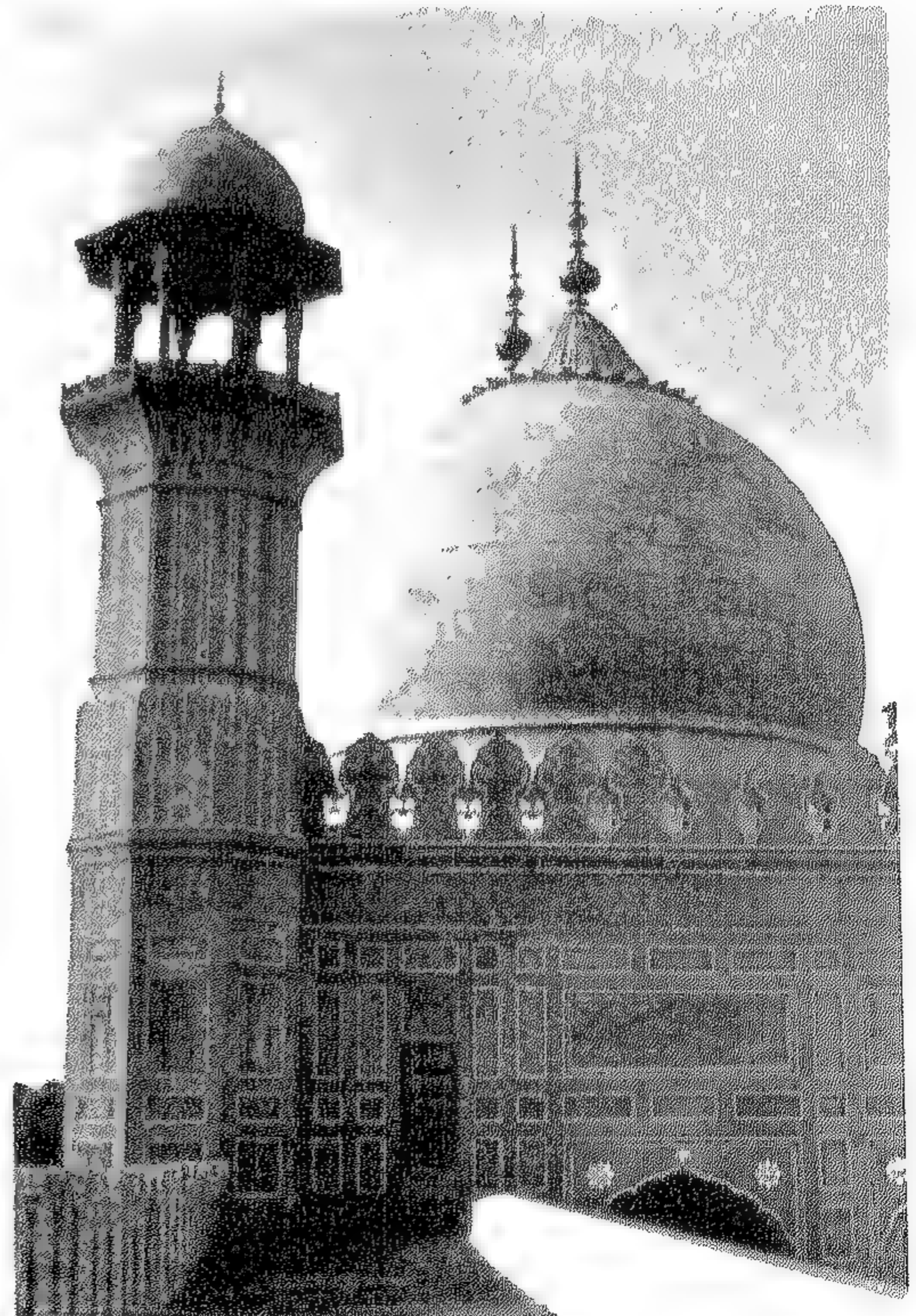
لوحة (١٦١) جبانة شاه زنده بسمرقند : منظر عام من الجهة الغربية.



لوحة (١٦٢) تركيبة قبرقثم بن عباس فى تريتة بجبانة شاه زنده بسمرقند (العصر التيمورى).



لوحة (١٦٣) مسجد فتح بورسكرى
٩٧٩هـ / ١٥٧١م : بولاند دروازه (كتلة
المدخل فى الضلع الجنوبى للمسجد)
(العصر المغولى الهندى) .



لوحة (١٦٤) باديشاهى مسجد فى
لاهور (باكستان) ١٠٨٤هـ / ١٦٧٤م
(العصر المغولى الهندى) .



لوحة (١٦٥) قبة همايون خارج دلهى (الهند) .



لوحة (١٦٦) قبة همايون خارج دلهى (الهند) .



لوحة (١٦٧) تاج محل في أجرا (الهند) .



لوحة (١٦٨) ديوان خاص في لال قلعة (القلعة الحمراء) بدلهي (العصر المغولي الهندي) .

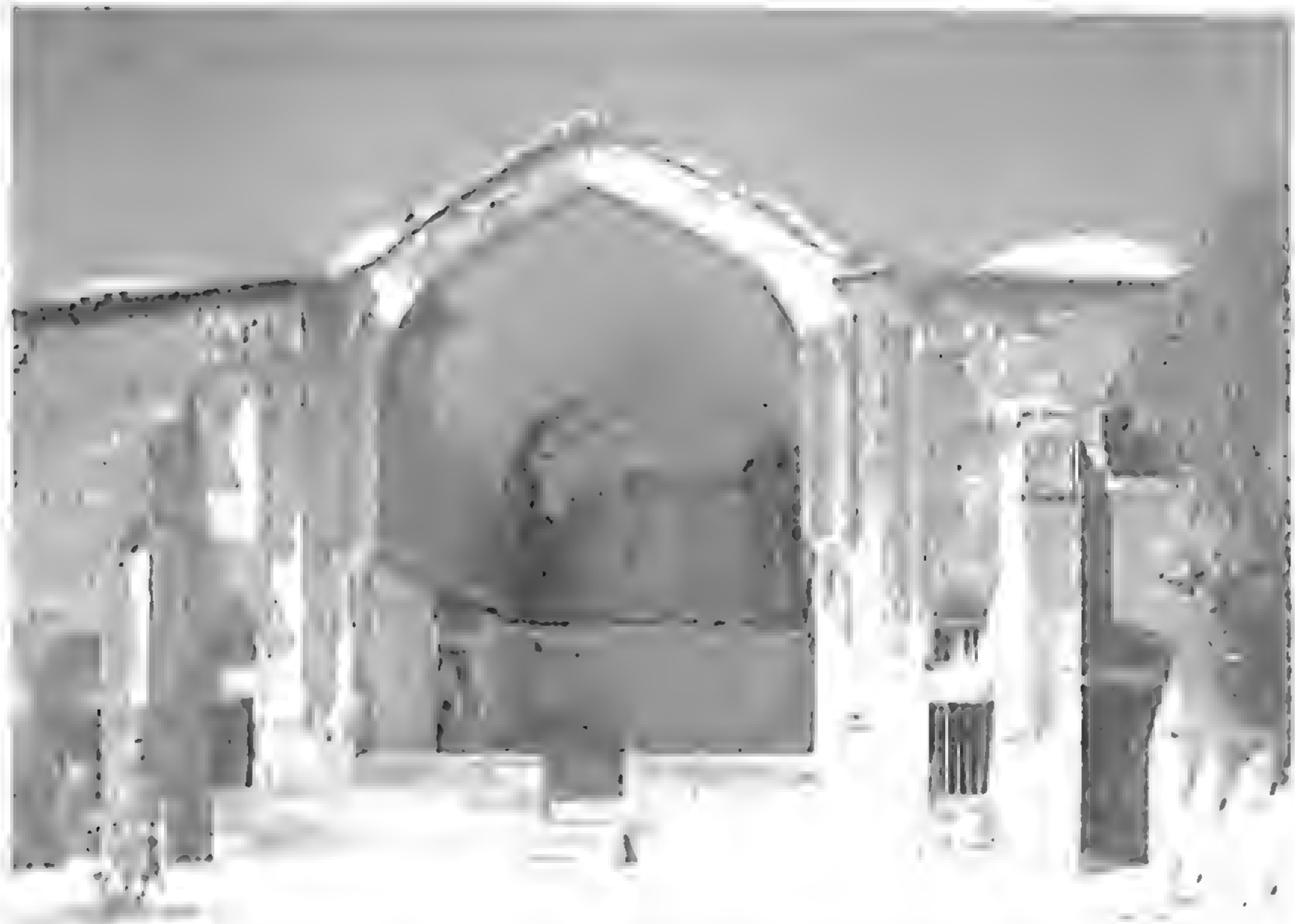


لوحة (١٦٩) هارون منار قرب لاهور (باكستان) .

د - اسيا الصغرى وأوروبا العثمانية



لوحة (١٧٠) مسجد علاء الدين في هونية .



لوحة (١٧١) صر جالى مدرسة بقونية ، الايوان الرئيسى .



لوحة (١٧٢) مدرسة قره طاي بقونية ، كتلة المدخل الرئيسى .



لوحة (١٧٣) مدرسة قره طای بقونية من الداخل .



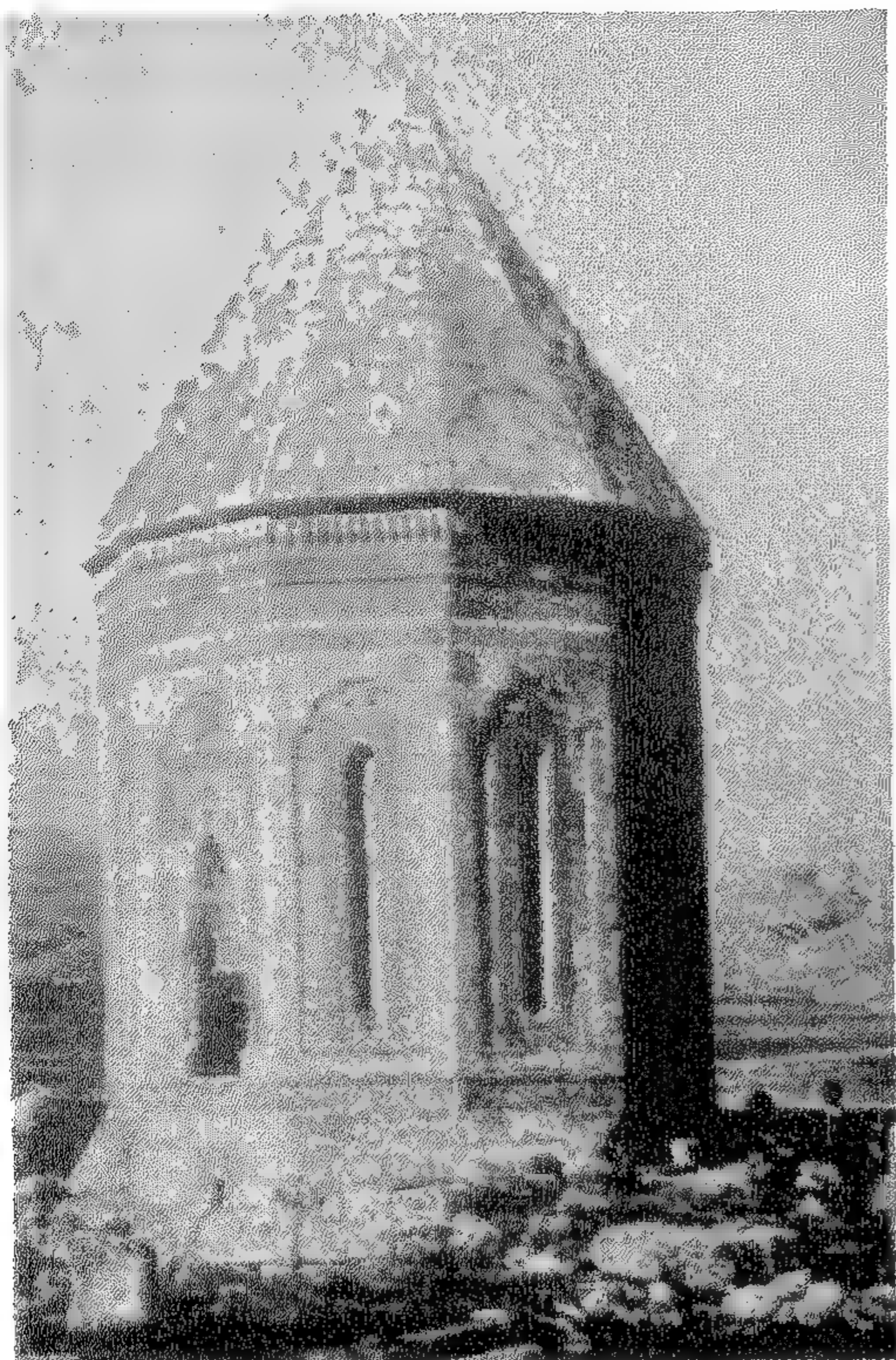
لوحة (١٧٤) انچه مناره لی مدرسة بقونية ، منظر عام .



لوحة (١٧٥) انجه مناره لى مدرسة بقونية ، كتلة المدخل الرئيسى .



لوحة (١٧٥ مكرر) قابى اغا سى مدرسة باماسيا .



لوحة (١٧٦) تربة حليلة خاتون في كواش .



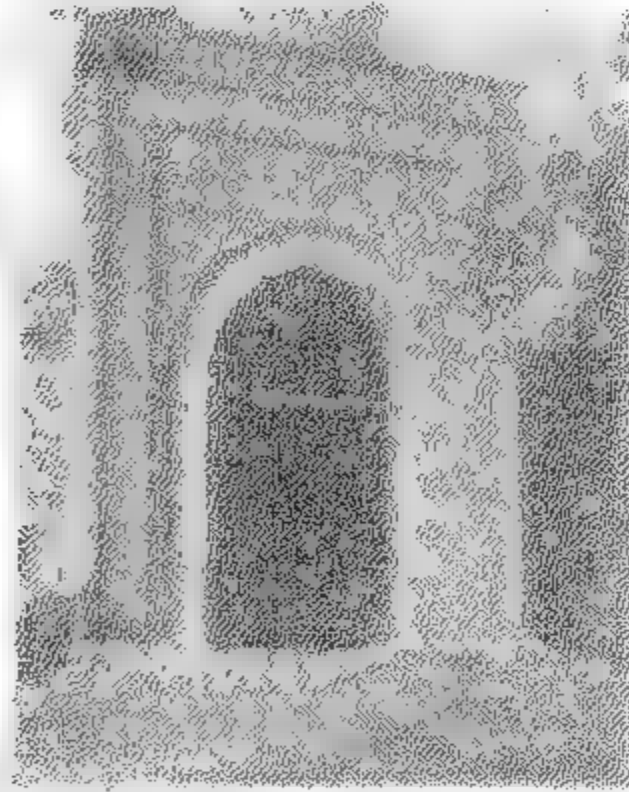
لوحة (١٧٧) تربة أرزن خاتون في أخلاط .



لوحة (١٧٨) كوك مدرسة في سيواس : أعلى
(الواجهة الرئيسية) وأسفل (الجشمة) .

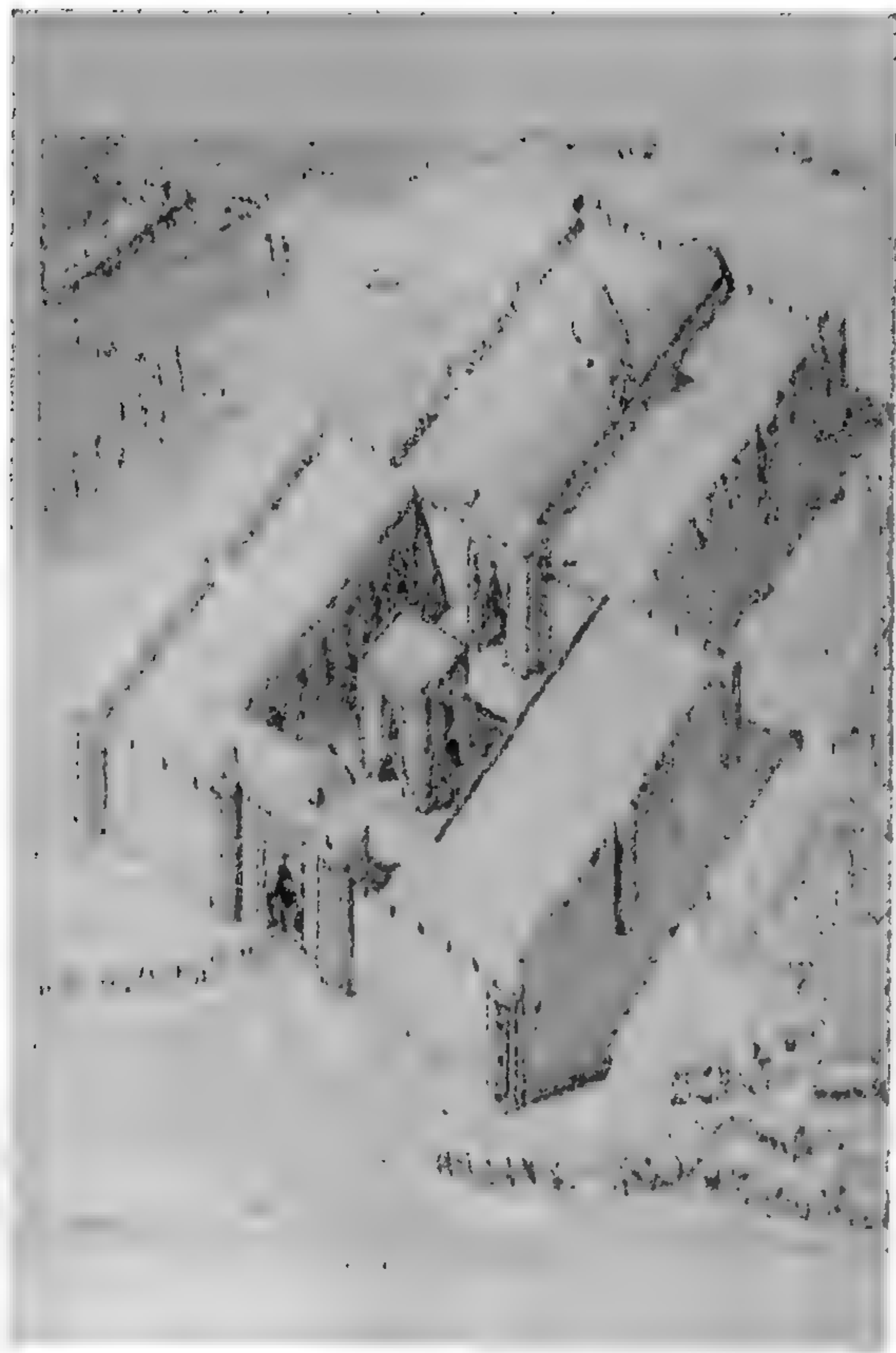


لوحة (١٧٩) مدرسة جلبى سلطان فى
مرزيفون بأماسيا : أعلى الى اليسار (المدخل)
والى اليمين (الفناء) أسفل : چشمتان .





لوحة (۱۸۰) سلطان خان علی طریق قونیه - آقسرای .



لوحة (١٨١) سلطان خان قرب قيصرية
(على طريق قيصرية - سيواس عند
قرية بالاس) منظور .

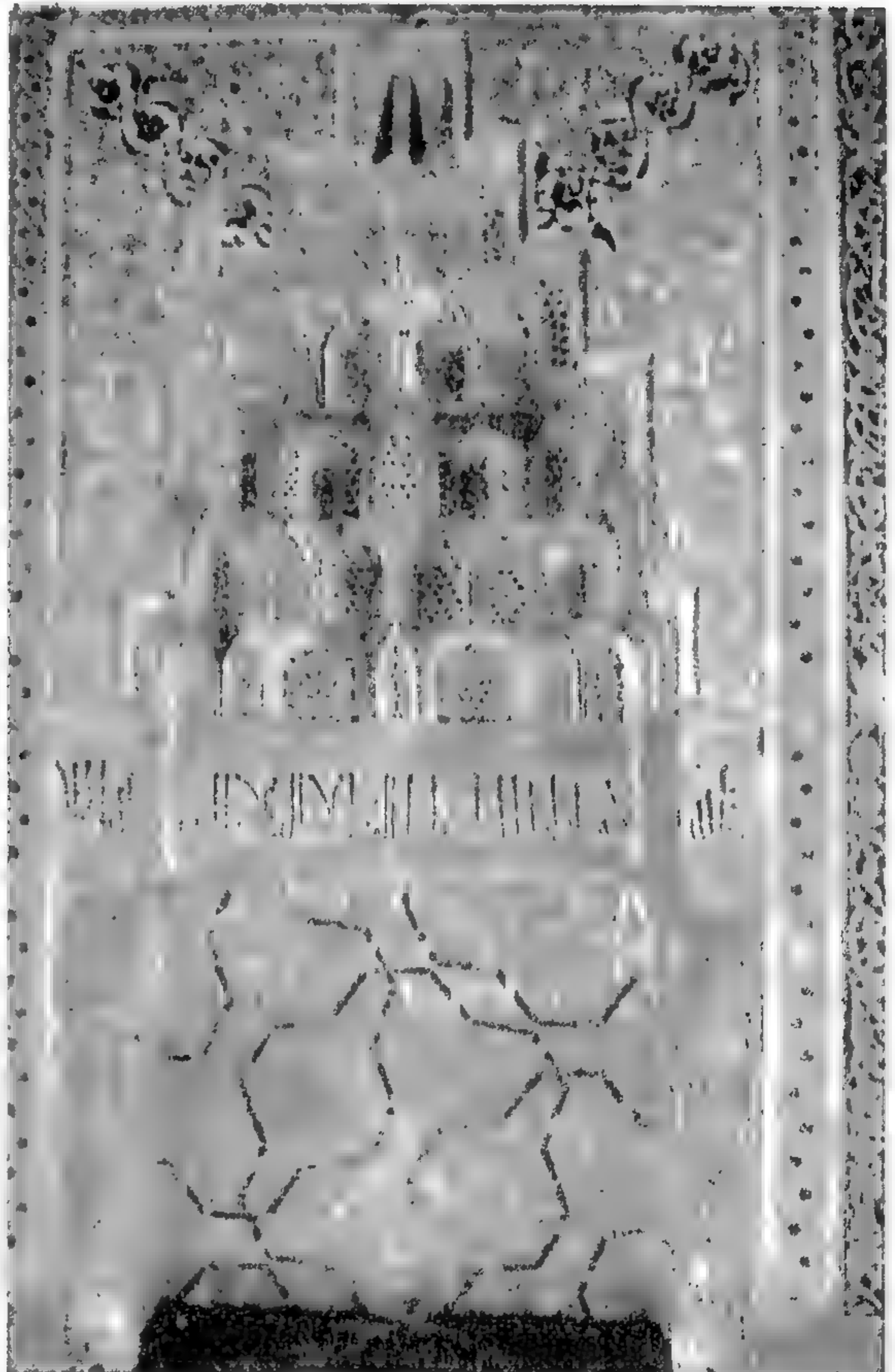


لوحة (١٨٢) الجامع الأخضر
(يشيل جامع) في بورصة (أو
بروسه) المدخل .



لوحة (١٨٣) الجامع الأخضر
(يشيل جامع) فى أزنيق .

لوحة (١٨٤) مسجد ارسلان خان فى
أنقرة ، المحراب الخزفى .





لوحة (١٨٥) جامع المرادية في أدرنة، المحراب الخزفي .



لوحة (١٨٦) مدينة استانبول ، منظر جوى .



لوحة (١٨٧) متحف آياصوفيا باستانبول ، منظر جوى .



لوحة (١٨٨) متحف آياصوفيا باستانبول .



لوحة (١٨٩) مجمع (كلية) السليمانية باستانبول : منظر جوى .



لوحة (١٩٠) جامع السليمانية باستانبول .



لوحة (١٩١) جامع السلطان أحمد (الجامع الأزرق) باستانبول .



لوحة (١٩٢) جامع السليمية بادرنه (تركيا) .



لوحة (١٩٢ مكرر) مسجد ايواز (عوض) افندى باستانبول ، بلاطات ازنيق الخزفية وتبين مدى النجاح في تقليد أعمال الرخام .



لوحة (١٩٣) التربة الخضراء (يشيل تربة) في بورصة (أوبروسه) .



لوحة (١٩٤) التربة الخضراء في بورصة (أوبروسة) المحراب الخزفي ، وتركيبه
قبر جلبى سلطان محمد .



لوحة (١٩٥) سبيل السلطان أحمد الثالث أمام طوبقابي سراى باستانبول
(الطراز الجامع بين السبيل العثماني التقليدي والجشمة) .



لوحة (١٩٦) چشمه السلطان عبد الحميد (حميدية چشمه سي) .



لوحة (١٩٧) محلة البازار في أدرنة ، الى اليسار الجامع القديم (اسكى جامع) ، الى اليمين في المقدمة ، البادستان وخلف البادستان يوجد (الى اليمين كرفان (خان) رستم باشا .



لوحة (۱۹۸) طوبقابی سرای باستانبول ، منظر جوی .



لوحة (۱۹۹) طوبقابی سرای باستانبول ، منظر جوی .



لوحة (۲۰۰) جينيلی كوشك (الكشك الخزفي) بطوبقابی سراي
باستانبول ، الواجهة الرئيسية.



لوحة (٢٠١) ضولما باغجه سراى باستانبول ، منظر عام لامتداد السراى على ضفة البوسفور .



لوحة (٢٠٢) ضولما باغجه سراى فى استانبول ، الواجهة المعثلة على البوسفور .



لوحة (٢٠٣) ضولما باغچه سراي باستانبول ، واجهة السلامك المظلة على
الحديقة الرئيسية للسراي .



لوحة (٢٠٤) جسر موستار القديم ، منظر عام .



لوحة (٢٠٥) جسر شوكللو محمد باشا في فيشجراد (صورة من قارب) .

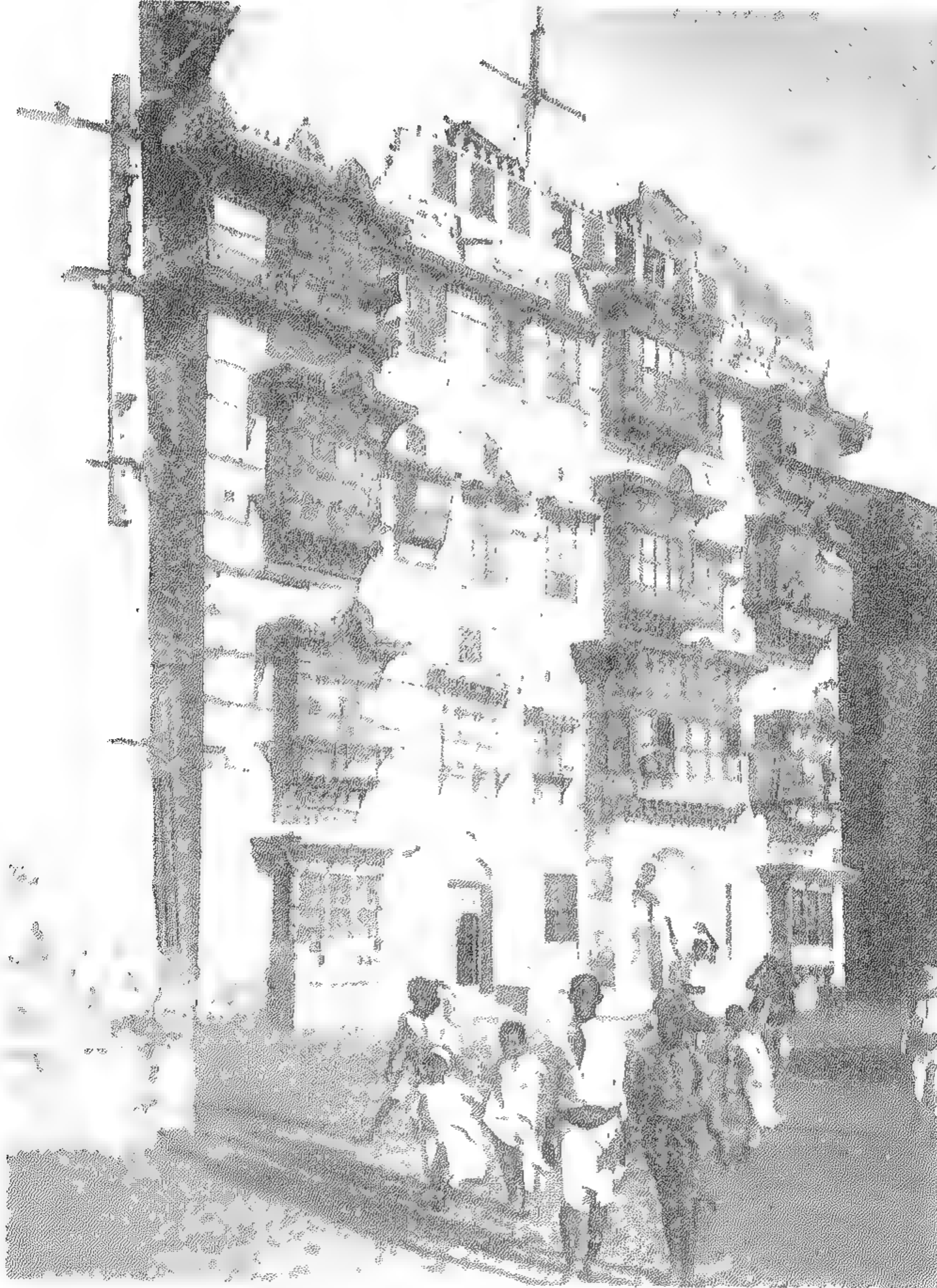


لوحة (٢٠٦) روميلى حصار (قلعة الجانب الأوروبى المطللة على البوسفور) .



لوحة (٢٠٧) البرج الابيض فى سالونيك باليونان .

٧ - جدة



لوحة (٢٠٨) بيوت جدة القديمة فى عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م .



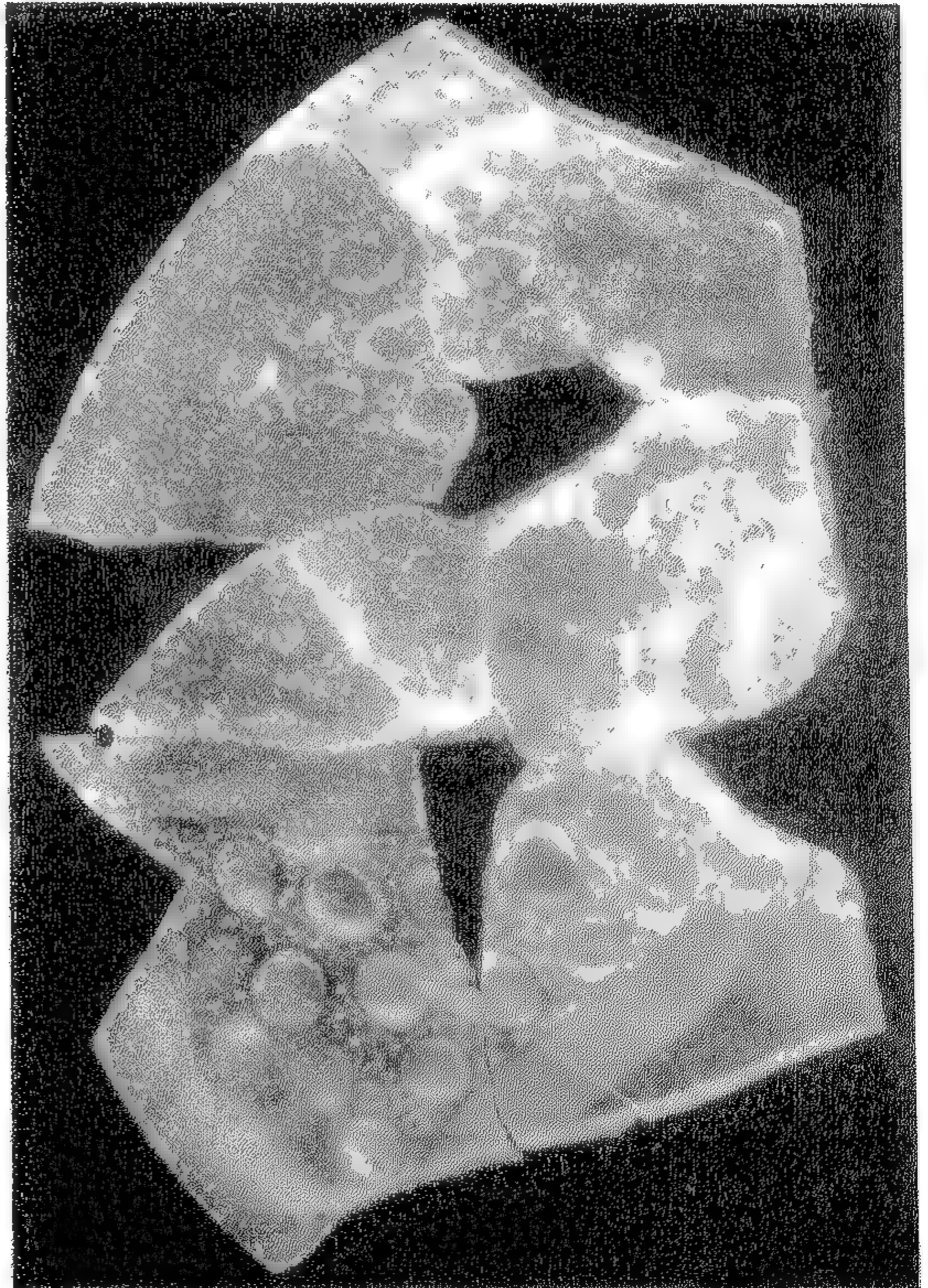
لوحة (٢٠٩) قدر من الخزف ذي البريق
المعدني محفوظ في معهد الفن
بشيكاغو - العراق (الطراز العباسي)
منتصف ق ٣ هـ / ٩ م (عن : Grube) .

لوحة (٢١٠) صحن من الخزف ذي
البريق المعدني - العراق (الطراز
العباسي) - النصف الثاني من القرن
٣ هـ / ٩ م (عن : معرض دار الآثار
الإسلامية بالكويت) .





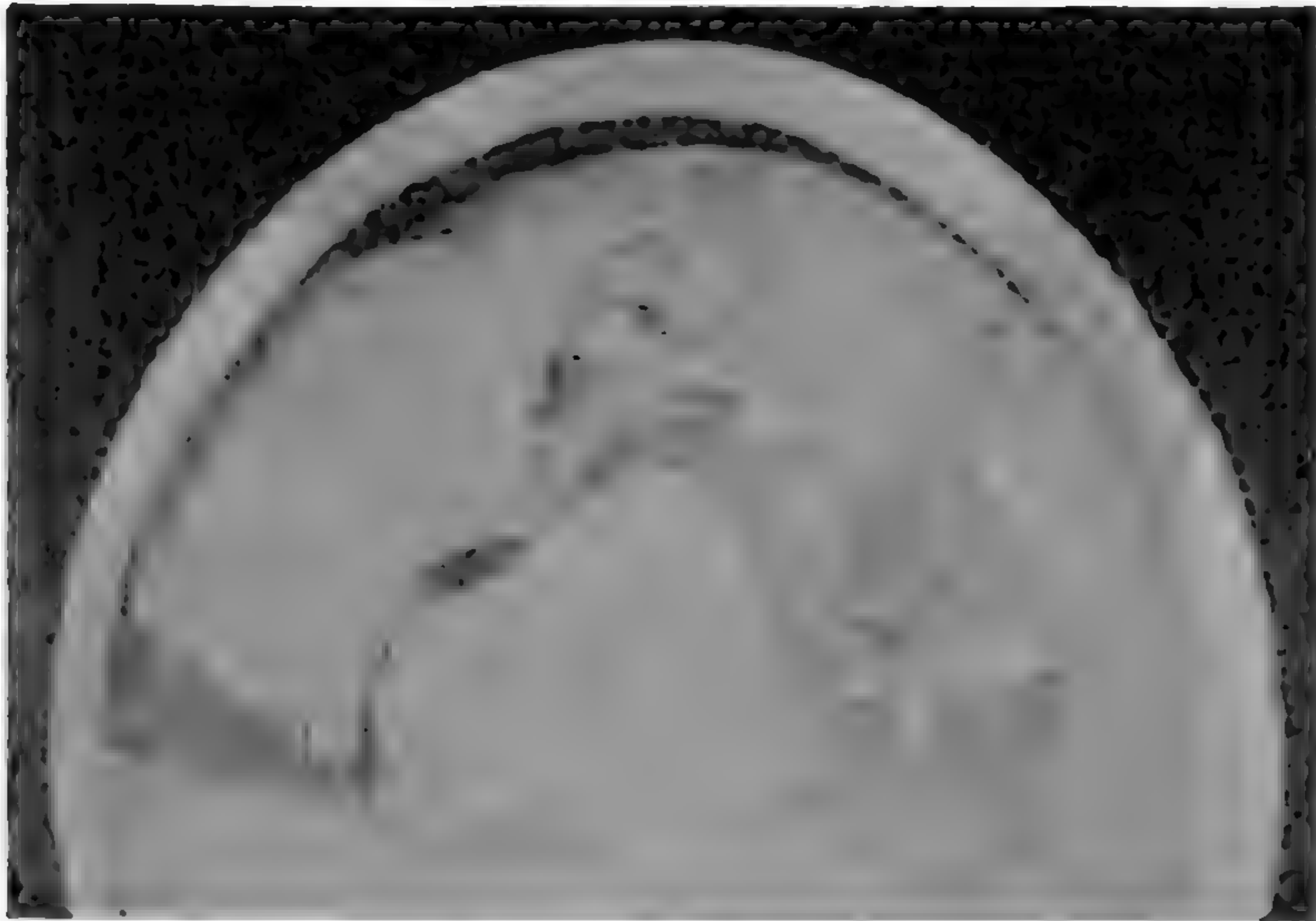
لوحة (٢١١) صحن من الخزف ذي
البريق المعدني - العراق (الطراز
العباسي) القرن ٤ هـ / ١٠ م (عن
معرض دار الآثار الإسلامية بالكويت).



لوحة (٢١٢) بقايا صحن من الخزف
ذي البريق المعدني عثر عليه في الريذه
(الطراز العباسي) . (بالمملكة العربية
السعودية) .



لوحة (٢١٣) قدر من الخزف ذي البريق المعدني (منظر طرد وحش) - محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة - مصر (الطراز الفاطمي) .



لوحة (٢١٤) جزء من صحن من الخزف ذي البريق المعدني (منظر مصارعة بين اثنين) مصر (الطراز الفاطمي) .



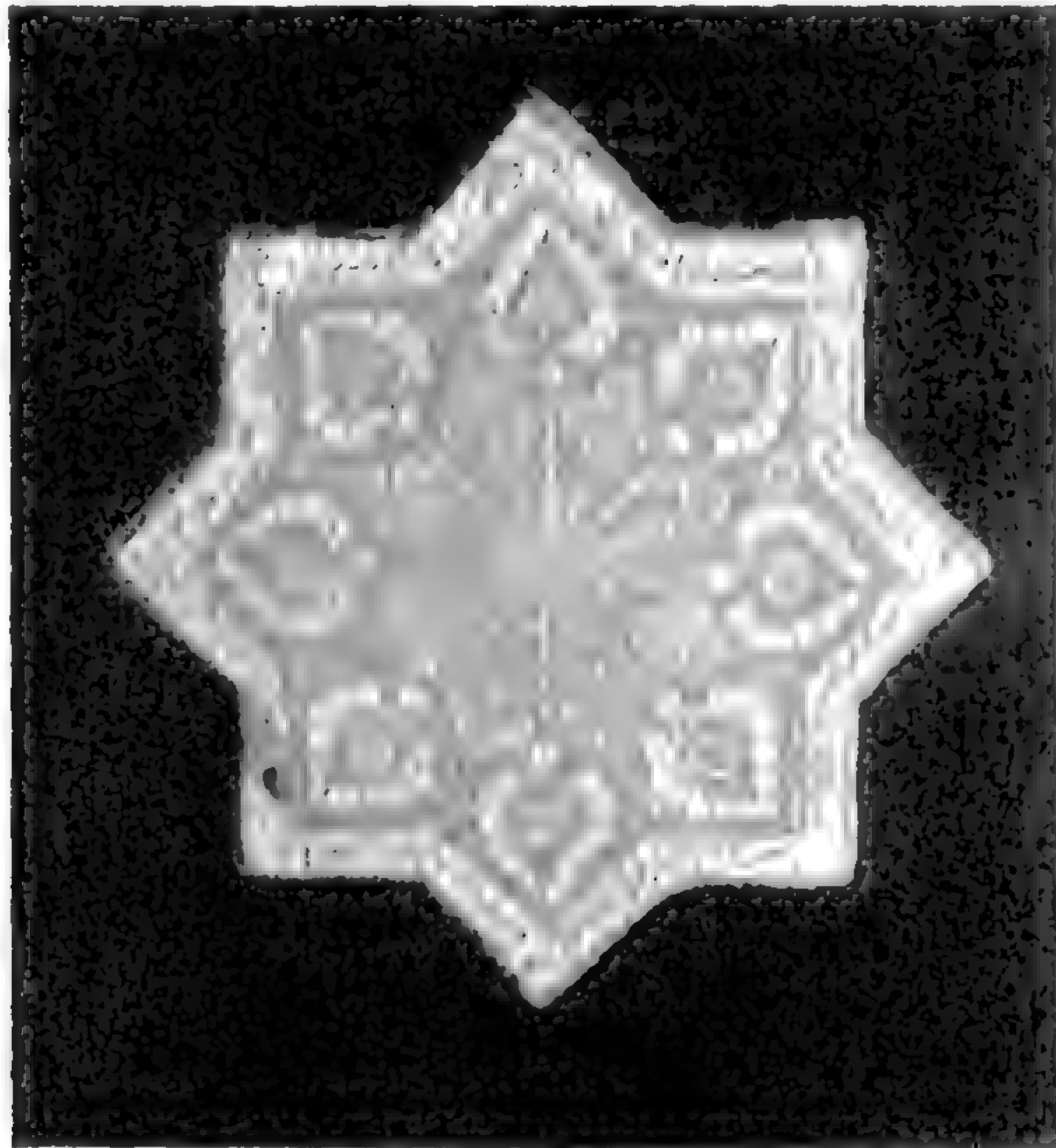
لوحة (٢١٥) صحن من الخزف ذي البريق المعدني محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة -مصر (الطراز الفاطمي) .



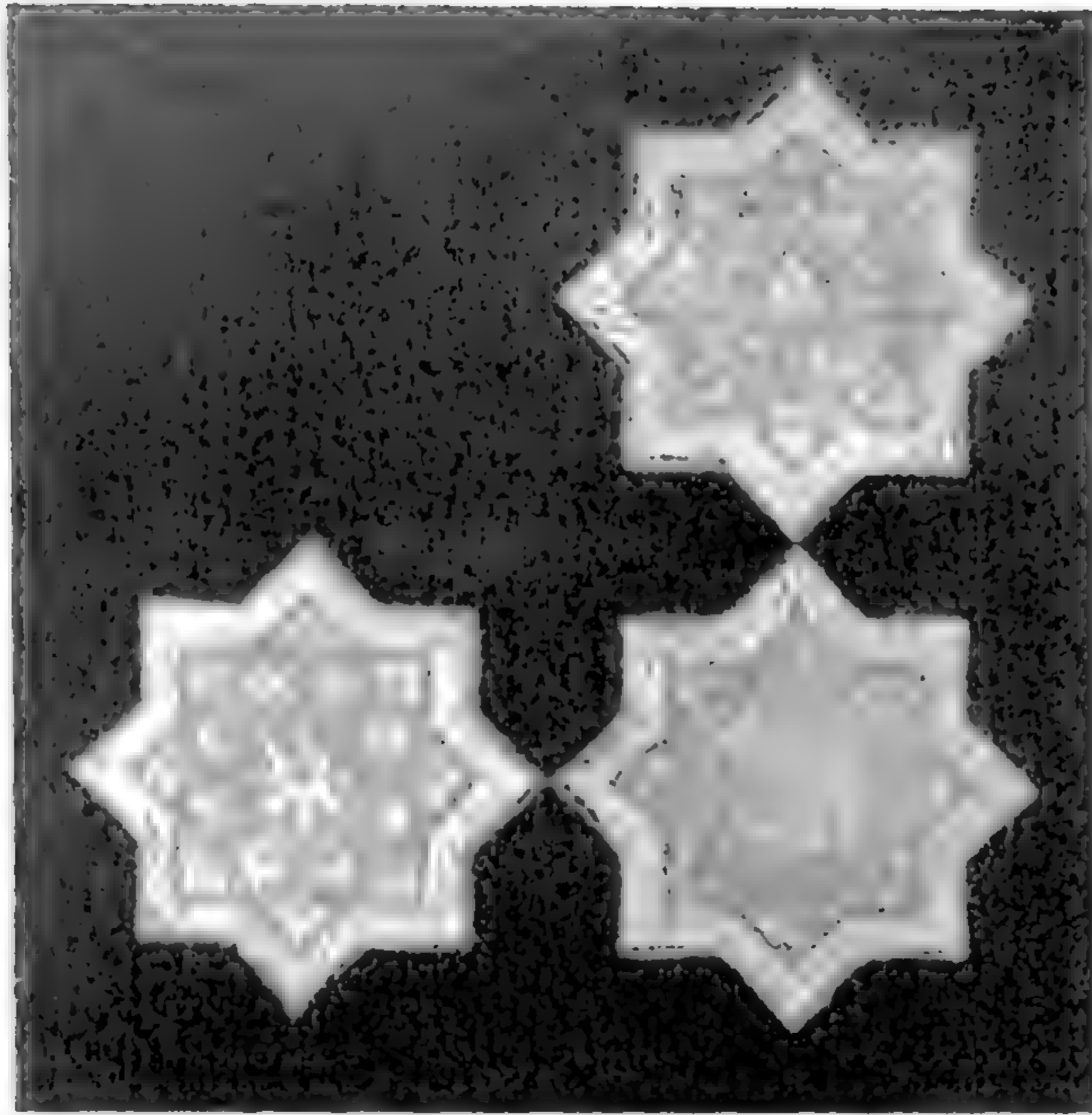
لوحة (٢١٦) صحن من الخزف ذي البريق المعدني محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة -مصر (الطراز الفاطمي) - ق ١١ / هـ .



لوحة (٢١٧) صحن من الخزف ذي البريق المعدني (صناعة قاشان ومؤرخ في جمادى الآخر ٦٠٧ هـ / نوفمبر ١٢١٠ م) عليه توقيع صانعه (السيد شمس الدين الحسنى) محفوظة في قاعة فرير للفن في واشنطن (منظر يمثل خسرويفاجئ شيرين وهي تستحم) (عن : Grube).



لوحة (٢١٨) بلاطة نجمية الشكل من الخزف ذي البريق المعدني - ايران - أواخر ق ٧ هـ / ١٣ م أوائل ق ٨ هـ / ١٤ م (على الحافة سورة الشمس حتى الآية رقم ١٣) - عن معرض دار الآثار الإسلامية بالكويت .



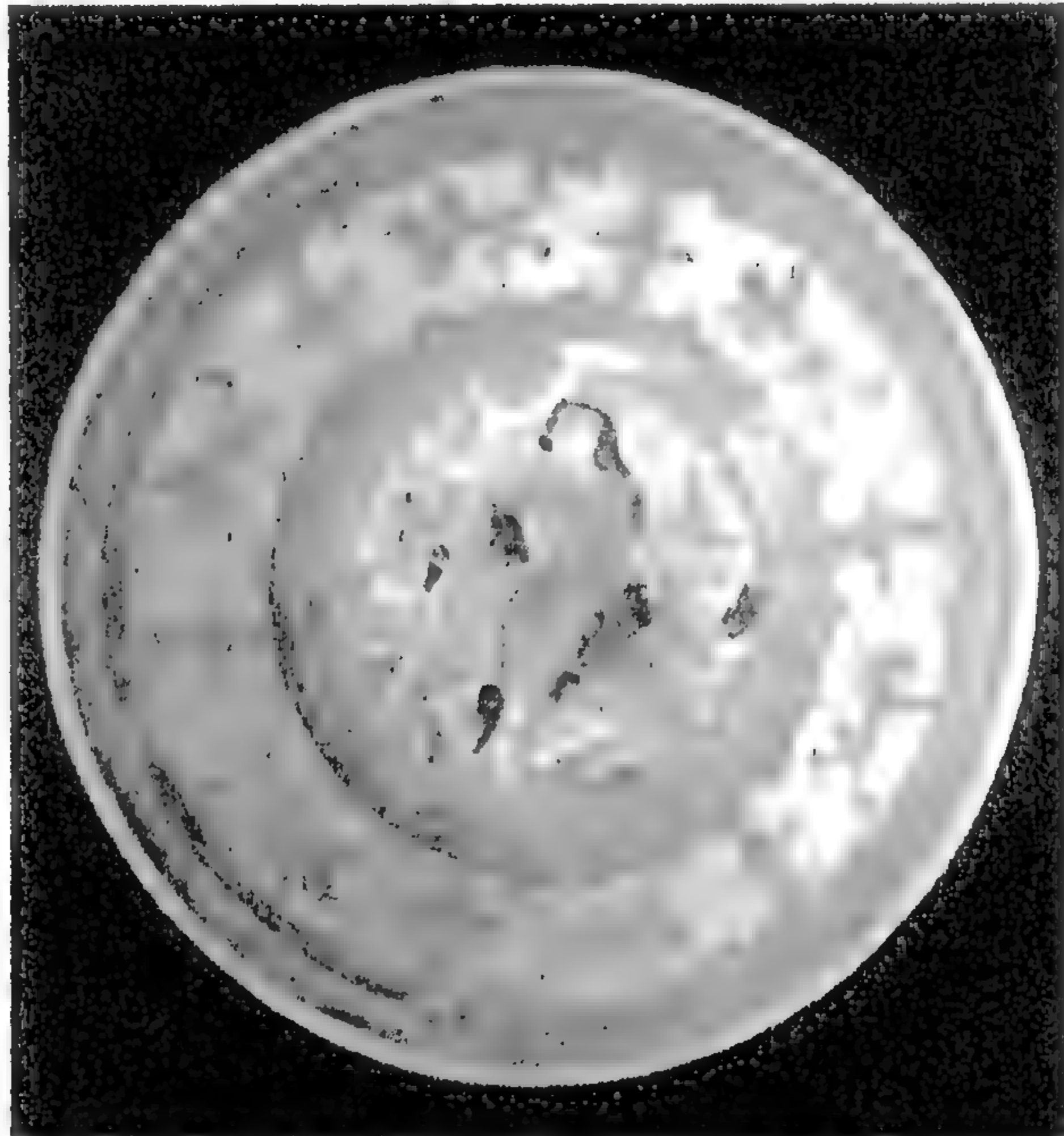
لوحة (٢١٩) بلاطات نجمية الشكل من الخزف ذي البريق المعدني (وعلى الحافة آيات قرآنية شريفة من سورتي الكهف والانعام) - ايران - أواخر ق ٧هـ / ١٣م أو أوائل ق ٨هـ / ١٤م (عن : معرض دار الآثار الإسلامية بالكويت) .



لوحة (٢٢٠) قدر من الخزف ذي البريق المعدني - سوريا أواخر ق ٧هـ / ١٣م (العصر الأيوبي) (عن : Grube) .



لوحة (٢٢١) برنية (جرة أدوية) من الخزف ذي البريق المعدني يغلب على زخارفها اللون الأزرق الكوبالتي - الأندلس ق ٩هـ / ١٥م (عن : معرض دار الآثار الإسلامية بالكويت) .



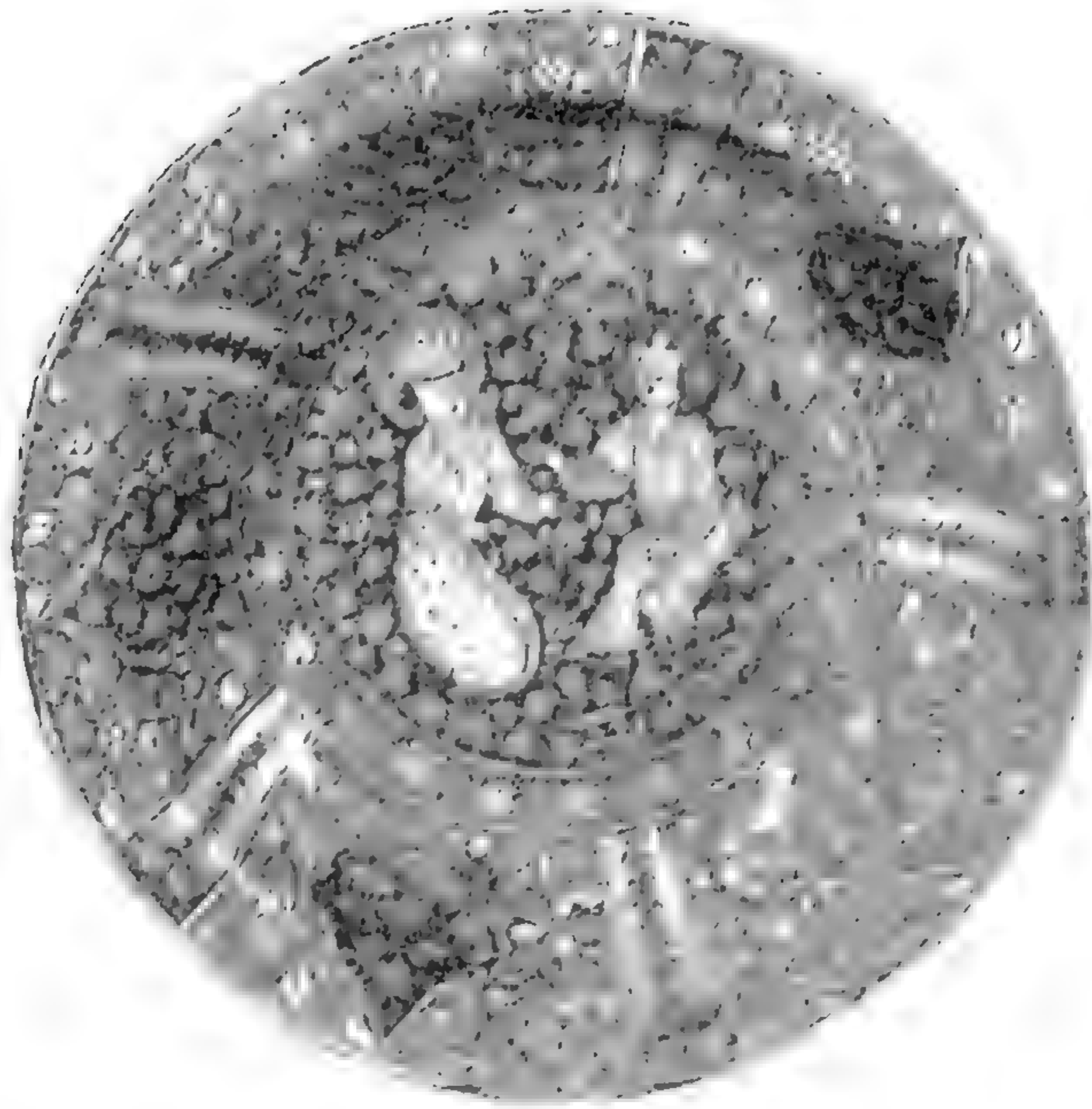
لوحة (٢٢٢) صحن من الخزف المعروف بخزف مينائي - إيران - أواخر ق ٦هـ / ١٢م - أوائل ق ٧هـ / ١٣م - (عن : معرض دار الآثار الإسلامية بالكويت) .



لوحة (٢٢٣) قدر من الخزف المعروف بخزف الفيوم محفوظ بمتحف الفن الاسلامي
بالقاهرة - مصر (العصر الفاطمي) - ق ٥٥٠هـ / ١١م .



لوحة (٢٢٤) صحن من الخزف المعروف بخزف مينائي - ايران - أواخر ق ٦هـ / ١٢م - أوائل
ق ٧هـ / ١٣م (عن معرض دار الآثار الاسلامية بالكويت) .



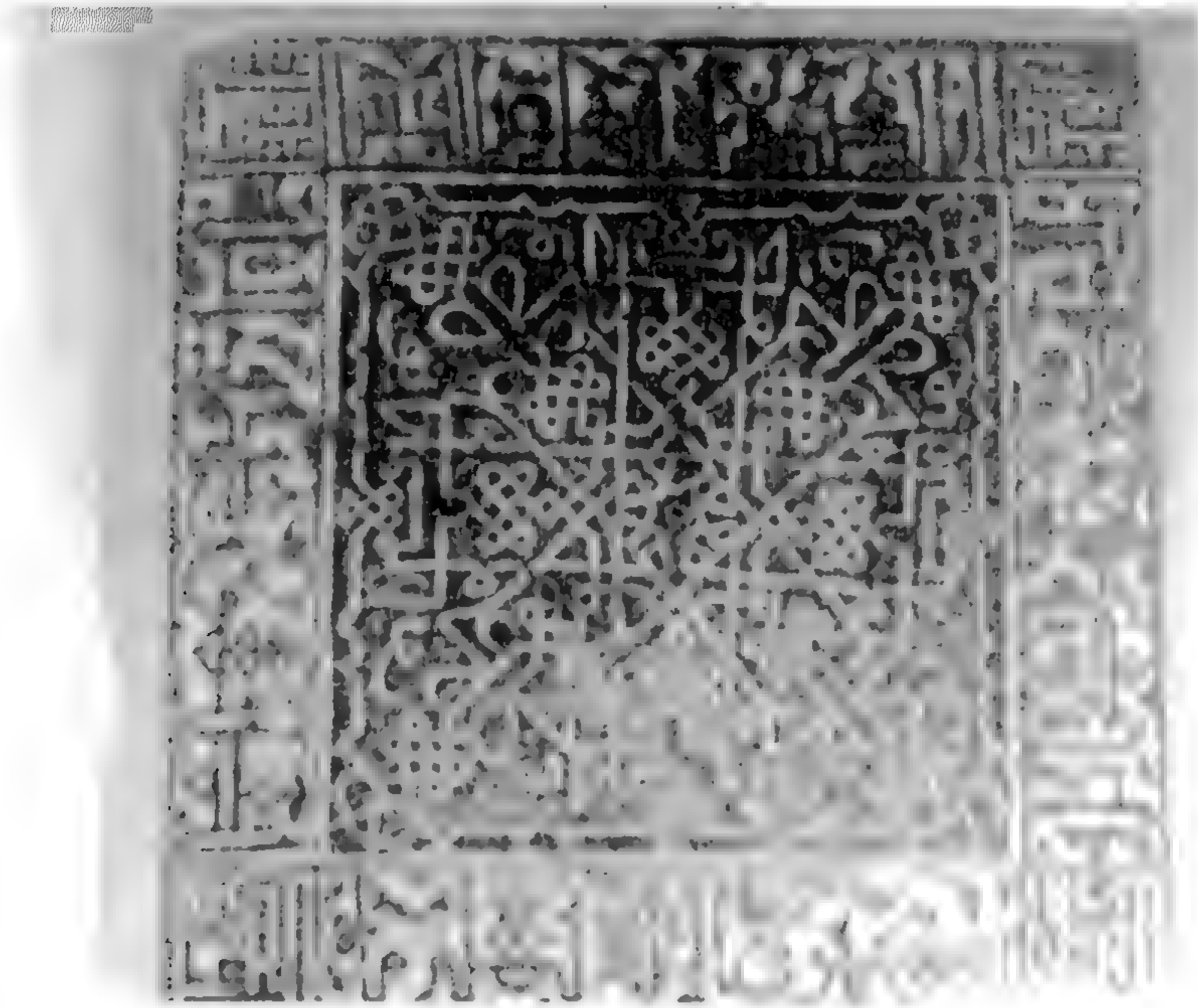
لوحة (٢٢٥) صحن من الخزف المعروف بخزف سلطان آباد محفوظ في مجموعة
Lehmann بنيويورك - ايران ق٨هـ / ١٤م (عن Grube) .



لوحة (٢٢٦) سلطانية من الخزف المرسوم تحت الطلاء باللونين الأزرق والأسود على أرضية
بيضاء محفوظ في نيويورك (مجموعة المدينة C23) مصر ق٨هـ / ١٤م (العصر المملوكي)
(عن : اسن اتيل) .



لوحة (٢٢٧) قدر (جرة كبيرة) من الخزف المرسوم تحت الطلاء باللونين الأزرق والأسود على أرضية بيضاء محفوظ بمتحف فكتوريا والبرت بلندن - مصر ق ٨ / ١٤ م (العصر المملوكي) (عن اسن اتيل) .



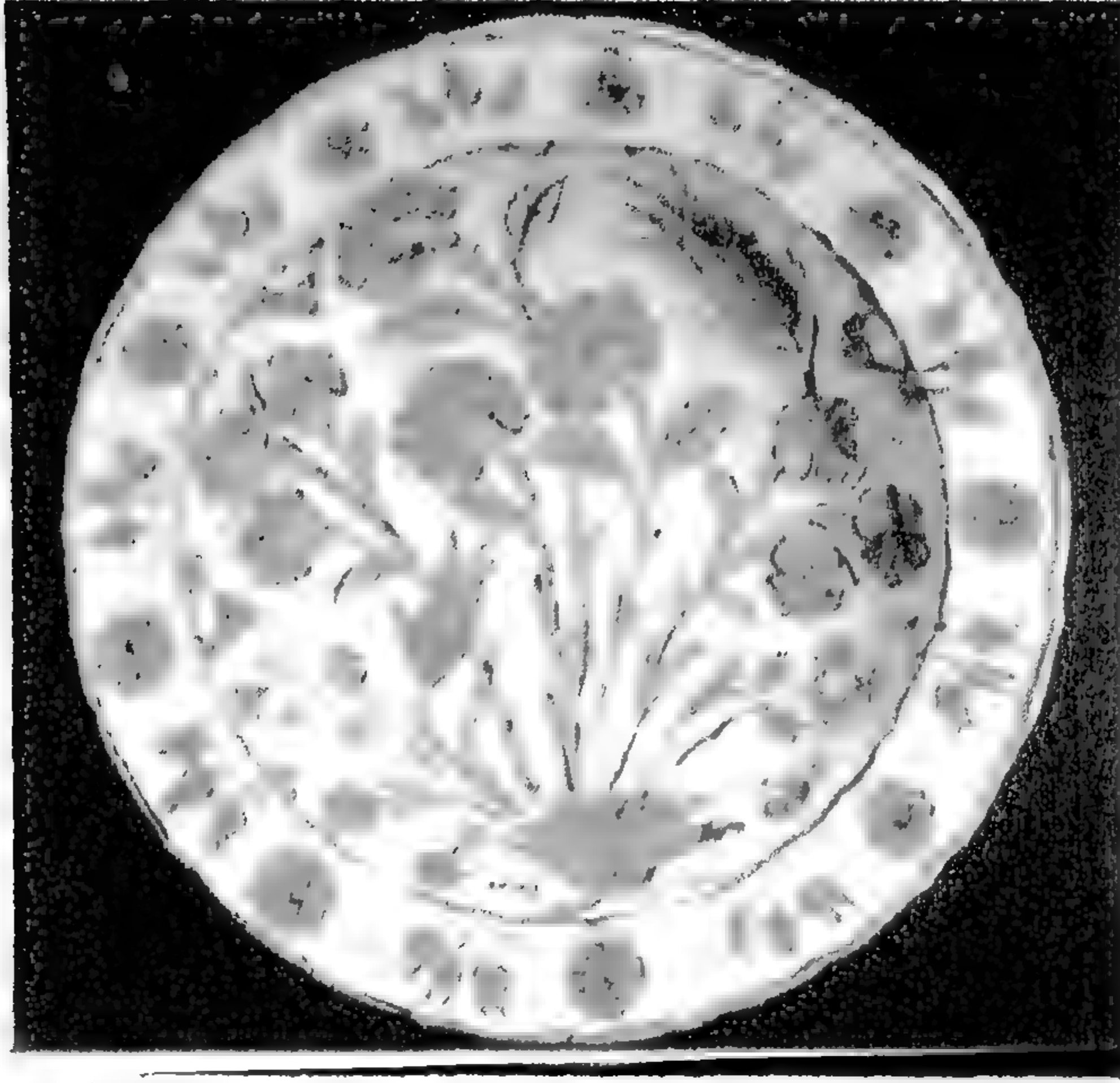
لوحة (٢٢٨) بلاطة مربعة من الخزف المرسوم تحت الطلاء محفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة تحمل توقيع صانعها (عمل بن غيبى التوريزى) .



لوحة (٢٢٩) صحنان من خزف ازنيق - منتصف ق ١٠هـ / ١٦م (عن : معرض دار الآثار
الاسلامية بالكويت) .



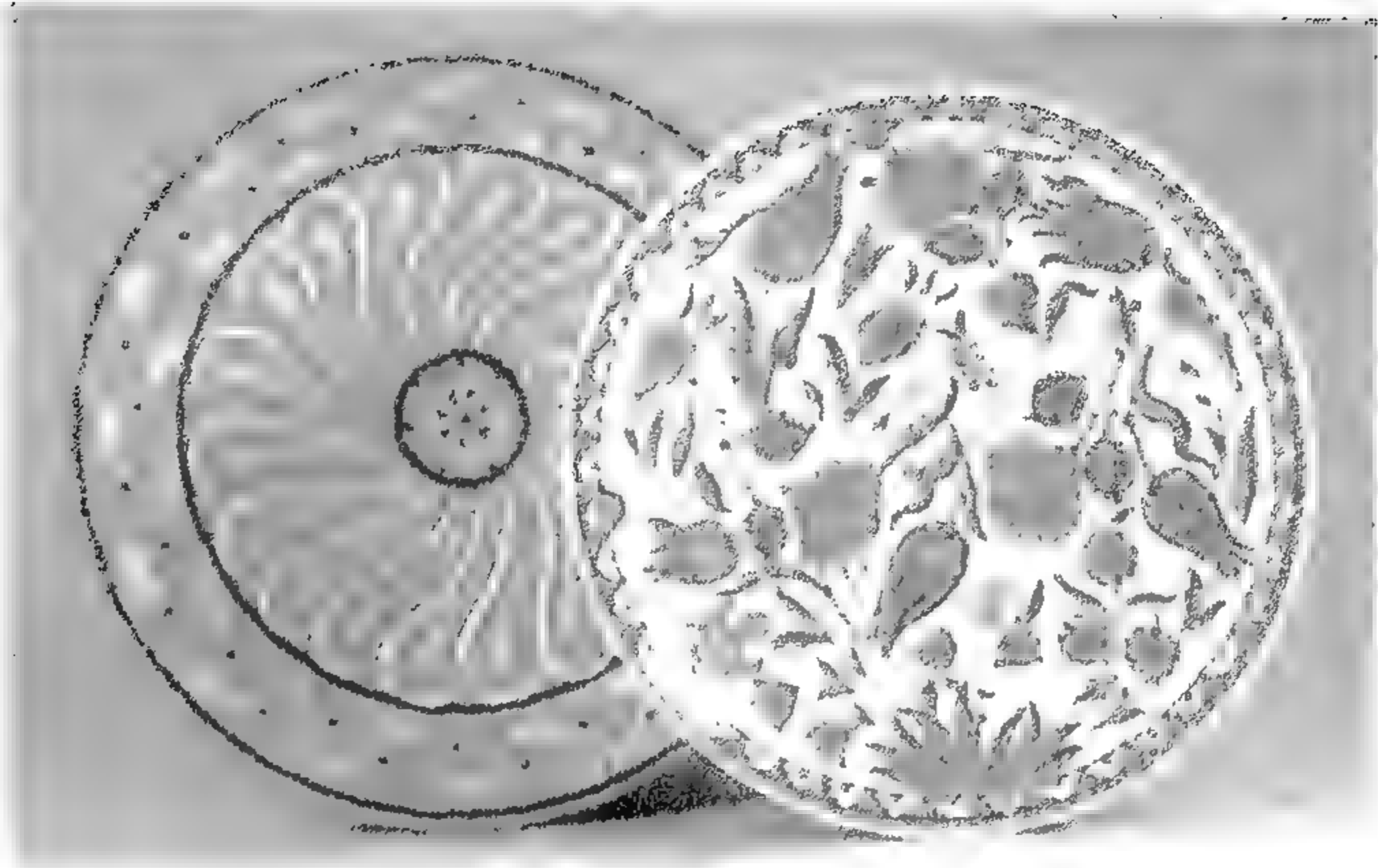
لوحة (٢٣٠) صحنان من خزف أزنيق - منتصف ١٠هـ / ١٦م
(عن ، Carswell) .



لوحة (٢٣١) صحن من خزف أزنيق - النصف الثاني من ق ١٠هـ / ١٦م
(عن : معرض دار الآثار الإسلامية بالكويت) .



لوحة (٢٣٢) صحن من خزف أزنيق ذي الزخارف المرسومة باللون الأسود
والأبيض والأحمر على أرضية زرقاء - حوالي ١٥٦٠م (وهناك من يعتقد
أن هذه المجموعة من الأواني من إنتاج كوتاهية) (عن : Carswell) .



لوحة (٢٣٣) صحنان من انتاج مدينة كوتاهية فى أواخر القرن العشرين المنصرم
(١٩٩٠-١٩٩٢م) وفيهما احياء لخزف ازنيق الشهير (عن : Carswell) .



لوحة (٢٣٤) شمعدان من خزف ازنيق - حوالى ١٤٨٠م (عن : Carswell) .



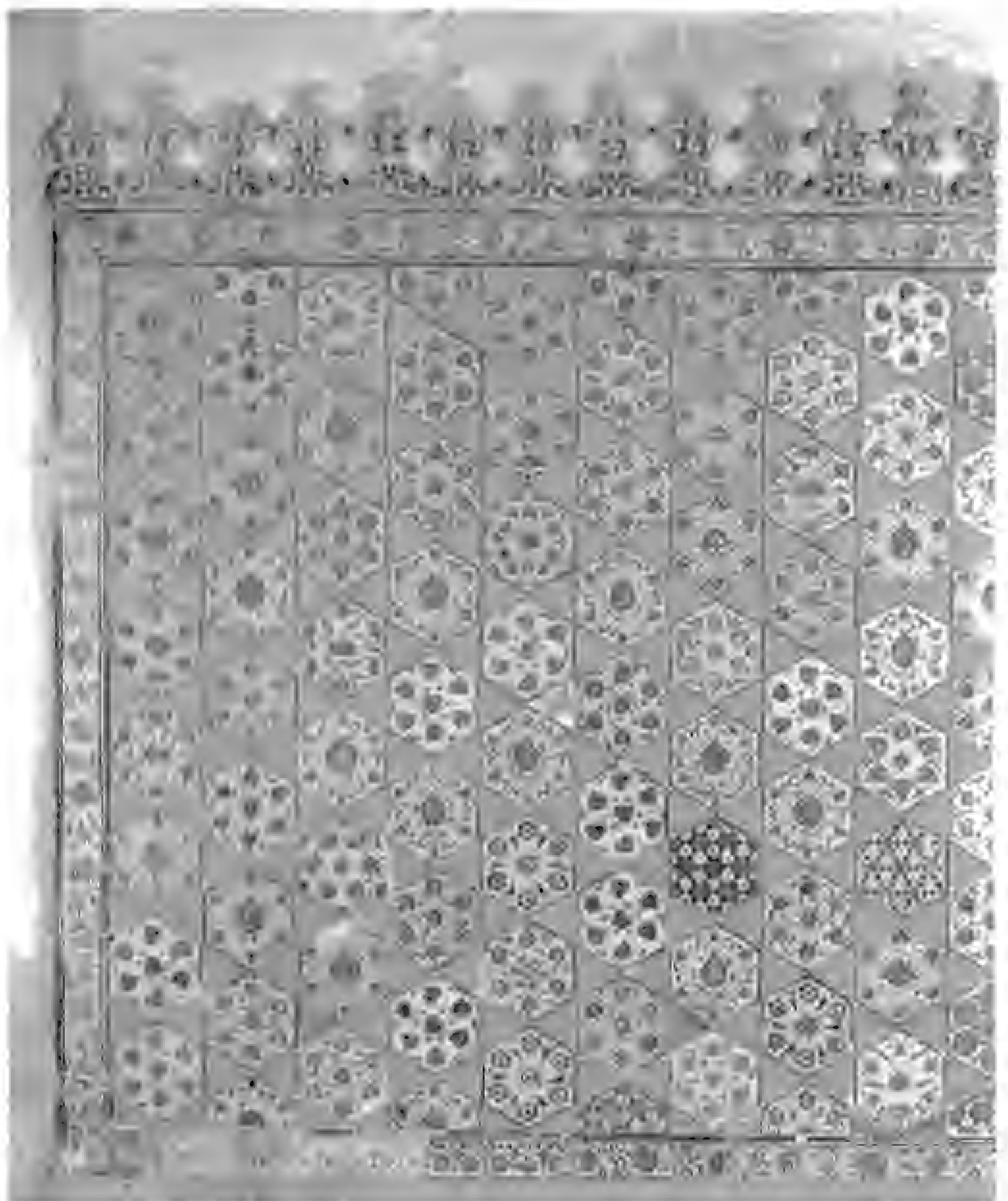
لوحة (٢٣٥) مشكاة خزفية من خزف أزنيق (كانت في قرية السلطان بايزيد
الثاني المتوفى ١٥١٢م) (عن ، Carswell) .



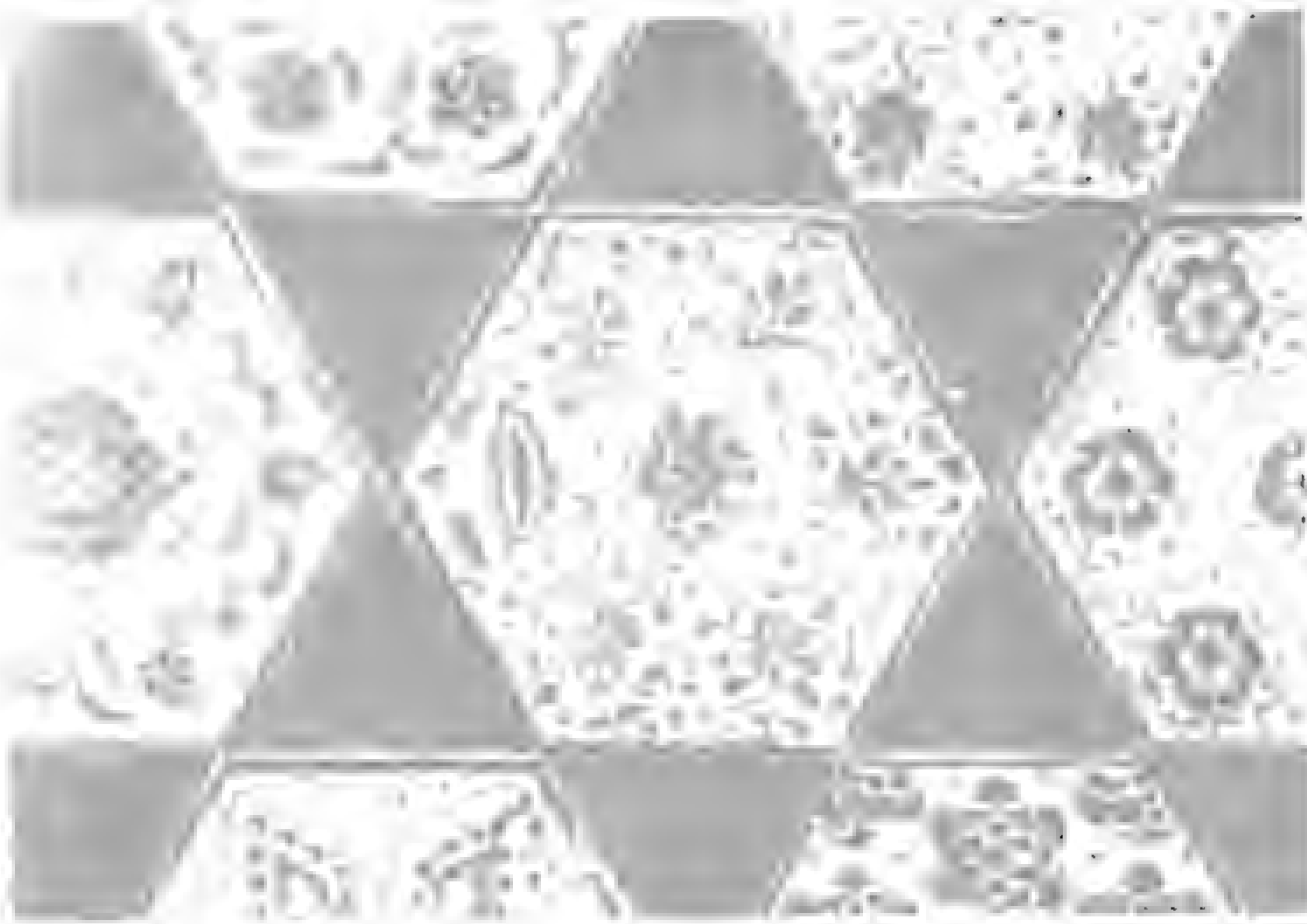
لوحة (٢٣٦) مشكاة خزفية من خزف أزنيق مؤرخة في شهر
جمادى الأول ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م وتحمل في قاعدتها توقيع النقاش
(مصلى Musli) (عن ، Carswell) .



لوحة (٢٣٧) ابريق من خزف ازنيق حوالى ١٥٨٥م (عن ، Carswell) .



لوحة (٢٣٨) البلاطات الخرفية المسدسة الشكل بمسجد المرادية
في أدرنة (عن ، Carswell) .



لوحة (٢٣٩) تفصيل لـ زخارف بعض البلاطات الخزفية المسدسة
الشكل بمسجد المرادية في أدرنة (عن : أرسىكا) .



لوحة (٢٤٠) بلاطات خزفية من خزف أزنيق ق ١٠هـ / ١٦م .



لوحة (٢٤١) البلاطات الخزفية التي تكسو مسجد رستم باشا باستانبول
من الداخل ٩٦٧ هـ / ١٥٥٩ م (عن : Carswell) .

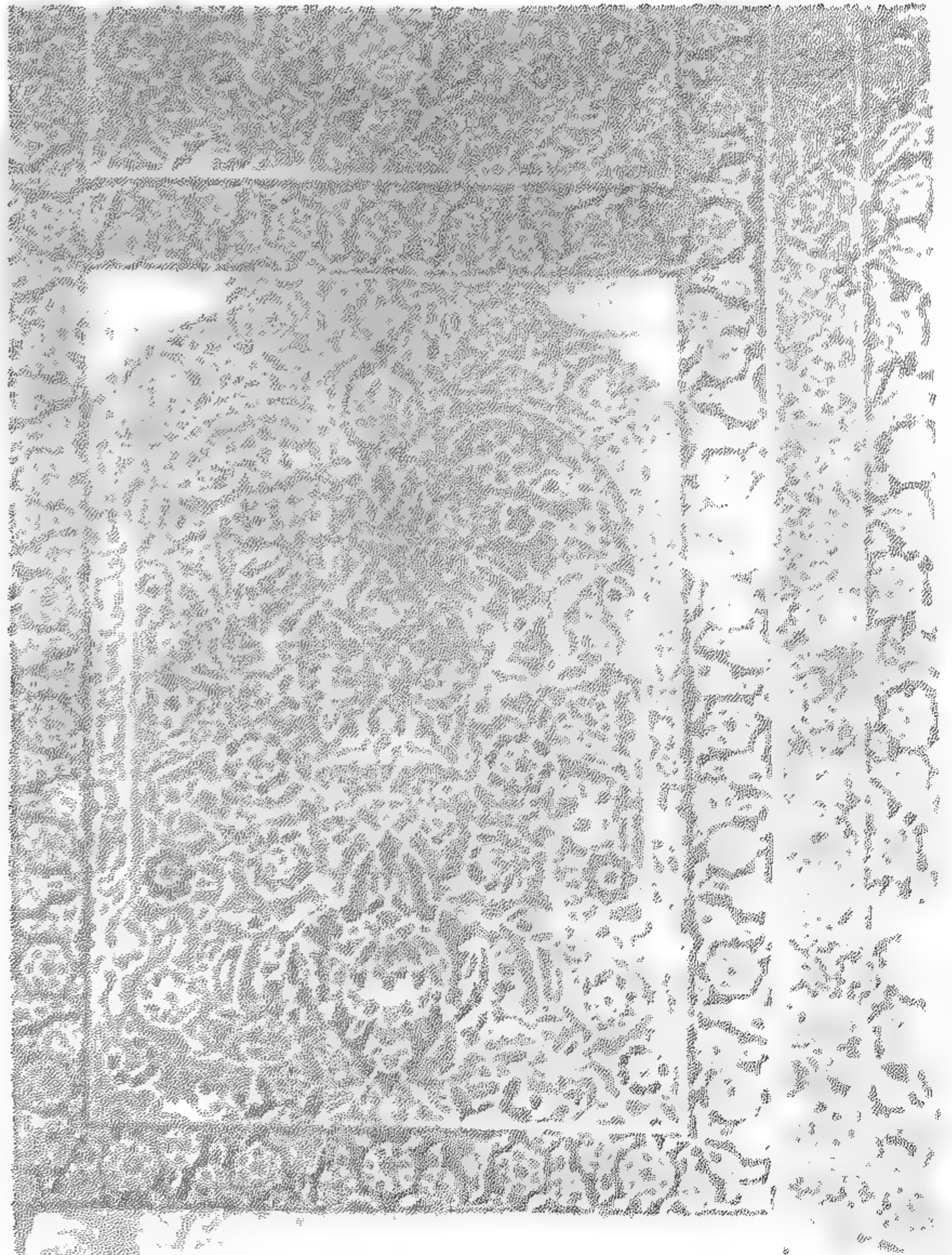


لوحة (٢٤٢) تفصيل لبعض زخارف البلاطات الخزفية بمسجد رستم باشا باستانبول .



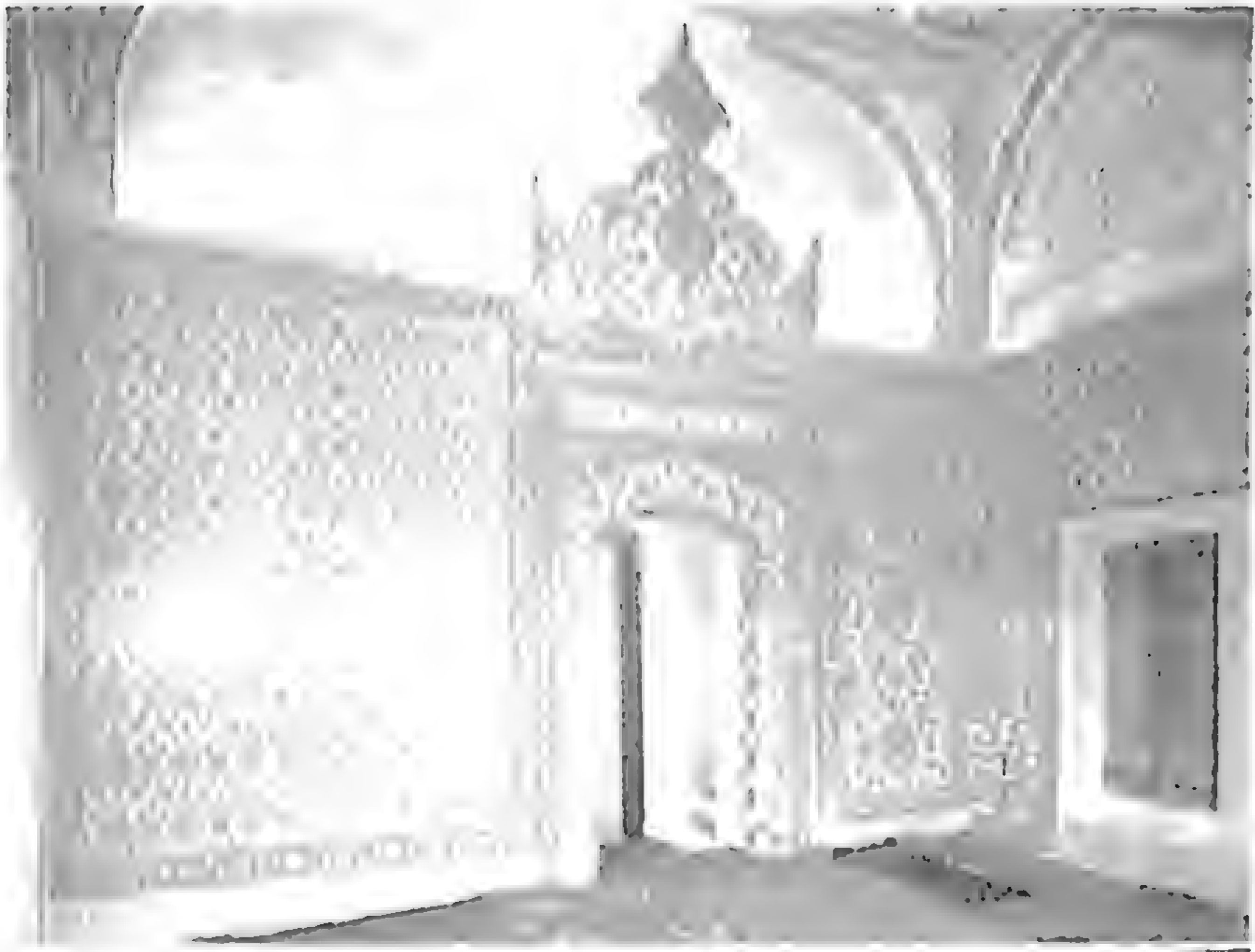
لوحة (٢٤٣) تفصيل لبعض النقوش
الكتابية والزخرفية بالبلاطات الخزفية
التي تكسو جامع سوكللو محمد باشا بقا
درجه فى استانبول (بلاطات الجانب
الأيمن للمحراب - الجانب الأيسر للواقف
تجاه المحراب)

لوحة (٢٤٤) البلاطات الخزفية
بترية شاهزاده محمد باستانبول
(عن : أصلان آبا) .

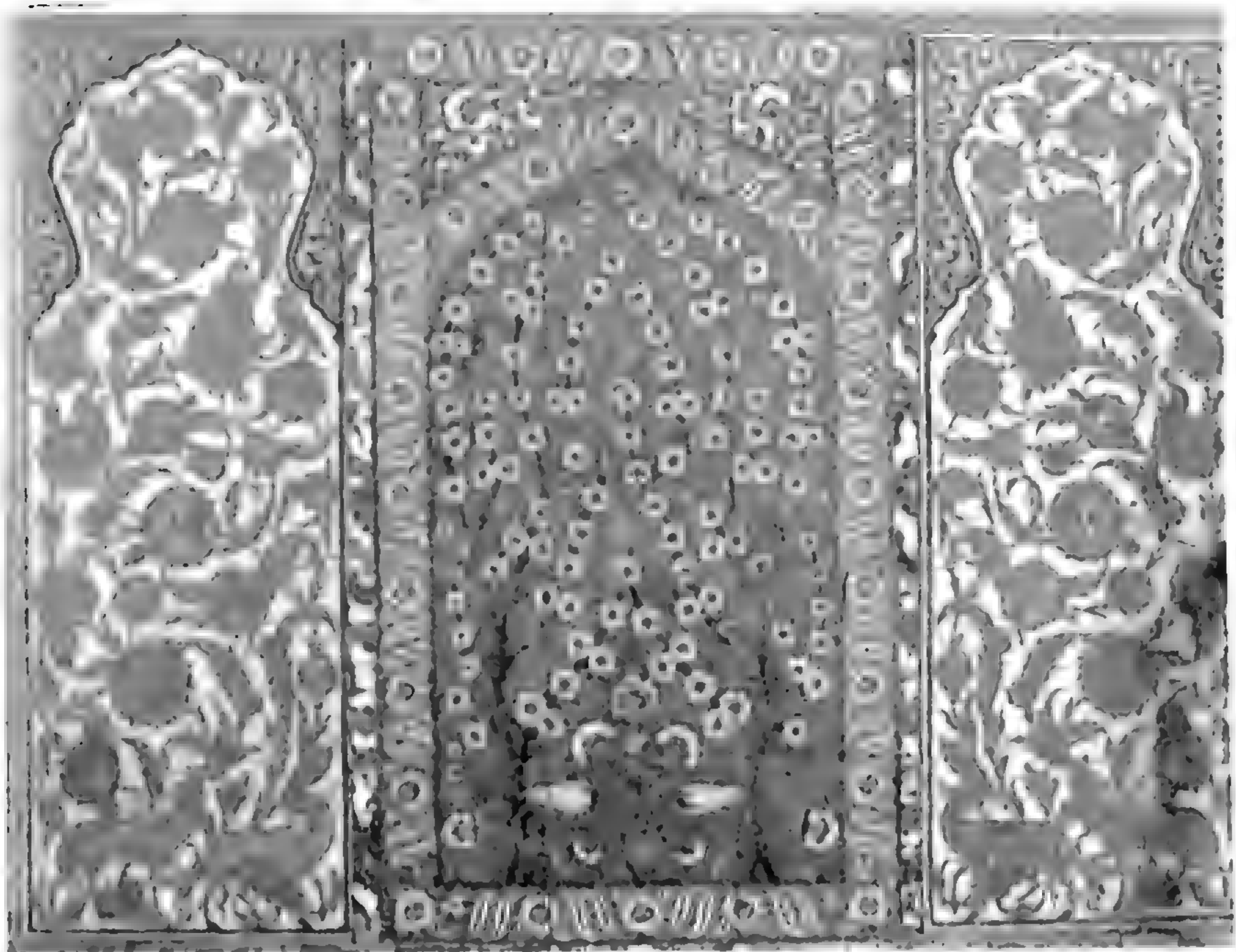




لوحة (٢٤٥) انموذج للبلاطات الخزفية التي تكسو مسجد السليمية بأدرنة
(عن ، أصلان آبا) .



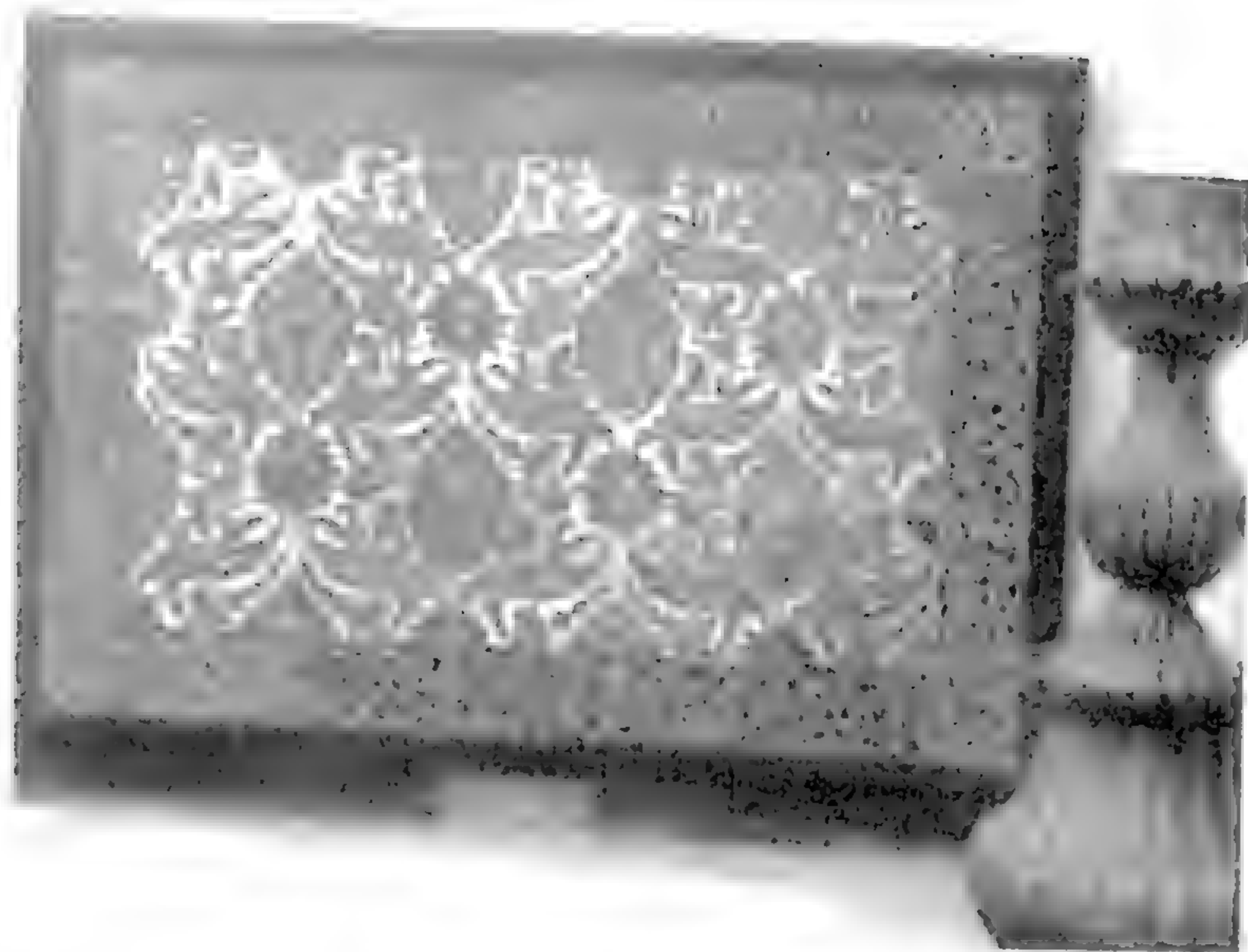
لوحة (٢٤٦) انموذج آخر للبلاطات الخزفية التي تكسو جدران الاستراحة السلطانية بمسجد السليمية بادرنة (عن : أصلان آبا)



لوحة (٢٤٧) انموذج للبلاطات الخزفية التي تكسو قاعة الختان (سنت أوده سي) بطوبقابي سراي في استانبول (عن : أصلان آبا) .



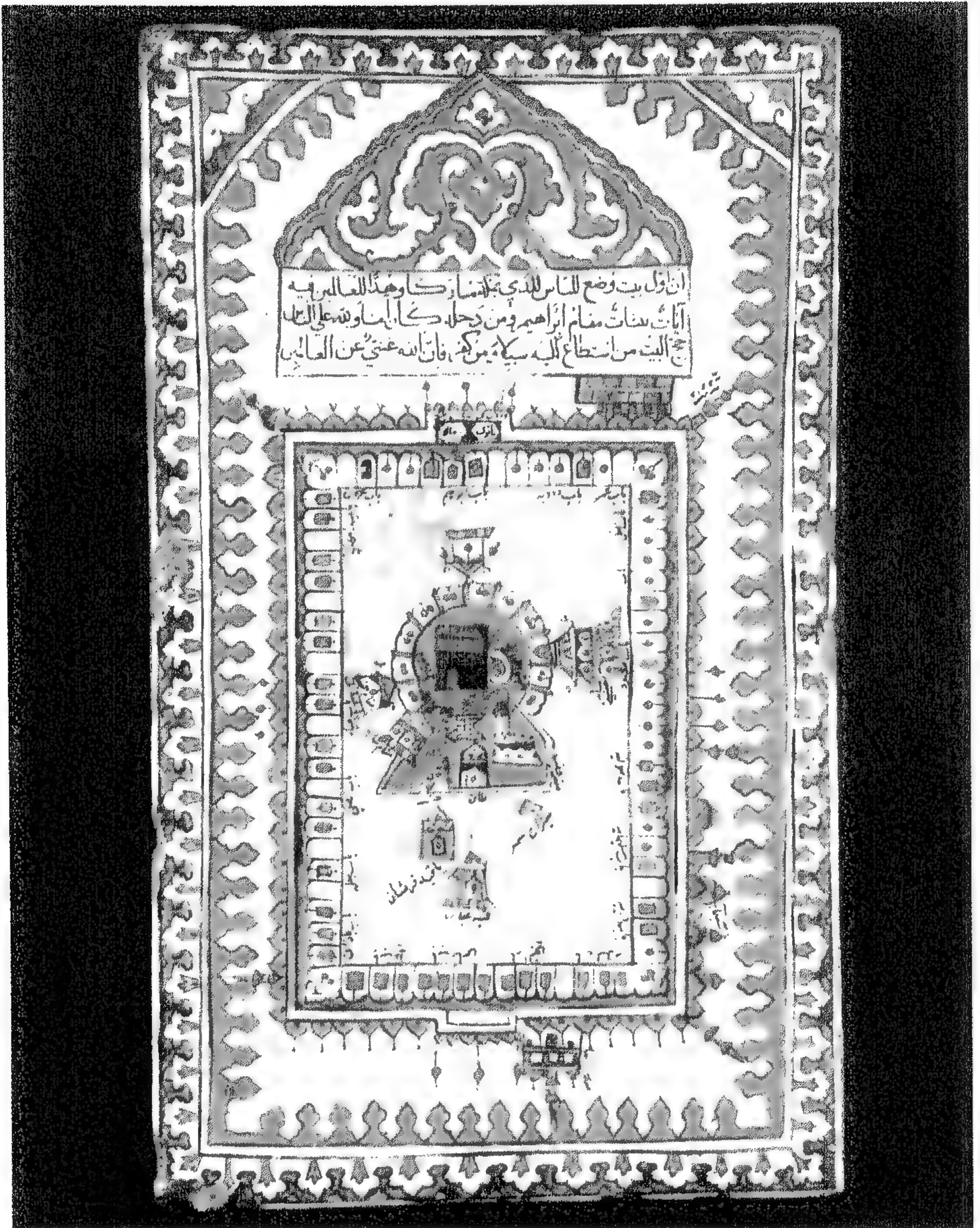
لوحة (٢٤٨) تفصيل لزخارف الحشوة الوسطى في اللوحة السابقة (٢٤٧).



لوحة (٢٤٩) بلاطات خزفية من خزف ازنيق محفوظة بمتحف الفن الاسلامى
(ق ١١٧ هـ / م) .



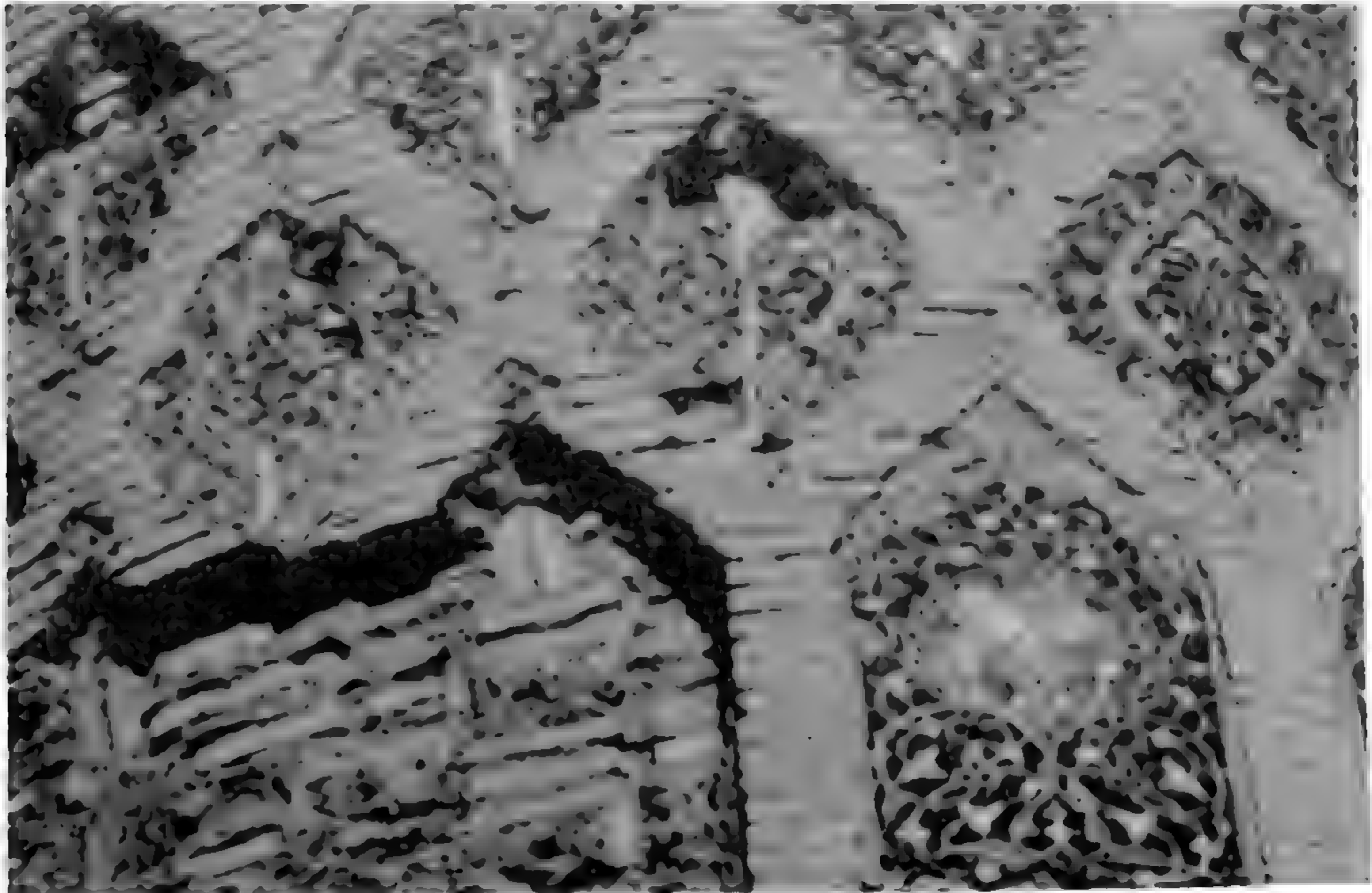
لوحة (٢٥٠) بلاطات خزفية من خزف ازنيق محفوظة بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة (ق ١١٧ هـ / م)



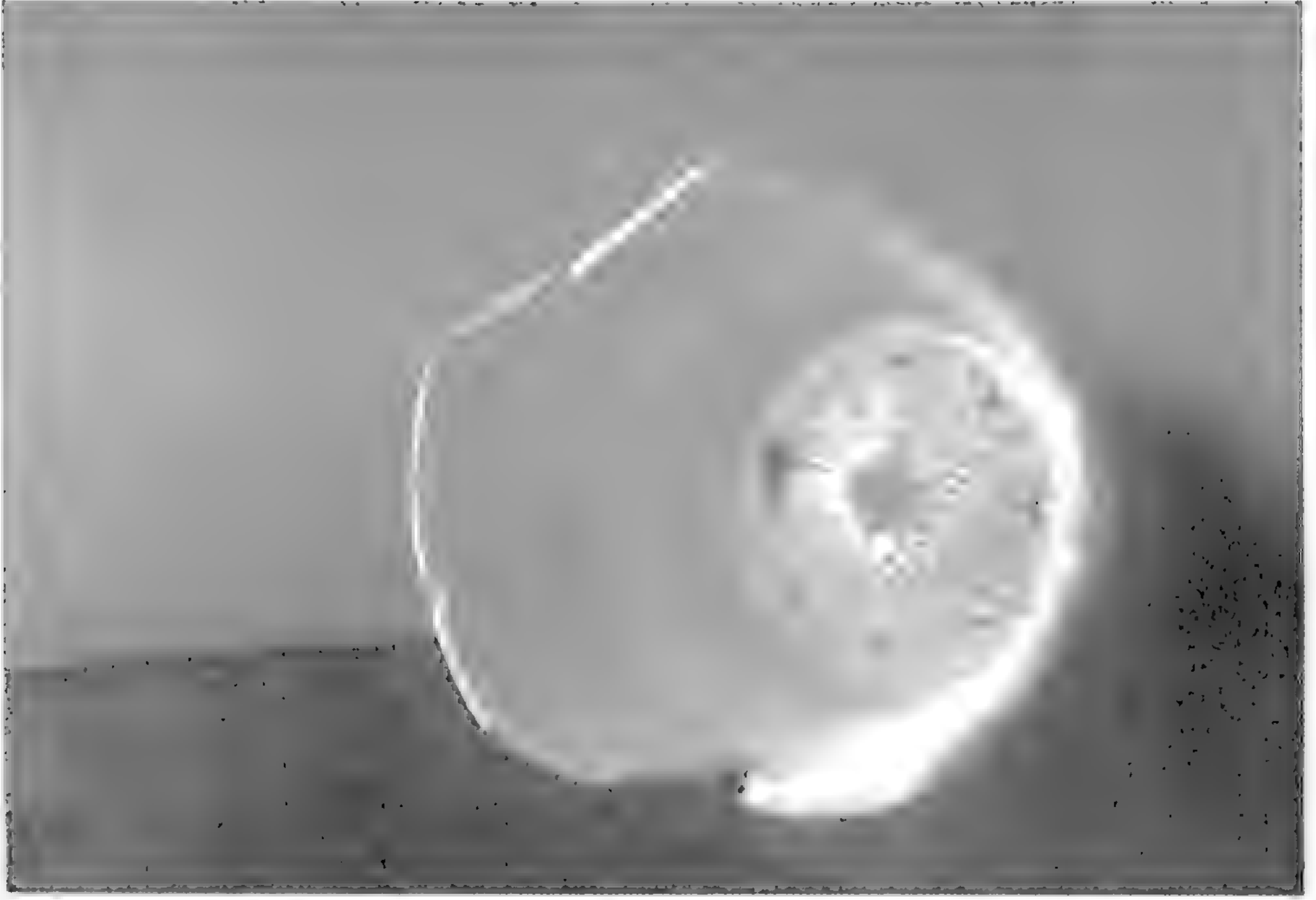
لوحة (٢٥١) بلاطة خزفية من خزف أزنيق تشتمل على مخطط للمسجد
 الحرام (ق ١١ هـ / ١٧ م) (عن : معرض دار الآثار الاسلامية بالكويت) .



لوحة (٢٥٢) الضيفساء الخزفية التي تكسو مشهد الخواجه أبو النصر البارسي في بلخ
(أفغانستان) وفق الاسلوب المعروف بالمعرق (كاشيكاى معرق) (عن : ليذا جلومبك
ودونالد ولبر) .



لوحة (٢٥٣) بعض النقوش الخزفية بمنارة مجمع جواهر شاد بهراة
(أفغانستان) (عن : ليذا جلومبك ودونالد ولبر) .



لوحة (٢٥٤) شباك قلة (حجاب) من الفخار تزيينة زخارف هندسية مفرغة باستثناء الجزء الاوسط الذي يتوسطه نتوء بارز حلزوني الشكل - مصر القرنان ٤-٥هـ / ١٠-١١م .



لوحة (٢٥٥) شباك قلة (حجاب) من الفخار يحمل توقيع صانعه (عمل عابد) مصر .



لوحة (٢٥٦) قارورة نفط من الفخار غير المطلى على هيئة رمائية الشكل ذات زخارف محزوزة - مصرق ٤-٥٥ / ١٠-١١م (العصر الفاطمي) (عن : معرض دار الآثار الاسلامية بالكويت) .



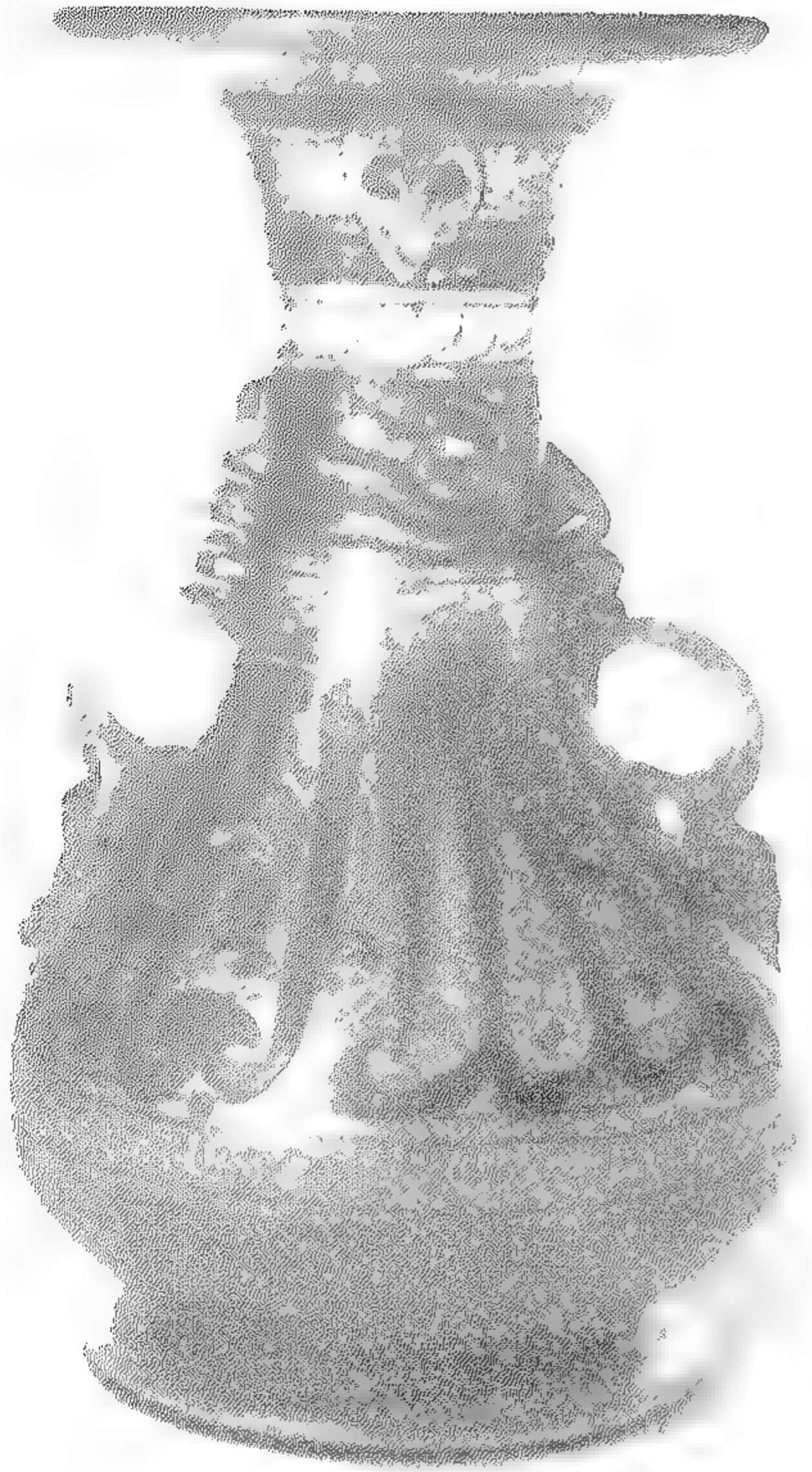
لوحة (٢٥٧) كسرة من الفخار المطلى يزين داخلها رنك الهدف - مصر (القرن ٨ هـ / ١٤م) .



لوحة (٢٥٨) كأس من الزجاج المموه بالمينا
المتعددة الألوان في قاعة والترز للفن في
بالتيمور حوالي ١٢٦٠م (الطراز المملوكي)
(عن : أسن اتيل) .



لوحة (٢٥٩) قارورة من الزجاج المموه بالمينا
المتعددة الألوان صنعت برسم السلطان الرسولي داود
بن يوسف (٦٩٦-٧٢١هـ / ١٢٩٦-١٣٢١م) (الطراز
المملوكي) (عن : اسن اتيل) .



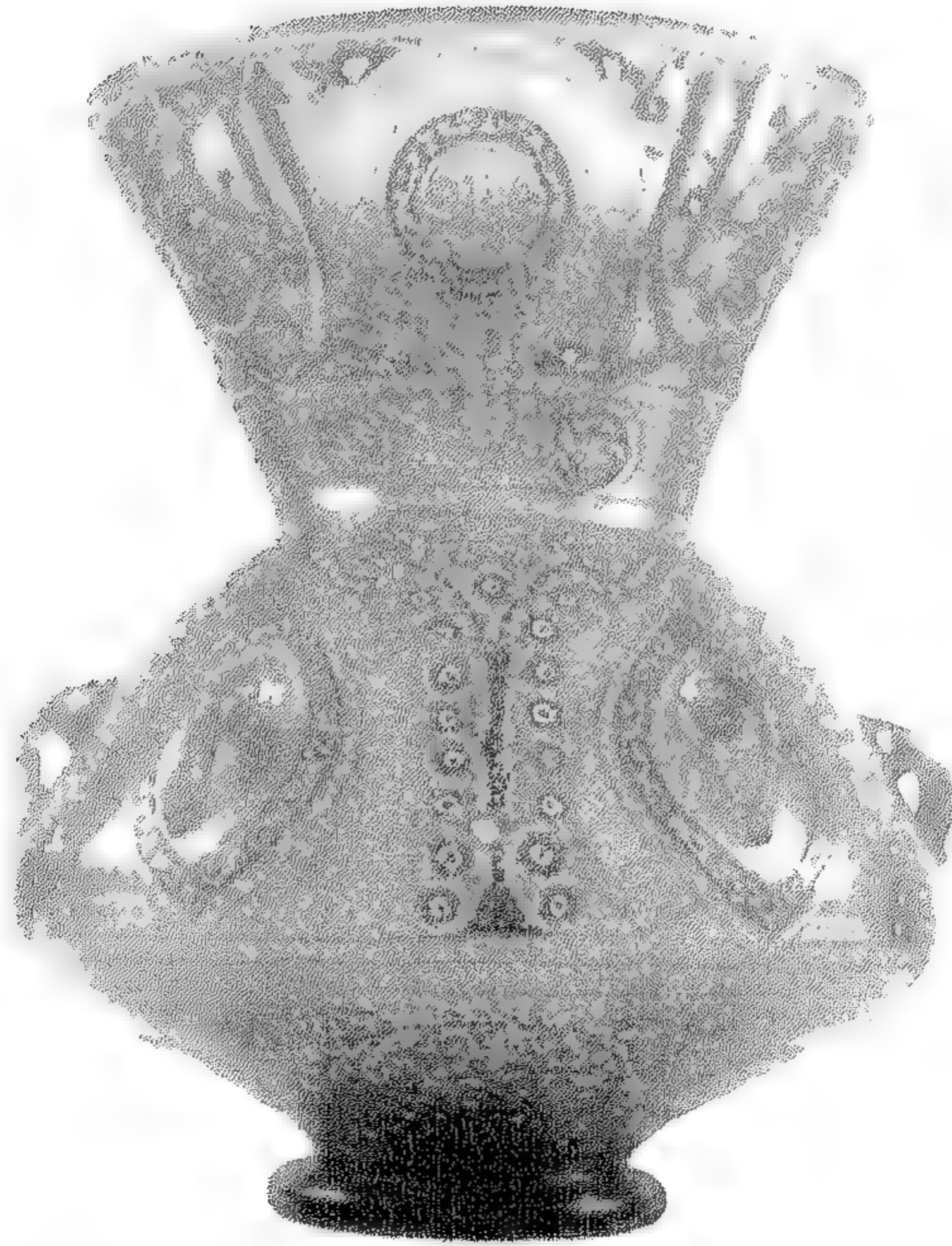
لوحة (٢٦٠) مزهرية من الزجاج المموه
بالمينا المتعددة الألوان مصر (القرن
٨ هـ / ١٤ م) عن : معرض دار الآثار
الاسلامية بالكويت)



لوحة (٢٦١) مشكاه من الزجاج المموه بالمينا
المتعددة الألوان محفوظة بمتحف الفنون
الجميلة في بوسطن وقد صنعت برسم رياض
كريم الدين بالقرافة الصغرى الربع الأول من
ق ٨ هـ / ١٤ م (عن : اسن اتيل) .



لوحة (٢٦٢) ثلاث مشكاوات من الزجاج المموه بالمينا المتعددة الألوان محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة (وقد صنعت برسم مدرسة السلطان حسن ٧٥٧-٧٦٤هـ / ١٣٥٦-١٣٦٢م) مصر (الطراز المملوكى) .



لوحة (٢٦٣) مشكاة من الزجاج المموه بالمينا المتعددة الألوان محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وهى الأخرى برسم مدرسة السلطان حسن (عن : اسن اقييل) .



لوحة (٢٦٤) نماذج من زجاج بوهيميا الشهير المحفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة
(وكان هذا النوع من الزجاج الفاخر يصدر الى العديد من البلدان أو يصنع برسم بعض
سلاطين الدولة العثمانية ومحمد على باشا وأسرتة) .

١١ - المعادن



لوحة (٢٦٥) ابريق من البرونز يعرف بابريق مروان بن محمد (آخر الخلفاء الامويين
١٢٧-١٣٢ هـ) محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة .



لوحة (٢٦٦) تمثال مجوف من البرونز على هيئة أسد رابض محفوظ بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة - مصر (الطراز الفاطمى) .

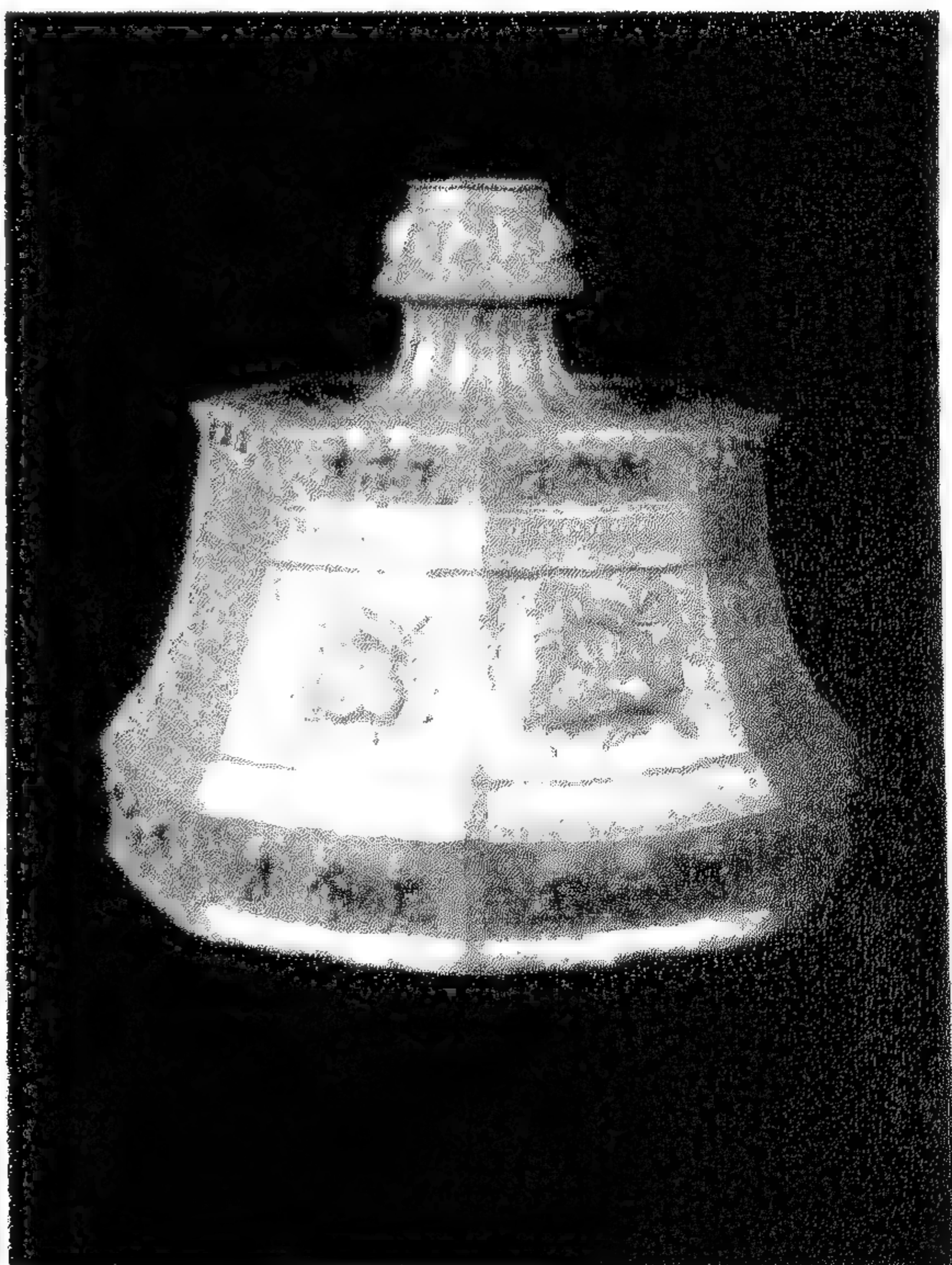


لوحة (٢٦٧) تمثال مصمت من البرونز يمثل عازفة الدف محفوظ بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة - مصر (الطراز الفاطمى) .



لوحة (٢٦٨) ابريق من الذهب محفوظ في
قاعة فريير للفن في واشنطن - العراق
أوايران - القرن ٤هـ / ١٠م (العصر البويهي)
(عن : Grube) .

لوحة (٢٦٩) شمعدان من البرونز
تزيينة زخارف محفورة وبارزة بواسطة
الطرق من الخلف ومكفئة بالنحاس
الأحمر والفضة قوامها نقوش كتابية
ورسوم نباتية وحيوانية أبرزها في
البدن مناظر طرد وحش - خراسان - ق
٧هـ / ١٣م (عن : معرض : دار الآثار
الاسلامية بالكويت) .





لوحة (٢٧٠) شمعدان من النحاس المكث
بالفضة والذهب محفوظ بمتحف الفن
الاسلامى بالقاهرة يتضمن توقيع النقاش
(محمد بن حسن الموصلى - عمل بمصر
٦٦٨هـ / ١٢٦٩م) (عن : اسن اتيل) .



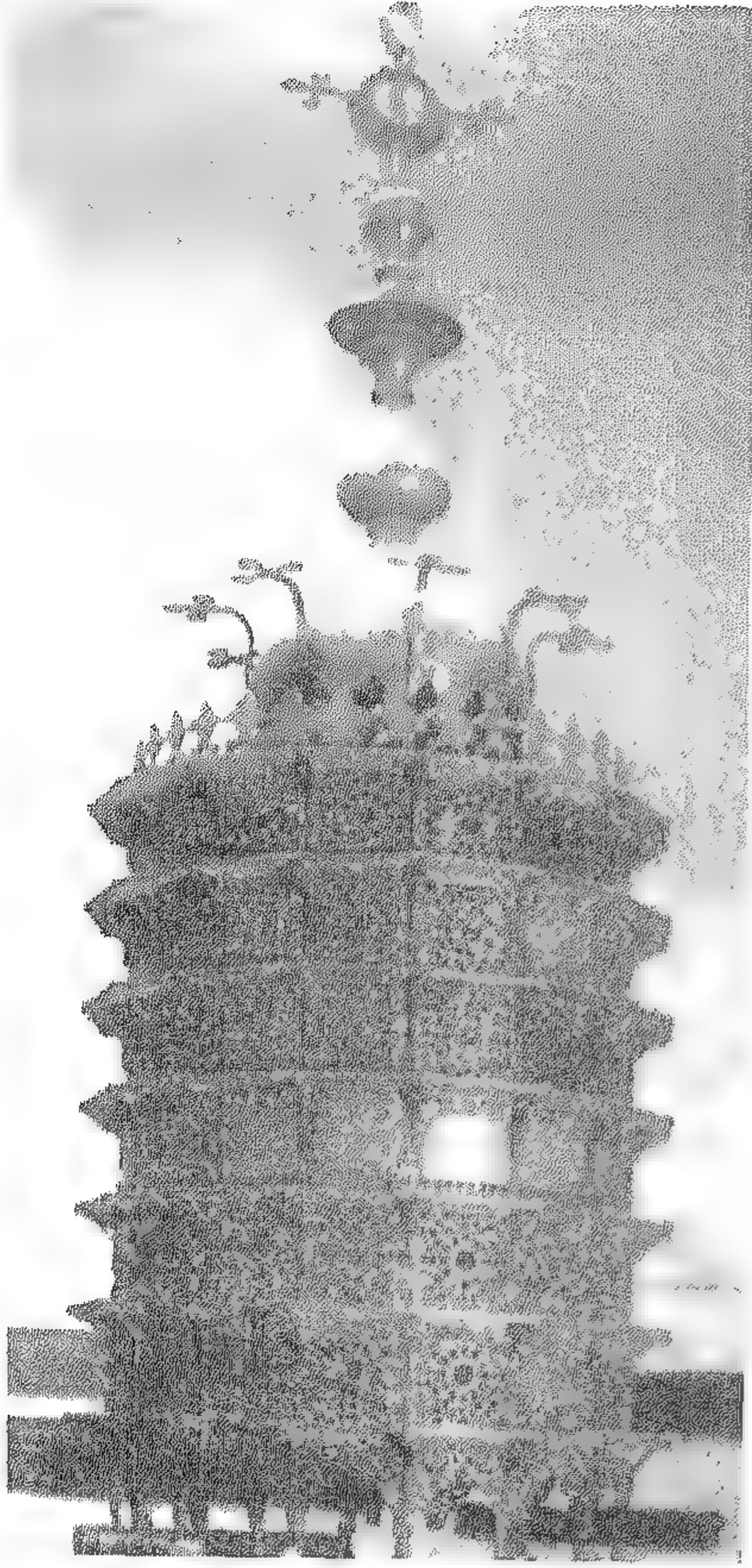
لوحة (٢٧١) رقبة شمعدان (من النحاس
المكث بالفضة والذهب صنع برسم زين الدين
كتبغا المنصورى الأشرفى) محفوظة بمتحف
الفن الاسلامى بالقاهرة - مصر (العصر
المملوكى البحرى - أواخر القرن ٧هـ / ١٣م)
(عن : اسن اتيل) .



لوحة (٢٧٢) بدن شمعدان زين
الدين كتبغا (المشار الى رقبتة
فى اللوحة السابقة) وهو محفوظ
فى قاعة والتزر للفن فى بالتيمور
(عن : اسن اتيل) .



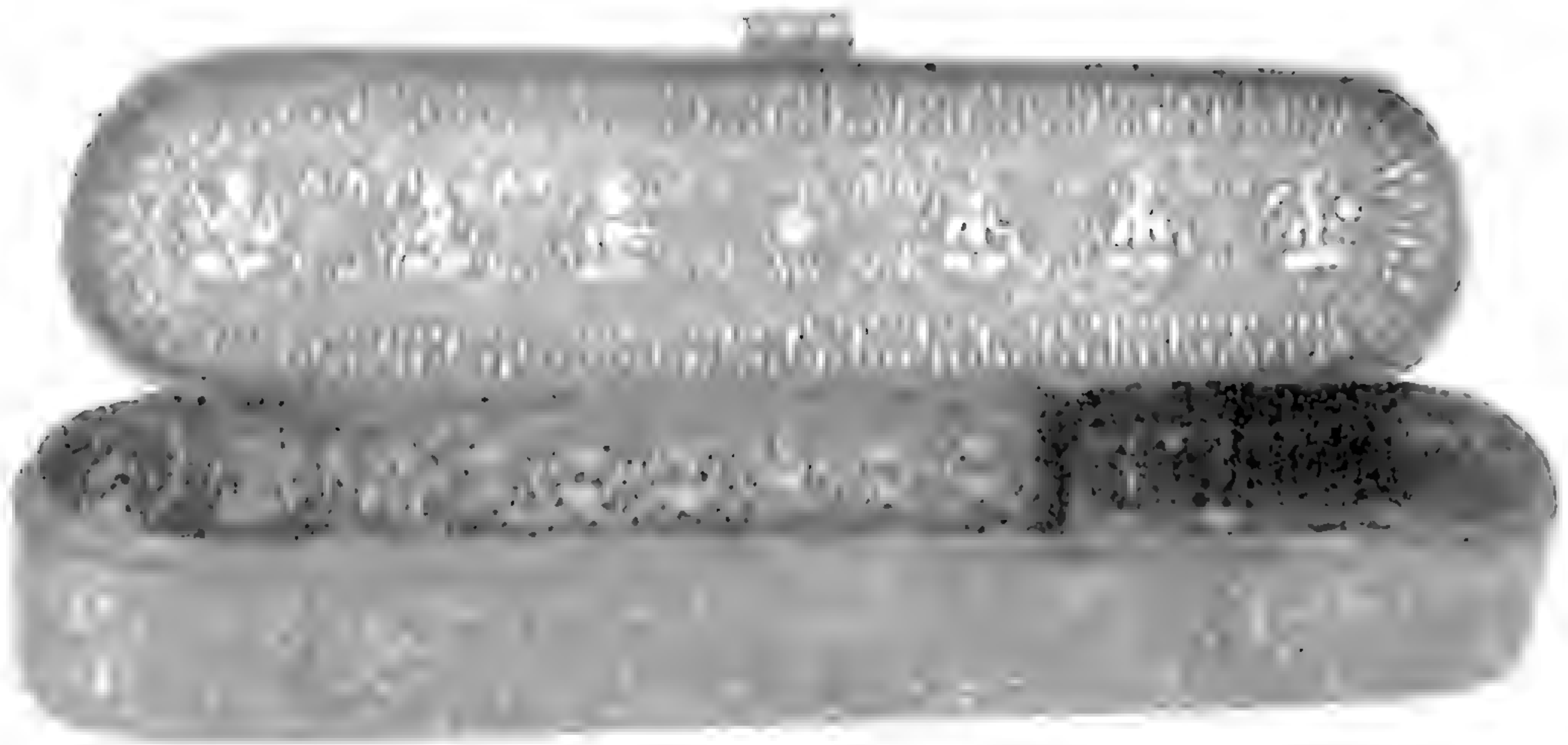
لوحة (٢٧٣) ثريا من البروتز على هيئة
قبة ذات نقوش مفرغة وقد صنعت
برسم السلطان المملوكى البحرى
الصالح اسماعيل (٧٤٣-٧٤٦ هـ) مصر
(الطراز المملوكى) .



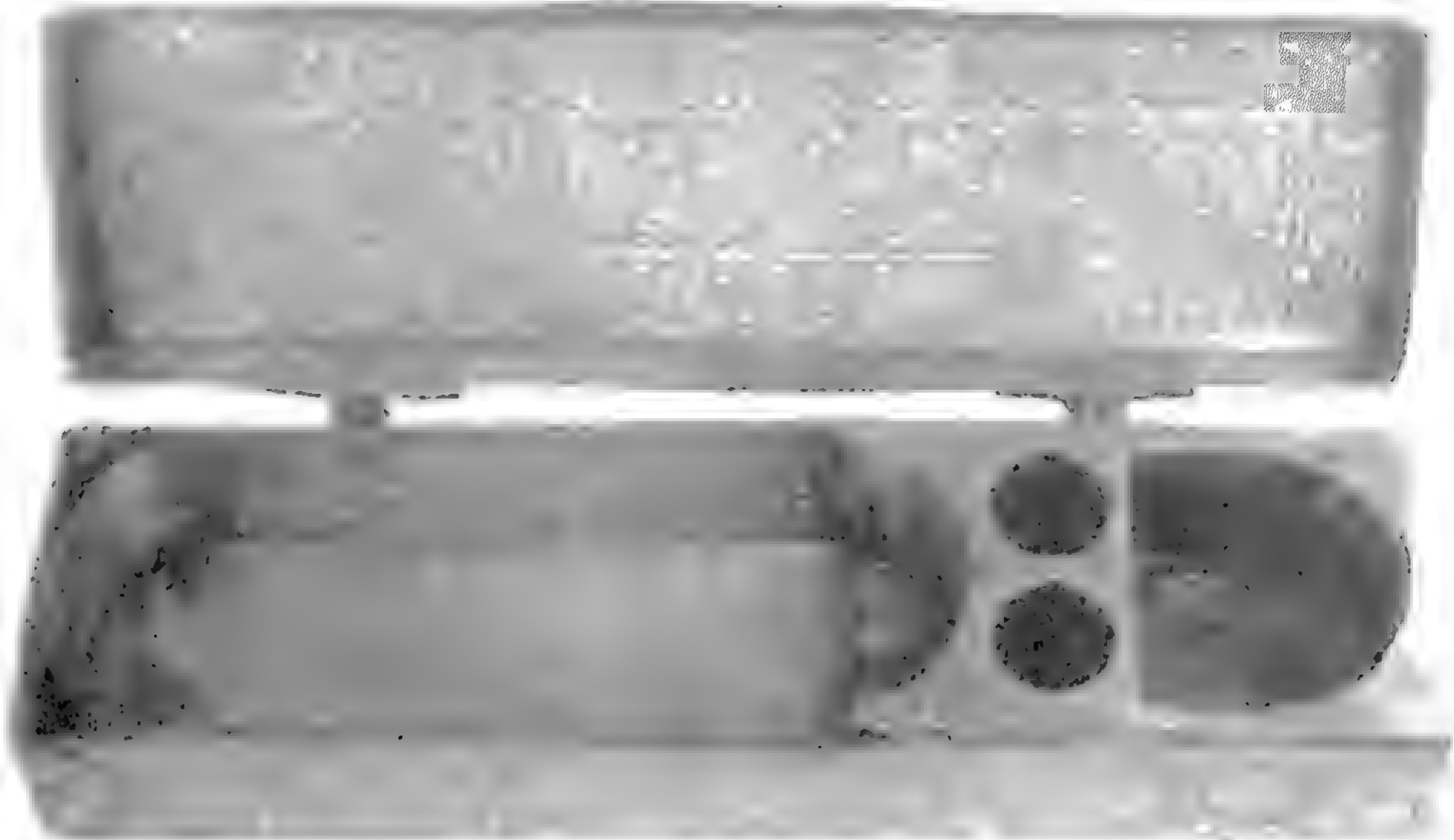
لوحة (٢٧٤) تنور السلطان المملوكي الجركسي
الأشرف قانصوه الغوري محفوظ بمتحف الفن
الاسلامي بالقاهرة مصر (الطراز المملوكي) .

لوحة (٢٧٥) منضدة من التحاس المضرج والمكفت
بالذهب والفضة تعرف بكرسی عشاء الناصر محمد
بن قلاوون - محفوظة بمتحف الفن الاسلامي
بالقاهرة - وتتضمن توقيع صانعها (محمد بن
سنقر البغدادی السنكري (٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م) مصر
(الطراز المملوكي)





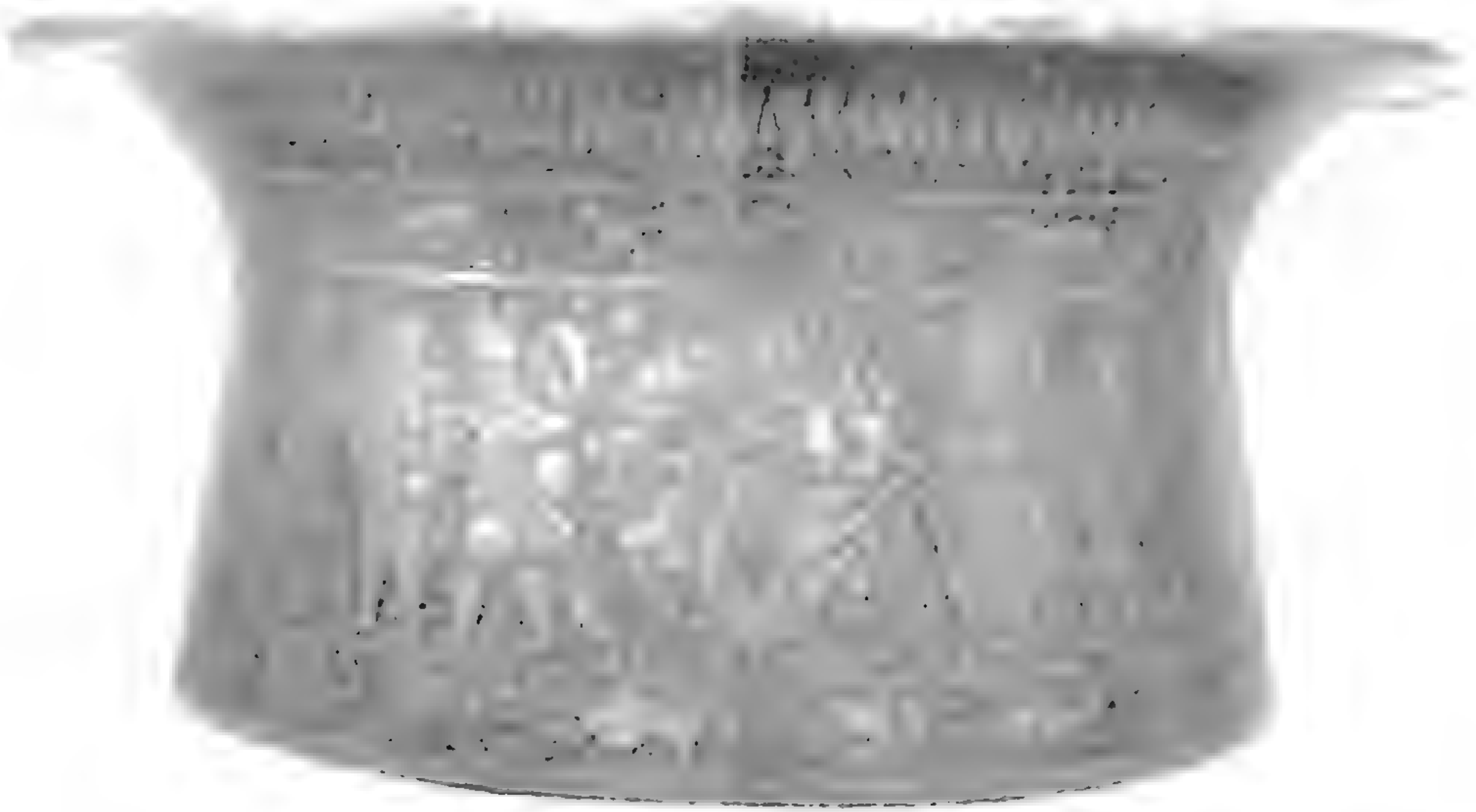
لوحة (٢٧٦) مقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب والنيلو محفوظة بالمتحف البريطاني
 هي لندن وتتضمن توقيع صانعها (محمود بن سنقر - ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م) - مصر (الطراز المملوكي)
 (عن : اسن اتيل) .



لوحة (٢٧٧) مقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب محفوظة بمتحف اللوفر في باريس
 مؤرخة عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م مصر (الطراز المملوكي) (عن : اسن اتيل) .



لوحة (٢٧٨) مقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وتتضمن اسم السلطان المملوكى البحرى المنصور محمد (٧٦٢ - ٧٦٤ هـ) والقابله . مصر (الطراز المملوكى) .



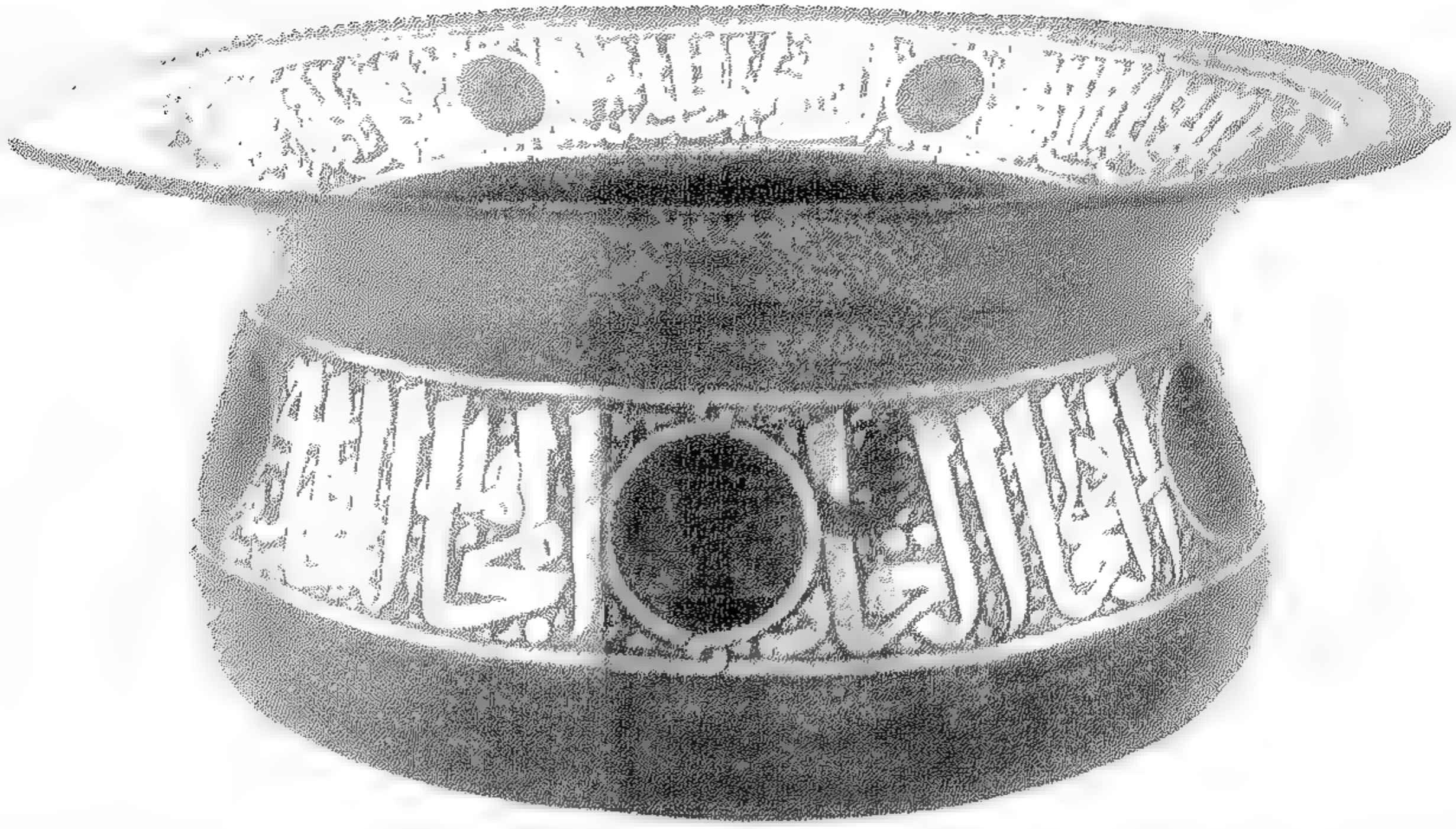
لوحة (٢٧٩) طست من النحاس المكفت بالفضة والذهب محفوظ بمتحف اللوفر فى باريس يتضمن توقيع صانعه (المعلم محمد بن الزين) مصر - حوالى ١٢٩٠ - ١٣١٠ م (الطراز المملوكى) (عن : اسن اتيل) .



لوحة (٢٨٠) طلست من النحاس المكفت بالفضة والذهب محفوظ بمتحف فكتوريا والبرت
في لندن - مصر النصف الاول من ق ٨هـ / ١٤م (الطراز المملوكى) (عن : اسن اثيل) .



لوحة (٢٨١) طلست من النحاس المكفت بالفضة والذهب محفوظ بالمتحف البريطانى في لندن
صنع برسم السلطان محمد بن قلاوون المتوفى ٧٤١هـ / ١٣٤٠م - مصر (الطراز المملوكى)
(عن : اسن اثيل) .



لوحة (٢٨٢) طست من النحاس المكفت بالفضة محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ،
صنع برسم الأمير السيفي طبطوق الملكى الأشرفى - مصر - منتصف ق ٨هـ / ١٤م (الطراز المملوكى)
(عن : اسن ائيل) .



لوحة (٢٨٣) قمقم من النحاس المكفت بالفضة والذهب محفوظ بمتحف الفن الاسلامى
بالقاهرة صنع برسم السلطان حسن - مصر ٧٥٥-٧٦٢هـ - (الطراز المملوكى) (عن : اسن ائيل) .



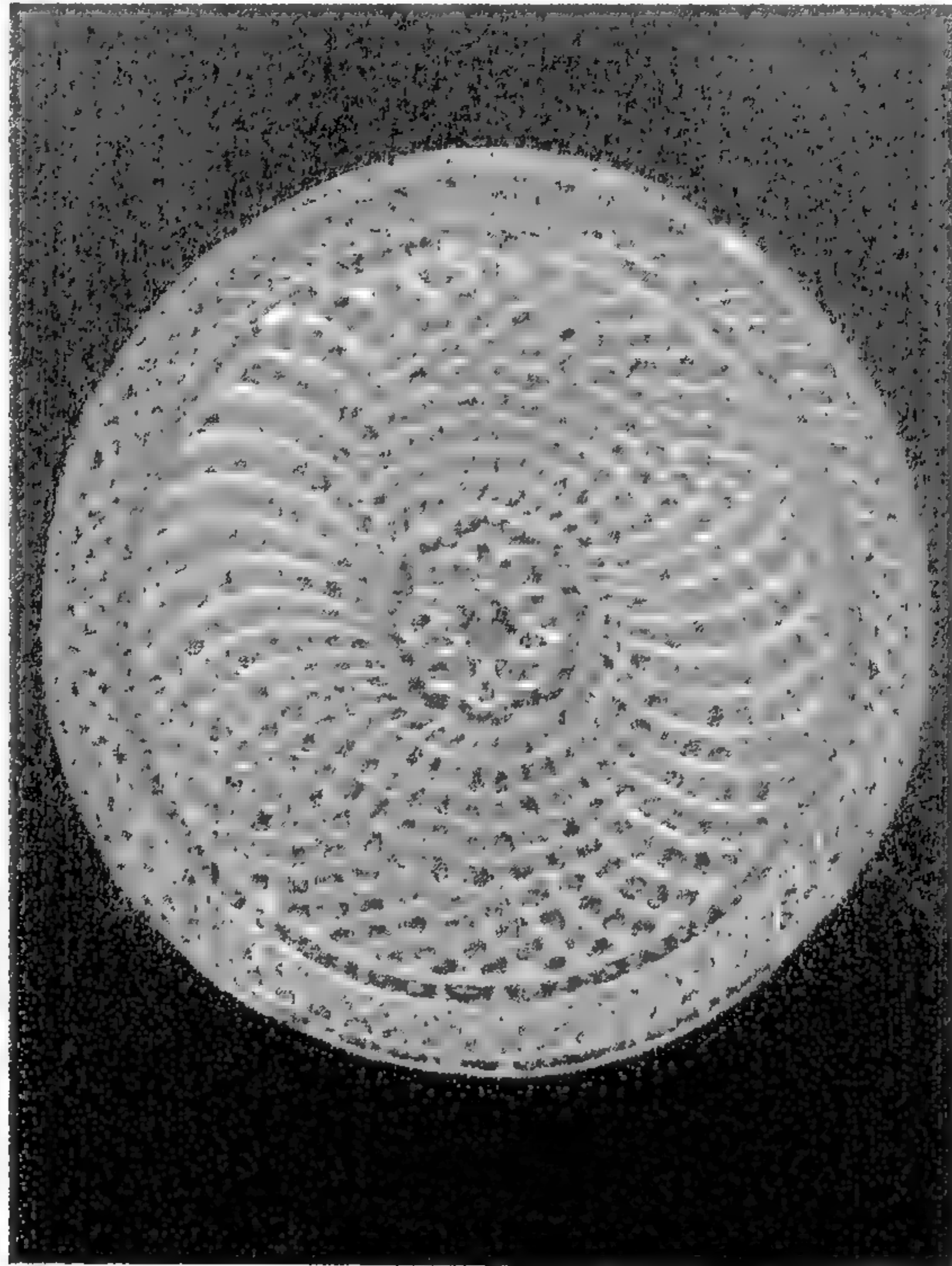
لوحة (٢٨٤) مشكاة من النحاس المكفت بالفضة
والذهب محفوظة بمتحف الفن الاسلامي في
القاهرة - مصر - النصف الثاني من ق ٨ هـ / ١٤ م
(الطراز المملوكي) (عن : اسن اتيل) .

لوحة (٢٨٥) مبخرة من النحاس المكفت
بالفضة والذهب محفوظة بمتحف الفن
الاسلامي - مصر النصف الثاني من ق ٧ هـ /
١٣ م (الطراز المملوكي) (عن : اسن اتيل) .

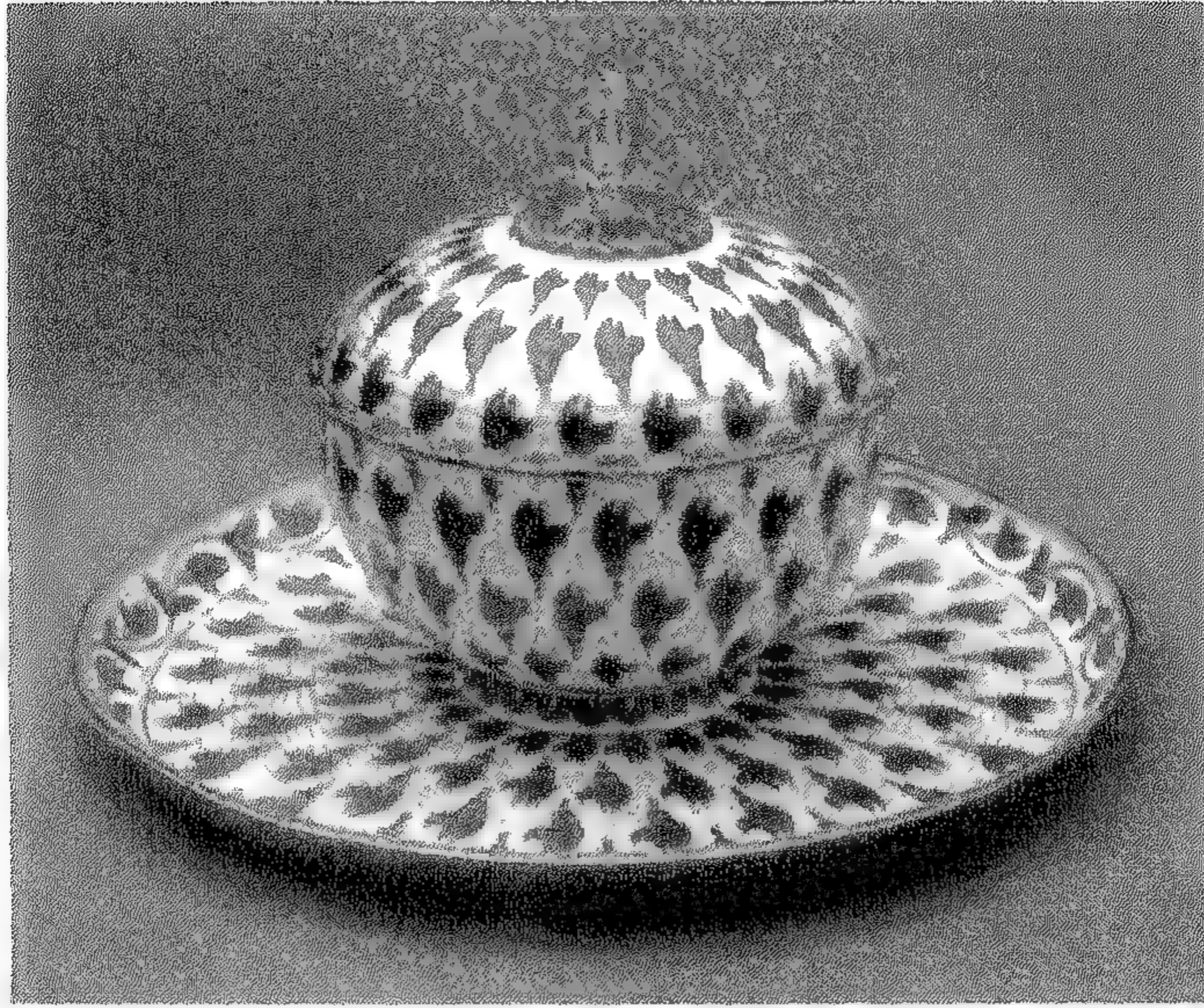




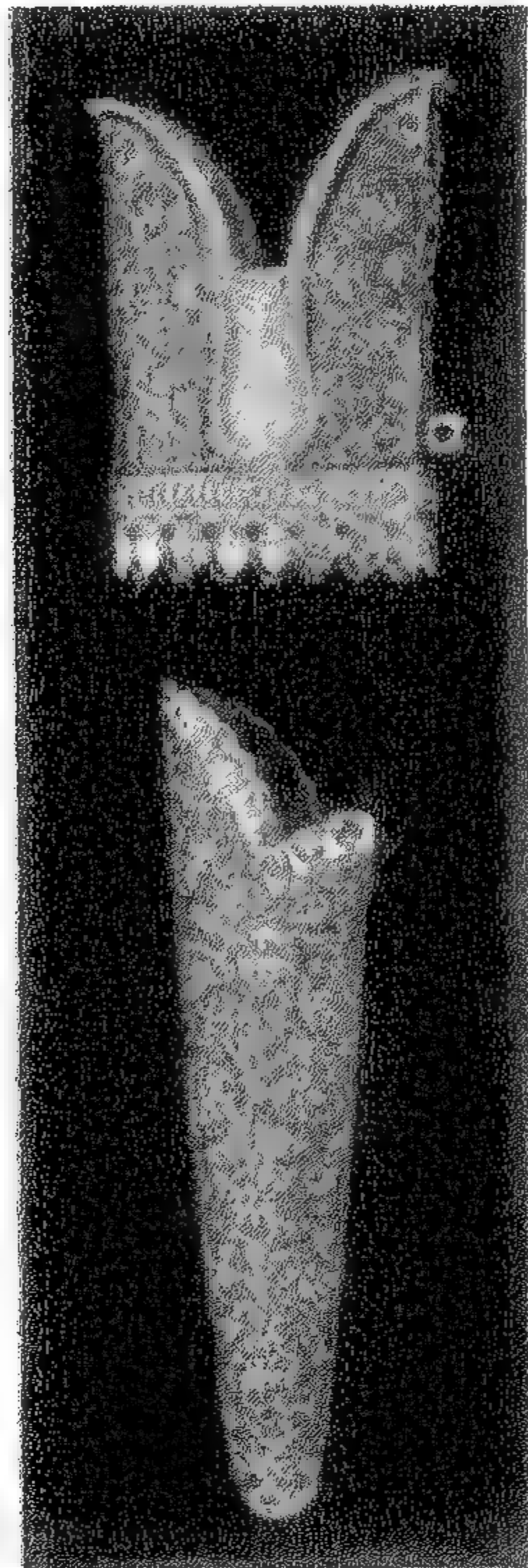
لوحة (٢٨٦) إبريق من الفضة مطلى بالذهب محفوظ بمتحف فكتوريا والبرت
في لندن - تركيا - الربع الثاني من ق ١٠هـ / ١٦م (عن : أرسیکا) .



لوحة (٢٨٧) صحن من الذهب (اسلوب Kundan) - الهند المغولية - حوالي الربع الأول
من ق ١١هـ / ١٧م (عن : دار الآثار الإسلامية بالكويت) .

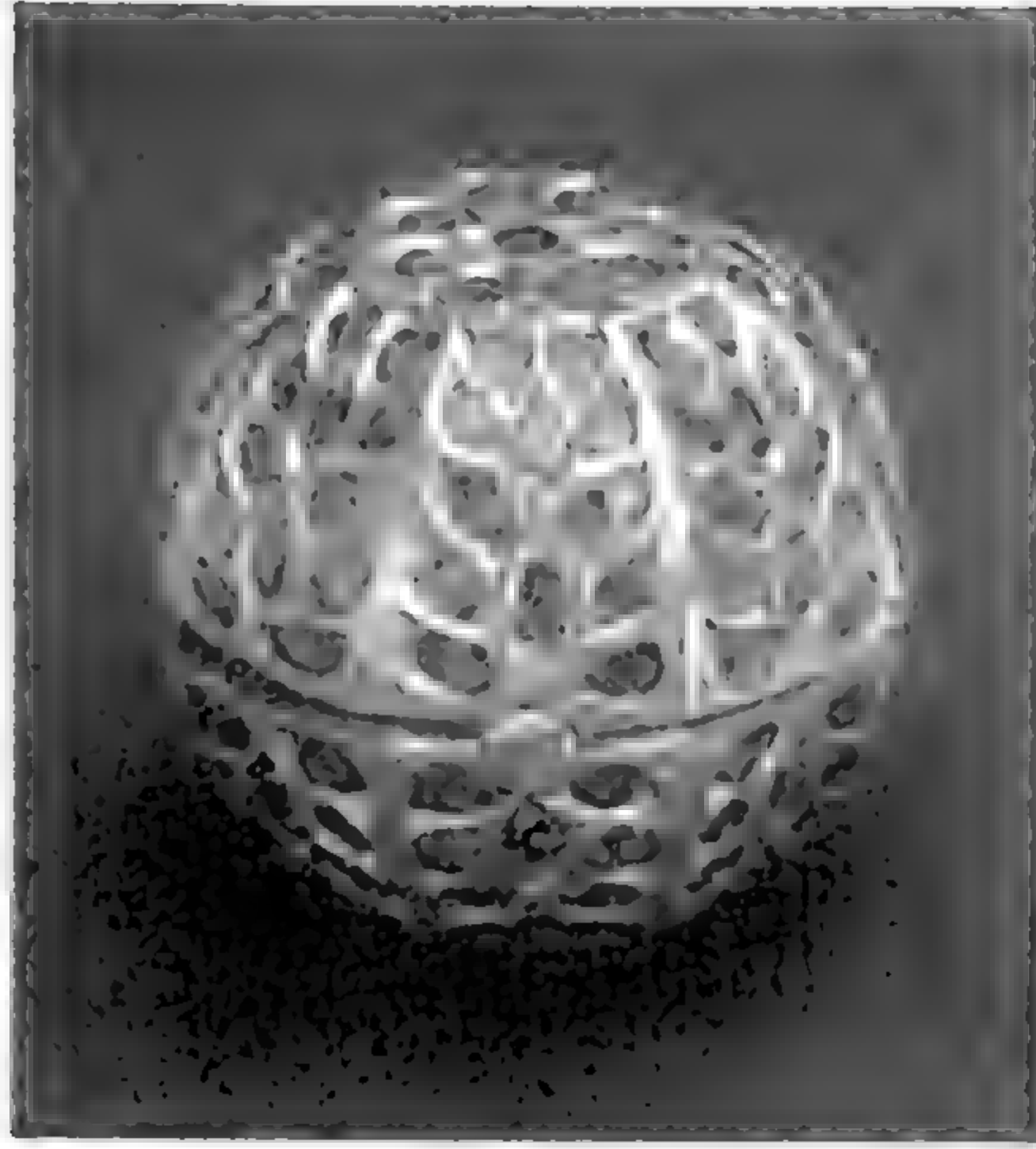


لوحة (٢٨٨) أ: الدكن أو المغول - ربما حوالى منتصف ق ١١ هـ / ١٧ م .



ب : الربع الثالث من ق ١١ هـ / ١٧ م .

(اللوحات من ٢٨٨ الى ٣٠٠) تمثل مجموعة منتقاة لابداعات الفن الاسلامى فى الهند المغولية من تحف المجوهرات المختلفة (علب وأختام ودلايات وخناجر وسيوف) وهى محفوظة بدار الآثار الاسلامية بالكويت .



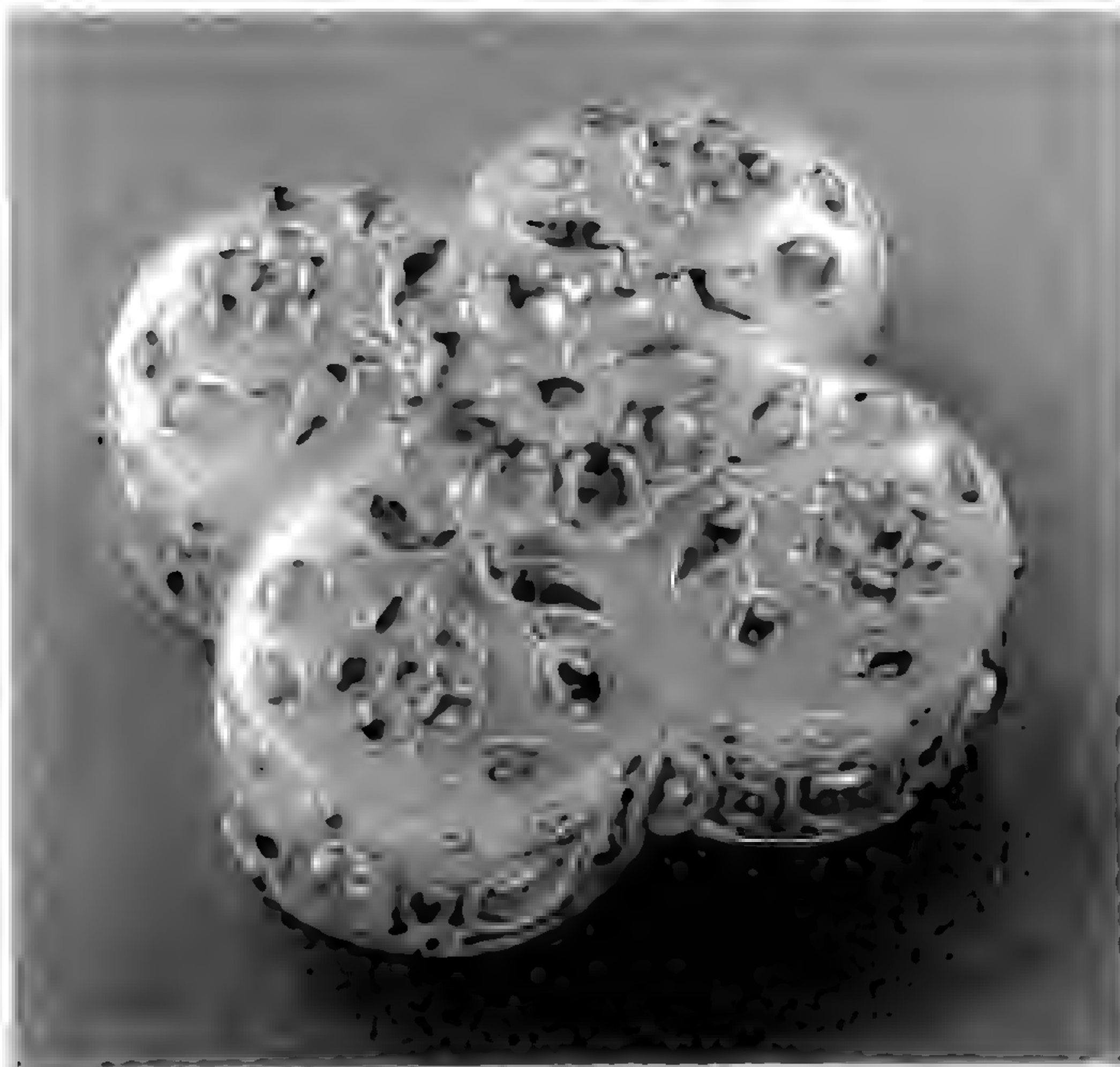
أ، المغول أو الدكن - النصف الأول من القرن ١١ هـ / ١٧ م.



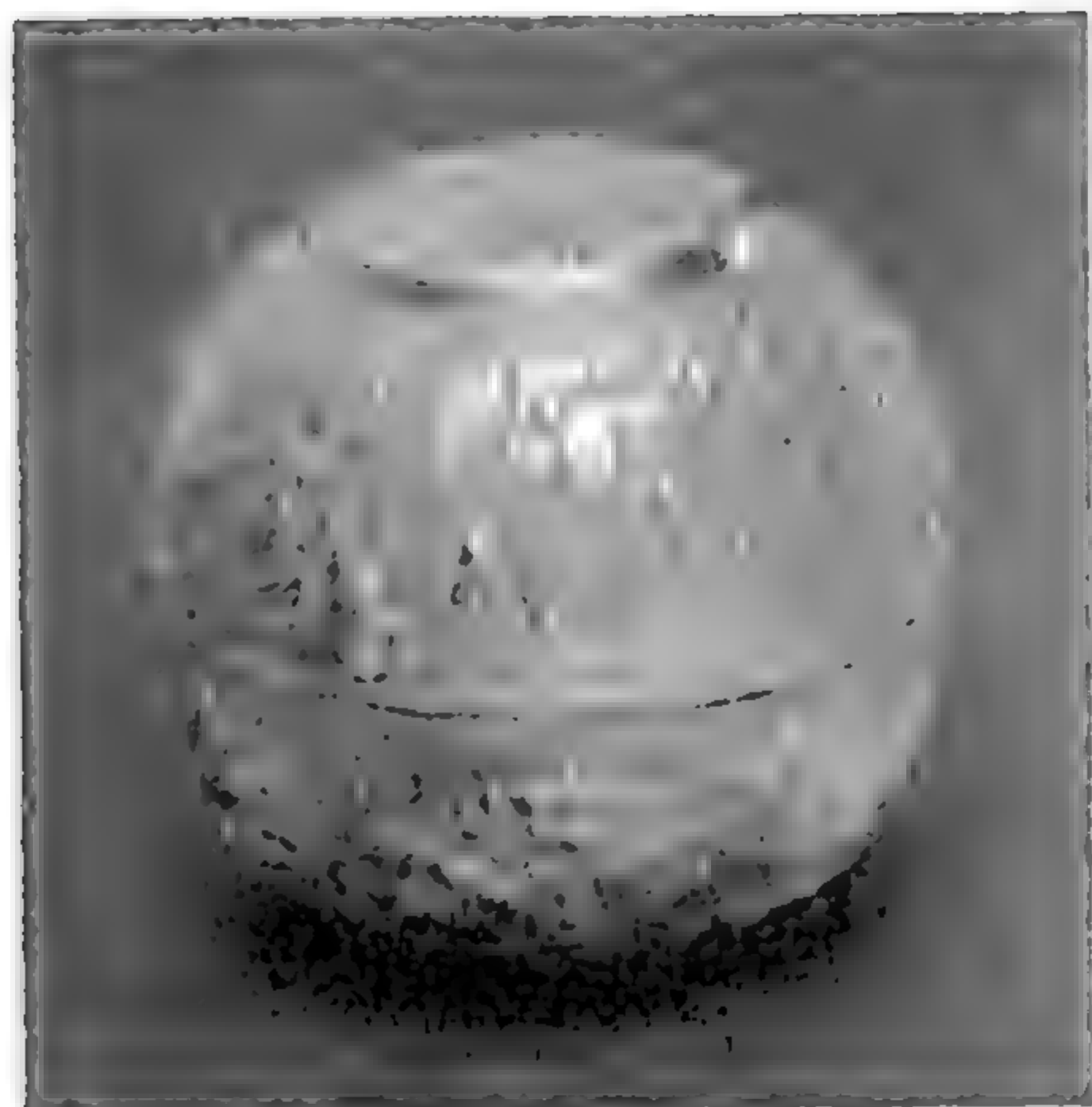
ب، ربما الدكن ق ١٢-١٣ هـ / ١٨-١٩ م



أ. الدكن أو المغول - أواخر ق ١٠هـ / ١٦م أوائل ق ١١هـ / ١٧م



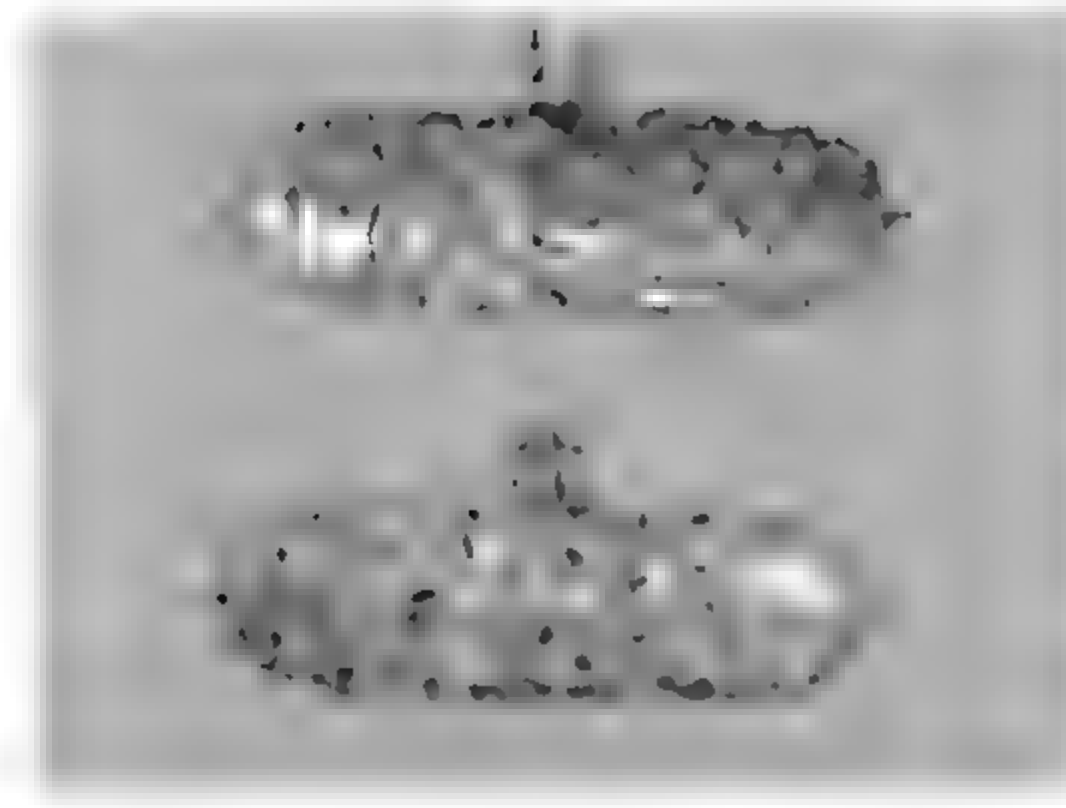
ب. من المحتمل الدكن حوالي منتصف ق ١١هـ / ١٧م.



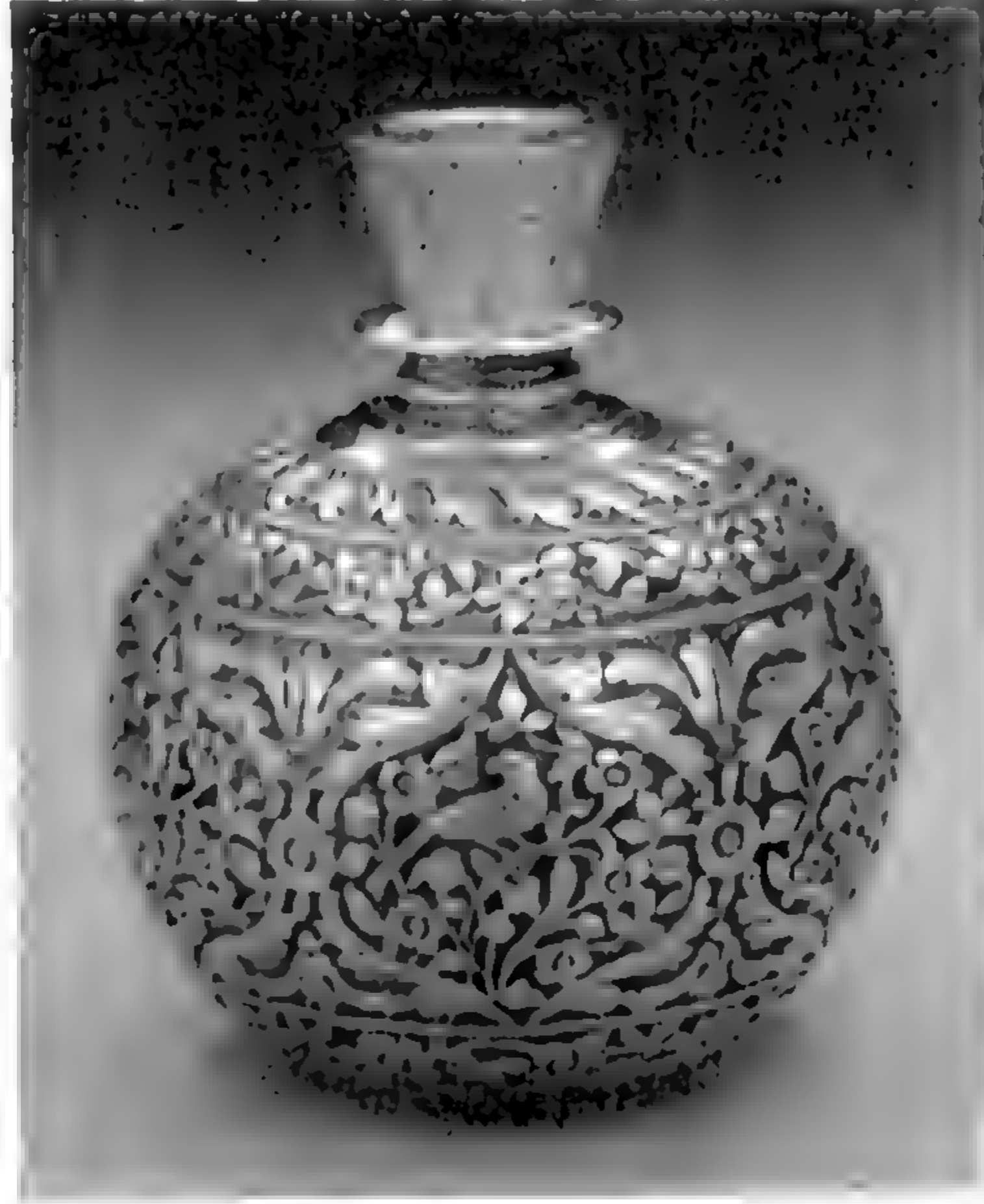
أ، الدكن أو المغول أواخر ق ١٠هـ / ١٦م أوائل ق ١١هـ / ١٧م.



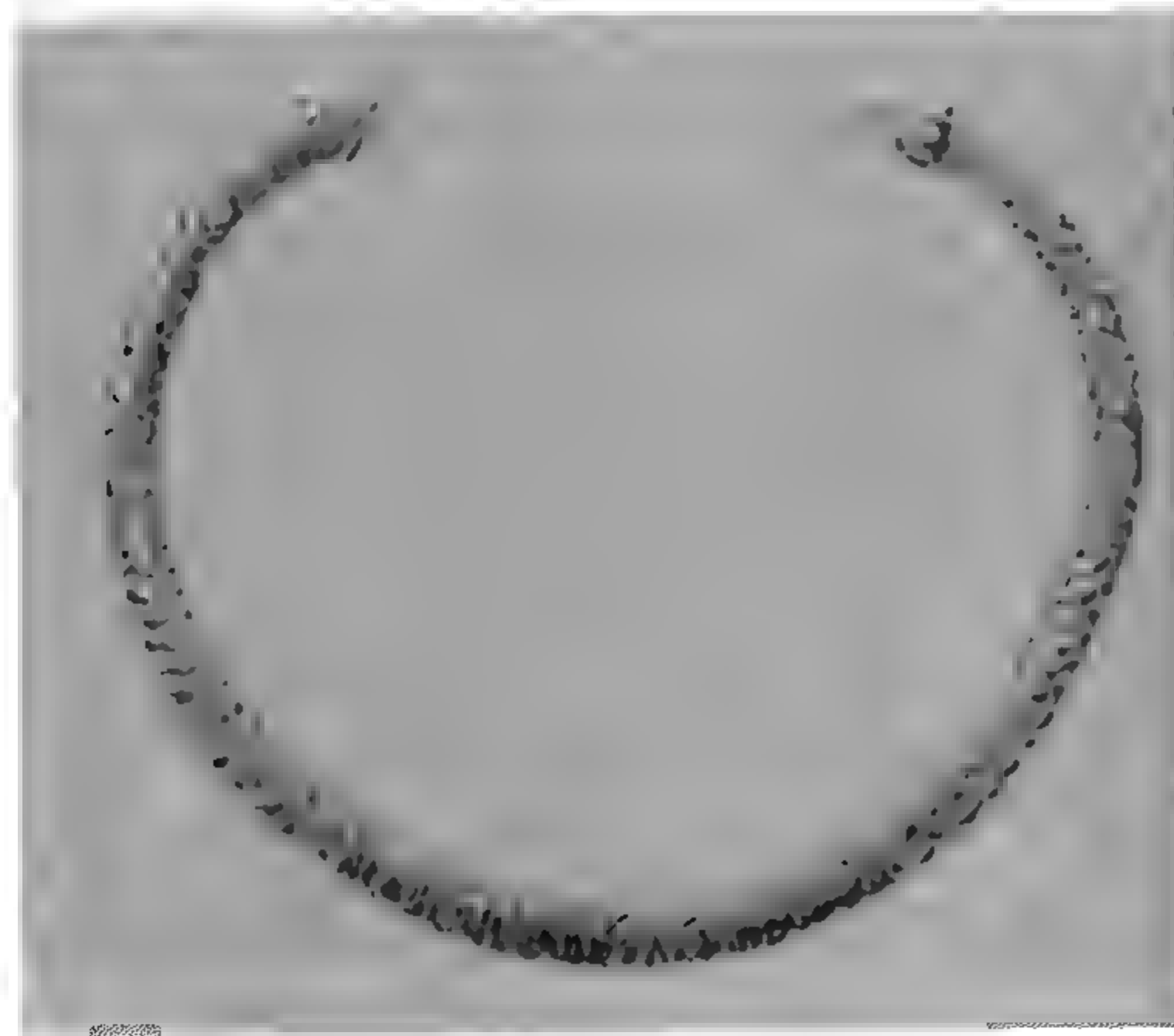
ب، من المحتمل الدكن أو غرب الهند أواخر ق ١٠هـ / ١٦م أوائل ق ١١هـ / ١٧م.



أ، من المحتمل الدكن أوغرب الهند أواخر ق ١٠هـ / ١٦م أوائل ق ١١هـ / ١٧م.



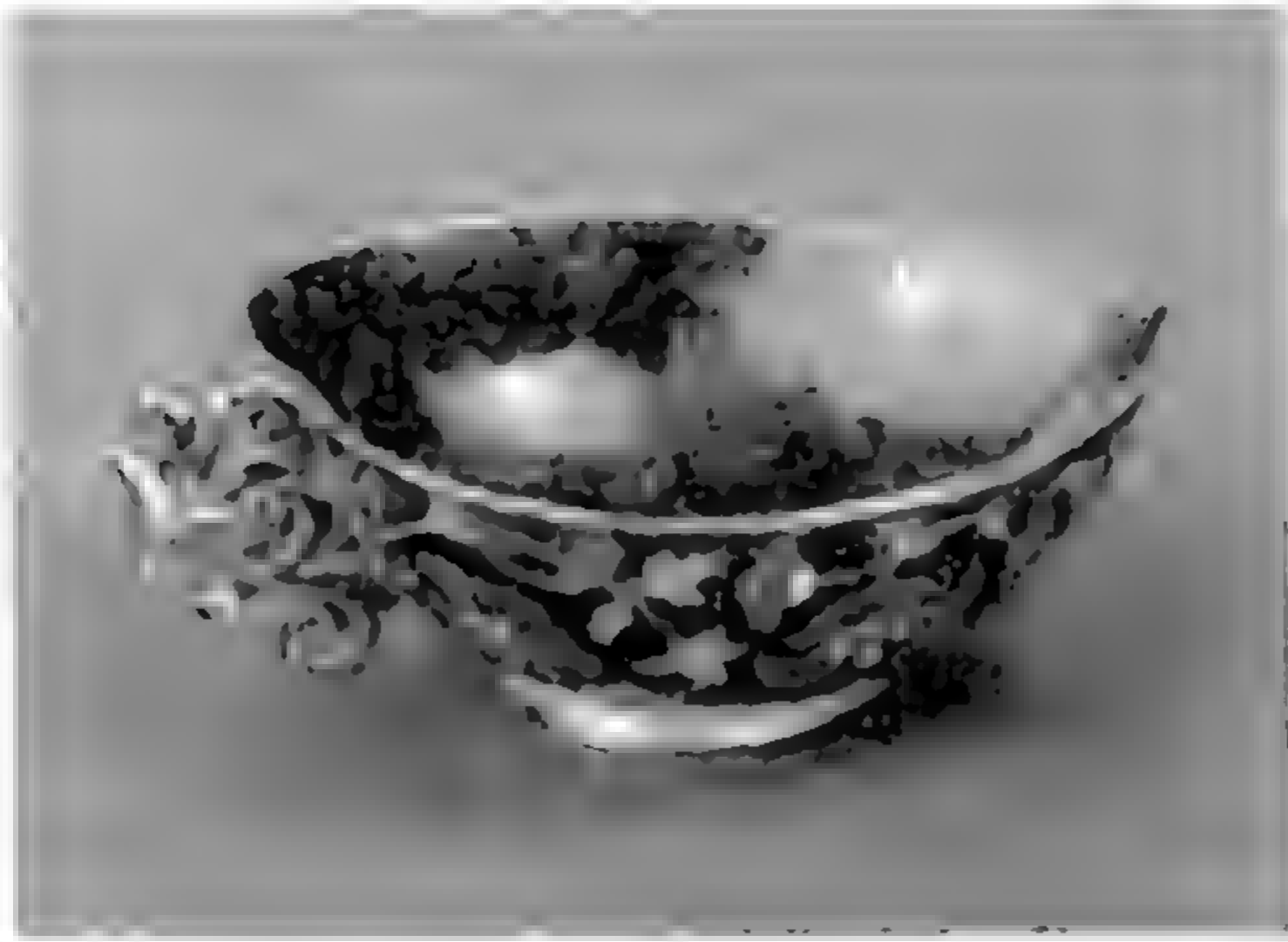
ب، الدكن أوالمغول أواخر ق ١٠هـ / ١٦م أوائل ق ١١هـ / ١٧م.



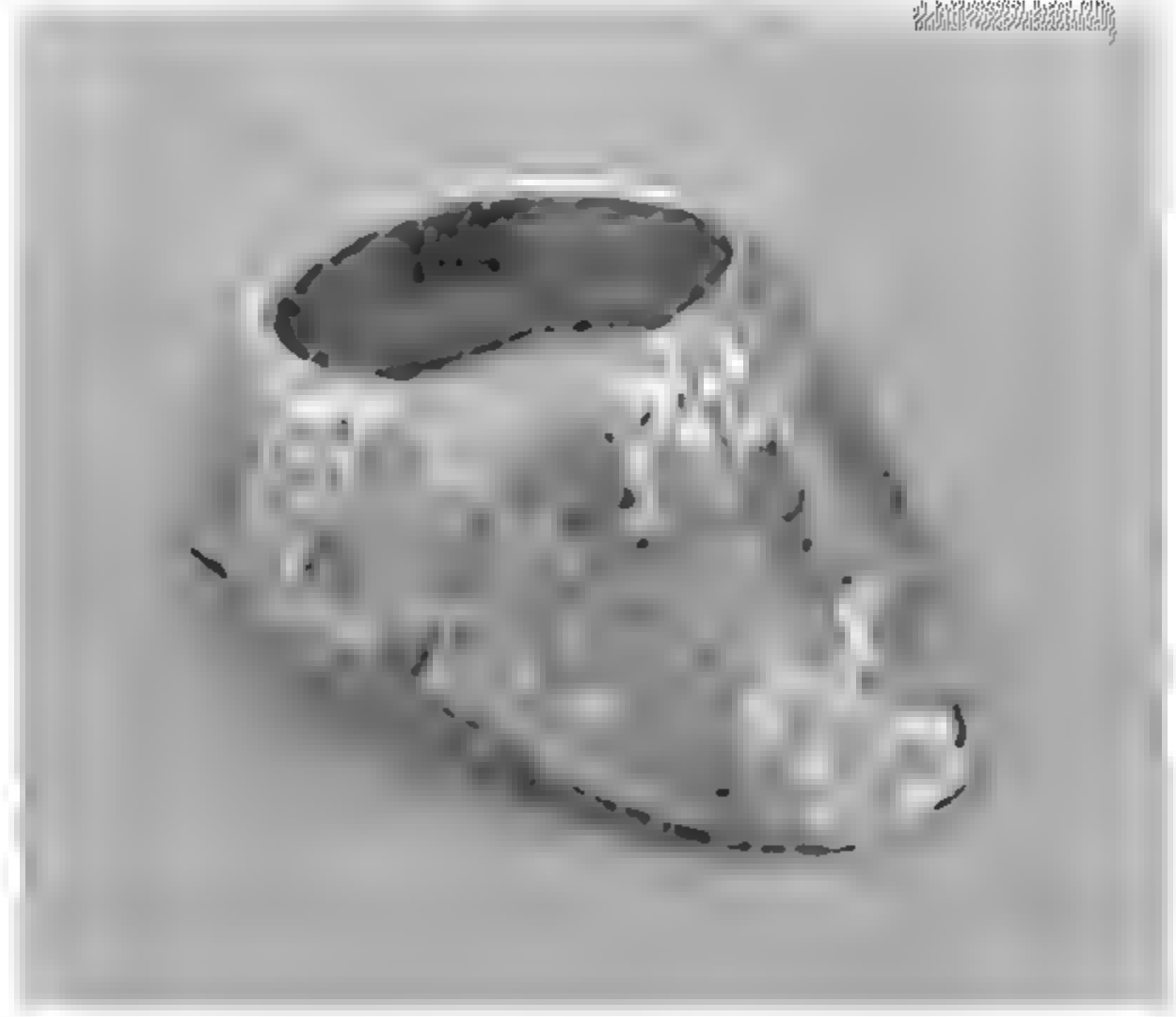
ج، من المحتمل الدكن أوغرب الهند أواخر ق ١٠هـ / ١٦م أوائل ق ١١هـ / ١٧م.



أ، المغول أو الدكن أو أخرق ١٠هـ / ١٦م أو النصف الأول
من ق ١١هـ / ١٧م



ج، من المحتمل المغول - الربع الثاني
من ق ١١هـ / ١٧م.



ب، الدكن ومن المحتمل حيدرآباد
الثلث الأول من ق ١١هـ / ١٧م.



ب: مثل أ



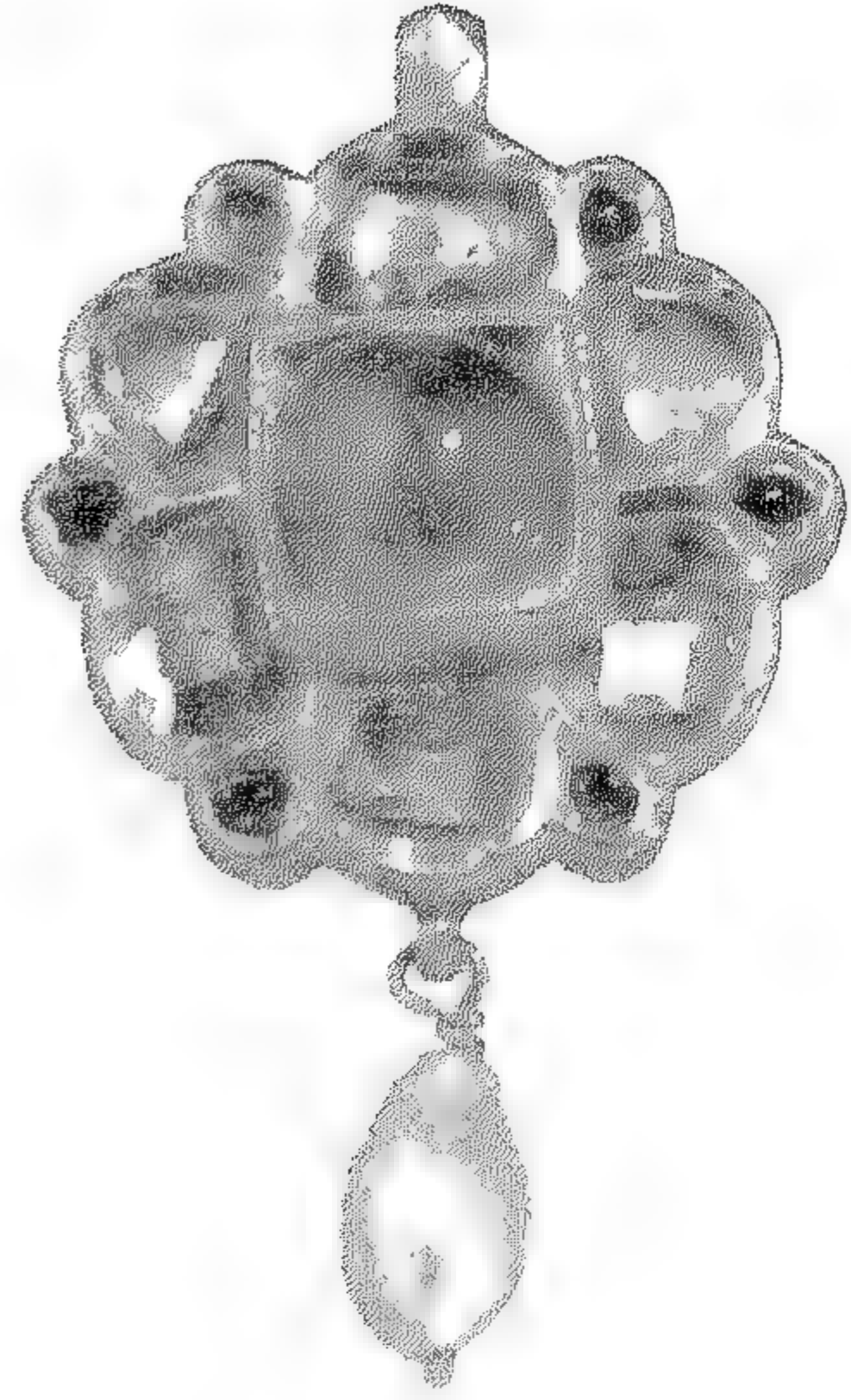
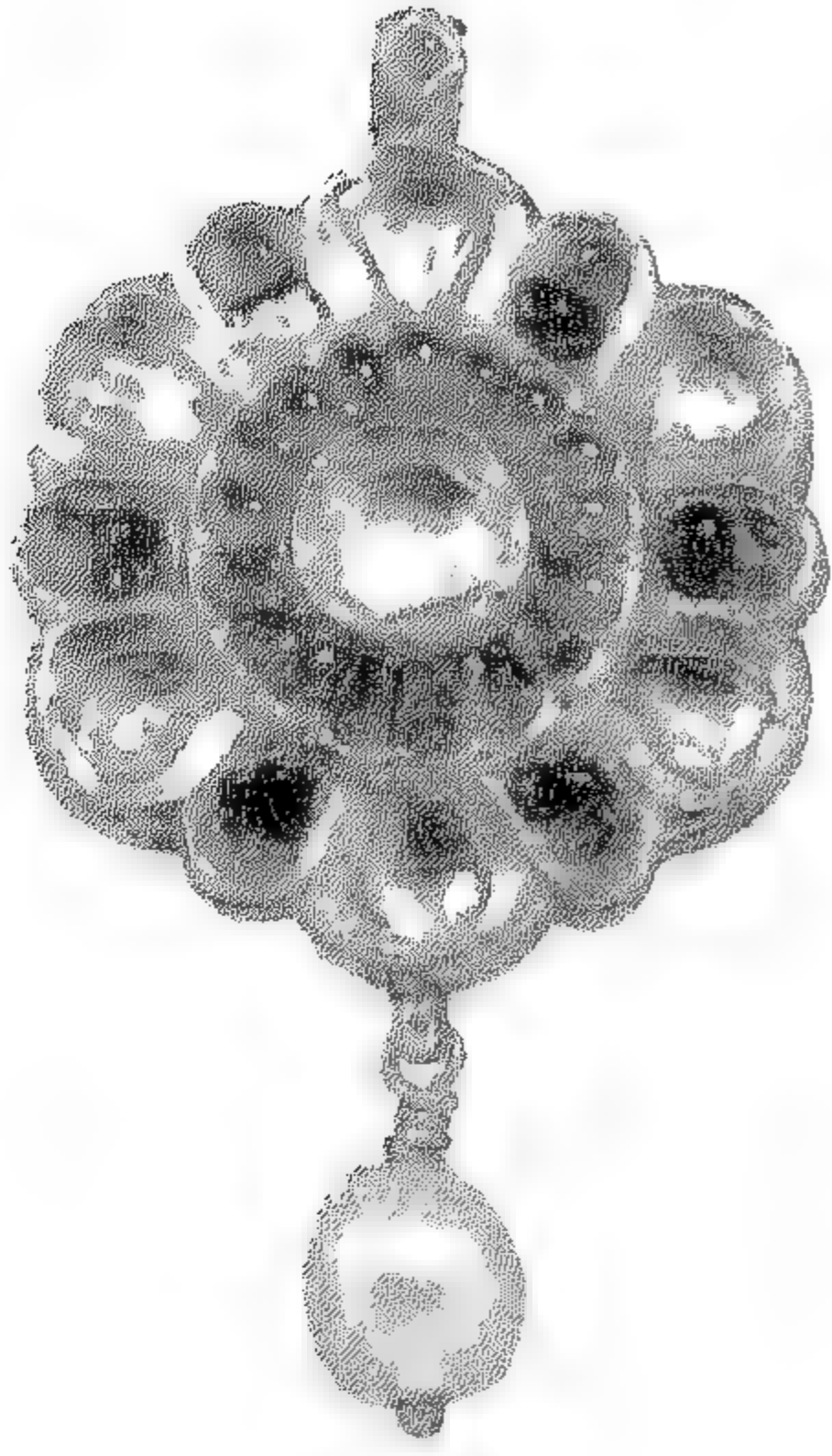
أ: الدكن ومن المحتمل حيدرآباد الثلث
الأول من ق ١١هـ / ١٧م



مثل أ



مثل أ

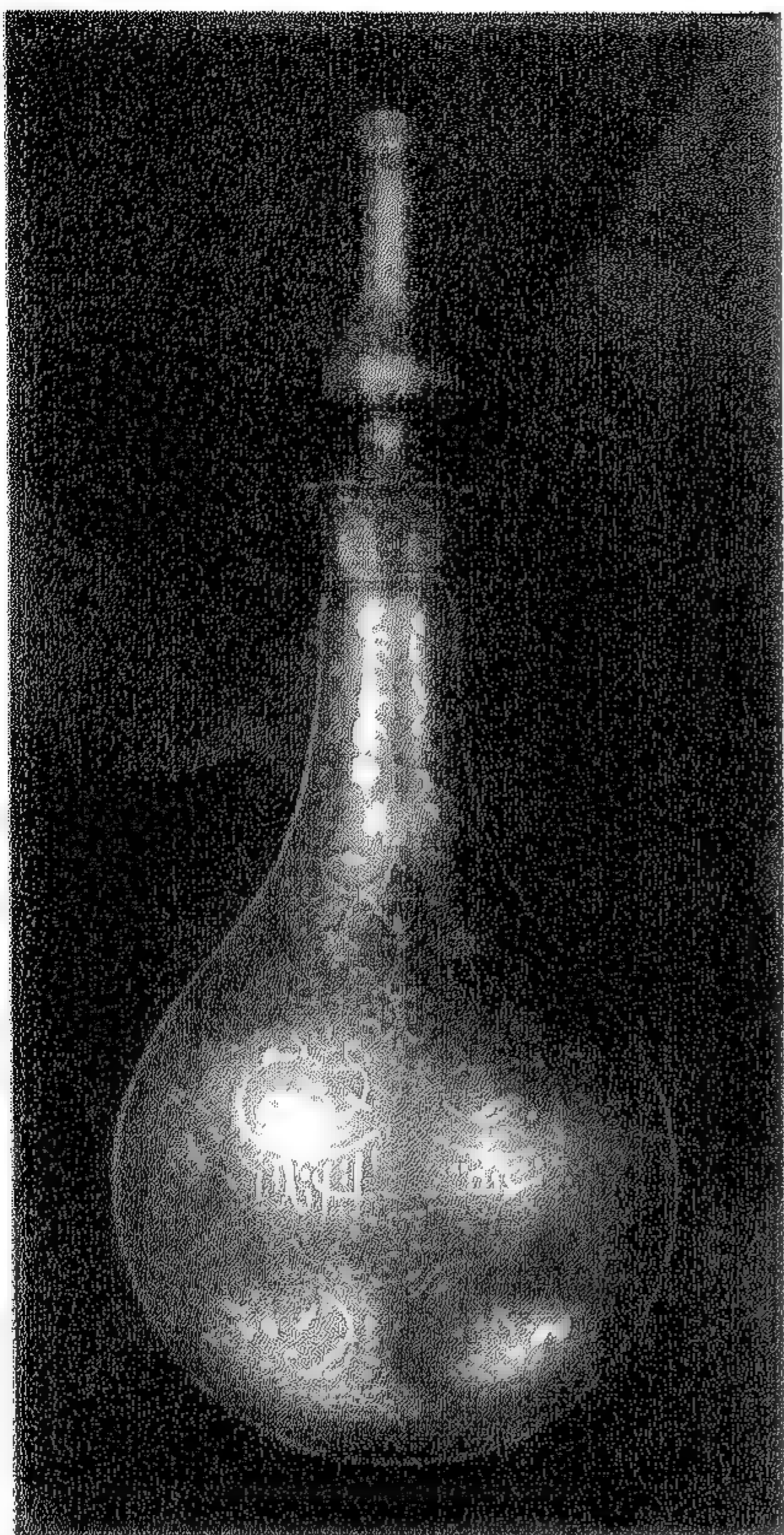


ب: مثل أ.

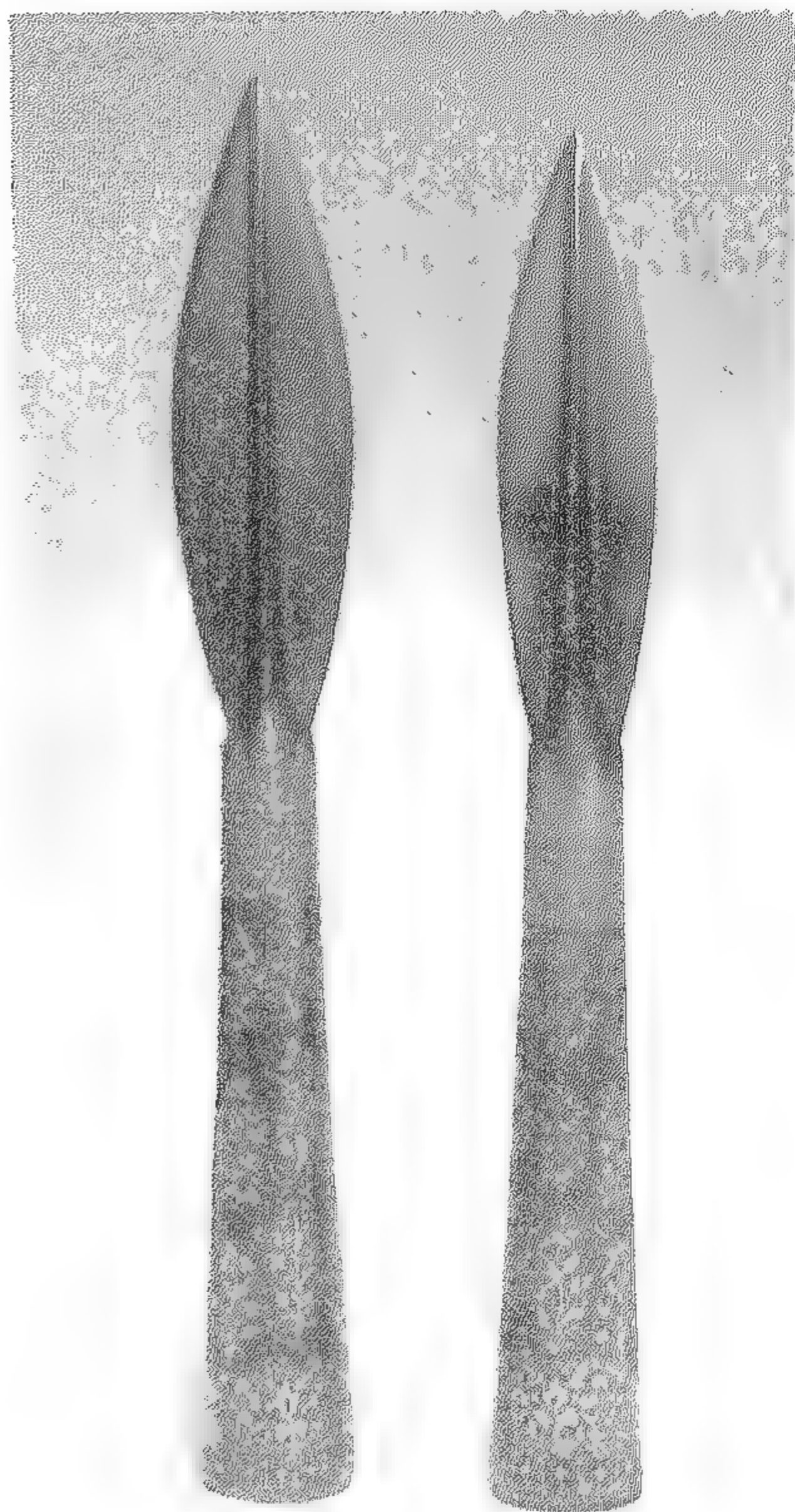
أ: المغول أو الدكن - النصف الأول
من ق ١١هـ / ١٧م .



لوحة (٢٩٦) المغول أو الدكن - النصف الأول من ق ١١ هـ / ١٧ م .

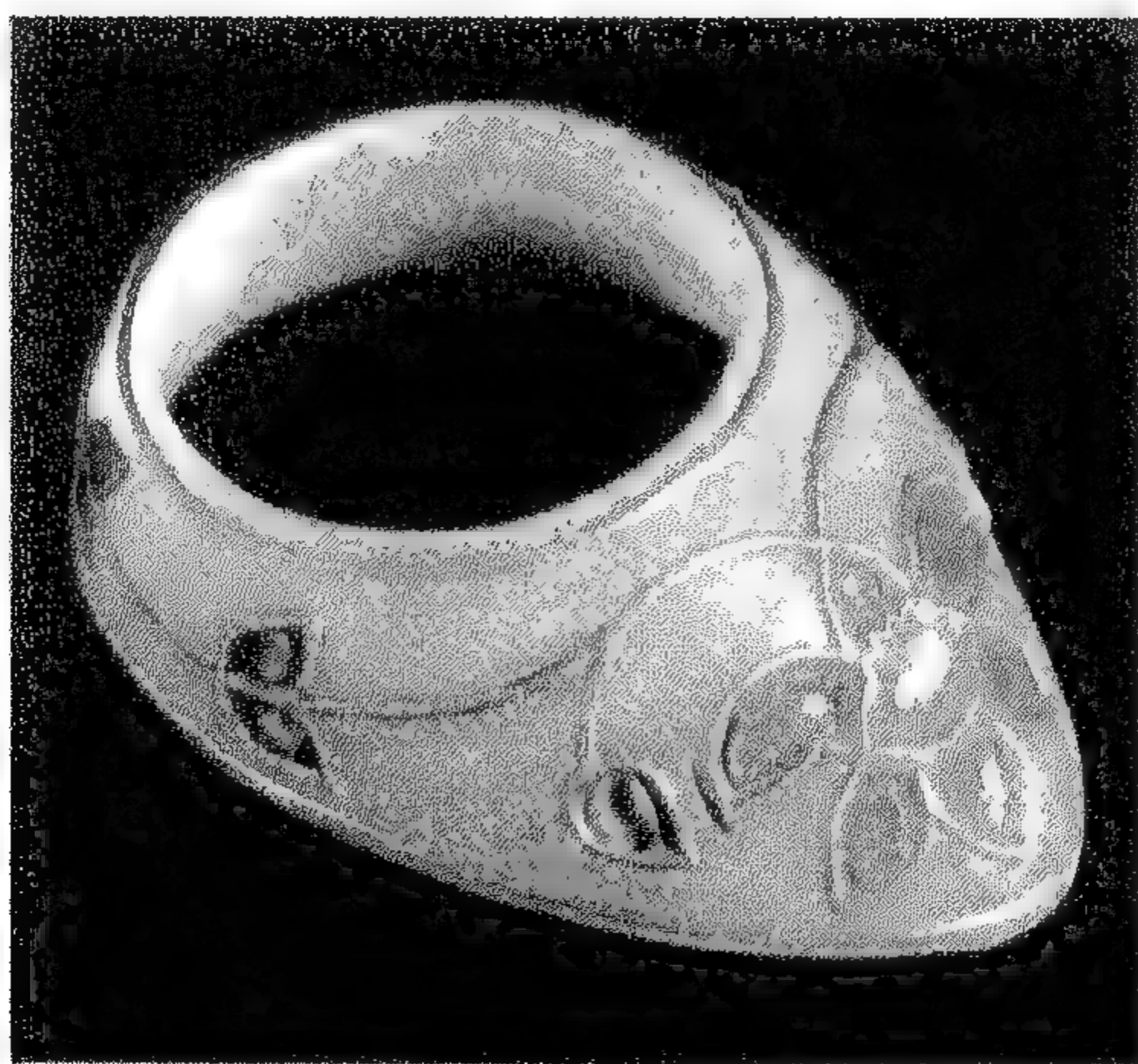


ب: قارورة بارود - الهند المغولية ربما ق ١١هـ / ١٧م (عن : دار الآثار الاسلامية بالكويت)

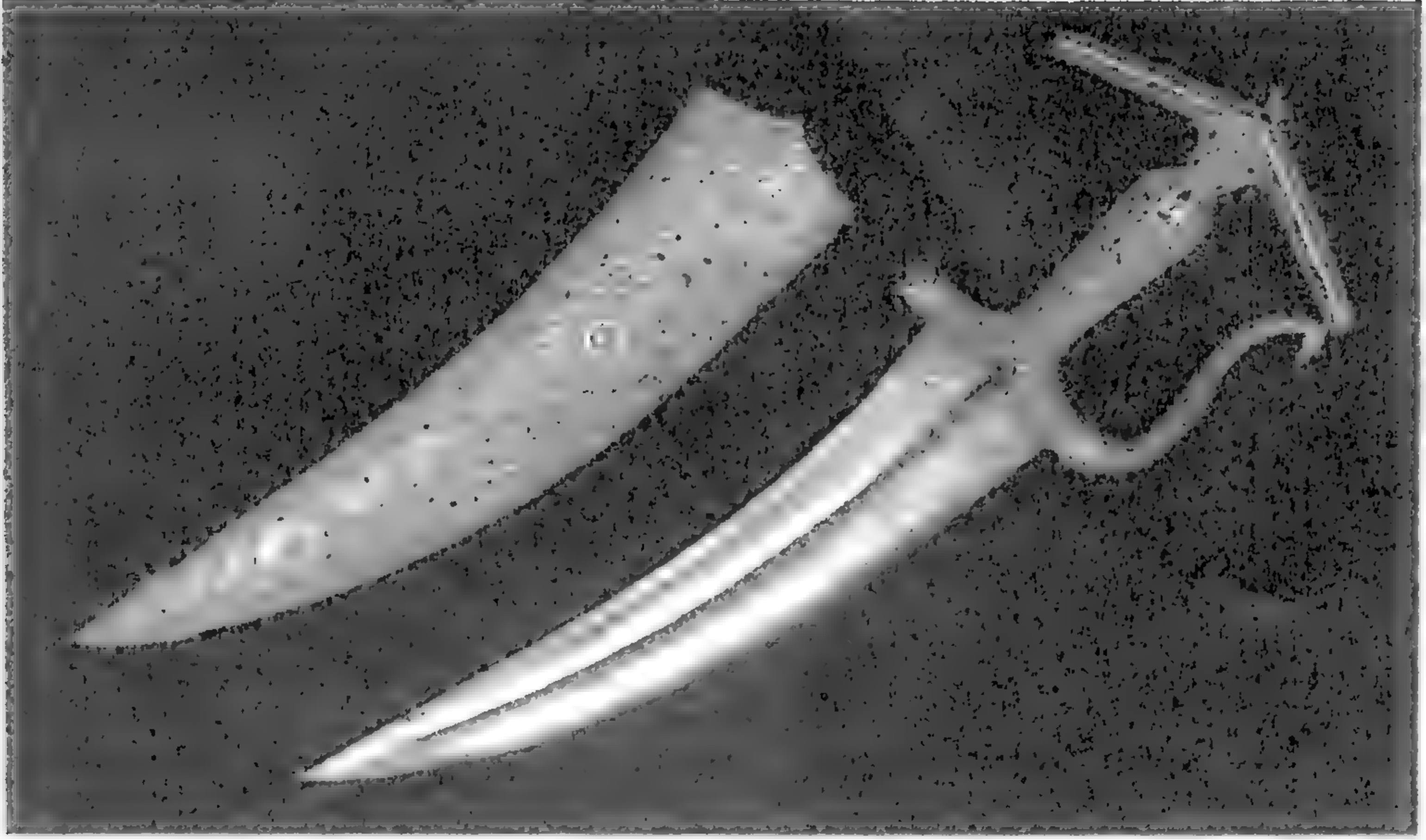


أ: رأسان لرمحين - الهند المغولية - ق ١٢هـ / ١٨م (عن : دار الآثار الاسلامية بالكويت)

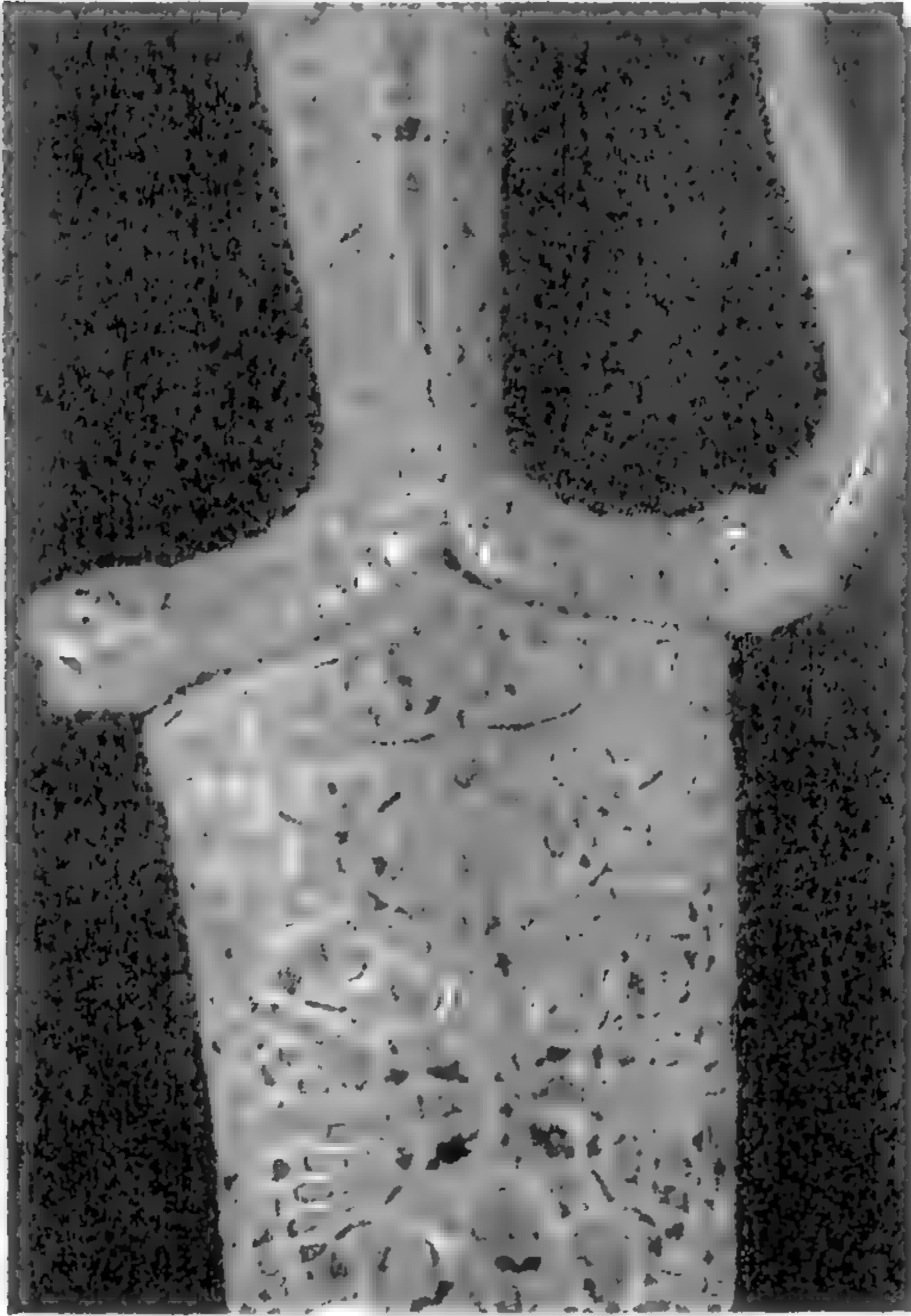
لوحة (٢٩٧)



لوحة (٢٩٨) : خاتم ابهام للرماية (خيتعة) - الهند المغولية - ق ١٢هـ / ١٨م (عن : دار الآثار الاسلامية بالكويت)



أ، خنجر - الهند المغولية - الربع الاول
من ق ١١هـ / ١٧م



ب، تفصيل من أ



لوحة (٣٠٠) سيف ، الدكن أو المغول - النصف الثاني من ق ١١ هـ / ١٧ م .



(لوحة ٣٠١) قلادة (أعلى) وقرط (أسفل إلى اليمين) من أواخر العصر الأيوبي أو أوائل العصر المملوكي. وقلادة ودلاية ونیشان من عهد الأسرة العلوية بمصر بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.



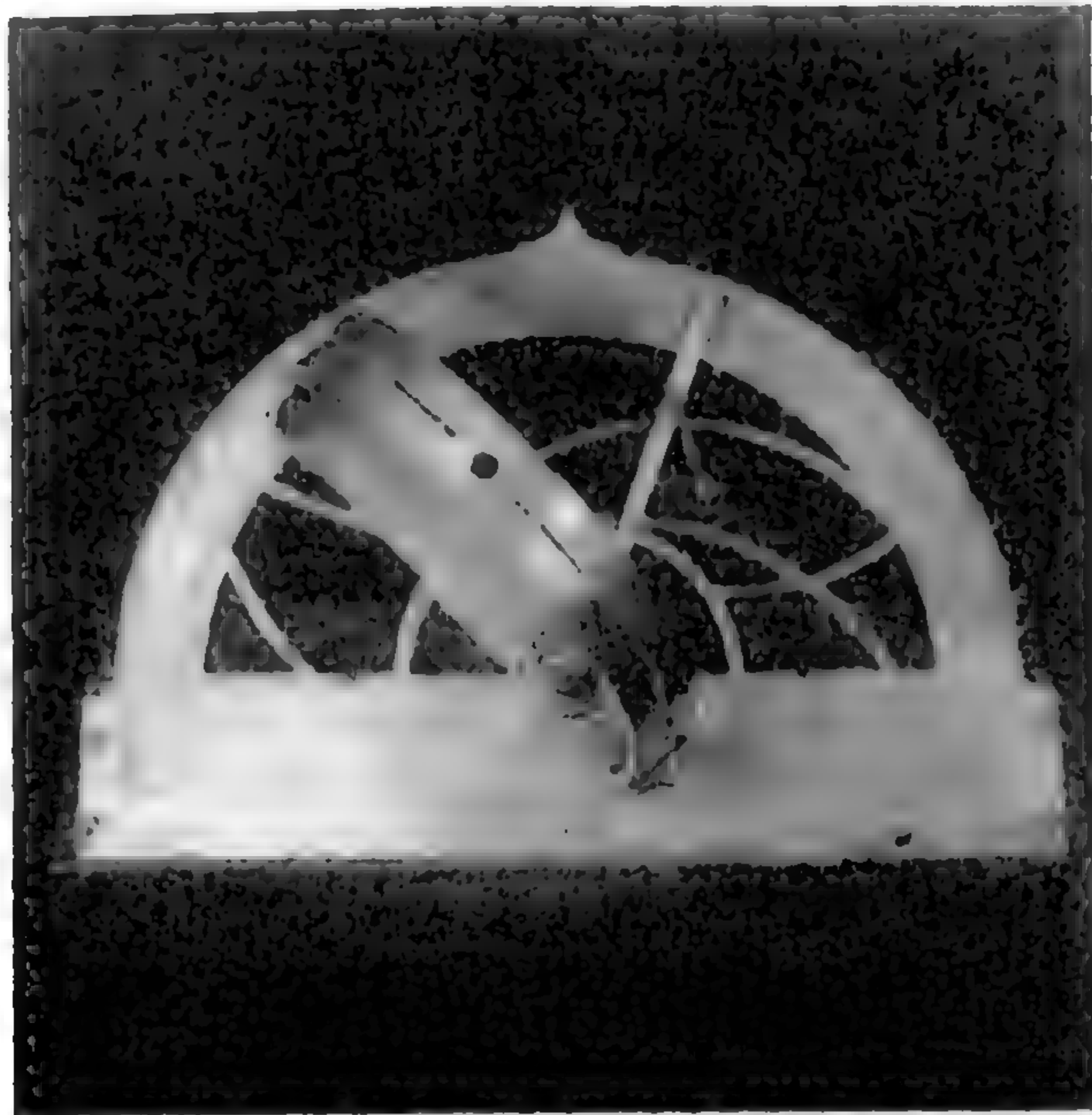
(لوحة ٣٠٢) اسطرلاب مسطح (ذو الصفائح) من النحاس الأصفر - العراق - ربما بغداد ويتضمن توقيع صانعه (نسطولسن أوبسطولس) وتاريخ الصنع ٣١٥هـ/٩٢٧م (عن : دار الآثار الإسلامية بالكويت) .



(لوحة ٣٠٣) اسطرلاب مسطح (ذو الصفائح) من النحاس الأصفر - إيران - ربما منتصف ق ١١هـ/١٧م - مستهل ق ١٢هـ/١٨م . (العصر الصفوي) . (عن : دار الآثار الإسلامية بالكويت) .

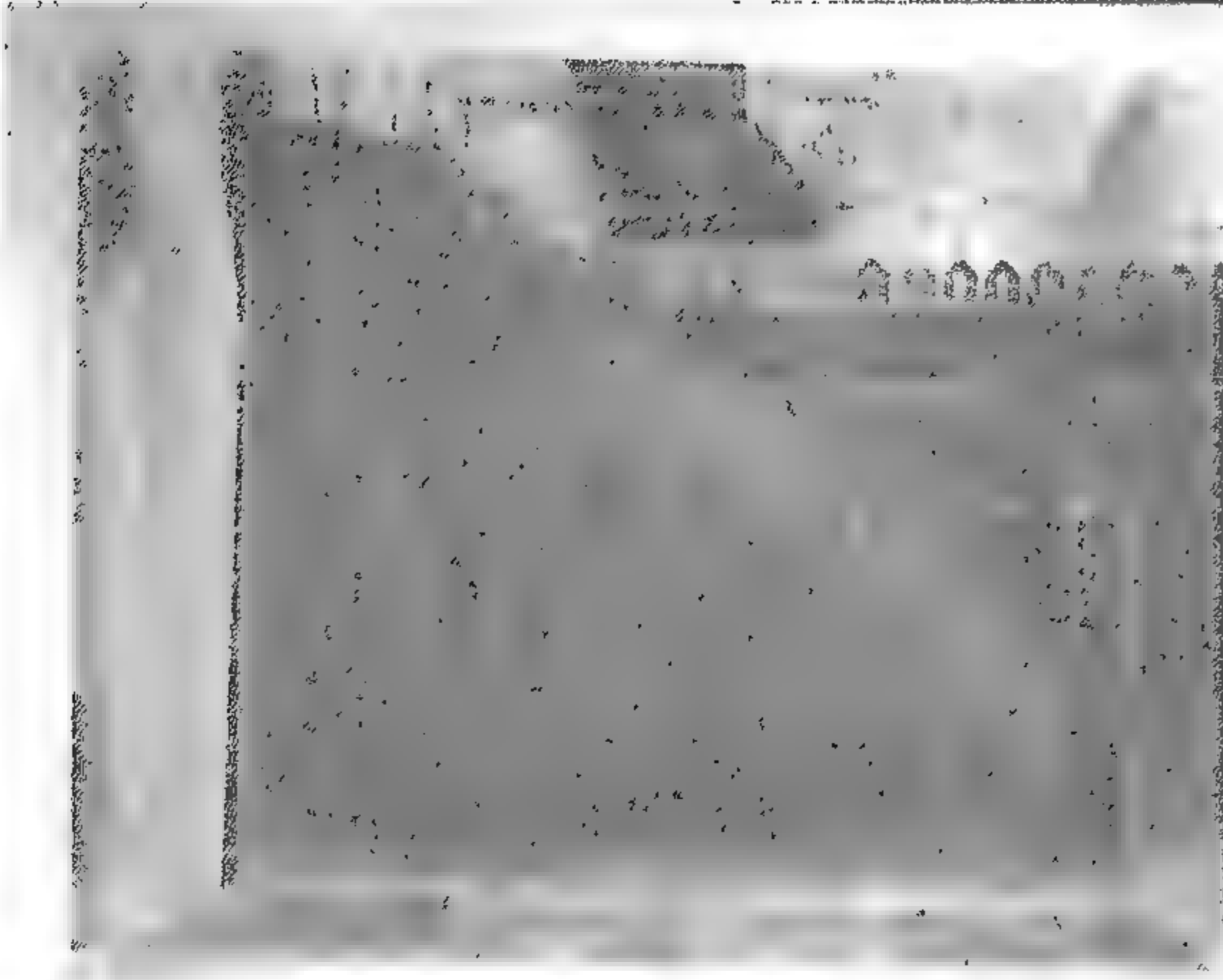


(لوحة ٣٠٤) ربعية من النحاس الأصفر (صفيحة واحدة مشكّلة بالطرق ومزينه بالحفر) -
المغرب) تتضمن توقيع صانها (محمد بن المفضل ابن خيران (أو حيران (١٢٦٤هـ)
(عن : دار الآثار الإسلامية بالكويت) .

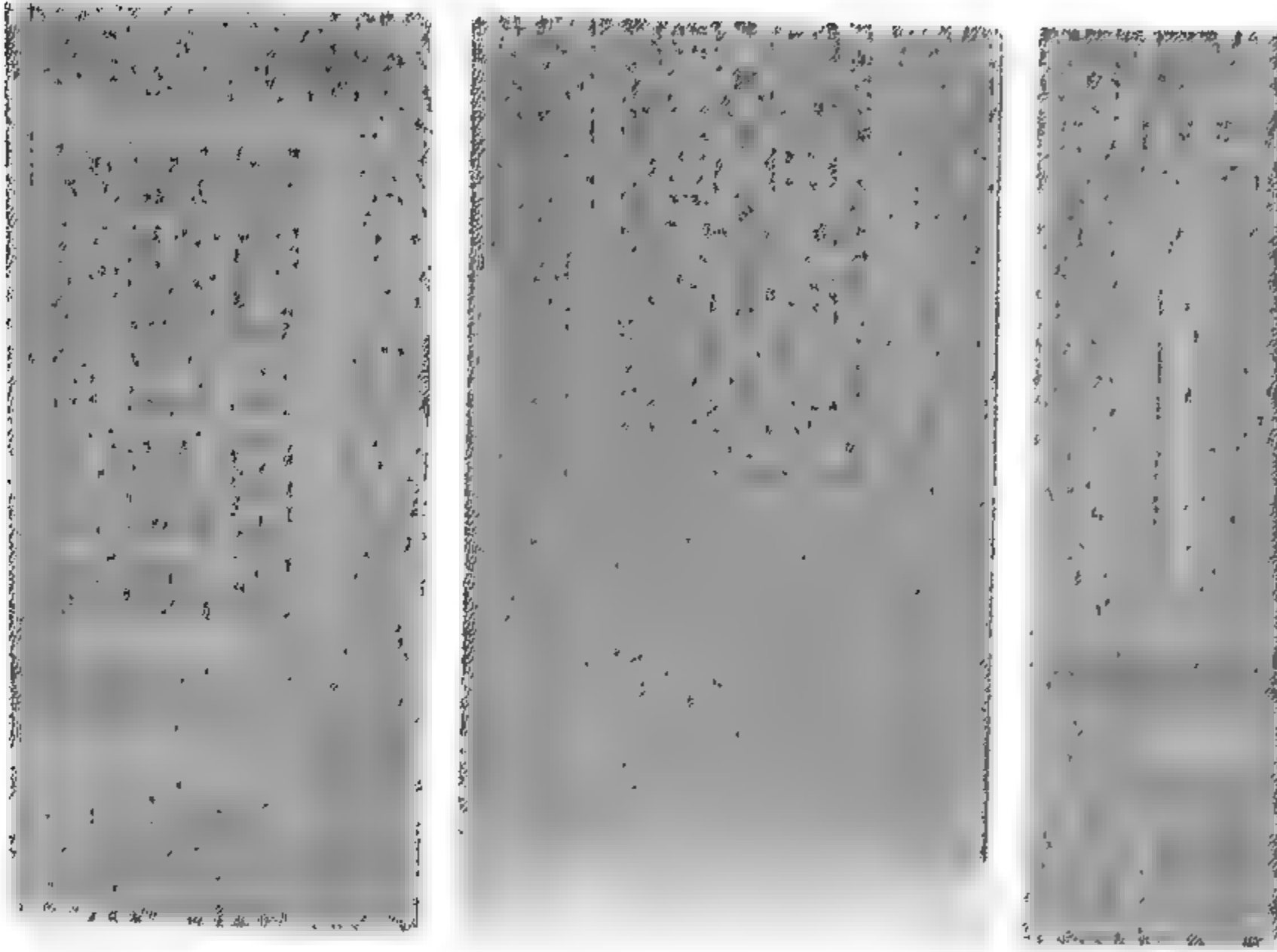


(لوحة ٣٠٥) دائرة معدل (المؤقت والصفيحة من النحاس الأصفر بعض أجزاءه
مطروق ومقطوع والبعض الآخر مصبوب) - تركيا (عهد السلطان العثماني سليم
الثالث عام ١٢٠٤هـ ولكنه نقش خطأ ١٢٤٠هـ) (عن : دار الآثار الإسلامية بالكويت).

١٢ - الخشب والعاج



(لوحة ٣٠٦) منبر جامع القيروان من
خشب الساج ٢٤٨هـ / ٨٦٢م . (الطراز
العباسي) .

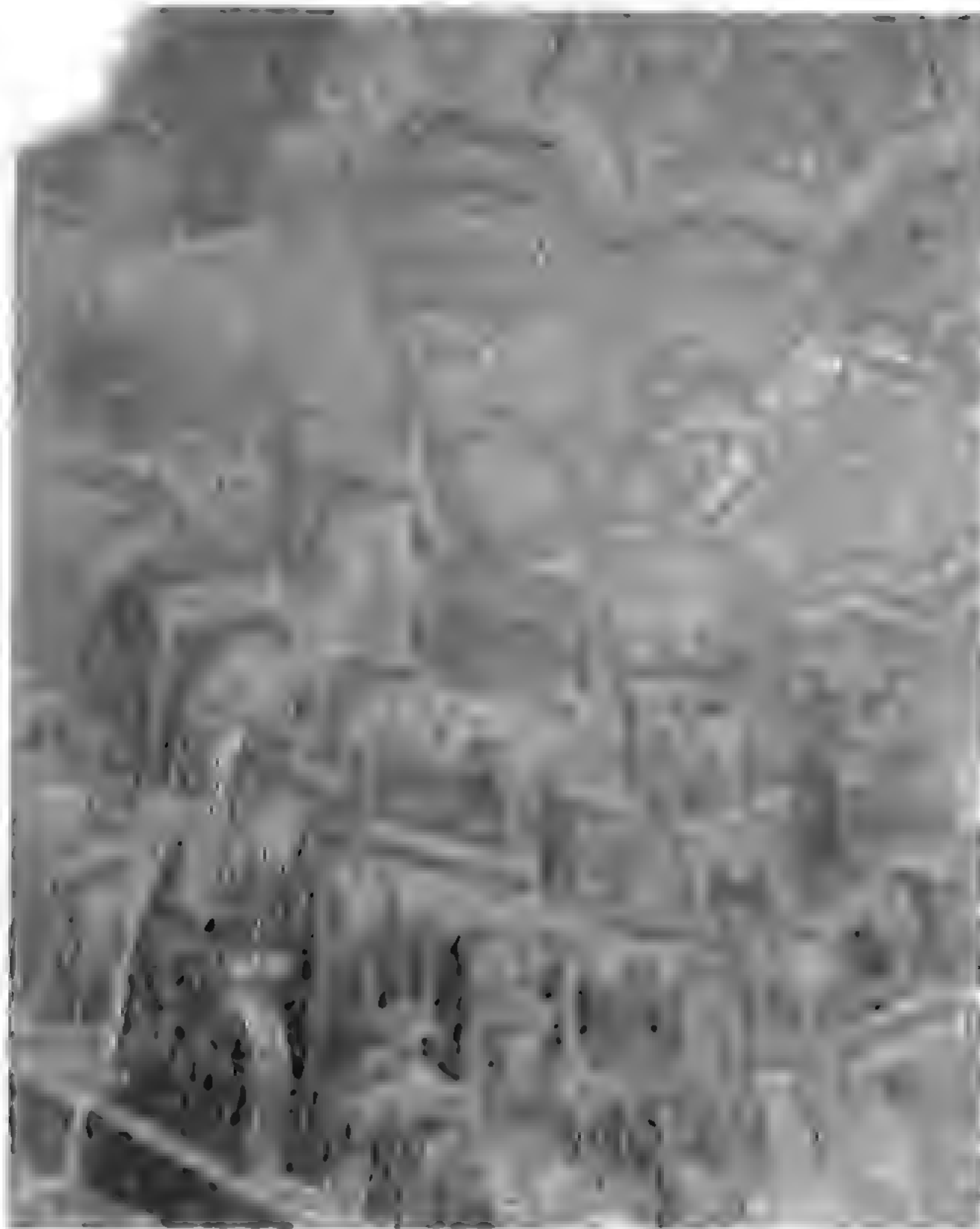


(لوحة ٣٠٧) مقلمة مبكرة عثر عليها
في حفائر الرينة بالمملكة العربية
السعودية (بها مكان محبرتين ومكان
لوضع القلم الخشبي) - العصر العباسي
الأول - (عن : قسم الآثار والمتاحف
بكلية الآداب جامعة - الملك سعود
 بالرياض).





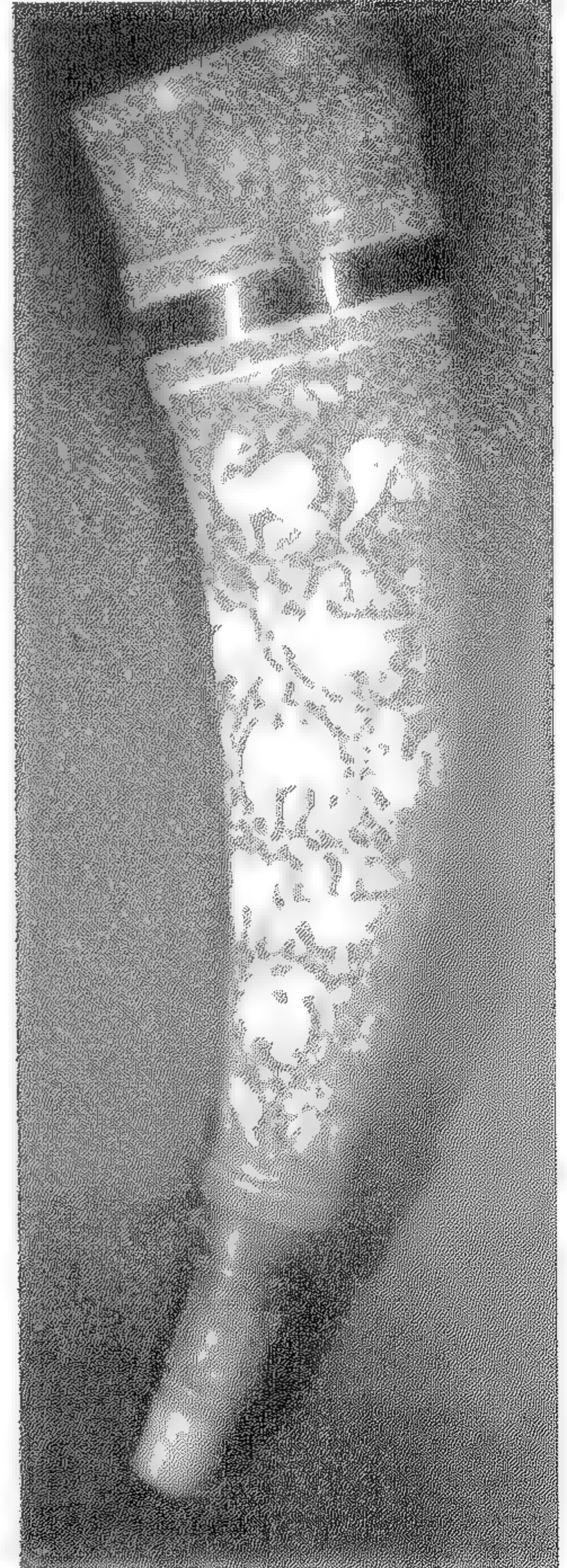
(لوحة ٣٠٨) ألواح خشبية من القصر الفاطمي الغربي (الصغير) عثر عليها في بيمارستان المنصور
قلاوون بشارع المعز (خط بين القصرين) محفوظة بمتحف الفن الاسلامي في القاهرة - مصر
(الطراز الفاطمي).



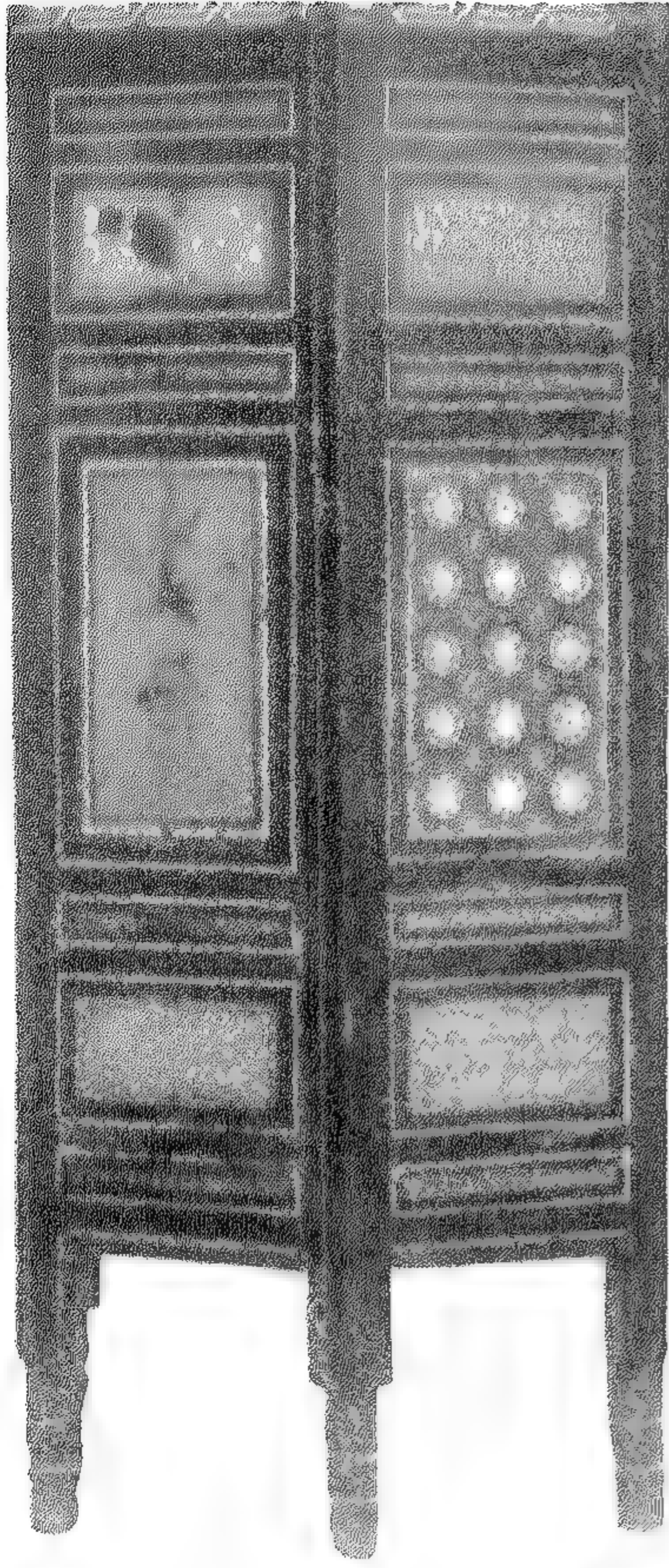
(لوحة ٣٠٩) السقف الخشبي الذي يغطي الكابلا باللاتينا في بالرمو بصقلية وتزينه زخارف
متنوعة مرسومة بالفرسكو - ق ١٢/هـ م (الطراز الفاطمي) (عن: Grube).



(شكل ٣١٠) علية عاجية اسطوانية الشكل محفوظة بمتحف اللوفر في باريس وهي ذات غطاء نصف كروي مقبب وتتضمن نقشا كوفيا باسم المغيرة بن امير المؤمنين وتاريخ ٣٥٧هـ / ٩٦٨م .



(لوحة ٣١١) بوق صيد من العاج - ق ٦هـ / ١٢م .
(الطراز الفاطمي) .



(لوحة ٣١٢) منضدة من الخشب المطعم بالعاج والأبنوس (وتعرف بكرس عشاء) محفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة - مصر - ق ٨/هـ ١٤٠٤ م .
(الطراز المملوكي) .



(لوحة ٣١٣) منضدة من الخشب المطعم بالعاج والأبنوس (وتعرف بكرسي عشاء) محفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة - مصر النصف الثاني من ق ٨/هـ ١٤٠٤ م . (الطراز المملوكي) .



(لوحة ٣١٤) صندوق مصحف من الخشب المصنوع بالنحاس المكف بالفضة والذهب محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة - مصر - حوالي ١٣٣٠م (الطراز المملوكي) (عن : اسن اتييل).

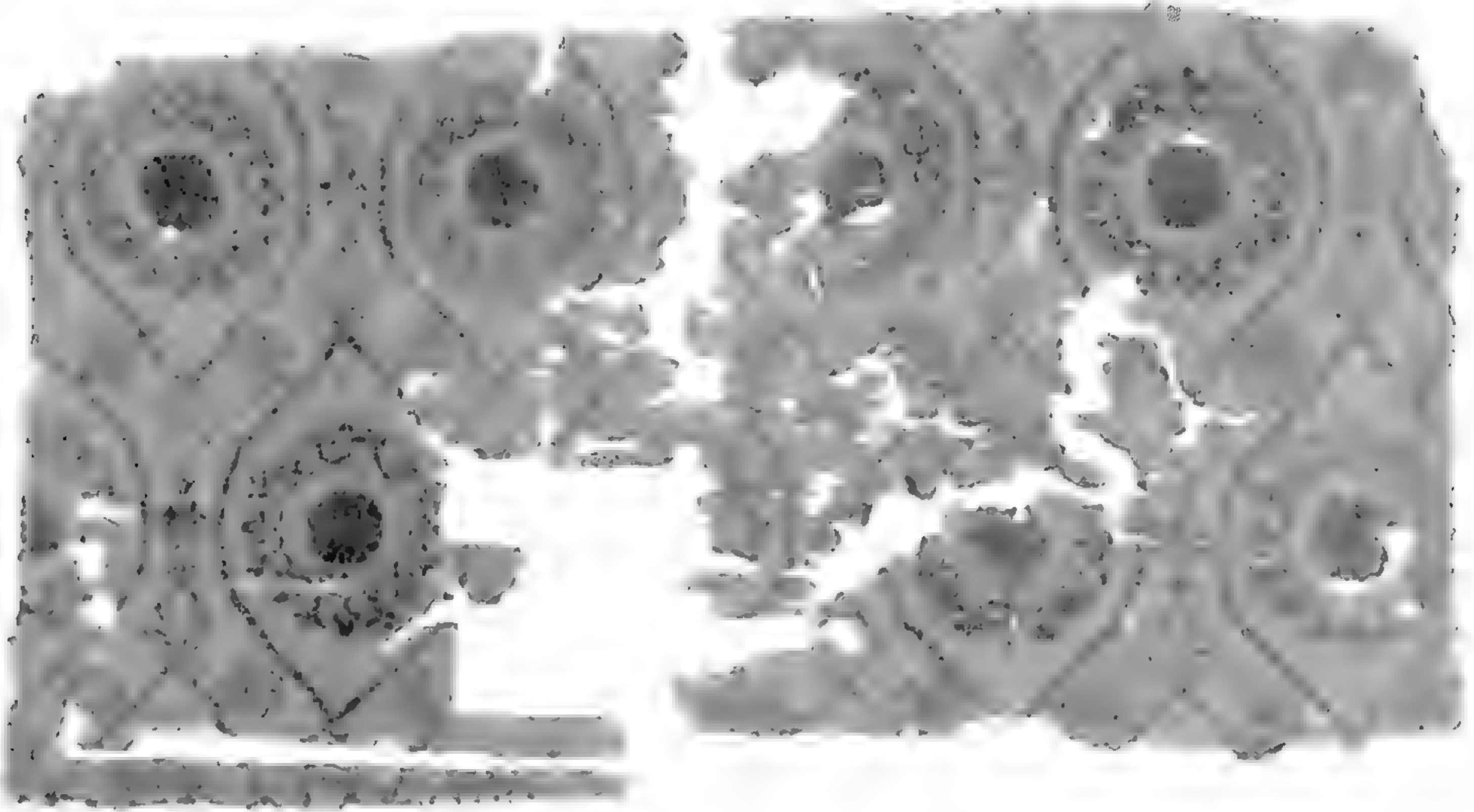


(لوحة ٣١٥) سقف قرية السلطان العثماني مراد الثاني في بورصة (أوبروسه) . (عن : اكرم حقي ايفردي) .

١٣ - النسيج والسجاد



(لوحة ٣١٦) قطعة نسيج من الحرير محفوظة بمتحف الفن الاسلامي في القاهرة صنعت برسم السلطان الناصر محمد قلاوون - مصر قبل ٧٤١هـ / ١٣٤٠م (الطراز المملوكي) . (عن : اسن اتيل).



(لوحة ٣١٧) قطعة من نسيج الحرير محفوظة بمتحف اونتاريو الملكي في تورنتو تزيينها أشكال بيضاوية (جامات) متكررة بداخلها زخارف نباتية والخونجه رنك الجاشنكير - مصر ق ٨هـ / ١٤م (الطراز المملوكي) (عن : اسن اتيل) .



(لوحة ٣١٨) قطعة من نسيج الحرير المطرز محفوظة بمتحف الفن الاسلامي في القاهرة
تزينها زخارف هندسية عبارة عن وحدات من الطبقة النجمي (الكندات) - مصر ٩٠٥هـ / ١٥م
(الطراز المملوكي) . (عن : اسن اتيل) .



(لوحة ٣١٩) قطعة من نسيج الكتان محفوظة بمتحف المتروبوليتان في نيويورك تزينها زخارف
مضافة بقطع من القماش الملون قوامها رنكا وظيفيا مركبا - مصر - أواخر ٩٠٥هـ / ١٥م . (الطراز
المملوكي) (عن : اسن اتيل) .



(لوحة ٣٢٠) قطعة من نسيج الحرير محفوظة بمتحف المتروبوليتان في نيويورك
تزينها مناظر تصويرية . إيران - ق ١٠هـ / ١٦م (الطراز الصفوي) . (عن Grube) .



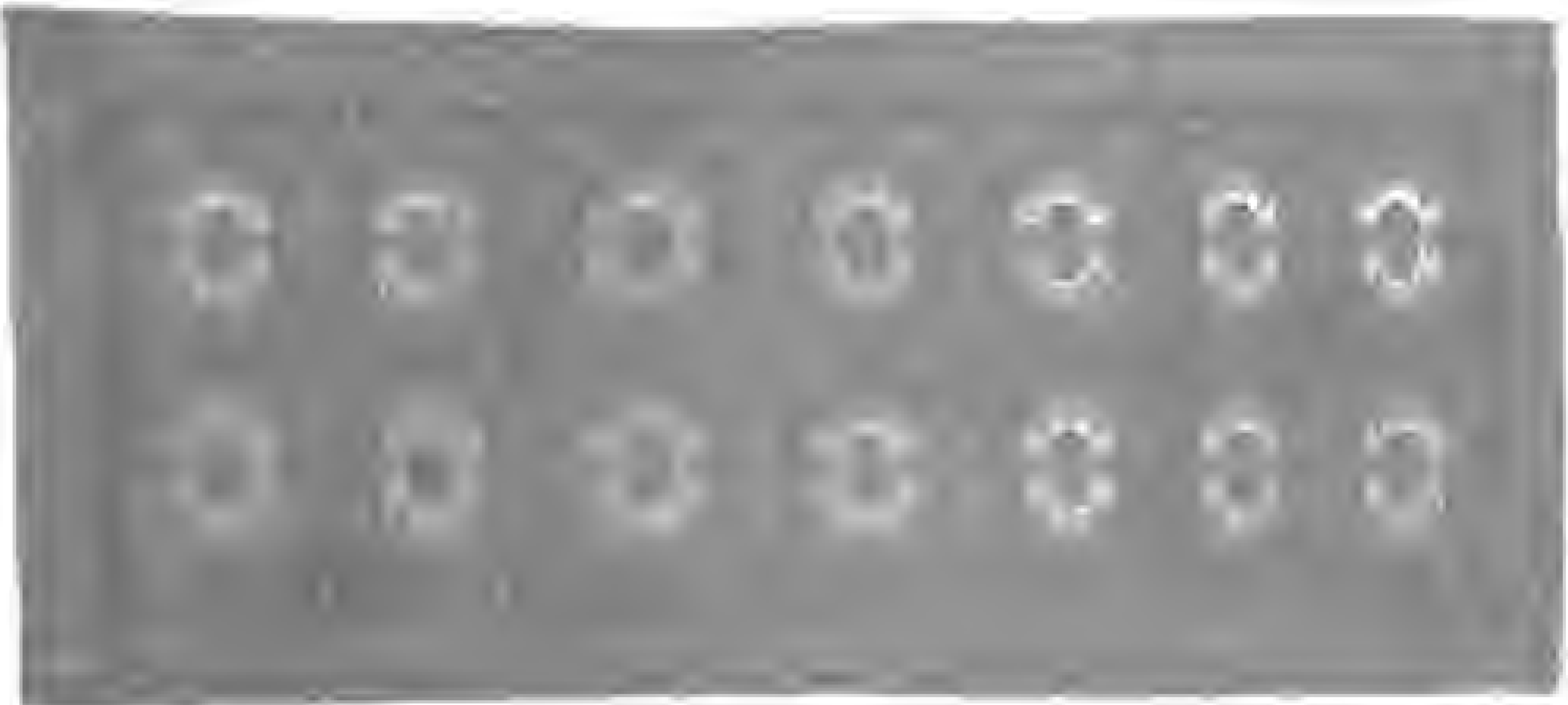
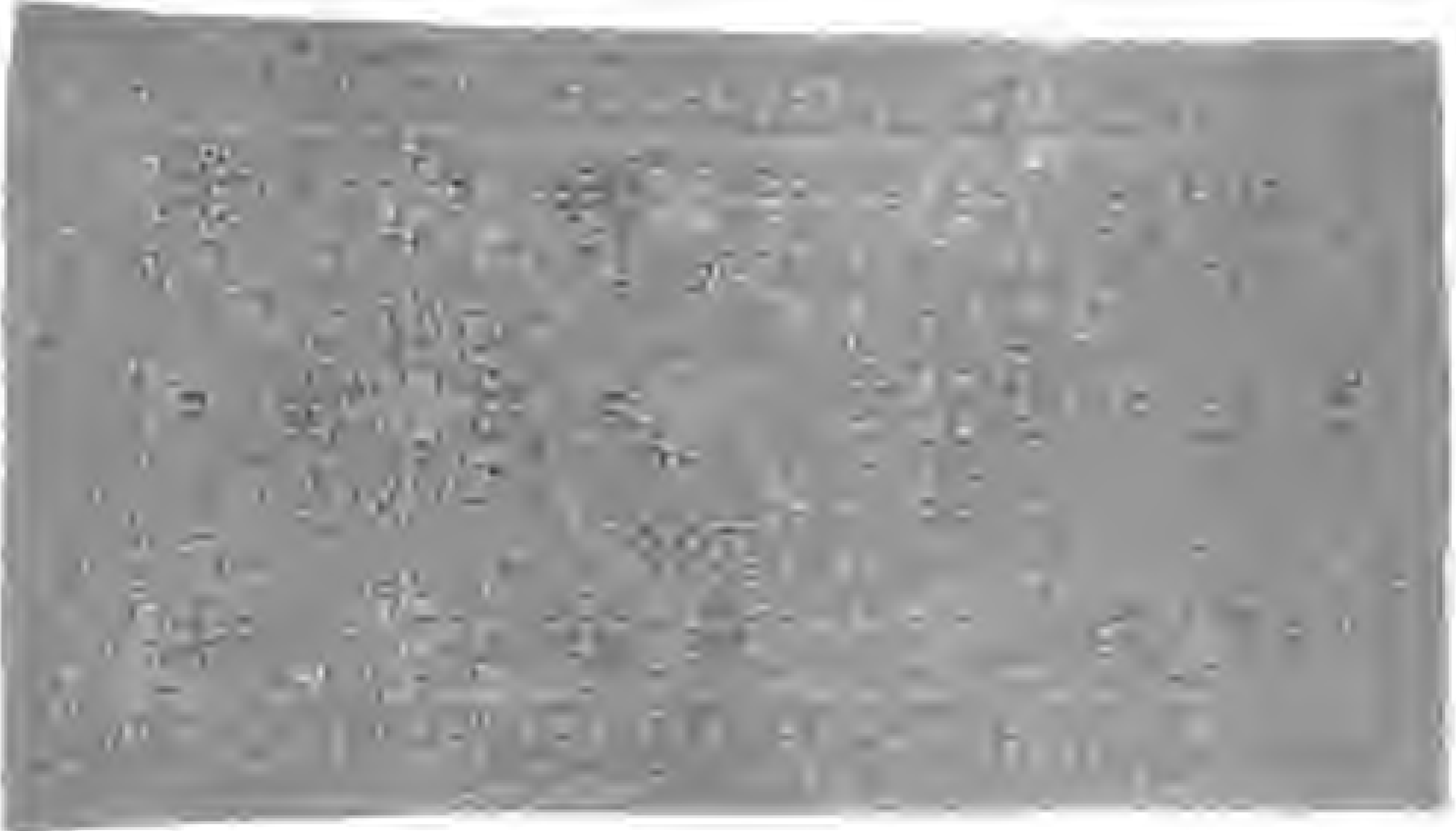
(لوحة ٣٢١) سجادة مملوكية محفوظة بمتحف النسيج في واشنطن - مصر - حوالي ١٥٠٠م
-(الطراز المملوكي) (عن : اسن اثيل) .



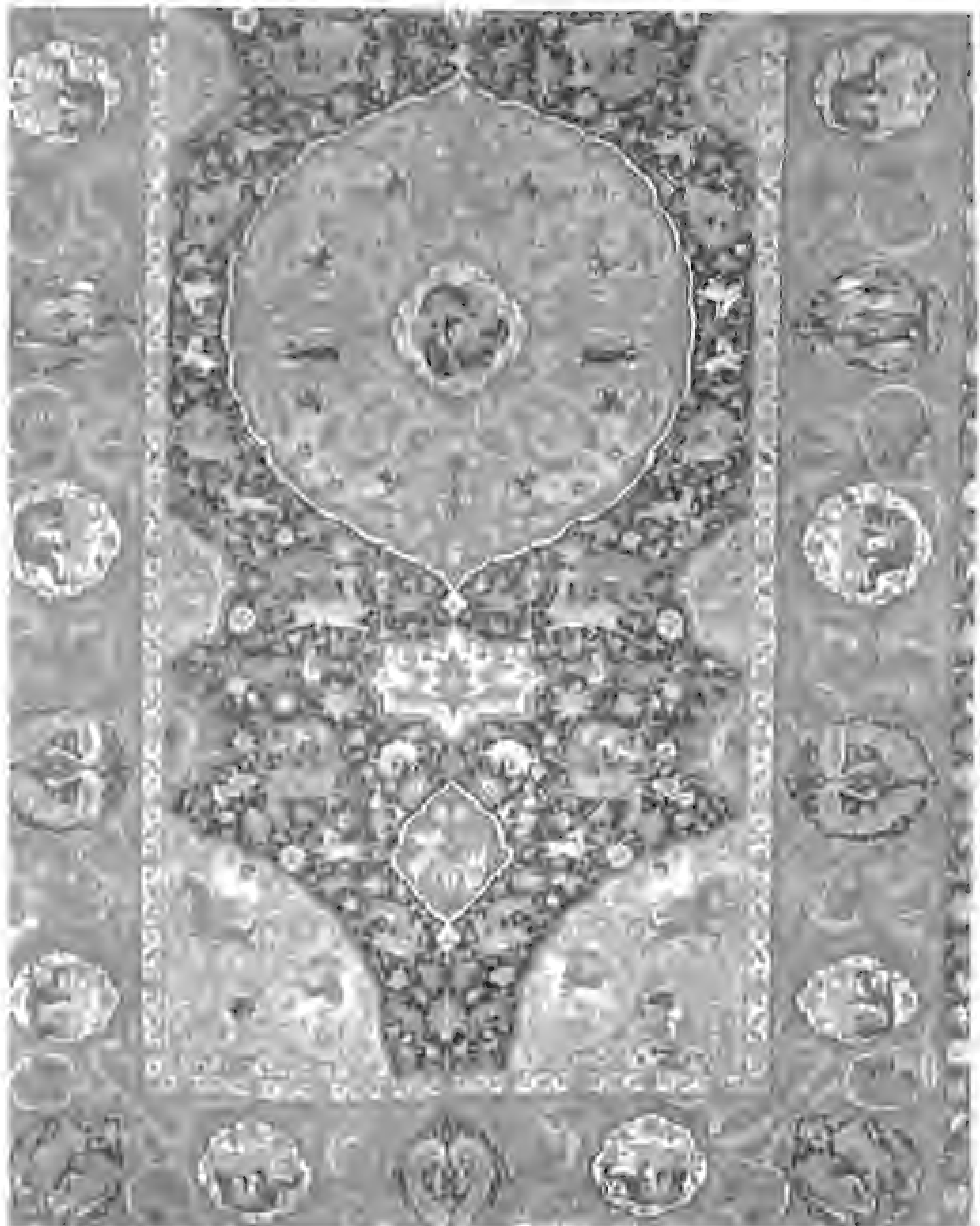
(لوحة ٢٢٢) سجادة مملوكية محفوظة بمتحف النسيج في واشنطن متحف مصر الربع الاول
من ق ١٠هـ / ١٦م . (الطراز المملوكي) (عن : اسن اكيل) .



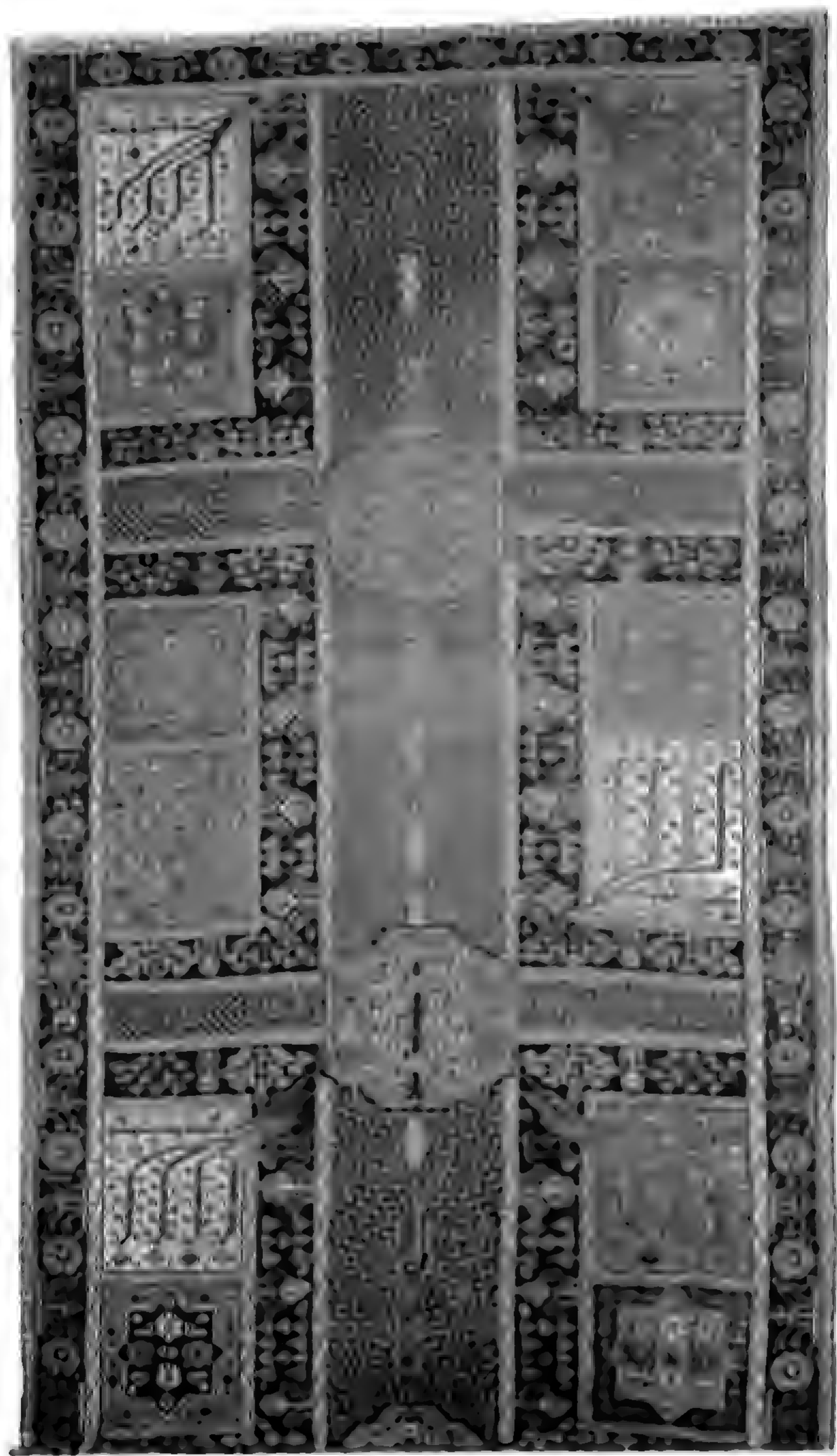
(لوحة ٣٢٣) سجادة محفوظة بمتحف المتروبوليتان في نيويورك تجمع بين خصائص الطرازين المملوكي والعثماني في أوائل ق ١٠هـ / ١٦م (عن Grube).



(الوحة ٢٢٤) سجاد تركي عثماني محفوظ بمتحف المتروبوليتان في نيويورك : أعلي
 (النوع المعروف بسجاد عشاق ذات التجوم أو الجامدة) وأسفل (النوع المعروف بسجاد
 هولباين) ويؤرخ حوالي ١٦٠٠ م - (عن : Grube) .



(لوحة ٣٢٥) سجادة إيرانية من النوع المعروف بظراز الجاه و تزيينها مناظر
تصويرية - إيران - قزوین - النصف الثاني من ١٠هـ / ١٦م . (عن ، Grube) .



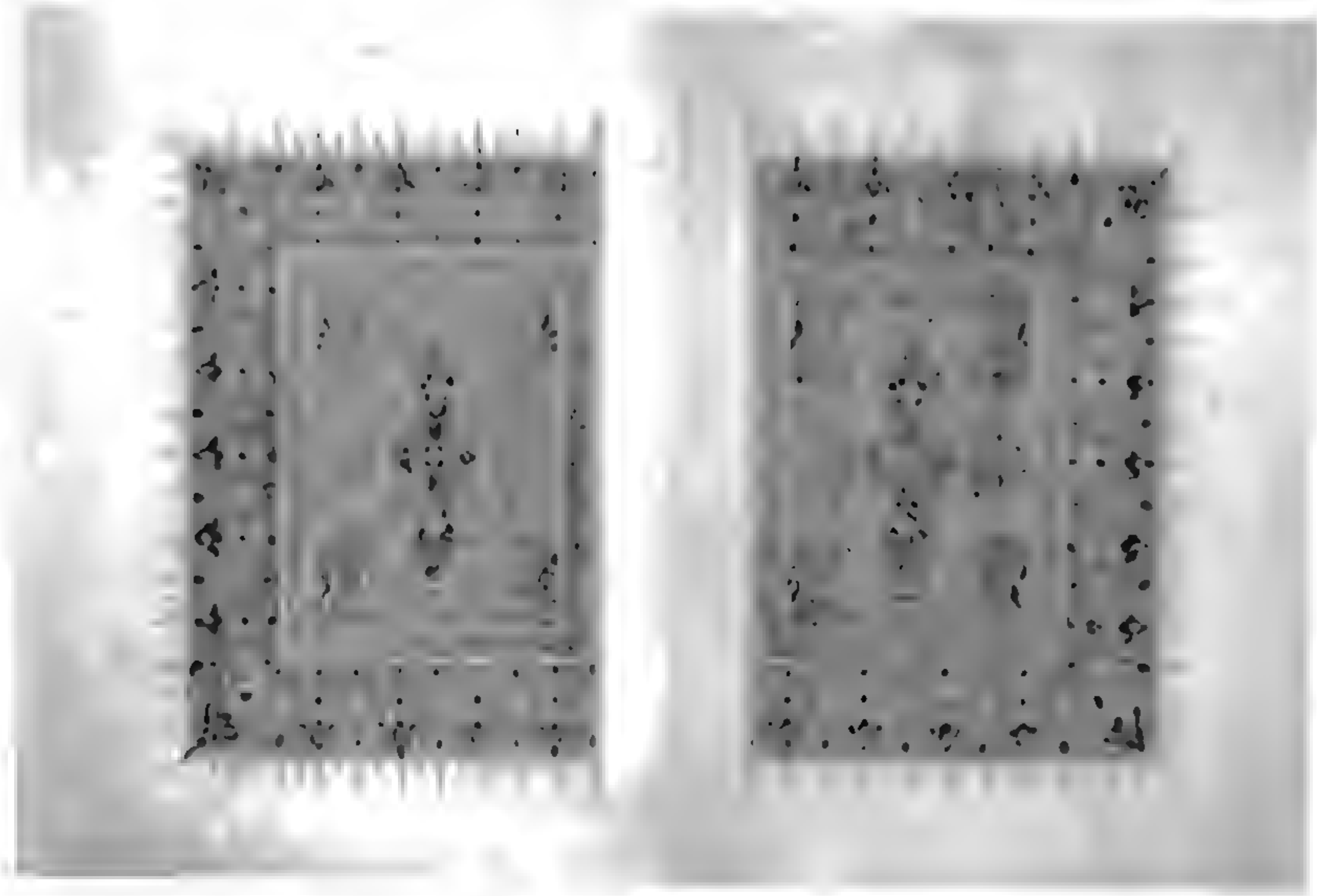
(لوحة ٣٢٦) سجادة إيرانية من النوع المعروف بظراف الحدائق - شمال غرب
 ايران - حوالي ١٧٠٠ م. (عن : Grube) .



(لوحة ٣٢٧) سجادة تلسب إلى هراة (أفغانستان) ق ١٠هـ / ١٦م (عن Grube).



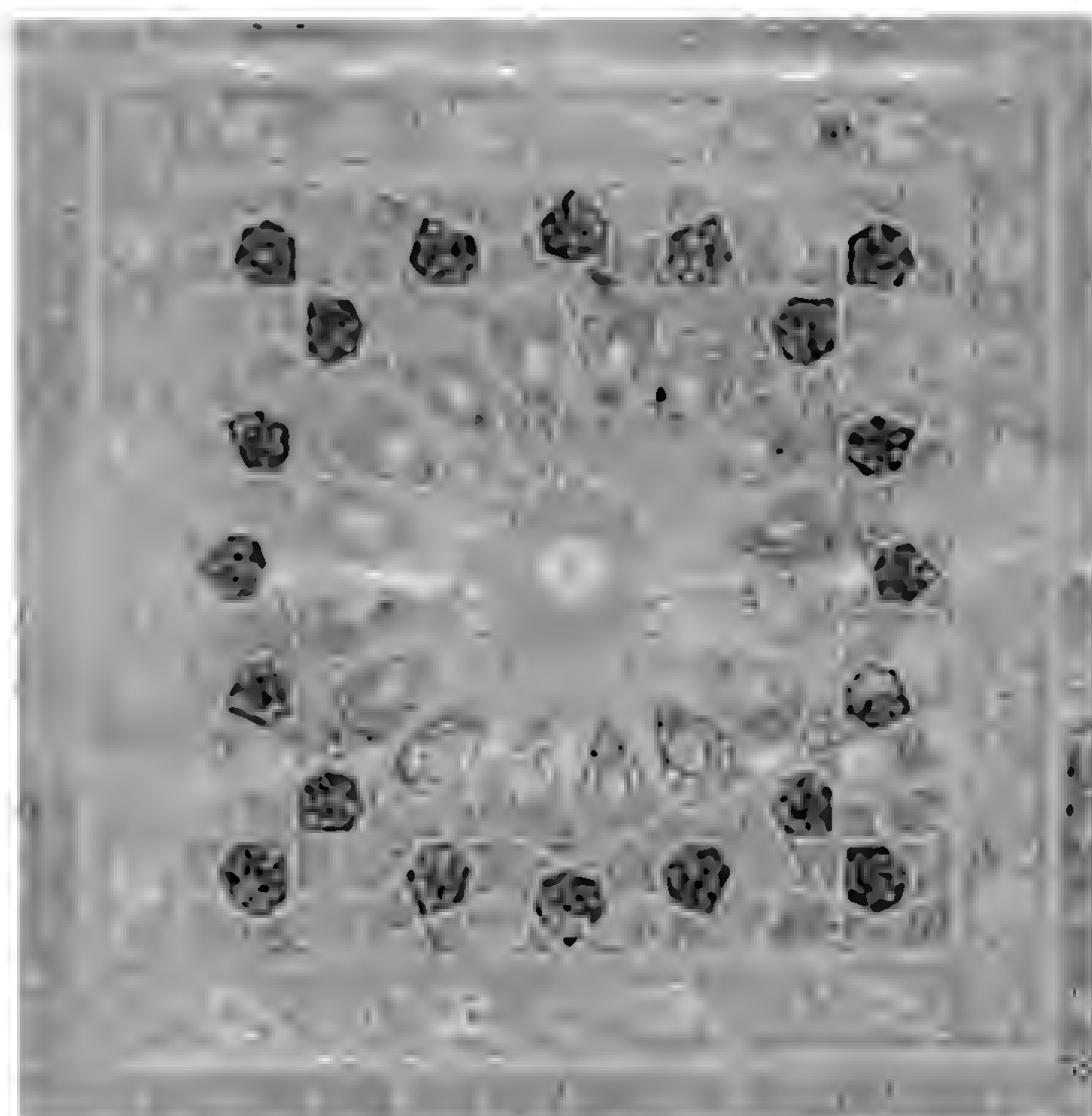
(لوحة ٣٢٨) سجادة هندية محفوظة بمتحف القنون الجميلة في
بوسطن - (العصر المغولي الهندي) أواخر ق ١٠ هـ ١٦ م (عن Grube).



(لوحة ٣٢٩) غرة مصحف شريف محفوظة بمكتبة شستريتي بدبلن - مصر - الربع الأول من ق ٨/هـ ١٤٠٠ م. (الطراز المملوكي). (عن : اسن اتيل).



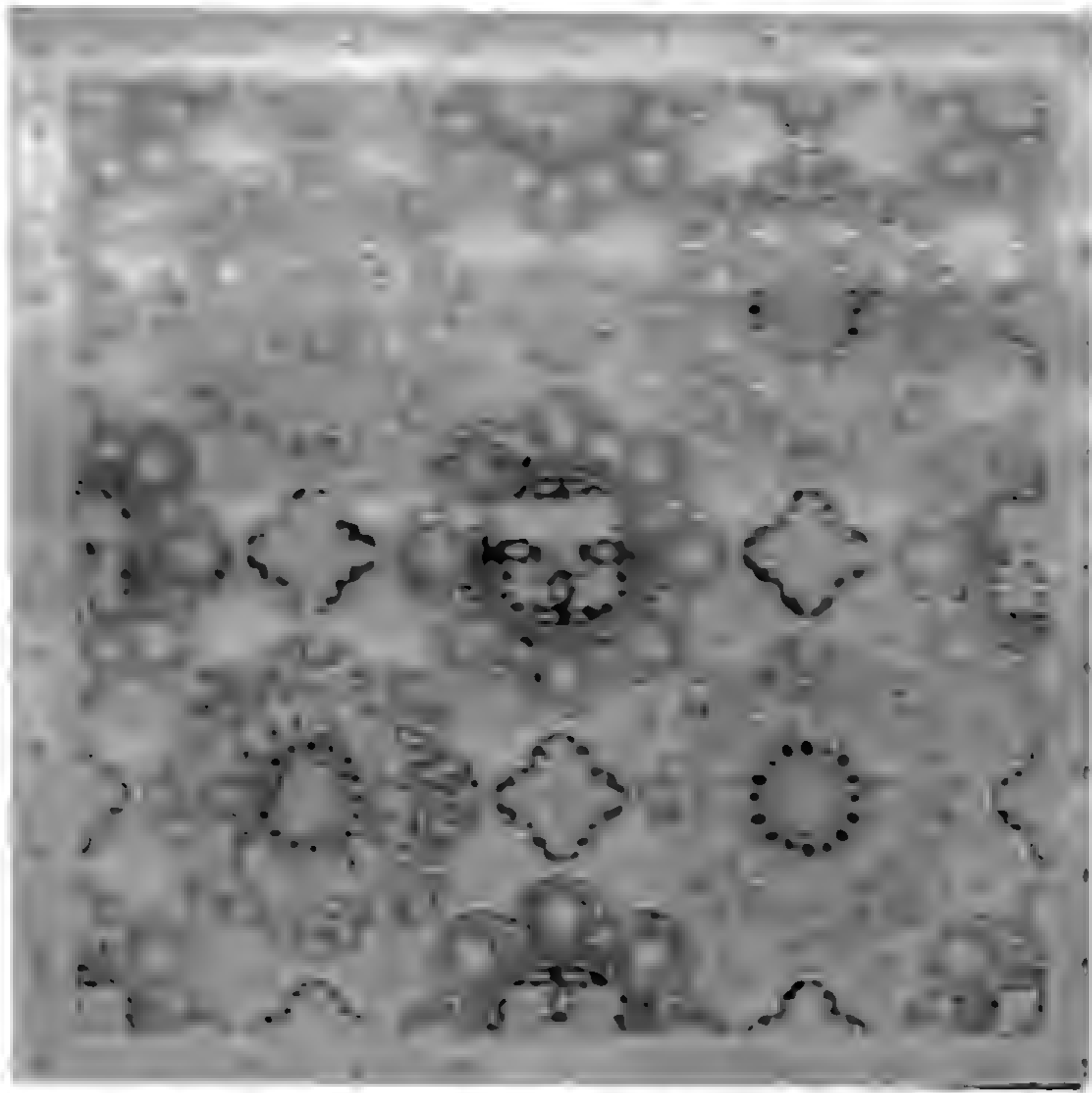
(لوحة ٣٣٠) مصحف أرغون شاه الملكي الاشرفي المحفوظ بدار الكتب المصرية - مصر حوالي ١٣٧٠ م (الطراز المملوكي) واللوحه المنشورة تمثل الصفحة اليسرى من غرة المصحف الشريف.



(لوحة ٣٣١) تفصيل للنقوش الزخرفية المذهبة بساحة غرة مصحف الرغون شاه المشار اليه في اللوحة السابقة (٣٣٠) (عن : اسن اتييل) .



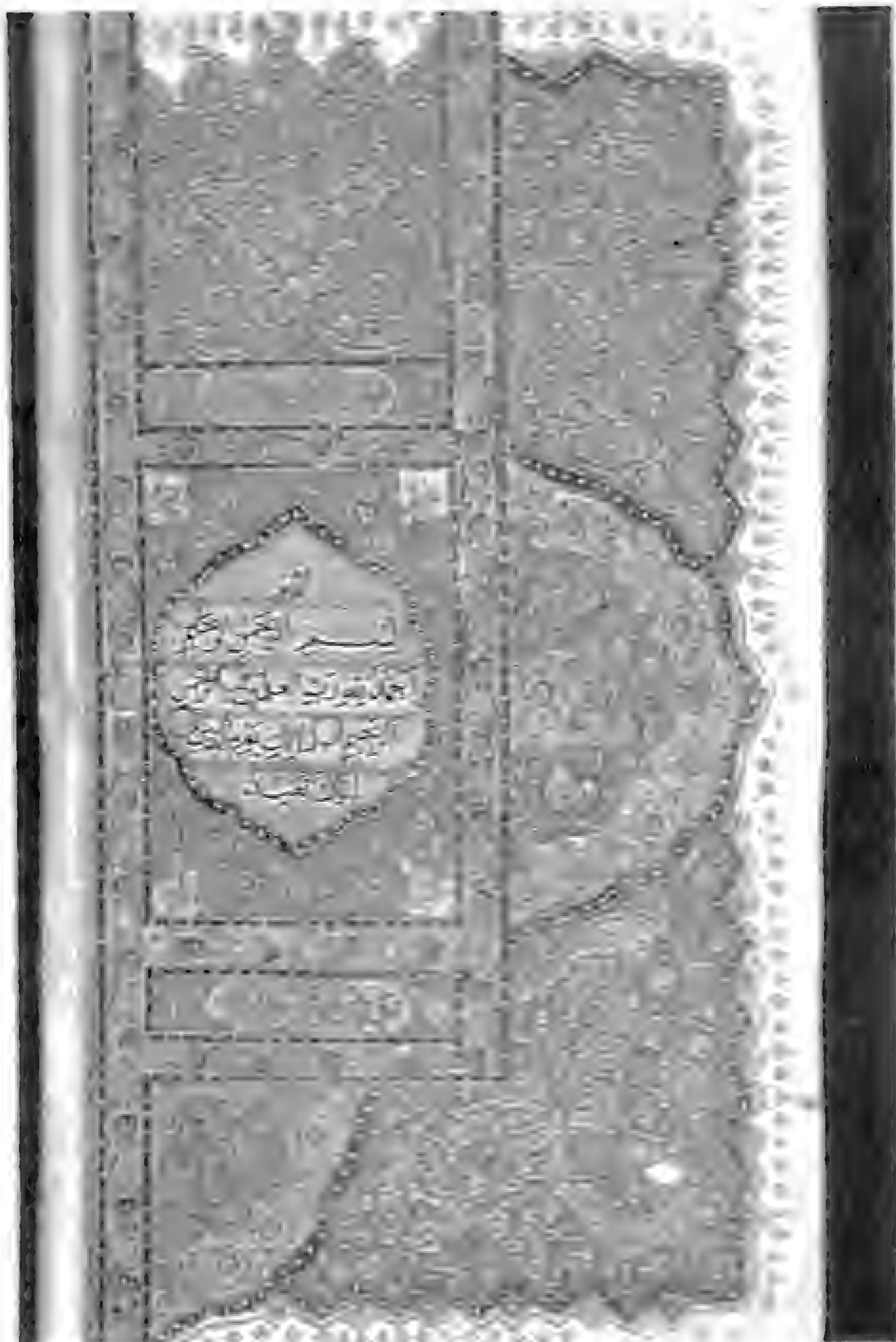
(لوحة ٣٣٢) فاتحة مصحف شريف كامل مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية وقد عمل برسم السلطان المملوكي البحري الاشرف شعبان ووقفه بمدرسته بخط الصوة أسفل القلعة (حل محلها البيمارستان المؤيدي) ويتضمن توقيع ناسخة ومذهبة - مصر ١٧٧٤هـ / ١٣٧٢م . (الطراز المملوكي) . (عن : اسن اتييل) .



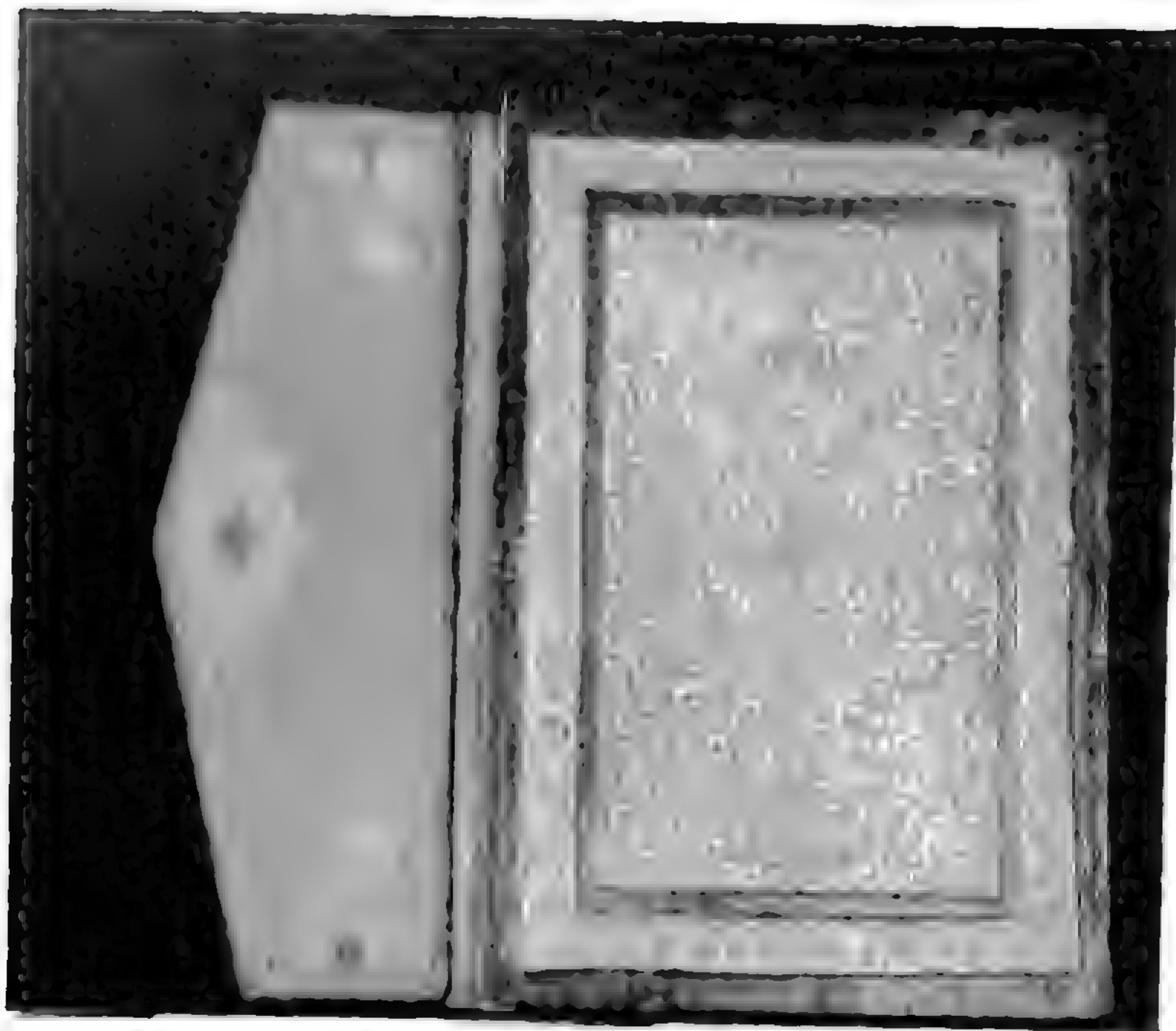
(لوحة ٣٢٣) مصحف شريف كامل مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية وقد عمل برسم السلطان المملوكي البحري الاشرف شعبان ووقفه بمدرسة والدته بخط التبايه (شارع باب الوزير) ١٣٦٩م ، ويشاهد في اللوحة تفصيل للنقوش الزخرفية باحدى صفحتي غرة المصحف الشريف - مصر (الطراز المملوكي) (عن : اسن اثيل) .



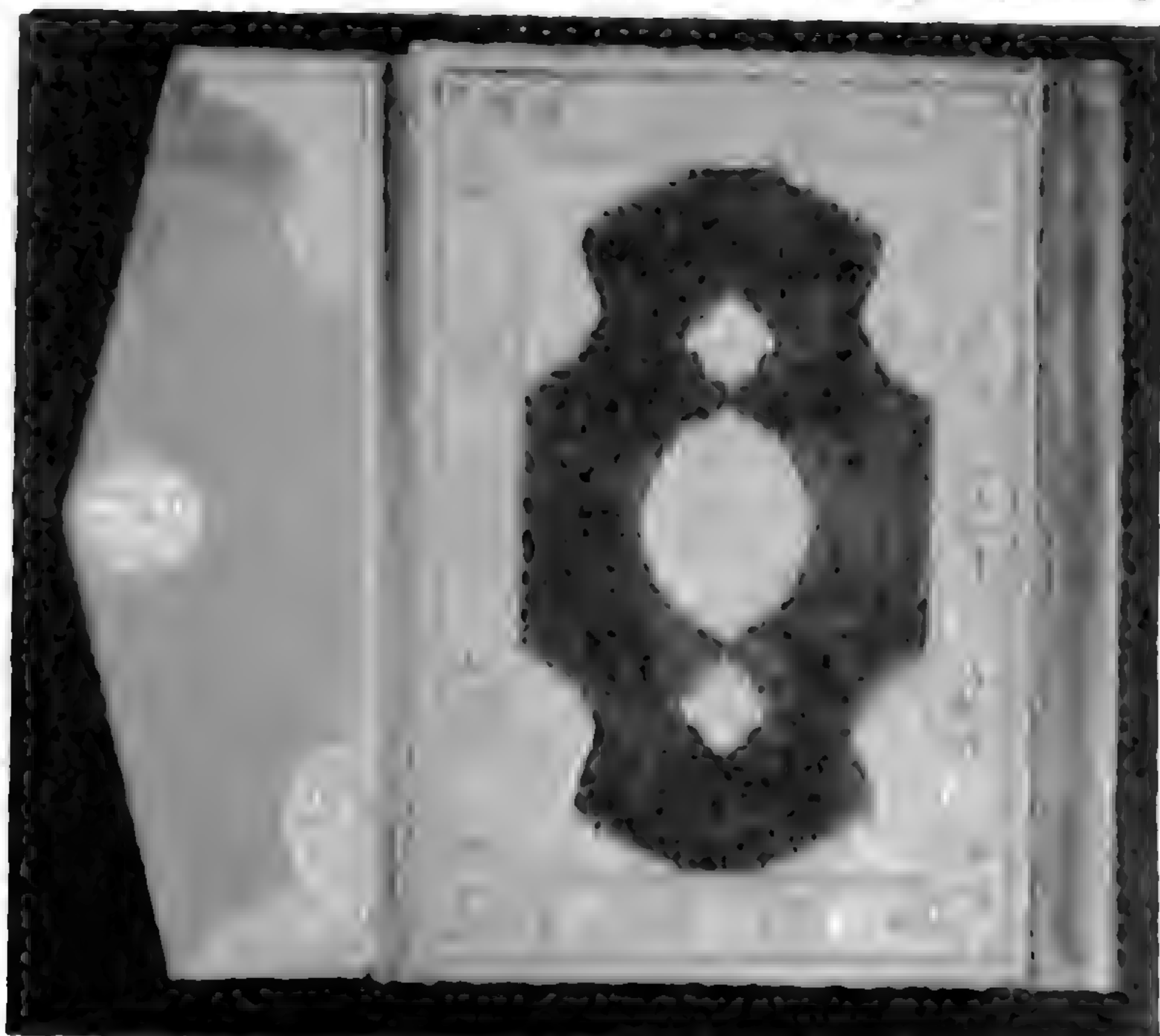
(لوحة ٣٢٤) خاتمة مصحف شريف كامل مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية وقد عمل برسم السلطان المملوكي الجركسي الاشرف برسباي ووقفه بمدرسته بالعنبريين (بشارع المعز) ٨٢٦هـ / ١٤٢٥م . مصر (الطراز المملوكي) (عن : اسن اثيل) .



(لوحة ٢٣٥) فاتحة مصحف شريف كامل مخطوط محفوظ بدار الآثار الإسلامية
بالكويت ، وتعد صفحات فاتحة هذا المصحف المذهبتين انعكاسا صادقا لخاتمته شمال
الهند - ق ١٢هـ / ١٨ م . (عن : دار الآثار الإسلامية بالكويت) .



(لوحة ٢٣٦) غلاف مذهب لجزء من مصحف كريم مخطوط محفوظ بدار الآثار الإسلامية بالكويت - إيران - القرن ١٠هـ / ١٦م . (عن : دار الآثار الإسلامية بالكويت) .



(لوحة ٢٣٧) غلاف جلد ذي زخارف مضمونة ومختومة ومذهبة محفوظ بدار الآثار الإسلامية بالكويت - تركيا - القرن ١٠ - ١١هـ / ١٧-١٦م . (عن : دار الآثار الإسلامية بالكويت) .



(لوحة ٣٣٨) قبة الصخرة
٧٢هـ/٦٩٢م : فسيفساء في
أحد كوشات عقود المثلث
الداخلي .



(لوحة ٣٣٩) قبة الصخرة: فسيفساء في
أحد كوشات عقود المثلث الداخلي .



(لوحة ٣٤٠) الجامع الأموي بدمشق ٨٦-٩٦ هـ / ٧٠٥-٧١٥ م ، فسيفساء (مصورة نهر بردي) .



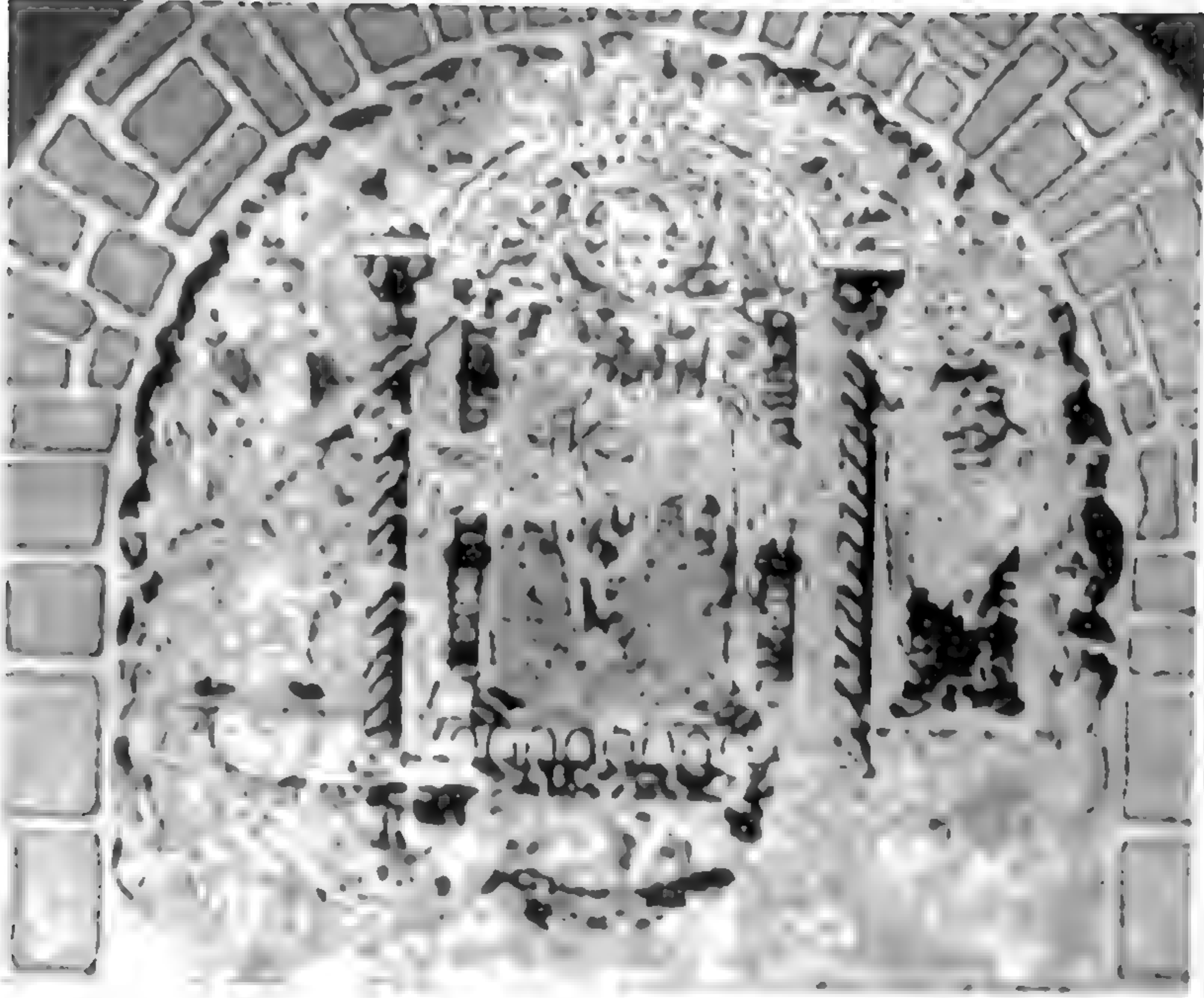
(لوحة ٣٤١) الجامع الأموي بدمشق ٨٦-٩٦ هـ / ٧٠٥-٧١٥ م ، فسيفساء (مصورة نهر بردي) .



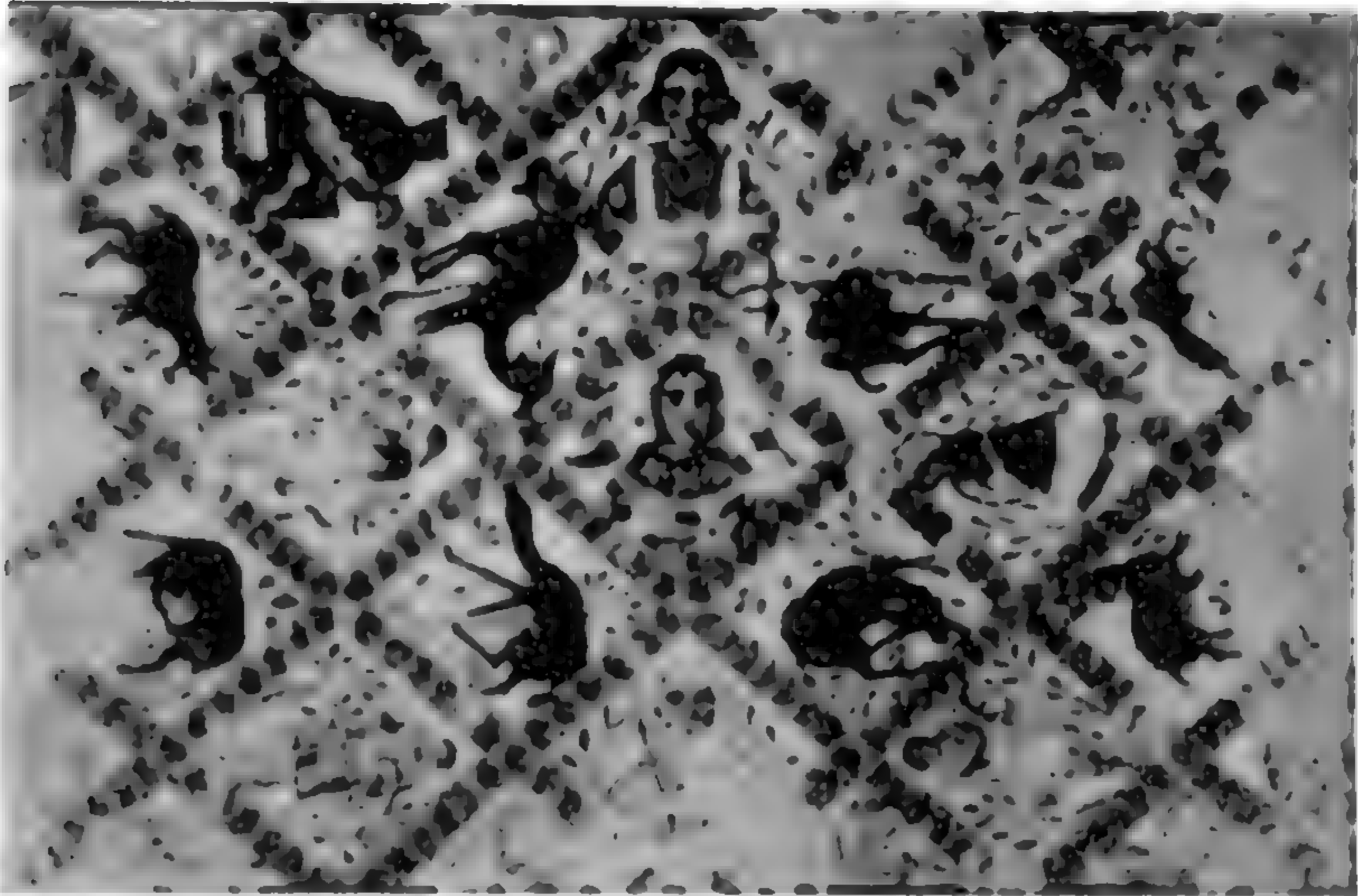
(لوحة ٣٤٢) قصر الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ / ٧٢٤-٧٤٣ م) في أريحا المعروف بقصر خربة المفجر، فسيفساء في ارضية الحمام الملحق بالقصر.



(لوحة ٣٤٣) قصر الخليفة الاموي هشام بن الملك في أريحا المعروف بقصر خربة المفجر، تفصيل لفسيفساء الجانب الايمن (منظر طرد وحش).



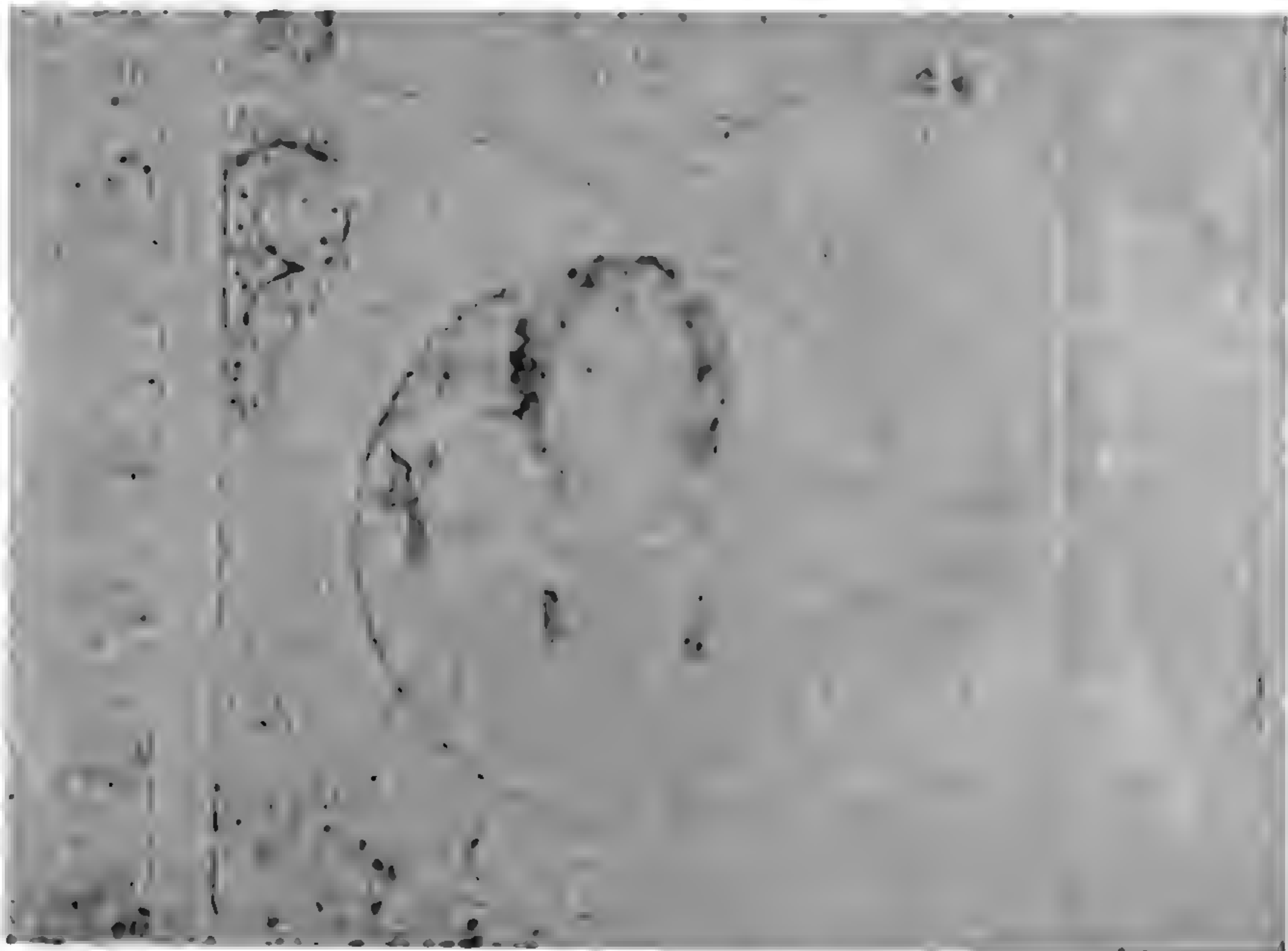
(لوحة ٣٤٤) قصير عمره بالاردن ينسب للخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك فيما بين ٩٢-٩٦ هـ / ٧١١-٧١٥ م ، صورة مائبة (فرسكو) مرسومة في الحائط الجنوبي لقاعة الاستقبال .



(لوحة ٣٤٥) قصير عمره صورة مائبة (فرسكو) مرسومة في باطن القبو البرميلي للحجرة الأولى في الحمام (الحجرة الباردة) وتمثل مراحل العمر المختلفة ورسوم حيوانات وطيور وغير ذلك .



(لوحة ٣٤٦) قصر الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك في تدمر (بالميرا) سوريا المعروف بقصر الحير الغربي صورة (فرسكو) محفوظة حاليا بالمتحف الوطني بدمشق تمثل موسيقيين في القسم الاعلى وفارسا قد امتحلي صهوة جواده الراكض وشرع يرمي غزالا بسهم (وربما تمثل النصف الاول من القصة بهرام كورو ومحظيته فتنة اوازده).



(لوحة ٣٤٧) قصر الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك المعروف بقصر الحير الغربي ، صورة مائية (فرسكو) محفوظة حاليا بالمتحف الوطني بدمشق . ويشاهد بها رسم جامه دائرية بها صورة نصفية لسيدة في وضع مواجه وقد أمسكت بيديها منديلا مملوء بالفاكهة .



(لوحة ٣٤٨) قصر الجوسق الخاقاني في سامرا بالعراق صورة مائية (فرسكو) كانت تزين قاعة القبة بجناح الحريم بالقصر وتمثل راقصتين في وضع متماثل وبينهما طبق مملوء بالفاكهة .



(لوحة ٣٤٩) قصر الجوسق الخاقاني في سامرا بالعراق ، صورة مائية (فرسكو) موسومة علي نصف اسطوانة من الفخار مطلية بماء الجير تمثل رجلا أو امرأة تحمل فوق كتفها حيوانا ومن المرجح انها اما أنها تمثل النصف الثاني من القصة بهرام كورومحظيته فتنة أو أزدة وفي هذه الحالة تكون الصورة لسيدة واما تمثل قصة الراعي الصالح التي شاع تمثيلها في الفن المسيحي وفي هذه الحالة تكون الصورة لرجل) .



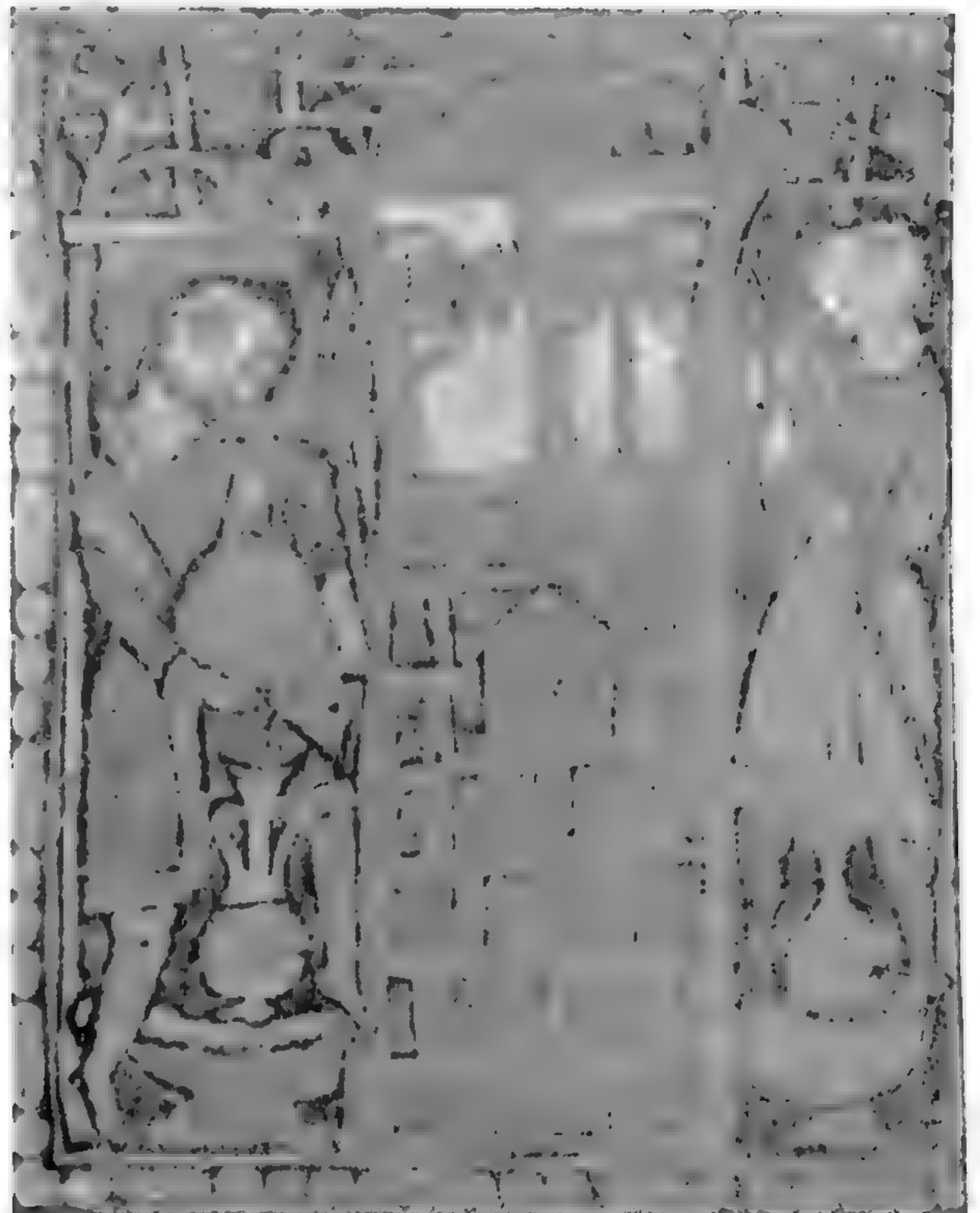
(لوحة ٣٥٠) الحمام المكتشف بجوار ابي السعود بحي مصر القديمة (جهة عين الصيرة)
المعروف بالحمام الفاطمي ، صورة مائية (فرسكو) محفوظة حاليا بمتحف الفن الاسلامي
بالقاهرة وتمثل شابا جالسا يمسك بيده كاسا . (منظر شراب) .



(لوحة ٣٥١) شقف الكابلا بلاتينا في بالرمو بجزيرة صقلية . صورة مائية (فرسكو) تمثل انسانا
جالسا ويده اليمنى كأسا . (منظر شراب) .



(لوحة ٣٥٢) سقف الكابلا بالرمو
بجزيرة صقلية صورة مائية
(فرسكو) تمثل صاذهان حول
نافورة تصب مياهها من راس اسد ،
وينزل الماء بالتدريج علي درج
ينتهي علي فسقية .



(لوحة ٣٥٣) سقف الكابلا بلا تينا
في بالرمو بجزيرة صقلية صورة
مائية (فرسكو) تمثل رجلان
احدهما في جانب يقوم بسحب
الحبل المربوط في الجرة ، بينما
نجد في الجانب الاخر رجلا يرفع
من جانبه هذه الجرة ويفرغ ما فيها
من ماء في دورق .



(لوحة ٣٥٤) تصويرة تمثل اثنان علي ظهور الجياد من مخطوطة كتاب البيطرة الحفوظة حاليا بمكتبة طويقابي سراي (أحمد الثالث رقم ٢١١٥) باستانبول ٦٠٦هـ / ١٢١٠م (المدرسة العربية ، بغداد) .



(لوحة ٣٥٥) مخطوطة كتاب خواص العقاقير لديسقوريدس مؤرخة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ، تصويرة تمثل صيدلية . (المدرسة العربية ، بغداد) .



(لوحة ٣٥٦) مخطوطة خواص العقاقير
لديسقوريدس مؤرخة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م .
ومحفوظة بمتحف طوبقابي سراي في
استانبول . تصويرة تمثل ديسقوريدس
مع أحد تلامذته . (المدرسة العربية ؛
بغداد) .

(لوحة ٣٥٧) مخطوطة خواص
العقاقير لديسقوريدس ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م
تصويرة تمثل نبات العنب . (المدرسة
العربية ؛ بغداد) .





(لوحة ٣٥٨) مخطوطة خواص العقاقير لديسقوريدس ١٢٢٦هـ / ١٢٢٨م تصويرة تمثل شجرة
العدس . (المدرسة العربية : بغداد) .



(لوحة ٣٥٩) مخطوطة مقامات الحريري مؤرخة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م ، محفوظة في المكتبة الاهلية
بباريس (تحت رقم ٥٨٤٧ عربي) وتعرف بحري شيفر ، والخطاط والمصور هو يحيى بن
محمود الواسطي .
تصويرة تمثل المقامة السابعة (البرقعيدية) : الاحتفال والابتهاج برؤية هلال شهر شوال
(المدرسة العربية : بغداد) .



(لوحة ٣٦٠) مخطوطة مقامات الحريري للواسطي ، تصويـرة تمثل المقامة العاشرة (الرحبية) السروجي وابنه بين يدي والي الرحبة . (المدرسة العربية ، بغداد) .



(لوحة ٣٦١) مخطوطة مقامات الحريري للواسطي ، تصويـرة تمثل المقامة الواحدة والثلاثين (الرملية) ويشاهد فيها الاحتفال بقافلة الحج (المحمل) . (المدرسة العربية ، بغداد) .



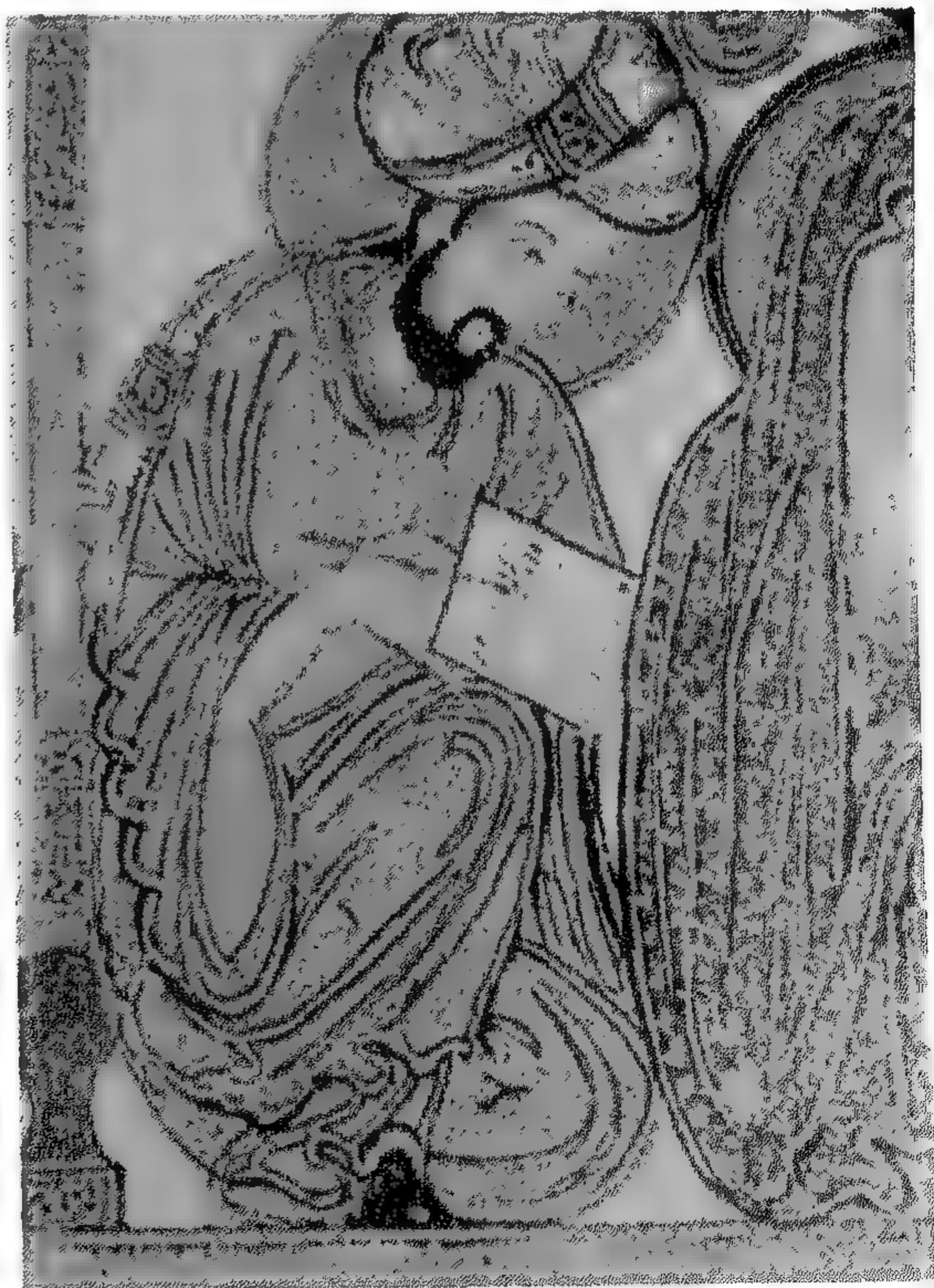
(لوحة ٣٦٢) مخطوطة مقامات الحريري للواسطي ، تصويرة تمثل المقامة الثانية والثلاثين حين سئل عما يجب في عشر خناجر (نوق) . (المدرسة العربية ، بغداد) .



(لوحة ٣٦٣) مخطوطة مقامات الحريري للواسطي ، تصويرة تمثل المقامة الثالثة والأربعين (الشتوية) ، ويشاهد فيها منظر قرية والحارث والسروجي يسألان غلاماً عن أحوالها (المدرسة العربية ، بغداد) .



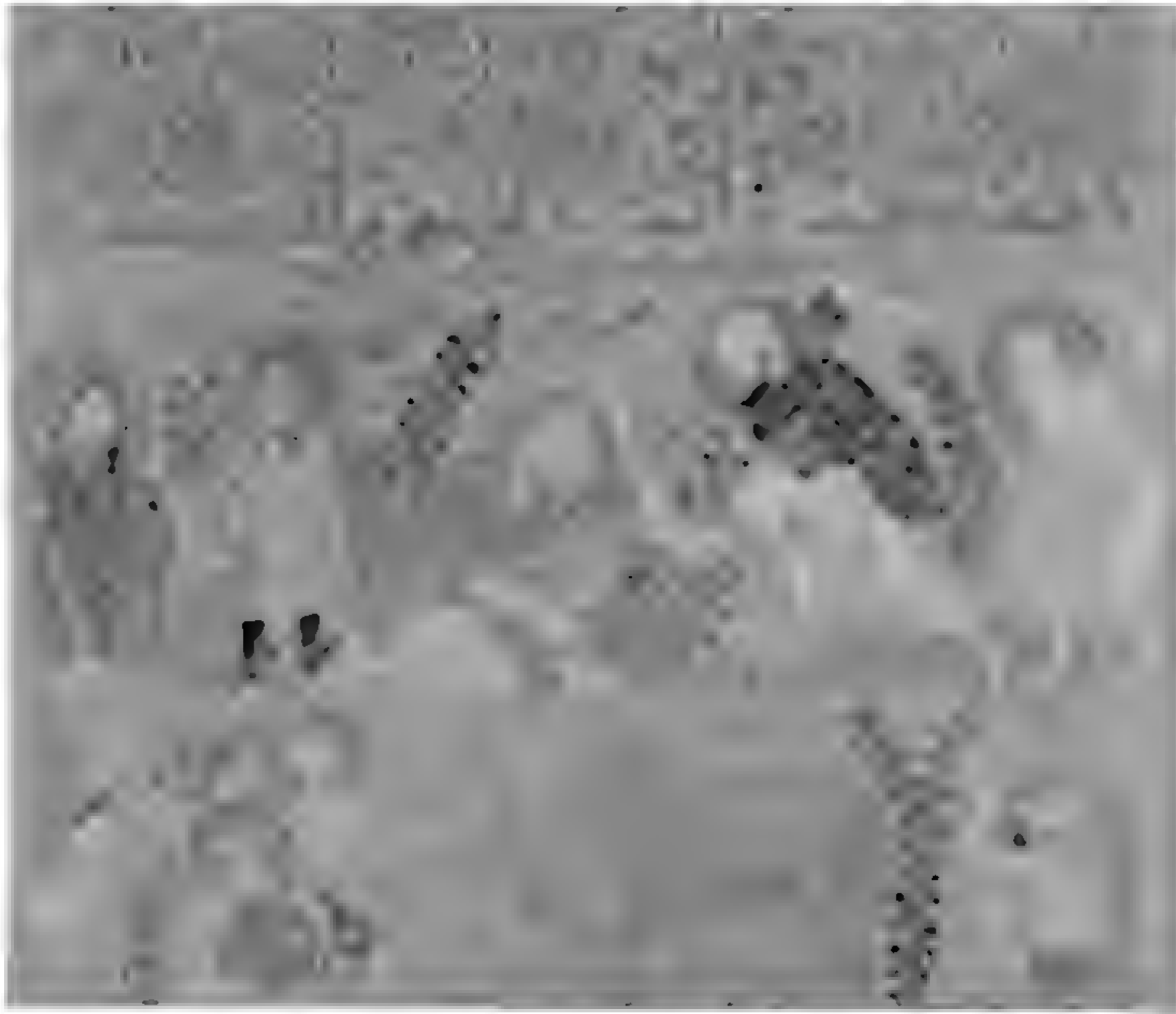
(لوحة ٣٦٤) مخطوطة رسائل
 اخوان الصفا وخلان الوفا مؤرخة
 ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م . تصويرة تمثل
 حلقة علم .
 المدرسة العربية : بغداد) .



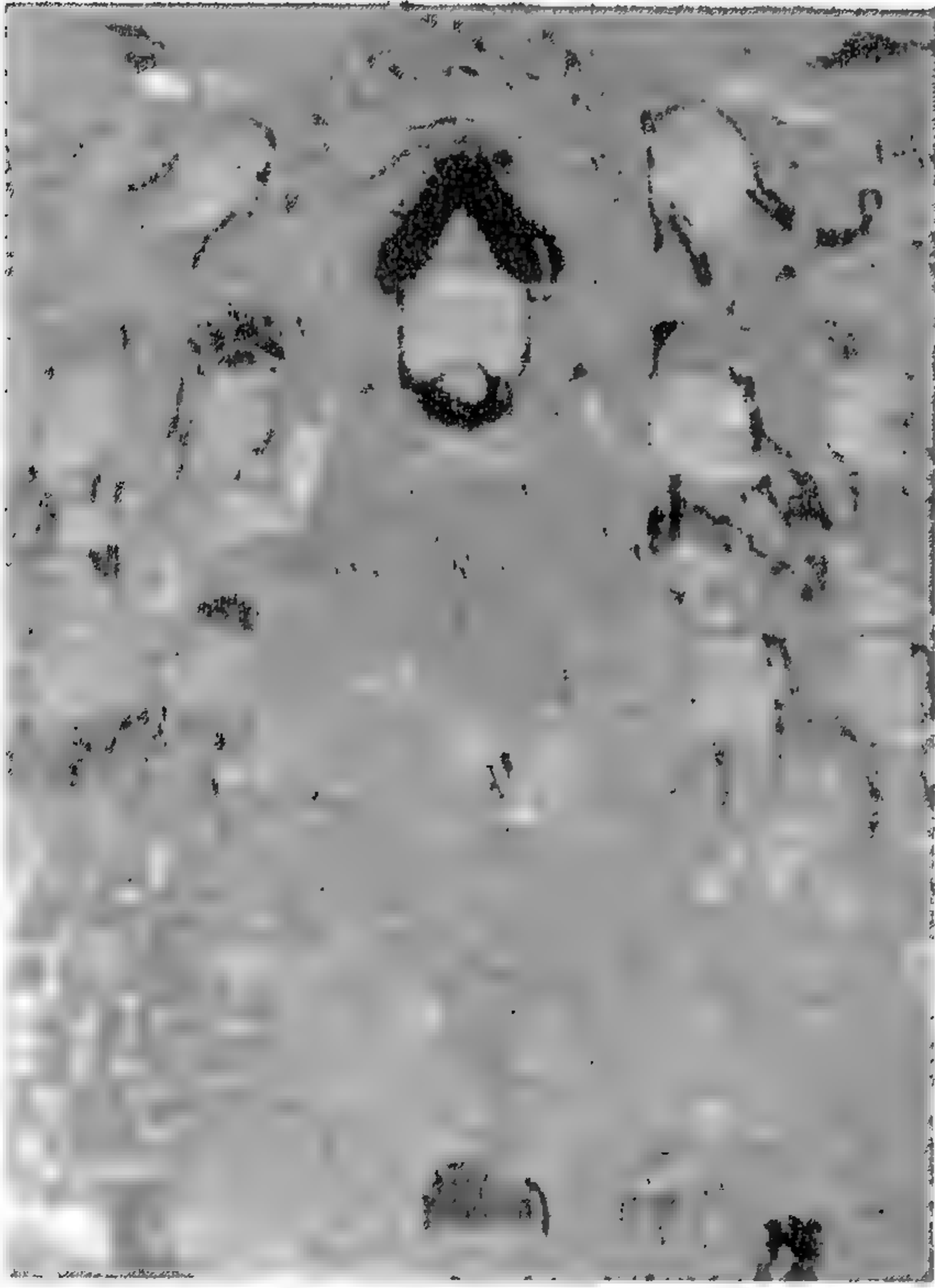
(لوحة ٣٦٥) مخطوطة رسائل اخوان
 الصفا ، تفصيل لصورة الكاتب في اللوحة
 السابقة . (المدرسة العربية : بغداد) .



(لوحة ٣٦٦) مخطوطة كتاب الترياق لجالينوس مؤرخة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م ومحفوظة في المكتبة الاهلية ببغداد (رقم ٢٩٦٤ عربي). تصويرة تمثل اميرا في اعلى ويده اليمنى كأس وعن يمينه ويساره النسوة ، واربعه رجال يقومون بأعمالهم في أسفل . (المدرسة العربية ، الموصل (بلاد الجزيرة) شمال العراق) .

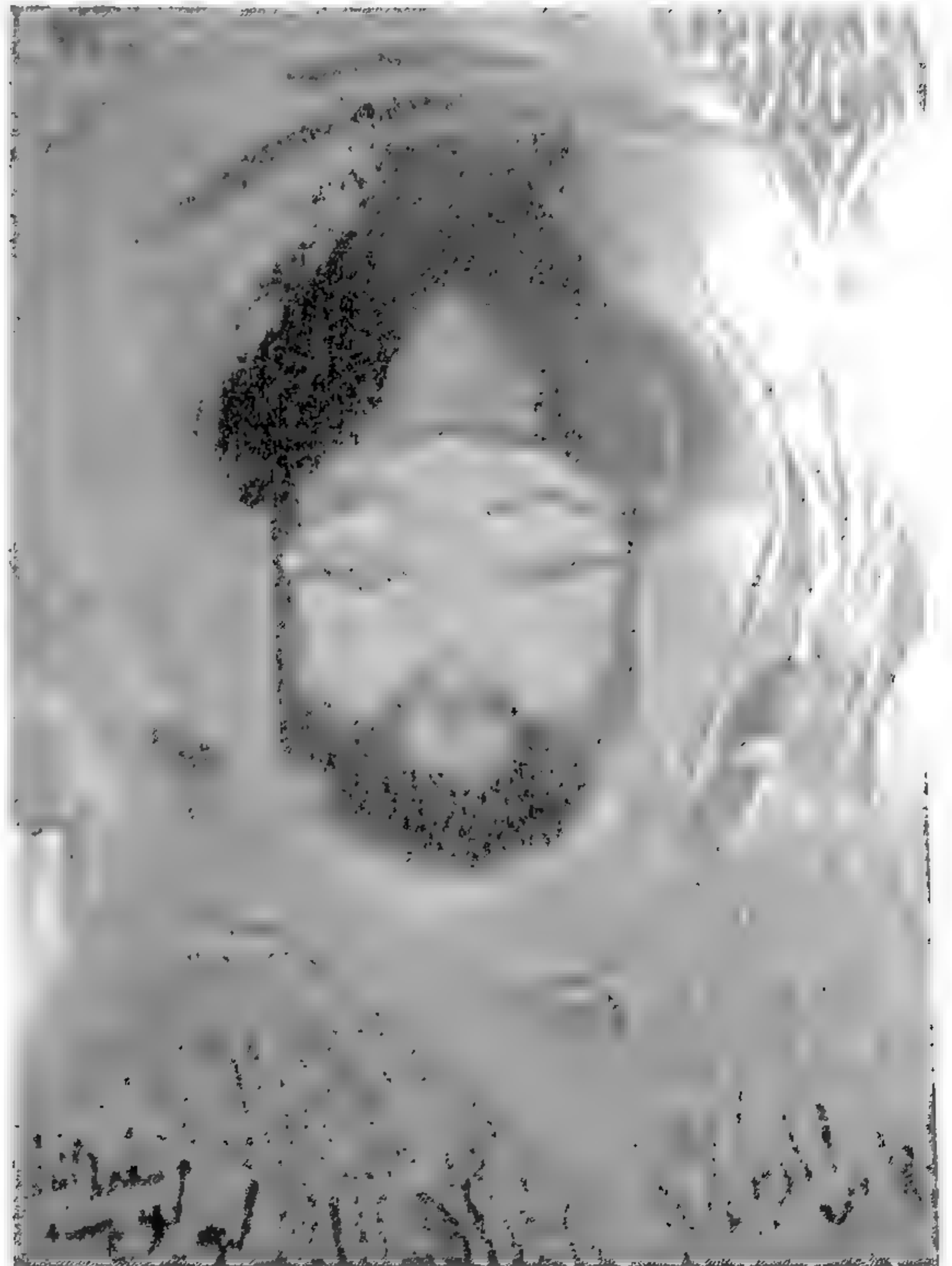


(لوحة ٣٦٧) مخطوطة كتاب الترياق لجالينوس ٥٩٥هـ / ١١٩٩م ، تصويرة تمثل بعض الاعمال الحقلية وفي اعلاها كتب (هذا كلام الدروما حسن بلفظه) (المدرسة العربية ، الموصل) .



(لوحة ٣٦٨) مخطوطة كتاب
الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني
مؤرخة ٦١٤هـ/١٢١٧م محفوظة في
مكتبة فيض الله الأهلية باستانبول
تصويرة غرة الجزء التاسع عشر
تمثل الاتابك بدرالدين لولو جالسا
وحوله عدد من أتباعه (المدرسة
العربية : الموصل) .

(لوحة ٣٦٩) مخطوطة كتاب الأغاني
٦١٤هـ/١٢١٧م تفصيل لصورة الاتابك
بدرالدين لولو عبد الله . (المدرسة
العربية : الموصل) .





(لوحة ٣٧٠) مخطوطة كتاب كليلة ودمنة محفوظة في المكتبة الاهلية ببائيس (رقم ٣٤٦٥ عربي) ومن المرجح أنها تعود الى حوالي ١٢٢٢هـ/ ١٢٢٥م تصويرة تمثل الاسد ملك الغابة والتعلب دمنه يتودد له ويتقرب اليه (المدرسة العربية ،بلاد الجزيرة) .



(لوحة ٣٧١) مخطوطة كليلة ودمنة محفوظة في المكتبة الاهلية ببائيس (رقم ٣٤٦٧ عربي)، من المرجح أنها تعود الى حوالي الربع الثاني من ق ١٤هـ/ ١٤م ، تصويرة تمثل الحرب بين البوم والغريان - (المدرسة العربية ،مصر وسوريا) .



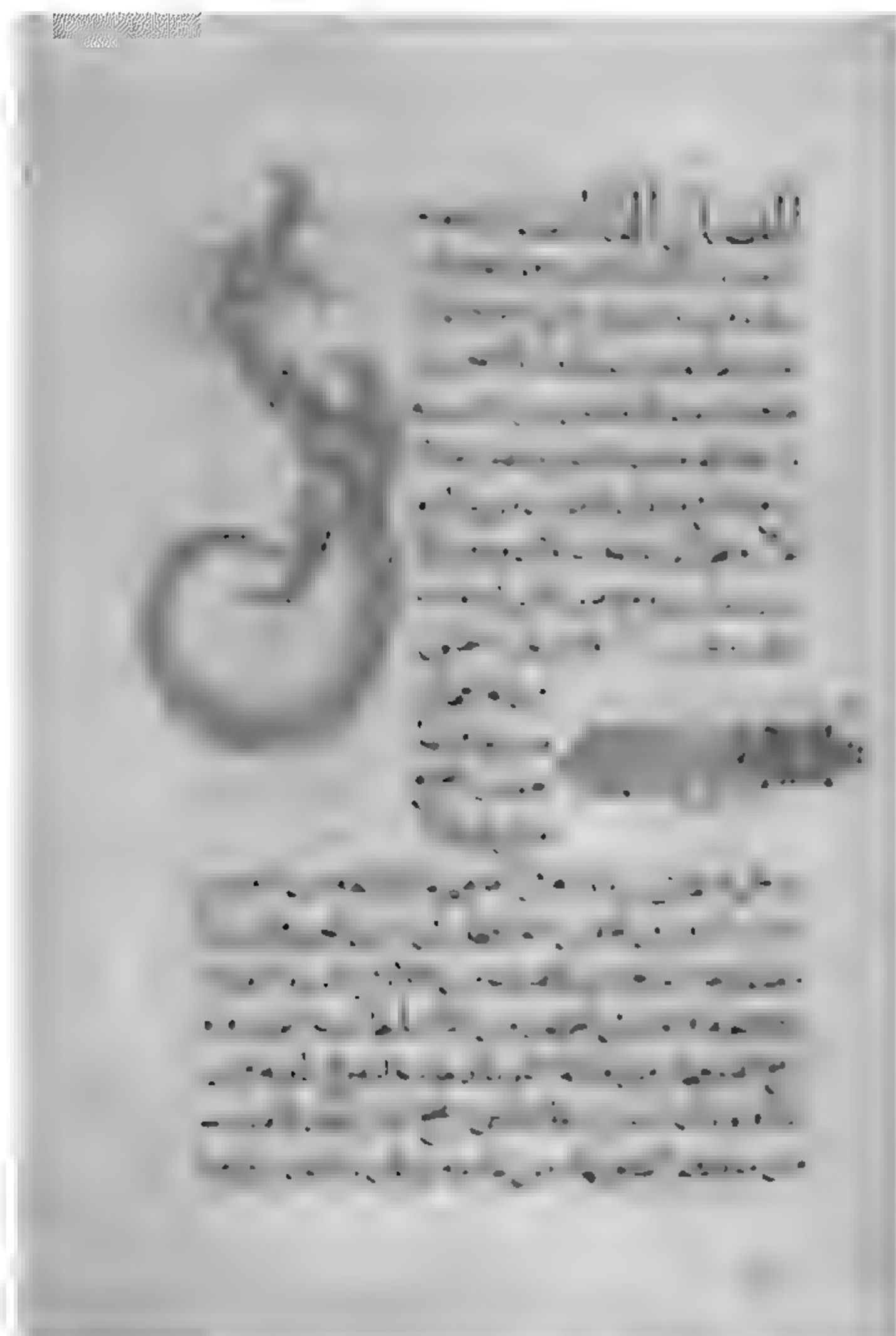
(لوحة ٣٧٢) مخطوطة كتاب كليله ودمنة مؤرخة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م ومحفوظة بالمكتبة
البودلية باوكسفورد رقم (Pococke 400). تصويرة تمثل قصة الفيل والارنب عند
عين القمر (المدرسة العربية ، مصر وسوريا) .



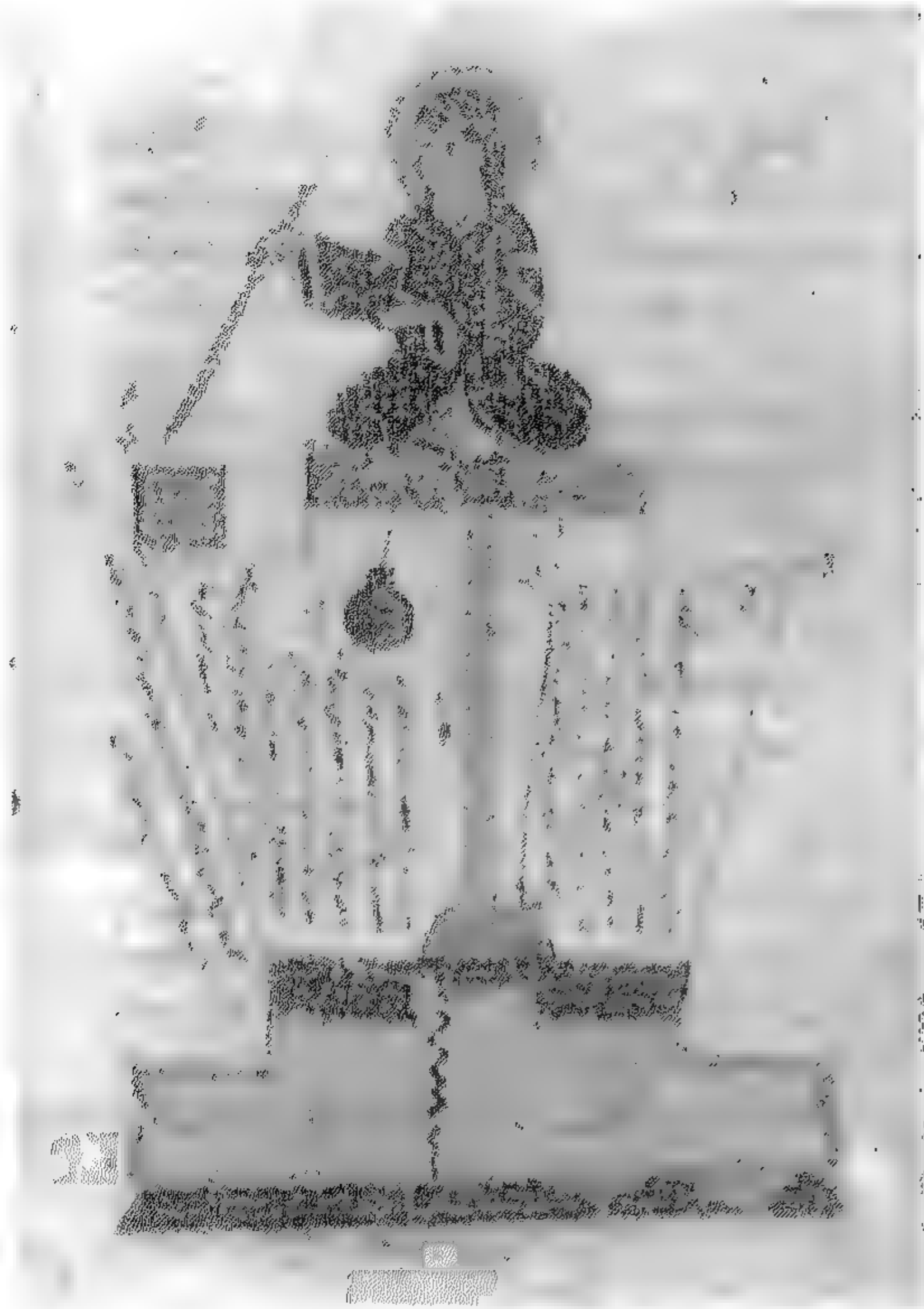
(لوحة ٣٧٣) مخطوطة رسالة دعوة الاطباء لابن بطلان البغدادى ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م
محفوظة في مكتبة الامبروزيانا في ميلان (رقم A.125 Inf) تصويرة تمثل وليمة في
دار احد الاطباء (الودسة العربية ، مصر) .



(لوحة ٣٧٤) مخطوطة كتاب الحيل الحامع بين العلم والعمل لآين الرزاز الجزري مؤرخة ١٣١٥هـ/١٧١٥م ومحفوظة في دار الآثار الإسلامية بالكويت ، لوحة مجمعة لاثنتي عشرة تصويرة من المخطوط .

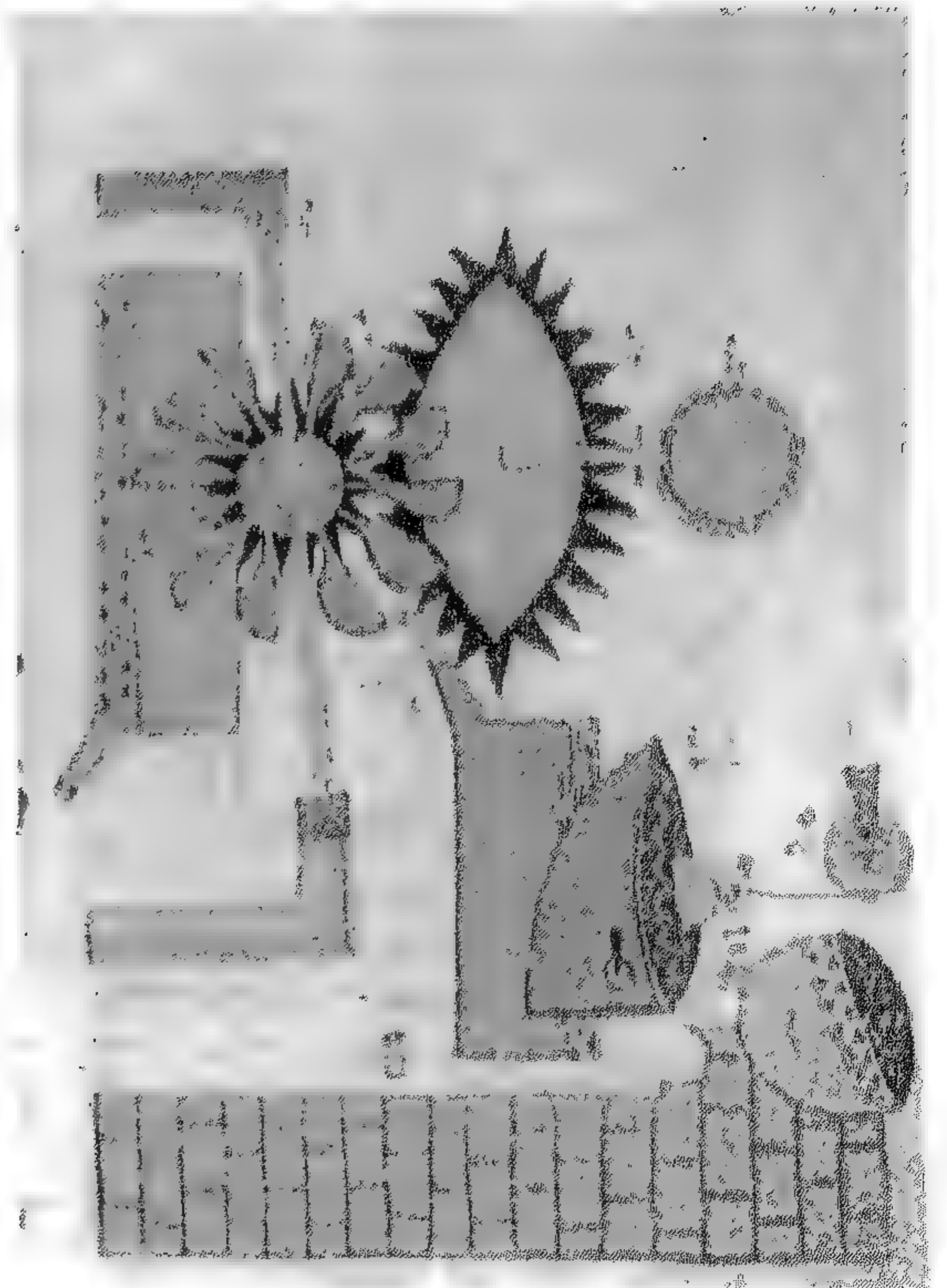


(لوحة ٣٧٥) مخطوط كتاب الحيل للجزري ، تصويرة تمثل تنين يربدي حذاء عالي الساق وسلسلة متصلة يساعدها على الحركة الألية في عملية الفطس والطفو للسوائل .



(لوحة ٣٧٦) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري، تصويرة تمثل ساعة مائية علي
هيئة رجل جالس حاملا قلم يحدد به
الوقت بتحريك ناقل الحركة الصادرة عن
حركة الماء .

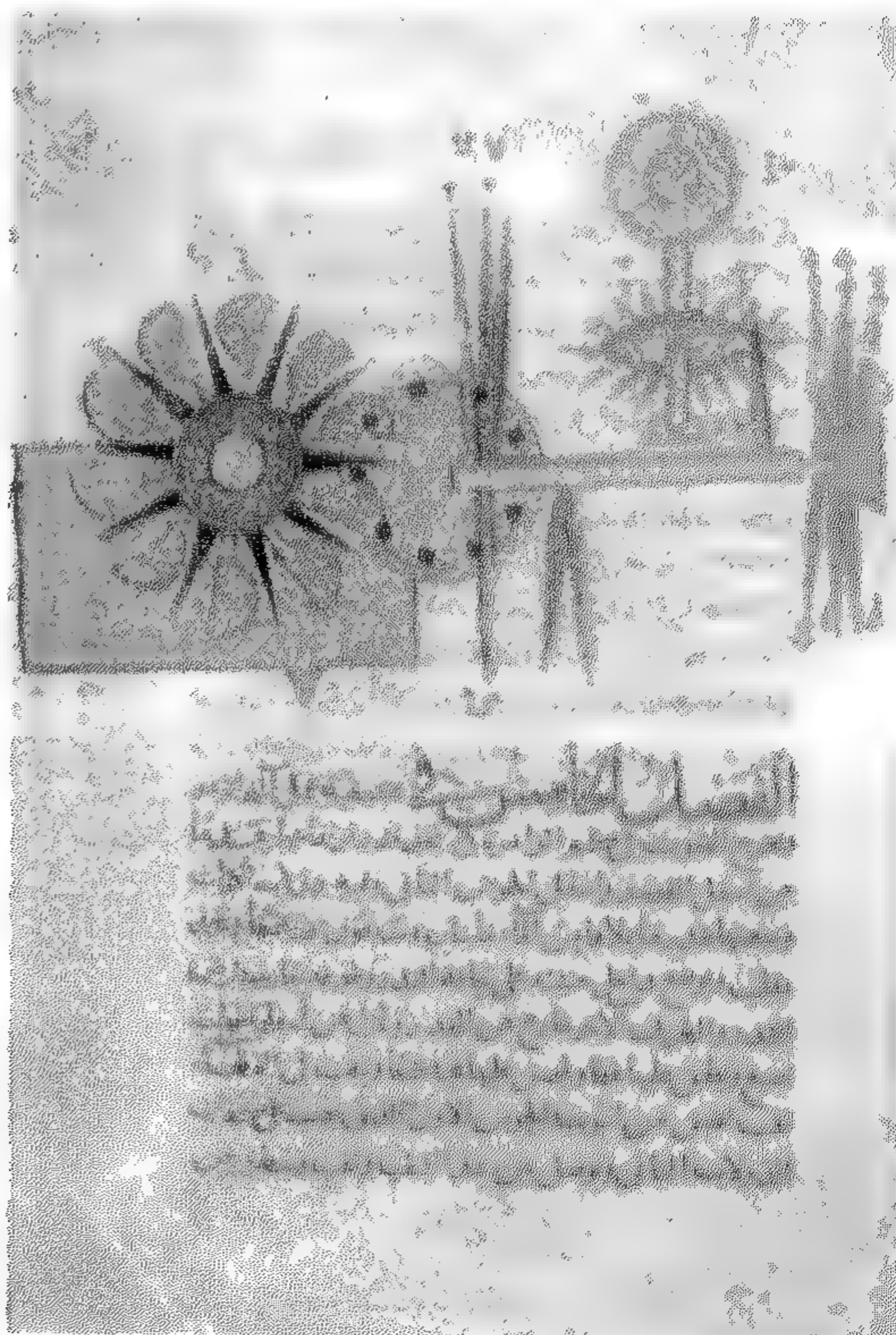
(لوحة ٣٧٧) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري، تصويرة تمثل حوض ماء مزود
بساقية (دولاب) تتحرك بتدفق السوائل
لتنقل الحركة لاعلي الآلة .





(لوحة ٣٧٨) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري : تصويرة تمثل ساعة شمعية
تعتمد في احصاء ساعات الليل علي
مستوي ذوبان الشمعة المشتعلة) يساهم
في ذلك حركة رجل وقرد وصقر وبكرة
ناقلة للحركة .

(لوحة ٣٧٩) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري : تصويرة تمثل حيلة ميكانيكية
تحول حركة ساقية (دولاب) مائية الي
آلة زامرة .

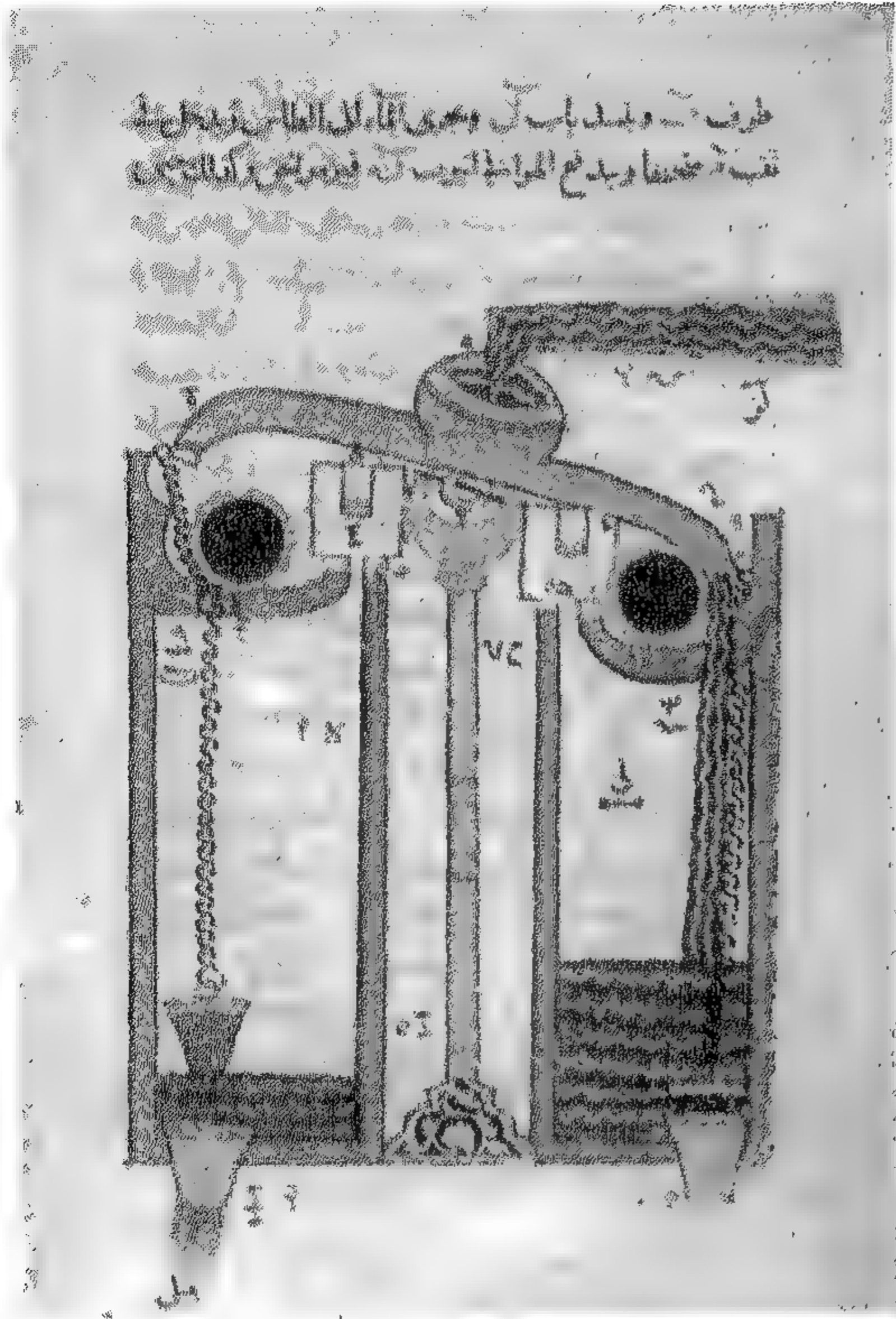




(لوحة ٣٨٠) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري، تصويرة تمثل حيلة ميكانيكية
تعتمد علي حركة مصدرها تدفق
الشراب ثم نقلها الي جارية لتقدم الشراب
الي الملك .

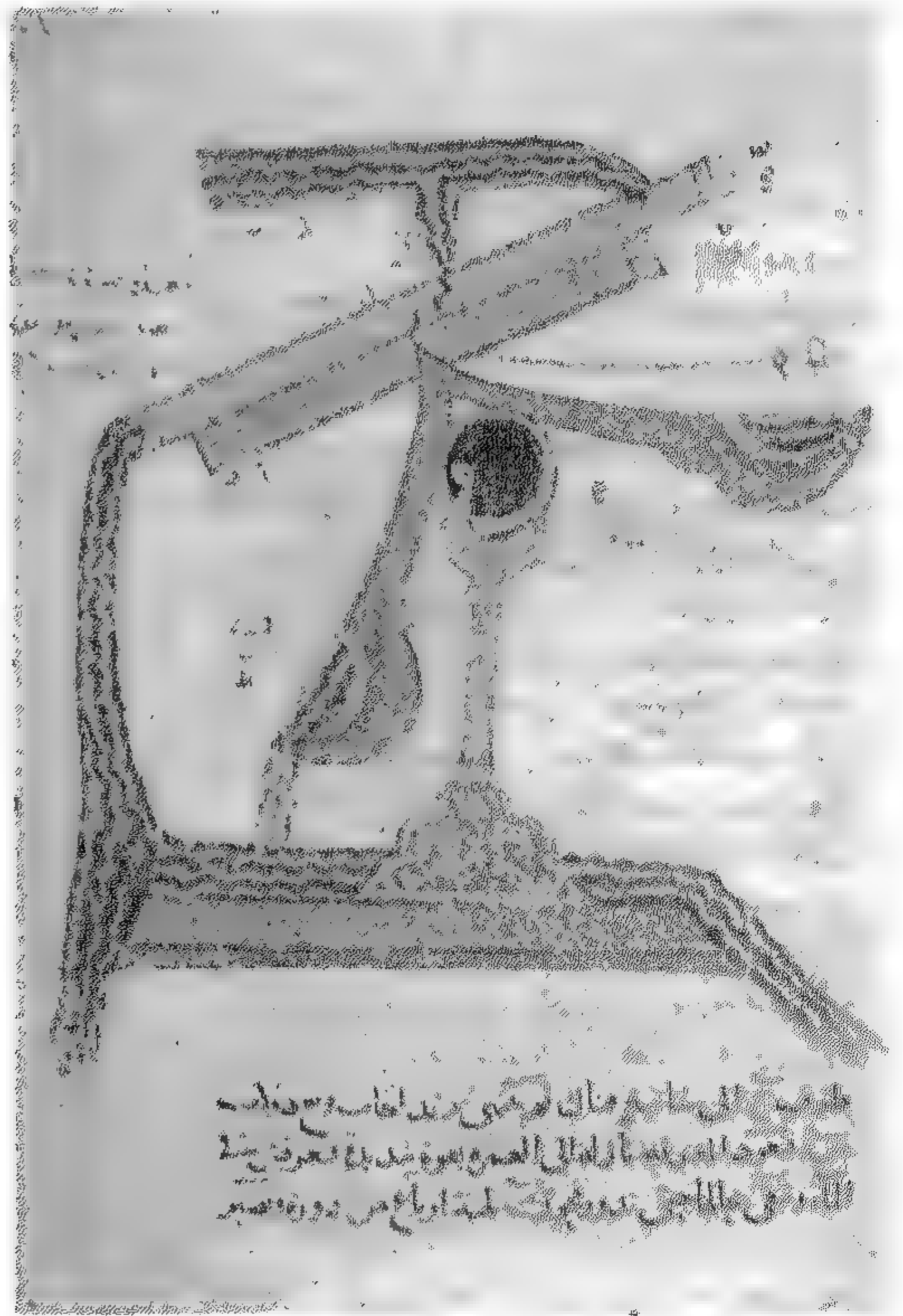
(لوحة ٣٨١) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري تصويرة تمثل ابريق ذو
صنبور علي شكل راس اوزة في عنقها
بندقة تحدث صوتا عند خروج
الشراب منها .

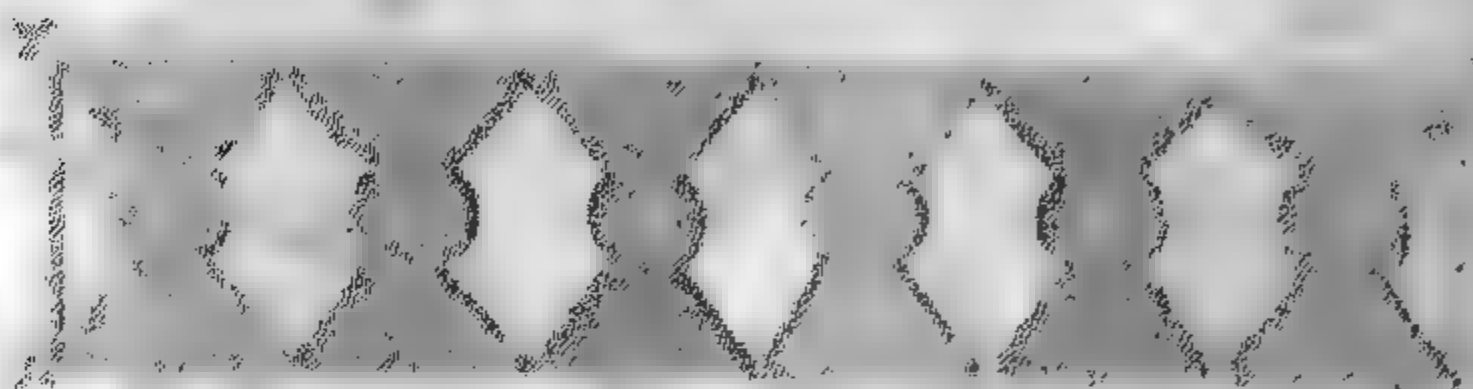




(لوحة ٣٨٢) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري: تصويرة تمثل حيلة هندسية
علي هيئة قضيب (ميزان) فوق وعاء مائي
عندما يمتلئ يندفع الهواء فتزمر الآلة .

(لوحة ٣٨٣) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري: تصويرة تمثل حيلة هندسية
مكونة من ذراع متارجح وتؤدي قوة دفع
الماء الي تكرار الحركة للذراع آخر .





1. 凡屬本國人民，其法律地位均應平等。
 2. 凡屬本國人民，其法律地位均應平等。
 3. 凡屬本國人民，其法律地位均應平等。

(لوحة ٣٨٥) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري : تصويرة تمثل قارعة (مطرقة)
لبوابة قصر علي هيئة شعبانين متقابلين
عندما يطبقان علي رأس أسد في الوسط
يحدثا قرعاً.

[illegible]

وهذا الدرس من السبع
والسوق فيها فاضل رتبة
من حط على حط الباس
والسنة الثمان مائة
من حق السبع الجوز
الجوزة ثمة رتبة
الجوزة رتبة السبع
على رتبة رتبة
فالسوق رتبة
من السبع رتبة
فالسوق رتبة
من السبع رتبة
فالسوق رتبة

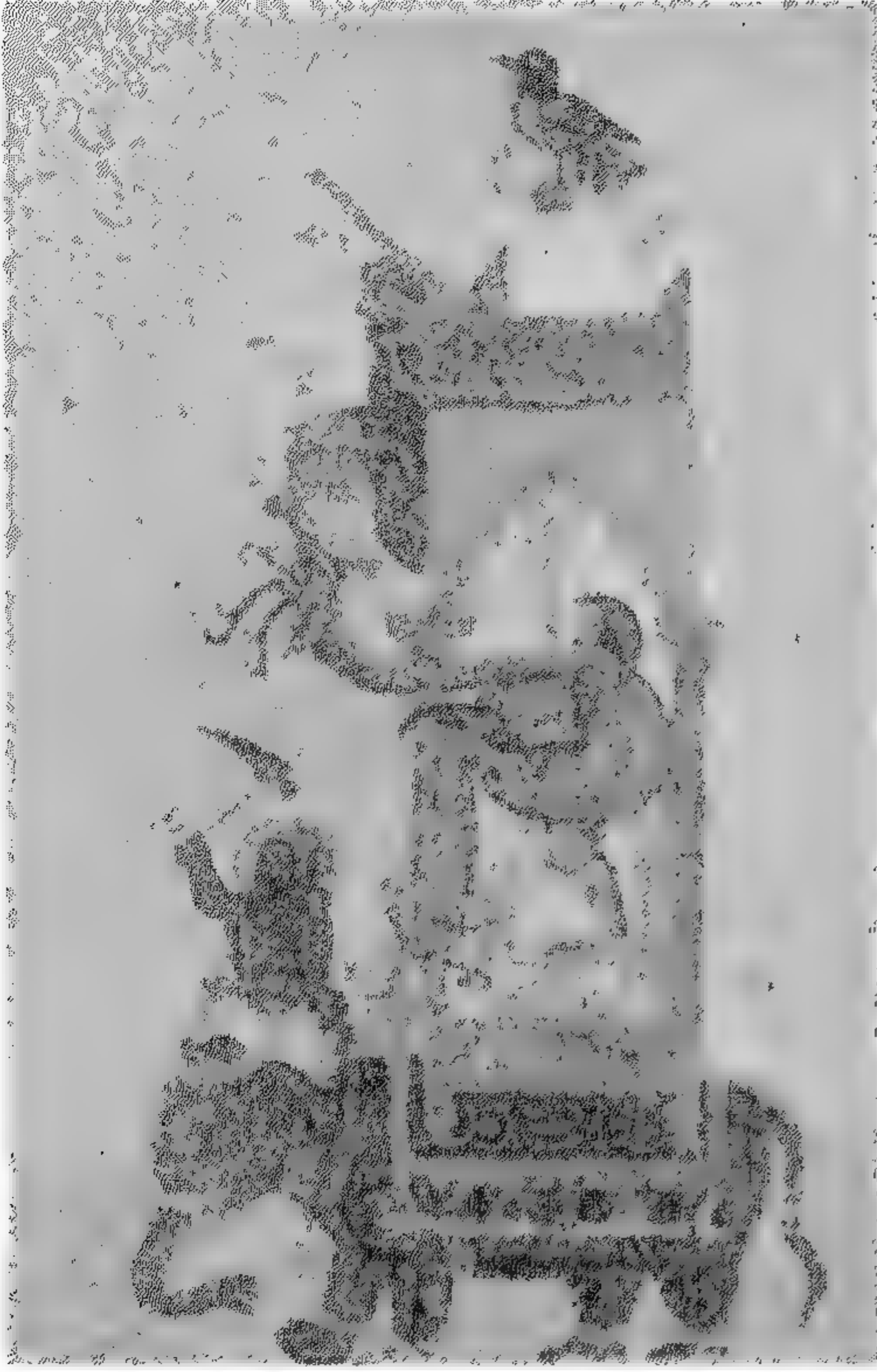




(لوحة ٣٨٦) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري، تصويرة تمثل ساعة منبه علي
شكل بحار متوج عندما يغوص في الماء
يندفع هواء محبوس داخل تجويف
قميصه ليصعد الي الرأس، وعندما يخرج
الهواء يحدث صفيراً منبهاً .

(لوحة ٣٨٧) مخطوطة كتاب الحيل
للجزري مؤرخة ب ٧١٥هـ / ١٣١٥م ،
محفوظة في صالة فريير للفن في
واشنطن (رقم 42.10b) ، تصويرة
تمثل ساعة الطبالين التي تعمل
بالماء .





(لوحة ٣٨٨) مخطوطة كتاب الحيل للجزري
مؤرخة ٧١٥هـ/١٣١٥م ومحفوظة في متحف
المتروبوليتان بنيويورك : تصويرة تمثل
الساعة الضيلية .

(لوحة ٣٨٩) مخطوطة كتاب مقامات
الحريري مؤرخة ٧٣٤هـ/١٣٣٤م
ومحفوظة في المكتبة الأهلية في فيينا
(رقم A.F.9) : تصويرة غرة المخطوطة
تمثل أميرا في مجلس شراب وتسلية .
(المدرسة العربية : مصر) .

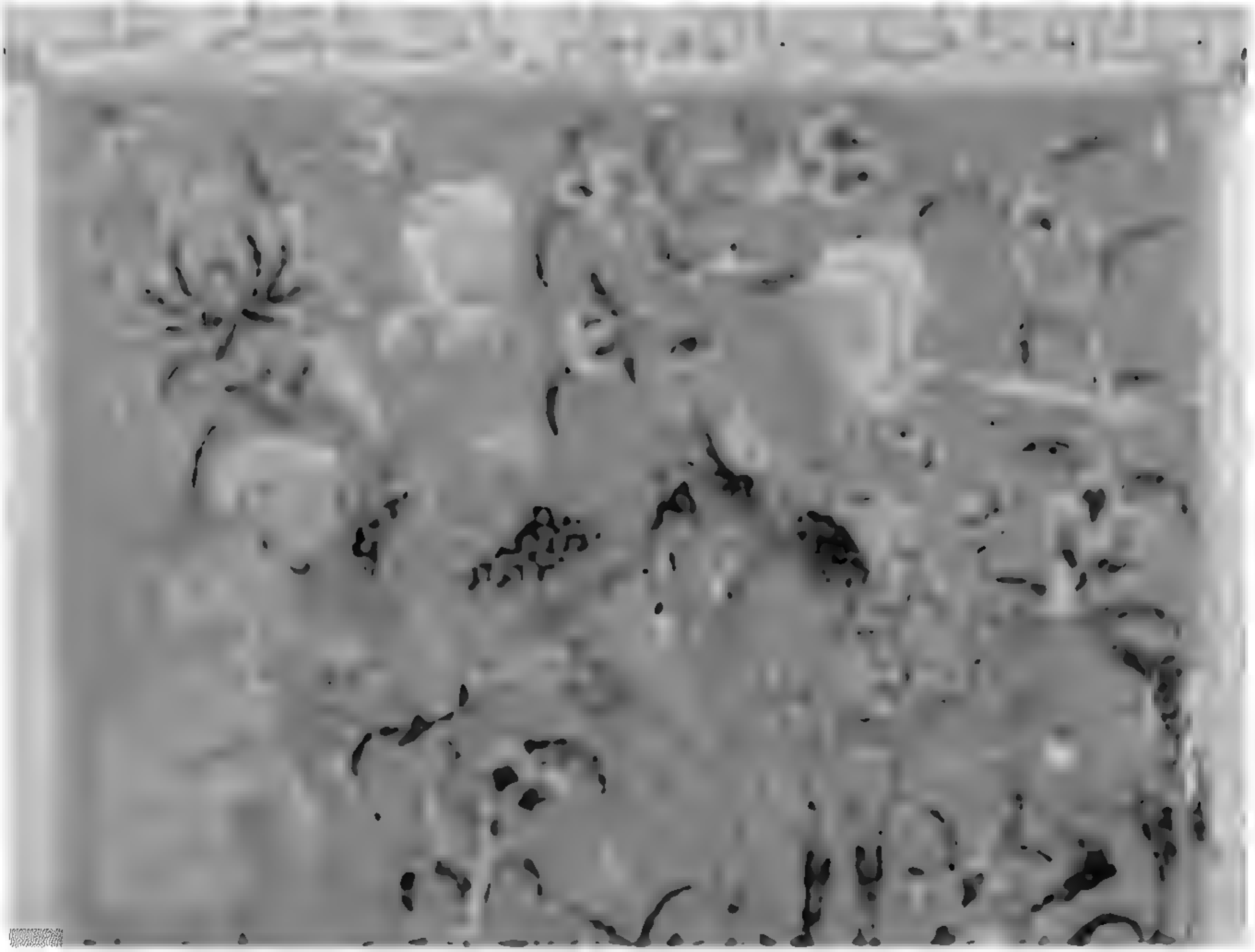




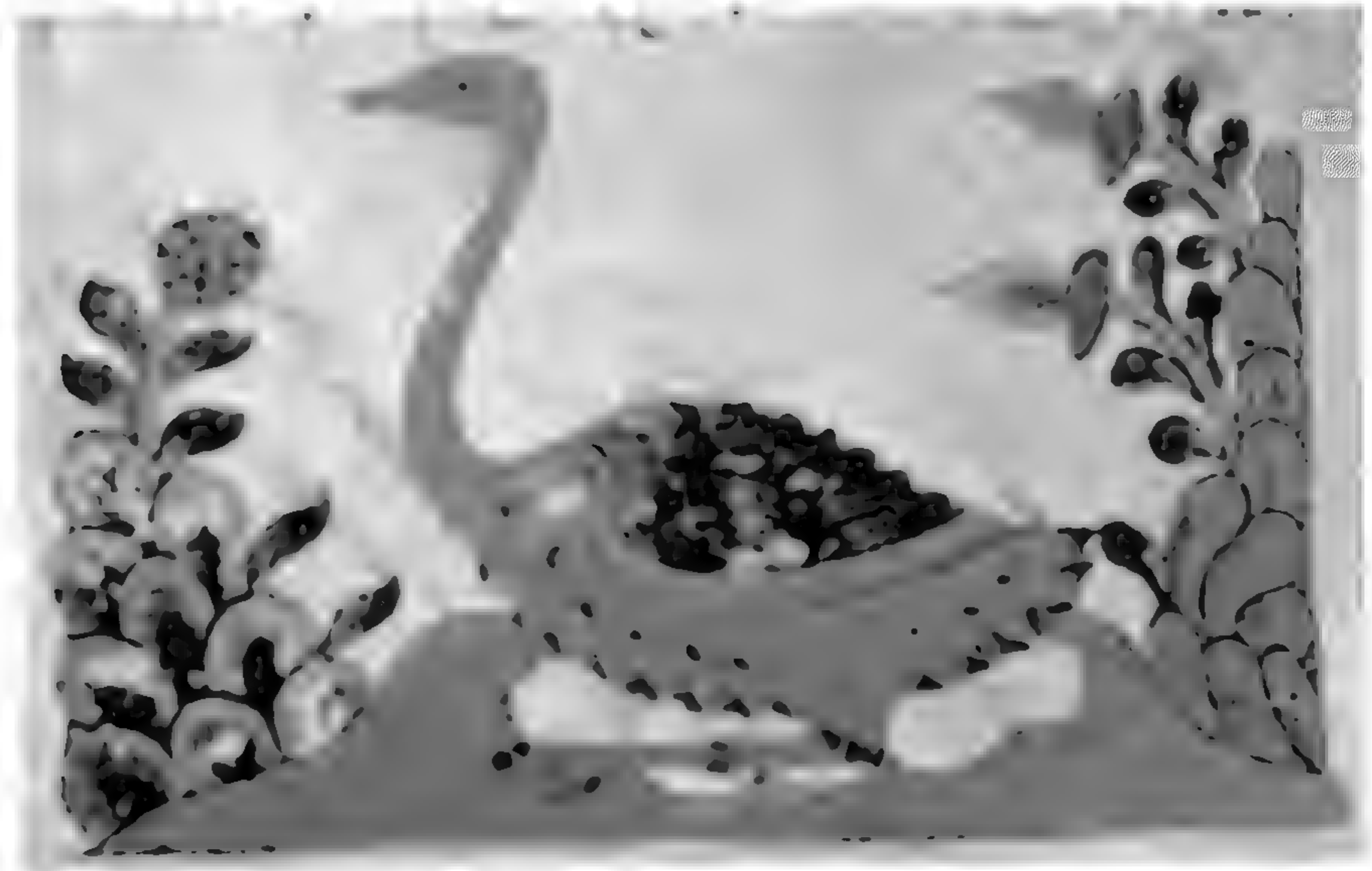
(لوحة ٣٩٠) مخطوطة كتاب مقامات الحريري في فيينا ١٧٣٤هـ / ١٣٣٤م ، تصويرة تمثل ابو زيد السروجي يتوسل الي قاضي المعرة (المقامة الثامنة) (المدرسة العربية ، مصر) .



(لوحة ٣٩١) مخطوطة كتاب مقامات الحريري في فيينا ١٧٣٤هـ / ١٣٣٤م ، تصويرة تمثل الحارث يتحدث الي ابي زيد السروجي في خيمته (المقامة السادسة والعشرين) (المدرسة العربية ، مصر) .



(لوحة ٣٩٢) مخطوطة كتاب مقامات الحريري في فيينا ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م ،
تصويرة تمثل ابو زيد السروجي يساعد الحارث على استعادة جملة (المقامة
السابعة والعشرين) . (المدرسة العربية ، مصر) .



(لوحة ٣٩٣) مخطوطة كتاب الحيوان للجاحظ محفوظة في مكتبة الامبروزيانا
في ميلان (رقم ، A.R.A.F.D.140 Inf) ، ومن المرجح أنها تعود الي حوالي منتصف
ق ٨هـ / ١٤م . تصويرة تمثل نعامة تجلس علي بيضها . (المدرسة العربية ، مصر) .



(لوحة ٣٩٤) مخطوطة كتاب قانون الدنيا وعجائبها للشيخ احمد المصري مؤرخة ١٥٦٣/١٩٧٠م ومحفوظة في متحف طوبقابي سراي بأستانبول (رقم Revan.1638) ، تصوير تمثل ياجوج وماجوج . (المدرسة العربية ، مصر - العصر العثماني) .



(لوحة ٣٩٥) مخطوطة كتاب عجائب المخلوقات وخرائب الموجودات للقزويني محفوظة في المكتبة الاهلية في ميونخ (رقم C.Arab 463) ومن المرجح أنها تعود الي ق ١٢/١٨م ، تصوير تمثل برج الثور (المدرسة العربية، مصر - العصر العثماني) .



(لوحة ٣٩٦) مخطوطة كتاب الكواكب الثابتة للصوفي محفوظة في مكتبة الفاتيكان (رقم روس ١٠٣٣) ، ومن المرجح أنها أنجزت في سبته ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ، تصويرة تمثل الراقص هرقل . (المدرسة العربية - المغرب) .



(لوحة ٣٩٧) مخطوطة كتاب بياض ورياض محفوظة في مكتبة الفاتيكان (رقم ٣٦٨ عربي) ، ومن المرجح أنها أنجزت في الأندلس في ق ٨هـ / ١٤م ، تصويرة تمثل بياض قائما بأزاء بستان علي شاطئ نهر الشرار . (المدرسة العربية ، الأندلس) .



(لوحة ٣٩٨) مخطوطة كتاب بياض ورياض في الفاتيكان ، تصويرة تمثل شمول تكلم بياضا وهو بقرب النهر وتصلمه رسالة رياض . (المدرسة العربية ، الأندلس) .

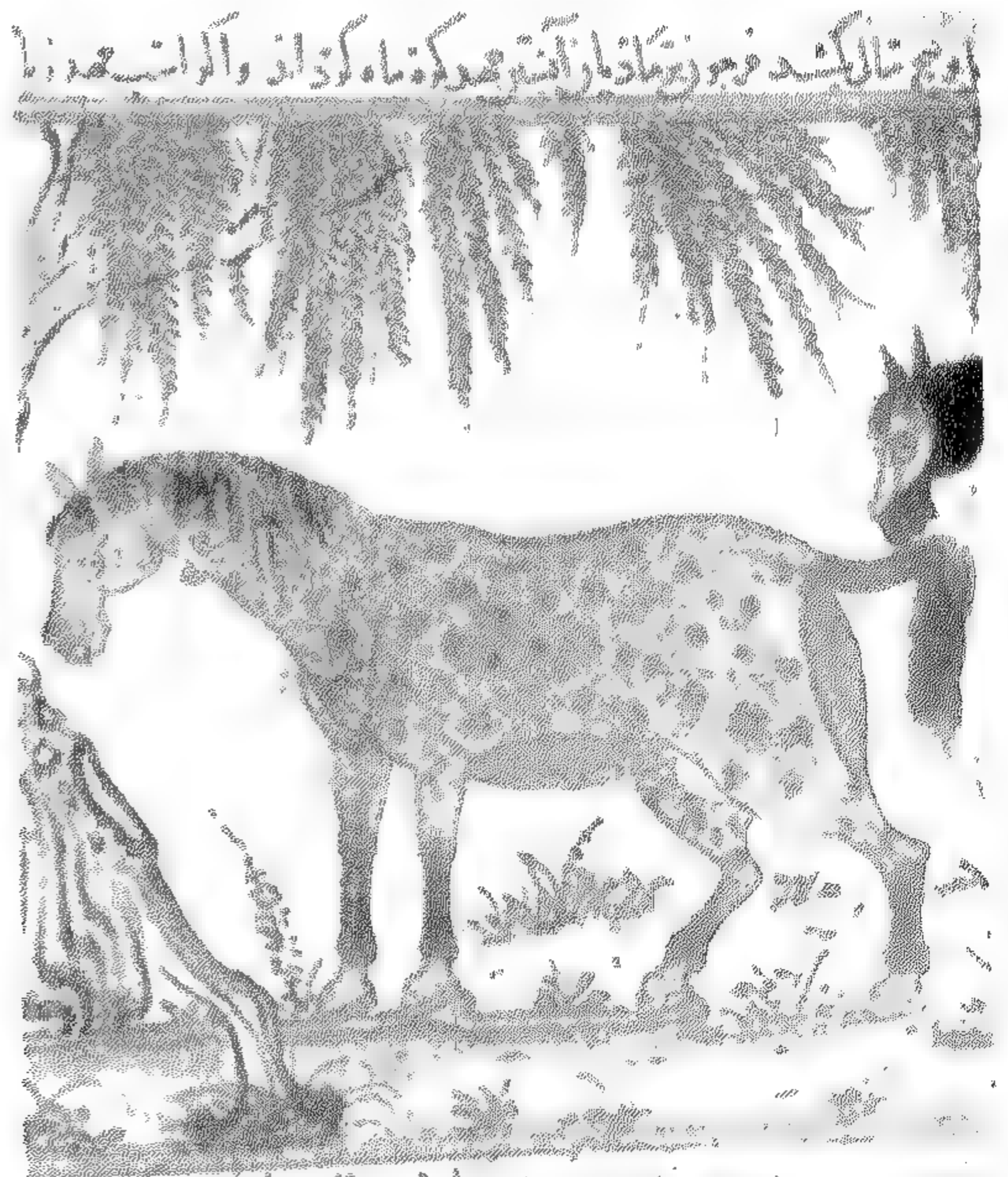


(لوحة ٣٩٩) مخطوطة كتاب بياض ورياض في الفاتيكان ، تصويرة تمثل بياضا يعزف علي العود ويتغلي بحبه امام سيده تجلس علي اريكة هي اقصى اليسار (ريما كانت رياض) وعدد من النساء جالسات حاسرات رؤوسهن . (المدرسة العربية ، الأندلس) .



(لوحة ٤٠٠) مخطوطة كتاب منافع
الحيوان لابن بختيشوع محفوظة في
مكتبة مورجان بنيويورك ، وقد نسخت
في مراغة بأمر السلطان الایلخاني غازان
خان قیماالبیر ٦٩٤-٦٩٩ هـ / ١٢٩٤-١٢٩٩ م ؛
تصویرة تمثل زوجا من الأسد في حالة
مداعبة . (المدرسة العربية : ایران) .

(لوحة ٤٠١) مخطوطة كتاب منافع
الحيوان لابن بختيشوع في مكتبة
مورجان ؛ تصویرة تمثل انثى وذكراً من
الخیل ولا يظهر من ذكر الخیل سوى
رأسه فی أقصى الیمین . (المدرسة
المغولية) .



لوحة ٤٠١ مخطوطة كتاب منافع
الحيوان لابن بختيشوع في مكتبة
مورجان ؛ تصویرة تمثل انثى وذكراً من
الخیل ولا يظهر من ذكر الخیل سوى
رأسه فی أقصى الیمین . (المدرسة
المغولية) .



(لوحة ٤٠٢) مخطوطه كتاب كليله
ودمنه في البوم (مرقعة) باسم الشاه
طهماسب الصفوي محفوظة في مكتبة
الجامعة باستانبول (كانت من قبل في
مكتبة يلدز)؛ تصويرة تمثل كيف خدع
رب البيت اللص حتي سقط من فوق سطح
داره . (مدرسة آل جلائر - تبريز - النصف
الثاني من ق ٨هـ / ١٤م) .

(لوحة ٤٠٣) مخطوطة كتاب (في الاشعار
الفارسية) محفوظة في متحف الفن
الاسلامي والتركي باستانبول (رقم ١٩٥٠)
مؤرخة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م : منظر طبيعي .
(المدرسة التيمورية : شيراز)

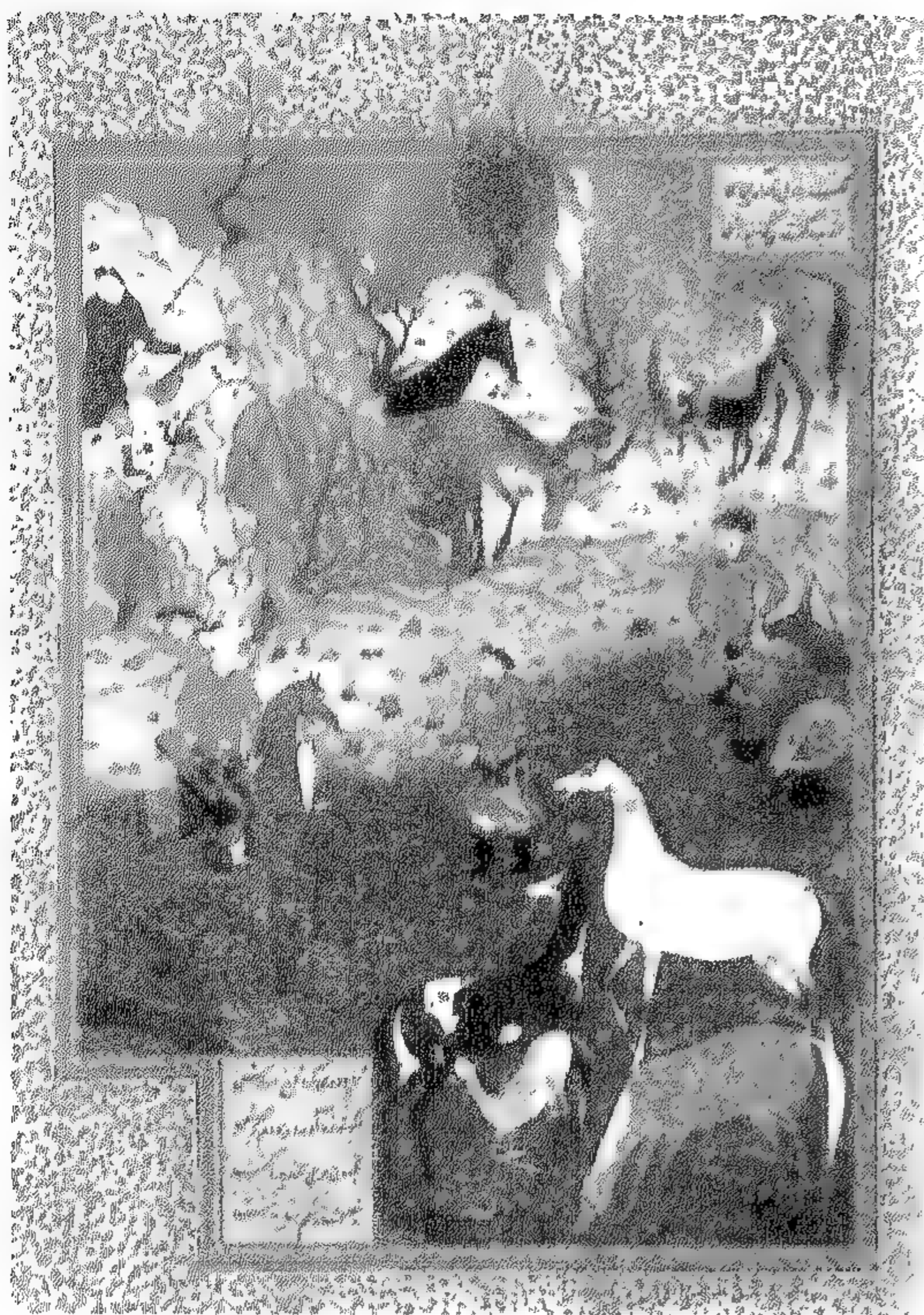




(لوحة ٤٠٤) مخطوطة كتاب البستان
لسعدي الشيرازي محفوظة بدار الكتب
المصرية بالقاهرة مؤرخة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٨ م،
تصويرة تمثل السلطان حسين ميرزا يسمر
في قصره (الصفحة اليمنى) المدرسة
التيمورية : هراة - المصور بهزاد).

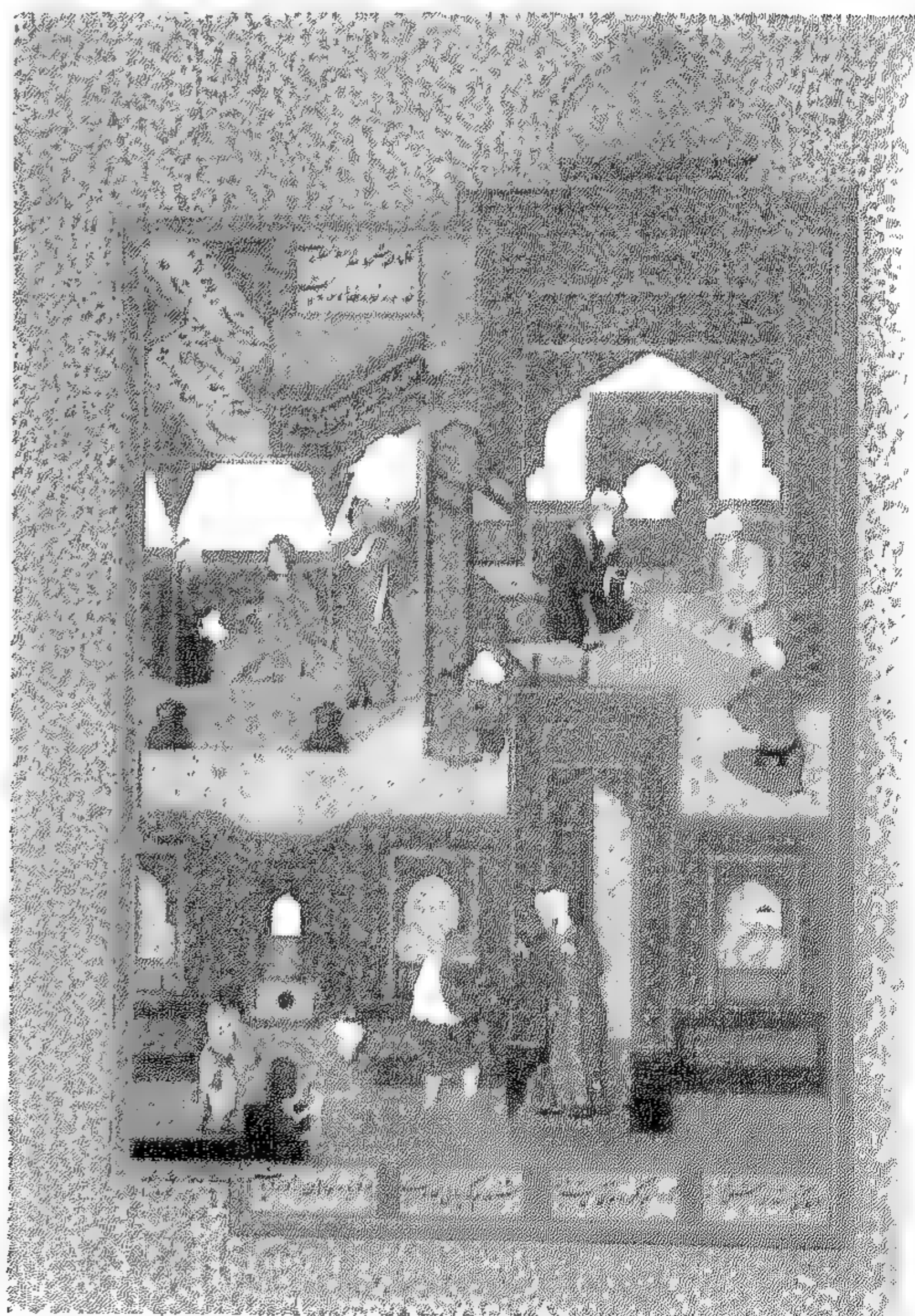
(لوحة ٤٠٥) مخطوطة كتاب البستان
لسعدي بدار الكتب المصرية : تصويرة
تمثل مجلس طرب وموسيقي بين يدي
السلطان حسين ميرزا (الصفحة اليسرى
المقابلة للصفحة اليمنى السابقة) .
(المدرسة التيمورية : هراة - المصور
بهزاد)

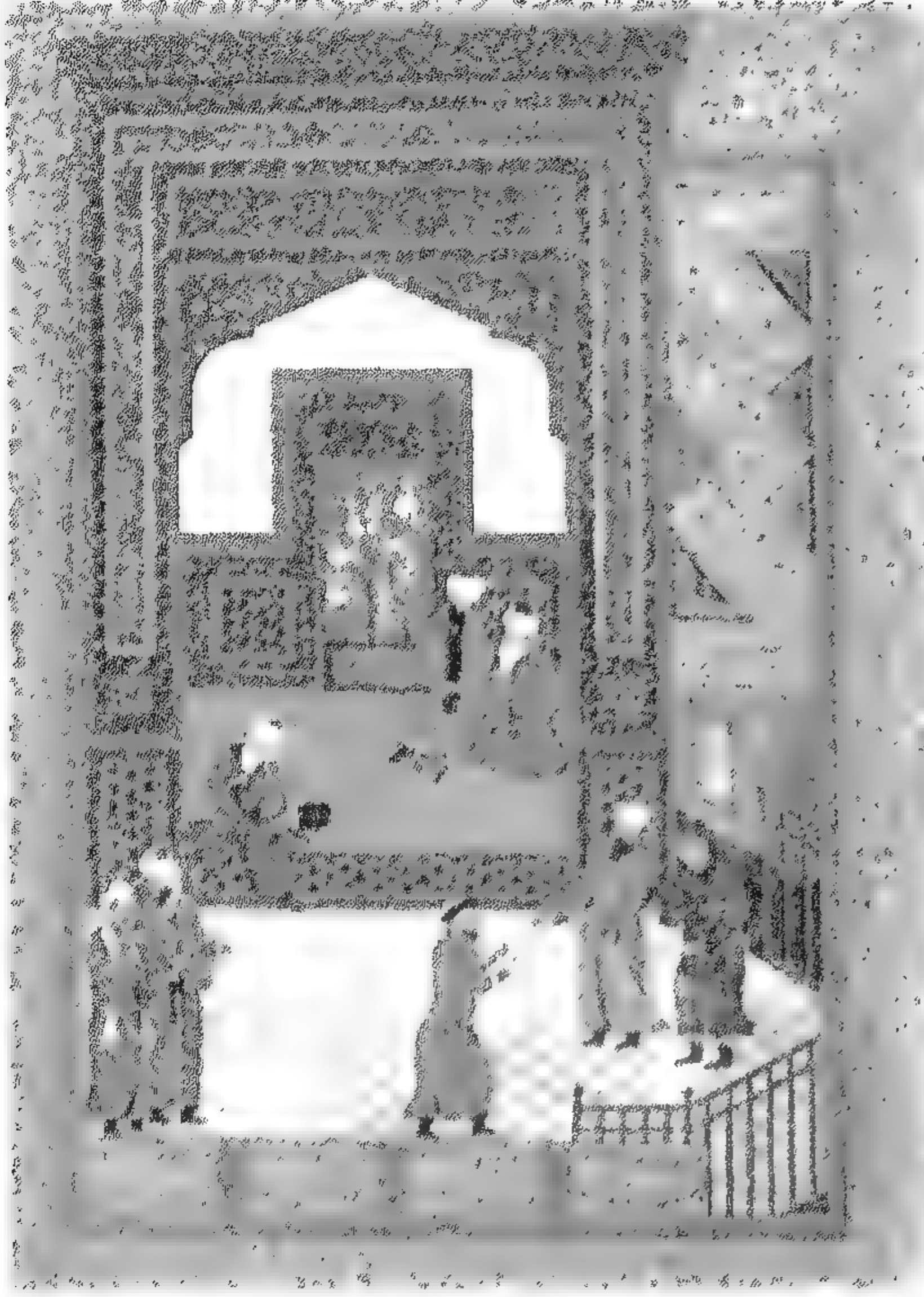




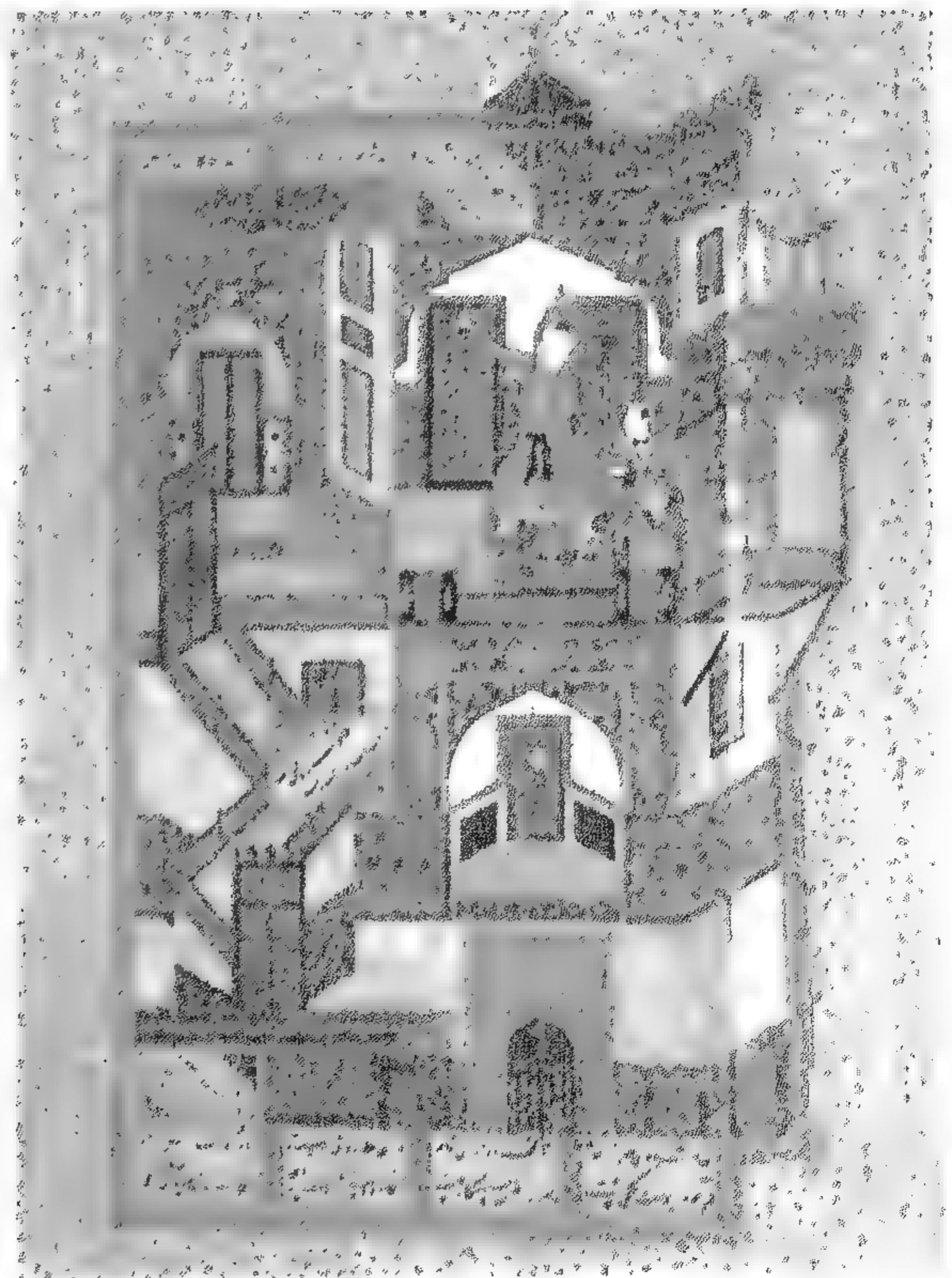
(لوحة ٤٠٦) مخطوطة كتاب البستان
لسعدي بدار الكتب المصرية : تصوير
تمثل الملك دارا وراعي خيوله . (المدرسة
التيمورية : هراة - المصور بهزاد).

(لوحة ٤٠٧) مخطوطة كتاب البستان
لسعدي بدار الكتب المصرية : تصوير
تمثل مناظر في مسجد . (المدرسة
التيمورية : هراة - المصور بهزاد).





(لوحة ٤٠٨) مخطوطة كتاب البستان
لسعدي بدارالكتب المصرية :تصويرة
تمثل فقهاء يتدارسون العلم في
المسجد . (المدرسة التيمورية : هراة
- المصور بهزاد).



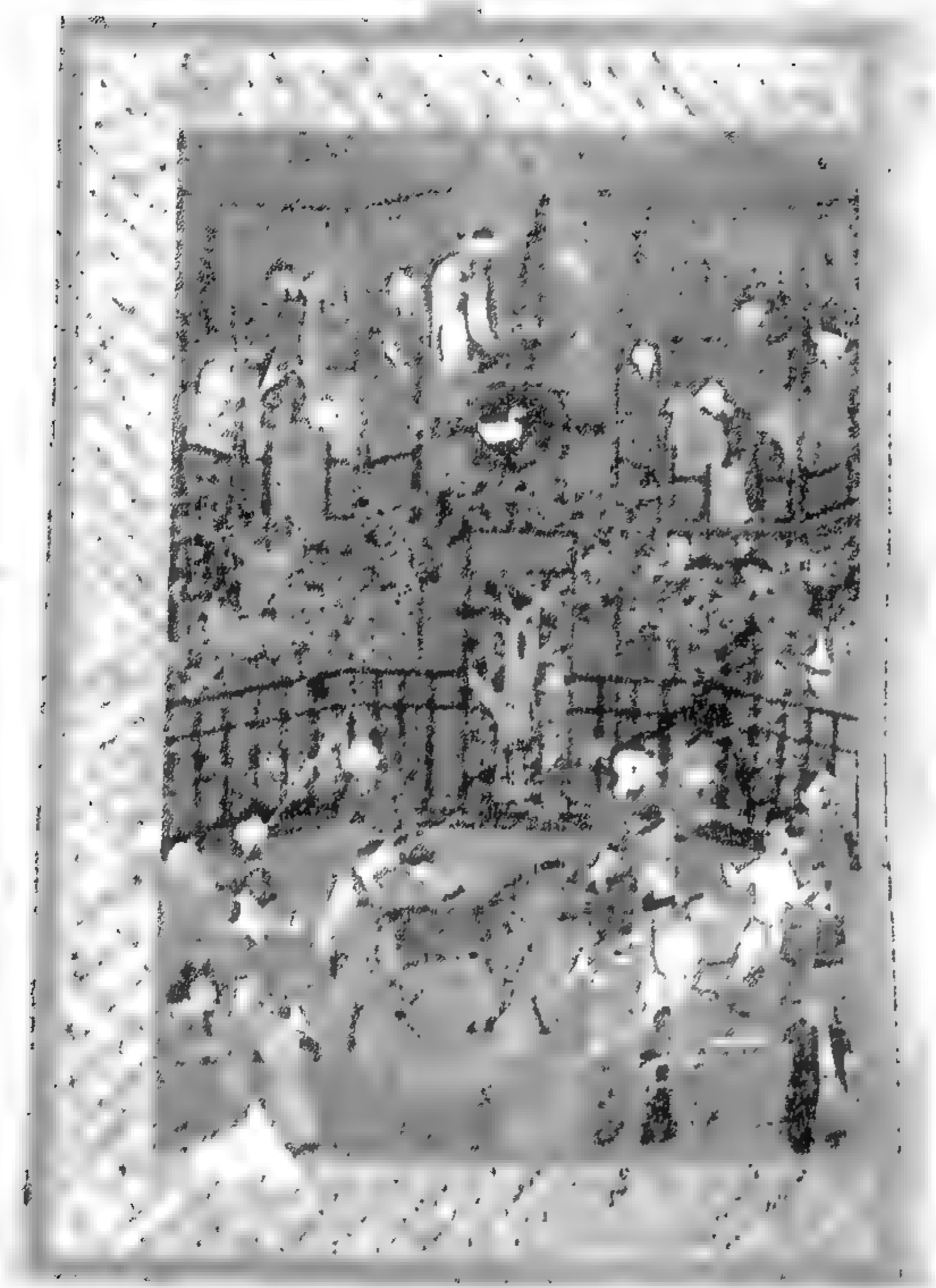
(لوحة ٤٠٩) مخطوطة كتاب البستان
لسعدي بدارالكتب المصرية :تصويرة
تمثل قصة يوسف وزليجا . (المدرسة
التيمورية : هراة - المصور بهزاد)



(لوحة ٤١٠) مخطوطة كتاب البستان
لسعدي بدار الكتب المصرية : تصويره
تمثل عفریت من الجن يحمل عاشقين
في سريرهما في حضرة الملك سليمان.
(المدرسة التيمورية : هراة - المصور
تمراز تلميد بهزاد)

(لوحة ٤١١) مخطوطة كتاب
المنظومات الخمس للشاعر نظامي
مؤرخه ٩١٧هـ / ١٥١١م : تصويره
تمثل دعوة الي مآدبة ملكية
(الصورة اليميني). (المدرسة
التيمورية : هراة - المصور بهرام قلي
تلميد بهزاد) .





(لوحة ٤١٢) مخطوطة كتاب المنظومات
الخميس لنظامي ٩١٧هـ / ١٥١١م :تصويرة
تمثل حفل في حديقة (الصفحة اليسرى
المقابلة للصفحة اليمنى في اللوحة
السابقة). المدرسة التيمورية ، هراة -
المصور بهرام قلي تلميذ بهزاد) .



(لوحة ٤١٣) لوحة مفردة من ديوان
اشعار فارسية محفوظ بمتحف الفن
الاسلامي بالقاهرة من المرجح أنها تعود
الي حوالي ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م : تصويرة
تمثل حفل استقبال رسمي - اسلوب
المصور بهزاد وفق منهج مدرسة تبريز.



(لوحة ٤١٤) قصة يوسف وزليخا للشاعر
جامي بدارالكتب المصرية والمخطوطة
مؤرخة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م : تصويرة تمثل
زليخا وصويحيباتها . (اسلوب المصور بهزاد
وفق منهج مدرسة تبريز) .

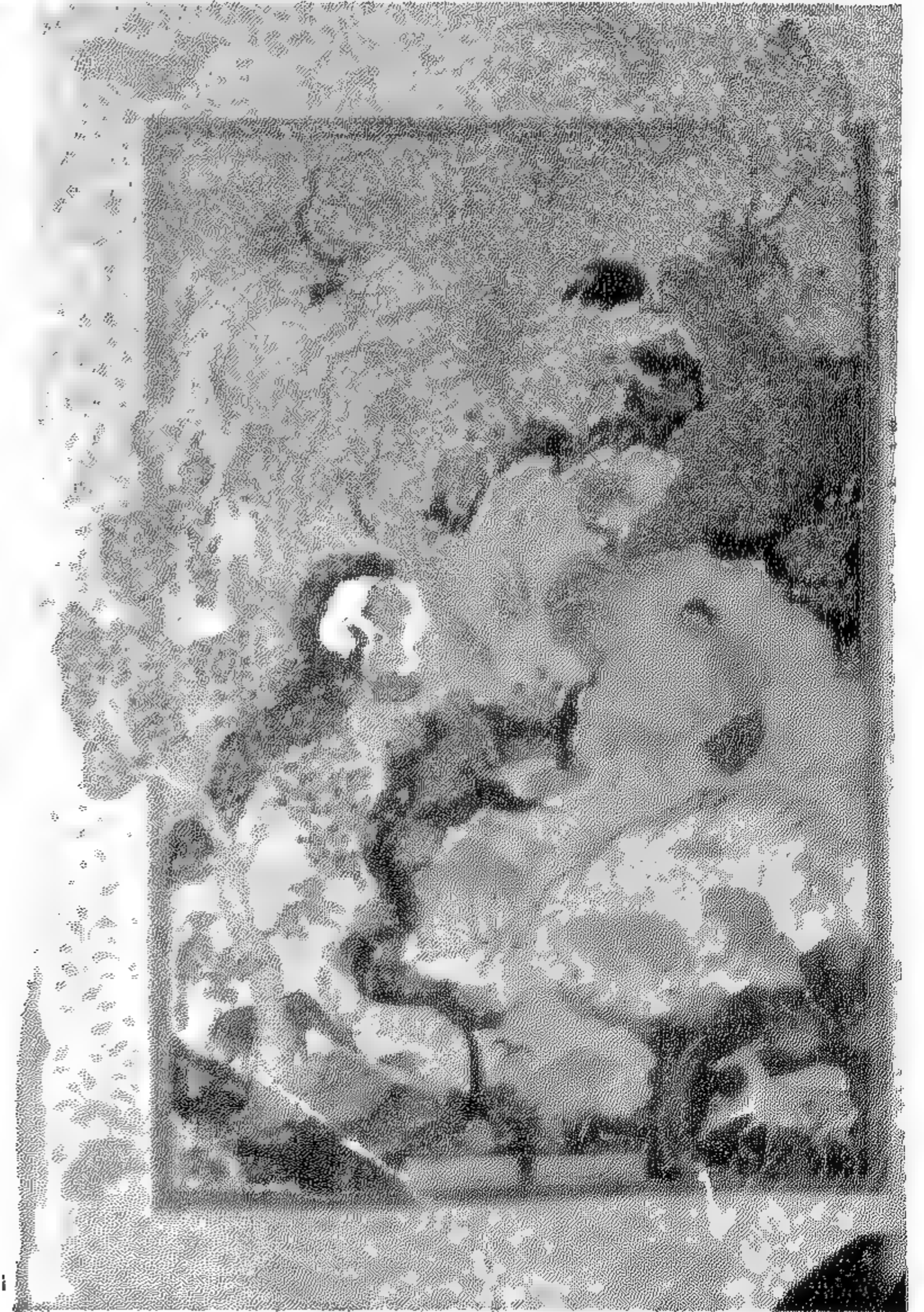
(لوحة ٤١٥) مخطوطة كتاب
المنظومات الخمس لنظامي مؤرخة
٩٤٦ - ٩٤٩هـ / ١٥٣٩ - ١٥٤٣م :
محفوظة بالمتحف البريطاني
(رقم ٢٢٦٥ شرقي) : تصويرة تمثل
كسري أنوشروان ووزيره يصفغان الي
البومتين اللتين تنعان علي أنقاض
قصر خرب . (المدرسة الصفوية
الاولي - تبريز - عهد الشاه
طهماسب - المصور أقاميرك تلميذ
بهزاد) .





(لوحة ٤١٦) مخطوطة كتاب
المنظومات الخمس لنظامي بالمتحف
البريطاني : تصويرة تمثل خسرو علي
العرش - (المدرسة الصفوية الأولى -
تبريز - المصور آقاميرك) .

(لوحة ٤١٧) مخطوطة كتاب المنظومات
الخمس لنظامي بالمتحف البريطاني :
تصويرة تمثل مجنون ليلى في الصحراء
بين الوحوش - (المدرسة الصفوية :
تبريز - المصور آقاميرك) .





(لوحة ٤١٨) مخطوطة كتاب المنظومات
الخمسة لنظامي بالمتحف البريطاني ؛
تصويرة تمثل خسرو شيرين علي العرش -
(المدرسة الصفوية الأولى - تبريز المصور
آقاميرك أو المصور سلطان محمد).

(لوحة ٤١٩) مخطوطة كتاب المنظومات
الخمسة لنظامي بالمتحف البريطاني ؛
تصويرة تمثل شابور يعرض صورة خسرو
علي شيرين. (المدرسة الصفوية الأولى
- تبريز - المصور استاذ ميرزا علي) .





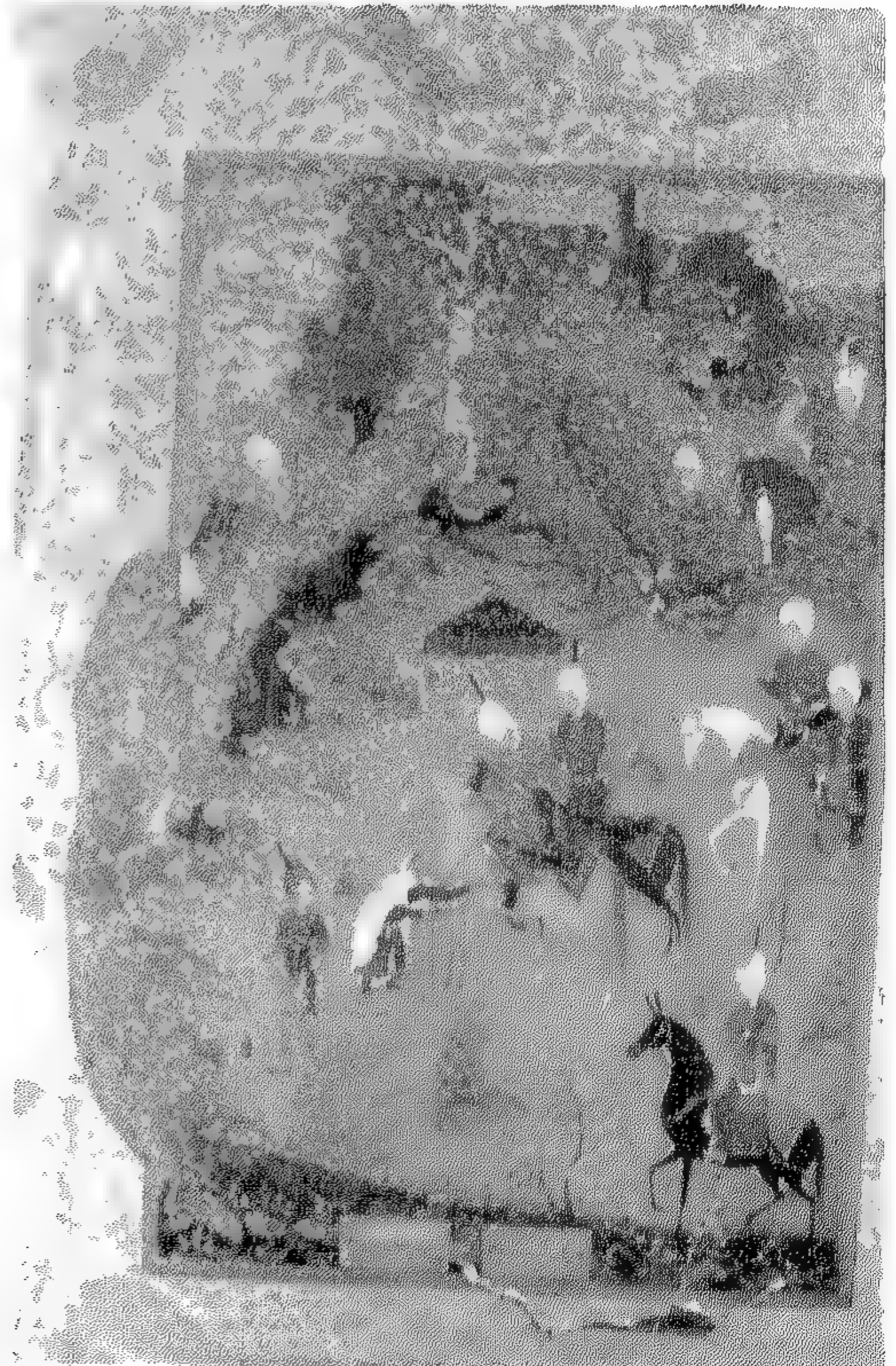
(لوحة ٤٢٠) مخطوطة كتاب المنظومات
الخمس لنظامي بالمتحف البريطاني :
تصويرة تمثل خسرو يستمع الي المغني
باريد . (المدرسة الصفوية الاولى - تبريز
- المصور ميرزا علي) .

(لوحة ٤٢١) مخطوطة كتاب المنظومات
الخمس لنظامي بالمتحف البريطاني :
تصويرة تمثل عالمان يتناظران .
(المدرسة الصفوية الأولى : تبريز -
اسلوب المصور مظفر علي وهو يتشابه
الي حد كبير مع اسلوب فيرزا غلي) .





(لوحة ٤٢٢) مخطوطة كتاب المنظومات
الخمسة لنظامي بالمتحف البريطاني؛
تصويرة تمثل بهرام كور يصطاد الأسد
والحمار الوحشي . (المدرسة الصفوية
الأولى : تبريز - المصور أستاذ سلطان
محمد).



(لوحة ٤٢٣) مخطوطة كتاب المنظومات
الخمسة لنظامي بالمتحف البريطاني ؛
تصويرة تمثل عجوزا تشكو للسلطان
سنجر. (المدرسة الصفوية الأولى تبريز -
المصور أستاذ سلطان محمد)



(لوحة ٤٢٤) مخطوطة كتاب المنظومات
الخمس لنظامي بالمتحف البريطاني :
تصويرة تمثل خسرو يفاجئ شيرين وهي
تستحم . (المدرسة الصفوية الأولى تبريز -
المصور أستاذ سلطان محمد).

(لوحة ٤٢٥) مخطوطة كتاب المنظومات
الخمس لنظامي بالمتحف البريطاني :
تصويرة تمثل عجوزا تقود المجنون الي
خيمة ليلي . (المدرسة الصفوية الأولى :
تبريز - المصور ميرسيد علي).





(لوحة ٤٢٦) تصوير من ديوان حافظ تمثل عاشقين في مجلس طرب في الهواء الطلق (المدرسة الصفوية الأولى: تبريز - المصور سلطان محمد أوقاميرك)

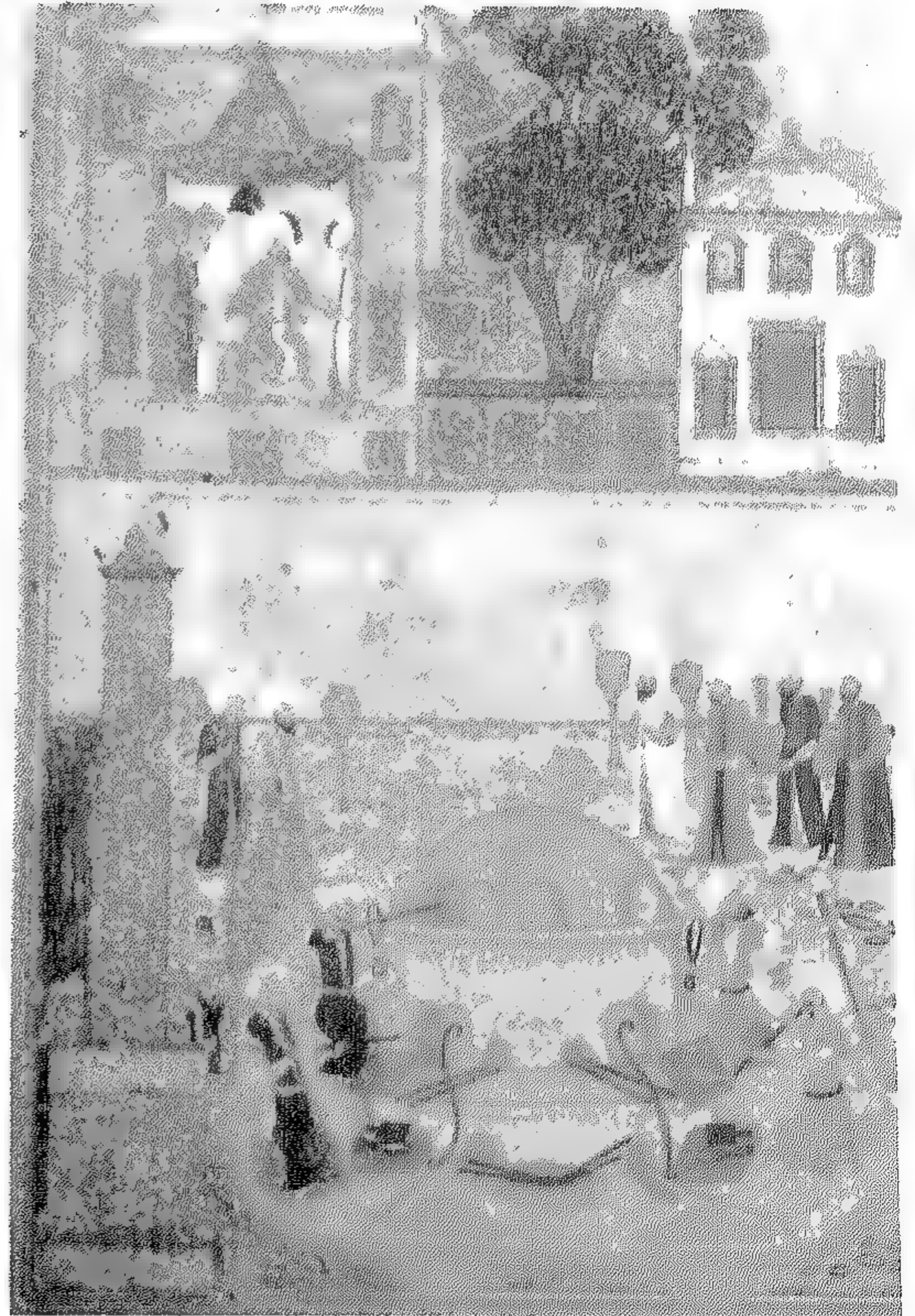
(لوحة ٤٢٧) صورة شخصية للسلطان العثماني محمد الفاتح بمتحف طوبقابي سراي بإستانبول - رسم المصور التركي سنان بك .

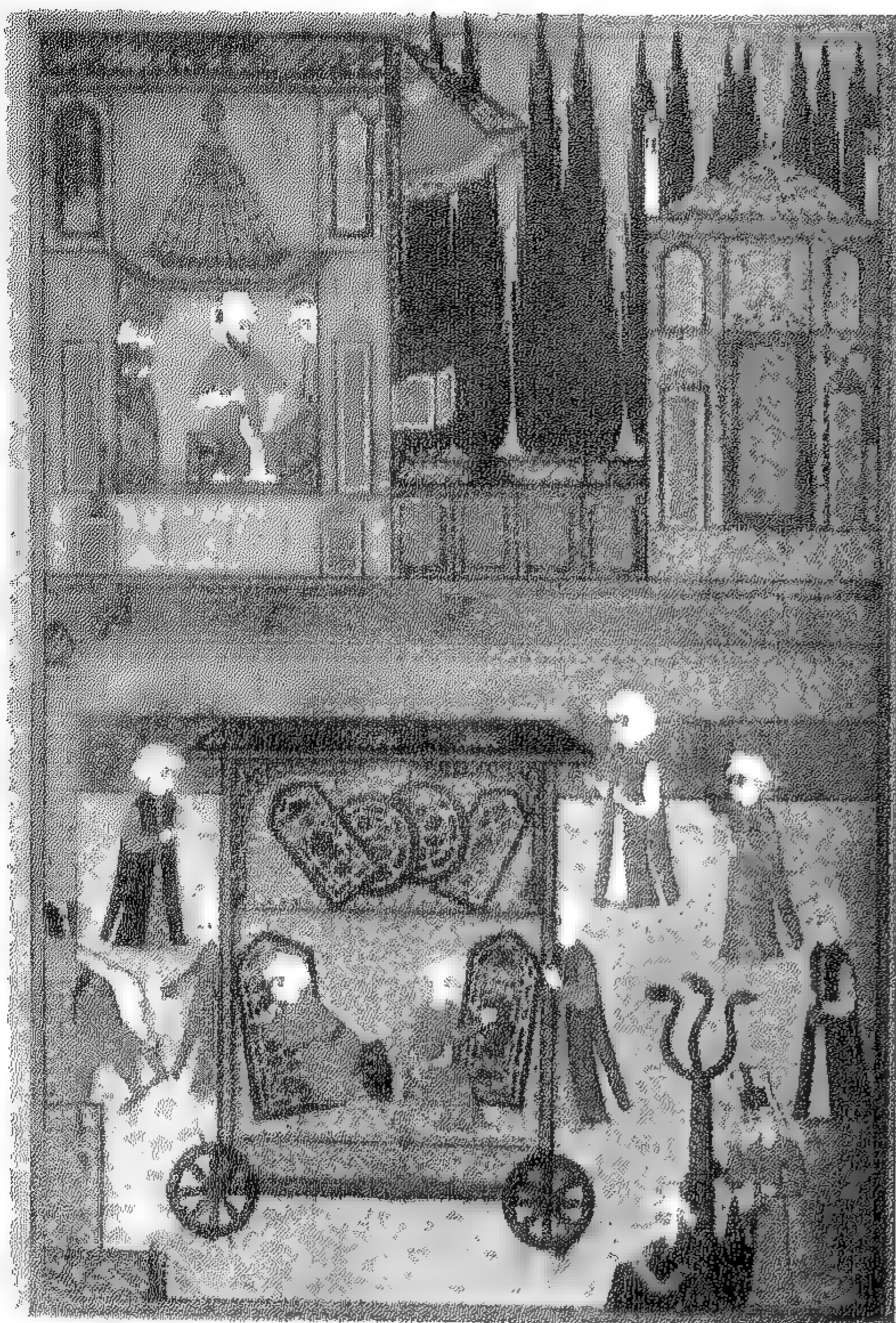




(لوحة ٤٢٨) صورة شخصية للسلطان
العثماني سليمان القانوني أوالمعظم بعد
أن تقدمت به السن بمتحف طوبقابي سراي
باستانبول - رسم المصور حيدر ريس
المعروف ب(نجاري).

(لوحة ٤٢٩) مخطوطة كتاب المهرجان
(سورنامه) مؤرخه ٩٩١هـ/١٥٨٣م ؛
ومحفوظة بمكتبة متحف طوبقابي
سراي باستانبول ؛ تصويره تمثل القرن
الذي يصهر فيه الزجاج وحوله الصناعات
: كل واحد يؤدي عمله . (المدرسة
التركية العثمانية).

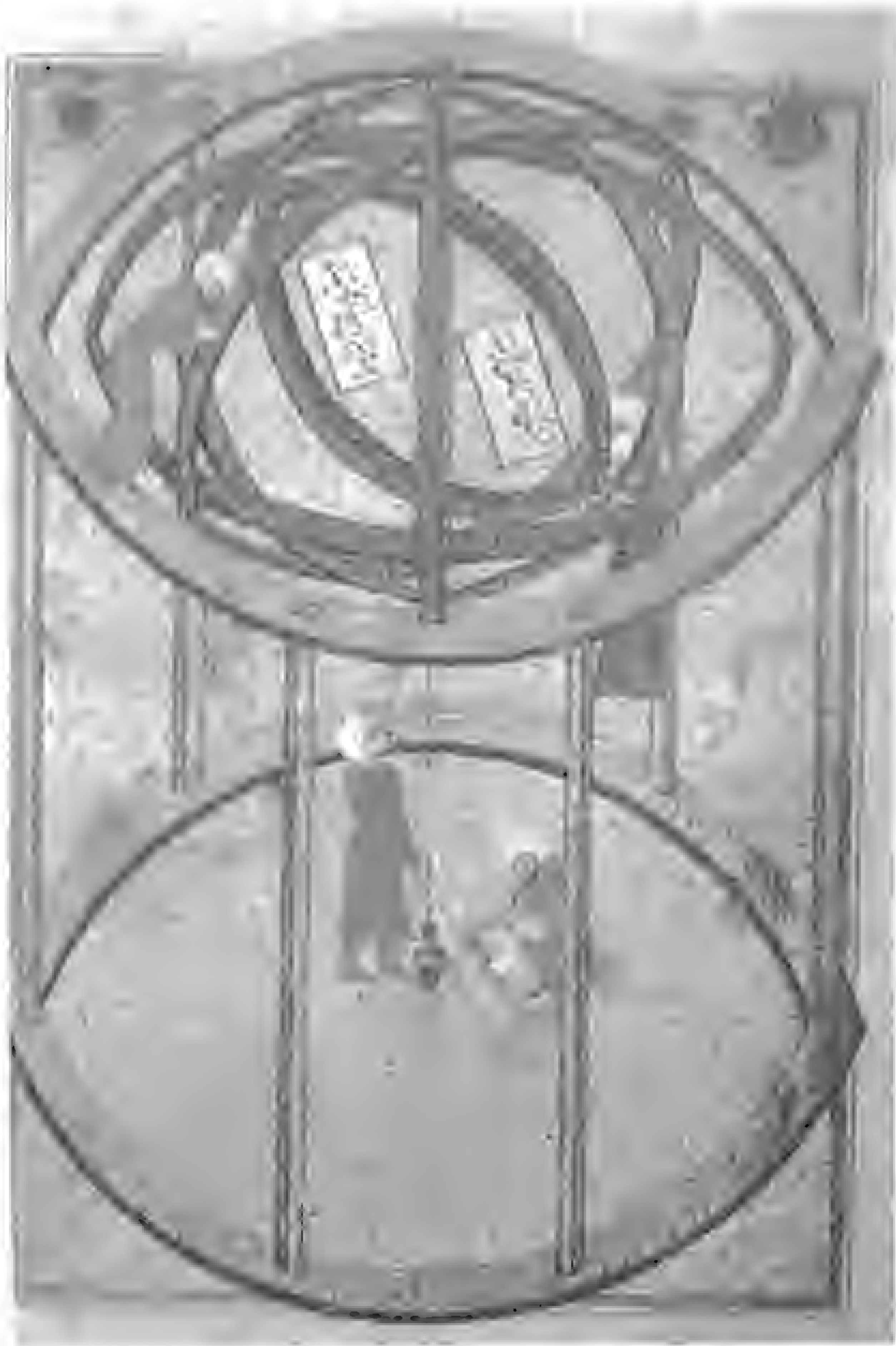




(لوحة ٤٣٠) مخطوطة كتاب المهرجان
(سورنامه) بمتحف طوبقابي سراي
٩٩١هـ/١٥٨٣م : تصوية تمثل صناع
النوافذ الجصية المفرغة والمعشقة
بالزجاج الملون (القمریات المدورة
والمطاوله) (المدرسة التركية العثمانية) .

(لوحة ٤٣١) مخطوطة كتاب شاهنشاهنامه
المحفوطة في مكتبة جامعة استانبول
(رقم : TY.6605) : تصوية تمثل مرصد
استانبول الذي أقامه تقي الدين الراصد .
(المدرسة التركية العثمانية)



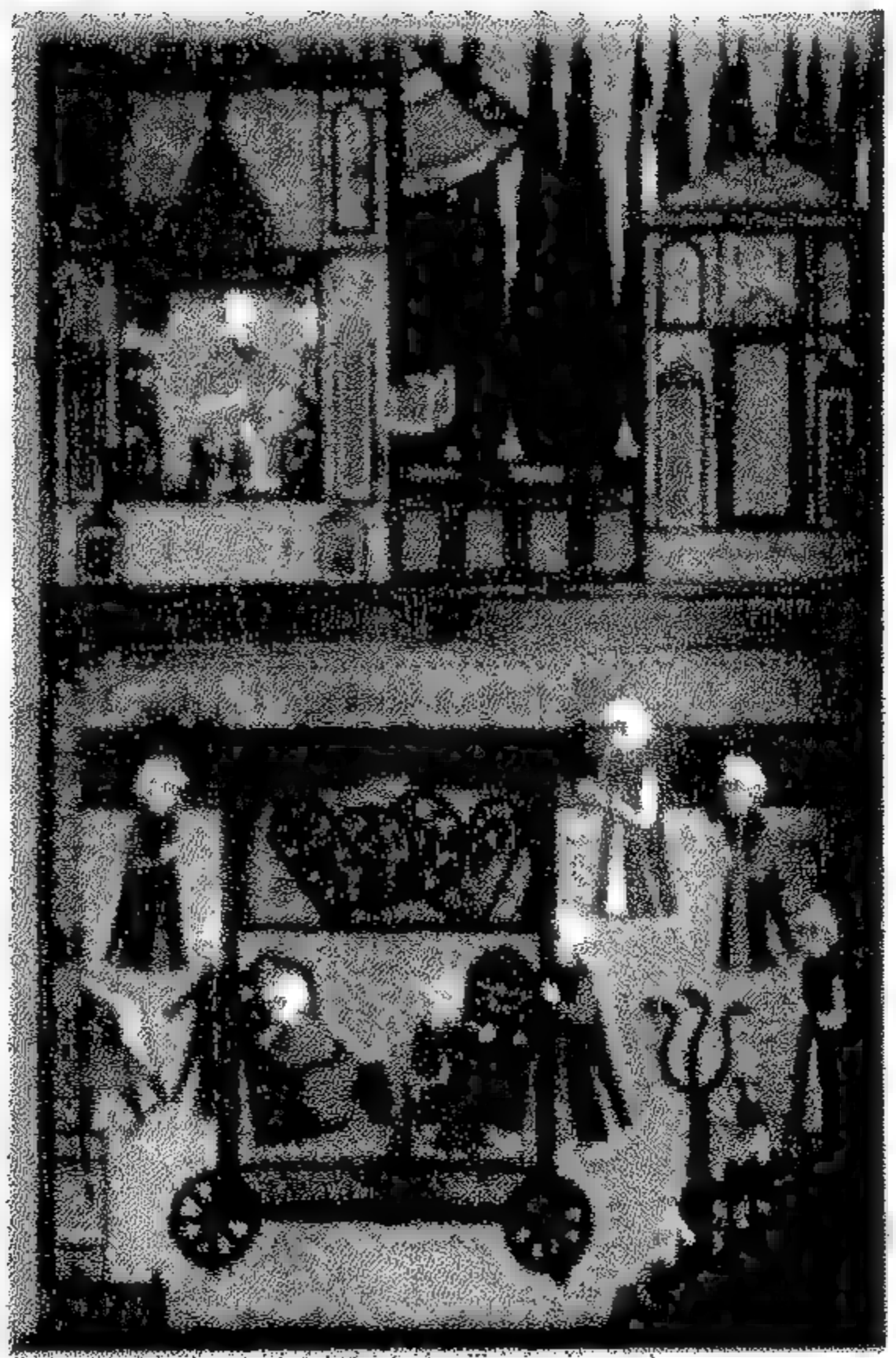
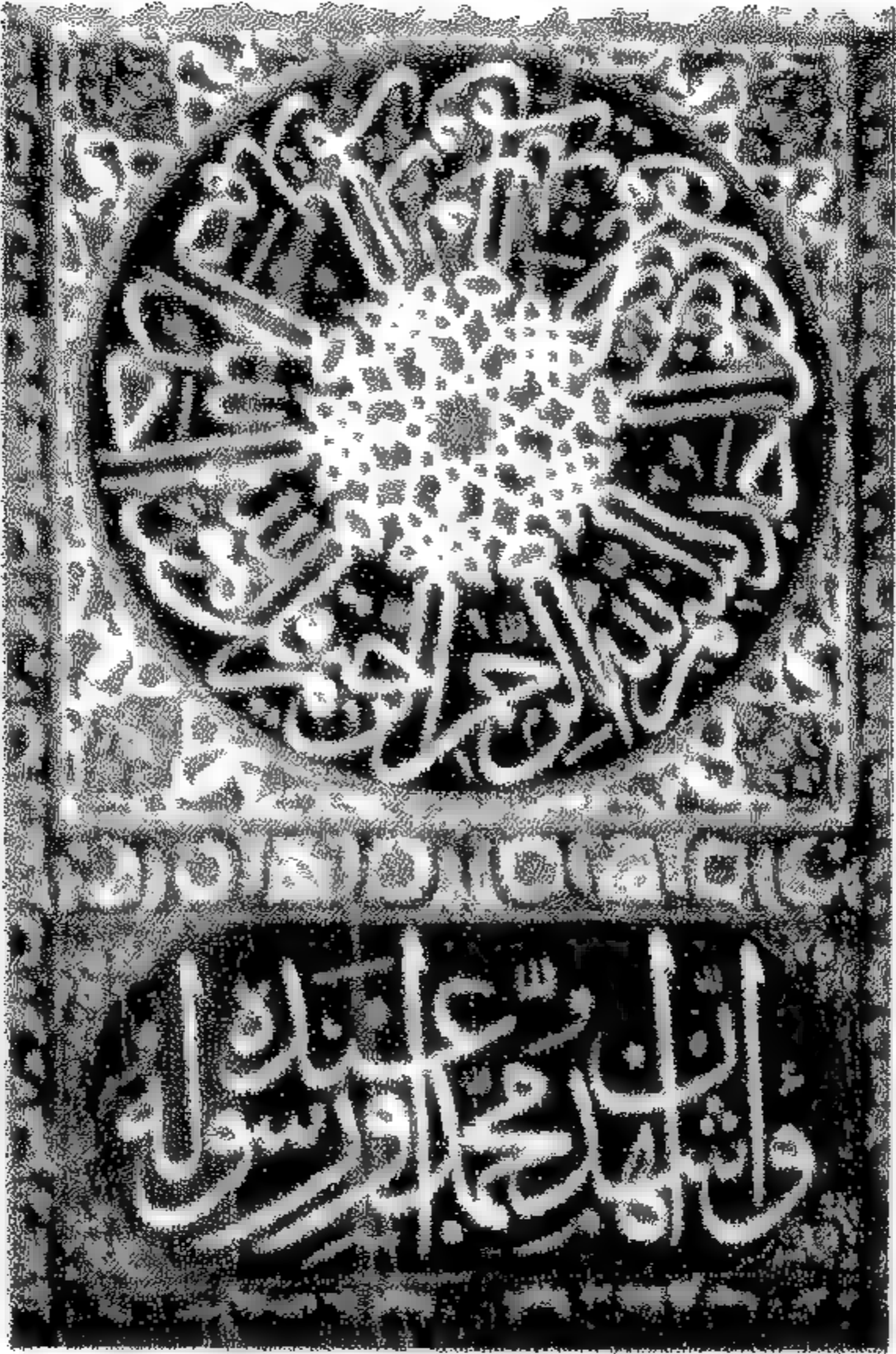


(لوحة ١٣٢) مخطوطة كتاب شاهنشاهنامه المحفوظة في مكتبة جامعة استانبول (رقم F.1404)، تصويرة تمثل ذات الحلق الموجودة في مرصد استانبول الذي أقامه تقي الدين الراصد (المدرسة التركية العثمانية).

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة : ٧٧٧٩٣٩٨

چند سائیکال اور وادی حجاز کی اسلامی تاریخ

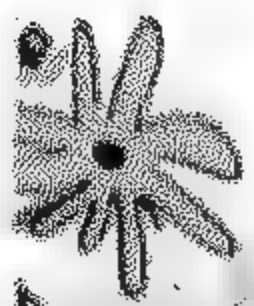
سازش



SERAGELDIN



IS10624



۱۶ شارع محمد قریب
ت: ۳۹۲۹۱۹۲، فونیکل: ۳۱۸۷۵۱۰



